مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٦٢٥٩



الجزء الأول — السنة الحادية والخمسون — غرة المحرم ١٣٩٩هـ — ديسمبر ١٩٧٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان الكامل فى نظر محمد إقبال (١)

العلامة أبو الحسن الندوى

بحث عن إنسان :

قال مولانا جلال الدين الرومى فى بعض مقطوعاته « رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً كأنه يبحث عن شىء قلت له : ياسيدى تبحث عن ماذا ؟ قال : قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعاً ، وخرجت أبحث عن إنسان فى هذا العالم ، لقد ضاق صدرى من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولى ، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال يملأ عينى برجولته وشخصيته ويروّح نفسى ، قلت له : لقد غرتك نفسك ياهذا فخرجت تقتنص العنقاء ، بالله لا تتعب نفسك وارجع أدراجك فقد أجهدت نفسى وأنضيت ركابى ونقبت فى البلاد فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ إليك

(١) ملخص لمحاضرة ألقاها الأستاذ العلامة منذ سنوات — هنا ننشرها بإذن خاص .

عنى أيها الرجل فأحب شيء إلى نفسى أعزه وجوداً وأبعده منالاً . . .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد « رسالة الشرق » رداً على تحية الشاعر الألمانى « جيته » التى أرسلها باسم الغرب إلى الشرق ، ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصوّر نفسيته وتعبر عن شعوره ، فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد ، الباحثين عن « الإنسان الكامل » فهل وجد محمد إقبال ضالته يا ترى وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجاء ؟

وإذا كان الجواب : نعم ، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس وظفر بوطره من الرجال إنه فتح أعظم من فتح « كلمبس » واكتشاف أجل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد لأنه اكتشاف الإنسان المفقود وعثور على الإنسانية الضائعة ولا خير فى العالم — قديمه وجديده — إذا فُقد الإنسان وضاعت الإنسانية ، وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الإنسان الكامل :

إن محمد إقبال يحدثنا فى شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود وعرفه واتصل به وتراه قد هام به هياماً وتغنى فى شعره بإنسانيته وشخصيته ، فأين وجد محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع ؟

إن الإنسان الكامل الذى وجده محمد إقبال فوجد فيه ما كان ينشده من معانى الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال هو (المسلم) لا أقل ولا أكثر .

إن هذا الجواب مفاجأة حقاً للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لا تتفق أبداً مع هذا التصوير الرائع الذى قدمه الشاعر للإنسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى فى المسلم « الضالة المنشودة » والصورة الكاملة للإنسانية .

المسلم المثالى :

ولكنه يعنى ذلك المسلم المثالى الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عبّاد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عبّاد الأوطان والألوان

والشعوب بأفاقيته وإنسانيته ، وبين عبّاد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية : بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحــياة .. لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، أما ما عداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول فى بيت « إنك أيها المسلم حق فى العالم وحدك وما عداك سراب خادع ودرهم زائف ، ويقول فى بيت آخر : « إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق وكل ما عداه فى هذا العالم المادى وهم وطلسم ومجاز » .

المسلم له وجودان :

إن المسلم له وجودان ، الوجود الإنسانى ، والوجود الإيمانى ، أما الوجود الإنسانى فهو الوجود الذى يشاركه فيه كل إنسان يولد ، كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ويجــوع ويظمأ ويشعر بالبرد والحر ويأكل ويشرب ويصح ويمرض .. ويموت ويحيا ويفتقر ويغنى ويزرع ويتجر ويعول العيال ويربى الأطفال ويقتنى الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو فى هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية تجرى عليه كما تجرى على غيره وتنفذ فيه كما تنفذ فى أى إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسما خاصًا وينتمى إلى جنس خاص ويلبس لباسًا خاصًا ، وهو ذرة حقيرة فى صحراء الوجود المترامية وموجة عادية تأتى وتذهب فى بحر الكون الزاخر من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشرى العام وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر كان كائنًا ضعيفًا فانيا ليست له قيمة كبيرة فى نظر ضيّقى الوجود وإذا مات فى وقته ما بكت عليه السماء والأرض وما خسر فيه العالم شيئا كبيراً .

أما الوجود الإيمانى فهو أنه يحمل رسالة خاصة رسالة الأنبياء والمرسلين ويؤمن بمبادئ خاصة ويعتقد اعتقاداً خاصًا ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ودعامة من دعائم العالم وحاجة من حاجات البشرية

يستحق أن يعيش ويستحق أن ينتصر ويستحق أن يزدهر » . بل يجب أن يعيش ويجب أن ينتصر ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتها إلى الماء والهواء والنور والحرارة ، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة كانت معانى الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق التى تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ويتكفل المسلم بإعلانها والقيام بها والجهاد فى سبيلها لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سراً مكتوماً ، إذن فركزه فى العالم وبقائه كبقاء الشمس والكواكب النيرة تنقرض الأجيال والأمم وتحول الأنهار مجراها وتخرب عمائر وتعمر خرائب وتقوم حكومات وتتقلص حكومات وتأتى مدنيات ، وتذهب مدنيات وهو قائم لا يزول ولا يحول .

المسلم حى خالد :

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حى خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ويحتضن أمانة خالدة ويعيش لغاية خالدة ، يقول فى بيت « لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء وأن أذانه إعلان للحقيقة التى جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم » ويقول فى بيت آخر « المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريه النسخ والتبديل » ولا يعنى محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية حى خالد يفلت من الموت ويتمرد على القانون الطبعى ، كيف وقد قال الله تعالى « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسلِ » وقال « أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ » ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم يأتى موج ويذهب موج وتتراءى هذه الأمواج فى أحضان البحر وتتلاشى فى وجوده والبحر لا يتغير فالبحر امتداد دائم وتسلسل قائم — لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود ، تتبدل أمواجه — وهى أفراد البشر — ولا يتبدل كيانه .

خلق العالم للمسلم :

ويتقدم محمد إقبال خطوة أخرى فيعتقد أن المسلم هو غاية هذا الكون خلق العالم له وخلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون فى صحة حديث « لولاك لما خلقت الأفلاك » ولكن

محمد إقبال لا تهمه صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، إنه يفهم من القرآن ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ورسالته السامية ويفهم من دراسة التاريخ الإنسانى الواسعة العميقة والاطلاع الواسع على أوضاع وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذى هو جارحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه هو مصداق معنى الحديث فضلا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو خليفة الله فى أرضه خلق لأجله العالم وعلمه الأسماء وحكمه فى الأرض وأورثه خيراتها وخزائنها وألقى إليه بمقاليدها فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة وتحقيق هذه الفكرة ، يقول فى بيت «إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ؛ ولا أعد مؤمنا كاملا من لا يعتقد أن العالم خلق له» .

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ويساير الركب البشرى حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ويفرض على البشرية اتجاهه ويملى عليها إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ولأنه المسئول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ومقام الإرشاد والتوجيه ومقام الأمر والنهى ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ويظل فى صراع وعراك حتى يقضى الله فى أمره يقول فى بيت «يقول من لا خلاق له « دُرْ مع الدهر حيث دار» وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفىء إلى أمر الله » . ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجاراة الأوضاع بل هو مكلف بمصادمة الأوضاع الفاسدة يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقض والعملية الجراحية فإن كل ذلك فى سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول فى بيت «على المسلم أن يربى فى نفسه الروح وينشىء فى هيكله الحياة ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته وينشىء عالماً جديداً» «ويقول متمثلا

سألنى ربى هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت لا ياربى ، فقال فحطمه ولا تبال » .

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، يقول فى بيت « المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لايرد ويقول «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه »

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة :

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح فى التاريخ ومطلع فجر السعادة فى العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ومؤذن الفجر فى الليل البهيم ، وأن أذانه لا يزال صيحة تدوى فى هدوء الليل وسكون الموت فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ، ونشاطه ويؤذن بطلوع الصبح الصادق وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالى الذى ارتفع من جبل أبى قُبيس قبل ثلاثة عشر قرناً استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق الذى غطَّ فيه خمسة قرون وأكثر وكان نفخة صور الإنسانية الميتة والعالم المحتضر وهو الكفيل الآن بإيقاظ الإنسانية وإحياء الضمير البشرى ، يقول فى بيت « إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه أشرق العالم واستيقظ الكون» ويقول فى قصيدة « لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذى يطلع على هذا العالم كل يوم ولست أعلم سره ، ولكنى أعلم أن السَّحَر الذى يهتز له هذا العالم المظلم ، ويول به ليل الإنسانية الحالك إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق » .

قوة المؤمن مستمدة من رسالته :

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه وباندماجه واضمحلاله فى إرادة الله ، هنا لك يتحول جارحة للقدرة الإلهية وقوة قاهرة لا تصدها الجبال ولا تقف فى سبيلها البحار ، يقول فى قصيدة أنشأها فى قرطبة « إن يد المؤمن جارحة القدرة الإلهية ، فهى غلابة حلالة للعقد والمشاكل فتاحة للأبواب

المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن المؤمن : جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غنى عن العالمين » ويقول على لسان القائد الإسلامى الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجى ربه « إن هؤلاء الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون الذين لا يعرفهم غيرك وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، إذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك فزهدوا فى العالم واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة فى سبيلك ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك وميزتهم بين أقرانهم فى الخبر والنظر وأذان السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب والتوجع للإنسانية المظلومة وفى قلوب هؤلاء الجريحة وفى أكبادهم المتقدة وجد العالم مأربه » « بل إن الشاعر يتقدم خطوة ويقول « ما ظنك بقوة ساعد المؤمن وهو بنظرته يقلب الأوضاع وبدعوته يرد القضاء ، والمطلع على التاريخ ما قاله محمد إقبال فقد هزأ المسلمون المؤمنون فى عصرهم الأول من الجبال والبحار وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات ، وقصص سعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى وعقبة بن عامر ومحمد بن قاسم الثقفى وموسى بن نصير وطارق بن زياد شاهدة على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر فى الأوطان والشعوب :

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان وتفيض كالطبيعة البشرية وكالإنسانية العامة فى مساحة زمانية شاسعة كمساحة التاريخ الإسلامى وفى مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامى ، يقول فى قصيدة قرطبة « إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة فى بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو فى كل عصر ساقى أهل الذوق وفى كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائماً وسيفه ماض فى كل معركة ويعتقد محمد إقبال

أن العالم كله وطن للمسلم ، يقول فى بيت « المسلم الربانى ليس بشرقى ولا غربى ليست وطنى دهلى ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطنى العالم كله ، ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له يقول « لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت ، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله وقالوا له: لقد قطعت بنا الحبال فكيف نرجع إلى بلادنا ؟ فوضع طارق يده على السيف وقال أنا لا أفكر فى الرجوع وسنبقى هنا ونتخذه وطناً ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد وطن لنا ، لا فرق فى ذلك بين العجم والعرب والشرق والغرب » .

المسلم متخلق بأخلاق الله :

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات وما هى بمتناقضات ولكنها ظلال صفات الله ومظاهر أخلاق الله ، فهو فى تسامحه ورحابة صدره وكثرة صفحه قد تخلق بخلق « الغفار » ، وفى شدته فى الدين وغضبه للحق وثورته على الباطل قد تخلق بخلق« القهار» وهو فى نزاهته وعفته وطهارة ضميره قد تخلق بخلق « القدوس » وفى صلابته إذا تصلب وشدة شكيمته إذا أبى وشدة بطشه إذا حارب تخلق بخلق « الجبار» ولا يكون المسلم المثل الكامل لدينه وصورة صادقة للإسلام حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب — والرحمة والصلابة والمرونة والعفة والنزاهة ويكون فى ذلك آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر إن المؤمن هو الميزان العادل والقسطاس المستقيم به يعلم رضا الله وسخطه وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق فى نظره فهو حسن وما استقبحه فهو قبيح وما ثقل فى ميزانه فهو ثقيل وما خف فهو طائش ، وفى عزائمه تتجلى إرادات الله وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة فالصبح يطلع كل يوم والليل يتبع النهار لا تخلف فيه ولا تناقض وهو صاحب معان كثيرة ونغمة واحدة فهو كسورة الرحمن فى القرآن تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية « فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبان » وقد صدق الشاعر فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ويضرب على وتر واحد

ويكرر رسالة الأنبياء ويقول لكل جيل «ياقَومِ اعبُدوا اللهَ مالكُم مِن إلهٍ غَيرُه» فهو كالصبح جديد وقديم فهو فى جدته ليس شيء أجد منه وهو فى قدمه ليس شيء أقدم منه . هو قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد فيه الكائنات وتنتعش به القوى وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم إنه جديد بنفسه تتجدد قواه ويتجدد نشاطه وتتفتح قريحته مع العصور علمه سيار وعقله مبتكر ونفسه طموح وهمته وثابة وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى ولكنها قطرات مطر وكلها تحيي الأرض وكلها تنبت النبات وكلها تسقى المزارع والأشجار وكلها تفتح الأزهار وكلها تكون الأنهار وهو معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم «أمتى كالمطر لايدرى أأوله خير أم آخره» .

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً :

ويقول محمد إقبال إن المسلم كالشمس إذا غربت فى جهة طلعت فى جهة أخرى فلا تزال طالعة . وقد صدق فإن الإسلام لم ينكب فى ناحية من نواحى العالم ولم يخسر إلا وفتح فتحاً جديداً فى ناحية أخرى ولم يخضر فى جانب دولة إلا وقامت له فى جانب آخر ، لم تسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى ولم يغب له نجم إلا وطلع له نجم آخر لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة ومصاباً عظيماً ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتيه من أعظم دول العالم هى دولة آل عثمان فى تركيا قامت فى نفس القارة الأوربية وجثمت على صدر الدول والأمم المسيحية التى انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربى الإسلامى ، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية فى عهد سليمان القانونى حادثين فى عصر واحد ، ونكب العالم الإسلامى ونكبت بغداد بغارة التتار وانطمست معالم الحضارة الإسلامية وزلزل المسلمون شديداً ولكن فى نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة فى الهند تتسع وتزدهر ، وأصيب العالم الإسلامى بهزات عنيفة وقواصم مؤلمة فى فجر هذا القرن المسيحى على أيدى الأوربيين ، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمال سائب واغتصبت ممتلكاتها فى إفريقية وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة والوعى السياسى القوى

والطموح إلى الاستقلال والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ونكب المسلمون في العهد الأخير نكبات عظيمة في الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان فتيتان في الشرق إحداهما دولة باكستان والأخرى أندونيسيا ، وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامي متأرجحاً بين الأسفل والأعلى فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه في أفق إلا وبزغت في أفق آخر . وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التي لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة — وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

المسلم هو المنافس الوحيد والخطر الدائم على الباطل :

لذلك لم يزل الباطل يعتبر المسلم المنافس الوحيد والمصارع الشديد لنظامه ووكلائه يحسبون له كل حساب ويتربصون به الدوائر ولا يغفلون بخطر من الأخطار ولا يهدأ لهم خاطر ولا يقر لهم قرار ، وهم ينادون بلسان الحال ، « لا نجونا إن نجا الإسلام ولا عشنا إن عاش المسلمون وقد وصف محمد إقبال قصيدته البديعة « برلمان إبليس » في ديوانه الأخير أرمغان حجاز يعني « هدية الحجاز » وذكر خطورة الإسلام في إبليس وجنوده رأينا أنقل هنا ترجمته من كتابي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

« إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه — اجتمعوا في مجلس شورى وتباحثوا في سير العالم وأخطار الغد وفتنه وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها فذكر أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً فقال الثاني : لا يهولنك أمرها فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري إذ رأينا الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته وخشينا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها فألهيناه بلعبة الجمهورية وليس الشأن في الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيها الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره مستشرفاً إلى

متاع غيره سواء فى ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب - الجمهورى وجهه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى « كارل ماركس » ذلك الباقعة الذى ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده وأثار العبيد على السادة ، حتى تزعزعت مبانى الأوارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطبا رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة إن سحرة أوربا وإن كانوا مريديك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى الذى هو نسخة من « مزدك » (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم بقواعده فاستنسر البغاث وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية وهاهى قد استفحلت وتفاقم شرها وهاهى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، ياسيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينتقض عليك وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن .

فتكلم رئيس المجلس « إبليس » وقال : إنى أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم فتهارشت تهارش الكلاب وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفأه المنطق المزدكى (يعنى الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً فإنى أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ولايزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد

اتخذت القرآن مهجوراً وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر وأن — علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، إني أحذركم وأنذركم من دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حامي الذمار حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف دين الأمانة والعفاف دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كل نوع من أنواع الرق ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم ، أمناء لله وكلاء على الأموال ، وأي ثورة أعظم وأي انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ولينهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطيء سحره اشغلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره ، زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، ياويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتحسه » .

مؤامرة أنصار الباطل ضد المسلم :

وفعلاً نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم وكانت مؤامرة مبيتة ضد الإسلام وخطة منظمة ضد أجياله القادمة فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية التي لا تزال كامنة في الرماد وتجريد المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية

والعاطفية الإسـلامية التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد وتحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله والثورة على الباطل وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها « وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين » « إن هذا المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد صلى الله عليه وسلم من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً من الفقر شديد الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إن في الأفغان غيرة دينية وعلاجها أن تنفو العالم الديني من جبالها وسهولها .

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذي يجرد الشباب — المسلم من الروح الديني والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية وينشيء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية وطبيعة التهام الحياة وانتهاب المسرات وتقديس المادة ورجالها وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك وضعف الثقة بالنفس والشك في الدين ، لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي أن فرعون مصر أخطأ الرمية وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبنائهم ويستحيي نساءهم ، ليأمن ثورة بني إسرائيل وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار وبعد النظر ودقة التفكير لاكتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ينشيء الجيل الإسرائيلي الجديد كما يشاء ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً لا يدع إمكانا لنشيء شاب مثقف يشعر الشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية والغيرة القومية ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات لو أن فرعون وفق لهذا المشروع لتفادى من هذه المتاعب وسوء الأحدوثة ووصل إلى غايته في سهولة ويسر وهدوء وسلام وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب « حامي العلم » و « مربي الجيل » وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجاح أنصار الباطل في إضعاف الروح الديني :

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل

قد نجحوا نجاحاً كبيراً فى فكرتهم وجهودهم فضعف الشعور الدينى فى بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد وفشت التفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر وقد ساح فى كثير من البلاد الإسلامية والعربية « لقد تجولت فى بلاد العرب والعجم فرأيت خلفاء أبى لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد صلى الله عليه وسلم نادراً كالكبريت الأحمر والعنقاء والمغرب ، ويقول فى قصيدة قالها فى فلسطين « لا أرى فى بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التى كان يمتاز بها العرب ولا فى بلاد العجم ذلك السمو الفكرى الذى كان يمتاز به العجم ، ولا تزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطل من أبطال الإسلام ولكنى لا أرى فى قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين ».

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذى وقع فى حياة المسلمين ويتألم لذلك أشد الألم ويبكى دماً وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع . يقول فى أبيات « ياوارث التوحيد الإسلامى لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام إذا نظرت إلى أحد ارتعد فرقاً منك وطار قلبه شعاعاً وقد أصبحت اليوم كسائر الناس لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً ، ويقول فى موضع آخر « إن السجدة التى كانت تهتز لها روح الأرض لقد طال عهد المحراب بها واشتاق إليها المسجد كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع فى مصر ولا فى فلسطين ذلك الأذان الذى ارتعشت له الجبال بالأمس ، ويقول فى بيت « لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار الحياة فيه فأصبح ركاماً من تراب ، ويقول « لم أر فى محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة وقد بحثت عنها موجة موجة وتفقّدتها صدفة صدفة ، ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور هو القلب الذى خوى من الإيمان وشعلة الحياة يقول « لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ونزفهم دم الحياة ، فأصبحوا هيكلا من عظام لا روح فيه ولا دم الصفوف زائغة والقلوب مضطربة والسجدة لا لذة فيها . ذلك لأن القلب خال من الحنان » .

اليقظة الإسلامية :

هذا ولكن محمد إقبال يعتقد أن

الصدمات السياسية التى أصيب بها العالم الإسلامى أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ودب فيهم دبيب الحياة ، يقول فى قصيدته البليغة «طلوع الإسلام» إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تختفق فاعلم أن الفجر قريب ، هاهى الشمس قد ذر قرنها من الأفق وولى الليل على أدباره ، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام فإنما تتكون اللآلى فى البحر المتلاطم المائج ، لقد دب دبيب الحياة فى الشرق وجرى الدم الفاتر فى عروقه الميتة وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابى . إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية والذكاء الهندى والنطق العربى ويقول فى بيت «إن إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة فإنها إذا سقيت أتت بحاصل كبير» .

المسلم هو بانى العالم الجديد :

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها ونثرت كنانتها وقد شاخت وهرمت وأينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وأن العالم القديم الذى حوّله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريباً والإنسانية تتمخض بعالم جديد ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام وورث إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام فى قيادة العالم وإرشاده فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينيه فقد ظهر الفساد فى البر والبحر وعاث الأوربيون فى الأرض وأفسدوا فيها بعد إصلاحها وخربوا العالم وملئوه ظلماً وظلمات ، وشروراً وويلات وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً وطهوراً وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمارة ، وبيت الفسق والدعارة ومكان النهب والغارة ، وقد آن لبانى البيت الحرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ويبنى العالم من جديد . . .

أبو الحسن الندوى

٪٪٪٪٪

إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون .. ؟

العلامة أبو الأعلى المودودي

من الطريف فى الأمر أن العنوان الذى اختير للبحث الذى نحن فيه اليوم وضع باللغة الإنكليزية : (ISLAM TO DAY) بينما اللغة التى اختيرت للتحدث عنه كانت الأردية . ولذلك ؛ قبل أن أدخل فى صلب الموضوع أريد أن أحدّد فحواه ، وأبيّن ما هو مدى نطاق البحث فيه ، وما هى النواحى التى تدخل فيه والتى لا تدخل فيه .

« الإسلام المعاصر » (ISLAM TO DAY) : هذا العنوان إذا أخذناه بمدلوله الإنجليزى أى المفهوم الذى يعبر عنه أهل الغرب لهذا العنوان فيكون معناه : « المسلمون المعاصرون » إذ أن أهل الغرب كثيراً ما يخلطون « الإســلام » بـ « المسلم » فيستخدمون كلمة « الإسلام » حيث تستخدم كلمة « المســلم » ويصفون « المسلم » بما يوصف به « الإسلام » ولذلك يجب علينا قبل كل شيء أن نبعد عن أذهاننا المفهوم الخاطيء لهذا العنوان ونؤكد أنه لا يصح تفسير « الإسلام المعاصر » بواقع المسلمين فى الوقت الحاضر . وهناك مفهوم آخر لهذا العنوان يساور الأذهان وهو « إسلام العصر الحاضر » ، وبهذا المعنى يصبح هذا العنوان أيضاً كلاماً فارغاً واسماً لا مسمى له . لأن الإسلام لا يختص « بالماضى » أو « بالحاضر » . بل إن الإسلام حقيقة خالدة أبدية ظلت ناصعة بديهية إلى ما قبل بلايين السنين وستظل فى نفس النصاعة والبداهة ما دامت السماوات والأرض . كان من الحقيقة التى لا تقبل النقض ، قبل بلايين السنين ، أن إله هذا الكون واحد لا شريك له وسيكون كذلك من الحقيقة المبرهنة بعد بلايين السنين أن ليس لهذا الكون إلا إله واحد . ومن الحقيقة الخالدة أن ليس للمخلوق من مناص إلا أن يعبد الخالق ويخضع له ، فحينما وجد المخلوق يتحتم عليه اتباع طريق العبودية والخضوع والإخبات

للخالق . ومن ثم لا ينشأ السؤال عن كون الإسلام متقيداً بقيود الأزمان من الأمس واليوم والماضي والحاضر والمستقبل.

إذن فليس لهذا العنوان إلا مفهومان اثنان لا ثالث لهما :

الأول : ما هو السلوك الذى يتبعه المسلمون تجاه الإسلام وما هو الموقف الذى يقفون منه فى الوقت الحاضر ، وما هو مدى تأثير الإسلام فى حياتهم الواقعية ؟

والثانى : هل من المحتمل أن تعود البشرية اليوم إلى الإسلام وتسترشد بهديه أم أن هذا احتمال بعيد المنال ؟ إذا كان الجواب بنعم فكيف يكون ذلك . وإذا بالغ أحد فى تفسير هذا العنوان فله أن يقول مضافا إلى التفسير الثانى :

– هل الإسلام صالح للتطبيق فى الزمان الحاضر أم لا ؟

هذان هما السؤالان اللذان يتضمنهما العنوان المطروح وسأتحدث إليكم بما يجول فى خاطرى فيما يتعلق بهذين السؤالين . وذلك بقدر ما يتسع لى المجال فى هذا المقام ، داعياً المولى الكريم أن يهديني إلى سواء السبيل .

المراحل التى اجتازتها الأمة الإسلامية

– فيما يتعلق بموقف المسلمين من الإسلام أو بالسلوك الذى يختارونه نحو الإسلام ، وبمدى تأثير الإسلام فى حياتهم الواقعية فى الوقت الحاضر فلا بد لإدراك كل ذلك من أن تلقى نظرة عابرة على « الإسلام فى الزمن الماضى» قبل أن تتناول « الإسلام فى الزمن الحاضر» . إذ أن الذى نحن عليه اليوم إنما هو حصيلة ما كنا عليه فى الأمس . ولا نحصد اليوم إلا ما زرعناه بالأمس . والذى سنكون عليه فى المستقبل سيتمخض عما تأتى به اليوم وتزرعه . وبحكم هذا المنطق إذا أردنا أن نعرف موقف المسلمين اليوم من الإسلام بدقة وإمعان لابد لنا من أن نتعمق فى الموقف الذى اتخذه المسلمون من الإسلام فى فى الأمس الدابر. ومنه نعرف الجذور التاريخية التى يقوم عليها موقفنا الحاضر – كما نستطيع خلال هذه الدراسة أن نحدد الملامح التى سوف تسود موقف المسلمين من الإسلام فى المستقبل . وانطلاقاً من وجهة النظر هذه – إذا استعرضنا تاريخنا وقلبنا صفحاته يتجلى لنا أن مسيرة الأمة الإسلامية اجتازت ثلاث مراحل من تاريخها ودخلت اليوم فى المرحلة الرابعة .

المرحلة الأولى المثالية من مراحل التاريخ الإسلامى

بدء المسيرة الإسلامية :

ابتدأت أولى مراحل تاريخنا ببزوغ فجر الإسلام فى مكة حين بعث الله تعالى رجلا من أهلها ، وأمره أن يشيد صرح الحياة الإنسانية على أسس من توحيد الله والإيمان بالآخرة واتباع الرسالة الإلهية . وأن هذا الرجل العظيم ظل يعرض دعوته على خلق الله فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة متوالية . ولم يكتف بعرض دعوته بلسانه فقط . بل كانت دعوته متجسدة فى حياته الشخصية متمثلة فى كل عمل من أعماله وكل موقف من مواقفه فى الحياة الاجتماعية مصورة الإنسان المثالى الذى ينشده الإسلام ، والأخلاق السامية التى يصنعها الإسلام ، والسيرة التى يتوخاها الإسلام ، والسلوك الذى يجب أن يكون عليه فى الحياة الدنيا كل من رضى بالله رباً وبالإسلام دينا . وكل ما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إليه كان يتجلى فى حياته العملية واقعا حياً ملموسا .

وقد عاضده صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ مهمته — بعد أن سمع دعوته من لسانه ورآها حقيقة متمثلة فى واقع حياته — ناس آمنوا بدعوته بكل تجرد ونزاهة وفهم ووعى . ولم ينضم أحد إلى دعوته — صلى الله عليه وسلم — عن جهل وعمًى وعدم تفهم لحقيقتها ومتطلباتها ، بل لم يعتنقها إلا وهو شاعر بجلالة الدعوة وضخامة مسؤوليتها . وسرعان ما أفرغ حياته فى نفس القالب الذى كانت تريده هذه الدعوة .

والذين قد دخلوا فى دين الله هذه الفترة ، التى امتدت إلى ثلاث عشرة سنة حدث فعلا فى حياة كل فرد منهم انقلاب رائع كان الإسلام يستهدف إحداثه فى حياة البشر . ثم لم يقف الأمر عند ظهور هذا الانقلاب فى نفوسهم فحسب ، بل جعلهم يكافحون بحماس واندفاع بالغين كل قوة من القوى الداخلية والخارجية التى أصبحت حجراً عثرة فى سبيل امتداد المسيرة الإسلامية وإسعاد البشرية ببركاتها وخيراتها فإن رأيت ثم رأيتهم يقومون بأكبر تضحية يمكن لرجل أن يأتى بها فى سبيل مبدأ من المبادئ . أنهم تكبدوا أفدح الخسائر المادية برحابة الصدر وارتياح النفس لأن أعظم قيمة من قيم الحياة الدنيا وأسماها فى أعينهم هى ما نالوها

بفضل الإسلام . فلم يرتضوا التنازل عنها مقابل أى شىء ، واستعدوا لأن يضحوا بعدها بكل شىء فى الدنيا . بل فوق ذلك فجر الإيمان فيهم عاطفة دافقة لجعل العقيدة التى آمنوا بها تسود الدنيا وتحكمها . وصمموا على حطيم كل احتمال لتغلب نظرية من النظريات الباطلة عليهم ولو اقتضى الأمر إلى التضحية بالنفس والنفائس فى هذا السبيل .

تأسيس الدول الإسلامية :

وهكذا ، فإن الفئة القليلة من المجاهدين المستميتين التى أعدها الرسول عليه الصلاة والسلام وشملها بتربيته الربانية فى خلال مدة ثلاثة عشر عاماً فى مكة المكرمة قد انتقل بها إلى يثرب (المدينة المنورة) وأنشأ فيها دولة إسلامية صغيرة جداً كانت مساحتها لا تزيد عن مساحة قرية صغيرة من قرى بلادكم ، وكان سكانها لا يتجاوزون ستة أو سبعة آلاف نفس . فقد قامت فى هذه القرية الصغيرة دولة جعلت تتحدى الجزيرة العربيـة برمتها . والذى يدعو إلى العجب ويأخذ باللب هو أن تكون الجزيرة العربية الواسعة الأكناف الشاسعة الأرجاء فى طرف وتكون هذه الدولة الصغيرة الناشئة فى الطرف المقابل فى هذه المعركة . ومع ذلك شرع النبى صلى الله عليه وسلم فى تكوين مجتمع بشرى فذ يختلف بحذافيره عن المجتمع الجاهلى آنذاك واستطاع فى سنوات قليلة إعداد ، نموذج حضارى رفيع ، وعرضه على عالم العرب ، وأتاح بذلك لكل رجل أن يشاهد — إذا شاء — بأم عينيه القالب الذى يريد الإسلام إفراغ الحضارة البشرية فيه ، ويتبين الروح الخلقية الذى يستهدف بعثها فيها .

إن العدل الذى دعا إليه الإسلام أقيم فعلا فى تلك الدولة ، وإن المجتمع النزيه الذى يود الإسلام إنشاءه أنشىء فيها فعلا وصار واقعاً ملموساً ماثلا للعيون . وإن الإصلاح الذى يتوخاه الإسلام فى الحياة الاقتصادية وُضعَ فعلا موضع التنفيذ فيها . وهكذا فإن كل ما كان يدعو إليه الإسلام ويطلبه من الناس أبرزه النبى صلى الله عليه وسلم إلى حيز الوجود وجسّمه فى واقع الحياة ، لكى لا يكون إيمان الناس بالإسلام مقتصراً على ما سمعوه من لسانه بل يرون بأعينهم : ما هو الإسلام ، وما هى بركاته وما هو الطريق لتطبيقه وجعله واقعاً حياً .

ومن أروع معجزات التاريخ البشرى أن الدولة التى أنشئت فى قرية صغيرة من قرى العرب – والتى كانت عبارة عن بضعة أميال مربعة فى مساحتها ، وعن بضعة آلاف نفس فى سكانها – استطاعت أن تبسط سلطان الله فى أكناف جزيرة العرب فى غضون ثمانى سنوات فقط . إنها فى هذه المدة القصيرة غزت رقعة من الأرض كانت تحتوى على مليون ميل مربع فأكثر . وكان من بدائع هذا الفتح أن لم يصبح الناس مستسلمين للسلطان السياسى لهذه الدولة فحسب ، بل انقلبت بسببه نظراتهم إلى الإشياء رأساً على عقب ، وتغيرت مقاييسهم للقيم ، وتبدلت أخلاقهم وخصالهم ظهراً لبطن وحصل انقلاب جذرى فى عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية وطرأت على حضارتهم ومدنيتهم ثورة لم تغير وجهة تاريخهم فحسب ، بل غيرت مجرى تاريخ العالم بأسره . فانتهج الناس أفراداً وجماعات أسلوباً جديداً للتفكير ونمطاً جديداً من السلوك وغاية جديدة للحياة حرموها منذ مئات القرون فى تاريخهم .

وكان بحسب النبى صلى الله عليه وسلم أن يقضى على الفوضى السياسية التى أنشبت أظفارها فى الجزيرة من القرون المتطاولة ، ثم يخضعها لنظام سياسى موحد فكيف وهو قد حقق مايفوق ذلك آلاف المرات : حقق تلك الثورة الشاملة التى لم يشهد لها تاريخ مثلا : ثورة فى التفكير ، ثورة فى الأخلاق ، ثورة فى الحضارة ، ثورة فى المدنية . ومما يدعو إلى الأسف أن النهج الخاطىء لتدوين التاريخ قد تناولت هذه الثورة الكبرى كأنها قامت نتيجة الغزوات فقط . وجاء المستشرقون الغربيون يصرخون ملء الفم :

« إن الإسلام لم ينتشر إلا بقوة السيف مع أن جميع الغزوات والمعارك التى اضطرمت نيرانها فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم تكاد لا يتجاوز قتلاها من الطرفين ألفاً وأربعمائة نفس . وعلى من عنده مسحة من العقل أن يتأمل فيما إذا كان من الممكن أن تحدث ثورة كهذه بقوة السيف على هذا القدر الضئيل من الدماء ؟

سر نجاح هذه الدعوة فى مدة قليلة :

إن السبب الحقيقى لحدوث هذه الثورة الكبرى هو غير ما قيل ويقال :

لما كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة يدعو إلى الإسلام ويعرضه على المشركين لم يدرك إلا القليلون منهم ما كانت تحمل هذه الدعوة في أحشائها من الطاقة الهائلة . ولم يفطن إليها إلا الذين كانوا على رصيد كبير من الذكاء والفطنة وكانوا من أصحاب الذهن الوقاد والبصيرة النافذة ، وكانوا يتمتعون بالقابلية التي استطاعوا معها أن يسموا بأنفسهم عن حمأة العصبيات الجاهلية ليعرفوا الحق فيؤمنوا به — لكونه حقاً وصدقاً — ويتبعوه في حياتهم الواقعية ، ويقوموا برفع لوائه ونشره في العالم مهما غلا الثمن وعظمت التضحية .

ولما برزت إلى حيز الوجود جماعة هذه سماتها وتلك عزائمها شرع النبي صلى الله عليه وسلم على سواء ببناء مجتمع إسلامي منشود ، وبعد أن تولى زمام دولته الإسلامية المستقلة أخذ يطبق هذا المجتمع ما أوحاه الله إليه من خطة إصلاحية للحياة الإنسانية وما للأوضاع القائمة والظروف السائدة آنذاك إزاء هذه الخطة إلا أن تتبدد بين عشية وضحاها .

وأخيراً شاهدت الدنيا بأم أعينها نتائج هذه الجهود وصاحت قائلة : ما أتم السلام في هذا المجتمع وما أرسخ قواعد الصلاح وخشية الله في قلوب أهله ! . وما أعم ظواهر الصدق والإيمان فيه ! وما أنظف العدل فيه ! وما أبعد الفوارق الطبقية فيه ! وما أبرز المساواة والأخوة فيه! وما أطهر الحياة الاقتصادية فيه من المعضلات والتعقيدات والنقائص! وما أجمل الحياة الاجتماعية فيه وأطهرها من الأوساخ الخلقية ! .

وما استطاع إزاء ذلك من وهبهم الله عيوناً مبصرة أن ينكروا ذلك النور الساطع الذي كانوا يرونه يملأ الدنيا ضياء وسعادة ، ولا سيما أنهم كانوا قد خبروا عصر الجاهلية وجنوا حنظلها المر ، ذلك العصر الذي كان الإنسان فيه يبتلع الإنسان ، وكانت حوادث القتل والنهب والسلب والإغارة من الأمور العادية ، وكان الناس غارقين في إدمان الخمر والزنا والقمار والسرقة وقطع الطريق ، وما إلى ذلك من الرذائل الخلقية حتى أنوفهم . ولكنهم أصبحوا يشهدون الآن تلك القناديل النورانية من السلام والعدل والصلاح والشرف والنزاهة والسمو تملأ أرجاء الدولة الإسلامية ضياء وبهاء ، وتضفي عليها

حللا قشيبة من الجمال والنضرة . ولم يبق بعد ذلك إلا نزر يسير ممن غشيت أبصارهم لم تعجبهم إلا ظلمات الجاهلية كالخفاش الذى لا ينظر إلا فى الظلام وغير هؤلاء الشذاذ آمن بصدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم فى نهاية المطاف جميع من كانوا يضعون العراقيل فى طريقه وكانوا يقاتلونه أعنف المقاتلة : آمن به خالد بن الوليد ، وخضع له عكرمة بن أبى جهل ، واعترف بدعوته عمرو بن العاص ، حتى أنا أبا سفيان وزوجته هند : آكلة كبد حمزة أعلنا بأن الدعوة التى تؤتى هذا النوع من الثمار لا تكون إلا دعوة حق وصدق . وذلك لأنهم رأوا الحق متلألئاً فى واقع الحياة أمامهم . ولم يعد الإسلام فكرة مجردة معروضة عليهم فى شكل دعوة جوفاء بل أصبح يتفاعل فى الحياة الإنسانية ويؤتى ثمراته الحلوة نتائجه الشهية فى الواقع الملموس .

ومن حصيلة هذه الثورة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كون أمة بكاملها كانت ترجمة حية للإسلام : كانت عقائدها وأفكارها ونظرياتها مشبعة بالإسلام وكان الدين الذى اعتنقته لا تشوبه شائبة من العبودية لغير الله الواحد الصمد . وكان سلوكها الفردى وأخلاقها الاجتماعية قد صيغت فى قالب الإسلام بعد أن تطهرت من نتن الجاهلية وعفونتها ، وكانت الحضارة والمدنية اللتان رفعت لواءها تفسيراً حياً للإسلام ، وكان نظام دولتها يسير وفق قانون الإسلام . إن هذه الأمة قررت ألا تحيا إلا لأجل الإسلام ، ولا تموت إلا فى سبيله . وقد اتخذت إعلاء كلمة الله فى الأرض شعارها القومى . وكان من مبادئها الأساسية تشييد صرح الحياة الإنسانية على دعائم الإسلام فى كل بقعة تخضع لسلطانها ، ومتابعة نشر دعوة الإسلام فيما لا يخضع لسلطانها من البقاع . وهكذا تهيأت فى العالم الأمة المتكاملة العناصر التى تطبق الإسلام فى حياتها الواقعية وتستهدف نشره على وجه الأرض كجزء من أجزاء مهمته القومية . كما أن الدولة بعناصرها الشاملة قد برزت إلى مسرح الوجود وكان الإسلام متجسداً فى نظامها الداخلى بجميع مبادئها وأسسها فى جانب ، وفى الجانب الآخر رفعت لواء الإسلام فى أدنى الأرض وأقصاها .

انتشار الإسلام فى العالم :

وبعد أن قامت فى الدنيا أمة هذه

سماتها وخلالها وتأسست دولة هذه خصائصها ومزاياها بدأ الإسلام ينتشر فى أرجاء الدنيا فى عصر الخلافة الراشدة بسرعة وصفت فى التاريخ بكلمة «الانفجار» أى مثل السرعة الهائلة التى أخذ بها الإسلام فى الانتشار والازدهار كمثل انفجار المتفجرات . ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى امتدت السيرة الإســلامية من بلاد الأفغان والتركستان شرقاً إلى أفريقية الشمالية غرباً . ونتيجة أى شيء كان هذا الانفجار الرائع يا ترى ! ؟ . ولكم أن تذهبوا إلى جزيرة العرب اليوم لتنظروا كم نسبة العمالقة فيها، وما هى مصادر الثروة المادية فى هذه الجزيرة ؟ دعوا البترول فإنه لم يكتشف إلا مؤخراً . ماذا فيها من الوسائل المادية بعد البترول؟ وانظروا كذلك إلى عددهم : يكاد لا يزيد عددهم فى جزيرة العرب بأسرها على عشرة ملايين من النفوس ومن المؤكد إن كان عددهم فى عصر الخلافة الراشدة أقل بكثير من هذا . فهيمنة شعب كهذا ، على هذا القدر من المساحة الأرضية ، وبهذه الصورة الفجائية لم تكن فى الواقع حصيلة تفوقه على غيره فى القوة المادية ، بل السبب الذى مكنه لإخضاع رقاب العالم كله يكمن فى ذلك السلوك الرائع الفريد الذى سلكه كل فرد من المسلمين بصفته الفردية والأمة الإسلامية بصفتها الجماعية فى الصلح ، والحرب ، وإدارة البلاد المفتوحة ، وحسن المعاملة مع شعوبها .

إن الذين عاشوا تحت الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومية كرعايا لم يكونوا يتصورون ، بله أن يشهدوا . ذلك النوع الفريد من الولاة الذين يمشون على الأقدام فى الشوارع . يعيشون عيشة عامة السكان ، ويتركون أبوابهم مفتوحة على مصراعيها فى وجه كل من مسته الحاجة ، ويضع يده فى عنقهم كل من دهمته الداهية ليطلب منهم إزالة شكواه . إن سكان فارس والروم ما رأوا هذا النمط الرائع من الحكام فى الأحلام فضلا عن أن يروه فى اليقظة . بل لم يدر بخلدهم احتمال وجود هذا النوع الفريد من رجال الحكم والإدارة . إلا أنه لما دخل النظام الإسلامى بسموه ونظافته أرض هذه البلدان ، وقدم لسكانها هذا النوع من الولاة فمن ذا عسى أن يكون منهم من يمنعه التعصب الأعمى من أن لا يعترف بهذا التفوق الخلقى والسمو الإنسانى

الذين يتفرد بها الإسلام اللهم إلا شرذمة قليلة طمس الباطل معالم فطرتها وعميت أبصارها عن رؤية الحق .

ومن النماذج الرائعة فى السمو الخلقى الذى عرضته الجنود الإسلامية على الدنيا أنها كانت تدخل مدينة تفتحها ، وتجوب فى شوارعها ونساء هذه المدينة واقفات فى الشرفات فى أبهى ثياب التبرج والإغراء يتطلعون إلى المواكب . ولم يحاول جندى من هؤلاء الجنود البواسل أن يرفع رأسه وينظر إليهن ولو بنظرة عابرة . تقطع المواكب الشوارع بدون أن تعلم ما إذا كان هناك من النساء يطللن عليها من الشرفات . الأمر الذى كان يختلف تماما عما جربته تلك الأمم المغلوبة من ويلات الغزاة فيما خلت من القرون ، وما تناقله الناس من القصص والحكايات عن الأمم الغازية . إذ كان من السنة المتبعة أنه كلما وطىء الغزاة أرض قوم عاثوا فيها فساداً ، ولم يتركوا عرض امرأة إلا وانتهكوه وارتكبوا معها الفظائع ، فبعد هذه المواقف الفذة مع أهالى البلاد المفتوحة كيف كان من الممكن أن لا تكسب الجيوش الإسلامية قلوبها : الجيوش التى تكتسح المناطق بدون أن تنتهك حرمة أحد أو تمس بكرامة أحد .

وكذلك من روائع الأخلاق التى تقدم بها هؤلاء الفاتحون الربانيون الجدد أمام الدنيا أنهم إذا اضطروا إلى سحب جيوشهم من منطقة من المناطق المفتوحة أعادوا إلى أهاليها كل ما أخذوه منهم من الضرائب والأموال لدعم الأمن فيها قائلين : إن هذه الضرائب إنما أخذناها منكم للقيام بواجب حراستكم إلا أننا اضطررنا للانسحاب ، ولا نتمكن من القيام بهذه المسئولية فهذه بضاعتكم ردت إليكم . هذا فى الوقت الذى لم يكن الناس يعرفون من الغزاة إلا الذين إذا اضطروا للجلاء من بلد من البلدان المحتلة فبدلا من أن يردوا إلى أهاليها ما كانوا جلبوه منهم من الأموال كانوا ينهبون ما تبقى عندهم من الأموال فلم يكن أحد من الناس يتوقع من الحكام والولاة أن يحتذوا ما عرف عن أنبياء الله وأوليائه من السجايا والفضائل ، ويحتاوا هذه المكانة السامية من الأمانة والنزاهة حتى فى مجال السياسة والحكم .

هذه هى الطاقة الهائلة التى كان يتمتع بها المسلمون فى صدر الإسلام

فغزوا بفضلها القسم الأكبر من العالم . ومن الحقيقة التي لا يكابر فيها أحد أن الذي حققته أخلاقهم السامية وسلوكهم النزيه من المعجزات لا يقارن بما أنجزته سيوفهم. لأن من اعتنق منهم الإسلام اعتنقه بعد إدراكه الكامل لحقيقته ومقتضياته، ثم صاغ فيه شخصيته وسيرته وسلوكه، ولذلك أيما عمل قاموا به مثّلوا فيه الإسلام بكامل أوجهه . وبهذه الخاصية الربانية لم تستطع أية قوة في العالم أن تصمد في وجههم . وكان يسبق تأثير أخلاقهم في قلوب الناس مضاء سيوفهم في عنقهم، ولهذا السبب نفسه نرى أن الأقطار التي فتحوها لم يكتف سكانها بالخضوع لقوتهم السياسية بل أصبحوا من المولعين بهم والمريدين لهم: اعتنقوا دينهم، واتبعوا حضارتهم ، وارتضوا لغتهم . وهاهي الأقطار التي فتحها المسلمون الأوائل ما زال سكانها يعتبرونهم على مدار التاريخ أبطالهم وروادهم ، ولا يحبون أن يرجعوا بأواصرهم إلى أسلافهم الكافرين أو ينسبوا إليهم ماضيهم التليد. فهل لسيف أن يحقق هذه المعجزة في العالم ؟ ! !

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل التاريخ الإسلامي . ولا أريد في هذا المقام سرد المعلومات التفصيلية عن هذه المرحلة . وإنما الذي يهمني أن أؤكد لكم أن الإسلام إذا تمكن من بسط سلطانه المدهش على القسم الأكبر من العالم لم يتمكن من ذلك إلا لأجل أن الأمة بكاملها قد آمنت بالإسلام إيماناً صادقاً وتمسكت به بعزيمة ماضية وتفهم صادق وإخلاص عميق وصار نور الإسلام يتلألأ في سلوك أفرادها الفردي والجماعي بمنتهى النصوع والكمال . وقد برزت إلى الوجود دولة تبنت الإسلام هدفاً رئيسياً لها ، وهبت تستنفد كل ما تملك من الوسائل والإمكانيات لتغليب كلمته في العالم . وهكذا تيسرت للإسلام في أولى مراحله حركة مستميتة قوية مازالت آثارها في التاريخ واضحة المعالم جلية الملامح حتى اليوم وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً على إنشائها . وتستطيعون أن تشاهدوا مع هذه الحالة التعيسة التي تدنت إليها الأمة الإسلامية آثار الطابع الذي انطبعت به الأمة الإسلامية في أولى مراحل تاريخها .

إن أي فرد من المسلمين مهما فسد أمره وساءت أخلاقه إذا استشففت ذات نفسه وجسست نبضه تعلم أنه لايحن إلا إلى

نفس المجتمع المثالى الذى أسسه محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون . وهذا هو الهدف الذى يطمح إليه دائمًا ولا يتناساه أبداً ، كأن هذا المجتمع شمس تشرق أمامه بنورها الساطع بصفة دائمة لا يدعها تغيب عن نظره . إن كل فرد من المسلمين يرى هذه المرحلة الذهبية نموذجا وقدوة ، ويولع بها لحد الغرام ، ويتمنى رؤيتها متمثلة فى الواقع مرة ثانية . وما انفك الإسلام يشع بنوره على العالم من عصر الخلافة الراشدة إلى هذا اليوم . ولم تبق صقعة من أصقاع العالم إلا قد تغلغلت إليه أشعته . وقد نال هذا الازدهار على رغم ما منيت به هذه الأمة من الأمراء المنغمسين فى حياة الترف والبذخ ، ونكبت بالطغاة والجبابرة ، ولم تعدم متعاطى المنكرات فى يوم من الأيام .

ولم تعد منذ مدة غير قصيرة أمة مثالية تحتذى ، وتنجذب إليها قلوب الناس . ولكن رغم كل ذلك لم تقف دعوة الإسلام من الانتشار . وليس مرجعه كون المسلمين على طريقة مثلى فى الحياة تستهوى الناس إلى دينهم ، بل الذين يعتنقون الإسلام من غير المسلمين لايعتنقونه إلا بعد أن يتأكدوا من أن الإسلام ليس الذى يتمثل فى واقع المسلمين وإنما الإسلام الحقيقى هو الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ثم إنما يوجد اليوم فى واقع المسلمين من بعض السمو والنظافة وجوانب الخير فى تفكيرهم وأعمالهم وسلوكهم وخلقهم فليس كل ذلك إلا البقية الباقية من الآثار التى تركها الإسلام فيهم ، لا تزال تعمل عملها على مرور أربعة عشر قرنًا . وبكلمة أخرى إن المرحلة الأولى من تاريخنا كانت تبلغ من حيويتها درجة استحال معها أن يزول أثر طابعها على التاريخ .

الهجرة وآثارها وأنواعها وأحكامها

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال الله تعالى :

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً) .

« سورة النساء الآية ١٠٠ »

البيان

الهجرة بكسر الهاء وضمها تطلق لغة على الخروج من أرض إلى أخرى ، كما تستعمل فى مطلق الترك كالهجر ، وفى عرف الإسلام تطلق على الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان .

وقد أوجبها الله على المسلمين لما اشتدت فتنة المشركين لهم بمكة ، حماية لدينهم وعصمة لأنفسهم ، وتوعد من لم يهاجر منهم بعذاب الجحيم إن كان قادراً عليها ، قال تعالى : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً[1]) واستثنى من هذا الوعيد من فقدوا الاستطاعة بقوله : (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً[2]) ، وحرم المقصرين الذين لم يهاجروا من ولاية المسلمين بقوله : (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من

(١) سورة النساء الآية ٩٧ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٩٨ و ٩٩ .

ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير[1]) .

والله تعالى يرغبهم في الهجرة بقوله: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة) أى أنهم سيجدون فى أرض الله أماكن كثيرة صالحة للهجرة والاستيطان ، وسيجدون سعة فى الرزق، وأنَّ مَنْ أدركه الموت منهم فى أثناء الهجرة لله ورسوله، وقبل أن يصل إلى دار الهجرة التى أرادها لسلامة دينه ونفسه ، فإن أجره واقع على الله تعالى ومُدخَرٌ له عنده كما لو كانت هجرته قد بلغت غايتها وانتهت إلى مداها والمراغَم هو المكان الذى تحول إليه مهاجراً يبتغى المقام به ، مأخوذ من الرَّغام وهو التراب .

وخلاصة معنى الآية أن من يهاجر فى سبيل مرضاة الله تعالى، فلا يضق صدره بهجرة وطنه ، ولا ييئس من رزق الله ورحمته فى دار هجرته ، فإنه سيجد فى أرض الله تعالى أماكن كثيرة صالحة للاستيطان ، غزيرة الأرزاق .

وفسر السدِّى لفظ (المراغم) بقوله :

هو مبتغى المعيشة ، وقال القرطبى : هو موضع المراغمة ، فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة ، فلو هاجر منهم مهاجر لأرغم أنوف قريش — أى ألصقها بالرَّغام وهو التراب كما تقدم — لحصوله فى منعة منهم ، فتلك المَنَعَةُ هى موضع المراغمة ، ومنه قول النابغة :

كطَوْدٍ يُلاذ بأركانه
عزيزِ المراغَمِ والمهربِ

وتفسير السعة بالبسطة فى الرزق مروى عن ابن عباس والربيع والضحاك ، أما قتادة فيفسرها بما يشمل الدين والدنيا إذ يقول : سعةٌ من الضلال إلى الهدى ، ومن العيْلة — أى الفقر — إلى الغنى ، وقال مالك: السعةُ سعةُ البلاد — وهذا المعنى أشبه بفصاحة العرب[1] ، فإن بسعة الأرض وكثرة المعاقل تكون السعة فى الرزق ، واتساع الصدر لهمومه وفكره ، وغير ذلك من وجوه الفرج ، ونحو هذا قول الشاعر :

وكنت إذا خليلٌ رام قطعى
وجدتُ ورَاىَ مُنْفَسَحاً عريضا

(١) من الآية ٧٢ من سورة الأنفال .

(١) من هنا إلى آخر البيت الآتى تعقيب القرطبى على رأى الإمام مالك .

وقد استفدنا من الآية أن من توفاه الله فى طريق هجرته قبل وصوله إلى مهجره أثابه الله ثواب من أتم هجرته ، من حيث قصد الهجرة ومباشرتها ، إذ أن المانع من إتمامها لم يأت من جهته بل من قدر الله

سبب نزول هذه الآية

اختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فعن عكرمة مولى عبد الله بن عباس أنه ضمرة بن العيص ، وحكى الطبرى عن سعيد بن جبير أنه هو العيص بن ضَمْرَةَ بن زنباع ، وكان من المستضعفين بمكة ، وكان مريضاً ، فلما سمع ما أنزل الله فى وجوب الهجرة وعقاب من لم يهاجر (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) قال : أخرجونى ، فهُيِّىء له فراش ثم وضع عليه ، وخُرِجَ به فمات فى الطريق بالتنعيم ، فأنزل الله فيه (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) الآية .

وقيل غير ذلك ، وتتمة قصة هذا الرجل الذى توفى فى طريق هجرته ، أنه لما أشرف على الموت صفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ، ومات عقب البيعة .

وحكم هذه الآية يتناول كل مهاجر إلى الله ورسوله يدركه الموت فى الطريق قبل وصوله إلى مهجره ، فى أى عصر من العصور ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

الهجرة من مكة إلى المدينة قبل الفتح وبعده

كانت الهجرة من مكة إلى المدينة فرضاً على المسلمين لنصرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وحماية لدين المهاجر ونفسه من أذى المشركين ، فلما أتم الله نِعْمَتَهُ على المسلمين بفتح مكة ، انتهى الوجوب بقوله صلى الله عليه وسلم: « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » .

أنواع الهجرة الواجبة بعد الفتح

قلنا إن وجوب الهجرة من مكة إلى المدينة نسخ لانتهاء دواعيه ، ولكن الهجرة واجبة من دار الكفر إلى دار الإيمان لا تزال واجبة على المسلمين إذا أصابهم اضطهاد من أهل الكفر ، ولم يقدروا على رده ، وخافوا على دينهم

وأنفسهم إن ظلوا بين أعدائهم الكافرين ، وقد حدثت هذه الهجرة بعد هزيمة ملوك الأندلس من الاسبانيين وتعرضهم للإبادة مالم يكفروا ، فلهذا فرّ منهم مئات الألوف إلى شواطئ البلاد الإسلامية على البحر المتوسط ، ومن بقى منهم بالأندلس أرغموه على تغيير دينه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهناك هجرتان واجبتان غير ذلك ، إحداهما : هجرة المحرمات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « المهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

والثانية : هجرة أهل المعاصى حتى يرجعوا تأديباً لهم ، فلا يخالطون حتى يتوبوا ، كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم مع كعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، قال تعالى : (وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) سورة التوبة (١١٨) .

هجرة النبى وحكمتها وآثارها

لما علمت قريش ببيعة الأنصار من أهل المدينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الذود عنه حتى الموت ، أدركوا خطورة هذه البيعة وآثارها العظيمة ، فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى دفع هذه الأخطار عنهم ، وبعد أن تبادلوا الاقتراحات وناقشوها ، استقر رأيهم على أن يأتوا من كل قبيلة بشاب قوى ، ثم يجتمع هؤلاء الشباب أمام داره صلى الله عليه وسلم ، فإذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلايقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلهم ، فيرضون بالدية ، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) فأعلم نبيه بما دبروه ، وأمره بالهجرة إلى المدينة التى انتشر فيها الإسلام ، وهناك ستكون له العزة والمنعة بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ، وستكون هذه الهجرة من أعظم الأسباب فى نشر الإسلام فى المشارق والمغارب .

فاستقر رأى الرسول صلى الله عليه وسلم على الهجرة فى الليلة التى سيجتمع فيها أولئك الشباب حول داره ، واتفق مع أبى بكر رضى الله عنه على اللقاء ليلاً خارج مكة ، وأمَرَ علياً أن يبيت على فراشه فى الليلة المذكورة ، وغطاه ببردته حتى يظنوا الرسول نائماً على فراشه ،

فقد كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ، ثم خرج الرسول فى الوقت الذى أراده الله ، وشق طريقه من بين هؤلاء الشبان المتربصين ، وهو يقرأ قوله تعالى: (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لايبصرون) ثم التقى بصاحبه أبى بكر خارج مكة ، وتمت الهجرة على النحو المعروف للقراء مما ينشر عنها فى كل عام .

والحكمة فى أن الإسلام لم ينتشر بأهل مكة بل بغيرهم ، أنه لو آمن أهل مكة بالرسول أولا ، لقال غيرهم من العرب وسواهم : إن قريشاً أرادوا أن يبسطوا نفوذهم وسلطانهم على سواهم ، فعمدوا إلى رجل منهم أن يدّعى النبوة ، لتكون خير وسيلة لهم إلى نيل مآربهم ، فلهذا ألقى الله فى قلوب أهل مكة مقاومة الدعوة الإسلامية ، ومعاداة صاحبها ، لكى يهاجر من أرضهم ويستنصر بسواهم ، فيكون ذلك أدعى إلى إقبال سائر العرب على دعوته ، وهذا هو الذى تم — والحمد لله رب العالمين .

والهجرة سنة النبيين من قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما هاجر تمت له سنة إخوانه الأنبياء صلى الله وسلم عليهم أجمعين ، فما مِنْ نبى إلا أوذى من قومه وهاجر عنهم ، من إبراهيم إلى عيسى عليهما السلام ، وقد تكون هجرتهم لأسباب أخرى ، كما حدث من يعقوب وأولاده ، حيث هاجروا إلى مصر فى عهد يوسف الصديق عليه السلام ، ثم هاجر موسى ببنى إسرائيل عائداً بهم إلى فلسطين ينقذهم من اضطهاد الفراعنة .

وهرب عيسى عليه السلام من اليهود حين كذبوه وأرادوا قتله ، وكان يقول لتلاميذه: « طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات » ويقول : « أفرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم » .

أقسام الذهاب فى الأرض وأحكامها

قال ابن العربى : قسّم العلماء الذهاب فى الأرض قسمين هرَبَاً وطلباً ، **فالأول** : ينقسم إلى ستة أقسام ، (الأول) الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وكانت فرضاً قبل الفتح . من مكة إلى المدينة ، ثم انتهى الوجوب بإسلام أهلها ، ولكن هذه الهجرة لاتزال واجبة إلى يوم القيامة ، من أى بلد عامةٌ أهلِه كفار إلى ديار

المسلمين ، فمن بقى فيها كان عاصياً ، أقول : وقد أجاز العلماء البقاء لرجل قوى الإيمان ، لايخشى على نفسه الفتنة ، فإن بقاءه قد تكون له آثار صالحة فيمن حوله من الكفار ، إذ ربما أثر عليهم فآمنوا ، كما كان يصنع تجار المسلمين الذين أسلم بسببهم بعض بلاد الكفار ، كما حدث فى الفلبين وأندونسيا (والثانى) الخروج من أرض تعم أهلها البدعة إذا لم يقدر على تغييرها لقوله تعالى: (وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أقول : قياساً على ما تقدم إنه إذا كان واثقاً من أن نفسه لاتنحرف فله البقاء (والثالث) الخروج من أرض غلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم (والرابع) الخروج فراراً من الأذى فى البدن ، وأول من فعله إبراهيم عليه السلام ، فإنه لما خاف من قومه بعد أن أبقوه فى النار قال: (إنى مهاجر إلى ربى) وفعله موسى قال تعالى: (فخرج منها خائفاً يترقب) .

(الخامس) الخروج خوفاً من المرض من الأرض الوخمة إلى الأرض النظيفة التى لا ينتشر فيها المرض ، فقد أذن الرسول صلى الله عليه وسلم للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المَسْرح[1] ، فيكونوا فيه حتى يصحوا، وقد استُثْنِيَ من ذلك الخروج من أرض الطاعون ، فقد منعه النبى صلى الله عليه وسلم — قال ابن العربى : بيد أن علماءنا قالوا إن الخروج من الأرض الوخمة مكروه — أقول — : ولعل الكراهة عندهم بسبب أن الهجرة قد تكون سبباً فى نقل المرض من تلك الأرض إلى الأرض النظيفة ، فإن من فيها يحملون ميكروبات الأمراض الموجودة بها ، وذلك هو اللائق بمحاسن الشريعة ، قال صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه: «لاضرر ولا ضرار» .

(السادس) الخروج لتفادى الإيذاء فى الأهل والمال ، وهو مشروع بل قد يكون واجباً إذا كان الإيذاء عند البقاء متوقعاً بأرْجَحيَّة ، فإن حرمة الأهل والمال كحرمة الدم .

وأما الهجرة والخروج للطلب ، فإما أن يكون لطلب دين ، وإما أن يكون لطلب دنيا ، فالهجرة لطلب الدين كالسفر للعظة والاعتبار — وهو مندوب —

---

(١) أى إلى مسرح الإبل وأماكن رعيها حيث الفضاء الفسيح .

قال تعالى: (أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) وكالخروج للحج - وهو فريضة على كل مكلف مستطيع لم يسبق له الحج ، وكسفر الجهاد - وهو إما فرض عين أو فرض كفاية أو سنة . حسب اختلاف الأحوال .

وكالهجرة لطلب المعاش ، فمن ضاق عليه العيش فى بلده وجب عليه أن يهاجر إلى حيث يجد كفايته من الرزق ، أما طالب الزيادة على الكفاية فيباح ، بشرط الاطمئنان على الدين والعرض فى أرض المهجرة ، وليأخذ معه فى مهجره القرآن الكريم ومراجع الدين والخلق والعقيدة بصفة خاصة ، حتى يعيش فى جو إسلامى ، ويحمى نفسه من الانزلاق فى أوحال الشبهات والمعاصى .

ومن الأسفار المباحة السفر لمجرد التجارة والكسب الزائد على القوت ، فيباح له الانتقال من بلده لذلك ، والعودة إلى بلده بتجارته أو بثمنها وربحه ، ويدل لهذا والذى قبله قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وذلك فى الرزق الضرورى لإبقاء الحياة ، وقوله تعالى : (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) وقوله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وذلك فى الرزق الزائد على القوت الضرورى ، ويدخل الرزق الضرورى من باب أولى .

وقد يبدو عند أول النظر أن السفر لطلب الرزق بمختلف أنواعه السابقة يعتبر سفراً لغرض الدنيا ، ولكنه معتبر فى جانب السفر لطلب الدين إن صحبته نية الاستمتاع بنعمة الله وأداء حقوقها وشكر الله عليها .

ومن الهجرة لطلب الدين السفر لطلب العلم - وهو فرض كفاية ، قال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ومنها السفر إلى البلاد المقدسة الثلاثة مكة والمدينة والقدس . لغرض العبادة فى مساجدها ، وتكثير الثواب بذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » وذكر ثلاثة مساجد ، مسجده صلى الله عليه وسلم والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ، والسفر لذلك مندوب ، ومن الهجرة فى سبيل الدين الخروج إلى الثغور الواقعة بيننا وبين الأعداء للمرابطة فيها لرد الأعداء عن البلاد ، ومنها السفر لزيارة

إخوانك فى الله تعالى ، وهى مندوبة لقوله صلى الله عليه وسلم : « زارَ رجل أخاً له فى قرية ، فأرْصَدَ الله له ملكاً على مَدْرجَتِه — أى طريقه — فقال : أين تريد ؟ فقال : أريد أخاً لى فى هذه القرية ، قال : هل لك من نِعْمة تَرُبُّها عليه — أى تملكها عليه — قال لا : غير أنى أحببته فى الله عز وجل ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبَّك كما أحببته فيه » رواه مسلم وغيره .

وأما الهجرة لطلب الدنيا أو السفر لذلك من غير نية ابتغاء مرضاة الله بأى وجه من الوجوه فهى مباحة ولا أجر فيها ، بشرط أن لا تكون للمعصية وأن لا تصاحبها معصية ، وإلا كانت حراماً .

ودليل إباحتها عند خلوها من المعصية قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) الآية ، وهى شاملة للمتعة بالطيبات جميعاً ، حضراً كانت أو سفراً .

هذه هى أنواع الهجرة وأحكامها التى نقلها ابن العربى عن العلماء ، قدَّمناها بين يديك أيها القارئ الكريم بأسلوب سهل ميسر ، وقد ذكرنا فيها مالم يذكره من الأحكام والأدلة والتطبيقات ، وأسأل الله لى ولك التوفيق لما يحبه ويرضاه ، والله تعالى أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

ما يجب للجار على الجار

ابتداؤه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثِر عليه السؤال ، ويعوده فى مرضه ، ويعزيه فى مصيبته ، ويهنيه فى فرحه ، ويتلطف لولده وعبده فى الكلام ، ويصفح عن زلته ، ومعاتبته برفق عند هفوته ، ويغض عن حرمته ، ويعينه عند صرخته ، ولايديم النظر إلى خادمته .

أبو حامد الغزالى

هاكم آية واحدة تبعث الحياة بين المسلمين وتجدد شباب العالم

الأستاذ / أحمد حسين

حال المسلمين اليوم، هي كما نعرف، وأنا إذا كنت متفائلا فى كل ما أكتب فذلك لأنى أمد نظرى إلى المستقبل البعيد وأرى فى الحاضر، بذور ما سوف ينمو فى المستقبل.

وأنا بعون من الله وفضل أشتغل بتفسير القرآن الكريم منذ أكثر من عشر سنوات.

وليس فى حياتى بطبيعة الحال ما يمكن أن يقارن إلى هذا الذى وفقنى الله إليه، ولقد جعلتنى معايشة القرآن، آية آية، وكلمة كلمة، أدرك شيئاً مما فيه من إعجاز يستحيل على أى إنسان فى أى زمان ومكان أن يقول بعض آياته، فها هى ذى آية واحدة، نراها فى كلمات معدودة، تقدم للمسلمين بخاصة، والبشرية بعامة، الدواء الشافى المعافى لما تئن منه البشرية.

مرض العصر :

فأما أن البشرية بشرقها وغربها تئن، بل وفى حالة مرض وإفلاس فذلك يبين من كثرة عدد المنتحرين فى المجتمعات المقول بأنها أكثر غنى وتقدماً، وأكثر ممن ينتحرون، هؤلاء الذين يُجَنُّون، وأكثر منهم وأكثر المصابون بأمراض عصبية، أما الإحساس بالقلق والضياع فهو ما يعانيه الكافة، كافة من يسمونهم بالشعوب المتمدنة، ولما كان المسلمون لايزالون يتابعون هذا الذى يتصورونه مدنية، فقد بدأوا يعانون، كما يعانى الآخرون.

الإيمان أما الإلحاد والأسرة أم الدولة :

وسنرى فى الآية التى نعرضها المفتاح لكل شىء، الإيمان بالله أم بالمادة ؟ أن يكون أساس السلطة فى المجتمع، الحب أم الكراهية والحقد ؟ وهو الفارق بين قيام المجتمع على الأسرة، وعلى القرابة والمجاورة والتعامل المباشر وبين قيامها على ما يسمونه الدولة حيث يتحول

الناس ومشاعرهم وأحاسيسهم ، ومعاناتهم ، إلى أعداد وأرقام على الورق عند التخطيط ، و « ترس » أو « صامولة » فى الواقع ، وإليك الآن الآية ، وما وفقنى الله لأقوله فى شرحها لأنبه أذهان من هم أكثر قدرة وكفاءة منى على قول المزيد :

(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً)[1] .

آية جامعة لصلاح الدين والدنيا :

نحن كما يعرفنا من يتابعوننا ، ممن لا يحبون أن يفضلوا سورة على سورة ، أو يجعلوا لبعضها أهمية تتفوق على سورة غيرها ، فالكل كلام الله القديم .

ولكن ذلك لا ينسحب على آيات القرآن ، فهى اللبنات التى تؤلف البناء القرآنى المشمخر ، وقد فرق الله سبحانه وتعالى بين مختلف الآيات فوصف بعضها بأنها محكمات هن أم الكتاب والآية التى نحن بصددها ، آية محكمة من أمهات الكتاب العزيز .

ذرة معنوية :

ولكى نصور لك أهميتها وخطورتها من حيث هى سبيل لصلاح الدنيا والآخرة نسوق لك مثلا مادياً من حياتنا المعاصرة ، فقد أصبحنا نعرف أن الذرة إذا تفتت انطلقت منها قوة جبارة ، وها نحن بإزاء آية تتألف من كلمات قليلة جداً ، ومع ذلك فلا نكاد نتفهمها حتى نجدها شملت جوهر الدين والدنيا معاً ومن يعمل بها يصبح أقوى الأقوياء ويسعد هو ومن حوله فى الدارين الدنيا والآخرة ، وهى بحق مفتاح لعلاج ما أصبحت الدنيا بعامة ومصر بخاصة تشكو منه مر الشكوى ، لأنه أصبح مصدر المعاناة والقلق والضياع للكثيرين ونحن ننصح كل قارئ للعربية ، ولكل مسلم أن يحفظ هذه الآية أو يكتبها ويضعها نصب عينيه دائماً ، ثم يعمل على تطبيقها نصاً وروحاً ، فيفوز فوزاً عظيماً ، وإليك الآن مفردات وأجزاء هذه الآية الكريمة :

واعبدوا الله :

هذا هو سر الحياة وإكسيرها وعلاجها ، والأمر الوحيد الذى له معنى ومغزى ، وإلا كانت شيئاً سخيفاً ،

---

(١) سورة النساء آية ٣٤ .

أن يعيش الإنسان منذ يولد إلى أن يموت فى ألوان من المشاق والمعاناة ، التى تصل أحياناً إلى درجات غير متصورة من الآلام والحرمان والشعور بالقهر والظلم ، فليس سوى الإيمان بأن هذه الحياة الدنيا هى مرحلة مؤقتة وعابرة ، وأن وراءها حياة أخرى ينعم فيها المحروم والمعذب والمظلوم بالعدل والطمأنينة والحصول على ما حرم منه فى هذه الدنيا ، وحيث يجازى المسىء بإساءته ، والظالم بظلمه . . إلخ ليس سوى الإيمان بهذه الحقيقة ، وأن الخالق لهذا الكون ابتداء ، هو سيجرى حكمه وعدله بهذا الأسلوب ،نقول: أن ليس سوى الإيمان بهذه الحقيقة ، من يجعل لمرحلة الحياة معنى ، ويغرس الأمل فى النفوس حيث ينعدم كل أمل .

جحيم الإلحاد :

ولقد حاول أقوام أن يجردوا الناس من هذا الإيمان ، بدعوى أنه سبب التخلف والشقاء ، وقالوا قولتهم المشهورة : « الدين أفيون الشعوب » فماذا كانت النتيجة ؟ كانت هذا الجحيم البشرى الذى أصبح يعيش فيه الغارقون فى المادية فزادت نسبة المجانين ، والمرضى بأمراض عقلية . وأصبحت الكثرة الغالبة ، فى حالة قلق وضياع يشهد بذلك كثرة المنتحرين ، والمجرمين ، والمنحرفين .

ولا علاج لذلك كله إلا فى العودة إلى الدين بشقيه : الإيمان بالله والعمل الصالح ، وهذا ما تدعوا إليه أول جملة فى هذه الآية (واعبدوا الله) .

ولا تشركوا به شيئاً :

الشرك بالله ، بمعنى إشراك آخر فى عبادته من الأمور التى تخفى على الكثيرين فالشرك بالله لا يعنى الكفر به، فلقد حكى القرآن الكريم فى أكثر من آية أن مشركى قريش ، لم ينكروا وجود الله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) فالمسألة إذن لم تكن فى الإقرار بوجود الله أو نفيه ، ولكنها كانت فى هذه الأصنام والأوثان التى اعتبروها شريكة لله فى حكمه وفى تصريف الأمور وتدبيرها فى هذا الكون، فراحوا يعبدونها ويتقربون إليها بالذبائح والضحايا ، وأهم من ذلك كله يسلكون فى الحياة ، وفق أهوائهم وشهواتهم ، ناسبين ذلك لأصنامهم ، فتصدوا لسيدنا محمد بالمعارضة والإنكار ثم الاضطهاد والحرب بمقولة أن هذا هو ما يفرضه عليهم واجب عبادتهم لهذه الأصنام .

فشركو قريش ، لم يقفوا عند حد اعتبار الأصنام شركاء لله ، بل تصدوا لمحاربة التوحيـــد ، ولكل ما جاء به الإسلام من تعاليم ، وكان أول ما كفروا به وأنكروه أن يكون سيدنا محمد هو رسول الله وأنه يوحى إليه ، وأنه سيكون هناك بعث بعد الموت ، وحساب ثم جنة ونار ، ولعل هذا يظهر مدى تطرف البعض ومبالغتهم عندما يعتبرون مئات الملايين من المسلمين مشركين لمجرد كونهم يهتفون « ياسيد يا بدوى » أو « ياحسين » أو « ياسيدة زينب » فهؤلاء المعتقدون بسلطان هؤلاء الأولياء ، إنما يؤمنون أولا بالله ووحدانيته وأن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام هو عبده ورسوله ، وهم بعد ذلك يصلون ويصومون ويحجون كما تقضى تعاليم الإسلام . فوصف هؤلاء بأنهم مشركون، لاعتقادهم أن أولياء الله لهم حظوة عند الله بحيث يشفعون عند الله لمن يحبهم . فهم يحاولون أن يستخلصوا ذلك من أقوال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو بعض أعماله وتصرفاته ، أو من بعض آيات القرآن نفسه .

ولسنا هنا بصدد الفصل فى هذه القضية ، وما هو وجه الحق والصواب فيها ، فهى مسألة خلافية يجتهد كل فيها برأيه ، ولكن الذى نقطع به هو أن وصف المسلم بأنه مشرك لأنه هتف بالسيد البدوى أو سيدنا الحسين هو ضرب من ضروب المبالغة والمغالاة التى فرقت بين المسلمين وبالتالى أضعفتهم ونالت من مكانتهم فى العالم .

عبادة المال والدولار كلون من ألوان الشرك :

والآن فلنتحدث عن لون حديث من الشرك بالله فى تصورنا ، ففى بعض المجتمعات أصبحوا يقومون كل إنسان بما يملك من الدولارات وأصبح امتلاك الدولار هو غاية الغايات ، يبذل كل شىء فى سبيله وغنى عن البيان ، أن الدولار هو رمز لتقديس المال وعبادته ، وحقـًا كان الإنسان وسيبقى محبـًا للمال شريطة أن يكون حب الله أقوى ولكن الأمر وصل فى هذه المجتمعات إلى أن يكون المال كل شىء ، أى أنه أصبح إلهـًا يعبد ، ومن الناحية المقابلة ، نجد من جعلوا « الحزب » هو فاعل كل شىء ، والقادر على كل شىء والعالم بكل شىء ، إلى آخر صفات الألوهية ، سئل واحد فى هذه البيئة وكان من رواد الفضاء ، ألم يداخلك خوف ، وأنت

معلق بين الأرض والسماء؟ فأجاب : لا لأنني كنت واثقاً أن الحزب إلى جوارى ولن يتخلى عنى ، وهذا هو الشرك عن طريق إضفاء قوة غيبية لانهائية للحزب وهكذا فعل الآخرون عن طريق إضفاء هذه القوة الغيبية اللانهائية للدولار أعاذنا الله من أن نشرك مع قدرته « شيئاً » .

وبالوالدين إحساناً :

ومن الإيمان بالغيب : الذى هو ينبوع كل قوة أمل ودافع ومحرك فى هذه الدنيا ، إلى المحسوس والملموس وهو السبب الظاهر لوجود الإنسان فى الدنيا ، وهما الوالدان ، فهما وحدهما ، العلة فى وجود الإنسان : أى إنسان مهما بلغ من العظمة والقدرة ، والمجد والعلم ، فهو ما كان ليوجد لولا الأبوان ، فإن جحد الإنسان فضلهما وهما السبب المباشر لوجوده ، فهو لا يمكن إلا أن يكون أكثر جحوداً ، للسبب الخفى وراء وجوده .

ومن هنا قرن القرآن دائماً بين عبادة الله والإحسان بالوالدين ، باعتبارهما وجهين لحقيقة واحدة ، كما هو الحال فى قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) .

ولم يجعل القرآن الكريم لهذه القاعدة أى استثناء ، وظل يطالب بالإحسان إلى الوالدين ، حتى ولو دعواه وحرضاه على الإشراك بالله : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » . .

كما ورد قوله تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

ولا عجب فى ذلك ، فإن المجتمع البشرى لا يمكن أن يقوم — فضلا عن أن يسعد — إلا استناداً على أساس الأسرة القوية .. ولا مجال للأسرة القوية ، إلا بولاء الأبناء للآباء .

عصر الشيخ محمد عبده :

وليس هناك ما يبرز صورة انحراف المجتمع المصرى الإسلامى فى أيام الشيخ محمد عبده « أوج الاحتلال البريطانى » من أن يطالع الإنسان تفسيره لهذه الآية ، مما جاء فى تفسير المنار ، فقد ترك أمر القرآن للأبناء أن يحسنوا إلى أبويهم ، وراح يندد بالآباء وما يفعلونه بأبنائهم ، حيث يلغون كل إرادة للأبناء ويفرضون إرادتهم هم فى مسائل التعليم والزواج وشتى شئون الحياة. حيث انقلب الأمر اليوم إلى النقيض، فأصبح لا رأى للوالدين فى شأن من

شئون ابنهما أو بنتهما فانهارت الأسرة . وكلا الأمرين شر بطبيعة الحال ، وتطرف ، وخروج عن جادة الإسلام . فإن القرآن يلزم الأبوين بالتشاور مع أبنائهما الكبار .

(وأمرهم شورى بينهم) .

(وشاورهم فى الأمر) .

وأبناء الإنسان لم يخرجوا من دائرة المؤمنين ، لمحض كونهم أبناء الإنسان . وهدف الشورى بطبيعة الحال هو تحقيق أكبر قدر من الخير والصلاح ، وحق الأبوين على أولادهما هو الطاعة التى لا يجوز لأى ابن أو بنت أن يتحلل منها إلا إذا كانت أمراً بمعصية الله ، فقد جاء فى الحديث الشريف « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

أما إذا كان الأمر الصادر من الأبوين هو الإشراك بالله أو الكفر به فالأمر الإلهى قاطع وصريح : « فلا تطعهما » أما فى خارج الأمر بالشرك والمعصية فالطاعة واجبة ، قال تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأى ولى لأمر الإنسان أكثر من والديه ؟ ! فطاعة الآباء واجبة ، والتمرد على الأبوين إثم يفوق كل إثم .

وبذى القربى واليتامى والمساكين :

أفضنا من قبل كثيراً ، فى اعتبار الإسلام أن الأسرة دعامة المجتمع الأولى ، وإذا كانت الأسرة تتكون أول ما تتكون من الأبوين ، فقد جعل الإحسان إليهما قرين عبادة الله وعدم الإشراك به . وهو فى هذه الفقرة من الآية يمد « الإحسان » كما تمتد الشجرة ، بفروعها وأغصانها وورقها ، فتصبح وارفة الظلال غزيرة النفع والثمر ، فكذلك الإحسان يجب أن يمتد من الوالدين ليشمل بقية أفراد الأسرة : الأقرب فالأقرب .

وقبل أن ينتقل القرآن « مكانياً » أى قبل أن ينتقل من دائرة الأسرة الواحدة والبيت الواحد ليحدثنا عن الجيران نراه يشفع ذكر ذوى القربى باليتامى والمساكين ، رافعاً إياهم من حيث الإحسان إلى مرتبة ذوى القربى ، حتى ولو لم يكونوا من أقرباء الإنسان ، وهذا التكافل والتضامن الاجتماعى هو من أقوى سمات المجتمع الإسلامى ، وهذا ما جعلنا نضيق فى الآونة الأخيرة بكلمة « الاشتراكية » ، حيث إن الإسلام جاء بأعظم منها وأدق وأكمل ، فجعل التكافل الاجتماعى

بكل أبعاده ومعانيه هو حجر الزاوية فى المجتمع الإسلامى .

اليتيم والمسكين :

وطالما شرحنا معنى اليتيم : وهو القاصر الذى فقد السند الأول للإنسان فى صغره ، وهو أحد الأبوين بعامة ، والأب بخاصة .

أما المسكين ، فهو ليس الفقير الشحاذ الذى لا يملك شيئاً .. جاء فى القرآن الكريم عن إحدى السفن أنها كانت (لمساكين يعملون فى البحر) فدل ذلك على أن المسكنة مسألة نسبية، فأى صاحب حاجة مشروعة يكون ضعيفاً عن تحقيقها يكون مسكيناً ، ويكون المسلم مأموراً من الله سبحانه وتعالى أن يحسن إليه بمعاونته على قضاء حاجته ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا .

والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب :

فى هذه الدعوة الإلهية للإحسان إلى الجيران يظهر تفوق التعاليم الإسلامية التى لا حد لها من الناحية الإنسانية التى تجعل من المجتمع الإسلامى مجتمعاً واحداً متكافلا ، وليس هناك ما يظهرك على ما أصبحت عليه حياتنا من دمار وضياع ، إلا أن تقارن هذا الذى يجب أن يكون بما أصبحنا نعيش عليه فى المدن ، حيث نعيش فى بيوت لا نكاد نعرف أسماء من يعيشون معنا فى نفس الطابق ، وهو ما ورثناه من العادات الغربية المرذولة .. ولقد حان الوقت لينتهى كل ذلك ونعود للتمسك بأصالتنا ، وتقاليدنا التى هى من وحى ديننا كما تنطق هذه الآية ، وقد روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « ما فتئ جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وفى حديث آخر رواه مسلم عن أبى ذر عن رسول الله ما يكمل هذه الصورة الرائعة ، قال : « يا أبا ذر ، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك » .

وثمة حديث ثالث نختاره ، لأنه يؤلف مبدأ أساسياً وقاعدة . وقد رواه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : «قلت يا رسول الله ، إن لى جارين فإلى أيهما أهدى ، قال : إلى أقربهما منك باباً . »

وهكذا أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القول فى اعتبار أن القرب المكانى

هو الذى يحدد أولَىٰ الجيران بالهدية، حتى لو كان نصرانياً أو يهودياً .

ومن أراد أن يعرف قوة الإسلام ولماذا لا يزيده مر القرون إلا قوة وانتشاراً فعليه أن يقف طويلا أمام هذه المعانى وعظمة دلالتها ، وقد حدثنى صديق عزيز هاجر إلى أمريكا ونجح فى حياته نجاحاً باهراً ، كيف أنه عندما اشترى بيتاً فى إحدى المدن الأمريكية بدأ بزيارة جيرانه ودعوتهم إلى زيارته ، فاعتبر هذا حدثا جللا ، وتوثقت عرى الألفة والمودة بينه وبين جيرانه ، ونكتفى بهذا القدر لنعرف ما المقصود ببعض الألفاظ وما جرى حول ذلك من خلاف نراه ثانوياً .

والجار ذى القربى :

دار التساؤل عن القرب ، أهو فى النسب ، أم هو القرب المكانى . والنتيجة واحدة ، وهى وجوب الإحسان إليه .

والجار الجنب :

أى أن حق الجوار لا يقف عند حد الجار « اللصيق » أى المتصل بالبيت مباشرة ، وإنما حق الجوار مسألة نسبية تتحدد بظروفها . وقال البعض : إن الجار ذا القربى هو الجار المسلم ، والجار الجنب هو الجار غير المسلم ، وقيل هو الجار الغريب ، وكل هذا ينتهى إلى نتيجة واحدة هى وجوب الإحسان .

والصاحب بالجنب :

وهنا قال البعض : إن المقصود به هو رفيق الإنسان فى السفر ، وقال آخرون هى : « الزوجة »، وظل بعض ثالث فى دائرة الجوار فقالوا : إنه يمتد حتى أربعين بيتاً .

ونحن لا نرى مانعاً من الأخذ بكل هذه الأقوال ، فالإحسان مطلوب لكل الناس .

وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً :

ويوسع الإسلام دائرة من يجب على الإنسان أن يحسن إليهم ، فبعد أن بدأ بالوالدين ثم الأقارب والجيران واليتامى والمساكين ، وصل إلى حد وجوب الإحسان إلى أى إنسان (أياً كانت ملته أو مذهبه) ما دام الطريق قد جمعكما : وهذا هو « ابن السبيل » .

أو ما ملكت أيمانكم :

وقد تحدثنا من قبل باستفاضة عن الرق فى الإسلام ، فألغاه عند المنبع

بين المسلمين ، فأصبح لا يجوز تحويل المسلم إلى عبد نتيجة أسره فى الحرب ، وهى القاعدة التى سار عليها العالم منذ عرف الحضارة ، وحث الإسلام على تحرير الأرقاء باعتباره من أعظم القُرَب إلى الله ، واعتبر تحرير العبد كفارة لعديد من المخالفات الدينية ، وحيث كانت البشرية تعتبر الرقيق كشىء مَمْلُوك لا حساب له فى دنيا البشرية ، فها هو القرآن الكريم يدعو إلى الإحسان إليهم كأقرب المقربين إلى الإنسان .

ويزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر تبياناً وشرحا ، فيقول صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه مسلم وغيره عن أبى ذر وقد جاء فى الحديث : « هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً :

أى أن الله لا يرضى عن المختال ، والمختال ذو الخيلاء أى الكبر ، جاء فى الحديث الشريف : « لايدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » أعاذنا الله من الكبر والمتكبرين .

والفخور :

هو المغرور الذى يتصور نفسه من طينة غير طينة البشر ويروح يعدد مناقب نفسه : كبراً وتطاولا على الناس ، قال تعالى :

(ولا تمش فى الأرض مرحا[1] إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) .

أحمد حسين

(١) أى فى تطاول وخيلاء .

آداب الغنىّ

لزوم التواضع ، ونفى التكبّر ، ودوام الشكر ، والتوصل إلى أعمال البر ، والبشاشة بالفقير والإقبال عليه ، وردّ السلام على كل أحد ، وإظهار الكفاية ، ولطافة الكلمة ، وطيب المؤانسة ، والمساعدة على الخيرات . .

أبو حامد الغزالى

بطولات إسلامية

مسلمة بن عبد الملك بن مروان
قاهر هرقل وفاتح الأناضول [1]

للسيد اللواء الركن / محمود شيت خطاب

(1)

هو مَسْلَمَة بن عبد الملك ابن مَرْوَان بن الحَكَم بن أبي العاص ابن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف ابن قُصَي القُرَشِي الأموي[2] .

(1) الأناضول : أو الأناطول ، لفظة يونانية ، معناها : المشرق ، اسم لشبه جزيرة كبيرة ، هي عبارة عن آسيا الصغرى كما تطلق عليها اليوم . يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الأسود ، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبية الغربية إلى الإسكندرونة ، من الجنوب البحر الأبيض المتوسط ، ومن الغرب الأرخبيل اليوناني ، وهي ما نسميه : تركيا ، عدا القسم الأوروبي منها ، انظر التفاصيل في معجم العمران (٢/٦٣ – ٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١ – ١٨٥) .

(2) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ – ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣) وقادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥).

أبوه : أمير المؤمنين عبد الملك ابن مَرْوَان [1] ، وأمه من أمهات الأولاد ، ويريدون بكلمة أمهات الأولاد : الجواري والإماء اللّواتي ولدن لمواليهن ذكرانا .

وقد ذكر الإمام ابن حزْم الأندلسي[2] في رسالته : « أسماء الخلفاء والولاة وذكر مُدَدهم » ما نصه : « وفي أيامه — يريد أيام سليمان بن عبد الملك — حوصرت القُسطنْطينيَّة[3] وحاصرها أخوه

(1) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥ – ١٥٢) .

(2) الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤هـ – ٤٥٦هـ) .

(3) القسطنطينية : مدينة شهيرة جداً ، كانت عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه ما بين أربعة عشر قدماً وعشرين قدماً ، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلاً ، انظر التفاصيل في معجم العمران (٢/٢٩٩ – ٣٠١) .

مَسْلمة ، ومن مَسْلَمة أربع وعشرون سنة »[1] ، وكان حصار القسطنطينية سنة ثمان وتسعين الهجرية[2] (٧١٧ م) .

ومعنى ذلك أن مسلمة ولد سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣ م) .

ولست مع الإمام ابن حزم الأندلسي فيما ذهب إليه ، لأن أول قيادة تولاها مسلمة كانت سنة ست وثمانين الهجرية[3] ، وليس من المعقول أن يتولى مسلمة قيادة جيش من جيوش المسلمين ، فى أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية ، وهى جبهة مقاتلة الروم فى عقر دارهم ، وهو فى سن الثانية عشرة !!

والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل ، أى أن ولادة مسلمة كانت حوالى سنة ست وستين الهجرية (٦٨٥م) .

ومهما يكن من أمر تاريخ مولد مسلمة الذى أغفله المؤرخون ، فإن أبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السادسة عشرة من سنى حياتهم ، ولكنهم لا يتأخرون عن العشرين إلا نادراً ، خاصة إذا كانوا من ذوى الكفايات القيادية العالية التى تظهر عليهم مبكراً — كما هو الحال فى مسلمة وأمثاله من بنى أميّة ومن الذين تولوا القيادات العسكرية فى عهدهم كمحمد بن القاسم الذى تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف .

نشأ مسلمة وترعرع فى ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً : فهو من بيت السلطة والملك — بنى أميّة ، وأهله أمراء وقادة وخلفاء ، وظروفهم الإدارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلم والتدريب ، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسرة حينذاك ميسوراً لبنى أميّة ولغيرهم من الناس ، لذلك نشأ فى دمشق عاصمة الخلافة ليتعلم القرآن ويروى الحديث ويحفظ الأخبار ويتقن علوم اللغة وفنون الأدب شعراً ونثراً ، ثم شعراً ونثراً ، ثم ليمارس القضايا الإدارية والسياسية عن كثب ويرى كيف تُصرف الأمور وتُعطى القرارات . كما تدرب على ركوب الخيل والفروسية والسباحة والرمى بالنبال والضرب بالسيف والطعن

(١) أسماء الخلفاء والولاة وذكر مددهم (٣٦٢) — ملحق بكتاب جوامع السيرة .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) وفتح القسطنطينية (٣٨) والإمبراطورية البيزنطية (٣٦٦) .

(٣) ابن الأثير (٤/٥٢٤) والعبر (١/١٠١)

بالسنان ، حتى أضحى فى الميادين الثقافية والإدارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة .

ولعل مما زاد فى فرص تعليم وتدريب مسلمة ، أنه تلقى علومه وتدريبه فى كنف والده أمير المؤمنين عبد الملك ابن مروان بعد استقرار ملكه فى الدولة الإسلامية واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، إذ قضى على الخوارج فى (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير ، فانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح واسترداد المناطق التى سيُسْيطرَ عليها فى إيران وبلاد الروم وإفْرِيقيَّة ، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدولة الإسلامية بقيادة عبد الملك بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل خارجية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون ، بعد ماكان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطور القسطنطينية منذ توليه الخلافة حتى استعاد (الوحدة) أيام الفتن الداخلية والحروب الأهلية [١] .

(١) انظر التفاصيل فى : قادة فتح المغرب العربى (٢/١١٣ – ١١٤) وانظر ابن خلدون (٣/١٥٢) .

وتربى مسلمة فى كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الإسلامية بجو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمى وإدارى وسياسى وعسكرى ، فى بداية العصر الذهبى لحكم بنى أميَّة ، برعاية والده الحصيف العلم الداهية الذى يُعَدّ بحق أبرز خلفاء بنى أمية فى الشام علماً وعملاً ومقدرة وذكاءً فأفاد مسلمة من رعاية والده فى وقت تفرغ فيه عبد الملك لرعاية شئونه الخاصة أكثر من السابق – يوم كان فى دوامة الفتن والقلاقل والاضطرابات ، وبقى يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة ، حتى توفى عبد الملك سنة ست وثمانين الهجرية [١] (٧٠٥ م) ، فأرسى عبد الملك أسس شخصية ابنه مسلمة وبدت ملامحها واضحة جلية فى وقت مبكر من عمره ، تلك الأسس التى كانت عبارة عن : الدين والتفقه فيه والتمسك بتعاليمه ، والعربية واتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضاياها ، والإدارة وحل مشاكلها ، والعسكرية والتدريب على متطلباتها ، فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبد الملك وأشبه الناس به ، عدا الخلافة التى

(١) تاريخ بغداد (٢٩١/٢٠) وتاريخ الخميس (٣١١/٢) .

حرم منها ، لأن أمَّة من أمهات الأولاد ، وكان لايتولى الخلافة إلاَّ أموىٌّ أمه عربية حُرة ، بالرغم من: «إنه كان أحق بالملك من سائر إخوته»(١) .

وحين اشتد مرض عبد الملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلاً : «أوصيكم بتقوى الله ، فإنها أزين حلية وأحصن كهف ، ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ؛ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فإنه نابكم(٢) الذى عنه تفترون ، ومِجَنُّكُم(٣) الذى عنه ترمون ؛ فأكرموا الحجاج فإنه الذى وطَّأ لكم المنابر ، ودوخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء . وكونوا بنى أم بَرْدة لا تدب بينكم العقارب ، وكونوا فى الحرب أحراراً ، فإنَّ القتال لا يقرِّب ميتة ؛ وكونوا للمعروف مناراً ، فإن المعروف يبقى أجره وذكره(٤) ؛ وضعوا معروفكم عند ذوى الأحساب ، فإنهم أصون له وأشكر لما يُؤْتَى إليهم منه ، وتغمَّدوا(١) ذنوب أهل الذنوب ، فإن استقالوا فأقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا»(٢) .

لم يذكر الخليفة الداهية عبد الملك ابن مروان فى وصيته الأخيرة لبنيه وهو يحتضر تلك الوصية التى تعتبر خلاصة تجاربه فى الحياة ، صاغها بكلمات معدودات ، غير مسلمة من بين أولاده ، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ مما يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه .

وليس من السهل على أحد أن يحوز على ثقة شخصية فذَّة واعية كعبد الملك . ولولا أن مسلمة كان حريا بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق ، لما أشاد به أبوه — وهو على فراش الموت — هذه الإشادة النادرة .

لقد تهيأ لمسلمة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية ، فنال ما نال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامة والمؤرخين من بعده ، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التى تولاَّها سياسيًّا وإداريًّا وعسكريًّا .

١ — فى أرض الروم

فى سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) غزا مسلمة أرض الروم(٣) ، وفى سنة

(١) دول الإسلام (٦٢/١) وانظر الأعلام (١٢٢/٨) ومسلمة بن عبد الملك (٤٥) .

(٢) الناب : السن فى جانب الرباعية ، وللإنسان نابان فى كل فك . وناب القوم : سيدهم .

(٣) المجن : الترس . وفلان مجنكم: حاميكم .

(٤) فى رواية : ذخرة .

(١) تغمد الشيء : امتصه ، احتواه .

(٢) ابن الأثير (١١٧/٤ — ١١٨) .

(٣) الطبرى (٤٢٦/٦) وابن الأثير =

سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦ م) غزا الروم فأثخن فيهم بناحية (المصِّيصَة)[١] وفتح حصوناً كثيرة منها : حصن (بُولَق) و (الأخْرَم)[٢] و (بُولُس) و (قمقِيم)[٣] وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم[٤]

=(٥٢٤/٤) وابن خلدون (١٥٣/٣) والنجوم الزاهرة افتتح مسلمة بن عبد الملك حصن بولق وحصن الأخرم ، وانظر العبر (١٠١/١) وفيه : افتتح مسلمة حصنين فى بلاد الروم ، وفى تاريخ الإسلام للذهبى (٣٠٢/٤) : : وأول ما ولى غزوا الروم فى آخر دولة أبيه ، فافتتح ثلاثة حصون ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢٩٣/١) .

(١) المصيصة : مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم وتقارب طرسوس ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب ، انظر معجم البلدان (٨٠/٨) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٢) انظر الطبرى (٤٢٩/٦) وابن الأثير (٥٢٨/٤) ، وفى ابن خلدون (١٥٥/٣) : الأخزم، وهو حصن فى منطقة المصيصة لا ذكر له فى الكتب الجغرافية التى فى أيدينا .

(٣) قمقيم : وردت كذا فى ابن خلدون (١٥٥/٣) ، ووردت فى الطبرى (٤٢٩/٦) وابن الأثير (٥٢٨/٤) : قمقم .

(٤) ابن خلدون (١٥٥/٣) ، وانظر — الطبرى (٤٢٩/٦) وابن الأثير (٥٢٨/٤) وحصون : بولق والأخرم و بولس وقمقم سوى ذكرها فى الكتب الجغرافية القديمة التى بين أيدينا ، ومن الواضح أنها حصون صغيرة فى المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة .

وفى سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد ابن عبد الملك بلاد الروم ، وكان الوليد ابن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إرْمِينِية) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعرِّفه أنَّ (الخزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده ، ففعل ذلك . وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الروم ، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم . واصطدم الطرفان ، فانهزم الروم ، ثم أعادوا الكرَّة فانهزم المسلمون ، ولكنَّ العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (الساقة) صارخاً « أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ ! » ، فقيل له : نادهم يأتوك ، فنادى : يا أهل القرآن ! فاقبلوا جميعاً ، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طُوَانَة)[١] ، وحاصرهم المسلمون فى هذه المدينة ، وفتحوها فى جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها[٢] ، كما فتح مسلمة

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٦٥/٦) والعبر (١٠٣/١) وفى المعارف (٣٥٩) : وفى سنة ثمان وثمانين فتحت الطوانة .

(٢) الطبرى (٤٣٤/٦) وابن الأثير =

فى هذه السنة (حرثومة)[1] . وفى هذه السنة غزا مسلمة الروم أيضاً ، فتتح ثلاثة حصون : أحدها حصن (قُسْطَنْطِين) و (غزالة) و (الأَخْرَم) وقتل من المستعربة نحو من ألف وأخذ الأموال[2] .

وقد تكرر فتح حصن (الأَخْرَم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين ، ومن المحتمل أنّ الروم استعادوه فعاد إليه مسلمة وفتحه ثانية .

وفى سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) غزا مسلمة والعباس بن الوليد بن عبد الملك الرومَ ، فافتتح مسلمة حصن (عَمُّوْرِيَّة)[3] ولقى من الروم جمعاً فهزمهم ، وقيل : إنّ مسلمة قصد (عَمورِيَّة) ، فلقى جمعاً من الروم كثيراً ، وافتتح (هِرِقْلة)[4]

=(٥٣١/٤) والعبر (١٠٣/١) ، وفى الطبرى (٦/ ٤٣٤) : إن فتح طوانة كان فى جمادى الآخرة .

(١) العبر (١٠٣/١) والظاهر أنها قرية أو بليدة فى منطقة طوانة لا ذكر لها فى الكتب الجغرافية القديمة التى بين أيدينا .

(٢) فى الطبرى (٤٣٦/٦) : حصن قسطنطينة ، وانظر ابن الأثير (٥٣٢/٣) .

(٣) عمورية : بلد من بلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢٢٦/٦ — ٢٢٧) وكان اسمها : (Ammorium)

(٤) هرقلة : مدينة ببلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤٥٣/٨ — ٤٥٤) .

و (قَمُوْنِية)[1] .

وفى هذه السنة أيضاً ، غزا مسلمة التّرك حتى بلغ (الباب)[2] من ناحية (أَذْرَبِيْجان)[3] . ففتح حصوناً ومدائن هناك[4] .

(١) الطبرى (٤٣٥/٦) وفيه : قمودية وابن الأثير (٥٣٥/٤) ، وفى ابن خلدون (٣/ ١٥٤) : قمولية ، ولم أجد لقمونية ذكراً فى الكتب الجغرافية التى بين أيدينا فى منطقة بلاد الروم ، بل ورد ذكرها فى إفريقية ، انظر معجم البلدان (١٦٢/٧) .

(٢) الباب : مدينة باب الأبواب ، ميناء كبير على بحر الخزر ، وهى مدينة كبيرة محصنة انظر التفاصيل فى المسالك والممالك للاصطخرى (١٠٩ — ١١٠) ومعجم البلدان (٩/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦) ، وهى مدينة دربند كما يطلق عليها فى الوقت الحاضر .

(٣) أذربيجان : كلمة أذربيجان فى الفارسية معناها : أرض النار أو معابد النار ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التى كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان : صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١٠٩/١) والمسالك والممالك للاصطخرى (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) .

(٤) الطبرى (٤٤١/٦) وابن الأثير (٥٤٠/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) . وفى فتوح البلدان (٢١٨) : ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم ، وأتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة ورودس ، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة بن عبد الملك ، فأناخ عليهم فى خلق من الخلق ، فافتتحها

وفى سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التى بـ (سورية)[1] ، ومن تدقيق سير الفتح التى نهض به مسلمة فى تلك الأيام ، يتضح أن أن الحصون الخمسة تقع شمالى (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال .

وفى سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا عبد العزيز بن الوليد ابن عبد الملك الصائفة[1] ، وكان على ذلك الجيش مسلمة . وفيها عزل الوليد بن عبد الملك عمه محمد ابن مروان بن الحكم عن (الجزيرة) و (إرمينية) واستعمل عليها أخاه مسلمة ، فغزا مسلمة الترك من ناحية (أذربيجان) حتى بلغ (الباب) ، وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق[2] .

وفى سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠ م) غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل

= على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير ، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت ، وهو مدان من قمح ، وقسطان من زيت ، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية ، وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية ، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين ، فأخرب مدينتهم وأنزلوا مناطق (حمص) ، ونزل بطريق الجرجومة فى جماعة من انطاكية ، ثم هرب إلى بلاد الروم . . . . انتهى .

وفى معجم البلدان (٣/٨٠) : الجرجومة : مدينة يقال لأهلها الجراجمة ، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامى فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية . والجراجمة : جيل . . . انتهى .

أقول به وهؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى : جبل لبنان فى الوقت الحاضر مع امتداده إلى انطاكية ، وكانوا نصارى ولا يزالون ، ولكن من الصعب تصديق : أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩ هـ) ، لأنه كان مشغولا فى تلك الأيام بغزوتين كبيرتين ، ومن المحتمل أنه قضى عليها فى فرصته سنحت له قبل قبل خروجه لتلك الغزوتين أو بعدهما .

وفى تاريخ الإسلام (٤ / ٣٠٢) : غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم .

(١) الطبرى (٦/٤٤٢) وابن الأثير (٤/٥٤٧) وابن خلدون (٣/١٥٤) – والنجوم الزاهرة (١/٢٢١) والعبر (١/١٠٤) . وسورية : موضع بالشام بين خناصرة وسلمية ، والعامة تسميها : سوية ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥/١٧١) ومن الواضح أن الحصون الخمسة التى فتحها بسورية هى التى تقع فى الإقليم المتاخمة لجزيرة ابن عمر من الشمال ، أى شمالى مدينة ديار بكر الحالية الواقعة فى الجمهورية التركية ، وانظر تاريخ الأسلام (٤/٣٠٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/٣٠٦) .

(١) الصائفة : الغزوة فى الصيف ، وبها سميت غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفاً اتقاء البرد والثلج .

(٢) الطبرى (٦ / ٤٥٤) وابن الأثير (٤/ ٥٥٥) وابن خلدون (٣ / ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢٢) وتاريخ الإسلام (٤ / ٣٠٢) ، وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٠٧) .

(سُوْسته) إلى بلاد الروم[١] .

وفى سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) غزا مسلمة الروم فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و (غزالة) و (بَرْجَمة)[٢] من ناحية (ملْطية)[٣] وكان مسلمة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجرية كما ذكرنا سابقاً. والظاهر أنّ الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفى سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) ، غزا مسلمة أرض الروم ، فافتتح (سَنْدَرَة)[١] ، وهى حصن من حصون الروم التى أقامها البزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القسطنطينية) من الجنوب ، ومن الغزو عاد إلى الديار المقدسة ، فحج بالناس فى هذه السنة[٢] .

وفى سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣ م) ، غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها ثم بناها بعد ذلك[٣] بعشر سنين[٤] أو تسع سنين[٥] . وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل ، وقد انتقض أهلها فأعادها مسلمة للمسلمين .

وفى سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا مسلمة الصائفة[٦] فى بلاد الروم .

وفى سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ، غزا مسلمة أرض (الوَضّاحيّة) ، ففتح الحصن الذى فتحه

---

(١) الطبرى (٦/٤٦٨) وابن الأثير (٤/٥٦٩) وابن خلدون (٣/١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٥) ، وسوسة حصن من حصون الروم ، هو أكبر الحصون التى فتحها مسلمة فى تلك الغزوة ، وفى النجوم الزاهرة (١/٢٢٥) نص على : ويقال إنه بلغ الخليج ، والخليج بحر دون القسطنطينية ، انظر معجم البلدان (٣/٤٦٠)، ومعنى هذا أن سوسنة تقع فى المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب .

(٢) برجمة : حصن الروم ، ورد ذكره فى شعر جرير ، انظر معجم البلدان (٢/١١٢).

(٣) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلاد الشام ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١٥٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧) والبلدان (٢٥) لابن الفقية وتقويم البلدان (٣٨٤) ، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة فى الطبرى (٦/٤٦٩) وابن الأثير (٤/٥٧٨) وابن خلدون (٣/١٥٤) والنجوم الزاهرة (١/٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (١/٣٠٩) .

(١) العبر (١/١٠٩) ، ولا ذكر لسندرة هذه فى الكتب الجغرافية القديمة .

(٢) الطبرى (٦/٤٩١) وابن الأثير (٤/٥٨٢) وانظر تاريخ ابن خياط (١/١٣٠) .

(٣) النجوم الزاهرة (١/٢٢٩) والبداية والنهاية (٩/٢٢٨) .

(٤) البداية والنهاية (٩/١١٧) ، والصحيح بتسع سنين لأنه بناها سنة ثلاث عشرة هجرية ، انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط . (١/٣١١) .

(٥) البداية والنهاية (١/٣٢٨) .

(٦) البداية والنهاية (٩/١٤٢) والنجوم الزاهرة (١/٢٣٣) وتاريخ بن خياط (٣١٨١).

الوضاح [1] . وفيها أيضاً غزا مسلمة (بَرْجَمة) وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و (سروراً) [2] وشتى بأرض الروم [3] ، وكان مسلمة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، والظاهر أنَّ هذين الحصنين انتقضا فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

(٢)

٢ ـ حصار القسطنطينية

أدرك المسلمون أن حدودهم الشمالية مهددة بالروم ، وأن فتح القسطنطينية يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدفاع عن تلك الحدود .

كما أن أرض الشام : فلسطين والأردن وسورية ولبنان من جهة ، ومصر والمغرب العربي من جهة أخرى ، كانت من أملاك الإمبراطورية البيزنطية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية وقد عانى المسلمون ما عانوا من أهوال في فتحها وفي الحفاظ عليها ، وما دامت القسطنطينية بيد الروم ، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو كلما ضعف المسلمون أو تفرق شملهم ، وقوى الروم واشتد ساعدهم . لذلك جرت عدة محاولات لفتح هذه المدينة .

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين هجرية (٦٥٠ م) في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكانت هذه الحملة بقيادة معاوية بن أبي سفيان أمير الشام آنذاك .

والمحاولة الثانية جرت في أيام معاوية ابن أبي سفيان سنة خمسين هجرية (٦٦٣ م) ، وكانت هذه الحملة بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان [1] .

---

(١) الوضاح : قائد من قادة مسلمة انظر ابن الأثير (٥) (٨١-٨٢) والظاهر أنه من القادة المرءوسين غير المشهورين وانظر بن الأثير (٥ / ٢٦) حول هذا الفتح .

(٢) برجمة وحصن بن عوف وحصن الحديد وسرورا . حصون في منطقة (ملطية) انظر الطبرى (٦ / ٤٦٩) وابن الأثير (٤ / ٤٦٩) وابن الأثير ٤ / ٥٧٨) وابن خلدون (٣ / ١٥٤)

(٣) البداية والنهاية (٩ / ١٧٠) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٣٤ - ٢٣٥) وانظرنا تاريخ خليفة ابن خياط (١ / ٣١٩) .

(١) العبر (١ / ٥٦) ، وشارك في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة ، منهم : الحسين ابن على رضى الله عنهما ، وأبو أيوب الأنصارى الذى توفى أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن ، وعبد الله بن العباس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم .

ولكن هاتين الحملتين لم يكتب لهما النجاح[1] .

وفى سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبد الملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية[2] بعد أشهر معدودات من توليه الخلافة ، فقد توفى سلفه الوليد بن عبد الملك فى جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجرية (أواخر شباط – فبراير – ٧١٥م) ، فاقتفى سليمان خطة سلفه بضرب عاصمة الروم ضربة كبيرة بقوة جسيمة[3] ، تلك الخطة التى لم يستطع سلفه تحقيقها فى أيامه لانشغال جيوشه فى حمل مهمة الفتح بجهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً ، بالرغم من أنه مهد لفتح القسطنطينية بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال .

وكان حرص سليمان على فتح القسطنطينية عظيماً ، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق إلا لتحقيق هذا الحلم الذى راود الخلفاء من قبله من أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى أيامه . والواقع هو أن الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية

(١) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار ، عسكر المسلمون فى ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية فى سبع سنوات وإلى ذلك يشير ابن الأثير فى حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية : « وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمى ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبى أمية ، جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر ، فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا » انظر ابن الأثير (٣/٤٩٧) ، وما يفهم منه أن المراد بجزيرة أرواد هى جزيرة كزيكوس .

(٢) النجوم الزاهرة (١/٢٣٥) وابن خلدون (٣/١٥٥) والبداية والنهاية (٩/١٦٩) وأبو الفدا (١/٢٠٠) وانظر الطبرى ج ٦ /٥٢٣

(٣) بفاورث – الدولة العربية وسقوطها (٢٠٩)

الواقع أن المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية فقد ذكر فازلييف) فى تاريخه الكبير للدولة البيزنطية ، أن العرب بعد أن أخفقوا فى الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠م) فى عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ – ٦٨٥) بسبب استعمال الروم النار الإغريقية التى اخترعها إذ ذاك رجل سورى يدعى (جالينيكوس) ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة (٦٧٧م) ، وقد منى الأسطول العربى بكارثة كبيرة إذ هبت عليه عاصفة عنيفة ، فتحطمت معظم سفنه على الشاطىء الشمالى لآسيا الصغرى . وفى نفس الوقت أخفقت كل المحاولات البرية التى قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده ، وعقد معاهدة ، مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة – سنوية » . انظر : (Vasiliev: Hist, de L'empireyzantin,B 1, pp. 283 — 284)

فكروا في فتح القسطنطينية ، والسبب أن البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنية التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون ، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها ، وأن هذه البلاد لا تكون آمنة من غزو الروم واستردادها ما بقيت للروم دولة عاصمتها القسطنطينية وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدفاع عنها براً وبحراً .

وكانت الخطة السَّوقية[1] للمسلمين تتلخص في مهاجمة الروم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع .

وأمضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجرية في إعداد قواته الضاربة مادياً ومعنوياً لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القسطنطينية[2] .

(١) الاستراتيجية (Strategy) ، انظر المعجم العسكري الموحد (٨٤٢) إنكليزي – عربي .

(٢) ورد في تاريخ : العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤) : « وقيل : إن سليمان لما ولى الخلافة حدثه جماعة من العلماء ، أن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي ، ولم يكن من ملوك بني أمية من اسمه اسم نبي غيره ، فطمع فيها ، فاستعد لذلك ، ولم يشك أنه الذي يلي ذلك » ، وليس لذلك سند تاريخي أو علمي ، وقد حاصر القسطنطينية قبل أيام سليمان المسلمون في عهد عثمان بن عفان ومعاوية ابن أبي سفيان ، واسماهما ليسا اسم نبي ! !

واستشار سليمان القادة المجربين ، ومنهم موسى بن نصير اللخمي[1] بالخطة المناسبة لفتح القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بأن يفتح مادونها من المدن والرساتيق[2] والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ، ووهنت قوتها ، وقال موسى : « فإذا فعلت ذلك ، لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد[3] » .

ثم استشار أخاه مسلمة ، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنْوة ، فمتى ما فتحت فإن باقي مادونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين ، فقال سليمان : « هذا هو الرأي »[4] .

وأمضى الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة يعمل بكل جهد ونشاط وعزم

(١) انظر سيرته في قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ – ٣٠٩) .

(٢) الرساتيق : جمع رستاق ، وهي كلمة فارسية ، وهو كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/ ٣٧ – ٣٨) .

(٣) انظر البداية النهاية (٩/ ١٧٤ – ١٧٥)

(٤) انظر البداية والنهاية (٩/ ١٧٥) ، والعنوة : أخذ الشيء بالغلبة ، وهو ضد الصلح ، انظر معجم البلدان (١/ ٤٠) .

لإنجـاز استحضارات قواته ، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له مابعده فى مجال الإعداد العسكرى تطبيقاً لخطة سوْقيّة حاسمة ، يكتب إلى أمرائه على الأمصار ، ليعد كل أمير أو وال الجيش المناسب للعمل العسكرى المناسب ، وهذا مافعله سليمان سنة سبع وثمانين الهجرية ، واتخذ من مدينة (دابق)[1] بعيداً عن عاصمته (دمشق) مقراً له ، لئلا يشغل بأمور الدولة الأخرى ، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكرية القادرة على الفتح ، إذ تفرغ لهذا الهدف الحيوى تفرغاً كاملا ، وبذل كل طاقاته المادية والمعنوية لتحقيقه .

وحسْب سليمان أنه قضى مدة خلافته بـ (دابق) ، من أجل إنجاز استحضارات قوات فتح القسطنطينية قبل الحملة ، ومن أجل الإشراف على سير القتال فى أثنائه ، حتى توفاه الله هناك ، فدفن فيها شهيداً يحق من شهداء فتح عاصمة الروم .

(١) دابق : قرية بقرب حلب من أعمال (عزاز) ، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان ، إذا غزوا الصائفة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤) .

لم يبق أمام سليمان بعد إكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية ، فاختار أخاه مسلمة .

ففى سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م – ٧١٧ م) ولّى سليمان أخاه مسلمة قائداً عاماً للقوات الغازية للقسطنطينية[1] ، فسار مسلمة على رأس جيشه اللجب المؤلف من مائة وعشرين ألفاً[2] فى رواية ، ومن مائة وعشرين ألفاً فى البر ومائة وعشرين ألفاً فى البحر[3] يؤيد ذلك المصادر غير العربية[4] ، وأرجح الرواية الأولى ،

(١) الطبرى (٥٣/٦) وابن الأثير (٥/ ٢٧) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (١١٤) ، وفى تاريخ الإسلام للذهبى (٢٠٢/٤) : « قال زيد بن الحباب : أنبأ الوليد ابن المغيرة عن عبيد الله بن بشر الغنوى عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها » ، قال فدعانى مسلمة فحدثته بهذا الحديث ، فغزاهم » ، رواه أبو كريب وأحمد بن الفرات عن زيد .

(٢) دول الإسلام (٥٨/١) مختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٤٣/٦)

(٣) البداية والنهاية (١٧٥/٩) وانظر خطط الشام (١٢٣/١) .

(٤) فتح القسطنطينية (٣٨) : تعلم المسلمون =

لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت فى جبهة واحدة ، كما أن المصادر الأجنبية تبالغ فى تعداد قوات المسلمين — خاصة البحرية منها — لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردها خائبة عن القسطنطينية دون أن تحقق أهدافها المرسومة .

لقد زعمت بعض تلك المصادر الأجنبية ، أنَّ المسلمين حملوا قواتهم البحرية التى تعدادها مائة وعشرون ألف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة[1] ، وهذا مالا يتيسر للمسلمين حينذاك .

ومع هذا ، فقد كان جيش مسلمة المؤلف من مائة وعشرين ألفاً ، بريًّا فى أكثره وبحريًّا منقولاً بالسفن فى أقله ، حتى يستطيع فرض الحصار براً وبحراً فى آن واحد ، كما سنجد ذلك فى خطة مسلمة فى الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة .

وكانت مدينة (دابق) هى القاعدة المتقدمة لحشد جيش مسلمة ، فقد سار مسلمة حتى نزل (دابق) وجاءته الأخبار من كل ناحية[1] : من الشام والجزيرة[2] ، فسار إلى أرض الروم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين كانوا هناك[3] ، وسلك طريق (مَرْعَش)[4] فافتتح مدينة (الصَّقَالِبَة)[5] وهجم الشتاء ، فانحرف مسلمة بجيشه إلى مدينة (أفيق) [6] وشتى بها وهى ليست القرية من (حوران) فى طريق (الغور) وهو غور (الأرْدُن) المعروف ، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن)

— من تجربة الحصار الأول ، أن ليس فى استطاعتهم خرق الأسوار المنيعة ، لذلك بذر عظمهم هذه المرة على إنزال بحرى ، يقال : إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائة سفينة تنقل مائة وعشرين ألف محارب جاهزين للإنزال » .

(١) فتح القسطنطينية (٣٨) .

(١) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٥) .
(٢) البداية والنهاية (١٧٥/٩) .
(٣) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .
(٤) مرعش : مدينة الثغور بين الشام وبلاد الروم ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨ / ٢٥) وهى مدينة صغيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٣) بينها وبين مدينة (الحدث) وهى من الثغور خمسة فراسخ ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) .
(٥) الصقالبة : جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر فى أعالى جبال الروم انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٧٢/٥) والقاموس المحيط (٩٣/١) ولسان العرب (١٤/٢) وهم السلاف (Slavs) أو الجنس السلافى ، وجبال الروم هى : جبال الطوروس . ومدينة صقالبة : مدينة تقع بين (دابق) و (عمورية) فى جبال طوروس .
(٦) أفيق : قرية من حوران فى طريق الغور (الأردن) ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٠٧/١) .

ليقضي الشتاء فيه ، والظاهر أن (أفيق) تقع في منطقة (عمورية) في السهل الواقع شمالي جبال (طوروس)، وهذا السهل أقل برداً في الشتاء من جبال (طوروس) التي تغطيها الثلوج شتاء وفي أكثر شهور الربيع أيضا .

ولما خرج الشتاء ، سار مسلمة إلى (القسطنطينية) حتى نزل (عمورية) ، وبطريقها[1] (لِيُون) بن قسطنطين المرْعشي ، فوادعه مسلمة وأعطاه رُهُنا وأخذ منه مثل ذلك ، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القسطنطينية) ويكون عونا له ، وملك القسطنطينية يومئذ (ثيودوس) وهو (ثيودوسيوس الثالث) الذي حكم من سنة (٧١٥ م إلى ٧١٧م) وهو من أسرة (هِرَقل)[2]

وكان (ليون) أو (ليو) هذا ، نصرانيّاً من سكان مدينة (مَرْعش) وله بها كنيسة مشهورة تنسب إليه ، أتى القسطنطينية في أيام الفتن التي كانت بها ، فصار مشهوراً ببيع الحمر وكان فصيحاً بالعربية والرومية . ثم إنه انخرط في سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والروم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدمه الروم ، ولم يزل يتنقل في المنزلة إلى أن صار (بطريق) مدينة (عموريّة) . وقيل : إنه لما جاء إلى (عمورية) بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لأنك نبط من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم ، وقد بلغكم حالي ورُجلتي وغنائي ، وحالكم مختلط ، ومُلككم مضطرب ، والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبد الملك قد شارف بلادكم ، وهو يُوقع بكم ، فأدخلوني وفوّضوا إليَّ أمركم ، فإن قمتُ فيه كما تُؤْثرون وإلا فأخرجوني واصنعوا بي ما أردتم » . فقالوا : صدق ، فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم ، فنزل به مسلمة وهو يريد (القسطنطينية)[1] .

ولا تختلف هذه الرواية العربية كثيراً عن الرواية الأجنبية التي جاء

---

(١) البطريق ، رتبة عسكرية في جيش الروم ، وهو قائد فرقة ، والفرقة في جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق ، ويشابه البطريق في التنظيم الحديث قائد فرقة برتبة لواء ، انظر عقبة بن نافع الفهري (٥٨) - الطبعة الرابعة .

(٢) انظر : الإمبراطورية البيزنطية (٤٠١ - ٤٠٣) .

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦ - ٣٧) ، وانظر : سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩) .

فيها : أن (ليو) نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقا، وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، حتى وصل إلى القيمة بفضل مقدرته وحدها، وكان ما يزال شاباً[1] .

ولكن كيف اتصل مسلمة بليون ، هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا ، باعتبار أن مسلمة كان قد فتح (عمورية) سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها[2] ؟

هناك رواية تذكر : أن (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبد الملك من (أذْرَبِيجَان) وضمن له فتح الروم ، فوجه مسلمة معه ، فسارا إلى (القسطنطينية)[3] .

وأرجح أن مسلمة اتصل مباشرة بليون ، الذي كان المسئول عن المنطقة الأمامية للدفاع عن (القسطنطينية) بصفته بطريق (عمورية) ، لذلك لم يذكر المؤرخون أن مسلمة صادف مقاومة تذكر في صفحة مسير الاقتراب أثنـاء تقدمه من (عمورية) حتى (القسطنطينية) ، مما يدل على نجاح مسلمة في استمالة (ليون) إلى جانبه ، ومن الواضح أن (ليون) كان طموحاً جداً ، وكان يتطلع إلى أن يكون امبراطور الروم ، فوادع مسلمة كرحلة لتولي السلطة تحقيقا لمطامعه — خاصة بعد وفاة امبراطور الروم السابق (ثيودوسيوس الثالث) آخر أباطرة أسرة (هرقل) .

واستصحب مسلمة (ليون) ليدله على الطريق والعورات ، وأخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة[1] ، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأى ، سيئ التدبير عاجزاً فيما تقلده من أمر الروم ، وكان أمر الرُّوم مضطرباً وأيامهم أيام هرج ومرج[2] .

أما جيش المسلمين بقيادة مسلمة ، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبد الملك: أخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو (القسطنطينية) والإقامة إلى أن يفتحوها، ثم سار سليمان من (بيت المقدس)

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩) ، وفي تاريخ خليفة بن خياط (٣٢١/١) : أن مسلمة شتى بنواحي الروم .

(٢) جاء في البداية والنهاية (١٧٤/٩) : وثم إن مسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له : اليون ، وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٤٣/٦ – ٤٤) .

(٣) ابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبرى (٥٣١/٦) الذى ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية) .

(١) البدء والتاريخ (٤٤/٦) .

(٢) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦) .

إلى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر، فأمّر عليهم أخاه مسلمة ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف » . ثم سار سليمان، حتى نزل (مَرْج دابق) ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة والمحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله[1] .

وانطلق مسلمة بهذا الجيش ، فلما دنا من (القسطنطينية) ، أمر كل فارس أن يحمل معه مُدَّيْن[2]

(١) البداية والنهاية (٩/١٧٥) .

(٢) المد : من المكاييل الإسلامية، يختلف من قطر إسلامى إلى آخر ، والمد السورى يساوى (٣,٨٤) كغم ، انظر التفاصيل فى هنز (Walther Hinz) - المكاييل والأوزان الإسلامية (٧٤ - ٧٧) - منشورات الجامعة الأردنية - ترجمة الدكتور كامل العسلى - عمان- ١٩٧٠ ، وانظر ترتيب القاموس المحيط (١٩٨٢/٤) ومعجم متن اللغة (٥/٢٦١) ، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين ، أى يحمل ما يساوى (٥,٦٨) كغم ، وحمل مثل هذه الكمية الثقيلة غير معقول ولا يؤدى إلى الغرض المطلوب ، وهو تكديس كميات من الطعام لغرض حصار طويل . وأرى أن مسلمة فى قوله : يحمل كل فارس مدين ، لا يريد المعنى الحرفى، بل يريد: أن يحمل كل فارس ما يستطيع من أرزاق ، والمقدار الذى يحمله الفارس هو عشرون كيلو غراماً كمعدل ، وهذا نتيجة تجربتى الشخصية باعتبارى ضابطاً فى صنف الخيالة (سلاح الفرسان) .

من طعام على عجز فرسه إلى (القسطنطينية) ففعلوا ، فلما أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال ، وقال مسلمة للمسلمين : « لا تأكلوا منه شيئاً ، وأغيروا فى أرضهم وازرعوا » ، وعمل بيوتاً من خشب ، فشتى فيها وصاف ، وزرع الناس ، وبقى الطعام فى الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزرع[1] .

هكذا كان جيش مسلمة من الناحية الإدارية منظماً تنظيماً جيداً ، وكانت خطته الإدارية خطة جيدة أيضاً، وللخطة الإدارية الجيدة أثر بالغ فى إحراز النصر ، لأنّ الجندى يمشى على بطنه كما يقول المثل العسكرى المشهور .

ولكنّ أرزاق جيش مسلمة لم تقتصر على ذلك، بل جاءته العَلُوفَة والأطعمة ونقلت إليه من الضواحى ومن رساتيق الروم وجاءته فى المراكب[2] ، كما حشد لجيشه السلاح ، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك[3] ، وهكذا استكمل مسلمة

(١) الطبرى (٦/٥٣٠) وابن الأثير (٥/٢٧) ، وفى التنبيه والإشراف (٢٩٠): وكان مسلمة بن عبد الملك لما بنى مدينته التى على خليج القسطنطينية سماها : مدينة (القهر .)

(٢) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٦)

(٣) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٤)

قضاياه الإدارية تسليحاً وتجهيزاً وأرزاقاً وعلفاً وإسكاناً ، فأعد بخطته الإدارية هذه متطلبات النصر إدارياً .

تلك هي مجمل خطة مسلمة الإدارية ، فما هي خطته العسكرية في الحصار ؟

تحتل مدينة (القسطنطينية) موقعاً سَوْقياً (استراتيجياً) فريداً ، حبته الطبيعية بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات . تحوطها من الشرق مياه البسفور ، وتحدها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة) ويقسمها (القرن الذهبي إلى قسمين عظيمين هما : (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي ، و (استانبول)[1] وهو المدينة البيزنطية الحقيقية . وتحتل (استانبول) مثلثا عظيماً من المرتفعات الصخرية ، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على مياه (القرن الذهبي) والميناء ، وكان كل من هذين الجانبين يحرسها سور واحد . أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال ، فهو الجانب المتصل بالقارة الأوروبية ، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة ، وخندق واحد مزدوج ، وفيه عدة أبواب ، وفي كل زاوية من زوايا المثلث الثلاث قلعة منيعة ، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي ، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غلطة) وسور (استانبول) .

وهكذا تهيأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة : أسباب طبيعية ، وأسباب صناعية ، مما جعلها موقعا حصينا وقلعة آمنة ، من الصعب على الغزاة احتلالها[1] .

وكان بنو أمية دولة وجيشاً ، يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصلة الدقيقة عن أعدائهم ، وكانت وسائلهم وأساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة

---

(١) استانبول : يسمى المسلمون (Constantiniple) بالقسطنطينية ، أما فيما يتصل باسمها البيزنطي الذي يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركي الحديث ، فإن المسعودي في النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب في كتابه : (التنبيه) ص (١٣٨) : أن الروم في أيامه كانوا يسمون عاصمتهم : (بولن) — (Polin) أي (Bulin) ، ومعناها المدينة : «وإذا أرادوا منها أنها دار الملك لعظمها قالوا : (اسطن بولن) ، ولايدعونها : القسطنطينية ، وإنما المسلمون تعبر عنها بذلك» ، واسطن معناها : دار الملك أو العاصمة ، واسطن بولن معناها مدينة دار الملك ، أو المدينة العاصمة . فـ (اسطن بولن) هي : (استانبول) .

(١) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ — ٣٥٦) وانظر مواقف حاسمة (١٧٥) .

ومتعددة ، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهم ، فكانت القيادتان السياسية والعسكرية لبني أمية في الشام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها ، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام .

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كل شيء عن الروم: قواتهم ، قياداتها ، تنظيمها ، تسليحها ، تدريبها ، ما تعانيه من ثغرات ، طبيعة بلادها ، مواردها التموينية ، مشاكلها الداخلية والخارجية ، وغيرها من المعلومات المفصّلة الدقيقة .

جعل مسلمة من (عمورية) قاعدة متقدمة ، واتجه شمالا نحو (القسطنطينية) فلاقى مقاومة في طريقه[1] تغلّب عليها ، حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس)[2] وهو البحر الذي نطلق عليه اليوم (البحر الأسود) وبين (القسطنطينية) والبحر الأبيض المتوسط ، فقطع (الخليج) حتى نزل (القسطنطينية) ، وعبر من موضع يقال له (أبِيدُس)[1] ، يكون عرض (الخليج) هناك غَلْوَة[2] سهم — مقدار ثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة — وهو الخليج الذي يدعى بحر (بُنْطُس) يقبل من (إرْمينْية) ، حتى إذا صار إلى (القسطنطينية) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فإذا بلغ (أبِيدُس) ضاق حتى يصير مقدار غَلْوَة بين جبلين ، وبين (أبِيدُس) والقسطنطينية مئة ميل (الميل العربي = كيلومتران)[3] في مستوى من الأرض وسهولة[4] .

---

(١) انظر : M. A. Cheira — (La Lutte entre Arabes et Byzantins). (١٨٠ — ١٨١) وفيه : قامت الحملة بأعمال ضد نيقيا وبرغر وساردوس .

(٢) بحر بنطس : بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين ، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية ، أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد إلى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل بحر الشام ، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى : بنطس ، انظر معجم البلدان (٢/٦٦) و (٢/ ٩٣م) وهو البحر الأسود .

---

(١) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين أيدينا ، والموجود هو (ألدس : مدينة على غربي خليج القسطنطينية .

(٢) الغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاث مئة ذراع إلى أربع مئة .

(٣) الميل : أربعة آلاف ذراع شرعي ، انظر معجم البلدان (١/٣٥) وهو كيلومتران ، انظر المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥) .

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

ومن الواضح أنّ مسلمة عبر من غرب القسطنطينية ، فمدينة (أبدُس) تقع بعد القسطنطينية بالنسبة للبحر الأسود استناداً إلى نص ما جاء عن العبور : « حتى إذا صار إلى القسطنطينية (يريد البحر الأسود) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فإذا بلغ (أبدُس) ضاق . . . إلخ » ، فهو — أى مسلمة قد عبر من المضيق الغربى للقسطنطينية ، كما أنه لا مضايق شمال هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر . ثم إن (أبدُس) التى ورد ذكرها فى هذا النص هى مدينة (أنْدُس) ، وهى مدينة على غربى خليج القسطنطينية بين جبلين ، بينها وبين القسطنطينية ميل فى مستوى من الأرض [1] .

لا أتصوّر أنّ هناك مسوّغاً لعبور مسلمة على بعد مئتى كيلومتر (مئة ميل عربى) من القسطنطينية ، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية ، ولا وجود لمضيق على بعد مئتى كيلومتر من القسطنطينية شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكرية ووسائل تنقله البرية ومواده الإعاشية ونحوها ، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل واحد عربى (كيلومترين) من غرب القسطنطينية . لأنه عبر من (أنْدُس) وهذه المسافة مناسبة حقّاً ، والموقع بين جبلين يخفى العبور عن رصد العدو ، وقد استفاد مسلمة من السفن التى رافقت حملته فى العبور ، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر فى عبوره .

وبذلك أنهى مسلمة مرحلة (مسير الاقتراب) [1] من خطته التى رسمها لفتح القسطنطينية ، وبدأ مرحلة جديدة ، هى مرحلة : فرض الحصار فى سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب — أغسطس ٧١٦ م) [2] .

طوّق مسلمة بقواته البرية والبحرية مدينة (القسطنطينية) ، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذى يحيطها من جوانبها البرية يجرى الماء فيه [3] . كما سدت هذه

(١) انظر معجم البلدان (١/٣٤٧) ، ومن المحتمل أن تكون مدينة (أبدس) قد حرفت إلى (أندس) .

(١) سير الاقتراب : تقدم الجيش من قواعده الرئيسية أو قواعده الأمامية أو المتقدمة إلى ساحة القتال حتى التماس بالعدو .

(٢) (La Lutte entre Arabes et Byzantins) انظر التفاصيل (١٨٠ — ١٨٥) .

(٣) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٧)

القوات المنافذ البحرية من الشمال ، بوضع مراكز مراقبة بريّة قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات ، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التى يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة فى سد المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال ، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية ، وهى ثغرة فى خطة الحصار ، لأن تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطى بمراكز مراقبة بحرية لا مراكز برية قوية وقوات بحرية غير كافية .

أما البحرية الإسلامية التى جاءت من سورية ومصر ، فقد قاتلت أسطول الروم فى (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى ، وكان بحارة الأسطول الرومى فى عصيان حينذاك ، ينقصهم الضبط والنظام ، كما هاجمت البحرية الإسلامية سواحل آسيا الصغرى حتى وصلت إلى قرب القسطنطينية ، فسدّت المنافذ البحرية لهذه المدينة استكمالاً لخطة تطويقها .

وعند حلول موسم الشتاء ، أمر مسلمة أن يبنى رجاله بيوتاً من الخشب(١)، لتقيهم المطر والثلج والبرد ، وأمر الناس بالزراعة ، فصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم ، وطعامهم الذى استاقوه مُدّخَراً (١) .

وكان هدف مسلمة من خطته الإدارية وخطة العمليات ، هو ما ذكره علناً لرجاله : « إنالا ترجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله » (٢) ، وكان سبيله لتحقيق هدفه : فرض الحصار المديد، لكى يستسلم المحاصَرون جوعاً .

ومنذ فرض الحصار على القسطنطينية حتى انسحب المسلمون إلى قواعدهم ، جرت حوادث القتال فى صفحات ثلاث .

الصفحة الأولى من تاريخ فرض الحصار فى أواخر صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب ـ أغسطس ٧١٦ م) حتى تولى ليون الثالث عرش القسطنطينية فى سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت — مارس — ٧١٧ م) (٣) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم: صفحة (المبادرة) .

---

(١) الطبرى (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(١) ابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبرى (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٢) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٣) البحر الزاخر (٣٦٧/٢) .

وبالرغم من أن المصادر العربية وغير العربية لا تذكر معلومات وافية عن أعمال الجيوش الإسلامية والرومية ، إلا أننا نستطيع أن نذكر أن مسلمة فى هذه الصفحة هاجم أسوار القسطنطينية مرتين : الأولى بحشد أربعة آلاف مقاتل ، وكان اتجاه هجومه منطقة (باب الذهب) ، والثانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنه لم ينجح فى هذين الهجومين [1] .

واستطاع المسلمون أن يؤثروا فى الروم المحاصرين تأثيراً شديداً ، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم ، فلم يقبل مسلمة[2] بهذا العرض ، وأصر على فتح المدينة .

وأقام مسلمة محاصراً القسطنطينية قاهراً لأهلها [3] ، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً [4] ، وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جماعة من الروم على رأسهم ليون ، الذى عاون

(١) La Lutte Entre Arabes et Byzantine انظر التفاصيل فى (١٨٠ – ١٨٥) .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) وابن خلدون (٣/١٥٥) .

(٣) الطبرى (٦/٥٣٠) .

(٤) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٧) .

مسلمة فى هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة .

وبعث مسلمة ليون إلى أهل القسطنطينية فى رسالة ، فلما دخل عليهم ليون قالوا له : رده عنا ونحن نملكك علينا[1] ، فاستوثق منهم وتولى عرشهم [2] ، وبذلك تكللت جهود

(١) البداية والنهاية (٩/١٧٤) وفى ابن الأثير (٥/٢٧) : فقالت الروم لليون : إن صرفت عنا المسلمين ملكناك .

(٢) ابن الأثير (٥/٢٧) والبدء والتاريخ (٦/٤٤) ، وقد جاء فى ابن الأثير (٥/٢٧) أن ليون مسلمة فقال له : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال ، وأنك تطاولهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم » ، فأمر به فأحرق فقوى الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون . وقيل : إنما خدع ليون مسلمة بأن يسأل أن يدخل الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وأمر مسلمة واحد ، وأنهم فى أمان من السبى والخروج من بلادهم ، فأذن له ، وكان ليون قد أعد السفن والرجال ، فنقلوا تلك الليلة الطعام ، فلم يتركوا فى تلك الحظائر إلا مالا يذكر ، وأصبح ليون محارباً ، وقد خدع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها . وفى ابن خلدون (٣/١٥٥) : قال ليون لمسلمة : « لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك تصدقهم بالقتال ، فتأخذهم باليد ، وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم » فأحرق الزرع ، فقوى الروم ، وغدر ليون ، فأصبح محارباً ، وجاء فى الطبرى (٦/٥٣١) ما جاء فى ابن الأثير (٥/٢٧–٨) ومن المعلوم أن ابن الأثير نقل —

. . . .

ليون التى بلغها لتولى العرش بالنجاح .

لقد كان بإمكان مسلمة أن يحقق إنجازات عسكرية فى هذه الصفحة أكثر مما حققته عملياً ، لولا ثقته بليون الذى منّاه بفتح القسطنطينية بالمكر والخداع ، فاستنام مسلمة لتلك الأمانى العذاب ، وأخيراً ظهر له أن ليون لم يكن حريّاً بكل هذه الثقة ، وهو يعمل لنفسه مسخّراً مسلمة لتحقيق مصالحه الذاتية .

والمهم هو أن نذكر أن قسماً من المؤرخين صوروا أن مسلمة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون جعلته يحرق أكداس الأرزاق والعلف لجيش المسلمين ، وهذه مكيدة لا يقع فيها عاقل كمسلمة ، بل لا يقع فيها أى عاقل ، كما أن اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين ، يؤدى إلى زعزعة الثقة بتلك الروايات ، هذا بالإضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدقها عاقل ، فهى أقرب إلى حكايات الأخباريين منها إلى حقائق المؤرخين .

= نص ما جاء فى الطبرى . وفى البداية والنهاية (٩/١٧٤) : قال ليون لمسلمة : « إنهم - أى أهل القسطنطينية - ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم فى القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً » . فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم أبحر ليون بالسفن فأخذ ما أمكنهن أمتعة الجيش فى الليل ، وأصبح فى البلد وهو محارب المسلمين . وفى البدء والتاريخ (٥/٤٤) : قال ليون لمسلمة : « لا يفتحون مالم يتنح عنهم » ، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق ، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج ، فلأوا الأهراء وشحنوا المطامير . وفى العيون والحدائق فى أخبار الحقائق (٢٨) : أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل ثقاته إلى أهل القسطنطينية يقول لهم : لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاى ليون ويسلم إليه ملككم ثم أرحل عنكم وأدعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم . . .

وأرى أن هذه أشبه بالأساطير منها بالحقائق التاريخية ، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الذاتية ، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية ، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلات جيشه كسباً للعدو . كما أن الحجج التى قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلا ، إذ كيف يستسلم العدو والجيش إذا أحرقت المواد التموينية لذلك الجيش ، بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الأرزاق الكافية لإدامة حصار طويل ، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع ، ولا نعرف جيشاً استسلم من الشبع !!

وليس إجماع المؤرخين حجة دامغة على صحتها ، فالخلف ينقل من السلف ، وقد اتهم بنو أمية =

= بكثير من التهم - خاصة وأن تاريخهم سجل بعد زوال ملكهم وتولى أعدائهم من بعدهم ، فلا يستبعد أن يفترى مفتر ، فيروى ما سمعه المؤرخ ، فيأتى من بعده فينقلون تلك الفرية ، وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء ، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أى إنسان حتى ولو كان من أغبى الأغبياء !؟

ولعلّ مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين ، وما أكثرهم عدداً ، وما أشد عداوتهم وأعظمهم لدداً . تلك هي الصفحة الأولى من صفحات حصار القسطنطينية وهي صفحة (المبادرة) ، وهي المبادرة التي لم يستند منها مسلمة كما ينبغي ، لتحقيق نصر عسكري وسياسي للمسلمين .

أما الصفحة الثانية فتبدأ بتولي (ليون الثالث)[1] عرش القسطنطينية في

. . . .

---

(١) ليون الثالث : ليون المرعشي ، انظر البدء والتاريخ (٦/٤٣ – ٤٤) وهو ليون بن قسطنطين المرعشي ، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥) ، نشأ فلاحاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً ، وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، ووصل إلى القمة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً ، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩) . وفي ٢٥ مارت (مارس سنة ٧١٧م جلس ليون الثالث على عرش الأمبراطورية البيزنطية الشرقية وأسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الايسوريانية) ، وكان من أهل (أيسوريا) واسمه الأصلي كونون ، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم ، ووصفوه بأنه كان طوافاً على حمار له في الأمصار يبيع الفراخ ، وأن أباه هاجر من آسيا الصغرى وأقام في نواحي (تراسة) وعمل في بيع الحشيش ، عمل ليون جندياً وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره في الحرب ، فعينه بسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى اعتبر ، امبراطوراً ، انظر البحر الزاخر (٣/٣٦٧) ، وكان نصرانياً من سكان (مرعش) ، فأتى (القسطنطينية) في أيام الفتن التي كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر ، وكان فصيحاً بالعربية والرومية ، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم ، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدموه ، ولم يزل ينتقل في المنزلة إلى أن صار (بطريق) عمورية . وقيل : إنه لما جاء إلى عمورية بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لأنك نبطي من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم ، وقد بلغكم حال ورجلي وغنائي ، وحالكم مختلط ، وملككم مضطرب والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبد الملك شارف بلادكم ، وهو يوقع بكم ، فأدخلوني وفوضوا إلى أمركم ، فإن قمت به كما تؤثرون » وإلا فاخرجوني واصنعوا في ما أردتم » ، فولوه ، أمرهم ، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥ – ٢٦) .

وبدأ سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية ، ولما خلص المملكة . وانقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها ، فنتج من إدخال القوانين والأنظمة الجديدة فيها عصر جديد في سعادة المملكة وفلاحها ، واستتب السلم والأمن فيها ، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة ، وبعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش في (حزيران ٧٤١م) سنة ثلاث وعشرين ومئة الهجرية ، انظر البحر الزاخر (٣ / ٣٦٧) ، وانظر أيضاً تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء (٦٩) وابن الأثير (١/ ٣٣٥) ، وليون الثالث هو (Leo the Jsau Rian) .

وظل المؤرخون يعتبرون أسرة (ليو الثالث) أيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن في سنة ١٨٩٦م كتب العالم الألماني (شيلك) في مجلة الأبحاث البيزنطية في مؤسس هذه الأسرة ،

سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت — مارس — ٧١٧م) إلى حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الأول — ديسمبر ٧١٧ م) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المصابرة) .

ومهما اختلفت الروايات في حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمسلمة بن عبد

سطيمله سوريا لا أيسوريا ، انظر : ا جاء حول ذلك في : (Scheng, K., Kaiser Leones, Byz., V, 296 FF)

ثم جاء بعده من أيده ، انظر :

Jorg, N., Origines de L'Joonoclasme Bulletin Acad, Roumaine, XI, (1924), 149.

وجاء بعده من عارضه ، انظر :

(Kulakovsky, J. A., Hist., of Byzantine, 111, 3 319.)

والسبب في هذا الاختلاف أن (ثيوفانس) المرجع الرئيس في سيرة (ليو) قال عنه من أبناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل إسوري ، انظر :

(Thephanes, Chronographia, ed. Boor, 391).

وكان انسطاسيوس الذى نقل كتاب ثيوفانس إلى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته : إن ليون كان من أبناء جرمانيكية ، وأنه كان سوري المولد ، انظر ما جاء حول ذلك في : (Chronographia Tripertita, ed. Boor, 25) (Sclaves) ، والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السوري ، ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب: العيون والحدائق (٢٥) ، انظر كتاب : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (٢٨٩/١ — ٢٩١) .

الملك والطريقة التي اعتلى بها عرش القسطنطينية وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده ، إلا أنه كان إمبراطوراً عظيماً وقائداً متميزاً محنكاً ، وكان حاذقاً في وضع الخطط العسكرية[1] .

فقد قدر أنّ الروم سيواجهون حصاراً طويلاً ، لذلك بذل جهده في تكديس المواد التموينية ، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على القسطنطينية ، عمل جهده لتقوية سفنه — وكان عددها قليلاً جداً بالنسبة لأسطول المسلمين ، فهي ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الأسطول الإسلامي ، لذلك أمن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ ، فنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله ، وكانت هذه السلسلة هي : (السد البحري)[2] الذي تعلمه منه المدافعون عن القسطنطينية من بعده حتى

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) .

(٢) السدّ البحري هو لإغلاق بر القرن الذهبي : يبدأ من شمال المدينة ، وينتهي عند حي (غلطة) ، وبالطبع استعملنا الأسماء الجغرافية الحديثة التي لاتزال مستعملة حتى اليوم ، لإمكان إيضاح مكان هذا السد البحري بالنسبة للدارسين المحدثين ، انظر الخريطة المرافقة .

فتحت على يد محمد الفاتح . وكان لهذا السد دور كبير فى الدفاع عن المدينة المحاصرة ، وأثر فى منع الأسطول الإسلامى من التغلغل فى المياه القريبة من هذه المدينة ، وفى حماية السفن البيزنطية التى تجمعت وراءه من غارات أسطول المسلمين .

ولكن تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحرى ، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة ، والاستفادة من موقع القسطنطينية الحصين المساعد على الدفاع ، غير كافية لترجيح كفة الروم على المسلمين وأخذ (المبادرة) نهائياً منهم ، لأنّ كل هذه العوامل — على أهميتها — عوامل دفاعية وليست تعرضية ، لذلك ركز (ليو الثالث) طاقاته لابتكار سلاح جديد تعرضى ، فتهيأ له سلاح سرى فتاك هو : (النار اليونانية) ، ذلك السلاح الذى نقل (المبادرة) من أيدى المسلمين إلى أيدى الروم وأثر فى مصير المعركة كلها تأثيراً حاسماً .

والمظنون أن رجلاً من أهل الشام اسمه (كاليتكوس) هو الذى نقل هذا السلاح إلى الروم ، فى وقت كان الروم فيه بأمس الحاجة إلى هذا السلاح[1] .

والمعتقد أن : (النار اليونانية) خليط من النفط والكبريت والقار ، ولكن نسب التركيب كانت سرية ، فكانت ألسنة القائمين بإعداد الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان ، وكان هذا سراً خاصاً بالقسطنطينية فقط ، احتفظت به طيلة أربعمائة عام[1] .

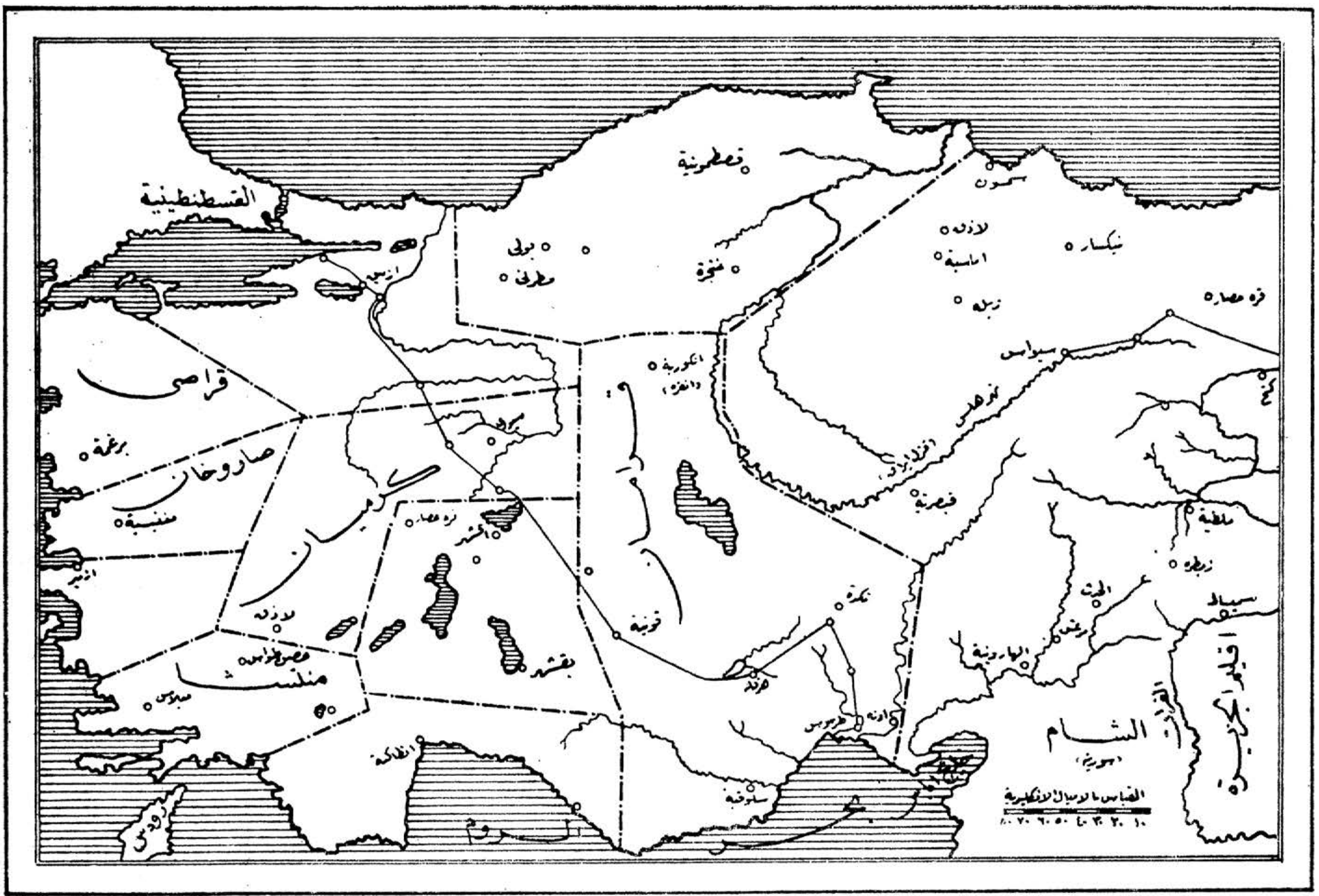
وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً ، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية تسربت منها المواد التموينية للمحاصرين من الروم ، كما رفعت معنويات الروم التى كانت منهارة .

كما أضرت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً ، فكبدتهم خسائر فادحة بالأرواح والمواد والسفن ، مما أدى إلى زعزعة معنوياتهم التى كانت عالية فى الصفحة الأولى من الحصار : صفحة المبادرة .

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى (١٧٩/١) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) ، وفى تاريخ التمدن الإسلامى (١٨٠/١) : أن هذه النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان فى شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة ، كانوا يشدونها إلى مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلا ، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملوّث بالنفط ، فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها .


القسطنطينية
قسطمونية
سنوب
بولي
مطرني
أنقرة
لاذقه
نيكسار
اماسية
زيلة
قره مصاره
سيواس
قيصرية
قراصي
برغمة
صاروخان
منغنيسة
كرميان
قره حصار
قونية
نكدة
ارزنجان
ملطية
كخ
البحر
الشام
العلايا
انطاكية
ادنه
طرسوس
منتشا
رودس
الفرات
الهارونية
مرعش
زبطره
ازمير
لاذقه

بلاد الروم

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الإمبراطور الجديد الذى أعاد تنظيم قواته ، وادخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية ، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كل جانب ، ومن سفن جيدة فى مرفأ محمى حماية قوية ، توافرت لهم النار اليونانية المؤثرة .

أما موقف المسلمين ، فلم يكن ميئوساً منه ، فكانت الإمدادات تصلهم بانتظام ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق إلى جانبهم ، وكان أملهم باستعادة المبادرة كبيراً فقاوموا وصابروا وصبروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة المتقدمة (دابق) التى يرابط فيها سليمان ابن عبد الملك ليشرف على الإمدادات بنفسه .

أما الصفحة الثالثة وهى صفحة : (المكابرة) ، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الثانى — يناير — ٧١٨ م) إلى انسحاب المسلمين من حصار القسطنطينية فى بداية حكم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

كان موقف الروم فى هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير ، وكان عامل الوقت بجانب الروم على المسلمين ، فكلما تقدم الوقت ازداد الروم قوة وازداد المسلمون ضعفاً .

انظر خريطة بلاد الروم (ص ٦٩) .

فقد أدى شتاء عام تسع وتسعين الهجرية (٧١٨ م) القارص البرد بثلوجه وأمطاره الغزيرة ، إلى موت آلاف المسلمين ، لأنهم تعودوا الطقس الحار الدافىء ، كما شلت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة فى (البسفور) سفنهم عن العمل[1] .

ونفذت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلا أقل القليل ، فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر وكل شىء غير التراب[2] .

كما انهارت معنوياتهم ، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من المعسكر وحده[3] .

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك لا يزال مقيماً فى (دابق) ، فلم يقدر أن يمد المسلمين بشىء من الأزواد لكثرة البرد والثلوج[4] .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) .

(٢) الطبرى (٦/٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) وابن خلدون (٣/١٥٥) ، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

(٣) الطبرى (٦/٥٣١) وابن الأثير (٥/ ٢٨) .

(٤) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبرى (٦/ ٥٣١) وابن الأثير (٥/٢٨) وابن خلدون (٣/ ١٥٥) .

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين فى صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للروم .

ولعل الشتاء القارص[1] كان من أقوى حلفاء الروم على المسلمين ، ولكن المسلمين تحملوا وصبروا إلى درجة (المكابرة) ، حتى ضاق بهم الأمر ، فكان لا بد لهم من التخلى عن الحصار والانسحاب إلى قواعدهم .

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هى التى جعلت كفة الروم ترجح على كفة المسلمين فى ميدان القسطنطينية بالرغم من أهميتها ، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والإدارية أثر ملموس فى رجحان كفة الروم فى ذلك الميدان .

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانية فأدى ذلك إلى ابتعاد قواتهم عن الأسوار، فأصبح موقفها موقف المراقب ، ولم يعد لها تأثير مباشر على المدينة المحاصرة[2] .

كما أن (ليو) دأب على شن الغارات الليلية على قوات المسلمين ، كما دأب على وضع الكمائن لهم ، وهذا أدّى إلى تردى معنويات المسلمين كما ذكرنا .

---

(١) كان شتاء سنة ١٩٤١ قارساً فى روسيا ، فكان من أهم عوامل إخفاق المحور فى هجومهم على الاتحاد السوفياتى .

(٢) يبدو أن (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية لكى يخفف الحصار على المدينة المحاصرة .

فقد جاء فى البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : أن مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها ، وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . . . انتهى .

وفى معجم البلدان (٣٧٢/٥) : الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية . . . انتهى .

أقول : ليس : من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه القريبين لمحاربة المسلمين المحاصرين القسطنطينية ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينة ، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم ، مع إبقاء قواته الضاربة محاصرة القسطنطينية ، والمصادر الأجنبية تؤكد أن (ليو الثالث) تلقى مساعدات حربية من الصقالبة ، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون فى مهمة فتح القسطنطينية .

والصقالبة هم ما يسمون : (Solaves) .

والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار ليو الثالث ، ولكنها تبالغ كثيراً فى جدوى تلك المعاونة ، فتدعى أن البلغار فاجأوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، انظر التفاصيل فى : (The ophanes, Chron., 395 — 399).

فكم كان عدد البلغار والمهاجمين حتى يقتلوا عشرين ألفاً من المسلمين ؟

وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء ؟! وهل كان جيش المسلمين نائماً ؟!

إن المصادر الأجنبية التى ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكرى .

كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين ، ولكنهم هزموا .

كما بذل جهداً فى وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوات المسلمين وطرق تموينهم ، مما أدى إلى حرمانهم من المواد التموينيّة فى وقت هم بأمس الحاجة إليها .

وعندما حل الربيع ، كانت قوات المسلمين قد ضعفت كثيراً ، ولكنهم كانوا يأملون فى استعادة (المبادرة) إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم فى البحر ، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر . وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لا نزال ضربته الكبرى .

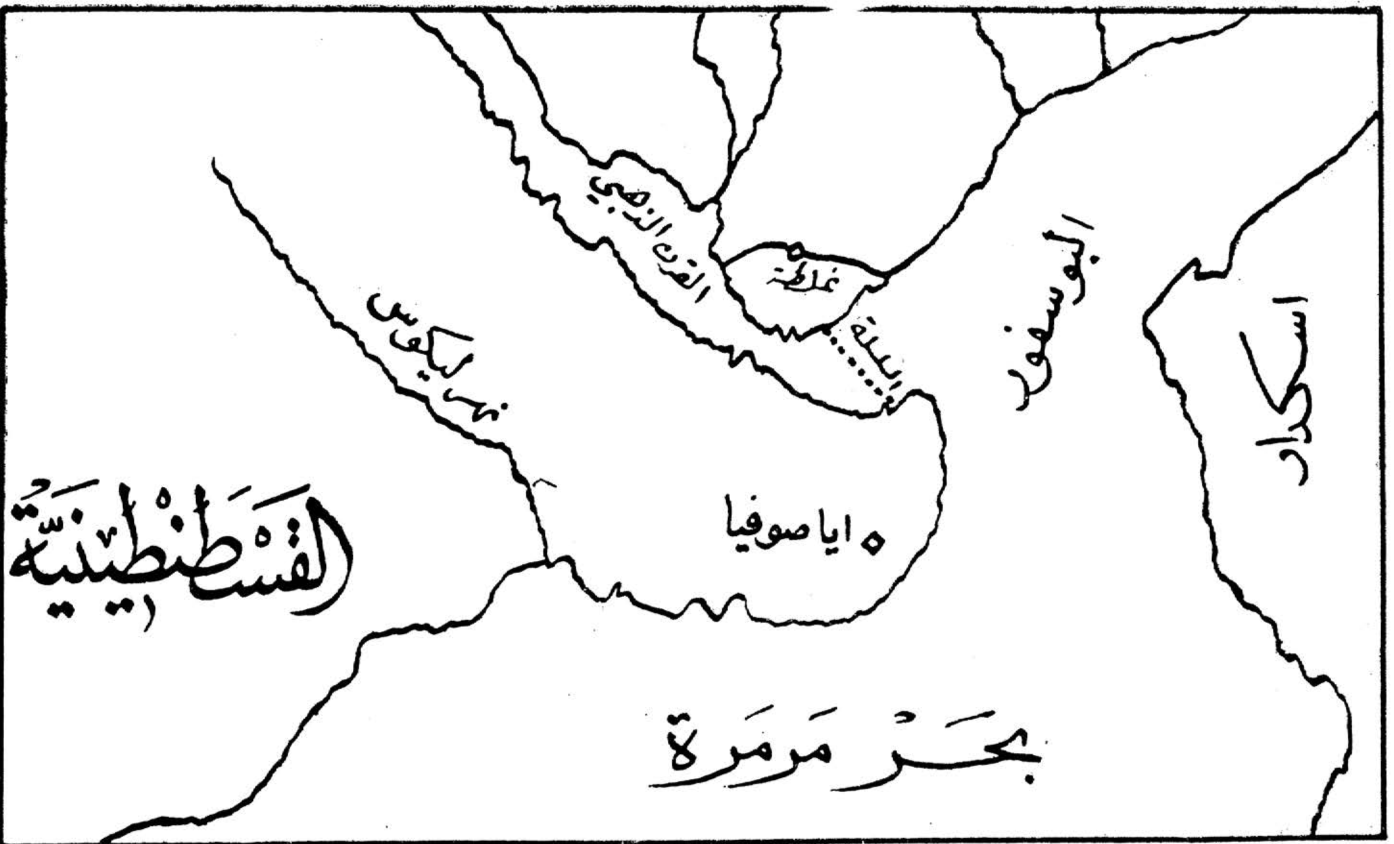
فقد سدت السلسلة الضخمة المرفأ طيلة الشتاء ، فقام (ليو) بفتحها لإغراء المسلمين لتنفيذ خطتهم الهجومية . ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليو) بانتظارها ، فغمرتهم بالنار اليونانية ، وكانت النتيجة دماراً كاملاً للسفن المهاجمة فقد انهالت عليهم النار اليونانية من كل جهة : من السفن ، ومن أسوار المدينة ، ومن البر . وفى الارتباك الذى نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلباً للنجاة ، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى ، فقفز الرجال إلى البحر وغرقوا فيه ، وتحطمت هياكل السفن ، وهوت للصوارى ، وضاعت المجاديف . وفى تيار البسفور القوى ، انقلبت سفن كثيرة وغرقت ، وعندما انتهت المعركة لم تبق سفينة من سفن المسلمين فى مدى النظر سالمة ، ويقال : إن خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سورية لتروى القصة . وكانت القصة هى قصة النار اليونانية التى تصب على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك ، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة أو الحديد ، أو ترى بالأسهم أو الرماح المغمورة بالسائل الملتهب ، أو تنفخ فى أنابيب طويلة من النحاس مثبتة فى مقدم السفن ، فتحدث دخاناً أسود ثم انفجاراً يصم الآذان ، ومن ثمّ ينتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء [1] .

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم فى جعبة مسلمة ، استعمله لاستعادة (المبادرة) [2] من الروم ،

(١) الطبرى (٦/٥٣) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ — ٤٠) .

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الألماني=


القسطنطينية
نهر ليكوس
القرن الذهبي
غلطة
السلسلة
البوسفور
اسكدار
ايا صوفيا
بحر مرمرة

ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح .

ولم يكن مسلمة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدرى ما حل بجيشه مادياً ومعنوياً ، وبخاصة بعد نجاح (ليو) فى تكديس الأرزاق الكافية لقواته ، وكان مسلمة يعلم أن المسلك الوحيد المفتوح أمامه هو : الانسحاب .

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده ، بل كان بيد الخليفة سليمان الذى كان مرابطاً فى (دابق) ، معنياً بفتح القسطنطينية أشد العناية ، ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه .

انظر خريطة القسطنطينية (ص٧٣) .

ومات سليمان بن عبد الملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية [1] ، فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فوجه إلى مسلمة وهو محاصر للقسطنطينية

= سنة ١٩٤٤ فى الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة فى الجبهة الغربية ، وأطلق على عملياته اسم : تعرض الأردين ، انظر التفاصيل فى كتاب : المشيرفون رونشتد (٢٧٠ — ٢٨٨) .

(١) الطبرى (٦/٥٤٦) وابن الأثير (٥/ ٣٧) والعبر (١/١١٨) والمسعودى (٣/١٨٢٣) وفى شذرات الذهب (١/١١٦) والعيون والحدائق (٣٣) ، أن سليمان توفى لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية ، وكذلك فى التنبيه والأشراف (٢٧٥) .

وأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين [1] ووجه إليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحث الناس على معونتهم ، وكان عدد الخيل التى وجهها لمسلمة خمسمائة فرس [2] ، لأنه كان قد أصاب

(١) تبالغ المصادر الأجنبية فى خسائر مسلمة وتجمل ما ذكرته تلك المصادر : جاء شتاء سنة ٧١٧م — ٧١٨م بثلج دام ثلاثة أشهر ، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار . وفى ربيع سنة ٧١٨ م ، وصل أسطول احتياطى من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطىء البسفور الآسيوى ، ورسا الأسطول فى مياهه ، فتسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقته ، ونزلت قوة من الروم ، وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة ، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء . فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه ، وتعرض الباقى من أسطوله لعاصفة فى بحر إيجة ، فلم يعد إلى شواطىء الشام سوى خمس سفن فقط ، انظر التفاصيل ، فى (Canard, M., Expéditions Arabes, Journal Asiatioue, 1929. 102—80).

والمبالغة واضحة الغاية ، إذ كيف تسللت سفن النار الرومية إلى مرسى الأسطول المصرى فأحرقته ! ! أكان هذا الأسطول فى سبات عميق ؟ أم يدافع عن نفسه ؟

وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء ! ! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية ؟! ألم يكن له دوريات وأرصاد ؟! ثم كيف يمكن أن يتسلل البلغاريون من وراء جيش مسلمه ومن أين ؟ !

تلك مبالغات لاتستحق الرد عليها لأنها لايمكن أن تحدث فى الحرب فعلا .

(٢) الطبرى (٦/٥٥٣) وانظر ابن الأثير)=

المسلمين مجاعة فقواهم بذلك [١] .

وكان قرار عمر بن عبد العزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً ، لا لأن عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء[٢] ، بل لأن موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميئوساً منه ، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم[٣] . بعد أن بلغ بهم الجهد[٤] ، إذ لم يغفل أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية . وليس صحيحاً أنه لوطال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس ، لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعي لإحاطة الأعداء بهم [٥] ، لأن (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت فى أيامه وحصنت [٦] ، كما سمح بامتلاك الفاتحين للأرض فى الأندلس ، مستهدفاً تعلق المسلمين بأرضهم عن طريق امتلاك الأرض ، وقيل : إنه اتخذ عمربن الخطاب رضى الله عنه مثالا له فيا عمله بالهند ، فلو لم يعط عمر بن الخطاب المحاربين الأرض فى الهند ، لكان الدفاع عن هذا القطر مستحيلاً[*] . وبالطبع لم تفتح الهند فى أيام عمر بن الخطاب ، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس .

أما سبب رد جيوش المسلمين من الشرق ، ومنعهم من التوغل فيه قائلاً : « يكفى ما فتح الله على المسلمين من فتوح »[١] ، فسببه المباشر تردى الأوضاع العسكرية فى تلك المناطق .

والواقع أن عمر بن عبد العزيز ورث تركة مثقلة بالفوضى ، فكان همه الأول موجهاً إلى السياسة الداخلية ، فأحدث تغييراً فيها[٢] ، إذ ليس من المعقول أن تصبح بلاده بالفوضى وهى قاعدة الفتح ومرتكزة ، ثم يصرف همه إلى الفتح ، فيكون كالذى يشيد قصراً على جرف هار .

كما أن مد الفتح الإسلامى كان قد بلغ أوجه ، وفقد الدافع الأول لاستمراره ،

— (٤٣/٥) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٦/١) .

(١) العيون والحدائق (٣٩) ، وانظر سيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) .

(٢) يوليوس ولها وزن — الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٣) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٤) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٥) الدولة العربية وسقوطها (١٨) .

(٦) Dozy, Recherches (1881), I. 16.

(١) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٢) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

وهو الجهاد في سبيل الله ، فغيَّر الناس ما بأنفسهم ، وأصبح أكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم .

لقد أحسن سليمان بن عبد الملك في الإعداد والإمداد ، فقد وضع مهمة فتح القسطنطينية فوق كل مهماته العسكرية والإدارية ، وجعل لها الأسبقية الأولى على كل أعماله الأخرى ، وقضى أيام خلافته كلها في (دابق) ، وأرسل ولده داءود إلى القسطنطينية مع مسلمة[1] ، دليلاً على شدة حرصه على فتحها ، وأمر مسلمة : أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره[2] ، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه الله دليلاً على إصراره البالغ على تحقيق الفتح .

كما أحسن مسلمة في قيادته ، فبقي محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً حتى أكل عسكره الميتة والعظم وقتل منهم خلق كثير[3] ، فما وهن ولا توانى

. . . .

---

(١) العيون والحدائق (٣٨) وبقي مع مسلمة إلى نهاية الحملة .

(٢) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (٢٠٠/١) .

(٣) البدء والتاريخ (٤٤/٦) ، وقد بدأ الحصار في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى في ١٥ آب (أغسطس ٧١٨ م كما تنص على ذلك المصادر الأجنبية ، وبذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلاثين شهراً ، أما المصادر العربية فتنص على أن الانسحاب جرى في أيام عمر بن عبد العزيز أي في تشرين الأول (أكتوبر سنة ٧١٨م) أي أن حصار المسلمين للقسطنطينية سنتان وشهران .

وأرى أن المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلام أمر الانسحاب مباشرة ، أي بعد تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة مباشرة ، فلا بد من اتخاذ تدابير الانسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الانسحاب إلى هزيمة ، وهذا يستغرق ما لا يقل عن أربعة أشهر ، لإمكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجيًّا ، وبذلك يكون ما جاء في : البدء والتاريخ ، من حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً صحيحاً وأقرب إلى المنطق العسكري . وانظر أيضاً : مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلاثين شهراً .

وفي البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلى ، فيه المسلمون الجمعة والجماعة . . . . انتهى .

أقول : لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم في الأشهر الأخيرة من حصار القسطنطينية إلا أنهم كانوا يتمنون انسحاب المسلمين عنهم ، لطول بقائهم محاصرين ، ولخوفهم من قدوم إمدادات جديدة من الرجال والأرزاق ترجح كفة المسلمين عليهم ، لذلك رضخوا لشرط مسلمة وبنوا جامعاً ، ومما يدل على ضعف قوة الروم في أيام انسحاب مسلمة ، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين في أثناء انسحابهم .

لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل أعباء

ولا ضعف عن النهوض بواجبه .

كما أحسن عمر بن عبد العزيز فى قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية ، لأن الموقف العسكرى كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار ، ولو كانت كفة المسلمين راجحة فى حينه ، لكان من المستحيل عليه الأمر بانسحاب المسلمين ، ولكان هناك مسوغ للادعاء بأن عمر بن عبد العزيز غير ميال لحروب الفتح ، دون تمحيص للموقف العسكرى الراهن .

إن عمر بن عبد العزيز ، مظلوم بهذا الادعاء الذى صدر عن مؤرخين غير عسكريين ذوى اختصاص بالقضايا العسكرية ، ومثل هذا الحكم خارج نطاق اختصاص المدنيين ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولم يكن عمر بن عبد العزيز وشهرته كلها فى حرصه على تطبيق تعاليم الدين الحنيف ، ليجمِّد فرض الجهاد ، وهو روح الإسلام الحركيّ ، وبدونه يبقى الإسلام جثة هامدة بدون روح .

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مسلمة فتح القسطنطينية من جراء أخطاء سَوْقية أو تعبوية ارتكبتها قيادتهم القادرة ، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها ، ولكنهم أخفقوا فى فتحها لأسباب عسكرية قاهرة : منها مناعتها الطبيعية والاصطناعية التى سهلت أمر الدفاع عنها ، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوّة ومتانة ، ولأن الحصار من جراء ذلك طال أمده كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً ، والعرب فى طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الأمد ، ولأن برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (٧١٨م) كان قارسا شديداً بصورة غير اعتيادية [١] ، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد ، وهذا البرد غير الاعتيادى حرمهم من الإمدادات العسكرية والتموينية ، والجندى لا يقوى على البرد وهو جائع ، وأخيراً وليس آخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه ، وهو النار اليونانية التى فتّ استعمال الروم لها فى مقاومة العرب وأثر فى معنوياتهم وكبّدهم خسائر فادحة بالأرواح والسفن والمعدّات .

= حرب دفاعية ، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل أعباء حرب تعرضية ، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم .

وفى حوادث سنة خمس وخمسين وأربع مئة ، أن ملك الروم عمّر جامع مسلمة فى القسطنطينية إرضاءاً لطغرلبك ، وعلق فيه القناديل ، وجعل فى محرابه قوسا ونشابه ، انظر ابن الأثير ١٠/ ٢٨) .

(١) العيون والحدائق (٣٢) .

وتاريخ الحرب فى جميع العصور ، يقرِّر أن من أهم أسباب عوامل النصر هو : استعمال سلاح فتَّاك جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمال أسلوب قتالى جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمالهما معاً فى الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم ، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة ، والمباغتة كما هو معروف هى أهم مبادىء الحرب على الإطلاق .

ومن الإنصاف أن نضيف إلى عوامل انتصار الروم فى الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو : كفاية (ليو الثالث) المتميزة فى القيادة ، وتشبعه بمزية إرادة القتال .

وإذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة فى حصار القسطنطينية ، فهو عدم استفادته كما ينبغى من صفحة : (المبادرة) ، فى التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً ، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو) ، لأن الذى يخون بلاده وقومه أولى أن يخون غير بلاده وغير قومه ، فكانت هذه الثقة العمياء بهذا العميل لامسوِّغ لها ثانياً ، فالحرب من القضايا المصيرية ، ولابد من إدخال أسوأ الاحتمالات فى كل ما يؤثر فى نتائجها من قريب أو بعيد [1] .

إن حصار القسطنطينية [2] كان

---

(١) ورد فى كتاب : فتح القسطنطينية ، ما نصه : لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧م) ، لما عاشت المسيحية ، ولذا فالعالم المسيحى مدين إلى (ليو الثالث) . بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة (٥٠٠) سنة أخرى ، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجرى التاريخ ، فلو نجح المسلمون سنة (٧١٧م) ، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلامياً بحتاً » .

أقول : وهذا الأدعاء لا يخلو من مبالغة ، لتضخيم انتصار الروم وجعله من الانتصارات الحاسمة فى التاريخ .

وقد فتحت القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح ، فما أصبحت أوربا إسلامية بحته ، وبقى المسيحيون على دينهم فى تلك المدينة وفى البلاد التى فتحها العثمانيون ، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر فى الصدر الأول للإسلام على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولا يزال المسيحيون فى تلك البلاد حتى اليوم !

(٢) أفاض (بروكس (E. W. Brook) فى سرد غزوات المسلمين فى آسيا الصغرى ، مستقياً معلوماته مع التعليق عليها فى بحثه الموسوم : « العرب فى آسيا الصغرى من سنة (٦٤١م إلى سنة ٧٥٠)م وعنوان بحثه (The Arabs in Asia Minor, G41 To 750) المنشور فى مجلة الدراسات الهلِّينية المجلد (١٨) سنة (١٩٨م) .

(Jorrnal of Hillenis studies)

وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم فى أيام خلافة سليمان بن عبد الملك فى مقال نشره فى مجلة الدراسات الهلِّينية أيضاً (المجلد ١٩) =

ملحمة من ملاحم تاريخ الحرب المهمة، ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب ، على الرغم من محاولات المؤرخين الأجانب اعتبارها معركة حاسمة ، بادعائهم أن المسلمين لو فتحوها لأصبحت أوروبا قارة إسلامية[٢] .

والواقع أنها كانت معركة تعبويّة ، ولو فتحها المسلمون حينذاك ، لأصبحت حدود الدولة الشمالية أكثر أمناً واستقراراً ، وربما امتدّت الفتوح إلى قسم من بلاد غرب أوروبا ؛ لأن أوضاع الدولة الإسلامية داخلياً ، لم تكن مستقرة في تلك الأيام ، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفـتن والقلاقل والاضطرابات ، فكانت الدولة في شغل شاغل لإقرار الأمن الداخلي ، ولم تكن في موقف يسمح لها بالانطلاق في مجالات الفتوح .

وقد استفاد الروم من دروس حصار القسطنطينية استفادة كبيرة ، فكانوا يطبقونها في الدفاع عن مدينتهم منذ انسحب المسلمون عنها بقيادة مسلمة ، وفي صدّ محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها ، وفي دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح[١] ، وهذا مكسب عظيم للرّوم .

لقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والروم على حد سواء .

(البقية في العدد القادم)

=لسنة ١٨٩٩م) بعنوان: وحملة سنة (٧١٦م) إلى سنة (٧١٨م) بحسب المراجع العربية :
(The Campain of 716 to 718 from Arabic
(J. B. Bury

وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ (بوري (J. B, Bury) في كتابه :
(The History of the Later Roman Empire)
المجلد الثاني – ص (٤٠١) .

وهناك دراسات في هذا الموضوع كثيرة ، ترجم بعضها إلى العربية ، وكلها تجعل حصار – القسطنطينية معركة حاسمة ، وهي ليست كذلك بحال من الأحوال .

(٢) انظر سيرته في كتابنا : بين العقيدة والقيادة – ص (٣٥١ – ٤٦٦) ، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبي بسلسلة حديدية هائلة في ص (٣٥٦) من هذا الكتاب ، وهو درس عسكري استفاده في ذلك الزمن المتأخر امبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذي كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة في أيام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك .

ومن المعلوم أن السلطان محمداً الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ ٢٩ مايس – مايو– ١٤٥٣م) ، انظر ص (٤٠٦) من : بين العقيدة والقيادة :

(١) انظر مثلا ما جاء في كتاب : فتح القسطنطينية–برناردين كيلتي (Bernardine Kielty ص (٤٠) ، وقد ذكرنا نص ما جاء ، في هذا الكتاب سابقاً .

بين الموالاة والمعاداة

(٣)

الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

موقف المسلم

تبينا فى المقالين السابقين[١] أن موالاة الكافرين بأى شكل من أشكال الموالاة محرمة فى الإسلام تحريماً قاطعاً صريحاً مؤكداً ، حتى قيل : إنه ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم ، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده .

فماذا يكون موقف المسلم ! ؟

لقد أصبح واضحاً تمام الوضوح .

إنه ما دام الكافر يظهر العداوة حين يستطيع ، ويضمرها عندما يضطر ، فإننا نكون من السذاجة والغفلة إن لم نبادله عداوته بمثلها .

والفرق بيننا وبينه ، أنه يبادرنا بعداوته ، وأن عداوتنا له رد فعل ، وأن عداوته لنا فى سبيل الباطل ، ونحن نعاديه فى الحق ، ولا يستوى من يبادرك بعداوته مبطلا حين ترد عداوته محقاً ، لذلك أمر الله المؤمنين بجهادهم والإغلاظ عليهم فقال : (يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (التوبة ٧٣ والتحريم ٩) وذكر للمسلمين موقفاً من مواقف الفصل بين الحق والباطل ، بين التوحيد والشرك ، بين الإيمان والكفر ، ذلك هو موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وكيف أنه كان لا يزال يأمل فى هداية قومه وأهله ، فلما تبين

---

(١) فى العدد الثامن (عن شهرى شوال وذى القعدة ١٣٩٧هـ) وفى الجزء السادس (عن شهر شوال ١٣٩٨هـ) من مجلة الأزهر .

له ثباتهم على الكفر تبرأ منهم، ونابذهم العداوة ، وأعلنهم بالبغضاء .

إنه لا محبة ولا مودة ولا رحمة ولا موالاة إلا فى الله سبحانه وفى سبيل الله ، ومن خرج على سبيل الله فلا ولاء له ولا مرحمة .

(قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكمُ العداوة والبغضاءُ أبدا حتى تؤمنوا بالله وحدَهُ إلا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنَّ لك وما أملكُ لك من الله من شىء) . (الممتحنة ٤) ، ثم ذكر الله عدول سيدنا إبراهيم عليه السلام عن الاستغفار لأبيه بعد أن تبين له أنه عدو لله ، فقال : (وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌ لله تبرأ منه) (التوبة ١١٤) .

والمسلمون مأمورون أن يتخذوا من هذا الموقف العظيم أسوة ، كما قال الله فى أول الآية (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) .

وهذا سيدنا نوح عليه السلام ، ماذا قال عندما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ! ؟ (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) (نوح ٢٦ : ٢٧) .

وهذا سيدنا موسى عليه السلام (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) (يونس ٨٨) .

ولقد تهدد الله المسلمين فى معرض الحديث عن موالاة اليهود والنصارى ووصف ذلك بالارتداد ، وبأن الله قادر على أن يستبدل بهم قوماً يحبهم ويحبونه ، يكونون أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله دون خوف .

قال تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا

بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ، يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ، يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون » (المائدة ٥١ : ٥٨) .

وفى هذه الآيات يظهر بجلاء أنها إحدى ولايتين :

إما ولاية الله ورسوله والذين آمنوا ، وإما ولاية الكافرين من أهل الكتاب والمشركين ، وأنه من والى طرفاً فهو منه وإليه ، وأن المسلم لا يصح أن يكون انتماؤه وولاؤه إلا للمسلمين ، وأن الكافر لاتقبل منه دعوى الولاء للمؤمنين ، بل ينبغى أن نجعل ولاءهم بينهم ، لأن تظاهرهم بشىء من ولائنا تحت أى ظرف من الظروف يخفى وراءه عداوة مستكنة لا تهدأ ولا تخبو (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون) (المائدة ٦١) ، (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) (الممتحنة ٢) .

(وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جُناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً) (النساء ١٠١) (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) (النساء ١٠٢) .

وهكذا حدد الله ولاية الكافرين . وجعلها فيما بينهم ، وجعل المسلمين براء منها ، وحذر عواقب مخالفة هذا القانون الإلهى بقوله (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) (الأنفال ٧٣) وطالب بمعاداتهم ومنابذتهم بهذه العداوة صراحة وعلانية ، دون أن نخاف فى ذلك لومة لائم، وإلا استبدل الله بنا غيرنا

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً وأصحابه ، صلى الله عليه

وسلم ، بهذا الوصف الجميل فى آخر سورة الفتح فقال (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

ومن هنا يتبين أن من أهم القواعد التى تضعها عقيدة التوحيد للمحافظة على تماسك المجتمع الإسلامى وسلامته هى قاعدة الموالاة والمعاداة . وأن ولاء المؤمنين بعضهم مع بعض مقابل ولاء الكافرين بعضهم مع بعض يحفظ على المجتمع الإسلامى تماسكه من الداخل ، وأن عداوة المسلمين للكافرين فى مقابل عداوتهم للمسلمين يحفظ على المجتمع الإسلامى كيانه وهيكله العام وسلامته من العدوان الخارجى .

ولقد حذرنا الله منهم ، وطلب منا أن نكون دائماً على استعداد لمقابلة عدوانهم (يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً) (النساء ٧١) وحث على قتالهم عندئذ مبيناً أن ذلك إنما هو دفاع عن الحق وأهله ، وأنه لا يستوى من يقاتل فى سبيل الله ومن يقاتل فى سبيل الطاغوت (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ، ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً) (النساء ٧٤ : ٧٦) .

ولقد حث الله سبحانه وتعالى على مقابلة عداوتهم بعداوة مثلها حتى لا نستأصل وتدور علينا الدائرة ، ونصبح فإذا بنا قد غضب الله علينا ، واستبدل بنا قوماً غيرنا .

(ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) (التوبة ١٣) (يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا

فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير » (التوبة ٣٨ : ٣٩) .

ويجب أن يظل هذا المعنى ماثلا أمام أعيننا واضحاً فى ضمائرنا ، مهما أظهروا لنا من المودة ، ويذلوا لنا من البشاشة ولين الجانب (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) (البقرة ١٠٥) ولا تأخذنا سماحة الإسلام وحسن معاملته إلى المدى الذى يغطى أعيننا عن رؤية عداوتهم ويمنعنا من التألم لما يصيبوننا به من جراح ، إنهم لن يهدءوا ولن يناموا إلا ريثما تواتيهم الفرص لإيذائنا والتسلط علينا أو إخراجنا من ديننا (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) (البقرة ١٢٠) (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) (النساء ٨٩) .

وعندما غفل المسلمون عن هذه الحقيقة ، واتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، واستنصروا بهم على إخوتهم وبنى دينهم حق عليهم ما توعدهم الله به وما حذرهم منه ، فتفتت وحدتهم ، وتفرقت كلمتهم ، وتمزقت أمتهم ، ودالت دولتهم ، وزالت خلافتهم ، وتمكن منهم أعداؤهم من المشركين وأهل الكتاب ، وتسلطوا عليهم ، وأخرجوهم من حكم الله إلى حكم الطاغوت ، وصار بأس المسلمين فيما بينهم ، وأصبحوا شيعاً يذوق بعضهم بأس بعض ، وما نزال تحت فتنتهم حتى يردونا عن ديننا إن استطاعوا .

وقد أصبح المسلمون على يقين من أصل الداء ، ومع ذلك لا تزال الغفلة تضرب عليهم أطنابها ، ولا يزالون يؤثرون كل كافر وكل ملحد ، مهما يكن دنىء الأصل ، دانى المنزلة ، على أى مؤمن ، مهما يكن رفيع القدر ، عالى الكرامة . بل إنهم يضعون السيف فى أعناق إخوتهم من المؤمنين ، رغبة فى إرضاء هؤلاء الكفرة ، ويتشبثون بحكم الطاغوت دون حكم الله اكتساباً لمودتهم ، وأى شىء أكثر من ذلك يتمناه عدو من أعدائنا (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) . (النساء ٦٠) . وارجع بصرك حيث شئت من العالم الإسلامى ،

هل ترى لغير الكافر كلمة تطاع أو لغير أعوانهم رتبة أو منزلة ، أو لغير المسارعين فيهم منصباً أو جاهاً ، اللهم إلا من عصم الله ولم يدعوا له غناه .

ولا عودة للأمة الإسلامية ، ولا صحوة لها ، ولا نهضة يمكن أن تنهض بها من كبوتها ، ما لم تأخذ بهذا الدواء الأساسي ، الذي يساهم في إعادة الحد الأدنى من الصحة لها ، وهو الموالاة والمعاداة ، الموالاة في الله ، والمعاداة في الله ، ولاية الله ورسوله والمؤمنين ، وعداوة الشيطان وأهله من الملحدين والمشركين وأهل الكتاب ، أن نجعل ولاءنا خالصاً لكل مسلم ، مهما تكن علاقتنا الدنيوية به ، وأن يكون عداؤنا خالصاً لكل كافر ، مهما تكن علاقاتنا المادية به ، وأن نبذل جهدنا لإشاعة هذه الولاية بين المؤمنين بعضهم مع بعض وتنبيههم إليها ، وإيقاظهم وتنبيههم إلى عداوة الكافرين لهم مهما تكن مستترة أو مقنعة ، إننا بذلك نسهم في إعادة الصحة إلى جسد الأمة الإسلامية المتهالك المثخن بالجراح .

ولسوف تظل صحوة الأمة الإسلامية رهينة بإدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها .

وإذا كنا نريد التعجيل بهذه الصحوة ، فعلينا أن نعجل بإيضاح هذه الحقيقة ونشرها ، وإبرازها بصورة قوية شاملة .

(هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) (آل عمران ١١٩) .

(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) (آل عمران ١٥٠) .

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (محمد ١١) .

عن البراء بن عازب : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أي عرى الإسلام أوثق ! ؟

قال : قلنا : الصلاة .

قال : حسنة ، وما هي بها !

قلنا : صيام رمضان .

قال : حسن ، وما هو به !

قلنا : الجهاد .

قال : حسن ، وما هو به ، إن أوثق عرى الإسـلام أن تحب في الله وتبغض في الله .

رواه أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي كما روى الطبراني عن ابن عباس

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله ، والحب فى الله ، والبغض فى الله عز وجل .

فرق بين العداوة والعدوان :

وينبغى عدم الخلط بين أمرين : العداوة ، والعدوان .

إنه ليس من الضرورى حين توجد العداوة أن يقع عدوان ، بل يمكن أن يحل السلام مع ثبوت العداوة .

والمسلمون بحكم إسلامهم وبحكم اتباعهم للحق لا يبدءون بعدوان ، ولكنهم كذلك لا يقبلونه ، ولا يستسلمون له ، والمسلمون أولى الناس بالحرص على السلام إذا وجدوه ، لأن الحق ينمو وينتشر فى ظل السلام أكثر مما يكون فى ظل الحرب ، لذلك يسارعون عندما يجدون فى عدوهم ميلا إلى السلام ، تحقيقاً لقوله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) (الأنفال ٦١) .

بل إنهم يتجاوزون ذلك إلى إحسان المعاملة وإقرار العدل والقسط وتنفيذ ما يتم بينهم وبين الآخرين من عقود وعهود بمنتهى الأمانة والدقة ، وقد أمرنا الله بذلك فى قوله (يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) (المائدة ٨) ، ولقد فعلوا ذلك حتى مع المشركين حين كان لهم عهد فقال : (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) (التوبة ٤) وقال : (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) (التوبة ٧) .

والفيصل بيننا وبينهم هو العدوان بأى صورة كان ، فإذا وقع منهم عدوان فلا عهد بيننا ولا أمان ، (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (البقرة ١٩٤) .

بل إن سماحة الإسلام تتجاوز هذا الحد فى إحسان معاملتهم فيقول جل شأنه (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (الممتحنة ٨) .

لهذا ينبغى أن لا يخطر فى بالنا أن قاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية

تمنعنا من أن نعامل بالحسنى من يحسن معاملتنا منهم، ما دامت معاملتنا معهم على مقتضى القواعد والنظم المعتبرة ، والمتفـــق عليها بيننا وبينهم ، بحيث لا يكون فيها مساس بالإسلام ، ولا بأوطان المسلمين وحقوقهم ومصالحهم وبحيث لا تتعارض مع القواعد والنظم التي أقرها الإسلام ونظم بها مختلف العلاقات بين المسلمين وغيرهم من سائر الأديان .

نعم ، قد علمتنا التجارب ، خاصة في هذه الأيام التي ساد فيها سلطانهم على ديار الإسلام ، أنهم لا عهد لهم ولا أيمان ، وصدق فيهم قول الله ، ومن أصدق من الله قيلا (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) (الممتحنة ٢) .

لهذا فإنه ينبغي أن نكون أشد وعياً وأعظم حرصاً ، وأن نكون أكثر انتباهاً وحذراً ، وأن نكون أتم التزاماً بقاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية .

والله تعالى أعلم .

الدكتور عبد الفتاح عبدالله بركة

ما ينبغي للفقير

أن يلزم القناعة ، وأن يكتم الفاقة ، وأن يتجنب البذالة والتضعضع ، وأن يطمح لا يطمع ، وأن يستبشر الخير ويتأهب له .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

دكتور / يحيى هاشم

(٥)

اتجاهات فى الفكر الإسلامى لنقد العقل المستقل

تحدثنا فى المقالات السابقة عن استحالة استقلال العلم والعقل عن الدين فى تحصيل المعرفة والوصول إلى اليقين وبينّا أن العقل لا بد له من أساس إيمانى تسليمى يقوم عليه، ووجدنا هذا الأساس فى الفطرة ، أو فى الضرورة العملية ، وبقى علينا فى هذا المقال أن نبين موقف الفكر الإسلامى من اتجاهنا إلى إقرار الحدود التى تُحدِّد العقل ، وتمنعه من أداء القدرة على تحصيل المعرفة اليقينية وتجعله قاصراً عن ذلك إلا أن يستقى هذه المعرفة من إيمان سابق بالله .

إننا نجد فى تراثنا الأصيل ما يعضّد موقفنا هذا . . .

١ – لسنا بحاجة إلى التنويه بموقف الإمام الغزالى الذى سجله فى « المنقذ من الضلال» . وانتهى فيه إلى أنه لم يتوصل إلى اليقين بالحس ، أو بالعقل ، وإنما بالنور الذى قذفه الله فى قلبه . فهو موقف جليل مشهور .

لكن ما نراه جديراً بالتنويه هو موقف الإمام الرازى الذى ينظر إليه باعتباره قمة الاتجاه العقلى فى علم الكلام . فله مواقف أخرى لم تشتهر عنه.

لقد وجدنا الإمام الرازى فى كتابه (المطالب العالية) يثبت حيرته ، واتهامه العقل بالعجز عن الوصول إلى الحقيقة فى مسائل خالف فيها الأشاعرة واختار التوقف :

فى مسألة جواز رؤيته تعالى . أو العكس . . .

فى مسألة حدوث العالم أو قدمه . .

فى مسألة الجبر والاختيار[1] .

وهو ما جعله يقول :

رأيت فى بعض الكتب أنه نقل عن عظماء الحكمة وأساطين الفلسفة أنهم قالوا : الغاية القصوى فى هذا الباب الأخذ بالأولى والأخلق ، والتمسك بالجانب الأفضل الأكمل ، أما الجزم المانع من النقيض فقد لا يمكن تحصيله فى بعض المباحث . وللقائلين بهذا القول أن يحتجوا بوجوه . .

ثم يذهب الرازى يقرر هذه الحجج :

فالحجة الأولى :

قائمة على أن علم الإنسان بذاته — وهو أظهر المعلومات عنده — (قد بلغ فى الصعوبة والخفاء إلى حيث عجزت العقول عن الوصول إليه) .

فمن باب أولى : يكون علمه كذلك فى الإلهيات .

والرازى يسوق أدلة على أن علم الإنسان بذاته يكون أظهر من علمه بغيرها . ويسوق أدلته أيضًا على أن علم الإنسان بذاته قد بلغ الغاية فى الصعوبة والخفاء ، ثم هو يقرر هذه الحجة بوجه آخر يدخل فيه إلى جانب خفاء علم الإنسان بذاته ، خفاء علمه بالمكان والزمان والجسم .

وهو يوضح كيف خفى علينا العلم بهذه الأمور .

والحجة الثانية :

تشبيهه قوة البصيرة بقوة البصر ، فقوة البصر تخفى عليها المبصرات الحقيرة الضعيفة ، والمبصرات القوية القاهرة ، كقرص الشمس عند غاية لمعانه وإشراقه ، ولا تبصر بإحاطة وتمام إلا المبصرات المعتدلة أو المتوسطة فكذلك قوة البصيرة تخفى عليها — المعلومات الضعيفة الحقيرة والمعلومات القاهرة العالية المقدسة وهذه أشرفها وأعلاها ذات الله وصفاته .

والحجة الثالثة :

قائمة على تقسيم العلوم إلى تصورية وتصديقية ، والتصورية أربعة أنواع الماهيات التى تدرك بالحس ، والماهيات التى تدرك من نفوسنا إدراكًا ضروريًّا كالألم واللذة ، والماهيات التى ندركها بحكم فطرة عقولنا لتصورنا لمعنى الوجود والعدم والوحدة والكثرة ، والماهيات التى يُرَكِّبُهَا الخيال أو

---

(١) انظر مقدمة المطالب العالية تحقيق الدكتور عمران ص ٧٨ — ٨٢ .

يركبها العقل من هذه الماهيات المتقدمة هكذا . . التصورات محصورة فى هذه الأقسام وبالتالى فالتصديقات محصورة فيها ، وحقيقة الحق سبحانه مخالفة لجملة هذه الماهيات بأسرها . ثم يقرر أنه مخالف لها فى سائر الوجوه . (وإذا كان كذلك وجب ألا يكون حقيقته متصــورة للخلق بوجه من الوجوه وإذا لم تكن حقيقته متصورة للخلق كان الحكم عليها بالسلب والإيجاب البسيطين أو المركبين ممتنعاً .

الحجة الرابعة :

أن الانتقال من المعلوم إلى المجهول لا يعقل إلا بأحد ثلاثة وجوه : الاستدلال بالعلــة على المعلول ، الاستدلال بالمساوى على المساوى ، الاستدلال بالمعلول على العلة . ولا يجوز الاستدلال على الله بأحد الوجهين الأولين ويمكن بالوجه الثالث . إلا أن الوسائط ما بين المعلول والعلة بحسب درجات الموجودات المجردة المقدسة كثيرة خفية (فلا جرم بقيت أكثر النفوس البشرية فى درجة من درجات هذه المتوسطات . . بل نقول : أكثر الخلق بقوا فى حضيض عوالم المحسوسات ، والشاذ القليل منهم خلص من عالم الحس ، فيترقى من عالم المحسوسات إلى عالم الخيالات والقليل من أصحاب الخيالات انتقل إلى عالم المعقولات ، ثم فى عالم المعقولات مراتب الأرواح المقدسة كثيرة فلا جرم أكثر العقول الواصلة إلى أنوار المعقولات تلاشت وفنيت واضمحلت فى أنوار تلك الأرواح المقدســة إلا من أيد بقوة قاهرة ونفس إلهية ترقى من زنجبيل المريخ إلى سلسبيل المشترى ومنه إلى كافور زحل ثم استعلى على الكل وترقى على الكل ووصل إلى الحضرة المقدسة عن لواحق الإمكان وغبار الحدوث واستسعد بقوله وسقاهم ربهم شراباً طهوراً)[1] .

وهذا مالا لاحظه ابن تيمية أيضاً إذ يقول :

إن كبار العقليين معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين فى عامة المطالب الإلهية ، فإذا كان هكذا فالواجب تلقى ذلك من علم النبوات[2]

ويقول الإمام الرازى فى خاتمة

(١) المطالب العالية للرازى . تحقيق د. عمران ص ١٠ إلى ٣١ .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية من مجموعة الرسائل الكبرى جـ ١ ص ١٠٢ .

الفصل الرابع والعشرين الذى عقده فى إثبات وجود الله عن طريق التدبر فى أجزاء العالم : (إن الدلائل التى ذكرها الحكماء والمتكلمون وإن كانت كاملة قوية إلا أن الطريقة المذكورة فى القرآن عندى أنها أقرب إلى الحق والصواب . وذلك لأن تلك الدلائل دقيقة وبسبب ما فيها من الدقة انفتحت أبواب الشبهات وكثرت السؤالات . وأما الطريق الوارد فى القرآن فحاصله راجع إلى طريق واحد ، وهو المنع من التعمق والاحتراز عن فتح باب القيل والقال .. ويقول فى مرضه الذى توفى فيه :

(ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات . وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية . .

عن : وعيون الأنباء ٤٦٧ ، طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ٣٧ المطبعة الحسينية » ويقول ابن الصلاح : أخبرنى القطب الطوغانى مرتين أنه سمع فخر الدين الرازى يقول (ياليتنى لم أشتغل بعلم الكلام وبكى) . عن شذرات الذهب لابن العماد ٥/٢١ . وروى عنه أبيات يقول فى آخرها :

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا)

عن وفيات الأعيان ٢ : ٢٦٦ وغيرها[١]

ويقول الإمام الشاطبى :

(إن الله جعل للعقول فى إدراكها حداً تنتهى إليه لا تتعداه ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك فى كل مطلوب ، ولو كانت كذلك لاستوت مع البارى تعالى فى إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون . وقد دخل فى هذه الكلية ذوات الأشياء جملة وتفصيلا ، وصفاتها وأحوالها وأفعالها وأحكامها جملة وتفصيلا .

فالشىء الواحد من جملة الأشياء يعلمه البارى تعالى على التمام والكمال بحيث لا يعزب عن علمه مثقال ذرة لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أحكامه ولا فى أحواله .

بخلاف العبد فإن علمه بذلك قاصر ناقص[٢] .

---

(١) انظر المطالب العالية . المقدمة للدكتور عزان ص ٨٨ — ٨٩ .

(٢) الاعتصام جـ ٣ ص ٢١٦ .

ويقول الدكتور سليمان دنيا :

(إن البحث فى حقيقة ذات الله ، وحقيقة صفاته فيه مجاوزة للحدود التى رسمها لنا هادينا ومرشدنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » وفيه فضلا عن ذلك بذل لشيء غير قليل من العناء طمعا فى معرفة ما لا سبيل إلى معرفته معرفة يقينية) .

ولعل ابن رشد نفسه يعترف بأن الوصول إلى آراء عقلية يقينية فى هذا المجال أمر عزيز المنال . حيث يقول فى المسألة السادسة من كتابه « تهافت التهافت » : إن الأقاويل البرهانية – يعنى فى العلم الإلهى – قليلة جداً ، وهى من الأقاويل بمنزلة الذهب الإبريز من سائر المعادن والدر الخالص من سائر الجواهر .

ويعجبنى فى هذا المقام ما يرويه « الجلال الدوانى » فى شرحه على العقائد العضدية عن بعض الأصفياء (عندى أن زيادة الصفات وعدم زيادتها وأمثالها مما لا يدرك – أى يعلم علما يقينا – إلا بالكشف ، أى بإعلام الله عن طريق الوحى أو الإلهام ، ومن أسنده إلى غير الكشف فإنما يتراءى له ما كان غالباً على اعتقاده ، بحسب النظر الفكرى[1] .

وفى رأيى أنه إذا كان اليقين كمالا فى المعرفة – وهو كذلك – وإذا كان المتكلمون يرون أنه فى الحكمة النظرية التى هى كمال القوة النظرية فى الإنسان لابد من وضع قيد ، هو أن تكون (... بقدر الطاقة البشرية ..)[2]

فهم إذن – أى المتكلمون – يعترفون ضمناً بأن القدرة البشرية عاجزة عن تحصيل الحكمة النظرية على الوجه المذكور ، أى عاجزة عن تحصيل اليقين لأن اليقين لا يكون بغير هذه الحكمة سواء كان ذلك بالنسبة للمسائل التى يتعرض لها العقل فى مجموعها أو فى مسألة واحدة .

كذلك فإنه لما كان المتكلمون يحكمون بظنية الدليل النقلى لأنه لا يكون يقينياً إلا بشرط عدم المعارض العقلى والحكم بعدم المعارض العقلى مستحيل . فإن اشتراط عدم المعارض وارد أيضاً على الدليل العقلى مما يلزم بقصوره عن مرتبة اليقين التام .

---

(١) مقدمة تحقيق تهافت التهافت ص ٤٣ .

(٢) انظر شرح المقاصد للتفتازانى جـ١ ص٥٠ .

ولا يكفى لرفع ذلك – بالنسبة للدليل العقلى – ما ذكروه من أن الناظر فى الدليل العقلى بمقدماته القطعية يحصل له العلم بعدم المعارض بداهة – فذلك شعور فردى لايصلح فى العقليات ، ولا يتمشى مع « العلم » بمفهومه الاصطلاحى الذى يقتضى حصول اليقين .

وإنى لأختلف مع أستاذى المرحوم الدكتور محمود حب الله إذ يؤكد أن الدور الأساسى فى معرفة الله هو للعقل إذ يقول (فمعرفة الإنسان لله إذن معرفة عقلية) ودور الوحى إنما هو التذكرة والتنبيه ، (فالعقل الخالص من الشوائب هو الحكم فى جميع الحالات ، وقد يساعد كل من الوجدان والعاطفة ، ولكنهما ظهيران فحسب)[1] .

ذلك أن الكلام عن عقل خال من الشوائب هو مجرد فرض لا سبيل إلى تحقيقه ولا إلى التحقق منه ، وهو لايزيد عن افتراض وجدان خال من الشوائب أيضًا .

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر . .

(حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حداً للدين . .

حاول هؤلاء أن يجدوا فى عقل الإنسان – وحده – هاديًا ومرشداً أمينًا . . أخفقوا سعيًا وضلوا سبيلا .

لأن الطبيعة لم تحب الإنسان بشىء من ذلك[1] . .

٢ – وفى رأيى أن الذين يعطون العقل هذا الدور الأساسى – من المتكلمين والفلاسفة المسلمين – مدفوعون بنية حسنة ، إذ يتصورون أن رد الأمر إلى العقل وجعله حكمًا يسلم بما يدركه بنفسه ويرفض ما عدا ذلك هو الطريق الوحيد إلى التمييز بين العقائد الصحيحة والباطلة .

وفى رأيى أن هذا ليس هو الطريق .

وأن هناك طرقًا أخرى . .

وبتعبير أدق :

ليس العقل طريقًا إذا طلبنا اليقين المطلق فإذا اكتفينا برجحان الظن كانت هناك طرق أخرى تتكامل مع العقل ، وهى أكثر قربًا من طبيعة الإنسان وإمكاناته ، وأقل مشقة وبذلا للجهد . .

إن ما أراه هو أن العقل محتاج

---

(١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص٢٥٢ للدكتور محمود حب الله طبعة ١٩٤٨م .

(١) ملتقى السبيل ص ٥١ – ٥٢ .

للشرع احتياجاً رئيسياً لا لمجرد التذكرة والتنبيه ، وذلك فى جميع أنواع العلوم .

فبالنسبة للعلوم الضرورية « البدهيات » نرى العقل فى حاجة إلى الشرع للوثوق بها ، لأنها علوم حادثة والثقة فيها لا تحقق إلا بالثقة فيمن أحدثها ، ومحدثها هو الله تعالى[١] فلابد من الإيمان به سبحانه أولا .. وفى هذا قول الإمام الشاطبى (فالعقل غير مستقل ألبته على غير أصل وإنما يبنى على أصل متقدم على الإطلاق)[٢]

وبالنسبة للعلوم النظرية يقول الإمام الشاطبى (لايمكن الاتفاق فيها عادة لاختلاف القرائح والأنظار ، فإذا وقع الاختلاف فيها لم يكن بد من مخبر بحقيقتها . . .

ويقرر الإمام الشاطبى أن العقل محكوم بالشرع وليس حاكماً ، إذ يقول : (فهذا أصل اقتضى للعاقل ألا يجعل العقل حاكماً بإطلاق ، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشرع . بل الواجب عليه أن يقدم ما حقه التقديم وهو الشرع ، ويؤخر ما حقه التأخير وهو نظر العقل لأنه لا يصح تقديم الناقص حاكماً على الكامل لأنه خلاف المعقول والمنقول .

والذى أراه أنه ليس من السائغ قول المتكلمين بأن الشرع جاء ليدعو العقل إلى البحث النظرى الطويل المعقد فى حدوث العالم ، ووجود الله ، وكونه عالماً قادراً مرسلا للرسل ، مظهراً للمعجزة على أيديهم ، وذلك كله قبل أن يكلف الإنسان بالإيمان وتوابعه ، فإذا وصل العقل فى بحثه النظرى إلى الإيمان بوجود الله ولواحقه بدأ الشرع فى تكليف الإنسان . . .

إن معنى ذلك أن الشرع يقف موقف المستأذن من العقل . .

وهذا غير مستساغ لمنزلة الشرع والعقل والإنسان ، إن الشرع هو الأعلى ، إنه صادر من قبل الخالق فلا يتصور أن يقف موقف المستأذن من العقل ، يأذن العقل إذا عرف ولا يأذن إذا لم يعرف .

كذلك فإن الشرع جاء لهداية الإنسان فما الحال إذا لم يأذن العقل — وهذا يحدث كثيراً بحجة أنه لم يعرف ؟

وهل من مهمة الشرع أن يأتى

---

(١) عند كل من الأشاعرة والمعتزلة أن العلوم الضرورية والنظرية مخلوقة لله تعالى . .

(٢) الاعتصام جـ ١ ص ٤٥ .

بأدلة «عقلية» يقدمها للعقل لكي يعرف فيأذن ؟ وهذه الأدلة العقلية التي جاء بها الشرع ألم تخطر على العقل بدونه ؟ فهل مهمة الشرع أن يذكِّر العقل بهذه الأدلة ؟ هذه مهمة متواضعة إلى حد لا يليق بمكانة الشرع ، ولا بقدرة الشارع ولا بحرصه على هداية البشر (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

إن العقل مخلوق للشارع مملوك له ، فلا يليق بنا أن نقول للشارع أن ينتظر من العقل حكومته وإذنه .

إن الأليق بنا في هذا المقام أن نقول عن الشارع إنه قادر على أن يتدخل بخلق العقل على نحو يفطر فيه إلى معرفة الله ، وهذا هو مذهب الفطرة ، أو معرفة الله بالضرورة ، لا بالبحث والنظر .

أو نقول إنه يتدخل بتبليغ الحكم النهائي الذي ينبغي للعقول المتخالفة أن «تستمع» إليه نزولا على ما نسميه «الضرورة العملية» وهذا هو مذهب التلقي من الرسول :

تَلَقِّي العقائد والشرائع كلها ، لا فرق بين مسألة منها ومسألة أخرى..

والله الموفق .

د. يحيى هاشم

قال أحد الحكماء

لا تجعل مالك أكرم عليك من عرضك ، وإن بليت بصحبة السلطان فكن منه على حذر ، ولا تمازح لبيباً فيحقد عليك .. ولا سفيها فيجترئ عليك . .

من تراثنا الحديث :

منهج المدرسة الإسلامية الأولى

المرحوم العلامة

محب الدين الخطيب

المدرسة الإسلامية الأولى التى لم يكن للمسلمين مدرسة قبلها ، ولم ينجحوا فى جميع أدوار تاريخهم فى تأسيس مدرسة تضارعها فى مهمة تكوين الرجولة ، وفى تهذيب النفس الإنسانية وتوجيهها إلى الحق والخير — هى هذه البقعة التى لا تزال موجودة إلى اليوم فى المسجد النبوى بالمدينة ، بين منزل أم المؤمنين عائشة الذى تشرف بالقبر المحمدى الطاهر ، وبين موضع منبره صلى الله عليه وسلم فى جنوب ذلك البيت .

وتلك البقعة التى كانت فيها المدرسة الإسلامية الأولى كانت فى الوقت نفسه دار الحكم الأولى فى الإسلام ، ومركز التعبئة الأول لكتائب الحق ، وأول ندوة أعد فيها دعاة المسلمين وقادتهم لإصلاح العالم بعناية عبده ورسوله صلوات الله عليه وسلامه .

ولقد كان من واجبات المشتغلين بالتاريخ من رجال الأمة الإسلامية البحث عن (النصوص السليمة) التى أبقاها لنا التاريخ دالة على شىء من الأساليب والطرق التى ربى بها الهادى الأعظم صلى الله عليه وسلم أصحابه الأولين ، وكون منهم أمثلة الكمال فى الرجولة ، وفضائل النفس ، والاستعداد العجيب لممارسة الحكم العادل الرحيم .

والذى عرفناه بتتبعنا لهذا الموضوع العظيم — الذى يتوقف بعثنا السعيد على معرفته والعمل به — أن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يهتم بحشد المعلومات الكثيرة فى ذاكرة أصحابه ، وإنما يهتم بتلقينهم المبدأ الصحيح بعد المبدأ الصحيح والحقيقة الناصعة بعد الحقيقة الناصعة ، والفضيلة المصهورة بعد الفضيلة المصهورة ويطالبهم بأن يتخلقوا بكل خليقة من هذه الخلائق حتى تمازج دماءهم وتخالط ينابيع الإيمان من قلوبهم ثم ينقلهم إلى

غيرها . وكان الكتاب الذى يستمد منه هذه المبادئ والحقائق والفضائل هو كتاب الله ، وينتهج - فى تمرين أرواح - أصحابه عليها - منهج التدريج عملا بسنة الله فى تنجيم النزول ، فلا تنزل الآية أو الآيات من وحى الله حتى يكون أولياء الله من أصحاب رسوله تخلقوا بالآيات التى نزلت قبلها وأصبحت سجية لهم لا يعرفون سجية لهم غيرها .

وقد التزم هذه الطريقة تلاميذه من كبار الصحابة فى نقل العلم المحمدى والرسالة الإسلامية إلى نفوس تلاميذهم من كبار التابعين .

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية فى « رسالة الإكليل » عن أبى عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى تلميذ أميرى المؤمنين عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأضرابهما من علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود وزيد ابن ثابت وأبى بن كعب ثم كان شيخاً لشيوخ أئمة الإسلام كعاصم بن أبى النجود وعطاء بن السائب وأبى إسحاق السبيعى وعامر الشعبى والحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب وعشرات غيرهم من عظماء السلف . يقول أبو عبد الرحمن السلمى فيما نقله ابن تيمية : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا - عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من « العلم » و « العمل » . قالوا (أى الصحابة) : فتعلمنا القرآن والعلم . ورأيت مثل هذا النص فى ترجمة أبى عبد الرحمن من طبقات القراء لابن الجزرى (١ : ٤١٣ - الترجمة ١٧٥٥) : روى حماد بن زيد وغيره عن عطـاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمى قال : أخذت القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعلمو ما فيهن ، فكنا (نتعلم) القرآن و (العمل) به ، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوز ههنا (ووضع يده على حلقومه) .

ومن عملهم بالقرآن ألا يعصوا الله بتناول الأجر عليه . قال عطاء بن السائب : كان رجل يقرأ على أبى عبد الرحمن السلمى ، فأهدى له فرساً ، فردها وقال : ألا كان هذا قبل القراءة ؟

ولو أن أزهرنا ومعاهده ، ومدارسنا

وما بعدها من جامعات ، تعنى بتربية نفوس التلاميذ قبل عنايتها بحشد المعلومات فى ذاكرتهم ولا تملى عليهم إلا الحق والخير، ولا تجاوز شيئاً من هذا الحق والخير إلا بعد أن يؤمن به تلاميذهم ، ويعاهدوا على العمل به وعلى إقامته فى الأرض حتى يكون هو المعمول به ، وهو المرجوع إليه ، وهو المطلوب فى التعامل والتعاون والتنافس فى كل الظروف والأحوال ، لأنتج هذا المنهج فى التعليم فى هذا القرن الرابع عشر مثل النتيجة التى كانت له فى القرن الأول للهجرة .

مفهوم الإسلام

« الإسلام : تسليم النفس إلى الحق الذى جاء من عند الله بلسان جميع أنبيائه ورسله » .

« والمسلم : هو الذى يوطن نفسه على أن تكون منقادة للحق الذى تولت رسالات الله الدعوة إليه ، ورفعت لواءه فى أجيال الإنسانية من أقدم عهودها » .

بين العلم والثقافة

العلم شىء ، والثقافة شىء آخر .

العلم عالمى، لا تختص به أمة دون أمة ، ولا تحتكره قارة من قارات الأرض فيكون غيرها عالة عليها فيه . إنه مشاع كالهواء الذى تتنفسه ، والبحار التى تحيط باليابسة وتمخر فيها ألوف السفن حاملة مئات الأعلام . ثم إن العلم تراث إنسانى ، ما من أمة إلا لها فيه جهاد وجهود ، وكل درجة ارتقاها العلم فى أى عصر من عصوره على يد أمة من الأمم فى بلد من بلاد الناس ، إنما كان ذلك بفضل درجة أخرى قبلها كان العلم قد وصل إليها فى عصر آخر قبل ذلك العصر وعلى يد أمة أخرى من الأمم فى بلد غير ذلك البلد الذى وصل العلم فيه إلى الدرجة التى تلى تلك الدرجة .

ولكن ما هو العلم ، وما هى الثقافة ، ولماذا كانت غيره وكان هو غيرها ؟

العلم : هو مجموعة الحقائق التى توصل إليها العقل البشرى فى مراحل تفكيره وتجاربه وملاحظاته المتسلسلة بتسلسل الزمن ، والمحررة بالامتحانات المتكررة ، فلا تختلف بتفاوت الأذواق ، ولا تتغير بتطور المصالح ، إن جدول الضرب من المعارف الإنسانية العريقة فى القدم ، وسيبقى حاجة من الحاجات الأولية لطلاب علم الحساب فى كل وطن وفى كل زمن . ولولا ما كان معروفاً قبل

العرب والمسلمين من علم الحساب لما توصل العرب والمسلمون إلى إتحاف الإنسانية بالحقائق الأولية من قواعد علم الجبر والمقابلة ، ولولا علم الجبر والمقابلة الذى توصل علماؤنا إليه قبل مئات السنين لما تقدمت فى العصور الأخيرة العلوم الرياضية الأخرى التى وصلت بها الأعمال الهندسية إلى ماوصلت إليه الآن من التقدم . فالعلوم الرياضية والحقائق الهندسية من العلم العالمى المشاع بين البشر ، والذى اشتركت عقول البشر فى تقدمه وارتقائه منذ العصور العريقة فى القدم ، ولا غضاضة على أمة فى أن تطلب العلم به حيث تجده . وكذلك الطب وعلوم الطبيعة وكل ما تمس إليه حاجة الأمم فى قوتها وأسباب عزتها وتوفير حاجات أوطانها ، والمسلمون على الخصوص يوجب عليهم دينهم أن يتعلموا ما تدعو حاجتهم فى مرافقهم إلى تعلمه من العلوم التى إن لم يحذقوها تولاها عنهم الأغيار ، وكان جهلهم بها من أسباب ضعفهم القومى والملى .

هذا النوع من المعارف الإنسانية هو « العلم » ، وهو واحد فى كل أمة ، وهو اليوم سبيل القوة فى الحرب والسلم ، وهو الذى ينبغى للمسلمين أن يكون فيهم — دائماً — العدد الكافى من العالمين به ليتولوا مرافق بلادهم بأنفسهم ، ويحققوا أسباب قوتهم الصناعية والحربية والاقتصادية بأيديهم ، وإذا لم يتحقق ذلك إلا بإرسال البعثات إلى البلاد التى تفوقت به فعليهم أن يوالوا إرسالها إلى أن يتوافر عندهم من أبنائهم رجال الكفاية لسد هذه الحاجة على قدرها .

ولكن ، هذا « العلم » شىء ، و « الثقافة » شىء آخر .

الثقافة فى كل أمة لها لون قوى خاص تستمده من مألوفها ، ومن ذوقها ، ومن مواريثها الأدبية ، ومن ظروفها الجغرافية ، ومن ضروراتها الإقليمية ، وحاجاتها الاجتماعية . ولذلك نرى الثقافة الفرنسية تختلف عن الثقافة الألمانية ، بل نرى الثقافة البريطانية تختلف عن الثقافة الأمريكية مع اتحاد الأمتين فى اللغة والآداب — والصينيون يتفقون مع اليابانيين فى الكثير من المقومات ، وكانوا بين الحربين العالميتين فى حاجة إلى عضد قوى يستعينون به لمقاومة الاستعمار المحيط بهم من كل جانب ، ومع ذلك فإن اختلاف الثقافتين أنشب الحرب بين الصين واليابان سنين طويلة قبل الحرب العالمية الثانية وفى خلالها . ولو لم تكن

الثقافة من الفوارق الجوهرية بين الأمم لكان من المعقول أن تتعاون الصين واليابان وتتحد وجهتهما وكانت تكون منهما حينئذ قوة رهيبة لعلها تكتسح الأمم وذلك ما كان ينذر به إمبراطور ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى ويسميه « الخطر الأصفر » .

تاريخ الأمة من عناصر ثقافتها ، آداب الأمة من صميم ثقافتها ، أخلاق الأمة فى كل عصر من عصورها حلقة من سلسلة الأخلاق القومية التى هى من ميراث الماضى ، وقد يكون فى ميراث الأمة من أخلاق ماضيها الكثير من الخير والكثير مما ينافيه فعليها أن تصلح بخيرها المتوارث ما ينافيه من الأخلاق التى تحتاج إلى إصلاح ، فإذا حاولت الأمة أن تتنكر للطيب من تراثها الأخلاقى بتطعيمه بأخلاق أجنبية عنها أضاعت نفسها وفقدت أصالتها وصارت إلى هجنة تنافى الأصالة ، ويحتقرها الأصلاء من أصحاب تلك الأخلاق الأجنبية . وأذكر كلمة حكيمة لبسمارك كان قالها لغليوم الثانى لما كان لا يزال ولى عهد الإمبراطورية الألمانية حينما أرسلوه إلى روسيا ليمثل ألمانيا فى مناسبة من المناسبات ، فقد قال له بسمارك : « إنك ذاهب إلى بلاد شرقية ، فإذا رأيت الشرق المتمسك بزيه الأصيل ، وإذا رأيت الشرق الذى لبس البنطلون تقليداً للغرب ، فاعلم أنه فقد مواريثه فى الفضائل ، ولم يكتسب أخلاق الغرب وفضائله » .

إن القول الفصل بين العلم والثقافة ، هو أن العلم عالمى والثقافة قومية وملية والعلم لا لون له ، والثقافة ذات لون . وكذب أن فى الدنيا ثقافة عالية ، ولا يمكن أن تكون فيها ثقافة عالمية . فعلى كل أمة أن تتمسك بثقافتها ، وأن تبعث فيها أسباب الحيوية بوصل ما بين ماضيها وآتيها ، خصوصاً نحن المسلمين الذين لا تكون مسلمين بارتياد الجامع فقط ، ولا بتصحيح العقيدة فقط ، بل إن إسلامنا يتناول البيت كما يتناول الجامع ، ويفرض سننه وأحكامه على المجتمع كما يفرضها على الفرد . وسنن الإسلام وأحكامه مصدر كريم من مصادر ثقافتنا ، فلا يكفى أن نعرف كيف نصلى ، بل يجب أن نعرف كيف نكون أفراداً مسلمين فى مجتمع إسلامى ، وأن نعرف كيف نكون رعايا مسلمين لدولة إسلامية .

وبعد : فإن للإسلام وهو الدين

الاجتماعى — ثقافة واسعة شاملة فى هذه الأمور وفى كل الأمور . ولولا أن دانلوب حرم المتعلمين فى مصر من أن يتعرفوا إلى ثقافتهم الإسلامية ، فجرد مدارس الدولة منها ، لكان الجيل القائم الآن خيراً منه الآن ، ولقطعنا شوطاً طويلا فى طريقنا إلى القوة وإلى العزة وإلى السعادة والسلامة والعافية .

والمطلوب من وزارة التربية والتعليم — بعد أن جعلت التربية العنصر الأول من عناصر رسالتها . أن تلتمس كل الأسباب للتعرف إلى التربية الإسلامية وتعريف الجيل بها ، لأن التربية من أهم عناصر الثقافة ، وما دمنا فى بلد إسلامى عربى فيجب أن تكون ثقافتنا إسلامية عربية ، وتربية أبنائنا تربية إسلامية عربية ، وهذا — لا ينافى إرسال البعثات إلى أوربا وإلى أمريكا لتخريج مهندسين فى الطبقة الأولى ، وكيماويين وأطباء فى الذروة العليا ، وعلماء معادن وجيولوجيا من الطراز الأول ، لأن هذه المعارف من العلم العالمى الذى لا لون له ، ونحن فى حاجة إليها فى مرافقنا وتعدين معادننا ، واستنباط البترول من تربتنا ، وإصلاح زراعتنا وتوسيعها . وتجهيزها بوسائل الرى والصرف ، وإقامة المصانع لكل ما نحتاجه فى حربنا وسلمنا . هذا العلم يجب أن نأخذه حيث وجدناه .

أما المعارف التى لها لون قومى ، لأقوام غير أقوامنا ، ولها لون وطنى لأوطان غير أوطاننا ، ولها لون ملى لملل غير ملتنا ، فذلك ما يسمى ثقافة . ونحن فى غنى عنه بثقافتنا التى يجب أن نستمدها من مألوفنا ، ومن ذوقنا ، ومن مواريثنا الأدبية وظروفنا الجغرافية ، وضروراتنا الإقليمية ، وحاجاتنا الاجتماعية ولهذه الثقافة مثل فى تاريخنا وتراجم أسلافنا ، فيجب أن نعرفها بمعرفتهم ، وأن ندرسها بدراسة تراجمهم ، وأن نحييها بالتخلق بأخلاق أهلها واتخاذهم قدوة لنا وأسوة .

نحن فى مرحلة انتقال ، ومن النصح للأمة أن نتعاون على معرفة الطريق الذى نسلكه إلى مرحلتنا الجديدة . وعندى أنه الطريق الذى يجمع بين تعلم كل ما عند غيرنا من العلوم العالمية التى لا لون لها ، والاحتفاظ بكل مـــا يحفظ علينا إسلامنا وعروبتنا ومصريتنا من الثقافة التى نحن أغنى أمم الأرض بها ، ما علينا إلا أن نستأنف دراستها وأحياءها والعمل بها ، ويومئذ تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

الأساس الذى تقيم عليه نهضتنا :

الأمم العربية والعالم الإسلامى على على أبواب نهضة وبعث جديد لا شك فيهما . وفى كل يوم ألقى شباباً من شبابنا المثقف يسألنى الواحد منهم ، أول ما يسأل :

— ماذا يجب أن نعمل ، بماذا يجب أن أبدأ ، ما هو الطريق الذى تشير على بأن أجعله طريقى فى الحياة ؟

كلهم متوثبون ، وكلهم يريدون أن يعلموا . ولكنهم يريدون أن يجدوا من يدلهم على طريق العمل ، وعلى نوع العمل .

وجوابى دائماً لأمثال هؤلاء الشبان الأطهار : إن العمل كثير ، والمهمة التى تواجه هذا الجيل ، وكان يجب عليه أن يضطلع بها كاملة وافية ، أعظم من أن يكفى لها عددنا لو أننا تفرغنا كلنا لها . لأن من ورائنا تراث أربعة عشر قرناً فى الإسلام يجب علينا دراسته وتحليله ومعرفة جميع عناصر الخير والشر التى فيه ، وسيرة الذين عملوا لأخذ المسلمين إلى طريق الإسلام ، والآخرين الذين عملوا لتحويل المسلمين عن أهداف الإسلام باسم الإسلام .

وأولئك من الكثرة إلى درجة أن الذين نسمع بأسمائهم ونعرف شيئاً عنهم لا يبلغون جزءاً من مليون جزء من رجال العلم والأخلاق والفضائل والجهاد فى سبيل الحق والخير . والآخرون الذين أفسدوا فى الإسلام باسم الإسلام قد أنسى الله المسلمين العدد الأعظم من أسمائهم فماتوا وماتت أسماؤهم معهم ، لأن أكثرهم كان يعمل فى الخفاء ، وأهل الظهور من منافقيهم تركوا وراءهم ما سيفضحهم — إن شاء الله — يوم نجرد التركة ، ونحلل التراث ونميز بين ما فيه من خير وحق ، وما فيه من شر وباطل . إلا أن أهل الشهرة من دعاة البدع — وإن كانوا قد بادوا وبادت أسماء أكثرهم — لا يزال كثير من بدعهم مشوباً به كثير من فضائلنا وتقاليدنا ومحفوظاتنا .

هذا بعض تراث الإسلام فينا من أربعة عشر قرناً ، وأن لنا وراءه تراثاً آخر للعروبة ويتوغل أكثر من أربعين قرناً فى أحشاء الماضى ، ومنه هذه اللغة العجيبة الثرية ، الدقيقة ، الجميلة ، الوارفة الظلال ، الأبدية الحياة ، هذه اللغة وما تدل عليه من خطرات نفس

ومدارك عقل ، وعواطف قلب ، وتسلسل وتناسل وتكاثر فى المعانى وفى مشتقات الألفاظ الدالة على هذه المعانى — كل ذلك يحتاج منا إلى دراسات لا آخر لها.

للجهاد بالسلاح أهله الذين وجههم الله إليه ، ويسره لهم .

وللجهاد بالدعوة أهله الذين وجههم الله إليه ويسره لهم .

وللجهاد الاقتصادى أهله كذلك .

وما من عمل ظاهر ويتصل بمعايش المثقفين إلا وله من أبنائنا المثقفين كتائب مجندة للاطلاع به .

أما تراث الإسلام ، وتحليل ما تلقيناه عنه من عناصر إسلامية سليمة ، ومن عناصر أجنبية طارئة عليه فتولدت منها البدع ، وتفرعت عنها المذاهب الشاذة والطوائف المنابذة للأهداف الإسلامية الأولى ، فهذا قلما وجد فى شبابنا من تفرغ لدراسته ، ومعرفة مصادر هذه الدراسة ، وكيفية التمييز بين الحقائق وأضدادها ، والميزان الذى توزن به الفضائل وأهلها .

إن المستشرقين حاولوا هذا بتأليفهم (دائرة المعارف الإسلامية) ، وهو مجهود علمى عظيم تضافروا عليه جميعاً وأسهم فيه كل واحد منهم من الجهة التى له فيها يد ، وسبق له فى موضوعها دراسة وتخصص . إلا أن للمستشرقين وجهة نظر إلى التراث الإسلامى غير الوجهة التى يتجه إليها نظر المسلمين أنفسهم لو درسوا هذا التراث الإسلامى كدراسة المستشرقين له .

وإن مثل هذا الجهد العظيم الذى بذله المستشرقون فى — دائرة المعارف الإسلامية — وهو جهد جهيد وعظيم حقًا — لو بذل المسلمون أنفسهم مثله لجاء منه عمل آخر غير هذا العمل ، لأنهم يدركون من هذه الدراسة مالا يدركه المستشرقون ، ويشعرون بعداوة الأعداء للإسلام فى ماضى المسلمين وبإخلاص المخلصين منهم له مالا يشعر به المستشرقون . وفى الحق أننا أمة تحتاج فى هذا الجيل إلى أن تعرف ما تخلف فى الإسلام من عداوة أعدائه وصدق أصدقائه . ولكن دراسة كدراسة المستشرقين لهذا التراث تحتاج إلى جهود لا نرى فى الذين يسألون من شبابنا « ماذا نعمل ؟ » من يأنس فى نفسه الرضا بيلها ، وإذا أنس من نفسه ذلك لا يجد من ثقافته التى قدمتها له الدولة فى مدارسها ما يؤهله لذلك ما لم يكن عنده استعداد شخصى يتغلب

على هذه الصعوبة . ومن العجيب أن يستسهل المستشرق الأجنبي عن الإسلام ما يستصعبه الشاب المسلم الناشئ في مدارس دول تنتسب إلى الإسلام .

العمل واسع . وكثير النواحي ، وهو دراسة وتحليل وتنظيم لجهود أربعة عشر قرناً في الإسلام ، وأربعين قرناً في تراث العروبة قبله . ولا بد لبعث هذا التراث وتنظيمه من أن يتخصص في المثقفين منا مئات في مختلف نواحي التراث الإسلامي والماضي العربي . ليصيروا فينا نوابغ في هذه النواحي كالنوابغ من المستشرقين الذين نرى أسماءهم في ذيل المواد الدقيقة التي تتألف منها أجزاء « دائرة المعارف الإسلامية » .

وبعث هذا التراث وتدوينه على هذا الوجه هو « الأساس » الذي تقوم عليه « النهضة » والذي تستطيع أن تبني عليه ثقافتنا المستقبلة .

أما طريقة حملة الأقلام الآن ممن « يسرقون » جهود المستشرقين ، ويعرضونها علينا بعجرها وبجرها ، وبدسائس أصحابها فيها ، ثم يزعمون أنها من « تأليفهم » فإن نظرة واحدة فيها تدل على أنهم لم تقع أنظارهم على المراجع العربية التي أخذ عنها المستشرقون ولا يعرفون عنها شيئاً ، وما دمنا على هذه الحالة ، تبعاً لأسلوب التعليم الذي يتخرج به النشء ، فسنبقى غرباء عن العلم ، وعالة على الأجانب فيه وضحايا لأغراضهم التي يروجونها علينا بأساليب تخفى على أشباه العلماء ، وتنقطع لها قلوب العارفين .

ترى متى نضع « الأساس » لنهضتنا وثقافتنا ببعث تراثنا وتحليله وتنظيمه . إن المسلم في المجتمع الإنساني أشبه بابن السبيل الهائم على وجهه في بيداء الحياة . وبيداء الحياة — التي يهيم فيه المسلم على وجهه منذ ولد إلى أن يلقى الله راضياً عنه أو ساخطاً عليه — هي هذا المجتمع الإنساني المختلف الأهواء المتضارب العقائد ، المتباين المقاصد والمشارب والأخلاق والسجايا .

والمسلم ليس مسلماً بشهادة الميلاد ، فهذه أخس الشهادات للمسلم على إسلامه . ولا هو مسلم بما يقوم به من الفرائض المكتوبة عليه وحسب ، فهذا شطر من إسلامه الذي لا يستكمله إلا باستيفاء سائر وجوه الإسلام ونواحيه . لأن الإسلام أوسع الديانات دائرة وأعمها أغراضاً وأدقها أنظمة ، وأبعدها هدفاً . وهو أعظم رسالات الله ، وأشملها للمعاني الإنسانية العليا التي حامت حولها أحلام

حكماء الأرض ، وعليها تتوقف السعادة بأكمل ما ترتجى .

ومن الأغراض التى جاء بها الإسلام، بل من الشروط التى يتوقف عليها تحقيق أغراضه ، أن يجعل من المسلمين فى بيداء الحياة قافلة ممتازة بسجايا ومبادئ وصفات ومظاهر وأنظمة خاصة بهم ، وبها يتحقق اتساع وشمول غرضه والوصول إلى أهدافه . وتفقد هذه القافلة الممتازة صفة امتيازها إذا هى انساقت فى قافلة الملل الأخرى ، ولو فيما تظن أنه لا يمس العقيدة أن ينقص من العبادة ؛ لأن أهل هذه القافلة أراد لهم إسلامهم ألا ينطبعوا إلا بطابعه ، وألا يصطبغوا إلا بصبغته ، وألا يسايروا فى بيداء الحياة إلا المنتظمين فى نظامهم المنخرطين فى سلكهم ، المتخلقين بخلائقهم وسجاياهم . وليس ذلك أنانية منهم ، أو أثرة من نظامهم ، بل لأن الأسس التى قام عليها نظامهم والأغراض التى يهدف إليها هى التى تتم بها السعادة للإنسانية .

والإسلام كل لا يتجزأ . ففضائله بغير عقائده ناقصة ، وعباداته مجردة من فضائله تلعن صاحبها ، وعقائدها مجردة من أنظمته تعيش مريضة حتى تقام أنظمته فتحيا بها عقائده .

ولذلك كان الإيمان الإسلامى بضعاً وسبعين شعبه ، وكل ما جاء الأمر به كتاب الله وسنة الهادى الأعظم صلى الله عليه وسلم فهو من شعب الإيمان ، وما يتعلق منه بفضائل الأخلاق وحسن التعامل مع الناس أكبر أجزائه وأكثر شعبه . وكل ما جاء النهى عنه فى كتاب الله وهداية المرشد الأعظم صلى الله عليه وسلم فالانتهاء عنه من شعب الإيمان ، وما يتعلق منه بالتنزه عن شوائن الأخلاق والتعفف عن معاملة الناس بالباطل والشر من أكبر تلك الشعب .

هذه الأوامر الإسلامية فى كتاب الله وسنة رسوله تناولت كل حق عرفه البشر ، وكل خير خطر على بال حكمائهم وأذكيائهم وقادة الفكر منهم . وهذه النواهى الإسلامية فى كتاب الله وسنة رسوله أحاطت بجميع معانى الباطل وبكل ما يهدف إليه الشر وأهله . لذلك كانت أوامر الإسلام ونواهيه مناط السعادة ، لأنها جماع الحق والخير ، ووقاية الله من الباطل والشر . وأن ديننا جعل مجموع هذا من شعب الإيمان به لجدير بما وصفنا من أنه هو الإنسانية العليا التى أوحت بها السماء إلى أهل الأرض .

وقد نبغ من عظماء دعاة الهداية الخلفاء الراشدون ، وأصحابه العدول الهادون المهتدون ، والتابعون لهم بإحسان ، وحملة هذه الأمانات من الأئمة والعلماء والصالحين . وفى سيرة هؤلاء تطبيق عملى لهذه الهداية ، وفى أقوالهم المأثورة تفسير لما ورد منها مجملا فى كتاب الله وسنة رسوله . ومجموع ذلك تتألف منه فى بيداء الحياة معالم للمسلمين تستدل بها قوافل أجيالهم على الوجه التى وجهها الإسلام إليها .

والمسلمون ذلوا وضعفوا ، وأخطأهم النصر والتوفيق ، وأبطأ عليهم الارتقاء والتقدم والتميز على أمم الأرض ، منذ تجاهلوا معالمهم ، وسايروا أهل الحضارات والملل والأهواء فى طرقهم وأنظمتهم وتقاليدهم ومظاهرهم وأذواقهم وأساليب تفكيرهم . وسيستشعرون العزة والقوة ، وينالون الفوز والظفر ، ويقودون حركة التقدم فى الأرض ، يوم يعرفون معالمهم فتسترشد بها قوافلهم فى بيداء الحياة .

أيها المسلمون ، إن لكم معالم ، فانتهوا إلى معالمكم . .

محب الدين الخطيب

آداب الشريف

يصون شرفه ، ولا يأكل بنسبة ، ولا يتعدى بحسبه ،
ويهذب أخلاقه ، ويتحفظ فى الفاظه عند غضبه وخطابه ،
يكرم جلساءه ، ويواصل إخوانه ، ويصون أقاربه ،
ويعين جيرانه ، ويزين بنفسه أخدانه . .

دعوة صادقة :

عالم أزهرى يدعو إلى السلام العالمى

للدكتور محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

فى أوائل سنة ١٩٤٦ م بعد أن اخترعت القنبلة الذرية ، وكثر الحديث عن مصائبها الهائلة ، ورأى الناس بأعينهم فظائعها الرهيبة فى اليابان ، كتب أحد رؤساء الأديان مقالا قوياً تحت عنوان : (يجب أن تختار الإنسانية بين الخوف من الله ، والخوف من القنبلة الذرية) ، وجعل إهداءه لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، وكان شيخ الأزهر حينئذ ، وله من المكانة العلمية والجلال الدينى والنظر الفلسفى ما يستطيع به أن يفهم مغزى المقال فهماً إيجابياً يدفع إلى العمل قدر الطاقة لإنقاذ البشر من هاوية الفناء المتربص ، وكان الشيخ حكيماً رزيناً ، فعمل على ترجمة المقال إلى العربية ، وأمر بنشره فى مجلة الأزهر ، بالمجلد السابع عشر فى الصفحات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ثم اجتمع بذوى البيان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر ليدعوهم إلى التفكير فيما كتبه صاحب المقال ، ولإبداء الرأى من وجهة عقلية تقنع كل قارئ مهما كان مذهبه الدينى ، ومعتقده السياسى ، وموقعه الجغرافى ، ليستطيع صوت الدين العاقل أن ينقذ البشرية من أعاصير الرعب وزعازع الفزع ، وقد شاء الله أن يلقى الشيخ الأكبر ربه قبل أن يجد من كتابات الكاتبين ما يعلن وجهة نظر الأزهر ، فذهب الموضوع بذهابه . ولكن عالماً كبيراً من أعضاء

جماعة كبار العلماء هو الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ذو الرأى الحر ، والقلم البليغ ، كان قد احتفل بالموضوع وشغل ذهنه المفكر ، فأخذ يدون خواطره فى أوراق متناثرة ، وكان موقفه من الدقة البالغة بحيث آثر التريث المتئد ، آخذاً فى حسابه أنه يخاطب الناس جميعاً بمنطق العقل وحده ، فلا مجال إلى الاستشهاد بالنصوص الدينية التى يؤمن بها فريق دون فريق ، ولا إلى عرض أحداث خاصة لا تمثل القاسم المشترك بين ذوى الأفهام من أبناء البشر كافة ، حتى استطاع أن يُخرج كتابه الرائع (إنقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضا بالحرب الذرية) وكان الظن بمفكرى العالم العربى فضلا عن جميع المفكرين قاطبة أن يعطوا للكتاب ما يستحقه من التحليل والنقد، ولكن العجب العاجب أن يُهْمَل الكتابُ فى حياة صاحبه ، وبعد أن لقى ربه سعيداً بما قدّم من جهاد فى شتى ميادين الإصلاح العلمى والاجتماعى ، على حين نرى الصحف من يومية وأسبوعية وشهرية حافلةً بتحليل كتب معاصرة تنحو منحى الأستاذ ، كتبها نفر من مفكرى أوربا وأمريكا ، فلاقت استهواءً جاذبًا لدى قوم منا يتلقفون كل غريب بالاحتفاء والتنويه ويعرضون عما يقوله علماؤهم دون أن يقرءوه ! ولعلى أرضى ضميرى الناقم حين أتحدث عن دعوة شيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة رحمه الله فى هذه السطور .

بدأ الأستاذ كتابه بالحديث عن الحياد الإيجابى، بين الكتلتين المتصارعتين فذكر أن الناس يلهجونً به ، ويؤيدونه فى مقالات عاطفية ، وندوات خطابية دون أن يُقيموا له فلسفةً نظرية تجمع الأدلة المقنعة على ضرورته ، على حين نرى لكل من الشيوعية والرأسمالية فلسفتها المدعمة بالآراء والأرقام والأحداث ، فإذا شئنا أن نؤيد هذا الحياد ، فلا بد من ارتكازه على نظر فلسفى يقف به أمام ما ينازعه من المذاهب ، وفى هذا النطاق يؤلف الأستاذ كتابه ، والحق أن ما كتبه المؤلف لا يقف عند النظر الفلسفى وحــده ، لأن الفلسفة تخاطب العقل ، وتنأى عن مؤثرات العاطفة ، وكلُّ دعوة يتوجه بها صاحبها إلى الناس لا بد أن تخاطب العقل والعاطفة معًا ، فلو قصر المؤلف كثيراً من قرائه الذين لا يصبرون على

حديثه على الإقناع الفلسفى وحده لحسر غموض الأدلة وتشابكها، وهكذا وفقَّ اللهُ الكاتب لأن يكون مفكراً ذا بيان ناصع يُقنع ويُمتع ويَستميل .

حدد الكاتب وجهته الهادفة حين أعلن أنه لا يتحاكم مع رؤساء الدول المتنافسة إلى الدين ، إذ يرى فيهم من يجحده ويراه أُلْهيَّةً يتخدع بها الصغار وقد شبوا عن الطوق فلا ينخدعون . كما أنه لا يتحاكم إلى الضمير إذ يرى فى هؤلاء من يقولون إن الضمير من وحى البيئة والتربية وإنه قد يطمئن إلى الشر إذا حسنتْ لديه بواعثه وغاياته فيظن فيه الخير كل الخير ، كما أنه لا يتحاكم إلى المُثل العليا لأنها فى رأى كثرتهم مظنة التبديل والتغيير ، فما يكون رائعًا جليلا فى عهد من هذه المثل يكون سخيفاً مبتذلا فى عهد آخر ، وإذا كان الكاتب لا يتحاكم إلى الدين أو الضمير أو المثل العليا فإنه يتحاكم إلى المنفعة وحدها ! لأن الفريقيْن من المتصارعين يهدفان إلى المنفعة العاجلة ، ويخططون لها فى كل خطواتهم ، فإذا كانت المنفعة هذه هى وسيلة الإقناع لدى الكاتب ، فلا بد أن يستجيب له من ينشدونها فى كل اتجاه !

وها هو ذا يثبت لهم بالمنطق الصريح أن القنبلة الذرية ستذهب بكل ما يملكون فلا نفع من ورائها حين يتحطم بها الغالب والمغلوب .

وقد أعلن الأستاذ إيمانه بالإنسان ، وبما يتجه إليه من جواذب الخير لو استمعَ إلى صوت الطبيعة فى نفسه ، واستلهم الفطرة التى تهديه سواء السبيل ، ولكنه قد حاد عن الحق حين أصاخ إلى صيحات باطلة أخذت تزين له الشر عصراً بعد عصر حتى نسى طريحة الخير ، وأصبح يرى أن العدالة ما تُنتجه القوة ، فإذا استطاع الوحشُ أن يصرع ضحيته فهو عادل فى قتلها لأن القوة قد أمكنته من فريسته الضعيفة : لقد وُجدَ هذا المنطقُ الظالمُ فى كل عصر ، وُجد فى عهد الإغريق واعتنقه السوفسطائيون وبذلوا جهودهم فى تأييده بخوادع الأدلة ، ومن الحق أن نقولَ إنه وجد المعارض ممثلاً فى سقراط وتلاميذه ، ولكنه لم يعدم على كر الأيام مؤيديه لأن حب الغنائم والافتراس مما يدعو أصحابه إلى التمسك بسفسطات تُقدم لهم تبريراً سطحياً لما يرتكبون ، وقد جاءت الأديانُ لتقيم العدالة على قسطاس سوىٍّ لا يميل ، ولكن ذوى الشر قد

أصموا آذانهم عن هواتف الخير ، ووجدوا من كبار الكتاب من يؤيد اتجاههم الظالم وكأنه يؤيد حقاً لا مرية فيه .

يقول الأستاذ محمد عرفة ص ١٢٩

(لقد اعتقد الساسة أن ما يأتون من امتلاك الشعوب والسيطرة على أراضيها وثرواتها عدل ليس فيه ظلم ، لأن العدل هو منفعة الأقوى ، وما يفعله الأقوى في سبيل وجوده أو في سبيل وجود أفضل فهو عدل ليس بظلم) .

وبهذا الاعتقاد كان الاستعمار بطولة لدى المستعمرين ، فإذا قاومت الدول الضعيفة من تريد استعمارها قهرتها الأمة القوية بالحديد والنار فهذا حق لا عيب فيه ، ومن هنا تسابقت أمم أوربا على امتلاك أفريقيا وآسيا ، وأدى هذا الوضع إلى تناحر بين القوى والضعيف ثم إلى تناحر بين الأقوياء طمعاً في الاستلاب حين ترى أمة أوربية أن نصيبها أقل من نصيب جارتها !! لقد أصبح النزاع بين قوى متكافئة تملك جميعها القنبلة الذرية : وأصبح خطر الإبادة متوقعاً بين حين وحين !

فقد يرى المعسكر الشرقي أن بلاده فسيحة الأرجاء وأن دول المعسكر الغربي ضيقة مكتظة ، فإذا تكافأ التدمير من المعسكرين ، فسيبقى للمعسكر الشرقي ما يعتمد عليه ! وقد يخطئ أحد الفريقين تقدير صاحبه ، ويظن أنه سيبدأ بالهجوم فيبادر هو الآخر إلى أن يتغذى به قبل أن يأكله ، وتنفجر القنبلة فتقابل بالمثل ، وقد تسقط القنبلة خطأ حين تحملها طائرة من مكان إلى مكان فتحدث خطراً يقابل بالمثل ممن ظن الخطأ متعمدا فيحدث الفناء ، وقد ترزق إحدى الدولتين رئيساً متشائم النظرة سيئ الرأى في الحياة والأحياء فيبدأ الهجوم الذرى دون نظر إلى العواقب ، ويقابل صنيعه بالمثل فترجف الراجفة ، وكل ذلك يدعو الأستاذ عرفة إلى أن يقول في ص ٥٥ :

(ليس الحاجز بين البشر وفنائهم بالقنبلة الذرية حصيناً ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات المفروضة ، وإن واحدة منها لتدك العالم دكاً ، وهكذا تقوم الساعة ويفنى البشر) .

إن العلاج الحاسم لا يكون بالوعظ وحده ، ولكنه يتغلغل في رأى الكاتب إلى البحث عما سبب هذه الآراء العدوانية وأصلها في النفوس هذا التأصيل ، وإذا كان المؤلف قد أشاد بسقراط حين واجه السوفسطائيين وأنكر مذهبهم في

البطش والاستعلاء ، فقد كانَ عليه أن يأخذ على أفلاطون وأرسطو إنكارهم للمساواة بين البشر ، لأن انتشار المذاهب اليونانية فى العالم الأوربى كان مدعاة البطش الظلم ممن يظنون أنفسهم أرق من سواهم ، وقد رأت أوربا فريقاً من المفكرين ينكرون حق البشرية فى الحرية الشاملة ويدعون إلى أن يستعبد القوى الضعيف ، وقد بلغُوا فى أقوامهم مكانَ الرئاسة العلمية والتوجيه الفكرى حتى صاروا أصحاب مذاهب ذائعة فى السياسة والاجتماع ، وانتشرت آراؤهم انتشاراً ساعد على الظلم والعدوان ، وقد تعرض المؤلف إلى هذه الآراء منددا مفنداً فنقل ما كتبه الفيلسوف الاجتماعى (مونتسكيو) فى روح القوانين حين قال :

(إذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيداً ، فإننى أقول إن شعوب أوربا ، وقد أفنتْ سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامهما إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا ، لكى تستخدمها فى استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب أفريقيا إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس ذوو أنوف فطس إلى درجة يكاد يكون من المستحيل أن يرثى لها ، وحاش لله أن يكونَ قد أودع رُوحاً — أو على الأخص — روحاً طيبة فى جسد حالك السواد) .

وهذا قول يهوى بمكانة صاحبه العلمية ، لو نُزعت الغشاواتُ عن العيون ، كما يدل على تحجر إنسانى يجعله صخرة صماء لا تنبض بعاطفة ما ، ومثلُه لا يجوز أن يكتبَ عن روح القوانين ، فيتصدر مقعد التحليل والتشريح ، وقد فقد نور البصيرة ، ورقة الإحساس !

وإذا كانت ألمانيا قد اعتقدتْ مذهب القوة ورأتْ فى نفسها استعلاءً شامخاً ، يدفعها إلى منافسة استعمارية تجعلُها ذات نفوذ سياسى واقتصادى يفوقُ نفوذ إنجلترا المستعمرة الأولى — وقت ذاك — فى العالم فشنتْ حربينْ عالميتين كبيرتين أخذتْ أولاهما سبعةَ ملايين من النفوس وجاوزت الأخرى هذا العدد فأضافت مليونين جديدينْ ، إذا كانت ألمانيا كذلك فإن اعتناق مذهب القوّة الذى بشر به فلاسفتها المتكبرون قد كان سببَ كارثتيها المتتابعتينْ فى مدى يقل عن نصف قرن ، فلولا دعاةُ القوة الغاشمة ما ظهرتِ النازية فى ألمانيا ،

وما انتقلت عدواها إلى إيطاليا لتظهر الفاشية مُواخية ً لها فى طريق التدمير والهلاك ، لذلك تحدث المؤلف عن (نيتشة) فيلسوف النازية ، وعن دعوته الباطشة إلى استئصال كلَّ ضعيف بحيث لا يبقى إلا القوى ! ونقل عنه هذه الأقوال الآثمة :

(إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا ، فهذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية ، ويجب أن نعلم أن من أشد الرذائل حبنا للضعفاء والعاجزين إذ الخير فيما يعلى شعور القوة وإرادة القوة ، والشر كل الشر فيما يصدر عن الضعف) .

وقد كانت ألمانيا أول من أوذى بهذه الآراء ، ولكنها دفعت الثمن غالياً حتى انكشفت عنها غشاوة الدجل الفوضوى الآثم ، ولو رُزقت قادة ً حصفاء لتجنبوا مآزقها الدامية ، وأدركوا أفن هذا الداعية الأهوج ! وقد كان فى حياته الخاصة التى انتهت بالجنون ما يدفع إلى مراجعة أقواله : ولكنها صادفتْ هوى لدى من يُريد استعباد الأمم فاستعبده هواه ، وخسر نفسه ودولته ، ولحقته لعنات اللاحقين .

ولم يبعد نيتشة عن (لينين) فى شىء فكلاهما يدعو إلى استئصال العامة لينعم نفر محدود بالمال والجاه ، وقد ذكر الأستاذ محمد عرفه رسالة كتبها الزعيم الشيوعى لينين إلى مكسيم جوركى الأديب الروسى يقول فيها : (إن هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ! وإنما الشىءُ الهام أن يُصبح الباقى شيوعيين) !

وإذا كان المؤلف قد تحدث عن المعسكر الشيوعى المتربص بالعالم أجمعه ، يثير دفائنه ويبعث أحقاده ، ويجعل بأسه مسلط على نفسه ! فإن الكاتب قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال عنها : ص٥٣ .

(إن العقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها ديناً ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطئ فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه فإذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ، ولا يحسب حساب الربح والخسران وإنما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة) .

نقول إن الكاتب رحمه الله قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال إنها تنزل منزلة العقيدة الدينية فى حماس معتنقيها ! لقد كانَ ذلك مُتوهـَّماً متخيَّلا لدى من يصدقون الشعارات ، ولكن التجربة الواقعيَّة بعد الحرب العالمية الثانية أوضحت أن الشيوعيةَ استعمار جديد ، يؤلب الطبقات ليحتل أماكن النفوذ ،

وليستنزف الثروات ، ولا يقدم للأمم المستنجدة به غذاءً أو كساءً أو تمدناً بل يقدم السلاحَ المدمر بيد، ليعتصر ثمنه بيد أخرى من دماء الضعفاء ! ولو كانت الشيوعية عقيدةً ذات حماس عاطفى لوقفَ الشيوعيون جميعاً فى جبهة واحدة ، ولكن استبداد موسكو الدكتاتورى واغتصابها المادى قد كشفها أمام أصدقائها، فحاربهما تيتو فى يوغوسلافيا، وانتفضَتْ عليها الصين بحيث أصبحتْ تراها العدوَّ الأول ، وهاجمتْها الأحزاب اليسارية فى أوربا ! ! وبذلك ظهرت موسكو فى ثوبها المستعمر بحيثُ لا تدعو إلى مذهب اقتصادى إلا لتخدعَ به الفريسةَ حتى تقع وتصبح سهلة الازدراد! ولعل المؤلف لم يكنْ يتصور هذه النجائع حين كتب مؤلفه ، إذ انتهى منه قبل أن تتناكر الوجوه ويفتضح الخداع .

على أن الأستاذ محمد عرفه كان صادق النظرة ، صائب الفكرة حين تحدث عن خداع الشيوعية ، وفساد أسلحتها أمام التطور الاقتصادى فى المعسكر الغربى ، فقال فى وعى أمين : ص ٨٤ .

«إن كارل ماركس لم يكن من غرضه أن يديل الشرق من الغرب ، وإنما أن يديل الضعفاء من الأقوياء ، والعمال من أرباب الأموال فآخى لهم آخية لا يقطعها المهر الأرِن ، وانقطتْها روسيا ، ونجحتْ بعض النجاح ، . . . ولكن الغرب بحنكته وبصره بالأمور ، ومسايرته للزمن ، سبق فأعطى العمال ما يبتغون ، وأصبح العمال يوازنون بين العامل فى الغرب ، والعامل فى روسيا فيجدونه فى الغرب أنعم بالا ، وأرغد عيشاً ، لأن العامل فى روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب فى تقدمه وثروته فبدا مُرهقاً ، وأقل نصيباً فى الحياة» ومعنى هذا أن بريق المساواة الاقتصادية لم يعدْ جاذباً لقوم يجدون أنفسهم من ذوى الرفاهية على حين يرون أصحاب المذهب الشيوعى مُقيدين فى آرائهم ، منخفضين عنهم فى مستواهم المعيشى ! ! فكيف — بالله — يفرون من السعة إلى الضيق ، ولهم عيون تنظر ، وعقول تفكر وتحكم !

وما كتبه المؤلف الكبير تحت عنوان (على من تقع التبعة) تبعةُ الواقعة إذا وقعت ! والدمار إذا تبع انطلاقَ القنبلة الذرية الحاصدة للأرواح والمتاجر والمزارع وكل متطلبات الحياة! أقول إن ما كتبه المؤلف فى هذا الفصل دقيق عميق حيث يُلقى بالتبعية على العلماء العباقرة الذين اكتشفوا سر

القبيلة لتضر الناس لا لتنفعهم ، وكان عليهم أن يمضوا بجهودهم العلمية إلى حيث يفيدون ويخصبون ويُثْمِرون ، ثم على رجال السياسة ممن يندفعون إلى المنابذات السياسية ليجلبوا لهم صيتاً مدوياً فى العالم دون نظر إلى خراب الأمم وفناء الشعوب ، ثم على رجال الحروب الذين أصبحوا آلات متحركة فى أيدى الساسة والمتصدرين للزعامات عن انتفاخ متورم يحتاج إلى استئصال ، ثم على الأمم الخاضعة للسادة المتصدرين بحيث أصبحوا لا يملكون الاعتراض بل يساقون كما تساق النعاج ! على هؤلاء الأربعة من الطوائف تقع تبعات الحرب الذرية ، وقد أفاض الكاتب الكبير فى تحديد تبعات هؤلاء بما لا يقبل الجدل من منصف يرى الحق فيذعن إليه فى استسلام منطقى ، إذ ليس بعد الحق غير الضلال .

ومن الأبواب الجيدة التى تحدث عنها الأستاذ محمد عرفه ما كتبه عن القومية وخطرها ، فقد كان المؤلف إنساناً كل الإنسان فى نظرته الرحيمة ، وأحكامه العادلة ، إذ أن اعتناق القومية قد جعل الدولة أنانيةً شرهةً ترى النفع لها دون غيرها ، بل تجدُ من أسباب التفوق أن تقهرَ غيرها لتستولى على ثرواتها ، وتستعبد أفرادها ، وإذا كان البشر قد تطوَّروا فى الناحية الاجتماعية من الأسرة إلى القبيلة إلى القرية إلى المدينة إلى الأمة وهى التى تتمثل فيها القومية فإنَّ من الواجب أن تتطور القومية إلى إنسانية عادلة رحيمة ترى الكذب والغدر والخيانة نقيصة عامة تشينُ العدو والصديق والقريب والبعيد ، لا أن يصبح الغدرُ مشروعاً مع دولة دون دولة كما نرى فى عالم السياسة اليوم !! إذ يجبُ أن يبقى ولاء الإنسان لأخيه الإنسان مهما كان من غير أبناء جنسه ولونه ولغته ودينه فإنه مع ذلك كله أخوه ، وكلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد كان المؤلف متواضعاً كل التواضع حين قال فى خاتمة كتابه : ص ١٦٢ .

(إن بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته ، لأنهم كانوا يقدرون شيئاً يشبه المعجزة أو السحر ينقذ العالم قسراً من الحرب الذرية ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسباباً وإشارةً إلى العلة وموضعها وإلى الدواء الذى يزيلها وهذا شىء موكول إلى رؤساء الدول) .

ونحن نقول للرجل الفاضل ، إنَّ عليك إلا البلاغ ، ولست صاحب أداة

تشيلدية حتى تجبرُ الناس على اتباع ما تذهب إليه ، وحسبك أن رأيت الداء فدللت عليه وحللتَ بواعثه ، وحدّدتَ دواءَه ، وما عليكَ أن تلزم المريض بالدواء ! فلنْ يكلف الله إنساناً بما لا يطيق ! وأرجو أن ألتقي مع الباحث الجليل في مقال تال يكشف عن بعض جهاده العلمي الدءوب .

د. محمد رجب البيومي

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

لا تستبق الأحداث

ما أسرع الأيام في الشهر
وأسرع الأشهر في العمر

ليس لما ليست له حيلة
موجودة خير من الصبر

فاخطُ مع الدهر إذا ما خطا
واجر مع الدهر كما يجرى

من سابق الدهر كبا كبوة
لم يستقلها آخر العمر

أبو العلاء المعرى

العمل الاقتصادى
من وجهة نظر الإسلام

دكتور / رءوف شلبى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والَّذِينَ إذا أنفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكانَ بَيْنَ ذلكَ قَوَامًا) ...

(الفرقان ٦٧)

أسس العمل الاقتصادى فى الإسلام :

الدراسات الاقتصادية الحديثة تتنوع إلى عدة شعب ولكل شعبة هدف ومنهج خاص فى البحث .

فالنظريات الاقتصادية تبحث فى آثار الندرة النسبية

وعلم الاقتصاد يبحث فى سلوك الفرد المعيشى .

وتاريخ الاقتصاد يبحث فى الأحداث التى تؤثر فى السلوك الاقتصادى ومجالات الإنتاج والتوزيع .

والاقتصاد السياسى يبحث فى تأثير العلاقات السياسية بين الدول على العمل الاقتصادى .

ولهذا فإن الدراسات الاقتصادية يمكن أن تركز فى :

الندرة .. الإنتاج .. التوزيع ..

وما يتصل بهذه الأنواع من تفصيلات فإنما هى خاضعة للظروف المحلية والدولية .

ولهذا فإن الدراسات الاقتصادية المعاصرة لا يمكن أن تتصف بالثبات والاستقرار لأنها تخضع للعوامل البيئية المتغيرة . فإذا ما أراد المسلمون أن يتعرفوا على نظام اقتصادى من القرآن فإنما عليهم أن يتعرفوا على أسس العمل الاقتصادى التى تشكل قواعدَ كليةً يخضعون ظروف البيئة الاقتصادية لها

لا أن يخضعوا القرآن لظروف البيئة الاقتصادية . لا سيما إذا كانت ظروف البيئة الاقتصادية من عمل وتقاليد وعادات فكر غير إسلامي .

وبوجه عام فإن القرآن الكريم كتاب الله المعصوم وتطبيقه يكفل السعادة للفرد والأسرة والمجتمع والدولة والإعراض عنه يكسب المسلمين شقاوة :

(مَنْ عَمِلَ صالحاً مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهم بأحسن ما كانوا يَعملُونَ . .

(وَمَنْ أعْرَضَ عن ذِكرِي فإن له مَعيشةً ضَنْكاً ونَحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعْمَى) . .

وقد أقر علماء الاقتصاد بوجه عام أن هدف الاقتصاد هو تحقيق الرفاهية للناس جميعاً ، ولكن هذا الهدف لم يستطع علم الاقتصاد ولا علماؤه أن يحققوه . وقد كان الأمل عند علماء الاقتصاد أن يصل هذا العلم إلى غايته بالثورة الصناعية ولكنه فشل كذلك .

لقد فشل علم الاقتصاد في تحقيق السعادة بين العمال وأصحاب العمل .

لقد فشل علم الاقتصاد في تحقيق السعادة بعد قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م .

لقد فشل علم الاقتصاد في تحقيق السعادة بعد قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م وها نحن نرى في روسيا ثورة ضد النظام نفسه .

وهذا دليل على أن العمل الاقتصادي يخضع لقانون آخر ليس في مقدور الإنسان أن يحققه . . ذلك القانون هو :

(لَهُ مَقَالِيدُ السموات والأرض يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ مِنْ عباده ويَقْدِرُ إنه بكلِّ شيء عليم) (١٢ الشورى)

وإذا كانت النظريات الاقتصادية تقوم على ثلاث دعائم :

الإنتاج ، والتوزيع ، والقيمة

فقد جاء القرآن الكريم بجملة قواعد تؤلف أسساً لهذه الدعامات منذ نزول القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقبل أن يوجد أجداد أصحاب هذه النظريات في الوجود الإنساني . .

بل انفرد القرآن وحده بحل المشكلة الاقتصادية من ناحيتين :

الأولى :

أنه وقى المجتمع من تفاقم المشكلات

الثانية :

معالجة الانحرافات التى تهدد كيان المجتمع . . .

ولا يصدر هذا عن القرآن إلا لأنه وحى غير مسبوق البتة. وسأتحدث هنا عن :

١ ـ الحاجات الأساسية للإنسان عند علماء الاقتصاد وفى القرآن وعن العمل ودوافعه والأجرة والأجر . .

٢ ـ وعن التوزيع : الثروة فى نظر الإسلام . . وعن القيمة :

٣ ـ وعن رأس المال ومفهومه فى الإسلام . .

٤ ـ وعن المشكلة الاقتصادية وموقف الإسلام منها . .

وعندئذ تظهر لنا الأسس التى يقوم عليها العمل الاقتصادى فى الإسلام . .

أولاً :

الحاجات الأساسية للإنسان . .

السلوك الاقتصادى أثر للتحرك الإنسانى بناء على الدافع Motive أو الرغبة Desire فى الحصول على ما يحقق له العيش، والدوافع أو الرغبة هى الحاجة التى يشعر بها الإنسان لمواد المعيشة . .

وقد ناقش علماء الاقتصاد هذه الحاجات وأصالوا فيها فرأى Maslow أن الحاجات الأساسية للإنسان خمس مستويات .

١ ـ الطعام ، الماء ، الإخراج ، النوم ، الحرارة ، الحنين .

٢ ـ الأمن المادى: الملبس، السكن، تجنب مصادر القلق . .

٣ ـ الأمن النفسى : عطف الآخرين، الاطمئنان على فرص العمل ومستقبل الأسرة، صيانة الحقوق والمركز الاجتماعى.

٤ ـ التقدير الاجتماعى : إخفاء العيوب .

٥ ـ تأكيد الشخصية ، الإبداع ، إنتاج الأعمال النافعة :

ويتلخص هذا كله فى مسألتين :

حاجات دنيا هى فى المستوى الأول والثانى .

وحاجات عليا هى من المستوى الثالث إلى الخامس .

ويرى علماء الاقتصاد أن الحاجات العليا لا توجد إلا عند التقدم الحضارى.

أما الحاجات الدنيا فهى اللازمة لبقاء الإنسان وهى :

أصل الحديث . . . ولعلماء الاقتصاد نقد ملخصه أن المثيرات التى ذكرها (ماسلاو) مكررة ومتداخلة وأن بعضها لا يصلح أن يكون حاجة أساسية لأن الحاجة الأساسية هى : كل ما يلزم لحياة الإنسان بغض النظر عن درجته الاجتماعية أو العلمية أو السيرة فإذا ما قلنا أن الطعام حاجة أساسية كان ذلك معقولاً لأنه يضم جميع الأفراد تحته . أما إذا قلنا أن المدح والثناء حاجة أساسية كنا مجافين صفة العموم فبعض الناس يزيده المدح نقصاً . .

ثانياً :

أما مالينوسكى Malinowski فقد قسم الحاجات إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ــ حاجات أساسية .

٢ ــ حاجات متفرعة .

٣ ــ حاجات ثقافية .

وهذا الرأى كسابقه كذلك لا يحدد القاسم المشترك بين أفراد الإنسان ويلاحظ كل هذا اتكال الفرد على ما تبذله له الدولة من خدمات .

أما القرآن الكريم فقد حصر الحاجات الأساسية للإنسان كقواعد للحياة فى أربعة عناصر ، ودفع الإنسان إلى الحصول عليها والعمل بجد لاكتسابها وقرر الإسلام أن العمل فى سبيل تدبير المعاش واجب شرعى وأن المسئول مسئولية واجبة عن توفر هذه الحاجات الأساسية للأسرة هو الرجل ، والمرأة لها أن تعمل تطوعاً وذلك كلا فى آية واحدة : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ) .

الجوع : الأكل .

والعرى : النساء

الماء : الشراب .

المأوى : السكن .

وهذا هو القدر المشترك بين جميع أبناء البشر ، وقد سَوَّج الإسلام هذه الحاجات الأساسية بسياجين :

الأول : ضرورة العمل للحصول عليها .

الثانى : إطلاق حرية الأفراد فى نشاطهم من أجل الحصول عليها ، فالمسلم لا يكون إلا منتجاً .

والمسلم حر لا تقيده غير قوانين الشريعة ، فلا شروط تقلل من نشاطه وعمله أو تعطل من إنتاجه أو تفرض عليها لوناً خاصاً من المشروعات الإنتاجية ، قال تعالى :

(وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

ذَلُولاً فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِه وَإِلَيْهِ النُّشُور) (الملك)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَه) . (الزلزلة)

وقد حذر الإسلام من الكسل والبطالة فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل ، وكان ينصح طالبي الصدقات بالاحتطاب والبيع فى الأسواق .

(ب) العمل ودوافعه :

العمل : هو كل إجهاد ذهنى أو عضلى يهدف به الإنسان إلى إيجاد شىء يسد به بعض حاجاته .

والعمل بهذه الصفة واجب إسلامى يقول الله تعالى :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُه والمُؤمِنُون) . .

(فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِن رِزْقِه وإِلَيْهِ النُّشُور) . .

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهوَ مُؤْمِن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهم أَجْرَهم بِأَحْسَنِ ما كَانُوا يَعْمَلُون) .

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون) . .

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعكمْ . . .)

وفى الحديث :

« إنَّ اللهَ يحب مِنْ أحدِكم إذا عَمِلَ عَمَلاً أنْ يُتْقِنَه » .

« إنَّ من الذنوبِ ذُنوبا لا يُكَفِّرُها إلا الهمُّ فى طَلَبِ المَعيشة » .

« مَن طلبَ الدنيا حلالا تَعفُّفاً عن المَسألةِ وسَعْياً على عيالِه وتَعطُّفا على جارِه لَقِيَ اللهَ وَوَجْهُهُ كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ » .

ما هذا الذى أرى بيدك ؟ قال من أثر المسحاه .. أضرب وأنفق على عيال فقبَّل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال :

هذه يد لا تمسها النار . .

والعمل بهذه الصورة وظيفة أساسية فى أن يجد الإنسان حاجاته الأساسية فى الطعام والكساء والشراب والمأوى . .

فتلك الحاجات هى الحاجات الفطرية التى لا بد منها للإنسان فى أى عصر

(١) المسحاه : هى المجرفة راجع كتاب النهاية فى غريب الحديث ج ٤ ص ٣٢٨ .

ثم هى تأخذ مستواها الحضارى بعد ذلك.

فالأكل حاجة أساسية : ونوع العمل ومقداره هو الذى يطور مستوى هذه الحاجة الأساسية .

والشراب حاجة أساسية : ونوع العمل ومقداره هو الذى يطور شكل ومستوى هذه الحاجة .

والكساء حاجة أساسية : ونوع العمل الذى يبذله الإنسان ومستواه هو الذى يطور هذه الحاجة الأساسية .

والمأوى حاجة أساسية : وظروف الإنسان الاجتماعية والعسكرية ، وحالات فى أيام السلم والحرب هى التى تحدد مستوى عمله فى تطوير هذه الحاجة الأساسية .

فالمسلم مثلاً يجد أن الله سبحانه وتعالى حدد له الغاية من الطعام وهى المحافظة على حياته . . وفى سبيل ذلك جعل له فى حالات الاضطرار أن يأكل ما يجده من بعض المحرمات .

ثم فى جانب اليسر جعل له كل ما أخرجه له من الطيبات يقول الله تعالى:

« وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين» (الأعراف) (قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) . .

فأكل الرجل المسلم حاجة أساسية أحاطها القرآن بالرعاية فى لحظة العسرة وفى سعة اليسر ورخاء العيش ، وقد جعل الإسلام النفقة على العيال واجبة وجعل الحفاظ على حياة الإنسان واجبة ، وهنا تدرك حكمة الإسلام فى تحريم الانتحار وقتل النفس بغير حق .

والشراب أو الماء بصفة عامة مطلب أساسى للإنسان فى حياته وفى عادته فعليه أن يشرب ماء نقياً وتنقية الماء تتطلب منه جهداً تحدده مستويات العمل الاقتصادى ، وعليه أن يتوضأ ويغتسل وهذا يوجب عليه أن يسعى اقتصادياً بالتبادل لهذه الحاجة الأساسية على أرفع مستوى ، ليحيا وليعبد الله لأن الماء الملوث والنجس لا تصح به الصلاة ولا الغسل وهى أمور أساسية فى الدين .

والكساء حاجة أساسية ثم هو واجب شرعى لستر العورة وللصلاة والحج فعلى المسلم إذن أن ينشط اقتصادياً ليكفل لحياته هذه الحاجة الأساسية وليستطيع أن يؤدى الصلاة صحيحة ، ولباس الأبيض يوم الجمعة سنة ، ولباس الفاخر من الثياب وجديدها أيام العيد سنة ، والسنة هنا سلوك إسلامى مرغوب فيه .

وإذن المسلم مطـــالب بالنشاط

الاقتصادى الذى يحقق له هذه الحاجة على مستويات الواجب والسنة ليكون متأسياً حقيقة بالسلوك الإسلامى الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحديث يقول :

من رغب عن سنتى فليس منى . . .

والمأوى : حاجة أساسية وهو مأوى الإقامة ومأوى الترحال ، ولقد سبق القرآن الكريم الفكر الاقتصادى حتى الآن فى جعل المأوى قسمين : مأوى ثابت ومأوى انتقال . يقول الله تعالى :

والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . (٨٠ النحل)

فالحاجة الأساسية فى المأوى للمسلم مرتبطة بحياته الشخصية وحياته الدينية

• وهو يجاهد فى سبيل الله فلا بد وأن يكون له مأوى .

• وهو حاج فلابد وأن يكون له مأوى كذلك :

مأوى فى الطريق ومأوى فى الإقامة . .

والمأوى يحتاج إلى مواد بناء ومرافق للحياة . . كالمياه والأسواق وغيرها . .

والعمل للحصول على هذه المطالب الأساسية ليس حقاً مشروعاً فقط كما يذهب إلى ذلك المشرعون للقوانين الوضعية ولكنه واجب شرعى .

فى سنة الترمذى :

• لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه فيستغنى به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول . .

ويقول :

إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه .

وفى مسلم :

• دينار أنفقته فى سبيل الله .

ودينار أنفقته فى رقبة .

ودينار تصدقت به على مسكين .

ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك .

• لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم قلوصه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم .

• وعن مسلم :

ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة وليس فى وجهه مزعة لحم .

« أفضل الكسب كسب الصانع بيده » .

• إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة :

رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك .

ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سداداً من عيش .

ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش فما سواهن من المسألة يأكلها صاحبها سحتا . .

وفى مسلم :

على كل مسلم صدقة قيل أرأيت إن لم يجد ؟

قال يحتمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق .

بهذا يخلص الفرد المسلم من الذلة ومن الكسل ويحقق لوجوده حياته بالعمل الشريف وبإرادته المنطلقة فى اختيار ما يحبه من شتى الأعمال .

• • •

ولما كان العمل للحصول على مطالب الحياة الأساسية واجباً فقد أعفى الله المرأة من هذا الوجوب وجعله خاصًّا بالرجل . .

قال تعالى :

(فَقُلْنا يا آدم : إنَّ هذا عدوٌّ لكَ ولِزَوْجِكَ فلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجنةِ فَتَشْقَى) .

وجه الخطاب إلى آدم وحواء معاً فيما يتعلق بتحذيرهما من إبليس حتى لا يخرجا من الجنة ، فإن خرجا كانت الشقاوة والتعب لآدم لأنه هو المسئول عن تهيئة وسائل العيش له ولزوجته وأولاده .

وليس فى هذا منع للمرأة من العمل ولكن إيجاب العمل على الرجل وحده ويوضح هذا جلياً : (قالتا لا نَسْقِى حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ) .

فبنتا شعيب تسقيان الغنم لأن والدهما شيخ كبير لا يقدر على العمل وليس لهما أخ ذكر يعمل فعملتا ولكنهما لم تستطيعا مزاحمة الرجال فوقفتا بعيداً حتى ينتهى الرجال من سقى أنعامهم وذلك سعى ونصب فى سبيل الحصول على واحد من مقدمات الحياة الأساسية وهو الماء .

فدل ذلك على أن العمل للمرأة مباح فى حدود تدبير المعاش وبناء الأسرة إن كان فى طلب الرزق حاجة إليها لعدم وجود من يعولها أو لعجزه إن كان موجوداً .

هذا بالإضافة إلى الأعمال التى يوجبها الإسلام على المرأة . .

فالإسلام يوجب على المرأة أن تكون طبيبة ترعى مصالح النساء إذ ليس كل المباح على إطلاقه أن يداوى الطبيب المرأة إلا عند عدم وجود طبيبة من النساء لهن .. وقد فطن إلى هذه الخلفية شعوب منطقة جنوب شرق آسيا . .

والإسلام يوجب على المرأة أن تدرس الفقه للنساء فإن فى مسائل الفقه قضايا لا يجيز الإسلام للرجل أن يشرحها للنساء بالأسلوب العادى فإن الحياء شعبة من الإيمان .

والإسلام يوجب على المرأة أن تكون ممرضة لأقسام النساء فى المستشفيات إذ لا يبيح الإسلام مطلقا أن تتكشف عورات النساء أبداً على الرجال ..

وذلك كله اقتصادى فى ادخار الشعور بالأمن فى المجتمع وذلك أساس أصيل فى ضمان سلامة الإنتاج . . .

مستوى العمل :

والعمل الذى يوجبه الإسلام على الفرد المسلم إنما هو العمل الطبيعى الذى تستحقه كل صفة إنه العمل المتسق المناسب وليس العمل الردىء السيئ ،

والعمل من الفرد المسلم طاعة لله فالرقيب هنا هو الله وحده . . وفى هذا الجو ترتبط مشاعر العامل المسلم بالله دائماً .

لأن الله هو الذى يطلب إليه أن يعمل : وقل اعملوا ..

والله سبحانه هو الذى يراقبه : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ..

وفى الحديث :

إنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ أحَدِكُمْ إذا عَمِلَ عَمَلاً أن يُتْقِنَهُ ..

وذلك القدر هو الذى يُعْجِزُ جميع علماء الاقتصاد فى مجال التطبيق . . فلا يقدرون أن يقنعوا العامة والخاصة بقيمة العمل على هذا النحو الإسلامى الذى تحترم فيه الإنسانية ويكرم فيه الإنسان ، حتى ولو ملأوا المكتبات بالفقه والنظريات ، إذ النفس بفطرتها لا تذل إلا لخالقها ، والتمرد على سلطان البشر أمر مألوف وعاقبته وخيمة . . ! !

وبهذا فقد قرر الإسلام :

أن العمل هو السبيل الطبيعى لكسب المعاش . .

ولبقاء الإنسان على قيد الحياة . .

وأنه لا يجوز أن يهبط العمل عن الحد

الذى يكفل تحقيق الحاجات الأساسة للفرد المسلم فى الحالين : الفردى والدينى .

ولا يسمح الإسلام للفرد المسلم أن يعيش عالة أو أن يعطل غيره عن العمل ، أما الناحية الإدارية لتنفيذ هذه القواعد فترجع إلى السلطة الإدارية فى الدولة الإسلامية لأنها تتطور حسب الظروف والأحوال وهى جزئيات تتغير وتنقص وتزيد .

وملخص هذا الجزء :

١ ـ أن العمل واجب .

٢ ـ وأن الدولة أو الفرد فى المجتمع ليس من حقه أن يمنع أحداً عن طلب هذه الحاجات الأساسية بالأسلوب الحلال المشروع بل على الدولة الإسلامية.

٣ ـ أن توفر فرص العمل لكل فرد ليحصل لنفسه ولأسرته على هذه المطالب الأساسية .

٤ ـ وليس من حق أحد أن يقيد نشاط العامل بحد محدود أو عمل معين .

وعلى هذا فكل مال يحصل عليه بغير جهد لا يسمح به الإسلام لأن العمل هو أساس الحصول على الثروة . .

الأجرة والأجير :

لا تتغير العلاقة بين العامل الأجير وصاحب العمل لمجرد تغير التسمية كما جنح إلى ذلك بعض علماء الاقتصاد فغيروا اسم الأجير إلى عامل لأن العمل فى نظر الإسلام من حق كل فرد وواجب على كل فرد ، ومطالب الحياة لا تغلب فهى تقهر النفس الإنسانية وتجبرها على السعى للحصول عليها .

ولقـــد فشل النظام الرأسمالى أو الاشتراكى بوجـــه عام فى وضع نظام عادل للعمال .

فى الرأسمالية قد يحصل الأجير على أجر يسمح بمستوى مناسب للعيش ولـــكنه لا يملك شيئاً من وسائل الإنتاج . وفى الشيوعية قد يملك العامل جزءاً من وسائل الإنتاج ولكنه لا يحظى بمستوى مناسب من العيش ومن الحرية الشخصية فى اختيار العمل الذى يعمل له .

. . أما فى الإسلام فقد قسم الفقهاء الأجير إلى قسمين :

ـ أجير خاص وهو الذى يقف وقته وجهده على صاحب العمل كالمدرس والموظف الإدارى .

ـ وأجير مشترك وهو الذى يعمل فى جهات متعددة ومثله الطبيب والمهندس الحر والخياط . .

وفى كلا الحالتين : فإن الإسلام يأمر بإعطاء الأجير كراه قبل أن يجف عرقه ، ففى الحديث الشريف :

أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه . .

عدالة الأجر :

وإذا كانت الأجور فى الغرب تقوم على أساس الخدمة التى يؤديها العامل بغض النظر عن احتياجاته ويرون العدالة فى أجور العمال هى التساوى فى الأجر نظير نوع العمل المتساوى أو المتشابه . . .

فإن الإسلام يعتبر العدالة فى الأجر هى عدالة الكفاية . . .

يقول الله تعالى :

(واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكم على بَعْض فى الرِّزْقِ فَما الَّذِينَ فُضِّلُوا برَادِّى رِزْقِهِم على ما مَلَكَتْ أيْمانُهُمْ فَهُمْ فيه سَوَاء) .

(النحل ٧١)

ففى الآيات نص صريح على تفاوت الأرزاق وعدم قبول النفس التنازل عنه إلى العبيد بناء على اختلاف متطلبات الحياة لكل من الصنفين وهذا ابتلاء من الله تعالى ليختبر ويمتحن عناصر الجنس البشرى . .

• وتفاوت الأرزاق ظاهرة طبيعية فى جميع أنواع المجتمعات قديماً وحديثاً ، لأنها تتبع التفاوت فى الذكاء والقدرات الخاصة والظروف التعليمية والاجتماعية والسياسية بل إن مصلحة المجتمع وتطوره وبقاءه مرتبطة باختلاف هذا التغاير .

فيقول الله تعالى :

(أهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ . نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهم مَعِيشَتَهم فى الحياةِ الدُّنيا . . وَرَفَعْنا بَعْضَهم فَوْقَ بَعْض دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(الزخرف ٣٢)

فالتسوية نسبية لا حسابية فإذا زيد أجر عامل متزوج ليواجه متطلبات أسرته فإن أجره يزيد على نظيره العزب الذى يشترك فى العمل ، ومع هذا فإنه يقال بحق أن تحديد الأجرين روعيت فيه التسوية وتقوم هذه العدالة على أساس وجدان تأمر به المبادئ الإسلامية ففى الحديث : لا يُؤْمِنُ أحَدُكم حتى

يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لِنفْسِه .. فرعاية حقوق العمال أو الأجراء فى نظر الإسلام لا تقوم على أساس من العمل فحسب بل على أساس من الانسجام الوجدانى الذى يقوم على الحب الخالص لوجه الله ، وفى الحديث : وَرَجُلان تَحابَّا فى الله اجْتَمَعا عليه وتَفَرَّقا عليه وذلك ما لا يستطيع أن يصل إليه المشرعون الاقتصاديون أو السياسيون .

وبذلك فقد ضمن الإسلام مستوى إنسانيًّا لمعيشة الأجير بقيام هذا المستوى على المودة النفسية والحب فى الله . .

ثانياً – توزيع الثروة

«كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِياءِ مِنْكُم» . (الحشر : ٧)

يعترف الصادقون فى بحوث الاقتصاد أن الاقتصاد المعاصر يرتكب خطئين بارزين .

الأول : التسب فى تحقيق العمالة الكاملة .

الثانى : التوزيع التحكمى الغاشم للثروة والدخل على نحو لا يحقق العدالة .

يقرر ذلك اللورد ماينارد كنز فى كتابه : «النظرية العامة» الذى صدر فى عام ١٩٣٦ . . وذكر أن انجلترا أخذت نظام الضرائب الذى يساعد على حل المشكلة غير أنه أبدى تأسفه الشديد لأن كثرة الضرائب تؤدى إلى التهرب منها . ولذا فقد حكم بأن حل المشكلة عن طريق فرض الضرائب غير مأمون العاقبة .

وقد قرر اللورد ما ينارد كنز : أن العضو المستثمر الذى يقدم أمواله للصناعة والتجارة ويقعد عن السعى والعمل لا يعتبر عاملا فى المجتمع بل هو عضو مشلول وعبارته بالإنجليزية : The Paralyzed investor وذهب إلى أن تحقيق العمالة الكاملة فى نظره لا يتأتى إلا إذا جمعت المدخرات وفائض الإيرادات وسلمت إلى الدولة لتتصرف بها فى وجوه الإصلاح لتحقيق العمالة الكاملة . . وهو بهذا لا يتفق مع المذهب الاشتراكى الذى يقول بتمليك أدوات الإنتاج للدولة .

كما عكف جانب كبير من علماء الاقتصاد على دراسة هذه الظاهرة ومنهم : إيفان دوربين Evan Dorbin الذى استمر أكثر من عشرين عاماً لاحظ أن ١٠ ٪ من البريطانيين يحصلون على ٤٥٪ وأن ٩٠ ٪ يعيشون على ٥٥٪ وأعاد سبب هذا التعاون إلى نظام المواريث الإنجليزى الذى يعتمد على الوصية ، لا سيما

تلك الظروف التى سببت دخلاً كبيراً لأصحاب المصانع .

ولذا فقد كانت الوصية التى استخلصها هؤلاء الاقتصاديون :

خفض الأرباح :

ورفع الأجور :

والاتجاه الأمريكى حول هذا يقول : ليس فى وسعنا أن نتنج بالعمل الرخيص سلعة تجمع بين الجودة وانخفاض التكاليف فهو إذن لا يوافق على خفض الأرباح لأنها تؤثر فى نوعية الإنتاج وإن كانت النظرية الأمريكية توافق على رفع الأجور لأنها تؤدى إلى حرص العامل على جودة الإنتاج . .

فإذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وجدناهما يقرران توازنا بين الربح والأجر وعدم إجهاد المستهلك .

فيما يتعلق بالربح والأجر : (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) (الكهف ٣٠)

فحسن العمل مرتبط به الأجر . .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب لأحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه» .

١ — وقد حرص الإسلام على ذلك منذ فجر بناء المجتمع الإسلامى ، ففى غزوة بنى النضير قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الفىء وأعطاه كله للمهاجرين لأن الأنصار لهم أملاك وثروة . .

لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار :

إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ؟ فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ونشاركهم فيها . .

والدليل على صحة هذا المبدأ أن[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رجلين فقيرين من الأنصار قسماً كذلك للدلالة على أن المراد هو عمل تعادل فى توزيع الثروة على المسلمين[2] .

وبهذا وضع الإسلام فى هذا الفجر الصادق لكل مجتمع إسلامى ناشئ مبدأ توزيع الثروة على المستحقين حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقط .

٢ — وينظم الإسلام داخل المجتمع الإسلامى عدة مبادئ اقتصادية تساعد على توزيع الثروة على جميع فئات الأمة :

(١) فى ظلال القرآن جـ٣٠ ص ٣١ مجلد ٨ ص ٢١١ حياة محمد .

(٢) العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ١١٧ .

١ – فقد أقر الرقبى والعمرى ففى البخارى :

قضى النبى صلى الله عليه وسلم بالعمرى إنها لمن وهبت له .

والعمرى هى : تمليك منفعة لأجل تعود بعدها العين إلى المالك إن مات المنتفع أو يملكها المنتفع إن مات المالك قبله .

٢ – والهبة ، ففى البخارى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها وفى سبيل ذلك فقد شرع الإسلام مسألتين :

الأولى : عدم العود فى الهدية ففى البخارى . . العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه . .

٢ – وعدم احتقار كمية الهدية ففى البخارى .

« يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرش شاه . . » .

وفيه أيضاً :

« لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت » .

٣ – الزكاة وهى تنظيم متكامل للقضاء على الفقر فى المجتمع الإسلامى:

١ – إذ الإسلام يحدد أن هذا الجزء يخرج لواحد من الأصناف الثمانية

٢ – وأن الإسلام يحذر من البطالة .

٣ – ويحذر من عدم إخراج الزكاة .

● ففيما يتعلق بالنقطة الأولى يقول الله تعالى :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) . . (التوبة ٦٠)

● وأما فيما يتعلق بالمسألة الثانية ففى مسلم :

– « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله . وليس فى وجهه مزعة لحم » .

– « من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما . . . يسأل أجراً فليستقل أو ليستكثر » .

– « من كان عنده مال لم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع فيقول أنا كنزك . . » .

● وأما فيما يتعلق بالمسألة الثالثة ففى مسلم :

يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك .

وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على

كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى . » .

٤ – ثم هو يحث على الصدقة والعمل من أجلها : ففى مسلم .

« خير الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

– إغاثة المحتاج فى سنن أبى داود عن فاطمة بنت قيس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن فى المال حقاً سوى الزكاة .

٥ – وجعل الوصية ونظامها عاملا من عوامل توزيع الثروة .

٦ – وكان الميراث أحد أركان هذا النظام . .

٧ – ومن أجل توازن عادل فى استقرار توزيع الثروة كان هناك نظاماً .

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) إلخ السورة .

١ – للعارية :

كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدلو والقدر .

٢ – العقيقة ففى البخارى مع الغلام عقيقة فأهرقوا عنه دماً . .

٣ – الكفارات : الظهار ، اليمين ، والقتل الخطأ .

٤ – النذور لله تعالى .

٥ – حقوق الجوار : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه .

٦ – القرض الحسن : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً) .

بهذه الأنظمة :

١ – الأجر المناسب .

٢ – العمل الجيد .

٣ – توزيع الثروة عن طريق تشريعات هى عبادة الله سبحانه وتعالى يظهر جانب من الاقتصاد الإسلامى فى جانب توزيع الثروة والأجر والعمل . .

ثالثاً – (ا) رأس المال فى نظر الإسلام :

رأس المال فى نظر الإسلام ليس هو النقود وحدها ولكن رأس المال ثلاثة عناصر :

١ – الأرض وما فيها . .

٢ – الإنسان وما له من خبرات . .

٣ – والنقود وهى حاصل العمل ويمكن استثمارها فى اتجاهات أخرى ، وبملحوظ أن عمل البنوك فى المال لا يقوم على ادخارها فقط بل هو يربحها عن طريق التجارة أو المشاريع الاقتصادية الأخرى .

١ – أما فيما يتعلق بالأرض كجزء من رأس المال فالقرآن الكريم يقرر :

– اللهُ الذى سخَّرَ لكم البحرَ لتَجْرِىَ الفُلْكُ فيه بأمْرِه ولتَبْتَغوا من فَضْلِه ولَعلَّكم تَشكرُون) .

– (وسَخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأرضِ جميعاً منْهُ إنَّ فى ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يتَفَكَّرون)
(١٢ ، ١٣ الجاثية)

وإذا كانت هذه الآيات مكية فمعنى هذا أن القرآن منذ فجر الدعوة وهو يوجه المسلم إلى حقيقة أساسية هى : أن الوجود كله سخر للمسلم ليطوّعه لوجه الله الكريم .

ويقول الله تعالى : (هوَ الذى جعل لكم الأرضَ ذَلُولاً فامشوا فى مناكبها وكُلوا من رِزْقه وإليه النشور) .
(الملك ١٥)

– (هوَ الذى خلق لكم ما فى الأرضِ جميعاً) . (البقرة ٢٩)

(وما ذَرَأ لكُم فى الأرضِ مُختَلفاً ألوانه إن فى ذلك لآيةً لقَوم يَذَّكَّرون وهو الذى سخَّرَ البحر لتأكُلوا منه لَحما طَرِياً وتَستَخرِجوا منه حِليَةً تَلْبَسونَها وتَرَى الفُلْكَ مَوَاخر فيهِ ولِتَبتَغوا مِن فَضْله ولعلَّكم تَشْكرون) (النحل ١٣ – ١٤)

٢ – أما فيما يتعلق بالقوى العاملة :

فقد جعل الإسلام الذكاء والقدرات الخاصة من نعم الله على الإنسان ليستخدمها فى كل ما ينفع وفى كل ما هو خير . .

يقول الله تعالى :

(والله أخرَجكم من بُطونِ أمَّهاتكم لا تَعلمون شَيْئاً . وجَعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلكم تَشكرون) .
(النحل ٧٨)

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن القوىُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللهِ من المؤمنِ الضعيفِ وفى كُلٍّ خير » .

« المؤمن كَيِّسٌ فَطِن . . . » .

٣ – وأما فيما يتعلق بالنقود فقد نظم الإسلام عمليَّة التبادل ففى القرآن الكريم «كَىْ لا يكونَ دُولَةً بين الأغنياءِ منكم » وإن صح أن يشمل هذا كل ما له قيمة مالية .

غير أننا نستخدم المال هنا لأنه هو الأثر الظاهر فى العصر الحديث لعين الثراء والمال .

وبهذا فإن الأمة الإسلامية بما وصفها الله فيه من أرض لها إمكانيات كثيرة

هي أنفس ما تعتز به الدولة الحديثة من البترول والمطاط والخشب والذهب والفضة والحديد والفحم والقصدير والثروة المائية . الخ .

وبما تملكه من أعداد هائلة من البشر ليس لها عذر فى تأخرها عن التقدم الاقتصادى وما عليها إلا أن تأخذ بسبيل الإسلام فيما هيأه لها من الثروات فتعمل بما أتاها من عند الله «ومن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجاً ويَرْزُقْهُ من حيثُ لا يَحْتَسِبْ» .

(ب) وظيفة المال :

لقد حدد القرآن وظيفة المال ، يقول الله تعالى : (ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالكم التى جعل الله لكم قياماً) .

فالمال هو وسيلة العيش وهو أصل تقوم عليه الحركة المعيشية ولهذه الوظيفة حرص الإسلام على المال حتى تضمن الأمة الإسلامية عيشاً مستقراً لها .

وجعل الله فى هذا المال حقوقاً :

(وآتُوهم من مالِ اللهِ الذى آتاكم) (النور ٣٣)

(والذينَ فى أموالهم حقٌّ مَعْلوم للسَّائلِ والمَحْرُوم) .
(المعارج ٢٤ : ٢٥)

وحفاظاً على المودة والأخوة الإسلامية فقد أكد الإسلام على سداد المسلم فى إخراجه للصدقة أن يراعى مسألتين :

الأولى : النوع الذى يخرج منه الصدقة فقال :

(ولا تيمَّمُوا الخبيثَ منه تُنْفِقون) . (البقرة ٢٦٧)

والثانية : طريقة إخراج الصدقة فقال :

(وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتُوها الفقراءَ فَهُوَ خيرٌ لكم) . (البقرة ٢٧١)

وقد جعل الإسلام للفرد ذاته وللأسرة وللفقراء والمساكين والأيتام حقاً فى المال يقول الله تعالى :

(وآتَى المالَ على حُبِّه ذَوِى القُرْبَى واليتامىَ والمساكينِ وابنِ السبيلِ وفى الرِّقاب) . (البقرة ١٧٧)

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم :

«أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على راتبه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله» رواه مسلم .

وعند مسلم عن جابر قال : أعتق رجل من بنى عذرة عبداً له عن دبر فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ألك مال غيره ؟ فقال : لا

فقال : من يشتريه منى ؟ فاشتراه نعيم بن عبد الله العدوى بثمانمائة درهم فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفعها إليه ثم قال : ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شىء فلأهلك فإن فضل من أهلك شىء فلذى قرابتك فإن فضل عن عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا . .

فوظيفة المال إذن هى : إشاعة الرخاء فى المجتمع الإسلامى عامة . . وبهذا العرض الموجز يتضح أن الاقتصاد الإسلامى يقوم على دعائم منبثقة عن العقيدة بالله سبحانه. وأول هذه الدعائم :

١ — أن المال أساس للحياة الإنسانية وأن العمل حق وواجب يأثم كل مسلم لا يقوم بواجبه على قدر ما منحه الله من الذكاء والقوة .

٢ — أن الحركة الاقتصادية حركة تجميع مستقر له سيادة على جميع أفراده وبلاده . .

٣ — وأن الثروة الطبيعية هى جزء أساسى من رأس المال الذى يجب على المسلمين أن يطوروه حسب مقتضيات الزمن والبيئة .

٤ — وأن وظيفة المال وقيمته لإشباع حاجات الإنسان الضرورية وإشاعة الخير والرخاء فى المجتمع الإسلامى .

وملخص هذه الأسس كما يلى :

يقوم الاقتصاد الإسلامى على عدة دعائم :

١ — الجهد الإنسانى .

٢ — السيادة والاستقرار للدولة والمجتمع .

٣ — الثروة الطبيعية التى تملكها الجماعة الإسلامية . .

٤ — إسهام المال فى إشاعة الرخاء لجميع طبقات المجتمع الإسلامى . .

فهل للمسلمين اليوم ملجأ يهرعون إليه فى طلب العدالة الاجتماعية بعد دين الله الحقيقى ؟

أما الله فقد أنذرنا . . ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ . (طه ١٢٣ ، ١٢٤)

وقد وقع المسلمون فى هذا الضنك فهل يفيقون ويرجعون إلى شريعة الله ودينه الإسلام الحنيف لعلهم يرحمون ؟.

رابعاً — المشكلة الاقتصادية :

يدعى الباحث الاقتصادى (بيجو) أن وظيفة الدراسات الاقتصادية هى تحقيق أعلى المستويات الممكنة عملياً لرفاهية الإنسان .

ومعنى ذلك فى العرف الاقتصادى :

زيادة ما يخص الفرد من السلعة الاستهلاكية والخدمات التى تشبع حاجاته مع تخفيف الجهد الذى يبذله فى طلب الرزق . .

ويستدعى هذا الكشف عن الموارد الطبيعية التى تساعد بتصنيعها على تحقيق هذا الهدف ولكن الواقع المشاهد الآن هو : أن قوى العالم الغربى والشرق قد اتجهت إلى توسيع رقعة الصناعات العسكرية وأبحاث الفضاء بما لا يدع مجالاً للتفكير فى حل المشكلة الاقتصادية .

فالنفقات العسكرية التى تستغل فى زمن السلم بلغت أكثر من ١٦٠,٠٠٠ مائة وستين ألف مليون جنيه إسترلينى فى العام الواحد .. أما نفقات أبحاث الفضاء فقد بلغت أرقاماً مذهلة وكل ذلك على حساب عيشة الإنسان على وجه الأرض .

وبذلك فإن المشكلة الاقتصادية قد عقّدها الغرب والشرق ولم يعد قادراً على حلها بعد أن تورط فى السباق العسكرى والفضائى ..

أما موقف الإسلام من هذه القضية : «المشكلة الاقتصادية» فقد قدم لها الحلول منذ الزمن البعيد :

أولاً : وجه الإنسان إلى الثروة المائية بكل ما فى البحر من معادن وحيوانات يقول الله تعالى :

(وَمَا يَسْتَوِى البَحْرَانِ : هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سائغٌ شَرَابُهُ ، وهذا ملحٌ أجاجٌ ، ومِنْ كُلٍّ تأكلون لَحماً طَرِياً وتَسْتَخرِجون حِلْيَةً تَلْبَسُونها وتَرَى الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ لتَبْتَغُوا من فَضْله ولعلكم تَشكرون). (فاطر ١٢)

(اللهُ الذى سَخَّرَ لكم البحرَ لتَجرِىَ الفُلْكُ فيه بأمْرِه ولِتَبْتَغُوا من فَضْلِه ولعلكم تَشكرون ، وسخَّر لكم ما فى السموات وَما فى الأرض جميعاً منْهُ إنَّ فى ذلكَ لآيات لقومْ يتفكرون) . (الجاثية ١٢، ١٣)

فالقرآن يوجه الفكر الإنسانى خاصة والفكر الإسلامى إلى الاستفادة من البحر فى حل المشكلة الاقتصادية التى ينبنى عليها رخاء عيش الإنسان فى الأرض . .

ثانياً : كما حث على عمارة الأرض وأرشد المسلمين إلى معالجة اقتصادهم عن طريق إضافة أرض جديدة صالحة للإنتاج وحدد لذلك مدة ثلاثة أعوام لأنها المدة التى يراها الإسلام كافية للعمارة والتملك يقول النبى صلى الله عليه وسلم . .

« من أحيا أرضا ميتة فهى له . . وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين »[1].

ثالثاً : استخراج المعادن من باطن الأرض . .

ففى الحديث : « المعدن جبار » .

(١) رواه أبو يوسف فى كتاب الخراج :

وفيها خُمسُ ما يستخرج زكاة وأربعة أخماس لمن استخرجه . . . » .

رابعاً : قانون الإنفاق :

أباح الله الأكل والشرب .

ولكن بقانون : (وكُلوا واشْربوا ولا تُسْرِفوا، إنه لا يُحِبُّ المُسرفين). (الأعراف ٣١)

وجعل التبذير علامة على التبعة للشياطين : (إن المُبَذرينَ كانوا إخْوانَ الشّياطين) . (الإسراء)

وجعل الاعتدال من صفات المتقين :

(والذين إذا أنْفقوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُرُوا ، وكان بَيْنَ ذلك قَواماً) . (الفرقان)

ثم أمر الفرد المسلم أن يكون معتدلاً فى كل أحواله .

(ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ . . ولا تَبْسُطْها كُل البسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مخذُولاً) (الإسراء)

وذلك القانون له أثره فى حل المشكلة الاقتصادية إذ رفاهية الإنسان خاصة إلى الإنتاج والإنفاق معاً ، فكثرة الإنفاق مع الإنتاج ، لا تحقق الرفاهية ، واتزان الإنفاق مع اعتدال الإنتاج ولو غير كثير يحقق الرفاهية لأن كل فرد سيجد ما يحتاجه دون جهد وبذلك تبرز قيمة من قيم الاقتصاد الإسلامى وهى القضاء على المشكلة الاقتصادية . . بكثرة الإنتاج واتزان الإنفاق .

خامساً :

١ — حرم الإسلام جميع الأنظمة المالية التى تعطل الدورة الاقتصادية مثل : كنز المال : (والذين يكْنِزُونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونها فى سَبيلِ اللهِ فبَشّرْهم بعَذابٍ أليم) . (التوبة)

٢ — الربا : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَرُوا ما بَقىَ من الربا) . (البقرة)

٣ — الاحتكار : يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يحتكر إلا خاطئ » (مسلم وأحمد وأبو داود) .

« من احتكر حكرة يريد أن يُغْلى بها على المسلمين فهو خاطئ » (رواه أحمد)

من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس (ابن ماجه)

٤ — والغش : «من غشّنا فليس منا» . (حديث مشهور) .

٥ – والغضب : « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه جاداً ولا لاعباً »

(أحمد وأبو داود)

« لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس . . . » . الدارقطني

٦ – والسرقة : (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيْديهما) (المائدة)

٧ – وحرم الرشوة : لعن الله الراشى والمرتشى والرائش : (ولا تأكلُوا أموالكم بَينكم بالباطل وتُدْلُوا بها إلى الحُكام)

٨ – الميسر : (يسألونك عن الخمرِ والميسرِ قلْ فيهما إثم كبير) (البقرة)

سادساً : وأباح كل نظام استثمارى فيه فائدة للأمة الإسلامية فأحل الله . .

١ – السلم : يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل .. » (رواه الجماعة)

٢ – القرض : (مَنْ ذَا الذى يقْرِض الله قرْضاً حسَناً فيُضاعِفَهُ له أضْعافاً كثيرة) . . (البقرة)

وفى الحديث :

« ومن فرّج عن مسلم كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا فرّجَ اللهُ عنه كُرْبةً من كُرَبِ يوم القيامة . . . » .

٣ – والشركة والمضاربة : عن رويفع ابن ثابت قال :

إن كان أحدنا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأخذ نضو أخيه على أن له النصف مما يغنم ولنا النصف وإن كان أحدنا ليطير له النصل والريش وللآخر القدم .

ولو طبق ذلك النظام لانتهت المسألة الاقتصادية من المجتمع الإسلامى وعادت الأمة التى بعثت لتكون خير أمة أخرجت للناس . .

فهل من صاحب لب حصيف . . ؟

هل من صاحب لب يخلص النية لله ويأخذ بيد الأمة إلى حياض الإسلام الحنيف . . لعل الله يرحمنا من بلاء الاقتصاد الذى أنهكته حقول التجارب بين أضابير النظريات الشرقية المتداعية والغربية المتعجرفة . . . ؟

لعل فينا رجلاً شديداً يأوى إلى ركن الإسلام الحنيف ويومها نجد الله قد رضى عنا وجعل لنا من بعد عسر يسراً . . فإنه وحده جل شأنه يبسط الرزق لمن يشاء . . ويرزق من يشاء بغير حساب ؟ . .

دكتور رءوف شلبى

جرير والموالى

الأستاذ / السيد حسن قرون

فى الباب الرابع والثلاثين من كتاب «الكامل للمبرد» كلام كثير صدره المبرد بذلك الخبر وما صحبه من شعر : قال جرير — ونزل بقوم من بنى العنبر بن عمر بن تميم فلم يَقْرُوه حتى اشترى منهم القرى فانصرف وهو يقول :

يا مالكُ بن طريف إن بيعكمُ
رِفْد القرى مفسد للدين والحسب

قالوا : نبيعكه بيعاً فقلت لهم :
بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

لولا كرام طريف ما غفرتُ لكم
بيعى قراى ولا أنسأتكم (١) غضبى

هل أنتم خير أو شاب زعانفة
ريش الذنابى وليس الرأس كالذنب

والمبرد رحمه الله يورد هذا الشعر لجرير لأمور ثلاثة : إعراب «مالك بن طريف» فذلك فى مالك وهو منادى النصب والرفع ، ولا أتعرض للعلة فذلك ليس من شأنى ، والثانى حديثه عن القرى ، وتزعم الرواة أن ما أنفت منه جِلة الموالى هذا البيت يعنى قوله : «بيعوا الموالى واستحيوا من العرب» لأنه حطهم ووضعهم هكذا يقول المبرد ، والأمر الثالث «نسب بنى العنبر فى بنى تميم» وسواء لدىّ أن ينسب بنو العنبر إلى تميم أو بهراء فهذا مالا أريده ، إنما همى من ذلك الشعر موقف جرير من الموالى ، والموالى فى أيام جرير كانوا قد دخلوا فى الإسلام وعنوا بالكتاب والسنة ودراسة اللغة العربية ، حتى قال فيهم الشعبى وقد مرّ على قوم منهم يتدارسون النحو لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده . وكلام الشعبى لا يغضب الموالى ، لأنه يصف واقعاً فاختلاط العرب بغيرهم من البلاد المفتوحة أفسد فصاحتهم وتقويم الألسنة منهم ، لكن جريراً يدخل فى الناحية النفسية فيجعلهم دون العرب منزلة ومقاماً ، وذلك يرجع

---

(١) أخرت غضبى .

إلى عنجهة جرير وتربيته الأولى ، فقد ولد فى اليمامة سنة ٢٨ هـ وبقى مدة بين الأعراب فشب أعرابياً جافياً أوقل كما قال عامل الحجاج إنه أعرابى بأقته أى داهية ، ولم يكن بيت جرير ذا ثراء ودعة ، فقد كان أبوه من فقره وحرصه على المال لا يحلب شاته فى وعاء خوف أن يسمعه مارّ أو جار فيطلب إليه شيئاً من اللبن ، وجدّه (الخطفى) واسمه (حذيفة) كان له مال ضنّ به على ابنه (عطية) والد جرير فلما ولد جرير وهبه له ثم رجع فى هبته ويعلل ابن سلام فى (طبقات الشعراء) لرجوع الجد فى هبته بقوله : «ولد للخطفى صبية فرجع فيما كان نحله جريراً».

ومن هنا جاء شعر العتاب الذى صاغه الحفيد قاسياً منه :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى
سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا
وإنى لمغرور أعلل بالمـنى
ليـالى أرجو أن مالك ماليـا
فأنت أبى ما لم تكن لى حاجـة
فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا

ومن أعجب مالاقته تلك القصيدة العاتبة أنها نقلت إلى دار الخلافة بدمشق فاستخدمها يزيد بن معاوية على أنها له حين عرض له سوء تفاهم مع أبيه فوجهها إليه ، ويقول ابن سـلام : وفد جرير بعد ذلك إلى يزيد وهو خليفة وجرير حدث فأنشده :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى
سريع إذا لم أرض دارى انتقاليا

قال : كذبت ، ذاك جرير . قال : فأنا جرير . قال يزيد : والله لقد فارق أمير المؤمنين معاوية الدنيا وهو يرى أن هذا البيت لى . ولو طال عمر يزيد لكان لجرير شأن عنده لإعجابه به . أليس قد روى شعره ونحله نفسه ؟ ولكن الأمور تتبدل ، وتنتقل الخلافة إلى مروان وبنيه ، وجرير لا يَعْنيه شىء سوى المال ، والتكسب بالشعر ، ويعيش قابعاً باليمامة ينتظر أن ينتهى الصراع الدائر بين مكة وخليفتها عبد الله بن الزبير ودمشق وخليفتها عبد الملك بن مروان ، ليجد فرجاً من حرج ، ومخرجاً من ضيق ، وانتصر عبد الملك ، وقامت وحدة الأمة الإسلامية من جديد ، وانتعش الفتح والدعوة إلى الإسلام ، وجرير لا يجد سبباً يصله بالخليفة ، وأقرب أرض لليمامة العراق ، وفى العراق والٍ هو بشر بن مروان أخو الخليفة

فليذهب إليه علّه يبلغ مناه ، وله موهبته الشعرية الفذة . ألم ينل إعجاب يزيد ؟ يمّم جرير العراق وهناك وجد والياً قرشياً أموياً ودّ لديه أن ينال الجوائز التى تغنيه عن غنم أبيه ومال جده . ولكن بشراً خيب رجاءه ، وجده يلهو بالشعراء يغرى بعضهم ببعض ليسمع التهاجى ، فنال جرير من منافسيه ونالوا منه ، فرجع إلى اليمامة يحمل جراحه ونواحه ، وجرير لا يرى عيباً فى التكسب بالشعر فهو ميراث الشعراء من لدن الجاهلية إلى يومه ومات بشر وسمع بوال جـديد فراوده أمله وشد رحله إلى البصرة ، ووجد طلبته عند (الحكم بن أيوب الثقفى) وهو ابن عم الحجاج وعامله على البصرة فأنشده :

أقبلن من ثهلان أو وادى خيم
على قلاص[1] مثل خيطان السلم
إذا قطعن علما[2] بدا علم
حتى أنخناها على باب الحكم
خليفة الحجاج غـير المتهم
فى ضئضئ[3] المجد وبحبوح الكرم

وتقبل الحكم شعر الشاعر ، وتحدث إليه وفاطنه فوجده حصيفاً ، وافر العقل والذكاء ، فكتب إلى الحجاج أنه قدم علىّ أعرابى باقعة لم أر مثله ، فكتب إليه الحجاج أن يحمله معه ، فلما دخل عليه قال له (بلغنى أنك ذو بديهة فقل فى هذه الجارية لجارية قائمة على رأسه . فقال جرير : مالى أن أقول فيها حتى أتأملها ، ومالى أن أتأمل جارية الأمير ؟ فقال : بلى ، فتأملها واسألها ، وهنا اتجه جرير إلى الجارية ، فقال لها : ما اسمك ؟ فأمسكت ، فقال الحجاج : خبّريه بالخناء . فقالت : (أمامة) فقال جرير :

ودع أمـامة حان منك رحيل
إن الوداع لمن تحب قليلُ
مثل الكثيب تمايلت أعطافـه
فالـريح تجـبر متنه وتميل
هذى القلوب صواديا يتّمتها
وأرى الشفاء وما إليه سبيل

فقال الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها : خذها هى لك ، فضرب بيده إلى يدها فتمنعت عليه فقال :

إن كان طبّكم الدلالُ فـإنه
حسن دلالك يا أمام جميلُ

فاستضحك الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة .

(١) نُوق شابة .
(٢) جبلا .
(٣) أصل .

وينبغى أنا تكون أمامة جميلة ، فقد أحبها جرير حبًّا ملك عليه شغاف قلبه، ورآها نموذج الجمال فى أوانه ، ولا أدل على شغفه بها من أن إخوتها — وكانوا أحراراً من أهل الرى — تبعوه فأعطوه بها — وهو الضنين على المال — عشرين ألفاً فلم يقبل ، بل أنشد :

إذا عرضوا عشرين ألفاً تعرضت
لأم (حكيم) حاجة هى ماهيا
لقد زدت أهل الرى عندى مودة
وحببت أضعافاً إلىَّ المــواليا

تغيرت نظرته إلى الموالى ، وارتفعوا فى نظره ، وكرموا لديه ، أليسوا أخوال بنيه منها : حكيم وبلال وحزرة هذا هو ما كانت تكنى به أمامة ، فإذا شعر أو مدح ذكرها فى شعره ، وتحدث عما يجرى بينها وبينه فأمام الخليفة عبد الملك هتف باسمها قائلا :

تعزت أم حزرة ثم قالت :
رأيت الواردين ذوى امتناح
تعلل وهى ساغبة بنيهــا
بأنفاس من الشبم القراح
سأمتاح البحور فجنبينى
أذاة اللوم وانتظرى امتياحى
ثقى بالله ليس له شريك
ومن عند الخليفة بالنجاح

وقد نجح ونال الجوائز الوافرة ورجع إليها قرير العين ، ويقول الرواة إن عبد الملك أعجب بقوله :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح ؟

وأعلن لمن حوله : من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا . وهذا الشعر لايقبله عصرنا فهو أشبه بالسؤال منه بالمديح ، ولكن الشاعر عقله فى قلبه وحبه فيهمه أن يذكرها ويُنَوِّه بها ويحكى ماجرى بينه وبينها ولو تخيلا .

وينبغى أيضًا أن يكون غلوه فى مدح الحجاج وهو الحقود الحسود كما وصف نفسه مرده إلى أمامة فهو الذى وهبه إياها ثم هو بعدُ وصله بالخليفة ، فمن مبالغاته فى مدح الحجاج قوله :

صبرت النفس يابن أبى عقيل
محافظةً فكيف ترى الثوابا ؟
ولو لم يرض ربك لم ينزل
مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب
رأى الحجاج أثقبها شهابا

إلى كثير من مثل هذا مما يجب أن يحظى به غيره من الأئمة المهتدين. وهكذا كان قلب جرير ، فانظر معى

إلى هذا الرجل الذى يقول «بيعوا الموالى واستحيوا من العرب» ويقول فى مهاجاة الأخطل :

لاتطلبن خئولة فى تغلب
فالزنج أكرم منهم أخوالا

تجده يمدح الموالى فيقول :

(ويجمعنا والغرّ أولاد سارة
أب لا نبالى بعده من تعذرا)

[تعذر احتج لنفسه]

وإنك لتعجب من هذا الأعرابى الباقعة التميمى اليربوعى وهو من لب مضر (تميم من إلياس بن مضر) كيف قبل تزويج ابنته من غير أمامة إلى ابن أخى أمامة ؟ ويذكر ابن سلام أنه كان ذا إبل اسمه (عصيدة) لقصر فى يده فلم تزل به أمامة حتى زوجه ابنته وهو على هذا النقص ثم صحا جرير فقال فيه وذكر أثر أمامة فى وجهته فقال :

وغرتنا أمامة فافتحلنا
(عصيدة) إذ تُنُخِّلَت[1] الفحول
إذا ما كان فحلك فحل سوء
خلجت[2] الفحل أو لؤم الفصيل

(١) افتحل : اختار فحلا كريماً ، وتنخل : تخير .
(٢) فرقت بين الزوجين .

ويحكى عمارة بن عقيل بن بلال المعاصر للمبرد أنه يوم مدح الموالى وافته مائة حلة من بنى الأحرار ، وقد يكون جرير ممن أسهم فى تسمية الموالى ببنى الأحرار .

ومن الغريب أن أبناءها كانوا يفخرون على من أمهاتهم حرائر ، لأن أمامة بثت فيهم الاعتزاز بها والفخر بها ، إليك هذا الحوار الذى جرى بين بلال ابنها وبين الحمانى الشاعر لترى صدق ما تقول .

قال الحمانى لبلال : يا بن أم حكيم ليضع من شأن بلال . فقال بلال . «ما تذكر من ابنة دهقان (أمير) وأخيذة رماح ((أسيرة حرب) وعطية ملك (الحجاج) ؟ ليست كأمك التى بالمروت تغدو على أثر ضأنها كأنما عقباها حافر حمار» وكان رد الحمانى عليه لاله قال : «أنا أعلم بأمك ، إنما عتب عليها الحجاج فى أمر الله أعلم به فحلف أن يدفعها إلى ألأم العرب فلما رأى أباك لم يشكك فيه» .

وكان لها تأثير كبير على فنه الأدبى ، ومذهبه الشعرى ، وكل نسيب بدأ به قصائده أهازيج فى ذكر تلك الجارية التى سكنت قلبه وبيته ، والنقاد القدامى

والمحدثون يكادون يجردونه من لواعج الصبابة ، ويصفونه بالقدرة على الغزل وحسن الأداء فيه ، لأنه لم يفرغ نفسه لفن الغزل كما فعل جميل بثينة وقيس بن ذريح وعمر بن أبي ربيعة وفاتهم أن ينظروا إلى الشعر من حيث هو كلام صادر عن هوى وصبابة ، ولا يغرنك أن يكثر من ذكر الأسماء فى ذلك الغزل من سليمى وخالدة وبوزع وما إلى ذلك فكل رمز لأمامة أم حرزة أو أم حكيم ، ومعاصروه تنبهوا لروعة بيانه فى هذا الضرب من الشعر ، وتدارسوا ما يقوله ، وقد أخذت عليه السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها جفاءه فى قوله :

طرقتْك صائدةُ القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

ومع أنه أحسن الخطاب لها ودعا لها بالسلامة فى إيابها إلا أنها قالت : ما أجفاه ! ألا يأخذ بيدها ويعاملها بما هى أهله ؟ وقد يكون ذلك قبل أن يعرف أمامة ، وقد يكون قد حزبه أمر لا يود أن يشركها فيه ، وهو رجل بلاه الله بكثرة الخصوم ، وكان (المربد) فى البصرة فى الإسلام بمثابة عكاظ فى الجاهلية يتناول أقوال الشعراء ويستهجن ويستحسن ما يشاء ، وكان الفرزدق وجل بنى تميم يسكنون البصرة وينوهون بشعره ، فبنو يربوع وهم قومه الأعلون أغروه بأن يطيل مكثه فى البصرة ليكون لسانهم والمتحدث عن أمجادهم ، وكان يستجيب لهم ، وقد يكون الطارق أتاه فى ليلة الهموم حين أراد الرد على الراعى النميرى الذى هجاه ونصر الفرزدق عليه ، وقد حكت السيدة التى نزل عندها أنه كان كالذى مسه طائف من الجن حين نظم تلك القصيدة التى فضحت الراعى ونميرا ومنها .

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا

فكان يقفز ويحجل ويقول : فضحته والله ، أخزيته والله ، فقد جاء خيالها عندئذ فكان ما كان ، وهو رجل صادق لا يزيف العواطف ولا يلعب بالألفاظ ، بل ينبث تلقائيًّا استجابة لمشاعره ، وانسياقًا وراء دوافعه ، لكن حين لا يكون إلا هواه ، ولا تتملكه إلا نجواه يجىء السحر الحلال ، والمنطق الصافى كالماء الزلال ، وإليك دليل هذا المقال . يقول محمد ابن يزيد المبرد فى كتابه الكامل :

وحدثت أن الفرزدق قدم المدينة فنزل على الأحوص بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح (الأنصارى الشاعر) فقال الأحوص: ألا أسمعك غناء من غنـاء القرى (المدن) ؟ فأتاه بمغن فجعل يغنيه فكان مما غناه :

أتنسى أن تودعنـا سليمى
بفرع بشامة سقى البشامُ ؟
ولـو وجد الحمام كما وجـدنا
بِسُلْمانَيْنِ لاكتأبُ الحمام

فقال الفرزدق لمن هذا ؟ فقالوا : لجرير . ثم غناه .

أسرى لخالدة الخيال ولا أرى
شيئاً ألذّ من الخيال الطارقِ
إن البلية من تمل حديثـــه
فانقع فؤادك من حديثِ الوامقِ

فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لجرير ، ثم غناه :

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينـك ما يزال معينا
غيّضْنَ من عبراتهن وقلن لى :
ماذا لقيتَ من الهوى ولقينـا

فقال : لمن هذا . فقالوا : لجرير ، فقال الفرزدق : ما أحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى ، وأحوجنى مع فسوق إلى رقة شعره . والخطأ الذى وقع فيه النقاد أن العفة تنافى الحب والحديث عنه ، وأن جريراً كما قلنا لم يفرد للغزل قصائد خاصة مثل الشعراء العاشقين فى عصره ، والرجل لا يقل عنهم صبابة وهياماً ، ولكنه حب الزوج ، فما إن يفارقها راحلاً نحو البصرة أو ضارباً نحو الشام حتى يلم به الخيال الطارق ، أو ذكرى الوداع ، أو الحنين إلى من غيضن من عَبَرَاتِهِنَّ ، وبيّن أثر الفراق فيهن وفيه ، وطبعاً هذا القول لا يصدر عن قلب سليم معافى من داء الحب ، وهواجس التبريح ، ويتحير النقاد فى جمال تعبيره وحسن تصويره ، فيقول ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) « كان جرير عذهاة (عازفاً عن النساء) وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً » وهذه قضية منقوضة ؛ ففاقد الشىء لا يعطيه فالإناء يفيض إذا امتلأ ، والمصدور ينفث إذا لج به الألم ، ولو لم يكن جرير ملء القلب بالحب لما استطاع أن يصرف الأنظار إليه ، وأن يجعل من « خياله الطارق » منهجاً للشعراء بعده ولا سيما البحترى . فالسيدة سكينة سيدة محترمة

ويهمها أن يجد الإنسان قبولاً فى زيارته من المشاشة وتقديم الواجب ، فما بال النقاد يغفلون عن قلب جرير وهو الذى يقول لولا أن الهجاء شغلنى لقلت شعراً يحرك العجوز فى محرابها أو كما قال ، والحمد لله أن شغله الهجاء .

وإذا كان جرير أحسن لقاءها فى مجلس الحجاج فى العراق فقد أحسن توديعها يوم ذهبت إلى بارئها ، فقد فتح للشعراء باباً ولجوه بعده ، ولم يجدوا غضاضة فى أن يلجوه ، وله أسوة فى أبى العاص بن الربيع حين بكى زوجه زينب بنت رسول الله بشعر يقطر حزناً ووفاء ، وقد تبع جريراً شعراء مصريون يدأهم البارودى ، ثم جاء عبد الرحمن صدقى ، وعزيز أباظة ليفرد كل منهما ديواناً من الشعر فى بكاء الزوجة الغاربة .

فماذا قال جرير فى أمامة ؟

قال :

لولا الحيـاء لهاجنى استعبـار
ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولهت قلـبى إذ علتنى كبرة
وذوالتمائم من بنيك صغـار
لا يلبث القرنـاء أن يتفرقـوا
ليـل يـكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا
والطيبون عليك والأبـرار
فلقد أراك كسيت أحسن منظر
ومع الجمال سكينة ووقـار

ويختم الرثاء بالهجاء أو بالغضب على الفرزدق ومن تابعه فى تهوين أمرها ، والفخر بتشييع الحرائر غيرها فيقول :

أفأم حزرة يا فرزدق عبتم
غضب المليك عليكم الجبار

دعك من حياء الشاعر فهو مستعار وهو بقية من أعرابيته فى اليمامة نكصت به عن واجب الوفاء نحو شريكته وأم أولاده النجباء ، لكنه بكى واشتكى ودعا ، وقضى حق الوفاء لها بهذا الشعر الخالد ، وكفاها فضلا أنها ألهمته الشعر فتاة وزوجا وربة بيت ، وصانعة أولاد ، ورفعت عن عينيه الغشاوة فرأى فى الموالى أناساً يستحقون الثناء وتبادل العطاء .

رحمه الله فقد فارق الدنيا سنة ١١٠ هـ بعد وفاة الفرزدق بستة أشهر ، وخلف لنا شعراً يطيب تلقيه ودراسته ، وهذا جانب من حياة جرير ، ولنا عودة إلى نقائضه إذا وفقنا إلى عرضها .

السيد حسن قرون

مع رسالة الأدب الصوفى

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى القرنى

القصة الصوفية :

أشرت فيما سبق إلى أن رسالة الأدب الصوفى تتلخص فى إعلاء القيم وبث المثل العليا فى النفوس ، وتذكير الناس بما يجب عليهم نحو واجب الوجود ، وإذا كان للأدب العام

رسالة تشير إليها هذه العبارة التى وردت على لسان أحد الأدباء « الأديب هو كل من يدلنى على الطريق ويسير أمامى » فإن الأديب الصوفى أولى الناس بذلك وأجدرهم به ؛ لما يحتويه كَلِمُهُ من صدق وروعة وجلال .

وقد تقدم عرض بعض الآثار الأدبية الشعرية والنثرية التى تدور حول بعض المعانى الصوفية ، والتى تجمع بين صدق الوجدان وقوة الفكر وجودة الأسلوب ، حتى إنه ليشعرنا بمدى الرثاء لأدبنا الذى يهمل — عن عمد أو غير عمد — دراسة هذا اللون الممتاز الذى يرفع من قامة الأدب فى الوقت الذى يعنى العناية الفائقة بدراسة نماذج شتى بعضها يضر ولا ينفع ، وإنى لأتساءل : كيف نقدم للمتعلم نصوصا متنوعة من الغزل الصريح لبشار ابن برد وعمر بن أبى ربيعة ومن مجون أبى نواس ، ولا نقدم له نصوصاً من شعر الصوفية الذين نسجوا فى الأخلاق والحكم والمثل العليا ألوانا رائعة وآثاراً خالدة ؟

وإذا كنت قد تحدثت فيما سبق عن بعض موضوعات الأدب الصوفى فلا ينبغى إغفال فن القصة التى أسهم الصوفية فيها بنصيب وافر .

والقصة يأنس إليها الإنسان بطبعه ، وللقرآن الكريم فى ذلك نماذج متعددة تَشْهَدُ بما للقصة من تأثير طيب فى النفوس .

هدف القصة الصوفية :

والقصة الصوفية لها هدف واضح لا تتعداه ، وهو تدعيم المبادئ الصوفية وتعظيمها فى النفوس عن طريق ما يجتمع

فيها من عبارات وإشارات وما تحويه من معان وأذواق ، وهى الملك تبعد عن التفصيلات المثيرة والعبارات الفضفاضة والأوصاف الجانبية التى تعتمد عليها القصص الأخرى وهى فى جملتها موجزة لأنها لم تسق إلا لغرض واضح محدود ، فمن ذلك ما يحدث به « ذو النون » قائلا :

« بينما أسير فى أنطاكية إذا أنا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة صوف ، فسلمت عليها فردت على السلام ، ثم قالت : ألست ذا النون المصرى ؟ فقلت : عافاك الله كيف عرفتنى ؟ فقالت : عرفتك بمعرفة حب الحبيب . ثم قالت : أسألك عن مسألة ، قلت : سَلِى . قالت : أى شىء السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت : هذا السخاء فى الدنيا فما السخاء فى الدين ؟ قلت : المسارعة فى طاعة رب العالمين . قالت : إذا سارعت إلى طاعة المولى فهو أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد منه شيئاً . ويحك ياذا النون ، إنى أريد أن أطلب منه شيئاً منذ عشرين سنة فأستحى منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجرة ، ولكن اعمل تعظيماً لهيبته وعز جلاله » .

فالهدف من هذه القصة تعليم الناس كيف يكون حب الله عز وجل وطاعته والإخلاص له . وفيها إلى جانب ذلك إشارة إلى القوة الروحية التى يصطفى الله لها من يحب من عباده فيرون ما لا يرى غيرهم من الناس . وتغلب على هذه القصة الصفة الحوارية ، وهى سمة كثير من القصص الصوفى .

ومن هذا اللون الحوارى ما تحكيه القصة الآتية :

« مر إبراهيم بن أدهم برجل ينطق وجهه بالهم والحزن فقال له : أيها الرجل، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى عنها ، فقال الرجل: سل عما تريد ، قال إبراهيم: أيجرى فى هذا الكون شىء لا يريده الله ؟ قال : لا . قال : أفتنقص من رزقك شىء قدره الله لك؟ قال : لا . قال : أفينقص من أجلك لحظة كتبها الله لك فى الحياة؟ قال : لا .

قال إبراهيم : فعلام الهم والحزن إذن ؟

وواضح ما تهدف إليه هذه القصة من تدعيم لقيمة التفويض إلى الله والرضا بقضائه وقدره .

موضوعات القصة الصوفية :

والقصة الصوفية تدور حول موضوعات متعددة :

١ - منها القصة الأخلاقية التى تهدف إلى توطيد الأخلاق فى النفوس وتربية السالكين والمريدين مثل هاتين القصتين السابقتين ومثل القصة التالية :

قال عطاء السلمى : منعنا الغيث فخرجنا نستقى فإذا بسعدون المجنون فى المقابر ، فنظر إلى فقال : يا عطاء ، أهذا يوم النشور أو بعث ما فى القبور ؟ فقلت : لا ، ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقى ، فقال : ياعطاء ، بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية . فقال : هيهات ياعطاء ، قل للمتبهرجين : لا تتبهرجوا ؛ فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهى وسيدى ومولاى ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن بالمكنون من أسمائك ، وما وارت الحجب من آلائك إلا ما سقيتنا ماء غدقا فراتا تحيى به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شىء قدير . قال عطاء : فما استتم كلامه حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب ، فولى وهو يقول :

أفلح الزاهـدون والعابدونا
إذ لمولاهمو أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين العليلة حبا
فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبادة الله حتى
قيل فى الناس إن فيهم جنونا

فهذه قصة تدعو إلى خشية الله وإيثار الآخرة على الأولى ، والزهد فى المظاهر ، والسهر فى الطاعة والاهتمام بالعبادة ، وهذا كله مما يدعو إليه الصوفية ويربون مريديهم عليه .

٢ - ومن قصصهم ما يتجه إلى تعظيم الصالحين عن طريق سرد حكاياتهم وقص كراماتهم وإبراز مكاناتهم وعلو كعبهم فى الطريق ، وهذا اللون كثير منبث فى الكتب ومن نماذجه ما أورده الطوسى فى كتابه اللمع .

« أخبرنى جعفر الخلدى رحمه الله فيما قرأت عليه قال : حدثنى الجنيد رحمه الله قال : دخلت على سرى السقطى رحمه الله يوماً فقال لى : أعجبك من عصفور يجىء فيسقط على هذا الرواق ، فآخذ لقمة فأفتها فى كفى فيسقط على أطراف أناملى فيأكل ، فلما كان فى وقت من الأوقات سقط على الرواق ففتت الخبز فى يدى فلم يسقط على يدى كما كان قبل ذلك ، ففكرت فى سبب العلة فى وحشته عنى

فذكرت أنى أكلت ملحاً بأبزار (توابل) فقلت بسرى : أنا تائب من الملح المطيب ، فسقط على يدى فأكل وانصرف » .

ولا يخفى ما فى قص هذه الكرامة أيضاً من توجيه روحى عال لزهاد الصوفية الذين أصبح المباح فى نظرهم حجاباً . ولئن كان الخلدى فى هذه القصة ألزم نفسه الشدة فإن غيره من بعض الصوفية لم يقف عند هذا المعنى للزهد ، ولكن نظر إلى أن الزهد الحقيقى فى ترك حظوظ النفس ، وعلى ذلك فتناول الدنيا مع عدم تعلق القلب بها من تمام الزهد ، ويحكى عن الحارث المحاسبي أنه كانت له دار حسنة وثياب نظاف وفى داره شاه مرغ ، وكان بعضهم يقول لمريده : إذا عطشت فاشرب الماء البارد لأنك إذا قلت الحمد لله قلتها برضا نفس وانشراح صدر ، أما إذا شربت الماء الحار وقلت الحمد لله قلتها بكزازة نفس وضيق صدر . وهذا من دقائق التأديب .

ومما يقصه إبراهيم الخواص قوله « تهت فى البادية أياماً ، فإذا بشخص وافانى فقال لى : السلام عليك ، فقلت : وعليك السلام . فقال : تهت ؟ فقلت : نعم . فقال لى : ألا أدلك على الطريق ؟ قلت : نعم ، فمشى بين يدى خطوات وغاب عن عينى فإذا أنا على الجادة ، ومنذ فارقت الشخص ما تهت ولا أصابنى الجوع ولا العطش » .

والقصص التى تدور حول الكرامات كثيرة ، وقد دار حول كرامات الصوفية كلام كثير لا مجال للحديث عنه ، ويكفى أن تكون الكرامة قد ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف ما يثبت حدوثها . على أن الصوفية أنفسهم لم يجعلوا الكرامة هدفاً لهم ولم يقفوا عندها وقالوا فى حقها : ربما يرزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة ، والكرامة الحقيقية فى نظرهم هى ما قاله سهل بن عبد الله رضى الله عنه : « ما الآيات وما الكرامات ؟ إنها تنقضى لوقتها ، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً محموداً من أخلاق نفسك بخلق مذموم » وقيل لأبى يزيد رحمه الله : فلان يقال إنه يمر فى ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمر فى لحظة من المشرق إلى المغرب وهو فى لعنة الله » وأصدق ما قالوه فى ذلك : الاستقامة خير من ألف كرامة .

٣ — ومن القصص ما يدور حول السماع — ولهم فى السماع شرائط متعددة قلما تتحقق — ويكون هذا اللون من

القصص مادة سخية فى القصة الصوفية ، ومن ذلك : « حضر أحد تلامذة ذى النون مجلس قوال فى بغداد ، فلما طاب السماع وتواجد السامعون صرخ ذلك التلميذ ووقع فحركوه فوجدوه ميتاً ، فوصل الخبر إلى ذى النون ، فقال لأصحابه : تجهزوا حتى نصل إلى ذلك القوال ، فلما وصلوا إليه غنى ذو النون وأصحابه ، والقوال يسمع . ثم صرخ ذو النون فوقع القوال ميتاً ، فقال ذو النون : قتيل بقتيل أخذنا بثأر صاحبنا .

ومن ذلك ماحكاه الدقى فى اللمع قال : كنت فى البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فى الخباء عبداً أسود مقيداً ، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت ، ورأيت جملا قد نحل وهو ذابل كأنه ينزع روحه . قال : فقال لى الغلام المقيد : أنت الليلة ضيف مولاى وأنت عنده كريم فتشفع فىّ حتى يحل عنى هذا القيد فإنه لا يردك .

قال : فقدموا لى الطعام فأبيت أن آكل فاشتد ذلك على صاحبى ، فقال لى : مالك ؟ فقلت : لا آكل طعاماً إلا بعد أن تهب لى جناية هذا الغلام وتحل عنه قيده ، فقال : يا هذا إن هذا الغلام قد أفقرنى وأهلك جميع مالى وأضر بى وبعيالى . فقلت له : ما فعل ؟ فقال : إن هذا الغلام له صوت طيب ، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال ، فحملها أحمالا ثقيلة وحدا لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة ، فلما وافت وحطت أحمالها ماتت إلا هذا الجمل ، ولأنك ضيفى قد وهبت لك الغلام فحل قيده .

فلما أصبحت أحببت أن أسمع صوته فسألته ذلك فغنى فوقعت على وجهى ، وما أظن أنى سمعت صوتا أطيب من صوته .

وليست قصص السماع عند الصوفية قاصرة على الشعر وغنائه دون غيره ، ولكن السماع أيا كان موضوعه ولغته له فى نفوس الصوفية أثر مشهود ؛ لأنه يصادف ما وقر فى وجدانهم من شعور وفى أذهانهم من معان . حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال : دخلت على سرى السقطى رحمه الله ، فرأيت رجلا بين يديه قد غشى عليه ، فقال لى : هذا رجل سمع آية من كتاب الله عز وجل فغشى عليه ، فقلت : اقرأ عليه هذه الآية التى قرئت . فقرأ فأفاق . فقال لى : من أين لك هذا ؟ فقلت : رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق فبمخلوق أبصر

ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق . فاستحسن منى ذلك .

والقصص التى تدور حول السماع إما أن تكون مخبرة بواقعة حال أو بيان أدب فى السماع أو لفت النظر إلى سر من أسراره وهكذا ، والمجال يضيق عن عرض نماذج من ذلك .

٤ – ومن القصص الصوفى ما يدور حول الحب الإلهى وما يعانى المحبون منه ، والصوفيون يعتنون بهذا اللون من القصص لأنه يطابق أحوالهم ويحكى وجدانهم ويشير إلى ما يقاسونه من وجد وشوق .

« حدث أبو على الروذبارى قال : جزت يوماً بِقَصْرٍ فرأيت شاباً حسن الوجه مطروحاً وحوله ناس مجتمعون فسألتهم عنه فقالوا : إنه جاز بهذا القصر فسمع نجارية تغنى وتقول :

كبرت همة عبد طمعت فى أن تراكا
أو ما حسب لعين أن ترى من قد رآكا

فوقع ميتا » .. ذلك لأن القول صادف هوى فى نفسه وحرك شجونه وأثار وجدانه .

خصائص القصة الصوفية :

سبق الإشارة إلى أن بعض القصص الصوفية فيها إيجاز وحوار ، وهى تتسم إلى جانب ذلك بالواقعية لأن صاحبها يعيش فى الواقع الذى يشغل حياته ويملأ فراغه ، وهو أبعد الناس عن الخيال الذى يعتبره ضرباً من الوهم يتعارض مع مثاليته وأخلاقياته ، وليس المقصود بالخيال بداهة ما يلجأ إليه الشاعر أو الكاتب من صور بلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية مما يعين على تأكيد الواقعية دون معارضة لها .

وباستعراض النماذج السابقة نجد الواقعية واضحة فيها فهى مشتقة من تجاربهم التى يمرون بها .

كما يغلب على القصة الصوفية مزجها بالشعر الذى يصف الحالة الوجدانية التى يمرون بها ، ومن هنا يمكن القول بأن القصة غالباً ما تكون ثمرة تجربة ذاتية ويحكى بها صاحبها واقعة حال ، وتدرك ذلك من القصة التالية :

« وقع أبو حمزة الصوفى رحمه الله فى بئر فطموا رأسها ، فجاء سبع ففتح رأس البئر ونزل فتعلق أبو حمزة برجله فأخرجه من البئر ، فسمع هاتفاً يقول : هذا حسن يا أبا حمزة نجيناك من التلف بالتلف : من البئر بالسبع ، فأنشد أبو حمزة :

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى
وأغنيتنى بالفهم عنك من الكشف
تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى
إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراميت لى بالغيب حتى كأنما
تبشرنى بالغيب أنك فى الكف

والقصة الصوفية قصيرة لأنها تقصد إلى المغزى رأساً ولا تعنى بالتفصيلات والجزئيات لأنها فى غنى عن ذلك ، ولكنها مع إيجازها الشديد تترك فى النفوس أثرها المنشود ، إنها تعتمد على الإشارة أكثر مما تعتمد على العبارة ، وخير الكلام ما قل ودل . .

أما القصة الحديثة بعقدتها وحلها فهى لم تعرف طريقها بكثرة فى الأدب الصوفى ، وذلك أن القصة الجيدة تستمد مادتها من الخبرة الذاتية التى يحصلها القاص بتجاربه الخاصة ويشترط فيها الصدق مع النفس ، وربما نقل عن تجارب الآخرين المدونة أو المروية التى تمثل ثقافته العامة ولكن بشرط صدق الانفعال أيضاً حتى تصبح هذه التجارب كأنها تجربته هو . وقد نجد أمثلة لذلك فيما كتبه الرافعى رحمه الله فى كتابه وحى القلم من قصص استمدت غذاءها من الجو الصوفى وحياة الصوفيين ومن أمثال ذلك قصة « رؤيا فى السماء » التى يصور فيها على لسان أبى خالد الأحول الزاهد قصة الشيخ أبى ربيعة الفقيه الصوفى حين ماتت زوجته ، وقصة « بنته الصغيرة » التى يحكى فيها طرفاً من سيرة أبى يحيى مالك بن دينار وغيرهما من القصص ، ونستشهد لهذا اللون بطرف من قصته « الشيطان » :

« قال الشيخ أبو الحسن بن الدقاق : كان شيخى أبو عبد الله محمد الأزهرى العجمى رضى الله عنه رجلا صاحب آيات وخوارق مما فوق العقل ، كأنما هو سر من الأسرار الجارية فى هذا الكون ، وقد بلغ رتبة النجم فى أفقه البعيد فهيه أهواء الإنسان وشهواته وطباعه إلا أنها كنور النجم فى تألقه ولألائه من إشراق روحه وصفائها ، وقد ارتفع بآدميته فوق نفسها فأصبح فى الناس ومعه سماؤه يجعلها بين قلبه والدنيا ، والرجل إذا بلغ هذا المبلغ كان حياً كالميت ساعة احتضاره ينظر إلى كل ما فى الحياة نظرة من يترك لا من يأخذ ، ومن يعتبر لا من يغتر ، ومن يلفظ لا من يتذوق . . . ويرى الشهوات كأنها من لغة لا يعرفها فهى ألفاظ فيها معانى أهلها لا معانيه . . .

« وقد سألت الشيخ مرة : كيف تحدث الكرامات والخوارق للإنسان ؟

فقال : يا ولدى ، إن الإنسان من الناس المحجوبين يتصرف فى جسمه ولا يكاد يملك لروحانيته شيئاً ، فإذا أبلى فى المجاهدة ووقع فى قلبه النور تصرف فى روحانيته ولا يكاد يملك لجسمه شيئاً ، فمن أطاق أن ينسلخ من بشريته واتسعت ذاته فى معانى السماء بمقدار ما ضاقت من معانى الأرض ، وكان معداً لأن يتحقق فى روحانيته معاناً على ذلك بطبيعته فوق الاعتدال فقد شاع فى الكون وأصاب له وجهاً ومذهباً إلى تلك القوة التى تهدم فى العالم وتبنى وتفرق وتجمع وتنقل الصور بعضها إلى بعض ، فإن الكون كله جوهر واحد هو النور . . . »

وربما كان من قبيل القصة الصوفية الحديثة ما نقرؤه بين الحين والحين من ثمرات أقلام بعض الأدباء فى لمحة من لمحات الصفاء الروحى التى يمر بها الإنسان حين ينتصر على ماديته ، وفى أثناء رحلة من رحلات الروح وتجربة من تجارب اليقين ، ولنقرأ مثلا ما نشرته يوماً إحدى الصحف للأستاذ محمد زكى عبد القادر يسرد قصة صديق :

« . . . كنت على موعد فى ينبع آخذ منها الباخرة إلى أرض الوطن ، وبينى وبينها عشرات الأميال ، والشمس توشك أن تغيب ، وأنا والسائق فى خطر الموت جوعاً أو افتراساً فى موقف ليس فيه بصيص من رجاء ، ولم أجزع . كانت بعض نفحات من إيمان قد نبتت من الجزع الذى عشت فيه أكثر العمر والأيام ، وذهبت أمشى فى الرمال إلى غير قصد سوى أن أهدئ من روعى وقد أسلمت أمرى إلى الله .

« والتفت صاحبى وقال : ماذا تحسبنى رأيت فى الصحراء الجرداء ؟ رأيت جدولا من الماء هو نفسه الذى شهدته فى حلم الصبى ذى الاثنى عشر ربيعاً ، ستقول إنها نفحات « دروشة » أصابتنى وأنا على مقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قل ما شئت ، فهذا ما حدث والله بينى وبينك شاهد على أنى لا أروى إلا الصدق الصراح ، تولتنى الدهشة وتساءلت : كيف يصبح ما حسبته يوماً من الأيام أضغاث أحلام حقيقة واقعة ؟ وارتويت وصليت وسجدت لله شكراً ، ودعوته أن يكون معى وقد تطهرت من الذنوب والآثام .

« وعدت من حيث الغدير إلى حيث السيارة المغروزة فى الرمال ، واستعنت

بالله ورفعتها فارتفعت ثم دفعتها إلى الأمام . .

« وبلغنا ينبع وقد أوغل الليل وكانت الباخرة قد أقلعت فى موعدها قبل أن نصل . قلت لصاحبى : إنك لن تشاء إلا أن يشاء الله ، وأقمت فى الميناء بعض الوقت أسأل عن الباخرة التالية وأرتب نفسى على حساب جديد ، ولم أكن ضيق الصدر بما حدث من تخلفى عن الباخرة .

« وبينا أعد شأنى انتظاراً لموعد الإبحار الجديد إذا بمن ينبئنى أن الباخرة التى كانت قد أقلعت فى المساء عائدة إلى الميناء . . وأضاف موضحاً . . وقعت على ظهرها حادثة وفاة ، ويقضى القانون البحرى أن تعود الباخرة إلى حيث أقلعت ما دامت لم توغل فى البحر .

« وأغمض المتحدث عينيه كأنه ذهب فى غيبوبة ثم أفاق ليقول : لن تصدق ، اجعله مصادفة ، اجعله قدراً ، اجعله ما تحب مما تريد أن تصفه به ، ولكن ما حدث ردنى إلى صفاء نفس وشفافية إحساس ، وآمنت أن هناك قوة تعطى وتمنع وأننا لا نملك من أنفسنا إلا ما يريد الله » . . .

وهكذا تمضى القصة الصوفية فى تحقيق رسالة الأدب الصوفى من إعلاء للقيم وإحياء للمثل وتذكير بالله وتدعيم لمبادئ الأخلاق وتصوير لجانب عظيم من جوانب المجتمع الإسلامى يصدر كل ذلك عن فطرة صافية ، وما توحى به الفطرة أعمق أثراً مما يخلقه التنميق والتجويد والتزيين كما يقول الأدباء .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

من آداب الوالد مع أولاده

« يعينهم على بره ، ولا يكلفهم من البر فوق طاقتهم ، ولا يلح عليهم فى وقت ضجرهم ، ولا يمنعهم من طاعة ربهم ، ولا يمن عليهم بتربيتهم » .

قضايا لغوية ..

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

(٣)

رأينا فيما سبق أن اللغة لم تبدأ — فى أول أمرها — بالمنطق والفكر، ومن ثم تبعنا المنهج الوصفى فى تتبع تاريخها ومحاولة الكشف عن حقبها السحيقة، ولم نتبع المنهج الفلسفى الإغريقى الذى ادعى أن اللغة منطقية .

وتنفرد مجموعة اللغات السامية بميزة ظاهرة، هى الاعتماد على الجذر والاشتقاق وفى لغتنا العربية نجد أن كل مجموعة تشترك فى الجذر الأصلى ومعنى عاماً يؤلف الطبقة الأصلية المشتركة لمفردات المجموعة . وثبات الحروف الأصلية يساعد على كشف العلاقات بين ألفاظها :

فالصديق، والصداقة ... من مادة (الصدق) . والعدو، وعدا واعتدى .. من (العدوان) وهو التجاوز فى الظلم .

ومحصل ذلك : (أن المعانى العامة أو الكلية تتجمع فى مجموعات من الألفاظ هى أشبه بالقبائل العربية، ويبقى فى اللغة دائماً عنصر خالد ثابت فى مادة الألفاظ .. وفى معانيها»[١] . وبقيت محافظة على أنسابها مهما نأت ديارها .

وحين لمس علماؤنا القدامى المناسبة بين اللفظ والمعنى أشاروا إلى تلك الظاهرة، وتتبعوها من قديم : وعقد لها ابن جنى فصلاً فى خصائصه، بعنوان (باب إمساس الألفاظ أشباه المعانى)[٢]، ذكر فيه : أن الخليل بن أحمد، وسيبويه، قد نبها عليه، وأن جماعة اللغويين قد تلقته بالقبول .. وحددوا الأماكن التى تكون فيها هذه الظاهرة واضحة جلية .

كما تظهر فى الألفاظ التى تحكى

---

(١) عبقرية اللغة العربية ١٩ .

(٢) الخصائص ١/٥٤٤ .

أصواتا ، كخرير الماء، وأزيز القِدْرِ .

أو فى المصادر التى تتابع حركاتها ، كالغليان، والدوران ، والجمزى والبشكى .

أو فى حروف إذا تصدرت الفعل نقلته من حال إلى حال : فالفعل (غفر) يفيد ثبوت المغفرة ، وحروف الاستقبال ، تنقله إلى طلب المغفرة ورجاء تحقيقها فى (استغفر) .

كما تظهر فى اختيار اللفظ المناسب للحدث قوة وضعفاً ، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث : فالنضح (بالحاء) لرش الماء برقة ، والنضخ (بالخاء) لشدة فورانه وقوته ، إذ فى الحاء لين ورخاوة ، والخاء تزيد عليها شدة وقوة .. ومن هنا نلمح سر الإعجاز فى التعبير القرآنى عن متع الجنة ونعيمها : « فِيهِما عَيْنانِ نَضّاخَتانِ » بالخاء، وفى الأثر (كل إناء بما فيه ينضح) بالحاء . وأيضاً مثل : (خضم) لأكل الشيء الطرى ، و (قضم) لأكل الشيء اليابس الجاف : إذ فى الخاء رخاوة ، وفى القاف صلابة . ولله دَرّ أبى ذر — رضى الله عنه — حين صاح منكراً على الحكام نعيمهم وترفهم وشظف عيش رعيتهم : (ويخضمون ونقضم ، والموعد الله) .

بل عد علماء اللغة من لطيف صنع العرب وحكمتهم اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيباً ، وتقديم ما يضاهى أول الحدث ، وتأخير ما يضاهى آخره ، وتوسيط ما يضاهى أوسطه ، سوقاً للحروف على سمت المعنى المقصود ويمثل ابن جنى لذلك بحروف (بحث) :

(فالباء) لغلظها تشبه بصورتها خفقة الكف على الأرض ، و (الحاء) لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت فى الأرض . و (الثاء) للنفث والبث للتراب[1] .

وأكثر من ذلك ، نجد أن المعنى العام باق مع تقاليب حروف المادة ، وقد نبه على ذلك القدامى كالخليل ابن أحمد وابن دريد ، والفارسى ، وسماه ابن جنى بالاشتقاق الأكبر . والمادة الثلاثية تعطى ست مواد فى تقاليبها ، والرباعية تعطى أربعاً وعشرين ، والخماسية تعطى مائة وعشرين . وقد تستعمل كل التقاليب أو بعضها أو تهمل كلها لإهمال الأصل . فتقاليب (سلم) الستة تفيد معنى السهولة والأصحاب والملاينة .

(١) الخصائص ١\٥٦ .

وتقاليب (جبر) تدور حول معنى عام هو الشدة والقوة [1] فى (جبر ، جرب ، بجر ، برج ، ربج ، رجب) .

ويرى الشيخ العلايلى ، أن : « القاعدة تقضى بوجود جامع معنوى بين المقاليب الستة ، لا يمكن أن يتخلف ، وإن كل على بعد » [2] .

وهكذا ظل الاشتراك فى كل الحروف أو بعضها ، مع الصلة الصوتية السبيل لمعرفة الأصل ، وفى معجم مقاييس اللغة لابن فارس الحشد الهائل والأمثلة الوفيرة لتبيان ذلك ؛ إذ قد شارك أصحاب المعاجم فى جمع الكلمات المشتقة من مادة واحدة فى باب واحد ، وزاد عليهم بتتبعه لمعانى مفردات الباب الواحد ، وإرجاعها إلى أصل واحد ، أو عدة أصول من المعانى .

ولذلك فنحن لا نذهب مذهب الأب مرمرجى الدومنكى ، الذى ينفى وجود علاقة طبيعية بين الصوت وحروف الكلمة ، وبين « المعنى المتعلق بها ، لأن الأصوات مجردة ليس من

(١) الجمهرة لابن دريد ١ / ٢٠٧ ، والخصائص ١ / ٥٢٠ .

(٢) مقدمة ١٤٩ .

طبيعتها ما يجعلها دالة حتماً على الشىء الفلانى ، أو الفحوى الفلانى ، إنما تنشأ الصلة بين الصوت ومعناته اتفاقاً ، أو بإرادة المتكلمين عن طريق السماع أو الاستعمال . . . » إلى أن يقول : « إننا لا نجحد أن لبعض الكائنات دوياً ، وللحيوانات أصواتاً ، بيد أن الناس يحاكون هذا الدوى ، وهذه الأصوات بطرق متباينة ، إذ أن كل فريق يتوهم سماع نوع من الدوى والصوت فيحاكيها ، طبقاً لهذا الوهم » [1] ونقول له : حسبنا الدوى والأصوات وتوهم المتوهمين ، ليصوغوا منه ما يفهمون وما ينطقون .

وقد بهرت هذه الظاهرة العجيبة فى لغتنا علماء اللغة ، وهى وشائج القربى والصلات الواضحة بين المجموعات اللغوية ، سواء اشتركت فى حرفين أو فى حرف واحد مما يوحى بأن القول بالأحادية فى نشأة اللغة له أساس : ثم تدرجت من هذا الدور نحو الاكتناز ، لتفى بما يطلب منها تبعا لمقتضيات التطور .

فالكلمات المشتركة فى الحرفين (ن ، ف) تدور حول معنى الخروج ، مثل : نفث ، نفح ، نفخ ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى) . . .

(١) معجميات عربية سامية ١٠٢ .

وكل ما فيه حرف الغين (غ) يدل على الغموض والاستتار ، مثل (غاب غار غاص غاض غام غرب غمض غم غش غز غص غن غبر غبن غبق غفا غطى غرق غمر غفر) . . .

وفى مقاييس ابن فارس الشيء الكثير من ذلك كما قلنا . .

وكانت إشارات علمائنا القدامى والمحدثين إلى ذلك إيحاء وباعثاً حثيثاً بضرورة معرفة الرأى فى نشأة اللغة العربية والقول بالثنائية أو الثلاثية .

إلا أن الأقدمين — من علمائنا — لم يشيروا صراحة إلى القول بالثنائية وأنها أصل الوضع ، وإنما كان بحثهم تاريخياً ، يرجع باللغة إلى عهود تحاول معرفة تدرج ألفاظ اللغة وتطورها ، حتى استقرت فى طورها الأخير إلى صورها وأشكالها المرضية والمعبرة والمتبلدة . . وازدادت الأبحاث عمقاً عند المحدثين فى ضوء أبحاث المجموعات اللغوية الأخرى ، وبخاصة فى الساميات .

* * *

والنظرية الثنائية ، أو المذهب الثنائى فى اللغة ، يقوم على اعتبار الأصول اللغوية — فى الأسماء والأفعال — ثنائية : أى يتركب كل منها من حرفين أساسين وأن الأصول الثلاثية وما فوقها مستنبطة من تلك الأصول الثنائية .

ويرى الأب مرمرجى الدومنكى أن الجذر الثنائى يشمل المجموعة السامية فى عمومها ، يقول : « الثنائية » bilitteralime هى النظرية القائلة بأن (الأصول) فى العربية ، وكذلك الحال فى أخواتها السامية : ليست الألفاظ ذوات الحروف الثلاثة ، بل ذوات الحرفين ، إذ من شأن الثلاثيات أن ترد إلى الثنائيات »[1]

وجورجى زيدان يرى « الثنائية » فى النشوء اللغوى بالاستقراء ، فيذكر أن الألفاظ الدالة على معنى فى نفسها ، يرد معظمها بالاستقراء إلى أصول ثنائية أحادية المقطع تحاكى أصواتا طبيعية »[2] أى أن الثلاثى وما فوقه يرد إلى ثنائى سابق ، لا فى الاشتقاق فقط كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الإبدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضاً . ويشير زيدان إلى بعض أسباب نشأة « الثنائية » ويؤكد الحصر والاستقراء ، يقول : « لغتنا مؤلفة من أصول محصورة عداً ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ،

(١) المعجمية العربية ٦ .

(٢) الفلسفة اللغوية لجورجى زيدان ٣٨ .

وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التي ينطق بها اللسان غريزياً »[1] .

والشيخ العلايلي يرى الثنائية دوراً ثانياً من أدوار اللغة في حياة الإنسان ، الذي حاكي الطبيعة بقصد ، أو بغير قصد ، فأكسبته المحاكاة أكثر المقاطع الثنائية التي يمكن فرضها ، وبخاصة إذا كانت ناشئة عن ضم بعض المقاطع الأحادية التي يحتملها التعبير » . . .

ويقرر الشيخ العلايلي أيضاً أن (المعتل) هو ثنائي لفظا ، وإن كان ثلاثياً خطا في العربية : أي أن المعتل هو ثنائي ألحق بالثلاثي ، وأنه أقدم ما حفظت اللغة من كلمات العهود السابقة[2] .

ويلاحظ أن الشيخ العلايلي — كما ذكر الدكتور عبد الصبور شاهين في دراسته الواعية — لا يؤسس تصوره للثنائي على تصوره للأحادي ، بمعنى أنه لم يتبع في الواقع وجود كلمة « أحادية » صارت إلى الثنائية على أساس افتراضه السابق . ومن ثم نرى أفكاره تتكامل نظرياً فقط ، دون أن يستطيع تأسيسها على تكامل لغوى » .

(١) المصدر السابق ٣٤ .
(٢) المقدمة ٣٠ .

لكنا نلتمس العذر للشيخ ، ونبيح له التصور الذكي ممزوجا بخيال غير جامح في فترة يعلوها الضباب ، ويلفها صمت التاريخ[1] .

ويصور الأب أنستاس الكرملي « الثنائية » وطريقة اكتناز الكلمات وتدرجها بأنها : « تطورت في وضعها من هجاء واحد (أي مقطع) أصلاً ، إلى مضاعف من ثلاثي ورباعي : فيكون ثلاثياً إذا لم تتخيل الحركة في الشيء ، ورباعياً إذا تخيلتها فيه . وعلى هذا النحو تطور الهجاء الواحد (صر) بسكون الراء إلى (صرّ) بتشديدها ، وإلى (صرصر) ، ثم تطور في اتجاه آخر (صار) ، أو (صرى) ، وبذلك عرف المضعف والأجوف والناقص ثم المهموز[2] .

ومعنى ذلك أن الثنائية كانت وفيرة وكثيرة في وقت ما من عهود اللغة إذا لم تكن هي الأصل ، ثم تحول عدد كبير منها إلى الثلاثي بالإضافة أو التضعيف ، وليس هذا خاصاً بلغتنا العربية ، وإنما هو قدر مشترك بين الساميات .

وأشار (الأقدمون — كما قلنا — إلى

(١) في التطور اللغوى ١٢٧ .
(٢) نشوء اللغة العربية ٢٠ .

مبدأ « الثنائية » ، ولكن لم ينصوا عليها صراحة ، ويبدأ بها أصحاب المعاجم مواد قواميسهم عند ترتيبها : فيبدأ الخليل ابن أحمد (١٧٥ هـ) بالثنائى فى (العين) ، واحتذاه ابن دريد (٣٢٥هـ) فى (الجمهرة) ، والأزهرى (٢٨٢ هـ) فى التهذيب ، والقالى (٢٨٨ هـ) فى (البارع) ، وابن سيده (٣٩٧) فى المحكم [١] .

وحددوا الثنائى بأنه ما تكون من حرفين ولو مع تكرار أحدهما ، وسموا الثنائى المضاعف : الثنائى فى الخط ، والثلاثى فى الحقيقة : الثلاثى الصحيح . والثلاثى المعتل الحواشى والأوشاب [٢] .

ويكاد الأب مرمرجى أن يلزمنا القول بالثنائية ، كما ألزم نفسه بها : فالرباعيات عنده « ليست مجردة كما يقول الصرفيون : بل هى ثلاثيات مزيدة ، والثلاثيات الشاملة : (المثال والأجوف والناقص والمهموز والمضاعف ومكرره) قابلة جميعها الرد إلى (الرس الثنائى) مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما . أما ما يتعذر رده من الثلاثى إلى الثنائى فيعزى ذلك إلى فقدان فحاويها الأولية مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزيدات أو المشتقات ، التى بلغ عددها الثمانمائة أو أكثر » [١] فالرساس العربية عنده أوفر من غير العربية ، والثلاثى وما فوقه توسعات اشتقاقية للرساس الثنائية التى بدأت بها نشأة اللغة ، وعنها صدرت جميع التوسعات والاشتقاقات ، حتى صارت العربية عنده بها « أوفر ثروة من لغات العالم أجمع » [٢] .

● ويؤنس المقام أن نذكر بعض أمثلة ذكرها المؤصلون للثنائية تزيد الأمر إيضاحاً ، وطرق اكتناز الثنائية لترتقى إلى أعلى منها :

يقول جورجى زيدان : إن الجذور الثلاثية ترتد أصلا إلى جذور ثنائية ، هى حوامل المعانى ، وليست الثلاثية سوى وسيلة لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى .

فالأصل اللغوى « قط » حكاية لصوت القطع ، وهو ثنائى تأتى توسعاته بمعناته ، مثل : (قط ، قطع ، قطب ، قطف ، قطل ، قطم) ، وكلها أفعال بمعنى (القطع) من (قط) . .

---

(١) راجع المعاجم اللغوية د . إبراهيم نجا .
(٢) المصدر السابق .

(١) هل العربية منطقية للأب مرمرجى ١٤٥ .
(٢) معجميات عربية سامية ٧٩ .

وأيضاً مقارب المادة (قط) وهو « قص » يفيد تثليثه القطع ، مثل (قصب ، قصر ، قصف ، فصل ، قصم) وأيضاً مجانس (قص) وهو « كس » بمعنى القطع يأتى منه (كس ، كسر ، كسح ، كسم) . ومثله : « جذ » بمعنى القطع ، يأتى منه « جذ ، جذب ، جذر ، جذف ، جذم) وأيضاً : « جز » يأتى منه بمعنى القطع : (جز ، جزا ، جزر ، جزح ، جزع ، جزل ، جزم)[1] . وكل ذلك من باب القطع ، وهى ترد إلى أصل واحد ، هو حكاية صوت ، وذكر الدكتور عبد الصبور شاهين أن هذه الأمثلة كلها نقلها جورجى زيدان عن كتاب المفتاح للسكاكى[2] . أى أن كتاب المفتاح أشار إلى الأصول الثنائية المشتركة فى المعنى العام ، وما ينوع المعنى من زيادة عليه .

والأب مرمرجى يرى : أن كلمة (ح ج) أصلها ثنائى ، لاسم صوت ينطقه المجهدون تخفيفا من عنائهم[3] و « ثب » أصلها « ثب » بمعنى الحركة عموماً[1] وعنده أن : « نهى ، نهنه نهر) بمعنى الزجر[2] . أصلها (نه) بمعنى الزجر . ولمعرفة الأب مرمرجى بكثير من اللغات السامية أمكنته المقارنة اللغوية بين الساميات بإلقاء الضوء على كثير من الأصول الثنائية التى بنى عليها نظريته فى « الثنائية » ، ولا ينكر أحد أهمية هذه الدراسات المقارنة ، إذ أنها تكشف كثيراً من الغامض وما خفى على الكثيرين . ولذا نظر لكثير من الأفعال التى يقال بأنها ثلاثية فى العربية بنظيرها فى السريانية مما جاء على الثنائية فقط ، فذكر أن فى العربية (حم) بالتشديد ، يقابله فى السريانية بالتخفيف . و (مص ،مس) بالتشديد ، يقابلهما (مص ، مس) بالسكون . ويردف بأن « الثنائى وارد فى كل الساميات متصفاً بمعنى حقيقى وتام »[3] .

وأرجع المضاعف الرباعى مثل : (مرمر ، قرقر ، دب ، دب ، لعلع ، لألأ . .) إلى ثنائيين مكررين . ومن هذا شىء وافر فى العربية وكذا اللغات

(١) الفلسفة اللغوية ٩٨ .
(٢) فى التطور اللغوى ٨٦ .
(٣) المعجمية العربية ٤٨ .

(١) معجميات عربية سامية ٩٩ .
(٢) المعجمية العربية ١٣٠ .
(٣) معجميات عربية سامية ٩٨ .

السامية . . ففى السريانية ، bal-bal (zal-zal على وزن زلزل ، وبلبل) . وقد أمكنه جمع ٣٥٠ مادة منها فى العربية الفصحى وحدها ، ويوجد أكثر منها فى اللهجات[١] .

وأكثر من ذلك أن رسالة الألفاظ السريانية تفترض وجود الثنائية دون شعور وقصد منها[٢] .

ومن علمائنا القدامى من أشار إلى طريقة اكتناز المواد الثنائية لتصبح ثلاثية ، بزيادة حرف ، كابن فارس وابن جنى ، فى مثل : (نب) فيصبح (نبأ ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر ، نبس ، نبش) مع بقاء المعنى العام .

وعند الأب أنستاس الكرملى : أن الهجاء الواحد (المقطع) ذا المعنى ، قد يزيد عليه هجاء أو أكثر ، مثل (رم) بالسكون فيصبح (ثرم ، جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم غرم) . . ومثل : (نب) ومنها (نبأ ، نبت ، نبث ، نبج ، نبح ، نبذ ، نبر نبز ، نبس ، نبش ، نبض ، نبع ، نبغ)[٣] . وهى نفس طريقة القدامى كما أشرنا .

(١) السابق ٩٧ .

(٢) السابق ١٠٠ .

(٣) نشوء اللغة العربية ٣ .

ويطبق الأب الكرملى النظرية على اللغة اللاتينية ، لأن الكلم عنده مبنى على محاكاة الطبيعة وعلى الهجاء الواحد غالباً ، فيقول :

« قد يتفق مصطلح العرب ومصطلح أبناء الغرب إذا اتفق الخاطران فى توهم صوت الطبيعة ولا يكون هذا الأمر إلا إذا كان ثم هجاء واحد ، أو هجاءان اثنان لا أكثر . فمثال الهجاء الواحد قول العرب (رد) بالتشديد ولا جرم أن أصله (رد) بفتح وسكون ، وهو فى اللاتينية Raddere ومن المعلوم أن ere كاسعة (ما يزاد فى الآخر) تكسع بها كثير من أفعالهم ، إذن Raddere ليست إلا (رد) العربية »[١] .

والشيخ العلايلى يرى أن إنسان الدور الثانى استخدم معانى الجدول الهجائى الفنيقى ، وضم بعض المقاطع الأحادية ليعبر عما فى نفسه من معان ، ويمثل بلفظه (عبى) وهو ثنائى فى صورة ثلاثى ، أو ثنائى الحق بالثلاثيات : « فإن العين تدل على الحيوان الزئيرى . والباء تدل على البيت ، وكأن المعنى : حيوان البيت القوى ، الذى هو كناية عن الرجل . وقد وردت فى العربية كلمات مثل (دد)

(١) السابق .

بمعنى اللهو ، و (بية) للطفل السمين أو لعبة ، ويردهما الشيخ العلايلى إلى (ددا) المعتلة ، وإلى (البو) بمعنى ولد الناقة أو جلد يحشى أى شىء لتتسلى به الناقة على ولدها [1] .

واحتفظت القواميس العربية بثنائيات قديمة ، كأسماء الأسرة : (أب ، أم ، أخ ، أخت أم ، بن ، بنت ، حم) . وأسماء الأعضاء : (يد ، دم ، شفه ، لثة) .

وعلى مر العصور ، وترقى الإنسان ضاقت الثنائيات عن التعبير عن المعانى ، فكان لا بد من التوسع فى صور لفظية جديدة ، لتلبية الحاجات الآنية والمستقبلة ، فكان لا بد من الاكتناز والتوسع فى الألفاظ الثنائية ، لتدل على معان إضافية .

« ففرع العرب بزيادة حرف على الثنائى ، أو صوت ثالث ، أدى إلى صورة لفظية جديدة [2] .

فلجأت العربية إلى طرق أدت إلى اكتناز الألفاظ بالمد ، والتشديد ، وقد تداخل بابهما . أيضاً لجأت إلى تحويل المضاعف ناقصاً أو يحول المضاعف أجوفاً ، أو يتخلى الناقص عن حرفه الأخير لصالح حرف صحيح ، والأمثلة

(١) مقدمة ١٣٣ .

(٢) الألسنية العربية لريمون طحان ٨٤ .

على الترتيب (مص ، مدس ، شد ، شد) (رب ، ربا) (طم ، طما) . (مد ، ماد . ضر ـ ضار) . (رسا ، رسب) . (سما ، سمق) . (محا ، محق) . (رخا ، رخص) .

ـ ويوجز الأب مرمرجى طرق توسع الثنائيات ، إمّا :

(ا) بتكرار الحرف الثانى ، مثل : أم ـ أمم ، جل ـ جلل .

(ب) وإما بالتكرار والمد معا ، مثل : أز ـ آزار ، أط ـ أطيط ، بر ـ برور .

(ج) وإما بزيادة تاء فى الآخر ، مثل سك ـ سكة ، تل ـ تلة ، جب ـ جبة .

(د) وإما بالتكرار والمد والتاء معا ، مثل : ضر ـ ضرورة ، كز ـ كزوزة كزازة .

وكل هذه التوسعات المختلفة التوسع متضمنة منطوق « الرس الثنائى » [1] المشتقة منه ، وقد أحصى منها الأب مرمرجى ٣٢٧ مادة .

وهذه التوسعات فى الكلمة تتخذ مواقع مختلفة :

(ا) فتسمى الزيادة تتويجاً أو

(١) معجميات عربية سامية ٧٨ .

تصديراً (Prefixe) إذا وقعت فى أول الكلمة مثل (جرم ، حرم ، خرم ، شرم ، صرم ، عرم ، غرم) .. تشترك فى (الراء والميم) وفى المعنى العام لها .

(ب) وإذا وقعت آخر سميت : تذييلا ، أو كاسعا (Suffixie) وهذا هو الغالب ، مثل : (قطب ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم) . . تشترك فى (القاف والطاء) وفى المعنى العام وهو التصل .

(ح) وإذا وقعت وسطا ، سميت : إقحاماً ، أو حشواً (in Fixe)[1] . مثل : (قحم ، قرم ، قسم ، قصم ، قضم ، قطم ، قلم) .. تشترك فى حرفى (القاف والميم والمعنى العام فى الشق والقطع .

ويزيد الأب مرمرجى بأن المقرر عند علماء العربية قديماً وحديثاً ، وعند الأجانب من مستسيمين ومستعربين أن الزيادة تجرى بالتنويج والإقحام والتذييل . وفى كل حال من الأحوال يتم الأمر على سبيل الأغلبية ، أى بالسماع ، وليس بقياس محكم »[2] .

ولا مانع من أن يكون العرب قد اعتمدوا وتعمدوا تسكين الحرف الثانى فى (الثنائية) ، ثم شدَّدوه ، ثم فكوا تشديده ، واستبدلوا ثانى المشدد بحرف يختلف عنه ، مروراً من الثنائى إلى الثلاثى وغيره ، مثل (النون والفاء) بمعنى الخروج ، مع تخصيص حاصل بفعل تخصيصها ، فقالوا : (نف ، نفَّ ، نفث ، نفح نفخ ، نفد ، نفذ ، نفر ، نفس ، نفع ، نفق ، نفل ، نفى) .

وما قرره الأقدمون من الزيادة بالحروف على الرباعيات والثلاثيات ، يسوغ — عند الأب مرمرجى بكل حق وصواب تطبيقه فى الثنائيات . ومثل لما زاد على الثنائى بالأمثلة الآتية : (يقطين ، من قطن أى أغنى ، وترفل ، من رفل وزنبيل من زبيل ، وعنصل من عصل ، ودمعط من دعط . . ويلسن من بلس ، وعيدل من عبد . . . وعد من ذلك شيئاً كثاراً فى العربية وبقية الساميات »[1] .

فالزيادة والترقى من الأقل إلى الأكثر ، كانت طريقاً مألوفاً ومعروفاً للعرب فى توسيع المواد وزيادتها وتنويعها ، لتقابل المعنى الجديد . . كما كانت هناك زيادات متنوعة تجرى بضرب من الاعتباط ، أى لدواع غير داعى

(١) نشوء اللغة ٣ ، والمعجمية العربية ١٣٥
(٢) معجميات ١٠٥ .

(١) السابق ١٠٥ ، ١٠٦ .

الدلالة على معنى خاص ، أو على دور معين ، كما ذكر الأب مرمرجي . وضرب مثلا لذلك .

بالزيادة للإلحاق ، لمحض الموافقة بين وزن وآخر ، ليعامل معاملته ، مثل : (قعدد ، وجلبب ، وشملل) فى التذييل . و (حنظل وحوقل ودهور) لزيادة النون والواو والهاء حشواً .

وزيادة للغنة ، مثل : قنبرة من قبره . وإنجاص من أجاص ، وخنزير من خزير . وزيادة لتقوية الحركة ، دون قصد معنى معين ، مثل : (برّع من برّأ ، وينسب إليه برعى أى برانى) و (توقع من توق) و (شفع من شفى) و (بدأ وبدع من بدأ) .

وزيادة لعذوبة اللفظ وتسهيله مثل (يا أبتى ، وعصاتى ، ودد ، بدل من يا أبى وعصاى ودد) . و (فلذى وقطنى) بإقحام النون . و (لعلت ، ثمت ، ربت) بإلحاق التاء .

وزيادة لإقامة الوزن فى الشعر ، نحو (تبيضضى) عوض تبيضى .

وزيادات أخرى تجرى دون قصد اشتقاق ، مثل : (خوازنة ، جمع خورى) و (أبهات وأمهات) بإقحام الهاء . وكذلك النسبة إلى (صنعانى ، وجوانى ، وبرانى ، وصيدلانى) بإقحام النون .

ويخلص من ذلك الأب مرمرجى إلى أن اللغة تتبع السنة الطبيعية ، وتخضع لأحوال الإنسان المختلفة ، ولأعضاء نطقه ، وللتطورات الاجتماعية والمؤثرات . كما أنها فى بعض أجزائها قياسية منتظمة محكمة ، وفى البعض الآخر سماعية : لا ضابط ولا قيد لها ، وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية[1] .

وكثيراً ما سمعت الشيخ العلايلى يطلق على قواعد العربية ضوابط لا قواعد ، تأييداً لذلك .

ولتوفر الأب مرمرجى على دراسة الثنائية ، وطول نظره فيها ، وتقصيه لها ومزاولتها ، أمكنه بعد التقصى والاختبار أن يصنف الحروف التى تقبل الزيادة على الرساس الثنائية من باب الأغلبية والإطلاق ، كما يلى . :

(ا)حروف تصلح أن تكون منوجة ، ومقحمة ، ومذيلة وهى : (ا ، ت ، ر ، ع ، ل ، م ، ن ، هـ ، و ، ى) .

(ب) حرفان يصلحان للتنويج والتذييل ، وهما الحاء ، والشين .

(حـ) حروف تستخدم للتذييل ، وهى

---

(١) السابق ١٠٧ ، ١٠٨ بتصرف .

(س ، ب ، ذ ، ك ، ق)[١] .

ثم أفاض فى شرح ذلك وتفصيله فى مصنفاته اللغوية الكثيرة ، تأييداً لدعواه ليثبت دعائم الثنائية التى نصب نفسه محامياً لها ، ومدافعاً عنها طوال حياته .

ومن استعراض الأمثلة السابقة يمكن القول بأن الألفاظ فى العربية جاء ت من أصليين أساسيين ، خصهما بمعنى واضح حرف ثالث ، أى أنها عرفت عبر تاريخها الحافل مفاهيم تعود إلى أصول غير ثلاثية ، وإن ارتكزت — بعد تطور وأدوار — على أسس ثلاثية

والحرف الثالث الذى حدد المراد من المعنى العام ، تنوع حسب ما يتطلبه المقام : « فإن أراد العرب إبانة شىء عن شىء وفصله عنه مع معاناة ومشقة قالوا : قالوا : (قطع) وإن أحبوا أخذ شىء من آخر دون مُعَانَاة أو مشقة قالوا : قطف ، لقوة العين وضعف الفاء[٢] اللهم إلا إذا عنّ غرض بلاغى فيتجاوز عن ذلك ، كقول الحجاج بن يوسف : (إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها) ، فلشدته وهو أن أصحاب الرءوس ، جاء التشبيه بالزرع والقطاف .

ويعزز ابن دريد فى (جمهرته) وجهة نظر الفريق القائل بأن الكلمات المشتركة فى حرفين وفى معنى عام يضمها كانت فى الأصل ثنائية المقطع نظراً إلى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات إلى الحرف المكرر بمثابة حرفين ، وإن كان فى الحقيقة ثلاثيًّا . يقول ابن دريد : « والثنائى الصحيح لا يكون حرفين ألبتة إلاّ والثانى ثقيل (أى مُضَعَّف) حتى يصير على ثلاثة أحرف . . . اللفظ ثنائى والمعنى ثلاثى . وإنما سمى ثنائيًّا للفظه وصورته ، فإذا صرت إلى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة ، والثانى حرفين مثلين أحدهما مدغم فى الآخر ، نحو (بتَّ يبتُّ بتًّا) بمعنى قطع ، وكأن أصله بتت فأدغموا التاء فى التاء ، فقالوا : « بتَّ » وأصل وزن الكلمة فعل ، وهو ثلاثة أحرف ، فلما مازجوا الإدغام رجعت إلى حرفين فى اللفظ ، فقالوا : بتَّ ، فأدغمت إحدى التائين فى الحروف المعجمة[١] .

« فالنظرة إلى اعتبار المضعف الثلاثى ثنائى الصورة تبدو بجلاء ووضوح عند الأقدمين فى جمهرة اللغة لابن دريد ،

(١) فقه اللغة العربية د. إبراهيم نجا ٨٣ .
(٢) السابق ١٠٦ .

(١) الجمهرة ١ / ١٣ .

وفى المقاييس لابن فارس ، بل إن فى جمهرة اللغة لابن دريدما يدل دلالة أكيدة على توثق النظرة عنده : فإنه عند الكلام على الثنائى ينهى القول على جميع مواده صحيحاً أو معتلاً ، قبل أن ينتقل إلى الثلاثى »[1] .

والمحدثون تتبعوا هذه النظرية ونظروا لها بما هو وارد فى الساميات من ثنائيات مثل (حم ، مص ، مس) بالتشديد فى العربية بما يقابلها فى السريانية (حم ، مص ، مش) بدون تشديد للحرف الأخير[2] .

إلا أن الشيخ العلايلى يجعل الحرف المزيد على الثلاثى حلقة ثالثة فى الدور الثالث من أدوار الإنسان فى تدرجه نحو الرشد ، فعرف الكتابة وعرف الحروف وتنوعت حاجاته ، فجعل الحرف الثالث

(١) فقه اللغة العربية د نجا ٨٥ .
(٢) معجميات ٩٨ .

حشواً فى وسط الثنائيات — غالباً ليعطى مفاهيم جديدة ، فجعل من (قف) : (قطف ، قرف ، قذف[3]) . .

ولوفرة الشواهد والأمثلة فى هذا الصدد ، « أطلق بعض الباحثين المعاصرين القول[4] بأن الذى يتفرس كلم العربية بإنعام نظر ، يجد أن معظم موادها أصلا يرجع إليه كثير من كلماته وإن لم نقل كلها ، وذكر للملك (فل) فإنها تدور حول الشق والفتح : كفلح ، فتح ، فلج ، فلَّحَ ، فلى . وكذلك نجد ابن فارس فى كتابه (المقاييس) يذكر أن مادة (قط) تدور حول القطع .

وللثنائية أسباب وأدلة ، نذكرها فى مقال آت بإذن الله . .

دكتور توفيق محمد شاهين

(١) المقدمة ١٤٤ .
(٢) فقه اللغة العربية د نجا ٨٥ .

« من آداب اصطناع المعروف »

البداءة به قبل السؤال ، والمبادرة به عند الوعد ، والستر له بعد الأخذ ، وترك المنة بعد القبول ، والمداومة على اصطناعه . والحذر من إنقطاعه .

اليهودية :
عقيدة ابتدعوها .. وتوراة حرّفوها

الأستاذ زاهر عزب الزغبي

(٢)

فى المقال السابق أوضحنا كيف كانت اليهودية لا تعدوا أن تكون طورا من أطوار الديانات القديمة ، وأنها بطبيعتها لا يمكن إلا أن تكون من الديانات المحلية الموقوتة .. كما أوضحنا أن الشخصية الإسرائيلية ضعيفة متهافتة لا تقوى على الصمود لظروف أقل قسوة مما تعرضت له خلال المحن والأزمات والتشرد والأسر التى صادفت اليهود عبر تاريخهم الطويل » .

ولكن الشخصية اليهودية بقيت صامدة تجتر أوهاماً وأساطير دبّجتها أقلام كتبة التوراة .. تلك التوراة التى حرفها كتبها وابتعدوا بها عن وصايا الله الموحاة إلى موسى عليه السلام .. وسمحوا للشعب أن يشرك وأن يتعبّد آلهة عدة .. كما حولوا المعابد إلى مواخير للفسق .

واستشهدنا على ذلك بنصوص من التوراة ذاتها .. وأوردنا بصدد ذلك محاولتين إصلاحيتين قام بهما أحبار اليهود مدعين فى كل مرة أنهم قد عثروا على التوراة الصحيحة ، أو على تابوت عهد الرب الذى أودعه موسى وصايا الله وتعاليمه .. ومع ذلك ظل رجال الدين والكتبة يواصلون عملية تطويع التوراة ويضيفون المزيد من أسفارها .. وقد ظلوا يؤدون مهمتهم هذه حتى ظهور المسيح عليه السلام .

ولأول وهلة لم يكن السيد المسيح ينظر إلى الكيفية التى يؤدون بها هذه المهمة الخطيرة بعين الرضا وقد ظهر سخطه على هذه الطائفة فى قوله لهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون لانكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين

يدخلون . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون حقوق الأرامل . . ولعلة تطيلون صلواتكم . . لذلك تأخذون دينونة أعظم . . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحداً ومتى حصل تصنعونه إبناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً . . ويل لكم أيها القادة العميان ، القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم .. أيها الجهال والعميان .. أيهما أعظم ؟ الذهب أم الهيكل الذى يقدسه !! ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم » . (إنجيل متى ٢٣ : ١٢/١٨) .

وجاء على لسان المسيح أيضاً قوله لهؤلاء الكتبة حينما حضر إليه بعضهم وانتقدوا أتباعه لأنهم لا يراعون قواعد النظافة ويأكلون بأيد غير مغسولة : « حسنا تنبأ أشعيا عنكم ، أنتم المراءون كما هو مكتوب : هذا الشعب يكرمنى بشفتيه وأما قلبه فبتعد عنى بعيداً . . وباطلا يعبدوننى . . وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس . . لأنكم تركتم وصية الله وتتمسكون بتقليد الناس . . غسل الأباريق والكئوس وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون . . ثم قال لهم : حسنا رفضتم وصية الله لتحفظوا تقليدكم . لأن موسى قال : أكرم أباك وأمك . . ومن يشتم أباً أو أماً فليمت موتاً . . وأما أنتم فتقولون : إن قال إنسان لأبيه أو أمه : قربان أى هدية هو الذى تنتفع به ، فلا تدعونه فيما بعد يفعل شيئاً لأمه أو أبيه . مبطلين كلام الله بتقليدكم الذى سلمتموه وأموراً كثيرة مثل هذه تفعلون (مرقس ٧ : ١١/٥) .

ولم يكن المسيح وحده بصفته مبشراً بدين جديد — هو أول من حمل على هؤلاء الكتبة واتهمهم بالتدليس والتحيز فى نقل رسالة الله والتلاعب فى وحيه . بل إن كثيراً من أبناء بنى إسرائيل أنفسهم قد حملوا عليهم حملات شعواء أشد عنفاً ، ووصفوهم بنعوت أكثر قسوة من تلك التى وصفهم بها السيد المسيح فقد كال لهم أشعياء الهجوم والاتهام . ومن ذلك قوله : « ويل للذين يقضون أقضية الباطل ، وللكتبة الذين يسجلون زوراً ليصدوا الضعفاء عن العدل ويسلبوا حق بائسى شعبى ، لتكون الأرامل غنيمتهم ينهبوا الأيتام . . وماذا تفعلون فى يوم العقاب حين تأتى التهلكة من

بعيد إلى من تهربون للمعونة . . . .
وأين تركون مجدكم . . أمَّا يجثون بين الأسرى وإمَّا يسقطون تحت القتلى (أشعياء ١٠ : ١/٤) .

وقد وصفهم أرميا ضمن الكهنة بالتزوير والتزييف والكذب على الله بقوله : « أما وحى الرب فلا تذكروه بعد ، لأن كلمة كل إنسان تكون وصيّة .. إذ قد حرّفتم كلام الإله الحى، رب الجنود، إلهنا » (أرميا ٢٣ : ٣٦) .

وإذا كانت التوراة قد وُجِّهَتْ إليها أمثال هذه المطاعن المشينة الكفيلة بإهدار أى مصدر تاريخى وجعله عديم القيمة والجدوى بحيث لا يمكن الاعتماد عليه فى استقاء الوقائع التاريخية واستخلاص الحقائق الصحيحة . . فكيف خدع فيها كل من تصدى للبحث فى تاريخ اليهود ودراسة الديانة اليهودية فى عهدها القديم. وقد كانت التوراة هى المصدر الوحيد لكل باحث فى هذا الموضوع ؟؟... سؤال برئ لا ضير فيه . . ولا يمكن أن يتضمن تلميحاً من أى نوع إلى تهافت كل الأبحاث والدراسات التى أجريت على العقيدة والشخصية اليهودية واعتمدت على هذا المصدر المطعون عليه والمشكوك فيه . . . وفى الحقيقة أن معظم الباحثين لم يغفلوا عن المطاعن والشبهات التى تعيب هذه التوراة . . وفى نفس الوقت عرفوا كيف يستفيدون منها على علاتها من حيث إنها قد صورت واقع الحياة اليهودية من جميـــع نواحيها العقائدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . . وتعمقت أبحاث العلماء فى التوراة . . . فلم يكتفوا بمناقشة ما ورد فيها من وقائع ، بل استشفُّوا من خلال ما تضمنته الصورة الحقيقية للشخصية اليهودية ، تماماً مثلما يفعل الناقد الأدبى فى استخلاص الصورة الحقيقية للكاتب الأديب من خلال إنتاجه .. استناداً إلى أن معظم سمات الكاتب فى أخلاقه ومزاجه النفسى لا بد وأن تظهر أطيافها ظلالا واضحة فى كل ما يدبجه قلمه وتمليه قريحته .. وقد أفادتنا التوراة من هذه الوجهة فائدة عظمى . إذ أنها — كعمل اجتماعى اشتركت فى إنشائه أجيال من المحررين والكهنة على مر الأزمان خلال فترة طويلة — قد أوضحت لنا المعالم الأساسية للمجتمع اليهودى بأسره . . أما من حيث صحة الوقائع نفسها فليس هناك من سبيل إلى التوصل لقرار حاسم . . وبقيت الأفكار والعقائد والمبادئ أموراً مجهولة لا يمكن تقييمها مثل سائر الروايات التاريخية التى

وصلت إلينا من طرق غير محايدة أو في ظروف غامضة . . ومثل هذه الروايات التاريخية . . إمّا أن تهمل كلية . . أو تروى على علاتها . . أما فى مجال الاستشهاد فلا يمكن الاعتماد عليها أبداً .

ومع هذا فنحن مضطرون إلى الرجوع إلى النصوص الواردة فى التوراة كى نتعرف كنه العقيدة الدينية لدى اليهود . ومدى ما يمكن أن تستفيد منها البشرية . . . وحتى لا يتهم المرء – كمسلم – بالتحيز فى أحكامه ، فإننى أطلب من القارئ أن يستصحب التوراة ويتابع ما سأرشده إليه من نصوصها . . فإننى لن أستثير فى هذا البحث إلا بما تضمنته أسفار العهد القديم وإصحاحاته من وقائع وروايات . . لن أحتكم إلا إليها ولاسواها .

ولقد بدأت دعوة موسى وانتهت بالتبشير بإله ضنّ بهدايته وبركته فلم يمنحهما إلا لشعب إسرائيل الذى اختاره هذا الإله من بين شعوب البشرية كلها كى يحتكر كل منهما الآخر . . . الشعب لا يتعبد لسواه من الآلهة ، والإله لا يمنح البركة ولا يقود إلى العزة والنصر والسعادة سوى هذا الشعب المختار . . شعب إسرائيل . . . ولقد صورت التوراة هذا الإله بصورة هى بدع فى صور الآلهة . . فيهوه إله إسرائيل إله و صارم صعب المراس يتوقد حماساً إلى الحرب والقتال ولا يجنح للسلم أبداً . . . ثم هو فوق ذلك غضوب ، شره فى تعطشه للدماء ، متقلب الأطوار . . . لأتفه الأسباب ينقض كل ما بناه أو يتراجع تراجع الأحمق لا تراجع الداهية الأريب . وهو فى ملكوته السماوى محدود البصر والبصيرة وهو يمشى بصوت مسموع كالبشر فيختبئ منه آدم خلف الشجرة فلا يراه وهو على بعد خطوات منه ، أو يطلب إلى اليهود أن يميّزوا بيوتهم حتى لايهلكهم على غير علم منه فى الوقت الذى قرر فيه أن يضرب على المصريين فى مهاجعهم بالليل . . وكثيراً ما يندم هذا الإله على فعل قام به أو على قرار اتخذه . . . وكثيراً أيضاً ما يكون ندمه بعد فوات الأوان . . . وهو ليس بمعصوم عن الخطأ . . . ويتضح له مؤخراً أن أشنع ماوقع فيه من الأخطاء هو خلق الإنسان . ويندم أيضاً على أن اختياره لم يقع إلا على شعب إسرائيل . . هذا الشعب النكد المنحوس الجبان الرخو المتمرد المتآمر الذى لا يقدر مسئوليته وينوء بتحمل تبعات واجباته . . فهذا الشعب إذ قاده موسى إلى الحرية ناءت كواهله عن تحمل مسئولياته

فيطمح إلى العودة لذل العبودية والرق عند المصريين . . ويصل الأمر إلى حد تدبير المؤامرات الخسيسة ضد موسى وأخيه هارون حتى لا يخوضوا غمار الجهد المقدس . من أجل الأرض الموعودة ، وحتى يعودوا إلى مصر حيث الرق والمهانة . . ولكن هناك أيضاً القدور المليئة باللحم والطعام الشهى . . .

ثم إن هذا الإله لا يكترث كثيراً بالمبادئ أو القواعد الأخلاقية فهو يخرقها ويتجاهلها فى سبيل الحصول على مغانم رخيصة ، ويستحث يعقوب على خداع لابان .. وضميره لا يقل مرونة عن ضمير الكاردينال ريشيليو أو أى أسقف آخر يندفع فى تيار السياسة . . . وهو ثرثار كثير الكلام ، ويستطيب إلقاء الخطب الطوال .

وقصارى القول فإنه — كما قال ديورانت فى موسوعته قصة الحضارة — «لم يكن للأمم القديمة إله آدمى فى كل شىء كإله اليهود هذا » . . وهذه الصورة البدائية الفظة للإله قد تجاهل العلماء نسبتها إلى موسى واعتبروها من اختراع الخيال اليهودى وحده . . وسواء أكانت تحريفاً للصورة الحقيقية التى بشر بها موسى أم شيئاً يختلف عنها ، فإنها ليست إلا الصورة الوحيدة التى تواءم الحالة النفسية التى كان عليها اليهود حين خروجهم من مصر . . فإن قسوة الرق التى عانوها خلال قرون طويلة جعلتهم يتوقون إلى نهاية ينعمون فيها بالحرية .. وإن تكون هذه النهاية إلا على يد منقذ يخلصهم من قبضة فرعون القوية الجائرة . . وكانت الظروف التى تسود الموقف برمته توحى باستحالة هذا الخلاص إلا بمعجزة . . وفى نطاق الإطار الدينى الذى كان يحيط الحياة المصرية آنذاك . تصورت العقلية الإسرائيلية شكل المعجزة التى ستحقق لهم الخلاص والحرية . . زعامة دينية تعتمد على قوة إلهية أكبر وأعظم من قوة فرعون وجنوده . .

وإذا كان إخناتون قد بشر بدعوته التوحيدية قبيل الخروج الإسرائيلى فإن عقلية الإسرائيليين لم تكن من النضج الكافى لكى تستسيغ أو تتمثل الصورة النبيلة الراقية التى صورت بها تلك الدعوة الألوهية بكل ما فيها من سمو وعظمة . . ولكنها على كل حال قد أتاحت لليهود أن يتصوروا الألوهية على الصفات التى تحقق لهم رغبتهم المكبوتة فى الخلاص . . ولكنها صفات من نوع خاص . . القدرة والمهارة الحربية

والسياسية . . . أما ماعدا ذلك من صفات الإله الأعظم فلم يكن مما يعنيهم أو مما تستسيغه عقولهم . فمضوا يتصورونه على تلك الصورة البشرية . . . حتى الوحدانية المطلقة كما بشر بها إخناتون فقد أنكروها أو تجاهلوها لأنها لا تستقيم مع أهدافهم، وتصوروا إلههم على أنه لهم وحدهم لا يؤلهون غيره ولا يعبده سواهم وبذلك ترتبط مصالح هذا الإله بمصالحهم وتتفق أهدافه مع أهدافهم . . وأثر الإخناتونية فى اليهودية واضح لا ينكر ، حتى أن هنرى برستيد[1] وأثر ويجال عقدا مقارنة بين صلاة إخناتون وأحد المزامير اليهودية اتضح منها اتفاق فى المعانى لا يمكن نسبته إلى توارد الخواطر أو المصادفات.

وتقول صلاة أخناتون :

أيها الإله آتون :

أيها الإله الواحد الذى لا شريك له

ما أكثر آلاءك وما أعظمها

إنها خفية علينا ونجهل حصرها

خلقتَ الأرض بمشيئتك . . وغمرت الكون بالإنسان والحيوان: الكبير والصغير.

خلقت سفوح سوريا . . وجبال أثيوبيا . . وبساط مصر ، ووطَّنت كل إنسان فى بلاده .

ملأت الأرض بخيرك الوافر

وأفضت على الإنسان بنعمك .

وقتَّ لكل واحد أيام حياته .

وجعلت اختلافاً فى لغات الناس وألوانهم وأخلاقهم وأصواتهم لتميز بين خلقك .

الماشية كلها فرحة بمرعاها

والأشجار والنباتات تزهر وتثمر

والطيور تخرج من أكنانها

ترفرف بأجنحتها راقصة لتتعبد لك

والحياة الجميلة تظلل الجميع

لأنك أشرقت عليهم

أنت خالق النطفة فى الإنسان

ومنها خلقت الجنين فى رحم أمه

ووهبت له الحياة

وجعلت فى الأم حناناً لتلاطف الطفل عندما يولد حتى لا يتكدر أو يبكى وتفتح فمه الواهن بأنملة ثديها الناعمة الدقيقة

وتعلمه الكلام . . ولا تدخر وسعاً فى تحقيق حاجاته

إنك يا إلهى : لقوى وجميل

أنت معطى الحياة للفرخ فى البيضة

وجعلته ينمو فيها حتى يكتمل سَوِى الخلقة

---

(١) عن كتاب :

"The Development of Religion and intellict in Ancient Egypt.

ليتمكن بقوته أن يثقب جدارها ويخرج منها
فرحاً سعيداً بنورك .
أيها الإله الذى أوجد نفسه بنفسه
خلقت النيل وأرسلت شعاعك الدفء
ليغذى الحدائق
أنت خالق الفصول المختلفة
فى الشتاء برودة
وفى الصيف حرارة .
أنت رافع السماء عالية لتناسب مقام
شروقك ، منها ومن علاك تراقب مخلوقاتك
تنتعش الحياة وتنشط
والسفن تسير مع التيار شمالا
وتسخر الريح لتسير جنوباً
وكل طريق يتفتح للسالك . . لأنك
أشرقت فى السماء
أما السمك فيقفز كالفضة فى ضياء وجهك
حينما تخترق أشعتك مياه البحر الكبير
وحينما تغيب فى الأفق الغربى
يخيم الظلام على الأرض كأنها ماتت
ويخدر الوسن جفون الناس
فتتلاق أجفانهم ولا يرى الواحد منهم
الآخر ، ويخرج الأسد من العرين .
أما الحيات فتجد رحاباً تسعى فيه . .
ويعم الظلام وتصمت الأرض . . لأن
خالقها يسير فى أفقه .
ثم تضىء فتزول الظلمة . . ويستيقظ
الناس فيغتسلون ويسعون . . ويرفعون
أكفهم إليك بالضراعة ويمضى سكان
العالم يعملون
أنت فى قلبى وفكرى وكيانى
فأحط بالرعاية والنجاة
ابنك أخناتون
واجعله يدرك كنه جمالك . . وقوتك

* * *

ويمثل هذه المعانى جاء المزمور الرابع
بعد المائة وفيه : باركى يانفس الرب . . .
صنع القمر للمواقيت ، والشمس تعرف
مغربها . . جعل ظلمة فيصير ليل . . .
فيه يدب كل حيوان الوعر
الأشبال تزمجر لتخطف . . ولتلتمس
من الله طعامها

ويستطرد المزمور قائلا :
تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها
تربض .
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله
إلى المساء .
ما أعظم أعمالك يارب .
كلها بحكمة صنعت . . ملآنة الأرض
من غناك . . هذا البحر الكبير الواسع الأطراف .
هناك دبابات بلاعدد . . صغار
حيوان مع كبار
هناك تجرى السفن — لوناثان

« التمساح » هذا خلقته ليلعب فيه .

• • •

ويقابل هذا الجزء من المزمور — ما جاء فى صلاة أخناتون .

وحينما تغيب فى الأفق الغربى . .
يخيم الظلام على الأرض كأنها ماتت
ويخدر الوسن جفون الناس فتتلاقى
أجفانهم . . ولا يرى الواحد منهم الآخر
ويخرج الأسد من العرين . . أما
الحيات فتجد رحاباً تسعى فيه .

أيها الإله آتون . . . الواحد الذى
لا شريك له

ما أكثر آلاءك وما أعظمها إنها
خفية علينا ونجهل حصرها خلقت
الأرض بمشيئتك . وعمرت الكون بالإنسان
والحيوان الكبير والصغير .

السفن تسير مع التيار شمالاً
وتسخر الريح لتسير جنوباً
وكل طريق يتفتح للسالك لأنك
أشرقت فى السماء

أما السمك فيقفز كالفضة فى ضياء
وجهك

حينما تخترق أشعتك البحر الكبير
ثم تضىء فتزول الظلمة . . ويستيقظ
الناس فيغتسلون ويسعون . . ويرفعون
أكفهم إليك بالضراعة ويمضى سكان
العالم يعملون .

• • •

ولم يكن ويجال وبرستيد وحدهما هما اللذان استرعى نظرهما هذا التوافق العجيب فى بعض المظاهر بين الأخناتونية واليهودية . . . بل إن فرويد قد ألف كتاباً كاملا فى هذه المقارنة هو كتاب موسى والواحدانية Moses and- Monotheism وخلص من بحثه حول هذه المقارنة إلى أن موسى عليه السلام ، وقد تربى فى مصر تحت ظلال الوحدانية ، وولد عقيب المعركة بين الأخناتونية وديانة آمون ، فاستعد للنبوة فى بيئة موحدة . ولم يكن من العسير عليه أن يعلّم بنى إسرائيل كيف يوحدون الله ، ويمجدون صفاته .

وقد كان خروج موسى ببنى إسرائيل من مصر فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد . . أما أخناتون فقد بدأ دعوته عام ١٣٥٤ ق . م . أى فى نهاية النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، ومات عام ١٣٣٦ ق . م . وعلى هذا التقدير يكون قد عاش بمصر فى الجيل التالى لظهور الأخناتونية واكتمال عقيدة التوحيد ، لدى المصريين .

ويمضى فرويد فى افتراضاته وتقديراته حتى يظن أن موسى عليه السلام كان أحد الكهنة المصريين آمن بالإخناتونية ، ولم يستطع الجهر بها خشية بطش كهنة آمون فبشر بها لدى الإسرائيليين وخرج بهم من مصر إلى حيث البقعة الوحيدة التى يمكن أن تكون مهجراً لأمثال هؤلاء اللاجئين .

وإذا كان عالم يهودى مثل فرويد يذهب فى تقديراته عن اليهودية إلى هذا المدى فإن لغيره من العلماء كل العذر فى أن يرتأوا بأن تفاعل الأحداث نفسها مع اليهود فى آخريات أيامهم بمصر جعلهم يتوصلون إلى هذه العقيدة بشكلها البدائى . ولم يكن هناك من حاجة إلى مبشر بها أو داعية إليها وموسى فى زعم هؤلاء شخصية أسطورية لم يكن لها قط وجود . . ولكن أمثال هذه الافتراضات المتطرفة نتجت من عطل التوراة وعدم صلاحيتها لأن تكون مصدراً تاريخياً يعتمد عليه أو يوثق فيه.

وفى أوائل مايو عام ١٩٣١ عثرت بعثة بريطانية للتنقيب عن الآثار فى فلسطين على قطع من الخزف من بقايا عصر البرونز أى قبل ظهور اليهودية بنحو من ستة عشر قرناً . وقد نقش على قطع الخزف هذه اسم إله كان يعبده الكنعانيون يسمى « ياه أو ياهو» . . والأقرب إلى العقل أنه بعد وفاة موسى عليه السلام . لم يلبث أن ارتد اليهود إلى الوثنية فاختاروا هذا الإله الكنعانى وعبدوه. ويبدو أن هذا الإله كان إلها للرعد يعبده الكنعانيون خوفاً من بطشه وقسوته فحوله كاتبو الأسفار وكهنة اليهود إلى إله للحرب ليقود الجيوش ويدعو للاستعمار والفتح ، وتمثلته العقلية اليهودية بالصورة التى توائم مزاجها وطبيعتها ، ثم رويداً رويداً نسبه كاتبو الأسفار إلى موسى عليه السلام واستبدلوا بصورة الإله الحقيق الذى بشر به موسى ودعا لعبادته صورة هذا الدعى المزعوم .. وعلى لسان موسى أثبت مؤلفو التوراة فى وصف هذا الإله : « الرب رجل الحرب» . . ويردد داود نفس هذا القول : « ويعلم يدى القتال » ويهوه هذا الإله الجبار يعد « بأن يزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين » . . وبأن « يطرد الحوبيين والكنعانيين والحيثيين » يطردهم « قليلا قليلا » . . وهو فخور معجب بنفسه كالأبطال الرومان يتقبل الثناء ويشتهيه ويغرق فى التباهى بقوته وجبروته فيعرف المصريون أنى أنا

الرب حين أتمجد بفرعون ومركباته وفرسانه ».. وحين يأمر بنى إسرائيل بأن يقتلوا كل رجال ونساء وأطفال الكنعانيين الذين يتغلبون عليهم لكى تخلص الأرض لشعبه المختار يبدو وكأنه قد تجاهل كل معانى العدالة والرحمة فقد كانت وصيته الوحيدة التى أمر بها شعبه وهو مرتاح الضمير إبادة الكنعانيين فى الحرب الدائرة هى: « اقتلوا كل ذكر حتى الرضيع وكل امرأة عرفت رجلا . . اقتلوها .. لكن جميع الأطفال وكل النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة رجل ابقوهن لكم حيات » (عدد ٣١ : ١٧ : ١٨)

والذى يطالع فى التوراة وصف المعارك الحربية بين اليهود والكنعانيين تقفز إلى خاطره صور الجرائم الدنيئة التى ارتكبها اليهود فى عدوانهم الأخير ضد العرب، أمثال مذابح دير ياسين وقبية . . وكأن التاريخ يعيد نفسه . . ولكنهم اليهود كانوا منذ ثلاثين قرناً كما هم اليوم . . وعلى الجملة فلم يكن هذا الإله إلا نسخة ثانية من رئيس عمال فرعون الذى عرفه الإسرائيليون قبل الهرب فظاً قاسياً متباهياً يقبل المدح والثناء ، جباراً لا يقيم وزناً للعدالة ولا ينبض قلبه بالرحمة، ولما بدأ اليهود يزنون مع بنات مواب قال لموسى « خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس » (عدد ٢٥ : ٤) فهو فى غضبه على استعداد لأن يبيد بلا رحمة وبلا عدالة »: « أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث من مبغضى » (خروج : ٢ : ٥و٦) . وهو يتوعد اليهود بإهلاكهم عن بكرة أبيهم لأن بعضاً منهم قد عبدوا العجل الذهبى ويضطر موسى إلى أن يراجعه ويتسامحه وأخيراً « ندم الرب على الشر الذى قال « إنه يفعله لشعبه » وكذلك يريد أن يفنى اليهود أصلا وفرعاً لعصيانهم موسى ولكن موسى يستثير حميته وكبرياءه فيعفو أخيراً خشية على سمعته : « وقال الرب لموسى حتى متى يهيننى هذا الشعب، وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعباً أكبر وأعظم منهم، فقال موسى للرب فيسمع المصريون الذين أصعدت هذا الشعب من وسطهم ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يارب فى وسط هذا الشعب الذين أنت يارب قد ظهرت لهم عيناً لعين وسحابتك واقفة عليهم، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وبعمود نار ليلا . . فإن قتلت

هذا الشعب كرجل واحد . . تكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر . . . فقال الرب قد صفحت حسب قولك » (عدد ١٤ : ١١/٢٠).

وألفاظ السباب التى يكيلها يهوه الإله لشعبه تعد نموذجاً لفحش القول وأغلظه: « ملعونا تكون فى المدينة وملعونا تكون فى الحقل . . ملعونة تكون سلتك ومعجنك ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك ، نتاج بقرك وإناث غنمك . يرسل عليك الرب اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتعبك حتى تفنيك . يضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء . يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب . تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها ، يُسلَّم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار . . يجعل الرب أيضاً كل مرض وكل ضربة لم تكتب فى سفر الناموس هذا يسلطه الرب عليك حتى تهلك » (تثنية ٢٨ : ١٥ / ٦٨) .

لم يكن يهوه هو الإله الوحيد الذى يعترف اليهود بوجوده أو يعترف هو نفسه بوجوده فقد كان موسى — كما تقول التوراة — يتغنى بنشيده المشهور « من مثلك بين الآلهة يارب» (خروج ١٥ : ١١ ، ١٨ : ١١). أما يهوه الرب نفسه فقد كان كل ما يطلبه فى أولى الوصايا العشر هو أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب ويعترف بأنه إله غيور لا يرضى أن يشاركه فى شعب إسرائيل إله آخر ويأمر الإسرائيليين أتباعه أن يهدموا مذابح الآلهة الاخرى وأن يكسروا أصنامهم ومن الواضح أن هذه الوصية الإلهية قد أهملت ردها طويلا من الزمن قبل أشعيا النبى فإن اليهود لم يفتأوا بعد وفاة موسى أن أشركوا يهوه الذى لم يعد إله الأسباط جميعاً . فقد كان للموابيين إلههم شمش ولعكرون إلههم بلزبوب ولعمون الإله ملكوم . فقد كان الانفصال السياسى والاقتصادى بين الأسباط قد أدى إلى عدم الوحدة الدينية . . كما كانت عبادة تموز — هو إله من أصل كلدانى على ما يظهر — قد شاعت بين جميع أسباط اليهود حتى غدت معترفاً

بها من القيادة الدينية الرسمية — مجمع الكهنة — الأمر الذى شكا منه حزقيال حين آله أن يسمع البكاء حزنا على تموز من داخل الهيكل (حزقيال ٨ : ١٤).

ومن بين المفاسد اليهودية التى جعلت أرميا يتميز غيظاً ما شاهده فى عهده من تعدد الآلهة اليهودية حتى كان لكل مدينة إلهها . ومن قوله فى خطابه لسكان مملكته يهوذا «على عدد مدنك صارت آلهتك يايهوذا » . وليس فقط بعلا ومولك اللذين وضعت أصنامهما داخل الهيكل نفسه (أرميا ٢ : ٢٨ ، ٣٢ / ٣٥) .

ومن الواضح أن الوحدة السياسية التى قامت بين الأسباط فى عهدى داود وسليمان كانت بداية لفترة قصيرة ازدهرت فيها عبادة يهوه كإله أوحد لليهود . . إذ أن الوحدة السياسية وتركُّز القيادة الدينية والعبادة فى الهيكل العظيم الذى بناه سليمان فى أورشليم قد جعلت النفوذ الدينى لهذا الإله يتسلط من جديد على الشعب برمته . . .

وإلى أكثر من القول بأن هناك إلها واحداً لإسرائيل . مع الاعتراف بوجود آلهة أخرى ولكن لشعوب أخرى — لم يخط اليهود فى طريق التوحيد خطوة واحدة . . وظل هذا الإله « يهوه » بصورته القاسية الكئيبة مهيمنا على نفوس وأفكار أتباعه ويشيع الرعب والخوف فى أوصالهم حتى كان عصر الأنبياء . . أو بالأحرى حتى كان ذلك المؤلف المجهول الذى أكمل سفر أشعيا والذى كان يهدف لا إلى — إعادة مجد يهوه فحسب . . بل كان — وهو يعمل على إعادة شعب إسرائيل إلى حظيرة الدين من جديد — يرمى أيضاً إلى الارتفاع بمستوى هذا الدين ، فنى أسلوب جزل مشرق عمل على طمس الصورة القائمة لهذا الإله ورسم له لوحة بهيجة أسطع ألوانها الحب : « روح السيد الرب على . . لأن الرب منحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب مكسورى القلب . . لانادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق » (أشعيا ٦١ : ١) .

ويرسم أشعيا الثانى هذا صورة للرب قائلا : اطلبوا الرب . . ما دام — يوجد ادعوه وهو قريب ليترك الشرير طريقه ورجل الإثم أفكاره وليتب إلى الرب فيرحمه وإلى إلهنا لأنه يكثر الغفران (أشعيا ٥٥ : ٦ / ٧) . « هوذا الرب يأتى بقوة وذراعه تحكم له . . كراع يرعى قطيعه ، بذراعه يجمع الحملان، وفى حضنه يحملها ويقود المرضعات»

(أشعيا ٦٢ : ١٦) . . . « فرحاً أفرح بالرب ، تبتهج نفسي يا إلهي ، لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص ، كساني رداء البر مثل عريس يتزين بعمامته ، ومثل عروس تتزين بحليها . . لأنه كما أن الأرض تخرج نباتها ، وكما أن الجنة تنبت مزروعاتها ، وهكذا السيد الرب ينبت . . برا وتسبيحا أمام كل الإمم » (أشعيا ٦١ : ١٠:١١) .

وفي خلال دعوة الإصلاح هذه يوضع أساس فكرة (الخطيئة والخلاص منها بالفداء) . . تلك الفكرة التي هي أساس المسيحية . . بل تأتي البشائر الأولى للمسيح المنقذ وترتسم له صورة توضح سماته وصفاته التي كان عليها إبّان حياته وتبشيره بالدين الجديد .

« ما أجمل على الجبال قدمى المبشر . . المخبر بالسلام ، المبشر بالخير المخبر بالخلاص القائل لصهيون قد ملك إلهك . . هوذا عبدى . يعقل ويتعالى ويرتقى ويتسامى جدا . . كما اندهش منك كثيرون . . كان منظره كذا مفسداً أكثر من الرجل وصورته — أكثر من بنى آدم . . هكذا ينضح أمما . كثيرون . . من أجله يسد ملوك أفواهم لأنهم قد أبصروا — ما لم يخبروا به وما لم يسمعوه فهموه . . محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ومستّرعنه وجوهنا . . محتقر فلم نعتد به . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . ونحن حسبناه مصاباً مضروباً من الله — ومذلولا — وهو مجروح لأجل معاصينا . مسحوق لأجل آثامنا . . كلنا كغنم ضللنا . . ملنا كل واحد إلى طريقه والرب وضع عليه إثم جميعنا . . وجعل مع الأسرار قوة ، ومع غنى عند موته على أنه لم يعمل ظلماً ولم يكن فى فمه غش . . أما الرب فسرّ بأن يسحقه ، بالحزن . أن جعل نفسه ذبيحة إثم . . وعبدى البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها لذلك أقسم له بين الأعزاء ومع العظماء يقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت — نفسه ، وأحصى مع إثمه وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين (أشعيا ٥٢ حتى آخره وبكل آيات الإصحاح ٥٣) .

وابتداء من هذه الدعوة الإصلاحية وردت فى الأسفار إشارات إلى أن اليهود يقتربون من التوحيد الكامل ولكن ليس لأن يهوه هو الإله الواحد الذى لاشريك له . . بل لأن النصر قد بات قريباً وأن الإسرائيليين سيسيطرون على العـالم وسيفرضون على جميع الشعوب عبادة

إلههم وعندئذ ستبطل عبادة جميع الآلهة ما عداه . . أما يهوه فسيبقى وحده فى علاه يرعى ويبارك شعبه المختار سادة الدنيا وحكام الشعوب .

أما فكرة البعث فى الآخرة فقد خلت منها الكتب الإسرائيلية إذ لم يكن اليهود يعتقدن بالبعث والحساب الأخروى وإنما الأرض السفلى أو الجب أو شيول هى الهاوية التى تأوى إليها الأجسام بعد الموت والاتجاه الميت « وأن الذى ينزل إلى الهاوية لا يصعد . . أما الثواب والعقاب فليس إلا جزاء عاجلا فى الدنيا مرض أو دمار أو هزيمة أو ذل يبتلى به الله العصاة والمذنبين . وخير وكسب وفلاح متحقق عاجلا للمخلصين الطائعين .

وأول إشارة إلى يوم البعث والدينونة فقد جاءت بصورة غامضة غير واضحة فى سفر دانيال يقول : « إن كثيرين من الراقدين فى تراب الأرض يستيقظون : هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار والازدراء الأبدى » « دانيال ١٢ : ٢/٣ .

ولم ترد هذه النبوءة إلا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حوالى عام ١٦٥ ق . م .

وأثناء الأسر فى بابل نبتت فكرة المسيح المنتظر فى العقيدة الإسرائيلية وكانوا يتوقعون ملكا فاتحاً مظفراً ويسمونه ابنا لله . وأطلقوا اسم المسيح على كل من يعاقب أعداءهم ويفتح لهم باب الخلاص من أسرهم ، وتهذبت العقيدة مع الزمن فأصبحوا ينتظرون الخلاص على يد الهداة العاديين بعد أن يئسوا من أن يجيء من بين الغزاة الفاتحين . . وقد عقد أحد كبار فلاسفة العصر وهو العلامة غوستاف لوبون فصلا عن اليهود فى كتابه الجليل « تاريخ الحضارات الأولى » . . خلص فيه إلى : أنه لم يكن لليهود فنون ! ولا صناعة ! ولا أى شيء تقوم به حضارة ، ولم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت فى شيد المعارف البشرية وأنهم لم يجاوزوا قط مرحلة الأمم شبه المتوحشة التى ليس لها تاريخ ، وأن قصتهم الكئيبة لم تكن غير قصة لضروب المنكرات وأن تأثيرهم فى تطور الحضارة صفر ولا يستحقون بأى وجه أن يعدوا من الأمم المتمدنية . . وأن شريعتهم بأسرها لم تكن إلا وجهاً بسيطاً للنظام الملكوتى (فكيف يمكن للمرء أن يتصور إمكانية صمود العقيدة الإسرائيلية أمام تيارات عاتية من الثقافات — والمبادئ الحضارية التقدمية دون أن تندثر أو تزول . . وهكذا التساؤل نفسه يمكن أن يعبر — كما أسلفنا — عن مشاعر العجب من بقاء

الشخصية الإسرائيلية دون أن تذوب أو تندثر مع زوال وتفكك المجتمع الإسرائيلى وانحلاله برمته . ذلك الشعب الذى ملأته أقلام كتبة التوراة بأوهام عجيبة وحيرت لهجته الفارغة ومشاغباته الدائمة الدولة الرومانية التى كانت آخر دولة احتلت الشرق الأدنى قبيل ميلاد المسيح فعاملت تلك الدولة ذلك الشعب فى مبدأ الأمر بالاحتقار والتجاهل ثم ما اعتمت فوضاه المزعجة وضوضاؤه أن استنفذت صبر الدولة العظمى فأبادته وشتته حتى تستريح منه نهائياً ولا تعود وتسمع حديثاً عنه .

والواقع أنه لا العقيدة اليهودية ولا أية عوامل أخرى ذات صلة بالتقدم الاجتماعى أو الحضارى . قد قامت بدور إيجابى فى بقاء الديانة والشخصية اليهودية ، وحفظهما من الانحلال والضياع وإنما الفضل كله يرجع إلى التوراة وما كان لكتبتها من خيال خصب أعطى لوقائعها حيوية متجددة لها ما للملاحم الشعبية من تأثير يستهوى نفوس الجماهير ، ويأسرهم . وإذا كان كل سكان العالم اليوم (سوى قلة ضئيلة من الذين حصلوا على قدر وافر من الثقافة) لا يعرفون شيئاً عن البطل هانيبال السقرطاجنى ولا عن مقدرته الفائقة فى فنون الحرب ولا عن فتوحاته فى أوربا وآسيا فإن قلة ضئيلة أيضاً من الجهلاء هى التى تعرف شمشون ذلك البطل الأسطورى الذى كان يصرع — كما تقول التوراة — الألوف بعظمة من فك الحمار ولا يمكن بطبيعة الحال أن نقارن بين بطولة هانيبال الحقيقية وبين الهالة الخرافية التى أحاطت بها التوراة ذلك العبرانى فى قصة مع دليلة وخصومه الفلسطينيين . . وبفضل التوراة ظلت الأجيال وستظل تتغنى بقوة شمشون وأمجاده تماماً كما ظل سندباد ألف ليلة وليلة حيا على الدوام فى خيال الجماهير . وكذلك فإن سواد المثقفين فى هذا العصر لا يحيطون علماً بثقافات وتاريخ الحضارات التى انبعثت فوق أرض الهند والصين ولكن غير المثقفين لا يجهلون حكمة سليمان ولا روعة أمثاله — كذلك لا يجهلون ما فى مزامير داود وأناشيده من سمو المعنى وعذوبة الألحان .

وكان من الممكن أن تعمل يد الزمان عملها فتطوى التوراة فى أطواء النسيان . فتذهب ريحها ويعفو أثرها بعد أن قضى الرومان على شعبها الذى تشتت متشرداً فى انحاء الأرض التى أصبحت

كل أرجائها له منى وأصبح اليهود فرادى أو فى جماعات صغيرة ينشدون الاستقرار فى أى مكان ولكن هيهات فلا استقرار لأيهم ولا قرار . . ولكنها مع ذلك بقيت والفضل فى ذلك كله يرجع للسيد المسيح فإنه قد ظهر بين بنى إسرائيل يبشر بدعوة السلام والخير لا على أساس أنها دين جديد وإنما على شكل ثورة إصلاحية لتنقية الديانة اليهودية مما علق بها من شوائب وترهات « لا تظنوا أنى جئت لا نقض الناموس أو الأنبياء . . ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٦ : ١٧) . فلم تنقض المسيحية قداسة التوراة أو تقلل من أهميتها باعتبار أنها السجل الجامع لأحكام الدين وشريعته . وهكذا بقيت التوراة . . بل إن انتشار المسيحية ورواج أناجيلها قد ساعد على رواج التوراة وانتشارها أيضاً لأن المحافل الكنسية قد اعتبرت الديانة المسيحية وارثة لليهودية واعترفت بصحة أسفار التوراة وضمتها كتراث مقدس إلى ما اعتبرته صحيحاً من أناجيل المسيحية نفسها . . وأطلقت على المجموعة كلها اسم « الكتاب المقدس » . وفى هذا الإطار الجديد سميت أسفار التوراة باسم « كتب العهد القديم » كما لقبت ، الأناجيل باسم « كتب العهد الجديد » .

وفى الحقيقة لا تعتبر المسيحية ديانة متميزة عن اليهودية إلا من حيث إنها قد أحدثت انقلاباً ثورياً . فأطاحت بكل الأرجاس والمفاسد التى طرأت على اليهودية فلوثتها ونجستها . . ومع أن ظهور السيد المسيح كان بعد سلسلة من الحركات الإصلاحية التى انبعثت على يد بعض الأنبياء والمخلصين من أمثال أرميا وأشعياء ودانيال — إلا أن الفساد كان قد تغلغل إلى جميع قطاعاتها سواء فى عقيدتها أو فى شريعتها وفى سائر أصناف وطبقات المجتمع اليهودى نفسه ومن ثم كان الأمر يتطلب لادعوة إصلاحية فحسب بل ثورة تطيح بكل الكيان اليهودى وتعيد بناءه من جديد على أسس سليمة لاعيب فيها . . وهذه المهمة الشاقة كان يتطلب تنفيذها مصلحاً فدائياً متفانياً من نوع خاص . . وكان المسيح هو ذلك الفدائى الكفء للاضطلاع بتلك المهمة العظمى . .

زاهر عزب الزغبى

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر في ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

(٥)

عمارة عبد الرحمن كتخدا للأزهر :

ذكرنا فى المقال السابق شيئًا من تاريخ حياة عبد الرحمن كتخدا وعصره . ونشاطه فى إنشاء وتجديد المساجد ومشاهد آل البيت فى الأنحاء المختلفة بالقاهرة . وكانت عمارته الكبرى فى الجامع الأزهر فقد أنشأه إنشاءاً آخر سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) .

فقد ضم المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية إلى الجامع الأزهر . بعد أن هدم الطيبرسية وأعاد بناءها . وأنشأ من الجهة الغربية المطلة حاليًا على ميدان الأزهر — (ونقول الغربية للتخفيف فهى فى الواقع شمالية غربية) — خارج المدرستين بابا آخر هو عبارة عن بابين متجاورين مقوصرين من الحجر النحيت بأعلاهما نقوش وزخرفة بديعة .

هذا الباب عُرف بباب المزينين . وهو أهم أبواب الأزهر وأشهرها . ويؤدى إلى طرقة تصل إلى الباب الأصلى للجامع . وعلى يمين الداخل من باب المزينين المدرسة الطيبرسية وعلى يساره الأقبغاوية التى بها مكتبة الجامع الأزهر الآن . وبذلك أصبحت المدرستان داخل الجامع .

وباب المزينين عُرف بهذا الاسم لأنه كان يجلس فى الطرقة بينه وبين الباب الأصلى للجامع المزينون لحلق رأس أو ذقن من يريد من المجاورين . وهناك رأى آخر أن الاسم جاء من الزينة التى توضع على هذا الباب الرئيسى للجامع فى المناسبات . ويستدل أصحاب هذا الرأى بما كتب على الباب من أربعة أبيات من الشعر . والكلمات الأخيرة من البيت الأخير تسجل تاريخ بنائه بحساب

الجُمَّل . وهذه الأبيات هى :

إن للعلم أزهـرا يتسامى
كسماء مـا طاولتها سماء
حيث وافاه ذا البنـاء ولولا
منة الله ما تسامى البنـاء
رب إن الهدى هـداك وآيـا
تك نـور تهدى به من تشاء
مـذ تناهى أرَّخت باب علوم
٥ ١٤٦
وفخار بـه يجـاب الدعاء
٨٨٧ ٧ ١٦ ١٠٦
– ١١٦٧هـ .

وحساب الجمَّل استعمله القدماء للتوفيق بين الأعداد والحروف . وأساسه حروف الأبجدية الثمانية وعشرون . فقد كوَّنوها فى ثمان كلمات (أبجد – هوز – حطى – كلمن – سعفص – قرشت – ثخذ – ضظغ) . وجعلوا للتسعة حروف الأولى أعداد الآحاد من ١ – ٩ . وجعلوا للتسعة حروف التالية أعداد العشرات من ١٠–٩٠ . وجعلوا للتسعة حروف الثالثة أعداد المئات من ١٠٠–٩٠٠ . ثم جعلوا للغين وهى آخر الحروف العدد ١٠٠٠ . مع بعض الخلاف بين المشرق والمغرب العربيين فى ترتيب حروف الأبجدية ليس هنا مجال شرحه .

وقد ذكرنا فى مقال سابق (المقال الثالث) أن الأشرف قايتباى جدد الباب الأصلى للجامع سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥م) .

والباب الأصلى للجامع يؤدى إلى صحن الجامع ، وحول الصحن أربعة إيوانات مفصولة عن الصحن ببوائك محملة على أعمدة من رخام ، فالغربى خلف المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية به ١٦ عموداً . والشمالى به ١٢ عموداً . والجنوبى به ١٢ عموداً كذلك ، وقد فصل جزء من هذه الإيوانات بدرابزين من الخشب المخروط ، حيث أنشئت الأروقة المختلفة لإقامة المجاورين بالأزهر . وبكل جانب من داخل الخشب المخروط صفان من الأعمدة الرخامية المزدوجة كحرم أمام أبواب الأروقة .

وأعلى البوائك المحملة على الأعمدة بدائر صحن الجامع توجد نقوش عديدة وتعلو البوائك شرفات غاية فى حسن الذوق والتنسيق .

أما الإيوان الشرقى – وبه المقصورة الأصلية للجامع وهو إيوان القبلة – فمتسع بعرض الصحن وعرض الإيوانين الشمالى والجنوبى ، وبه أربعة أصفف من الأعمدة الرخامية كل صف منها عشرون عموداً ، والصفان على يمين

ويسار الداخل الأعمدة فيهما مزدوجة ، فضلا عن عمودين مواجهين للمحراب فتكون عدد أعمدة المقصورة الأصلية للجامع ٩٠ عموداً .

وصحن الجامع سماوى متسع ، وقد كانت به فسقية من عهد قايتباى ، ثم أذيلت ، وحاولوا زراعة أشجار فيه ولكن لم تفلح ، وكانت أرضيته من الحجر ، ثم أزيلت أرضية الحجر وعملت بدلها أرضية من ترابيع الرخام سنة ١٩٧٠ م

وكان بصحن الجامع مزولة ، فلما جددت الأرضية رفعت المزولة وعُلقت على عمود هو العمود الرابع على يمين الداخل أى بظهر المدرسة الطيبرسية .

هذه المزولة من صنع الوزير أحمد باشا كور الذى كان واليًا على مصر من ١١٦١ — ١١٦٣ هـ ، (١٧٤٨ — ١٧٥٠م) . وكان مولعا بالعلوم الرياضية فاتصل بالشيخ حسن الجبرتى — والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى . وكان علامة وقته بالنسبة للعلوم الفلكية والميقات . وصناعة المزاول والمنحرفات وكانت لازمة للمسلمين لتحديد أوقات الصلاة ، فالساعات لم تكن متداولة فى أيديهم وقتذاك ، فعرف الوزير قدر الشيخ حسن ودرس عليه واستفاد من علمه الكثير .

وقال المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى (واشتغل عليه برسم المزاول والمنحرفات حتى أتقنها ، ورسم على اسمه عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفرا بالأزميل كتابة ورسما . ونصب واحدة من هذه المزاول بالجامع الأزهر ، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى ، وأخرى بمشهد السادات الوفائية ، وعمل له تاريخًا منظومًا نقشه عليها والكلمات الأخيرة من البيت الأخير تسجل تاريخ عمل المزولة . والأبيات هى :

مزولـــة متقنة   نظيرها لا يوجد
راسمهـــا حاسبها   هذا الوزير الأمجد
تاريخهـــا أتقنها   وزير مصر أحمد

٥٥٧   ٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣

— ١١٦٣ هـ

والمزولة المذكورة بالصحن هى إحدى هذه المزاول ، وتوجد بمكتبة الأزهر بالمدرسة الأقبغاوية مزولة أخرى بنفس الأبيات المذكورة فلعل إحدى المزولتين الأخريين قد نقلت إلى المكتبة .

وقال الجبرتى (جـ ١ ص ١٥٨) إن سبب تلقيب أحمد باشا بلقب كور أنه كان بعينه حول . وقال إن مزولة الأزهر كانت لبيان دائر العصر

والغروب . ومزولة جامع الإمام الشافعى لفضل دائر الغروب . والمزولة الوفائية للظهر والعصر .

ويفصل الصحن عن المقصورة الأصلية دارابزين من الخشب بين الدعامات الحجرية وبه ثلاثة أبواب تؤدى إلى المقصورة، وهذه الدارابزينات والأبواب جميعها من عهد الأشرف قايتباى كما هو مكتوب عليها (مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى أدام ملكه) .

ومكتوب على الأبواب (جُددت هذه الدرابزينات على أصلها فى عهد خديوى مصر عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٠ هـ) .

ومحراب المقصورة الأصلية من رخام وبه عمودان صغيران من الرخام ، وأمامهما قبة ، وعلى المحراب نقوش بالخط الكوفى

وقد ذكرنا فى المقال الثانى الطلسم المزعوم وجوده لمنع أى طائر أن يفرخ أو يعشش بالجامع . كذلك الأسطورة بأنه كان بجوار المحراب الأصلى صندوق به قطعة خشب من سفينة نوح عليه السلام وقطعة من جلد بقرة بنى إسرائيل . كما ذكرنا رفض المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب للأسطورتين وإثباته عدم صحتهما .

وأضاف عبد الرحمن كتخدا مقصورة أخرى إلى مقصورة الجامع الأصلية ، والمقصورة الجديدة يفصلها عن المقصورة الأصلية عدة دعائم من الحجر النحيت، وترتفع أرضها عن أرض المقصورة الأصلية بثلاث درجات ، وبها ثلاثة أصفف من الأعمدة الرخامية ، وتنقص فى الطول عن المقصورة الأصلية من جهة يمين الداخل حيث يوجد باب يؤدى إلى ضريح عبد الرحمن كتخدا وإلى باب يؤدى إلى رواق الصعايدة لأنه أعلاه ، ومن جهة اليسار تنقص أيضاً بمقدار المدرسة الجوهرية السابق ذكرها فى المقال الثالث .

وذكر الجبرتى — وسايره على باشا مبارك — أن بالمقصورة المستجدة خمسين عموداً من الرخام . ولكننى لم أحصر غير تسعة وثلاثين عموداً .

والمقصورة المستجدة محرابها من رخام ملون وبها منبر من الخشب الثمين المطعم بالصدف مكتوب على صدره (إن الله وملائكته يصلون على النبى) . وعلى أحد جانبيه (بسم الله الرحمن الرحيم . الله أكبر) وعلى الجانب الآخر (الله أكبر تم فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر) .

وبالمقصورة المستجدة محرابان آخران على يمين المحراب الكبير بالنسبة للمصلى الأول منهما من رخام وبه عمودان صغيران وليست عليه كتابة ، والثانى من مصيص وبه عامودان من رخام وعليه كتابة وكان الشيخ الدردير — وسيأتى ذكره بإذن الله — يصلى فى أحدهما فعرف به .

أما المقصورة الأصلية — ففضلا عن المحراب الكبير السابق ذكره — بها محرابان صغيران على يمين المحراب الأصلى بالنسبة للمتجه للقبلة .

هذه هى المحاريب الحالية بالمقصورتين وقد ذكر على مبارك (ج ٤ ص١٦) أن بالمقصورة المستجدة المحراب الكبير ومحراب الشيخ الدردير فقط ، كما ذكر محاريب أخرى كانت موجودة ، ولعله أزيل بعضها فى العمارة التى عملت بالأزهر سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) فى عهد الخديو إسماعيل .

وتواجه المحراب الكبير ، بالمقصورة المستجدة سندرة التبليغ . ويرقى إليها بسلم خشبى خلف المحراب الأصلى ، والسندرة من خشب وشرفتها من خشب مخروط .

وسقف المقصورتين من خشب مدهــون ويعلو ســقف المقصورة المستجدة عن الأصلية بما يسمح بعدة مناور من خشب وسلك ، وبسقف المقصورة المستجدة أربعة مساقط للنور (شخشيخة) بكل منها عدة مناور من الخشب والزجاج على شكل عربى ، وعلقت بسقف الجامع فى المقصورتين المراوح الكهربائية ، كما ركبت أنوار الفلورسنت فى عروق الخشب التى تصل الأعمدة بعضها للتثبيت .

وأرض المقصورتين مفروشة بالسجاد الأحمر الفاخر فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .

وكان بالأزهر عدد من الأروقة والرواق بمثابة منزل كامل الاستعداد من غرف ودورة مياه ودواليب وخزائن لحفظ الكتب والأمتعة ، ولكل طائفة رواق خاص بهم ، وينفق على الرواق من أوقاف محبوسة عليه ، فضلا عن جراية أى : راتب من الخبز يصرف يومياً ويحدد قدر هذه الجراية الأوقاف المقررة للرواق وعدد المقيدين فيه . ولكل رواق شيخ يدير شؤونه ويباشر أوقافه .

وسنعود لذكر هذه الأروقة بإذن الله ، ولكن نقول هنا إن أشهر هذه

الأروقة كان رواق الصعايدة ، لأنه كان أغناها فى جهة الوقف والجراية ، وكانت مشيخته غالباً للمدرسين من جهة بنى عدى بالقرب من منفلوط بمحافظة أسيوط .

والنسبة إلى بنى عدى المذكورة عدوى (بفتح العين) ، أما عدوى (بكسر العين) فنسبة إلى العدوة بمحافظة المنيا ، أو العدوة بمحافظة الفيوم أو العدوة بمحافظة الشرقية .

ورواق الصعايدة المذكور بناه عبد الرحمن كتخدا من ضمن تجديداته للأزهر ، ولعل هذا بسبب تقديره للشيخ على الصعيدى العدوى فقد كان من شيوخ الأزهر المعدودين ، وكان محل احترام يهابه الأمراء ، وكان يرى عدم شرب الدخان بحضرة العلماء توقيراً لهم ، فكان الأمراء يمتنعون عن التدخين فى حضرته حتى إنه زار مرة على بك الكبير وكان يدخن الشبك ، فبمجرد أن علم بحضوره أمر برفع أدوات التدخين ، والشبك عبارة عن قصبة طويلة للتدخين مثل البيبة الحالية ولكنها تزيد عليها سمكاً وطولاً . وقد يصل طولها إلى سبعين سنتيمتراً أو أكثر ، ويتولى الخدم تغذيتها بالتبغ والنار ، وكان بعضها يرصع بالأحجار الكريمة أوشبه الكريمة ،

وكان الشيخ على الصعيدى مقرباً إلى محمد بك أبى الذهب ـ خلف على بك الكبير فى السلطة ـ فلما أنشأ أبو الذهب مدرسته المواجهة للأزهر من الجهة الغربية عينه فى التدريس بها ولم يترك تدريسه بالأزهر ، وكان يقضى حوائج الناس عنده ولا يرد لهم طلباً ، وتوفى سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥م) عن ٧٧ عاماً ، وقال عنه الجبرتى : (وكان على قدم السلف فى الاشتغال والقناعة وشرف النفس وعدم التصنع والتقوى ولا يركب إلا الحمار ويواسى أهله وأقاربه ويرسل إلى فقرائهم ببلده الصلات والأكسية والبز والطرح للنساء والعصائب والمداسات وغير ذلك . ثم قال : وصلى عليه بالأزهر بمشهد عظيم ودفن بالبستان بالقرافة الكبرى . رحمه الله ، ولم يخلف بعده مثله) اهـ .

وبنى عبد الرحمن كتخدا لرواق الصعايدة باباً عظيماً للخارج عبارة عن باب مزدوج بشارع التبليطة الحالى الذى كان اسمه الشيخ محمد عبده وذكره على مبارك باسم شارع الأزهر ، وهو الشارع جنوبى الأزهر والباب المذكور هو بآخر مبانى الجامع بهذا الشارع .

وأنشأ عبد الرحمن لنفسه فى داخل الباب ضريحاً دُفن فيه ، وبين باب الصعايدة طرقة . وللضريح باب إلى المقصورة المستجدة بداخل الجامع وفوقه قبة مرتفعة ، وعلى القبة تركيبة من رخام عليها أسماء العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد ، وعبدالرحمن بن عوف وأبو عبيدة الجراح ، والزبير بن العوام. رضى الله عنهم .

وعلى الجانب الآخر المأثور عن الإمام على بن أبى طالب فى وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام وبيتان من الشعر يسجل الشطر الثانى من البيت الثانى تاريخ وفاة عبد الرحمن كتخدا بحساب الجُمل ، مما يدل على أنها عملت بعد عودته من مكة مريضاً ، وقد شعر بدنو أجله أو كان أوصى بها ، والبيتان هما :

بروض نعيم فاز كهف مكرم
وحاز بفضل الخير جنات رضوان
هنيئاً له فالحور فى الخلد أرخت
لقد فاق فى الفردوس عبدالرحمن
١٣٤ ١٨١ ٩٠ ٣٨١ ٧٦ ٣٢٨
= ١١٩٠ هـ .

ونلاحظ حذف ألف الوصل فى الرحمن ولو أثبتت لكان تاريخ الوفاة سنة ١١٩١ هـ .

وأنشأ عبد الرحمن من داخل باب الصعايدة مئذنة ، كما أنشأ أخرى عند باب الشُّربة .

وباب الشربة كان بالحائط الشرقى للمقصورة المستجدة على يسار المحراب بالنسبة للمصلى ، وقد سُدَّ الآن ، وسمى بهذا الاسم لقربه من مطبخ الشُّربة الذى كان يطبخ فيه الأرزفى شهر رمضان ويفرق على فقراء الجامع .

وكان الباب المذكور يطل على طريق يفصل الجامع عن منزل السيد عمر مكرم المجاهد الوطنى المعروف والذى أنشأت له ثورة سنة ١٩٥٢ الجامع المعروف باسمه بميدان التحرير تخليداً لذكراه ، وكان محل هذا الجامع مسجد يعرف بمسجد الشيخ العبيط بميدان الاسماعيلية المعروف الآن بميدان التحرير .

وفى صحن باب الصعايدة عند ضريح عبد الرحمن كتخدا كان يجتمع شيوخ الأزهر عند المشورة فى المهمات .

أبواب الجامع الأزهر :

وللجامع الأزهر ستة أبواب منها بابان

مزدوجان أى الباب عبارة عن بابين متجاورين .

فأول هذه الأبواب وأكبرها هو باب المزينين على ميدان الأزهر الحالى وهو باب مزدوج من إنشاء عبد الرحمن كتخدا كما سبق ذكره .

وللمدرسة الطيبرسية باب بالوجهة الغربية للجامع جنوبى باب المزينين ، وهو من إنشاء عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٦ م) كما هو مكتوب عليه .

وبالوجهة الجنوبية أربعة أبواب ، الأول منها هو باب المغاربة ومكتوب عليه (جددت هذه الأروقة فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٣٢٣ هـ) ، والثانى مستجد أيضاً مع العمارة المذكورة وثابت عليه تاريخها وعليه يافطة باسم رواق الأفغان . والبابان المذكوران لم يذكرهما على مبارك لأنهما أنشئا بعده (الخطط التوفيقية طبعت من ١٣٠٤ — ١٣٠٦ هـ) والثالث باب الشوام ويظهر أنه من الأبواب الأصلية للجامع . والرابع باب الصعايدة فى آخر الوجهة المذكورة وقد سبق ذكره ، وقد جدد هذا الباب فى عهد الخديوى إسماعيل .

هذه هى الستة أبواب ، ويمكن أن نضيف باباً سابعاً هو باب صغير فى المدرسة الجوهرية ، وكان هناك باب الشُربة وقد سُدَّ .

وفى النية تحويل دورة المياه الموجودة فى الجانب الشمالى فى الجامع إلى الفراغ الموجود شرق الجامع بينه وبين كليات الجامعة الأزهرية .

منارات الجامع :

وللجامع خمس منارات منها ثلاثة فى الجانب الغربى ، الأولى منارة المدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل من باب المزينين ، واثنتان على يمين الداخل إحداهما من إنشاء الأشرف قايتباى ، والأخرى على يمينها خلف المدرسة الطيبرسية وهى من إنشاء الأشرف قانصوه الغورى ، وهى منارة ذات برجين وقد سبق ذكرها .

والمنارة الرابعة عند باب الصعايدة ، والخامسة عند باب الشربة .

وكان التقليد ألا يتولى الآذان إلا العميان لعدم جرح الجيران ، ولكل منارة خلوة ينتظر فيها المؤذن وقت الأذان ولا يؤذنون إلا بناءاً على أمر ميقاتى مخصوص لتحديد الوقت ، وكان ينبنى على أذان الجامع الأزهر الأذان فى باقى المساجد .

مكتبة الأزهر :

وبالمدرسة الأقبغاوية قبتان تعتبران بما فيهما من هندسة وزخارف ونقوش من تحف العمارة الإسلامية ، وقد جُددت هى والمدرسة الطيبرسية فى عهد عباس حلمى الثانى .

وبالأقبغاوية الآن مكتبة الجامع الأزهر ، وهى مكتبة تعتبر من أغنى المكتبات العامة ، بها الآن من الكتب حوالى ١٥٤٠٠٠ مؤلفاً تصل بأجزائها إلى ما يزيد على الربع مليون كتاب ومن هذا العدد ٢٥٠٠٠ مخطوط بعضها نادر ولا يوجد فى غيرها ولا فى دار الكتب العمومية .

وهذه المكتبة جديرة بمكان أكثر اتساعاً حيث مكانها الحالى مكتظ بالكتب والموظفين ، ولا يجد الباحثون فرصتهم فى الاطلاع فترة طويلة لضيق المكان .

ومن التحف الموجودة بالمكتبة — فضلا عن المزولة السابق ذكرها ، وفضلا عن المخطوطات الثمينة من المصاحف — مرصد فلكى من إهداء المغفور له إسماعيل باشا مصطفى الفلكى سنة ١٣١٦ ﻫ (١٨٩٨ م) ، وقد تبرع كثيرون من الأعيان والعلماء بمكتباتهم الخاصة للمكتبة ، منهم سليمان باشا أباظة ، والشيخ محمد نجيب ، والشيخ محمد الأنبابى ، والشيخ حسونة النواوى ، وغيرهم .

وقد أضيف جزء من المدرسة الطيبرسية للمكتبة ، وللآن لم يتم طبع فهرس المكتبة وإن كانت قد طبعت منه أجزاء . وكان هذا منذ حوالى سنتين ولا أدرى هل تم طبع الفهرست جميعه الآن .

وهذه المكتبة غير ما يوجد من كتب ببعض الأروقة تحت إشراف أمناء يحافظون عليها وفى بعضها مثل رواق المغاربة مخطوطات ثمينة نادرة (قصة الأزهر بحث للأستاذ عاطف مصطفى . كتاب الهلال ص ١٨٠ فى يناير سنة ١٩٧٣) .

أروقة الأزهر :

ذكرنا معنى الرواق ، وأنه كان لكل طائفة من المجاورين رواق خاص بهم ، وقد تضاءل الآن شأن هذه الأروقة بإنشاء مدينة البعوث الإسلامية .

ولكن نمر على أسماء هذه الأروقة للقيمة التاريخية ، ولبيان ما للأزهر من مكانة سامية متصلة بجميع البلاد

الإسلامية فضلا عن نواحى القطر المختلفة بالدلتا والصعيد .

وقد ذكر لنا على مبارك ٢٧ رواقاً (الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٢٢) كما ذكرت دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة المجلد الثالث ص ١٩٦) ٣١ رواقاً ، مع خلاف فى أسماء بعض الأروقة عن صاحب الخطط التوفيقية ، وقد ذكر على مبارك ستة أروقة لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية ، كما ذكرت دائرة المعارف عشرة أروقة لم يذكرها على مبارك وعلى هذا يكون عدد الأروقة ٣٧ رواقاً .

وقد أنشئت هذه الأروقة على دفعات وفى مناسبات مختلفة ، وبيانها كالآتى : ونبدأ من يمين الداخل من باب المزينين خلف المدرسة الطيبرسية ثم بالربع الجنوبى للجامع :

١ — رواق الهنود	بالدور العلوى .
٢ — رواق الوناثية	نسبة إلى ونا من محافظة بنى سويف وهو بأسفل رواق الهنود ، ولعله الذى ذكرته دائرة المعارف الإسلامية باسم الطيبرسية .
٣ — رواق البغدادية	
٤ — رواق الأكراد	
٥ — رواق اليمنية	
٦ — رواق الجبرتية	
٧ — رواق البرنية	وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
٨ — رواق الأتراك	من إنشاء الأشرف قايتباى وقد رممه عثمان كتخدا .
٩ — رواق التارية	من إنشاء محمد على باشا . ولم تذكره دائرة المعارف الإسلامية .
١٠ — رواق المغاربة	من إنشاء الأشرف قايتباى
١١ — رواق السليمانية	
١٢ — رواق الجاوة	
١٣ — رواق الشوام	من أكبر الأروقة من إنشاء الأشرف قايتباى وقد زاد فيه عثمان كتخدا ثم عبد الرحمن كتخدا .

١٤ — رواق الذكارنة	الغورية — وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
١٥ — رواق الحرمين	وهو من الأروقة التى لم تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .
١٦ — رواق الصعايدة	وقد سبق ذكره وهو آخر الأروقة فى الجنوب الشرقى .

فهذه ستة عشر رواقاً . وعلى يسار الداخل من الباب الغربى الكبير أى خلف الأقبغاوية ، ثم بالربع الشمالى للجامع نجد الأروقة الآتية :

١٧ — رواق البحيرة	أو البحاروة .
١٨ — رواق الفيومية	
١٩ — رواق الأقبغاوية	
٢٠ — رواق الشنوانية	ويسمى أيضاً رواق الريافة ، أى : أهل الريف بالدلتا ، ويسمى أيضا رواق المنايفة أى أهل المنوفية .
٢١ — رواق الحنفية	من إنشاء راتب باشا الكبير ، وكان شرع فيه عباس حلمى الأول لأهل بلدة الشيخ الباجورى شيخ الجامع وقتذاك وأتمه راتب باشا رواقاً للحنفية ، وهو الذى ذكرته دائرة المعارف الإسلامية باسم رواق الباجورى .
٢٢ — رواق الفشنية	ولم تذكره دائرة المعارف الإسلامية .
٢٣ — رواق ابن معمر	
٢٤ — رواق البرابرة	
٢٥ — رواق دكارنة صليح	
٢٦ — رواق الشرقاوية	من إنشاء إبراهيم بك الكبير قبل دخول الفرنسيين لأهل (مديرية) الشرقية التى منها الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر وقتذاك .
٢٧ — رواق الحنابلة	من الأروقة التى تذكرها دائرة المعارف الإسلامية .

أما العشرة الأروقة التى ذكرتها دائرة المعارف الإسلامية ولم يذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية فهى الآتى ذكرها .

٢٨ — رواق التجارية
٢٩ — رواق الفلاتة | لأهل أفريقيا الوسطى .
٣٠ — رواق الشيخ تعيلب
٣١ — رواق الدناشرة
٣٢ — رواق الشبراخيتى
٣٣ — رواق الدمنهورى
٣٤ — رواق البشابشة
٣٥ — رواق دارفور
٣٦ — رواق محمد المغربل
٣٧ — رواق عيسى أفندى

وأكبر هذه الأروقة رواق الصعايدة والشوام والأتراك والمغاربة .

حارات الأزهر :

ذكرها على مبارك فى الخطط التوفيقية ، وعرفها بأنها عبارة عن جهات بها الخزن والدواليب موضوعة فى نهاية المقصورة القديمة وخلافها ، فتجد بعض طوائف المجاورين لهم خزن فى جهات مخصوصة تعرف بهم ويسمونها حارة كذا ، وذكر من هذه الحارات :

حارة البشاشة — حارة السليمانية — حارة الدكة — حارة الممشى — حارة الشراوية — حارة البحيرمية — حارة العفيفى — حارة الزرقانية .

مساحة الأزهر :

ومساحة الجامع الأزهر الحالية ١١٥٠٠ م . تقريباً . أو حوالى ٢ ٣/٤ فدان .

محمد كمال السيد

باب الفتاوى

الأستاذ عبد الحميد شاهين

س : يتحرج بعض الناس عن عقد الزواج فى شهر المحرم لكونه حراماً فيه ، أو يتشاءمون من ذلك ويعتبرونه نذير سوء للحياة الزوجية التى تعقد فيه . . . فما حكم عقد الزواج فى هذا الشهر ؟

ج : أجاب فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت عن مثل هذا السؤال بقوله :

كنت أظن هذا النوع من الابتداع فى « الحرام والحلال » أو من « التشاؤم » بالزمان والمكان قد عفى عليه عصر « الإدراك والثقافة » وضيق عليه دائرة الوجود حتى صار لا يجد له مستقراً إلا فى عقول تعاصت على الوعى العصرى والتنبه الزمنى . وظلت ترسف فى أغلال الجهل والتقليد الخرافى مما صرفها عن الحقائق وحال بينها وبين أقل تفكير فى معنى « الحلال والحرام » فنسبت إلى الدين ما ليس منه ، وتقولت على الله الأقاويل (ولا تقولوا لما تَصِفُ ألسنتُكُمُ الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الكذبَ ، إن الذين يفترون على الله الكذبَ لا يُفْلِحُونَ) .

شهر المحرم أحد الأشهر الحرم :

والواقع أن الإسلام لا يعرف لشهر المحرم سوى أنه أحد الشهور الأربعة المحرمة من قديم الرسالات ، والمعروفة باسم « الأشهر الحرم » .

(إن عِدَّةَ الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض . منها أربعةٌ حُرُمٌ . ذلك الدين القيمُ . فلا تظلموا فيهن أنفسكُمْ) ومقتضى هذا أن شهر المحرم شهر لايضيق صدره — على الأقل — بفعل الخير إن لم يتسع له ويعظم التفاؤل به ، وأنه إنما يأبى المعاصى والمظالم أن تقع فيه وأنها فيه أشد نكراً عند الله منه فى غيره .

وليس من شك فى أن الزواج من

أبرز أعمال الخير ، به تعصم النفوس ، وبه تنشأ الأسر . وبه يستمر التناسل ، وبه السكن والمودة والرحمة ، وإذن فالإسلام برىء من هذه الفرية ، وبرىء مما يمكن أن يكون منشئا لها فيه ! ! .

جهل وعصبية :

ولم يبق بعد هذا سوى أن هذه « الفرية » محض ابتداع جره : إما جهل واندفاع به فى تيار فكرة « التشاؤم » العامة التى ينكرها الإسلام أشد الإنكار ، والتى تسلطت بالوهم الفاسد على بعض العقول فيما يختص بالزمان والمكان، والكلمات المسموعة ، والأشياء المرئية ، كما هو معروف عند الناس جميعاً ، وإما عصبية خاصة نبتت فى أحضان (فرقة إسلامية) عرفت بآرائها ومبادئها من أواخر عهد الخلافة الإسلامية الحقة ، وكان ذلك بمناسبة حادث وقع فى شهر المحرم وفى العاشر منه[1] واشتد له أسف المسلمين جميعاً ، ولكن هذه الفرقة أسرفت بعصبيتها . فاتخذت الشهر كله زمن حزن تعلن فيه حدادها ، وتجمع فيه ما تتخيل من مظاهر المأتمية فى مجتمعاتها ومآكلها وملابسها وسائر شئونها ، وتحرم فيه كل مظاهر الفرح والزينة والمتعة . .

وفى هذا الجو الملبد بغيوم الفتن التى ألبست ثوب الدين نبتت هذه الفكرة واتسع نطاقها . وتسربت إلى جميع الأرجاء الإسلامية ، التى تولت هذه الفرقة حكمها والسلطان فيها ، وقد كانت مصر من هذه الأرجاء . وكان من آثارها فيها (توارث تحريم عقد الزواج فى شهر المحرم) ولا تزال فكرة (الحزن المحرمى) متأصلة إلى اليوم فى بعض الجهات الإسلامية بصفة عامة شاملة ، كما لا تزال شعائر الحزن تقام كل عام فى تلك الجهات على قدم وساق .

العصبية تعمل على الجانب الآخر :

ومن عجيب العصبية — التى تأخذ بالناس عن الحقائق الواضحة — أنها نشرت أجنحتها فى الجانب الآخر أيضاً ، وابتدعت فى يوم عاشوراء « يوم الحزن عند هؤلاء » مشروعية الفرح والسرور والتجميل والتزين وأدخلت كل ذلك على الناس « بمرويات » عن الرسول عليه السلام وآثار من أصحابه كما صنعت « العصبية » عكس ذلك فى الطرف الآخر ، فكرة بفكرة . وحديث

---

(١) هو مقتل الحسين — رضى الله عنه .

بحديث . وابتداعا بابتداع ، فيالله للمسلمين ! ! !

وبالمنازع العصبية المتعاكسة صار الناظر إلى المسلمين وفى كتبهم يرى ويقرأ أن الإسلام يطلب من المسلمين مظاهر الفرح والحزن فى يوم واحد لشهر واحد . . . وهكذا تفرقوا فى دينهم وكانوا شيعاً : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) والحق أن الفريقين قد انحرف عن الصراط المستقيم . وخاضا فيما يحرم الإسلام الخوض فيه .

وإن واجب المسلمين اليوم ليحتم عليهم — وقد بدت البغضاء لهم جميعاً من أعدائهم المتربصين بهم — أن يطهروا أنفسهم من هذه العصبية التى فرقتهم . وأن يجتمعوا على كلمة سواء بينهم . . . وإلا يفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير .

التشاؤم :

هذا هو أصل فكرة «تحريم عقد الزواج» وقد ألبست هذه الفكرة عند من لم يعرفوا هذا الأصل ثوب «التشاؤم» والتشاؤم هو الآخر قد أخذ مجالا واسعاً عند الناس بدافع الهوى والدجل . .

وواجب المؤمنين أن يتنبهوا إلى عبث الدجالين بإشاعة فكرة التشاؤم بينهم . هذه الفكرة التى يصير بها الإنسان أسير الوهم فى كلمة يسمعها ، أو يوم يمر عليه ، أو منظر يراه، وأن يطهروا قلوبهم من هذه الأوهام ، وأن يقدموا على أعمالهم وقضاء مصالحهم فى أوقاتها التى تتطلبها . معتمدين فى ذلك على إيمانهم النقى ، وعلى توفيق الله لهم ، غير عابئين بوهم أو خرافة ، فتسلم حياتهم ، وتستقر شئونهم والله ولى التوفيق والهداية .

س : هل السنة إفراد يوم عاشوراء بالصيام أم ضم غيره إليه ؟

ج : قال ابن القيم فى كتابه «زاد المعاد» بعد أن ذكر الآراء والروايات الواردة فى موضوع عاشوراء وناقشها : فراتب صومه ثلاثة : أكملها : أن يصام يوم قبله ويوم بعده ، ويلى ذلك : أن يصام التاسع والعاشر وعليه أكثر الأحاديث ، ويلى ذلك إفراد العاشر وحده بالصوم . . .

س : مات الميت وعليه زكاة أموال وكفارات وفدية صوم ، ونحو ذلك من حقوق الله .

فهل لأحد الورثة أن يطلب منهم

حجز مبلغ من التركة لأداء هذه الحقوق التي مات عنها وهي في زمته؟

ج : يجيب عن هذا الشيخ محمود شلتوت في فتاواه بقوله : إن أول ما يجب أن يخرج من التركة هو تجهيز الميت تجهيزاً معتدلا ، لا إسراف فيه ولا تقتير ، ثم قضاء ديونه التي هي للعباد . . .

أما الديون الواجبة لله كالزكاة ونحوها ، فإن كان قد أوصى بها لزم الورثة أن يخرجوها ، فإذا ما تبرعوا بها وأخرجوها من حقوقهم فهل تسقط عنه الواجب ؟

يرى بعض الفقهاء أنها لا تسقط عنه الواجب ، لأنه عبادة والعبادة لا بد في سقوطها من فعل أونية ، ولا فعل ولا نية من الميت ، وفعل الورثة لا يقوم مقام فعله إلا بإذنه . ولم يوجد إذن .

ولكننا نرى أن في إذن النبي صلى الله عليه وسلم بالحج عن الوالد دون وصية منه ما يجعلنا أقوياء الرجاء في قبول التبرع من الورثة ، ورفع العقاب به عن الميت وإثابته عليه ، نظراً إلى أن المال من كسبه وسعيه ، والورثة أولاده وأولياؤه ، فهم منه ومالهم من ماله .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

من آداب الرجل في نفسه

لزوم الجمعة والجماعة ، ونظافة الملبس ، وإدامة السواك ولا يلبس المشهور ، ولا المحقور ، ولا يطيل ثيابه تكبراً ولا يقصرها تمسكنا ، ولا يكثر التلفت في مشيته ولا ينظر إلى غير حرمته ، ولا يكثر لإخوانه الحديث عن زوجته وما في بيته .

"كتاب الشهر"

الإسلام دين الجماعة

"للرئيس أحمد سيكوتوري"

عرض وتقديم :

الدكتور عبد الودود شلبي

فى أواخر الخمسينيات من هذا القرن ظهرت زعامات جديدة لشعوب ودول لم تكن نسمع عنها من قبل . . . لقد انتصرت حركات التحرير فى إفريقيا وآسيا ، وانحسرت أمواج الاستعمار الكئيب من كل أرجاء الدنيا . . .

كانت بريطانيا تمثل — فى نظر الغالبية العظمى من الشعب — الرمز الكريه لهذا الاستعمار . . . لم يكن يخطر ببال الكثيرين أن بريطانيا ليست إلا واحدة من عدة دول فى هذا المجال . . . فإذا كان لها (أى لبريطانيا) إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس . . فقد كان كذلك لفرنسا مثل هــذه الإمبراطورية — وكان للبرتغال مثل هذه الإمبراطورية كما كان لهولندا . . وبلجيكا إمبراطوريتان على امتداد قارتى آسيا وإفريقيا .

وربما يرجع سبب هذا التصور لعداء بريطانيا وكراهيتها أنها كانت الدولة التى احتلت مصر بالقوة ، واجتاحت معظم بلاد العالم الإسلامى بالغدر والخديعة فكانت . . . تمثل فى نظرنا — العدو الأول لمصر . . . والمحتل الغاصب لديار الإسلام والعروبة .

حتى إفريقيا التى تقع بلادنا على بابها الشمالى من جهة الشرق ، وتقف حاجزاً فى وجه كل تيار يحاول اجتياحها من جهة البحر . . . إفريقيا هذه لم تكن فى تصور الكثيرين تتجاوز أسوار « جوبا » و « نيمولى » ، على حدود السودان المشتركة مع أثيوبيا ، وفى أحسن الفروض لم تكن تبعد كثيراً عن « زيلع » و « مصوع » على شاطىء البحر الأحمر .

من كان يسمع عن موريتانيا وهى بلد إسلامى مائة فى المائة ؟ . . .

من كان يسمع عن السنغال والمسلمون فيها أكثر من خمس وتسعين فى المائة ؟ ومالى . . . وسيراليون وغينيا بل من كان يسمع عن إمبراطورية غانا الإسلامية والحركة الإصلاحية الكبرى التى قادها الزعيم المصلح « عثمان دنفديو » فى نيجريا ؟

لقد كانت هناك صلات وثيقة بين هذه الأقطار وغيرها من بلاد العالم الإسلامى منذ مئات السنين . . . وفى عهود الاستعمار المظلمة أسدل ستار كثيف على هذه العلاقات ، حتى يسهل على الغزاة ابتلاعها . والقضاء المبرم على عقائدها وشعوبها .

وقد حدث إبان ثورة الجزائر أن الجنود الذين عينوا لحراسة المعتقلين من رجال الثورة كانوا من السنغاليين لم يكن يعرف هؤلاء الحراس شيئاً عن الجزائر.. أكثر من أنها إحدى الولايات الفرنسية . . . وأن شعبها من الفرنسيين المتمردين على السلطة . . وأنهم بالتالى كانوا يدينون للبابا بالولاء والقداسة ، وكانت المفاجأة التى جعلت السلطات الفرنسية تغير سياستها ... بسرعة . . .

لقد دخل أحد هؤلاء الحراس زنزانة أحد المسجونين فوجده يقرأ القرآن ويقف بين يدى الله خاشعاً فى الصلاة . .

لقد ألقى الجندى سلاحه . . وخرج صائحاً فى وجه أصحابه . . . الجزائريون مسلمون . . . مسلمون . .

• • •

ولقد كان من أبرز زعماء إفريقيا بعد انحسار موج الاستعمار ومده عن هذه القارة : الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا ... وقد ذاع صيت هذا الزعيم المسلم بعد رفضه شروط الجنرال ديجول الذى حاول احتواء المستعمرات الفرنسية بعد — الاستقلال فى إطار ما يسمى بـ « المجموعة الفرنسية » أو رابطة المتكلمين بهذه اللغة نظير مساعدات مالية وثقافية وعلمية تقدمها فرنسا لهذه المستعمرات بعد استقلالها . لقد رأى الزعيم سيكوتورى أن هذه محاولة لدخول فرنسا إلى المستعمرات من النافذة بعد أن طردت من الباب بعد فترة جهاد طويلة . . فرفض كل هذه الإغراءات بقوة وآثر لنفسه وشعبه الحرمان والجوع على التساهل قيد أنملة فى الكرامة الوطنية وقال كلمته المشهورة — :

« إننا نفضل الفقر مع الحرية على الغنى مع الذل والعبودية . . . » :

وكان هذا الموقف الأبى من الزعيم المسلم صفعة لفرنسا ... فبدأت تشن حملاتها الدعائية ضده وتلصق بحركته ودعوته أشنع تهمة ، فكان اتهامه بالشيوعية جزءاً لا يتجزأ من حملة العداء والكراهية . . .

وبعد عامين أو أقل من نشوب ، هذه الحملة الإعلامية قام الرئيس أحمد سيكوتورى بزيارة للولايات المتحدة وكان ذلك — على ما أذكر — فى عهد رئيسها الراحل « دوايت إيزنهاور » .

فوجئت بزيارة الرئيس الغينى للمركز الإسلامى الثقافى ، ومسجده الكبير

فى واشنطن ، وكان مما أثار دهشة الصحفيين فى هذه الزيارة أن الرئيس سيكوتورى حين خلع حذاءه استعداداً لدخول المسجد ، ظهر جوربه ممزقاً من خلف قدمه ، والتقط الصحفيون صورة هذا الجورب الممزق ثم أذاعوها على العالم بشتى وسائل الإعلام الملفق .

لقد أحسست منذ هذه اللحظة أن الرجل كان صادقا مع نفسه ... وأن موقفه من فرنسا تجسد فى صورة هذا الجورب الممزق» من خلف ، قدمه .

* * *

وقد فوجئت منذ أشهر بالأخ الصديق « على رشوان » المستشار الفنى لمطابع دار المعارف يبعث إلىّ كتاباً دهشت من موضوعه ، ومن مؤلفه . كان اسم الكتاب « الإسلام دين الجماعة » . واسم المؤلف : أحمد سيكوتورى وقد ظننت لأول وهلة أن هذا المؤلف غير « سيكوتورى » رئيس الجمهورية فهذه الأسماء المتشابهة نجدها كثيراً فى إفريقيا وبخاصة بين الجماعات الإسلامية التى تتفاءل بأسماء أوليائها وشيوخها إلا أن الصفحة الأخيرة من الغلاف نفت أى احتمال لوجود هذه المشابهة وأكدت بالرسم والكلمة أن المؤلف هو نفسه الرئيس أحمد سيكوتورى رئيس الجمهورية .

وكانت المفاجأة الثانية — بالنسبة لى شخصياً — أن مترجم الكتاب اسمه : محمد البخارى ... محمد البخارى إننى أذكر صديقاً قديماً يحمل هذا الاسم . . . لقد كان طالبا معى فى معهد القاهرة فى أوائل الأربعينيات ولا زلت أذكر « الخال » الذى يميز وجهه . . والشارع الذى تعود المشى فيه . . كنت ألتقى به دائماً فى شارع الغورية قادماً من الأزهر أو ذاهباً إلى شارع المغربلين . . و « الخيامية » حيث يقيم هناك فى منزل والده العضو الشهير فى الجمعية الشرعية .

لقد اختفى محمد البخارى منذ سنوات طويلة لم أعد أراه فى القاهرة . . أو ألتقى به فى أية مناسبة ... وقد قيل لى منذ سنوات قليلة . . . إنه سافر إلى فرنسا للدراسة . وإنه أصبح عضواً بارزاً فى « الحركة اليسارية الفرنسية » .

لقد أحزننى ذلك كثيراً . . فليس من المعقول أن يكون « البخارى » يسارياً وليس مقبولا أن ينفصل بتقاليده عن والده العضو النشيط العامل فى الجمعية الشرعية .

وسواء أكان هو « البخارى » الذى

عرفته أم « بخاري » آخر يحمل نفس الاسم والصفة . فإن ترجمته لهذا الكتاب تعتبر توبة وعودة أكيدة إلى رحاب « الحيامية » وقيمّ الجمعية الشرعية . .

* * *

وقد سلكت فى عرض هذا الكتاب مسلكاً جديداً يختلف عن أساليب العرض الأخرى . . . فلم أهتم بالشكل والتقسيم ولم أتتبع فصوله وأبوابه كما يفعل الكثيرون . . فالمضمون هو الأهم . من وجهة نظرى . . والأفكار التى أضاء بها ذهن المؤلف هى الغاية دون تقيد بفصول الكتاب وأبوابه . . .

لقد أردت أن تكون الصورة واضحة فى ذهن القارئ بكل ألوانها وتفاصيلها فأخذت من هنا وهناك ما يساعد على تجلية هذه الصورة من كل جوانبها . وهكذا : تدور أفكار سيكوتورى — كما يقول مترجم الكتاب حول نقطة واحدة أو محور واحد هو « جماعية الإسلام » فليس المسلم فرداً . بل عضواً فى جماعة .

وتأخذ فكرة الجماعة هذه مكانها كالركيزة فى فكر سيكوتورى فهو يراها فى فاتحة القرآن الكريم إعلانا من من المسلم بانضمامه لجماعة المسلمين حين يتلو قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » فذلك إعلان جماعى يلغى كل إحساس بالذات فى إطار المجموع ويجدها فى كل عبادات الإسلام من صلاة وصيام وزكاة وحج ، فنى جميعها يقترب المسلم من أخيه بجسده وفكره بعواطفه وحسه ، وهكذا يرى سيكوتورى المسلم من خلال الصورة الرائعة التى رسمها نبى الإسلام فى حديثه الكريم « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وهو ما يجعله يقف هذه الوقفة الصريحة إلى جانب « الجماعة » وإن كان لا يستخدم كلمة الجماعة كثيراً ويفضل استخدام لفظ « الشعب » فالشعب فى نظره أكثر تحديداً ووضوحاً وشيوعاً من كلمة « الجماعة » أو « المجتمع » وإن كانت كل منها تؤدى معنى الأخرى ، لكن المؤلف حريص على الوضوح الحاسم أو الحسم الواضح الذى لا يترك لأدنى غموض أن يتخايل أمام الذهن فهو لا يرى فى الإسلام « فردية » تبيح لفرد تميزاً على آخر ، بل جماعية يظفر فيها كل فرد بنفس الحقوق ويلتزم بنفس الواجبات فهى جماعية كل فرد ، وليست « فردية » بعض الأفراد .

يقول المؤلف — :

منذ تأسس المجلس الإسلامى الوطنى

وتصديه لحمل رسالته الطموحة لدعم مكانة الإسلام ونشر فكره وترسيخ قواعده فى أرجاء غينيا ، وفى أنحاء إفريقيا والعالم كله ، وأنا أتأمل العلاقة الوثيقة بين فهم الإسلام والدفاع عنه ، ذلك أن المرء لا يملك أن يدافع حقاً إلا عن الشىء الذى يحبه ، وما يحب المرء إلا ما يعرفه ، وما يعرف إلا ما أتقن تعلمه ، ولهذا لا يستطيع أحد أن يحب الإسلام حبًّا صادقاً دون أن يعرفه ولا أن يعرفه دون أن يعرف ذاته .

ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يعرف ذاته ؟؟

إننى أتصور أن عليه أن يوجه لنفسه عدداً من الأسئلة التى تضىء أمامه الطريق .

عليه أن يتســاءل عما إذا كان يعرف أسرته والمحيط الاجتماعى الذى يحيا وسطه وطبيعة المنطقة التى يعيش على أرضها والقوانين التى تحكم بلاده والتقاليد التى تشكل ملامحه الخاصة وعناصر الطبيعة الجغرافية من حوله .

– فبالإجابة على هذه الأسئلة يهتدى الإنسان إلى معرفة ذاته التى تتطلب تحديد مكانه فى المجتمع وتعيين موقعه الجغرافى ، أى معرفته من خلال معرفة المحيطين به ومعرفة بلاده ، بل وأحياناً معرفة سلالته العرقية وعقيدته الدينية ، كما تتطلب معرفة سلوكه النفسى وأوجه نشاطه المختلفة ، فليس فى الكون من ينفرد بالوحدانية سوى الله الذى يعرفه الناس فرداً أحداً لا شريك له . بينما لا يمكن معرفة الإنسان وحيداً منبت الصلة عما عداه .

ومن هنا تبدأ معرفة الإسلام .

تتطلب معرفة الإسلام (فى إيجاز) الاعتراف بوحدانية الله الفرد الأحد والتسليم بأن الإنسان كائن مركب من عناصر متغايرة تجعل وجوده على الأرض رحلة قصيرة المدى ، فالإنسان متعدد العناصر المتنوعة بين معلومة ومجهولة . فى حين أن الله تعالى أحد باق منزه عن كل شبه بالمخلوقات .

ويعنى هذا أن الله منزه عن المتناقضات وهو أحد باق لا يوصف بأن له عمراً أو حجماً أو وزناً . بينما يجتمع فى الإنسان كل ما يمكن أن يتطرق له الخيال . ففيه من الثرى والماء والشجر ، وفيه تكمن ينابيع الخير والحق والنقاء ، ولكن الشيطان يسكنه أيضاً ، أى أنه يطوى بين حناياه الشر والزيف والدنس فالإنسان يضم المتناقضات ، ولما كان

المجتمع يتشكل من مجموع الأفراد الذين يطوى كل منهم صدره على تناقضه الذاتى فمن المحتوم أن يتضمن المجتمع كل تناقضات أفراده .

وهكذا يبدأ الإنسان معرفة الإسلام بمعرفته بذاته وبشعبه وبالطبيعة المادية حوله وبالتسليم لله بالقدرة على خلق كل ما عرفه ، فيجب لمعرفة الإسلام معرفة الله عبر مظاهر قدرته وخلقه .

– ثم إن معرفة الله تتجسد فى وجدان الإنسان من خلال كل ما يراه من أدق الأشياء صغراً إلى أكبرها حجماً ، ومن خلال كل ما يسمعه ، وكل ما يحس به ، وكل ما يحيط به ومن خلال كل ما يتخيله ، ولما كانت كل هذه الأشياء من إبداع الله فإن على الإنسان لكى يسمع صوت الله أن ينظر إلى أعماقه الدفينة ، وأن يستمع إلى صوته الداخلى ، وأن يتأمل خلق الله ومخلوقاته ويصغى إليها ، فبهذا يدرك الإنسان الله ويستمع إليه ويستشعر وجوده داخل وعيه ، حذراً مع ذلك من أن يجعل لله حجماً أو شكلا أو لوناً محدداً لأن الله تعالى مع تجليه لنا يسمو عنا إذ ليس كمثله شىء . . .

والمعرفة بالله معرفة مطلقة ، فى حين أن المعرفة بالإنسان معرفة نسبية ، فحين ترون الإنسان تعرفونه معرفة جزئية فى حين أن هناك جزئيات لا تملكون معرفتها إذ تستند المعرفة بالإنسان إلى خمسة مصادر ، غير أنها جميعاً فى تغير متصل ، وذلك هو السر فى استحالة معـــرفة الإنسان بطريقة مطلقة وبشكل نهائى .

١ – ترتبط المصادر الثلاثة الأولى بالزمن . وهى اللحظات الثلاث التى تحدد الفترات الزمنية الأمس واليوم والغد .

من الممكن أن يكون اليوم غير الأمس ، ويمكن أن يختلف الغد عن اليوم ومع ذلك فإن هذه الدعائم الثلاث : أمس واليوم والغد ، تشكل حقيقة واحدة هى اتصال الزمن ، ولكن فبينما يمثل الزمن للإنسان ثلاث مراحل ، فإنه بالنسبة لله وحدة لا تتجزأ فليس هناك ما يعد بالنسبة له أمس ولا اليوم ولا الغد ، لأن الله خالد وأبدى :

٢ – ويتمثل المصدر الرابع فى الشعب ، ذلك أن إنساناً ما يستطيع أن يقول : « إننى فرنسى أو إنجليزى أو أمريكى ، أو إننى عربى » . كما يستطيع مواطن فى غينيا أن يقول حسب إقليمه « أنا سوسى أو مالنكى أو بلهى »

وهذا يعني : أن الناس أيضاً يعرفون من خلال المجتمعات التي ينشأون فيها ؛ بل إنكم بعد معرفتكم بسورة « قل هو الله أحد » لا تكادون ترون شجرة أو إنساناً أو حيواناً أو حجراً حتى تقتنعوا بأن لكل موجود أماً وأباً وأصلا ينحدر منه . . . سوى الله ، فإنه واحد أحد لقد نبت الإنسان من الشعب ، لكن الله لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . .

٣ — ويتمثل المصدر الخامس ، لمعرفة الإنسان في الحيز المكاني ، إذ يشغل الإنسان دائماً جزءاً من الكون لكنه لا يشغل الكون كله أبداً ، وإذا كان الإنسان لا يشغل إلا جزءاً من الأرض ، إلا جزءاً من الكون ، فإن الله يضم وحده الكون كله ويشغله كله ؛ وبينما لا يشغل الإنسان غير مكان بالغ الضآلة ، يوجد الله في كل مكان . ويحيط بكل شيء علماً .

— على أن المعرفة الحقة بالإسلام تكشف عن دوره الهائل في توحيد الجماعة وتثقيفها وهدايتها ، فقد جاء الإسلام ليتيح للإنسان أداء جميع واجباته على الأرض تجاه الله ، وتجاه مجتمعه .

— ويستطيع المرء بسهولة أن يدرك أنه لا يوجد دين للشجر ولا للحيوان ، وأن الدين لم يخلق إلا لأفراد الجنس البشري . . . وليست حياة النباتات ، والحيوانات إلا جزءاً من حياة الطبيعة خاضعاً لها ، في حين أن حياة البشر ، وإن كانت تعتمد هي الأخرى على حياة الطبيعة ، إلا أنها تتجاوزها مع ذلك ، فقد غرس الله في الإنسان ذلك الوجدان الذي يتيح له — رغم احتوائه داخل الكون الطبيعي — أن ينفذ خارج إطاره هذا حتى يرى ذلك الكون الذي يحتويه ، بل ليحتوي بفكره هذا الكون الذي يحتوي جسده .

لقد انفرد الجنس البشري إذن بوجود دين له . لأن البشر هم الذين كرمهم الله وفضلهم على جميع المخلوقات لأنهم وحدهم الذين يتملكون « الوجدان » الوعي .وها نحن هنا حبيسون داخل هذا البيت ، غير أنه لا شيء حبيساً هنا حقيقة إلا أجسادنا أي كل ما أخذناه من التراب والماء ، من الكون الطبيعي ، أما ما خصنا الله به مما هو أعظم من كل هذا وهو الوعي ، وهو الوجدان ، فهذا ما لا يمكن سجنه .

ولو أننا طلبنا الآن إلى أئمة غينيا

أن يتصور كل منهم مسجده كما كان عليه يوم الجمعة الماضى ، أو الجمعة السابقة عليه ، لحظة كان يؤم المسلمين لتراءى لكل منهم على الفور مسجده وهو قائم فى مكانه فى صدر إخوانه المصطفين وراءه يؤدون الصلاة ومع هذا فبينما يحلق بكم فكركم وينقلكم خارج هذه القاعة تظل أجسادكم هنا بين جدرانها . فمن الممكن أن يسجن ، الجسد الذى هو امتداد للأرض بينما لا يمكن أن تسجن الروح التى هى امتداد لله ، إن الروح تسمو على الزمان والمكان ، أما الجسد فرهينهما معاً ، والروح موصولة بالله فهى مثله أبدية وموجودة فى كل الوجود .

ونحن نرى بعيوننا كل الأشياء الممكنة الرؤية ، فنحن نرى أنفسنا ونرى الأشياء المحيطة بنا ، وبآذاننا نسمع كل ضجيج ، وبأنوفنا نشم كل رائحة وبأيدينا نستطيع أن نلمس كل ما هو حسى ، وهكذا لا تتصل الأعين والأنوف والأيدى إلا بالطبيعة كما هى فى الواقع المادى المحسوس . بينما نعجز عن أن نرى الله بعيوننا أو نسمعه بآذاننا أو نشمه بأنوفنا أو نحسه بأيدينا . ذلك أن اتصالنا بالله إنما يتم عبر وجداننا وفكرنا .

وإذا كانت حواسنا الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، لا تتيح لنا أن نتصل إلا بما خلقه الله فإنها لا تتيح لنا اتصالا مباشراً بالله نفسه وتبقى هذه هى الرسالة المهمة ، التى يتحملها الوجدان وحده ، لأنه هو الذى يمثل فى نفس الوقت العيون المبصرة والآذان المستمعة والفم المتحدث واللسان المتذوق والأيدى اللامسة ، إن الوجدان هو الذى يصل الإنسان بالله ويربطه بخالقه .

• • •

وعندما يقول امرؤ : « إننى أناصر الدين ، وأعادى السياسة » فإنه يشبه من يقول : « إننى أشهر سيفاً ، وسأقتل أبى وعدوى » فهو يحمل سيفاً ولا يعرف ما يفعل به .

فى حين أن السياسة تقول لك : « حارب بالسيف الاستعمار والإمبريالية واقتل به عدو شعبك ، ودافع به عن الحرية ، واحرس خيرات بلادك ، واحم والدك » .

وإذا كنت مثلا إماماً فى أحد الأقاليم ولاحظت فى مدينتك أن محالا مفتوحة فى عدة أماكن ، لا تبيع السلع والكتب والأدوية والملابس

والأنسجة التى يحتاجها الشعب بل تقدم لروادها المشروبات الكحولية، أو لاحظت دوراً يلتقى بها الرجال والنساء لممارسة أمور تحط من قدر الإنسان ، فإنك لن تكون فى هذه الظروف مسلماً مالم تفضح هذه ، الأوضاع التى تتعارض مع تقدم الإنسان الاجتماعى ومع الخط الإسلامى ولن تستطيع أن تخطو للمسجد وتقول : «الله أكبر» وتؤم المصلين المؤمنين بينما ترتكب أمام عينيك أعمال يدينها الإسلام دون أن تعلن عليها حرباً علانية صريحة .

إن فضح مثل هذه الآثام والعمل على استئصالها هو الذى يحيلك إلى مسلم حقيقى وذلك الكفاح هو كفاح سياسى . وهو كفاح يتطلبه احترام الإسلام وازدهاره الدائم . يجب إذن العمل بالسياسة الخيرة ، تلك التى تحمى استقلال الوطن — وتحرس العدالة والمساواة والأخلاق والتآزر . وبدون ذلك لا يمكن ضمان عظمة الأمة وليست هذه السياسة إلا تطبيقاً للعقيدة الإسلامية التى تجعل من الفرد جندياً فى مجتمعه لكى يحمى القيم الإنسانية الإيجابية .

ونستطيع أن نوجز ذلك قائلين :

إن الإيمان القلبى يتجلى فى عداء الشيطان وعداء كل ما يمثله ، وفى بقاء الإنسان على النهج الذى حدده رسول الله ، وهو النهج الذى يصل بالإنسان إلى الفردوس وهكذا يجب أن يجد الإيمان القلبى ، فى كل لحظة ، ترجمته فى سلوك الإنسان الإيجابى .

فإذا كان سلوك المرء يعادى كل ما يتناقض مع مبادئ الإسلام فهو إذن على الطريق المستقيم .

يعارض المسلم القوى الإيمان بحسم كل ما هو إثم وشيطانى ، ويناصر فى حسم كل ما يتفق مع الإسلام، أى كل ما هو حق وعدل وخير للشعب .

وفى ركن الإسلام الثانى . وهو الصلاة مكافحة للشيطان . فالصلاة يسبقها الوضوء . فأى سر يختبئ وراء هذا الوضوء ؟

— اغسل قدميك اللتين قادتاك إلى أماكن محرمة مطيعة بذلك الشيطان اغسلهما لتفصل عنهما الشيطان .

— ويداك ؟ لقد مسست بهما أشياء محرمة عليك ، نقلت بهما سلعاً مهربة وكتبت بهما أكاذيب ، وضربت بهما بائساً وضعيفاً وصغيراً ، اغسلهما إذن لتطرد عنهما الشيطان .

– وأنفك ؟ لقد تشممت به ما حرم عليك شمه .

– وفمك ؟ كذبت به وقصصت حكايات منافية للحقيقة .

– وأذنيك ؟ لقد استمعت بهما همس الشيطان . . . .

اغسل إذن عينيك وأنفك وفمك وأذنيك ويديك وقدميك لتمحو عنها أثر الشيطان ذلك هو معنى الوضوء . وكل ذلك من أجل إقصاء الشيطان .

وفى الزكاة أيضاً مكافحة للشيطان وقد يهمس لك : « ليس صحيحا أن هناك داراً آخرة . فحين تنتهى حياتنا ينتهى كل شىء » وقد يوسوس لك أيضاً : « لا تعط أحداً شيئاً ، كل وخذ كل شىء لك » غير أنك حين تؤدى الزكاة تقصى الشيطان ، لأنك تحتجز لك مكاناً فى الدار الآخرة أولا ، ثم لأن ما تدفعه للغير واجب عليك أداؤه ، إنه دين الفقراء عليك . لقد فرض الإسلام الزكاة صفعة على وجه الشيطان .

وفى الصوم كذلك معاداة للشيطان فالشيطان يعلى قدر الجسد المادى ، ويخنق فكر الرجل بالكحوليات – والمخدرات والأكاذيب ، حتى يتحكم الجسد فى الإنسان ، وهكذا فحين تصوم رمضان يرق الوجدان ، وتعلو الإرادة والفكر فوق الجسد ، لقد فرض الإسلام الصوم لإلحاق الهزيمة بالشيطان .

وفى الحج كذلك لطمة للشيطان الذى يتمتم لك : « أنك المسلم الوحيد ، فقد انهار الإسلام ولم يعد هناك مسلمون » وحين تسافر إلى مكة تلحظ أن كل بلاد العالم قد أرسلت وفوداً منها . على عكس ما أكده لك الشيطان ، وتفهم ساعتها أن الشيطان قد كذب عليك ، إنك ترى فى مكة ملايين الأفراد جاءوا من كل بلاد العالم لأداء فريضة الحج وهو ما يعطيك فكرة عن المدى الفسيح الذى بلغه الدين داخل المجتمع الإنسانى وسيريحك هذا ويحفزك ، ثم تتبادل مع غيرك المعارف والمعلومات فيزيد كل هذا من صلابة عزمك على محاربة الشيطان .

على أن كل هذا يتجسد فى هذا الحصى الذى يقذف به كل حاج ، الشيطان فى « منى » رمز رفض وإدانة ، وهكذا فرض الحج عداء للشيطان أيضاً .

إن لقواعد الإسلام الخمس نصيبها فى مكافحة الشيطان ، ولو نسى المرء نصيب قاعدة فى مكافحة الشيطان لما كان مسلماً مكتمل الإسلام .

فلنتذكروا أن الشيطان قد خطر على كل ملليمتر مربع من سطح الكرة الأرضية وأنه يعرف العالم أفضل منا ، لقد شهد خلق آدم وتبعه وأدرك مستوى من المعرفة لا يملك أحد منا أن يبلغه .

إن إسلام المرء يتطلب أن يبحث فى كل مكان ليتعرف على ملامح الشيطان ليفلت منه وليعاديه فى كل زمان ومكان .

* * *

وكم قلنا وأعدنا القول بأنه « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » وهو وحده الذى تفرد بصفاته على جميع مخلوقاته ، فهو وحده الذى لايمكن وصفه بأنه أبيض أو أسود بأنه قصير أو طويل ، بأنه شاب أو شيخ ، وهذا يتيح لكم أن تعرفوا أن بين مخلوقات الله من تستطيعون رؤيته بعيونكم ، وكذلك من لا تستطيعون رؤيته بها ، وهذا يعنى أيضاً أن جميع المخلوقات تولد وتنمو وتموت والله وحده هو الباقى وهذا يعنى كذلك أن هذا المخلوق الذى ولد منذ قليل ، وما يزال صغيراً ، يمكن أن يكبر ويشيخ ويندثر . أى أن هناك تغيرات وتقلبات فى حياة كل موجود سوى الله .

لنفكر فى الإنسان جنيناً فى الرحم . إنه ينبثق من جزىء لا تستطيع العين رؤيته حتى لو وضعتم ألفاً منه معاً لما استطاعت العين المجردة أن تلمحها لشدة ضآلتها إن هذا الجزىء الدقيق هو أصل الإنسان ، ففى اللحظة التى يبدأ فيها هذا الجزىء الحياة بعد سبعة أسابيع يكون نطفة « خنثى » أى تجمع خصائص الذكورة والأنوثة معاً ، فإذا كان اليوم الخمسين من نمو الجنين أخذ أحد الجنسين يتغلب على الآخر فى النطفة ، وقد تستطيع خصائص الذكورة التغلب على خصائص الأنوثة وعندئذ يكون المولود صبياً . ونستطيع أن نتصور الوضع العكسى وعندئذ يكون المولود فتاة ، ولهذا فحيناً ترون رجلا فهناك المرأة داخله . وحيناً ترون امرأة فهناك الرجل فى أعماقها . وهكذا خلق الله الإنسان مسكناً للمتناقضات .

نحن أولا نأكل لحوم الحيوانات ونشرب ألبانها ؟ ونتناول الأعشاب والثمار والجذور ؟ ومع ذلك فإن الحيوانات تأكلنا ، تأكل لحومنا كما تأكل الثمار والجذور وأوراق الشجر ، وحينما نموت ونوارى التراب تأكلنا الأشجار ، أما الشىء الذى لا يستطيع الحيوان ولا النبات أن يأكله منا .

فهو روح الإنسان وفكره .

وهذا يعنى أن بيننا وبين الحيوان والشجر قرابة جزئية . والإنسان الحقيقى أى المختلف عن الحيوان والنبات ، هو الذى يطور فكره ويثقف نفسه ويربى وجدانه فذلك هو ما يميزه عن كل ما عداه من المخلوقات ، ويسمو به عنها جميعاً .

ولما كانت النطفة التى يبدأ منها خلق الإنسان دقيقة إلى حد لا تستطيع معه العين رؤيتها فإن فكر الإنسان هو الذى يتيح له السيطرة على الطبيعة ونسف الجبال وعبور البحار والصعود فى الآفاق والوصول إلى القمر ، وفكر الإنسان هو أساس تفوقه وكل سمو يبديه على الجمادات والنباتات والحيوانات

ولهذا يفرض الإسلام على كل مسلم تحصيل العلم وتعميق المعرفة والتربية الصالحة ونشر التعليم على نطاق المجتمع كله .

يظل الإنسان دائماً تلميذاً فى مجال البحث عن المعارف ، فهو تلميذ أبيه وأستاذه وجميع الذين يكبرونه سناً ، بل إنه كذلك تلميذ ابنه وحفيده وجميع الذين يصغرونه سناً ، ممن هم أكثر شباباً منه .

لنفترض أن (قلما) ما يجسد الحقيقة ، فلو أننا سحقناه إلى ملايين الجزئيات ثم نثرنا هذه الجزئيات كالغبار المتساقط فى كل مكان ، فلسوف يكتشف كل واحد أحد جزئياته ، قد يعثر ابنك على جزء وخادمك على ثان ، بل لقد يجد عدوك أيضاً جزيئا كما قد يجد والدك وتجد أنت أيضاً ، فنى كل مكان حيث توجد الحقيقة فلتتعلمها حتى لو كان ابنك هو حاملها ، وقدره كأستاذك من أجل معرفة الحقيقة . ولو كان خصمك أو عدوك الذى تريد قتله هو المحق فسلم بأنه على صواب ، فإنك لا تقدره هو حينئذ ، بل تقدر الله من خلال الحق .

إن الإنسان لا يخترع الحقيقة ولا العلم ، بل يكتشفها ، فالقوانين العلمية قائمة منتشرة ، كما بذرت الحقيقة على سطح الكرة الأرضية . وعلى كل رجل وامرأة وعلى كل شعب أن يبحث عن الحقيقة وأن يكتشف العلم ، فإذا اكتشفتم العلم فسيطروا عليه لتحققوا بواسطته سعادة البشر ، ذلك أن الحقيقة هى الله فاسمه الحق ، والحقيقة لا تخص إنساناً واحداً حتى قائلها أو مكتشفها .

وطالما أن العلم والحقيقة منتشران

عبر العالم كله فإن من واجبنا أن نبحث عنهما دائبين ، وأن نكتشفهما ونتملكهما ونستزيد منهما ، إنه ليستحيل على إنسان فرد أن يشغل الأرض كلها ، وأن يرى جميع البذور المغروسة فى كل مكان غير أنه يوجد أناس فى كل مكان . فيجب إذن أن يتبادل البشر عبر حدود الأوطان والقارات المعارف بمجرد اكتشافهم لها ، والديموقراطية هى هذا التواصل وهذه — المسئولية التى يتحملها البشر ، الذين يشغلون حيزاً مكانياً واحداً ، سواء كان ذلك حياً أو قرية أو إقليماً أو وطناً ، فعلى الرجال أن يقيموا فيما بينهم وسائل اتصال ليتبادلوا المعارف ، وليتدارسوا معاً المشاكل التى يواجهونها ، من أجل الوصول إلى اتفاق على أفضل الحلول .

لنفترض أن لدى رجل من الثمار والأطعمة ما يزيد على حاجته للغذاء ، وأن حوله بعض الجوعى فإن رفض إعطاءهم بعض الأطعمة لكانت تلك جريمة ، غير أن هذه الجريمة أقل خطراً من تلك التى يرتكبها إنسان متعلم يعرف الحقيقة ويرفض نقلها للآخرين ويضن بمعارفه عليهم . إن رفض نقل الحقيقة ، والضن بالعلم على الآخرين بشكل جريمة أكبر من رفض مد الجوعى بالغذاء ، إن من يملك الإمكانات ويرفض أن يغيث فقيراً فإنما يحرم نفسه هو ، لأن الغوث الذى سيقدمه للفقير هو الذى كان الله سيرده إليه غداً وهكذا لم يقف الإنسان الذى رفض تقديم العون إلى المحتاج عند حد حرمان هذا الفقير بل تعداه إلى حرمان نفسه لأنه لم يعن بإعداد مستقبله فى الدار الآخرة إن إثمه كبير لكنه أقل جرماً من ذلك الذى يغتصب أرث اليتامى ويحرمهم بذلك من حقوقهم المشروعة فى أموالهم الخاصة . إن تجريد اليتامى من إرثهم جريمة تعادل جريمة الذى يعرف الحقيقة ويرفض إيصالها للآخرين ، أو ذلك الإنسان الذى تلقى العلم ويضن به على غيره ، ذلك أن الحقيقة لم تخلق لهذا الفرد ، ثم إنه ليس هو الذى خلق العلوم والمعارف وإنما نقلت إليه ، والأولى أن تكون ملكاً للبشرية جمعاء فهى الميراث المشترك بين جميع البشر ، وليس رفض نقل المعرفة والحقيقة للغير إلا مصادرة ميراث أسرة وترك أفرادها اليتامى بين أيدى الفاقة والبؤس .

لو أنك تملك خزانة مليئة بالفضة

أو الذهب أو صندوقاً مليئاً بالأقمشة أو صومعة مفعمة بالغلال ثم أخذت تغترف منها وتعطى ، فهى تتناقص وزناً كلما أخذت منها قدراً كما تقل قيمتها بقدر الكم المنقوص ، فى حين أنك كلما نقلت الحقيقة إلى الغير كلما ازددت ثراء وكلما أثريت ذلك الذى تلقاها ، وكلما نشرت العلم كلما ازددت ثراء وكلما أثريت الذى ، تلق العلم . ذلك هو السر فى أن رفض نقل العلم والمعرفة هو عمل موجه ضد الذات أولا ثم ضد البشرية بعد ذلك ، فهو إذن جريمة مزدوجة ، يستطيع المرء أن يقول : « لست أرغب فى إعطاء نقودى للغير فقد أحتاجها غداً ، ولو أننى اقتطعت من مالى جزءاً لقل رصيدى منه » بينما لا يستطيع المرء أن يقول ذلك عن العلم والمعرفة ، من أجل ذلك فنحن نكرر أن نقلهما للغير إثراء للنفس وللغير والأنانية فى مجال العلم جريمة مزدوجة .

والإسلام دين يحث بشكل جوهرى على العدل بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين مواطنى بلد واحد وبين شعوب العالم .

والإسلام كذلك هو الدين الذى ينادى بالمساواة بين جميع أفراد البشر دون تمييز بسبب اللون أو القومية أو السن أو النوع ، إنه يعلن هذه المساواة ويفرض تطبيقها الفعلى واحترامها الدائم .

فلا الثراء إذن ولا الميلاد ولا اللون ولا الجنس ولا قدر الثقافة يمكن أن تكون مصدر تفضيل لبعض الأشخاص على بعض . ثم إنه يجب تسخير الثروة والعلم من أجل الارتقاء الدائم بمستوى الشعب .

وقد عبر النبي محمد عن هذه ، الحقيقة القرآنية قائلا : « الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى » أى إن الفارق الذى يمكن أن يقوم بين الأفراد لا ينبع من ألوان جلودهم أو من أصولهم العرقية بل من قوة إيمانهم التى تتجلى فى مسلكهم وفى نفعهم الاجتماعى .

يُشبِّه النبي محمد المساواة القائمة بين الناس بالمساواة القائمة بين أسنان المشط ونحن نعلم أنه توجد أسنان أكثر ضخامة وأخرى أكثر دقة وقد يطول بعضها ويقصر البعض الآخر ، لكنها جميعاً متساوية بسبب مهمتها المشتركة التى لا ترى ، ونحن نعلم أن هناك أناساً

أكثر اكتنازاً وآخرين أكثر نحافة ، وأن بعضهم رؤساء وبعضهم وزراء ومنهم أئمة ومنهم مزارعون ، وهنالك مساكين يستجدون العطاء على أبواب المساجد ، غير أن هؤلاء متساوون أمام الله ، لا شيء يفرق أحدهم عن الآخر إلا مقدار تطابق سلوكه طوال عمره مع وصايا القرآن الكريم .

من أجل هذا يلتزم النظام الثورى بمحاربة سيادة المال فى كل مكان ، ومكافحة القبلية والظلم لفرض احترام الروح الإسلامى .

ومن أجل هذا ينبغى التزام المسلمين أيضاً بمحاربة سيادة المال والظلم والكسل والسرقة والقبلية .

لقد دخل رسول الله فى سبيل ذلك معركة ضارية مع قبيلة « قريش » التى ينتسب إليها حين أدان الوثنية والظلم والتجارة غير المشروعة والقبلية وقد كانت قريش تدعى لنفسها التفوق على قبائل مكة الأخرى .

والنهج الإسلامى هو نهج حقيقة ومساواة اجتماعية وعدالة اقتصادية واجتماعية هو نهج يؤازر التقدم الاجتماعى .

إن العدالة فضيلة عسيرة الممارسة ، لأن الناس غالباً ما يتخاذلون أمام مطالبها وأحياناً يخشى المرء أن يقول الحقيقة أمام أبيه أو زوجته التى يحبها أو صهره أو أمام رئيسه فى العمل أو أمام رجل من الأثرياء . بينما يطالب الإسلام المرء بأن يقول الحقيقة دون رهبة وفى كل مكان يلتقى فيه الإنسان بأخيه الإنسان .

يحدث كثيراً فى بلاد مختلفة أن يلقى عديد من الأبرياء فى السجون ، بينما يظل المجرمون الحقيقيون مطلقى السراح ، بل إنهم يظفرون بحماية أولئك الذين يقيمون « العدالة » المزعومة ولو أن رجلا أشعل النار ظلماً فى كوخ رجل آخر لارتكب بذلك جريمة . أما لو عرفت هذه الحقيقة وكنت قاضياً مكلفاً بإصدار الحكم فأدنت بريئاً وأطلقت سراح المذنب لكان ذلك عدواناً منك أولا على أوامر الله لأنك بذلك تكون قد عصيته ، كما تكون قد اعتديت على هذا البرىء مرتكباً بذلك جريمتين . . . إحداهما لا تغتفر .

لقد تحدث النبى محمد إلى أحد صحابته الذى جاء يشفع عنده لمن سرق قائلا : « أتشفع فى حد من حدود

الله ؟ والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

يطالب الإسلام الإنسان بأن يتخذ عملا إيجابياً وأن يسلك سلوكاً أميناً وأن يحافظ على كرامته ، وقد كان النبى يقول لابنته فاطمة ولعمه العباس إنهما يستطيعان أن يأخذا من ماله ما يشاءان ، لكنه لا يملك لهما من الله شيئاً إن ارتكبا إثماً .. فعلى كل إنسان أن يؤدى واجباته تجاه مجتمعه وتجاه ربه ، وإذا كان النبى لن يدافع عن ابنته ولا عن عمه يوم القيامة ، فإن أحداً منا لا يملك أن يدافع عن غيره ولا غيرنا يملك أن يدافع عنا ، يجب أن يحمل كل فرد مسئوليته بوصفه إنساناً واعياً ومؤمناً مخلصاً وهو يعمل وأن يقدس القواعد الإسلامية التى تفرض على المسلم أن يعيش حياة كدح وأمانة وورع ونفع للجماعة .

علينا أن نعترف بفضل هؤلاء الرواد الكبار فى الإسلام الذين أحيوا موات أرض إفريقيا وغينيا ، ووضعوا شعبنا على طريق الدين الإسلامى ، ومن واجبنا أن نحتفظ بذكراهم دائماً وأن نظل معترفين لهم بالفضل ، وأن نواصل نفس المعركة التى قادوها ، لتحرير ذواتنا ، وتسخير الطبيعة لنا حتى تنجح فى كبح جماح الشيطان الذى يمثل النقيض لكل ما جاء به النبى .

وهكذا يجب أن نعرف أننا نواصل العمل الكبير الذى بدأه أسلافنا العظماء من أمثال الحاج عمر طال . والإمام ساموری، توری ، وأنسافاديجا ، ولا ننسى دومبويا ، وأبو بكر بير وبارى، ومحمد ساميا موميا ، وأبو بهاء تديان ، وموری كابا، وسيكوفاتنا مادى شريف وشريف ساجال، وأبو بكر كوريلاندى. ودبابى ، والفامو الكلابى، وقاسم ديالو .

وإذا كنا قد استبحنا لأنفسنا الحق فى تقديم صورة عامة موجزة لملامح الإسلام فإننا نعلن أن من رأى فى بحثنا خطأ أو خلطاً أو كذباً. فإن من واجبه أن يصحح الخطأ والخلط ، وأن يفضح الكذب ويندد به ، لأنه بذلك يحترم تعاليم الله ، ويدافع عن الإسلام ، ويقدم لنا ، فى نفس الوقت خدمة ، كبرى ، لأن الإسلام هو دين الحق..

* * *

ونحن نعرف أن حياة الإنسان تمر بمراحل ثلاث ترمز إليها مراحل الزمن الأمس واليوم والغد .

— يتميز الطور الأول من حياة

الإنسان بعجزه التـــام ، فهو أولا لا يختار قريته ولا وطنه، وهو لا يستطيع يوم مولده أن يوفر لنفسه الغذاء ولا الكساء ولا المسكن فهو فى حاجة ماسة إلى عون الآخرين وتلك هى مرحلة عجز الإنسان وجهله .

– يتميز الطور الثانى من حياة الإنسان بقدرته التى اكتسبها بفضل المجتمع طوال الفترة السابقة حين حظى برعاية المجتمع وحمايته له وبتربيته وتعليمه ، ومن هنا كان عليه فى هذه الفترة أن يرد للمجتمع ما استدانه منه وما ظفر به من فضل ، ويتمثل هذا فى العمل الذى يجعله عادلا ونافعاً لنفسه ولغيره .

يبدأ شعار دولة غينيا بكلمة « العمل » لأن العمل هو الذى يتيح للإنسان أن يفى بديونه ، كما أن العمل هو الذى يقيم العدالة الاجتماعية ، ثم إن الإنسان يعرف جيداً أنه إنما يشبع حاجاته الخاصة ويسدد ديونه الاجتماعية من نتاج عمله وأنه بدون العمل لا يستطيع ممارسة العدالة الاجتماعية التى تتطلب بدورها ممارسة التضامن الاجتماعى . ذلك أن على الإنسان بالإضافة إلى أداء ديونه للآخرين – أن يعطى المحتاجين ما يمثل تضامنه معهم حتى يكون نافعاً لمجتمعه عن طريق مساهمته بنصيب فى الممتلكات الجماعية .

يدين كل فرد للمجتمع بالكثير فى حين أنه لا يقدم للمجتمع إلا القليل والإنسان فى حاجة إلى من هو أكبر منه كثيراً ، كما أنه فى حاجة لمن هو أصغر منه كثيراً ، فليس هناك إنسان كامل تماماً ، ولذلك فليس هناك إنسان يستطيع أن يعيش بمفرده خارج إطار المجتمع وفى غنى تام عنه .

إن العمل وحده هو الذى يجسد العدالة التى تصطحب التضامن فى العلاقات الاجتماعية ، ولا يمكن لفرد لا يمارس العمل والعدالة أن يكون متضامناً مع غيره من الأفراد ويشاركهم أفراحهم وآلامهم .

وإذا كان الأمس واليوم هما طورا الزمن الأول والثانى ، والغد هو طوره الثالث ، فإن الإعداد للغد إنما يتم اليوم ولهذا فيجب ألا يقتصر هدف العمل على أداء ديون الأمس ، بل أن يمتد لضمان رفاهية الإنسان فى الغد ، وإرساء مستقبل سعيد للشعب بأسره ، وأن العمل الواعى الذى نقوم به اليوم هو مساهمتنا فى القيام بواجباتنا الاجتماعية وعن طريقه نجسد تضامننا مع أجيال الغد .

من اليسير إذن أن نتبين أن اختيار

شعار الأمة : « العمل والعدالة والتضامن » هو اختيار » للوفاء بالديون عن طريق عمل كل فرد فى إطار الأمة » ولهذا يجب أن نتعلم احترام الشعب فى كل لحظة ، والحياة فى إطاره مع بذل كل طاقات النفع الاجتماعى ، التى يمثل تزايدها المتصل مطابناً من مطالب الوجدان الحى ، وممارسة للحقيقة — التاريخية والمنطق الاجتماعى .

إن عظمة الإنسان لا تنبع من فخامة الدار التى يسكنها ولا من جمال الثياب التى يرتديها أو كثرة عددها ، ولا من مستوى قيافته ، ولا من جماله الجسدى إنما تقاس عظمة الإنسان بمدى ما يقدمه للمجتمع من نفع وفعالية وتأثير .

العمل إذن هو الذى يرسى أساس عظمة الإنسان سواء كان عملا فكرياً أو حسياً أو عضلياً ، ما دام عملا يستهدف سعادة المجتمع ، فى حين أننا كثيراً ما يتميز أحدنا عن الآخر بصفات جسدية ، فنقول أحياناً إنه جميل الوجه أو أنيق الثياب أو غزير المعرفة أو واسع الثراء ، والواقع أنه لامعنى لكل هذا إذا لم يكن المرء يقدم للمجتمع عملا إيجابياً ، فاللص الثرى والكذاب الذكى وقاطع الطريق المثقف الخبير بالوسائل التكنيكية المتقدمة يمكنهم الإضرار بالمجتمع أكثر مما يستطيعه اللصوص والكذابون وقطاع الطرق الجهورون الذين لا يتمتعون بالمعارف الفنية والتكنيكية والدراسات المتخصصة .

من أجل ذلك يدعونا الفكر إلى أن نحكم على الأفراد لا من أقوالهم بل من أفعالهم ، دون أن تغفل الأهمية الكبرى للتكوين العقائدى للإنسان ولسيطرة فكره على سلوكه الاجتماعى ، طالما أن كيفية تفسير الأفراد للحياة الإنسانية هى التى تقسمهم إلى فئات اجتماعية مختلفة .

ومن أجل هذا فإن من واجبنا أن نقدم الرعاية المادية والمعنوية للمعدمين والمعوقين ، والعجزة البائسين . بل أن ندرس ظروف حياة هؤلاء المساكين فى كل قرية وكل حى ، وأن نضع الحلول لمشاكل وجودهم حتى نجسد تضامننا فى عمل إيجابى على نحو ما يريده فكر الثورة .

إن علينا أن نفعل كل شىء من أجل أن يعرف الإخوة البؤساء السعادة إن أحداً لا يعرف الشكل الذى يمكن أن تختم به حياته ، ومن يرد نهاية سعيدة لحياته ، ليقدم عونه لمن تعصف بهم المآسى . على أننا من جانبنا نفضل

صداقة المساكين على صداقة الأثرياء، كما أننا نقدم للشباب صداقتنا ونضع فيهم ثقتنا بأكثر مما نفعل مع آبائهم وأجدادهم .

حين يختار الإنسان المجتمع ، فإنه يختار أولا الشباب والمساكين . وإذا أراد المرء إسعاد مجتمعه فعليه أن يغيث من بين أفراده من كانوا يعانون البؤس والحرمان .

يجب أن تقيم كل قرية أو كل سلطة محلية « مدينة تضامن » لإيواء عجزتها وأن تخصص « مزرعة تضامن » يتطوع للعمل فيها لكل مواطن يوماً واحداً وذلك كفيل بإثراء محاصيلها .

ويجب أن تكون فى كل إقليم مؤسسة يتلقى فيها جميع اليتامى والأطفال المشردين عن المجتمع ، ويحصلون على قدر من التعليم الجاد والعلاج الملائم :

وتلك مطالب « التضامن »

يجب ألا نتخلى عن إخوتنا البائسين ونتركهم يمدون أيديهم يستجدون الناس على أبواب المساجد ودور السينما ، ففى استطاعتنا أن نهيىء ظروف حياة كريمة لهؤلاء الإخوة المحرومين من وسائل العيش ، ومن أجلهم يجب إقامة « مدينة التضامن » التى يعالج فيها مرضاهم ، فإذا استردوا صحتهم أعيدوا إلى مزاولة أنشطة الحياة اليومية التى تلائمهم . ولهذا يجب أن تشمل « مدينة التضامن » عيادة طبية قادرة على علاج المرضى ... ومسجداً تقام فيه الشعائر الدينية ، ومدرسة لتعليم النشء ، ومراكز تأهيل مهنى للقادرين على بذل مجهود عضلى تمثل « مدينة التضامن » امتداداً للمجتمع ، ويجب أن يقدم كل مواطن — مساهمته فى بنائها ، ثم يتناسى صنيعه الكريم ، فلا يأتى يوم يزهو فيه ويقول مفاخراً : « إننى أنا الذى قدمت هذه النقود ، أو هذا الفراش أو فراء الصلاة أو أنا الذى شيدت هذا الجدار . . . » إن كل عطاء لإخوتنا البائسين ، وكل إسهام لمؤازرة المعدمين ، يجب أن ينصهر فى العمل الإنسانى الشامل فلا ينتظر مقدمه ثواباً من أحد ، فهو أقرب ما يكون إلى تسوية حساب قديم يجب أن ينساه المرء تماماً ، أما هؤلاء الذين يقدمون مساهمة مالية لبناء مسجد ، ثم يفاخرون بعد ذلك بعملهم قائلين : « ذلك مسجدنا أو مسجد أسرتنا » فليسوا مسلمين مخلصين حقاً ، بل ليسوا مؤمنين صادقين ، كما أنهم ليسوا أنصار قضية نبيلة ، إنهم يزهون بحمل لقب « المسلمين » دون

أن يصبحوا بعد مسلمين حقيقيين .

حين يفكر المرء فى عالم الغد ويريد أن يبنى لنفسه فيه بيتاً ، ثم يقدم خيراً للمجتمع الذى سيبنى له هذا البيت فى عالم الغد الذى لم يأت بعد فيجب أن ينسى ذلك تماماً ، كما يفعل حين يقدم مالا لله تعالى فيتقبله الله ، إذ ليس من الممكن أن يقول بعد ذلك : إن هذا المال ماله ، لأنه لن يراه بعد ذلك ، يجب إذن أن ينسى من قدم إسهاماً فى بناء مسجد ما فعل تماماً ، لأنه لو قبل بعد ذلك حمل لقب « صاحب المسجد » لما كان قدم أية تضحية مادام الذى دفعه مايزال منتسباً إليه .

إننا مدينون بالعرفان لله لأننا ولدنا فى بلد مسلم آوى الإمبراطوريات الأولى التى أظلت غرب إفريقيا كله . وذلك هو السر فى أن جميع بلاد إفريقيا ــ عدا غينيا ــ قد سقطت سريعاً فى يد الاستعمار . بينما لم ينجح الاستعمار فى بسط نفوذه على كل أجزاء غينيا كما تستطيع أن تقول : إن أبطالنا الوطنيين أمثال الحاج عمر طال والإمام ساموري توري ، والإمام أبو بكر باري لم يكونوا يدافعون إلا من أجل وجود الإسلام فى إفريقيا . لقد طلبنا إلى كل قرية أن تهدم ما بها من أوثان ، وتحطم ما بها من تمائم وتعاويذ ، وأن تقيم مسجداً ، وأن تربى النشء حسب القواعد القرآنية وحددنا نهاية العمل يوم الجمعة قبل الصلاة حتى يتمكن المسلمون من الذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة . . لقد قضينا على الوثنية والشعوذة ، ولم يعد أحد فى بلادنا يقدس الأحجار أو الأشجار أو التمائم وهو ما تعلمه إفريقيا كلها . . ونحن نحرم الخمور والفجور . . وندعم فى كل يوم إجراءات العقاب ضد هذه الأوبئة الاجتماعية .

وقد أعدنا تنظيم القضاء على أساس الفكر القرآنى ، وقررنا مجانية التعليم فى جميع مراحله ، وأعطينا الدولة مسئولية تنظيم رحلات الحج كل عام . وألغينا جميع أنواع التفرقة التى كانت قائمة على أساس الجنس لصالح وحدة المسلمين . وإن كان العدو يتطاول فى تشويه صورتنا حتى ليظن البعض أن غينيا بلد شيوعى .

ونحن لا نعير اهتماماً لحملات الدعاية الكاذبة التى تشنها علينا الصحافة الغربية فليس لنا نفس النبى [1] . . . بل قد لا نكون نحن وهم نعبد نفس الإله . . « لأن

---

(١) لعله يقصد بهذه العبارة أن دعوة المسيح كانت خاصة ببنى إسرائيل دون غيرهم من الأمم . أما دعوة « محمد » فقد كانت عامة لبنى البشر جميعاً . . .

الإله فى الإسلام واحد وفى المسيحية ثلاثة » : ولكننا نقول لإخواننا المسلمين .. إن غينيا لم ولن تكون أبداً بلداً شيوعياً . .

* * *

وأخيراً . . . لقد قلت فى مقدمة عرضى لهذا الكتاب أننى لم أتبع فى تقديمه وعرضه الطريقة المألوفة لدى القراء . . . لم أهتم بالشكل والتقسيم ولم أتتبع فصوله وأبوابه كما يفعل الكثيرون .

لقد أردت أن تكون الصورة واضحة فى ذهن القارئ بكل ألوانها وتفاصيلها فأخذت من هنا وهناك ما يساعد على تجلية هذه الصورة وعرضها فى هيئة متكاملة لتكون إطاراً لأفكار هذا الزعيم الذى ثار لجده الإمام ساموري توري . بعد ستين عاماً مضت على اعتقاله فى حركة جهاد شاملة ضد الاستعمار الفرنسى . . .

دكتور عبد الودود شلبى

أيها الناس : ليس بكافٍ

أننـــا المسلمون بالأسماء ! ؟

إنَّما المسلمون بالعمل الصالح ،

لا بالمظاهر الجوفاء ! ؟

نحن إن لم نَحتكِمْ بما أنزل الله ،

فَدَعْوَى الإسلام محضى إدّعاء ! ؟

ملف خاص عن حياة الإمام الأكبر
المغفور له الدكتور عبد الحليم محمود

وفاة شيخ الأزهر

آلاف المواطنين تشترك فى تشييع جنازته

فقدت مصر والعالم الإسلامى عالماً جليلاً وواحداً من أبرز رجال الإسلام هو فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ، الذى انتقل إلى رحاب ربه ، إثر هبوط حاد مفاجىء فى الدورة الدموية ، نتج عنه نزيف حاد فى المخ : أدى إلى الوفاة .

وقد أناب الرئيس السادات فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار وزير الأوقاف وشئون الأزهر فى تشييع الجنازة التى بدأت عقب صلاة العصر من الجامع الأزهر واشترك فيها نحو خمسين ألفاً من المواطنين يتقدمهم السيد محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور مصطفى خليل رئيس مجلس الوزراء والسيد محمد حسن التهامى نائب رئيس الوزراء برياسة الجمهورية والسيد فكرى مكرم عبيد نائب رئيس الوزراء والسيد حسن كامل رئيس ديوان الجمهورية وعدد كبير من الوزراء وسفراء العالم العربى والإسلامى ، كما اشترك فى تشييع الجنازة هيئة كبار العلماء ومفتى جمهورية مصر العربية الشيخ جاد الحق ورؤساء وعمداء وأساتذة وطلبة جامعة الأزهر ورؤساء الجامعات المصرية ، وممثلون للطائفة المسيحية ، وعدد كبير من أعضاء مجلس الشعب ، وجمعية الشبان المسلمين ، والجمعيات الإسلامية الأخرى ، واللواء أحمد بدوى رئيس هيئة أركان القوات المسلحة وكبار قادة القوات المسلحة ، كما اشترك أيضاً عدد من الشخصيات العامة من بينهم اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية الأسبق والسيد حسين الشافعى النائب السابق لرئيس الجمهورية .

وقد قامت الإذاعة بإعلان نبأ الوفاة فى العاشرة من صباح يوم الوفاة ثم أعقبت النبأ بقراءة القرآن الكريم ، وقد تابعت إذاعة القرآن الكريم إجراءات تشييع الجنازة على الهواء مباشرة .

كما اشتركت إذاعات ووكالات الأنباء والصحف العربية والأجنبية فى نقل مراسم تشييع الجنازة .

وقد تم نقل جثمانه الطاهر إلى بلدته قرية السلام مركز بلبيس محافظة

الشرقية حيث تم دفنه هناك ، وقد احتل نبأ وفاته مقدمة نشرات الإذاعات المصرية والعربية والعالمية ، كما قامت بعض الإذاعات الإسلامية والأجنبية ، بنقل فقرات من حياته الحافلة فى خدمة العلم والإسلام .

وكان فضيلة الإمام الأكبر قد دخل مستشفى الشبراويشى يوم الثامن من شهر أكتوبر لإجراء جراحة استئصال المرارة التى كان يشكو منها منذ فترة طويلة وقد أجريت له بنجاح ، وبدأت صحته فى التحسن . وفجأة شعر بمظاهر تعب استدعى المستشفى على أثره الدكتور إبراهيم بدران وزير الصحة السابق الذى أجرى له الجراحة وظل بجواره مع عدد من الأطباء من بينهم الدكاترة : عبد المنعم أبو الفضل أستاذ التحاليل وأنور بليغ رئيس جراحة الصدر بقصر العينى وصلاح إبراهيم رئيس الأمراض الباطنية بطب الأزهر ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، وكانت آخر كلماته : « لا إله إلا الله — الله حق » .

عالم عامل . . وعارف واصل

السيد الأستاذ محمد حسن التهامى
نائب رئيس الوزراء برياسة الجمهورية

« يَرْفعِ اللهُ الذين آمنوا منكم
والذين أوتوا العِلم درَجات » .
صدق الله العظيم

يا أخانا فى الله أخوة من يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . . لا نرتاب يقيناً أنك على مدارج العلا فى مقامك عند رب العرش قد سلكت طريق الأوابين فإن الله لا يضيع عمل عامل مثلك ، ونحن نعرف عنك أحوال علوم الظاهر التى شاهدك بها الناس ودلت عليها آثارك وهمتك مع المؤمنين . . درساً وتلقيناً لمدرسة الإيمان والفكر ومدرسة النشىء ومدرسة حب الله ، وزرع شجرة الإيمان فى قلوب من وجبت علينا أماناتهم وطوقت أعناقنا مسئوليات عقائدنا

قبلهم . ولا تزال أسماعنا وقلوبنا تذكر لك أحاديث الروح فى مقام التوحيد وهو مقام التشريف لبنى الإنسان ، فالتوحيد كالضد للإلحاد — ومقامات السجود لله والاستغفار والتوبة وعلوم القرآن وعلوم السيرة وأعلام التصوف ومدارسهم الفكرية — من الذين هم — بفضل الله قادرون من بعدك على حمل الرسالة وأداء الأمانة . على أرض مصر الطاهرة مصر الإيمان ، مصر دار آل بيت النبوة عليهم الصلاة والسلام ، مصر اليقين برسالة الأصفياء من عباد الله بما يرضى الله وتطمئن به روحك عند رب العرش وأرواح السابقين قبلك من أهل الإيمان وكما كانت تلك حالك فى بقاع الإسلام التى عرفتك عالماً ومجاهداً ومعيناً على الحق وكما عرفك الموحدون من أهل الكتاب وكنت لديهم — فى كل مواقفك ولقاءاتك بهم — موضع التقدير والاحترام.

كما فتح الله علينا بعض أبواب معرفتك فى حياتك وخلوصك مع ربك فعرفناك ومعى رهط من المؤمنين فى رحاب مسجد سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، وشاهدناك فى بقاع مكة وعلى عرفات وأنت محرم ومتجرد ، فى حالك مع ربك وما كنت تدعو لدنيا أو جاه بل لقد جاءتك مهام الدنيا وكرسيها ونحن فى منى نحمل زادنا إلى عرفات فإذا بالحق تعالى يختم اليوم حياتك معنا والناس على أهبة الرحيل إلى عرفات . وما كانت الدنيا لديك إلا تكليفاً أسند إليك ، وما زادتك إلا يقيناً بأن الأمانة أكبر فاستعنا بالله تعالى سوياً على أدائها وتحملت يا شيخ عبد الحليم ما تحملت صابراً محتسباً لله فليس كل ما يعرف يقال ، واستعنت بالله على دنياك وبستر الله مضيت وارتضيت والحمد لله .

لقد ختمت حياتك وأديت رسالتك فى الدنيا، وكانت روحك وابتسامة هدوئك بادية فى لقائنا الأخير فى ليلة واحدة قبل أن تخطو آخر خطواتك فى هذه الدنيا عندما أقبلت لتطمئن وتستفسر عن مستقبل القدس وأمانة المؤمنين ومسئوليتهم فيها قبل أن يختم جيلنا أواخر مسئولياته وجئت لتطمئن على مستقبل العرب والمسلمين ، وكأنك تؤدى أمانة كلفت بها وأردت أن تودعها قبل رحيلك وسألت عن تطابق الأحوال بين الظاهر والباطن بين ما يجرى على ألسنة القادة والحكماء ومن ولاهم الله فى أركان الدنيا ، وبين ما ينبغيه لمستقبل عزة أمتنا على طريق هى لنا واضحة وكنا من خلال

حديثك نستقرئ الأحداث لنرى معاً صورة المستقبل لتودعه وداعك الأخير أو لتودع أماناتك عند الله الذى لا تضيع عنده الأمانات واستودعتنا فاستودعناك والله يجمع بيننا بالحق على شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ياشيخ عبدالحليم.

رحلت عن الدنيا وقد زهدتها والتمست سبيلك من بيننا إلى العلياء وخلفت وراءك الدنيا بحذافيرها ولم تكن الدنيا يوماً هى الغاية والرجاء ، تركتها وكم هى مع غيرك قد تداولت ، كما غاب عنها من قبلك ذوو همة وصفاء . رفاقك فيها قد تفاوتوا ما بين زاهد أو عابد وبين كسالى ما لهم فى الجنة نظراء ، فأنعم بما اجتباك به ربك . الله أكبر . أعلنتها يوماً مع الشهداء وما تمنى صادق على ربه إلا كان هو الله المقصد والرجاء .

لقد كنت محباً لله ولرسوله وآل بيته الأطهار فأحبناك وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يعلمنا بأن لقاء الأرواح على تآلف نعمة كبرى لله على الإخوة من بنى الإنسان وأن المرء يحشر مع من أحب – فى الدنيا والآخرة فإلى أن نلقاك محبين لله ولرسوله ستودعك فى مقام عليين – أمانة الله ورسوله – والحمد لله رب العالمين .

كان صافى الوجدان . . لا يغضب حين يغضب الناس

الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

كان – رحمه الله – زميل الحياة وصديق العمر ، وكانت صلاتنا فى العمل الذى تعاصرنا فيه يحرسها الحب ويغلفها التعاون بيننا . . ومع ذلك إذا اختلفت وجهات النظر فى إبرام أمر من أمور العمل المشترك بيننا كنا سرعان ما تجتمع فى الرأى على أرض – وننطلق من فكر واحد ليس له هدف بيننا ، إلا أن نرعى مصلحة الحق ومصلحة الإسلام والمسلمين وكان – رحمه الله – سريع التحرك بوجدانه إلى ما ينبغى أن يكون عندما يطرأ أمر أو تزحف حادثة من أحداث الحياة .

وكانت حركته بوجدان صاف وفكر

مدرك، وصفاء نفس عميق وما ذكرت يوماً أنه غضب عندما غضبت أو انفعل عندما خولف فى رأى، وإنما كان رحمه الله يبدد الغضب ويصرف الانفعال بابتسامة رقيقة ترتسم على شفتيه معبرة عن معنى دقيق من الأخوة والصفاء وراءها فيض جارف من العواطف الأخوية والعبارات الشفافة الملطفة التى تبدد كل غيم وتوضح كل لبس، وأن ما كنت ألمسه فيه دائماً من ميل إلى السلم والمسالمة فى علاج الأمور وكان يشجعنى أنا — شخصياً — على أن أسالم وأن أتخذ نفس المنهج فى معالجة ما قد يطرأ من اختلاف فى وجهة النظر وما قد يخيم على العلاقات فى التعامل من غيوم سرعان ما تتبدد وتزول .

وقبل أن تجرى له العملية الجراحية التى وافاه فيها قدره المحتوم كنت معه فى المستشفى وكنا نتحدث لنرسم للمستقبل فى حياتنا ولم نكن نعلم أن قضاء الله أقوى وأن قدره قد حل وأن ما خططناه فيما بيننا من أسلوب عمل لصالح الإسلام والمسلمين لن يكتمل بانتزاع أحدنا إلى لقاء ربه ، وإنما أذكر لفضيلته — عليه رحمة الله — فى هذا الموقف أنه قال : «ما تقتنع به أبرمه وما يحاك فى صدرك شىء منه نبحثه إن شاء الله بعد خروجى من المستشفى » وكانت هذه الكلمات الأخيرة الأثر القوى فى نفسى عندما فوجئت وأنا بمكتبى بوزارة الأوقاف ، بالنبأ الأليم، فقد قطع الموت بيننا أسباب التعاون ، وحال بيننا وبين إكمال مسيرتى معه لتحقيق ما نرجوه للإسلام والمسلمين وما نسأل الله أن يوفقنا إليه من خدمة الوطن والدين .

وإننا لنؤمن بأن له رصيداً عند الله ورصيداً فى قلوبنا يعوضنا عن فقده ، ويطمئننا على مستقبله عند ربه ومنزلته لديه ، فإنه إن شاء الله مع الصديقين، والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

فقيد الإسلام

الدكتور عبد الحليم محمود

فضيلة الدكتور عبد المنعم النمر وكيل الأزهر

رحل عنا رجل من رجالات الأزهر والإسلام شغل حياته كلها بالعمل لدين الله وبالطريقة التي اقتنع بها وارتضاها ، وإن اختلف معه بعض الناس فيها «وكل شيخ وله طريقة كما يقولون» ولكنه وعلى طريقته قد ركز حياته وجهده لما يؤمن به سواء من ناحية الفكر أم من ناحية العمل . عرفته وصادقته منذ عاد من فرنسا حاملاً شهادة الدكتوراه مدرساً بالكليات الأزهرية ، لكنه كان على غير عادة الذين يعودون من أوربا وقتذاك ، فقد عاد بروح صوفية لا بروح أوربية ، وبالرغم من أنه درس فى فرنسا الفلسفة والتصوف أيضاً ، فقد جاء منحازاً تماماً للتصوف حاملاً على الفلسفة ، معتقداً أن التصوف هو الطريق الذى يهدى إلى الله ويعطى النفس روح الاطمئنان على عكس الفلسفة . . ولذلك وهب نفسه وجهده للتصوف فعمل على إحيائه بما نشره وما شجع على نشره من كتب كثيرة ربما كان فى بعضها مآخذ ظاهرة ، لكنه كان يتغاضى عنها بجوار ما تحمله من دفعات روحية . .

وكان فى حياته يسير بروح صوفية فهو يحب الخير لكل من حوله وللناس ، وتغلب عليه هذه النزعة حتى ولو جلبت عليه شخصياً بعض الاعتراضات والمضايقات وإذا وصل إلى رأى فقلما يحيد عنه أو يقبل من أحد رأياً غيره . .

لقد كان المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود طبعة خاصة مميزة من العلماء الذين عملوا للأزهر ولدينهم ، وهب كل لحظة فى حياته من أجل هدفه سواء كان فى بيته أم فى مكتبه أم فى رحلة من رحلاته الكثيرة ، كان يغريه حبه للخير وللأزهر فيتحمل الكثير مما ينوء بجسمه وصحته ، ويسافر هنا وهناك مما يتردد فى حمله الشباب ، وقبل انتقاله للمستشفى بيومين كنت أزوره فى سريره بمنزله ، ورأيت فى وجهه وجسمه علامات المرض ، وتحدث إلى عن بعض ما يعانيه ، وكان عائداً قبل يومين من رحلة فى المنوفية ، فرجوته أن يراعى حالته ، ويقلل من

رحلاته والازدحام فيها ، والمأكولات التى لا تناسب صحته وأن يثيب عنه من يرتضيه فى مثل هذه الرحلات ، حتى يتجنب آثارها ومضاعفاتها ، وكانت آخر جلسة معه عليه رحمة الله . . .

لقد ترك الشيخ الكثير الباقى وراءه ، من مؤلفاته وأعماله وأفكاره ، وتلاميذه ومحبيه فى الأزهر وخارج الأزهر.. ومثله فى ثروته هذه : الروحية والملية ، يظل حياً فى النفوس الكثيرة المتأثرة به ، فى مصر وخارج مصر .. ولن ينساه عارفوه ومقدروه ممن عاصروه ، وستذكره الأجيال المقبلة كلما انتفعوا بآثاره الباقية . رحمه الله وطيب ثراه وجزاه خير ما يجزى به العاملين .

كان عالماً ... عاملا

السيد الوزير : سليمان متولى

كان لقائى الأول بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود — رحمه الله — منذ أكثر من عامين ، سعيت إليه أعرض بعض مطالب محافظة بنى سويف فى مجال إقامة معاهد دينية وإنشاء كلية للأزهر ، وجدته عالماً جليلاً مهيباً — نوع فريد من الرجال يحسن الاستماع ثم يستفسر فى عمق وخبرة ثم يعطى القرار واضحا فى هدوء عن خبرة فى الأسلوب السليم للإدارة وفى فن قيادة الرجال ، ثم بعد ذلك كله يمنح التشجيع والثقة كى تنشر الدعوة على أيدى قاعدة كبيرة من القادة والمسئولين .

ثم كان اتصالى به بعد ذلك لأبحث معه موضوع المعاهد الدينية فى محافظة المنوفية — أعطانا من الإمكانيات ومن الثقة ما أمكن معه استكمال عدد كبير من المعاهد كانت قد توقفت لقصور فى النواحى المالية وكنا نتابع زيارته للعالم الإسلامى ورحلاته إلى كل مكان توجد فيه جاليات إسلامية ينشر الدعوة ، ويدعو إلى سلوك وخلق الإسلام فكان واجهة الأزهر المشرقة بما تحمله من إيمان الواصلين وثقافة المطلع على معارف الخلق الصالح وتراثه المجيد ، والمساير لموكب العصر ومستحدثاته وكل جديد فيه .

وكانت جولاته فى أقاليم مصر من أقصاها إلى أقصاها يدعو بالقول والعمل

يترك فى كل موقع إشعاعاً للدين من معاهد ومكاتب لتحفيظ القرآن ويدعو إلى التسابق فى عمل الخير وفى التطوع لنشر الدعوة لكل قادر على المساهمة والعطاء .

وتعددت زياراته لنا فى محافظة المنوفية فقد جذبنا إليه ما كان يتحلى به من صفات المؤمن من العالم ، تواضعه وعلمه وخبرته وقدرته الفائقة فى تحريك العمل ودفعه ، وفى حماسه ونشاطه ، وفى تشجيعه لكل من يتوسم الخير فيه .

وفى زيارته الأخيرة لنا ليفتتح المعاهد الجديدة ويبارك افتتاح الكليات الأزهرية — وقد كان صاحب الفضل فى إقامتها — ويوزع شهادات التفوق على حفظة القرآن — ويوافق على فتح جميع المعاهد فترة مسائية لتحفيظ القرآن .

كان يشدنا إليه سلوك المؤمن الحق يرعى كل من حوله ويقربهم إلى مجلسه ويطمئن عليهم واحداً واحداً ، ويشع منه النور والبركة ويهدى دائماً إلى المحبة والسلام ، ويذكرنا فى كل حديث له بما تفرضه علينا دولة العلم والإيمان التى أقامها الزعيم المؤمن محمد أنور السادات من العمل الجاد المخلص والقيم والسلوك والمحبة والترابط .

ثم كان خبر انتقاله إلى الرفيق الأعلى لينعم فى جنة الخلد مع الصديقين والشهداء — وجلت له قلوب المؤمنين الخاشعين — وتوجهت جميعها بالدعاء إلى العلى القدير أن يجزيه لقاء ما قدم وأعطى لمصر والأمة الإسلامية .

كان للمتقين إماماً

الأستاذ خالد محمد خالد

• بالأمس . . رحل عن الدنيا رجل من الأخيار .

• رجل اتقى الله وآمن برسوله فآتاه الله كفلين من رحمته ، وجعل له نوراً يمشى به .

• كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة ، والنسمات الوادعة فى صمته ، وصوته ، وجميع سمته .

• كان عظيم الصدق مع ربه ومع نفسه .

• كان شجاعاً فى اختيار طريقه ،

وفى السير على هذا الطريق غير ملق باله لنقد الناقدين ولوم اللائمين .

● لم تكن له شخصيتان .. بل شخصية واحدة اتسقت اتساقاً باهراً مع نور الشريعة والحقيقة معاً .

● وكان يذكر كلما ذكر الإخلاص، والطهر ، والتقى . . ذلكم هو الإمام الأكبر (عبد الحليم محمود) . .

● عاش حياته متبتلاً محبتاً أوّاباً .. وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروادا .

● وكان للمتقين إماماً . .

● (عبد الحليم محمود) .. اسم عظيم لرجل عظيم . . رجل شرف به الإسلام كواحد من أبنائه ، وعلم من أعلامه .

• • •

● نشأ فى رحاب الله ، وشب شباباً عفاً وطاهراً ، واهتدى فى ناشئة حياته إلى طريق أهل الله ، ووضع يده فى أيديهم حتى إنه وهو فى فرنسا يتقدم برسالة الدكتوراه عن رجل من أهل الله، وواحد من أعلام التصوف . اهتدى إلى اختياره ببصيرة متصوفة وروح مخبتة .

● ثم عكف بهذه البصيرة ، وبهذه الروح على تنمية شخصيته ، وصوغ حياته ماضياً فى تصوفه الصادق وراء أبطال التصوف المباركين من الذين آمنوا وكانوا يتقون . . والذين لهم ما يشاءون عند ربهم والذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

● ولما كان (التصوف) فى حقيقته وجوهره ليس إلا (صدق التوجه إلى الله) فقد مضى راحلنا الكريم مع هذه الحقيقة وهذا الجوهر متأسياً بالرواد من الأولياء والأقطاب الذين فتحوا للروح الإنسانى منافذ النور والضياء كان يحبهم أعظم الحب ويعرف منازلهم عند الله ويعلم ما لمحبيهم ولوليهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

● وكم لامه اللائمون فما خبا حبه ، ولا ضعف ولاؤه ولا تعثرت على الطريق خطاه . . ذلك أنه حب على بصيرة . كما آمن على بصيرة ، وذاق فعرف . . وعاين وشاهد مالا تراه الأعين المثقلة بالأجفان الراقدة .

• • •

● ترى كيف أرثيه وأبكيه . .

● هذا الذى أحسست حين سمعت نعيه أن جزءاً كبيراً من الحياة قد ارتحل واختفى وليس مجرد رجل من الرجال

● إلا أن الحياة التى صاغها لنفسه والتى صحبته فى سفره إلى ربه لن تخلو

منها الحياة فستظل ذكرى شاهقة سامقة تقول للناس :

إذا ما بناء شاده الفضل والتقى

تهدمت الدنيا ولم يتهدم

ستبقى صورته مثبتة على جدار الزمن ولن تدار إلى الحائط أبداً .

● وستبقى حياته كما كانت ، وكما أرادها أن تكون ، مثلاً حياً لشجاعة الاختيار ولمسلك الأبرار .

● فوداعاً للعالم الكبير .. والصوفى النضير .

● وسلام على عباده الذين اصطفى .

● وعزاء للإسلام وللمسلمين . .

● أما أنت أيها الراحل المقيم ..

فروح وريحان ، وجنة نعيم .

ظل حتى آخر أيامه يدعو لتطبيق الشريعة الإسلامية

الشيخ / جاد الحق على جاد الحق

مفتى مصر

فقد العالم الإسلامى عالماً فاضلاً صالحاً قاد الأزهر فترة طيبة ، ونشط فى الدعوة إلى الله فى داخل البلاد وخارجها . وكان — رحمه الله — ورعاً تقياً يعمل لصالح الإسلام وتصحيح مسار العقيدة وأحكامها وتنقيتها مما علق بها فى فترة الركود العلمى التى مرت بالعالم الإسلامى وقد ظل يعمل حتى لقى ربه ، فى سبيل عودة الحكم بالشريعة الإسلامية وأحكامها وقاد مجمع البحوث الإسلامية شوطاً طويلاً فى الوصول إلى الهدف .

لقد كان وإلى آخر لقاء بيننا يعمل على إصدار دستور إسلامى يكون نموذجاً للحكم الإسلامى فى الدول الإسلامية ، موحداً لها على هدف واحد.

كما عمل على إصدار نماذج للتقنين من أحكام المذاهب الفقهية الإسلامية حتى تكون هذه الثروة الفكرية الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة تحت يد المقننين فى الدول الإسلامية يستقون منها الحاجات التى تلزم المسلمين فى هذا العصر .

رحم الله شيخ الأزهر الأستاذ الإمام الأكبر عبد الحليم محمود وأسكنه فسيح جناته وعوض الإسلام والمسلمين خيراً فيه ، فقد كان مجاهداً فى شتى الميادين فاستغل قلمه وعباراته التى أجراها الله على لسانه بيان حكم الإسلام وتاريخ رجاله العاملين فى شتى ميادين المعرفة الإسلامية مدافعاً عنهم مبيناً صائب

آرائهم التى كشفوا بها عن مزايا الإسلام عقيدة وشريعة ، كما دافع عن الإسلام وأوضح حجته بكل وسائل الإعلام الميسرة فى هذا العصر من إذاعة مسموعة ومرئية وصحف ونشرات ، كما جاهد فى سبيل ربط الأمة الإسلامية والجمع بين علمائها ليتدارسوا أمور دينهم فى رحاب الأزهر الشريف وتحت علم مصر رائدة العرب والإسلام والمدافعة عنهم والمجمعة لشتاتهم .

ولقد حدثنى رحمه الله عن مشروعاته وأمله فى أن يعود الأزهر بمعاهده وكلياته إلى ما كان عليه من تحصيل جيد للعلوم الإسلامية والعربية .

وداعاً .. شيخنا الجليل

الأستاذ نصر عبد الغفور
خبير بلجنة التعليم بالمجلس القومى

فزعت مصر .. ورو ع المسلمون .. وجزع الشرق .. حين نعى الناعى الرجل العظيم إمام المسلمين الأكبر وقائد المسيرة القرآنية .. وزعيم علماء العصر بلا منازع وما كان الجزع والترويع والفزع لموت الفقيد الكريم .. فالموت حق على الجميع فلقد مات الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ولكن مظاهر الحزن والفزع كانت للمعانى التى كان يمثلها الإمام الراحل فى حياته .

كان يرحمه الله ويطيب ثراه رجلاً بكل ما تحمله كلمة الرجولة من معان .

كان بطلاً .. تنحنى أمامه الهامات . وكان صاحب رسالة آمن بها وناضل من أجلها حتى وافته المنية وهو أشد ما يكون حرصاً على الحركة والنشاط ودقة الأداء وقبل أن يدخل المستشفى بيوم واحد كان يجوب القرى فى المنوفية يفتتح المعاهد الدينية وجمعيات تحفيظ القرآن ويوزع الجوائز على الحفاظ والمحفظين .

ويهز الرأى العام بقوة ، داعياً إلى الله . حافزاً للهمم .. بكل ما يمتلئ به قلبه الكبير من حب لرسالته وإيمان بها .. ودفاعاً عنها .

آمن بالتوسع فى المدارس والمعاهد الدينية وعارضه كثيرون فى الأزهر وخارج الأزهر .. بدعوى التجديد قبل التوسع .. وضيق ذات اليد .. يد الأزهر .. ونقص الموارد المتاحة وقلة الأساتذة .. وهبوط المستوى .. وكانت آخر

كلماته فى (منشاة سلطان) مركز منوف فى افتتاح معهدها الدينى .. أن الذين يدعون إلى عدم التوسع مخطئون .. أنا مع التوسع بلا حدود وبلا قيود .. وإذا قصرت الموازنة فى تدبير الموارد فلدى الكثير من إعانات أهل الخير والبر .. وهم والحمد لله كثيرون فلا تثبيط للهمم بل حفز لها .. وأرد عليهم فأقول عدد الذين يتعلمون فى المعاهد الأزهرية كلها فى جمهورية مصر بما فيها جامعة الأزهر خمسون ألفاً .. وفى وزارة التربية والتعليم سبعة ملايين فأين التوسع .. ولماذا التخوف؟

هل هناك رد أبلغ من هذا الرد ؟ هل هناك مقارنة كهذه المقارنة ؟ خمسون ألفا إلى سبعة ملايين .. يا له من رقم .

وهنا وفى أمور الأزهر شيخاً له .

وإماماً عظيماً .. وهو لا يكل ولايمل .. جهاداً فى سبيل تعميم التعليم الدينى .. وأثره للفكر الدينى .

لا يمر يوم إلا وله حديث صحفى أو مقالة أدبية أودينية .. ولا يمر شهر إلا وله كتاب يطبع .. ويوزع ليس فى مصر وحدها بل فى العالم الإسلامى كله .

فكر متدفق .. إيمان عميق .. ثقة زائدة لا حدود لها . يهز الرأى العام العالمى الإسلامى بكلماته القوية يخاطب الأمراء والملوك والوزراء وأهل الرأى فى أنحاء العالم .. يطالبهم برعاية الدعوة الإسلامية ودعمها وتقويتها .. ولقد قاد الأزهر منذ إنشائه مئات من شيوخ الأزهر وعلمائه .. وأشهد أن الشيخ عبد الحليم محمود قد سجل فى التاريخ صفحات من أنصع وأعظم الصفحات وأنه يعد بين شيوخ الأزهر السابقين من أكثرهم علماً وأشدهم تأثيراً فى الأزهر وسيذكر له التاريخ جهده وجهاده ونضاله وسيبقى هذا الذكر للأبد .

لقد كان لى شرف لقائه خارج الحدود .. فى دولة إسلامية وغير إسلامية . لاقيته فى السعودية فى موسم الحج .. يقف على بابه الأمراء والعلماء من جميع الأجناس .. يقبلون يده .. وينحنون فى حضرته احتراماً وإجلالاً .. وهو يستقبل الجميع فى عطف وإعزاز لا يصدر إلا من عظماء الرجال .

لاقيته فى المغرب بنفس الصورة فى فندق الأندلس محل رعاية ملك المغرب المعظم الملك الحسن ومئات السيارات فى الخارج .. وشرطة المرور تنتقل بالمئات لتنظيم خطوط السير لزيارة الإمام الأكبر .. وهو هو بقامته الرفيعة وبسمته التى تلازمه يستقبل الألوف مرحباً وداعياً ومهنئاً بشهر رمضان وملقياً تعليماته الرائعة فى

جلال عميق . وفى لندن . . فى المؤتمر الإسلامى العالمى مهرجان يضم وفود كل مسلمى العالم . . ويتقدمون أمام ملكة بريطانيا فى انحناء إلا هو فقد سلم عليها منتصب القامة وأمام كاميرات التليفزيون من جميع أنحاء العالم تكاد الملكة تنحنى احتراماً لمقدمه الجليل .

إن العيون لتدمع وإن القلوب لتفجع وإن الأفئدة لتتصدع . . ولا نملك إلا أن نقول ما قاله رسول الله الكريم . . إنا لله وإنا إليه راجعون .

لا أقول وداعاً شيخنا العظيم . . بل إلى لقاء فى الملأ الأعلى مع النبيين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

الإمام . . . عبد الحليم محمود

الأستاذ حافظ محمود

لست أدرى لم لا تبرح مخيلتى صورة صباه ؟ إننى لم أصدق حين رأيته أول مرة . . أنه من علماء التخصص فى الأزهر ، ولولا ملابسه الريفية الأصيلة لحسبته فناناً ، فقد كان شاباً ، أريد أن أقول فتى ، فى قسمات وجهه سماحة عجيبة ، وقد انطبعت على شفتيه ابتسامة لا تكاد تفارقهما أبداً ، وكانت ابتسامته تتخلل كلماته دائماً ، فمع أنه جاء ليقابلنى وأنا صحفى جديد فى جريدة « السياسة الأسبوعية » ليتعرف بى وليرد على مقال لى — إلا أنه بدأ — حديثه معى بالسخرية من بعض المظاهر . . وأحببت سخريته منذ اللحظة الأولى ، فقد كانت سخرية مهذبة تخلو من ليونة الهزل ، ومن خشونة الغرور ، وبعد بضع دقائق صرنا صديقين .

تعودت سخريته المهذبة ، حتى إنه حين قال لى: إنه يعتزم السفر إلى باريس ظننته ساخراً ، ولم أصدق إلا حين أطلعنى على حقيبة زاده .

نعم لقد سافر الشيخ « الشاب » عبد الحليم محمود موسراً ، ولم يكن مبهوراً كغيره من الشباب بالعيش فى أوربا ، ولم يكن ينقصه العلم فى تخصصاته . . ورغم هذا كله سافر ليدرس الفلسفة . . وليحصل على درجته العالمية (الدكتوراه) فى هذه المادة . . وكان أعجب ما فى هذا التحدى سخريته بالفلسفة ذاتها .

الإمام والفلسفة :

ظللت السنين الطوال أتعجب من سخريته بمادة الفلسفة ، والتى حصل فيها على أعلى الدرجات العلمية ، إلى أن التقينا قبل عام فى النادى الثقافى بلندن ، وكان الأستاذ الإمام قد جاء إلى هذا النادى ليلقى محاضرة على شباب مصر المبعوثين للدراسة فى لندن ، فإذا به يفسر فى محاضراته كيف انتهى من دراسته فى الفلسفة إلى السخرية بالفلسفة .

قال ، عليه رضوان الله : إنه لم يجد فيلسوفاً واحداً قد قطع بشىء أو جزم بشىء . . إنهم جميعاً يتحدثون بلغة الاحتمال الذى لابت فيه . . ولكم — هكذا كان يقول — أن تتصوروا حال الفكر البشرى بين هذه النظريات الاحتمالية التى تتحاشى اليقين دائماً أو غالباً .

ولما سأله طالب : إذن مارأى فضيلتك فى « الفلسفة الإسلامية » ؟ . قال : إنكم تسمون المذاهب الصوفية فى الإسلام فلسفة . . لكنها شىء آخر . . ثم أضاف : إن الفطرة السليمة تبحث عن اليقين لا عن المشكوك ، وقد أثرى الله قلوبنا باليقين فى كلماته ، فمن السخرية أن نترك هذا اليقين لنلتفت إلى متاعب الشك عند الفلاسفة إلا أن يكون هذا من باب الاطلاع والاعتبار .

الإمام والدعوة :

كان الإمام الشيخ عبد الحليم محمود عظيم العقيدة إلى الدرجة التى جعلته يتحول بمنصب شيخ الأزهر إلى داعية من دعاة الله . . فما كان يوم يمر دون أن نسمع للشيخ خطاباً أو محاضرة أو نقرأ له كتاباً أو مقالاً فى الدعوة إلى دين الله ، وقد جعله حبه للدعوة يستجيب لنا فوراً حينما اقترحنا عليه إنشاء دراسة إعلامية فى الأزهر ، وكان هو خير مثال لهذا الجانب الإعلامى .

لقد تخطى نشاطه الإعلامى فى سبيل الله صحف القاهرة إلى كثير من العواصم الإسلامية . . وكان من عجائب القدر أنى استمعت إلى نبأ وفاته من الإذاعة وأنا أقرأ له مقالاً حديثاً فى مجلة من مجلات الأقطار الشقيقة .

إننى أعلم أن البعض كان يأخذ عليه كثرة كتاباته فى الصحف مما قد لايتفق فى رأى هذا البعض مع هالة المشيخة الكبرى . . لكننى أعلم أيضاً أنه كان يعمل هذا عن إحساس صادق بمسئوليته عن توعية المسلمين جميعاً . لقد كان هذا الإحساس يبدو واضحاً جداً وهو يلقى خطبة الجمعة أحياناً . . وكنت تشعر وهو يخطب أن الكلمات ينطق

بها قلبه قبل لسانه وذات مرة وأنا أستمع إليه فى خطبة الجمعة بالجامع الأزهر بكيت . . ثم سارعت إلى تجفيف دموعى لأننا كنا نتهيأ للصلاة .

وقد بكيت مرة ثانية عندما كنا نتهيأ لصلاة الجنازة على جثمان الإمام الشيخ عبد الحليم محمود . . لكننى هذه المرة لم أجفف دموعى لأنها لم تكن مدامع عين لكنها مدامع قلب فقد صديقاً عظيماً .

نحو النور

الأستاذ محمد زكى عبد القادر

جاز إلى ربه راضياً مرضياً المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر ، ففقد فيه الأزهر والعالم الإسلامى فقيهاً كبيراً من فقهائه الكبار ، نذر نفسه لخدمة الدين والشريعة ، وترك وراءه تراثاً فيه الإيمان والفهم والدعوة إلى الأسوة الحسنة ومكارم الأخلاق .

وهو ينتمى إلى كبار الشيوخ ممن آلت إليهم مشيخة الأزهر ، فأحيوا سنة الصالحين وذكرى السلف الصالح ، وذادوا عن الدين الشبه والشكوك ، ووقفوا فى وجه الانحراف والشرك والزيغ فى قوة ويقين . . وهى مهمة ازدادت صعوبة فى هذا العصر الذى ذاعت فيه الشكوك والريب حول الأديان ، وجذبت إليها العديد من الشباب وغيرهم ممن شنوا حملة ضارية ضد الأديان والإيمان بها .

وكان المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود ركناً صامداً يدفع هذه الحملة فى صمود لايتزعزع ، ويقين يزداد يقيناً كلما زادت الحملة ضراوة ، فلم يكن يتوقف عن الدعوة إلى الدين ، سواء بالتأليف والكتابة أو الرد على المعترضين والزائغين أو الاشتراك فى الإذاعات والندوات والخطابة فى المساجد فى جموع المصلين . . وهكذا جعل من شيخ الأزهر منارة للهداية والعمل الدائب والنزول إلى الجماهير ، دعوة إلى الدين الصحيح ودفعاً للشكوك والشبهات وتثبيتاً للوحدة الوطنية ومقاومة تيارات الدس والتفريق .

وقد ساعده أفقه المنفسح وعلمه الغزير ومزجه بين الثقافتين الشرقية والغربية على أن يضطلع بهذا الواجب أتم ما يكون الاضطلاع ، تأثيراً فى الناس وجذباً لهم إلى طريق الهداية والنور .

وهو إذ يلقى ربه ، يلقاه راضياً هانئاً أن أتيح له أن بلغ فى أمته ما بلغه من مكانة ، وأن يبلغ فى مجال التقوى والصلاح ما لم يتح إلا للشهداء ممن ذادوا عن الدين ، يجزيه ربه عنهما أوفى الجزاء ويسكنه جنات أعدت للمتقين .

آخر حديث ـ عن الدنيا ـ مع الإمام الأكبر

أجرى الحديث الأستاذ جلال الجويلى

فى مسكنه المتواضع فى البيت رقم ٢٤ فى شارع العزيز بالله فى الزيتون كان لقائى مع الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر . . ولم أكن أتصور وقتها أنه اللقاء الأخير .

كان قد انتهى من صلاة المغرب .

هنا يعيش الرجل منذ أربعين عاماً أى منذ أن عاد من باريس بعد أن حصل على درجة الدكتوراه من السوربون .

كان يرتدى جلباباً أبيض . . نفس لون المسبحة التى كان يضغط عليها بين أصابع يديه ، لم يتوقف عن الضغط عليها على مدى ساعة أمضيتها أستمع إليه حول هذا الذى أصاب حياتنا من حيث سلوك الناس .

العصبية تسيطر على الكل ــ الألفاظ الجارحة تبدر من الكل لا فرق بين أستاذ فى الجامعة أو صبى فران . لم يعد أحد يحتمل أحداً كما لو كان الصبر قد نفد من صدور الناس جميعاً ، صحيح أن الحياة اليومية تزداد تعقيداً : لكن هل يعنى ذلك أن تضيع الأخلاق ؟

رد الإمام الأكبر : الواقع أن هناك آفات كثيرة فى المجتمع لم تكن موجودة فى بعض العصور . حقيقة أن كل عصر من العصور فيه آفاته أو فيه مفاسده لكن هذه المفاسد فى كثير من العصور لم تكن عامة على هذه الصورة التى نراها الآن .

سلوك الناس فى المجتمع يصدر عن الوضع الحقيقى الذى ينبغى أن يكون . الإنسانية تركت تشريع الله سبحانه وتعالى فى الأخلاق تركت تشريعه فى السلوك ، تركت تشريعه فى القانون لكى تفرض أهواءها هى .

فى كثير من العصور كانت البلاد تحكم بناء على أهواء الحاكم : ديكتاتورية كاملة من فئة قليلة تسود الأغلبية العظمى اعتماداً على القوة التى تجعل هذه الأغلبية ترتدع ثم تطيع . هكذا عندما انحرفت الإنسانية عن الأوضاع الإلهية كانت كل هذه النواحى

من الفساد فى الأخلاق والفساد فى السلوك .

هذا الانحراف عن الأوضاع الإلهية تجده على سبيل المثال فى التعليم عندنا . لم يكن من المنتظر مطلقاً أن ينفصل التعليم عن الدين . كان الرئيس السادات موفقاً حين وضع المنهج الذى ربط فيه العلم مع الإيمان إننا لو اتبعنا هذا المنهج أى حققنا توازن العلم مع الإيمان فى البيئة التى نعيش فيها كانت الأمور قد سارت على أوضاع تختلف عن أوضاعنا التى نعيشها كانت الأمور سارت إلى أوضاع أحسن ، أوكل الله إلى الإنسانية أمر الجانب المادى لكنه لم يكل إليها جانب السلوك ولا جانب الأخلاق ، بل أوكل أمره إلى تشريع منه هو .

فى الجانب المادى تقدمت الإنسانية حتى وصلت إلى القمر إلى الكواكب السماوية أو إلى غير ذلك من وسائل الكشف مع وسائل التدمير أيضاً لكنها فى الجانب الآخر ، جانب السلوك ، جانب الأخلاق ، لم تلتزم تشريع الله .

لو اتبعنا الذى أحبه الله لنا من السلوك والأخلاق والعقيدة ومصدرهم الدين وأن المادة طبيعة أو كيمياء أو فلك إلى غير ذلك مصدرهم التجارب مع الحواس . . كان الأمر يسير على نسق يرضى .

على الهامش :

من كان يتصور أن التعليم فى مصر الذى كان أساسه الدين حتى نهاية القرن الثامن عشر يصبح فى مدارس بلد الإسلام أقل شأناً من الرياضة . . على أى حال : ما من شك فى أن وزير التعليم رجل صالح . رجل مخلص يهمه كل الأهمية أن يأخذ الدين جوه الصحيح فى مدارسنا .

لكن ماذا أقول! إذا كانت التقاليد جرت على أن يكون الدين على الهامش حصصاً ! . على الهامش امتحان . على الهامش من ناحية انتقاء الصفوة الممتازة التى تتولى تعليم الجانب الدينى أرجو الله أن تتعدل الأمور .

فى هذه المناسبة أريد أن أقول : إننا مع الأسف نأخذ عادة الأمور تقليدياً ثم نسير فى هذا التقليد إلى أبعد الحدود . مثلا هذا التعليم المدنى الذى أدخله عندنا فى مصر فى صورته الحالية هو الاستعمار الذى أراد أن يكون التعليم بعيداً عن الجو الدينى الصحيح السليم ، ويقفز الحديث إلى داخل الأوتوبيس فى بلادنا .

ترى : ما رأى الإمام الأكبر فى هذه الصورة المؤلمة ، صورة المواطنة المصرية التى تكافح فى شرف من أجل

حياة أفضل سواء كانت عاملة أو مدرسة أو طبيبة أو مهندسة تهدر كرامتها داخل الأوتوبيسات التى تجرى فى شوارع مصر — قد شكت المواطنة عن كل ما يجرح كرامتها فى الأوتوبيس من أجل أن تكون فى موقع عملها فى الموعد المحدد أو فى البيت من أجل الزوج أو الطفل كيف يرى الإمام الأكبر هذه الصورة ؟

رد الدكتور عبد الحليم محمود :

الواقع أن المجتمع شغل نفسه فى أشياء غير الأشياء الأساسية . من الأشياء الأساسية سهولة المواصلات — لماذا نجد أن البلاد الكثيرة فيها مواصلات سهلة لا تعرف هذا الازدحام أو ليس فيها كما يقولون علب السردين هذه، بينما نحن هنا نجد هذه المشقة فى المواصلات. لماذا لا تيسر المواصلات ؟

ثم أضاف : كما أن النساء أنفسهم عليهن لوم كثير ، المرأة تخرج غير متحشمة إلى جانب أنها تخرج سواء كان هناك سبب أو دون سبب بينما كان من الممكن أن تبقى فى بيتها معززة مكرمة .

من ناحية أخرى هناك أشياء كثيرة غير ميسرة من الواجب أن نعنى بها عناية كبيرة . هناك أمور كثيرة فى مجتمعنا هذا الآن من الممكن تيسيرها لكن مع ذلك لا تيسر ، كما لا يهتم أحد أو يعمل على تيسيرها .

هنـــاك مرفق المياه ، هناك مرفق التليفونات ، هناك مرفق الكهرباء ، هناك التموين كل هذه النواحى لا تسير على الوضع الذى ينبغى أن يكون .

الحرب انتهت من فترة ، البلاد التى دمرت فى الحرب أعيد بناؤها فى سرعة ثم استقرت فيها الأمور أو سارت على خير ما ينبغى . اليابان مثلا أو ألمانيا الغربية كل هذه البلاد دمرت تدميراً فى الحرب ولكن مع ذلك استقرت أمورها بعد ذلك .

نرجو من الله أن يهب لمصر القوم الذين يخلصون لها وتسير الأمور على خير ما ينبغى إن شاء الله .

اقطعوا أيدى النشالين :

ثم مرة أخرى نعود إلى الأوتوبيس فسألته عن رأيه فى موقف المواطن الذى طعن نشالاً فى الأوتوبيس بعد أن حاول هذا النشال أن يطعن المواطن الذى ضبطه أثناء محاولة نشله .

رد : هذا من غير شك دفاع عن النفس لكن المشكلة فى أساسها : لِمَ

يوجد النشال فى مجتمعنا نحن ؟ وجود النشال فى مجتمعنا يبين إلى أى مدى قد بعدنا عن الجو الإسلامى أو الأخلاق الإسلامية .

لو سرنا على النمط الإسلامى ، على الأخلاق الإسلامية ، لما وجد النشال فى مصر .

هذا الرجل أخذ السكين من النشال كان يدافع عن نفسه لكن هناك أشخاصاً من الضعف إلى حد أنهم لايستطيعون الدفاع عن أنفسهم وللملك يفتك بهم النشال .

هناك حوادث كثيرة من هذا النوع لو ارتدع النشال أى لو طبق عليه العقاب الإسلامى لما عاد إلى هذا .

سبة فى جبين مصر :

ثم من النشالين إلى المتسولين الذين أصبحوا ظاهرة اجتماعيـــة خطيرة فى مصرنا ـ سألته هل يجوز أن يكون عندنا متسولون ؟

يقول الإمام الأكبر : هناك أمر فى غاية الأهمية هو انصراف المجتمع عن أداء الزكاة لو أديت الزكاة على ماينبغى أن تكون عليه لما كان هناك هذا الجمع الغفير من المتسولين . الواقع أن هؤلاء المتسولين سبة فى جبين مصر .

المسألة يجب أن تنتهى على الفور . يجب أن نأويهم ثم نعمل على تدريبهم على الحرف اليدوية حتى نوفر لهم الحياة الكريمة . يجب أن نقيم المؤسسات من أجلهم .

تربية الضمير :

ثم من النشالين إلى المتسولين إلى أجهزة الدولة التى تذيق المواطنين الأمرّين قبل أن أن تؤدى واجبها نحوهم .

هناك أمران : الأمر الأول عدم تربية الضمير عدم وجود أهمية لتربية الضمير فى مجتمعنا المصرى سواء عن طريق المدارس أو عن طريق وسائل الإعلام .

الأمر الثانى : عدم مؤاخذة المهمل أو اللامبالى ـ إننا لو أخذنا هؤلاء أى لو كان هناك عقاب على تأخير ، أعمال المواطنين لما ساروا على هذا .

ثم عن أزمة الشباب فى مصر تحدثنا عن الشباب الذى يقف عاجزاً أمام تحقيق أمنيته فى الزواج أمام الأزمة الطاحنة فى المساكن أو فى المغالاة فى المهور :

قال الإمام الأكبر : فى أقطار كثيرة يحصل الموظف فى بدء حياته على أضعاف ما يبدأ به الموظف فى مصر مع أن الحياة فى مصر فى الواقع أصبحت صعبة

بينما المرتب الذى يبدأ به الشاب حياته ٢٠ جنيهاً أو أكثر لا تكفى حقيقة لا المسكن ولا المعيشة .

لو أن الموظف حصل فى بدء حياته على مرتب لا بأس به يستطيع أن يحقق به الحياة الكريمة ما كنا نسمع عن هذا التحلل الأخلاقى فى كثير من نواحى الحياة : كما يجب تركيز الجهود على بناء المساكن الاقتصادية التى تساعد على حل هذه المشكلة :

الأحياء فى المقابر :

هنا سألته رأى الدين فى شأن المواطنين الذين زحفوا على المقابر يزاحمون الأموات فى سكناهم — إن عدد الذين يعيشون الآن فى الأحواش يزيد على نصف مليون مواطن، يعيشون حياتهم الدنيوية فوق أجداث إخوتهم الذين سبقوهم إلى العالم الآخر .

قال الإمام الأكبر :

فى حقيقة الأمر كلما كانت هناك ضرورة حتمية كلما كان هناك جواز فى الشرع الذى يبيح أو يسمح حينما تكون هناك ضرورة حتمية .

إن هؤلاء الذين يسكنون المقابر ما كانوا يحبون ذلك أو يميلون إليه أو يرغبون فيه لكنهم سقطت بيوتهم دون أن يجدوا مساكن أخرى تأويهم إلا أنه فى حالة انتفاء الضرورة يجب على المواطن الذى يقيم فى المقابر أن ينتقل إلى المسكن الذى يتاح له .

ثم جاء دور التليفزيون . أين هو من كل ما أصاب حياتنا ؟ أين الإذاعة أيضاً من كل هذا ؟

أسرع الإمام الأكبر يرد : هناك برامج كثيرة لا بأس بها فى التليفزيون أو الإذاعة لكن شهر العبادة لم يمنع المسئولين فى التليفزيون من أن يقدموا أشياء لا يرضى عنها الضمير الحى أو يرضى عنها الخلق السليم أو يرضى عنها الإسلام .

كان يجب أن ينتهزوا شهر رمضان الذى هو شهر التقوى لكى يهيئوا المجتمع الإسلامى — الذى هو مهيأ من أجل الصوم — لكى يتقبل النصائح أو المواعظ أى تهيىء له جواً من الإيمان جواً من التقوى سليماً خالصاً صافياً من شوائب الخرافات . من شوائب الأساطير من شوائب اللهو فى هذا الشهر المبارك .

الواقع أن التليفزيون أداة من أكبر الأدوات فى مجال إصلاح الأخلاق أو إفسادها . عليه يعتمد الكثير من صلاح المجتمع أو فساده .

ليس من المعقول أن يقدم التليفزيون امرأة راقصة فى يوم إسلامى بينما هى تشبه أن تكون عارية .

إنه يفعل ذلك فى كثير من الأوقات كما أنه ليس من المعقول أن تأتى منه هذه الأغانى العابثة اللاهية التى تدعو إلى أشياء كثيرة من التحلل أو من الإباحة فى الجو الإسلامى .

كما ينبغى أن يكون هناك ضمير حى عند المشرفين على هذه الأدوات حتى تكون هذه الأدوات أداة إصلاح .

لكن ليس من المعقول أن تنفق هذه الآلاف بل الملايين فى هذه الأمور التى تفسد المجتمع .

كان ينبغى أن يكون هناك ضمير حى عند المشرفين على هذه الهيئات .

ثم من التليفزيون إلى الشباب على كل ما هو عليه حيث سألت الإمام الأكبر أن يتكلم إليه فى كل موقع .

قال الإمام الأكبر : أدعوا أبناءنا أن يجدُّوا فى أعمالهم . . الوطن فى حقيقة الأمر فى أشد الحاجة إلى شبان مخلصين يعملون من أجله حتى يرتفعوا به إلى المستوى الذى وصلت إليه الأوطان الأوربية .

كنت قد استأذنت الإمام الأكبر فى ساعة بعد المغرب . حرصت على أن أكون ملتزماً أمام الرجل الذى يستقبل من بعد المغرب حتى صلاة العشاء عشرات من أبنائه الذين يحرصون على أن يستزيدوا علماً . . ولكنه رحل وتركهم وكان آخر لقاء .

هذا قضاء الله

إلى روح الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الذى رحل عن دنيانا من قريب .

دكتور سعد ظلام

هذا قضاءُ اللهِ فى الأكوانِ ورسالة الأحياء والأزمانِ
قضت المشيئةُ . . لا بقاءَ لكائنٍ غيرُ الإلـه ؟ . وكل شىء فانِ
أنَّى اتجهتُ إلى الحياة فلم أجدْ إلا دُخاناً آخذاً بدخانِ
وأرى الوجودَ كزورق متحطم يرنو بإشفاق إلى الربانِ

• • •

أمامنا . . والفكر فى أوهامه والعقل بين تصارُعِ الغيدانِ

ناديتُ قلبي يوم داهمك الردى ... يا قلبُ . . جفت أغصُنِي وجناني
ومضى المغرِّد . . والجراح تؤوده ... واستسلمتْ لخريفها أفناني
ومشى على ألق الخميلة عاصف ... خشعت لديه سوامقُ الأغصانِ
كانت جنان أزاهر فتانة ... لم يغفُ عن تنسيقها جنّاني
ناجت بها الفجر الجميل بلابلي ... أين السنا ؟ وتبسم الألحان

• • •

هذا الموسَّد أمةٌ . . مذخورة ... أمجاده . . لم يُحصِها حُسباني
العالم المتفاني في أقواله ... وفعاله والروح والوجدان
سبق الزمان بفكره حتى سما ... وعلا على الأكوان والأزمان
مترفّع حتى على آلامه ... كالطود تيّاه على الوديان

• • •

أنا لست أنعي . . كيف يُنعى خالد ... وهو الخلودُ الثابتُ الأركانِ
إني أحسك في النماء وفي الربيـ ... ـع يرف فوق ذوائب الأغصان
وأراك في جفن الصباح تحوكه ... ثوباً لشعبك زاهرَ الألوان
وأحسّ روحك في السهول وفي الربى ... دوحاً . . تدفق بالشذى الفتّان
وأحسّه بين الجموع حماسها ... متدفقاً . . كتدفق الفيضان
وأحسّه في كل شيء حولنا ... نغماً ودوداً فوق كل لسان
لا . . لم تمت « عبد الحليم » ولن تمو ... تَ . . فأنت فوق الموت والحدثان

• • •

لهفي عليك . . وقد نُعيت فروعت ... منا النفوس . . وروِّع الثقلان
ومشى الأسى في كل قلب . . فاكتوى ... ألماً . . وأذكى لوعة الأسوان
ومشى على الآفاق . . فارتاعت له ... كلُّ القلوب . . قصيّها . . والداني
كم أجهشت روح . . وذابت مهجةٌ ... وذوى فؤاد . . واكتوت عينان
وسرى بعاطفة الجموع . . كما سرى ... بين الهشيم توهجُ النيران
كيف انحنيت أمام أحداث الردى ... ولأنت عمرك ما انحنيت لجاني
كيف ارتضيت هزيمةً . . لم ترضها ... أبداً . . وأنت بساحة الميدان

لكنها فوق الوجود . . وفوق نا موس الحياة . . وندرة الإنسان
قـدر يصيرنا . . ونحـن إزاءه مستسلمون . . كريشة الفنـان
وقضاً يريد . . ولا مفر من القضا أبداً . . فتلك قضية الحـدثـان
ومنية . . تجرى فتجرى خلفنـا ولسوف تدركنـا بكل مكان . .
ورحي تدور بعمرنـا ووجودنا فنموت صرعى ذلك الدوران
ونفر من طيف المنون . . فنلتقي بطيوفـه في ذلك الجـريان
سكن الحراك . . وكنت ملء حياتنا نبض الحياة . . وخفقة الشريـان
الله جارك .. كنت خير جوارنـا والله أمنك . . كنت خير أمان
بكت الكنانة والعروبة والنـدى والشرق والإسلام ينتحبـان

• • •

يا راعي الإسلام عشت جهـاده حراً . . وقدت فيالق الإيمـان
آليت لا تدع السلاح مجاهداً حتى يصلى النـور في الشطآن
وتمـد فوق الضفتين نهاره وضيـاءه الألاق للإنسـان

• • •

الأزهـر المعمـور في أحزانه يأسى . . ويبكي أنجب الولدان
قد كنت منذ نشيـه حين تـأبنـا والقبلتين . . ومهرجـان أمـانى
أعليت فوق النيرين مكانـه وغرست دوحته بكل مكان
ودفعتـه نحـو النهوض وشمرت يمناك تعلى نهضة العرفـان
وكم اختلفنا في السبيل . . وإنما في الغـاية العصماء متفقان
قـد كنت تلقاني بوجـه باسم وتجـل فوق الفرقدين مـكاني

• • •

الأزهر المعمور . . فوق جراحه يقظ المواهب . . واثق الإمكان
مـا زال يزأر بالنبوغ وبالحجى السامح . . والأبهاء . . مأهـولان
قالوا : انتهى العلماء .. دعوى .. لم تقم فالأم ما عقمت . . ولا القمران
الله باركه . . وأفعم ساحـه بالنابهين . . الشيب . . والشبان
من كل أروع كالسماء شموخه وعلومه . . والشمس مؤتلقـان

قد ماج بالأشبال .. أو ماجت به متحفزات للوثوب الداني
يفدون بالأرواح عذب سنائه من أجل أن يبقى على الأزمان
الأمس شدناه عزيز الشان واليوم نرفعه عزيز الشان
وغداً ستوقظه مواكب فجرنا ولسوف يحيا في الغد اليقظان

• • •

يا صاحب القلب المضيء نبالةً أفهكذا تنأى عن الميدان ؟
وتغيب عن ساح الجهاد .. وينتهي في الجيل مدُّ البحر والبركان
في عالم الدين القويم شببتها غراء للكهّال والشبان
ومضيت تحمل مشعلا متألقاً كالشمس في ألق الشروق الحاني
حرّ العقيدة .. لا تخاف .. ومؤمنا بالحق .. لا متزعزعَ الإيمان
لك في قلوب المسلمين جميعهم فضل .. يقل إزاءه شكراني

• • •

يا راقداً خلف الغيوب معانقاً قرآن ربك .. حافظ القرآن
ما مات من ملأ الزمان مناقباً وحبا الحياةَ مناهلَ العرفان
في كل ناحية شببتَ أئمةً تسمو إليها أكبدُ الظمآن
وبنو الحياة مع الحياة .. يهمهم أن يسعدوا بتطاول البنيان
لما يئست من الحياة .. وأهلها وشممت ما في الدهر من بهتان
ناديت للربان : ألقِ شراعنا يا للحياةِ تضيق بالإنسان
وحملت فوق الموج روحاً حالماً مزجت به الأحلام بالأشجان

• • •

أبتي .. وصفوةَ من عرفتُ .. وذاكرى إن عقني في محنتي إخواني
إن يقضني حزني عليك فإنما قلب الوفاء تغله أحزاني
لكن عزائي فيك أنك مؤمن بالله .. باليوم القريب الداني
أفنيت عمرك جاهداً ومجاهداً في العلم والتقوى وفي الإحسان
حتى غدوتَ .. وكل يوم مشعل وحياتك الفيحاء . خضر جنان

هذا عزائى فيك يــا أملاً ذوى — وعزاء نفسى فى رضا الرحمن
ذهب الردى بالأمنيات . . ولم يعُد — إلا الأسى . . وتجرُّعَ الثكلان
الركب أسرع بالمسير . . ولم يزل — قلبى الحزين للوعــة النيران

الحزين الأسيف
د/ سعد ظلام

شيخ الأزهر

(حياته ومؤلفاته فى سطور)

● ولد شيخ الأزهر الراحل فى قرية السلام بالشرقية فى مايو عام ١٩١٠ والتحق بالأزهر حيث حصل على الشهادة العالية عام ١٩٣٢ وفى نفس العام سافر على نفقته الخاصة إلى فرنسا حيث التحق بجامعة السوربون ودرس فيها علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان وفى عام ١٩٣٧ ضم إلى البعثة الأزهرية بباريس فدرس الدكتوراه وكان موضوعها فى التصوف الإسلامى ، ونال عليها درجة الامتياز بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٠ بعدها عاد إلى مصر وعين مدرساً لعلم النفس بكلية اللغة العربية ، وظل يتنقل فى المناصب العلمية حتى وصل إلى عميد كلية أصول الدين عام ١٩٦٤ .

● وفى عام ١٩٦٨ عين أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية ، ثم أصبح وكيلا للأزهر عام ١٩٧٠ وفى عام ١٩٧١ اختير وزيراً للأوقاف وشئون الأزهر ، ثم أصبح شيخاً للأزهر منذ عام ١٩٧٣ .

● وقد سافر فضيلة الإمام الراحل إلى معظم البلاد العربية والإسلامية والأوربية حيث سافر إلى السعودية والكويت وأندونيسيا والباكستان والهند ويوجوسلافيا . . وكان أول شيخ للأزهر يزور الولايات المتحدة الأمريكية ، ويلتقى بالرئيس كارتر فى العام الماضى .

● كما اختير أستاذاً زائراً لكثير من الجامعات العربية والإسلامية من بينها تونس وليبيا وجاكارتا وكابول والخرطوم وماليزيا ، كما حضر العديد من المؤتمرات والمهرجانات الإسلامية فى البلاد العربية والإسلامية والأوربية ومن بينها المهرجان

الإسلامى الكبير الذى عقد فى لندن عام ١٩٧٦ .

• ألف وترجم وحقق العديد من الكتب باللغتين العربية والفرنسية وكان آخر كتبه عن تاج الصوفية أبوبكر الشبلى وقد تسلم النسخ الأولى منه وهو على فراش المرض .

• كما صدر آخر كتاب له مترجم إلى الإنجليزية فى الشهر الماضى فى لندن عن (عقيدة الإسلام) وكانت مؤلفاته تتجه بصفة عامة نحو التصوف الإسلامى.

• كانت السعودية آخر رحلاته إلى الخارج ، حيث شارك علماء المسلمين فى المؤتمر الذى عقدته فى الشهر الماضى أمانة المؤتمر الإسلامى بجدة عن تطوير الدعوة الإسلامية وقد قام عقب انتهاء المؤتمر بأداء العمرة وزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

• للإمام الراحل ولدان هما الدكتور محمد عبد الحليم وزير مفوض بالخارجية والدكتور منيع مدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر وثلاث بنات و٢٩ حفيداً .

• ومن وصايا الشيخ التى ظل يطالب بها حتى آخر لحظة فى حياته الاستمرار فى فتح المعاهد الأزهرية والاستمرار فى المطالبة بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية . كما ذكر أحد المقربين إليه أنه أوصى بأن يدفن بجوار سيدى ابن عطاء الله السكندرى غير أن الأسرة أصرت على أن يدفن فى قريته .

• من آخر قراراته قبل دخوله المستشفى تعميم معاهد القراءات فى جميع محافظات الجمهورية باعتبارها تخدم القرآن وتسد حاجة مصر والعالم الإسلامى من القراء ، كما اعتمد أكبر حركة ترقيات فى الأزهر شملت نحو ألف من العاملين فى الأزهر وقد كانت آخر مذكرة اطلع عليها عن تدعيم المناطق التعليمية والإدارة العامة لشئون القرآن الكريم .

• كان مهتماً فى آخر أيامه بمشروع الدستور الإسلامى الذى سيعرض على المؤتمر الدولى التاسع لعلماء المسلمين الذى سينظمه مجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة — إن شاء الله — عمّا قريب .

• توضأ الإمام الأكبر الراحل وصلى ركعتين لله قبل الدخول إلى غرفة العمليات وظل يؤدى الصلاة متيمماً من حجر جاف بعد إجراء الجراحة وظل هكذا حتى لحق بالرفيق الأعلى .

إلى السادة راغبي الاشتراكات في مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

وفيما يلي قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربي الأفريقي :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقي دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار تسدد قيمة الاشتراك في مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية .

والدول الأجنبية بشيك مصرفي مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

فهرس العدد

sur le respect de la personne humaine et défini par le pacte Kellog de 1929;"L'exploitation colonialiste internationale, écrivait-il dans la revue **Hespéria** de Zurich, exploitation savante et implacable, n'est pas le déchainement d'un matérialisme aveugle, c'est **une dépravation calculée** des forces spirituelles authentiques de l'humanité. L'apparente dispute entre les Anglo Américains n'est qu'une comédie; leur solidarité financière profonde, par quoi ils prétendent défendre au Proche Orient et singulièrement en Palestine les religions contre l'URSS, n'est qu'une accélération du suicide moral de la civilisation européenne."

Le pieux chrétien qu'était Louis Massignon ne voyait plus luire qu'un seul espoir : la possibilité de relancer un nouveau droit international fondé, cette fois, sur des principes islamiques, au premier plan desquels le droit d'hospitalité, affirmé avec tant de force par les textes sacrés juifs et islamiques (et fondamental aussi dans de nombreuses civilisations qui ne connaissent ni la Bible ni le Coran).

Massignon rejoignait ainsi cet appel à une union dans le cadre de l'Islam que nous venons de citer; et cet appel constitue peut être la seule chance de survie de l'héritage spirituel que nous ont légué les siècles passés, héritage menacé, à l'heure actuelle, de destruction totale.

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

ment, en se conformant aux préceptes révélés de sa religion. Sinon, je vous le demande, **à quoi bon** faire **un monde meilleur,** comme ils disent, **si c'est pour une humanité pire** ? En fait, par beaucoup de ses aspects, cette "civilisation moderne" est une civilisation qui est sortie de ses rails, et son sort tragique est facile à prévoir....

Mais, en cette fin de 20e siècle, **c'est là le fait nouveau,** cette civilisa tion risque d'entraîner dans sa perte une grande partie de l'humanité. Et c'est pourquoi nous souhaitons que retentissent partout les Avertissements et le Rappel coraniques, adressés de façon pertinente à tous les peuples qui s'engagent sur la voie d'un matérialisme sans issue.

Serait-il impossible d'élever le niveau de vie des masses humaines qui souffrent actuellement dans leur chair de la faim et de la misère, tout en sauvant les facultés suprêmes de l'homme, ses facultés de compréhension et de contemplation des Vérités éternelles, lesquelles peuvent l'aider à se surpasser, à se transformer en développant le meilleur de lui-même pour son salut ou pour sa délivrance ?

A cette question, les Musulmans répondent : Non ! Non, ce n'est pas impossible; citons encore quelques lignes du livre **La Mission civilisatrice de l'Islam,** publié, nous le rappelons, au Caire en 1954 :

"Les progrès de la science positive mettent à la disposition de l'homme des forces naturelles dont, il y a encore peu de temps, son imagination était incapable de concevoir la puissance, — par exemple l'énergie atomique dont le20e siècle, ce géant en science et pygmée en morale, a abusé avec barbarie; ces progrès permettent la destruction rapide de villes et de populations entières par bombardements aériens, et ont développé la crainte de la bombe à hydrogène, capable d'anéantir la civilisation et même l'espèce humaine; d'où la proposition, par certains, d'un gouvernement mondial et de l'abolition des frontières nationales et ethniques, obstacle à l'unité à l'échelle universelle.

Mais est-il possible, demandait l'auteur du livre, de réaliser une telle suggestion, alors qu'une décadence spirituelle générale a conduit à la faillite feue la Société des Nations et l'actuelle Organisation des Nations - Unies ?"

Il ajoutait toutefois: "cependant, sous la pression des événements, le monde entier, pour se sauver, cherche à réaliser son unité, sous une forme ou sous une autre." Et il concluait :

"L'orientation spirituelle nécessaire qui manque à la civilisation occidentale, le monde musulman la possède."

A la même époque, Louis Massignon, professeur au Collège de France, la plus haute institution universitaire française, constatait la faillite du Droit international fondé

J'aurais voulu aussi expliquer ce qu'il faut entendre par le primat de l'intelligence dans l'Islam. Le Coran déclare explicitement que le Christianisme est la religion de la Compassion. L'Islam, lui aussi, fait une place de choix à la compassion, puisque chaque musulman évoque perpétuellement, dans ses prières quotidiennes, Dieu sous le nom de Compatissant; le Christianisme met l'accent sur la Compassion, tandis que l'Islam le mettra sur l'Intelligence, non pas l'intelligence utilitaire qui n'est qu'une sorte de fonction biologique, mais sur l'Intelligence Supérieure, celle qui permet à l'homme de s'élever à la connaissance de l'Unité Suprême, à la Transcendance Divine, à la Contemplation, ce que met en évidence la parole fameuse que la Tradition reconnaît avoir été prononcée par le Prophète (Paix sur lui et sur les siens) :

"L'encre de celui qui sait vaut mieux que le sang des Martyrs"

Nous venons d'évoquer ce qui nous semble une des caractéristiques fondamentales de l'Islam; il faudrait une causerie entière pour examiner d'une façon approfondie le Primat de l'Intelligence, et tout ce qu'il implique; mais je me suis promis de vous dire encore quelques mots à propos de la crise de la civilisation moderne et contemporaine, - et ceci afin de dégager l'idée que l'Islam offre actuellement à l'humanité entière sa meilleure chance.

C'est de façon tragique que, dans plusieurs sourates, le Coran évoque les civilisations de nombreux peuples détruits à cause de leur refus d'écouter les Prophètes à eux envoyés : peuple de Thamoud, peuple de Noé, peuple de Loth et combien d'autres. . . . vieux peuples certes, mais non vieilles histoires : chaque fois que j'entends ces versets, je les sais actuels; ces civilisations condamnées pour avoir perdu le sens du Sacré me font penser à cette civilisation contemporaine, essentiellement européenne et américaine, où l'on constate objectivement, et de plus en plus, le refus, conscient ou inconscient, par des millions d'êtres humains, du Sacré...

Ou bien ils se précipitent dans une recherche effrénée du confort matériel, idéal pour lequel, paradoxalement, ils se livrent souvent, pendant des années, à des travaux épuisants et absorbants : leur vraie religion, c'est celle du confort matériel, et cela devient vite la religion de l'Argent,le culte du Veau d'Or.

Ou bien ils espèrent changer le monde où ils se trouvent, mais ce que nous disent des siècles de sagesse et de piété, ce qui est à changer, c'est essentiellement l'homme, ce n'est pas le monde; certes, dans certains cas, il peut être bon de modifier telle institution politique ou économique, - mais à condition de se souvenir que ces transformations ne doivent pas diminuer les possibilités que chaque homme a de s'élever, d'**évoluer** intérieure-

"dure" pour l'homme de cette **civilisation moderne** qui s'est développée sur- tout en Amérique et en Europe. Idée désagréable, idée inopportune, idée qu'on rejette, idée que l'on proclame au besoin "révoltante". L'homme s'examinant lui-même, se trouve bon, intelligent, libre ...

"Alors, si Dieu existe, il reconnaîtra mes mérites, il ne peut me punir . . . " Un tel homme comprend le Jugement de Dieu d'une façon puérilement anthropomorphique. Il s'imagine dans les arrières--plans brumeux de sa conscience un Dieu qui serait un homme aux facultés supérieures élargies et devenu immortel . . . Mais ce n'est pas à tort que les religions nous montrent souvent le "coupable" ou le "méchant" sauvé après repentance, - et celui qui se croyait "sincèrement" bon condamné, condamné pour son aveuglement et les mensonges qu'il se faisait à lui-même. Cet aveuglement se dissipera peut-être dès la mort, et le déchirement devant l'évidence que c'est trop tard, qu'on a jeté ses bonnes cartes et perdu la partie sera peut-être le Feu Brûlant, l'Enfer. Selon la formule coranique, "ses membres mêmes l'accuseront!" Lorsqu'il quittera l'existence, ces quelques dizaines d'années passées entre la naissance et la mort, c'est son essence même, c'est le plus intime de lui-même qui l'accusera, c'est ce patrimoine qu'il aurait dû préserver et faire fructifier, et qu'il a négligé.

J'aurais voulu pouvoir dire aussi quelques mots sur l'existence dans l'Islam de voies spéciales qu'on groupe parfois sous le nom **d'"ésotérisme islamique"**. Certains fidèles désirent vivre leur religion en appartenant à un groupe qui leur fournit des maîtres, des compagnons d'étude et de développement. L'Islam donc ne condamne pas a priori de tels groupements; il enseigne à les considérer avec prudence, leurs particularismes créant des conditions favorables à des déviations qui peuvent être de différentes sortes; pour ne citer que la plus misérable, l'utilisation, à certains moments, par des puissances colonialistes, de certaines confréries menées par des chefs égarés. Ceci posé, il n'est pas indifférent de connaître leur existence. J'ajoute que dans ces confréries, en général, la soumission à un ou plusieurs maîtres spirituels, l'adoption de règles spéciales, la pratique d'exercices particuliers n'exclut nullement l'exécution des actions que l'Islam déclare obligatoires ou recommandées. Pour le faire comprendre, certains, symbolisant l'ésotérisme par la maison et l'exotérisme par la porte, prononcent la formule coranique suivante :

« وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا »

"Entrez dans les maisons par les portes."

lui opposant le Bien; aimer son prochain mais du fond du cœur; savoir pardonner, mais aux vrais repentants; savoir s'opposer fermement à la violence. Tuer un innocent est "aussi criminel que de tuer toute l'humanité, mais celui qui sauve une âme a tout autant de mérite que s'il sauvait toute l'humanité . . ."

La compassion envers tous les êtres, la piété, l'humilité devants Dieu, l'amour et le respect des parents, la pudeur sont aussi des vertus exaltées en termes souvent sublimes dans le Livre Saint.

Mais plus de 80 fois y est répété le mot PATIENCE. Le mot arabe que nous traduisons par patience évoque le courage et la persévérance dans l'effort, l'adversité et le danger. Cette vertu est espérance, elle est charité, elle est foi. Par elle, le Coran nous invite à supporter les maux, les coups du sort, les vicissitudes de la vie, car notre espérance ne peut mourir si notre foi reste vivante; par cette vertu le Coran fortifie ou fait naître au coeur de l'homme une charité qui nous permet de supporter nos semblables, même lorsque l'ignorance ou la méchanceté les possède, que ce soient nos semblables au sein d'une même nation, ou que ce soit au sein de la famille ou des groupes professionnels.

Corrélativement à la Patience, un des traits les plus frappants de la foi islamique est l'absence de barrières entre Dieu et les hommes, entre l'Adoré et les adorateurs. Comme je le lisais en 1954 dans le livre **La Mission civilisatrice de l'Islam**, de Mohammed Atta: "Le Message du Prophète, déclarant que Dieu est plus près de l'homme que son âme même, mettait ainsifin aux hérésies, aux médiations ecclésiastiques et aux pratiques de ce genre. Le contact étroit entre l'homme et son Créateur, selon l'enseignement de l'Islam, s'établit simplement par la Foi. Chaque Musulman peut facilement se laisser absorber dans l'esprit de l'Islam, en respectant ses commandements, en observant ses préceptes sans astreinte exagérée, sans effort excessif".

CINQUIEME CAUSERIE

Je dois la vérité à mes auditeurs : je me proposais de développer encore quatre points : Jugement dernier, Confréries islamiques, place privilégiée de l'intelligence dans l'Islam et enfin, la crise du monde moderne, quatre questions fort différentes, mais d'importance considérable. Je devrai me borner à les définir rapidement.

J'aurais voulu faire entendre plusieurs passages des nombreuses Sourates qui annoncent l'Evénement inévitable, le Grand Tremblement de la Terre, le Jour qui envel oppera tout, le Ciel qui se fracturera, les Etoiles qui se disperseront, ce jour de la Grande Nouvelle, ce jour du Jugement que le Coran évoque si dramatiquement, et tant de fois, et qui est peut-être si proche. Cette idée est souvent

"patriarcal père de famille."[1]

Le jeune homme évoque alors les nombreuse familles iraniennes où l'homme ayant plusieurs 'femmes consacre son existence à organiser de façon correcte la vie extérieure et la vie intérieure de ses épouses. Celles-ci s'efforcent d'aider leur mari dans ses obligations de vie; par contre, l'européenne, en général, dès le jour du mariage, considère son mari comme son "bien personnel"; Et, se croyant assurée de cette propriété, elle consacre toute sa vie intérieure à poursuivre "ce quelque chose qui constitue l'Idéal incertain dont s'éprennent dès l'enfance les demoiselles européennes, grâce à la fameuse éducation imaginée à leur intention, ajoute l'iranien, avec toujours plus de raffinement,par certains écrivains malhonnêtes de là-bas". Dans les conditions européennes de la vie familiales où, bin souvent, le nombre de femmes dépasse de beaucoup cel'ui des hommes, l'absence de l'institution bienfaisante de la polygamie, conclut-il, "donne lieu à des milliers d'ennuis et d'inconvénients qui pourraient fort bien ne pas exister."

La polygamie, remarquons-le encore une fois, n'est même pas conseillée par le Coran, et vous vous souvenez des conditions qui y sont attachées. Dans une société musulmane donnée, la proportion des foyers polygames peut être extrêmement faible (moins de UN pour cent).

Mais cette institution permet à certains hommes et à certaines femmes de vivre une vie normale, alors que l'intolérance des législations monogamiques ne le leur permettrait pas. Or, pour me borner au cas des hommes, certains ont besoin (pour une raison ou pour une autre), à certains moments, ou bien tout au long de leur existence, de plusieurs épouses. Est-il besoin de rappeler qu'y voir débauche ou luxure témoigne d 'un esprit superficiel et de l'ignorance des charges que doit assumer le musulman qui a plusieurs femmes?

Ces devoirs qui constituent une éthique conjugale bien définie me donnent l'occasion de rappeler qu'il y a dans le Coran toute une éthique,-que le Livre Saint indique, d'une façon sobre et précise, - bien différente de la plupart des exposés courants de morale religieuse qu'on rencontre en Occident; un certain nombre de "vertus" sont prônées explicitement; on ne peut séparer cette éthique, cet idéal personnel d'un idéal communautaire qui la prolonge, qui s'en dégage naturellement et logiquement; nous sommes obligés de nous borner ici à une énumération un peu sèche, condensant des enseignements disséminés dans les Sourates, notamment 5, 6, 17, 23, 42.

L'homme doit rendre le bien, mais au décuple; chasser le mal, mais en

(1) G.I. Gurdjieff **Récits de Belzébuth** éd. Janus, Paris 1973 (p. 963).

il est fort souvent préférable que l'homme n'ait qu'une épouse, — mais, en certains cas, il peut être bien que l'homme en ait deux, trois ou quatre; il n'y est autorisé que s'il pense être capable de les traiter avec justice. Comprenons bien : une justice rigoureuse est évidemment impossible, mais un effort sincère pour un traitement équitable des épouses est exigé :

"Vous ne pourrez jamais traiter également toutes vos femmes quand bien même vous le désireriez ardemment; mais si vous êtes sur une pente, ne vous laissez pas aller du côté de cette pente : ne laissez pas une autre femme en suspens. Si vous êtes généreux et remplis de la crainte de Dieu, Dieu pardonne dans la Miséricorde."

Par ailleurs, dans le droit musulman, les formes du mariage sont souples et variées; si le mari a toujours le droit de répudiation, la femme peut se réserver la liberté de rompre son mariage par clause inscrite au contrat, par exemple, au cas où son mari prend une deuxième épouse.

Et, si une tradition pose que de toutes les choses permises, le divorce est celle qui plait le moins à Dieu, la deuxième des citations que nous allons faire montrera que le Coran n'en reste pas à une attitude négative vis-à vis des personnes divorcées. D'abord le Livre Saint recommande, en cas de division entre époux, de leur envoyer deux arbitres, un, pris dans la famille du mari, l'autre, dans celle de la femme. Et, si la réconciliation intervient, Dieu fera régner l'entente entre les époux. Mais:

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

"Si le divorce est irrévocablement décidé, Dieu entend tout et sait tout." Et en ce cas:

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ
وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا .

"Si les époux se séparent, Dieu par sa surabondance comblera chacun d'eux, Dieu est immense et sage".

La réglementation musu lmane du mariage est d'une grande souplesse et peut s'adapter bien mieux que beaucoup d'autres à l'extrême variété des situations et des aspirations individuelles.

Donnons la parole à un écrivain grec contemporain (ou plutôt à un de ses personnages, jeune iranien vivant en Europe depuis plusieurs années); considérant sur le mode plaisant tous les couples assis dans le "Grand Café" où il est installe, il s'exprime ainsi : "si vous remarquez dans les voix de ces hommes et de ces femmes certaines notes gaies, tandis qu'un sourire apparaît sur leur visage, vous pouvez être tout à fait sûrs qu'ils apporteront tous leur soins, s'ils ne l'ont déjà fait, à gratifier leur **"légitime moitié"** de la plus grande et de la plus magnifique "paire de cornes". Tout homme tant soit peu rusé passe ici pour un très honnête mari et un

j'estime nécessaire d'avertir certains auditeurs qui pourraient être dérangés dans leurs habitudes mentales par certaines des vues que nous dégagerons (pourtant à mon avis banales et naturelles); à ceux - là qui pourraient être choqués par quelques - uns des points que je compte aborder, je demande de réfléchir, de ne pas se laisser entrainer par une réaction négative automatique. Et je ne peux mieux faire que de leur demander de faire avant tout un effort de sympathie et de compréhension. Et je prendrai à mon compte ce que répétait souvent un de mes maîtres :

"Le péché contre l'Esprit, le seul péché qui ne puisse être pardonné, c'est de ne pas essayer de faire d'abord un effort pour voir en toute chose, en tout être, le Bien qu'il comporte. Il en comporte toujours".

QUATRIEME CAUSERIE

Nous commencerons aujourd'hui, — comme nous l'avons annoncé — par les prescriptions coraniques concernant la nourriture, avant tout, la boisson. Certains pays-et non des moindres-sont minés par le fléau de l'alcoolisme; chez les peuples musulmans l'alcoolisme et ses méfaits sont à peu près inconnus : ils ne concernent tout au plus que certains cas individuels.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .

'On t'interrogera sur les boissons fermentées et sur les jeux de hasard. Dis-leur : dans l'un comme dans l'autre il y a du mal et des avantages pour les hommes, mais le danger l'emporte sur les avantages."

Quand on sait les sommes fantastiques que coûtent aux contribuables de grands pays comme la France, ou les Etats-Unis, les conséquences de l'alcoolisme : enfants tarés, adultes malades, fous ou criminels, quand on sait l'impuissance des pouvoirs publics à juguler ce fléau, nous pouvons comprendre la dette de reconnais sance contractée par les pays musulmans envers les quelques versets coraniques qui ont su écarter ce mal de la communauté islamique.

Tout aussi importantes sont les prescriptions relatives à la vie familiale et sexuelle.(1) Sur ce point l'Islam montre une compréhension profonde de la nature humaine; — les occidentaux sympathiques à l'Islam se sont bornés souvent à un aspect particulier, en soulignant que la femme musulmane jouit sur le plan juridique de droits longtemps déniés (ou encore désirés par elles) aux femmes de chez eux. A notre avis, ce n'est pas l'essentiel.

L'Islam est large, compréhensif, tolérant, la nature humaine est complexe et variée, les situations sociales le sont aussi. L'Islam ne condamne ni la monogamie, ni la polygamie;

(1) Je passe sur la question l'hygièn intime, fondamentale pour le musulman.

qui le désire, moi qui me trouve si bien dans mon indolence, ce n'est pas moi qui le souhaite, moi qui me complais dans des rêveries imaginaires et dans la satisfaction de moi-même; c'est la voix du Muezzin qui me réveille, ou l'annonce du Ramadan.

"Bien sûr, dira-t-on, l'habitude peut envahir la Prière et le Jeûne; certes, mais il faut faire l'expérience de la Prière et du Jeûne pour saisir à quel point les deux institutions, face à la masse humaine, contribuent à atténuer les effets pernicieux de l'habitude. C'est d'ailleurs pourquoi ceux qui veulent simplifier, faciliter ou supprimer Prière et Jeûne meurtrissent le coeur même de l'Islam. Dans les détails rituels ont été fixés des préventifs souvent fort efficaces à l'installation d'habitudes mécaniques. Au hasard, un exemple : la Prière n'est pas valable si elle n'a pas été précédé de l'expression **consci ente de l'intention.**

J'espère avoir mis ainsi en évidence que le Coran est, au sein des masses, un puissant facteur de régulation d'une existence ordonnée vers une vie spirituelle authentique; quand je dis: masses, ceci implique que l'illettré comme l'homme instruit, le balayeur des rues comme le gros commerçant, le cordonnier du coin comme le président du tribunal, chacun peut y trouver l'aide et le ferment pour le développement de ses capacités personnelles. Mais quand je considère toute une partie du monde actuel, j'ai du mal à séparer des cinq obligations auxquelles je me proposais de me borner les prescriptions coraniques qui concernent la nourriture d'une part, et surtout d'autre part la vie sexuelle et la famille. Non seulement comme nous venons de le voir, au Croyant menacé par la tyrannie éventuelle de l'estomac, du sexe et du désir de dominer, l'Islam rappelle l'urgence et l'exigence du spirituel, mais encore le Coran donne sur la nourriture et le sexe des prescriptions qui diminuent le danger qu'ils peuvent représenter, — en contribuant à leur donner leur juste place. Encore une fois toute une partie de l'humanité, depuis plus ou moins longtemps, me semble égarée pour avoir totalement oublié ou déformé les enseignements révélés dans la Bible Juive et dans le Coran. Mais avant d'aborder ces prescriptions que l'on appelle souvent particulières parce qu'elles sont moins générales que les cinq obligations fondamentales, je tiens à rappeler qu'au rebours des livres saints brahmaniques le Coran ne donne pas de prescriptions pour les détails infimes de la vie journalière; il ne définit pas non plus un statut précis de la vie politique ou économique mais il définit les bases, les principes sur lesquels peuvent s'édifier des systèmes variés, selon les temps et selon les lieux.

C'est ce que nous verrons au début de la prochaine causerie. Mais

témoignage quotidien de la vitalité de l'Islam et de sa grandeur, le Ramadan en est la consécration annuelle. Prière quotidienne et Ramadan, je l'ai constaté depuis longtemps, et je le constate encore, impressionnent fortement les incroyants les plus endurcis parmi les étrangers qui séjournent en pays musulman. Cela ne provient pas tant, au fond, d'une ferveur et d'une sincérité subjectives chez les individus que de la puissance objective de l'institution établie directement par voie prophétique il y a plus de mille ans. Et si Prière et Jeûne ont éminemment un aspect personnel, ils ont aussi éminemment un aspect communautaire. Un voyageur allemand me disait un jour "L'Islam est avant tout une Religion individualiste"; un de ses amis, peu après, s'exclamait: "Quel sens du collectif dans cette religion !" La vérité, c'est que l'Islam se développe sans contradiction dans ces deux dimensions apparemment contradictoires. Prière et Jeûne sont, sur des plans différents, les pulsations de la communauté musulmane à travers le monde, et de même que dans tous les Pays de la terre les hommes se ruent 2, 3, 4, 5 fois ou plus chaque jour sur la nourriture matérielle, les musulmans se ruent cinq fois par jour sur le pain spirituel.

Je ne veux pas m'attarder aujourd'hui sur l'aumône légale et le Pélerinage. Ce n'est pas qu'il n'y ait rien à dire. Ces obligations sont toutes aussi fondamentales que les autres, même si certains sont enclins à penser le contraire. Nous le verrons une autre fois, s'il plaît à Dieu. Il nous faut dégager auparavant le fait que toutes ces obligations, qui ne proviennent pas de la subjectivité de l'individu, mais d'une réalité extérieure, d'une Loi canonique révélée, constituent un **Rappel.**

Que de fois ce mot revient dans le Coran :

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)

"C'est seulement un Rappel pour l'Univers".

Rappel signifie qu'il y a eu **oubli**. L'homme oublie. L'homme dort, somnole tout au long de son existence; la plupart du temps il agit, il pense comme une mécanique, ballotté au gré d'impulsions extérieures, oubliant l'essentiel.

Dans la sourate 54 revient à intervalles quasi réguliers ce lancinant refrain :

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)

"Nous avons rendu le Coran aisé comme un rappel. Mais y a-t-il quelqu'un pour y réfléchir ?"

Le Rappel est un réveil, ou du moins un effort pour réveiller. Et ce rappel, ce réveil, les institutions musulmanes vous l'administrent, si j'ose risquer cette expression, de façon exemplaire. Ce n'est pas moi

retour sur soi sérieux, à susciter en soi une méditation susceptible de garantir la solidité de l'engagement que l'homme éclairé prendra vis-à-vis de lui-même.

TROISIEME CAUSERIE

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

"Vous qui croyez, le Jeûne vous est prescrit, comme il a été prescrit à ceux qui vous ont précédés."

C'est après la profession de foi et la prière, la troisième des obligations fondamentales; nous la définirons brièvement, ainsi que la quatrième et la cinquième.

Chaque année, tous les jours du mois de Ramadan, le Jeûne consiste dans l'abstention de toute nourriture ou boisson et de tout acte sexuel de l'aube au coucher du soleil. Outre ces interdits précis, une orientation religieuse de tous les actes, des sentiments, des pensées est exigée.

La quatrième obligation est l'aumône obligatoire; il s'agit d'un renoncement précis que doivent faire les riches, les gens aisés, et ceux qui ne sont pas indigents. Son produit doit être affecté à des usages bien définis, en premier lieu au soulagement de la misère.

La dernière obligation est le pélerinage qui doit être accompli au moins une fois dans la vie, pour peu qu'on en ait matériellement la possibilité. Il consiste à se rendre à une époque précise à la Mecque, et à s'y acquitter de quelques rites, parfois pénibles sur le plan physique.

Ces cinq obligations, simples à exposer, n'exigent point en général des efforts héroïques, mais elles exigent toujours des efforts sérieux; la prière vient chaque jour arracher; et souvent au sens fort de ce mot, — arracher le croyant au train-train de la vie quotidienne, aux sollicitations de l'extérieur, à la douceur du repos, à la chaleur du lit, aux associations d'idées qui tyrannisent la pensée et la mènent, l'arracher aux émotions, aux sentiments divers qui nous assaillent si souvent de toutes parts.

Le Ramadan joue, sur un plan différent, un rôle analogue. On est encore plus arraché, en un sens, à ses habitudes : la vie sociale tout entière est perturbée, selon un mode provisoire; ce dépaysement facilite une mise au point, un retour en arrière et une perspective vers l'avenir, un examen de conscience sur le plan de l'année, d'une de ces quelques dizaines d'années dont se compose votre existence terrestre. Alors, comme la prière est le

La deuxième obligation est ce qu'on appelle souvent en français la Prière; mais comme elle diffère de ce qu'on nomme ainsi couramment dans d'autres religions, on peut l'appeler aussi la Salutation. Voici comme je répondais l'an dernier à une personne qui m'avait écrit pour me demander de lui exprimer de façon très condensée l'essentiel de ce qu'est la Prière musulmane ou Salutation :

Cinq fois par jour le musulman doit arrêter quelques minutes ses activités, ses pensées, ses sentiments pour se rappeler quel est son vrai but, quel est le vrai sens de la vie.

La prière est précédée d'ablutions et de l'expression claire de l'intention consciente qu'a le fidèle d'exécuter cet exercice religieux.

Les détails des gestes et des attitudes de la prière (qu'on ne peut comprendre qu'après l'avoir souvent exécutée) repose sur une connaissance profonde de l'homme et peut prendre des valeurs symboliques précises.

Deux des prières de la journée sont quelque peu différentes des trois autres et sont aussi différentes entre elles.

Des paroles accompagnent les gestes et les attitudes; elles sont prononcées à haute voix ou intérieurement.

A chacune des cinq prières, on récite plusieurs fois la Fatha, la courte sourate initiale du Coran, sur laquelle nous reviendrons, s'il plaît à Dieu. En attendant, nous définirons au début de la causerie prochaine, les trois autres obligations fondamentales, — puis nous montrerons comment elles peuvent ramener l'ordre, autant qu'il est possible, dans l'existence de chaque musulman (elles le ramènent aussi d'ailleurs, autant qu'il est possible, dans chaque communauté musulmane).

Nous commencerons par l'obligation du Jeûne, c'est pourquoi nous croyons bon de répéter en le traduisant plus littéralement le premier verset sur le Ramadan cité au début de cette causerie, verset où le Coran est défini sous le nom de Distinction ou, si vous voulez, Critère (en tant qu'il nous propose de façon instante une option décisive) :

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

"C'est pendant le mois de Ramadan que le Coran est descendu d'en Haut : **Direction** pour les hommes, **Explication claire** de la Direction et **Critère** du Bon chemin".

Chaque nouveau Ramadan comme c'est le cas aujourd'hui, réitère cet appel, cette invitation urgente à chercher la Voie Droite, à choisir la juste route apres un

Voici donc ces cinq obligations — nous verrons ensuite comment elles peuvant atteindre le but dont nous parlions tout à l'heure : ramener l'ordre, autant qu'il est possible, dans l'existence individuelle de chaque musulman.

La première obligation, c'est de prononcer la formule "Il n'y a de Dieu que Dieu et Mohammed est un Prophète".

Cette profession de foi ne comporte que deux points :

1. L'unicité de Dieu. Il n'y a qu'un Dieu, celui auquel s'adressent toutes les grandes religions révélées, le Dieu d'Abraham, si l'on veut, en se souvenant de **l'affirmation** coranique :

"Abraham n'était ni un Juif, ni un chrétien."

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا) .

2. Mohammed est Prophète — non pas le seul, mais il est un prophète. Beaucoup de non-musulmans qui acceptent le premier point, l'unité de Dieu, resteront en suspens : comment être sûr que Mohammed est bien un Prophète ? Je ne puis développer ici cette question, mais je puis indiquer qu'il peut y avoir des preuves directes et des preuves indirectes — j'en citerai une de chaque sorte:

Pour ceux qui parlent arabe l'audition ou la lecture du Coran produit fréquemment, à plus ou moins longue échéance, la conviction qu'il est une révélation véridique venue d'en haut, et ceci entraîne directement l'évidence que Mohammed véhicule du Coran, est un Prophète. Un exemple de preuve indirecte, maintenant : elle consiste dans la constatation que l'on peut être amené à faire de l'excellence des prescriptions ou des enseignements de l'Islam, constatation qui peut se faire d'abord dans un domaine précis et limité, puis s' étendre de plus en plus jusqu'à devenir évidence et amener en conséquence, la conviction de la mission prophétique de Mohammed.

Notons encore une fois l'extrême simplicité de cette affirmation fondamentale sur Dieu. **Dieu est Un.** C'est cette extrême simplicité qui fait peut-être l'extrême puissance de l'Islam. Dieu ainsi affirmé, c'est la reconnaissance de la transcendance divine. Il suffit de cette profession de foi, d'ailleurs, pour être musulman. Comme le dit excellement un écrivain que j'ai déjà cité : "Si l'Islam voulait eneigner exclusivement qu'il n'y a qu'un Dieu et non pas deux ou plusieurs Dieux, il n'aurait aucune force de persuasion. La fougue persuasive qu'il possède en fait vient de ce qu'il enseigne au fond (par l'unité de Dieu) la réalité de l'Absolu et la dépendance de toutes choses à l'égard de l'Absolu."[1]

(1) F. Schuon, livre cité.

Buvez et mangez, mais avec sobriété".

En ce qui concerne l'orgueil et le désir de dominer, l'Islam proclame qu'il ne faut pas plus être leur esclave que l'esclave de certaines formes d'humilité et de faiblesse. Certes l'Islam signifie soumission, donc humilité devant les décrets de Dieu, et certes comme le dit le Coran :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

"Dieu n'aime pas les oppresseurs".

Mais par ailleurs une parole sainte est :

"Dieu n'aime pas les faibles".

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» .

Il faut entendre par là que l'Islam est viril, qu'il exalte l'énergie et la force de caractère; on passe souvent sur la parole du Christ : "Je suis venu apporter non la paix, mais l'épée". L'Islam proclame ouvertement le devoir de juste guerre, l'Islam brandit l'épée, mais ce devoir de juste guerre, c'est essentiellement ce que le Prophète — Paix sur les lui et sur les siens — appelait la Grande Guerre Sainte, la guerre que chacun devrait mener en lui-même contre les puissances inférieures aveugles, "matérialistes, impérialistes", qui veulent prendre le commandement de chacun de nous.

Cet appel à l'énergie, à la lutte ne concerne pas que la vie intérieure; le musulman doit lutter aussi pour la defense des justes causes et des principes éternels. Cette doctrine, qui ressort des textes sacrés de l'Islam et de l'exemple donné tout au long de sa vie par le Prophète, pourrait se rencontrer dans tel ou tel texte de telle ou telle autre grande religion, christianisme, brahmanisme. Mais il ne s'agit pas pour nous de recherche érudite. Une religion s'adresse à la masse humaine et ce qui m'importe, c'est que les institutions de l'Islam se révèlent capables de faire vivre actuellement cette doctrine, et de vivifier ainsi, au 20e siècle, l'existence de centaines de millions d'hommes. Et si elles en sont capables c'est d'abord parce que les cinq obligations fondamentales de l'Islam, les cinq piliers, sont admirablement adaptées à ce rôle, de nos jours comme elles l'étaient déjà du temps du Prophète.

Avant d'évoquer ces obligations fondamentales, soulignons que leur nature et leur petit nombre éliminent les dogmes compliqués, sujets à discussion, qui risqueraient d'être pour les croyants une cause de disputes et d'incompréhension, et qui risqueraient donc de les égarer sur les chemins éloignés des vrais problèmes et des questions sérieuses fondamentales. Nous verrons aussi que rien dans ces cinq piliers n'implique en aucune façon l'existence d'un clergé, d'une "église" constituée.

qu'une vie humaine puisse être ordonnée.

Qu'est-ce que j'appelle ordre et désordre ? il y a ordre quand le supérieur régit l'inférieur tout en le respectant, sans l'opprimer donc, — en le respectant, disais-je, parce qu'il a ses raisons d'exister, — bref en s'efforçant de lui donner sa juste place.

L'homme est sans cesse sollicité par la nourriture, par le sexe, par l'orgueil et par le désir de dominer, — par l'argent enfin qui constitue un moyen pour satisfaire les impulsions que nous venons d'énumérer. Celles-ci, la plupart du temps, étouffent, plus ou moins complétement les aspirations supérieures de l'être. Ces impulsions, nourriture, sexe, etc. ne sont pas mauvaises en elles-mêmes, mais parce qu'elles dévient très fréquemment de leur rôle propre, parce qu'elles ne sont pas maintenues dans les justes limites; la nourriture est une bonne chose, le sexe aussi; il y a un juste emploi de l'énergie qui suscite l'orgueil et le désir de dominer. Le jeûne du Ramadan, occasion de ces causeries, nous rappelle fort justement que nourriture et sexe doivent être domptés sévèrement. (puisque durant le jour nous leur tenons la bride), mais qu'il ne faut ni les supprimer ni les opprimer, (puisque la nuit nous leur lâchons la bride, que nous retiendrons des l'aurore). Saisissons cette occasion pour citer quelques fragments coraniques à propos du Ramadan :

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) .

"Le mois de Ramadan est celui pendant lequel le Coran a été révélé **pour indiquer avec toutes les précisions désirables** le bon chemin aux hommes..."

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ) .

"Mangez et buvez jusqu'à ce que vous puissiez distinguer à l'aube un fil blanc d'un fil noir, jeunez alors strictement jusqu'à la nuit !"

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) .

"Il vous est permis pendant la nuit du jeûne de vous unir à vos femmes. Elles sont pour vous un vêtement comme vous en êtes un pour elles."

Et, en dehors du Jeûne, le Saint Coran nous le dit encore : "Il ne faut pas négliger la part qui vous revient des biens de ce monde.

"concret" a de la valeur, il ne saurait ni s'accommoder d'une attitude fausse (celle qui consiste à rejeter toute doctrine) ni être tout à fait nouveau : il y a toujours eu des religions et des doctrines, ce qui prouve que leur existence est dans la nature de l'homme; depuis des millénaires, les meilleurs des hommes, que nous ne pouvons mépriser sans nous rendre méprisables, ont promulgué et répandu des doctrines, et ont vécu selon elles, ou sont morts pour elles.

Le mal n'est certes pas dans l'hypothétique vanité de toute doctrine, mais uniquement dans le fait que trop d'hommes ou bien n'ont pas suivi (ou ne suivent pas) des doctrines vraies ou bien au contraire ont suivi (ou suivent) des doctrines fausses; que les cerveaux ont été exaspérés et les coeurs déçus par trop de théories inconsistantes et trompeuses; qu'une erreur innombrable, bavarde et pernicieuse, a jeté le discrédit sur la vérité, qui, elle aussi, s'énonce forcément par des mots et qui est toujours là, mais que nul ne regarde. Trop de gens ne savent même plus ce que c'est qu'une idée, ce qu'est sa valeur ou son rôle; ils sont loin de se douter qu'il y a toujours eu des théories parfaites et définitives, donc pleinement adéquates et efficaces sur leur plan, et qu'il n'y a rien à ajouter aux anciens sages, si ce n'est notre effort de les comprendre. Si nous sommes des êtres humains, nous nous choisissons une doctrine; la lassitude, le manque d'imagination et l'orgueil infantile d'une jeunesse désabusée et matérialiste n'y changeront rien. Si c'est la science moderne qui a créé les conditions anormales et décevantes dont souffre la jeunesse, c'est que cette science est elle- même anormale et décevante[1]".

DEUXIEME CAUSERIE

Dans ma précédente causerie, j'ai cité un texte qui évoquait le désarroi intellectuel de la majeure partie de l'Occident contemporain. Le trouble et le désordre dans les idées, le manque de confiance dans ce qui se présente comme une doctrine, l'ignorance même de ce que c'est qu'une idée, de ce que c'est qu'une doctrine, tout ce à quoi nous faisions allusion se transpose aisément sur le plan de la vie personnelle et de la vie quotidienne.

En effet le désordre s'est installé dans l'existence de la plupart des gens : on a perdu confiance même dans l'espoir et la possibilité d'une vie ordonnée; c'est même chose commune que l'ignorance du fait

(1) Frithjof Schuon **Pour comprendre l'Islam** éd. Gallinard, Paris, 1961 (p. 152).

qui reconnaissent ces deux bases fondamentales, ne sont, chacune, que la vraie Religion, embarrassée d'exagérations, de déviations et obscurcie par l'esprit de rivalité.

Le musulman doit se soumettre à cette vérité; Islam signifie pacification, soumission : soumission à une vérité que le croyant atteste solennellement *: l'existence d'une Réalité Suprême : Dieu, attestation clamée dans l'histoire de l'humanité par de nombreux prophètes, dont Mohammed est le Dernier, celui dont l'enseignement n'a plus besoin d'être complété. C'est la **chahada,** la "profession de foi" musulmane,, :

(لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ) .

"Il n'y a pas d'autre dieu que Dieu et Mohammed est un Prophète."

Cette tendance essentielle de l'Islam à l'universalisme entraine logiquement la condamnation des sectes et de l'esprit sectaire :

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) .

"Ne vous divisez pas en sectes."

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

"Une secte ne se prévaut que des produits de sa fantaisie".

Mais l'opposition aux sectes ne doit pas se faire par la violence :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

"Pas de contrainte,en religion !"

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) .

"Si vous discutez avec les gens des autres Ecritures, ne le faites qu'avec douceur, sauf s'ils sont injustes. Dites - leur : Nous croyons tout autant à ce qui vous a été Révélé. Notre Dieu et votre Dieu, c'est le même et nous lui sommes soumis".

Permettez - moi une digression. Certains de ceux qui m'écoutent se disent: tout ceci est bien beau, mais cela ne nous in- téresse pas — la religion est une chose périmée. Je voudrais leur lire un texte qui vient de me tomber sous les yeux :

"On dit qu'une grande partie de la jeunesse actuelle ne veut plus entendre parler ni de religion, in de philosophie, ni d'une doctrine quelconque, qu'elle a le sentiment que tout cela est épuisé et compromis, et qu'elle n'est sensible qu'à du "concret" et du "vécu",voire du "neuf". La réponse à cette déformation mentale est simple : si le

je formulerai une traduction, plus ou moins approximative, la traduction exacte du texte saint n'étant point humainement possible. Je ne puis résister au désir de citer à ce propos quelques lignes émouvantes extraites d'un petit livre de l'orientaliste Rissler sur la **Civilisation arabe** :

"Le Coran doit être lu et débité à haute voix. Aucune traduction ne peut rendre ses nuances. Il faut l'entendre dans le texte original pour en apprécier la force et la beauté aussi bien que la noblesse de la forme. Sa prose rythmée et assonancée dégage par elle-même un charme pénétrant, tellement les images et les idées resplendissent de chaleur et d'éclat. Nul ne saurait nier que son pouvoir d'incantation et son élévation spirituelle contribuent à donner l'impression que Mohammed fut illuminé par la Splendeur et la Majesté de Dieu."

Voici maintenant les citations annoncées, d'où se dégage avec force l'idée que la Révélation divine est descendue maintes et maintes fois sur les communautés humaines :

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) .

"Mohammed n'est qu'un prophète; avant lui d'autres prophètes ont passé".

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ) .

"Nous t'avons donné la Révélation, comme nous l'avons donnée à Noé et aux Prophètes qui l'ont suivi, comme nous l'avons donné à Abraham, à Ismaïl, à Isaac, à Jacob, à Jésus, à Job, à Jonas, à Aaron, à Salomon . . . ."

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) .

"Il y a eu des Envoyés dont nous t'avons déjà parlé auparavant; il y en a eu d'autres dont nous ne t'avons rien dit . . ."

L'Islam ne se présente donc point comme une religion nouvelle, au rebours de tant d'autres religions, mais comme la Religion, dont dérivent (par sectarisme et par déviations) de nombreuses confessions qui sont en concurrence sur la planète. En un sens tout homme qui naît naît musulman, et c'est ensuite que, par un rite ou par un autre, il devient membre d'une religion particulière. Il n'y a qu'une Religion, la Religion immuable, la Religion naturelle (en ce sens qu' elle est conforme à la nature de l'homme). L'amour agissant, la charité en oeuvre en est une base fondamentale, de même que l'adoration de Dieu, qui est indispensable à l'homme et l'élève vers la connaissance. Les religions diverses,

(1) Editions Payot.

REVUE DE L'AZHAR

Section française

POLES D'ATTRACTION DE L'ISLAM UNIVERSEL

par **Moustafa Djellal-el-Dine Daumal**

PREMIERE CAUSERIE

Au cours des deux derniers siècles l'impérialisme, les révolutions, les guerres généralisées, le colonialisme ont bouleversé le monde. Rares sont les régions, rares sont les communautés humaines qui n'ont pas été touchées. Que devient, dans ce trouble quasi général, la Religion ? Dans les pays les plus divers de nombreux esprits (et je pense aussi bien à ceux qui assument de hautes responsabilités qu'aux gens les plus simples) ont été et sont encore en désarroi; je pense surtout à ceux qui ont des aspirations religieuses, mais sont déçus par les croyances et les pratiques qu'ils connaissent ou qu'ils rencontrent autour d'eux; ils ne peuvent les accepter; ils cherchent, un certain temps, à savoir s'il existe d'autres pistes, d'autres chemins; souvent, tels des voyageurs égarés, sans cartes, sans boussole, ils se lassent et renoncent. A ces chercheurs de vérité, à ces hommes et femmes de bonne foi j'ai souvent déploré qu'on ne présentât point une image simple et juste de l'Islam. C'est une telle image que, dans la mesure de mes faibles moyens et dans le cadre de ces quelques causeries, je voudrais essayer d'offrir ici; je consacrerai la première à quelques aspects de l'universalité de l'Islam.

Dans mon enfance, j'avais appris l'existence de diverses religions; cette diversité m'intéressa; je lus beaucoup, et surtout les différentes Ecritures Saintes; j'en vins à la pensée que, par delà les différences extérieures que présentent les grandes religions de la terre, des éléments communs fondamentaux les unissent. Je constatai d'ailleurs que beaucoup de gens autour de moi pensaient de même, la plupart du temps sans aller plus loin.

Cette idée qu'une même Tradition primordiale s'est manifestée à de nombreuses reprises, sous des aspects très différents, dans l'histoire de l'humanité, cette idée je la trouvai dans les religions de l'Inde, dans St. Augustin même; mais c'est dans le Saint Coran que je la vois le plus clairement et le plus précisément exprimée; comme toujours par la suite, par un respect élémentaire du texte du Coran, je donnerai d'abord la citation que je veux faire en arabe, littéralement, puis

punishments, would stand highly among the greatest acts of Jihad.

And, to stress the point once again, it is natural for a nation with such a role and a way of life, as prescribed by God, to uphold Jihad in its highest levels as a sacred, God — imposed duty, ranking up in weight with prayers and regular charity.

"Fighting (in the cause of Truth) is prescribed for you, and ye dislike it. But it is possible that ye dislike a thing which is good for you, and that ye love a thing which is bad for you. But God knoweth, and ye know not."

(*Holy Quran, Sura II.* 216)

Hussein A. El-Elaimy

O God, our help in ages past,
Our hope for years come,
Our shelter from the stormy blast;
And our eternal home

In Islam, Jihad stands out as an original and important element. It is the positive means of supporessing evil, wheather self — inspired or externally induced. It follows that Jihad is an ever — activated and endless process, so ling as good and evil shall be going abreast in human life, and so long as Islam stands out as the infinite Good and Truth. To this fact the prophetic hadith points out by saying :

"Jihad is ceaselesrly going on until the Day of Resurrection."

Let not anyone thinks that Jihad is limited only to war and fighting. The military activity is but one of the many aspects Jihad may take. And although it is the highest and most noticeable in rank and importance, military Jihad is the last of all possibilities to be considered for implementation. This fact has been attested to very clearly during the history of the prophetic call.

For thirteen years, the Prophet and his companions stayed in Mecca performing, as we shall later point out in more detail, all sorts of Jihad. The Meccan period witnessed the Prophet and his companions suffering all types of persecution, offense and falsehood. Yet they went on, patiently enduring, forgivingly bearing, and peacefully inviting people to Islam. Almost fifteen years hadd elapsed in such terrific suffering and endurance before the first Muslim sword was taken out of sheath.

Logical sequence of events, also, certifies that self — feform and self — purification are prerequisites for assuming the responsibilities of military struggle. Prior to assuming their leading role, social reformers must at first be self — reformed.

In studying Islam, one can easily note that Jihad is the intended context and purpose of all Islamic worship, ethics, rules, directions and laws. Praying, fasting, pilgrimage, regular charity, abiding by truth, righteousness, patient perseverence, forgiveness,generosity, obedience in whatever is right, repentence, self — observance, purity, satisfaction, loyalty, self — respect and refraining from the opposites of those qualities are some forms of Jihad centered mainly around one's own self.

Engoining whatever is right, forbidding whatever is wrong, calling for the good of society, providing advice to Muslim caretakers and declaring truth before the unjust ruler are also among the noblest acts of Jihad.

Prophet Muhammad (God's peace and prayers be upon him) said : "The noblest of Jinad is a statement of truth spoken out before an unjust ruler."

God's religion defines the ways by which to fond off corruption, criminal behavior and deviation. Therefore, upholding and applying the religion of God, wheather in worships, worldly dealings or legal

pletion. And so Prophet Muhammad (God's peace and prayers be upon him) was sent to all mankind.

"We have not sent thee but as a universal (Messanger) to men, giving them glad tidings and warning them (against sin)."

(*Holy Quran, Sura XXXIV*, 28)

To him was revealed the everlasting Book, the Holy Quran, which provided an undisputable sign of Muhammad's prophethood and guranteed happiness for all mankind, both in this life and in the hereafter.God Himself has promised to keep Quran from corruption or distortion.

"We have, without doubt, sent down the message; and

We will assuredly guard it (from corruption)."

(*Holy Quran, Sura XV*, 9)

With Islam God has abrogated all preceding messages. And thus He declared it, thundering and straightforward, that :

"The religion before God is Islam."

(*Holy Quran, Sura III*, 19)

"If anyone desires a religion other than Islam, never will it be accepted of him."

(*Holy Quran, Sura III*, 85)

God has inve sted the Muslims with the responsibility of guiding and directing all other nations and leading them to the True Religion. With the illuminating guidance of the Quran, Muslims are entrusted by God to lead mankind out of the depths of darkness to light.

"Ye are the best people, evolved for mankind, enjoining what is right, forbidding what is wrong, and believing in God."

(*Holy Quran, Sura III*, 110)

It is therefore natural, rather inevitable, for a people entrausted with such a role and responsi8ility to advocate Jihad as a way of life. A message as such cannot be carried out except by Mujahids. They are the only ones capable of standing up to the requirements of that message. It is for this choosy nomination that God commands the Muslims to take up Jihad. They are responsible for promulgating God's call and disseminating it to every part of the world. In carrying out this mission, they are entitled to become God's witnesses who would testify that God's call has been brought up to all peoples.

"And strive (Ye who believe) in His cause as ye cught to strive (with sincerity and under discipline). He has chosen you, and has imposed no difficulties upon you in religion; it is the cult of your father Abraham. It is He who has named you Muslims, both before and in this (Revelation); that the Apostle may be a witness for you, and ye be witnesses for mankind !"

(*Holy Quran, Sura XXII*, 78)

THE CONCEPT OF JIHAD IN ISLAM

By

MAJOR HUSSEIN AHMED EL-ELAIMY

For mankind, the whole universe was created by ALLAH, the Great Almighty.

"And He has subjected to you, as from Him, all that is in the Heavens and on earth."

(Holy Quran, Sura XLV, 13)

Man, in his turn, was created for the purpose of serving God and worshipping Him.

"I have only created Jinns and men that they may serve Me."

(Holy Quran, Sura LI 53)

ALLAH has not created people to go astray in life, guessing at the unknown. Nor has He created them to let them strike haphazardly and aimlessly in the course of life. But He has provided them with a light of His own. He has revealed His messages to usher men into the facts of the unknown and the goal of their life on earth. Through God's messages, men get to organize the details of their lives and their interrelations with one another.

It is thus obvious that ALLAH, the Elevated Almighty, has guranteed for mankind both the material and spiritual essentials of their existence; the former as being manifested in subjecting the universe for the benefit of men, and the latter in God's messages of guidance and order.

God's messages to mankind have been revealed one after the other. When a message was obliterated by the people to whom it had been directed, another message was soon to follow. God's[1] apostles also came one after the other, guiding people to the path of God where, by following, man would be a worshipper of God alone and free of any other form of submission.

Yet all those messages were rather ,,national" and "temporary". In other words, every apostle was sent to his own people in particular.

"We did indeed send, before thee, apostles to their (respective) peoples."

(Holy Quran, Sura XXX, 47)

"And there never was a people without a warner having lived among them (In the past)."

(Holy Quran, Sura XXXV, 24)

Such was the case, that is, every apostle was sent to his own people, until it was time for mankind to reach maturity and for God's messages to reach conclusion and com-

(1) God = ALLAH

Glorious Throne".

This is reported in another Tradition;

"There is no God save Him, the Patient, the Beneficient, Lord of the seven Heavens and God of the Tremendous Throne. There is no God save thee, the Almighty and sublime".

It is stated in another Tradition that the Prophet has said "Allah is sufficient for us ! most excellent is He, in whom we trust. There is no power or might except by the will of Him, The Wise, The strong. We depend upon Him and resort to Him for help".

The Prophet has said, "We all are protected against evil by God, The Alive, The Eternal, who never dies. There is no might expept that of Him, The Sublime, The Tremendous".

And he says, "O God, The Benovelent, whose benovelence is above all benovelence, the Owner of Heaven and Earth, the Alive The Erternal, The Dignified, The Exalted who is capable and who grant us health and security in general".

These prayers have a de finite effect and were tried successfully.

CONCLUSION

God has likend striving in the cause of Truth and Justice which means striving in the cause of Allah, to a successful trade.

God sayeth.

"O [1] ye who believe shall I show you a commerce that will save you from a painful doom ? Ye should believe in Allah and His Messenger, and shoud stirve for the cause of Allah with your wealth and lives. That is better for you if ye did but know. He will forgive you your sins and bring you unto Gardens underneath which rivers flow, and pleasant dwellings in the Garden of Eden. That is the supreme triumph".

Abd-Ul-Halim Mahmoud

(1) The Ranks 10 — 12.

Book — Revealer, the clouds — Mover and the parties — Defeater; defeat them, and help us to triumph over them'. In another Tradition he has said, „O God, the Book — Revealer and the quick judge vanquish and shake them'.

It is reported upon the authority of the two "Sahihs" after Anas, God be pleased with him, that when Kheiber saw Mohammed, The Messenger, they said, Mohammed and his army" and took refuge in the fort.

So the Prophet Mohammed raised his hands and said "O Greatest Lord, may Kheiber go to ruin. If we are engaged in a fight with the enemy, may those who warned us have a bad time".

It is reported on the genuine authority in Abi Dawood's "Mosnad" after Sahl Ibn Saad, God be pleased with him, The Prophet has said "Two things cannot be rejected : pleading during prayer, and pleading during hardship while fighting in close contact.

It is reported in Sunan Abi Dawood and Eltirmizy and Elnisai, after Anas, God be pleased with him, that the Prophet, God bless him used to say when fighting "O God! my supporter, my helper, I struggle and fight with your support;;".

It is reported on the authentic authority of "Abi Dawood" and "Elnesai" after Abi Mousa Elashary, God be pleased with him, that when the Prophet fights a nation he says, "God : We appeal to thee to protect us from them.

It is reported on the authority of Ibn El Sawmi after Gaber Ibn Abdullah, God be pleased with them, that the Prophet, God bless him, has said on Hunyn's Day, Do not long for meeting the enemy, as you do not know what affliction will befall you, and if you meet the enemy recite the following :

O Lord, thou are our God and their, our hearts and theirs are yours. It is you God, who will defeat them'.

It is reported upon the authority of Ibn Elsonni after Anas, God be pleased with him, he said "we were with the Prophet, God bless him, during fight and heard him saying O Lord, owner of the Judgement — day, Thee alone we worship, Thee alone we ask for Help". Then the enemies were seen falling dead; they were hit by Angels in front and from behind.

It is reported that El Imam El-Shafi has said., That the Prophet God bless him, has said, Ask God to Grant your request when you fight, when you pray to God and when it is raining'.

Here is a prayer, it was mentioned before, it is written in the two "Sahihs" : "Allah, there is no God save Him, the Almighty, the Patient, there is no God save Him, the Great Lord of The Throne, there is no God save Him, Lord of Heavens and Earth, Lord of the

PRAYER

The Prophet, may God bless him, was controlling firmly the material matters that concern striving for the cause of God. He and the strivers, used to pray and implore God to fulfil His Promise. Here we note some of the Messenger's Prayer, and what he was teaching his companions to recite before and during the battle.

Here in this chapter we refer to what El Imam El Nawawi has said in his blessed book, "Alazhar".

God sayeth,(1) "Oh ye who believed ! when ye meet an army, hold firm and think of Allah much, that ye may be successful, and obey Allah and His Messenger, and dispute not one with another lest you falter and your srength depart from you ! But be stedfast : Lo ! Allah is with the stedfast. Be not as those who came forth from their dwellings of carelessly for mere pretence, and todebar men from the way of Allah, ...,,.

Learned men have said that this glorious context includes much of the battle manners.

It is reported in the two "Sahihs" after Ibn Abbas that the prophet has said, while staying in his hermitage, "O God ! I adore you to keep your Promise and pledge (to support us) otherwise you will not be worshipped.

Then Abou Bakr, God may bless him, took the Prophet by the hand and said, "Enough O Messenger of God, you have persisted upon God" then he went on saying, "they, all will be defeated and turn tail, the day of doom will be their destination, that day will be a bad and a bitter day.

This is reported after "Elbukhari" ! at Badr-Battle.

It is reported on the authority of "Moslem" that the Prophet, May God bless him, turned his face towards "Elkiblah" extending his hands, and called God saying :

"O Lord, fulfil your promise, if that faithful group perish, there will be no believer to worshipyou on earth.

He continued calling God with extended hands, till his gown fell down.

It is reported in the two "Sahihs", after Abdullah Ibn Abi Awfa, that the Messenger, God bless him, on one of those days when he was engaged with the enemy in fight waited till the sun had set, stood and addressed the people saying :

"O people, do not long for meeting the enemy, and beg God to save you from all misfortunes and if you meet the enemy, be stedfast, and learn that Paradise is under the shadows of the swords".

Then he said; "O God, the

(1) Sûrah. The spoils of war 45, 46, 47.

It is reportedon the authority of "Moslem" after Gaber, God bless him, that a man asked the Prophet Mohamed saying :

"Whe is my place, Messenger of Allah, after being killed in the cause of God ?"

The Prophet answered "In Paradise".

The man threw the dates he was keeping in his hand, and engaged himself in the fight until he was slain.

(1) God sayeth ,,Let those fight in The way of Allah who sell the life of this world for the other. Who so fighteth in the way of Allah be he slain or be victorious, on him we shall bestow a vast reward".

God sayeth.(2) "And call not those who are slain in the way of Allah "dead" Nay, they are living, only ye perceive not".

The martyr is happy, because he was killed in the cause of God :

It is reported that Ibn Kathir has said; when the Messenger of God saw that Gaber Ibn Abdulla was concerned about his father's death as a martyr in the battle of Badr, he comforted him saying "Don't you want to know what God has said to your father ?"

Gaber answered in the affirmative.

"God has never spoken to anyone while being seen, but he revealed himself to your father. ,,The Messenger has said.

God sayeth, ,,I shall grant you anything if you but ask."

He answered,"I beg Thee to restore me to life, to be slain again in your cause".

God sayeth"Those who die never come back to earth, as I have said before".

He said, "Let them (the living) know the happiness and prosperity which the martyr enjoys in Paradise".

God sayeht,"think not those who are slain in the way of Allah as dead, Nay they are living with their Lord they have provision. Jubilant (are they) because of that which Allah hath bestowed upon them of his bounty. Rejoicing for the sake of those who have not joined them but are left behind that there shall no fear ceme upoh them, neither shall they grieve. They rejoice because of favour from Allah and kindness, and the Allah wasteth not the wage of the believers".

On the authority of Elnisa'i Elturmithy and Ibn Mageh are reported to have said : The martyr is so happy for striving in the cause of God that he wishes to by restored to life to be a martyr once more.

(1) Sûrah. "The woman" 77.
(2) The Cow 154.

That had taken place during Huneyn Battle.

God has described the situation eloquently, He sayeth.

"Allah hath given you victory[1] on many fields and on the day of Huneyn when you exulted in your multituede, but it availed you naught, and the earth vast as it is, was traitened for you ! then you turned back in flight, then Allah sent his peace and reasurance down upon His messenger and upon the believers, and sent down hosts ye could not see, and punished those who disbelieved, such is the reward of disbelievers. Then afterwards, Allah will relent towards whom He will; for Allah is forgiving Merciful."

(1) Sûrah. Repentance 25 — 27.

THE MARTYR

How he is appreciated by God

The martyr is greatly estimated by God, His place is illustrated by genuine traditions and texts from The Koran.

Haretha Ibn Soraka was martyrized in Badr-Battle. His mother, daughter of Albaraa, came to the Messenger of God and said, "O messenger of God, will you not tell me anything about haretha ? If he is in Paradise, I shall be stedfast, and if not I shall weep and lament him".

Then the Prophet; God may bless him answered "Mother of Haretha, there are many gardens in Paradise and your son has reached the highest one.

It is reported upon the authority of the 2 "sahihs" after Anas, that the prophet God may bless him, has said "No one enters Paradise and wished to return to earth except the Martyr".

The Martyr wishes to come back to earth to be killed scores of times (in the cause of striving) because he will be rewarded by Him. This is reported about the merit of martyrdom by Gaber son of Abdallah, may God bless him "My father was brought and placed before The Prophet, he was disfigured. I tried to uncover his face, but my people forbade me. Then a wailful voice was heard ? it might be the voice of Amre's daughter or that of his sister.

The Messenger has said,[1] "Why do you weep ? you must not do, the Angels are shading him with their wings."

(1) Reported upon the Authority of "The Bokhari and Muslim".

or physical pleasures, but it was meant for striving in the cause of God and His Messenger. Such strife aims at the revelation and promotion of Allah's word (Religion).

The word of Allah is truth, justice, mercy fraternity and universal peace. Regarding the individual, the word of Allah means the security of man's life, blood, wealth and honour. Regarding the nation, the word of God means its dignity, pride and all that is sacred.

"Those[1] who believe do battle for the cause of Allah".

Spiritual mobilisations is capable of maging a nation, in its sgrife, as strong as a solid structure.

Hence comes the fourth step which is planned for by the Koran, in the way of triumph.

„Lo ![2] Allah loveth those who battle for his cause in ranks, as if they were a solid structure.

"And dispute not one[3] with another lest ye falter and your strength darpet from you, but be stedfast ! Lo ! Allah is with the stedfast".

If evil thoughts of dispute or disagreement are suggested by the devil, or if the heart feels a tendency towards separation or discord, the way of adjusting those differences is clearly laid out.

(1) Sûrah. The women 78.
(2) Sûrah. The Ranks.
(3) Sûrah. The Spoils of war 46.

"And hold fast,[1] all of you togehter, to the cable of Allah, and do not separate".

If evil thoughts of dispute or disagreement are suggested by the devil, or if the heart feels tendency towards separation or aiscord, the way of adjusting those differences is clearly laid out.

"And if ye have a dispute concerning[2] any matter, refer it to Allah and the messenger, if ye are (in truth) believers in Allah and the last Day. That is better and more seemly in the end".

The nation that helps God, through striving for his cause, and following the true principles of religion is promised truimph from Him, who never breaks His promise.

"If ye help Allah,[3] He will help you and will make your foothold firm"

"Verily Allah helpeth one[4] who helpeth Him Lo ! Allah is strong, Almighty".

The last stage is to have confidence in God, recompense Him, depend upon Him and not up on material power or anything else.

Moslems were given a severe lesson by God, when they depended only upon their power, multitudes and arms and said, "We shall not be vanquished today by a minority".

(1) Sûrah. The Family of Imran 103.
(2) Sûrah. The women 59.
(3) Sûrah. Mohamed 7.
(4) Sûrah. Pil grimage 50.

Day, and whose hearts hearts feel doubt, son in their doubt they waver".

The existance, of those who have no faith, amidst the strivers is something harmful.

"Had they gone forth[1] among you they had added to you naught save trouble, and had hurried to and fro among you seeking to cause sedition among you; and among you there are some would have listened to them".

Those whose faith is weak, and those who have no faith show no interest when the struggle begins and remain behind when the strive strats rejoicing at what they have done.

"Those[2] who were left behind re joiced at sitting still behind the Messenger of Allah, and were averse to striving with their wealth and their lives in Allah's way, and they said : Go not forth in the heat ! say : the heat of Hell is more intense of heat, if they but understood"

The Koran order the Prophet, God may bless him, to remove those people (the disbelievers) away from the camp of the believers and not allow them to participate in striving.

"[3]If Allah brings thee baeg (from the campaign) into a party of them, and they ask of thee leave to go out (to fight), then say unto them : Ye shall never more go out with me, nor fight with me against a foe, Ye were content with sitting still the first time. So sit still with the useless". This faith is but an active faith, everything is well prepared and everyone is ready for the mobilisation for striving.

Hence is the second step in the way of truimph represented in the Mighty God's saying.

,,Prepare for them the strongest power you can ever prepare".

This power is not limited within the material one, but it also includes the spiritual moblisiation. There is no doubt that the spiritual mobilisation is an actual power towards stedfastness in facing the enemy courageously.

"[1] Oh Ye who believed ! when you meet an enemy, hold firm, andy thing of Allah much, that ye ma be successful".

This spiritual mobilisation becomes firm and yields its fruits when the goal of striving is a clear and bovious one.

Hence comes the third step which was planned for by the Koran in the way of truimph, and that is the clearness of aim, the aim of The Koran. For striving, is not a material or a worldly goal.

The migration of the strivers was not meant for worldly gains,

(1) Sûrah. The Repentance 47.
(2) Sûrah. The Repentance 81.
(3) Sûrah. The Repentance 83.

(1) Sûrah. The Spoils of war 45.

"You should be stern with them".

From the very beginning the Moslem rulers and people toog this attitude of Islam towards the enemies. And here we find the true believer Abdullah Ibn Abdullah Ibn Ubay askikg the Prophet (God bless him) if he wanted the head of his father, he would bring it to him He says to the Prophet (God bless him).

"Messenger of God. I have heard thar you wanted to kill him just order me and I will bring you his head".

This is the correct attitude of Islam : that a Moslem should never follow those who fight against the Moslems even if they were their fathers, their sons, their brethren, or their clans, or else God and his messenger will be angry with them and thus they deserve to be afficted with Pain in this world before the Hereafter.

(The Koran Plans for the way of Victory)

God sayeth[1], Allah hath bought from the believers their lives and their wealth because The Garden will be theirs : they shall fight in the cause of Allah and shall slay and be slain. It is a promise which is binding on Him in the Towrah and The Gosple and Koran. Who fulfilleth His covenant better than Allah ? Rejoice then in your bargain that ye have made, for that is the superme triumph.

This covenant and agreement between God and the believers is but the covenant of faith, wher: the believer sells his life and wealth, he offers them willingly to God without being avaricious whenever the circumstances require spending nd sacrifice.

So one of the conditions of Belief is sacrificing one's life and wealth. It is the first step in the way of triumph. But it is a step without which there never ill be a straight, correct basis on which the nations and the leaders can depend, in order to have a dignified place among nations. The believer is not considered faithful, according to the Koran, unless he offers his wealth and life for striving in the cause of Allah.

"The true believers[1] are those only who believe in Allah and His Messenger, and afterward doubt not, but strive with their wealth and their lives for the cause of Allah. Such are the sincere". But if the beliefis weak shaky and unsteady' the result will be sloth and retardation striving.

"Those who believe in Allah[2] and the last Day, ask no leave of theeto strive with their wealth and their lives. Allah is aware of those who keep their duty (Unto Him). They alone ask leave of thee who believe not in Allah and the last

(1) Sûrah. The Repentance 111.

(1) Sûrah. The private Appartments 15.
(2) Sûrah, The Repentance 44, 45.

and more stable than any other bond.

Therefore in order that the unity of a nation may continue, there must be sincere cooperation among the members of society. They should be given advice and preaching in this respect. Those who try to split the unity must be severely punished.

No. 4. — *The judgement of God on those who follow the enemies* :

The enemies make war upon God and his messenger, and all those who follow them are also making war upon God and his messenger because in that case they are helping the enemies of God to over come His followers. And so they belong to the enemies and are of them.

God the Mighty sayeth :

"The only reward of those who make war upon Allah and his messenger and strive after corruption in the Land will be that they will be killed or crucified, or have their hands and feet on alternate sides cut off, or will be expelled out of the land, such will be their degradation in the world, and in the hereafter theirs will be an awful doom"[1].

Islam wanted to guarantee safety Inside the Islamic state and resist as much as possible the enemies who are outside it, even if they belonged to Islam. That is why there must be a severe punishment for these and those in the way as Moslem Governor finds suitable as mentioned in the Holy verses of God, like killing or crucifing them, cutting off their hands and feet on alternate sides or expelling them out of the land. God has explained that those people are not following the rules of Islam and that there is no faith left in their hearts.

God sayeth :

"Thou will not find folk who believe in Allah and the last Day loving those who oppose Allah and His messenger, even though they be their fathers or their sons or their brethren or their clan. As for such, He hath written faith upoon their hearts and hath strengthend them with a spirit from Him, and He will bring them into Gardens underneath which rivers flow, wherein they will abide. Allah is well pleased with them, and they are well pleased with Him. They are Allah's Party. Lo : ! it is Allah's Party who are successful"[1]

Those who follow the enemies are creatures without faith in their hearts. And so the Attitude of Islam towards them is that the believers should be stern with the opposers to God and His messenger. For that God demands; saying :

(1) The Table preads : 33.

(1) She that Disputeth : 22.

Ideals. For Islam did not base its unity on the colour of man, discriminating between a white man and a negro, or between the yellow or red races, or to torture one of them without a reason or rob him of his rights unjustly and aggressively.

There are some continents on this earth which pretend to be civilised nations. They consider themselves to have reached the summit in humanity, thought and culture but still they are enslaved by colour. They tourture the innocent first for the cause of colour and not for ideals or moral principles, because all this is against ideals and moral principles. The only reason for injustice, torture and aggression is their fanaticism against coloured traces. For that we ought to be proud of Islam which established unity among people on the basis of benevolence and truthfulness.

There are some countries during our actual age that still discriminate between classes. There should never be any distinction, because their people were brought up in the same place, drank the same water, ate the same food and breathed the same air. Naturally, there should not have been any distinction between them, but still this distinction exists in some countries :

It was not raised by any moral principle or ideal but it is raised only by tradition and covention.

In this case we ought to be proud of Islam because what counts is virtue and right, no matter if the person is an Arab or non-Arab, a white man or a negro.

"Verily, the noblest among you before God is the most virtuous".

Then the unity of principles in Islam produces the equality and the consolidation of the nation.

"For believers, men and women, are friends to one an other". And when the believers are together, helping one another, they are like a building of bricks, each is holding the other.

A moslem is the brother of a Moslem and should never fail him or give him up".

A Moslem is bound to all Moslems wherever they are. He must help the Moslem wherever he is. God reminds us of this bond of principles and that it is a bless of God in return to what man has done of follies, wheih make relations based on colour or home or any thing of that sort, which brings about shame to humanity when it gets rid of its follies. This bond is the root of all relations and home-lands.

God urges us to stick to the unity that is based on His lofty principles.

"And hold fast all of you together, to the cable of God and do not separate. And remember God's favour unto you; how Ye were enemies and He made friendship between your hearts".

The bond of principles in the divine and gigh vision is stronger

Society free from fear of death, it also has made it free from the worry about provision that concerns the man himlself who is in charge of the family and also concerns each member of the family, in both times of War and peace that is because : It is God who gives provision (God provideth every living creature, for he knows where it stays and where it lives).

"That which Allah openeth unto mankind of mercy, none can withhold; and that which he withholdeth, none can release thereafter He is the Almighty, the Wise"(1).

God hastold us that provision is appointed and determined in heaven. God has sworn that it is a truthful fact. God has sworn because of what He knows about the weakness of the human nature and how people are anxious about their living.

He Sayeth :

"And in the heaven is your providence and that which Ye are promised; and, by the Lord of the heaven and the earth, it is the truth, even as (it is true) that Ye speak"(2).

The wealthy man who depends on his broad wealth without putting in mind that it is God the Amlighty who has offered him his living and wealth, might lose all his wealth and his house if God wished as He Had done to Karoon. God might send one of his angels to visit his garden and fields and leave it lucked as God did to the owners of the gardens in the story He related to us in the Holay Koran, in the chapter of the Pen".

There is no doubt that we mustendeavour in order to earn our living. There are certain sins that are ever forgiven exceptable by endeavouring for provisions. It is true that serious and tough work is one of the features of Islam. And as livelihood isin the lands of God and labour is wanted, then what Islam forbids is this anxious and greedy Picture of people trying to obtain money by foul means or of those who think it is in the hands of one of the creatures of God to give or stop living, to increase or decrease it and take it or leave it.

This is the attitude of Islamic Society from the worry about provisions which might be a reason for its weakness nd its humiliati.

No. 3. — *The unity of a nation is one of the factors of victory.*

God the Almighty sayeth :

"Your nation is but one nation and I am your Lord, so worship Me".

There is no doubt that the call for the unity of the nation is the nature and one of the principles of Islam, because it is a unity that is based on principles and noble

(1) The Angels : 2.
(2) The winnowing winds : 22, 23.

ded by God for their bravery towards the cause of humanity and religion.

Declarations of Divine Statements to The Believers for The cause of Victory

No. 1. — In order that a moslem would not be a coward :

The primitive humanity since humanity existed is terrifird from death. This remained in the behaviour of the People and the result is Cowardice.

God the Almighty did not wish the Islamic nation fear death and become a nation of Cowards like other nations so He clarified this matterin the Koran and So did the Prophet, God bless him, in the religious law, sunna.

The owner of all Kingdoms is the only one who takes and gives life. He can bring death to the tyrants or leave them alive. When God does so, He does it for a certain wisdom He only Knows about. It is God who decides and fixes the days of our lives. When the day comes no one can postpone it oradvance it.

Being careful of life or being a coward does not prolong life. Bravery and audacity do not shorten life. God explains this very clearly in the Holy book. and as every soul dies at an appointed term, aslo every nation is finished at a certain time. But those who say; "Had we had any part in the cause weshould not have been slain here".

God the Almighty answers them:

"Say : Even though Ye had been in your houses those appointed to be slain would have gone forth to the places where they were to lie"(1). And to those who wrongly said to their brethren.

"If they had obeyed us they would not have been killed" God the Mighty, the Tremednous, orders his messenger (God bless him) To answer them saying :

"Then avert death from yourselves if you are truth ful"(2). But those the true believer is never a coward and the devil cannot misleasd him by whispering to him to fear anyone but God the Almighty.

No. 2. — *In order that a Moslem would not become a coward* :

If fear of death is the first reason for Cowardice then the second reason is what the devil whispers to man about provision and how he could provide his children and wife with provisions when he goes to war or when he dies as a martyr.

As God and his Messenger have explained in detail that life is limited to an appointed term, also God and His messenger have explained in detail that provision is determined by fate.

As Islam has made the Islamic

(1) The Family of Imran : 154.
(2) The Family of Imran ; 168.

with heaviness. Take Ye Pleasure in the life of the world rather than in the Here-after ? The comfort of the life of the World is but little in the Hereafter. If Ye go not forth He will afflict you with a painful doom, and will choose instead of you a folk other than you. Ye cannot harm Him at all. Allah is able to do all things."(1)

God has clarified that those who do not go to fight have no faith in God and in the last Day, for god sayeth :

"Those who believe in Allah and in the Last day ask no leave of thee to strive with their wealth and thier lives. Allah is Aware of those who keep theirduty (unto Him). They alone ask leave of thee who believe not in Allah and the Last day, and whose hearts feel doubt, so in their doubt they waven",(2),

Those who remain, behind thinking that this would escape them, from death are wrong because as we have seen before lives end and appainted terms.

When our Sire Khaled Ibn El Walid was on his death bed and all his body was stabbed by daggers and swords, he was sorry to die in bed. He wished to die as martyr in the field of battle.

As Cowardice does not prolong lives, bravery does not shorten. it. The Cowards sleep with their eyes opened but the brave are rewarded and what he took as spoils of war.

(1) Repentance : 38, 39.
(2) Repentence : 44, 45.

By Him who has the life of Mohammed in his hands, when the dooms day comes, any wound for the cause of God will appear again as it was when it happenend, having a red coulor like blood and I smell of fragrance.

By Him in whose hands lies the life of Mohammed; unless it is difficult to Muslims I should like to join any troop of soldiers fighting for the cause of God, but I am unable to do that so are they. It will cause them great trouble if they don't follow me as well.

By Him in whose hands lies the life of Muhammed, I would love to invade for the cause of God and be killed, then invade and be killed and invade again and be killed.(1)

He who is able to Strive but remains behind is a disbeliever

The person who does not pay his duty in striving for the cause of God does not foloow the divine rules of Islam. Because God has ordered us to strive and warned us of remaining behind.

God the Almighty sayeth about those who do not go to fight.

"O ye who believe! what aileth you that when it is said unto you : Go forth in the way of Allah, Ye are bowed down to the ground

(1) Reported by Muslim and Al-Bukhari.

to enter Paradise.(1)

It was reported by Abu Daoud from a Genuine source that Abu Umama - (God be pleased with him) said that a man said to the prophet :

"Messenger of God, give me sanction to travel for worshipping". The prophet said :

"The travel for may nation is their striving for the cause of God the Mighty, the Tremendous"(2)

It was reported by Abi Umama that the Prophet God bless him Said :

"He who does not invade or helps an invader to get ready or bring up one member of his family as a good invader, God will smite him with disaster before the coming of the dooms day."(3)

Abdullah Ibn Omar (God be pleased with him!) said that the Prophet said :

"If you neglect your strive, God will torture you with humiliation which will not be removed until you return back to you religion"(4)

Abu Huraira said that he had heard the Prophet saying :

"Going and coming for the cause of God is better for you than the world and what is in it."(5)

(1) Reported by Al-Turmizi and said : A tradition saying of the Prophet.
(2) Reported by Abu Daoud.
(3) Reported by Abu Daoud.
(4) Reported by Abu Daoud.
(5) Reported by Al-Bukhari.

Gaber Ibn Abdulla (God be pleased with him) said :

"When Abdullah ibn Omar Ibn Huram was killedduring the battle of Uhud, the Prophet said to Gaber, the son of Abdulla :

"Gaber ! do you wish to know what God the Alimighty said to your father ? ,,I answered" Yes.

The Peophet said :

"When God spoke to some one hespoke to him unseen but He confronted your father. God said to him" My servant, ask for anything and I shall give it to you". Abdulla said :

"O God! give me life again and I shall fight and be killed for your cause again". God said :

"As I have said before, those who die do not return to this world 1gain".

Abdulla said "O God ! say it again to all".

So a verse of Koran was revealed on that occasion saying :

"Thing not of those who are slain in the way of Allah as dead. Nay, they are living with their Lord and they have Provision."

It was reported by Al-Emam Mussiem from Abi Huraira that the Messenger of God said :

"God assures every one who strives for His cause and who believes in God and His Messenger either to enter Paradise or return him home from war with what he was

the best deed to be done ?[1]

"The prophet answered "It is to have faith in God and to strive for his cause."

It was reported by Abi Daoud, from a Genuine Source, from Anas (God be pleased with him !) that the prophet (God bless him) said :

"Fight in the way of Allah against the disbelievers with your wealth, your lives and your tongues"

It was related that the Prophet (God bless him) said :

"He who died without invading or even thought of invading had died on hypocracy."[2]

It was reported by Abi Al-Dardaa (God be pleased with him) that the prophet (God bless him) said :

"He whose feet were covered by dust in his striving for the caus of Allah, his body will never be touched by Fire.[3]

From Ibn Abbas who said that he heard the Prophet (God bless him saying) :

Two eyes will never be touched by fire, the one that weeps out of fear of God and the other that keeps guard all night for the way of God."[4]

It was reported by Abi Saeed Al-Khudri - God be pleased with him) that the Prophet was asked :

Messenger of God ;who is the best man among the people ? The prophet answered.

"A believer who strives for the cause of God with his life and wealth".[1]

It was reported by Sahl Ibn Saad Al-sadi (God be pleased with him) that the prophet said :

The suspense of one day for the cause of God is better than the whole world and all that is on it, and the going and coming for the cause of God is better than the world and whatis on it"[2] Abu Haraira (God be pleased with him !) said :

"Once one of the companions of the Prophet (God bless him) passed by a spring of fresh water. He liked the place and said : "I will retire from people and live by the spring but I will not do so until I ask the permission of the prophet "God bless him" He went tot he prophet and asked him and the prophet answered :

"Dont dot hat, because he who strives for the cause of God is better than he who prays for God, in his home, for seventy years. Dont you wish God forgives you and makes you enter his Gardens, then invade for the cause of God. He who fights for the cause of God deserves

(1) It was reported by Al Bukhari and Muslim.
(2) From Al-Nesai.
(3) As reported by Al-Tabarani in the Awsat.
(4) Reported by Al-Turmizi.

(1) Issued by Al-Bukhary.
(2) Reported by the Sheikh.

but begin not hostilities. Lo ! Allah Loveth not aggressors. And slay them wherever ye find them and drive them out of the places whence they drove you out, for persecution is worse thanslaughter"[1]

God sayeth :

"And fight them until persecution is no more, and religion is for Allah. But if they desist, then let there be no hostility except against wrong doers."[2]

God sayeth :

"O prophet! exhort the believers to fight. If there be of you twenty stedfast they shall overcome two hundred, and if therebe of you a hundred stedfast they shall overcome a thousand of those who disbelieve, because they (the disbelievers) are a folk without intelligence.

Now hath Allah lighten ed your burden for He knoweth that here is weakness in you, So if there be of you a stedfast hundred they shall overcome tow hundred, and if there be of you a thousand (stedfast) they shall overcome two thousand by Permission of Allah. Allah is with the stefdast."[3]

God sayeth :

"Say if your fathers, and your sons, and your brothers, and your wives, and your tribe and the wealth ye have acquired, and merchandise for which ye fear that there will be no sale and dwellings ye desire are dearer to you than Allah and His Messenger and striving in His way: then wait till Allah bringeth His command to pass. Allah guideth not wrong diong folk."[1]

God sayeth :

"And strive for Allah with the endeavour which is His right. He hath chosen you and hath not laid upon you in religion any hardship; the faith of your father Abraham (is yours). He hath named you Muslims of Oldtime and in this (scripture) that the messenger may be a witness against you and ye will be witnesses against mankind. So establish worship, pay the poor due, and fast to Allah. He is your protecting Friend, Ablessed Patron and a blessed Helper."[2]

And God Sayeth :

"As for those who strife in Us, We surely guide them to our paths, and lo ! Allah is with the good."[3]

The Tradition sayings of the Prophet (God bless him) are numerous and abundant.

Some of them are as follows :

It was reported by Abi Thur (God be pleased with him) that he asked the Prophet "What is

(1) The Cow : 190 — 191.
(2) The Cow : 183.
(3) Spoils of war : 65, 66.

(1) Repentence : 24.
(2) The pilgrimage : 78.
(3) The Spider : 69.

Here are some verses of Koran and sometradition sayings which illustrate clearly the attitude of Islam to wards striving : God the Almighty sayeth : (Mohamed; L. 4,5).

"Now when ye meet in battle those who disbelieved then it is smiting of the necks until, when ye have routed them, then taking them as captives; and afterwards either grace or ransom till war lays down its burdens. That (Is the ordinance) and if God willed He would have punished them (without you) but (thus it is ordained) that He may try some of you by means of others. And those who are slain in the way of Allah, He renderth nottheir actions vain. He will guide them and improve their state, and bring them in unto the Garden which He hath made known to them."[1]

God sayeth : (Repentance L : 14, 15).

"Fight them ! Allah will chastise them at your hands, and He will lay them low and give you victory over them and he will heal the breasts of folk who are believers. And he will remove the anger of their hearts. Allah relenteth towards whom He will. Allah is knower and wise"[2].

God sayeth "(Repentence L: 16).

"Or deemed ye would be left (in peace) when Allah yet knoweth not there of you who strive, choosing for familiar none save Allah and His messenger and the believers Allah is Informed of what ye do."[1]

God sayeth : (The family of Imran L. 142).

"(Or deemed ye that ye would enter Paradise while yet Allah knoweth not those of you who really strive, nor knoweth those (of you) who are stedfast?"[2].

God sayeth: Muhammed L: 31).

"And verly We shall try you till we know those of you who strive hard (for the cause of Allah) and stedfast, and till re test your record"[3]

God sayeth : (Women L : 74).

"Let those fight in the way of Allah who sell the life of this world for the other. whoso fighteth in the way of Allah, be he slain or be he victorious, on him we shall bestow a vast reward."[4]

God also sayeth: (Repentence L: 41).

"Go forth, light-armed and heaving - armed, and strive with your wealth and your lives in the way of Allah ! that is best for you if ye but knew."[5]

God Sayeth :

"Fight in the way of Allah against those who fight against you,

(1) Mohamed : 4 — 5.
(2) Repentence : 14 — 15.

(1) Repentence : 16 —.
(2) The Family of Imran : 142.
(3) Mohammed : 31 —.
(4) Women; 74.
(5) Repentence : 41.

Thus if the enemy is, for example in Plestine - as the case actually is - Jihad is enjoined upon the Muslims of Pakistan, of India, of Algeria, of Tunis ... etc. It is an injunction upon every Muslim on the globe.

This is not to say that every person-whatever his job is - must give up his work, take to arms and make for the battle - field. It means that the whole state must be fully mobilized.

All the Islamic States have to mobilize their efforts now, in order to pay the duty of striving or else, every individual or state will be considered as a Sinner.

The only Islamic attitude of Islam in concern with striving is that every Moslem should get ready to become a soldier fighting for the cause of God by his life and his wealth.

One day, one of the Companions of the Prophet (God bless him), passed by a spring of fresh water. He liked the place and wished to retire from people and live beside it to worship God, there in isolation. He wanted to retire to the mountain, drink from the water of the spring and eat the plants that grow around it. He wanted to live there in contentment and peace. But he said to himself that he would not do so unless he asked the premission of the prophet (God pless him). The prophet said "Dont do this, because he who fights for the cause of God is better than he who prays for God at home for seventy years", If you wish that God may forgive you and make you enter his Paradise, then invade for His cause. He who fights for the cause of God even for a period as short as the interval between two miliking-times of a she camel; deserves to inter his gardens.

It is the duty of every Moslem to prepare hiself and to be always ready as a soldier to strive for the cause of God. It is also his duty to be careful not to lose this quality because he who learns some technique of war and neglects them, and is careless about defending his home land is considered by God, a big sinner, Nevertheless there is no harm in reminding the people again that; striving is lawful, in Islam, when it is for self-defence, for the restraint of injustice, for the abolishing of tyrany, for the emancipation of people and to give way for truth, guidance and benevolonce which tyrant kings and princes have always tried to stop.

The first verse of Koran that expresses the reason for the legality of striving says : (The piligirmage : 39, 40.) "Sanction is given unto those who fight because they have been wronged; and Allah is indeed able to give them Victory; those who have been driven from their homes injustly only because they said our Lord is Allah[1]".

---

(1) The Pilgrimage : 39 — 40.

Messenger - blessing and peace be upon himsped, with his companions, so that they might reach Badr before the polytheists.

When the latter arrived, Allah's Messenger - blessing and peace be bestowed upon him - said.

"None of you shall proceed to do anything unless I am in between."

The Polytheists approached, whereupon said Allah's Messenger blessing and peace be upon him.

"Raise ye to a garden as vast as heaven and earth."

Thereupon, 'Umayr-ul-Ansariyy-Allah be pleased with him-said, "Messenger of Allah ! Is it a garden as vast as heaven and earth ?".

Said Allah's Massenger : "yes" said "Umayr" : "hurrah! hurrah!" "Said Allah's Messenger : "What is that prompts you to say Hurrah ! "Said Umayr : "In the name of Allah O Messenger of God, I said so only because I hope to be one of its inhabitants."

Said the messerger : "Nay, you are one of its inhabitants."

At that point, "Umayr produced a few dates, from his sack, and started eating, then said :

"Should I live till I finish my dates, it would be a too long life indeed".

He flung whatever dates were left with him, then went fighting till he perished. (This is related by Muslim).

Thus : Allah's Messenger (blessing and peace be upon him) - says (according to Imam Muslim) after abu Hurayra - Allah be pleased with him - the Messenger, being ever the truthful mouthpiece of the believer :

"By Him in whose hand is Muhamed's soul, I wish had conquered, in the path of Allah, and perished then conquered and perished, then conquered and perished."

Allah's Messenger - blessing and peace be upon him - said that only out of Knowledge of the satisfaction of Allah with the martyrs. Allah enjoins Jihad upon Muslim in a statement that is outspoken beyond all ambiguity and vagueness : He - blessed be His name - said "war is prescribed to you : but from this ye are averse. Yet haply ye are averse from a thing though it be good for you and haply ye love a thing though it be bad for you : and Allah knoweth; but ye know not."

(Cow : 217)

It is understood that this injunction is confined to those who are on the spot and are qualified for fighting, as long as the enemy is outside Muslim lands. But when the enemy is within Muslim lands, Jihad becomes an unqualified injunction upon every Muslim, wherever he is.

that faith is nullified, when one flees from Jihad, or shrinks from it.

The Faith - pact between Allah and ourselves, has — as one of its most important stipulations — the article that we — in fulfilment of the terms of the compactare under the obligation to give a way our lives and property for Jihad in the cause of Allah. The recompense of this self — denial is the Garden of Eden.

Allah makes that clear — beyond all doubt — in this verse :

"Verily, of the Faithful hath Allah bought their persons and their substance, on condition of Paradise, for them in return; on the path of Allah shall they fight, and slay and be slain : a promise for this is pledged in the law, and in the Evangel; and in the Qur'an - and who is more faithful to this engagement than Allah ? Rejoice, therefore, in the contract that ye have contracted : for this shall be the great bliss."

(Repentance : 111)

On the descent of this verse, the Disciples - Allah be pleased with themhailed it in those words : "At a great profit is the sale. We shall not rescind it or ask anyone to do so.

Thus the believer is a person devoted to Jihad "in the path of Allah", at every minute. In the cause of Jihad, he gives away his property his life and his time. Deeds and words are both his instruments of fighting. Human existence must be a Jihad, at all stages of life. Hence, the early Muslims competed along the route of Jihad. Allah - Blessed be his name - protrays them in this verse :

"They who blieve in Allah and the Last Day will not ask leave of thee to be exempt from contending with their substance and their persons. But Allah knoweth these who fear Him."

(Repentance : 44)

As for hypocrites, and those who have no faith, they seek pretests for shrinking from Jihad. They ask leave for flinching from it. They have recourse to sloth and langour. Allah - blessed be He - exposes them, and protarays both their outside and inside :

"They only will ask thy leave who believe not in Allah and the Last Day, and whose hearts are full of doubts, and who are tossed up and down in their doubts."

(Repentance : 45)

Hence for the sake of pleasing Allah - blessed and exalted be He - and for the sake of admission to the Garden of Eden, where one has the sight of His holy image, the Muslimes compete in Jihad. Imam Muslim related that Anas - Allah be pleased with him - said : "Allah's

competing at arrow-shooting, whereupon he said.

"Shoot, ye descendants of Isma'il your father was a bow-man".

The Prophet - Allah's blessing and peace be upon him - hated to hear that any man learned missile - shooting but came to give it up and neglect it."

Imam Muslim related that Ibn - Hammad - Allah be pleased with him - said that Allah's Messenger - Allah's blessing and peace be upon him - said :

"Whoever learns missile - shooting then gives it up, is none of us, or he has sinned."

The Messenger - Allah's blessings be bestowed upon him - did not omit the manufacture of arrows, or the recompense of their maker. He remarked that such a man's reward is the Garden of Eden, as longfas they are made for the cause of Allah. Thus Ibn - Dawood - Allah be pleased with him - related that Allah's messenger - Allan's blessing and peace be upon him - said :

"Allah - for a single arrow - admits three men to the Garden of Eden : its maker (being a good - doer); its shooter and one who prepares it for shooting.

Shoot and ride. Verily shooting is nearer to may heart than riding. Whoever has learnt shooting and then abandons it, throug aversion, throws away a blessing bestowed upon him, or rather, betrays ingratitude."

Allah's Messenger - blessing and peace be upon him - exhorted men to learn riding - both for horsemanship and for Jihad. He urged the breeding of horses, and lavish expenditure of them.

He himself loved them, and rode and tamed them.

Ibn Yasar - Allah be pleased with him - said - according to Imam Ahmad and Nissa'i - that nothing was nearer to the heart of Allah's Messenger than horses. It was he - Allah's blessings be upon him - who said - according to al-Bukhari and Muslim :

"Verily tied to horses' foreheads are good, and moral, recompense and booty, up to the Day of Judgment."

Concerning this readiness, both material and moral, Allah says, commanding and directing :

"Prepare against them whatever power you can command."

This power may be either material or moral. The capacity of commanding power is in truth, limitless. Thus the act of preparation has no end, nor may it slacken at any time.

Allah did draw a close union between faith and Jihad. It is a soild union that is unbreakable. Faith and Jihad are so united by Allah,

The reasons for giving the permission to fight are general ones. They are the very reasons for the Islamic Jihad in the causes of Allah everywhere and in every age, namely putting an end to oppression in general — in its numerous ugly aspects like ejecting the guiltiless and the peaceful from their homes, and dispossessing them, or confining them to their homes in a satate of humiliation, servitude, in violation of the rights of man, andt he principles of morality.

Among the reasons for the permission to fight is the deviation from right and good and from monotheism and justice.

Thus came the permission to fight and came the commandment of Jihad. The persuation to Jihad was sometimes based on purely psychological lines. At other times, it adopted social lines and tackled the place of the Islamic Nation in the universe.

Sometimes, It tackled reasons and motives. At other times it inclined to the expounding of the reward and the recompense; from Allah— blessed and exalted be His name.—

Jihad in Peace And war

"Perscribed for you is fihting, but it is hateful to you. yet peradventure that ye hate a thing while it is good for you, and peradventure that you love a thing while it is bad for you; Allah knows, and ye, do not know."

(Cow : 216)

Related by Imam Muslim that Abu-Hurayra - Allah be pleased with him - said that Allah's Messenger, - Allah's blessing and peace be upon him - said : "Whoever dies, having had no part in nor thought of partaking of conquest die with a tint of hypocrisy."

The holy verse quoted above is corroborated by many other. The honoured Tradition just quoted is also backed by innumerable others. All in all, they enjoin Jihad in the cause of Allah, and impose it, in all its various aspects. The Commandment of Jihad has a far-stretched and varied range, in accordance with the extant conditions and circumstances. It is a commandment whose aspects vary according to the variance of the need to in peace and in war.

Jihad in peace is a state of readiness that never slackens. On the one hand, it is moral readiness, consolidating faith, and confirming the dependence on Allah. On the other hand, it is a material readiness, which is not confined to a single one of the elements required for power.

Allah's Messenger —Blessing and peace be upon him—encouraged missileshooting, and was pleased whenever he saw the Muslim youth learning it. Related by al-Bukhari that Salmah Ibn-al-Akwa' - Allah be pleased with him said :

"The prophet — Allah bestow His blessing and peace upon him — passed by a throng of youngmen

2. Justice
— in the field of legislation.

3. Mercy
— in the field of morals.

When Allah, the Gracious, the Merciful, the Affectionate; the Nigh, the Responsive, speaks of the "raison d'être" of the Islamic mission, its significance, its nature, its general character and its specific character, He proclaims it as "MERCY".

Thus the says :

"We sent you only out of mercy to mankind".

This is the path of Allah, and the mission which the Islamic Nation was enjoined to believe in, to propagate, to guard and to consolidate in souls and ,in all lands.

Should countries allow the call to it, and the propagation of its principles-this bieng monotheism, justice and mercy.

Should communities and people come to believe in this mission, which is right and good.

Should individuals and nation adopt this religion, where - in lie their wellbieng and felicity...

The Islamic nation would have no occasion for armed Jihad, and there would be no fighting in the cause of the Islamic call.

But the Messenger-Allah bestow upon him blessing and peace-continued the persuation of his people day and night, and the more he persuaded, the more they turned away from him. Whenever he called them to the path of Allah, they put their fingers in their ears (they turned a deaf ear), hid their faces under their clothes, persisted, and took to arrogance. The Messenger - Allah bestow upon him blessing and peace - openly invited them to Islam having previously called for Islam in confidence.

The polytheists did not respond to the voice of monotheism and justice. They did not respond to the voice of virtue and noble morals. They did not even adopt a passive attitude. They tormented the Moslems, ejected them from their homes; hence came this holy verse.

"Permission is granted unto those who take arms against the unbelievers, for that they have been unjustly persecuted by them; and Allah is certainly able to assist them : who have been turned out of their habitations injuriously, and for no other reason than because they say, Our Lord is Allah.

(Pilgrimage 39-40)

The polytheists tyrannized, and drove the Prophet — Allah's blessing and peace be bestowed upon him — form their community, and were on the point of murdering him. They displaced his followers, scatteuing them beyond hope of reunion : Some of them going to Abbysinia, the others to Medina.

not measure and weight. Verily I see you to be in a happy condition but I fear for you the puni shment of the day which encompass the ungodly."

(Hûd : 84)

And says He-His be omnipotence and glory - indicating His path through commandment and interdiction :

"Verily, Allah enjoins justice and the doing of Good and gifts to Kindred and he forbideth wickedness and wrong and oppression. He warneth you that haply ye may be mindful."

(The bees : 90)

And says He :

"O prophet, when believing women come unto thee, and plight their faith unto thee, that they will not associate anything with Allah, nor steal, not commit fornication, nor Kill their children, nor come with a calumny which they have forged between their hands and their feet, nor be disobedient to thee in that which shall be reasonable : then do thou plight thy faithunto them, and ask pardon for them of Allah, for Allah is inclined to forgive, and merciful." (The Woman who is tried : 12).

And says He (blessed by His name) :

"Say: come, I will rehearse what your Lord hath made biding on you-that ye assign not aught to Him as partner; and that ye be good to your parents; and that ye slay not your children, because of poverty : for them and for you will we provide : and that ye come not near topollutions, outward and inward : and that ye slay not anyone whom Allah hath forbidden you, unless for a just cause. This he enjoined on you, to the intent that ye may understand.

And come not nigh to the substance of the orphan, but to improve it, until he becomes of age : and use a full measure and a just balance : We will not ask a soul beyond its ability. And when ye give judgment, observe justice even though it be the affair of a Kinsman, and fulfil the covenant of Allah. This hath Allah enjoined you for you monition.

"And 'this is my right way". Follow it then; and follow no other paths, lest ye be scattered from His path. This hath He enjoined you, that ye may fear him.

(Cattle : 151-152)

The messenger - Allah's blessing and peace be upon him sums up his Message in the following statement :

"I have been sent to accomplish nobility of morals."

There is no doubt that nobility of morals consists in :

1. Monotheism
— in the field of creed.

and dignified statement wonderful in truthfulness, laconism and eloquence - is his saying :

"Verily, that which is preached by Muhammad-were it not a religionis at least beautiful as morals."

(*c*) Even Abu-Sufian, the bitter enemy of Islam, could not deny—before his conversion to Islam—that Muhammad calls for prayer, Almsgiving, and the observance of the blood that ties and inter-Moslem friendship. Abu-Sufian acknowledged that matter amidst a crowd of witnesses, in reply to a question put by Hercules, according to the account of Imam Al-Bukhari, pleased be God with him.

(*d*) The path of Allah is that delineated byAllah—exalted beHe—and revealed by him to his messenger-upon him be Allah's blessing and peace, and thus becoming the Quran and the Sunna.

The path of Allah, according to the Holy Quran and the Honoured Sunna is crystallised and focused in:

1. Monotheism
   (In the field of creed)
2. Mercy
   (In the field of morality)
3. Justice
   (In the field of Legislation)

Says Allah (blessed and exalted be His name) in the field of creed:

"Never have we sent a messenger before thee, but with the revelation that there is no God but I, thus worship me."

(Prophets : 25)

For further evidence He says, in an account of our master, Hûd :

"To' Ad, we dispatched their brother Hûd; he said, "Ye my people, worship Allah; no God have you but He. Verily you are mere slanderers. Ye my people, I ask you no recompense, My recompense being charged to none but Allah. Will Ye not there-fore understand ? My people, plead for the forgiveness for Allah, your Lord, and repent. Thereupon he will send you plenty of rain, and bestow further power upon you. Do not turn your heels, being criminals.

(Hûd : 50-52)

In the account of Salih : God, the Almighty, says : "And to Thamud (We dispatched) their brother Salih - He said : (Ye my people, worship Allah; Ye have no God other than He. It is he who hath produced you out of the earth, and hath given you an habitation therein. Ask pardon of him, and be turned unto him; for my Lord is near; and ready to answer)"

(Hûd : 61)

And in the account of Shu,ayb: "And unto madyan, (We sent) their brother Suh'ayb. He said : "O my people Worship Allah; ye have no god but him, and diminish

brought by Muhammad-God bless him-only came from the same fount whence issued the mission of Iesus-peace be upon him.

The path of Allah, as portrayed by our master Ja'far is Monotheism, the exclusive worship of Allah, veracity, the delivery of trust, the observance of the ties of blood, good will to one's neighbour, and abstinence from sin and bloodsheds; prayer-saying, alms-givings and fating; keeping clear of fornication falsehood, embezzlement of the orphan's property, and slandering the chaste females.

The path of satan is :

Idolatry: servitude to one's appetites, domineering, tyrannizing, enslaving others, ejecting the peaceful from their homes without any reason.

The path of Satan is: doing fornication, isolation of the ties of blood, abuse of neighbourhood, and the oppression of the weak by the strong.

The path of Satan is also: falsehood, propagating false rumours, cheating in all its forms, robbing the orphan, and slandering the chaste females.

Should we look for another representation-a comprehensive one-of the path of Allah, according to a wise man of Arabia, that had not hitherto been converted to Islam, (Aktham-ibn Sayfi, by name), one may, for a more realistic protrayal of the matter, recount the following anecdote :

"When Muhammed made his appearance in Mecca as a prophet, and preached Islam, Aktham-Ibn-Sayfi dispatched his son (Hubaysh). The latter returned with full information about Muhammad, whereupon Aktham assembled-Bani-Tamim Tribe, and addressed them, saying among other things.

"My son has had an interview with that man, and brought full information about him and his book. This man calls for beneficence, and forbids (in it) abomination, and enjoins in it high morals. He preached monotheism-the exclusive worship of Allah-exalted be He, the rejection of idols, and abandonment of swearing by fore. Those who are wise among you have come to know that what he calls for is good, and that leaving what he forbids is good judgment."

Then he said these wonderful words :

"Verily that which is preached by Muhammed—were it not a religion—is at least beautiful as morality".

The path of Allah-as conceived by Aktham-is :

Acknowledgment of Allah as the only God, calling for beneficence, forbidding abomination, and adoption of beautiful morals.

"Adoption of beautiful morals," is an exquisite phrase that is inclusive. But his really admirable

to their people, who are better-informed."

When the Nagashi had listened to them, he deemed it wise not to deliver the immigrants until he heard what they got to say. He thus invited them to his presence, and asked : "What is that religion wherein you have deviated from your people's creed, and yet have not adopted my religion, or that of anybody else.

It was Jaafar-ibn-abi-Taleb that replied, saying :

"Ye King, we were barbarous men that worshipped idols, ate that which died of itself, committed the deadly sins, paid no regard to blood relationship, nor to the right of our neighbour. The strong of us devoured the weak.

"We thus lasted till Allah sentous a messenger, of our own race esteemed by us for his descent, truthfulness, integrity and purity. He invited us to monotheism, to the worship of Allah, to the rejection of the former objects of our worship, the stones and the idols.

"He enjoined veracity, the delivery of trust, the observation of the ties of blood, goodwill towards our neighbour, and abstinence from sin and blood-shed. He forbade fornication, falsehood, robbing the orphans and slandering the chaste. He commanded us to worship none but Allah, to attribute divinity to none other than Him, to observe prayer, alms-giving, and the fast... (Here he expatiated upon the teachings of Islam.)"

We therefore believed him, and accepted his teachings, and followed him in obeisance to that which was revealed to him from Allah. We thus came to worship Allah and none else, to attribute divinity to none but Him. We forbade what he had tabooed, and permitted what he had conceded.

Our people tyrannized over us, tormented us, and prosecuted us on the score of our religion, in order to idolatry, taking us away from the worship of Allah—blessed be He—and to practising our old filthy deeds. When they overpowered us, oppressed us; fettered us and barred us from our religion, we fled to your land.

When a portion of the chapter of Mary was read to him, Nagashi wept and said. "Verily, both this that I hear and that which was revealed to Jesus come from the same source of light. Then he turned to Abd-ullah-ibn-Rabi'a and 'Amr ibn-il-As and said : "Away, both of you; by God, never will I deliver them to you."

Nagashi, immediatche had heard the discourse, learned the priniciples of Islam.

These principles are sound. They are clear verses, whose truth is evident to the clear-headed. He came to know that that which was

"Fight for the cause of God; and know that God is He who heareth and knoweth."

From these holy Quranic Verses, it is evident that Jihad in Islam is a strife for a principle. This (principle) being expressed by Allah in terms of : the path of Allah, this path being Good, Justice and Right. Thus fighting in Islam is done :

1. So that the only worship be that of Allah;

2. Lest there be civil discord;

3. On behalf of the weak among the men, women and children, these being powerless, victimized by tyrants, and harassed by much evil. Hence they plead with God, (the Almighty to save them from oppression and on behalf of those who have been ejected from their homes, and expropriated, for no reason other than their saying : "Our God is Allah".

One might ask :

"What is the path of Allah ?"

"How may the only worship be that of Allah ?"

In order to indicate the path of Allah, one may point out certain Islamic principles implied in the real accounts that reflect the path of Truth and the path of Error, and point out the followers of Allah and the followers of Satan :

1. Among the earliest of those accounts is that of emigrants to Abbysinia for the cause of their religion. They never emigrated as tourists seeking pleasure or responding to the call of lust. They never emigrated for worldly advancement or in pursuit of a women. They emigrated with their religion, for their religion. They emigrated from the home of tyranny and injustice, for the sake of Allah, noble morals and ideals.

They were ejected from their homes, for no reason other than their saying, "Our God is Allah".

When they arrived, with their religion, in Abbysinia, the Quraishites dispatched, to the Nagashi, a delegation comprising Abdu-llah-Ibn-abi-Rabi'a-and Amr ibn-ul-As. The delegation asked for the delivery of the fugitives, with a view to subjecting them to further persecution.

When the Delegation appeared before the Nagashi, Amr ibn-ul-As began thus :

"There arrived in your land certain ill-advised youngsters that have forsaken the religion of their people, yet have not been converted to your own. They have invented a new creed not known to us, nor to you. We are dispatched by the dignitaries of their people, their fathers, unclesand tribes, to plead for the delivery of these fugitives

THE JIHAD

By

His Eminence Dr. Abd-ul-Halim Mahmoud

Rector of Al-Azhar

The Jihad and Victory by the will of Allah

In the name of Allah, most Gracious, most Merciful. Praised be the Great Allah, Lord of Heaven and Earth. Blessing and Peace be to the noblest of militants, braves of fighters, and best of the whole creation, our Master, Muhammad, his household, his Companions and all that followed his Guidance down to the Day of Judgment.

Jihad in Islam is A Strife For Principles

Allah (Blessed and Exalted be his name) says :

"But what hath come to you that Ye fight not on the path of Allah, and for the weak among men, women and children, who say, "O our Lord ! bring us forth from this city whose inhabitants are oppressors; give us a champion from thy presence, and give us from thy presence a defender".

"They who believe, fight on the path of God; and they who believe not, fight on the path of thagout : Fight therefore against the friends of Satan. Verily the craft of Satan shall be powerless".

(Women : 75-76)

And says He, the Omnipotent and Glorious :

"Fight therefore against them, until there be no more civil discord, and the only worship be that of Allah, but if they desist, then let there be no hostility, save against the wicked."

(Cow : 193)

And says He, Blessed be his name :

numerous advantages, excellences and superiorities. He was thus as erudite scholar, as adequate rector of Al-Azhar, as True Sufi and as brave courageous international Muslem Leader.

I shall not be righteous if I have tried to bewail him or to write a proper eulogium but I have to leave this task to the annals of history.

"Lo ! those who believe and do"
"good works, theirs are the gardens of"
"Paradise for welcome."

Zaher A. El-Zoghby

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)
English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

Volume: 51 No. — 1 Mohrram Muharrm 1399 A.H. — December 1978 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

ABSENCE OF GLITTERING STAR

By

Zaher A. El-Zoghby

"But ah! Thou soul at peace"
"Return unto thy Lord, Content in His good pleasure !"
"Enter thou among My bondmen"
"Enter thou My Garden !"

Waves of painful sadness extended and covered all world with the death of His Eminence, The Grand Imam, SHAIKH AL-AZHAR Dr. ABDUL-HALIM MAHMOUD.

The Grand Imam was of distingwshed merits, superhuman talents and proper manliness.

Aptly he ascended upto the summit position of the international Islamic Leadership that enabled him to preach and defend the effective idealistic principles of Islam.

The Late Dr. ABDUL-HALIM MAHMOUD Was a man of

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
٩٩٩٢٢
٩٠٩١٤
٥٠٠٠٦

الجزء الثانى – السنة الحادية والخمسون – صفر ١٣٩٩ هـ (يناير ١٩٧٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

غارة التتار على العالم الإسلامى

" أسبابها ونتائجها "

العلامة أبو الحسن الندوى

غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الإسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الإسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر . وسيطروا على العالم الإسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل إليه جنكيزخان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار قتله أيضاً ، فاشتعل جنكيزخان غضباً وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم

شاه ، ثم على عالم الإسلام كله .

ولكن إذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد نتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره فى بدء سورة الأسراء من تدهور بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض ، وعلوهم وتمردهم وما جرّ ذلك إلى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى إسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى والمحنة التى أصيب بها العالم الإسلامى ، ليس اقتراف ملك أو حاكم أخطاء فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ويفاجأ العالم الإسلامى ، وتصاب الأمة الإسلامية بهذه الفتنة العمياء — التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها — لمجرد أن يخطئ فرد من أفرادها .

إذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية والمدنية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجأة وإنما هناك أسباب أكثر عمقاً وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب أن نرجع سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس بإجمال أوضاع الدول الإسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

أوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر :

إن المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت إليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة وأولى العزم من الحكام ، فقد ظل الصراع قائماً بينهم إلى مدة طويلة ، حتى أن بعضهم لم يتورع عن الاستعانة بالصليبيين وتدبير المؤامرات ضد أخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطراباً سياسياً وانحلالا خلقياً وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة ، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الإفرنجية تتعاقب على تلك الحواضر الإسلامية التى كان السلطان صلاح الدين قد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد

فشت أمراض وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى والانحراف الإدارى ، وفى سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة فى مصر إذ لم يفض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين : العادل والأفضل ، حتى اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة ، فى الذيل :

« إن العادل كفَّن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مائتى وعشرين ألف ميت ، وأُكِلَتْ الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأُكِلَ من الصغار والأطفال خلق كثير ، — يشوى الصغيرَ والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القوىُّ الضعيفَ فذبحه وأكله » .

واستمرت هذه الحال وفقاً لسنة الله فى الأرض ، وظلت الانذارات السماوية والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والإنابة إلى الله ، وإصلاح أحوالهم . وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة والروم والعراق ... وخَرِبَتْ محالٌّ كثيرة فى طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم ... وماتت أمم لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : إنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان قتلا تحتها والله أعلم .

هذا ، وقد تفاقم الشر فى مركز الخلافة (دار السلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والسلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفاء وبلغت الثروة والمدنية ذروتها ، ولا يمكن أن تتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفاء من المال والعقار .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها ثلاث مائة ألف دينار سنوياً ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ؛ وكذلك مجاهد الدين أيبك الدويدار المستنصرى وقد ملك جزيل الأموال من الينابيع ، والرقيق ، والدواب ، والعقار والبساتين

والضياع ، ويتعذر وصف ما أنفقه من قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف . كما أن الفرّاش صلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى سنة ٦٤٨هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش — مع خُلُوّه من العلم — عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة إسلامية فيها ، لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ ديناراً شهرياً .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين أيبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصل .

ولكى ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات . ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠هـ واستمر إلى الليل ، حتى صلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء ، وذكر فى « العسجد المسبوك » : « أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤هـ خرجوا إلى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة فمن الأمور المألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغام .

وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، وإلقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف إلى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال » .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ويأتون عليهما من كل جانب ، وكانت أبصارهم شاخصة إلى بغداد ، أكبر مركز إسلامى فى ذلك العهد ، ويتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى

أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الإسلامية مركزاً للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولم يستطع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة – التى قد جرت عادة خلفاء الإسلام من قديم بتغييرها – بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة إلى ٢١ يوماً ، فتشاءم به الناس.

فى سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته إلى أكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ، فيقول :

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالماً ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان يفعل الشىء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق وصيد الطيور ولبس سراويل الفتوة ، وأبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا لمن يلبس منه سراويل يدعى إليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويل الفتوة ، فأجـــاب الناس بالعراق وغيره إلى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ، وكان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك » .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦٢٢ هـ ، وخلفه المستنصر بالله ، وكان جميل الصورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسناً إلى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجاً للخلفاء الصالحين فى كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه – مع الأسف – لم يجد فرصة للتنظيم والإصلاح ، وخلفه ولده المعتصم بالله فى سنة ٦٤٠هـ ، وكان المستعصم صحيح العقيدة متديناً يظهر عليه خشوع وإنابة ، لم ينقل عنه إنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكراً ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من

كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن ومواظباً على الصلوات فى أوقاتها. إلا أن المستعصم لم يكن بصيراً بتدبير الملك – على ما رواه ابن كثير – ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد بن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضىّ الطريقة ، فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السُّنَّة والرافضة فى سنة ٦٥٥هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور أقرباء الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد » .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد – وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب – كانت جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش ، كلهم قد صرفوا من إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأمام أبواب المساجد وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله ، وذلك كله بسبب آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » .

كان المستعصم رجلا صالحاً حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على إصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه إلا مَنْ رزق الإرادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سداً منيعاً فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال إلا العظماء الذين افتتحوا عهداً جديداً وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم فى مملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ، غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت إلى آخر نقطة من الانحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين هذه الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء وتقتضيها طبائع الأشياء .. وشاءت الأقدار أن

يُعْتَبَرَ ذلك الرجل الأخير مسئولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على إصلاح الفساد من سلفه الماضيين .

وقد كان عدد من الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة ، كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين . يقول المؤرخ أبو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالإقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية ، واشتغلوا بما لايجوز من الأمور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، اشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر ، ولا يدوم مع الظلم » .

القسم الشرقى من المملكة الإسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الإسلامى كله خاضعاً للحكم الخوارزمى باستثناء مصر والشام والعراق والحجاز والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧) أعظم ملوك الأسرة طموحاً ، وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحاً وانتصاراً ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم فى عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيرلد ليمب » فى كتابه (جنكيزخان) فيقول :

« كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعاً على عرش الملك فى قلب البلاد الإسلامية وكانت رقعة ملكه تمتد من ثغور الهند إلى بغداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) إلى خليج الفرس ، وكان مسيطراً على الممالك الإسلامية كلها عدا دولة الأتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصليبيين ، وأسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد إمبراطوراً بالنظر إلى مكانته بالرغم من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، إن الخليفة فى بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى شأن البابوات فى روما » .

أما المؤرخون العرب فإنهم لا يشيرون إلى موضع ضعف أو عيب شخصى كبير فى سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل

إنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبه وطاقاته فى القضاء على الحكومات الإسلامية الصغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت فى هذا الجزء الشرقى الواسع ، وأنه أجبر السلاجقة إلى التأخر والانسحاب إلى آخر حدودهم فى جانب ، كما أنه ظل يحارب الغوريين فى الشرق والحروب فى جانب آخر ، واضطرهم إلى الانحصار فى جزء محدود . وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى إيران وتركستان قد أنختها الحروب الطاحنة المتواصلة التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى يسود على المدن والأقاليم الخصبة الغنية وعلى مشاعر أهلها فى كل حين ، وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات وأدوات الزينة فبلغت ـ بذلك كله ـ المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الغنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ـ التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ـ فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى والسراقى ، ورجال الحكومة . وإن مظنة هذا الحديث هى كتب المشايخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ التى اكتسح معظمها السيل التتارى ، ولا يسعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « هيرلد ليمب » فى كتابه «جنكيز خان» على مجال التعصب الدينى والمبالغة ، إنه يقول :

« إن العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد وكان لا يخلو من شغف بالغناء والموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز ، لكنه برغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ، ويترفهون على حسابها ، وكانت حراسة الحرم ، والإشراف على السراقى للخصيان » .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم

قانون المكافأة الإلهى ، وبذلك بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالماً مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الدينى والواجب الإسلامى ، كان مقتضى الحزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بإيجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجاً ، يحفظهم من ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم.

زحف التتار نحو العالم الإسلامى :

فى هذه الأحوال والزمان تقدم التتار بادئ بدء ، كعقاب إلهى بقيادة ملكهم « جنكيزخان » نحو الجزء الشرقى للعالم الإسلامى ، إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، وأخيراً قاموا بتدميرها وإبادة أهلها سنة ٦٥٦هـ

(واتّقوا فِتْنةً لا تُصيبنَّ الذين ظَلَموا مِنكم خاصّة ، واعْلموا أن الله شَديدُ العقابِ) .

إن الدافع القريب لهذا الزحف التتارى فى عالم الأسباب ، هو أن جنكيزخان بعث إلى خوارزم شاه رسولا يقول له : إنك تحكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة ، فإذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ، وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين ، فقبل ذلك خوارزم شاه ، وقامت العلاقات التجارية وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ، ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الإسلامى ذلك اليوم المشئوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماماً ما جاء فى التاريخ الإسلامى . إنه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيزخان بين البلدين فجأة وكان السبب فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متجهة من (قراقورم) إلى الغرب ، فلما وصلت إلى « اترار » تعرض لها حاكمها الذى كان يدعى باينل جق وأسر رجالها ، وأخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ، وقال إن هذه القافلة لا تخلوا من جواسيس جنكيزخان وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما أن وصل الخبر إلى خوارزم شاه

حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ، ويتأنى فى إصدار الأمر ، ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم ، ولما علم بذلك جنكيز خان ، أرسل سفراءه إلى خوارزم شاه يشكو إليه ما حدث مع هؤلاء التجار ، وانتهز خوارزم شاه الفرصة فقتل رئيس السفراء ، وأمر بإحراق لِحَىٰ الباقين الذين رجعوا إلى جنكيز خان وقصوا عليه القصة ، وفور سماع هذه القصة صعد جنكيز خان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر ، وكان لا بد من القصاص لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

وأعلن جنكيز خان قائلا : إذا كانت السماء لا تحتمل وجود شمسين ، فإن الأرض — كذلك لا تحتمل وجود ملكين » .

أبو الحسن الندوى

هو ما وافق القرآن

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — فى شأن ما صحت روايته عن رسول الله قوله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأحاديث ستكثر عنّى بعدى كما كثرت عن الأنبياء من قبلى ، فما جاءكم عنّى فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فهو عنّى ، قلته أو لم أقله .

إلى أين يتجه المسلمون ..؟

المرحلة الثانية عصر الملكية

العلامة أبو الأعلى المودودي

(٢)

هيا بنا نأخذ الآن المرحلة الثانية من مراحل التاريخ الإسلامي . إن هذه المرحلة تبدأ من عهد امتد فيه الإسلام إلى جنبات الأرض وانتشر نوره في أرجائها بسرعة تفوق التصور ، وقد دخل في حظيرته العدد الهائل من خلق الله .

إلى أن تعذر على المسلمين الأوائل العناية الكافية بتربية هذا العدد الضخم تربية إسلامية وتثقيفه ثقافة إسلامية ، مع أنه كان في المسلمين رجال الصلاح والتقوى ، ولم يكن الناس يقبلون على الإسلام إلا لإعجابهم بما كانوا عليه من سلوك حسن وعمل صالح وخلق كريم ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا ، ولم يكن من السهل الميسور بتاتاً أن يحدث في حياة هذا البحر الخضم من البشر نفس الانقلاب الذي حصل في حياة المسلمين الأولين من حيث الكم والكيف . الأمر الذي تسبب في تقلص عدد المسلمين في الدنيا رويداً رويداً ، ومن ذلك النمط المثالي الرائع ، الذي كان مسلما حقاً واعياً وكان قوله يطابق فعله . فانخفضت نسبة هذا النمط من المسلمين في المجتمع من جهة ، ومن جهة أخرى تصاعدت نسبة الذين هم وإن كانوا قد دخلوا في الإسلام إعجاباً بمبادئه وأسسه ، وخضعوا له بتجرد وإخلاص إلا أن الناحية السلوكية فيهم لم تكن منطبعة كلياً بطابع الإسلام ولم يكونوا موفوري الرصيد من الفهم للدين والتعمق فيه . وهذه الظاهرة أدت إلى انقلاب خطير في مجرى التاريخ الإسلامي وهو تحويل نظام الخلافة إلى نظام الملكية .

وتُسْرَدُ أسباب كثيرة ساعدت في هذا التحول ، غير أن السبب الرئيسي

لهذا التحول فى نظرى هو تناقص عدد المسلمين المتعمقين الواعين فى المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين . إن الذين كانت حياتهم الواقعية ترجمة حية للإسلام أخذ عددهم فى انحسار وتقلص بينما الذين كان ينقصهم الفهم الحقيقى للإسلام وكان لا يتلاءم سلوكهم مع الإسلام قد تصاعدت نسبتهم إلى درجة أصبح معها من المستحيل تخليص المجتمع الإسلامى من المضاعفات المنبثقة من فقدان الوعى الإسلامى الصحيح فيهم ، وأصبح معها من المستحيل المحافظة على المجتمع من آثار عاهاتهم الخلقية . ونتيجة لذلك حلت الملكية محل الخلافة ، وانفرط عقد النظام الذى أقامه المسلمون الأوائل ببذل مهجهم .

وطالت هذه المرحلة من مراحل تاريخنا قروناً طويلة . ولا يسمح لى المقام أن أتناول بالبحث مخلفات هذه المرحلة وما كان وراءها من العوامل بتفصيل واف . وإنما أذكر لكم الآن أربعة أو خمسة من أهم نتائجها التى لا يزال طابعها ثابتاً ملموساً على وضعنا الحاضر . وبكلمة أخرى ، لا تزال ملامح تلك المرحلة من « ماضينا » تتجلى فى « حاضرنا » .

انقسام القيادة :

إن أول ضرر من الأضرار الرئيسية التى نكبت بها الأمة الإسلامية من جراء النظام الملكى هو أن انقسمت قيادة الأمة المسلمة إلى قسمين ، بعد أن كانت هذه القيادة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين رضى الله عنهم موحدة تستقطب جميع نواحى الحياة الروحية والعلمية والفكرية والسياسية حول محور واحد بحيث كانت التوجيهات السياسية والتدابير القضائية والتعليمات الإدارية والتنظيمات العسكرية وشئون الحرب أو الصلح تنطلق من مصدر بعينه . ونفس القادة الذين كانوا يوجهون هذه النواحى هم الذين كانوا فى الوقت نفسه قادة المسلمين فى إصلاح الأخلاق ، وقادتهم فى الفكر والعلم ، وقادتهم فى التربية الروحية . إن هذه القيادة بجميع نواحيها كانت تدور حول محور بعينه . إلا أنه لما نجم قرن الملكية اعترى القيادة الانقسام وانشقت إلى شقين . ففيما يتعلق بالشئون السياسية استأثر به الحكام ، وفيما يرجع إلى النواحى الخلقية والفكرية والروحية انتقلت أزمته إلى رجال العلم والفقه

والتصوف : أصبح فقهاء المسلمين وعلماؤهم القادة فى الشئون الروحية والخلقية والدينية ، وأصبح الملوك والأمراء قادتهم فى الشئون السياسية . وكان هذا الانقسام فى القيادة فى حد ذاته فتنة مدمرة كان من المحتوم أن تعكس آثارها السيئة فى المجتمع . ثم زادت الطين بلة طبيعة القيادة السياسية إذ من مقتضاها الطبيعى أن تقحم نفسها فى كل شأن من شئون الحياة وتدس أنفها فى كل أمر من أمورها . وانطلاقاً من هذه الطبيعة هبت القيادة السياسية تفرض سلطانها على كلتا الناحيتين من الحياة : الدينية والخلقية . بينما كان أصحاب العلم والفقه والتصوف لم يكونوا ليرضوا وما كان ينبغى لهم أن يرضوا بحال من الأحوال تدخل القيادة السياسية فى شئون الدين والأخلاق كى لا يشوه وجه الدين ، ولا يغير الفكر الإسلامى ، ولا تمسخ المبادئ الخلقية . فنجم عن كل ذلك التباعد بين هاتين القيادتين ، واتسع الصدع بينهما ، ثم شرع التناحر والتصارع بينهما بدلا من التعاون والتلاحم ولا نزال نشاهد هذه الظاهرة الغريبة على قدم وساق فى تاريخ الإسلام المعاصر ومما لا يستحق الجدل أن عصر الملكية فى التاريخ الإسلامى لا يقاس أبداً بعصور الملكية فى تاريخ الشعوب الأخرى . لأن الملكية فى تاريخنا الإسلامى مع ما جاءت به مشحونة بكثير من السيئات والويلات إلا أنك سوف لا ترى عبر التاريخ الإسلامى تلك العصور المظلمة التى هى علائم بارزة فى تاريخ الأمم الأخرى . ولا أملك نفسى فى هذه المناسبة إلا لأسجل إعجابى واستحسانى لما توافر فى التاريخ الإسلامى من الملوك الأتقياء الصالحين ، وما استطاع أى شعب أن ينجب هذا العدد الوفير من الملوك الصالحين . وبرغم إعرابى عن خالص تقديرى لوجود هؤلاء الأفراد الصالحين فى وسط النظام الملكى لا أملك إلا القول كذلك أن الذى نجم عن هذا النظام من نتائجه الفطرية وآثاره الحتمية جلب على الأمة الأضرار الباهظة ، أبرزها أن الحكومات الإسلامية تخلت عن فريضة الدعوة إلى الإسلام ، وحمل مشاعله فى الدنيا بل اقتصر أمرها فى أكثر الأحايين على فتح البلاد وجباية الأموال . وانتهى بها المطاف إلى ما نعانيه فى وضعنا الراهن .

وترى فيكم اليوم عدداً هائلا من

الذين هاجروا إلى باكستان من المناطق التى حكمها المسلمون طيلة ثمانية قرون كبلدة « دلهى » وضواحيها ، ومنطقة شرق بنجاب ، ومقاطعات الهند الوسطى وولاية حيدر آباد الدكن . كان الحكم فى هذه المناطق كلها بيد المسلمين . ولو كانت حكوماتهم التى تعاقبت عليها داعية إلى الإسلام رافعة لواءه ، وجاعلة نصب أعينها تبليغه فى أرجاء المعمورة لتوطدت فيها دعائم الإسلام ولكان هو وحده يعم أرجاءها ، ويبدل الوثنيين فيها بالموحدين . نعم ، لو كان الأمر كذلك لما انتهى الأمر بكم اليوم إلى هجرتها تاركين دياركم وأموالكم فيها . ولكن لجوءكم إلى باكستان يصرخ بلسان الحال ، إن حكام تلك المناطق لم يؤدوا مسئولياتهم نحو الإسلام ولم يوفوا بحقه كحكام مسلمين مخلصين ، وإذا قدر الله للإسلام أن ينتشر فى تلك الأقطار على رغم ذلك فلم ينتشر إلا بفضل الجهود التى كرسها الفقهاء والمصلحون أما الحكام فبدلا من أن يكون لهم ضلع فى انتشاره وامتداده غالباً ما وقفوا فى وجهه عقبة كأداء أو وقفوا غير مشجعين لانتشاره على الأقل . وهم بسبب استخدامهم وسائل البطش والإرهاب والقهر لتوطيد حكمهم ، وانغماسهم فى حياة الترف والبذخ ، وظهورهم فى مظهر الأخلاق الرذيلة صاروا منفرين للناس من الإسلام . والأعمال التى كان من شأنها تحبيب الإسلام إلى القلوب فلم يأتوا بها إلا فى النادر القليل . وأعود فأقول : إن الحكام الذين كانوا على رصيد كبير من التقوى والصلاح أتقدم إليهم بالثناء العاطر والتقدير البالغ ، إلا أن النظام الملكى فى مجموعه لم يثمر إلا عواقب وخيمة وانحرافات خطيرة ، ولا سيما فى عهد الملوك الذين لم يبق لديهم من حركة الإسلام الأولى إلا كباقى الوشم على ظهر اليد . ومن الحقيقة بدون منازع أن كل ما تحقق للإسلام من الانتشار والازدهار ما كان إلا بفضل الجهود الجهيدة من جماعات راشدة من أهل العلم والفقه والتصوف ولم يكن فى وسعهم من أن يستميلوا الناس إلى الإسلام بطيب الكلام ونبيل الأخلاق وصالح الأعمال ، وينيروا لهم طريق الحق بالدروس والمواعظ وبطريقتهم المثلى . ولم يكن بمقدورهم أن يتخذوا التدابير اللازمة لتربية الملايين من البشر الذين كانوا يدخلون

حظيرة الإسلام تربية إسلامية كافية ، لأن الحكومات هى التى كانت مدعوة إلى أداء هذا الواجب ولكنها لم تعر أى اهتمام بهذه الناحية . ولو كانت هناك حكومة تدعم هؤلاء الدعاة وتشد أزرهم وتقدر مساعيهم أو أن تبذل عنايتها — فى أقل . الاحتمالات — على أوسع نطاق بتربية وتوعية الموجات البشرية التى كانت تدخل فى دين الله متجاوبة مع المحاولات الفردية من جهة هؤلاء الدعاة لكان الأمر عكس ما نراه اليوم . ولكن لم يحدث هذا ويا للأسف ، ولم يتجاوز الأمر أن يهب عبد من عباد الله يعرض على الناس الإسلام ويقدم لهم نماذجه العملية من خلال نظافة حياته وسمو سلوكه وطهارة ذيله : النماذج الرائعة التى تضرب على أوتار قلوبهم ، وتستهويها لدعوته فإذا بهم يتقدمون إليه فى غمرة من الانفعال يطلبون منه إدخالهم فى نفس الدين الذى سما به إلى هذا المستوى من طهارة الخلق ونزاهة العيش . فهذا العبد الصالح — على غرار المئات من أمثاله — يلقن الناس كلمة الشهادة ، ويبدل أسماءهم الكافرة بالأسماء الإسلامية ، ويعلمهم ما يلزم من الآداب والطرائق للحياة الإسلامية فماذا عسى بوسعهم أن يأتى به هؤلاء الدعاة أكثر مما أتوا به . وكان من واجب حكومات المسلمين أن تشعر بمسئوليتها وتزود المسلمين حديثى العهد بالإسلام بما يجعلهم عنصراً حيويا نافعاً فى المجتمع الإسلامى . ولكن مع الأسف فإن الحكومات المسلمة تقاصرت عن إدراك مسئوليتها نحوهم . نعم إن رجال الجود والإحسان فى الأمة حاولوا ملء هذا الفراغ بصفتهم الفردية بوقف أموالهم وعقاراتهم فى مختلف العهود ، فأنشئت المعاهد والزوايا لتأمين المطالب التعليمية والتربوية وكان لتلك المواقف أجمل الآثار وأعظم النتائج ، إلا أنه ما دامت الحكومات متهاونة فى أداء مسئوليتها فى هذا الباب ومتخلفة عن توعية عامة السكان فإن انتزاع المسلمين الجدد من براثن الجاهلية ورواسبها وجعلهم مسلمين واقعيين يتمثل الإسلام فى حياتهم حيا ملموساً كان من باب المستحيل .

ومن الحق أن نقول إن وضعنا الحاضر هو أيضاً مطبوع بنفس الطابع الذى يرجع إلى هذه المرحلة الثانية من التاريخ الإسلامى . وما أشبه الليلة بالبارحة . فها أنتم قد تستطيعون أن تشاهدوا عشرات

الملايين من المسلمين فى المدن والقرى : ما أغرقهم فى تقاليد الجاهلية وأعمال الشرك وما أفرغهم من الوعى الإسلامى ! . وما أصبرهم على الخزعبلات الهندوكية مع أنهم مسلمون ! . وما أشد تدنس حياتهم بآثار الديانة البوذية وما أرضاهم بالآثار التى امتازت بها المجتمعات الجاهلية قبل الإسلام فى مجتمعاتهم ! . وملخص القول إن أوضاعنا الحاضرة لا تزال متسمة بنفس الطابع الذى أوجدته المرحلة الثانية من مراحل تاريخنا. وإن شئت فقل : إن الذى نحصده فى « العالم المعاصر » هو ما غرس فى « ماضينا الغابر » ، وهذه هى سنة الله فى الكون . ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ازدهار العصبيات :

ومن سيئات هذه المرحلة أن نجم فيها قرن العصبيات الجنسية والقبلية والوطنية والجغرافية مرة أخرى بعد أن أفلتْ نجومها بطلوع شمس الإسلام .

وكانت هذه العصبيات قد رفعت رأسها فى العصر الأموى من جديد ثم ما فتئت تشتد وتترعرع فى المجتمعات الإسلامية وتنتشر فيها انتشار الأمراض المعدية كأوبئة الطاعون والكوليرا. وتؤتى حصادها المر . وإذا تأملتم فى صفحات ماضيكم وجدتم الكثير من الإمبراطوريات ناطحت هذه الصخور فتكسرت وأصبحت أثراً بعد عين . وهذا الداء الوبيل هو الذى هوى بالحكم الأموى إلى الانهيار ، وهو الموضوع الرئيسى فى قصص الصراع الذى استعر أواره بين القبائل العربية فى ذلك العهد وإليه يرجع الدور الأكبر فى تدمير العرش الأموى فى الأندلس ، والقضاء على الكيان الإسلامى فيها . وما يوم سقوط الإمبراطورية المغولية والحكومات الإسلامية فى ولاية حيدر آباد الدكن فى الهند ببعيد . وما يوم حليمة بسر . وخلاصة القول : إنكم حيثما سرّحتم النظر وجدتم فى دمار المسلمين وذهاب حكوماتهم العظيمة ضلعاً كبيراً لهذا الداء الفتاك . إن المسلمين بالرغم من أن الله قد ألف بينهم . وجمعهم على كلمة التقوى وجعلهم بنعمته إخوانا . تناسوا هذه النعمة الجليلة من وقت لآخر فعاودتهم النوازع العصبية التى سوغت لهم اللجوء إلى الشعارات القبلية والألوية الجنسية[1] والفوارق العنصرية كالعربية والفارسية والأفغانية والتركية والمغولية والهندية فالتهمتهم غوائلها ونهشتهم عواديها فى النهاية . وهذا هو السر فى

(١) RACIAL

تدهور المسلمين وانفكاك عراهم إربا إربا ، وتمزق صفوفهم شذر مذر فى التاريخ . وهو من مساوئ الملكية التى توارثها المسلمون .. إن الملوك فى عصور الملكية كانوا يستغلون هذه العصبيات لتحقيق مصالحهم الشخصية فانتعشت حركة بنى العباس تقاوم بنى أمية وتؤلب عليهم الفرس باستغلال العصبية القومية . لماذا ؟ لتحقيق مآربهم وإقامة عرشهم ولا غير .

وهكذا هذه الداهية النكر — داهية العصبيات الجاهلية — قد أناخت بكلكلها فى المرحلة الثانية من تاريخنا . ولا نزال نشعر بمرارتها ونعانى من ويلاتها فى « حياتنا المعاصرة » .

وأسرد إليكم ، كالجملة المعترضة ، مثلا من تاريخنا المعاصر وهو أنكم ، أيها المسلمون ، قد جمعتم شملكم تحت لواء الإسلام فنصركم الله نصراً مؤزراً وكتب لكم النجاح والتوفيق فى إنشاء باكستان : بلدا إسلامياً مستقلاً تعيشون فيه أحراراً مكرمين ، ولكن بعد هذا الفتح المبين والنجاح الباهر تشرعون تستذكرون أصول الجاهلية : فهذا ينادى بالعنصرية البشتوية ، وآخر يعلن بأنه بنغالى ، وثالث يهتف بجنسيته السندية ، ورابع يدعو قومه إلى شعار البلوشية ، وخامس يعتز بكونه بنجابيا . إن هى إلا إحدى الكبر ، نذير للبشر ، وأشراط الساعة ، والساعة أدهى وأمر .

الأثرة وعبادة النفس :

وهناك داء آخر تولد فى ذلك العصر أيضاً . وتفاقم خطبه واستفحل أمره على مر الزمان . وهو أنه قد طويت صحف جميع النواحى من الولاء الإسلامى فى المسلمين ولم يبق إلا ولاء الرجل لنفسه أو لقبيلته فقط . بينما الإسلام قد وضع تحت قدميه جميع الأنواع من الولاء سواء أكان للجنس أو للون أو التراب أو اللغة . إلا الولاء لله ولرسوله ولدينه . وهذا هو الولاء الذى كان ينصاع فيه سلوك المسلم إن فردى أو جماعى ، فأخذ هذا الولاء يتضاءل فى عصر الملكية رويداً رويداً . ولما أخذ هذا الولاء الذى كان من ركائز معنوياتهم ومقومات تفوقهم الخلقى ينخر ويضمحل حلت محله — طبيعيا — الأنانية واتباع الهوى . ومن طبيعة البشر أنه إذا لم يسعفه الولاء الأعلى لا يضحى بنفسه ونفيسه فى سبيل مبدإ من المبادئ مهما شرف وعظم بل كان ما يصدر منه بعد ذلك يكون مبعثه إما مصلحته

الذاتية أو مصلحة قبيلته وأسرته ، وكان من جراء هــذا الأمر أن نشأت فى المجتمع الإســلامى فئة مرتزقة من الجنود والضباط والإداريين قد تدنوا خلقياً لدرجة أن كل من سولت له نفسه أن يشترى ذممهم ، ويساوم ضمائرهم مقابل ثمن زهيد كان له ما أراد . وكان مثلهم كمثل الوحش الأليف الذى إذا أطعمته يتبعك ثم إذا أغريته بأحد يعدو عليه ليفترسه ويفتك به . وخذوا — مثلا — ما جرى فى تاريخ بلادكم : على أى مدى كان الشعب المسلم يؤمن للحكومات المتعاقبة جماعات من الجنود المرتزقين . أرى أنه لا يخفى عليكم أن دولة المرهتا التى كانت ألد أعداء المسلمين ولم تسلم من تطاولها أموال المسلمين وأنفسهم وأعراضهم . إن هذه الدولة أيضاً كانت فى جيشها فرق من الجنود المسلمين ممن كان لهم كعب عال فى ضرب المدافع وإلقاء القنابل . ولما دخل الإنجليز هذه البلاد ظفروا هم الآخرون أيضاً من الشعب المسلم نفسه بحشود كبيرة من الجنود المأجورين الذين أتموا لهم الاحتلال وحققوا لهم ما أرادوا لدرجة أن الإنجليز أصبحوا فى غنى من استقدام القوات من الخارج . لأنهم وجدوا فى هذه البلاد نفسها من أكل لهم الغزو العسكرى ، وأصبح لهم الساعد الأيمن فى استتباب الأمن وتنظيم شئون البلاد . ولم يكن أحد من هؤلاء المرتزقين يستشعر فداحة دوره ويتفكر : فى مصلحة من يجند طاقاته وكفاءته ؟ وأى بلد نهض يغزوه مع الغزاة ؟ ولأجل أية جهة يتولى شئون الإدارة والتنظيم ؟ هل تفكرتم لماذا كان كل ذلك ؟ لأن جميع أنواع الولاء النبيلة انعدمت فيهم ، وآخر ولاء كان شأنه أن ينقذهم من النذالة والهون « وهو الولاء لله ورسوله ودينه » قد أتوا عليه أيضاً . ولم يبق فيهم إلا الولاء للنفس الأمارة بالسوء . وهل من ولاء غير الولاء للنفس يُمْكِنُ أن يحمل صاحبه على ذلك النوع من الأعمال الخسيسة التى يرفضها العقل ويمجها الذوق .

وعلى هذا ، فإن جميع الحكومات الإسلامية من جزر الفلبين شرقاً إلى المغرب العربى غرباً شرعت تذهب أيدى أيدى سبا واحدة تلو الأخرى . وفرض الاستعمار الفرنسى سيطرته عليها . وليست سيطرة الاستعمار الغربى على الشعوب الإسلامية وليدة الصدفة بل

مردها إلى جذور تاريخية عميقة لا يسمح لي المقام أن أستعرضها بالتفصيل وإنما أذكر لكم – متوخيا الإيجاز – الدوافع التي شكلت المرحلة الثالثة من مراحل تاريخنا . أي المرحلة التي أضحت فيها جميع الشعوب الإسلامية ضحية الجشع الاستعماري بدون استثناء .

وإن بقيت دولة أو دولتان بمنجاة من الاستعمار فآل أمرها أيضاً إلى أسوأ مما كانت عليه الدول المحتلة . فبقاء تركيا أو إيران أو أفغانستان مثلا بمنجاة من تطاول الاستعمار لم يكسبها موقفاً محسوداً بل انحدرت إلى ما هو أسوأ حالا وأردى وضعاً من البلاد المحتلة نفسها .

المرحلة الثالثة : دور الاستعباد وآثاره السيئة

ولنأخذ الآن المرحلة الثالثة والأوضاع التي مررنا بها في هذه المرحلة . ولسنا بحاجة إلى الدراسة التفصيلية عن هذه المرحلة . إذ أننا لسنا ببعيدي العهد بها بل قد اجتزناها قبل عشرين سنة فقط . والذين كانوا في ميعة الشباب في تلك الفترة قد شهدوها عيانا فلا يخفى عليهم ما مر عليه من الأطوار والأحوال . اللهم إلا الذين كانوا في تلك الأيام في سن الطفولة . وهم إن كانوا لا يتذكرون أحداث هذه المرحلة بحكم سنهم غير أنهم قد سمعوا من آبائهم وإخوانهم ما جعلهم في غنى عن الدراسة التفصيلية .

إن الاستعمار الغربي بعد تعميق مخالبه في البلاد الإسلامية جعل يصب على المسلمين وابلا من الظلم والعدوان والبطش والتنكيل ، وأنزل بهم ضروباً من الفتن كقطع الليل المظلم . كما دك حكوماتهم ، واحتل أراضيهم الخصبة وسيطر على أوقافهم ، وتلاعب بأنفسهم وأموالهم وأعراضهم . بيد أن جميع هذه الأعمال الإجرامية لا تساوى ظلماً ارتكبه الاستعمار حين فرض علينا النظام التربوى الحديث الغريب عن معتقداتنا والبعيد عن قيمنا ، قسراً ، في جانب ، وفي جانب آخر عطل نظامنا التليد للتعليم والتربية وحوله إلى حالة العقم ، وجعله في وضع يرثى له . وحاول بهذه الطريقة أن ينشئ منا أجيالا تتنكر لشخصيتها الإسلامية . وتبغض دينها ، وتجهل تقاليدها ،

وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد بنظرة الاستحقار ، وتعتبر حضارتها الرائعة شيئاً أكل عليه الدهر وشرب وتقتنع بأن ثقافتها قد تقادم عليها العهد ، وتؤمن بأن نظامها للفكر والعمل لا يصلح للعصر الحاضر ، ويترسخ فى ذهنها وقلبها أنه إذا كانت هناك معارف فهى التى تدون فى الغرب ، وإذا كانت هناك حضارة فهى التى مهدها الغرب ، وإذا كانت هناك أخلاق فهى التى يتخلق بها الغرب ، وموجز القول أنه إذا كان هناك شىء يتسم بالمثالية الجديرة بالتأسى ، وبالتصور الإنسانى الرفيع الحقيق بالتقدير والاعتناء فهو ما عند الغرب كما قال الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها
فإنّ القول ما قالت حذام

هذا هو أعظم ظلم مارسه الاستعمار فى حقنا . أما النظام التربوى الذى كان يواجهنا إلى ديننا ، ويربطنا بتقاليدنا ، ويوطد صلتنا بحضارتنا عاد نظاما مرفوضاً لا يجد سوقا رائجة . ولأجل ذلك فإن أى فرد من المسلمين كان يتوق إلى التقدم المادى صار يرغب عنه وينبذه وراء ظهره ، ويتلهث وراء النظام الحديث الخلاب . فكانت لهذا التحويل آثار بعيدة الأغوار فى مجتمعنا ، وما لبث أن مال إلى هذا النظام التربوى النخبة الممتازة من هذه الأمة ، المتمثلة فى ذوى الثراء والفطانة والنباهة ، وفيمن كانوا يتمتعون بقسط وافر من المواهب والحيوية وقوة العمل والتفكير وقابلية التوجيه . إن جميع تلك العناصر الصالحة اندفعت إلى نظام الاستعمار للتربية والتعليم تحت ضغط منطق الظروف مع العلم أن هذا النظام لم يكن ليبعدنا عن ديننا وتاريخنا وحضارتنا فحسب ، بل ليكون منا أمة تتقزز من تراثها العقائدى وتنفر من قيمها الحضارية .

تحول قيادى :

وتعميقاً لهذه السياسة قصر الاستعمار جميع مجالات التقدم وفرص الترقّى على الذين كانوا يتخرجون من هذا التعليم ، لأن الاستعمار قد أتى بخطة محكمة الدرس ومتقنة الأداء فى هذا الصدد ، كان من نتائجها الطبيعية أن الذى أراد أن ينال فى الدنيا عيشاً رغيداً ووضعاً مزدهراً — بل وحتى الذى أراد الحياة فقط — لا يتأتى له ذلك إلا أن يسلم أولاده لنظام التعليم الحديث لينزعهم من دينهم وقيمهم . نفذ الاستعمار هذه الخطة على المدى البعيد ، وفى

جميع البلدان الإسلامية شرقاً وغرباً . أى حينما ألقى عصاه لجأ إلى هذه الخطة الممقوتة . وليس الاستعمار الإنجليزى بالوحيد فى هذا الأمر بل تلتقى عليه جميع القوى الاستعمارية كالاستعمار الهولندى والبلجيكى والفرنسى والألمانى. وعلى كل ، فإن كل بلد من البلدان الإسلامية دخلته الشعوب الاستعمارية طبقت فيها نفس المكيدة .

ثم إن السياسة التى اتبعها الاستعمار فعلا فى توظيف المتخرجين من هذا النظام فى تسيير دفة الحكومة وفى المجالات الاقتصادية كانت تحتم أنه قدر ما يكون المرء متجرداً من آثار الإسلام قدر ما يتقلد أرقى المناصب . ولا شك أن هذه السياسة الإجرامية لم تدون ولم تطبق فى شكل القانون . ولم يكن الأمر يحتاج إلى صياغتها وإدراجها فى لوائح الموظفين . بيد أن الوضع السائد والتخطيط الإدارى كانا يتجهان — جملة وتفصيلا — إلى أن الموظف كلما ينسلخ فى حياته العملية من الصبغة الإسلامية ، وينطبع بطابع الحياة الغربية كلما يجد الفرص مواتية والحظوظ حليفة فى إحراز التقدم . وهكذا تجد المستعمرين يتدرجون بالأمر حتى يتربع على المناصب الرئيسية الحكومية « المسلمون » الذين وإن كانوا يحملون أسماء إسلامية ولكنهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه . وسرعان ما رأينا نتيجة لذلك أن جميع المناصب الرئيسية تحولت إلى هذا الضرب من المسلمين ، وجميع القطاعات الاقتصادية (أى العصب الحساس) لا تُفْتَحُ أبوابها إلا على وجههم . وشوهدت هذه السياسة نفسها متبعة فى جميع البلدان الإسلامية . وأينما توجهت فى البلدان الإسلامية تفاجئك هذه السياسة بقضها وقضيضها وويلاتها وثبورها .

الحركات التحريرية :

ولما أطلت الحركات التحريرية برأسها فى البلدان الإسلامية . وبدأت فى قلوب الناس تلتهب جذوة تحرير الوطن بعد أن درسوا المؤلفات الغربية وتاريخ الشعوب الغربية . وتفطنوا لوضعهم المزرى اقتضى منطق الأوضاع أن يتولى قيادة هذه الحركات الزعماء الذين كانوا يعرفون لغة الشعب الغازى . وكانوا يدركون طبائعه وطرائقه . وكانوا يفهمون منافذ الدخول إليه . هذا النمط من القيادة إنما فرضها منطق الأوضاع على الشعوب الإسلامية الطامحة للتحرير ، ولم

يكن لها بد من التسليم لها والاعتراف بها.

أما خريجو المعاهد الدينية– والأصح خريجو النظام القديم للتعليم – فلم يكونوا يصلحون لقيادة المسلمين بل لم يكن باستطاعتهم أن يتحملوا عبء قيادة الشعوب وخوض غمار المعارك التحريرية . فاتجه الناس فى عجز واضطرار إلى النوع الأول من الزعماء ، وألقوا إليهم مقاليد القيادة ، وبدأوا الحروب التحريرية ضد الاستعمار تحت إشرافهم وتوجيههم . ولذلك فإنك إذا أجلت نظـرك فى أى قطر من الأقطار الإسلامية ، وفى أية رقعة من الأرض ، طيلة هذه المرحلة ، وجدت أن الذين يقودون الحركات التحريرية ويضطلعون بالدور الطليعى فيها فى شرق الأرض وغربها هم الزعماء من النوع الأول . كما رأيتهم فى خلال المعارك يلجأون إلى إذكاء عواطف المسلمين الإسلامية ومناشدتها لأنهم ما كانوا يستطيعون تصعيد التحرير بدون إثارة هذه الجذوة .. أهاب هؤلاء الزعماء بالشعوب الإسلامية باسم الإسلام فى كل أرض إسلامية قامت فيها معارك تحريرية ، معلنين : أن هذه الحرب إنما هى حرب فاصلة بين الإسلام والكفر . وعليكم – يا معشر المسلمين – ألا تألوا جهداً فى التضحية بأنفسكم وأموالكم ومواهبكم وأوقاتكم حتى يتحقق النصر ، ويكون الأمر كله لله ، وتعود المياه إلى مجاريها ويعود للإسلام مجده التليد ، وتشرق الأرض بنور ربها .

إن هذه الظاهرة لم تلعب دورها فى بلد واحد فقط بل فى أى بلد من المسلمين تدرسون تاريخه تجدون نفس الظاهرة تتحكم فى الأوضاع . وأضرب لكم مثلا من الجزائر التى نالت الاستقلال فى عهد قريب بعد أن خاضت غمار الحروب الدامية ، إن نفس الظاهرة لعبت دورها فيها . ولا أقول ذلك جزافاً ، بل توصلتُ إلى هذا الرأى عن الجزائر بعد دراساتى القريبة لأوضاع هذا القطر الإسلامى . إذ كنت متتبعاً لتطور الأحداث فيه ، ثم ناقشت فى هذا الموضوع ، أكثر من مرة ، القادة الجزائريين فى الوقت الذى كانت فيه الحرب حامية الوطيس ، فلم يسعهم إلا أن يصدقوا وجهة نظرى ، ويقولوا بصراحة : إنهم إذا لم يؤكدوا للرجل العادى من الجزائر أن المعركة التحريرية التى ألهبنا نيرانها هى معركة الإسلام والكفر ، هى الجهاد فى سبيل الله الذى أمرنا به

الله ورسوله . ومن استشهد فيه دخل الجنة ، إذا لم تقل له ذلك لا يستجيب لنا ويلبي نداءنا ويتقدم إلى ساحة القتال واضعاً رأسه على راحته . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الشعب الجزائري لم يندفع إلى المعركة التحريرية إلا باسم الإسلام ، امتثالا لما يأمر به الدين وينادي به الله ورسوله ، ثم تعرض لما تعرض من أنواع البطش والتعذيب ، وتكبد ما تكبد من الخسائر وسجل ما سجل من التضحيات والبطولات مما يحير الألباب ويأخذ بمجامع القلوب ، ويجعل الإنسان يستغرب كيف أن شعبا أعزل يستطيع أن يحقق كل ذلك في هذا العصر ضد الاستعمار المدجج بأحدث السلاح وأفتكه .

وخذ لذلك مثلا آخر من تركيا . لما غزا اليونان آسيا الوسطى بعد الحرب العالمية الأولى هب مصطفى كمال يقحم نفسه في الجيوش التركية وفي يده مصحف وناشدهم بحماس دافق : أيها الأتراك : هل تعلمون ما هذا الكتاب الذي بيدي إنه المصحف الشريف . فيقول لهم : إنكم إذا لم تخرجوا معي للحرب مع اليونان فلن يكون لهذا الكتاب بقاء في هذه الأرض . وهكذا فإن مصطفى كمال حرض على الجهاد المسلمين الأتراك الذين خرجوا واضعين رءوسهم على أكفهم ، وطردوا اليونان من أرضهم مسجلين التضحيات الجسام على ما كانوا عليه من قلة العتاد الحربي ونقص الإمكانيات المادية بينما كان اليونان يساندهم الحلفاء .

وكل بلد إسلامي درست تاريخه تجد نفس هذه الظاهرة تلعب دورها : تجد الذين بيدهم أزمة القيادة والتوجيه بعيدين عن الإسلام ، جاهلين به ، لا يعرفون عنه شيئاً ولا يجدون في أنفسهم ميلا إلى تطبيقه لأنهم تثقفوا بثقافة تبدلت بها مقاييسهم للقيم ، وتبدلت بها أذواقهم وتبدلت بها خصالهم ، وبهرت عيونهم حضارة أخرى غير حضارة الإسلام ، وأخذ بمجامع قلوبهم منهاج غير منهاج الإسلام . وكانت الجماهير الإسلامية مضطرة كما قلنا إلى إسناد القيادة إليهم طوعا أوكرها . ثم إن كل ما حققه هؤلاء القوم من الانتصارات حققوها باستثارة جذوة المسلمين الإسلامية ، وما من معركة تحريرية تحقق انتصارها إلا بهذه الطريقة نفسها .

مات الرجل الذى كان وجوده على رأس الأزهر إرهاصًا بما هو مقبل عليه من مَجد وسؤدد .

الأستاذ / أحمد حسين

ما كان لصاحب هذا القلم ألا يرثى فقيد الأزهر وفقيد مصر والمسلمين من كان وجوده على رأس الأزهر إرهاصاً بما سوف يكون عليه الأزهر من زعامة وقيادة لمصر كما كان شأنه دائماً وبالتالى للعالم الإسلامى كله .

ولم يكن لى صلة خاصة بالفقيد ، ولم أتشرف بلقائه ولو مرة واحدة . ولكنى كنت على صلة به من ثلاثة محاور تلتقى كلها عند نهاية واحدة . وهى أننا بإزاء عالم جليل تقى ورع عالم زاهد .

فأما المحور الأول فأشخاص أجلهم وأحترمهم كانوا على صلة بى ، وهم فى نفس الوقت يتصلون به . وكانوا جميعاً يثنون عليه أطيب الثناء ، وإن أنس فلست أنسى أنه أرسل إلى بيتى بمجرد أن ولى وزارة الأوقاف موظفاً كبيراً يقول إنه موفد من الوزير ليشترى أى قدر من كتبى الدينية ، وعلى الرغم من أننى قلت : إن جميع كتبى الدينية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وهو صاحب الحق فيها ، أقول بالرغم من ذلك ، فقد ترك هذا الموقف من الشيخ أثراً عميقاً فى نفسى .

أما المحور الثانى الذى جمعنى والشيخ فهو بعض كتبه فى السيرة النبوية التى كتبها . وقد رجعت إليها وأنا أضع كتابى « نبى الإنسانية » ، وقد لاحظت جنوح الشيخ إلى تأكيد كل ما نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من خوارق لازمته منذ الميلاد ، ومن ذلك قصة شق الصدر ، فالحديث الصحيح المتفق عليه أنها حدثت مرة واحدة إبان طفولته فى بنى سعد . ولكن هناك رأياً آخر يقول إن عملية شق الصدر قد تكررت أكثر من مرة ، وأن إحداها كانت قبل عروجه إلى السماء . وفى معرض البحث العلمى فقد نقلت أقوال الشيخ فى كتابى ، وعارضتها بما أتصوره

ولكن الشيء المؤكد . أن مذهب الشيخ هو آية تصوفه وورعه . فقد لا توافقه على رأيه . ولكنك لا تستطيع إلا أن تقر له بالورع والتقوى .

مشيخة الأزهر :

ويجيء المحور الثالث من محاور اتصالي الروحي بالشيخ وذلك بعد صيرورته شيخاً للأزهر ، هنا وقد بدأت نفسه الكبيرة تتجلى ، إذ أعطى المنصب الكبير حقه . من حيث الأزهر أعظم جامعة في الدنيا في الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية بعامة من حيث هي علم وعمل ، فأبقى التصوف لنفسه وسلوكه الخاص مع الناس : حتى قيل لي من أحد المقربين إليه ، إنه لم يرفض أبداً دعوة وجهت إليه من أصغر الناس شأناً فلو دعاه أحد السعاة والفراشين إلى بيته : لما اعتذر أبداً . ولقد قال لي أحد إخواني يوماً « أحب أن يزورك الشيخ » وقد استوقفني منه صيغة القطع واليقين التي راح يتحدث بها ، وكيف أنه ما عليّ إلا أن أقول نعم ، لكي يحضر فوراً ، ولكن الكتاب كان أسرع .

فالشيخ المتصوف البسيط الزاهد ظل كذلك حتى آخر لحظة في حياته .

ولكنه ككبير لعلماء الأزهر قام بواجبه على الوجه الأكمل ، من حيث هو عالم فقه وشريعة . بل إن الرجل ، وقد كان من القلائل الذين تثقفوا إلى جوار ثقافتهم الإسلامية بالثقافة الغربية فهو حائز على درجة الدكتوراه من جامعة السربون الفرنسية ، فقد حرص على مناقشة الماركسية ، والوجودية ، وبقية الفلسفات المادية ، مناقشة علمية موضوعية ، وقد كنت ألتهم مقالاته في مجلة الأزهر التهاماً ، وألتقي منها ، وأستزيد من معارفي .

ويتحدث المتصلون به عما فعله في شئون الأزهر الإدارية ، للمحافظة على كرامة الأزهر وتحريره من كل تبعية ، ويقولون إنه ولى الأزهر ويتبعه بضعة وسبعون مؤسسة دينية وتربوية ، ولحق بالرفيق الأعلى وقد ناهزت هذه المؤسسات السبعمائة ، وهذه إحصاءات لا دخل لي فيها . بمعنى أني لم أحققها ، وإنما رويت لي ، ولكن الشيء المحقق (كما شاهدته في التليفزيون) أن الرجل أعاد للأزهر تقليده العريق ، وهو أن يجلس شيخ الأزهر على « الكرسي » في المسجد ليلقي درساً في الدين ، ليستفيد به كل من حضر . وقد

لا يعرف الكثيرون أن هذا التقليد قد نقل من الأزهر إلى كل جامعات الدنيا ، فأصبح منتهى ما يمكن أن يصل إليه أستاذ هو أن يقال إن له كرسى .

وهكذا أعاد الشيخ تقليداً أزهرياً كاد أن يندرس ، وباطل هذا النهج الذى اتبع فى السنوات الأخيرة وهو أن يحال كبار الأساتذة فى الدين إلى التقاعد ، فلا تقاعد للعالم إلا بموته ، ويجب أن يعود علماء من أمثال الشيخ حسنين مخلوف . والشيخ عبد الجليل عيسى ، ليجلسوا على الكرسى فى الأزهر ويفيضوا من علمهم إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلا (من الناحية الصحية) وشكراً للراحل الكريم الذى أعاد هذا التقليد .

رحلة أمريكا :

وبحكم ظروفى الصحية (الشلل الكامل) لم أعد أتابع من الأحداث إلا أضخمها ، وعلى رأس هذه الأحداث رحلة الشيخ إلى أمريكا ، وهى أول رحلة من نوعها يقوم بها شيخ الإسلام .

ولا أذيع سراً إذا قلت إن بعض المسئولين سواء فى أمريكا أو مصر ، كانوا يشفقون من نتائج هذه الرحلة ، واقترحوا على أقل تقدير أن تؤجل بضعة أشهر ، ليكملوا الاستعداد لها بما يتفق ومكانة الرجل فى العالم الإسلامى ، ولكن الرجل البسيط المتواضع لم يلق بالا بكل هذا ، لقد تلقى دعوة من جمعية إسلامية صغيرة فى لوس أنجلوس (الشاطئ الغربى لأمريكا) لافتتاح مسجدها الصغير ، ولم يفكر الرجل لحظة فى المشقة التى سوف يعانيها فى هذه الرحلة ، لم يفكر فيما فكر فيه الرجال الرسميون ، مما يجب أن يحاط به من مظاهر التكريم ، لم يفكر الرجل إلا فى شىء واحد ، وهو أنه دعى لافتتاح مسجد ويجب أن يلبى ، فالأمر كله فى سبيل الله .

وسافر الرجل الشيخ إلى أمريكا ، وانقلبت الرحلة إلى غزوة ، غزوة مباركة بكل ما تعنيه الغزوة من معان ، أى يعقبها فتح مبين ، ولست بصدد وصف وقائع الغزوة ، وكيف تسابقت محطات التليفزيون والإذاعة والصحف على تلقف كل كلمة تخرج من فم الرجل ، وتصوير كل حركة وكل لفتة ، وكيف احتشد مئات الألوف من المسلمين ، فى كل مكان قصد إليه ، وانتهى ذلك كله

إلى قمة ، عندما يدعى إلى مجلس الشيوخ الأمريكى (الكونجرس) ليحاضر فى الإسلام ويرتل الشيخ الحصرى (الذى رافق الشيخ) يرتل القرآن لأول مرة فى التاريخ تحت قبة الكونجرس ، يقول لى صاحبى : لقد تخيلنا أن السموات والأرض كانتا ترتلان معه ، كما كان يتجلى على وجه أعضاء الشيوخ الذين كانوا فاغرى الأفواه متبهرين بما يسمعون ، ثم تولى الشيخ إفهامهم ما سمعوا ومن هنا هنأت الشيخ بعد عودته ، على هذا الفتح المبين.

الدعوة إلى تطبيق الشريعة :

على أن دور الرجل الكبير والخالد كان فى وقوفه بكل ثقله كشيخ للأزهر خلف الدعوة للحكم بالشريعة الإسلامية وهذه الدعوة ليست جديدة بطبيعة الحال فمصر كانت تحكم بالشريعة الإسلامية قبل دخول الإنجليز ، أى حتى عام ١٨٨٢ وحتى بعد أن دخلوها حرصت الحكومة المصرية ، ألا تكون القوانين الوضعية الجديدة غير متمشية مع الشريعة ، فتضمنت المجموعة المدنية ، كل الأحكام الشرعية التى جرى عليها العمل فى مصر كالشفعة والبيع الوفائى والوقف والحكر ... إلى آخره ، وتضمن قانون العقوبات نصاً فى أوله يقرر أن لا عقوبة على عمل ارتكب بنية سليمة بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية ، كما حظر على محكمة الجنايات أن تقضى على أى مصرى بالإعدام إلا بعد كلمة المفتى .

فالشريعة الإسلامية كانت حتى فى أيام سيطرة الإنجليز ، هى المثل الأعلى عند المصريين ، وعند ما نزلت إلى الحياة العامة ، كان أحد مطالبنا الرئيسية هى الحكم بالشريعة أكثر من هيئة دينية ، ونمت إحدى الهيئات الدينية وتضخمت وعظم تأثيرها فى الحياة المصرية ، لأنها جعلت محور جهادها الحكم بالشريعة الإسلامية .

فالدعوة ليست جديدة ، ولكن الجديد أن يتبناها رسمياً وينادى بها شيخ الأزهر ، فيُعْقَد مؤتمر يضم الهيئات الدينية الداعية لهذا المطلب تحت رعايته وتشجيعه ، ويبعث برسائله إلى رئيس مجلس الشعب ، وإلى رئيس الدولة مطالباً بتطبيق الشريعة .

هذا هو الرجل الذى فقده الأزهر ، وفقدته مصر وفقده العالم الإسلامى ، وليس هو أول من يموت ولا آخر من يموت فهى سنة الله تعالى فى هذه الدنيا ،

إن بكل من يولد يموت ، قال تعالى لأعظم إنسان عرفته الدنيا وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: (إنَّكَ ميِّت وإنَّهم ميِّتون)فالقضية ليست قضية أن شيخاً صالحاً للأزهر قد مات. فكل إنسان يؤدى رسالته ، وعلى الأحياء من بعده أن يكملوا هذه الرسالة إن كانت صالحة ، ولا خلاف بين أحد وأحد على أن رسالة الشيخ الصالح بشقيها

وأعنى بهما، التقيد فى الحكم والمعاملات بالشريعة الإسلامية ، والإعلاء من شأن الأزهر ومكانته ، وعندنا أن ذلك يبدأ بإعادة تقليد قديم من تقاليد الأزهر وهو إعادة هيئة كبار العلماء ، لترشح لرئيس الدولة واحداً أو اثنين أو ثلاثة ليختار واحداً منهم ليكون شيخاً للأزهر .

والله ولى التوفيق .

أحمد حسين

من صفات الكريم

إن الكريمَ ليخفى عنك عُسرتَهُ
حتى تراهُ غنياً وَهوَ مَجهودُ

إذا تكرَّهت أن تعطى القليل ولم
تقدر على سعة لم يظهر الجودُ

أورق بخير تُرجَّى للنَّوال فما
تُرجَّى الثمارُ إذا لم يورق العودُ

بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعكَ قلتُهُ
فكل ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

« بشار بن برد »

بطولات إسلامية

مسلمة بن عبد الملك بن مروان قاهر هرقل وفاتح الأناضول

للسيد اللواء الركن / محمود شيت خطاب

(٢)

٣ – توطيد الأمن الداخلي

(ب) القضاء على حركة شوذب الخارجي :

فى سنة مائة الهجرية (٧١٨ م) ، خرج شَوْذَب الخارجيّ ، وهو بِسْطام من بنى (يَشْكُر)[١] فى (جُوْخى)[٢] وكان فى ثمانين رجلاً .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عامله بالكوفة ، ألاّ يُحَرِّكهم حتى لا يسفكوا دماء و يفسدوا فى الأرض ، فإن فعلوا وجِّه إليهم رجلا صلباً حازماً فى جُنْد .

وبعث عبد الحميد والى الكوفة محمد ابن جرير بن عبد الله البجلى[١] فى ألفين ، وأمره بما كتب عمر بن عبد العزيز إليه ، كما كتب عمر إلى بِسطام الخارجى يسأله عن مخرجه ، فقدم كتاب عمر إلى بِسْطام ، وقد قدم عليه محمد بن

(١) هو يشكر بن وائل ، انظر التفاصيل فى جمهرة أنساب العرب (٣٠٨) .

(٢) جوخى : وردت فى معجم البلدان (١٦١/٣) : جوخا : اسم نهر عليه كورة واسعة فى سواد بغداد ، ولم تكن ببغداد مثل كورة جوخا .

(١) انظر سيرة والده : جرير بن عبد الله البجلى فى كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٣٥٦ – ٣٧١) .

جرير ، فقام بإزائه لا يتحرك .

وكان فى كتاب عمر بن عبد العزيز إلى بِسْطام : « بلغنى أنك خرجتَ غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك منى ، فهلمَّ إلىَّ أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل الناس ، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك » .

وكتب بِسْطام إلى عمر : « قد أنصفت ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » .

ووصل الرجلان إلى عمر ، وناظراه فاقتنعا بوجهة نظره[1] .

ومات عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سنة إحدى ومائة الهجرية[2] ، (٧١٩ م) ومحمد بن جرير مقابل الخوارج لا يتعرض إليهم ولا يتعرضون إليه ، كل منهم ينتظر عودة الرُسل من عند عمر بن عبد العزيز ، فتوفى عمر والأمر على ذلك[3] .

وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة بعهد من أخيه سليمان بعد عمر ابن عبد العزيز[1] ، فأحب عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أمير الكوفة أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك ، فكتب إلى محمد بن جرير يأمره بمناجزة شَوْذب .

ولما رأى الخوارج محمداً يستعد للحرب ، قالوا : « ما فعل هؤلاء هذا إلا وقد مات الرجل الصالح » ، يريدون عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

ونشب القتال بين الطرفين ، فأصيب من الخوارج نفر ، وقتل الكثير من أهل الكوفة وانهزموا ، وجرح محمد بن جرير فدخل الكوفة ، وتبعهم الخوارج حتى بلغوا الكوفة ، ثم رجعوا إلى مكانهم .

ووجه يزيد بن عبد الملك تميم بن الحباب فى ألفين ، فحاربه الخوارج وقتلوه وقتلوا أصحابه ، وجاءت فلول جيشه إلى الكوفة وإلى يزيد بن عبد الملك هاربين .

وأرسل يزيد قوة بقيادة نجدة بن الحكَم الأزدى فقتلوه وهزموا أصحابه ، فوجه يزيد السَّحّاح[2] بن وداع فى ألفين

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٥٥٥/٦) وابن الأثير (٤٥/٥ – ٤٨) .
(٢) الطبرى (٥٦٥/٦) وابن الأثير (٥٨/٥) والعبر (١٢٠/١) وشذرات الذهب (١١٩/١) .
(٣) ابن الأثير (٤٨/٥) .

(١) ابن الأثير (٦٧/٥) .
(٢) فى الطبرى (٥٧٦/٦) الشحاج ، وفى ابن الأثير (٦٩/٥) : السحاج .

فقتلوه وهزموا أصحابه أيضاً .

وأقام الخوارج بمكانهم حتى دخل مسلمة بن عبد الملك الكوفة ، فشكا إليه أهل الكوفة مكان شوذب ، فأرسل إليه مسلمة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ ، وكان فارساً ، في عشرة آلاف ، وأتاه وهو بمكانه ، فرأى شوذب وأصحابه ما لا قبل لهم به ، فقال لأصحابه : « من كان يريد الشهادة فقد جاءته ، ومن كان يريد الدنيا فقد ذهبت » . وكسر الخوارج أغماد سيوفهم وحملوا ، فكشفوا سعيداً وأصحابه مراراً ، حتى خاف سعيد الفضيحة ، فوبخ أصحابه وقال : « من هذه الشرذمة لا أبَ لكم تفرّون! يا أهل الشام! يوماً كأيامكم! » وحمل أصحاب سعيد على الخوارج ، فطحنوهم طحناً ، وقتلوا بسطاماً — وهو شوذب — وأصحابه[١] .

وهكذا قضى مسلمة على حركة من حركات الخوارج ، استعصت على الآخرين وكان يمكن أن تتطور فتصبح خطراً داهماً يهدد أمن الدولة واستقرارها .

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٦/٥٧٥ - ٥٧٨) وابن الأثير (٥/٦٨ - ٧٠) .

(ب) القضاء على فتنة يزيد بن المهلب :

في سنة مائة الهجرية (٧١٨ م) ، كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة والى البصرة لعمر[١] ، يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلب إلى دمشق موثقاً . وكان عمر قد كتب إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويقبل إليه ، فاستخلف مخلداً ابنه وقدم من (خراسان)[٢] ونزل (واسطاً)[٣] ، ثم ركب السفن يريد (البصرة) ، فبعث عدى بن أبي أرطاة موسى بن الوجيه الحميرى ، فلحقه في نهر (معقل)[٤] عند الجسر ،

(١) جمهرة أنساب العرب (٢٥٦) .

(٢) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد من الشمال إلى أقصى تخوم إيران . من أمهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلخ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للإصطخرى (١٤٥ - ١٦٠) ومعجم البلدان (٣/٤٠٧) .

(٣) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وسميت واسطاً لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٧٨ - ٣٨٧) وقد أطلق اسم واسط على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهى محافظة الكوت على نهر دجلة .

(٤) نهر معقل : منسوب إلى معقل بن يسار =

فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز في دمشق .

ودعا به عمر ، وكان يبغض يزيد وأهل بيته ويقول : « هؤلاء جبابرة ، ولا أحب مثلهم » ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : « إنه مُرَاءٍ » ، فلما ولى عمر عرف يزيد أنه بعيد عن الرياء . ولما دعا عمر يزيد ، سأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال : « كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به ! » ، فقال عمر : « لا أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها » .

وحبسه بحصن (حلب) ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمى فسرحه إلى (خراسان) أميراً عليها ، فبقى يزيد فى محبسه حتى بلغه مرض عمر[1] .

ولما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، خاف يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك[2] ، فأرسل إلى مواليه يخبرهم بعزمه على الهرب من السجن ، فأعدوا له إبلا وخيلا . وواعدهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى عامل (حلب) مالا وإلى الحرس الذى يحفظونه وقال : « إن أمير المؤمنين قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولى يزيد بن عبد الملك يسفك دمى » ، فأخرجوه فهرب إلى المكان الذى واعد أصحابه فيه ، وركب هناك الدواب وقصد (البصرة) . وكتب إلى عمر بن عبدالعزيز كتاباً يقول فيه : « إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ، ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة » ، فورد الكتاب وبه رمق ، فقال : « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً

= المزنى ، صحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٤٥/٨ - ٣٤٦) ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر أبا موسى الأشعرى أن يحفر نهراً بالبصرة وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزنى ، فنسب إليه .

أقول ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم وعليه ضاحية (المعقل) التى هى من ضواحى البصرة حالياً فى شمال البصرة وبالقرب منها ، وهى معروفة جداً فى الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة فى الشتاء ، وفيها مناظر خلابة جميلة .

(١) الطبرى (٥٥٦/٦ - ٥٥٨) وابن الأثير (٤٨/٥ - ٥٠) وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٣١) .

(٢) كانت بين اليزيدين عداوة قبل أن يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، وقد توعد كل منهما صاحبه ، انظر ابن الأثير (٥٧/٥) .

فألحقه به وهضه فقد هاضنى » ، وكان هروب يزيد بن المهلب سنة إحدى ومائة الهجرية[1] (٧١٩ م) .

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب عامله على الكوفة وإلى عدى بن أرطاة عامله على البصرة يأمرهما بالتحرز من يزيد ويعرفهما هربه ، وأمر عديا أن يأخذ مَنْ بالبصرة من آل المهلب فأخذهم وحبسهم .

وأقبل يزيد حتى ارتفع إلى (القُطْقُطَانة[2]) وبعث عبد الحميد جنداً إليهم عليهم هشام بن ساحق العامرى القرشى — عامر بنى لؤى ، فساروا حتى نزلوا (العذيب)[3] . ومر يزيد قريباً منهم ، فلم يقدموا عليه . ومضى يزيد نحو (البصرة) وقد جمع عدى بن أرطاة أهل البصرة وخندق عليها ، وبعث على خيل البصرة المغيرة بن عبد الله ابن أبى عقيل الثقفى .

وبعث عَدِىّ على كل خمس من أخماس البصرة رجلا . خُمس الأزْد ، وخمس تميم ، وخمس بكر بن وائل ، وخمس عبد القيس ، وعلى خمس العالية من قريش وكِنانة والأزد وبَجِيْلة وخَثْعَم وقيس عيْلان كلها ومُزَيْنَة ، فأقبل يزيد لا يمرّ بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه حتى نزل داره .

واختلف الناس إلى يزيد ، فأرسل إلى عَدِىّ « أن ابعث إلى إخوتى وإلى أصالحك على البصرة وأخيلك وإياها حتى آخذ لنفسى من يزيد ما أحبّ » فلم يقبل منه .

وسار حُمَيد بن عبد الملك بن المهلّب إلى يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك خالد القَسْرِىّ وعمرو بن يزيد الحكمى بأمان يزيد بن المهلّب وأهله .

وأخذ يزيد بن المهلب يُعْطى من أتاه قطع الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عَدِىّ لا يُعْطِى إلاّ درهمَيْن درهمين ويقول : « لا يحل

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٦/ ٥٦٤ — ٥٦٥) وابن الأثير (٧٥ — ٥٨) ابن خلدون (٣/١٦٦) .

(٢) القطقطانة : موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧٦/١٢٥) .

(٣) العذيب : ماء بين القادسية والمغيثة بينه وبين القادسية أربعة أميال ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٦/١٣١) ، والمغيثة منزل فى طريق مكة بعد العذيب نحو مكة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١٠٦) .

لى أن أعطيكم من بيت المال درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن تبلغوا بهذه حتى يأتى الأمر بذلك » ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

أظنُّ رجال الدرهمين تقودهم
إلى الموت آجال لهم ومَصارعُ
وأكْيَسُهُم من قرّ فى قعر بيته
وأيقنَ أن الموت لابد واقعُ

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب عدىّ ، فنزلوا (المِرْبَد)[1] ، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له « دارس » فحمل عليهم ، فهزمهم .

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ، حتى نزل جبّانة بنى يَشْكر وهى النصف فيما بينه وبين قصر الإمارة فى البصرة ، فلقيه قيس وتميم وأهل الشام واقتتلوا هنيهة ، ثم حمل عليهم أصحاب يزيد فانهزموا وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من القصر ، فخرج إليهم عدى بنفسه ، ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه خسائر كبيرة .

(١) المربد : مربد البصرة من أشهر محالها وكان فيه سوق الإبل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١١ - ١٣) .

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل داراً إلى جنب القصر ، وأتى بالسلالم وفتح القصر . وأتى بعَدىّ بن أرطاة فحبسه وقال له : « لولا حبسك إخوتى لما حبستك » .

فلما ظهر يزيد ، هرب رءوس أهل البصرة من تميم وقيس وغيرهما ، فلحقوا بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام . وخرج المغيرة بن زياد بن عمرو العَتَكىّ نحو الشام ، فلقى خالداً القَسْرى وعمرو بن يزيد الحُكَمىّ ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب ، قد أقبلوا بأمان يزيد ابن المهلّب وكل شىء أراده ، فسألاه عن الخبر ، فخلا بهما سرّاً من حميد وأخبرهما : بأن يزيد بن المهلب قد ظهر على البصرة ، وقتل القتلى ، وحبس عَديا ، فارجعا ، فرجعا وأخذا حُمَيْداً معهما .

وأصبح الموقف خطيراً للغاية ، فأرسل يزيد بن عبد الملك إلى الكوفة شيئاً من المال ، ومَنّى أهلها الزيادة ، وجهّز أخاه مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العبّاس بن الوليد بن عبد الملك فى سبعين ألف مقاتل من أهل الشام وجزيرة ابن عمر ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا إلى العراق . وقدما الكوفة

وتزلا ، (النخيلة)[1] .

ولما سمع أصحاب ابن المهلّب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك فبلغ ابن المهلّب فخطب الناس يشجّعهم ويهون من أمر أهل الشام . وكان الحسن البصريّ يسمع ، فرفع صوته يقول : « والله لقد رأيناك والياً ومُوَلّى عليك ، فما ينبغي لك ذلك ! » ، فوثب أصحابه وأخذوا بفمه وأجلسوه ، وكان النّضر ابن أنس بن مالك يثبّط أهل البصرة كما يثبّطهم الحسن البصرى منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد من البصرة ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلّب ، وأتى (واسطاً) ، فلما نزل (واسطاً) أقام بها أياماً وخرج سنة إحدى ومائة هجرية .

ودخلت سنة اثنتين ومائة الهجرية (٧٢٠ م) ، فسار يزيد من (واسط) واستخلف عليها ابنه معاوية وجعل معه بيت المال والأسرى ، وسار على فم (النيل)[1] حتى نزل (العقر)[2] وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو الكوفة ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك ، (سورا)[3] ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، كانت الجولة الأولى منه لآل المهلّب ، ولكن تغيرت المعركة لصالح العباس بن الوليد ، فانكشف جيش ابن المهلّب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلب .

وأقبل مسلمة يسير على شاطئ الفرات إلى (الأنبار)[4] ، فعقد عليها الجسر وعبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلّب .

وأتى إلى ابن المهلب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور ، فقسمهم أقساماً وجعل على كل قسم منهم

---

(١) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢٧٦/٨ - ٢٧٧) .

(٢) انظر التفاصيل فى الطبرى (٥٧٨/٦ - ٥٨٩) وابن الأثير (٧١/٥ - ٧٧) وابن خلدون (١٦٦/٣ - ١٦٩) وانظر خلاصة الذهب المسبوك ص (٢٦) .

(١) النيل : بليدة فى سواد الكوفة قرب (حلة) بنى مزيد يخترقها خليج كبير يتخلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٣٦٠/٨)

(٢) العقر : عقر بابل ، قرب كربلاء من الكوفة ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١٦٤/٦ - ١٦٥) .

(٣) سورا : موضع بأرض بابل ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (١٦٨/٥) .

(٤) الأنبار : مدينة على الفرات فى غرب بغداد ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٤٠/١ - ٣٤٢) ، وهى مدينة الفلوجة كما تسمى اليوم .

قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية : الأزد ومذحج وأسد وكندة وربيعة وتميم وهمْدان ، وجعل من كل تلك الأقسام إلى المفضّل بن المهلب ، وأحصى ديوان يزيد بن المهلب مائة ألف وعشرين ألفاً ، فقال « لوددت أن لى بهم من بخراسان من قومى » ثم قام فى أصحابه وحرضهم على القتال .

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن قد عسكر بالنُخَيلة ، وشق المياه ، وجعل على أهل الكوفة الأرصاد لئلا يخرجوا إلى ابن المهلب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة مع سبرة بن عبد الرحمن بن مِخْنَف ، ولكن مسلمة عزل عبد الحميد عن الكوفة واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى المُعيط ، وهو ذو الشامة .

ومن الواضح أن عبد الحميد لم يكن مسيطراً على الكوفة ، لذلك تسرب أكثر أهلها إلى ابن المهلب ، كما لم يكن ذا كفاية قيادية ولا يتحلى بمزية المبادرة ، وكان ضعيفاً متردداً ، لذلك عزله مسلمة وولى قائداً متميزاً ، ليضمن قاعدته الأمامية : الكوفة .

وجمع يزيد بن المهلب رءوس أصحابه فقال : « قد رأيت أن أجمع اثنى عشر ألفاً ، فأبعثهم مع أخى محمد بن المهلب حتى يبيتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البرادع والأكف والزُبُل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقية ليلته ، وأمده بالرجال حتى أصبح . فإذا أصبحت نهضت إليهم فى الناس فأنا جزم ، فإنى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ، فأجابه أحد أصحابه[1] قائلا : « إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » ، فثنى على قوله آخر[2] قائلا : « صدق ! هكذا ينبغى » . فقال يزيد : « ويحكم ! ... أنهم يخادعونكم ليمكروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه . إنى لقيت بنى مروان ، فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غدراً من هذه الجرادة الصفراء » . يعنى مسلمة فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا » .

وكان مروان بن المهلب بالبصرة

(١) اسمه : السميدع .

(٢) هو أبو رؤبة رأس الطائفة المرجئة ومعه أصحاب له .

يحث الناس على حرب أهل الشام ، والحسن البصرى يثبطهم فهدد مروانُ الحسن بالعقوبة الصارمة وتوعده ، فقال الحسن : « والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه » (١) ، فقال ناس من أصحاب الحسن : « لو أرادك ثم شئت لمنعناك » ، فقال لهم : « فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ! آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيرى ، وآمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دونى ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهلب ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر ، بعث مسلمة من يحرق الجسر .

وخرج مسلمة مُعَبِّئاً (٢) أهل الشام ، ثم قرب من ابن المهلب ، ثم عبأ العباس بن الوليد رجاله ، وكان مسلمة على الناس قائداً عاماً .

وعبأ يزيد بن المهلب رجاله أيضاً .

وأحرق الجسر ، فسطع دخانه ، وقد أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد القتال ، فلما رأى الناس الذين مع ابن المهلب الدخان ، وقيل لهم : أحرق الجسر ، انهزموا ! فقيل ليزيد : قد انهزم الناس ! فقال : مم انهزموا ؟! هل كان قتال يُنْهَزَمُ من مثله ؟! » ، فقيل له : قالوا أحرق الجسر ، فلم يثبت أحد ! فقال : « قَبَّحَهم الله ! بَقٌّ دُخِّنَ عليه فطار ! » .

وخرج يزيد مع أصحابه المقربين إليه فى محاولة لرد المنهزمين من جيشه ، ولكنه أخفق فى محاولته .

ونزل يزيد يقاتل ، فجاءه من ينعى إليه أخاه حبيباً الذى قتل فى المعركة ، فقال يزيد : « لاخير فى العيش بعده ، قد كنتُ والله أبغض الحياة بعد الهزيمة وقد ازددت لها بغضاً ، امضوا قُدُماً » ، فعلموا أنه قد استقتل ، فالناس تسلل عنه من يكره القتال ، وبقى معه جماعة حسنة ، وهو يتقدم ، فكلما مر بخيل كشفها ، أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره فلما دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب فعطفت على يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد ومحمد بن المهلب .

وكان المفَضَّلُ بن المهلب يقاتل أهل الشام وما يدرى بقتل يزيد

(١) يريد بعقوبته وتوعده .

(٢) كانت التعبئة حينذاك : ميمنة وميسرة وقلبا ومقدمة ومؤخرة .

ولا بهزيمة الناس، وكان كلما حمل على الناس انكشفوا . ولكن أصحابه تخلوا عنه هاربين وهو يقاتل، فقيل له : ما تصنع هاهنا وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ طويل ؟!

ولما تفرق الناس عنه ، مضى إلى (واسط) ، ولم يكن في العرب أضرب بسيفه ولا أحسن تعبئة للحرب ولا أغشى للناس منه .

وأسر مسلمة نحو ثلثمائة أسير فسرحهم إلى الكوفة ، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والى الكوفة يأمره بضرب رقاب الأسرى ، فبدأ بالتنفيذ وقتل قسماً من الأسرى ، فجاء رسول بكتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسرى ، ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحيرة)[1] .

ولما أتت هزيمة يزيد إلى (واسط) ، غادرها آل المهلب إلى البصرة ، ومن هناك حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ثم لجئوا في البحر ، فلما كانوا بحيال (كرمان)[1] خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب ، وكان المقدم عليهم المفضل بن المهلب

وكان بكرامان فلول كثيرة اجتمعوا إلى المفضل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ، فقاتلوا فلول المفضل وانتصروا عليهم وكبدوهم خسائر فادحة بالأرواح .

ومضى آل المهلب ومن معهم إلى (قندابيل)[2] ، فطاردهم أصحاب مسلمة ، فتفرق الناس عن آل المهلب ، ولكن آل المهلب تقدموا بأسيافهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ومنهم : المفضل ، وعبد الملك ، وزياد ، ومروان بنو المهلب وثلاثة من أبنائهم ، فبعث مسلمة برءوسهم إلى يزيد بن عبد الملك

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك خبر مقتل يزيد بن المهلب وكثير من آل المهلب ، سره هذا النصر سروراً عظيماً[3] .

(١) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٢) ، والنجف اليوم قريبة من الكوفة ، وفيها مرقد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى واسعة في إيران ، انظر التفاصيل في معجم البلدان .
(٧ / ٢٤١) والمسالك والممالك للاصطخري (٩٧ / ١٠٠) .

(٢) قندابيل : مدينة بالسند ، انظر ، التفاصيل في معجم البلدان (١٦٧/٧) .

(٣) انظر التفاصيل في الطبرى (٦/ ٥٩٠ -

وهكذا انتصر مسلمة على يزيد بن المهلب وآل بيته ، فخدم الدولة خدمة لا تقدر بقضائه على ثورة يزيد الذى خلع يزيد بن عبد الملك ، وقاد أخطر ثورة هددت كيان الأمويين .

ومن الإنصاف أن نذكر أن يزيد ابن المهلب كان قائداً فذاً وإدارياً حازماً ، ولكنه خسر حياته وحياة أكثر آل المهلب ، لأنه قاد جيشاً لا يثق به ولا يعتمد عليه ، أفراده مرتزقة كل همهم كسب المال ، لذلك لم ينفذوا أوامره ولم يطبقوا تعليماته . ولم يكن يجهل قابلية جيشه المتضعضعة ومعنوياتهم المنهارة ، وأدرك فى أول المعركة بأنه خسرها ، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه ولم يرض لنفسه الفرار أو الاستسلام .

وكان مسلمة أيضاً يقود جيشاً أكثرهم من المرتزقة ، ولكنهم كانوا ملتزمين ، أما جيش يزيد بن المهلب فكان من المرتزقة غير الملتزمين ، لذلك كان جيش مسلمة يتحلى بإرادة القتال فانتصر ؛ وكان جيش يزيد لا يتحلى بهذه المزية فانهزم .

وقد خسرت الدولة بالقضاء على يزيد ابن المهلب وبنى المهلب خيرة قادتها وأحسن جنودها وأقدر أمرائها وولاتها وهى خسارة كبيرة بلا مراء[1] .

وأدهى من ذلك وأمرّ ، أن الاقتتال الذى نشب بين الإخوة أدى إلى عداء عميق الجذور بين القبائل العربية فى العراق قاعدة الفتح الإسلامى الرئيسية فى المشرق الإسلامى ، وفى فارس قاعدة الفتح الإسلامى المتقدمة ، مما أدى إلى انصراف الفاتحين عن الفتح إلى الاقتتال فيما بينهم ، فأصبحت طاقاتهم موجهة إلى أنفسهم بدلا من توجيهها إلى أعدائهم ، فانحسر مد الفتح وتقلص

= ٢٠٤) وابن الأثير (٥/٧٧ - ٨٩) وابن خلدون (٣ / ١٦٦ - ١٧٢) وانظر المسعودى (٣/١٩٩ - ٢٠٠) وتاريخ الموصل (١٠-١٦) والمعارف (٤٠٠) .

(١) فى العبر (١ / ١٢٤) : أن يزيد كان ممدّحاً كثير الغزو والفتوح ، وانظر أيضاً شذرات الذهب (١/١٢٤) . وفى يزيد وآل المهلب يقول الشاعر

نزلت على آل المهلب شاتياً
غريباً عن الأوطان فى زمن المحل
فما زال بى إحسانهم وافتقادهم
وبرهم حتى حسبتهم أهلى

انظر مختصر تاريخ البشر لأبى الفدا (١ -٢٠١-٢٠٢) ، وفى النجوم الزاهرة (١/٢٦٩) وقال الفرزدق :

إن المهالبة الكرام تحملوا
دفع المكاره عن ذوى المكروه
زانوا قديمهم بحسن حديثهم
وكريم أخلاق بحسن وجوه

نفوذ الدولة فى العراق وفارس وفى السند والأفغان وفيما وراء النهر .

وانتهز هذه الفرصة السانحة العباسيون للقضاء على الأمويين ، وأصبح دعاة بنى العباس يسرحون ويمرحون فى بلاد فارس بخاصة بحرية كاملة دون رقيب فعال وحسيب مؤثر .

لذلك كان انتصار مسلمة فى هذا الاقتتال تعبوياً ، ولكنه كان هزيمة سوقية (استراتيجية) على المدى البعيد .

والانتصار التعبوى لا قيمة له بالنسبة للهزيمة السوقية كما هو معروف .

(ج) ترصين الجبهة الشرقية :

لما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد بن المهلب ، جمع له لأخوه يزيد بن عبد الملك ولاية الكوفة والبصرة وخراسان وذلك سنة اثنتين ومائة الهجرية[1] .

كانت مهمة مسلمة صعبة ، لتناحر القبائل ونشوب العداوة بينها ، وضياع الأمن والاستقرار ، مما أدى إلى توقف الفتح وتهديد مصير الفاتحين فى البلاد المفتوحة فى بلاد فارس والسند وما وراء النهر .

لذلك عمل مسلمة على اختيار الرجال الذين يثق بهم ويعتمد على كفاياتهم ، لغرض معاونته فى ترصين الجبهة الشرقية للدولة ، فأقر محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة ، لأنه سيطر على الكوفة فى أيام نشوب القتال بين مسلمة ويزيد ابن المهلب سيطرة كاملة ، وأمد مسلمة بالرجال والمواد التموينية ، وحمى خطوط مواصلاته ، وجعل من الكوفة قاعدة متقدمة لقوات مسلمة المقاتلة .

وكان قد قام بأمر البصرة بعد آل المهلب شبيب بن الحارث التميمى ، فبعث عليها مسلمةُ عبد الرحمن بن سليمان الكلبى ، وعلى شرطتها وأحداثها عمرو بن يزيد التميمى[1] .

والظاهر أن عبد الرحمن بن سليمان الكلبى كان والياً ناقماً منتقماً ، لأنه أراد استعراض أهل البصرة فيقتلهم ، انتقاماً منهم لميلهم إلى آل المهلب

---

(١) الطبرى (٦ / ٦٠٤) وابن الأثير (٥ / ٨٩) وانظر المعارف (٥٧١) وفيه أن مسلمة كان يبن أول من جمع له المصران : الكوفة والبصرة وانظر التنبيه والإشراف (٢٧٧ — ٢٧٨) .

(١) فى ابن الأثير (٥ / ٨٩) : ورد اسمه عمرو ، وفى الطبرى (٦ / ٦٠٤) ورد اسمه عمر .

وعطفهم عليهم ومعاونتهم لهم مادياً ومعنوياً، فنهاه عمرو بن يزيد التميمي، وكتب إلى مسلمة بالخبر، فعزله وولى البصرة عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم، وأقر عمرو بن يزيد التميمي على الشُّرَط والأحداث[1].

لقد كان مسلمة بعيد النظر حقاً، لذلك كان يحاول تضميد الجروح لا تعميقها، فلم يرض عن أسلوب عامله على البصرة باتجاهه إلى الصرامة والانتقام، فقد كانت الجروح غائرة وهي ليست بحاجة إلى تعميق، فعزل عامله فوراً وبعث مكانه عاملا جديداً.

واستعمل مسلمة على خراسان سعيد ابن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية وهو الذي يقال له: سعيد خُذَيْنَة[2]، وكان سعيد زوج ابنة مسلمة. وقد غزا سعيد الترك وعبر النهر وغزا (الصُّغْدَ)[3]، وأراد السيطرة على تلك المناطق وترصين قواعد الفتح المتقدمة، ولكن نجاحه كان محدوداً، لأن كفايته لم تكن بالمستوى المطلوب[1].

ولم يكد مسلمة يمضي بضعة أشهر على العراق وخراسان[2] حتى عزله أخوه يزيد بن عبد الملك سنة اثنتين ومائة الهجرية.

وكان سبب عزله أنه ولي العراق وخراسان، فلم يرفع من الخراج شيئاً إلى يزيد بن عبد الملك. واستحيا يزيد أن يطالبه أو يحاسبه، كما استحيا أن يعزله، فكتب إليه: «استخلف على عملك وأقبل».

ولم يلبث مسلمة حتى أتاه عزله بعمر بن هُبَيْرَة الفزاري الذي تولى مكانه العراق وخراسان، فعزل عماله واستعمل الغلظة عليهم، فقال الفرزدق:

راحتْ بمَسْلَمة البِغالُ عَشيَّةً
فارْعَيْ فَزارَةَ لا هَناكِ المرتَعُ

(١) الطبري (٦ / ٦٠٤ – ٦٠٥) وابن الأثير (٥ / ٨٩).

(٢) خذينة بالفارسية هي الدهقانة ربة البيت، انظر ابن الأثير (٥/٩٠) وهو من أبناء عمومة مسلمة يلتقي نسبها بالحكم والد مروان بن الحكم، انظر أنساب الأشراف (١٦١/١) وفتوح البلدان (٦٠٠).

(٣) الصغد كورة عجيبة قصبتها سمرقند وقيل هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٢).

(١) الطبري (٦٠٥ – ٦١٥) وابن الأثير (٥/٩٠ – ٩٧)، وفي أنساب الأشراف (٣ / ١٦٢): أن أهل خراسان شكوا خذينة فعزله.

(٢) المعارف (٣٥٨)، وفي العيون والحدائق (٧٥): أنه بقي ثمانية أشهر وقيل ستة أشهر.

عُزِلَ ابنُ بشرٍ وابنُ عمروٍ قبلهُ
وأخو هراة لمثلها يتوقع

يعني بابن بشر : عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم ، وبابن عمرو محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ذا الشامة ، وبأخي (هراة) سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية[1] ، وهم عمال مسلمة .

والذي يبدو أن يزيد بن عبد الملك عزل أخاه مسلمة ، لأنه لا يستطيع السيطرة عليه في تصرفه بالأموال وفي توجيهه سياسة الدولة في تلك البلاد الشاسعة الغنية ، فأراد أن يولي من يستطيع السيطرة عليه ويوجهه كما يريد[2] .

كما أن خراج العراق وفارس كان مصدراً غنياً من مصادر تمويل الدولة ، فلا يمكن السكوت عمن يتصرف به كما يشاء دون قيد أو شرط .

ولم يكن مسلمة ممن يضع أموال المسلمين في غير مواضعها ، فمن المحتمل أن يكون الخراج في تلك السنة قد تأثر بظروف الحرب في العراق وظروف التسيب في خراسان ، مما أدى إلى ضعفه وقلة موارده ، خاصة وأن حياته في تلك الظروف مع تغير الولاة ، من موالين لبني المهلب إلى موالين لبني أمية ، وقتل قسم من أولئك الولاة ، ضيع المسئولية وأدى إلى ذهاب الأموال بدداً .

فلما تولى مسلمة ، كان عليه أن ينفق ما جباه في التعمير وتأليف القلوب وتقوية جيشه ، لذلك لم يبق في يديه ما يبعث به إلى الخليفة في الشام ، ولو بقي منه شيء لفعل .

لقد استفاد يزيد بن عبد الملك من أخيه مسلمة في أيام الشدة والحرب ، وبعد أن استقرت الأمور أو كادت تخلى عنه في أيام الرخاء والسلم .

ولم يكن بمقدور أحد من رجال يزيد ، أن ينهض بمهمة القضاء على ثورة يزيد بن المهلب ، وهي ثورة

(١) الطبري (٦ / ٦١٥) وابن الأثير (٥ / ٩٧ - ٩٨) ، وفيهما رواية أخرى عن سبب عزل مسلمة عن العراق وخراسان لا تتفق مع المنطق ولا يصدقها العقل ، وانظر المعارف (٣٦٤) عن تولية عمر بن هبيرة العراقين ، وانظر أنساب الأشراف (٣ / ١٨١) حول عزل عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم وشعر الفرزدق .

(٢) في العيون والحدائق (٧٥) : قدح فيه عند يزيد ، وقالوا : إنه غير مأمون على الخراج فعزله . . . انتهى .
يقصد : قدح في مسلمة عند الخليفة يزيد ابن عبد الملك .

عارمة هددت الدولة تهديداً خطيراً جداً، ولو كان بجعبة يزيد بن عبدالملك من يستطيع النهوض بمثل هذه المهمة الصعبة، لرمى به ابن المهلب دون تردد.

ولم يكن بمقدور كل قائد أن يسد ثغرة فى قلب الدولة أيام الحرب كما فعل مسلمة، فبمجرد قدومه على رأس جيشه إلى العراق، جعل معنويات جيش ابن المهلب تنهار ويتخلى عنه رجاله، كما جعل معنويات رجاله ترتفع، وازداد الإقبال عليه.

ولكن بمقدور كثير من الولاة أن يحلو محل مسلمة فى أيام السلام.

إن مسلمة خلق ليكون غازياً، ولم يخلق ليكون والياً.

ويظهر أن يزيد بن عبد الملك تخلى عن مسلمة والياً، ولكنه لم يتخل عنه ناصحاً ومستشاراً، فاستبقاه إلى جانبه فى (دمشق) يستنصحه ويستشيره فى إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها فكان له نعم الناصح المخلص والمستشار الأمين.

ومما يدل على ثقة يزيد بن عبدالملك بمسلمة، أنه بايع لهشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك باستشارة مسلمة[1].

وحين عزل يزيد عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة ومكة لغضبه عليه، لم يجد ملجأ يلجأ إليه غير مسلمة الذى أجاره وكلم أخاه يزيد بن عبد الملك ليعفو عنه[2].

وكان يزيد بن عبد الملك يحب جارية اسمها (حَبَابَة)، فلما توفيت وجد عليها وجداً شديداً، وخرج مشيعاً جنازتها ومعه أخوه مسلمة ليسليه ويعزيه وقيل إن يزيد لم يطق الركوب من الجزع وعجز عن المشى، فأمر مسلمة أن يصلى عليها. وقيل: منعه مسلمة من الصلاة عليها لئلا يرى الناس منه ما يعيبونه به[3]، ومكث يزيد بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس، أشار عليه مسلمة بذلك، وخاف أن يظهر منه ما يسفهه عندهم[4].

(١) ابن الأثير (٥ / ٩١) وابن خلدون (٣/١٧٤) والأغانى (٧/٢).

(٢) ابن الأثير (٥ / ١١٦) وابن خلدون (٣/١٨٢)، وقد أجار أيضاً عمر بن هبيرة على يزيد، فقبل شفاعته، انظر العيون والحدائق (٨٥).

(٣) ابن الأثير (٥ / ١٢٠) والعيون والحدائق (٧٨).

(٤) ابن الأثير (٥ / ١٢١) وتاريخ الموصل (٢٠).

ولما مات يزيد سنة خمس ومائة الهجرية ، صلى عليه مسلمة[1] ، وهذا يدل على أن مسلمة كان أقرب المقربين إلى يزيد حتى توفاه الله[2] .

لقد استأثر يزيد بمسلمة لرجاحة عقله واتزانه وإخلاصه له وللدولة ، ولم يعزله عن العراق لأنه كان يخشاه ويتوقع منه شراً ، إذ ليس من شأن مسلمة ولا من سماته إشعال نار الفتن وضرب إخوته وأهل بيته من الخلف وتفريق صفوف المسلمين .

٣ – أرمينية[3] وأذربيجان[4] :

وفي سنة سبع ومائة الهجرية (٧٢٥م)

. . . .

(١) ابن الأثير (٥/١٢٠) .

(٢) لقد ذكرت هذه الحوادث لافند ما زعمه أحد المؤلفين في كتابه : مسلمة بن عبد الملك (٥٦) ما نصه : ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان يخشى مسلمة ويتوقع منه شراً ، إذ وجدناه يعزله عن العراقين . . . وما يدل على خوف يزيد من مسلمة وحذره الشديد منه ، أنه لم يستعمل مسلمة على ولاية طيلة خلافته ، ولا سند لهذا الادعاء ولا دليل عليه .

(٣) أرمينية : بكسر أوله ويفتح ، وسكون ثانيه ، وكسر الميم ، وياء ساكنة ، وكسر النون ، وياء خفيفة ، مفتوحة ، اسم صقع عظيم واسع وقيل هما : إرمينيتان : الكبرى والصغرى ، وحدهما من برذعة إلى باب الأبواب (دربند) من الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القبق وصاحب = السرير . وقيل : إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١ / ٢٠٣ – ٢٠٦) والمسالك والممالك للأصطخري (١٠٨) وتقويم البلدان (٣٨٧) ومختصر كتاب البلدان (٢٨٦ – ٣٠١) والمسالك والممالك لابن خرداذبه (١٢٢ – ١٢٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤) ، وكتاب الأقاليم (٧٩) والبلدان اليعقوبي (١٠٦) والأعلاق النفيسة (١٠٦) . وإرمينية اليوم في الجزء المتاخم لإيران – تركيا – الاتحاد السوفياتي وهي في هذه البلاد جميعاً وأهلها أرمن .

(٤) أذربيجان : كلمة أذربيجان الفارسية معناها : أرض النار أو معابد النار ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة ، والغالب عليها الجبال ، وأشهر مدنها تبريز وهي قصبتها ، وأكبر مدينة فيها أردبيل ، ومن مدنها : المراغة وأرمية وخوى وسلماس ومرند وموقا ... إلخ انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩ – ١٦١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٨٤) وأحسن التقاسيم (٣٧٤ – ٣٧٨) وكتاب الأقاليم (٧٩ – ٨٥) والأعلاق النفيسة (١٠٦) والبلدان اليعقوبي (١٠٦) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (١١٨ – ١٢١) وتقويم البلدان (٢٨٦ – ٤٠٧) ومختصر تاريخ البلدان (٢٨٤ – ٢٨٦) ، وأذربيجان اليوم في إيران والاتحاد السوفياتي ، بينهما الحدود التي تفصل بين البلدين ، وإحدى جمهوريات الاتحاد السوفياتي هي : جمهورية أذربيجان ، وهي القسم الذي ضمن حدوده من هذه البلاد الشاسعة .

استعمل هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة على إرمينية وأذربيجان خلفاً للجراح بن عبدالله الحكمي، فاستعمل مسلمة الحارث بن عمرو الطائي، فافتتح رستاقاً[١] وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسناً[٢].

ومن المعروف أن تلك المناطق قد فتحها عُتْبَة بن فَرْقد السُّلَمي[٣] وبُكَيْر بن عبد الله اللَّيثي[٤] وسراقة بن عمرو ذو النور[٥] في أيام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، فيكون دور مسلمة وقائده في هذا المجال هو: القضاء على اضطرابات داخلية، وتوطيد أركان الأمن في منطقة من المناطق المفتوحة.

وفي سنة ثمان ومئة الهجرية (٧٢٦م)، غزا مسلمة الرُّوم مما يلي (الجزيرة)[٦]، ففتح (قيسارية)[٧] وهي مدينة مشهورة[٨].

وفي سنة تسع ومائة الهجرية (٧٢٧م) غزا مسلمة الترك[٩] من ناحيـــة

(١) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والأستان، انظر معجم البلدان (٣٧/١)، والكورة اسم فارسي بحت يقع على قسم من أقسام الأستان، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للأستان، فالكورة والأستان واحد. والكورة: كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، لقولهم دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته: كورة دارا بجرد، ونحو ذلك نهر الملك، فإنه نهر عظيم من مخرجه من الفرات ويصب في دجلة عليه نحو ثلثمائة قرية، ويقال لذلك جميعه: كورة نهر الملك، انظر معجم البلدان (٣٦/١). وأما الأستان والكورة واحد، انظر معجم البلدان (٣٧/١).

(٢) ابن الأثير (٥/ ١٣٧ - ١٣٨) والعبر (١٣٠) وشذرات الذهب (١٣٤) وتاريخ الموصل (٢٥) وتاريخ ابن خليفة (٣٥٠/٢).

(٣) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح العراق والجزيرة (٤١٥ - ٤٢٢).

(٤) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٥ - ٢٠٨).

(٥) انظر ترجمته في كتابنا: قادة فتح فارس (٢٠٩ - ٢١٣).

(٦) الجزيرة: هي جزيرة ابن عمر.

(٧) قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم تقع مدينة سيواس في شرقيها ويتنقل منها إلى قونية، انظر معجم البلدان (٧/ ١٩٥) وتقويم البلدان (٣٨٢ - ٣٨٣) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٣٦٤ - ٣٦٥).

(٨) ابن الأثير (٥/ ١٤٠)، وفي العبر (١٣١/١) وشذرات الذهب (١/ ١٣٤) أن قيسارية فتحها مسلمة سنة سبع ومئة هجرية في رمضان عنوة، وكذلك في تاريخ الموصل (٢٦) وانظر النجوم الزاهرة (٦٢/١).

(٩) في تاريخ الموصل (٢٩) أنه غزا الخزر لا الترك.

(أذْرِبيجان) فغنم وسبا وعاد سالماً[1].

وهذه غزوة أخرى من غزوات توطيد سيطرة الدولة فى البلاد المفتوحة وإشاعة الأمن والاستقرار فى (أذْرِبيجان) الجبلية ذات البرد القارس.

وفى سنة عشر ومائة الهجرية (٧٢٨ م) غزا مسلمة الترك من باب (اللاّن)[2] فلقى (خاقان)[3] فى جموعه، فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد فانهزم خاقان، ورجع مسلمة على مسلك (ذى القرنين)[4] منتصراً[5]. وهذه الغزوة تسمى غزوة (الطين)، وكانت ملحمة عظيمة فى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة[6]، ويبدو أنها سميت غزوة (الطين) لهطول أمطار غزيرة جعلت ساحة المعركة أوحالاً.

وفى سنة إحدى عشرة الهجرية (٧٢٨ م) استعمل هشام بن عبد الملك هشام الجراح بن عبد الله الحكمى على إرمينية وعزل أخاه مسلمة[7]، فدخل الجراح بلاد الخزر من ناحية (تَفْليس)[8] ففتح مدينتهم (البيضاء)[9] وانصرف سالماً، فجمعت الخزر وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام، وكان ذلك

(١) ابن الأثير (٥ / ١٤٥) وتاريخ الموصل (٢٩) وتاريخ الإسلام (٣٠٢/٤) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٢/٢)

(٢) اللان: بلاد واسعة طرف إرمينية قرب (باب الأبواب) مجاورون للخزر، انظر معجم البلدان (٧ / ٣١٦) وتقويم البلدان (٤٠٤).

(٣) خاقان: لقب ملك الترك، ومعناه: الملك.

(٤) ذو القرنين: أحد الفاتحين العظام، ورد ذكره فى القرآن الكريم فى سورة الكهف، واختلف المؤرخون فى اسمه الحقيق وتاريخ حياته وهو الذى بنى سد الصين المشهور، ويسمى سد يأجوج ومأجوج، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (١٦٢ - ١٦٤).

(٥) ابن الأثير (١٥٥/٥).

(٦) النجوم الزاهرة (١ / ٢٦٧) وتاريخ الإسلام (٣٠٢/٤).

(٧) ابن الأثير (٥ / ١٥٨) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) وابن خلدون (٣ / ٢٩٩) وتاريخ الموصل (٣٠) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٣/٢).

(٨) تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأران، وهى قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهى مدينة قديمة، انظر معجم البلدان (٢٩٦/٢) وتقويم البلدان (٤٠٢ - ٤٠٣) وكتاب صورة الأرض (٢٩٢ - ٢٩٤).

(٩) البيضاء: مدينة ببلاد الخزر خلف مدينة باب الأبواب، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٣٦/٢) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٧٧ - ٧٨).

سبب استشهاد الجراح[١] سنة اثنتى عشرة ومائة الهجرية (٧٢٩ م) ، وكان الجراح خيّراً فاضلا من عمال عمر بن عبد العزيز ، ورثاه كثير من الشعراء[٢].

ولا يذكر المؤرخون سبباً لعزل مسلمة ، ويبدو أن مسلمة كان فى (دمشق) سنة إحدى عشرة الهجرية ، فلم يغز فى تلك السنة ، كما أن الترك سارت إلى (أذربيجان) فلقيهم الحارث ابن عمرو فهزمهم[٣] ، مما يدل على أن مسلمة كان بعيداً عن ميدان القتال فقاد المعركة قائد من قادته الذين يعملون بإمرته ، وهذا يدل على أن مسلمة كان فى (دمشق) لأسباب قاهرة ، وقد يكون مريضاً ، لأن هشام بن عبد الملك لا يمكن أن يستغنى عن يده اليمنى فى تلك المناطق النائية المضطربة ، كما لا يمكن أن يعزله بدون رغبته ولأسباب قاهرة .

ولو أن هشام بن عبد الملك عزله لريبة أو لأنه قصر بواجبه لما أعاده إلى منصبه سنة اثنتى عشرة ومائة الهجرية (٧٢٩م) والياً على (إرمينية) و (أذربيجان) ، فوصل إلى البلاد وسار إلى الترك فى شتاء شديد ، حتى جاء (الباب)[٤] فى آثارهم[٥] .

وثبت مسلمة لمدينة (الباب) ففتحها وكان فى قلعتها ألف رجل من بيوتات الخزر ، فحاصرهم ورماهم بالحجارة ، ثم رماهم بقنابل من الحجارة ، ولكنه لم ينتفع بذلك ، فعمد إلى العين التى يجرى منها الماء إلى صهريجهم ، فذبح البقر والغنم وألقى فيه الفرث والمواد الأخرى التى لا ينتفع بها الناس ، فلم يمكث ماؤهم إلا ليلة حتى دود وأنتن وفسد ، فلما جن عليهم الليل هربوا وأخلوا القلعة . وأسكن مسلمة مدينة (الباب) أربعين ألفاً من أهل الشام على العطاء ، وبنى هُرْياً لطعام وهُرْيا للشعير وخزانة للسلاح ، وأمر بكبس الصهريج ورمّ المدينة[٦] .

---

(١) ابن الأثير (١٠٨/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٠/١) .

(٢) ابن الأثير (٥ / ١٠٩) وابن خلدون (٢٩٩/٣) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٧١) وتاريخ الموصل (٢٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٢/ ٣٥٤) .

(٣) ابن الأثير (١٥٨/٥)

(٤) الباب : وهى باب الأبواب (دربند) ميناء على بحر الخزر ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٩/٢) وتقويم البلدان (٤٠٤ — ٤٠٥) .

(٥) ابن الأثير (٥ / ١٦٢) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٧/٢) .

(٦) فتوح البلدان (٢٩١) .

وفى سنة ثلاث عشرة ومائة الهجرية (٧٣٠ م) ، فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت مدائن وحصون على يديه ، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ، ودان له من وراء جبال (بَلَنْشجَرْ)[١] ، وقتل ابن خاقان[٢] ، فاجتمعت تلك الأمم جميعها : الخزر وغيرهم عليه فى جمع لا يعلم عددهم إلا الله، وقد جاوز مسلمة (بَلَنْشجَرْ) ، فلما بلغه خبرهم ، أمر أصحابه ، فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد وعسكره جهيدة ، وقدم الضعفاء وأخر الشجعان ، وطور المراحل كل مرحلتين فى مرحلة ، حتى وصل إلى (الباب) فى آخر رمق[٣] فأكمل بناء (الباب)[٤] وحصنها .

وفى سنة أربع عشر الهجرية (٧٣١م) استعمل هشام بن عبد الملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على (الجزيرة) و (أذربيجان) و (إرمينية) وعزل مسلمة[٥] ، فأقبل بعد ما هزم خاقان وأحكم ما هناك وبنى (الباب)[٦] .

فما هو سبب عزله ؟

لقد كان مروان بن محمد بن مروان ابن الحكم – وهو آخر خلفاء بنى أمية مع عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة إلى (الباب) سار مروان إلى هشام بن عبد الملك ، فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه ، فقال : « ضقت ذرعاً بما أذكره ، ولم أر من يحمله غيرى ! » ، قال : « وما هو ؟ » ، قال مروان : « قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم ، فوالله ما وطئ من بلادهم إلا أدناها ، ثم إنه لما رأى كثرة جمعهم أعجبه ذلك ، فكتب إلى الخزر يؤذنهم

(١) بلنجر : مدينة ببلاد الخزر خلف (باب الأبواب ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢٧٨/٢) .

(٢) فى المعارف (٣٦٥) : أنه قتل خاقان ملك الترك .

(٣) ابن الأثير (١٧٣/٥ – ١٧٤) .

(٤) المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

(٥) ابن الأثير (١٧٧/٥) والنجوم الزاهرة (٢٧٣/١) وتاريخ الموصل (٣٤) والعبر (١٤١/١) وشذرات الذهب (١٤٧٤/١) وابن خلدون (٣٠٠/٣) .

(٦) ابن الأثير (١٧٩/٥) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٥٩/٢) .

بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر ، فاستعد القوم وحشدوا ، فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السلامة ، وقد أردت أن تأذن لى فى غزوة أذهب فيها عنا العار وأنتقم من العدو » ، قال هشام : « قد أذنت لك » ، قال : « وتمدنى بمائة وعشرين ألف مقاتل ؟ » ، قال : « قد فعلت » ، قال : « وتكتم هذا الأمر عن كل واحد ؟ » قال : « قد فعلت ، واستعملتك على إرمينية »[1] .

وقد خرج مروان مختفياً عن مسلمة إلى هشام[2] ، أى أنه عاد إلى الشام من الجبهة الأمامية دون إذن مسلمة ودون علمه ! ! !

وفى رواية أخرى : لما أقبل مسلمة ، زحفت إليه الخزر ، فلم يشعر مسلمة حتى طلعوا عليه ، فقاتلهم وحال بينهم الليل ، وبات المسلمون يحيون ، وانصرف الخزر . وقفل مسلمة واستخلف مروان بن محمد وذلك كله سنة عشرة ومائة الهجرية[3] .

والتناقض بين الروايتين واضح ، فإن مسلمة عاد بعد أن قتل خاقان وأحكم ما هناك[4] ، فلم يدخل الوهن على المسلمين إذاً . كما أن مسلمة تغلغل فى بلاد الخزر ، فكيف لم يطأ من بلادهم إلا أدناها ؟ !

أما أنه كتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر حتى استعد الخزر وحشدوا ، فليس ذلك معقولا ، إذ لا يمكن أن يتصرف أى قائد هذا التصرف ، فينذر عدوه بالحرب ، ويفسح له المجال للاستعداد ثم يتراخى عن العدو ثلاثة أشهر !

أما أن مسلمة لم تكن له كفاية بالخزر ، فهذا ما يدحضه سير القتال وما أنجزه مسلمة فى الحرب .

يبقى ما ورد عن خروج مروان بن محمد مختفياً من مسلمة إلى هشام بن عبد الملك ، فلو كان مروان مبيتاً الوشاية بابن عمه مسلمة ، لاستأذنه فى القفول إلى دمشق لسبب من الأسباب ، ثم يعود أدراجه إلى دمشق ، إذ ليس من المعقول أن يعود مروان من (الباب) إلى دمشق ، وهو قريب القربى من مسلمة ، فيبقى أمر عودته سراً مكتوماً على مسلمة ، ولا يعرف مسلمة عن رحيله شيئاً ! ! !

(١) ابن الأثير (٥/١٧٠) ، وابن خلدون (٣/١٩٧) .

(٢) ابن خلدون (٣/١٩٧) .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط (٢/٣٥٩) .

(٤) ابن الأثير (٥/١٧٩) .

كما أن العلاقة الوثيقة بين مسلمة ومروان من جهة ، والعلاقة الوثيقة بين هشام ومسلمة من جهة أخرى ، تجعل من الصعب على مروان أن يشى بمسلمة ، وتجعل من الصعب على هشام أن يصدق وشاية مروان ، خاصة وأنها تناقض الحقائق الناصعة ولا يصدقها عاقل .

كل ذلك يجعلنا نعتمد الرواية الثانية وهى أن مسلمة بعد أن أنهى واجبه على أحسن ما يرام ، قفل راجعاً إلى دمشق ، واستخلف مروان على ولايته .

ويبدو أن مسلمة بعد عودته ، اقترح على هشام أن يولى مروان مكانه فاستجاب هشام لاقتراح مسلمة .

ولم يكن هشام ليعزل مسلمة الذى كان الرجل الثانى فى الدولة الأموية ، وليس من المعقول أن يعزل مسلمة لعدم كفايته ، لأن كفايته فوق الشبهات ولأن هشام بن عبد الملك ولاه لكفايته حتى يعيد سيطرة الدولة على تلك الأصقاع النائية .

ومما يلفت النظر أن مسلمة لم يَغْزُ ولم يتول ولاية منذ سنة أربع عشرة ومائة الهجرية ، حتى توفاه الله سنة عشرين ومائة الهجرية أو سنة إحدى وعشرين ومائة الهجرية .

وغيابه عن تحمل أعباء الجهاد ، وهو من هو كفاية وحرصاً على النهوض بهذا الغرض — ليس طبيعياً ، بالرغم من ثقة هشام به ثقة مطلقة ، وبالرغم من حاجة الدولة إلى أمثاله من القادة الأفذاذ .

وإذا كان بالإمكان أن يتخلى مسلمة عن تولى المناصب الإدارية ، فليس بالإمكان أن يتخلى عن تولى المناصب القيادية ، وهو الذى حمل السيف قائداً ولم يتجاوز العشرين من عمره ، وقضى كل سنى حياته فى ساحات الجهاد قائداً حتى سنة أربع عشرة ومائة الهجرية ، فمن المعقول أنه تخلى عن المناصب القيادية لأسباب اضطرارية خارجة عن إرادته .

والذى يبدو أن تخليه عن القيادة مكرهاً ، كان لاعتلال صحته وإصابته بالمرض ، ومن المعروف أن من مزايا القائد المتميز تمتعه بالقابلية البدنية المتميزة ، ليستطيع تحمل مشاق التنقل وأعباء الجهاد ، وإلا فليس هناك ما يسوغ ابتعاده عن ساحات الوغى غير المرض الذى أقعده عن قيادة الجيش .

وعلى كل حال ، فقد أدى ما عليه من واجبات قيادية وإدارية بما فيه الكفاية ، وخدم الدولة فى ميدان القيادة والإدارة على حد سواء بشرف وأمانة وإخلاص وقوة .

« يتبع »

محمود شيت خطاب

محمد
دعوة إبراهيم .. وبشرى عيسى

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال تعالى فى سورة البقرة « الآية ١٢٩ » حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو، عليهم آياتك . .) وقال فى سورة الصف « من الآية ٦ » حكاية عن عيسى عليه السلام : (يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

البيان

حكى الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل فى سورة البقرة، أنهما دعوا الله تعالى وهما يرفعان القواعد من البيت قائلين (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنا إنك أنتَ السَّميعُ العليمُ رَبَّنا واجْعَلنا مُسلمين لكَ ومِن ذُرِّيَتِنا أُمَّةً مُسلمةً لكَ وأرنا مناسكنا وتُبْ علينَا إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرحيم) وجاءت هذه الآية : (رَبَّنا وَابعثْ فيهم رَسولاً مِنهم ..) الآية : تكملة لدعائهما[1] عليهما السلام ، وهى تفيد أنهما طلبا منه سبحانه ، أن يبعث فى ذرياتهما رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم :

وقد استجاب الله دعاءهما فبعث فى أهل الحرم — وهم من ذريتهما — بعث فيهم رسولا منهم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الإسلام فأصبحوا بنعمة الله مسلمين ، وبذلك تحققت دعوتهما بجزأيها (١) أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله (٢) وأن يبعث فيهم رسولا منهم يكون سبباً فى إسلامهم وذلك بأن يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، ولهذا قال

(١) انظر الآيات ١٢٧ — ١٢٩ من سورة البقرة .

صلى الله عليه وسلم « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين » أخرجه الإمام أحمد عن العرباض ، والمراد برؤيا أمه ما رأته فى منامها من أنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام . كما أخرجه الإمام أحمد عن أبى أمامة ، وستحدث عن بشرى عيسى بعد توفية الحديث عن دعوة إبراهيم .

فإن قيل إن إسماعيل شارك أباه إبراهيم فى الدعاء ، فلماذا قال صلى الله عليه وسلم (أنا دعوة إبراهيم) ولم يقل . أنا دعوة إبراهيم وإسماعيل ، قلنا : لعل الدعاء كان أصلا من إبراهيم أما إسماعيل فكان يؤمن على دعاء أبيه ، فلذا اقتصر الرسول على إبراهيم لأنه هو الذى دعا ، واعلم أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإن بدأت فى ذريتهما ، فقد انتقلت منهم إلى سواهم وبجهادهم ، قال تعالى فى سورة الجمعة (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٢) والمراد بهؤلاء الآخرين جميع الناس كما قال مجاهد وغيره[1] ، ومما جاء فى عموم رسالته للناس جميعاً قوله تعالى: (وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ كَافَّةً) كما أنها عامة للجن أيضاً ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأحقاف: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (٣٢) .

وقوله تعالى : (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ).

تضمنت هذه الآية الكريمة أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، دعوا الله تعالى أن يبعث فى أهل الحرم رسولا

(١) وعلى هذا تكون (من) فى قوله (وآخرين منهم) بمعنى من أى وآخرين بعيدين عنهم ليسوا من العرب الأميين — كما يصح أن تكون (من) ابتدائية — ، وهى فى كلتا الحالتين ليست للتبعيض .

منهم يتلو عليهم آياته ، لترشدهم إلى توحيد الله سبحانه ، وتعلم على ما يوصلهم إلى معرفته ، وتكون شاهدا على نبوة هذا النبي الذي دعوا الله أن يكون من ذريتهما .

كما تضمنت أنه يعلمهم الكتاب ، أى يعرفهم طريقة أدائه ، ويفهمهم معانيه وأسراره وأحكامه ويخرجهم به من الظلمات إلى النور — ويعلمهم أيضاً الحكمة — وهى وضع الأشياء فى مواضعها ، أو هى السنة النبوية المبينة للكتاب ، ففيها شرح المعانى المرادة لله تعالى ، وفقاً لقوله جل ثناؤه (وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) .

وكما يعلمهم الكتاب والحكمة يزكيهم ، أى يطهرهم من أرجاس الشرك والشك والمعاصى ، فإنهم إذا أخذوا بما علمهم إياه من الكتاب والحكمة استقامت عقائدهم ، وزكت نفوسهم ، وطهرت أخلاقهم وأعمالهم ، وقد حقق الله دعاءهما بإرسال نبينا محمد من ذريتهما ، وتعليمهم القرآن وتزكيتهم به .

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعاءهما بالثناء على الله تعالى ، حيث قالا (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أى إنك أنت الغالب القادر يا الله على تحقيق دعائنا ، بإرسال رسول من أبنائنا برسالة عامة وكتاب حكيم ، يؤدى إلى زكاتهم وطهارتهم من العقائد الفاسدة ، والمعاصى المهلكة ، وأنت يا رب عظيم الحكمة فى رعاية مصالح عبادك .

بشارة عيسى بالنبى فى القرآن :

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « أنا دعوة إبراهيم وبشارة عيسى » فأما أنه دعوة إبراهيم فقد بيناه فى شرحنا لقوله تعالى (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك .) الآية

وأما أنه بشارة عيسى فقد جاء ذلك فى قوله تعالى فى سورة الصف) وإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ . .) الآية (٦) وأحمد من أسمائه صلى الله عليه وسلم ، فقد صح عنه أنه قال « لى خمسة أسماء ، أنا محمد وأحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » وفى حديث لمسلم عن أبى موسى الأشعرى قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى نفسه أسماء ، فيقول : أنا محمد وأحمد والمقفّى والحاشر ، ونبىُّ التوبة

ونبى الرحمة » إلى آخر ما جاء فى السنة من أسمائه الكثيرة — صلى الله عليه وسلم .

بشارة عيسى بالنبى فى إنجيل برنابا :

تعددت بشارة عيسى بالنبى صلى الله عليه وسلم فى إنجيل برنابا ، ومن ذلك ما جاء فى الفصل السابع عشر : « ولكن سيأتى بعدى بهاء كل الأنبياء والأطهار ، فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء ، لأنه رسول الله » ٢٢ ، ٢٣ .

وفى الفصل السادس والثلاثين عدد (٦) « وقد جاء الأنبياء كلهم إلا رسول الله الذى سيأتى بعدى ، لأن الله يريد ذلك حتى أهيىء طريقه » .

وفى الفصل التاسع والثلاثين من الفقرة ١٤ إلى الفقرة ٢٨ ما يلى :

« فلما انتصب آدم على قدميه ، رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس ، نصها : لا إله إلا الله . محمد رسول الله ، ففتح حينئذ آدم فاه وقال : أشكرك أيها الرب إلهى ، لأنك تفضلت فخلقتنى ، ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات (محمد رسول الله) فأجاب الله . مرحبا بك يا عبدى آدم ، وإنى أقول لك إنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة ، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل شىء ، متى جاء سيعطى نوراً للعالم الذى كانت نفسه موضوعة فى بهاء سماوى ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً ، فضرع آدم إلى الله قائلا : « يا رب هبنى هذه الكتابة على أظفار أصابع يدى » ، فمنح الله الإنسان الأول تلك الكتابة على إبهاميه ، على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصه (لا إله إلا الله) وعلى ظفر إبهام اليسرى ما نصه (محمد رسول الله) فقبل الإنسان الأول بحنو أبوى هذه الكلمات ، ومسح عينيه وقال : بورك ذلك اليوم الذى ستأتى فيه إلى العالم .

وقد تضمن هذا النص أن نفس محمد صلى الله عليه وسلم كانت فى بهاء سماوى — أى نور سماوى . ستين ألف سنة قبل خلق الأشياء ، إلخ ولعله يشير إلى هذا ما جاء فى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على

الماء ، ومن جملة ما كتب فى الذكر – وهو أم الكتاب – أن محمداً خاتم النبيين » : اهـ

ومن أعجب تصريحات السيد المسيح فى تعظيم سيدنا محمد ما نقله عنه الحوارى برنابا فى إنجيله (فصل ٤٢ فقرات ١٠ – ١٣) حيث قال برنابا : « فقال حينئذ يسوع : أنا صوت صارخ فى اليهودية كلها ، يصرخ : أعدوا طريق رسول الرب كما هو مكتوب فى أشعيا » ثم قال : « أجاب يسوع . إن الآيات التى يفعلها الله على يدى ، تظهر أنى أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه ، لأنى لست أهلا أن أحل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه مسيا الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى ، وسيأتى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » وهذا التصريح الأخير موافق لما جاء فى القرآن المجيد من أنه صلى الله عليه وسلم (خاتم النبيين) وذلك فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ما كان مُحمدٌ أبا أحد من رجالكُم ولكن رسول الله وخاتَمَ النَّبيِّين) كما أنه موافق لما جاء فى آخر حديث مسلم السابق من « أن محمداً خاتم النبيين » فإنه إذا كان خاتم النبيين فلا يكون لدينه نهاية ، كما جاء فى الفقرة الأخيرة السابقة عن إنجيل برنابا .

وفى بقاء الإسلام إلى قيام الساعة يقول صلى الله عليه وسلم «ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة » .

عموم بعثة محمد فى إنجيل برنابا :

جاء فى الفصل الثالث والأربعين من إنجيل برنابا ، ابتداء من الفقرة ٩ ما يلى :

« وهكذا لما أراد أن يخلق قبل كل شيء نفس رسوله الذى لأجله قصد إلى خلق الكل ، لكى تجد الخلائق فرحاً وبركة بالله ، ويسر رسوله بكل خلائقه التى قدر أن تكون عبيداً له ، ولماذا وهل كان هذا هكذا إلا أن الله أراد ذلك ؟ الحق أقول لكم : إن كل نبى متى جاء فإنه يحمل لأمة واحدة فقط علامة رحمة الله ، والملك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذى أرسلوا إليه ولكن رسـول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده ، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض

الذين يقبلون تعليمه ، وسيأتى بقوة على الظالمين ، ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزى الشيطان ، لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلا: انظر فإنى بنسلك أبارك كل قبائل الأرض » .

« ولما سألوه : أهو نسل إسحاق أم من نسل إسماعيل ؟ أجاب : صدقونى لأنى أقول لكم الحق : إن العهد صُنِعَ بإسماعيل لا بإسحاق » .

وفى الفصل الرابع والأربعين ابتداء من فقرة (١٩) يقول برنابا فى إنجيله ما يلى :

« لذلك أقول لكم : إن رسول الله بهاء يسره كل ما صنع الله ، لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوة ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزدان بروح المحبة والرحمة ، روح العدل والتقوى روح اللطف والصبر ، التى أخذ منها ثلاثة أضعاف ما أعطى الله لسائر خلقه ، وما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ، صدقونى : إنى رأيته وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبى لأن الله يعطى روحه نبوة ، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلا : يا محمد ليكن الله معك ، وليجعلنى أهلا أن أحل سير حذائك[1] ، لأنى إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله إلخ .

وفى عموم بعثته ورحمته يقول الله تعالى فى سورة الأنبياء (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) ١٠٧ .

نبذة عن إنجيل برنابا :

هذا الإنجيل كتبه برنابا أحد حواريى عيسى ، وهو أحد الأناجيل الصريحة فى إثبات وحدانية الله تعالى وإنسانية عيسى ونفى نبوته لله ونفى شركه فى الثالوث ، وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالاسم والعلامات الصريحة وقد ذكرنا نموذجاً فى صراحة فى حق خاتم المرسلين .

وكانت توجد فى العصور الأولى للمسيحية فرق تدين بالتوحيد ، ولها أناجيلها الصريحة فى ذلك ، ولما انعقد مجمع الأساقفة بنيقية سنة ٣٢٥ تحت إشراف الملك قسطنطين ، قرروا التثليث ، وتكفير من يقول بإنسانية المسيح ، وإحراق الكتب التى أنكرت ألوهيته أو تحريم قراءتها ، ومن هذه الكتب إنجيل برنابا ، ولكن نسخة منه

---

(١) تلك درجة عظيمة من التواضع وهضم النفس من السيد المسيح عليه السلام .

سلمت ، وعثر عليها راهب لاتيني اسمه (فراموينو) في المكتبة البابوية في روما ، ولما انتشر خبرها في بداية القرن الثامن عشر أحدث ضجة عظيمة ، وجدلا بين العلماء والباحثين فهو ينكر ألوهية المسيح وبنوته لله ، ويذكر أن المسيح أعلن ذلك أمام الجنود اليهود ، كما أعلن برنابا في إنجيله المذكور أن المسيح لم يصلب ولم يقتل ولم يعذب بيد اليهود .

وقد ترجم إنجيل برنابا إلى الإنجليزية الدكتور (منكيوس) أحد أساتذة كلية (أكسفورد) وترجمه من الإنجليزية إلى العربية الدكتور خليل سعادة (المسيحى المصرى) وطبع بمطبعة المنار سنة ١٩٠٧ .

وإذا كانت هذه النسخة سمّت النبى صلى الله عليه وسلم بمحمد وسمّته تارة أخرى بمسيا ، فقد جاء فى نسخة أخرى للإنجيل باسم أحمد ، فقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنجليزى أنه رأى فى المكتبة البابوية بروما نسخة من الإنجيل بالقلم الحميرى قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها يقول المسيح (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

ومما يدل على أن مسيا هو محمد ما جاء فى الفصل السابع والتسعين من إنجيل برنابا فقرة ١٣ — ١٨ ونصه « وأجاب يسوع أن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق روحه ووضعها فى بهاء سماوى ، قال الله : اصبر يا محمد لأنى لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجمّاً غفيراً من الخلائق التى أهبها لك ، حتى إن من يباركك يكون مباركاً ، ومن يلعنك يكون ملعوناً ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولى للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة ، حتى إن السماء والأرض تهنان ، ولكن إيمانك لا يهن أبداً ، إن اسمه المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا ألله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم » .

وحيث عرفت أن مسيا هو محمد ، وأنه جاء بلفظ أحمد فى بعض النسخ ، فلهذا يكون قوله تعالى (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) إنما هو حكاية لبعض ما كان عيسى عليه السلام يذكره من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا لا ينافى أنه كان يذكره تارة باسم محمد وأخرى باسم

(ميسيناً) أو غير ذلك كإيليا[1] ، فقد جاء فى إنجيل متى (الإصحاح ١١ فقرة١٤) . «وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتى ، من له أذنان للسمع فليسمع » إلى غير ذلك من مختلف الأناجيل وإن طمسها الطامسون.

تظليل الغمام للرسول فى إنجيل برنابا :

هذا الإنجيل عجيب فى بشاراته الصريحة برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أكثرها — ومنها ما جاء فى الفصل الثانى والسبعين ابتداء من الفقرة (١٠) ونصه ما يلى على لسان السيد المسيح «أما من خصوصى فإنى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص العالم ، ولكن احذروا أن تغشوا ، لأنه سيأتى أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامى وينجسون إنجيلى ، حينئذ قال إندراوس : يا معلم . اذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع . إنه لا يأتى فى زمنكم ، بل يأتى بعدكم بعدة سنين ، حينما يبطل إنجيلى ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً : فى ذلك الوقت يرحم الله العالم ، فيرسل رسوله الذى تستقر على رأسه غمامة بيضاء ، يعرفه أحد مختارى الله ، وهو سيظهره للعالم وسيأتى بقوة على الفجار ، ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وإنى أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدق ، وسينتقم من الذين سيقولون إنى أكبر من إنسان ، الحق أقول لكم : إن القمر سيعطيه رُقَاداً فى صباه ، ومتى كبر هو أخذه فى كفيه ، فليحذر العالم أن ينبذه ، لأنه سيفتك بعبادة الأصنام ، فإن موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيراً» .

وهذا الذى رواه برنابا عن السيد المسيح من تظليل الغمام للرسول روته السيرة الشريفة ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن الشيماء أخت النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة ، رأت غمامة تظله ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، أيام كان عند حليمة .

وروى البيهقى وأبو نعيم أن بحيراً الراهب النصرانى رأى النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسافر مع عمه إلى

---

(١) ومن أسمائه فى الأناجيل (البار قليط) ومعناه قريب من أحمد أو محمد ، ويجوز أن يرجع اختلاف أسمائه صلى الله عليه وسلم فى الأناجيل المختلفة إلى الترجمة من لغة إلى أخرى ، ومن ذلك أنه جاء فى بعض الأناجيل باسم (منحمنا) ترجمة محمد .

الشام ، وفوق رأسه غمامة بيضاء تظله من بين القوم ، وأن بحيرا قام فاحتضنه وجعل يسأله عن أشياء فى نومه وأحواله وأموره المختلفة ، فيخبره الرسول بما يوافق ما عند بحيرا من صفته ورأى خاتم النبوة بين كتفيه كما ثبت عند بحيرا ، فطلب من عمه أبى طالب أن يرده إلى مكة خوفاً عليه من اليهود ، فإنه نبى آخر الزمان ، فرده أبو طالب — إلى غير ذلك من الخوارق العجيبة التى ظهرت عليه قبل النبوة وبعدها ، ولولا أن التعليق على هذا النص المنقول عن إنجيل برنابا يطول لبسطنا فيه القول ، ولبينا مراميه وأغراضه البعيدة .

التبشير به فى التوراة :

جاء فى الإصحاح الثامن من سفر التثنية — من العهد القديم — خطابا لموسى عليه السلام « سوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم ، وأجعل كلامى فى فمه ، يكلمهم بكل شىء آمره به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى ، فأنا الذى أنتقم منه ، فأما النبى الذى يجترئ علىّ بالكبرياء ويتكلم باسمى بما لم آمره به أو باسم آلهة أخرى فليقتل ، وإذا أحببت أن تميز بين الصادق والكاذب فهذه علامتك ، أن ما قاله ذلك النبى باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ، والملك لا تخشاه » .

وورد فى القرآن ما يوافق ما جاء فى هذه البشارة ، قال تعالى فى سورة الحاقة : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجِزين ﴾ وقد مكث النبى صلى الله عليه وسلم يدعو قومه ثلاثة وعشرين عاماً عصمه الله فيها ممن يريدون قتله من المشركين ، وفاء بقوله سبحانه ﴿ وَاللهُ يَعْصِمكَ من الناس ﴾ وروى الواقدى عن ثعلبة ابن أبى مالك أن عمر بن الخطاب ، سأل أبا مالك ثعلبة بن هلال — وكان من أحبار اليهود — فقال : أخبرنى بصفات النبى صلى الله عليه وسلم فى التـوراة فقال : إن صفته فى توراة بنى هارون التى لم تبدل ولم تغير هى (أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم وهو آخر الأنبياء ، وهو النبى العربى الذى يأتى بدين إبراهيم الحنيف ، يأتزر على وسطه ، ويغسل أطرافه ، فى عينيه حمرة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ليس بالقصير ولا بالطويل ، يلبس

الشملة ، ويجتزىء بالبلغة[1] ويركب الحمار ويمشى فى الأسواق ، سيفه على عاتقه ، لا يبالى مالقى من الناس ، معــه صلاة لو كانت فى قوم نوح ما هلكوا بالطوفان ، ولو كانت فى قوم عاد ما أهلكوا بالريح ، ولو كانت فى ثمود ما أهلكوا بالصيحة ، يولد بمكة ، وهو أمى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب ، وهو الحمّاد ، يحمد الله شدة ورخاء ، سلطانه بالشام ، وصاحبه من الملائكة جبريل ، يلقى من قومه أذى شديداً ثم يُدَال عليهم فيحصدهم حصداً تكون الواقعات بيثرب ، منها عليه ومنه عليها ، ثم له العاقبة ، معه قوم هم أسرع إلى الموت من الماء من رأس الجبل إلى أسفله ، صدورهم أناجيلهم ، وقربانهم دماؤهم ، ليوث النهار رهبان الليل ، يرهبه عدوه مسيرة شهر ، يباشر القتال بنفسه ثم يخرج ويحكم ، لا شرط معه ولا حرس الله يحرسه » .

وجاء فى الإصحاح ٢٣ عدد ٢ من سفر التثنية على لسان موسى عليه السلام ما يلى :

« جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار ، فى يمينه سنة[1] من نار ، أحب الشعوب ، جميع الأطهار بيده » .

هذا ما قاله موسى فى وصيته قبل موته ، وقد رمز بمجىء الرب من سيناء إلى مجىء شريعته تعالى ، وبإشراقه من ساعير إلى ظهورها من ساعير على يد عيسى ، ورمز باستعلائه من جبال فاران إلخ إلى ظهور شريعته فى بلاد العرب على يد نبيه محمد ومعه الألوف من أصحابه الأطهار ، ورمز بالسنة من النار إلى أنه صلى الله عليه وسلم هادٍ للناس وسراج منير لهم كما جاء فى قوله تعالى (يَٰأيها النَّبِىُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونَذيراً وداعياً إلى الله بإذْنه وسَراجاً مُنيراً) . ويجوز أن تكون رمزاً إلى شدته على الشرك والمشركين .

وقد جاء فى وصف النبى وأصحابه فى التوراة والإنجيل قوله تعالى فى آخر سورة الفتح (مُحمد رَسُولُ الله وَالذين مَعه أشِداء على الكُفار رُحَماء بَيْنهم تراهم رُكعاً سُجداً يبتغون فضلاً

---

(١) البلغة الطعام القليل الذى يتبلغ به من البلاغ وهو الكفاية .

(١) أى قبس من النار ، مأخوذ من السنى وهو الضوء .

مِن الله ِ ورَضوانا سيماهُم فى وُجوههم مِن أثرِ السُّجودِ ذلكَ مثلهم فى التوراة ومَثلهم فى الإنجيل كَزَرع أخرَجَ شطأه فآزره فاستَغلظ فاستَوى على سُوقه يُعجب الزُّراع لِيغيظ بِهم الكُفارُ وَعدَ الله الذين آمنو وَعَملوا الصالحاتِ منهم مَغفرةً وأجراً عظيماً) آخر سورة الفتح وفى بشارة التوراة والإنجيل بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم يقول البوصيرى فى همزيته :

بينته توراتكم والأناجيـ
ـل وهم فى جحودهم شركاء

إن يقولوا ما بينته فمازا
لت بها عن قلوبهم عشواء

من وهو الفارقليط والمنحمينا
ه وبالحق تشهد الخصماء

أخبرتكم جبال فاران عنه
مثلما أخبرتكمو سيناء

وأتاكم من المهيمن قدي
س وكم أخبرت به الأنبياء

وصفت أرضه نبوة شعيا
فاسمعوا ما يقوله شعياء

أرض بدو عطشى حكت أرض لبنا
ن لقد ناسب الرواة الرواء

عرفوه وأنكروه وظلماً
كتمته الشهادة الشهداء

أو نور الإله تُطفئه الأفوا
ه وهو الذى به يستضاء

نبوات أشعياء

أشارت همزية البوصيرى إلى نبوءة أشعياء ، وهو صاحب سفر من أسفار العهد القديم ، ولعله يقصد ما جاء فى الإصحاح ٢١ فقرة (١٣) ونصها «وحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر تبيتين ياقوافل الداوينين ، هاتوا ماء لملاة العطشان ، وخبزة للهارب من أمام السيوف ، ياسكان التيمن قال الرب : تفنى جبابرة قيدار » .

فالوحى من جهة بلاد العرب فى الوعر صريح فى صدق نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فإنه بعث فى أرض مكة الجدباء ، وقوله (هاتوا ماء لملاقاة العطشان وخبزة للهارب) إشارة إلى هجرة الرسول من مكة إلى أرض الماء والطعام الشبيهة بلبنان وهى المدينة ، وأهلها هم سكان التيمن والتفاؤل والخير ، فقد انتصر بهم ، الإسلام ، وجبابرة قيدار إشارة إلى الجبارين من أحفاد قيدار الذى هو

من أولاد إسماعيل ، وقد توعدتهم البشارة بالفناء ، وهذا ماحدث ، فقد قضى الإسلام على دعاة الوثنية من أحفاد إسماعيل فى الجزيرة العربية .

وقد ترجم سفر أشعيا إلى اللغة الأرمنية القسيس أوسكان الأرمنى وطبع سنة ١٧٣٣ بمطبعة أنتونى بورتلى ويوجد فى الباب ٤٢ هذه الفقرة « سبحوا الله تسبيحاً جديداً وأثر سلطته على ظهره ، واسمه أحمد » والمراد بأثر سلطته الذى على ظهره خاتم النبوة الذى يشبه (زر الحجلة) كما جاء فى صحيح البخارى وغيره ، وبالجملة فإن سفر أشعيا ملىء بالبشارات الصريحة ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمتى يفيق العالم ، ومتى يشرح الله صدورهم للإسلام ليكونوا على نور من ربهم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

قال تعالى

« شَرع لكُم مِن الدين ما وصَّى به نوحاً والذى أوحينَا إليكَ وما وصينا به إبراهيم ومُوسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقُوا فيه كبُرَ على المشركينَ ما تدْعوهُم إليه الله يَجتبي إليْه من يَشاءُ ويهدى إليه من يُنيبُ » .

صدق الله العظيم

إيمان بغير دين ... إلحاد مبين

دكتور / عبد الفتاح بركة

أن تكون صاحب دين . . هذا شرف . وأن يكون هذا الدين هو الحق . . هذا شرف أعظم وأن تكون على يقين من هذا الدين الحق . . . فهذا هو أعظم الشرف .

معنى الدين :

ويكفى لفهم المعنى الذى نقصده من لفظ الدين بهذا الإطلاق ما يتبادر منه إلى أذهان القراء مباشرة دون الدخول فى تفصيلات اصطلاحية ، ذلك لأننا لانريد فى هذا المقال أن نخرج من التفصيلات الاصطلاحية بأكثر مما يوحيه إلينا هذا المعنى المتبادر . إنه نظام أساسى كلى إذا التزمه الإنسان أعطاه مطلق الهيمنة على فكره وشعوره وسلوكه .

فمعنى الإلزام والالتزام ملاحظ فيه ، وهو ملاحظ فى معظم تأويلاته الاصطلاحية وهو لذلك يكفينا فى هذا المقام .

والتزام الفرد بنظام يفرضه بنفسه على نفسه لا يحمل معنى الإلزام ، لأن الإلزام الذاتى هو والالتزام وجهان لشىء واحد هو إرادة الفرد ، ولذلك لا يشعر الفرد معه بالثقل والكلفة التى يجدها عندما يلتزم بنظام مفروض عليه من خارج نفسه ، وإن وجد تجاوباً مع طبيعته وفطرته ، وعندما يتضح لهذا الفرد أن النظام الذى ألزم به نفسه لايتفق مع تحقيق ما رسمته من أهداف ، لم يجد فى ذلك مثاراً للغضب والجحود ، لأنه سيجد نفسه هى موضوع هذا السخط وهـذا الجحـود ، وهو لا يستطيع بحكم فرديته أن يفاصل

نفسه بالعداء ، لكنه ينتقل فى يسر وتسامح إلى تعديل خطته وإصلاح نظامه وانتهاج خطة جديدة لحياته ، فإذا لم يكن ملتزماً بغير ما تفرضه نفسه عليه ، كان ملحداً لا دين له .

لكن الفرد بحكم فرديته لا يستطيع أن يلتزم بنظام مفروض عليه من خارج نفسه إلا إذا لم يجد مناصاً من قبول هذا الالتزام ، تحكم به عليه الضرورة بوجوهها المختلفة : عقلية ووجدانية وعملية ، كما يدركها هو ، فعندما يدرك هذه الضرورة المركبة لا يجد مناصا من قبول الالتزام بحكمها ويصبح هذا الالتزام وكأنه ناشىء من داخل نفسه بحكم إدراكها لهذه الضرورة ، ويصبح هذا الالتزام ، عملا من أعمال إرادته ، أملته عليها الضرورة المركبة المحيطة به والمسيطرة على منافذ إدراكه ويتحقق بذلك معنى الدين بوجه عام .

إبليس نموذج للإلحاد :

وقد تتأبى إرادته على الرضوخ لهذا الإلزام ، إمعاناً فى الفردية الأنانية ، واستكباراً على حكم الضرورة ، ونفوراً من قيودها .

ولقد كان إبليس — فيما قصه علينا القرآن الكريم — أول من فعل ذلك ، حيث وصفه بأنه أبى واستكبر مع أن الضرورة التى كانت تحكم عليه بالامتثال والخضوع كانت واضحة صريحة مباشرة : لقد صدر الأمر الإلهى الكريم للملائكة أن يسجدوا ، والضرورة الماثلة فى الأمر الإلهى تحكم بالامتثال والضرورة الماثلة فى العظمة الإلهية تحكم بالخضوع ، والضرورة الماثلة فى تدبير الله لآدم أن يكون خليفة فى الأرض تحكم بالتواضع ، وقد استجاب الملائكة لحكم هذه الضرورة ، فالتزموا بها وسجدوا طائعين ولم يسجد إبليس مع إحاطة هذه الضرورة به من كل جانب ، ومع إدراكه لها بكل ما أوتى من وسائل الإدراك ، ولم يكن عدم التزامه ناشئاً عن جهل ، أو نقص فى المعرفة والإدراك ، ولكن فرديته الأنانية ثارت به ، فأبى واستكبر ، (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) (البقرة : ٣٤) .

هل آمن إبليس :

وليس من شك فى أن إبليس

كان – كسائر الملائكة – يعرف ربه ، ويعرف له ماتستوجبه ربوبيته وألوهيته ، لكن الملائكة التزمت ما عرفته، ولم يلتزم، فحققت لله دينها، وجحد إبليس دينه ، لذلك وصفه الله تعالى بأنه كان من الكافرين فلم يصفه – مع هذه المعرفة التى كانت له ضرورة – بأنه كان من المؤمنين.

وحين نقرأ القصة لما وقع بعد ذلك نجد إبليس يتحدث حديث الذى يعلم يقينا مقام الله وعزته وربوبيته يقول تعالى : (إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ص : (٧١ – ٨٣).

فهو يخاطبه بالربوبية ، قائلا (رب فأنظرنى) ويعترف له بالعزة ، مقسما بها (فبعزتك لأغوينهم) ، ومع رسوخ هذه المعرفة وثبات هذا الإدراك لديه فإنه لم يكن مؤمناً ، وإنما كان من الكافرين .

فالمعرفة وحدها دون التزام لا تستتبع وصف الإيمان ، أى أن المعرفة بغير التدين ليست من الإيمان فى شىء ، وإنما هى أدخل فى باب الكفر ، لأنه جحود وإنكار مبنى على علم ، واستكبار .

تحريف لفظ الإيمان عن معناه :

وكثيراً ما يلتبس الأمر على بعض الناس ، حتى على بعض المثقفين منهم، فيطلقون وصف الإيمان على كل من أقر لهذا الكون بمكون عظيم ، بصرف النظر عن موقفه من الأديان ، فسواء التزم بدين أو لم يلتزم ، فإنه يعد مؤمناً ، ما دام يقر بهذا المكون لهذا الكون البديع .

والإقرار بمكون أو بخالق للعالم ليس – فى الحقيقة – مشكلة ، لأن كل الضرورات العقلية والعملية والوجدانية تلجىء إليه ، ولا يسع إنساناً

سليم العقل والإدراك أن ينكره ، وإنما يحتاج المنكرون إلى تبرير موقفهم بما لا يستطيعون إقامته من شبه وأوهام .

تبقى المشكلة فيما تستتبعه هذه الضرورة من معرفة هذا الخالق حق معرفته ، ومعرفة حقه على مخلوقاته، وما يلزمهم به عن طريق وحيه ورسله من شرائع وتكاليف ، فيها الأوامر والنواهي التى تنظم مجمل حياتهم وعلاقاتهم تنظيما صحيحاً ، مبنيًّا على صخرة الحقيقة الأولى وهى ربوبية الله وما تستتبعه هذه الضرورة — أيضاً — من نتيجة حتمية هى إثابة من أقر والتزم، وعقاب من أبى واستكبر، وذلك فى يوم خاص هو يوم الدين .

وقد وقف إبليس عند الضرورة الأولى ، فلم يتجاوزها إلى لوازمها ، فأصبحت بذلك فاقدة الأثر ، عديمة الجدوى ، ولم يمكن وصفه بالإيمان من أجل ذلك ، بل وصف — على الرغم من ذلك — بأنه كان من الكافرين .

وكان هذا الموقف بعينه هو موقف الكفار الأولين فلم يأت رسول من الرسل ليدعو الناس إلى اكتشاف وجود الله ، وإنما ليدعوهم إلى توحيده ، والالتزام بطاعته وعبادته (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (لقمان : ٢٥ ، والزمر : ٣٨)، (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) (العنكبوت :٦٣) ، (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون) (يونس: ٣١) ، (قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون (يونس : ٣٤)، إلى غير ذلك من الآيات ، ومع إقرارهم واعترافهم بهذه الضرورة فإن مشكلتهم كانت فى التوقف دون ما تستلزمه هذه الضرورة من ضرورات أخرى ، فاستنكروا الوحى ، ثم تدرجوا فاستنكروا أن يوحى إلى بشر ، ثم تدرجوا فاستنكروا أن يكون هذا البشر من طبقة أو طائفة لا تنال رضاهم ثم تدرجوا فاستنكروا أن يكون هناك بعث أو حياة أخرى ، مع إثارة الشبه فى كل درجة يتدرجون منها إلى ما بعدها .

ولا يزال هذا الموقف هو موقف

الملحدين فى كل زمان مع تغيير فى صورة الشبه ، يساعد عليه تطور العلم وظهور نظريات وافتراضات تتجدد فى كل أوان .

ولكن الإلحاد لفظ كريه ، يتعرض صاحبه للمقت العام ، نظراً لأنه يصادم الشعور الضرورى لدى الإنسانية بالاعتراف بحق الله ، لذلك لبس الملحدون ثوباً غير ثوبهم ، كن وضع اسم الفلفل على علبة السكر تضليلا للنمل ومصرفاً لأنظاره ، فجعلوا الإلحاد اسما لمن ينكر وجود الله جملة بعد أن جعلوا من إثبات وجود الله — وهى قضية ضرورية — مشكلة تحتاج إلى بحث وإلى برهان ، ومن لم يهتد إلى هذا الدليل ، أو لم يقتنع به ، فأنكر وجود الله فهو ملحد ، لكنه عندئذ ملحد معذور ، لم تنتصب أمامه الدلائل الكافية أو البراهين المقنعة ، وأقاموا له من شبه العلم ما يستند إليه فى دعواه ، كأن الأصل وجود الكون بغير خالق ، فإذا ظهر من يدعى وجود الخالق طولب بالدليل وهو عكس للقضية ، إذ الأصل ألا يوجد كون بدون خالق ، ويطالب من ينكر ذلك بالدليل ؟

وإذا نجحوا فى قصر لفظ الإلحاد على إنكار وجود الله ، كان مجرد الاعتراف بوجوده خروجاً من دائرة الإلحاد المقيتة ، إلى دائرة مقبولة مرضية هى دائرة الإيمان ؟

وبذلك لبس هؤلاء الملحدون ثوب الإيمان ، بعد أن اتسع حجمه إلى الدرجة التى يستطيع فيها أن يلبسه كل من لا يلتزم بدين ؟

لا إيمان بغير دين :

بل وسعوا من إطاره ليسع كل من أقر لهذا الكون بموجد أو مكون ، مهما نسب إلى هذا الموجد من صلات إلى درجة تجعل الإقرار به مساوياً لعدم الإقرار به ، فيصبح الإيمان والإلحاد فى قرن سواء ، فاتخذوا آلهتهم من العقل مرة ، ومن الروح أخرى ، ومن المادة ثالثة ، ومن النظام الذى يشتمل هذا الكون تارة ، ومن الإنسانية تارة ، ومن القوة أو الطاقة أو ما شابه ذلك تارات أخرى ، وذلك للابتعاد عن مقتضى الضرورة فى الاعتراف للخالق بربوبيته ووحدانيته ، واستقلاله وسلطانه ، مما يقتضى الخضوع له والامتثال لدينه ؟

فالإيمان بوجود الخالق دون الالتزام بدينه يساوى إنكار وجوده ، وسواء اعترفنا بوجوده أو أنكرناه فإن ذلك لن يغير من واقع الأمر شيئاً ما دمنا — مع ذلك — نجحد سلطانه ، ولا نقر له بحقه فى فرض دينه .

وحقيقة الإيمان بالنسبة لهؤلاء الأدعياء تجاوز كل عقل ، وكل منطق ، وكل واقع تجريبى ، لأن عقولهم قد حاصرتها المادة ، ومنطقهم قد أفسدته التجارب ، وتجاربهم قد دارت فى نطاق فروضهم وتخميناتهم ، وأصبحوا فى النهاية أسارى ظنونهم وأوهامهم ، لا يقبلون إلا ما يريدون قبوله ، وهم لا يريدون أن يقبلوا الدين ، لأنه مفروض عليهم من قوة عليا خارجة عن نفوسهم ، مع ما فى نفوسهم من الكبر الإبليسى ورفض الدين لا يتم ما دامت الحقيقة الكبرى لهذه القوة العليا ما ثلة أمامهم لذلك لم يكن بد من رفضها حتى يستريحوا من عناء الخضوع للدين والالتزام به .

ولقد وجدنا من الملحدين من واجه هذه الحقيقة فى صراحة دون أن يتوارى خلف هذه الغلالة المتهافتة من دعوى الإيمان ، فاعترف بإلحاده وإنكاره للألوهية إنكاراً مطلقاً — رغم اعترافه للمادة بكل شىء — ونصب من نفسه داعية للإلحاد على طول العالم وعرضه ، وأقام للإلحاد هيكله ودولته فى الاتحاد الشيوعى الاشتراكى العالمى .

وكل من تابعه فى خطته واقتفى آثار نظرياته فهو ملحد يتعبد فى هيكل الإلحاد ، ولو تقمص ثوب الإيمان وارتدى بعنوانه ، فدعوى الإيمان الذى يدعيه هؤلاء المدعون مع عدم اعترافهم بالدين دعوى لا تؤيدها الحقيقة كاسم الفلفل فوق وعاء السكر .

لكن رفض وجود الخالق وإنكاره جملة غير مستساغ عند الكثيرين ، لكونه حقيقة ثابتة أثبت من أى حقيقة أخرى ، حيث إنها أصل الحقائق ، وكل الحقائق التى يريدون أن يتعاملوا معها تؤدى إليها ، وتنتهى عندها ، فاعترف بها من اعترف كرها ، وكان اعترافهم بها مظهراً من مظاهر الإلحاد وإن أخذ صورة الإيمان ، لأن مصدره الشعورى والوجدانى والعقلى ملحد ، يدل على إلحاده أنه بدل أن يخضع نفسه لما تمليه هذه الحقيقة من واجبات الدين ، أخضع هو هذه الحقيقة لتجريداته العلمية ، وافتراضاته الظنية

ثم لم يلبث أن تحلل من كل واجب قبلها ، ومن أى التزام تجاهها .

وليس الإيمان كذلك ، ليس الإيمان أن تضع مبدأ تعتنقه ثم تجرده من كل تأثير ، وتعزله عن مجـرى الشعور ، وتجعله فى موضع الشك أو فى موضع التردد أو فى موضع التجهيل ، أو أن تنصبه بنفسك لنفسك ، فتكون صاحب الحق فيه ، إن شئت خولته السلطان ، وإن شئت عزلته عن السلطان ، كمن يصنع صنمه من عجوة يسجد له فى الصباح ليلتهمه إذا جن المساء .

لا تستقيم الحياة بغير دين :

وهذا الإلحاد فى الإيمان لا يقتصر تأثيره على الفرد ، بل إن حياة المجتمع نفسها لا تستقيم مع هذا الإلحاد .

إذ ما معنى أن يكون الفرد مؤمنا لا دين له ؟ معناه أن يكون متحللا من أى التزام تجاه تلك الحقيقة الكبرى المهيمنة على هذا الكون ، وإذا زال هذا الالتزام لم تعد هنالك جهة أخرى تستطيع إلزامه ، إذ لا توجد جهة هى أولى بذلك من جهة .

وإنما يكون التزامه تجاه نفسه ، فما تمليه عليه نفسه ، وما تختاره إرادته هو الذى يحظى بقبوله ورضاه .

وإذا كان هذا الإلحاد مذهبا سائداً فى مجتمع من المجتمعات لم يكن عجيباً أن تجد من السلوك والتصرفات أنواعاً بعدد الأفراد ، لأنك لا تكاد تجد فردين يتماثلان فيما تمليه النفس وما تختاره الإرادة ، وليس هنالك معيار واحد تفرضه قوة واحدة تملك الحق فى فرضه ، وتقتنع به نفوس هؤلاء الأفراد اقتناعاً يؤدى إلى الالتزام بل كل فرد وطائره .

كما أنه لا يوجد قالب تصب فيه هذه الأفراد لتخرج جميعها نسخة متماثلة متآلفة الطباع ، متناغمة الميول متوحدة الاتجاهات .

ومثل هذا الفرض لا يفيد المجتمع ، بل يضره أبلغ الضرر ، لأن المجتمع الذى لا تتنوع أفراده ، ولا تختلف نزعاتهم واتجاهاتهم ، مجتمع متجمد ، لا ابتكار فيه ، ولا مجال للتطور أو التقدم .

بل إن مثل هذا المجتمع الموحد الأفراد لا يستطيع أن يكفى حاجاته ، لأن حاجاته تختلف وتتنوع وتتجدد ، وهم على وضع لا يختلف ولا يتنوع ولا يتجدد .

ولا يصلح المجتمع إلا أن يكون

كما خلقه الله متنوع النزعات والميول والاتجـاهات بحسب تنوع الأفراد والشخصيات ، كما لا يصلح المجتمع مع ذلك — إلا إذا تحكمت فى هـذه الاختلافات قواعد ملزمة تؤلفها وتوجهها إلى رشدها وفلاحها . ولا تتركها لتتوزع وتتشتت ، فتتبدد وتضيع سدى .

والملحدون الذين يتهربون من الالتزام تجاه هذه الحقيقة الكبرى لا يجدون مهرباً من هذه الحقيقة الاجتماعية التى تسوقهم إلى الله ، ولكنهم يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خـير ، ويفرضون هم باسم المجتمـع — ومن دون الله — قواعـد وقوانين يحكمون بمقتضاها أفراد المجتمع ، ويلزمونهم باحترامها ، ويطلبون منهم أن يلتزموا بها .

فهى قواعد وقوانين تحل محل الدين ، وليست هى الدين ، تفرضها الضرورة الاجتماعية ، ولكنها لا تعتمد على الضرورة العقلية أو الضرورة الوجدانية ، لذلك كانت قداستها مصطنعة ، واحترامها تقليداً ، وممارستها تبادلا للمنافع ، ثم لا يتجاوز أثرها بعد ذلك إلى مجرى الشعور ، ولا إلى قرار الإدراك .

بل إن هذه القواعد وهذه القوانين التى تحل محل الدين ، ليست فى حقيقة أمرها ضرورة اجتماعية ، وإنما هى نتيجة مزيفة لهذه الضرورة الاجتماعية ظهرت بعد أن أغفلنا الحقيقة التى تتطابق مع الضرورة الاجتماعية وهى الدين ، فلما أغفلنا الدين وظلت الضرورة الاجتماعية قائمة تنادى بوجوب الإلزام والالتزام ، ظهرت تلك القوانين ، والقواعد ، والمبادئ والتنظيمات ، والتنظيرات ، والأيديولوجيات ، وكل ذلك ليس بحكم الضرورة الاجتماعية ، بل بحكم أفراد تواضعوا عليها ، وفرضوها فيما بينهم ، بالتراضى ، أو بالقسر والإكراه ، ليسدوا بها خلة الضرورة الاجتماعية ، وهيهات ، فما تزال هذه القواعد والقوانين — التى أرادوا لها أن تحل محل الدين — عرضة لكل غالب يغير فيها وفق هواه ونزعاته ، بطريقة من هذه الطرق التى تفرض بها هذه القوانين عادة وهى فى النهاية محصلة التزام الفرد أمام نفسه وتبعاً لهواه ، وإن سرى حكمها بين الآخرين ولذلك كان صلاح المجتمع بها حلم واهم أو خيال حلم .

الدين الحق لا يكون إلا لله :

ولقد نجد العذر إذا استشرى الإلحاد فى بيئة محرومة من الدين الصحيح حيث يجد فى الأديان السائدة ما يثير معانى التناقض وعدم الاقتناع ، ولا يلبث موقف الفرد حينئذ أن تتناوشه مختلف الأفكار والاتجاهات ، وكلها تسلمه إلى الشعور بالغربة والضياع وعدم الارتكان إلى الحقيقة ، ويجد نفسه مطالبا بدين لا يملأ عقله ووجدانه ، ولا تبرهن تشريعاته العلمية على ثبات أصله ورسوخ بنيانه .

وذلك ما جعل الإلحاد يترعرع فى أوربا ، وفى البلاد التى تثقفت بثقافتها وتشربت بأفكارها ومبادئها .

ذلك أن الدين لا يكون ديناً صحيحاً إلا إذا اعتمد على مصدره الصحيح ، وسلك فى وصوله إلينا طريقاً سليماً ، وتلقيناه بروح الاتباع بغير ابتداع ، أما إذا خلا من ذلك فإنما هو دين عند أصحابه ، لا فى الحقيقة والواقع .

ولذلك نجد القرآن الكريم يجارى أصحاب الأديان المختلفة ، فيصف مذاهبهم ومللهم بوصف الدين ، حسبما يعتقدون ويقول لهم (لكم دينكم ولى دين) الكافرون : آخر آية ، ولكنه لا يعترف بحقيقة الدين إلا لدين واحد ، هو الحق لا سواه وهو الإسلام فيقول : (إن الدين عند الله الإسلام) آل عمران : ١٩ ، والإسلام هنا يشمل مختلف معانيه كاسم للدين الذى أرسل به محمد عليه الصلاة والسلام ، وكوصف لما فيه من معانى الإسلام لله وحده .

أما غيره من الأديان ، فليست بأديان على الحقيقة ، لأنه إذا كان الدين يشتمل على الإلزام والالتزام فهذه الأديان — وإن ظهر فيها نوع من الالتزام — لم يستند فيها أصل الإلزام إلى مصدره الصحيح وهو الله سبحانه وتعالى ، حيث إنها إما صادرة فى أصلها عنه لكنها حرفت أو شوهت أو استبدلت ، وإما أنها لم تصدر عنه وإنما صدرت عن وسائط انتحلوا من حقوق الربوبية ما ليس لهم باسم الأرواح الخفية والقوى الغيبية ، وغير ذلك من وسائط شيطانية ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك لا اعتبار لهذه الأديان فى ميزان الحق . ولا غرو أن ينشأ الإلحاد فى مهدها ويترعرع فى سهلها ونجدها .

كيف يوجد الإلحاد في ديار الإسلام ؟!

ولا غرو أن يصل الإلحاد إلى البلاد التي تقتفي آثارها ، وترضع لبانها ، مع وجود الإسلام وهو دين الحق بين ربوعها ، ذلك لأن دعاة الإلحاد في أهلها قد قطعوا صلتهم بدينهم ، ولم يعرفوا من وجه الدين إلا ما رأوه في دعايات أولئك الإلحاديين وظنوا أن الدين كله سواء ، ما كان منه دينا على الحقيقة وهو الإسلام ، وما كان منه دينا باعتباره نظرة أهله إليه وهو ما عدا الإسلام فقاموا يدعون إلى الإلحاد خفية وجهرا ، ويبثون مبادئه ، وينشرون قواعده بكل وسيلة من وسائل الدعوة ، صريحة أو ملتوية ، عنيفة أو لينة ، يؤزهم على ذلك الاستعمار الذي سيطر في غفلة طال أمدها على ديار الإسلام ويمد لهم في حباله ، ويمكن لهم من مفاتيح التوجيه ووسائل الريادة والقيادة .

ولقد قنع في بداية الأمر أن يترك النص على أن دين الدولة هو الإسلام موجوداً في دساتير تلك البلاد ، ولكنه فرض قوانينه وشرائعه ، وجعلها هي التي تسود وتحكم ، فجرد هذا النص من معناه ، وأفرغه من محتواه .

وفات المسلمين حين حكموا في بلادهم قوانين الغرب أنهم خطوا بذلك أولى الخطوات العملية في طريق الإلحاد ، لأنهم تحللوا من التزامهم بتطبيق شريعة الله ، وهو لب الدين وجوهره .

وقد حدث ذلك بالفعل ، فتحت هذا التناقض بين النص والقانون الذي يخالفه فتحت الأبواب لكل ذي مذهب منحرف واتجاه إلحادي أن يبيض ويفرخ ، ويطير بإلحاده شرقاً وغرباً ، وما نراه الآن من أفعال وردود أفعال بين الانحراف المنحرف والتطرف المتطرف ينبيء عن فوضى فكرية ، واضطراب نفسي ، وقلق عقيدي وهو نتيجة طبيعية لكل ما ذكرناه .

ثم خطا الإلحاد خطوات أخرى في ضمائر المسلمين ومشاعرهم ، وزيف عليهم مفهوم الإيمان ، وجعله يكتفي بمجرد الاعتراف بإله لهذا الكون ، فمن اعترف بذلك فقد خرج من ربقة الإلحاد ، وأصبح أهلا للتسامح وأن يعامل معاملة المؤمنين .

ثم أصبح هذا المعنى شعاراً يرفع رسمياً في بعض البلاد الإسلامية ،

كما نجد ذلك فى البانشاسيلا الإندونيسية ، وإندونيسيا بلد إسلامى أصيل يبلغ تعداد المسلمين فيه أكثر من مائة مليون ، وبنسبة تربو على ٩٠٪ .

وفى ظل هذا الشعار أينع الإلحاد وازدهر ، وسرح بين ربوعها ، ومرح فى جزرها وشطآنها ، ينشر عوامل التحلل والوثنية واللادينية[١] باسم الشيوعية مرة ، وباسم التبشير المسيحى كرة ، وباسم الروحية عدة كرات ، مستتراً فى كل ذلك خلف شعار الإيمان فحسب .

ولقد يشفع للمسلمين فى جميع بلدانهم ، أنهم لم يرتضوا ذلك يوماً ، ولم يقبلوه ، ولم يهنوا فى رفضه ومقاومته ، والمطالبة بتغييره ، وإنما فرض عليهم بفعل الاستعمار وأعوانه وأذنابه ، وبثقل الضغوط الدولية والأوضاع الاقتصادية ، وقد آن الأوان أن تتخلص من هذه الآثار ، ونتخفف من تلك الآصار ، ونتبرأ إلى الله من جميع الأوزار ذلك أن الإيمان بغير دين كفر صراع ، وإلحاد بواح .

وإنها لبشريات طيبة أن يسود هذا

(١) قد نعود إلى الحديث فى هذا الموضوع فى مقال آخر .

الشعور بلاد المسلمين ، فنجد فى باكستان — مثلا — من ينادى بوضع إطار سياسى إسلامى للبلاد ، بدلا من النظام الحالى المخالف للتعاليم الإسلامية ، وأن نرى قياداته تنادى بضرورة جعل باكستان دولة إسلامية حقاً[١] .

كما نرى مثل هذا الشعور عاماً متبادلا بين الشعب والقادة فى مصر العربية ، ويتبلور ذلك الآن فى مؤسساتها التشريعية[٢] ، ويقوم مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف بالإعداد لعقد مؤتمر خاص يدرس مشروع دستور إسلامى يكون فى متناول الدول الإسلامية الراغبة فى سلوك هذا المنهج وفى العودة إلى حظيرة الإيمان الصحيح .

كذلك نجد أن إندونيسيا قد غارت لدينها وإسلامها فأصدرت مؤخراً عدة قرارات مجيدة تمنع هؤلاء الملاحدة — الذين يلبسون مسوح الرهبان ، ويتزيون تحت شعار الإيمان ليعيثوا فى الأرض

(١) الأهرام ٢ من المحرم سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢ من ديسمبر سنة ١٩٧٨م .

(٢) انظر حديث الدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب فى الأهرام ٣ من المحرم سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٩٧٨ .

فساداً – تمنعهم من اقتحام أسوار الأسر المسلمة ومن إزعاجهم عن إسلامهم بالترهات والخزعبلات .

ولكن ما يعنينا بالمقام الأول أن نبين أن الإلحاد يلبس أردية مختلفة ، فيستخفى حين لا يستطيع أن يستعلن ، ويداور ويناور حين لا يستطيع أن يواجه ويجابه ، ففى بلد كعدن من بلاد اليمن – معقل الإسلام – يكشف عن وجهه القبيح بالقتل والتذبيح ، وفى بلد كإندونيسيا يستتر خـلف مبادئ البانشاسيلا ويتخذها درعاً ، ومتراساً ، ويقول كلمة حق مبتورة ليصل بها إلى باطل صريح ، مدعياً أن مبدأ الدولة هو الإيمان بالله ، وماذا يقول كثير من الملاحدة غير ذلك ؟!

ألا إن هذا المبدأ وحده لا يكفى ولا يمكن أن يكون وسيلة لإيمان صحيح، بل إنه يفتح الباب للإلحاد على مصاريعه وتلك القرارات التى أصدرها مؤخراً وزير الشئون الدينية خطوة طيبة ، ولكنها تحتاج إلى ردء ووزر وقوة تعضدها وتساندها بوضع هذا المبدأ فى وضعه الصحيح، وهو النص على أن دين الدولة هو الإسلام ، كما تفعل كل البلاد الإسلامية التى لا تريد أن تتحلل من دينها .

بقى أن نقول :

إنه لكى يكتمل الإيمان وتستقيم أمور الحياة فى ظلاله ، لا بد لكل بلد إسلامى أن يعترف وينص رسمياً على أن دين الدولة هو الإسلام وأن شريعته هى القانون .

والله أعلم .

د. عبد الفتاح عبد الله بركة

من آداب العالم

« لزوم العلم ، والعمل به ، ومنع التكبر ، والرفق بالمتعلم ، وإصلاح المسألة للبليد ، واستماع الحجة والقبول لها ، وإن كانت من الخصم » .

في مواجهة الإلحاد المعاصر ..
استمرار الصراع بين الدين والعلم

دكتور / يحيى هاشم

(١)

تمهيد :

١ — لا شك فى أن للعقيدة الدور الأساسى فى حياة الإنسان وينبغى ألا يكون هناك شك أيضاً فى أن ما يحتاج إليه الإنسان ليس مطلق عقيدة ، ولكن العقيدة الصحيحة فى الواقع ونفس الأمر .

إن الخطر الداهم الذى تتعرض له مجتمعاتنا الإسلامية من استيراد العقائد الغريبة عنها لا ينحصر فى كونها أداة للسيطرة الأجنبية ، وإنما يرجع فى الأساس إلى كونها عقائد باطلة موضوعياً .

وإنه لمن الخطأ الاتجاه إلى المزج بين « أيديولوجيات متناقضة » وعلى ذلك فإنه لمن الضرورى المحافظة على صفاء العقيدة الصحيحة التى اهتدى إليها مجتمعنا منذ انتشر فيه ضياء الإسلام .

وفى مجال العقيدة الإسلامية لا مبرر للحديث عن « جمود الأيدلوجية » لأن العقيدة الصحيحة القائمة على هدى الإسلام ، صالحة للإنسان فى كل زمان ومكان وهى فى نفس الوقت لا تقوم بهذا الدور الأصيل إلا إذا احتفظت بأصالتها وصفائها ونقائها مهما توالت عليها الأزمان والدهور ، ومن ثم فإن شعار الجمود الذى قد يطرح فى هذا المجال يصبح مضللا إلى أبعد الحدود .

وإذن فإن ما يحتاج إليه المسلم هو تشدده فى التمسك بأصالة عقيدته الصحيحة وصفائها إذ أنه فى هذا الصفاء وفى هذه الأصالة تكمن صلاحيتها للإنسان فى كل زمان ومكان وللمجتمع فى أى طور من أطوار نموه ، ومن ثم فإنه لا يصح أن نفترض احتمال وجود تعارض بين مصالح الفرد أو

الأمة ومشاكلها الحاضرة وبين العقيدة الصحيحة التي تشير إليها وعلى ذلك فإنه كلما ظهر أن هناك تعارضا بينهما يكون المطلوب هو الرجوع إلى العقيدة فى منهلها الصافى الصحيح .

وهنا يقتضينا المقام أن نذكر كلمة موجزة عن معنى « الدين » والمراد بتعريف الدين تعيين الخصائص التي لا يكون الدين ديناً إلا بها .

والكلمة الأوربية التي تدل على ما تدل عليه كلمة دين عندنا هي (Religion رلجيون) المقتبسة من اللاتينية . وترجع الكلمة فى مبدأ اشتقاقها Religio إلى معنى الربط ، الشامل لربط الناس ببعض الأعمال وربط الناس بعضهم ببعض . وربط الناس . بالإلهية . وهى تفيد أيضاً معنى الشعور بحق الآلهة فى الخشية والإجلال .

أما الكلمة الحديثة (Religion) فتدل على وجود نظام يؤلف بين جماعة من الناس بإقامة شعائر وعبادات معينة ، وبالإيمان بقوة روحانية أسمى من الإنسان حالة أو متعددة ، أو واحدة يستحق الاحترام والخشوع ، ويمكن الاتصال بها . كما تدل على الخضوع لقانون أو عادة أو عاطفة ، لها علاقة بتلك القوة الغيبية .

ويرى كل من سبنسر وماكس موللر :

أن الدين مرادف لما وراء العقل — فالدين نوع من الإدراك لما يفوت العلم وينقطع دونه العقل .

ويرى برونتيير أن مايميز الدين هو الأمور الخارقة للطبيعة.

ويرى آخرون أن الدين هو ربط الحياة الإنسانية برابطة تقوم بين الروح الإنسانى وروح غيبى له سلطانه على العالم كله . وذلك الروح الغيبى هو الله . وفى بعض الأديان تقوم مقام هذه الروح أرواح الأموات أو أرواح أخرى متعددة فى المراتب لها قداستها ومناسكها واعتبارها الدينى وإن لم تكن آلهة بالمعنى الحقيقى .

ويرى دوركايم أن الأمور الدينية تنقسم بطبيعتها إلى قسمين أصليين .

عقائد وعبادات . .

والعقائد الدينية تقسم الأشياء إلى مرتبتين :

مقدسة وغير مقدسة .

وعلى ذلك فالعقائد الدينية تتعلق بالأمور المقدسة وعلاقاتها بعضها

وعلاقتها بالأمور غير المقدسة .

أما العبادات فهى تنتظم السلوك الإنسانى بإزاء الأمور المقدسة .

ويضيف دوركايم إلى الدين خاصة أخرى تفرق بين الدين والسحر فى نظره .

تلك هى ما للدين من الصيغة الاجتماعية الملازمة .

ويرى الأستاذ لا لاند أنه لا تناقض من جهة الشكل بين تعريف بروتنير وبين دوركايم ، لأن المقابلة بين المقدس وغير المقدس عند دوركايم تطابق المقابلة بين الطبيعى والخارق عند بروتنير .

وليس يحتم عند لالاند أن تكون الأمور الدينية شأنا من شئون الجماعة .

وليس كل العلماء على رأى دوركايم فى ضرورة الفصل بين الدين والسحر إذ قد يختلطان فى بعض العقائد الساذجة .

على أن قيد الصيغة الاجتماعية لا يحقق لدور ككايم ما أراده من التفرقة بين الدين والسحر ، إذ أن السحر أيضا متصل بالجماعة وقائم على عقائدها .

أما كلمة « الدين » فى اللغة العربية :

فقد ذكرت المعاجم للفظ دين عشرين معنى ، بعضه مولد وبعضه مجازى ، وبعضه متداخل .

يرى الأصفهانى فى كتاب « المفردات فى غريب القرآن » ، أن الدين يدل أصالة على الطاعة والجزاء .

ويدل مجازاً أو توليداً على الشريعة والملة .

ويرى النيسابورى فى تفسيره .. أن الدين يدل أصالة على الجزاء ويدل مجازاً على الطاعة لعلاقة هى السببية .

أو على الشريعة وذلك الرأى منقول عن كليات أبى البقاء .

والشهرستانى فى الملل والنحل يرى : أن الدين يدل أصالة على الطاعة والانقياد والجزاء والحساب ويدل مجازاً على الملة والشريعة .

والمستشرف ما كدونالد نقلا عما كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية فى لفظ دين يرى أن للكلمة ثلاثة أصول مختلفة المعنى :

(ا) أصل آرامى عبرى بمعنى الحكم.

(ب) أصل عربى بمعنى العادة .

(ح) أصل فارسى بمعنى الملة .

وينكر فولرس الأصل العربى للكلمة

ويرى أنها مستمدة من اللغة الفارسية . وهذا رأى مستبعد لما ذكره ماكدونالد ولما يجده الباحث من تفنن العرب فى اشتقاقها لهذه الكلمة وتعديد صيغها واستعمالاتها مما لم تجر لهم به عادة فى الكلمات المعربة .

ويرى الشيخ مصطفى عبد الرازق أن الكلمة مولدة من اللفظ العربى « دين » فهما من مادة واحدة وهما مصدران لفعل واحد وهما يستعملان للدلالة على شيء غير حاضر . وكانت لفظة « دَين » أصلا ، لأنها على وزن فعل وفعل أكثر استعمالا فى العربية من فعل . ومع ذلك فإن هذا الرأى لا يمنع أن تكون الكلمة مستعملة فى معان أخرى كثيرة كالطاعة وغيرها .

وأما استعمال كلمة « الدين » فى القرآن الكريم :

فقد ورد لفظ دين فى القرآن فى أكثر من ثمانين موضعاً .

ويفهم من كلام الراغب الأصفهانى أنها ترجع إلى ثلاثة معان : الطاعة ، الجزاء ، الملة .

ولا شك أن القرآن يستعمل الكلمة فى المعانى المعروفة عند العرب ، وإذا كان العرب يستعملونها بمعنى الملة فهم يريدون بذلك الملل المعروفة لديهم .

لكن ما هى الملل المعروفة عندهم ؟

إن المرجع الصادق فى ذلك هو القرآن . وهناك آيات نستخلص منها الملل المعروفة التى سميت باسم الدين ، وهى التى ينتسب إليها الجماعات الرئيسية الآتية :

١ — المؤمنون ، ٢ — اليهود .

٣ — النصارى ، ٤ — الصابئة .

٥ — المجوس ، ٦ — المشركون[١] .

٧ — وآخرون مختلفون فنهم :

(ا) من أنكر الخالق والبعث والإعادة وقال بالدهرية[٢]

(ب) ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وأنكر البعث[٣] .

(حـ) ومنهم من أقر بالخالق وبالحدوث وبنوع من البعث وأنكر الرسل وعبد الأصنام كوسطاء[٤] .

---

(١) الآيات ٦٢ سورة ٢ .
٦٩ سورة ٥ .
١٧ سورة ٥ .
(٢) الآية ٢٤ سورة ٤٥ .
(٣) الآية ٧٨ ، ٧٩ سورة ٣٦ .
(٤) الآية ٣ سورة ٣٩ .

وأما المعنى الشرعى لكلمة دين :

فنذكر أن القرآن قرر فى الدين أصولا جعلت له معنى شرعياً خاصاً .

١ — فهو لا يكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه[1]

٢ — وهو واحد لا يختلف فى الأولين والآخرين[2] .

وننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الصراع بين الدين والعلم .

• • •

لا شك أن العقيدة الإسلامية — والحضارة الإسلامية بوجه عام — لم تجد نفسها فى عداء مع العلم تحت أى ظرف من الظروف .

ولما كنا بصدد تكييف العلاقة بين العلم والدين ، فإننا نجد أنه من غير المستساغ — إسلامياً — الظن بأن هناك تعارضاً بينهما ، أو القول بأن العلم والإيمان يكمل أحدهما الآخر ، ذلك لأن الدين الإسلامى مكتمل بالوحى لا بغيره (اليوم أكملت لكم دينكم) .

ونؤكد أن العلم يجب أن يكون خادماً مطيعاً للإيمان[1] ، وليس لنا أن نتحرج من القول بذلك . فقد كان الأمر ولا يزال على هذا النحو فى جميع الحضارات والعصور وإنما يأتى الفرق بين حضارة وأخرى ، وعصر وآخر ، من طبيعة الإيمان الذى تعتنقه الحضارة أو يعتنقه العصر ، وفى الحضارة الإسلامية تسمح العقيدة الإسلامية للعلم بآفاق من النمو لا مزيد عليها فى عقيدة أخرى .

ولسنا نريد فى هذا المبحث أن نتعرض لهذه القضية — قضية العلاقة بين العقيدة الإسلامية والعلم الصحيح — ففى المكتبة الإسلامية اليوم طائفة كبيرة من الكتب

---

(١) انظر الآية ٣ سورة ١٣ .
والآية ٤٣ سورة ١٦ .
والآيات ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥ .
سورة ٤ والآية ١٣ سورة ٤٢ .

(٢) انظر الآية ١٣ سورة ٤٢ .
والآية ٥٣ سورة ٢٣ .
والآية ٤٨ سورة ٥ .
والآية ٨٣ ، ٩٠ سورة ٦ .
والآية ٦ ، ٧ سورة ٩٥ وانظر تفسير محمد عبده لجزء عم إذ قال (الدين ههنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه من الأنبياء .
وانظر كتاب الدين والوحى والإسلام للشيخ مصطفى عبد الرازق .

(١) هذا ما نثبته فى مبحثنا الخاص بمشكلة القيم .

والمباحث التي أنصفت الإسلام .

ولكن الذي نريد أن نتعرض له هو دعاوى الإلحاد الذي يحارب الدين باسم العلم ، وهذه الدعاوى تحتاج إلى معالجة مستقلة ، إذ هي تظل قائمة مهما أبدع الكاتبون في بيان الوفاق بين الإسلام والعلم .

إنه من المسلم به أن العصر الحديث هو عصر ازدهار العلم التجريبي .

وبالرغم من أن لهذا العلم مجاله الخاص الذي لا يتعارض فيه مع الدين — « الإسلام » فإنه لا تزال هناك بعض المواقف الإلحادية التي يبدو في الظاهر أنها تستند إلى العلم التجريبي .

وفي تقديري أن هذه المواقف تنبع من سوء الفهم لقضية المنهج العلمي والادعاءات التي تروج له .

لا بد لنا أولا من أن نقرر .

أن القول بأن المنهج العلمي التجريبي من اختراع الحضارة الأوروبية الحديثة في عهد النهضة على يد فرنسيس بيكون قول مبني على كثير من الغرور والإدعاء والمغالطة . .

إن فرنسيس بيكون عندما دعا إلى المنهج التجريبي كان مستمداً من سلفه الذي ظهر قبله بقرنين (روجر بيكون) ١٢١٤ — ١٢٩٢ .

وكان هذا مستمداً من علماء — الحضارة الإسلامية عندما ما أطلع على تراثهم ، وتتلمذ على أيديهم ، والحضارة الأوروبية بصفة عامة متتلمذة في هذا على الحضارة الإسلامية أثناء احتكاكها بها في الحروب الصليبية .

كذلك فإن الحضارة الإسلامية كانت مستمدة هذا المنهج من روح الإسلام والقرآن والسنة .

إن البحث التجريبي له تاريخ طويل ينشط بنشاط الحضارة ويضمحل بجمودها وتأخرها .

ولم يكن توهم الغربيين أنهم كانوا البادئين بالمنهج التجريبي إلا لأنهم كانوا العاملين على إماتته وإخماده فترة مرورهم في عصور الظلام ، والعصور الوسطى ، فلما تحركت فيهم عوامل النهضة تنبهوا إلى هذا المنهج وبهروا به وحسبوا أنهم أصحابه ومريدوه ، بينما هم فيه تبع لغيرهم .

ونحن لا ندعي بذلك أن هذا المنهج اليوم كما كان في بداياته في عصر اليونان ومن قبلهم في عصر المصريين القدماء .

لا شك أنه اليوم أكبر وأعمق وأشد سيطرة على العقول والقلوب والسلوك والتطور ، ومجرى الحياة .

كان فى بدايته أكثر التصاقاً بالتفكير العقلى التأملى المجرد لأسباب منها ضعف وسائل المنهج التجريبى ، وآلاته حينذاك .

أما اليوم فهو يبتكر هذه الآلات ويتقدم بها وينمو فى أطوار متلاحقة يتضاعف فيها كل طور عن طور سابق . . . . ، ويبدو تراكم النمو فى الأطوار الأخيرة هائلا مدهشاً بينما معدل النمو واحد تقريباً فى البدايات والنهايات ، إذا أسقطنا من الاعتبار — عوامل التأخر الحضارى الأخرى .

• • •

وهنا يمكننا أن نقول :

إن هذا المنهج التجريبى منذ ظهر فى الحضارة الأوربية فى عصر النهضة أعلن استقلاله عن الكنيسة ، دون أن يحسم موقفه من الدين بصفة نهائية حاسمة حتى ظهرت الثورة الفرنسية .

وفى أتون الثورة الفرنسية ظهرت الفلسفة الوضعية على يد الفيلسوف — الفرنسى أوجست كونت (ت١٨٧٥م) التى أعلنت أن الدين طور متخلف من أطوار الفكر البشرى وكذلك الميتافيزيقا ، وأن العلم هو الذى سوف يحل محلهما بحكم قانون التطور .

وهذه النظرة تنبع من طبيعة استقلالية المنهج التجريبى ووحدانيته ، لا من مجرد احتواء الديانة المسيحية على مواقف معادية للبحث العلمى .

وتكاثرت بعد ذلك أو حول ذلك المذاهب المادية التى ترتدى مسوح العلم منكرة للدين مدعية أنها تستغنى عنه بالعلم .

وانتهت الصلة بين الدين والعلم فى القرن التاسع عشر إلى ثنائية حاسمة فكلاهما مطلق على طريقته ، ومتميز عن الآخر من كل وجه تميز الذكاء والعاطفة ، أو العقل والقلب .

واستناداً إلى هذا الاستقلال لاح إمكان وجودهما معاً فى ضمير واحد ، بحيث يقومان جنباً إلى جنب — كأنهما ذرتان ماديتان صامدتان متجاورتان قد تفاهما — ضمنا أو صراحة — على أن يتفادى احدهما بحث مبادئ الآخر .

وكما يقول أميل بوترو : حلت بذلك مشكلة الصلة بين العلم والدين بكل سهولة فى عالم التصورات . .

ولكن لم يكن الأمر كذلك فى عالم الواقع .

إذ أين نجد فى الإنسان الحد الفاصل بين القلب والعقل ؟ وفى الطبيعة الحد الفاصل بين الأجسام والأرواح .

كان هذا هو السبب فى أن الدين

وجد نفسه محصوراً فى محراب الضمير ، بل فى نطاق ضيق منه ، فاضطر إلى العمل على استرجاع مكانه السابق .

ومن جهة أخرى أعلن العلم — وقد اكتسب باستقلاله قوة ونجاحاً واهتماماً متزايداً .. أن عالم الحقائق بأسره وبجميع أجزائه أصبح مفتوحاً لبحوثه .

ومنذ ذلك الحين ، أصبح الصراع الذى استبعد — بلباقة — نظرياً ، لا يمكن تجنبه عملياً .

هذا الشعور بالمواجهة بين العلم والدين ظهر بوجه عام فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر .. (١)

ومن هنا فإنه إذا كان البعض **يعتقد أن قضية الإلحاد باسم العلم تتداعى بمجرد إظهار حدود العلم وأنها** أى هذه الحدود — تقف به دون التدخل فى قضايا الدين سلباً أو إيجاباً . .

فالحقيقة أن القضية لا تحسم عند هذا الحد . وأن دعوى استقلال العلم عن الدين تفتح الباب بين حين وآخر لتأييد دعاوى الإلحاد ، وتساعد فى التشويش على قضية الدين .

والسبب فى ذلك كما يوضحه أميل بوترو :

(أن العلم أصبح يكفى نفسه فى نموه وتطوره وأن أول سمة للروح العلمية الآن هى عدم التسليم بأى مبدأ للبحث وأى مصدر للمعرفة سوى التجربة .

فالعلم يوضع فى نظر العالم كأنه أمر أولى مطلق ومن العبث أن يطلب منه اتفاقه مع أى شىء آخر ، إذ صحت مشيئته على أن يتفق مع الوقائع وحدها .

فإذا شئنا الاستماع لكلمة العلم ، فلا غنى لنا عن قبول وجهة النظر التى يتخذها . ويقول أيضاً :

(إن الروح العلمية الراهنة لا ريب أنها لم تعد دجماطيقية بالمعنى الذى تخلعه الفلسفة النظرية على هذا اللفظ ..

ولكنها تضع لنفسها ضرباً من الدجماطيقية النسبية القائمة على التجربة ، وهى تعتقد فى قدرتها على الانتشار غير المحدود ، وفى قيمتها المتزايدة إلى ما لا نهاية(١) .

ويتحدث أميل بوترو عن المخاطر التى تهدد الدين اذا اقتصر على محاولة الإفادة من تواضع العلم واعترافه بحدوده ...

يقول (لاشك أن العلماء لايخاطرون الآن — كما كان الحال من قبل بإعلان نتائج مطلقة لا تتناسب مع وسائل معرفتنا ، ويصرحون بأن كل علم نسبى ... إلخ ..

---

(١) والمراد بالدوجماطيقية اليقين القطعى .

لكن يجدر بنا أن نعرف أن هذه العبارة لا تدل - فى مفهوم العلم التجريبى على أن خارج الميدان الذى يتحرك فيه العلم يوجد ميدان آخر هو ميدان المطلق يباح لأنظمة أخرى أن تعيش فيه .

ولكنه - بالعكس - يعمل على أن يمنع العقل البشرى من ارتياد أى ميدان ليس فى متناول العلم . لأنه إذا كان ثمة شىء لا يمكن أن يعرفه العلم فهذا الشىء من باب أولى لا يمكن أن يعرفه أى نظام آخر « هكذا » . .

والعلم بحسب إحساسه بالكفاية التى يختص بها وحده فإنه حين يقول : إنى أعلم ، فمعنى ذلك أن الشىء موجود بالنسبة للعقل البشرى . وحيث يقول العلم .

ولا أعلم ، فهذا يعنى أن أحداً لن يدعى المعرفة .

ليس من الواضح إذن بأى حال أن العلم الحديث على الرغم من زى التواضع قد يكون أكثر ملاءمة من العلم الدجماطيقى بالنسبة للدين . فالدين من وجهة نظر العلم ليس إلا مجموعة تصورات تعسفية . . .

ولا يكفى أن نتعلل بأن ما نتمسك به مما يتجاوز حدود العلم يمكن أن يأخذ مكانته باعتباره « اعتقاداً » لأن **« الاعتقاد » من وجهة النظر العلمية ليس له قيمة إلا إذا كان قائماً على ملاحظ الوقائع وموجهاً فى طريق العلم .**

والدين وقد اقتصر على ميدان الاعتقاد الذى يلوح له أن العلم قد هجره لايمكنه حتى فى داخل هذه الحدود أن يضمن استقلاله وأمنه ، لأن كل تقدم من جانب العلم يهدده » .

ويخطىء من يظن من جانب آخر أن الدين - فى عصر العلم - يسترجع مكانته الأصلية ، بتلقى فتات العلم الذى لا يقر العلم بمشروعية استفادة الدين به ، وإن اتفق مع حقائقه .

يقول أميل بوترو :

(والدين - أو الفكر الدينى - يثير بحماسته من أجل التلاؤم والتوافق مع العلم - يثير موازنة بينه وبين العلم تسىء إليه ، لأنه يقابل بين صبر العلم الوطيد وبين شكوكه ومخاوفه ، ويلوح على الفكر الدينى - فى هذه الحالة - أنه لا يعيش إلا كاسم رنان كان يستند فى القديم إلى شىء عظيم ، ولم يعد اليوم

إلا ذكرى خالصة لا يزال المخلصون يحتالون بتقواهم وخيالهم على صبغها بألوان من الحقيقة . . . .) .

إن تصديق العلم لبعض حقائق الدين إنما يقع اتفاقاً ، وهو لا قيمة له فى نظر العلم لأنه كما يقول أرنست هيكل ١٨٤٠ – ١٩١٩ (الأديان تقوم على الوحى » **والعلم لا يعرف إلا التجربة ، ولا قيمة فى نظره لأى فكرة إذا لم تكن تعبيراً مباشراً عن وقائع ، أو نتيجة لاستنباط محدود قائم على القوانين الطبيعية ...)** .

• • •

ولما كان الإلحاد المعاصر فى شتى مذاهبه يرتدى مسوح العلم . .

فإن المذاهب التى تتصدى لفصم عراها بالعلم التجريبى تتفق غالباً فى نظرتها إلى المادة باعتبار أنها أصل الوجود .

وهروب بعض هذه المذاهب من التسمى باسم المادية منشؤه كما يقول الأستاذ جون سومرفيل :

(أن مجرد تسمية إحدى الفلسفات لنفسها « بالمادية » يعتبر عادة فى نطاق حدودنا الثقافية أمراً يدعونا إلى النفور منها ، وقفل الأبواب دونها ، وأن كلمة « مادية » تستخدم فى العادة فى سياق الاتهام لا من أجل التصنيف فقط) ثم يقول (لهذا فهم يميلون إلى إطلاق اسم « التجريبية » و « الطبيعية » و « الإنسانية » و « الواقعية » وما شابه ذلك على فلسفات كان من الأدق أن تسمى « مادية ») .

والماركسية لم تختص باسم الفلسفة المادية المعاصرة إلا لأن (المفكرين السوفيت يحذون حذو ماركس وإنجلز فى مقت أى تحايل لتفادى استخدام كلمة « مادية » فأطلقوا عليها بجرأة كلمة « المادة ») .

ومن هنا أيضاً يمكننا أن نقول إن بحثنا هذا يرد على أسس الاتجاهات المادية فى المذاهب المختلفة ولا ينصرف إلى بعض هذه الفلسفات دون بعض وإنما يشملها جميعاً طالما أن تناولنا هو للثالوث المشترك بينها :

وهو الاستناد إلى العلم أولا .

وإنكار الدين ثانياً .

والإيمان بالمادة ثالثاً .

• • •

هذا هو الثالوث غير المقدس للإلحاد المعاصر .

وغاية هذا البحث هو أن يفضح الصراع الدفين الدائر بين أركان هذا الثالوث، ذلك أن العلم الحديث أصبح لا يقر المادية المتخلفة « مادية هو لباخ » المغلقة . . .

فإذا تصالح العلم مع المادية على صعيد المفهوم الغيبي للمادة الذي تقدمه لنا الفيزيقا الحديثة ، كان لا مفر من إلغاء الركن الثاني من هذا الثالوث « إنكار الدين » . . فإذا تصالحت المادة التي تقدمها الفيزيقا الحديثة مع الدين كان لابد من إلغاء الركن الأول من هذا الثالوث « العلم » كبدأ يرى أن المعرفة لا يمكن أن تأتي من غير بابه . . .

وعلى هذا النحو يستمر الصراع وينهار الثالوث وتنفضح مهاناته ويصبح واضحاً لدينا أنه لابد من إعادة تكييف العلاقة بين العلم والدين ، وأنها – كما سيتبين لنا – لا تستقيم إلا إذا قامت على أساس تبعية العلم للدين ونعني به الإسلام ،

دكتور / يحيى هاشم

ما يصفو به الود

قال على بن أبي طالب – كرم الله وجهه – : لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو العتاهية :

أحب من الإخوان كل مُواتى   وكل غضيض الطرف من عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده   ويحفظنى حياً وبعد مماتى
ومن لى بهذا ليت أنى وجدته   فقاسمته مالى من الحسنات

نظرة إسلامية إلى المال ووظيفته

الدكتور رءوف شلبى

١ ــ حوادث الحياة تشرح آيات القرآن :

تضغط حوادث الحياة على حركة العقل المفكر . . . ليدرك فى أعقابها المتلاحقة معنى مؤكداً هو . .

● أن الحياة بكل ما فيها من متع سامقة فى رقى الحضارة المادية تافهة . . .

● وأن هذه التفاهة التى يدركها العقل أخيراً قد وضحها القرآن الكريم للبصيرة المستعدة للإيمان قبل البصر المناقش للقضايا .

وينتهى العقل : إلى أن الحياة بأحداثها ، إنما تفسر محكم آيات القرآن الكريم التى قضت فى حكم نهائى أنه لا يمكن لواحدة من الأحداث أن تمر فى نهرها دون أن تفسر هذا المعنى :

مادية الحياة تافهة وأن الآخرة هى دار الحيوان ، وهى خير وأبقى . .

ويستقر فى فكر العلماء بعد هذا أن إعجاز القرآن له منطق ذاتى هو : أن الحركة البشرية فى جلابيب إيمانها أو إلحادها ، وزحمة أفكارها ، وحمأة وطيسها ، إنما تجرى على نظام مألوف لدى فقه الآيات الصادقة بذاتها فى كتاب الله القرآن الكريم .

ومن هذه القضايا التى انتهى النشاط البشرى الطويل فيها إلى حقيقة ما حكم به الإسلام .

قضية المال :

فقد فشل فلاسفة الاقتصاد جميعاً فى إبراز تخطيط عادل لعملية التوزيع الاقتصادى وشهدت الحياة صخب المناقشات بين موائد فلسفة التوزيع الشيوعى والتوزيع الرأسمالى ولم يجد كلاهما مسعفاً له يحمى مخططاته إلا رهبة الحديد ووهج النار ، وأخرج التعصب حدود التفكير فى كل من المعسكرين عن الوضع الطبيعى لمعنى الكرامة الإنسانية .

ونشأت مشكلات فى كل من

المذهبين : الشيوعى ، والرأسمالى ، لا علاقة لها أصلا بفكرة المال أو الاقتصاد ، ولكنها أقحمت وسارت كنتيجة شبه طبيعية لدافع التعصب الردىء فى عمهه فكان الإلحاد قرين المبدأ الشيوعى ، كرد فعل لما لاقاه الكادحون فى ظل القيصرية الروسية القديمة من السطو الكنسى الذى سخر عرق الشعب ظلماً لترفيه البلاط القيصرى.

وفى المذهب الرأسمالى ، ولدت العنصرية ، والأنانية الفردية ، واستغل قانون العرض والطلب فى خلق طبقات متناحرة على المادة فى فرصة تجارية جائعة ،حتى خرج الإنسان عن حدود الإنسانية وأنزل نفسه من درجات السمو فى علاقاته البشرية إلى أحط ما تكون العلاقات بين عوالم الحيوان الأعجم الذى لم يشهد التاريخ أن واحداً من أجناسه قامت بينها عداوات أو أحقاد كالتى يشهدها دائماً بين طوائف البشر من أجل المادة والمال .

وكان مرد هذا الفشل أن فلاسفة الاقتصاد لم ينتبهوا إلى أن مسألة التوزيع عملية خاصة بالتنظيم الإلهى للسلوك الإنسانى . فكانت حصيلة الثقافة الاقتصادية بمذاهبها المتعددة ، وكانت الزحمة الحديدية التى خلقت لتحمى المخططات الفلسفية للتوزيع المتجافية مع الطبع الإنسانى ، كانت هذه العمليات كلها تفسيرات لمحكم آيات القرآن الكريم :

١ – (إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . ٣٠ – الإسراء

٢ – (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) . ٣٢ – الزخرف

٣ – (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض) . ٢٧ – الشورى

٤ – (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها . ٦ – هود

فيرد القرآن الكريم عملية التوزيع الاقتصادى إلى الله وحده ، وهذا هو سر فشل الأبحاث الاقتصادية كلها فى نظرية التوزيع .

ويعلل القرآن الكريم رد عملية التوزيع الاقتصادى إلى الله وحده بعلتين :

الأولى :

إن الله وحده هو المتكفل بأرزاق العباد وهو المسخر للأسباب النفسية والمادية للكسب والعمل (وهذا القانون لم يتوصل إليه بعد علماء الاقتصاد) .

الثانية :

إن الله لو بسط الرزق لعباده لأفسدوا فى الأرض (وهذه العلة توصل إليها أخيراً جداً فلاسفة الاقتصاد فى القرن التاسع عشر الذين ذهبوا إلى أن الكم يؤثر فى الكيف وهو المعبر عنه بلغة القرآن « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

٢ ـ الكم والكيف ووظيفة المال :

ويمضى القرآن الكريم بعد هذا يصور الانفعالات النفسية والسلوك البشرى المنتظر تجاه ملكية المال وعدمها فتتلو الآيات :

١ ـ (يحسب أن ماله أخلده) .
٣ ـ الهمزة

٢ ـ (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) . ١٥ ، ١٦ ـ الفجر

٣ ـ (وتأكلون التراث أكلا لما ، وتحبون المال حبا جما) ١٩ ، ٢٠ الفجر

٤ ـ (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) . ٣٤ ، ٣٥ ـ سبأ

ومع عملية الكشف عن نزعات النفس التى تتأثر بالمال كثرة وقلة وتفسر السلوك المرتقب نتيجة لذلك ، فإن القرآن الكريم يحدد وظيفة المال ، ويبين ملكيته الأصيلة فيقول :

١ ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا . (٤٦ ـ الكهف)

٢ ـ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . (٧ ـ الحديد)

٣ ـ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٣٣ ـ النور)

٤ ـ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل ـ واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى . (٥ ـ ١٠ الليل)

فيجعل القرآن وظيفة المال ثانوية فى الحياة ، فهو فقط وسيلة لتعمير الأرض لإقامة العدل الطبيعى من أجل حياة أفضل سرمدية فى المستقبل عند الله.

ويرجع الملكية كلها إلى الله وحده ، ويحدد مقدار تسلط يد البشر على المال

بمقدار ما يكون للوكيل من يد فى مال موكله .

وتفسر السنة الإسلامية هذه النصوص الرئيسية فتقول :

« إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه عن طيب نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكأنه كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

٣ – العدل الاجتماعى وسياسة الإنفاق :

ومع هذه القواعد التى تحدد قيمة النظرة إلى المال ، فإن القرآن الكريم يحفل :

١ – بقواعد التوزيع الإلهى التى تحترم القدرات الخاصة فى البشر وتساند ذكاءه فى عملية الإنتاج وتخلق منه طاقة هائلة تحترم مبدأ الكفاية والعدل لتحقيق التكافل الاجتماعى .

٢ – كما يحفل بسياسة الإنفاق الفردى – فى ظل فكرة ثانوية المال حتى لا يتكالب الناس على جمعه فيعطلون وظيفته الطبيعية ويسيئون استعماله

(ا) فسن خطوطاً رئيسية للرعاية الاجتماعية تحقق العدل المعيشى للمتخلفين، كما تسد خللا طارئة لبعض الأثرياء كإسعاف لحالاتهم التى ولدتها ظروف خاصة ، وبذلك يصون – القرآن الكريم فى المجال التطبيقى – وحدة الأمة النفسية ، ويقرب بين طوائفها الذين خلقوا على تباين فى الذكاء ، والقدرات والمهارات ، والاستعدادات ... إلخ .

فيبرأ المجتمع من الطبقة المادية التى تخلخل أركانه وتزلزل نفسيته . يقول الله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ . (٦٠ – التوبة)

وإلى جوار هذه الضريبة الأساسية ، يوصى القرآن الكريم كل مسلم بأصحابه فى كل اتجاه مع وصيته بضعفاء السابلة وجميع المحاويج ، فيما تتلوه سورة النساء :

﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً﴾ . (٣٦ – النساء)

وتجعل آيات سورة آل عمران البذل والإنفاق من كمال صفات المؤمنين :

(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .
(١٣٣ – ١٣٤ آل عمران)

كما تشترك فى هذا التفسير آية سورة الأنفال :

(إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) (٢ – ٣ الأنفال)

وهذا المنهج الواضح لا يحتاج إلى تخطيط أو تنسيق بأكثر من احاجته إلى قيادات تتفهم سبيل تطبيقه ، وتهرع إلى تحقيق العدل والكفاية على نظام طبيعى تألفه الفطرة وتحميه العقول ، وتسرع به الأيدى مع العواطف إلى درجة أسمى من الكرم وأكبر من المشاركة والمعاونة ، درجة الإيثار وبذل التضحية .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . (٩ – الحشر)

(ب) وتتسق مع الفكرتين السالفتين :

١ – فكرة نظرة الإعلام إلى المال .

٢ – وفكرة التوزيع للرعاية الاجتماعية وتحقيق الكفاية والعدل .

تتسق مع هاتين الفكرتين (فكرة الإنفاق) فيوصى القرآن الكريم بنى البشر فى قواعد عامة ترتبط بالسلوك الدينى المفوض إثابته إلى الله تعالى وحده فيقول :

١ – (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً) . (٢٩ – الإسراء)

٢ – (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) .
(٢٦ – الإسراء)

ويضع القرآن الكريم هذا التحذير داخل إطار لصورة تقشعر منها نفسية المؤمن الصادق فيقول – تكملة للآية :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا) .
(٢٧ – الإسراء)

وفى لحظات الإيقاظ العفيف للعواطف يخاطب الله عباده فى مجال تحديد صفات عباد الرحمن فيقول :

(. . . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا

ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) . (٦٧ — الفرقان)

وتوضح السنة الإسلامية المطهرة فقه هذه الأسس في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل في معا واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » . (رواه البخارى)

وملخص الحديث في الجو الاقتصادى — أن المؤمن يتناول من متع الحياة الحلال بقدر التوسط الذى لا يخرجه عن الاعتدال الطبيعى إلى الشراهة في الإنفاق بالإسراف أو إلى شح في الجمع بالتقتير .

فهو يتناول من المال بالقدر الوظيفى له ، والذى يجعله عبداً تقياً :

١ — يبر بالوالدين .

٢ — ويحض على طعام المسكين ورعاية اليتيم .

٣ — ويرعى بحساسية اجتماعية جميع المحاويج .

٤ — ويسعف ذا النكبة والجار والملهوف :

٥ — ويجهز جيش الإسلام ويكثر صفوف المسلمين .

٦ — ويقى نفسه شر الفاقة والعوز .

وهذا كله في ثوب الإيمان بالله الذى يقوى رباط التماسك الاجتماعى ، ويصفى هموم القلب من الأحقاد التى يجيشها في الصدر العوز والحاجة ، ويمكن عناصر الوحدة في كنف الأخوة الحانية من الدوام ، فإن جوع الفرد وسط الجماعة يدفعه الشعور به إلى السطو أو الانفصال عن الجماعة في الفكر والذوق والشعور . . . إلخ .

وحول هذه المعانى يمكن أن يفهم ذلك — أدبا — من قول الله تعالى : (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) (٧ — الحشر)

وتكون النتيجة الحتمية الطبيعية لهذه التشريعات :

١ — عدالة في التوزيع تحترم الظروف النفسية والأحداث الزمنية .

٢ — رعـاية متكاملة الجـوانب للمحتاجين .

٣ — هدوء النفس من الفقراء واطمئنان على مستقبلهم المعيشى .

٤ — سماحة ورضا وإسهام من جانب الأثرياء .

٥ — وحدة متماسكة للأمة في المشاعر والفكر ، والعمل والإنتاج ... إلخ . الفرد فيها وحده أمة .

والأمة فيها معقل نضال، وقلعة أمن، للخير والسلام.

٤ ـ القرآن وضع الحد الطبيعى لقضية المال ... ولكن:

وبهذه الخطوط:

١ ـ النظرة إلى المال على أنه ثانوى فى الحياة.

٢ ـ وتحليل السلوك البشرى نتيجة الشعور بالغنى أو الفقر.

٣ ـ وتوزيع يحقق العدل والتكافل.

٤ ـ وتنظيم لحياة الفرد الاقتصادية على نظام التوسط والاعتدال.

بهذه الخطوط القليلة فى الكم الكتابى انتهى القرآن الكريم من مشكلات (قضية المال)، وانتهى منها فى سرعة تتلاءم مع الفطرة الحقيقية للمال دون احتفال به على وجه أو نظام فسيح قد يبرز أهميته أكثر من وظيفته الثانوية، ولكن فلاسفة الاقتصاد أنفسهم قد أتعبوا تفكيرهم كثيراً فى تحديد تخطيط ولو شبه عادل لعملية التوزيع والإنفاق، حتى ألجأهم إلى حماية آرائهم بالحديد والنار، فقد نسوا:

١ ـ أن مسألة التوزيع مردها إلى الله تعالى وحده.

٢ ـ وأن المال تافه فى ذاته، فإنه قد يذهب من أجل متعة رخيصة أو يرجى أن يدفع كله لدفع مصيبة.

وإذا كانت عظمة الشىء فيما ينتجه فإن المال لا ينتج إلا شيئاً رديئا، فهو حقير تافه، حقارة نتيجته وتفاهتها ...!

إن المال ليس بذى قدسية ذاتية، لأنه وسيلة، وإذا أخذت الوسيلة قدسية الغاية فقد ضل الناس الطريق.

وصدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» (رواه البخارى)

وصدق الله العلى العظيم (المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا). (٤٦ ـ الكهف)

(ما عندكم ينفد وما عند الله باق) (٩٦ ـ النحل)

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

دكتور / رؤوف شلبى

التدين غريزة في طبع الإنسان

الدكتور محمد عيد عابدين

إن ارتباط الفكر الإنسانى بالعقيدة قديم قدم الحياة ، وغريزة من غرائز النفس البشرية .

فالإنسان مشوق بفطرته إلى اعتناق عقيدة يدين بها ويحتذى هديها ويسير فى ركابها . ومبعث هذا التأثر الطبيعى فى الإنسان هو ما يراه من تلك الظواهر الطبيعية فى الحياة وما هى عليه من إبداع وإتقان ونظام أبهر العقول وأدهش النفوس بما فيه من جميل الصنعة وقوة الإبداع وحسن النظام ، فالأرض منبسطة ممهدة تعج بالذهاب والإياب وتجود بالقوت أنى طلبه الإنسان والمعادن فى باطنها قد مكنته بتوافرها وكثرة عناصرها من إيجاد ما يحتاجه من الآلات ، والأنهار متدفقة لا ينضب معينها ولا ينقطع عطاؤها .

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون) .

وهى كذلك منذ ملايين السنين كى تمنح الكائن الحى الدفء والرحمة والطعام والحياة (وجعلنا من الماء كل شىء حى) والليل لا يفتأ يطرق الكون لا يختلف عن ميعاده ، حتى إذا اشتدت ظلمته وأليل صدعه نور الفجر ليمزق تلك الأستار الحالكة ، ويسلم الكون إلى ضوء النهار الذى ينشر الحركة والتجديد والنشاط — (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) .

والنجوم تتعاون مع القمر فى هداية الضالين السائرين بالليل : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) والشمس لا تضن بأشعتها على الحياة ولا تبخل بها يوماً أو يومين أو أياماً بل نعماؤها دائماً مسبغة وآلاؤها دائماً مغدقة .

وأعجب من ذلك أن الإنسان — ويكاد يكون أضعف حيوانات الأرض — قد تمكن من تسخير ما حوله من الظواهر الطبيعية بتحقيق أغراضه ومآربه التى لا تفتأ يتطلع منها إلى ما بعد : حتى إلى ما وراء الكون . .

وهذه الوحوش الضارية يستطيع أن يسجنها وأن ينال منها ، وهذه الأجسام الضخمة التى كالإبل والبقر يستطيع أن يستعملها ويستفيد من كل جزء من جسمها وهى له طيعة لينة . بل ما هذا الصنع العجيب وهذا الإبداع العظيم فى جسمه هو ، رجلان تحمله وإلى أى غرض توصله ، وقد صممت على أحـــدث نظام يمكنهـــا من السير والصعود والهبوط ناهيك بما هو داخل تجويف البطن من آلات وعصارات وأجهزة عجيبة نائية عن قدرة الإنسان مهما سما فكره أو اشرأب إلى الاختراع ببصره وبصيرته فلا يستطيع ولن يستطيع أن يخترع بديلا لجلده أو شحمه أو لحمه .

لقد حاولوا إحداث آلة تقوم بدورة الدم فى الجسم عند توقف القلب فكانت فى حجم كبير يثقل كاهل حامله ولا تعمل إلا بقوة دافعة لها « الكهرباء » أو « الذرة » أو « الطاقة » فأين هذه من قطعة لحم لا تزيد على قبضة اليد تقوم بهذا العمل بلا توقف ولا ملل ، ولا تحتاج إلى تجديد : ألا وهى القلب الذى أودع الله به من غريب الصنع وحسن الإبداع وقوة التركيب بما فيه من عروق وحجرات :

(صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون) .

وهذه اليد التى تبدو فى عين رائيها لأول وهلة أنها قطعة من اللحم والعظم سهلة لكنها مع سهولتها ويسرها استطاعت بما وراءها من القوة المحركة لها أن تصنع ما أذهل العقول وحير الأفكار وأحال الحياة من طور إلى طور ، فالحديد فى قبضتها كالعجينة اللينة صنعت منه القطار ، السيارة ، الطائرة بل وسفن الفضاء ، وحينما يريد الإنسان آلة لتشكيل حديدة معينة ذات وضع معين لم تستطع تلك الآلة بعد أن تقوم بعمل آخر غير الذى صنعت من أجله (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون) (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

إلا أن دلائل تلك القوة التى وراء هذه المظاهر والتى تؤثر فى تغيرها من ولادة إلى ولادة ومن غصن إلى شجرة ومن بيضة إلى طائر ، ومن منبع إلى مصب ، ومن نهار إلى ليل ، الكل

فان ويتجدد والقوة التى وراءها لا تمل ولا تكل . تسير فى فلكها الدائب ونظامها المحكم وجمالها البديع .

ولقد دفع ذلك بعض المفكرين من العلماء أن يقولوا بوجوب الإيمان على الإنسان مهدياً بتلك الظواهر التى تدل بلا شك على وجود موجدها وأن فلاسفة الإغريق وهم الذين شهد لهم الدانى والقاصى بجادة العقل والذكاء وقوة الفطنة والتفكير تراهم — وهم لا يدينون بدين — يفكرون ويعملون الفكر بإمعان وروية فيما وراء هذا الإبداع ، فيعترفون أن هناك قوة محركة لهذا الكون وإن كانوا لا يسمونها إله ، وعلى رأس هؤلاء أفلاطون الإغريقى وتلميذه أرسطو وبعض المفكرين يعزوا هذه الحياة وما فيها من رقى وتقدم ووجود وحركة وتجدد إلى قوة وراء الكون يسمونها العقول العشرة .

العقل الأول :

وله ثلاث جهات : جهة وجوب ، وجهة وجود ، وجهة إمكان ، وبالجهة الأخيرة أوجد العقل الثانى الذى له أيضاً تلك الجهات الثلاث وبجهة الإمكان أوجد الثالث .. وهكذا .. حتى العقل العاشر وهو المدبر لهذه الحياة والمحرك لشئون هذا الكون .

ولا أدرى لماذا هذا التسلسل ولم لم يقم العقل الأول بالتدبير . .

بين الأديان السماوية والعقول المتحجرة :

ولكن الناس لم يستطيعوا مع تعنتهم وجحودهم لدعوة السماء أن يكفوا عن التفكير فيما وراء هذا الكون ، ومن الذى أوجده ويغيره وينظم ليله ونهاره ويوجد فى أرضه وبحره مئات الآلاف من الأجناس المختلفة والأحجام والأشكال المتباينة ؟ ما هذا ؟ لابد لذلك كله من صانع ، من موجد ، من محرك . فبعض الناس ضلت عقولهم فتوهموا تلك القوة أو تمثلوها فى شخص رجل صالح فنحتوا له صنماً وعبدوه ، أو تمثلوها فى ملك أو طائر فشكلوا له صنماً أو وثناً وقدسوه ، وبعض الناس ترسم تلك القوة فى النار أو الشمس أو بعض الحيوانات كالعجول واتخذوا من تلك المعتقدات الضالة التى تنأى عن الرشاد ديناً لهم وهدفاً لمعتقداتهم فضلوا أنفسهم وأضلوا غيرهم ، ومن هؤلاء « زرادشت » وغيره من أصحاب المذاهب والعقائد الوثنية التى لا تستمد عقيدتها إلا من وحى هواها وأغراضها الفاسدة .

فلذلك كانت العقائد غير السماوية لها نزعات وشطحات تأباها العقول

السليمة وتمجها الأنفس العالية .

وفى الهند كثير من تلك العقائد والنحل . .

دخل ذات يوم بعض المشركين وهو أبىّ بن خلف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك بعظمة قد رمت وبليت من طول ما لبثت ، ففتتها بيديه أمام النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد أترى أن ربك يحيى هذه بعد رميمها ؟ . .

فقال عليه السلام : « نعم ، ويبعثك ويدخلك النار » ، وفى ذلك نزل قول الله تعالى : (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) .

وإن بعض الناس ذهب إلى أبعد من ذلك وادعى أن الطبيعة هى التى أوجدت الكون ، وأنكر وجود الإله مطلقاً ، ومن العجيب أن من بينهم الفلاسفة والمخترعين ، ويعتقدون أنهم يسيرون دفة الأمور فى الدنيا وحينما صعد جاجارين بسفينته إلى الفضاء مخترقاً الغلاف الجوى دائراً حول الكوكب الأرضى ظنوا أنهم قد قبضوا بأيديهم على ملكوت السماوات والأرض وأنهم آلهة هذا الوجود ، وسخروا من وجود المعبود ، وقال كبيرهم لقد طلبنا من جاجارين أن يحضر لنا معه شيئاً من المن والسلوى فلم يجد ، وهم يريدون بذلك إلزام الحجة لذوى العقائد السماوية بسفينة الفضاء التى لم تخرج عن فلك الأرض ، وحتى لو خرجت فإلى مجموعة الشمس التى نعيش فى كنفها ونحيا بإشعاعها وفى الكون آلاف الشموس وهم لا شك إلى الوصول إليها عاجزون ولو وصلوا فليروا آيات الله وقوة قدرته وحسن إبداعه (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

لقد عميت بحق بصائر هؤلاء الضالين الذين يشيحون بوجوههم عن الهدى المبين ويعرضون بسموم أفكارهم عن النور واليقين ، إنهم يعيشون فى الأرض وتعيش معهم حيواناتهم التى يعتمدون عليها فى أعمالهم وأقواتهم وكذلك تحيا معهم كثير من الكائنات ، وها هى الطيور التى تسبح فى الفضاء والخلائق التى تحيا بين طبقات الماء كل ينطق بقدرة مقتدرة وحكمة بالغة وقوة عالية محركة . لقد وضعوا أرجلهم على القمر بإرادة الله ليروا نعمة الله عليهم فى الأرض ، لقد وجدوا القمر خالياً من كل أسباب الحياة وعناصرها ، وأنه

كوكب لا يصلح مطلقاً للبقاء فيه أو التواجد على سطحه لأنه خال تماماً من الهواء أو على الأقل من عنصر الأكسجين الذى هو أهم عنصر فى الهواء ولولا ما يحملونه معهم من الأكسجين والماء والطعام لهلكوا .

ومناخ القمر كما أخبرونا إما بارد إلى حد القتل ، وإما ساخن إلى حد الغليان ، ولولا الملابس التى يرتدونها المزودة بأحدث الأجهزة العلمية التى تدرأ عنهم هذا الانعكاس الجوى الذى لا تألفه ولا تحيا فيه المخلوقات لكان مصيرهم الهلاك والدمار ، ذلك ليعلموا أن وجود الحياة فى الأرض ليس عبثاً إنما هو إعداد حكيم خبير هيأها وبسطها وأوجد من الحياة ما يتلاءم وبقاء الإنسان وغيره من سائر الحيوان : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ، (والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) ، (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) .

قيل إن بعض الطبيعيين الذين لا يؤمنون بوجود الإله اشتد ضلالهم وكبر فى نفوسهم فدخلوا على أحد الخلفاء العباسيين يحاجونه فى وجود الخالق العظيم واهب الحياة لجميع العالمين فدعى لمناظراتهم بعض أئمة المسلمين وحدد لتلك المناظرة العظمى ميعاداً معلوماً ، فلما حان الوقت وحل الأجل لم يحضر الفقيه المسلم فسخر الطبيعيون من الخليفة حتى أوغروا صدره على الإمام وكاد يشتد غضبه عليه ، وبعد ساعة أو ساعتين حضر الفقيه العظيم فاستقبله بغضب ووجوم شديد ، واستقبله الطرف الآخر من المناظرين بالسخرية والضحك واتهموه بالهروب والعجز ، ولكن الإمام العظيم وقف ثابتاً واثقاً من صلابته وقوة حجته وناصع برهانه فقال فى هدوء : « مهلا ياســادة إنى أسكن فى البر الثانى من المدينة ووقفت أنتظر سفينة تنقلنى إلى هذا البر فلم أجد ، وفجأة وجدت ألواحا تجرى على الماء ودسرا « مسامير » تجرى حولها حتى حضرت عندى فقامت الألواح مع الدسر بالتشابك والالتئام حتى تكونت منها بصورة تلقائية سفينة كاملة فركبتها وجئت إلى هذا البر .

ولكن المناظرين الطبيعيين علا ضحكهم واشتدت قهقهتهم ساخرين من هذا

النبأ وقالوا : أرأيت يا أمير المؤمنين ما ينبئنا به صاحبك ؟

فقال الإمام العظيم كيف تستبعدون صنع سفينة بلا صانع ولا تستبعدون وجود الكون بلا خالق ؟ .. فأرتج عليهم وسقط فى أيديهم ورأوا أنهم ضلوا فألجمت ألسنتهم وغاب الجواب عن عقولهم لأنه لا جواب ، بل هو فصل الخطاب والإلزام والبرهان والحجة ، وقاموا من مناظرتهم مهزومين . فأجزل الخليفة العطاء للإمام الفقيه . .

وروى أن بعض فقهاء المسلمين وأئمتهم قد ألف كتاباً يزيد على ألف صفحة يسرد فيه مئات الأدلة على وجود الله واحتفل الناس بالعالم الجليل لإتمامه هذا العمل العظيم ، ورأت بعض المتصوفات من المؤمنات هذا الاحتفال الكبير فسألت ما هذا ؟ فأخبروها به فقالت إلىّ بالإمام فأقبل عليها فقالت ما هذا يا أخى لقد أتعبت نفسك بلا داعى كمن يحاول إثبات الشمس فى وضح النهار بلا غيوم ، ثم قالت : البعرة تدل على البعير والخطوة تدل على المسير فليل داجى ونهار ساج وسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير فعند ذلك بكى الإمام وأمر بتمزيق الكتاب .

فضل الله تعالى على الإنسان بإرسال الرسل :

إن الله الذى خلق الإنسان ومنحه العقل وعلمه البيان وهو بتفكيره خبير وبميوله ورغباته بصير ، يعلم أن له فى الأرض عدواً مبينا يحيك له دائماً شباك الفتنة والوقيعة حيث يجره إلى مهاوى الرذيلة والضلال ، هذا هو الشيطان الرجيم الذى أخرج أبويه من الجنة وأقسم من قبل لأغوينهم أجمعين .

فلذا اقتضت حكمة الله ورحمته بعباده أن يحول بينهم وبين عدوهم ويدفع عنهم ما يلحقهم منه من ضرر فتعهدهم منذ أبيهم آدم بإرسال الرسل مصلحين ومرشدين منذرين ومبشرين يبصرونهم بعاقبة أمرهم وضراوة عدوهم ومآل أعمالهم وأنزل معهم الكتب والصحف مليئة بالعظة والاعتبار محفوفة بالرحمة والمعرفة والتبشير أو الإنذار لتكون دستوراً به يهتدون وصراطاً بهديه يسيرون .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه أرسل كل رسول بلسان قومه ليبين لهم . . . (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) . .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . فاستجابت لهم العقول السليمة وآمنت بهم القلوب الواعية واعتنق دعوتهم ذووا الكفاءة والخبرة فى الناس لما وجدوا فى دعوتهم من الصدق واليقين الذى تؤيده آيات الله فى الأرض والنفس والسماوات ، وتؤيده أيضاً المعجزات فنجا بهديهم المفكرون وانحرف عن طريقهم الضالون وظلوا فى ظلمات الجهل والعنت يسقطون ويهوون والشيطان بحكم عداوته للإنسان يزين لهم سوء صنيعهم ليحقق مأربه ويجنى مكسبه .

حكمة الله تعالى فى إرسال الرسل :

لما لعب الشيطان بعقل الإنسان وأضل بنى آدم عن الصراط السوى ، اقتضت حكمة الله البالغة وهو الرحيم بعباده أن يأخذ بأيديهم إلى السعادة والفوز والنجاة . فكلما أضلهم وأنساهم ذكر الله وما أنزل فيهم من الشرائع والنواميس والصحف والكتب المليئة بالعظة والتوجيه السليم والإرشاد الحكيم ، غمرتهم العناية الإلهية وحفتهم الرحمة الربانية بإرسال رسول منهم ناطق بلسانهم ليهديهم إلى الحق ويسلك بهم سبيل الرشاد .

ولكن الشيطان الذى آل على نفسه إضلال الإنسان وغوايته لا يفتأ ينشب أظافر غوايته فى عقولهم فتطفىء نور الحق فى صدورهم وتنسج حجب الغواية والضلال على بصائرهم وقلوبهم فيبدلون دين الله ويغيرون معالم الهداية السماوية ويكتم علماؤهم الحق بعد ما تبين يشترون عرض الدنيا والمناصب وينسون الله تعالى فأنساهم أنفسهم ويحرفون الملل والعقائد حتى يدين الناس لهم بالولاء والطاعة ويقبضون على زمام الأمور باسم العقيدة أو الدين (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) .

١ – لذلك كان بعث الرسل لإيضاح ما عمى على الناس من الإيمان الحق واليقين الصدق ليخبروا الناس بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم من الدين بالضرورة ، مع الإيمان بوحدانية الله تعالى وأنه لا إله إلا هو لا شريك له ، ويجب له كل كمال ويستحيل عليه أى نقص وأن الرسول هاد مرشد أيده الله بالمعجزات وأمرنا أن نطيعه وأن نأخذ عنه الشرع ونؤمن بما جاء به .

٢ ـ وكذلك ليبينوا للناس كيفية العبادة التى يعبد الله بها المؤمنون من طهارة وصلاة وصوم وزكاة وحج وبيان كيفية كل ركن من هذه الأركان .

٣ ـ وكذلك لينظموا بشريعة الله التى أرسلوا بها العلاقة بين الناس وما يجب لكل إنسان على أخيه الإنسان وما عليه نحوه من واجبات بما فى ذلك المعاملات المالية والعلاقات الخلقية والحفاظ على الكرامة الإنسانية ووضع القواعد والمبادئ والأسس التى تنظم علاقة الفرد دون استغلال أو سيطرة أو استحواذ على ما فى يد الغير بالكراهية والجبر والإذلال وتنظيم الأسرة واحترام الأعراض وبقاء النسل وحصول كل فرد على ما يريد من أخيه الإنسان برضاء وقبول .

٤ ـ وكذلك لتكون دعوتهم إلى هذا الإيمان الحق تحقيقاً لسعادتهم ونعيمهم وتصفية لنفوسهم ورضا كاملا فى معاملتهم وتوفير العزة والكرامة لهم ونجاتهم فى يوم الآخرة يوم تسأل كل نفس عما كسبت « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » .

٥ ـ الرجوع بالإنسان إلى قيمته البشرية وإعمال العقل بعد أن دعاه الشيطان إلى إهماله فلباه وسجد لغير الله مما هو واضح تمام الوضوح أنه لا ينفع ولا يضر فمن عبدة الأصنام إلى سجد للنار إلى ركع للكواكب والعجول ومن العجيب أنهم يرون وجود الله فى آياته فيضلون عنها ثم يصنعون الصنم بأيديهم وينسون أنهم صنعوه فيبتغون عنده الأمل والرجاء والسعادة والنعيم فيخرون لما صنعت أيديهم ساجدين .

لهذه الحكم وغيرها اقتضت حكمة الله البالغة أن يذكر الإنسان دائماً بعداوة ـ الشيطان له وأن يرشده دائماً إلى الطريق المستقيم المعبدة فيضيؤها له بهداية المرسلين ودعوة الأنبياء الذين يرجعون إلى أعمال الفكر والعقل دون تعسف ولا عنت ليدفعوا عنه ضرر الغواية والإضلال .

اتفاق أهل العقائد السماوية :

وإنه مهما احتدم الخلاف أو نأى الفكر بين ذوى الملل السماوية فإنهم متفقون على أدق القضايا مساساً بالحياتين وأعظمها ارتباطاً بالعقيدة والعقل . ذلك فإن مدار العقائد واحد لأن الإيمان له أركان ومقومات لا يختلف فى التبليغ بها أى رسول ، والأديان السماوية مستمدة من دعوى الأنبياء الذين تيقن الناس

ثبوت رسالتهم وتحقيق نبوتهم لذلك كان اتباعهم مهما تباعد الزمان واختلف المكان لازماً، لأنهم متفقون على المبادئ القويمة للإيمان التى منها :

١ – اليقين بأن الموجد لهذا الكون المهيمن على كل شىء فيه القادر على إبقائه أو إهلاكه هو الله عز وجل سبحانه وأنه واجب الوجود ، قديم لا أول له ، باق لا نهاية له ، قادر لا حد لقدرته ، وأنه عليم ببواطن الأمور وظواهرها ، واجب له كل كمال يليق بذاته العلية ويستحيل عليه أى نقص وإن كمالات الله تعالى لا تتناهى ولا يحصرها العد ولا يحصيها الفكر .

٢ – إن طاعته سبحانه واجبة على كل مؤمن وأنها نجاة من عذاب خالد ، وأن معصيته مستحيلة على كل مؤمن وأنها مهلكة مبعدة عن نعيم خالد .

٣ – إنه تعالى المعبود بحق ولا معبود سواه وأن للشريعة أسساً ومبادئ لابد من تنفيذها وعبادة الله بها سواء كانت ظاهرة الحكمة فى عقولنا أو كانت خفية الحكمة عن إدراكنا كوجوب الطهارة والصلاة والصوم والتصديق ومساعدة المحتاجين وزيارة الأماكن المقدسة .

٤ – إن الله تعالى أرسل بالحق رسلا مؤيدين بالمعجزات مبلغين عنه الرسالات يدعون إلى الخير وينهون عن الشر تسامت فى الإنسانية صفاتهم وتناءت عن الدنايا ميولهم وصفت فى حب الله قلوبهم وطهرت من الدنس والأرجاس نفوسهم بعثهم الله مصلحين لفساد القلوب، مبلغين قانون السماء الذى لا يأتيه الباطل ولا يشوبه الانحراف، ليكون مبدأ العدل فى حياتهم ومنار السعادة فى دنياهم وآخرتهم ومرشداً لهم إلى مآل خلودهم ، ومحذراً لهم من غواية عدوهم ليكونوا لهم فى الدنيا هداة مرشدين وعليهم شهوداً يوم الدين .

٥ – إن الله تعالى زود هؤلاء الرسل بكل كمال بشرى كالعصمة والبعد عن الزلل والحيطة عن الحرام والفطانة ، ويجوز عليهم الأعراض البشرية البعيدة عن الخلل فى الشرف والكرامة كالأكل والشرب والزواج والإنجاب والأمراض غير المنفرة والتى لا تخل بتبليغ الرسالة ويستحيل عليهم كل نقص يخل بأداء الرسالة كارتكاب المنكرات سواء كانت صغيرة أو كبيرة .

٦ – إن جميع الأديان السماوية تدعو إلى الخير وتنهى عن الشر فهى

تدعو إلى احترام الوالدين وتربية الأولاد وبذلك تنشىء الأسرة السعيدة وتدعو إلى الحلم والصفح والنجدة والمروءة ومساعدة الضعفاء والبذل والجود والعطاء والعفو ، وتنفر من أضداد هذه الصفات :

٧ – الكل متفقون على أن الدنيا دار انتقال وأنها باب يمر منه الإنسان إلى الشقاء أو النعيم ، وأنه لا خلود فيها لأحد ولابد أن تعقبها حياة البقاء الأبدى يوم القيامة ، فالبعث عقيدة يقينية عند ذوى العقول والأبصار والإيمان باليوم الآخر جزء من الإيمان المنجى من عذاب الله ومن أنكر البعث فى أى دين سماوى فقد عصى الله ورسوله الذى آمن به وأقحم نفسه فى زمرة الملحدين الخاسرين .

العقل يؤيد البعث والنشور :

إن الإيمان بالعودة وتجدد الحياة ليس وليد الأديان السماوية وحدها بل هو عقيدة جارية فى دماء الذين عبدوا الأحجار والكواكب والذين لا دين لهم ، الكل يؤمنون بأن للإنسان عودة بعد تلك الحياة التى كل ما يجرى فيها يدل على التجديد والتغير .

وقد زعم بعض الهنود وغيرهم تناسخ الأرواح أى انتقالها من جسم إلى جسم فالموت عندهم إذا كان نهاية الجسم فهو انتقال للروح من جسد إلى جسد . وقد حكى ذلك صاحب مسلم الثبوت فى أول باب النسخ .

وليس أدل على تعمق اعتقاد تجدد حياة أخرى عند من لا دين لهم ، هو ما نشاهده اليوم من الآثار التى ترجع إلى آلاف السنين ، فيها يحتفظ الأهل والآباء والأحباب والأصدقاء بما يكفل النعيم والسعادة والراحة للميت حينما تعود إليه الروح وتدب فى عروقه الحياة من طعام وكساء وحلى واحتفاظ بكنه الجسم بالتحنيط . وقد وجدت بعض هذه الآثار فى أمريكا الجنوبية وفى المكسيك وغيرها من الدول ، وفى إفريقية كثير من هذه المعتقدات . ولعل فى بلادنا مصر آكد دليل على ذلك فالأهرام بأنواعها المختلفة وما عثر عليه فيها من الأدوات والحلى وما على جدرانها من النقوش والتعاويذ ما يدل على اعتقادهم بالحياة الأخرى بل أنهم يعتقدون أن الإنسان بعد عودة الروح إليه سيحاسب حساباً شديداً على ما قدمت يداه وما اقترف من إثم . فسيقف بين محكمة مكونة من ٤٢ إله يرأسهم الرب

« أوزوريس » . وبقضاء تلك المحكمة يخلد هذا العائد فى الحياة الأخرى إما فى الشقاء وإما فى السعادة والنعيم .

فلم يكن عجباً على العقول والأسماع أن تبلغهم الأديان السماوية بتلك الحياة الأخرى التى أقرها من حولهم والتى يدل عليها كل ما فى الوجود ، والعقل لا ينكر ما اقتنع به من برهان ، وما ظهر له جلياً من الحجة والبيان وهناك من الأدلة القاطعة والبراهين العقلية الساطعة ما يرشد إلى ذلك بصرف النظر عن أى دليل سمعى فى أى كتاب دينى .

١ – التجدد والحدوث :

منذ آدم حتى الآن والكائنات الحية متوالدة حادثة لا تنقطع عن التجدد ولا ينقرض نسلها وفق الطبيعة والفطرة فهى فانية متجددة وكأن الجنس مع موته وهلاكه عائد إلى الحياة ففناؤه غير مستمر وليس ذلك خاصاً بذى الروح بل النباتات باقية بولادتها من بذورها وأغصانها .

فشجرة الموز تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها وقبل أن تميل إلى الأرض هالكة فانية تترك مولودها ليجدد حياتها ويقوم بعملها من بعدها وفى فصل الشتاء تعرى الأشجار من أوراقها حيث تصفر وتتساقط مؤذنة بانتهاء دورها فى الحياة ليخلفها الورق الأخضر فى فصل الربيع والشمس تجرى فى فلكها لتوجد النهار ، فيه الحركة والضوء والعمل يحمل الحياة فى يوم جديد بعد الموت الصغير الذى يرتدى ثيابه كل ذى روح إذا ما انصرم النهار وجن الليل وأسدل أستاره على الكون فيأوى إلى كنفه الكادحون المتعبون ليستريحوا من العناء والتعب متشوقين بعد كدهم وجهدهم إلى حياة جديدة يعيدون فيها ما عسى أن يكون فاتهم من السعادة والرقى والنعيم .

فتغير الحياة على هذا النحو يدل على عدم استقرار هذا الكون وإن القوة المسيرة له التى انفردت بالبقاء والدوام لا تريد له إلا الفناء والإعدام ليكون الخلود لله والتجديد والحدوث لما عداه .

والمناخ نفسه متجدد فمن ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء تحيل الحياة إلى ألوان متطورة من قوة إلى ضعف ثم إلى قوة بعودة الربيع ، كل ذلك يدل على أن الحياة لا بد بعدها من حياة ومن عودة .

٢ ـ العدل الإلهي :

لقد ثبت بما لا يرقى إليه الشك أن موجد هذا الكون هو الله تعالى الذى استقرت على ألوهيته كل العقول واعترفت بجلاله وعظمته وعدله وحكمه كل الملل والأديان ، والكون ملىء بظلم الإنسان لأخيه الإنسان وتمادى الظالمين فى ظلمهم وشقاء المظلومين فى ظلامتهم فمن قتلة سفاكين إلى مقتولين منكوبين ، ومن فقراء محتاجين يبيتون على الطوى إلى أغنياء وأثرياء هائثين متمتعين يميلون فى سعادتهم مع الشهوات والهوى ، بل قد يتعدى هذا التباين بين الناس إلى التباين بين الحيوانات فمن قوى ذا مخلب وناب يأكل من الضعيف الكبد واللباب ، وكثيراً ما ينسى القوى إنسانيته وضميره فيفتك بالضعيف أو يمتص دمه أو يسترقه ويستعبده وليس هذا قصراً على الأفراد بل قد تعداه إلى الجماعات فالدولة ذات المال والبأس والقوة لا تشعر بأى غضاضة فى إزلال من حولها وسلب أراضى جيرانها وسومهم سوء العذاب إذا لم يدينوا لها بالولاء والطاعة .

ومن الناس من يسرى المرض فى عروقه فيقعده عن تنشق أريج النعيم وما على الأرض من ملذات وشهوات وآخرون قد ألبسهم القدر ثوب القوة والصحة والعافية فهم فى السعادة يرفلون وبنعيم الدنيا وملذاتها يتمتعون .

ومن الناس من أقعدهم الفقر أو التكوين العقلى عن التمتع والتلذذ بالعلم وحلاوته وآخرون اتخذو من العلم وسيلة إلى إسعادهم ونيل ما يرجون من دنياهم بل أنهم اتخذوا من العلم مطية لإرهاب الضعفاء وإذلال البائسين الجهلاء ، ولو أن الله تعالى قلب عليهم سوء صنيعهم وسلط أيديهم على رؤسهم لتكون القنبلة الذرية مثلا وغيرها من مخترعات الدمار والإهلاك شبحاً مخيفاً ووحشاً ضارياً يقض مضجعهم ويملأ فراشهم بالشوك .

ولا شك أن عدالة الحكيم الذى اتفق الكل على عدله وحكمته لا ترضى أن تكون هذه الحياة وحدها فيصلا ونهاية للجميع بفنائها وهلاكها يتساوى المحقون والمبطلون والسعداء والأشقياء ، والفقراء والأغنياء والمرضى والأصحاء . بل أن العقل الثاقب يستحيل على عدل الله ذلك ولابد أن تكون هناك حياة أخرى على نمط غير الذى ألفناه وعلى نهج

غير الذى عرفناه تعود الأمور فيها إلى نصابها وتنزع الحقوق فيها إلى أصحابها ويجزى المسئ فيها على إساءته ، ويعطى المحسن فيها جزاء إحسانه وتبتله وعبادته .

٣ ـ الجزاء والثمرة :

إذا اجتهد التلميذ فى مذاكرته وأمعن الطبيب فى علاج مرضاه وحرص القائد على إحكام خطته وحياة جنوده ، وأتقن العامل صنعته فلا بد أن يجنى هؤلاء ثمرة جدهم وجزاء جهدهم ، ولا بد لأضدادهم أن يحصدوا سوء صنيعهم وأن يسقطوا فى مهاوى رذائلهم وإهمالهم .

وفى الدنيا كثير من الأضداد والمتناقضات . فغصن البرتقال لا يثمر حنظلا . والقصب لا يخرج ملحاً ولا تستوى الحسنة ولا السيئة بل لا بد أن يكون لكل غصن ثمرة ولكل عمل جزاء وفضل الله لا يسوى بين الكادحين والراقدين بل لا بد من الوفاء فى يوم الدين .

دكتور محمد عيد عابدين

دعاء

اللهم صن وجهى باليسار ، ولا تبدل جاهى بالإقتار ، فأسترزق طامعاً رزقك من غيرك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولى الإجابة والمنع .

على بن أبى طالب

التربية الدينية وبناء المسلم السوى

الأستاذ / السيد حسن قرون

قال محمد بن إدريس الشافعى — رحمه الله — : «العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان» ونحن فى حاجة إليهما ، ولك أن تتوسع فيما ذهب إليه ، فتجعل العلم شاملا لما تقوم عليه العقيدة والزلفى إلى الله من العلوم التى ظهرت نتيجة لنزول القرآن على خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون إزاء هذه العلوم الدينية علوم تدرس الكون وما حوى مما يفيد الإنسان فى معاشه والدفاع عن نفسه ، وربطها بروح الدين ما أمكن .

لكن مجالى الذى أقصد إليه ، وأريد الإفاضة فيه هو «التربية الدينية» فى المدارس المصرية ، وما قمنا نحوها من جد وعمل ، وما رغبنا فيه من تحقيق الأمل فى أننا نخرج على الناس بناشئة قد وعوا شئون دينهم ، وعرفوا قدره فى نفوسهم ، وامتلأت قلوبهم برقائقه وحقائقه ، ليكونوا جند الله وبناة حضارة كما كان أسلافهم فى سالف الأزمان .

والدين أو التدين طبيعة فى البشر يحسون بأثره إذا ألمت بهم مصيبة أو ضاقت عليهم السبل ، أو وقعوا فى خطر ، حينئذ تراهم يلجئون إلى الله ويجأرون بالتضرع إليه أن ينقذهم مما هم فيه . (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض[1]) والله — سبحانه — رحيم بعباده لم يتركهم هملا ، بل أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، يبصرونهم بخالقهم ورازقهم ، ويدعونهم إلى توحيده وتمجيده وطاعته حتى يكونوا من الناجين ، والأديان على تعاقب الحقب والعصور كانت السبيل إلى طمأنينة الإنسان ورضاه ، وهدايته إلى معرفة الله ، وسلوك الطريق المستقيمة ، واتباع الحياة القويمة مما به يسعد فى نفسه وجنسه ، ويحسن التعامل والتعايش مع غيره ، ولولا الأديان لعاشت الإنسانية فى دياجى الجهالة ، ولضلت العقول

(١) آية ٥١ فصلت .

عن الاهتداء إلى سوء السبيل ، ولما عرفت للتآخى معنى ، ولا للعدالة ميزة ، ولا للعمل طعماً ، ولا للحضارة مسلكاً ، ولا تقل لى : قامت حضارات فى الأمم القديمة فى مصر واليونان والهند والصين ، فالجواب حاضر إنما ذلك يرجع إلى فطرة الإنسان نحو الدين ، وإن كانوا من معرفة الحق فى ضلال مبين .

ومعنى هذا أن الدين هو العاصم من الخطل ، والدافع إلى خير السبل ، والنور الذى يطلبه من كره الظلام ، والحمد لله الذى هدانا إلى الدين الإسلامى الذى هو خاتم الرسالات ، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ، وجعل القرآن مهيمنا على الكتب السماوية ، والدال عليها ، والمبين لمراميها ، والمنبه على التغيير الذى حدث فيها ، وواجبنا أن ننشىء أبناءنا على فضائله من نعومة أظفارهم حتى يشبوا صالحين كاملين لا تغرهم فتن الدنيا ولا تستهويهم مطالب المادة . فماذا قدمنا لهم ؟ وكيف وصلنا النور إليهم ؟ إن ما نقوم به هو ضرب من مطالب الحياة اليومية أو المدرسية ، لأن الدولة أرادت أن تقوم التربية بجوار العلوم التى تدرس ، والتى عليها تقوم الآمال والأعمال ، وما من شك فى أننا بحاجة إلى النظرة الجادة فى هذا الطريق الذى عبدناه ، والأمر الذى اتفقنا عليه ، فعجيب أن يدرس التلاميذ والطلاب مصادر دينهم من سن السادسة حيث المرحلة الابتدائية إلى سن الشباب فى المرحلة الثانوية ، ثم لا تجد محصولا فى صدورهم ، ولا أثر فى نفوسهم ، ثم نشتكى من الفراغ الدينى كأن تلك السنوات فى هذه المرحلة لم تكن شيئاً مذكوراً ، وقديماً قالوا :

العلم قائد والعقل سائق ، والنفس ذود[1]
فإن كان قائد بلا سائق هلكت ، وإن
كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالا
وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرها

ومعنى هذا أن نجاة النفس مرجعها إلى العلم والعقل وهذا هو واجبنا نحو الناشئة : أن يعلموا ويعقلوا فتصفو نفوسهم ، أو بمعنى أدق أن نصل بهم إلى الإيمان وهو المنارة والهداية والدليل الذى لا يخيب . فما وسائلنا إلى ذلك ، هناك فى وزارة التربية أجهزة ومشرفون ينظرون فى المناهج ، ويقومونها ثم يقدمونها علوماً ومعارف ، ومنها التربية الدينية .

ونظرة عاجلة إلى تلك المناهج تجدها

---

(١) إبل من ثلاثة إلى عشر .

وافية بالغرض ، ملائمة لكل مرحلة وكل فرقة : فيها سور وآيات من القرآن الكريم وطائفة من الأحاديث الشريفة ، ودراسات فى العبادات والتهذيب والسير والشخصيات الإسلامية ، ومن الآيات ما يحفظ ، ومنها ما يرتل ويفهم ، وتجد ترابطاً بين كل هذه الأنماط ، كل ما فى المنهج يسير وفق الآيات القرآنية حتى يسهل الفهم والحفظ ، ويستقر الأثر فى القلب والعقل معاً ، وهذا أمر سار وبار فمن أين جاءه النقص فحاد عن المراد .

١ – مفهومات قديمة أو رواسب استعمارية من عهد دانلوب المستشار الإنجليزى فى وزارة المعارف آن ذاك فقد جعل النظرة إلى « الديانة » كما كان يسميها ، والقائمين عليها نظرة ازدراء ، وعاشت فكرته جيلا بعد جيل ، ومع أن الاستعمار حمل عصاه ورحل فلا تزال وساوسه ودعاواه تملأ الأفق المدرسى إلى حد التأثير على مدرس اللغة العربية فيراه كبار رجال التعليم أقل إدارة من زملائه الآخرين فى الحقل المدرسى ، وجاء يوم على رجال اللغة والتربية الدينية حين كان للغة مدرس أول وللتربية الدينية مدرس أول أن الثانى يشعر بغضاضة تجعله دون مدرس أول اللغة العربية ، ولو نظرنا نظرة سامية لعد نفسه من ورثة الأنبياء ، وطريقه طريق الخلفاء ، لكنها الرواسب الاستعمارية ، والجو العكر الذى يحيط به يدفعه إلى سوء الظن بنفسه وبعمله .

٢ – ويتبع ذلك أنه يتقاعس عن أداء الواجب كما ينبغى ، فيذهب إلى تلاميذه متأخراً ، ويؤدى درسه متكاسلا ، فقد الروح الصافية ، والقدوة الحسنة ، وران على تلاميذه شعور بضآلة هذا الدرس فلم يتحمسوا لأثره فى حياتهم وحياة مجتمعهم ، وأخذوه على أنه شىء على هامش الحياة المدرسية ، وقد يترك الحصة لزميله إن احتاج إليها بحجة تأخره فى المنهج ، وقد يقف طويلا عند إعراب جملة فراراً من كشف ما بدرسه من المثل العليا ، والمقاصد النبيلة ، والأهداف الجليلة ، ويعتقد أن ذلك فى صالح طلابه .

٣ – والإدارة المدرسية توحى إليه بذلك عمداً أو على غير عمد ، فتجعل درسه فى آخر اليوم المدرسى ولها حجج لا ترد فى هذا الأمر ، لأنها بصدد تجميع المسيحيين فى فصل واحد ، أو أن هناك عجزاً فى المدرسين أول العام

الدراسى ، أو أنها فى حاجة إلى تقوية الطلاب فى المواد الأخرى آخر العام الدراسى مما يجعل الدروس الدينية عاجزة كل العجز عن بناء الشخص المتدين الذى يعرف ربه ورسوله ومعجزة القرآن والأحاديث التى تفصّل مجمله أو توضح مشكلة ، أو تقيد مطلقه ، ويمر على السيرة مر الكرام ، ويتصفح سيرة الخلفاء أو الصحابة أو الشخصيات الإسلامية تصفحاً لا يرقى المنشود منه ، وأنا لا أهتم بالامتحان فى التربية الدينية من حيث النجاح أو الرسوب اهتمامى بالأهداف والمقاصد ، فالنجاح الحقيقى أن تبعث فى صدر الطالب خفقة الحب والتقديس لشئون دينه ، فيتمثل ما يدرس ، ويفيض من قلبه نور يدفعه إلى الوفاء بعقوده مع ربه ومجتمعه ، يقبل على العبادة بصدق ويعامل غيره بشرف ، وتأتيه مناعة صلبة فلا تؤثر فيه دعاوى المغرضين ممن يريدون تنحيته عن منهج الدين بأفكار مستوردة أساسها الهزء بالأديان ، وأنها من مخلفات القرون الأولى ، أنها تبعد بالإنسان عن أخذ حقه فى الحياة أو التمتع بخيرات الدنيا .

ولو كانت التربية الدينية درست كما نص المنهج ما استطاعت الوساوس المضللة أن تجد إلى نفسه سبيلا . اقرأ معى بعض ما تقول المناهج الدينية . إنها تقول مبينة الأهداف .

– بناء إيمان الطالب بالله تعالى ورسوله وما جاء به من تشريع وأحكام وحدود على اليقين والتبصر والاقتناع .

– تقوية الوعى الدينى فى نفسه تقوية تحول بينه وبين التيارات الهدامة لنظام المجتمع ، وتعصمه من المبادئ الإلحادية وتحرره من الخرافات والأساطير ، والتقاليد المخالفة للعقيدة الإسلامية .

– إقامة إيمانه بالفضائل الخلقية والقيم الاجتماعية على أساس من التفكير والفهم والتحليل ، واتجاهه فى حياته إلى المثل العليا من العزة والشجاعة والثقة بالنفس وحب الإيثار ، وتشربه معانى الخير والحق والواجب ، ونزوعه إلى التفاؤل واتساع آماله فى الحياة ، وميله دائماً إلى الطموح والبناء وتحمل الأعباء .

– تقوية ميله إلى المحافظة على شعائر الدين ، ومبادئه السامية فى غير تزمت أو نفور أو تشدد متخذاً من يسر الإسلام وسماحته ما يحمله على الاتزان فى جميع أعماله مع البعد عن نزعات الهوى والميل .

– تقوية واتصاله بالقرآن الكريم والحديث الشريف وزيادة اطلاعه على ألوان الثقافة الدينية ، وانتفاعه بها انتفاعاً عملياً فى حياته الفردية والاجتماعية وإدراكه أن الدين لا يتعارض مع العقل ولا مع التقدم العلمى والحضارى ، وأنه كفيل بتحقيق مجتمع شورى يستهدف الرخاء والأمن والسلام .

– تنمية قدرته على فهم مرامى الدين الإسلامى فى تكوين الأسرة ورعايتها ودعم نظامها ، وبنائها على أساس من الدين والخلق والقومية .

– توسيع فهمه لمرامى الدين فى تكوين الجماعة الكبرى ، وقيام الحكم فيها على التشاور والعدل والحرية والمساواة والإخاء وإدراكه معنى التكافل والتعاون بين المسلمين .

– ازدياد ولائه لوطنه ولأهدافه السامية التى تتفق مع أهداف الدين ، وجهاده فى مقـاومة أساليب الاستعمار ، واعتزازه بالتراث الإسلامى الخالد ، وانتفاعه بهذا التراث ثقافياً خلقياً ، وتقوية ميوله إلى البناء على أمجاد الماضين بإرادة قوية ، وحب للتضحية فى السلم والحرب متخذاً من البطولات الإسلامية أحسن قدوة .

– تعميق إيمانه بأنه عضو عامل فى الأمة ، يقدر العمل فى كل ميدان ، ويحرص على تنمية الثروة العامة ويحافظ عليها أن تضيع فى غير حق .

– تنمية روح التعامل الاجتماعى الصحيح فى الطالب ، وعنايته بآداب المجتمع الذى يعيش فيه على فهم صحيح لروح الدين وجوهره .

– التسامى بالغرائز والميول فى نفوس الشباب لتحريرهم من الخوف والضعف والعقد النفسية ، وتربيتهم تربية وجدانية صحيحة تقوم على الاستقرار النفسى والاتزان العاطفى .

– تذوق ألوان الجمال الفنى واللغوى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

– تبصير الطلاب بالعالم الإسلامى وما بين المسلمين من روابط .

هذه بعض الأهدف سقتها لك من كتاب « المناهج المعدلة لسنة ١٩٦٦ لترى إلى أى حد هى صالحة البناء المسلم السوى .

ولكنك تنظر فلا ترى صورة عملية فى هذا الجيل كما أرادها ذلك المنهج . لماذا ؟ لأننا لم ننفذ ما حددناه ووصينا

به ، فالمدرس من الجائز أنه قرأه وهز رأسه استخفافاً به ، ومن الجائز أنه لم يقرأه ولم يتابعه الموجه ولم يناقشه فيه .

ولم يقومه حسب ما دعا إليه ، المدرس والموجه والإدارة كل أولئك مسئولون عن الناشئة ، ونردد كثيراً فى مجالسنا ومناقشاتنا القول المأثور « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك ومن الدنيا وما فيها » والأمر متاح لنا أن نصل إليه ، والفرصة سانحة لاقتناصها ومع ذلك نتركها تفوت ولا نحرك نحوها ساكنا

هل أعد المعلم ليقوم بهذا الأمر الجليل إن الخريجين من الأزهر ودار العلوم وكليات الجامعة التى تدرس اللغة العربية هم المنوط بهم تنفيذ هذا المنهج وأمثاله .

هل هم على مستوى المسئولية ، إن النتائج تقول لا ، إن المنهج يريد تكوين مسلم مثالى فى ضوء ما يدرس وما يؤدى فليس يكفى أن يشرح المدرس الدرس ، ولا أن يحفظ الطالب ما يحفظ ، فلا بد من أن تخالط مفاهيم الدين مشاعره ولا بد أن تكون لديه هى الحياة وهى السمو وهى النجاح ، قرب من الله ، وسمو عن الرذائل ، وانبعاث للمشاركة فى البناء ، وفهم لما يجرى حوله قريباً أو بعيداً ، والقدوة الماثلة هى خير سياج للناشئة .

فى المنهج حديث عن الشريعة الإسلامية ، والمدرس الحصيف يستطيع أن يبلغ بتلاميذه كنه أحكام الشريعة الإسلامية ، وأنها صالحة لكل زمان ومكان ، فقد رأيت من بعض المحامين ازوراراً عن حديث الشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع الوضعى ، ذلك أنه لم يتعمق فى دراسة الفقه الإسلامى الذى نوه به أساطين رجال القانون أمثال المرحوم السنهورى وغيره من الأحياء . وهل الدراسة الدينية فى الطفولة والشباب إلا فتح الباب على مصراعيه للدراسة ؟

وفى المنهج بحث عن انتشار الدين الإسلامى ، والمدرس الواعى يستطيع أن به أن يرد على من يقول إن الإسلام انتشر بالسيف ، والواقع معه ، فما انتشر بفضل التجار المسلمين ورجال الطرق الصوفية أكثر مما صاحبه السيف ، وما صاحبه السيف كان دفاعاً ولم يكن هجوماً واندفاعاً .

إذا درس المنهج حق الدراسة ، وقامت القدوة مقام الدعاية ، وراعينا الله فى أبنائنا بلغنا الهدف وبعدنا عن الخطر فى زمن القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، الفتنة فيه تعترض الشباب فى كل سبيل ووسائل

الإعلام تغريه بكل وبيل ، ومطالب الحياة الملحة تطير به كل مطير ، فالمسلم فى حاجة ماسة إلى إقرار الإيمان فى قلبه حتى لا تستهويه زينة الحياة الدنيا ، وليس معنى هذا أن نجعله راهباً زاهداً فيها ، ولكن تسير به حسب ما جاء به ديننا ،وقر فى صدورنا من قوله تعالى «ولا تنس نصيبك من الدنيا» وقول بعض أسلافنا : أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً . دين وسط فى كل شىء ، وخير الأمور الوسط ، «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» .

ويتحدث المنهج عن العلم والحضارة وهنا يجد المدرس فرصته ، فيبين جهد أسلافنا فى هذا السبيل وأن علمهم قاد الإنسانية إلى النهضة العلمية فى أوربا فى كل نواحى الحياة من طب ورياضيات وفلك وغيرها ، فيدفع طلابه إلى الطموح ليكونوا كأسلافهم بناة حضارة ، وأصحاب كشف واختراع ، لا أن يمر على هذا مراً غافلاً ، أو يترك الطلاب لقراءته ، فمناقشة ما فى الكتاب أمام الطلاب ينير عقولا ، ويبعث هماً ، ويغير سلوكاً ، ويصنع قادة ورواداً وحالمين .

وإغراء الطلاب بالقراءة مطلب رشيد فمن حين إلى آخر يثير المدرس قضية أو فكرة أو أثر شخصية ثم يدعوهم إلى البحث عنها، والكتابة فيها ، ويصحبهم إلى مكتبة المدرسة ، ليتقبوا ويبحثوا ويسجلوا ، وحبذا لو خصص ركن بالمكتبة يحتوى على الكتب الدينية والثقافية المتصلة بالإسلام ورجاله ، وينتهز فرصة المواسم والأعياد ، ليقدم من طلابه من يتحدث من الهجرة أو المولد أو عيد الفطر أو عيد الأضحى مما يمرن الطالب على القول ، ويغرى غيره بالعمل على منواله ، وفى هذا إثراء للثقافة الدينية ، وربط الحاضر بالماضى وتجديد الصورة المثلى فى الأذهان .

وحين يثار واقع المسلمين بالموازنة بين الحديث والقديم ، أو الموازنة بين المسلمين وغيرهم اليوم يجب أن يكون المدرس لبقاً فاهماً قادراً على الإقناع حتى لا تهتز الصورة الجميلة فى نفوس طلابه ، وحتى يحول بينهم وبين الانبهار بما يرى من علوم الغرب واختراعاته ووصوله إلى القمر والسير على أرضه .

يقول الدكتور طه حسين فى كتابه (مرآة الإسلام) «نامت الأمة الإسلامية قروناً طوالاً ،ولكنها حين استيقظ بعض

المتازين منها ، ودعوها إلى اليقظة فى إلحاح أتيح لها فى الوقت القصير شىء لا بأس به من التنبه ، بل شىء لابأس به من التقدم ، وإن لم تزل بعيدة أشد البعد عن أن تكون جديرة بتاريخها الإسلامى المجيد » .

ومعنى هذا أن يشعر المسلم أن هناك تخلفاً وقع ، وتقصيراً عاقنا عن مساواة غيرنا فى العلم والتقدم وأن حاضرنا لا يتوافق مع ماضينا السعيد،وأن علينا أن ننهض ولا ننسى الحفاظ على هذا الماضى وارتباطنا به ، ومع أن الدكتور طه حسين من دعاة الأخذ من علم الغرب خيره وشره فإنه يقرر فى هذا الكتاب (مرآة الإسلام) قائلا : «والمستعمرون فى هذا العصر الحديث يوشكون أن يفرضوا عليهم – المسلمين – ضروباً من العلم قد تخرجهم من الجهل ولكنها ستقطع الأسباب فيما بينهم وبين تاريخهم وتفنيهم فى الأمم المستعمرة إفناء » أرأيت كيف حذرنا من مغبة الارتماء فى أحضان الغرب وعلمه ، فالأخذ عن الغرب وإتباع طرائقه فى التفكير ، واهتمامنا بعلمه وإبتكاراته لا تدعونا إلى الانفصال عن تراثنا وما به من كنوز علمية وأخلاقية وتشريعية ، وقديماً قال شاعرنا :

لسنا وإن كرمت أوائلنا
يوما على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا
تبنى ، ونفعل مثل ما فعلوا

ميزان عادل لا حيف فيه ، العلم للجميع نأخذ منه ، وننهض به ، ويكفينا مئونة الالتجاء إلى غيرنا فى التسليح ونظم الادارة ، ونجعل ماضينا نبراساً يهدينا سواء السبيل ، وتحذير الدكتور طه فى محله ونظرة شاعرنا كريمة فيها الحفاظ والانطلاق ، ويصوننا الإيمان والهداية بالقرآن .

فعلى القائمين بأمر التربية الدينية فى مصر وفى غيرها أن يتوخوا الجد فى عملهم ، وأن يوطدوا أمرهم على أن يكون ناشئة المسلمين على صراط مستقيم بالبناء السوى السليم ، فى صلاح المدرس وصلاح الإدارة والإشراف الصادق ما ينأى بنا عن الزلل ويقربنا من الأمل ويعطينا نماذج بشرية صالحة لحمل الأمانة وأداء الرسالة بين هذا الخضم المترامى الأطراف من الفتن والمحن والمغريات حتى يسلم الكيان وتبقى دار الإسلام فى سلام . والله المستعان .

السيد حسن قرون

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

(٦)

رأينا فى المقال السابق من أسماء أروقة الأزهر كيف كان الأزهر مقصداً للطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى .

فرواق المغاربة لأهل المغرب العربى ،

وأروقة الشوام والبغدادية والحرمين واليمنية للمشرق العربى .

والجبرتية والبرابرة والفلاتة لأفريقيا الإسلامية .

والجاوة والهنود للمسلمين بالشرق الأقصى .

والأتراك للعثمانيين المنتشرين فى مصر والعالم الإسلامى .

وذكرنا أن المدارس التى أنشأها الأيوبيون والسلاطين المماليك قد تعطلت بعد الاحتلال العثمانى لنهب أوقافها وإهمال مرافقها . فاندرس بعضها وتحول الباقى إلى مجرد دور للعبادة .

وكان هذا هو الحال أيضاً فى باقى البلاد العربية . وظل الأزهر طوداً شامخاً بما كانت له من المكانة . فاستمر محافظاً عليها . وأصبح الجامعة الكبرى لجميع العالم الإسلامى . والمرجع إلى شيوخه فى كل ما يتعلق باللغة أو الدين . وقلما تجد عالماً من علماء مصر السابقين للفتح العثمانى إلا وله بالأزهر صلة الدراسة أو التدريس .

وكان لعلماء الدين منزلة ومكانة فى كل العصور الإسلامية . فقد ذكرنا ما جرى بين العادل الأيوبى والقاضى ابن الوراق . كما ذكرنا موقف شيخ الأزهر أحمد بن عبد الحق بن داود باشا الوالى العثمانى .

ونذكر أيضاً قاضى القضاة عز الدين ابن عبد السلام (٥٨٧ — ٦٦٠ هـ)

الذى تصدى لبيع أمراء المماليك . ومنهم نائب السلطنة . لأنه لم يصح عنده عتقهم . وبذلك يصبحون ملكاً لبيت المال . وصمم على هذا . وباعهم فعلا بالمزاد بأغلى الأسعار . وقبض ثمنهم . وضمه إلى بيت المال .

وهى قصة مشهورة ذكرها السيوطى فى حسن المحاضرة (جـ ٢ ص ٩٩) . ولم يذكر السيوطى اسم السلطان الذى حصل فى عهده هذا الأمر . ولكنه ذكر أن ابن عبد السلام استعفى من القضاء بعد ذلك مرتين حتى قبل السلطان إعفاءه . واكتفى بالتدريس فى مدرسته (أى مدرسة السلطان) بين القصرين . وابن عبد السلام توفى سنة ٦٦٠هـ . ولم تكن هناك مدرسة بين القصرين قبل هذا التاريخ غير مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧هـ . وهى للمذاهب الأربعة . ومدرسة أبيه الكامل المتوفى سنة ٦٣٥هـ وهى لعلم الحديث . وابن عبد السلام ولى القضاء سنة ٦٣٩هـ . فيكون السلطان وقت هذه الحادثة هو الصالح نجم الدين أيوب .

وذكره السيوطى بين الأئمة المجتهدين وقال عنه : إن العارف بالله أبا الحسن الشاذلى كان يقول : ما من مجلس فى الفقه أبهى من مجلس عز الدين بن عبد السلام . وأن ابن كثير قال عنه فى تاريخه : انتهت إليه رياسة المذهب وقصد بالفتوى من جميع الآفاق .

وروى عنه أيضاً أنه أسقط شهادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ استاذدار الصالح نجم الدين . ولم يعترض السلطان ثم أرسل الصالح نجم الدين رسولا إلى الخليفة العباسى فى بغداد فى أمر ما . فسأل الخليفة الرسول : هل سمع الرسالة من السلطان ؟ فقال الرسول : لا ولكن نقلها إلىّ عنه فخر الدين بن شيخ الشيوخ . فقال الخليفة : لقد أسقط ابن عبد السلام شهادة فخر الدين فلا نقبل الرسالة التى نقلها .

وذكر منهم أيضاً قاضى القضاة تقى الدين محمد المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥–٧٠٢هـ) تلميذ عز الدين ابن عبد السلام . ذكره السيوطى بين الأئمة المجتهدين كما ذكره بين قضاة الشافعية . وقال إنه دخل مرة على السلطان لاجين فقام له السلطان وقبّل يده . فلم يزده الشيخ على أن قال : أرجوها لك بين يدى الله .

وذقيق العيد لقب جده . وسمى

بهذا لأنه خرج مرة يلبس ثوباً ناصع البياض فرآه أحد الغلمان فقال : كأنه دقيق العيد .

واستمرت مكانة علماء الأزهر فى العهد العثمانى . وكان علماؤه كما ذكرنا صمام الأمان للشعب ضد عسف الولاة وعبث البكوات المماليك .

فى سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٥ م) تسلط مماليك مراد بك على الناس بالمصادرات والهجوم على البيوت ونهبها بسبب وبغير سبب . وعلى رأسهم مملوك اسمه حسين بك شفت أى اليهودى .

وثار الناس وذهبوا إلى شيوخ الأزهر يشكون . فأيدهم الشيخ أحمد العدوى الشهير بالدردير (بفتح العين والدال نسبة إلى بنى عدى بلدة الشيخ على الصعيدى وكان الدردير من تلاميذه وتولى مشيخة رواق الصعايدة بعده) وكانت للدردير مكانة كبيرة عند الجميع فقال لهم : سنذهب باكر لنهب بيوتهم كما ينهبون ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله . وطلعوا على المآذن يصيحون ويلعنون المماليك .

وخاف إبراهيم بك — قسيم مراد بك فى الحكم وأكبر المماليك شأناً — من استفحال الأمر . فأرسل إلى الشيخ الدردير بأنهم مستعدون لرد المنهوبات أو دفع قيمتها . وأرسل إلى حسين بك شفت فكان جوابه : كلنا نهابون . أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا كذلك أنهب . ولم يرتدع .

وطلب إبراهيم بك من الشيخ الدردير كتابة قائمة بالمنهوبات . وتعهد بأن يأتى بها من محل ما تكون . واتفقوا على ذلك . وقرأوا الفاتحة ... وقال الجبرتى : وانفض المجلس وبردت القضية .

وتوفى الدردير سنة ١٢٠١هـ (١٧٨٦ م) . ودفن بزاويته الموجودة للآن بشارع الدردير بالكحكيين .

وفى سنة ١٢٠٠هـ أيضاً لما ساءت سيرة إبراهيم بك ومراد بك . أرسلت الدولة العثمانية حسن باشا القبطان على رأس حملة لقمع الفتنة والقضاء عليهما . وتمكن من التغلب عليهما . فهربا من العاصمة . وهرب أيضاً أتباعهما من المماليك . وانطلق الجنود الأتراك فى بيوت الأمراء الهاربين ينهبونها . وأنزلوا من بها من الجوارى فباعوهن بينهم بالمزاد . حتى أن حسن باشا أمر ببيع زوجات الأمراء وأولادهم . فتصدى له الشيخ محمد السادات ، والشيخ أحمد العروسى ، والشيخ أحمد الدردير وقالوا

إن الشريعة تمنع بيع الأحرار وأمهات الأولاد . فعدل عن أمره .

وكان إبراهيم بك قبل هروبه قد زار هؤلاء المشايخ الثلاثة . وتصاغر فى نفسه جداً – كتعبير الجبرتى – وأوصاهم بالمحافظة وكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قومة أو حركة فى مثل هذا الوقت .

والشيخ أحمد العروسى كان شيخاً للأزهر وقتذاك . وتوفى سنة ١٢٠٨ هـ . وتولى بعده مشيخة الأزهر الشيخ عبدالله الشرقاوى الذى عاصرت مشيخته الحملة الفرنسية ، وأوائل حكم محمد على .

وفى سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) أخذت عوامل الغضب تتجمع فى نفوس الشعب . وأثارها أن بعض الأهالى (مديرية) الشرقية حضروا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر وشكوا من ظلم محمد بك الألفى وتعديه عليهم . فاتصل الشرقاوى بإبراهيم بك ومراد بك فلم يفعلا شيئاً . فاغتاظ الشرقاوى ، وجمع المشايخ ، وأغلق الأزهر ، وطلب من الأهالى إغلاق الحوانيت ، واستجاب الأهالى ، فقد كانت نفوسهم مكبوتة بالغضب من عسف الحكام .

ثم اجتمعوا بمنزل الشيخ محمد السادات وأحس الأمراء . فأرسل إبراهيم بك مندوباً عنه يحضر الاجتماع . ويخبرهم أن رفع المظالم يضايق الأمراء فى معايشهم ونفقاتهم (هكذا !!) . فقالوا له : ليس هذا بعذر عند الله. فما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك؟ والأمير يكون أميراً بالعطاء لا بالأخذ .

ثم تجدد الاجتماع عند مراد بك بالجيزة حيث كان مسكنه . وكان تقريباً بموقع حديقتى الحيوان والأورمان (الغابة) والشارع الذى به حديقة الحيوان اسمه الحالى شارع مراد بك .

وبعد جدال اجتمعوا أخيراً فى ذى الحجة سنة ١٢٠٩ هـ بمنزل إبراهيم بك . وحضر الاجتماع الباشا الوالى ، والقاضى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، والشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر . وفى الاجتماع أعلن الأمراء أنهم تابوا والتزموا بما شرطه العلماء ، وتعهدوا بإرسال غلال الحرمين والصرة والعوايد المقررة (والصرة هى المال الذى كان يرسل سنوياً للحرمين وكان هذا من التزامات الحكومة المصرية فى عهد العثمانيين) . وأن يصرفوا غلال الشون وأموال الرزق (جمع رزقة) ويبطلوا ما استحدثوه من ضرائب ومكوس، وأن يسيروا سيرة حسنة .

وكتب القاضى حجة بما تم الاتفاق عليه . وفرّمّن عليها الباشا الوالى أى وضع عليها ختمه . وختم عليها إبراهيم وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضاً .

وانجلت الفتنة وفرح الناس (الجبرتى جـ ٢ ص ٢٥٨) .

ويعطى بعض المؤرخين أهمية كبيرة لهذا الاجتماع . ويعتبرونه باكورة لتحرك الشعب المصرى للمطالبة بحقوقه .

ونجد كثيراً من مثل هذه المواقف المشرفة . وسنذكر غيرها أيضاً بإذن الله عند الكلام على شيوخ الأزهر . ونكتفى بما ذكرناه من الأمثلة . وننتقل إلى ذكر ما كان للأزهر وعلمائه وطلبته من من شأن أثناء الحملة الفرنسية .

الأزهر فى عهد الفرنسيين :

دخل الفرنسيون مصر فى المحرم سنة ١٢١٣ هـ (يولية سنة ١٧٩٨ م) . وكان هذا بادئة تحول فى تاريخ مصر الحديث .

وكان استيلاء الفرنسيين على مصر سهلا . فالمماليك لم يكونوا يفكرون إلا فى مصالحهم الشخصية والتنافس عليها فيما بينهم . والولاة الأتراك — لقصر مدتهم وضعف سلطانهم إزاء المماليك — قد أهملوا كل تفكير فى مرافق البلاد .

ومن ضمن المرافق الحيوية الهامة تدعيم وسائل الدفاع عنها . فالطوابى والقلاع التى أقامها السلاطين المماليك كانت قد وصلت إلى حالة من الضعف جعلتها لا تصلح لصد أى عدوان .

وبرغم ما عرف عن المماليك من شجاعة وفروسية . فقد كانوا متخلفين عن الفنون الحربية الحديثة — بالنسبة لذلك الوقت — بعدة قرون . وكان ينقصهم الحافز الذى يجعل الفداء والتضحية فى سبيل الوطن أثمن من الحياة .

هذا فضلا عن تزعزع وحدتهم للتنازع بينهم على مراكز الحكم . فبينما كان مراد بك فى البر الغربى من النيل عند إمبابة يحارب القوات الفرنسية . كان إبراهيم بك فى البر الشرقى ببولاق ينظر إلى المعركة ، ولم يفكر أن يمد له يد المساعدة . وما إن تحققت هزيمة مراد بك وهربه حتى انسحب إبراهيم بك والوالى التركى أبو بكر باشا الطرابلسى هاربين إلى بلبيس .

وصدم الشعب بما رآه من أن جل هم المماليك أثناء المعركة كان إنقاذ ما أمكنهم إنقاذه من أموالهم بالقاهرة .

ولكن الشعب لم يقصر فى واجب الدفاع عن بلاده . فقد بلغ الحماس فى القاهرة الذروة . بقيادة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقتذاك . وخرج كل قادر على الحرب إلى بولاق . واستعانوا بكل ما وصلت إليه أيديهم من أسلحة وعصى ليقفوا بجانب القوات النظامية . وفوجئ بهزيمة هذه القوات فى أقصر فترة . شل تفكيره وأضعف عزيمته هروب هذه القوات فلم يجد مناصاً من التسليم .

وأنف السيد عمر مكرم من التسليم بالهزيمة فخرج مع إبراهيم بك إلى بلبيس .

والسيد عمر مكرم من خريجى الأزهر ولكنه لم يشتغل بالتدريس . وكان منصرفاً إلى الحياة العامة حيث كان استعداده العقلى والنفسى يميل به نحو السياسة والاهتمام بشئون المجتمع المصرى . (سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد ص ٤١) .

وبدأ نابليون حملة التمويه وخداع الشعب . فأصدر من الإسكندرية منشوره الأول بتاريخ ١٨ المحرم من سنة ١٢١٣هـ (٢ / ٧ / ١٧٩٨ م) . وأرسل منه صوراً للبلاد ومنها القاهرة قبل وصوله إليها. ذكر فيه : (أن الفرنسيين حضروا لتطهير البلاد من ظلم المماليك . وأنهم أصدقاء السلطان، ويساعدونه ضد روسيا عدوته وعدوة الإسلام . وأنهم يحترمون الإسلام . وقد حاربوا البابا الذي كان يحض دائماً على حرب المسلمين) .

ويبدأ المنشور : بسم الله الرحمن الرحيم ولا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له . . . إلخ . ويطلب من الأهالى عدم مساعدة المماليك حتى يكونوا فى مأمن وأمان ، وأن المخالفين يتعرضون لأشد العقاب . وأن كل قرية تقاوم الفرنسيين تحرق بالنار . وعلى جميع القرى أن تنصب العلم الفرنسى بجانب العلم العثمانى . وأن يتحفظ مشايخ البلاد على ثروات المماليك . وختم المنشو بالدعاء بدوام إجلال السلطان العثمانى . ودوام إجلال العسكر الفرنساوى . ولعنة المماليك، وصلاح حال الأمة المصرية.

وكان المنشور معداً من قبل . وهو أول منشور بالعربية للفرنسيين . وذكر أمين باشا سامى (تقويم النيل جـ ٢ ص ١١٤) أنهم أحضروا معهم مطابع من أوربا تطبع بخمس لغات : الفرنسية والعربية واللاتينية واليونانية والسريانية . وذكر الرافعى (تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ١١٤) .

أن المطبعة كانت تسمى أولا بمطبعة جيش الشرق . ثم نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة بدار عثمان بك الأشقر فى الأزبكية بالقرب من بيت الألفى الذى اتخذه نابليون سكناً له . وسميت المطبعة الأهلية . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية . ثم إلى القلعة إلى حين جلاء الفرنسيين عن مصر . فأخذوها معهم . ولم تعد الطباعة لمصر إلا فى عهد محمد على .

ولم ينخدع الشعب بهذه التمويهات فقد قاوم الفرنسيين باستمرار . وما إن خرج الجيش الفرنسى من مديرية البحيرة إلى القاهرة حتى ثارت القرى على الحاميات الموجودة بها ، وما إن أفاقت القاهرة من صدمة هزيمة المماليك ودخول الفرنسيين القاهرة فى ٢٤ / ٧ / ١٧٩٨ حتى قامت بثورتها الأولى فى ٢١ / ١٠ / ١٧٩٨ . ثم بثورتها الثانية فى مارس أبريل ١٨٠٠ . وكان هذا حال باقى البلاد . فلم يهدأ للفرنسيين بال . ولم يستقر لهم حكم شامل لجميع البلاد طوال الثلاث السنوات التى أمضوها فى مصر . فما يكادون يخضعون قرية فى الصعيد ، ويتركونها لإخضاع أخرى حتى تهب الأولى ثائرة مرة أخرى . وكان هذا أيضاً الحال فى الوجه البحرى .

ولسنا بصدد تاريخ وجود الفرنسيين بمصر ، ولكن يعنينا موقف الأزهر وشيوخه وعلمائه أثناء الاحتلال الفرنسى .

فبعد معركة إمبابة اجتمع فى الأزهر بعض العلماء ، وفكروا فى الاتصال بالفرنسيين كما ذكر الجبرتى ، أو أن تجار الفرنج أشاروا عليهم بهذا الاتصال كما قالت المراجع الفرنسية . وبعد اتصالات تمهيدية انتلب العلماء اثنين منهم هما الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى — وسيرد ذكرهما ثانية بإذن الله — فقابلا نابليون فى معسكره بالبر الغربى . فأحسن مقابلتهما . وأظهر شعوره الودى نحو الأهالى ومكثا عنده إلى المساء . ولما عادا اطمأن برجوعهما الناس .

ودخل نابليون القاهرة فى ٢٤ يولية . وسكن بيت محمد بك الألفى بالأزبكية

وعرف نابليون قيمة الأزهر وعلمائه . وأثرهم فى قيادة الرأى العام . فأنشأ فى ٢٥ يولية ديواناً من عشرة أعضاء من علماء الأزهر هم :

١ — الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر .

٢ — الشيخ خليل البكرى (عينه

نابليون فى ١٧ من أغسطس نقيباً للأشراف بعد خروج السيد عمر مكرم كما سبق ذكره) .

٣ — الشيخ مصطفى الصاوى .

٤ — الشيخ سليمان الفيومى .

٥ — الشيخ محمد المهدى .

٦ — الشيخ أحمد العريشى .

٧ — الشيخ موسى السرسى .

٨ — الشيخ محمد الدواخلى .

٩ — الشيخ يوسف الشبراخيتى .

١٠ — الشيخ مصطفى الدمنهورى .

وجرت عادة الاستعمار من قديم الزمان أن المستعمر لا يستطيع حكم المستعمَرين حكماً مباشراً . فيقيم حكومة وطنية أو لجنة من المواطنين تكون واسطة الاتصال بين الأهالى وقوات الاستعمار وإنشاء مثل هذه اللجان ضرورى للمستعمر فى بادئ الأمر على الأقل .

واختلفت الآراء فى تقدير من يقبلون عضوية هذه اللجان . هل يُعتبرون خائنين لوطنهم ومن أعوان الاستعمار ؟ أو يُعلمون مواطنين صالحين يتحملون هذه المسئولية مع التضحية بسمعتهم لتخفيف ويلات الاستعمار عن مواطنيهم ؟

فقد رأينا السيد عمر مكرم يرفض البقاء تحت حكم المستعمر وغادر البلاد كما أن الشيخ محمد السادات لم يقبل عضوية هذا الديوان سواء عن شعور وطنى أو ترفعاً بمركزه الاجتماعى عن هذا المنصب . فهو سليل بيت السادات الوفائية العريق بنسبه الشريف . ومع ذلك ظل محل تقدير الفرنسيين يعملون حسابه . وإن كانوا يشكون فى إخلاصه حتى قامت ثورة القاهرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠٠م فاضطهدوه أشد الاضطهاد .

ولا نريد ونحن نؤرخ للأزهر وشيوخه أن ندمغ أعضاء هذا الديوان بما يشين . كما لا نريد أن نصفهم بالبطولة . ولكن للتاريخ حقه . ونحن بشر غير معصومين ويجب ألا ننسى ظرف الاحتلال وأنه من الصعب رفض ما تطلبه القوة الغاشمة .

ولكن إذا ترجمنا لهؤلاء الأعضاء قد نصل إلى نتيجة فى سلامة الحكم . وطبيعى أن يختلف هذا الحكم من شخص لآخر .

ولن نترجم لهم جميعاً ، وإلا طال بنا الموضوع أكثر مما يجب . ولكن سنكتفى بإذن الله بالخمسة الأعضاء الأولين . لأن أولهم كان شيخ الأزهر ، وأن الخمسة كانوا أعضاء فى الديوان الأول والثانى والثالث فى عهد الفرنسيين وسنسوق هذه التراجم بعد إنجاز شرح هذه التشكيلات وظروف تشكيلها .

لم يدم الديوان الأول كثيراً فقد ذكر الجبرتى أنه فى ١٦ من ربيع الآخر سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨/٩/٢٧ م) أهمل شأن الديوان الذى يحضره المشايخ ، فاستمروا أياماً يذهبون فلم يأتهم أحد ، فتركوا الذهاب فلم يُطلبوا .

وأنشأ الفرنسيون ما أسموه محكمة القضايا من ستة أعضاء من تجار المسلمين وستة من تجار القبط والنصارى وجعلوا رئيسهم ملطى القبطى . وفوضوا إليهم الفصل فى أمور التجار والعامة ، والمواريث والدعاوى ، وطلبوا فى قرار تشكيل هذه المحكمة أن يتقدم الأهالى بما يثبت ملكيتهم للعقارات ، وإجراءات إثبات الملكية تستلزم رسوماً فى كل خطوة ، ثم يدفع رسم على العقارات بحسب قيمتها ، فإذا عجز الشخص عن إثبات ملكيته صودر العقار . كذلك فُرضت ضريبة على التركات وعلى جميع المعاملات من بيع وإيجار وهبة وغير ذلك . كما فرض أيضاً رسم على التصريح لانتقال أحد الأهالى من جهة إلى أخرى . ورسم على إثبات المواليد يقال له رسم الحياة . . إلخ .

وكان الفرنسيون مضطرين للمبالغة فى فرض الضرائب بعد أن حطم الأسطول الإنجليزى الأسطول الفرنسى فى ٢٨ / ٧ / ١٧٩٨ فى موقعة (أبو قير) أى بعد معركة إمبابة بأيام . فحوصر الفرنسيون فى مصر وانقطع عنهم أى إمداد من فرنسا .

وكان من ضمن الأسطول الفرنسى الذى دُمِّر البارجة Orient أى الشرق وذكرها الجبرتى فقال القابق الكبير المسمى (بنصف الدنيا) . وعلل المرحوم عبد الرحمن الرافعى هذه التسمية من الجبرتى بأنه ما دامت الدنيا شرقاً وغرباً . فيكون الشرق نصف الدنيا وهو تعليل فيه لباقة .

ولم يكن فرض هذه الضرائب هو السبب الوحيد لتذمر الشعب الذى اتضح له خداع الفرنسيين . ولكن كان هناك شعور يغلى فى نفوس هذا الشعب الذى استكان لعسف الحكم التركى لأنه حامل لواء الخلافة الإسلامية فلم يحتمل وجود هذا الأجنبى المختلف عنه ديناً وتقاليد . وألفى (بالفاء) العثمانيين لا حول لهم ولا قوة ، كما رأى المماليك يهربون بأنفسهم ، فلم يجد مناصاً من اعتماده على نفسه .

وهبت ثورة القاهرة الأولى فى ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ م . أى بعد ثلاثة

أشهر من دخول الفرنسيين القاهرة .

ولم تستمر الثورة غير يومين . فقد قمعها الفرنسيون بمنتهى الشدة والقسوة . وكانت منطقة الأزهر والحسنية وداخل باب النصر هى قوام الحركة . فأطلق الفرنسيون مدافعهم من القلعة وتلول البرقية (شرق القاهرة الفاطمية) مركزين على الجامع الأزهر وما حوله .

ولم يستطع الشعب الأعزل الاستمرار فى المقاومة ، فذهب المشايخ إلى نابليون وطلبوا إيقاف القتال فأجابهم ، وكف الأهالى عن المقاومة .

ودخل الفرنسيون المدينة فأزالوا ما أقامه الأهالى من متاريس وحواجز فى الشوارع والدروب . ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر فعاثوا فيه . وبحثوا فى الدواليب عما فيها من ودائع وخبآت ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وداسوها بالأقدام ، وأهانوا كل من وجدوه من الأهالى ، وأخذوا فى القبض على كل من اعتقدوا أن له ضلعا فى الشغب .

وممن قبضوا عليهم خمسة من شيوخ الأزهر . وليسوا من رؤوس العلماء . منهم الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان . فاعتقلوهم بمنزل البكرى بالأزبكية فى ٢٤ أكتوبر — ٤ نوفبر ثم نقلوهم ليلا إلى القلعة وأعدموهم . ولم يعلم إعدامهم إلا فيما بعد .

وفى هذه الثورة قتل من الفرنسيين ما يقرب من المائتين ، ومن المصريين أربعة آلاف تقريباً .

وبرهن المصريون أثناء هذه الثورة على ما جبل عليه هذا الشعب من كريم الطباع والسجايا بشهادة الفرنسيين . فقد آوى كثيرون من الطبقة المتوسطة من وجدوه من الفرنسيين أعزل من السلاح . وما حصل من النهب لبعض النصارى لم يقم به إلا عامة السوقة من المغاربة . والنهب لم يكن قاصراً على أملاك النصارى بل تعداه إلى أملاك المسلمين أيضاً . أى لم يكن هناك أى تعصب دينى .

وكان أثر الثورة فى النفوس بالغاً . فقد قضى نهائياً على تمويهات الفرنسيين . وكما ضاعت الثقة عند المصريين ، فقد زال الاطمئنان عند الفرنسيين ، فأمروا من كان سكنه بعيداً بالانتقال إلى الأزبكية ليكونوا قريبين من بعضهم وامتنعوا عن التجول فرادى أو غير مسلحين كما كانت عادتهم .

وعطل نابليون الديوان عقاباً للشعب ، وظل معطلا حتى ديسمبر سنة ١٧٩٨ م

ولكنه لم يستطع قطع همزة الوصل بينه وبين الشعب، فاضطر إلى إعادته ثانية ولكن بصورة أخرى.

فى ٢٤ / ١٧٩٨/١٢م قرر عمل ديوان من مجلسين. الأول عمومى من ٦٠ عضواً معينين بمعرفة الفرنسيين يمثلون العلماء والتجار والأعيان وأصحاب الحرف والنصارى والأقباط والشوام والجاليات الأجنبية. والثانى خصوصى من أربعة عشر عضوا ينتخبهم أعضاء الديوان العمومى.

وأصبح تشكيل الديوان الخصوصى خمسة أعضاء من العلماء (هم الخمسة الأولون فى الديوان الأول) واثنين من الأقباط، واثنين من التجار المسلمين واثنين من السوريين، وثلاثة من الأوربيين، فكان هذا الديوان سبعة من المسلمين وسبعة من غير المسلمين. وانتخب الديوان الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيساً، والشيخ محمد المهدى سكرتيراً.

وأصدر الديوان الخصوصى بيانه الأول فى ٢١ من شعبان سنة ١٢١٣هـ (٢٨ / ١ / ١٧٩٩ م) يحث الناس على الهدوء، وأن نابليون قد عفا تماماً عن حوادث الثورة. وأنه أعاد الديوان الخصوصى (لأجل قضاء حوايج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام، وتنظيمها على أكمل نظام وإحكام.

نابليون يذهب إلى الشام :

وخرج نابليون فى فبراير سنة ١٧٩٩ فى حملته الفاشلة لغزو الشام. فتحطمت آماله تحت أسوار عكا. وأمد الله العرب بجنود لم يروها من ميكروبات الطاعون ففتكت بالجيش الفرنسى. واضطر نابليون للعودة إلى مصر فى يونية سنة ١٧٩٩م بعد أن خسر أكثر من ثلث قواته.

وعزل نابليون القاضى التركى. وكان يُعين من استانبول ولم يكن دائماً ذا كفاءة علمية تؤهله لمنصبه. فالمحسوبية والأغراض المختلفة كانت تتدخل فى تعيينه. وكلف نابليون أعضاء الديوان الخصوصى بانتخاب قاض مصرى من العلماء. فانتخبوا الشيخ أحمد العريشى عضو الديوان الأول وعضو الديوان العمومى الحالى. واعتمد نابليون الانتخاب وقرر رسماً اثنين فى المائة للتقاضى. وكانت هذه خطوة نحو استقلال القضاء فى مصر، ورمزاً لديمقراطية لم يعهدها الشعب بانتخاب القاضى انتخاباً حراً من العلماء.

ويئس نابليون من تحقيق أحلامه بإنشاء إمبراطورية فرنسية فى الشرق ، فبرغم أنه فى ٢٥ / ٧ / ١٧٩٩ م انتصر على القوة التركية التى احتلت (أبوقير) بمساعدة الأسطول الإنجليزى فقد شعر بابتهاج الشعب لقدوم الأتراك حتى أعضاء الديوان الخصوصى الذين توجب عليهم مراكزهم مجاملة الفرنسيين لم يستطيعوا إخفاء هذا الشعور.

ورأى نابليون ضرورة عودته إلى فرنسا لما بلغه عن الحالة فيها وفى أوربا فسافر سراً فى أغسطس سنة ١٧٩٩م . وترك القيادة فى مصر لكليبر .

وبعد سفر نابليون استمرت الحالة الاقتصادية تتدهور من سيء إلى أسوأ بسبب كثرة الضرائب والمصادرات . وبدأ كليبر استكمال مفاوضات الصلح التى كان قد بدأها نابليون قبل سفره .

وكانت تركيا مصممة على جلاء الفرنسيين عن مصر . فى حين أن انجلترا كانت نيتها القضاء عليهم فى مصر . وأرسلت تركيا حملة بقيادة يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) فتمكن من احتلال العريش فى ٣٠ / ١٢ / ١٧٩٩ م .

ثم أبرمت معاهدة العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ م . واتفق فيها على جلاء القوات الفرنسية ومواعيد الجلاء عن البلاد المختلفة . وتأمين سفرهم إلى أوربا. ولم يوقع السير سدنى سميث قائد الأسطول الإنجليزى المعاهدة — مع أنه كان واسطة فى عقدها — وذلك لعدم تقييد حكومته بشروطها ولأنه كان فى تصميمه أخذ القوات الفرنسية فى مصر أسرى فى طريق عودتهم إلى أوربا حتى لا تزداد بهم فرنسا قوة فى عدائها مع الإنجليز .

وشرع الفرنسيون فى الاستعداد للجلاء وفرح الشعب بقرب رحيلهم وتقدم الجيش التركى حتى عسكر فى منطقة بلبيس ، وتقدم جزء منه حتى المطرية وعين شمس ، وبدأ العثمانيون وأمراء المماليك يدخلون القاهرة فرادى ، وذهب بعض العلماء لتحية الصدر الأعظم .

ولكن وصل إلى كليبر إنذار من الحكومة البريطانية بأنها غير مقيدة بمعاهدة العريش . وأنه سيقبض على أى قوة فرنسية تغادر مصر . وعلى القوات الفرنسية أن تسلم للإنجليز مالديها من أسلحة وذخائر . وأن يسلموا أنفسهم أسرى حرب .

فأنذر كليبر يوسف باشا ضيا الصدر

الأعظم بضرورة انسحاب الجيش التركى إلى الحدود السورية . ولم يضع كليبر وقتاً فباغت الجيش التركى فى ٢٠/٣/١٨٠٠م (٢٣ من شوال سنة ١٢١٤هـ) وكان الجيش التركى آمنا وفى حالة من عدم الانتظام وفقد الاحتياط . فهزم شر هزيمة . وانسحب يوسف باشا إلى فلسطين .

ولكن كانت كتيبة من الجيش التركى قد انفصلت عنه وأمكنها دخول القاهرة . ولما سمع الناس قصف المدافع فى عين شمس هاجت النفوس المتذمرة وقامت ثورة القاهرة الثانية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ م . وكان من زعمائها السيد عمر مكرم والشيخ محمد الساذات والسيد أحمد المحروقى كبير التجار .

« يتبع »

محمد كمال السيد

من عمريات عمر

كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وهو خليفة ، كلما لقى أسامة بن زيد ، قال له : السلام عليك يا أميرى . . فيعجب زيد لهذا . .

فيقول له عمر : لا أدعوك إلا بأميرى . لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، مات ، وأنت أمير على .

وذلك أن أسامة كان أميراً على الجيش الذى أعده الرسول قبيل موته لغزو مؤتة ، وفى الجيش عمر ، فمات الرسول الكريم قبل أن يتحرك الجيش إلى وجهته ، فأمضى أبو بكر ما أمر به رسول الله ، واستأذن زيداً فى أن يدع له عمر ، ليكون إلى جانبه فى مواجهة الأحداث التى حدثت بعد وفاة النبى ، فأذن له .

هواتف إسلامية :

ترابط هذه الأمة

الدكتور إبراهيم أبو خشب

الإسلام فى أوامره ونواهية . وتكاليفه وواجباته ، يربّى اتباعه على نمط خاص من السلوك والأخلاق . والطباع والعادات والميول والأهواء ، ينتهى بهم إلى الحدب والعطف والمودة والحب ، ويجعل الاتصال فيما بينهم لايقوم على ضرورة العمران الذى تقضى به حياة الجماعة التى يضمها وطن واحد ، أو منفعة مشتركة ، أو أمانى غير متعددة . كما تقضى به المدنيّة التى تعيش فى ظلالها الأمم والشعوب وكفى ، وإنما يقوم على ترابط البعض بالكل ، أو الأعضاء المتنوعة بالجسم الواحد . وهى تكمل بناءه وتقيم هيكله وتبرز وجوده ، وتسهم إسهاماً لا شك فيه فى قوته وفاعليته ، أو معنى وجوده الذى به يكون شيئاً مذكوراً ، له خيار فى الفعل أو الترك والنفع أو الضرر . وليس أدل على ذلك كله من قوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، واللبنة الواحدة إذا سقطت من البناء ، أو فارقت موضعها من الجدار أو كان بها خلل يفقدها أثرها الذى كانت تضيفه إليه ، أو عملها الجاد فى تماسكه ، جعلته عرضة للتداعى والسقوط ، ويبدو ذلك واضحاً تمام الوضوح وهو يصور ما يكون بين الناس من التواصى بالخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بجماعة حملتهم سفينة واحدة فى عرض البحر وكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها وكان هؤلاء الذين يحتلون الأسفل إذا أرادوا شيئاً من الماء تخطوا رؤوس الناس حتى وصلوا إلى العلو ليلقوا بالدلو فى الماء ليجيء إليهم بحاجتهم منه ، ولما شق عليهم هذا الصنيع قالوا ألا نخرق خرقاً من تحت أقدامنا ليجيء إلينا الماء من غير تلك المعاناة ، وفاتهم أنهم بهذا كالذى يسعى إلى حتفه بظلفه ، وهنالك يتحتم على الجميع

أن يضربوا على أيديهم ليحولوا بينهم وبين هذا الضرر الجماعي الذي سيودي بركاب السفينة كلهم — كما تقول الآية القرآنية — (واتقوا فتنة لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهكذا يكون هذا الدين في تهذيبه لأبنائه وإرشاده لأتباعه ، وإعداده لمن ينضوى تحت رايته ، وتراه في ذلك كله إنما يحث الفرد الواحد على أن تفنى فرديته في الجماعة ، وتتلاشى في الأمة ، وتذوب في غيرها من سواء المسلمين ، وهو يهتم بأمورهم ، ويعمل لإسعادهم ويجلب لهم في كل تصرفاته معهم البر والخير ، والهدوء والاطمئنان ، ويقول جل جلاله إعلاناً لهذا المعنى : (إن هذه أمتكم أمة واحدة) وكلمة أمة على انفرادها تعنى هذا اللقاء الوجداني والامتزاج العاطفي ، والتقارب الشعوري وكأنما كانت كلمة (واحدة) بعد ذلك بمثابة التأكيد لما تؤديه كلمة أمة من الترابط والتلاحم ، وتقوية الأواصر ، وتلاقي الأهواء ، لأن كلمة أمة ، في اصطلاح علماء الاجتماع تعنى هذا السواد من الناس الذين تضمهم مصلحة واحدة ووطن واحد . ولغة يتخاطبون بها ، ودين يعتقدون به اعتقاداً لا يختلف .

وكل هذه المعاني تبلورت في شريعته صلى الله عليه وسلم التي جعلت رباط العقيدة وحدة بمثابة ما يكون بين الأفراد من الرحم والقرابة ، والنسب والمصاهرة ويوضح ذلك بشكل لا ريب فيه فرضية الجهاد على كل من يحمل السلاح إذا وجد من نفسه القدرة على الدفاع ، وصد غارة العدو ، فإنه مأمور بإغاثة غيره والدفاع عنه ، والإحساس بما يحس به إخوانه من هنا أو هنالك من المسلمين مهما تباعدت الديار أو كانت المشقة .

وإذا كان أقصى ما يكون بين الإنسان والإنسان من الاتصال والارتباط أن يكونا من أب واحد وأم واحدة ، ليكون كلاهما للآخر أخا ينتهي وإياه إلى وشيجة واحدة عنوانها هذه الأبوة وتلك الأمومة ، فإنه سبحانه وتعالى يؤكد ذلك كله في قوله (إنما المؤمنون إخوة) ومن هنا كان علماء الشريعة الإسلامية يقولون إن حاجة الجماعة مقدمة على حاجة الواحد . وكان من سلوك الأنصار في المدينة — مع هؤلاء الذين وفدوا عليهم من مكة مطاردين من عصابة الشرك — الإيثار الذي كان يقتضيهم أن يوفروا لهم الراحة والأمن ، والطعام والشراب ،

والمسكن والمأوى (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجةً مما أوتوا ويُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصاصة) أما الأخوّة التى كان يصنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين هؤلاء وهؤلاء فشىء آخر وراء ما يتصوره العقل البشرى من مصلح اجتماعى ارتآه خيراً بوعيه وإدراكه ، وحزمه وبصره . وعقله وتفكيره . لطائفة يريد لها أن تتماسك أجزاؤها ، وتتقارب أهواؤها وتتعاطف قلوبها وأفئدتها . إلى ذلك كله تزكى أكلها ، وتتحقق ثمرتها . . إلى جانب ما كان ينادى به من البر ويدعو إليه من الخير ، ويرغب فيه من صنوف الإحسان ، وخلال الذوق واللياقة . التى تهفو إليها الطباع السليمة والميول المستقيمة ، كإماطة الأذى عن طرق المارة ، وعدم الإساءة إلى الجيران ، وهو يقول « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » ووصاته بالتجاوب الوجدانى الذى لا بد من وجوده بين أبناء آدم وبنات حواء والذى يتمثل فى عيادة المريض . والسؤال عنه ، وألا يبيت الرجل شبعان وإلى جانبه معدم يشكو من الجوع ، ويقاسى مرارة الحرمان ، وهى كلها

أمور تؤكد هذا الترابط ، وتنمى هذا الامتزاج ، وتجعل التعاطف قائماً بين الناس مقام القانون . . وربما كان موقفه صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع مع الملأ المحتشد فى عرفات ليقول لهم « المؤمنون تتكافأ دماؤهم . ويسعى بذمتهم أدناهم . وهم يد على من سواهم » تجسيداً لتلك الحقيقة ، وإعلاناً عنها ، وطلباً لها ، إلا أننا نتساءل بعد هذا الذى ذكرناه من الوشائج المتنوعة ، التى لا تدع مجالاً للشك فى أن هذا الدين الذى اختاره الله لنا مائدة عامة نلتف حولها ، وتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ، ونجعلها فيما بيننا قائمة مقام الرحم والقرابة ، والنسب والمصاهرة : هل ألفت الأجزاء ، وربطت الأهواء ، وقربت الأنحاء ، وضمت المتفرق ، وأزالت السدود والحدود ؟ ! . والحقيقة المرة — كما يقولون — ونحن نتحد فى الصيام والفطر، ويومى العيد ، وصلاة الجماعة ، والاتجاه إلى القبلة ، والاجتماع فى الحج الذى يعلل الله سبحانه وتعالى حكمة مشروعيته بقوله : (ليشهدوا منافع لهم) وهى كلها دلالات ناطقة من غير شك على أن يكون المسلمون كالجسد الواحد

إذا اختل فيه عضو من الأعضاء تداعى له كل الاعضاء بالحمى والسهر ، إلا أن منطق أرسطو لا يحصل له أكثر من كونه قواعد نسلم بها ، وندعن لها ، على أنها قضايا تحتمل الصدق والكذب وأن ارتباط المقدمات بالنتائج ذهنياً - أو عقلياً - غير الارتباط الخارجي ، ولو أن هذه الأشياء كلها قربت المسافات ، وألغت الفوارق ، وأيقظت عواطف الأخوة ، وربطت - بحق ما بين المسلم والمسلم . لما كانت هذه الإحن التي تعانيها ، والمحن التي نكابدها ، وذلك النفور الذي يجده النازح من بلده إلى بلد أخرى من تلك البلاد التي تشاركنا في شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وقد أصبح السعار على العيش ، والتكالب على الحياة ، والحرص على جمع المال هو القانون الذي يتحكم في السلوك والطباع . والآداب والأخلاق ، وكأنما الدين عندنا لم يكن إلا تكاليف جامدة . وعبادات تقليدية ، يؤديها أصحابها ليخرجوا من عهدة التكليف لا أكثر ولا أقل . من غير نظر إلى أن لها مغزى يحتم على الناس أن يلتزموا بنوع من الحدب والأدب . ولون من المودة والعطف ، ومعنى من التقارب والاتصال يحمل الفرد على أن يفنى فى الكل ، أو يذوب في الجماعة كما تقضى بذلك كله الأوامر والنواهى لهذا الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ملك السماوات والأرض ، ومن هنا نهيب بالمسلمين أن يثوبوا إلى رشدهم ليجعلوا من دينهم هذا الرباط الذى يصل ما بين قلوبهم وأفئدتهم ليكونوا كما أراد الله لهم خير أمة أخرجت للناس .

د . إبراهيم على أبو خشب

قضايا لغوية ..
أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

(٤)

وهبَّ مؤيدو « الثنائية » يدعمون أسسها ، ويرسون مبادئها ، ويسوقون شواهدها :

● فذهب بعضهم إلى : « أن الطبيعة عينها ميالة إلى الثنائية ، لا إلى الآحادية ، لأن أعضاء النطق عينها لا تخـــرج للمتكلم حروفاً صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات »[1] .

● ويرى بعضهم أن القـــول بأن اللغة الإنسانية نشأت بطريق المحاكاة وهذا رأى من آراء كثيرة قيلت فى نشأة اللغة — يرسى مبدأ هاماً من مبادئ « الثنائية » إذ أن هذا الرأى كشف عن عدد كثير من الأصوات اللغوية فى مجموعاتها . ولوحظ أن جل الألفاظ التى نشأت عن طريق المحاكاة هو وضع ثنائى . ولذا قال كثير من الباحثين : إن أصل حكاية الأصوات فى اللغات السامية — ومنها العربية — هو ثنائى يعتمد على حرفين صامتين ، حين حاكى الإنسان أصوات الطبيعة وغيرها من حوله بصيحاته وصرخاته الانفعالية ، وعبر بعد ما قلد عن حاجياته الطبيعية والحياتية .

ويرى الأب مرمرجى أن البرهان الحسى الجلى على وجود الثنائية هو : «فى أصل اللغة» ، يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات ، أو زجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية ، ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . دونك الألفاظ التالية — على سبيل المثال لأن منها فى اللغة شىء كثار — : « أف » كلمة تكره وتضجر ، و « آه » كلمة توجع و « به » و « بخ » كلمتان تقالان عند استعظام الشىء و « عس » كلمة زجر للهر»[1] .

---

(١) معجميات عربية سامية ٩٨ .

(١) معجميات عربية سامية ٩٩ .

وليس هذا خاصاً بالساميات ، بل لاحظ العلماء — أيضًا — أن لفظ «مو» في المصرية القديمة والصينية يعني (هرة) ، وجاء التوافق من أن الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه .

(وسواء أكانت المحاكاة لصوت إنسان : كالقهقهة ، والنحنحة ، والتأوه ، والتأفف) .

(أم كانت محاكاة لصوت حيوان : كالزقزقة ، والمواء ، والصهيل ، والزئير) .

(أم كانت محاكاة لصوت الطبيعة ويطلق عليها المحدثون نظرية (بو — وو) (Bow-waw) ، وذلك كحفيف الشجر ، وخرير الماء وصرير القلم وهزيم الرعد) . .

وليس (ماكس موار Max Mueller هو صاحب نظرية «المحاكاة» حين أشار إليها في محاضرته بلندن سنة ١٨٦٤ وأعطاها اسماً جديداً تعرف به هو (Ding-Dong) كما أشــار بعض المعاصرين[١] . بل إن علماءنا القدامى عرفوها ، وأشار إليها ابن جني (٣٩٢هـ) وحكاها عمن سبقه ، ووصفها بالصلاحية والقبول ، حين قال : . . . وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . . . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل »[١] . فابن جني يحكي عمن سبق . وفي حكايته هذه دلالة قاطعة على أنه كان مذهباً مقرراً وشائعاً بين السابقين من علمائنا .

وارتضى الشدياق هذا الرأي ، وذكر له أمثلة كثيرة تعزز رأيه ، في كتابه القيم[٢] .

وأيد ذلك المستشرق الفرنسي (رينان) في كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، وذكر أمثلة كثيرة توضح التشابه بين الأصوات اللغوية في مجموعتي اللغات الآرية والسامية[٣] .

والقول في نشأة اللغة من أقدم المشاكل التي جابهت عقل الإنسان ، لأنه أمر يثير الخيال ، والحق الذي يقال بصدده أن كل النظريات في القول بنشأة اللغة

(١) نظريات في اللغة لأنيس فريحة ١٩ .

(١) الخصائص ١/٤٦ .
(٢) سر الليال في القلب والإبدال ٢٢-٢٧ .
(٣) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ سنة ١٣٩٢ .

الإنسانية الأولى ليست يقينية ، ولا يسلم بها العلم ، لأنها حدس وخيال ، ونحن ندرسها على أنها افتراضات قيد البرهان ، وإن فسرت كل نظرية قدراً من الألفاظ فسيبقى قدر لا تتناوله هذه النظريات ، والسر : أن اللغة لم تبدأ — كما ذكرنا — منطقية ، إذ لم يكن هناك منطق ولا فكر ، كما أن قضيتها ليست لغوية بحتة ، ولا تدخل في نطاق علم اللغة Languis Tic وحده ، بل تتشعب في نطاق (البسيكولوجيا) (والأنثروبولوجيا) ، والفلسفة .

فنظرية المحاكاة وإن تعلق بها الثنائيون وفسرت جانباً ، فهي تعطيهم شيئاً وسبباً يؤيد وجهة نظرهم ، وعليهم سوق أدلة أخرى .

«ولكن يسجل لهم أن معظم الأصوات الثنائية كانت محاكاة لأصوات الحيوان أو الطبيعة ، أو الأصوات التي تسمع عند مزاولة الإنسان للأعمال التي تدل عليها الأصوات »[١] .

والنظرية تفسر ما يدل على المحسوس ويخرج عن دائرتها ما يدل على المعقول .

● وتعلق بعض مؤيدي « الثنائية » إلى أن (نشأة اللغة إنما هي ثنائية المواد) أي أن قانون التطور يرشد إلى أن اللغة نشأت أول أمرها ثنائية المواد ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق ، (أي من حرفين أولهما متحرك وثانيهما ساكن) ، وحين دعت الحاجة إلى التنوع والمزيد اكتنزت هذه المواد إلى الثلاثية وما فوقها بالطرق السالفة وأن المعنى العام كامن في الأصل الثنائي ، وما زاد عليه لم يزد المعنى إلا تنوعاً حسب الحاجة والمقتضى .

وحفلت المقاييس اللغوية لابن فارس بالأمثلة الوفيرة التي تؤيد ذلك ، وحذا حذوه الشدياق في كتابه : « سر الليال في القلب والإبدال » ، وللدكتور أمين فاخر بحث قيم لدراسة معجمية إحصائية ، في ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية ، وعلاقتها بالأصول الثلاثية هو بمثابة التطبيق للنظرية التي نحن بصددها[١] .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان — في مقاله القيم عن الثنائية في اللغة[٢] طرفاً من أقوال المستشرقين الذين يؤيدون « الثنائية » ، ويستشهدون

---

(١) المصدر السابق نفسه .

---

(١) انظر ثنائية الألفاظ في المعاجم العربية . طبعة أولى .

(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

لها بما فى أخوات السامية ، يقول :

لقد طبق المستشرق الألمانى (فورست) النظرية الثنائية تطبيقاً عملياً فى معجمه الكبير الإنجليزى العبرى . مؤيداً نشأة اللغة ثنائية المواد ، من مقطع واحد مغلق أى من حرفين : أولهما متحرك حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

ويقول المستشرق الألمانى (جزينس) فى كتاب له عن اللغات السامية ، وقد شرح فيه الثنائية شرحاً وافياً مؤيداً بالأمثلة : « إن ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية . . . إلى أن يقول : غير أن كثيراً من الأصول الثلاثية يمكن ردها إلى أصول ثنائية ، نسميها : جذوراً ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية .

والمستشرق الفرنسى (رينان) ، فى كتابه — التاريخ العام للغات — يزيد الأمر وضوحاً فى هذا الصدد ، يقول : إن من بين الأصول الثلاثية أنواعاً من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية إلا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لإضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، وذلك نحو « ند » فإنه أصل ثنائى يفيد معنى الحركة أو الابتعاد ، سواء ضعف ثانيه ، فقيل : (ندّ) أو مد أوله فقيل : (ناد) أى تحرك أو تمايل من النعاس ، ومنه (تندد) الغصن ، أى تحرك . أو مد ثانيه فقيل : (ندا) يقال : ندا الشىء ، بمعنى تفرق ، والإبل النوادى ، هى الشوارد .

وإن الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد — فى جميع الحالات تقريباً — أن أحد أحرفها الثلاثة أضعف من الآخرين ، وأنه لايحدث فى المعنى الأساسى إلا تعديلا طفيفاً[1] .

ومن ثم يبدو أن الأصل السامى الثلاثى يمكن رجعه فى الغالب إلى حرفين أساسيين أضيف إليها ثالث ليس له فى تغيير المعنى الأساسى إلاتأثير طفيف ، وأن الأصول الثنائية السامية هى العناصر البدائية التى لا تقبل النقص .

والقيمة التى تضيفها دراسة المستشرقين هى إلمامهم بلغات شقيقات للعربية ، وغيرها ، تبعد مدى الرؤية ، وتعلى من قيمة الشاهد ، وتقيم النظرية والتطبيق .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

والأب مرمرجى يرى هذا الرأى ، وكثيراً ما ذكره فى مصنفاته ، وخص فى أحدها بعض مبادئ الثنائية ورأى أن من نتائج هذه النظرية : أن المثال والأجوف والناقص «ماهى سوى مزيدات أو توسعات فى الرس الثنائى الذى يجرى فيه أول التوسع بتكرار الحرف الثانى منه ، أو بتشديده : أى بتكراره لفظاً ووضع الشدّة عليه كتابة ، وعادة يجرى التشديد فى اللغات السامية : إما لعذوبة اللفظ أو تسهيله ، وإما للمبالغة ، وإما للتأكيد والتأييد» . وعلى ذلك فالفعل (قام) مثلا ، أصله (قم) أشبعت حركة حرفه الأول ، مما يظهر فى السريانية فى كلمة (I A M) ولو تتبعت تصريف الفعل قام ، واتصاله بالضمائر ، لوجدت أن الأصل ثنائى وأنه يدل على معنى تام فى حالة الثنائية[1] .

ويؤكد الأب مرمرجى أن من الأدلة على وجود الثنائى فى أصل اللغات ولا سيما السامية منها : «هو أن المضاعف العربى الذى يقال: إنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية — لا نجد مقابله فى السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر ، مثلا مقابل «حم» بالتشديد فى العربية نرى فى السريانية (حم) بالسكون ، وبإزاء (مص ومص)[1] .

● ويرى بعض العلماء أن الثنائية طبيعية التكوين ، بمعنى أن «طبيعة الحرفين اللذين تتكون منها المادة الثنائية لها دخل كبير فى بنائها على صورتها الثنائية ، إذ أن هذين الحرفين فى الغالب شديدان أو رخوان أو متوسطان بين الرخاوة والشدة .

ويرى كثير من علماء الفرنجة : أن المواد الأصلية المكونة من حروف شديدة هى على وجه العموم أقدم من المكونة من حروف رخوة أو متوسطة ويرجح أن الأخيرة نشأت عن الأولى بتخفيف الحروف الشديدة[2] .

ويؤيد ذلك ما ذكره الشهاب الخفاجى من أعجمية الكلمات التى تجتمع فيها حروف معينة ، مثل جردقة ، وجلنبق لصوت باب وكذلك : صنجة وصولجان . وأيضاً : نورج ونرجس . وأيضاً : مهندز وهندازة . وبست اسم لبلدة وسذاب وساذج ،

(١) معجميات ٩٦ — ٩٨ بتصرف .

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢هـ .

(٢) شفاء الغليل ٦ ، ٧ .

وطاجن ، واصطبة . . . لأن الجيم والقاف ، والصاد والجيم ، والنون بعدها راء ، والزاى بعدها دال ، والباء والسين والتاء ، والسين والزاى ، والظاء والجيم والصاد والطاء لا يجتمع شيء من هذه الحروف إلا ودل على أن الكلمة معربة ، وإن استعملها العرب .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى رضوان على هذا بقوله : « لكن يبدو أن ترجيح أسبقية المواد المركبة من حروف شديدة على المركبة من حروف رخوة أو متوسطة لا يستند إلى دليل تاريخى .

ولعل الدافع لهذا الترجيح أن سنة التطور تقضى بالانتقال من الصعب إلى السهل كما أن العقيدة الغالبة لدى العلماء أن الأصوات القوية هى التى لفتت نظر الإنسان فى أول الأمر ، فحاكاها بحروف شديدة مثلها ، ثم حاكى الأصوات الخفيفة التى هى أقل من الأولى شأنا بحروف رخوة أو متوسطة[1] » .

وهو باستدراكه على ما بدأ به قد كفانا مئونة الرد ، والتعقيب . وبخاصة واللغة — كما أسلفنا — لم تنشأ منطقية ولا عقلية ، وتوحى سنة التطور والرقى بهذا التدرج .

● ووقف العلماء المؤيدون للثنائية طويلا عند طبيعة الحرف الذى يثلث المادة الثنائية .

وخلاصة رأيهم فيه : أن المعنى العام للمادة الثنائية كامن وباق فيها مهما توسعنا فى المادة بالزيادة ، وكلما رددنا موادها المزيد إلى الصورة الثنائية وجدنا الحرف الذى ثلث أصلها ما يبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية توجه المعنى الأصلى العام توجيها خاصاً ، وتزيده تنوعاً وتقييداً فقط .

وبعض علمائنا القدامى حذق الثنائية على هذا النمط ، كالراغب الأصفهانى (٥٠٢ هـ) كما فى مؤلفه : « المفردات فى غريب القرآن » إذ اعتبر المضاعف هجاء واحداً ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، لأنه عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق .

ورد ابن فارس ، فى « مجمل اللغة » باب (الجيم والدال وما يثلثهما) إلى معنى الأصل ، كما فى جذر ، وجذع ، وجدل ، وجذم .. وإن تفاوت الاستعمال نتيجة للحرف الثالث : فالأصل العام للشجرة جذل ، وللنخلة جذع ، وللحساب جذر . . .

وفارس الحلبة فى شرح هذا المبدأ هو العلامة أحمد فارس الشدياق ،

---

(١) مجلة كلية الآداب .

والمستشرق الألمانى (جزينس)، وأجاد الدكتور محمد مصطفى رضوان فى عرض آرائهم عرضاً يوضح أهم مبدأ من مبادئ وأسس الثنائية فى نظره .

ولابد لنا فى هذا المقام من تلخيص هذا المبدأ، كما ورد فى (مجلة الآداب الليبية فى عددها الرابع عام ١٣٩٢هـ) زيادة فى الفائدة، ولتتضح جوانب الحقيقة فى هذه المشكلة التى طال أمدها، وإظهاراً لبراعة الحس اللغوى للشدياق، وكشفاً لعديد من مؤلفات لغوية حديثة غمرت الأسواق، تسوق فكر الشدياق وغيره، وبضاعتهم دون أن تذكرهم أو تعزو إليهم علمهم وفضلهم وسبقهم :

فقد رأى العلامة (جزينس) أن تنمية المادة الثنائية، يتم بواحدة من خمس طرق أولها : تضعيف الحرف الثانى، وتلك وسيلة أولى وطبيعية فى التنمية، كما قال كثير من العرب والمستشرقين ووافقهم الشدياق، وذكر ستة أسباب[1] للتدليل على صحة ما ذهب إليه، نوجزها فيما يلى :

١ ــ أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو صفته، وحكاية الصوت إنما تأتى من المضاعف مثل : دب، دق، قر .

٢ ــ أن الفعل فى الأصل كالاسم : فى كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله، فإذا اتصل بفاعله فتح : فحين وضع الواضع (دق) لم يقصد بها فى أول الأمر أن تكون فعلا ولا اسما، بل مجرد حكاية لصوت توهمه، بقطع النظر عن أى شىء آخر، فلما وصل (دق) بفاعله، قال : دق الرجل . فلما أراد تخصيصه بأن يكون اسما قال : دق الرجل . وكثيراً ما نرى صيغة الاسم والفعل واحدة لهذا .

٣ ــ أن اللغة ــ كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية ــ لا يحدث شىء منها تاماً كاملا من أول وهلة، ولكن على التدرج . فالأحرى أن نقول : إن الفعل السالم جاء آخر الأفعال أما الأجوف فإنه غالبًا ما يأتى عقب المضاعف، مثل (طب) وطاب، وصر وصار (أى صوت) . وأما الناقص : فإنه صدى غيره من الأفعال، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب . نحو : همر وهمى، والأسف

(١) سر الليال فى القلب والإبدال ٢٢-٢٧.

والأسى [١].

٤ — أن حكم ترتيب المزيد المضاعف لا يكاد يتخلف : فقلما ترى المضاعف معنى إلا ورأيت فى مزيده مثله أو ما يقاربه . والمراد بالمزيد هنا ما يكون الحرف الثالث فيه أو لامه غير عينه. وذكر لذلك أمثلة كثيرة تبلغ سبعة وخمسين ، منها : سل وسلب ، وكد وكدح ، ومن ومنح . . .

٥ — أن زيادة حرف على المضاعف أليق بحكمة الواضع فى التفنن من نقصه ، إذ لو جعلت السالم أصلا لزم عنه العدول من الكمال إلى النقصان ، والاختصار فى الأفعال ليس من مذهب العرب كما تدل على ذلك الأفعال المزيدة . ودليل آخر : وهو أنهم يشبعون الفتحة فى آخر الفعل فيتولد منها ألف ، كما فى : (دحب ودحى ، وسلق وسلّى) ، وقس على ذلك زيادة الهاء فى هجزع للجبان ، والنون ، فى ضيغن ، والراء فى بحتر وبعثر .

٦ — أننا نجد أفعالا مجهولة الأصل وأصلها من المضاعف معلوم ، مثل : امتخر العظم ، أى استخرج مخه فهو لابد أن يكون من امتخ إذ لم يجئ المخر بمعنى المخ . وقس على ذلك تمخى العظم ، بمعنى تمخخه » .

ونخرج من ذلك بأن كل المضاعفات هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد حتى فى الساميات ، متصفاً بمعنى حقيقى وتام كما سبق أن ذكرنا للأب مرمرجى .

ثانيها : إضافة حرف علة إلى أول المادة أو وسطها أو آخرها : ويعلل الشدياق الإضافة فى الأجوف بقوله :

إن الأجوف غالباً ما يأتى عقب المضاعف ، كطب وطاب ، وضر وضار وجب وجاب . . .

وهو كثير فى العربية .

ويظهر أن السبب فى العدول عن المضاعف ، إلى الأجوف ، هو الرغبة فى التخلص من تشديد عين الفعل بعد حركة فائه ، لأن التشديد ثقيل ، حتى لا يكاد يوجد فى اللغات الآرية .

وسبق أن علل الإضافة فى الناقص بأنه : صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب ، كما فى شجب وشجا ومحق ومحا .

---

(١) السابق ٢٩ ، وراجع أيضاً معجميات عربية سامية ٩٦ — ٩٨ .

والتقارب شديد بين معنى المضاعف والناقص ، كما في : قضى . وغمى الخبر وغم .

والتقارب أيضاً شديد بين المضاعف والمثال ، كما في : وقص (قطع) وقص . ووخز وخز .

ثالثها : إضافة حرف من حروف الزلاقة [1] ، إلى المادة الثنائية ، مثل : قص قصم ، قصر ، قصب ، قصف قصل . . .

رابعها: إضافة أحد حروف الحلق [2] إلى المادة الثنائية ، مثل : فق (فرق وفتح) وفقأ وفقع ، وفقح . ورد وردع . وقط وقطع . ومن ومنح ... فالمضاعف والحلق معناهما واحد .

خامسها : إضافة حرف من أحرف الصفير [3] إلى المادة الثنائية ، مثل فر ، وفرز وفرس ، وفرص ، وكلها بمعنى فصل وفرق وقطع . ومثلها : فل وفلذ . . .

تلك هي الطرق الخمسة التي تثلث المادة الثنائية ، كما لاحظها علماء اللغة ، وكلها شاهدة بأنه لافرق بين المعنى العام للمادة الثنائية ، وبين المعنى بعد أن أضيف إليها ما يثلثها .

ويعرض علينا الدكتور رضوان — في نهاية عرضه لآراء العلماء — مادة ثنائية حكائية ، مبيناً المواد الثلاثية المشتقة منها بالطرق المختلفة ، وهي مادة (قع) ، مما يؤيد أن أصل الثنائية في لغتنا مكين وثابت ، يقول :

ويظهر أن مادة (قع) في الأصل حكاية لصوت الرعد المزعج ، ومنها القعقعة ، وتقعقع أي اضطرب.

والمواد المتفرعة عن هذه المادة تفيد معنى الخوف أو الانكماش أو الاسترخاء بصورة ما ، لما يترتب على سماع هذا الصوت من خوف .

فمن ذلك (قبع) القنفذ : أدخل رأسه في جلده ، بإضافة حرف زلاقي في الوسط ومثله (قنع قنوعا) أي تذلل .

وبإبدال القاف كافاً ينشأ : (كع) الرجل كعوعاً ، أي جبن وضعف .

وبإضافة الواو في الأول ينشأ (وكع) البعير ، أي سقط ضعفاً .

---

(١) حروف الزلاقة (أي الخفة) يجمعها قولك : (مر بنفل) .

(٢) حروف الحلق يجمعها قول الناظم :
همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

(٣) أحرف الصفير ، هي : السين والزاي ، والصاد ، ويلحق بها ما يقاربها .

وبإضافة حرف علة ، فى الوسط ينشأ (كاع) ، إذا هاب وجبن .

وبإضافة حرف علة فى الآخر ينشأ (كعا) ، أى جبن . والأكعاء ، الجبناء .

ويقال : كبع ، أى ذل ، و (كنع) انقبض . و (كنع) هرب . وكنعت الإبل : استرخت بطونها .

وبإبدال الكاف خاء تنشأ المواد : (خنع) الصبى ، أى فحم وأنهكه البكاء . . .

(وخنع) السراب : اضمحل و (خرع) الرجل : ضعف . ومثله : خشع خضع خنع . ولخع الرجل أى استرخى جسمه .

وأن نظرة على الطرق التى مرت عليها المادة السالفة ، والمعنى العام الذى يرتبط بالثنائية بقوة ، يدعونا أن نقرر : أن عدداً كبيراً من الأصول الثلاثية جاء تنمية لأصول ثنائية .

« يتبع »

دكتور / توفيق محمد شاهين

دعـــاء

إلهى إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإلى من يفزع المذنبون .

إلهى تجنبت عن طاعتك عمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً . . فسبحانك ما أعظم حجتك على وأكرم عفوك عنى ، فبوجوب حجتك على وانقطاع حجتى عنك ، وفقرى إليك وغناك عنى إلا غفرت لى ، يا خير من دعاه داع ، وأفضل من رجاه راج ، بحرمة الإسلام ، وبذمة محمد عليه الصلاة والسلام .

الغزالى

الأمن الاجتماعي في الإسلام

العقيد / فكرى الجوهرى

طلع فجر الإسلام بنوره على شبه الجزيرة العربية وبدأ نشر الدعوة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانت تتفشى الآفات الاجتماعية فى المجتمعات من جرائم خلقية إلى تعدٍّ على النفس والمال إلى انحلال فى السلوك والتصرفات . ولم يكن من السهولة بمكان محاربة هذه الآفات التى تأصلت من قرون عديدة قبل الدعوة . . .

وقد تعرضت الدعوة الجديدة لمقاومة شديدة رغم أنها تدعو إلى خير الناس والعباد وإلى صلاح المجتمع ومحاربة الكفر والفسوق والعصيان ، إلا أن هذه المبادئ اعتبرها سادة القبائل العربية انتقاصاً من سلطانهم ونفوذهم وسلبا لحقوقهم ومحاربة لأهوائهم وتقوية للضعفاء والفقراء على حسابهم . .

ويرجع هذا إلى أن البشرية عاشت فى عصور ما قبل الإسلام تحت وطأة تهديد القوى التى تملك المال والسلطان ، وظلت القوة هى المسيطرة ، وظل الضعفاء يستجيبون لمطالب ورغبات الأقوياء صاغرين مستذلين .

وهذا الأسلوب فى المجتمعات ، لا يتفق مع المبادئ الأساسية فى حياة الفرد الإنسانى وأمنه فى رزقه وشرفه ومعاشه واستقلاله ، ومن ناحية أخرى حجر على فكره وسلامة تصرفاته ورغباته وعقيدته وحريته وهى أغلى ما يبتغيه فى حياته .

وكانت سياسة الإسلام فى محاربة هذه الآفات الاجتماعية بعيدة عن الاندفاع والقوة والاضطهاد لأن الإسلام يأبى أن تكون سياسته فى العلاج وتغيير أنماط السلوك فى المجتمع بنفس الطريقة التى كانت سائدة ، لذا كانت تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والكلمة الطيِّبة والإيضاح المقنع . . . فلا إكراه فى الدين . ولم يلجأ المسلمون

إلى الحرب إلا بعد أن أصبحوا مهددين بالعداوة المستمرة من أرباب الضلال وأهل السوء حتى رأينا الإسلام يستعمل القوة فى حالتين فقط حالة الدفاع عن النفس أو العرض أو المال ، وحالة الدفاع عن الدين والعقيدة . . .

والآفات الاجتماعية موجودة فى المجتمع منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى بعد أن عصى آدم وحواء أمر ربهما واستمعا إلى صوت الشيطان واستجابا لدعوته وعصيا أمر الله وهبطا إلى الأرض حيث كان منهما فيما بعد قابيل وهابيل اللذان وقع بينهما أول صدام انتهى بجريمة قتل راح أحدهما ضحيتها — واستمرت الجرائم والآفات الاجتماعية تزداد وتستفحل فى المجتمعات وكان الله سبحانه وتعالى يهدى الناس بالرسل إلى أن ارتضى الله الإسلام دينا لخلقه ، وجمع فيه أسس أمن المجتمع وسلامته واستقراره بل ليجعل العالم كله أسرة واحدة لا فرق بين أحد وآخر لأن الجميع من آدم وآدم من تراب :

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

(الحجرات ١٣)

ومن هذه المبادئ التى وضعها الإسلام للمجتمع :

١ – العدل ودفع الظلم عن الناس :

كانت أولى دعائم الإسلام لإصلاح المجتمع العدل والمساواة بين الناس ودفع الظلم عنهم . . . قال تعالى :

(يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى).

(المائدة ٨)

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)

(النحل ٩٠)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تعالى لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وهكذا كانت العلاقة بين الراعى والرعية منذ فجر الإسلام ، ويحكى أن الرشيد قال لابن السماك : عظنى فأتى له بماء يشربه فقال السماك الزاهد: لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك قال الرشيد : نعم قال : فما خير فى ملك لا يساوى جرعة ماء .

٢ – الاهتمام بالفرد كإنسان :

أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن معاملة الفرد خاصة النساء والأطفال والشيوخ والرهبان . . حتى في القتال مع عدو الحق فيقول :

« اغزوا باسم الله في سبيل الله . . قاتلوا من كفر بالله . . . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » .

وأوصى أبو بكر أسامة بن زيد فقال ! : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفــلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة » .

وهكذا لا يفرق الإسلام بين فرد وآخر لجاه أو سلطان أو لون أو جنس كما نراه في الدول المتحضرة في التفرقة بين الأسود والأبيض وبين المواطن وغير المواطن فقد ولى رسول الله بلالا وهو عبد حبشي على المدينة .

كما أوصى بإكرام الخدم والمماليك فقال :

« إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن فعلتم فأعينوهم » .

٣ – أهمية دور المرأة في المجتمع :

اهتم المجتمع الإسلامي بالمرأة وكان لها دور كبير في النهضة بل ألزمها الإسلام بمشاركة الرجل في كفاحه ضد المبادئ الفاسدة ، لذا اشتركت المرأة في الحروب جنبا إلى جنب مع الرجل بل وحملت السلاح وخاضت غمار معارك شأنها شأن الرجال، وكان لها دور في الحث على القتال وهذه أسماء بنت أبي بكر تقوم بدور كبير في الهجرة ، تكتم الأسرار وتعرض نفسها للمخاطر .

٤ – احترام ملكية الغير والأموال العامة :

حرم الإسلام التعرض لأموال الغير والأموال العامة حتى لا يضار الإنتاج وحتى إذا كانت ملكية هذه الأموال في بلاد العدو . . ومن وصية أبي بكر لأسامة قوله :

« ولا تعقروا نخــلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل » . .

وقال الرسول الكريم :

« ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة » .

٥ – السلام فى المجتمع :

الإسلام دين السلام نشأ فى أرض تعددت فيها الطوائف والأديان فى الجزيرة العربية وزادت فيه المنازعات بين العرب وتحكمت العصبية فى أمور المجتمع فجاء الإسلام ليعلن الأخوة الإسلامية داعياً إلى التضامن والمحبة مقرباً بين النفوس المتنازعة جامعاً الناس جميعاً فى وحدة واحدة . .

(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) (آل عمران) ثم إن كلمة الإسلام مشتقة من السلام والمؤمنون اتخذوا – المسلمين – اسما لهم (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) .
(الحج ٧٨)

كما أن تحية المسلم لأخيه المسلم هى – السلام عليكم – وختام الصلاة ، سلام على اليمين وسلام على الشمال – والقرآن نزل فى ليلة السلام :

(إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر (سورة القدر) والله تعالى يحيى عباده بالسلام . .

(تحيتهم يوم يلقونه سلام)
الأحزاب ٤٤)

• كذا الملائكة يلقونهم بالسلام :

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم) .
(الرعد ٢٣)

وجنة الله سميت بدار السلام (لهم دار السلام عند ربهم) الأنعام ١٢٧
كما أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى

٦ – الدعوة إلى مكارم الأخلاق :

أوصى الإسلام – لما فيه صلاح المجتمع – بالأمر بالمعروف والبعد عن الفساد الاجتماعى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .
(آل عمران ١٠٤)

ومن وصايا لقمان لابنه :

البر بالوالدين (ووصينا الإنسان بوالديه) .

والاستقامة (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) .

والرجولة (ولا تصعر خدك للناس) .

والتواضع (ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور) .

٧ - حسن استخدام موارد الفرد والمجتمع :

حث الإسلام على الانتفاع بالأموال بما يعود بالخير على الفرد والمجتمع بأن يكون الإنفاق فى سبيل الارتفاع بالمستوى الاجتماعى للكافة . . . وذلك ببذل المال فى وجه من وجوه الخير وجعل الله الإنفاق فى مستوى الإيمان :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .
(الحجرات ١٥)

ومعنى السبيل هنا الطريق وسبيل الله طريقه الذى شرعه وارتضاه وأمر الناس بالاتجاه إليه والاستقامة عليه .

بل جعل الله الإنفاق وجها من وجوه البر :

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة) .
البقرة (١٧٧)

وأنذر الله الذين يكنزون الذهب والفضة ويبخلون ويحبسون الأموال عن التعامل مما يعود بالضرر على الفرد والمجتمع :

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (التوبة ٣٤) .

ومن ناحية أخرى احترم الإسلام حرية تصرف الفرد فى أمواله حتى بعد وفاته فأرشد إلى احترام الوصية :

(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين) .
(البقرة ١٨٠)

كما اهتم بالمواريث الشرعية وبين حدودها . .

(يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثلُ حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس . .) إلى نهاية الآية .
(النساء ١١)

(يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم) .
(النساء ١٧٦)

وضع حدود الأمن الجنائى :

قام الإسلام بوضع الحدود التى تكفل سلامة المجتمع والجرائم والآفات الاجتماعية لكى يأمن الناس على أموالهم وأعراضهم وحقوقهم . . .

فوضع الحد للسرقة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) (المائدة ٣٨)

وفى هذا الشأن كانت السيرة النبوية فقال الرسول الكريم . . .

« والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وذلك ليبين الرسول الكريم أن القصاص يكون على كل فرد فى المجتمع مهما كانت منزلته أو درجته الاجتماعية .

ووضع الحد للقتل (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ) .

(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) (النساء ٩٢)

وبين عواقب الربا (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا . (البقرة ٢٧٥)

(يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) . (آل عمران ١٣٠)

كما يبين ضرورة الوفاء بالديون وإثباتها (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) إلى نهاية الحكم فى الآية (البقرة ٢٨٢)

(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) (آل عمران ٧٦)

كذا اهتم بالآفات الاجتماعية الأخرى: (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)
(المائدة ٩٠)

كما وضع الحد على الآداب العامة وبين كيفية عقاب الزانى والزانية لما فى الزنى من اختلاط الأنساب وميلاد أطفال أبرياء ميلاداً غير شرعى ، ويكون مآلهم أن يصبحوا لقطاء مشردين .

والإسلام فى بيانه للحدود وتشريعه لأحقية الفرد فى الدفاع عن نفسه أو عرضه لم يفته بيان حدود الدفاع الشرعى بأن يكون رد الدفاع والاعتداء بالقدر اللازم دون مغالاة أو مجاوزة أو تنكيل :

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) . (البقرة ١٩٤)

احترام العقائد :

من مآثر الإسلام احترام العقائد الأخرى (لا إكراه في الدين)

وهاهو الرسول الكريم يجيب يهود خيبر إلى طلبهم في الصلح ويبقيهم على أراضيهم التي آلت له بحكم الفتح ووجد الرسول بين ما غنمه المسلمون عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فاستجاب إلى طلبهم ولم يفعل معهم كما فعل الرومان في فتح أورشليم عندما أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم . . كما لم يفعل ما فعل النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا التوراة .

وفي بلاد الشام طلب الأسقف صفرنيوس أن يسلم بيت المقدس للخليفة دون غيره .

وجاء عمر بن الخطاب بنفسه وهو خليفة المسلمين وصالحهم رغم مقدرة القوات الإسلامية على دخولها عنوة وجاء في كتاب الصلح « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم » .

احترام العلاقات الأسرية :

اهتم الإسلام بالأسرة عماد المجتمع كما اهتم بالعلاقة الأسرية بين الزوج وزوجته وبين ضرورة قيام الحب والوئام والاحترام بينهما وأوضح أن للزوجة حقوقاً قبل زوجها كما للزوج حقوق ، وعلى كل منهما واجبات يجب أن يقوم بها لانتظام الأسرة ودوامها .. وشروط الزوجة الصالحة :

(ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) . (البقرة ٢٢١)

حتى العلاقة الخاصة بين الزوجين :

(نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) (البقرة ٢٢٣)

كذا العلاقة الصحية بينهما :

(ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) (البقرة ٢٢٢)

فإذا كان مآل الأسرة إلى الانفصال فهناك حدود للطلاق :

(والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) . (البقرة ٢٢٨)

(الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) (البقرة ٢٢٩)

ـ كما أن للأطفال حقوقاً فى الأسرة

(والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) (البقرة ٢٣٣)

واليتامى حقوق حتى لا يستغل ضعفهم الاجتماعى .

(وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) (النساء ٢)

ولاحترام كيان الأسرة الكبيرة واحترام أفرادها وعدم اختلاط الأنساب وحسن السلالة التى تتكون منها الأسرة قال تعالى . .

(ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن) . (النساء ٢٢ ، ٢٣)

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم للفرد المقدم على الزواج الزوجة التى يختارها فقال :

« تنكح المرأة لأربع : لمالها وحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » . . صدق رسول الله .

تلك هى بعض تعاليم الإسلام ونظمه فى إصلاح المجتمع ، والتى يستغلها البعض فى الشرق أو الغرب لينظمها فى مواد أو نصوص يعتبرها مبادئ حديثة ونظماً مبتكرة ولو عاد المسلمون إلى كتابهم المقدس وسنة رسولهم لصلح حال المجتمع وقلت مفاسده .

عقيد شرطة / فكرى الجوهرى

المسيحية توحيد لا تثليث
والإسلام ضرورة عالمية

الأستاذ زاهر عزب الزغبي

إذا تفحصنا جوهر الديانة المسيحية وخطوط تحركاتها والنهج الذى سار عليه نبيها عليه السلام نجد أن السيد المسيح فى البداية قد حاول أن يبقى من البناء اليهودى حوائطه السليمة بعد أن يغسلها مما شابها من أرجاس، وأن يحصر دعوته فى إصلاح المجتمع اليهودى لاسواه فى إطار من الاعتراف بفكرة تفوق العنصر الإسرائيلى وأنه الأول والأحق بهداية الله . . ومن ذلك ما رواه إنجيل متى فى إصحاحه الخامس عشر من أن امرأة كنعانية وليست من بنى إسرائيل اعترضت سبيله حينما كان فى طريقه إلى صور وصيداء مستغيثة متوسلة إليه أن يشفى ابنتها المجنونة فلم يأبه لها ولم يجبها بكلمة وطلب منه تلاميذه أن يصرفها .

فأجاب وقال: «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة — فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعنى فأجاب وقال: ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب» وقد رويت هذه القصة أيضاً فى غير إنجيل متى من كتب العهد الجديد .. ولكنه فى داخل هذا النطاق مضى فى دعوته الإصلاحية فارتقى بالعقيدة الدينية حيث أعطى للألوهية صفاتها الأسمى ونزع عن الإله قناع الغلظة والجبروت، وركز الأضواء على الصفات الإلهية المحببة . . فهو الإله الرحيم البار ناصر الضعفاء ومواسى المكلومين وسعت رحمته كل شىء فى ملكوته «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات . طوبى للحزانى لأنهم يتعزون . . طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض . . طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون . . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون . . . طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون . . طوبى للمطرودين من

أجل البر لأن لهم ملكوت السموات . طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين . افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السموات » . (إنجيل لوقا ٥ : ١٢/٣) . ولم يعد الإله بعد المسيحية كما كانت تصفه أسفار العهد القديم بالغطرسة والكبرياء والاندفاع مع قصور الإمكانيات والعجز والحماقة فى كثير من الأحيان . . بل هو الإله الكامل « فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل » (لوقا ٥ : ٤٨) .

« أبانا الذى فى السموات . . ليتقدس اسمك . ليأت ملكوتك . . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . . خبزنا كفافنا اعطنا اليوم . اغفر لنا ذنوبنا ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من الشرير . لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد » (لوقا ٦ : ١٣/٩)

وصحح المسيح العقيدة اليهودية فيما يختص بالثواب والعقاب واليوم الآخر فقال بالبعث والحياة الآخرة . . وأن الناس جميعاً سيحاسبون على ما قدمت أيديهم فى الحياة الدنيا ويلقون جزاء وفاقا على كل كبيرة وصغيرة من أعمالهم : « ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابا يوم الدين – لأنك بكلامك تدان » (متى ١٢ : ٢٧/٢٦) .

وكان اليهود قد استهانوا بشريعة موسى حتى أصبحت أحكامها مجرد قيود شكلية . . فاليهودى غير ملزم باتباع هذه الأحكام فى تعامله إذا كان الطرف الآخر غير إسرائيلى . . أما بالنسبة لفعاليتها فى تنظيم الشئون الدينية والمدنية داخل المجتمع الإسرائيلى نفسه فإنه كان لكل مخالفة لأى من أحكامها قربان يمحو إثمها كما كان لكل خطيئة صدقة تغفرها . . فجاء السيد المسيح والشريعة الموسوية برمتها شبه معطلة . فعاب على اليهود مخالفتهم الآثمة لشريعة الله وأحكام دينه وحاول أن يعيد للشريعة قداستها فتركزت مواعظه على إظهار حكمة التشريع وتشدد فى المطالبة باتباع روح القوانين لا جوانبها الشكلية . . « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل باطلا يكون مستوجب الحكم . . وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم . . ومن قال لأخيه رجساً يكون مستوجب المجمع . . ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم

فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا واصطلح مع اخيك . . وحينئذ تعال وقدم قربانك . . قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأن كل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلا لعلة يجعلها تزنى ، ومن تزوج مطلقة فإنه يزنى . . أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك . . وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة . لا بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه . ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم . ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء . . بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا . . وما زاد على ذلك فهو من الشرير .

سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً .

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك — وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . . باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم . . لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين . . لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم . أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك . . فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو أيضاً كامل (متى ٥ : ٢١/٤٨) . . ويمكن تلخيص نظرة المسيح إلى قوانين الشريعة بأنه تشدد فى المطالبة باحترامها إلى درجة تباعد بين ضمير الإنسان وبين مجرد التفكير فى انتهاكها ، وليس فى حضه على الاستسلام للّطمة . وعدم مقاومة اللاطم أى تعطيل لمبدأ القصاص لأنه لم يسقط العقاب الرادع للاطم وإنما هو يأمر بالابتعاد عن الشر والعنف حتى فى مقام مقاومة الاعتداء .

ولقد ظلت المسيحية دعوة خاصة بالإسرائيليين أو حركة إصلاحية لتصحيح ما طرأ على اليهودية من مفاسد طوال حياة المسيح فى الأرض . ولكن الموقف العدائى الفظ الذى وقفه كافة اليهود من هذه الدعوة والذى كانت خاتمته مؤامرة دنيئة دبرها اليهود لهذا النبى المسالم لتودى به فى النهاية حسب ما اعتقدوا إلى خشبة الصليب ظلما وبلا مبرر . . وجعلت

حوارييه المخلصين يجدّون للنجاة برقابهم فى الهرب بعيداً عن ظلم اليهود ووحشيتهم. وتفرق هؤلاء الحواريون فى أنحاء الأرض يلتمسون الملجأ والأمان فى سائر بقاعها لدى كل من يجدون عنده استعداداً للعطف عليهم والتصديق بدعوتهم والاعتراف بمبادئهم . . ومن ثم أتيح لغير الإسرائيليين أن ينعموا بالزاد الإلهى الذى أعرض عنه بنو إسرائيل ورفضوه .. وعندما خرج التبشير بالتعاليم المسيحية عن نطاق الإسرائيليين وجد قبولا شديداً لدى سائر الشعوب التى كانت متعطشة إلى الإيمان بالله والاسترواح برحمته وهداه فسرعان ما انتشر الدين الجديد حتى غطى فى زمن وجيز معظم أنحاء العالم الوسيط ، بما فيه من الشعوب والأجناس ، أما الإسرائيليون فسرعان ما لقوا الجزاء الوفاق — على ما كانوا فيه من غى وظلم وبهتان — على يد الرومانيين الذين وجدوا فيهم شعباً متمرداً يستحيل إصلاحه أو تقويمه ووجدوا أن لا مناص لقمع الفتنة من استئصال جذورها ، فلجأوا إلى وسائل العنف والقسوة وأطلقوا فيهم يد التقتيل والإبادة ، وبذلك انتهى عهد الإسرائيليين كشعب بعد أن قتل منهم من قتل والذى بقى منهم حياً هرب بجلده إلى حيث لا تمتد إليه يد الرومان لاجئاً يلتمس الأمان فى ذلة ويبغى الحياة فى مهانة .

ولقد مضت المسيحية فى عهدها الأول تكتسح بروحانيتها وبساطتها مناطق شاسعة فى أوربا وحوض البحر الأبيض المتوسط ولكن الوثنية والفلسفة الإغريقية سرعان ما تسللا إلى تلك العقيدة السمحة . . فنى القرنين الأولين من ميلاد المسيح كان الاعتقاد بإله واحد لا شريك له هو أساس الديانة المسيحية . . ولكن بعد أن اعتنقت هذه الديانة الجديدة شعوب شتى من الوثنيين اليونان والرومان والمصريين. وكلها شعوب قد تأصلت فيها وعمقت جذور الوثنية نشأت طوائف وفرق ترى كل منها فى العقيدة رأياً يخالف الأخرى. وكانت شخصية المسيح نفسها موضوع الخلاف ومحوره — فمن قائل بأن المسيح ليس إلا رسولا من عند الله فقط ، وليست له منزلة أكثر من شرف السفارة بين الله وخلقه كسائر الأنبياء . . بينما يرى فريق آخر أن للمسيح علاقة بالله من نوع خاص فهو فى منزلة أشرف وأعلى من مجرد الرسول لأنه من الله بمنزلة الابن . .

فقد خلق من غير أب . ولكن ذلك لا يمنع أن يكون المسيح مخلوقاً لله ، لأنه هو كلمته ، ويرى فريق ثالث أن المسيح ابن لله ، له مثل أبيه صفة القدم والدوام السرمدى . . وإذا كانت البيئات الوثنية التى نشأ فيها المؤمنون الجدد لها تأثيرها فى هذا الانحراف الخطير — فإن الأرجاس التى علقت بالمسيحية منذ البداية فى منبتها الأصلى لا تقل عن ذلك تأثيراً أو خطورة .

وقد كان اليهود يعتقدون منذ البداية أنهم كشعب مختار ينتمون أيضاً إلى عنصر إلهى ، فقد جاء فى الإصحاح السادس من سفر التكوين : «حدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن جميلات اتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا . . وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » .

فلما جاء المسيح وحاول جهده أن يصحح الصورة الفظة التى رسمها الكهنوت اليهودى لله كان دائماً (ليؤكد رحمته ولطفه وبره) يدعوه مجازاً بالأب الذى فى السماء .

وفى خضم هذه الفوضى العقائدية التى اشتد فيها الخلاف إلى درجة هددت[1] ما تضمنه الدين الجديد من مبادئ سامية ومثل أخلاقية رفيعة بالضياع والزوال . قام فى مصر داعية جرىء قوى الحجج ينقد بجرأة وبأسلوب فصيح لاذع رؤساء كنيسة الإسكندرية فيما يبثونه بين المسيحيين ويروجون له من ألوهية المسيح . وكان هذا الداعية هو آريوس الذى أخذ على عاتقه أن ينقذ المسيحية من أن تسلك نفس الطريق الخطر الذى ضلت فيه وضاعت من قبل اليهودية ، وكان رأى آريوس أن الإله واحد وليست هناك أية وجوه للاقتران أو التشابه بين طبيعتى الله والمسيح الذى هو مجرد بشر . وأن الله كان بينما لم يكن المسيح إلا بعد أن خلقه الله وصنعه كما يخلق ويصنع كل ابن أنثى من بنى الإنسان فى أوانه ووقته المقدور المحدد . . ومضى آريوس يفسر نصوص الأناجيل التى وصف فيها المسيح ربه بأنه أبوه بأن ذلك لم يكن إلا محض تعبير مجازى لا يعنى حقيقة البنوة — وإنما يعنى الحب والرحمة . . ولقد ازداد أتباع

(١) ملخص من كتاب محاضرات فى النصرانية للشيخ أبو زهرة .

آريوس وكثر مشايعوه إلى درجة جعلت كنيسة أسيوط تعترف بهذه المبادئ الآريوسية اعترافاً مطلقاً وتنفصل كلية عن كنيسة الإسكندرية التى تمسكت بتأليه المسيح واعتباره ابنا حقيقياً لله .

ولما اشتد النزاع وكثر أشياع آريوس ومؤيدوه فى كل من مصر ومقدونيا وفلسطين وأوشكت الفتنة الدينية أن تقع بعد أن استشرى الخلاف واتسع لم يجد قسطنطين إمبراطور الرومان بداً من أن يدعو رجال الدين وزعماء الطوائف فى جميع الإمبراطورية إلى مؤتمر عام، وفى سنة ٣٢٥م اجتمع بدعوة من الإمبراطور فى مدينة نيقية حشد من البطاركة والأساقفة قدره ابن البطريق بألفين وثمانية وأربعين ليتدارسوا المصادر الدينية ويقرروا الأوفق والأصح فى العقيدة والدين .

ولقد أسفر هذا المؤتمر الذى عرف باسم « مجمع نيقية » عن قرارات خطيرة أهمها الاعتراف بألوهية المسيح وأنه من جوهر الله وأنه قديم بقدمه ولا يعتريه تغيير ولا تحول . . كما قرر المجمع إعدام كل الكتب والمأثورات التى تخالف القرار واعتبار كل من يقول بغير ذلك كافراً مجدفاً ملعوناً مطروداً من حظيرة الرحمة والغفران .

وابتداء من مجمع نيقية أخذت العقيدة المسيحية تتعقد وتبتعد شيئاً فشيئاً عن إمكانية الإدراك والفهم . . وأخذت شخصية المسيح تأخذ مكانها المرموق على عرش الألوهية ضريباً وقريناً لله ذاته باعتبار أنهما من طبيعة واحدة أومن طبيعتين مختلفتين توحدهما روح القدس أو أن المسيح نفسه يتكون من طبيعتين متباينتين ناسوت ولاهوت تقربه الأولى من الناس وتربطه الثانية بالله .

وفى هذه الآونة راح الملايين من المسيحيين ضحايا للخصومة العاتية بين الفرق والطوائف المسيحية بسبب خلافات سفسطائية أضاعت للدين هيبته وذهبت ببهاء قدسيته وتحولت تعاليم المحبة والرحمة وصفاء القلب ونقاء الروح التى تضمنتها المسيحية (على يد المسيحيين أنفسهم) إلى دواعى للفرقة والخلاف والقسوة . . بل باسم هذه المبادئ نفسها قتلوا الأنفس وأزهقوا الأرواح ونكلوا بمخالفيهم وعذبوهم بأفظع ما عرفت الإنسانية من صور القسوة والوحشية . . وفى سبيل التبرز فى هذا التطاحن الدينى راح رجال الدين ورؤساء الطوائف يتقربون إلى الأباطرة والولاة وينافقونهم

ليستعينوا بهم على خصومهم . وليس من جديد الآن أن يقال بأن رجال الدين قد ذهبوا آنذاك إلى حد تزييف التعاليم المسيحية وتحريفها على نحو يصادف هوى ومطامع ذوى السلطان حتى يتقربوا إليهم ويضمنوا نصرتهم .

ولم يأت القرن الخامس الميلادى حتى كان العالم كله يعانى فوضى فى الأخلاق وبلبلة فى الفكر وفقراً فى الروح . . فالمسيحية بسبب انحرافها إلى معركة عقائدية قاسية قد دمرت مثلها وروحانيتها وداخلها الكثير من الأباطيل والأراجيف التى دست إلى التعاليم الصحيحة فشوهتها مما أفقدها القدرة على مواصلة التقدم نحو هدفها المنشود فى تكوين مجتمع فاضل تنظم شئونه بوحى الله وهدايته ويسوده الحب والإخاء والمساواة والإيثار والرحمة . . وتحولت من دين حق تنبنى فلسفته الرئيسية على مبادئه ومثله الرفيعة إلى دين يدور حول محور واحد ويعتمد على ركيزة واحدة هى شخصية الداعية وبدلا من أن تتطور من خلاله العقيدة والإيمان بالله هيطتافيه إلى درك يرفضه كل من العقل والفطرة .

تجددت ضرورة العالم إلى دين جديد :

وفى هذه الآونة كانت الفلسفة الإغريقية والتجربة التى خاضتها البشرية خلال اليهودية والمسيحية قد ارتقت بالمعارف الإنسانية والثقافة العامة إلى درجة كبيرة من النضج فلم تعد نفوس الناس ولا عقولهم تقنع بما دون المثالية الكاملة .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه العقول والنفوس تواقة إلى المثالية والكمال فى الفكر وفى القول وفى الأخلاق . . كان العالم كله يعانى من الفوضى فى كل مجال من مجالات الحياة . . فالوثنية الدينية كانت لم تتزحزح بعد عن عرش أمجادها فى أنحاء شتى من العالم المعمور . . بل كانت قد تمكنت من التسلل إلى حيث خالطت العقيدة الدينية فى قلوب المؤمنين بالمسيحية واليهودية . . وكانت شريعة الغاب هى الدستور الأقوى فى كيان المجتمعات ونظم الحكم . . وكان التسلسل الطبقى فى كل مجتمع قائم آنئذ يضمن لقلة ضئيلة التمتع بكل ما أتيح للأحياء من مباهج واستمتاع بينما لم يبق للغالبية العظمى إلا التعاسة والقسوة والشقاء ، وفى مثل هذه المجتمعات لا يمكن أن تتحقق عدالة اجتماعية أو مثالية أخلاقية أو استقرار فكرى . . ومن ثم كانت هناك ضرورة ملحة تقتضى ثورة إصلاحية شاملة تقوض كل القيم الفاسدة من أساسها وتشيد من جديد

عالماً آخر تتحقق فيه للإنسان كرامته ويجد فيه مثالية فى الأفكار ومبادئ الأخلاق تقتنع بها العقول وتمتلىء منها الأرواح وتتشبع بها النفوس .

ولما كانت الحضارة قد وصلت فى العالم إلى طور بلغت فيه الإنسانية دور الاستواء والنضج وازدادت فيه الروابط والصلات الفكرية والتجارية والسياسية بل وتشابكت فيه كل المصالح الإنسانية بين سائر المجتمعات فى العالم . . فكان من غير المجدى أن تجىء الثورة الإصلاحية لتعالج العيوب والمفاسد السائدة معالجة جزئية أو محلية . . بل كان يتحتم أن تكون هذه الثورة عامة شاملة من حيث أسسها ومبادئها حتى تناسب العالم كله وحتى تتيح للبشرية كلها نمطاً من التنظيم القويم وتنتشلها من وهدة الفوضى والارتباك اللذين يعوقانها عن أن تنطلق بعد أن تم نضجها واستواؤها — لتبنى صرح أمجادها ولتحقق كيانها ولتستغل كافة إمكانياتها وقدراتها فى زيادة غير محددة لجميع الآفاق والمجاهل حيث يتيح التوسع الفكرى والعلمى أن يزداد الإنسان معرفة بربه وبذاته وبعالمه وأن يعرف متى وكيف ينتفع بكل ما يحويه هذا الكون الهائل من خيرات لا تحصى فيتحقق له ما ينشده وما يريد له الله من سعادة وهناء ومتعة .

وكانت كل الظروف مهيأة والعوامل متوفرة لهذه الثورة الإصلاحية العالمية المنشودة . وكان مرور كل برهة زمنية مهما كانت ضآلتها يسبب يأساً وقنوطاً فى النفوس المتشوقة المترقبة للإصلاح بعد أن استطال صبرها على الفساد والبؤس ، وفى نفس الوقت كان الفساد الاجتماعى والدينى قد عمقت جذوره واستشرى بحيث كان كفيلا أن يقضى على أية ثورة فكرية أو دينية أو اجتماعية ؛ وكانت عناصر الرجعية والتعصب والفساد الدينى والاجتماعى قد تركزت وتحصنت فى منطقتين استراتيجيتين فى العالم وهما دولة فارس العظمى والإمبراطورية الرومانية الشرقية . . وفى هاتين الدولتين كانت أية محاولة للإصلاح كفيلة بأن يقضى عليها وهى لا تزال وليدة فى مهدها .

وفى وسط هذا العالم القلق المضطرب المشوق للخلاص كانت شبه الجزيرة العربية بقعة يسودها الهدوء والاستقرار النسبيان لأن الترابط القبلى بين أعراب الصحراء وبدوها قد جعل بين سكان تلك البقعة المنعزلة تماسكاً اجتماعياً يناسب ظروف المكان والبيئة ، فألفته

النفوس وعاشت فى كنفه ردحاً طويلا من الزمان . . ومع أن هذا النظام القبلى فى شبه الجزيرة كان مشوباً بالكثير من عناصر الإقطاع والعنجهية الطبقية إلا أن ما خالطه من شوائب الفساد الاجتماعى كان شيئاً لا يستحيل أو يعز إصلاحه كما أنه كان من طبيعة العرب أن يقدسوا حرية الرأى كما كانت القبيلة تتكالف على نصرة كل من ينتمى اليها وحمايته من كل أذى ، فكانت البقعة الوحيدة التى يمكن أن تقوم فيها دعوة للإصلاح الدينى والاجتماعى تجد لها الداعية الكفء بين قوم يجيدون فن التعبير ويحترمون حرية الكلمة وتضمن تقاليدهم الأمان لهذا الداعية الذى تجد قبيلته أن واجبها يحتم عليها أن تنصره وتبعد عنه كل ما يهدد حياته أو يعوقه عن مواصلة مهمته . وفى حاضرة هذه الصحراء « مكة » ومن قبيلة من أشرف قبائل العرب وأشدهم بأساً وجاهاً « قريش » ومن أعرق بطون هذه القبيلة وأنقاها نسباً وأعلاها شرفاً جاء محمد بن عبدالله يتيما فقيراً كفله جده ثم عمه فقضى صباه فى غير يسر وعاش أيام عمره الأول فى غمرة الحياة كادحاً فى غير بؤس ، فبقيت له نفسه النقية لم تتلوث بأوشاب الغنى والبطر كما بقيت له روحه السمحة لم تكدرها مرارة التعاسة والحقد شأن كل معوز . ومنذ كان صبياً عرف عنه أنه يتصف بكل مزايا الإنسان وليس فيه شىء من نقائصه ، ثم اشتغل بالتجارة — شأن كل شريف من قومه — فازداد خبرة بالحياة وتجربتها وتكامل اتساعاً فى الحجى ونضجاً فى الرأى ، فكان الرجل الأصلح للاضطلاع برسالة الله والدعوة لها .

ونحن إذا تدبرنا كل ظروف ذلك العصر وملابساته وجدنا أن العالم كان فى حاجة ملحة إلى إنقاذ عاجل . . إلى رسالة إلهية تقضى على فوضى عارمة كانت كفيلة بأن تقضى على الإنسانية أو تبقيها فى جاهلية بهيمية . . وكان لا بد لهذه الرسالة الإلهية حتى تنجح أن تكون شاملة عامة غير موقوتة أو محلية وأن تتوافر لها فى البداية البيئة المناسبة حتى تنضج وتتكامل تعاليمها ومبادئها . . وأن يقوم بها داعية كفء

وبالاختصار كان ولا بد للدعوة الإسلامية أن تقوم فى وقتها وفى مكانها وأن تكون دعوة عالمية شاملة . وأن يكون داعيتها هو محمد بن عبد الله عليه صلوات الله وتسليماته .

زاهر عزب الزغبى

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزى

حَد شُرب الخَمر

المستشار حسن حسب الله

(١٤)

عرفت البشرية صناعة تقطير الخمور منذ عهد بعيد وتشير الآثار إلى انتشار هذه الصناعة بالهند وسيلان منذ سنة ٨٠٠ قبل الميلاد .

والخمر : هى الشراب الناتج من تقطير بعض النباتات لإفراز الكحول بها مع إضافة بعض المواد التى تعطيها طعماً معيناً flavour ورائحة معينة والتحكم فى نسبة الكحول الموجودة بها .

والأنواع المعروفة حالياً من الخمور هى البيرة beer والويسكى Whisky ويصنعان من الحبوب (كالشعير والأرز والذرة) والفودكا Vodca وتصنع من البطاطس والروم rum ويصنع من قصب السكر والجن gin ويصنع من الثمار الجافة لشجر الصنوبر والبراندى brandy ويصنع من الفواكهة كالتفاح والعنب والخوخ والبرقوق والكريز وغيرها) وشراب البراندى يضم عدة أنواع من المشروبات liquers مثل النبيذ والكونياك وغيرها وذلك حسب نوع الفاكهة المستخدمة فى عملية التقطير .

أما المواد التى تستخدم لإعطاء هذا الشراب طعماً معيناً فمنها الشيكولاته والفانيليا والنعناع والورد والينسون – والبرتقال .

وتشترك هذه المشروبات جميعها فى أنها تحتوى على نسبة من الكحول تصل فى بعضها إلى ٤٩٪ (الويسكى) .

والكحول أصلا لفظ عربى نقله بعد ذلك الأوروبيون إلى لغاتهم فليست كلمة الكحول العربية ترجمة للفظ alchol وإنما العكس هو الصحيح

وقد انتشرت صناعة الخمور فى جميع أنحاء العالم وتدخلت الدول فى تنظيمها بمنح التراخيص اللازمة لصناعتها وتحديد مواصفاتها وتعيين مندوبين عن الحكومة

فى المصانع المنتجة لها لمراقبة الإنتاج وحصر كمياته كما فرضت جميع الدول المنتجة والمستوردة على الخمور ضرائب مرتفعة سواء على ما تنتجه الدولة محلياً أو ما تستورده من الدول الأخرى وأصبحت هذه الضرائب تشكل جزءاً هاماً من موارد هذه الدول مما رفع من أسعار الخمور فى كل مكان ، ومع ذلك فقد أصبحت ظاهرة شرب الخمور ظاهرة عامة فى كل الدول حتى تلك التى لا تنتج ولا تستورد حيث يعتمد بعض الأفراد فيها على تهريب الخمور إليها أو تصنيعها محلياً على نطاق ضيق وسرى أو شرب بعض السوائل المطهرة التى تحتوى على مادة الكحول والتى تباع فى كل مكان ولا يمكن حظر تداولها .

وقد ساعد على انتشار شرب الخمر منذ العصور الوسطى الأطباء فى ذلك الوقت حيث كانت تعتبر الخمر علاجاً طبياً وجرعةمحببة ومثيرة للشهوة الجنسية وشراباً منعشاً أو منبهاً إلا أن العلم الحديث قد أثبت أن الفائدة الطبية للكحول ضئيلة القيمة وأن شرب الخمر وإن كان يهدئ ويسكن الألم ويذهب بالقلق إلا أن كل ذلك يكون لفترة محدودة وعلى حساب الجسم والعقل فى آن واحد .

وتأتى مضار الخمر من أنه عقب شربها مباشرة تمتصها المعدة والأمعاء الدقيقة بسرعة كبيرة وترفعها إلى مستويات عالية بالدم فى وقت قصير جداً . وعن طريق الدم يتم توزيع مادة الكحول على جميع أجزاء الجسم بما فيها المخ والرئتين ويبقى الكحول بعد ذلك فى الجسم لمدة ثمان عشرة ساعة بعد شرب الخمر وبذلك يتأثر جسم وعقل شارب الخمر دفعة واحدة فى وقت واحد .

فمن الناحية البدنية تتغير خلايا الجسم لتكيف نفسها مع الكحول adapted to alchol — وتصبح تعمل بأقل من طاقتها فى حالة عدم تزويد الجسم بالكحول ، كما يصاب الشارب بعسر الهضم وضعف وألم الأعصاب خاصة أعصاب الساقين ويعانى الكبد من تغيرات كثيرة ويبدأ به مرض التليف الكبدى الذى يؤدى إلى الإصابة بالإغماء والموت أحياناً ، كما يتضخم التجويف البطنى ويصاب شارب الخمر أيضاً بصداع قاس ودوار وغثيان وقىء إلى جانب ما تتأثر به الأذن الوسطى فيفقد الجسم توازنه .

ومع مرور الجسم بهذه التغيرات تتأثر نفسية شارب الخمر فبعد أن كان يشرب أولا فى فترات عرضية للحصول على الراحة النفسية تجده يشرب بعد ذلك باستمرار

للحصول على الراحة النفسية أكبر وقت ممكن وبذلك يعتاد الشراب وتبدأ الجرعات فى الزيادة حتى يصل إلى فقد كامل للذاكرة فى الصباح فينسى كل ما قاله أو فعله فى مساء اليوم السابق ويبدأ فى الشعور بالألم لشربه الخمر ويفقد السيطرة على نفسه ويتعرض للضغط ممن حوله بسبب شربه الخمر فيختلق المبررات والأعذار لشربها وأخيراً قد ينتهى به الحال إلى أن يتلف عقله ويصبح غير مكترث بمظهره ومهملا لأسرته فلا يشعر بمسئوليته الاجتماعية ويصبح قاسياً فى معاملته لا يخجل من أى فعل يرتكبه وهذه كلها أعراض مرض التسمم الكحولى — adapted toalchol الذى يعتبر أخطر ما يتعرض له شارب الخمر ، ومرض التسمم الكحولى يجعل المصاب به فى حالة رغبة دائمة لشرب الكحول ولا يمكنه السيطرة على هذه الرغبة .

وهذا المرض غير مرتبط بالانتظام أو عدم الانتظام أو الاستمرار فى شرب الخمر ، فقد يصاب به من يشرب الخمر لأول مرة فى حياته وقد لا يصاب به من شربها واستمر على شربها مدة طويلة وبذلك فلا أمان إطلاقاً فى شرب الخمر ولو مرة واحدة .

ومرض التسمم الكحولى من الأمراض غير القابلة للشفاء وكل ما يرجى من وسائل العلاج بالنسبة له هو وقف زيادة سوء الحالة ووقف تقدم المرض .

وقد بلغت أعلى نسبة للإصابة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث وصلت إلى ٤٪ من السكان وتليها فى ذلك بالترتيب فرنسا والسويد وسويسرا والدنمرك وكندا والنرويج وفنلندا واستراليا وانجلترا وإيطاليا .

ولا يخفى على أحد الآثار الصحية السيئة والآثار الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن تفشى شرب الخمر فى أى مجتمع من المجتمعات للأسباب التى سبق أن ذكرناها .

وقد عرف العرب فى الجاهلية شرب الخمر وكانوا يشربونها بإسراف ويتسابقون إلى مجالسها ويمدحونها فى شعرهم :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
إن مسها حجر مسته سراء

وكان يصاحب مجالس الشراب طعام من الذبائح التى ينحرونها على الأنصاب وهى أصنام لهم كانوا يذبحون عليها ذبائحهم وينضحونها بدمها ويقتسمون هذا الطعام بينهم فى مجالس الشراب عن طريق الأزلام وهى قداح

يستقسمون بها الذبيحة فيأخذ كل من الجالسين نصيبه منها بحسب قدحه فالذى قدحه (المعلى) يأخذ أوفر نصيب وهكذا تتناقص الأنصبة حسب قدح كل منهم .

وقد اعتاد العرب شراب الخمر فى الصباح (عادة الصبوح) وبعد العصر وفى المساء (عادة الغبوق) .

وهكذا كانت مجالس العرب تضم الخمر والميسر وعبادة الأصنام فى وقت واحد ولذلك نزلت الآيات (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون — إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون — وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين) ، المائدة ٩٠ و ٩١ و ٩٢) .

وهذه الآيات صريحة فى تحريم الخمر والتحذير من مخالفة الأمر باجتنابها وإن استعملت لفظ الاجتناب وليس لفظ التحريم ، ولفظ الاجتناب أعم وأشمل فالتحريم قد يقتصر على الشرب فقط أما الاجتناب فيشمل كل ما يتعلق بالخمر من تصنيع وتجارة وشرب وغير ذلك .

وقد أوضحت هذه الآيات المحكمة فى تحريم الخمر ذلك أن الإسلام يفرض على الإنسان أن يكون متصلا بالله دائماً مراقباً له فى كل أعماله وخطواته وهذا يتطلب يقظة الجسم والعقل وصلاحهما وأن شرب الخمر لا ينتج عنه إلا غيبوبة السكر وفساد الجسم والعقل معاً مما، يهدد الحياة الاجتماعية والاقتصادية وينشر الضعف والفساد فلا يكون هناك أمان من الاعتداء على الأنفس والأعراض. هذا الاعتداء الذى لم تنج منه أمهات وأخوات المخمورين — وفى محاضر الشرطة فى مصر — ما يثبت العديد من هذه الحالات وأن المعتدى كان شارباً للخمر وقت الاعتداء.

ولذلك حرص الإسلام على تجنيب الإنسانية آثار هذا الشر المستطير الناتج عن شرب الخمر وذلك بإجراءين حاميين :

الإجراء الأول : هو عدم رفع المسئولية عن شارب الخمر عند ارتكابه لأية جريمة وهو تحت تأثير الخمر فإن شارب الخمر الذى يقتل أو يزنى وهو تحت غيبوبة السكر غير واع لما يفعله يعاقب على جريمته كما لو كان واعياً تماماً ومدركاً لكل ما يفعل فكل ما يعاقب

به الصاحي يعاقب به السكران وفي هذا تحذير كبير له لأنه لا يدرك ما سوف يفعله بعد سكره ، وقد رأينا كيف أن بعض السكارى فقد التمييز حتى وصل به الأمر إلى الاعتداء الجنسي على والدته أو أخته ولعل في هذا التحذير ما يجعله يفكر في عدم الاقتراب من الخمر . وأما الإجراء الثاني فهو : عقاب شارب الخمر لمجرد شربه لها حتى وإن لم يتأثر بالشراب ولم يفقد وعيه ولم يصدر عنه أي فعل ضار بالغير وسواء كان ما شربه قليلا أو كثيراً .

وحد شرب الخمر قد ثبت بالسنة النبوية حيث لم يرد به نص قرآني كباقي الحدود لقوله عليه الصلاة والسلام : « من شرب الخمر فاجلدوه » .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب شارب الخمر ولكن الفقهاء اختلفوا في مقدار الحد فقال أبو حنيفة ومالك والثوري وأحمد بن حنبل (في رواية عنه) : أنه ثمانون جلدة استناداً إلى أن هذا القدر حصل عليه إجماع الصحابة في عهد عمر .

وقال الشافعي وأحمد (في رواية عنه) : إن حد شرب الخمر أربعون جلدة لأن ذلك هو ما جرى عليه العمل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث روى عن أنس بن مالك أنه قال : « أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فضربه بالنعال نحوا من أربعين » .

ويرى بعض الفقهاء أن ما جرى عليه العمل في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤيد الرأي القائل بأن حد شرب الخمر هو ثمانون جلدة لأن الضرب كان بنعلين أربعين مرة فكان مجموع الضربات في الواقع ثمانين ضربة وهو ما حدا بالصحابة لأن يجمعوا في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على القول بأن مقدار حد شرب الخمر هو ثمانون جلدة ، ونرى أن هذا الرأي هو الأصح ، لأن إجماع الصحابة في عهد عمر بن الخطاب وكلهم شاهد على ما جرى عليه العمل في عهد رسول الله أقوى في الدلالة على مقدار الحد ، من تفسيرات من أتى بعدهم من الفقهاء .

وتثبت جريمة شرب الخمر بأربع وسائل :

الوسيلة الأولى : هي اقرار شارب الخمر بشربها ولا يشترط أن يتعدد الإقرار كما تتعدد الشهادة فيكفي أن يكون الإقرار مرة واحدة ، وهذا ما يأخذ به مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد .

وأما الوسيلة الثانية فى إثبات جريمة شرب الخمر : فهى شهادة الشهود . وقد اشترط الفقهاء فى هذه الحالة ألا يقل عدد الشهود عن رجلين اثنين ويشترط فى كل شاهد أن يكون بالغا عاقلا وعدلا أى غير فاسق والقاعدة أن كل مسلم عدل حتى يثبت عليه الفسق . ويرى ابن تيمية وابن القيم قبول شهادة غير المسلم على المسلم فى كل ضرورة كما يذهب ابن حزم بجواز قبول شهادة النساء ونرى الأخذ برأى ابن تيمية وابن حزم فلا يشترط إسلام الشاهدين والاكتفاء بشهادة رجل واحد وامرأتين تيسير الإثبات هذه الجريمة الخطيرة والشائعة .

أما الوسيلة الثالثة من وسائل إثبات شرب الخمر : فهى وجود رائحة الخمر فى فم الشارب أو فى قيئه .

والوسيلة الرابعة : هى وجود الشارب فى حالة غيبوبة السكر .

وهاتان الوسيلتان يمكن أن يعبر عنهما بحالة التلبس بارتكاب الجريمة لأنهما غالبا تتلوان الشرب بفترة قصيرة وعلى الشارب إثبات أنه شرب الخمر فى هذه الحالة للضرورة أو نتيجة للإكراه الملجىء أو عن جهل بأن ما شربه خمر حتى يدرأ عن نفسه الحد .

ويشترط فيمن ثبت ارتكابه لجريمة شرب الخمر عدة شروط حتى يمكن إقامة الحد عليه فإن انتفى أحد هذه الشروط لم يعاقب على ارتكابه هذه الجريمة بعقوبة الحد ، وإن كان يمكن معاقبته تعزيزاً كما سيجىء بعد ذلك .

وأول هذه الشروط : هو أن يكون مكلفاً أى بالغاً عاقلاً فلا يقام الحد على الصغير ولا على المجنون أو المعتوه .

وثانى هذه الشروط : هو أن يكون قد شرب الخمر مختاراً فإن شربها مكرهاً فلا حد عليه سواء كان الإكراه تاماً (ملجئاً) أو غير تام (غير ملجىء) فإذا هدد بالضرب أو الجرح أو القتل أو إتلاف ماله فشرب فلا حد عليه وتأخذ حالة الإضطرار نفس حكم حالة الإكراه ، فمن كان فى حالة جوع أو عطش شديد ولم يجد أمامه إلا الخمر فشربها ليدفع عن نفسه الهلاك فلا حد عليه لقوله تعالى : (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) ، البقرة ١٧٣ فالضرورات تبيح المحظورات وإذا انتفى الإثم فلا حد .

ويشترط أخيراً أن يشرب المسكر وهو عالم بأن كثيره مسكر وإن كان قليله غير مسكر فإن كان لا يعرف ذلك ولم ينبه

إلى ذلك فإنه لا إثم عليه ولا حد ما دام لم يعلم ولم يكن فى إمكانه أن يعلم .

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلى عدم إقامة الحد على غير المسلمين المقيمين فى بلد إسلامى إستناداً إلى أن الخمر مال متقوم عندهم وشربها مباح فى شرائعهم وأننا أمرنا بتركهم وما يدينون ، وذهب بعض الحنفية إلى أنهم إذا شربوا وسكروا فإنه يقام عليهم الحد كعقاب على السكر وليس على الشرب .

وعلى خلاف الحنفية فإن جمهور الفقهاء يرون إقامة الحد على غير المسلمين المقيمين فى البلاد الإسلامية لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولأن الخمر محرمة فى كل الأديان السماوية وأن تحريمها هو لحماية المجتمع من الفساد وذلك يسرى على جميع الذين يعيشون بين المسلمين .

ونرى أن رأى الجمهور هو الأصوب وهو الواجب الأخذ به لأن جريمة شرب الخمر يتأثر بها فى المجتمع الإسلامى المسلم وغير المسلم ولا يمكن أن نترك المسلم فى بلد إسلامى يتعرض للمخاطر الناجمة عن سكر غير المسلم ، فالسكران عند اعتدائه على الغير لا يستطيع أن يفرق بين مسلم وغير مسلم فى عدوانه ولا يليق بالبلد الإسلامى أن يترك الخمر تشيع فى أرجائه حرصا على إرضاء نزوات غير المسلمين مع ما فى ذلك من ضرر بليغ بالمسلمين أنفسهم وتيسير لهم على ارتكاب هذه الجريمة .

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن حد جريمة شرب الخمر وننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن جرائم البغى وقطع الطريق والردة .

المستشار / حسن حسب الله

٭٭٭٭٭٭

التوجيه الإسلامي لعلم النفس

الدكتور فؤاد أبو حطب

(١)

مقدمة :

لعل علما من العلوم الإنسانية أو السلوكية أو الاجتماعية لم يلق من الهجوم من أطراف عدة ما لقية علم النفس ، وكانت أشد هذه الحملات ضراوة فى السنوات الأخيرة تلك التى صدرت عن فريق من الكتاب المسلمين ، ومع ذلك لم يجد هذا العلم من رجاله – كما وجدت العلوم الأخرى كالاقتصاد والاجتماع – من يرد أو يصد أو يدافع .

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يطلع على قدر لا بأس به من كتابات النقاد الإسلاميين لعلم النفس ، كانت حافزاً لتأمل ميدان هذا العلم – الذى يعتز بالانتماء إليه درساً وتدريساً – منذ سنوات قبل تلقى هذه الدعوى الكريمة للمشاركة فى هذه الندوة الجليلة* ، ثم كان اشتغال المؤلف بتدريس علم النفس بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة خلال الفترة بين عامى ١٩٧٣ – ١٩٧٧ حافزاً أكبر لمزيد من التأمل . وطوال هذه السنوات كان الكاتب يشعر مع زيادة الاهتمام والاندماج فى موضوع « الإسلام وعلم النفس » مشقة المسألة ووعورة الطريق ، ولولا ما وجده المؤلف خلال السنوات الأربع التى قضاها بمكة المكرمة من أمل عظيم من قلة من الزملاء ونخبة من الطلاب (وبخاصة فى الدراسات العليا) لطالت فترة التأمل ولازداد الشعور بصعوبة

* ندوة (علم النفس والإسلام) التى وجهت جامعة الرياض الدعوة إلى عقدها خلال شهر ذو القعدة ١٣٩٨ – أكتوبر ١٩٧٨ ، وقد أقيمت بالفعل فى الفترة من ١٤ – ١٨ أكتوبر ١٩٧٨ وحضرها المؤلف وألقى فيها هذا البحث .

العمل ليصل إلى حد الإحساس بالعجز أو المقاومة .

وكان الخروج من المأزق - عند المؤلف - فى عام ١٩٧٥ مع صدور العدد الأول من مجلة جامعة الملك عبد العزيز التى كتب فيها دراسة عن « الإدراك السمعى والبصرى فى ضوء القرآن الكريم (٣٨) » - ووعد أن تكون بداية لسلسلة من البحوث النفسية فى ضوء كتاب الله . وبالفعل كتب دراسة أخرى عن « التوسط والاعتدال فى سلوك الإنسان » فى إطار هذه الوجهة للنشر فى العدد الثانى من نفس هذه المجلة (٣٩) .

ثم كانت دعوة جامعة الرياض لحضور ندوتها عن « علم النفس والإسلام » والاشتراك ببحث فيها فكانت أكبر الحوافز لتناول الموضوع من منظور أكثر عمومية وشمولا هو ما نسميه « التوجيه الإسلامى لعلم النفس » وكانت هذه الدراسة التى وجدنا من الملائم أن نبدأها بمناقشة بعض الانتقادات الموجهة إلى علم النفس من الكتاب الإسلاميين ، ثم عرض ناقد للاتجاهات المختلفة فى بناء « علم نفس إسلامى » وسنخصص بعد ذلك القسم الأعظم منها لأسس توجيه علم النفس توجيهاً إسلامياً .

حجج نقاد علم النفس - تحليل ومناقشة :

يمكن أن نلخص حجج نقاد علم النفس من وجهة نظر إسلامية فيما يلى* :

١ - أن علم النفس ليس علما بالمعنى المتعارف عليه للعلم ، بل لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة وأهمها اليقين والموضوعية . وهى شروط العلوم الطبيعية وقد ردد هـــذا النقد كثيراً الدكتور مصطفى محمود (٥٤ ، ٥٥) ، كما ركز عليه الدكتور : اسماعيل راجى الفاروقى (٦١) فى إطار رفضه العام للعلوم « الاجتماعية » ودمغه إياها جميعاً بأنها علوم زائفة False .

٢ - غلبة الاتجاه المادى على علم النفس بحيث جعله يتصور « النفس الإنسانية » تصوراً مادياً ، فهى مجموعة « غرائز » تتطلب الإشباع المادى المباشر . والإنسان فى إطار هذه النظرة المادية

* قد يكون أكثر هؤلاء النقاد شهرة الكاتب الأديب الذائع الصيت الدكتور مصطفى محمود فى كتبه الخفيفة ومقالاته فى الصحف السيارة ، وقد ضمنا حججه مع حجج الآخرين هنا ، وسوف نشير إليها فى موضعها إذا تطلب الأمر ذلك .

مدفوع دائماً بقوى لا معقولة ، ومغلوب على أمره ، تصدر عنه أفعال قهرية ، وكل ما يملكه العقل من « حيل » هو تبرير هذه الأفعال ، أو البحث عن وسائل مقبولة لإشباعها ، أو التسامى بها لإبرازها بصورة أجمل (٥٥) .

٣ — معظم النتائج التى توصل اليها بعض أصحاب الاهتمامات النظرية فى علم النفس — وعلى رأسهم فرويد — استخلصت من الحالات المرضية ثم عُمِّمَت على حالات الأسوياء . وبنيت نماذج نظرية كاملة فى هذا الإطار الزائف (٨، ٥٥) .

٤ — علم النفس التجريبى هو أيضاً كذبة كبرى — على حد تعبير الدكتور مصطفى محمود (٥٤ ، ٥٥) : لأن النفس — كما يقول أيضاً — ذات كُلِّيَّة ولا يمكن تحويلها إلى موضوع أو تشريحها تحت المهجر . وهى بالتحليل والتشريح تصبح شيئاً آخر غير النفس الحية المطلوب فهمها . والنفس بطبيعتها تتقلب وتستخفى على التجريب ، وإذا اقتطعت من النفس جانباً فى عملية التحليل فإن ما تراه لا يكون هو النفس ، لأن النفس كل لا يقبل التجزئة وواحد لا يقبل القسمة » (٥٥) .

وقبل أن نبدأ بتحليل هذه الحجج ومناقشتها لدينا حكم عام عليها بأنها من نوع خلاصة « قراءات خارجية » من غير أهل الاختصاص . وفى مجملها لا تتفق مع كثير مما هو شائع ومرتبط ومستحدث فى علم النفس وفى نظرية المعرفة « الابستمولوجيا » . ولذلك فهى فى رأينا تستحق وقفة موجزة لضيق المقام .

ونبدأ بمناقشة هذه الحجج بالتتابع الذى عرضناها به فنقول : إن رفض علم النفس لأنه — كما يقال — لا تنطبق عليه شروط العلم الواجبة كاليقين والموضوعية حجة متخلفة . وحسبنا أن نشير إلى أن مفاهيم اليقين والموضوعية فى الابستمولوجيا المعاصرة — تتعرض لتطور كبير إلى حد يدفعنا إلى القول بأنه لا يوجد فرع من فروع العلم التجريبى — ومنه العلوم الفيزيائية — يؤدى إلى المعرفة اليقينية . ولا توجد ملاحظة بشرية معصومة من الخطأ Infallible . وكل ما نطمح إليه فى العلوم التجريبية فى الوقت الحاضر أن يكون ما يقرره الملاحظ أكثر احتمالا فى ضوء ما يمكننا أن نستنتجه من دقته وثباته فى الملاحظة ومن غير ذلك من الحقائق المتصلة بعملية الملاحظة .

والرفض بحجة اللاموضوعية واللايقين فى علم النفس له تاريخ قديم وكان رد الفعل إزاءه عنيفاً ، وأشهر نماذجه التطرف السلوكى فى أطواره المتعددة ابتداء من واطسون ثم كلارك هل وحتى السلوكية المعاصرة . وقد ناقشنا هذا الاتجاه فى موضع آخر ، وبينا آثاره فى علم النفس الحديث ، ومعظمها آثار سلبية يصل بعضها إلى مستوى « المحنة » وليس أقلها اهتمام هذا العلم — فى إطاره السلوكى — بالصور الدنيا والبسيطة من السلوك ، وإهمال النشاط العقلى المعرفى للإنسان .

وبالطبع فإن هذه الحجة عند نقاد علم النفس من الكتاب الإسلاميين لا يقصد بها الدعوة إلى مزيد من التطرف « الموضوعى » كما فعل السلوكيون وأشياعهم ، وإنما تتضمن نوعاً من الحكم « بالإعدام » على هذا العلم ، ما دامت تعوزه الموضوعية وما دام لا يستطيع تحقيقها ، وقد أشرنا إلى تهافت هذه الحجة فى ضوء طبيعة الملاحظة فى العلم عامة ، ونشير إلى تهافتها أيضاً فى ضوء التناقض الذاتى الذى وقع فيه بعض الكتاب فى دعوتهم إلى « إلغاء » علم النفس بسبب لا موضوعيته وإلى « بناء » علم نفس إسلامى فى وقت واحد ، فهل يعنى ذلك أن دعوة البناء عندهم تتضمن أن يقوم « علم النفس الإسلامى » على الأسس الموضوعية للعلوم الطبيعية ما دام علم النفس لا تتوافر فيه هذه الأسس ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالإيجاب قطعاً . وكل ما نستلخصه من من كتابات النقاد الذين استخدموا هذه الحجة بإسراف شديد أنهم يرفضون «الوجهة الوصفية الإمبريقية» Positivistic Empirical appreach التى تغلب على علم النفس الحديث ، وهو موقف يرافقهم عليه معظم الكتاب المحدثين فى علم النفس وفى نظرية المعرفة ، ومنهم أقطاب وصفيون وامبريقيون قدامى لهم باع طويل من أمثال كارناب وبردجمان ، ويكفينا أن نشير إلى الاهتمام المعاصر بالعوامل « الشخصية » و « الذاتية » فى المعرفة كالحساسية والتميز والاستبصار والحكم الشخصى والحدث بالاضافة إلى ما يسميه بولانى بالمعرفة الضمنية والاندماج Indwelling وما يدعو إليه بردجمان — مؤسس الإجرائية — من عودة للاهتمام بالاستبطان .

---

* راجع دراستنا عن السلوكية فى علم النفس. مجلة عالم الفكر ، الكويت سبتمبر ١٩٧٢ .

والحجة الثانية التي يطرحها نقاد علم النفس هي غلبة المادية عليه . ومن الطريف أن أحد هؤلاء النقاد (٥٥) يقبل العلم « الطبيعي » بمنجزاته الصناعية والتكنولوجية ، فهذا العلم في رأيه « محايد » والحقائق العلمية من هذا النوع « واحدة » . ولا ندري كيف غاب عنه أن المادية فلسفة حياة ، وإذا كانت قد تركت بصماتها صريحة — بحيث استطاع إدراكها — في علم النفس وغيره من العلوم الإنسانية ، فإن « جراثيمها » مضمرة في العلوم الطبيعية التي يقبلها ويتحمس لها ، ولا ندري كيف لا يدرك هذا الناقد وغيره ما أحدثته منابع العلم الطبيعي ومراجعه الأصلية « المحايدة » — كما يقول — من صراع بين « الدين » و « العلم » لدى المسلمين من المثقفين والعامة . وقد أشار إلى هذه المسألة أحد علماء الجيولوجيا المسلمين المعاصرين (١٦) حين حلل مصادر التحدي الحضاري الذي يتعرض له المسلمون اليوم ، وخص منها « ما يحمله تيار العلم — الوافد إلينا من الغرب ومن الشرق — من خلفية إلحادية واضحة في طياته جعلت من الكفر بكل ما هو غير مادي سمة هذا العصر » .

ثم أليست سيطرة المادية على العلوم الطبيعية — ومضمونها الإلحادي — هي التي دعت فريقاً من العلماء المسلمين إلى محاولة إعادة كتابة علومهم من جهة نظر إسلامية ، ورفض بعض إدعاءات هذه العلوم ؟ مثل مبدأ أزلية المادة والطاقة ، ونسبة كل شيء في الكون إلى الطبيعة وقوانينها ، ومحاولة تفسير التدرج في عمران الأرض على أنها عملية مادية تلقائية بحتة (التطور المادي — التطور الكيميائي — التطور العضوي) . وقد بذلت جهود جادة في هذا الصدد لا يتسع المقام لتناولها وخاصة في ميدان الجيولوجيا والفسيولوجيا والطب .

أما الحجة الثالثة والتي تركز خاصة على فرويد فليست من الحجج الجديدة على ميدان علم النفس ذاته ، فآراء ، فرويد وأتباعه — بل وآراء أصحاب مدرسة التحليل النفسي عامة — تواجه بالنقد العنيف داخل الإطار السيكولوجي ذاته ، وتتسع دائرة هذا النقد ابتداء من فرويد شخصاً وشخصية (٢٠) حتى التحليل النفسي مدرسة ومنهجاً وفلسفة حياة (١٠) .

ومن الأمور الملفتة للنظر حقاً هذا الجمع الغريب بين التحليل النفسي وعلم النفس على نحو يكاد يجعل منهما

صنوين . بل إن الأمر يصل أحياناً — داخل الكتابات السيكولوجية المتخصصة ذاتها إلى حد التوحيد بينهما ، فما بالك بغير المتخصصين . وربما تكون لشهرة فرويد وانتشاره الهائل أسباب ثقافية وحضارية ، بل وأيديولوجية لا يتسع المقام لتفصيلها ، إلا أن هـذا لا يعنى أن يصمت علمـاء النفس من العرب والمسلمين على هذا التشويه شبه المتعمد لميدانهم وتحـويله إلى بؤرة للدعاية الرخيصة لاهم لها إلا الجنس عند فرويد ويهوديته بل وصهيونيته ، مما يصل بهم إلى حد الشلل الكامل أو العجز المطلق ما دام يربط هذا كله على نحو تعسفى بعلم النفس ، وأخيراً فماذا فى علم النفس التجريبى ؟ إن المنهج التجريبى الذى يؤكد لعلم النفس « علميته » لا يتعارض بحال مع قيم ومبادئ وتعاليم الإسلام ، فالإسلام قد دعا إلى البصر فى النفس ودراستها . وفى كثير من المواضع التى أشار فيها القرآن الكريم إلى التفكر فى آيات الله فى الكون أشار أيضاً إلى التفكر فى آيات الله فى النفس . وهذا فى رأينا دعوة صريحة فى كتاب الله تعالى إلى استخدام نفس منهج دراسة الكون فى دراسة النفس لأن دراسة الكون والإنسان واكتشاف سنن الله وتأمل آياته فيهما من أعظم الأدلة على إبداعه سبحانه وتعالى وقدرته فى خلقه . وعلى هذا النحو يمكن لعلم النفس — كأى علم تجريبى آخر أن يكون « مادياً » مغرقاً فى ماديته — كما حدث بالفعل له ولغيره من العلوم الإنسانية بل وللعلوم الطبيعية كما بينا ، كما يمكن أن يوجه وجهة إسلامية كما سنحاول أن نفعل فى هذه الدراسة .

أما عن رفض منهج « التحليل » فليس أمراً جديداً فى السياق السيكولوجى ذاته ، وتاريخ الصراع بين المدرسة التحليلية والمدرسة التركيبية الكلية (والتى سميت أحياناً بمدرسة الجشطالت ، وأحياناً أخرى بمدرسة المجاليين) تاريخ معروف مألوف للمبتدئ فى علم النفس . وليست الحجج التى سقت — وأشرنا إليها آنفا — بجديدة على الميدان . إلا أن الخطأ الذى وقع فيه أصحاب هذا الجدل بأطرافه جميعاً هو التزامهم الصارم بأحد أطراف ثنائية التحليل — التركيب دون محاولة التأليف الابتكارى بينهما ، وهو منهج إسلامى فى جوهره . وقد سبق للمؤلف (٣٦) أن ناقش هذه المسألة بشىء من التفصيل ، وحسبنا هنا أن نقول

إن الملاحظة باعتبارها جوهر « العلم التجريبي » الذى يحض عليه الاسلام ، هي عملية تحليلية فالأشخاص – كالأشياء لا تعرف إلا بخصائصها وسماتها ، كما أنها لا تتميز إلا بأضدادها . فنحن نصف الشيء بأنه مستدير أو حاد أو ثقيل أو بهذه الصفات جميعاً . وبالمثل فإننا نصف الشخص بأنه يستجيب بسرعة أو بعنف أو بدقة أو بغير ذلك من الطرق .

والخصائص أو السمات هي تجريدات نصل إليها بتحليل الكليات وتجريد إحدى السمات من كلية معينة لا يؤثر فيها ، لأنها تظل ثابتة محتفظة بكيانها الكلي الذى هي عليه قبل التحليل . فوصف البرتقالة بأنها صفراء اللون ، سكرية الطعم ، كروية الشكل لا يقضى على « كيان » البرتقالة ككل ، أو على « وجودها » المتميز بذاته ، وكذلك فإن وصف الشخص بأنه عدوانى فى انفعالاته ، متوسط فى ذكائه ، عملى فى ميوله ، محافظ فى اتجاهاته لا يؤدى إلى تجزئة « الشخصية » أو القضاء على « وجود » الشخص ككل .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أن تجريداته مهما تعددت وتنوعت تستغرق الشيء أو الشخص الذى يلاحظه أو تصفه وصفاً كاملا ، ومع هذا فإن ذلك ليس سبباً كافياً لرفض المنهج التحليلى ، لأن ملاحظاتنا يمكن أن تصل إلى قدر كاف من الشمول إذا توافر لدينا الجهد والوقت .

وفى جميع الحالات يجب أن يتبع الباحث منهجه التحليلى بنظرة تركيبية بنائية تكاملية ترسم « البروفيل » النفسى الذى يربط بين مختلف الخصائص والسمات حتى يحدد « النمط الكلى الفريد لهذه السمات » والذى يميز الشخص أو الشخصية . والباحث النفسى هنا يشبه الفنان الذى يرسم صورة مجمعة Identific وهى عادة ما تكون صورة لشخص غير محدد يرسمها الفنان – اعتماداً على السمات أو الصفات التى يشهد الشهود أنها تشبهه . ويتطلب هذا بالطبع دقة فى استخدام منهج التحليل أولا ليزود الفنان بمجموعة كافية من التفاصيل والأجزاء . وتتوقف درجة اقتراب الصورة المجمعة من الحقيقة الموضوعية الخارجية على مقدار هذه الأجزاء والتفاصيل ودرجة الدقة فى وصفها . وبالمثل فإن دقة وصفنا « للنمط الكلى الفريد للسمات » – وهو تعريف الشخصية كما يستخلصه المؤلف (٣٦) يتوقف

على كفاية منهجنا التحليلى فى تحديد هذه السمات .

اتجاهات فى بناء « علم نفس إسلامى » :

يتبين لنا مما سبق قصور الجهود التى تسعى إلى استبعاد علم النفس أو رفضه، والأفضل من ذلك بذل محاولات تحدد موضع هذا العلم فى النسق المعرفى الإسلامى العـــام . وقبل شيوع الانتقادات السابقة لعلم النفس ، بل وقبل ظهور علم النفس الحديث ذاته ، اهتم علماء المسلمين بهذه المسألة ، ويمكن أن نصنف اتجاهاتهم فى هذا الصدد إلى ما يأتى :

١ - بناء علم نفس « دينى » إسلامى :

وأول من دعا إلى هذا الاتجاه المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى عام ١٩٦٣ (٥) بل نكاد نقول إن الأهوانى هو أول من استخدم عبارة « علم النفس الإسلامى » على نحو ما يقال بوجود علم نفس بوذى أو يهودى أو نصرانى « لاختلاف خصائص كل دين من هذه الأديان » .

وهذا الاتجاه فى رأينا محاولة لبناء فرع إسلامى لعلم النفس شبيه بما يسمى علم النفس الدينى Psychology of religion والذى ظهر وتشعب فى أوربا والولايات المتحدة ، ابتداء من الكتابات المسيحية المبكرة والعصر المدرسى فى العصور الوسطى ، وعصر الإصلاح الدينى فى أوربا ، ثم ارتباطه بنشأة علم النفس الحديث عند فوندت والذى شملت بحوثه فى سيكولوجية السلالات البشرية اهتماماً بالدين يجعله أقرب إلى أصحاب المدرسة الوضعية فى علم الاجتماع (ومنهم إميل دوركايم وليفى بريل فى بحوثهما فى علم الاجتماع الدينى) .

وقد تتابعت بعد ذلك كتابات علماء النفس الأوربيين والأمريكيين حول « الخبرة الدينية » وكان أشهر هذه الأعمال كتاب وليم جيمس W. James الذى صدر عام ١٩٠٢ بعنوان Varities of religious experience ثم كتاب برات Pratt الذى صدر عام ١٩٢٠ بعنوان The religions consciousness بل إنه لا تكاد توجد مدرسة رئيسية فى علم النفس إلا وتناول أقطابها ما يسمى علم النفس الدينى ، ومن هؤلاء فرنسيس جالتون وأصحاب مدرسة فورزبرج ورواد التحليل النفسى (ومنهم فرويد ويونج) وغيرهم ، ويمكن الرجوع إلى

بعض المصادر المتخصصة لاستطلاع تاريخ هذا العلم واهتماماته الأساسية (٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦) .

وهذا الاتجاه نحو بناء « علم نفس ديني إسلامي » قد يكون مفيداً إلا أنه ليس كافياً ، لأن التركيز على « الظاهرة الدينية » لا يتفق مع خصائص الإسلام الذي لا يضاد بين « الدين » و « الدنيا » ومعنى ذلك أننا – كعلماء نفس مسلمين مطالبون بما هو أكثر من مجرد إنشاء فرع جديد لعلم النفس نسميه علم النفس الديني الإسلامي ؛ إننا – في الحق – مطالبون بالنظر إلى علم النفس من منظور شمولية الإسلام لبصبح هذا العلم الذي يشمل مختلف جوانب سلوك الإنسان الدينية والدنيوية موجها وجهة إسلامية .

دكتور/ فؤاد أبو حطب

« من كلمات خليفة رسول الله أبي بكر الصديق »

- أولى الناس بالله أشدهم توليـاً له .
- الصدق أمانة والكذب خيانة .
- إن عليك من الله عيوناً تراك .
- اهدم الكفر بعضه ببعض .
- ثلاث من كن فيه كن عليه : البغي والنكث والمكر .
- حق لميزان يوضع فيه الحق أن يكون ثقيلا ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤٥٢ — فى صحيفة الأهرام عنوان هو (غداً الأحد أول محرم بداية العام الهجرى الجديد) :

وهذا العنوان على الرغم من قلة كلماته به غلطتان ، **إحداهما** : أنها قالت : محرم بدون أل وهذا ضلال بعيد، والفصيح أن اسمه المحرم بأداة التعريف ، وإنما أدخلتها العرب عليه لمحاً للصفة فى الأصل، وجعلته علماً بها كما فعلت مثل ذلك فى النجم وهو الكوكب ، والدبران بالتحريك وهو منزل للقمر ، والمحرم أيضًا من الإبل هو الذلول الوسط الصعب التصرف ، وكذلك هو الأعرابى الذى لم يخالط الحضر ، جمعه محارم ، ومحاريم ومحرمات والأشهر الحـرم : ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب ثلاثة سرد وواحد فرد ، والحرم وزان القفل هو الإحـرام ، قالت عائشة رضى الله عنها : كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحله وحرمه أى عند إحرامه والحرام ضد الحلال ومنه قوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حـرام) ومثله الحـرم بالكسر وزن الشِّرْك ، وقرئ به قوله سبحانه (وحرم على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) وقولك حرام الله لا أفعل كذا قسم كقولك يمين الله لا أفعل كذا .

ويقال : حرُم الشيء يحرم حُرْمة بالضم ، وحرِمَه الشيء يحرِمه حرِماً بكسر الراء فيها مثل سَرِقه يسرِقه سَرِقا .

والغلطة الأخرى : كلمة بداية ، إذ لم ترد فى العربية ، والصواب أن يقال : بَدْء العام الهجرى أو بَدْأته ، أو بَدَاءته بنصبهن أو مبتدؤه بضم الميم ، كما قالوا كان ذلك فى بدء الإسلام ومبتدئه أو يقال: أول العام الهجرى أو صدره .

٤٥٣ — وكتبت صحيفة الأخبار فى

صدر صفحتها الأولى (لن نلتزم بأى تعهد تعطيه أية دولة لإسرائيل) وفى هذه العبارة أغلوطتان: إحداهما أنها عدت الفعل نلتزم بالباء ، والحق أنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد لأنه مطاوع لفعل يتعدى إلى مفعولين ، تقول : ألزمته الشيء فالتزمه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى (وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) وقوله (وألزمهم كلمة التقوى) وقوله (أنلزمكموها) أما الذى يجوز أن يتعدى بنفسه وبالبـــاء فهو الثلاثى تقول : لزمت الشيء لزوماً ، ولزمت به ، وأما ما كان بزنة فاعل فلا يتعدى إلا إلى واحد تقول : لازمته ملازمة إذا تعلقت به ويقال : التزمت الشيء إذا تعلقت به واعتنقته فهو ملتزم بصيغة اسم المفعول ، ومنه يقال لما بين باب الكعبة والحجر الأسود : ملتزم ، لأن الحجيج يعتنقونه ويضمونه إلى صدورهم.

ويقال : صار الشيء ضربة لازم ، وصار ضربة لازب أى لازماً ثابتاً : واللزوب اللصوق .

والأغلوطة الأخرى : قولها تعطيه ، لإسرائيل بتعدية تعطى إلى المفعول الثانى باللام والصواب أن هذا الفعل يتعدى إلى مفعوليه بنفسه كما فى قوله تعالى (إنا أعطيناك الكوثر) وقد يحذف أحد المفعولين للعلم به ، فمن حذف الأول قوله سبحانه (حتى يعطوا[1] الجزية عن يد وهم صاغرون) ومن حذف الثانى قوله (ولسوف يعطيك[2] ربك فترضى)

وقد يحذف المفعولان معاً للعلم بهما كما فى قوله (فأما من أعطى[3] واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) .

٤٥٤ — فى صحيفة الأهرام عنوان كتبته بخط عريض وقالت فيه :

(إيطاليا تهدى وزير البترول قلادتها)

وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأنها جعلت الفعل تهدى ناصباً مفعولين ، وهو لا ينصب إلا مفعولا به واحداً ، تقول : أهديت لفلان أو إلى فلان كذا ، فكان عليها أن تقول : إيطاليا تهدى لوزير البترول أو إلى وزير البترول قلادتها .

والهدى بزنة العدل ما يهدى إلى الحرم من النعم ، والهدية ما أتحف به جمعها هدايا ، وهداوى وتكسر الواو ، وهداو بتنوين الواو مكسورة .

---

(١) حتى يعطوا الجزية : أى يعطوا ما تقرر عليهم .

(٢) يعطيك ربك كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين .

(٣) أعطى واتقى : أعطى الله طاعته واتقى معصيته .

وسميت هدية لأنها تقدم غالباً في مهدى بالكسر وهو الإناء يهدى فيه ومن يهدى يسمى مهداء بالكسر والمد، سواء أكان رجلا أم امرأة .

ويقال : فلان يهدى للناس بتشديد الدال مكسورة إذا كان كثير الإهداء قال أبو خراش :

لقد علمت أم الأدبير أنني
أقول لها هدّى ولا تذخرى[1] لحمى

وتقول : هديتُ العروس إلى زوجها هِداء بكسر الهاء إذا دللتها فهى هَدِىّ وهدية ويبنى للمفعول فيقال : هُديت العروس فهى مهدية ، هذه لغة تميم .

أما قيس عيلان فيقولون : أهدينا العروس إلى زوجها إهداء أى جعلناها هدية فهى مُهداة .

ويقال أهديت لفلان كذا بالألف إذا بعثت به إليه فهو هدية ، وأهديت الهدى إلى الحرم إذا سقته إليه .

ومن معانى الهدى السيرة ، تقول : ما أحسن هدى فلان أى ما أحسن سيرته ، وهَدىَ هدْى فلان أى سار سيرته ، وفى الحديث « واهدوا هدى عمار »

فيقال أيضاً : ما أحسن هَدية فلان بكسر الهاء وفتحها أى ما أحسن سيرته .

٤٥٥ – كتبت صحيفة الأهرام تقول على لسان رئيس الجمهورية :

(لو بعث إلى كارتر بما لا يوافق آراءنا سأقول له : لن أذهب إلى جنيف) .

والفصيح أن يقال : لو بعث إلى كارتر بما لا يوافق آراءنا لقلت له : لن أذهب إلى جنيف ويؤيد هذا قوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقوله (ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم) .

وقوله (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقوله (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) وقوله (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) وقول توبة :

فلو أن ليلى الأخيلية سلمت
على ودونى جندل[1] وصفائح[2]
لسلمت تسليم البشاشة[3] أو زقا[4]
إليها[5] صدى من جانب القبر صائح

(١) تذخرى : تدخرى .

(١) الجندل : الحجارة .
(٢) الصفائح : صفائح الباب : ألواحه .
(٣) البشاشة : طلاقة الوجه وفرح الصديق بصديقه .
(٤) زقا : صاح .
(٥) الصدى : ما يجيبك بمثل صوتك .

٤٥٦ – قرأت فى صحيفة الأهرام عنواناً هو (نميرى يعلن عودة المنشقين) وكلمة المنشقين تعنى الصحيفة بها من خالفوا الرئيس السودانى وخرجوا عن طاعته وصاروا له خصماء ، وهذا خطأ لأن الانشقاق لا صلة له بهذا المعنى ، وإنماله معنى آخر هو أن تحدث فى الشيء المنشق فرجة ، كما أن المنشق لا يكون إلا من غير الأناسى ، إذ تقول : شق الرجل الرغيف شقا من باب رد فانشق بالفعل المطاوع فالرغيف انشق ، وشق الولد البطيخة فانشقت فهى منشقة والقمر ينشق فى قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) والسماء منشقة فى قوله (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) وقوله (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية) والأرض منشقة فى قوله سبحانه (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض) .

ومن المجاز قولك : شق فلان عصا المسلمين إذا خالفهم ، وانشقت العصا بينهم إذا تفرقوا أما الشِّق بالكسر وقد يفتح فهو نصف الشيء ، تقول : المال بينى وبين أخى شق الشعرة أى نصفان سواء ، وكذلك هو الأخ ، تقول : هو أخى وشقيقى وشق نفسى ، كأنه شق نسبه من نسبه وهو الجانب والناحية تقول : أقام فلان فى شق من الدار ، وهو المشقة كما فى قوله تعالى (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) .

والشُّقة بالضم والكسر البعد والناحية يقصدها المسافر والسفر البعيد ، ومنها قوله عز شأنه (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) جمعها شقق كصرد ، وشقق كعنب .

والشقاق بالكسر الخلاف والعداوة تقول : بين فلان وجاره شقاق ، ومنه قوله تعالى (وإن تولوا فإنما هم فى شقاق) .

٤٥٧ – ويخطىء كثير من المثقفين حينما يقولون : فلان مستهتِر بكسر التاء الثانية يعنون أنه يبيح لنفسه ما لا يباح والصواب فتح هذه التاء لأن كلمة مستهتَر لا تكون إلا اسم مفعول من فعل مبنى للمجهول دائماً ، ولها معان مختلفة أوردها ابن منظور فى لسان العرب ، ملخصها ما يأتى :

١ – يقال : رجل مستهتَر لمن لا يبالى ما قيل فيه ، ولا ما قيل له ، ولا ما شتم به .

٢ – ويقال فلان مستهتَر بالشراب أو بلعب الميسر إذا كان مولعاً به ، وفى

حديث ابن عمر رضى الله عنه «اللهم إنى أعوذ بك أن أكون من المستهترين».

٣ – ويقال: استُهتر فلان بالبناء للمفعول فهو مستهتَر إذا كان كثير الأباطيل لأن الهتر هو الباطل.

٤ – والاستهتار أيضاً هو الولوع بالشىء والإفراط فيه، والمستهتَرون بفتح التاء هم المولعون بالذكر والتسبيح من حديث نبوى، وفى حديث آخر «هم الذى استُهتروا بذكر الله» أى أولعوا به.

٥ – ويقال: استُهتر فلان بكذا إذا أولع به، وقد أهتر بفلانة واستهتر بها إذا فتن بها وأولع، ومما عرضنا استبان أن مستهتَر لابد أن تكون بصيغة اسم المفعول وأنها تستعمل كثيراً فى المعنى الشائع أى فى الأحوال المكروهة، كما فى أمثلة الأرقام ١، ٢، ٣، وتستعمل أيضاً بمعنى الولوع بالشىء والإفراط فيه ولو كان حسنا كما فى مثالى الرقمين ٤، ٥.

٤٥٨ – أثبتت صحيفة الأهرام فى صفحتها الأولى عنواناً قالت فيه:

(محاولة إسرائيلية جديدة لإعاقة السلام)

تعنى به صرف السلام وتثبيطه وحبسه وهذا التعبير خطأ، والفصيح أن يقال: لعوق السلام، أو اعتياقه، أو تعويقه فقد قالت العرب: عاقه يعوقه عوقاً من باب قال إذا حبسه وثبطه، ومثل ذلك اعتاقه اعتياقاً، وعوقه تعويقاً واسم الفاعل من هذا مُعَوِّق بضم الميم وزان مُنظِّم، ومنه قوله جل شأنه (قد يعلم الله المعوقين منكم).

ويقال: أخَّرَنا عن لقائك عائقة من عوائق الدهر وهى الشواغل من أحداثه قال أبو ذؤيب:

ألا هل إلى أم الخويلد مرسَل

بلى خالد إن لم تعقه العوائق

والتعويق التثبيط، ومنه تقول: فلان صحبه التعويق فهجره التوفيق، ويعوق علم على صنم كان لقوم نوح عليه السلام وفى التنزيل (ولا تذرن وداً ولا سُواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً).

ومنه تقول:

يا مَن عَن الخير تعوق

إن أحق أسمائك تبوق

٤٥٩ – ويقولون: لا يمكن لأحد من هؤلاء الشباب أن يصعد هذا الجبل، كما لا يمكن لنا أن نصعده فيعدون الفعل خطأ باللام، والصواب أن يتعدى بنفسه، فيقال: لا يمكن أحداً أن يعمل كذا، أى لا يسهل عليه ولا يتيسر له، فأحداً مفعول به ليمكن

والمصدر المؤول من أن يعمل كذا فاعل، ويقال أيضًا: كنا لا يمكننا أن نصعده قنا مفعول به والمصدر المؤول فاعل.

ومن هذا يقال: فلان لا يمكنه النهوض بهذا العمل، أما أنا فلا يمكنني تركه وإهماله.

ويقال: مكّنت فلاناً من السفر تمكيناً، وأمكنته منه أي جعلت له عليه سلطاناً وقدرة فتمكن منه واستمكن أي قدر عليه، فالفعل الرباعي المضعف والرباعي المهموز سواء في المعنى.

وأما الثلاثي فيقال منه: مكُن مكانة كضخم ضخامة إذا عظم وارتفع فهو مكين وهم مكناء والمكِنة بكسر الكاف القوة، تقول: لفلان مكِنة على كذا أي قدرة وشدة والمكِنة أيضًا بيضة الضبة والجرادة ونحوهما، جمعها مكِن[1] ومكِنات بكسر الكاف فيهما، وفي الحديث «أقروا الطير على مكِناتها» أي بيضها فلا تزجروها ولا تؤذوها.

٤٦٠ — كتبت صحيفة الأهرام عنواناً، هو (الشعراوي يحضر مولد عبد الرحيم القناوي) تعني أنه منسوب إلى قنا.

وها هي ذي قد أخطأت في هذا النسب، لأن قنا اسم مقصور مؤلف من ثلاثة أحرف، وقاعدة النسب إلى الاسم المقصور أن ينظر إلى ألفه، فإن كانت ثالثة وجب قلبها واواً. فيقال: في قنا قنوي، وفي طيما طيموي وفي ببا ببوي، وفي قها قهوي، وفي الثرى وهو التراب ثروي.

أما إذا كانت رابعة وثاني الاسم ساكن فإنه يجوز حذفها، وقلبها واواً، ويجوز مع القلب أن تزاد ألف قبل الواو، فيقال في النسب إلى بنها: بنهيّ، أو بنهوي أو بنهاويّ، وفي النسب إلى بشلا: بشلي أو بشلويّ أو بشلاوي، وفي النسب إلى شبرا: شبري، أو شبروي، أو شبراويّ.

وأما إذا كانت رابعة وثاني الاسم متحرك، أو كانت خامسة أو سادسة فإنه يجب حذفها فيقال في النسب إلى قلما: قلمي وإلى سنفا سنفي، وإلى كسلا كسلي

وفي النسب إلى مصطفى مصطفيّ، وإلى مرتضى مرتضي، وفي النسب إلى إدفينا إدفيني وإلى مستشفى مستشفي.

٤٦١ — ويقولون: هذا الرجل شيّال يشيل كثيراً من الأحمال الثقال، وهذا

(١) مكِنة ومكِن ومكنات ككلمة وكلم وكلمات.

فاسد وبيان ذلك أن الفعل اليائى الذى استعملوه فى عبارتهم لا وجود له فى العربية ، وإنما هو عامى ، وأما الفعل الذى استعملته العرب فهو الواوى .

تقول : شالت الناقة بذنبها تشول شَوْلا من باب قال ، وشَوَلانا أيضاً إذا رفعته للقاح ، وشالت العقرب بذنبها ، وشالت القربة إذا ارتفعت قوائمها عند الملء أو النفخ .

ويقال : شال الميزان إذا ارتفعت إحدى كفتيه عن الأخرى ، قال الأخطل :

وإذا وضعت أباك فى ميزانهم
قفزت حديدته إليك فشالا

ويقال : شالت نعامتهم إذا خفوا وطاشوا خوفاً فهربوا ، وشال القوم إذا خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم أو ذهب عزهم ، وامرأة شوّالة بالتشديد إذا كانت نمّامة .

والأفصح فى هذا الفعل أن يتعدى بالباء كما قلنا آنفاً ، أو بالهمزة كما فى قولك : أشال الرجل الجرة فانشالت هى ، ويتعدى بنفسه فى لغة فيقال : شال الرجل يده إذا رفعها يسأل بها .

ولإصلاح عبارتهم لتؤدى المعنى المبتغى ينبغى أن يقال : حمل الرجل الشىء يحمله حملا من باب ضرب وحُملانا أيضاً بالضم فهو حمال والشىء محمول وحَميل ، والحمل بالكسر ما حمل ، جمعه أحمال .

ويقال : حمله على الأمر فانحمل إذا أغراه به ، وحمّله للأمر تحميلا وحمّالا بالكسر ككذاب فتحمله تحملا وتحمّالا بالكسر ، وتحامل فى الأمر ، تحاملا وبه إذا تكلف على مشقة ، وتحمل عليه إذا كلفه ما لا يطيق .

٤٦٢ — فى صحيفة الأهرام عنوان قالت فيه : (اكتشاف عقار لتفادى النوبات القلبية) .

وهذا العنوان على الرغم من قصره يحوى ثلاث غلطات .

إحداها : كلمة اكتشاف ، لأن لها معنى غير الذى يقصدون إليه ، تقول : اكتشفت المرأة لزوجها إذا بالغت فى التكشف له عند الجماع ، واكتشف الكبش إذا نزا ووثب .

والصواب أن يقال : كَشْف بمعنى الإظهار كالمكاشفة .

تقول : كشفته الكواشف إذا فضحته فتكشف أى افتضح ، وتكشف البرق إذا ملأ السماء ، وكشفت فلاناً تكشيفاً

عن كذا إذا أكرهته على إظهاره .

ومن المجاز قولك كشف الله غمه وهو كشاف الغمم .

والثانية : كلمة عقار إذ معناها الأرض والضياع والنخل ، والصواب أن يستبدل بعقار دواء فيقال : كشف دواء ، ولو قالت الصحيفة عقّار بزنة عطّار لكان هذا حسناً وسليماً، لأن كلمة عقّار بالتشديد جمعها عقاقير وهى أصول الأدوية .

والثالثة : كلمة لتفادى النوبات بإضافة تفادى للنوبات والفصيح أن يقال للتفادى من النوبات ، لأن التفادى لا بد أن تذكر بعده من الجارة فقد قالت العرب : تفادى فلان من كذا إذا تحاماه ، وفداه من الأسر إذا استنقذه بمال ويؤيد هذا قول ذى الرمة :

(تفادى الأسود الغلب منه تفادياً)

٤٦٣ — وفى صحيفة الأهرام عنوان آخر قالت فيه :

(الرئيس يكلف حسنى مبارك بالإعداد لجولة بالعواصم الإفريقية) :

فجعلت الفعل يكلف متعدياً إلى المفعول الثانى بالباء ، والحق أن هذا الفعل يتعدى بنفسه إلى مفعوليه كما فى قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقوله (لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) وقد يكون المفعول الأول نائباً عن الفاعل كما فى قوله سبحانه (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) .

٤٦٤ — وينكر عدد وافر من الأدباء والمثقفين أن يقول الصائم : لقد فطرتُ عقب غروب الشمس ، فأنا الآن فاطر بالفعل الثلاثى ، ويصرون على أنه كان من الواجب أن يقول : لقد أفطرت بالفعل الرباعى فأنا الآن مفطر من مفاطير .

فى القاموس: فطر ناب البعير فَطراً وفُطوراً طلع ، وفطر الله الخلق خلقهم وبدأهم ، وفطر فلان الأمرَ أنشأه ، وفطر الصائم أكل وشرب كأفطر .

وفطرت فلانا بالفعل الثلاثى وفطرته تفطيراً بالفعل المضعف وأفطرته بالفعل المهموز كل أولئك بمعنى واحد .

ويقال : رجل فِطر بكسر الفاء أى مُفطر ، وقوم فِطْر أى مفطرون فهو صالح للمفرد والجمع لأنه فى الأصل مصدر والفَطور بالفتح ما يفطر عليه ، وبالضم المصدر ، والاسم الفِطر بالكسر .

٤٦٥ — أثبتت صحيفة الأهرام فى صدر صفحتها الأولى عنواناً هو « اتفاق

وجهات النظر المصرية والفلسطينية حول الموقف من كافة جوانبه » وهذا العنوان مشوب بالفساد من ناحيتين

أولاهما : أنها أضافت كلمة كافة إلى ما بعدها ، وهي لا تضاف أبدا .

والأخرى : أن كافة واجبة النصب دائماً ، تقول : عاد الحجيج من الحجاز كافة أي عادوا جميعاً ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ، ويؤيد هذا قوله تعالى :

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقوله (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) أما نصبها فعلى الحال نصباً لازماً ، لا تستعمل إلا كذلك ، فقوله تعالى(وما أرسلناك إلا كافة للناس) معناه وما أرسلناك إلا للناس جميعاً .

قال الفراء فى كتاب معانى القرآن : نصبت على الحالية لأنها فى مذهب المصدر ، ولذلك لم تدخل العرب فيها الألف واللام ، وهي فى مذهب قولك : قاموا معاً ، وقاموا جميعاً .

وقال الأزهرى : كافة منصوبة على الحال ، وهي مصدر على فاعلة كالعافية والعاقبة كما لو قلت : قاتلوا المشركين كافة .

ولا خلاف فى ورود المصدر حالا كقوله عز وجل (وادعوه خوفاً وطمعا) أى خائفين طـَماعين وقد قال ابن مالك فى ألفيته :

ومصدر منكر حالا يقع
بكثرة كبغتة زيد طلع

ومثل ذلك قولك : جاء فلان ركضا وقتلت المجرم صبرا ، وهو عند سيبويه والجمهور على التأويل بالوصف ، والتقدير طلع باغتاً مفاجئاً، وجاء راكضا وقتلته مصبوراً أى محبوساً فكان على صحيفة الأهرام أن تقول : حول الموقف من جوانبه كافة بنصب كافة منونة .

٤٦٦ — يقول كثير من الخاصة والأدباء زارنا ليلا أحد الشعراء المفلقين ، وظل يتحفنا بروائع شعره ، وهذا خطأ فاحش لأن كلمة ظل لا تستعمل إلا نهاراً ، تقول : ظل فلان يفعل كذا يظل من باب تعب ظُلولا بضم الظاء إذا فعله نهاراً .

فى مختار الصحاح وغيره : ظل الرجل يعمل كذا إذا عمله بالنهار دون الليل ، ومنه قوله تعالى (فظلتم تفكهون)

وقال الخليل: لا تقول العرب ظل إلا لعمل يكون بالنهار .

ولتأدية المعنى المبتغى يجب أن

يقال : بات يتحفنا برائع شعره ، وذلك لأن التبيت معناه التفكير والتدبير ليلا تقول : بيت فلان أمره تبييتاً إذا دبره ليلا ، ومنه قوله عز شأنه (إذ يبيتون مالا يرضى من القول) ويقال : بيت الجيش العدو إذا أوقع بهم ليلا ، وبيتك الله فى عافية أى منحك العافية ليلا .

والبيات بالفتح الإغارة ليلا وهو اسم من بيت تبييتا ومنه قوله سبحانه « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون » وقوله (قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً) أى أتاكم عذابه ليلا أو نهاراً .

عباس أبو السعود

« فضل الأدب »

يروى أن أعرابياً وقف على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك . فقال له على : خطّ[1] حاجتك فى الأرض ، فإنى أرى الضر عليك . فكتب الأعرابى على الأرض : إنى فقير . فقال على لخادمه : ادفع إليه حلتى الفلانية . فلما أخذها مثل بين يديه فقال :

كسوتنى حـلة تبلى محاسـنها	فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبـه	كالغيث يحيي نداه السّهل والجبـلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به	فكل عبد سيُجزَى بالذى فعلا

فقال على لخادمه : أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألته ، وأما الدنانير فلأدبه .

---

(١) إنما دعاه إلى كتابة حاجته رفقاً به وصيانة لماء وجهه .

باب الفتاوى

الأستاذ / عبد الحميد السيد شاهين

س : سؤال من طالبة حقوقية بجامعة الإسكندرية تقول فيه : قد اختلفت أنا وزميلاتي في تفسير قول الله تعالى في سورة النمل (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) . الخلاف ينحصر فيما يأتي : هل الدابة حيوان وله رأس إنسان وجسد طير ؟ وهل صحيح أنها تكلم الناس ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ؟ أو هي حشرة من الحشرات المؤذية يسلطها الله على عباده فما رأيكم ؟

ج : هذا السؤال وجه إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ فأجاب عليه بما يأتي : الواقع أن هذه الدابة قد قيل في شأنها أكثر من ذلك ، وعملت فيها الروايات والآثار عملها المعروف في كل أمر غيبي أخبر به القرآن ولم يتصل به بيان قاطع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قيل ذلك في حقيقتها ، وقيل في صفتها .

ومن أغرب ما قيل في حقيقتها :

أنها إنسان ، وأنه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقيل : إنها ولد ناقة صالح فر هارباً حينما عقر القوم أمه . وانفتحت له في طريقه صخرة فدخلها ثم انطبقت عليه ، فهو في باطنها إلى أن يخرج قرب يوم القيامة ..

وقيل : إنها دابة قديمة خلقت في عهد الأنبياء المتقدمين . وإن موسى سأل ربه أن يريه إياها . فأخرجها ثلاثة أيام ولياليها . تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها . فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً ، فقال : يا رب ردها فردها . . .

أو إنها هي الثعبان الذى كان في جوف الكعبة ، واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم ، فألقته

العقاب بالحجون ، فالتقمته الأرض وهو فى باطنها حتى يخرج يوم القيامة .

ومن أغرب ما قيل فى صفة الدابة : أن طولها ستون ذراعاً بذراع آدم عليه السلام لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب . وأن لها مع جميع دواب الأرض مشابهة تامة مع عضو من أعضائها : فلها وجه إنسان . ورأس ثور ، وعين خنزير . وأذن فيل « إلى آخر ما سودت به الصحف . وضاع الوقت فى نقله » وهى كلمة حق قالها أحد المفسرين ونقلها الألوسى فى تفسيره وأقرها . . وقال معتذراً عن ذكره شيئاً من أخبارها : وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شيء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً .

وقال الإمام الرازى بعد أن حكى هو أيضاً شيئاً من أخبارها : « واعلم أنه لادلالة فى الكتاب على شيء من هذه الأمور فإن صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وإلا لم يلتفت إليه » وهو يعنى أنه لايصح من أخبارها شيء غير المذكور فى القرآن الكريم . .

هذا وقد فات المفسرين أن يضعوا حداً لصون التفسير عن هذا الإسرائيليات التى أظلمت الجو على طلاب الهداية القرآنية وشغلتهم عن اللب والجوهر بما ألصقته بالقرآن .

وليس هذا خاصاً بالدابة بل فى كل أمر غيبى أخبر به القرآن فقد قيل مثله فى « يأجوج ومأجوج » وفى « الصور » وفى « اللوح المحفوظ » وفى غيرها . .

الوقوف فى شئون الغيب عند النصوص :

والذى أحب أن أقرره هنا — فيما أخبر به الله من شئون الغيب التى لم يتصل بها بيان قاطع عن الرسول : من الدابة . والصور . ونحوهما هو : أنا نؤمن به على القدر الذى أخبر الله به دون صرف للفظ عن معناه ، ودون زيادة عما تضمنه الخبر الصادق ، فنؤمن مثلا بأنه سيكون فى آخر الدنيا صور ينفخ فيه . فتكون صعقة ، ثم ينفخ فيه أخرى فيكون البعث به ، أما الخوض فى حقيقته ومقداره وكيفية النفخ فيه أو حمله على أنه تمثيل لسرعة إفناء العالم وبعثه بسرعة النفخة المعروفة للناس ، فإنه رجم بالغيب . وتقول على الله بغير علم .

ونؤمن بأن القرآن — كما أخبر الله — فى لوح محفوظ ، أما الخوض فى حقيقته ، أو تأويله . بأنه تمثيل لصونه

عن التغيير والتبديل . فإنه رجم بالغيب وتقول على الله بغير حق .

ما يجب أن نعلمه عن الدابة :

وعلى هذا نؤمن – بأنه حينما يقع أمر الله وتحق كلمته . ويأتى اليوم الذى لا ينفع فيه نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل – ستظهر للناس دابة . ولكن هل تتولد من الأرض أو هى من دوابها ؟ ذلك يعلمه الله !!! وهل هى صغيرة أم كبيرة ، وعرضها كذا وطولها كذا ؟ وهل تحمل معها عصا موسى . وخاتم سليمان . أو لا تحمل شيئاً ؟ ذلك يعلمه الله ! ! !

نؤمن فقط أن دابة ستخرج وتكلم الناس ، هل تكلمهم بلسان عربى ذلق أو بغيره ؟ كذلك هذا يعلمه الله ؟!!! نؤمن بها وبكلامها دون استبعاد أو إنكار .

وقد قص الله علينا فى السورة نفسها أن عصا موسى وهى جماد (تحركت واهتزت كأنها جان . وأنها تلقف ما يأفكون ، وقص علينا أن الحيوان الذى ليس من شأنه أن ينطق ولا أن يعبر عن الإيمان أو الكفر « كالهدهد » نطق وعبر عن الإيمان والكفر – وأن نبى الله سليمان فهم منه كل ما أراد ، وانتفع برحلته التى قام بها من تلقاء نفسه إلى ملكة ، سبأ .

وإذا كانت الجمادية تلحقها فى الدنيا بسنن الله الخاصية الحيوانية فتتحرك وتبتلع ، والحيوانية كذلك تلحقها بالسنن الخاصية الناطقية . فتفكر وتدبر وتنطق وتعبر – فما بالنا بالنشأة الأخرى التى لا سبيل إلى معرفتها ولا معرفة أحداثها ، ولا سنن الله فيها إلا بالخبر الصادق عنه سبحانه ؟

نعم يجب الوقوف فى الإيمان به عند الحد الذى جاء به الخبر الصادق ، ولا ينبغى التصرف فيه بالحمل على التمثيل أو الزيادة عليه وضم شىء إليه ، فضلا عن استبعاده أو إنكاره . وهذا هو شأن المؤمنين بالله وبكتابه وغيبه .

س : هل تجوز صلاة القائم خلف إمام قاعد ؟

ج : اتفق[1] العلماء على أنه ليس للصحيح أن يصلى فرضاً قاعداً منفرداً كان أو إماماً لقوله تعالى : (وقوموا لله قانتين) .

واختلفوا إذا كان المأموم صحيحاً

(١) المرجع فى هذه الفتوى كتاب بداية المجتهد – وكتاب سبيل السلام .

فصلى خلف إمام مريض يصلى قاعداً على ثلاثة أقوال ؟ أحدها : أن المأموم يصلى خلفه قاعداً ، وممن قال بهذا القول أحمد وإسحاق . . والقول الثانى : أنهم يصلون خلفه قياماً . قال أبو عمر بن عبد البر . وعلى هذا جماعة فقهاء الأمصار – الشافعى وأصحابه – وأبى حنيفة وأصحابه – وأهل الظاهر وأبى ثور وغيرهم .

الثالث : روى ابن القاسم أنه لا تجوز إمامة القاعد وأنهم إن صلوا خلفه قياماً أو قعوداً بطلت صلاتهم ، وذهبت الهادوية ومالك وغيرهم إلى أنه لا تصح صلاة القائم خلف القاعد لا قائماً ولا قاعداً . .

وقد روى عن مالك أنهم يعيدون الصلاة فى الوقت – وهذا إنما بنى على على الكراهة لا على المنع . والأول هو المشهور عنه . . . .

وسبب الاختلاف تعارض الآثار فى ذلك – ومعارضة العمل للآثار ، أى عمل أهل المدينة عند مالك وذلك أن فى ذلك حديثين متعارضين : أحدهما حديث أنس وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «وإذا صلى قاعداً فصلوا قعوداً» وحديث عائشة فى معناه وهو «أنه صلى (صلى الله عليه وسلم) وهو شاك جالساً وصلى وراءه قوم قياماً ، فأشار إليهم أن اجلسوا ، فلما انصرف قال : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً» . . .

والحديث الثانى : حديث عائشة «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فى مرضه الذى توفى منه – فأتى المسجد فوجد أبا بكر وهو قائم يصلى بالناس – فاستأخر أبو بكر فأشار إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن كما أنت ، فجلس رسول الله إلى جنب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس يصلون بصلاة أبى بكر» .

فذهب الناس فى هذين الحديثين مذهب النسخ ومذهب الترجيح ، فأما من ذهب مذهب النسخ فإنهم قالوا : إن ظاهر حديث عائشة «وهو» أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤم الناس وأن أبا بكر كان مستمعا ، لأنه لا يجوز أن يكون إمامان فى صلاة واحدة ، وأن الناس كانوا قياماً وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالساً ، فوجب أن يكون هذا من فعله صلى الله عليه وسلم

إذا كان آخر فعله ناسخاً لفعله وقوله المتقدم .

وأما من ذهب مذهب الترجيح فإنهم رجحوا حديث أنس بأن قالوا : إن هذا الحديث قد اضطربت الرواية عن عائشة فيه – فيمن كان الإمام هل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أبو بكر ؟

وأما مالك فليس له مستند من السماع لأن كلا الحديثين قد اتفقا على جواز إمامة القاعد ، وإنما اختلفا في قيام المأموم أو قعوده » . . .

وقد رجح العلماء جواز إمامة القاعد للقائم وصحة صلاته خلفه – والله أعلم .

عبد الحميد شاهين

(حكم)

- من أحب الحمد أحسن السيرة .
- الاختيار دليل العقل .
- إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضا .
- الهوى مفتاح السيئات .
- شرار الناس الذين يُكرَّمون اتقاء شرهم .

" كتاب الشهر "

شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين

سماحة الشيخ / نديم الجسر
مفتي طرابلس وشمال لبنان

يسر مجلة الأزهر أن تعيد نشر هذا البحث خدمة للشباب الذى يتعرض لضغوط نفسية وثقافية وبخاصة فى هذه الأيام ، وهو سبحانه ولى التوفيق .

الظاهرة الغريبة :

إننا أمام ظاهرة اجتماعية خطرة يشكو منها العالم الإسلامى بأسره وهى : أن أكثر شبابنا المثقف بالثقافة العلمية العالية هم أقرب إلى الإلحاد ، وأن القلة المؤمنة منهم أميل إلى إهمال العبادات والشعائر .

إن هذه الظاهرة الغريبة بدأت مع عصر النهضة العلمية فى بلاد العرب والإسلام ، وأخذت تزداد خطراً كلما ازدادت النهضة انتشاراً وازدهاراً ، وقد منيت بالفشل كل المحاولات التى قام بها المصلحون فى سبيل معالجتها .

فما هى أسباب هذه الظاهرة ؟.

ولماذا ترافق العلم ، والعلم نور يهدى إلى الحق والخير ، والإيمان والإسلام نور وحق وخير ؟ .

وما هى أسباب الفشل فى معالجتها ؟.

أكاد أقرأ فى أفكار بعضكم أيها السادة ، أن الموضوع - على خطره - لا يستحق بحثاً طويلا عن أسباب هذه الظاهرة ، لأنها بينة ظاهرة . ولكن كلا. إن الأسباب أكثر وأعمق وأخفى وأدق من أن تعرف بنظرة عابرة أو دراسة عاجلة .

إن لها أسباباً كثيرة معقدة ومتشابكة منها الخارجى ، ومنها الداخلى المحلى ، ومنها العقلى ، ومنها النفسانى ، ومنها الذى يستشرى فى قطر أكثر من قطر آخر . ومن كل هذا التعقيد والتشابك والتنوع والظهور والخفاء كان الفشل فى العلاج .

لذلك سأحاول ، بقدر استطاعتى ، أن أبسط هذه الأسباب ضمن المباحث الآتية . وأنا على تمام اليقين من أن السادة العلماء الأعلام هم أدرى بها منى ، ولكنى أجمعها تيسيراً للبحث على صعيد واحد ، أمام أنظارهم الثاقبة ، وعقولهم النيرة ، ليصلحوا ما فيها من أخطاء ، ويتمموا ما فيها من نقص ، ويتولوا وصف العلاج الصحيح .

شبابنا فى شخصيتهم والمحيط :

لكى نتوصل إلى دراسة صحيحة لأسباب هذه الظاهرة المزدوجة المتجلية فى الإلحاد وإهمال الشعائر ، لابد لنا أن ندرس شخصية شبابنا ، والمحيط الذى يعيشون فيه ، والأفكار التى تغزو عقولهم .

إن شبابنا — فى عقله وجسده وميوله وأخلاقه — يقف مرتبكاً بين عدة تيارات : سلطان العقل ، أوهام التعقل ، سلطان العلم ، أوهام العلم ، سلطان الجهل بحقيقة الإسلام ، عدوى الملحدين ، كيد المستعمرين ، أخطاء المستشرقين والمؤرخين ، العقد النفسية ، فساد المحيط .

فوارحمتاه لكم يا شباب الجيل !!...

إن العقل فطرة تظهر آثاره ، وتسيطر أحكامه ، حتى فى الطفل ، ثم تزيده التجارب انكشافاً ونضوجاً . ولكن طالب العلم اليوم يفرض عليه ، من أول خطوة يخطوها فى دراسة الحساب ، إلى آخر خطوة يخطوها فى دراسة الرياضيات والفلكيات والطبيعات والمنطق والفلسفة أن يستعمل عقله دون سواه . فيشعر بسلطان العقل شعوراً طاغياً ، ترافقه انتفاضة من الزهو والعجب والكبرياء ، كالتى ترافق كل قوى يشمخ برأسه فوق أعناق الضعفاء ، وترافق كل عالم يشمخ بعقله وعلمه فوق رءوس الجهال والبسطاء ، حتى يبلغ هذا الاعتزاز بالعقل والعلم حد الغرور والتقديس .

هذا فى مجال الإيمان بالله وتعقل القضايا الدينية . وأما فى مجال العمل بوصايا الدين وشعائره ، فإننا بين زخم الشباب وشبوبه ، وزخم المحيط وعيوبه نجد العوائق ، فالأجساد فى بركان من العواطف والشهوات ، والمحيط فى زلزلة من الفوضى والفجور ، والحياة كلها فى تيار جارف من الكدح السريع المربر .

هذا واقع شبابنا عقلا وجسداً ومحيطاً فما لم نقنعهم بأن الإيمان بالله هو من أصدق وأوجب أحكام العقل ، وما لم نيسر لهم التربية الصالحة ، والمعرفة الميسرة ، والقدوة الكريمة لن يكونوا عاملين .

سلطان العقل فى الإسلام :

كما فعلت فى محاضرة ألقيتها فى نادى المعلمين بالقاهرة أطرح على سمع الشباب المسلم السؤال الآتى . ما هى أعظم مزية يمتاز بها دين الإسلام ؟ .

لا ريب عند المسلم فى أن الأديان السماوية كلها ، هى فى أصلها وأساسها

من عند الله ... ولا ريب عند العاقل فى أن الأديان السماوية تتلاقى ، فى أصلها وأساسها ، على كل معانى الحق والخير بلا أدنى خلاف .

ولكن مزية الإسلام هو أنه قد جعل للعقل السلطان الأعلى فى فهم النصوص المنزلة . هذا العقل الذى أمرنا الله فى آيات كثيرة من القرآن أمراً قاطعاً أن نحتكم إليه عند جدلنا مع أنفسنا فى معركة الشك واليقين ، وعند جدلنا مع غيرنا من الملحدين والمشركين ، يشمل سلطانه كل معنى فى الوجود ، ابتداء من أبسط الأمور ، كإماطة الأذى عن الطريق إلى أعظم معنى فى الوجود ، وهو الألوهية والوحدانية .

فليس فى الإسلام إيمان يتناقض مع العقل ، ولا نص خبر يتناقض مع العقل ، ولا أسرار ، ولا خرافات ، ولا أوهام تتناقض مع العقل والعلم الصحيح ، وكل نص يوجب ظاهره تناقضاً عقلياً فى الذهن ، يتوجب علينا تأويله تأويلا يرتفع به التناقض العقلى .

وهذا شأن الإسلام مع قضايا العلم التى بلغت مرتبة اليقين فى الحكم العقلى القاطع .

أوهام التعقل :

ولا بد لى قبل أن أضرب للشباب الأمثلة على سلطان العقل فى قضايا الإيمان والدين أن أكشف لهم النقاب عن أوهام التعقل وأبين لهم الفرق .

١ — بين المستحيل العقلى والمستحيل العادى .

٢ — بين استحالة التعقل وصعوبة التصور .

٣ — بين حكم عقلى عام تتفق عليه كل العقول السليمة ، وبين نظرة فردية خاصة تختلف بشأنها العقول السليمة .

٤ — بين الحقائق العلمية المقطوع نهائياً بصحتها والآراء العلمية غير المقطوع نهائياً بصحتها ، والتى تظهر وتبزغ على مسرح التفكير حقبة من الزمن ، ثم تخبو إلى الأبد .

إن الخلط بين هذه الحقائق والفوارق هو من أوهام التعقل التى يقع فى أغاليطها كثير من الناس ، حتى المثقفون بأعلى الثقافات . فمن الواجب على الشاب الذى يدخل فى جدل مع نفسه ، أو مع غيره ، حول أية قضية دينية ، أن يقف تمام الوقوف على هذه الفوارق ، كى لا يقع

فى أحبولة أوهام التعقل .

فالمستحيل العقلى هو الذى يوجب تصور وجوده أو تصور عدمه تناقضاً عقلياً فى الذهن : كقولنا الواحد نصف الثلاثة ، أو قولنا الجزء أكبر من الكل أو قولنا إن جبل المقطم يدخل فى الفنجان.

أما المستحيل العادى فلا يوجب تصور حصوله أو عدم حصوله تناقضاً عقلياً فى الذهن ، ولكن جرت عادتنا نحن البشر ، أن نعده مستحيلا فى العادة ، كخرق النواميس الكونية بالمعجزات الإلهية .

فأرجو أن يكون هذا الفرق نصب أعين الشباب .

كذلك نقول عن الفرق بين استحالة تعقل الشىء وبين صعوبة تصوره . فكم من حقيقة يمكن تعقلها ، أى أن العقل يقطع بصحتها، ولكن يصعب على الذهن تصورها ، كأحجية الورقة الرقيقة التى يكرر تقطيعها مع التضعيف خمسين مرة ، فيبلغ سمكها ، إذا ركت المقطعات ، إلى سطح القمر . . . أو كعدد ذبذبات الصوت التى أثبت العلم أنها قد تبلغ بالحساب الدقيق القاطع إلى نصف مليون ذبذبة فى الثانية . فيمكن تعقلها ، ولكن لا يمكن تصورها مطلقاً فى الذهن ، لأننا مهما جمعنا خيالنا وركزناه لا نستطيع أن نتصور أن ثانية من الزمن تتسع لنصف مليون ذبذبة .

وإنى لأرجو أن يكون هذا الفرق بين استحالة تعقل الشىء وصعوبة تصوره نصب أعين الشباب فلا تحملنهم صعوبة التصور على القول باستحالة التعقل . فما كل شىء يصعب تصوره يكون مستحيلا عقلا ، ولا كل معقول يسهل تصوره ... فإن الشباب إذا تنبهوا إلى هذا الفرق بين التعقل والتصور وفروا نصف طريق الجدل والمراء . مع أنفسهم فى معركة الشك واليقين ومع غيرهم حول قضايا الإيمان .

كذلك نقول عن الفرق بين النظر العقلى العام الذى تتفق على صحته كل العقول السليمة بلا خلاف ، وبين النظرة الخاصة التى تختلف فيها العقول . فلا يقولن الشاب أثناء الجدل العقلى على قضية من قضايا الدين : هذا رأيى وهذا عقلى . لأننا نقول له : عقلك وحدك ليس بحجة على الحكم الصحيح ولكن اتفاق كل العقول هو الحجة .

كذلك نقول عن الفرق بين الحقائق

العلمية المقطوع عقلياً ونهائياً بصحتها، وبين الآراء والنظريات العلمية الظنية المرجحة ، التى لم يقم الدليل القاطع على صحتها ، ويحتمل أن تظهر أدلة جديدة تنفى صحتها وتوجب بطلانها ، والأمثلة كثيرة لا تخفى على الشباب المثقف.

كروية الأرض . حركة الأرض . حركة الشمس . حقيقة النور . حقيقة الألوان . الطيف الشمسى . العالم غير المنظور . حقيقة العناصر الكونية بمقتضى القانون الذرى . الجاذبية . الكهربائية . أوهام التاريخ التى تلبس ثوب الحقيقة القاطعة . وغير ذلك من الآراء والنظريات العلمية ، التى كانوا يحسبونها حقائق علمية قاطعة ، فإذا بالعلم يتطور فيكشف عن بطلانها من أساسها . أو بطلان مقاييسها ، وما زال العلم إلى اليوم يعدل ويبدل فى الكشف عن أسرارها . كما رأينا فى نظرية النسبية الحديثة .

فعلى الشباب — إذاً — ألا يبنوا آراءهم النهائية وجدلهم فى إنكار القضايا والأخبار الدينية ، على أساس آراء علمية خاطئة أو ناقصة يظنونها حقائق علمية . ثم يظهر لهم بعد ذلك أن هذا الأساس الذى بنوا عليه جدلهم وجحودهم والحادهم هو أساس باطل . تعبوا فى البناء عليه ، ولما ظهر الحق خر البناء من القواعد .

أمثلة على سلطان العقل فى الإسلام :

١ — قضية وجود الله الخالق لهذا الكون : هى حقيقة ذكرتها الكتب المنزلة . وعند عرضها على العقل ، كما أمرنا الله فى آيات كثيرة من القرآن ، نجد أن إقرارها لا يشكل تناقضاً عقلياً ، بل إنكارها هو الذى يشكل تناقضاً عقلياً ، لأنه يجعل العالم الممكن الحادث المعلول موجوداً بغير علة ولا فاعل ، وهذا مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً . . . أو يجعل المعلول عين العلة وهذ أيضاً مستحيل يشكل تناقضاً عقلياً فاضحاً . وعن هذين المستحيلين عبر القرآن بقوله : (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون)(١) .

٢ — والوحدانية حقيقة ذكرتها كل الكتب السماوية . وعند عرضها على العقل — كما أمرنا الله — نجد أن إقرارها لا يوجب تناقضاً عقلياً ، بل القول بتعدد الآلهة هو الذى يشكل تناقضاً عقلياً .

٣ — قضية المعجزات التى ذكرتها

---

(١) الطور ٣٥ .

الكتب السماوية ، عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصولها يوجب تناقضاً عقلياً ، بل ادعاء استحالتها استحالة عقلية لا عادية ، هو الذى يوجب تناقضاً عقلياً عند من يؤمن بأن الله هو خالق الكون وخالق النواميس ، لأن المعجزات هى خرق للنواميس الكونية وهذا الخرق مستحيل فى العادة ، ولكنه غير مستحيل عقلا ، لأن الذى خلق النواميس قادر على خرقها .

وهنا يطيب لى أن أستنكر تفسير المعجزات الإلهية تفسيراً علمياً ، لأن هذا التفسير يفقد المعجزة معناها ، ويرد الشباب المثقف الذين نريد حملهم على تصديق المعجزة إلى نكسة عقلية فى معجزات يستحيل تفسيرها على أساس علمى ، كما أوضح الشيخ أبو النور الموزون السمرقندى فى (قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والقرآن) .

٤ — قضية البعث التى ذكرها وأكدها القرآن : عند عرضها على العقل لا نجد أن تصور حصول البعث يوجب تناقضاً عقلياً ، بل القول باستحالة حصول البعث هو الذى يوجب تناقضاً عقلياً . لأن البعث هو خلق جديد ، والذى خلق الإنسان أول مرة ، قادر على إعادة خلقه بل هو أهون عليه .

وعن هذه البداهة العقلية عبر القرآن بقوله : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم)[1] وقوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)[2] .

٥ — قضية الإسراء التى ذكرها القرآن : عند عرضها على العقل لا نجد حصولها يشكل تناقضاً عقلياً ، بل القول باستحالة وقوعها هو الذى يشكل تناقضاً عقلياً . لأنها إن كانت معجزة وخرقاً للناموس فالله خالق النواميس قادر على خرقها وإن كانت تصريفاً لقوة السرعة فالعلم قد اكتشف وتوصل اليوم إلى قطع المسافة بين مكة والقدس بأقل من المدة التى قطعها بها محمد بقدرة الله .

٦ — ولكن إذا عرض لنا نص يوجب الأخذ بظاهره تناقضاً عقلياً كما فى الآية السادسة والثمانين من سورة الكهف التى حدثنا بها القرآن عن ذى القرنين ، حيث قال : (حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة) . وجب علينا التأويل لرفع التناقض ، لأن نص هذه الآية إذا أخذ على

---

(١) يس ٨١ .

(٢) الروم ٢٧ .

ظاهره اللفظي يشكل تناقضاً عقلياً ، إذ من الثابت ثبوتاً قاطعاً ، أن الأرض أصغر من الشمس بمليون وثلثمائة ألف مرة . ومن البديهيات العقلية أن الجسم الكبير لا يدخل في الوعاء الصغير فنقول ، كما قال العلماء الأعلام من قبلنا : معنى الآية أن ذا القرنين رأى الشمس تغرب وراء الأفق ، أى وراء البحر أو وراء بحيرة ، كأنها تغرب في عين حمئة ، كما يرى أحدنا الشمس تغرب في النيل ، وهو يعلم أنها تغرب وراء الأرض لا في النيل .

٧ — وإلى الشباب المثقف مثالا آخر على وجوب عدم الاسترسال مع النظريات العلمية الظنية وذلك في الآية ٩٠ من سورة الكهف حيث يقول القرآن عن ذى القرنين : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً) .

هذه الآية كانت تبدو مشكلة في عهد النظرية القائلة بأن الأرض منبسطة وساكنة وأن الشمس هي التي تدور حولها . فما معنى أن الله لم يجعل بين هؤلاء القوم من البشر وبين الشمس ستراً ؟ وكيف لا تغيب الشمس عنهم ؟ وكيف التوفيق بين هذا النص وبين ذكر القرآن لنعمة الليل والنهار وجعلهما خلقه ؟ .

أما اليوم — بعد أن بطلت النظريات القديمة ، وظهر أن الأرض كروية ، وأن لها حركة سنوية حول الشمس تجعل أحد قطبيها في نهار دائم والآخر في ليل دائم عدة أشهر من السنة ، وظهر أن هناك أقواماً في أقاصى القطب ، فإن معنى الآية أصبح واضحاً ومفهوماً .

وهذا المثل من خير الأمثلة على وجوب عدم التسرع في رفض النصوص الدينية لمجرد الظن بأنها تتناقض مع العلم .

تيسير الفهم والتفهيم :

إن تيسير فهم النصوص ، وفهم حكمة أحكام الدين ، له أثر كبير في جذب الشباب المثقف نحو القيام بالعبادات والشعائر . وشبابنا مسدودة في وجوههم أسباب هذا التيسير للفهم من كل النواحي : مسدودة في البيت مسدودة في المدرسة ، ومسدودة بركام من الكتب الضخمة ، التي يجفل الشباب من مجرد رؤيتها ، بل يعسر فهمها حتى على بعض رجال الدين ، ومسدودة بجمود كثير من المعلمين المرشدين ، الذين يقابلون كل سؤال بغضبة وكل استفهام بلعنة ، وكل

اعتراض وبحث عن المعقول بالتكفير . وأضرب على عدم تيسير الفهم مثلا بسيطاً يخص العرب .

هذا القرآن الذى يقول الله به للعرب (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[1] فيه أكثر من ألف كلمة عربية لا يعرف الشباب المثقف معناها اللغوى وهو يسمعها فى كل يوم وليلة من الإذاعات فكيف الحال مع غير العرب ...؟

فى سبيل تيسير الفهم والتفهيم على الشباب ، يجب أن نضع بين أيديهم كتباً دينية واضحة سهلة جذابة ، وأن نقيم على تعليمهم فى المدارس أساتذة يحسنون الفهم والتفهيم . ويدركون أساليب التربية النفسية ، ولهم صدور واسعة ، وعقول نيرة ، وثقافة واسعة تتناسب مع ثقافة الشباب المعاصر .

ولا يغرنكم أيها السادة فى القاهرة ومصر وبعض البلاد العربية من بعض أسباب التيسير ، فإن هنالك فى آسيا وفى إفريقيا أقطاراً إسلامية عربية وغير عربية لا يعرف شبابها من الدين إلا اسمه ، وهم عرضة لهذا الغزو الإلحادى الذى يعانيه الناس رغم كونهم فى جوار الأزهر.

المثقفون والخرافات :

ومن أعظم ما ينفر الشباب المثقف من الدين تلك البدع والشوائب والخرافات والأباطيل التى ألصقت بالإسلام وهو براء منها .

ولذلك كان من أخطر المهام الملقاة على عاتق مجمع البحوث الإسلامية بمقتضى نظامه — تطهير الإسلام من هذه الشوائب .

وليس أدل على بعد الإسلام وترفعه عن هذه البدع والخرافات ، من هدى القرآن والسنة الصحيحة وهما المنبعان الأصيلان للتشريع .

فإذا تصفح الشبان القرآن وجدوا أنه فى كل سورة ، بل فى كل صفحة يعلى كلمة (الحق) ، ويجعل العقل إليه هادياً ، والعلم عليه دليلا ، والعلماء عليه شهداء . . . ويحذر من الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً . . . ويستهزئ بالخرافات والأساطير . . . ويفصل فصلاً صارماً بين الألوهية والبشرية ، ويخوف أشد التخويف من الشرك الخفى ، ويصل العبد بالله من غير وسيط ، ويفتح باب التوبة والاستغفار له من غير شفيع إلا بإذنه

(١) يوسف ٢ .

فأين محل الأباطيل والخرافات والبدع من هذا القرآن ؟ .

وإذا تصفح الشباب السنة الصحيحة – وهي هدى رسول الله قولا وعملا – وجدوا أنه ، صلى الله عليه وسلم ، كان أبعد الناس عن أوهام الخرافات والأساطير وأشدهم إنكاراً للتنجيم والعرافة والسحر والشعوذة والاسترقاء ، والاستجارة بغير الله ، وكان أعظم الناس تبرأ من معرفة الغيب ، ومن كل ما يرفعه عن مستوى البشرية والعبودية لله .

انكسفت الشمس يوم مات ولده إبراهيم فقال الناس : انكسفت الشمس لموت إبراهيم ، فخرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عجلا يجر رداءه ، حتى انتهى إلى المسجد ، وثاب الناس إليه ، فصلى بهم ، ثم خطبهم فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » .

وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس عبادة وصلاة وصياماً ، ولكنه لم يخرج عن سمت البساطة التي شرعها له ربه . . . وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس ذكراً لله ولكنه لم يخرج عن حدود الوقار والإخبات والخشوع والسكينة إلى هرج الطقوس والحركات والرقص والتخبط ، وكان عليه الصلاة والسلام أعظم الناس زهداً وتقشفاً ولكنه لم يخرج في زهده وتقشفه وتصوفه – إذا جاز التعبير – عن بساطة الإخلاص إلى تعقيد الرياء الذي سرت طقوسه إلى المسلمين من الأمم التي اختلطوا بها بعد الفتح .

فنرجو أن يعلم الشباب كل هذا حتى لا يخلطوا بين حقيقة الدين وشذوذ بعض المسلمين .

عقدة الكبت :

ومن أسباب انصراف الشباب عن الشعائر عقدة الكبت .

إنى أعرف كثيراً من الشباب المثقف يكره ممارسة الشعائر من أثر كبت نفسي حصل له في صغره ، بسبب الطريقة التي ساقه بها أبوه أو معلمه في المدرسة إلى ممارسة الشعائر ، وهي طريقة القسوة .

هذا الكبت يجب أن يحل محله التشويق والترغيب والإيحاء والاستهواء ، مع شيء من الشدة عند اللزوم .

ولهذا النهج من الترغيب أساليب : منها أن يكافأ الولد على الصلاة من أبيه بالمال ، ومن المدرسة بزيادة علامات

حسن السلوك ، ومن ذلك أن نجعل من أول يوم فى رمضان يوم فرح وسرور واحتفال وهدايا للصائمين من الأولاد ، حتى يصبح دخول شهر الصوم عندهم مفرحاً كيوم العيد ، ومن ذلك أيضاً أن نكافئ الولد الذى يتصدق على الفقراء من « خرجيته » بعطاء أجزل ليستقر فى نفسه أن قرش الصدقة معوض بأمثاله كما وعد الله المتصدقين .

أما الشباب البالغون فمن أهم أساليب الإيحاء لهم أن تحمل الجماعات الرياضية والكشفية وأمثالها على أن تدخل فى نظامها إقامة الصلاة وصيام رمضان ، فإن تأثير الإيحاء الذى يأتى للشباب من رفاقه وفرقته وجمعيته ، ومن نظام فرضه هو على نفسه . أشد من النصيحة والوعد والوعيد .

كذلك يحسن فى باب التوجيه أن نجعل للمصلين والصائمين من الموظفين والعمال الشباب علامات تدخل فى إضباراتهم ، ويكون لها شأن فى الترقية والمكافأة ، وتوسيع مدة الإجازة ، فإن هذا التوجيه له أثره .

وأخيراً يجدر بنا ونحن ندرس عقدة الكبت ، أن نتذكر الطهارة للصلاة وما يعترى الشباب أحياناً من الحياء والخوف والكرب من بعض موجباتها . فإن كثيراً من الشباب يتركون الصلاة لهذا المانع . فعلينا أن تيسر لهم أمر التطهر بالماء وبغير الماء عند المانع ، كى يستهلوا الصلاة ويتعودوا عليها ، وهى بعد ذلك تنهاهم عن الفحشاء والمنكر وتنهاهم عن التيمم بلا عذر صحيح . فهذا خير من ترك الصلاة . كذلك يحسن أن تيسر لهم الجمع بين الصلاتين عند العذر ، أخذاً بمذهب ساداتنا الحنابلة وفى هذا العصر عصر الكدح السريع المرير فى سبيل العيش ، وهذا أرجح وأولى من التعسير المؤدى إلى ترك الصلاة .

عقدة التقنيط :

ومن أسباب إصرار الشباب على ترك الشعائر : التقنيط .

فالشبان ، بحكم مرح الشباب وفورته وجموحه ولهوه ، لابد أن تكون لهم فى حياتهم مزالق إذا اتفق لأحدهم أن أسرف على نفسه ، ثم سمع من الوعاظ أهوال المنذرات ، تكونت فى صدره عقدة القنوط ، فازداد إمعاناً فى الإسراف ، ولو أن الوعاظ اتبعوا نهج القرآن فى الترغيب ، والترهيب ، لفتحوا لذلك الشاب فى جدار يأسه كوة ينفذ منها إلى الأمل ويخرج منها إلى التوبة ،

وقد علم ربنا وخالقنا . وهو أحكم الحاكمين ، ما يترك التقنيط فى نفوس المذنبين المسرفين . ففتح لهم بحكمته باب الأمل والخروج من سجن الذنوب على مصراعيه بقوله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً)[1] .

لذة التنفيس :

ومن عقد القنوط تتكون . عند الشاب المسترسل فى الإلحاد والفساد لذة التنفيس عن نفسه بثلاث طرائق : طريقة الجدل فى الإلحاد ، وطريقة الاستهزاء بالشعائر ، وطريقة جر الرفاق الزملاء إلى الانزلاق .

ذلك لأن الضمير الدينى لا يموت موتاً نهائياً فى صدور الناس ، مهما أسرفوا على أنفسهم ، لأن الشعور بالمسئولية هو شىء فطرى ولد معنا . كما ولدت فطرة الحنو على أطفالنا وقد نما هذا الشعور وترعرع فى صدورنا بإرث الأجيال .. فلا تصدق أن إنساناً يستطيع أن يتخلص من خوف السماء ، مهما ظهرت على

لسانه وقلبه وأعماله مظاهر الكفر والإلحاد ، ولكن الذى يتورط فى أوحال الإلحاد والإسراف ، ويغلق عليه سجن القنوط ، يشعر برغبة فى التنفيس عن نفسه ، إما بالجدل دفاعاً عن إلحاده ، وإما بالاستهزاء بالشعائر دفاعاً عن تقصيره وتهويناً لذنوبه ، وإما بجر الآخرين إلى مهاوى الإلحاد والرذيلة ، لكى لا يكون وحده فيها ، وتلك طبيعة المجرمين المطرودين من رحمة الله ، وبسببها قال إبليس لربه بعد أن لُعِن وطُرِد : (رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين)[1] .

الفراغ والتقليد :

وسرت إلى شبابنا المثقف عدوى التقليد بعد أن قرأ تاريخ النزاع الطويل بين المفكرين ورجال الدين فى أوربا الذى انتهى عند بعض المفكرين إلى الشك ، وانتهى عند الماركسية المادية إلى الكفر والإلحاد واحتقار الشعائر ومحاربة الدين ورجاله .

إن شبابنا الذى فتحت فى تفكيره هوة من (الفراغ) بسبب ما يحمل فى رأسه من غرور العقل وأوهام التعقل

---

(١) سورة الزمر ٥٣ .

(١) سورة الحجر ٣٩ .

والجهل بحقيقة الإسلام ، وما يحمل فى صدره من عقد الكبت والقنوط ، أصبح بحاجة طبيعية لملء هذا الفراغ بأية فكرة تلائم نفسيته ، فانجرف مع تقليد الغربيين فى شكوكهم ، ثم زادته المشاكل الاقتصادية المعاصرة فراغاً ، فانجرف مع تقليد الماركسية بشيوعيتها وإلحادها .

ولكن شبابنا فاتهم ، وهم ينجرفون مع هذه التيارات أن يفهموا ، بل فاتنا نحن علماء الدين أن نفهمهم الأسباب التى حملت المفكرين فى عصر النهضة الأوربية على النزاع مع الدين ، الأسباب التى حملت الماركسية على الإلحاد ومحاربة الدين ورجاله ، ولو فهمناهم لظهر أن أسباب الشك والإلحاد ومحاربة الدين ورجاله عند الغربيين والشيوعيين ليس لها فى تاريخ الإسلام أى أثر .

فمحاربة الدين ورجاله فى أوربا بنيت على أسباب أربعة :

١ – النزاع الذى قام بين الفرق الدينية من عهد آريوس الإسكندرى حول الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية .

٢ – النزاع المسلح الدامى الذى قام بين الكنيسة والحكام من أباطرة وملوك .

٣ – النزاع الذى ظهر فى عهد الإصلاح الدينى منذ قيام لوثر والبروتستانتية وغيرها من الفرق وأسفرت عنه حروب دامية .

٤ – القسوة التى عومل بها بعض العلماء والمفكرين من قبل رجال الدين قتلا وإحراقاً وتعذيباً لقولهم بآراء علمية فلكية كشفت الأيام عن صحتها .

عقدة التخاذل والاستخزاء :

ومن جملة عقد الشباب عقدة التخاذل والاستخزاء التى تظهر عند بعض الشبان الذين لم تتحمل رءوسهم زهد الثقافة فداخوا بكل معنى كلمة (الدوخ) الفصحى والعامية : أى ذلوا ودارت رءوسهم فتخلوا – باسم التقدمية والبرء من الرجعية – عن شعائر دينهم وعزتهم الإسلامية والعربية فى آن واحد .

هؤلاء المخاذيل ليسوا كلهم ملحدين بل قد يكونون فى قرارة نفوسهم من المؤمنين ، ولكن إذا ضمتهم المجالس والنوادى مع الإفرنج والمتفرنجين أظهروا من باب التفاخر بالتقدمية العصرية ، أنهم لا يبالون بشعائر الدين ، واستخفوا أمامهم بالصلاة ، وهم من المصلين ، واستهزءوا بالصوم وهم من الصائمين .

هؤلاء المستخرون المتصاغرون المتعيرون بدينهم وملتهم وقوميتهم ، لو كان أحدهم منتسباً إلى فرقة رياضية أو كشفية صغيرة ، أو حزب سياسى هزيل ، أو حزب عقائدى ملحد ، لرأيته يحمل شارتها ، ويرفع شعارها ، ويفتخر بها ، ويدفع عنها ، ويقاتل فى سبيلها ، ولكنه ، وهو المنسوب إلى أمة عظيمة تؤلف ثلث العالم بشراً وأرضاً ، ولها فى تاريخها ما يرفعها فى كل مستويات المثل العليا من الحق والخير فوق كل الأمم ، يتعير منها ومن شعائرها وتقاليدها ، ويكاد لولا تذكره الهوية يتبرأ منها . هذا الاستخزاء سببه جهل شبابنا للتاريخ ، ولو زعموا أنهم قرأوه واجتازوا به امتحانات البكالوريا والليسانس ... فأنا أعرف كيف يدرس التاريخ فى كل البلاد العربية والإسلامية التى كانت إلى عهد قريب تحت نير الاستعمار ، وأية صفحاته تنشر وأية صفحاته تطوى عن قصد أو عن غفلة .

وعلاج هذا الجهل عندى كتاب موجز فى التاريخ المقارن للأعمال بين أمتنا وكافة الأمم التى لها شأن فى التاريخ يوضع على أساس البعد أو القرب من المثل العليا فى كل باب من أبواب الحياة .

ككل أمة عظيمة لها فى التاريخ أمجاد ولها أخطاء ومخاز مسطورة تنبئ عن دورها فى كل مجالات التفكير والتشريع والعمل ، فيما يتفق مع المثل العليا أو يتناقض مع المثل العليا ، ولكن الذين كتبوا تاريخ الحضارة من المؤرخين الغربيين . وهو التاريخ الذى يقرؤه العالم ويقرؤه شبابنا ، ولا يكادون يقرأون سواه ، لم يكونوا مجردين من أثر العاطفة القومية والدينية ومن رواسب الأحقاد ، أو على الأقل ، من غشاوات الجهل لتاريخ العرب والإسلام فأبرزوا القليل من أمجادنا ، والكثير من مخازى بعض ملوكنا وأمرائنا وجهالنا ورعاعنا ، ونسبوا جميع تلك المخازى إلى دين الإسلام . فلو وضعنا التاريخ المقارن للوقائع والأحداث لاستطعنا أن نبرهن لشبابنا وللناس ، على أن لنا فى ميادين الحق والخير أمجاداً تفوق أمجاد كل الأمم ، وأن المخازى التى تؤخذ علينا هى أقل بكثير من مخازى الأمم الأخرى ، ولاستطعنا أن نبرهن لذلك الفيلسوف على أن البحر المتوسط الذى يريد أن يستدرج العرب إلى شطانه ليغسلوا سيوفهم من الدماء فى مياهه ، قد

غسلت فيه من قبلنا ، ويجب أن تغسل فيه من بعدنا وإلى اليوم ، سيوف كثيرة ، عليها مع الدماء من أقذار الظلم ، وأرجاس القسوة وأنجاس البربرية المترفة ، ما لا تكفى لغسله مياه المتوسط إلا إذا أضفنا إليها أمواه المحيطات الثلاثة من شواطئ السود فى إفريقيا ، والهنود فى أمريكا ، وقليلا من مياه بحر اليابان فى شواطئ هيروشيما... إننا حملنا كاليونان ، مشعل العلم والفلسفة وأمددناه بلهب من الذكاء والعبقرية والدرس والبحث ، ولكن بدون أن تكون لنا وثنية وبدون أن تكون لنا آلهة تسكر وتزنى ، وكان لنا كالرومان تشريع وأدب وفتوح وحروب وأسرى ، ولكننا لم نكن نتلذذ بمشاهد تسليط الضوارى المجوعة على الأسرى والمسيحيين لتأكلهم عضواً عضواً . .

وفتحنا الأقطار ، كما فعل غيرنا ، لنفسح لأنفسنا مجالا حيوياً ونفتح لنهر شريعتنا المجرى الذى يتدفق فيه إلى العالم ، بدلا من أن يتحول إلى مستنقع يجف فى أرض الجزيرة العربية الجرداء كما يقول (غوتة) ولكننا كنا أرحم الفاتحين كما يقول (غوستاف لوبون) .

وفى معارك الفتح كنا نحارب الجنود المحاربين الذين يقاوموننا ، فإذا تم لنا الفتح ، ظفراً أو صلحاً ، آمنا السكان والأسارى على أرواحهم ، ولم نقل بلسان (رب الجنود) : إذا ظفرتم بمدينة فاقتلوا جميع الرجال ، والنساء والأطفال والرضع ، وأحرقوا المدينة بالنار كما فعل بنو إسرائيل .

ونشرنا شريعتنا للناس ، بدون أن نكرههم عليها ، لأن ربنا رب العالمين يقول لنا : (لا إكراه فى الدين)[1] ويقول لمحمد عبده ورسوله : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)[2] فلم نعذب الناس بالحديد والنار ، ذبحاً ، وتقصيباً ، وشياً على الجمر كما فعلوا مع العرب فى الأندلس . ولم نشو الناس فى (الأفران) كما فعل الألمان . . . وكنا فى فتوحنا نحارب الجنود المحاربين ، ونأمر بترك غير المحاربين الآمنين فى المدن من الرجال والنساء والرهبان ولكننا لم نهلك بقنبلة واحدة (٢٨٥) ألف نسمة ، من الشيوخ والعجائز والصبايا والأطفال غير المحاربين كما فعل غيرنا فى هيروشيما . . .

---

(١) سورة البقرة ٢٥٦ .

(٢) يونس ٩٩ .

سوء القدوة :

ومن أعظم أسباب ضعف الإيمان عند الشباب سوء القدوة في البيت ، وفي المدرسة ، وفي المعبد ، ذلك لأن القدوة إنما تبنى على الاحترام والثقة . وما لم يكن للشباب ، في قرارة نفسه ، احترام لرجل الدين ، وثقة بعلمه وخلقه قولا وعملا ، لا يمكن أن يتخذ منه قدوة ؛ بل يكون غير الصالح من رجال الدين سبباً لتجرؤ الشباب على الإلحاد . وعلاج هذا الأمر يفتقر إلى تحضير جيل كامل من رجال الدين ، يتولى هو بدوره تخريج جيل من الآباء والأمهات والمعلمين الصالحين القدوة ، لتستكمل الحلقة دورتها . وتحضير هذا الجيل يرتكز على الأسس الآتية :

١ – اختيار النخبة من الطلاب الأذكياء ، الأصحاء جسما وعقلا ، للسلك الديني ، وتسليحهم بكل أسلحة العلم الديني والدنيوي ، التي تصلح لمواجهة الشباب المثقف .

٢ – رفع مستواهم المعاشي حتى لا يكونوا محتاجين أذلاء . فالناس لا يقتدون بالمحتاج الذليل ولو طبق الدنيا علماً . وقديماً قد قيل :

(لو رأى الناس نبياً : سائلا ما وصلوه) .

٣ – جعلهم تحت رقابة مسلكية صارمة تحفظ عليهم دوام الاحترام والثقة .

سلطان الرأى العام :

وفوق كل هذه العلاجات لعقد الكبت والتخاذل والتقليد ، علاج لا بد أن نستعين به لأن الله فرضه ، وهو (سلطان الرأى العام) .

إن أولئك المصابين من شبابنا بتلك العقد ، والذين بلغ الأمر بهم إلى حد إعلان الإلحاد والاستهزاء بالدين ، وإغواء الآخرين ، وتخذيل الأمة ، هم مرضى ويجب أن نعالجهم كما نعالج كل الأمراض النفسية ، والعقلية . أى تارة بالعطف واللطف والإيحاء والاستهواء والإرشاد ، وتارة بشيء من القسوة .

أما علاج الإرشاد فهو من عمل المرشدين الذين تحدثنا عنهم . وأما علاج القسوة فهو من عمل الرأى العام .

هذا الرأى العام ، الذى وضع به التشريع الإسلامى أعظم ركائز الإصلاح والزجر في المجتمع ، وجعله من مزايا الإسلام بقول القرآن : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

عن المنكر ...)[١] . (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)[٢] .

هذا الرأى العام له سلطان وهيبة لا تقل عن هيبة الدولة ، بل قد تفوقها لأنه ينفذ إلى حيث لا تصل عين الدولة ، فنرى الشاب ، مهما كان مستهتراً ، يتكتم عن الناس ويستخفى فى الذنوب التى يشعر أن الرأى العام ينكرها أشد الإنكار .

فلو أن الرأى العام درج على إظهار الاستنكار والاحتقار للمجاهرين بالإلحاد والمستهترين بالدين ، والمفاخرين بترك الشعائر ، والساخرين من أحكام الشرع ، لأحدث ذلك أثراً عظيماً فى الإصلاح .

الإيمان بالله ضرورة :

وآخر طرق العلاج مع الشباب المثقف بل أولها عند البعض ، أن تقنعهم بجدوى الإيمان وأنه « ضرورة » إنسانية .

فى فلسفة البراغماتيزم Yragmatisme التى سموها فى العربية « فلسفة الذرائع » ، أن الفكرة إنما تكون « حقاً » لأنها « نافعة » وإنما تكون نافعة لأنها حق .

(١) آل عمران ١١٠ .

(٢) آل عمران ١٠٤ .

وأن « الحق والنافع » يعبران عن شىء واحد . أى أن القضية تصبح حقاً عندما تبررها العواقب . فنحن فى زعم البراغماتيزمية الأمريكية ، نخلق « الحقيقة » ونخلق « الحقيق » حسب حاجة المجتمع .

إن هذه الفلسفة ، التى تتخذ من القيمة العملية للفكرة مقياساً للحقيقة ، ليست صحيحة فى أساسها . وليس هذا مقام الكشف عن جوانب الخطأ فيها . ولكننا نتخذ منها منطلقاً لطرح السؤال الآتى :

هل نبدأ التفكير فى « الحق » أولا ، لنستخرج منه « النافع » أم نبدأ التفكير فى النافع الضرورى لنقول عنه إنه حق ؟ إننى ، مع الشباب المثقف بالذات ، وفى قضية الإيمان بالذات ، أرى أن نبدأ بالثانى . ولكن من أى جوانب النفع والضرورة نمسك خيط الجدل مع هؤلاء الشباب الذين تحيط بهم الشكوك فى الدين من كل جانب ؟ .

يقول القرآن : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا)[١] فكيف إذا كان هذا الإنسان من الشباب المزود بسلاح العلم المجادل فى كل القيم ؟ .

(١) الكهف ٥٤ .

إن السنين الطوال سوف تنضج ، على جمر العذاب ، تفكير الشباب حتى يصدقوا أن الإيمان «حق وضرورة» ولكننا نريد أن نختصر لهم السنين الطوال ، ونوفر عليهم عذاب الندم والحسرة إذا (جاءت سكرة الموت بالحق) كما يقول القرآن . فمن أين نبدأ الكلام فى أن الإيمان بالله ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ؟ .

لا ريب فى أن البداية يجب أن تكون أمراً نتفق نحن والشباب على أنه «حق وضرورة» . فما هو هذا الأمر؟ .

إنه «إنسانيتنا» التى يمكن أن يجادل الشباب فى كل شىء إلا فيها .

يقول الفيلسوف الإسلامى الكبير «ابن مسكويه» فى كتابه الموجز الجليل «تهذيب الأخلاق» إن المزية الوحيدة التى يتميز بها الإنسان عن الحيوانات الكثيرة كلها ؛ هى «مكارم الأخلاق» .

ذلك أن كل مخلوق يشترك مع غيره من المخلوقات فى بعض الصفات، ويمتاز عنها لنفسه بصفة ومزية خاصة لا يشاركه فيها غيره ، كالأسد يمتاز بالقوة ، والفرس بسرعة الجرى ، والبغل والحمار بحمل الأثقال ، والعندليب والكنار بالتغريد ، والطاووس بجمال الشكل ، إلى غير ذلك .

أما الإنسان فإنه يشارك الحيوانات الأخرى ، بصفات الحركة والتغذى والتناسل ، ويمتاز عنها بمزية واحدة : وهى «النطق» أى العقل ، ومن هنا أطلقوا عليه اسم «الحيوان الناطق» أى العاقل .

ولكن التحقيق العلمى قد أثبت أن الحيوانات لا تخلو من عقل تدرك به كثيراً من أمور معيشتها لذلك صار علينا أن نبحث عن مزية أخرى خاصة يمتاز بها الإنسان عن الحيوانات ، وبها يسمى إنساناً .

هذه المزية الخاصة هى : «الأخلاقية» التى تتجلى «بالضمير الإنسانى» .

فالحيوان يعقل ، وقد ترتقى فيه قوة التعقل ، كما فى بعض القرود، ولكنه لا يفهم معنى «الأخلاقية» ، ولا يمكن أن يكون له الشعور الذى نسميه «الضمير» .

فأخلاقيتنا ، إذاً ، هى المزية الوحيدة التى نثبت بها «إنسانيتنا» ، وإذا خرجنا عن هذه المزية عدنا إلى مرتبة الحيوانات ، بل كان كل حيوان ،

بمزيته الخاصة ، خيراً منا لأننا فقدنا مزيتنا الخاصة ، وليس لنا مزاياه .

هكذا قال ابن مسكويه ، وهكذا من بعده بعصور . جاء « داروين » يقول إن الضمير أو الحس الأخلاقى هو أظهر فاصل يفرق بين الإنسان والحيوان جاء « كانط » يتخذ من هذا « الشعور الأخلاقى » منطلقاً لإثبات خلود الأرواح ويوم الحساب ، ووجود الله الحكم العدل القدير . هذا الضمير الأخلاقى إنما يصونه الصيانة الكاملة الدائمة الساهرة ، النافذة من وراء حجب الخفاء شيء واحد ، وهو الإيمان بوجود الله الحكم العدل القدير .

فتحقيق إنسانيتنا ضرورة اجتماعية ، وإنسانيتنا لا تتحقق إلا بأخلاقيتنا ، وأخلاقيتنا لا تصان إلا بالإيمان. فالإيمان إذاً ، أمر ضرورى لأنه يمسك أخلاقيتنا التى تثبت بها إنسانيتنا .

وأكرر القول للشباب : إن الإيمان بالله هو :

أس الفضائل .

ولجام الرذائل .

وقوام الضمائر .

وسند العزائم فى الشدائد .

وبلسم الصبر عند المصائب .

وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ .

ونور الأمل فى الصدور .

وسكن النفوس إذا أوحشتها الحياة .

وعزاء القلوب إذا نزل الموت أو قربت أيامه . . .

والعروة الوثقى بين الإنسانية ومثلها الكريمة . . .

فلا يخدعنكم . أيها الشباب ، من يقول لكم إن مكارم الأخلاق تغنى بوازع الضمير ، عن الإيمان ، لأن مكارم الأخلاق التى تواضعنا عليها للتوفيق بين غرائزنا وحاجات المجتمع لا بد لها ، عند اعتلاج الشهوات ، فى الشدائد والأزمات ، أن تعتمد على الإيمان . بل إن هذا الشيء الذى نسميه ضميراً إنما يعتمد ، فى سويدائه على الإيمان . . .

وانقياد الناس لمكارم الأخلاق ، إنما يكون بزاجر من سلطان، أو وازع من القرآن ، أو رادع من المجتمع ، فإذا كنا فى نجوة من سلطان القانون والدين والمجتمع لم يبق لنا وازع إلا الضمير . ونحن فى معركة الشهوات والغرائز مع الضمائر قل أن ترى الضمير منتصراً ، إلا عند القلة من الناس ، وهذه القلة نفسها لا تتمسك بضمائرها عند جموع

الشهوات ، إلا إذا كانت تخشى الله .

ولو تركنا مكارم الأخلاق جانباً ، ونظرنا إلى حاجتنا للإيمان من حيث هو سند فى الشدائد وبلسم للمصائب ، وسكن للنفوس ، وعزاء للقلوب ، وعلاج لشقاء الحياة ، لوجدنا أننا عند فقد الإيمان نكون أسوأ حظاً فى الحياة ، وأدنى رتبة فى سلم المخلوقات من أذل البهائم ، وأضعف الحشرات ، وأشر من الضوارى :

فالبهائم تجوع كما نجوع ، ولكنها فى نجوة من هم الرزق وخوف الفقر ، وكرب الحاجة ، وذل السؤال . . . وهى تلد كما نلد ، وتفقد أولادها كما نفقد ، ولكنها فى راحة من هلع المشكلة ، وجزع الميتمة ، وهم اليتامى المستضعفين . .

وهى فى أجسادها ، تلتذ كما نلتذ ، وتألم كما نألم ، ولكنها فى راحة مما يأكل القلوب ويقرح الجفون ويقض المضاجع ويقطع الأرحام ، ويفرق الشمل ، ويخرب البيوت من المهلكات : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ، والفرية ، والقذف والنفاق ، والخيانة ، والعقوق ، وكفر النعمة ، ونكران الجميل ...

وهى تعرف ، بنوع من الإدراك ما يضرها وما ينفعها ، ولكنها فى نجوة من أعباء التكليف ، وأثقال الأوزار ، ومضض الشك ، وكرب الحيرة ، وعذاب الضمير . . . .

وهى تمرض كما نمرض ، وتموت كما نموت ، ولكنها فى راحة من التفكير فى عقبى المرض ، وفراق الأحباب ، وسكرات الموت ، ومصير الموتى وراء القبور . . .

والضوارى تسفك الدماء لتشبع ، بلا سرف ، ولكنها لا تسفكها أنفاً ، ولا جنفاً ، ولا صلفاً ، ولا ترفاً ، ولا علواً فى الأرض ، ولا استكباراً .

أما هذا الحيوان الفيلسوف ، الضعيف الهلوع ، الجزوع ، المطماع ، المختال ، الفخور ، المترف ، المتكبر ، المتجبر السافك الدماء ، الذى لا يأتيه شقاء الحياة ، أكثر ما يأتيه ، إلا من تفكيره فإنه لاعلاج لشقائه إلا بالإيمان فالإيمان هو الذى يقويه ، وهو الذى يعزيه ، وهو الذى يسليه ، وهو الذى يمنيه ، وهو الذى يرضيه ، وهو الذى يجعله إنساناً يسعى إلى مثله الأعلى لتسجد له الملائكة . . . ومن دون هذا الإيمان يكون هذا الإنسان المسكين أتعس الخلائق ، وأسوأها حظاً ، وأعظمها شقاء

وأشدها بلاء وأحطها رتبة، وأرذلها مصيراً .

وسبيله إلى الإيمان هو ذلك « التفكير » الذى كان سبب شقائه . إنه عبد لتفكيره قبل أن يكون عبداً لربه ولا يكون عبداً لربه، حق العبد، إلا بهذا التفكير الذى ينسج أكثر خيوط سعوده ونحوسه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

لقد خلق الله هذا الإنسان ، ورفعه، وكرمه ، وميزه بهذه النفس العاقلة المفكرة التى علمه بها الأسماء كلها وخلفه بها على الأرض ، وصيره بها فوق الملائكة ، وكتب الفلاح لمن زكاها ، والخيبة لمن دساها (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)[1] فكيف نزكيها ؟

إننا نزكيها بالتفكير ، حتى تتسامى إلى مثلها الأعلى وتصل إلى « اليقين » من الحق والخير والجمال ، فنرى الله عنده . . . ونجد من حلاوة الإيمان ما تدرك به سر شقائها وسعادتها وضعفها وقوتها ، وعجزها وقدرتها ، وعبوديتها وحريتها . . . بل سر خلقها ، ووضعها على مفترق « النجدين » وتركيبها على هذه الصورة القابلة « للضدين » ، التى من دونها لا يفهم معنى « العبودية » ولا يستقيم معنى « العبادة » . . .

لذلك كان حقاً علينا ، من باب الحاجة والضرورة ، إن لم يكن من باب الحق والعبادة والتقوى، ومن أجل سلامة عقولنا ، وسلامة قلوبنا ، وسلامة ضمائرنا، وسلامة إنسانيتنا ومثلها العليا، وسلامة المجتمع، أن ندعو إلى الإيمان بالله ، ونيسره للعقول ونشرح له الصدور.

نديم الجسر

---

(١) سورة الشمس ٧ — ١٠ .

فهرس العدد

الموضوع | الصفحة

إلى السادة راغبى الاشتراك فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار ، تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم . تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية . والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

et se bornant par conséquent à recevoir ce qui vient à lui en quelque sorte spontanément et sans aucune initiative de sa part, ne saurait avoir de méthode; il ne peut donc pas y avoir de **tariqah** mystique, et une telle chose est même inconcevable, car elle est contradictoire au fond. De plus, le mystique, étant toujours un isolé, et cela par le fait même du caractère "passif" de sa "réalisation", n'a ni "cheikh" ni maître spirituel" (ce qui, bien entendu, n'a absolument rien de commun avec un "directeur de conscience" au sens religieux), ni **silsilah** ou "chaîne" par laquelle lui serait transmise une influence spirituelle (**baraqah**)".

Et c'est avec logique et bon sens que René Guénon conclut qu'il faut traduire **tassawwuf** par "initiation", en se souvenant que voie initiatique et voie mystique sont rigoureusement incompatibles. Faut-il ajouter, précise-t-il, qu'il n'y a en arabe "aucun mot par lequel on puisse traduire même approximativement celui de "mysticisme", tellement l'idée que celui-ci exprime représente quelque chose de complétement étranger à la tradition islamique."

Rappelons a ce propos la très-précieuse distinction que l'Islam établit entre le domaine de la Connaissance pure, de la "vérité intime" (**Haqiqah**) et la Route Générale (**Chariyah**) : tous les autres aspects de la Religion, rituels, émotifs, sociaux, législatifs, etc...). Pas de contradiction.

En effet, c'est la **Haqiqah** qui donne sa vraie valeur et sa vraie signification à la Route Générlle. La **Haqiqah** est comme le Centre et la **Chariyah** est comme la circonférençe engendrée à partir de ce Centre. Les rayons représentent les voies d'accès pour ceux qui, partant de la Circonférence, veulent rejoindre la **Haqiqah**; celle-ci et les voies d'accès constituent un ensemble; cet ensemble, c'est l'ésotérisme islamique; les **voies** sont multiples et se rapprochent les unes des autres au fur et à mesure que chacune se rapproche du Centre.

sont eux qui répandront l'Islam par contre-coup dans une vaste zone de l'Afrique Noire, du Sénégal jusqu'à l'Ethiopie.

Replacée dans ce contexte, l'entreprise du grand Sanoussi n'a rien d'extraordinaire, d'"original" au mauvais sens du terme.

Qu'est-ce que le Soufisme ?

C'est un mot qu'il vaudrait mieux ne pas employer; les finales en-isme font penser à une doctrine ou à une systématisation et rien n'est plus déplacé en l'occurrence; en fait c'est un mot inventé par des orientalistes non musulmans, qui en ont fait un synonyme d'**ésotérisme islamique**; pourtant le mot arabe[1] qu'ils traduisent "soufisme" s'applique à tout enseignement ésotérique traditionnel, quelle que soit la forme religieuse ou philosophique qu'il ait pu revêtir; le mot **soufi** lui-même, en arabe, désigne celui qui a atteint le plus haut degré de développement possible à l'homme; nul ne peut se dire soufi, mais on peut être "mutassawwuf", c'est-à-dire à un degré, ou à un autre, de l'évolution spiriuelle : cela nous rappelle Pythagore refusant le titre de SOPHOS (généralement traduit par "sage") et revendiquant celui de PHILO-SOPHOS ("chercheur amoureux de la Sagesse").

Nombre d'orientalistes occidentaux ont voulu insinuer que le "soufisme" serait venu s'ajouter à l'Islam pour ainsi dire **du dehors,** alors que les doctrines traditionnelles auxquelles ils prétendent se référer sont un élément essentiel de l'Islam depuis ses origines. Cette déformation, consciente ou inconsciente selon les cas, des réalités musulmanes s'est aggravée quand ces messieurs se sont mis à nous parler de "mystique musulmane", à propos des Ordres initiatques islamiques, exposant ainsi aux yeux des gens avertis leur incompétence et leur ignorance, mais aussi abusant et induisant en erreur quantité d'esprits que personne ne songe à mettre en garde. Comment des esprits sérieux, formés aux méthodes "scientifiques" de la critique universitaire allemande ou française ont-ils pu délibérément entretenir de pareilles confusions? Comment... ou **„pourquoi"** ?

Quand un chercheur de bonne foi croit trouver en dehors du Christianisme des équivalents du mysticisme,manifestation qui n'appartient en fait qu'à cette religion, c'est qu'il est abusé par quelques ressemblances extérieures accidentelles, souvent fondées sur le vocabulaire: ces vagues analogies n'ont aucun poids en face des différences fondamentales que l'on a oubliées. Le but du mysticisme n'est pas la Connaissance pure, aussi fait-il partie du domaine général de la Religion, de l'exotérisme. "Le mystique ayant une attitude "passive"

(1) Tassawwuf.

veulent bien laisser, de leur constitution intime, de leur base, de leur organisation ésotèrique.

C'est ainsi qu'on peut relever des traces d'infiltration de l'Ordre Qadiryah en Afrique du Nord au 12e. siècle; mais ceci ne nous permet point de juger de l'importance effective, numérique ou autre, de cette pénétration d'un Ordre qui s'était constitué au 11e, siècle.

Quand s'éteint, vers 1200, le grand initié de Tlemcen, Abou Madyan, c'est au Maghreb que son disciple Noureddine al-Shadili, mort en 1258, jette les bases de ce qui deviendra bientôt, après son exode en Egypte, l'Ordre shadiliyah; le succès de al-Shadili avait été si foudroyant en Tunisie que les autorités en prirent ombrage; laissant là des quantités de disciples déjà organisés, el Shadili recratera avec une aussi grande facilité en Egypte, en Syrie, en Arabie des adeptes enthousiastes.

Comparativement aux Qadiriyah et aux Shadiliyah, les deux autres grands ordres, tous deux apparus en Asie entre 1200 et 1250, fondés l'un par Shihâb el-Dine et l'autre par Djelaleddine Roumi, ont eu en Afrique du Nord une diffusion modeste, au moins du point de vue quantitatif. Ces grands ordres fondamentaux sont tous les quatre marqués, dès cette èpoque, dans l'enseignement de leurs cercles ésotèriques, par la pensée et l'oeuvre prestigieuse de Mohieddine Ibn-Arabi, mort vers 1240, — Ibn-Arabi qui repose dans une mosquée de Damas et auprès de qui a voulu reposer son disciple Abd-el-Kader, le chef de la résistance algérienne au 19e siècle, auteur lui-même de commontaires sur Ibn-Arabi et d'ouvrages divers.

Laissons passer deux siècles : vers 1400, l'action des confréries en Afrique du Nord a été telle que les centres vitaux de l'enseignement islamique ne sont plus simplement les mosquées et les medersas, mais aussi, sinon plutôt, les communautés organisées des ordres religieux, concrétisées dans des édifices : les zaouyas. Aux yeux de beaucoup de gens, les gardiens du pur Islam, les défenseurs de la foi sont moins les ulémas, les théologiens, que les dirigeants des confréries et leurs collaborateurs.

C'est un fait indiscuté d'ailleurs que, bien souvent, la résistance à l'expansionnisme européen viendra des Ordres, bien plus que des Pouvoirs, - et certes, dès 1700, ce sont les Ordres qui, sur le plan international, apparaitront comme les défenseurs de l'Islam, plus que les Califes; si les historiens orientaux n'insistent guère à ce propos, n'oublions pas que l'Orient musulman a souvent méconnu l'Afrique du Nord, lui a donné une place insignifiante dans ses préoccupations, ainsi que dans les oeuvres des géographes et des historiens. Ce sont les Ordres qui, de Tunis jusqu'à l'Atlantique, feront face aux missionnaires et aux colonisateurs de tous poil, ce

laisse pas d'entretenir avec les Ordres ivitiatiques, dont nous allons parler, des rapports plus ou moins étroits selon les conjonctures.

F. — Les Medersas et les Ordres

Partout au fur et à mesure que dans les régions troublées par les envahisseurs et par les guerres, le calme s'était rétabli, on avait vu apparaitre, déjà aux approches de l'an mil, les medersas; comme nous l'avons déjà dit, c'étaient des institutions d'état, auxquelles était dévolu l'enseignement de l'Islam selon le rite malékite; elles devaient aussi défendre l'Islam contre les déviations; ces medersas sont patronnées directement par des hommes influents, souvent des souverains.

Mais quand s'effondrent les Almohades et pendant qu'en Espagne l'Islam chancelant se maintient, ici et là, encore un siècle[1], les Ordres initiatiques commencent à se faire connaitre à de larges couches des populations islamisées, ils en viennent souvent même à s'incorporer étroitement à la vie populaire; jusqu'à l'an mil, on avait surtout connu des réunions libres de chercheurs de perfection autour d'un Maitre vénéré. Dès 1200, se présentent des organisations puissantes : les Confréries. Elles affrontent sans crainte, s'il le faut, la Théologie officielle et les Pouvoirs.

(1) Plus longtemps encore à Grenade.

Elles prétendent ainsi, elles aussi, contribuer à la revivification de la foi; par delà le noyau d'initiés qui est le coeur de l'organisation, elles veulent agir sur le plan exotèrique, sur les masses, grâce, à leurs adhérents (les "mountasibin", que nous avons définis au début du chapitre IV) et grâce à leur organisation matérielle, centrée sur un certain nombre de "Maisons" de la Confrérie; la "maison" s'appelle tantôt **ribat,** tantôt **zaouya,** tantôt **khanaqua,** tantôt **tekkié**).

Les zaouyas d'Afrique du Nord, comme le seront celles des Sanoussis, ne se contentent pas de donner l'enseignement propre à l'Ordre qui les a créées, elles offrent aussi des cours généraux de sciences islamiques (théologie orthodoxe, droit musulman, etc. .). Souvent elles documentent la population sur les évènements politiques et sociaux, jouant un rôle d'information des plus importants. La revivification de l'Islam s'appuie donc, dès lors, sur un nouvel élément; jusqu'alors, elle avait été le fait de penseurs vigoureux, comme ghazali, Ibn Taimyah et tant d'autres, — ou bien de personnalités puissantes, à la fois initiés et chefs politiques et militaires, comme Ibn Tachfine ou Ibn Toumert.

Penseurs et conquérants ne se cachent pas à l'historien, leurs livres et leurs victoires ne peuvent rester dans l'ombre; il est bien évident que les Ordres religieux ne laissent souvent que les traces qu'ils

de maitres prestigieux; il revient, passant par Alexandrie, puis par la Tunisie, proclamant avec zèle l'Unité divine. Ses disciples porteront le nom d' "al-muwahhid-doun" ("les gens de l'Unité"); de ce mot déformé proviendra l'appellation "almohades".

E. — Les Almohades

Revenu chez lui, Ibn Toumert, puisqu'il faut citer son nom, dénonce les déviations des Almoravides, prêche contre la musique, l'usage du vin, le luxe, contre les Califes de Baghdad et du Caire... il finira même par se présenter comme le "Mahdi". A sa mort (1142), un de ses disciples, originaire de Tlemcen, Abd el-Moumen, poursuit son oeuvre; après d'âpres combats, il soumet le Maroc, puis l'Algérie et la Tunisie, prend le titre de Calife, et règne sur l'Afrique du Nord tout entière, de l'Atlantique jusqu' à la Tripolitaine.

Défaits au Maroc, les Almoravides n'avaient pas pu tenir non plus en Espagne islamique; le pouvoir s'y était émietté, derechef, entre de nombreux petits émirats particularistes. Certains appelèrent les Almohades à l'aide; d'autres, n'ayant pas oublié ce qui s'était passé après l'intervention almoravide, s'allièrent à des princes chrétiens. Aussi lorsque abd-el-Moumen reconstitua l'Espagne islamique, dut-il laisser de côté une petite zone orientale; mais pendant cinquante ans, sous le sceptre almohade, l'Islam va briller à nouveau, d'un éclat incomparable, au milieu d'une prospérité économique jusque là inégalée; et non seulement l'Espagne, mais le vaste Empire dont elle fait partie, qui va du Maroc à Tolède, de la Mauritanie à la Libye: seule époque dans l'histoire connue où l'Afrique du Nord ait été totalement unie.

C'est ainsi donc qu'en moins de deux siècles Almoravides et Almohades achevèrent, par la constitution de vastes empires unifiés, l'islamisation et l'arabisation de l'A-frique du Nord. Austères, rigoristes au début les uns et les autres, leurs successeurs s'assouplirent et goûtèrent aux douceurs de l'Espagne musulmane. Tout en restant malékites, les Almehades encouragèrent une libre recherche intellectuelle; c'est l'époque o'Ibn Tofail et d'Averroès[1] pour ne citer que deux noms au hasard; ils montrèrent aussi une tolérance compréhensive envers le culte des saints qui se popularise de plus en plus, et ne

(1) On l'oublie trop souvent : ce sont des circonstances politiques accidentelles qui poussèrent un prince almohade à exiler Averroès, pour se concilier les théologiens orthodoxes : et c'est ainsi qu'émigra en Europe la recherche philosophique libre; et c'est un saint chrétien, le plus grand philosophe sans doute que l'Europe ait produit, Thomas d'Aquin, qui conitnuera l'oeuvre d'Averroès : singuliers caprices des circonstances.

Celui-oi fonda dans l'ile de Tidris, au large de la Mauritanie, une Ecole, un sorte de monastère où il vécut avec quelques fidèles, sous une rude règle; le nombre des disciples s'accrut; ayant réuni une équipe de collaborateurs endurois et qualifiés, Yassine s'attacha à créer, tout au long des pistes caravanières, espacés d'étape en étape, de nombreux monastères fortifiés[1].

La piété et le courage des "moines-soldats" enthousiasmèrent les Sanhadja; quand leur nombre atteignit le millier, ils décidèrent d'agir; ayant soumis aisément les tribus des alentours immédiats, ils lancèrent des raids en direction du "Soudan"[2], châtièront la ville renégate d'Adouaghost, ainsi que Sigilmassa, où les moours étaient par trop corrompues. Enfin, Ben Yassine et son général victorieux, en même temps son disciple, Ben Omar, moururent à qualques années de distance, vers 1058, alors qu'ils piétinaient aux confins du Maroc, à la tête de leurs moines-chevaliers voilés d'une fine éteffe violette ou indigo . . . Image légondaire.

L'austère et vaillant Youssef ben Tachfine prit la relève, et péntra au Maroc en 1062, fondant aussitôt Marrakech, puis soumettant rapidement le Nord du pays, Fez, Ceuta, atteignant Alger en 1082 : le Maroc avait largement refait son unité pleine et entière.

Ben Tachfine jugea alors le moment venu de répondre aux invites répétées des Emirs d'Andalousie qui, depuis des années, réclamaient son appui militaire[3]. Sept fois, il traverse la mer, livre des batailles spéctaculaires, écrase ses adversaires, s'empare de Valence, Cerdoue, Séville, Tolède, Saragosse; puis, en raison de leur vie molle et relâchée, de leur apparente tiédeur religiouse, il dépose ces Emirs-là mêmes qui l'avaient appelé au secours. Une nouvelle ère de grandeur s'ouvre pour l'Espagne islamique, pendant que de 1106 à 1142 le fils de Ben Tachfine, Ali ben Yousssef, consolide l'oeuvre de son père.

Mais, au bout de deux générations, l'Espagne musulmane avec ses arts, ses musiciens, ses chanteurs, ses poètes et as douceur de vivre ont déjà bien altéré le mode de vie prôné par les premiers Almoravides; on le sait vite au Maroc, où commencent aussi à s'infiltrer les influences amollissantes de l'Espagne. Issu de la tribu des Masmouda, un homme se lève, prend le bâton du voyageur, va à Damas, puis à Baghdad où il étudie dix ans auprès

(1) De "ribat", mot qui désigne ce type de couvent-forteresse, on a tiré : "almaraboutin" (**les gens du ribat**) qui s'est transformé en "Almoravides".

(2) Soudan : littéralement "le pays noir".

(3) Depuis la mort d'al-Mansour (1002) l'Espagne musulmane s'etait morcelée en plus de vingt états, divisés par d'incessantes querelles.

soeur des bords du Guadalquivir, la Grande Mosquée de Cordoue : l'orthodoxie sortait triomphante de ses épreuves.

Beaucoup de ceux qui avaient espéré une revivification de la foi sous l'étendard kharidjite ou chiite, constatant en définitive la désunion de l'Islam et les troubles incessants, reviennent à l'orthodoxie; des faits analogues pouvaient s'observer au Khorassan, en Asie Centrale, en Iran oriental : c'est là que, dés le 10e siècle, commencement à s'ouvrir des écoles enseignant l'Islam sunnite, formant des ulémas et des cadres : ce sont les "madrassas", qui, peu après, fleuriront en Afrique du Nord, sous le nom de "médersas".

Les controverses, les disputes nées des hérésies et leurs implications politiques et sociales avaient constitué en fait une longue crise de croissance; l'enseignement religieux en avait reçu une impulsion vigoureuse, de même les méditations sur la doctrine de l'Islam; cette crise n'avait pas été cantonnée à quelques milieux intellectuels, mais avait dominé la vie quotidienne et le destin des foules.

1050, date du ralliement ziride à Baghdad, marque donc un tournant dans l'histoire de l'Afrique du Nord; à l'Ouest, en Mauritanie se lèvent les Almoravides, dont nous allons parler, — à l'Est c'est le bouleversement social réalisé par les Beni Hilal: détruisant d'un côté les réalisations de la civilisation sédentaire et urbaine, villes et villages, par ailleurs ils font revivre la vie tribale et son organisation complexe; ils donnent ainsi à l'arabisation et à l'islamisation des Berbères, qui n'étaient jusque là achevées que dans les villes, un coup de fouet énergique, sinon décisif.

Mais, bien sûr, tout aussi capitale en ce sens fut à l'Ouest la double épopée Almoravide - Almohade (1050 — 1200); si les Almohades s'opposèrent aux Almoravides, les détruisirent et les remplacèrent, il n'empêche qu'au départ de ces deux prissantes dynasties, il exista une même volonté de revivification de la religion, de retour à la pureté première, sous l'impulsion d'une personnalité exceptionnelle qui, pour son dessein, n'a pas choisi de créer une Ordre religieux, mais un Empire.

D. — Les Almoravides

Entre l'an 900 et l'an 1000, les Sanhadja, affaiblis par des divisions intestines, avaient été subjugués par les troupes de l'Etat du Ghana. Au 11e, siècle, un chef énergique, Yahya el-Godali, rétablit leur unité, fit le pélerinage, d'où il revint pour consulter à Kairouan Abou Imran el Fasi, maitre illustre d'origine marocaine; il rejoignit ses Berbères, bien décidé à revivifier leur foi par des méthodes appropriées. Il confia cette tâche à un prédicateur du Sud-Narocain, Ben Yassine.

En effet, vers 750, les Arabes améliorent la piste qui joint le Sud-Marocain à l'Adrar et lancent une attaque exploratrice contre le Ghana; ils en reviennent chargés d'or. "Pays des Noirs - Pays de l'Or", ce slogan incite marchands et aventuriers à risquer la traversée du désert : arabes et berbères islamisés, vont se fixer, nombreux, en ce "Pays des Noirs : à la source même du trafic du métal jaune, ils en profitent pour vendre aux habitants les produits amenés du Nord : céréales, sel, étoffes, armes, métaux, etc . . . Le pays leur fournit, outre l'or la noix de kola, fort appréciée au Maghreb; les conversions se multiplient en pays noir. Et, au sein de la grande tribu berbère des Sanhadja, qui contrôle toutes les pistes caravanières venant du Maroc, une de ses importantes subdivisions, les Lentoumna, s'assure assez vite l'hégémonie. Islamisés dès le 9e siècle, les Sanhadja contribueront à la prospérité de la cité commerciale d'Adouaghost, bien vite pourvue de mosquées, et capitale d'un puissant royaume, rival du Ghana.

B. — 900 : Les Fatimides

Un "Mahdi" apparaît, vers 900; selon ses dires venu de Syrie, descendant d'Ali et de Fatima, fille du Prophète, il annonce pour sa lignée un triomphe imminent, qui se réalise effectivement; les Fatimides vont, en peu de temps, dominer une partie de l'Afrique du Nord, la Tunisie toute entière, la Sicile, la Syrie, l'Egypte et la Nubie.

Installé au Caire en 973, le chef des Fatimides se proclame solennellement Calife, déniant toute légitimité au Calife de Baghdad. Déjà, sous les coups des Fatimides, s'étaient effondrés en 909 les Rostomides et en 920 les Idrissides; en 975, c'est Kairouan qui tombait aux mains d'une petite tribu berbère, vassale des Fatimides, les Zirides. Pendant trois quarts de siècle, les Fatimides vont régner sur une partie du Maghreb et sur une partie de l'Orient Arabe; une grande propérité s'ensuivra pour tous, un esprit de large tolérance se développera.

C. — 1050 : Moment - clé pour l'Afrique du Nord :

Mais en 1050 l'Emir ziride al-Moezz va rompre avec le Caire et proclamer son allégeance au Calife de Baghdad. Les Fatimides donnèrent alors le feu vert aux puissantes tribus des Beni Soliman et des Beni Hilal, jusque là contenues dans les frontières de la Nubie; c'est un déferlement destructeur qui, traversant la Libye (une partie de ces tribus s'y attarde ou s'y fixe), s'abat sur la Tunisie, la proie désignée : elle est ravagée presque de fond en comble . . .

Vingt ans après, Kairouan renaît au milieu du désert créé par l'expédition vengeresse; la Grande Mosquée se remet à enseigner l'orthodoxie sunnite, de concert avec sa

d'autres religions); nous voulons parler du Kharidjisme et du Chiisme[1]; c'est d'ailleurs à cette époque qu'arrivaient jusqu'au Maroc, comme dans tout le monde musulman, de véritables "missionnaires" d'une importance secte chiite : les Ismaëliens; les opposants étaient aussi portés à se rallier à ceux.

(Parfois chiites) qui faisaient leur la croyance au "Mahdi", croyance qui s'était plus ou moins répandue selon les régions (le "Mahdi" étant un Envoyé de Dieu qui doit venir restaurer l'Islam dans sa pureté primitive).

A. la Période 750 — 900 :

Entre 750 et 800, de nombreux soulèvements kharidjites locaux aboutissent, en quelques décades, à la constitution de trois importants royaumes qui rejettent l'autorité du Calife de Baghdad : **Sigilmassa,** dans le Sud-Ouest marocain), **Tlemeen,** qui va connaîre un prodigieux essor commercial et devenir en même temps un grand centre à la fois de théologie dogmatique et de libre recherche spirituelle ; enfin au Sud-Est de Mostaganem, le Royaume de Touhert (**Tiaret** pour les Français) fondé par l'iranien Ibn Rostom, état fort, dirigé par un roi élu (investi dès lors d'un pouvoir absolu, et tenu à une vie simple, rude et pieuse).

Chiite par contre, le gouvernement du Royaume Idrisside, créé par Idris Ier à la fin du 9e siècle[1]; il fonde Fès, bientôt capitale du nouvel Etat, que son fils Idris II va étendre, en un quart de siècle, à peu près jusqu'aux frontières du Maroc actuel.

Enfin, simultanément, se constituent peu à peu en Mauritanie les conditions qui permettront l'essor, trois siècles après, de deux mouvements de revivification essentiels dans l'histoire de l'Islam : Almoravides et Almohades.

(1) Aprè la mort du Prophète, certain musulman pensaient que son gendre, Ali, devait lui succéder comme chef de la Communauté islamique. Les Chiites, partisans d'Ali, se divisèrent très vite en de nombreuses sectes. Les Kharidjites (du verbe **kharadja,** sortir) "sortirent" de la communauté musulmane; persuadés qu'Ali avait un droit imprescriptible au Califat, ils s'indignèrent de le voir accepter, sur cette question, un arbitrage. Très violents et sectaires au début, ils prirent souvent par la suite des formes plus modérées (ibadisme, etc). Au total chiites et kharidjites n'ont jamais constitué, au sein de l'Islam, qu'une très petite minorité.

(1) Fuyant l'Orient, où sa famille avait été massacrée, Idris trouva accueil chez les Berbères Awraba; il se présentait comme un arrière petit-fils d'Ali; fait assez fréquent, l'équipe directrice chiite groupée autour d'Idris ne prétendait pas enseigner à la population la doctrine particulière qui était la sienne; membres de sociétés ésotériques ils pensent que l'enseignement fondamental auquel ils se rattachent n'a pas à être vulgarisé.

REVUE DE L'AZHAR

Section française

par

Moustafa Djellal-el-Dine Daumal

NOTE SUR L'HISTOIRS DE L'AFRIQUE DU NORD ET LES ORDERS RELIGIEUX

Le Prophète Mohammed mourut en 632.

Moins de vingt ans après, les Arabes, maitres de l'Egypte, poursuivaient déjà en Afrique du Nord le prodigieux mouvement d'expansion qui avait suivi la Révélation coranique; la conquête fut aisée, hormis l'Extrême - Ouest et les régions montagneuses, où elle exigea un demi-siècle. Les conversions étaient nombreuses, en général volontaires, sincères, car les nouveaux arrivants ne cherchaient pas, pour de multiples raisons, à convertir systématiquement juifs et chrétiens; ils les considéraient comme "Gens du Livre", adorateurs du même Dieu que le leur. A cette masse de néophytes, il fut difficile de donner d'emblée un enseignement religieux suffisant; on fit au mieux; des théologiens s'y employèrent, agissant parfois sur l'ordre des Pouvoirs, parfois de leur propre initiative.

Peu après l'an 700, une nouvelle vague de conversions : après la défaite de leur reine, âme de la résistance, Kahina, de nombreux berbères rebelles se font musulmans; avant de mourir, Kahina avait solennellement prédit le triomphe de l'Islam; ses fils se convertirent; leurs soldats allèrent grossir les troupes du Calife; et bientôt, après la conquête de l'Espagne par les armées berbères musulmanes de Tariq (720), des conversions massives se produiront à nouveau.

Aux opposants qui subsistaient, opposants par intérêt, opposants par tempérament, l'Islam lui-même offrait une voie d'intégration: l'adoption de positions doctrinales frondeuses ou subversives (que certains baptisent "hérésies" en forçant abusivement l'analogie avec

have it in abidance with God's admonition "And if any of the idolaters shall demand protection of thee, grant him protection, that he may bear the word of God; and afterwards let him reach the place of his security."

The Prophet has also stated that any believer could conclude a security covenant or an immunity pledge with enemy men, both individuals or groups. Any of the enemy's soldiers so immunised, were treated as Zimmis and no longer prisoners of war. A security pledge was deemed finally effective only through the sanction of the authorities or the army leaders; it took effect, however, from the date it was issued and could not be abrogated except where it was established that he who had been given it was a spy on the Muslim armies.

Even slaves were allowed to give security pledges to the enemy; such tolerance having been so attended to spare as much as human blood as possible, and to minimise the possibilities of continued warfare.

Coptives

57 — Islam preserves human dignity both in war and peace. It dealt mercifully with war prisoners; history having known no warriors other than Muslims that were so tolerant towards captives.

The Prophet admonished the believers to administer respectful treatment of the prisoners of **Badr** as if they were his own guests.

Muhammad Abu Zahrah

created the heavens and the earth: Of these, four are sacred. This is the right religion : theretore deal not unjustly with yourselves therein. But attack the idolaters in all the months, as they attack you in all."

The truce besides its value in facilitating the performance of pilgrimage, might inspire the two disputant parties with peacerul sentiments when the trace is over and peace could thus be restored.

53 — The second case where truce is compulsory is when peace is requested by the enemy, unless this would prejudice Muslim interests, as laid in God's words "And if they 'incline unto peace, do thou also incline thereto ; and put thy confidence in God, for it is he who hearth and knoweth. But if they seek to deceive thee, verily God will be thy support. It is He who hath strengthened thee with His help, and with that of the faithful." This means that enemy's request for a cessation of hostilities should be granted while maintaining proper precautions.

End of War through Permanent Peace :

54 — That war could be terminated with a permanent peace is borne out by the Quranic texts already quoted in substantiation of the fact that the basis of relations between Muslims and the others, is peace.

Observance of a permanent peace would not impede precaution, however. It should rather make such precaution necessary as a safeguard against possible treachery by the enemy.

Permanent peace could also be achieved through the enemy's entry into covenant with the Muslims.

End of War Through Surrender:

55 — War could also be ended through the defeat of either party. Should defeat be the lot of Muslims, they must not give up or submit to oppression for Islam is the religion of dignity and self-prestige.

If a cessation of hostilities be brought about by the enemy surrender, old enmities should be removed and justice and tolerance substituted for them. Islam admonishes mercy and not punishment for the vanquished. The reason for this is that war is not between peoples but rather confined to the camps of sovereigns who dominate these peoples. With the surrender of a sovereign's troops, there can be no further causes of hostility and amicable relations should be restored.

Immunity :

56 — War as already stated is not with peoples but with a dominating and despotic ruler. It could be terminated any moment, and such of the enemy's men who would seek a safety pledge, should

them, ordained piety for "God is with the pious." Piety here is meant for virtue in the sense that the believers while repelling aggression in like manner should not profane the sanctity of virtue even though it is violated by the enemy in raping women, disfiguring dead bodies, leaving the captives to die of hunger, or killing them.

The conduct of war at the times of the Prophet, the Prophet's successors, and many Muslim leaders was characterised by these principles. An outstanding example is provided by Saladin El-Ayubi's behaviour towards war prisoners. A large number of captives fell in his hand upon the recovery of Jerusalem. Feeling that he would not be able to feed them, the Muslim leader decided to release them to avoid their dying of hunger. The captives once they were set free, rallied together and fought him again but the Muslim leader never regretted his act.

An opposite example was set by Richard, leader of the enemies, who after giving three thousand Muslims a safe conduct if they surrendered, killed them in violation of this pledge.

Napoleon Bonaparte set a similar example by exterminating the troops he took prisoner at the battle of Acre.

50 — The fact that certain Muslim leaders such as Moguls, and Turkman committed barbaric crimes was due to their own perversion, and violation of Islamic precepts.

5 — Cessation of Hostitities

51 — War is terminated in either of three cases : (a) if it outlives its purpose through enemy surrender, concluding a covenant, adopting Islam, accepting an armistice whereby fighting will be called off for a permanent peace.

Truce :

52 — This is an armistice declared in the course of the fight which could end in a permanent peace, or lead to another flare-up of hostilities.

Truce is compulsory in two cases:

a) During the four forbidden months of Zu Al-Ke'da, Zu Al-Hejja, Al Muharram, and Ragab for the three first months cover the pilgrimage season and the fourth the period for the pilgrims' return. Muslims are forbidden to fight in these months unless they are driven to it ; God having said, "and when the months wherein ye are not allowed to attack them shall be past, kill the idolaters wheresoever ye shall find them, and take them prisoners, and besiege them, and lay wait for them in every convenient place, "And" the couple number of months with God, is twelve months, which were ordained in the book of God, on the day whereon he

The Prophet also forbade the killing of workers provided also that they neither fought nor acted in such a manner as to fortify the armies.

We are to apply these Muslim rulings to contemporary times, We would prohibit the use of all the weapons being used against innocent peoples.

Prevention of Destruction :

48 — Abu Bakr could not have advised against the destruction of prosperous places and the cutting of fruitful trees had he not been inspired by the Prophet to this effect.

Nevertheless, the scholars differed over the permissibility of cutting the trees. According to Awza'i, a scholar of Syria and a contemporary of Abu Hanifa, he confirmed the ban on the cutting of trees and the destruction of prosperous places unless there be a military necessity to do so as in the event of the enemies hiding in the trees or the buildings when trees could be removed and the buildings demolished. As to demolition for the mere sake of weakening the enemy or kindred purposes, it is not lawful.

Other scholars held different views and in support of their contention on the permissibility of cutting the trees, quoted God's words in the chapter of Exile, "What palm-trees ye cut down, or left standing on their roots, were so cut down or left by the will of God."

They also quoted the Prophet as having ordered the Believers to destroy the homes of Beni Al-Nadeer; and to hit Thakeef's citadel with catapult. The same scholars further contend that if souls were allowed to be wasted what value was there for property ?

A review of the sources of the Muslim Code, however, would give much weight to Awza'I's opinion to the effect that the uprooting of trees and the destruction of homes was permitted only for military needs and not for ruin or the vexation of the enemy. It is illogical that destruction should have been allowed for the mere sake of destruction. These are the rules of the Muslim jurisprudence which further prohibit any harm to the peoples in battles, the destruction of both land and plant, or the raiding of peaceful citizens.

4. Observance of Virtue During Wars :

49 — Virtue governs Muslim actions even though war is raging. If God has ordered the believers to fight and to treat the enemy on equal footing, He has made this contingent upon the observance of virtue. In the chapter of the Cow God, while commending them to attack the infidels in the same manner as the latter had attacked

This choice is intended to ensure that the enemy shall not be taken by the Muslims unawares. Islam has recognised this choice to be the right of the offenders as borne out by orders once given by Omar ibn Abdul-Aziz to Muslim armies under Qutayba ibn Muslim to withdraw from lands they had conquered in Samarkand without such choice being offered to the people.

When the choice was eventually offered, the people chose a covenant. Some of them adopted Islam.

The Prophet made it a point to show mercy even in the field of battle and to proclaim human unity even when swords are unsheathed to strike. In his pre-battle prayers he used to say, "My Lord, we are your slaves just as they are; and our destinies are in your hand; may you grant us victory over them." This prayer manifests human unity and thus creates the feeling that war is but to ensure mercy for Humanity.

The Prophet also counselled the leaders he despatched against the infidels not to fight them until "you have called them to reason, if they fail to respond do not fight them until they take the initiative; if they do wage not the fight until they kill one of you, whereupon show them their crime and invite them to the course of righteousness. That God guides one man through you, is better than anything over which the sun shines and sets."

Peaceful intentions are manifest in this counsel even where two armies meet.

3. **In the Battle** :

46 — The same benevolence that attended the commencement of battles, lasted till the very end. The Prophet called his men to be patient and try to rally the people together. "To bring them to me as Muslims is nearer to may heart than to bring their women and children."

Muslim wars were thus characterised by conciliation and not by killings, and by the preservation and the wasting of human lives. The Prophet's successors followed suit and commanded the same virtues. Abu Bakr ordered his men to kill no woman, juvenile or a senile; nor to cut off fruitful trees, to ruin a prosperous place, or kill a sheep or a vow except for food."

47 — Foremost among Abu-Bakr's other commandments is prohibiting the killing of the religious who shut themselves up in monastries and thus protected the temples and the hermits against the sword.

Both the Prophet and Abu-Baker after him also forbade the killing of women, and children.

The killing of those advanced in age was also prohibited unless they partook in planning or inciting people to war.

Relations in War

43 — God has said, "Warfare is ordained for you, though it is hateful unto you; but it may happen that ye hate a thing which is good for you, and it may happen that ye love a thing whih is bad for you. Allah knoweth, ye know not."

However, Islam would not take a negative attitude towards 'injustice' for Muslim virtue is positive and active.

Since corruption on land should be repelled and prevented otherwise corruption will prevail in both land and sea, God has said, "And if Allah had not repelled some men by others the earth would have been corrupted. But Allah is a Lord of kindness to (His) creatures."

The general mercy which God has made a duty would require the people of the right to fight in order to repel the wrong for it is no mercy to men to leave the unjust devour the weak.

10 Motive for war :

44 — As already stated, war has been made justifiable in Islam for two objects :

a) To repel aggression.

b) To safeguard the Muslim Call, being the Call to justice, by ensuring that peoples shall be free to embrace it, and be immune against persecution if they do.

It should not be imagined for a single moment that fighting was prescribed to coerce anybody into believing in Islam for there is no compulsion in the Religion according to Islam. The Muslim Call, nevertheless, should be enabled to reach all the peoples to whom it is addressed for them to adopt the Faith of their own free will without coercion. The existence of non-Muslim communities in Muslim lands ever since Muslim conquests, provides conducive evidence of non-compulsion and of religious freedom. Had coercion been legitimate in Islam, such communities would have been persecuted as Nero had done with the Christians Diocletian with the Copts and the despotic rulers of Spain and other countries.

Preparation for the Battle :

45 — The Prophet advised against precipitation to the battle. He used to say "Don't desire to meet the enemy and if you meet them be patient."

However, should the fight be unavoidable, the enemy should beforehand be given the choice of:

1. Islam so as to be one hand with the Muslims,

2. a convenant for the Muslims to enjoy peaceful neighbourhood,

3. the fight.

bring about a rally of Muslim forces to repel it. Aggression on a Muslim party is but aggression on all the Muslims combined; the Prophet himself having fought the Muslims of Syria. A Muslim state might well be the aggressor. The duty of Muslims in such a case is to use their good offices towards a settlement through counsel and calling the people to the road of righteousness.

Third Form : The event of fighting between two non-Muslim states, which has three sub-divisions :

1 — The situation where either fighting state is on hostile terms with the Muslims, and a truce or temporary armistice is being observed. The truce in this case is binding unless it be discovered that the truce is intended to gain time for an aggression on Muslims.

2 — The situation where a support-treaty exists between the Muslims and either fighting country in which case the Muslims could not adopt a neutral stand for they should put the treaty into execution. The Prophet declared war on Quraish for having violated the covenant by attacking Khoza' who had joined the Prophet's ranks.

3 — A situation where neither fighting country has a covenant or treaty with the Muslims. According to sources, Muslims are bound to hold to neutrality in such a case for the origin of Muslim relations is peace. This is so long as no aggression is waged on Muslims by either country at war. Malik has advised non-belligerance in this case for "God to punish a wrong-doer by another wrong-doer" and also because Muslim intervention might entail support for either evil party. The Prophet has also said "He Who backs an unjust party will suffer Hell fire." Neutrality in cases such as this will also spare Muslim force.

Supposing, however, that either country is just and the other not, will a Muslim intervention in support of the wronged be justifiable? Muslim logic would advise intervention with due /regard to Muslim interests as in cases of supporting the weak or the distressed provided that ample safeguards are obtained for the benefit of Muslims.

42 — To sum up, international relations in peace-time are based on three foundations :

a) The establishment of justice and the realisation of human understanding and beneficial cooperation among people in implementation of Quranic ordinances.

b) Preventing Muslim aggression on other peoples for Islam has forbidden aggression in all forms.

c) The protection of non-Muslims' freedoms especially the religious.

in the Quran where war flared up between Muslims, and other peoples while other countries, desirous of neutrality, kept aloof from the conflict. The Quran has made it imperative to respect such cou-ntries' neutralism as in God's wordr:

"Except those who seek refuge with a people between whom and you here is a covenant, or (those who) come unto you because their hearts forbid them to make war on you or make war on their own folk. Had Allah willed He could have given them power over you so that assuredly they would have fought you. So if they hold aloof from you and wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

This text is frank in tha t whoever wishes neutrality should have it without condition other than to make sure that he harbours no intention of aggression nor does he use the proclamation of neutrality as means of passing time for an early war. In the event of such aggressive intentions being ascertained, precautions should be taken as in God's words, "O be who believe ! Take your precautions, then advance the proven ones, or advance all together."

41 — This is the case of neutrality if called for by non - Muslims. As for neutrality in the event of war between two countries it has three forms :

Fire form : The occurrence of a dispute between two parties cf believers such as happened at the time when dissensions were wide open among the Muslims and they had no league to bring them together and prevent inter-Muslim aggressions. The Quran covered this case in God's Words, "And if two parties of believers fall to fighting, then make peace between them. And if one party of them doth wrong to the other, fight ye that which doth wrong till it return unto the ordinance of Allah; then, if it return, make peace between them justly, and act equitably. Lo ! Allah loveth the equitable. The believers are naught else than brothers. There-fore make pecae between your brethren and observe your duty to Allah that haply ye may obtain mercy."

Neutrality in this case is unpermissible for a non-belligerant Muslim state should work towards conciliation and if either of the warring parties continueg the agression, it (the neutral) should join the victim to bring about a decisive conclusion to the dispute.

Undoubtedly, the set-up of a Muslim, league regulating Muslim relations, is imperative as means of obviating inter-Muslim aggressions.

The Second Form is the case where war is already raging between one Muslim and another non-Muslim State in which case neutrality shall also be unjustified, for aggression on a Muslim should

Zimmis and Covenanted Peoples' Treaties :

39 — It is to be noted that the security pledge given to Zimmis under a covenant could be only permanent. The divergence of opinion over permanent peace does not cover this kind of pledge neither does it affect the treaty with a covenanted people which must always be everlasting in case the Muslims assume such people's de-v fence.

It has already been stated that a covenanted people are that of a country governed by its own sons who are left free by the Muslims to manage their own affairs provided they (the Muslims) would defend tham against all aggression in return for payment towards the equipment of the defending army.

The Prophet has also stressed the necessity of fulfilling pledges towards covenanted peoples and their protection as in the Prophet's words "If you fight and conquer a people and such people would protect themselves against you by their money and not their sons, you must come to terms with them over this and get nothing from them thereafteri".

Thes treaties are possibly made with the Kings but since Islam always has a special regard to the interests of the people themselves without flattering their Kings, a treaty shonld be based on justice to the people. Al-Sarkassi in his 'Mabsut' said :

"If a Zimmi King should ask to be left free to rule the people of his Kingdom in the way he likes by killing, crucifixion or other means which are not tolerated in the land of Islam, his demand should not be complied with, for the recognition of injustice with prohibition being possible, is an unlawful act and because a Zimmi is a person who is bound to abide by the rulings of Islam on dealings and any conditions in his security pledge which run counter to Islam, are invalid as stated ;by the Prophet in the words, "Every condition that exists not in God's Book is invalidi".

5 — Neutrality :

40 — Neutrality is imposed where there exist two contesting powers, influence and the desire to dominate. It is also imposed upon the occurrence of war between two or more states, when one or more states would declare having nothing to do with such a war or dispute.

Neutrality would, however, appear to have not been known by that name to Muslim scholars hence the contention by some contemporary writers that the neutral system was not known in Islam.

Such contentions are erroneous, however, for situations are related

overcome them if ye are (indeed) believers."

But permanent peace through power is in point of fact the height of human relations and not weakness or submission.

Some scholars absolutely confirmed permanent peace as did Ibn Taymieh in his Treatise on Fighting.

Divisions of Treaties :

38 — Treaties are of two parts: **Provisional** treaties which continue to be valid until their expiry and **absolute** in the sense that they are tied to no time-limit. A third division is of permanent treaties on which scholars' views have already been quoted.

Provisional treaties should be carried out until their expiration. As for the absolute treaties for which no time-limit has been set, the point has been raised whether they should be deemed to be valid for all times as if they were perpetual. The scholars did not interpret the absoluteness of such treaties as perpetuality but made it contingent upon the circumstances in which the treaties have been concluded. They said that so long as such circumstances existed the treaties should be regarded as valid otherwise Muslims could have the treaties annulled. But if the treaties were no longer required could they be legitimately cancelled ? To this the scholars said there should be no fight under changed conditions unless there be aggression or suspected aggression as borne out by God's words, ,,... except those with whom ye made a treaty near the sacred Mosque ? As long as these stand be true to them."

A school of thought has said all treaties in the interest of Muslims should be fulfilled where such interest would be served through fulfilment, otherwise they should be returned to the contracting partyi This view was held by a ctertain section of Hanafi scholars who further stated that treaties are concluded for the benefit of Muslims at the time when they are held. Should conditions change with the result that the continued application of a treaty and abidance by its terms would prejudice Muslim interests, it should be annulled. This would be tantamount to the abolition of contracts for changed conditions; treaties being of the same nature as cintracts, are affected by emergencies.

This in point of fact, is contradictory to the Quranic texts and the Prophet's tradition that render necessary the fulfillment of pledges unless treachery is feared. This is borne out by God's saying : "And if thou fearest treachery from any folk, then throw back to themv (their treaty) fairly. Lo ! Allah loveth not the treacherous.

they are bound to this pledge by the conscience of God and His Prophet, ana he amongst them who will act charitably and piously, will be granted victory.

All these treaties are evidently pacts for the establishment of peace and good neighbourliness.

37 — It will also be seen that the Prophet's treaties were in most cases aimed at the regulation of peace. Some of them such as the Hodaybich peace-treaty had appeasement or truce for their objective. In the times of the Prophet's successors, treaties were not intended for the regulation of peace but rather for the cessation of hostilities or to offer the choice between covenants, Islam or the fight before warfare was launched. Among the treaties that stemmed from such choice was the one which Commander of the Faithful Omar ibn Al-Khattab with the people of Jerusalem.

The Umayyad and subsequent eras witnessed treaties for the temporary cessation of war. Peace then was of the nature of an armistice and not a permanent peace.

This happened in the age of **Iditihad** when Mohammad ibn Al-Hassan Al-Shibani, Al-Awzai, Abu-Yussef and Al-Shafei recorded their views on war and peace while the battles were raging. Only temporary peace pacts were known there for the Muslims in the expectation of an enemy ag gression at any time, could not con clude a permanent peace.

Al-Sarakhsi in the commentary the 'Al-Siyar Al-Kabir' said that permanent peace was not permissible, quoting the Prophet's temporary paece at Hodaybich in confirmation of his view. He stressed that, only that form of peace was familiar while fighting raged. Al-Rakhi confirmed this as the majority opinion.

The Hodaybich peace undoubtedly was different from a provisional peace-pact but it did not impede the possibility of a permanent peace. It is established in God's words, ,,. . . so, if they hold aloof from you an wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

The truth is that those who said the basis of relation between Muslims and others was peace have permitted permanent peace, being a return to normal conditions, and considered war mere emergency. Those who have been influenced by accomplished facts, have been likewise influenced in connection with peace by stating that peace cannot be permanent. They had seen relations to be permanent war and could not help advising except in the light of actual situations. They thought peace to be a sort of forbidden weakness quoting in support of this view by God's words "Faint not nor grieve, for ye will

inheritance in such a case for he regards such juridical difference as the criterion. But many scholars said inheritance was possible because of the same residence although agreeing that different jurisdictions would impede inheritance.

4. Pacts and Peace :

36 — Treaties before Islam were used by the strong as means of imposing their domination over the weak or the conquered. Once the weak grew strong, they discarded the treaties and fought to liberate themselves from the yoke of the strong. This continued to be the practice of the strong until very recently, and still prevails in contemporary relations. Pacts are resorted to in some cases to regulate peace but, it is the unjust form of peace that imposes on the weak the will of the powerful. The Holy Quran takes a different attitude towards treaties for it orders the fulfilment of pledges in an absolute manner unrest licted by power or weakness.

Since the basis of international relations in Islam is peace as we have already concluded, treaties could be aimed either at the termination of a casual war and the return to a state of permanent peace, or the establishment of peace and the consolidation of its bases to obviate any future aggression.

This latter aim was the purpose of the Prophet's covenant with the Jews of Al-Medina at the time of Al-Hijra. The covenant was designed to establish peace and good neighbourliness, and based upon cooperation to check any external enemy or aggression.

When the covenant was concluded the Prophet in an instrument confirming it, wrote, "This is a pledge to you upon the conscience of God and of His Messenger, that you will be reassured about your lives, your religion, your wealth, your slaves and all your possessions, and that no army will tread your soil . . . He of You who goes on a journey will be safe through the protection of God and of His Messenger : There is no compulsion in Religion."

It will be seen from this covenant that the Prophet undertook to provide full protection for the Jews' religious freedom, and concluding the text he quoted God's words "No Compulsion in Religion". The Jews, nevertheless, violated the pledge and broke the covenant.

Another pledge to protect covenanted peoples' lives and property was made by the Prophet in his covenant with the Arab tribes of Beni Damra; the pledge said, "This letter by Mohamed, the Messenger of God, to Beni Damra, is to pledge security for their lives and property, and that they will be accorded victory over those antagonistic towards them ; and that they will respond to the Prophet if he calls on them for support;

Should he be creditor of some Muslims, his debt shall be forfeited for there is no money without claimant. According to certain scholars it is the Muslim Common Fund that should claim such money as its right.

Application of the Muslim Code to Protegés :

34. **In relation to financial dealings, a protegé is subject** to the Muslim Code in that he is forbidden to practise usury or conclude contracts which Islam regards as invalid. This is because a protegé deals with Muslims and should as such be governed by the same rules as apply to them. In matters of marriage and divorce, however, a protegé just as Zimmis, is governed by his own religious beliefs.

Punishment is divided into two groups : (a) penalties applied for transgression on people's rights such as encroachment on the right of a Muslim, an alien, or a fellow protegé. The punishment here shall be the same as prescribed for Muslims or aliens for it is necessary to those wronged, and (b) penalties prescribed for transgression on a right of God such as adultery, theft or libel. In this context, a majority of scholars hold the view that a protegé should suffer the same punishment as a Muslim or a Zimmi for such crimes and their like would spoil the Muslim society and are counted among the acts recognised as vices by all the religions. Islam deems the defence of virtue a basis for all the human relations and an offending protegé should thus suffer the same punishment as a Muslim.

Abu Hanifa differed from this majority opinion for the basis of punishment in his view is full subjection from both the actual and the juridical points of view. A protegé from the juridical standpoint, belongs to a country other than the Muslim state.

The scholars' view is verily rational and more in conformity with religious provisions.

A Protegés Heritage :

35 — As already stated the money of a protégé should pass to his heirs after his death, contrary to Al-Shafei's views. In the event, however, of the existence of relationship between a protegé and a Zimmi, will the former inherit the latter or vice versa in the event of the Zimmi's death ? In reply, we would state that in case the Zimmi dies while the protegé lives in another state, or the protegé dies while the Zimmi resides in a Muslim land, there can be no inheritance between them because of different countries.

But in case either of them dies while the protegé lives in Muslim lands, could there be inheritance despite the difference in jurisdiction ? Abu Hanifa advised against

commercial and other activities unrestricted.

In this respect Al-Sarakhsi said, "Their property has come to be guaranteed by the security pledge and cannot be taken away as legitimate prize."

He who remains in Muslim land keeps his property which never goes out of him even though he returns to the land of war; he shall never forfeit such property even if he bears arms to fight Muslims.

This view was held by most of the scholars as evidenced by a report in (Moghni) by Ibn Qodama, to the effect that: "If a Zimmi enters a Muslim land in peace, where he deposits his money with a Muslim or a Zimmi or lends such money to them, and then returns to a land of war, the case should be considered thus : if the man has entered that land of war as a merchant, a messenger or a tourist, or for some business before he gets back to the land of Islam, he should be assured of both his life and property for he had not deviated from the intention of residing in the land of Islam. Should a Zimmi enter a land of war for residence, hid life as distinct from his property, shall no longer be secure. This is because his entry into the land of Islam, security was established for his property, so that when the security of his life is no more following his entering the land of war, the security remains valid for his property.

The scholars in connection with the theory of continued security for such person's property, have laid the rule that in the event of the death of a protegé in a land of war or his being murdered in battle between his country and the Muslims, his entitlement to his own property shall not be forfeited, and the property shall pass to his heirs. The Islamic State has to transfer such property to him safe and sound.

According to Al-Shafei, however, the money shall not pass to such man's heirs for, it was him and not his heirs that enjoyed security pledge, and because the money was his. The scholars on the other hand, consider the security a right attached to money which being the property of the protegé in his life, should pass to his heirs after he dies, just as any other rights.

If the owner has no heir, even in a land of war, the money should accrue to Bait Ul-Mal (The Muslim common fund) on the ground that it has no proprietor.

Scholars would authorise the confiscation of a protegé's money in one single case; this is in the event of his return back to his country and his fighting the Muslims, and falling a prisoner of war. In such a case he is not deemed eligible for ownership and his property should accrue to the Muslim Common Fund for there can be no money without owner.

may God be gracious, to treat Zimmis with equity in abidance with the tradition of our Prophet and your cousin, Mohamed on whom be God's peace and blessings, and to inspect their conditions lest they should be wronged and to spare them any harm or obligations beyond their ability, and so that nothing of their property be taken from them without right. For the Prophet has said, "He who wrongs a covenanted person or have him suffer obligations beyond his power, will be my enemy on the Day of Reckoning." Omar ibn Al-Khattab on his death bed, also said, "I recommend the Caliph after me to abide by the Prophet's commandments in fulfilling Zimmis' contract, to fight for their protection and not to impose obligations on them beyond their endurance."

Abu Yussof elsewhere in his same work has said, "It is related that Omer ibn Al-Khattab passing by the door of certain people's house, found a blind and elderly beggar knocking at it. Omar asked, "From whom of the people of the Book are you ?" The beggar said that he was a Jew. Omer again asked "what has reduced you to this pitiable state ?" The beggar answered, "Ask the tribute, the need and the age," whereupon Omar took the man's hand and led him to his own house where he gave him some money. Omar then sent for the treasurer of Bait Ul-Mal (Muslims' Fund) and ordered that he should pay him a permanent allowance, saying, "Look after this man and his like for God will not grant us justice if we eat up his youth and let him down in old age. Charity is prescribed for the poor and the destitute. The poor are the Muslims, and this man is one of the destitute from amongst the People of the Book. "Omar ordered that the tribute payable by him and his like should be waived.

The Protegé :

33 — A protégé is a person who enters a Muslim land without the intention of living in it, but only for a specified stay under a contract known by the name of a residence contract. He may simply be given the right of residence for trade, tourism or visit. Such residence was normally limited to a specified period, renewable for further periods. If it developed into permanent residence, the protegé was deemed a Zimmi.

Islam, being tolerant and because it considered wars a temporary circumstance that they were confined to camps and would not extend to peoples, made the door of its lands wide open for protegés to enter. This was so even in case such persons who belonged to a country at war with the Muslims. Muslims. Islam also safeguarded protegés' lives and property against all aggression so long as they held to the security contract. They were likewise left free to exercise their

modities constitute respected property for the Zimmi and not the Muslim.

Abu Hanifa differed from this majority view which declared such commodities unlawful for non-Muslims and that such prohibition in Islam was by way of protectnig society against their evil. What is prescribed as protection for society should thus form part and parcel of the public order which must apply to all.

Supposing for the sake of argument that those commodities are allowed by a Zimmi's religion, the forbidding of anything permitted cannot in all cases be deemed interference in personal liberty. Such interference materialises only where a Zimmi's religion orders something for which the Muslims are punished. Permission in such a case would be tantamount to the abrogation of a religious law.

It should be noted, however, that the non-application of Islamic rules to the marriage and divorce affairs of Zimmis is to consolidate their liberty in family matters and to ensure that such affairs will continue to be governed by their religious beliefs, thereby strengthening family bonds. This is not a privilege for Zimmis but a grant as already stated. A grantor has no doubt the right to withdraw the grant if it should engender manifest harm which in this case, is the harm of "privilege."

32 — The protection of a Zimmi is incumbent upon the state for his blood is safe-guarded and he must not be the target of aggression. His personal liberty is also guaranteed against all encroachment so is his dignity for he is a man; with safe-guarded dignity.

Since the execution of these lofty and equitable principles could be difficult to some people in the presence of divergent religions, religious laws have stressed the necessity of respecting Zimmis' rights lest religious over-enthusiasm by some Muslims should waste Zimmis' rights. The Prophet has also said, "He who harms a Zimmi will be may enemy on the Day of Judgement; and he with whom I am unreconciled will be an adversary".

It was also the practice of Omar ibn El-Khattab to send spies to watch the Walis (Rulers) and see to what extent they deal justly with their subjects. The thing that occupied his best attention was their treatment of the Zimmis. Everytime deputations came to him from the provinces, his first enquiry was about such treatment.

Scholars in all the ages were most anxious to recommend Muslim rulers to be just with the Zimmis. An example of this solicitude is provided by an address reported in "Al-Kharaj" by Abu Yussef, to Haroun Al-Rasheed as follows :

"It might be necessary O Commander of the Faithful to whom

person who committed a crime in a land of war cannot be deemed as actually subject to the Muslim state although he might juridically be subject to it because of his citizenship.

If a Muslim perpetrates a crime on a land of war that carries the capital penalty such as the deliberate murder of another Muslim, and his crime has been proved in Muslim land, he should, also according to Abu Hanifa, suffer such a sentence but should rather be ordered to pay ransom so that Muslim blood may be spared.

A majority of scholars held the different view that the culprits should suffer the capital penalty, for it is the juridical and not the actual considerations that count. Muslims, they hold, are Muslims citizens from the juridical viewpoint.

State Sovereignty Over non-Muslims :

31 — A state has also an established sovereignty over those residing in its land. These are divided into Zimmis and protegés.

A Zimmi is a non-Muslim living among the Muslims, having the same rights and obligations. He is a Muslim citizen by virtue of the contract he had with the Muslims, which imposed obligations and accorded rights to civilians. It was a perpetual contract that applied to the contracting party and his posterity as well.

Scholars have laid two conditions for Zimmi contracts :

a) Zimmis should meet certain financial obligations to be levied on those who can afford it as contribution to state development ; they should also subscribe to the financial resources of the state.

b) They should comply with Muslim rules in financial dealings and Muslim penalties so as to enjoy the same rights and incur the same obligations as Muslims.

As for family affairs in matters of marriage and divorce, the authorities left them free to practise such matters, being connected with their religion. According to Hanafi scholars Zimmis could drink alcoholic drinks and eat swine flesh if they thought this was permissible in their religion lest any restriction on their consumption of these commodities should be considered intervention in their personal freedom. Zimmis, therefore, were not punished for drinking liquor except where they incite Muslim youth to drink, by words or action. It is for this deed only that they are punished.

The same school of thought called for the protection of Zimmis freedom in this respect to the extent that a Muslim who spilled a Zimmi's liquor or killed his swine, should pay indemnity for the harm he had done. In the opposite case, the offending Zimmi was not to indemnify the Muslim for such com-

each state claiming to be the seat of the Caliph, we state that a majority of scholars had given the view that there could be only one Caliph and as such, some, if not all, of those who have claimed the Caliphate have a false cause.

According to Zayd ibn Aly Zein Al-Abedin, caliphs could be numerous if this be deemed to be in the interests of Muslims, but the view of the majority should have the upper hand, however, to ensure that the Caliphate shall bring all the Muslims together. However, the conditions of the Caliphate should be fulfilled by whoever would claim it so that his claim may be sound and be established.

This situation will arise where the difference is over claims for the Caliphate. Should the difference stem from local prejudices consequent upon the expansion of the Muslim state's territory, this should not impede all the lands being regarded as one state. It does not behove the Muslims to render such differences conducive to strife or wrongful regional bias among them.

A Muslim is a Muslim Subject:

30 — Despite the regional difference of contemporary times and of past differences, scholars establish the rule that Muslims and the People of the Book holding a Muslim pledge of security should be regarded as Muslim citizens. A Muslim of whatever nationality : be he English, French, German or American is a Muslim citizen wherever he is while the People of the Book so long as they are covered by Muslim citizenship, should be governed by its dictates.

These rules entail the following consequences :

A — A Faithful who lives in a non-Muslim State should emigrate and reside in a state governed by a Muslim ruler if physically capable of making the trip.

B — A Muslim can inherit another Muslim whatever his home country and nationality, an English Muslim would thus inherit an Egyptian Muslim in the presence of a relationship between them in support of such heritage.

C — A Muslim who commits a crime in lands other than Muslim lands, and on his arrival in Muslim territory, his crime has been proved to a Muslim judge, he must suffer puni hment according to Muslim tenets whatever the penalty prescribed for the crime so long as the victim could not be lawfully killed. This was the view held by a majority of scholars, but Abu Hanifa held a different opinion, he said that a crime committed in non-Muslim lands should not be punished by the state on the ground that a Muslim culprit to be punished should have been subject to the Muslim state from the actual and juridical points of view at the time he prepared the crime. A

law Books. It denotes a situation where the power of a state is original and not derived from another state, and that such power should cover all parts of the state — however numerous the elements and the religions in it, and however extensive its area may be.

The sovereign ty of state has thus two aspects : **one external** which consists in the regulation of international relations on a basis of independence that is not shared by any other state, and **the other** the spread of the power of the state within its territory so as to bring all the subjects under one legal system unless special status is granted to certain communities in some dealings including marriage and divorce. This grant, however, should be liable to be withdrawn at such time as the state authourities so desire. It used to be accorded by the Islamic State as religious freedom, but if such a privilege develops into fetters upon the state sovereignty, it must be abolished.

European states would not allow such privileges in so far as concerns civil status for family affairs in these countries which are deemed to constitute part of the public order. If a woman gets married in Britain according to the Muslim Code, the marriage contract will not be deemed to be valid; nor would the State recognise it. The same applies to many other countries where marriage on terms other than those of the Christian faith is not respected Muarriage under the Muslim Code is also not respected even though both parties be Muslim.

We would not, however, recommend the Muslim countries to follow the same practice. We should rather maintain religious freedom under Islam as established by our Muslim predecessors.

29 — The sovereignty of the Muslim State is established in its territories if Islam has one state throug which the Islamic unity is achieved. Two points should, however, be observed in this regard; **First** that in legislation the power of the Muslim State is not absolute; it is rather restricted by the stipulations of the Quran and the Prophet's traditions, and no legislation to the contrary of these stipulations, should be enacted. This, however, does not at all clash with sovereignty, for the fact that a ruler is bound by an inviolable constitution which would not reflect on his sovereignty; **Second** will sovereignty be disputed now that the Muslims have been divided into various countries with each having its own king or head of state ?

In reply to this we would say that Muslims had been used to have a Caliph whose authority reigned supreme no matter whether he was strong or poor. If the difference over sovereignty arises from

Najran, and that between Leader Abu Obayda Amer ibn Al-Jarrah with the people of Hims (Emesa). The latter covenant embodied a pledge of protection for the people against the payment of a tribute (Jizyah). It happened, however, that the Islamic army, having been weakened by pestilence, was unable to check the Roman invasion whereupon the faithful commander whom the Prophet called the Honest one, returned the money back.

Under Uthman's rule, Egypt's Wali — Ibn Abi Al-Sarh — concluded a peace treaty with the people of Nubia whereby he pledged to ensure their safety, to protect their independence and to exchange trade with them. He levied no money for these privileges. The same was done by Moawieh with his country folk; he concluded a peace treaty with them that established their internal sovereignty.

It goes without saying that countries which enjoyed this type of covenants cannot be considered lands of war; the question is whether they should be deemed lands of Islam or merely land of appeasement. Some scholars held the view that they are lands of Islam for the Muslims are the people of the Sunna. Al-Shafei and Muhammad ibn Al-Hassan would call it a third land, the land of covenant, and make it a land of Islam in certain circumstances and not in others. In his Book 'Al-Seyar Al-Kabeer' — Muhammad ibn Al-Hassan said, ,,The criterion determining the nature of a certain land is the sovereignty and power of the rule (meaning the Islamic Rule). Should the rule be one of appeasants, Should the rule be that of a sovereign power in another land, none among the first land's people shall be treated according to the rules of appeasement."

It follows that Muhammad ibn Al-Hassan puts forward the supposition that the people of the covenant or the appeasement could be subjected in their government to another state that does not come under the category of covenanted countries. He then lays the rule that in the event of sovereignty and power being held by the people of the land that appeased, such land should be deemed a land of covenant if on the other hand, the power and the sovereignty be for another state, neither of them should be deemed a covenanted country un- less it is covered by a covenant.

We may now safely say that a covenanted state cannot be a land of war but is not deemed as alien to a land of Islam and is governed by some of the latter's rules though it has an independent entity of its own.

3. Sovereignty

28 — This is a technical term commonly used in International

above, and aggression no longer requires neighbourhood to be launched, for the destructive bombs would travel between the remotest points on earth. We would thus deem the condition has outlined its purpose. Had Abu Hanifa been alive he would have abandoned it and now that we disregard it, we will in fact be following his logic. The only difference between us is one of time and place and not of argument and proof.

Even if we adhere closely to the logic of Abu Hanifa and his companions, we come across two categories of land which do not come under the definition of either the land of Islam or the land of war. These are :

a) The lands where no Muslim sovereignty is established, or aggression feared to be launched. Such category of land should be deemed as non-belligerent as it comes under those who have kept aloof and desisted from attacking the Muslims as the Quranic text goes.

b) The second category is that of non-contiguous land. This also should be regarded in the same light as the first category unless there be aggression, or support for the enemies of Islam.

We have already stressed the point that contiguity was not essential for aggression to be launched, for aggression could still take place without contiguity. Remote lands on the other hand would prevent Muslims to send preachers who would guide their peoples and call for Islam. If there be aggression by them they should be deemed as aggressors, their fight will be justified and their land deemed a land of war on the strength of actual act and not by imagination.

Land of Covenant :

27 — This category of land is a fact rendered necessary by the exigencies of academic research and established in practice. For there existed tribes and states having respectable covenants and sovereignty in their lands, which did not fully come under the influence of Muslims, and Muslims had no power in managing their affairs except in so far as concerns the redressing of wrongs and injustices.

These countries had concluded covenants with the Muslims either before any decision to conquer them or at the outset of fighting. They had been offered the choice between Islam, a covenant or war, and chosen a covenant upon conditions that varied in power according to such terms as more agreed upon by the two parties in the light of the strength or otherwise of such lands, and the extent of their need for Muslim support.

A covenant may be a pledge of protection against certain payment as was the case with the Prophet's covenant with the Christians of

scholars includinq Abu Yussef, a leader of the Hanafi School of Thought.

The second view advocated by Abu Hanifa, the Zaydieh and other scholars, holds that the mere fact that sovereignty and power are held by non-Muslims, would not render the country a land of war, for three conditions should first be fulfilled :

a) That sovereignty and power be denied the Muslim ruler to such an extent that he is rendered unable to carry out Islamic rules.

b) That the region concerned happens to be bordering Muslim lands that aggression may be expected from it. It follows from this condition that deserts adjacent to Muslim countries cannot be deemed lands of war nor should the territory beyond them be regarded as such even though the Muslim ruler has no sovereignty or power over them. The same rule applies to seas surrounding Muslim land; neither these seas nor the territories beyond them should be treated as land of war.

c) That neither Muslims nor the people of the Book who are considered Muslim subjects, should remain in the land under the protection of the first Muslim assurance which had enabled the Muslims to live in it. Applying this condition, we find that a land which the Muslims had conquered, pledged saftey to its people, but had to withdraw from it under the pressure of war or other factors cannot be deemed a land of war if the non-Muslims who had dominated it, left the subjects of the Muslim State to reside in it under the pledge of safety, and preserved their liberties. This condition, however, could of course be fulfilled only where the new State has turned peaceful towards the Muslims. If it violates the peace pledge, however, and fight the Muslims, such country should be regarded a land of war.

26. — It is the second viem which accords fully with the fundamental rule that peace forms the basis of relations between Muslims and other peoples. This is because it considers a country land of war only where actual ag- gression by it disturbs the peace of the Mus lims, or an attack is to be expected through adjacency. The absence of a covenant or a non-aggression pact between two lands having common borders would render war possible at any time. This view conforms even in letter with the Quranic text, unlike the first which would appear contradictory with the terms of the Holy Book, for the basis of the relation here is one of war.

Although the second view is closer to the texts, we consider it no longer tenable to make adjacency a condition for its fulfilment. Man on earth has now been able to control the atmosphere and the space

Islam had been governed by accomplished facts and not by lofty religious ideals. In other terms they were very much like contemporary relations which would justify present-day statesmen in their aggressions.

In reply to this enquiry we would say that what the jurists have adopted of the real facts was only the denomination and not the Islamic rule. They have not abandoned the lofty principles laid by Islam, of defending virtue, liberties and justice. Nor had they the power to call things by names other than their own, for war was actually and factually in progress and the land of the offenders was actually the land of war unless they had concluded a covenant or a peace treaty.

This denomination, however, did not impede the relations between Muslims and others being based on justice, liberty, and virtue; the scholars having never mentioned that conquest gave the Muslim State, a sovereignty which was not based on virtue, justice and piety. There was no master and slave in Islam and no victor and manquished but only justice and equity.

3. The Lands of Islam, of War and of Covenant

24 — The land of Islam is the State that governs the Muslims, in which the means of power are held by them. It is the bounden duty of Muslims to defend this land and repel aggression to it. This defence is incumbent on those who can afford it in case the enemy has not entered the land, otherwise it shall be compulsory as regards every individual Muslim. Every country where Muslims form a majority is deemed a Muslim land even though it may be dominated by a non-Muslim ruler.

The lands of war and of covenant need more amplification.

Land of War :

25 — Scholars have differed over the definition of the land of war; two divergent opinion have been held in this context :

First : The land of war is where no sovereignty or power are held by a Muslim ruler, and where no covenant exists which regulates such country's relations with the Muslims, and safeguards them against aggression.

The sovereignty and the power of the ruler constitute the criterion in the view of the authors of this school. They hold that so long as a land is not under Muslim sovereignty or bound by covenant, it should be deemed a land of war from which aggression is to be expected at all times. God, the Almighty, they further maintain, has ordered the Faithful to be on the alert and always ready to fight and repel the aggressors.

This is the view of numerous

ticed to make preparations for aggression on the Muslim community. The Prophet, through his wisdom, could not have waited until his people have been attacked.

b) That the Kings should constitute a bar between him and the Muslim call, and then persecute the Muslims to give up their Faith as the Roman King has done.

23 — We are no doubt in agreement with Ibn Taymieh's assertions and have supported what he thought more likely, but a reader of the Books of Muslim jurisprudence in the Chapters of Wars and Expeditions would possibly come to the conclusion that they incline to establish war and not peace as the basis of relations. The point arises whether the Books of Jurisprudence have contravened what the Holy Quran has called for and the Prophet's Traditions has pointed to. If such a supposition be correct, could Ibn Taymieh, the most prominent scholar, have reported what the jurists had not said especially that they have called the land of the offenders as the land of war without distinction between the aggressors and the non-aggressors unless there be a charter and a covenant in which case, they would call it the land of covenant ?.

The truth is that jurists have divided lands in that way because the nature of things at the time of Al-Idjtihad (deductions by jurists) called for such division. There was no fourth land the land of those who have abandoned the fight though they were dissidents.

Muslims ever since they have gone out on wars for dear of an invasion of their lands, or the extinction of the light of their religion have been the target of campaigns from every corner of the earth for the Kings would not leave the people of this Religion at peace to call on men to embrace it. Muslims had therefore to guard themselves against their neighbours, and offered them three alternatives : (a) To conclude a covenant to gain security against aggression(b) entry into the new religion, or (c) the fight. If such neighbours would not agree to embrace the religion of their free will, and reject the covenant that would ensure the Muslims against the fear of aggression and enable the Muslim call to proceed on its course, they would no doubt be harbouring aggressive intentions, and could not have possibly been left by the Faithful until they have launched their aggression. As Islam's eminent warrior Ali Ben Abi-Taleb has put it "No people invaded on their land escaped humiliation."

It could be argued that this division by jurists would give the impression that relations between Muslims and other peoples were governed by war until peace has been concluded. It might also be said that international relations in

to it, and trust in Allah. Lo ! He is the Hearer, the knower. And if they would deceive thee, then Lo ! Allah is sufficient for thee. He it is who supporteth thee with His help and with the believers, And (as for the believers) hath attuned their hearts. If thou hadst spent all that is in the earth thou couldst not have attuned their hearts, but Allah hath attuned them. Lo ! He is Mighty, Wise"; and ". . . Say not unto one who offereth you peace : "Thou art not a believer," seeking the chance profits of this life (so that ye may despoil him). With Allah are plenteous spoils. Even thus (as he now is) were ye before; but Allah hath since been gracious un to you," and "So if they hold aloof from you and wage not war against you and offer you peace, Allah alloweth you no way against them."

All these texts embody an unrestricted call for peace and indicate that no adherer to peace should fight even though he belonged to tribes at war with the Prophet. The last-quoted verse was revealed in this sense, referring to those who could not choose whether to fight the Prophet or their people and eventually elected to abandon warfare and keep neutral.

God, therefore, later said, "Ye will find others who desire that they should have security from you, and security from their own folk. So often as they are returned to hostility they are plunged therein. If they keep not aloof from you nor offer you peace nor hold their hands, then take them and kill them wherever ye find them. Against such We have given you a clear wararnt."

22 — We have put forward this difference of views in the above context despite the fact that it is more appropriate as an illustration of the motive for warfare and should, as such, have been set out in connection with relations in wartime. The reason for this displacement is that such divergence of views would indicate the basis of the Arabs' relations with other peoples : it was until a covenant and a charter have been laid; or peace until aggression has been bunched. According to the conception that the motive for war is idolatry, the basis of such relations is war as means of safeguarding the Muslim call, while the other conception, which Ibn Taymieh thought more probable, and attributed to a majority of scholars, the basis of these relations should be peace so long as no attack or aggression is launched, even in the absence of a covenant guaranteeing such peace, consolidating its provisions or regulating its terms.

A review of the Prophet's traditions would show that the Prophet fought only in two cases :

a) An attack on Muslims or the expectation of such an attack in the event of an enemy being no-

tacketh you, attack him in like manner as he attacketh you, "and "If you punish, then punish with the like of that where with ye were afflicted. But if ye endure patiently, verily it is better for the patient".

It is derived from the Prophet's tradition that the Prophet called for the religion in peace but was molested and hurt by the idolaters. They persecuted the Prophet's companions to coerce them out of the creed they had chosen for themselves. The Prophet held to patience and appeasement, and rendered good counsel to them. When they determined to uproot the religion and to kill the Prophet, be emigrated, but they continued to molest him with hostility' When Islam was eventually established in 'Yathreb' the Prophet proceeded to a warfare with the idolaters in defence of the call of Islam and to prevent the persecution in which they had persisted, and for the Faithful to shelter themselves by the call from the horror of their persecution on the idolaters' hands. When the Faithful thought warfare an excessive measure God told them in His Book "Persecution is worse than slaughter."

The Prophet did send an expedition to fight the Romans in Syria only because the Romans persecuted the Faithful to give up their creed. Hercules had ordered the murder of all those of the people of Syria who had embraced the Religion, and war was thus imperative for the defence of the Faithful. The Prophet willed it with emphasis that the army be led by Osman ibn Zayd whose father had been killed in the first battle. The Army was despatched at the time of Abu Bakr Al-Seddik despite the renegades' tightened pressure, and attempts at besieging the pure city.

The Prophet's companions followed the same example, for they sent armies to the land of Kisra who tried to commit against the Prophet the same crime as the idolaters had attempted before. But God saved the Prophet. The story is that in response to the Prophet's call for Islam, Kisra sent out people to murder Muhammad. It was thus imperative to consolidate the Muhammadan call and to repel this aggression, for the Muslims to fight the Persians.

21 — Quranic texts verily support the view quoted by Ibn Taymieh as being the opinion of a majority of scholars, for the call for peace is free and unrestricted in the Quran while the texts permitting the warfare are restricted by the exigence of meeting attack with attack. God, calling for peace, said "O ye who believe ! come, all of you, into submission (unto Him); and follow not the footsteps of the devil. Lo ! he is an open enemy for you."

God also said, "And if they incline to peace, incline thou also

has also said, "Keep me with those who are weak amongst you; for you are supported and endowed with God's bounty only for the sake of those weak."

Islam aims not only at the defence of a weak state against a powerful one, but would also defend those peoples who have been harrassed by oppression and their prowess humbled by tyranny.

In his letters to Kings and Heads of State calling them to Islam, the Prophet stressed their obligations towards their subjects and that such obligations made it incumbent upon them to leave such subjects free to understand Islam and adopt it as a religion, if they so wished out of their own free will. The Prophet's message to Hercules, King of the Greek, thus ran as follows, "If you embrace Islam, you will be unhurt otherwise you will bear the sin of the "Yarissis" meaning the growers, workers and other power less classes.

For this noble principle, Islam always made it a point to defend the freedom of the weak, particularly the freedom of creed, Muslims fought only to protect this freedom. They fought the infidels only because they tempted the Faithful out of their religion. Their war with the Greeks was only because they had killed those who had embraced Islam from among the people of Syria. Compare this principle and the attitude of present-day countries ?

International Relations in Peacetime

Basis of Relations between Muslims and other Peoples :

20 — Of fighting, Ibn Taymieh enquired whether war had been prompted by the transgression of the infidels upon Islam, and the desire to repel such aggression or was it motivated by the infidels' infidelity. He said that different views on this matter were held by the scholars for while a school of thought (the majority of scholars) would consider the repelling of aggression to be the motive, another school attributed to the Shafeis hold the motive to be fighting the infidels because of their infidelity, thus consolidating the Muslim call; it being the mission of every Muslim to call for Islam so that God's word will always be the highert.

Ibn Taymieh expressed himself in favour of the former view held by the majority and quoted in its confirmation, verses from the Quran, examples from the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's companions. From the Holy Quran he quoted God's words, "Fight in the way of Allha against those who fight against you, but begin not hostilities," And fight them until persecution is no more, and religion is for Allah. But if they desist, then let there be no "And wage war on all the idolators as they are waging war on all of you," "And one who at-

whereupon the Prophet said, "Let aside their intentions; we will invoke God's help against them."

10. **Amity :**

The general human brotherhood whereby understanding was recommended by Islam as means of settling the differences of peoples both as races or tribes, should be joined to amity, action towards reform and the prevention of corruption even though peoples might differ in religion, land and race. God has said, "Allah forbiddeth you not those who warred not against you on account of religion and drove you not out from your homes, that ye should show them kindness and deal justly with them. Lo ! Allah loves the just dealers. Allah forbiddeth you only those who warred against you on account of religion and have driven you out from your homes and helped to drive you out, that ye make friends of them. Whosoever make the friends of them — (All) such are wrong-doers."

Consistent amity could not be interrupted by war nor by the difference in religion. It is related that at the time of Hodaybieh, the Prophet was informed that Quraish had been hit by famine. The Prophet promptly despatched five hundred dinars to Abu Sofian, leader of the infidels, to byu wheat for the poor.

It could well happen during wars that relations were severed between the Muslim State and the warring country while bonds were maintained with the non-belligerent subjects of that country. They were thus allowed to reside in Muslim lands, and were not harmed in themselves or their properties. Those assumed in the definition of scholars are those persons who resided in Muslim lands for a specified period under assurance of safety, for trade or the exchange of benefits.

To promote amity between peoples could possibly end the war and open the door for an honourable and dignified peace.

If amity be consistent and uninterrupted, it will go side by side with mercy. The latter is more comprehensive, however, for amity exists between peoples while mercy prevails among peoples and in the battlefield as well. No wounded, captive or surrenderer is allowed to be murdered.

19 — Of the aspects of equitable mercy and constant amity is to support the weak. Islam is a divine religion that lays down God's orders, and all divine religions have urged that protection of the weak against the strong, whether they be individuals, communities or states God has said, "And we desired to show favour unto those who were oppressed in the earth, and to make them examples and to make them the inheritors." The Prophet

Reciprocal treatment is restricted by the exigencies of virtue as already stated. Should an enemy violate the sanctities of virtue, the army of virtue should not follow their unworthy example. The Holy Prophet's sayings have already been quoted in support of this.

On the other hand, reciprocal treatment should not exceed those fighting in the field of battle in the sense that an army of justice should not kill those who are not belligerent.

9. **Fulfilment of Promises** :

This is the ideal means of ensuring safety and basing understanding on solid foundations namely treaties of peace and non aggression.

Such treaties derive their power not only from their terms but from the intention of their signatories to fulfil such terms. Islam has thus urged fulfilment of promises which it said, is power in itself while repudiations are aspects of weakness. God, the Almighty, has established that whoever amongst the Faithful who has covenanted has taken God surety for him. God has also ruled that the desire to extend the area of a state or its strength should serve as justification for treachery. The Quranic verse embracing all these meanings reads "Fulfil the covenant of Allah when you have covenanted, and break not your oaths after the asseveration of them, and after ye have made Allah surety over you. Lo ! Allah knoweth what ye do. And be not like unto her who unravelleth the thread, after she hath made it strong, to thin filaments, making your oaths a deceit between you because of a nation being more numerous than (another) nation. Allah only tieth you thereby, and He verily will explain to you on the Day of Resurrection that wherein ye differed."

God in this verse has likened those leaders who would violate their covenants to a stupid woman who unravels threads into thin filaments after having made it strong. God also points out the impermissibility of deceit or treachery as a means of rendering a country more numerous or wealthy than others for any power derived through the violation of covenants is doomed to extinction.

The Prophet has defined the best of people to be those fulfilling their promises saying, "Shall I tell of the best people amongst you . . . they are those who honour their promises." He also said "I am all for the fulfilment of one's promises." This was borne out by the incident of the Hodaybieh peace treaty whereby the infidels covenanted not to fight the Prophet and keep on peaceful terms with him for ten years as aforesaid. Some Muslims told the Prophet that the infidels harboured treacherous intentions and prepared for his fight,

Islam's ideal system for God has said, "Lo ! Allah enjoineth justice and kindness, and giving to kinsfolk, and forbidded lewdness and abomination and wickedness. He He exhorted you in order that ye may take heed." Scholars refer to this verse as the most compre hensive of Islam's meanings, in the Holy Quran.

If every religion has a dominant feature, Islam's feature is justice It is the perfect criterion whereby relations between peoples in both peace and war times are determined. So while in peacetime, good neighbourliness should be based on equality, the motive for war in wartime should also be justice. This is particularly so since all the human principles of tolerance and liberty, should be chracterised by equality. Tolerance that engenders loss of rights cannot be deemed as tolerance or mercy; it is rather injustice leading to the severest forms of cruelty. Forbearance towards the unjust whether they be individuals or communities is injustice to those whom they had wronged, and denied legitimate rights.

Furthermore, the world will be a worthy place only when justice has became the basis of human relations in all their forms. No strong party would thus transgress on the weak, or rights be wasted on the strength of accomplished facts such as now recognised to be common logic. This is so much 'so that international relations are now based on accumulated injustices.

Justice, moreover, is the criterion of human understanding as proclaimed in the Quranic verse on general understanding between races and peoples.

8. Reciprocity :

16 — Equal treatment or reciprocity is an offshoot of equality; the Prophet having recommended us to "treat other people in the same manner in which we would wish them to treat us." By virtue of this equitable law a Muslim has to extend to whoever would trangsress upon him, the same treatment without excess except within the limits of such safeguards as would obviate repeated aggression. If aggression be injustice, its repelling will be only equitable.

This concept will not clash with the principle of tolerance and virtue for these should not be allowed to engender injustice for this would constitute indisputable corruption. Furthermore, Muslim virtue is far from being weak or submissive; it is rather a positive and vigorous virtue that succumbs to no evil or evildoers, but towers over them all.

Justice is surely not the antithesis but the very reflection of mercy. Wherever justice prevails, mercy is there, but no mercy could exist side by side with injustice. Equal treatment would therefore, repel injustice more vigorously.

them, they should be given the choice between a covenant to be concluded with them, entry into Islam, or the fight. If they choose the covenant they must have it. If Islam be their choice, they will be deemed as Muslims.

6. *Virtue :*

God, the Almighty, concluding the verse that emphasises understanding to be the ultimate aim of the peoples' dispersion as tribes and nations, said, "Lo ! the noblest of you in the sight of Allah, is the best in conduct."

Piety is the sum-total of all human virtues. Understanding should go side by side with virtue; the latter being required of individuals as much as it is incumbent on communities.

The Quran has urged adherence to piety, the embodiment of all the virtues in both peace and war times, with emphasis on holding to it in the latter eventuality; God having said, ". . . And one who attacked you, attack him in like manner as he attacked you. Observe your duty to Allah, and know that Allah is with those who ward off (evil)." The reason for this is that men would behave impulsively during wars and possibly commit acts, contrary to virtue, especially if the enemy profaned their sanctities.

Muslims should not follow the example of their enemies in transgressing upon virtues by distorting the dead, killing women and children, and profaning women's chastity.

It happened at the time of the Prophet that some Muslims, following the enemy's example, killed the children. The Prophet commenting on this act said, "I wonder how certain people should exceed proper limits by murdering children . . . Don't kill them . . . Don't kill them . . . "

The Prophet also urged that no prisoners should be killed, saying "no one of you should molest his brother's own captive and kill him".

Muslim treatment to foreigners has thus been based on virtue. The limits of virtue are not allowed to be exceeded whatever the enemies' flagrant behaviour.

7. Justice:

15 — Human relations as regulated by Islam, are based on equality no matter whether such relations be with loyal or hostile peoples. The Holy Quran has stressed justice to be more conducive to piety; God having said, " . . . let not hatred of any people seduce you that you deal not justly, Do justice that is nearer to your duty," and "O Ye who believe ! Be ye staunch in justice, witnesses for Allah, even though it be against yourself . . . "

Equity in all its forms represents

Islam has defended all these elements by preventing imitation without proof, and urged that behaviour should be in conformity with belief. Islam has also protected the creed of those taking shelter with it, entering into cover-out with Muslims or keeping on peaceful terms with them. It has also facilitated the performance by such people of their religious rites. Muslim scholars through their deductions from Quranic texts, the Prophet's traditions and the acts of the Prophet's companions, have laid the rule that "We have been ordered to leave people free to practise their creed." By this conception over which there is a consensus of viewpoints among scholars, the freedom of religious thought has been defended, and no non-Muslim was harmed but rather left free to perform his religious duties undisturbed.

In this context it is related that Omar ibn Al-Khattab on his visit to Jerusalem beheld a Jewish synagogue hidden from sight by dirt, only its top visible. Omar went over to the building and with his own garment, removed some of the dirt. The Muslim army followed suit until all the dirt has been lifted and the synagogue, thus cleared, was again fit for the Jews to celebrate their rites.

In this same blessed trip, Omar happened to be near a church at the time when the midday prayer was due to be said. Omar prayed outside the church. When asked whether prayers would be invalid if said inside, the free leader replied in the negative, but explained that he feared the Muslims might remove the church after his death or use it as a mosque if he prayed inside.

Muslim scholars in establishing the concept of freedom in such a free manner, drew on the clear idea that a man with a religion is better than another without one, for the former though erroneous, has a religious conscience.

13 — Islam has ensured all the human freedoms, namely those of residence, speech, opinion and work. It has also guaranteed the freedom of self-determination. It is worthwhile to dwell a little on this last-mentioned freedom.

In relation to Muslims, a faithful should not submit to a non-Muslim state, nor should he follow non-Muslim banners for in such a case he will not be able to carry out the stipulations of his religion in dealings or punishments.

For non-Muslims, Islam has forbidden any transgression on their liberties, or their expulsion from their homes so long as they will not transgress on Muslims. Islam has also forbidden the fighting of non-Muslims unless they are the aggressors, as will be pointed out in connection with legitimate warfare.

Even in the case of fighting where aggression is expected of

control of one's whims and prejudices. Freedom also is a social meaning that manifests itself in man's relations with others and his others and his observing others' rights as much as he values his own. Freedom and egoism are perfect antitheses that never meet; freedom accords with self-denial but not with selfishness.

In our contemporary times we come across leaders of peoples, who are described as free men and their peoples as free nations, but as a matter of fact let their prejudices control their attitudes towards others' own affairs. We see the world of to-day being dominated by the prejudices of rulers and of parliamentary councils, that contravene the judgement of free and straight minds. This as viewed by Islam, is nothing short of domination by whims over men's destinies; it has nothing in common with liberty.

12. — Islamic rules governing human relations fully respect free creed. The Holy Quran has rejected compulsion as means of driving people to embrace a certain religion and forbidden the Faithful to compel anyon to adopt a creed. God said. "There is no compulsion in religion," and addressing the Prophet, ordered him to forbid such compulsion in the words "Wouldst thou (Muhammad) compel men until they are believers ?".

Islam has further considered the persecution of a believer for his need as being worse than slaughter. God said ".... sedition is worse than slaughter...." Fighting in Islam was permitted only as a means of protecting religious freedom and preventing the persecution of the Faithful; God having revealed; "But fight them that there be no sedition."

But the freedom of religion could not be realised only through the ban o persecution; it should stem from one's own self in that one's thought of the creed should be free and his judgement unrestricted by whims, or controlled by prejudices. The freedom of creed has thus been established to be made up of three elements :

A — A clear judgement which is not restricted by fanatic inclinations towards a certain nationality, tradition, or whim; prejudices and fanaticism often dominate in the name of piety.

B — The prohibition of temptation or compulsion as means of driving people to embrace a certain belief, for no man shall be free who adopts a religious creed through the lure of gold, high rank or standing. One of the most abhorrent means of compulsion is to apply drugs or strong drinks as some Christian missionaries would do in Africa.

C — Acting in line with the dictates of the creed, for the convenience of every follower of a religion without compulsion.

warriors embraced Islam including Amr ibn Al-Aas, the mastermind, and Khaled ibn Al-Waleed, the great hero. Quraish was unable in later years to launch any war on the Prophet despite its haughtiness and bitter enmity. This tolerant peace was thus a significant victory.

But the incident of tolerance that soothed the hearts and guided them more was provided by the Prophet's acts in the wake of Mecca's invasion and the conquest of the infidels who had wanted to kill him, and turned him together with his companions out of their land. At his first meeting with Quraish after the great victory, the Prophet said, "What do you think I shall do with you ? They replied, "An honourable brother you are and the son of an honourable brother whereupon the tolerant and honourable Prophet said, "I would tell you what my brother Joseph had told his brethren : "Have no fear this day ! May Allah forgive you, and He is the most Merciful of those who show mercy."

This was the usual practice of the Prophet in all wars; he treated hearts with pardon and forebearance instead of creating grudges by humiliation and revenge. A further example is provided by the war of Beni Al-Mostaleq. The Muslims had taken over one hundred of their houses and taken the people as slaves. The Prophet in a desire to render them a favour, married Jawrieh, daughter of Al-Harith, and with every Muslim who held a prisoner releasing his captive, the whole people were set free. In this context Aisha said, "No woman has blessed her people more than Jawrieh; through her one hundred Arab homes were liberated." The marriage had this tolerant act for its sole motive. It was prompted by no lustful ends as the mischievous and the ignorant would allege. If the Prophet had desired Jawrieh he would have owned her as a slave.

This is an example illustrating that tolerance was the policy laid by the Prophet to govern relations between men, a policy that healed wounded hearts in the wake of wars, for an injured heart should be treated rather than be left to fester.

5. *Liberty :*

Liberty is a fruit of the Islamic understanding called for by the Holy Quran for true understanding could exist only between the free. There would thus be no master and slave, or victor and vanquished. All will be free and on equal footing since equality. prevails only where all men are equal in freedom.

True liberty lies in the appreciation by a free man of the liberty of others as much as he appreciates his own liberty. Freedom does not conform with prejudice, or egoism. It represents one's control of oneself; the first aspect of it being one's

case in the times of Omar, on whom be God's peace.

There could be no just peace on this earth without respect for human dignity in every man and on every land irrespective of colour or race.

4. Tolerance :

10. — Forbearance is only essential for the call of human understanding to bear fruit, and for hearts to meet without hostility. Islam has thus advocated dignified tolerance for it builds human relations among individuals, communities or states on tolerance without submission to evil. The Prophet has been ordered to show benevolent forbearance towards his enemies in God's words : "So forgive, O Muhammad, with a gracious forgiveness" meaning pardon with dignity and power without humility or submission.

The Prophet has also applied the principle of tolerance in his relations even with the infidels in his covenants and wars. It happened at the time of the Hodaybiah peace-treaty between him and the infidels that the Prophet was impeded to enter the Holy House for pilgrimage. The peace-treaty was permeated with gross injustice on the infidels' part, and tolerance by the Prophet for they insisted on preventing him from performing the pilgrimage that year, and he accepted the condition despite his powerful army that could have subjugated their land. They made it a further condition that whoever left Mecca as a Muslim following the Prophet and the Faithful should be turned over to them unless his people agreed to his departure and whoever left the Prophet as a renegade would be accepted by them. The Tolerant Prophet likewise approved of this further condition against strong protestation by some of the Faithful. Omar Ibn Al-Khattab enquired at the time "why should we tolerate shameful deeds in our religion ?" But it was another instance of the Prophet's wisdom. He chose rather to be patient and tolerant to spare human blood. This act on his part was not of the nature of tolerating a shameful deed, but rather of Muslim foresight and guidance that urged patience in lieu of murder, and forbearance in the stead of violence. To achieve one's aim belatedly with peace is far more beneficial than to attain it early with violence. God has called that peace a 'signal victory' in the words : "Lo ! We have given thee (O Muhammad) a signal victory, that Allah may forgive thee of thy sin that which is past and that which is to come, and may perfect His favour unto thee, and may guide thee on a right path, and that Allah may help thee with strong help."

This opened many hearts that had been sealed on infidelity. During the truce many of Quraish's talented leaders and staunch

truthful. They said : Be glorified ! We glorified ! We have no knowledge save that which Thou hast taught us. Lo ! Thou, only Thou, art the knower, the wise. He said : O Adam ! Inform them of their names, and when he had informed them of their names. He said : Did I not tell you that I know the secret of the heavens and the earth ? And I know that which ye disclose and which ye hide. And when we said unto the angels : Prostrate yourselves before Adam, they fell prostrate, all save Iblis. He demurred through pride, and so became a misbeliever."

With such learned aptitudes whereby God enabled him to dominate all that exists on earth, man deserved angels' gesture in prostrating themselves before him, and was worthy of such dignity on earth. God has pronounced these honours in the words, "Verily we have honoured the children of Adam. We carry them on the land and the sea, and have made provision of good things for them, and have preferred them above many of those whom We created with a marked preferment."

A man is deserving of such honours in recognition of his humanity and not because he is white, urban, cultured or advanced. The honours are due for all the colours and all the races; it is a common privilege for all people : urban and beduin, advanced or backward. A strong man should go to the aid of the weak; an educated should teach the ignorant and an advanced should help the backward.

Dignity, furthermore, is a requirement of the code of mutual understanding and co-operation for it is not of co-operation that one man should be arrogant and another humble. True understanding and intercourse, both spiritual and practical, as well as co-operation will be best achieved where one helps another.

To make distinctions between peoples according to whether they are urban or beduin, or through colour or race is a fundamental cause of strife on this earth. Ever since human dignity was profaned and the strong men controlling world politics exploited the coloured and the underdeveloped, disputes have been raging between these exploiters over the control of such peoples as if they were coveted goods. Struggle up between the peoples and the exploiters of their land. This, on the part of the vanquished, was a legitimate self-defence dictated by nature, and rendered incumbent by dignity, the just divine codes and the Muslim Religion which nurtures dignity and self-respect in the hearts of those who embrace it, and behoves them to respect dignity in others.

Examples are many of the Prophet,s glorification of man, and the acts of his companions confirming such glorification are considerable. This was particularly the

based on cooperation for good, maintaining virtue and prohibiting evil. The Jews repudiated the pact; however, and in collusion with the infidels, plotted against the Prophet although the basis of that accord was to cooperate in the upholding of justice and the aversion of aggression.

The Prophet used to enter into pacts with Arab tribes, both Muslim and otherwise, for the sake of good. Such action in contemporary times is termed "peaceful co-existence".

When the Prophet went on pilgrimage to the Holy Shrine[1] in Mecca, escorted by a heavy force, Quraish tried to prevent him from his resolve. The Prophet, nevertheless, extended to them a hand of peace and rather than stirring a war or dispute, called for mutual respect of the Shrine. In this context the Prophet said, "If Quraish should call me to an act whereby the prestige of this Shrine is enhanced, I will favourably respond to them."

The strongest forms of cooperation are those aimed at supporting the weak. The Prophet in his youth attended a rally of Quraish dignitaries held in the home of Abdullah ibn Jodaan, at which they undertook to support the weak against the strong. The Faithful Prophet said of this rally, "I attended a meeting in the house of Abdullah ibn Jodaan which was considered a worthy mission. If I had been called to it in Islam, I would have responded to it.

The moment all men feel being one hand in exploiting the sources of wealth on earth and that they respond to each other in amity and co-operative spirit, the urge for dispute will disappear from among them, and the strife for existence as advocated by the oppressor will vanish. It was this strife that caused the world incalculable disaster with every people conceiving their existence to be the extinction of others.

Islam abhors strife for existence since Islam prescribes understanding and amicable response, both spiritual and practical, as means of existence. It has therefore recognised human co-operation as the spring of life for it leads to construction and the promotion of love amongst men.

3. Human Dignity:

10. — Several Quranic verses declare that God has entrusted the earth to man, that God, the Almighty, has consecrated the universe to his service, and bestowed on him such mental powers as would enable him to know things and means of putting them to good use.

God, stating the beginning of creation has said, "And He taught Adam all the names, then showed them to the angels, saying : Inform me of the names of these, if ye are

(1) The Ka'abah.

Among the causes that would hinder equitable treatment and human understanding is unjust fanaticism and prejudice for one's tribe or country. The Prophet has thus prohibited fanaticism, saying that "He is not one of us he who advocates or fights with fanaticism."

But does the prohibition of fanaticism imply the ban of patriotism? It certainly embraces nationalism that engenders injustice; otherwise nationalism is not a vice such as in cases where fanaticism or patriotism would prompt its people to improve their conditions and promote their resources without aggression. Such sentiments in cases as these will be unmixed virtue for they will further the interests of humanity and prompt co-operation for good.

Some of the companions of the Prophet seeing him strongly prohibiting fanaticism and advising against it, asked "Is it of fanaticism O Messenger of God that a man should love his people?", whereupon the Prophet replied, "No ! but it is fanatic of a man to support his people unjustly."

The Prophet has also likened he who would support his people without just cause as a camel falling into a pit of fire."

This simile is only too perfect; it is borne out by facts and events in modern times. The blind support now given by leaders and statesmen to their peoples and the backing of unjust causes helped such peoples devour others' land and exploit their resources, thus making hell of the whole universe. Hardly does God put down a fire when mortals start another through their fanaticism that would bring about the downfall of peoples.

2. Human Co-operation

9 — Co-operation is first and foremost among the forms of understanding, being the ultimate purpose of different races and colours. It is an aspect of intellectual intercourse in societies, both big and small; as well as practical understanding in the human family.

God's saying, "Help ye one another unto righteousness and pious duty. Help not one another unto sin and transgression," was intended for the faithful of all mankind, and stressed the prohibition of aggression even on the cooperation with aggressors themselves. The whole text of the verse is "And let not your hatred of a folk who (once) stopped your going to the inviolable place of worship seduce you to transgress; but help ye one another into righteousness and pious duty. Help not one another into sin and transgression, but keep your duty to Allah. Lo ! Allah is severe in punishment."

The Prophet duly applied the principle of international cooperation on his arrival in Medina. He concluded a pact with the Jews

Allah, is the most righteous of you," as already stated.

2. Rules of International Relations

7 — The basis on which all the rules governing international relations in Islam are established, is the acquaintance of peoples with each other which is the ultimate purpose of their differences in race and dispersion in tribes.

1. Equality :

8 — This acquaintance could exist only between two equals and not between parties of differing ranks. For domination and the lust for power would set in wherever a party of a higher standing and another of a lower rank acted together. Conflicts would also flare up in consequence, and man would harbour evil intentions towards his fellow men. Equal treatment is therefore expedient, a principle which the Prophet on whom be peace has called for in the words "Like for thy brother what you like for thyself; and hate for him what you hate for thyself."

This saying applies to communities and states in the same way it applies to individuals for no distinction is made in the code of justice and equality between individuals and groups. What an individual is required to do is also expected from a community as represented in the State. Means of attaining this objective may differ since an individual is more easily persuaded than a group. Still the objective is one and the same whatever difficulties obstruct our path.

The colour of man's skin has been used as an argument to justify domination which has prejudiced the chances of equal treatment to the detriment of peoples. The Prophet strongly fought against this conception. Once he heard a man scornfully calling another "Son of the Black Woman," whereupon the Prophet on whom be peace angrily said "this is gross injustice", repeating his words three times. He added that a son of a white woman can never be more favoured than the son of a black except through piety.

People of our contemporary times have also used ignorance as pretext for the domination of the civilised over those scientifically and culturally backward. The Muslim logic has fought such trends for it made it incumbent upon the learned to teach the ignorant and considered a learned man who would not teach the ignorant as withholding his knowledge. The Holy Quran has cursed those who would not impart their knowledge. In this context Ali Ibn Abi Taleb on whom be God's peace has said "The ignorant will not be asked why they have failed to learn until the learned have been asked why they have failed to deucate".

their common origin and formation. They spread all over the universe and underwent changes in both race and colour.

Their nature enclosed a love for conquest and an aspiration to authority and an urge for occupation, whether as individuals, communities, or countries. Conflicts flared up among them for power, land and wealth with the people of a certain region seeking to rule othrrs in satisfaction of tribal fanaticism, or in the name of economy, wealth or religion. The only justification for this was power on the part of those desiring to conquer, and weakness, even relative, in those opposing the conquest or succumbing to it.

Hostility has since replaced unity, and complicity in vice and aggression has superseded benevolence piety and justice.

6 — The mutual understanding which the Holy Quran has called for and considered a worthy end because of the racial differences between peoples and tribes and their dispersion on earth, would undoubtedly provide proper solution for every dispute. But peoples like individuals are dominated by the same conceit that tempted Satan himself, and it is necessary in the circumstances, to regulate friendly relations and render them effective in human relations between the human communities on earth.

It is evident from the past and the present of humanity that amity has never been established among its countries since the urge for conquest, power and authourity has destroyed all possibilities of amity based on cooperation, and substituted for it a desire for domination through racism, the ignorance of certain peoples, the domination of certain races over others on wrongful assumptions or economic allegations that certain regions stand in need of others' wealth, and so on and so forth.

Since disputes would thus replace human relations if peoples should exclusively undertake such regulation, some divine guidance was needed to help them in this process and guide them along the right path. Divine messages were thus conveyed and prophets sent with promises of bountiful reward for those who obey and menaces of punishment for the obstinate.

Islam, the last of all the divine religions revealed through Mohamed, the last of the Prophets, was the last stone in the edifice of Divine Message. It regulated the rules that govern human relations between individuals and countries on the most ideal bases, and made understanding the cornerstone of international relations; God having said : "O Mankind ! Lo ! we have created you male and female, and made you nations and tribes that ye may know one another. Lo ! the noblest of you, in the sight of

the truth that it might judge between mankind concerning that therein they differed. And only those unto whom (the scripture) was given differed concerning it, after clear proofs had come unto them, through hatred one of another. And Allah by His will guided those who believe unto the truth of that concerning which they differed. Allah guideth whom He will unto a straight path".

God has so stated human unity in the sense that peoples are one nation and that such unity embraces the unity of origin, of formation, of instincts, and of propensity for good or evil. This is because human instincts are one, the instincts of the man in the northern most regions are the same as those of peoples in the most distant south, as borne out by God's saying that every soul has a tendency for good and an inclination towards evil. He has also said, "And guide him to the parting of the mountain ways ?" Meaning the way of good and the way of evil. God has further said "And a soul and Him who perfected it and inspired it (with conscience of) what is wrong for it and (what is) right for it."

From these common instincts, and from this unity of propensity towards good and evil, emanated the apparent disparities among human beings. Some people, overcome more by evil than good and in response to the call of evil in them, led an unworthy life. Others were fortunate in being influenced more by the good in them and followed a virtuous road. Both parties unavoidably had to clash because of their different dispositions; hence the wisdom in sending Prophets to explain good and its features. Conflicts continued, nevertheless, for some people responded to the appeal of virtue, while others adamantly persisted in their evil conduct and deviated from the path of righteousness. Thus evolved the enmity between the good and the bad, or in more proper terms, the hostility of the bad towards the virtuous.

Ever since Satan declined to kneel in homage to Adam, and emphasising his deviation from the right path, said, "My Lord ! Because those who have sent me astray, I verily shall adorn the path of error for them in the earth, and shall mislead them every one, save such of them as are Thy perfectly devoted slaves."

Satan has been tempting people and luring them into the perpetration of wrongful acts. Some were infatuated while others resisted and held to piety. The conflict thus continued between the virtuous and the evil, a situation which God has stated to people in His words : "Fall down, one of you a foe unto the other ! There will be for you on earth a habitation and provision for a while".

5 -- Peoples differed, despite

women. Be careful of your duty towards Allah in whom you claim (your rights) of one another, and toward the wombs (that bore you). Lo ! Allah has been a watcher over you."

God has also said, "It is He who has created you from a single soul and from it created its mate."

This same unity was also stressed by the Prophet in his saying "You all are Adam's offspring, Adam is of earth, and the only credit that an Arab has over an alien is piety".

The Quran in connection with Adam's creation has likewise emphasized the fact that all people are but the sons of Adam and that their differences in colour, tongue, tribes, peoples and races despite this common parentage, are of the signs of God in the univrese and its aspects. Different are as must produce a difference of colour and of tongues. God, the Almighty, on the link between the creation of earth and the skies and the difference of colour and of tongues has said, "*And of his signs is the creation of heavens and the earth, and the difference of your languages and colours. Lo ! herein indeed are portents for men of knowledge.*

Furthermore, the difference between human appearance and earth, the source of humanity, no doubt entailed a disparity in many aspects, hence God's saying : "And of his signs is this : He created you of dust, and behold you human beings, ranging widely !

3 — This difference, however, would not clash with the principle of unity, nor should it be the cause of conflict but rather of acquaintance with each other, and of mutual friendship as substantiated by God's saying : "O mankind! Lo ! We have created you male and female, and have made you nations and tribes that you may know one another. Lo ! The noblest of you, in the sight of Allah, is the most righteous of you".

This difference is therefore intended to serve as a medium for people to get together and not to clash or despise each other.

Acquaintance here is not the abstract but rather the fruitful form of knowledge where all human forces meet for man's own benefit.

Acquaintance would serve human interests when the people of every region made the fruit of their land available to others and thus exchange benefits for the good of all humanity. Peoples' deviation from this mutual aid as outilned in the Holy Quran led to conflicts and disputes over God's bounty to human beings on earth.

4 — God has stated this conflict in just a position with human unity; He said, "mankind were one community, and Allah sent (unto them) Prophets as bearers of good tidings and as warners, and revealed herewith the scripture with

INTERNATIONAL RELATIONS IN ISLAM

By

His Eminence The Late Sheikh Mohamed Abu-Zahra

Member of The Islamic Researches Academy

IN THE NAME OF GOD, THE MERCIFUL,
THE COMPASSIONATE.

Praise be to God, and peace and blessings on Prophet Mohamed, his Family and Companions.

This research deals with the bases of international relations as regulated by the Quran, and as the Prophet on whom be God's peace and blessing carried out and guided his comrades therein.

Through God's help we rely in this study upon the text of the Holy Quran, the traditions of the Prophet, the acts of his companions, and the deductions of Mujtahids.

We shall be dealing with the following topic :

1 — Human unity as set out in both the Quran and the Prophet's traditions, and the causes of conflict in this universe.

2 — The rules governing relations between peoples, and their application to countries in the same manner as they are applied to individuals.

3 — Relations in peace-time and the basis of relations between Muslims and other peoples.

4 — Relations in wartime, the restrictions imposed on believers in the conduct and in the aftermath of wars.

1. Human Unity

2 — Many verses in the Holy Quran refer to peoples as one Nation; that they emanate from one origin and share the same end when they meet God who has created them, though their reward may range from good to bad, and from everlasting bliss to excruciating pain.

All the peoples belong to one soul though they differ in shape, races, or tongues or as nations or tribes, believers or atheists, good or bad, constructive or destructive. God has said, "O mankind ! Be careful of your duty to your Lord who created you from a single soul and from it created its mate and from them twain hath spread abroad a multitude of men and

other. But if there come unto you from Me a guidance, then whoso followeth My guidance, he will not go astray nor come to grief.

But he who turneth away from remembrance of Me, his will be a narrow life, and I shall bring him blind to the assembly on the Day of Resurrection.

He will say : My Lord ! wherefor hast Thou gatherd me (hither) blind, when I was wont to see ?

He will say : So (it must be). Our revelations came unto thee but thou didst forget them. In like manner thou art forgotten this Day.

Thus do We reward him who is prodigal and believeth not the revelations of his Lord; and verily the doom of the Hereafter will sterner and more lasting.

Surah XX (TAHA) : 111/127.

وَلَا يَشْقَىٰ • وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا
وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ •
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ
كُنتُ بَصِيرًا • قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ
تُنسَىٰ • وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ • .

صدق الله العظيم

سورة طه : ١١١/١٢٧

Tru King ! And hasten not (O Muhammad) With the Qura'an ere its revelation hath been perfected unto thee, and say : My Lord ! Increase me in knowledge.

And verily We made a covenant of old with Adam, but he forgot, and We found no constancy in him.

And when We said unto th angels: Fall prostrate before Adam, they fell prostrate (all) save Iblis; he refused.

Therefor We said : O Adam ! This is an enemy unto thee and unto thy wife, so let him not drive you both out of the Garden so that thou come to toil.

It is (vouchsafed) unto thee that thou hungerest not therein nor art naked,

And thou thirstest not therein nor art exposed to the sun's heat.

But the Devil whispered to him, saying : O Adam ! Shall I show thee the tree of immortality and power that wasteth not away ?

Then they twain ate thereof, so that their shame became apparent unto them, and they began to hide by heaping on themselves some of leaves of the Garden. and Adam disobeyed his Lord, so went astray.

Then his Lord chose him, and relented toward him, and guided him.

He said : go down hence, both of you, one of you a foe unto the

وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا • وَلَقَدْ
عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ
وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا • وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ • فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ
إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا
يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ •
إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ •
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ •
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ
يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ
ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ • فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ • ثُمَّ
ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ •
قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى
هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

Volume : 51 No. — 2 Safar 1399 A.H. — January 1979 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

The Meaning of Tho Glorious Qurâan

And faces humble themselves before the Living, the Eternal. And he who beareth (a burden of) wrongdoing is indeed a failure (on that day).

And he who hath done some good works, being a believer, he feareth not injustice nor begrudging (of his wage).

Thus We have revealed it as a Lecture[1] in Arabic, and have displayed therein certain threats, that peradventure they may keep from evil or that it may cause them to take heed.

Then exalted be ALLAH, The

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا • وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا •
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا •
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ

(1) Ar. Qura'an.

رئيس التحرير
والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة

الجزء الثالث - السنة الحادية والخمسون - ربيع الأول ١٣٩٩ هـ (فبراير ١٩٧٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

عودة الروح إلى باكستان
خطاب مفتوح إلى الرئيس ضياء الحق ...

الدكتور/ عبد الودود شلبي

باكستان ...

الأمل والحلم ... بلاد الإيمان والطهر ...

ماذا أقول ؟ ومن أين أبدأ ... ؟

طوفان من المشاعر والذكريات يتدفق في أعماق هذه اللحظة ، إن باكستان تتجلى أمامي الآن في أجمل صورة ...

مئات الألوف والضحايا دفعوا حياتهم ثمن هذا الحلم ... كانوا وقود هذه الجذوة المقدسة تشبثا بالإيمان في غابة الوثنية والموت ، فمضت قوافل الشهداء منهم إلى ربها وهي تهتف بأعلى صوت ..

باكستان زنده باد .

●●●

ولئن كنت مصريا نشأ في مصر ، إلا أنني مسلم يحتوى قلبه بلاد الإسلام كلها

من الشرق إلى الغرب ، وقد كان لـ « باكستان » فى قلبى منزلة خاصة تجل عن الوصف .

غير أنى لا أنكر فضلها على ، وتكريمها لى فقد عشت فيها دارسا ، وزرتها عابرا ، واختلطت بشعبها من أقصى الشمال الغربى فى « بشاور » إلى « كراتشى » على شاطىء بحر العرب الهادر . !

لم تغب عنى حتى هذه اللحظة ذكرياتى فى « لاهور » وباد شاهى مسجد وأجهرة . . . وحى أنا ركلى . . . وجامعة البنجاب . والقلعة الحمراء . . . والمكتبة العلمية ، والدكان الذى كان يستقبلنى صاحبه بنشيد « اسلمى يا مصر » . . . لم تغب عنى حتى هذه اللحظة أطياف شاليمار . وقائدى أعظم مزار . . . وضريح العلامة إقبال .



لقد قامت باكستان بالإسلام . . . وللإسلام . ولولا ذلك ما كان لقيامها معنى . . . ولكن الأمر استحال علاجه بسبب التناقضات الصارخة فى العقائد ، وبسبب الطبقية الجائرة فى نظام الحكم ، وبسبب التفرقة الهائلة فى العرق والجنس . . . وقد كان السؤال — ولا يزال — هل يعبد المسلم البقرة أم يذبحها ؟ وكما يقول المرحوم محمد إقبال :

إننا وإن كنا ولدنا فى بلاد عريقة فى الوثنية . . .

رفضنا أن تعبد الثور والبقرة . . .

وأبينا أن نطأطىء رءوسنا أمام الكهان والسدنة . . فلم نخر بين يدى الآلهة القديمة . . .

كانت « لا إله إلا الله » هى فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة . . .



ومنذ قامت باكستان . . . ونحن هنا فى مصر نتابع أحداثها ، ونحلل أخبارها ونرصد ما يقع فيها . . . إن باكستان عزيزة علينا لأنها تجسيد للعقيدة ، وواحة للإيمان وارفة . . . والعقيدة هى الرباط الأوثق بين المؤمنين فى أى أرض ، والحبل المتين الذى يربط بين المسلمين فى الشرق والغرب .

لقد قامت باكستان . . وكان لقيامها معنى كبير فى دنيا السياسة . هاهنا دولة تذوب فيها فوارق اللون ، وفوارق الجنس ، وفوارق اللغة . دولة تقوم بعقيدة دينية لا تفرق بين الناس ، وبروح إسلامية لا تعرف التعصب .

ما الذى جمع « البنغال » إلى « البنجاب » ؟ وما الذى وحد بين « السند » و « بلوجستان » وما الذى جعل

« أردو » لغة تعلو على غيرها من اللغات ؟

إنه الإسلام . . . العقيدة التى انتشلت مسلمى الهند من الذلة والهوان . . .



« ولما كان لله سبحانه وتعالى الملك كله . . ولما شاءت إرادة الله جلت قدرته أن يمنح دولة الباكستان السلطة والقوة تزاولها بواسطة شعبها فى الحدود التى رسمها لها وهو الوديعة المقدسة .

قرر المجلس التأسيسى الذى يمثل شعب الباكستان أن يضع دستورا تسير وفقه باكستان المستقلة ذات السيادة . دستورا تمارس الدولة به وظائفها مقتفية أثر التعاليم التى توحى بها الديمقراطية والحرية والمساواة والتسامح والعدالة الاجتماعية كما جاءت فى تعاليم الإسلام . . دستورا يكيف حياة المسلمين أفرادا وجماعات حسب تعاليم ومعتقدات الإسلام كما وردت فى الكتاب والسنة [1] » .

لقد كان هذا الدستور حدثاً تاريخيًا بالنسبة لشعوبنا . . كنا فى هذا الوقت لانزال شبابا يمتلىء قلبه بالإيمان والحماسة . وقد وجدنا فى باكستان ودستورها الأمل الذى تخفق به قلوبنا فى كل نبضة .

« ولكن هذه العملية – التى قفزت إلى الوجود لأسباب تاريخية وسياسية – لم تجد فرصة تهيئة هذا الجيل وإعداد هذه القيادة . وقد عجز نظام التعليم الغربى السائد فى الأقطار الشرقية ، وعجزت الجامعات الغربية التى تلقى فيها زعماء هذه البلاد ثقافتهم عن أن تقدم خيرا منهم فى عامة الأحوال ، وعن أن تنتج غير هذا الطراز من التفكير ، وغير هذا الإسلوب من الحياة .

ومن المؤسف . أنه ، فى هذه المدة غير اليسيرة – منذ أنشئت باكستان لم يقم زعماؤها بخطوة جريئة نحو توجيه المعارف – التى هى العمود الفقرى لتوجيه الدولة ، وإنشائها إنشاء جديدا يتفق مع روح الإسلام وأهدافه ، وصياغة المجتمع صياغة إسلامية جديدة . ووضع دستور إسلامى ، وسد منابع الفساد والتفسخ الخلقى والفوضى الفكرية ، ولم تكن هناك محاولة جدية تدل على أن باكستان (معمل) إسلامى جديد تثبت فيه أهمية الحياة الإسلامية وصلاحية القانون الإسلامى ، وتفوق الحضارة الإسلامية ، وتقدم فيه نموذجا عمليا للأقطار الإسلامية الناهضة – بل – بالعكس من ذلك – قد برهنت بعض التشريعات ، وبعض الإصلاحات وبعض الاتجاهات على أن واضعى الدستور فى

(1) دستور باكستان .

باكستان ، وولاة أمرها – ليسوا مأخوذين بالأقطار الغربية فحسب – بل يعتبرونها أساسا للتشريع ، وشرطا لتقدم البلاد .

وقد كان انصراف باكستان عن أهدافها الأساسية الأولية ، مأساة ضخمة وغدْراً بذمة الملايين من المسلمين الذين تحملوا فى سبيلها من المصائب ما يشيب لهولها الولدان ، وقدموا لها ثمنا من الدماء والأرواح والأعراض . . ثم إن هذا النكر والانحراف بخمدان العاطفة الدينية التى لم تزل تراود نفوس العاملين للإسلام ، ويزهدهم فى محاولة إعادة هذه التجربة [١] . . . »

أكثر من هذا . . إن تمزق باكستان كان نتيجة طبيعية للتنكر للإسلام وإهمال مبادئه فى أسلوب الحياة والحكم ، والوقوع فى شراك القومية البغيضة التى شطرت الدولة إلى دولتين فى الشرق والغرب .

لقد كان « البنغاليون » من أسبق الناس هتافا لباكستان قبل قيامها بل إن – « مجيب الرحمن » كان من أشد الناس حرصا على قيام هذه الدولة وتضحية فى سبيلها فما الذى حدث ، وغير قلب الأخ على أخيه .

وجعل من شقيق الأمس عدوا لشقيقه . وجعل من – العدو المشترك – حليفا ومنقذاً بعد ربع قرن من الحروب والقطيعة ؟

إن النظرة الخاطفة تجاه هذه المأساة تعزو ذلك إلى اختلاف اللغة والجنس ولكن هذه اللغة وهذا الجنس لم يقفا حائلا عند قيام الدولة . . . وكانت باكستان الشرقية قلعة من قلاع الصمود فى وجه أية محاولة للقضاء ، على هذه الدولة . . لقد اختفت سمة الإسلام من وجه الحياة الباكستانية . وتسلم الحكم طائفة من الطغاة والمردة ، وابتليت باكستان بزعماء يعبدون أنفسهم من دون الله سبحانه . وإذا كان « ذو الفقار بوتو – يحاكم اليوم بجريمة قتل منفردة ، فإن الجريمة الكبرى التى ارتكبها كانت أضعاف أضعاف هذه الجريمة مليون مرة ! !

لو استجاب لنداء العقيدة والعقل ، لما تمرد « حزب عوامى » وزعيمه فى الشرق ولو خضع لمنطق الحياة والإيمان لما كانت المأساة التى لطخت وجه الأشقاء بالدم ولكن عبادة « الذات » ، وحب التملك والتسلط ، وإهدار مبادىء الشورى والعدل والاستهجان بكل ما هو « ليس منى » ، قاد باكستان المسلمة الى اتخاذ مواقف لم تكن فى حسبان أى فرد من

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية – العلامة أبو الحسن الندوى .

Islam in Modern History.

شعبها ؟ ولا فى تقدير أى جندى من جيشها ؟

وليسمع شعب « باكستان » هذه الكلمة التى يقولها البروفسور سمث [١] . . .

« ربما يتخيل الباكستانيون أن عملية تكوين المجتمع الإسلامى صعبة وعسيرة أكثر مما قدروها أول الأمر ، ولكننا إذا تأملنا فى هذه القضية رأينا أنه لا مفر لهم الآن . . . لقد كانت وعودهم ومزاعمهم صريحة واضحة إلى حد لا يمكن التخلص منها ، والإغماض عنها . سيكون تاريخهم « تاريخ الإسلام » . . . لقد وقعت على عواتقهم مسئولية ضخمة ، إنهم لا يستطيعون راضين أو كارهين — أن يصرفوا النظر عن فكرة « الحكم الإسلامى . أو يتركوها لمدة طويلة . . . ذلك بأن القضاء على هذه الفكرة لا يعنى التعديل فى الأسلوب والمنهج . . . بل إنه يعنى الضربة القاضية على الدين والوطن . ويستنتج العالم منه شيئا واحدا ، وهو : أن نظرية الدولة الإسلامية نظرية فارغة . وأن شعارها وهتافها تضليل وخداع لا غير . وهى لا تستطيع أن تساير مطالب الحياة المعاصرة ، ويؤمن بأن أهل باكستان أخفقوا فى تطبيقها على حياتهم القومية كأمة وشعب ، وفى هذه الحال تصبح معتقدات المسلمين موضع شك ومحل نقاش ونقد فى نظر العالم . . . !

وهذا الكلام . . . خطير . . . وصادق . . .

فالتجربة الباكستانية لم تعد ملك باكستان وحدها . . . إنها للمسلمين جميعا . . لقد تجسدت فيها العقيدة . . . نظاما وأسلوباً ومنهجا وما يحدث فى باكستان سوف ينعكس تلقائيا على هذه العقيدة ونظامها وأسلوبها ومنهجها . . . وأى خطأ يرتكب ضد هذه العقيدة . . . فلسوف يفسر تفسيرات (مجحفة) . . . وينحرف بالناس عن الحق والحقيقة . . .



لقد عشت فى باكستان عاما كاملا [٢] . . تجاوزت فيه تأثير العاطفة إلى صوت العقل . . . كنت أرصد ما أراه وأسمعه فيزداد ألمى بما أرى وبما أسمع . . . فليس معقولا أن يتحول الحكم إلى قوة غاشمة لحساب نفر أو زعيم أو حزب وطائفة . . . وغير ممكن أبدا ولا مقبول أن تحرم الباكستان من حكم الشورى والديمقراطية ويسير شعبها المؤمن إلى كارثة وطنية ، وتكمم أفواه الدعاة والمخلصين للدين

---

(١) نقلا عن العلامة الندوى . . .

(٢) ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م .

والأمة . . .

. . . . غير ممكن ولا مقبول هذه الصيحات والشعارات التى تحمل فى ثناياها الموت والخراب هذه الدولة . . . مستحيل هذا الذى أراه من القادة ورجال الحكم والساسة . . . من تحلل وإباحية . وإهدار لجميع القيم الأخلاقية والدينية . . . إن هؤلاء الزعماء يدمرون أنفسهم وبلادهم بهذه الطريقة . . . فإذا وهن الإسلام وأهدرت قيمه . فقد ذهب المبرر الوحيد لقيام هذه الدولة . وخرجت – من جحورها – الثعابين والأفاعى لتنفث سموم الفتنة . . .

أين محمد إقبال ؟ بل أين محمد على جناح ؟ بل أين أرواح الألوف من الضحايا والشهداء الذين قدموا حياتهم رخيصة فى سبيل باكستان المسلمة المؤمنة ؟ لم أكن أتصور أن تحيط بمقام « إقبال » أماكن اللهو والمجانة ؟ لم يكن يخطر ببالى ما أراه فى الفنادق التى لا تبالى بأية فضيلة ؟

كنت أحدث نفسى بألم . . . وأتحدث إلى الناس بصراحة . . ما تركت وزيرا أو أستاذا أو تاجرا . . أو طالبا إلا أفضيت إليه بما فى نفسى من ألم ومرارة . . .

بل كنت أتابع انتخابات (إتحاد الطلبة) فى جامعة البنجاب فأرثى للذين يهتفون بالعلمانية ، والإشتراكية وأقول للعقلاء منهم . . . إن باكستان قامت بغير هذه الشعارات القاتلة . . . وحين تسيطر عليها هذه النزعات الهدامة فلن تقوم لكم قائمة وسينتهى وجودكم من الحياة فى أول « كميونة » . ! !

ولقد رأيت من واجبى كمسلم . . وكمواطن « باكستانى » . يستحق هذه « المواطنة » كمسلم . . رأيت أن أسهم بنصيب فى هذه المعارك التى كانت تدور خارج مسكنى فى نيوكمبس New Campus

كنت ألتقى بممثلى الطلبة المسلمين لأمنحهم تجاربى فى مثل هذه المعركة . . . وكنت أنتفض من سريرى خارجا كلما سمعت هتافات « إشيا صرخة هى » أى آسيا حمراء . . . نفس الهتاف الذى كان يردده القمر الصينى حين أطلق لأول مرة فى الفضاء ليعلن « إن الشرق أحمر » .

كنت اتفرس فى وجوه هؤلاء المساكين الذين يطالبون بالموت والخراب فى الوقت الذى يظنون فيه أنهم أحياء . . وأظل فى مكانى جالسا . . حتى تجىء مظاهرة أخرى تتقدمها الأغصان الخضر والمشاعل . . . وشبابها يهتف بإيمان وعمق الله أكبر .

« إشيا سبزه هى » أى آسيا خضراء . .

وبحركة لا شعورية أذهب لأشترى بعض الحلوى وأوزعها على هؤلاء كى تجلو أصواتهم وهى تهتف الله أكبر: إشيا سبترهه هى . . .

لم أنس حتى هذا الوقت . . الطالب عبد الشكور رئيس إسلامى جمعية طلبة . . . ولم أنس أيضا - على الرغم منى - الطالب علام عباس مرشح الشيوعيين وال (P.P.P). وغيرهما من أحزاب الدمار والموت . . . !



يا سيادة الرئيس :

لقد تركت باكستان فى أوائل ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م . . . ولكن قلبى بقى هناك يشارك رجال الله معاركهم ضد جحافل الكفر والشيطان .

لقد عرفت أناسا كثيرين من مختلف الاتجاهات والأحزاب . . . من الجماعة الإسلامية . والرابطة الإسلامية . . . وحزب مارشال الجو السابق «أصغرخان» . . .

ومن حزب بوتو أو باكستان بيلز بارتى . (P.P.P.)

كنت أرى التضييق فى كل مكان على كل إنسان . . وكان صدرى يضيق بالاضطهادات المتلاحقة لـ «جماعت إسلامى» . . هذه الجماعة التى بقيت وحدها وسط هذا الإعصار تقاوم التجديف والتزييف ومعاول الهدم التى تهوى على رأس باكستان كل يوم والأغرب من ذلك كله . . إن القيادة الدينية أسندت إلى رجال سيئى السمعة ولم يبق فى باكستان كلها صحيفة أو مجلة تنطق بالحق والحقيقة والصحيفة أو المجلة التى تحاول ذلك ينتهى أمرها بالإعدام أو المصادرة ، وقد رأيت بعينى ما حدث لصحيفة «جسارت» فى كراتشى . . وما وقع لمجلة «أوردو دايجست» فى لاهور . . .

يا سيادة الرئيس :

لن أحدثك عن النزعات الانفصالية التى أفرزها حكم «بوتو» فتحت يدى الكثير من قصاصات هذه المحاولات السخيفة التى تموها دول كبرى ، أو دول مجاورة تتستر وراء أشخاص باعوا ضمائرهم فى أسواق العمالة السفلى . . . ؟

لقد مضى «بوتو» إلى سبيله يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله . . إن أمره الآن بين يدى العدالة . . إن المأساة فى العالم الإسلامى . . إن الذين جرعوه الذل ، وصفدوا شعوبه بالأغلال . . . وادعوا رعايتهم للفقراء تحت شعارات خادعة وكاذبة . . كانوا فى حياتهم أباطرة من

أباطرة القرون الوسطى . . .

لقد أممت أكثر المصانع ، وصودرت أكثر الأراضى والممتلكات . . ولكن زعيم الـ (P.P.P.) بقى وحده مالك الملك . . وأصبحت « لاركانا » فى عهده « ملكة المدن » . !

ويكفى أنه وعد كل فقير ببيت يسكنه ، وكل فلاح بحقل يملكه ، وكل سائق « ركشا » بـ (ركشا) جديدة تطعمه وتحمله . . . !

لقد مضى هذا كله كما قلت . . انكشف الغطاء عن الزيف والتزوير الذى عاشته باكستان المسلمة لفترة طويلة . . لم أكن أر فى باكستان سوى الجيش . . كنت أراه المؤسسة الوحيدة التى بقيت محتفظة بتقاليدها العسكرية الصارمة ، وكنت أفرح كثيرا حين ألتقى بالجنود والضباط وأحاول الاستماع أو الاستمتاع بروحهم الإسلامية الأصيلة . . لم يكن يخطر ببالى أن تقوم بحركتك الإسلامية العاقلة . . فأنا رجل سيىء الظن بتحركات الجيوش من ثكناتها لغير الدفاع عن الوطن والعقيدة . . بل لم أكن أسمع بك حين إقامتى فى باكستان طوال سنة كاملة كان اسم الجنرال « تيكاخان » هو الظاهر فى كل صحيفة ومجلة .

وظل الحال كما تركته فى باكستان حتى بدأت الأزمة فى الانتخابات الأخيرة . . . لقد حدثنى أكثر من « مطلع » إن حركتك قامت فى اللحظة التى قرر فيها « بوتو » إخضاع الجيش لمآربه الشخصية وأن تحرككم كان عقب الأحداث الدموية التى شهدتها لاهور وكراتشى وغيرهما من المدن الكبرى .

وأيا كان الأمر . فإن حتى لك بدأ أيام الاحتفال بالذكرى المئوية لمولد العلامة « إقبال » كنت عضوا فى وفد مصر إلى الاحتفال . . . وفى اليوم الأخير لهذا المؤتمر وقفت تتكلم وبدأت كلماتك تشق طريقها الى قلبى المحطم . . . !

لقد تميزت كلماتك بالإخلاص والصدق . . . وكان الإسلام نابضا فى كل حرف تنطق به فى هذا الحفل . . . لم أصدق أول الأمر . . . ظننتنى أحلم . . أو أن – « العلامة إقبال » بعث من قبره ليتكلم . . . !

لقد عادت الروح إلى باكستان . . ودبت الحياة والعافية فى الجسم الجريح وأشرق ضياء الحق بعد ظلام ليل قبيح . .

وأظنك تذكر يا سيادة الرئيس . . أنى تقدمت إليك بعد إلقاء الكلمة . . وانصراف المدعوين إلى حفل الشاى

خارج القاعة . لقد عانقتك كزعيم مسلم . . . وأهديتك مسبحتى تقديرا لهذا الحديث الملهم . . .

وأظنك تذكر يا سيادة الرئيس . . . أن خطاب المغفور له الإمام الأكبر عبد الحليم محمود – والذى بعث به إليك رداً على رسالتك إليه – قد نوه بهذه العاطفة التى ذكرتها للإمام الأكبر . لقد قلت لفضيلته عقب عودتى من باكستان مباشرة . .

إن زعامة جديدة ولدت فى باكستان . . زعامة تعتز بالإسلام وتعمل لإحياء مجده وتراثه . .

وقد التقيت بك ثانية فى كراتشى عقب صلاة الجمعة أيام المؤتمر الإسلامى الأسيوى فرأيت فى بساطتك وإيمانك ما جعلنى أخاف عليك . إن الشرق والغرب يا سيادة الرئيس يختلفان فى كل شىء ما عدا شيئا واحدا لا يختلفان فيه أبدا .

هذا الشىء الوحيد هو ضرب الإسلام . . وضرب كل قيادة صحيحة تدعو إلى هذا الإسلام . .

إن يقظة الإسلام تعنى موت كل الفلسفات . . وتعنى زوال كل الإمبراطوريات . وتعنى نهاية الظلم الذى تعانيه البشرية على يدى قياصرة الغرب وأكاسرة الشرق . . وقد بدأت بعمل لم تُسبق إليه فى باكستان إن معنى الحكم بما أنزل الله . . . إسقاط كل حكم خارج دائرة هذا الحكم . . ومعنى تقنين الشريعة . . إلغاء كل قوانين الجاهلية فى الشرق والغرب . .

وكما يقول العلامة إقبال على لسان « أبو جهل » :

إن قلوبنا معشر الجاهلين قروح وجروح تسيل دما مما صنع محمد . .

لقد نعى قيصر وكسرى . .

« وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين . . .

ونادى بأعلى صوته : (إن الحكم إلا لله) .

لقد جعل اللات ومناة جذاذا بضرباته الموجعة . .

فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة . .

ولهذا يا سيادة الرئيس يحارب الإسلام ويطارد فى كل بقعة من الأرض . . (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) . .



فليكن ذلك فى خاطرك . . فإنك اليوم لكل المسلمين فى العالم لا لمسلمى باكستان وحدهم . واسمح لى أن أضع

أمامك مشروعا تقدم به علماء باكستان بعد خمس سنوات من قيام دولتكم النقية الطاهرة . . .

● إن الحاكم الحقيقى من حيث التشريع والتكوين هو الله وحده .

● يكون قانون البلاد مبنيا على قواعد الكتاب والسنة ، وإلغاء ما يخالف ذلك من القوانين التى تتعارض مع الكتاب والسنة .

لاتقوم الدولة على أساس نظرية إقليمية أو قومية أو جنسية وإنما تقوم على مبادىء وغايات أساسها ما جاء به الإسلام من نظام شامل للحياة البشرية .

● مهمة الدولة الإسلامية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى ضوء ما أرشد إليه الكتاب والسنة .

● على الدولة إتخاذ كل الوسائل والأسباب لتوثيق عرى الإخاء بين الشعوب والأمم الإسلامية . وسد كل المنافذ والطرق التى تؤدى إلى إحياء النعرات الإقليمية والجنسية .

● تتكفل الدولة بتوفير كل حاجيات المواطنين الضرورية كالمأكل والملبس . والمسكن والتعليم والعلاج . وتوفير العمل لكل قادر . ورعاية العجزة والضعفاء وحمايتهم من الفقر والفاقه .

● يتمتع أهل البلاد – فى حدود القوانين – بجميع الحقوق التى نصت عليها الشريعة الإسلامية من حماية النفس والمال والعرض . وحرية الرأى والعبادة وحرية التنقل وحرية الاجتماع والمساواة فى العمل ، وتكافؤ الفرص ، والاستفادة من المرافق العامة .

● لا يسلب أى مواطن حقا من هذه الحقوق ما لم يكن فيه نص من الكتاب والسنة .

● حرية أبناء المذاهب الإسلامية فى القيام بواجباتهم الدينية ، وإنشاء المدارس الخاصة ، ونشر أفكارهم والدعوة إليها بكل حرية .

● لأبناء الدولة – من غير المسلمين – الحرية فى ممارسة شعائرهم الدينية والتحاكم حسب مذاهبهم الخاصة فى الأحوال الشخصية .

● المحافظة على العهود والمواثيق التى التزمت بها الدولة تجاه غير المسلمين من سكان البلاد ، ويكون من حق هؤلاء التمتع بجميع الحقوق المدنية دون – تفرقة بينهم وبين المسلمين .

● النص على أن يكون رئيس الدولة مسلما ذكرا وأن يختار بالانتخاب العام من الشعب أو عن طريق النواب الذين

يختارهم الشعب ولابد فى الحاكم من توفر شروط معينة كالتدين والكفاءة وسداد الرأى .

● رئيس الدولة هو المسئول الحقيق عن تسيير شئون الدولة ، ويجوز أن يفوض جانبا من صلاحياته الى فرد أو جماعة

● الشورى هى أساس الحكم . ويجب أن يلتزم الرئيس بهذا المبدأ ويمارس تطبيقه مع الوزراء ونواب الشعب . .

● ليس من حق رئيس الدولة أن يلغى الدستور كله أو بعضه .

● عزل الرئيس أو انتخابه من اختصاص نواب الشعب الذين يملكون تثبيته أو عزله .

● رئيس الدولة يكون مساويا لجمهور المسلمين فى الحقوق المدنية . . ويحاكم أمام القانون فى حال انتهاكه لهذا القانون أو مخالفته .

● القانون سيد الجميع ويستوى أمامه الحاكم والمحكوم بدرجة واحدة .

● استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية .

● محاربة الأفكار والمبادىء التى تمس أمن الدولة وتعرضها للقلاقل والفتنة .

● تقسم ولايات البلاد تقسيما إداريا لا يخضع لاعتبارات عرقية أو جنسية أو إقليمية

● لا يقبل تفسير أية مادة من مواد هذا الدستور تفسيرا يخالف الكتاب والسنة .

يا سيادة الرئيس ضياء الحق . . .

إن للأسماء نصيبا فى حياة الرجل وسلوكه . . وقد كان نبينا ﷺ يوصى أصحابه باختيار أحسن الأسماء . . وكان يغير اسم الرجل إذا رأى فى هذا الاسم ما يوحى بالضيق والتشاؤم . . وفى تصورى - كرجل مسلم - أن فى اختيار الله لك - لتقوم بحركتك هذه - سرا خفيا . . . ؟

فى اسمك « الضياء » . . . والضياء هو نور الشمس . وفى اسمك « الحق » والحق ضد الباطل . . وكأنما أراد الله سبحانه أن يكون مجيئك إيذانا بنهاية عهود الباطل والظلام فى باكستان الغالية . . . ولسوف تجد من كل مسلم فى أقصى مكان من الأرض وأدناه عونا لك فى رسالتك المقدسة ، فامض لما اختارك الله له بقلب ثابت . . . واختر لنفسك أعوانا يعينونك على طاعة ربك . . وإياك وغرور السلطة وشهوة الحكم . . . فقد لقى المسلمون بسببها الويلات من حكام كانوا شرا عليهم من العدو . . . واذكرك بما قال

إقبال حكيم الإسلام والشرق :

لولاك يا رسول الله :

ولولا جهادك ودعوتك التي وسعت وفتحت البلاد . .

ولولا دينك الذي آمن به آباؤنا فخرجوا به من حياة الخمول والهوان والعزلة عن العالم إلى حياة الشرف والطموح والمغامرة . .

فأسسوا دولا واسعة وفتحوا بلادا شاسعة . .

ولولا هذا الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الانطواء على النفس ، والحياة القبلية الضيقة إلى غزو وفتح الأمم . .

لما ارتفعت لنا راية ، ولا رويت لنا رواية ، ولبقينا فى الصحارى القاحلة ، والأودية الضيقة نتصارع ونتناحر . .

يأكل القوى منا الضعيف ويظلم الغنى منا الفقير ، طعامنا أفقر طعام ، وعيشنا أخس عيش . .

نعيش فى عالم من نفوسنا وتجاربنا المحدودة . .

أسماك بركة . . وضفادع بئر . . .

ولكنك يا رسول الله . .

ألقيت علينا ضوءاً من دينك تفتحت به عيوننا ، واتسع به خيالنا . فخرجنا إلى أرض الله الواسعة نحمل دينه الواسع ، ورابطته الجامعة . وأشعلنا مواهبنا الخامدة الجامدة . . .

نحارب الشرك والوثنية . .

والجهالة والظلم . . .

فأسسنا هذه الدولة العظمى ، وتعمنا ونعم أولادنا فى ظلها . .

وها نحن نقدم إليك تحياتنا ، ونقدم إليك ضريبة الإجلال والتعظيم والحب . . . وهى ضريبة نقدمها طوعا واختيارا . . .

ونعترف بتقصيرنا فى جنب دينك وتطبيق قانونك . . . قانون الله . . . .



وليحفظ الله باكستان . . .

ولتعش إلى الأبد دولة الطهر والإيمان . . .

دكتور عبدالودود شلبى

شُعراء العجم في مَدح سيد العرب والعجم

العلامة/ أبو الحسن الندوى

جزى الله صديق زيداً أنه يتفنن فى « ضيافة » الأذواق ويتلطف فى إثارة العواطف الخامدة ، والقرائح الجامدة ، فيؤلف نوادى أدبية يتساجل فيها الشعراء والأدباء وينشدون من أبياتهم ، أو يتمثلون بأحسن ما قاله الشعراء قديما من الشعر الوجدانى ، فترق النفوس ، وتلين القلوب ، وتفيض العيون ، وينقشع السحاب المادى الكثيف ، وينتقل الناس من عالم تسيطر عليه الآلام والهموم وتكاليف الحياة وأعباؤها ، فكل شىء فيه ثقيل يرسف فى القيود ، ويتعثر فى السلاسل ، كأنما يصعد إلى السماء ، إلى عالم تسيطر عليه العواطف والأشواق ، وتهب فيه النفحات القدسية فيشعرون بخفة الروح ، وسرور القلب ، ورقة الشعور ، وصفاء النفس ، ويشعرون بلذة الحياة وخفتها ، فيصبح ما كان جحيما نعيما ، وما كان ثقيلا خفيفا .

وقد خصص ندوة أمس بما قاله شعراء العجم فى مدح النبى ﷺ والحنين إلى مدينته ، وما تغنوا به ، وفاضت به قرائحهم ، وشاء شوقهم وحبهم وإيمانهم ، وقد تحقق عند المطلعين على الأدب الإسلامى العالمى ، والذين درسوا آداب اللغات التى تكلمت بها الشعوب الإسلامية فى بلادها ، وتذوقوا شعرها ، أن اللغة الفارسية هى أغنى ثروة ، وأسعد حظا فى المدائح النبوية من غيرها وتليها « أردو » التى هى سليلة الفارسية ، وأن ما قيل فى إيران والهند فى هذا الموضوع ، يمتاز عن غيره قوة وتأثيرا ، ورقة وعذوبة ، قد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها فى غيره ، وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معانى وأخيلة ، وجاءوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها ، ولا يزال السر فى ذلك موضوع تفكير الباحثين ، وعلماء الأدب .

وقد علل ذلك بعضهم بالمزاج الإيرانى والهندى ، وأن طبيعة الفرس والهنود طبيعة الحب والغرام ، وأن لغتهم لغة الغزل

والهيام ، فلما انصرف ذلك كله إلى شخصية خصها الله بأعظم معانى الحسن والإحسان ، وأكبر مظاهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ، وصادفت قوة التعبير وبراعة التصوير ، وعاطفة الحب والتقدير ولوعة القلب والضمير ، ممدوحا ، وحبيبا ألقى الله عليه محبة منه ، وكساه أجمل لباس من الظاهر والباطن ، جاءت بكل معجب مطرب .

وعلل ذلك بعضهم بالبعد والهجر ، فلهما تأثير غريب فى تفجير منابع القلب والحب ، وتوليد المعانى الغريبة وإشعال المواهب الدفينة ، وقد كان أكثر هؤلاء الشعراء يعيشون فى بلاد بعيدة عن الجزيرة العربية ، والمدينة النبوية وفى عهد يسود فيه الاضطراب ، والفوضى ، والقلق ، وكانت قوافل الحجاج تتعرض فى غالب الأحيان للنهب والغارة ، فاستعاضوا عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار بالشعر والتعبير فيه عن حنينهم ، وأشواقهم ، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق وهو الحمام الزاجل الذى لا يزاحمه شيء ، ولا يعوقه شيء .

وعلله بعضهم بالتصوف الذى عاش وازدهر فى إيران والهند ، وهو مهما انتقده المنتقدون — بحق وبغير حق — معروف بإثارة عاطفة الحب ، وتغذيتها وتنميتها ، ويصح أن يقال : إن أساسه الحب والعاطفة ، ومن لم يرزق حظا منهما لم يفلح فيه إلا نادرا ، فقد كان هذا التصوف الذى رافق الشعر الإيرانى والأدب الإيرانى فى أكثر مراحل حياته ، وساهم فى تكوينهما ، ثم فى توسيعها وتقويتهما ، مصدر هذا الشعر الغزلى الرقيق ، والأدب الوجدانى العميق ، فإذا امتلأت الكأس طفحت وإذا طفحت فاضت ، ولابد أن يعقب الرى السكر ، ولابد أن يعقب السكر التغنى ، وقد عبر الشاعر العرى القديم عن هذه الحقيقة فى بلاغة وجمال ، وأنشد بلسان الحال فقال :

سقونى وقالوا لا تغن ولو سقوا
جبال سليمى ما سقيت لغنت

وعلى كل فقد زخر الشعر الفارسى سواء ما قيل منه فى إيران ، أو فى الهند — التى تتلمذت عليه واقتبست منه ، حتى كانت مدرسة مستقلة بجوار المدرسة الإيرانية الأصيلة — ببدائع المديح النبوى ، وغرره .

وكان الصديق الفاضل موفقا فى اختيار هذا الموضوع وفى هذا الصنف من الشعر ، وقد ضم المجلس أصنافا من الأدباء أكثرهم يتذوق الشعر الفارسى ، ولا يحتاج إلى ترجمة ، وضم طائفة من أدباء العرب

الذين لا يفهمون اللغة الفارسية . ولكنهم يتلذذون بموسيقى الشعر الفارسى ، وجمال النغمة ، وحسن الإنشاد .

وكلفنى المضيف بترجمة بعض الآيات ، وكنت أعرف أن مهمة الترجمة ، وترجمة الشعر بصفة خاصة ، وترجمة الشعر الفارسى أو الأردى بصفة أخص ، من أصعب الأعمال الأدبية وأدقها ، فلكل لغة أجواء تعيش فيها ، وتعبر عن نفسها ، ولا يمكن نقل الأجواء وما يكتنف هذه اللغة من جو ، ومحيط ، وإقليم ، وطبيعة ، ونفسية أبنائها ، وتاريخ أدبها .

والشعر أرق وأدق من الزجاج الذى يسرع إليه الكسر ، ويبطئ عنه الجبر ، وما كان سر رقته وتأثيره فى لفظه وتعبيره ، وفى أسلوبه وأمثاله ، ومناهج كلام أهله ، كانت ترجمته أصعب أو شبه المستحيل ، فتكفلت بنقل ما يأتى فى هذه الأبيات من المعانى الجديدة والأفكار اللطيفة وأن يسمح لى بتخير بعض الأبيات التى تنسجم مع الذوق العربى وما يسهل تناوله واستساغته فأذن لى فى ذلك مشكوراً .

وكان صديق قد لقن طائفة من الأدباء والشباب المثقف المختار من شعر شعراء إيران والهند ، وقد أحسنوا حفظه وإنشاده ، ومثلوا أصحابه تمثيلا رزينا وقورا يتجلى فيه جمال الذوق ، وحسن الأدب ، ومعرفة البيئة التى عاش فيها هؤلاء الشعراء .

وكان أول من تقدم فى هذا النادى هو الشيخ سعدى صاحب الكتابين الخالدين اللذين يحتلان الصدارة فى مكتبة الأدب العالمى ، وهما « كلستان وبوستان » حديقتان زاهرتان إلى هذا الوقت ، وكان الشعر الذى تعلق به القلب ووقع عليه الاختيار شعرا سهلا سائغا كان مثالاً للسهل الممتنع ، وكأنه بحر صب فى كأس ، أو مكتبة حشيت فى سطر واحد ، يقول :

« إن اليتيم الذى نشأ أميا وعاش أميا ، ولم يقرأ القرآن فى كتاب ، استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة ، فتفقد قيمتها وحيويتها ، وينشىء مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان ، ومنهل كل رائد وظمآن » .

وقد لخص فى هذا الشعر تلك الثورة التى تفوق كل ثورة فى القديم والجديد فى عالم الأديان والأخلاق ، والعلوم والآداب والحضارات والمدنيات ، والقيم والمفاهيم وكيف تحققت هذه المعجزة على يد أمى ، لم يجلس فى كتاب يوما واحدا ، ولم يخط سوادا فى بياض ، وكيف انبثق هذا العهد الجديد الذى لا ناسخ له ، وهذا الانفجار

العلى الهائل الذى خضعت له العصور والتاريخ ، من أمية مطبقة لا تشوبها دراسة ولا صناعة . إنها لغزة لا يحلها إلا الإيمان بالقدرة الإلهية ، وإنها غريبة لولا التواتر ، ولولا البداهة ، ولولا المشاهد ، ولولا التاريخ المقطوع بصحته ، لما جاز تصديقها والإيمان بها .

وجاء الشيخ «فريد الدين العطار» صاحب منطق الطير وصاحب الدواوين السائرة ، والكتب المقبولة ، فأنشد أبياتا تكاد تسيل رقة وعذوبة تجلت فيها الإنابة والتواضع والخشية والاعتراف بالتقصير ، وطلب فيها أن يسعد بشفاعة الرسول ، وأن لا يفتضح أمام العالمين ، والذى هز قلبى ، هو قوله : «إن له حقا لكونه سمى باسمه الشريف . والكرام يراعون الأولاد الذين يسمون باسمهم ويعرفون الحق» .

وجاء بعده شاعر الهند الأمير «خسرو» الذى سلم له شعراء إيران بالزعامة والإمامة ، وشهدوا له بالإجادة والإبداع فى الشعر الفارسى ، كأبرز أبنائها ، وشعرائها وقد استرعى انتباه المستمعين ، وملك إعجابهم واستحسانهم بحسن إنشاده ، ورخامة صوته ، وحلاوة جرسه ، فكان مما قال :

«إن أنفاسه وأخلاقه قد نفخت الحياة فى العرب الذين كانوا فى الاحتضار وأطفأت فى وقت واحد شعلة أبى لهب . الوهاجة التى كادت تأتى على الأخضر واليابس إنه وصل فى خطوتين من هذا العالم إلى ذلك العالم . وفى جولة من العالم المادى إلى العالم الروحى» .

وجاء مولانا «عبد الرحمن» الجامى الذى يعتبر من أكبر شعراء المديح النبوى فى التاريخ الإسلامى ، وقد تغنى بشعره أهل القلوب والعلماء والأدباء فى جميع البلاد التى تفهم اللغة الفارسية ، فأنشد أبياتا من قصيدة له سارت بها الركبان ورقت فى اللفظ والتعبير ، فكان مما احتملته الترجمة قوله :

«يا من نسبه عربى ، ولقبه أمى ، لقد دان بولائك ، وخضع لسيادتك العرب والعجم سواء ، إن فصاحتك استأثرت العرب ، وإن ملاحتك ملكت قلوب العجم . ما ضرك أن لا تقرأ ولا تكتب ، فبفضل جهودك ، وبعثتك ، تعلم الأميون ، ونبغ الجاهلون ، بك ابيضت صحيفة الأعمال ، وأشرق نورك فى الظلمات ، فلا ضير أن لا تخط سوادا على بياض ، أو تضم سوادا إلى سواد» .

وقد اهتز لهذا الشعر الرقيق البليغ السامعون ، وترنحت أعطافهم ، فاستزادوا

الشيخ وأنشدوا الشعر العربى القديم ، فإن الشيخ من كبار فضلاء العربية ، ومن أئمة النحو والبلاغة .

وحدثتنا ياسعد عنهم فزدتنا
شجونا فزدنا من حديثك ياسعد

وطلبوا منه أن يذكر فضل البعثة المحمدية وما لها على العالم الإنسانى ، فأنشأ قائلاً :

« لقد كانت الكعبة قبل بعثته بأصنام من الحجارة ، وكان الحرم على سعته ضيقا على من طلب الله وسعى إليه ، إنه هو الذى اجتث هذه الأصنام وقطع دابرها واستأصل شأفتها ، وألقاها فى مهاوى العدم . لقد رجع بفضله مقام إبراهيم إلى مكانته الأولى ، وحقق غايته من بناء البيت الحرام » .

وقد استحسن ذلك الحاضرون ، وقد عرفوا أنه سافر على جناح الشوق إلى المدينة ووقف على قدم الحب فى المسجد النبوى ، وأملاه حبه وشوقه ، الشعر الرائق ، الذى طار فى الآفاق ، وسار مسير المثل ، فاقترحوا عليه إنشاد قطعة من هذه القصيدة الشوقية فكأنه صادف رغبة فيه ، وأثار قيثارته ، فانطلقت منها نغمات ، فكان مما قال :

« لقد كان من سعادتى الكبرى أن وصلت إليك ، فكان من شكرى واعترافى بهذه النعمة ، وكان من هيامى وغرامى ، أن كنست بأجفانى ومقلتى غبار طريقك ، وسجدت لله شكرا فى المسجد ، وجعلت روحى فراشة تتهافت على سراجك المنير ، هطلت سحابة عينى التى كان عهدها بعيدا بالمنام ، نضحت بمائها عتبة بيتك ومدفنك ، لقد سعيت إلى منبرك فمسحت بوجهى قوائمه ، ووقفت فى محرابك وسجدت لله ، وغسلت موضع قدمك بدم العين لا بدمعها ، لقد وقفت أمام كل سارية ، وسألت الله أن يرزقنى مقام الصادقين الذين صلوا إلى هذه السوارى فى صدق وإخلاص » .

وقد كان فى المجلس بعض العلماء ، فرفعوا رؤوسهم عند بعض الأبيات ، ونظروا إلى الشاعر شزرا ، وإلى المترجم إشفاقا وحذرا ، وكأنهم خافوا من تورط الشاعر فى بعض مالا يجوز ، فقلنا : إن الشاعر من الراسخين فى العلم ومن أصحاب العقيدة الصحيحة ، ولكنها لغة الحب والشعر لا لغة الفقه والكلام ، وأنها مجازات واستعارات لا حقائق وقضايا .

وجاء بعده الشاعر الإيرانى العظيم الذى هو من أئمة الغزل والقصيد ، ومن أصحاب المذهب الجديد ، فى الشعر الفارسى ، وهو

الملقب بـ « عرق » وكنت أعرف أنه شاعر البلاط ، ومداح الملوك ، وأستاذ الشعراء فى عهده وأن عهده قريب بمدح ممدوحه وسيده ، ولكنه تأدب لمقام الرسالة ، واعتذر عن مواقفه القريبة ، وقال : إنه – لا يمكن أن يتغنى رجل بمدح الملوك والسلاطين ، ومدح الرسول الأمين ، وسيد الأولين والآخرين فى وقت واحد ، ومن إساءة الأدب وقلة الذوق ، أن يجمع الإنسان بين المدحين وأن يكون له نفسان متقاربان ، نفس فى مدح سلاطين العجم ، ونفس فى مدح سيد العرب والعجم .

وأعذره الحاضرون ولم يلحوا عليه بإنشاد مديح نبوى ، وأخروا ذلك إلى مناسبة أخرى .

وجاء شاعر المديح النبوى المعروف بـ « القدسى » وهو الذى لا تزال الأوساط العربية ، والصوفية ، تردد صداه ، وتنشد أبياته ، وتجدد بها الإيمان والحنان وشعره يمتاز بجمال النغمة ، وحلاوة الوزن ، واندراج الكلمات العربية فى اللغة الفارسية لذلك هام به المغنون ، وقلده الشعراء والعلماء ، وكان من أكثر الأشعار التى تغنى بها الناس ، وكان البيت الوحيد الذى استطعت أن أنقله بجماله وكماله ، هو قوله : عزوت نفسى مرة إلى كلب من كلاب حيك .

وخجلت وأطرقت رأسى حياءاً ، وقلت هذه إساءة أدب وقلة ذوق .

وقد شعرت وأنا أنقل معناه ، أنه تورط فى مبالغة وغلو ، فالإنسان الذى أكرمه الله بالإنسانية ، ثم أنعم عليه بالإيمان ، هو أشرف على كل حال من الكلب ، ولكنى قلت إن حبه وتواضعه قد ورطاه فى هذا التعبير ، وللمحب عذر وللشاعر عذران .

وقام من بين شعراء الهند الكبار « غالب » ليلحق بهذا الركب الميمون ويساهم فى هذه الندوة الجديدة الإيمانية ، وأنشد مما طاب وراق من أشعاره السهلة وكان شعره من غير مبالغة فى المدح واسترسال فى الخيال وإغراق فى الصناعات اللفظية .

« إن بنانه لم يمسك القلم لكنه سطر ما عجزت عنه أقلام التاريخ ، وما وضع قدمه على الصحراء إلا وتحولت إلى جنة خضراء .

حلو كلامه يجعل الكافر مسلما والزنديق مؤمنا ، أضاء الدنيا بنور الدين وأنقذ المؤمنين من عذاب يوم الدين .

حرر العباد من عبادة الأوثان وعمر العالم بيت واحد ، بيت الإيمان ، أذاب

قلوب الأعداء ونفوس القساة الغلاة ، ولا غرو ، فحصاة عتبته تذيب الحديد ، وتلين الشديد .

عاكف فى المحراب وقلبه معلق بخلق الله » .

وجاء من بعد هؤلاء الإيرانيين الأقحاح هندى من المعاصرين ضارع شعراء إيران فى رشاقة اللغة وحلاوة اللفظ ، وجمال الأسلوب ، وهو الأستاذ مسعود على المحوى(١) فأنشد قائلاً :

« رفعت الفطرة اللثام عن وجهها وتجلت بأجمل مظاهرها وفعلت فعل الربيع فكست الأرض لباسا أحمر من الزهور والورود ، ذلك كله لأجل محمد ﷺ إن نظره يعمل عمل الكيمياء فيحول الخزف الأسود الذى لا قيمة له تبرا خالصاً ، وذهباً وهاجاً ، إنه سيد استطاع من غير جيش وكتائب ، أن يجعل من التائهين فى البادية ملوكاً يحكمون العالم ، وأساتذة يعلمون الأمم » .

وجاء دور شعراء « أردو » وكان عددهم كثيراً ، فكان التغنى بمدح الرسول والتحنن إلى بلده ، ومسجده ، موضوع شعراء الهند المفضل ، وحديثهم الأثير الحبيب وقد ردد صداهم الشعب الهندى المسلم فى حماس وطرب ، وتسلى به فى أحزانه ، واستمد القوة الروحية والاعتزاز بحب الرسول النبى العربى ﷺ فى مقاومة تيارات القومية الهندية المتطرفة ، أو الوطنية الملحدة ، حتى اتهمه الغلاة من دعاة القومية والوطنية بتفضيل الوطن الروحى على الوطن الجسدى ، ووكر الروح على وكر البدن .

هنالك اقترح الحاضرون على شاعر المديح النبوى ، محسن كاكوروى(١) الذى وقف حياته كلها على المدائح النبوية ، وقيل عنه إنه لم يخط بيمينه غير المدح النبوى ، ولم يكن يحب أن يمدح غيره بالقلم الذى مدح به النبى ﷺ .

وتقدم الشاعر يصف ليلة الإسراء التى سعدت بأنوارها ونفحاتها البشرية ، وسعد بها حظ الأرض ، والدرجة التى فاز بها جبريل الأمين ، وهو يتمثل أمام النبى ليسير به فى هذه الرحلة الخالدة عبر السماوات السبع إلى ما يشاء الله .

« أيقظ النبى الكريم فى أدب وتواضع ، بل أيقظ – فى تعبير أصح وأفصح – حظه وجده وطالعه فإذا هو ﷺ يرى فى هذه الليالى من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب ، إن تتابع الأيام والأعوام ، وتقلب الليل والنهار ، لم يلد ليلة مباركة كهذه الليلة ، إن هذا

الإكرام الذى نالته الأرض فى هذه الليلة لا تناله الآن إلى الأبد ولو أصبحت تبرا وتحولت درا وجوهرا ، وإكسيرا ، تتابعت فيها الرحمات كالندى واتصلت الأرض بالسماء » .

ثم تقدم زعيم الشعر الإسلامى الحديث الشيخ «ألطاف حسين» الملقب فى شعره «حالى» صاحب المنظومة أو الملحمة الإسلامية التى كان لها التأثير الكبير فى هز مشاعر المسلمين بعد ثورة ١٨٥٧ م وإيقاظ النخوة الإسلامية فيهم ، وهى التى حظيت بإقبال وقبول لم يحظ بهما شعر آخر ، وامتاز شعره الذى أنشده فى هذه المناسبة بحسن تصويره للواقع التاريخى وبعده عن المبالغة ، وأساليب شعراء العجم ، وكان مما جاء فيه :

« لقد خص من بين النبيين بلقب «رحمة للعالمين» هو الذى كان من دأبه إسعاف حاجات الفقراء ، وتحقيق رغباتهم المكنونة ، وكشف كربات الأعداء والبعداء ومشاركة البعيد والقريب فى أحزانهم ، ونوائبهم ، يتألم بألمهم ، ويفرح بفرحهم ، ملجأ الفقراء ، ومأوى الضعفاء وولى الأيتام ، ومربى العبيد والأرقاء ، يصفح عن الأخطاء ويحسن إلى من أساء ، ويصلح ما أفسده الناس ، يوحد القبائل المتناحرة ، ويؤلف بين القلوب المتنافرة . نزل فى غار حراء وفى يده إكسير من السماء وحول التراب تبرا ، والحصى درا وجوهرا ، أقبل إلى الأمة العربية التى كان يخيم عليها الجهل من قرون ، فأحدث فيها ثورة جذرية ، انقلبت بها أوضاعها وتغير بها مجرى التاريخ ، فقد ظل هذا المعدن الكريم مطمورا مغمورا فى التراب ، وتحت ركام الجاهلية لا يعلم أحد قيمته وغناءه . وقد أصبح ما طبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ، ضائعاً عاطلاً ، فما وقع نظره على ذلك ، وما هبت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلألأ نورا وصفاء ، وأصبح ذهباً خالصاً ، إن الحجر الذى رفضه كل بناء ، وزهد فيه كل معمار ، تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية .

لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره ، وشرق وغرب رعدها وبرقها ، فبينما رعدت على نهر «تاجه» فى إسبانيا ، أمطرت على نهر «الكنج» فى شبه القارة الهندية . لقد أحيا غيثها مزرعة الإنسانية القاحلة ، وعم برها البر والبحر فما ترى فى العالم من رواء وبهاء ، ونور وسناء ، إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية .

وتبعه الشاعر الكبير «ظفر على خان»

الذى أحدثت مداغحه النبوية دويا فى الأوساط الإسلامية والأدبية . ولاحظ ضيق الوقت وتأدب مع الأساتذة الكبار فاقتصر على أبيات من قصيدته السائرة التى يفتتح بها كثير من الثانويات الإسلامية حفلاتها ودراستها . وقد امتازت هذه الأبيات بجمال البحر والوزن . وحسن النغمة واللحن ، وكان مما جاء فى هذه الأبيات :

« إن السراج المنير الذى ظل سنين طوالاً يتلألأ فى الخلوات ، وفى بيئة ضيقة محدودة ، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره وتمشى فى ضوئه قوافل العلم والحضارة ، إنه سر الوجود ، ولولا دينه ورسالته ولولا نبوته ، وبعثه ، لما أخذت الأرض زخرفها ، ولما أكملت السماوات زينتها » .

« إن اللغزة التى عجز عن فكها النوابغ والأذكياء ، وأخفق فى شرحها الفلاسفة والحكماء ، أفشى سرها ، ورفع اللثام عن وجهها ، أمى كان يرتدى نمرة ، فى لفظ وجيز ، وفى إشارات لطيفة . ليس الإيمان بضاعة رخيصة ، ولا سلعة معروضة فى دكان الفلسفة ، إنه عقل نفيس ، يبحث عنه الباحثون العقلاء فيجدونه فى أجزاء القرآن ، إن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا أشعة شمس واحدة ، إنها حلقة مفرغة لا يعلم طرفاها » .

واتجهت الأبصار نحو الشاعر « إقبال أحمد سهيل » . الذى عرف بمدائحه المشهورة ، وقصائده السائرة ، واقترح عليه الحاضرون ، أن ينشد قصيدته المشهورة — (موج كوثر) فقدم بعض أشعاره ومختاراته التى جاء فيها :

« غرة ناصية البشرية ، ونور جبين الإنسانية ، النبى الذى بدد ظلمات الكفر ونثر درر الإيمان ، ورفرف راية التوحيد ، حارس حديقة البشرية ، وروضة الإنسانية ألغى عادة الرق ، وحطم سلاسل العبودية والذل ، أعاد إلى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها وبركتها ، كانت أسرة البشرية متفرقة ، فجمعها على مائدة واحدة ، وكانت لآلى الحق والإيمان منتشرة ضائعة ، فربطها فى سلك واحد .

قضى على أوهام الجاهلية ، وخرافات الوثنية ، وأتاح للإنسان أن يتصل بالخالق الأحد الصمد ، صب على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه ، وشمله برعاية عطفه وحنانه ، جمع بين سلطان الفقر والغنى ، والجسد والروح ، والدين والدنيا » ﷺ .

وتقدم بعده صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة ، حفيظ الجالندهرى ، فأنشد أبياتا

من ملحمته المشهورة ، وقد جاء فيها بعض الحقائق التاريخية في لفظ رشيق ، وأسلوب أدبي ساحر ، منها قوله :

« إنه رد إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها ، وإلى أفراد النوع الإنساني حقهم في الحياة ، ونكس الباطل ، وقلب عروش الملوك الجبابرة ، رفع رأس كل إنسان صابر ، وشرف قدر الأجير ، وأهان المثرى المستأثر ، لقد كان الفقر فخره . ولكن كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه . إنه كسر سلاسل الظلم والباطل الثاوية التي يصعب كسرها ، وجبر القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها . فصلوات الله عليك يامن كان كسره معجزة وجبره معجزة » .

وما أن وقف الشاعر ، حتى رنت العيون إلى « ماهر القادرى » وطلب الحاضرون من الشاعر أن ينشد في هذه المناسبة الكريمة قصيدته التي صور فيها النعمة العظيمة التي فازت بها الإنسانية . عن طريق هذا « النبي العظيم » والذي لا يمثل إلا الواقع ، ولا يعبر إلا عن المشاهد الحية التي مرت على مسرح العالم فتقدم وأنشد ما طاب له من أبيات رائعة عن مبعث النبي ﷺ .

« هبت نفحات الرحمة ، وتحققت أحلام البشرية . وسقيت الأرض المجدبة القاحلة بوابل من جوده وكرمه وأخلاقه . فأضاء رعاة الإبل شموع الحضارة ، وجعل الأشواك أزهارا . وذرات الصحراء كواكب ونجوما » .

« أقام الصلة بالرب ، وفك طلاسم الباطل ، وغير مجرى التاريخ وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والإيمان ، رغم أمواج هائلة ، ورياح عاتية . منح الإنسانية سيفا وصحفا ، ودنيا وآخرة ، وجعل الموت شهادة . وعلم آداب الحياة » .

« نصر المظلومين وأغاث الملهوفين ، كان بلسما للجروح وشفاء للصدور . أضفى على المرأة رداء الحياة ، ورقة الزجاج ، وأضاء جوهر السيرة والأخلاق ، فلم يقف سيل التوحيد ولم تنتكس راية الإسلام رغم غيظ الكفار والمشركين ، ومقت الشياطين ، فما أن تردد اسمه الحلو الحبيب على اللسان ، حتى تجاوبت الشفاه والعيون معا ، هذه بالدموع الفائضة وتلك بالبسمة العريضة ، وذلك شأن المحب الهائم إذا تذكر حبيبه الذى بلغ المنتهى في الحسن والإحسان » .

وجاءت نوبة (محمد إقبال) فارتفعت رؤوس الناس واشرأبت أعناقهم ، وغمرت

المجلس موجة من الاهتزاز والتطلع فقام المضيف الكريم وقد شعر بأن المجلس قد طال . فقال : حسبكم أيها السادة ما سمعتموه وتذوقتموه ، وإن لشاعرنا الكبير مجلسا خاصا ، وحديثا خاصا ، لا يشاركه فيه أحد ، ووافق الجميع وقاموا ، وألسنتهم تلهج بالشكر ووجوههم تفيض بالبشر .

أبو الحسن الندوى

« الوصايا النبوية »

قال النبى ﷺ : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبرا » .

صدق الله العظيم

إلى أين يتجه الإسلام والمسلمون ؟

المرحلة الرابعة عهد الاستقلال

العلامة/ أبو الأعلى المودودى

٣

وقد انتهت المرحلة الثالثة إلى ما أتحنا إليه من الأوضاع وها نحن دخلنا اليوم المرحلة الرابعة من تاريخنا . وهى المرحلة التى قد نالت فيها جميع البلاد الإسلامية الاستقلال فى فترات متباعدة .

المأساة الحديثة :

والذى تعيشه المرحلة الرابعة من أوضاع هى : أنه يتولى فى كل بلد وفى كل قطر أزمّة الحكم وشئون الحياة الاقتصادية رجال يخلون من الوعى الإسلامى والتفهم الصحيح للدين . بل ينظرون إلى تقاليد المسلمين المتوارثة بنظرة الازدراء والاستحقار ، ويعتقدون أنهم إذا اتبعوا الحياة الإسلامية ، وتمسكوا بأهداب القيم والمبادئ الإسلامية تصيبهم الذلة والمهانة فى الدنيا ، ويسقطون من عيون الدنيا ولا تقوم لهم فيها قائمة ، ويحرمون من التقدم والنهضة التى تصبو إليها أنفسهم . وأنهم إذا أرادوا اللحاق بالركب الحضارى فلن يكون ذلك البتة بدون أن يعتنقوا الأفكار والمبادئ الغربية ويتبعوها بنصها ويقلدوها بحذافيرها .

ووجهات النظر هذه ليست عفوية قائمة على المجازفة والاعتباط بل هى وجهات مدروسة نشأ القوم عليها وترعرعوا فيها . وهم الذين اختيروا ليحتلوا مكانة الصدارة فى جميع المجالات الحيوية ، ومازالوا هم مصدر التوجيه والإرشاد فى كل شعبة من شعب الحياة وفى كل قطر من الأقطار الإسلامية بصورة عامة .

وهل هناك من شئ أغرب من أن تضطرم معركة التحرير باسم الإسلام ويضرب المسلمون ، باسم الإسلام الرقم القياسى فى تسجيل البطولات ، ثم إذا تحقق لهم ما أرادوا يعود الإسلام أول

ضحية من ضحايا قيدتهم : يتشكرون له ويلفظونه لفظ النواة . . الإسلام الذى باسمه وببركته وبقوته تحقق اندحار القوى وانتصار الضعيف هل هناك من موقف أغرب من هذا ؟

وها أمامكم الجزائر أحدث مثال لذلك . وسبق أن قلت أن الجزائريين لم يظفروا بحسناء الاستقلال إلا بعد أن ضحوا فى سبيله بأرواح الآلاف المؤلفة من البشر وبعد أن تقدموا بالقرابين المدهشة من براءة الصغير وطراوة الشاب وكهولة الشيخ : ونعومة المرأة تشهد بذلك وديان الجزائر وجبالها ومدنها ودساكرها . ومن يخطب الحسناء يعطى مهرها . ثم إذا رفرفت على البلاد أعلام الاستقلال فإن أول ما بشر به المسلمون فيها : ان الجزائر ستكون « الجمهورية الاشتراكية » . ونفس المسرحية أقيمت فى تركيا وفى باكستان وفى تونس وفى مصر ودلونى على بلد إسلامى لم تلعب فيه هذه المهزلة دورها المشؤوم . وأضرب لكم مثالا ثانيا من تونس : تعالت فيها صرخات تحرير الوطن باسم الإسلام . وسارع المسلمون لبذل أرواحهم وأموالهم إلى ساحة الجهاد فى سبيل الله . ولما نالت تونس الاستقلال فى آخر الأمر على جماجم الشهداء وأشلائهم يأتى زعيمها يطلع الدنيا على أن الصيام فى شهر رمضان بسبب انخفاضا فى الإنتاج كأن الأمر الذى يلقيه الشيوعيون فى روسيا فى روع المسلمين فيها أصبح السيد بورقيبة أيضا يردده وينسج على منوالهم ويأمر الذين يشتغلون فى حقول الإنتاج أن لا يصوموا شهر رمضان كيلا تتناقص نسبة الإنتاج . ومن الظاهر أن الذين كبرت بهم السن لا يطيقون الصيام . فهم معذورون بحكم الشريعة . وأما الشباب فما داموا يعملون لزيادة الإنتاج فى مصانع (بورقيبة) فلا صوم عليهم فى شريعة بورقيبة . إذن على الركن الثانى من أركان الإسلام الخمسة السلام .

هذا النوع من الرجال يشكلون طبقة مستقلة بذاتها بيدها صلاحيات النقض والإبرام ومقاليد الحكم . وهناك طبقة أخرى توصف بالطبقة الدينية . وهذه الطبقة حقا أنها تضطلع بأحكام الدين ، وتعلم ما أمر الله به وما نهى عنه ، وتدرك ماهى الحضارة الإسلامية . إلا أن هذه الطبقة لم تتمكن من الحصول على الثقافة العصرية التى تجعلها موضع ثقة المسلمين فيما إذا كانوا قد انتزعوا أزمّة الحكم والتوجيه من أيدى الطبقة الأولى الحاكمة وحولوها إلى الطبقة الأخيرة لتبرهن على جدارتها فى تسيير دفة الدولة والقيام بالدور القيادى على

أفضل منهج وأكمل وجه . وحقاً أن الطبقة الثانية أقرب الطبقات إلى أحاسيس المسلمين وأكثرها التحاما مع مشاعرهم الدينية وأن المسلمين يضعون فيها ثقتهم فيما إذا ولوها الحكم لا تخرب دينهم ، ولا تحطم تقاليدهم ولا تسلط عليهم أنظمة الكفر والفسوق ولكنهم لا يتوقعون منها أن تستعمل دهاءها وقدرتها فى تسيير شئون الدولة العصرية على وجهها الصحيح – أو تثبت كفاءتها فى قيادة الشعب فى العواصف العاتية من الحضارة الغربية ، أو تستطيع تنظيم شئون القضاء والاقتصاد والداخلية والخارجية وما إلى ذلك بموجب مقتضى العصر إن هذه الأمور لا يرى المسلمون – ورأيهم قائم على الحجة والمنطق – أن تنتظم بصورة مرضية على أيدى الطبقة الثانية .

العقدة الرئيسية :

إن عامة المسلمين يقفون حيارى مشدوهين أمام هاتين الطبقتين . وصحيح قد يسودهم الجهل ، وربما فسدت عاداتهم وتفككت أخلاقهم . ولكننا ، كما ألمحنا إليه سابقا ، إن القوة الهائلة التى كانت تملكها الحركة الإسلامية الأولى لم يستطع أحد محو آثارها الخالدة من كيان الأمة الإسلامية . ولأجل ذلك فإن أى فرد من عامة المسلمين مهما بلغ من الفساد فإنه إذا سألته عما إذا كان الخمر حلالا أم حراما لا يقول أبداً بأنه حلال . وكذلك إذا استوضحت رأيه عن الزنى أو عن القمار : هل هما حلال فى الإسلام أم حرام فلن يقول بحلها . سله عن جميع المنكرات والسيئات تجده يستقبحها . لماذا ؟ . . لأن القيم الإسلامية التى يؤمن بها ما تبدلت لديه إلى هذه الدرجة ، ولا يزال ينظر إليها نظرة الإجلال والتقديس ، ويشعر بسموها وجلالتها على رغم ما طرأ على عاداته وسلوكه من التفسخ والفساد ، لأن هذه القيم غذى بها من لبان أمه ، وتجرى فى نفسه مجرى الدم . وكذلك إذا سألت أحدا من المسلمين عما إذا كان من مظاهر الحضارة الإسلامية أن ترقص فتاة شبه عارية على المسرح ؟ يأبى ذلك بدون ما تأمل ، بل لن يخطر بباله كون هذا النشاط يمت إلى الإسلام بصلة . وحقا أنه يجهل الإسلام ، وحقا أنه لا يفهم القرآن ، وحقا أنه لا يلم بما فى كتب السنة ولكن كيف للتصورات التى توارثها كابرا عن كابر عن الحضارة الإسلامية أن تندثر من مخيلته وتزوج من سليقته ؟ بل هو على رغم قلة معرفته بالإسلام يستعرض كل ما يتعرض له من الأوضاع والقضايا فى ضوء تقاليده وقيمه الإسلامية ولا يقرر رأيا إلا فى حدود

إطارهما . وكل مسلم من عامة المسلمين يكون فى ذهنه تصور إجمالى عن الإسلام ونظامه ومقتضياته ولك أن تجول فى أكناف العالم الإسلامى ، فلن تجد الجمهور من المسلمين إلا على نفس ما أشرت إليه من عواطف وأحاسيس . لا يختلف فى ذلك المسلمون فى باكستان عن المسلمين فى تركيا ، ولا مسلمو إيران عن مسلمى مصر ، ولا مسلمو الجزائر عن مسلمى شقيقاتها ، حيثما رأيتهم لا يؤمنون إلا بنفس القيم الإسلامية ولا يجلّون إلا إياها ولا يحنون إلا إليها . وليس فى مقدور أحد أن يقنعهم بأن « القيم الإسلامية » هى تلك التى جاءتنا من الغرب ووجدنا عليها سادتنا الغربيين . .

والأمر الثانى أن المسلم العادى وإن كان لا يعلم عن الإسلام إلا علما مبسطا إلا أنه يحبه حب الوطان . وأنك لتشاهد بعينك فى التاريخ الحاضر كيف استحثه قادته باسم الإسلام خلال الحروب التحريرية ، ثم كيف كتب صفحات ذهبية من بذل النفس والنفيس . ولا يمكن استثارته إلا باسم الإسلام ، ولا يمكن أن يرحب بالموت ويقارعه إلا بعد أن يتأكد من أنه ينال بذلك الشهادة فى سبيل الله ، ويكرمه الله تعالى بجنته . وإذا أعوزه هذا المستوى من اليقين والقناعة فلا تجد أحدا من الناس أجبن منه فى مواجهة الموت ، ولا تنتظر منه أبدا أن يريق دمه ، أو يقدم على ذات الشوكة ، أو يسلك طريقا محفوفا بالمكاره .

هذا ما عليه المسلم العادى . ولكن الويل كل الويل فى الطبقة التى تملك أزمّة التوجيه والحكم فى معظم الأقطار الإسلامية . هذه الطبقة لاتزال تحاول دفع قطار الحياة القومية إلى جهة تعاكس جهة الإسلام ، وتخالف آمال الأمة وأحلامها وعواطفها وأحاسيسها . وهى حينا تنادى باللادينية علنا وعلى رؤوس الأشهاد كما شوهد فى تركيا الكمالية ، وحينا آخر تستغل الإسلام لتحقيق مطامعها وتتستر وراءه ولكن بعد تشويه حقيقته ومسخ ديباجته : كأن تحتضن الحضارة الغربية بما تحويه من شرور وآلام ثم تغلفها بغلاف الإسلام . هذا ما نشاهده اليوم فى كل بلد يضج بالشعارات المستوردة والمبادىء الهدامة التى تبعد عن الإسلام بعد السماء عن الأرض . ولكن عامة المسلمين ليسوا على هذه الدرجة من الحمق والبلاهة حتى يسلموا بهذا الزيف . وهذه الكارثة لا تخص باكستان بل تعم أرجاء العالم الإسلامى . إذ فى كل ناحية من نواحيه تتكرر هذه الطبقة وتتشابه قلوبها وتتجانس معالمها وتتوحد نوازعها . هذه

الطبقة انهزمت أمام الغرب ، وتتربع على كرسى الحكم فى بلادنا ، وتملك مقاليد حياتنا الاقتصادية وترغم الأمة الإسلامية قسرا على اتباع النظام الغربى للحياة . بينما الأمة تأبى هذا التحويل وترفض هذا الطريق المنحرف .

وفى الواقع أننا لا نستطيع أن نتصور : كم استخدم من الوسائل الجهنمية لجعل المسلمين غير مسلمين فى تركيا وروسيا . إذ أن فى تركيا وحدها قد أريقت فيها دماء الآلاف من المسلمين لا ذنب لهم إلا أنهم عارضوا استبدال القبعة بالطربوش كأن هذا الأمر أيضا من الإصلاحات الجذرية التى ما كانت لتتم إلا به ومن الطريف فى الأمر أن قادة الإصلاح المزعومين لما لم يجدوا الكمية الوافرة من القبعات الأوربية استوردوا من أوربا أكواما من القبعات المعدمة لاستيفاء حاجة الشعب التركى إلى القبعات وكان هذا الإصلاح من الأهمية بمكان فى نظر القادة حتى لجأوا لتطبيقه إلى وسائل الحديد والنار وإلى إعلان الحكم العرفى فى البلاد . ولكن مع كل ذلك ظل الأتراك على نفس ما كانوا عليه من حبهم للإسلام ومن تحمسهم له . لم يطرأ عليه أى شئ من التغيير والتحوير . إذن من الواضح جليا أن هذه الطبقة لا تستطيع أن تحول — الشعب الإسلامى عن الإسلام ، ولا تستطيع أن تسوغ له الكفر مهما أقامت الدنيا وأقعدتها .

الصراع الحديث :

أما الحالة الراهنة التى نحن عليها اليوم فخلاصتها أن الحكومات تأبى أن تتبع النهج الذى تريده الأمة الإسلامية ، والأمة ترفض أن تتبع الوجهة التى تتجه إليها الحكومات . فهنالك صراع مستمر عنيف بين الشعوب والحكومات فى جميع البلدان الإسلامية . وهذه الحالة تمثل : « الإسلام المعاصر » تبذل الجهود الجبارة ويستنفد آخر ما فى الجعبة من السهم فى جعل المسلمين غير مسلمين وتجند لذلك جميع الوسائل والإمكانيات . ويستخدم لذلك مجال التعليم والتربية بصفة خاصة ؟ فتوضع مناهج من شأنها أن تقضى على جميع ما يوجد فى المسلمين من القيم الإسلامية ، وتفسد اخلاقهم وأذواقهم ، وتبعدهم عما توارثوه من التقاليد كما تشجع فيهم ثقافة تدمر كل شئ من البقايا الخلقية ، وتروج فيها العلوم الغربية لتثير فيهم الشبهات حول الإسلام . ولا ينتهى هذا الأمر إلا أن يطرأ الضعف والوهن والخور والانحلال على سلوك المسلمين ويصبحوا قوما فاقدى

الشخصية وهذا ليس من المستحيل . وإنما المستحيل أن ينسلخوا عن الإسلام عمدا ويكونوا لهم دولة لا دينية عن طواعية أنفسهم .

والذى تقاسيه البلدان الإسلامية من وخيم العواقب من هذا الصراع ، حسبك لمعرفة أبعاده أن تنظر فى نسبة الأرقام التى حققتها هذه البلدان فى مجال النهضة . هل تنظر أى مجال من مجالات الحياة حصل فيها التقدم . وهناك تركيا التى تعيش كدولة مستقلة ذات كيان وسيادة من عام ١٩٢٤م ، إلى أى مدى أنعشت فيها الصناعة ؟ وكم جاوزت من الأشواط فى باب التجارة ؟ بينما اليابان التى من لدات تركيا فى الاستقلال قد بلغت من النهضة المادية شأوها البعيد . والسبب فى ذلك ليس خافيا على أولى الألباب . إن تركيا تنكبت الصراط السوى ، وتحولت إلى حلبة الصراع الداخلى : حاولت الحكومات المتعاقبة إظهار الشعب التركى فى مظهر الشعب غير المسلم ، وأبى الشعب التركى أن يتحول شعبا غير مسلم ، بل يود أن يولى وجهه شطر الإسلام . مما أثار بين الحكومة والشعب صراعا مستمرا مستعرا فكيف لتركيا بعد ذلك أن تخطو نحو الأمام وتحرز التقدم المادى .

وبلغ الأمر ذروته فى الفترة الأخيرة حين تسرب التصدع إلى الجيش أيضاً فأقصى منه حتى اليوم ستة آلاف ضابط . والذى يقال عن تركيا يقال عن البلدان الإسلامية الأخرى .

وتأكدوا ، أيها الأخوان .. أنه حينما يحدث التعارض بل التناحر بين ضمير الشعب وسياسة الحكومة ، ينشب الركود أظفاره ولا يدع الشعب يتخطى نحو الأمام ولا شبرا واحدا ولا تأخذ حوافز التقدم سبيلها إليه . ولا يمكن لأية حكومة أن توفر لنفسها القوة والمنعة إلا إذا حصل التناسق والتلاحم بين ضمير الشعب وسياسة الحكومة بحيث أن كل ما تضع الحكومة من سياسة تباركها أحاسيس الشعب ومشاعره وإذا وضعت هذه السياسة موضع التنفيذ يستميت الشعب فى إنجاحها . هذا هو الطريق الوحيد لجعل الشعب شعبا ناهضا متطلعا أما إذا ظل الأمر عكس ذلك . وظل الشعب فى واد ، والحكومة فى واد ، فلا يتأتى له أى تقدم للأبد ولنفترض أن الشعب على رغم محاربة الحكومة لرغباته ، لا يعلن الخروج عليها ولكن عدم مناصرة الشعب للحكومة ومساندته إياها يكفى لسوق البلاد إلى الدمار المحقق ، إذن أن عدم ارتياح الشعب لحكومته هو أمر خطير ووضع رهيب فى حد ذاته .

وأصرار هؤلاء القوم على هذا الإتجاه المعاكس ليس مبعثه غير أنانيتهم وأثرتهم واتباعهم لسلطان الأهواء مع أنهم لا يجهلون ما يريد شعبهم ، كما أن تجاربهم الماضية خير شاهد على أن هذا الشعب لم ينتفض ولم يسجل دوره البطولى فى المعارك التحريرية إلا باسم الإسلام . وأن انتفاضته المنبثقة من الإسلام قد أوصلتهم إلى شاطئ الحرية وإلى منصة الحكم . ولذلك فإن هؤلاء الناس لا يجهلون أبدا صلة شعبهم الوثيقة بالإسلام . وبما أنهم ربطوا مصيرهم ومصير أولادهم بالغرب وحضارته وسرابه وانغمسوا فى الحضارة الغربية وطبعوا عاداتهم وأذواقهم بطابعها ، ولا يريدون اتباع طريق الإسلام . وتحول أنانيتهم دون أى عمل إسلامى . والمنطق الذى — يستندون إليه فى ذلك هو : « أنهم هم الذين كتب لهم أن يحكموا شعوبهم البائسة التعيسة على كل حال ، ولا يروقهم الإسلام : دين هذه الشعوب . إذن على الشعوب أن تتخلى عن دينها الإسلام » .

هذه هى القاعدة الكلية التى اتخذوها أساسا لجميع نشاطاتهم واتجاهاتهم .

هذا هو « الإسلام اليوم » والآن أوجز لكم القول عما ينبغى أن يكون عليه الإسلام فى المستقبل » .

مستقبل العالم الإسلامى :

إن مستقبل العالم الإسلامى يتوقف على ما سيختاره العالم الإسلامى من السلوك نحو الإسلام . أما إذا استمر العالم الإسلامى فيما هو عليه اليوم من موقف مبنى على النفاق والتمويه والازدواج ، وواصل سلوكه المعادى للإسلام أخشى أن لا تتمكن الشعوب الإسلامية من المحافظة على استقلالها وصونه من الضياع ، بل ستنكب — ولا سمح الله — بأغلال الاستعباد ثانيا وتصير إلى حالة أسوأ مما عاشت فيما سبق من عهد الاستعباد ، نعم ، إذا عاد إلى القادة الذين يملكون أزمة الحكم فى العالم الإسلامى رشدهم قبل فوات الأوان ، وعملوا لاستعادة الحياة الديمقراطية النزيهة فيه ، ورجع أمر انتخاب أهل الحكم إلى الجماهير لتنتخب من تشاء وتلقى مقاليد الحكم إلى من تحب بإرادتها الحرة ، ووضعت أنظمة السياسة والاقتصاد والتعليم منسجمة مع مبادئ الإسلام وأهدافه وحضارته فإنى على يقين من أن الشعوب الإسلامية سرعان ما تتحول إلى قوة كبيرة فى العالم بل تملك ميزان القوة فى المجالات الأممية ، وتكون لها الكلمة الحاسمة . إن وجود كتلة الشعوب الإسلامية

ليس بأمر يستهان به . إن الكتلة التي تتسع أطرافها من اندونيسيا شرقا إلى المغرب الأقصى غربا وتملك من الوسائل والإمكانيات مالا حصر له ، وتتمتع بالقدر الهائل من الطاقات العددية .

إذا انتفضت هذه الكتلة تتبع مبادئ الإسلام وتتضامن على أسسه فهل لقوة في الدنيا غربية كانت أم شرقية أن تصمد في وجهها ؟

مدى قابلية الإسلام لقيادة العصر الحاضر :

وأتناول الآن السؤال الثاني الذي أثرته في مفتتح الحديث وارد عليه بكلمات موجزة وهذا السؤال هو : هل بإمكان الإسلام أن يسود الدنيا في هذا العصر أم لا ؟ وهل من المحتمل أن ترجع إليه الأمم العالمية ؟ وإذا ترجح احتمال رجوعها إليه فكيف يكون ذلك ؟ وهل الإسلام قابل للتطبيق في العصر الحديث ؟ — هذه هي عدة نواحي من السؤال الذي يكثر عنه الحديث في هذه الأيام .

وأقول : لم يعلن الدهر من تلقاء نفسه في أي عصر من عصور التاريخ بأنه مستعد للاستمساك بالإسلام . وأكبر برهان على ذلك هو عصر النبي ﷺ نفسه فانه لما أعلن ﷺ دعوته في المجتمع العربي الجاهلي قام مستجيبا لدعوته مليا لندائه قائلا : « رضيت بك ، يا محمد ، رسولا وبالله ربا » . بل الأمر يقتصر على قوة الداعية وصموده وبسالته وإبائه ، الذي يقول للدهر : أيها الدهر إذا لم تبغ السير معي طائعا فأنا أرغمك على السير معي » . . . أين الشيوعية من الإسلام . بينهما ما بين الأرض والسماء . إلا أني أقول لكم ، على سبيل المناقشة . أنظروا إلى الانتصارات التي حققتها الشيوعية بينما الإسلام ، لا يريد انقلابا متطرفا يقلب الأمر من الأساس كما فعلت الشيوعية التي حاربت الفطرة البشرية ، فألغت الملكية الفردية نهائيا ، وجعلت الحكومة تسيطر على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم واستجمعت الثروة القومية برمتها في يد واحدة . هذه الثورة إنما هي تطرف وهدم وتدمير يتحاشاه الإسلام ويقلب وجهها معكوسا . إن الإسلام دعوة تتجاوب مع فطرة الإنسان الذي يتوخى البناء والإصلاح . وكل دعوة إذا لم تجد العزائم الماضية والجهود المضنية والنيات الحسنة تبوء بالفشل . وقد نجحت دعوة الإسلام لما قام جماعة من الناس يعقدون العزائم على تغليبها فكان لهم ما أرادوا وأصبح الدهر ينساق وراءهم .

وكذلك السؤال عن قابلية الإسلام للتطبيق اليوم فهو من لغو القول لأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، أثبت قابليته فى الماضى ، ويحظى بنفس القابلية اليوم ، وسيظل كذلك إلى أبد الدهر ، وإنما الأمر يتوقف على وجود شعب فى الدنيا ينهض للأخذ به كاملا غير منقوص . وكما قلت فى مطلع الحديث إن تاريخنا ابتدأ باستعداد الأمة العربية لأن تقيم بناء نظامها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والحضارى على دعائم الإسلام وأن تصهر حياة الناس الفردية وأوضاعهم الجماعية فى قالب الإسلام . فآلت هذه الأمة على نفسها أن تخرج إلى الدنيا رافعة للواء الإسلام مبلغة دعوته فى أقاصى العالم ، ولا تحيا إلا لأجله ولا تموت إلا فى سبيله .

ولما تهيأت فى الدنيا أمة كهذه رأيتم كيف تفجرت بطاقاتها وحيويتها وأصالتها على العالم انفجار القنبلة ، وكيف رسمت على وجه المعمورة آثارها التى لاتزال خالدة باقية حتى اليوم . نعم ، إذا خرجت اليوم أمة بهذه السمات تأخذ بالإسلام ، وتسير وفقه نظام حياتها ، وتجعل حياتها ومماتها لله رب العالمين فليس من المستبعد أن تجد الدنيا نفسها مستعدة للاستمساك بالإسلام والاستظلال بظله الوارف والاستنارة بهديه الكريم . وليس من المعقول أن يرى الناس الإسلام متمثلا نابضا فى الواقع البشرى ثم يتلعثمون فى قبوله . غير أنكم إذا ما اقتصرتم على نشر الإسلام بالمواعظ والكتب والمحاضرات فيها انهمكتم فى هذا « العمل الشريف » إلى قيام الساعة لا تكاد الدنيا تقتنع بقابلية الإسلام وصلاحه لقيادة الحياة الإنسانية العملية .

وفى الختام أريد أن أعرب لكم عما فى نفسى من أمل . بما أن الله تعالى خلقنى فى هذا الشعب أى الشعب الباكستانى المسلم لذلك أود أن يكون هذا الشعب هو الشعب المنتظر الذى يعيد إلى الإسلام مجده وبهاءه . وإذا كانت لى سياسة فهذا الأمل منطلقها وإذا كان لى دين فهذا مطلبه . إن جميع مجهوداتى تتركز على أن شعبى الذى خلقنى الله فيه وجعلنى أحد أفراده ، يشعر بمسئوليته نحو الإسلام ، ويرفع لواءه ، ويتمثل الإسلام فى واقعه الحى الملموس .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

أبو الأعلى المودودى

الهجْرة النبوية فى ضوء جَديد

الأستاذ / أحمد حسين

هذا مقال أكتبه فى مطلع السنة الهجرية الجديدة ولست أعرف متى ينشر، ولكنه على أية حال ليس من مقالات المناسبات، ولكنه بحث يشتمل على رؤيا جديدة، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو أول من قدر البعد الحقيق لحادث الهجرة وأنه بدأ انتصار الإسلام، فجعله نقطة الابتداء فى التاريخ الإسلامى وكان من بين ما عرض عليه من اقتراحات، أن يكون يوم ميلاد النبى صلوات الله عليه هو بدأ التاريخ الإسلامى. وقيل بل فليكن يوم مبعثه، وقيل بل يوم وفاته. وقد تصور البعض، أن اليومين الأولين (الميلاد والبعثة) غير محققين بالضبط. فلم يكن لرسول الله ﷺ من الشأن فى صفوف قريش، ما يجعلهم يحددون بدقة هذين اليومين. وعندنا أن تحديد عام الميلاد سهل وميسور. فقد روى عن رسول الله قوله «ولدت عام الفيل» وهو صاحب الحادثة المشهورة، عندما أراد أبرهة الحبشى أن يهدم الكعبة، وكان من بين ما أراد به أن يحقق هذا العمل هو استخدام «فيل» فكان من أمره ما كان. وأبيد الجيش الغازى تقريبا. وكان بطل اليوم هو عبد المطلب جد سيدنا محمد، ونحن ما كنا لنشير لهذه الواقعة، لمجرد ورودها فى كتب السيرة، بل لقد ذكرها القرآن فى سورة الفيل: «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ● ألم يجعل كيدهم فى تضليل ● » إلى آخر السورة. فحادث الفيل حادث جسيم هز قريشا، بل هز جزيرة العرب كلها، وكان إرهاصا بما سيكون لمكة من خطر فى حياة البشر المادية والروحية إلى أبد الآبدين فعندما يقول رسول الله ﷺ: ولدت عام الفيل، وعندما تؤرخ قريش بعام الفيل. فقد كان من المستطاع بطبيعة الحال أن يكون مولد النبى صلوات الله عليه وسلامه، وهو بدأ للتاريخ الإسلامى. وإذا كان يوم وفاته ﷺ هو يوم حزين فى تاريخ الإسلام طاش فيه عقل الكثيرين من الصحابة بما فيهم عمر بن الخطاب. فهو على كل حال

لا يصلح ليكون بداية للتاريخ الإسلامى الذى كان قد بدأ بالفعل . بل وانتصر ودانت له الجزيرة العربية كلها (لأول مرة ولآخر مرة فى تاريخها) بل إن وفاة سيدنا محمد ﷺ ، كانت ذروة نجاح التعاليم الإسلامية وتحرر العقل البشرى نهائيا من الشرك بالله . حيث خرج أبو بكر الصديق وهو من هو فى محبة رسول الله والإيمان به ، خرج ليعلن للناس وفاة رسول الله . فقال : « يا أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله . فإن الله حى لا يموت » ولست أحسب أن هناك لتعاليم الإسلام . أعظم من ذلك فالرسول لم يغادر الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن أكمل رسالته . فالقول بأن التاريخ الإسلامى يبدأ بيوم وفاة رسول الله هو قول يخالف الواقع .

فلم يبق سوى يوم البعثة ، ويوم الهجرة فأما يوم البعثة . فقد كان يوما خاصا خالصا بين سيدنا محمد ﷺ ، وبين ربه . وقد علمه جبريل بطبيعة الحال ، إذ كان هو الذى نزل بالقرآن ، ورجع سيدنا محمد يرتجف فى حالة من الفزع لزوجته السيدة خديجة . وهو يقول : زملونى زملونى . أو دثرونى . دثرونى . فى القرآن الكريم إشارة إلى هذه الواقعة . وهو ينادى مرة ياأيها المزمل . ومرة أخرى ياأيها المدثر ولأمر شاءه الله . فقد شاء أن تجهل تاريخ هذا الحدث الذى يعتبر بدء للتاريخ الإسلامى بلا جدال أو شبهة . واكتفى القرآن الكريم . بتعظيم الليلة التى أنزل فيها :

(« إنا أنزلناه فى ليلة القدر ● وما أدراك ماليلة القدر ● ليلة القدر خير من ألف شهر » وتحدث القرآن فى مناسبة أخرى عن الشهر الذى نزل فيه القرآن : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . وشاء سيدنا محمد ﷺ ، بتوجيه من الله بطبيعة الحال ، أن يبقى ليلة القدر مجهلة إلى حد ما . فقال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان » وهكذا شاء السميع العليم . أن يبقى يوم مبعث رسول الله ﷺ حيث نزل القرآن فى ليلته ، مجهلا .

يوم الهجرة :

فلم يبق يوم مشهورا ، بل ومحققا بالساعة وبالدقيقة . سوى يوم الهجرة ، فقد تسامع أهل يثرب بمقدم رسول الله ﷺ . إليهم من مكة . أصبح الأمر شغلهم الشاغل . لا فرق فى ذلك بين كبير أو صغير . رجلا كان أو امرأة . مسلما كان أو منافقا . أو حتى يهوديا . لقد كان معنى

وصول رسول الله إليهم ، نهاية عهد وبداية عهد جديد ، وقد ضاعف فى قلقهم وتوترهم ، بل وخوفهم على رسول ﷺ ما ترامى إلى سمعهم ، من أن قريشا ، أجمعت على قتله وأنها خرجت فى أثره لتنفيذ هذه الغاية ، ولم يحدث فى تاريخ العرب أن عجزت جماعة قلت أو كثرت عن تعقب إنسان يسافر فوق بعير ، وهم يركبون الخيل ، فلا عجب أن يرقب أهل المدينة وصول سيدنا محمد ساعة بعد ساعة ، بل دقيقة بعد أخرى فيوم وصول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، هو يوم مشهود بكل المقاييس وليس أدل على خلوده ، من أن التاريخ قد حفظ لنا نشيد هذا اليوم الذى رتله الصغار قبل الكبار والنساء قبل الرجال وأعنى به نشيد :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فلا جدال أو شبهة فى أن أعظم أيام الإسلام الذى جرى تحت سمع الناس وبصرهم هو يوم هجرة الرسول ، فلا عجب أن جعل منه عمر بن الخطاب مبدأ التاريخ الإسلامى .

الرؤية الجديدة

ولا يوجد شئ جديد فى كل ماسبق . فقد قيل ماهو أكثر منه وأروع لإظهار عظمة يوم الهجرة . وحسبك أن تعلم أن مكة كانت دولة الشرك والظلم . أما المدينة ، فقد كانت منذ اللحظة الأولى التى وصل فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هى المجتمع الإسلامى ، والدولة الإسلامية الكاملة . تحت رئاسة سيدنا محمد وزعامته وقيادته ، وهذا ما سجلته كتب السيرة ، ولكن كتب السيرة الأولى ، ظلت تتحدث عن المعارك التى حدثت بعد ذلك بين رسول الله ﷺ ، وبين المشركين ، كما لو كان أمر الإسلام لايزال فى مد وجزر ، فإذا كان المسلمون قد انتصروا فى بدر فقد هزموا فى أحد ، ثم كانت غزوة الخندق الشهيرة ، حيث تجمعت كل العناصر المعادية للإسلام بزعامة قريش ، وتحريض من اليهود ، على استئصال شأفة المسلمين ، وهكذا . وتابع كل من كتب فى السيرة المحمدية هذا التصور بغير تدبر أو تأمل .

وكان من توفيق الله لنا ، أن لم نشرع فى كتابة هذا القسم من السيرة ، إلا بعد أن درسنا القرآن وتصدينا ، لتفسير سوره على صفحات منبر الإسلام ، فلم نر فى القرآن الكريم هذه الصورة التى جاءت فى كتب السيرة ، من أن حظ الإسلام فى المعارك الحربية ، ظل يتأرجح بين النصر والهزيمة متأثرين فى ذلك ، أو بالأحرى منساقين ،

وراء عبارة رددها أبو سفيان بن حرب ، فى غزوة أحد ، حيث قال : « يوم بيوم » أى أن ما جرى فى أحد ، هو فى مقابل ما جرى فى بدر ، وأضاف أن ضرب موعدا من العام المقبل لجولة ثالثة . ولم يكن ذلك كله إلا محض مهاترة من أبى سفيان ، وأن ما حدث فى غزوة أحد هو آية ما كان المسلمون قد وصلوا إليه من عزة ومنعة واستقرار تام وكامل : فقد انتصر المسلمون فى غزوة أحد عند الصدمة الأولى ، وانهزم المشركون بالفعل وبدأ بعض المسلمين يتنازعون على الغنائم . وهو ما قرره القرآن ، بأوضح وأجلى عبارة :

(ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . . .الآية) وهذا كما قدمنا نص صريح : فى أن المسلمين قد انتصروا فى المعركة وانتهى الأمر (أراكم ما تحبون) وما يحبه المسلمون هو النصر بطبيعة الحال قال تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) .

فإذا كان بعض المسلمين بعد حدوث النصر بالفعل قد انشغلوا بجمع الغنائم تاركين بذلك مواقعهم ، فاستغل خالد بن الوليد هذه الفرصة لكى يباغت القوم المشتغلين بجمع الغنائم ، فأحدث من الارتباك ما أحدث وقتل من قتل ، فلم يكن ذلك إلا أمرا عارضا ، لم يغير من حقيقة الوضع العسكرى ، من أن المشركين ،كانوا قد انهزموا وانتهى الأمر ، وأن قريشا كانت قد بلغت من الضعف والهوان ما يجعلها ، لم تعد نداً للمسلمين وأن غزوة أحد بالذات ، قد أكدت هذه الحقيقة ، ولم تجعلها محل شك ، وليس أدل على ذلك ، من أن أباسفيان لم يكد يقول هذا القول حتى أصدر أوامره بالتراجع السريع ، الذى يشبه أن يكون فرارا إلى مكة ، إلى الحد الذى جعل رسول الله ﷺ يخرج إليهم فى صبيحة اليوم التالى ، ويرفض أن يصحبه إلا من كان معه فى اليوم السابق ، فلا يعثر لهم على أثر .

ولما جاء الموعد الذى ضربه أبو سفيان للتلاق ، ذهب إليه رسول الله ﷺ بجيشه ، ولم تذهب قريش ، فقد كانت قد أصبحت على ثقة ، أن لا قبل لها بمواجهة المسلمين ، بل إن خالد بن الوليد نفسه ، لم يلبث وهو القائد العسكرى ، أن غادر مكة سراً ولحق بسيدنا محمد ﷺ فى المدينة ، بحيث سنراه على رأس قسم من جيش المسلمين ، الذى دخل إلى مكة فاتحا ، بل إن أبا سفيان نفسه سوف يدعو آل مكة إلى

الترحيب بجيوش المسلمين . على أننا قبل فتح مكة نريد أن نقف بعض الشيء أمام صلح الحديبية . فما كانت قريش لتبرمه مع سيدنا محمد إلا لأنها كانت قد وصلت إلى حضيض الضعف . بحيث تعلق كل أملها ورجائها . فى أن يرجع عنهم المسلمون عامهم هذا فلايدخلون مكة برغم أنوفهم فى مقابل أن يتركوها لهم فى العام المقبل . وقبل الرسول ﷺ هذا الحل فقد رأى الثمرة وقد أصبحت دانية القطوف . فى سلام ووفاق . فعلام الخصام . والحرب والقتال وسفك الدماء . وقد وصف القرآن الكريم ما حدث بوصفه الصحيح فنزلت على رسول الله ﷺ وهو عائد إلى المدينة :
(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) فليس صحيحا ما يتصوره الكثيرون من أن قوة المسلمين العسكرية ظلت فى خفض ورفع . ونصر وهزيمة . حتى فتحت مكة . وليس أدل على ذلك من أن هذا الجيش الظافر . الذى لم تشهد له جزيرة العرب مثيلا من قبل . قد انفرط عقده . تحت تأثير المباغتة . فى غزوة حنين : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا . . . الآية) . فالأمر كان قد قضى وتم لصالح المسلمين بمجرد وصول رسول الله إلى المدينة . وأصبح مشركو قريش هم الجانب الأضعف الذى لا يزيدهم مر الأيام إلا ضعفا . حيث المسلمون هم الجانب الأقوى الذى يزداد قوة يوما بعد يوم . بل ساعة بعد أخرى . وهو ما قدره مشركو قريش . مذ استقر عزم رسول الله ﷺ على الهجرة . فعقدوا عزمهم على وجوب قتل رسول الله للحيلولة بينه وبين مبارحة مكة بأى حال من الأحوال فأصبحت مجرد هجرة الرسول من مكة واستطاعته الوصول إلى المدينة . هو هزيمة عسكرية من الدرجة الأولى تجعل كلمة سيدنا محمد والمسلمين هى العليا . وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ما قبل الهجرة :

أنا نعلم أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام . قد أمضى بين ظهرانى قريش فى مكة ثلاث عشرة سنة على أرجح الآراء وقد شهدت قريش . كيف فشلت كل وسائلها فى إيقاف موجة الإسلام ونموها وتصاعدها على مر الأيام . بحيث فشل كل ما اصطنعوه من وسائل . بدأت بإظهار عدم الاكتراث والسخرية . وأرهبت واضطهدت . وقاطعت . وعذبت إلى درجة الموت . ولكن ذلك كله لم يزد سيدنا محمداً ﷺ . ومن تابعه . إلا إيمانا وعزما

وإصرارا بلغ إلى حد الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وبعد أن كانت قريش تعزى نفسها ، بأن أكثر من تبعوا سيدنا محمداً على دعوته ، هم من المستضعفين والأرقاء ، فلم يلبثوا أن رأوا بعض أقطابهم يدخلون فى الدين الجديد ، فبعد أن تصوروا أن الأمر قد اقتصر على الرعيل الأول من أمثال أبى بكر وعثمان بن عفان وسعد بن أبى وقاص ، إذا بهم يفاجأون بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، ثم إسلام عمر بن الخطاب وغنى عن البيان ، أن من اعتنقوا الإسلام من قريش ، كانوا قد وصلوا إلى درجة من القوة والمنعة يعمل حسابها ، ولم يكن يمنعهم من التصدى لقريش ، إلا كون الرسول لم يأمرهم بالقتال بعد ، وإنما كان يدعوهم إلى الصبر والاحتمال ، وأن لا يردوا على القوة بالقوة :

(ادفع بالتى هى أحسن)
(لكم دينكم ولى دين)
(وأعرض عن الجاهلين)

هذا الموقف من المسلمين ، هو الذى استغله كفار قريش ، فظل الموقف يبدو كما لو كانت قريش الكافرة متفوقة تفوقا ساحقا ، على قريش المؤمنة بعد ثلاثة عشر عاما ، حيث لم يكن الأمر كذلك .

بشائر النصر والغلبة :

وأخيرا شاء الله أن ينهى هذه المرحلة وأن يحقق النصر للإسلام ، فإذا به يقذف بنور الإسلام ، إلى سكان يثرب الذين كانت كثرتهم الغالبة تتألف من الأوس والخزرج ، وهم من أشد من عرفت جزيرة العرب تمرسا فى القتال ، وقد كان ممثلو هاتين القبيلتين ، هم من جاءوا فى موسم الحج يبايعون سيدنا محمداً ويطلبون منه أن يرسل معهم من ينشر الدعوة ويفقههم فى الإسلام ، فلم يحل الحول حتى تضاعف من جاءوا لمبايعة سيدنا محمد ﷺ أكثر من خمسة أضعاف فالإثنا عشر نقيبا فى بيعة العقبة الأولى ، قد أصبحوا بعون الله سبعينا (٧٠) فى بيعة العقبة الثانية ، وعلم منهم سيدنا محمد ﷺ أن الإسلام قد تفشى فى يثرب بحيث أصبح فى كل دار وطلبوا من رسول الله أن يهاجر ليصبح القائد والزعيم . وبايعوا رسول الله على أن يحاربوا معه دفاعا عن شخصه وعقيدته ، كما يحاربون دفاعا عن أنفسهم وأموالهم وأبنائهم ، وبلغ الأمر من جدية الموقف وقوته ، أن جاء العباس ، عم النبى ، وهو لايزال على دين قومه ، ليستوثق لابن أخيه ، من حقيقة ما هو مقدم عليه : وتم الاتفاق نهائيا على أن

يلحق بهم رسول الله ﷺ ، فلا يكاد يصل إليهم حتى يكونوا جيشا له ضد كل من يعترضه وعلى رأس الكل قريش الكافرة ، أو بالأحرى من ظل منهم على كفره .

أدركت قريش ما يعنيه ذلك كله :

ولم يفت قريشا بطبيعة الحال معنى ذلك كله ، وأنه لو تحقق فسوف تدور عليهم الدائرة . بلا جدال أو شبهة فقرروا أن يحولوا دون وقوعه بأى ثمن من الأثمان . فراهم يخرجون على تقاليدهم ، ومصالحهم التى تحتم عليهم أن لا يغضبوا الأوس والخزرج ، فهم فى طريق قوافلهم نحو الشام ، ضربت قريش بذلك عرض الحائط ، وأسرعت تعدو خلف حجاج يثرب الذين بايعوا سيدنا محمداً ﷺ ، فلم تظفر بهم ، ولكنها أدركت واحدا منهم يبدو أنه كان متخلفا عن بقية الركب فقبضت عليه وعادت به إلى مكة وهى تضربه وتهينه وأوشكت أن تفتك به لولا أن أجاره أحد زعماء قريش ، فخلوا سبيله طبقا للتقليد الذى كان متبعا .

وهاجر المسلمون :

وبدأ المسلمون الأقوياء الأشداء ممن أثبتوا على مر السنين قوة شكيمتهم وعزمهم وصبرهم ، على الهجرة إلى المدينة . وطبعا بدأوا فى الهجرة دون أن يعلنوا عن ذلك . فلما تنبهت قريش إلى حقيقة ما يجرى بدأت تعمل للحيلولة دون ذلك ، فراحت لا تسمح لأى مهاجر بالهجرة إلا بعد أن يتجرد من كل أمواله . وفاجأهم المهاجرون بأنهم لا يترددون لحظة فى التضحية بكل شىء ، وفرحت قريش بالاستيلاء على أموال المهاجرين ، فتركتهم يهاجرون . ولم تكتشف إلا أخيرا جداً غلطتها القاتلة وهى تركها هذا الحشد من المجاهدين المقاتلين الأشداء ، يتجمع فى المدينة حربهم بعد أن انضم إلى صفوفهم جموع الأنصار .

ولما لم يعد لدى قريش بعد هجرة سيدنا عمر بن الخطاب إلى يثرب شك ، أن لا بد لاحق بهم رسول الله ﷺ قرروا قتله ليتفادوا هزيمتهم التى بدأت تلوح على الأفق ، وقصة ما جرى بعد ذلك معروفة ومشهورة ، وكيف أصبح القبض على سيدنا محمد وصاحبه أبى بكر وقتلها مسألة حياة أو موت بالنسبة لقريش . ومرة أخرى لن نكرر المفهوم العام عن خطورة الهجرة فى الإسلام ، ولكن الرأى الذى نسوقه ، أن الأمر كله كان معركة عسكرية ، بكل ما تعنيه المعركة العسكرية من أبعاد وبخاصة

تغير موازين القوى بين الجانبين المتصارعين ، وقد نظر لها القرآن الكريم هذه النظرة فلم يصف نتائجها بالنجاح أو الفلاح أو الفوز ، وإنما استعمل كلمة « النصر » وهو مالم يستعمله القرآن الكريم إلا بصدد معارك القتال من مثل قوله تعالى : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) .

وكان التعبير بكلمة « النصر » هو ما اختاره الله عز وجل ليحدثنا عن موقعة الهجرة ، واقرأوا إن شئتم :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار . . الآية) .

أحمد حسين

« الحسد »

الحسد : تمنى زوال نعمة المحسود ، وحصول الحاسد على مثلها ، من أحسن ما قيل فيه من الشعر قول الشاعر :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم
غيرى من الناس أهل الفضل قد حُسدوا
فدام لى ولهم ما بى وما بهم
ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال شاعر آخر :

اصبر على حسد الحسو د فإن صبرك قاتله
النار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

مأساة المسلمين في اليونان وأحوالهم في يوغوسلافيا وتركيا

تقرير أعده

اللواء / أحمد عصمت محمود

عـام :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد .

فبناء على توجيهات فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر التي تتوخى دائما العمل من أجل نشر الدعوة الإسلامية في جميع أنحاء العالم ودعمها وانطلاقا من رسالة الأزهر الشريف الذي يعتبر بحق كعبة العلم والمعرفة ، فقد صدر قرار فضيلة الإمام الأكبر رقم ٣١٥ بتاريخ ١٨ من رجب سنة ١٣٩٨ هـ الموافق ٢٤ من يونيو سنة ١٩٧٨ م بإيفاد وفد من القائمين على رعاية شئون الطلبة الوافدين لدراسة النشاط الديني لخريجي الأزهر والمشاكل والعقبات التي تصادفهم والتعرف على الهيئات والمنشآت الإسلامية ومدى احتياجها إلى معونة الأزهر ، سواء من منح دراسية أو من مبعوثين أو أي معونات أخرى في حدود إمكانيات الأزهر لأداء رسالتها ولتدعيم الروابط بين الأزهر وبين خريجيه وبين الهيئات الإسلامية في كل من اليونان ويوغوسلافيا وتركيا .

وقد تشكل هذا الوفد من السادة :

١ - السيد/أحمد عصمت محمود إبراهيم
وكيل أول الوزارة - المشرف العام
على مدينة ناصر للبعوث الإسلامية

٢ - فضيلة الشيخ عبد السلام عبد الخالق الشبراوي
الأمين العام المساعد
لمجمع البحوث الإسلامية

٣ - السيد/محمد ثروت محمد حلمي عبد اللطيف
مدير إدارة المنح الدراسية
بمدينة ناصر للبعوث الإسلامية

وكانت أول خطوة في إجراءات تنفيذ

هذه المهمة أن أخطرتْ وزارة الخارجية بصورة من قرار المشيخة رقم (٣١٥) وبصورة من الجدول الزمنى لتحركات الوفد قبل السفر بمدة شهر تقريبا .

كما حصل الوفد على المعلومات المطلوبة عن كل بلد من طلاب هذه الدول المقيمين بمدينة البعوث الإسلامية .

أولا : زيارة اليونان فى المدة من ٧٨/٩/٧ - ١٩٧٨/٩/١٣

قمنا من مطار القاهرة الساعة ١٢,٣٠ ظهرا وقبل مغادرتنا فوجئت بإذاعة الاستعلامات تطلبنى وإذا بأحد المسئولين بسفارة اليونان ويدعى دكتور ميشيل يقبل على وأخبرنى أنه حضر لتوديعنا متمنيا لنا التوفيق فى الرحلة وأفادنا بأننا سنسر من أحوال المسلمين فى اليونان فهم يتمتعون بكافة الحقوق الممنوحة لسائر المواطنين هناك فشكرناه لتكبده مشاق الحضور لتوديعنا وعند وصولنا إلى مطار أثينا لم نجد فى استقبالنا أحداً من المسئولين المصريين ليقوم بمهمة تسهيل الإجراءات وكل ماحصل أن القائم بأعمال سفارة مصر فى اليونان الأستاذ أحمد عبد الوهاب حمدى علم بوصولنا عن طريق أحد خريجى الأزهر فحضر إلينا فى مساء يوم الوصول بالفندق ومكث معنا حوالى ساعة استأذن بعدها لارتباطه بمواعيد أخرى ومنذ ذلك الحين لم نر أى مسئول مصرى باليونان ، ولقد اشتكى خريجو الأزهر من سلبية المسئولين بالسفارة المصرية وعدم تجاوبهم مع خريجى الأزهر والمسلمين هناك .

هذا وقد وافق يوم ٩/٨ يوم جمعة ومنذ الصباح حاولنا العثور على مسجد واحد فى أثينا عاصمة اليونان ذات الحضارة العريقة - لنؤدى صلاة الجمعة ولكن للأسف لم نجد فيها سوى مسجد واحد قديم أنشئ فى القرن الثامن عشر الميلادى فى عهد محمد الفاتح لايستخدم لأداء الصلاة وإنما حول إلى متحف أثرى يضم مكاتب الموظفين ومرافق أخرى للمتحف ولم نستطع أن نؤدى صلاة الجمعة وأسفنا لذلك أسفا شديدا .

زرنا المسلمين فى محافظتى أكسنى وكومتينو وبعض القرى المجاورة وتعتبر هذه المناطق مراكز تجمع المسلمين فى اليونان ، كما اجتمعنا بالسادة مفتى المحافظات ورؤساء الأوقاف الإسلامية كما زرنا بعض المدارس الأهلية والمعهد الدينى بكومتينو وعقدنا اجتماعات بخريجى الأزهر بهذه المناطق واستمعنا إلى كثير من الأهالى المسلمين فى أنحاء متفرقة ، وقد كشفت لنا هذه الزيارة وهذه اللقاءات عن الحقائق المؤسفة التالية :

تعيش فى شمال شرق اليونان فى منطقة تسمى بتراقيا الغربية منذ أكثر من نصف قرن اقلية إسلامية تعدادها أكثر من مائة الف نسمة بمقتضى معاهدة لوزان التى ابرمت عام ١٩٢٣م مقابل الأقلية اليونانية المسيحية فى مدينة استانبول بتركيا. وللاقليتين حقوق متساوية مع افراد الدولة التى تعيش فيها إلا أننا وجدنا المسلمين فى اليونان يعانون من التفرقة فى المعاملة. فالحكومة اليونانية لاتسمح للمواطن المسلم بامتلاك الأرض أوالعقار، ولاتسمح للمالكين القدامى ببيع ممتلكاتهم إلالغير المسلمين. كما لاتسمح لهم بالتوظف فى وظائف الحكومة. كما لاتسمح الحكومة اليونانية أيضا بإقامة أى مساجد جديدة وكل المساجد الموجودة قديمة ترجع إلى العهد العثمانى بل إنها لاتسمح بإصلاح هذه المساجد القديمة وبعضها قد آل للسقوط. وفى حالة طلب الأهالى إجراء إصلاحات أوترميات بالمسجد على حسابهم الخاص. فإن طلبهم يحال إلى الأسقفية فى أثينا وقيل لنا إن هنالك طلبات مضى عليها حوالى خمس سنوات ولم تأت موافقة الأسقفية بعد.

تتدخل الحكومة فى تعيين المدرسين فى المدارس التى يقيمها الأهالى المسلمون وتعين مدرسين من قبلها دون النظر إلى الكفاءة ويمثل مدرس الحكومة مراكز قوى بهذه المدارس فلهم دون سواهم الأمر والنهى والذى أكد لنا هذه الحقيقة أننا ذهبنا لزيارة إحدى المدارس الأهلية الابتدائية بقرية قريبة من مدينة كومتينى اسمها «كيكيديون» وأردنا أن نأخذ صورة تذكارية مع الأطفال والمدرسين وبعد ماتأهبنا للتصوير أوقف مدرس الحكومة المصور ومنعه من التصوير وكأننا كنا على وشك أن نصور لكتة عسكرية.

وعندما زرنا المعهد الدينى الإسلامى «المدرسة الخيرية» بكومتينى والمفروض أن مستواه التعليمى - يعادل التعليم الثانوى - وباطلاعنا على الكتب الدراسية وجدناها لاتزيد عن مستوى التعليم الابتدائى كما أنه تابع لتفتيش المدارس الابتدائية وعدد مدرسيه عشرة. منهم خمسة فقط من المسلمين والباقين من غيرهم والطالب المسلم بعد تخرجه من هذا المعهد ليس له حق فى الالتحاق بأى كلية جامعية بل له أن يلتحق بالأكاديمية الخاصة لمسلمى تراقيا الغربية فى اليونان التى انشأتها الحكومة اليونانية فى مدينة سالونيكى والتدريس بهذه الأكاديمية ضعيف جدا ويستمر لمدة ثلاث سنوات وباللغة اليونانية ولايدرس بها الدين

الإسلامي ولايوجد بها مدرس مسلم واحد وقد طالب المسلمون بتعيين أحد المدرسين لتدريس الدين الإسلامي ولم يستجاب لطلبهم ، وكنتيجة حتمية فإن خريجي الأكاديمية مستواهم ضعيف جدًا وخاصة من الناحية الدينية وتعيهم الحكومة لمدارس المسلمين الابتدائية والمعاهد الدينية ، ولقد اتضح لنا أن خريجي الأزهر الشريف من غير المرغوب فيهم ندر أن يعين منهم أحد في التدريس .

تقوم الحكومة بتأميم أوقاف المسلمين بحجة المنفعة العامة ، وسبق أن قامت بهدم مسجد ومقبرة إسلامية بأكستى ، وعلمنا أن أوقاف المسلمين فى أكستى يديرها موظف معين من قبل الحكومة وهو غير حائز على ثقة المسلمين فى هذه المحافظة ويتصرف تصرفات تضر بالأوقاف بها بإيعاز من الحكومة وكان المفروض أن يعين بالانتخاب بعد إنهاء الحكم العسكرى كما هو الحال فى محافظة كومتيني . هذا وقد اضطر المسلمون إلى رفع الأمر إلى القضاء فى محاولة لوقف هذه التصرفات التى تضر بموارد الأقلية المسلمة الفقيرة ، وعلمنا أنه توجد حاليا قضية رفعها مسلمو أكستى فى هذا الشأن .

هذه بعض الحقائق التى تكشفت لنا كنتيجة لهذه الزيارة والتى أسفنا لها كل الأسف وقد علمنا من المسلمين باليونان أن مطالبهم تنحصر فى الآتى :

١ - مساواتهم فى الحقوق الإنسانية مع قرنائهم المواطنين من غير المسلمين خصوصا وأنهم يؤدون ماعليهم من واجبات سواء من ناحية الضرائب أوأداء الخدمة العسكرية .

٢ - وقف تأميم أوقاف المسلمين التى دأبت الحكومة اليونانية على تأميمها بغرض إكراه المسلمين على الهجرة .

٣ - ضم الأوقاف المصرية فى كافالا ، قولة ، إليهم لتدعيم مواردهم الضعيفة .

ومما أثار دهشتى عندما عدت إلى القاهرة أنى علمت من منزلى أن شخصا من سفارة اليونان قد طلبنى قبل عودتى بيومين مرتين ، كما طلبتنى السفارة كذلك فى مكتبى ، وقد اتصل بى بعد ذلك الدكتور ميشيل بالمنزل وأخبرنى أنه يريد مقابلتى بالمكتب ، وفعلا قابلته فى اليوم التالى لاستئناف عملى بالمكتب ، فوجدته متلهفا لسماع رأيى فى أحوال المسلمين هناك ولما صارحته بالحقيقة كما سبق أن بينت ، أبدى لى تأثره العميق ووعدنى بالاتصال بوزارة الخارجية اليونانية ليصحح كل هذه الأوضاع ثم أشار إلى فى سياق كلامه بأنه يستطيع - عن طريق كبار المسئولين - أن

يوقف كل أثر لما سنرفعه من تقارير ولكنى لم أعر هذا الكلام اهتماما . وبعدها حضر إلىّ الملحق الثقافى والصحفى بالمكتب لنفس الغرض .

وفيما يلى نص رسالة بعث بها سفير تركيا بالقاهرة إلى عضو بالوفد ، وقد آثرنا نشرها بنصها لعلاقتها بهذا الموضوع :

القاهرة فى ١٢ ديسمبر ١٩٧٨

السيد/الشيخ عبد السلام عبد الخالق الشبراوى

الأمين العام المساعد للأبحاث الإسلامية

إدارة معاهد الأزهر

٣١٧ شارع بورسعيد – الدور الثامن

السيدة زينب – القاهرة

تحية طيبة وبعد :

أتشرف بأن أحيط سيادتكم علما بالآتى :

بما أن السيد مصطفى حلمى مفتى مدينة اسكتشى «اكسانتى» فى اليونان قد قام ببناء مبنى صغير فى المقابر بجوار جامع كونيكوى «كيميروا» لاستخدامه فى أغراض الدفن ، وأيضا بسبب إهماله الحصول على إذن البناء مسبقا ، قد قامت محكمة اسكانتى الابتدائية بصدور حكم ضده بالسجن لمدة شهرين وبغرامة مالية قدرها ٥٥,٠٠٠ دراخمة .

إن إدانة المفتى وهو الزعيم الدينى لإحدى المدن الكبيرة فى غرب تراقيا بسبب تصرف ليس ذو أهمية وغير مقصود ومجرد نتيجة اهمال إدارى ، قد أثار اهتماما بالغا وأسفا شديدا من جانب الجالية التركية الإسلامية فى غرب تراقيا وقد أثار أيضا أسفا ودهشة بالغة فى تركيا .

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام . .

ايكوت بيرك

مستشار سفارة تركيا بالقاهرة

ثانيا : زيارة يوغوسلافيا فى المدة من ٩/١٤ – ١٩٧٨/٩/١٩

نستطيع أن نقرر من واقع زيارتنا لبلغراد وجمهورية البوسنة والهرسك وعاصمتها سارايفو ولقائنا بكبار الشخصيات الإسلامية والمسئولين عن الشئون الدينية من المسلمين وغيرهم بالحكومة . نذكر منهم فضيلة مفتى بلغراد وفضيلة رئيس هيئة كبار العلماء بسارايفو والسادة الأساتذة أعضاء هيئة التدريس بالمعهد الإسلامى الثانوى وكلية الدراسات الإسلامية بسارايفو والسيد وزير الشئون الدينية بحكومة بلغراد – أننا وجدنا المسلمين بحالة أسعدتنا فهم يمارسون شعائرهم الدينية

فى حرية تامة كما أنهم يقومون ببناء المساجد الجديدة - بالإضافة إلى أعمال الصيانة التى تتم فى المساجد المقامة وفى كل منها مدرسة لتعليم الصغار والكبار القرآن الكريم باللغة العربية . وقد حضرنا احتفال افتتاح مسجد جديد فى إحدى قرى البوسنة والهرسك .

ويبلغ تعداد المسلمين فى يوغوسلافيا أكثر من أربعة ملايين مسلم ويوجد بها حوالى ألفى مسجد .

ولقد علمنا أن الدولة تهتم بترميم وتجديد وصيانة المساجد القديمة . ويصل المسلمون إلى أعلى المناصب فى الدولة فنهم من وصل إلى درجة وزير ومنهم قادة فى الجيش وأعضاء بالبرلمان وعديد من المناصب الكبرى بالدولة .

وقد قمنا بزيارة المعهد الإسلامى الثانوى وكلية الدراسات الإسلامية بساراييفو وأعجبنا حسن الإعداد والتنظيم والنظافة كذا المستوى العلمى بها .

واجتمعنا بهيئة التدريس التى طلبت تبادل الزيارات مع أساتذة الأزهر للاستفادة من الخبرات فى إعداد المناهج وأسلوب التعليم . كما تقابلنا وخريجى الأزهر وتبين لنا حاجتهم إلى عدد من منح الدراسات العليا ووعدنا بعرض الأمر على لجنة شئون الطلبة الوافدين للحصول على موافقتها . وزرنا مكتبة خسرو وهى مكتبة كبيرة تضم مجموعة كبيرة من الكتب القيمة والمخطوطات التاريخية .

هذا وقد علمنا أن سفارتنا فى يوغوسلافيا لم يكن لديها أى خبر عن البعثة .

ثالثا : زيارة تركيا فى المدة من ٩/٢٠ - ١٩٧٨/٩/٢٥

قوبلنا بترحاب كبير من عدة هيئات رسمية وأهلية نذكر منها وزارة التربية والتعليم والجمعية الخيرية الإسلامية وحزب السلام الإسلامى والمسئولين عن الشئون الدينية ورؤساء هيئات الأوقاف كما استقبلنا الدكتور نجم الدين اربكان رئيس حزب السلام الإسلامى .

قمنا بزيارة عديد من الهيئات الإسلامية والمعاهد والكليات نذكر منها المعهد العالى الإسلامى - معاهد الأئمة الخطباء - المعهد الحسكى العالى - ومدارس تحفيظ القرآن الكريم للبنين والبنات - والتقينا بخريجى الأزهر الشريف .

وزرنا المكتبة السليمانية وهى مكتبة ضخمة تضم ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف من المخطوطات والمطبوعات . وقد أعجبنا بنظافتها الفائقة وحسن التنظيم والتنسيق

البديع وطريقة عرض المخطوطات والمطبوعات ذات الأهمية التاريخية وتطور طرق التجليد فى العصور المختلفة إلى أن وصل إلى مرحلة أصبح آية من الفن الجميل .

كما تضم أجهزة حديثة للتصوير « الميكروفيلم » والتكبير والتجليد ومعامل كيماوية لإجراء أبحاث لمعالجة الورق الذى أتلفه السوس والآفات الأخرى بالمواد الكيماوية وترقيعه بطريقة علمية وفنية حديثة ، وذلك للمحافظة على قيمتها ، وقد شاهدنا بها مصحفاً بالخط الكوفى لسيدنا عثمان بن عفان .

ملخص
ملاحظات وتوصيات الوفد
على ضوء الزيارات الميدانية لكل من
اليونان – يوغوسلافيا – تركيا

أولا : اليونان

إن حالة المسلمين فى اليونان تؤكد ضرورة اهتمام الأزهر الشريف بالأقليات المسلمة فى جميع أنحاء العالم بصفة عامة ، ومن هم فى مثل حالة مسلمى اليونان بصفة خاصة ، كما تحتاج إلى تضافر جهود الأزهر مع باقى الجهات المعنية بالشئون الإسلامية للعمل بكافة الطرق والوسائل حتى ينال المسلمون هناك حقوقهم الإنسانية المشروعة والتى أقرتها جميع الرسالات السماوية بل والمنظمات الدولية .

ولقد كان لزيارة وفد الأزهر عميق الأثر فى نفوس المسلمين فقد كانت تغمرهم السعادة لشعورهم باهتمام الأزهر بهم وبأحوالهم من خلال هذه الزيارة ، وقد أفصحوا لنا عن امتنانهم بهذه الزيارات لأنها تعزز من وضعهم وتمنحهم القوة الروحية والنفسية كما أنها تهيئ لهم الفرصة لكى يعبروا عن مشاعرهم ومشاكلهم ومطالبهم المتعلقة بالأمور الدينية بطريقة مباشرة وعلى الطبيعة لإخوانهم المسلمين وليطلعوهم على الحقيقة المؤلمة التى يعيشونها

خاصة وأنهم يؤمنون بأن الأزهر هو قلعة الإسلام ومنار العلم والثقافة الدينية وحامل الرسالة المحمدية المبنية على الحق والحرية والمساواة والسلام .

وقد وجدنا أنهم فى حاجة إلى زيادة عدد المنح الدراسية بالأزهر كما طالبونا بإرسال عدد من مجلة الأزهر وأعداد الجمعة من الصحف المصرية اليومية لاحتوائها على مواضيع دينية ، ووعد الوفد باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الطلبات ، ونفذ فعلا جزء منها وستقوم بمشيئة الله بتنفيذ باقى الطلبات .

كما رجونا رفع التماس بضم (أوقاف قولة المصرية) إليهم حتى تساهم فى إصلاح حالتهم الاجتماعية وتعوضهم عما قامت الحكومة بتأميمه من أوقافهم ، ونحن نعرض الأمر ونضم صوتنا إلى صوتهم .

ثانيا : يوغوسلافيا :

أما بالنسبة لمسلمى يوغوسلافيا فحالتهم مطمئنة فهم يمارسون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ويبنون المساجد والمنشآت التعليمية دون أى قيود ولقد حضرنا حفل افتتاح مسجد جديد فى جمهورية البوسنة والهرسك وتقوم وزارة الشئون الدينية برعاية جميع الأديان دون أى تفرقة وللمسلمين من الحقوق مالغيرهم وعليهم من الواجبات ماعلى الآخرين ، ولذلك وجدناهم فى حالة معنوية ونفسية عالية مما أسعدنا وأثلج صدورنا .

وانحصرت طلباتهم فى عدد من المنح الدراسية وتبادل الأساتذة فى المعاهد والكليات مع معاهد وكليات الأزهر .

ثالثا : تركيا

لمسنا فى كل ممن لاقيناه من هيئات دينية رسمية أو أهلية ومن جمهور الشعب ، كل حب ومودة تجاه الأزهر ومصر وشعبها ورئيسها كما وجدنا اهتماما كبيرا بالشئون الدينية على جميع المستويات وهم يتطلعون إلى زيادة الروابط بينهم وبين الأزهر الشريف وأبدى لنا الدكتور نجم الدين أربكان زعيم حزب السلام الإسلامى رغبته الشديدة فى الاجتماع بالمسئولين بالأزهر للاسترشاد بما يتبع فى المعاهد والجامعات لتطوير المناهج الدينية وسبل التعليم بتركيا . ونحن نذكر له أنه كان له فضل الاعتراف بشهادات كليات ومعاهد الأزهر حينما كان حزبه فى الحكم .

وهناك مطالب وجدنا الجميع مجمعين عليها وتتلخص فى :

- إعادة النظر فى الأشخاص الذين توجه

إليهم الدعوة لحضور المؤتمرات فى المناسبات الدينية المختلفة بحيث توجه إلى المسئولين المهتمين بالشئون الدينية فعلا دون النظر إلى أى اعتبارات أخرى– وسيقوم الوفد بتقديم كشف بالأسماء التى يقترحها لجميع الجهات المعنية.

–كما أبدى خريجو الأزهر رغبتهم الملحة فى ضرورة استمرار الرابطة التى تربطهم بالأزهر الشريف عن طريق إيفاد من يمثلهم لحضور المؤتمر السنوى الذى سبق أن تقدمنا باقتراح عقده صيف كل عام بمدينة البعوث وطالبنا برصد اعتماد له بميزانية المدينة لتغطية نفقاته، علاوة على مطالبتهم بمداومة إرسال وفود عن الأزهر لزيارتهم من وقت لآخر لما يترتب على ذلك من فوائد جليلة، وفقنا الله إلى مافيه خير الإسلام والمسلمين.

والله ولى التوفيق..

اللواء/أحمد عصمت محمود

من كلامه صلى الله عليه وسلم

من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين. نعم الرجل الفقيه فى الدين: إن احتيج إليه نفع، وإن استغنى عنه أغنى نفسه.

لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا.

لا هو لحساب الإسلام ولا لحساب المسيحية .

الدكتور / عبد الفتاح عبد الله بركة

ليس من شأن المسلمين ، ولاهو من غايتهم أن يثيروا مسائل خلافية تمس ولو من بعيد بعض الأديان الأخرى ، وذلك استرشادا بقوله تعالى (كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) الأنعام : آية ١٠٨ ، وكذلك لأنه يكفينا أن نتحدث عن محاسن ديننا الحنيف ومزاياه ، ونترك للآخرين أن يعتقدوا بأنفسهم وبمحض تفكيرهم مايرونه مناسبا من طرق الفهم والتمييز .

بالإضافة إلى أن لدينا من المسئوليات الخاصة – فى إرشاد المسلمين وتوجيههم الوجهة التى تتفق مع دينهم وترضى ربهم وتسعد حياتهم فى نطاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – مايستغرق الجهد المخلص ، ولابدع منه فضلا لمثل هذه الأغراض الأخرى .

وكنا نود أن يترك المسلمون لما تفرغوا له من شئونهم . ويكفينا أن نجابه تلك التيارات الإلحادية والمنحرفة عن الفطرة الإنسانية بما يعصم قومنا وبلادنا من شرورها وويلاتها ، ويبصرهم بوسائلها وأساليبها ، وأن يحظى هذا الموقف بتقدير أصحاب الأديان الأخرى من مسيحيين وغيرهم ، فيكفوننا أمرهم ، ويبادلوننا مسالمة بمسالمة واحتراما باحترام .

ولكن يبدو أن بعض رجالات المسيحية قد وجدوا لديهم من الفراغ والجهد ماصعب عليهم أن يشغلوه وأن يوجهوه إلى مثل هذه الغايات النبيلة ، فوجهوه إلى الإسلام والمسلمين .

جماعة الإخاء الدينى . . . .

ومحاضرة باسم القس جورج شحاته قنواتى :

فقد طلع علينا قسم الصحافة والنشر بجماعة تسمى نفسها « جماعة الإخاء الدينى » بنشرة عن محاضرة عنوانها « الإيمان المشترك بالله بين المسيحية والإسلام » بقلم الأب الجليل جورج شحاته قنواتى ألقيت بتاريخ

١١ من سبتمبر سنة ١٩٧٧ بقاعة الشبان المسلمين بالقاهرة .

ولست أدرى هل نسبة هذه المحاضرة إلى هذا القس صحيحة أم لا ، وهل هذه النشرة هى نص المحاضرة ، أم أنها اختصرت عنها ، وإذا كانت قد أختصرت ، فهل بقيت معانيها الأساسية بغير تحريف ، أم وقع فيها تحريف ! ؟

وقد نشأت عندى هذه التساؤلات لعلمى بمدى إكبار الرجل بين قومه ، ومعرفتهم بمدى علمه وسعة اطلاعه وحدة ذكائه ، فظننت أن ماوقع فى هذه النشرة من تلبيس لايصح أن يقع من أمثاله ، إلا إذا كان قد بدا له فى ذلك شأن .

وسواء صحت نسبة هذا الكلام إليه أم لم تصح ، فإنه قد طبع ووزع بين المسلمين ، ولم يعد هناك مناص من أن نتعرض لمناقشته تبصيرا لإخوتنا وأهل ديننا من المسلمين ، بصرف النظر عمن وجهوا هذا الكلام ، وإن كنا نرجو أن يجدوا فى مناقشتنا مايقنعهم بالحق ، إن كانوا يجهلون ، أومايقنعهم بالعدول عن هذه المحاولات العابثة ، إن كانوا يفعلون مايفعلون وهم يعلمون .

التلبيس ابتداء من عنوان المحاضرة :

أما عنوان المحاضرة فهو جميل خلاب ، يجتذب إليه الأفئدة والألباب ، وليس أحب إلى قلب المسلم من ترديد هذه الأنشودة الجميلة « الإيمان بالله » فاختيار هذا العنوان والاقتصار عليه . . يخدم هدف المحاضر من ناحيتين : من ناحية كونه مدخلا جذابا محبوبا إلى قلوب المسلمين ، ومن ناحية كونه يغفل المفهوم الصحيح الكامل للإيمان بالله فى الإسلام ، كما يغفل المفهوم الصحيح الكامل للايمان بالله فى المسيحية ، مما يهىء الأذهان لقبول كونه مبدأ مشتركا بين المسيحية والإسلام .

ومن المعلوم أن بتر اللفظ من سياقه ، أو اقتطاع المعنى دون بقيته يفسده ، ويجعله غير المراد أوالمقصود ، وهذا المفهوم الذى ينطبع من هذا اللفظ ليس هو المفهوم الصحيح الكامل لعقيدة الإسلام فى الله ، كما أنه ليس هو المفهوم الصحيح الكامل لعقيدة المسيحية فى الإله . مما يجعل العنوان - بادئ ذى بدء - فاسدا لامعنى له ، ولايمكن أن يبنى عليه مايريده المحاضر من التقارب ! ؟

ولكن التركيز على مفهوم هذا العنوان دون بيان المفهوم الصحيح الكامل له فى

الإسلام ، وتوجيه أنظار المسلمين إليه وحده يترتب عليه توهين العقيدة الإسلامية ، وإماعة مبادئها وتشتيتها فى نفوس المسلمين ، فهل هذا هو الهدف المقصود من وراء هذه النشرة ! ؟

الإيمان الإسلامي بالله ليس مماثلا للإيمان المسيحي :

إن إيهام المسلمين بأنه لافرق بين العقيدتين : الإسلامية والمسيحية ، أوأن الفرق بينهما ضئيل لايكاد يذكر ، ولايؤثر فى اتجاه كل من الجانبين ، لايضر المسلمين وحدهم ، بل يضر المسيحية أيضا ، إذ لو تحقق كل من المسلم والمسيحى أن أساس العقيدة بين الإسلام والمسيحية مشترك ، فما هو معنى أن يوجد دينان يفترقان ويختلفان ! ؟

أليس يكفى عندئذ لكل من المسلم والمسيحى أن يؤمن بالله ، بصرف النظر عن الإسلام كدين ، وبصرف النظر عن المسيحية كدين ، ونعود بذلك – مسلمين ومسيحيين – شعوبا لا دينية هى إلى الكفر أقرب منها إلى الإيمان ! ؟

فالقصد إلى إماعة العقائد ، والتهوين من حدودها ، ورفع معالمها الأساسية لايضر الإسلام وحده ، إن كان هذا هدفكم ، بل يضر – فيما يضر – المسيحية نفسها ، بل لعله إلى ضرر المسيحية أقرب ، لأن مقومات العقيدة الإسلامية أبسط ، وهى لذلك أرسخ وأيسر قبولا ؟

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ، وإلافلوكانت عقيدة الإسلام فى الله مشتركة مع المسيحية ، فلماذا جاء الإسلام بعد المسيحية ، وكيف أقبل الناس عليه دون المسيحية مع أن ماجاء به يتفق معها ؟ ؟

ثم دعونا نسألكم ، هل ذات الله التى يؤمن بها المسلم هى ذات الإله التى يدين بها المسيحى ؟ وإذا كانت العقيدة فيه مشتركة فهل تسمحون لأى مسيحى منكم أن يقبل الإيمان بالله كما هو محدد ومبين فى العقيدة الإسلامية ؟ أم أن إطلاق اسم الله من قبيل المشترك اللفظى فحسب ! ؟

لو كان هذا الإيمان مشتركا – كما هو لفظ العنوان ؟ فما هى أسباب الفرقة والتباعد ولماذا أنكرتم رسالة نبينا محمد ﷺ ؟ مع إنكم تقولون إنكم تؤمنون بما يؤمن به ، وأن هذا الإيمان مشترك ! ؟

الواقع أن هذا الإيمان غير مشترك ، وهذا هو الذى ميز الإسلام عن المسيحية ، ومن أجل ذلك جاء الإسلام لتصحيح مفهوم الإيمان عندكم ، وهذا هو الذى جعلكم لاتؤمنون بالرسول محمد ﷺ .

ولقد نادى رسول الله ﷺ أجدادكم

من قبل ، امتثالا لأمر الله ، قائلا : (يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) آل عمران : آية ٦٤ ، فهذا هو تمام الإيمان بالله فى الإسلام ، ومازال الدعاء إليه قائما ، ولكنكم توليتم عنه كما تولى أجدادكم من قبل ، ولهذا نمتاز عنكم باسم الإسلام ونشهد كل أهل للشهادة أننا مسلمون .

بل لقد دعاهم ﷺ إلى المباهلة استجابة لقوله تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) آل عمران آية ٦١ ، فنكصوا ونكلوا ، ولم يباهلوا . ترى لو كانت العقيدة فى الله والإيمان به مشتركا أكان هناك مجال للخلاف والمباهلة؟ وهل كانوا ينكصون عندئذ ويعرضون ؟ وفيم الخلاف الذى يصل إلى درجة الدعوة إلى المباهلة ، إن لم يكن فى أساس الدين وهو الإيمان بالله ، وقد حددته الآية فيما سبق كما ينبغى أن يكون التحديد .

الإيمان بالله مشترك بينكم وبين المشركين :

ولو كان مجرد الإيمان بالله – بغير التحديد المذكور – كافيا للحكم بالاشتراك فى أساس العقيدة ، لكان كذلك كافيا للحكم بالاشتراك فى أساس العقيدة بينكم وبين المشركين من عبدة الأوثان ، فإنهم مثلكم يؤمنون بالله (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لقمان : آية ٢٥ ، والزمر : آية ٣٨ .

ولكن إيمانهم ذلك لم ينفعهم ، ولم يجعلهم مقبولين لاعند الله ولاعند المسلمين ، ولقد كان هؤلاء المشركون – الذين يؤمنون بالله كما تؤمنون – حربا على الإسلام وعلى رسوله ، واستمروا يناصبونه العداء ويثيرون معه معارك لاتهدأ ولاتفتر ، حتى نصره الله ، ومازال الإسلام يعانى من حربهم وحرب أمثالهم – ممن يؤمنون بالله – إلى اليوم ، وسوف ينصره الله – إن شاء – كما نصر رسوله من قبل .

فهل كان يمكن لهذه الحرب أن تكون بهذه الضراوة التى يرويها التاريخ لو كان هناك أساس مشترك من العقائد يمكن أن يقام عليه بناء المحبة والتقارب ؟ ؟

وهل تراكم بعد ذلك تعتقدون أن

بينكم وبين أمثال هؤلاء المشركين اشتراكا في الإيمان بالله ! ؟ اللهم إننا لانظن ! ومع هذا فأنتم وماترون . أما نحن فنبرأ إلى الله تعالى أن يكون بيننا وبينهم اشتراك في هذه العقائد التي جاء الإسلام لإنقاذ البشرية منها وإخراج الناس من ظلماتها إلى نور الإيمان الصحيح بالله الواحد القهار .

الإيمان بوجود الله وعلم التوحيد :

ويبدو أن « شركاء الإيمان » هؤلاء قد توهموا أن المسألة في الإيمان بالله هي مجرد الاعتراف بوجوده . وأنه مادام كل من المسلم والمسيحي يعترف بذلك فقد أصبحا شريكي عقيدة . حتى ذهب صاحب النشرة « المحاضرة » في استيفاء وجوه الشبه في هذا المجال إلى حد إظهار التشابه في البراهين التي يقيمها علماء الدين المسيحيون والمسلمون . وأنها مبنية على الحركة والإمكان والغائية ونظام الكون . وإلى إظهار التشابه بين ما في القرآن من الحث على التأمل والاعتبار بآيات الله الكونية ، وما في كتبهم المقدسة من مثل هذا الحث ، ثم ضرب ضربة كبرى بناء على هذه القضية الجزئية ، فادعى وجود تشابه كبير بين علم التوحيد المسيحي « هكذا » وعلم التوحيد الإسلامي .

ونحن لانجرد المسيحية من الإيمان بوجود الله . فقد كان لديهم – كما نعتقد – أصل صحيح . ولامن بقايا توحيد الله . فتلك هي المشكلة المستعصية التي لم يستطيعوا التخلص منها عندما اعتنقوا التثليث ، وأصبحت تشكل لهم عقدة لايستطيعون حلها للجمع بين التوحيد الذي بقي لهم من أصل دينهم . وبين التثليث الذي فضلوه في النهاية . ومازالوا إلى اليوم بين متشبث بالجمع بينهما على رغم العقل والمنطق ، وبين رافض لهما معا رغم وجود الدواعي إلى مطلق الإيمان . وبين مضح بالتثليث من أجل التوحيد .

وعلم التوحيد الإسلامي لم يبن على قضية وجود الله ، حتى تؤخذ في اعتبار وجوه الشبه . ولكنها مذكورة فيه من باب استيفاء مسائل العلم . ولوحذفت منه هذه القضية ببراهينها ماتأثر بنيانه . ولكفاه التحقق من أن وجود الله مسلم به حتى عند المشركين . وأنه لاينكره إلاالمعاندون . وتبقى بعد ذلك أهم مسائله . والتي أقيم علم التوحيد الإسلامي من أجلها . وهي قضية الوحدانية – في ذات الله وصفاته وأفعاله – لذلك سمي هذا العلم – بالإضافة إلى أسمائه الأخرى – بعلم التوحيد . لما أنها من أهم مسائله . وأبرز قضاياه . ولما أن الإسلام

هو وحده دين الوحدانية المطلقة بغير منازع ، حتى اشتهر بهذا الاسم - وهو دين التوحيد - دون غيره من الأديان .

وأما علم العقائد المسيحية فما سمعنا من قبل بأنه يجمع بين أسمائه اسم علم التوحيد المسيحي ، وإن كنا نعلم أنه علم اللاهوت ، وأنه لايشبه علم التوحيد الإسلامي إلاق هذه القضية الجزئية التي أشرتم إليها من إثبات وجود الله ، أما من حيث الوحدانية ، فوحدانية الله في الإسلام بتت بحدتها وفريدة حقيقتها ، وليس كمثلها شيء من العقائد القائمة ، وبقية المسائل التي يعالجها علم التوحيد الإسلامي لايشبهها شيء من علم اللاهوت المسيحي ، والافهل يعالج صفات الله تعالى كما يعالجها علم التوحيد الإسلامي ، أم يعالجها من خلال مفهومه في الأقانيم ؟ ؟ وهل يعالج النبوات والرسالات كما يعالجها علم التوحيد الإسلامي ؟ ؟ أم يعالجها من خلال تغاضيه عن خاتمة الرسالات ، ومن خلال تميزه لشخصية عيسى عليه السلام عن بقية إخوته من الأنبياء ، وتلمسه للأنبياء عليهم السلام مالايصح نسبته إليهم ، حتى تظهر شخصية عيسى المسيح عليه السلام وحدها بهذا الامتياز مما يخول لهذا العلم حقا في إضفاء نعوت الألوهية وصفاتها عليه ؟ وهل يعالج أمور الغيبيات من بعث وحساب وغير ذلك كما يعالجها علم التوحيد الإسلامي أم يعالج عقيدة الخطيئة الموروثة والفداء وغير ذلك من هذه المفاهيم ؟ ؟

الحق أنه لايوجد وجه لعقد مشابهة بين علم اللاهوت المسيحي وعلم التوحيد الإسلامي ، ومحاولة عقد هذه المشابهة ، والاستماتة فيها إلى درجة انتحال الاسم الإسلامي لعلم العقائد وهو علم التوحيد ، ووضعه لعلم العقائد المسيحي ، محاولة أقل ما توصف به أنها محاولة لتضليل المسلمين ، وإيهامهم أن المسيحية لاتختلف عن الإسلام في عقيدتها ، بل ولا في كتبها وعلومها الأساسية .

فهل يعتقد صاحب المحاضرة المنشورة ذلك حقا ! ؟ أم أنه يتلاعب بالألفاظ ويستخدم العبارات العامة المطاطة تلبيسا على المسلمين في محاضرة علنية ، وفي قاعة جمعية إسلامية ! ؟

إن كان يعتقد ذلك حقا ، فلماذا لايبرهن لنا عمليا عن اقتناعه بعدم الفارق ويؤمن بما يؤمن به المسلمون صراحة وعلنا حتى نصدقه فيما يقول ، وإلا فنرجو ألايتوجه إلينا باللوم إذا نحن حملنا محاضرته على محمل الاستخفاف بالمسلمين ومحاولة تضليلهم ، وهو أمر نرفضه ونأباه ، ونرده

عليه بوضوح وإصرار.

التلبيس فى صفات الله :

ولقد ذكرت لنا النشرة «الخاضرة» عقيدة المجمع المسكونى الفاتيكانى الأول فى سنة ١٨٧٠ «هكذا» باعتبار أن جميع مافيها من صفات «الله» موجود فى القرآن. وتخاطب النشرة المسلمين بذلك لتوهمهم بأن صفات الله فى الإسلام تشبه تلك المذكورة فى عقيدة المجمع المسكونى الفاتيكانى.

والحقيقة تجافى ذلك وتأباه. فقد تبينا فيما سبق أن الموصوف عند المسلمين يختلف عنه عند المسيحيين، والاتفاق بعد ذلك فى الصفات لايقرب فى العقيدة شيئا. لأنها لم تحمل على موصوف واحد. كيف والصفات كذلك مختلفة !!؟ تقول تلك العقيدة المسكونية الكنسية : إن الكنيسة تؤمن وتعلم بأن الله واحد، وهو الحق الحى خالق السماء والأرض وربهما على السواء. إنه القدير السرمدى، لاحد له. ولايحيط به غيره علما، وليس أى أحد بعقله ومشيئته وكماله، وبما أنه جوهر روحى واحد فى طبيعته، لايتركب ولايتغير أبداً، يجب على الجميع أن يقولوا إنه يتباين عن مخلوقاته فى الواقع وبذاته، وإذ أنه يجد رضاه فى ذاته وبذاته لأنه متعال عن كل ماسواه مما هو موجود فى الدنيا أو ممكن الوجود. ا هـ.

فوصف الله فى هذه العقيدة بأنه جوهر روحى واحد فى طبيعته، لاأصل له فى القرآن الكريم. ولايوصف الله فى الإسلام بأنه جوهر، ولابأنه روح، ولابأنه روحى، ولابأنه طبيعة، ولابأنه ذو طبيعة. إنما يوصف بذلك مخلوق كالمسيح عليه السلام فى المسيحية، ولف هذه الصفات المخالفة للإسلام بصفات أخرى لها أصل فى القرآن الكريم – كوصفه بأنه هو الحميد المجيد، أو بأنه ذو الغفران والرحمة[1]، أو غير ذلك من الصفات – لا يجعلها مقبولة فى جملتها لدى المسلمين، بل يتعدى فساد الفاسد منها إلى صحة الصحيح، ولن يجعل هذا الكلام عقيدة المسلمين تتحول من توحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله لتنسب شيئاً من صفاته إلى شىء من خلقه، أو لتنسب شيئاً من صفات مخلوقاته إليه.

الإنسية القائمة على الله :

النقطة الثانية من النقاط الثلاث التى تحدثت عنها النشرة «الخاضرة» هى الإنسية

(١) الصفة الصحيحة فى القرآن الكريم (... وربك الغفور ذو الرحمة) الكهف ٥٨

القائمة على الله نتيجة الإيمان بالله .

ولاحديث لنا فى هذه النقطة ، بعد أن عرفنا أن الأساس الذى بنيت عليه وهو المفهوم المشترك لله والإيمان به غير ذى موضوع ، فكل مابنى عليه - بعد ذلك - غير مقبول ، ولايدخل فى ميدان الموضوعات المشتركة بحال ، وإنما نحب أن نعلق على عبارتين توضيحا للأمور وإزالة للالتباس فيها - :

- فإننى لم أفهم ماهو المراد بقوله : « الإنسية القائمة على الله » . هل المراد بذلك : المخلوقة لله ، والمعتمدة فى وجودها وبقائها ومصيرها عليه سبحانه !؟ أو المراد بها أن يكون لذات الله دخل فى تكوينها وحقيقتها . . إننا فى الإسلام نعتقد أن الإنسان كغيره من سائر المخلوقات مدين بوجوده وبقائه ومصيره لله وحده ، وأن الله سبحانه كرمه وأعطاه الكثير من عطاياه وهباته وفضله على كثير ممن خلق .

أما المفهوم الثانى فلعل له أصلا فى المسيحية ، ونحن نختلف معها فى ذلك كل الاختلاف ، ودعوى اشتراكنا معا فى هذه الناحية غير مقبولة .

- العبارة الثانية فى هذه النقطة من النشرة « الحاضرة » هى : لقد خول إلى الإنسان باستعمال مواهبه العقلية أن يعمل على تنظيم المجتمع بموجب الشرع الطبيعى ، هذا الشرع الطبيعى يقابل الطبيعة الإنسانية العالمية ، إذ هو مبنى على العقل . ومن ثم كما يقول اللاهوتيون المسيحيون إنه قبس من الشريعة الإلهية السرمدية ، ولذا يستطيع العقل ، أقول : العقل الخاضع للحكمة الإلهية أن ينظم صلات العدل بين مواطنين من أديان مختلفة . اهـ .

نعم . . نحن لا نمنع ما تدعيه من أن هذا الكلام هو كما يقول اللاهوتيون المسيحيون . ولكننا لانقر لك أن هذا الكلام معترف به فى الإسلام أو بين المسلمين ، فلا اعتراف عندنا بما يسمى عند علماء اللاهوت بالشرع الطبيعى ، لأن الله أغنانا عنه بالشرع الإلهى وهو أعظم مُزكٍ للفطرة ، ودعواكم أن هذا الشرع الطبيعى يقابل الطبيعة الإنسانية العالمية لأنه مبنى على العقل نفهمها نحن بأنها جديرة أن تمنع أسباب التقارب ، وأن توقع الفرقة والشحناء بين بنى البشر ، لأن العقل البشرى ليس واحدا بالذات فى جميع البشر ، ولا واحدا بالدرجة والقوة والاتجاه . . والشرع الطبيعى الذى يقابل عندكم الطبيعة البشرية المبنية على العقل جدير أن يتوزع تبعا لتوزع هذه العقول

طرائق قددا ، وقد عصم الله من اعتصم من المسلمين بشرعه الإلهى الموحّد ، الذى يسع جميع الطبائع البشرية فى إطاره ، ومأأجدر من يسعى إلى التقريب بين البشر ، أوبين الأديان ، أن يلوذ بكنف هذا الشرع الشريف ويحتمى بحماه .

أما دعوتكم للمسلمين بأن يشتركوا معكم فى استعمال مواهبهم العقلية لوضع مثل هذا الشرع الطبيعى فهى دعوة لهم للخروج من جنة التوحيد الإلهية إلى نار الرغبات الشهوية البشرية ، وهيهات أن يقتنع بدعوتكم مسلم يعرف شريعته كما يعرف ماق تلافيف أحاديثكم من تلبيس وتضليل يقصد به هدم الشريعة الإسلامية لاغير .

أغنية التقارب بين الأديان :

من هذه المناقشة يظهر أن النتيجة قد تؤدى إلى تمييع العقائد الإسلامية بذكر مايتوهم أنه مشترك بينها وبين المسيحية ، وعدم الاهتمام بماعداه ، وقد تؤدى كذلك إلى تمييع العقائد المسيحية بذكر مايتوهم أنه مشترك بينها وبين الإسلام ، وعدم الاهتمام بما عداه ، رغبة فى التقريب بين الفريقين ، ولكن ذلك مسخ للعقيدتين ، وإبطال للدينين ، ولايفيد أيا من الطرفين !؟

ولمَ كل هذا العناء فى إقناع المسلمين بذلك مع أن العقيدة الإسلامية لاتلزم من يخالفها ، ولاتكره أحدا على اتباعها ، وهى تأمر أهلها باحترام غيرهم من أهل الأديان السماوية ، وإقرارهم على دينهم وعباداتهم وكنائسهم وبيعهم ماسالمونا وتركونا وشأننا .

لِمَ كل هذا العناء فى إقناع المسلمين بذلك ، مع أن ماعندهم من هذه القواعد ركن ركين من أركان التقريب لمن يريد أن يخلص فى الدعوة إليه ، أما التقارب عن طريق تحريف العقائد فأمر لايصح لأنه يفسد الأديان ، ويضيع معناها ، وينبغى إذن أن يكون التقارب –كما يتضح من قواعد الإسلام– فى النواحى العملية التى تتم من خلال العلاقات بين الجانبين ، فبذل الجهد فيها أولى وأكثر فائدة .

ومع ذلك ، فكم هى الدعوات التى نسمعها من أقطاب المسيحية شرقاً وغربا تنادى بالتقارب بين المسيحية والإسلام ، ثم لانجد منها أى اهتمام بهذه النواحى العملية التى تترتب معها العلاقات وتنتظم ، ولكنها تتوجه إلى العقيدة وقواعد الشريعة ، فماذا يريدون ؟ ؟ هل يريدون إفساد الأديان ؟ أم يريدون زعزعة الإسلام ؟

لقد أصبحنا من كثرة تكرار هذه

الدعوة ، واتخاذها ستارا لتشويه العقيدة الإسلامية وتعطيل الشريعة الإلهية ، نشك فى كل صوت يرتفع بذلك .

ولقد ذكرنا من جانبنا النواحى العملية التى يفرضها علينا ديننا تجاه أهل الأديان السماوية ولذلك اشتهر الإسلام بأنه دين التسامح ، نظريا فى عقيدته وشريعته فى وقوانينه ، وعمليا فى تاريخه وواقعه وحياة المسلمين العامة والخاصة ، ولقد ذكر بابا الكنيسة المصرية الأنبا شنوده من تسامح المسلمين مع رفاقهم المسيحيين فى مصر مايكفى برهانا .

فماذا وجدنا نحن من جانب المسيحية العالمية ومن جانب أصحاب الدعوات إلى التقارب بين المسيحية والإسلام ! ! ؟

إننا نحسن الظن - كما هى سجيتنا - ولكن عندما تتكرر عوامل الخداع والإحباط ، فإننا لانكاد نأمن لمثل هذه الأصوات .

أغنية قديمة مكرورة :

ومثل هذه الأصوات المضللة ، والدعوات المزيفة ، ليست جديدة ، ولاهى بدعة هذه الأيام ، ولكنها بدعة قديمة قدم هذه العداوة ، وإن كانت تتخذ أشكالا مختلفة ، فقد حدث مثل ذلك فى عهد الرسول ﷺ ، وحكى القرآن الكريم قصتها فقال : (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) آل عمران : آية ٧٢ .

وقد عقد المؤتمر العالمى للأديان فى لوندرة بتاريخ ٣ يوليه سنة ١٩٣٦ م للمناداة بمثل هذه الشعارات ، واشترك فيه فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمدمصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر حينئذ يبحث عن « الزمالة الإنسانية » .

وظلت يد المسلمين ممدودة تعرض هذه الزمالة ومازال .

وظلت أمثال هذه المؤتمرات والندوات والمحاضرات تعقد وتقام وتلقى ، والموضوع هو الموضوع ، والمحاولة هى المحاولة ! ؟

فماذا يريدون منا أكثر من الزمالة الإنسانية - على حد تعبير الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ! ؟ هل يريدون أن نسلمهم عقيدتنا ونعطل شريعتنا ونلغى ديننا ؟ ؟ ما أصدق قول الله تبارك وتعالى (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) البقرة : آية ١٢٠ .

وضع هذه الدعوة .. معكوس !

ومن الغريب أن يتولى الدعوة لهذه المؤتمرات والندوات ، ولفكرة التقارب هذه رجال من العالم المسيحي دون العالم الإسلامي ، وهو أمر يخالف الوضع الطبيعي والمنطق.

إذ من المفروض أن ينادى بهذه الدعوة وأن يطالب بتطبيقها المضطهدون والمظلومون ، والمحرومون من النفوذ والجاه والسلطان ، المتعرضون لبطش الجبارين وقهر المستبدين ، استثارة للإنسانية فى نفوس الطغاة الظالمين ، وتحريكا لمشاعر الرحمة فى قلوب المتحكمين والجبارين .

لهذا كان من الطبيعى والمنطق أن يكون أصحاب هذه الدعوة من العالم الإسلامى لا من العالم المسيحى .. ذلك لأن نظرة سريعة إلى العالمين - الإسلامى والمسيحى - تبين أن العالم الإسلامى قد عانى خلال هذين القرنين ذروة العسف والتنكيل ، والظلم والاضطهاد والقهر والاستعباد ، وأبشع أنواع الاستغلال ، بكل صوره وأبعاده على يد العالم المسيحى وأن العالم المسيحى - وهو يمارس هوايته فى إذلال العالم الإسلامى وتجريده من كل مقوماته - يمتلك القوة العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية والفنية ، ويصب بها جام سخطه وكراهيته وكبريائه واستعلائه على العالم الإسلامى .

ترى أين تجد الجوع والعرى ، وأين تجد الأمراض والأوبئة ، وأين تجد البطالة والتشرد ، وأين تجد اللاجئين والمنبوذين !؟ فى العالم الإسلامى ! أم فى العالم المسيحى !؟؟

ترى أين تجد الشبع والتخمة ، وأين تجد الإسراف والرفاهية ، وأين تجد الراحة والمتعة ، وأين تجد الغنى والرخاء !؟ فى العالم الإسلامى ! أم فى العالم المسيحى !؟

فأى الفريقين أولى أن يجأر بهذه الدعوة؟ دعوة التقارب بين أصحاب الدينين !؟

إنها قضية واضحة بديهية ، ومع ذلك فلم تصدر هذه الدعوة من العالم الإسلامى ، لأنها داخلة فى شريعته لا يحتاج معها إلى إعلان .

ولكن الغريب كل الغرابة .. أن يظل الغرب المسيحى يردد هذه الأغنية العذبة الجميلة .. بينما تغوص يداه القويتان الفولاذيتان فى الجراح الغائرة فى أعناق المسلمين .

فعلى أى معنى يمكن لنا أن نفسر هذه الدعوة !؟؟ إن لم يكن تخدير الفريسة للإجهاز عليها كلية !؟

الوجوه التى يمكن فيها التقارب :

التقارب - إذن لايصح أن يكون على حساب العقائد ، ولاعلى حساب الشريعة الإسلامية ، لأنها - وفى المقام الأول - هى الأساس الذى يضمن للمسيحيين روح التسامح لدى المسلمين ، ولأنه لايوجد لدى المسيحيين مثل هذا التشريع الشامل لكل نواحى الحياة .

يبقى بعد ذلك النواحى العملية فى العلاقات الإنسانية ، وهى التى يمكن فيها التقارب ، وهى التى نظمتها الشريعة الإسلامية أدق تنظيم وأوفاه ، بحيث لم تعد فى حاجة لمن يوجه إلينا دعوة بعدها .

ومع ذلك فقد ذكر لنا صاحب النشرة « المحاضرة » فى نقطته الثالثة الخطوط العريضة للتقارب الإسلامى المسيحى فى سبيل عالم أفضل ، فذكر بعض المسائل العملية وخلطها بقصد أوبدون قصد بأعمال المبشرين والمستشرقين وجهودهم . فاستوفى بذلك نواحى التخريب للإسلام ، من ناحية العقيدة فى النقطة الأولى ، ومن ناحية الشريعة فى النقطة الثانية ، وأخيرا من ناحية العلاقات الإنسانية فى النقطة الثالثة .

ونحن لانريد أن نرد عليه هذه النقطة الثالثة ردا غير جميل ، بل نريد أن نجاريه فيها ماوسعنا الجهد ، وماوسعنا حسن الظن ، فنذكر له أننا من جانبنا أقرب مما يدعون ، ومما يطلبون ، ومن الناحية العملية والعلاقات الإنسانية ، والتاريخ والواقع شهيدان ! ؟

بقى أن نرى استجابتهم لما يدعون هم إليه فى هذا المجال .

نريد أن نرى هؤلاء الدعاة ، وهم يعملون جهدهم لإيقاف المذابح التى يقوم بها أبناء دينهم لأبناء المسلمين فى كل بقاع العالم الإسلامى ، من الفلبين شرقا إلى بلاد إفريقيا غربا ، وأن يمنعوا السلاح عن هؤلاء الذين يستعملونه فى إبادة الأقليات الإسلامية فقط .

نريد أن نراهم وهم يعملون جهدهم لإقناع الساسة من بنى دينهم برد حقوق المسلمين فى بلادهم وأرضهم ، وفى حكم أنفسهم بأنفسهم ، إليهم .

نريد أن نراهم وهم يعملون جهدهم لإقناع بنى دينهم بعدم التدخل فى شئون البلاد الإسلامية التى تريد أن تحكم بما أنزل الله ، وتتخلص من أوزار الشيوعية الإلحادية الماحقة ، والرأسمالية الربوية الساحقة ، وأن تمتنع عن تحريش الدول الإسلامية بعضها ببعض .

تريد أن تراهم وهم يبذلون جهدهم لمنع تسليط الأقليات المسيحية على المسلمين فى البلاد ذات الأكثرية المسلمة .

تريد أن تراهم يبذلون جهدهم لإقناع المبشرين المسيحيين فى البلاد الإسلامية بالكف عن تجريح المسلمين والطعن فى قرآنهم ورسولهم ومهاجمة دينهم واحتقار شعائرهم ومساجدهم .

تريد أن تراهم يبذلون جهدهم لإقناع أصحاب النفوذ والسلطان والمال من بنى دينهم بعدم إيذاء المسلمين ببناء كنائس فى بلاد إسلامية لايوجد فيها مسيحيون . وبدق النواقيس تحديا واستفزازا للمسلمين . والتطاول عليهم فى البنيان .

تريد أن تراهم يعملون ماوسعهم لإقناع المبشرين من أهل دينهم فى البلاد الإسلامية بعدم استعمال أساليب الإغراء الوضيعة ماديا وخلقيا لإفساد أبناء المسلمين واستدراجهم لترك دينهم – تحت ضغط الفقر والحاجة – دون مراعاة لوجه الحق والشرف والمروءة .

تريد أن نبنى السلام . نريد أن نبنى المحبة . تريد أن نوزع الرخاء . تريد أن تعمر الأرض البور بما يكفل الغذاء والكساء لكل بنى البشر ، مسيحيين وغير مسيحيين ، وأن تعمر الأرض باستخراج خيراتها وكنوزها التى سخرها الله للإنسان ليستفيد منها جميع بنى البشر ، مسيحيين وغير مسيحيين ، تريد أن تشبع الجائعين وتكسو العرايا ، وتعالج المرضى ، وتسعد الطفولة ، وترعى الشيخوخة ، وتتيح العلم والمعرفة للجاهلين .

ترى لو فعلوا ذلك ، ألايتحقق مايزعمون أنهم يدعون إليه من وجود علاقات أفضل فى عالم أفضل ! ؟

أم المقصود هو تقليم مخالب المسلمين أولا بأول ، وتخدير أعصابهم إلى الحد الذى يمكنهم فيه أن يتلاعبوا بعقولهم وعقائدهم ، تحت تأثير تلك الأغنية المكرورة .

تريد أن تراهم مرة واحدة ينتصفون لحق بلد إسلامى أهدر . وأن تراهم مرة واحدة يردون على المستعمر المسيحى استعماره واستغلاله وسوء معاملته .. باسم المسيح .. باسم السيد المسيح عليه السلام . .

وماتوفيق إلا بالله

د . عبدالفتاح عبد الله بركة

مشكلة الهلال ...
أليس لها من حل .. ؟

الشيخ/ على حسن البولاقى

نشرت مجلة العربى بعددها الصادر فى شعبان سنة ١٣٩٨ هـ مقالا للأستاذ عبد المحسن صالح تحت عنوان «سؤال كل عام– نعتمد الرؤية– أم الحساب الفلكي؟ لماذا الخلاف فى صيامنا وأعيادنا؟ والعلم قادر على قياس الزمن لجزء من بليون جزء من الثانية؟».

وإلى القارئ الكريم بعض المقال ببعض تصرف:

«غريبة أحياناً أمور بعض من يوكل إليهم تحديد الشهور!! ووجه الغرابة أنهم يعتقدون فى صحة الأسس العلمية تارة، فيركنون إليها فى صلاتهم وإمساكهم وإفطارهم، أو أى شأن من شئون دنياهم، ثم إذا بهم يعودون فيفكرون بها تارة أخرى.. فكلما انقضى شعبان وحل رمضان، أو جاء عيد من الأعياد، تراهم يرسلون رسلا منهم، ليستطلعوا الهلال، فيعلنوا ما رأوا فى البلاد، وكثيرا ما يضعون الناس فى حيص بيص، خاصة عندما تتضارب أقوالهم، فلا يكاد المسلمون– لفترة– يعرفون رءوسهم من أرجلهم لا فى صيامهم ولا أعيادهم والكون– بلاشك– بمثابة ساعة كونية دقيقة غاية الدقة، لأنها من صنع الله الذى قدر فسوى، وعلى هذه الساعة المضبوطة نعتمد، ونحن مطمئنو الفؤاد، صحيح أننا لا نستطيع أن نرى هذه الساعة الكونية كما نرى ساعاتنا التى نضعها حول معاصمنا، لكنّ العالمين ببواطن الأمور، والذين ينظرون إلى الكون نظرة أعمق وأشمل، يدركون أن حركة الأرض والقمر والشمس والكواكب والنجوم والمجرات والمدنيات تضع أمام أعيننا، وفى عقولنا، نظما لا يأتيها الباطل فالعلماء الذين يتعاملون مع نواميس الوجود، هم وحدهم الذين يعلمون أنهم أمام أفلاك متقنة، وأزمنة محددة ودورات مقننة، وهم بتطلعهم الطويل إلى الأجرام السماوية، واستعانتهم بأجهزة ومعدات ومناظير فلكية متطورة قد استطاعوا صياغة

كل هذا الإبداع فى معادلات وقوانين توضح لنا بجلاء ما يغم على عيوننا القاصرة ، وعقولنا المحدودة . فإذا بالكون العظيم يتجلى لنا بصورة أروع وأبدع من كل مارآه الأقدمون ، ثم إن التقويم الزمنى الذى يعتمدون عليه فى النتائج لا ينبع من فراغ بل جاء أساسا من حركة الكون المضبوطة وليعودوا إلى القرآن الكريم ليستلهموا منه فصل الخطاب (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصّل الآيات لقوم يعلمون) ، (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ، ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شىء فصلناه تفصيلا) ، (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم) ، (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون) ، (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) ، (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) .

كل هذه الآيات وغيرها تشير بوضوح أو من طرف خفى إلى أن الزمن الفلكى أو الكونى ، إنما هو انعكاس حقيق لحركة الكون وما حوى . وطبيعى أن الإنسان ولو كان متفقها فى الدين لا يستطيع أن يرى الإتقان فى التقدير ، والدقة فى التسخير والإبداع فى التسيير والانضباط فى الأفلاك ، إلا إذا درس القوانين والمعادلات التى تحكم هذه الأكوان المحيطة ، فإذا بها تريه مالا يستطيع الاجتهاد فيه ، أو الاعتراض على ما تطويه ، إن رجل العلم الحقيق يضع نصب عينيه دائما حقيقة لامفر منها ، فهو يطوع عقله لفهم قوانين الكون ولا يخضع الكون لبصره أو إدراكه المحدود ، ولو فعل لأخطأ وغوى ولما أدرك من الأسرار العميقة شيئا مذكورا ، إذاً فالحركة والتسخير والمنازل والأفلاك التى تسبح فيها هذه الأجرام ، إنما هى دليلنا إلى علم السنين والحساب والأرقام أو هى – كما يراها رجل العلم التجريبى – حركة تؤدى إلى زمن إلى أرقام تنبع من معادلات ، أو العكس ، فلولا دوران الأرض حول نفسها لما عرفنا شيئا اسمه زمن ولا كان هناك ليل أو نهار ولا شروق ولا غروب ولا صيام ولا أعياد ولا فصول وعندئذ لن يكون لوجودنا معنى ، ولقد اقتبسنا من حركة الأرض حركة أودعناها فى تروس وعقارب لتتحرك حركة إيقاعية

تفصلها وحدات زمنية نعرفها فى حياتنا بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والشهر وعندئذ تشعرنا بمرور الزمن إذا نحن علينا سريانه وكما يعتمد بعض تروس الساعة على بعض ، كذلك تكون الأجرام السماوية فكيانها ووجودها وزمنها تعتمد على حركات ودورات وجذب وغير ذلك من قوى تحمل كل ما فى الأرض والسماء موزونا وقائما بغير عمد ترونها وعلى أساس هذا التعادل جرت معادلات العلماء وحساباتهم لتوضح لنا أن كل شيء فى الكون يسرى بحساب (يفصل الآيات لقوم يعلمون) والذين يعلمون يدركون تماما لماذا استمرت السموات والأرض بلايين من السنين ليس هذا فحسب فهم يستطيعون من خلال معادلاتهم أن يقدروا ما يمكن أن يكون عليه الكون العظيم لبلايين أخرى من السنوات القادمة ، ومن أجل هذا صمد الكون ويصمد وسيصمد بفضل الدقة المتناهية فى حركته وزمنه . فالفوضى التى نعيش فيها أحيانا ، إنما تنبع من عقولنا وتنبثق من أنماط تفكيرنا . فالقمر تابع للأرض يدور حولها وله حول نفسه دورة لها زمنها ، والأرض لها حول نفسها دورة لها زمنها ، ولها حول الشمس دورة لها زمنها أيضا ، وللشمس والأرض وكواكبها الأخرى وما يتبعها من أقمار دورة فى المجرة لها زمنها وللمجرة أيضا زمن ودورة .. إلخ (كل يجرى لأجل مسمى) ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وطبيعى أن كل هذه العلوم العصرية لاتجد تقبلا من بعض القائمين بتحديد الشهور لأنهم يهجرونها كلما أقبل رمضان أو جاء عيد من الأعياد ولابد أن يختلفوا لأن مواقعهم على الأرض تمنع من توحيد الرأى والزمن ، وطبيعى أننا نعرف أن لكل دولة زمنها ولقد علم الاختلاف بين زمن قطر وقطر من التقدم العلمى الذى انعكس على آلات وأدوات تقيس الزمن لجزء من بليون جزء من الثانية ذلك أن هذه الساعة الكونية تتأثر بقوى ومقاومات كامنة فى طبيعة تلك النظم فتتدخل فى حركاتها فتجعلها تبطئ أو تسرع كل ذلك يتوقف على الظروف السائدة ونحن لا نحس بزيادة السرعة أو إبطائها لأن ذلك يتم بمعدلات بطيئة للغاية لاتصبح محسوسة إلا بمرور ملايين السنين لكن العلماء حسبوها وقدروها ، فمن العوامل التى تتسلط على أرضنا الآن وتبطئ سرعة دورانها حول نفسها كالجاذبية يتبين أن هذا الإبطاء ينعكس على إبطاء فى زمننا الأرضى بحيث يؤدى إلى جعل يومنا هذا أقصر من غدنا

بحوالى ٢٥ جزءا من بليون جزء من الثانية ويترتب على ذلك أنه بعد خمسة آلاف مليون عام من الآن ستبطئ الأرض فى حركتها إلى الدرجة التى يصبح فيها اليوم ٣٦ ساعة من ساعاتنا الحالية ويقدر العلماء أيضا أن هذا الإبطاء سوف يؤدى إلى ضعف فى قبضة الأرض على القمر فيبدأ فى الهروب بعيدا فى الفضاء، فهو يبتعد عن الأرض بمقدار قدم واحدة فى كل ثلاثين عاما أى أنه يبتعد عن الأرض بحوالى خمسين ألف كيلو متر بعد خمسة آلاف مليون عام ولهذا سيبدو أبعد وأضعف نورا ، وعندئذ تتمدد الشمس وتعطى الأرض دفعة فتزيد سرعتها فتشتد جاذبيتها لقمرها فيعود إلى حظيرته بل يزداد قربا من وضعه الحالى . وبهذا يتبين أن الذين يحسبون بجزء من بليون جزء من الثانية ويقدرون المسافات بالمتر والسنتيمتر لن يعييهم أن يحسبوا بدقة تامة منازل القمر وطبيعى أنه كلما تقدم بنا الزمن كانت الحسابات أدق؟ وقد يقول قائل : ومايدرينا أن هذه الحسابات صحيحة؟ الواقع أن الحديث فى ذلك يطول ويكفينا أن نذكر أنه ما كان ليتيسر للإنسان أن يستكشف الفضاء بصواريخه وأقماره ويدفعها فتدور حول الكواكب إلا بمعرفة دقيقة لمواقعها وسرعة دورانها وقوى جاذبيتها ، فإن الخطأ - وإن قل - كفيل بتحطيم آمال العلماء فى غزو الفضاء ثم إنه من ميكانيكا هذه الأجرام المتقنة يمكن حساب عدد مرات الكسوف والخسوف مقدما وموعد كل منها ، فى موقع محدد بجنوب الأطلنطى مثلا سوف يسجل العلماء أطول كسوف لم يحدث لمئات السنوات إذ ستنكسف الشمس لمدة سبع دقائق وثمان وعشرين ثانية فى يوم ٢٦ يونيو عام ٢١٨٦ أى بعد مرور ٢٠٨ عاما من الآن وحتى المذنبات التى تقترب من الأرض فى أزمنة متفاوتة لها حساباتها فمثلا مذنب هالى سيظهر فى تمام الساعة التاسعة والنصف من مساء ٩ فبراير ١٩٨٦ ودورة هذا المذنب حول الشمس تقع فى حدود ٨١ و ٧٥ عاما وإلى هنا ورغم تقدم العلوم الفلكية نرى الذين لايعلمون عن أمور هذا التقويم شيئا لايستفتون الذين يقدرون ويحسبون مع أن الله عز وجل قال : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وفى الحديث : اطلبوا العلم ولو بالصين[1] . والعلم الآن بين أيدينا ونركن إليه فى تقاويمنا ، فنصلى

(١) هذا الحديث رواه العقيلى وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

الفروض بهديها أو نصوم ونفطر ونحن مطمئنون لحساباتها دون أن نلجأ إلى الخروج للخلاء لنستطلع الخيط الأبيض من الأسود، أو نسجل غروب الشمس وشروقها .. فإن لم يسرع القائمون بأثبات الشهور بالأخذ بأسباب العصر وعلومه، فإن الزمن لا يرحم، وسوف تنطلق قافلة العلم بسرعة الصاروخ ! ؟

* * *

أقول : إن الإسلام هو الدين الحنيف الصالح لكل زمان ومكان، والعوام في كل زمان ومكان أضعاف أضعاف العلماء، فكان من الحكمة أن يربط الإسلام جميع عباداته وغيرها بظواهر كونية يعرفها العوام والخواص جميعا فالصلوات الخمس مرتبطة بالفجر والزوال وصيرورة ظل الشيء مثله وغروب الشمس ومغيب الشفق، والصوم مرتبط برؤية الهلال ليلة الثلاثين من الشهر المنتهي فإن لم تتحقق أكملت عدته ثلاثين، وربطت زكاة المال والأنعام والتجارة بالحول وهو الناعشر شهرا قمريا، وزكاة الزروع بالحصاد وهو معروف للزراع والفقراء جميعا، وربط الحج باليوم التاسع من ذي الحجة للوقوف بعرفات، والعاشر لرمي جمرة العقبة وذبح الأضاحي والأيام الثلاثة التي بعده لرمي الجمار والمبيت بمنى وكذلك ربطت عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها، والرضاع والإيلاء والحضانة والبلوغ وغيرها بظواهر معروفة .

وهذا تيسير من الشارع على الأمة وهو لاينافي تعلم الحساب الذي يعرف به وضع القمر في ليلة الثلاثين، فالرؤية هي الأصل، والحساب مهما كان دقيقا فهو مبني عليها، ولولاها لما استطاع الحاسبون تكوين قواعدهم التفصيلية الدقيقة، فإذا أغنى الحساب عن الرؤية من حيث العلم فلا يغني عنها من حيث الذكرى والتفكر والتدبر في خلق الله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وفي استطلاع الهلال وانتظار ثبوت الشهر أو نفيه اعتناء واهتمام واحتفاء بالأمور الدينية فهو شعار للصوم والفطر والحج، كالأذان للصلاة مع علم الناس بمواقيتها بالساعات وغيرها . وارتياح الناس بالاطمئنان والمعرفة التامة بعد الانتظار القليل فيه من اللذة والبهجة ما ينسى ألم الحيرة بل إن الحيرة نفسها وسؤال الناس بعضهم بعضا فيها من الاعتناء والاهتمام ما فيها فلا داعي للتهويل ورمي الأمة والأئمة بالرجعية والجمود والتأخر والتخلف عن ركب الحضارة إذا تراءوا الهلال ليلة الثلاثين من كل شهر مع تقدم

علم الحساب الفلكي . فليس فى ذلك غمط للعلم ولا إنكار له ولا كفر به ولا كفران بنعمته فهى من الله (ومابكم من نعمة فمن الله) والمحققون من أئمة الهدى لم ينكروا العمل بالحساب الصحيح الذى لاشبهة فيه . وقد اعتنى مجمع البحوث الإسلامية منذ سنوات بمسألة تحديد أوائل الشهور القمرية فكلف أحد أعضائه - وهو الأستاذ الكبير الشيخ محمد على السايس .. رحمه الله - كتابة بحث فى تحديد أوائل الشهور القمرية فكتب بحثا نفيسا فى ذلك اشتمل على بيان أقوال علماء المذاهب الأربعة وبعض الشيعة الإمامية والزيدية فيما يثبت به هلال رمضان وشوال وغيرهما فى حالتى الصحو والغيم ، مع بيان وجهة كل منهم ومناقشة الأدلة وترجيح المختار منها ، وبيان آراء علماء الإسلام فى مطالع القمر وهل يؤثر اختلافها فى إثبات الشهور أو لا عبرة باختلافها فيمكن توحيد البلاد الإسلامية واجتماعها على مبدأ واحد ؟ وبيان أنواع الحساب الفلكي وما جرى عليه العمل قديما وحديثا فى التقاويم الرسمية وغيرها حتى يتميز ما يصح عليه التعويل وما لايصح . وبيان آراء العلماء فى الأخذ بقول أهل الحساب والفلكيين فى تحديد الشهور القمرية .

- ثم ذكر خاتمة فى بيان ما يجب على الدول الإسلامية القيام به فى شأن إثبات الشهور القمرية لتصل إلى هذه الغاية المنشودة من أقرب سبيل فقال : «تبين من كل ما تقدم فى هذا البحث أن الراجح ما يأتى :

أولا : أن إثبات الشهور فى حد ذاته من غير نظر إلى ما يتعلق به من حقوق العباد - من باب الإخبار لا من باب الشهادة ، وأنه لا يدخل تحت الحكم والقضاء ، فلا تلزم فيه شروط الشهادة ويستوى فى المخبر أن يكون ذكرا أو أنثى حرا أو عبدا ، ولا يشترط مجلس الحكم ولا تقدم الدعوى ولاقضاء قاض ولا أمر حاكم ولا لفظ أشهد ويكفى أن يكون المخبر مستورا غير ظاهر الفسق .

ثانيا : أن الشهور جميعا سواء فى حالتى الصحو أو الغيم يكفى فى إثباتها خبر الواحد متى غلب على الظن صدقه ولم يكذبه الحساب الموثوق به القاضى باستحالة الرؤية وأنه لا تشترط الاستفاضة ولا العدد إلا عند مظنة الغلط أو الخطأ أو رجحان تهمة الكذب .

ثالثا : أنه لا عبرة باختلاف المطالع فإذا ثبت الشهر فى حكومة إسلامية ونقل هذا الثبوت إلى سائر البلاد الإسلامية بطريق موثوق به فإنه يعم حكمه الجميع

ماداموا مشتركين مع بلد الرؤية فى جزء ولو يسيرا من ليلة الرؤية .

رابعا : أنه لايصح التعويل فى إثبات الشهور على قواعد الفلكيين القدماء، فيا قبل النهضة الإسلامية فى العصر العباسى لأنها قواعد تقريبية ظنية غير متيقنة ولا منضبطة كما لا يصح التعويل على الجداول الفلكية التى تجعل بعض الشهور ثلاثين يوما أبدا وبعضها ٢٩ يوما أبدا فقد تبين خطؤها وأنه قد تتوالى أربعة أشهر حقيقية كل منها ثلاثون وثلاثة أشهر كل منها تسعة وعشرون .

كما ثبت أن الحساب الفلكى المعمول به الآن فى التقاويم الرسمية وغيرها لا يتفق مع الحساب الشرعى الذى يعتمد على القطع بالرؤية أو إمكانها على الأقل لأن التقاويم الحالية تعتمد فى تعيين أوائل الشهور على اجتماع الشمس والقمر فيجعلون أول ليلة يغرب فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر ولو استحالت الرؤية ومن المقرر أنه قد يتفق الحسابان وذلك فيما إذا غرب القمر بعد الاجتماع وقد يتقدم أول الشهر بالحساب الفلكى الاجتماعى على أوله بالحساب الفلكى الشرعى المبنى على إمكان رؤية الهلال بيوم فى الأكثر أو بيومين فى الأقل ويلزم على الأخذ بهذه التقاويم تغيير أوقات العبادات عما حدده لها الشارع وبالتالى يلزم إحلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله فقد حرم الله صوم أيام العيدين وأيام التشريق وأحل الفطر فى شعبان كما يلزم عليه أن يكون الوقوف بعرفة فى غير التاسع وأن تذبح الأضاحى قبل وقتها .

خامسا : أن الحساب الفلكى الشرعى المبنى على الوضع الهلالى وإمكان رؤيته بعد غروب يوم ٢٩ من الشهر السابق بحساب الرؤية يصلح مناطا مستقلا لإثبات الشهر . كما اختاره طائفة من العلماء الأثبات كالسبكى ، وابن سريج ، وابن مقاتل وغيرهم ، ورجحه الشيخ محمد بخيت المطيعى فى كتابه «إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة» وأن ذلك لايتنافى مع أحاديث إثبات الشهور بالرؤية أو الإكمال بناء على أن المراد العلم بالرؤية لاحقيقتها ، بدليل وجوب الصوم على الأعمى والمحبوس وسكان القطبين ، وهم محرومون من الرؤية حتما ويدل على ذلك أيضا ما جاء فى بعض روايات الحديث من قوله ﷺ «فإن غم عليكم فاقدروا له» .

فقد فسر من يرى من العلماء الأخذ بالحساب القطعى قوله ﷺ «فاقدروا له» بمعنى فانظروه وتدبروا فيه من قولهم قدرت الأمر نظرت فيه ، وتدبرته ، وذلك بالحساب عند من خصهم الله بهذا العلم .

قال تقى الدين السبكى قاضى قضاة دمشق فى كتابه العلم المنشور فى إثبات الشهور : إن البحث فى الحديث فى موضعين أحدهما قوله فاقدروا له قال بعض من يقول باعتماد الحساب معناه : احسبوا له ويكون معناه قدروه بالحساب والمنازل كما قال تعالى (وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) قال مطرّف بن عبد الله من التابعين وابن قتيبة من المحدّثين وابن سريج من الشافعية وابن مقاتل من أصحاب محمد ابن الحسن وطائفة من المتأخرين . قالوا : ولا يلزمنا ما قال بعضهم من أن الناس لو كلفوا بالحساب ضاق عليهم لأنه لا يعرفه إلا أفراد قلائل ، لأنه إنما يلزم ذلك لو كلف عامة الناس بالحساب ، ولم يقل بذلك أحد . بل الذى قلناه : أن قوله ﷺ «فاقدروا له» بالمعنى الذى اخترناه : خطاب لمن خصه الله بهذا العلم وقوله ﷺ «فأكملوا العدة ثلاثين يوما» كما فى الرواية الأخرى خطاب للعامة . فالذين خصهم الله بهذا العلم يكون نظرهم بالطريق المقدور لهم وهو طريق الحساب ويكون نظر العامة الذين لايعرفون الحساب أولا يقلدون من يعرفه بالطريق المتيسر لهم وهو الرؤية أو إكمال العدة ، فلا تنافى بين الروايتين بل نحن ننزلهما على حالين مختلفين فنكون عاملين بهما .

سادسا : يجب وجوبا كفائيا أن يكون فى كل حكومة إسلامية هيئة شرعية من مهمتها إثبات الشهور العربية بوجوه الإثبات المعتبرة شرعا مع مراعاة الاتصال بالمراصد والفلكيين العدول الموثوق بهم فى دينهم وعلمهم ليتحققوا من جواز الرؤية أو استحالتها حتى لا يقعوا فى الخطأ ويثبتوا الشهر قبل موعده كما حصل فى بعض السنين من قاضى الرؤية المنفرد بهذا الإثبات وترتب عليه صيام المسلمين يوما من شعبان وفطرهم يومين من رمضان .

سابعا : ليتحقق الأمل المنشود وهو توحيد أوائل الشهور العربية فى جميع البلاد الإسلامية يجب أن ينبه ناشروا التقاويم الرسمية وغيرها إلى أنه يلزمهم أن يبنوا تحديد أوائل الشهور القمرية على الوضع الهلالى الحقيقى فيكون أول الشهر هو أول ليلة يمكن أن يرى فيها الهلال بعد الاجتماع وأن يراعوا خط عرض مراكش وهو ١٥° درجة «غرب جرينتش»[1] لتكون تقاويمهم هلالية شرعية عالية مساندة ومنظمة لعملية الرؤية

(١) الصحيح أن مراكش على خط طول ٨° غرب جرينتش ، وينبغى أن يقال : خط طول ١٧ غرب جرينتش وهو الخط المار بمدينة داكار فى السنغال ، وأوفق من ذلك فى نظرى أن يراعى أقصى خط غرب أمريكا ، كما سيأتى .

فى جميع الحكومات الإسلامية » اهـ .

* * *

وهذه النقاط بحاجة إلى بعض الإيضاحات :

– أما النقطة الأولى وهى أن إثبات الشهور من باب الإخبار لا من باب الشهادة فهى تيسير على المسلمين كما أنها تيسر على القائمين بإثبات الشهور كما لا يخفى .

وأما النقطة الثانية ، هى أنه يكفى فى إثباتها خبر الواحد متى غلب على الظن صدقه ولم يكذبه الحساب الموثوق به القاضى باستحالة الرؤية – فهى نقطة جديرة بالاعتبار غير أنها تحتاج إلى تطبيق دقيق جدا ، وسيأتى مزيد تفصيل بهذه القضية .

وأما النقطة الثالثة وهى أنه لا عبرة باختلاف المطالع فهى جارية على رأى الجمهور وإن خالف فيها أكثر الشافعية وبعض الحنفية والمالكية والزيدية والإمامية ولكن جاء فى آخر الكلام عليها تقييد بلد الرؤية بكونه مشتركا مع البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه فى جزء من الليل ولو يسيرا . والذى يرجع البصر فى البحث كرتين يتبين له أن هذا القيد ليس للاحتراز وإنما هو لبيان الواقع ، فإن الدول الإسلامية التى يراد توحيد الشهور فيها تنحصر بين خط ١٧° غرب جرينتش وهو الذى يمر بداكار بالسنغال وخط ١٢٥° شرق جرينتش ، وهو الخط الذى يمر بشرق أندونيسيا فبينهما ١٤٢° درجة أى تسع ساعات وثمان وعشرون دقيقة ، فإذا رئى الهلال بعد غروب الشمس فى داكار أمكن تبليغه إلى أندونيسيا قبل الفجر بساعة تقريبا ، وهى مدة يمكن فيها السحور وتبييت النية وسيأتى لهذا الكلام بقية .

وأما النقطة الرابعة وهى عدم صحة التعويل على التقاويم ... فلا حاجة بنا إلى مناقشتها وإن كانت محل مناقشة فإن علماء المرصد عندنا يرسلون إلى فضيلة المفتى الموكول إليه إثبات أوائل الشهور – بيانا تفصيليا بوضع الهلال من غرب إفريقيا إلى شرق آسيا ، وهذا البيان دقيق جدًّا ويغنى عن النظر فى التقاويم المختلفة فإذا تقرر بالحساب الموثوق به أن الهلال فى الرباط من بلاد المغرب لايمكث بعد غروب الشمس أصلا أو يمكث مقدارا أقل من سبع دقائق – علم أنه تستحيل رؤيته فى جميع الدول الإسلامية . فلا يؤخذ بأقوال شهود الرؤية فى هذه الدول وهذه مسألة تكثر فيها الحساسيات والعصبيات التى تشبه ما كان فى الجاهلية الأولى فهى بحاجة إلى

المعالجة بالحكمة – وسيأتى مزيد تفصيل بهذه المسألة :

وأما النقطة الخامسة : وهى أن الحساب المبنى على وضع الهلال وإمكان رؤيته بعد الغروب يصلح مناطا مستقلا لإثبات الشهر فهو واضح لكن يجب التنبه إلى أن الحاسب لا يكتفى بحساب مكث الهلال فى بلده بل بحسب مكثه فى خط ١٧ْ غرب جرينتش ، فإمكان الرؤية فى الخط المذكور يوجب ثبوت الشهر فيه وفى جميع الدول الإسلامية إلى شرق أندونيسيا ، واستحالة الرؤية فيه بموجب إكمال الشهر ثلاثين يوما فى جميع الدول والأولى – كما سيأتى – اعتبار غرب أمريكا بدلا من غرب إفريقيا

وأما النقطة السادسة وهى وجوب إنشاء هيئة للتوقيت فى كل بلد فهى واضحة .

وأما النقطة السابعة : وهى تنبيه واضعى التقاويم إلى أن يبنوا أوائل الشهور على إمكان رؤية الهلال بعد الغروب لا على مكثه ولو دقيقة واحدة فهى واضحة والمقصود إمكان الرؤية فى غرب إفريقيا بأن يمكث الهلال فى داكار سبع دقائق أو أكثر – ولنا كلام فى هذا الموضع نذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى ؟

* * *

وصايا المؤتمر :

هذا : ولما عرض البحث على المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى جمادى الآخرة سنة ١٣٨٦هـ أوصى المؤتمر بما يأتى :

(أ) يقرر المؤتمر ما يلى :

١ – أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول أى شهر قمرى كما يدل عليه الحديث الشريف فالرؤية هى الأساس لكن لايعتمد عليها إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

٢– يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة كما يكون بخبر الواحد ذكراً كان أو أنثى ، إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ، ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به .

٣ – خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الإسلامية للنظر فى ذلك .

٤ – يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

(ب) يرى المؤتمر أنه لاعبرة باختلاف

المطالع وإن تباعدت الأقاليم ، متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قلّ . ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لاتشترك فى جزء من هذه الليلة .

(ج) يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الإسلامية أن يكون فى كل إقليم إسلامى هيئة إسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية ، مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم ! ؟

* * *

إيضاح هذه الوصايا :

(أ) الوصية الأولى : العمل بالقرارات الأربعة الآتية :

١ – القرار الأول : أن الرؤية هى الأصل فى معرفة دخول الشهر القمرى لكن لايعتمد عليها إذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

هذا القرار يبين أن الرؤية هى الأصل وليس المقصود رؤية البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه ، بل المقصود – أخذاً مما يأتى – ما يشمل رؤية البلد نفسه ورؤية بلد آخر يجمعه معه جزء من الليل ، فأهل أندونيسيا مثلا يثبت الشهر عندهم بالرؤية فى بلدهم أو فى أى بلد آخر يجمعه وإياهم جزء من الليل كمكة ومصر وتونس والمغرب وموريتانيا .

وشرط العمل بالرؤية ألاّ تمكن التهمة فيها ، وأعظم شىء يمكّن التهمة فى الرؤية هو أن يدل الحساب الموثوق به من الحاسب الفلكى الثقة على عدم إمكان الرؤية فى البلد الذى ادعى بعض أهله أنهم رأوا الهلال فيه – فهذه الدلالة الحسابية الفلكية اليقينية تدفع الإخبار بالرؤية بالخبر إما كاذب عمدا ، وإما واهم أومتخيل ! ؟

ويؤخذ من هذا الشرط أن السادة المكلفين بإثبات الشهور فى الدول الإسلامية المختلفة يجب أن يكون عند كل واحد منهم علم سابق بوضع الهلال مأخوذ من حاسب ثقة ، ونعنى وضع الهلال فى الدولة نفسها وفى الدول الأخرى التى يجمعها مع الدولة جزء من الليل .

وهذا ليس بعسير ، فى مصر مثلا معهد للأرصاد يقوم بحساب وضع الهلال فى جميع الدول الافريقية والآسيوية ، ويرسل حساب ذلك مفصلا موضحا إلى دار الإفتاء كل شهر ، ولا شك أن مدير هذا المعهد وأساتذته ثقات متخصصون لا يتطرق الشك إلى حساباتهم التى يؤيدها المرصد فيما بعد .

فلا يسوغ التشكيك فى هذا الحساب ومعارضته بحساب بلاد أخرى ليس فيها

مثل هذا المعهد ، ولا مثل هذا المرصد ، ولا مثل هؤلاء المتخصصين ، كما حدث فى الأعوام التسعة أو العشرة الماضية التى خولفت فيها حسابات مصر فى جميع الأشهر تقريبا ، فكل شهر من شهور تلك السنين كان أوله يسبق أول الشهر فى الحسابات المصرية مما أدهش جميع الناس حتى قالوا : إن المعهد الذى يخطئ فى حساب الأشهر أكثر من ثلاثين مرة فى نحو عشر سنين لا يصح أن يسمى معهدا بل يجب إغلاقه حتى يتعلم أساتذته كيف يحسبون وهذا أمر مؤسف جداً ، ونرجو من فضيلة المفتى الجديد أن لا ينسج على منواله .

غير أنا نرجو من السادة الحاسبين بمعهد الأرصاد أن يتخذوا بدل الرباط ومراكش موقعا غربياً أبعد يجمعه مع مصر ومكة جزء من الليل ، وليكن هذا الموقع مدينة « نيو أورليانز » الواقعة على خط ٩٠° غرب جرينتش فهذه المدينة بينها وبين مصر ١٢١° درجة وبينها وبين مكة ١٣٠° درجة ، والدرجة أربع دقائق أو جزء من خمسة عشر جزءاً من الساعة فيكون بينها وبين مصر ثمان ساعات وأربع دقائق ، وبينها وبين مكة ثمان ساعات وأربعون دقيقة ، وحساب وضع الهلال فى المدينة المذكورة كثيرا ما يجعل أول الشهر سابقا بيوم على ما فى التقويم المصرى – ولعل هذا يقرب شقة الخلاف بين تقويمنا وتقويم أم القرى الذى تسبق أشهره أشهرنا غالبا ، ولقد ضربت المثل بهذه المدينة والحاسبون أعلم منى بها ولعلهم يختارون موقعا أبعد منها يكون عند خط مائة .

– فإن قيل : إن المدينة المذكورة وغيرها من بلاد أمريكا ليس فيها من يتراءون الهلال ولا الحاكم المسلم الذى يثبت عنده الشهر ! ؟

– قلنا : إن التقدم العلمى يقيم إمكان الرؤية مقام الرؤية ويقيم الثبوت بهذا الإمكان مقام الثبوت عند الحاكم المسلم ، والله عز وجل قال فى كتابه العزيز (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى من علم منكم بدء الشهر فليصمه سواء أكان العلم ناشئا عن رؤية أم حساب وسواء أكان بحكم حاكم أم لا ! ؟

٢ – القرار الثانى يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة ، كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان أو أنثى إذا لم تتمكن التهمة فى إخباره لسبب من الأسباب ومن هذه الأسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثوق به الصادر ممن يوثق به .

هذا القرار صريح فى أنه يجب أن

يكون القائم بإثبات الشهر مزودا بالعلم بوضع الهلال قبل تلقى شهادة الشهود ، فهذا العلم المأخوذ من أقوال الفلكيين الثقات هو الذى يعرف به خطأ الشهود الذين يشهدون بالرؤية إذا دل العلم على استحالتها،ثم إن المقصود بالرؤية هو الرؤية فى البلد الذى يراد إثبات الشهر فيه وفى كل بلد يجمعه معه جزء من الليل كما سبق .

٣ - القرار الثالث : خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، أما إلزام الكافة فلا يكون إلا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الإسلامية للنظر فى ذلك .

هذا القرار واضح لا يحتاج إلى بيان ، والمقصود أن حاكم كل دولة ملزم دولته التى تحت حكمه لا غيرها

٤ - القرار الرابع : يعتمد على الحساب فى إثبات دخول الشهر إذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

هذا القرار معناه أنه يعتمد على الحساب الذى يبين إمكان أو عدم إمكان الرؤية فى البلد أو فى بلد آخر يجتمع معه فى جزء من الليل ، ويشترط فى اعتماد الحساب أن لاتتحقق الرؤية لغيم أو غبار فى البلد والبلاد الأخرى التى يجمعها مع البلد جزء من الليل وهذا الشرط شرط شكلى لا موضوعى ، فإن الحساب الدال على إمكان الرؤية لابد منه عند الرؤية وإلا كانت رؤية وهمية أو خيالية فالحساب إذاً معتمد عليه عند تحقق الرؤية لنفى التهمة عنها كما يعتمد عليه عند عدم تحققها ، ولكن فى الحالة الأولى يقول مثبت الشهر : إن الشهر قد ثبت للرؤية ليكون عاملا بحديث «صوموا لرؤيته.. » وفى الحالة الثانية يقول : غم علينا الهلال فقدرنا له فثبت الشهر للعلم بإمكان رؤيته لولا المانع عملا بقوله ﷺ «فإن غم عليكم فاقدروا له» ويشترط فى الاعتماد على الحساب شرط آخر وهو أن لايتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما ، وهذا الشرط معناه أن لا يدل الحساب على استحالة الرؤية فى البلد وفى جميع البلاد التى تجتمع معه فى جزء من الليل فإنه إن دل على استحالة الرؤية تيسر الوصول بل وجب الوصول إلى إكمال الشهر ثلاثين ، وهذا شرط شكلى أيضا فإن الحساب إذا دل على استحالة الرؤية لزم من ذلك إتمام الشهر السابق ثلاثين ، فهذا الإتمام من لوازم الحساب لكن مثبت الشهر لايقول : إن الشهر لم يثبت لاستحالة الرؤية بمقتضى الحساب وإنما يقول : إن الهلال قد غم علينا فوجب إتمام السابق ثلاثين عملا بحديث فإن غم عليكم فأكملوا العدة

ثلاثين ، والخلاصة أن الشرطين شكليان والحساب معتمد عليه فى جميع الأحوال .

– ولنا تعقيب على عبارة هذا القرار حيث تضمنت هذه الجملة وهى «ولم يتيسر الوصول إلى إتمام الشهر السابق ثلاثين يوما» وهذه الجملة صعبة الفهم وقد شرحناها بما استطعنا وكان يغنى عنها أن يقال : «يعتمد على الحساب إذا أمكنت الرؤية ولم تتحقق» والله أعلم .

(ب) الوصية الثانية من وصايا المؤتمر :

«يرى المؤتمر أنه لاعبرة باختلاف المطالع وإن تباعدت الأقاليم متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وإن قلّ ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الأقاليم التى لاتشترك فى جزء من هذه الليلة» .

هذه الوصية مبنية على مذهب الجمهور القائل «لاعبرة باختلاف المطالع» غير أن مذهب الجمهور لم يقيد بما قيدت به الوصية وهو قولها «متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية» وهذه كتُبُ الفقهاء بين أيدينا ليس فى شىء منها تقييد بهذا القيد .

ثم إن هذا القيد يحتمل احتمالين :

الاحتمال الأول : أنه لاعبرة باختلاف المطالع بين الدول الإسلامية المتجاورة المحصورة بين خط ١٧° غرب جرينتش وخط ١٢٥° شرق جرينتش فهذه الدول لاعبرة باختلاف المطالع بينها لأنه يجمعها جزء من الليل فرؤية الهلال ليلة الثلاثين فى أقصى غربها كالمغرب وموريتانيا والسنغال يثبت بها الشهر فى أقصى الشرق وإن لم يروا الهلال كأندونيسيا وماليزيا وباكستان ويكون المقصود من القيد توحيد أوائل الشهور فى هذه المجموعة الإسلامية ويبقى بعد ذلك مسلمو أمريكا واليابان وشرق أستراليا فهؤلاء يعملون برؤية الهلال فى بلدهم أو البلاد القريبة من بلدهم وقد يبلغهم خبر إثبات أوائل الشهور فى مجموعة البلاد الإسلامية فيسلكون سبيلهم عملا بقول الجمهور «إذا ثبت الشهر فى بلد ثبت فى جميع البلاد» .

الاحتمال الثانى : أنه لاعبرة باختلاف المطالع بين الأماكن مطلقا سواء أكانت من مجموعة الدول الإسلامية المتجاورة أم غيرها متى كانت متحدة فى جزء من ليلة الرؤية فمصر مثلا واقعة على خط ٣١° شرق جرينتش فلا عبرة باختلاف المطالع بينها وبين البلاد التى فى أمريكا مثل نيو أورليانز الواقعة على خط ٩٠° غرب جرينتش فإنها يجمعها مع مصر جزء من الليل ، وكذا تجتمع المدينة المذكورة مع مكة الواقعة على

خط ٤٠ْ شرقا فى جزء من ليلة الرؤية .

وهذا الاحتمال هو ظاهر لفظ الوصية وهو أوسع من الاحتمال الأول

والقيد على كلا الاحتمالين لاداعى إليه فيما أرى ولا دليل على التقييد به ولو حذف لأدى إلى توحيد الصوم والإفطار وجميع أوائل الشهور فى الأرض كلها لا فى مجموعة الدول الإسلامية وحدها ، وليس ذلك بعسير على الفلكيين فإنهم يستطيعون أن يحسبوا مكث القمر بعد الغروب ليلة الثلاثين فى مثل « لوس أنجلوس » وغيرها من البلاد التى فى غرب أمريكا ولو بالقرب من خط التاريخ الدولى[1] ومتى عرفوا وضع الهلال فيها أمكنهم أن يثبتوا أول الشهر بها ليلة الثلاثين أو الليلة التالية ، فإذا ثبت الشهر بها ثبت فى جميع البلاد الإسلامية وغيرها ، والثبوت بالحساب يغنى عن شهادة شهود وحكم حاكم وانتقال قوم من بلد إلى بلد بالإخبار ، بل لايحتاج إلى انتقال الحاسبين إلى المكان الذى يريدون التعرف على وضع الهلال فيه ، ولعل حاسبى تقويمنا المصرى يجعلون الشهور مبتدئة من الليلة التى يمكن رؤية الهلال فيها فى غرب أمريكا بدلا من الليلة التى يمكث الهلال فيها ولودقيقة فى القاهرة فيسبق أول الشهر غالبا مايجرى عليه العمل الآن فلايغضب الناس إذا سمعوا من قاضينا أن الشهر ثبت أوله مع عدم إمكان رؤيته بالقاهرة وسائر البلاد الإسلامية – ونضرب لذلك مثلا أول شهر ذى الحجة من العام المنصرم ، فقد كان أوله بحسب إمكان الرؤية فى القاهرة وسائر البلاد الإسلامية ليلة الخميس ، لأن الهلال غرب فى مصر وسائر البلاد الإسلامية قبل غروب الشمس ليلة الأربعاء فكانت الليلة المذكورة ويومها آخر شهر ذى القعدة عندنا وعند جميع الدول الإسلامية ، ولكن القائمين بإثبات أوائل الشهور فى السعودية قضوا بأن أول ذى الحجة ليلة الأربعاء بناء على شهادة من شهد عندهم بالرؤية مع أنها مستحيلة على ماقرره الفلكيون الثقات وحزن الناس وقالوا : كيف يصدقون الشهود مع استحالة الرؤية وكيف يقف الناس بعرفات يوم الثامن بدل التاسع ؟ ويضحون يوم التاسع بدل العاشر . . . ولو علموا أن ثبوت أول الشهر فى أقصى بلد غربى يستلزم شرعا عند الجمهور ثبوت أول الشهر فى جميع البلاد الشرقية – لو علموا ذلك لأراحوا أنفسهم

(١) هو خط طول ١٨٠ْ فإذا اعتبرناه غرب أمريكا يكون اليوم مثلا يوم الجمعة أول المحرم الموافق لأول ديسمبر وإذا اعتبرناه شرق آسيا فإن ذلك اليوم نفسه يكون يوم السبت ثانى المحرم وثانى ديسمبر وتفصيل ذلك فى الكتب الجغرافية ! !

فإن الهلال الذى غرب قبل غروب الشمس ليلة الأربعاء بمصر ومكة وغيرها قد غرب بعد غروب الشمس فى الليلة المذكورة فى غرب أمريكا ومكث زمنا تمكن فيه الرؤية فثبت أول الشهر فى أمريكا وبثبوته يثبت أول الشهر بمكة فأول ذى الحجة شرعا ليلة الأربعاء ووقوف الناس بعرفة كان يوم التاسع وتضحيتهم كانت يوم العاشر على الرغم من أن الشهود الذين زعموا أنهم رأوا الهلال ببلدهم كانوا كاذبين قطعا . ولكنهم صادفوا الحق . وليس هذا تبريراً لصنيعهم فإن شهادة الزور من أكبر الكبائر كما لايخفى . ولعل هذه المصادفة من المعجزات لرسولنا ﷺ حيث قال «صومكم يوم تصومون وأضحاكم يوم تضحون» رواه البيهقى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه ورواه الترمذى عنه بلفظ «الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفطرون والأضحى يوم تضحون» .

ولو فرضنا أنهم وقفوا بالثامن وضحوا بالتاسع فالله عز وجل أكرم من أن يبطل حجهم وأضحيتهم . فإنهم فعلوا ما فى وسعهم ولم يكلفهم الله بالعمل بالحساب رحمة بهم .

(ج) الوصية الثالثة من وصايا المؤتمر :

«يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الإسلامية أن يكون فى كل إقليم إسلامى هيئة إسلامية يناط بها إثبات الشهور القمرية ، مع مراعاة اتصال بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهم .»

هذه الوصية ظاهرة لاتحتاج إلى إيضاح غير أننا نؤكد لزوم الاتصال بالفلكيين الثقات والمراصد . ونأمل أن يكون عند السادة العلماء القائمين بإثبات أوائل الشهور القمرية ثقة فى الحاسبين المتخصصين بحيث يجرءون على ردّ شهادة الشهود الكاذبين بالحكمة . ولنضرب لذلك مثلا :

— إذا كتب مدير معهد الأرصاد بمصر أنه لامكث للهلال ولا تمكن رؤيته بها ولا بغرب إفريقيا ولا بغرب أمريكا فى ليلة الثلاثين . فمعنى هذا أن الشهود الذين يشهدون بالرؤية فى بلد من البلاد كاذبون فلا تقبل شهادتهم . ولا الأحكام المترتبة عليها . ولكن التصريح بهذا يغضب القضاة المتعصبين لرؤية أهل بلدهم ولو كانت مخالفة للواقع . فالحكمة تقتضى :

أولا : إعلام قضاة البلاد بعدم إمكان الرؤية قبل الشهر بأسبوعين أو بثلاثة أسابيع

ثانيا : عدم الاتصال بهم فى ليلة الرؤية .

ثالثا : الاكتفاء بالقول بأن المستطلعين عندنا لم يروا الهلال، وأن أهل الخبرة أثبتوا أن الهلال لاتمكن رؤيته فى هذه الليلة بجميع البلاد فعلى هذا يبدأ الشهر من الليلة التالية .

* * *

وأختم هذا المقال ببيان المشكلة وأسبابها وعلاجها بإيجاز :

(ا) أما المشكلة فهى تفرق الدول الإسلامية فى أوائل الشهور ، فبينما يكون أول شهر رمضان مثلا الخميس عند قوم يكون الجمعة عند آخرين والسبت عند فريق ثالث والأحد عند فريق رابع مع أن القمر لا يجتمع مع الشمس إلا مرة واحدة كل شهر فيجب أن يكون مبدأ الشهر واحدا فى جميع البلاد .

(ب) وأما أسباب هذه المشكلة فهى ثلاثة :

السبب الأول : الشهادة بالرؤية من قوم توهموا أو تخيلوا أو تعمدوا الكذب فيقضى القضاة بشهادتهم تحسينا للظن بهم فيتقدم الشهر يوما فى البلاد التى اعتمدت على هذه الشهادة دون البلاد التى لم تعتمد عليها فلا يتوحد أول الشهر .

السبب الثانى : إكمال الشهر ثلاثين عند من غم عليهم الهلال بغيم أو غبار وعدم إكماله عند من لم يغم عليهم

السبب الثالث : اعتبار اختلاف المطالع فالدول التى لم تر الهلال تكمل الشهر ثلاثين غير ناظرة إلى الدول الأخرى التى رأت الهلال فجعلت الشهر تسعا وعشرين .

(ج) وأما علاج هذه المشكلة فيتلخص فى مبدأين :

المبدأ الأول : اعتبار جميع الدول الإسلامية المحصورة بين خط ١٧° غ و ١٢٥° ش كأنها دولة واحدة فإذا أمكنت رؤية الهلال فى أقصى دولة غربية فيها كالمغرب وموريتانيا والسنغال ليلة الثلاثين ثبت الشهر فى جميعها وإن لم تمكن وجب إكمال الشهر ثلاثين فى جميعها .

المبدأ الثانى : القضاء على شهادة الزور التى تقدم الشهر عن موعده الشرعى يوما أو يومين والقضاء على التأخير كذلك يوما أو يومين بسبب الغيم أو الغبار .

– ولا يقضى عليها إلا الاعتماد على الحساب الموثوق به من حاسبين ثقات يحسبون سير القمر ويعرفون زمن مكثه بعد الغروب فى جميع هذه الدول على أنهم يكفيهم أن يعرفوا مكثه فى أقصى دولة

غربية منها فإن من الحقائق التى لا يشك فيها اثنان أن استحالة الرؤية بالغرب تقتضى استحالة الرؤية بالشرق . فإذا حسبوا وضع الهلال فى هذه المنطقة الغربية فعرفوا أنه لا تمكن رؤيته فيها أثبتوا أنه لا تمكن رؤيته فى مجموعة الدول كلها . فيكون كل من شهدوا بالرؤية فيها مخالفين للواقع . وإذا عرفوا إمكان الرؤية فى هذه المنطقة الغربية عرفوا ثبوت الشهر فيها ومتى ثبت الشهر فيها ثبت فى جميع الدول . إذ لا عبرة باختلاف المطالع . وحينئذ يقضى على الإكمال بالغيم أو الغبار أو عدم الرؤية بأى سبب كان . فلا يتأخر الشهر عن موعده الشرعى . فالحساب هو العنصر الحاسم الذى به يتوحد الشهر فى مجموعة الدول الإسلامية إما بثبوته ليلة الثلاثين لإمكان رؤيته فى الغرب وإما بثبوته فى الليلة التالية بعدم إمكان رؤيته فى الغرب .

– وبهذا يتبين أنه يجب أن يكون عند السادة المكلفين بإثبات الشهور أرضية أو خلفية أو معلومات يقينية أو شبه يقينية بوضع الهلال فى بلدهم وفى أقصى موقع غربى كالسنغال وموريتانيا والمغرب وأن تكون هذه المعلومات مأخوذة من حاسب موثوق به سواء أكان من أهل البلد أم من غيرهم وألا يعارضوا هذا الحساب بحساب آخر للتوصل إلى سقوطها والعودة إلى استجداء الرؤية والشهادة ممن دلت التجارب على مخالفتهم للواقع

– وبهذه المعلومات يعلمون مقدما أنهم سيثبتون أول الشهر لإمكان رؤيته فى بلدهم ، أو سيثبتونه لإمكان الرؤية فى الموقع الغربى ، أو سيجعلون أوله من الليلة التالية لعدم إمكان رؤيته فى مجموعة الدول .

– فإذا استقرت عندهم هذه المعلومات قبل الشهر بثلاثة أسابيع أو أسبوعين أو أسبوع فليتصل بعضهم ببعض قبل الشهر للإعلام والاستعلام . لا ليرجع واحد منهم عن معلوماته بغير اقتناع . فإن هذا ليس من الدين . وقد قال رسول الله ﷺ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » رواه البخارى فى التاريخ والإمام أحمد فى المسند عن وابصة بن معبد بسند صحيح . ومعلوم أن هذا خطاب لمن شرح الله صدره بنور اليقين .

– والحذر الحذر من اتصال بعضهم ببعض ليلة الثلاثين فإن هذا الاتصال محلية للقيل والقال . لأنهم إن اختلفوا بعده كانوا كالمتخاصمين . وإن اتفقوا كان فى الاتفاق تخلى بعضهم عن معلوماته بغير اقتناع ! ؟

– وفى ليلة الثلاثين ينتدب كل واحد منهم

رجالا موثوقا بهم استطلاعا للهلال لزيادة الاطمئنان وسيخبرونهم بما يتفق مع معلوماتهم إن كانت صحيحة .

– فإن أخبروهم بالرؤية وكانت ممكنة أثبتوا أول الشهر بناء على الرؤية .

– وإن أخبروهم بعدم الرؤية حكموا بإكمال الشهر ثلاثين لعدم تحقق الرؤية إن كانت مستحيلة فى الموقع الغربى .

– فإن أخبروهم بعدم الرؤية وكانت ممكنة فى الموقع الغربى : حكموا بإثبات الشهر بناء على أنه لاعبرة باختلاف المطالع ! ؟

* * *

وقبل إلقاء القلم : أذكّر القارئ الكريم بأن المبدأ الأول الذى ذكرته هنا وهو اعتبار الدول الإسلامية المحصورة بين غرب إفريقيا وشرق آسيا كدولة واحدة : هو المعمول به حتى الآن ، وفى رأيى – كما سبق – اعتبار الأرض كلها كدولة واحدة ، فإن مذهب الجمهور أن ثبوت الشهر فى موضع من الأرض يقتضى ثبوته شرعا فى جميع بقاع الأرض سواء أكان يجمعها جزء من الليل أم لا – كما سبق – فعلى هذا يحسب الحاسبون وضع الهلال فى أقصى موقع غربى ممكن مثل البلاد الواقعة فى غرب أمريكا الوسطى أو الجنوبية ، فإن اقتضى الحساب أن الهلال يمكث بها بعد غروب الشمس ليلة الثلاثين بحيث تمكن رؤيته ثبت الشهر فى هذا الموقع وفى جميع بلاد الأرض وإن كان بعضها لم ير الهلال ، وإن لم يقتض الحساب مكثا بهذا الموقع الغربى أو اقتضى مكثا لاتمكن معه الرؤية كخمس دقائق لم يثبت الشهر فى الليلة المذكورة ، بل يكون فى الليلة التالية فى جميع بلاد الأرض .

وبهذا تتوحد أوائل الشهور فى جميع الدنيا لا فى المجموعة المحصورة بين إفريقيا وآسيا فقط ! ؟

* * *

– والرأى بعد هذا للسادة أعضاء مؤتمر مجمع البحوث إن رأوا تعديل ما أوصوا به فى المؤتمر الثالث .

والله الموفق إلى سواء السبيل .

على حسن البولاق

الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية

الدكتور/ محمد مصطفى شلبى

٣
غاية الأخلاق

بقى الأمر الثانى وهو جعلهم غاية الأخلاق غاية مثالية هى تهذيب النفوس دون ان يكون لها أثر فى تنظيم المجتمع .

وهو مردود كسابقه ، لأن الشارع حينما شرع الأخلاق لم يقصد بها إعداد النفوس البشرية لتكون ملائكة تحلق فى عالم الروح بعيداً عن المجتمع الواقعى ، بل قصد بها تهذيب النفوس لتكون نفوسا خيرة غير شريره ، فيصلح المجتمع الذى يتكون منها ، وما المجتمع إلا بناء ضخم لبناته الأفراد فإذا كانت اللبنات صالحة كان البناء سليما[1] ، وإذا فسدت اللبنات أو بعضها كان البناء عرضة للانهيار فى كل حين ، فأثر الأخلاق بيّن واضح فى تنظيم المجتمع ، والقوانين بدونها لاتغنى غناءها ولا تحقق هدفها[2] .

فلو تصورنا مجتمعاً ترك فضيلة الصدق ، وتخلق بنقيضه وهو الكذب ،

---

(١) أو كما يقول أستاذنا الأكبر فى كتابه نظرية الإسلام فى بناء المجتمع «وما المجتمع فى واقعه إلا الأفراد التى هى لبناته ومنها يتكون ، وما الأفراد فى واقعها إلا المجتمع الذى منها يتكون ، فبقدر صلاح الأفراد يصلح المجتمع وبقدر فسادهم يفسد المجتمع» .

(٢) ولقد اعترف بعض الفقهاء الغربيين بأثر الأخلاق الظاهر فى تحقيق القانون غايته . فالفقيه الفرنسى ريبير فى كتابه «عن القاعدة الخلقية فى الالتزامات المدنية» كما نقل عنه الدكتور كيرة فى أصول القانون ص ٤٠ - يذهب إلى أنه لا يوجد فارق بين القانون والأخلاق لا من حيث الغاية ولا من حيث النطاق ، فقواعد القانون كلها محكومة بالأخلاق ، وهو ما يعطيها سنداً متيناً من الشرعية والإلزام فى نفوس الأفراد يجعلها أكثر قبولاً ومراعاة فى التطبيق العملى ، وبعد أن بين أن الأخلاق فى صراع مستمر على التسلل إلى القانون لتوجيه حكمه قال : إن الغلبة فى النهاية لابد مكتوبة للأخلاق طالما يفتقد القانون الأساسى المثالى ، وطالما يوجد رجال يؤمنون ويكافحون فى سبيل سيادة المثل الأخلاقية .

وفى كتابه عن «القوى الخلاقة للقانون» يحذر من انحراف القانون عن قواعد الأخلاق لما شهده من هذا الانحراف فى السنوات الأخيرة - ويؤكد استمساكه بالأخلاق كأساس للقانون وكعاصم مما يهدد المدنية من انتشار هذه الظاهرة» . .

والكذب قلب الحقائق أو الأخبار بما لايطابق الواقع . كما يقول علماء الأخلاق . فماذا يكون مصير العلاقات فى هذا المجتمع الكذاب ، وأى فائدة للقوانين فيه ؟

وكيف تصل الحقوق إلى اصحابها مع هذا الكذاب المفسد للذمم ؟

ألم توجب القوانين كلها تحليف المدعى علية إذا انعدمت البينة ؟

فأى فائدة لليمين مع انعدام الصدق ؟ بل أى فائدة للشهادة التى تبنى عليها الأحكام مع عدم الاطمئنان إلى صدق الشهود ؟ (١)

ولو تجاوزنا ذلك وتصورنا مجتمعا عمت فيه النميمة وحب الانتقام واستباح كل واحد أن يتقول على غيره مايحلو له غير متقيد بميزان الخلق ، وقابل المفترى عليه ذلك بالانتقام من المفترى ، فماذا يكون نصيب ذلك المجتمع من الأمن والسلام والاستقرار التى تنشدها القوانين ! ؟

ألم يكن العفو والتسامح والإحسان إلى الغير وحب الخير هم من دعائم الاستقرار فى المجتمع .

فالعفو يولد العفو ، والتسامح يقتل عداوة النفوس (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) والإحسان يأسر النفوس ويجلب المحبة والألفة وحب الخير للناس وينتزع الغل والحقد من النفوس ! ؟

وهل ينكر عاقل ماللحياء من أثر فى عصمة النفوس ومنعها عن ارتكاب المخالفات ، وأنه إذا انعدم الحياء أو قل فى مجتمع انعدم فيه الخير أو ندر ، فتكثر الموبقات ، وقديما قيل : « إذا لم تستح فاصنع ماشئت » وهل يستطاع إنكار ماللإخلاص فى العمل من أثر فى رقى المجتمع وتقدمه ، وماللعزة والكرامة والحذر والاحتياط من الإبقاء على استقلال الشعوب واحتفاظها بهيبتها ؟ ؟

وهكذا تسهم كل فضيلة فى بناء السلام والاستقرار ، وبعكسها تكون الرزيلة معولاً يهدم صرح الأمن والطمأنينة ، فماذا نبغى من الأخلاق وراء هذا كله ؟ ؟

ثم إن أثرها الأول يظهر فى النفوس فيطهرها ، ثم ينتقل ذلك الطهر إلى المجتمع فينقيه من الأدران ، فيصبح بذلك مجتمعا صالحا يأمن كل واحد فيه على نفسه وماله وعرضه .

ثم إن الأحكام العملية ذاتها وإن قصد

---

(١) ولقد أدرك المشرع الوضعى هذا الخطر فرتب على شهادة الزور عقوبات تختلف تبعاً لاختلاف المشهود عليه والأثر الذى يترتب عليها ، فقد تكون : السجن ، أوالأشغال الشاقة المؤقتة أو المؤبدة - وقد تصل إلى الإعدام راجع المواد ٢٩٤ - ٢٩٩ من قانون العقوبات .

بها تنظيم العلاقات أولا فهي تعود في غالب صورها إلى النفوس بالتهذيب لتقوى العلاقات، وتقوم على دعائم متينة ! ؟

ألا ترى معي : أن الصلاة وهي مظهر من مظاهر العبودية لله يتعدى نفعها إلى المجتمع، فالنفس إذا خضعت لله وذلت له، وأيقنت بمراقبته سمت بذلك وترفعت عما يضر المجتمع، كما صرح بذلك القرآن (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) [1] ومن هنا قال رسول الله ﷺ في شأنها : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » ! ؟

والزكاة وهي ضريبة اليسار في الإسلام التي شرعت لتحقق التعاون بين الأغنياء والفقراء، لها أثر كبير في تهذيب النفوس، فتغرس المحبة في قلوب الفقراء بعد أن تستل منها رذيلتي الحقد والحسد لأرباب الأموال، كما تنتزع رذيلة الشح والحرص على المال من نفوس الأغنياء، ثم تحليها بفضيلة البذل والعطاء، وبهذا وذاك تتلاقى النفوس على الخير، ويعم الأمن والاستقرار مجتمع الناس.

ولا يقل الصيام عن ذلك، فهو مران على فضيلة الصبر، وجهاد النفس الذى سماه الرسول الكريم : الجهاد الأكبر، ويشعر الغني بمرارة الحرمان، فيلين قلبه عطفاً على المحتاجين.

ولا يخفى على منصف ما في تشريع المعاملات في الإسلام من نواح خلقية، إذا تأملها بعين واعية. فالربا الذى حرمه الإسلام : يهدف إلى حماية المجتمع من شر الأنانية وحب الذات والتحكم في الغير وسلب أمواله بدون وجه حق، ويبث روح التعاون فتطهر النفوس وتتحلى بثوب القناعة.

ولما في الربا من خطر على المجتمع توعد الله في كتابه المرابين بإعلان الحرب عليهم في الدنيا (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) [2] وبالعقاب الشديد في الآخرة (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [3]

وأعلن رسول الله ﷺ في خطبة الوداع إهدار ربا الجاهلية، وأنه موضوع تحت قدمه فقال : ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، وربا الجاهلية موضوع كله، وأول ربا أضعه ربا عمي عباس بن عبد المطلب [4]

ولم يقتصر تحريمه على هذه الأمة بل قد

---

(١) العنكبوت - ٤٥.

(٢، ٣) البقرة - ٢٧٩، ٢٧٥.

(٤) امتاع الأسماع للمقريزى جـ ١ ص ٥٢٣.

حرمه الله في الشرائع السابقة (١) وهو دليل قبحه الدائم ، وقل أن يخلو تشريع إسلامي من مراعاة الجانبين .

جانب الفرد وجانب المجتمع وإن اختلف فى أيهما قصد أولاً ، وأيهما يأتى فى المرتبة الثانية ، وهو بذلك يجتث جذور الفساد ، ويبنى المجتمع بناء سليما من العيوب ، ولاغرو فمصدره الأول وحى الله الذى يملك الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو أعلم من غيره بما ينفعه فى ظاهره وباطنه ، وقد قال سبحانه - عند خلق آدم - ردًّا على استفسار ملائكته عن الخليفة الذى يكون فى الأرض (إنى أعلم مالا تعلمون) (٢)

وبمقارنة بين تشريع الإسلام والتشريع الوضعى فيما يتعلق بجريمة ماسة بالعرض - والشرف والنسب، جريمة الزنى ، تلك الجريمة الخلقية الفاضحة : نجد الفرق بينهما شاسعا .

فالتشريع الوضعى أباحها فى الأصل ، بل ونظمها بفتح بيوت البغاء الرسمى ، وقد فتحت فى بلدنا الإسلامى ، وبقيت مفتوحة إلى عهد قريب ، ثم أغلقت ، وإن كان إغلاقها لم يؤثر إلا فى منع علانيتها فقط ، وإلا فالقانون لايزال يحميها ويغمض عينه عنها . حيث لم يفرض عليها عقوبة إلا فى حالات خاصة ، حالة الإكراه ، وفى فراش الزوجية ، والصغيرة التى لم تبلغ سن الثامنة عشرة - وفيما عدا ذلك لاعقاب ، بل لامؤاخذة مادام الرضا متوفراً بين الزانى والمرأة البالغة سن الزواج ، بعيداً عن فراش الزوجية (٣) .

وأحكامها تتلخص فى أن العقوبة لاتوقع على الزانية إذا حدث الفعل برضاها وكانت غير متزوجة ، أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوة عليها ، أو رفعها ولم تسمع منه لسبب ما ، أو رفعها وسمعت منه ولكنه أوقف الإجراءات ، أو أوقف تنفيذ الحكم برضائه بمعاشرتها . والرجل لايعاقب

---

(١) لقد صرح القرآن بتحريمه على اليهود (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم ، وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل) ، (المائدة ١٦٠ ، ١٦١) .

ويقول ابن كثير فى تفسيره جـ ١ ص ٥٨٤ : إن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه ، وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع الحيل» .

ويقول أبو حيان فى البحر المحيط جـ ٣ ص ٣٩٤ عند تفسير الآية السابقة : «قالوا : والربا محرم فى جميع الشرائع» .

وروى الكاسانى فى بدائعه جـ ٢ ص ٣١٢ «أن رسول الله كتب إلى مجوس هجر : إما أن تذَروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله» .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) راجع المواد - ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ من قانون العقوبات .

إذا زنى بامرأة غير متزوجة أو متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوة عليها ، أو رفعها ولم تسمع منه لسبب ما ، والمتزوج لا يعاقب إذا ارتكبها بعيداً عن منزل الزوجية ، أو فيه ولم ترفع زوجته الدعوى عليه .

ولم يلتفت المشرع الوضعي للآثار السيئة التي تترتب على هذا الفعل من اختلاط الأنساب ، وكثرة وجود الأولاد غير الشرعيين الذين تزدحم بهم الملاجئ ، والعار الذي يلحق الطرفين بما يجره التمادي في هذه الفعلة الشنيعة من استخفاف بالأعراض وإهدار كرامتها .

ولعل السر في سلوك قانوننا الوضعي هذا المسلك هو أنه مستمد في أصله من القانون الفرنسي الذي تأثر واضعوه بعادات بلادهم وتقاليدها ، فهي لا تعتبر هذه الفعلة جريمة إلا إذا صحبها إكراه أو كانت في فراش الزوجية . . . وهل مثل ذلك يستسيغه العقل في بلادنا ذات التقاليد والعادات المغايرة تماما لما عند الفرنسيين ؟ ؟

أما التشريع الإسلامي فقد اعتبرها جريمة في جميع صورها يستحق فاعلها العقوبة المقررة متى ثبت وقوعها بدليل صحيح من إقرار أو شهادة – يستوى في ذلك الرضا والإكراه في فراش الزوجية أو بعيداً عنه ، رضي الزوج بذلك أو لم يرض ، بلغت المزنى بها سن الزواج قانونا أو لم تبلغه (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) [1]

وفي هذا التحريم الشامل والعقاب الزاجر : اقتلاع لبزور هذه الفعلة الدنيئة من أرض المجتمع الطاهرة [2] .

وبهذا ظهر لنا أن عنصر الأخلاق في التشريع الإسلامي لا يبعده عن الواقع بل هو عامل من عوامل واقعيته وصلاحيته لسياسة المجتمع .

وإذا بطلت شبهاتهم الأولى إلى شبهتهم الثانية – وهي تأثره بعنصر الدين – لنكشف عما بها من زيف . . .

د. محمد مصطفى شلبي

---

(١) سورة النور : ٢ .

(٢) ويلاحظ أن مجرد تقدير العقاب الشديد كاف في الزجر عن الجريمة ، ولا يلزم من تقريره إقامته في كل حالة ، لأن الشارع بعد تقريره تلك العقوبة احتاط في إقامتها احتياطاً يجعل توقيعها نادراً كما سيأتي توضيحه فيما بعد . .

في مواجهة الإلحاد المعاصر
" عقائد العلم "

الدكتور يحيى هاشم

نظراً لأن الخصم الذى تصاوله فى هذا البحث « الإلحاد » يهاجم « الدين » باسم العلم ، دون أن يبرأ من اعتناق نوع من « الدين » الزائف ، فقد رأينا أن تكشف عن هذا التناقض بين ما يتصف به ، وبين ما يدعيه ، ولذلك فإنه يصبح من الجائز لنا أن نقصد بالدين فى هذا الباب .. المعنى العام ، الذى لا يختص بالدين الصحيح ، وإنما يشمل أى نظام من المعتقدات تتوفر لها الخصائص التالية كلها أو بعضها :

أولا : أن تقوم على إيمان أولى .

ثانياً : أن تقوم على التسليم بوجود غيبى غير خاضع للإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

ثالثاً : الإيمان بأصل للكون يتصف بالقدم والخلود .

رابعاً : وترجع إليه الأشياء فى طبيعتها وقوانين وجودها .

خامساً : انتظار الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة « الآخرة » . .

يقول الدكتور جيمس . ب . كونانت فى كتابه « مواقف حاسمة فى تاريخ العلم » :

إنه ليس بين الملاحدة واللا إدريين من كان فى قلبه من الإيمان باطراد الطبيعة واتساقها ما يكفى لممارسة العلم : وتجاريب العلماء .

ويقول أينشتاين :

« إن العلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون تماما بحب الحق والإدراك السليم وهذا المصدر من مصادر الشعور ينبع من ميدان الدين . ويتصل بهذا الميدان أيضاً الإيمان بأن القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة . أى يمكن إدراكها بالعقل .

ولا أستطيع أن أتصور عالما حقا بغير هذا الإيمان العميق . ويمكن التعليق على هذا الرأى بهذه الصورة : العلم بغير دين أعرج ، والدين بغير علم أعمى »

« ويقول دكتور جون كيميني فى كتابه « الفيلسوف والعلم » :

« إن العالم يبحث عن قوانين الطبيعة ،

لأن بحثه يكون عقيما لو لم تكن ثمة قوانين طبيعية إذن بالافتراض الأساسى فى العلم برمته هو أن هذه القوانين موجودة بالفعل».

ويقول الدكتور هرمان راندل فى كتابه «تكوين العقل الحديث»:

«إن العلم الحديث ولد من إيمان فى تفسير الطبيعة الرياضى أخذ العلماء به طويلا قبل أن يثبتوه بالتجريب..

يلتهب هذا الإيمان قويا فى كتاب ليوناردو «قطع أدبية وفلسفية».

إذ يبدو فيه مقتنعا بأن كل قوة فى الطبيعة تنتهى إلى نتائج من نوع معين وتفصح عن ذاتها فى نظام معين.

فالضرورة هى قيد الطبيعة الأبدى وقاعدتها لأن «الطبيعة محكومة بقانونها الذى يعيش مبثوثا فيها» ومع أن اكتشاف جوهر هذه القوى – وهو الذى هدف الأرسطوط اليسيون إلى البحث عنه – قد يكون فى غير متناول البحوث الإنسانية غير أن نتائج فعلها يمكن أن تعرف. إن تحديد ماهية العناصر ليس فى مقدور الإنسان ولكن الكثير من نتائجها معروف وتعرض قوانين الطبيعة ذاتها فى طريق ثابت لا تتغير وفيه تتبع كل نتيجة سببها..

يقول راندال:

«وهذه النظرة الكونية العلمية التى عرفت فى نهاية القرن التاسع عشر كانت بالطبع إيمانا يمكننا أن نصفه بأنه ضرب من التشبث..».

«لقد كان من المستحيل تقريبا أن يتجنب الباحث انتخاب حقائقه التى يريدها على نور نظرية سبق أن اعتقد بها..»

ويقول: كونانت:

«إن باستور كان يدفعه فى كل ما صنع إيمان عنده قوى بالفروض يبتدعها من عند نفسه، وكان إيمانه الشديد تسنده أشياء أخرى غير الحقائق، وما يخرج منها بالمنطق...

فهذا مثل لما أعنى، حمله إلى النصر فيه الإيمان القوى الذى لم يعتمد فيه إلا على الدليل القليل..»

ويقول د. جون كيمنى:

«مهما تكن الوسيلة التى تعتمدها لتشكيل النظريات فلن نحيط علما بأكثر من أن النظريات قد طابقت المشاهدات الماضية وأن علينا أن نؤمن بأنها ستكون كذلك فى المستقبل. إنه بينما يجب علينا أن نقبل بصحة فرضيتنا عن إيمان بها نستطيع التنويه بأنه لو لم تكن فرضية ما صحيحة لغدت الحياة البشرية مستحيلة وإن الطبيعة

لو صممت بشكل يجعل الاستقراءات المعقولة تبدو ، في النهاية ، خاطئة باستمرار لاحتوى الجنس البشرى خلال مهلة قصيرة .

إنه قد لا يمكن أن نسوغ فرضية معينة ، إلا أن علينا أن نؤمن بفرضية على شاكلتها إذا أردنا للحياة أن تغدو ممكنة . »

ويقول وليم جيمس في كتابه العقل والدين :

« نحن نؤمن كل الإيمان بأن الأشياء حتى ما يبدو منها كثير التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما في قاعدة جلية واضحة . . . »

التحقق من النظريات العلمية يخضع للإرادة والإيمان :

مفتاح التحقق من النظريات هو أننا لا نتحقق منها البتة هذا ما يقرره الدكتور جون كيمني ، يقول : لأن ما نتحقق منه هو المترتبات المنطقية للنظرية .

فالتحقق هو عملية التأكد من أن ما قد تكهنا به هو في الواقع كذلك . ولما كنا لا نستطيع سوى مشاهدة حقائق منفردة . . . فإن علينا أن نتحقق من المترتبات المنفردة لنظرية ما وليس النظرية بالذات .

وحتى إذا تبين لنا أن تكهناتنا غير صحيحة فلا يمكن لنا أن نتأكد أى النظريات هي الخاطئة إلا أننا والقون من أن نظرية ما هي نظرية خاطئة — وعليه نعود إلى البحث عن ابسط الطرق لتحسين مجموعتنا من النظريات .

إنه بإمكاننا أن ننقذ أى نظرية ولكن على حساب جعل النظريات الأخرى أكثر تعقيداً ومن أجل هذا ، يكثر من يذهب إلى أن كل تجربة هي في الواقع امتحان لمعرفتنا قاطبة .

ولنأخذ مثالا على ذلك من حياتنا اليومية .

فنحن ما فتئنا نسمع الكثير عن الصحون الطائرة . .

هنالك فرضية تقول بأن هذه الصحون الطائرة هي قذائف من الفضاء الخارجي .

إلا أنني أود أن أثبت بأني لو أردت القول بأن هذه الصحون سيبا أرضيا ، فلن يثنيني عن اعتقادى أى دليل . ! !

فني إمكاني أن أعدها وهما جماعيا فحسب . .

وإذا قيل إن شاشة الرادار قد تبينت وجودها منذ عهد قريب كان في وسعي رد ذلك إلى أن عامل الرادار هو نفسه مصاب بالوهم وخداع الحواس .

وإذا أكد الكثيرون رؤية هذه الصحون على شاشة الرادار أمكن لى أن أفترض وجود تأثير كهرفى مسبب عن كثرة أجهزة الإرسال التلفزية التى تؤدى كثرة عددها إلى تشكيل هذه «الصحون» وصورها على شاشة الرادار.

ولا شك أن هذا قد يتضارب مع ما نعرفه حول العلم الكهربى إلا أننى أستطيع تعديل النظرية الكهربية المغناطيسية لإنقاذ فرضيتى المفضلة.

ومازلت على استعداد لتعديل عدد كاف من النظريات الأخرى..

أما إذا أسقطت قذيفة من هذا النوع بالفعل فإنه يجب على عندئذ أن أطرح جانبا الفرضية القائلة بأن الأمر كله وهم.

إلا أننى أستطيع الافتراض بأنها أتت من بلد آخر من بلدان العالم.

وإذا تبين أن بداخل «الصحن» الطائر كيانا حيًّا يختلف عن كل ما نعرف فإنه لايزال بإمكانى أن أفترض بأنه قد جاء من جزيرة مجهولة أو حتى من جوف الأرض..

إلا أن افتراض وجود الحياة فى جوف الأرض الحار يتطلب تعديل عدد من النظريات فإذا لم أتردد فى ذلك أمكننى أن أنقذ فرضيتى المفضلة.

وإذا حملنى أحد ركاب هذا الصحن وحلق بى إلى الفضاء الخارجى فإنه يمكننى أن أقول بأن الآلة التى أركبها قد حملتنى فى رحلة صاروخية عرض على خلالها شريط سينمائى شعرت معه كأننى أنظر إلى الأرض وهى تتباعد عنى.

وحتى لو حط الصحن بى فوق سطح المريخ فإنه يمكن لى أن أعلل ذلك بأننى قد وقعت تحت تأثيره المغناطيسى.

وإذا عيل صبر القارئ من ارتيابى بالأمور فرد ذلك إلى أنه بلغ نقطة يعدو فيها القبول بوجود هؤلاء المسافرين بين الكواكب السيارة أسهل من تعديل نظريات أساسية. غير أننى آمل أن أكون قد أقنعت القارئ بأنه يمكن لنا منطقيا، أن ننقذ نظرية ما إذا كنا على استعداد للتخلى عن نظريات أخرى.

والسبب فى ذلك هو التالى:

يجب علينا حين نحاول التحقق من صحة نظرية ما، أن نستخلص مترتبات هذه النظرية يمكن التحقق من صحتها عن طريق المشاهدة..

ويلزم هذه المترتبات أن نستعين لها بعدة نظريات، فإذا لم تتطابق هذه المترتبات مع الخبرة الحسية فإن السؤال الذى يتبادر إلى ذهننا هو:

هل نظريتنا هي الخاطئة أم إحدى النظريات الأخرى ؟ ويمكن لنا دائماً أن نفترض أن النظريات الأخرى هي الخاطئة . كما فعلنا في المثل الذى أعطيناه عن الصحون الطائرة .

ولكن ما القول في المشاهدات المؤيدة للنظرية التي أريد أن أستبعدها ؟

إنها أولا :

تقريبية هي الأخرى مما يجعلنا غير متأكدين بأنه قد جرى التحقق من صحة التكهن . ثانياً : أن التحقق من تكهن واحد أو من عدد محدود من التكهنات لا يجعل النظرية أكيدة . ذلك لأنه سيظل ثمة عدد لا متناه من الفرضيات المتنافسة تستطيع كلها أن تعلل جميع الحقائق المعروفة . إذن فى هذه الحال أيضاً نجد بأننا لا نستطيع إلا القول الاحتمالى » .

وهكذا اندفع كارل بيرسن إلى أن يقرر أن القانون العلمى ليس كشفا ولكنه اختراع ؟ . . !

يقول :

« فالقانون العلمى ليس كشفا لعلاقات موجودة فى طبيعة الأشياء ، وإنما هو اختراع لهذه العلاقات . وهو وصف مختصر لطريقة تعاقب الانطباعات الحسية فى مجال معين ، أو اختزال ذهنى يحل لدينا محل الوصف المطول لتعاقبات الانطباع الحسى » .

ويقرر هرمان راندال أن الإيمان الرومانتيكى كان هو الضامن للأفكار الأساسية التى كتب لها أن تكون مقولات علم التطور الجديد .

وأنه من هذه الرومانتيكية جاء الحافز الأعظم لدراسة الإنسان والعالم من ناحية النمو الوراثى . ثم يقول مصرحا : —

« وهذا هو الدِّين العظيم الذى يدين به العلم للمذهب اللاعقلى » . .

ثم يوضح لنا أن الإيمان بالتطور والتقدم كان أقوى من الشك . وأقوى من العلم وكما يقول « لم يعد التقدم فى نظر أصحاب مذهب التطور الأوائل شيئا يتوقف تحقيقه على الجهود الإنسانى . .

بل أصبح أمرًا محتوما . لقد شك تنيسون — وهو الذى عبر عن إيمان عصره بقواف شعبية — شك فى الخلود بل وفى الله : ولكنه لم يشك أبداً فى التقدم » . .

أما هربرت سبنسر فقد ذهب ، إلى أبعد من ذلك . إذ اعتقد أن التقدم لم يكن مجرد ظاهرة إنسانية بل هو القانون الأساسى للطبيعة بأسرها .

فالنجوم السايرة فى أفلاكها ، ليست أقل يقينا بأن الكون كله متقدم حتما من

أشكال بسيطة إلى أفراد معقدين ومترابطين عضويا . والفردية هي غاية الخلق . ولا يستطيع شيء على الأرض أن يوقف تقدمها الثابت .

وأن الإنسان سوف يبلغ الكمال . وأنه لا ريب فى أن التطور سيصل فى نهاية الأمر إلى الإنسان المثالى .

وأقول : هذا قول يعادل أقصى ما يذهب إليه الدين من الإيمان .

الإلهام فى العلم . .

من المسلم به فى الأوساط العلمية أن المنهج العلمى كان محتاجا إلى غيره لإحراز تقدمه وانتصاراته :

يقول الدكتور كونانت :

« أعظم الفروض التمهيدية الكبرى التى جاء بها تاريخ العلم نشأت نتيجة لعملية ذهنية يعبر عنها أحيانا بأنها « مسة من عبقرية » أو « خاطرة ملهمة » أو « ومضة من خيال باهر » .

وقلما يتبين فيها الناظر أنها كانت نتيجة تمحيص للنتائج كلها أو تحليل منطقى لها أو محاولة منظمة لصياغتها صياغة أدت إلى ما انتهى إليه صاحبها . .)

ويقول د . جون كيمن :

« إننى مقتنع بأن تشكيل النظريات الممكنة سيظل أبدا محصورا بعبقرية العالم الخلاقة .

إن القواعد يمكن لها أن تعين على الخيار إلا أنه ليس ثمة قواعد يمكن لها أن تحل مكان التفكير المبتكر . . » .

ويقول الدكتور ليونيل روبى فى كتابه « فن الإقناع » : « إن العلماء كثيراً ما يتحدثون عن بارقة البصيرة التى تنفذ إلى لب مشكلة عويصة .

يقول ألبرت أينشتين « إن العنصر ذا القيمة الحقيقية هو عنصر البديهة » ويقول : « إن اكتمال البحث قد يكون أحيانا بديلا كافيا عن الخيال . كما يحدث فى البحث الصناعى . ولكن . . .

فى المستويات العليا للعلم لا يمكن أبدا أن يكون بديلا كاملا »

* * *

ليس الأيمان ضرورة من ضرورات الدين فحسب . وليس ضرورة من ضرورات — « المعقولات » فحسب أيضا . ولكنه فوق ذلك كله :

١ — ضرورة من ضرورات التسليم « بالمحسوسات » . .

« يقول كانط فى كتابه مقدمة لكل ميتافيزيقا . . « إننا نسلم بالكائنات المعقولة . ولكننا نتمسك بهذه القاعدة التى

لا استثناء فيها وهى :

إننا لا نعلم شيئاً عن الكائنات المعقولة الخالصة ولا يمكن معرفة أى شيء عنها لأن تصورات الذهن المجردة لا تنطبق إلا على موضوعات التجربة الممكنة ، وبالتالى على الكائنات المحسوسة فقط ، فإذا ما ابتعدنا عنها فإن التصورات تفقد كل – دلالتها . » .

ثم يقول عن المحسوسات – وهذا مدخلنا إلى ما نحن بصدده : –

« توجد موضوعات محسوسة وخارجة عنا . . .

لكننا لا ندرى ما يمكن أن تكون عليه فى ذاتها ، إننا لا نعرف غير ظاهرها ، أى التمثلات التى تحدثها فينا وتؤثر بها على حواسنا . . وبدون أن نتشكك فى الوجود الواقعى للأشياء الخارجية نستطيع أن نقول عن عدد كبير مما نصفها به : أنها لا تخص الأشياء فى ذاتها ، إنما تخص فقط ظواهرها التى ليس لها وجود خارج تمثيلاتنا » .

ويقول « إن ما هو جوهرى يكون غير معلوم » .

٢ – ويقرر هربرت سبنسر فى كتابه « المبادئ الأولى » فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى : أن العلم مضطر إلى الاستعانة بالكثير من المفاهيم الغامضة التى لا سبيل إلى تفسيرها : كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما إلى ذلك وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم . .

وإننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصورا واضحا متمايزا لانتهينا إلى مجموعة من المتناقضات التى لا يمكن أن يقبلها العقل ولننظر مثلا إلى مفهومى المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذاتيان ؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : إن العقل البشرى عاجز تماما عن تفهم حقيقة أمر كل من « المكان ، والزمان . . .

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى المفاهيم العلمية الأخرى كمفاهيم المادة ، والحركة والقوة ، فإنها جميعا تصورات غير قابلة للتعقل .

ومع أن سبنسر يحاول أن يكشف شيئا عن حقيقة هذه المفاهيم ، فهو فى هذه المحاولات ينتهى إلى ، أن ما يعلم منها يدل على حقيقة مجهولة نسلم بوجودها من غير أن نعرفها .

يرى سبنسر أن الزمان والمكان مفهومان مشتقان على سبيل التجريد من شعورنا بنوعين من العلاقة هما علاقة التتابع ،

« الزمان » وعلاقة المعية ، « المكان » ، وأن مفهوم المادة يرجع إلى أبسط صورة لإدراك المادة . وهي تلك التي نجد أنفسنا فيها بإزاء أوضاع متحيزة ذات مقاومة ، وهو يرى أننا لو جردنا الجسم من ضروب المقاومة التي ينطوي عليها لاختفى شعورنا بالجسم تاركا وراءه مجرد شعور بالمكان .

وأما فكرة الحركة فيرى سبنسر أنها مجرد فكرة لاحقة على شعورنا بالقوة .

وشعورنا بالقوة يأتي من إحساسنا بالتوتر الذاتي ، والمقاومة الموضوعية ، ولذا يرى سبنسر أن « القوة » هي الفكرة النهائية للأفكار العلمية النهائية .

ويرى سبنسر أن القوة التي تحدث بمقتضاها كل ما نحققه من مظاهر التغيير هي بطبيعتها قوة نسبية ، محدودة وهي معلولة لعلة أخرى غير مشروطة هي القوة المحضة التي نجد أنفسنا مضطرين إلى إقرارها لتكون بمثابة الطرف المقابل للقوة المعلومة .

وهذه القوة المحضة هي العلة الوحيدة التي تتمتع بالثبات أو الدوام . والتي ليس لها بداية أو نهاية ويستنتج سبنسر من ثبات القوة ، واستمرارها ثبات العلاقات القائمة بين القوى واضطراد القانون .

ويمضي سبنسر إلى حد أبعد من ذلك حيث يستنتج من مبدأ ثبات القوة نتيجة أخرى هي : « تحول القوى وتكافؤها » ويرى أن ذلك لا يصدق على القوى الطبيعية وحدها بل يصدق أيضاً على العلاقة القائمة بين القوى الجسمية والقوى النفسية .

ومعنى هذا أن مظاهر القوة التي تسميها باسم الحركة والحرارة والضوء ، و .. إلخ ، تقبل التحول أيضاً إلى المظاهر الأخرى التي تسميها باسم الإحساس ، والانفعال ، والتفكير ، إن لم نقل إن هذه – بدورها – تقبل التحول إلى المظاهر التي سبقتها .

وهكذا نجد أنه في التحليل النهائي الذي يقدمه سبنسر لما يسميه الأفكار العلمية القصوى ، تنهار الحدود التي يضعها الماديون للمادة لتقف في نفس الموقف الذي توجد فيه المجردات المسلمة .

٣ – ويقرر برتراند رسل – بالرغم من لا أدريته التي يوظفها لمحاربة الدين – ، أن المبادئ العامة اللازمة لتدعيم الاستدلالات العلمية غير قابلة للبرهان بأي معنى مألوف ،

ومما يستدل به على ذلك إيمانه بما يسميه « التوقع الحيواني » الذي لا يمكن البرهنة عليه منطقيا – كتوقع الحيوان في خبرته راغة بعينها تدله على صلاحيته للأكل أو عدم صلاحيته – هذا التوقع

الذى يرقى حتى يستخدم فى أرقى قوانين الفيزياء الكمية .

ويؤكد أنه « ليس من الممكن أن نتنقل خطوة واحدة إذا نحن بدأنا من الشك الديكارتى . » .

ويقول « فعلينا إذن أن نبدأ من تسليم عريض بكل ما يبدو أنه معرفة أيا ما كان وأنه ليس ثمة سبب معين لرفضه » .

ويقرر أن عدد ما توصل إليه من مسلمات خمس هى الآتية :

« مسلمة شبه الدوام » ومسلمة « الخطوط السببية القابلة للانفصال ومسلمة « التمثيل » ومسلمة « الاستمرار المكانى الزمانى » والمسلمة « البنائية »

ولا نريد أن نثقل على القارئ بشرح هذه المسلمات فى هذا المقال [1] ويكفى أن نذكر هنا أن رسل يقرر أنه لا برهان يقوم على هذه المسلمات ، ولكنه يسلمها - كما يقول - لأنها متضمنة فى الاستدلالات العلمية ولأن بناء العلم كله ومعرفتنا فى الحياة اليومية يتوقف عليها .

ويستبدل رسل هذه المسلمات كما يقول بمسلمات أخرى هى مسلمة « السببية » أو « انتظام الطبيعة » بدعوى أن مسلماته أكثر تحديدا وفاعلية .

هكذا بغير برهان . .

هكذا لأنها أكثر تحديدا . . .

هكذا لأنها من الناحية العملية ضرورية . . .

وهل يفعل المؤمن بالدين شيئاً يستغنى فيه عن البرهان بأكثر من ذلك ؟

إلا أن عنق رسل تغلظ ورأسه يتصلب ، وقلبه يقسو ، ليصير « كالحجارة أو أشد قسوة » كلما كان المتجه إلى الله . . .

ولكن هذا العنق يسخو ، وهذا الرأس يطأطئ ، وهذا القلب يلين . . . إذا كان المتجه لغيره .

فهو كما يقول بسكال - ١٦٢٣ - ١٦٦٢ - : إلحاد تدفع إليه « إرادة » الفيلسوف .

ولنا مع رسل لقاءات أخرى .

ويكفى أننا أوضحنا فى هذا المقام أن لهذا اللاأدرى إيمان ، وله مسلمات لكنه يخصصها « إراديا » لغير الله .

٤ - ولقد عدد الأستاذ « بينى كروزيار » ست حقائق يجب علينا الاعتقاد بصحتها فى حين أن العلم يعجز عن معرفتها وإثبات وجودها بطرقه الموضوعية . هى :

١ - الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزنا . .

(١) نحيل القارئ هنا إلى كتاب رسل « فلسفتى كيف تطورت » من ص ٢٤٥ إلى ص ٢٥١ .

خذ مثلاً : النكأة التي أكتب عليها . . .

كل ما في مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك وليست خارجة عن حيزك . . . .

إلا أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة في حيز خارج عنك . . .

٢ – وجود العقل في ذوات من البشر غير ذواتنا .

. . . لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس ، فإن وجود العقل في صاحبي كوجود « واجب الوجود » كلاهما اعتقاد إلزامي ، لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفي الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به كأحد الفروض الجوهرية التي يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا ومعتقدنا .

٣ – الاعتقاد في تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملاذ . . . .

إن خلايا المخ – التي تنشأ من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة – كلها تماثل المادة ولا تدرك – كالمادة – شيئاً من هذه الانفعالات . . .

ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين إلى الاعتقاد بأن هنالك فرقا في المرتبة واقعا بين الانفعالات المتشاكلة . .

٤ – الاعتقاد في ثبات القوة . .

يقرر هربرت سبنسر مبدأ ثبات القوة . . .

لأنها إذا لم تكن كذلك . . . تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . . .

لذلك كان مبدأ ثبات القوة – ولو لم نستطع أن نثبته علميا – اعتقادا إلزاميا ، يعجز العلم عن إدراكه .

٥ – الاعتقاد في أن المادة توجد بوجود قوتي الجذب والدفع . .

أما أن قوتي الجذب والدفع حقيقة طبيعية فذلك لا سبيل إلى إدحاضه . . .

ومع كل هذا فإن هذه الحقيقة تعدو الإدراك العلمي في تعليل أن دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين أنها تدفعها وتقاومها .

يقول سبنسر « ومع هذا فإن الاعتقاد بذلك إلزامي ضروري . »

٦ – الاعتقاد في السببية :

أي أن كل نتيجة لابد لها من سبب وهو اعتقاد في حقيقة نساق إلى اليقين بها ولا يمكن معرفتها من طريق علمي .

إذ لا يوجد في مجرد تتابع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما في مستطاعنا أن نرى أن هنالك سلسلة من سوابق ولوا حق ومع

ذلك نجد أنفسنا مسوقين إلى الاعتقاد في تلك الحلقات غير المرئية من المسببات التي تربط بعض الأشياء ببعض الاعتقاد الذي يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه ».

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر..

« يعتد الماديون المنكرون للقوة المدبرة لهذا الكون بعقليتهم أكثر مما في مستطاعهم أن يثبتوه لها.

فهنالك أشياء يستحيل على العلم الطبيعي أو الفكر نفسه أن يصل إليها: أهمها الماهيات.

خذ مثلا ماهية الحرارة أو الكهرباء، فإنهم لا يستطيعون أن يقولوا فيها إنها أكثر من قوة طبيعية.

على أن كلمة « قوة » و« مادة » تلك الأشياء التي يعتبرونها من الأوليات الضرورية – وإنها لكذلك من حيث ظاهراتها المحسوسة – لا تؤدي إلى العقل إلا معاني غامضة إذا نظر إليها من ناحية ماهياتها.

وكذلك الحال في « الحياة » إذا نظرت إليها من ناحية الماهية فإني لا أستطيع أن أعرف منها قليت صفحات الماديين ما هو الفرق الحقيقي بين القول بخلقها وبين القول بأنها تولدت ذاتيا، مادمنا لم نعرف ماهيتها ولا حقيقتها لأن كلا الأمرين يلزم العقل بأن يفرض أن في الطبيعة قوة مبهمة غامضة.

فالقائلون بالخلق يقولون بأن قوة مدبرة بثتها في المادة، والقائلون بالتولد الذاتي لايتزحزحون خطوة واحدة عن معارضيهم أصحاب الخلق.. لأنهم بقولهم هذا إنما يضيفون إلى القوى الغامضة المبهمة التي يفرضونها في الطبيعة قوة من قواتهم يسمونها الحياة. لا يعنينا في هذا البحث أن نعرف بأن الحياة قد وجدت بداءة ذي بدء في صورة خلية حيوانية أم نباتية، ولا يعنينا أن نعرف إن كان التولد الذاتي لا يزال يحدث حتى اليوم، أم أنه حدث في أزمان خالية مرة أو مرتين ثم لم يتكرر لتغير الظروف الطبيعية. لا يهمنا شيء من هذا بل يهمنا أن نعرف ونسلم بأن الحياة حقيقة لا نعرف منها إلا ظاهراتها »

ويقول أميل بوترو في كتابه « العلم والدين »:

٥ – (أن مقالة ديبوا رايموند[1] المشهورة التي اختتمها بقوله « لا أعلم » لم تزل منذ سنة ١٨٨٠ تتعقب عقول المفكرين. فقد نص على ألغاز سبعة، أربعة منها على الأقل لا تقبل الحل أبدا

(١) عالم ألماني من أصل فرنسي اشتغل بعلم وظائف الأعضاء ١٨١٨ – ١٨٦٩.

وهى :

ماهية المادة والقوة ، وأصل الحركة ، وأصل الإحساس البسيط والحرية ، أما الباقى فهو ، أصل الحياة ، والغائية الظاهرة للطبيعة ، وأصل الفكر واللغة ، وهذه الثلاثة الأخيرة يمكن إرجاعها إلى الميكانيكا العلمية) .

٦ – وإذا كان أرنست هيكل (١٨٨٤ – ١٩١٩) فى كتاب ألغاز الكون لم يقبل ما أعلنه ديواريموند وقرر « أن جميع ألغاز ديواريموند قابلة للحل أو قل أنها منذ الآن قد حلت) تبعا لمذهبه الواحدى . .

فإنه استبق سرا منها هو :

(الجوهر . . . فما هو هذه القوة الهائلة . . التى يسميها العالِمُ الطبيعة أو العالم ؟

ويسميها المثالى الجوهر أو الكون ؟

ويسميها المؤمن الخالق أو الله ؟

. . . ينبغى الاعتراف بأن ماهية هذا الجوهر تصبح أعمق سرًّا . وأشد خفاء كلما تقدنا إلى العلم بصفاتها وتطورها فنحن لا نعرف الشيء فى ذاته ، ذلك الذى يكمن وراء الظواهر المدركة) .

وهكذا يمكننا أن نقول إنه حتى فى نظر أرنست هيكل الملحد يتساوى التسليم بالله والتسليم بالطبيعة ، والتسليم بالجوهر من حيث كونه إيمانا بما هو أعمق سرًّا وأشد خفاء كلما خيل إلينا أننا نعرف عنه شيئاً . .

٧ – ويقول وليم جيمس . « إن فكرة الموضوعية التى تتميز بها التجربة المحسوسة تنطوى من قبل على شيء من الاعتقاد الأولى لأن مقولة الوجود المستقلة عن كل عنصر شخصى هى فى نهاية المطاف اعتقاد ، والاعتقاد أو الإيمان داخل فى صميم كل معرفة » .

٨ – ويقول كارل بيرسن عن لا تجريبية الهندسة :

إن الهندسة تقوم أساسا على فكرتين لا وجود لها فى التجربة . هما فكرتا المماثلة والاتصال فمفهوم الخط مثلا يفترض مماثلة تامة واتصالا كاملا بين كل أجزائه . .

ولكن هذا الاتصال وهذه المماثلة لا وجود لها إلا بالفكر . .

أما التجربة فلا تعرف عناصر تقوم بينها مماثلة كاملة أو اتصال تام . .

ولعلنا لن نجد مثلا أفضل من الهندسة لإثبات العلم يصف عالم الظواهر بمساعدة مفاهيم لا تطابق أية حقيقة واقعة فى الظواهر ذاتها . .

٩ – يقول جون كيمنى عن مفهوم القوة فى العلم التجريبى : « رأينا كيف

ينبغي للنظريات أن تكون مرتبطة بالخبرة عن طريق تكهنات قابلة للمشاهدة . إلا أننا لم نقل أنه ينبغي لكل ما يصدر عن النظرية أن يكون قابلا للتثبت أو أنه يجب أن تكون جميع المفاهيم قابلة للتحديد العملي .

إن كثيراً من المفاهيم التي يقبل بها دعاة الفلسفة العلمية في الواقع مفاهيم يمكن وصفها بأنها « وهمية » ومفهوم « القوة » مثل جيد على ذلك .

ويصرح قانون نيوتن المشهور للحركة بأن ق = ك × ث

حيث يرمز « ق » إلى القوة ، و « ك » إلى كتلة الجسم المعرض لتلك القوة ، و « ث » إلى التسارع معبرا عنه بوحدات قياسية .

وإنه لمن العسير جداً أن يتهرب من الاستنتاج بأن قانون نيوتن ليس نظرية بل هو تعريف للقوة) .

أى أن القوة ، بكلمة أخرى ، مفهوم خيالى يقوم مقام ك × ث ، وقد تنشأ نتيجة للتجارب النفسانية التي تمر بها عندما نبذل قوة ما ، فإذا بنا نحول هذا الشعور بالإجهاد إلى الطبيعة عندما نتكلم عن قوة التجاذب أو القوة الكهرطيسية . وقد يكون هذا التدبير مفيدا من الناحية النفسانية ، إلا أنه غير ضرورى منطقيا) .

أما عن مفهوم الزمن في العلم الحديث ، فإنه يقدم لنا عن ذلك أفكارا بعيدة عن التصور ، ويكفى أن نشير في هذا إلى نظرية « فاينمان » عن « عكس الزمان » أى الزمن ذى البعدين يتجه أحدهما إلى المستقبل ، والآخر إلى الماضى ! ! ، ويقول فيلسوف العلم هانز ريشنباخ « إن نظرية فاينمان ، تمثل أقوى لطمة منى بها مفهوم الزمان في الفيزياء » .

كما يكفى أن نشير إلى نظرية النسبية لأينشتين ، وما قدمته لنا من نسبية الزمان واختلافه باختلاف المكان ، واختلاف جاذبية المادة وكثافتها . . . إلخ ، ولا تترك لنا هذه النظرية فرصة للاعتقاد بأن وراء هذا المفهوم المتذبذب للزمان يوجد مفهوم ثابت مستقر . يقول الأستاذ فريترها برنبرج : « إن قلب نظرية النسبية الخاصة هو التقرير بأن تزامن حادثتين في مكانين مختلفين هو مفهوم مبهم وبنفس الشكل نجد أن نظرية الكم أعطت أهمية قصوى للتقرير بأنه لا معنى للحدث الآنى عن مكان محدد وعن حركة محددة للجسم . ولقد وضع نفس هذين التقريرين مرارا في صورة أخرى هى :

أن قضية « الآنية الحقيقية » لحادثتين

هى مشكلة « باطلة » شأنها شأن المكان المضبوط والحركة المضبوطة للجسم هذه مسائل لا إجابة لها ، لأنها مطروحة بشكل خاطئ »[1].

* * *

يقول رسل :

« تعمل الفيزياء الرياضية مستعينة :

بمكان مكون من نقاط

وزمان مكون من لحظات

ومادة مكونة من جزئيات

وليس هناك عالم معاصر فى الفيزياء يعتقد أن فى الطبيعة مثل هذه الأشياء »[2] ؟ .

ويقول وليم جيمس :

« نحن نؤمن كل الإيمان بأن الأشياء حتى ما يبدو منها كثيرا التعقيد والاضطراب لابد أن يصاغ يوما فى قاعدة جلية واضحة . . . .

ذلك وصف حق الروح العلمية .

فهل تختلف فى الجوهر عن الروح الدينية ؟

وهل لأحد أن يتنبأ ويقول إن مظهرا خاصا من مظاهر العقيدة سوف يصادفه النجاح ، وإن مظهرا آخر لابد أن يكون نصيبه الإخفاق ؟ »[4]

وفى مقالنا القادم نتحدث عن « غيبيات المادة » بإذن الله .

دكتور يحيى هاشم حسن فرغلى

دعاء

إلهى إن كنت لا ترحم إلا المجدين فى طاعتك فإلى من يفزع المقصرون ؟ وإن كنت لا تقبل إلا من المجتهدين فإلى من يلجأ المفطئون ؟ وإن كنت لا تكرم إلا أهل الإحسان فكيف يصنع المسيئون وإن كان لا يفوز يوم الحشر إلا المتقون فبمن يستغيث المذنبون .

(من دعاء على بن أبى طالب)

---

(١) المشاكل الفلسفية للعلوم النووية .

(٢) فلسفتى ص ٢٥٣ .

(٤) العقل والدين ص ٨٩ .

حقائق سافرة
الأزهر والسلام الدينى

الدكتور محمد رجب البيومى

١

رددت بعض الصحف اليومية قولا قديما للكاتب الفرنسى « موريس جودفرى دى مويين » يذهب فيه إلى أن الأزهر عنصر لا يسهم إيجابيا فى السلام الدينى ! وأنا أعرف أنّ صاحب هذا القول المسرف قد أصدر كتابا سمّاه « النظم الإسلامية » حشاه بأخطاء كثيرة نسبها إلى الإسلام خطلا دون صواب ، فإذا نسب للأزهر هذا الرأى الجائر فليس من المستغرب ، لأن من المستغرب فعلا أن ينصف الأزهر من لا ينصف الإسلام .

وواضح أن الأزهر يمثل الإسلام فى كلّ رأى يبديه ، فإذا دعا الإسلام إلى السلام الدينى فهى الدعوة التى يحتضنها الأزهر ويلتزمها أىّ التزام ، وليس ، رأى الإسلام فى السلام الدينى بعيدا عن كاتب يعالج شئون المسيحية والإسلام فى باريس ، وينقل عن الإمام محمد عبده رضى الله عنه آراء كثيرة سردها فى كتاب « الإسلام والنصرانية » كما يعرف سلفاً ما كتبه الأستاذ الإمام فى ردّه على المسيو هانوتو مبينا دعوة الإسلام إلى السلام ومؤاخاة العلم ، واحترام الرأى المخالف ! فيالله كيف يتحدث مؤلف النظم الإسلامية حديث من لا يعرف الإسلام ، وقد تفرغ للبحث عن الشئون الإسلامية حتى عُدّ متخصصا فيها لدى معشره ، وها هو ذا يتحدث عن الأزهر دون دراية ، ولا نَعْذُره فى خطئه المغرض ، لأن رأى الأزهر فى السلام الدينى ذائع مشتهر فى أوروبا وأمريكا أذاعه شيخه الأكبر الإمام محمد مصطفى المراغى فى مؤتمر الأديان ببروكسل عام ١٩٣٦ ، وأذاعه فى باريس عالم من ألمع علماء الأزهر ونابغيه وهو الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى مؤتمر الأديان سنة ١٩٣٩ ، ومازال ممثلو الأزهر يعلنون فى كل

مؤتمر يلتمس فيه النفع ! أفتكون محاضرات مؤتمر الأديان فى باريس بعيدة عن كاتب متخصص ، يتحدث عن الشئون الإسلامية ، ويفرد المؤلفات الخاصة بها ، ثم لا يأذن لنفسه أن يلتفت إلى ما يدور حول تخصصه العلمى فى وطنه . بل إلى ما قيل فى أمور يتصدى للبحث عنها مصدرا رأيه النهائى ! وإذا كان ما قيل عن السلام الدينى والأزهر مما لا يقنعه فلماذا لا يرد عليه بالمنطق الصائب لنعرف أن للرجل أبعادا شاسعة يجهلها الباحثون . أما أن يصدر الحكم عاريا عن أسبابه . وغافلا عما قاله الفاقهون بشأنه فهذا هو الجور الصريح .

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على ما قاله الإمام المراغى . والدكتور دراز فى موقفيهما الجهيريّن . لأن ما قالاه منذ أكثر من أربعين عاماً يدل على أنّ الأزهر لا يلبس أردية مختلفة تتنوع وفق الاتجاهات المتعارضة ، بل يلتزم بمنطق الإسلام فى مواجهة الأحداث ، وآية ذلك أن رجال الأزهر اليوم يقولون عن اعتقاد ما قاله أسلافهم الفاقهون ، لا لأنّ اللاحق يقلد السالف ، بل لأن المصدر واحد لا يختلف وهو القرآن الكريم .

٢

انتشر التبشير بمصر فى الثلاثينيات انتشارا أساء إلى القائمين به ممّن لا يراعون حرية العقيدة فى بلد إسلامى يرعى روابط الإنسانية والوطنية ، وتحدث الهيئات الإسلامية أسباب هذا الاعتداء الصارخ على حريات المعتقدين وفى مقدمتها مشيخة الأزهر فأدركت أصابع الاستعمار المحرّكة للمهزلة المنكرة من وراء ستار ، فاندبت الأقلام المؤمنة تفضح ما استتر من الدسائس ، وتدين قوماً يتظاهرون فى الخارج بالدعوة إلى سلام الأديان ، ويقيمون المؤتمرات الداعية لهذا السلام . ثم جاءت الدعوة إلى شيخ الأزهر ليمثّل الإسلام فى مؤتمر بروكسل . ولو كان الأستاذ الأكبر أسير عاطفته الشخصية وحدها لرفض الدعوة من قوم ينضم إليهم من يكيد فى الباطن . ويتظاهر بالمودّة فى العلن . ولكنّ الإمام المراغى قد اهتبل الفرصة ليدعو باسم الأزهر إلى سلام دينى حقيق . وليوجد أرضا مشتركة يقف عليها دعاة الأديان المختلفة غير متنابذين ، وهو فى ذلك يصدر عن دين أمر دُعاته أن يهدوا الإنسانية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإذا كان جدال فبالتى هى أحسن ، وقد استعان

الأستاذ الأكبر بثقافة العصر الحضارية . ومقررات العلوم الإنسانية حين أشار فى بدء كلمته إلى أن فكرة الزمالة بين المتدينين فكرة طبيعية . وهى ليست نظرية فلسفية بل حاجة ضرورية تولدت فى النوع البشرى . ومع الشعور بهذه الزمالة . فإن أسباب التفرق أيضاً لها موجباتها الضرورية إذ أن الإنسان لا يسير بالعقل وحده حتى تحسم أموره مع المخالفين على وجه حاسم صريح . ولكنه يخضع لغرائز قاهرة تضطره إلى مجانبة المنطق فى بعض الأحيان ولذلك كان الإخاء الإنسانى العالمى أمراً ميئوساً منه . مادامت هناك شهوات تمليها الغريزة . ولن يقدر التقدم العلمى على التغلب على هذه الشهوات المتأصلة . وإذا أمكن بعامل من العوامل أنْ تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الإنسان فإنه لا يمكن أن تنطفئ تلك النار .

والتدين – فى رأى الأستاذ الأكبر – أصيل فى كل نفس . ولا يحجبه إلا غشاوات عارضة تنقشع أمام النظر البصير وفى هذا التدين ما يهبط بقوى الغرائز الفاجة . فيخفف من شرورها الكثيرة فالشعور الدينى إذا عمق وتأصل فلّ من أسلحة الأنانية والتجبر . ورفع الإنسان إلى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه والطبقة . ودعا إلى طمأنينة وسكينة تهونان الرزايا والأحزان . وبعد أن تحدث الإمام المراغى فى مرارة عما ارتكب من المآسى بسبب الخلافات الدينية . والدين منها براء . عمد إلى إيضاح رأى الإسلام فى السلام الدينى فقال[1] :

« وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما . فإنه فضلا عن سعيه للبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا للإنسانية . وهى الزمالة العالمية بين أفراد النوع الإنسانى وأممه . فإنه بهذا السعى يحقق غرضا أساسيا من الأغراض التى سعت إليها الأديان . وعنى بها الإسلام الذى أدين به . فقد نبه القرآن إلى وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر . والمبعدة عن التناكر والاختلاف . ولم يقم وزنا لشرف المولد . وكرم الجنس ووضع معيارا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل . وهو تقوى الله . وفى القرآن الكريم (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وفى القرآن الكريم (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم . وتقسطوا

(١) مجلة الأزهر . المجلد السابع ص ٣٠٤ .

إليهم إن الله يحب المقسطين) .

ثم تحدث الإمام المراغى عن الزمالة المنشودة بين رجال الدين ، داعيا إلى الوئام الحقيق ، وقد اضطر إلى أن يدين فى وضوح ما يرتكبه المبشرون من منكرات حين يلجئون إلى ديار الإسلام ، ليُغْرُوا الضعفاء بالمال والمنصب والعقار كى يتركوا دينهم دون إقناع منطق ثم وضع النقط على الحروف حين قال :

« ومما يثير العجب ويضاعف الألم أن أهل الأديان يحشدون جهودهم لمقاتلة بعضهم بعضا مقاتلة أسرفوا فيها وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك ، وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق ، مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة ، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج فقد تركوا التأثير على الإنسان من ناحية عقله الذى هو موضع الشرف ، وموطن العزة والكرامة ، واستعملوا طرق الإكراه والإغراء بالمال وغيره من الوسائل وركن بعضهم إلى القوى المادية للدول ، وقد نسوا أن الإيمان لا يحل القلب ، بالإكراه ، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل ، ونسوا أن العدو جادٌّ فى إنزالهم من مكانهم اللائق بهم وأن شرور العالم تغمر الإنسانية وتطغى على ما بقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الآلهية ، وكان عليهم بدل ذلك كله أن يتعاونوا على درء الخطر ، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة وهذه الإباحية التى يئن منها العقلاء [1]) .

ثم ختم الأستاذ الأكبر كلمته باقتراحات هادفة تدعوا إلى تنمية الشعور الدينى من الضغائن والأحقاد ، وتوجيه الوعظ الدينى إلى الطريق الإنسانى المجَمِّع لا المفرق ، وجعل الدعاية الدينيّة قائمة على أساس عقلى محض يدعمه حب الحقيقة ، واستشهد بما يؤيد فكره الناصح بأصول إسلامية من آيات القرآن مثل قوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) وقوله عز وجل (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

وقد قوبلت كلمة الإمام المراغى بما هى جديرة به من الاحتفاء ، وليس لمدعٍ بعدها أن يعلن أن الأزهر يقف فى وجه السلام الدينى تعرضا دون برهان .

٣

أما الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فإن قراءه الكثيرين يعرفونه بإصابة القول وجزالته وجدّته ، وأشهد أنه ما قرأ له عارفوه مقالا أو كتابا أو استمعوا إلى محاضرة

(١) المرجع السابق ص٣٠٨ .

علمية من محاضراته إلاّ انتفعوا بالجيد الطريف الزاهر . فَهُمْ فى دوحة مورقة ذات ثمر وظلّ ونسيم ، وقد أحسن الأزهر اختياره يمثل شيخه الأكبر فى مؤتمر الأديان بباريس حين انعقد سنة ١٩٣٩ ، فألقى محاضرة هادفة قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : إنّ كلمة الأزهر هى الكلمة الرئيسية ، وقد وافق الحاضرون بالإجماع على اقتراحين قدمها الشيخ دراز للمؤتمر فكان فوزه الباهر فوزًا للسلام الحقيق كما ينادى به مسلم داعية غيور ، وقد بدأ الدكتور محاضرته متسائلا عن سرّ العداوة والشحناء اللتين تعمان عالم اليوم ، وألمح إلى أثر المادية فى التزاحم على الاستلاب والغزو والاستعمار ، وقد رأى فى الدين مرفأ النجاة ، وهو يعلم أن رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون ، وقد أعمل فكره ليجمعهم فى جبهة واحدة يتقى معها النزاع ، وقال فى توضيح ذلك[1] .

« غير أنا إذا رجعنا إلى الأديان نلتمس منها المعونة ، هالنا ما نراه من اختلافها اختلافاً ظالماً كان من أسباب الخصومات والحروب بدل أن يُساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب . فهل نستطيع أن نجد من وراء هذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبادئ والمطامح تصلح أن تكون محورا لتقرير السّلام بين معتنقيها ، وتسهيل تعاونهم على الخير المشترك للجميع ، هذه هى النقطة الأساسية التى تدور عليها أعمال المؤتمر ، وهذا هو الإشكال الذى يحاول المؤتمر أن يجد له حلاً .

أما أنا – أى الشيخ دراز – فأميل إلى أن يكون الحل على أساس الفصل فى الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى ، وأعتقد أن افتراق الأديان فى عقائدها وشعائرها وكثير من تعاليمها لا يمنع أن تلتقى من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة هى أساس التعاون المطلوب ، وذلك أنها كلها تأمر بالعدل والإحسان ، وتنهى عن الظلم والعدوان ، وكلها تسوّى فى هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها » لقد نادى الأستاذ إذن بالحلّ العملى ، بعيدا عن الغوص الجدلى فى مشكلات لا تصل إلى نتائج ، وبعيدا عن التظاهر بالعمق النظرى تظاهرا يعود على القائل بالمباهاة دون أن يفيد المجتمع الإنسانى شيئا ذابال ، وقد ساعد الأستاذ اطلاعه المقارن الشامل على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من هندية وبوذية ويهودية ومسيحية وإسلامية حديثا واعيا بصيرا ليأخذ من كل دين دعوته إلى السلم المتسامح

(١) مجلة الأزهر ، المجلد العاشر ص ٥٣٣ .

فيعتدها حجر الزاوية فى لقاء هذه الأديان ، وكان من الطبيعى أن يفصل رأى الإسلام نظريا وعمليا فى قضية السلام العالمى فيرى أن دعوة الإسلام إلى الائتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين أولاهما من طريق توحيد الغاية وذلك بدعوة الناس جميعا إلى عبادة رب واحد . وثانيهما من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية حين أرجع القرآن الكريم الشرائع السماوية إلى أصل واحد . ودعا إلى الإيمان بجميع الرسل والأنبياء وكتبهم المنزلة (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) بل إن الإسلام نفسه — فى اصطلاح القرآن الكريم — اسم مشترك يضعه كتاب الله على لسان أنبياء الله قبل محمد . فيقول فى شأن إبراهيم (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) ويقول فى شأن يعقوب (إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون) ومضى الباحث يستعرض نظائر هذه الآيات .

أما الوجهة العملية فالإسلام قد حذر من مناوشة مخالفيه أو مضايقتهم ماداموا مسالمين ، فإذا تركوا السلم إلى الحرب فإن الإسلام يدعو إلى إعداد القوة دون أن يغفل الإنصات إلى دعوة المهادنة حيث تثمر خيرها دون عنت وإرهاق ، فإذا لم تثمر وئاما يحفظ الأرواح كان على المحارب المسلم أن يحصر القتال فى أضيق نطاق يقول الله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . . . (1) .

وفى ختام كلمته البارعة استخلص الأستاذ نتائج ثلاثا تنحصر فى أن الأديان — أولا — يجب من الآن أن تكون سبب وفاق ووئام لا مدعاة نزاع وخصام ، كما أن السبب — ثانيا — فى الخصومات الدينية هو الانحراف عن الدين لا اتباعه أما العلاج الحتمى — ثالثا — فهو العناية بين رجال الأديان جميعا بالجانب الخلقى العام لتنمو العاطفة الدينية لدى المتدينين جميعا فيعيشون فى سلام » .

هذا بعض ما يمكن تلخيصه من كلمة الدكتور دراز ، فإذا ضُمّت إلى كلمة الإمام المراغى وقد ترجمتا معا إلى الفرنسية ووزعتا على المؤتمرين من شتى ممثلى الأديان فى الشعوب والقارات . فليس لأحد من

(1) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٥٣٧ .

المتحدثين عن الأزهر أن يصمه بمجافاة السلام ، بل إن المنصف ليقدّر لممثليه تسامحهم الإنسانى حين أغضوا عن اتهام خصومهم بما ارتكبوه فى ديار الإسلام شرقا وغربا من اعتداء صارخ على الحرية الدينيّة ، وفى وسعهم أن يستشهدوا بما ذكرته الصحف الأوربية نفسها من هذه الفظائع المخجلة ، لأن الحق لا يعدم أنصاره حتى من بين مناوئيه ، ولكنّ داعيى الأزهر قد أسدلا الستار على ما كان ، طمعاً فى أن يميل الميزان إلى الاعتدال ، وارتقابا ليوم تنفع فيه النصيحة المخلصة ، والدعوة الصادقة فتغنى عن عناء كثير.

٤

وبعد ،

أفيكفى فى وقتنا العصيب أن يكون السلام بين الأديان هو المطمح الأمثل ، أم يجب أن نمتد بالسلام السلبى إلى تعاون إيجابى أمام ما يهدد الإيمان من خطر شيوعى يزحف إلى كل مكان .

إن الذين ينكرون عالم الغيب مرتكنين على شبه تتسم بسمات العلم دون أن تؤسس على يقين جازم ، فى حاجة إلى من يعارضهم بسلاح العلم نفسه ليثبت أن الإيمان بالله حقيقة مكينة ، لها أثرها الحىّ فى طمأنة النفوس ، وبُعدها عن الهواجس المريبة ذات الفزع والاضطراب ، ثم إن دعاة الإلحاد يجدون طريقهم سهلا هينا لأنهم ينفون كلّ التزام جزائى فى ارتكاب الموبقات ، إذا لم يقدّر لها أن تذاع على ملأ من الناس ، والنفوس بطبيعتها تميل إلى التحللّ من القيود فهى إلى دعوات التحلل أسهل مقادة وألين عريكة مما يجعل الماديين يسبحون مع التيار العام ، أما دعاة الإيمان فيحاولون إقامة السدود المنيعة أمام الأهواء ، ويدعون إلى قوة الإرادة وشدة الحسم نفوسا يسوءها أن تكبح بلجام ، فطريقهم شاق وعر وعليهم أن يتعاونوا متساندين ليُعلوا كلمة الله ، وإذا كنا نرى دعوات الإلحاد تمتد وتتسع بحيث تحتل معاقل جديدة على فترات متعاقبة ، فإننا نهيب برجال الأديان أن يحموا أوطانهم من الزحف الراصد ، وإذا كنّا بالأمس نركن إلى الإغضاء عمن يحاربون الإيمان استخفافا بأثرهم فقد أثبتت الأيام أنهم يتقدمون وراء خطة مدروسة ، ويقفون جميعا متأهبين للانقضاض ، ولن تندحر جموعهم إلا إذا قوبلت بإعصار كاسح يستأصل الجذور الثابتة فى الأرض ، ويضع مكانها بذور الحب والإيمان .

د . محمد رجب البيومى

الردة والخوارج

الأستاذ / السيد حسن قرون

هل لحروب الردة دفعة فى ثورة الخوارج ؟ قد تبدو الإجابة عسيرة عن هذا الاستفهام ، وقد يكون الاستفهام نفسه غير وارد على الأفهام ، ولكن شاعر الخوارج أجاب إجابة واضحة لا تحتاج إلى تأويل ، أو إلى إحسان الظن به قال :

ألم تر أن الله أظهر دينه
وصلت قريش خلف بكر بن وائل

وتزيدك المناسبة بيانا ، قال الرواة ومنهم الطبرى والجاحظ : إن الخوارج بعد مقتل الوليد بن يزيد جيشوا الجيوش بقيادة « الضحاك بن قيس الشيبانى » وملكوا العراق وساروا فى خمسين ألفا ، وانضم إليهم بعض أمراء البيت الأموى ، فبايع « عبد الله بن عمر بن عبد العزيز » « وسليمان بن هشام بن عبد الملك » الضحاك زعيم الخوارج ، ومن هنا كانت بهجة الشاعر وتغنيه بالصلاة خلف « بكر بن وائل » وهذا يدعونا إلى الرجوع إلى الوراء ، إلى « الردة » فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق ونهوضه لحرب أعادت الأمر إلى نصابه ، فعادت الجزيرة العربية إلى الإسلام كما خلفها محمد ﷺ . وكانت القبائل التى أظهرت قسوة وتنكيلا بالمسلمين بينها بنى أسد ، وتميم ، وبنى حنيفة والأخيرة فرع من بكر بن وائل ، وبنو حنيفة وقفوا موقفا عدائيا من الإسلام حسدا لقريش بزعامة مدعى النبوة « مسيلمة الكذاب » فكلفوا المسلمين بذل الدماء والأموال .

وأبلى خالد بن الوليد وجنده بلاء حسنا حتى قضوا على مسيلمة فى حرب ضروس لا داعى لتفصيلها . وقد دفعنى شاعر الخوارج الذى فرح بصلاة قريش خلف بكر بن وائل أن أراجع تاريخ الردة والتاريخ الإسلامى عامة حتى أستوثق من الإجابة عن السؤال الذى بدأت به هذا المقال ، فرجح لدى أن عامل الحسد على قريش لما أتاها الله من النبوة والخلافة هو الذى دفع إلى الردة ، والردة لها أثرها فى الثورة على عثمان بن عفان والخروج على علىّ بن أبى طالب ، فالثائرون على عثمان لم ينالوا ما

أملوا ، فقد لجئوا إلى أحد القرشيين فاتخذوه خليفة بعده وهو «علي» وبدت لهم خيبتهم حين رأوا عليا يولى أربعة من بني عمه العباس ولاة على الأقاليم . قال قائل منهم : كيف فعل هذا ؟ قال الأشتر النخعي : لا يكون إلا هذا ، ومعنى هذا أن الخليفة يختار لعمله من يثق به ، ولا مانع أن يكونوا من أقرب أقاربه ، وما فعله عثمان لا يعدو ما فعله علي .

ومن هنا بعدوا عن الإخلاص ، وبيتوا الخذلان فكانوا أخبث جند كما وصفهم معاوية بن أبي سفيان . وحكاية التحكيم ضرب من الخروج وشق العصا والثورة على الخليفة القرشي ؛ فما إن رفع أهل الشام المصاحف في «صفين» طالبين حكم القرآن بين الفئتين المتقاتلتين حقنا للدماء حتى أعلن أصحاب علي قبول التحكيم ، فبين لهم عليّ أنها وهن وخديعة ، فأبوا إلا قبول التحكيم ، وعليّ رجل يحب الشورى واتفاق الجماعة ، يناقش الرأي فإذا رأى مخالفيه لا يرتضون رأيه دخل فيما دخلوا فيه ، بايع أبا بكر وعمر وعثمان ولم يحدث خلافاً ولو أراده لكان ، فلما رأى جنده يرون ما رأى جند الشام نزل عند رأيهم .

وأراد اختيار عبد الله بن عباس ليكون قريع عمرو بن العاص فأبوا إلا «عبد الله بن قيس» المشهور بأبي موسى الأشعري[1] فنزل عند رأيهم أيضا ، وأبو موسى لا يعرف للخلافة إلا عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ، وعند بدء خلافة علي رفض البيعة ولولا تهديد الأشتر النخعي له ما بايع عليا ، ويقال ، إن عليا كان يريد أن يكون أحد الحكمين ، «أبا الأسود الدؤلي» ، وقد سأله معاوية عام الجماعة فقال له : بلغني أن علي بن أبي طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين ، فما كنت تحكم به ؟

قال : لو جعلني أحدهما لجمعت ألفا من المهاجرين وأبناء المهاجرين ، وألفا من الأنصار وأبناء الأنصار ثم ناشدتهم الله : آلمهاجرون وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أم الطلقاء ؟ قال له معاوية : لله أبوك ! أي حكم كنت تكون لو حكمت . ولكن أبا موسى لم يفكر هذا التفكير ، ولم يذهب هذا المذهب وأصحاب علي لم يفكروا فيما وقعوا فيه وفرحوا أن يكون أحد الحكمين ليس قرشيا ، وظهر من ينكر التحكيم ، فرجع معاوية وأهل الشام بالمودة والألفة ورجع علي وأهل العراق بالشقاق والافتراق . وهنا يذكرون أن أول من حكّم وقال : «لا حكم إلا لله» رجل من بني تميم هو «البرك» واسمه الحجاج بن

(١) خلع أبو موسى عليا وثبت عمرو معاوية .

عبد الله ، وهو أحد الثلاثة الذين تآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص وهو الذى ضرب معاوية على أليته تنفيذا للمؤامرة ، فإنه لما سمع ذكر الحكمين قال : أيحكم فى دين الله ؟ فسمعه سامع فقال : طعن والله فأنفذ .

وقيل : أول من حكَّم بين الصَّفَّين رجل من بنى يشكر بن بكر بن وائل ، فإنه كان فى أصحاب علي ، فحمل على رجل منهم فقتله غيلة ، ثم مرق بين الصفين فحكم ، وحمل على أصحاب معاوية فكثروه ، فرجع إلى ناحية علي فحمل على رجل منهم ، فخرج إليه رجل من همدان فقتله ، فقال شاعر همدان :

ما كان أغنى اليشكرى عن التى
تَصَلَّى بها جمرا من النار حاميا
غداة ينادى والرماح تنوشه
خلعت عليا باديا ومعاويا

منى عينه أن يخلع عليا ومعاوية ، فمن يكون الخليفة إذن ؟ إن مسيلمة الكذاب قال لهم : « لنا نصف الأرض ولقريش نصفها » وهذا الخارج الأول يريدها خالصة ولا يقبل نصفها ، لقد خلع عليا ومعاوية .

فالبرك وهو تميمى أنكر الحكومة وطعن فأنفذ ، واليشكرى جال بين الصفين بقتل ويروع ويخلع الخليفة ومنازعه ، لأنهما قرشيان ، وكل من ذكر فى المبادرة إلى الخروج على القائد والخليفة تجده إما من تميم وإما من بكر بن وائل وقد يكون بينهم أحد من بنى أسد ، فبنو يربوع من تميم لا تنسى مقتل « مالك بن نويرة » وبنو حنيفة وإخوتهم من بكر بن وائل لا تنسى حرب اليمامة وحديقة الموت ونهاية مسيلمة الكذاب وبنو أسد ، ولو أن طليحة بن خويلد رجع إلى الإسلام وصار مجاهدا يستحق الثناء الجميل إلا أن بنى أسد كانوا يحبون أن يذكروا ولو بالسوء ، وخروجهم لا يعد خروجا فهم يرتضون خلافة قريش لأنهم مضريون مثلهم .

وأعود فأقول : إنى لا أكتب تاريخا له بدء وانتهاء ، ولكنى أريد أن أبين أن الخوارج ليسوا — كما وصفوا — بأنهم أول من تطور من المجتمع الإسلامى فارتفع عن دعوى القبلية ، وأحلوا محلها الأخوة الإسلامية ، وأنهم ناضلوا عن مذهب رأوه يتفق والتعاليم الإسلامية ، إنهم قبليون فى تصرفاتهم ، وإن كان بعض أتباعهم من القبائل الأخرى أو من الشعوب المفتوحة اغتر بدعاواهم ، ورأوها هدى ونورا . وانظر معى حين صاروا فرقا وشيعا ، من كان رؤساء تلك الفرق ؟ نجد النجدية نسبة

إلى « نجدة بن عامر الحنفي » والأزارقة نسبة إلى « نافع بن الأزرق الحنفي » والصفرية وأشهرهم عمران بن حطان – وكان رأس القَعَد من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم وهو منْ بني شيبان إحدى قبائل بكر بن وائل .

إن رواسب الماضي تحركهم وتدفعهم إلى قتال كل خلافة قامت منذ مقتل عثمان إلى القرن الثالث الهجري . فقد عاقوا المسلمين عن القيام بواجبهم نحو نشر النور في الشعوب ، ورفع المعاناة عن البشرية التي تعبد الأوثان والطغيان ، بدءوا بإنكار التحكيم وانتهوا بتكفير جميع المسلمين ، وجعلوا الخروج على السلطان هجرة لها ثوابها ومن المبادئ الأساسية تكفير عثمان في الست الأخيرة من سنوات حكمه ، وتكفير علي بقبوله التحكيم ، ثم تكفير جميع الأمة الإسلامية ممن لايؤمنون بما آمنوا ، ويعتقدون بما اعتقدوا ، فكانوا حربا على الأمن والنظام ، فما إن يحلون بأرض حتى يعيثوا فيها فسادا قتلا وتخريبا ، ولا أريد أن أظلمهم فعلي أن أذكر شيئا من حوارهم لنرى مدى الإنصاف عندهم وبدهي أن نبدأ بحوارهم مع علي وأتباعه ، لأن المؤرخين يجعلون بدء تاريخهم من لدن قبول علي التحكيم وإن كان الأمر غير ذلك كما بينت في صدر المقال .

قال المبرد في كتاب « الكامل » في حديثه عن « الحرورية » إن عليا ناظرهم بعد مناظرة ابن عباس رحمه الله إياهم فكان مما قال لهم : ألا تعلمون أن هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : هذه مكيدة ووهن ، وأنهم لو قصدوا إلى حكم المصاحف لم يأتوني ثم سألوني التحكيم ، أفعلمتم أنه كان منكم أحد أكره لذلك مني ؟ قالوا : اللهم نعم . قال : فهل علمتم أنكم استكرهتموني على ذلك حتى أجبتكم إليه ، فاشترطت أن حكمها نافذ ما حكما بحكم الله عز وجل فإن خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء ، وأنتم تعلمون أن حكم الله لايعدوني . قالوا : اللهم نعم . . ثم قالوا : حكمت في دين الله برأينا ونحن مُقرّون بأنا قد كفرنا ونحن تائبون فأقرر بمثل ما أقررنا وتب ننهض معك إلى الشام . فقال : أما تعلمون أن الله جل ثناؤه قد أمر بالتحكيم في شقاق بين رجل وامرأة فقال تبارك وتعالى : (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) وفي صيد أصيب في الحرم كأرنب يساوي ربع دينار ، فقال عزّ وجلّ : (يحكم به ذوا عدل منكم) فقالوا : إن عمراً لما أبي عليك أن تقول في كتابك : هذا ما كتبه عبد الله علي أمير المؤمنين محوت اسمك من الخلافة ، وكتبت « علي ابن أبي طالب »

فقال لهم : لى برسول الله ﷺ أسوة حيث أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب هذا كتاب كتبه محمد رسول الله وسهيل بن عمرو فقال « سهيل » : لو أقررنا بأنك رسول الله ما خالفناك ، ولكنى أقدمك لفضلك . ثم قال : اكتب : محمد بن عبد الله ، فقال لى : يا على امح رسول الله ، فقلت : يارسول الله لا تسخو نفسى بمحو اسمك من النبوة .

فقال عليه السلام : قفنى عليه ، فمحاه بيده ﷺ ، ثم قال : اكتب محمد ابن عبد الله ثم تبسم ، فقال : يا على أما أنك ستسام مثلها ، فتعطى ، فرجع منهم ألفان من « حروراء » وسماهم « الحرورية » ثم تعرضوا بعد الحوار للرجل الصالح « عبد الله بن خباب » وقد لقيهم وفى عنقه مصحف ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له : إن هذا الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك . قال : ما أحيا القرآن فأحيوه ، وما أماته فأميتوه . ثم حدثت أمور منهم جعلته يحسن الظن بهم ، منها أن خارجيا وثب على رطبة فوضعها فى فيه ، فصاحوا به ، فلفظها تورعا ، وعرض للرجل منهم خنزير فضربه الرجل فقتله ، فقالوا : هذا فساد فى الأرض ،

فاطمأن عبد الله بن خباب وقال لهم : ما على منكم بأس ، إنى لمسلم . قالوا له : حدثنا عن أبيك ، قال : سمعت أبى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسى مؤمنا ويصبح كافرا ، فكن عبد الله المقتول ولا تكن القاتل ، قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيرا . قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان ست سنين؟ فأثنى خيرا . قالوا : فما تقول فى الحكومة والتحكيم؟ قال أقول : إن عليًّا أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة . قالوا : إنك لستَ تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائها ، ثم قربوه إلى شاطئ النهر فذبحوه .

وهنا كان لابد من القصاص وهو من حدود الشريعة الإسلامية والإمام هو على ابن أبى طالب ، فطالبهم بتقديم قاتل عبد الله بن خباب ، وكانوا ستة آلاف وقف إزاءهم وأمرهم بالرجوع وتسليم القاتل ، فركبوا رءوسهم وقالوا : كلنا قتله وشرك فى دمه وانتهى الكلام فكان القتال . حمل رجل منهم على صف على — وقال على : لا تبدءوهم بقتال — فقتل ثلاثة من أصحاب على وهو ينشد :

أقتلهم ولا أرى عليا
ولو بدا أو جرته الخطيا[1]

فخرج إليه علي فقتله ، فلما خالطه السيف قال : «حبذا الروحة إلى الجنة» فقال عبد الله بن وهب الراسبي وهو من رؤساء الحرورية : ما أدرى أإلى الجنة أم النار ؟ فقال رجل من بني سعد : إنما حضرت اغترارا بهذا - إشارة إلى الراسبي - وأراه قد شك فانخزل بجماعة من أصحابه . ومال ألف منهم إلى راية أبي أيوب الأنصاري ، ودارت الدائرة على الخوارج ، وما كان أغناهم عن قطع الطريق وقتل مسلم لم يشهر سيفا ولم يدع إلى حرب ، وقد فطن الأذكياء من المسلمين إلى مسلكهم فكانوا يحتالون لأنفسهم إذا وقعوا بين أيديهم من ذلك ما حدث «لواصل بن عطاء» رأس المعتزلة بعد سنوات كثيرة من حادث ابن خباب ، أقبل في رفقة فأحسوا الخوارج فقال واصل لرفقته : إن هذا ليس من شأنكم فاعتزلوا ودعوني وإياهم ، وكانوا قد أشرفوا على العطب ، فقالوا : شأنك ، فخرج إليهم . فقالوا : ما أنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده . فقالوا : قد أجرناكم . قال : فعلمونا فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، فجعل يقول :

قد قبلت أنا ومن معي ، قالوا : فامضوا مصاحبين ، فإنكم إخواننا ، قال : ليس ذلك لكم ، قال الله تبارك وتعالى . (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ، ثم قالوا : ذاك لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن . وحيلة «واصل» تدلك على هوسهم الديني ، وعمايتهم عن نور الحق ، وتنكبهم الطريق السوي . وحين يحدث الحوار معهم قد يخيل إليك أنهم يقتنعون إذا ظهرت البينة وقام الدليل ، ولكن حوارهم يعقبه غالبا امتشاق الحسام وإراقة الدماء إلا إذا كان محاورهم في منعة لا يطاولونها ، ومن حوارهم ما جرى بين نجدة بن عامر الحنفي وعبد الله بن الزبير حين قام بالخلافة بمكة ، وكان مع نجدة نافع بن الأزرق الحنفي وجماعة كبيرة ، وجرى بينهم نقاش طويل ، وقالوا قبل لقائه نناظره فإن قدم أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان وعلي وكفّر أباه وطلحة تابعناه ، فدخلوا وهو متبذل غير مستعد للقتال وأصحابه متفرقون عنه ، وعرضوا عليه ما تناظروا فيه .

---

(١) الرمح تنسب إلى خط موضع باليمامة تحمل إليه الرماح من الهند فتقوم به .

وختموا مقالهم بالوعد والوعيد قالوا له : إن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ، ونسأل الله التوفيق ، وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين التى أحلت دمه وأفسدت أمانته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا .

فكان رد عبد الله بن الزبير : إن الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العُتاة بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى وأخيه فى فرعون : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله ﷺ : (لا تؤذوا الأحياء بسب الموتى ، فنهى عن سب أبى جهل من أجل « عكرمة » ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم على الشرك والجاد فى المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله ﷺ قبل الهجرة والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنبا ، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ، فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى[1] بسب أبى وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى أبويه : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) ، وقال جل ثناوه : (وقولوا للناس حُسْناً) وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده وليس يغنيكم إلا التوقيف والتصريح ، ولعمرى إن ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه ، فروحوا إلىّ من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله .

فلما كان العشى راحوا إليه فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نجدة قال : هذا خروج منابذ ومنابذ لكم ، ثم خطبهم ابن الزبير وبين فضل أصحاب محمد ﷺ ونوه بجهادهم وما كان منهم بعد أن غاب هاديهم ثم قال : فإن يكن ما سعوا فيه حقا فأهل ذلك هم ، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها . وابن الزبير فى كل ما ذكره أولا وأخيرا أصاب كبد الحقيقة ، ولو أنهم ممن يسمعون القول فيتبعون أحسنه لهدوا إلى الرشد وإلى طريق مستقيم ، ولكنهم اعتقدوا عقيدة وأرادوا أن يكرهوا عليها كل مسلم وهم فى نظر مخالفيهم من الضالين .

ولنافع بن الأزرق حوار مع عبد الله ابن عباس نذكره لطرافته .

قال عكرمة[2] : رأيت عبد الله

---

(١) تغضبونى .

(٢) مولى ابن عباس وعالم من علماء المسلمين .

ابن عباس وعنده نافع بن الأزرق وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة ، فسأله عن قول الله جلّ ثناؤه : (والليل وما وسق) فقال ابن عباس : وما جمع . فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ قال ابن عباس : أما سمعت قول الراجز :

إنَّ لنا قلائصا حقائقا
مستوسقات لو يجدن سائقا

القلائص : النوق الشباب والحقائق ما استحقت أن يحمل عليها . وسأله عن قوله عز وجل : (قد جعل ربك تحتك سريا) فقال ابن عباس : هو الجدول ، فسأله عن الشاهد فأنشده :

سَلْماً ترى الدالج منها أزورا
إذا يعج فى السرىّ هرهرا

السلم الدلو الذى له عروة واحدة وهو دلو السقائين ، والدالج الذى يمشى بين البئر والحوض ، والسرى هو الجدول كما قدمنا . وسأل ابن عباس عن قوله : (عتل بعد ذلك زنيم) ما الزنيم ؟ قال : هو الدعىّ الملزق . أما سمعت قول حسان بن ثابت :

زنيم تداعاه الرجال زيادة
كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وسأله عن قوله جل اسمه : (والتفت الساق بالساق) قال ابن عباس : الشدة بالشدة ، فسأله عن الشاهد فأنشده :

أخو الحرب إن عضّت به الحرب عضّها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمّرا

واستطرد نافع إلى شىء آخر ، فسأل ابن عباس قائلا : أرأيت نبى الله سليمان ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته ، فقال له ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء والهدهد «قناء» الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها فسأل عنه لذلك . قال ابن الأزرق : قِفْ يا وَقّافُ ، كيف يبصر ما تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا ابن الأزرق ، أما علمتَ أنه إذا جاء القدر عشى البصر ، وقد عرضت لك عقل كل من نجدة وابن الأزرق لأن لهما شأنا فى مجرى الأحداث ، وأصحاب نافع هم أصحاب الجد والحد والقوة وقد روعوا البصرة والكوفة أياما وليالى وأعواما ثقالا ، وانتدب لهم أكثر من قائد فكانوا بين قتيل وهارب حتى قام لهم المهلب بن أبى صفرة ، فصمد لهم وانتصر عليهم فى مواطن يطول الحديث عنها .

ولمَ افترق نجدة بن الأزرق وكيف نشأت القطيعة بينهما ؟ كان ذلك لحب الخوارج الجدال والغلو فيه تجد ذلك عند الإباضية والصفرية والنجدية والأزارقة

وأصحاب أبي بيهس ، وكل من سار على نهجهم وهو أعوج وإن بدا آخذا بطريق الكتاب والسنة ، وهل هناك أضل ممن يجعل نفسه مهاجرا وجميع المسلمين كفرة ؟ إلى أين يهاجر؟ وأين يثرب التى يهاجر إليها ؟ وما موقفه من قول الرسول ﷺ « لا هجرة بعد الفتح » ؟

قال الرواة : إن نافعا أقام بموضعه بالأهواز بعد أن ترك البصرة فطرد عن الأهواز عمال الحكومة جبى الفىء ومعه نجدة وأعوانه وهم جميعا على رأى واحد يتولون أهل النهر وان قتلى على بن أبى طالب ومرداسا ومن خرج معه حتى جاء مولى لبنى هاشم إلى نافع فقال له : إن أطفال المشركين فى النار ، وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال حلال . قال له : نافع : كفرت وأدللت بنفسك . قال له : إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى . (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعا فى النار ، ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومن جاء منهم فعلينا أن نمتحنه وهم كفار العرب لا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل ؛ فإن الله تعالى يقول : (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقال عز وجل فيمن كان على خلافهم : (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) لقد كان نافع بن الأزرق ذا عقل ، يذهب إلى ابن عباس ليتفقه فى الدين ويتفهم القرآن فإذا به يأخذ برأى مولى بنى هاشم وكيف يثق بمولى قد يكون على ضغن للعرب والإسلام جميعا ؟ ولذا حاجه نجدة ابن عامر بقوله : يقول الله عز وجل « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ويقول : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) والقعد منا والجهاد إذا أمكن أفضل لقوله جل وعز :

(وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) وفارقه نجدة جاعلا وجهه اليمامة . وانقلب ابن الأزرق وحشا ضاريا يستعرض الآمنين ويقتلهم لا يفرق بين الرجال والأطفال والنساء ، ونسى وصايا رسوله التى تدعوه إلى الكف عن قتل الشيوخ والأطفال والنساء ، ولم يتركه نجدة وشأنه بل راسله مبينا خطأ ما ذهب إليه من الاستعراض وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، ورد نافع على نجدة ثابتا على رأيه مستدلا بالقرآن يفسره حسب منهجه .

ولم يكتف بالكتابة إلى نجدة فكتب إلى عبد الله بن الزبير داعيا له إلى الابتعاد عن تولى غير المسلمين ، وندد بموقفه من على فى حياته وبعد مماته خاتما رسالته بما يمسك بخناقه : « لقد كنت له عدوا ولسيرته عائبا . فكيف توليته بعد موته ؟ فاتق الله ؛ فإنه يقول : (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) كما كتب إلى أهل البصرة من « الحكمة » شارحا مذهبه الذى سبق القول فيه ، فاختلف القوم حول مذهبه ، فأقبل أبو بيهس على عبد الله بن إباض المرى فقال له : إن نافعا غلا فكفر ، وأنت نصرت فكفرت تزعم أن من خالفنا ليس بمشرك وإنما هم كفار النعم تمسكهم بالكتاب وإقرارهم بالرسول ، وتزعم أن مناكحهم ومواريثهم والإقامة فيهم حلّ طِلْق . وأنا أقول : إن أعداءنا كأعداء رسول الله ﷺ تحل لنا الإقامة بينهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجرى فيها ، وأزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز ؛ لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين . فهذه أقوال ثلاثة لنافع وأبى بيهس وابن إباض ، وأقربها إلى أهل السنة آراء ابن إباض ، والصفرية والنجدية يذهبون مذهبه ويأخذون برأيه . عسكر نافع بالأهواز ، وروع الآمنين واشتدت شوكته فاجتمع أهل البصرة على رأسهم الأحنف بن قيس وذهبوا إلى الوالى وهو « عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب » يسألونه أن يحارب الأزارقة فأجابهم إلى طلبهم واختار لهم قائدا « ابن عبيس بن كريز » وكان دينا فاضلا ، فخرج بجيشه قائلا :

إنى ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة ، وإنى لأحارب قوما إن ظفرت بهم فما وراءهم إلا سيوفهم ورماحهم ، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع ، فرجع نفر قليل ، ومضى الباقون معه ، فلما بلغوا « دولاب » خرج إليهم نافع فاقتتلوا قتالا شديدا حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل ، وكثرت الجراح وكثر القتل ، وتضاربوا بالسيوف والعمد ، وانجلت المعركة عن قتل قائدى الجيشين : قتل ابن عُبَيْس ، وقتل نافع بن الأزرق ، وتولى قيادة الجيش الحكومى رجل من غدانة هو « الربيع بن عمرو » وتولى قيادة جيش الأزارقة « عبيد الله ابن بشير » من بنى سليط ، وكلاهما من بنى يربوع ، انتهى نافع ولم تنته دعوته ، وتغيرت الحكومة وتوحدت الدولة بخلافة عبد الملك بن مروان بعد القضاء على الزبيريين ومازال القتال دائرا بين الخوارج

وجيش الحكومة والمهلب بن أبى صفرة يومئذ يداورهم ويقاتلهم حتى تغلب عليهم أو فل شتيتهم بعد هرب قطرى بن الفجاءة وقتل عبد ربه الصغير.

ولم تكن معارك الخوارج سهلة أو منقطعة فقد كانت أشد قتال قابلته الدولة ، وكان الشعر يصف تلك المعارك ويشيد بالأبطال من الجانبين ، وقد خلّد الشعر « يوم دولاب » ورثى نافع بن الأزرق ونعته بأمير المؤمنين ، ومن طرائف الأحداث أن مصعب بن الزبير التى بعبد الملك بن مروان بمسكن ، فانتصر عبد الملك وقتل مصعب ، وأتى خبر مقتله الخوارج ولم يأت المهلب وأصحابه ، فلما تقابل جيش الخوارج وجيش المهلب ، ناداهم الخوارج ، ما تقولون فى « مصعب » ؟ قالوا : إمام هدى . قال الخوارج : ما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : ضال مضل .

فلما كان بعد يومين أتى المهلب قتلُ مصعب وأن أهل الشام والعراق اجتمعوا على عبد الملك وورد عليه كتاب عبد الملك بولايته . فلما تواقفوا ناداهم الخوارج : ما تقولون فى مصعب ؟ قال أصحاب المهلب . لا نخبركم . قالوا : فما تقولون فى عبد الملك ؟ قالوا : إمام هدى . قال الخوارج : يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى ، يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله ، وإنه ليملأ القلب أسى أن تتطور قصة التحكيم إلى هذا التطور ، وأن ينبثق منها مذهب كان أشد فتق فى الإسلام ولا تحسبن أن الخوارج لم يكن لهم تأثير فى تفكير العلماء والشعراء وأولى الفضل ، فقد غزت دعوتهم كثيرا من الناس ، وكان الخوف يملأ قلوب ذوى الشأن فيخافون أن يتهموا بتهمة الميل إلى رأى الخوارج . هذا الراعى النميرى يخاطب عبد الملك قائلا :

إنى حلفت على يمين بَرَّةٍ ... لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما إن أتيت أبا خبيب وافدا ... يوما أريد ببيعتى تبديلا
ولا أتيت نجيدة بن عويمر ... أبغى الهدى فيزيدنى تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حيلتى ... أنى أعدله علىَّ فضولا

ألم تره فى شعره قرن « نجدة بن عامر » بأبى خبيب عبد الله بن الزبير ، وجعله قوى البيان يزيد سامعه تضليلا ؟ إنهم الخوارج أفسدوا العقيدة بخلطهم السياسة بالدين ، وخلقهم من التحكيم أمرا دينيا تدور حوله الحجج والبراهين ، وهو أمر لا يحتاج إلى نظر ونقاش وعداوة لداء ، ودماء تسيل ،

وتكفير لأمة تقرأ القرآن وتروى السنة ، ويتحرز جل خلفائها وأمرائها من مخالفة أوامر الله ونواهيه . وكانت بدعة ظهرت بعدها الفرق المتناطحة حول الإيمان والكفر والفسق ، ومن حين إلى حين يحدث زلزال من الخوارج ، وكان أشده ما حدث في عهد الرشيد . وكان الخارج من بنى شيبان أخت يشكر ، وحنيفة اسمه « الوليد ابن طريف » ولقبه الشارى والشارى تساوى الخارجى كان رأس الخوارج وأشدهم بأسا وصولة ، فاشتدت شوكته ، وطالت أيامه ، وأخاف الطريق ، وأهم الخليفة هرون الرشيد ، فوجه إليه « يزيد بن مزيد » ابن أخى « معن بن زائدة الشيبانى » فجعل يخاتله ويماكره وينتظر الوثبة عليه ، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد — هكذا يقول صاحب الأغانى — فأغروا به الرشيد ، فقالوا : إنما يتجافى عنه للرحم ، لأنه من عشيرته . . فكتب إليه الرشيد كتابا مغضبا يقول فيه : « لو وجهت بأحد خدمى لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليوجهن إليك من يأخذ رأسك إلى أمير المؤمنين » ويزيد بن مزيد لم يكن مداهنا ولا مقصرا ، ولكن للحرب مكايدها وطرقها ووضع الخطط وترقب تنفيذها . والتقى الجيشان فى رمضان عشية خميس ، وقد جُهد يزيد وعطش عطشا شديدا جعله كما تقول الرواية يرمى خاتمه فى فمه ويلوكه ويقول لمن معه من الجند :

فداكم أبى وأمى ، إنما هى الخوارج ولهم حملة فاثبتوا لهم تحت التّراس ، فإذا انقضت حملتهم فاحملوا ، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال ، حملوا حملة وثبت يزيد ومن معه من عشيرته وأصحابه ، ثم حمل عليهم فانكشفوا ، وتبع يزيدُ الوليد بن طريف فلحقه بعد مسافة بعيدة فقتله ، وكان الوليد يقول :

أنا الوليد بن طريف الشارى
قسورة لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

وما أدرى ما الجور الذى لحقه ؟ وإنما أخرجته وساوس الشيطان ، ورواسب ماضى بكر بن وائل وحسدها لقريش منذ ظهر نبى الإسلام من قريش . وكان المنتظر أن تهدأ الحرب . فما إن جاء الصباح حتى خرجت ليلى أخت الوليد تقود الخوارج عليها الدرع والجوشن ، فجعلت تحمل على جيش يزيد ، فقال : دعوها ، ثم خرج إليها ، فضرب بالرمح مؤخر فرسها ، ثم قال

لها : اغرق غرَّب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة فاستحيت وانصرفت وهي تقول :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى
ولا المال إلا من قنا وسيوف

فرجع يزيد إلى بغداد ظافرا منصورا ، فلما رآه الرشيد سرَّ بمرآه وقال له : مرحبا بالأعرابي ، ثم أجازه وكرمه ، وأخذ الشعراء يهنئونه ، وأجود ما قيل فيه قصيدة مسلم بن الوليد صريع الغواني ، ومنها :

تراه في الأمن في درع مضاعفة
لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
لا يعبق الطيب خديه ومفرقه
ولا يُمَسّح عينيه من الكحل

وهو وصف هادف بمقاتل اتجه إلى الخشونة والجد والاستعداد في زمن أسرعت الحضارة فيه إلى التطرف والقطرية ليصنع الشباب صنيعه ، ويسلكوا مسلكه ، ويصطنعوا همته .

وتراني بدأت البحث بأول من حكم وسار بين الصفين يطعن ويقتل وهو من بني يشكر ، وانتهيت بالبحث عند الوليد بن طريف الشيباني وكلاهما من بكر بن وائل ، ولم تصل قريش خلفها جاعلة منها الخليفة كما ادعى الشاعر مشيرا إلى أن حروب الردة كان لها أثرها في تحريك الأحداث ، وتغذية النفوس ، وجلب النكبات والكوارث .

لقد كانت معركة الوليد بن طريف مؤذنة بنهاية الصراع بين القبائل ، فقد جاء على العرب ما يشغلهم عن التحاسد والتباغض ، فقد أظل ظل الشعوبية ثم امتد قرنا بعد قرن حتى لم يبق للعرب إلا الخليفة العباسي الذي تحكم باسمه الدنيا وهو بمعزل عنها ، باسمه حكم الترك والسلاجقة والأكراد والمماليك ، والعرب يتأخرون ويتخلفون ولا يتعظون بالأيام ولا يستيقظون ، فهل آن لنا أن نقول : إن التحكيم ليس بضلال ولا هدى ؟

السيد حسن قرون

مراجع البحث :

١ – الكامل للمبرد
٢ – تاريخ الطبري
٣ – الطبقات لابن سعد .
٤ – العقد الفريد لابن عبد ربه
٥ – الأغاني لأبي فرج الأصفهاني
٦ – البيان والتبيين للجاحظ

مركز السُّنة الإسلامية في التشريع الإسلامي وموقف المستشرقين منها .. ؟

الدكتور/ رءوف شلبي

١ – مفهومها وحُجّيّتها .
٢ – شُبهات حول الحُجّيّة .
٣ – وظيفتها ومكانتها .
٤ – المستشرقون وموقفهم من السُّنّة النبوية .

١
مفهوم السُّنّة ومصدريّتها

(أ) مفهوم السنة :

فى الأسلوب العربى تُطلق السنة – قبل أن تكون اصطلاحاً إسلامياً – على الطريقة : سواء كانت طريقة حسنة ، أو كانت طريقة سيئة ؟

– وقد جرت بعض آيات القرآن الكريم على هذا المعنى فى مقام توضيح موقف الله – جل شأنه – من الأمم السابقة تأكيداً لسرمدية طريقة الله مع معاندى أنبيائه ورسله – يقول الله تعالى :

١ – (قد خلت من قبلكم سُنَنٌ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) آل عمران : ١٣٧ .

٢ – (سنة مَنْ قد أرسلنا قَبْلك مِن رُسُلنا ولا تَجدُ لِسُنّتِنا تحويلا) الإسراء : ٧٧

٣ – (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)
الأحزاب : ٦٢ .

٤ – (اسْتِكْباراً فى الأرض ومَكْرَ السَّيىء ولا يَحِيقُ المكْرُ السَّيىء إلاَّ بِأَهْلِهِ فهل ينظرون إلاَّ سُنّةَ الأوّلينَ . فَلَنْ تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَبْديلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنّةِ اللهِ تَحْوِيلاً)
فاطر : ٤٣ .

* * *

– كما جرت بعضُ الأحاديث على هذا المعنى . . يقول النبى – ﷺ – : «مَنْ سَنَّ سُنّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها وأَجْرُ مَن عمل بها

إلى يوم القيامة ، وَمَنْ سَنّ سُنّةً سيّئةً فعليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة» .

– فَيَدُورُ مفهوم لفظ «السُّنّةِ» فى الاصطلاح الْعَرَبىّ حَوْل الطريقة : حسنةً كانت ، أو سيّئة . .

(ب) مفهوم السُّنّة فى الاصطلاح الإِسْلامى :

– غير أن المفهوم بعد الإسلام : أخَذَ وضعاً خاصًّا ، كما أخذت أوْضاعُ الحياةِ الإنسانية كلها بالإسلام – الحنيف – وَضْعاً خاصًّا ، فأخذت السُّنّة فى حركة هذا النشاط الإسلامىّ طابعاً جديداً حَدّدَ فيه علماء الإسلام على اختلاف مَناحى اشتغالهم بالفكرة الإسلامية : تقاسيم السُّنّة . .

– فكان للسُّنّة اصطلاحٌ خاصّ عند عُلماء : التشريع ، والقانون ، والفقه الإسلامىّ .

وكان لها اصطلاحٌ مُغاير عند عُلماء أُصول التشريع ، والفقه الإسلامىّ . .

(١) السنة فى اصطلاح المشرّعين والْفُقهاء :

١ – فالسُّنّة فى اصطلاح الفقهاء ، هى : الفعل الذى دَلّ الخطاب على طلبه طلباً غير جازم» .

فهى تُقابل الواجب ، ولا تشمل . . المَنْدُوب ، والمُستَحَبّ ، والتطوّع فى دائرة هذا التعريف .

٢ – ويُعَرِّفُها جانب آخر مِنَ الفقهاء بأنها : ما يُثابُ فاعلُها ، ولا يُعاقب تارِكُها» .

– فتكون فى مُقابل الواجب قَسِيماً ، ولكنها تشمل : المَنْدُوب ، والْمُسْتَحبّ ، والتطوّع . .

وهذا المفهوم مُرْتبطٌ بالسُّنة مِنْ حيث جانبها [الْعَمَلىّ السُّلُوكىّ] والفَرْقُ بين المفهومَيْن اللذين ذكرهما علماء الفقه :

– أن التعريف الأوّل : يَجْعَلُ السُّنّة فى مُواجَهَةِ الواجب ، فهو خاصّ بالسُّنّة المؤكّدةِ . .

– وأمّا التعريف الثانى . . فيجعل السُّنّة شامِلَةً للمؤكّد منها ، وغير المؤكّد . .

(ب) عند علماء أُصول التشريع وأُصول الفقه :

أمّا هِىَ عند علماء الأُصول ، فإنّها : كلّ ما ورد عن النبى – ﷺ – أو صدَرَ عنه مِنْ قول ، أو فِعْل ، أو تقرير . . فهى تُقابِل الْقُرآن فى مصدَرِيّتِهِ للفقه

والأحكام ، وتشمل الحديث الشريف وإخبار الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – فيما نقلوهُ عن النبى – ﷺ – من آثار تحمل تشريعات . . .

(ا) الفَرقُ بين مفهوم السُّنة عند الفقهاء ، ومفهومها عند الأصوليِّين :

– ومن هذا التوضيح الموجز لمفهوم السُّنة عند جماعات العلماء المشتغلين بالثقافة الإسلامية . . نلحظ الفرق بين المفهومَيْن :

أنّ السُّنة عند علماء التشريع ، والفقه ، هى : نفس الحكْم الشرعىّ التكليفىّ فركعتىْ الصبح . . قبل صلاة الفجر . . هى السُّنة المرادة عند الفقهاء ، وصَوْم ثلاثة أيام من أوّل كُلّ شهر . . هى السُّنة التى عرفها الفقهاء .

– أمّا عند عُلماء الأصول . . فهى الدليل الذى يَستندُ إليه الحكْمُ الشرعىّ . . إنّها هىَ : حديث النبى – ﷺ – الذى يَرويه مُسلم من طريق الزُّهرى عن سالم عن أبيه : أخبرتنى حفصة : أن النبى – ﷺ – كان إذا أضاء لَهُ الفجر صلّى ركعتين . .

– وَيَروى مُسلم منْ طريق يحيى بن سعيد عن ابن جُرَيْج ، قال : حدّثنى عطاء عَنْ عُبَيْد بن عُمَيْر عن عائشة : أنّ النبى – ﷺ – لم يكُنْ علَى شَىْءٍ من النوافل أشدُّ معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح «باب استحباب رَكْعَتىْ سُنّة الفجر ، والحثّ عليها » .

– والذى يعْنينا هنا من السُّنة : هو المفهوم الأُصولىّ الذى نقدّم لَهُ هذا البحث حِسْبَةً لوجه الله الكريم . .

(ب) مَصْدَرِيَة السُّنة للتشريع الإسلامىّ :

الاحتجاج بالسُّنة على ثبوت الحكم الشرعىّ . . معناه :

– الاعتماد على السنة فى استنباط الحكم الشرعىّ ، وثبوت التكليف به .

والاحتجاج بالسُّنة على ثبوت الحكم الشرعىّ مُرتبطٌ بالنُّبوّة لسيدنا محمد ﷺ .

١ – فالعِصْمَةُ صفة لازِمةٌ ، وصفة واجبة بالشرع للنبى – ﷺ – وعليها يترتّب حتمية تصديقه – عليه الصلاة والسلام – فى كل ما ينطق به من :

– قرآن كريم تلقاه عَنْ رَبّه جلّ شأنه .

– أحاديث قدسيّة بلّغها إليه الوَحْىُ باللفظ ، أو بالمعْنى فقط ، أو بهما معاً .

– أحاديث نبوية يَشْرحُ بها النبى

ﷺ حُكْماً شرعيًّا يُبَيِّن حِلَّهُ ، أو حُرْمَتَهُ .

وفى هذا : ثبت عن النبى ﷺ أنه قال :

« ألا إنى أُوتيتُ القرآن ومِثْلَهُ مَعَهُ [ألا يُوشك رجلٌ شبعان على أريكتِهِ يقول : عليكم بهذا القرآن] ، فما وجدتُم فيه مِنْ حلال فأحِلُّوه ، وما وجدتُم فيه مِنْ حرام فحرِّمُوهُ . . ألاَ : إنَّ مَا حرّم رسول الله كما حرّم الله » .

والقرآن الكريم نفسه واضح فى هذا الصّدد — :

(وما آتاكم الرّسول فَخُذُوهُ وما نهاكم عنه فانتهُوا ، واتقوا الله إنّ الله شديد العقاب) الحشر : ٧ .

٢ — بل : إنّ القُرآن لَيأمُر المسلمين عامّة بالطاعة لرسول الله ﷺ .

يقول الله تعالى — :

(مَن يُطِعِ الرّسُول فقد أطاعَ اللهَ ، وَمَنْ تولّى فَمَا أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء : ٨٠ .

٣ — بل إن القُرآن لَيَضَع تلك الطاعة للنبىّ ﷺ فى أسلُوب قانونىّ عامّ :

(وما أرسلنا مِنْ رَسُول إلاّ لِيُطَاع بإذْنِ الله ، وَلَوْ أنّهم إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم جاءُوكَ فاستغْفَرُوا اللهَ واستغفرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ توّاباً رحيماً) النساء : ٦٤

٤ — بل إن القرآن يجعلُ طاعةَ رسولِ الله ﷺ علامةً مِنْ علامات الحبّ لله — :

(قل : إنْ كُنْتُمْ تُحبُّون الله فاتّبعُونى يُحْبِبْكُمُ الله ويَغْفِرْ لكُمْ ذُنوبَكُمْ والله غفور رحيم) آل عمران : ٣١ .

٥ — ثم : إن القُرآن الكريم . . يَقْرِنُ طاعةَ النبى — ﷺ — بطاعة الله فى أسلوب الأمر للجماعة الإسلامية ، ويجعل عدم تنفيذ تلك الطاعة مُقابلاً للكفر ! ؟

— يقول الله تعالى — :

(قل : أطيعوا الله وأطيعوا الرسُول فإن تولّوا فإنّ الله لا يحبُّ الكافرين)

آل عمران : ٣٢ .

(إنّ الذين يُبايِعُونَكَ إنّما يُبايِعُونَ الله يَدُ الله فوق أيْديهِمْ) . الفتح : ١٠

٦ — ثم : يُهَدِّدُ القرآن الكريم المُشَاقِّينَ لِرَسُول الله — ﷺ — بالخِزْىِ فى الدُّنيا والآخرة — :

(وَمَنْ يُشاقِقِ الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تبيّن لَهُ الْهُدَى وَيتّبِعْ غَيْرَ سَبيلِ المُؤمنِينَ نُوَلِّهِ ما تولّى وَنُصْلِهِ جَهَنّمَ وَسَاءَتْ مصيراً) .

النساء : ١١٥

« فليحذر الذين يُخالِفُونَ عن أمره أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أوْيُصِيبَهُمْ عَذابٌ أليمٌ » .

النور : ٦٣

— وحَوْلَ هذا الحق الواجب للنبى

- ﷺ - يروى الحاكم عن ابن عباس - رضى الله عنهما : أن النبى - ﷺ - قال فى خطبة الوداع : «إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَدَ بِأَرْضِكُم ، وَلكن : رَضِىَ أن يُطاع فيما سوى ذلك ، مِمَّا تُحاقِرُونَ مِنْ أمْرِهِ فاحْذَرُوهُ ، إنى قد تركتُ فيكمْ مَا إن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أبداً : كتاب الله ، وسنة رَسُولِهِ» .

٧ - وفى المجال التشريعىّ : حذَّر اللهُ جماعة المؤمنين أنْ يَتَقَدَّمُوا عَلى النبىّ - ﷺ - فى إثبات حكم ، أو فى اقتراح حكم قبل أن يأتيه الوَحْى الْمُبِين .

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا : لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىِ الله وَرَسُولِهِ واتَّقوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ) . الحجرات : ١

- ولم يجعل لأحدٍ رأياً بعد حكم النبى - ﷺ - (وما كان لمؤمنٍ ولا مُؤْمِنَة إذا قضى الله ورسوله أمْراً أنْ يكون لهم الخِيرة من أمرهم ، ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضَلَّ ضلالاً مُبيناً) . الأحزاب : ٣٦

٨ - بل قبل أن يُفَوِّضَ اللهُ الوُجَهاء مِنَ علماء الأمَّةِ الإسلامية فى استِنْباطِ الحكْم الشرعىّ رَدَّ الأمر أوَّلاً إلى رسُول الله - ﷺ - يقول الله تعالى - :

(وإذا جاءَهُمْ أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أو الْخَوْف أذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إلى الرَّسُول وإلى أُولى الأمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنهم ، وَلَوْلاَ فضل الله عليكم وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمْ الشَّيطان إلاَّ قليلاً) . النساء : ٨٣

٩ - ولا يَسْمَحُ القرآن الكريم للجماعة الإسلامية أن تُطيع أُولى الأمر إلا بعد إطاعة الرسول ﷺ يقول الله تعالى - :

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإنْ تنازعتم فى شىْء فردُّوهُ إلى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلاً) . النساء : ٥٩

- فكرّر الفعل «أطيعوا» فى جانب الله وفى جانب الرسول ليُفيد : أن طاعة الرسول هىَ طاعة الله ، ولم يكرّر الفعل مَعَ أولى الأمر ، ليُفيد : أن طاعة أولى الأمر مُرتبطةٌ بطاعة الرسول ﷺ .

فطاعة النبىّ مُقدَّمَة على طاعة أولى الأمْر ، وطاعة أُولى الأمْر مُرْتَبِطَةٌ بدائرة الطاعة لرسول الله - ﷺ - فإن خرج أولوا الأمْرِ عنها ، فلا طاعة لمخلوق فى مَعْصِيَةِ الْخَالِق .

١٠ - والمدلول مِنْ هذه الطَّاعة ، أو الرَدّ إلى النبى - ﷺ - يُفَسِّرُهُ سيدنا مَيْمُون بن مِهْران - رضى الله عنه - فيقول :

« الردّ إلى الله .. هو : الرُّجُوعُ إلى كتابه ؟

والردّ إلى الرسول ﷺ هو : الرُّجوع إليه في حياته وإلى سُنَّته بعد مماته » ؟

– وابنُ القَيِّم .. يُوَضِّح لنا هذا المدلول في شرحه لقول الله تعالى : (إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يذْهبُوا حتّى يَسْتأْذِنُوهُ) . النور : ٦٢

يقول : إذا كان الله – سبحانه وتعالى – جعل مِنْ لَوازِم الإيمان ألاّ يذهب المسلمون إذا كانوا مع رسول الله – ﷺ – في أمرٍ جامعٍ – أيَّ مَذْهبٍ – إلاّ إذا استأْذَنُوهُ ، فإنَّهُ مِنَ الأحْرَى والأَوْلَى أن يكون مِنْ لَوازِم الإيمان ألاّ يذهب المسلمون إلى مذهب مّا مِنْ تَشْريعٍ أو علم ... إلاّ بعد أن يَسْتأْذِنُوهُ ؟

واسْتِئْذانُهُ – عليه الصلاة والسلام :

– إمّا بالرّجوع إليه في حياته ؟

– وإمّا بالرجوع إلى سُنَّتِهِ بعد مماته ؟ » .

١١ – وقد رجع الصحابة إلى سنة رسول الله – ﷺ – حال حياته كذلك ؟

– والقصّة مشهورةٌ في الوَسَط الفكرى الإسلامى عندما بَعَثَ رسُولُ الله – ﷺ – سيدنا مُعاذ بن جَبَل – رضى الله عنه – إلى اليَمَن ..

قال له : بِمَ تَقْضى إنْ عَنَّ لك قضاء ؟

قال : بكتاب الله ..

قال : فإنْ لَمْ تجد ؟

قال : بسنة رسول الله ..

قال : فإن لم تجدْ ؟

قال : أجتهدُ ولاَ آلوا ..

– فضرب رسول الله ﷺ في صدره ، وقال : الحمد لله الذى وَفَّقَ رَسُولَ ، رَسُولِ الله إلى ما يُرضى الله ورَسُولِه ..

١٢ – وخاتمة الأمر .. في أنَّ السُّنّة مصدر للتّشريع الإسلامى ، هو أن الحياة الفاضلة للإنسان المُسلِم هى في إقامة أُمة القرآن ..

(إن هذا القرآن يهدى لِلّتى هىَ أقْوَمْ ويُبَشِّرُ المؤمنين الّذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً كبيراً) . الإسراء : ٩

– وأنّ المفوّض من قبل الله – جل شأنه – في توضيح هذا القرآن إنما هُو النبى – ﷺ – يقول الله تعالى – :

(وأنزلنا إليك الذكر لِتُبيِّنَ للنّاس ما نُزِّل إليهم ، ولعلهم يتفكّرون) .

النحل : ٤٤

– ومن بعد هذه الآية – في سورة النحل – تؤكد هذه الوظيفة الخاصّة بالنبى

- ﷺ - يقول الله تعالى - :

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لِتُبَيِّن لَهُمُ الّذى اختلفوا فيه وهُدًى ورَحْمَةً لِقَوم يؤمنون) . النحل : ٦٤

- وتَبيينُ ذلك مِنَ النبى - ﷺ - إنما هو بالسُّنة : بقوله ، أو بِفعله أو ، بتقريره ، وموافقته وبرضاهُ .

وقد حَشَدَ القرآن الكريم لطاعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - آيات عديدة . . ثُمَّ وَعَىُ المؤمنين إلى امتثال أوامر النبى - ﷺ -

يقول الله تعالى - :

(يا أيها الذين آمنوا استجيبُوا لِلّه وللرّسول إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم واعلموا أنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وقَلْبِهِ وأنّه إليه تُحْشَرُون) . الأنفال : ٢٤

- ولقد جعل القرآن الكريم طاعة النبى - ﷺ - هى الفارق بَيْنَ سِمَات الجماعة الإسلامية وَسِمات المُنَافِقِينَ .

يقول الله تعالى - :

(ويقولون : آمنّا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثُمَّ يَتَوَلّى فريق مِنْهم مِنْ بَعْد ذَلك ، وَمَا أُولَئِكَ بالمؤمنين .

- وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم إذا فَرِيقٌ منهم مُعْرِضُون .

- وإنْ يكن لَهُمُ الحق يأتوا إليه مُذْعِنِين .

- أفى قلوبهم مَرَضٌ ؟

- أم ارْتَابُوا ؟

- أَمْ يخافون أن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُه ؟

- بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُون .

النور : ٤٧ - ٥٠

(إنّما كان قَوْلَ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بينهم ، أن يقولوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئكَ هُمُ المفلِحُونَ .

ومَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله ويَتَّقِهِ فَأُولَئك هُمُ الفائزون » النور ، ٥١ ، ٥٢ .

- قال الخازن فى شرح هذه الآيات :

« هذا تعليم أدب الشرع على معنى . . أنّ المؤمنين كذا ينبغى أن يكونوا . . وهو : أنْ يقولوا : سَمِعْنَا الدُّعاء ، وأطعنا بالإجابة [لباب التأويل فى معانى التنزيل ج ٥ ص ٨٥] .

* * *

- لِذا كانت السُّنة الإسلامية التى ورثها المسلمون عَنْ رسول الله - ﷺ - مصدراً من مَصَادِرِ التّشريع الإسلامى .

أقوال علماء التشريع ، والفقه الإسلامىّ فى حُجّيةِ السُّنة :

– ونستأنس إلى ما تذهب إليه مِنْ مَصْدَرِية السُّنة للتّشريع الإسلامى . . بأقوال أئمة التشريع ، والفهم ، والفقه ، الذين مَنّ الله عليهم بفضله ، فبلّغوا عَنْ رسول الله – ﷺ – أحكام الشّريعة الإسلامية ، حِفاظاً على دين الله ، وصِيانة للمجتمع الإسلامى مِنَ الانْزِلاقِ فى عبُودِيّة البشر باتّباع الأفهام الوَضْعِيّة !؟

١ – يقولُ الإمام أبوحنيفة – رضى الله عنه – :

(أ) إذا جاء الحديث عن رسول الله – ﷺ – أخذنا به . .

(ب) ويقُول : آخذ بكتاب الله تعالى ، فما لم أجد . . فَبِسُنّة رسول الله – ﷺ – .

(جـ) ويقول :

. . لعن الله مَنْ يُخالِف رسول الله – ﷺ – بِهِ أكرمَنا الله . . وبه استَنْقَذَنا . .

٢ – ويقول الإمام مالك – رضى الله عنه – :

. . كل أحد يُؤْخَذُ من قوله أو يُترك إلا صاحب هذه الرّوْضَةِ .

– وقد بلغ إجلال سيدنا مالك – رضى الله عنه – لسنة رسول الله – ﷺ – مبلغاً لا يطيقه كثير من العُلماء فقد رُوِىَ أنّه كان لا يخرج للنّاس فى مجلس الحديث بالرّوْضة الشريفة بالحرم النبوىّ إلاّ وقد :

اغتسل . . وَتَطَيّب . . ولبس جديد ثيابه . . وسار خاشعاً إلى مَقَرّ دَرْسِهِ فى رِحَابِ النبىّ – عليه الصلاة والسلام – فى الرّوْضَةِ الشريفة . .

– وقد روى أن عَقرباً لدَغته – رضى الله عنه – وهو فى مجلس الحديث . . فلم يقطع الرِّواية ، ولم يتململ ، ولمّا سُئل ؟ قال : صَبَرْتُ إجلالاً لحديث رسول الله – ﷺ – .

٣ – ويقول الإمام الشافعي – رضى الله عنه – :

(أ) إذا صح الحديث فهو مذهبى . .

(ب) هل لأحد مع رسول الله – ﷺ – حُجّة . .

(جـ) أىّ أرْضٍ تُقِلّنى وأىّ سماء تُظِلّنى . . إذا رَوَيْتُ عن رسول الله – ﷺ – ولم أقُلْ : على الرّأس والعَيْن .

(د) مهما قُلْتُ مِنْ قولٍ ، أوْ أخذتُ مِنْ أصْلٍ وفيه : عن رسول الله – ﷺ – خِلاَف ما قُلْت ، فالْقَوْلُ ما قال رسول الله

- ﷺ - وهو قولى . .

(هـ) كل شىء خالف أمْرَ رسول الله - ﷺ - سَقَطَ ، ولا يكُونُ معهُ رأى وَلا قياسٌ ، فإنّ الله تعالى قطع العُذْر بقول رسول الله ﷺ فليس لأحد معه أمر وَلا نَهىٌ غير ما أمر به . .

٤ - ويقول الإمام أحمد بن حنبل :

. . إنّ الله - جلّ ثناؤه - بَعَث مُحمداً بالهُدَى ودِينِ الحق ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ ، ولَوْ كَرِهَ المشركون ، وأنزلَ عليه الكتابَ بِالهُدَى والنُّور لمن اتبع ، وجعل رسوله الدالّ على ما أراد مِنْ ظاهره ، وباطنه وخاصّهِ ، وعامّهِ . . وناسخه ، ومَنْسوخهِ . . ما قصد له الكتاب . . فكان رسول الله - ﷺ - هو المُبَصِّر عن كتاب الله الدّال على مَعَانِيهِ .

وخلاصة الرأْى مِنْ أقوال الأئمة الفقهاء . .

١ - أنّهم قدّموا لنا دليلاً نظريًّا فكريًّا عَلَى وُجُوب الأخذ بالسُّنّة كمصدرٍ للتشريع . .

٢ - وأنّهم طَبّقُوا ذلك عَمَليًّا فى مَذاهبهم الّتى استَنْبَطُوهَا مِنَ القُرآن الكريم ، ومِنَ السُّنّة . .

٣ - وأنّهم قدّموا لنا : الموطّأ ، والمسند ، من كتب الحديث النّبوىّ كمرجع لمصدريّة السُّنّة فى التشريع الإسلامى .

دكتور رءوف شلبى

دعـــــاء

اللهم إنى أسألك الشكر على نعمائك ومزيد أفضالك ، والخيرة فيما قضيت ، والبركة فيما أعطيت . وتوسلى إليك بجاه محمد ، ﷺ ، أن تعاملنى بلطفك فى أقضيتك ، ونعوذ بالله العظيم من طول الغفلة ، واستدراج المهلة ، ونستعينه ونسأله الهداية ، ونستمد من توفيقه حسن العناية ، فإنه ولى ذلك والقادر عليه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الشهاب الرملى

ابن الفارض سلطان العاشقين

الدكتور/ سعد ظلام

قيثارةٌ سماوية – صدحتْ بالحبِّ الإلهيِّ وتغنّتْ به ، وأفصحت عن كلِّ ما تضمُّ جوانحُها من أعمقِ معانى الحبِّ وأروعِ آياتِ الجمالِ والجلالِ ، وشاعر رقيقُ الحسِّ ، فيّاضُ العاطفة ، وصوفيٌّ من أصحابِ الرِّياضاتِ والمجاهداتِ ، وأربابِ الأذواقِ والمشاهداتِ .

هو عمرُبنُ الحَسَنِ عليٌّ المرشدُ بن عليٍّ .

وكُنْيَتُهُ أبو القاسِم وأبو حفصٍ .

ويُنْعَتُ بسلطان العاشقين . يقول – :

كلُّ مَن فى حماكَ يَهواكَ لكن :
أنا وحدى بكل من فى حِماكا

فيكَ معنىً حلاَّكَ فى عينِ عقلى
وَبِه ناظِرى مُعَنًّى حِلاَكا

فُقْتَ أهلَ الجمالِ حسناً وحُسْنَى
فَبِهِمْ فاقةٌ إلى معناكا

يُحْشَرُ العاشقُون تحتَ لِوائى
وجميعُ المِلاحِ تحتَ لِواكا (1)

* * *

– ولِدَ بالقاهرة سنة ١١٧٨ م فى أسرة دينية . فقد كان جدُّه شيخاً من شيوخ الطُّرقِ الصوفية وله مريدُون وأتباع وكان والدُه عالماً بالفرائض أى علم المواريث ، ولذلك لقب بابن الفارض .

– تولى أبوه مرتبة القضاء ، وعندما طلب منه العزيز بالله : أن يكون قاضياً للقضاء امتنع واعتزل الخدمة ، وزهد فى الحياة ، وتفرّغَ للعبادة ، فنشأ عمر فى كنف أبيه فى عفافٍ وصيانةٍ وعبادةٍ ودراسةٍ ، وزهدٍ وقناعةٍ .

* * *

– يقول ابن الفارض :

رَجَعتُ لأعمالِ العبادةِ عادةً
وأعدَدْتُ أحوالَ الإرادةِ عُدَّتِى

وصُمْتُ نهارى رَغبةً فى مَثُوبَةٍ
وأحيَيْتُ لَيْلى رَهبةً من عُقُوبَةٍ

وعَمَّرتُ أوقاتى بِوِردٍ لِوارِدٍ
وصَمْتٍ لِسَمْتٍ واعتكافٍ لِحُرْمةٍ

وبِنْتُ عَنِ الأوطانِ هِجرانَ قاطعٍ
مُواصلةَ الإخوانِ واخترتُ عزلَتِى (2)

(1) الديوان ص ١٠٠ .

(2) الديوان ص ٤١ .

– وحفظ ابنُ الفارض القرآن والسنّة وكان من أساتذته : الحافظ ابنُ عساكر . والحافظ المُنْذرِيّ ، وتَفَقّه على مذهب الشافعي .

وقرأ في التصوف . فاصطبغ فِكْرُه بالصبغة الدينية . وتقوّى جانبُ الرُّوحِ عنده .

وكان يلازم أباه في مجالس الحُكْمِ والعلم . وكانت الحياة كلها مشبّعة بأرج الروح وسُلطانِ الصوفيّة .

– وممن عاصرهم : السُّهْرَوَرْدِي . ومحيى الدين ابن العَرَبيّ ، والعزّ بنُ عبد السلام والبُوصيرى ، وأبو العبّاس المرسى وغيرهم .

– واشتاق إلى الخلوة والتجرّد .

وبدأ يأخذ نفسه بالرياضة والمُجاهَدَةِ .

وكشفُ حِجَابِ الجِسْمِ أبرزَ سِرَّ مَا
بِهِ كانَ مستوراً له مِنْ سَرِيرَتِى
فكنتُ بِسِرِّى عَنْهُ فى خُفْيَةٍ . وقَدْ
خَفَتْهُ لِوَهْنٍ مِنْ نُحُولِى أَنَّتِى
فَأَظْهَرَنِى سُقْمٌ بِهِ كنتُ خَافِياً
له . . والهوى يأتى بكل غَرِيبَةِ[1]

* * *

– وصرفَ نفسه كلَّها عن كل شيء ، وأفنى نفسَه حتى فَنِى عن نفسه ، فكان يذهب إلى المساجد المهجورة فى وادى المستضعفين بالجبل الثانى من المقطم .

وقد مهّدَ هذا التكوين روحَ ابن الفارِض ، وساعد عليها الجوّ الروحى والحياة كلها المعطّرة بالروح والنور – :

وهذّبتُ نفسى بالرياضة ذاهباً
إلى كشفِ مَا حُجْبُ العوائِدِ غطّتِ
وجرّدتُ فى التجريد عزمى تزهُّداً
وآثرتُ فى نُسكى استجابةَ دَعْوَتى[2]

– وبدأ الحنين يراودُه إلى منازِل الوحى ، يملأ نفسه وروحه وعقله بالسكينة والهداية والحبّ واليقين ، حتى قابل ذات يوم شيخاً يتوضأ فى المدرسة السيوفية دون أن يُراعي الترتيب فى أعضاء الوضوء . ولما نصحه ابنُ الفارِض ، أشار عليه الشيخ أن يرتحِلَ إلىّ الحجاز ، وأوصاه بالمُسارعة ! ؟

– وقد لقيتْ هذه الوصيّة استجابةً فى نفسه ، وكان لها أثر كبير فى حياته فاحتفل بها وجدانُه ، واستعلت بالفرحة أحناؤه ، وبدأ يستعِدُّ لِلقاء الأحباب فى الحجاز ، وقد كان كثيراً ما يحِنُّ إليهم ويناجيهم – :

أحِبّةَ قلبِى والمحبّةُ شافِعِى
لَدَيكُمْ إذا شئتم بها اتّصل الحَبْلُ

(١) الديوان ٣٦ .

(٢) الديوان ص ٤٢ .

عسى عَطفةٌ منكم علىَّ بِنظرةٍ
فقد تعِبَتْ بيني وبينكمُ الرُّسْلُ
أحبّاىَ أنتم . . أحسنَ الدّهْرُ أمْ أسا
فكونوا كما شئتم . . أنا ذَلِكَ الخلُّ ؟
إذا كان حظِّي الهجرَ منكم . . ولم يكن
بُعادٌ . . فذاك الهجرُ عندى هُوَ الوصلُ
وما الصّدُّ إلاَّ الوُدُّ . . مالم يكن قِلىً
وأصعبُ شيءٍ – غيرَ إعراضِكُمْ – سَهلُ
وتعذيبُكم عَذْبٌ لدىَّ . . وجَوْرُكُمْ
علىَّ بما يقضِي الهوى لَكُمُ عَدْلُ
وصَبْرِىَ صَبْرٌ عَنْكُمُ . . وعليكُمُ
أرى أبداً عندى مرارته تحلُو
أخذتُمْ فؤادى وهو بعضى ، فما الّذى
يضُرّكُمُ . . لو كان عندكُمُ الكلُّ ! (١)

* * *

– وارتحل إلى الحجاز سنة ١٢١٥ م وبقي بها حتى ١٢٣٠ م . لقد قضى فيها خمسة عشر عاماً كان لها أكبر الأثر فى تكوينه الروحيِّ ومستقبل حياته الوَضِيءِ . .

– وكانت نفسه قد تهيأت للفتوحات الإلهية ، وبدأت تستعدُّ لتقبُّلِ الفُيُوضات وتصعد فى معارج السموّ الرُّوحيِّ والنفسيِّ – :

فنفْسِى كانت قَبْلُ لوّامةً متى
أُطِعْهَا عَصَتْ أو أَعْصِ كانتْ مُطِيعتى

فأوردْتُها : ما الموتُ أيسَرُ بعضِه
وأتعبْتُها كيما تكونَ مُريحتى
فعادتْ ، ومهما حُمِّلَتْهُ تحمّلَتْ
ـهُ منِّىَ وإن خَفّفتُ عنها تأذّتِ ! ؟
وكلّفتُها . . لا ، بل : كفلتُ قيامَها
بتكليفِها حتى كَلِفْتُ بكُلْفتى
وأذْهَبْتُ فى تهذيبِها كلَّ لَذّةٍ
بإبعادِها عن عادِها . . فاطمأنّتِ (٢)

– يقول :

وما هىَ إلا النفسُ عند اشتغالها
بعالَمِها عن مظهر البشريّةِ !
تجلّتْ لها بالغيبِ فى شكلِ عالِمٍ
هداها إلى فَهْمِ المعانى الغريبة
وقد طُبِعتْ فيها العُلومُ وأُعْلِنَتْ
بأسمائها قِدماً بوَحْيِ الأُبوّةِ (٣)

* * *

– تفرّغ ابن الفارض فى مكة للسياحة الدينية والروحية والرياضة الصوفية : من طواف وسعى ، وذكر ، وتَخَشُّنٍ ، وخشوع ، وتمرينٍ على المجاهدة والمعاناة – يقول :

ولا اختصّ وقتٌ دون وقتٍ بطيبةٍ
بها كلّ أوقاتى مَواسِمُ لَذّةٍ

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) الديوان ص ٣٧ .
(٣) الديوان ص ٦٧ .

نهارى أصيلٌ كلُّهُ إن تَنسَّمَتْ
أوائلُه منها بردِّ تحيّتى
ولَيْلىَ فيها كُلُّه سحَرٌ إذا
سرى لِىَ مِنْها فيه عَرْف نُسَيْمَةِ
وقد نِلْتُ منها فوق ما كنتُ راجياً
وما لم أكُنْ أمَلْتُ مِنْ قُرْبِ قُرْبتى[(١)]

* * *

– لقد كان فى مصر ساغماً روحيا مبتدئا ، بدت له طلائع عوالمه الروحية ، فلما استقرَّ بمكة ، بدأت مرحلة التأمل حتى مرحلة التحقُّق ، ووصل إلى نهاية الطريق وتحققت له الغاية التى ما بعدها غاية ، من الفتوحات الإلهية التى يختص بها الله من يشاء من عباده .

– أجل . . لقد سما ذوقُه ورهف حسُّه ، وانفتحت أمامه أبواب المشاهدات وراحت تنعكس على مرآة فنّه ما جاشت به روحه الصافية ، وما احتدم فى باطنه وخواطره من انفعالات ، وما فاض به قلبه من عواطف شريفة فانطلقت شاعريته بالفنّ الرائق ، والشدْوِ الجميل ، والحبِّ الجليل – :

إذا لاح معنَى الحُسْنِ فى أىِّ صورةٍ
وناح مُعَنّى الحُزْنِ فى أىِّ سُورةِ
يُشاهِدُها فكرى بطرْفِ تخيُّلى
ويسمعها ذكرى بِمَسْمَعِ فِطْنتى
ويُحْضِرُها للنفس وَهْمى تَصوُّراً
فيحسبُها – فى الحِسِّ – فَهْمى نَديمتى
فأعْجَبُ من سُكْرِى بغَيْرِ مُدامَةٍ
وأطْرَبُ فى سرِّى وَمِنِّىَ طَرْبَتى
فيرقُص قلبِى . وارْتعاشُ مَفاصِلى :
يُصَفِّقُ كالشادِى ورُوْحِىَ قَيْنَتى
وما بَرِحَتْ نفسى تَقَوَّتُ بِالمُنَى
وتمحو القُوى بالضعْفِ حتّى تَقَوَّتِ
هنالكَ وجدتُ الكائناتِ تحالَفتْ
على أنّها والعونُ مِنِّى مُعِينَتى
لِيَجْمَعَ شملى كلُّ جارحةٍ بِها
ويشمَلُ جَمْعِى كلَّ مَنْبِتِ شَعْرةِ[(٢)]

* * *

– لقد ملك الجلالُ عليه كلَّ خلجاتِ نفسه ، وكلَّ جوارِحِه وكل حواسِّه ، حتى إنه لم تَعُدْ له القدرةُ على التَّخَلِّى بعد التحلِّى ! ؟

– لقد انجذب قلبه إلى آيات الجمالِ ذاتِه ، الجمالُ المطلقُ الذى لا يستوعبُه بَصَرٌ ولا يمتلئ به سمع ، ولا تستطيع الحواسُّ الظاهرةُ تذوُّقه أو تعمُّقه أو اكتناه أمْرِه وسِرِّه ، وما الجمال الظاهرىّ فى صُورةِ

(١) الديوان ص ٤٨ .

(٢) الديوان ص ٥١ ، ٥٢ وجاء البيت الأخير فى الديوان «ليجعل شملى» وصحة ما ذكرت .

الباهرة إلا نفحةٌ من نفحاته العُلْويّة – :

تَبارَكَ اللهُ ما أحلى شمائله
فكَمْ أماتَتْ . وأحيَتْ فيه من مُهَجِ
تراهُ إن غاب عنّى كُلُّ جارحَةٍ
فى كلِّ معنىً لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ
فى نغمةِ العُودِ والنّاي الرَّخيمِ . . إذا
تآلفا بينَ ألحانٍ من الهَزَجِ
وفى مَسارحِ غِزْلانِ الخمائِلِ . . فى
بَرْدِ الأصَائِلِ والأصْباحِ . . فى البَلَجِ
وفى مَساقِطِ أنداءِ الغمامِ . . عَلَى
بِساطِ نَوْرٍ من الأزهارِ مُنتَسِجِ
وفى مَساحِبِ أذيالِ النسيمِ . . إذا
أهدى إلىّ سُحَيْراً أطيبَ الأرَجِ
وفى الْتِثامى ثَغرَ الكأسِ مُرتَشِفاً
رِيقَ المُدامَةِ فى مُستَنْزَةٍ فَرِجِ
لم أدرِ ماغُرْبَةُ الأوطانِ . . وَهْى مَعى
وخاطِرى أين كُنّا غيرُ مُنزَعِجِ[1]

* * *

لقد وصل إلى درجة التلاشى فى بوتقة الجلالة . وفَنِيَتْ حواسُّه الظاهرة تماماً وانقلب هو بِرُمّته إلى أجهزةٍ حسّاسة . أو جهازٍ حسّاسٍ كبيرٍ مُستَعِدٍّ للتلقى وتَراسُلِ الحواسّ – :

وكُلّى لِسانٌ ناظرٌ مِسْمَعٌ يدٌ
لِنُطقٍ وإدراكٍ وسَمعٍ وبَطْشَةِ
فَعَيْنى ناجَتْ واللسانُ مشاهِدٌ
وينْطِقُ مِنّى السمعُ ، واليَدُ أصغَتِ
وسَمْعِىَ عينٌ . . يَجتَلى كلَّ ما بدا
وعينِىَ سمعٌ إن شدا القوم تُنصِتِ
وما فىَّ عضوٌ خُصَّ من دُونِ غيرِه
بتعيينِ وَصْفٍ مثلُ عَيْنِ البصيرةِ[2]

ويقول – :

أغارُ عليها أن أهيمَ بغيرِها
وأعرفُ مِقدارى فأُنكِرُ غَيْرتى
فتَختَلِسُ الروحَ ارتياحاً لها . . وما
أبَرِّئُ نفسى من تَوَهُّمِ مُنْيَةِ
يَراها على بُعدٍ عن العينِ مِسْمَعى
بِطَيْفِ مَلامٍ زائرٍ حين يَقْظَتى
فيغبط طرفى مِسْمَعى عندَ ذكرِها
ويَحْسُدُ ما أفْنته مِنّى بَقِيَّتى
أمَمْتُ أمامى فى الحقيقةِ . . فالورى
ورائى . . وكانت حيث وجّهتُ وِجْهَتى
يراها أمامى فى صلاتى ناظرى
ويشهدنى قلبى أمامَ أئمّتى
ولاَ غَرْوَ إن صَلّى الإمامُ إلىّ . . إن
ثوتْ فى فؤادى وَهْى قِبْلَةُ قِبْلَتى
وكلُّ الجهاتِ السِّتُّ نحوى . . توجّهتْ
بما تَمَّ من نُسكٍ وحَجٍّ . . وعُمْرَةِ
لها صلواتى بالمقامِ . . أقيمُها
وأشهد فيها أنّها لِىَ صَلّتِ

(١) الديوان ص ٩٢ .

(٢) الديوان ص ٩١ ، ٩٢ .

كِلانا مُصَلٍّ وَاحِدٌ ساجدٌ إلى
حقيقته بالجمع فى كلِّ سَجْدةِ[1]

* * *

إلى هذا الحد من الصفاء والفناء والاتحاد: صفت نفسُ هذا الصوفىّ العاشق، ورقَّتْ عنها حُجُبُ المادّة، لقد طار إلىَ عَوَالمِ الروح، ووقع على عُشّ الأزلية فى السماء، ولم يرض أن يعيش كغيره من المحبين على الأرض، ولم يقنع كغيره بالحبِّ القريب، وحق له أن يقول:

نسختُ بحُبّى آيةَ العشق من قَبْلى
فأهلُ الهوى جُندِى. وحُكْمِى على
وكلُّ فتىً يهوى فإنّى إمامُه
وإنّى برىءٌ من فتىً سامِع العذلِ
ولى فى الهوى عِلمٌ تجلّتْ صفاتُه
ومَنْ لم يُفقِّهْهُ الهوى فهوَ فى جَهْلِ
ومَن لم يكُنْ فى عِزّةِ النفسِ تائِهاً
بِحُبِّ الذى يهوَى، فبَشِّرْهُ بالذُّلِّ
إذا جاء أقوامٌ بِمالٍ رأيتَهم
يجودون بالأرواحِ منهم بِلاَ بُخْلِ
لَعَمْرِى هُمُ العُشّاق عندى حقيقةً
على الجدِّ. والباقون منهم على الهَزْلِ[2]

وهناك تجلّى له الجمال المطلق، فإذا هو يجدُ عزاء قلبه وشفاء نفسه، وبهجة الروح، فانصرف عن كل شىء، إلاّ عن شىءٍ واحِد، هو هذه المعشوقة التى يتغنّى بها، وهى الحضرةُ الإلهيّة.

وما بينَ شَوْقٍ واشتياقٍ فَنيتُ فى
تَوَلٍّ بِحظرٍ. أو تَجَلٍّ بِحَضْرَةِ
فلَوْ لِفنائى من فنائِكَ رُدَّ لى
فؤادى لم يرغَبْ إلى دارِ غُرْبَةِ
وعُنوانُ شأنى ما أبُثُّكَ بَعْضَهُ
وما تَحْتَه إظهارُهُ فوقَ قُدْرَتِى[3]

* * *

وتقدّم فى معارج الروح حتى فنى وذاب، أو وصل إلى الفناء والذوبان لقد أجهدتْه المعاناةُ والعذاب، لكنه استعذب الألم، واستلذَّ المعاناة —:

وما حلَّ بى من محنةٍ فهو مِحنةٌ
وقد سلمت مِن حلِّ عقدى عزيمتى
وكل أذًى فى الحبِّ منكَ إذا بدا
جعلتُ له شكرى مكان شكيّتى
نَعَم. وتباريحُ الصبابةِ إن عدَتْ
علىَّ. من النّعماء فى الحُبِّ عُدَّتِ[4]

* * *

ورأى الفناء بعثاً، والموت حياة، فأفنى ذاته ونفسه، وأمات النزوعَ الدنيوى فى قلبه، ورأى فى كل ذلك سعادةً أبديّة.

---

(1) الديوان ص ٣٤.
(2) الديوان ص ١٠٨.
(3) الديوان ص ٢٦.
(4) الديوان ص ٢٧.

هُوالحُبُّ فاسْلَمْ بالحَشا .. ما الهوى سَهْلُ
فما اختارهُ مُضْنًى به وَلَه عَقْلُ
وعِشْ خالياً . فالحبُّ راحتُه عَنا
وأوَّلُهُ : سُقْمٌ .. وآخِرُهُ : قَتْلُ
ولكن لدىَّ الموتُ فيه صبابةً
حياةٌ لِمَنْ أهوى علىَّ بها الفضْلُ
نصحتُكَ عِلماً بالهوى ، والذى أرى
مُخالَفتى .. فاختَرْ لِنَفسِكَ مايَحْلُو
فإنْ شِئْتَ أن تحيا سعيداً فَمُتْ بِهِ
شهيداً ، وإلا فالغرام له أهْلُ
فمَنْ لم يَمُتْ فى حبِّه لم يَعِشْ بِهِ
ودونَ اجْتناء النَّحْلِ ما جَنَتِ النَّحْلُ
تَمسَّكْ بأذْيالِ الهوى واخلَعِ الحَيا
وخَلِّ سبيلَ الناسكين وَإنْ جَلُّوا
وقُلْ لقَتِيلِ الحبِّ .. وفَّيْتَ حقَّهُ
ولِلْمُدَّعى هيهات ما الكحلُ الكحَلُ [1]

* * *

ومازال الحبُّ يُصفِّى قلبه ، ويُميتُ نفسه ، ويُحيِى روحه حتى استحال بكينونته إلى روح لطيفةٍ خالصةٍ ، وحتى وصل إلى درجة من التسامى النبيل ، فأشرقت جوانبُهُ الباطنةُ بأنوار الجمالِ المطلَق ، وانكشفت الحُجُبُ — :

بِرُوحى من أتلفْتُ روحى بِحُبِّها
فحانَ حِمامى قبلَ يومِ حِمامى
ومِنْ أجْلِها طابَ افتِضاحى ولَذَّ
اطِّراحى ، وذُلِّى بعدَ عِزِّ مقامى
أصَلِّى فأشدو حين أتلو بِذِكرِها
وأطربُ فى المحرابِ وهْىَ أمامى
وبِالحَجِّ إن أحرمْتُ لبَّيْتُ باسْمِها
وعنها أرى الإمْسَاكَ فِطْرَ صِيامى

إلى أن يقول — :

خَفِيتُ ضَنًى حَتَّى خَفِيتُ عن الضَّنا
وعن بُرْءِ أسقامى وبَرْدِ أُوامى
ولم يُبْقِ مِنِّى الحبُّ غيرَ كآبةٍ
وحزنٍ وتبْريحٍ وفرطِ سِقامِ
ولم أدْرِ مَن يدرى مكانى سِوَى الهوَى
وكِتْمانَ أسرارى ورَعْىِ زمامى
فأمَّا غرامى ، واصطبارى ، وسَلْوتى
فلم يبقَ لى مِنهُنَّ غيرُ أسامى
بمَنْ اقْتَدَى فى الحُبِّ .. لو رُمتُ سلوةً
وَبِى يقتَدِى فى الحبِّ كُلُّ إمام
وفى كلِّ عُضْوٍ فِىَّ كلُّ صَبابةٍ
إليها وشَوْقٍ جاذبٍ بزمامى [2]

* * *

وأصبح فى حيرته ليتمنَّى لو يزداد حيرةً ، وفى احتراقه يودُّ لو زاد احتراقاً وفى فنائه يرغبُ فى زيادة الفناء — :

زِدْنى بفرط الحُبِّ فيكَ تَحيُّرا
وارْحَمْ حَشًى بلظَى هواكَ تَسعَّرا

---

(١) الديوان ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) الديوان ص ١٠١ — ١٠٣ .

وإذا سألتُكَ أن أراكَ حقيقةً فاسمحْ . . ولا تجعلْ جوابِىَ لن ترى
ياقلبُ أنتَ وعدْتنى فى حُبّهم صبْراً فحاذرْ أن تضيقَ وتضجرا
إن الغرامَ هُوَ الحياةُ فَمُتْ بهِ صَبًّا فَحقُّكَ أن تموتَ وتُعذَرا
قُلْ لِلّذينَ تقدَّموا قبْلى . . ومَن بَعْدِى ، ومَن أضحَى لأشجانى يَرى
عنّى خذوا . . وبىَ اقتدُوا . ولىَ اسمَعوا وتحدَّثوا بصَبابتى بين الورى(١)

– وصار فى حالة جذبٍ روحىٍّ سعيد ، لا يستطيعُ مُبارحتَها ، وصار شِعرُهُ عصارة هذه الأحوال جميعاً ، يصوِّر معاناته وأحواله .

والصوفيّةُ أحوالٌ ومكاشفةٌ ، ومعاناةٌ ومواجِد ، ومعارجُ وتباريحُ وسهرٌ ولوعةٌ ، وسبحاتٌ فى رحابِ الأضواء العُلويّةِ الخالدة ، ومحرابِها الأقدس ، وصح له أن يقول – :

يُحشَرُ العاشقُون تحت لِوائى وجميعُ المِلاحِ تحت لِوَاكا(٢)

– وأن يقول :

ولا غَرْوَ أن سُدْتُ الأُلى سبقوا وقَدْ تمسكتُ من طه بأوثقِ عُروةِ(٣)

– لقد نبذ ابنُ الفارض الجمالَ الحِسّىَّ بكل صُوره ، والحبُّ الذى يقفُ عندَ الحدودِ البشريةِ ، والشعر الذى يصوّرُ الخمرة الحسيّة ، وتطلع إلى منابع الجمالِ الأبدِىِّ ، والحبِّ الإلهىِّ ، والخمرةِ الربّانية التى تُميتُ الحِسَّ وتُحيى الوجدان .

وقالوا : شرِبْتُ الإثْمَ ؟ كلاَّ . . وإنّمَا شرِبْتُ ، التى تركها عِنْدِىَ الإثْمُ
هنيئاً لأهلِ الدّيْر كم سكِرُوا بها وما شربوا منها . . ولكنّهم همُّوا
وعِندى منها نشوةٌ قبلَ نشأتى معى أبداً تبقى وإن بَلِىَ العظْمُ
فلاَ عَيْشَ فى الدنيا لِمَنْ عاش صاحياً ومن لم يَمُتْ سُكراً بها فاته الحزْمُ ! ؟
على نفسِه فلْيَبْكِ من ضاع عمرُهُ وليس له فيها نصيبٌ ولا سَهْمُ(٤)

– وما أجمله فى تساميه وهو يقول :

عذِّبْ بما شئتَ غيرَ البُعْدِ عنك تَجِدْ أوْفَى مُحِبٌّ بما يُرضيكَ مُبْتهِج
وخُذْ بَقِيَّةَ ما أبقَيْتَ مِنْ رَمَقِى لا خيرَ فى الحبِّ إن أبقَى على المُهَجِ (٥)

* * *

– وقد نظم أغلب شعرِه ، وهو فى الحجاز ، ولهذا يغلبُ عليه طابع الشعر

---

(١) الديوان ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) ص ١٠٠ .
(٣) ص ٤٥ .
(٤) الديوان ٨٧ ، ٨٨ .
(٥) الديوان ٩٠ .

البدويّ الرقيق ، الذى فيه أثر مواجد العشاق ، ورائحة أكبادهم المحترقة ، ولقد استمدّ من البيئة الحجازية ملامح صوره ، وتهاويم خياله وإشراقة روحه ، وصفاء أسلوبه.

– وقد سيطر ذلك الطابَعُ على شعرهِ حتى بعد عودتِهِ إلى مصر.

– وعاد إلى موطنه مصر ، بعد رؤيا روحية رأى فيها الشيخ البقال يدعوه لِيُشَيِّعَهُ إلى العالمِ الأخير ، ويتولّى بنفسه أمر تجهيزه.

– ورغم عودة الطائر إلى عشّه الأصيل فمازالتْ أشواقُه الموصولة تتّجه إلى الحجاز وساكنى الحجاز.

– ويغلب على شعره بعد العودة الشوقُ إلى رسول الله وإلى الديار المقدسة.

يا أُهَيْلَ الحجاز إن حكم الدَّهْـ
ـرُ بِبَيْنٍ قضاء حتْمٍ إرادِى
فغرامى القديمُ فيكم غرامى
ووِدادى –كما عهدتم– ودادى
قد سكنتُم من الفؤاد سويدا
ءَهُ .. ومِنْ مُقلتى سواء السَّوادِ
ياسميرى روِّح بمكة روحى
شادياً إن غَنِيتَ فى إسعادى
فذُراها سِرِّى وطيبى ثَرَاهَا
وسبيلُ المسيل وِرْدِى وزادى
كان فيها أُنسى ومعراج قدسى
ومُقامى المَقام والفتحُ بادِ
نقلتْنى عنها الحظوظ فجذَّتْ
وَارِدَاتى ، ولم تدُم أوْرَادِى
آهِ .. لو يسمحُ الزّمانُ بعَوْدٍ
فعسى أن تعودَ لى أعيادى[1]

* * *

– وقال موجّها حديثه إلى مصر :

عزيزةَ مصرِ الحسنِ إنَّا تِجارةُ
وليس لنا إلاَّ النفوسُ بضائعُ
لأرضكِ قُوْزنا بها .. فتصدَّقى
علينا فقد تَمَّتْ علينا المدامعُ
عسى تَجعلى التعويض عنَّا قَبُولها
لِيَرْبَحه مِنَّا مَبيعٌ وبائعٌ[2]

* * *

– وقد وصل به الشوق إلى درجة الوصولِ ، وحلّ به الحبّ إلى درجة الحلولِ وحتى صحّ له أن يكون سلطانَ العاشقين ، لا ينازعُه فيه أحد ، وقد حفل شعره بكثير من الرموز الصوفية ، والصوفية فى حدّ ذاتها رمز والرّمز غموض ، وفى شعره درجات من الرمز ، وبعضها واضح وبعضه خفىٌّ.

* * *

---

(١) الديوان ٨٢ ، ٨٣.

(٢) الديوان ١٢٥.

– ويمكننا أن نقول بشيء من التبسيط : إن حياة ابن الفارض الروحية تتألف من ثلاثِ مراحل .

١ – المرحلة الأولى مرحلة الاستعداد بالرياضة والمجاهدة .

٢ – المرحلة الثانية مرحلة المكاشفة والمشاهدة .

٣ – المرحلة الثالثة مرحلة القرب والوصول .

– وقد كانت المرحلة الثانية ذات أثر فعّال في حياته ، بل هي عماد حياته الروحية كلّها ، ولقد كانت رحلته إلى مكة مفيدة له .

– لقد تجرد تماما وصفا تماماً ، واندماج بكل كيانه سُموًّا إلى معارج الصفاء ، وصقلت البيئة الحجازية بمشاهدِها وجلالِها وذكرياتها وقداستِها نفسَه ، وسمت به من درجة في الوصول إلى درجة ، ومن حالٍ في القرب إلى حال ، ومن وصفٍ في الفناء والتلاشي إلى وصفٍ وهو في كل ذلك يزداد إشراقاً وقرباً ، وتعلىْ مواهبُه بالنور ، وجوانحه بالإشراق حتى استفاض ذلك كله على جنباته فتحوّل بِرُمَّتِه إلى روح شفافة لطيفة ، وجذبه القطب النورانيُّ الأكبر ، فدار بدورته ونسى كلَّ ما حوله ، وغاب عن وعى الوجود ، إلى وجود الوعى ، فحظى بِمَا لم يحظ به سواه من المُريدين ، وشاهد بقلبه وحواسِّه الصوفية مَا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

عاد ابنُ الفارض إلى مصر وكأنه جاء لتحظى به مصر ولتضم رفاته في حضنها ، فلم يبق بها إلا أربعة أعوام ، أو تزيد قليلا ، حتى توفّى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ .

ودُفن حسب وصيته في القرافة في سفح جبل المقطم تحت المسجد المعروف بالفارض .

سلام إلى ابن الفارض في مثواه ، وسلام عليه في الخالدين .

دكتور/ سعد ظلام

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الروسى

تولستوى
يتحدث عن نبى الإسلام

هو الكونت ليون تولستوى بن الجنرال تولستوى وحفيد الكونت تولستوى السياسى الروسى المتوفى سنة ١٩٢٧ م

نشأ جنديا ثم اشتغل بإصلاح الهيئة الاجتماعية فأخذ يكتب القصص يودعها مذهبه حتى ذاع صيته وطبق آفاق العالم . .

وتصدى لقادة الأديان وصاح بهم صيحات انتقاد وسخرية حتى اضطروا إلى الحكم بإلحاده .

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتبا منصفا ، فعندما رأى تحامل أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامى ، هزته الغيرة على الحق إلى وضع رسالة عن نبى الإسلام وبعض تاريخ حياته فقال فيها :

« ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنه راعيا ، يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى ، متأملا فى الله خالق الكون . .

لقد عبد العرب المعاصرون له أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، وأقاموا لها العبادات وقدموا لها الضحايا المختلفة .

وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتقادا بفساد تلك الأرباب ، وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الناس والشعوب .

وقد ازداد إيمان محمد بهذه الفكرة فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته ، معلنا أن الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة . . وراح يعلن عن عقيدته وديانته .

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول هو أن الله واحد – لا إله إلا هو – ولذلك لا يجوز عبادة غيره . . وبأن الله عادل ورحيم بعباده . . وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده ، فإن الله يؤجره فى الحياة الآخرة أجراً حسنا . . وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الآخرة عقابا أليماً . . وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم

بعضا ، ومحبة الله تكون بالصلاة ، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السراء والضراء . . وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم فى البعد عن كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية . . وإنه يحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ولا يعبدوه ، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها . .

ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبى الله الوحيد بل اعتقد أيضًا بنبوة موسى وعيسى وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوته الأولى احتمل كثيراً من اضطهادات أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه بل ثابر على دعوة أمته . .

وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة – وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم .

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراما ويعظمون قدرهم . وراح عدد المؤمنين يتزايد يوما بعد يوم .

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم ، فقد أمر بحسن معاملتهم . وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى . . ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا التسامح العظيم . .

ثم ختم كلمته قائلاً :

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماءوتقديم الضحايا . ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما . .

ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام .

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الشيخ محمد عبده فكتب لهذا الفيلسوف يقول :

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى :

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكنا لم نحرم التعارف مع روحك سطع علينا نور من أفكارك وأشرقت فى آفاقنا شموس من

آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك ، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها وإلى الغاية التي هدى البشر إليها ، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود ليثبت بالعلم ، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه ، وسعيا يبقى ويرقى جنسه ، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، ولمّا استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها ، فيا كدر راحتهم ، وزعزع طمأنينتهم .

ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد ، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد ، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه ، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه ، فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بعملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون كان مثلك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون . وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء . وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد . هو هذا الذي سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم .

هذا وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك ، فيما تستقبل من أيام عمرك . وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك ، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك والسلام .

حقائق

- حفظ الصحة أيسر من علاج العلة .
- أوجع الضرب مالم يكن معه البكاء .
- الدنيا كالحية : لين لمسها ، قاتل سمها .
- حياتنا أحلام تنتهي برقاد الموت .
- طوبى لمن كان بصره في قلبه ، والويل لمن كان قلبه في بصره .
- ثمرة الأدب العقل الراجح ، وثمرة العلم العمل الصالح .

الدين ضرورة بشرية

الأستاذ/زاهر عزب الزغبي

تاريخ الإنسانية الطويل لم تخل فترة منه عن العنصر الدينى متغلغلا فى كل أنحاء الشخصية الإنسانية بحيث لايمكن أن نغض عنه الطرف فى أية دراسة لأية فترة تاريخية وسواء أكانت هذه الدراسة للأشخاص أو للحوادث . . ولم تكن عناية الله تتخلى عن البشرية فتتركها تتخبط فى غياهب الجاهلية . . فكانت الرسالات تترى والنبوات تتوالى ومعها هداية الله وتوجيهه . . ولكن أيضا كانت هناك فجوات زمنية كثيرة على فترة من الرسل . . فكان الإنسان يتخبط مجتهدا تستحثه ضرورة جبلّته أن يبحث عن علاقته بالكون وبكل مايحيط به . . وأن يفسر أسباب وجوده ووجود من حوله وكل مافى الكون من خليقة . . ومن ثم كانت الاجتهادات البشرية للتعرف على الخالق وكيفية تبجيله واستجلاب رضاه على الدوام نشيطة ومتنوعة . . وكانت التصورات الإنسانية المتعددة عن الدين دائما شغل الإنسان الشاغل . . وكلما التقطنا قطاعا ما من التاريخ وجدنا طعم الدين وألوانه ومذاقه واضحة غير خفية . . ومهما أوغلنا فى الرجوع إلى الماضى وجدنا ظل الآلهة حينما نكتشف تراث الإنسان حتى فى أحلك عصور البداية الإنسانية فى فترات ماقبل التاريخ . . وكلما وقع فى أيدينا أثر إنسانى : وسواء أكان هذا الأثر لإنسان انفرادى تائه عاش يهيم على وجهه وحيدا فى غابة أوكهف خلال أعمق الأغوار السحيقة للزمن . . أوضمن أسر أوقبائل متوسطة الحجم على سفوح الجبال والأودية . . أوفى جماعات كبيرة منظمة متحضرة فى وديان الأنهار . . أوحيث يمكن أن تتيسر للبشر حياة جماعية . . وجدنا فى هذا الأثر السمة الدينية واضحة جلية . . وكثيرا ماعثر المنقبون عن آثار الإنسان على مخلفات للإنسان البدائى الأول الذى عاش حياة لاترق كثيرا عن حياة الحيوان فى أحد الكهوف أوبعض مسارب الغابة . . وكانت هذه المخلفات غير واضحة المعالم الإنسانية . بحيث لم تكن تختلف كثيرا عن مخلفات

الطبيعة نفسها ولكن السمة الدينية فيها هى التى حددت نسبتها للإنسان . . ومن أجل ذلك يستطيع المرء أن يقرر باطمئنان أنه خلال الحياة الإنسانية الطويلة ظل الدين منذ البداية ألمع ظاهرة إنسانية ، وليس من قبيل الادعاء أوالمبالغة القول بأن المادة الدينية فى التاريخ الإنسانى تطغى على كثير غيرها من مواد هذا التاريخ . . بل إن الدين كان فى كثير من الأحيان – إن لم يكن معظمها – هو العامل الأهم – وربما الوحيد – فى المواقف الحاسمة التى تغير فيها مجرى الحوادث أوسير التاريخ كما يقولون . .

وتلك هى المواقف التى انتفضت فيها الإنسانية فقفزت خطوات فى تدرج الرقى أوانتكست درجات فى مهاوى التقهقر . .

ولاشتمال الكيان الدينى على عناصر أخلاقية ظل الدين فى كل الأحوال الضابط الحقيق للإيقاع فى سيمفونية الحياة الإنسانية . . وكان الوازع الدينى يؤدى دائما وعلى خير وجه مهمة مزدوجة للناس : الحارس اليقظ ضد الانحلال ، والقوة الدافعة فى طريق التطور . . ولذلك فإن الدين لم يكن ألمع وأقدم ظاهرة إنسانية فحسب بل كان أيضا أقوى الظواهر الإنسانية وأشدها فعالية فى حياة الإنسان . .

وهذا الجانب الدينى العريق الفعال فى حياة الإنسان قد تناوله بالبحث علماء مقابلة الأديان فاتفقوا فى شبه إجماع على أن الإنسان قد ترقّى فى عقائده على النحو الذى ترقّى به فى سائر شئون حياته . . وإن عقائده الأولى كانت مساوية لحياته الأولى وكذلك كانت علومه وصناعته . . فأدواته الأولى كانت بدائية بالقدر الذى كانت عليه بدائية عقائده . . ثم كان الترقى فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات حتى انتهى إلى معرفة الله الواحد من خلال صنعته كخالق . . ولم يكن ذلك إلا لأن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ، بل إن الناس يستعدون لمعرفتها عصرا بعد عصر ، وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب كما يستعدون لمعرفة الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

وكما اتفق هؤلاء العلماء على تطور الدين وترقّيه خلال الإنسان اتفقوا أيضا على أصالة العقيدة الدينية فى طباعه منذ أقدم أزمنة التاريخ ، وأنه فى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام . . فالروح الإنسانية تجوع طلبا

للاعتقاد تماما كالجسد الإنسانى الذى يجوع طلبا للغذاء . . ولايعيب هذه الحقيقة نوع العقيدة سواء أكانت صحيحة كعقيدة الموحدين أوباطلة كمعتقدات الوثنيين . .

وقد قال الأستاذ العلامة عباس العقاد فى مقدمة كتابه الله : « إننا لانخرج بهذه المشابهة عن مداها . . إذا قلنا إن إنكار الحاسة الدينية لرداءة العقيدة الأولى أوسخف موضوعها كإنكار المعدة فى الجوف لرداءة المأكول وسخافة الغذاء ، لأن المرجع إلى بنية الروح وبنية الجسد فى الحالتين ، وكلتاهما حق لايقبل المراء .

حق لايقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان.

وحق لايقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولايستقر وسط هذه العوالم بغير إيمان . . »

وأصالة العقيدة الدينية فى الطبع الإنسانى . (كحقيقة لامراء فيها) اتخذها كل من علماء مقابلة الأديان وعلماء النفس نقطة البداية ومحور الارتكاز فى البحث عن الدافع للشعور الدينى ومصدره ومناقشة أشكال العقيدة وصورها التى تقمصتها عبر التاريخ . .

وفى معرض البحث عن مصدر الشعور الدينى ودوافعه شملت مجالات استقراء علماء المقابلة داخل النفس الإنسانية وخارجها ، بينما انحصرت أبحاث علماء النفس أصالة داخل النفس الإنسانية ووسط انفعالاتها وغرائزها . .

وقد اختلفت آراء الأولين من علماء المقابلة فى كنه الباعث للعقيدة الدينية ومصدرها . . فبينما يرى الكثيرون منهم أن الأساطير هى أصل الدين بين الهمج . . يرى تيلور[1] Tylor أن ملكة الاستحياء animism هى أصل الاعتقاد بالأرباب ، ويمثل ذلك بالطفل يضرب الكرسى إذا أوقعه كما يضرب الإنسان والحيوان . . وكان الإنسان الأول كالطفل إذا تخيل النجوم والسحب والظواهر الطبيعية كائنات حية فألّهها وأقام منها أربابا يتعبد لها . . وذهب آخرون إلى أن السحر هو أصل العبادات وأصل الشعائر الدينية . . كما أن كثيرين يعللون العقيدة الدينية بضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأحداثه فيه من القوى الطبيعية والأحياء . فلاغنى له عن سند يبتدعه ابتداعا يستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلوات والأدعية فى شدته وبلواه .

أما ماكس موللر[2] Max Muller فيرى

(1) The Primitive Culture

(٢) مقدمة : كتب الشرق المقدسة .
Sacreo Books of the east, Oxford, London.

بأن العقل هو وسيلة الاعتقاد ومتبعه الإحساس بروعة المجهول وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء . وهو يؤمن بأن البصيرة هبة عريقة فى الإنسان وأننا مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء فلن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم الواعى كانت من خصائصه منذ أول عهده . . وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج من أعماق البهيمية إنما هو قول لن يقوم عليه دليل .

وقد ناقش الأستاذ العقاد أيضا فى الفصل الأول من كتابه « الله » كثيرا من هذه الآراء وأبطل بعضها كليا أوجزئيا وخلص فى النهاية إلى أنه يجوز أن تنبعث العقيدة من أكثر الفروض المتقدمة ولاتنبعث عن فرض واحد ، ولكنها على تعدد الأسباب يمكن أن تجتمع فى تفسير يشملها جميعا . . ونحن لانهمل سببا يخطر على البال إذا قلنا إن العقيدة هى ترجمان الصلة بين الكون والإنسان ، أوقلنا إنها مظهر الصلة بين العالم الأكبر والعالم الأصغر . إذ لابد من صلة بين الكون وكل موجود فيه .

وفى رأيه أن هذه الصلة تجعل فى الإنسان وعيا خاصا أطلق عليه « الوعى الكونى » . وهذا الوعى هو الذى تترجمه الديانات فى كل قبيل وتمثله بما تشاء من الرموز والعبارات . ومما لاريب فيه أن البداية لم تأخذ شكلا واحدا بين الجماعات البشرية ، كما لم يسر التطور والترق فى الاعتقاد بسرعة واحدة بينهم ، ولم يكن على نمط واحد متعاقب الحلقات وإنما كان على أنماط شتى وعلى فترات متفاوتة . . وكثيرا ماكان يحصل الانتكاس فى ديانة شعب من الشعوب . . فبينما كان المفروض أن يرق هذا الشعب إلى درجة أعلى فى تطور عقائده إذا به يسير ولكن إلى وراء .

ويصنف علماء المقابلة بين الأديان مراحل أطوار العقيدة بصفة عامة فيقسمونها إلى ثلاثة أطوار :

١ – دور التعدد Polytheism

٢ – دور التمييز والترجيح Henotheism

٣ – دور الوحدانية Monotheism

فى الطور الأول كانت تتعدد الآلهة بتعدد القبيلة أوبتعدد الأسرة صغيرة كانت أوكبيرة ، وربما فى البداية كانت تتعدد هذه الآلهة بتعدد الأفراد أيضا . . فقد كان للقبيلة إله تعبده . . . ولم يكن من غير الشائع أن يكون بجوار إله القبيلة إله خاص لكل أسرة أولكل فرد حسب ارتياح نفس الفرد وهواه . . .

أما الطور الثانى – دور التمييز والترجيح – فقد جاء مصاحبا لفترة التكتل

الاجتماعي في وحدات صغيرة أوكبيرة يشملها نوع من التنظيم السياسي على ضفاف الأنهار أو في الوديان الخصبة ، حيث أخذت بعض الآلهة في اللمعان والظهور ، فازداد نفوذها واتسع نطاق عبادتها لأسباب قد ترجع في معظمها إلى قوة نفوذ القبيلة التي تتعبد لها . وفي هذا الطور لم يكن من الممتنع أن يجرى التعبد للإله الأكبر الذي اتسع نطاق سلطانه . وفي نفس الوقت تتعبد كل قبيلة لإلهها الخاص بجوار التعبد لذلك الإله . . ثم أخذ ظل الآلهة الفرعية يتقلص شيئا فشيئا . . حين خضع كل الشعب أوالجماعة – حينما تكامل البناء الاجتماعي والسياسي للجماعات الإنسانية – لإله واحد ، فساد هذا الإله بسبب أولآخر . وهذا هو الطور الثالث دور الوحدانية . .

وقياسا على الأشكال الإلهية في ديانات القبائل الهمجية التي لاتزال تعيش في بقاع شتى من الكرة الأرضية حتى اليوم ، وفي ظروف لاترتفع كثيرا عن مستوى الظروف التي عاشها إنسان ماقبل التاريخ . . ومثل هؤلاء الهمج يسكنون في غابات أفريقيا وفي مجاهل أستراليا . وعلى سفوح الهمالايا وفي وهاد الاسكا . . قياسا على الأشكال الدينية لأمثال هؤلاء يفترض علماء مقابلة الأديان أن الإنسان الأول اتخذ إلهه على شكل طوطم من حيوان أوتميمة من حجر أوشجرة أوصخرة في جبل أو ينبوعا من الماء أوخليجا في بحر أوحورا في سهل ، وقدّس كل ذلك وعبده على أن فيه قوة تمنع عن الإنسان الأذى وتجلب له الخير ، وقد يكون سبب اختياره لطوطمه أولمعبوده أن اعتقد أن فيها – لذاتها – قوتها التي تؤهلها لوظيفة الألوهية ، أوأنه قد حلت فيها روح أحد الأسلاف الذين عرفوا بسطوتهم وقوتهم في حماية القبيلة والمهارة في جلب الصيد والقوت لها وحفظ النظام بين أفرادها .

وبارتقاء المعرفة والحضارة وازدياد وعى الإنسان نظر إلى معالم الكون البارزة وعلم أن أثرها وفعاليتها في تصريف أمور الحياة أقوى من مواد الأرض فبدأ يتجه إليها ويتخذها أربابا . . ومن بين هذه المعالم الكونية استأثرت بانتباه الإنسان – بوجه خاص – المعالم الضوئية كالفجر والشمس والقمر والنجوم . . وفي سبيل أن يجعل الإنسان بين أربابه الجدد وبين عالمه نوعا من الصلة أو السيطرة انتحى النزعة الأسطورية التي تمخضت فيما بعد عن آلهة ذات شخصية أسطورية محضة منفصلة تمام الانفصال عن أصلها الذي كان نفس

الشمس أوالقمر أوأحد الكواكب . . وإن بقى التعبد للأصل على أنه رمز لذات الإله ، لأنه - كما كان من قبل - هو المقصود بالتأليه والعبادة . . ثم أخذت هذه الشخصية الإلهية تسمو بها الفكرة الإنسانية حتى غدت فى اكتمالها - فى بعض الديانات كالأخناتونية المصرية - إلى مايقارب الصورة المثالية التى وصفت بها الأديان السماوية ذات الله القدير الخالق .

ويعزو علماء مقابلة الأديان تطور الفكرة الدينية من صورتها البدائية حتى شكلها النهائى الذى استساغته العقلية الإنسانية فى الأديان السماوية إلى أنّ سعى الإنسان لإشباع عاطفته الدينية لم يفتر لحظة مّا طوال تاريخ البشرية . . وكان فى بداية المشوار يقنع بما يتيحه له فكره المحدود من إسباغ الصبغة الإجبائية على ماتتناوله يده وبصيرته من كائنات قريبة منه كالأشجار والصّخور والينابيع والحيوانات . . وكان كلما ارتقى بفكره تجلّت له تفاهة مواضيعه الدينية ، فهو يرتقى بها إلى مايوائم أفكاره التقدمية ، وتظل هذه العملية التلقائية فى اطراد حتى يصل أخيرا إلى النهاية أوإلى مايقاربها .

وكانت نظرته الإجبائية إلى رمزه الإلهى تقل بارتقاء فكره شيئا فشيئا ، حتى غدت صورة الإله فى ذهنه كونا معنويا ، وبقى رمزها مجرد رمز قد لايكون له فى ذهن الإنسان أدنى صلة مادية بالإله المقدس .

بقيت ثلاث نقاط نحتاج إلى توضيح حتى نفرغ من تلخيص مجمل ماخاضت فيه أبحاث علماء مقابلة الأديان من جوانب الدين . .

الأولى : هى مانشأ فى كثير من الأديان القديمة من نظام الكهنوت .

والثانية : تتعلق بما راج فى بعضها عن خلود الروح أوبقائها بعد الموت .

والثالثة : تتعلق بالناحية الأخلاقية التى لازمت العقيدة الدينية وصاحبتها منذ البداية .

وبالنسبة لنشأة النظام الكهنوتى فى الديانات الوثنية القديمة تستبعد الافتراضات التى دارت حول الاحتمالات الممكنة أن يكون قديما قدم الدين نفسه وإنما أتى حثيثا وبالتدريج من أن زعماء القبائل قد زاولوا صفة الزعامة ومقتضياتها فى الشئون الدينية ضمن مزاولتهم لاختصاصات الزعامة فى سائر شئون الحياة ، وكان من ضمن هذه الشئون الدينية تقديم القربان لإله القبيلة باسم جميع أفرادها ، وكذلك تلاوة الصلوات وطلب استجلاب الرحمة ورفع الضر . . وبالتدريج نشأ نوع من الزعامة

الدينية تطور حتى صار وظيفة لها مراسيمها ونظمها الخاصة ومواصفاتها فى من يتولاها من الناس.

وهناك رأى آخر جدير بالمناقشة يُرْجع أصل الكهانة إلى السحر.. ويقول هذا الرأى بأن الإنسان قد عرف السحر قبل أن يعرف الكهانة. وإيمان الإنسان بأن فى مقدرة الأرواح أوالآلهة أن تقوم بالأعمال الخارقة أدى إلى نشوء الطقوس ومزاولتها، وبالتدريج اتسع نطاق هذه الطقوس وتعقدت أشكالها حتى أصبح من المتعذر على الفرد العادى أن يُلِمَّ بها.. وتخصص فى معرفة أصولها وقواعدها نفر من الناس كانوا هم السحرة الذين يقصدهم الناس لكى يتوسطوا بينهم وبين الأرواح أوالآلهة، لكى تحقق المآرب وتجيب الطلب، وبذلك احتكر فريق من الناس الوساطة بين الإنسان وآلهه، وهذا بدوره أدى إلى الكهانة التى أصبحت فيما بعد إحدى الوظائف الهامة والتى لعبت دورا كبيرا فى المجالين الاجتماعى والسياسى بل والعملى أيضا فى عصور الوثنية المتأخرة حتى إلى ماقبل الميلاد بعدة قرون.

ويميل كثير من علماء مقابلة الأديان هؤلاء إلى أن يعزو فكرة الكهانة فى الديانات الإسرائيلية كوساطة بين الناس والله إلى أنها تطوير لفكرة الكهانة لدى المصريين والأشوريين والبابليين. وعقدوا بينهما المقارنات من جوانبها الوظائفية والعقائدية.

أمَّا بالنسبة للروح وخلودها. فإن ماكس موللر max muller يستبعد أن يكون الإنسان قد اكتشف الروح أوعرف معناها منذ البداية وأن اكتشافه إياها فى نفسه قد جاء بعد أن اكتسب باجتهاده وتجاربه قدرا من المعرفة. إذ اقتصرت مصادره العلمية فى البداية على تجربته البدائية، وإنَّما اضطر إلى الدين فى هذه البدايات الأولى لتفسير ماغلق على فهمه القاصر من مشاكل كانت تعجز عن حلها تجربته الفجة المحدودة..

وموللر يقول أيضا بأن معرفة الإنسان للروح كانت سابقة لمعرفته البقاء والخلود، ويعلِّل ذلك بأن معرفة الخلود كانت تستلزم معرفة الأبد واللانهائى.. وهذه الألفاظ لم تتضمنها إلاَّ اللغات المتأخرة.. ولعل طبيعة الأبحاث التى أجراها موللر فى هذا المجال – وكانت تتيح البحث عن عقائد الدين من خلال الدراسات اللغوية فى لغات الأسلاف القدماء – هى التى جعلته ينتهى إلى هذا الرأى.

وقد ناقضه كثيرون باعتبار أن الإنسان قد اكتشف الروح فى نفسه وفى الحيوان،

تلك الروح التى تذهب وتخمد بالموت ، وهذه الملاحظة لاتحتاج إلى كبير عناء .. وليست مشكلة ذهنية ..

وهو لابد قد رأى أطياف أسلافه فى الأحلام أثناء النوم وحادثهم وحادثوه فعرف فكرة البقاء بعد الموت .. والبقاء بعد الموت فى ذهن البدائى قد يعنى البقاء المطلق .. وهذا يعنى الخلود بدون ضرورة لمعرفة اللانهائى .. وإذا كانت الألفاظ المعبرة عن الروح وخلودها قد خلت منها اللغات الأولى فهذا لايعنى أن معرفة الروح وخلودها قد تأخر إلى وقت ظهورها فى ألفاظ ضمن اللغات الإنسانية .. لأنه لاشىء يمنع إطلاقا ، أن يستشعر الإنسان المعنى ويدركه دون أن يجد له لفظا بين مفردات لغته .. وقد يظل المعنى قائماً مُحَدَّدا فى ذهن الإنسان بدون لفظ له ، حتى يوفق هذا الإنسان فى اختراع اصطلاح صوتى للتعبير عنه ، وهذا يستغرق وقتا قد يطول أويقصر تبعا لمقدرة الإنسان على اختراع هذا الاصطلاح الصوتى المنشود لكى يأخذ مكانه بين ألفاظ اللغة .

الدين من خلال علم النفس

فكرة الروح وخلودها مرتبطة وثيق الارتباط بالناحية الأخلاقية فى الفكرة الدينية .. وهذا الموضوع قد ناقشه علماء النفس على نحو أكثر موضوعية وتوصلوا فيه إلى نتائج أشد إقناعا وأقرب إلى العقل مما توصل إليه علماء مقابلة الأديان ..

ويرى فرويد Froot أن الإحساس الدينى فى الإنسان إنما هو النتيجة النهائية لعملية ديناميكية عقلية mental Dynamic Process تكمن بدايتها فى اللاشعور unconsciousness بدافع من غريزتى الخوف والجنس .. فالإنسان فى نظر فرويد يستشعر دائماً – حتى إبان رجولته – ضعف الطفولة فى نفسه فلابد له من حماية فى وجه القوى الهائلة المجهولة التى تواجهه ، وهو لذلك دائم البحث عن حماية ضد مصادر خوفه .. والإنسان خلال هذا البحث يحاول أن يسترضى وأن يستميل مايخاف منه ، فيتقدم إليه بالقرابين ، ويتخذه ربا ، ويتعبد له .. وكل هذا كى يأمنه ..

ويتدرج فرويد بالعقيدة الدينية فيفصِّل مراحل تطورها .. وهو يرجِّح أن الإنسان قد بدأ بعبادة الطوطم ثم ارتقى حتى وصل إلى عبادة الخالق ..

وعن كيفية بدء الإنسان بعبادة الطوطم ، يفترض فرويد فى كتابه « الطوطم والمحرم » «Totem and taboo» أن الإنسان كان يعيش فى الماضى السحيق

ضمن قبيلة بدائية يتزعمها أب قوى غيور ، وقد استحوذ هذا الأب القوى على جميع نساء القبيلة اللواتى باعد بينهن وبين أبنائه الناشئين الذين كانوا يحبونه ويعجبون به ، كما كانوا فى نفس الوقت يخشونه ويبغضونه ، لأنه كان يقف عقبة فى سبيل إشباع رغبتهم الجنسية ، ومن هذا الموقف المشبع بالتناقض الوجدانى ampivalence نشأت عقدة الأب Father complex عند الأبناء ، وهى أصل عقدة أوديب «Oedipus complex» وقد تجمع هؤلاء الأبناء المحرومين وقتلوا أباهم وأكلوه . . وبأكله قد حققوا رغبة كان يشعر بها كل منهم وهى تقمص شخصية الأب .

ثم أخذت دوافع الحب نحو الأب المقتول أومظاهر الخشية من روحه وطيفه الباقيين فى مكمن مجهول تظهر بعد ذلك بوضوح . . وأخذ الأبناء يندمون على الذنب الذى اقترفوه . . ودفعهم الإحساس بالذنب إلى وضع قواعد وقوانين فيما بينهم تحرّم عليهم ماسبق أن حرم عليهم الأب المقتول ، وهذا هو منشأ تحريم زواج المحارم Incest Taboo الذى يقول به المحللون النفسيون . . ثم أقام الأبناء لأنفسهم أباً بديلا رمزيا يسمى الطوطم Totem ويكون عادة حيوانا أونباتا أوقوة طبيعية كالماء والهواء ليقدّسوه ويحرموا قتله كوسيلة لتخفيف حدة الشعور بالذنب .

وقد لاقت هذه الفكرة رواجا لكثرة القائلين بها من علماء النفس حتى أصبحت فكرة عامة أو مذهبا يسمى بالطوطمية Totelsm (وقد يكون سبب رواج هذا الرأى أنه لاتزال هناك فى كل من أفريقيا وأستراليا والأمريكتين وفى بعض أجزاء من آسيا وبعض الجزر المتاخمة لها قبائل همجية تتخذ الطواطم وتعبدها) .

ويرى فرويد فى عقدة أوديب — وفى النظام الطوطمى الذى نشأ عنه نتيجة لها — أهمية اجتماعية كبيرة . . فهو يعتبر أن عقدة أوديب هى الأساس الذى قامت عليه الأنظمة الاجتماعية والدين والأخلاق ، فنشأت الأنظمة بما فيها من الأوامر والنواهى وتحريم القتال والتنافس . . وعن الشعور بالذنب وتأنيب الضمير اللذين تتضمنها العقدة نشأ الدين . . أما عن الرغبة فى التكفير عن الذنب فقد نشأت الأخلاق . .

ويذهب آخرون من علماء النفس منهم مكدوجل mc. Dougall فى كتابه Psyco analysis and Sosial Psycology وفلوجيل Flugel فى كتابه Man's maral and Society يذهب هؤلاء إلى موافقة فرويد فى أن

بداية التسلسل النفسى الذى ينتهى إلى عاطفة التدين إنما هو غريزة الخوف وحدها وليس لغريزة الجنس هنا شأن يذكر.

وفى بسط هذا الرأى يتحدث القائلون به عن مُرَكَّب بوليكراتيس

The Polycrates complex

وهو أن الإنسان فى كثير من الأوقات يشعر فى قرارة نفسه بأنه لايستطيع أن يصل فى حياته إلى مستوى الذات العليا أى المستوى المثالى الخيِّر الذى يرضى عنه الضمير، وهذا وحده كاف لأن يشعر الإنسان بالذنب والحاجة للعقاب. وقد يخفف وقع الإحساس بالذنب وَحِدَّة تأنيب الضمير تألُّم الإنسان لمصائب تعتريه، ويعتبر وقوعها تكفيرا لذنبه فإذا لم يقابل الإنسان مصائب يتألم منها ألما كافيا لتكفير مايشعر به من ذنب يبدأ يستشعر شيئا من القلق وعدم الارتياح لأن حاجته للعقاب والألم لم تتحقق.. وَكَأَنَّ لدى الإنسان فى أعماق نفسه خوفا لاشعوريا من أن حياته تسير على ماينبغى من النجاح المطرد وفى سعادة متواصلة.. ويشعر بأنه لاشك مقدم على عقاب لابد وأن ينزل به.. وَكَأَنَّ هذا كلَّهُ نذير خفىٌّ بالشر وعلامة على حلول السقوط وتبدل السعادة شقاء.. ألسنا جميعا نقول عندما تحل بنا لحظات سعيدة مرحة ونضحك كثيرا من أعماقنا: «اللم اجعله خيرا» أليس معنى هذا أن فى أعماقنا خوفا لاشعوريا من أن السعادة المسترسلة قد يعقبها ألم وتعاسة؟؟

وعلى هذا الخط يعاقب الضمير الذات إنْ هى حادت عن الطريق الخيِّر المثالى الواضح فى كنه الضمير. ولابد فى عملية التفاعل العقلى من أن يتجسد الضمير فى تشخص خارجى يكون المصدر الحقيقى لمعاقبة المذنبين وردعهم ومكافأة الخيِّرين وإسعادهم.. وتطلع البشر لمعرفة كنه هذا المصدر.. مصدر العقاب والثواب.. كان هذا التطلع طوال حقب التاريخ هو الدافع الفورى لشعور الإنسان بحاجته إلى من يتعبد له..

وقد قال الدكتور محمد كامل النحاس فى كتابه سيكلوجية الضمير: «إنه عن هذا الطريق يكون من السهل علينا أن نثبت وجود الله أونداًلل على ضرورة شعور المرء بوجود خالق عظيم تدليلا سيكلوجيا، ويمكن أن نقول إن أغلب الذين ينكرون الله يشعرون فى بعض الأحيان بخوف وقلق عام لايدرون مصدره خصوصا إذا حلت بهم نكبة وكَأَنَّ لديهم شعور دفين بوجود خالق عظيم وكأن النكبة عقاب لهم على تنكرهم له أولإنكارهم إياه..»

وإذا أخذنا فى اعتبارنا المفهوم العام للدين .. نفس المفهوم الذى فسره به علماء النفس .. وهو أن الدين إنما هو إيمان المرء بكائن ما أيًّا كان هذا الكائن ، يرجو نفعه ويخشى شره وهو لهذا يتقرب إليه بالعبادة والقربان .. إذا اعتبرنا هذا المعنى للدين دخل فى نطاق المتدينين كل ملاحدة وزنادقة هذا العصر لأن آفة هؤلاء على اختلاف مشاربهم — فى أغلب الأحوال — أنهم عجزوا عن إدراك حكمة الخالق فى عدم مسارعته بتلبية كل مطالب الإنسان ، ووجدوا فى العلم وسيلة لتحقيقها أومعظمها بنتاجه من الآلات والمخترعات .. وهكذا تخلى هؤلاء بشكل شعورى عن الإيمان بالله وتحولوا إلى الإيمان بالعقل — أوعلى الأقل بالآلة — وعلى هذا فهؤلاء على نحو ما يُعتبرون حسب المفهوم العام للدين متدينون وعلى حسب المقاييس الحضارية العامة لايعتبر هذا الدين الجديد أو الإلحاد تقدما فى سير التطور الدينى وإنما انتكاسا إلى الوثنية البدائية .. ويمكن المقارنة هنا بلاإجحاف بين هؤلاء وبين الإنسان البدائى الذى فُتِنَ بالنار عند اكتشافها ولمس منافعها فى الإضاءة وإنضاج الطعام والتدفئة — كما لمس مضارها فى الإحراق والتدمير — فبجلها وعبدها وتقرب إليها بالقربان .

وهؤلاء لم يلحدوا بإنكارهم الله فحسب وإنما استبدلوا تقديس الإلوهية بتقديس العقل واعتمادهم عليه ، فنشأ بذلك نوع من الوثنية .. وهذه الوثنية الجديدة كانت تجد رواجا ظل يستشرى فى خط بيانى اطرد متوازيا مع تقدم العلم والاختراع الآلى والصناعى .

ولقد تشعبت أبحاث علم النفس حول هذ الموضوع .. ولن نستفيد كثيرا من تتبعها واستقرائها فإنها على كثرتها وتشعبها وتضاربها فى كثير من الأحوال تلتقى فى النهاية فتؤكد الفرض الذى تهدف إليه : وهو أن الإحساس الدينى فى الإنسان إن لم يكن غريزة أصيلة فيه فإنه مرتبط ارتباطا مباشرا ووثيقا بالغرائز النفسية ، وله منها دوافعه القوية التى لاتكل ولا تفتر .وأن الدين عنصر ضرورى لطبع الإنسان وحياته ولاغناء للعنصر الدينى حتى تستقيم شخصية الإنسان على سواء خلقها .

الدين من خلال علم الاجتماع

وأما علماء الاجتماع وخصوصا المحدثين منهم فإنهم يناقشون الأشكال الدينية لاعلى أنها فقط من الضرورات الإنسانية التى لابد للإنسان منها حتى يستكمل مقومات

شخصيته ووجوده .. أوانه لكي يستجيب لداعي هذه الضرورة راح يتلمس عقيدته الدينية باجتهاده وحسبَ هواه أولجأ إلى رجال الدين وعصابات الكهنوت الذين احترفوا تلفيق الديانات لابتزاز المال أواستثار السلطة والنفوذ .. بل يُجْمِعُونَ على أن بعض هذه الأشكال الدينية يقوم على الحقيقة ويستند على أركان صحيحة .. وهم وإن لم يحاولوا أن يستقرئوا ويحصروا هذه الأشكال الدينية الصحيحة فقد مثلوا لها بالأديان السماوية الثلاث : اليهودية والمسيحية والإسلام. وفى تعليلهم لحكمهم هذا ينكرون جواز أن تبقى مؤسسة لاتستند إلا على الكذب والزيف ، وأن تستمر وتدوم زمنا طويلا ، وأن ترفل فى بحبوحة حيوية عظمى بدون أن تستند إلى الحقيقة حتما. ولولا ذلك لاعترضت سبيلها قوة قاهرة يتعذر التغلب عليها .. وفى نظرهم أن قوة الفكر فى الإنسان ليست بأضعف من حاجته للدين .. فهو دائم النقد لعقيدته وعلى استعداد لأن يحور شكلها حتى يتواءم مع فكره .. ونتيجة لهذا التفاعل الفكرى والعاطفى الذى لايهدأ داخل النفس الإنسانية اندثرت أشكال دينية وحلت محلها أشكال أخرى .. ودالت دولة التعدد والشرك حتى استقر الفكر والنفس فى الإنسان على إدراك مركزه فى الكون ككائن ضئيل فيه وعلى أن سبب وعلة وجود هذا الكون الهائل ذات الإله المنفردة بالكمال والمنزهة عن كل نقص التى لامثيل لها بين الكائنات ولاشريك لها من مثلها .. ولولا استشعار الفكر بالاستقرار والراحة بالاقتناع بالفكرة الإلهية فى الأديان التوحيدية لاتخذ منها موقفا معاديا ولسعى إلى تعديلها على نحو الموقف الذى وقفه دعاة اللوثرية من التعاليم والنظم الكنسية حينما اشتطت بعيدا عن النهج المسيحى السليم.

ومنهج علماء الاجتماع فى دراستهم للدين يتركز على بحث قوته القديرة على تكتيل أفراد البشر ضمن وحدات متماثلة فى المنهجين التفكيرى والسلوكى ، وهم يناقشون الأديان بما فيها أشكالها العقائدية البحتة ، وكذلك مانحض عليه من أنماط سلوكية ومثل أخلاقية .. وعلى هذه الاعتبارات يقارنون فيما بينها .. وهذه المقارنات التى بدأها المتأخرون – وإن كانت للاعتبارات المذهبية والطائفية الدينية – لم تسر على نحو جدى . ولم تسفر بعد عن نتيجة إيجابية متفق عليها . قد تمخضت عن قواعد عامة يمكن أن تجدى فى موازنة صحيحة بين الأديان الثلاث

يقوم بها أكفاء مخلصون تجردوا عن الهوى والتعصب .

«وتتلخص[١] هذه القواعد فى أن أجدر الأديان بالتسلط والبقاء هو أعلاها سموا بفكرة الإله ، وأسهلها فهماً على قدرة الفكر وأكملها تحقيقا لاحتياجات الفرد الروحية Spritual والدينية Religious والدنيوية Secular . . وفى اعتبارهم أن الاحتياجات الدنيوية هى ماتتضمنه الديانة من قواعد سلوكية ومثل أخلاقية تضمن الصلاح للفرد فى نفسه وفى جماعته» . .

وعندهم أن الإنسان غير المتدين فرد شاذ غير متلائم مع الإطار العام للمجتمع الذى يعيش فيه . . كما أن المجتمع غير المتدين مجتمع شاذ أيضا . . ومثل هذا المجتمع تظل الفردية فيه غير متفاعلة ولامتجاوبة مع النظام العام وتبقى قوة ضائعة حيرى لاتستطيع أن تتعرف معالم النهج الصحيح للتعاون الجماعى وهذا التعاون الجماعى يمثل نسبة كبيرة من وظيفة الفرد . . وفى مثل هذا المجتمع يبقى هذا القدر من مهمة الفرد فى الحياة معطلا أوغير كامل . . إلا إذا فرض هذا المجتمع على أفراده وسائل معينة تضمن أن يقوم الفرد بتوفية حقوق مجتمعه . . ولكن مثل هذه الوسائل تكون فى الأغلب الأعم أمورا غير مطابقة للعدالة والحقوق الإنسانية .

وطبقا لهذه المقاييس فإن الانتقادات العنيفة التى يوجهها علماء الاجتماع فى إنجلترا وأمريكا للنظام الشيوعى ليست فى الأصالة ذات دوافع سياسية وإنما هى أيضا تعتمد فى الغالب على أسس علمية . .

ضرورة الدين :

وإلى هنا لاأظن أنى فى مناقشتى للدين من خلال العلم قد جابهت كثيرا من المشكلات التى تواجه المؤمن فى عصرنا الحاضر ، وليس من أغراض هذا البحث التعرض لمثل هذه المشاكل ، ولكنها اعترضت طريقى وأنا فى سياق التوصل إلى الهدف من هذا المقال . . وهذا الهدف كان لابد للوصول إليه من أن نبحث كنه التجربة الدينية وأصالة الشعور الدينى فى نفسية الإنسان وطبيعته . . ولمثل هذا البحث كان لابد أن أمتطى ظهر العلم وأن أستعين بذخيرته فى هذا المجال . . وهذا هو الذى دفعنى دفعا إلى التعرض لبعض من هذه المشاكل أعترضت السبيل فى سياق البحث . . وحتى هذه على قلتها فلاأظن أنى قد وفيتها حقها من البسط والمناقشة

---

(١) «Modern Sociology» By «S.M. Prithivi» New Delhi

ولكنى أعتقد أن الإلماعات المقتضبة التى أوردتها بصدد كل منها تكفى لكى تفتح آفاق الفكر لدى الراغب فى الاستزادة وتدعوه إلى تتبع التفاصيل فى الينابيع الغزيرة والمراجع المطولة . . وحسبى الآن أن أفحص فى النهاية النتيجة التى يمكن أن نستخلصها .

وقد أثبتت الأزمة الشاملة التى يعانيها العالم اليوم بسبب المادية العلمية إفلاس التقدم العلمى والصناعى وعجزهما عن تحقيق الخير للبشر ، وهذا دفع الناس إلى أن يرنوا بأبصارهم نحو الدين على أنه (بمثله وقيمه الأخلاقية) المنقذ الوحيد للبشرية من الأزمة التى تعانيها . . بل من الكارثة التى يقودها إليها الذكاء المتهور . . وفى هذا دليل على أن التعاليم الدينية لم تفقد فعاليتها ولن تفقدها لأن الدين نفسه يقوم على دعائم الحقيقة التى لامراء فيها . . ولهذا كان الدين غير قابل للنقض ولايتعارض مع أى طريق من طرق البحث عن الحقيقة وعن أية وجهة فيها . . ولم يكن مايبدو للعقول القاصرة أنه تعارض بين الدين والعلم سوى خلاف أحمق أعمى بين رجل الدين والعالم . . ولما كان الدين هو المفسر الوحيد لصلة الإنسان بالكون وللعلاقة بين الكون وخالقه الأعظم فإن هذه الصلة قد ظلت على الدوام أمام الإنسان سرًّا أولغزا تدفعه إلى استكناه حقيقته وحل مغاليقه غريزته وبصيرته . . وبمعرفته لهذه الحقيقة حدد الإنسان موقفه وعرف مركزه ومهمة وجوده فاتضحت أمامه الكيفية الصحيحة كى يتصرف فى شئون حياته حيال نفسه ومع غيره من الناس . .

فالدين ضرورى للإنسان حين تتطلبه غريزته وطبيعته . . وهو ضرورى له حين تفتقده بصيرته . . وهو ضرورى له حين يحتاج إليه لحل كافة مشكلات الحياة . . وحياة كل إنسان لاتخلو لحظة أوهنة فيها من مشكلات تبدأ حيث يكون نطفة فى رحم أمه إلى أن يودع القبر بعد الممات . .

زاهر عزب الزغبى

الأزهر جامعًا وجامعة

أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

ذكرنا فى المقال السابق أن القاهرة قامت بثورتها الثانية ضد الاحتلال الفرنسى فى ١٨٠٠/٣/٢٠م وكان من زعمائها السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات والسيد أحمد المحروق كبير التجار.

وكانت ثورة شاملة. بدأت أولا فى بولاق بقيادة الحاج مصطفى البشتيلى وامتدت إلى جميع أنحاء القاهرة. وأتى فيها الشعب من ضروب البسالة والفداء ما شهد به الجميع.

والحاج مصطفى البشتيلى كان من كبار تجار بولاق وكان عديل الشيخ سليمان الفيومى عضو الديوان وأعدمه الفرنسيون بعد إخماد الثورة، وبولاق كانت من ضواحى القاهرة وفيها الميناء النهرية للمدينة.

وهجم الثوار على معسكر الفرنسيين فى الأزبكية. وعلى طوابيهم التى أقاموها حول المدينة. وأقاموا فى الشوارع المتاريس التى يبلغ ارتفاع بعضها أربعة أمتار تقريبا. وحفروا الخنادق واستعملوا فى هجومهم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين الذين كانوا فى المطرية. واستعاضوا عن القنابل بكرات الموازين الحديد التى جلبوها من الوكالات التجارية والدكاكين.

وقال مسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية: «لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل. فقد صنعوا البارود. وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع. وفعلوا ما يصعب تصديقه ذلك أنهم صنعوا المدافع».

وقال كليبر فى يومياته: «استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض وأنشأوا معامل للبارود. ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل. وأبدوا فى كل ناحية

من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية . وهذه هي بوجه عام حالة القاهرة عند قدومى لها . « عاد كليبر للقاهرة فى ٢٨ مارس بعد موقعة عين شمس وبلبيس » — وإنى لم أكن أتصورها فى هذه الدرجة من الخطورة » — « تاريخ الحركة القومية للرافعى جـ ٢ ص ١٥٦ » .

وقال الجبرتى أيضاً : « تم كل ذلك فى ثلاثة أيام . وتطوع الأهالى بإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات . وباشر السيد أحمد المحروق وباقى التجار الكلف وباقى النفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر . وكل سمح بنفسه وبجميع ما يملكه . وأعان بعضهم بعضاً . وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة . . إلخ .

ولم يفقد كليبر رشده . واشتد فى حصار المدينة وضربها بالمدافع من الطوابى المحيطة بها . وأراد أن يكسر حدة الثورة فراسل قيادة الكتيبة العثمانية التى تسللت إلى القاهرة بالانسحاب . كما أتم المفاوضات الجارية مع مراد بك على أن يحكم مراد الوجه القبلى تحت الحماية الفرنسية ويدفع قدرا من الخراج سنويا . وبذلك أصبح مراد بك حليف الفرنسيين . فراسل الأمراء المماليك الذين بالقاهرة — وهم الذين قدموا مع العثمانيين ومنهم إبراهيم بك — بالانسحاب . كما نصح مراد الفرنسيين بحريق القاهرة لإخماد الثورة . ولم يكتف بالنصيحة بل أرسل لهم الأحطاب والوقود اللازم لذلك . فضلا عما كان يمد به الجيش الفرنسى من أغنام وقمح ومؤونة .

وأرسل الفرنسيون يطلبون المشايخ للتفاهم . وكان الديوان معطلا منذ معاهدة العريش فى يناير سنة ١٨٠٠ باعتبار أن الفرنسيين بدأوا يستعدون للجلاء .

فانتدب المشايخ أربعة : الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى . فلما اجتمع بهم كليبر قال : إن هذه الفتنة لا خير فيها . وإن العثمانيين والمماليك يشغلونها لمآربهم الخاصة . وإنه مستعد أن يؤمن المصريين أمانا كاملا على أن يخرج العثمانيون ومن معهم من مصر . فقالوا : نخشى إذا خرج العثمانيون وينفرد الفرنسيون بالأمر أن ينتقموا من الشعب فوعدهم بالأمان وأن من قتل من أحد الفريقين مقابل من قتل من الفريق الآخر .

ولم يقبل الشعب هذا . وأهانوا الشيوخ الرسل أكبر إهانة . وصمموا على استمرار المقاومة . واجتهد الفرنسيون فى قمع الثورة . وركزوا جهودهم أولا على بولاق وأعملوا فيها النيران

وقال الجبرتى فى ٢٢ من ذى القعدة

سنة ١٣١٤ هـ ١٧ / ٤ / ١٨٠٠م :

«وقاتل أهل بولاق جهدهم . ورموا أنفسهم فى النيران حتى غلب الفرنسيس عليهم . وحصروهم فى كل جهة . وقتلوا منهم بالحرق والقتل . وبلوا بالنهب والسلب . وملكوا بولاق . وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة . واحترقت الأبنية والدور والقصور . وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر . وكذلك الأطارف . وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالغلبة . فنجوا بأنفسهم من الجهة القبلية . ثم أحاطوا بالبلد ومنعوا من يخرج منها . واستولوا على الخانات والوكايل والحواصل والودائع والبضائع . وملكوا الدور وما فيها من الأمتعة والأموال والنساء والخوندات والصبيان والبنات . ومخازن الغلال والسكر والكتان والقطن والأبازير والأرز والأدهان والأصناف العطرية . وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور» .

وما فعله الفرنسيون ببولاق فعلوه بباقى المدينة . فيهجمون على الحى ويشعلون فيه النيران ويهدمون الدور . ويستولون على الأموال والأمتعة . وينتهكون الأعراض . ويقبضون على الناس . وتساقطت أحياء المدينة بين أيديهم واحدا بعد واحد . وتحولت المدينة إلى أنقاض وخرابات .

ونجح رسل مراد بك فى إقناع العثمانيين والمماليك . فاتفقوا مع الفرنسيين على الانسحاب . وخرج معهم السيد عمر مكرم والسيد أحمد المحروق . وبقى الشيخ محمد السادات . وقد ذكرنا أن السيد عمر مكرم خرج بعد معركة إنبابة . وأقام فى يافا . فلما استولى نابليون على يافا فى حملته على الشام أعاده معززا إلى مصر . ولكنه بقى ملازما داره غير مخالط للفرنسيين حتى قامت ثورة القاهرة الثانية فكان من ضمن قادتها البارزين .

وانفرد الفرنسيون بالشعب الذى انهارت مقاومته واضطر للتسليم فى ٢٦ / ٤ / ١٨٠٠ م . ودخل كليبر من باب النصر بموكب الفاتحين . وخلفه عثمان بك البرديسى وعثمان بك الأشقر مندوبا مراد بك . وأمر الناس بالوقوف أثناء مرور الموكب . كما أمروا بالزينة ثلاثة أيام وتوقد فيها القناديل ليلا .

وأخذ الفرنسيون فى الانتقام . وتنكر كليبر لعهوده بالأمان . وقال للمشايخ : نحن أمّناكم على أرواحكم فلا نقتلكم . وإنما نستولى على أموالكم . وفرض غرامة فادحة على أهالى القاهرة قدرها اثنى عشر

مليون فرنك (كتقدير الرافعى نقلا عن المراجع الفرنسية وقال الجبرتى : عشرة ملايين فرنك)

وخصوا الشيخ السادات بأكبر نصيب من هذه الغرامة . واعتقلوه وأهانوه حتى كان ينام على الأرض متوسدا حجرا . وعذبوه بالضرب أمام زوجته وابنه . وتشفع له عثمان بك البرديسى . فقالوا : نقبل شفاعتك فى عدم قتله ولكن لابد من دفع الغرامة المقررة عليه .

ووُزعت الغرامة على الأهالى من مشايخ وتجار وأصحاب عقارات ومهنيين وحرفيين بقوائم أعدوها لذلك . وتعسَّفوا فى تحصيل هذه الغرامة . وهجموا على الدور . ونقبوا فيها على الأموال والمخبآت . وباعوا ما يجدونه فى الوكائل والدكاكين بأبخس الأثمان . فإذا لم يوفِ ذلك بالغرامة المقررة على شخص أضافوا الباقى على جاره . فباع الناس ما لديهم حتى لم يوجد المشترى لانشغال كل إنسان بسداد ما عليه .

وضاقت الدنيا أمام سكان القاهرة . وتعطلت التجارة . فالإنجليز بأساطيلهم يمنعون ورود البضائع بالبحر . والعثمانيون بجيوشهم يمنعون ورودها من الشام .

مقتل كليبر :

وخيَّم على المدينة وأهلها الحزن والكآبة والشعور بالعجز . ثم ازدادت النفوس قلقا وتوجسا بالشر عندما قُتل كليبر فى ١٨٠٠/٦/١٤ فى حديقة منزله « بشارع الألفى » . إذ قتله سليمان الحلبى أحد طلبة الأزهر .

وحوكم سليمان الحلبى هو وأربعة آخرون من طلبة الأزهر . وحكم عليهم بالإعدام . وكان ذنب شركائه أنه أطلعهم على عزمه بقتل كليبر ولم يبلغوا السلطات . وكان الحكم غيابيا بالنسبة لأحد الأربعة لأنه تمكن من الهرب .

ونفذ الحكم على سليمان الحلبى وزملائه الثلاثة فى مكان كان يعرف بتل العقارب « حاليا بحى المنيرة حوالى كلية دار العلوم » . وشيعت جنازة كليبر باحتفال عسكرى حتى دفن فى حديقة القصر العينى . وكان الفرنسيون قد استعملوا القصر العينى مستشفى لجنودهم . ثم أخذوا جثمان كليبر معهم عندما جلوا عن القاهرة .

وحاول الفرنسيون أن يوجدوا صلة التحريض أو العلم بعزم سليمان الحلبى عند مشايخ الأزهر . خاصة الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ أحمد العريشى ليتمكنوا

من إدانة أحدهم . ولكن لم يستطيعوا .

وقد ذكرنا أن نابليون اعتمد انتخاب الشيخ أحمد العريشى قاضيا للقضاة بعد عزل القاضى التركى . ثم تنكر له الفرنسيون بعد مقتل كليبر لكونه شيخ رواق الشوام . والقاتل من هذا الرواق . فعزلوه عن القضاء . ثم أعاده عبد الله مينو فى يناير سنة ١٨٠١ . وظل فى منصبه حتى جلاء الفرنسيين .

ويقول بعض المؤرخين : أن الدافع لسليمان الحلبى كان دافعاً شخصيا بتحريض من بعض ضباط الجيش العثمانى نظير الوعد بتخفيف الضرائب عن والده فى حلب . وأنهم اختاروه لمعرفته القاهرة حيث أقام بها ثلاث سنوات مجاورا بالأزهر .

ونرى أنه قد يكون هذا صحيحا كاعتراف المتهم فى التحقيق . ولكن قد يكون هذا الاعتراف لدفع الشبهة والاتهام عن آخرين . كما أنه لاشك أن المظالم التى أنزلها كليبر بالمصريين بعد قمع الثورة . والقسوة التى أبداها فى تحصيل الغرامات من سكان القاهرة . والاضطهاد الذى أنزله بالشيخ السادات مع مكانته الدينية والاجتماعية . كان لكل هذا أثره فى تصميم سليمان الحلبى . وإذا كان الدافع شخصيا فلماذا سكت زملاؤه الذين أطلعهم على عزمه عن التبليغ مع خطر الصمت ؟ إلا إذا كان هذا قد صادف هوى فى نفوسهم .

وقد نقل الرافعى عن نابليون فى مذكراته « إن لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل كليبر لأنه لا يمكن أن يجهل علماء الأزهر ماكان ينويه سليمان الحلبى . فقد قضى بالأزهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل . ولكنهم تجاهلوا نية القاتل . وتجاهلوا كل ما له علاقة به لأنهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر » .

وبعد مقتل كليبر تولى قيادة الفرنسيين الجنرال مينو . الذى كان فى أوائل عهد الحملة الفرنسية قد أعلن إسلامه . وسمّى نفسه عبد الله . وتزوج بسيدة مصرية من أهل رشيد . ورُزق منها غلاما فى شعبان سنة ١٢١٥ (يناير ١٨٠١) فأسماه سليمان مراد . سليمان على اسم قاتل كليبر لأنه كان يكرهه . ومراد على اسم مراد بك حليف الفرنسيين .

غلق الأزهر :

واستأذن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى القائد الفرنسى فى غلق الأزهر منعا من الدسائس والفتن . وصادف هذا هوى فى نفسه فصرح بذلك . وسُمِّرت أبوابه فى ٢٧ من المحرم سنة ١٢١٥

(٢٠/٦/١٨٠٠) أى بعد مقتل كليبر بضعة أيام ، وظل مغلقا حتى وقعت اتفاقية جلاء الفرنسيين عن القاهرة فأعيد فتحه فى ٢٥ من صفر ١٢١٦ هـ (٧/٧/١٨٠١) .

ولم يكن مينو ذا كفاءة عسكرية يفوق بها أقرانه وتؤهله للقيادة . ولكنه كان أقدم ضباط الحملة . وأراد مينو التودد إلى المصريين . فبعد شهور من مقتل كليبر أعاد الديوان الخصوصى بعد أن ظل معطلا منذ معاهدة العريش . ولكن بتشكيل آخر فجعله من مجلس واحد بدلا من التشكيل السابق الذى كان مكونا من مجلسين ديوان عمومى وآخر خصوصى .

وكان هذا الديوان الخصوصى الثالث مكونا من تسعة أعضاء كلهم من العلماء المسلمين . منهم الخمسة الأولون من الديوانين الأول والثانى . وأضيف عليهم الشيخ مرسى السرسى وكان عضوا فى الديوان الخصوصى الأول وعضوا فى الديوان العمومى الثانى ، الشيخ محمد الأمير وكان عضوا فى الديوان العمومى الثانى ، الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، السيد على البواب الرشيدى وهو أخو زوجة عبد الله مينو .

واجتمع الديوان فى جلسته الأولى فى ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٢١٥ هـ (٣/١١/١٨٠٠م) وانتخب فيها الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسا للديوان والشيخ محمد المهدى سكرتيرا له . واطمأن الناس نوعاً ما بعودة الديوان ، فلجأ إليه أرباب الحاجات بشكاويهم وتظلماتهم . كما لجأ إليه الناس فى دعاويهم المختلفة . ولكن كانت قيمته شكلية . فقد استمر تحصيل الغرامات . بل وزادوا عليها كثيرا . وتفننوا فى المصادرات واستحداث ضرائب جديدة . مع التعسف فى الطلب والمغالطة فيها بسدد . حتى ضج الناس وضاقت أمام وجوههم السبل وحاول كثيرون الهروب من القاهرة والالتجاء إلى الأرياف . فصدر قرار بمنع الخروج .

وزاد الهدم فى الدور للانتفاع بما فيها من أنقاض خصوصا الأخشاب لعمل المراكب . وللوقود . فخربت أحياء الحسينية وخارج بابى النصر والفتوح وغيرها من الأحياء . وتعدى هدم الدور إلى هدم المساجد والأضرحة . فزاد هذا — مع الحرائق . السابقة — فى خراب المدينة .

بداية النهاية للحملة الفرنسية

وأخيراً أمكن للإنجليز والأتراك الاتفاق على خطة يطردون بها الفرنسيين من مصر .

والخطة من شقين : أن ينزل الإنجليز والأتراك فى «أبوقير» بمساعدة الأسطول الإنجليزى . وأن يتقدم يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم . بجيشه من الشرق .

وتأخرت المراكب التى تحضر القوة التركية إلى «أبو قير» فأنزل الإنجليز جنودهم واستولوا عليها فى أوائل مارس ١٨٠١م . وتقدموا نحو الإسكندرية فهزموا الفرنسيين عند قصر القياصرة «موقعه الآن مصطفى باشا برمل الإسكندرية» . فانسحب الفرنسيون داخل الأسوار القديمة للإسكندرية ووصل مينو إليها وهاجم الإنجليز شرقا منها ولكنه هُزم واضطر للارتداد إلى المدينة .

وقطع الإنجليز سد «أبو قير» فأغرقت المياه كثيراً من القرى وأحاطت بالإسكندرية من الشرق والجنوب . فضلا عن البحر فى الشمال . وأصبح لا طريق للفرنسيين إلا من الغرب فوضع الإنجليز قوة هناك . وبذلك حوصر مينو ومن معه داخل الإسكندرية حصارا كاملا .

ووصلت القوة التركية بقيادة حسين باشا قبطان إلى «أبو قير» فاشتد ساعد الإنجليز . واستولوا على رشيد . وبدأ الزحف نحو القاهرة فاستولوا على الرحمانية فى المحرم سنة ١٢١٦هـ «مايو سنة ١٨٠١م» والرحمانية على الجانب الغربى من فرع رشيد تقابلها دسوق بميل إلى الشمال على الجانب الشرقى من فرع رشيد . وكانت مركزا هاما للقوات الفرنسية فى الطريق بين القاهرة والإسكندرية . وكان عندها مأخذ ترعة الإسكندرية التى جددها محمد على باسم ترعة المحمودية نسبة إلى السلطان محمود الثانى سلطان تركيا من ١٢٢٣ - ١٢٥٥ هـ .

ومن جهة أخرى وصل الجيش التركى القادم من الشرق فاستولى فى طريقه إلى القاهرة على الصالحية وبلبيس ودمياط وشرق الدلتا بصفة عامة والتقى مع قوة فرنسية عند قرية الزوامل «شمال أبو زعبل» فى نصف المسافة بينها وبين بلبيس تقريبا فانهزم الفرنسيون وارتدوا إلى القاهرة فى مايو ١٨٠١ .

وبذلك أصبحت القوة الإنجليزية التركية الآتية من الشمال . والقوة التركية الآتية من الشرق . على مشارف القاهرة بينهما نهر النيل عند إنبابة .

وفكر الفرنسيون فى الاستنجاد بمراد بك حليفهم . ولكنه كان توفى فى ذى الحجة سنة ١٢١٥ هـ «أبريل ١٨٠١» بالطاعون عند سوهاج . وكان وباء الطاعون قد تفشى منذ أوائل العام .

وكان شديد الوطأة قضى على مئات الآلاف فى أنحاء القطر. وكان يموت يوميا من الفرنسيين فى القاهرة العشرون والثلاثون. وزاد هذا فى حرج الجيش الفرنسى فى القاهرة.

ولا نطيل فى هذا فهو خارج عن الموضوع. فنقول إن الفرنسيين فى القاهرة لم يجـــدوا مناصا من طلب الصلح. وتوقيع اتفاق الجـــلاء عن مصر فى ٢٧/٦/١٨٠١م. وتحدد فيه للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما. ويسافر الفرنسيون بأسلحتهم وأمتعتهم على مراكب إنجليزية وتركية ولمن أراد من المصريين الخروج معهم. وتأمين من يبقى من المصريين الذين كانوا موالين لهم... إلخ وللقوة الفرنسية الموجودة بالإسكندرية أن تستفيد بنفس الشروط.

نهاية الحملة الفرنسية :

وفعلا تم جلاء الفرنسيين عن القاهرة فى ١٤/٧/١٨٠١ بعد ثلاث سنوات إلا أياما «دخل نابليون القاهرة فى ٢٤/٧/١٧٩٨م بعد معركة إنبابة». أما القوة الفرنسية فى الإسكندرية بقيادة مينو فقد وقعت اتفاق الجلاء فى ٣١/٨/١٨٠١م «٢١ من ربيع الآخر ١٢١٦ هـ». وتم جلاؤهم عنها فى ٢/٩/١٨٠١م.

وبذلك طويت صحيفة من تاريخ مصر. ولكنها صحيفة بالغة الأثر. فقد فتحت أذهان الشعب المصرى إلى عراقته وتاريخه المجيد بما ذكره لهم نابليون فى تقربه إليه كما أثار وجود القوة الأجنبية فى الشعب عوامل المقاومة والجهاد. وعرف عن طريقها قوته. فازداد ثقة فى نفسه كما سنرى فيما بعد بإذن الله. وكان لعلماء الأزهر دور واضح. فقد استقر فى الأذهان أنهم الوكلاء الطبيعيون عن الشعب والمعبرون عن إرادته.

ونترجم الآن كما وعدنا فى المقال السابق للخمسة العلماء الذين اشتركوا فى الدواوين الثلاثة التى أقامها الفرنسيون وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والسيد خليل البكرى. – الشيخ مصطفى الصاوى – والشيخ سليمان الفيومى – الشيخ محمد المهدى.

الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر.

هو عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الأزهرى الشافعى الشهير بالشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ولد بقرية الطويلة بالقرب من القرين شرق بلبيس من محافظة الشرقية، لذلك عُرف بالشرقاوى. وكان

مولده حوالى سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) . أى أنه كان عند قدوم الفرنسيين فوق الستين من عمره .

وتولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م) بعد وفاة الشيخ العروسى . وظل شيخاً للأزهر حتى توفى سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢ م) . أى عاصرت مشيخته المماليك والفرنسيين وأوائل حكم محمد على .

وقد ذكرنا فى المقال السابق موقفه ضد المماليك سنة ١٢٠٩ هـ الذى أدى إلى كتابة حجة تعهد فيها أمراء المماليك بالعدول عن المظالم والالتزام بما شرطه العلماء . . إلخ .

وكان رئيساً للديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى القاهرة فى أدواره الثلاثة . ولم تكن رئاسته بتعيين الفرنسيين ولكن بالانتخاب من زملائه أعضاء الديوان . وربما كان لمركزه كشيخ للجامع الأزهر نصيب فى انتخاب زملائه له لرئاسة الديوان .

وترجم له الجبرتى فى وفيات سنة ١٢٢٧ هـ . فذكر أن له ماضيا فى الجهاد ومقاومة ظلم المماليك ولكن يبدو أنه لم يكن محل تقدير كبير من الجبرتى . فى هذه الترجمة كثير من المغامز والسخرية . ولا نستطيع إلا أن نضع رأى الجبرتى محل الاعتبار . فقد كان الجبرتى فى تاريخه منصفا صحيح الانطباعات بعيدا عن الأغراض ، فقال . . . إنه كان فى مبدأ الأمر فقيرا فى قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة . فلا يطبخ فى داره إلا نادراً . . ثم عرفه الناس وواصله بعض التجار الشوام وغيرهم بالزكوات « جمع زكاة » والهدايا والصلات . فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه . . وكان المترجم خلوتيا تلقى الطريق عن الشيخ الحفنى « هو شمس الدين محمد بن سالم الحفنى أو الحفناوى شيخ الأزهر توفى سنة ١١٨١ هـ » . فلما توفى الشيخ الكردى « محمود الكردى توفى سنة ١١٩٥ هـ » كان المترجم من خلفائه ، فكان المريدون وأتباع الطريقة يجتمعون عند الشرقاوى كل ليلة للذكر . ويعمل لهم الثريد للعشاء . ويذهبون إلى المآتم والحفلات ومعهم المنشدون والمقرؤون وينشدون مدد يا بكرى « نسبة إلى الشيخ مصطفى البكرى أستاذ الشيخ الحفنى توفى سنة ١١٦٢ هـ » . « مدد يا حفنى » « مدد ياشرقاوى » . ثم يقدم لهم صاحب الدار الطارئ « أى العشاء » ويمدهم ببعض الدراهم . فاشترى له دارا بحارة كتامة المسماة بالعينية « جنوبى الجامع الأزهر » وساعده فى ثمنها بعض المساتير . وترك

الذهاب إلى البيوت إلا فى النادر . ولما تولى مشيخة الجامع الأزهر بعد الشيخ أحمد العروسى زاد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يُضرب بعظمها المثل ! !

وذكر الجبرتى منافسة الشيخ الصاوى له فى مشيخة الأزهر . واستقر الاتفاق على أن يكون الشرقاوى شيخاً للأزهر . والصاوى للتدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى . وهى وظيفة أصلا تابعة لمشيخة الأزهر . ولكن تعفّف عنها الشيخ أحمد العروسى فى مشيخته وأجلس فيها الصاوى . وظل الصاوى فيها حتى توفى سنة ١٢١٧ (١٨٠٢) فعادت إلى الشرقاوى بدون نزاع .

وقد ذكرنا إنشاء رواق الشرقاوى لأهل الشرقية ، ونضيف أن السبب فى إنشائه نزاع بين مجاورى الأزهر من الشرقية وكانوا يقيمون بالمدرسة الطيبرسية فتعصب الشيخ السجينى شيخ رواق ابن معمر . ومنع مجاورى الشرقية من الطيبرسية وخزائنها . فأنشأ الشيخ الشرقاوى بواسطة إبراهيم بك الوالى ، يقال له إبراهيم بك الصغير وهو زوج ابنة إبراهيم بك الكبير وقتل فى معركة إنبابة ، هذا الرواق على قطعة أرض مجاورة للمدرسة الجوهرية . ونقل إليه الأحجار وعمد الرخام من جامع الظاهر بيبرس نكاية فى الشيخ السجينى حيث كان هذا الجامع تحت نظارته . وأضاف الرواق إلى جرايات الأزهر . وأدخله فى دفاتره .

وقال الجبرتى : « ولمـــا حضرت الفرنساوية إلى مصر سنة ١٢١٣ هـ ورتبوا ديوانا لإجراء الأحكامْ بين المسلمين جعلوا المترجم رئيس الديوان . وانتفع فى أيامهم بما يتحصل إليه من المعلوم المرتب له عن ذلك وقضايا وشفاعات لبعض الأجناد المصرية . وجعالات على ذلك . واستيلاء على تركات وودائع خرجت أربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا . واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها . واشترى دار ابن بيرة (؟؟) بظاهر الأزهر وهى دار واسعة من مساكن الأمراء الأقدمين وزوجته بنت الشيخ على الزعفرانى هى التى تدبر أموره . وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ولا يروح ولا يغدو إلا عن أمرها ومشورتها . وهى أم ولده سيدى على الموجود الآن » يعنى وقت الجبرتى وقد يكون دليلا على نفوذ الزوجة تسمية ابنها باسم أبيها .

وكان خارج باب البرقية مقابل الدرّاسة بالجانب الشرقى من طريق صلاح سالم خانكاه أنشأتها خوند طغاى الناصرية . وهى المعروفة بأم أنوك زوجة الناصر محمد ابن قلاوون وكانت أحب زوجاته إليه

ووصلت من المجد والعز فى عهده وبعده الغاية . وتوفيت عن ألف جارية وثمانين خصيا . وأموال كثيرة . ويقال إنها أخت أقبغا عبد الواحد منشئ المدرسة الأقبغاوية التى بها مكتبة الأزهر الآن .

فلما توفى ناظر الخانكاه المذكورة تعين الشيخ الشرقاوى فى نظرها واستولى على إيرادها ولما أنشأ الفرنسيون القلاع فوق المرتفعات حول المدينة هدموا منارة هذه الخانكاه وبعض جدرانها الشمالية وتركوها على ذلك . فلما خرج الفرنسيون أبطل المترجم الساقية التى تغذى الخانكاه بالمياه . وبنى مكانها زاوية . وعمل لنفسه مدفنا عليه قبة . وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عالى مربع وعلى أركانه عساكر فضة . وبنى بجانبها قصرا ملاصقا لها يحتوى على أروقة ومساكن ومطبخ وكلار (مخزن لحفظ الأطعمة يلحق بالمطبخ ويقابله بالأفرنكية «Cellare» ويسميه العامة كرار) وذهبت الساقية من ضمن ذلك وجعلها بئرا وعليها خرزة يملئون منها بالدلو . ونسيت الساقية وانطمست معالمها وكأنها لم تكن . وقال الجبرتى : ويقول الحقير (يعنى نفسه) إنى دخلت هذه الخانكاه فى أواخر القرن الماضى (يعنى الثانى عشر الهجرى) فوجدت بها روحانية لطيفة وبها مساكن وسكان قاطنون بها . وفيهم أصحاب الوظائف مثل المؤذن والوقّاد والكناس والملاّء . ودخلت إلى مدفن الواقفة وعلى قبرها تركيبة من الرخام الأبيض . وعند رأسها ختمة شريفة كبيرة على كرسى بخط جميل . وهى مُذهبة وعليها اسم الواقفة . رحمها الله تعالى . فلو أن الشيخ المترجم عمرٌ هذه الخانكاه بدل هذا الذى ارتكبه من تخريبها لكان له بذلك منقبة ، وذكر حسن فى حياته وبعد مماته .

وعن مؤلفاته العلمية فقد ذكر الجبرتى أن له طبقات جمعها فى تراجم الفقهاء المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثانى عشر . نقل تراجم المتقدمين فى طبقات الأسنوى والسبكى . وأما المتأخرون فقد نقلها من تاريخنا هذا بالحرف الواحد ! !

وهذه العبارة تستحق النظر . فكيف نقل الشرقاوى من الجبرتى . والشرقاوى توفى سنة ١٢٢٧ هـ . وتاريخ الجبرتى لغاية ١٢٣٥ هـ . إلا إذا افترضنا أن أجزاء كتاب الجبرتى قد تدوولت قبل إتمامه . وهو بعيد .

وعمل له تاريخاً مختصراً فى أربعة كراريس عند قدوم الوزير يوسف باشا إلى مصر وخروج الفرنسيين وأهداه إليه عدد فيه ملوك مصر وذكر فى آخره خروج الفرنسيين

ودخول العثمانية فى نحو ورقتين . وهو فى غاية البرود . وغلط فيه غلطات منها أنه ذكر أن الأشرف شعبان بن الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون فجعله ابن السلطان حسن . ونحو ذلك .

والكتاب المذكور الذى وصفه الجبرتى بالبرود هو (تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين) وطبعته المطبعة الوهبية سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) فى ٨٢ صحيفة من مقدمة وثلاثة فصول . ويبدو من مقدمته أن السبب فى تأليفه تكليف الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا عندما زاره فى بلبيس فى مارس سنة ١٨٠٠م بعد معاهدة العريش التى نقضت ، وأتمه وأهداه له عندما قدم بجيشه المرة الثانية التى أدت لخروج الفرنسيين . ولاقيمة تاريخية للكتاب المذكور ففيه كثير من الغلطات غير ماذكره الجبرتى لاداعى للإطالة فى ذكرها . ولكن سنعود للكتاب ثانية بإذن الله لأهميته من ناحية أخرى .

وتوفى الشيخ الشرقاوى فى ٢ من شوال سنة ١٢٢٧ هـ (١٨١٢/١٠/٩ م) . وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير ودفن بمدفنه السابق ذكره . وقال الجبرتى : ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة أكبر من التى كان يلبسها فى حياته بكثير . وعمَّمُوها بشاش أخضر وعصَّبوها بشال كشميرى أحمر . ووقف شخص عند باب مقصورته يدعو الناس لزيارته . ويأخذ منهم دراهم . وقال إن زوجته وابنه ومن يلوذ بهما ابتدعوا له مولدا وعيدا فى أيام مولد العفيفى . وكتبوا بذلك فرمانا (مرسوما) من الباشا . يعنى محمد على باشا .. إلخ . الشرقاوى موجود للآن بشارع قرافة المماليك مقابل الدراسة بالجانب الشرقى من طريق صلاح سالم بقرب مشهد العفيفى ومقابر الخديو توفيق . وبقرب الضريح بقايا الخانكاه المذكورة . ومولد العفيفى فى غرة شوال - ٢٠ منه . وهو الشيخ عبد الوهاب العفيفى شيخ الطريقة العفيفية . وهى فرع من الطريقة الشاذلية توفى ١١٧٢ هـ . وترجمه الجبرتى جـ ١ ص ٢٢٠ . وعلى مبارك فى الخطط جـ ١ ص ٩٠ ، وجـ ١٦ ص ٧٢ فى قرية منية عفيف . وضريحه بالقرافة هناك بين جامع قايتباى ومقابر الخديوى توفيق .

وتعين بعد الشيخ الشرقاوى فى مشيخة الأزهر الشيخ محمد الشنوانى كما سنذكر بإذن الله .

ونجد فى ترجمة الجبرتى للشرقاوى كثيرا من المآخذ وبعض التحامل فى الأسلوب . ولكن الوقائع ثابتة . ولا شك أن الشرقاوى

كان من الأثرياء ، وأن جانبا فى هذا الثراء كان فى عهد الفرنسيين . ونقتطف من كتابه « تحفة الناظرين » المذكور بعض ماورد فيه عن الفرنسيين ص ٧٥ قال :

(وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا لمصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية . يقال لهم نصارى فانوليقية (يعنى كاثوليك) يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا . وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين . ويقول إن الله واحد ولكن بطريق التعليل . ويحكمون العقل . ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء . وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم . ولذلك جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون مايناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر .

فإنهم جعلوا من جملة ديوانها جماعة من المشايخ . وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لاتتعلق بالشرع . والسبب الذى أوجب لأهل مصر الانقياد لهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب حروب المماليك الذين معهم آلات القتال . وأنهم عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى . لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث ، وأنهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن . وأنهم يحبون العثمانلى ولم يأتوا إلالطرد المماليك .

ولكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب المماليك . بل نهبوا الرعايا . وقتلوا جملة من الناس . لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت . وقتل منهم مايقرب من الألف . وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها . فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها . وقتلوا من علماء الأزهر ثلاثة عشر عالما . ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر . ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية . وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لايدخله . فحوّلوا فيه أمتعة بيوتهم . فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع . ونشروا الكتب التى بالخزائن يعتقدون أن بها أموالا ، وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة . . إلخ) ا هـ .

ويبدو أن هذا الدفاع مقصود به تبرير موقف أعضاء الديوان أمام الصدر الأعظم . ولكنه دفاع أبتر . فإذا كانوا قد

خدعوا بكتب الفرنسيين أولا فلماذا قبلوا عضوية الديوان ثانية وثالثة ! ؟ .

ومع هذا فمن الإنصاف للجبرتى والشرقاوى أن نذكر أن الجبرتى عندما ترجم للشيخ محمود الكردى (توفى سنة ١١٩٥ هـ قال إن رسالته شرحها خليفة شيخ الإسلام والمسلمين سيدى عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر شرحا لطيفا جامعا مانعا استخرج به من كنوز معانيها ما أخفاها . فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

كذلك من الإنصاف للجبرتى والشرقاوى ماذكره الجبرتى فى ٢٠ من ربيع أول سنة ١٢١٣ هـ (١/٩/١٧٩٨م) أى بعد شهرين تقريبا من وصول الفرنسيين أن نابليون دعا المشايخ . فلما استقروا عنده نهض نابليون وبيده طيلسانات (أى أوشحة) بثلاثة ألوان أبيض وأحمر وكحلى . فوضع واحدا منها على كتف الشيخ الشرقاوى . فرمى به إلى الأرض . واستعفى وتغير مزاجه . وامتقع لونه واحتد طبعه . واغتاظ نابليون بعد أن أفهمه الترجمان أنهم يقولون إن قدرهم يضيع عند الله وعند إخوانهم المسلمين . وقال نابليون للشرقاوى إنه لايصلح للرئاسة . وصمم أنهم لابد أن يضعوا (الجوكار) على الأقل فوق صدورهم . فطلبوا إمهالهم للتروى اثنى عشر يوما . أما الشيخ السادات فكان أوسع أفقا . فلما حضر عند نابليون أهداه خاتم الماس . وعلق الجوكار على صدره . فسكت وسايره وقام وانصرف . فلما خرج من عنده رفعه على أن هذا لايخل بالدين ! !

والجوكار شارة عسكرية من قماش أوغيره توضع فوق الصدر . ووصفها الجبرتى فقال أنها ثلاث قطع جوخ أوحرير أوغير ذلك . مستديرة على قدر الريال سوداء وحمراء وبيضاء . توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دائرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدوائر المحيط بعضها ببعض .

هذه نبذة عن شخصية الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر من ١٢٠٨ - ١٢٢٧ هـ (١٧٩٣ - ١٨١٢ م) ورئيس الديوان الخصوصى فى أدواره الثلاثة . فعاصرت مشيخته المماليك والحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد على . وكان بمركزه ضلعا فى شئون البلاد . .

محمد كمال السيد

فلسفة القوانين

عقيد شرطة / فكرى الجوهرى

• إن أخطر ما تملكه الدولة فى مواجهة الأفراد – حق العقاب وهو حق تكتسبه الدولة بمجرد تكون المجتمع للمحافظة على كيانه وحمايته مما يهدده بالداخل أو الخارج . لهذا تقوم الدول فى حدود طبيعتها الجغرافية وتكوينها الاجتماعى وسياستها الداخلية والخارجية بإصدار قوانين تطبق على الأفراد والجماعات .

• ولضمان تنفيذ هذه القوانين تقوم الدولة بوضع العقوبات المناسبة ، منها عقوبات مقيدة للحرية أو غرامات مالية أو عقوبات تكميلية أو عقوبات أدبية .

• وهذا الحق تعترف به جميع دول العالم وإن اختلفت فيما بينها فى وضع النصوص التى تكفل ضمان حريتها وسيطرتها على أراضيها .

• وقد شرع الله سبحانه وتعالى هذا الحق فى كافة الشرائع السماوية لكفالة حقوق المجتمع وحقوق الناس ، ولهذا كان هذا الحق محل اعتبار واحترام الأفراد اعترافا منهم بأنه ضرورة من ضرورات الحياة ودليل على وجود الدولة .

• وقد اعترفت مصر القديمة منذ آلاف السنين بهذا الحق وأوضحت المعالم والرسوم الأثرية وأوراق البردى مدى استخدام المصريين القدماء لهذا الحق واحترامه .

• ومنذ فجر التاريخ والحضارة إلى نهاية الخليقة تقوم الدول باستصدار قوانين ولوائح وقرارات ونظم مختلفة فى كافة النواحى الجنائية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية مع توضيح كيفية تطبيق هذه القوانين وطرق ووسائل تطبيقها والحالات المختلفة التى تطبق عليها وشروط هذا التطبيق . .

• كل هذا من الناحية الوضعية علمية ونظرية ونحن إذا درسنا القوانين أو اللوائح علميا نتوصل إلى مدى أهميتها وضرورتها وأصالتها ولكن تبقى المشكلة العظيمة التى تتطلب منا خروج هذه النظم إلى مجال التنفيذ حيث تصطدم هنا بالطبيعة البشرية لأشخاص المنفذين . . . هذه الطبيعة التى

تتأثر بمؤثرات كبيرة تجعل التباين واضحا بينهم بينما القوانين واحدة ونصوصها ثابتة . .

• وهذه القوانين لها خطورتها فى المجتمع فقد تسلب الفرد حريته أو تسلبه حقه فى التصرف فى أمواله أو تحرمه من مباشرة حقوقه العامة أو السياسية أو تقلد بعض الوظائف أو المناصب الهامة . . . بل قد تحرمه من حقه فى الحياة عندما يحكم عليه بالإعدام مثلا ، وهى عقوبات يؤكد القانون ضرورة تطبيقها على الناس جميعا . .

• وتقوم الدولة بتكليف القائم بالأعمال بتنفيذ القانون كل فى دائرة اختصاصه وقد يكون المنفذ صغيرا أو كبيرا وقد يكون غنيا أو فقيرا مدقعا . . أو يكون مثقفا واسع الإدراك أو جاهلا قليل التجربة ضيق الأفق . . عناصر متباينة من البشر تختلف أنماط سلوكهم وتصرفاتهم مما يستلزم بالتالى اختلافهم فى التنفيذ . .

• ونتيجة لهذا الاختلاف أغفل بعض أن هذا الحق حق للدولة وليس للأفراد ، حق للمجتمع وليس للمنفذ ، حق للجماعة وليس للسلطان وامتدّ هذا الاختلاف إلى تهديد مصالح الأفراد وحقوق المجتمع وأصبح صاحب الحق الفعلى يدور فى دائرة مفرغة . . البعض يلتزم بالقوانين ولكنه يقع تحت طائلة العقاب أو تضيع حقوقه بينما البعض الآخر لا يلتزم بها ولا يناله من العقاب شىء أو يحصل على حق ليس له . . وحاول أصحاب الحقوق البحث عن ملاذ يلجئون إليه فلم يجدوا سوى الشكوى إلى الله . . .

● ولقد تجلت هذه المشكلة لمختلف الدول فسارعت إلى إجراء البحوث العلمية على العامل القائم بالتنفيذ مستخدمة فى ذلك أحدث الوسائل العلمية والثقافية وإعداد برامج دراسية وفرق تدريبية لإطلاع العاملين على أحدث ما وصل إليه العقل البشرى فى سرعة أداء الأعمال وإنجازها . .

● ومع ذلك ظلت مشكلة الفرد قائمة فلم تتمكن هذه الوسائل الحديثة من التأثير تأثيرا ملموسا يوجه القائمين بالتنفيذ فى وقت واحد إلى مسار واحد يلتزم به الجميع . . مسار يعتبر صراطا مستقيما يهتدى به كل مسئول فى الدولة ويضمن تنفيذ النصوص تنفيذا واحدا أو متشابها لإمكان الوصول إلى الهدف الاجتماعى الكبير وهو سيادة القانون لا فرق بين العربى أو الأعجمى . . والأبيض والأسود . . .

● وقد ظهرت هذه المشكلة على مدار

سنين طويلة فى عمر الدول حتى أصبحت تشكل خطورة كبيرة بعد أن تحول حقها العام إلى حق خاص يستعمله البعض فى مزيد من السلطة أو مزيد من الأموال وأصبح حق الدولة مهددا فى ذاته بل منتهكا فى كيانه ووجوده .

● وإذ قمنا بتحليل السبب وجدنا أن حق الدولة يتمثل فى ذاتها وذاتها شخصية اعتبارية لا تقوم بعمل يخرج إلى الوجود إلا على أيدى وجهود العاملين بها . . .

● وأصبح التساؤل واضحا إذا كانت الدراسات المستفيضة والنظم الحديثة لا تتمكن من تحديد الأصول أو القواعد التى يلتزم بها المنفذ وتقرب ملامح الشخصيات فى التنفيذ فما هو الحل الأمثل لمعالجة المشكلة ؟

● ولو بحث الجميع لوجدوا أن الحل قريب والطريق واضح والأمر سهل وميسور ومضمون . . كتاب جامع شامل لكل ما يصبو إليه الفرد والجماعة والحكومات والدول من عدل واستقرار وعلم وثقافة ومعرفة . . كتاب أرسله الله على يد رسوله الكريم محمد لكى يغنينا عن التعقيدات البشرية فى التطبيق والتنفيذ إلى السهل الميسور . .

● وفائدة الرجوع إلى كتاب الله فى معالجة مشكلة الفرد القائم بالتنفيذ أن تأثيره واحد بالنسبة لجميع الأشخاص فهو يعتمد على الإقناع لزرع القيمة الروحية فى الفرد مهما اختلف الأفراد فى شخصياتهم أو ظروفهم . .

● فالقيمة الروحية ليست مجرد قيمة تحفظ من كتاب ولا هى قول على لسان وإنما هى تطبيق عملى لابد له من أن يعبر عن نفسه مؤكدا الترابط القوى بين القيمة الروحية وحياة الإنسان العملية كقوله تعالى :

● ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ الصف / ٢ .

● والقيمة الروحية فى القرآن مستوى وحافظ وحافز . . . فهى تعمل على رفع مستوى العمل ومستوى أداء الفرد وكفايته مما يعود بالخير على كليهما العمل والعامل .

● وهى حافظ لأنها ضابط للنفس تمنع العامل من الانغماس فى أمور الدنيا وراء شهواته وحبه لذاته مما يبعده عن عمله . . وهى حافز لأنها تجعله يؤمن بأن العمل واجب بل هو رسالة يؤديها فى الحياة دون أن ينظر إلى منصب أو جاه أو مال . .

● وقد يدفع البعض بأن الدول فى معالجتها للمشكلة تلجأ إلى العلم

والتكنولوجيا فهل أغفل الكتاب العلم ، ورسولنا الكريم يقول « إنما بعثت معلما » والله فى كتابه يقول : (نۤ والقلم وما يسطرون) .

● إن العلم لا يتعارض مع الدين ولا يوجد أى تناقض أو صراع بينهما بل إن العلم يدعمه الدين وهو ضرورة للمجتمع وقد دفع البعض بأن الصراع قائم وقديم منذ قيام رجال الدين فى أوربا بتدعيم وجودهم على سلطة الحق الإلهى وحاولوا السيطرة على المجتمعات الإنسانية باسم هذا الحق ورفضوا أى فكر أو محاولة لتطوير حياة المجتمع لتأثير ذلك على مراكزهم ولكننا نرد عليهم بأن الإسلام عمل على تقديس العلم وحفز على التبحر فيه دون حدود . .

قال تعالى . . (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقال لرسوله (وقل رب زدنى علما) والمقصود أن آفاق العلم أمام الإنسان مفتوحة ويطالب الله الناس بأن يستزيدوا من العلم والوسائل العلمية فى حياتهم . .

● والقيم الروحية دائرة من الخلق الفاضل تبدأ من الفرد وتتسع إلى الأسرة والعشيرة والمجتمع وهى ليس لها حدود لأنها تهتم بكل أمور الدنيا . .

● ومن أمثلة اهتمام الكتاب بالأمور الاقتصادية ما جاء على لسان شعيب عليه السلام وهو يكافح الانحراف الاقتصادى (يا قوم اعبدوا الله مالكم من الله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) هود ٨٤ .

● كذا وضع بيان عمل للتخطيط الاقتصادى الطويل مثل ما ورد فى قصة يوسف عليه السلام عن تفسيره لرؤيا الملك . .

● كما اهتم الكتاب بالأمور الأخرى الاجتماعية كاهتمامه بشئون الأسرة وعلاقة الأزواج والاهتمام بالوالدين وبالقصر واليتيم والضعفاء .

● كما اهتم بالدعوة إلى الشورى بين الحاكم والمحكوم وبين القادة والقاعدة . . بالإضافة إلى الاهتمام بالأمور الدنيوية الأخرى التى تساعد المجتمع وتساعد الوالى فى استقرار الحكم ورفاهية الشعب .

عقيد شرطة

(فكرى الجوهرى)

من طرائف الشعراء الفتاك

عبد الله بن الحجاج من بنى ذبيان عاصر عبد الملك بن مروان وخرج عليه محاربا له ، انضم إلى جميع أعدائه ، ويصفه صاحب الأغانى وهو من بنى مروان صلبية وإن نسب إلى أصفهان ، يصف ابن الحجاج الذبيانى بأنه شاعر فاتك من معدودى فرسان مضر ، وذوى البأس والنجدة فيهم غير أنه على عادته – الأغانى – لا يعنى بمولد من يتكلم عنه أو وفاته معينا بالسنوات والأيام ، وإنما همه فى طرائف الأخبار كأن الشخصية عنده طرفة أو نادرة لا أكثر ولا أقل .

وشاعرنا هذا الفاتك دفعته الأحداث إلى أن يكون فى كل جيش يقاتل عبد الملك على ملكه ، ولهذا أسباب معروفة لو أرادها صاحب الأغانى لذكرها ، ولكنه اكتفى بفتكه وذكر عداوته لعبد الملك ثم رجوعه إليه حين قلّ النصير وعزّ المعين ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت .

والأساس فى ثورة الشاعر موقعة « مرج راهط » التى وقعت بين الضحاك بن قيس الفهرى مناصر ابن الزبير وبين مروان ابن الحكم وكان مع الضحاك القيسية وعدادهم ستون ألفا ، وكان مع مروان اليمانية وعددهم ثلاثة عشر ألفا ، وكانت القوة فى جانب الضحاك ولكن بحيلة من مروان وجنده ، وهى طلب الموادعة والصلح فاستجاب الضحاك ولم يأخذ حذره فهاجمه مروان وانتصر عليه ، فزعموا أن رجالا من قيس عيلان لم يضحكوا بعد موقعة « المرج » حتى ماتوا جزعا على من أصيب من فرسانهم يومئذ ، وهذه الموقعة مكنت مروان من أن يعلن نفسه خليفة فى دمشق سنة ٦٥ هـ وعبد الله بن الحجاج ممن نكأته هذه المعركة ، وملأت قلبه حقدا على مروان وابنه عبد الملك ، فكان من أمره أنه أيد « عمرو بن سعيد الأموى » ضد عبد الملك فكان من جنده ، ثم قتل عبد الملك عمرو بن سعيد غَدْراً ، فهرب صاحبنا إلى عبد الله بن الزبير فعاش فى كنفه مظهرا عداوته لعبد الملك ، فلما قضى الحجاج على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ

اتجه إلى نجدة بن عامر الحنفي الخارجي فكان معه يقاتل ويغامر، ولكن نجدة قتل في البحرين، فنظر فلم يجد قائدا ولا جيشا يستظل بلوائه، ووجد الأمة الإسلامية عادت إليها وحدتها، وشاع الأمن بين ربوعها، ووجد الشعراء الثائرين مثله قد لاذوا بعبد الملك يعتذرون فيقبل اعتذارهم، إن عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزبير بن استعان بعبد الله بن جعفر ابن أبي طالب حتى وقف بين يدي عبد الملك فقبل عذره واستمع المجلس لشعره، إنه لا يجد شفيعا أو ساعيا بالخير له، فداخله الرعب والفزع والمصير المخيف، ففكر وقدر، واحتال لنفسه حيلة إما أن تنجيه أو تريحه من عذاب القلق والأرق، فشد الرحال خفية حتى بلغ دمشق فدخل على عبد الملك وهو يطعم الناس، فجلس ناحيته. فقال له عبد الملك: مالك لا تأكل؟ – وهو لا يعرفه – فقال: لا أستحل أن آكل حتى تأذن لي. فقال: إني أذنت للناس جميعا. قال: إني لم أعلم، أفآكل بأمرك؟ فقال: كل. فأكل وعبد الملك ينظر إليه، ويعجب من فعاله. فلما أكل الناس جلس عبد الملك في مجلسه، وجلس خواصه بين يديه، وتفرق من الآكلين من تفرق وقف عبد الله ابن الحجاج بين يديه، ثم استأذنه في الإنشاء، فأذن له، فأنشده، وهنا نسمع إنشادا وحوارا فيه ذكاء من الجانبين، وقدرة من الفن الشعري والذوق الأدبي، وكان عبد الملك أديبا أريبا بجانب فقهه في الدين وبراعته في السياسة وتناول الأمور، ومجالس عبد الملك الأدبية لم تبخل عليها كتب الأدب بالتدوين، قال الشاعر يخاطب الخليفة.

أبلغ أمير المؤمنين بأنني
مما لقيت من الحوادث مُوجَعُ
مُنِع القرار فجئت نحوك هارباً
جيش يجر ومقنب[1] يتلمع

فقال له عبد الملك: وماخوفك؟ لاأم لك! لولا أنك مريب. فقال عبد الله:

إن البلاد عليَّ وهي عريضة
وُعِرتْ مذاهبها وسُدَّ المطلعُ

فقال له عبد الملك: ذلك مما كسبت يداك، وما الله بظلام للعبيد. فقال عبد الله:

إن الذي يعصيك منا بعدها
من دينه وحياته مُتودعُ

(١) المقنب: جماعة الخيل زهاء ثلاثين ويتلمع تبرق سيوفه ورماحه.

آتى رضاك ولا أعود لمثلها
وأطيع أمرك ما أمرتَ وأسمعُ
أعطى نصيحتى الخليفة باخعاً
وخِزامةَ الأنفِ المقودِ فأتبعُ

فقال له : هذا مالا نقبله منك إلا بعد المعرفة بك وبذنبك ، فإذا عرفنا الحوبة قبلنا التوبة . قال عبد الله :

ولقد وطئتَ بنى سعيد وطأة
وابن الزبير فعرشه متضعضع

فقال عبد الملك : لرب العالمين الحمد والمنة على ذلك . فقال له عبد الله :

مازلت تضرب مَنْكِباً عن منكب
تعلو ويسفل غيركم ما يُرْفَعُ
ووطئتهم فى الحرب حتى أصبحوا
حدثا يُرسُ(١) وغابرا مُتَضجّعُ
وأرى الذين رَجَوْا تراث محمدٍ
أفلت نجومهم ونجمك يسطعُ

فقال عبد الملك : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ما أنت وذاك لا أم لك ؟ فقال عبد الله :

فحوى خلافتهم ولم يظلم بها
القَرْم قرم بنى قصى الأقرعُ(٢)
لا يستوى خاوى نجوم أفَلٍ
والبدر منبلجا إذا ما يطلعُ

وُضِعَتْ أمية واسطين لقومهم
ووُضِعْتَ وسطهم فنعم الموضعُ
بيت أبو العاصى(٣) بناه بربوة
عالى المشارف عزّه ما يُدْفَعُ

فقال له عبد الملك : إن توربتك عن نفسك لتريبنى ، فأى الفسقة أنت ؟ وما الذى تريد ؟ قال :

فانعش أصيبيتى الذين كأنهم
حجل(٤) تدَرَّجُ بالشَّرِبة(٥) جُوَّع

فقال عبد الملك ، لا أنعشهم الله ، وأجاع أكبادهم . فقال عبد الله :

مال لهم ممّا يُضَنُّ جمعتُه
يوم القليب فحيز عنهم أجمعُ

فقال له : لعلك أخذته من غير حله ، وأنفقته فى غير حقه ، وأرصدته لمشاقة أولياء الله ، وأعددته لمعاونة أعداء الله . فقال عبد الله :

أدنو لترحمنى وتجبر فاقتى
وأراك تدفعنى ، فأين المدفعُ ؟

فتبسم عبد الملك وقال له : إلى النار فمن أنت الآن ؟ فقال : أنا عبد الله ابن الحجاج ، وقد وطئتُ دارك ، وأكلت

---

(١) يذكر .
(٢) القوى الشديد .

(٣) أبو العاصى مجمع النسب لعبد الملك والخليفة عثمان بن عفان .
(٤) ضرب من الطير .
(٥) موضع .

طعامك ، وأنشدتك ، فإن قتلتني بعد ذلك فأنت بما عليك فى هذا عارف ، وعاد إلى الإنشاد ، فأنشده :

ضاقت ثياب الملبسين وفضلهم
عنى فألبسنى فثوبك أوسعُ

فرمى عبد الملك إليه برداء كان على كتفه ، وقال ، البسه لالبستَ ، فالتحف به . ثم قال له عبد الملك : أولى لك والله لقد طاولتك طمعاً فى أن يقوم إليك بعض هؤلاء فيقتلك ، فأبى الله ذلك ، فلا تجاورنى فى بلد . وانصرف آمنا ، وأقم حيث شئت .

ولكن هذا العفو لم يجز القبول عند الحجاج بن يوسف الثقفى ، فكتب إلى الخليفة يعرفه آثار عبد الله بن الحجاج وبلاءه فى محاربته ، وأنه بلغه أنه أمنه ، وتعرضه عليه ، ويطلب إليه أن يرسله إليه ليتقوم بالكيد له وتعذيبه وقتله .. وسمع الشاعر ما قال فيه الحجاج ، فجاء إلى عبد الملك ووقف بين يديه وأنشد :

أعوذ بثوبيك اللذين ارتداهما
كريم الثنا من جيبه المسك ينفح
فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى
وإن كنت مذبوحاً فكن أنت تذبح

فكتب عبد الملك إلى الحجاج : إنى قد عرفت من خبث عبد الله وفسقه مالا يزيدنى علما به ، إلا أنه اغتفلنى متنكرا ، فدخل دارى ، وتحرم بطعامى ، واستكسانى فكسوته ثوبا من ثيابى ، وعاذنى فأعذته ، وفى دون هذا ما حظر علىّ دمه ، وعبد الله أقل وأذل أن ينكث عهدا فى قتله خوفا من شره ، فإن شكر النعمة فأقام على الطاعة فلا سبيل إليه ، وإن كفر ما أوتى وشاق الله ورسوله وأولياءه فالله قاتله بسيف البغى الذى قتل به نظراؤه ، ومن هو أشد بأسا وشكيمة منه من الملحدين ، فلا تعرض له ولا لأحد من أهل بيته إلا بخير والسلام .

وهكذا نجا الرجل بحيلته وشعره الصادق فى عرض حياته وعذره ، وقد وجد أرضا صالحة للغراس عند كريم يقبل العذر ويعفو عن الذنب ، ويستحق ما قاله فيه عبيد الله بن قيس الرقيات وفى أسرته :

ما نقموا من بنى أمية إلا
أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك ولا
تصلح إلا عليهم العرب

ولم يبق لنا من هذا السلف إلا الذكريات نضعها أمامنا من حين إلى حين .

تحقيق مشروعية القنوت في الصلاة عند النوازل

الشيخ / محمد الطيب شورم

تحقيق مشروعية القنوت فى الصلاة ، وحكمه عند الأئمة الأعلام ، وما ورد فيه من تفصيلات .

القنوت .. لغة .. الطاعة والدعاء ، وهو مصدر من قنت يقنُت قنوتا ، أطاع الله تعالى وخضع له وأقرَّ بالعبودية ومنه قوله تعالى : (ومن يقنُت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) ٣٣ : ٣١ وقوله (يامريم اقنتى لربك) ٣ : ٤٣ ويقال : قنت الله .. لزم طاعته متعدٍّ ولازم ، فهو قانت وهى قانتة ، والجمع قُنَّت .

وشرعا : الطاعة والدعاء ، والالتجاء إلى الله تعالى فى دفع شر ، أو جلب خير فى وقفة فى الصلاة .

بدء مشروعيته : ثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعا ، فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، والصبح فى دبر كل صلاة ، إذا قال : سمع الله لمن حمده من الركعة الأخرة .. يدعو عليهم . على حىٍّ من بنى سُلَيم ، على رِعْلٍ وذكوان وعُصَيَّة .. ويؤمِّن مَنْ خلفه » رواه أحمد .. وزاد : وأرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام فقتلوهم » .

قال عكرمة : وكان هذا مفتاح القنوت .

وأما اختصاصه بوقت معين من أوقات الصلاة فذهب أكثر السلف ومَن بعدهم وعلى رأسهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وعمر وعثمان وعلى .. وقال به من التابعين ، فمن بعدهم خلائق كثيرة .. على أنه مشروع فى جميع الصلوات المكتوبة إذا نزلت بالمسلمين نازلة – والعياذ بالله تعالى – كعَدُوٍّ ، وقحط ، ووباء ، وعطش ، وضررٍ ظاهر فى المسلمين .

ماعدا الصبح : فإن القنوت فيه مشروع دائما ، سواء نزلت بالمسلمين نازلة أم لا ، مستدلين على ذلك ، بحديث ابن عباس السابق ، وبحديث سيدنا أنس ،

رضى الله عنه «أن النبى ﷺ قنت شهرا يدعو على قاتلى القُرّاء» وهم قراء سبعون أرسلهم رسول الله ﷺ لبنى سليم كطلبهم، فغدروا بهم وقتلوهم فى الطريق، فكان النبى ﷺ يدعو عليهم فى الصلاة شهرا، ثم ترك.

فأمّا فى الصبح «فلم يزل يقنت حتى فارق الدنيا» وهو حديث صحيح صريح.. رواه جماعة من الحفّاظ، وصححوه.

وأما فى غير الصبح.. فدليلهم: حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان لايقنت إلاّ أن يدعو لأحد أويدعو على أحد.. كان إذا قال: سمع الله لمن حمده، قال: ربنا لك الحمد، وذكر الدعاء، وهو –: «اللهم اهدنى فيمن هديت، وعافنى فيمن عافيت..» الحديث

كما استدلوا على أن النبى ﷺ لم يترك القنوت فى الصبح مطلقا، بما رواه سعيد بن المسيب، وأبوسلمة بن عبد الرحمن بن عوف.. أنهما سمعا أبا هريرة يقول «كان رسول الله ﷺ يقول، حين يفرُغ من صلاة الفجر من القراءة، ويكبر ويرفع رأسه: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

ثم يقول: وهو قائم..«اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبى ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم شدد وطأتك[1] على مضر، واجعلها عليهم كسنى[2] يوسف، اللهم ألعن[3] لحيان، ورعلاً وذكوان، وعُصَيَّة، عصت الله ورسوله.. ثم بلغنا أنه ترك ذلك، لمّا أنزل (ليس لك من الأمر شيء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ : ١٢٨) أى أنه ترك الدعاء على هذه القبائل.

وأما أصل القنوت فلم يتركه حتى فارق الدنيا. وذهب آخرون.. كعبد الله ابن مسعود، وأصحابه.. وأبى حنيفة وأصحابه، وسفيان الثورى، وأحمد، إلى أنه لاقنوت فى الصبح.

وقال إسحاق: يقنت للنازلة خاصة.. مستدلين على ذلك:

بحديث أنس رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قنت بعد الركوع شهرا يدعو على

---

(١) وطأتك – الوطأة – بفتح الواو، وإسكان الطاء بعد همزة: وهى البأس.

(٢) كسنى – بكسر السين وتخفيف الياء – أى اجعلها سنين شداداً، ذوات قحط وغلاء.

(٣) اللهم العنْ لحيّانَ – فيه جواز الكفار، وطائفة معينة منهم.

أحياء من العرب ، ثم تركه .. رواه البخارى ومسلم .

وبحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قنت فى صلاته شهرا ، يدعو لفلان وفلان ، ثم ترك الدعاء لهم » .

وبما رُوى عن سعد بن طارق ، وهو أبو مالك الأشجعى ، قال : قلت لأبى يا أبى إنك قد صليت خلف رسول الله ﷺ وأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، أفكانوا يقنتون فى الفجر ؟

فقال : أى بُنى مُحْدَثٌ ، أى بدعة .

وبما رُوى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « ماقنت رسول الله ﷺ فى شىء من صلاته » .

وقد أجيب عن هذه الأحاديث — :

أما حديثا أنس رضى الله وحديث أبى هريرة فى قوله ، ثم تركه ، أى ترك الدعاء على أولئك الكفار ولعنتهم فقط لأنه ترك جميع القنوت ، أوترك القنوت فى غير الصبح .

قال المجيبون : وهذا التأويل متعين للجميع بين الروايات ، لأن حديث أنس فى قوله ، ولم يزل يقنت فى الصبح حتى فارق الدنيا . صحيح صريح ، ويزيد هذا التأويل وضوحا ، وهو إنما ترك الدعاء على أولئك الكفار ولعنتهم رواية أبى هريرة وهى قوله « ثم ترك الدعاء لهم » .

كما أجيب عن حديث سعد بن طارق .. أن الذين أثبتوا القنوت معهم زيادة علم ، وهم أكثر ، فوجب تقديمهم .

كما أجيب عن حديث ابن مسعود رضى الله عنه بأنه ضعيف جداً ، لأنه من رواية محمد بن جابر السُّحمى ، وهو شديد الضعف متروك ، ولأنه نفى ، وحديث أنس إثبات ، فقدم لزيادة العلم . كما أجيب عن الآية التى زعم بعض الكوفيين . أنها ناسخة للقنوت الذى كان النبى ﷺ يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح .. وأحتج بحديث ابن عمر : أنه سمع النبى ﷺ يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال : اللهم ربنا ولك الحمد فى الآخرة ، ثم قال « اللهم الْعَنْ فلانا وفلانا . فأنزل الله عز وجل (ليس لك من الأمر شىء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ : ١٢٨) أخرجه البخارى ، وأخرجه أيضا مسلم من حديث أبى هريرة أتم منه ، وليس هذا موضع نسخ .. وإنما نبه الله تعالى نبيه ﷺ على أن الأمر ليس إليه . وأنه لايعلم من الغيب شيئا ، إلا ما أعلمه الله تعالى ، وأن الأمر كله لله ، يتوب على من يشاء ، ويعجل

العقوبة لمن يشاء .. والتقدير : ليس لك من الأمر شيء . ولله ماق السموات وماق الأرض ، دونك ودونهم ، يغفر لمن يشاء – ويتوب على من يشاء . فلانسخ ولما روّى سالم بن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقواما فقال : « اللهم ٱلعَنْ أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام .. اللهم العن صفوان بن أمية » ، فنزل قوله تعالى (أويتوب عليهم) فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم . وإنما نص الله تعالى على المنع ، تقوية لعصمته ، والمقصود من الآية منعه ﷺ من كل فعل وقول إلا ما كان بإذنه وأمره .

– وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية (فإنهم ظالمون) أى بالمعاصى ، وهذه الجملة مستقلة ، لكن المقصود من ذكرها تعليل لحسن التعذيب والمعنى (أويعذبهم) فإنه تعالى إن عذبهم إنما يعذبهم لأنهم ظالمون .. وتقديم المغفرة على التعذيب للإعلام بأن رحمته سبقت غضبه وبأن الرحمة من مقتضيات الذات دون الغضب ، فإنه من مقتضيات سيئات العصاة .. والمغفرة والرحمة على سبيل الإحسان .. أما التعذيب فعلى سبيل العدل ، لأن الطاعة لاتوجب الثواب ، والمعصية لاتوجب العقاب .. بل الكل من الله تعالى بحكم إلهيته وقهره وإرادته .

وقال الإمام العلامة الشوكانى فى كتابه نيل الأوطار : إن الحق ماذهب إليه من قال ، إن القنوت مختص بالنوازل . وأنه ينبغى عند نزول النازلة ، ألاّ تخص به صلاة دون صلاة .

وقد ورد من حديث أبى هريرة عند ابن حبّان .. كان لايقنت إلا أن يدعو لأحد ، أويدعو على أحد – وأصله فى البخارى .

ثم قال ابن القيم ما معناه : الإنصاف الذى يرتضيه العالم المنصف أنه ﷺ قنت وترك ، وكان تركه للقنوت أكثر من فعله ، فإنه إنما قنت عند النوازل ، للدعاء لقوم وللدعاء على آخرين ثم تركه لمّا قدم مَنْ من دعا لهم وخلّصوا من الأسر ، وأسلم مَنْ دَعا عليهم وجاءوا تائبين ، وكان قنوته لعارض ، فلما زال ترك القنوت .

ثم قال : إن أحاديث أنس كلها صحاح ، يصدّق بعضها بعضا .. ولاتناقض .

وحمل قول أنس « مازال يقنت حتى فارق الدنيا » على إطالة القيام بعد الركوع .

كما أجاب عن تخصيصه بالفجر . بأنه وقع بحسب سؤال السائل ، فإنه إنما سأل أنسا عن قنوت الفجر فأجابه عما سأل

عنه .. وبأنه ﷺ كان يطيل صلاة الفجر دون سائر الصلوات . . ومعلوم أنه ﷺ كان يدعو ربه ويثنى عليه ويمجده فى هذا الاعتدال ، وهذا قنوت منه بلاريب ، فنحن لانشك ولانرتاب ، أنه لم يزل يقنت فى الفجر حتى فارق الدنيا .

وأمَّا حكمه . . فقد وقع الاتفاق على عدم وجوبه مطلقا أى سواء نزلت نازلة بالمسلمين أم لا . . كما صرح بذلك صاحب البحر وغيره . . وحيث لم يكن واجبا ، فهو سُنَّة مؤكدة فى الصبح دائماً عند مالك والشافعى . . وفى الوتر فى كل سُنَّة عند جماعة وفى آخر شهر رمضان . . أى فى النصف الأخير منه عند الشافعى . . وأمَّا عند أبى حنيفة ، فهو جائز فى النوازل فى جميع المكتوبة ، وفى غيرها ، فلا قنوت عنده لافى الصبح ولا فى غيرها – وكذلك عند الإمام أحمد فهو سُنَّة عنده فى النوازل وفى غيرها فلا قنوت عنده لافى الصبح ، ولا فى غيرها – ومَحلُّه فى اعتدال الركوع الأخير ، وعليه كثير من الصحب ، والتابعين ، والشافعى ، وأحمد .

وقال غيرهما : محله قبل الركوع ، وهو مذهب مالك ، وفى رواية عنه : بعد الركوع الأخير.

– ويستحب الجهر به فى الصلاة الجهرية ، وهو الأصح .. هذا بالنسبة .. للإمام .. وأما المنفرد فيسر به بلا خلاف ، وأمَّا المأموم ، فإن قلنا : لايجهر الإمام ، قنت وأسر ، وإن قلنا : يجهر الإمام ، فإن كان يسمع الإمام ، فوجهان ، أصحهما : يُؤمّن على دعاء الإمام ولايقنت ، وإن كان لايسمع ، لبعد أوغيره : أصحهما يقنت – هذا كله فى الصبح ، وفيما إذا قنت فى الوتر فى النصف الأخير من شهر رمضان .. وأمَّا إذا قنت فى باقى المكتوبات حيث قلنا به – فقال الرافعى : كلام الغزالى يقتضى أنه يُسرُّ به فى السّريات وفى جهره به فى الجهريات : الوجهان .. والأصح ماسبق ذكره وهو الجهرية .

ويستحب رفع اليدين فيه .. ولايمسح الوجه – وقيل : يستحب مسحه .

واتفقوا على كراهة مسح الصدر ، والصحيح فيه أيضا : أنه لايتعين فيه دعاء مخصوص بل يحصل بكل دعاء حتى لو قرأ آية فيه من القرآن تتضمن دعاء كآخر سورة البقرة أجزأه ، وإن لم تتضمن دعاء كآية الدَّيْن وسورة تَبَّتْ يَدَا ، فوجهان ، والصحيح عدم الإجزاء .

كما أن الصحيح : أن الدعاء المشهور ، وهو « اللهم أهدنى فيمن هديت وعافنى فيمن عافيت» ، مستحب فيه .. وليس

شرطا فى أنه لايحصل إلاّ به .

ولوترك القنوت فى الصبح عمدا أوسهوا : سجد سجدتين للسهو ، وهو مذهب الشافعى .. وحكى الطبرى الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة ، كما ذكر الدار قطنى : عن سعيد بن عبد العزيز فيمن نسى القنوت فى صلاة الصبح ؟ قال : يسجد سجدتى السهو .. كما يستحب رفع اليدين فى الدعاء خارج الصلاة .. ولقد وردت فيه عدة أحاديث لاحصر لها .. ولايتسع المقام هنا لذكرها ؟ ؟

– وهذا كله فى الصلوات المكتوبة ، وأما فى غيرها ، فالحكم : أنه لايُقنت فى شىء منها .

قال الشافعى فى الأم ، فى كتاب صلاة العيدين ، فى باب القراءة فى العيدين : ولاقنوت فى صلاة العيدين ، والاستسقاء ، فإن قنت عند نازلة لم أكرهه ، كما يستدل بحديث أبى هريرة رضى الله عنه ، الذى كان يقول الرسول فيه ﷺ فى صلاة الفجر بعد أن يرفع رأسه من الركوع ويكبر ويقول : ربنا ولك الحمد ، ثم يقول وهو قائم : « اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة .. » إلخ الحديث .

قال الإمام النووى ، فى شرحه على صحيح مسلم : إن هذا الحديث فيه استحبابُ القنوت والجهرُ به ، وأنه بعد الركوع وأنه يجمع بين قوله : سمع الله لمن حمده ، وربنا لك الحمد .. وفيه جواز الدُّعاء لإنسان مُعيّن وعلى مُعيّن .

وكما قال أيضا صاحب كتاب التاج الجامع للأُصول فى أحاديث الرسول ﷺ ، تعليقا على هذا الحديث : أن تعيين بعض الناس فى الدعاء فى الصلاة لايبطلها .. وفيه ردٌّ على من يقول : لايجوز الدعاء إلابأخروى .. وفيه جواز لعن الكفار وطائفة معينة منهم .

ورأيى مع الإمام النووى .. ومع صاحب كتاب التاج .. بأن الدعاء لإنسان مُعيّن ، وفى مُعيّن .. لا يُبطل الصلاة .. وإلاّ لَمَا صرّح الرسول ﷺ بذكر أسماء الذين دعا لهم ، والذين دعا عليهم أثناء القنوت فى الصلاة ! ؟

وأما قول الإمام أحمد رضى الله عنه فى كتاب الفقه على المذاهب الأربعة : إن الدعاء لشخص معين فجائز – بغير كاف الخطاب .. وتبطل الصلاة بالدعاء بكاف الخطاب ، كأن يقول : اللهم أدخلك الجنة باولدى ، أما لو قال : اللهم أدخله الجنة فلابأس ، فإنى أقول مستفسراً ومستوضحا : بأن هذه الفتوى فى النفس

منها شيء !؟ ولامعنى للفرق بين العبارتين ، إلا إذا كان هناك مايؤيدها من السنّة النبوية .

وإنى رأيت من المستحسن تكملة لهذا البحث القيم أن أختمه بذكر الدعاء المأثور فى القنوت عن سيدى وسيد العالمين رسول الله ﷺ .

أما الدعاء الأول ، الذى رواه الترمذى عن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، قال « علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهدنى فيمن هديت[1] وعافنى فيمن عافيت ، وتولنى فيمن توليت ، وبارك لى فيما أعطيت ، وقنى شر ماقضيت فإنك تقضى ولايقضى عليك ، إنه لايذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » .

رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم ، بإسناد صحيح .

قال الترمذى : هذا حديث حسن قال : ولايعرف عن النبى ﷺ فى القنوت شىء أحسنُ من هذا .

وفى رواية ، رواها البيهقى — عن محمد بن الحنفية — وهو ابن على ابن أبى طالب رضى الله عنه — قال : إن هذا الدعاء ، هو الذى كان أبى يدعو به فى صلاة الفجر فى قنوته .

قال البيهقى : دلّ هذا كله على أن تعلم هذا الدعاء وقع فى القنوت فى صلاة الصبح ، وقنوت الوتر .

ثم قال : وهذه الكلمات الثمانى هن اللواتى نص عليهن الشافعى فى مختصر المزنى ، واقتصر عليهن ولوزاد عليهن .. « ولايعز من عاديت » قبل « تباركت ربنا وتعاليت » وبعده « فلك الحمد على ماقضيت أستغفرك وأتوب إليك » فلابأس به .

ثم إن كان إماما لايخص نفسه بالدعاء ، بل يعمم ، فيأتى بلفظ الجمع . بأن يقول « اللهم اهدنا فيمن هديت .. » إلخ الدعاء .

— وإن قنت بما روى عن عمر رضى الله عنه كان حسناً .. وهو كما ذكره أبوداود فى المراسيل : عن خالد بن عمران قال « بيْنا رسول الله ﷺ . يدعو على مُضر ، إذ جاءه جبريل عليه السلام ، فأومأ إليه أن اسكت ؟ فسكت ، فقال : يامحمد إن الله لم يبعثك سبّاباً ولالعّاناً ، وإنما بعثك رحمة ، ولم يبعثك عذابا (ليس لك من الأمر شىء أويتوب عليهم أويعذبهم فإنهم ظالمون ٣ ١٢٨) قال : ثم علمه هذا القنوت ، فقال : « اللهم إنا نستعينك

---

[1] (١) فيمن هديت — أى مع من هديت .

ونستغفرك ولانكفرك ، ونخنع لك[1] ونخلع ونترك[2] من يكفرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد[3] ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، إن عذابك الجدّ[4] ، بالكفار مُلْحق[5] اللهم عذّب كفرة أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيلك يكذبون رسلك ، ويقاتلون أولياءك ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، وأصلح ذات بينهم[6] ، وألف بين قلوبهم[7] وأجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة[8] وثبتهم على ملة رسولك ، وأوزعهم[9] أن يوفوا بعهدك ، الذى عاهدتهم عليه ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، إله الحق ، وأجعلنا منهم »[10] .

(١) ونخنع لك – الخنوع : الخضوع والذل .
(٢) ونخلع ونترك – أى : نترك مَنْ يعصك ، ويلحد فى صفاتك .
(٣) وإليك نسعى ونحفد – أى : نسارع إلى طاعتك .. وأصل الحفد : العمل والخدمة .
(٤) إن عذابك الجدّ – بكسر الجيم .
(٥) بالكفار ملحق – بكسر الحاء – أى : مَنْ نزل به عذابك : ألحقه بالكفار – وقيل بمعنى لاحق – ويروى بفتح الحاء – على المفعول – أى : إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به .
(٦) وأصلح ذات بينهم – أى : أمورهم ومواصلاتهم .
(٧) وألف بين قلوبهم – أى : اجمعها على الخير .
(٨) الإيمان والحكمة – هما كل ما منع من القبيح .
(٩) وأوزعهم – أى : ألهمهم .

* * *

– ويستحب الجمع بين قنوت عمر رضى الله عنه وقنوت على كرم الله وجهه ، فإن جمع بينهما ، فالأصح تأخير قنوت عمر .. وفى وجه يستحب تقديمه وإن اقتصر فليقتصر على الأول .

وإنما يستحب الجمع بينهما إذا كان منفرداً ، أوكان إمام محصورين يرضون بالتطويل .

ويستحب أن يصلى على النبى ﷺ بعد الدعاء ، لما رُوى من حديث الحسن رضى الله عنه فى الوتر أنه قال : « تباركت وتعاليت ، وصلى الله على النبى وسلم » .

ويستحب للمأموم أن يؤمن على الإمام فى الدعاء .. لما روى ابن عباس رضى الله عنهما ، قال « قنوت رسول الله ﷺ وكان يُؤمِّنَ من خلفه .

ويستحب له أن يشاركه فى الثناء ، لأنه لايصلح التأمين على ذلك ، فكانت المشاركة أولى .

والله ورسوله أعلم .

محمد الطيب شورم

(١٠) واجعلنا منهم – أى : ممّن هذه صفتهم .

الفتاوى

الأستاذ/ عبد الحميد شاهين

س – ما هو التفسير الصحيح لقوله تعالى (حم عسق) وما شابهها من الحروف في أوائل السور؟

ج – في القرآن الكريم تسع وعشرون سورة بدئت بحروف هجائية تقرأ مقطعة بأسمائها هكذا: ألف . لام . ميم ، وكان منها ما بدئ بحرف واحد: ص ، ق ، ن . ومنها ما بُدئ بحرفين: طه ، يس . ومنها ما بُدئ بثلاثة أحرف: الم . ومنها ما بدئ بأكثر: كهيعص ، حم عسق . . . (وحم عسق) هي التي بدئت بها سورة الشورى ، وهي إحدى سور سبع بدئت بحرفي (حم) وتعرف باسم «الحواميم» وكل السور التي بدئت بالحروف من القسم المكي . الذي عني بتقرير التوحيد والوحي والرسالة والبعث عدا سورتي «البقرة وآل عمران» اللتين تضمنتا مناقشة أهل الكتاب في إنكارهم الوحي إلى النبي ﷺ .

وليس لهذه الحروف في اللغة العربية معان تدل عليها سوى مسمياتها التي ينطق بها في الكلمات المركبة منها ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبي ﷺ بيان للمراد منها . . ولذلك اختلف الناس فيها اختلافاً كثيراً . . وكان لهم فيها آراء وتخمينات ! ! !

وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعاً مما استأثر الله به ولا يعلم معناه أحد سواه وهذا رأي كثير من الصحابة والتابعين .

ثانيهما : أن لها معنى ، وذهبوا في معناها مذاهب شتى ، ملئت بها كتب التفسير ، وكان منها : أنها أسماء للسورة التي بدئت بها .

ومنها : أنها رموز لبعض أسماء الله أو صفاته ، كأن يجعل للحرف اسماً من الأسماء التي تبدأ به ، فالألف لا «الله» مثلاً ، واللام لاسم «لطيف» والميم لاسم «ملك» وهكذا مما يمكن أن يصنعه كل إنسان .

ومنهم من زعم أن منها رموزاً لبعض أحداث تظهر في مستقبل الأيام . إما عن طريق حساب الجُمَّل المعروف ، أو عن

طريق الروايات التى لا مستند لها ، أو عن طريق الوهم والتخمين ! ! ! ؟

ومنهم من يرى أنها زيادة إمعان فى التحدى بالقرآن ، على معنى أنه كما ترون مؤلف من الحروف التى يتركب منها كلامكم ، فليست مادة غريبة عليكم ، ولا مجهولة لكم ، وإذن فعجزكم مع هذا عن الإتيان بمثله دليل على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو وحى من الله خالق القوى والقدر .

والذى يصح أن نطمئن إليه هو الرأى الأول : وهو أنه مما استأثر الله بعلمه . نعم للبدء بها حكمة يمكن استنتاجها من غرابتها ، ومن مجيئها بدءاً للسور أنها تنوه بشأن القرآن ، ذلك أن القوم كانوا يتواصون فيما بينهم بالإعراض عن القرآن (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ففوجئوا بالبدء الغريب قرعاً لأسماعهم ، ودفعاً لهم إلى استماعه ، وهى بذلك تشبه أدوات التنبيه المعروفة فى اللغة العربية .

أما ما نقله الطبرى فى مأثوره من أن (حم عسق) رمز إلى هلاك مدينتين تُبنيان على نهر من أنهار المشرق ، ينشق النهر بينهما إلى آخر ما ذكر ، فهو من الروايات التى لا يصح التعويل عليها ، والتحدث بها فى مقام التفسير ، فهى روايات مضطربة ليس لها من سند صحيح وليس لما ترمز له من مناسبة معقولة ! !

والجدير بالمسلم أن يؤمن بأنها كسائر القرآن مما أنزله الله على رسوله ، وأن يؤمن بأن له فى كتابه أسراراً يختص بعلمها ، كما أن له فى كونه أسراراً لا يعلمها سواه (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) .

س : يسأل كثير من أهل الريف عن حكم الشرع فيما هو شائع بينهم من رهن الأطيان ، وهل يباح للدائن أن يستغل الأرض المرهونة بزراعتها أو إيجارها لحسابه مدة تطول أو تقصر حتى يؤدى المدين دينه ، ويفك الرهن ، مع العلم بأن هذا بإذن الراهن ورضاه ؟

ج : تنظر الشريعة إلى المال نظرة واقعية ، تطلب تحصيله من الطرق التى لا اغتيال فيها ولا استغلال ، وتطلب المحافظة عليها من الضياع . وقد أرشدت فى حفظه — إذا كان ديناً — إلى كتابته والإشهاد عليه ، وإلى أن يأخذ به رهناً يقوم مقام الكتابة فى الاستيثاق والحفظ ، ونزلت فى ذلك أطول آية فى القرآن وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى

فاكتبوه) إلى أن يقول : (وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) . وصح عن النبي ﷺ أنه اشترى وهو فى المدينة طعاماً من يهودى ورهنه درعاً من حديد .

ودل هذا على أن مشروعية الرهن ليست خاصة بحال السفر ، وأنه مشروع فى السفر والحضر معاً . والرهن بعمومه يشمل المنقول كالمتاع والدابة . والعقار كالدار والأرض .

وعلى هذه المشروعية العامة اتفق الفقهاء ، كما اتفقوا أيضاً على أن عقد الرهن ليس عقد استثمار واسترباح ، وإنما هو عقد استيثاق وضمان للدين ، وهو فى ذلك بمعنى الصك والكفيل ، وقد كان من ضرورة اتفاقهم على أن طبيعة عقد الرهن كما ذكرنا اتفاقهم على أنه ليس للدائن بمقتضاه أن ينتفع بشىء من العين المرهونة .

ولكن هناك شىء آخر وراء عقد الرهن وطبيعته وهو هل يحل للدائن أن ينتفع بالعين المرهونة إذا أذن له صاحبها وهو المدين ؟

وقد عرض الفقهاء لهذه المسألة وكان لهم فيها رأيان : فغير الحنفية يرون أنه لا يحل له أن ينتفع بها وإن أذن له صاحبها ، لأنه يكون انتفاعاً جرّه قرض ، وهو منهى عنه بالحديث «كل قرض جرَّ نفعاً فهو ربا» . أما الحنفية فقد جاء فى معتبرات كتبهم التصريح بجواز انتفاعه بها إذا أذن له صاحبها لأنها ملكه ، وللمالك أن يأذن لمن يشاء فى الانتفاع بملكه . ويقولون : إن الانتفاع بالرهن انتفاع جره الإذن . ولم يجره القرض فلا يكون حراماً .

* * *

الإذن الصورى لا قيمة له فى رأينا :

ومادام كلامنا فى الحلال والحرام فالذى نراه أن هذا الإذن إن كان منشؤه محض التبرع المبنى على محبة مقابلة الجميل بالجميل ، وتبادل التعاون على الخير . حل للدائن أن ينتفع به . وإن كان منشؤه اضطرار المدين إليه دفعاً لضغط الدائن عليه وهو فى عسرة مالية يستحق بها المعونة من أخيه كان إذناً صورياً لا يدل على الرضا وطيب النفس .

. . . وإذن فلا يحل للدائن أن يستند إلى هذا الإذن الصورى فى استغلال حاجة أخيه المضطر المقهور .

ولاشك أن انتهاز فرص الضرورة ، لاستغلال المعدم ، هو الروح الخبيث الذى لأجله حرم الله الربا . . (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمُون وإن كان ذو عسرة فَنَظِرَةٌ إلى ميسرة) .

كيف وقد تمتد عسرة المدين الواقع فى الضرورة مدة تصل فيها منفعة العين المرهونة إلى أضعاف الدين المضاعفة ، يستغلها الدائن باسم الإذن القهرى ، مع بقاء دينه كاملاً على المدين ، وكثيراً ما خربت به بيوت وافتقر ملاك .

وفى الحق أنه إذا دار الأمر بين الانتفاع بالرهن على هذا الوجه ، وبين الفائدة للدين التى يسمح بها القانون [لا الشرع] كانت تلك الفائدة أقل ضرراً وحرمة من هذا الرهن الذى يجب منعه ، قطعاً لأطماع المستغلين لضرورات الناس ، ومحافظة على بيوت المضطرين من الخراب .

وبما أن أكثر ما يجرى بين الناس الآن فى رهن الأرض هو من هذا النوع – الاستغلالى – فإنه ولا شك يكون حراماً ويمقته دين الرحمة .

<u>فى كتب الفقه :</u>

ومن قبل شكا العلماء فى مصر من انتشار هذه المعاملة الخطيرة ، قال الصاوى من المالكية رضى الله عنه : «ومما عمت به البلوى فى مصر جميعها ، حتى لم يقدر أحد من أهل العلم على رفعه ، أن يبذل الرجل لآخر دراهم ، ثم يأخذ منه أرضاً ، زراعة أو حائطاً «بستاناً» رهنا ، على أن يزرع الأرض أو يأخذ ثمر الحائط ، مادامت الدراهم فى ذمة آخذها ، ثم زادوا فى الضلال إلى أنه إذا رد آخذ الدراهم مافى ذمته ليأخذ أرضه أو حائطه توقف معطيها فى القبول ، فتارة يشتكيه إلى أمرائها لينصروا الباطل ، وتارة يصالحونه على دفع شىء ليستمر على ذلك السنة أو السنتين أو الأكثر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون» [١] .

وقال الدردير رضى الله عنه فى الشرح الصغير «مسألة رهن الأرض والحائط المسماة بين الناس بالغاروقة ، وهى ممنوعة مطلقاً ولو شرط المنفعة فى مدة معينة ، لأنها فى قرض لا بيع ، ولا ينفعه أن يقول وهبتك المنفعة مادامت دراهمك علىّ ، لأنها حيلة باطلة عندنا ، وهى من الربا ، فيجب على واضع اليد على الطين فى نظير دراهمه الإقلاع عنه وتركه لصاحبه ، والاستمرار عليه محرم .

ولكن إذا دفع وزرع الأرض يكون الزرع له وعليه أجرة مثل الأرض لصاحبها ، فَيُقَاصِصُهُ بها من أصل الدين الذى عليه ، فإن كان يدفع الخراج للملتزم وكان قدر أجرة الأرض لا يلزمه أجرة لربها كما قدمه الأشياخ» والله أعلم .

عبد الحميد شاهين .

---

(١) من فتاوى الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

فهرس العدد

الموضوع	الصفحة

إلى السادة راغبي الاشتراك فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ أعداد سنوياً

أولاً : جمهورية مصر العربية

١,٥٠٠ (جنية وخمسمائة مليم)

ثانياً : دولة اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات

ثالثاً : باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولار ، تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو شيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم . تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية . والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة — القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج ۰ م ۰ ع)

n'en reste pas moins que, depuis des sitècles, l'Imitation de Mohammed a été en Terre d'Islam, sous des modalités diverses, une des méthodes essentielles de spiritualité.

Voici donc ce que j'ai cru bon de proposer à nos lecteurs, en ces jours où le monde islamique fête l'Anniversaire du prophète; que ceux qui en ont la possibilité relisent la Vie du Prophèfe en méditant sur elle!

qui se manifeste sous différentes formes: le rejet des mensonges (ceux qu'on fait intentionnellement, en s'en rendant compte et ceux qu'on se fait à soi-même sans s'en rendre compte, par exemple en confondant l'illusion avec la réalité) l'amour de la vérité et de l'Intelligence sous sous ses formes supérieures..

Toutes ces vertus apparaissent donc en Mohammed comme étroitement liées les unes aux autres, comme fondues dans une Unité dont les noms que nous utilisons ne révèlent que des aspects; en effet, ce qu'exprime ce «faisceau de vertus», c'est que Mohammed a surmonté en lui les incohérences, les déchirements, les contradictions de l'homme ordinaire, guidé qu'il fut par une influence d'En Haut: il apparait comme un Homme unifié, vivant sur un niveau nettement supérieur à celui de l'homme ordinaire.

Si j'ose risquer cette alliance de mots, son détachement le lie à cette influence par un «esclavage spirituel (عبودية) fait de pauvreté totale (فقر) et d'effacement devant Dieu (on pourrait dire, au . lieu d'«effacement»,«extinction», mais non «anéantissement», traduction pourtant courante,mais aussi confuse et équivoque que la traduction du terme sanskrit «nirvana» par «néant»; le terme arabe est: فناء)

Cet ensemble de vertus solidaires, qui peut mener aux formes les plus élevées de la contemplation pure,l'exemple du Prophète nous confirme qu'il est tout aussi bien, susceptible de mener à l'action, au sens le plus fort de ce terme. — c'est-à-dire à la réalisation, dans la vie concrète, dans le monde, d'un but volontaire conscient, ou d'une Mission.

Et se trouverait-il quelqu'un pour dire que le Prophète n'a pas dans les circonstances les plus difficiles, accompli sa Mission, faisant revivre sous la forme d'une «nouvelle» Religion la Religion éternelle,unifiant les Arabes dans un mouvement tendu vers l'universalisme, abolissant devant la Religion toute distinction de race, de classe ou de nationalité? et modifiant en quelques décades la physionomie d'une vaste partie du monde,de la Chine jusqu' à la Mauritanie, de l'Espagne jusqu'aux îles de la Sonde?

Ces indications, toutes fragmentaires qu'elles soient, font apparaitre, je l'espère, l'importance que peut prendre l'Imitation du Prophète, même dans les détails de la vie quotidienne: ces détails, orientés vers une perfection croissante, vers les plus hauts niveaux de sagesse et de sainteté, permettent au fidèle engagé dans cette voie, un rappel quasi constant, un RAPPEL qui l'arrache aux distractions, aux imaginations, aux bavardages, aux mensonges qui nous guettent de tous côtés.

Toutefois il est bien évident que le but de l'imitation du Prophète est de réaliser en soi, dans toute la mesure du possible, l'apparition des vertus de Mohammed, leur développement, le passage d'une moins grande à une plus grande perfection»,comme disait Spinoza.Il y a certes d'autres moyens de stimuler et de développer la vie intérieure, orientée vers la recherche de plus d'unité, plus de conscience, plus de capacité à réaliser les buts que nous nous sommes fixés; il

surer les forces et les faiblesses de l'adversaire. Quoi qu'on en ait dit, l'homme fut bon et généreux. A la prise de la Mecque, sa clémence fut plus qu'un acte politique...»

Nous voici donc arrivés à la générosité; reprenons, si vous le voulez bien, deux exemples marquants déjà cités. Le premier concerne le sort des prisonniers après la bataille de Badr. Il faut tout d'abord se souvenir que dans l'Arabie préislamique, il n'existe pas de conventions inter-tribales analogues à la Convention de Genève et autres conventions internationales actuellement prisonniers de guerre; les Conventions internationales que nous connaissons actuellement remontent à moins d'un siècle et demi. Précisément, c'est le triomphe de l'Islam qui contribuera, dès le 7e siècle, à un meilleur traitement des prisonniers, du moins dans le monde musulman, — et ce, précisément en raison de l'imitation du Prophète, notamment de ses actes de clémence et de miséricorde en ce domaine.

On avait fait à la bataille de Badr une quarantaine de prisonniers; qu'en faire? Mohammed demanda l'avis de trois hommes éminents de son entourage; Omar et abd- Ubaida choisirent le massacre général, chose fréquente àl'époque en de telles circonstances; Abou Bakr pencha pour la clémence; et Mohammed se rangea à son avis. D'un côté, ceci peut apparaître comme plus politique;d'un autre côté selon la mentalité générale de l'époque, le massacre eût été une preuve de résolution, unedémonstration de force et d'intransigeance qui, du point de vue «politique», aurait peut-être risqué de porter plus de fruits.

C'est encore plus net à la prise de la Mecque, triomphe absolu et définitif de Mohammed sur ses adversaires de longue date; il annonce aux habitants que, la ville ayant été prise de force, ils doivent conformément aux usages, se considérer tous en état de captivité; mais immédiatement après cette déclaration, il leur octroie la liberté (c'est pour quoi les Mecquois sont souvent appelés, dans d'anciens livres, les «Relâchés»).

Le détachement et la Maitrise de soi.

Ce qui donne à la force et à leur générosité leur valeur suprême, c'est de procéder du détachement: détachement du monde extérieur, détachement de soi-même, effacement devant Dieu. Etre détaché, en effet, ce n'est pas forcément, comme on se l'imagine parfois, se vouer exclusivement à la contemplation pure. On ne peut être fort, soi-même, se consacrer avec toute l'énergie possible à la réalisation de son But, des vraies valeurs (en l'occurrence, pour Mohammed, sa mission prophétique) que si l'on est à l'abri de toutes les influences extérieures ou passionnelles; autrement dit, il faut être

MAITRE DE SOI.

La véracité.

Cette maitise de soi et la détachement qui va de pair avec elle se trouvent associés aussi à la véracité (صدق)

a) Le problème de Mahomet, Paris, 1952

dans l'abondance des richesses et des enfants; la vie de ce monde ressemble à une averse: les cultivateurs s'émerveillent de la végétation qui apparaît; puis les plantes se fanent, jaunissent.... elles deviennent sèches et cassantes...»

Cette reconnaissance du néant des «biens de ce monde» allant de pair avec l'évidence du néant de sa propre personnalité, c'est la vraie pauvreté, l'humilité totale, terrain sûr pour la Révélation qui descend dans cette terre vierge, «illettrée», apportant une Certitude sans appel, qui débouche sur les vertus complémentaires de générosité et de force.

L'emploi du mot «force», dans la langue française nécessite quelques précautions. Dans l'esprit de beaucoup de gens, le mot «force» est associé à l'idée de «force brutale», d'«agressivité» (la «force» qui «prime le droit») Aussi, bien souvent, est-il préférable d'utiliser le mot «énergie», qui ne suscite aucune association de ce genre.

C'est pourquoi d'ailleurs la traduction «Dieu n'aime pas les faibles» d'une Parole sacrée bien connue, a pu être mal interprétée; par «faibles», il faut entendre essentiellement les «tièdes», les «mollassons», ceux qui manquent d'énergie et de courage pour défendre les vraies valeurs.

Nous conserverons, dans ce qui suit, le mot «force», pourvu que sa définition soit bien comprise, en accord avec ce que nous venons de dire.

La force et la générosité — L'affirmation de la Vérité par la parole, par les actes, par le combat, c'est la vertu de force, cette affirmation doit se faire aussi bien dans le monde extérieur («petite» guerre sainte) que dans notre univers intérieur(«grande» guerre sainte). La Vérité est intolérante envers l'erreur, mais la tolérance à l'égard des personnes dans l'erreur est possible, et en général souhaitable ou nécessaire: elle est à la fois amour des autres etres et pardon, en un mot miséricorde. La générosité liée à la force enlève à celle-ci toute nuance d'agressivité.

La vie du Prophète témoigne de sa vertu de force, de son énergie toujours vivace au milieu des pires fatigues, des pires dangers, des complots, des trahisons.

«Ni l'indifférence, écrit l'érudit français Blachère, ni les blessures, d'amour-propre, ni le tort fait à ses intérêts matériels, ni les machinations ou les menaces, ni surtout les offres de compromis plusieurs fois présentées par les polythéistes ne purent le détourner de sa mission. Aux heures les plus graves — le Coran en témoigne — il sut conserver son sang-froid, ranimer les courages, fermer les yeux sur les défaillances légères pour mieux frapper la trahison. En vrai meneur d'hommes, il sut choisir ses conseillers, utiliser Ali pour son dévouement, Abou-Bakr pour sa pondération, Omar pour son énergie, Othman pour sa souplesse. Sans illusion sur les hommes, il n'omit jamais de leur rappeler leur devoir et leur mission. Mieux que personne aussi, il connut les vertus et les défauts de la nation où il était né. Cet inspiré, qui pas un jour n'a pensé réussir sans le secours d'Allah, savait cependant prévoir l'avenir, me-

Plutôt donc que de s'attarder à «défendre» le Prophète contre des accusations puériles ou malsaines, dictées par la sottise, l'incompréhension ou le fanatisme, il vaut mieux essayer de caractériser les grandes vertus qu'il a proposées à notre imitation.

L'humilité.

Le sentiment qu'il n'est au départ qu'un homme comme les autres, un mortel égaré, lui est pour ainsi dire dicté par la Révélation:

قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ

«Moi, je ne vous dis pas: je possède des trésors de Dieu: je ne connais pas les choses cachées; je ne vous dis pas que je suis un ange, je me borne à faire ce qui m'a été révélé..»

إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

«Si je n'obéis pas à mon Seigneur, je redoute le châtinent, au jour de la Terreur...»

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْءَانَ

«J'ai reçu ordre d'adorer le Seigneur de cette Ville.... j'ai reçu ordre d'être soumis et de réciter le Koran...»

قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

«Si je suis sur la mauvaise voie, c'est à mes dépens; si je suis bien dirigé, c'est grâce aux révélations de mon Seigneur...»

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَـٰبَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّى مِن دُونِ اللهِ

Et encore:

«Un mortel auquel Dieu a donné le Livre, la Sagesse et la Porphétie, il ne lui appartient pas de dire ensuite aux hommes: Soyez mes serviteurs et non pas ceux de Dieu...»

قُل لاَّ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً

«Je ne vous demande point de salaire...»

Ce désintéressement, qui va de pair avec l'humilité, est confirmé par tout ce que nous savons de la vie du Prophète, de sa sobriété, de la frugalité ascétique de son existence quotidienne.

Quoi d'étonnant,puisqu'il avait transmis la révélation que voici:

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الأَمْوَٰلِ وَالأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ

«Sachez que la vie de ce monde n'est que jeu,divertissement,vain décor,luttes de gloriole entre vous, surenchères

(universaliste) aux liens tribaux (particularistes). Il s'agissait d'une véritable révolution à réaliser, non pas dans une ville ou au sein d'une tribu, mais dans un grand nombre de tribus, fortement organisées au point de vue social et régies depuis des siècles par des us et coutumes qui avaient fait leurs preuves.

Venons-en aux reproches si souvent prodigués, de façon ordurière ou ironique,parfois,au nom d'un puritanisme militant dont on sait bien ce qu'il recouvre en général (impuissance, déviations ou complexes sexuels): Mohammed a eu plusieurs épouses... Le beau reproche... Rappelons que l'existence du Prophète peut se diviser, au point de vue qui nous occupe, en trois périodes:

a) jusqu'à vingt-cinq ans: une jeunesse marquée par l'ascèse, la méditation et la maîtrise des passions;

b) de vingt-cinq à cinquante ans: mariage avec une épouse unique, dont il a plusieurs enfants; ce mariage n'interrompt pas la vie d'ascèse et de méditation, qui, vers quarante ans, va prendre une nouvelle intensité (retraites dans la montagne, en solitude); ce n'est pas sa femme qui y trouve à redire: Khadidjaluiapportesurleplanreligieux et dans les épreuves qu'il subit (visions, interventions d'En Haut réitérées, stupeur d'avoir à penser qu'il a été choisi comme Prophète)(1) un réconfort et un soutien précieux, sinon indispensables.

Ce mariage fut donc remarquablement heureux; écoutons plutôt le Prophète lui-même:

(1) sans compter les dures et tragiques persécutions.

«Quand j'étais pauvre, elle m'a enrichi; quand tout le monde m'abandonnait, elle m'a réconforté: quand on me traitait de menteur, elle a cru en moi».

c) après cinquante ans, devenu chef responsable d'une Communauté de croyants qui l'appuie dans sa Mission Prophétique, confronté avec les conflits qui l'opposent à de nombreuses tribus arabes, Mohammed contracte au cours des années plusieurs mariages.

Autrement dit, trois formes de comportement sont proposés à qui veut imiter le Prophète en ce qui concerne la question du mariage; toutes les trois excluent licence, débauche, adultère, violence; la continence dans la jeunesse est d'ailleurs universellement recommandée par les grandes religions; la possibilité d'une union monogame parfaitement réussie est démontrée, ainsi que la possibilité et l'opportunité d'une polygamie légale dans certaines circonstances de la vie: faut-il rappeler aussi que les unions contractées après cinquante ans ont toutes, ou presque, un aspect «politique», au sens élevé du terme?D'ailleurs la vie conjugale,avec toutes les obligations que le Koran impose à l'époux n'excluait chez le Prophete ni les veilles, ni les prières, ni les jeûnes ni les mille fatigues et épreuves (guerre,diplomatie et services de renseignements, enseignement religieux, justice à rendre, conseils individuels, etc,etc...) auxquelles l'astreignait sa Mission sacrée

a) Ces mariages facilitent la réalisation concrète de la Mission prophétique, en évitant conflits et luttes sanglantes.

le Prophète «illettré», sa famille et ses compagnons, et donne-lui la Paix!»

Cette «Bénédiction» souligne implicitement certaines VERTUS de Mohammed: en effet le mot arabe (عبد) que j'ai traduit par «serviteur» s'applique à un serviteur qui ne possède rien en propre; ceci évoque la vertu de pauvreté (فقر):la générosité (كرم) est la vertu de l'Envoyé(رسول,compatissant et désintéressé); enfin le Prophète «illettré», c'est-à-dire «à l'esprit vierge» (libre de toute «passion» au sens classique du mot en francais, au sens du 17esiècle (a) a comme vertu la véracité (traduction qui nous semble préférable à celle de «sincérité», mot quelque peu usé en francais et, en tout cas, qui prête à équivoque: nous y reviendrons) .

Avant de dire quelques mots sur ces vertus et sur leur fusion, chez Mohammed, entre elles et avec d'autres, fusion qui fit du Prophète un être harmonieux sur le plan intérieur, un être unifié, nous devons revenir sur les interprétations détestables auxquelles nous faisions allusion plus haut, et qu'on ne peut ignorer, hélas! parce que toute une propagande s'en sert, de nos jours encore, avec plus ou moins d'habileté.

Ceux qui soulignent la prétendue «cruauté», le prétendu «caractère vindicatif de Mohammed, s'appuient sur quelques exemples de fermeté et d'intransigeance, exemples qui ne manquent pas dans la vie des autres prophètes; le Christ, lorsqu'il chasse les marchands du Temple ne le fait pas au moyen de douces paroles, mais en renversant les tables et en donnant du fouet; l'Evangile ne lui prête-t-il pas les paroles fameuses qu'on traduit en francais,généralement,par«Je ne suis pas venu apporter la paix, mais l'épée»? mais les punitions qui attendent après la mort ceux qui ne peuvent échapper à l'implacable Justice divine n'ont rien de réjouissant, qu'elles soient décrites par tel ou tel prophète juif, ou évoquées par l'Evangile (la «Porte étroite», la Géhenne, etc...) ou par tels ou tels théologiens catholiques ou protestants....

En fait, de son vivant, Mohammed s'est vu plutôt reprocher par son entourage, ou par la masse des gens, sa clémence jugée souvent excessive, que ce soit après la victoire de Badr, après la prise de la Mecque ou en mille autres occasions.

Les cas de fermeté sans clémence sont rares dans l'existence du Prophète, — il serait anormal qu'il n'en existât point. La clémence n'est pas toujours possible. Mohammed devait accomplir sa Mission sacrée, et certaines formes de pardon pouvaient être interprétées, dans le contexte social de l'époque, (relations inter-tribales notamment) comme des faiblesses et des indignités. Mohammed a dû et a su punir en quelques occasions, sans aucune indulgence, des ennemis irréductibles ou des félons; rappelons que ces faits datent tous de l'époque où, devenu chef d'une communauté, il lui fallait, pour obéir aux ordres d'En Haut, substituer dans l'Arabie du 7e siècle le lien religieux

a) c'est la «pauvreté» sur le plan spirituel, dont parle l'Evangile: «Bienheureux les pauvres en esprit»

A propos des Vertus du Prophète par Moustafa Djellaleddine Daumal

L'homme est un être limité. Cette limitation humaine a trouvé une conciliation avec l'immensité divine dans la personne des grands Prophètes, et en particulier du Prophète de l'Islam, car, si Mohammed est le «Sceau de la Prophétie», cela signifie qu'il synthétise en lui tout ce qui, dans le domaine prophétique, a précédé son existence terrestre.

Or, des personnes mal informées ou de mauvaise foi, au nombre desquelles beaucoup d'orientalistes, athées ou non, aux prétentions «scientifiques», commettent, volontairement ou non, le plus grave des contre-sens à propos de ce qui fait la «limitation» humaine du Prophète; leur interprétation, négative, les conduit à souligner ce qu'ils appellent les «faiblesses» de Mohammed : sa «cruauté» en certaines occasions, son «penchant pour les femmes». J'ai même lu dans la bibliothèque d'une «communauté» qui m'avait autorisé à y faire des recherches (et ce, dans la capitale d'un pays arabe) un document intitulé «Conduite à tenir envers les musulmans en pays islamique» et qui donnait comme conseil fondamental: «devant les musulmans, manifestez un respect constant pour le Koran, mais cherchez à critiquer leur prophète...»

Une telle interprétation pourrait pousser certaines personnes à ne pas attacher à la méditation sur la vie du Prophète et à son Imitation l'intérêt fondamental qu'elles méritent. Pourtant un hadith célèbre déclare: «Nul ne rencontrera Dieu s'il n'a d'abord rencontré le Prophète» et la Livre Saint nous dit :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَٰأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

«Oui, certes, Dieu et les Anges bénissent le Prophète O croyants, bénissez le Prophète et faites-lui la Salutation» Ce verset est le fondement de la »Bénédiction du Prophète» (Parfois appelée en français «Prière sur le Prophète», expression incorrecte); cette «Bénédiction» joue un rôle important dans l'Islam, aussi bien exotérique qu'ésotérique:

«Dieu, bénis notre Seigneur Mohammed. Ton serviteur, Ton envoyé,

---

a) C'est-à-dire, dites «La Paix soit sur lui», formule de respect.

storing etc... all of whom should be remunerated generously so that they accomplish their duties to the letter and feel no temptation towards dishonest behaviour.

(3) One part for those whose hearts are to be reconciled Those are four categories:-

(a) Those who are reconciled to help Muslims

(b) Those who are reconciled to avoid their evil actions against Muslims.

(c) Those who are reconciled to persuade them to embrace Islam.

(d) Those who try to spread the call for Islam among their people.

(4) One for liberating slaves. It is to be paid to those who liberate their slaves, and it may be used to buy slaves and then to set them free.

(5) One for the indigent either because they had debts which they had paid off, and so became poor, or else because they are unable to pay their debts.

(6) One for the cause of God, which was given to the Mujahidin warriors, for their equipment and according to their need, it was also distributed to pilgrims to the Holy Shrine who were short of money to terminate the rites. — In the Tafsir of Fakhr Al-Razi' this share was to be distributed in all charitable or useful purposes such as providing shrouds for the dead, erecting strongholds and mosques, etc., because the expression of 'for the cause of God' is unlimited. Again, Al-Qadi Abu Bakr ibn Al-'Arabi from the Malki rite wrote in his book, Ahkam Al-Quran that 'for the cause of God' holds many interpretations and may even include conquests.

(7) One for the wayfarer — i.e. one who is away from his home and is short of money though he may have wealth there. His temporary indigence should be attended to until he goes back home.

(8) One for the 'faridah' i.e. any duty that man has to perform in the service of God but is unable to do so.

God Almighty is Omniscient and Wise. He knows best the condition of His subjects, - and wherein lie their interest. The laws He sets are intended to purify their souls and lead them to piety and gratitude towards Him.

fifth of this quantity is subject to the ghanaem taxation, (not the Zakat funds).

Metal dust is not subject to Zakat: but pure gold, silver, iron and copper and lead, are subject to one fifth taxation — Expense paid for digging out metals are not subject to Zakat. Other stones such as rubies, turquoise, kohl, mercury, sulpher, if dug cut, are not subject to taxation.

Al-Rikaz

are subject to one fifth taxation. Any mines discovered in non-owned property, are subject to one fifth taxation; the one who discovered it taking the remaining four-fifths since this tax falls under the regulations of Al'Ghanaem.

In the book 'Al-Ahkam Al-Sultaniah' by Al-Mawardy, Al Rikaz is defined as any discovered wealth which was buried and was of the Jahiliyah type, in unoccupied land or a beaten track, and the discoverer paid one fifth of it as taxation.

If it was discovered in someone's property, the discoverer has no right to it and consequently paid no taxes for it. If something were discovered buried — and was of the Islamic type — it was considered as a 'find' and should be made known so within the current year, otherwise it becomes the property of its owner if and until its owner claims it.

Alms-Giving

Concerning alms giving, Abu Youssouf asked Al-Rashid — Amir Al-Mu'menin — to choose an honest and reliable man and put him in charge of collecting almsgiving throughout the Muslim state. The latter was to enquire about alms collectors, their doctrines mode of living and integrity and put them in charge of collecting alms from other countries and hand them over to him.

Alms collecting should not be left in the hands of Kharaj collectors since the two funds are to be left separate, and because it was rumoured that the tax (Kharaj) collectors treated people harshly and unfairly. Besides, Al-Kharaj is to be distributed to all Muslims while alms go to those mentioned in the Quran.

The Quran state clearly how the Zakat should be distributed: «Alms are only for the poor and needy, and those who collect them and those whose hearts are to be reconciled, for those in bondage and those in debt and for the cause of God and for the wayfarer: and ordinance this from God, for God is knowing, wise.» (Al-Tawbah, 60).

From the above verse, we can see that the Zakat is divided into eight shares through which it may be distributed. The Prophet himself mentioned this fact to someone who was asking for alms, He said: God has divided alms into eight shares if 'one' of these apply to you, I shall give you your share in it.

These eight shares were:-

(1) One for the poor and destitute, in equal shares, so as to avoid envy and hatred among them.

(2) One for those who worked in activities connected with alms collection such as statistics, recording, collecting,

It is not limited, either, but is left as in the case of Al-Fai, to the efforts of the Imam.

Al-'Ushur
(The tenth)

In his book about Al-Kharaj, Abu Yousouf relates what he heard from Assem Ibn Sulaiman from Al-Hassan. He says: «Abu Moussa Al-Asha'ri wrote to ' Omar Ibn El-Khattab saying: «Some of the Muslim merchants who go to Daru Al-Harb have to pay one tenth to its people.» So 'Omar wrote back: «Do take from them as they take from Muslim merchants. Take from Zimmis half the tenth; from Muslims one dirhem to every forty. Below two hundred dirhems take nothing. To each two hundred levy five dirhems and so on, prroportionally.»

Such was the tradition under the rule of 'Omar. The tax collector stood at the entrance of the merchants route for importation or exportation. The Muslim merchent paid one quarter of the tenth of his Zakat. The Zimmis paid half the tenth. Warriors were treated on the same basis as their people, paying either one tenth or half a tenth, or a quarter of a tenth. In case they ignored the amount paid by their people, they were charged one tenth.

Again, Yehya Ibn Said said that when Zuraiq Ibn Hayyan, was a customs officer in Egypt he received a written message from Omar Ibn Abdel-Aziz saying: «Check on Muslims who pass by you and collect the tax due on the money and goods that they carry. Calculate one dinar to every forty until you collect twenty dinars. In case they do not have a large enough capital on which you can levy twenty dinars, then leave them alone. When A Dhimmi (a non-Muslim living under the protection of a Muslim State) pass levy twenty dinars, then alone. When a Zimmi trader a non-Muslim living under the protection of a Muslim State) Passes by you, take from him one dinar for every twenty; in case it is less, let it be according to that rate, until the total comes to ten dinars: then leave it without levying anything. In both cases write a receipt for what you take from them during the year»

Metals

Metals belong to the category of seen praperty and opinions differ as to the application of Zakat on them. Abu Hanifa imposed it in all minted silver, gold, brass and copper, and excluded its payments on stones and non-minted metals. Abou Youssouf imposed it on metal used in transactions such as jewelry for example.

According to Al-Shafe'i, Zakat was imperative on Gold and Silver, If after melting the value of the metal carry up to the minimum required for the applying of Zakat, three proposals were submitted: (a) one quarter of the tenth was collected on silver or gold. (b) one fifth just like the Rikaz. (c) a quarter of the tenth on large quantities, or one fifth on small quantities. The Zakat in such cases is paid only once, not annually. If a man lays hand on some metal weighing below two hundred dirhems in silver, or below twenty mithqals in gold, one

enjoining fighting the people of the scripture; it implies the duty of fighting, whenever there is a necessity for that, as in case of aggression, or sedition, endangering public safety etc., (which were all causes that led to the battle of Tabuk). The verse recommends fighting and imposing a tribute upon the enemy within the limits of justice. After the victory and the collecting of the tribute, the enemy should be given the right for protection and peace. In case they embraced Islam, they were treated on the same footing as Muslims.

Scholars unanimously agree that Al-Jizyah may be imposed upon the non Arabic speaking people of the Book, fire-idolaters. Traditions mention that 'Omar did not impose it upon the latter until one of them joined the Muhajerin, then he said: «Treat them as the people of the Book, because they behave like them». (related by Abdel-Rahman Ibn Auf.) — Again Ibn Shihab relates that the first to pay the Jizyah from amongst the people of the Book were the people of Najran, who were Christians; also the Prophet accepted the Jizyah from the people of Bahrain who were idolators; after the battle of Tabuk the people of eylah and Adhroh also paid the Jizyah to the Prophet, and when Khalid Ibn El-Walid was sent by the Prophet to Dawmat Al-Gandal, he captured their leader 'Okaider' and they offered to pay the Jizyah.

The amount of the Jizyah is not definitely stated; Malik believed in following the regulations which were first set by Omar that is four dinars from gold owners, forty dirhams from silver owners, giving employmet to Muslims, and offering them hospitality for three days. El-Shafe'i stipulates a minimum of one dinar, the maximum however is not limited but is fixed according to terms of agreement. Al-Thawry and others believed in no limitation at all and left it to the efforts and ability of the Imam.

In fixing the amount, opinions differ in this respect; the fairest proposition was that which was made by 'Al-M awardy' in the book Al-Ahkam Al-S ultaniah' in which he set no limitations one way or another but left the decision to the Wali within the rules of fair play and justice.

Traditions relate that the Prophet said: «Whoever ill-treats an ally or asks him for anything beyond his capacity, is my enemy.» Before dying, 'Omar recommended their protection. Abu Bakr relates an incident about Omar Ibn Al-Khattab who having come across an old Jew who was blind, begging, sent a messenger to 'Bait El-Mal' to come to the old man's help saying: «Help this man and those like him. We would not be just if we were to employ him in his youth and let him down when he is old and helpless.. Alms are for those in need, be they Muslims or from the people of the Book. Exempt him from the Jizyah». Abu Bakr states that he was present and saw the incident.

Al-Jizyah was due at the end of the year, and not applied upon those who embraced Islam, Only freemales paid it, but the insane, the invalids the needy, aged people and the ascetics were exempted from it.

unbelievers through peaceful means was called fai, such as the tenth imposed on commercial transactions, the tributes, etc., one fifth went to the Prophet and four fifths to the Treasury. The share of the Prophet was divided into five equal parts one for him: one for his relatives, one for the orphans, one for the needy muslims and one for the needy non-m uslims, «What God gave as spoils to His Apstole of the people of the cities is God's and the Apostle's and for kinsfolk, orphans,the needy and the wayfarer».

Opinions differed as to the use of the share of the Prophet after the Prophet's death. Abu Thawr proposed that it should go to the Imam since he takes charge of the duties of the Prophet; El-S hafei' decided that it should be reserved for the defence of the state and public utilities, i.e. maintenance of the army, strong-holds, bridges, etc. The second fifth (that went to his relatives) was subject to controversies: Abu Hanifa stipulates that heirs had no right to it while El-Shafe'i said that they may inherit it. The thrird fifth went to orphans and the poor. The fourth went to the needy unbelievers (fai people). The fifth went to wayfarers.

The remaining $\frac{4}{5}$ of the fai tax were subject to controversial opinions. Some proposed that the tax should be reserved for the army; the others believed that it should be spent for the maintenance of public utilities. The Imam being at liberty to give part of it to those whose hearts are to be reconciled to Muslims.

Al-Ghanaem
(Booty)

The Ghanaem were divided into five partsp $\frac{1}{5}$ went to the Prophet and $\frac{4}{5}$ go to the Treasury. The share of the Prophet was divided according to the instructions of the Quran: «And Know that whenever ye seize anything as a spoil, to God belongs a fifth thereof, and to his Apostle, and to kindred and orphans, and the poor and the wayfarer; if ye believe in God and what We have revealed unto our servants on the day of the Discrimination, the day when the two parties met; and God is mighty over all» (Al-Anfal, 41).

The share of the Prophet in his life- time was divided into $\frac{5}{5}$; $\frac{1}{5}$ for the Prophet, $\frac{1}{5}$ for relatives $\frac{3}{5}$ for the orphans, the poor and the way-farers. After his death, Abu Bakr, Omar and Othman divided the share of the Prophet and his relatives into three thirds; Ali Ibn Abi Taleb approved of this arrangement and followed it.

Al-Jizyah
(Tributes)

Al-Jizyah was a tax levied on individuals, not on land. As stated in the Quran. «Fight those who belirve not on God nor the Last day, Nor hold that forbidden which hath been forbidden by God and His Apostle, nor acknowledge the Religion of Truth, (even if they are) of the people of the Book, until they pay the *jizya* with willing submissionn, and fell themselves subdued.» (Al-Tawbah, 29).

It is the verse that came down

cause capital, in the form of goods is subject to Zakat from the first year on and suspending its payment for a longer time gives no excuse for exemption during the following years. Commercial transactions, land, goods subject to weight or measures all come under the same rule and may be added to each other to answer the required value for the payment of Zakat.

Land Taxation.

Al 'Kharaj' or land tax is levied on cultivated land or on its products. This kind of land is known as Kharajia, to be distinguished from the land called 'Ushuriyah' i.e. that it is subject to one tenth (or one twentieth) taxation.

Taxation on the Kharaj land is estimated in proportion to its area or its products, the Imam deciding the estimation. Subject to such regulations is called Kharajiah and the tax levied is added to the Fai (money collected from unbelievers, by peaceful means) and is distributed according to its proceeds, while the tenth and the twentieth taxation is subject to the Zakat proceeds and is distributed accordingly. All Kharaj, and Al'Ushur are both land taxes.

Al Kharaj was first imposed by Omar Ibn Al-Khattab. He levied — after taking the advice of the Muhajerin and the Ansars — 'Al-Sawad' land when its owners refused to pay their dues willingly. This measure came to be considered as 'Sunnah' and adopted wherever Muslims settled.

He also imposed the Jizyah on non-Muslims which was to be distributed as 'Fai' among Muslim warriors and their heirs after them.

There are two forms of Kharaj:

(a) Paying a share of the products of the land, the Imam estimating it not below the fifth or above half the yield.

(b) Paying fixed annual dues estimated on a certain unit of land (the unit in Egypt being a feddan).

The annual tax in 'ushur was leviel on land only, not on its products; it was levied only once every year even if the land yielded more than one crop during that year. It also varied according to the various crops. The tax levied on cereals was different from that levied on vinyards. 'Omar ordered Othman Ibn Hunaif to survey the land and submit his report to Omar, which he approved and signed.

In Syria, however, the estimation was made on a different basis Each property was estimated according to the capacity of its yield, not the extent, of its area.

Three points were taken into consideration:-

(a) The quality of the land

(b) The kind of plantations — whether fruits, cereals etc..

different yield having defferent prices.

(c) The mode of irrigation — whether by rain, by water—wheel or other means.

To sum up, when estimating the Kharaj in Syria three points were to be taken into consideration: The quanitiy of the yield, the kind of products and the mode of irrigation.

«Al-Fai»

Any sum of money, collected from

merce, if they are not spent within the year no Zakat, since the Zakat on silver and gold is due annually. Daoud exempts commerce from Zakat and differs in this respect from the majority. El-S hafei exempts silver and gold jewelry from Zakat, so does the Malik doctrine.

In his book: 'Bedayat Al-Mujtahed' Ibn Rushd states: «.. People differ upon the application of Zakat on certain things. It is generally agreed that silver and gold not in the form of jewelry are subject to Zakat. In the opinion of Malik, Al-Laith and Al-Shafei, gold used as ornament is exempted from Zakat, but Abu Hanifa disagrees with them in this respect. The cause of the disagreement is due to the difficulty of deciding the real purpose for which this precious metal is actually used: ornament, or financial dealings? Malik considers even jewelry a means of financial exchange in some cases and subject in such conditions to the payment of Zakat.

In the book of 'I' lam Al-M uwaki'een, Ibn El-Qayyim states: «Gold in the form of jewelry is comparable to clothing and consequently, not subject to Zakat. During the Prophet's lifetime women wore jewelry, and sometime gave it away as charity. It was also sold in time of need, definitely not according to the legal weight, which would have been indiscreet»

In the book Amwâl, by Abu 'Obaid, there is, again a difference of opinion concerning the Zakat on jewelry, due to a story related by 'Amr Ibn Shu'aib, about a woman from Yemen who called on the Prophet, accompanied by her daughter; the latter was wearing two gold bracelets. When the Prophet enquired whether she pays her Zakat on the bracelets, she answered that she did not; so the Prophet told her: «Do you want God to put bracelets of fire on your hand?» Commenting on the above story, Abu 'Obaid says that the story is not necessarily authentic and may be a mere interpretation of an incident that took place in the past. However, should it be true, the only implic.ation is the Prophet considered the bracelets as 'seen property' (as explained by the 'Ulema': Said Ibn Al-Musayyab Al-S ha'bi, Al-Hasan and Qatadah.

If jewelry had been subject to Zakat, the Prophet would not have singled one woman out of the rest who wore jewelry. On the whole, Abu 'Obaid favours the idea of exempting jewelry from Zakat.

5. Zakat and Commercial Dealing

In general, the majority of Imams agree that Zakat is imposed on commercial dealings in goods worth from 200 dirhems or twenty gold mithqals upwards. According to the Zahirites, it is not imposed at all in such cases.

It is paid annually, provided the goods are ready for commerce. Malik stipulates that goods sold are subject to one year's Zakat even if they remain a number of years in the possession of the proprietor. If part of the goods are sold during the year, their value is to be taken into consideration, if it should complete the required value for the Zakat by the end of the year. Malik's viewpoint, however, is not sound be-

are taken into account by themselves in the calculation of zakat. The same is applied to vine trees; dates and grapes may not be weighed together. In case the dates overripen into 'Tamr' and the grapes turn into drying raisins, no zakat is collected until both fruit are completely dry. In case they are picked when still fresh, one tenth of their price is collected from the sale.

3. Zakat on Agricultural Products

Abu Hanifa ordains zakat on all aspects of agriculture. According to el-Shafe'i the zakat is imposed on the *surplus* agricultural food products *only*, and it must not be collected on cereals and vegetables, nor on non-edible plants as cotton and flax, nor on plants that grow in valleys and mountains, wheih plants he limits to ten kinds: wheat, barley, rice, maize, beans haricots, chick-peas, lentils, dukhn and gulbane.

The zakat is not imposed upon agricultural products until they are ripe and fully grown, threshed and sifted, and weighing five «wassaqs» although Abu Hanifa leaves out the condition of weight and imposes it on any quantity at hand, should the plants be cut while still young no zakat is imposed. If the land owned and planted by a Zimmi, it is not subject to either tithes, or land tax according to el Shafe'i while Abu Hanifa stipulates that he should pay the tax even if he embraces Islam. On the other hand, Abu Yussef insists upon the double of sum which a Muslim would pay under similar circumstances, but Muhammad ibn el Hasan and Sufyan al Thawri impose the same zakat upon either Muslim or Zimmi.

A Muslim who plants Kharaj land gives one tenth of the product as zakat plus the tax on the land, (el Shafe'i). Abu Hanifa, however, stipulates that the land tax only is required. When land is rented and planted, the land tax is paid by the lender and the tithes are paid by the tenant, Abu Hanifa stipulates that one tenth of the product is paid by the tenant: these three being «seen» property.

4. Zakat on silver and gold

Both silver and gold are unseen property and one quarter of the tenth of their value is required as zakat according to the Prophet.

Below (200) two hundred silver dirhems (as set by Islam) no zakat is imposed. The zakat required of 200 dirhems is five dirhem, the amounts exceeding 200 dirhems are calculated on the same basis. Abu Hanifa stipulates that one dirhem is to be added as zakat for every forty exceeding 200 (two hundred dirhems). The same rule applies to both 'paper' or silver money.

Below twenty (Islamic) mithqals no zakat is required; the percentage of twenty mithqals being a quarter of the tenth i.e., half a mithqal. Any amount exceeding twenty mithqals are calculated on the same basis. The same rule applies to ingots or minted gold. Silver is not to be added to gold, each being calculated by itself.

A regards profits accruing from com-

cow and one suckling Every eighty require two (2 years old)cow and every ninety require three suckling. Every one hundred and ten require two cows; for every one hundred and twenty the bbenefactor may choose between the (previously mentioned) rule applied to the two hundred camels i.e. four sucklings, or three (2 years old) cows, and so on. Every thirty require one suckling, and every forty require one cow.

The Sheep Zakat: It starts with foryt heads for which it requires one (three years old) sheep, up to one hundred and twenty. From one hundred and twenty one to two hundred it requires two sheep. From two hundred and one up to four hundred, it requires three sheep. Above four hundred, four heads are required; then for every one hundred above the four hundred, one sheep is required.

Lambs may be added to goats; water buffaloes to cows; bakhati, to the erab, since they belong to the same species. However, camels are not added to cows, nor cows to sheep, because they belong to different species.

The Cattle Zakat is Two fold:

1. The animal may either be, grazing in pastures so that it saves forage expense and its owner can in the meantime benefit from its milk and butter, or else it may be working in the fields in which case both kinds are excluded from zakat.

2. The animal should be one year ols so as to be ready for fertilization since the Prophet has said: «No zakat before reaching one year of age.»

The lamb may be offered as zakat even in case it is born before its bearer (mother) is one year old. Horses, mules and donkeys are barred from zakat although Abu Hanifa allows one dinar for every mare. Again, mentioning what the Prophet has said. «I exempt you from the zakat over horses and slaves».

2. Date Palms and Fruit Trees as Zakat

Abu Hanifa ordains the zakat on dates and all kinds of fruit while el Shafe'i insists upon and grapes in particular and leaves out the rest (to personal choice).

The Zakat on fruit is subject to two conditions:

a) It should be edible and in good condition. In case the fruit is picked before being ripe, it is no more fit for the zakat, and it is objectionable to act in such a manner so as to avoid the payment of zakat.

b) According to el Shafe'i fruit is not to be offered as zakat in case the product is below five «Wasq» in weight. (The wasq = 60 sa', and the sa' = 5.33 Iraqi 1b. in weight).

According to Abu Hanifa, Zakat on fruit is acceptable whether in large or small quantities; but he forbids settling the price of fruit by its owner, befor it is ripe while el Shafe'i allows it. At any rate, both the palm and vine trees are not to be evaluated before the fruit is ripe.

The zakat should equal one tenth of the product in case th plants are irrigated by running water, and it should equal half this amount when the plants are watered by hand etc... All palm trees

Zakat is due on funds reserved for investments either on the capital itself, or the capital plus its dividend and is to be used either directly, or for the purification of both its owners and participants.

There are two types of zakat: the seen and the unseen. The first type, I.e. the seen, is obvious and cannot be hidden such as plants, agricultural products, cattle etc. The unseen consists of that which, could be hidden, such as gold silver commercial transactions, etc. The supervisor over the zakat funds has no claim upon the unseen property. However, those who possess it ought to take their responsibility of their own accord in which case the supervisor should accept it and help them to distribute it as they wish. The supervisor of the zakat funds should order the payment of the zakat by those concerned (the wealthy citizens), and he is usually faced by two propositions if he wants to be fair: 1. He enforces the law and assumes the right to interfere in the distribution of the zakat without referring to the opinion of the giver. 2. He collaborates with the giver who responds willingly and gives his leave to distribute his azkat as he sees fit. Nevertheless, in both cases he has the right to fight the givers who refuse to comply with the strict regulations of the law just as Abu Bakr el Seddiq did, because the dissenters in such cases are sinners against the shar'a. However, Abu Hanifa is against the idea of fighting in case they offer to pay themselves their zakat.

There are four sources for the zakat: 1. Cattle 2. Trees 3. Agriculture 4. Silver and gold.

Starting with the first: 1. *Cattle a zakat.*

Cattle as zkat comprise camels, cows and sheep.

The camels' zakat starts on five heads, and should it reach nine heads it requires either a she lamb 3 years old, 3 years old, or two goats. From ten up to fourteen heads, two sheep are required. From fifteen to nineteen, three sheep are required. From twenty to twenty four, four sheep are required. From twenty-f ive up to thirty-five, the sheep are excluded and replaced by a three years old camel. From thirty six upwards, a two years old camel is required.

Consequently, the increase in the number of cattle is followed by changes in the species offered as zakat, so that when the zakat is required for two hundred camels, the giver may choose one of two conditions: 1. He may offer four medium size camels. 2 He may offer five camels just above one year old, and so on, provided that every additional forty camels require a one year old head, and every additional fifty, require a medium size camel.

The Cows Zakat. It starts with thirty heads and requires one male suckling. Up to forty, one (2 years old) cow is required. Over forty cows, as el Shafe'i stipulates, no substitutes are allowed until they reach sixty in number, in which cse two male sucklings are required. Over sixty in number, every thirty cows require a suckling, and every forty require a (two yeares old) cow, so that every seventy would require one

FINANCIAL RESOURCES IN ISLAM

By

His Eminence The Late Sheikh Abdel Rahman Hasan

Member of the Islamic Researches Academy

IN THE NAME OF GOD THE MERCIFUL, THE COMPASSIONATE

The financial resources in Islam are the total sum of what is collected in 'Bait el Mal' (Islamic Treasury) the revenue of which derives from the taxes paid therein in the form of zakat (almsgiving) in its various phases: al Kharaj, i.e. land-tax; al'ushur, i.e. tithes; al jizyah, i.e. tributes; al ghanaem, i.e, booty.

Starting with the zakat which is the third principle upon which Islam is based, we note that it is an essential condition for the purification of the soul from the evil of avarice. It is ordained by the Quran, the Sunnah and scholars; the general tenor being that every Muslim who is of age, free, sane, and owns property subject to azkat, should pay it. Nevertheless, the Sahabah, the disciples and some others disagreed about exempting the orphans, the insane, peoples of the Book and those who do not own property subject to zakat, or are in debt. They also questioned the fact of considering it a form of worship like prayer and fasting, or to look upon it as a rightful share of the poor and needy in the wealth of the rich.

In point of fact, the Zakat is a religious duty the rules of which were set by Islam for the purpose of solidarity and charity since the poor are entitled to be helped by the wealthy in order to safeguard them from want and need. Islam clearly insists upon the levying of zakat, and Abu Bakr fought those who failed to abide by it. He said in this connection «By God! they withhold but the tether of a tithed camel, used to restitute to the Apostle of God, I will fight them for it».

Islam has set the regulations for the zakat and clearly stated its amount and terms of payment so that the wealthy would realize that they are mere guardians of their own wealth and should use it to help the poor. So, as Ali said: «God has ordained the rich to give the poor according to their need; in case the latter starve or go without clothing; or get exhausted the rich are held responsible for their suffering and God will judge them on the Day of Judgment.»

ownership and give rulings which are almost identical, in varying degrees.

To sum up, we can safely say that Islam, as demonstrated in Traditions, legal deductions, recorded sayings; positively establishes the right of individual ownership of land and other kinds of property. Moreover, it clearly defines the rights of all beneficiaries (owners, lease-holders, usufructuaries, etc...) and by such clear-cut definitions secures and guarantees the right of each individual.

LOVE OF GOD

By the light of the moon,
My friend,
Lend me thy pen,
to write a word;
My candle is out,
I've no more fire,
Open your door to me,
For the love of God.

his character or religion; but I am afraid that something may happen to me contrary to Islam, on which account I wish to be separated from him» The Prophet said: «Will you give back to Thabet the garden which he gave to you as your settlement?» She said, «Yes».

This proves that the garden, which was a cultivated land, was used as a dowry and as a compensation for Khol'a divorce. The wife owned it through the marriage contract, and had the right to dispose of it as a compensation.

In the following we quote some certain rulings of the jurists of the four Islamic rites in respect of the indiveduals' ownership of land and its benefits. And it is note-worthy to state beforehand, that all these rulings were deduced and derived from the traditions of the Prophet and the recorded sayings of the Companions and early jurists.

On P. 9 Vol Iv of Zela'ai's 'Sharh El-Kanz' The buildings and keys are tacit by included in the belongings of the house sold, so are the trees on selling a piece of land, and there is no need to mention them.

With respect of the «Right of pre-emption», Kasani's «Bada'i» P.4, Vol V states: The right of preemption is established throught three cases: Partnership in the property sold; partnership in the right of ownership (the right of usufruct or ownership of the benefit), and neighbourhood.

P. 120 (Vol. VI (ibid) states with respect to the feasibility of granting property which is commonly owned: The common ownership of property does not negate one's right to grant, since the act of granting itself derives from the right of ownership. Hence, it is permissible to grant what is commonly owned as it is permissible to sell it.

As regards Muzara'a (employing a person to irrigate, plough and serve one's land), P. 125 (ibid) states: Muzara'a provides that the landowner gives a certain portion of the yield in return for the services of another person whom he employs to irrigate, plough and cultivate the land. But when the person employed provides the seeds. Muzara'a becomes a kind of land lease by which the lease-holder is entitled to benefit from the yield through mutual agreement with the landlord.

P. 122, Vol. VI (Ibid) describes the various kinds of land. Land is primarily of two kinds: land which is owned, and land which is common, namely, not owned by anyone. Owned land are under two categories: used and unused (waste). Similarly common land is of two kinds: being either a public utility from which people benefit, or a dead land which is not used.

The section dealing with «Wakf and Sadakah» P. 218. Vol Vi (ibid) states: There is general agreement between jurists that 'wakf' is permissible and that the beqeuather (Wakif) has the right to give the yield of his bequeathed property as alms.

Again, P. 262, Vol. VI (Ibid) speaks of the right of ownership and states: The owner enjoys an exclusive right to benefit and dispose of what he owns...

Other schools, other than the Hanafi School, touch upon the same rights of

off pieces of land unlawfully is considered one of the great sins. On the other hand, when one owns a piece of land he has a right to the whole of it, even to what lies beneath and what it contains (stones, metals, etc...) others have no right to dig a tunnel or a well in it, without his own consent.

Ashàth Ibn Kais relates that two men, one from Kindah, the other from Hadramaut, came to the Prophet. The one from Hadramaut said, «O Messenger of God! This man and his father have usurped my land», the one from Kindah said, «O Messenger of God! It is the land inherited from my father». Then the man from Hadramaut said, «Let him, O Messenger of God, swear that he does not know that it is my land and my father's land usurped by his father.» The Kindi was about to swear when the Prophet said, «He who claims ownership of a land only by swearing will face God at Judgment Day a leper.» Here the Kindi said, «O Messenger of God! It is his land, and his father's.

The section which deals with Shufa'a (the right of preemption), PP. 280-284, Vol. V «Nayl Al-Awtat» states: According to Jaber, as related by Muslim, Nasa'ai and Abu Daoud, the Prophet established the right of preemption for partners and neighbours alike. He ruled that a person could not sell his share in a property without taking permission from his partner; should he fail to do so, the other partner had the right to buy the share in question, with or without the consent of the first partner. This rule applies also to the neighbour. Al-Shareed Ibn Sowaid relates, «Once I said to the Prophet «O Messenger of God! What do you say about a land which is not subject to partnership or to division, except neighbouring lands?», he said, «The neighbour has the right of preemption».

Further quotations in this section show positively that the right of pre-emption is established through three cases: partnership in ownership, partnership in the rights of ownership (such as water and free passage), and neighbourhood. Any of these suffices to establish the right of pre-emption.

The section dealing with 'Donation', P. 8 Vol. 'Nayl Al-Awtar', states: «No'man Ibn Bachir relates that his father once took him to the Prophet and said, «O Messenger of God! This is my son, I have donated him one of my slaves. The Prophet then asked him, «Have you done the same to the rest of your chidren?» My father replied in the negative; then the Prophet said, «Take the slave back.»

Again, Jaber related that a man from the Ansars donated a garden of palm trees to his mother, to benefit from it throughout her life. Upon her death his brothers claimed their right in the garden, but he refused. They consulted the Prophet who divided the garden among them. This shows that the act of donating established a right of ownership for the mother.

The section dealing with Khol'a divorce, Vol. VI, «Nayl Al-Awtar» relates: The wife of Thabet Ibn Qais came to the Prophet and said, «O Messenger of God, I am not angry with Thabet for

states: «According to Anas Ibn Malik, immigrants from Mecca were penniless,while the Ansars had lands and other forms of property. The Ansars gave half of their land to the Mohajireen (immigrants) on condition that the latter should cultivate the land and give them half of the yield» Again, Bokhari and Ibn Omar relate that the Prophet gave the land of Khaiber for half of the yield. This practice remained throughout the Prophet's life and in the days of Abu Bakr and in the early days of Omar's rule. But land-leasing was not renewed in the days of Abu Bakr and Omar after the death of the Prophet.

Shawkani states that what Anas relates shows that land-leasing is permissible.

In «Ihya'u Al Mawât». Vol. V of « Nayl Al-Awtar»: It is related by Djaber that the Prophet said, «He who revives dead land is entitled to own it» Again, the Prophet said, «He who revives a dead land is entitled to own it, provided it is not usarped.» Commentators say that by «not to be usarped», means that it is unlawful to cultivate another's land, or dig into it or build on it. Therefore, reviving a dead land means putting life into a land which is nobody's property, through watering, ploughing and cultivating. Most of the Muslim jurists state that dead lands can be revived with or without the Imam's permission. But the Hanafis hold that this necessitates the Imam's permission, the Hadawiya share with them this point of view.

As for water, fire and grass, the Prophet said «Men are partners in three things: water, fire and grass», related by Ibn Majah, quoting it from the sayings of Ibn Abbas, with the addition «and any price paid for either is unlawful».

Shawkani states that all water is freely available, to all people, whether owned or common.

The above-mentioned quotations are meant to show that land is not primarily common among all people as in the case of water, fire and grass. As we have already seen, land ownership are established through some certain procedure.

Land-granting is recognized by Islam. The section dealing with land-granting, P. 264, Vol V «Nayl Al-A wtar» states: «According to Ibn Omar the Prophet granted a piece of land to Al-Zubair: Al-Zubair applied the whip to his horse, the horse ran and covered a certain distance, then the Prophet said: «Let him have the piece of land covered by the horse».

After quoting some traditions and recorded sayings in this respect, Shawkani concludes that the Prophet and the Imams who succeeded him had the authority to grant land-granting itself establishes the right of ownership.

The section dealing with land usurpation, P. 269, Vol. V «Nayl Al-A wtar» states: «Aisha relates that the Prophet said, «He who usurps a foot of land will be surronded with a ring of Hell's fire». Again Said Ibn Zaid relates a similar tradition, confirmed by Abi Horaira in another version, «He who cuts off a foot of land unlawfully...».

This shows that usurping or cutting

respect, says that such dealings were common among Muslims in the early days of Islam and there was no difference as to the feasibility of such procedure. As to the Prophet's warning against Muzàra's (leasing one's land for a fixed portion of the yield), it was said that it meant the landowner's stipulation that a certain part of the land could be leased in that way. This is confirmed by the following:

Rafe Ibn Khodeig relates (in the same source) «We had most of the land and we used to lease the land of our own choice, that is, we took certain portions of land, and left others to lease-holders. We were warned against this kind of lease on the basis that one portion might yield and the other might not; we were not warned against taking silver as rent» Further, Bukhari relates: «Land-owners, in the days of the Prophet, peace be upon him, used to lease certain portions of land (such as land accessible to water) and to lease their lands for certain portions of the yield,but they were warned against this kind of lease».

According to «Nayl Al-Awtar»: «The Prophet, peace be upon him, warned against Mohàkala (selling the plant before it ripens) and Mozàbana (selling yield of lands of unknown number or quantity for certain sum of money), and said that only three could use the land: a man who owned land, a man who was granted land, and a man who rented land for gold or silver», related by Nasa'ai and Abu Daoud. Sa'ad ibn Abi Wakkas also relates that: «Landowners in the days of the Prophet, peace be upon him, used to lease their lands for the yields of certain portions of them which were situated near wells and accessible to water. Some of them came to the Prophet, peace be upon him, when a dispute arose; the Prophet warned them against this and ordered them to lease their lands for gold and silver».

What was related about Mokhabara or Muzàra'a (leasing one's land for a third or a fourth of the yield) was taken in the sense that such dealings might involve some abuses. This was confirmed in what Omar Ibn Dinar relates: «I thought if I were to give up 'Mokhabara', they would say that the Prophet had warned against it. The most learned among them, meaning Ibn Abbas, told me that the Prophet had not warned against it, but positively advised us to be kind to each other. Abu Horayra relates: «The Messenger, peace be upon him, said that he who has land may either cultivate it or ask his brother to do so; should he fail, he may keep it unexploited». Jurists unanimously agree that land-leasing is permissible, whereas land-lending is not obligatory.

The traditions and recorded sayings quoted above clearly show that land and its benefits are owned by individuals who are entitled to benefit from their lands in whatever way they choose: either by cultivating, leasing, or lending. They even have the right to keep their lands unused, though we are warned against wasting money or property.

The section dealing with land-leasing, p. 248, Vol V in «Nayl Al-Awtar»

Again in the same Sura, about Thamûd, «Will ye be left secure, in (the enjoyment of) all that ye have here? — Gardens and Springs, and corn-fields and palms the spathes whereof are fine?»

In Sûra Dukhân, concerning Pharaoh and his people, «How many were the gardens and springs they left behind, and cornfields and the goodly sites, and pleasant things wherein they had taken such delight. Thus (was their end)! And We made other people inherit (these things).

Upon the Islamic Conquest, people in great numbers converted to the Religion of God which confirmed other preceding religions, by which it proved itself to be a constructive code and not a destructivr one. This Religion recognized, guaranteed and respected the right of ownership through its laws and regulations pertaining to the preservation of property, and the freedom of ownership. According to Islamic legislations, land was classified into the following categories:

A land whose people embraced Islam, whereby they were indisputably entitled to retain its ownership.

A land which was taken by Muslims through a treaty. Such a land was retained by its owners, provided they had to pay what was provided by the terms of the peace treaty.

The land of Mecca was retained by its owners, though taken by force.

The land of Khaibar was taken by force and divided among the conquerors, whereby it became their own, and was inherited by their descendants after them.

A land taken by force which was not divided among the conquerors, but retained by the Imam for the State or Beit Ul-Mâl (treasury), as in the case when the Caliph Omar kept the land of Iraq (accrding to some jurists).

Lands which were retained by their owners who were unbelievers, but were not defeated by Muslims. Such lands were governed by laws and regulations prevailing in their countries.

Judging by the sayings of the Prophet which were related, and by the recorded sayings and viewpoints of Muslim jurists of different schools, we can safely state that the right of the individual to own land and its benefits has been strongly recognized, safeguarded, and respected, in all times and under various codes.

Traditions (Hadeeth) and recorded sayings

We hereby quote from «Montaqa Al-Akhbar» and commentaries in «Nayl Al-Awtâr» traditions classified according to branches of Islamic jurisprudence.

In «Musâqât and Muzara'a» p. 231 Vol. V of «Nayl Al-Awtar» it is related that Mua'adh ibn Jabal leased his land in the days of the Prohet, peace be upon him, to Abu Bakr, Omar and Othman for the third or the fourth of the yield. Bukhari also relates that all landowners (from the muhagireen 'immigrants') leased their land for the same portion. Omar, according to Bukhari, leased his land for half of the yield when he provided the seeds. Bukhari, in this

mutual consent. (Al-Nissa' 29)

Secondly: God and His Apostle warn us against encroachment on others' property, and seizing it unlawfully. God, The Al-mighty, says: «And eat not up your property among yourselves in vanity, nor seek by it to gain the hearing of the judges that ye may knowingly devour a portion of the property of others wrongfully.
(Al-Baqarah 188).

Thirdly: To safeguard freedom of ownership and to protect property, the Islamic law has enacted certain punishments to be inflicted upon thieves and users. God, the Almighty, says: «Verily, those who devour the property of orphans unjustly, only devour into their bellies fire, and they shall broil in flames.» (Al-Nissa' 10).

The Hadeeth states, «It is unlawful for one to take his brother's property, whether playfully or seriously. And should he do so, he must give it back.» Another Hadeeth states: «A hand is held responsible for what it takes, till it gives it back».

Respect for ownership is further stressed in the Hadeeth, «When you sell something, say: Do not press for what may do me harm. I have the freedom of choice for three days». Again the Prophet, «peace be upon him,» warns us against selling bad or defective things. By establishing the freedom of choice, and warning against selling defective property, Islam warrants that the owner may not dispose of his property while feeling that he is being deceived or oppressed. Again, the establishment of the right of servitude is meant to prevent any harm or impairment on either the neighbour or the partner. All these rights prove that the Muslim code is keen to secure the right of ownership and to safeguard the owner and to establish his right to benefit from his property in the best way and without causing him any harm.

Now we turn to «The individual's ownership of land and its benefits in Islam» to discuss it fully.

Throughout the ages, in different countries, according to various religions and creeds, the land, no doubt, was owned by individuals. Each had his own share, and had the right to keep it or dispose of it, according to the particular laws and regulations in force.

This is clearly shown in the following verses of the Koran:

In Surà Kahf: «Set forth to them the parable of two men: for one of them We provided two gardens of grape-vines and We have surrounded both with date-palms: in between the two We placed tillage».

In Surà «The Pen»: «Verily We have tried them as we tried the fellows of the Garden, when they swore, We will cut its fruit next morning».

Again, in Surà Al-Ahzàb: «And He caused you to inherit their lands, their houses, and their wealth».

In Suraà Sabà: «There was indeed for Sabà, a sign in their home-land — two Gardens on the right and the left.»

In Sùrà Shoara, about Aàd: «Yea, fear Him who has bestowed on you freely all that ye know. Freely has He bestowed on you cattle and sons, — and Gardens and Springs.»

Quran: «He it is Who created for you all that is in the earth. Then turned He to the heaven, and fashioned it as seven heavens.» (Al-Baqarah 29).

Throught the first verse aforementioned, scholars came to the comclusion that all things were common property before ownership was defined by legal rules. Virtually, God, the Almighty, owns everything, but He has granted His earth to His needy creatures to benefit from its riches. Hence it was made common property, from it through owning and reviving.

This is clearly shown in the Prophet's saying «The Earth is God's earth, the creatures are all God's creatures; He who revives a dead land has a right to it.» Hence, the process of reviving alone establishes ownership without permission from the ruling authorities, since a land without an owner is common property, the ownership of which does not require permission of the authorities, and since the Prophet's Hadeeth which indicates the way to own a common property does not stipulate getting permission, as is shown in «Saheeh Al-Bukhari» which states: Aisha relates that the Prophet, peace be on him, said: «He who revives a land owned by nobody can have it».

Abu Hanifa holds that reviving a land does not establish ownership, and stipulates that the Imam or his deputy should grant permission. He argues that even though the land itself is common, yet it may be the cause of clash between people who are keen to own it. Hence the Imam's permission is necessary, since he alone has the authority by which he can prevent disputes. This view-point is confirmed by the Hadeeth which says: «A person cannot own a thing except through the consent of the Imam»

To sum up, seizure of land can well establish ownership, provided there is no suspicion of causing dispute, and no prohibition by the Imam. Again, the Imam's permission is imperative in case there be fear of dispute or clash.

In Egypt to-day there is no such thing as dead land, since all lands, other than those owned by individuals or companies, are virtually owned by the state which is solely entitled to pass their ownership to whom she may choose, either for something in return or otherwise.

Freedom of Ownership

All heavenly codes stress the necessity to preserve, respect and protect property. This is confirmed by the Haddeth which says: «Everything pertaining to a Muslim, his blood, property and honour, is unlawful to another Muslim — a Muslim's property is lawful only when he grants it willingly».

Islam has secured freedom of ownership through established legislations:

First: It has made agreement and consent the basis of financial dealings. Agreement and consent are the basis or all that is authorised by God in respect to all forms of transferring the ownership of a property and its benefit, through selling, leasing or lending. In the Quran: «Oh ye who believe! Devour not your property amongst yourselves vainly, unless it be a merchandise by

into voluntary and involuntary cases. Voluntary cases include seizure of common property and contracts. Involuntary case, means the succession which is established by inheritance. In such a case ownership is invluntarily established on both the legator and the legatee. Legislation puts the heir in place of the bequether, hence the new ownership is a continuation of the old one. Therefore this kind of ownership is not established through the heir's acceptance, and it cannot be rejected. The thing owned in this case comprises what is left of the property after paying off the expenses of the funeral, and the debts of the deceased and executing his will. Hence succession applies to what is left only and it does not extend to everything left by the deceased. Hence the heir is not bound to redeem the debt of the deceased out of his own money, in case the former's property does not cover his debts.

Secondly, complete ownership is established either through the seizure of common property, since this kind of property is not the ownership of any person from the legal point or view (this property includes war trophies), or through transferring the ownership by contract or succession, provided the property inherited or transfered should be owned prior to writing the contract or effecting the succession, since common property cannot be the succession, since common property cannot be transfereed by contract or inherited by anyone. Hence the first case of ownership is established through the seizure of what is common, then through transfer either by contract or inberitance.

Thirdly, cases establishing ownership are divided into: actual, verbal and legally virtual. Seizure is an actual case, since it cannot be done exept through the action itself. Accordingly it is valid when it is done even by inexpedient persons, such as children or sequestrated persons: in case a boy, a sequestrated person, or a mad man actually and properly seizes a common property, such a property is legally his, even though contracts made by such persons may be invalid, or cannot be effectual except with the guardian's permission.

The contract, on the other hand, is verbal in most of its forms, since it is contained in oral terms. It can also be effected by action, as when it is put in writing or through making signs. The contract establishes ownership only when the contractor is fully expedient.

Inheritance establishes ownership by itself: hence action or a word of mouth is not required, either from the heir or the bequeather, since inheritance is regarded by the legislator as a right confirming ownership: so, ownership is established for the young as well as the old, the adult or otherwise, and even for the embryo.

Since we are discussing the subject of land-ownership and its benefits in Islam, it follows that we should give some special consideration to the first case establishing ownership, namely, seizure of land, according to which all forms of ownership were established since the beginning of the creation.

God, the Almighty, said in the

3 — This kind of ownership is not temporary and does not cease except in case the property is destroyed and rendered useless or in case it is passed to another through inheritance upon the death of the owner or through a legal disposal transferring the ownership as in case of selling or granting.

4 — Property ownership cannot be dropped, as Islam does not recognize loss property.

Cases of absolute ownership:

It is helpful in this respect to quote from «Al-Bahr» taken from «Al-Hawi» by Maqdissi. The text runs as follows: «Ownership is deterring exclusiveness and is the same as seizure whereby it is established, since what is owned cannot be passed to another owner simultaneously, and since it is imperative that the property to be owned should be a priori without an owner. Property without an owner is common property whose ownership can be established through seizure only which is present in all cases of ownership. By selling, granting and the like the ownership is passed through seizure of the property, since the process of selling stipulates the seisin of the property sold in case of selling, accordingly, ownership cannot be established in respect to a common property priority seizure. Again, seizure cannot be confirmed unless the property is without an owner. Succession is established through either inheritance or will, but not through transfer of ownership, and the heir has the right to reject the property if it proves defective, but the purchaser has not such right (the person who purchased the property from the legator who died ».

Hence, cases of absolute ownership are three, seizure which establishes ownership; selling whereby ownership is transferred; inheritance or Will, namely:

1 — Seizure of common property.

2 2 — Contracts transferring ownerships, such as contracts of sale and grants.

3 — Succession, namely, a person succeeds another through inheritance, but preemption is not considered as such, since it is only a right to ownership and not ownership.

Ownership can be established either through agreement or through the decision of a judge based on the provisions of contract. Waht emanates from the thing owned does not create a new case for establishing ownership for the emanating thing or the benefit arising from the thing owned, since particulars of absolute ownership provide that property and its benefits, both permanent or temporary, are exclusively the owner's. Thus the ownership of what emanates is established through the original ownership, that is, when a person owns an animal through a contract or inheritance, he owns both the property and its accretion, since the accretion is considered as a separate entity when it exists, hence it does not require any new case.

These cases are of a different nature according to which they are put into three categories: First, they are divided

perty has a right to use these public utilities. The proprietors have the right to use such roads, to water their lands from public rivers and canals and to get rid of surplus water through public drains, since these public utilities are considered common property.

2 — When this right is provided in the contract as in the case when a person sells a piece of agricultural land to another and stipulates that another piece of his has a right to water or the rights of passage over the sold one. These rights are established when the buyer acknowledges them.

3 — When one of these rights was established for a property in the unknown past, and when a person inherits a land watered from a neighbouring land or when this land disposes of its surplus water in a drain owned by another person, in case the date of granting the right is unknown. When it is proved that it was legally granted, it becomes valid, but should the owner of the other land prove that it was illegally granted, hence it is declared invalid.

This right of servitude cannot be established through permission or license. In case a person permits his neighbour to use his own path or to water his land from his canal, it does not follow that this land has a right of servitude, since the person who grants can withdraw his permission any time he likes: accordingly those who own the land afterwards, through purchasing or inheritance, cannot claim this right.

Absolute ownership:
Particulars and cases

1 — According to the definition describing the absolute ownership, the owner is absolutely free to dispose of the property and its benefit through every legal means (selling, leasing, lending). This freedom is limited by two considerations only: 1st— Other individuals or groups should not be prejudiced. 2nd — The disposal should be within the framework of th orders and regulations set by the governing authorities for the common interset.

This includes public interest, or interest, or temporary seizure of the property in case the country is invaded or a bridge is destroyed, and in case certain restrictions are imposed for the sake of security or public health, such as the restrictions governing buildings and roads, establishing of estates and stables and places causing discomfort or harm to health or being dangerous, and those governing the erection of levers and the installations of steam machines, along with restrictions imposed for the benefit of agriculture binding landowners whose lands are situated in the neighbourhood of canals and drains. Also the restrictions imposed to preserve and develop national wealth such as those dealing with mines, protection of historical antiquities, and prohibiting the growing of certain plants.

2 — The owner has the right to use his property without any time or place limitatons, unless such usage is legally prohibited, as in case he uses the property as a gambling house.

disagree as to some of the forms. They hold that, should the lease be of a fixed period, the heirs inherit the benefit in case the lease-holder dies before the expiration of the lease. Again if a person allows another to occupy or to exploit his house for a certin period, the heirs of the beneficiary are entitled to the benefit for the rest of the period in case the beneficiary dies before the expiration of the period. But complete ownership is brqueathed through agreement.

3 — The beneficiary is responsible for any damage caused to the property through him, such a damage is considered an act of impairment.Should the property be damaged unintentionally, he is not responsible for the damage.

4 — Expeneses and costs of maintenane are borne by the beneficiary in case he owns it freely through a lending contract or a will, and borne by the owner himself in case it is leased. In case of complete ownership the expenses are borne by the owner.

This kind of ownership expires in the following cases:-

1 — Expiration of the period provided by the contract.

2 — The death of the beneficiary, according to the Hanafi School.

3 — The death of either the renter or the lender.

4 — In case the property is seriously damaged and rendered useless as in the case of a land leased for agricultural purposes and becoming morass or flooded by water.

The 3rd kind is the right servitude[1] by which an immovable property is entitled to benefit from another owned by another person. This includes access to water, digging canals and free passage.

The differences between the right of servitude and the right of personal benefit are as follows:-

1 — The right of servitude is always applied to immovable property only, whereas usufruct may apply to immovable and movable property, such as in case of hiring or lending an animal.

2 — The right of usufruct is provided for a certain person by name or capacity, whereas the right of servitude is primarily provided for the property.

3 — The right of servitude is not limited by a fixed period whereas the right of usufruct is temporary as expieres it with the expiration of the period fixed for the lease or the lending.

4 — According to the Hanafi School, usufruct can be inherited even though it is not considered property. But they hold that it can be inherited since it is related to the property. The reverse holds good for the right of usufruct, the inheriting of which is a subject of controversy between jurists.

Cases establishing servitude

1 — General partnership as in the case of roads, rivers and drains which are designated for public usage, and are not private property. Each nearby pro-

(1) The meaning of the term «Servitude» in certain European codes is the right or title to the use of a thing for general or for a particular purpose, without having personal interest or property in it such as right of way, water, etc, on another man's land . (Ed).

tract, whether the permission is given by the owner of the property or by the legislator or the ruler, as in the case of public utilities. Leasing means that the lease holder has a right to the benefit with something paid in return, but he is not entitled to any further rights. When a person rents a land to cultivate it, he has not the right to erect buidings thereon, but he has the right to pass the benefit to others, with or withouf something in return, unless it is provided in the contract that the benefit varies with the beneficiary.

Lending means that the benefit is owned without something paid in return. Jurists of the Hanafi School are not of an opinion on the question of whether lending entitles to ownership. Some say that it does not, but it only authorizes the borrower to benefit from the property, provided the lender retains the ownership. Accordingly it does not entitle the borrower to pass the benefit to another person. The majority, along with the Shafii School, hold that the borrower owns the benefit according to the lending contract, hence he is entitled to pass it to another through lending, without receiving anything in return, provided the lender does not stipulate otherwise, or the benefit itself varies with the beneficiaries. Should both stipulations be absent, the borrower may pass the lending to another, but he cannot pass it through leasing, as the two contracts differ in kind. Lending is not binding so long as the lender can withdraw it when he likes, but leasing is binding.If leasing were to be permitted, the legal description of one of the two contracts should be changed to put both in accord. This process could not be carried as it involves a change in the contract.

But the Maliki School allow the borrower to pass the benefit to another whether by leasing or lending, because he who owns the benefit has the right to dispose of it within the fixed period of the lending contract, provided he should not cause damage to the property, since the lending contract is binding as regards the period, that the lender may not annul it. This shows that the essential difference of both opinions is whether the lending contract is binding or not.

According to «Tahdheeb EL- F orouq» by Qarafi, lending contract bestows ownership on the borrower according to custom. He who is entitled to a borrowing period through custom, becomes the sole owner of the property of which he can dispose within the fixed period. In this case owning the benefit is similar to owning the property itself.

particulars of this kind of ownership:

Ownership of the benefit or the right of usufruct is subject to certain conditions:-

1 — It is primarily limited by time, place and description, but complete ownership is by no means limited.

2 — According to Hanafi School it cannot be inherited, because inheritance applies to the existing property upon death, benefits, according to this School, are not properties.

But the majoriy of the Muslim jurists

beneficiary. Upon his death the property goes back to the owner, and thus his ownership becomes complete.

Thus the ownership of a property alone is recognized through inheritence, and through the will in case the property is willed to a person and the benefit is willed to another. The ownership of the property alone does not entitle the owner to any form of benefit, moreover he cannot dispose of the property in a way that may do harm to the beneficiary. The Hanafi School holds that the owner should not sell the property except to the beneficiary. Other schools hold that the owner may sell his property without permission from the beneficiary. In this case the ownership of the property goes to the new owner accompanied by the right of the beneficiary. The ownership can be passed to his heirs upon his death, and it does not expire except when the owner dies or in case the property is damaged or owned by another. Should the owner causes damage to the property, he has to guarantee the benefit for the beneficiary. Costs of maintenance and levied taxes are borne by the beneficiary.

The 2nd category is ownership of the benefit or the right of usufruct. It is necessary to show the difference between both rights. Ownership of the benefit permits the owner either to get the benefit for himself or to pass it to a second party. A person who rents a land or a house virtually owns the benefit through the contract, and the benefit becomes exclusively his. This exclusiveness keeps others away from it, and he has the right either to get the benefit for himself or to pass the benefit to another person, with or without a thing in return, except when the contracting parties agree on a different thing.

Usufruct, on the other hand, is a mere licence emanating from a general permission, such as the right to use public utilities as roads and rivers, or from a special permission, as the right to benefit from the property of a certain person. Such a right does not entitle the usufructuary to any right of ownership. Hence he cannot pass it to another.

According to Qarafi, the usufructuary himelf enjoys usufruct personally, whereas in case of the ownership of the benefit, the beneficiary can either enjoy the benefit personally, or pass it to another. Thus the right of usufruct occurs in three cases:

1. — Through general permission as in the case of using public utilities such as roads, schools and hospitals.

2. — When the benefit is bestowed by the owner of the property himself, whether on a certain person known by name or to unspecific persons, as when the owner houses strangers in his home.

3. — Through the lease or the lending contract or other contracts, which provides that the benefit should go to the lease holder or the borrower only, without any right to pass it to others.

The ownership of the benefit occurs in five cases: through general permission, leasing, lending, wakf, and will. General permission permits one to benefit from a property without a con-

either embrace the thing itself and its benefits together or affect the benefits only, or affect the thing owned only. In case it affects them both, it is called complete ownership, whereas when it affects either of them only it is called incomplete ownership.

Complete ownership, then means the right to own a thing and its benefits, thereby entitling the owner to all legal rights.

Incomplete ownership is that which entitles a person to one only of the two. It is of two kinds: ownership of the thing alone, whereas the benefit goes to another person; and the ownership of the benefit such as in the case of Wakf, lease and loan. This, again, is of two kinds: it goes either to a person or to a property. In the first case it is bestowed on a certain usufructuary only, and cannot be passed to another except in cases that will be mentioned later. In the case it is given to a certain property entitled to this right, in which case it does not go to a person, but it belongs to the property itself, whoever its owner may be. It is primarily given to the property, then given to the owner accordingly, (for example the right of access to a certain house through a private road).
Hence the incomplete ownership is of three kinds:

1— The ownership of the property only.

2— The ownership of the benefit alone. Here usufruct is a personal one, namely, given to a certain person.

3— The ownership of the benefit only, the usufruct here follows the property and is accordingly given to the beneficiary of such property.

Both complete and incomplete ownership with their different kinds are governed by particular rules and each of them has its own proofs.

Kinds of incomplete ownership:

1st — The ownership of the property only. This is found in cases where the property is owned by one person and its benefit is owned by another. This kind of ownership is rarely found as it stands in striking contradiction with the purpose of ownership itself which is meant to draw benefit from the thing owned. Though this kind of ownership sound extraordinary, yet it is permitted to encourage people to do benevolent acts at the end of their lives, as this kind of ownership is not recognized except in two forms of a will:

1— When an owner wills the benefit of a property to a person either for live or for a fixed period, the ownership of the benefit goes to the legatee in case the legator dies and he (the legatee) accepts the ownership of the benefit, whether it is valid for life or for a fixed period. Should the heirs refuse, they must be forced to execute the will; and upon the expiration of the will or the death of the legatee, the heirs' ownership becomes complete.

2 — Should a person will his house or his land to one person, and its benefit to another, and should they accept the will, the ownership of each incomplete. The property itself should be handed to the

which changes its form and shape when carried, such as houses and trees: It is to be called property or movable? The Hanafite Creed considers it movable: whereas to The Maliki Creed deems that it is property. Hence, property according to The Hanafite Creed, is that which cannot be moved or carried, and this applies only to land in particular; and movables are those things which can be moved and carried, whether they retain their original form and shape, such as animals and metals, or change their form and shape through moving and carring, such as trees and buildings. Movables, according to The Maliki Creed, are those things that can be moved, provided they retain their original shape. Things other than these are listed as property, including trees and buildings.

This classification is demonstrated on applying the rulings concerning: preemption, the right of the guardian to dispose of the property of the child, the selling of the property of sequestrated persons in order to redeem debts, the right of the buyer to dispose of the thing bought before paying off its price: the rulings here vary according to division of the things owned into property and movables.

In the same way we define ownership as the relative relationship between the owner and the thing owned, through which the owner is exclusively entitled to dispose of the thing owned, except in case there is a legal hinderance, as case of inexpediency or any other legal hinderance pertaining to public or private interest, we also use the word ownership to describe the thing owned, as when we say: This house is may own, meaning that I own it. This definition was meant by the authors of the legal Journal when they define, ownership as being anything that a man owns, whether it is in property or benefits (article 124). Similar to this is the definition laid by the[1] Hanafi School when they hold that benefits and rights are ownership and not property. Thus ownership is more comprehensive than property.

Property that can be owned are under three categories:

1— Property that can never be owned such as things meant to be public utilities: roads, bridges, rivers,public gardens and museums. These things cannot be owned so long as they are public utilities. But in case they become otherwise, they can be owned.

2— Property that cannot be owned unless through legal permission, such as Wakf property and the property of Beit UL-Mal (the Treasury) which are legally called «free property.» The Wakf cannot be sold except in case if falls into ruin, or in case its maintenance costs exceed its returns. Government property cannot be sold except in case Beit UL-Mal is in need of its price, or when it is sold at a double price, or when the ruler,in his capacity as such, sees it fit to sell it.

3— Property, other than these, can be owned.

Kinds of Ownership

Exclusiveness of the right to own a thing in the sense of ownership may

(1) - School = Creed.

ance. Men of law have defined it in a similar way. Muhammad Kamel Morsi in his commentary on Civil Law, says: «Ownership is a right by which a thing is put under the will of a person, who is solely entitled to use, exploit and discharge, within the framework of law».

Things that can be owned are under three categories:

1— Property, namely, perceptible things which have material and volume.

2— Benefits which are derived from the property such as occupying a house, cultivating land, riding an animal and using a dress.

3— Rights, namely, any benefit set by the legislator, and to which a man is entitled. This may be related to property (such as the right to get water and to have free passage); and it may have nothing to do with property such as the right of custody. Jurists are of opinion that houses, land etc..., are considered as property so long as they can be owned and used beneficially. Again they hold that the benefits are considered as property so long as they are the fruits of the things owned, such as the fruits of trees and the plants of land which can be owned and used beneficially.

They also agree that the rights related to things other than property, such as the right of custody and the right of guardianship, cannot be considered as property. But jurists differ widely as regards benefits which cannot be owned.

Some jurists of the Hanafite Creed hold that these rights cannot be described as property, so long as they cannot be owned, as they are virtually non-existent, and in case they exist, they last for a short duration.

Other jurists contend that these benefits can be considered as property, so long as they can be owned through owning the original property, and because the property is owned for its benefits. This opinion is supported by the traditional proceedings applied in financial dealings.

This difference of opinion is clearly manifested in cases related to usurpation, inheritance and lease.

When a land is usurped and then given back to its owner after a year, for instance, its benefit, according to the first group of jurists, cannot be ava; luated dexcept in a limited number of cases such as being, a Wakf or owned by an orphan, or prepared for exploitation.

According to the second group of jurists, these benefits are absolutely guaranteed. Again, When a person rents a house for a fixed period and dies before the expiry date, the contract, according to the first group, expires upon his death, because the benefit is not a property that can be inherited. But thr second group holds that the legatees can replace their legator until the period of the lease expires.

All jurists agree that the things owned are of two kinds: property and movables. They alo agree that things that cannot be moved or carried from one place to another are called property, and things that can be moved and carried from one place to another, provided they retain their shape and form, are called movables. But they differ in opinion as regards the thing

benefits in Islam,» and I have chosen to begin my paper with a brief introductory note on the meaning of property: its kinds, origin, related rights. This shall be followed by showing how the legislator has been careful to demonstrate his respect for property, to safeguard it and to secure its privacy and freedom. I shall then proceed to quote the Prophet's traditions and recorded sayings which prove that both land and its benefits are owned by individuals. To complete the subject, I shall cite some texts set by the jurists of the four Islamic Schools, which treat of transactions in Islam, especially those which are concerned with land-owning by individuals and its benefits. I trust this may cover the subject of this paper. It is God whom I ask for guidance and help.

INTRODUCTION

God has entrusted the earth to Adam and his off-spring in order to settle therein, to improve it and to lead their lives securely: «It is He Who has made the earth subservient unto you, so traverse ye through its tracts and enjoy the sustenances which He furnishes». Man is gregarious by nature and constantly in need of other's help to attain his goals and to live his life. Alone, he has not enough means, knowledge or powers. Hence, human life is a communal one, and each individual has his share in building the community.

The inability of the individual to meet all his needs and satisfy his desires all by himself has made it imperative that different jobs be distributed among men. So, one is a farmer, another is a merchant, a third is a worker and so forth.

And, as human souls tend to be selfish and self-loving, and keen to appropriate the land and monopolise its benefits, and as they are driven by various lusts, instincts and leanings which urge them to attack and dominate others; and as living in a community causes a clash of interests and creats various conflicting rights, leanings and lusts, and as the resources are too limited to meet all men's needs, and satisfy all desires, a failure of which entails conflict, oppression and the domination of the strong over the weak, it was deemed necessary, in order to maintain peace and security, to define rights and duties, and to coerce extreme tendencies, and to lay down a set of laws and regulations by which one's lipe, rights and property are safeguarded.

And this gave rist to the five general principles which have been ordained by Heaven and set down by man. These principles which should be maintained and safeguarded are:

Preservation of life, of religion, of mind, of parentage and of property.

From the last principle, the theory of ownership emanates.

OWNERSHIP

Ownership in the Arabic tongue means man's owning of property with an exclusive right to keep or discharge. According to Muslim jurists, it is an exclusiveness that keeps others out and enables the owner to do whatever he likes with it, except for a legal hinder-

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fifty first year No : 3 Rabi-Ul-Awwal 1399 A.H. February 1979 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

OWNERSHIP OF LAND ITS BENEFITS IN ISLAM

By

His Eminence Shaikh Mohammad Ali AL-Sayis

Member of The Islamic Researches Academy

Praise be to God, the Cherisher and Sustainer of the Worlds whose shelter we seek to guard against our evil deeds and trespasses «such is the guidance of God: He guides therewith whom He pleases, but such as God leaves to stray, can have none to guide». Peace be upon His Apostle Mohammad, the Seal of Apostles and Prophets who was sent «with guidance and the Religion of Truth... Bearer of good tidings and as a warner...,» and as one who invites to God's (Grace) by His leave and as a lamp spreading light».

I have been asked to write on «Land-owning by individuals and its



مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

رئيس التحرير
والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

الجزء الرابع – السنة الحادية والخمسون – جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ (أبريل ١٩٧٩ م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الأكبر : يشرح سياسته فى أول لقاء صحفى

افتتح فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر دكتور محمد عبد الرحمن بيصار مهام منصبه بأن أدلى بحديث للصحافة وأجهزة الإعلام وضح فيه : بأن تعاليم الإسلام هى المنقذ مما يعانيه العالم المعاصر من مخمصة أخلاقية وفقر روحى وصراع فى العقائد والأفكار والمبادئ ، وأن المولى عز وجل وهو أعلم بمن خلق وماخلق أعلم بطبيعة فطرة خليقته ونزعاتها وملكاتها وماتقوم عليه من مقومات . . وكان من حكمته البالغة ومن علمه الشامل أن تأتى تعاليم الإسلام متناسبة مع هذه الفطرة لتسعدها لالتشقيها ، وتصلحها لاتفسدها ، وتكون مقياسا لحل مشكلاتها فى جميع جوانبها المختلفة . . وأن علماء المسلمين إذا ماأدركوا هذه الحقيقة وعمقوها فى نفوس شعوبهم وحكوماتهم بصدق وإخلاص كان ذلك – بلاشك – تحركا إيجابيا بناء لإصلاح مافسد من شئون المجتمعات الإسلامية .

أما عن دور الأزهر فقد قال فضيلته :

إن هذا الدور ينبغى ألا يقتصر على النمط التقليدى فى مجتمعاتنا المعاصرة وإنما يجب أن يتجاوز ذلك إلى فكر جديد يطرحه على الناس بأسلوب جديد فى الإطار المأمول الموثوق به لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالوعى الإسلامى المستنير . . وإليكم نص الحديث :

يبدأ الحديث مع فضيلة الإمام الأكبر ، حول واقع العالم الإسلامى الآن ومايجرى فيه من أحداث واتجاهات فكرية متصارعة . . يقول فضيلته :

إذا كانت رسالة الإسلام عندما جاء بها محمد ﷺ ، بمقاصدها العليا وغاياتها السامية ، أن تخرج الناس من ظلمة الجهالة وحيرة التمزق ، وأدران الشرك والانحراف العقدى . . لتضعهم على طريق الحق والعدل ، ولتجمعهم فى أخوة صادقة ورباط وثيق بين أبناء البشر جميعا على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ونحلهم . . فإن مايعانيه عالمنا المعاصر اليوم من « مخمصة » أخلاقية وفقر روحى وصراع عقدى . . بل مايعانيه أكثر من ذلك من بعض مظاهر الجاهلية الأولى . . ليفرض علينا جميعا ، معشر المسلمين ، أن نطلب المنقذ والمخرج فى تعاليم الإسلام ، التى جاء بها محمد ﷺ . .

وماقد يقال -بل قيل فعلا- من أن رسالة الإسلام بتعاليمها ونظمها إنما جاءت لمجتمع مضى عليه مايقرب من ألف وأربعمائة عام ، وأنها لاتتناسب مع حاجات مجتمعات القرن العشرين ، فإن ذلك القول ، إنما ينشأ عن قصر النظر وعدم إحاطة بأبعاد الرؤية ، بل وعدم فقه دقيق أونظر عميق فى المبادئ والأسس التى قام عليها الإسلام وقررتها شريعته . . ذلك أن تعاليم الإسلام لم تجاف الفطرة الإنسانية ، وإنما تلاحمت وتواءمت معها .

والمولى عز وجل وهو أعلم بمن خلق وماخلق ، أعلم بطبيعة هذه الفطرة ونزعاتها وملكاتها وماتقوم عليه من مقومات . . كان من حكمته البالغة ومن علمه الشامل أن يأتى بتلك التعاليم التى تتناسب مع هذه الفطرة ، فتسعدها ولاتشقيها وتصلحها ولاتفسدها وتكون مقياسا لحل مشكلاتها فى جميع جوانبها المختلفة . . إنه طريق الله القويم وصراطه المستقيم ، كما وجهنا سبحانه وتعالى : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر قائلا :

إذا ما أدرك علماء الإسلام هذه الحقيقة ، وهم قطعا على وعى بها ، وإذا

ما وقر ذلك فى نفوس شعوبهم وحكوماتهم بصدق وإخلاص . . كان ذلك لاشك دافعا لتحرك إيجابى بناء لإصلاح مافسد من شئون المجتمعات الإسلامية ، وتقويم مااعوج من أمورها ، وتصحيح ما زاغ من عقائدها وآرائها . فإذا ماتم ذلك على وجه سليم التأم الصدع بين المسلمين ، ونفوا مايثار بينهم من خلافات ، واجتمعوا على كلمة سواء ، ألايتوخوا فى أعمالهم إلاوجه الله وألايهدفوا فى تصرفاتهم إلاخير الإنسانية وخير شعوبهم وأوطانهم .

وعندئذ سيكون الوفاق بدل الخصام والشقاق ، وستكون الألفة والمحبة ، بحيث يتحقق المجتمع الإسلامى الكامل بمثله العليا ، وعلى الوجه الذى أراده الله لخلقه : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وماهو واجب علماء المسلمين فى هذا الصدد ، وكيف ؟

واجب علماء المسلمين فى كل بلد إسلامى وعلى أية بقعة من بقاع الأرض أن يتحركوا لأداء واجبهم فى النصح والتوجيه والإرشاد الموجه . . لاإلى فرد دون فرد ، ولاإلى جماعة دون أخرى ، ولاالمحكومين دون الحاكمين . . وإنما يقصد به الإصلاح العام الشامل الذى يضع المجتمع الإسلامى بصفة خاصة ، فى صورته المثلى ، وأهدافه السامية .

وعندئذ يتحقق الرباط القوى بين الفرد ومجتمعه ، وتتأكد الأواصر الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامى وأممه وحكوماته ، بل بين شعوب الإنسانية جمعاء .

ماهو إذن دور الأزهر فى إصلاح أحوال المسلمين ، كما تراه فضيلتكم ؟

إن الأزهر – كما أرى – ينبغى ألايقتصر على دوره التقليدى فى مجتمعاتنا المعاصرة وإنما يتجاوز ذلك إلى فكر جديد يطرحه على الناس بأسلوب جديد ، فى الإطار المأمول الموثوق به لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبالوعى الإسلامى المستنير ، الذى ينبغى أن يتصف به كل مسلم غيور على دينه ووطنه وأمته .

فإذا كان الأزهر بمؤسساته ، إنما يقع من حيث المكان على أرض مصر . . فإن رسالته عامة شاملة ، عالمية بين البشر جميعا وفى العالم الإسلامى بصفة خاصة ، لأن رسالته تتكيف بكيفية رسالة الإسلام من العالمية والشمول .

إن هذا يجعلنا نتحدث عن دور الأزهر فى الداخل ودوره فى الخارج أى ازدواجية الرسالة . . ! !

إن الانطلاق إلى العالم الإسلامى من قاعدة إيمانية قوية إنما يعطى عمل الأزهر فى خارج مصر دفعة قوية وإيجابية بناءة . وبهذا يكون الازدواج فى رسالة الأزهر بين الداخل والخارج .

والداخل بعون الله وبحمده تلتئم فيه القوى الإيمانية ويتحقق فيه التماسك والترابط بين أفراد المجتمع المصرى وبين شعبه وحكوماته كذلك . وتتخذ مصر فى واقعها المعاصر -كما اتخذت فى تاريخها الإسلامى الطويل- هذا الدور الطليعى الذى تعكسه أنشطة الأزهر المختلفة فى خارج مصر . . وهى . . وإن كانت أنشطة لاتزال بحق وبصدق تحتاج إلى مزيد من التوسع . . إلاأنها ذات فاعلية ، وأثر بناء فى مقاومة مايتناب المجتمعات الإسلامية من تيارات فكرية مناوئة ، أوعقائد زائفة ، أو انحرافات أخلاقية مدمرة تتنافى أولا مع مبادئ الإسلام وتتجافى ثانيا ، مع ماتنشده البشرية كلها من حياة الأمن والسلام والاستقرار والازدهار .

لذلك . . رجاؤنا أن تتغلب الشعوب الإسلامية على مشاكلها ، وأن يتغلب الأزهر كأكبر مؤسسة إسلامية عالمية على مايعترض رسالته من عقبات ، ومايقف فى طريقها من معوقات سواء كانت معوقات تأهيلية أومادية أوعلمية أوسياسية . .

وعندئذ نستطيع أن ننطلق إلى واجبنا نحو شعوب العالم الإسلامى بيقظة وحذق وحكمة ، حتى يتحقق للعالم الإسلامى مايصبو إليه من مجد ووئام وتقدم وازدهار يؤكد له السبق فى ميدان الحياة ، والرسوخ فى جانب العقيدة والأمن فى مسيره ومصيره .

وما رأى فضيلتكم فى الأحداث الدامية التى استمرت طويلا فى إيران . . الدولة الإسلامية ؟

إن كل مسلم يدفعه إيمانه وإسلامه إلى المتابعة والانتباه لما يجرى فى إيران من أحداث ، فشعب إيران شعب مسلم شقيق ، ويهم المسلمين جميعا صلاح أحواله وسلامة ماله ، وأن ينعم بحياة من الاستقرار والتقدم والرقى .

وإن كل مسلم كذلك ليحذر كل الحذر ويخشى كل الخشية من أن تستقطب أحداث إيران لاتجاه ضار دخيل ، لايتفق مع الإسلام فى مبادئه ولايلتقى معه فى قيمه . . وإنما يحاول أن يستقطب الحركات الإسلامية ليحقق أغراضا مضمرة أوأهدافا مستوردة . .

وكل مانرجوه كمسلمين مخلصين لأشقائنا فى إيران أن يحذروا أن تقفز إلى

الموقف مثل هذه الاتجاهات فيتكس الغرض وتضيع الأهداف . .

لقد كان تقييم منصب مشيخة الأزهر على مستوى رفيع مما أثلج صدور المسلمين ، وكان له انعكاسات طيبة بين جماهيرهم فى داخل مصر وخارجها . . ماذا تقولون ؟

ويجيب فضيلة الإمام الأكبر :

مما لاشك فيه أن مشيخة الأزهر ، أومشيخة الإسلام – كما يصر الكثيرون على تلقيبها – هى القيادة الروحية للمسلمين على مستوى العالم ، تتحمل المسئوليات أمام الله وأمام الناس فى التوجيه الروحى ، وتنشيط الدعوة الإسلامية وتقوية الروابط بين شعوب العالم الإسلامى وحكوماته . . ولذلك كانت الصلة بينها وبين العالم الإسلامى وثيقة ، وكانت الحساسية فى أوضاعها الأدبية يتأثر بها كل مسلم على وجه الأرض .

ولعل أوضاعها السابقة وتقديرها الأدبى فى عصور سالفة كان على مستوى لائق وبصورة يسر لها جميع المسلمين . . إلا أن هذا الوضع قد شابته أشياء ، تشبه فى حياة الفرد خفقان القلب أواضطراب الدورة الدموية . . مما كان له أثر سيئ كذلك فى نفوس المسلمين ، إلى حد أن البعض منهم ظن أن المنصب قد انزوى وأن مركزه الأدبى قد لحقه شىء من الهزات الأدبية التى تحدث بدورها ذبذبات فى القيادة الروحية ولكن ماحدث أخيرا من اتجاه تمثله القاعدة العريضة فى مصر فى شخص أعضاء مجلس الشعب المصرى والتقت مع رغبة السيد رئيس الجمهورية وحكومته من دعم أدبى وغاية فائقة بالارتفاع بمركز مشيخة الأزهر – كما يمثله القانون الذى صدر أخيرا – إنما يدخل ضمن دائرة التصحيح للأوضاع فى مصر وفى العالم الإسلامى وإعطاء كل ذى حق حقه .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر : أن هذا أيضا يعطى المؤشر القوى والبرهان الأكيد على إدراك شعب مصر وحكومته لضرورة الارتفاع بمستوى هذا المنصب استجابة لوازع الإيمان فى قلوبهم ولمشاعر المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وليس ذلك بغريب على مجتمع مصر الذى قامت أسسه على دعامتين أساسيتين هما العلم والإيمان وأن ذلك يحق بجانب ماهو تقدير أدبى قبل أن يكون تقديرا ماديا ليحدد لنا وللناس كافة حجم المسئولية الكبرى التى تضطلع بها مشيخة الأزهر ، تلك المسئولية التى لايشك أحد فى أن عبئها قد ازداد ورقعتها قد اتسعت وكذلك أنشطتها يجب

أن تشتد وتقوى لتلاحق ركب الإصلاح ولتواجه عوامل الزمن والأحداث بأسلوب سديد وفكر رشيد وعرض جديد وماذلك على الله ببعيد .

وماهى ملامح تلك المسئولية المتزايدة التى تنتظرها جماهير المسلمين فى مصر وفى عالم الإسلام ؟

ويقول الإمام الأكبر : ملامح هذه المسئولية الكبرى باختصار شديد يحددها :

أولا : مايجرى فى العالم الإسلامى من أحداث ، فما يجرى فى العالم الإسلامى من أحداث يقتضى التحرك ويقتضى الدعوة إلى اجتماع علماء المسلمين وقادتهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى لايبحثوا فقط نظرية فقهية أوحكما شرعيا وإنما ليواجهوا المشكلات فى الروابط والصلات بين حكومات العالم الإسلامى وشعوبه تذكيرا لهم بواجبهم فى ممارسة مبادئ الإسلام وقواعده التى رسمها الله فى علاقة المسلم بأخيه المسلم .

ثانيا : ماوصلت إليه المعارف الإسلامية من تشويه لمعالمها وماشابها من تحريف ، والواقع أن هذه الظاهرة من شأنها أن تبلبل أفكار المسلمين وتخلط عليهم الحق بالباطل وتدخل عليهم من الشبهات الزائفة والمغالطات المكشوفة مايدخل على بعض ضعاف العقول منهم ، لذلك كان من أول مايعنى به من عناصر هذه المسئولية هو كشف هذه الشبهات وبيان أبعادها وأهدافها ليحذرها المسلمون ويقوا أنفسهم شرها ومما يساعد على ذلك تنقية الفكر الإسلامى من البدع التى تسود فى بعض المجتمعات ويتخذها أعداء الإسلام حجة على طعنهم فيه وتشويه مبادئه .

وهل من ملامح تلك المسئولية أيضا معالجة مايعانيه المسلمون من تمزق عضوى ينشأ عن الخلافات المذهبية ؟

بالطبع إن المعاناة من المخالفات المذهبية فى إطار البيئة الإسلامية مما يتخذه خصوم الإسلام إصبعا لهم يتلاعبون به بين العلاقات ، ويعتمدون عليه فى إثارة الفتن وتمزيق الروابط ، ووضع الحواجز النفسية والوجدانية والعقدية بين المسلم وأخيه المسلم ، ولذلك فإن من أهم واجبات المسلمين بصفة عامة ، والأزهر بصفة خاصة ، أن يجمعوا كلمة المسلمين على مااشترك بينهم من عقائد صحيحة ، وأن يتبادلوا وجهات النظر فيا هو خارج عن العقيدة من ممارسات أوتشريعات قد يختلف فيها البعض عن البعض الآخر . فربما يكون التفاهم حول وجهات النظر المختلفة مؤديا إلى التقارب وجمع الكلمة .

وماذا عما يمارس من بعض الأفراد المسلمين أوالطوائف أحيانا من مزايدات أوتشنجات أوتصورات مغالى فيها ؟

واجب علماء المسلمين الذين اختصهم الله بسعة فى الفهم ، وإصابة فى الرأى وإحاطة بأصول الاجتهاد وأبعاد الشريعة وروح الإسلام ، أن يعملوا على إزالة هذه المبالغات وذلك الانحراف فى الفهم .. درءا لعوامل الفتن بين المسلمين والخلاف بين أبناء الدين الواحد .

وماهى خطة الأزهر الجديدة لعلاج مايمارس فى المجتمع الإسلامى من الفكر الدخيل ، ومقاومة التيارات الوافدة والأيديولوجيات المتناقضة مع الإسلام ؟

واجب الأزهر والمسلمين — أفرادا وجماعات وشعوبا وحكومات — أن يعملوا جادين على درء هذه الأخطار . ولايستطيعون ذلك إلا إذا فطنوا إلى أساليب الغزاة بهذا الفكر ومناهجه التى تقوم على التظاهر باعتناق مبادئه ، واستقطاب بعض جماعاته ، ويناودون ببعض شعاراته حتى إذا أمنهم المسلمون واغتروا بهم ، فوثقوا فيهم .. هنا يظهرون بوجههم الحقيق ، ويتنمرون لكل ماهو إسلامى .. لأن مبادئهم التى يضمنونها هذا الفكر الدخيل ، تتنافى كل المنافاة ، مع المبادئ الأصيلة للدين الإسلامى والقيم الرفيعة لآدابه وأخلاقه وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما يستوى الأعمى والبصير ولاالظلمات ولاالنور ، ولاالظل ولاالحرور ومايستوى الأحياء ولاالأموات) .

لابد إذن للأزهر فى تطلعه الجديد .. من إطار مع الشباب والنشء المسلم .. ماهو فى رأى فضيلتكم ؟

بالنسبة للشباب والنشء لابد من التوعية بالحقائق والقيم الإسلامية سعيا وراء فكر إسلامى مستنير واضح ، لاتعقيد فيه ولاجمود .. وذلك يقتضى عرضا لبقاء يتلاءم مع متطلبات حاجات الشباب الذى يعانى من بلبلات فكرية تدخل عليه الحيرة والتردد ، وتزج به فى متاهات من الشك وعدم اليقين .

إن ماذكرته فضيلتكم يتطلب الكثير من التحرك والجهد والتخطيط الدقيق فما هو محك النجاح فى هذه الرسالة ؟

الحقيقة أنه للنجاح فى كل هذه الجوانب سيعنى الأزهر — إن شاء الله — بدعم دعاته وعلمائه وطلابه بالأسس العلمية التى تساعد على ذلك وبمعارف العصر التى تزود الداعية بقوة من الإقناع ووضوح الحجة والإلزام للمفكرين .

كما أن الأزهر سيعنى بتأهيل العلماء والدعاة بمختلف اللغات الأجنبية السائدة فى المجتمعات الإسلامية على رقعة العالم ومن أهمها اللغات الأوربية التى تتحدث بها شعوب كثيرة من شعوب العالم ، وكذلك اللغات الأفريقية والأسيوية بحيث ترفع الحواجز وتزول العوائق التى تعوق رسالة الأزهر فى أنحاء العالم وتجعل من الممكن تخاطب الأزهر مع المسلمين حيثما كان موقعهم وموطنهم .

ويضيف فضيلة الإمام الأكبر فى نهاية حديثه الهام :

إن التزود باللغات لايساعد على مجرد التحدث مع المسلمين أوالتخاطب معهم وإنما يساعد أيضا على تكوين أجهزة فى الأزهر تكون ذات صلة قوية بما ينشر فى العالم الإسلامى حول الإسلام لترجمته والرد عليه . فتكون أجهزة ذات أخذ وعطاء تستفيد من ثقافات المجتمعات الأخرى وتفيد بنشر ثقافة الأزهر فى الخارج ، وعندئذ يقوى التجاوب ويتم التفاعل بين الأزهر والبيئات العلمية والدينية فى العالم الإسلامى .

الراعى والرعية

قال رسول الله ﷺ :

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته . والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته .

فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» .

رواه البخارى – واللفظ له – ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما .



صاحب الفضيلة الإمام الأكبر
دكتور محمد عبد الرحمن بيصار
شيخ الأزهر

ولد – حفظه الله – فى يوم الخميس، ليلة اكتمال البدر فى الخامس عشر من شهر شوال عام ١٣٢٨ الهجرى، الموافق ٢٠ من اكتوبر عام ١٩١٠ الميلادى..

وقد أتم فضيلته حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، ومن ثم التحق بالمعاهد الأزهرية حتى حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية.. ثم حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين بتفوق.. وأتاح له تفوقه الالتحاق بقسم تخصص المادة (الدراسات العليا للدكتوراه).. فحصل على شهادة العالمية من درجة أستاذ بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤٥ الميلادى.. وعين أستاذا بكلية أصول الدين فى نفس عام تخرجه.. وبعثه الأزهر ليتخصص فى تاريخ الفلسفة بجامعة أدنبرة (إسكتلندة) بالمملكة المتحدة فحصل على شهادة الدكتوراه من هذه الجامعة البريطانية عام ١٩٤٩ م.. ثم وافقت جميع حكومات الدول الإسلامية ليشغل منصب مدير المركز الإسلامى بلندن.. ثم تم هذا الاختيار الإسلامى الدولى ليكون مديرا للمركز الإسلامى بواشنطن.. وفى هذه الفترة اهتم فضيلته بنشر الدعوة الإسلامية على المستوى العالمى.. وغزا الأوساط العلمية فى عواصم الدول الغربية بالترويج للأفكار والمبادئ الإسلامية، كما اهتم بالتوفيق والتقريب بين الخلافات المذهبية والطائفية والسياسية فى العالم الإسلامى، ثم عاد إلى مصر ليشغل منصب الأمين العام للمجلس الأعلى للأزهر.. ثم اختير أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية.. ثم وكيلا للأزهر فوزيرا للأوقاف وشئون الأزهر.. ثم وقع عليه اختيار رئيس الجمهورية فعينه شيخا للأزهر وإماما أكبر للمسلمين.

ياخير أمة أخرجت للناس أين أنتم ؟

على هامش حاضر المسلمين وماضيهم

فضيلة الشيخ / مصطفى محمد الطير

كنتِ ياخير أمة أُخرجت للناس كوكباً دريا يهدى الحيارى إلى سواء السبيل ، وملاذاً منيعا يحتمى به اللائذون ، ومأمنا مرهوبا يأوى إليه الخائفون ، وعملاقا جبارا يرتعد منه الذئاب والمتنمرون فماذا جرى حتى أصبحت ذكرى ولم تعودى تلك الحقيقة الكبرى .

قال لى قائل : أفلست تراهم يملؤون نواحى الغبراء ويُعَدُّون بمئات الملايين ، فكيف لاتراهم وهم يكثرون ولايقلون ، وينتشرون ولاينكمشون .

قلت له ياصاحبى : هؤلاء الذين تتحدث عنهم أسماء بلامسميات ، وأثر بعد عين ، وغثاء فوق منحدر الوادى ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، يقولون مالايفعلون تتناوشهم الذئاب ، ولايتألم منهم أخ لِمُلمَّة بأخيه ، وتتنابهم الأحداث وهم عن اتقائها غافلون ، أليس هؤلاء هم الذين قال فيهم الرسول المعصوم محمد ﷺ « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكَلَةُ إلى قصعتها ، قيل يارسول الله : فَمِنْ قلة نحن يومئذ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل ، يُجْعَلُ الوهْن فى قلوبكم ، ويُنْزَعُ الرعبُ من قلوب عدوكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » أخرجه أحمد وأبو داود عن ثوبان .

أليس هذا الحديث يمثل حاضر المسلمين اليوم ، فهل تعتقد ياصاحبى أن المسلمين وهم على ماهم عليه الآن ، هم الذين عناهم الكبير المتعال بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) أترى أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله حق الإيمان ، أليس منهم حلفاء الشيوعية ، وأصدقاء الماركسية ، فوالله لوكانوا على نحو من الإيمان متين ، ومن العمل بالكتاب والسنة مستقيم ، لنصرهم الله كما نصر أسلافهم ، ولأعزّهم كما أعز من قبلهم (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

المسلمون بعد وفاة الرسول :

انتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقد أرسى قواعد التوحيد فى الجزيرة العربية ، وجمع الناس فيها على دين واحد ودولة واحدة ، يسود العدل قويهم وضعيفهم ، ويتجلى المجتمع الفاضل بين طبقاتهم ، أمرهم مجتمع وكلمتهم واحدة ، لاطمع بفرق بينهم ، ولاحفيظة تشق صفوفهم ، رهبان بالليل فرسان بالنهار ، إن طمع فيهم طامع نفروا سراعاً لتأديبه وردعه ، وإن سالمهم مسالم كانوا إلى السلام أسرع منه ، وإن انشق عنهم منافق أو واهن الإيمان قاتلوه وأدّبوه .

فهذا أبو بكر رضى الله عنه لمّا ولى الخلافة بعد الرسول ﷺ ومَنَعَ الزكاة ضعافُ الإيمان ومُحْدَثوه ، وارتد ناشئوه ومتأخروه ، شمّر عن ساعد الجد ، وآزره المجاهدون والأنصار وقدامى المؤمنين من القبائل ، وكان منهاجه الذى سلكه أن يقاتل مانعى الزكاة ، لأنها أحد أركان الإسلام ، فلو تساهل فيها معهم ، لتطرّق الخلل إلى سائر الأركان ، ولتداعت قواعد الإسلام ، لهذا قال فيهم مقالته الشهيرة « والله لومنعونى عَنَاقاً[1] كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » وكما قاتلهم قاتل مدعى النبوة والمرتدين ، حتى انتهى أمرهم وخلص الدين لله رب العالمين ، وبالجملة فنى خلافته القصيرة الأمد ، قضى على جميع الفتن التى حدثت عقب الفجيعة الكبرى بوفاة رسول الله ﷺ ، واستتب الأمر للإسلام فى الجزيرة العربية واستشهد فى حروبه كثيرون من القراء وكرام الرجال فى معركة اليمامة وغيرها ، وكانت الشهادة عندهم أحلى من نعيم الحياة ، ثم قام عمر ابن الخطاب بالأمر بعده ، فنظم الدولة الإسلامية واختار لها ولاة من عظماء الرجال الذين لاتأخذهم فى الله لومة لائم ، وفتح مصر والشام وبلاد الفرس ، وعلا صوت المؤذن هنا وهناك . الله أكبر الله أكبر لاإله إلا الله ، وغزا بلاد الروم وقضى على شوكتهم فى آسيا وأكمل مابدأه أبوبكر من الجد فى نشر الدعوة الإسلامية ، وإليكم أيها القراء الكرام مثلا لجهاد المسلمين فى عهده ، لعل فى ذكره عبرة للمعتبرين وموقظا لأهل الكهف الراقدين .

عبورهم دجلة لإسقاط عاصمة الفرس

كان سعد بن أبى وقاص قائداً لقوات المسلمين فى العراق فى عهد عمر ، وقد انتهت فتوحاته يوما عند دجلة قبالة المدائن

---

(١) العناق الأنثى من أولاد المعز .

عاصمة كسرى ملك الفرس ، وفيها إيوانه ، ولما رأى نهر دجلة يحول بين جيوشه وبينها خاطب جنوده قائلا : قد عزمت على قطع هذا البحر إلى العدو ، فماذا ترون ؟ فقالوا عزّم الله لنا ولك على الرشد فافعل ، فندب الناس للعبور ، واختار منهم ستمائة من أهل النجدات ، وجعل عليهم عاصم ابن عدي ذا البأس الشديد ، فاختار عاصم منهم ستين فارسا وجعلهم على خيل ذكور وإناث ، ليكون أسْلَسَ لسباحة الخيل ، ثم اقتحم بهم دجلة ليحمى المسلمين الذين يعبرون بعده ، فلما رآهم الفرس أخرجوا لهم مثلهم ، فخاضوا دجلة وكانت مليئة بالماء ، فلقيهم عاصم وصحبه وقد قربوا من الشاطئ ، فقتلوا وأغرقوا أكثرهم ، وفرّ من سلم منهم مشوها ، وتلاحق بعدهم باقى الستمائة ، ولما رأى سعدٌ عاصما ورجاله على الشاطئ يحميه ويذود عن المسلمين ، أذن للجنود أن يقتحموا وقال : قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه . حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرنَّ الله وَليَّه ، وليظهرن دينه ، وليهزمَنَّ عدوه ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم وتلاحق الناس فى دجلة . وإنهم ليتحدثون كما يتحدثون فى البر ، وطبّقوا دجلة حتى مايُرى من الشاطئ شىء لكثرتهم ، وكان يسايرُ سَعْداً فى الماء سلمان الفارسى ، فعامت بهم خيولهم وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمَنَّ عَدُوّه إن لم يكن فى الجيش بَغْىٌ أوذنوب تغلب الحسنات ، فقال سلمان : الإسلام جديد ، ذُلِّلَتْ والله لهم البحور كما ذُلِّلَ لهم البر . أمَا والذى نفسُ سلمان بيده ، ليخرُجُنَّ منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا . فخرجوا منه كما قال سلمان . لم يفقدوا شيئا ، ولم يغرق منهم أحد ، ثم حملوا على المدائن ففتحوها وقال فى ذلك أبو بُجَيْدٍ نافع بن الأسود :

وأَمَلْنا على المدائن خيلا
بَحرُها مِثْلُ بَرِّهِنَّ أريضا[1]

فانتثلنا خزائن المرء كسرى
يوم ولّوا وخَاضَ منها جريضا[2]

ولما دخل سعد الإيوان قرأ قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع) إلى قوله (وأورثناها قوما آخرين) من سورة الدخان ، وصلى فيه صلاة الفتح ثمانى ركعات لايفصل بينهن . ومن بعد أبى بكر وعمر فتح الخلفاء الممالك ، ووسعوا رقعة الأرض الإسلامية ، ونشروا فيها كلمة التوحيد ونور العلم والأخلاق ، وحكموا

---

(١) كثير الخير .
(٢) أى مغموما .

الناس بشريعة الله العادلة ، فهابَهُمُ القريب والبعيد ، والقوى والضعيف .

وكان الناس من وراء دولة التوحيد والعلم والأخلاق مابين قبائل همجية ودول بدائية فاقتبسوا مع الزمان من نورهم ، واغترفوا عبر الأجيال من ينابيع معارفهم .

تبدُّل الحال بعد السلف الصالح

ثم تبدلت الأمور وحال الحال فبعد أن كانوا أمة واحدة أمرها مجتمع ، أصبحوا أمما كثيرة أمرهم متفرق ، وصدق فيهم قول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

إنك تجد الآن خير أمة أخرجت للناس عشرات الأمم ، وقد فرقت بينها الأهواء ، ومزقتها العداوة والأغراض إن رضيت دولة منهم أمراً سخطته أخرى ، يرون مصالحهم متعارضة ، ويعلم الله أنها لم تكن من قبل متناقضة ، إنك ترى بأسهم بينهم ، وكان الأجدر أن يكون بين عدوهم ، تولّى بعضهم أعداء الإسلام وحالفوهم ، ليكيدوا لإخوانهم فخانوهم ، ولسوف يبيعونهم من بعد لأعدائهم ، كما فعلوا بغيرهم .

يا أبناء إسماعيل

إن الهدف الأساسى من مقالى هذا أن تجتمع كلمتكم يا أبناء إسماعيل ضد أعدائكم ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، والطريق إلى ذلك منهج أساسه الحب والتعاون ، والسياسة الموحدة ، والنظام العسكرى الموحد ، والقيادة المشتركة ، وبذل المال بسخاء فى تقوية الجيوش ، واجتماع الكلمة فى المجامع الدولية ، وصفاء النفوس بحيث يكون الباطن والظاهر سواء ، بهذا وأمثاله لايجد الأقوياء سبيلا لتمزيقكم وتفريق كلمتكم وتوهين قواكم .

أىُّ مانع من أن تكون فيكم ممالك وجمهوريات متعاطفة ، يحنو بعضها على بعض ، ويَسْعَدُ بعضُها لرخاء بعض ، أى مانع من أن تعين كل دولة أختها على النهوض من كبوتها ، كونوا أيها الأمجاد كيف شئتم من ألوان الحكم التى ترضونها لأنفسكم ولبلادكم ، ولتكن لكم فيما وراء ذلك سياسة إسلامية موحدة ، يسود بينكم التشريع الإسلامى ، وتربط بينكم عقيدة التوحيد ، ومبادئ القرآن والسنة المطهرة ، كونوا كالجسد الواحد ، إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ،

وتلك هى أضعف أواصر الوحدة ، حتى يسر الله لها أسباب الكمال ، وتتداعى إليها القلوب ، وإن دُعيتُم إلى خطة سلام فلاترفضوها ، ولاتنكروا لمن يدعوكم إليها ، فالحرب ليست غاية وإنما هى وسيلة إلى السلام ، وقد دعاكم الله إلى مثل هذا بقوله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) وقد كان النبى ﷺ قدوة لنا فى صلح الحديبية الذى كان خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين ، وقد جرّبه الملك صلاح الدين بعد انتصاره على الصليبيين وإخراجهم من معظم البلاد ، حيث أبقاهم فى المنطقة التى تعرف الآن بلبنان ، وأبقى معهم من شاء من المسلمين .

التجمع العربى ثم الإسلامى

إن التجمع العربى ثم الإسلامى هو السبيل إلى هيبتكم فى هذا المجتمع الدولى الغافل عن مآسى المستضعفين ، وبغير وحدتكم أوترابطكم القوى — على الأقل — لن تصلوا إلى اطمئنان على مستقبلكم فى مجتمع دولى ظالم ركب هواه ، ورجّح مصالحه على مصالح سواه ، إنكم لاتجدون فيه مظلوما أُنصِف ، ولامعتديا عوقب ، إن الأمم المتحدة هيكل بغير روح ، ومعبد بغير صلاة ، وقبلة بغير قداسة ، وميزان بغير عدالة ، وبغير القوة لايصل أحد إلى حق ، ولاقوة بغير تجمع ، ولاعزة لمن سلك سبيل التنازع (ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) .

عبرة الأندلس

هذه الأندلس الأموية العظيمة ، نشرت العلم والعرفان فى غرب أوروبا وكانوا يومئذ فى جهالة القرون الوسطى ، هذه الأندلس التى خرّجت أكابر العلماء فى كل فن من فنون العلم ، وزخرت مكتباتها بنفائس المؤلفات ، وشع من أفقها نور العلم على الخافقين ، لمّا نخر فى جسمها سوس التفرق ، وأصبحت دويلات يحكم كل دولة منها ملك ، شُغِلَ ملوكُها بأبهَة الملك الكاذبة ، وعكفوا على اللذات والشهوات ، فضعفت قواهم ، وذهب ريحهم ، وكاد بعضهم لبعض ، واستعانوا على هذا الكيد بجيرانهم الطامعين فيهم من غير دينهم ، فأعانوا بعضهم على بعض — واحدة بعد أخرى — ثم ابتلعوهم دويلة بعد دويلة ، حتى إذا لم يبق منهم سوى بنى الأحمر فى إقليم غرناطة ، كانت الحرب بينهم وبين هذه الدولة المجاورة الطامعة متتابعة ، وكانت دُولَةً بينهم وبين خصومهم ، فيوماً لهم ويوما عليهم ، وكان

بنو الأحمر حين يُهزَمُون يغلقون دُورَهم ليعودوا إليها فى اليوم التالى حيث ينصرون ، فلما جاءت الطامة الكبرى أغلقوا دورهم ثم لم يعودوا إليها ، فقد هُزِمُوا ومزَّقهم أعداؤهم شر ممزق ، كما مزقوا سواهم ممن سبقهم ، وشردوهم فى الآفاق كما شردوا من قبلهم ، وَتَنصَّروا من بقى منهم ، واستولوا على مساجدهم العظيمة وعلى قصورهم الجميلة الفخمة ، ورياشهم الفاخرة التى لم تر الدنيا مثلها ، وقضوا على نفائس العلم فى مكتباتهم ، ولاحول ولاقوة إلابالله .

ولما انتهت المعركة مع بنى الأحمر إلى الهزيمة الحاسمة ، صعد ملكهم فوق ذروة جبل هناك ، وجعل يبكى ملكه المضاع ، فقالت له أمُّهُ العظيمة :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

يقول المرحوم العلاَّمة المؤرخ أحمد زكى (باشا) إنه لما زار إسبانيا رأى عيداً لهم يسمونه عيد الفطير ، وعلم منهم أن بنى الأحمر يوم أن هُزِموا تركوا فطيرا صنعوه فى عيد شعبى لهم صادف هذا اليوم الحزين ، فوجده الغزاة المتنصرون ، فأكلوه وجعلوا هذا اليوم عيداً شعبيا يأكلون فيه الفطير على نحو ماكان عليه أهل الأندلس .

أترون أيها المسلمون ، لو بقى الأندلس على وحدته ، أكانت تحدث له هذه الكارثة الرهيبة ، كلاَّ ماكان يمكن أن يحدث له هذا الخطب الجلل بل كان يظل منارة هادية للعالمين .

أنصروا الله ينصركم

أيها المسلمون وأيم الله لو نصرتم الله لنصركم كما نصر أسلافكم (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ونصرُكم لله يكون بنصر دينه كما قال تعالى (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فالذين ينصرهم الله هم الذين إن مكنهم فى الأرض أقاموا الصلاة ولم يضيعوها ، وآتوا الزكاة ولم يبخلوا بها فأمروا بما عرفوه مطلوبا فى دينهم ، ونهوا عما أنكره كتابهم وسنة نبيهم ، وإذا أمروا بمعروف كانوا أسبق إلى فعله ، وإذا نهوا عن منكر كانوا أسبق إلى تركه ، فإن فعلتم ذلك نصركم الله على أعدائكم ، وإلا فلاتلوموا غير أنفسكم

الشباب المسلم بحاجة إلى تبشير

ألا وإن المسلمين بحاجة إلى التبشير فى

بلادهم ، وبخاصة شبابهم ، إنهم ولّوا ظهورهم للدين ، ونبذوا القيم الإسلامية الرفيعة ، وتخلقوا بأخلاق ينكرها العرف والتقاليد الإسلامية إنك اليوم لاتعرف الفتى من الفتاة ، وربما كانت الفتاة إلى الفتيان أقرب شبها فى زيها ، إنك لاتدرى سر هذه الميوعة فى نفوسهم ، أهو التخنث ، أم هو التقرب إلى نفوس الفتيات بالمظهر المتقارب ، إن الفتيات لايحببن إلا الأقوياء فى مظهرهم ومخبرهم وجدهم ورجولتهم .

إن كتب الجنس الفاضح تتسرب إليهم بسهولة فتغزو غرائزهم وتحطم معانى الجد والشهامة والنخوة فيهم ، وتصرفهم إلى هدم أخلاقهم ودينهم ، وتُدمّر الأمل المعقود عليهم فى أممهم .

إن التمثيليات الماجنة والأفلام المنحرفة تمزق أخلاق الأسر ، وتبنى جيل الصغار على استباحة القبلات الحارة ، والعناق الطويل ، والحب الفاجر .

إن الشباب يتعرض لغزوات الإلحاد من كتب الملحدين ونشراتهم ، فهم يجدونها بيسر وسهولة ، ويستسلمون لما فيها من التحلل من كل رباط بالثواب والعقاب والجنة والنار ، وهيمنة الحى القيوم على المُلْك والملكوت وإن من المجتمع الإسلامى من يفاجأ ببعض أولاده أو إخوته منحرفين ملحدين .

إن ترك الشباب لهذه العوامل بدافع حرية الرأى ، أخطر على الأمم من الغزاة الأجانب ، إنهم سيكونون يوماً ما من أكبر عوامل الهدم فى الأمم الإسلامية .

فلماذا يُترك الأمر لهؤلاء وأولئك دون رقيب أوحسيب ، ودون قانون رادع وعقاب زاجر ، اعصموا الشباب بمنع كتب الجنس من التداول ، وكتب الإلحاد من الانتشار ، والأفلام الصارخة من العرض ، والتمثيليات الماجنة أوالمتلصصة الحافزة على الجريمة من الإذاعة ، وسنوا القوانين الملزمة بالاستقامة والحفاظ على الأخلاق والعقائد ونفذوها بحزم ، أدركوا المخاوف قبل أن تستفحل ويصعب درؤها ولاشك أن الوقاية أهم من العلاج وأيسر منه .

إن كثيرا من الشباب لايغشى المساجد ولاأندية الوعظ والإرشاد حتى يُحَفَّظوا بالهداية من الغواية ، فلابد من عقد الندوات لهم فى أنديتهم وفى جامعاتهم ومدارسهم ، وأن يكون حضورها ضروريا كحضور المحاضرات ، وأن يكون الدين مادة تدرس فى كل شعب الجامعات والمعاهد العليا .

كلمة إلى الأبناء والآباء

يأبناء الوطن الإسلامى ، أنتم أمل أممكم فى عزة أوطانكم ومجد بلادكم فانهضوا بدينكم ، واعرفوا حقوق أوطانكم ، وتخلقوا بالخلق النظيف فيا بينكم ، ودعوا استيراد العادات البغيضة من غير بلادكم ، وادرسوا دينكم لتعرفوا مافيه من محاسن ومحامد ، وتتخلقوا بما فيه من أخلاق زكية ، وآداب رفيعة ، واحتشموا فى ثيابكم فإن الحشمة لاتمنع جمال المظهر .

وأنتم أيها الآباء مسئولون بالدرجة الأولى عن أبنائكم وبناتكم ، فإن صلحوا صلح أمرهم وأمركم ، وإن فسدوا كانوا شراً عليكم وعلى أنفسهم وأمتهم ، فنشئوهم على الخلق الفاضل والأدب الكريم ، والاستمساك بالفضيلة ، وأداء الصلاة فى أوقاتها ، وصحبة الأخيار وتجنب الأشرار ، وكونوا قدوة لذويكم ، فلاتأمروا بالمعروف وأنتم تاركوه ، ولاتنهوا عن المنكر وأنتم فاعلوه ، لاتتركوا فرائض الله ولاتغشوا حرماته ، وكونوا قوماً حبيبح بهم فانتبهوا وأرشدوا فاسترشدوا ، واعلموا أن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى ، وما بين أحدكم وبين الجنة أوالنار إلاالموت أن ينزل به ، ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ومن لم يعملوا بكتاب الله وسنة نبيهم ﷺ ، ضربهم الله بالذل وسلط عليهم عدوهم ، ألاهل بلغت اللهم فاشهد .

مصطفى محمد الحديدى الطير

شيء من أخلاقه ﷺ

كان ﷺ أشد الناس تواضعاً ، وأبعدهم عن كبر يعود المساكين ويجالس الفقراء ، ويتفقد أحوالهم ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم وحيثما انتهى به المجلس جلس . خرج يوماً على أصحابه فقاموا فقال :

لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» .



نبذة تاريخية عن فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدى الطير
وأعماله ونتاجه العلمى

١ – ولد بمدينة المنزلة دقهلية بتاريخ ١٩٠١/٩/٧

٢ – حصل على شهادة العالمية وفقا لقانون رقم ١٠ وحسب النظام الذى وضعه العلامة الكبير الشيخ محمد شاكر والد المحقق ورجل السنة الشيخ أحمد شاكر ، وقد تخرج على هذا النظام كبار علماء الأزهر ورواد النهضة العلمية الأزهرية فى القرن العشرين ، فقد بدأ العمل به سنة ١٩٠٨ م .

٣ – حصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٢٩ بسبب حصوله على أعلى الدرجات وكونه أول دفعته فى الشهادة العالمية كما هو مسجل بالوقائع المصرية (الجريدة الرسمية للدولة) .

٤ – حصل على شهادة التخصص القديم فى التفسير والحديث وعلومها ، وفى التربية وعلم النفس سنة ١٩٣٢ .

٥ – تدرج فى الوظائف الأزهرية ، فكان مدرسا بالمعاهد الأزهرية فشيخا لمعهد دمياط الأزهرى بقسميه ثم أستاذاً للتفسير فى كلية أصول الدين والدراسات العليا ، وقد تخرج على يديه أجيال من العلماء بمصر والعالم الإسلامى ، وكثير منهم يتولون مراكز قيادية هنا وهنالك .

٦ – له نشاط اجتماعى ودينى ، وقد استطاع بتوفيق الله أن يغلق مدرسة تبشيرية بروتستانتية ببلده المنزلة ، وكانت تديرها مس اسطانس ، وكادت تنجح فى تنصير بعض الفتيات ، فدعا الناس إلى مقاطعتها وبيّن أخطارها وطلب إليهم إخراج بناتهم من مدرستها فاستجابوا ، وحصل على وثائق تدينها وبعث بها إلى فضيلة شيخ الأزهر ، وبين المضار المترتبة على التسامح مع المبشرين ، فجمع شيخ الأزهر هيئة كبار العلماء ، فقررت جمع تبرعات من الناس لتنشيط التوعية ضد المبشرين ، فأقبل الناس على التبرع حتى وصل ماجمع

إلى سبعمائة وخمسين ألف جنيها ، ولكن دار المندوب السامى وقتئذ وقفت ضد المشروع ، وتحول المال إلى خزينة الدولة غير أن الحركة لم تخمد ، بل شب أوارها فى بورسعيد ثم فى أسيوط ضد مراكز التبشير الأجنبى المسعور ونجحت الحركة ، وباء المبشرون بالفشل ، وكان ذلك سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ .

٧ - يكتب فى كثير من مجلات العالم الإسلامى دفاعا عن الإسلام ، وتجميعا للمسلمين وتوعية لهم وتحذيرا من الفرقة .

٨ - له مؤلفات علمية كثيرة منها :

١ - عقد الجمان فى تبيان غريب القرآن .

٢ - الإسلام يحارب الجوع .

٣ - هادى الأرواح .

٤ - نافذة على الإيمان .

٥ - غذاء الأرواح .

٦ - البهائية فى الميزان .

٧ - الهجرة المحمدية .

٨ - التفسير المعاصر - نقد وتوجيه -

٩ - من أمجاد الرسالة المحمدية .

١٠ - أقباس من نور الحق .

١١ - توضيح النسق .

١٢ - أضواء على بعض ماتشابه من أخبار الأنبياء .

الجهات العلمية التى يسهم فى نشاطها

١ - مجمع البحوث الإسلامية حيث يلى فيه رياسة لجان التفسير الوسيط وتحقيق وتخريج جمع الجوامع والتوفيق بين النصوص المتعارضة فى السنة .

٢ - تحرير قسم الدراسات القرآنية بمجلة الأزهر .

٣ - عضو بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، قسم القرآن والسنة .

كيف نطبق النظام الإسلامي في العهد الحاضر ؟

العلامة / أبو الأعلى المودودي

(سبق أن نشرنا الحلقة الأولى من المقابلة التي أجرتها إذاعة باكستان مع الأستاذ أبو الأعلى المودودي وكان عنوانها : « أسلوب الرسول ﷺ في الحكم » . وننشر الآن الحلقة الثانية وهي الحلقة الأخيرة من تلك المقابلة وعنوانها : « كيف نطبق النظام الإسلامي في العصر الحاضر » (خليل الحامدي) .

سؤال :

ياصاحب السماحة : لقد وضحتم لنا في الحلقة الإذاعية الأولى ماكان للرسول ﷺ من أسلوب في الحكم . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو : لانستطيع أن نجد اليوم شخصية مثل شخصية الرسول ﷺ تجمع بين جميع الكمالات والمكارم ، ولانجد كذلك جماعة مثالية رباها النبي ﷺ بأروع التربية وأمثلها كجماعة الخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم ، ولاالمجتمع الذي كوّنه النبي ﷺ في منتهى النظافة ، ولاالتربية الخلقية التي امتاز بها عهد النبي ﷺ . وإذا أردنا البدء في تطبيق النظام الإسلامي في المجتمعات المعاصرة فكيف لنا أن نصوغ الخصائص الأربع التي ذكرناها ، في الحلقة السابقة ، والتي تعتبر خصائص الدولة العصرية في قوالب النظام الإسلامي ، ثم ماذا سيكون الترتيب والتدريج الذي تأخذ بها لأجل تحويل المجتمعات الفاسدة الحالية إلى المجتمعات الصالحة . الرجاء أن تتفضلوا مشكورين بإلقاء الأضواء على هذه التساؤلات ؟

الجواب :

إن أول أمر يجب أن تفهموه جيدا في هذا الصدد هو أن الشيء الذي نصفه بالنظام الإسلامي لاتستطيع حكومة عديمة الإيمان بالله وفاقدة السلوك المستقيم تسييره أبدا . فالإرادة الخالية من خشية الله

لانستطيع تطبيق الإسلام . كذلك لايمكن أن يقوم الإسلام بصورة سليمة فى مجتمع يكون وضعه الخلقى سيئا بصفة عامة . بل تبذل الجهود المستمرة لتخريبه . وكما تعلمون عشنا مدة من الزمن فى ظل نظام الملوك المسلمين فى شبه القارة الهندية ، الذى لم يكن إسلاميا بمعنى الكلمة ، ولكنه مع هذا كان القانون الإسلامى هو الذى كان يسود المجتمع . وكان أهل العلم والدعوة يتولون مهام تربية الناس وإصلاحهم . ولأجل ذلك فالمجتمع فى ذلك العهد الملكى على رغم أنه لم يكن على مستوى المجتمع الذى كان فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الخلفاء الراشدين لم تكن حالة الناس الخلقية فاسدة فيه بدرجة الفساد الذى طرأه فيما بعد ، ولم يكن الناس كذلك على جهل بالإسلام بقدر ماأصبحوا جاهلين به فيما بعد .

إن شرب الخمور كان عندهم نادرا جدا وكذلك المحرمات الأخرى . وصحيح أن بعض الناس كانوا يزاولون المنكرات ويرتكبون الآثام ولكنهم لم يكونوا يرتكبونها على مرأى من الناس ومسمعهم .

وحينما قامت الحكومة الإنكليزية أول ماقامت فى البنغال فى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى كان الأمر بحيث كتب بعض الكتاب الإنكليز : « إن حوادث السرقة كانت منعدمة إذ كانت تقطع يد السارق . ولم يكن يتوقع أحد أن يكون المسلم كاذبا . بل لم يكن يتصور أحد أن المسلم يشهد شهادة الزور أمام المحكمة . وعامة المسلمين كانوا مثقفين . بل كانت نسبة التعليم مائة فى المائة » . هذا مابقى عليه المسلمون إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى فى الهند .

ولما احتل الاستعمار الإنكليزى هذه القارة غيّر نظام القانون فيها ، وغيّر نظام الاقتصاد فيها ، وبث فى نظامنا الاجتماعى آثارا سيئة جدا . فأصبح النظام الإسلامى للتعليم والتربية مثلا يعانى عجزًا ماديا لأن الحكومة تخلت عن رعايتها وصارت المعاهد الإسلامية لاتسير إلا بمعونة الأثرياء من المسلمين . وأغلقت الحكومة أبواب الرزق على خريجى تلك المعاهد . بينما النظام الإنكليزى للتربية والتعليم الذى روجه الإنكليز فتح أبواب الرزق على مصراعيها فى وجه خريجيه فى جانب ، وفى الجانب الآخر شرع ذلك النظام بمبادئه وأسسه الهدّامة يمحو من أذهان المسلمين التصورات القائلة بالإيمان بالله والرسول واليوم الآخر . هذا ماورثناه من العهد الإنكليزى .

ومن المؤسف جدا أنه لم تبذل محاولات جدية فى تبديل هذه الأوضاع بعد قيام

باكستان ، بل لا أبالغ إذا قلت إن الفساد الذى طرأ على المسلمين فى مدة ثلاثين سنة مضت هو أكبر حجما وأكثر اتساعا من الفساد الذى لحق بهم طيلة العهد الإنكليزى . وإذا قامت حكومة إسلامية اليوم وأرادت تحسين تلك الأوضاع لانتوقع منها أن تقلبها ظهر المجن وتعود إلى الحياة الإسلامية بكامل الوجوه بين عشية وضحاها .

ولكى نبدأ فى تطبيق النظام الإسلامى لامناص لنا من أن يتولى زمام الحكومة أشخاص يكرّسون جميع وسائل الإعلام ، وجميع أجهزة التعليم وجميع الأنظمة الإدارية فى نشر الوعى الإسلامى بين عامة المسلمين وفى إصلاح حالتهم الخلقية على أوسع النطاق ، وبقدر ماينتشر الوعى الإسلامى بينهم ، وبقدر ماتتحسن حالتهم الخلقية بقدر مايتهيأ الجوّ للنظام الإسلامى الشامل .

وكنا نأمل بأن الحكومة التى ستتولى أزمة الأمور فى باكستان عقب انتهاء العهد الإنكليزى سوف تتخذ نفس المنهج الذى أشرت إليه ، أى سوف تستخدم كل طاقات الوسائل الإعلامية فى إنعاش العقائد الإسلامية وإنشاء الخلق الإسلامى السليم فى عامة المسلمين ، وسوف تضع نظاما للتعليم والتربية يكوّن من عامة الأفراد عنصرًا صالحا للمجتمع الإسلامى ، ومواطنا مخلصا للدولة الإسلامية ، وسوف تقضى على نظام التعليم الذى ينشر الإلحاد . وتروج مكانه نظاما للتعليم يدعو إلى الإيمان بالله وإطاعته . وسوف تحاول جعل الناس يميزون بين الحلال والحرام ، ولكن من سوء حظنا أنه لم يتحقق أمل من تلك الآمال الطويلة العريضة . ولو اتخذت الحكومة التى تولت أمور باكستان فى بداية الأمر كافة الوسائل والتدابير لتحقيق تلك الآمال لكان الوضع فيها غير الوضع الذى نحن فيه اليوم .

إذن لابد لنا اليوم من أن ننطلق من نقطة البداية ولامانع من أن تحاولوا فى تطبيق القوانين الإسلامية ، ولامانع من أن تدونوا تلك القوانين حتى تستطيع محاكمنا أن تحكم بها . إلا أنه لايجوز الاكتفاء بهذا الأمر حتى نقول إن النظام الإسلامى قد قام . بل يجب علينا أن نركز أكثر مانستطيع على أن ندرس فى جميع مدارسنا الابتدائية والثانوية وجميع كلياتنا وجامعاتنا التعليم الإسلامى ، وأن نستخدم جميع الوسائل الإعلامية فى تبصير المسلمين بما هو الإيمان والأخلاق ، بدلا من أن نستخدمها فى نشر الرذائل والمنكرات والجرائم . ويجب علينا

كذلك أن نبين لعامة الناس ماهى الأخلاق الإسلامية وماهى الأخلاق الكافرة ، وما هو الفارق بين هذه وتلك . وسبق أن قلت إن النظام الإسلامى لم يقم إلا فى مجتمع عمّق فيه أساس الإيمان قبل كل شىء ، ثم أقيم على ذلك الأساس الوطيد نظام الأخلاق بكامله . ونظام الاجتماع بكامله . ونظام الاقتصاد بكامله ، ونظام السياسة بكامله ، ونظام القانون بكامله .

وإذا أردنا أن نعود إلى ذلك العهد المثالى فلابد لنا أن نعود بنفس الأسلوب ، لأننا إذا لم نعمق فى قلوب الناس دعائم الإيمان بالله ، والإيمان بالرسول ﷺ والإيمان بالقرآن والإيمان بالآخرة لاتثمر جهودنا بمجرد تبديل القوانين . إذ أنكم تعرفون جيدا كيف أن البوليس عندنا يملك مهارة فائقة فى اختلاق القضايا على الناس الأبرياء . بل إنه قد حاز قصب السبق فى هذا الشأن لحد أنه يستطيع أن يتحدى جميع العالم فى اختلاق القضايا وتزويرها وكذلك حدث عن الشهود ولاحرج . فإنهم يعتبرون أداء الشهادة الصادقة فى المحاكم إثما . لأنهم يعتبرون أن المحكمة ليست إلا مكان شهادة الزور . بل إن البوليس نفسه يصنع دائما فئة من الشهود الكاذبين مستعدة للشهادة الكاذبة فى أى وقت .

هذه الأمور فقط إذا وضعتموها أمام أعينكم تستطيعون أن تقدروا من خلالها كيف يستقيم أمر القانون الإسلامى بصورة صحيحة مادامت الأجهزة المسؤولة عن نفاذ القانون بلغت من الفساد قمته .

ومع هذا وذاك علينا أن ندرس بكل دقة وإخلاص أساليب ناجحة لتنفيذ قانون الإسلام . وبجانب ذلك يجب على ولاة الأمور الحاليين أوالذين يأتون فى المستقبل أن يدخلوا إصلاحات جذرية على الجهاز التنفيذى . كما يجب عليهم أن يصلحوا نظام التعليم والتربية . وأن يستقطبوا جميع الوسائل لتعميق الإيمان فى قلوب الناس وإصلاح سلوكهم وجعلهم يخشون الله فى السر والعلن ، وفى المنشط والمكره .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! الشعب الباكستانى عبيد العصا ، هذا المثل كثيرا مايدور على ألسنة عامة الناس ، إذن فهل النظام الإسلامى كذلك لن يقوم إلا بقوة العصا ؟

الجواب :

إن للعصا أيضا مكانا فى النظام الإسلامى ، ولكن ذلك فى آخر الأشواط .

والترتيب الفعلى فى الإسلام هو كما يلى : تبذل الجهود أولا وقبل كل شىء فى إصلاح الأذهان والأفكار بالتوجيه العام حتى تتخلى الناس عن الأفكار الفاسدة . ثم تكرس الجهود أضعافا مضاعفة فى تحسين أخلاقهم حتى يتهيأ فى كل حارة وفى كل دار جماعة من الناس الصالحين يقدرون التحكم فى عصابات المجرمين ، ويتولون مهمة إثارة جوانب التدين والأمانة والصلاح فى الناس وهكذا يمكن أن ينشأ فى البلد رأى عام لايسمح للمنكر أن يرفع رأسه . وإذا حاول أحد أن يتجه إلى الفساد فى مثل هذا الجو يجد فى طريقه العديد من العقبات والعراقيل . وإذا حاول أن يتجه إلى الصلاح والتقوى يجد المجتمع كله يشجعه على ذلك . ثم إن الإسلام يريد أن يكوّن مجتمعا يكون الناس فيه متراحمين متضامنين يواسى بعضهم بعضا ويناصر بعضهم بعضا فى حالات الشدة والبؤس . ويكون كل شخص فيه مؤيدا للعدل ومحاربا للظلم . ويكون كل شخص فيه يحرم نفسه من الطعام لو علم أن جاره نام جائعا . ثم إن الإسلام يقيم نظاما للاقتصاد يعتبر الربا حراما والزكاة واجبا ويغلق أبواب الكسب الحرام ويؤمن لكل مواطن تكافوء الفرص للكسب الحلال حتى لايبقى شخص يحرم من ضرورات الحياة .

وبعد هذه التدابير كلها يأتى دور العصا . لأن الشخص الذى لايستقيم أمره بدافع الإيمان ، ولابالتربية الخلقية ، ولابالتعليم ، ولابتوفير العدل له ، ولابتحسين الأوضاع الاقتصادية ، ولابالجو الصالح العام ، إن الشخص الذى لايستقيم أمره بكل ذلك ليس له من علاج إلاالعصا . فتستخدم عليه العصا بصورة علنية يكون عبرة لجميع الأشخاص الذين تراودهم النفس لارتكاب الجرائم وانتهاج طريق السوء .

ومن الخطأ الفاحش أن نتغاضى عن منهجية النظام الإسلامى ، ونتناول موضوع العقوبات فقط . وسبق أن قلت إن الإسلام يشرع ، قبل كل شىء ، بغرس الإيمان فى قلوب الناس ثم يأخذ فى تقويم سلوكهم فيأخذ بكل مايمكن من الأساليب والوسائل فى خلق رأى عام قوى لتنمية المعروفات وسحق المنكرات . ويقيم نظاما للاجتماع والاقتصاد والسياسة يضيّق مجال العمل السيئ ويسهل مجال العمل الحسن ، ويسد جميع الأبواب التى بها تنمو الفواحش وتنتشر الجرائم . وأخيرا بعد كل ذلك هو يستخدم العصا (أى القوة) لقمع كل أمر خبيث يرفع رأسه فى المجتمع .

ومن أظلم ممن يتحدث عن الإسلام فيجعل آخر تدابير الإسلام أولها ويمسح كل الحلقات الوسيطة مسحا إساءة لسمعة الإسلام وتشويها لديباجته الوضاءة .

السؤال :

فيا قلت عن الحكومة صحيح كل الصحة . فادام لايتوفر للحكومة رجال يريدون بكل أمانة وصدق تطبيق الإسلام ويكونون فى مستواهم الخلقى والعلمى صالحين لهذه المهمة الجليلة لايظهر الإسلام بمظهره الكامل ولايثمر نتائجه المرجوة . ولكن ينشأ السؤال هنا : ليس لتغيير الحكومة فى العصر الحاضر إلاطريق الانتخابات ، فهل تتفضلون واضعين أمام عينيكم عهد النبى ﷺ ، بإلقاء الأضواء على طريقة تجعل نظام الانتخاب الغربى المعاصر منسجما مع نظام الإسلام القائم على الشورى . فإلى أى حد وبأى أسلوب ؟

الجواب :

افهموا جيداً أننا مدعوون إلى أن نتقدم إلى الأمام من الوضع الذى نحن فيه الآن . وعلينا أن لانتغافل عن هدفنا الذى نريد تحقيقه . حتى لانضع خطوة إلاإلى ذلك الهدف شئنا أم أبينا . ومما لابد منه أن تكون نقطة انطلاقنا هى الانتخابات لأنه لايمكن أن نغير نظام الحكومة أو رجال الحكومة فى بلادنا إلابهذه الطريقة . ولانجد طريقة أخرى فى الوقت الحاضر نغير بها بصورة سليمة نظام الحكومة فعلينا أن نكرس كل جهودنا فى أن لانستخدم طرق سيئة فى الانتخابات مثل الإكراه ، أوالتزوير ، أو استغلال العصبيات الإقليمية أو الطائفية أو النسلية أو القبلية ، أو الدعاية الكاذبة ، أوكيل السباب والفسوق للمنافس ، أو شراء الذمم ، أو تزوير أوراق الناخبين ، أو تزوير النتائج الانتخابية ، بل يعطى للناخبين حرية كاملة لينتخبوا من يشاءون من المرشحين الذين نزلوا فى المعركة الانتخابية .

ثم يفرض على الأفراد أو الأحزاب عدم دخول الانتخاب إلابطريقة معقولة : هى أن كل شخص أوحزب يدخل الانتخاب يقدم للجماهير بيانه الانتخابى ومايستهدفه من وراء نجاحه فى الانتخاب . ثم يترك الأمر إلى الناس لكى يختاروا من المرشحين من يشاءون ويرفضوا منهم من لايشاءون . ومن المحتمل أن لاننجح فى دورة الانتخاب الأولى فى تغيير أسلوب التفكير ومقياس الاختيار عند عامة الناس ، ولكن إذا بقى نظام الانتخاب مستقيما سليما

كما قلت فلاجرم أن يأتى يوم ينتقل فيه نظام الحكم بكامله إلى رجال من أصحاب الأمانة والصدق والإخلاص والإيمان. وبعد ذلك نستطيع أن نراجع نظامنا الحالى للانتخاب ونختار مكانه ذلك النظام المثالى من جديد يلائم تماما منهج الإسلام للحكم.

والذى أقصد من ذلك أننا لانستطيع أن نصل إلى هدفنا الذى نستهدفه طفرة وبوثبة واحدة.

السؤال :

ياصاحب السماحة ! هناك تساؤلات كثيرة تخالج الصدر. وندعو الله سبحانه وتعالى أن يسبغ عليكم الشفاء الكامل حتى نتمكن من جلسة أخرى مطولة معكم لمناقشة هذه التساؤلات.

ولكنى أحب أن أعرف منكم أن الدعوة التى جعلتموها نصب عينيكم فى الحياة ثم جاهدتم فى سبيلها طول الحياة وقد وصلتم اليوم - والحمد لله على ذلك - مرحلة تكاد تبلغ الدعوة هدفها المنشود. أحب أن أعرف منكم كيف تتصورون الأوضاع الحالية فى ضوء جهودكم التى بذلتموها حتى الآن : هل إن جهودكم صارت تثمر نتائجها المنطقية وهل قد حققتم فعلا انتشاراً لدعوتكم ؟

الجواب :

هذا سؤال يستعصى علىّ جوابه. من عادتى أن لاأدعى دعاوى فارغة ولاأثنى على نفسى. ولكن الذى لايخفى على أحد أن الجهود المتصلة التى بذلت فى ترويج الأفكار الإسلامية - ولم أكن وحدى فى هذا الميدان بل كثيرون غيرى كذلك استنفدوا جهودهم فى هذا المجال - أصبحت الطبقات المثقفة فى باكستان تحب الإسلام نتيجة لتلك الجهود. وصحيح أن أخلاق تلك الطبقات لم تبلغ المستوى المطلوب إلاأن حركة نشر الأفكار الإسلامية جعلتها تفهم الإسلام بصورته الصحيحة الكاملة وكذلك أثارت فى قلبها حماسا عارما لإقامة النظام الإسلامى.

إن مؤسساتنا التعليمية التى أقيمت على النظام الميكيافيلى للتعليم والتربية نشأ فى المؤسسات نفسها بفضل تلك الجهود جيل ظل يحب الإسلام حبا عميقا ويفهمه فهما جيداً. وقد تواجهنا اليوم مسألة هامة وهى توعية الجماهير. وأنتم تعرفون أن عامة الجماهير فى باكستان أميون ونحن نفكر هذه الأيام كيف ننشر بينها الوعى الإسلامى.

وبما أن أغلبية الناخبين في باكستان أميون وهم دائما عرضة للتضليل من قبل المغرضين والهدامين . ولأجل ذلك لاينعقد الانتخاب في باكستان بصورة صحيحة وسليمة مهما حاول المثقفون عقده صحيحا بنسبة مائة في المائة .

ومن واجب شبابنا المثقفين وعلمائنا الكرام في هذه المرحلة أن ينصرفوا كليا إلى تبصير عامة الجماهير في القرى والأرياف والمدن . وليس من الضروري أن تكون عامة الجماهير قد تنال قسطا كبيرا من الثقافة في المدارس والمعاهد . ولم ينتشر الإسلام في عهد النبي ﷺ بالكتب . بل انتشر بالدعوة والوعظ والتوجيه العام . ولذلك ليس من الضروري أن نجعل عامة الجماهير تقرأ وتكتب أولا ، ثم نفهمها الدين . بل علينا أن نأخذ بنفس الأسلوب الذي أخذ به النبي ﷺ وأصحابه من تعليم الجماهير شفاهيا وتبصيرها بما فرضه الله عليها من فرائض وواجبات ، وتوعيتها بما هو الحلال والحرام ، وغرس خشية الله في قلوبها ، وتحذيرها من عذابه الشديد على اقتراف الكبائر . وترغيبها إلى الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق . ونؤمن بأن آيات الله وأحاديث رسوله التي بدلت العرب ظهرًا لبطن إلى ماقبل أربعة عشر قرنا تستطيع أن تحقق الغرائب والمعجزات اليوم أيضا ، بشرط أن نستعين بها لإصلاح المجتمع وتزكية النفوس وتربية الجماهير .

ومن الأهمية بمكان أن نقدم للناس توجيهات أصيلة من القرآن والسنة بما عليه من جلاء ووضوح . ونغرس في قلوبهم الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، ونقول لهم إنكم مهما استطعتم أن تستخفوا عن أعين الناس لاتستطيعون أن تستخفوا عن الله .

ومن الممكن أن تنجوا بأنفسكم من عقاب الناس ولكنكم لاتستطيعون بحال أن تنجوا من عذاب الله . وهناك كتاب يكتبه الكرام البررة عما تعملون . وهو سوف ينطق عليكم بالحق . ولابد لكل نفس أن تذوق ذائقة الموت ، وتحضر يوم القيامة أمام الله فيحاسبها على كل عمل من أعمالها ، وليس من المعقول أن تتركوا الصلوات الخمس ، وتفطروا علنا في رمضان ، وتهينوا بذلك دين الله ، وتدنسوا أنفسكم بالآثام بكل جرأة ، وتحضروا الله يوم القيامة وأنتم قد سلبتم حقوق الناس وانتهكتم أعراضهم وتعرضتم لكرامتهم وأرقتم دماءهم ثم بعد كل ذلك تنالوا البراءة من عذاب الله . يمكنكم أن تمكروا في الدنيا مااستطعتم . ولايؤاخذكم عليه أحد . ولكن كيف لكم أن تخلصوا من مؤاخذة الله العلي القدير .

وهو عليم بذات الصدور .

هذا وغيره من التوجيهات الربانية الصافية إذا قدمتم للناس وغرستم فى قلوبهم ترون بأم أعينكم كيف ينشأ الوعى السليم فى عامة السكان رويدا رويدا وكيف تنتعش فيهم المعنوية والإحساس النبيل .

وإذا علم الناس ، بعد ذلك بأنهم مدعوون من الله ورسوله إلى أن يقيموا فى الأرض النظام الإسلامى فلابد من أن يبحثوا عن الذين يصلحون لهذه المهمة الجليلة وينتخبوهم ولايقعوا فى مصايد الدجالين الكذابين .

وعامة الناس يعرفون : إلى أى طبيب يذهب أحدهم إذا مرض ، أو إلى أى محام يذهب إذا أقيمت عليه القضية فى المحكمة . وعلى غرار ذلك إذا أنشأتم فيهم شعوراً صحيحا بالإسلام وفهما سليما عنه لاجرم أنهم يعرفون بأنفسهم بعد ذلك : أى المرشحين فى الانتخابات يصلح لاقامة النظام الإسلامى إذا نجح فى الانتخابات . ونفرض أنهم يخطئون فى انتخابات المرشحين الصالحين فى معركة انتخابية . ولكنهم سوف لايقعون فى نفس الخطأ فى المعركة الأخرى إذا استمرت جهود نشر الوعى الإسلامى بينهم على قدم وساق . ويبقى باب توجيه النقد مفتوحا على مايعمله الحكام من أعمال منحرفة عن الإسلام ، بأسلوب علمى ومعقول . ونفرض أن ينجح فى الانتخابات أناس سيئون ويتولون أزمة الأمور ، ويحكمون بما يشاءون . ثم يحاولون تزوير الانتخاب القادم فإنهم إذا فعلوا ذلك سوف يواجهون بإذن الله نفس الحركة الشعبية التى اطاحت بحكم يوتو ذلك الدكتاتور الظالم الفتاك .

وهناك أساليب أخرى لتبصير الجماهير بالإسلام ومقتضياته ، علينا أن نعتنى بها بصفة خاصة . فمثلا فى بلادنا عدد كبير من الاتحادات العمالية . فعلينا أن نبث بين العمال افكارا توضح أن النظام الذى ينصف العامل هو الإسلام وليس الاشتراكية . ولاعلاج لمشكلاته إلا فى إتباع الاسلام .

أما الاشتراكية فهى لم تنصف العمال فى الماضى ولن تنصفهم فى المستقبل . ومن الأفضل أن يتولى مهمة نشر الوعى الإسلامى بين العمال شباب درسوا جيداً الانظمة الاشتراكية والشيوعية وأوضاع الدول الشيوعية ، الاشتراكية . وذلك بدلائل قاطعة وأمثلة واقعية لاقبل لأحد انكارها . وهكذا نستطيع أن نحول الحركات العمالية بالتدريج إلى الحركات الإسلامية . ونستطيع أن نوجد فى العمال شعوراً صافيا يستطيعون بفضله معرفة

قادتهم جيداً . هل هم أتباع ماركس ولينين أم أتباع الله ورسوله ، ثم يترك لهم : هل هم يحبون أن يبعثوا يوم القيامة تحت لواء ماركس ولينين أوتحت لواء رسول رب العالمين . .

وللفلاحين أيضا مسائل ومشاكل . فعليكم أن تبينوا لهم أن ليست لها حلول عادلة إلا في الإسلام . ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وجد أهلها من الأنصار يمارسون الزراعة . وكان قبل الإسلام نزاعات كثيرة بين أصحاب الأراضي وبين المزارعين . كما أن الذين كانوا يأتون بالغلات من القرى إلى المدينة كان التجار والسماسرة يغشونهم أفحش الغش ويستغلونهم أسوأ الاستغلال فأصلح النبي ﷺ كل هذه المفاسد بحكمة ، وأقام المعاملات التجارية على العدل والقسط . ولكم أن تراجعوا لمعرفة كل ذلك كتب الحديث والفقه ، وتستطيعون أن توضحوا كل ذلك للفلاحين وتقنعوهم على أن هذه المسائل التي هم يرزحون تحت وطأتها كان الإسلام قدْ قدم لها حلا سليما فيا مضى وهو الذي يستطيع أن يحلها اليوم ولاغير .

ويقدر مايتم عمل التوعية والتوجيه يقدر ماتحسن الظروف ويتهيأ الجو لظهور نتائج الانتخاب الصحيحة . وبقدر مايفوز أهل الدين والصلاح والتقوى في الانتخابات بقدر مانتقدم خطواتنا إلى النظام المثالي الذي شهده عصر الخلافة الراشدة .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! هناك ينشأ سؤال آخر ، وهو : « قد تفضلتم وقلتم إنه يجب أن يقام النظام الإسلامي بالتدريج ، بل سوف يقام هذا النظام بالمراحل التدريجية ، وهل معنى ذلك أن القوانين السائدة والقوانين التي وضعت تحت النظام الديمقراطي الغربي لاتزال تسود خلال مرحلة التغيير التدريجية ؟ فهل لأمرين متناقضين أن يتواكبا جنبا مع جنب ؟

الجواب :

لامناص لنا من أن نبدل نظام الحياة الذي ساوره الفساد ودخله التخريب منذ عهود طويلة بالتدريج . ولايمكن أن نستبدل النظام التربوي الإسلامي الذي وضعه الإنكليز بالنظام التربوي الإسلامي بلمحة من البصر . وكذلك أوضاع الناس الخلقية التي تردت إلى الانحطاط والتدهور في سنين طويلة بالأفلام السينمائية الماجنة والصور القبيحة والأغاني الخليعة الرائجة

ليلا ونهارا والمجتمعات المختلطة بين النساء والرجال ومناولة الخمور وممارسة القمار وما إلى ذلك من أعمال السوء والأنشطة المحرمة ، لايمكن تبديل أخلاق الناس وعاداتهم بعد كل ذلك بين عشية وضحاها . ولكن مع هذا وذاك علينا أن نبدأ من يومنا هذا فى بذل الجهود واستنفاد المساعى لتبديل الأوضاع وإصلاح المفاسد . ولايجوز لنا التأخير فى إزالة كل منكر من المنكرات يمكن لنا أن نزيله بأسرع خطوة وأقرب فرصة . ونفس الأسلوب نختاره فيا يتعلق بالأنظمة والقوانين . فعلينا أن نلغى من قوانين عهد الكفر والأنظمة التى تخالف الإسلام مانقدر على إلغائه على فوره بدون ماتأخير أوتلكؤ ، ثم يقدر مانقدر على تنفيذ القوانين والشرائع الإسلامية لاتؤجل تنفيذها ولاليوم واحد . إذ أن الحكومة التى تؤمن بالإسلام بكل إخلاص وصدق والتى تستهدف إقامة الإسلام فى الحياة الواقعية هى مدعوة إلى إدخال الإصلاحات الجذرية فى جميع الدوائر والشعب ، ومن الخطأ القول بأن لاتنفذ القوانين الإسلامية مادامت لاتستكمل الإصلاحات . ومما لاشك فيه أن قضاتنا فى المحاكم إذا شرعوا فى تحكيم القوانين الإسلامية فى القضايا والنزاعات والمرافعات بدلا من القوانين غير الإسلامية يقتنع الناس من تلقاء أنفسهم بأن هذا البلد لن يسوده نظام الكفر فى المستقبل بل تحتم عليه نظام الإسلام . فهذا الإجراء نفسه سوف يشكل حلقة رئيسية من حلقات تبديل أذهان الناس واتجاهاتهم . الأمر الذى يساعدنا على توطيد دعائم النظام الإسلامى .

ولكم أن تقدروا صحة ماقلت من خلال تاريخنا . إن الإنكليز لما ألغوا قوانيننا السائدة فى تلك الأيام ، واستبدلوها بقوانينهم ، وجاء قضاتهم فى المحاكم الابتدائية والمحاكم العليا يحكمون الناس بموجب تلك القوانين الاستعمارية ظلت مقاييس القوم واتجاهاتهم تتغير وتأخذ فى التقلب . فأصبح الحرام حلالا والحلال حراما لديهم . والأمور التى اعتبرتها القوانين الإنكليزية مشروعة فيا يتعلق بالأخلاق أوالاقتصاد أوالاجتماع أوغير ذلك من شعب الحياة راجت فى حياتنا الاجتماعية ولوكانت هى منكرات وقبائح من وجهة الإسلام . بل أصبحنا نحن المسلمين أنفسنا نصف قوانيننا بالرجعية والتخلف . حيث قد غرس فى قلوبنا بأن قانون الإسلام لايتجاوز شئون النكاح والطلاق والإرث التى سميت بالأحوال الشخصية ولايصلح

لتسيير الشؤون الدنيوية الأخرى .

ولكن اليوم إذا أصبح الناس يرون بأم أعينهم أن القوانين الإسلامية هي التي تحكم البلد وتقرر مصيرهم في المحاكم فلاجرم أن التاريخ يعيد نفسه وتتبدد سيطرة القوانين الإنكليزية على الأذهان . وعلى هذا ليس من الصحيح أبدا أن نفكر في أننا ندخل الإصلاحات الإسلامية في شعبة واحدة أوفي بعض الشعب بينما تبقى الشعب الأخرى تسير بموجب القوانين القديمة ، هذا الترقيع لاينفع أبدا .

خذوا مثلا موضوع الانتخاب .

إن الانتخاب فيما يبدو يعتبر شعبة واحدة من شعب الحياة . ولكن إصلاح هذه الشعبة يؤثر أثرا كبيراً في سائر شعب الحياة . إن طريقة الانتخاب التي راجت ولاتزال في بلادنا هي تتلخص في أن المرشح لامانع له من أن يبذل للجماهير الوعود الكاذبة الخادعة ، ومن ذرّ الرماد في عيونها ، واستغلال مواطن الضعف فيها ، وشراء ذممها بالمــــال ، وممارسة جميع أنواع الضغط لأجل الحصول على الأصوات ، وتجريح المتنافسين بأسوأ التهم ووصفهم بأشنع الصفات ، ونشر العصبيات القبلية والإقليمية بكل وقاحة ، وإثارة الفتن والنزاعات الطائفية ، وما إلى ذلك من الأساليب والمكايد والمصايد لأجل السيطرة على رقاب الناس ، فعليكم أن تغيروا كل ذلك رأسا على عقب . وامنعوا استخدام الأساليب غير المشروعة في الحملة الانتخابية ودعوا الناس ينتخبون من يريدون بكل حرية وبدافع من ضميرهم وإيمانهم . وثقوا بعد ذلك أن تحسين النظام الانتخابي سوف يحسن الجوانب العديدة من الحياة حيث يتعذر بذلك على رجال سيئين فوزهم في الانتخاب والوصول إلى الحكم . كما تتقوى بذلك نسبة نجاح الصالحين فيه ..

الســؤال :

تملك طائفة من الوسائل والأساليب لتبليغ الإسلام وترويجه وماذا علينا المزيد في هذا المجال ؟

الجواب :

كتبت من هذا الشأن الشيء الكثير في مؤلفاتي ومن الصعب علي في الوقت الحاضر أن أكرر المكتوب .

الســؤال :

ياصاحب السماحة ! نرجو أن تتفضلوا بتوجيهنا إلى ماهو المطلوب من إذاعة

باكستان لأجل تحقيق هذه الغاية فى الوقت الحاضر؟

الجواب :

من الضرورى جداً لاستخدام إذاعة باكستان فى نشر الإسلام وترويجه البحث عن أشخاص أكفاء يختارون موضوعا من مواضيع الإسلام ويدرسونه دراسة عميقة ثم يأتون الإذاعة ويلقون منها ذلك الموضوع . فمثلا يجب أن يكون هناك مجموعة من الأشخاص الذين تختارونهم بكل دقة وحذر يتولون شرح العقائد الإسلامية وغرس كل ناحية من نواحيها فى أذهان الناس بكل جدارة ، وإذا جاء شخص واحد فقط يتولى هذا الموضوع يمل منه المستمعون وتتضجر نفوسهم ولكن إذا كان هناك طائفة منوعة من العلماء والخبراء يتكلم كل واحد منهم على طريقته ويناقش الموضوع على سليقته فمن المؤكد أن يستمع الناس إليهم بكل رغبة وشوق وانتظار ، فأول عمل أساسى فى هذا الصدد هو غرس العقائد الإسلامية الصحيحة فى أذهان الناس وتثبيتهم على الإيمان بها والعض عليها بالنواجذ . هذا العمل الأساسى هو الذى يغير مابأنفسهم ، وهو الذى يجليهم إلى معرفة حقائق الإسلام والاستمساك بها .

وهكذا يجب اختيار مجموعة أخرى من الناس يصلحون ثقافة وأسلوبا لإلقاء الأحاديث والكلمات والدراسات عن أهمية العبادة فى الإسلام ، وفوائدها فى الدين والدنيا ، وأضرار تركها فى الدنيا والآخرة . ويتبعها طائفة ثالثة من أهل العلم والدعوة لعرض مبادئ الإسلام الخلقية وأحكام الإسلام وتعاليمه على الناس . ويتولى جماعة رابعة من المصلحين الاجتماعيين توجيه النقد إلى المنكرات والفواحش المنتشرة فى المجتمع بأسلوب بليغ حكيم يستشعر به كل فرد من أفراد المجتمع بفداحة الأوساخ الخلقية التى يتدنس بها ليل نهار .

وكذلك ينبغى أن ينهض جماعة من أهل العلم بصفة خاصة ليتناولوا الكبائر واحدة واحدة ويركزوا عليها مرة بعد أخرى ويشرحوا للناس مضارها ، ويثيروا فى قلوب الناس الإحساس القوى بأن الكبائر كيف تفسد عليهم الدنيا والآخرة وكيف تدفع مرتكبيها إلى العذاب المهين يوم القيامة . فمثلا يأخذون موضوع قتل الإنسان . ويعدون للناس نتائجه القبيحة ، ويوضحون لهم بأن القاتل الذى يقتل مثلا عشرة أشخاص فى الدنيا لايستطيع القضاء فى الدنيا أن يعاقبه إلابعقاب واحد وهو الإعدام . أما عقاب قتل البقية من المقتولين

الشنعة فلاينال العقاب عليه فى هذه الدنيا . وإنما المحكمة الإلهية يوم القيامة هى التى تعاقبه على ذلك بعقاب يتناسب مع فداحة الجريمة . لأن القضاء البشرى لايتناول إلا فعل القتيل . وعليه يعاقب المجرم بإعدامه فقط . ولكن الخسائر والأضرار التى سوف تترتب من ذلك الفعل على أسرة القتيل وأجياله القادمة لاتستطيع محكمة من محاكم الدنيا إدراك نوعية تلك الخسائر والأضرار ومدى استمرارها إلى الأجيال المتلاحقة . والله سبحانه وتعالى هو الذى يعرف ذلك بعلمه المحيط وإحاطته بكل شىء فى السموات والأرض بكل ماتقدم وتأخر . وسوف يعطى للمجرم جزاءه الأوفى على فعله بكل آثاره ونتائجه .

وأرى أن إذاعة باكستان إذا استمرت فى نشر حلقات متسلسلة مما أشرت إليه من المواضيع بواسطة رجال أكفاء يمارسون الأسلوب البليغ الأخاذ فى أحاديثهم يحدث خلال ستة أشهر فقط تغيير كبير فى أفكار الناس وعاداتهم . إذ أن الأجهزة الإذاعية وسيلة فعالة لتوعية الجماهير . والجماهير مولعة بها لحد أن الفلاح – مثلا – لايحب حراثة أرضه إلا ويصحبه جهاز الترانزستور ، وبما أن الجماهير لاتستمع اليوم من الراديو الا أغانى السيدات بل أغانى الأفلام الماجنة بالطلب وبدون الطلب ، إذا أصبحت نفس الجماهير لاتستمع من الراديو إلاالأحاديث الدين بلغة سهلة وبأسلوب رائع فلاتتوقع منها فى المستقبل أن تغلق الراديو بمجرد أن يقارع آذانها حديث عن الله ورسوله ﷺ .

وأقترح أن تبدأوا فى صدد البرامج الدينية من الحكايات والوقائع الصحيحة من عهد الرسالة وعهد الخلافة الراشدة وعهد الصحابة ، وكذلك حكايات وسير الأسلاف الصالحين التى تأخذ بمجامع الجماهير ، ويتبعها البيان بعقائد الإسلام ومبادئ الأخلاق ، وهكذا تستطيعون رويدا رويدا أن تشوّقوها للاستماع إلى التعاليم الإسلامية وإدراك معانيها وفهم مقتضياتها .

ولا تجدون ولاشخصًا واحدا من هؤلاء القرويين البسطاء يخلو من حبه العميق للرسول ﷺ وتفدية نفسه له ، وتستطيعون أن تقولوا لهم : يامسلمين ! إن الرسول ﷺ الذى تحبونه هذا الحب العميق عليكم أن تتبعوه كذلك وتعضوا على أحكامه بالنواجذ ، وكذلك هل من مسلم من عامة الجماهير لايؤمن بالبعث بعد الموت . فعليكم أن تشرحوا لهم من إذاعتكم ماذا سيواجهونه بعد الموت .

خذوا جميع المعلومات عن كل ذلك من كتاب الله وسنة رسوله . وليس من المستبعد أن عامة الناس إذا سمعوا النتائج التى سوف تترتب على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا بعد انتقالهم من الدار الفانية إلى الدار الباقية ترتعد له فرائصهم وتقشعر له جلودهم . بل إنهم إذا سمعوا ماذا يجرى على الإنسان المسيئ فى القبر من عذاب وحساب تتفتت أكبادهم وتذوب قلوبهم من كمد .

السؤال :

ياصاحب السماحة ! نحن فعلا ننشر من الإذاعة البرامج الخاصة بالفلاحين والمزارعين والعمال والكادحين والنساء والأطفال ، فلاننشر لهم منها الأغانى ولهو الحديث فقط ومن الجائز ألاتكون تلك البرامج على مايرام ؟

الجواب :

أقول : إن معظم برامج الإذاعة تتضمن الأغانى والموسيقى . وشيئا يسيرا عن الدين ومقتضياته وأخلاقه . وعلى هذا من اللازم أن تقللوا من القسم الأول من البرامج شيئا فشيئا وأن تزيدوا فى القسم الثانى منها ، وإذا أفهمتم الناس دينهم ومسؤولياتهم تجاهه جيدا بنصاعة البيان وروعة الأسلوب لايبقى الناس متعودين على الأغانى والمزامير ، وإذا حاولوا أن يسمعوها من الإذاعات الخارجية فإن ضميرهم الحى سوف ينبههم على ذلك المنكر ويستشعرون بدون ماتأخير بأنهم سوف يحاسبون على ذلك يوم القيامة حيث تشهد عليهم آذانهم بما سمعوا بها وتشهد عليهم ألسنتهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

قرب العبد من ربه

قال الله تعالى : (فاسجد واقترب) وقال ﷺ : «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فادعوا ربكم فى سجودكم» وقال ابن عباس رضى الله عنهما :

أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا سأله وأبعد ما يكون من الناس إذا سألهم .

تقنين الشريعة الإسلامية

الأستاذ / محمد عطية خميس

منذ رحل الاستعمار العسكرى عن بلاد المسلمين فى العقدين السابقين ، والشعوب الإسلامية تلح فى وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية لاستكمال تحررها تشريعيا واجتماعيا واقتصاديا ، فتعود لها أصالتها ، وشخصيتها الإسلامية المتازة . إذ لا معنى لهذا التحرر العسكرى ، ولا تزال نظم المستعمرين القانونية والاقتصادية والاجتماعية قائمة ! بعد أن قضوا على كل نظمنا الإسلامية .

وأول سؤال يتبادر إلى الأذهان : كيف تحل الشريعة محل القوانين الوضعية ؟ وكيف تطبق أحكامها ؟

رأى يقول : يجب أن نسارع إلى تقنين الشريعة الغراء بصياغة أحكامها فى مواد قانونية ، وجمع هذه المواد وترتيبها وتنسيقها فى مجموعات مختلفة :

معاملات وحدود ، وأحوال شخصية .. ليسهل على القضاة ورجال القانون تطبيقها والعمل بها .

ورأى آخر يقول : لسنا فى حاجة إلى مثل هذه التقنينات ، وأحكام الشريعة مدونة فى كتب الشريعة والفقه ، ولا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت فى صياغتها من جديد وتقنينها فى مواد .. فالمصادر الأصيلة للشريعة بأسفارها ومتونها وشروحها ، موجودة بين أيدينا ، ويمكن الرجوع إليها مباشرة .

الشريعة والفقه والقانون :

ولكى نرجح أحد الرأيين على الآخر ، يتعين أولا أن نحدد مدلول كل اصطلاح من الاصطلاحات الثلاثة : الشريعة .. والفقه .. والقانون .

والشريعة : كما عرفها التهانوى محمد على فى «كشاف اصطلاحات الفنون» - هى مجموعة الأحكام التى سنها الله للناس جميعا على لسان رسوله محمد ﷺ فى الكتاب والسنة .

أما الفقه - كما عرفه السيد الشريف

الجرجاني في «التعريف» — فهو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية . وطريق الفقه الاجتهادي والاستنباط والنظر والاستدلال .

أما التقنين فهو جمع أكثر القواعد الخاصة بفرع من فروع القانون في مدونة واحدة مرتبة ومبوبة . والتقنين مأخوذ من كلمة القانون ، وهو مجموعة قواعد تنظم سلوك الأفراد في مجتمع ، يلزم بها أفراده ، ويقرنها بجزاء يوقع جبرا على من يخالفها .

فالشريعة أعم ، والفقه أخص . ونسبة الفقه إلى الشريعة كنسبة النوع إلى الجنس . والقانون الإسلامي هو مجموعة القواعد المختارة من الفقه الإسلامي ، لتنظيم سلوك الأفراد في المجتمع المسلم ، وإلزامهم بها . وقد قرنت بجزاء يوقع جبرا على من يخالفها .

اختلاف الفقهاء وأسبابه :

والشريعة كتابا وسنة — تحتاج إلى فقهاء يفهمونها ، ويعلمون جميع أحكامها ، ولهم ملكة خاصة وقدرة على استنباط أحكامها الشرعية ، من أدلتها التفصيلية .

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . وقال ﷺ «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» .

ولذا ظهر الفقه والفقهاء في المرحلة التالية لظهور الشريعة . ولكن الفقهاء اختلفوا في كثير من الأحكام الجزئية التفصيلية . ويرجع خلافهم إجمالا إلى :

١ — أن القرآن الكريم ، ولو أنه كله قطعي الثبوت ، إلا أن كثيرا من نصوصه ظنية الدلالة ، لاحتمالها أكثر من وجه من وجوه التفسير .

٢ — السنة باعتبارها المصدر الثاني للشريعة لم تكن جميع نصوصها مجموعة ومدونة ، ليتيسر التعرف عليها ، عند الصحابة والتابعين والفقهاء . هذا علاوة على أن الكثير منها ظنى الدلالة .

٣ — لم يتفق الفقهاء على طريق استنباط الأحكام ، فيما ليس فيه نص صريح في الكتاب أو السنة . لأن الناس — وتلك سنة الله في خلقه — ينظرون إلى الأمور الاعتبارية من زوايا مختلفة . هذا إلى اختلافهم في فهم النصوص ، ووصول الحديث إلى علم البعض دون البعض ، والاختلاف في الحكم على الحديث بالصحة والضعف ، والاختلاف في الأخذ بالقياس ، وفي مدى العمل به ، والاختلاف في المصادر النظرية الأخرى —

كالاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع وقول الصحابي ، واختلاف المصلحة بتغير الظروف والملابسات .

وهذا الاختلاف بين الفقهاء ، لاينال من الفقه على الإطلاق ، لأنه ظاهرة صحية بل هو عين الرحمة بالناس . ولذا قيل « اختلاف الأئمة رحمة » فاختلافهم كان يدور بين العزيمة والرخصة ، وبين موجب التقوى وموجب الفتوى . ومن حق الأفراد – حين تختلف الآراء في المسألة الواحدة – أن يعملوا بالرأي الذي يجنح إلى التيسير ، ومن حقهم أن يدعوه .

لا غنى عن الفقه :

والفقه وثيق الصلة بالشريعة ، ولا نستطيع أن نستغني عنه في تعرفها وتعرف أحكامها . لذلك كثيرا ما تطلق كلمة « الشريعة » ولا يراد منها إلا الفقه ، وهو من باب الإطلاق العام وإرادة الخاص . أي أن إطلاق الشريعة على الفقه ، إطلاق مجازي متعارف عليه .

لماذا يتعين التقنين :

ولقد نما الفقه الإسلامي وتطور ، حتى وصل إلى ذروة مجده ، وقمة عظمته في بداية الدولة العباسية ، وظهرت المذاهب الفقهية الجماعية ، التي أرسى قواعدها وأوضح ضوابطها الأئمة الأجلاء الأعلام ، الذين نسبت إليهم المذاهب العظيمة . واشتد الخلاف بينهم حتى أن المسألة الواحدة قد تصل إلى ثمانية آراء أو أكثر .

وكان يتعين أن يجيء تقنين الشريعة لاحقا لظهور الفقه ونضوجه . كان هذا أمرا لابد منه في أحكام القضاء لرفع الخلاف ، بعد أن اختلف الفقهاء والقضاة . في وجهات نظرهم .

فكرة عبد الله بن المقفع :

وقد بدأ التفكير فعلا في وضع قانون عام لجميع الأمصار ، يؤخذ من الكتاب والسنة وعند عدم النص يؤخذ من الرأي على ما يقتضيه العدل ومصلحة الأمة ، وذلك لما لوحظ من تباين الآراء ، واختلاف الحكم في المسألة الواحدة . وكان أول من فكر في هذا عبد الله بن المقفع في رسالة كتبها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور جاء فيها :

« مما ينظر فيه أمير المؤمنين من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمرا عظيما . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير

المختلفة ، فترفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك ، وأمضى فى كل قضية رأيه ونهى عن القضاء بخلافه ، فكتب بذلك كتابا جامعا ، رجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا .

محاولة المنصور مع الإمام مالك :

ويمكن القول إن هذه أول فكرة أو محاولة للتقنين الإسلامى . ويبدو أن هذه الفكرة قد راقت فى نفس أبى جعفر المنصور ، حتى إنه لما حج فى عام ١٤٨ هـ قابل الإمام مالك - إمام دار الهجرة - وطلب منه أن يحمل الناس على مذهبه ، ولكن الإمام مالكا رضى الله عنه رفض قائلا : « إن لكل قوم سلفا وأئمة » .

وفى سنة ١٦٣ هـ ذهب الخليفة أبو جعفر المنصور ، لأداء فريضة الحج ، وقابل الإمام مالكا فى منى ، وأعاد عليه الفكرة مرة أخرى قائلا :

- يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودوّن منه كتبا ، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ، ورُخص عبد الله بن عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله عنهم ، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها فى الأمصار ، ونعهد إليهم ألاّ يخالفوها ولا يقضوا بسواها .

فقال له الإمام مالك : أصلح الله الأمير ، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ، ولا يرون فى علمهم رأينا .

فقال أبو جعفر : يحملون عليه ، وتضرب عليه هاماتهم بالسيف ، وتقطع ظهورهم بالسياط . فتعجل بذلك ، وضعها ، فسيأتيك محمد ابنى المهدى العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك ، فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله .

وذكروا أن أبا جعفر المنصور هو الذى خطط للإمام مالك كيف يكتب ويدون ويبوب كتبه . وذكروا أن الإمام مالكا لما أخذ فى تدوين كتبه ووضع علمه قدم عليه المهدى ، فسأله عما صنع فيما أمره به أبو جعفر ، فأتاه بالكتاب ، وهو كتاب الموطأ وقد أبدى الخليفة أبو جعفر المنصور رغبته فى أن تلتزم الدولة بأحكام الموطأ ، ويلزم الناس باتباعها . فأبى عليه مالك ذلك ، لما فيه من التزام مالم يقطع بصوابه ، وذلك غير مستساغ فلما ولى الخلافة هارون الرشيد ، عرض الفكرة مرة

أخرى على الإمام مالك ، ولكنه – رضي الله عنه – أبى وقال :

« إن أصحاب رسول الله اختلفوا فى الفروع، وتفرقوا فى البلدان وكل مصيب »

وهكذا بقيت فكرة جمع الناس حول أحكام واحدة ، وبالتالى بقيت فكرة التقنين معطلة بلا تنفيذ ولا شك أن المصلحة كانت تقتضي – فى مجال الحكم والقضاء – اختيار القواعد التى يحمل الناس عليها ، ويلتزم بها القضاة ، رفعا للخلافات ، ومنعا للبلبلة ، وتيسيرا على الناس .

والتقنين لا يخالف الشريعة ، ولا يخرج عنها ، ما دام الأمر فيه يقتصر على تجميع الأحكام المختارة ، وترتيبها وتنظيمها ، وحسن صياغتها بأسلوب ميسر ، لا يخرج عن اصطلاحات الفقه وأحكامه ، المستمدة من الشريعة الغراء .

العرب عرفوا القانون :

ولفظ القانون ليس غريبا على الفقه الإسلامي ورجاله ، فقد عرفه الكثيرون من الفقهاء والأئمة ، وبخاصة فقهاء المالكية . فالقانون عندهم هو وضع قاعدة كلية لمسائل فرعية مختلفة ، ومن كتب المالكية كتاب « القوانين الفقهية » لابن جزىء .

وللشيخ أحمد زروق وهو من علماء المالكية – كتاب قواعد التصوف ، وقد جمع فيه قواعد التصوف المستمدة من أحكام الشريعة ، ونظمها ورتبها فى فصول وأبواب ، وجعل لكل قاعدة رقما . ولـلإمام جمال الدين محمد أبى المواهب الشاذلى كتاب أسماه « قوانين حكم الإشراق إلى كافة الصوفية بجميع الآفاق » .

وإن كانت كلمة القانون معروفة عند العرب ، إلا أن اصطلاح التقنين حديث نسبيا فى اللغة العربية ، وكما يطلق على عملية التجميع نفسها ، يطلق أيضا على المدونة الشاملة المتعلقة بفرع من فروع القانون ، فيقال التقنين المدنى ، والتقنين التجارى . . إلخ . وكان الاصطلاح السائد قبل ذلك بالنسبة للمدونة نفسها هو « المجموعة » فكان يقال « المجموعة المدنية » ويقترح المجمع اللغوى تسميتها « المدونة » . وعلى العموم . فهذه كلها اصطلاحات فقهية .

أمثلة من الخلافات الفقهية :

وبالرغم من أن كلمة القانون كانت معروفة ، إلا أن الخلفاء الذين جاءوا بعد أبى جعفر المنصور وهارون الرشيد لم يفكروا فى القانون الإسلامى . فالقانون عندهم هو

الشريعة ، والشريعة هي فقه العلماء جملة ، بما فيه من أحكام متباينة ، وآراء عديدة يخالف بعضها بعضا ، لا بين المذاهب فحسب ، ولكن بين فقهاء المذهب الواحد أحيانا . مثلا بيع الديون . . يبطله الشافعي والحنفي والمالكي ، لأنهم يرون فيه شرطين فاسدين ، أحدهما الهبة ، وثانيهما شرط الرد للمبيع على تقدير ألا يرضى ، بينما يجيز الحنابلة هذا البيع .

ومثلا : بيع الهازل هل ينعقد أو لا ينعقد ؟ يقول الشافعية فيه وجهان وجه ينعقد لأن الهازل يفهم مدلول البيع ، ولا عبرة بهزله ، والوجه الثاني لا ينعقد ، والأصح الوجه الأول :

بلبلة الأحكام لعدم التقنين :

ومن هذا يتضح أن الأخذ بالمذهب بأكمله دون تحديد للرأى الذى يعمل به يترتب عليه اختلاف الأحكام وتباينها ، ويحدث هذا بلبلة بين الناس والخصوم . ويتعين على الإمام أن يرفع هذه البلبلة وهذا الخلاف ، بقانون يختار فيه الرأى الذى ينفذ على الناس .

ولكن حكام المسلمين فى العصور المتأخرة ، لم يفكروا فى هذا ، ولم يكن عجبا أن يأتى الخليفة ، ويجعل للقضاء أربعة قضاة : قاض شافعى وآخر حنفى وثالث مالكى ، ورابع حنبلى . ويختار المدعى القاضى الذى يتفق مذهبه مع مصلحته . .

وأحيانا كان الخليفة يختار مذهبا معينا بأكمله للقضاء حسب أحكامه ، فيصبح المذهب بأصوله وفروعه ، وبكل ما فيه من آراء عديدة متباينة هو القانون .

مجلة الأحكام العدلية :

وهذه البلبلة والخلافات ، هى التى دعت دولة الخلافة العثمانية فى أواخر أيامها إلى التفكير فى إصدار مجلة الأحكام العدلية فى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٥ م) . . وأمرت بالعمل بها فى تركيا والدول التى تدور فى فلكها فى ٢٦ شعبان ١٢٩٣ هـ .

وتعتبر مجلة الأحكام العدلية للتقنين الرائد فى التشريع الإسلامى . وتعتبر أفضل عمل تشريعى تعتز وتفخر به دولة الخلافة العثمانية .

ومجلة الأحكام العدلية مقصورة على تقنين المعاملات حسب المذهب الحنفى دون التقيد بالرأى الراجح ، مع مراعاة الأخذ

بالقول الموافق لمصالح الناس في المذهب وإن كان خلاف ما جاء بظاهر الرواية .

ثم والت دولة الخلافة بعد ذلك العمل في تقنين الشريعة ، فأصدرت عام ١٣٢٦ هـ قانون العائلات الذى يختص بالزواج والفرقة ، وقد أخذ في كثير من المسائل من غير المذهب الحنفي ، كفساد زواج المكره وبطلان طلاقه .

وقد نسف مصطفى كمال أتاتورك كل هذه الجهود ، حينما قام بحركته العلمانية فألغى الخلافة الإسلامية ، وفصل الدين عن الدولة ، واستبدل بالشريعة الإسلامية ومجلة الأحكام العدلية ، القانون السويسرى .

محاولة محمد على تقنين الشريعة :

وقد حاول محمد على باشا (والى مصر من قبل دولة الخلافة العثمانية) أن يقنن الشريعة الإسلامية في المعاملات ، قبل أن تفكر في هذا التقنين دولة الخلافة نفسها فأسند في سنة ١٨٣١ م منصب الإفتاء في الإسكندرية إلى الشيخ محمد الجزائرى مفتي الجزائر من قبل ، لما آنس فيه من روح الاجتهاد .

فهذا المفتي هو الذى أفتى بجواز حل الأوقاف الأهلية ، تلك الفتوى المشهورة التي طالما نوه بها الشيخ محمد على علوبة باشا في البرلمان المصرى ، والتي أخذت بها الثورة المصرية فيما بعد في سنة ١٩٥٢ .

وكان محمد على باشا قد طلب من الشيخ محمد الجزائرى أن يقنن الشريعة الإسلامية تقنينا غير مقيد بمذهب معين . وأخذ المفتي المذكور في مباشرة مهمته ولكن كان هذا في أواخر عهد محمد على باشا ، ولم يستمر مشروعه بعده[1]

محاولة قدرى باشا :

ولما كانت الثورة العرابية في سنة ١٨٨١ ، أسند الخديوى توفيق رياسة الوزارة إلى شريف باشا ، الذى اختار ناظرا (وزيرا) للحقانية الفقيه الشرعي والفقيه الضليع محمد قدرى باشا المستشار بمحكمة استئناف مصر المختلطة . وشكل قدرى باشا لجنة من كبار رجال القانون لوضع تقنين مدني مطابق للشريعة الغراء . ولكن للأسف الشديد لم تتم هذه اللجنة عملها ، فقد أسقط العرابيون وزارة شريف باشا في ٤ فبراير ١٨٨٢ لخلاف دستورى دب بينهم .

(١) راجع العدد الخاص من مجلة المحاماة في مارس ١٩٤٨ لنقد مشروع القانون المدني المقدم من المرحوم محمد بك صادق فهمي المستشار بمحكمة النقض وزملائه من المستشارين وعدد من العلماء الأفاضل .

تقنينات قدرى باشا :

ولكن إن كان عمل هذه اللجنة قد توقف ، فقد قام قدرى باشا وحده بهذا العمل الجليل . لقد قام بعمل ثلاثة تقنينات إسلامية أخذها من المذهب الحنفى ، مسترشدا فى عمله هذا بمجلة الأحكام العدلية . وقد عثر فى تركته بعد وفاته على هذه المجموعات الثلاث مخطوطة . . وهى :

الأولى : أسماها « مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان فى المعاملات الشرعية على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان » وهذه المجموعة خاصة بالمعاملات وتتكون من ٩٤١ مادة . وقد طبعتها الدولة على نفقتها فى سنة ١٨٩٠ م .

والثانية : أسماها « كتاب العدل والإنصاف فى مشاكل الأوقاف » وهى كما يبين من عنوانها خاصة بأحكام الوقف طبقا للمذهب الحنفى ، وتتكون من ٦٤٦ مادة . وقد طبعت فى سنة ١٨٩٣ م .

والثالثة : خاصة بالأحوال الشخصية ، وتتكون من ٦٤٧ مادة .

وهذا العمل الذى قام به قدرى باشا عمل إسلامى جليل دون شك ، أثبت به إمكان تقنين الشريعة الإسلامية ، وبطلان كل دعوى مضادة لفكرة تقنينها ، ومما يبرز عظمة هذا العمل ، أنه مجهود فردى ، ولو فى المظهر على الأقل .

تقنينات الأحوال الشخصية فى مصر :

ومنذ أول القرن العشرين الميلادى ، بدأ يظهر اتجاه قوى نحو تقنين الشريعة الإسلامية ، فى دائرة الأحوال الشخصية ، وشكلت لهذا الغرض لجنة من كبار الفقهاء والمشرعين لوضع قانون الأحوال الشخصية . وتم وضع مشروع له وطبع سنة ١٩١٦ ، ولكنه قوبل بمعارضة قوية حالت بينه وبين صدوره ، واكتفى بمعالجة بعض الأمور ، بقوانين لم تتقيد بالمذهب الحنفى ، رعاية لمصالح الناس . فصدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ بمسائل تتعلق بالنفقة والتطليق والعدة . والقانون ٥٦ لسنة ١٩٢٣ بتحديد سن أدنى للزواج والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ويتعلق بالطلاق والتطليق للضرر ونفقة العدة والحضانة والمفقود ولم يتقيد القانونان الأخيران بأحكام المذاهب الأربعة .

ثم توسعت مصر فى دائرة تقنين الشريعة الإسلامية ، فأصدرت قانون المواريث سنة ١٩٤٣ وقانون الوقف والوصية فى سنة ١٩٤٦ . واستمدت أحكام الكثير من مواد هذين القانونين من

مختلف الآراء الفقهية ، دون تقيد بمذهب معين أو برأى معين .

توصية المؤتمر الرابع لمجمع البحوث :

وظل تقنين الشريعة الإسلامية فى كافة فروعها حلما تصبو إليه الشعوب الإسلامية باعتبارها خطوة ضرورية وتمهيدية لتطبيقها . لهذا لم يكن بدعا أن يقرر مجمع البحوث الإسلامية فى جلسته رقم ٢٧ فى ٨ / ٣ / ١٩٦٧ أن من مهمة المجمع العمل على إيجاد مشروع قانون شامل للأحوال المدنية والجنائية وغيرها ، إذا ما تقرر فى الدستور اتخاذ الشريعة الإسلامية أساسا للتقنين .

ثم أوصى المؤتمر الرابع للمجمع المنعقد فى ٢٧ / ٩ / ١٩٦٨ بالتوصية التالية :

« يوصى المؤتمر مجمع البحوث الإسلامية بتأليف لجنة من رجال الفقه الإسلامى والقانون الوضعى ، لتضطلع بوضع الدراسات ومشروعات القوانين التى تيسر على المسئولين فى البلاد الإسلامية الأخذ بأحكام الشريعة الإسلامية فى قوانين بلادها كقوانين العقوبات والقانون التجارى والقانون البحرى وغيرها » .

جهود الدكتور عبد الحليم محمود فى التقنين :

وقد سارع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود — رحمه الله — وهو أمين عام مجمع البحوث الإسلامية إلى تنفيذ هذه التوصية فشكل لجنة من كبار خبراء الشريعة ورجال القانون فى مصر لتضع خطة العمل ، وقدمت اللجنة اقتراحاتها ، واجتمعت لجنة البحوث الفقهية فى المجمع ، واللجنة التى تم تشكيلها ، واستقر رأيهم فى ١١ / ١٠ / ١٩٦٩ على السير فى هذا المشروع على النحو التالى :

١ — تقنن المذاهب الفقهية التى يعمل بها فى البلاد الإسلامية ، ويبدأ فى المرحلة الحالية بتقنين المذاهب الأربعة لأهل السنة (الحنفية — الشافعية — المالكية — الحنابلة) . ويقنن كل مذهب على حدة ، وتصاغ أحكامه فى مواد ، على أن يصاغ من كل مذهب الرأى الراجح فيه . وعلى أن تلحق كل مادة بمذكرة تفسيرية ، تذكر فيها الآراء الأخرى ، كما يذكر فيها الرأى الذى يرى أنه الأنسب للتطبيق فى العصر الحاضر .

٢ — بعد الفراغ من تقنين كل مذهب على حدة ، يبدأ فى العمل فى وضع قانون مختار من بين المذاهب جميعا . وبذلك يمكن للمجمع أن يقدم لكل بيئة من البيئات الإسلامية التى ترتبط بمذهب معين قانونا إسلاميا يصور ذلك المذهب فى

أمانة ، كما يمكنه أن يقدم قانونا إسلاميا مختارا من بين المذاهب المعمول بها ، يفي باحتياجات البيئات التي تطلبه .

ووافق مجلس المجمع في جلسته رقم ٦٢ في ٧ / ١ / ١٩٧٠ على الخطة المرحلية لتقنين الشريعة الإسلامية ، كما وردت في خطة لجنة البحوث الفقهية على النحو المتقدم .

تقنينات الأزهر ومجمع البحوث :

وأصدر أمين مجمع البحوث الإسلامية في ذلك الوقت – الدكتور عبد الحليم محمود رضي الله عنه – قراره بتشكيل أربع لجان ، كل لجنة تختص بتقنين مذهب معين ، وكل لجنة تجمع بين كبار العلماء المتخصصين في المذهب ، وكبار المستشارين القانونيين والباحثين الشرعيين في المذهب .

وبدأت اللجان بعد ذلك مباشرة في مباشرة عملها ، مبتدئة بتقنين المعاملات وقد انتهت هذه اللجان جميعها – بحمد الله – بتقنين المعاملات على المذاهب الأربعة ، وتم طبع أجزاء منها .

ثم بدأت اللجان بعد ذلك مباشرة في تقنين الحدود الشرعية ، وقد أوشكت جميعها على الانتهاء منها .

اللجنة العليا بالأزهر للتقنين :

ولم يكتف الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود – رضي الله عنه – بلجان المذاهب الأربعة في التقنين ، ولكنه كان تواقا إلى خطوات أوسع ، فقد أصدر فضيلته بوصفه شيخ الأزهر القرار رقم ٣ لسنة ١٩٧٦ بتشكيل لجنة عليا لمراجعة التشريعات الوضعية وتعديلها بما يتفق مع المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية من عدد من العلماء الأجلاء والمستشارين القانونيين وقد توالت اجتماعات اللجنة ومناقشاتها ، وانتهت إلى مشروع قانون الحدود الشرعية في سنة ١٩٧٧ . وهذا المشروع لم يتقيد بمذهب معين .

تقنين الأزهر للأحوال الشخصية :

ولم تقف جهود الأزهر الشريف عند هذا الحد من تقنين المعاملات والحدود ولكن قام مجمع البحوث الإسلامية ، بمعاونة علماء لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، وبعض كبار رجال القانون ، بصياغة مشروع قانون للأحوال الشخصية في الزواج والطلاق . وقد انتهى الأزهر من هذا المشروع في أواخر سنة ١٩٧٦ .

مشروع الدستور الإسلامى :

وفى أكتوبر ١٩٧٧ انعقد المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة وأوصى أن يقوم الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية بصفة خاصة ، بوضع دستور إسلامى ليكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ الشريعة الإسلامية منهاجا لحياتها ، وطلب المؤتمر أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور ، أن يعتمد على المبادئ المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية ، كلما أمكن هذا .

وتنفيذا لهذه التوصية ، قرر مجلس مجمع البحوث الإسلامية بجلسته المنعقدة فى ١١ من المحرم ١٣٩٨ هـ الموافق ٢١ من ديسمبر ١٩٧٧ م إسناد وضع هذا المشروع إلى لجنة البحوث الدستورية الإسلامية بالمجمع ، على أن يدعى لهذا الاجتماع الشخصيات التى يمكن أن تسهم فى وضع هذا المشروع .

وبناء على ذلك ، قام فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المجمع - رحمه الله - بتكوين لجنة عليا ضمت بجانب السادة أعضاء لجنة البحوث الدستورية بالمجمع ، نخبة من كبار الشخصيات المشتغلين بالفقه الإسلامى والقانون الدستورى لتتولى هذه المهمة .

وفى ٢٧ / ١٢ / ١٩٧٧ و ٣ / ١ / ١٩٧٨ قررت هذه اللجنة العليا - تكوين لجنة فرعية تنبثق عن اللجنة العليا - لوضع الدراسة والبحوث ومشروع هذا الدستور ، على أن تقوم بعرض ما تنجزه من أعمال على اللجنة العليا .

وقد انتهت اللجنة الفرعية المذكورة من صياغة مشروع الدستور الإسلامى ، قبل وفاة الإمام الأكبر - رحمه الله - بثلاثة أيام .

تقنين الدكتور معتوق للحدود :

هذه هى صورة سريعة عن فكرة تقنين الشريعة الإسلامية ، وتاريخها والجهود التى بذلت بشأنها ، والدور الذى قام به الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية .

وليست هذه هى كل المحاولات والجهود التى قدمت فى السنوات الأخيرة لتقنين الشريعة الغراء . ولكن هناك جهودا أخرى مشكورة ، يجب أن تسجل .

فقد قام الدكتور إسماعيل معتوق - رحمة الله - حين كان عضوا بمجلس الشعب المصرى بتقديم مشروع قانون للحدود الإسلامية إلى المجلس المذكور .

وقد اشترك فى صياغة هذا المشروع بعض رجال الشريعة والقانون ، ومن بينهم فضيلة الشيخ صلاح أبو إسماعيل .

تقنينات وزارة العدل للحدود :

كما أن وزير العدل المصرى الأسبق المستشار عادل يونس — رحمه الله — قد أصدر قرارا وزاريا بتشكيل لجنة من نخبة من المستشارين القانونيين وعلماء الشريعة ، برياسة المستشار جمال المرصفاوى ، لوضع مشروع قانون الحدود الإسلام . وقد انتهت هذه اللجنة من مهمتها منذ أكثر من عامين .

جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية :

كذلك انتهت لجان تقنين الشريعة الإسلامية فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف من إعداد تقنين مدنى إسلامى مستمد من المذاهب الإسلامية المختلفة وهو تحت الطبع .

جهود البلاد الإسلامية فى التقنين :

ولم تقتصر جهود تقنين الشريعة الإسلامية على مصر وحدها ، ولكن هناك بلادا إسلامية أخرى بذلت جهودا مشكورة فى هذا المضمار ، فقد أصدرت ليبيا عدة تقنينات إسلامية فى باب الحدود . وهناك بلاد أخرى أنشأت لجانا لهذا الغرض ، وهى تباشر عملها فعلا . .

وهذه البلاد هى : الأردن والسودان وباكستان واليمن وقطر . .

* * *

هذه الجهود كلها ، جهود طيبة مباركة ، تبشر بالخير ، وهى خطوات هامة جليلة نحو تطبيق الشريعة الغراء فى البلاد الإسلامية . فهذه المشروعات تقضى على كل حجة كان يرددها من قبل معوقو تطبيق الشريعة ، حينما كانوا يتساءلون : أين مشروعات تقنين الشريعة الإسلامية التى تنادون بتطبيقها ؟

واليوم . . يقول الأزهر للمسئولين فى السلطتين التشريعية والتنفيذية : ها هى ذى مشروعات تقنين الشريعة بين أيديكم . لقد أدينا واجبنا ، وعليكم أنتم اليوم أن تؤدوا واجبكم نحو ربكم ونحو شعوبكم . . فاصدقوا النية ، والله يوفقكم .

محمد عطية خميس

صرخة فى الله إلى علماء دين الله !!

الأستاذ / محمد زكى إبراهيم

أصابع الاستعمار والصهيونية :

لقد علم أعداء الإسلام – من قبل ومن بعد – أن هذا الدين متين ، فلن يستطيعوا تدميره من الخارج أبدا ، وبذلك شهدت التجارب القولية والعملية . على اختلاف أنواعها وألوانها ، وها نحن أولاء نرى غاراتهم الفكرية والعسكرية والأخلاقية تتحطم بمجرد ارتطامها بجدار هذا الدين المحفوظ بأمر الله .

ولقد لجأ هؤلاء وأولئك إلى أخطر سلاح على طريق مقاصدهم ، فرصدوا الجهود المدروسة بدقة ، والمخطط لها بعلم ، والمؤيدة بالأموال السخية ، والآمال المغرية ، والموطأ لها بكل أسباب التعمية والتستر والصرفة .

هذه الجهود التى يبذلها (الاستعمار العالمى – والصهيونية العالمية – والإمبرالية الفكرية العالمية قد انحصرت الآن ، ومنذ فترة – فى محاولة تدمير الأمة من الداخل ، وبأيدى أبنائها ، وباسم دينها ، الذى هو كل شىء فى حياتها ، فحاربوا ولايزالون ، حاربوا بأيدينا نحن – فإنما بلغت دقة خططهم أن نفكر بعقولهم ، وأن ينفذوا بأيدينا – فنحن فيما نأتى أوندع لاإرادة لنا فى واقع الأمر ، على حين نعتقد تمام الاعتقاد أننا نحن الذين نخطط أوننفذ .

قلت : إنهم حاربوا بأيدينا محو الأمية الثقافية ، حتى بلغوا من ورائها إلى عدم محو الأمية الدينية . فضاع القرآن أوكاد ، واضطر الأزهر إلى قبول طلبة قد هزل محصولهم القرآنى والدينى ، فى محاولة لإنقاذ مايمكن إنقاذه من القرآن والدين ؛ وقد عايشنا حروب المصاحف المصحفة والمحرفة ، وعايشنا حروب فصل المواد الدينية عن مجموع مواد الامتحان ، فلايتوقف عليها نجاح ولارسوب ، وعايشنا تعمد تدريس مواطن الإثارة والشك والانفصام فى التاريخ الإسلامى بالكليات والمعاهد العليا ، كالقصد إلى (فتنة عثمان) وإلى (حروب على ومعاوية) وإلى تصوير

المسلمين فى صورة تترية زحفت لتخريب الحضارة ، واستقطاب الغنائم ، والتمتع بمناظر الدم المسفوح ! !

تحطيم الإسلام بأيدى المسلمين واسم الإسلام :

وبعد أن طاب لهم هذا ، وانتشرت الأمية فى شباب الإسلام ، وملئوا فراغها بالمذاهب الفتاكة من نحو الشيوعية والوجودية واللادينية والانحلالية ، وكان لذلك أثره المطلوب فى الشارع الإسلامى ووسائل الإعلام كلها من إذاعة وتلفزة ، وصحف ومجلات وكتب ومنشورات وسينما ومسارح ، حتى اطمأنوا إلى تحويل الثقل الجمهورى إلى جانبهم ، أرسلوا أصابعهم إلى مناطق الحساسية الكبرى من العقيدة ، وأثاروا نعرة المذهبية المتعصبة ، ونفخوا فى نار الفرقة ، وتمزيق الأمة وأثاروها شعوبية متوقحة ، لايقرها إسلام ولايرضاها مسلم

ويوم قامت حرب (لبنان) وكانت بين المسلمين وغير المسلمين ، حدثت رجلا يتزعم طائفة مسلمة بمصر ، أسأله ماذا يجب أن يقدم أعضاء الجماعات الإسلامية ، فى مصر لإخوانهم مسلمى لبنان ؟ فكان جواب هذا الزعيم أشد على نفسى من أهوال حرب لبنان وويلاتها .

إنه يقول : وماذا يعنينا ؟ إن المسلمين فى لبنان بين شيعى أوصوفى وكلاهما عدو لله ورسوله ، وإنما أراد الله بهذه الحرب أن يطهر الإسلام من هذين العنصرين ! ! ولايبق إلا (الموحدون) ! !

وحين دعونا الجماعات والهيئات الإسلامية إلى مؤتمر تطبيق الشريعة امتنعت من الاشتراك معنا هيئات كان عذرها ، أن فى القوامين على هذه الفكرة طوائف وأفراد (غير موحدين) ! ! والاشتراك معهم معناه الرضا بما هم عليه من (الشرك) ومن (البدعة) ! !

إلى مثل هذا الحد المذهل بلغ أعداء الإسلام من هدم الإسلام بأيدى المسلمين وباسم الاسلام ، ثم باسم التوحيد والسنة ! !

ومنذ فترة قريبة جاءنى صحفى يطلب منى حديثا ، وكان من أسئلته قوله : ألم يأن للمسلمين بعد أن يتخلصوا من تراث (أحفاد المجوس والروم) ومادخلوا به على الإسلام باسم خدمة علوم الإسلام ؟

وهذه الشعوبية المقزعة ، لم يذر قرنها المشئوم بهذه الصورة المخزية إلامنذ سنوات ليست بالبعيدة ، كأنه يشترط فى صحة إسلام المسلم أن يكون عربيا فقط ، وكأن غير العرب من المسلمين (فرسا) كانو أو

(هنودا) أو (روما) أو (مغاربة) أو (أوربيين) أو (أمريكيين) أو (أستراليين) أو (أفارقة) أو (اسكيمو) أو غيرهم ، كأن هؤلاء جميعا قد أغاروا على الإسلام واغتصبوه ودخلوه بغير حق واستعمروه وأن على العرب أن يجلوهم عنه ، وأن يطهروه من آثارهم الفكرية والعملية ، وأما قوله تعالى : (وماأرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) فقول له تفسير جديد عندهم .

شعوبية أخطر من الصهيونية والاستعمار

لقد أثارتنى وآلمتنى هذه (الشعوبية الحديثة) التى أوصلنا إليها أعداء الإسلام من حيث لاندرى ، وهم فى أبراجهم الخبيثة تكاد تتقطع أشداقهم من الضحك علينا ، والسخرية منا ونحن نتقاتل على خلافيات فروعية طبيعية لابد منها فى كل شريعة ، ولايمكن أبداً أن تمحى إلى يوم القيامة .

والذى يزيد الأمر خطرا وألما ، هو نقل أحكام (الجواز) و (المنع) إلى أحكام (الشرك والتوحيد) . إن الفروع محلها الحلال والحرام فنقلها إلى الكفر والإيمان هو نوع من الكفر بالإيمان ، أوالإيمان بالكفر ، جرتنا إليه العصبية المذهبية والانتصار للأفكار والاتجاهات الموروثة لسبب مقبول أومرفوض . وقد دفعنا ولايزال يدفعنا إليه خصوم الإسلام ونحن عن ذلك غافلون .

قلت لهذا الشاب الصحفى المسكين ليتك ياولدى لم توجه إلى هذا السؤال ، وأنت تقرأ قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقول رسول الله ﷺ «إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى ، وفاجر شقى ، أنتم لآدم وآدم من تراب» وقوله ﷺ وقد تمعّر وجهه غضبا «ليدعن أقوام فخرهم بأقوام إنما هم حطب من حطب جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن» .

إن أحفاد المجوس منهم من خدم الإسلام كما خدمه أحفاد أئمة الكفر من العرب من أمثال أبناء وأحفاد الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبى معيط وأبى لهب بن عبد المطلب ، وأبو جهل بن هشام وابن أبى بن سلول ! !

لقد كان من أحفاد الروم من رفع راية الإسلام حتى وصل إلى قلب أوربا ، ومنهم من حافظ على صورة الوحدة الإسلامية ، وخلافة المسلمين ، حتى كانت تركع أمامه ملوك أوربا وسلاطينها ، ومنذ بدأت هذه الشعوبية بما يسمى (النهضة العربية) ذلت العروبة ، وتمزق العرب ، وما زال يحيط

بهم الضعف والذل وسوء المنقلب .

ألم يأتك أن سيدنا رسول الله ﷺ ألحق به سيدنا سلمان الفارسي فقال : (سلمان منا أهل البيت) إنها حمية الجاهلية يرددها بغاوات البشر بلا تدبر ولا بينة .

أليس الإمام البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه والطبرانى والبيهقى والأكثرية الغالبة من رجال الحديث كلهم من غير العرب ؟ وكذلك طائفة من أكبر المفسرين كالزمخشرى والنيسابورى وطائفة من أكبر علماء البلاغة كالجرجانى والتفتازانى .

من هو طارق بن زياد ؟ وموسى بن نصير ؟ هذان المولیان اللذان أسسا للإسلام مجدا تاريخيا لا يمحوه الزمان من هو أبو حنيفة النعمان ؟ أليس من الموالى ؟ ولولاه ماكان لبنى (تيم الله) ذكر ولافخر .

إن إمام مصر الليث بن سعد أصله من أصبهان وإمام أهل السنة أحمد بن حنبل أصله من مرو ، والإمام المفسر الطبرى أصله من طبرستان ، والشعبى علامة التابعين ، وإمامهم كانت أمه أمة من جلولاء والحسن البصرى الكوكب الفرد كان أبوه من سبى ميسان .

وهذا علامة اللغة سيبويه والإمام الكسائى كلاهما فارسى الأصل وهذا الإمام الفراء من الديلم ، ثم إن ابن مسكويه وابن سيناء والفارابى كانوا فُرْساً أجمعين .

فقيه مكة ، عطاء بن رباح وفقيه اليمن طاوس بن كيسان وفقيه اليمامة يحيى بن أبى كثير وفقيه الشام مكحول ، وفقيه الجزيرة ميمون بن مهران وفقيه خراسان الضحاك ابن مزاحم . وفقيها البصرة والكوفة إبراهيم النخعى وابن سيرين ، كل أولئك ليسوا من العرب أصلا ، ولكنهم برّزوا فى جوانب العلم والفكر والمعرفة والدين بحيث كانوا الأئمة بكل ماق اللفظ من معنى يتجدد ولايفنى .

لاتنسوا الفضل بينكم :

إنما يتفاضل الناس بالأحلام ، لابالأرحام والناس عند الله سواسية كأسنان المشط والله يقول (ولاتنسوا الفضل بينكم) ولقد أمّر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد مولاه على جيش كان فيه أبوبكر وعمر وعندما أراد عمر أن يستخلف قال : لوكان سالم مولى حذيفة حيا لوليته !

تأمل هذا الموقف الكبير الخطير .

وهاهم أهل العلم لايكادون يذكرون ابن عمر ، إلاذكروا معه مولاه نافعا . ولايكاد يذكر أنس بن مالك إلاومعه

مولاه ابن سيرين .

ولايكاد يذكر ابن عباس إلاومعه مولاه عكرمة ولايكاد يذكر أبوهريرة إلاومعه مولاه ابن هرمز .

قضية الاختلاف الفكرى :

أما بعد فإن الاختلاف الفكرى كما قررنا وكررنا على الفروع الدينية ضرورة شرعية وطبيعية ، وإنه يستحيل استحالة مادية جمع الناس كلهم على مذهب واحد ، أورأى واحد (ولابالسيف) فى مسائل فرعية ظنية هى موضوع نظر واجتهاد بالفطرة ، ومادام مرجع الجميع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، والخلاف على الفرعيات إنما هو فى الفهم والتوجيه والترجيح ، وطلب الحق وخوف الله ، فلاخصومة قط ، ولاسوء ظن أبدا ولكن تفاهم على أساس الحب فى الله .

وقد اختلف الصحابة والنبى معهم على مثل الصلاة فى قريظة واختلفوا فى مصير أسرى بدر واختلفوا ومن بعدهم فى مثل مسائل «العول والكلالة وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها ، وسكن المبتوتة ، وتوريث الأخ الشقيق مع الأخ لأم ، واختلفوا فى زواج المتعة ، والطلاق الثلاث بلفظ واحد ، والطلاق المعلق على الفعل أوالترك ، واختلفوا فى قراءة المؤتم وفى عدد التراويح والوتر ، وفى السدل والقبض وفى صورة الأذان والتأمين والسلام ، وحتى حركة الأصبع فى التشهد . . إلخ» ولكل قول حجة ودليل .

ومع هذا فقد احترم كبار أئمة المذاهب آراء بعضهم بل قلد بعضهم بعضا أحياء وموتى ، فصلى الإمام الشافعى عند قبر أبى حنيفة بمذهب أبى حنيفة أدبا مع روحه ، وقلد أبو يوسف الإمام مالكا فى مسألة الماء المتنجس ، وقرظ الشافعى الليث بن سعد ، وقرظ أبوحنيفة أباسفيان الثورى والأوزاعى ، بل صلى الإمام ابن حنبل خلف بعض أئمة القدرية بلانكير . .

وهكذا لايعرف عن كبار الأئمة من طعن أخاه أو انتقصه أوأخرجه من دين الله بجرة قلم إذ ليس فى الدنيا مذهب كله خطأ ، أومذهب كله صواب (ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

فلما انتقل الأمر من اجتهاد فى التحقيق إلى تعصب وحزبية عارمة ، ووضع الناس الشاتم والساب والقذف بالفسق والتبدع والكفر والشرك ، بدلا من التقارب والتفاهم والعلم بما عند الآخرين ، إعزازا لهم وإبقاء على صلات أصول العقيدة ، واتحاد المقاصد ، كان هذا أخطر ماأصيب

به المسلمون من الأمراض الفتاكة .

لقد أدرك السابقون من أمتنا مدى سماحة الإسلام ويسره وصلاحيته لكل زمان ومكان وكل إنسان .. وهذا إمامنا الشافعي قد وضع مذهبه (القديم) بالعراق فى ظروف وأحوال خاصة ، فلما جاء إلى مصر فواجه ظروفاً وأحوالا أخرى ، وضع مذهبه (الجديد) فكلاهما إذن من الكتاب والسنة وكلاهما إذن صواب فى موضعه ، وللمجتهد الثواب على الخطأ والصواب .

وكان أبوحنيفة يقول : « نحن على صواب يحتمل الخطأ وغيرنا على خطأ يحتمل الصواب » وموقف مالك من الخليفة العباسى فى شأن كتاب « الموطأ » معروف فإن مالكا كره أن يفرض على الناس كتاب معين مهما كان صحيحا ، لمخالفة ذلك لمنهج الحياة وطبيعتها وناموسها الكونى ، فالخلاف إذن على الفروع طبيعة وشريعة مادام هناك ! اختلاف فى العقول والفهوم والبيئات والاستعدادات والصحة العامة والتربية والقابليات المختلفة والنفسيات والوراثات والظروف والطوارئ وغيرها وسيبقى الأمر كذلك إلى يوم القيامة (ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ومن زعم أنه يستطيع بالبيان أوالسلطان ، أوبهما معا حمل الناس على رأى واحد فى الفروع فقد خالف دستور الحياة وطلب مايستحيل أن يكون وبخاصة عندما يكون اختيار المذهب أثرا للتوافق الطبيعى بين المذهب والتكوين الذاتى للإنسان كما يفضل الإنسان طعاما أو شرابا أويتأذى من طعام أوشراب .

ثم إن الإنسان مكلف شرعا بالعمل بما وصل إليه اجتهاده ، واستقر عنده نظره ، ويكون هذا هو حكم الله فى حقه وحق من قلده ، حتى يتبين له خطأ ماذهب إليه اقتناعا يقين لايرده برهان وإن شئت فاذكر قصة صلاة العصر فى بنى قريظة وكيف اختلف الصحابة فى فهم أمر النبى ، وصلاها كل منهم حسبما فهم ثم لما احتكموا إليه ﷺ قرر أن كليهما على صواب ، وعلى هذا الأساس نحن ننظر إلى كافة مذاهب المسلمين فنحترمها ، ونعتذر عند أنفسنا لأصحابها ونقرب بالتوسط واليسر والاعتدال فيما بينها ، مادام خلافها على الفروع التى لايمكن الاتفاق عليها كما قدمنا بالطبع والشرع وقانون البحث العلمى الرفيع ، ونحن هنا نقول ماقال الإمام زيد[1] : « حسب الناس أن يجتمعوا على مايصير به المسلم مسلما » وذلك حفاظا على وحدة المسلمين التى لايكون بغيرها قوة

(١) أوهو الإمام جعفر الصادق على قول آخر

ولا عزة ولا سعادة .

ولهذا نعوذ بالله أن نتردى سفلا فنرمى مسلما بشرك أوردة أو ابتداع أوكفر ، من أجل اقتناع اجتهادى فى قول أوعمل فرعى ، ونعوذ بالله أن ننقل أحكام الحلال والحرام إلى الكفر والإيمان (كما هو شائع الآن عند بعضهم) ، تقليدا لمن تورطوا فى ذلك من قبل ، – غفر الله لنا ولهم – فليس هناك أحد يختار الخطأ ليقع فيه ، وليس أحد يعمل ماترجح صوابه عنده ليدخل به النار ؟ ! أوليفضحه به التاريخ ! ! والحق واحد ولكن الطرق إليه كثيرا ماتتعدد بلاتعارض ولا انحراف .

والإسلام الآن مستهدف لغارة مجنونة فاجرة تأخذه من الداخل والخارج ويعانى غزوا فكريا طاغيا ، وغزوا عمليا فعليا مريرا ، هو أولى بالجهد والوقت المضيع فى اجترار أسباب الفرقة وتأريث نيران العداء ، والاحتفاظ بمرارة الغل ، فى حنايا الصدور ، حقدا على أهل القبلة ، والله تعالى يقول : (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) .

وحين يكون الخطأ مستيقنا تجب النصيحة وتتعين بالدعوة بالحكمة ، وبالتى هى أحسن فدعوى احتكار الصواب والوصاية على دين الله ليست من العلم ولاالخلق ولاالدين ، أليس حسبنا ماجرتنا إليه الفرقة المذهبية من ضعف وتخلف ، وذل وتبعية ، وتخاذل وتنافر ، حتى طمعت فينا هذه (الكلاب الضالة) وعبث بنا (أبناء الأفاعى) ولاتزال تتداعى علينا المذاهب المدمرة من كل صوب وحدب .

أيها المسلمون لاترجعوا بعد نعمة الإسلام كفارا ، يضرب بعضكم أعناق بعض «حقيقة أومجازا» ، حسا أومعنى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) وإن الله سائل كل من ينفخ فى نار الفرقة وتمزيق الأمة ، باسم دعوة المذهب أومافوقها أودونها ، سواء كان عميلا أوصاحب عقيدة أومقلدا أوصاحب هوى ، ولعله لم يمر على الإسلام أيام هى أخطر من هذه الأيام فى كل ماسجله تاريخ الإسلام .

وهذه صرخة فى الله ، إلى علماء دين الله واسأل الله أن يجعل فيهم الخير فيسمعهم وأن يزداد هذا الخير فيكون لهم من كل ذلك موقف يرضى الله ورسوله ويرضى التاريخ ويرضى عقلاء المسلمين .

وقد بلغت ، اللهم فاشهد .

محمد زكى إبراهيم

المسلمون البلاليون فى الولايات المتحدة

سماحة الشيخ / عبد الله بن على المحمود

كان من يمن الطالع أن يحضر وفد من المسلمين الأمريكيين افتتاح مركز الدعوة الإسلامية بإمارة الشارقة برياسة زعيمهم « وارث الدين محمد » الذى اصطحب معه اثنى عشر رجلاً وثلاثا من النسوة فى أول رحلة لهم يتعرفون فيها على إخوة لهم فى العقيدة بالعالم العربى ويطلعونهم على أحوالهم ويشاورونهم فى مسار الحركة الإسلامية والصعاب التى يواجهونها . . .

هؤلاء المسلمون هم المسمون « بالبلاليين نسبة » إلى « بلال بن أبى رباح » رضى الله عنه . . وكانوا من قبل يعرفون باسم « المسلمون السود » ثم « أمة الإسلام فى الغرب » . . وترجع بداية هذه الجماعة إلى عام ١٩٣١ عندما ركب الباكستانى المهاجر « محمد فارض » دراجته حاملاً عليها بعض الأقمشة التى يتجر فيها مع الفقراء والعمال بمدينة « ديترويت » مركز الصناعات الكبرى فى الولايات المتحدة الأمريكية . . وأخذ الرجل يبيع بضاعته تارة ويعرض عقيدته على الناس تارة أخرى حتى آمن معه نفر قليل وكان إيمانهم خليطاً من مفاهيم شتى بعضها إسلامى وبعضها كنسى وبرهمى . . وهكذا شب تابعه (ايلاجا محمد) على اعتناق الإسلام المغلف بكثير من الخرافات والترهات . . ولكن الرجل مالبث أن نشط فى دعوته واستطاع أن يستقطب نفراً كثيراً من حوله حتى إذا كان شهر أبريل عام ١٩٧٤ ومطلع يوم العاشر منه صعدت روح (ايلاجا محمد) إلى بارئها تاركاً خلفه مليونين ونصف مليون من الأتباع واثنى عشرة مدرسة وأربعين متجراً ومصرفين وثلاث محطات للإذاعة وصحيفتهم الرسمية المسماة « محمد يتكلم » Mohammad Speak بالإضافة إلى ست مزارع كبرى فى شيكاغو ونحو اثنى عشر ألفاً من الشباب المدربين على حمل السلاح والمنتظمين فى تشكيلات عسكرية تسمى « ثمار الإسلام » وهم يعتقدون أن واجب المسلم ألا يلقى سلاحه أبداً ؟ ؟ وشعارهم

قوله تعالى (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . . هذه الجماعة هى التى قالت عنها مجلة (التيمس) منذ عامين أنها الولاية الواحدة والخمسون التى تتألف منها الولايات المتحدة الأمريكية ؟ ؟ . . والمعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية عددها خمسون فقط وأن البلاليين لكثرتهم يؤلفون ولاية أو أمة إسلامية داخل الأمة الأمريكية على الجانب الغربى من الأطلنطى ؟ ؟

وما أن حمل « وارث الدين محمد » تبعات المسئولية عن أبيه حتى راح بعزم ومضاء ينقل جماعته إلى العقيدة الصحيحة السمحاء وبدأوا يمارسون الصلوات الخمس فى جمع وجماعات وكانوا من قبل لايؤدونها وشاركوا ألف مليون مسلم صوم رمضان وكانوا لايشهدون هذا الشهر ولايصومونه ويعتزمون هذا العام أداء فريضة الحج لبيت الله الحرام مستأجرين ثلاث طائرات عملاقة « جامبو ٧٤٧ » لنقل أول فريق ممن استطاع إليه سبيلاً . . وسموا دور عبادتهم مساجد بعد أن كانت تسمى معابد وتحولت صحيفتهم السياسية إلى صحيفة إسلامية حديثة باسم « أخبار البلاليين » Bilalian News وأن مصارفهم الربوية المسماة (البنوك الضامنة) سوف تنتقل فى القريب إلى مصارف إسلامية لاربوية إثر موافقة السلطات المعنية على التماساتهم المقدمة بهذا الخصوص .

لقد زرنا هذه الجماعة وعايشنا زعماءها فى دورهم وعرفنا احتياجاتهم من دعاة ومثقفين - ومعلمين ومرشدين . . وأحسب أن هذه الجماعة هى أمانة فى أعناق المسلمين حاكمين ومحكومين . . ويوم أن تتوافر لهذه الجماعة الإمكانيات التى ينشدونها سوف يكون للاسلام قومه وتكون للمسلمين دولة . . إن أربعة ملايين يهودى فى الولايات المتحدة الأمريكية هم سند إسرائيل فى حملاتها على الساسة الأمريكيين رهباً ورغبا . . إن أصواتهم وأموالهم هى كل عدتهم فى الحلبة السياسية . . والآن وقد ساق الله للمسلمين أمة قوامها مليونان ونصف مليون من المهللين المكبرين فالرجل منهم بعشرة من الآخرين وحال ضعفه برجلين . . إنهم ثروة هائلة ينبغى استثمارها .

إن الدول والأقطار تنفق الملايين لشراء عملاء لهم يناصرونهم ويؤازرونهم . أما هؤلاء البلاليون فهم دعاة لله ولرسوله وللمؤمنين . . دعاة دون درهم ولا دولا . . ؟ لقد فطن المسئولون بالشارقة لأهمية هذه الجماعة ومدى فاعليتها حاضراً

ومستقبلاً فشدوا – إليهم الرحال وفى أغسطس عام ١٩٧٥ حمل شيخ الشارقة سلطان بن محمد القاسمى «معوله» وأخذ يضرب به فى الأرض والتراب يهال على عباءته وسط هتافات الألوف من الرجال والنساء الأمريكيين مرددين الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر كبيراً.. وحمل الأمير العربى أحجاراً على كتفه ووضعها لتكون أساساً لمسجد ومركز إسلامى يضم مكتبة ومدرسة ومشغلاً ومستشفى وسوقاً تجارية ومطبعة.. على مشارف بحيرة متشيجن فى قلب شيكاغو وعلى مسطح يتجاوز ستة أفدنة قدمتها محافظة الولاية إسهاما فى التطوير العمرانى لها.. وتقدر التكاليف الأولية لهذا المجمع بنحو أربعة عشر مليون دولار قدم رئيس دولة الإمارات منها نصيباً وقدم شيخ الشارقة نصيباً آخر وسوف يبدأ العمل فى المشروع مع مطلع العام الهجرى القادم.

المسلمون الحنفيون فى الولايات المتحدة الأمريكية:

هذا وقد أسهم مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة فى فض الصراع وفك الحصار الذى فرضه المسلمون الحنفيون على مراكز ثلاثة فى العاصمة الأمريكية واشنطن يومى التاسع والعاشر من مارس ١٩٧٨ واحتجزت فيه رهائن تجاوز عددها ١٥٩ رهينة.. واثر اتصالات هاتفية مكثفة مع رئيس الجماعة «حماس عبد الخالص» وأمينها العام «عبد العزيز خالص» ووكيله «عبد المذكر» رفض المسلمون الحنفيون ماعرضه عليهم السفراء المسلمون وزعماء الصهاينة فى مقر قيادتهم الحالى والمسمى بناى بريث Bnai Breth وردوا إليهم عرضهم تقديم فدية قدرها خمسون مليونا من الدولارات وطائرتين لنقل الحنفيين إلى مكان ما فى الخليج العربى وقالوا إنما قمنا غضبة لله ولدينه ولرسوله.. وإذا قبلنا المال وآثرنا الفرار كنا كسائر الإرهابيين الذين لايحملون عقيدة ولايدينون بالحنفية السمحاء..؟ وأطلقوا سراح الرهائن جميعاً دون المساس بأحد إثر سماعهم لقوله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله..)؟ وقد أجاروهم بعد أن أسمعوهم الكثير من أحكام الله وقرآنه وأحاديث نبيه محمد ﷺ..

أما لماذا أقام هؤلاء الحنفيون بغضبتهم العقائدية تلك فرد ذلك إلى ماحكاه لنا الأمين العام «عبد العزيز خالص» عند زيارته لنا بالشارقة.. قال لقد فوجئنا

بإعلان فى جميع الصحف الأمريكية عن عرض لفيلم الرسالة أو فيلم محمد رسول الله الذى أفتى علماء الأزهر ورجال رابطة العالم الإسلامى بعدم جواز عرضه لما فيه من وقائع محرفة وأقوال مثيرة منسوبة لكرام الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فضلاً عن أن المكان الذى اختير لعرض هذا الفيلم هو شارع (برودواى) فى إحدى دور الخيالة التى تعرض فى نفس الحفل فيلم الرسالة وفيلماً آخر عن الشذوذ الجنسى بين الرجال وبطل الفيلمين واحد هو الممثل الأمريكى (انطوانى كوين) . . ؟؟ وكان هذا بمثابة سب علنى للإسلام ولنبى الإسلام ولمعتنق الإسلام فى كل مكان . . ؟؟

وأرسل الحنفيون رسائل وبرقيات للمسئولين فى العاصمة الأمريكية وفى مقر رياسة الصهاينة القائمين على شئون الخيالة وللمركز الإسلامى فى واشنطن يطلبون إليهم العمل على وقف هذا العرض ولكن لم يحظ هؤلاء بجواب لا من هنا ولا من هناك . . واعتزم هؤلاء إيقاف هذا الفيلم ولو بالقوة وكانت غضبتهم العقائدية التى استنفروا فيها اثنى عشر رجلاً حملوا بنادقهم وفى مطلع صباح التاسع من مارس حاصروا بناية (بناى بريث) واحتجزوا فيها (١١٤) مائة وأربعة عشر رهينة من كبار الصهاينة ورجال المصارف اليهود وستة من أعضاء الكنيست الإسرائيلى كانوا فى زيارة لهم . . وبعد ساعة أخرى حاصروا مقر العاصمة الأمريكية وجردوا حراسه من أسلحتهم واحتجزوا فيه محافظ العاصمة وكبار معاونيه وبعضاً من رجالات الإعلام ثم حاصروا مكاناً آخر واحتجزوا فيه رهائن أخرى .

وقسمت العاصمة الأمريكية أقساماً ثلاثة وحاول الرئيس الأمريكى مرتين محادثة زعيمهم « حماس عبد الخالص » الذى رفض أن يرد عليه واستجاب لنداء أخ له فى العقيدة السمحاء طلب إليه أن يفض هذا الحصار وأن يعيد الأمن والطمأنينة للبلاد وأن يقبل العهد والأمان الذى عرضه عليه السفراء إذا هم أطلقوا الرهائن دون أذى فى الأرواح والأبدان .

وانتهت الغضبة العقائدية نهـــاية منقطعة النظير؟؟ . . قبل حماس عبد الخالص العهد والأمان الذى عرضته عليه السلطات الأمريكية بواسطة السفراء ولكن هذا العهد مالبث أن نقض وألقى القبض على حماس عبدالخالص وقدم ورفاقه للمحاكمة وصدرت عليهم أحكام فريدة فى نوعها فقد أصدر القاضى (انتربو) الحكم بالسجن لمدة ٢٦ عاماً على

الأخ . عبد المذكر وعلى رفاقه بأحكام مماثلة أما زعيم الجماعة فقد كان نصيبه السجن (٤٤) عاماً ودية وغرامات تتجاوز فى مجموعها أربعة ملايين ونصف مليون من الدولارات . . ؟ ؟

والغريب أن المحكمين قد برءوا ساحتهم فى أول اقتراع ولكن القاضى (انتريو) المنتسب لأمه اليهودية قد طلب إليهم إعادة الاقتراع ثانية وأمهلهم يومين آخرين . .

ومارسوا على المحلفين جميع أساليب الضغط حتى تحول اقتراعهم الثانى إلى الإدانة والتجريم بالإجماع بعد أن كان البراءة والتغريم . . وهكذا اهتز ميزان العدالة فى دولة ترفع شعار العدالة وحقوق الإنسان وتتهم سواها بالتجبر والتحيز والاستبداد . . ؟ ؟

لقد اضطر مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة إلى الوقوف مع هؤلاء الحنفيين فى محنتهم وأرسل من يناشد جماعة العفو الدولية التدخل فى هذا العدوان الصارخ على حقوق الإنسان وسوف يجند لهم كبار المحامين ليدافعوا عنهم فى قضية الاستئناف الكبرى التى نأمل أن تشد انتباه سائر المسلمين فى الأرض . ليدافعوا عن إخوة لهم ثاروا فى غضبة عقائدية من أجل الدفاع عن الإسلام الذى أوشك المجرمون أن ينالوا منه . . ولكن الفيلم توقف عن العرض وحاش لله أن يجتمع الطهر والفجور والعفة والشذوذ فى دار خيالة واحدة حتى وإن كانت فى برودراى . . ؟ ؟

* * *

إن مركز الدعوة الإسلامية بالشارقة يسره أن يعلن عن العقيدة الصحيحة السليمة السلفية الخالصة لهؤلاء الحنفيين فمنذ نشأتهم من عشرة أعوام مضت وهم سائرون على الهدى الصحيح والإرشاد الخالص ومعلمهم ومرشدهم دكتور « أحمد ناسيورى » البنغالى المسلم الذى تلقوا عنه العقيدة . . إنهم متمسكون نصا وروحاً بالكتاب والسنة . . إنهم سنيون حنفيون (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

وكتاب حماس عبد الخالص المسمى « انظر وتأمل » يعتبر ذروة للتعاليم الإسلامية الصحيحة بما يتفق والعقليه المادية الحضارية الأمريكية . . إننا نعتزم بحول الله إعادة طبعه وتوزيعه على الناطقين بالإنجليزية من المسلمين وغير المسلمين والله ولى التوفيق .

عبد الله بن على المحمود



سماحة الشيخ عبد الله بن علي المحمود

في سطور

● من مواليد الشارقة سنة ١٣٣٥ هـ .

● كان والده من كبار العلماء ، وقد تكفل بتعليم الكثير من الطلاب على نفقته الخاصة وإرسالهم إلى مختلف الأقطار الاسلامية كمصر ، والعراق والسعودية فقد كان ولده من كبار تجار اللؤلؤ في الخليج كله .

وقد ورث الشيخ عبد الله عن والده مروءته وعلمه . ودينه ، وبيته في مدينة الشارقة ملتقى العلماء والأدباء وزعماء المسلمين في العالم كله .

● اشتغل فترة بالقضاء . ثم اختير مديراً للأوقاف والشئون الإسلامية فرئيساً لمركز الدعوة الإسلامية . وعضواً بالمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي .

● اشترك في كثير من المؤتمرات الإسلامية في العالم الإسلامي وفي أوربا وأمريكا .

● من مؤلفاته : الأسرة السعيدة ، وحقوق الإنسان في الإسلام والمذاهب المعاصرة .

الإسلام في خطر

الدكتور حسين مؤنس

(١)

من عيوبنا أننا نستريح إلى توسد ذراعنا والاستسلام للنوم حاسبين أن المقادير تتولى أمورنا وتحل مشاكلنا ، حاسبين أن المشاكل لابد أن تحل نفسها مع الزمن .

وهذا العيب يتجلى بصورة أوضح فيما يتعلق بالإسلام ومصيره . .

فنحن نؤكد لأنفسنا ليل نهار أن عالم الإسلام فى زيادة مستمرة ، وأن أعداد المسلمين فى صعود مضطرد ، لأن الإسلام كما تعودنا ينشر نفسه بنفسه ، فهو دين سمح يفتح الله له قلوب الناس ، وله كما يقول المستشرق جان سوفاجيه قوة انفجارية هائلة .

وفى أكثر من كتاب من كتب المهتمين بمسائل الأديان يوصف الإسلام بأنه دين مناضل . .

وهذا كله حق . .

ولكن الذى ليس بحق بحال من الأحوال ، هو أننا نكتفى بترديد ذلك والاكتفاء به . .

وإلى الأمس القريب كان الإسلام يشق طريقه فى قوة وعزم معتمداً على فضائله التى أودعها الله فيه ، وقدرته على فتح مغاليق القلوب . .

وكانت هذه القوة الدافعة تثير الرعب فى نفوس أعداء الإسلام ، فعندما أنهت أوربا سيطرتها على أفريقية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وتدفقت جماعات المبشرين على القارة الأفريقية كانوا يحسبون أن أمر الإسلام قد انتهى فى أفريقية لأنهم سيعرفون كيف يمحونه من مستعمراتهم محوا كما ظنوا . .

ووضعت دول الاستعمار إمكاناتها كلها فى حرب الإسلام ، وانهالت الأموال على هيئات التبشير ، واشتدت الحرب على الإسلام فى أفريقية . .

وفى أواخر القرن الماضى ، تكشفت الأمور عن حقيقة أذهلت أهل الغرب كله : برغم كل هذه الجهود انتشر الإسلام

(١) من مجلة الهلال المصرية

أكثر فأكثر .. فى أفريقية المدارية والاستوائية تضاعفت أعداد المسلمين بين ١٨٤٠ ، ١٩٠٠ .. كانوا يقولون فى إحصائياتهم إن المسلمين فى غرب أفريقية السوداء يصل عددهم إلى ٢٠ مليونا ، وكان هذا تدليسا منهم ، فإن العدد الحقيق كان قريبا من ضعف ذلك العدد.

ولكن الأمر الذى روعهم أنهم اكتشفوا فى إحصاء عملوه سنة ١٩١٢ أن أعداد المسلمين فى الغرب الأفريقى جنوب الصحراء وصل إلى ٦٠ مليونا منهم ٢٥ مليونا فى نيجيريا وحدها.

وقرب نهاية عصر الاستعمار كان هناك تسليم بأن الإسلام فى أفريقية لايقهر.. وبدلا من أن تتجه جهود المبشرين إلى تنصير المسلمين اتجه الاهتمام إلى ترك الإسلام يسير فى طريقه وتوجيه الجهد نحو نشر المسيحية بين الأفريقيين.

مسالك الإسلام فى أفريقية :

ولكنهم حرصوا فى نفس الوقت على إيقاف كل عمل من شأنه المعاونة على انتشار الإسلام . ومن هنا فقد وضعوا قيودا على تشييد المساجد ، وأوقفوا تعليم اللغة العربية (حتى فى تونس والجزائر) ، ورفضوا الموافقة على إنشاء الجمعيات الإسلامية وأقفلوا أبواب مستعمراتهم فى وجوه المسلمين دعاة كانوا أم غير دعاة ، ثم إنهم وضعوا قيودا على حركة التجارة بواسطة القوافل ، لأن قوافل التجارة لها أكبر الفضل على انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية عامة وفى أفريقية المدارية والاستوائية خاصة ، ثم جنوبى خط الاستواء.

ومن المعروف أن الإسلام وصل إلى أفريقية جنوبى الصحراء بواسطة طرق التجارة الرئيسية التى تعبر الصحراء وأهمها ثلاثة طرق :

- طريق الساحل الغربى بمحاذاة شواطئ الأطلسى وقربها من جنوبى المغرب الأقصى (جنوب وادى درعة إلى وادى السنغال) .

- طريق الوسط عبر الصحراء : من طرابلس وغدامس جنوبا إلى فزان ثم كوار ثم منطقة بحيرة تشاد .

- طريق الشرق عن طريق وادى النيل ثم من سنار إلى الفاشر إلى وادى ثم إلى بلاد البورنو والكانم .

وعن هذه الطرق الثلاثة نشأت الجماعات الإسلامية الكبرى فى أفريقية على جانبى مدار السرطان . ثم إلى خط الاستواء (قبائل الماندنكى والسوننكى فى السنغال

وغمبيا وغينيا وسيراليون وغانا وتوجو وداهومى والنيجر وفولتا والكرون والجابون وتشاد وأفريقية الوسطى والكونغو برازافيل وشمال زائيرى .

أما الإسلام فى شرق أفريقية جنوب السودان النيلى فقد وصل عن طريق السارون إلى البحر الأحمر وقرن الصومال .

ومن هنا وصل الإسلام إلى مجموعات القبائل الكبرى فى شرق أفريقية : الشلوك والدنكا واللو واللانجو (فى جنوبى السودان) وفى منطقة البحيرات وجنوبها (قبائل الماسى والفاندى والصومالى والجالا والدوندى والفيانزا والكيكويو والتشاجا والجدسا وما إليها .

وهذه كلها ليست قبائل ، وإنما مجموعات قبلية كبرى ، وكان الإسلام قبل عصر الاستعمار وبعده ينتشر فيها انتشارا سريعا بفضل قوافل التجارة فى الغرب والوسط ثم بفضل الهجرات العربية (فى شرق أفريقية)

موقف الإسلام اليوم

وفى نهاية عصر الاستعمار (خلال الستينات) كان سكان أفريقية فى مجموعهم يقدرون بحوالى ٣٠٠ مليون نسمة وعددهم فى أوائل السبعينات ٣٣٥ مليون نسمة مقسمون كما يلى :

شمال أفريقية	٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠
أفريقية الوسطى	١٠٧ ٠٠٠ ٠٠٠
شرق أفريقية	٧٢٠٠٠ ٠٠٠
وسط أفريقية الغربى	٣٥,٨٠٠,٠٠٠
جنوب ووسط أفريقية	٤٧,٧٠٠,٠٠٠
مدغشقر	٦,٥٠٠٠٠٠
المجموع	٣٣٥,٠٠٠ ٠٠٠

ومن مجموع سكان أفريقية كان عدد المسلمين يقارب النصف ، أى حوالى ١٦٠ مليون مسلم (بما فى ذلك مصر والسودان والمغرب وموريتانيا ومالى والصومالات وأريتريا وهى بلاد إسلامية عربية)

وكانت المؤشرات تدل على أن الإسلام فى تقدم مستمر فى المناطق التى ذكرناها وأنه فى نهاية القرن سيكون ثلثا القارة مسلمين وبهذا تنحسم معركة الصراع الدينى والفكرى الخطيرة فى أفريقية لصالح الإسلام والعروبة بالتالى .

وقد قرر ذلك واحد من أعظم الباحثين الفرنسيين فى شئون الإسلام فى أفريقية وهوفنسان مونتاى .

ماذا حدث عند الاستقلال :

حدث أن المستعمر الأوربى عندما قرر

أن يتخلى عن المستعمرات قرر أن تظل فى دائرة نفوذه وربطها إليه ثقافيا واقتصاديا وكان الدين عنصرا رئيسيا من عناصر هذه السياسة ، إذ أنهم كانوا يعرفون أن عدوهم الحقيقى فى أفريقية هو الإسلام وأن المسلمين أصحاب عقيدة حضارية قوية وشخصية لايمكن القضاء عليها ، ثم أنهم المؤسسون لأعظم الحضارات الأفريقية قبل الاستعمار .

فى غرب أفريقية مثلا أقام المسلمون الأفريقيون ثلاث دول كبرى هى غانة ومالى ومنغاى .

وفى وسط أفريقية المدارية أقام المسلمون مملكتى البورنو والكانم ، وفى شرق أفريقية دخلت فى الإسلام أقوى القبائل التى قاومت الاستعمار الصومالى والغاندى والجالو والمساى . وكانت كل قبيلة من هذه – ومازالت – مملكة ورئيسها يسمى بالفعل ملكا .

وفى إقليم نيجيريا كانت القبائل الكبرى هى الإسلامية : الفولا والحوصا (الهاوزا) والكنورى والكوكاوا .

لهذا حرص الاستعمار على أن يهمل هذه القبائل والممالك الإسلامية وأن يوجه همه إلى الأقليات التى استطاع أن ينصّر بعض أفرادها . .

فاجتهد فى تعليم هؤلاء الأفراد وتدريبهم على العمل ، وعندما خرج المستعمرون عهدوا إليهم فى الأمور عن طريق « انتخابات سليمة » أجرتها سلطاته تحت رقابة الأمم المتحدة .

لهذا وجدنا أنفسنا فى معظم بلاد أفريقيا أمام سلطة حاكمة مسيحية تعمل على إيقاف تقدم الإسلام .

حتى فى بلد مثل نيجيريا كانت السلطة فيه فى يد المسلمين فى نهاية الاستعمار قامت ثورة دبروها هم بأيديهم للإطاحة برؤساء البلد من المسلمين .

هنا ندخل فى النقطة الهامة من هذا العرض ، وهى أن هناك سياسة غير منظورة سياسة مدبرة يجرى تطبيقها بنظام ، وهى الوقوف فى وجه الإسلام .

سياسة مرسومة لحرب الإسلام :

ولابد أن نلفت النظر هنا إلى حقيقة هامة هى أن الإسلام بالذات من دون الأديان ينتشر بالقبائل أى أن القبائل تسلم كلها إذا انتشر بين رؤسائها ، ورؤساء القبائل الحقيقيون هم التجار ، وهم أصحاب الأموال .

حقًا إن كثيراً جداً من القبائل منظمة على أساس أنها دول داخل الدول وفى كثير

من الحالات يحمل رئيس القبيلة لقب الملك كما قلنا ، ولكن القوة الحقيقية فى بلاد أفريقية الإسلامية فى يد التجار فقبائل الولف والسوفنكى والماتنكى والبارمبارا والفولا والديولا والبامبارا فى غرب أفريقية كلها إسلامية وكلها كذلك قبائل اشتهرت بالمهارة التجارية ، ورجالها يسيطرون على اقتصاد البلاد .

وقبائل اليوروبا (فى غانا وفولتا العليا وتوجو وجنوب نيجيريا) لم تسلم قط ، وكانت من أفقر قبائل غرب أفريقية ولكن المبشرين يعملون اليوم على تنصيرها واستخدامها فى محاربة سير الإسلام .

ومن أظهر الأمثلة على ذلك قبائل الإيبو والتيف والأودو حول خليج بنين فى نيجيريا ، وكلنا نذكر ماذا حدث فى نيجيريا من مقتل أحمد بالبو إلى دكتاتورية جون إلى ثورة هذه القبائل التى أرادت أن تحطم وحدة نيجيريا وتستقل بإقليم بيافرا مكونة دولة مسيحية تناوئ نيجيريا المسلمة .

والهدف الرئيسى هنا هو تحطيم وحدة نيجيريا خوفا من أن تتحول كلها إلى الإسلام وتصبح نيجيريا بسكانها الستين مليونا قوة إسلامية ضخمة وسط أفريقية المدارية والاستوائية .

وأمامنا كذلك مأساة تشاد ، وهو بلد غالبية سكانه مسلمين ولكن الفرنسيين أرادوا أن يظل تحت حكم ربيبهم فرانسوا تومبلباى .

وهناك مجموعة من بلاد أفريقية يقف الغرب وراءها ويعطيها قدرا يستوقف النظر هى كينيا وتانزانيا وزامبيا وملاوى لأن هذه البلاد تحكمها أقليات غير إسلامية .

ووراء هذه الأقليات الحاكمة تقف الهيئات المسيحية كلها وخاصة البابوية ومجلس الكنائس العالمى الذى حاول من سنوات التدخل أيضا فى شئون جنوب السودان تدخلا لايخدم صالح الوطن السودانى .

ووراء ذاك التأييد لتلك البلاد أذن مصالح غير اسلامية ، بعبارة صريحة : هذه السياسة كلها مرسومة للقضاء على الإسلام .

وفى هذه البلاد جماعات اسلامية ضخمة ولكن الحكومات لاتشجع الإسلام ولاتؤيده ، وفى تنزانيا بالذات قضت السياسة على استقلال زنجبار لأنها كانت مركزا لأنتشار الاسلام .

والحكم هناك يقوم بالفعل على تأييد قبائل غالبيتها وثنية . وانظر مثلا إلى الهجوم الضخم على عيدى أمين وحكومة أوغندا .

كانوا جميعا صامتين على أعمال ملتون أوبوتى لأنه كان من قبيلة مسيحية وكان واحدا من زمرة المقاومين للاسلام وكان يحاول أن يدفع المسيحية إلى الأمام وعيدى أمين مسلم من قبيلة اسلامية لهذا يشنون عليه كل هذه الحرب .

الإسلام الأفريقى فى خطر :

هناك إذن عامل دينى وراء كل سياسات البلاد الأفريقية فى البلاد التى تستولى على أزمة الحكم فيها هيئة غير إسلامية ، فهى بكل صراحة تعلن الحرب على الإسلام : توقف أعمال الدعوة ، تضع العقبات أمام الهيئات الإسلامية ، تضع الصعوبات أمام تعليم المسلمين ، ولاتنظر الدول بالارتياح لتعليم اللغة العربية .

ودعنا هنا من الخطب التى تلقى فى اجتماعات مجلس الوحدة الأفريقية

توقف تقدم الإسلام فى أفريقية ككل :

وفى أيامنا هذه توقف تقريبا توسع الإسلام فى أفريقية جنوبى الصحراء . توقف ونحن نائمون مطمئنون إلى أن الإسلام يسير إلى الأمام كما عهدناه .

الزيادة فى أعداد المسلمين هى الزيادة التى تأتى من مواليد المسلمين لامن دخول ناس جدد فى الإسلام .

فى نفس الوقت تضاعف الهيئات التبشيرية نشاطها بكل قوة فيما بين الحكومات – أرجو القارئ أن يصدقنى عندما أقول هذا الكلام – ستنكره الهيئات المسئولة عن الدعوة الإسلامية ، ولكنها لاتستطيع الاعتراف بأنها تخسر المعركة حقًّا . .

فى أفريقية المدارية والاستوائية باستثناء زائيرى كان المسلمون عشرة أضعاف المسيحيين ، واليوم أصبح المسيحيون أضعاف المسلمين . المعركة اليوم تدور حول كسب ٧٠٪ من سكان أفريقية وهم وثنيون إلى الإسلام أوالنصرانية .

هؤلاء الوثنيون كسبوا هم كثيرا جدا فى كل منطقة فى حين أننا نحن نتراجع ونريد أن نقول إن مستقبلنا – أى مستقبل غرب أفريقيا – متوقف على نتيجة هذه المعركة ، من يكسب الأغلبية الدينية يكسب .

الأزهر لم يوفق مع الأسف فى رسم سياسة أفريقية ولافى تنفيذ مايقوله رجاله المسئولون عن الدعوة .

وهيئات الدعوة للإسلام فى كل بلادنا العربية تقف وراء الأزهر بكثير فى هذا المجال .

سيقولون : انظروا إلى المراكز الثقافية التى انشأناها .

انظروا إلى أعداد المبعوثين الذين نعلمهم .

انظروا إلى وسائل التأييد التى تتلقاها .

ونقول لهم :

كل هذا الكلام نحن نعرفه وأنتم تعرفون حقيقته .

وحرام أن ندافع عن أنفسنا ونضحى بالإسلام ، وكلكم تعرفون أنكم تخسرون المعركة فى أفريقيا وفى آسيا .

مستقبل العرب فى أفريقية متوقف على نتيجة هذه المعركة :

إذا سارت الأمور على هذا المنوال سنجد أنفسنا فى أفريقية ١٥٠ مليونا فى مواجهة ٣٠٠ مليون غير مسلم على الأقل .

هنا يتزعزع مركز العرب فى القارة والعالم كله تبعا لذلك – هذه حقيقة – ينبغى أن نضعها نصب أعيننا .

وحقيقة أخرى لاتقل أهمية عن هذه ، وهى أن معظم المعلومات التى تذاع عن أفريقية وعن أديان أهلها معلومات كاذبة هدفها تصوير القارة على أنها قارة غالبية سكانها مسيحيون أى غربيون .

فنحن نعرف مثلا معرفة يقين أن سكان نيجيريا الآن ٦٢ مليون نسمة منهم أربعون مليونا على الأقل مسلمون ، بينما تقول الإحصاءات الرسمية إن عددهم ٢٠ مليونا .

وهناك حقائق أخرى تستأذن القارئ ألانذكرها لأنها تثير عواصف سياسية نحن فى غنى عنها الآن .

والعمل ؟

العمل هو أن نضع أمام أعيننا هذه الحقيقة : إما أن يكسب الإسلام معركة أفريقية أو أن مستقبلنا فى هذه القارة سيكون حرجا من أوائل القرن الحادى والعشرين بدلا من توجيه نشاط الدعوة الإسلامية إلى داخل البلاد العربية – والإسلام فيها بخير – ينبغى أن يوجه النشاط إلى أفريقية أولا ثم إلى آسيا ثانيا .

إن القاهرة أودمشق أوحلب أوالكويت أوتونس أوالمغرب حافلة بالمساجد ، فإذا أردنا أن ننشئ مسجداً فلنبنه فى بلد أفريقى ، لأن الإسلام ليس فى خطر فى حى الحسين ولكنه فى خطر فى نيجيريا وفى غينيا وتشاد وتنزانيا وزامبيا وملاوى وفى كل غرب أفريقية .

والذين يرسمون خطط إنشاء المساجد فى مصر مثلا عليهم أن يعرفوا أن هناك قبائل أفريقية مسلمة كاملة لاتجد مسجدا واحدا تصلّى فيه .

وهل تعلم مثلا أن مسجداً إسلاميا كبيراً واحداً كالذى بنته البلاد العربية فى السنغال كان له أبعد الأثر فى تقوية مركز المسلمين هناك ؟

من رأيى أن توقف إنشاء المساجد داخل عالم الإسلام وأن نوجه العمل كله خارج عالم الإسلام فى أفريقية وآسيا .

إن المساجد هى قواعد انتشار الدعوة الإسلامية . وهناك مساجد قامت بها جيوش فاتحة خذ مثلا مسجد القرويين فى فاس فهذا المسجد كان ذا أثر حاسم فى نصر الإسلام النهائى فى المغرب الأقصى حتى آخر منطقة الصحراء التى كانت بالأمس إسبانية والآن انضمت إلى عالم الإسلام .

وجامع الفاشر فى كردفان فى جنوب غربى السودان « فتح » للإسلام بلاد وادى القديمة وثبت الإسلام فى بلاد تشاد حيث قامت مملكتا البورنو والكانم الإسلاميتان .

وهل هناك إهانة للإسلام فى أفريقيا هى أشد ألما من سيطرة بلد متأخر هو الحبشة على شعب إسلامى عربى كامل هو الشعب الاريترى .

إن أوربا كلها وراء هذه المأساة . . كانت وراءها أيام هيلاسلاسى ، وهو دون شك كان من ألد أعداء الإسلام ، وكان الغرب كله يؤيده لهذا السبب .

وقد أخطأنا خطأ جسيما عندما وافقنا على أن تكون أديس أبابا مقرًّا لمجلس الوحدة الأفريقية .

وعندما وقع الانقلاب وتخلى الغرب عن الحبشة أسرعت روسيا السوفيتية لتقف إلى جانب منجستو مريم . .

أليس هذا كافيا لكى يفتح المسلمون أعينهم . .

والذين يجهدون أنفسهم فى إنشاء جماعات دينية فى مصر وغيرها من بلاد العروبة مهمتها تقويم إسلام المسلمين ، أليس أولى بهم أن ينشروا الإسلام فى بلاد أفريقية ؟

والذين أرادوا أن يكفروا عن ذنوبهم ويهاجروا إلى الله ألم يكن أولى بهم أن يهدوا الكفار ويهاجروا إلى الجبهة التى يحارب فيها الإسلام وحده اليوم ليكونوا مجاهدين حقًّا ؟

إن مستقبل الإسلام فى أفريقية فى خطر . . وأعتقد أن هذا واضح الآن .

وكل مليم ينفق فى أغراض إسلامية ينبغى أن ينفق اليوم خارج الحدود لا داخل دار الإسلام .

إن عندنا معاهد لتخريج الدعاة ولكنها فى الحقيقة تخرج موظفين على درجات والداعية الحق لا يمكن أن يكون موظفا على

درجة .. إن درجته ينبغى أن تكون عند الله سبحانه وتعالى إذا كان مؤمنا بالله حقًّا ..

قرأت ذات مرة على باب دير يعدون فيه المبشرين فى إسبانيا : « أيها الشباب الذى يريد أن يدخل فى صفوف المبشرين ليس عندنا مال نعطيك إياه » ..

ليس لدينا بيت نبنيه لك ..

ستنضم إلينا وستخرج داعيا للمسيح وكل ماستجده هو التعب والتضحية والعمل والأمراض ..

لأن جزاءك الحق ليس عندنا .. إنه عند الله .

وبيتك الحق ليس عندنا إنه عند الله ..

فإذا أردت أن تنضم إلينا فعلى هذا الأساس ..

وإلافأنت لست بحاجة إلينا ولسنا بحاجة إليك .. » .

(٢)

وفيما يأتى أعرض للميدان الثانى الذى يخوض فيه الإسلام معركته اليوم وهو الميدان الأسيوى .

يقوم الإسلام اليوم على قاعدتين أساسيتين : الأولى أسيوية والثانية أفريقية والقاعدة الأسيوية هى الأضخم ، لأن أعداد المسلمين الأسيويين تكون صلب الكتلة الإسلامية فى العالم ، إنها تمثل ثلثى أعداد المسلمين فى الدنيا .

فى آسيا خمسمائة مليون مسلم ، أى سبع سكان الأرض ، كل سبعة من أهل الأرض فيهم واحد مسلم أسيوى ، إذا ضممن إليهم مسلمى أفريقية وجدنا أن المسلمين يكونون خمس سكان الأرض : كل خمسة من البشر أحدهم مسلم . نسبة لابأس بها . ولكنها بعيدة جدا عما ينبغى أن يكون من وجهة النظر الإسلامية الصرفة ينبغى أن يكون أهل الأرض كلهم مسلمين ، لأن واجب الجماعة الإسلامية هو أن تواصل المغازى حتى يصير الدين كله لله .

ولكن المسلمين قصروا فى حق الإسلام تقصيرا لايقوم لهم فيه عذر . وهانحن اليوم نمثل خمس سكان هذا الكوكب . بل هانحن نشهد تراجع الإسلام دون أن نتحرك .

ولو تركنا الأمر على هذه الحال فستصبح سبع سكان الأرض ، ثم تقل نسبتنا فى النقص مع الزمن .

لأن عوامل محاربة الإسلام اليوم أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، لأن

الإسلام عقيدة وثقافة ، فحاربة الإسلام تدخل ضمن المعركة الثقافية التى تدور رحاها على أعنف صورة فى عالمنا الراهن . .

والغرب اليوم يبذل أقصى جهده لكسب المعركة الثقافية ، لأن ثقافته إذا سادت أقليا لم تلبث شخصية ذلك الإقليم أن تتلاشى فى شخصية الغرب ، ويصبح فى عداد توابعه .

والصراع بين العالمين الرأسمالى والاشتراكى فى صميمه صراع ثقافى ، فالرأسمالية سياسة وأسلوب حياة وثقافة ، والاشتراكية بشتى ألوانها — من التطرف الشيوعى إلى الاعتدال الاشتراكى — سياسة وأسلوب حياة وثقافة .

وإذا كنا نرى روسيا اليوم تؤيد الحبشة ، فهى لاتسعى من وراء ذلك إلا إلى إدخال هذه المساحة الكبيرة من أفريقية ضمن نطاقها الثقافى ، أى ضمن أسلوب الحياة الاشتراكى . .

وإلى الآن كسبت روسيا مساحتين واسعتين فى أفريقية : الأولى أنجولا والثانية موزمبيق ، فإذا كسبت معركة الحبشة أصبحت روسيا تسيطر بمذهبها السياسى وثقافتها الاشتراكية على خمس القارة الأفريقية . وأمامك الخريطة فتأملها لترى بنفسك وسنتحدث الآن عن مأساة الإسلام فى آسيا . .

مأساة الإسلام فى آسيا :

كتلة الإسلام فى أسيا تتكون من خمس مجموعات كبرى :

المجموعة الأولى : هى العربية وتشمل جزيرة العرب والشام كله «بأقسامه الأربعة» سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق .

المجموعة الثانية : هى الإيرانية وتشمل إيران .

المجموعة الثالثة : هى التركية المغولية وتشمل أفغانستان وبلاد ماوراء النهر ومايقع شمالها ، وكلها بلاد وشعوب استولت عليها روسيا وأدخلتها فى نطاقها السياسى والفكرى .

المجموعة الرابعة : هى الهندية وتشمل كل مسلمى شبه القارة الهندية وجزيرة سرى لانكا وجزر ملديف .

والمجموعة الخامسة : هى وحدة جنوب وجنوب شرق آسيا وتشمل : المسلمين فى بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس والفيتنام وماليزيا وأندونيسيا والفيلبين .

وهذه الوحدات الخمس تضم قرابة ٥٠٠ مليون مسلم ، أى أنها كتلة الإسلام الكبرى فى العالم . .

فلننظر فى أوضاع الإسلام فى كل منها . .

المجموعة العربية :

المجموعة العربية الآسيوية بخير ، فهى تعتمد أساسا على جزيرة العرب مهد الإسلام ، ومازالت إلى يومنا هذا نقطة ارتكاز رئيسية للإسلام اليوم . .

ولكن نكبة إسرائيل دقت فى كيان الشام وتبدا خطرا يهدد الإسلام . .

لأن نوايا إسرائيل السيئة تستهدف الإسلام أصلا ، فليس فى الدنيا عدو للإسلام هو ألد من الصهيونية . ونحن نرى كيف أن وجود هذا الكيان الدخيل فى صميم أرض الشام يستنزف جانبا ضخما من الطاقات العربية والإسلامية كلها .

ونحن نرى أن إسرائيل تريد أن تنفرد بالقدس ، وتريد أن توهوّدها وتجعلها مركزا للصهيونية واليهودية ، وهذا خطر شديد على الإسلام ، وكل ماتقوم به إسرائيل من أعمال تهويد وقضاء على الثقافة العربية جهد موجه ضد الإسلام .

والخطر الصهيونى على الإسلام سيستمر حتى فى حالة الوصول إلى تسوية سياسية أوعسكرية ، لأن وجود إسرائيل نفسه خطر على الإسلام ، واحتلال اسرائيل للقدس خطر مباشر على الإسلام ، لأن الإسلام لايمكن أن يتخلى عن القدس أولى القبلتين ومقر الحرم القدسى .

ووجود إسرائيل على هذا الوضع يقسم العالم العربى قسمين ويهدد عروبة البحر الأحمر ، ويفتح الباب واسعا للتدخل الأجنبى فى قلب العالم العربى .

وها نحن نرى كيف أن وجود إسرائيل عنصر أساسى من عناصر الأزمة اللبنانية والأزمة اللبنانية أخذت مع الأسف وجها دينيا فأصبحت على نحو ما حربا على الإسلام فى لبنان .

ولاحاجة لنا إلى القول بأن الإسلام فى فلسطين والأراضى المحتلة فى خطر .

ومعنى ذلك أن الإسلام فى المجموعة الأولى من مجموعات الإسلام الآسيوية فى خطر .

ويكفى أن نذكر أن الخطر الصهيونى على الإسلام يشبه الخطر الصليبى الذى استهدف كيان الإسلام ابتداء من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٩٧) ولم يطمئن الإسلام على مصيره إلابعد أن انكسرت الموجة الصليبية انكسارا حاسما سنة ١١٨٧ فى حطين على يد صلاح الدين .

ولم يطمئن الإسلام على سلامته نهائيا

إلابعد استيلاء الصالح خليل السلطان المملوكى على آخر معاقل الصليبيين سنة ١٢٩١ .

المجموعة الإيرانية :

فى عصور الاضمحلال استولت روسيا على أجزاء ضخمة من أراضى المجموعة الإسلامية الإيرانية . .

وجدير بالذكر أن إيران كانت مساحتها السياسية والثقافية أوسع مما هى عليه اليوم بكثير . .

ولكن روسيا اقتطعت من أراضى الشعوب الإيرانية نصف إقليم أذربيجان ومعظم إقليم خوارزم وجزءا من إقليم خراسان .

وفى كل هذه الأجزاء التى اقتطعتها روسيا تحاول القضاء على الإسلام بحجة أن مذهبها الشيوعى يتنافى مع الأديان . .

وقد أنشأت روسيا فى تلك الأجزاء التى اقتطعتها مراكز الدعوة الشيوعية لتحارب الإسلام ، وأهملت المساجد حتى تهدم القائم منها ، وحرمت إقامة مساجد جديدة .

ومن محطات الإذاعة الروسية (وخاصة محطة أريفان) نسمع دعاية مستمرة ضد الإسلام تحت ستار الاشتراكية حينا ، وتحت ستار الدعوة إلى التحرر من تراث الماضى حينا آخر .

ولاينبغى قط أن نقلل من أهمية هذه الإذاعات المسمومة ، فهى تجتذب الكثير من الشبان وتفسد تفكيرهم بتشكيكهم فى الإسلام وعقيدته وشريعته والتهوين من قدر الثقافة الإسلامية . .

ولابد أنك سمعت عن وجود خلايا شيوعية تحاول إثارة الخواطر والنفوس لافى إيران فحسب ، بل فى أفغانستان وباكستان وغيرها من بلاد الإسلام .

هذه الظاهرة لاتعنينا هنا إلا من الناحية الإسلامية فحسب .

فإن الدعوة الشيوعية دون جدال دعوة معادية للإسلام ، وكل شاب تكسبه يخسره الإسلام . .

والذين يمدون هذه الخلايا بالمال ومادة الدعاية والسلاح يعرفون أنهم يحاربون الإسلام . ومن ثم فهم خطر يهدد الإسلام فى هذه المجموعة . .

أى أن هذه المجموعة الإيرانية الإسلامية تواجه أخطارا من هذه الناحية .

المجموعة التركية :

تلك هى المجموعة التى خسر فيها الإسلام معركة من أكبر معاركه ، ومازال

يخسر مع الأسف . . ! !

إننا نحزن على الأندلس ونؤلف الكتب فى مأساة الأندلس فما بالك وخسارتنا فى الأندلس أقل بقليل من خسائرنا على الجبهة التركية .

فى القرن الخامس عشر كانت كل البلاد الواقعة شمال إيران فى نواحى ماوراء النهر أى الأراضى المنحصرة بين نهرى سيحون « أموداريا » وجيحون « سرواريا » أراضى اسلامية ومساحتها تعادل مساحة الأندلس .

وإلى شمال ماوراء النهر ، والتركستان كانت تمتد بلاد معادية للدولة والإسلام فى إيران ، ومن بينها مثلا حزب تودة الذى يستخدم محطات الإذاعة الروسية فى عواصم الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية فى آسيا .

والسلطات الإيرانية تشعر بهذا الخطر وتواجهه بما ينبغى له من حزم وصلابة حفاظا على كيان إيران نفسه ، وإيران كيان إسلامى عظيم .

وربما استطعنا أن نقول إن الخطر على الإسلام هنا قليل ، ولكنه قائم ، وهو يتزايد مع تزايد انتشار الدعوة الشيوعية التى تجتذب قلوب الكثير من الشباب تحت ستار الاشتراكية وإنصاف الطبقات التى يزعمون أنها مظلومة .

المجموعة التركية المغولية :

تشمل هذه المجموعة بلادا تركية صرفة ثم الجمهورية التركية وأفغانستان وبلاد ماوراء النهر من حوض نهر الفاريم وجبال التاى فى وسط آسيا حتى شمال البحر الأسود كل هذه كانت بلادا إسلامية خالصة ومساحتها تعادل مساحة الشمال الأفريقى كله .

وشمال البحر الأسود حتى مجرى الدنيبر (جنوبى الأوكراينى فى روسيا) كانت بلادا إسلامية أيضا تسكنها جماعات من التركمان والمغول المسلمين . .

أين ذهب ذلك كله ؟

ابتلعه الاتحاد السوفييتى ، وحارب الإسلام فيه أيام القيصرية باسم الدين ، وبعد القيصرية باسم الشيوعية .

وأظن أننا لانذيع سرا عندما نقول إن السياسة الروسية تعمل بصراحة على القضاء على مابقى من الإسلام فى كل هذه النواحى .

هناك اليوم ست جمهوريات إسلامية تحت السلطان الروسى . . إنها جمهوريات بالاسم ، وأظن أن هذا واضح ومعروف ، هذه الجمهوريات هى :

أذربيجان — كازاكستان —

قرغيزستان – تاجيق – التركمان – أوزبك .

ماذا يجرى للإسلام فى هذه الجمهوريات ؟

وأليس من واجبنا أن نزيح الستار عن مأساة الإسلام التى تجرى هناك ؟

إن الإسلام هناك ليس فى خطر فحسب ، بل هو فى ضياع حقيق .

لقد كتب فى هذا الموضوع مستشرق فرنسى هو فنان موفتيل ، ولم يكتب فيه – من هذه الزاوية – أحد منا ، ربما كان ذلك فيما مضى مجاملة للاتحاد السوفييتى ، ولكن هل تجوز المجاملة على حساب الدين ؟

ثم ماذا يضيرنا لو بسطنا الحقيقة وطالبنا بحق الإسلام فى هذه النواحى ؟

إن كل ما يخالف حقوق الإنسان يرتكب ضد مسلمى الجمهوريات السوفييتية من الحجر على الدين والعمل على تغيير الطابع الثقافى للبلاد ، وإهمال المساجد ومحاربة الإسلام صراحة وغير ذلك .

فهل يجوز السكوت والإسلام فى خطر حقيقى فى هذا الجزء الواسع من آسيا ؟

الإسلام فى شبه القارة الهندية :

عندما استقرت قبضة الإنجليز فى الهند فى القرن السابع عشر كان الإسلام هو القوة السائدة فى شبه القارة . ولم يتصد للدفاع عن الهند إلا المسلمون . وبعد القضاء على قوة المسلمين لجأ الإنجليز إلى سياسة معادية للإسلام ، فشجعوا – غير المسلمين – واجتهدوا فى تعليمهم ، وأخذوا يحرضون الهندوك على الإسلام ، وحرموا المسلمين من الوظائف ونشروا فى الهند فكرة أن الدول الإسلامية فى الهند ليست دولا هندية ، بل دول غازية أومستعمرة كما قالوا ، وقالوا إنهم مغول وأتراك وليسوا هنودا ، مع أن مغول الهند أنفسهم أصبحوا مع الزمن هنودا . ثم إن تسعين فى المائة من مسلمى الهند اختاروا الإسلام دينا . .

وأوقع الإنجليز بين الهنود والمسلمين . قبل دخول الإنجليز لم تعرف الهند مذابح المسلمين والهندوس ، وكان الإسلام يسير فى طريقه فى هدوء ، يكسب قلوب الناس شيئا فشيئا كما فعل فى غير الهند من البلاد . ولكن الإنجليز أوقفوا هذا التيار ، ومن المعروف أن مبدأ فرق تسد لم يطبق فى التاريخ على نحو هو أظهر مما حدث فى الهند .

المهم أن الإنجليز فرقوا بين المسلمين وغيرهم فى الهند ، وأوقعوا بينهم عداوات وأحقادا انتهت آخر الأمر بتقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتين سنة ١٩٤٧ وعقب

خروج الإنجليز من البلاد ، وعلى الرغم من أن المسلمين هم الذين طالبوا بهذا التقسيم إلا أنه لم يكن فى صالح الإسلام ، لقد اضطروا إليه اضطرارا ، ومحمد على جناح الذى تم على يده إنشاء باكستان كان أول الأمر عضوا فى حزب المؤتمر الهندى وكان من المنادين بوحدة الهند واستقلالها ، ولكنه اضطر إلى تغيير سياسته ووضع كل همه فى إنشاء دولة خاصة للإسلام فى الهند هى باكستان .

ولكن باكستان عندما قامت كان ينقصها إقليم كشمير .. إننا لانتكلم هنا سياسيا وإنما ثقافيا وإسلاميا ، وكشمير جزء من الوطن الإسلامى ، ووضعها على الصورة الراهنة فيه ضرر على الإسلام .

ومهما كان الرأى فى انقسام باكستان سنة ١٩٧٠ إلى دولتين . فإن ظهور دولة بنجلاديش أى وطن البنغال (بنجلا : البنغال ، دش = وطن) لم يخدم الإسلام قط . وخير لنا - بداهة - أن تكون هناك دولة إسلامية واحدة قوية ، من أن تكون هناك فى شبه القارة الهندية دولتان إسلاميتان لاتملكان القوة التى يتطلبها الإسلام فى صراعه الحاسم اليوم .

هنا أيضا ينبغى أن نقول إن الإسلام فى خطر .

مجموعة جنوب شرق آسيا :

كلنا نفخر بأندونيسيا ونعلق عليها الآمال ، فهى أكبر دولة إسلامية على وجه الأرض من حيث المساحة وعدد السكان ..

ولكن أندونسيا - رغم حبنا لها وتقديرنا إياها - لاتتبع السياسة الإسلامية التى تؤمن الإسلام فى بلادها ..

فمنذ عزل سوكارنو والتفاهم مع الولايات المتحدة تفتحت أبواب البلاد لإرساليات التبشير الأمريكية بوجه خاص ..

وأحب ألايستهين أحد بعمل هذه الإرساليات . لقد طالما استهنا بأعمالها وقلنا إن الإسلام وحده كفيل بإحباط كل جهودها ، ولكننا فى النهاية نجد أنفسنا أمام مواقف تتحول إلى مشاكل إسلامية قومية كما فى جنوب السودان .

إننا نريد أن نقول لإخواننا فى أندونيسيا - والإسلام فى بلادهم أمانة فى أعناقهم - إن هذا التساهل مع بعثات التبشير سيؤدى يوما ما إلى مشكلة قومية مشكلة أمن داخلى لأندونيسيا كلها .

إن الأمريكيين يؤيدون أعمال التبشير بكل قواهم لكى يزعزعوا أقدام الإسلام فى

أندونيسيا ، فهل ننتظر حتى تتعقد المسألة وتصبح مشكلة قومية هناك ؟

ولماذا لاتتخذ حكومة أندونيسيا منذ الآن قرارا حاسما بإيقاف أعمال التبشير فى بلادها لتنقذ نفسها من مشكلة لابد أن تظهر يوما ما ؟

وهل يعلم المسلمون مثلا أنهم عندما قسموا جزيرة غينيا الجديدة إلى قسمين : شرق يتبع أستراليا وغربى يتبع أندونيسيا (إيريان الغربية) ركزت جمعيات التبشير جهدها فى إيريان الغربية التابعة لأندونسيا لكى يحولوها إلى أرض مسيحية تاركين إيريان الشرقية (وهى تابعة لهم) لأنهم واثقون بأنها بلادهم . .

نريد أن نقول هنا إن الإسلام فى خطر فى أندونيسيا . .

هل تذكر المثل الذى يقول : من مأمنه يؤتى الحذر ؟ إذن فأذكر إلى جانب ذلك أننا سنؤتى فى جنوب شرق آسيا من مأمننا : أندونيسيا .

والبلد الواعى حقا إلى إسلامه هو ماليزيا . هنا تجد الدولة إسلامية حقا وحرصها على الإسلام وسلامته عظيم . .

ولكنهم يثيرون المشاكل فى طريقها : حروب العصابات التى تشجعها السلطات الشيوعية فى شبه جزيرة ملقا ، تحريض الأقليات الصينية : ضغط الفيلبيين على سلفنتى صباح ديروناى فى شمال جزيرة بورنيو .

ثم أين جهودنا للدعوة الإسلامية فى جزيرة بورنيو وهى ميدان خصب للتبشير ؟

ثم الإسلام فى الفلبين ، ماذا فعلنا لمعاونة إخواننا هناك ؟ . . إنهم يقاتلون ويجاهدون ولكن العون من ناحيتنا قليل بل معيب .

إذا ذكرت ماقلناه عن الخطر على الإسلام فى أفريقية وأضفته إلى ماقلناه هنا تبين لك أن الإسلام فى الدنيا فى خطر . .

وكلما تصورت وضع الإسلام فى الدنيا اليوم والمعركة التى يخوضها وحده – أجل وحده – ترددفى خلدى قول نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك أن يكون لها ضرام
أقول من التعجب ليت شعرى
أأيقاظ أمية أم نيام ؟

نعم ، أأيقاظ نحن أم نيام . . ؟

إن الإسلام فى الدنيا فى خطر . . ! !

الإسلام فى الدنيا يتراجع ! !

نحن فى حاجة إلى سياسة بعيدة المدى للحفاظ على الإسلام . .

كل مانعمله فى هذا الباب قليل ، قليل جدا . .

والذين يتيهون بالتقدح فى الإسلام فى حى الأزهر حقيقون بأن يعرفوا أن حى الأزهر ليس ميدان معركة ، فالإسلام هنا بخير .. أما المعركة فتدور هناك على الحدود .

هناك ميدان الجهاد فى سبيل الإسلام حقا .

هناك يخوض الإسلام معركة حياة أو موت ..

هل تسمعون ؟ معركة حياة أوموت ..

د . حسين مؤنس

الاتباع والابتداع

من خطبة لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز على منبر مسجد بنى أمية فى دمشق .

« أيها الناس ، ليس بعد نبيكم نبى ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة ، وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة » « ألا إنى لست بقاض ، وإنما أنا منفذ ، ولست بمبتدع ولكن متبع ، ولست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ، إلا أنى أثقلكم حملاً ، ألا لا سلامة لامرئ فى خلاف السنة ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

الإسلام والمستقبل (1)

الأستاذ / فتحى رضوان

لعل المسلمين بين الأمم البانية للحضارات ، والمنشئة للثقافات ، والتى ظفرت يوما ما بالمجد والصدارة ، ثم أدال الزمن عليها . فبادت حضارتها ، وأصبحت آثارا توحى وتلهم ، وركدت ثقافتها ، فباتت مراجع للباحثين ، ومصادر للدارسين . . . لعل المسلمين بين تلك الأمم ، أغربها ، وأبعثها للدهشة ، وأدعاها للحيرة .

فهذه الطائفة من الأمم ذات المجد المندثر ، والماضى الزائل ، واحدة من أمتين : أمة زالت من الوجود تماماً ، بزوال ملكها الأثيل ، وعزها الرفيع ، وأمة بقيت بين الأحياء ، ولكنها نفضت يدها من تجديد المجد الضائع ، واستئناف الحكم المنقرض ، واستنامت للواقع ، ورضيت به .

أما المسلمون ، فلم يكفوا قط عن التحدث عن حضارتهم ، ولا عن الإشادة بثقافتهم ولا عن بذل الوعد وراء العهد ، بأنهم سيقيمون ما تداعى من بنائهم ، وسيسترجعون ما تلاشى من أمجادهم ، وأن الزعامة تنتظرهم ليقودوا الإنسانية إلى عهد جديد من السلام والتآخى والتعالى على مشكلات العصر الحاضر ، والتوقى من آفاته ، واستلهام الدين الحنيف أسسا شبيهة به ، وقائمة عليه ، تحقق ما جاء من آيات القرآن الكريم من مثل قول الله تعالى : (ولقد كرمنا بنى آدم) - (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) - (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) - (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) - (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

وتمضى القرون وهذه الوعود تتبخر فى الهواء ، ثم تسمع ، وتتبدد فى الفضاء وتكرر ، ويبقى كل شىء فى مكانه : فقد أصبحت دولة الإسلام الكبرى أمما تفرقت

(1) من مجلة الهلال المصرية

الأيدى بها وحضارة أصبحت غرائب فى المدن ، ليس لها حتى ما للآثار عند الأمم المعاصرة من مكانة ورعاية ، وثقافة ركدت حتى استحالت مستنقعات ملأتها الهوام والحشرات ، وفاضت منها روائح تزكم الأنوف ، وتضيق لها الصدور ، فهى إما خرافات وأراجيف ، وإما قطع متناثرة من القديم والجديد ، والبالى والمستحدث والعلم والأمانى . . وعلماؤنا أكثرهم عالة على علماء آخرين يأخذون عنهم ، ولا يلحقون بهم ، إلا إذا رحلوا عن بلادهم ، ونأوا عن مجتمعاتهم ، وأظلتهم سماء الأجانب ، وطوتهم مجتمعات الأعداء . . فهل سيبقى هذا مصير المسلمين إلى غير غاية وأمد ؟

لكن ما السر فى هذا الشوق المتجدد عند المسلمين إلى ماضيهم ؟ . . وما سبب عجزهم عن تحقيق ما يتوقون إليه ويطمعون فيه ، وفى أرضهم ومائهم وبرهم وبحرهم ، وموقعهم وبعض حاضرهم ، ما يرشحهم للمكانة التى يحلمون بها ، والزعامة التى يتطلعون إليها ؟

لقد حدثت فى آخر مراحل الحكم الإسلامى المجيد الباهر ، ملابسة ، أربكت المسلمين ، واضطرب لها تاريخهم ، فتعثرت مسيرتهم ، وقد بدأت فى أوائل القرن الثالث عشر . وعلى وجه التحديد سنة ١٢٢٧ ، حينما طارد المغول أمامه قبيلة من الترك فى سهول آسيا الوسطى ، إلى الغرب ، ولم يكن تعداد تلك القبيلة يزيد على حفنة صغيرة من آلاف من رعاة البدو ، وقد استقر بهم الترحال آخر الأمر على مقربة من (أنقرة) أشبه شىء بأتباع أو عبيد للسلاجقة .

فلما أفل نجم دولة السلاجقة فى سنة ١٣٠٠ ارتفع عن أعناقهم نير العبودية وأصبحوا أحرارا . وما لبث شيخهم أن رفع نفسه إلى مرتبة (السلطان) ، ومنذ ذلك التاريخ ، إلى سنة ١٩٢٢ ، بقيت هذه القبيلة سيدة تركيا ، وصاحبة الكلمة النافذة فيها ، فقد عرفت بدولة بنى عثمان ، وذاع هذا الاسم وشاع ، حينما امتد ملك بنى عثمان ، من فارس إلى (فيينا) عاصمة النمسا فى أوربا فدخلت فى إمبراطوريتهم أجناس وشعوب عديدة لم تجتمع فى ظل إمبراطور آخر . حتى ولا إمبراطورية أسرة هابسبورج ، التى عرفت باسم « إمبراطورية النمسا والمجر » .

فقد أظلت دولة بنى عثمان مع الأتراك والعرب ، الرومانيين ، والصرب ، والكروات واليونان ، والبلغار ، والمجر ، والألبان . ففى سنة ١٤٥٣ فتح بنو عثمان القسطنطينية ووضعوا نهاية بذلك الفتح

المبين لحياة الإمبراطورية البيزنطية المتداعية ، آخر طيف لروما الإمبراطورية ، أو امبراطورية روما . وبتحويل كنيسة « أيا صوفيا » في القسطنطينية إلى مسجد بات للعالم المسيحي الغربي كابوس ثقيل لا يفارقه في الليل أو النهار ، اسمه (التركي) ربما بسبب ماركيهم من خوف ، إنه لن يمضي وقت طويل حتى تدخل جياد جيوش تركيا إلى مذبح القديس بطرس في كنيسة هذا القديس ، بعد أن تحوله مذودا . وتصاعد الخوف من (التركي) الرهيب عندما فتحت هذه الجيوش مصر في سنة ١٥١٧ بعد أن تدفقت جحافلهم على الشرق العربي ، ثم اندفعت إلى شمال أفريقيا . .

وعبر سلطان فرنسا ، فرانسوا الأول باسم الغرب المسيحي عن الفزع الذي تولى هذا الجانب من العالم ، إذ عقد مع سلطان تركيا معاهدة ليكون السلطان المسلم ردءا – للملك المسيحي في صراعه مع عائلة هابسبورج . وحاصر الأتراك فينا في ١٦٧٣ ، ولكنهم ردوا على أعقابهم ، ومنذ ذلك التاريخ انحسرت موجة المد ، وبدأ الجزر واستمر ، وبدأ دور تركيا في صد هجمات لا نهاية لها من الغرب المسيحي ، الذي كان قد استجمع قواه ، وقرر أن يطرد الأتراك المسلمين من أوربا ، ثم أن يتعقبوا فلولهم ، حتى لا يبقى لهم أثر لا في أوربا وحدها بل في المسرح السياسي والعسكري الدولي قاطبة . . وظل الصراع بين أوربا وتركيا ثلاثة قرون . كان العالم الإسلامي فيها يشاهد ، ولا ينتفع بشيء مطلقا من هذه المأساة الطويلة المريرة ، وقفت تركيا في وجه حملات الاستعمار الغربي ترده وكان دمها ينزف ، ومالها ينفد ، وقواها تتسرب من جوانبها ، حتى سميت آخر الأمر (بالرجل المريض) . .

فماذا كان أثر هذا كله في العالم الإسلامي وأحلامه التي تتخذ من المجد وعودة الصدارة إليهم محورا ، تدور حوله ، وتتفرع منه ، ثم تعود فتتجمع وهكذا دواليك . .

كان أول الآثار لوجود دولة بني عثمان ، واتساعها ثم تداعيها وانسحابها أن المسلمين أحسوا في قيام (الخلافة) في الآستانة ، أو دار السعادة ، أو (اسلامبول) ، أو (استانبول) ، بأن مجدهم المادي ، وملكهم الدنيوي لم يزل وأن لهم (دولة) تمثلهم ، وتدافع عنهم ، وتنزل بأعداء المسلمين والإسلام الحاقدين عليهم وعليه ، والخائفين منهم ومنه ، والهزائم تردهم على أعقابهم خاسرين .

وكان سلاطين بني عثمان يفعلون ذلك

حقا وصدقا ، فقد بقيت دولتهم قرونا . . قوة عسكرية ، وسلطة إمبراطورية ، ثم يشهد تاريخ الإمبراطوريات ، والدول الضخمة ذات السلطان الواسع ، دولة فى مثل اتساعها وصمودها للزمن . وكان السلاطين يعتزون بانتمائهم للإسلام ، ويقيمون وزنا لكلام شيوخ الإسلام ، ويطيعونهم فى أكثر الأمر ، ولما تناقضت قوة هذه الدولة ، وبدأت أمراض الشيخوخة تدب إليها ، استطاعت أن تمنع أوربا الاستعمارية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من التهام العالم العربى وجزر البحر الأبيض المتوسط الخاضعة لسلطان الأتراك من السقوط فى أيدى هذه الدول واتخاذها مواقع للوثوب على العالم الإسلامى وتغريبه أولا توطئة لنزعه من نطاق الإسلام روحيا وفكريا ، وتهيئته للشك فى دينه وجدوى التمسك به والإصرار عليه ، وإغرائه بالنظر فى فضائل الحضارة الأوربية المسيحية اليهودية ، وجلال آثارها فى مجالات الصناعة والعلوم والفنون .

والثابت أنه لولا السلطان عبد الحميد لذى كان الغرب يسميه (السلطان الأحمر) لأصبحت فلسطين فى يد الصهيونية قبل سنة ١٩١٧ . فلقد زاره هرتزل ، وزاره من قبل هرتزل ومن بعد هرتزل ، رسل الحركة الصهيونية ، وعرضوا عليه القروض الضخمة ، وتحالفا سياسيا يدافعون بمقتضاه عن السلطان التركى فى صحف أوربا وأمريكا ، ويوقفون حملات الدعاية التى سادت فى دوائر السياسة والبرلمانات والمؤتمرات الدولية ، والتى كانت تركيا وسلطانها ، ووزراؤها ، وقادتها وتحللها ، ومذابح الأرمن والمسيحيين فى ولايتها هدفاً دائماً لها ، مقابل أن يسمح لرواد الصهيونية أن يبنوا مستوطناتهم فى فلسطين ولكن السلطان بفضل تمرسه بالسياسة الدولية ، ومعرفته لمهاب الأمور قبل وقوعها ، إن هذه المستوطنات التى تبدو بريئة ، هى أول الغيث أو هى مستصغر الشرر الذى تنجم عنه أكبر الحرائق .

وبقيت تركيا للعالم الإسلامى ، شبحا يخايل شعوبه ، ويمنى مفكريه وزعماءه ومصلحيه ، يعقدون عليه الآمال ، ثم ينفضون يدهم منه ، حتى وقعت الحرب العالمية الأولى وزالت تركيا القوية ثم جاء كمال أتاتورك ، فأراح العالم الإسلامى واستراح ، حينما أسقط الخلافة العثمانية ، وأنهى دولة بنى عثمان ، وأقام جمهورية علمانية فى أنقرة ، وأدار ظهره للعالم

الإسلامي ، تماما ، وخلع العقيق والطربوش ، ونبذ الحروف العربية ، واصطنع الأحوال الشخصية السويسرية ، فهز المسلمين من الأعماق.

غضبوا أول الأمر ، وسخطوا على كمال ونسبوه إلى المتهودة الأتراك ، ثم هدأت الصدمة ، فبدا رد فعل مضاد ، تجاهه : أيكون هذا السبيل المؤلم هو سبيل بعث العالم العربي ، أو العالم الإسلامي ؟. نصطنع الحضارة الغربية بحلوها ومرها وشرها وخيرها . ونتظر في ديننا بروح العلم ، ونطبقه بعد أن تراجع الكتب التي أورثتنا إياها القرون الوسطى وما بعدها ، والتي قامت سدا بيننا وبين الدين الحنيف ، دين الفطرة والحرية ، دين البساطة والوضوح . .

ولم يفعلوا شيئاً . . .

كان الذي كتبه مفكرو العرب عن انحلال دولة بني عثمان وزوال سلطانها ، بعد عمر طويل مليء بالانتصارات والفتوح ، أقل من القليل ، وكان القليل الذي كتبوه نقلا عن كتب الغرب ، وترديدا لدعاويه ولم يستخرجوا من هذا الحدث الضخم ، عظاته الكبيرة والكثيرة ، على الرغم من أنهم تعلقوا بهذه الدولة في صدق وحب وإعجاب وعلقوا عليها الآمال الكبار ، وبكوا لسقوط الخلافة عن رأى سلطانها ، وغياب الخلافة كلها .

ولا أزعم أنهم كانوا قادرين على أن يردوا عن دولة بني عثمان عادية الزمان ، ولا أن يطيلوا عمرها أكثر مما طال ، ولكن كانوا جديرين أن يدرسوا أسباب انهيار الدول والمجتمعات في دولة ضخمة ، كثرت الوشائج والروابط بينهم وبينها باعتبارها أضخم دول الإسلام وباعتبارها وارثة الخلافة الإسلامية ، وباعتبارها واقعة في المحيط الجغرافي الذي تقع على شواطئ بحاره وعلى مقربة من مجاله أكثر الدول العربية والإسلامية .

ولو تأملوا في هذه الظاهرة الكبيرة ، لتبينوا أن الخسارة الكبرى التي منى بها المسلمون أن تركيا التي اتسع سلطانها ، وترامت حدودها ، وضخمت قوتها العسكرية برا وبحرا كان ينقصها أكبر ما تحتاج إليه الدول الكبرى لتتماسك ، ثم لتبقى ، ثم ليبقى أثرها بعدها حينا يفعل فيها الزمن فعله . وأعنى به (الثقافة) ، (الطاقة الروحية) ، والرسالة الإنسانية) . .

فقد كانت حضارة دولة بني عثمان عسكرية بحتة ، ولم تتح قط للفكر الإسلامي أن يتطور ولا للشعوب

الإسلامية ، بفنونها وصناعها وثقافاتها القديمة وحضاراتها المندثرة ، أن تصنع ما صنعته دول المسلمين فى دمشق وبغداد ومصر والأندلس وشمال أفريقيا ، فلا معاهد دين تدرس القرآن وتشرحه ، وتجمع الحديث وتصححه ، ولا فنيون ولا صناع ولا مترجمون ولا بعثات . .

ولو تركت دولة بنى عثمان للعرب أن يسهموا فى بناء دولتها ، لأصبحت عواصم العالم العربى فى ظل الحكم التركى منارات تضىء وتشع ، وتكسب الدولة احتراما ومهابة ولما تدهور الحكم العثمانى إلى الحضيض الذى وصل إليه ، ولاسيما فى القرنين التاسع عشر وأوائل العشرين ، بل والقرن الثامن عشر

ولو أطال المسلمون النظر فيما اعتبر كارثة أى إسقاط الخلافة العثمانية فى تركيا ، لأدركوا أن هذه الخلافة كانت قد سقطت منذ أجيال ، وأن الدين الإسلامى فى تركيا ، كما هو فى أكثر الدول الإسلامية ، فقد قوة دفعه ، وقدرته على تشكيل المجتمع وإلهام أفراد الناس بروح الولاء له ، والتأثر به . وأن ما يجرى فى عالم المسلمين ، هو من قبيل القصور الذاتى . فالناس يمارسون عبادتهم ، ويترددون على مساجدهم ، ويتلون بعض ما يصل إلى أيديهم من كتب الدين ، بحكم العادة والتقليد فى الأغلب الأعم وإن كان هذا الحكم ليس صحيحا فى جملته وتفصيله ، ففى المجتمع الإسلامى الآن ، حركات أيقظت وجدان المسلم وفكره ، وجعلته يتأمل دينه ، ويحاول أن يبحث عن الخلل فى العلاقة التى تربطه بهذا الدين .

ولكن ما هو أهم ما يلزم للمسلمين فى هذا الدور ؟

لقد عانى الفكر الدينى فى القرن العشرين من ضربات متوالية .

فقد كانت الثورة الصناعية ، والتقدم العلمى ، وسرعة تغير المجتمعات الإنسانية وخروجها من إهابها القديم ، والمشكلات التى تكاد تكون بلا حل المصاحبة لكل هذا . صدمات جعلت أكثر المتدينين حيارى وهزت إيمانهم . فمنهم من تزعزع اطمئنانه إلى الدين فاستمسك بعروبته مجاهدا ، ومنهم من قطع صلته به ، ووجّه وجهه لمصدر أو مصادر للإلهام بدت له أكثر غناء .

وجاء الفكر السياسى الحديث ، بدرويه المختلفة ، واتجاهاته المتباينة ، مستعينا بوسائل البحث التى استحدثت ، وطرائق الاستنتاج والتخريج والمقابلة ، فتدفقت فى دنيا الكتب والثقافة ، مع سيل

متدفق من الكتب والبحوث والدراسات ، التي بدت إلى جانبها الكتب القديمة التقليدية ، وبأساليب صياغتها ، وبمنهج دراساتها باعثة على السأم من جهة ، وعاجزة عن الإقناع من جهة أخرى .

وقد نجم عن هذه الصدمة الأخيرة ، شيء أحب أن أقف أمامه طويلاً ، ذلك هو صدمة (النظرية) .

لقد خرج من أنقاض الحربين العالميتين الكبيرتين سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ ، و ١٩٣٩ - ١٩٤٥ ، مذاهب جديدة ، منها الاشتراكية التي اعتبرت الشيوعية خاتمة المطاف فيها ، والنازية ، بأسمائها المختلفة ودار بين المذهبين صراع دام ، كانت الحرب العالمية الثانية إحدى صوره ، ولكنه استمر بعد ذلك ولا يزال مستمرا ، وكانت الصهيونية صورة أخرى من صور التفكير ، انتهزت هذه المجازر ، وحققت لنفسها مكانا ، وظفرت بمكاسب لا يمكن أن نقلل من شأنها .

وقد كان الصراع الفكرى بين هذه المذاهب كلها ، يدور حول نظريات تقدم ويحسن عرضها ويدافع عنها الأنصار ويهاجمها الخصوم ، حتى أصبح (للنظرية) سحر فمن لم يكن له نظرية يعتنقها ويدافع عنها ويهاجم فى ظلها ، يشعر بأنه مكشوف فى دنيا العقائد ، وأن كلامه لا يقنع ، وموقفه لا يفهم ، ولا شك أن (النظرية) هى أسلوب لتنظيم التفكير الإنسانى ، ميزتها الكبرى أنها تحاول أن تضع مبدأ أساسيا للنظر إلى الكون وعلاقة الإنسان به ، ثم تخضع كل ما يتفرع من هذا المبدأ الأساسى لنفس المبدأ .

ولعل سيادة فكرة (النظرية) هى التى أججت الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية والفاشية أو النازية . ولعل هذا الصراع هو الذى ثبت سلطان (النظرية) على عقول الناس وأفهامهم .

ومن هنا كان المتدينون شاعرين بأنه لم يعد لدينهم الذى يؤمنون به وجود فى دنيا الفكر . لأنه لا يقدم (نظرية) متكاملة تحلل فى مضمونها العلاقات الإنسانية من حيث المنشأ ، والتطور والتعقد والانفراج ، ولا علاقات الإنسان بوسائل حياته المادية والروحية ، ولا عناصر وجوده من مال وآلة وحكومة .

والخطأ الذى يقع فيه المتدينون أنهم يريدون أن يكون لديهم نظرية شبيهة من حيث الصياغة والتبويب ، على نسق النظريات الحديثة التى يسمعون دويها وتتجاذبهم تياراتها وأمواجها .

ولقد بلغ من فرط تأثرهم (بالنظرية)

وشغفهم بها ، أن بعضهم وضع للإسلام (نظرية) وصاغها فى قالب بعض المبادئ الحديثة ، واعتبر أن الإسلام قد سد النقص فى جدارة ، وأنه الآن يستطيع أن ينافس بقية المذاهب الحديثة وأن يغلبها .

ولا بأس عندى من كل محاولة جدية ، فالتطور والتفكير المتجدد ، وإن أخطأ أو تعثر خير من الجمود والركود والتصلب .

ولكن على أن نحسن دائماً الابتداء . ولا يمكن أن نضمن الاهتداء إلى البداية الحسنة ، ومن ثم فنحن لا يحق لنا أن نصادر حق أحد فى الاجتهاد ، ولو خطأ ، فقاعدة من قواعد الإسلام ، أن للاجتهاد دائماً ثوابه : لمن اجتهد وأخطأ ، ثواب ، ولمن اجتهد وأصاب ، ثوابان .

ولكن الذى أحب أن أؤكده هنا ، أن الإسلام يقوم على نظرية من أساسين : الأول أن الله واحد ، (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

الثانى أن الإنسان ، سيد هذه الأرض ، وأن الكون الذى يحيط به ويعيش فيه ، سخر له يطيعه ، ويأتمر بأمره ، ويمكن أن يديره يمينا ويسارا ، والتدبر والتأمل والاجتهاد والثقة بنفسه والاعتماد على الله .. (ولقد كرمنا بنى آدم) .

ومن هذين الفرعين يقوم بناء كامل ، يتناول الإنسان من مولده إلى مماته ويقنن للصغيرة والكبيرة ، وما يتصل بالمال والحكم ، والزواج والطلاق ، والرق والعتق والتجارة والزراعة ، والصناعة . ويدخل مع الإنسان فى مخدعه ويصاحبه مع وساوسه وهواجسه ، ومخاوفه ومطامعه .

وهذا الكلام المجمل إذ بسطناه ، استنفد منا وقتا وجهدا كبيراً ، يضيق بهما المجال هنا ، ولكن حسبنا أن نقول أن هذا المنهج الذى وضعه الإسلام جرب فى مجتمع هو أقل المجتمعات مالا وأنآها عن أسباب الحضارة ، وأخفها بأن يتجاهلها التاريخ ، ويتحاشاها الناس ، فهى تقوم على فقر مجدب ، فى صقع مغوار ، فأنبت دينا ودولة ، وحضارة وثقافة وملكا وسلطانا ، وتدفقت له الجيوش الجرارة وأخرج المدارس والمعاهد والجامعات ، وأتقن فى ظله الصناع والفنانون ، والكتاب ، والمفكرون أجمل وأرق وأحق وألطف ما صنع الإنسان وما ترك الفنان .

وهذا المنهج قادرٌ على أن ينتج نفس الأثر ، فى مثل هذا الوقت القليل ، لو أخذناه بلا تكلف ولا حذلقة ، وفهمناه على وجهه من غير تعال أو تنطع . يعنى أن يفهم أن المسلمين الأوائل ، وصلوا إلى

القوة فى صدر الإسلام وفى الأجيال التى تلته فهم آمنوا فى بساطة تامة ، بكل الذى طلبه الإسلام منهم ، فهم إذا صلوا اعتقدوا أنهم بين يدى الله ، وسعوا جهدهم ليفرغوا ذهنهم من كل شىء ، لتحسين وقفتهم بين يدى الله ، فإذا فرغوا من الصلاة ، أحسوا فعلاً بأن قواهم تجددت ، وروحهم سمت ، وإنهم قادرون على مواجهة متاعب العيش ، ومخاوف الحياة فى قوة وثبات ، وبلا وهن أو ضعف ، فإذا طلب منهم أن يتصدقوا ، شعروا حقا بأنهم يقرضون الله قرضاً حسنا ، وأنه سيرده إليهم أضعافا مضاعفة وأن الحج يكفر ذنوبهم ويغفر خطاياهم وهكذا دواليك . .

ومن كل تلك الألفاظ البسيطة التى يؤدون بها الصلاة ، ومن كل هذه الحركات القليلة التى يقومون بها سجودا وركوعا بين يدى الله ، وبالفرحة التى يستقبلون بها الصوم ، وبالبهجة التى يباشرون بها مناسك الحج ، تكتمل لهم قوة حقيقية ، مادية وروحية أدت بهم إلى هذا التفوق والتجلى الإنسانى .

فما لم يكن فى مقدور المسلمين أن يعودوا إلى هذه البساطة ، وما لم ينزعوا من أنفسهم هزءهم الخفى بها ، وإحساسهم الكامن بأن المسلم الحديث لم يعد يكفيه ما كان يكفى العربى منذ أربعة عشر قرنا وأن الزاد العقلى الذى يليق به ، ويصل إلى سوائه ، هو ما يجب على علماء المسلمين ومشرعيهم ، وفقهائهم ومفكريهم أن يصوغوه ، فى قالب يمكن أن يواجه تحدى النظريات الحديثة ولو واصل المسلمون سيرهم فى هذا الدرب وأصروا عليه ، استمر حالهم على المنوال الذى نراه .

ليفكر كبار المفكرين المسلمين ، وليبدعوا كتباً عظيمة ، وليستخرجوا من آيات الله الكريم وأحاديث رسوله العظيم ، آثارا جديدة بأسلوب يثير الاهتمام ، ويدعو إلى التفكير ويبعث على المناقشة والجدل ، ولكن كل هذا لا يغنى فى قليل أو كثير عن العودة البسيطة غير المتكلفة إلى الإسلام فى صورته التى تلقاها الرسول العظيم ، محمد بن عبد الله ، النبى الأمى ، ثم تلقاها عنه صحابته فالمسلمون الأوائل ، وأكثرهم فقير وضعيف لا يؤبه له .

فإن هذه العودة هى التى سيشتعل لها وجدان المسلمين ، وسيتقد خيالهم فإذا التفاعل بين الإسلام الحقيقى ، والنفوس الصغيرة الصادقة ، يتحقق . وإذا الاشتعال يبدأ ، وإذا بالأدوار السابقة تتلاحق وتتابع ويحدث البعث المنشود ،

وعندها سترى فيضا من الإنتاج الفكرى والفنى يشبع جوع الجائعين إلى بناء عقلى يفلسف لهم أمورهم ويردها إلى قاعدة عامة مستمدة من القرآن الكريم . .

ولكن لا مناص للمسلمين ، ليخرجوا من هذا الموقف الذى جمدوا فيه ولا خلاص لهم بالأسلوب الذى نقترحه ، إلا بالأخذ بأمرين :

أن يكون للمسلمين نواة لزعامة ، وبداية لقيادة فكرية .

فللمسيحيين ، كاثوليك كانوا أو بروتستانت أو أرثوذكس زعامات مركزية كاملة ظاهرة وباطنة ، دينية ودنيوية .

ولليهود مثل هذه الزعامة ، ممثلة فى أكثر من هيئة ومجلس .

أما المسلمون فحبلهم على غاربهم . وليس ثمة مجلس أو هيئة ، تجتمع بصفة دورية تحاول ان تعلو عن التفاصيل والأمور المحلية ، والخلافات الإقليمية ، وتنظر إلى الإسلام فى مجموعه .. وتقف إلى جانبها أمانة تتلقى المعلومات وتجمعها وتبوبها وتحللها . . ثم تحاول هذه الهيئة أن يجتمع لها على مدى الأيام ، شىء من الهيبة والمكانة والتأثير تكسبها على طول الوقت ، بحسن التوجيه ، والجهد المبذول ، والإدارة الموفقة ، والتجرد لوجه الغاية المشتركة .

ولابد من مجلس ثقافى إسلامى ، ينشأ أيضاً إلى جانب الهيئة ، متفرغ للشئون الفكرية فى دنيا المسلمين ، ويستقر ويستمر ، ويكسب بدوره مكانة تؤثر فى النفوس ، والعقول فإنه من غرائب الأمور ، أن يكون لفريق من المسلمين هم العرب ، مشكلة كمشكلة فلسطين ، تبدأ وتستمر وتتعقد ، ولا يوجد للعالم الإسلامى الضخم الغنى المترامى الآفاق ، رأى لا يقف عند حدود المشكلة السياسية العابرة ، إنما يدرك مقدماتها البعيدة ، ونتائجها العميقة فى المستقبل .

وللمسلمين من موسم الحج ، معين على أن يفكروا فى هذه الأمور المجردة التى تعلو على الوقت الذى يمر بنا وحدود الدول الضيقة . .

وقد نستطيع أن نضع الخطوط الأولى فى صورة عظيمة للإسلام العظيم . .

فتحى رضوان

من هنا نبدأ الخطو.. إلى المستقبل

الدكتور / يحيى هاشم فرغلي

من الحقائق المسلمة اليوم : أن المجتمع الإسلامي المعاصر يمر بأزمة شديدة .

قد يذهب الكثيرون إلى أنها أزمة « تقدم » ، - أى وليدة المجاهدة والتحرك نحو مستقبل أفضل - وقد يشك البعض فى ذلك ، ولكنها عند الجميع « أزمة » حقيقية ، تحتاج إلى معالجة وتبصر .

ولقد ذهبت إلى غير رجعة الفلسفة القائلة بميكانيكية التقدم . أو حتمية التلقائية ، وأصبح من المقرر علميا أن إيجابية الإنسان ، ومساهمته الإرادية عنصر أصيل فى التحرك نحو الأفضل . .

وإذا كان المجتمع - أى مجتمع - يتكون من ثلاثة عناصر :

الإنسان أولا ، ومعطياته المعنوية ثانيا ، ومعطياته المادية ثالثا ، فإنه يمكننا أن نقول إن أزمة المجتمع الإسلامى المعاصر لا ترجع إلى شىء من معطياته المعنوية ، أو المادية .

إنه يملك من المعطيات المعنوية ما إن تمسك به فلن يضل أبدا « كتاب الله وسنة رسوله » .

إنه يملك من المعطيات المعنوية ما إن تمسك به فلن يضل أبدا « كتاب الله وسنة رسوله » .

ولقد أسهب الكاتبون فى بيان هذه الحقيقة ، كما أسهبوا - بما فيه الكفاية - فى الرد على المبشرين والمستشرقين الذين يشككون فى صلاحية الإسلام للتقدم فى العصر الحاضر ، وأثبتوا بما لا يدع مجالا لمستزيد أن الإسلام صالح لقيادة حركة التقدم فى كل زمان ومكان ، بل أثبتوا أنه هو وحده الصالح لهذه القيادة ، وأن تقدم الغرب - فى بعض نواحى الحياة - إنما كان بأخذه ببعض القيم الإسلامية ، وأن تأخر الدول الإسلامية إنما كان لإهمالها الأخذ بهذه القيم .

فى هذا المجال أعتقد أنه لا موضع لزيادة إلا بالإيضاح والشرح .

أما من ناحية المعطيات المادية فإن المجتمع الإسلامى المعاصر يملك ما إن أفلح

فى استثماره فلن يجيب أمره أبدا .

(أ) ثروة من البشر تبلغ المئات من الملايين ، تقارب الألف مليون فى بعض التقديرات .

(ب) ثروة زراعية هى اليوم – بحسب إمكانياتها الدفينة – تمثل « مخزن الغذاء » للعالم .

(جـ) ثروة معدنية وبترولية يقوم عليها النشاط الصناعى والتكنولوجى فى العالم المتحضر والمتخلف على السواء .

(د) مواقع جغرافية واستراتيجية هى أخطر وأهم المواقع على خريطة العالم المتحضر .

(هـ) رصيد من النقد الحر والعملة الصعبة ، يمثل أخطر قوة نقدية فى الاقتصاد العالمى .

إنه بهذه المقاييس تتوفر له إمكانيات مادية لم تتوفر لأمة فى التاريخ ، وبالرغم من ذلك – بالرغم من هذه المعطيات المعنوية والمادية – فإن هذا المجتمع – المجتمع الإسلامى المعاصر – يرسف فى أغلال الجهل والفقر والمرض والعبودية والتخلف .

وهنا نرجع بالضرورة إلى شخصية المسلم المسئولة عن الاستفادة بهذه الإمكانات . لنتساءل عما أصابها .

وفى اعتقادى أن هناك آفة لحقت بهذه الشخصية .

ويصبح العلاج من ثم يتحتم أن يوجه إليها .

وفى هذا مصداق لقوله تعالى :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ولقوله فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

وفى اعتقادى أن هذه الشخصية – لحسن الحظ – مازال غنية فياضة بالمشاعر القوية للإسلام : فرحا له أو غضبا من أجله .

ولكن – لسوء الحظ – فإن سيل المشاعر هذا الذى يتدفق كما يتدفق – البترول من أرض المسلمين – يتوقف عند هذه المرحلة مرحلة الفرح تارة والغضب تارة ، كما يتوقف جهدهم عند حد خروج البترول ، من أرضهم .

بعد ذلك يذهب كل شىء بددا . .

وهنا فلنرجع إلى الشخصية الإسلامية مرة أخرى لنتساءل : إذا لم يكن العيب فى طاقتها الشعورية ، فمن أين يأتى ؟

إن الآفة الخطيرة التى أصابت الشخصية الإسلامية المعاصرة هى نوع من الشلل أصاب مكمن التفكير فيها .

وبدون مواربة هو نوع من « المرض العقلى » .

وبشىء من التحديد هى « فقدان النظرة العملية » .

ولكى أكون واضحاً فإن ما أريده بالنظرة العملية شىء غير العمل . فمع أهمية العمل وضرورته القصوى – ومع الاعتراف بتقصيرنا الشديد فيه – إلا أن جذر القضية يرجع إلى « موضع الربط بين النظر والعمل » .

العمل بلا نظر . . .

والنظر الذى ليس من شأنه أن يؤدى إلى عمل . . . كلاهما ضلال أو دمار .

هذه هى آفتنا ، وهذه هى القضية .

والنظر الذى ليس من شأنه أن يؤدى إلى عمل هو ما ينطبق على التأمل العقلى المغلق على ذاته ، ولا ينطبق على ما يمكن أن يطلق فى العرف الحديث « العلم البحت » فالعلم البحت من شأنه أن يؤدى إلى عمل .

ومن هنا فإن الجهود التى تبذل فى « العلم البحت » تسمح بها الفلسفة العملية التى ندعو إليها .

يقول أميل بيكار فى كتابه « العلم الحديث » : إن المتشين بخمر العلم ، أولئك الحالمين الذين يبدون وكأنهم قد تاهوا فى تأملاتهم هم فى الواقع رجال عمليون على طريقتهم فقد يأتى التطبيق أحيانا بطريقة غير متوقعة .)[1] ومع ذلك فقد أدرك العلماء ضرورة التخطيط لربط هذا العلم البحت بالناحية التطبيقية ، وحذروا من التلقائية التى قد ينساق إليها العاملون فى هذين المجالين .

يقول العالم الفيزيقى الشهير لويس دى بروجلى : (هناك سؤال هام عما إذا كان يجب بذل بعض الجهود فى سبيل الحفاظ على علاقة وثيقة بين العلم البحت والعلم التطبيقى ؟ ولتحاشى انفصال قد يكون كارثة بالنسبة للواحد كما هو للآخر؟ . . .)

ثم يجيب على هذا التساؤل فيقول : « إن التعاون الوثيق بين العلم والتكنيات أمر مرغوب فيه إلى أقصى الحدود . فمن المحتمل أن يتأخر أو حتى يتوقف التقدم الصناعى إذا لم يقدم له العلم البحت نتائج أبحاثه ، ولكن المنفعة متبادلة ، ويستطيع العلم البحت أن يجنى فائدة كبرى من وراء التطبيقات العملية لأبحاثه .

(١) أنظر الفيزياء والميكروفيزياء للويس دى بروجلى ص ٧٨

إن أحد الأخطار الكبيرة التى تواجه العلم البحت هو أن ينطوى على نفسه .»[1]

إن الحضارة الإسلامية إنما ظهرت وتقدمت وارتقت ، بعبقريتها النابعة من الإسلام فى إدراكها ، لموضع الربط بين النظر والعمل »

– يقول بعض السلف : العلم يهتف بالعمل . فإن أجاب حل وإلا ارتحل[2] .

– وعن عثمان وابن مسعود وأبى رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ ، كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخر حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعا[3] .

– وفى موطأ مالك رضى الله عنه : أنه بلغه أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها . وذكر عبد الله عن أبيه رضى الله عنهما قال : تعلم عمر البقرة فى اثنتى عشرة سنة فلما ختمها نحر جزورا[4] .

– ويقول رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه « اللهم إنى أعوذ بك من الأربع من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعاء لا يسمع) .

ويقول ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير

– احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز .

وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإنّ لو تفتح عمل الشيطان » .

ويقول ﷺ :

« اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

يقول ﷺ :

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .

وعن خارجة بن زيد بن ثابت قال : كان زيد إذا سئل عن شىء قال : هل وقع ؟

فإن قالوا له لم يقع لم يخبرهم . وإن قالوا قد وقع أخبرهم .

وعن مسروق قال : كنت أمشى مع أُبىّ بن كعب فقال له رجل – ياعماه كذا وكذا فقال يا ابن أخى أكان هذا ؟ قال :

(١) المصدر السابق ص ٢٩٠ .
(٢) أخلاق العلماء ص ٢٢٥
(٣) تفسير القرطبى ٣٩ حـ ١
(٤) أخلاق العلماء ص ٢٢٧

لا ، قال فاعفنا حتى يكون[1]

ويقول تعالى : (. . . يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

ويقول تعالى : (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب . .) .

قال بعض المفسرين : معناه كونوا عاملين بما كنتم تعلمون الناس من الكتاب[2] .

قال بعض العلماء : إذا تعلم المرء من العلم مقدار ما يحتاج إليه ينبغى أن يشتغل بالعمل به .

ويترك التعليم .

وقال بعضهم ، إذا اشتغل بزيادة العلم ، فهو أفضل بعد ألا يدخل النقص فى فرائضه[3] .

ويقرر الإمام الغزالى (أن الأولى بأكثر الخلق الاشتغال بالعمل والاقتصار من العلم على القدر الذى يعرف به العمل ،) وهو يرى أيضاً أن (من العلم ، العلم العملى ، أعنى ما يعرف به كيفيته) . إن المقام فى الإسلام وفى توجيهات الرسول هو مقام الدعوة إلى العمل ، وإلى العلم العملى بمفهوم يشمل كل ماله صلة بالعمل .

ومن ذلك الاعتقادات التى لها صلة بالعمل ، كالعلم بالآخرة والعلم بعلم الله ، وشموله للصغيرة والكبيرة والعلم بعصمة الرسل ، إلى أمثال ذلك .

أما العلم بزيادة الصفة على الذات أو عدم زيادتها عليها والعلم بخلق القرآن أو قدمه والعلم بكيفية التوفيق بين ما يشعر به الإنسان من كونه مخيرا فى حالات من ناحية ، وعلم الله وإرادته وقضائه من ناحية أخرى ، كل هذا من العلوم التى لا صلة لها بالعمل ، وهى من العلوم التى لاحظ الإمام الغزالى بحق أنها مما أجمله الرسول ولم يدع إلى التعمق فيه ، فهو ليس مما ينشغل به الإنسان .

والرسول ﷺ لم يكن يتوجه فى ذلك إلى أكثر الناس فحسب كما ذكر الإمام الغزالى ، إذ لو كان العلم النظرى المنبت عن العمل مما يحسن أن ينشغل بعض الناس به أو يحضلوه لندب إليه قلة من الناس ، ولجعله فرض كفاية ، أو لجعله مما يتسابق فيه المتسابقون كما فعل فى العبادة إذ فتح فيها الشارع الطريق إلى منتهاه لمن يسبق إليه ، « قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً » ٢ - ٤ المزمل .

---

(١) نقلا عن أعلام الموقعين جـ ١ ص ٦١

(٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢ .

(٣) بستان العارفين ص ٣ .

(والسابقون السابقون أولئك المقربون)

١٠ ، ١١ الواقعة

ومهما يكن من أمر فقد ظل أمر المجتمع الإسلامى منذ ظهور الإسلام على استمساكه بقناة متينة تربط بين ما يعلم ومايعمل ، ثم أخذت الحضارة الإسلامية تتأثر تأثرا واضحا بما نقلته عن الفلسفة الإغريقية ، فمن ثم تحطمت هذه القناة ، وأصبح العالم الإسلامى يتأمل لما لا يعمل ، ويعمل فيما لا يعلم ، وأخذت هذه الحضارة تنتكس ، لتدخل فى أفول « النظرة العملية » .

وها هو يرصد حركة هذا التدهور فيلسوف إسلامى من فلاسفة القرن الرابع الهجرى ، أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى – يقول :

(إن فرقة من الفلاسفة[1] ، وطائفة من الباطنية[2] قد ادعوا أن المبرز فى العلوم لن يلزمه شىء من وظائف العبودية غير الهداية للخليقة . وأن العاقل منا ليس يلزمه اقتباس العلم ليتوصل به إلى الأعمال الصالحة ، بل يلزمه ذلك ليسلم به عن وحشة الجهالة ، فإنها فى ذاتها قبيحة مظلمة كما أن ضدها فى نفسه حسن ملذ . . .

ونحن نقول : إن كل من آثر لنفسه هذه العقيدة فقد ارتكب خطأ فاحشاً فإن العلم مبدأ للعمل ، والعمل تمام للعلم ، ولا يرغب فى العلوم الفاضلة إلا لأجل الأعمال الصالحة .

ولو جعل الله تعالى الجبلة البشرية مقصورة على تحصيل العلوم دون تقويم العمل لكانت القوة العملية إما فضلاً زائداً وإما تبعا عارضا ، ولو أنها كانت كذلك لما كان عدمها ليخل فى عمارة البلاد وسياسة العباد .

كلا : إن توهم هذا مما يؤدى إلى تفويض الأعمال الصالحة بأسرها إلى ذوى الجهل والغباوة ، ولو جعل الأمر كذلك لوجدت الطبيعة الإنسية عند إقامتها الأعمال الصالحة مستغنية عن العلوم

---

(١) يقول المحقق الدكتور أحمد عبد الحميد غراب : لعله يشير بذلك إلى فلاسفة الأفلاطونية الجديدة ، فمعظمهم كانوا يعظمون من شأن العقل المجرد والعلم النظرى ، ويضعون ذلك فى مرتبة فوق العمل ، وتجد هذا الاتجاه عند أرسطو . .

. . انظر مثلا كتاب الأخلاق ، وفى المجتمع الطبقى الذى أقامه أفلاطون فى جمهوريته ، ويرى الجاحظ أن هذا اتجاه عام لدى اليونان ، يقول عنهم :

(. . يرغبون فى العلم ويرغبون عن العمل . .)

(٢) يقول المحقق أيضاً : « من المعروف أن التأويل بلغ بالإسماعيلية درجة أسقطوا فيها الجانب العملى من الشريعة » .

انظر كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ص ٧٧ – ٧٨ .

الحقيقية .)[1]

إن العلم العملى كان هو سر عبقرية العقلية الإسلامية ، وسر ازدهار الحضارة الإسلامية . ثم اتصلت هذه الحضارة بالفلسفة اليونانية والهيلينية فانتكست ، وأخذت تدخل فى ظلام ساد أوربا بسبب هذه الفلسفة . بينما أخذت أوربا تخرج من ظلامها بما اقتبسته من « النظرة العملية » التى عثرت عليها فى الحضارة الإسلامية .

ولعله من المناسب أن نقرر هنا أنه لم يكن مجرد صدفة أن حركة الترجمة فى الحضارة الإسلامية اتجهت أول ما اتجهت — وطوال قرن بأكمله تقريبا هو القرن الثانى للهجرة — إلى ترجمة الطب والكيمياء والهندسة والفلسفة اليونانية والتفسير الذى نكرره ونؤكده ونصر عليه ونلفت النظر إليه هو أنه لم يكن هناك سبب لذلك إلا أن روح الإسلام — ومن ثم روح الحضارة الإسلامية الأصيلة — هى روح الفلسفة العملية ، أو النظرة العملية ، ومن هنا فإن ما حدث بعد ذلك من اتجاه إلى الفلسفة النظرية « التأملية » لم يكن يمثل تطورا عاديا بقدر ما كان يمثل انحرافا فى مسيرة هذه الحضارة .

هذا هو المحور الحقيقى للصراع الثقافى الذى كان يدور على الصعيد الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يكن السبب هو ما درج على ذكره الكاتبون فى هذا الموضوع : صراعا بين أهل السنة — أو الحشوية — باعتبارهم محافظين ، وبين الفلاسفة — أو العقليين — باعتبارهم مجددين ، بل إننى لأقول عن ثقة إنه كان صراعا بين أتباع النظرة الجديدة ، نظرة الإسلام ، النظرة العملية ، أهل أتباع الرسول ، باعتبارهم أصحاب دعوة ثورية جديدة لم تستكمل إقامة دعائمها بعد ، وبين أتباع الفلسفة القديمة ، الفلسفة اليونانية الهيلينية ، الفلسفة التأملية ، باعتبارهم أصحاب دعوة رجعية تريد أن تنتقل بها من بيئة شائخة من العالم الهيلينى إلى بيئة شابة خصبة ، إلى العالم الإسلامى الجديد ، الذى يرفض جسده الصحيح إدخال قطعة مهترئة عليه من جسد وورى التراب . .

هذا هو المحور الحقيقى لذلك الصراع : الصراع بين الفلسفة العملية التى يمثلها الإسلام وأهل أتباع الرسول ، وبين الفلسفة التأملية التى يمثلها الفلاسفة وأهل أتباع أرسطو وأفلوطين .

---

(١) السابق ص ٧٨ — ٧٩ . ويشير المحقق إلى أن الفلسفة العملية فى عصر المؤلف التى تقابل الفلسفة النظرية هى : علم الأخلاق ، وعلم تدبير المنزل ، وعلم السياسة .

ولنستمع هنا إلى شهادة من أهل أوربا يقول الدكتور هرمان راندال :

(اتجه رجال القرون الوسطى إلى المعرفة العملية التي وجدوها في مكاتب العرب ، وجامعاتهم الفنية .

وحين أخذ الغرب يستيقظ في مطلع القرون الوسطى انتقل مركز الثقافة الإسلامية إلى إسبانيا . وعن طريق إسبانيا جاءت أول معرفة لأوربا بمؤلفات أرسطو الكبيرة ولكن المسلمين أنقذوا من العالم القديم شيئا كان أرسطو ، بالرغم من عبقريته ، عاجزا كل العجز عنه وهو العلم الرياضي والآلي .

فقد أخذوا المعرفة الرياضية والطبية التي احتقرها الرومانيون ، ونبذها المسيحيون جانباً وراحوا يعملون بصبر وجهد من ذلك الطريق الذي ازدراه الإغريق في أوج عظمتهم تابعين طريق التطور البطيء والتكيف العملي . وقد اكتسبوا من الهند الأرقام «العربية» التي لا يمكن الاستغناء عنها وشكل التفكير الجبري الذي لولاه لما استطاع المحدثون قط أن يبنوا على الأسس التي وضعها الإغريق .

وبنوا في القرن العاشر من إسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب بل كان علما يطبق على الفنون والصناعات الضرورية – للحياة العملية .

وعلى الإجمال كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العملية اللذين تمثلهم في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة . وخلافا للإغريق لم يحتقروا المختبرات العلمية والتجارب الصبورة .

أما في الطب وعلم الآليات ، بل في جميع العلوم فقد استخدموا العلم في خدمة الحياة الإنسانية مباشرة ، ولم يحتفظوا به كغاية في حد ذاته . .

وقد ورثت أوربا بسهولة عنهم ما ترغب أن تسميه بروح « بيكون » التي تطمح في « توسيع نطاق حكم الإنسان» على الطبيعة .

وبينما امتص التقليد المسيحي صوفية الأفلاطونية الجديدة وأهمل علمها الرياضي فإن العرب أظهروا حبا متساويا للناحيتين ، وعلى ذلك حين نشأت الجامعات في العالم المسيحي فإنها وجدت أن إسبانيا لم تحتفظ بالعلم الإسكندري فحسب ، بل أضافت إليه الشيء الكثير أيضاً .

ولقد شهد القرن الثاني عشر عملية التمثيل الكبرى لهذا العلم ، وتم ذلك في مركزين رئيسيين : صقلية والأندلس حيث تلاقت الثقافتان المسيحية

والإسلامية) .(١)

ثم يبين هرمان راندال كيف أن اهتمام الفكر الأوربى بالحركة الأدبية الإنسانية أخر من ظهور النهضة العلمية التى وضع أسسها العرب فيقول :

(كونت حركة إحياء الأدب الإنسانى عائقا بالغا فى وجه تطور العلم الطبيعى ، فلو لم تحصر هذه الحركة جهود أفضل المفكرين فى حكمة لا علمية بجوهرها كان ينادى بها الرومانيون ، لولا ذلك لكان من الجائز أن تؤدى هذه الاهتمامات العلمية القوية إلى ظهور مثل غاليليو قبل القرن السابع عشر بوقت طويل .

ولو تمت ثقافة علمية أصيلة كنتيجة لتطور الفنون الحرة لكان العالم قد تجنب - خمسمائة سنة من صراع عقيم مع فتات الأدبين اللاتينى والإغريقى .

لقد احتكر الإنسانيون ، من بترارك ومن جاء بعده الطبيعة ، وعبر بترارك عن احتقاره لاهتمام الناس بالكتب الشعبية الشائعة من علم الحيوان وطبائعه وكتب الأسفار فقال : « لأنه حتى لو كانت جميع الأشياء التى ترويها مثل هذه الكتب صحيحة فإنها لا تساعد الإنسان بأى شكل من الأشكال على تحقيق حياة سعيدة . إذ ما هى الفائدة التى نجنيها عندما نعرف طبيعة الحيوانات والعصافير والأسماك والزحافات (؟؟)

بينما نجهل طبيعة الجنس البشرى الذى ننتمى إليه ولا نعرف - أولا يهمنا أن نعرف مصدر حياتنا وإلى أين نعود ؟؟ ولم يبد حتى أبرازموس العظيم اهتماما بالاكتشافات الكبيرة التى تمت فى أيامه ..لأنه لم يكن فقط عديم الاكتراث بالعلم الطبيعى ، بل كان - يكرهه فى الواقع (؟ ..) وهو يسخر فى مقطع مشهور من كتابه « مديح الحمق » من فلاسفة الطبيعة - والرياضيين) (٢) .

وإلى وقت قريب كان تولستوى يسخر من العالم الحديث فيقول فى بعض ما كتب عنه (إنه مشغول بعدٍّ ما على هذه الأرض من أثيات البق وسائر الحشرات) ويعلق الدكتور جيمس كونانت على سخريته هذه قائلاً بسخرية أيضاً (قال هذا قبل أن يظهر أثر العلم فى الصناعة والطب) (٣) .

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ١ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) انظر تكوين العقل الحديث جـ١ ص ٣١٣ - ٣٢٠ .

(٣) انظر مواقف حاسمة للدكتور جيمس كونانت ص ٣٠٩ .

أما نحن اليوم فقد صدرنا بضاعتنا الأصلية ، واستوردنا منذ أمد بعيد بضاعة العصور الوسطى الرديئة ، وأخذنا نرزح – منذ أمد بعيد أيضاً – تحت وطأة مرض عقلى يمثله انفصام الصلة بين النظر والعمل ، أخذت نذره تلوح منذ ما قبل القرن الرابع الهجرى كما بينا من قبل .

وفى رأيى أن جميع المنعطفات أو المدارج النازلة التى أخذت تنزلق عليها الحضارة الإسلامية ترجع إلى طرو هذا المرض العقلى عليها أو تأصله فيها .

فى المشاكل العقدية :

(انظر إلى مشاكل الذات والصفات ، وخلق القرآن والقضاء والقدر ، والإمام الغائب و . . . إلخ) .

فى المشاكل السياسية :

(انظر إلى مشاكلنا العربية ، ومشاكلنا مع الصهيونية والاستعمار الغربى ، والشيوعية) . .

فى المشاكل التشريعية :

(انظر إلى مشاكلنا النابعة من تجاهل وضع الحلول العملية اللازمة لتطبيق الشريعة الإسلامية) .

فى المشاكل الاجتماعية :

(انظر إلى مشاكلنا فى أزمة العلاقة بين الرجل والمرأة ، ومشاكل الزواج ، ومشاكل الإسكان) .

فى المشاكل الاقتصادية :

(انظر إلى مشاكلنا فى الاستثمار والتضخم والربا . . إلخ) .

فى كل ذلك وفى غيره يبدو « برص » على جلد العقل الإسلامى المعاصر تجد على أحد لونيه نظر عقيم ، وعلى لونه الآخر عمل أعمى .

يقول وليم جيمس :

(لا يقال إننا نعرف الشىء إلا عندما تكون قد تعلمنا كيف نتصرف بالنسبة له ونتجاوب معه أو كيف نواجه ماننتظر منه من نتائج ، أما قبل تلك المرحلة فهو غريب عنا .)[1]

ويقرر بصفة عامة أنه :

(لابد لنا من العمل

وليس لنا الخيار إلا فى نوع النتائج أو فى مقدارها .

وليس هناك من واجب فى هذه الناحية إلا استخراج أغنى ما تسمح به المقدمات من نتائج .

ويوجد الغنى طبعا فى جهد الدوائر العقلية كلها وفى طاقتها : – الأولى : الإدراكات الحسية والوجدانية – الثانية : – القوة النظرية ، الثالثة : الاتجاه

---

(١) العقل والدين ص ٥٥

إلى الفعل – فلا يجوز أن تترك مسألة حسية من مسائل الدائرة الأولى وحدها فى العراء . ولا أن تترك قوة من قوى الدائرة الثالثة مشلولة ومعطلة ، ولابد أن تبنى الدائرة الثانية بينهما جسرا متينا لا يعروه عطب .)[1]

ويقول أميل بوترو :

(يذهب البراجماتيون إلى أن العلم يميل إلى الفعل وليس له غرض آخر إلا خدمة الفعل . ولك أن ترجع إلى أصل التصورات العلمية فستجد دائماً أنها تدل على مناهج يجب اتباعها لتظهر هذه الظاهرة أو تلك ، لنحصل على هذه النتيجة أو تلك .

أنها قواعد للفعل ، وليس لها خارج هذه الدلالة مضمون حقيقى .

إن الحقيقة تعنى قابلية التحقيق ، وقابلية التحقيق تعنى إمكان هدايتنا أثناء الخبرة

والعلم لا يتطلع فقط إلى الفعل ، هو نفسه فعل أى قوة فعالة مبدعة .)[2] (لا يزال كثير من العلماء يحملون لواء الفكر اليونانى ، ويقولون مع أرسطو « العلم للعلم » وقد يعترض على هؤلاء بأنهم يقلبون الوسيلة غاية ، لكن هذا القلب هو فى حد ذاته قانون عظيم من قوانين الطبيعة والفعل وهو يشبه الذين يتخذون من الغريزة الحيوانية غاية ، فهذا يخدم فى نفس الوقت كونها وسيلة والعلم حين تجرده من المنفعة لا يتحول لهذا السبب وحده إلى غاية مطلقة ، بل يصبح « وسيلة » نمو العقل الذى هو كما يقول عنه ديكارت : يحتاج إلى أن يرضع لبان الحقائق حتى يوجد ، وينمو والعقل لا يوجد إلا حين يفعل)[3] .

والذى أدعو إليه هنا وفى كل مجال بغير فتور وبغير ملل ، هو نوع من « الفلسفة العملية » . نعيد به التجاوب بين ساق الأمة : النظر والعمل ، لكى تستعيد وحدتها ، وتسترجع قامتها ، وتهجر متزلقاتها ، وتستعيد الطريق . . .

ولست أبالغ إذا قلت إن نقطة البداية فى العمل على شفاء الشخصية الإسلامية المعاصرة من « دائها العقلى » ومن ثم فى حل أزمة المجتمع الإسلامى المعاصر – هى فى اعتناق « الفلسفة العملية » ، التى ينبغى أن تنشط لها عقول المفكرين الإسلاميين ، وأن يبحثوا فى أعماق الأصول الإسلامية ، وأن يقدموها وفقا لهذه الأصول .

وعلى الفكر الإسلامى المعاصر بعد أن

---

(١) العقل والدين ص ٩٨ .

(٢) العلم والدين ص ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٤ .

يتعرف على أبعاد هذه الفلسفة . أن يخطو خطوة أخرى نحو إعادة تفسير الحضارة الإسلامية فى ضوء هذه الفلسفة ليخطو بعد ذلك الخطوة العملية المستهدفة ، أى ليقدم حلولا عملية لبعض مشاكلنا المعاصرة .

د . يحيى هاشم

الخير فى الحديث النبوى

- خير الناس من طال عمره وحسن عمله .
- خير الناس أنفعهم للناس .
- خير النكاح أيسره .
- خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه .
- خير ما أعطى الناس خلق حسن .
- خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .
- خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح .
- خياركم أحسنكم قضاء للدين .



يحيى هاشم حسن فرغل

١ - ولد بالقاهرة فى ٤ فبراير ١٩٣٣ ، لوالده الشيخ حسن محمد فرغل أستاذ التوحيد والمنطق بكلية أصول الدين ، ووجهه والده للدراسة بالأزهر.

٢ - حصل على الشهادة العالية من كلية أصول الدين عام ١٩٥٨ وكان ترتيبه الثانى .

وحصل على إجازة التدريس من كلية اللغة العربية عام ١٩٥٩ ثم عين مدرسا بالمعاهد الأزهرية للعلوم الشرعية والعربية ، حيث تسلم عمله بمعهد أسيوط فى أواخر عام ١٩٥٩ ، ثم تنقل بين معاهد الأزهر ، إلى أن اختاره الدكتور محمود حب الله للعمل بالأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٤ وفى عام ١٩٦٩ عين مديراً للسكرتارية الفنية لمجمع البحوث الإسلامية ، وظل كذلك إلى أن عين مدرسا مساعداً بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين عام ١٩٧١ .

وكانت أهم أعماله بالمجمع المشاركة فى إدارة مؤتمرات المجمع السبعة التى عقدت ما بين عام ١٩٦٤ - ١٩٧٢ .

وحصل على درجة الماجستير بتقدير ممتاز فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالقاهرة عام ١٩٧١ عن رسالته فى نشأة علم الكلام .

وقد طبع مجمع البحوث الإسلامية هذه الرسالة فى مجلدين عام ١٩٧٢ أحدهما بعنوان «نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية فى الإسلام» وثانيهما بعنوان «عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام» .

وفى عام ١٩٧٣ انتدب مديراً لمكتب شيخ الأزهر ، ثم انتدب مستشاراً خاصاً

لفضيلة الإمام الأكبر لشئون مجمع البحوث الإسلامية .

وفى عام ١٩٧٦ حصل على الدكتوراه بتقدير ممتاز فى العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين بالقاهرة عن رسالته فى «أصول علم الكلام فى القرآن» ، وقد توصل فى رسالته إلى استنباط منهج جديد لبناء العقيدة الإسلامية قائم على الكتاب والسنة ، ومؤيد بأقوال أئمة الفكر الإسلامى .

ثم عين فى ديسمبر ١٩٧٦ مدرساً للعقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة .

وفى منتصف أغسطس ١٩٧٧ تم انتدابه مرة أخرى مديراً عاماً لمكتب شيخ الأزهر .

له من المؤلفات المنشورة :

رسالة الماجستير فى نشأة علم الكلام :

رسالة الدكتوراه بعنوان «الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية» مجموعة مقالات فى الشئون الإسلامية ، بمجلة الأزهر ، والوعى الإسلامى بالكويت ، والتضامن الإسلامى بالسعودية ، ومنار الإسلام بأبى ظبى .

هَل سَتكون أندونيسيا دَولة إسْلامية ؟

INDONESIA
NEGARA ISALAM KAH?
Oleh

Dr. R. SHALABY

الدكتور / رءوف شلبي

في أغسطس عام ١٩٧٦ افتتح الرئيس سوهارتو محطة اتصال تليفوني عن طريق القمر الصناعي الذي يربط بين جزر إندونيسيا المترامية الأطراف البعيدة داخل البحار .

وفي حفل الافتتاح وزعوا خريطة تحمل ملخص المشروع وبها إحصائية عن عدد الجزر عامة ، والجزر الآهلة بالسكان ، وعدد السكان أنفسهم .

وبالاطلاع على ما جاء في هذه الخريطة وهي آخر ورقة رسمية يعتمد عليها في معرفة جغرافية الجزر والسكان في إندونيسيا نجد أن الجزر الإندونيسية عددها ١٣،٦٧٧ جزيرة الآهل منها بالسكان ٦،٠٤٤ جزيرة ، وعدد السكان ١٣٠ مليوناً .

وتقع هذه الجزر بين خط عرض ٦ شمالا وخط عرض ١١ جنوباً وخط طول ٩٥ وخط طول ١٤١ وهي المنطقة الواصلة بين قارة آسيا وقارة أستراليا .

وثراؤها مكشوف وكثير فيها : البترول ، والقصدير ، والفضة ، والذهب ، والنيكل والحديد ، والفحم ، والنحاس ، وقد اكتشف اليابانيون أخيراً معدن اليورانيوم بالإضافة إلى ثروتها الخشبية والأسماك ، والفواكه ، والمحاصيل الزراعية الأخرى مثل الذرة والأرز والشاي ، والبن ، والفلفل ، والقرنفل . . والتوابل . .

هذه الجزر يعيش فيها المسلمون منذ أربعة عشر قرنا عندما بزغت شمس الإسلام واستقبل الناس في هذه الجزر دين الله الحنيف ساعة بزوغه .

وكان لهذه الجزر قبل الإسلام شأو بعيد في عبادة الأوثان ، وكانت هناك عدة ممالك مؤسسة على هذا البطلان مثل :

مملكة ماترام في جاوا الوسطى

مملكة ماجافاهيت في جاوا الشرقية

مملكة فجا جاران بجاوا الغربية

مملكة منغ كابو في سومطرة الشمالية

مملكة سيريوى جايا في سومطرة الجنوبية

وكان بين هذه الممالك صراع على التوسع والحكم . . . فلما جاء الإسلام الحنيف ودخل الناس فى دين الله عن طريق الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة وذلك فى القرن الأول الهجرى على ما هو المعتمد عند كبار رجالات العلم من أهل هذه الديار قامت فى إندونيسيا عدة ممالك إسلامية بعد أن تلاشت ممالك البدوذية والهندوسية .

وممالك الإسلام هى :

دولة فاساى بسومطرة الشمالية

دولة ملاكا بماليزيا الآن .

دولة ديماق فى جاوا الشرقية

دولة فاجانج .

دولة تشريون فى جاوا الغربية .

ودولة ماترام الإسلامية فى جاوا الوسطى بدل ماترام البوذية .

دولة الإسلام فى آتشه فى سومطرة الشمالية بعد أن سقطت مملكة الإسلام فى فاساى لهجوم دولة ماجا فاهيت عليها .

المملكة الإسلامية فى جهور ماليزيا الآن .

ولقد عاش الإسلام فى هذه الديار يزكى فى أبناء الأرخبيل ميولهم للأمن والطمأنينة ، ويقوى فيهم عواطف البر والحنان ، ويجدون هم فيه متعة الروح ، ولذة العيش الأمين الهادئ .

وكان المسلمون فى هذه الديار أشبه بالملائكة وهم فى المساجد يصطفون للصلاة رجالا ونساء ، ويحيون شعائر الإسلام ومواسم البر والخيرات والبركات . .

وعاشوا وحدهم فى دولة إسلامية وهم قوم يحسنون الجوار فيما بينهم وقد زكى الإسلام هذا التقليد فعاشت الدول الإسلامية فى أرخبيل الملايو (إندونيسيا وماليزيا وسنغافورا) والمودة هى الحبل الذى يربطهم ، والعيش الرغيد ، والخير الكثير هو الذى يخيم على مجتمعهم فلم تكن لهم صلة بالدولة الإسلامية فى الشرق العربى على تطورها : لم تكن لهم بالأمويين صلة ، ولا بالعباسيين ، غير أن الصلة الضعيفة التى يذكرها التاريخ أن حكام البلاد أرادوا إقامة علاقة طيبة مع الدول الإسلامية فى عهد العثمانيين فأرسل الأتراك لهم خبراء عسكريين يدربونهم على فنون الحرب .

ولقد كان حكام الممالك الإسلامية فى غاية الشوق إلى الاتصال بالحكام المسلمين فى الشرق العربى فأسموا أنفسهم (سلاطين) تيمنا بالألقاب التى كان يستخدمها سلاطين المسلمين فى بلاد الشرق العربى الإسلامى . . .

لم تكن الدولة الإسلامية فى الشرق العربى ذات صبغة توسعية . .

ولم تكن طبيعة الانتساب إلى الإسلام تعطي هذا المعنى ولا تدفع لهذا الطمع فعاش المسلمون في الشرق العربي تحت رايتهم الإسلامية، وعاش المسلمون في دول الإسلام بجنوب شرق آسيا تحت رايتهم الإسلامية . . . ولو قوى اللقاء بين أهل الدين الواحد والعلم الواحد (علم الإسلام) لما تمكن الاستعمار الأوربي من تحقيق نَهَمِهِ في استعباد بلاد الإسلام في جنوب شرق آسيا فقد طمعت هولاندا في أندونيسيا في أواخر القرن السادس عشر ١٦٠٦، وطمعت البرتغال في ماليزيا في أوائل القرن السادس عشر ١٥١١، وطمع الإسبان في مانيولاس (الفليبين) في عام ١٥٢١ م.

وفي القرن الثامن عشر دخلت إنجلترا إلى منطقة جنوب شرق آسيا في الملايو، وسنغافورا . . . وبدأ التعاون الاستعماري للإجهاز على الممالك الإسلامية في هذه المنطقة وكانت الخطة كالآتي:

١ - تحويل جميع المواد الخام لتصنع في أوربا حتى يترك أبناء المنطقة جاهلين بشئون الصناعة.

٢ - تركيز التجارة في يد الأوربيين والصينيين وإقصاء الجنس العربي عن التجارة الخارجية.

٣ - زرع بذور الخلاف الديني بين المسلمين.

٤ - زرع بذور الخلاف بين العرب والسكان الأصليين.

٥ - الدعاية ضد الإسلام بأنه دين العرب

٦ - تربية الفكر القومي المعادي للقوميات الأخرى.

٧ - إدخال الفكر الإلحادي ليسهم في توهين التحمس للإسلام من نفوس الشباب.

٨ - تعليم الأطفال في المدارس أن العرب مرابون وأنهم بخلاء وأنهم مستعمرون وذلك عن طريق قصص باطلة في كتب المطالعة.

٩ - التبشير بالمسيحية عن طريق: المدارس، المستشفيات، الكتب والنشرات، الزيارات الشخصية، المنح الدراسية، المعونات الاجتماعية . . .

١٠ - إدخال الجنس الصيني ليقوم بدوره في تشويه الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية.

ولم يفطن المسلمون لهذه الخطة . . وانبهروا في الدعوة إلى الجهاد السياسي وإخراج المستعمر من البلاد . . .

لقد استمر الاستعمار الهولندي في إندونيسيا ثلاثة قرون ونصف قرن أتى على

كل خير فيها ولم يترك فيها واحدا قد تعلم كيف يمر الشاى الأخضر بأدوار الصناعة ، وأرسى فى نفوس الأمة صراعا صدّع الأسس العظيمة التى كان يحيا عليها الشعب المسلم فى إندونيسيا . . . ولم تظهر هذه الصراعات إلا يوم أن أعلن استقلال إندونيسيا عام ١٩٤٥ .

وكان الحصول على الاستقلال نتيجة جهاد علماء الإسلام . . .

الإمام بونجول .

الإمام دى بونو جورو .

الإمام أجوس سالم .

الإمام حسى الدين .

الإمام عبد القهار مذكر .

وغيرهم من العلماء المجاهدين بالسيف والقلم والنفس والنفيس . . .

ولكن الاستعمار كان قد صنع سوكارنو وعشش فى نفسه عنكبوت القومية ، ولذّذ له الشيطان الإباق عن الإسلام . . . فظهر ما كان مكتوما وبان ما كان مختفيا وظهر الحسك بشكله القبيح يوم أن اجتمعت الهيئة التأسيسية التى انتخبت لوضع الدستور عام ١٩٥٧ م .

ولم يكن فى الحسبان أن النص على أن إندونيسيا دولة إسلامية أمر عسير لأن ٩٠ ٪ من سكان إندونيسيا بل إن ٩٥ ٪ من سكان الأرخبيل يدينون بالإسلام منذ أربعة عشر قرنا من الزمان .

ولكن الاستعمار كان قد ربى له الأفاعى ، وأعد من الأمة لها أعداء . . .

فظهرت فكرة الفانشاسيلا Pancasila (المبادئ الخمسة) وهى :

١ – الإيمان بالله مطلقا .

٢ – الإنسانية .

٣ – سيادة الشعب .

٤ – القومية الإندونيسية .

٥ – العدالة الاجتماعية .

وكانت هذه المبادئ فى مواجهة أن الإسلام هو أساس الدولة وقدم الماركسيون الاشتراكية كأساس للدولة الجديدة فظهرت اتجاهات ثلاثة :

الإسلام

الفانشاسيلا

الاشتراكية

وهذه الاتجاهات لم تكن وليدة الصدفة بل عمل الاستعمار لها منذ ثلاثة قرون . . . وبينما الحركة الإسلامية تجاهد من أجل الاستقلال وإخراج المستعمر الأوربى من البلاد . كان الماركسيون يعملون على اغتصاب الحكم ، وكان القوميون يضمرون السوء للاستيلاء على ثمرة النصر

الذى سيحرزه المسلمون .

وفى اللجنة التأسيسية لوضع الدستور عام ١٩٥٧ ظن المسلمون أن المعركة معركة إقناع وبراهين وأدلة فقدموا تصورا علميا «تاريخيا رائعاً» ألقاه دولة الأستاذ الدكتور محمد ناصر وطبع تحت عنوان : (اختاروا إحدى السبيلين : الدين أو اللادينية) .

ولكن القضية ليست قضية إقناع ولا قضية براهين وإنما هى قضية تكتيك سياسى سريع وبدأ سوكارنو الخطة وهى :

(ا) تحالف بين الماركسيين والقوميين فى اللجنة التأسيسية .

(ب) تخذيل التجمع الإسلامى وتوهينه وكسر قوته .

(جـ) تخدير المشاعر الإسلامية فى الداخل والخارج . .

(ا) أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد تحالف سوكارنو ممثل الحزب الوطنى القومى الإندونيسى مع الاشتراكيين وهم صنفان : اشتراكيون يتبعون موسكو ، واشتراكيون يتبعون بكين ، وأعلن حل الهيئة ونادى بالفانشاسيلا كأساس للدولة وتمرد المسلمون على هذا الوضع ولكن سوكارنو حل الحزب الإسلامى المتمرد ووصفه بكل ألوان السباب السياسى المعروف عند أشباه سوكارنو .

(ب) وأما فيما يتعلق بتخذيل المسلمين فقد كان حل الحزب الإسلامى إحدى علامات الديكتاتورية التى لن ترحم العمل الإسلامى من قبول الفانشاسيلا فأعلنت الهيئات الإسلامية كلها قبولها لهذه المبادئ وجعلتها أساسا فى برنامجها . . فوجد بذلك جو من الانفصام بين المتمسكين بالحق والهدى وبين القيادات الإسلامية التى أرغمت على قبول الفانشا سيلا واستمر سوكارنو فى تخذيل القيم الإسلامية حتى وصل به الأمر إلى فعل أمور يمتنع الحياء من ذكرها بل يمنع الشرف الفطرى من قصها . . وبات التجمع الإسلامى فى إندونيسيا يلبس ثوبا خلقا باليا ، ويعيش فى صحة عليلة : القيادات الأمينة فى المعتقلات ، والقيادات المرغمة على العمل تهتأ مع سوكارنو ، والشباب المسلم حائر بين شق الرحى : الجهاد المر أو الحياة الرغيدة ووجدت الشيوعية جذورها تتمدد فى أرض رخوة سهلة فصار الحزب الشيوعى فى إندونيسيا أقوى الأحزاب الشيوعية فى العالم . . . فقد تسلط على الحكومة والطيران والبحرية ، والاقتصاد والعمال . . .

وأرغم سوكارنو زعماء الحركة الإسلامية العملاء له أن يعلنوا قبولهم للعمل

مع الشيوعيين احتراما لمبادئ الفانشاسيلا وتحقيقا للوحدة الوطنية التي جعل شعارها (نساكم) اتحاد التحالف الوطني الديني الشيوعي في الأمـــة الإندونيسية. (Nasakom)

واستقرت الحياة عند سوكارنو على هذا المزيج والخليط السيئ المشوش المشوه حتى كانت ثورة الشيوعيين الفاشلة في سبتمبر سنة ١٩٦٥ م.

وكان الحزب الشيوعي قد أقام له المدارس والجامعات واستورد لها من الصين أساتذة، وبدأ في تنفيذ السلوك الشيوعي: لا شرف، لا خلق، لا قيم، لا قانون فانكسرت حدة التحمس الإسلامي في مظهرها العام لولا بقية استبقاها الله في بعض الشباب الصابر المحتسب.. (H.M.I.)

وأما فيما يتعلق بتخدير المسلمين في الداخل والخارج فقد كان سوكارنو يصلي الجمعة إماماً في مسجد صغير بناه في ساحة قصر الجمهورية، ويقيم احتفالات بالمولد النبوي الشريف، والإسراء والمعراج، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان.. وكان جل الحاضرين من القوميين واللادينيين... فهي فرصة للضحك على أصحاب المشاعر الإسلامية، وهي فرصة للترف والبذخ والإنفاق، وقيل في شأن سوكارنو بعد سقوطه إنه كان يحضر هذه الاحتفالات وهو في حالة غير لائقة بالقيم الإنسانية. هذا في الداخل.

أما في الخارج فقد كان سوكارنو يتمتع بأسلوب غاية في السحر والجاذبية... وذلك شأن كذابي السياسة ومنافقي الشعوب.

فقد عملت الديبلوماسية الخبيثة أيام مراكز القوى الموالية للاتجاهات الماركسية في مصر أن يدعى الرئيس سوكارنو – وهو في لحظة الفتك بالإسلام هناك – ليمنح الدكتوراة الفخرية من الأزهر كتخدير للشعور الإسلامي الذي استيقظ يصب عليه جام غضبه، وجاء سوكارنو إلى الأزهر في أبريل سنة ١٩٦٠ وأقيم له احتفال لم تشهده من قبل قاعة الشيخ محمد عبده وخطب سوكارنو خطبة تقليدية تحدث فيها عن الفانشا سيلا وكان ملخص حديثه:

إننا في إندونيسيا نستمد قوى كبرى من فلسفتنا القومية (الفانشا سيلا) إنها مجموعة من المعتقدات والإرشادات منحت من خبراتنا وتجاربنا الماضية ومن تاريخنا كله. إنها فلسفة تقوم على الذاتية القومية. وقال:

وإن الفانشا سيلا لا تستبعد على وجه التحقيق أولئك الذين يدينون بأديان أخرى ولا الذين لا يتبعون دينا على الإطلاق . . نحن لا ننسى أبدا أن المسيحي والبوذي واللاديني كل هؤلاء إلى جانب المسلمين هم مواطنون في الدولة الإندونيسية[1] .

وهذه مغالطة لأن المسلمين - ٩٠٪ - هم الذين أحرزوا الانتصار والبلدان الإسلامية في الأمم المتحدة هي التي وقفت إلى جوار إندونيسيا في قضيتها لأنها بلد إسلامي ومصر الإسلامية هي أول الدول التي اعترفت بإندونيسيا وهي أول دولة أرسلت سفيراً إلى العاصمة القديمة (جوجاكارتا) لأن مصر قلب العالم الإسلامي ، ولأن أندونيسيا في ذلك الحين تمثل قطرا إسلاميا من أقطار الإسلام .

ولقد صارت الأوضاع في إندونيسيا منذ الاستقلال إلى يومنا هذا حول هذا الصراع هل ستقام في إندونيسيا دولة إسلامية ؟

وإذا كانت (الفانشا سيلا) هي الأساس للدولة كما أراد سوكارنو ويريد الذين من بعده . . فهل قبل غير المسلمين هذه المبادئ كأساس للدولة ؟

هل قبل الشيوعيون (الفانشا سيلا) كأساس للدولة مع أنهم ترعرعوا في أحضان إقطاعها ؟

هل قبل المسيحيون الفانشا سيلا كأساس للدولة مع أنهم تمددوا بمؤسساتهم في ظلالها ؟

إن التاريخ المعاصر يشهد أن كلتا الطائفتين لم تقبل الفانشا سيلا كأساس للدولة القومية العلمانية .

أما الشيوعيون :

ففي عام ١٩٤٨ إبان حركة التحرر من الاستعمار اغتصبو ١٨ ضابطا من ضباط الجيش وقتلوهم وأشاعوا الإرهاب والنهب في إندونيسيا حتى كان يوم ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٤٨ أعلنت الحركة الشيوعية قيام الجمهورية السوفيتية الإندونيسية من مدينة (ماديون) وتولى رياسة هذه الدولة المزعومة أحد الرفاق المدعو عامر شريف . . .

ولم يقض على هذه الثورة إلا الجنرال المسلم عبد الحارث ناستيون . . .

فهل قبل الشيوعيون بذلك مبادئ الفانشا سيلا ؟

وفي عام ١٩٦٥ م لم يكتف الشيوعيون بالسيطرة على الحكومة والاقتصاد بل قاموا بانقلاب فاشل في ٣٠ سبتمبر فقتلوا سبعة

---

(١) المحاضرات العامة : الموسم الثقافي الثاني سنة ١٩٦٠ ص ١٣ / ١٥ .

من كبار ضباط الجيش مع وزير الحربية أحمد يانى : A. Yani

ولولا عبد الحارث ناستيون الذى نجا بأعجوبة لسقطت إندونيسيا فى يد الشيوعيين[1] فهل قبل الشيوعيون الفانشاسيلا كأساس للدولة العلمانية فى إندونيسيا . . . ؟ ! !

(١) راجع كتابنا : الإسلام فى أرخبيل الملايو ص ١٨٧/١٨٨ .

أما عن المسيحيين فيكفى فى رفضهم للفانشاسيلا ما يلى :

أولاً : أنهم رفضوا التسامح الدينى الذى دعا إليه الرئيس سوهارتو مراراً فى عام ١٩٦٧ ، وفى آتشه عام ١٩٧٤ م وفى العام الحالى ١٩٧٨ م .

ثانياً : التقرير الذى يصور استيلاءهم على كثير من العمل التخريبى من أجل تنصير مسلمى إندونيسيا .

● حقيقة الخطر الذى يتهدد مستقبل الإسلام فى أندونيسيا
● المراكز الهامة المؤثرة لطائفتى البروتستانت والكاثوليك فى مختلف القطاعات الحيوية فى أندونيسيا

١ – مقدمة

يراود الشعور بالقلق كثيرا من ذوى الغيرة الإسلامية فى العالم ، بسبب ما يشاع عن نجاح التبشير الهائل فى تنصير أعداد ضخمة من مسلمى أندونيسيا فى الآونة الأخيرة . ويرد الكثير من الاستفسارات عن هذه الحقيقة ، مما ينم عن شعور إسلامى نبيل واهتمام صادق بمصاير المسلمين على اختلاف ديارهم وأقطارهم .

والحقيقة أن ما يذاع عن أنباء عن قيام نشاط تبشيرى هائل فى أندونيسيا هو صحيح ، ولكن ما يذاع من ضخامة عدد المتنصرين من المسلمين فيه الكثير من المبالغة ، حقا إن الهيئات التبشيرية تملك طاقة مؤهلة لأعمال التنصير وهى كبيرة العدد وتملك من المادة والمعدات التى تسهل لها استغلال الفقر والجهل والمرض التى هى من مخلفات الاستعمار ، ما لا يحصيه عدد ، ويتلقون سيلا مدرارا من المساعدات المالية من مختلف الهيئات والمؤسسات العالمية ، ولكن كل ذلك لم يحقق النصر الذى أرجفوا به وأشاعوا .

إنهم قد يسجلون الشخص الذى يتعالج فى مستشفياتهم ، أو يتقبل شيئا من الأرز يقدم إليه أو قطعة من قماش ، على أنه قد تنصر وتم تعميده ، وما أكثر الذين يترددون على مستشفيات التبشير ومستوصفاته أو يتلقون معونات الغذاء والكساء بحسن نية باعتبار ذلك مجرد مواساة وبر وعمل إنسانى محض .

ثم هناك جماعات من البدائيين يسكنون فى منطقة الباتاك (بسومطرا الشمالية) وفى كاليمنتان وجماعات فى جاوا الوسطى انتماؤهم الإسلامى فج ، بل ما زال أكثرهم يجهلون الإسلام جهلا ، هؤلاء هم الذين يُنَصَّرون ، ولا يزيد معدل الذين يتنصرون من هؤلاء سنويا عن عشرات الألوف .

إن تنصير البالغين من المسلمين قد لا يكون هينا . أما الذين يتهددهم الخطر

فهم الأطفال الذين يلتحقون بمدارس التنصير ومعاهده ، وهى منتشرة بكثرة كثيرة جدا سواء فى العاصمة أو فى مدن الأقاليم وقراها .

٢ – التسرب إلى مراكز السلطة :

والخطر الذى يهدد الإسلام ومستقبله فى أندونيسيا بحق وحقيقة فهو آت من سيطرة النصارى على مراكز العصب الحساس فى أجهزة الدولة ، وأزمة الاقتصاد ، مما يذكرنا بسيطرة نصارى المستعمرين أيام أوج الاستعمار الهولندى وإذا كان ذلك طبيعيا أيام الاستعمار فإنه من المفارقات جدا أن يستمر بعد ثلاثين سنة من الاستقلال .

وهذه السيطرة قد خططوا لها منذ أمد طويل ، إذ أعدوا كوادرهم وأتاحوا لهم فرص التحصيل العلمى إلى أعلى المستويات فى جامعات أندونيسيا وجامعات الخارج بما يؤمن لشبابهم من منح دراسية سخية ، بينما أبناء المسلمين محرومون من تلك الفرص .

وما تم تنفيذه من ذلك المخطط حتى كتابة هذه السطور يتلخص فى الآتى :

٣ – المراكز الهامة التى يحتلها البروتستانت والكاثوليك فى أندونيسيا :

يحتل البروتستانت والكاثوليك مراكز هامة فى أجهزة الحكم والإدارة والتشريع ، سواء على المستوى المركزى أو الإقليمى ، سيطروا عليها باسم الكفاءات والشهادات الرفيعة وباسم مختلف التنظيمات السياسية والانتماءات الحزبية .

القطاع السياسى والعسكرى

(ا) فى مجلس شورى الشعب :

مجلس شورى الشعب (وليس المجلس الاستشارى الأعلى كما يخطئ ترجمته البعض) هو أعلى سلطة تشريعية فى أندونيسيا ، وذلك وفق ما نص عليه دستور سنة ١٩٤٥ م .

يملك هذا المجلس حق صياغة الدستور أو تعديله وحق انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه ، وحق وضع الخطوط العريضة لأهداف الدولة ، الملزمة لرئيس الجمهورية بوجوب تنفيذها وعدم الحيدة عنها ، ورئيس الجمهورية مسئول أمام هذا المجلس وليس غيره .

المفروض أن يتكون هذا المجلس من أعضاء منتخبين مباشرة ، إذ يتكونون من

أعضاء البرلمان ومن مندوبي الأقاليم. والمجلس الحالى (هكذا يتوقع فى المجلس الذى يتكون من أغلبية ساحقة من طائفة الجولكار (طائفة الحرفيين التى هى فى الحقيقة المنظمة السياسية للنظام الحالى) وجبهة الجولكار فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب مسيطر عليها من قبل الأعضاء البروتستانت والكاثوليك وتملك الجبهة البرلمانية فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب السلطة الكبرى فى سير المناقشات وفى التصويت ، إذ يمارس تلك السلطة (بدون معقب أو رقيب) رئيس الجبهة فرئيس الجبهة هو كل شيء ، أما أعضاء الجبهة فجل مهمتهم التصويت لدى الاقتراع ، إذ ليس له أن يقترح شيئا إلا عن طريق الجبهة ، والمداولات تتم عن طريق اللجان فى البرلمان وفى مجلس شورى الشعب ، وهكذا تبرز أهمية الجبهة البرلمانية فى ممارسة (أو تزييف) إرادة الأمة.

وفى دورة مجلس شورى الشعب لعام ١٩٧٣ كان أعضاء لجان الصياغة واللجان الخاصة الأخرى يتكونون من هؤلاء النصارى الآتية أسماؤهم :

– كوسماس باتوبارا.
– دكتور أندوس موردوبو.
– الدكتور يوهانس بابتيستا سومارلين.
– جريجوريوس أطونيوس سوقيا رتو.
– يوسف واناندى (وهو صينى كاثوليكى اسمه ليم بيان كي).
– ر. روس كامدى (ماجستير قانون).
– ى ب أوتارا (ماجستير قانون).
– السيدة سورياتى أتاستيه ليغاوا.
– سابام سيرايت.
– ياكوب توبينغ.
• دكتور ميديات سيرايت.

هؤلاء هم الذين قاموا بنشاط مكثف جدا ، خلال جلسات مجلس شورى الشعب عام ١٩٧٣ وهى الجلسات التى أنتجت الخطوط العريضة لأهداف الدولة الحالية التى تستوحى منها الحكومة سياستها العامة.

(ب) فى الحكومة المركزية ومؤسساتها :

يتربع النصارى على مقاعد هامة فى الوزارة وفى المصالح والدواوين الحكومية منهم :

– الجنرال مارادين بانقابيان وزير الدفاع والأمن القومى ، وقائد عام القوات المسلحة (البوليس فى أندونيسيا من القوات المسلحة).

– البروفسير الدكتور ج . آ . سيوابيسي وزير الصحة .

– دكتور أندوس راديوس براوير وزير التجارة .

– الدكتور يوهانس بابتيستا سومارلين وزير الدولة لإعادة تنظيم وضبط أجهزة الدولة .

– س . سودارمان مدير عام مديرية الجوازات والهجرة .

– أ . ى . مانيهوروك ، مدير عام ديوان الموظفين .

– دكتور و . ب . تابيتوبولو ، مدير عام التعليم غير الرسمي بوزارة التربية والثقافة .

– ج . س . ت سيموران كيز . رئيس لجنة تطوير القوانين بوزارة العدل .

– دكتور راندوس برايوقو مدير عام مصلحة السياحة .

ويتضح مما ذكر ، أن سلطة مراقبة وضبط ومعاقبة موظفي الدولة هي بيد وزير كاثوليكي ، وسلطة تعيين وترقية ونقل وتجميد الموظفين بيد وزير بروتستانتي وهو أ . أي . مانى هوروك ، ومراقبة بوابة الدولة (الهجرة والجوازات وتأشيرات الدخول والخروج) بيد مسيحي هو س . سودارمان ، حيث يتوقع تسهيلات كثيرة لدخول الإرساليين ورجال الأعمال الفاتيكان ونحوهم . ومما يذكر عن مدير الجوازات المذكور أنه قرر إعفاء القسس ورجال الكنائس من رسوم تأشيرات الخروج وهي رسوم باهظة .

(جـ) وزارة الدفاع والأمن القومي :

تعتبر القوات المسلحة في أندونيسيا من أهم الهيئات الفعالة لحماية نشاط الأعمال التنصيرية ، سواء في القيادة العليا أم مشتقاتها وفي قيادات المناطق العسكرية الإقليمية ، حيث يقوم متنفذوها النصارى بمهامهم بولاء ووفاء لانتمائهم النصراني . ونذكر من بين هؤلاء :

١ – الجنرال ماردين بانقابيان ، وزير الدفاع والأمن القومي وقائد عام القوات المسلحة .

٢ – الجنرال بيني مورداني مساعد القائد العام لشئون المخابرات بوزارة الدفاع .

٣ – الميجر جنرال يوق سوباردى قائد عام قيادة السوقيات (اللوجستيك) للجيش .

٤ – الفتنانت جنرال (بوليس) دكتور أندوس ويدودويودى دارمو قائد عام بوليس الدولة .

٥ – الميجر جنرال كانتر الحقوق ، رئيس هيئة تطوير القانون بوزارة الدفاع والأمن .

٦ – الميجر جنرال ليولوبوا ليسا قائد الفرقة الاستراتيجية بالجيش .

٧ – الميجر جنرال ج . هـ مانتيك قائد منطقة جاكرتا العسكرية .

٨ – ى . ب أوتورو القانونى ، رئيس القسم السياسى بالمخابرات المركزية .

٩ – البريجادير جنرال اى . و . ب . تاميونان مدير الكلية الحربية قسم القوات البرية

١٠ – الأميرال سودومو رئيس أركان قيادة عمليات إعادة الأمن والنظام (بالأندونيسية : كوم كام تيب) وهى القيادة التى تستطيع أن تقارف أى شىء بذريعة الضبط والربط والحيلولة دون انتكاسة الشيوعية ، حيث تملك سلطات استثنائية ، بعد إلغاء حالة الطوارئ فى أندونيسيا .

أما مراكز الدرجة الثانية وهى قيادة المناطق العسكرية ، فقد استولى البروتستانت والكاثوليك فيها على مراكز هامة جدا ، مثل قسم المخابرات والعمليات وكذلك بالنسبة لقيادات مناطق الدفاع (كوبلهان) التى تضم كل واحدة منها عدة مناطق عسكرية قيادية فقد احتل النصارى فيها مراكز هامة أيضاً . من أمثلة ذلك :

١ – قيادة المنطقة العسكرية الثانية « بوكيت باريسان » وتسيطر على منطقة سومطرا الشمالية ومقرها مدينة ميدان . كان قائدها الجنرال ليولوبوليسا وقد رقى إلى منصب قائد الفرقة الاستراتيجية للقوات البرية ، ويقال إن المرشح لخلافته فى القيادة هو أحد الجنرالات النصارى .

٢ – فى قيادة المنطقة العسكرية السادسة ، سيلى وانغى ، بجاوا الغربية ومقرها مدينة باندونغ ، رئيس مخابراتها كولونيل نصرانى اسمه ساملو .

٣ – فى قيادة المنطقة العسكرية السابعة ديبو نقورو (بجاوا الوسطى) يتولى قيادة مخابراتها الكولونيل ليونغالى ، وقد أزمن هذا الرجل فى هذا المنصب الذى تربع عليه أكثر من عشر سنوات .

ومناصب المخابرات هذه حساسة جدا ومؤثرة جدا كما هو مفهوم بالبداهة فى توجيه سياسة القواد ، لأن كافة التقارير تمر بها وهى التى تقيمها وتستخلص معطياتها وتقدمها إلى القيادة فإذا كان القائمون عليها من أصحاب العواطف الدينية المتطرفين أو ممن جندوا عمدا فيها فمن السهل أن تحور التقارير وتعاد صياغتها وتلون بألوان خاصة .

ويبذل البروتستانت والكاثوليك فى الآونة الأخيرة جهودا مكثفة لتولى مناصب قيادة العمليات العسكرية فى قيادات المناطق العسكرية .

(د) فى الهيئات التشريعية للدولة :

يحتل البروتستانت والكاثوليك مختلف الانتماءات التنظيمية ، ٨٤ مقعدا فى البرلمان (أو ما يعادل نسبة ٢ ، ١٨ ٪ من مجموع الأعضاء وعددهم ٤٦٠ عضوا) ولم يكن الأمر قاصرا على العضوية فقط ، ولكنهم يحتلون مناصب فى الجهاز البرلمانى يمكنهم من التوجيه والسيطرة .

ولبيان ذلك نذكر أن :

١ – سابام سيرايت (من حزب البروتستانت سابقا) يحتل الآن منصب نائب رئيس الجبهة البرلمانية للحزب الديمقراطى الأندونيسى .

٢ – ى . هـ . د . تاها ماتا (من حزب البروتستانت أيضاً) يتولى منصب نائب رئيس جبهة الحزب الديمقراطى الأندونيسى البرلمانية .

٣ – ف . ى . داكوستا (من حزب الكاثوليك سابقاً) نائب رئيس أيضاً . .

٤ – دكتور أندوس تام سيا توبانغ (من البروتستانت) يتولى منصب سكرتير جبهة الحزب البرلمانية .

٥ – دكتور أندوس كارو يندينغ (من الحزب القومى سابقا) سكرتير جبهة الحزب البرلمانية .

هؤلاء النصارى يسيطرون على جهاز الجبهة البرلمانية للحزب الديمقراطى الأندونيسى .

جبهة الجولكار البرلمانية :

٦ – جريجوريوس أنطونيوس سوقيهارتو رئيس جبهة الجولكار البرلمانية .

٧ – دكتور أندوس كوسماس باتو بارا منسق الشئون السياسية للجبهة .

٨ – دكتور أندوس ى . سيمان جونتاك منسق الشئون الاقتصادية .

٩ – دكتور أندوس سوقيهارتو (أخوجريجوريوس سوقيهارتو) . منسق الشئون العامة .

١٠ – وارتو تو منسق الشئون الخاصة .

فى اللجان البرلمانية :

اللجان البرلمانية هى التى تتخصص فى مناقشات البرلمان ، فممثل الحكومة يحضر جلساتها ويقدم بيانات الحكومة أمامها ، وعندما تتم المناقشة وتؤخذ آراء الجبهات يقدم الموضوع إلى الجلسة العمومية حيث

تؤخذ الأصوات .

فى هذه اللجان البرلمانية نجد الشخصيات الآتية أسماؤهم :

١ – ق . ى داكوستا

نائب رئيس لجنة الشئون القانونية (لجنة ٣)

٢ – دكتور أندوس تام سيناتو بانغ

نائب رئيس لجنة المواصلات (لجنة ٥)

٣ – ياكوب توبينغ

رئيس لجنة الصناعة والثروة المعدنية (لجنة ٦)

٤ – ى . هـ . دتاهاماتا

رئيس لجنة الصناعة والثروة المعدنية

٥ – ل . م . سيان تورى

نائب رئيس لجنة الشئون الصحية والاجتماعية (لجنة ٨)

٦ – بودى ديبويوانا

نائب رئيس لجنة الشئون الصحية والاجتماعية

٧ – آريفين سارى تامبونان

نائب رئيس لجنة البحوث (لجنة ١٠)

٨ – دكتور أندوس . ى . سيان جوتناك

نائب رئيس لجنة الميزانية

٩ – اى . ى . سوهارتو

نائب رئيس لجنة الشئون الداخلية للبرلمان .

(هـ) فى إدارة الحكم المحلى :

إدارة الحكم المحلى وهى الولايات واسمها مناطق الدرجة الأولى (أو المحافظات وعددها قبل ضم تيمور الشرقية إلى أندونيسيا ست وعشرون ولاية) تتمتع بنوع من اللامركزية (الأوتونومى) فلكل واحدة برلمان محلى يضع ميزانية المحافظة ويسن اللوائح المحلية وينظم واراداتها وينتخب محافظها (ولو نظريا) الذى تعينه بناء على ذلك الحكومة المركزية وللحكومة المحافظة حق جباية بعض العوائد والرسوم والضرائب وتتلقى مساعدة مالية سنويا من الحكومة المركزية تسد عجزها .

ولذلك نرى النصارى حريصين جدا على أن يسيطروا على إدارات الحكم المحلى . وقد نجحوا فى أربع ولايات ، وهى : **ولاية سولاويسى** الشمالية ومحافظها الميجر جنرال هـ . ق وورانغ ، **وسولاويسى الوسطى** ومحافظها البريجادير جنرال – تامبونان **وكاليمنتان الوسطى** ومحافظها سيلفانوس **ونوسا تنقارا تيمور** ومحافظها البريجادير جنرال ايل تارى .

وبرغم أن سولاويسى الوسطى أغلبية سكانها مسلمون إلا أن مجلسها النيابى انتخب البريجادير تامبونان المسيحى وليس

من أبناء المنطقة ، محافظا ، وسارع فعين عددا من النصارى فى مناصبها الهامة ، منهم :

- دكتور أندوس لى ل سلاتا سكرتير حكومة المحافظة .
- دكتور أندوس ف . س . سياك لإدارة شئون الحكم والإدارات
- سى . ك . توما كاكا لإدارة شئون التنظيمات العامة
- دكتور أندوس س . تامبونا لإدارة الشئون المالية
- دكتور أندوس س . ساروتقو لإدارة المكتب العام
- دكتور أندوس نيكو آدم لإدارة شئون الموظفين
- دكتور أندوس ى . و . سارابانغ لمصلحة العوائد والإيرادات

(و) الهيئة المركزية لمنظمة الجولكار (الحرفيين)

كلمة الجولكار منحوتة من كلمتين باللغة الأندونيسية وهى جولونغان كاريا Golongankarya أى طائفة أصحاب الحرف ، وينضوى تحت مفهوم أصحاب الحرف كل من يحترف حرفة يعيش منها ، مثل موظفى الحكومة وموظفى المؤسسات العامة للدولة ، ومحترفى القتال (القوات المسلحة) محترفون أيضا والصحفيون ومراسلوا الصحف والفنانون والممثلون والرسامون والنحاتون والمغنون كلهم حرفيون ، وضم هؤلاء إلى منظمة أطلق عليها اسم الجولكار ، ابتدع الفكرة ونفذها سوكارنو ، وكثف نشاطها العهد الجديد وأصبح لها رئيس يتولاه الآن اللفتنانت جنرال اميرمورتونو ، وفى العهد الجديد فرضت المنظمة فرضا على كل من يتقاضى مرتبا أو أجرا من الحكومة ومؤسساتها ، بل فرض على كل من له صلة بالموظف من زوجة وأولاد وأصهار .

وهكذا نجد الوزراء والمديرين العامين والموظفين وحكام الولايات إلى عمد القرى ، وأسست فى كل ديوان أو مصلحة « نقابة لموظفيها » ، تتقاضى نسبة من مرتباتهم اشتراكا فى النقابة ، ويقال إن كل مشتريات الحكومة تتقاضى منها منظمة الحرفيين نسبة عمولة تقدر بـ ١٠ ٪ من ثمنها الإجمالى .

وقد نجحت المنظمة فى انتخابات عام ١٩٧١ فى إجبار الناخبين على انتخاب لاغمة مرشحيها مما أثار ضجة ما أسرع ماكممت وتلق مثيروها تهديدا خطيراً .

وهكذا نجد أغلبية المنتخبين من لاغمة

الجولكار فازت بالتعسف والقسر .

وقد أسفر المؤتمر القومي للمنظمة (لهيئتها المركزية فقط) وقد انعقد بمدينة سرابايا ، وخيل للمشاهدين أنه مؤتمر للقوات المسلحة لما ساد المؤتمر من الضباط وما استخدم فيها من تسهيلات الجيش ومعداته ، فيما أسفر ، عن هيئة إدارة مكونة من ١٧ عضوا ، سبعة منهم (أي بنسبة ٤١ ٪ من البروتستانت والكاثوليك ، ولم تقتصر المناصب على الحكم فقط وإنما تمتاز أيضاً بأهميتها . ومن هؤلاء السبعة نذكر ستة وهم :

١ – البريجادير جنرال آ اى . ماتيهوروك رئيس ديوان الموظفين ، اختير نائبا لرئيس الهيئة المركزية

٢ – دكتور أندوس موردوبو أمينا للشئون المالية

٣ – يوسف واناندى (صينى اسمه ليم بيان كى)
أمينا للشئون العامة والتخطيط

٤ – كوسماس باتوبار
أمينا لشئون الكوادر والتربية

٥ – دافيد نابى تو بولو
أمينا لشئون الطلبة والشباب

٦ – الدكتور ميحديان سيرايت
أمينا لقطاع المثقفين

(ز) الهيئة المركزية للحزب الديمقراطي الأندونيسى :

أسفر ما يمكن أن يعتبر بالمؤتمر الأول للحزب الديمقراطى الأندونيسى عن تشكيل إدارة عليا وهيئة مركزية للحزب الذى أصبح بوتقة صهر لخمسة أحزاب قديمة وهى الحزب القومى الأندونيسى وحزب البروتستانت وحزب الكاثوليك وحزب الموربا (أتباع تروتسكى) – وحزب إيبكى الذى أنشأه فى الخمسينيات ضباط الجيش الذين أحيلوا إلى الاستيداع بعد حركة أكتوبر سنة ١٩٥٢ التى قادها الجنرال ناسوتيون وفشلت .

ولقد احتل النصارى (بروتستانت وكاثوليك) مراكز مهمة فى قيادة الحزب فقد تقرر عدد مقاعد الهيئة المركزية ٢٩ مقعدا ، توزع على أساس حجم كل من الأحزاب السابقة التى أدمجت فى الحزب الديمقراطى ، وبذلك تقرر للحزب القومى ٩ مقاعد ولكل من حزب البروتستانت والكاثوليك ستة مقاعد ولكل من حزب الموربا والأيبكى ٤ مقاعد .

وبالإضافة إلى ذلك قرر جعل مقعد الأمين العام للحزب بيد البروتستانت وأسند إلى السيد سابام سيرايت .

لقد نال الكاثوليك والبروتستانت ١٢ مقعدا من أصل ٢٩ مقعدا وهذا وحده يمثل ٤١,٣ ٪ من المجموع. غير أنه قد احتل النصارى أيضاً مقاعد أخرى من حصة الحزب القومى وكل من حزب الموريا والإيبكى على أساس الاعتبارات الخاصة بالانتماء الحزبى وهكذا اكتمل عدد المقاعد فى الهيئة المركزية للحزب الديمقراطى التى يحتلها النصارى ١٦ مقعدا من أصل ٢٩ أى بنسبة ٥٥,١ ٪ من المجموع.

ولا يجوز أن ننسى أن أمثال هؤلاء المسيحيين لهم ولاء مدخل للكنيسة (على العكس من بعض المسلمين الذين لا يرتبطون بأى ولاء إلا لمصالحهم الخاصة). ولا يضير هذا الولاء الكنسى الانتماء الحزبى الخاص بكل، أى أنهم فى ممارستهم لمهامهم لا يغفلون التوجيه الكنسى وتنسيقاته.

٣ – فى القطاع الاقتصادى:

من البديهى أن يكون النفوذ السياسى ممهدا للسيطرة الاقتصادية. وهكذا كانت سيطرة النصارى فى أندونيسيا على الإدارة والحكم قد وضعت فى أيديهم مقاليد السيطرة على أزمة المال والاقتصاد، فكثير من قروض الاستثمارات الأجنبية استولى عليها البروتستانت والكاثوليك.

ويوجد هناك (البنك الوطنى العام) (بنك عموم ناشيونال)

وهو مؤسسة كاثوليكية، ولذلك يحتل قطب الكاثوليك الأندونيسى اى. ى. كاسيمو مكانا هاما فى إدارة البنك وهو شخصية كاثوليكية معروفة بالتعصب.

وهناك الدكتور يوسف بانغلاى كيم (بانغ لاى كيم) Dr. Jusuf Pang Lay Kim وهو بجانب مركزه بمعهد دراسات العلوم الاجتماعية الذى يشغل مبنى شارع تانا بنغ الثالث رقم ٢٥ (المعروف أن هذا المبنى هو عرين الجنرال على مورتوبو) يمثل دور همزة الوصل بين شخصيات «بنك أندونيسيا المركزى، وبين رجال الأعمال الصينيين» وأغلبهم من البروتستانت والكاثوليك) الذين يريدون الحصول على قروض من ذلك البنك المركزى.

بينما يقوم الدكتور يوهانس باتيستا سومارلين الكاثوليكى، وزير الدولة لشئون ضبط الجهاز الحكومى، بنشاط آخر وهو تسهيل تزكية مقترحات المشروعات الكاثوليكية والبروتستانتية المعروضة على الهيئة المركزية للتخطيط الإنمائى القومى، لأن سومارلين نائب رئيسها.

هناك عدد من الأسماء وهى نبوهان

سيانغ Nyo Han Siang وليم سيوليونغ والمهندس تشيوبو ترا وليم بيان كون وليم بيان كي

وهي شخصيات عرفت بأنها من عمالقة رجال الأعمال والاقتصاد في أندونيسيا بجانب ما عرف عنهم بأنهم إما من البروتستانت أو من الكاثوليك « المتدينين » أي أنهم من الأجهزة الطيعة لإرساليات التبشير النصراني في أندونيسيا .

وتوجد هناك مؤسسة علمية متخصصة في تطوير وبناء فنون الإدارة ، مقرها بشارع ميتينغ رايا (واحد من أحياء المترفين بجاكرتا) يتم فيها تأهيل الطاقات الإدارية وبرغم أنه يوجد في هيئة التدريس بهذه المؤسسة عدد من المدرسين المسلمين ، أمثال السيد شفر الدين براويرا نيقورا Sjafruddin Prawiru Negara

رحمت لوليو ميسيتو (شفر الدين أحد أقطاب حزب مشومى ورحمت من أقطاب نهضة العلماء) إلا أن هذه المؤسسة نصرانية ، رئيس هيئتها العام هو الجنرال المتقاعد الدكتور تاهى بونارسيا توبانغ Dr. Tahi Banar Simatupang (رئيس مجلس الكنائس – الأندونيسى ، وعضو مجلس الكنائس العالمى) وسكرتيرها

بى م . سياتوبانغ ومن أعضائها راديوس براويرو (وزير التجارة) . وف . اكس سوهارتو F.Y. Soeharto

وكان يمد هذه المؤسسة التعليمية فى أول نشأتها « جمعية الويسيوس » الكاثوليكية فى سيا رانغ ، وياباسان بوربا دانارتا البروتستانتية فى سيا رانغ أيضاً . ومن بين الهيئات الخارجية التى تتعاون معها هى مؤسسة صندوق القروض الاقتصادية الكنسية (Econemica Church Loan Fund) فى جنيف ، ووكالة ميسوريور Miserior للمساعدات الإنمائية فى آخن بألمانيا .

ونجد فى قطاع النشاط العامل فى شركات التأمين أسماء (نيوهان سيانغ) وليم بيان كون ، وليم بيان كي ورودى وأنادى (أخو ليم بيان كي أيضاً)

وقد بدلوا اسم شركة تأمينهم القديم (ماسكا باى اسورانسى فاديو) باسم جديد معناه (مؤسسة واهانا تاتا المحدودة للتأمينات) ويتكون مجلس إدارتها من :

نيوهان سيانغ

رئيس مجلس الإدارة المنتدب

دكتور يوسف تانغ لاى كيم

نائب الرئيس

سفيان واناندى	أعضاء مجلس إدارة
توماس سوباتو	
سوهادى	
يوسف واناندى	
ساسو سوقيارسو	مدير عام
رودى وانا ندى	مديرون
سنى دوى هارسونو	

ومن فى أندونيسيا لا يعرف اسم ليم سوى ليونغ أحد المقربين إلى القصر، إنه الآن أصبح يستعمل اسمه الجديد سودونو سالم. وقد تردد اسمه بين أقطاب المهربين الذين أفلتوا وهربوا إلى الخارج (اسمه الصينى (Lim Sui Liong) واسمه الأندونيسى Sud no Salim هذا الرجل ابن أصبح الوكيل الوحيد لسيارات (فولفو) فأصبح الآن اسمه يان دار مادى Jan Darmadi

ومن بين الأسماء اللامعة فى شركة استرا لتجارة السيارات ومصانع تجميعها نجد اسم ليم بيان كى أى يوسف واناندى.

وبجانب القطاع الخاص (الأهلى) حيث نفوذ الصينيين المسيحيين قوى، نجد بعضهم يملك نفوذا فى الوزارات من ذلك فى وزارة الأشغال العامة والطاقة الكهربية، فبجانب وزيرها المهندس س سوتا مى نجد شخصا يعرف باسم (بو Po) قوى النفوذ فى الوزارة. وله اسم أندونيسى هو مورديا.

لقد استطاع هذا الصينى الذى لم يتجاوز العقد الثالث من عمره أن ينال من ميزانية الوزارة مبلغ ٣٢٦ بليون روبية لعام ١٩٧٦ قيمة توريدات لمؤسسة كهرباء الدولة، وقد بلغ من استفحال نفوذه وتأثيره أنه تسبب فى نقل تأديبى لسبعة من رؤساء فروع إدارة الكهرباء اصطدموا معه. وإذا صادف وجود موظف يجرؤ على أن يبدى اعتراضا على أى مقترح لهذا الصينى فسرعان ما يأتى إليه ويهمس فى أذنه (ألا تزال راغبا فى البقاء فى مركزك أم ترغب فى النقل) وطبعا لا يريد أن ينتقل فيلزم أدبه مع الصينى مورديا. وسر حظوة هذا الصينى الشاب أنه متبنى معالى الوزير سومارلين.

٤ – قطاع الشئون الاجتماعية:

لقد كان للنصارى تجارب قيمة وقدم راسخة فى قطاع الشئون الاجتماعية اكتسبته هيئات التبشير فى مختلف أصقاع أندونيسيا.

ونحن الآن بسبيل تجميع مختلف المعطيات والحقائق الدقيقة لنشاط القوم فى هذا الميدان، بمساعدة إخوة لنا فى الأقاليم.

على أن نشاط القوم لم يقتصر على عامة

الشعب فقط ، بل استطاع أن ينفذ من خلال أسوار قصور السلاطين ، كسلطان سالا Solo بجاوا الوسطى الذى أنكح بنته للمهندس المسيحى سيلفانوس Sylvanus محافظ كاليمنتان الوسطى ويقال إن هذه البنت خطبها شابا مسلما وطالبا جامعيا ، ولكن قوى خفية أجبرت السلطان على اختطاف البنت من خطيبها ليزوجها من هذا المسيحى الذى تجاوز مرحلة الشباب وتم قرانها بقصر أبيها السلطان الذى كان فى يوم من الأيام مقرا « لظل الله فى أرضه» ومركزا لإشعاع الإسلام . وتم الزواج بلا مراسم زواج إسلامى واحتفل به احتفالا باذخا دعى إليه رئيس الجمهورية وعقيلته وكبار رجال الحكومة والسلك الدبلوماسى من جاركتا بالطائرة حيث أرفقت تذاكر الطائرة ببطاقات الدعوة .

٥ – بين أيدى الانتخابات العامة :

واليوم فما الذى أعده المسلمون لكى يستطيعوا أن يحافظوا على كيانهم من الاضمحلال . .

يقول المرحوم الأستاذ براووتو مانكو ساسميتو آخر رئيس لحزب ماشومى قبل أن يأمر سوكارنو بحله : مهما كان عدد الجبهة الإسلامية ضئيلا ، إذا اتحدت ووقفت صامدة فلابد أن يضطر الآخرون إلى الأخذ بعين الاعتبار واحترام موقفها ورأيها .

ولكن كيف يرجى هذا من الذين وضعوا وضعا على قمة القيادة الإسلامية ومضوا يكتبون فى الإسلام وعن الإسلام مما يكرب ويغلى الناس مثل (كتاب الإسلام والسياسة والإسلام والدولة فى أندونيسيا) يملأ بالغث من الكلام والضحل من البحوث عن الإسلام ويفضل أقوال المستشرقين باعتبارهم أعلم بالإسلام ويحث على دراسته فى كتبهم ، ورحم الله القائل :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

يقول كاتب هذا الكتاب وهو رئيس حزب الوحدة الإنمائية (بتقديم النون على الميم) (إنه لا يهمه من الذى سيفوز فى الانتخابات القادمة فالأمر سيان ، عنده على الأقل) ، أما النصارى فقد استولوا على أربعة مقاعد وزارية ، ثلاثة منها فى غاية الأهمية وهى وزارة الدفاع والأمن القومى ووزارة التجارة ووزارة غربلة الموظفين . كما احتلوا مراكز هامة فى دواوين الحكومة ومصالحها وفى الهيئات التشريعية .

وكلها مراكز تتيح الفرصة للتوجيه

والتحكم ، بجانب ما تدره من إيرادات ودخول مشروعة ، فإذا أضفنا إلى ذلك المساعدات الضخمة التى تتلقاها مؤسساتهم المحلية من المؤسسات التبشيرية فى أوربا التى كسدت فيها بضاعتها سواء المساعدات للتبشير أو للاقتصاد واستثمار الأموال ، فإنهم لن يعجزوا عن تحقيق مخططهم الهادف إلى السيطرة الشاملة وبسط النفوذ على قطاعات واسعة ومستويات مختلفة .

وعلى سبيل المثال نذكر أن منظمة (الجولكار) قررت لضمان الفوز فى الانتخابات أن يكون لها مرشحون من منظمة الجنود المتقاعدين ، ويبدو أن النصارى قرروا أيضاً أن يكون لهم مرشحوهم من هذه الفئة وأنه لضمان ذلك يجب أن يتدخلوا فى إنشاء فروع تلك المنظمة فى خارج جاوا تمهيدا للنجاح واحتسابا لكل شىء ، إذ أنه من السهل أن يقدم للترشيح مرشح نصرانى باسم المنظمة إذ قادتها مسيطر عليهم من النصارى . وهكذا أوفدوا كوسماس باتوبار لمنطقة سومطرا وداڤيد نابيتوبولو إلى شرق أندونيسيا وكورنيلوس سيمان جونتاك إلى كاليمنتان ، بحجة تشكيل لجان انتخابات لمنظمة الجولكار .

ولكن يبدو أن ما أبطنوه من نيات قد تسربت أخبارها فحدثت ردود فعل معاكسة خطيرة فقامت اعتراضات على كوسماس باتوبارا الكاثوليكى فى آتشيه ، وعلى داڤيد نابيتوبولو فى أندونيسيا الشرقية .

ولكن مخططهم قد استكمل جوانبه ، فالمرشح الحزبى أو الطائفى لا ينجح إلا بعد أن يوافق على ترشيحه من قبل المخابرات وقائد عمليات إعادة الأمن والنظام (كوم كام تيب) وكلاهما شهاب الدين وأخوه أى من النصارى (بينى موردانى وسو دومو) فيستحيل أن يزكى إلا إذا كان على هواهم .

ولذلك فقد أثار العجب أن يتقدم أحد أقطاب حزب الوحدة الإنمائية يستصرخ الأخوة العرب أن يساعدوا على إنقاذ أندونيسيا من أخطار امتصاص النصارى للمسلمين وأنه يجب مساعدة حزب الوحدة الإنمائية ماليا حتى يفوز فى هذه الانتخابات .

أما أن المسلمين فى خطر فهو حق ، وأما أن نقول إن إنقاذهم بتقديم المساعدات المالية لحزب الوحدة الإنمائية حتى يفوز مرشحوه فى الانتخابات ، فنقول :

هذا كلام له خبىءٌ معناه ليست لنا عقول

إن المسلمين فى خطر منذ عشرات السنين وقبل عشرات السنين ، منذ أيام سوكارنو حين كانوا من بين حوارييه ، فالأجدر أن يكونوا آخر المسلمين الأندونيسيين إدراكا لذلك الخطر والاستصراخ لترح جيوب الغيورين من الموسرين . إذن فهى كلمة حق أريد بها باطل وهل من السهل تقديم المساعدة لحزب من أجل مواجهة الانتخاب والفوز فيه ألا يسبب ذلك قيام الحكومة بجهاز (الكام تيب) صاحب السر الباتع ليقمع كل ذلك ويمضى الإسلام فى العفاء .

الخلاصة : وبعد : فإن نفوذ النصارى مستفحل بحدث ذلك بموجب مخطط تضافرت على تنفيذه قوى مؤهلة مجندة ، بل يتوقع أن يزداد استفحالا والعياذ بالله مستقبلا ، والذين على مقاعد السلطة من المسلمين «مستضعفين» – أو عملاء وكلما ندت صرخة عن تكالب أخطار التنصير على مسلمى أندونيسيا – تجد واحدا يرفع عقيرته مكذبا أن لا خطر على الإسلام فى أندونيسيا . الإسلام فى أندونيسيا بخير ، والدليل أنه لا يزال بعمامته وجبته ويتلق الملايين يقول من يقول بخطر التنصير على الإسلام فى أندونيسيا فهو عدو التنمية وعدو الأمة وغيره كثيرون ممن وضعوا على القمة فى مختلف المناصب وهم لا يساوون ملء آذانهم نخالة ، كما يقول المازنى رحمه الله .

وكل من يجرؤ من الدعاة والمبلغين والخطباء على تحذير الناس من أخطار التبشير سرعان ما يغل بالأصفاد فور نزوله أو عند خروجه من المسجد حيث لا يعرف له مزار خلال أيام ، (وإن عدتم – رغم هذا الإجراء التعسفى – عدنا) كما يقول لسان حال السلطان .

وحين يجتمع مجلس الكنائس الأندونيسى ترى أسيعيدون النظر أم سيدعمون مخططهم من أجل تنصير أندونيسيا خلال خمسين عاما ، عن طريق السيطرة على مقدراتها ومقاليد أمورها . علم ذلك عند ربى ورب العباد [1] .

فهل أصحاب هذا النشاط يؤمنون بالفانشاسيلا ؟؟ .. !

نافذة أمل :

غير أن هذه الجهود التى صورت رفض المسيحين للفانشاسيلا كأساس تقوم عليه إندونيسيا العلمانية قد وجدت واحدا من أبناء إندونيسيا أنفسهم يجابهونها وهو

(١) هذا التقرير قامت به هيئة علمية فى جاكارتا عام ١٩٧٦ م .

الجنرال عالم شاه وزير الشئون الدينية الحالى .

ولقد قابلته مع الوفد الذى أرسله فضيلة مولانا الإمام الأكبر الراحل الشيخ عبد الحليم محمود رضى الله عنه للمشاركة فى أعمال المؤتمر الأربعين للجماعة المحمدية . . وكان الوزير يومها غاضبا مما ينشر عن تنصير أندونيسيا بالصحافة العربية وذكر أنه بصدد قرار ملخصه :

١ – أنه لا يجوز نشر دين من الأديان وسط جماعة متدينة بدين من الأديان .

٢ – أنه لا يجوز نشر الدين بأساليب خداعة تستغل مواقف الضعف البشرى .

٣ – أن كل الخيرات والمعونات التى تقدم لأصحاب الأديان يجب أن تكون عن طريق الوزارة .

٤ – يوجه التبشير بالأديان داخل الجماعة غير المتدينة أصلا . .

وكان الوزير صادقا فيما وعدنا به فأصدر عدة قرارات وهى :

القرار رقم ٤٤ لسنة ١٩٧١ م ويتضمن :

عدم ضرورة الحصول على إذن مسبق من وزارة الشئون الدينية لإلقاء الأحاديث الدينية مادامت هذه الأحاديث لا تتعرض للتنمية الوطنية ولا تتعارض مع الفانشاسيلا ودستور عام ١٩٤٥ .

القرار رقم ٧٠ لسنة ١٩٧٨ .

يحرم على أى طائفة القيام بنشاط تبشيرى بين معتنق الديانات الأخرى سواء عن طريق تقديم هدايا أو توزيع نشرات أو الزيارات التى يقوم بها المبشرون للمنازل .

القرار رقم ٧٧ لسنة ١٩٧٨ .

لا تتم مساعدات من الحكومات الأجنبية أو الهيئات الأجنبية إلا عن طريق وزارة الشئون الدينية .

وهذه القرارات مهمتها تحميد النشاط التبشيرى العلنى وسط الأمة الإسلامية . . ولكنها لا تمنع من التبشير السرى الذى يملك فى الدولة سلطة من المخابرات والوزراء والقانونيين وأعضاء مجلس الشعب .

ومع هذا فقد رفض المسيحيون هذه القرارات ، وأعلن المسلمون الترحيب بها ففى يوم الأحد ١٧ من سبتمبر ١٩٧٨ م عقد دولة الدكتور محمد ناصر رئيس المجلس الأعلى الأندونيسى للدعوة الإسلامية مؤتمرا فى مسجد الفرقان بجاكارتا أعلن فيه موافقته على هذه القرارات وأيد مسلك الجنرال عالم شاه وأهاب بالأمة الإسلامية فى أندونيسيا أن يكون كل بيت من بيوت

المسلمين معقلا وحصنا للإسلام الحنيف .

وهكذا يتبخر الأمل من إنشاء دولة إسلامية فى أندونيسيا إلى نافذة صغيرة هى تلك القرارات التى تحمى بيوت المسلمين فى أندونيسيا من التنصير الكاثوليكى والبروتستانتى .

فلم يؤخذ المسلمون الرافضون لمبادئ الفانشا سيلا بحد السيف والإعدام والتشريد وهم أصحاب الجهاد المقدس الذى أحرزت به أندونيسيا استقلالها ؟

فى حين أن غير المسلمين شيوعيين أو قوميين أو مسيحيين يعادون الفانشا سيلا سلوكيا ومع هذا فهم المنعمون المالكون المتربعون على عرش الحياة فى أندونيسيا ؟ ؟ ؟

أمن العدل أن يعدم المجاهدون فى سبيل الحرية والاستقلال .

بينما ينعم الخونة بالحياة فى جو الحرية التى سعى إليها المسلمون المجاهدون ؟

إن نافذة صغيرة تفتح اليوم لتحمى بيوت المسلمين من مشاغبات التبشير سوف تكون فى الغد إن شاء الله شمس الإسلام الحنيف على دولة الإسلام فى أندونيسيا المعززة . . .

وإننا لنضم صوتنا إلى صوت السيد الوزير الجنرال عالم شاه كمرحلة تضىء الطريق ، ونضم صوتنا إلى صوت دولة الدكتور محمد ناصر لتقوم دولة أندونيسيا الإسلامية والله غالب على أمره إن شاء الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون . .

وبالله التوفيق

دكتور رءوف شلبى

ابن المسيب

سمع سعيد بن المسيب ذات ليلة فى مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة فى صلاته : وكان حسن الصوت وهو إذ ذاك أمير المدينة ، فرفع سعيد صوته وقال : أيها المصلى إن كنت تريد الله بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً فسكت وخفف ركعته ثم أخذ نعله وخرج .



دكتور رءوف شلبى

من مواليد الشرقية فى ٢٣/٩/١٩٣٠ .

تعلم بالأزهر حتى نال العالية التربوية عام ١٩٥٨ .

ثم حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٦٠ .

وحصل على ماجستير فى الدعوة الإسلامية عام ١٩٧٠ .

وحصل على الأستاذية (الدكتوراه) فى الدعوة الإسلامية مع مرتبة الشرف الأولى عام ١٩٧٣ .

● عمل بالتدريس فى معهد طهطا بمحافظة سوهاج عام ١٩٦٠/١٩٦٢ م .

● نقل سكرتيرا علميا للدكتور الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ١٩٦٢/ ١٩٦٤ م

● بعث من الأزهر إلى أندونيسيا وعمل مدرسا بكلية أصول الدين بسومطرة ١٩٦٤/١٩٦٨ .

● منح درجة الدكتوراه الفخرية فى الدعوة الإسلامية من كلية أصول الدين بسومطرة عام ١٩٦٨ م .

● بعث من الأزهر إلى ماليزيا عام ١٩٧٠ .

وأسس مركزا للبحوث الإسلامية وتولى إدارته حتى مايو ١٩٧٣ .

● عين مدرسا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر فى ٣٠/٦/١٩٧٣ م .

● أسندت إليه أعمال رئيس قسم الدعوة بكلية أصول الدين بالقرار رقم ٢٦١ بتاريخ ٢٢/٤/١٩٧٥ .

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية

الدكتور/ محمد شامة

(١)

– تمتد جذور اتصال الإسلام بأوربا المسيحية فى أعماق التاريخ حتى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) أى أن عمرها الآن يربو على ثلاثة عشر قرنا من الزمن ومع ذلك لم يزل الصراع متأججا بينهما، وإن اختلفت أسلحته، وتباينت أساليبه فهو أطول صراع دينى فى التاريخ، دينى بكل معنى الكلمة، وإن أطلق عليه البعض صراعا سياسيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، لأن الكنيسة وإن تنازلت مكرهة عن التوجيه المباشر فى شئون الدولة العلمانية فى أوربا، فإن تأثيرها لم يزل واضحا فى جميع مجالات الحياة فيها، إذ كان من الممكن أن يهدأ الصراع السياسى، لو تحول الشرق الإسلامى إلى المسيحية، والدليل على ذلك ما حدث مع ألمانيا فى هذا القرن، فقد شنت حربين عالميتين فى مدى نصف قرن على دول الغرب المسيحية، ومع ذلك فقد انصب غضب أعدائها فى الحرب على أفراد معدودين فقط – وهم الذين شنوا الحرب بحكم موقعهم فى مراكز السلطة – واقتص منهم، ثم ساعدوا – أى الطرف الآخر فى الحرب – الشعب الألمانى المسيحى على النهوض من كبوته، لإصلاح مادمرته الحرب، ولو فعل الشرق مثل مافعلت ألمانيا، لأبيدت شعوبه إبادة كاملة، لأنها تدين بدين غير المسيحية، تدين بذلك الدين الذى غرست الكنيسة الأوربية فى أتباعها غريزة الكره له، بما نشرت عنه من معلومات خاطئة، وبما صورته لهم بصورة تنفرهم منه، وتدفعهم إلى معاداته، والعمل على محاربته، وملاحقة أبنائه أينما كانوا، وحيثما وجدوا. تدفعهم إلى محاربتهم اقتصاديا، لأنهم لو انتعشوا فى هذا المجال لأصبحوا خطرا على أوربا.

– هكذا قالت لهم الكنيسة، وعلمتهم إياه مدارسهم المسيحية، وأكدته لهم مؤلفات كتّابهم، لتدفعهم إلى بذل الجهود على كل المستويات – فى مجال الثقافة

والإعلام ، وبين أوساط السلطة التشريعية والتنفيذية — لتغيير النظم الاجتماعية القائمة على أساس من الشريعة الإسلامية ، تمهيدا لتحويل المجتمع إلى اعتناق وتطبيق النظم الأوربية ، لأنهم لو لم يفعلوا ذلك — هكذا لقنتهم الكنيسة الأوربية — لبقي اتصال هذه الشعوب بالإسلام قويا ، وربما ازدادت قوته يوما بعد يوم ، فيصبحون مصدر تهديد للعالم الغربي .

— وما قلق العالم الغربي لما يحدث في إيران ، ولما يدور في الشرق من المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية ، إلا انعكاس لما رسخ في أذهانهم — عبر الأجيال الماضية — من الفزع والرعب من عودة الحياة إلى الإسلام ، كنظام شامل للفرد والمجتمع ، نتيجة لدعاية الكنيسة — عن الإسلام وأهله .

— فالصراع السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي يقوم على أساس ديني ولهذا اتجه المفكرون في الغرب إلى دراسة الدين الإسلامي ، والكتابة عنه . غير أن الحديث عن الإسلام في الأوساط الفكرية في الغرب سار في قنوات متعددة . خرج من منبع واحد ، هو تعصب الكنيسة وحقدها على الإسلام ، ويبقى هدفا واحدا ، ألا وهو القضاء على هذا الدين .

وإن لم يمكن ذلك ، فلا أقل من السيطرة على أتباعه ، ومحاولة إضعاف الصلة بينهم وبين عقيدتهم .

— وبين المنبع والهدف اختلفت الأساليب .. وتعددت المناهج :

فآباء الكنيسة اتخذوا الهجوم المباشر أسلوبا ، وتشويه الحقائق منهجا ، فجاءت كتاباتهم عن الإسلام مخالفة للواقع ، طافحة بمظاهر التعصب ، والتحامل ، مما جعل الإسلام يبدو للأوربيين — حين كانت الكنيسة هي المصدر الوحيد للمعرفة — مخيفا ، والمسلمين وحوشا .

— أما المستشرقون (وهم القائمون على كراسي الدراسات الاستشراقية في الجامعات التي كان الهدف من إنشائها خدمة المستعمرين لأنهم كانوا — وما زالوا — مستشارين لحكوماتهم في شئون الدول الإسلامية) فقد ادعوا أنهم ينهجون المنهج العلمي الحديث في الدراسات الإسلامية ، لكن بحوثهم دارت في دهاليز التعصب ضد الإسلام ، لأن اللاوعي عندهم مليء بما غرسته الكنيسة في عقول أسلافهم [1] ومن

---

(١) بدأت حركة الاستشراق في القرن العاشر الميلادي من الفاتيكان ، فقد كان رجال الدين — وهم تابعون للكنيسة آنذاك — يكونون الطبقة المتعلمة في أوربا ، فاتجه منهم أناس لتعلم اللغة العربية ليتمكنوا من المجادلة مع فقهاء المسلمين ، وقد حمل الفرنسيسكانيون =

الإنصاف القول بأن الطابع العام عندهم أقل حدة مما كتبه آباء الكنيسة ، وبأنه ظهر بينهم أفراد التزموا الحياد العلمى فى بعض جوانب بحوثهم ، لأنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتخلص كلية من آثار مجتمعه الثقافى .

– ويلى المستشرقين كتابُ القصص والروايات ، وهؤلاء يعتمدون فى تصوير أبطالهم وشخصيات رواياتهم على ما كتبه الرحالة ، وآباء الكنيسة والمستشرقون ، أما المصدر الأول – وهم الرحالة – فقد غلب عليهم خيال جامح ، وخاصة فى القرون الوسطى ، ولاننسى رائدهم «ماركوبولو» (١٢٥٤ – ١٣٢٣م) الذى دون رحلته إلى الشرق فى جزأين ، حشاهما بغرائب الآراء والأخلاق والأديان ، ولايقل عنهما ما جاء فى رحلة «شاباى» من ضلالات لايصدقها عقل بشر ، مثل قوله :

«إن للشرقيين ثمانية أنامل ورأسين» .

والمصدران الأخيران لم يقدما لكتاب القصص سوى صورة مهلهلة ، ممزقة عن الإسلام فخرجت القصص والروايات ملوحة عن الإسلام والمسلمين ، طمست معالمها ، وشوهت جوانب الجمال فيها ، ومحيت معالم الإنسانية من خطوطها وألوانها .

– فإذا هيأت الظروف لواحد منهم الاطلاع على مصادر إسلامية ، موثوق بها ظهر انعكاسها باهتا فى رواياته وقصصه ، لأن هذا التأثير العابر ، لايمكن أن يمحو أثرا رسخ فى ذهنه منذ طفولته ، وواكبه فى مراحل عمره ، ولازمه فى حله وترحاله ، إذ معرفته عن الإسلام فى طفولته من أبويه – ومصدر ثقافتهما عنه فى الغالب الأعم من كتابات آباء الكنيسة والمستشرقين – وفى المدرسة من مدرس لم يكن أوفر حظا منه فى استقاء معلوماته عن الإسلام ، وفى المجتمع من الصورة المشوهة ، التى رسمتها عدة مصادر ، تساندت كلها فى تشويه صورة الإسلام للمجتمع الأوربى ، كى تحول بينه وبين التحول إلى الإسلام .

– وهناك فريق آخر ، كتب عن الإسلام ، ولم يكن الدافع له موقعه فى الكنيسة أو عمله كمستشرق ، كما أنه ليس من هواة كتابة القصص عن الشرق المليء بالأحداث التى تستهوى قطاعا كبيرا من القراء – كقصص «كارل ماى» – ولكنه

= والدومينيكانيون لواء هذه الدراسة . وكان طابع العصبية واضحا فى بحوث هؤلاء ، ثم ازدادت أهمية هذه الدراسة بعد الحروب الصليبية ، وبلغت ذروتها فى أيام الاستعمار حيث كان المستشرقون يعملون مستشارين فى وزارة المستعمرات .

كتب عن الإسلام إشباعا لرغبة البحث عنه ، وتعبيرا عن غريزة الكتابة لديه ، ليسهم فى بناء حضارة أمته وليصحح بعض المفاهيم الشائعة بين بنى قومه – من وجهة نظره – حتى يستقيم بناء المجتمع ، ويشتد أزر الأمة ، وتتجنب الزلل فى تقدمها على طريق الزمن .

– ويضم هذا الفريق فلاسفة ، واجتماعيين ، وسياسيين ، واقتصاديين ، ورجال إعلام وقد تناول كثير منهم الإسلام فى بحوثه ، بعضهم عالجه ، كجزئية ضمن عديد من قضايا بحثه بينما احتل صفحات كثيرة عند الآخرين ، غير أن عددا من الباحثين العصريين كتب مؤلفات ضخمة – وصل بعضها إلى عدة مجلدات – عن الإسلام ، تختلف فى طابعها ومنهجها عما كتبه المستشرقون وآباء الكنيسة فى العصر الوسيط ، إذ يغلب عليها رغبة المؤلف فى التزام الموضوعية ، والبعد عن مهاترات آباء الكنيسة وترهات المستشرقين ، لكن ظروفه الاجتماعية والثقافية منعت تحقيق هذا الهدف على الوجه الأكمل ، فهو وإن تشرب بروح النهضة الحديثة ذات الطابع العلمانى إلا أنه مشدود بجذور ثقافية ، ضاربة فى أعماق التاريخ حتى الحروب الصليبية – إن لم تكن أقدم من ذلك – ومكبل بسلاسل إعلامية – سواء كانت إذاعية ، أو صحفية ، أو نشرات دورية ، أو كتب ثقافية ، وتخصصية – تحجب عنه الجانب الإيجابى فى الإسلام ، وتصوره له بصورة تنفره منه ، وتبعده عنه إذا ما اقترب يوما من الإسلام بفعل الموجات الليبرالية ، التى اجتاحت أوربا فى العصر الحديث .

– إن من المستحيل أن يستطيع الأوربى خلع رداء نسجته عصور طويلة من الحقد والكراهية والكيد للإسلام ، ومن يطلب ذلك ، فهو غير مدرك لطبيعة الإنسان والظروف التى كونته ثقافيا وأخلاقيا ولذا فإذا وجد كاتب يعترف للإسلام بجانب إيجابى فى المجتمع ، فعمله خطوة أولى على الطريق لمعرفة الإسلام ، دفعته إليها ظروف ، اختلفت عن الظروف التى عاشها أسلافه وعلى المسلمين إزاء هذه الظاهرة مراعاة الحقائق التالية :

١ – لاينبغى أن ينخدع المسلمون ، إذا ما قرأوا جملة إنصاف من كاتب ، فيعدوه – بناء على هذه الجملة – من المشيدين بالإسلام ، والمنصفين له ، لأن ذلك يضر بالدعوة الإسلامية ، حيث تؤثر أفكاره السلبية – وما أكثرها – على من يقرأون له بعد سماعهم الحكم عليه بأنه من المنصفين للإسلام .

٢ - لايوجد كاتب أوربى وضحت عنده الصورة الكلية للإسلام (باستثناء عدد قليل جدا منهم (جوستاف لوبون)، (ومحمد أسد الذى اعتنق الإسلام) وإنما هى ومضات أضاءت لهم بعض جوانب الطريق، وعلى المسلمين - إن هم أرادوا خدمة الإسلام - أن يساعدوا أمثال هؤلاء على كشف ما حجب عنهم بفعل الصراع الدينى الذى استمر قرونا طويلة، فإن تقاعس الدعاة عن هذه المهمة، فلا ينبغى أن ينتظر من كاتب أوربى، محاط بالظروف التى شرحناها آنفا، أن يلتزم الخط الإسلامى من أوله إلى آخره.

٣ - ظهرت مؤلفات كثيرة عن الإسلام فى القرن العشرين، تعرض الكتاب فيها لعناصر القوة فى الإسلام سواء من الناحية: الاستراتيجية - جغرافية، ومادية وبشرية - أو من الناحية الروحية، وواجبنا بيان هذه النواحى لشبابنا حتى نخلصه من عقدة الشعور بالضعف وتحريره من الاعتقاد الخاطئ بأن سبب ضعفه، راجع إلى انتمائه للإسلام، كما نحاول الاستفادة من هذه العناصر لنبنى قوة عالمية إسلامية، تقف على قدم المساواة مع القوى الأخرى.

٤ - كما ظهرت مؤلفات أخرى، تناولت حياة النبى ﷺ وتاريخ الإسلام بالشرح والتحليل كما تعرضت للقرآن الكريم فى أحكامه وتعاليمه بالبيان والإيضاح وسواء كان الغرض من نشر هذه الكتب تعريف الشعوب الأوربية بهذا الدين، الذى يزداد تأثير أتباعه فى مجال السياسة الدولية يوما بعد يوم، أو تحذيرهم من سيطرة المسلمين على مصادر الطاقة، فإن على المسلمين تحليل هذه الكتب، وتمييز الأفكار الطيبة فيها للثناء على موقف صاحبها فى هذا المجال، من الأفكار الخبيثة للرد عليها وتصحيحها، لعل كاتبها يرجع عن رأيه، وإلا فلا أقل من تقديم القول الفصل فيها للقارئ.

٥ - لاينتظر أن تتحول أوربا إلى الإسلام - رغم ما يقال وينشر عن إسلام واحد هنا وآخر هناك، ورغم ما ينشره السذج من أن أوربا تبحث عن الروحانية التى فقدتها ولن تجدها إلا فى الإسلام، وسوف تصحو يوما (هكذا يحلمون) فنجدها مسلمة من أدناها إلى أقصاها - إلا إذا تهيأت الظروف لذلك، وليس هذا سهلا، فهو يتطلب:

- بناء قوة إسلامية عالمية (اقتصادية - وسياسية - وعسكرية) بحيث تكون غير خاضعة لقوى أخرى فى اتخاذ القرارات الدولية.

- نهوضا بمستوى الفرد فى المجتمعات الإسلامية ، بحيث يفوق مستوى الفرد الأوربى ،

- دعما ماديا غير محدود للمراكز الثقافية - فى البلاد الأوربية - وإسناد قيادتها للقادرين على القيام بمهام الدعوة ، لا لمن يسعى لغنم دنيوى .

- يجب على المسلم مراعاة هذه الحقائق ، عندما يسمع كلمة مدح فى الإسلام ، أو يقرأ هجوما عليه ، كما ينبغى على مراكز الدعوة أن تضع نصب أعينها متطلبات دراسة الظواهر الفكرية ، عندما تدرس لأبنائها طرق وأساليب نشر الدعوة فى بلاد غير إسلامية ، ولا يجوز لها أن تقرأ عليهم كلمات المدح ، التى قالها مفكرون غير مسلمين ، وتحجب عنهم ما وقع فيه هؤلاء المفكرون من أخطاء فى حق الإسلام ، لأن الداعية يحتاج إلى معرفة النوع الأول ، للاستشهاد به على هداية الفكر البشرى إلى الحق ، كما يجب عليه دراسة النوع الثانى للرد عليه ، حتى لايستفحل خطره بين المسلمين وغير المسلمين ، وسوف تكون هذه هى طريقتنا فى تحليل المؤلفات الأوربية ، التى سنعرضها هنا وأولها كتاب بعنوان : «الإسلام قوة عالمية متحركة» كتبه باللغة الألمانية : «هربرت جوتشالك» فى ٣٠٤ صفحة بالبنط الصغير ، كما احتوى الكتاب على أكثر من أربعين صورة فوتوغرافية لأشهر المساجد والشخصيات الدينية ، وكذلك للمسلمين وهم يؤدون الشعائر الدينية .

- والمؤلف ليس من آباء الكنيسة ، ولا من المستشرقين ، بل هو كاتب وصحفى قدمه الناشر بقوله : ولد «هربرت جوتشالك» فى ١٩١٩/٦/٩م ونشأ فى جنوب بروسيا ، بدأ حياته الجامعية بدراسة الطب ، واستمر فيها حتى وصل إلى ما قبل الامتحان النهائى ، حيث استدعى للخدمة الإجبارية فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، أصيب على الجبهة الشرقية ، فترك دراسة الطب ، واتجه إلى دراسة الفلسفة وعلم النفس والتاريخ والأدب ، اشتغل بالصحافة والأدب لمدة سبع سنوات ، جاب فيها دول البلقان ، وكتب كثيرا من المقالات والكتب ، ومن أشهرها كتاب «الإسلام قوة عالمية متحركة» (فى عام ١٩٦٢ - وهو العام الذى ظهر فيه الكتاب فى إحدى دور النشر فى ألمانيا الغربية) .

- فإذا لم يكن قسيسا يدفعه مركزه فى الكنيسة إلى تشويه صورة الإسلام حتى لاتفقد الكنيسة أتباعها واحدا بعد الآخر نتيجة تحولهم إلى الإسلام .

– وإذا لم يكن مستشرقا يبدو ظاهر عمله أبحاثا أكاديمية ، وباطنه أسلوبا من أساليب تمكين الاستعمار فى العالم الإسلامى .

– فما الدافع له إذن ، إلى الكتابة عن الإسلام ؟

يجيب الناشر عن هذا فى نشرته عن الكتاب فيقول :

«كيف يكون ممكنا أن تقوم اليوم هيئات تبشيرية فى قلب العالم الغربى المسيحى ، تدعو إلى الإسلام ؟ هل توجد سفينة نوح إسلامية ؟ (يقصد بذلك أن الإسلام ينقذ الغرب من فراغه الدينى ، كما أنقذت سفينة نوح من آمن بدعوته من الغرق) وما هى المبادئ الروحية والفكرية التى تقدمها هذه العقيدة ؟

– ظهر الإسلام لأول مرة كقوة عالمية متحركة فى القرن السابع الميلادى ، ووصل إلى أبواب فيينا مرتين : الأولى فى الحروب الصليبية ، والثانية : فى عام ١٦٨٣م ، ولكن الأوربيين تمكنوا فى اللحظة الأخيرة من صده ، ومنع تحويل القارة كلها – حتى بحر الشمال والبحر البلطيق – إلى الإسلام . واليوم لا يحمل الإسلام السيف .. ولكن الدعوة إليه تزداد كل يوم ، وتتطور أشكالها .

– ويحتم علينا هذا الانتشار العالمى للإسلام – وكذلك الحقيقة الثابتة – بأن الإسلام بأتباعه البالغين (٩٠٠)[١] مليون مسلم ، يمثل القوة العقدية الثانية فى مواجهة الـ ١٠٠٠ مليون مسيحى فى العالم – أن نتعمق فى دراسة تاريخ الشرق الدينى ، وفلسفته وتصوفه وحضارته وفنه .

– وينطلق المؤلف فى بحثه من هذه القاعدة ، فيصور لنا طبيعة الحياة فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ثم يتعرض لحياة النبى ﷺ وللتعاليم التى خلفها لأتباعه كما يتتبع الكتاب بالبحث الانتفاضة السياسية للشعوب الإسلامية حتى منتصف القرن العشرين ويلقى الضوء على تاريخ الحضارة والفن والفلسفة الإسلامية ، ثم تناول بالبحث :

– مدى قدرة الإسلام على اقتلاع جذور المشكلة التى تهدد الإنسان روحيا وفكريا وتقديمه للإنسانية الضائعة نظاما أخلاقيا ينقذها من الانهيار الأخلاقى .

– ومدى التقاء الإسلام الشرقى ، للظروف الغربية المهددة !

– ويفهم من هذا أن الدافع إلى كتابة هذا الكتاب هو ظهور الدعاة إلى الإسلام

---

(١) لقد صححنا الرقم الذى كتبه المؤلف طبقا للإحصائيات الأخيرة فى العالم بالنسبة للإسلام والمسيحية

وقيام المراكز الإسلامية فى الغرب ، وخوف المتعصبين للمسيحية من انتشار الإسلام هناك خاصة وأن المجتمعات الغربية تعانى من أزمة دينية وأخلاقية ، فقد أزعجهم : انتشار المراكز الإسلامية فى المدن الأوروبية الرئيسية .

« انتشرت فئات من هيئات التبشير فى دول أوربا ، فى هامبورج ، وفرانكفورت وتورمبرج ، ولندن وزيوريخ ، وحتى فى بودابست ، وقد تبلور نشاطها فى تمويل بناء مساجد على أحدث طراز ، وإنشاء مراكز صحفية وثقافية »[١]

واهتمام المسلمين بنشر الإسلام فى إفريقيا :

« وفى عام ١٩٦١ أعلنت الحكومة المصرية عن عزمها تعيين ملحق دينى فى كل سفارات مصر فى إفريقيا ، وينبغى ألا يقتصر نشاطهم على عملهم الرسمى ، وهو الاستشارات الدينية فى السفارة ، بل هم مكلفون أيضا بنشر الإسلام فى أفريقيا[٢]

وازدياد النشاط الإعلامى للإسلام » :

« كذلك البرنامج الإذاعى « صوت الإسلام » لعله يقصد بذلك : (إذاعة القرآن الكريم) الذى أنشىء فى القاهرة يذيع البرامج الدينية والسياسية فى آسيا وإفريقيا السوداء[٣] .

لابد لنا هنا من وقفة قصيرة ، لنجلو حقيقة الظاهرة ، التى تغيب عن كثيرين ألا وهى أن بعض المسلمين المهتمين بالدعوة الإسلامية – وكذلك بعض الحكومات التى تفتقر إلى تأييد الجماهير – يعلنون دائما عما يدور فى ذهنهم من مشروعات لنشر الدعوة سواء على الصعيد الداخلى أو الخارجى وغالبا ما تكون هذه المشروعات أفكارا فقط – أو دعاية لغرض ما – لم تخرج إلى حيز التنفيذ . وقد لاتخرج إطلاقا ، كما حدث فى مسألة تعيين ملحق دينى فى السفارات المصرية فى إفريقيا ، لكن الغرب يرصد كل همسة فى العالم الإسلامى ، فإذا سمع بمثل هذه الأنباء سارع إلى تجنيد الخبراء والباحثين لدراستها من كل الجوانب ، والعمل على وأدها – ومن أساليب الوأد إبعاد الشخص المتحمس لها عن موقع اتخاذ القرار – إن كانت هناك جدية فى تنفيذها ، وأقرب مثل على ذلك ما حدث فى أوربا عندما ناقشت لجان فى مجلس الشعب المصرى مسألة تطبيق

(١) مقدمة المؤلف ص ٩

(٢) المصدر السابق ص ٩

(٣) المصدر السابق ص ٩

الشريعة الإسلامية[1] فقد كتبت الصحف تنذر وتحذر، وجاء العديد من المندوبين يستفسرون ويستطلعون، وقابل الباحثون - الذين أرسلوا خصيصا لهذه المهمة - كثيرا من علماء الدين وناقشوهم فى مدى إمكانية - وجدية - تطبيق الشريعة الإسلامية فى العصر الحاضر

- أما المراكز الإسلامية - المنتشرة فى العالم فأغلبها لا يمثل وجهة النظر الإسلامية - لأنها تابعة للمذهب القاديانى، وهو مذهب منشق على الإسلام، ونظرة سريعة على القائمة التى أوردها المؤلف[2] يتبين لنا أنها قاديانية :

Deutschland :

Mission des Islam. Hamburg 13. Oderfelder Str. 18.

Ahmadiyya-Mission des Islam. Hamburg-Stellingen. Wieckstr. 24.

Ahmadiyya-Mission des Islam. Frankfurt A.M. Babenhäuser Landstr. 25.

Mission des Islam. Berlin-Charlottenburg, Moschee.

Niederlande :

Ahmadiyya-Mission des Islam.Josef-Israels-Laan 48, Den Haag.

Ahmadiyya-Mission des Islam, Oostduinlaan 79. Den Haag.

Grossbritannien :

The London Mosque, 63 Melrose Road. Southfields SW. 18. London

Mr. Bashir Ahmad Orchard, 36 Mansion House Road. Glasgow Scotland.

---

(١) وكذلك ردود الفعل التى تجتاح أوربا فى هذه الأيام نتيجة لأحداث إيران فقد انطلقت أجهزة الإعلام فى تصوير هذه الأحداث بصورة شبح مخيف أطلقت عليه اسم «الحركة الإسلامية الجديدة» وأحيانا تذهب فى تعبيرها فتسميها «يقظة المسلمين»

ولم تقتصر ردود الفعل على تعبيرات انفعالية تذيعها أجهزة الإعلام، بل تجاوزت الحملة ذلك، فوصلت إلى هيئات رسمية، ففى اجتماع عقدته مجموعة الدول الأوربية فى بروكسل منذ أيام، تقرر أن يعقد اجتماع قريب لبحث المشكلة، التى ظهرت فى هذه الأيام.. وهى مشكلة «يقظة المسلمين»

كذلك يسهم فى تأجيج نار هذه الحملة شخصيات، لها وزنها فى المجال السياسى الدولى مثل «هنرى كسينجر» اليهودى - وزير خارجية أمريكا السابق - فهو يقوم بدور كبير فى حملة التخويف بهذه اليقظة الإسلامية التى يتحدثون عنها، ومما قاله فى تصريحاته الأخيرة، إن العالم يجب أن يتيقظ أيضا، ويتنبه إلى الأخطار التى تهدده من وراء قيام حكومة دينية فى إيران.

أما الصحافة.. أوربية وأمريكية.. وربما فى جميع أنحاء العالم - لأنها تستقى أخبارها ومعلوماتها مما تنشره وكالات الأنباء الكبرى التى تثير هذه الحملة الضارية فإنها مليئة بالأخبار والمقالات والإحصائيات والبيانات عن خطر هذه الحركة الإسلامية الجديدة «أخبار اليوم بتاريخ ١٩٧٩/٢/٣

ولعل هذه الحملة توقظ الذين يحلمون بأن أوربا أصبحت قاب قوسين أو أدنى من اعتناقها الإسلام من نومهم وتزيح عن أعينهم غشاوة السذاجة الفكرية فيخططون للدعوة تخطيطا سليما.

(٢) ص : ٢٩٢ - ٢٩٣

Spanien :

Ahmadiyya Movement. Lista 78. Madrid.

Ahmadiyya Movement. C. Ciudad Real 12. Madrid.

Schweiz :

Ahmadiyya Mission des Islam. Beckhammer 35, Zürich.

Ahmadiyya Mission des Islam F.D. Schweiz und Österreich. Herbstweg 77. Zürich.

Norwegen :

Ahmadiyya Mission des Islam. Tromsögt 19 Oslo.

U.S.A.

2141 Leroy Place. N.W. Washington 8 D.C.

4448 Wabash Ave. Chicago 15. Ill.

613 Locust Street. St. Louis 1. Missouri.

2522 Webster Ave., Pittsburgh 19. Pa.

115 W. 116th.. Suite 2. New York 24. N.Y.

118 W. 87th. St. New York 24 N.Y.

1440 N. Curson St. Los Angeles 46. Calif.

Und 13 Weitere Missionen in Amerika.

West Afrika :

The Ahmadiyya Mission House. P.O. Box 418 Lagos / Nigeria.

sowie 32 weitere Missionen in Nigeria.

Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 39, Salt Pond, Ghana.

Ahmadiyya-Movement, P.O. Box 11, B.O., Sierra-Leone.

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 167, Monrovia Liberia.

sowie weitere 43 Missionen in Sierra-Leone.

Ost-Afrika :

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 554, Nairobi Kenya.

sowie 12 weitere Missionen.

Mittlerer Osten :

Ahmadiyya-Movement. Shaghour Damaskus / Syrien.

Ahmadiyya-Movement. Mount Carmel. Haifa Israel.

Ahmadiyya-Movement. Rose Hill, Mauritius und 4 weitere Missionen in Maurilius.

Ahmadiyya-Movement. 28 Mosque Road. Negombo / Ceylon.

Ferner Osten :

Ahmadiyya-Movement. III. Onnan Road, Singapore Malaya.

Ahmadiyya-Movement. Balakang Ole, 22 Padang. Sumatra / Indonesien.

Ahmadiyya-Movement, Petodtjo ud, Gang VII. No. 10 Djakarta, Java / Indonesien.

sowie 47 weitere Missionen in Indonesien.

Ahmadiyya-Movement. P.O. Box 30. Jesselton. North Borneo.

sowie 4 weitere Missionen auf Borneo.

Missionen :

Burma: 1 Mission / Dänemark: 1 Mission / Frankreich: 2 Missionen / Ghana: 247 Missionen / Libanon: 1 Mission /

Liberia: 1 Mission / Norwegen: 1 Mission / Schweden: 1 Mission / Sierra-Leone: 44 Missionen / Singapur: 1 Mission / Trinidad: 2 Missionen / Ungarn: 1 Mission.

فهى لاتنشر المبادىء الإسلامية صحيحة ؛ بل ممزوجة بتعاليم مسيحية ، ومع ذلك يتزعج الغرب منها ويعدها هجوما عليه فى عقر داره ، ولو اطلع هؤلاء المنزعجون على خلفيات إنشاء هذه المراكز لظهر لهم أنها أقيمت بمساعدة الحكومات الاستعمارية ، لتشوه مبادئ الإسلام الصافية للمواطن الأوربى حتى تقيم الحواجز بينه وبين اعتناقه الإسلام .

– أما المراكز غير الأحمدية – سواء كانت تخضع رسميا للحكومات الإسلامية – أو كانت تمول فقط من أموال المسلمين – فهى قليلة بالنسبة للمراكز الأحمدية ، أضف إلى ذلك أنها لاتقوم بواجبها كما ينبغى ، إذ تتحكم فى تعيين القائمين على المراكز الحكومية أغراض شتى ، ليس منها الحرص على نشر الإسلام فى بلاد غير إسلامية ، كما تخضع المراكز غير الحكومية لأهواء متعددة ، ولذا فالخلاف بينها قائم والنزاع مستمر ، والمصادمات تتعدى حدود المهاترات الكلامية .

– أما إذاعة القرآن الكريم ، وإن قامت بجهود لابأس بها ، فهى لم تبلغ بعد المستوى الذى ينبغى أن تصل إليه إذاعة تتحدث باسم الإسلام وسط تيارات إعلامية عالمية جبارة ، تيارات تتحدى وتهاجم وتنقض على الإسلام أينما ، وحيثما وجد صوت يقول : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

– ورغم هذه الصورة الباهتة للإعلام الإسلامى ، فإن الغرب يتزعج عندما تحمل موجات الأثير إلى أذنه كلاما عن الإسلام ، لأنه يعرف قوته ، ويدرك إمكاناته الخلاقة ، إذا ماحمله رجال مخلصون ، يؤدون دور أسلافهم بأمانة وإخلاص ، وقد عبر عن هذا «باول شتمز» بقوله :

«سيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق ، عودا على بدء ، من المنطقة التى قامت فيها القوة العالمية الإسلامية فى الصدر الأول للإسلام ، وستظهر هذه القوة ، التى تكمن فى تماسك الإسلام ووحدته العسكرية ، وستثبت هذه القوة وجودها ، إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها ، والاستفادة منها ، وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لاتتوافر فى غيرها من تيارات القوى العالمية» .

– أدرك المفكر البريطانى «جورج

برناردشو» مدى فاعلية هذه القوة - معارضا بذلك كثيرا من الأحكام السطحية عليها - حين كتب:

«لايساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام، لاينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه، من الممكن أن يعارض المرء هذا الرأى، بأن الإسلام فقد سيطرته على بعض الأشياء المادية، وخاصة ما يتصل بالحرب، فهو لم يلحق بالتقدم التكنولوجى الحديث.

- لا أستطيع أن أدرك، لماذا لم يعوض الشرق الإسلامى مافاته فى هذا الميدان؟ فلا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى طبيعة عقلية خاصة، بل يتطلب الإلمام بها والتفوق فيها إلى الخبرة، وتوجيه الخبراء. ومن الأمور المؤكدة أنه غالبا ما يحدث أن تكون حضارة أخرى، ذات منزلة عالية فى التقدم التكنولوجى، أقل درجة من حضارة لم يبلغ بعد تطورها فى هذا المجال ما بلغته الأولى.

- إذاً فهناك احتمال كبير أن يصبح شعب ظهر حتى الآن أن مواهبه فى الناحية التكنولوجية ضعيفة فى المستقبل سيدا على شعب آخر، استولت التكنولوجيا على حواسه ومشاعره - فلم ينقذه أحد - وتحكمت فى سلوكه النظريات، التى تسلب الإنسان الإحساس بالطبيعة.

- لماذا لايتعلم العالم الإسلامى ماتعلمناه فى مجال التكنولوجيا؟ وفى مقابل هذا سوف يكون من الصعب علينا استعادة التعاليم الروحية - وهو من العوامل الأساسية لوحدة أوربية - التى فقدتها المسيحية، بينما لم يزل الإسلام يحافظ عليها.» [1]

- كانت هذه القوة هى إحدى الدوافع، التى دفعت «جونشالك» لكتابة مؤلفه: «الإسلام قوة عالمية متحركة» كى يبين لبنى وطنه مراكز القوة فى الإسلام، فهو يقول: «لاينبغى للمرء أن ينسى أن الإسلام استولى على تراث العصر الكلاسيكى، فهضمه بأسرع ما يمكن، ثم طوره، ومزجه بتعاليمه الخاصة - بحيث لم يستحسنها المتدينون فحسب، بل يميل إليها كثير من العلمانيين - فصاغه فى صورة إسلامية بحتة، بحيث أصبح تعبيرا عن ذاتية إسلامية، لها صفة الدوام والاستمرار، إذ لم تبل قوته الروحية ولاتأثيره الشامل على الغرائز الإنسانية،

(١) الإسلام قوة الغد ص ٣٢٣

ولاتصوفه المهيمن على أتباعه . . . لم يبل كل هذا على مدى تاريخ تطور مجتمعاته ، كما هو الحال فى الأديان الأخرى ، بل احتفظت بفاعليتها دائما ، حتى فى أثناء قرون الانتكاسة التاريخية لشعوبه ، بل زادت أخيرا فى فترة ضعف الناحية الروحية بين شعوب العالم الغربى . ولكى نبين مدى حتمية هذه القوة وترابطها جغرافيا وإنسانيا ، ينبغى أن نوضح كل خلفيات هذه العقيدة . . وبالإضافة إلى هذا نطرح على مائدة البحث التساؤل عن مركز القوة الشاملة فى الإسلام أو عن المبادئ ، التى يمكن أن تنقذ البشرية ، لأن معالجة هذا التساؤل سوف يبين عما إذا كان من الممكن – كما يدعى المسلمون – أن تنمو الناحية الروحية فى المجتمع بواسطة الالتزام بهذه العقيدة ، وتطبيق نظامها الاجتماعى . وعما إذا كانت قوة الإسلام الإصلاحية ، لاتزال لها الأثر الفعال فى المجتمع المعاصر[١] .

– الغرب مهدد بانهيار أخلاقى ، والإسلام يقف شامخا بين هذه التيارات الهدامة المتصارعة ، له ماض مشرق فى إنقاذ المجتمعات من الانحدار فى أودية الهلاك ، ومع ذلك يخشى الغرب أن تحل تعاليمه محل دين الكنيسة ، فتظهر المؤلفات تحمل طابع البحث العلمى المحايد ، وتستهدف وقف المد الإسلامى بين شعوب الغرب ، فهى ذات وجهين :

أولها :

رغبة الكتاب – ومنهم مؤلف كتاب «الإسلام قوة عالمية متحركة» ، فى شرح وتحليل مبادئ الإسلام دون التحامل عليه ، وهى ظاهرة لم تكن موجودة فى العصور السابقة ، غير أن ثقافتهم وخلفيتهم الاجتماعية ، تقودهم إلى عدم فهم بعض التعاليم الإسلامية أو إلى معالجتها من وجهة النظر ، التى اكتسبوها من دراستهم ومجتمعهم ، فيهووا إلى ساحة ينسون فيها ما لقنتهم إياه النهضة الحديثة من الالتزام بالواقعية فى البحث ، والتحرر من العواطف والانفعالات فى الحكم على الأشياء.

ثانيها :

محاولة إظهار أن بعض تعاليم الإسلام تتعارض مع متطلبات العصر الحديث ولذا فهى لاتصلح كلها للتطبيق فى المجتمع المعاصر.

– وسوف نبين فى عرضنا كلتا الناحيتين ، مع الرد على مزاعمهم ، وتصحيح ما وقعوا فيه من أخطاء.

د . محمد شامة

(١) ص ١٠ – ١١

المد الإسلامي لا جزر له

الأستاذ / محمد كمال السيد

مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومبعثه وعمره :

وُلد عليه الصلاة والسلام فى عام الفيل فى صباح الاثنين ٩ ربيع الأول (٥٧١/٤/٢٠م) طبقا لما حققه العالم محمود باشا حمدى الفلكى فى كتابه (التقويم العربى قبل الإسلام من ص ٣٣ — ص ٤٤ إصدار مجمع البحوث الإسلامية) . وبنى تحقيقه على أن غرة ربيع الأول من تلك السنة فى مكة وافقت فلكيا الأحد ١٢ أبريل وعلى الحديث الشريف عن يوم الاثنين (ذلك يوم وُلدت فيه ويوم بُعثت — أو أنزل علىّ فيه) وروايات المؤرخين المسلمين قد اختلفت فى تاريخ المولد بين ٨ و ١٠ و ١٢ ربيع الأول . ولا يوافق يوم الاثنين غير ٩ ربيع الأول .

وكانت العرب لاتستعمل غير التقويم القمرى البحت . كما أثبت العالم المذكور والوحى نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأربعين من عمره . ومكث فى مكة بالدعوة الإسلامية ثلاثة عشر عاما قبل الهجرة إلى المدينة فيكون تاريخ المولد الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ٥٣ ق . هـ .

وأُنزل القرآن فى شهر رمضان بنص الآية الشريفة ١٨٥ من سورة البقرة (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) وغرة المحرم سنة ١٣ ق . هـ توافق ٣ ديسمبر سنة ٦٠٩ م . فيكون أول رمضان س ١٣ ق . هـ يوافق ٦١٠/٧/٢٧م . وتبقى معرفة أى الأثانين من شهر رمضان المذكور نظرا للحديث الشريف المذكور وهذا مبحث آخر قد نعرض له فى فرصة أخرى بإذن الله .

وأود أن أشير هنا أن المرحوم محمود باشا حمدى الفلكى قد ذهب فى كتابه المذكور (ص ٦٠) أن بدء الرسالة المحمدية كان فى تمام الأربعين سنة قمرية من عمره عليه الصلاة والسلام . فيكون فى ٩ ربيع الأول سنة ١٣ ق . هـ . الموافق أول فبراير سنة

٦١٠ م . واستدل على رأيه أن الرسالة قد نزلت فى زمهرير الشتاء بالسورة الكريمة (يأيها المدثر)

وفى هذا الرأى عدة أخطاء أولها خطأ حسابى فيوم ٩ ربيع الأول ١٣ ق . هـ يوافق ٨ أو ٩ فبراير سنة ٦١٠ م . وليس أول فبراير . والثانى أنه ليس هناك ما يقطع بأن الوحى نزل على الرسول عليه الصلاة والسلام فى تمام الأربعين سنة قمرية من عمره بالضبط والثالث أن هناك خلافا بين المفسرين فى أول سور القرآن فى النزول بين سورتى العَلَق والمدثر ، فيقال - والله أعلم - إن أولى السور فى النزول هى العلق - ثم القلم - ثم المزمل - ثم المدثر - ثم الفاتحة . . إلخ مع ملاحظة أن بسورة القلم عشرين آية مدنية من آياتها الاثنين وخمسين . وبسورة المزمل ثلاث آيات مدنية من آياتها العشرين . ورابعا أن الرعدة التى أخذته عليه الصلاة والسلام لم تكن ضرورة من شدة البرد بل من الصدمة النفسية لهذا الحادث الجليل من نزول الوحى . وأخيرا فى هذا الرأى مخالفة صريحة للنص القرآنى الذى يقطع بنزول القرآن فى شهر رمضان .

وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى فى شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ . وإجماع المؤرخين أنه يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول . ولكن محمود باشا حمدى الفلكى يقرر فلكيا أن غرة ربيع الأول من تلك السنة بالمدينة المنورة وافقت يوم الأربعاء ٢٧ مايو سنة ٦٣٢م . فتكون وفاته عليه الصلاة والسلام إما يوم الأحد ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٦٣٢/٦/٧م أو يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول الموافق ٦٣٢/٦/٨م

ونخلص من هذا أن عمره عليه الصلاة والسلام كان ٦١ سنة شمسية و ٤٨ يوما وتعادل ٦٣ سنة قمرية وثلاثة أيام .

حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وجهاده :

وكانت حياته عليه الصلاة والسلام منذ أن كُلف بالرسالة جهادا فى سبيل نشر الدعوة إلى ترك الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد والإيمان بالبعث والحساب والنهى عن الفحشاء والمنكر والوعد للمتقين بالجنة والوعيد للكافرين بعذاب النار إلى آخر مقومات الدعوة واستجاب له القليلون وعارضه الأكثرون .

ثم كانت الهجرة للمدينة فوصل إلى قباء ضاحية المدينة يوم الاثنين ٨ ربيع الأول سنة ١ هـ (٢٠ سبتمبر ٦٢٢م) ومكث بقباء إلى يوم الجمعة ١٢ ربيع

الأول حيث دخل المدينة .

وفى المدينة نزلت التشريعات السماوية لتنظيم المجتمع الإسلامى ، وتكاملت عناصر الدولة الإسلامية . من أرض وشعب وحكومة وتشريع . ونظمت الموارد المالية للدولة الحديثة بالزكاة والصدقات .

وأخذت الغزوات الإسلامية تنتشر فى أنحاء شبه الجزيرة العربية ووفود القبائل ترد إلى المدينة مستجيبة للدعوة بعد أن تأكدت أركانها بفتح مكة سنة ٨ هـ وإسلام قريش . ولم تكن القوة العسكرية هى التى دفعت القبائل للإيمان بل هو كتاب الله العزيز ببليغ عباراته . ودقيق تشريعاته فى تنظيم المجتمع وحقوق الإنسان والعلاقة بين الأفراد وبينهم وبين الجماعة . فضلا عن شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام وأدبه الذى هو من تأديب المولى عز وجل .

وعند وفاته عليه الصلاة والسلام كانت شبه الجزيرة العربية قد آمنت بالرسالة المحمدية . أما خارجها فقد اقتصر الأمر على إرسال الكتب بالدعوة إلى رؤساء الدول المجاورة مثل كسرى فارس وقيصر الروم وعظيم القبط فى مصر وغيرهم وفيما عدا غزوتى مؤتة وتبوك على حدود فلسطين والشام لم تكن هناك مناوشات خارج الجزيرة العربية .

الردة لم تكن ارتدادا عن الدين :

وتوفى عليه الصلاة والسلام فى يوم الأحد ، ١٢ ربيع الأول أو الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ كما ذكرنا واختار المسلمون أبا بكر الصديق خليفة له عليهم كما هو معروف .

وارتد كثير من العرب ولم تكن هذه الردة بدافع الكفر بعد الإيمان . ولكنها كانت فى غالب الأمر من رواسب العصبية الجاهلية والتنافس على زعامة العرب .

فإذا نظرنا إلى المرتدين نجد أنهم من قبائل تنافس قريشا فى الجاهلية . فكأنهم استكثروا عليها أن تجمع بين ولاية البيت الحرام والرسالة السماوية .

فقد ارتدت جميع القبائل القحطانية من اليمن غربا حتى الخليج شرقا . وارتدت ربيعة الفَرَس ببطونها من بكر بن وائل وتغلب بن وائل وبنى حنيفة وبنى شيبان وغيرهم وارتدت هوازن وبطونها من عامر ابن صعصعة وجشم وفهم وغيرهم . ماعدا ثقيفا من هوازن فقد ثبتت على إسلامها .

وبالجملة يمكن أن نقول إن الردة شملت جميع القبائل القحطانية ماعدا الأوس والخزرج أنصار الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، وشملت جميع

القبائل العدنانية ماعدا قريشا بطونها وثقيفا - وقحطان وعدنان هما الأصلان لجميع العرب .

وإذا نظرنا إلى أشخاص المتنبئين نجد الصور الآتية فقد ادعى النبوة أربعة :

١ - الأسود العنسي فى اليمن . وعنْس هو ابن مذْحِج (على وزن مسجد) ابن كهلان بن سبأ من بطون قحطان .

٢ - مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة وهم من بطون بكر بن وائل من بطون ربيعة وربيعة أخو مضر بن نزار بن معد بن عدنان وبطون ربيعة من القبائل العدنانية التى كانت تنافس قريشا فى الجاهلية

٣ - سجاح التميمية . وهى من تميم من بطون أُدّ بن طابخة بن مضر . وتميم ليست من قريش على رأى الفقهاء الذين يرون أن جِمَّاع قريش هو النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر . يعنى أن من كان من غير نسل النضر لايعتبر قرشيا . وساعد سجاحا أخوالها بنو تغلب بن وائل من بطون ربيعة .

٤ - طليحة بن خويلد . من بطون أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس أى ليست من قريش على رأى الفقهاء المذكور . وانضمت إلى طليحة غطفان بيطونها من عبس وزبيان وفزارة وغيرهم وغطفان من بطون قيس بن عيلان بن مضر . أى ليست من قريش على رأى الفقهاء (بين الجاهلية وصدر الإسلام لكاتب المقال . وأرجو ملاحظة الفرق بين بن (ابن) وبين من فالأولى تدل على أنه ابنه مباشرة والثانية تدل على أنه من نسله) وهكذا نرى أن العصبية أو التعصب ضد قريش كان عاملا مهما فى ردة العرب .

ورغبت بعض القبائل المرتدة أن يقيموا شعائر الإسلام وفروضه ماعدا الزكاة وأشار بعض الصحابة على أبى بكر بقبول ذلك منهم بحجة أن العهد حديث والعرب كثيرون وبأن الحديث الشريف يقول : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لاإله إلا الله . فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) . فقال أبو بكر : الزكاة حقها وقد سمعت رسول الله يقول (أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث . شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) (الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص ١٧)

وقضى على المرتدين بحزم وشجاعة وعميق إيمان أبى بكر الصديق . وبتوفيق قائده البطل المظفر خالد بن الوليد . وعاد العرب جميعا فى شبه الجزيرة العربية إلى حظيرة الإسلام بإيمان قوى وإخلاص

صادق مكناهم من الفتوحات الإسلامية العظيمة فى أواخر عهد أبى بكر وخلافة عمر بن الخطاب ومن تلاه كما سنذكر بإذن الله .

المد الإسلامى

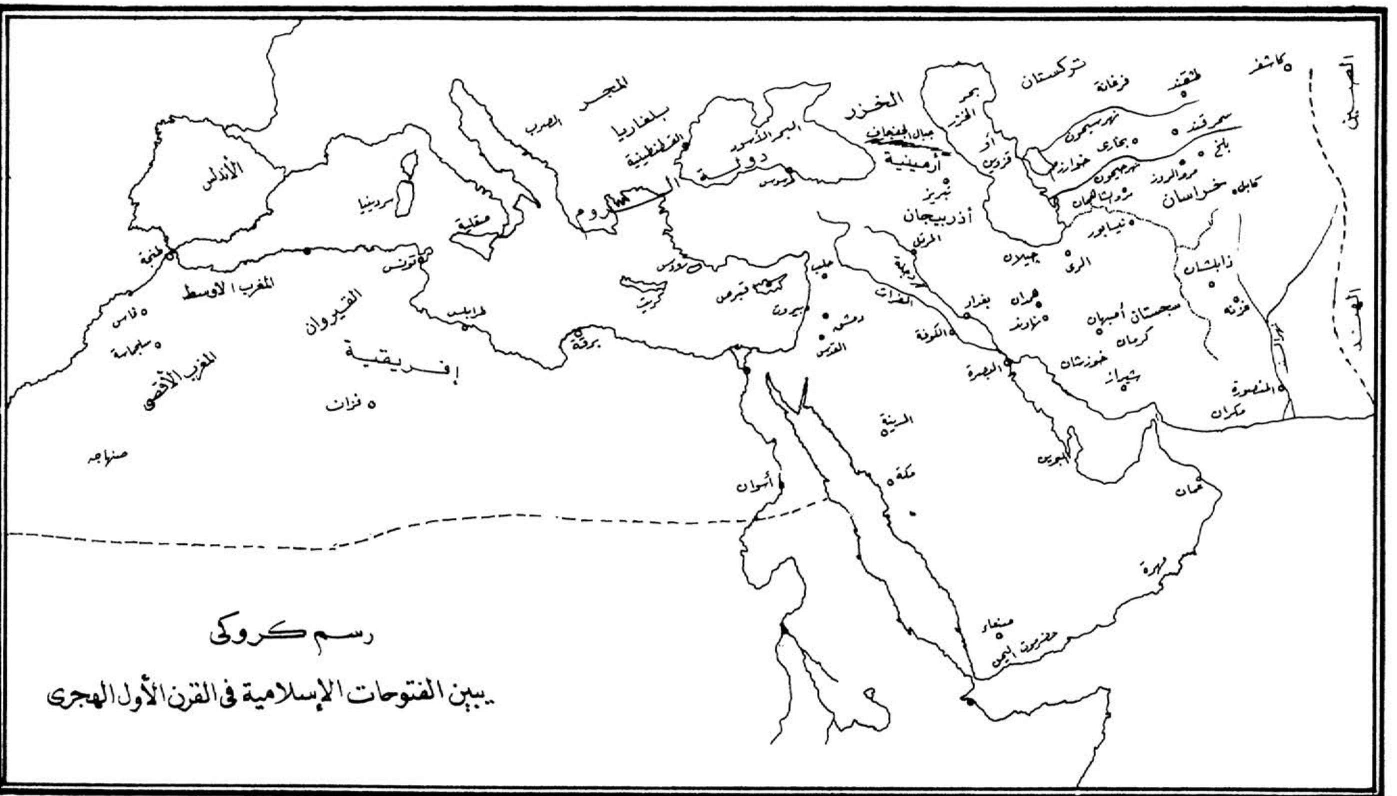
بعد الانتهاء من حروب الردة وجه الخليفة أبو بكر الصديق خالداً بن الوليد لغزو العراق العربى وكان تحت الحماية الفارسية خاضعا لها وبالجزء الشمالى منه بأرض الجزيرة — ما بين دجلة والفرات — ديار بكر وربيعة ومضر حيث تقيم قبائل عربية يدين أغلبها بالمسيحية .

وتوفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢/٨/٦٣٤م) وخلفه فى زعامة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وفى عهده كانت الفتوحات العظيمة التى نشرت الدعوة الإسلامية شمالا وشرقا وغربا . وتطوع العرب من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية بحماس وإيمان لهذه الحروب التى مكنت للدعوة من الانتشار ثم الاستقرار .

ولن نتتبع الفتوحات الإسلامية على مر العصور . فهذا يحتاج للمطولات . ولكن نذكر بعض ما كان فى القرن الأول الهجرى ونتخذ منه مثلا وأمثلة لموضوع هذا المقال .

ففى الشرق كانت فتوح فارس . ومن الوقائع الفاصلة مع الفرس موقعة القادسية سنة ١٤ هـ والاستيلاء على الأبُلّة على الخليج . وخططت مدينة البصرة سنة ١٤ هـ ثم الاستيلاء على المدائن عاصمة الفرس وقتذاك سنة ١٦ هـ . وخططت مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ وفتحت الأهواز وخوزستان . ثم موقعة نهاوند الفاصلة فى سنة ٢١ هـ . وتسمى هذه الموقعة بفتح الفتوح إذ لم يكن للفرس بعدها اجتماع . وفى سنتى ٢١ و ٢٢ هـ استولى المسلمون على همزان وأصفهان وأذربيجان والرى (النسبة إليها الرازى على غير القياس ، وجرجان وقزوين وزنجان وفى سنة ٢٣ هـ فتحت خراسان وكرمان ومكران (راجع الخريطة) .

وأرجو أن أوجه نظر القارئ أن بلاد فارس فى ذلك الوقت كانت تمتد شرقا إلى نهر السند وشمالا (من الشرق إلى الغرب) نهر جيحون وبحيرة أورال أو خوارزم ثم بحر الخزر أو بحر قزوين ثم أرمينية بين بحر قزوين والبحر الأسود . وما هو شمال نهر جيحون كان يعرف عند العرب بما وراء النهر وكانت به قبائل الصغد وفرغانة والترك . والآن تركستان بالاتحاد السوفييتى تمتد جنوبى نهر جيحون كما أن أفغانستان تشمل جزءا كبيرا



رسم كروكى

يبين الفتوحات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى

من إقليم خراسان وزابلستان . ودولة باكستان تفصل بين أفغانستان ونهر السند وتصل جنوبا إلى المحيط الهندى .

أما فى الشمال فقد أرسل أبو بكر أربعة جيوش لمنازلة الروم بالشام . وجعل على كل جيش أميرا وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة ابن الجراح ثم أمدهم بخالد بن الوليد بأن أمره أن يسير من العراق إلى الشام ويلق أبا عبيدة ومن معه من المسلمين وقال : فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة .

ونقف هنا وقفة لنرى كيف كان التعاون بين المسلمين فقد كتب خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة قال (وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرنى بالسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولى لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التى كنت عليه لانعصيك ولانخالفك ولانقطع دونك أمرا فأنت سيد المسلمين لاننكر فضلك . ولانستغنى عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلا النار والسلام عليك ورحمة الله وبركاته)

فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال (بارك الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى وحيَّا خالدا) وكان أبو بكر كتب لأبى عبيدة : (أما بعد فإنى وليت خالدا قتال العدو بالشام فلاتخالفه . واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه . ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك خيرا والسلام) (الفتوحات الإسلامية للسيد أحمد بن زينى دحلان ج ١ ص ٣٤)

ولما قدم خالد الشام جمع أمراء الجيوش . واقترح عليهم أن يتولى كل أمير القيادة العامة يوما . وطلب لنفسه اليوم الأول فكانت موقعة اليرموك الفاصلة انتصر فيها المسلمون على الروم انتصارا ساحقا . وكانت فى سنة ١٣ على أرجح الأقوال .

وممن حضر اليرموك أبو سفيان بن حرب وفقد فيها عينه الثانية فصار أعمى . وكان فقد الأولى فى غزوة الطائف . وأتى بها الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب ردها . فقال إن شئتَ دعوتُ الله . وإن شئت خيرا منها فى الجنة . فرمى بها وقال خيرا منها فى الجنة . وتوفى أبو سفيان فى سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان بن عفان .

وعزل عمر بن الخطاب خالدا وأعاد أبا عبيدة . فلم تفتر همة خالد ولم يتزعزع جهاده وصار مناصرا لأبى عبيدة . فسار أبو عبيدة إلى دمشق ونازلها من ناحية ونازلها خالد من أخرى حتى تم فتحها وتوالت الفتوحات فسقطت حمص سنة ١٥ هـ ثم

حماه صلحاً مع الجزية . ثم اللاذقية عنوة ثم جبلة وانطرسوس . ثم حلب وأنطاكية ومنبج ودلوك وسرمين وتيزين وعزاز ومرعش . كل هذا في نفس سنة ١٥ هـ .
ويئس هرقل إمبراطور الروم من الشام فغادره إلى القسطنطينية بعد أن وقف على نشز من الأرض وقال قولته المشهورة (السلام عليك ياسوريا سلاما لااجتماع بعده)

بيت المقدس

وطلب أهل بيت المقدس الصلح على أن يمضي عقده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وأن يحضر بنفسه لاستلام المدينة فسار عمر سنة ١٥ هـ أيضا إلى القدس وأمضى عقد الصلح واستولى عليه المسلمون ومن ضمن العهد (بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ومن حيزها ولامن صليبهم ولا من شيء من أموالهم . ولايكرهون على دينهم ولايضار أحد منهم ولايسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطو الجزية . . . إلخ

(تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ج ٤ ص ١٥٩)

وفي سنة ١٨ هـ توفي أبو عبيدة بن لجراح بالطاعون الذي اجتاح الشام وعرف بطاعون عمواس . وهو رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وتوفي خالد بن الوليد سنة ٢٠ هـ وقبره بحمص يُزار .

وأما في الغرب فقد افتتح عمرو بن العاص مصر في المحرم سنة ٢٠ هـ على أرجح الأقوال وخُططت مدينة الفسطاط في المحرم سنة ٢١ هـ . وفي سنة ٢٣ هـ سار عمرو بن العاص إلى برقة فصالحه أهلها ثم فتح طرابلس عنوة .

وأصيب عمر بن الخطاب في ٢٣ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ بطعنة من خنجر أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . وتوفي رحمه الله في آخر ذي الحجة . وتولى الخلافة بعده في أوائل المحرم سنة ٢٤ هـ عثمان بن عفان بناء على قرار مجلس الشورى الذي أمر عمر بتشكيله قبل وفاته لاختيار الخليفة بعده .

واستمرت الفتوحات في خلافة عثمان ففي سنة ٢٥ هـ فتحت كابل وفي سنة ٢٦ هـ فتح عبد الله بن سعد بن أبي سرح إفريقية (وهو أخو عثمان في الرضاعة وكان عثمان ولاه مصر بدلا من معاوية) . والمقصود بإفريقية ماهو غربي برقة (راجع الخريطة) .

وفى سنة ٢٨ فتح معاوية بن أبى سفيان من البحر جزيرة قبرص . وكان عثمان قد جمع له ولاية الشام . وفى سنة ٣٠ هـ فتحت طبرستان على يد سعيد بن العاص .. وأعيد فتح قبرص سنة ٣٣ هـ كما فتحت جزيرة رودس سنة ٣٥ هـ .

وفاة يزدجرد آخر الأكاسرة والتقويم الفارسى :

وظل يزدجرد الثالث بن شهريار بن برويز يهرب أمام العرب من بلد إلى أخرى والهزائم تلاحقه حتى قتله جماعة من الترك سنة ٣١ هـ وبوفاته انقرضت دولة بنى ساسان .

وكان الفرس بعد الفتح العربى واستتباب الحكم للعرب يستعملون التقويم الهجرى . ولكن لاعتبارات عملية احتفظوا بتقويمهم المبنى على الحساب الشمسى . وكانوا نقلوه عن المصريين فى القرن الخامس قبل الميلاد والتقويم من عناصر القومية فاتخذوا من ابتداء حكم يزدجرد هذا تقويما خاصا بهم سنته فى ٣٦٥ يوما ولا كبس فيه بالنسبة للربع يوم . وهذا التقويم معمول به للآن وهو يبدأ من يوم الثلاثاء ٦٣٢/٦/١٦م (٢٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ) تاريخ تولى يزدجرد وهو يتقدم على التقويم الميلادى على ممر السنين نظرا لعدم الكبس المذكور . مع تفصيل ليس هنا مكانه .

انتقاض وفترة ركود

ونقض أهل خراسان وسجستان وكرمان الصلح فأعيد فتحها على يد عبد الله ابن عامر البطل الصحابى . وهذا الانتقاض لم يكن الوحيد فى عهد الفتوحات فى القرن الأول فكثير من البلدان كانت تفتح مصالحة على أن يدفع أهلها الجزية فما يكادون يصادقون وهنا فى العرب حتى يرفضوا الجزية وينقضوا الصلح ولكن بمضى الوقت واستقرار العرب فى هذه البلدان ومخالطتهم لأهلها وتزاوجهم منهم أخذت هذه البلدان تدخل فى الإسلام إيمانا وتصديقا .

وقتل عثمان بن عفان فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وتولى الخلافة بعده على بن أبى طالب . وكانت فتنة بين المسلمين من نقض الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله بيعتهما لعلى . وحربهما والسيدة عائشة ضد على فى موقعة الجمل . ثم الحرب بين على ومعاوية ابن أبى سفيان الذى امتنع عن البيعة بحجة طلب ثأر عثمان بن عفان – إذ أبو سفيان وعفان ابنا عم ثم خروج الخوارج على علىّ

لقبوله التحكيم إلى آخر ما هو مبسوط ومعروف بكتب التاريخ حتى قتل على بن أبى طالب فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ

نبوءتان للرسول عليه الصلاة والسلام

وبايع أنصار على ابنه الحسن وجنح الحسن للسلم حقنا لدماء المسلمين فراسل معاوية على أن تكون الخلافة لمعاوية ، ومن بعده للحسن وعلى شروط أخرى لنفسه وأصحابه وقبلها كلها معاوية . ولكنه لم يف إلا ببعضها وكان هذا التنازل فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٤١ هـ . وتحققت بذلك نبوءتان للرسول عليه الصلاة والسلام . الأولى أنه قال عن الحسن وهو طفل : (إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين) والثانية أنه قال (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يعود ملكا عضوضا) وكانت وفاته عليه الصلاة والسلام فى ربيع الأول سنة ١١ هـ كما ذكرنا .

وتوفى الحسن فى ربيع الأول سنة ٤٩ هـ فى خلافة معاوية قيل من سم سقته له زوجته جعدة بنت الأشعث بتحريض من يزيد بن معاوية على أن يتزوجها بعده فسقته السم وطالبت يزيد بوعده فأبى (المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٨٣)

وكان طبيعيا فى هذه الفتن التى أعقبت مقتل عثمان بن عفان وهذه الفرقة بين المسلمين أن تتوقف موجات الفتح وهى حالة سنلاحظها دائما فيما يلى بإذن الله .

وكان عمرو بن العاص واليا على مصر من قبل معاوية فأرسل عقبة بن نافع لغزو إفريقية سنة ٤١ هـ (توفى عمرو سنة ٤٣ هـ) وظل عقبة يغزو ودانت له البربر والروم حتى وصل المحيط الأطلسى سنة ٦٢ هـ وقال قولته المشهورة : يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد غازيا وهو الذى أنشأ مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ وانتقض البربر بزعامة كسيلة وقتلوا عقبة عند عودته بقرب القيروان واستولوا عليها سنة ٦٢ هـ واحتاجت إفريقية لفتح آخر .

واستمرت المناوشات بين المسلمين وبين دولة الروم الشرقية وقد حاول المسلمون الاستيلاء على القسطنطينية فقد أرسل معاوية جيشا كثيفا سنة ٤٩ هـ . وعليهم سفيان بن عوف الأزدى . وكان فى الجيش عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبوب الأنصارى ويزيد بن معاوية فأوغلوا فى بلاد الروم حتى حاصروا القسطنطينية وقتل أبو أيوب بالقرب من سورها ثم اضطروا للعودة .

فترة ركود أخرى

توفى معاوية بن أبى سفيان بن حرب ابن أمية سنة ٦٠ هـ. وخلفه ابنه يزيد. وكان أبوه بايع له فى حياته بولاية العهد. وكان هذا مناقضا لأصول الحكم الإسلامى من أن الخلافة اختيار وبيعة وليست توريثا ودعا أهل العراق الحسين بن على بن أبى طالب لمبايعته فخرج إليهم ثم غدروا به وقتل فى عاشوراء سنة ٦١ هـ وقتل معه ١٧ من أولاده وأخوته وأولاد أخيه وأهل بيته كما هو معروف وتوفى يزيد سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية بن يزيد فلم يمكث فى الحكم غير حوالى ثلاثة شهور ثم استقال وتوفى بعد ذلك.

وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير بن العوام بالخلافة ثم بايعه أهل البصرة والعراق واليمن ومصر.

وبايعه فى الشام الضحاك بن قيس سرا، ولكن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية جمع بنى أمية وانضمت له القبائل اليمانية. وحارب الضحاك وهزمه وقتله فى معركة مرج راهط. ودخل مروان دمشق واستقام له أمر الشام ثم ذهب إلى مصر فأمكنه أن يضمها إليه ولم يطل به الأمر غير تسعة أشهر فقد توفى سنة ٦٥ هـ. حيث خنقته امرأته لأنه أهانها وأهان ابنها خالد بن يزيد بن معاوية. وصاحت: مات فجأة وكان مروان تزوجها خوفا من منافسة ابنها خالد له. وبايع أهل الشام بعده ابنه عبد الملك بن مروان.

وأصبح للمسلمين خليفتان: عبد الملك بن مروان ومعه الشام ومصر وبرقة. وعبد الله بن الزبير فى مكة ومعه الحجاز واليمن والعراق. وكانت البلدان الشرقية حتى خراسان تابعة لولاية العراق.

ثم ثارت الشيعة بالعراق بزعامة المختار بن عبيد وبايعه الناس على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدم أهل البيت. وتمكن المختار من هزيمة عبيد الله بن زياد وقتله. وهو الذى أمر بقتل الحسين بن على وصحبه. ثم قتل مصعب بن الزبير المختار ابن عبيد سنة ٦٧ هـ ثم سار عبد الملك ابن مروان إلى العراق وقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ.

ونوجز فنقول إن هذا الفتنة استمرت من سنة ٦٤هـ إلى سنة ٧٣هـ فتمكن الحجاج بن يوسف الوالى من قبل عبد الملك من حصار ابن الزبير فى مكة حتى رمى الكعبة بالمنجنيق وقتل عبد الله بن الزبير.

فكان طبيعيا أن تتوقف الفتوحات فى هذه الفترة. وأن تنتهز الفرصة بعض البلاد

التي خضعت فتنقض على حكم المسلمين.

فقد توقفت الصوائف (جمع صائفة) منذ وفاة معاوية والصوائف هي الجيوش التي كانت تجهز في الثغور الإسلامية على الحدود للغزو صيفا. واستمرت الصوائف من صدر الأسلام حتى أواسط عهد الدولة العباسية ولم يكن الغزو قاصرا على الصيف فكثيرا ما وقع في الشتاء إذا اقتضى الحال.

بل وأكثر من هذا أن إمبراطور الروم طمع في المسلمين بالشام واضطر عبد الملك ابن مروان على مصالحته بأن يدفع للروم ألف دينار كل أسبوع خوفا على المسلمين (الفتوحات الإسلامية ج ١ ص ١٧٠)

عودة المد الإسلامي

وضم عبد الملك بن مروان ولاية خراسان إلى الحجاج بن يوسف فضلا عن ولايته العراق فولى الحجاج على خراسان المهلب بن أبي صفرة فعبر سنة ٨٠ هـ نهر جيحون وحارب صاحب بخارى وهزمه وصالحه على مال كثير واستمر المهلب ضابطا لأحوال تلك الجهات حتى توفى سنة ٨٥ هـ

وشغل المسلمون بفتنة في فارس والعراق أثارها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بأن دعا إلى خلع الحجاج أولا ثم دعا لنفسه بالخلافة. واستفحل أمره. وهزم الحجاج مرارا وأخيرا تمكن الحجاج من هزيمته سنة ٨٣ هـ وهرب عبد الرحمن إلى ماوراء النهر محتميا بأحد ملوك الترك هناك فقتله وأرسل رأسه للحجاج.

وتوفى عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ وتولى ابنه الوليد بن عبد الملك بعده واستمر حكمه حتى سنة ٩٦ هـ

وفي عهد الوليد تمت الفتوحات العظيمة التي سنذكرها بإذن الله وما كانت تتم الا لاستتباب الحكم من ناحية وحسن اختيار الزعامات من ناحية أخرى.

فى سنة ٨٦ هـ تولى خراسان قُتيبة بن مسلم من قبل الحجاج. وكان قائدا محنكا وسياسيا بارعا فدانت له تلك البلاد وفي سنة ٩١ هـ غزا شومان وكِش ونسف وفتح سمرقند وفرغانة ثم كاشغر أول مدن الصين. ومكث قتيبة واليا حتى سنة ٩٦ هـ فقُتل هو وأحد عشر رجلا من إخوته وولده وأهله بأمر سليمان بن عبد الملك لقصة ليس هنا محلها.

فتح السند وبعض الهند

حاول المسلمون قبل ذلك غزو السند سنة ٣٤ و٤٤هـ ثم في سنة ٨٩هـ تم فتح السند للمسلمين على يد محمد بن القاسم بن

الحكم الثقفي . وهو ابن عم الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي . فولاه الحجاج ثغر السند وجهزه بالجيش والمعدات فتقدم من مكران وتوالت انتصاراته واستولى على مدن السند واحدة بعد الأخرى وهرب ملوكها من أمامه . واستولى على غنائم تفوق الحصر .

ثم توفي الحجاج سنة ٩٥ هـ وتوفي الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ . وتولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك فعزل محمداً بن القاسم وولى غيره فقبض الوالي الجديد على محمد وأرسله إلى العراق حيث عذب وقتل . ورجع ملوك السند إلى بلادهم .

وتوفي سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ وتولى بعده عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى هؤلاء الملوك يدعوهم للإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فأسلموا وتسموا بأسماء العرب وتوفي عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ .

وفي ولاية الجنيد بن عبد الرحمن من قبل هشام بن عبد الملك الذي خلف أخاه يزيد بن عبد الملك توغل في الهند سنة ١٠٧ هـ وأنشأ مدينة المنصورة على نهر السند . ثم تنازع المسلمون هناك وتخلوا عن مراكزهم ورفضوا الإقامة . وكانوا يحاربون ويستولون على ما يستطيعون لأنفسهم وذلك لبدء الوهن في الدولة الأموية .

خضوع إفريقية والمغرب وفتح الأندلس

ذكرنا ما كان من قتل عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ وانتقاض البربر في إفريقية بزعامة كسيلة وعجز الدولة عنهم للخلاف بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير من سنة ٦٤ هـ إلى ٧٣ هـ ومع ذلك فقد ولى عبد الملك سنة ٦٩ هـ برقة لزهير بن قيس البلوى وسار زهير إلى إفريقية وحارب كسيلة وهزمه وقتله . ودخل القيروان ثم قصد العودة إلى مصر وكان الروم قد اغتنموا خروج زهير من برقة لقتال كسيلة فهجموا على برقة وصادف ذلك عودة زهير فحاربهم فهزموه وقتلوه . ولم يستطع عبد الملك أن يفعل شيئا لانشغاله بحرب ابن الزبير .

ولما قتل ابن الزبير جهز عبد الملك سنة ٧٥ هـ جيشا بقيادة حسان بن نعمان الغساني فقاتل البربر الذي كانت تتولى زعامتهم امرأة يلقبونها بالكاهنة فهزمهم حسان وقتلها . ودانت البربر واستمر حسان واليا حتى وفاة عبد الملك سنة ٨٦ هـ فعزله الوليد ابن عبد الملك وولى مكانه عمه عبد الله ابن مروان ثم عزله وولى موسى بن نصير ٨٩ هـ .

وكانت البربر قد عاودوا الانتقاض فحاربهم موسى حتى أخضعهم نهائيا ثم سير مولاه طارق بن زياد إلى الأندلس سنة ٩٢ هـ فعبر المضيق وغزا الإفرنج ولحق به موسى وتوالى سقوط المدن بين أيديهما وحصل العرب على غنائم من كل نفيس تفوق الحصر وتعجز الوصف ودخلت الأندلس في الإسلام فما فيها نبت طيب نموذجا راقيا للحضارة الإسلامية في العلوم والفنون والآداب .

وكان موسى بن نصير يأمل أن يصل إلى القسطنطينية غازيا من الغرب لكنه استدعى إلى دمشق سنة ٩٥ هـ وتوفى سنة ٩٧ هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك .

تلخيص وتعليق

نكتفي بما ذكر عن بعض الفتوحات الإسلامية في القرن الأول الهجرى . وقد ذكرتها إجمالا فشرح هذه الفتوحات وما كان فيها من بطولة وفداء وبذل وعطاء واستشهاد يحتاج للمطولات وقد يملّ القارئ مما ورد من بعض التفصيل في التواريخ والأرقام ولكن قصدت أن يتتبع معي سير الأحداث لنتخذ منها أدلة وأمثلة لما أريد استخلاصه من نتائج إذ سنخلص إلى الحقائق الآتية :

١ – جميع البلاد التي فتحت في القرن الأول الهجرى حسب الخريطة المرفقة – ماعدا الأندلس – مازالت باقية على إسلامها للآن بعد ثلاثة عشر قرنا ، مما يدل على انها لم تسلم نتيجة للفتح العربى أو القوة العسكرية . فقد واتتها فرص كثيرة للانتقاض بضعف الحكومة المركزية في دمشق أو بغداد ولكنها تمسكت بالإسلام عن عقيدة واقتناع . .

وما كان يحصل من انتقاض البعض كما رأينا يرجع إلى أن كثيرا من هذه البلدان كان يفتح صلحا على فدية أو جزية وهذه حالة استعمارية تثير النفوس . ولكن ما أن استقر العرب فيها وتعايشوا مع أهليها مساكنة ومصاهرة ومتاجرة حتى انجذبت قلوب الأهلين للإسلام فدخلوا فيه طواعية وإيمانا . ونبغ من هذه البلاد الكثيرون من علماء الدين ممن يفخر بهم الفقه وسائر العلوم الدينية .

وبعد ذلك كان الانتقاض على الحكومة المركزية لأسباب سياسة ترتبط بشهوة الحكم مع الولاء الروحى لخليفة المسلمين في بغداد .

٢ – فشل الحملات على الهند في القرن الأول الهجرى يرجع إلى أن المسلمين تخلوا عن مراكزهم ولم يقيمو في البلاد . ثم في

القرن الرابع الهجرى أمكن للسلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين سنة ٣٨٩ هـ أن يقضى على دولة بنى سامان وكانت قاعدة ملكه غزنة فتوغل فى الهند فى غزوات متتالية حتى توفى سنة ٤٢١ هـ وخلفه ابنه مسعود ثم مودود بن مسعود فتابعا غزو الهند حتى انتشرت الدعوة الإسلامية . وظلت دولة بنى سبكتكين حتى قضى عليهم الغور سنة ٥٧٩ هـ وكان ابتداء ملكهم سنة ٣٦٦ هـ .

٣ – رأينا أن موجات المد فى الفتوحات تزداد قوة كلما كان الحكم فى الدولة مستقرا فإذا دبت الفتنة والانقسام فى الدولة توقفت هذه الموجات بل وُجد جزر مؤقت ضدها .

٤ – السنة والشيعة :

انقسام المسلمين إلى سنيين وشيعة لم يؤثر فى جوهر الإسلام بل كان انقساما سياسيا فى غالب الأمر . وبالرغم من أن هذا الاختلاف كان أحد المحاور الرئيسية التى دار حولها التاريخ الإسلامى عدة قرون إلا أنه لم يكن أول الأمر اختلافا دينيا فلم يكن ثمة خلاف بين المسلمين فى صدر الدعوة فالقرآن واضح فهموه على صورته الواضحة المشرقة بإحكام آياته وسلامة تعبيره وبلغتهم العربية وكانوا قريبى عهد بالرسول عليه الصلاة والسلام فاتبعوا سنته وكانت سلسلة رواة الحديث قصيرة يمكن التثبت من عدالة الرواة فيها . وكان الإيمان عميقا فما استعصى عليهم فهمه عقلا قبلوه إيمانا وتصديقا . ولم يُبدأ فى تقعيد قواعد الفقه إلا بعد القرن الأول الهجرى فالأئمة أبو حنيفة توفى سنة ١٥٠ ومالك توفى سنة ١٧٩ هـ والشافعى توفى سنة ٢٠٤ هـ وابن حنبل توفى سنة ٢٤١ هـ .

ولكن هذا الخلاف كان سياسيا هدفه إمامة المسلمين . وحرّكته وأزكته رواسب العصبيات الجاهلية والتنافس بين بنى هاشم وبنى أمية قديم منذ الجاهلية وكان بنو هاشم يرون أن عليا بن أبى طالب أحق بالخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن تخطته الإمامة باختيار أبى بكر . ثم عمر ثم عثمان . وكأنهم استكثروا أن يجمع بنو هاشم بين النبوة والإمامة . وتشيّع لعلى كثيرون فكان اسم الشيعة .

ثم كان للشيعة مذهب أو مذاهب كما كان لأهل السنة مذاهب وإذا نظرنا إلى مذاهب الشيعة – ماعدا المتطرفة منها – نجد أن الخلاف بينها وبين المذاهب السنية فى الشكليات ولايمسّ جوهر العقيدة .

٥ – فى القرن الرابع الهجرى كان

بالعالم الإسلامي ثلاث قوى كل منها تطالب بإمامة المسلمين . وهي : الخليفة العباسي في بغداد ومعه العراق وبعض الشام والبلاد الشرقية والخليفة الفاطمي في مصر ومعه بعض الشام وبرقة وافريقية والخليفة الأموي بالأندلس . وهذا أيضا انقسام سياسي لاديني .

٦ – بنو سلجوق والخليفة العباسي

نشأت قوة جديدة بآسيا الوسطى هي بنو سلجوق وكانت بخراسان فانتشرت وقوى ساعدها واستولى السلطان طغرل بك ابن سلجوق على بغداد سنة ٤٤٦ هـ وقبض على الملك الرحيم آخر بني بُوَيه (بضم الباء وفتح الواو) وتزوج بنت الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة ٤٥٤ هـ .

ونقف هنا وقفة لنؤكد بها أنه مع هذا الانقسام السياسي في الدول الإسلامية فقد ظل الولاء الروحي لخليفة المسلمين عميقا وهذا من الصورة الآتية التي ذكرها أبو الفدا في المختصر ج ٢ ص ١٧٦ قال : وفيها (أي في سنة ٤٤٩ هـ) عاد طغرل بك إلى بغداد بعد أن استولى على الموصل وأعمالها وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال ولما قارب طغرل بك القفص خرج لتلقيه كبراء بغداد مثل عميد الملك وزير طغرل بك ببغداد ورئيس الرؤساء ودخل بغداد وقصد الاجتماع بالخليفة القائم فجلس له الخليفة وعليه البردة على سرير عال عن الأرض نحو سبعة أذرع . وحضر طغرل بك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء العسكر فقبّل طغرلبك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسي ثم قال له رئيس الرؤساء : إن الخليفة قد ولأك جميع ماولأه الله تعالى من بلاده . ورد إليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولأك واعرف نعمته عليك وخلع على طغرلبك وأعطاه العهد فقبل الأرض ويد الخليفة ثانيا وانصرف .

ثم بعث طغرلبك للخليفة خمسين ألف دينار وخمسين مملوكا من الأتراك بخيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها ا هـ .

٧ – خلافة المسلمين

هذا الولاء الروحي هو الذى دعا الظاهر بيبرس أن يستدعى إلى مصر أحد أمراء بني العباس بعد أن حطم التتار الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وبايعه بالخلافة ليستمدّ من ذلك شرعية حكم المماليك . وبهذا انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ٦٦٠ هـ ثم نقلها العثمانيون بعد الاستيلاء على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) إلى سلاطين بني عثمان

باستانبول وهى التى جعلت الدول العربية تستكين لحكم العثمانيين على مافيه من فساد للولاء بالتبعية لخليفة المسلمين .

٨ – التتار والإسلام

فى القرن السابع الهجرى تحركت جحافل التتار من الشرق ضد الدول الإسلامية وتقدموا فى زحفهم يخربون البلاد ويسقطون العروش حتى وصلوا بغداد وقضوا على الخلافة العباسية واستولوا على أغلب الشام . وقصدوا مصر درع الإسلام فقامت مصر بدورها خير قيام وهزمتهم فى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ على يد سلطانها المظفر قطز . وكانت هذه أول هزيمة للتتار ولكنها لم تكن الوحيدة من مصر فقد هزمتهم ثانيا عند حمص سنة ٦٨٠ هـ هزيمة منكرة على يد المنصور قلاوون .

ولا أقصد السرد التاريخى ولكن لكى أذكر أن دولة قوية كالتتار غزت البلاد الإسلامية وحطمت الخلافة العباسية فى بغداد . واستولت على كل أملاكها وحكتها قد دخلت بعد ذلك فى الإسلام – وهى القوية المنتصرة – سواء فى عراق العرب أو عراق العجم أو فارس أو تركستان مما يدل على ما فى هذا الدين القويم من عوامل تحببه إلى النفوس .

٩ – الحملات الصليبية وفشلها

بدأت الحروب المسماة بالصليبية سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) واستولت على كثير من بلدان الشام بل وطمعوا فى مصر ثلاث مرات وقاومهم السلطان نور الدين محمود ابن زنكى وصلاح الدين الأيوبى ومن تلاه من الأيوبيين والسلاطين المماليك بيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون الذى فتح عكا وصيدا وبيروت وانطرسوس وغيرها سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) وبذلك تم جلاء الصليبيين نهائيا عن سواحل الشام وبلدانه بعد أن لوثوه باحتلالهم ما يقرب من قرنين من الزمان .

ولم تنتج الحروب الصليبية أى أثر سياسى فلم ينقص من البلاد الإسلامية أى شبر وإن كانت لهذه الحروب آثار أخرى عمرانية وعلمية واقتصادية ليس هنا مجال ذكرها .

١٠ – أكثر من هذا أن المسلمين أخذوا فى الانتقاص من دولة الروم الشرقية فقد استولى بنو سلجوق على قونية (شمال طرسوس) وأنشأوا لهم ملكا هناك ثم قامت دولة بنى عثمان سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) فقضت على دولة الروم الشرقية بآسيا الصغرى بل تخطتها إلى الاستيلاء على

أملاكها بشبه جزيرة البلقان .

١١ — إن كان المسلمون قد فقدوا الأندلس فقد عوضهم الله عنها باستيلاء السلطان العثمانى محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) وإنشاء دولة إسلامية فى أوربا وصلت شمالا إلى قرب فيينا وغربا إلى البحر الأدرياتيكى

١٢ — فى القرن العاشر الهجرى كان بالشرق الأوسط ثلاث قوى تتنازع السيادة ، مصر وفارس والدولة العثمانية وتغلب السلطان سليم العثمانى على مصر فى معركة مرج دابق سنة **٩٢٢** هـ ودخل سليم مصر سنة **٩٢٣** هـ وأصبحت مصر ولاية تابعة بعد أن كانت سلطنة قوية ذات سيادة واستولى العثمانيون على جميع البلاد العربية (ماعدا المغرب الأقصى) ولم يكن العثمانيون ذوى حضارة فلم يضيفوا شيئا يذكر على علوم العرب بل أصابوا الأمة العربية بالشلل والركود . ولكنهم كانوا ذوى ملكية عسكرية مكنتهم من التصدى للمطامع الأوربية فى البلاد الإسلامية فدافعت عنها حتى أصابها الوهن ودبت فيها الشيخوخة فانتقصت روسيا من أملاكها الشرقية على البحر الأسود وانتقصت منها أوربا أغلب ممتلكاتها الأوربية والعربية . وكانت نهاية بنى عثمان بقيام الجمهورية التركية سنة **١٩٢٢** وإلغاء السلطنة ثم إلغاء الخلافة سنة **١٩٢٤**م ونقلت عاصمتها إلى أنقرة بدلا من استانبول .

وهكذا أصبحت تركيا دولة علمانية وإن كان دين أغلب شعبها الإسلام وبهذا فقد الترك مناصرة الدول الإسلامية بعد أن كانت تهرع لنجدتها فى جميع المناسبات .

١٣ — **استمر المد الإسلامى** . ولكن ليس عن طريق الفتوحات العسكرية بل عن طريق التجار العرب والهنود فأسلم الكثيرون فى شرق إفريقيا وآسيا الشرقية بالصين وجزر الهند الشرقية كما أسلم الكثيرون فى غرب إفريقيا عن طريق تجار المغرب . وامتد الإسلام من مصر جنوبا إلى شمال السودان واتجه الأهالى للإسلام بالرغم من وجود جمعيات التبشير المسيحية بإمكانياتها العظيمة وذلك لما فى عقيدة التوحيد من قوة وبساطة ولما فى هذا الدين القويم من سماحة وكريم خلق فى المعاملة والمعايشة بين الناس .

١٤ — وأخيرا نجد الآن موجة من الإسلام تنتشر فى أوربا وأمريكا فقد ازداد كثيرا عدد المساجد التى تقام فى مدن تلك البلاد — ماعدا البلاد الشيوعية فهذه ملحدة لاتؤمن بالديانات وأسلم . ويسلم الكثيرون كل يوم لما يجدونه فى هذا الدين

من حلول صحيحة سليمة لمشاكل المجتمع الاجتماعية والاقتصادية وربما لو وجدت وسائل إعلام أكثر وضوحا وأقرب تناولا وتبسيطا للدعوة الإسلامية لازداد عدد من يدخلون الإسلام .

ولا ننسى أن لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فضلا فى إعادة التقدير للعرب . وأعتقد أنه لولا سفه بعض أثرياء العرب ومايرتكبونه فى أوربا وأمريكا من مخزيات وفضائح تشوه صورة المسلمين لازداد الأوربيون والأمريكيون قبولا واقتناعا بالإسلام .

محمد كمال السيد

إقامة الألسنة

قال عبد الملك بن مروان :

ما الناس إلى شىء من العلوم أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التى بها يتحاورون الكلام ويتهادون الحكم ، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها ، ويجمعون ما تفرق منها ، إن الكلام قاض يجمع بين الخصوم ، وضياء يجلو الظلام ، وحاجة الناس إلى مواده كحاجتهم إلى مواد الأغذية .



الأستاذ محمد كمال السيد محمد

○ ولد بالفشن محافظة بنى سويف فى ١٩٠٨/٩/١م

○ يتشرف بالانتساب إلى الإمام الحسين سبط الرسول عليه الصلاة والسلام

○ تخرج فى مايو سنة ١٩٣٠ من كلية الحقوق بجامعة القاهرة التى كان اسمها جامعة فؤاد الأول

○ اشتغل بالمحاماة بالقاهرة ثم اضطر للانتقال إلى الفشن لمساعدة والده فى إدارة أطيانه وأبادر فأقول إنه لم يكن إقطاعيا وتوفى قبل الثورة بمدة .

○ لم يشتغل بالسياسة قبل سنة ١٩٥٧ فتقدم لانتخابات مجلس الأمة ونجح عن دائرة الفشن

○ ثم حل المجلس بعد الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨ فكان سكرتيرا للاتحاد القومى بمركز الفشن ومقررا للجنة الصناعة بمحافظة بنى سويف ولما أعيد مجلس الأمة سنة ١٩٦٠ كان من ضمن أعضائه وظل المجلس حتى سبتمبر سنة ١٩٦١ فانحل بناء على خروج سوريا من الوحدة .

○ انقطع بعد ذلك لمباشرة شؤونه الخاصة . وكان من هواياته قراءة التاريخ وكتب التراث مما مكنه من التأليف وكتابة المقالات بالمجلات والصحف .

○ له كتاب كبير من ٤٠٠ صفحة تقريبا اسمه (أسماء ومسميات من تاريخ وخطط القاهرة) ستصدره الهيئة العامة للكتاب هذا العام وكتاب آخر اسمه (الشمس والقمر فى حساب الزمن) سيصدر بعده بإذن الله .

إعادة بناء الحضارة الإسلامية على أساس القرآن هى أبرز تطلعات القرن الخامس عشر الهجرى ..

الأستاذ / أنور الجندى

يجب أن يكون القرن الخامس عشر الهجرى الذى أوشك فجره علامة على خروج المسلمين (فكرا ومجتمعا) من مرحلة التبعية والغزو الثقافى والتغريب إلى مرحلة الرشد الفكرى والأصالة والتماس المنابع انتقالا من اليقظة إلى النهضة وقد جاء هذا العصر الجديد والمسلمون يمتلكون ثلاث قوى : الطاقة والثروة والتفوق البشرى وهى علاقة مع دخول المسلمين إلى مرحلة يبنون فيها قواعد الحضارة الإنسانية التى مازالت تتطلع إليها البشرية مجددة من الحضارة الإسلامية التى توقفت عن العطاء منذ بضعة قرون والتى مازال تلتمس مقوماتها من مفهوم القرآن الأصيل ومن قاعدة التوحيد الخالص ومن قيم الالتزام الأخلاق والمسئولية الفردية والإخاء الإنسانى والرحمة والعدل .

وقد آن الأوان أن يحمل المسلمون رسالة الإسلام إلى كل أطراف الأرض وأن يذيعوا كلمة الله الواحد الحق فى كل مكان وذلك بعد أن يطبقوها على أنفسهم ويقيموا المجتمع الربانى الذى تتطلع إليه البشرية .

وقد سجل الإسلام تقدما واضحا فى القرن الأخير ، وإن كان الإسلام منذ بزوغ فجره لم يتوقف عن الانتشار الذاتى ويبلغ عدد الذين يعتنقونه إلى مفتتح القرن الخامس عشر الهجرى مالا يقل عن ألف مليون مسلم دخل أغلبها إلى ساحته بالاقتناع والإيمان وبفضل مبادئه التى تحمل التوحيد والعدل والكرامة والإيمان .

وقد وجد الإسلام من الملونين والمستعبدين قبولا حررهم من كل عوامل الظلم والعبودية ومازال الإسلام يقتحم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن ، وقد أعلن فى مؤتمر لندن الإسلامى (مايو ١٩٧٦) أن عدد المسلمين فى أوربا قد بلغ ٢٥ مليونا و٢١٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوربية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين ، ٩٣٠ ألف أى بنسبة ١,٧٥ فى المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين

بالدول الأوربية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليونا و ٢٧٧ ألف نسمة أى بنسبة ١٨٪ من مجموع السكان (ولا يدخل فى هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتى)

وهكذا نجد أن الإسلام بعد أن طورد من أوربا مرتين: من الأندلس ومن البلقان يعود سلما فيقتحم أوربا ليقيم فيها هذه المرة، وليصل إلى كل مكان. ليس فى أوربا وحدها ولكن فى الغرب كله وفى أمريكا لا يطلع الصبح يوميا إلا على مسلم جديد.

ويقيم المسلمون فى أوربا كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعى لايقاربه نظام فالمسلمون هناك يقيمون فاصلا بين الحياة فى ظل الإسلام دين الحضارة الغربية فإذا أضفنا إلى هذا أن الفكر الغربى قد انبجس عن تيار جديد يريد أن يتفهم الإسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية عرفنا إلى أى مدى تكون قدرة الدعاة إلى الله فى القرن الخامس عشر على توصيل الإسلام علما وقدوة إلى العالمين.

ولقد استطاع الإسلام منذ اليوم الأول لظهوره أن يشكل لونه المميز على خريطة العالم وأن يمتد فى سنوات قليلة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وبذلك أقام عالمه المستقل المفرد ومنهجه الكامل المتجدد بالتوحيد والإيمان بالله والالتزام الأخلاقى فى تفسير الكون والحياة للمسلمين قبلتهم الواحدة التى يتجمعون حولها والتى لن يحيدوا عنها تهوى إليها قلوبهم بالإيمان وعقولهم بالفكر، ومنذ ذلك اليوم الأول لم تكن لهم قبلة أخرى ولاتزال الكعبة البيت الحرام مثابة للناس دافعا وستظل مركز الدائرة فى أرض الإسلام.

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والإطاحة به ثم لما عجزت عن ذلك حاولت احتواءه، وإذابته وصهره فى بوتقة الأممية ومازال الإسلام وسيظل قادرا بتركيبه الربانى وتشكيله الإنسانى القائم على الفطرة والحق والعدل على أن يقاوم كل محاولة لضربه، سواء عن طريق الحروب الصليبية أو الغزو الاستعمارى أو الاحتلال الصهيونى أو محاولات الماركسية والإلحادية والوجودية والفرويدية وغيرها والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن تكون موضع نظرها وتقديرها، لاتغيب عن مفرق رأسها. تلك أننا، نحن المسلمين، نعيش فى ظل تحد قائم كبير فى منطقة زاخرة بالطاقة والذرة والتفوق البشرى، كانت ولاتزال

وستظل – مصدر مطامع القوى المختلفة وتطلعاتها إلى الغزو والسيطرة ورغبتها إلى استنزاف الثروات وامتصاص الموارد وأن هذه المطامع جاءت فى ثوب الحروب الصليبية بدعوى استنقاذ قبر المسيح مرة ثم عادت فى ثوب تمدين البشرية باسم الاستعمار الغربى ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد .

لقد عاشت هذه الأمة موضع طمع الطامعين والغزاة قرونا طويلة تنتهز فرصة ضعفها لتنقض عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ولاتزال القدس هى خط الدفاع عن القبلة ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو فى حطين وفى عين جالوت ، وفى الزلاقة ، وفى الأرك واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التى حملت اللواء واستشهدت فى سبيل تثبيت الحق وتحرير الأرض وحماية بيضة الدين .

واليوم يواجه عالم الإسلام ثلاث قوى تحاول أن تنال منه :

« الاستعمار والصهيونية والشيوعية »

والمسلمون فى موقف الدفاع ثابتون دائما فى مواقعهم ، يستمدون قوتهم من عقيدتهم التى كانت مصدر النصر لهم فى كل أزمة وموقف وسوف لاتستطيع القوى الغازية أن تنتزعهم من حصنهم الحصين ، وهم لايعادون الأمم ولايطمعون فى السيطرة والاستعلاء بين العالمين ولكنهم طلاب سماحة وخير .

إنهم يريدون أن يمتلكوا إرادتهم فى أوطانهم متعاونين مع كل الأمم والقوى العالمية على خير البشرية .

إن أخطر التحديات التى تواجه المسلمين اليوم إنما هى : المحافظة على أصالة هذه الأمة وشخصيتها وكيانها النفسى والروحى والعقلى فى مواجهة محاولة إذابة هذه الأمة وصهرها فى بوتقة الأممية والعالمية والقضاء على ذلك الطابع القرآنى الربانى القائم على التوحيد والأخلاق والإيمان بالله والإيمان بالغيب والبعث والنشر ، وذلك للحيلولة دون قيام الحضارة الإسلامية ذات الطابع الخاص المختلف والمميز عن الحضارة البشرية .

ويجب أن تكون مطالع القرن الخامس عشر الهجرى علامة على الدخول فى مرحلة الرشد الفكرى وإقرار الطابع الأصيل للشخصية الإسلامية التى تستمد وجودها وكيانها عن قيمها الأصيلة ومن تاريخها الحافل بالأمجاد .

إن هذه محاولات تهدف إلى تحريف مفهوم الإسلام وإخراجه من طابعه الجامع

بين الدين والدنيا والقلب والعقل والروح والمادة ، ومحاولة تصويره دينا لاهوتيا وذلك بانتقاص أبرز معالمه .

(أولا) فريضة الجهاد وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والإمعان فى القضاء عليها بالتمويه والتأويل والتزييف وطرح دعوات لها طابع الخروج عن ضوابط النفس والمجتمع بالتحلل من الحدود التى أقامتها الشريعة لحماية النفس الإنسانية والكيان الإنسانى من الانهيار. السقوط تحت سنابك الخيل الغازية المغيرة ، وإفساد مفاهيم الترابط الجذرى الوثيق بين العروبة والإسلام بطرح مفاهيم القوميات الواحدة التى تختلف اختلافا واضحا فى منطلقها ومفاهيمها عن العروبة فى جذورها الأصيلة المرتبطة بالتوحيد منذ دعوة إبراهيم أبى الأنبياء عليه السلام والممتدة فى إسماعيل عليه السلام جد العرب ، وقد كانت العروبة دائما وعاء الإسلام وكان العرب حملة لوائه إلى أقصى الأرض ومازالوا يحملون مميزات الإسلام إلى العالم كله ويعيدون بناء حضارة التوحيد فى مواجهة حضارة الوثنية التى تصدعت وانهارت قوائمها حين خرجت على قوائم التوحيد والعدل والأخـــــلاق والإيمان بالغيب والبعث وقد كشفت مخططات الغزو الاستعمارى الصهيونى الماركسى عن وثائق كثيرة تلقى الضوء على تلك الدعوات التى تطرح نفسها فى العالم الإسلامى وبين جوانب الأمة العربية وأهمها الدعوة إلى هدم الأديان بقولهم : إن الأمم بدأت وثنية ثم تطورت حتى عرفت التوحيد وهو قول معارض للحقيقة التى أثبتها كل الدلائل التاريخية والحفريات الأثرية التى تؤكد أن البشر بدءوا موحدين ثم انحرفوا ثم عادوا إلى التوحيد وكان الإسلام خاتم الرسالات السماوية .

(ثانيا) الدعوة إلى هدم الأخلاق عن طريق مناهج الفرويدية والوجودية والنظريات التى تقول : إن الأخلاق نسبية وإنها مرتبطة بالبيئات والعصور وإنها تختلف باختلاف الحضارات . . وهو زيف باطل يستهدف تدمير المجتمعات . ولقد كانت الأخلاق مرتبطة بالعقائد لاتنفك عنها وظلت وستظل مرتبطة بالإنسان نفسه ، هذا الكيان الذى لايتغير.

(ثالثا) الدعوة إلى هدم الأسرة عن طريق مناهج دور كايم وليفى بريل وغيرهم من أتباع الصهيونية ودعاة التلمود وبروتوكولات صهيون وذلك بالقول : بأن الأسرة ليست من الفطرة وإنما الفطرة هى الانحلال وهى محاولة زائفة لمعارضة

مقررات الأديان وحقائق الاجتماع .

(رابعا) الدعوة إلى التماس مفهوم واحد للتاريخ : هو التفسير المادى عن طريق انجلز وماركس وهو تفسير مضلل بشهادة العلماء المنصفين ، ذلك أن التاريخ هو نتاج الحياة البشرية بكل جوانبها : جوانب الجسد والجغرافيا والروح والاجتماع . وللمادة والاقتصاد جزء منها وعامل واحد من عدة عوامل هى التى تشكل التفسير الحقيقى والأصيل .

(خامسا) الدعوة إلى إثارة العصبية والعرق والعنصرية عن طريق دعوات متعددة ونظريات متضاربة تحاول أن تفرض صراع الأجناس وايجاد الفوارق بين العروق وضرب الأمم بعضها ببعض ، وإعلاء جنس بعينه .

(سادسا) محاولة إخراج اللغة العربية عن مفهومها الخاص الذى تنفرد به من جميع اللغات كلغة للقرآن الكريم وفرض مناهج من علم اللغات للتحكم فيها ، وهى مناهج — لاتنطبق عليها أصلا من حيث إنها ليست لغة قومية خالصة بحسبانها ولغة أمة ، هى الأمة العربية ذلك أنها إلى ذلك لغة فكر وثقافة ودين لأكثر من ألف مليون مسلم .

(سابعا) إدخال مناهج من التربية تنتزع مفهوم العقيدة منها كنظرية ديوى وغيره بينما تقوم التربية الإسلامية أساسا على الترابط الأكيد بين العلم والعقيدة وتجعل من الإيمان بالله تبارك وتعالى حاميا للعلم وموجها له إلى الخير .

(ثامنا) فساد القول بأن هناك حضارة واحدة هى الحضارة التى قامت فى حوض البحر الأبيض المتوسط والحق أن هناك حضارتين متمايزتين لكل منهما طابعه الخاص ، وأنه منذ بزغ ضوء الإسلام قامت على شواطئه الجنوبية حضارة جديدة تختلف اختلافا واضحا عن حضارة شمال البحر المتوسط التى قامت فى العصر الحديث على أساس جذورها اليونانية الوثنية — تلك هى حضارة الإسلام ذات الجذور الأصيلة من التوحيد والأخلاق والإيمان بالغيب ، وهى الحضارة التى أنشأت المنهج العلمى التجريبى الذى كان مصدر الاختراع والعلم الحديث كله .

وإنه منذ قامت حضارة الإسلام فقد تأكدت ركائزها وثبتت جذورها وأصبح من الاستحالة اجتثاثها أو القضاء عليها وإن ظلت تواجه الأزمات والتحديات كلها وإن تخلف أهلها عن مفاهيمهم الأصيلة :

(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) المائدة آية ٣ .

(تاسعا) محاولة خلق هذه التحديات بين الأجيال وإعطاء هذا التحدى طابع الإثارة تحت اسم «صراع الأجيال» والحق أن مابين الأجيال التقاء لاصراع ، وأن علاقة الشباب بالأجيال المتقدمة عنها هى علاقة الريادة والتوجيه والتجربة ، وليست علاقة الخصومة أو الكراهية أو التسلط وهى علاقة طبيعية تقتضيها حركة المجتمعات ودورات الأمم وطبيعة الوجود البشرى نفسه ، وقد وصفت فى إطار الإسلام فى صورة أمينة تقدمية ، غير مخططات الغزو الفكرى — تحاول أن تخلق هذا الصراع تحت اسم تحرير الشباب الجديد من سيطرة القيم تحريرا لايدفعه إلى البناء والتقدم وإنما يحمله على الانهيار والتمزق فى ظل فراغ نفسى وثقافى وراء مذاهب ونظريات براقة تتهافت أمام التحقيق العلمى وأمام الواقع نفسه .

(عاشرا) محاولة طرح قضية «النمو السكانى» كأسلوب من أساليب دفع المجتمعات الإسلامية إلى التقلص أمام الهجرة اليهودية المكثفة وزيادة القوى الأخرى كمحاولة لضرب النمو الإسلامى العربى القادر على بناء الجيوش وعمارة الأرض الواسعة التى لم تستصلح بعد والتى تحتاج إلى ملايين الأيدى العاملة .

ومن الحق أن هذه ليست كل التحديات التى تواجه المسلمين على أبواب القرن الخامس عشر وإنما صورة منها نضعها أمام الأنظار فى ظل لحة يقظة جديدة تسود الفكر الإسلامى والمجتمعات الإسلامية كمحاولة للدخول فى مرحلة جديدة من تأكيد الذات والتحرر من زيف التبعية الفكرية وبناء الأمة من داخل قيمها ومفاهيمها التى كانت دائما مصدر قوتها وانتصارها .

أنور الجندى

الدّعوة الإسلامية فى أوربا

الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى

المسلمون فى أوربا موزعون فى أقليات يختلف حجمها بين الآلاف والملايين، والدول الأوربية التى يبلغ فيها عدد المسلمين الملايين هى الاتحاد السوفيتى وبعض بلاد أوربا الشرقية وهناك دولة واحدة فى المعسكر الشرقى يشكل المسلمون فيها أغلبية السكان وهى ألبانيا إلا أن المسلمين فى هذه البلاد يعيشون مثلما يعيش غيرهم لا حول لهم ولا قوة.

أما المسلمون فى أوربا الغربية فأحوالهم مختلفة عن المسلمين فى المعسكر الشرقى، ذلك أن عددهم فى أى من هذه البلاد يبدأ من المئات فى بعضها وينمو حتى يقارب المليون فى بعضها الآخر، هذا من ناحية العدد أما من ناحية الاستقرار فى تلك البلاد فإن السواد الأعظم من المسلمين فى هذه البلاد وفدوا إليها نازحين من البلاد الإسلامية المختلفة بحكم الصلات السياسية التى كانت تربط بين بلدانهم والبلاد الأوربية التى يعيشون فيها. وقد حضروا إلى تلك البلاد بحثاً عن عمل أو سعياً وراء فرص أحسن فى الحياة لم تتيسر لهم فى بلادهم الأصلية أو أن البلاد التى استضافتهم كانت فى مبدأ الأمر فى حاجة إلى خدماتهم التى كانت تتمثل فى ذلك الوقت فى نوعية الأعمال التى لم يكن الأوربيون يرضون بالعمل فيها إلا كارهين.

وقد لوحظ أن الجاليات الإسلامية فى بلاد أوربا الغربية تتشكل حسب نوعية العلاقة التى تربط بين البلد الأوربى والبلد الإسلامى الذى يرتبط سياسيا به، وإذا عرفنا أن معظم بلاد العالم الإسلامى كان واقعاً تحت الاستعمار الأوربى فى آخر القرن الماضى ومطلع هذا القرن أمكننا أن نتعرف إلى طبيعة الجاليات الإسلامية التى استقرت فى كل بلد على حدة ففى بلد مثل إنجلترا نجد معظم المسلمين بها قادمين من دول الكومنولث فى آسيا وأفريقيا وخاصة شبه القارة الهندية وهى ما يعرف حاليا بالهند وباكستان وبنجالادش.

وفى بلد مثل فرنسا نجد غالبية المسلمين من المغرب العربى الجزائر وتونس والمغرب لأن فرنسا كانت مستعمرة لهذه المنطقة ، وفى هولندا نجد الجانب الأكبر من المسلمين بها من إندونسيا وذلك أيضا لأن هولندا كانت تستعمر إندونسيا لفترة طويلة وفى بعض البلاد الأخرى مثل ألمانيا والنمسا نجد الجاليات الإسلامية بها يغلب عليها العنصر التركى وهم من الذين هاجروا من تركيا بعد دعوة مصطفى كمال إلى العلمانية أو من أبنائهم .

هذه الجنسيات هى التى تشكل الغالبية العظمى للجاليات الإسلامية فى بلاد أوربا الغربية ، وقد انضم إليها مهاجرون من بلاد إسلامية أخرى خاصة فى السنوات الأخيرة ويمكن أن يقال فى ربع القرن الأخير حيث تمت حركة الهجرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، وازداد اتصال الشعوب بعضها ببعض وتعددت المصالح التجارية والاقتصادية والصناعية التى اقتضت هـذا الاتصال لوجود المواد الخام فى بلاد الشرق الإسلامى عموماً والصناعات فى بلاد الغرب المتقدم صناعيا ، وتبع ذلك أن دخلت أعداد من سكان أوربا فى الإسلام بحكم هذه الصلات التى سبقت الإشارة إليها ، وازدياد فرص التفهم لطبيعة الإسلام عند هؤلاء الأوربيين على اختلاف نزعاتهم الفكرية وأوضاعهم الاجتماعية ، وقد نشأ هذا التفهم بالذات من مخالطة المسلمين عن قرب سواء فى بلادهم أو البلاد التى هاجروا إليها ، ونشأ كذلك من إتاحة الفرصة لقراءة الإسلام فى مصادره الأولى بعيداً عن تشويه المستشرقين ، ومغالطاتهم التى حاولت الأجيال السابقة منهم أن تروجها عن الإسلام بين جمهور القراء من الأوربيين ، وقد تهيأت لهم الفرصة فى الماضى ليذيعوا عن الإسلام أشياء ليست فيه وليست منه ، ويلصقوا به أموراً لاتمت إليه بصلة اعتمادا على أن الجمهور الذى يكتبون له خالى الذهن تماماً عن الموضوع الذى يكتبون فيه ، وليست أمامه فرص موائية ليقف على الحقيقة من مصادرها الأصيلة أو يقرأ عنها من وجهة نظر معتنقيها والمؤمنين بها أما هذه الأيام فقد تغيرت الصورة كثيراً عما كانت عليه من قبل ، وإن كان لم يزل فى ميدان المشتغلين بالإسلاميات فى أوربا عدد ممن انطوت صدورهم على الكيد للإسلام ولكنهم يحسبون ألف حساب لآخرين من أبناء أوربا الذين أتيحت لهم الفرصة لمعرفة الإسلام من مصادره مباشرة ولأبناء المسلمين الذين يقرءون بتلك اللغات أن

يردوا عليهم مقالهم وأن يظهروا عدم إنصافهم وخطئهم فيما كتبوا والنتيجة أن يظهر للناس أنهم إما جهلاء بحقائق الإسلام وإما حاقدون وكلا الأمرين مر بالنسبة لهم وكان من الأسباب ذات الأثر البعيد فى تغير نظر الأوربيين إلى الإسلام أن اعتنق الإسلام عدد من المثقفين منهم له بعد أن دخلوا ميدانه كغيرهم من المستشرقين ولكنهم أخذوا بما اكتشفوه فى الإسلام من وضوح الرؤية واستقامة العقيدة ومسايرتها للمنطق السليم، واتفاقها مع الطبيعة البشرية السوية، وإقناعها لتطلعات العقل ونوازع القلب وهواتف الروح وأصبحنا نجد كثيراً من الكتب تتحدث عن الإسلام وعقيدته وكتابه ورسوله وتاريخه وحضارته ومثله وأخلاقه بلغات أوربية مختلفة كتبها مسلمون ومفكرون أوربيون وبخاصة فى الفرنسية والإنجليزية. تلك صورة عامة عن حالة الإسلام واتجاه النظرة إليه فى أوربا ويحق لنا بعد هذه النظرة العامة أن نأخذ دولة من دول أوربا الغربية ونتحدث عن الإسلام والمسلمين فيها، بدايتهم وأوضاعهم الحالية، واحتياجاتهم فى المستقبل وواجب العالم الإسلامى نحوهم لتكون بمثابة نموذج يتبع مع الجاليات الإسلامية الأخرى فى أوربا. أما تلك الدولة فهى إنجلترا وقد وقع اختيارى على إنجلترا كنموذج تعرض من خلاله أوضاع المسلمين فى أوربا لأسباب أهمها أنى عشت فى هذه البلاد حوالى أربعة عشر عاماً كاملاً فى حقل الدعوة الإسلامية هناك.

وثانيها أن المسلمين هناك لهم مطلق الحرية فى أن يتخذوا من الوسائل ما يحافظون به على عقيدتهم الإسلامية وشخصيتهم وأن الجالية الإسلامية فى تلك البلاد قد نمت نمواً ملحوظاً فى السنوات العشر الأخيرة، وأن إنجلترا صارت محط أنظار عدد كبير من أثرياء المسلمين من العرب وغير العرب بحيث أصبح لكثير منهم فيها إقامة دائمة أو مؤقتة تتجدد كل عدة أشهر ووجد تبعاً لذلك رأس المال العربى بصورة ملحوظة يسهم فى كثير من ألوان النشاط الاقتصادى والتجارى، ومن الميسور إزاء هذه الظروف أن ينتفع المسلمون المقيمون فى إنجلترا بجانب من بعض تلك الأموال التى تذهب للضرائب يستعينون بها على الاحتفاظ بشخصيتهم وإقامة مؤسساتهم من غير أن يكلفوا أصحاب رءوس الأموال شيئاً يذكر.

بداية المسلمين فى إنجلترا :

بدأ المسلمون يتعرفون إلى إنجلترا

ويتخذون منها مكاناً للإقامة مع مطلع هذا القرن وكان ارتباطهم بالإقامة هناك مؤقتاً أول الأمر جاءوا إليها عمالاً فى السفن التى تقوم بنقل البضائع والمتاجر بين إنجلترا وموانى الشرق العربى والإسلامى . ولعل هذا يكشف لنا عن السبب فى وجود الجاليات العربية الإسلامية منذ البداية فى المدن الساحلية والموانى البحرية الإنجليزية مثل كارديف وليفربول وجلاسجو وساوث شيلد ، ومع مرور الزمن أخذت هذه الجاليات تنمو ويزداد عددها ويشجعها ذلك على الشعور بالاستقرار شيئاً فشيئاً حتى اتخذوا من هذه البلاد محل إقامة دائمة لهم ، وأخذوا يمارسون حياتهم هناك كما كانوا يمارسونها فى بلادهم ، وقد التقيت منذ سنوات برجل يمنى فى مدينة ساوث شيلد طاعن فى السن ، أحببت أن أعرف منه مدة إقامته بإنجلترا ، فأخبرنى أنه قدمها لأول مرة عام ١٩١١ م . ومنذ عشر سنوات مضت لم تكن تجد من جاليات عربية فى إنجلترا إلا جاليات قدمت من اليمن الشمالية والجنوبية عن طريق عدن انضم إليهم جماعات من الصومال وكونوا لهم مجتمعات تعيش فى المدن التى سبق ذكرها ويعملون معاً فى الموانى والسفن ، أما فى السنوات العشر الأخيرة فقد تغير الوضع كما كان عليه واصبحت تجد جاليات عربية من بلاد عربية كثيرة وخاصة مصر وفلسطين والعراق والسعودية والكويت ودولة الإمارات وعدة آلاف من لبنان بعد الحرب الأهلية اللبنانية ، وأصبح من المألوف أن تجد عرباً فى كل ميادين الحياة خاصة ميدان المال والاقتصاد والتجارة ، وأصبح سراة العرب يمتلكون ثلاثين فى المائة من مساكن الأحياء التى تقع فى قلب مدينة لندن ، حتى إنه بعد أن تم بناء مسجد لندن المركزى فى قلب لندن ارتفعت أثمان المنازل من حوله بمقدار ثلاثين فى المائة عما كانت عليه من قبل نظراً لإقبال العرب والمسلمين على اقتناء منازل لهم من حوله .

عدد المسلمين فى إنجلترا :

يقارب عدد المسلمين فى إنجلترا المليون أو يزيدون قليلاً ويشكل الغالبية العظمى منهم القادمون من شبه القارة الهندية يليهم باقى دول الكومنولث فى آسيا وأفريقيا ثم العرب الذين تزايد عددهم فى السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ ، وقد انضم إلى ذلك عنصر جديد هم المسلمون الإنجليز فقد تزايد إقبال الإنجليز على الإسلام فى السنوات الأخيرة بصورة تلفت الانتباه ، وهؤلاء الداخلون فى الإسلام من الإنجليز

يمثلون القطاعات المختلفة من أبناء الشعب البريطانى فمنهم الأساتذة فى الجامعات ، ومنهم رجال الأعمال ، والشباب والطلاب والعاملون فى الميادين المختلفة ، وينطبق ذلك على الجنسين من الرجال والنساء وحسبك لتعلم مدى نمو إقبال الإنجليز على الإسلام أن تعرف أن مجموعة ممن اعتنقوا الإسلام فى السنوات العشر الأخيرة قد كونت لنفسها جمعية سموها جمعية المسلمين الإنجليز ، أخذوا يثقفون أنفسهم إسلاميا ، ويعيشون معاً عيشة تعاونية ، ويوجهون جانباً كبيراً من أوقاتهم للدعوة إلى الإسلام بين الإنجليز وغيرهم من بلاد الغرب خاصة فى أمريكا ، وأنهم استطاعوا أن يصدروا مجلة تعبر عنهم وهى مجلة فصلية أنيقة الإخراج والتبويب ، وأنهم كانوا يذهبون إلى حديقة هايدبارك الشهيرة فى لندن كل يوم أحد يقيمون صلاة الظهر جماعة هناك يؤمهم أحدهم أو أحد العلماء الزائرين للندن من بلاد الإسلام ثم يجلسون بعد الصلاة للإجابة على أسئلة الإنجليز الذين تجمعوا حولهم يسألونهم عن دينهم وعن صلاتهم وعن أسباب اعتناقهم لهذا الدين .

وقد رأوا أخيراً – بعد أن نما عددهم وتزاوجوا فيما بينهم ونشأ منهم أطفال مسلمون أن يكون لهم قرية خاصة بهم يقيمونها على أسس إسلامية بحتة ، ويصبغون الحياة فيها بالصبغة الإسلامية حتى ينشأ الجيل الجديد منهم بعيداً عن الضغوط التى تحيط به من منهج الحياة الغربى ، وقد اشتروا قرية فى إحدى المقاطعات الجنوبية الشرقية لإنجلترا بها عدد من المساكن ويحيط بها حوالى سبعين فداناً بلغ ثمنها سبعين ألف جنيه إسترلينى ، لم يكن معهم منها إلا عشرة آلاف كان قد دفعها لهم الشيخ سلطان القاسمى حاكم الشارقة ، فتقدم أحدهم وضمن المبلغ الباقى باسم وقف أسرته ووضعها تحت تصرف الجماعة وعاش معهم فيها كواحد منهم لا ميزة له على أحد منهم مطلقاً وظل الأمر كذلك حتى قدم لهم الشيخ سلطان الستين ألف جنيه الباقية وأخذوا يتخذون منها منطلقاً لنشاطهم واجتماعاتهم وفى تخطيطهم للمستقبل أن يقوم فى وسط هذه القرية مسجد وبجانبه مدرسة يتعلم فيها أبناؤهم وتقوم الحياة فيها على أسس إسلامية خالصة ولمن يريد أن يساكنهم فيها من غير المسلمين الحق كله فى أن يشاركهم هذه الحياة بشرط أن يلتزم بما يلتزمون به من سلوك وأخلاق ومعاملات .

وقد نجحوا حتى الآن فى إقامة مطبعة خاصة بهم طبعوا فيها عدداً من الكتب التى

ترجموها عن العربية وبخاصة من فقه الإمام مالك وبعض الكتب التى كتبها زعيمهم .

وقد سمى نفسه عبد القادر الصوفى ، وافتتحوا لهم عدة مراكز للدعوة فى عدد من المدن الأخرى فى إنجلترا وغيرها من بلاد أوربا وبخاصة فى قرطبة وهم يأملون يوماً أن يقيموا صلاة الجمعة فى مسجد قرطبة ولهم مركز أو أكثر فى أمريكا كذلك .

وهم خليط من ذوى الثقافات والأعمال المختلفة إلا أن سمة الشباب تغلب عليهم فنهم الكاتب والمؤلف ، ومنهم الكهربائى والنجار ، والحذّاء والطالب ، وقد بعثوا أحدهم يدرس الطب فى أمريكا لمدة عامين ثم يصرح له أن يباشر العلاج بعد أن يجتاز امتحاناً بتفوق ، وقد قاموا أخيراً بمحاولة فذة وغريبة إذ بعثوا مجموعة منهم تتكون من ثلاثة رجال وزوجاتهم ليقوموا بالدعوة إلى الإسلام فى نيجيريا ، ولما سئلوا عن سبب هذا الاختيار أجابوا بأن الأفارقة تعودوا أن يجدوا الرجل الأوربى يذهب إليهم فى صورة المبشر بالدين المسيحى ، فأردنا أن تقدم لهم الرجل الأوربى داعياً إلى الإسلام . وقد اتصلوا بعدد من المؤسسات الإسلامية ذات الإمكانات المادية الكبيرة ليتعاونوا معهم على الاستمرار فى هذه المهمة إلا أنهم لم يجدوا أذناً صاغية حتى الآن فيما أعلم .

ولهم محاولات جادة فى تعلم اللغة العربية ، وقد حضر زعيمهم عام ١٩٧٦ إلى القاهرة والتقى بفضيلة المرحوم الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الذى قرر على الفور قبول ثلاثة منهم بالأزهر لتعلم اللغة العربية وقد حضروا بالفعل وظلوا يتلقون العلم هناك لمدة عام أو عامين لست أذكر ، وكل هذه المحاولات تعكس مدى اهتمامهم وتحمسهم ، ولا يعيبهم إلا أن فيهم تسرعاً فى بعض الأحيان فى الحكم على الأمور حسب ظواهرها ولكنهم لا يلبثون أن يذعنوا للحق حينما يتبين لهم ، وقد حاول بعض الناس أن يستغلوا فيهم ذلك الحماس فجروهم إلى المشاركة فى بعض الأمور التى أخذت عليهم من انتقادهم لبعض الأمور فى البلاد العربية التى لم يقفوا على جلية الأمر فيها .

وقد تغلغل المسلمون فى كل أنحاء إنجلترا بحيث إنه قلما نجد قرية ليس فيها أسرة مسلمة ، والمسلمون يشكلون ٢٪ من نسبة سكان إنجلترا ، وبعد أن استقروا فى مناطقهم أخذوا يكونون لهم جمعيات يتعاونون من خلالها على تهيئة مكان يصلون فيه ويعلمون أولادهم وقد تعددت هذه الجمعيات حتى فاقت الحصر بحيث تجد

جمعية أو أكثر فى كل حى حسب تزايد أعداد المسلمين ، وأخذت تدبر أمور الأعضاء على الصعيد المحلى وأهم ما تتجه إليه العناية أولاً توفير مكان للصلاة وتعليم الأطفال مبادئ الدين وأصول القراءة والكتابة باللغة العربية حتى يتمكنوا من قراءة القرآن وتأدية الصلاة باللغة العربية ويتعاونوا فى تحقيق ذلك مع المؤسسات الكبرى فى داخل إنجلترا مثل المركز الإسلامى بلندن والمجلس الإسلامى الأوربى ، واتحاد الجمعيات الإسلامية ، واتحاد الطلاب المسلمين ، ودار الرعاية الإسلامية .

والحاجة ماسة إلى توجيه أكبر من العناية بالمسلمين فى هذه البلاد لأنهم يواجهون تحديات أكبر من طاقاتهم ، حقيقة أنهم لا يواجهون أى ضغط رسمى يتعرض لعقيدتهم ومباشرتهم لها ، ولكن نظام الحياة الذى يحكم تلك البلاد ، ووسائل المعيشة ، ومنهج المجتمع الذى يتقلبون فى جنباته وقيم ذلك المجتمع تختلف اختلافاً كليا عن قيم الإسلام ونظمه ومنهجه فى السلوك والأخلاق ، وهذه الأوضاع التى تسيطر على الحياة وتوجهها تمارس بصورة تلقائية فى كل مظهر من مظاهر الحياة فى المدرسة والشارع والحدائق والمنازل والصحف والإذاعة والتليفزيون وإذا استطاع الجيل الذى وفد إلى تلك البلاد بعد أن تلقى قدراً كافياً من المعرفة والتربية الإسلامية فى بلاده أن يدرك مدى مخالفة هذه الاتجاهات لما آمن به من عقائد وما نشأ عليه من مثل وما ألفه من أخلاق فإن الجيل الناشىء الذى ولد وتربى فى هذه البلاد يواجه تحدياً خطيراً يعيش معه فى المدرسة والبيت من خلال أجهزة الإعلام وفى الطريق وساحات التنزه فى الحدائق والشواطئ ، وإذا لم يزود بوسائل على قدر مماثل من الاقتناع والتقدم الحضارى فينغمس فيما حوله من مظاهر الحياة وسيأخذ بها وينجرف فى تيارها ، ويصبح الإسلام فى وجدانه وتفكيره شيئاً غريباً ينتمى إلى مجتمعات أخرى لا تمت له بصلة أو بصلة تجعله يشعر بعدم الرضا من الانتساب إليها ، وهنا يكمن الخطر على الجيل الجديد من أبناء المسلمين فى تلك البلاد ، فإذا كان الإسلام يكسب أتباعاً جدداً من الراغبين فيه من أبناء تلك البلاد فإن أضعافاً مضاعفة من أبنائه المحسوبين عليه سينسحبون من ركبه إذا ترك الأمر على ما هو عليه الآن .

وقد قامت المؤسسات الإسلامية بجهود دائبة تحاول بها أن تفعل شيئاً تحمى به هؤلاء من الضياع إلا أن الإمكانات الميسرة

لها غير كافية لتحقيق صورة مثلى تجعلها قادرة على التأثير المطلوب فى هؤلاء الناشئين الجدد وفى كثير من الأحيان تأتى هذه المحاولات التى تقوم بها الجمعيات الصغيرة نتيجة عكسية تنفر الصغار من الإسلام وتزرع فى قلوبهم بطريق غير مباشرة الإحساس بعدم السعادة من الانتماء إليه. وينشأ ذلك عن الأسلوب الذى يأخذون به هؤلاء الصغار فى تلقينهم الإسلام وسبب ذلك المقارنة التى تعيش فى داخل الطفل من خلال ممارسته لوسيلتين من وسائل التعليم، فهو فى الصباح يذهب إلى المدرسة الحكومية يتلقى فيها مع غيره من أبناء الشعب الإنجليزى ما يتلقون من معارف وخبرات بطريقة تربوية حديثة وبأسلوب سهل مبسط يتفق مع قدرات الطفل، ويساعد على تنمية قواه الفكرية وخبراته السلوكية ويحاط كل ذلك بوسائل متعددة من ألوان الراحة النفسية والجسمانية والمظاهر الجمالية التى تحيط به سواء فى فناء المدرسة أو فى حجرة الدراسة أو فى وسيلة التعبير وطريقة المعاملة التى يلقاها ممن يتولون تعليمه مدرسين ومدرسات فإذا ما انتقل من ذلك الجو المريح للنفس المثير للعقل المتفهم لطبيعة الطفل فى تلك المرحلة، وأخذ فى وقت غير مناسب وفى مكان غير معد وأجلس أمام شخص غير معدّ إعداداً ثقافيا كافياً أو مؤهل تأهيلاً تربويا مناسبا، ثم أجبر على ترديد كلمات وعبارات لم يمهد لها التمهيد الكافى وأفهم أن هذا هو الإسلام أو أنه يوضع فى هذا الموضع غير المريح ليتعلم الإسلام ارتبط فى ذهنه اليافع وانغرس فى قلبه الغض أن الإسلام شىء غير محبب ولا سهل القبول، ونفر منه، وارتبط فى نفسه بمظاهر التخلف التى ينتهى إليها من المقارنة التى تنعقد فى نفسه بين ما يراه فى المدرسة خلال الأسبوع وبين ما يؤخذ به من هذه المظاهر التى صورناها فى آخر الأسبوع وقد حاولت المؤسسات الواعية أن تتلافى هذا بقدر المستطاع كما يحاول المركز الإسلامى أن يفعل فى الفصول التى يديرها إلا أن ذلك جهد محدود يحتاج إلى تأييد وإمكانات مادية واسعة تجعله يؤدى الهدف المقصود منه، والعلاج الحاسم لهذه الظاهرة فيما أعتقد أن تنشأ مدارس إسلامية كاملة يتلقى فيها التلاميذ المناهج الإنجليزية كغيرهم من أبناء المدارس الأخرى ويضاف إلى ذلك دراسة اللغة العربية والدين الإسلامى ومن حسن الحظ أن قوانين التعليم فى بلد مثل إنجلترا لا تمانع فى ذلك.

وقد قامت الجاليات الأخرى بإنشاء مثل هذه المدارس لأطفالها وتتلقى من وزارة

التربية والتعليم فى إنجلترا مساعدات مالية تعادل ثمانين فى المائة من النفقات التى تحتاجها هذه المدارس سنويا بعد أن تقدم المبنى المناسب الذى تتوافر فيه الاشتراطات الصحية والجمالية المطلوبة فى المدارس الأخرى وقد تقدمت بمشروع جعلته كنموذج لهذه المدرسة منذ عام ١٩٧١م وعرض على مجلس السفراء المسلمين فى حينه وأرسل إلى مؤتمر وزراء خارجية المسلمين فى جدة وأرسلت نسخ منه إلى عدد من ملوك وأمراء ورؤساء الدول الإسلامية ولكن لم يتقدم أحد لتبنى هذا المشروع بعد والقيام بعمل جدى لحماية مستقبل الإسلام فى هذه البلاد والإمكانات المالية متوفرة لدى البلاد الإسلامية ، وهناك من المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى من يستطيع النهوض بهذا الأمر ليس فى إنجلترا وحدها ولكن فى كل البلاد الأوربية والأمريكية التى يوجد بها جاليات إسلامية مماثلة تتعرض لمثل الظروف التى أشرنا إليها .

هذه صورة تحتاج إلى علاج سريع من حكام المسلمين والقائمين على المؤسسات الإسلامية الكبرى فى العالم الإسلامى مثل الأزهر ورابطة العالم الإسلامى ومؤتمر الدعوة الإسلامية ووزارات الأوقاف والشئون الإسلامية فى الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية وبعض هذه المؤسسات عنده الكفاءات العلمية والثقافية وبعضها عنده الإمكانات المادية التى تكفل نجاح هذه المشروعات الحيوية بالنسبة لمستقبل المسلمين فى تلك البلاد ولايحتاج الأمر إلا لقدر من التنسيق والتعاون ، والنظر إلى المصلحة الإسلامية البحتة بالدرجة الأولى بصرف النظر عن أن يقترن اسم تلك المؤسسة أو الدولة بذلك المشروع أو ذاك .

والصورة الثانية التى تحتاج إلى العناية إقامة المساجد التى تتخذ شكلا واسعا الآن — فقد قام عدد من المساجد فى أنحاء مختلفة من إنجلترا وهناك أعداد لاحصر لها من المشروعات التى تضع فى خطتها إقامة مساجد ومدارس فى مناطق عديدة من إنجلترا إلا أن هذه المشروعات بعضها طموح لايتفق مع القدرات الميسرة لتلك الجماعات ، وبعضها يتقدم به آخرون لا لشىء إلا لتقترن أسماؤهم بذلك المشروع أو ذاك سواء كان قائماً على دراسة ميدانية للاحتياجات الفعلية للجالية أولا ، وترتب على ذلك أن تعددت تلك المشروعات وزاحم بعضها بعضاً وحارب بعض القائمين بها البعض الآخر ، وهذا واقع ملموس يحسه من عايش المسلمين فى تلك البلاد

وعرف مشاكلهم ودرس احتياجاتهم ، ويتقدم جميع هؤلاء إلى المسئولين فى العالم العربى عن المؤسسات الإسلامية يطلبون معاونتهم فى تحقيق المشروع المقترح وكثيراً ماتستجيب تلك المؤسسات أو بعضها لطلب يصلها من هنا أو من هناك . فتساعد على بدء التنفيذ ثم تعجز الموارد المتاحة عن إتمام المشروع فيضيع المال فى غير فائدة ملموسة ولايتحقق النفع المرجو لأبناء الجالية ، والسبب فى ذلك هو الارتجال وعدم التنسيق بين المؤسسات القادرة على المعاونة لعدم توفر الدراسات الكافية لديها عن مدى مايتسم به ذلك المشروع أو ذاك من جدية وما يترتب على إقامته من منفعة لأبناء الجالية المقيمين فى المنطقة المحيطة به ، ورغبة فى أن تؤدى المساعدات دورها الفعال فى معاونة من يحتاجون العون ، وأن تذهب هذه المساعدة للجمعيات الجادة التى يتوفر لدى أعضائها الصدق والإخلاص والرغبة فى العمل والتى لديها من الإمكانات المادية ماتتمكن بواسطتها من الإنفاق على استمرار المشروع بعد إقامتها حتى تضمن له الاستمرار فى خدمة أبناء المسلمين أقترح — وتعيد الاقتراح الآن من على صفحات هذه المجلة — أن تنشأ لجنة تسمى لجنة المساعدات الإسلامية أو المشروعات الإسلامية فى إنجلترا مثلاً وتقوم مثيلات لها فى البلاد التى لها ظروف مماثلة يتكون أعضاء هذه اللجنة من شخصيات تمثل سفارات الدول التى تقوم بالمساعدات المالية ومعهم ممثل من المركز الإسلامى فى لندن والمجلس الإسلامى الأوربى وقد يمتاز معهم من يرد الحاجة إلى مساعداته ، تقوم هذه اللجنة بتلقى الطلبات التى تتقدم بها الجماعات الإسلامية المختلفة وتدرس مدى جديتها ، ثم تحول المساعدات المالية باسم تلك اللجنة ، وبعد القيام بالدراسات المطلوبة تقرر اللجنة بناء على ماتراه من جدية المشروع ومدى الحاجة إليه المساعدة المطلوبة لبنائه ، وعن هذا الطريق نضمن تحقيق أمرين رئيسيين هما مساعدة من يحتاج المساعدة فعلاً ، وتوجيه الأموال وجهة صحيحة يظهر أثرها بين المسلمين ، ويقطعون الطريق على النزعات الشخصية والصراعات المذهبية والأقليمية التى أخرت كثيراً من المشروعات النافعة .

هذا استعراض سريع أرجو أن أكون قد ساعدت من خلاله على إلقاء الضوء على أوضاع الأقليات الإسلامية فى أوربا بعامة وإنجلترا بخاصة .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق .

د . محمد إبراهيم الجيوشى

وثيقة تاريخية

كان يمكن أن تتحول بريطانيا إلى إمارة إسلامية وتدفع الجزية

بقلم : المؤرخ البريطانى جابرييل رونى

فيما يلى النص الحرفى لوثيقة تاريخية هامة ، يكشف عنها المؤرخ البريطانى فى كتابه the tartais khans english qabriel roray

الذى صدر منذ عدة أسابيع فى بريطانيا . وقد قامت صحيفة الصنداى تايمز بنشر هذا الجزء من الكتاب .

وهو جزء يبين جانباً تاريخيا هاما ومهملاً معاً ، وهو أن ملك بريطانيا جون لاكلاند (الصورة) قدم بريطانيا للمسلمين كى تعتنق الإسلام ، أو تدفع الجزية - وكى تكون تابعة للدولة الإسلامية ، غير أن الزعيم العربى محمد الناصر رفض هذا العرض ، لأنه اعتبر ملك بريطانيا أحمق ولا يستحق التحالف معه !

ستكون صدمة لكل من تأثر بـ « غزو » العرب الحالى للعاصمة البريطانية لندن ، ذلك أن لحظة حاسمة من التاريخ البريطانى ، كان ستقرر مصير الاعتقاد الدينى السائد ، فلولا الصدفة وحدها ، لأصبحت بريطانيا المسيحية بلدا مسلماً منذ ثمانية قرون .

فى عام ١٢١٣ ، وبحركة يائسة من الملك جون لاكلاند أرسل وفداً سريا من ثلاثة أشخاص ، إلى الأمير محمد الناصر ، الحاكم المغربى القوى ، ليعرض له ولاءه وليعده بأنه سيكون أى الملك جون لاكلاند تابعاً مخلصاً ، فيما إذا قبل الأمير أن تكون بريطانيا تحت الرعاية العربية ، وليؤكد له أن الدخول فى الإسلام هو المخرج من ضغط المشاكل السياسية التى تلح عليه .

لقد وقع بالصدفة بين يدى ، النص الحرفى لما حمله الوفد ، فى دورية قديمة ، كانت تصدر فى ذلك الوقت عن أحد الأديرة ، عندما ، كنت أجرى أبحاثاً على الكاهن الكاثوليكى روبرت دى لندن ، الذى كان صدر بحقه حرمان كنسى ، ونفى من بريطانيا ، بسبب دوره فى ثورة الماغنا كارتا .

هذه الحلقة الواقعية المنسية ، من التاريخ البريطانى ، سجلها ماتيو باريس ، المؤرخ الإخبارى الدقيق لأحداث القرن

الثالث عشر ، الذى أخذ حقائقه واستقاها من مصادرها .

وحسب مايقول باريس ، أن رجال الوفد الثلاثة كانوا مكونين من البارونين توماس هارنجتون ورالف فيتزسكولاس ، والسيد روبرت دى لندن غير أن باريس لم يقدم أى تفسير لضم الكاهن اللندنى للوفد ، إلا أن السبب الأكثر ترجيحاً ، هو أن الملك جون لاكلاند ، عهد إلى السيد روبرت بإدارة شئون أبرشيته الخاصة ، ولذلك فهو من المقربين والموثوقين ، وبالتالى فإن فى اشتراكه فى الوفد يشكل ضماناً ضد البارونين كي لايمارسا عليه خداعاً فى أثناء تأدية المهمة .

وكان توماس هاردنجتون ، رئيس الوفد كان قد أعطى تعليمات من قبل الملك ؛ ليبلغها إلى أمير أفريقيا العظيم وأمير المغرب وإسبانيا ، بأنه — أى الملك البريطانى سيتنازل عن طواعية وطيب خاطر ، عن مكانته ومملكته ، ويصبح تحت تصرف الأمير العظيم . وإذا كان يسره فإنه يضع بريطانيا أمانة بين يديه ، ويتخلى عن الاعتقاد بالديانة المسيحية ، ويتمسك ويلتزم بكل إخلاص بدين وعقيدة محمد .

ونقلت رسالة الملك جون أو تعلياته إلى الأمير بواسطة مترجم ، حيث كان رئيس الوفد بمهارة خطابية هائلة عن غنى الأرض الإنجليزية .

وخصوبة حقولها ومهارة شعبها العظيم الحاذق الخلاق ، ومعرفة هذا الشعب للغات الثلاث : اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وإتقانهم لكل مهنة عقلانية .

وكان رد الأمير المغربى المسلم ردا حصيفاً جاء فيه :

« لم أقرأ أو أسمع قط أن ملكا يمتلك مثل هذه البلاد المزدهرة الخاضعة المطيعة له عن طواعية ، يقوم بتدمير سيادته واستقلاله بجعل بلده الحر يدفع الجزية لغريب . علماً أنها يجب أن تكون ملكه وله وحده . وبتحويل السعادة إلى بؤس ، فيسلم نفسه لإرادة آخر ، ويهزم بلده دون سبب » .وطلب الأمير من أعضاء الوفد ألا يمثلوا فى حضرته ثانية ولدى عودتهم إلى بريطانيا « بكى الملك جون لان مساعيه قد أحبطت » . وربما اعتقد أن باروناته قد خدعوه وخانوه . لكنه وضع الكاهن اللندنى مسؤولاً عن جميع شئون دير القديس البانز كمكافأة له . غير أن مسؤلياته عن هذا الدير انتهت ، لأن الرهبان رشوا الملك لإزاحته بسبعمائة من الماركات الفضية (المارك وحدة نقدية إنجليزية قديمة تعادل ١٣ شلناً و٤ بنسات) .

دعوة إلى تدوين التاريخ الحربي الإسلامي

اللواء / محمد جمال الدين محفوظ

كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يعلم بنيه المغازي والسرايا ويقول : يابني .. إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها

● من أهم ما تعنى به الأمم الحية تدوين تاريخها الحربي .. فالوقائع الحربية في حياة الأمة أحداث جسام ذات صلة مباشرة بأمنها وسلامتها ، ولها آثار بعيدة المدى على كيانها ووجودها ومصيرها .. ولابد للأمة التي تلق بأغلى ما عندها من قوى بشرية واقتصادية وسياسية ومعنوية في الصراع مع أعدائها من تقييم ما قامت به من عمل وجهد لاستخلاص الدروس النافعة لها في حاضرها ومستقبلها ..

والتاريخ الحربي بالنسبة لصنعة الحرب ، كالتشريح بالنسبة لمهنة الطب . فكلاهما يمنح من يمارسه من الخبرة والمهارة ما يجنبه مواطن الزلل ، ويعصمه من الوقوع في الخطأ مرتين ، ويفتح أمامه آفاقا عريضة للابتكار والتطوير والتجديد في مختلف مجالات التخطيط للحروب ، وأساليب إدارة معاركها وعملياتها الحربية بما يحقق الهدف المنشود بأقل الخسائر والتكاليف وفي أقصر وقت ..

وليس هناك قائد شهير على امتداد تاريخ الصراع البشري الحافل ، إلا وكانت إنجازاته في مسرح الحرب وليدة اهتمامه الفائق بدراسة معارك الماضي ، وشغفه الشديد بالإحاطة التامة بكل دقائق الحروب وتفاصيلها . وعلى الجانب الآخر يقف القادة المهزومون يعضون بنان الندم لجهلهم بالتاريخ العسكري الذي أودى بهم ودفع بجيوشهم إلى الفشل والهزيمة . يقول المشير مونتجمري في كتابه (الحرب عبر التاريخ) :

«إن القيمة الحقيقية للحرب الطويلة في الماضي هي في الخروج بالحقائق واستخلاص العبر والدروس المفيدة ، وهناك قدر كبير من الخبرة العظيمة والتجارب الكثيرة ، مدفون تحت أنقاض الماضي السحيق والعصور المتعاقبة

للحروب ، ولن يستطيع القادة الإفادة منها إلا بوجود المؤرخين العسكريين الذين يخرجونها من تحت أنقاض الماضى »

ويقول ماوتسى تونج فى كتابه (كتابات حربية مختارة) :

«إن القوانين والنظريات العسكرية ماهى إلاحصيلة وخلاصة الحروب الماضية ، والتى وضعها الأقدمون أو المعاصرون ، وهذه الخلاصة يجب علينا دراستها دراسة عميقة واختبار نتائجها على ضوء ما اكتسبناه نحن من تجاربنا ، ثم استيعاب الجوانب القيمة لهذه النتائج مع رفض الضار منها وإضافة ما يمكن إضافته إليها من خبراتنا ، وهذه الإضافة هامة جدا ، إذ بدونها لن نتمكن من تطوير وتوجيه الحرب »

من أجل ذلك بلغ اهتمام الدول بتاريخها الحربى أن جعلت له أجهزة وإدارات متخصصة تتفرغ لتدوينه .

فقبل أن تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، كانت إدارة التاريخ بوزارة الحرب الأمريكية قد جمعت أكثر من مائتين من الضباط والعلماء ، وناطت بهم مهمة كتابة تاريخها الحربى . . وقد استغرق منهم إنجاز هذا العمل القومى أربعة عشر عاما ، أتموا خلالها تأليف سبعة وعشرين مجلدا بلغت جملة تكاليفها قرابة سبعة ملايين من الدولارات هذا مثل على اهتمام الدول بتدوين تاريخها الحربى . .

● والذى نلاحظه أن الأمة الإسلامية لم تعن بتدوين تاريخها الحربى على النحو الذى يتكافأ وقدرها ومكانتها بين الأمم ونتج عن ذلك أمران :

الأول : أن رجال العسكرية فى كثير من الدول العربية والإسلامية لا يدرسون إلا التاريخ الحربى للدول الأجنبية ونظرياتها الحربية وأعمال قادتها ، وكأنه ليس للعرب والمسلمين ، تاريخ حربى أو نظريات حربية أو أعمال قادة تستحق الدراسة

الثانى : أن المؤرخين العسكريين الأجانب أباحوا لأنفسهم أن يهونوا من عظمة المسلمين وما أظهروه من عبقرية حربية ، ومنهم من بلغ حد الادعاء بأن الإسلام متخلف أو لم يضف جديدا فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب ! [١]

---

(١) انظر التفاصيل فى المؤلفات التالية (على سبيل المثال) صفحة ١٩٩ إلى ٢٠١ من كتاب .

The Ensyclopedia of Military History (By. Ernest Dupuy & Trevor N. Dupuy).

وصفحة ١٢٠ إلى ١٢٣ من كتاب

The Arabs, A Short History (By. Philip K. Hitti).

وصفحة ٤٣ إلى ٤٦ من كتاب

War Through The Ages (By. Lynn Montross).

وصفحة ٤٠٥ من دائرة المعارف البريطانية جـ ٢

ولسنا بحاجة إلى إيضاح عناية الإسلام بالتاريخ ، وحث المسلمين على النظر فى آثار السابقين لاستخلاص الدروس والعبر التى يسترشد بها ، والتجارب التى ينتفع بها ، والله عز وجل يقول : (فاعتبروا يا أولى الأبصار) ، (الحشر ٢)

فالقرآن الكريم يقص علينا أحسن القصص لنتعظ ونتدبر فنعرف أحوال القرون الغابرة ، ونتيجة الصراع بين الخير والشر ، يقول الله تعالى :

● (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) ، (يوسف ١١١)

● (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ، (آل عمران ١٣٧)

● (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) ، (النساء ٢٦)

● (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاء فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين) ، (هود ١٢٠)

● (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا) ، (طه ٩٩)

ولقد كانت عناية المسلمين الأوائل بالتاريخ الحربى واضحة ، وهو ما نلمسه فى قول زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم :

«كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ ، كما نعلم السور من القرآن»

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : «كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»

ويسمى الزهرى التاريخ الحربى «علم المغازى» ويقول : «فى علم المغازى خير الدنيا والآخرة»

● لكن أهم ما يلاحظ - للأسف الشديد - أن مؤرخى السيرة تناولوا المعارك الحربية بأسلوب السرد التاريخى للوقائع بحيث لايجد الباحث العسكرى ما يشفى غلته من بيانات وتفاصيل ومخططات وخرائط وتحليل وغيرها مما تعارف عليه العسكريون فى تسجيل التاريخ الحربى .

يقول الجنرال جون باجوت جلوب فى كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» «لقد واجه مؤرخو الفتوحات العربية الأولى مشاكل عدة من النوع الذى يقطع

---

(١) الفتوحات العربية الكبرى - تعريب وتعليق خيرى حماد ص ١٢ : ١٥

الأنفاس حله . فعندما اندفع العرب فى القرن السابع الميلادى من جزيرتهم ليقيموا إمبراطورية كانوا لايزالون بوجه عام خامات غير مصقولة ، تجهل القراءة والكتابة . ولما كان جل اهتمامهم منصرفا إلى العمل ، فقد فاتهم أن يدونوا ما عملوه ، بل لم يكلفوا أنفسهم عناء تدوينه .

ولم يظهر المؤرخون (العرب) الكبار إلا بعد نحو قرنين من وفاة النبى وبعد أن تحولت السيطرة فى الإمبراطورية الإسلامية من أيدى العرب إلى أيدى الشعوبيين »

« ومن هنا نستطيع القول بأن وجهات نظر هؤلاء المؤرخين كانت إسلامية أكثر منها عربية ويضاف إلى هذا أن أيا من المؤرخين لم يكن من أصل عربى صميم . وقد نشأوا فى بلاد مختلفة فبعضهم من المغرب وبعضهم من الأندلس وبعضهم الثالث من فارس . ولم يكن بينهم مؤرخ واحد من العرب البداة الذين جاءوا من الجزيرة العربية وحققوا تلك الفتوحات العظيمة ، ومن هنا يتبين أن مؤرخى العصر العباسى ، لم يكونوا على اطلاع صحيح على الحياة البدوية التى عاشها الفاتحون الأول . كما أنهم لم يكونوا كثيرى العناية بالعمليات العسكرية . ولم يكونوا يهتمون أيضا بالغ الاهتمام بالتواريخ والأرقام والحقائق ، وهى المظاهر التى يعتبرها المؤرخون اليوم شيئا حيويا . وكانوا يكتفون فى وصف معركة من المعارك الحربية بالقول بأن « مشيئة الله أرادت أن يهزم الكفرة » وكثيرا ما افتقرت التواريخ التى أوردوها إلى الدقة . وكان الواحد منهم يختلف عن الآخر ، فى تحديد تاريخ معركة من المعارك بنحو عامين على الأقل ، وكثيرا ما لف الغموض والإبهام تقديراتهم للقوات المتحاربة . وعلى الرغم من ميلهم إلى إعطاء الأرقام القريبة من الصحيحة بالنسبة إلى قوات المسلمين ، إلا أنهم كانوا ميالين كل الميل إلى المبالغة فى تقدير قوة أعدائهم »

« وبالإضافة إلى افتقار هؤلاء المؤرخين إلى الاهتمام بالعمليات العسكرية فإنهم دونوا تواريخهم ، وقد حرموا من ضرورة وجود خرائط عسكرية تشرح هذه المعارك . فبالنسبة إلينا نحن ألفنا النظر إلى الخرائط منذ نعومة أظفارنا وتعودنا تصور المواقع المتصلة بمختلف الأماكن . ترى من المتعذر علينا أن نتصور كيف يمكن للمرء أن يتابع الحديث عن معركة من المعارك دون أن تكون هناك خريطة يتابع عليها هذا الحديث . ومن الواضح حقا أن المؤرخين العرب لم يكونوا على فهم صحيح بالمعارك والحملات الحربية التى يتحدثون عنها .

وكل ما بقى هنالك اسم موقع هنا أو موقع هناك – تناقلته القصص والروايات القديمة . ومازال قيد الاستعمال حتى يومنا هذا متيحا المجال للمؤرخ المعاصر العثور على أثر أو علامة تصل به إلى الحقيقة »

« وأرى لزاما على أن أورد هنا نقطة أخرى تتعلق بالسجلات العربية الأولى فلم يكن المؤرخون وناقلو السير واضحين كل الوضوح فى ترديد أسماء مصادرهم أو فى الرجوع بهذه المصادر إلى أولئك الذين شهدوا هذه الأحداث التى يدونونها هم عند وقوعها – وكان المؤرخ يحس بعد أن يسرد قائمة بأسماء مصادره أن مهمته قد انتهت – فلا يقوم بأية محاولة أخرى للتثبت مما إذا كانت الأحداث التى يصفها ويسردها قد وقعت حقا . وعندما تكون هناك روايتان عن حادث واحد ، أو مجموعة من الروايات المتناقضة ، يكتفى المؤرخ بسردها كلها ، مسندا كل رواية منها إلى مصادرها ومراجعها . وتاركا للقارئ نفسه مهمة الخروج بالرواية الصحيحة من هذه الروايات المتضاربة »

« وقد سارت هذه المتاعب الموروثة من الماضى جنبا إلى جنب مع متاعب لاتقل عنها أهمية نشأت فى العصور الحديثة . فلقد كانت العربية تعلم منذ قرون فى إنجلترا ، وهذه هى الصعوبة الأولى وكأنها إحدى اللغات الميتة . وقد قام المستشرقون الأوربيون بمهمة عظيمة بترجمتهم كتب الأدب العربية القديمة إلى الإنجليزية ، وإن كانوا قد ركزوا عملهم على النواحى الدينية والسياسية والعلمية فى المخطوطات الباقية دون أى تركيز على النواحى العسكرية . ولم تكن الفرصة لتتاح إلا نادرا للعسكريين المحترفين لتعلم لغة من اللغات الميتة مع ما فى هذه اللغة من صعوبة » .

« أما الصعوبة الثانية فهى أن الجزيرة العربية كانت حتى الخمسين سنة الأخيرة منيعة الاختراق إلا لأكثر المكتشفين جرأة ومخاطرة ، وهكذا كان من المستحيل بالنسبة إلى المؤرخ الغربى أن يدرس على الطبيعة مواقع هذه المعارك . أو يطلع بنفسه على طراز العرب الذين خاض أمثالهم تلك المعارك التى أدت إلى هذه الفتوحات العظيمة »

« أما الصعوبة الثالثة فهى أن أوربا ظلت قرونا طويلة تعتبر الفتوحات الإسلامية كوارث رهيبة . ولم يكن ثمة مسيحى يود أن يذكره الناس بها ، وليس المؤرخون إلا بشرا . ولذا تثبط عزائمهم إذا لم يجدوا من يقرأ لهم ، فلقد كتب سيمون أوكلى ، وهو أحد المؤرخين الإنجليز الأوائل

الذين أرخوا الفتوحات العربية بعض كتبه العظيمة وهو رهن السجن فى كمبردج وفاء لدين عليه - ولم يكن دخله من بيع كتبه كافيا لتمكينه من إعالة أسرته - ولقد كتبت ألوف الكتب منذ عصر النهضة عن تاريخ الإمبراطورية الرومانية . أما عدد الكتب ذات المستوى الطيب عن الفتوحات العربية فى اللغة الانجليزية فلا يعدو أصابع اليد الواحدة »

هذا ما قاله الجنرال جلوب ، وفيه - من وجهة النظر العسكرية البحتة - ما يكشف أوجه القصور فى كتابات مؤرخى معارك الإسلام .

● ويتصل بهذا الموضوع ما ذكره جورجى زيدان[1] فى (تاريخ التمدن الإسلامى) من مصادر التاريخ الإسلامى ، وفيه بيان لأسلوب تدوين التاريخ الحربى ومتى بدئ فيه .

«للتاريخ الإسلامى مصادر كثيرة تدرج فيها على مقتضى الأحوال ، وإليك تمثيل ذلك :

لما اشتغل المسلمون بجمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التى نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث ، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دونوها - وأول من دونها على المشهور محمد بن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، ألفها للمنصور - على أننا رأينا فى كشف الظنون أن محمد بن مسلم الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ هـ ألف كتابا فى المغازى وقد توفى قبل ابن إسحق ببضع وعشرين سنة - ولكن يؤخذ من ترجمتها فى وفيات الأعيان إنهما كانا متعاصرين - ويقال أيضا أن أول من صنف المغازى والسير عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٣هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٤ وعلى أى حال فإن هذه السير ضاعت ، وأقدم ما وصل إلينا منها سيرة عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ هـ فى كتابه المعروف بسيرة ابن هشام ، وهى منقولة عن ابن إسحق المذكور وقد طبعت غير مرة .

ولما اشتغل المسلمون فى ضرب الخراج على البلاد ، اختلفوا فى بعضها : هل فتح عنوة أو صلحا أو أمانة أو قوة ، وفى شروط الصلح أو الأمان فاضطروا إلى تدوين أخبار الفتح باعتبار البلاد ، فألفوا كتبا فى فتح كل بلد على حدة ، كفتوح الشام للواقدى المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وكتابه مشهور لكنه مملوء بالمبالغات بما يشبه الحكايات - وفتوح

---

(١) جورجى زيدان - تاريخ التمدن الإسلامى جـ ٣ ص ٩٩

مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ ، وفتوح بيت المقدس ونحوها . ثم جمعوا فتوح البلاد معا فى كتاب واحد كفتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو أوثق كتب الفتح وأشملها وأقدم ما بين أيدينا منها ، إلا الواقدى . »

« وقد رأيت فيما تقدم من كلامنا عن القرآن والحديث والنحو والأدب ، أن العلماء اضطروا لتحقيق مسائل هذه العلوم إلى البحث فى أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها ، فجرهم ذلك إلى النظر فى رواة تلك الأسانيد وتراجمهم وسائر أحوالهم ، حتى أصبح من شروط الاجتهاد فى الفقه معرفة الأخبار بمتونها وأسانيدها ، والإحاطة بأحوال النقلة والرواة : عدولها وثقاتها ومطعونها ومردودها ، والإحاطة بالوقائع الخاصة بها فقسموا رواة كل فن إلى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة وغيرهم ، مما يعبرون عنه بالطبقات ، ومنها طبقات الشعراء ، وطبقات الأدباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات الفقهاء وطبقات الفرسان والمحدثين واللغويين والمفسرين والحفاظ والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم ، وألفوا فى كل باب غير كتاب . ولذلك كان المسلمون أكثر أمم الأرض كتبا فى التراجم لأفراد الرجال .

وأقدم كتب الطبقات التى وصلت إلينا كتاب طبقات الصحابة لمحمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدى المتوفى سنة ٢٣٠ هـ وهو كبير ربما دخل فى بضعة عشر مجلدا ، ويحتوى على تراجم الصحابة والتابعين والخلفاء إلى أيام المؤلف وكان هذا الكتاب مشتتا فى مكتبات العالم ، ومنه الجزء الثانى فى دار الكتب الخديوية (المصرية) بمصر ، وقد علمنا ونحن نخط هذه الحروف أن جمعية ألمانية شرعت فى طبعه وأصدرت الجزء الأول منه ثم طبقات الشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ وقد طبع فى ليدن فى هذا العام بعناية الأستاذ دى خويه المستشرق الهولندى الشهير ثم ألف الناس طبقات كثيرة فى أزمنة مختلفة ، ومنها استخرجوا كتب التراجم الكبرى ، كوفيات الأعيان ، والوافى فى الوفيات ، وفوات الوفيات وغيرها مما سيأتى ذكره ، غير التراجم الدخيلة فى تواريخ البلاد ، كتاريخ دمشق لابن عساكر فى ثمانين مجلدا ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى فى نحو ذلك وفيها تراجم كثيرة .

وكان طلاب الأدب الراحلون فى جمع اللغة والشعر من أفواه أهل البادية يلتقطون

أخبار العرب ووقائعهم وحوادثهم ويدونون ذلك فى كتب الأدب كما تقدم . ناهيك بالأخبار المستخرجة من تلك الأشعار .

قال ابن يونس : «ولولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس ، ولما استبد بنو أمية بالخلافة واعوجوا فى أحكامهم عن سبل الخلفاء الراشدين ، كثر تحدث الناس بأخبار الراشدين وتذكر أعمالهم المؤسسة على العدل والرفق – وذلك طبيعى فى هذه الأحوال . ثم ألف بعضهم كتبا فى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ثم فى الخلفاء على الإجمال ، وأقدمهم الدينورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ ، ويقال نحو ذلك فى تأليف تراجم الوزراء ، وتواريخ عمال الشرطة وتواريخ الأذكياء والبخلاء والعشاق وغيرهم»

● ويوضح الأستاذ الدكتور أحمد شلبى[1] المنهج الذى اتبعه المؤرخون القدامى فى كتابة التاريخ الإسلامى فيقول :

«ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقان :

أحدهما ، سرد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدونه ، من غير تعليق عليها ، وبدون تحليلها والبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة والبعيدة .

والطريق الثانى ، اتجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسرد الأحداث التاريخية المتتابعة .

وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسرد الأحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ ، أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر . ولا يستقيم أحدهما وحده ؛ فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يعتبر ساذجا محدود النفع ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف عملى يحتاج إلى أساس يبنى عليه

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا غالبا يدونون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ، فيذكرون الروايات المختلفة للحادث الواحد ، ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخر ولا يهتمون بالأسلوب

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية – جـ ١ ص ٥٧ – ٥٨

الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ صعبة المنال .

وفى سنة ٦٥٦ هـ حدث حادث خطير فى العالم الإسلامى هو سقوط بغداد فى أيدى التتار ، وقتل الخليفة العباسى ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذى يعنينا من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامى ، فقد كانت الخلافة العباسية حتى فى فترات ضعفها رباطا يربط بين أكثر أجزاء العالم الإسلامى ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامى كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذى كان يربط بين أجزاء هذا العالم ، انفرط عقد البلاد الإسلامية ، وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقيا مثقفا يجهل تاريخ اليمن ، ومصريا يجهل تاريخ إيران ، وهكذا .

وعلى هذا يعانى الباحثون المحدثون فى التاريخ الإسلامى مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد وبعده ، فقبل سقوط بغداد كتب التاريخ الإسلامى ، ولكن بدون تحليل وبأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد اتجه الاهتمام إلى التاريخ المحلى للبلدان الإسلامية ، وقل الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامى ، كما اتجه أكثر اهتمام الجامعيين فى العصر الحاضر إلى التحليل والنقد لحادث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول .

وهكذا نرى أن كل ما ذكرناه من أقوال يؤيد وجهة نظرنا فى ضرورة تدوين التاريخ الحربى الإسلامى بالأسلوب الذى تعارف عليه العسكريون وطبقا للمنهج المقرر فى العلم العسكرى .

● وهناك عدة مدارس لدراسة التاريخ العسكرى وفن الحرب ، لكن هذه المدارس قد تختلف فى الأساليب فقط ، ويبقى الهدف من الدراسة واحدا عندها جميعا وهو « الوقوف على الأسباب الحقيقية للنجاح أو الفشل فى المعارك والحروب » .

ولكى يمكن تحقيق هذا الهدف فإن دراسة التاريخ الحربى تشتمل على عدة عناصر رئيسية نذكر منها :

● الظروف السائدة محليا ودوليا .

● الهدف من الحرب أو المعركة .

● أحوال مسرح الحرب فيما يتعلق بطبيعة وأحوال الأرض (طبوغرافيته) وبالسكان والقوى البشرية (ديموغرافيته) ومناخه .

● المقارنة العددية والنوعية بين قوات الطرفين أو الأطراف المتصارعة وأسلحتها ومعداتها وأساليبها القتالية وعقائدها

الحربية[1]

● خطط الأطراف المتصارعة .

● سير القتال .

● القضايا الإدارية والفنية .

● نتائج المعركة أو الحرب .

● الدروس المستفادة والخبرة المكتسبة .

● النظريات الحربية ومبادئ الحرب التى كان تطبيقها سببا فى فوز أحد الأطراف والتى كان إهمالها سببا فى هزيمة الطرف الآخر . وتعتبر الخرائط والمخططات والإحصائيات والصور من أهم الوثائق وألزمها فى عملية تسجيل ودراسة التاريخ الحربى .

● إن كل مسلم غيور على دينه لايرضى بأن تكون الأمة الإسلامية أقل من غيرها من الأمم اهتماما بتاريخها الحربى .

فلقد حققت «العسكرية الإسلامية» إنجازات رائعة فى مجال الصراع بين المسلمين وأعدائهم ، ومن ذلك ما أصبح من حقائق التاريخ التى لاتنازع وهو مانذكره على سبيل المثال فيما يلى :

١ - تأمين الدعوة وتأسيس الدولة الإسلامية وتحقيق الأمن والاستقرار لها لكى تؤدى رسالتها السامية لخير البشرية .

٢ - امتداد الفتوحات الإسلامية فى أقل من مائة عام من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا .

٣ - تمكين الأمة الإسلامية «الناشئة» من إدارة دفة الحرب فى جبهتين عظميين فى وقت واحد فى مواجهة أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت وهما فارس وبيزنطة والانتصار عليهما . . وذلك مثل فريد فى التاريخ الحربى لم تبلغه أقوى الأمم .

٤ - إتقان العرب - وهم أبناء الصحراء - ركوب الأساطيل والحرب البحرية وتغلبهم على أسطول بيزنطة وهو أعظم قوة بحرية فى زمانهم حتى يقول عنهم ابن خلدون : «إن المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) وإن أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية إلى تونس ، والرومان والصقالبة والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ، ولاتحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته» !

٥ - فتح الطريق لتأسيس الحضارة الإسلامية وفتوحاتها العبقرية لخير البشرية فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ،

---

(١) «العقيدة الحربية» اصطلاح يعبر عن النظريات الأساسية والمبادئ التى تطبقها الدولة فيما يتعلق بالصراع المسلح ، وتتخذ كل دولة لنفسها عقيدة حربية خاصة بها تتفق مع غاياتها العليا وظروفها الاستراتيجية وقدراتها البشرية والاقتصادية وغيرها .

فأصبح العرب - بعد أن كانوا أقل حضارة من الفرس والروم بخاصة - قادة للحضارة العالمية فكان منهم على سبيل المثال لا الحصر جابر بن حيان فى الكيمياء وابن الهيثم فى الطبيعيات وأبو بكر الرازى فى الطب، وابن سيناء فى الطب كذلك والفلسفة والغزالى فى الجانب الروحى، وابن رشد فى الفلسفة العقلية وابن خلدون فى الاجتماع والتاريخ، والخوارزمى فى الرياضيات وعشرات غيرهم.

● فالعسكرية الإسلامية إذن، تمثل جانبا أساسيا ورائدا من الحضارة الإسلامية، ومن الحضارة الإنسانية بالتالى، ولولا جهاد المسلمين الأوائل واسترخاصهم المال والنفس والولد فى سبيل الله، لتغير وجه التاريخ، ولتخلفت مواكب الحضارة الحديثة عن الظهور.

وإذا كان المسلمون اليوم يسعون إلى نهضة حضارية شاملة، فإن نقطة الانطلاق - فى يقينى - هى إحياء العسكرية الإسلامية، لكى تأخذ دورها فى تلك النهضة المرجوة مثلما أخذت دورها فى بناء الحضارة العربية والإسلامية فى الماضى.

ويبدأ تحقيق هذا العمل الكبير بتسجيل وتدوين التاريخ العسكرى الإسلامى بالأسلوب العلمى المعروف فى العلم العسكرى والذى أوضحناه آنفا. وإذا تم هذا العمل، فسوف يكون من أعظم الإنجازات العلمية فى تاريخ الإسلام والمسلمين، وسوف يكون بالنسبة لشباب المسلمين حصنهم الأول الذى يحتمون فيه من سهام الغزو الفكرى العسكرى، وقاعدة انطلاقهم نحو بناء القوة العسكرية الذاتية للأمة الإسلامية على دعائم راسخة من الأصالة وأمجاد التاريخ.

● إن تسجيل التاريخ الحربى للإسلام أمانة فى عنق الأمة العربية والإسلامية جمعاء، ولعله من المفيد أن نعلم أن كثيرا من أوجه القصور التى ذكرناها فى كتابات مؤرخى المعارك الإسلامية يمكن تداركه، فإن بعض الميادين التى دارت فيها معارك عصر النبوة مثلا مازالت على حالها التى كانت عليها وقتها، ولم يطرأ عليها ما يطمس معالمها الأصلية، وهذا وضع فريد قل أن يوجد مثله فى أية بقعة على الأرض كانت ميدانا لقتال حتى فى العصر الحديث.

فهى فرصة نادرة حقا، تستحق أن تنتهز بأسرع ما يمكن قبل أن تمتد يد العمران والتغيير فتطمس تلك المعالم.[1]

---

(١) وأرى أن المملكة العربية السعودية تستطيع أن تتخذ من الإجراءات ما يكفل الإبقاء على المناطق (أو =

ولو تصورنا أننا استخدمنا وسائل العلم الحديثة فى التصوير الجوى والأرضى لوضع الخرائط والمخططات لميدان دارت فيه إحدى الغزوات، وأن مجموعة من رجال العسكرية المعنيين بالتاريخ الحربى الإسلامى فى العالم العربى والإسلامى، قامت بدراسة تلك الخرائط والمخططات ومعاينة الميدان على الطبيعة، وأننا يسرنا لهم الحصول على المصادر والمراجع من كتب ومخطوطات ومقتنيات المتاحف فى العالم أجمع، بحيث نضع بين أيديهم وأمام أعينهم «كل كلمة» قيلت أو كتبت حول هذه المعركة قديما وحديثا.. ثم تصورنا بعد ذلك كله النقاش العلمى الذى سوف يدور حول المعركة والذى تسهم فيه عقول أولئك الخبراء المتخصصين، لو تصورنا كل ذلك، فهل يكون ثمة شك فى أننا سوف نحصل على أفضل وأدق وأكمل ما يمكن أن يقال فى التاريخ الحربى الإسلامى بكل مقياس؟!

إننا بهذا العمل العلمى الكبير نوفر للأمة العربية والإسلامية سجلا وافيا ومرجعا علميا دقيقا ونافعا فى التاريخ الحربى الإسلامى ومن النظريات الحربية الإسلامية فنحقق بذلك هدفين عظيمين:

الهدف الأول: أن يدرس العسكريون فى الأمة العربية والإسلامية تاريخهم الحربى ونظريات الإسلام الحربية على النحو الذى تعارف عليه العسكريون فى كل مكان، وأن يتخذوه أساسا أصيلا لصياغة استراتيجياتهم العسكرية وفق متطلبات العصر.

الهدف الثانى: أن تصحح المفاهيم التى سادت فى الدول الأجنبية عن تخلف الإسلام فى مجال العلم العسكرى وفن الحرب، وحفلت بها المراجع التى تناولت تاريخ الحروب وتطور فن الحرب، وذلك بالأسلوب العلمى المدعم بالحجة والبرهان والوثائق وباللغة المتعارف عليها بين رجال العسكرية.

وبعد.. فهذه دعوة إلى «تدوين التاريخ الحربى الإسلامى» أوجهها إلى كل العرب والمسلمين ملوكا ورؤساء وقادة وشعوبا وهيئات ومنظمات وجمعيات، وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى طريق تحقيق هذه الغاية على النحو الذى يتكافأ وقدر هذه الأمة التى أراد لها سبحانه أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

محمد جمال الدين محفوظ

=أجزاء المناطق) التى دارت فيها معارك صدر الإسلام الأول دون أن تمتد إليها يد التغيير، حتى يتسنى كتابة التاريخ الحربى لهذه المعارك بعد دراسة الأرض التى دارت عليها ورسم الخرائط لها وتصويرها إلى غير ذلك من وسائل التسجيل.



اللواء الركن المتقاعد
محمد جمال الدين على محفوظ

● ولد فى أغسطس ١٩٢٢ ميلادية ووالده عالم من علماء الأزهر هو المغفور له الشيخ على محفوظ عضو هيئة كبار العلماء وأستاذ الوعظ والإرشاد.

● مدة خدمته العسكرية ٣٣ سنة قضاها فى وظائف القيادة والتدريس والأركان والإدارة العليا والتوجيه المعنوى والحرب النفسية والإعلام. وقد انتهت خدمته عام ١٩٧٥ م.

● تخرج فى كلية القادة والأركان فى مصر وحصل على دراسات عسكرية عليا فى أكاديمية ناصر العسكرية.

● حصل على دورات دراسية فى كثير من المعاهد الأجنبية لأمريكا وإنجلترا وروسيا.

● حصل على ماجستير فى العلوم السياسية من جامعة القاهرة.

● عمل مديرا للتوجيه المعنوى بعد حرب يونيو ١٩٦٧ م فكان من أبرز أعماله أنه أقام منهج إعادة الروح المعنوية على أساس منهج الإسلام

١ - فجعل «الجهاد فى سبيل الله» عقيدة القتال للجيش.

٢ - وجعل «النصر أو الشهادة» هى شعار الجيش.

٣ - وجعل «الله أكبر» هى صيحة القتال

٤ - وجعل لعلماء الدين ووعاظ الجيش دورا كبيرا فى معايشة الجيش وربط نشاط رجاله فى السلم والحرب بالدين وقد كان هذا المنهج من أهم أسباب النصر فى حرب رمضان

المؤلفات العلمية والكتب :

له أكثر من ٢٠ كتابا فى العلوم العسكرية وفى القيادة العسكرية وأساليب التعليم والإدارة العلمية وفى التوجيه المعنوى ومازال بعض هذه الكتب مقررا للدراسة فى الجيش المصرى.

● تخصص فى دراسة العسكرية الإسلامية منذ أكثر من ربع قرن ووضع فيها عدة كتب وأبحاث ومقالات فى المجلات الإسلامية فى مصر والعالم العربى كما قدم عددا من الأحاديث الدينية فى الإذاعة والتلفزيون وخاصة برنامج «نور على نور». يحمل لواء الدعوة إلى إحياء أمجاد العسكرية الإسلامية باعتبارها جانباً رائداً من الحضارة الإسلامية.

ومن أحدث مؤلفاته :

١ – كتاب «المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية»

٢ – كتاب «تربية المراهق فى المدرسة الإسلامية» . . .

صفحات مشرقة فى تاريخ الأزهر

الأستاذ / على عبد العظيم

إن تاريخ الأزهر الشريف هو تاريخ مصر . وتاريخ مصر هو تاريخ الأمة العربية والشعوب الأسلامية ولا عجب ! ! فإن التاريخ الإسلامى قائم على العقيدة الإسلامية التى أضاءت بأشعتها جميع الأمم والشعوب التى دانت للإسلام وآمنت به وجاهدت فى سبيله بكل ماتملك من قوة ومال

ولما ضعفت الخلافة العباسية اتجهت الأنظار إلى مصر التى حمَت الإسلام ودافعت عنه دفاعا مجيدا أمام حملات أوربا الصليبية التى استمرت حملاتها زهاء مائتى عام ، كما دافعت عنه أمام غزوات التتار الوثنية التى اجتاحت ربوع القارة الآسيوية وسيطرت عليها فى قوة وعنف وجبروت ، ولقد استطاعت مصر وحدها أن تصد هذه الغزوات البربرية التى كادت تقضى على الإسلام والمسلمين ؛ بل استطاعت أن تجذب إلى الإسلام طوائف قوية من التتار ، وكان الشعب المصرى يستمد قوته المعنوية مما يَبُثُّه فيه علماء الأزهر الشريف من حماسة دينية ومشاعر وطنية وإيمان عميق .

* * *

ولم يكن علماء الأزهر يكتفون بالقيادة الروحية بل كانوا يقودون الشعب أحيانا قيادة عسكرية كما حدث فى موقعة عين جالوت والحملة الفرنسية والغزوة الانكليزية لرشيد وغيرها من الغزوات .

وكان لعلماء الأزهر مواقف حاسمة وجهود جبارة فى إشعال نيران الثورة العربية وثورة ١٩١٩ وفى تعبئة القوة المعنوية وإذكاء العقيدة الدينية فى نفوس كتائب الجيش المصرى المرابطة على شاطىء القنال ، فى مواجهة العدوان الصهيونى الغاشم المحتل لسيناء ، حيث كان العلماء ينتشرون فى المعسكرات المصرية يلهبون المشاعر ويثيرون العزائم ويدفعون الجنود دفعا إلى التسابق فى التضحية والفداء ؛ ولقد أسعدنى الحظ بأن أقوم بواجبى فى

التعبئة المعنوية والروحية مع لفيف من صفوة علماء الأزهر الممتازين وشاهدت كيف استطاع هؤلاء العلماء أن يوقظوا العقيدة الدينية فى أعماق النفوس حتى كادت تشتعل نارا ونورا . وكيف تمكنوا عن طريقها أن يسهموا فى تحويل الهزيمة الساحقة إلى نصر مبين تمت به المعجزة التى بهرت العالمين وشهد بها القادة العسكريون فى أنحاء العالم .

* * *

مكانة العلماء

كان علماء الأزهر منذ إنشائه يؤدون رسالتهم العلمية والروحية والسياسية والاجتماعية فى قيادة الشعب وحفزه إلى الرفعة والسمو والازدهار . وكانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا ، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا إلى الظلم والطغيان ، وكان المصريون إذا أحسوا الظلم وجابهوا العدوان فزعوا إلى علماء الأزهر واستغاثوا بهم والتفوا حولهم فإذا اقتنع العلماء بجدية الأمر أمروا بإغلاق أبواب الأزهر ، وأبطلوا حلقات الدروس وصعد نفر من العامة على سطح المسجد فتصايحوا ودقوا الطبول فيحتشد الناس حول الأزهر من أرجاء القاهرة وتتكاثر الجموع بما تحمله من أسلحة حتى تصبح كالبحر المتلاطم الأمواج وحينئذ يخرج شيوخ الأزهر ويتقدمون الصفوف إلى قصور الحكام . فلا يلبث هؤلاء الحكام أن يفيئوا إلى الصواب وينزلوا على حكم العلماء ويردوا الحقوق إلى أصحاب الحقوق .

فلم يكن الأزهر جامعة علمية فحسب وإنما كان – مع هذا – قواما للعدالة وتقويماً للحكام . ومصدرا للتحرير وأنموذجا مثاليا للزعامة الروحية منذ وجوده حتى الآن .

* * *

وحسبنا أن نسوق نماذج تاريخية تبرز مكانة الأزهر ومنزلة علمائه فى قلوب طوائف الشعب وفى نفوس الامراء والحكام معتمدين على ما رواه الجبرتى[1] ومن جاء بعده من ثقات المؤرخين

١ – حدثت فتنة عاتية بين كبار المماليك وعلى بك الكبير . واستعد الطرفان للقتال فتدخل العالم الكبير الشيخ محمد الحفنى وأغلظ القول لكبار المماليك صائحا بهم : إنكم خربتم البلاد بخصامكم وعنادكم وحروبكم ، فقالوا له : إذا نحن لم نحاربه حاربنا هو ، فقال : إنى مُرْسِلٌ إليه خطابا

(١) «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن الجبرتى» نشرته لجنة البيان العربى فى سبعة أجزاء من سنة ١٩٥٨ حتى ١٩٦٧ وألحقته بجزء ثامن هو كتاب الجبرتى «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» فى سنة ١٩٦٨

أنصحه فيه – وكان خارج القاهرة يستعد للقتال – فلا تتحركوا حتى يأتى جوابه ، وكتب إليه خطابا شديد اللهجة فيه نصيحة وعظةٌ وزجرٌ له فنزل الجميع على رأيه وانتهت الفتنة ، وبعدها علا شأن على بك الكبير وسيطر على مصر ، وفتح الشام والحجاز ، ومع هذا كان لايجرؤ على مخالفة الشيخ الحفنى فى أمر من الأمور[1]

٢ – ذكر الجبرتى فى ترجمته للشيخ أحمد بن عبد المنعم أبى السرور البكرى : أن والى مصر على باشا بن الحكيم كان يعتقد فى الشيخ اعتقادا عظيما وحدث أن ذهب الشيخ لزيارته فتلقاه وقبّل يديه وقدميه وقال : هذا الذى كنت رأيته فى عالم الرؤيا وقت كربتى فى السفرة الفلانية ، وعلمت فى الرؤيا أنه الشيخ البكرى وبالغ الوالى فى الحفاوة به وزاره بعد ذلك مرات عديدة وأرسل إليه هدية سنية[2]

٣ – فى ولاية بكير باشا وردت إلى مصر مراسيم سلطانية من استانبول بإبطال بعض المرتبات المستحقة لبعض الأيتام وبعض الأموال المخصصة للخيرات ، وتلاها القاضى العثمانى المقيم بالقاهرة وقال : أمر السلطان لايخالف وتجب طاعته ، وكان الشيخ سليمان المنصورى من كبار علماء الأزهر حاضرا فقال له : « هذا شيء جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة[3] ولايجوز إبطال ذلك وإذا بطل بطلت الخيرات ، وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك ، ولا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك ، وإن أمر ولىُّ الأمر بإبطاله لايسلم له ذلك ويخالف أمره ، لأنَّ ذلك مخالفة للشرع ، ولايسلم للإمام فى فعل مايخالف الشرع ولا لنائبه أيضا »

فقال بكير باشا : هذا يحتاج إلى المراجعة وتمت المصالحة ونزل الوالى على ما أورده الشيخ سليمان[4]

٤ – حدثت مناقشة فقهية فى شأن عالم سجين بين الشيخ على الصعيدى من كبار العلماء وبين الحاكم يوسف بك الكبير ، احتدَّ فيها يوسف بك فغضب الشيخ على غضبا شديدا وقال له : لعنك الله ولعن البسرجى[5] الذى جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا «وكان

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٥

(٢) المصدر السابق ص ٢٩

(٣) جمع سبيل وهو بناء يستقى منه الناس عند العطش ، وبعض آثار (الأسبلة) باقية إلى الآن .

(٤) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢ .

(٥) تاجر الرقيق .

يوسف بك قد اعتقل أحد العلماء فى أمر ظنه فيه مخالفا للشرع فأطلق يوسف بك سراح العالم السجين واسترضى الشيخ على حق رضى ، وعاد ومعه العالم حرا طليقا(١)

٥ – حدث أن القاضى التركى عين الشيخ عبد الرحمن العريشى – من علماء الأزهر ومفتى الحنفية – وصيا على أسرة صهره ، وكان الصهر قد مات وهو مثقل بالديون ، وقد أخذ الدائنون حكما قضائيا بها ، فسدّد الشيخ عبد الرحمن ديون صهره من التركة ، وأخذ صكوكا بالسّداد على الدائنين ، ولكن زوجة المتوفى اتهمت الشيخ العريشى – بعد سنوات – بأنه نهب ميراث زوجها ، وتواطأ مع الدائنين وقاسمهم فيما أخذوه ، وشكته إلى يوسف بك – وكانت فيه حِدّة – فاستدعاه . فشرح له الموقف وأطلعه على الصكوك فلم يقتنع ، وأمر بسجنه ، وعلم الشيخ السادات بالأمر فركب إلى يوسف بك ودعاه لإطلاق سراحه فلم يسعه إلا التنفيذ(٢) .

٦ – حدثت جفوة بين الوالى حسن باشا من جهة ، وإبراهيم بك ومراد بك حاكمى مصر وأتباعهما من جهة ثانية فتودّد الباشا إلى العلماء وقابلهم بالإجلال والتعظيم وأعد لهم طعام الإفطار والسحور ، وخشى الشيخ العروسى من قيام الفتنة وأن تؤدى إلى تخريب بيوت العامة المحيطة ببيوت الأمراء من زعماء الفتنة وقال لحسن باشا : يامولانا رعية مصر قومٌ ضعاف وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الناس ، فقال له : لاتخشوا شيئا ، فإنّ أول ما أوصانى به السلطان أوصانى بالرعية وقال : إنها وديعة الله عندى ، وأنا استودعتك ما أودعنيه الله ، فدعا له العلماء بالخير ، وأشفق إبراهيم بك من أن ينضّم العلماء إلى الوالى وأن يقودوا ثورة شعبية ضده وضد مراد بك ، فذهب إلى الشيخ البكرى وهنأه بالعيد . ثم زار الشيخ العروسى والشيخ الدردير فهنأهما وتودّد إليهما وتصاغر فى نفسه جداً وأوصاهم بكف الرعية عن أمر يحدثونه أو قَوْمَةٍ أو حركة فى مثل هذا الوقت فإنه كان يخاف ذلك جداً ، لأنه كان موقنا أن زمام الموقف بيد علماء الأزهر ، لما يتمتعون به من مكانة سامية وتقدير كريم بين طوائف الشعب المصرى فى كل مكان(٣)

٧ – ذكر الجبرتى فى أحداث سنة

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٤ : ١٥٥ .

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٥ : ١٥٦ .

(٣) الجبرتى جـ ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

١١٩١ هـ أن يوسف بك الحاكم تدخل فى موضوع عقار موقوف على الأزهر . فكتب إليه الشيخ أحمد الدردير من كبار العلماء خطابا يطلب منه فيه عدم التدخل فى شئون الأزهر ، وأرسل إليه الخطاب مع عالمين من علماء الأزهر ، فنهرهما يوسف بك — وكانت فيه حماقة — وألقى بهما فى السجن ، وعلم الشيخ الدردير ، فأمر بإبطال الدروس بالأزهر وإغلاق المسجد ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وصعد الصغار إلى المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت ، وتجمع الناس حول الأزهر وبدأت نُذُرُ الثورة وبلغ الأمراء هذا الموقفُ فأرغموا يوسف بك على إطلاق سراح العالِمَيْن ، وخشى إسماعيل بك ثورة الشعب فأرسل إلى العلماء وترضاهم وتكفل بإجابة مطالبهم

٨ — حدث أن حسين بك شفت[1] — وكان طاغية جبارا — اقتحم هو وجنوده بيت الشيخ أحمد سالم شيخ دراويش البيومى ونهبوا ما فيه من الأثاث والمتاع وحلى النساء ، فثار أهل الحسينية وذهبوا إلى الشيخ الدردير ، فآنسهم وقال لهم : أنا معكم وأمر بإغلاق أبواب الأزهر وصعدت طائفة منهم إلى المنارات يصيحون ويدقون الطبول ، وأغلق التجار الحوانيت ، وتجمعت حشودٌ كثيرة حول الأزهر وأرسل الشيخ الدردير رسلا إلى سكان أحياء القاهرة وضواحيها فلبُّوا النداء ومعهم أسلحتهم وقال لهم الشيخ : اركبوا وأركب معكم لننهب بيوت المعتدين كما نهبوا بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، وقاد الشيخ هذه الحملة فخاف الأمراء عاقبة هذه الثورة وذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه وبالغوا فى استرضائه وقالوا له : «اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونحن نأتى بها من محل ماتكون » وتعهدوا للشيخ بالتزام العدل وتلوا الفاتحة ونفذوا وعدهم وانتهت الثورة[2] .

٩ — احتشد جمع كبير من الناس فى مولد السيد البدوى فى طندتا (طنطا) فأغار أعوان الكاشف (حاكم الإقليم) على بعض الأشراف وأخذوا جمالهم فذهبوا إلى الشيخ الدردير فأمر بعض أتباعه بالذهاب إلى الكاشف فأشفقوا من الذهاب إليه ، فركب الشيخ وتبعه جماعة كثيرة من العامة ، فلما وصل إلى خيمة الكاشف استدعاه ، فحضر إليه ، والشيخ راكب على بغلته ، فكلّمه ووبّخه فوعد برد الجمال وانصرف

(١) شفت معناها يهودى ويظهر أن المصريين أطلقوا عليه هذا اللقب لكراهتهم إياه

(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٣١٦ ، ٣١٧

الشيخ وتحمس بعض العامة فاعتدوا على الكاشف ، وحدث هرج ومرج ، وكان كاشف المنوفية حاضرا المولد فلما علم بالأمر حضر سريعا وأخذ كاشف الغربية معه وذهبا إلى الشيخ الدردير فاسترضياه ، ولما عاد الشيخ إلى القاهرة زاره إبراهيم بك الوالى واسترضاه وفعل مثل ذلك إبراهيم بك الكبير وكتخدا الجاويشية[1]

١٠ - غضب طاهر باشا الوالى على مصطفى أغا الوكيل . فلجأ إلى بيت الشيخ السادات فضَمَّهُ إليه فأرسل طاهر باشا فى طلبه ، فركب معه الشيخ السادات وذهبا إلى بيت الوالى فانتزع جماعة من الجنود مصطفى أغا وأخذوه إلى القلعة ماشيا على قدميه ، فغضب الشيخ السادات ودخل على طاهر باشا ثائرا فأطلعه الباشا على خطاب مرسل من محمد باشا - عدو الوالى - إلى مصطفى أغا ، واتهمه بأنه يتآمر مع أعدائه عليه ، فقال له السادات : إن هذا لا يؤاخذ به مصطفى أغا ، وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب صادرا منه إلى محمد باشا ، وهنا أمر طاهر باشا بالإمساك عن قتل مصطفى أغا ، واعتذر إلى الشيخ السادات وقام بزيارته متوددا إليه[2]

١١ - لما ولى حسين باشا الجزائرلى حكم مصر من قبل الخلافة العثمانية طرد أمراء المماليك من القاهرة واستباح أموالهم ، وأسر نساءهم وأولادهم ، فذهب إليه الشيخ السادات مع وفد من علماء الأزهر وقال له : أأتيت إلى مصر لإقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ؟ أم أتيت لبيع الحرائر وأمهات الأولاد وهتك الحريم ؟ فقال له الباشا : هؤلاء أرقاء بيت المال ، فقال له الشيخ : هذا لا يجوز ، ولم يقل به أحد ، فغضب الباشا وقال لكاتب الديوان : اكتب أسماء هؤلاء العلماء لأرفعها إلى السلطان ليعلم أنهم يعارضون أمره ، فقال له السيد محمود البنوفرى أحد العلماء : اكتب ما تريد بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا فوجم الباشا ونفذ ما أشار به العلماء ، ثم بلغه أن على بك الكبير قد أودع أمانة عند الشيخ شمس الدين ابن عارفين فطلبها الباشا منه فامتنع عن دفعها قائلا : إن صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بها ، ولن أسلمها مادام صاحبها على قيد الحياة ، وحاول الباشا انتزاعها منه ولكنه خشى العاقبة فأمسك وكان يردد قوله عن الشيخ السادات : لم أر فى جميع الممالك التى ولجتها من اجترأ على مخالفتى مثل

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٣١٨
(٢) الجبرتى جـ ٦ ص ٥٤

هذا الرجل فإنه أحرق قلبي ! !(١) .

١٢ – روى الجبرتي في حوادث سنة ١٢٠٩ هـ أن فلاحين من بلبيس وفدوا على شيخ الأزهر الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوي ، وشكوا إليه ظلم محمد بك الألفي وأعوانه واقتنع الشيخ بصدق شكواهم ، فنصح إبراهيم بك ومراد بك حاكمي مصر بردع الألفي بك عن ظلمه فلم يستجيبا لنصيحته ، فجمع علماء الأزهر وأمر بإغلاق المسجد وأرسل من ينادى بإغلاق الحوانيت ، وتجمع الناس وذهب معهم الشيخ الشرقاوي إلى بيت السادات وهو قريب من بيت إبراهيم بك فرآهم وأرسل إليهم أيوب بك يسألهم ماذا يريدون ؟ فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة أحكام الشرع وإبطال الحوادث والمكوس (الضرائب) التي ابتدعتموها فقال أيوب بك : لايمكن إجابة هذه المطالب كلها فإننا إن فعلنا ذلك ، ضاقت علينا المعايش والنفقات ، فقالوا له : ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الإكثار من النفقات ، وشراء المماليك ؟ والأمير لايكون أميرا إلا بالإعطاء لا بالأخذ ، وانتهى الموقف بعد أخذ ورد إلى نزول أمراء المماليك على حكم العلماء ، ووقعوا على وثيقة كتبها القاضي تعهدوا فيها بإبطال المظالم ومعظم المكوس وأن يكفُّوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، وأن يرسلوا صُرَّة الحرمين (ما وقف عليها من أموال) وأن يسيروا في الناس سيرة حسنة ووقع الباشا الوالي على هذا الوثيقة مع الأمراء وهذه الوثيقة يُشَبِّهها بعض الباحثين بوثيقة حقوق الإنسان(٢) .

١٣ – كان بطرس السادس بطريرك الأقباط شديدا على شعبه في تطبيق الشعائر المسيحية ، وكان ابن إيواظ كبير أمراء المماليك في هذا الوقت يأخذ على البطريرك شدته وصرامته ، وحدث بينهما خلاف انضم فيه إلى ابن إيواظ عدد كبير من ذوى الرأى والمكانة ، ولكن ابن إيواظ رأى قبل أن يتصرف برأى في الموضوع أن يتقوى برأى علماء المسلمين ، فاستشارهم فأفتوا بحق بطرس السادس فيما يفعله فنزل ابن إيواظ على مشورتهم واستصدر من الوالي أمرا بتمكين البطريرك مما يريد ، وألا يتعرض له أحد بعد ذلك(٣) .

١٤ – ذكر الجبرتي في أحداث شهر صفر سنة ١٢١٩ هـ أنه حدثت جفوة بين

(١) الجبرتي جـ ٧ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٢) الجبرتي جـ ٤ ص ٢٥٥ : ٢٥٧ .

(٣) الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك جـ٦ ص ٨٥

الباشا الوالى التركى والمماليك ، وخرج المماليك من القاهرة فأرسل الباشا أكبر أتباعه إلى بيت السيدة نفيسة زوجة مراد بك كبير المماليك ، فاستدعاها لمقابلة الباشا ، وقبض على بعض زوجات المماليك ، واتهم السيدة نفيسة بمساعدة الثائرين على الوالى ، فأنكرت وقالت له : أنا طول ماعشت فى مصر وقدرى معروف عند الأكابر وعند السلطان ورجال الدولة ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس الذين هم أعداء الدين فما رأينا منهم غير التكريم . . . وأما أنت فلا يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم ، فاعتذر إليها وأمرها بالنزول فى بيت الشيخ السحيمى . . وذاع الخبر فركب نقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير إلى الباشا وتحدثوا معه فى شأنها فقال لهم : لابأس عليها ، وقد أنزلتها فى بيت الشيخ السحيمى مكرمة فقالوا له : نريد بيان الذنب الذى ارتكبته ، فقال : إنها سعت مع بعض كبار العسكر لاستمالتهم إلى المماليك وطالت المناقشة بين الوالى وبينهم ، فقال له الشيخ الأمير هذا أمر غير مناسب وتترتب عليه المفاسد ، وبعد ذلك يتجه إلينا اللوم ، وقام غاضبا يريد الانصراف فاسترضاه الحاضرون وأطلق الباشا سراح السيدة على أن تقيم ببيت الشيخ السادات[1]

١٥ - كان بعض الولاة العثمانيين يشرف بالتلمذ لكبار علماء الأزهر ويحرص على أن يحصل على إجازتهم العلمية له بما تلقاه عنهم ، وقد فعل هذا الوالى عبد الله باشا الكبورلى الذى تتلمذ للشيخ أحمد بن عيسى العماوى المالكى وقرأ عليه صحيح البخارى وصحيح مسلم والموطأ وسنن أبى داود وابن ماجه والنسائى والترمذى والمواهب ، قرأ بعضها دراية وبعضها رواية وباقيها إجازة وألفية المصطلح[2] وقد روى الجبرتى هذه الإجازة كاملة[3]

وتتلمذ أيضا للإمام الشيخ الشبراوى واستجازه وقال الإمام الشبراوى فى إجازته له : «ولما قدر المولى الاجتماع بأفضل وزراء الدولة عبد الله باشا . . . حين حل بالديار المصرية ، وقد استخرت الله تعالى وأجزته بما قرأه علىّ من ذلك وسمعه منى وبجميع مايجوز لى وعنى روايته مما قرأته على الأشياخ أو سمعته منهم أو رويته عنهم بإجازة خاصة أو عامة بشرطه المقيد عند أهل الأثر»[4]

١٦ - وشبيه بهذا الموقف السابق

(١) الجبرتى جـ ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣

(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٣٠

(٣) الجبرتى جـ ٢ ص ٦٤ ، ٦٥

(٤) راجع ترجمتنا رقم ١١ للشيخ الشبراوى فى كتاب مشيخة الأزهر

ما رواه الجبرتي في وفيات سنة ١٢٢٩ هـ من ذكر العلامة «الفقيه النبيه الشيخ حسين المعروف بابن الكاشف الدمياطي ويعرف بالرشيدي . فقد تعلق بالعلم وانخلع من الأمرية (الإمارة) ومن الجندية ، وحضر على أشياخ العصر ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوي وانتقل من مذهب الحنفية (مذهب الدولة العثمانية) إلى مذهب الشافعية لملازمته لهم في المعقول والمنقول . وتلقى عن السيد مرتضى أسانيد الحديث والمسلسلات وأكب على الاشتغال بالأزهر وتزيا بزي الفقهاء فلبس العمامة والفرجية وتصدر دروس الفقه والمعقول . . . ولما وصل محمد باشا خسروي والي مصر إلى القاهرة جعله إماما له وصلى خلفه الأوقات . . . واستمر على القراءة والإقراء حتى توفي سنة ١٢٢٩ هـ»[1]

١٧ - وممن سلك هذه السبيل الأمير سليمان بن خشداشين كتخدا إبراهيم القازدغلي حيث «رغب عن الإمارة ورضي بحاله وقنع بالكفاف ورغب في معاشرة العلماء والصلحاء وفي الانجماع (الانعزال) عن أبناء جنسه والتداخل في شئونهم . وكان يأتي في كل يوم إلى الجامع الأزهر ويحضر دروس العلماء ويستفيد من فوائدهم ، ولازم دروس الشيخ أحمد السليماني في الفقه الحنفي إلى أن مات فتقيد بحضور تلميذه الشيخ أحمد الغزي كذلك ، واقترن في حضوره بالشيخ عبد الرحمن العريشي وكان إذ ذاك في مقتبل الشبيبة مجردا عن العلائق ، فكان يعيد معه الدروس واتحد به لما رآه فيه من النجابة فجذبه إلى داره وكساه وواساه وظل يطالع معه الفقه ويعيد معه الدروس ليلا وزوجه وأغدق عليه[2] . . .

وقريب من هذا حرص عباس الأول حاكم مصر على حضور دروس الإمام الشيخ الباجوري . . .

١٨ - كان علماء الأزهر مشهورين بأنهم لا يسكتون عن منكر سواء ارتكبه أمراء المماليك أم الحكام العثمانيون ومن ذلك ما كتبه الشيخ أبو الأنوار إلى الأمير عثمان كتخدا الدولة : «حسبنا الله ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، وما هي من الظالمين ببعيد :

وظننت أنك عدتي أسطو بها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي
فرميت منك بغير ما أملته والمرء يشرق بالزلال البارد

أما بعد - فقد نقضت عهدي وتركت

---

(١) الجبرتي جـ ٧ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ .

(٢) الجبرتي جـ ٥ ص ٥٥ - ٥٦ .

مودة آل بيت جدى ، وأطعت الظلمة السفلة ، وامتثلت أمر النقلة ، فأعنتهم على البغي والفجور ، وسارعت فى تنجيز مرامهم القاصد على الفور . . . من إلزامكم الكبير والصغير ، والغنى والفقير ، إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى ، حتى أنزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ، فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب ، فبذلك كان عسكركم مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا . . . وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ، ثم فررتم فرار الفيران من السنّور ، وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور[1] فواغوثاه ! ! واغوثاه ! ! أغثنا ياغياث المستغيثين ، واحكم بعدلك يا أحكم الحاكمين ، وانصرنا وانتصر لنا فإننا عبيدك الضعفاء المظلومين ، ياأرحم الراحمين[2] .

١٩ - على الرغم من جبروت الفرنسيين وطغيانهم ، كانوا يتقربون إلى العلماء ويحرصون على مودتهم تسكينا لثورة الشعب لأنهم يعلمون انقياده لهم ، واستعانته بهم على تقويم الحكم الشرعى للعثمانيين والمماليك إذا طغوا وتجبروا ، وكانوا يخشون تأثير العلماء فى الشعب ضد الفرنسيين الغزاة ، وقد تظاهر نابليون أمام العلماء بالإسلام وعقد لهم ديوانا يباشرون فيه الحكم بمعونة الفرنسيين ، وحدث فى حفل تكريمى أقامه نابليون للعلماء أن نهض من المجلس ثم عاد إليه وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان أبيض وكحلى وأحمر فوضع واحدا منها على كتف الشيخ الإمام الشرقاوى مبالغة فى الحفاوة به فقذف به الشيخ الشرقاوى إلى الأرض غاضبا ، فقال الترجمان إنكم - معشر العلماء صرتم أحبابا لصارى عسكر (قائد الجيش) وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم ، فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين[3] .

٢٠ - استطاع العلماء أن يقودوا الشعب وأن يعزلوا الوالى العثمانى وأن يرغموا الخليفة العثمانى على استبدال غيره به وذلك كما حدث فى ثورة الشعب بقيادتهم ضد

---

(١) يشير إلى تخاذلهم أمام الفرنسيين ، السنور : القط

(٢) الجبرتى جـ ٥ ص ١٢٦ - ١٢٧

(٣) مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ص ٥٩ ، ٦٠

الوالى على باشا الخازندار ، وثورتهم ضد الوالى خورشيد باشا ، وقد استطاع الشعب بقيادتهم إرغام الخليفة العثمانى على تولية محمد على باشا حكم مصر[١]

وكما استطاع الأزهر أن يقود الثورة الشعبية ضد المماليك والأتراك قاد أيضا هذه الثورات ضد الحملة الإنكليزية على رشيد وكان له الدور الرئيس فى قيادة الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩[٢]

ولايزال علماء الأزهر موضع الإجلال والتكريم لدى الشعب المصرى وحكامه إلى الآن ، وكثيرون منهم يحتلون مكان الصدارة فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون وسائر وسائل الإعلام

٢٢ – ومن العلماء البارزين الذين أعطونا مثلا رائعا فى الاحتفاظ بكرامة العلماء الإمام الشيخ إبراهيم الباجورى الذى ولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٦٣ هـ وأصر على القيام بالتدريس مع إدارته لشئون الأزهر وكان الحاكم عباس باشا الأول يكثر من حضور دروسه بالأزهر فلايقوم له وإنما كان يعد له كرسيا من الجريد يجلس عليه للاستماع إلى الدرس ، وبعد انتهاء الدروس كان الحاكم يخرج وهو ينثر النقود على الحاضرين[٣]

٢٣ – استطاع الإمام الشيخ محمد المهدى العباسى أن يقف موقفا حازما فى وجه عباس الأول حينما حاول الاستيلاء على جميع مايملكه أفراد الأسرة الحاكمة ، وكانت حجته فى هذا أن جده محمد على مؤسس الأسرة وفد إلى مصر لايملك شيئا وأن ماخلفه لأسرته من أموال طائلة هو ملك للأمة يجب رده إليها ووضعه بيد الحاكم لينفقه عليها – وهى كلمة حق يراد بها باطل – وكان هدفه من ذلك اغتصاب أموالهم واستيلاءه وحده عليها ليضمها إلى ماله الخاص وحاول حمل الإمام على إصدار فتوى تجيز له ذلك فرفض فهدده بالعقاب الرادع فلم يأبه لتهديده ، فاستعمل عباس باشا معه ألوانا من الإرهاب ولكنه أصر على رفضه وفوت عليه ما كان يحلم به من غصب هذه الأموال (راجع ترجمة الإمام محمد المهدى العباسى فى كتابنا مشيخة الأزهر) .

٢٤ – فى سنة ١٢٨٠هـ ١٨٦٣م زار

---

(١) سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبى حديد طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ ص ١٢٨ : ١٥٢ ، والتاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى جـ ٥ ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .

(٢) يلاحظ أن عرابى باشا تعلم بالأزهر وكذلك سعد زغلول

(٣) راجع ترجمة الإمام الباجورى رقم ١٩ فى كتابنا مشيخة الأزهر

السلطان عبد العزيز - الخليفة العثمانى - مدينة القاهرة ، واختار الخديوى إسماعيل طائفة من صفوة العلماء لمقابلته ، وكان فيهم الشيخ حسن العدوى ، وطلب من قاضى القضاة - وكان هذا المنصب مقصورا على علماء الأتراك - طلب منه أن يعلم هؤلاء العلماء التقاليد المرعية فى مقابلة السلطان فأخبرهم أن السلطان سيقف على منصة عالية فى حجرة خاصة ، وأن على العلماء إذا ماوصلوا إلى باب الحجرة أن ينحنوا انحناء عظيما ، ثم يكرروا الانحناء والتحية والتسليم إلى أن يرد عليهم السلطان التحية ، ثم يتراجعون متقهقرين إلى الوراء إلى أن يصلوا إلى باب الحجرة ، فينحنوا مرة أخرى ، وبعد هذا ينصرفون وعند المقابلة كان الخديوى إسماعيل واقفا خلف السلطان ، فدخل العلماء كما علمهم قاضى القضاة إلا الشيخ حسن العدوى ، وكان عالما شجاعا لايخاف إلا الله فدخل منتصبا وأقبل على السلطان ، وتجاوز الحد المتفق على عدم تجاوزه ، وقال للسلطان : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وكان الخديوى إسماعيل قد اصفر لونه واضطرب اضطرابا شديدا - ولكن السلطان رد على الشيخ تحيته ، وانحنى له انحناء خفيفا ، فوعظه الشيخ ، وذكره بما يجب على السلطان لرعيته وبين له عظم المسئولية الملقاة على عاتقه وأن ثوابه عند الله سيكون بقدر تلك المسئولية ، وحسن قيامه بها ، وأن عقابه عنده سيكون بقدر تقصيره فيها ، وخرج الشيخ وقد ولى ظهره للسلطان ، وقال لإخوانه أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين ، وأما أنتم فقابلتم صنما ، وعبدتم وثنا ، وبالغ الخديوى إسماعيل فى الاعتذار للسلطان وادعى أن الشيخ من كبار العلماء ، ولكنه تعتريه جذبة فى بعض الأحيان فقال له السلطان : كلا إنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى لمقابلته وأمر له بألف جنيه وبخلعة سنية[1]

٢٥ - لما قامت ثورة عرابى وانحاز للإنكليز ، أصدر علماء الأزهر فتوى بخلع الخديوى لأنه مرق من الدين ، ولما فشلت الثورة تم القبض على زعمائها ، وكان فيمن قبض عليهم الشيخ حسن العدوى ، وقدم للمحاكمة فقال له رئيس المحكمة العسكرية : هل أفتيت بعزل الخديوى؟ فقال له : لم أفت به ومع هذا فإن جئتمونى الآن بالفتوى فإنى أوقعها ، وما فى وسعكم أن تنكروا أن الخديوى توفيق مستحق للعزل ، وقد خرج على الدين وعلى الوطن ، وقد حكم على الشيخ العدوى

(١) الأزهر فى ألف عام جـ ٣ ص ٨٧ ، ٨٨

بتجريده من جميع رتبه وامتيازاته[١]

٢٦ – فى أواخر سنة ١٣١٦ هـ حدث خلاف كبير فى شأن إصلاح المحاكم الشرعية ، وعرضت الحكومة على مجلس شورى القوانين اقتراحا بندب قاضيين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية لمشاركة قضاة المحكمة الشرعية العليا فى إصدار الأحكام ، ورأى الإمام الشيخ حسونة النواوى فى هذا اعتداء على المحاكم الشرعية التى تطبق شريعة الله وليست بحاجة إلى الاستعانة برجال القانون المدنى الذى هو من وضع البشر ، ووقف الإمام فى مجلس الشورى يرد على رئيس النظار فى عنف ، واحتد الجدال وخرج الإمام من المجلس مغضبا ، وتبعه فى الخروج القاضى التركى ، وكانت النتيجة أن خذل المجلس الحكومة ورفض المشروع[٢]

٢٧ – اختار الإمام الشيخ سليم البشرى عالماً من العلماء الممتازين – هو الشيخ أحمد المنصورى – فعينه شيخا لأحد الأروقة ، ولم يكن الحاكم راضيا عن هذا العالم ، فأوعز إلى الإمام بالعدول عن تعيينه ، فرفض الإمام الرجوع عن قراره ، وقال : «إن كان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلوه ، وإن كان الأمر لى دونكم فهذا هو الذى اخترته ولن أحيد عنه . وانتهز الدساسون الفرصة فأوغروا صدر الحاكم عليه ، فأرسل إليه من يقول له إن تشبثك برأيك قد يضرك فى منصبك فقال له الشيخ الإمام : إن رأى لى ، ومنصبى لهم ، ولن أضحى لهم بما يدوم فى سبيل مايزول »[٣]

٢٨ – فى أواخر سنى الحرب العالمية الثانية ، قامت الحكومة البريطانية بضغط شديد على الحكومة المصرية لتشترك فى الحرب ، وخطب الإمام المراغى فى مسجد الرفاعى فانتقد هذا الطلب وقال فى خطبته : «نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل» ، وغضب الإنجليز غضبا شديدا – وكانوا يسيطرون على مصر كل السيطرة – وكان الموقف بالنسبة لهم موقف حياة أو موت ، وأحدثت خطبة الإمام ضجة كبرى وطلب الإنجليز من الحكومة المصرية بيانا عن خطبة الإمام ، فاتصل رئيس الوزراء بالإمام وخاطبه بلهجة مشوبة بما يشم منه رائحة التهديد فغضب الإمام غضبا شديدا ، وقال

---

(١) مذكرات عرابى جـ ٢ ص ١٢١ الثورة العرابية للرافعى ص ٤٩٤

(٢) راجع ترجمة الإمام الشيخ حسونة رقم ٢٣ فى هذا الكتاب

(٣) راجع ترجمة الإمام الشيخ سليم البشرى رقم ٢٥ فى كتابنا مشيخة الأزهر

له : أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟ وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة ، ولو شئت لارتقيت منبر مسجد الحسين وأثرت عليك الرأى العام ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب ، فاعتذر إليه رئيس الوزراء ، ورأى الإنجليز أنه من الخير لهم عدم إثارة هذا الموضوع ، لأنهم يعلمون منزلة شيخ الأزهر فى العالم الإسلامى كله لا فى مصر وحدها[1]

٢٩ - لما حاولت الحكومة التدخل فى شئون الأزهر سنة ١٩٤٦ وقف فى وجهها الإمام الشيخ عبد المجيد سليم بقوة وصلابة وسانده بعض كبار العلماء ، فهدده رئيس الديوان ، وأنذره بغضب الملك وما يتعرض له بسبب هذا الغضب ، فقال له هل تستطيعون الحيلولة بينى وبين المسجد ؟ فقال له لا ، فأجابه بقوله مادمت أتردد بين بيتى والمسجد فلا خطر على وقدم استقالته ولما حاولت الحكومة ضغط ميزانية الأزهر غضب الإمام وقال عبارته المشهورة تقتير هنا وإسراف هناك ، فنقل أعداؤه للملك فاروق أنه يقصد بالأسراف ما يبدده الملك على مبادلة حينذاك فى جزيرة كابرى ، وما تنفقه الدولة فى إرضاء نزواته ، وفى هذا الجو الخانق أعفى الإمام من منصبه سنة ١٩٥١ م ولكن فضل الإمام وفضائله وعلمه الغزير وخلقه الكريم حمل الملك والحكومة حملا على إعادته إلى منصبه فى العاشر من فبراير سنة ١٩٥٢[2]

٣٠ - استطاع الإمام الدكتور عبدالحليم محمود أن يقف صامدا فى وجه الزحف الشيوعى الذى تسرب إلى بعض الصحف والمجلات ، وتغلغل فى بعض الكليات وبين عمال بعض الشركات . وكان الموقف الدولى حينئذ يقتضى مجاملة الاتحاد السوفيتى ، ولكن الإمام الدكتور عبد الحليم محمود واجه الزحف الشيوعى فى قوة وعزم وشن على مبادئ الشيوعية حربا عنيفة كشفت أستارها وأوضحت زيفها وأظهرت وسائلها الملتوية فى تدمير العقائد الدينية وتحطيم المشاعر الوطنية وإشعال نيران الحقد والضغينة بين الطبقات فعل هذا دون أن يخشى فى الله لومة اللائمين وهم كثيرون .

كما نادى بأعلى صوته لأول مرة مطالبا رد أوقاف الأزهر إليه ، وأفتى بإثم من اغتصبها أو وافق على هذا الاغتصاب .

وهو أول صوت يرتفع فى قوة وصلابة

---

(١) راجع ترجمة الإمام رقم ٢٩ من كتابنا مشيخة الأزهر

(٢) راجع ترجمة الإمام رقم ٣٣ من كتابنا مشيخة الأزهر .

مطالبا بتطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا كاملا ، وبإلغاء كليات الحقوق لأنها من صنع الاستعمار لصرف المسلمين عن تطبيق شريعة الله .

وكان قد ولى مشيخة الأزهر ، وهو بدون لائحة تنفيذية توضح مدى سلطة شيخ الأزهر . وماطلت الحكومة بضعة عشر عاما فى إصدار هذه اللائحة ، وأحس الإمام محاولات تدبر للحد من استقلال الأزهر فاستقال ، وأصر على الاستقالة حتى صدرت اللائحة التنفيذية التى أعادت للأزهر استقلاله وللمنصب كرامته ، وللعلماء مكانتهم السامية الجديرة برجال الدين .

* * *

ومواقف علماء الأزهر الكريمة فى الذب عن حرمة الإسلام وكرامة المسلمين يحتاج إلى كتاب ضخم ، أو عدة كتب ، سواء كان هؤلاء العلماء قد ولوا مشيخة الأزهر أم فاتهم ، ونرجو أن يوفقنا الله أو يوفق سوانا لمولاة الكتابة فى هذا الموضوع ؟

على عبد العظيم

حسن الجواب

قيل للعباس بن عبد المطلب – رضى الله عنه : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ . قال هو أكبر منى وأنا ولدت قبله ودخل سعيد بن مرة الكندى على معاوية رضى الله عنه – فقال له أنت سعيد ؟ قال : أمير المؤمنين سعيد ؟ وأنا ابن مرة ، ودخل السيد بن أنس الأزدى على المأمون فقال أنت السيد ؟ فقال أنت السيد يا أمير المؤمنين وأنا ابن أنس ، وقال الحجاج للمهلب أنا أطول أم أنت ؟ قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة منه .



الأستاذ على عبد العظيم

تخرج من الدراسات العليا بكلية دار العلوم ، وشغل كثيرا من الأعمال التربوية والإدارية والفنية منها : مدير قسم المخطوطات والقسم الأدبى بدار الكتب ومدير الإدارة الفنية بالمؤتمر الإسلامى ومدير الوثائق والمكتبات بالأوقاف وعمل أستاذاً بالمعاهد العليا والكليات فى مصر والبلاد العربية والغربية وحضر كثيرا من المؤتمرات الثقافية بالخارج ، ويعمل الآن خبيرا فنيا بمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر.

وصلاته وثيقة بالأزهر وعلمائه منذ نشأته ويشترك فى كثير من لجان المجمع ووزارة الأوقاف ووزارة الثقافة وله مؤلفات ودراسات عديدة نشرتها له هيئات رسمية ونال عن بعضها الجائزة الأولى ، ومنها ماتقررت دراسته بالجامعات العربية ، وتنشر المجلات المصرية والعربية مقالاته وأبحاثه بصفة دورية وله نشاط كبير فيا يلقيه من محاضرات إسلامية عديدة فى الأندية والجمعيات والكليات الجامعية

وأسهم فى كثير من المؤتمرات الأدبية والإسلامية فى مصر والخارج وأقصى آماله أن يلقى الله مجاهدا تحت راية القرآن الكريم .

أدب القمّة وأدب القاع

الأستاذ/ السيد حسن قرون

ذكر (ابن عبد ربه) فى كتابه «العقد الفريد» قول بعض الأسلاف[1] : «وددت أنّ لنا مع أسلافنا كرم أخلاق آبائنا فى الجاهلية» ، ألا ترى أن عنترة الفوارس جاهلى لا دين له ، والحسن بن هانئ إسلامى له دين . فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه فقال عنترة فى ذلك :

وأغضُّ طرفى إنْ بدتْ لى جارتى
حتّى يُوارِى جارتى مأواها

وقال الحسن بن هانئ (أبو نواس) مع إسلامه :

كان الشبابُ مطيّةَ الجهْلِ
ومُحسِّنَ الضّحِكاتِ والهَزْلِ
والباعثى والنّاسُ قدْ رقدوا
حتّى أتيْتُ حليلةَ البَعْلِ

وأبو نواس فى هذا الشعر يَبْعُدُ عن مكارم الأخلاق التى تحلّى بها عنترة نحو جارته . فشتّان بين مَنْ يدِبُّ إلى حليلة الزوج ليلا والناس قد رقدوا وبين من يغمض عينه حين تظهر جارته ولا يفتحها إلا بعد أن تتوارى عنه ، وتختفى منه ، وما يقوله عنترة يرسم مبدأ نبيلا ، ونموذجا جليلا يدعو إلى الاقتداء به ، والسير على منواله ، ولك أن تضعه نصب أعين الناشئة فيتخذوه نبراسا لحياتهم الفاضلة . أما ما يقوله أبو نواس فيرسم صورة للمجون فى أحط مساويه ، وللمجون خلائق لا تحصى سرعان ما يروقهم ويشوقهم هذا القول الماجن الفاتن ، ذلك أن الشعر وهو نوع من الأدب له تأثيره على النفوس ووقعه على القلوب ، فلابد أن ننأى به عن الإغواء حتى لا يكون داعية إلى الفساد وانحلال الأخلاق ، وتحسين الرذائل ، ومن هنا رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد وقف بالمرصاد لنوعين من الشعر حاربهما حربا لا هوادة فيها : الشعر الذى يتغنّى بالمرأة ومجالس الأنس ، والشعر الذى يهتف بالعَصَبيّة التى جعلها النبى ﷺ فى فتح مكة تحت قدميه ، فالأول يكسر باب

(١) العقد الفريد جـ ٦ ص ٣ تحقيق سعيد العريان

العفة ويذهب بالحياء ، وينتهك الحرمات ويشغل النفوس عن معالى الأمور ، ويتزع بالشباب إلى الجنس ، فلا يطمحون إلى مجد ، ولا ينهضون بعمل يفيدهم ويفيد مجتمعهم ، ولا يشاركون فى البناء ، ولا يحملون السلاح إذا دعا داعى الجهاد . والنوع الثانى يضرب الأمة فى وحدتها ، لأنه يثير العصبية المقيتة ، ويمزق شمل الجماعة ، وهو الداء العياء الذى يعجز عن طبه نطس الأطباء فإ إنْ يحل فى أرض حتى تشتعل نارا ، وتهاوى دمارا ، فلما عرف عمر الخليفة أن أحد أقربائه — وقد ولاه مقاطعة بالعراق — أنه يتغنى بشعره فى الخمر والنساء عزله واستدعاه فلما وافاه اعتذر إليه بأنه وجد فضلا من قول فأذاعه . وأنه لم يأت ما تغنى به ، فلم يقبل عمر عذره وحلف بالله لا يوليه عملا مادام أمير المؤمنين . وصنع ذلك الصنيع فى الشعر الذى يفرق بين أبناء الأمة بإحياء العصبية القبلية ، عاقب الحطيئة وألقاه فى السجن لمدحه الذى فضل فيه فريقا على فريق وهما ينتميان إلى قبيلة واحدة . . مما كاد أن يشعل الحرب بين أبناء العمومة ، ولأنه أيد « الردة » بنزعة العصبية . . ولم يقبل من خالد بن الوليد أن يسمع الشعر ويثيب عليه بآلاف الدراهم ، وأكبر الظن أن عمر كان يصدر رأيه فى ضوء قوله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) فالغاوون من الشعراء بنوعيها اللذين أشرت إليهما يقف لها عمر بالمرصاد كما قدمت لأنهما يقولان باطلا من القول وزورا ، ويطيرون وراء الأوهام والخيالات ، ويجعلون الباطل حقا ، ويوسوسون فى الصدور كإخوانهم الشياطين . أما من استثناهم القرآن وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذادوا عن الإسلام بلسانهم كما ذادوا عنه بسيوفهم ورماحهم فهم ناجون من منقلب أعدّ للظالمين ، ومن هنا لم ينكر عمر ما قيل من الشعر ذبًّا عن الإسلام ، وردًّا على شعراء الكفر ، وتنويها بفضل رسول الله الذى جاء بالنور للقضاء على الديجور ، وقد كان عمر يتغنى بما يمدح به الرسول ولا سيما إذا كان على سفر وطاب السرى مثل الأبيات التى أولها :

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ

وقد كثر فى عهده شعرُ الجهاد حين اصطدام المسلمين بالروم والفرس ، فكان

يسمعه ويرويه ، وكانت الجزيرة العربية تأتيها أنباء الانتصارات بالشعر أكثر مما تأتيها بالرسائل بل كان الشعر بلاغات حربية ، معدنه الصدق ، وفحواه البطولة الخارقة ، انظر إلى قيس بن مكشوح المرادى وقد قتل قائد الفرس (رستم) فى المعركة يقول :

ولما أن رأيت الخيل جالت
قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعا
بسيف لا أفلَّ ولا كهام

هذا هو الشعر الذى غطى الجزيرة العربية أيام عمر حيث الفتوحات العظيمة .. حتى رثاء الشهداء كانت فيه العزة والبذل والسخاء والبهجة بالاستشهاد ، قوة وفتوة وبطولة وفن يؤدى ذلك فى مثالية رائعة نائية عن بريق الذهب وبهيج المزارع ، ولكن الذين جاءوا بعد عمر أخذوا ينظرون إلى الوراء ليقولوا مايدور بأنفسهم ، وفى بادئ الأمر كان هذا النوع فلتات تروى على حذر ، ثم أخذ التيار يعلو حتى صار صراخا ينكره أهل التقى وذوو الألباب والنهى ، ويستمع إليه من غرته مباهج الدنيا ، ورأى النصر حليف العرب لا يسبقهم ولا يتأخر عنهم ، فرجعوا إلى الفخر الظالم ، واللهو الآثم ، والجدال فيما لا يستحق الجدال حتى كأنهم أعداء أنفسهم ولو استمسكوا بالعروة الوثقى ، والنهج الأقوم واتبعوا ما أنزل الله وما بينه رسوله ، وسلكوا بالخلافة مبدأها الأول وهو الشورى والانتخاب ولم تعمل فيهم روح القبيلة عملها لجاءت الأيام والسنون بتطويرها ، فإذا هى سياج ومنعة وانطلاق إلى آفاق بعيدة ، ولكانوا نموذجا بشريا لحياة العدالة والحق والمساواة وحب الخير ، ولدخل الناس فى دين الله أفواجاً بذلك السلوك الحميد الذى تجلى منهم فى معاملة الشعوب التى أظلها الإسلام ، ولكن النزاع حول الخلافة والرياسة استهلك ما دعا إليه الدين ، وما يعتز به الخُلُق المتين .

لقد رأينا العصر العباسى — وهو قريب من العهد الأول — يموج بطبقات من أهل المجون الخارجين على تعاليم الدين لا غضبة مضرية أو يمنية على من يتغنى بالخمر والنساء ، ولا زجر لمن يتهاجى بسب أصحاب رسول الله ﷺ بحجة التشيع للعلويين أو التشيع للعباسيين ، وأهدرت كرامة العلماء من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين (أصحاب التوحيد) وصار العبث برواية الحديث يجد مناخا فسيحا له ، ويسمعون ولا ينكرون ، ويتناقلون ما يقال كأنهم أخذوا على الله عهدا ألا ينالهم بسوء ، وقد غفر لهم ما تقدم من

ذنبهم وما تأخر ، وكأن القضاء على بنى أمية برهان الغفران . قالوا : أقبل أبو نواس على مجلس (عبد الواحد بن زياد) بالبصرة وقد كثر عليه أصحاب الحديث ليسألوا عنها ، فقال لهم : ليسأل كل واحد منكم عن ثلاثة أحاديث ولمض ، ففعل الناس ذلك حتى انتهى إلى أبى نواس فقال : يا غلام ، سل أنت فقعد بين يديه . وقال : هاك الحديث (جعل نفسه محدثا راويا) فقال الشيخ : هات : فأنشد :

ولقدْ كُنّا روينا عن
سعيدٍ عن قَتَادَهْ
عن زُرَارَةَ بنِ أوْفَى
أنَّ سَعْدَ بْنَ عُبَادَهْ

قال . . . وهنا ذكر أشياء يعف القلم عن تسطيرها ، ولا يقبلها عصرنا هذا – مع أنه لا يخلو من العبث – على أنى أذكر ما ختم به حديثه ، أو قل شعره ، وهو استمرار للرواية عن سعد بن عبادة المفترى عليه . قال :

إنَّمَا الذَّنْبُ ثَلاثٌ
لَيسَ فِيهِنَّ زِيادَهْ
فَحَبِيبٌ ومُحِبٌّ
ثُمَّ ثَلِّثْ بِالقِيادَهْ
أتُرَى ذاكَ صَوَاباً
تَبَعٌ مِنْهُ سَدَادَهْ ؟

قَدْ رَوَى ذَاكَ هِشَامٌ
عَنْ أبَانٍ عَنْ جُنَادَهْ

فقال له عبد الواحد المحدث : قم ، عليك لعنة الله ، والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك ، فقام أبو نواس وقال : والله لا أتيت مجلسك وأنت ترد الصحيح من الأحاديث . وأنا أعتقد أن هذا الشعر الذى عنى به الرواة ، وجمعه (ابن منظور المصرى) فى كتاب « أخبار أبى نواس » صادف أسماعا تتلقف وأقلاما تكتب ، وعشاقاً لَهُ يتناقلونه ويتفكهون به ، ولا يدور فى خلدهم أنه يضعضع من مقدساتهم ، ويحطم معنوياتهم ، ويميت الغيرة والنخوة فى قلوبهم ، فلا يألون خلاعة ، ولا يغضبون لعبث ، وفى هذا إضعافٌ للدولة والمجتمع من حيث لا يشعرون ، ثم هو محسوب فى صحائف أعمالهم « وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم ؟ »

والأنكى من ذلك أن تطاوعهم نفوسهم فيكذبوا على رسول الله ، ويصدقوا الكذب : من ذلك ما جرى على رءوس الأشهاد فى يوم مجموع له الناس . أراد أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى البيعة بولاية العهد لابنه (محمد المهدى) وكان ابنه جعفر يعترض عليه فى ذلك ، فأمر

بإحضار الناس فحضروا وقامت الخطباء فتكلمت ، وقالت الشعراء فأكثرت فى وصف المهدى وفضائله ، وفيهم (مطيع ابن إياس) الشاعر ، فقام وقال للمنصور : يا أمير المؤمنين حدثنا فلان عن فلان أن النبى ﷺ قال : « المهدى منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما ملئت جورا » والمهدى اسمه محمد والمنصور واسمه عبد الله ، ويستشهد مطيع بأخى الخليفة قائلاً : وهذا العباس بن محمد أخوك يشهد على ذلك . ثم أقبل على العباس . فقال : أنشدك الله ، هل سمعت هذا ؟ قال العباس : نعم (مخافة من المنصور) ، فأمر المنصور بالبيعة للمهدى . ولما انقضى المجلس قال العباس بن محمد لمن يأنس به : أرأيتم هذا الزنديق ؟ لم نرض أن يكذب على الله عز وجل ورسوله ﷺ حتى استشهدنى على كذبه ، فشهدت له خوفا ، وشهد كل من حضر علىّ بأنى كاذب [1] .

إن الحاضرين وعلى رأسهم أبو جعفر الخليفة يعلمون مجون مطيع بن إياس ، وأنه ليس من رواة الحديث ولا عدالة فيه ، فكيف أصغوا إلى هرائه ، وكيف قبل وعمل به ؟ وموقف العباس بن محمد لا يحمد عليه وهو من أذكياء بنى العباس ورجالاتهم . ألا يعلم حديث الرسول : « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ؟ وإذا كان أبناء بنى العباس بن عبد المطلب يقبلون هذا الكذب الصراح فكيف يكون غيرهم ؟ إنها السياسة والرياسة والتعصب للأسرة أو للولد ، وهذا ما كان يخشاه عمر .

ما أثر هذا فى الرعية أو فى الشعب كما نقول اليوم ؟ إن الناس على دين ملوكهم رأوا الغاية تبرر الوسيلة لدى خليفتهم ، فما عليهم أن يفعلوا مثل ما فعل ؟ وقد سبق أبا جعفر معاوية بن أبى سفيان استمع إلى الخطباء والشعراء فى وصف يزيد ابنه وفضائله وقال لم يبق إلا أبناؤنا وأبناؤهم وأبناؤنا إلينا أحب فليكن يزيد ولى العهد ، ولم يستخدم وثيقة دينية مثل أبى جعفر فيزور حديثا على رءوس الأشهاد ، ومن الحب ما قتل ، والحب هنا لا يقتل فردا وإنما يقتل أمة وقديماً قالوا : الهوى إله معبود .

سقت هذا كله ، وفى كتب التاريخ والتراث أكثر منه لأبين أن الأدب شعره ونثره ما لم يتخذ الصراط المستقيم مهمته ووظيفته انتصع وفقد رسالته ، وصار معولا هدّاماً فى كيان الأمة .

والأمة الناهضة لا تقبل الأدب

---

(١) الأغانى — أخبار مطيع بن إياس

الداعر ، ولا الخيال الكاذب ، ولا السفسطة الفارغة ، لأن البناء الجديد يستدعى جداً لا يقبل الهزل ، وغيرةً لا تعرف التهاون ، وسلوكا لا يميل به الهوى ، إن أبا سفيان – قبل إسلامه – سأله (هرقل) عن رسول الله ، وكانت العداوة على أشدها بين المسلمين وكفار قريش فأجاب صادقا ولم يقبل أن يكذب ، وقال : لو كذبت ماردّنى أحد ممن معى ، ولكنى كنت رجلاً أتكرّم ، يعنى لا يقبل أن يخدش كرامته بالكذب . وهذا هو النوع الذى أُرْسِلَ إليه محمدٌ صلوات الله عليه بالهدى ، فكانوا حين أسلموا رجالا كراما باطنهم كظاهرهم لا تغرهم المغريات ولا تلعب بهم الدنيا ، ولا تدهشهم المواقف ، ومن ثم تجد «كليلة ودمنة» من اختيار الجادين ، وتجد «ألف ليلة وليلة» من اختيار اللاهين . . . والكتابان ظهرا فى العصر العباسى ، وإن كان الأخير عملت فيه العصور بما تهوى إلى القرن العاشر الهجرى ، فأدب كل أمة هو «الوعاء» الذى يبين عن منهجها وطموحها ومسلكها ، فالأمة الجادة آدابها جادة ، والأمة المترهلة آدابها ساقطة هابطة ، فى الأربعينات من عصرنا كتب المرحوم أحمد أمين ينعى على أغانينا أنها تدور حول الغرام والهيام والشكوى من الصبابة ولواعج الشوق وخلف المواعيد ، فتصدى له أحد المطربين ، يقول له : هات لى ميدانا غير ميدان الحب أغنى لك فيه ، نظر المطرب إلى الاستعمار الجاثم فوق صدورنا ورأى الجنود لتشييع الجنازات ومرافق الدولة فى اليد الأجنبية ، وثورة ١٩ انقلبت أحزابا وتناحراً على كراسى الحكم ، فليس هناك ما يدعوه ليتغنى بشىء غير موجود . هذا ما علق بذهنى من كلام الأديب والمطرب ، وليس لدىّ المقالان فأنقل إليك ما دار على تمامه ويومها عجب القراء لرد المطرب ، إذ أنه لمس كبد الحقيقة وأشار إلى ما ينقصنا ، وليس معنى هذا أنى أؤيد ما ذهب إليه ، فليس الأدب وما يغنى به منه مقصورا على الواقع فأين أحلام الشعوب وأين ما تطمح إليه ؟ إن نظرة فاحصة إلى بناة الشعوب على مدى العصور تجد غذاءهم الخيال ، إنهم ينظرون إلى المستقبل من ستر رقيق ، يحدثون أنفسهم بمستقبل بلادهم ، ثم يخططون ثم يعتقدون بما يحلمون ، ثم يكتبون ويخطبون ، ولا يخافون ما ينتظرهم من آلام وعذاب ، وقد ينجحون فى حياتهم ، وقد يحصد مازرعوا أبناء وطنهم بعد رحيلهم ، ولولا طموح الزعماء وماتصوروه لبقيت شعوبهم إلى الأبد ترزح تحت نير الاستعمار

أو التخلف وهنا يأتى دور الأدب فيأخذ أحلام زعمائه فيصوغها قصصا وشعرا يقبل عليه الشعب فتكون النتيجة على يديه ، بل على الأدباء أن يسبقوا الزعماء فهم أصحاب الخيال وعليهم أن يعملوا لشعوبهم لا لأنفسهم لكن أدبنا كثيرا ما تخلى عن رياسته ، فعاش تابعا مسامرا للأمراء والملوك لا يرفع شعارا ولا ينير منارا ، ولا يعرف للنصيحة موقعا مع أن النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين كما نوه سيد المرسلين ، ويترل الأدب عن سمائه ، ويتروى فى ملهى ، فيقول هراء ، ويذيع هذيانا وبهتانا ، ويكون معوقا لنهضات الشعوب ، انظر إلى قاضى (غرناطة) آخر معقل للعرب والمسلمين بالأندلس ينظم ٩٦ بيتاً فى المجون والخلاعة ، ولا يلتفت إلى ما حل به وبقومه وبالوطن الذى يعيش فيه ، وهذه أبيات أختارها من قصيدته ، فقد تتسامح فى قراءتها لأنها أعف ما فيها وإن كانت من الهزل والاتضاع فى القاع . يقول :

لاَ أُمَّ لِى لاَ أُمَّ لِى
إنْ لَمْ أُبَرِّدْ شَجَنِى
وَأخْلَعَنَّ فِى الْمُجُو
نِ والتَّصَابِى رَسَنى
واجعــل الصبر على
هــجر الملاح ديـدنى

قاضى غرناطة ماجن خلع رسن النهى وثوب الحياء ، وصار كما صور نفسه بوهيميا ، والصَّبْر الذى هو قيمة المؤمن والسلاح العزيز فى الخطوب والنوازل والمعارك والجنة فى صيانة الحق وأهله جعله القاضى ديدنه وعادته عند « هجر الملاح » أتظن هذا القول يصلح مبدأ للحياة ؟ ألا يدل هذا القول على أفول نجم العرب فى الأندلس ؟ إذا كان القاضى هذا شأنه فماذا ينتظر من غيره ؟ هذا وأمثاله هم الذين ضيَّعوا ما خلفه السادة ، وخاضوا من أجله ميادين القتال البحر من ورائهم والعدو أمامهم وليس لهم إلا الصبر من أمثال طريف بن مالك وطارق بن زياد . وموسى ابن نصير ولو استخدموا عقولهم وآدابهم فى الحفاظ على ما فى أيديهم لكانوا خليقين بالانتساب إلى آبائهم ، وكم من أبناء ضيعوا ما خلف الآباء وكان معاصرو « قاضى غرناطة » فى مصر المملوكية لهم عبث من نوع آخر ، عبث اليائسين الذين لا يشاركون فى حكم ولا يتطلعون إلى تغيير ، جعلوا الأدب والشعر فى مقدمته جسما بلا روح ينظمون الألغاز والأحاجى والبيت الذى تنقط حروفه كلها والبيت

(١) أبو عبد الله بن الأزرق ترجم له المقرى فى نفح الطيب .

الذى يعلو من النقط ، والبيت الذى ينقط من أعلى فقط ، وما لا يستحيل بالانعكاس ، والتاريخ الشعرى لكل من ولد أو تزوج أو مات منهم إلى غير ذلك مما لا طائل تحته ، شعر لا يحمل عاطفة ، ولا يتوهج فيه إيمان ، ولا يعترك فيه رأى ، كلمات مخصوصة . وألفاظ مصفوفة لا ترى من بينها هدفا يعلو ، أو همة تعلو ، أو مبدأ يسمو ، أو دعوة تفيد ، وإن تحركت شاعريتهم ولو مجازًا تهاجوا بكلام منحول من السابقين أفسدوه حين نظموه من جديد ، فجاء كخبز الشعير كما يقول ابن نباتة الشاعر ، وليس لك من كل ما عاشوا فيه ، وسلخوا حياتهم فى قوافيه إلا البديعيات التى نظمت محاكاة للبردة التى نظمها البوصيرى فى مدح الرسول ، وليتهم كانوا مثله ، ولكنهم جعلوا من مدح الرسول على وزن البردة علما هو البديع ، السيرة النبوية الحبيبة إلى النفوس التى تهدى وترقق القلوب جففوها فصارت فى قصائدهم لا تحرك قلبا ولا تلهم لبا ، ولا تعطى بيانا ، ولو عرضوها بما توحى به لعدلت أخلاقا وسلوكا ، ولنبهت الغافل ، وأيقظت النائم وهدت الضال ولكان الحكام والمحكومون على صراط مستقيم ، ومن ثم عاث المماليك فى الأرض فسادا فمن يبين فضائحهم ويثير الناس عليهم إن لم يكن أهل الأدب وأرباب القلم من كتاب وشعراء ؟

إن شاعر عصرهم يقول :

أقول وقد شنوا إلى الحرب غارة
دعونى فإنى آكل الخبز بالجبن

ويرين الظلام ، ويخيم على دور الإسلام وكأن أصحاب الدور نيام ، والعالم الأورى من حولهم يطير فى كل مكان يبحث وينقب ويجرب ويجدد ويبتكر ، إنهم الأحياء وغيرهم الأموات لا يشعرون بدورة الزمن ولا يدرون ما يحاك لهم من المحن . والشرق الإسلامى من العراق إلى ماوراء النهرين تحت حقدة جنكيزخان ، ويبعث على البكاء واجترار البأساء ، وتطلع شمس وتغرب شمس على دنيا تتغير ، ودعوات تظهر ، ودول تدول ، ودول تقوم ، وأهل الفكر فى غيبوبة تامة ، ونوم عميق .

واستيقظت مصر يوما على دوى الرصاص ينهال من أفواه المدافع ، فإذا بالمماليك والعثمانيين الذين حرموا أهل البلاد من الجندية وشرف القتال لا يثبتون للمغيرين من الفرنسيين ، ويصبح المصريون . يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ولا يكون النجاء إلا بيقظة تامة ، وعلم

بالحرب والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، وفى المقدمة التخلى عن الأوهام والخرافات والتواكل ، والأخذ بأسباب القوة ، والعودة إلى الإيمان الصحيح ، والاستجابة لقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) .

وصحا شعب مصر فكان له رواده ومصلحوه فأيقظ معه أبناء قحطان وعدنان فى كل صنقع من أصقاع العروبة ، وامتدت أصواته إلى كثير من ديار الإسلام فى أرجاء الأرض ، والعراقيل تشده وهو يغالبها . صراع مرير ، وجهاد كبير فى الداخل والخارج كان الأدب فى ذلك الحين يتحسس طريقه ، ويتلمس حقوقه ، وما هى إلا سنوات حتى بدت تباشيره على أيدى رواد عرفوا التراث فأخرجوه حيا يتحرك ويتحدث ويصيح ، وظهرت السيرة النبوية ملهمة ومعلمة ومرشدة ، تجلت لنا الجزيرة العربية على عهد الوحى فعرفنا الدين كما أراده الله ، وعرفنا كيف صاغ محمد ﷺ من أهل البادية رجالا وأبطالا لهم قدرهم وخطرهم فى كل ميادين الحياة حتى بهروا من حولهم من أرباب العلم والسلطان فقالوا إنهم « رهبان بالليل فرسان بالنهار » فعاشوا بيننا بفضل ما أداه إلينا روادنا وعشنا معهم نشاهد مكارم أخلاقهم ، وقوة صبرهم ، وإنكار الذات فى سبيل المطلب الأسمى ، وهو نشر الإسلام بسماحته وعدالته وإيمانه وأمنه ، فلم تعد السيرة النبوية علم البديع ولكنها صارت أدبا رائعاً بارعا فيه الحقيقة التاريخية والإلهام الأدبى والهداية إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ترى ذلك فى شعر البارودى وشوقى فى « نهج البردة » وترى صنيعا لغيرهما فى « العمرية » لحافظ و « العلوية » لمحمد عبد المطلب و « الإلياذة الإسلامية » لأحمد محرم ، وبجانب ذلك «العبقريات» للعقاد ، « وعلى هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، وما إلى ذلك مما لا يحتمله هذا البحث الذى بنى على الإيجاز . وكان لهؤلاء الرواد منهجهم فى السياسة والاجتماع فقالوا وكشفوا وصرخوا فى وجه المستعمر وفى وجه الحكم المطلق ، وتحملوا السجن وآلام الحرمان . . ثم مضوا وظهرت بعدهم أمور أثناء حياتهم تسمى وسائل الإعلام وأبرزها صناعة السينما والمسرح والإذاعة المسموعة والمرئية ، فكان ضرها أكثر من نفعها ، يدور كثير من أعمالها على الجنس يمثل ويغنى ويترك آثاراً سيئة تحتاج إلى جهد ومقاومة ، فكنا كأسلافنا فى العصر العباسى ، منا من يلهج بالجد ، ومنا من يلهج باللهو ، وكما ظهرت الشعوبية فى

عصر الأسلاف من زندقة وتعصب ضد العرب ظهرت فى عصرنا دعوات إلحادية وأفكار مستوردة للقضاء على الإسلام وتقاليدنا الطيبة ، ويتخذ أصحاب الآراء المستوردة من واقعنا حديثهم عن أسباب تخلفنا ، ويرجعون ذلك إلى جمودنا على ماضينا مما يبغض الشباب فى مفاهيم دينه . وتعاظم النيرة حتى رأينا أناسا يقولون : إن ما كان يصلح فى زمن الخلفاء الراشدين لا يصلح فى عصرنا ، وأن تطبيق أحكام الدين الإسلامى تعوق التطور أو أن المجتمع لم يهيأ لتلك القوانين ، وأحكام الدين – كما هى معلومة – من صنع رب العالمين العالم بما يصلح للإنسان فى كل زمان ومكان .

فما واجب الأدب إذن إزاء تلك الأقاويل ؟ واجب الأدب فى زماننا ، وقد صحونا وأخذنا نتطلع إلى المستقبل أن يسلك سبيل الرشاد ، لأننا توانينا عن العمل دهرا طويلاً فلا سبيل إلا الجد والجهد وبذل أقصى ما نملك من قوة وتفكير مع المحافظة على الخلق الحميد ، وصيانة التقاليد الموروثة النابعة من حب الأسرة ورعاية الجار ، وحب العمل لصالح المجموع ، وأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، أى العودة إلى منهج الأسلاف الذين كانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأن يقوم الأدب بتصوير ذلك فى فنونه من القصيدة والنشيد والأغنية والمقالة والقصة والأقصوصة والرواية ، وما يعد للتمثيل وليس فى هذا تزمت ولا دعوة إلى الوراء ، بل دعوة إلى بناء شخصيتنا على أساس من العلم والإيمان ، وإلا جرفتنا أبواق الغرب وبريقه إلى ذوبان شخصيتنا ويومئذ لا نجد لنا كيانا ولا سلطانا . فعلى حملة الأقلام أن يتبينوا موقفهم ، ويعرفوا مكانتهم ، ويتقوا الله فيما يقولون ويكتبون. وعليهم أن يهتموا بلغتهم ، فلا يعتمدوا على ما قرءوا فى الآداب الأجنبية ، فمنهم من يعرف كل ما أنتجه أدباء الغرب ويحرص على الدقة فيما يعرضه من كتاباتهم وفنونهم ، فإذا جاء إلى أدب لغته لم يهمه أن يعرف ما أنتجه أدباؤنا قديما وحديثا ، ولا يهتم بتقويم لسانه بمعرفة قواعد لغته ، إن إتقان اللغة العربية من صلب الشخصية ، فالتهاون فيها تهاون فى الشخصية التى تنتسب إليها ، فلغتنا غنية بما يحتاج إليه الأديب ، وفيها من المعانى والأساليب ، ولها من جرسها وحلاوة لفظها وشاعريتها ما يصنع الأديب ويلهمه ويعينه على الإجادة والبراعة وجذب الأنظار .

ولقد أحسن الشاعر حافظ إبراهيم حين

جعلها تتحدث عن نفسها قائلة :
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ؟
فعلينا أن نرتفع بالأدب إلى الثريا ،
ولا نهبط به إلى الثرى . .
وإنا إن شاء الله لفاعلون .

السيد حسن قرون

الفقيه كل الفقه

قال علىّ كرم الله وجهه : ألا أخبركم بالفقيه كل الفقه ؟ قالوا نعم قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يرخص لهم فى معاصى الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد : أيها الناس إن أقربكم اليوم إلى الله أشدكم له خوفاً وإن أحبكم إليه أحسنكم له عملاً ، وإن أعظمكم عندَه نصيباً أعظمكم فيا عنده رغبة وإن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ! !

الإسلام وتطبيق شريعته

الدكتور / توفيق محمد شاهين

إن الدين عند الله الإسلام ، أكمله سبحانه وأتم به النعمة ، وارتضاه تعالى دينا لخير أمة أخرجت للناس ، وهو نظام متكامل : فى الجانب السياسى ، والجانب الاقتصادى ، والجانب الاجتماعى ،. وليس ملفقا من أنظمة متباينة ، ولامرقعا من وضع عقول بشرية تصيب وتخطئ ، وتستقيم وتزل .

ولابد أن يؤمن المسلمون بأن دينهم : عقيدة وشريعة ، وعبادة ومعاملة ونظام دين ودولة . ولابد بعدئذ – أن يرتبطوا بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله – ﷺ – فى جميع تصرفاتهم وأحوالهم .

والتزام المسلمين بأحكام شريعتهم لازم ، لاخيار لهم فى غير ذلك : (وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) ، (الأحزاب ٣٦) .

(وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ، (الحشر آية ٧) .

(فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم) ، (الزخرف ٤٣) .

(وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ، (الأنعام ١٥٣) . (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أويصيبهم عذاب أليم) ، (النور ٦٣) .

فالالتزام بأحكام الشريعة – إذن – حتمى ، والوقوف عند الحدود واجب ، واتباع الرسول فيما جاء به يتبع ، والإسلام هو الصراط المستقيم ، ولايضل المؤمن الطريق الإلهية إلاتنكب عنه ، والخسار والبوار فى مخالفة تعاليمه والزيغ عنها .

وتعاليم الإسلام تؤخذ ككل ، وإلا فخزى الدنيا وعذاب الآخرة لمن اختار منها فنفذه ، وترك بعضها فأهمله (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ؟ (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاخزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد

العذاب) ، (البقرة ٨٥) .

* * *

واحترام الإسلام للإنسان وتكريمه وإعزازه هدف الرسالة الإسلامية بل كل الرسالات الإلهية راعت ذلك : (ولقد كرمنا بنى آدم) ، (الإسراء ٧٠) .

وتلطف الإسلام بالطبيعة البشرية ، فلم يكلفها رهقا ولاشططاولم يتركها هملا وضيعة :

فحفظ للإنسانية صفاءها ونقاءها ، وهذب غرائزها وكبح جماحها ، لأن نفس الإنسان وطبيعته بما ركب فيها من عقل وحكمة ، وغريزة وشهوة . . عرضة للتأرجح بين السمو والرفعة ، والتردى والانحطاط . ولايطلب الإسلام من الإنسان أن يخالف طبائعه فيكون ملكا ، ولايريد له أن يتردى مع غرائزه فيكون حيوانا ، وإنما يجب له أن يكون بشرا سويا ، وإنسانا يعيش المستوى الفاضل فى الإنسانية : (ونفس وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) ، (الشمس ٧ — ١٠) .

فالمواءمة بين طبيعة البشر وانسجام سلوكه نشدة الإسلام ، ومن ثم لم يُحِلَّ الله لعباده إلا مافيه خيرهم ، ولم يحرم عليهم إلا مايزعجهم وينغص عليهم حياتهم ، وبذلك الرفق فى توجيههم داروا فى دائرة الممكن ، وعدم تجاوزه إلى دائرة المستحيل ، أو مايصطدم بالنواميس الفطرية والاجتماعية وغيرها مما ينتظم الوجود الأرضى للإنسان . وبذلك واءم نفسه مع عقله وغرائزه بصمام أمن وتوازن هو القلب والفؤاد مكان الإيمان بالله ، فحقق دوره الاستخلاف والأخلاق بصورة مهذبة كريمة ، وفى إطار رشد إنسانى : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) ، (النحل ٧٨) .

والإيمان أمانة المؤمن ، به أعزه الله وفضله ، وكرمه على غيره من المخلوقات حتى لايتجه بالعبادة إلى مماثل له أو مخلوق ، وإنما اتجاهه وقبلته ومقصده وعبادته وخضوعه لمن ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

وكل مشقات الحياة ولأوائها تهون أمام الاستمساك الحق بالإيمان ، فالمؤمن الكامل يثبت بإيمانه فى كل موطن ، ولايطغيه النصر ، ولا تخيفه الشدة والأزمة ، ولكن يحيا بإيمانه وله ، ويموت عليه . وهو فى سبيل ذلك قد تدفعه متطلبات تلك المحافظة

على الرضا بالقليل الحلال ، بل قد يستعذب الحرمان عن طيب خاطر مع الثبات على مبدئه .

هانت عنده الدنيا القصيرة الأمد ، وهانت عليه متعها الزائلة ، وصغرت عنده كل تضحية وحرمان ، وكان له من قوة إيمانه دفع قوى ، ونور هداية فى غياهب الديجور ، ولم تزعزعه الأزمات والمحن ، ولاانتشار الباطل والطغيان : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) ، (الحج ٤٠) .

بينما رقيق الدين أوغير المؤمن ، أوالمنافق تغلبه نفسه وأنانيته ، فيؤثر متع الدنيا مع التنازل عن إيمانه ، أوينافق فى سبيلها فى معتقده وسلوكه ، ذلكم خسر الدنيا والآخرة ، وهو خسران مبين . ولوراجع هذا نفسه وتيقن من أن الحياة كلمح البصر ، أوهى أقصر ، لارعوى وأقصر عن باطله ، ولكن غره شيطانه ، وغلبته نفسه الأمارة بالسوء ، فكان بواره وخساره : (ومن يهن الله فما له من مكرم) ، (الحج ١٨) ، . (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) ، (طه ١٢٤ - ١٢٧) .

ومن صفات الله تعالى « العدل » فهو سبحانه لايسوى بين هذا وذاك : فبينما ينتظر المحسن ماوعده الله فى الدنيا من العزة والاستخلاف والأمن والتمكين ، وفى الآخرة من النعيم المقيم والنور ورضاء الله . . بينما ينتظر المسىء الذلة والخوف والإهانة والظلمات جزاء إلهيا لظلمه : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا) ، (النور ٥٥) ، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) ، (٧ - ٨) . (فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) ، (الليل ٥ - ١٠) .

ولم يتخلف قانون الله سبحانه وناموسه بين جماعة المسلمين من لدن كانوا إسلاميين

حتى اليوم ، ولن يتخلف فى الغد إلى أن تقوم الساعة : سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا : فيوم أن اعتز المسلمون بإسلامهم أعزهم الله . ونصروا دينهم وانتصروا على أنفسهم ، فنصرهم الله ولينصرن الله من ينصره ، فكانوا مثلا يحتذى ، ونماذج تقتدى ، ونورا به يهتدى . .

* * *

وأصاب المسلمين الوهن حين تسرب إلى أقطار العالم الإسلامى فى القديم والحديث حب الدنيا ، وحين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وحين تعرضوا لغزو أجنبى نتيجة تقصيرهم . . . أمكن الله منهم ، فأصبح واقعهم مؤلما ، وتعرضوا لغزو فكرى أجنبى جارف ، قذفته عقول واعية حاسبة ، تنفيسا عن داء دوى ، وأحقاد دفينة من صدور تكن عداوة شديدة بدون مبرر .

وازداد وهنهم وضعفهم ، فأصبحوا غثاء كغثاء السيل ، حين تسرب بينهم وهم خاطىء بأن الحضارة شىء ، والدين شىء آخر ، نتيجة انتشار الحضارة المادية الوافدة من الغرب العلمانى ، الذى فصلت فيه الدولة بنشاطها عن الدين (مع أن نفوذ الكنيسة صار نافذا ومسموع الكلمة ومرهوب الجانب بعدئذ) وغفل قادة المسلمين عن أنه لاانفصام بين الدين والحضارة .

فالدين هو الالتزام بما جاءت به رسل الله ، مادام مصونا ونافذ الكلمة ، لم يغير ولم يبدل ، ولم يتخذ ظهريا ولامطية ، والحضارة كل إنتاج مصدره العقل ، لكل ألوان النشاط البشرى ، ماديا أومعنويا ، ويوجهها الدين لإكرام الإنسان وإعزازه . .

ونتيجة لهذا الفهم الخاطئ الذى روجه أعداء الأمة الإسلامية فى الداخل والخارج ، عاشت أمة مستهلكة ، (بفتح اللام ، وكسرها) وأمست غثاء كغثاء السيل ، لايؤبه لها ، ولايلتفت إليها ، وتساق إلى مايراد لها ، وتستنزف خيراتها ، وأنهكتها خلافاتها وطوائفها . .

وأصبحت المقارنة الظالمة بين حاضر المسلمين وواقعهم المرير ، والبون الشاسع بين التقدم الهائل فى دنيا « التكنولوجيا » للأمم « العلمانية » والتخلف المريع الذى يرتع فى رقعة الأمة الإسلامية . . أصبحت هذه المقارنة الظالمة مادة للتأليف والرصد والتحليل ، وسبيلا للصد عن الإسلام والحيلولة دون انتشاره ، وسببا إلى قوقعته ، ودعاية رخيصة للحانقين بأنه استنفد أغراضه ، وأمسى جثة بلاحراك . .

والدين من كل هذا براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، والتأخر إنما هو في الأنفس الحائرة والحائرة ، والقلوب الضعيفة والميتة ، فالمقارنة مغالطة مقصودة .

وضيق الأعداء الخناق على الإسلام بمخططات قوية محكمة بهدف زعزعة عقيدة المسلمين ، حتى يتركوا دينهم ، أو يصبح الدين بعيدا عن القيادة والتوجيه والحياة ، وينحصر في دائرة الطقوس الدينية ، بين المقابر والجنائز ، وبين مساجد بلا روح ، ويعيش على هامش الحياة ، فانتشرت الملل والنحل ، وانتشر الفساد والإلحاد ، وتربعت المادية وعادت سيرتها الأولى في جاهليتها بكل مظاهرها وطغيانها .

وفصل التعليم المدنى عن الدينى ، وحظى الأول بكل رعاية وعناية ، ونال الثانى الإهمال وأبعده خريجوه عن القيادة والتوجيه ، وحتى تصدر من لا دراية لهم بالدين بقيادة المؤسسات الدينية ، وحرم الفاهمون لطبيعة الدعوة الإسلامية عن قيادة أموره وشئونه ، وحتى قدم لرياسة المؤتمرات الإسلامية غير رؤساء المؤسسات الإسلامية . والمثير في ذلك أن المرءوسين لم يقوموا على الاحتجاج ، ولم يثيروا الاعتراض ، مع أن أبسط مظاهره هو الاستقالة . . ولعل من أثر ذلك أن وجه كثرة كثيرة من أبناء العلماء المسلمين أبناءهم للدراسة في غير مجال الإسلام .

وأتت ازدواجية التعليم ثمرتها الآثمة ، في خلق أجيال متصارعة بين القديم والحديث ، وبين الدنيا والدين ، وبين ساخر من التراث وداع إلى نبذه ، وبين محافظ على التراث وداع إلى تنقيته والأخذ به واعتباره . وهنا الاستعمار ، وترك أبناء المسلمين يصطرعون . وأطلق طائفة رباهم على عينه ، وصدرهم التوجيه ، ومكن لهم من الريادة والرياسة والقيادة ، فكانوا ضغثا على إبالة ، وحربا على أهلهم وأضحوا مثار حيرة وبلبلة لشباب بنى جلدتهم ، ومناوئين ألداء لمعتقدهم وموروث الأمة ، وماضيها المجيد ، وأرفدهم الاستعمار والغزو الفكرى بسيل جارف من المطبوع والمشاهد والمجسم والمعنوى . . في محاولات مدروسة وذكية لوأد البقية الباقية من تعاليم الإسلام أوقهرها ، فبدأ القلوب المريضة ، وسرت جوانب الضعف فعلا في كل المناحى والجوانب ، ولكن بقى الإسلام – والحمد لله – في نفوس طاهرة ، وعقول واعية ، عضت على إسلامها بالنواجذ ، وتجرعت في سبيل المحافظة عليه كل الغصص وكل

المساءات : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، (الحجر ٩) وأنس الاستعمار من كثرة من القائمين على أمر الأقطار الإسلامية ، بعد الاستقلال الكلى أوالجزئى ، والحقيق أوالشكلى ، أنس منهم نفرتهم من التقرب إلى الإسلام والميل إلى عدم الأخذ بتعاليمه ، وعدم الجدية فى العودة إليه وتطبيق أحكامه .. فوجد ضالته ، وقدم لهم أمانيه فى صورة مشورة ، واهتبل الفرصة السانحة ، وأحدق بالأمة الإسلامية والعربية ، وكرس جهوده بواسطة رسله ، أوحكام هذه المناطق ، أومن المشرعين من أبناء البلاد ممن رباهم على عينه وغذاهم بلبانه لتنفيذ مخططاته ، ونجتزئ منها فى هذه العجالة بما ذكرته « مجلة ألمانية » فى احصائيتها ، ليرى المسلمون ماذا يراد بهم ، وماهو واجبهم نحو دينهم :

فرض الوضعية الاقتصادية المتخلفة على كثير من البلاد الإسلامية لتظل مصدرة للمواد الخام والأولية ، والأيدى العاملة بأرخص الأسعار ، ثم استيرادها بعد التصنيع بأغلاها ، فانتشر الفقر وتمكن ، وصحبته المجاعات والأمراض والجهل والتخلف .

أصبح جيش التبشير للبروتستانت وحدهم ١٠٤ آلاف مبشر ، و٩٣ ألف موزع للكتب والنشرات ، ومعاهد التبشير ١٦٦٧١ معهدا ، وحوالى خمسمائة جامعة وكلية ومعهد عال و٤٨٩ مدرسة لاهوتية متخصصة فى تدريب المبشرين . وتحت سلطتهم ٢٥٩٤ مدرسة ثانوية و٨٣٩٠٠ مدرسة ابتدائية ، و١١١٣ روضة أطفال . وتحت سلطة البابا مايزيد على خمسمائة مليون دولار .. وفى الجانب الطبى والاجتماعى يملك المبشرون ٦٠٠ مستشفى ، و١٠٥٠ صيدلية ، و١١١ مجلسا طبيا ، و٩٣ جمعية للممرضات و٢٩٣ ملجأ للأيتام ، ١٢٠ ملجأ للبرص ، و٨٥ ملجأ للأرامل ، و١١٥ ملجأ للمكفوفين ، و١١٣ مستوصفا لمدمنى المخدرات ..

هذا عدا دور الكتب والمجلات والصحف والإذاعات والملصقات على جميع المستويات ، تؤدى كلها دورها بإتقان وعناية ، وتنطلق كالسهم يعرف وجهته ومستقره .

وكان الأجدى والأولى أن تضع هذه الإمكانات الهائلة يدها فى يد الإسلام لمناوأة الإلحاد والمادية عدو الأديان اللدود .

ولم يقتصر الأمر على ذلك : بل لفقت الدساتير والأحكام من شرق ومن غرب ومما لايتفق ووضعية المسلمين ولايناسب بيئاتهم

من حلول مستوردة ، وكثرت – الإغارات من القوانين الوضعية والإغارات عليها ، وترك المبادئ الإسلامية أونسيانها ، وحصرها فى دوائر ضيقة ، مما سبب خللا فى حياة المسلمين وأصابهم بنكبات وأورثهم الضعف ، لغياب دستورهم ، وبلبلة أفكارهم ، وآمن الجميع بضرورة وجود بديل عن هذه النظم ، وراحوا ينتظرون فجرا جديدا ، بعد أن أفلست تلك النظم ، وفشلت فى أن تقدم الأمن والأمان ، والاستقرار والثبات ، والهدوء والسعادة إلى البشرية .

* * *

ورب الإنسانية أعلم بدائها ودوائها ، فأرسل لها الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة ، وجاء القرآن هدى ورحمة للمؤمنين ، وكان لابد لدعوة الإسلام أن تقدم البديل لاالحل النظرى فقط ، وأن تصور أبعاد المشكلة ، وأن تعرض مبادئ الإسلام من جديد عرضا يتفق ومتطلبات العصر ، وأن يبعث تراثنا الأصيل فى ثوب جديد ، يدنى مقاصده ، ويمهد لاحترامه والأخذ به . وإنصافا للحق قام علماء مستنيرون بدور هام فى البعث الإسلامى الجديد فى عصرنا الحديث والحاضر أذكر منهم :

● الأستاذ أبو الأعلى المودودى ، فيما سطر فى عمق وإيجاز عن الدستور الإسلامى المقترح .

● والأستاذ الدكتور المرحوم عبد الرازق السنهورى حين أخرج مؤلفات قيمة أبانت عظمة التشريع الإسلامى ومميزاته .

● والمرحوم الأستاذ سيد قطب والأستاذ محمد قطب فيما كتبا من تهيئة عامة لهذه النهضة الجديدة .

● والأستاذ أبو الحسن الندوى فيما سطر من أمجاد إسلامية كانت للأولين ، لبحث التابعين .

● والمرحوم المهندس مالك بن نبى ، فيما أبان عن دور الاستعمار الثقافى فى حجب الرؤية عن الإسلام ، والعمل على سيطرة ثقافته وأنظمته .

● والأستاذ الدكتور محمد البهى ، حين أبرز جوانب الأصالة فى الفكر الإسلامى على مدى العصور فى مقابلة الدخيل ، وفيما أدلى من آراء صائبة فى حل مشاكل المجتمع الإسلامى المعاصر ، على هدى الإسلام وفى ضوء تعاليمه فدحض حجة القائلين بأن الإسلام قد انتهى دوره .

● والأستاذ المرحوم عبد القادر عودة ، فيما قنن للتشريع الجنائى فكان خطوة رائدة على الطريق . .

وحين أصبح مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية مطلبا جماهيريا ، أيدته جمعيات وهيئات عامة ونقابات ، وتجمعات إسلامية ، فقاربت المسألة أن تكون قضية الساعة الأولى ، لولا أن مشكلة الشرق الأوسط تتصدر الأحداث والقضايا . . وخطا مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر -بعدئذ- خطوات فى سبيل تقنين المذاهب الإسلامية الكبرى : الحنفى ، والمالكى ، والشافعى ، والحنبلى . . . ثم ألف لجانا لتقنين جوانب من الشريعة الإسلامية تمهيدا لوضعها موضع التنفيذ . . وعقد فى هذا العام مؤتمرا خاصا بهذا الشأن ، نرجو له التوفيق .

فكان ذلك كله إيذانا بانبلاج فجر جديد ، وبيقظة العرب والمسلمين ، وسعى حثيث لربط الأرض بالسماء .

* * *

ويختلف المفكرون حول تطبيق الشريعة الإسلامية بين محبذ للتطبيق على الفور ومحبذ على التراخى :

فالمطالبون بالفورية يرون أن المذاهب الوضعية قد أخفقت فى أن تهب الإنسانية الأمن والسعادة والاستقرار . وأن الإسلام بدأ غريبا فى وسط تراكمات فاسدة وأوضاع همجية ، فنازل الطغيان ، وناوأ المعوج ، وهاجم الباطل ، حتى أطر الناس على الحق أطرا ، فكانت الهناءة والرخاء والحق والنور والجمال . وطارت الخفافيش بسطوع السنا وانتصاره على الديجور . ويشيرون إلى أن أكثر البقاع استتبابا بالأمن هى مانفذت فيها تعاليم الإسلام وطبقت شرائعه ، وأكثر البقاع تفلتا من القانون ، وتموجا بما يشوه وجه الإنسانية الوضىء هى ماتسير على قوانين وضعية ، بعين تلفيقها على التفلت منها ، لأنها طرحت -فى ظن المقنن لهم- كقيود تحد من الانطلاق وتضاد الحرية ، ولم تلامس شغاف القلوب .

● ومن يطلبون التطبيق على التراخى ، يرون أنه لابد من التخلية قبل التحلية كما يقول الأصوليون ، فلابد للتمهيد للأمر أولا ، كما هيأ الرسول - ﷺ - فى مكة لمدة تزيد على عشر سنوات ، حتى لايكون الأمر بمثابة فجاة تحدث ردود فعل عنادية ، وحتى يتقبل المجتمع الإسلامى فى كل قطر مايلقى إليه بعدئذ عن طيب خاطر ورضى ، بعد ماعلم ، أن الرياح تسير لصالحه وصالح مجتمعه ، وأن الشر والمكر السيئ إنما يحيق بأهله لاغير .

كما يطلبون وحدة التوجيه فى وسائل الإعلام بتقدمها الهائل ، حتى تختفى الذبذبة بين خطى الإصلاح والإفساد ، وحتى

يكون هناك التزام بخط رشد انسانى فاضل ، يلتزمه الفرد والجماعة .

وإذا ماصلحت النيات ، وتضافرت الجهود فإن أمد الانتظار لن يطول ، وسيعود ضوء الشمس ، وهو اقوى من أن تحجبه غيوم أوظلمات .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »

دكتور توفيق محمد شاهين

حسن التوكل

روى أن حاتم الأصم قال لأولاده : إنى أريد الحج ، فبكوا وقالوا : إلى من تكلنا ؟ وكان له بنت فقالت : دعوه يذهب ، فليس برزاق فخرج فباتوا جياعاً . فجعلوا يُوَبِّخون تلك البنت ، فقالت : اللهم لا تخجلنى بينهم ، فمر بهم أمير البلد ، فقال لبعض أصحابه : إطلب لى ماء فناوله أهل حاتم كوزاً جديداً وماء بارداً فشرب ، فقال : دار من هذه ؟ فقالوا دار حاتم الأصم ، فرمى فيها منطقة من ذهب وقال : من أحبنى والقنى ، فرمى العسكر كلهم . فجعلت البنت تبكى ، فقالت : أمها ما يبكيك ، وقد وسع الله علينا ، فقالت ، لأن مخلوقا نظر إلينا ، فاستغنينا ، فكيف لو نظر الخالق إلينا ؟



- دكتور توفيق محمد شاهين :
من مواليد الغربية .

- تفوق فى كل سنى دراسته بفضل الله ، حتى تخرج من الأزهر .
- يحمل الشهادات الآتية :
(ا) الشهادة العالية من كلية اللغة العربية سنة ١٩٥٥م بدرجة جيد .
(ب) معهد التربية العالى للمعلمين (جامعة عين شمس) سنة ١٩٥٦ بدرجة جيد جدا .
(جـ) العالمية مع إجازة التدريس سنة ١٩٦٠م بدرجة جيد جدا .
(د) (ماجستير) فى أصول اللغة سنة ١٩٦٩م بدرجة جيد .
(هـ) العالمية (الدكتوراه) فى أصول اللغة بالامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولى .
- اشتغل بالتدريس فى وزارة التربية والأزهر زمنا .
- عمل فى حقل الثقافة الإسلامية والمطبوعات بالأزهر حينا .
- حقق تفسير وتراث الإمام عبد الحميد ابن باديس الجزائرى .
- رأس تحرير مجلة « الفكر الإسلامى » فى بيروت ثلاث سنوات .
- ألف كتب الأدب والنصوص للمعاهد الدينية الجزائرية .
- مثل جمهورية مصر العربية فى بعض المؤتمرات الإسلامية .
- يسهم بالكتابة فى المجلات الإسلامية والعربية .
- يرأس قسم « أصول اللغة » فى كلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر ، حاليا .

التصوف ومستقبل العالم الإسلامى

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

إلى أين يتجه العالم الإسلامى ؟

عنوان هذا العدد الخاص من مجلة الأزهر الغراء يتفق مع رسالة الإسلام التى تدعو إلى التذكير والتوجيه ، مصداقاً لقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقد كان العمل بمضمون هذه الآية الكريمة هو الذى حقق الخيرية لأمة الإسلام حسبما قرره الحق جل وعلا (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

ورسالة العلماء الذين اعتبرهم النبى ﷺ ورثة الأنبياء هى رسالة التنبيه والتذكير ومعرفة الداء ووضع الدواء والاهتمام بأمر المسلمين مصداقاً للأثر الكريم الذى يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

لقد جاء هذا العدد فى أوانه حيث تتربص الآن بالمسلمين الإحن ، وتكشر المادية البغيضة عن أنيابها للإسلام ، ويحشد الكفر بجميع صفوفه ومِلَله حشوده محاولاً أن يقضى على هذه الشعلة التى أضاءت وتضىء للعالم الطريق وتهديه سواء السبيل ، لقد أقام الإسلام حضارة عريقة هى أروع مايعرفه العالم من حضارات ، ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن ماتتفيأ به الدول الحديثة من ظلال حضارية هى من صنع الإسلام ونعم الإسلام التى انتفع بها غير أهله وادعاها من ليس من أبنائه .

وإذا كان الهدف من هذا العدد أن يوجه أذهان المسلمين فى كل مكان إلى الأخطار المحدقة بهم ، وإلى مايجب عليهم لينجوا بأنفسهم وبدينهم من هذا الأخطبوط الذى يريد أن يطمس معالم الهدى والنور ويقضى على وسائل الأمن والأمان فإننا مع ذلك - بدافع من الإيمان العميق بديننا ورسالتنا وقرآننا نطمئن أنفسنا أولا وننبه أعداء الإسلام ثانياً بأن الله قد وعد وهو منجز وعده (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

وكما باءت محاولات الكثيرين بالفشل ستبوء محاولات من جاءوا بعدهم بالفشل (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

وهذه الآيات البينات كونية لايختص بها زمن دون زمن ولا مكان دون مكان ، بل هى للمسلمين جميعاً فى أى وقت كان وفى أى أرض عاشوا ، طالما أخذوا بأسباب النصر والعزة والكمال التى يريد هذا العدد أن ينبه إليها ويحمل المسلمين على التمسك بها . .

التصوف ودوره فى هذه الأسباب :

وعلى ذكر الأسباب التى ينتصر المسلمون بها على أعدائهم وعلى المؤامرات المحدقة بهم يبرز دور التصوف فى مقدمة هذه الأسباب .

ولعل العقل فى هذا العصر المادى الملحد قد جن بالأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج والتقدم العلمى الهائل الذى خلق بواسطة الإنسان فى الفضاء وغاص تحت الماء ودرع برجله القمر وظن أنه علا على البشر وأصبحت الدنيا فى نظره مجموعة من « الأزرار » يضغط على أيها شاء فإذا مايريده حاضر أمامه ، إن شاء طعم وإن شاء ركب وإن شاء أهلك ودمر . فنسى فى طريق ذلك ربه وغفل عن روحه وأطلق العنان لعقله وارتكن على نفسه وقدرته فظن أنه على كل شيء قدير وأنه بإمكانه أن يقول للشيء كن فيكون .

نسى فى طريق ذلك – وأنى له أن يذكر – قوله تعالى (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس) .

لقد فتنت المادة الإنسان فأعمته عن الحقيقة وأذهلته عن خالقه وأنسته أنه مهما بلغ من قوة وسطوة فهو إنسان ضعيف فقير عاجز أمام أقل طارئ يطرأ له ، يصرعه المرض ويقهره الموت وتحيره ظواهر وخفايا فى الكون الكبير لايحير أمامها جواباً ولايملك إزاءها صواباً ، وصدق الله إذ يقول (وخلق الإنسان ضعيفاً) وصدق إذ يقول (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

هنا يجيء التصوف ليعيد للإنسان

صوابه وينير له طريقه ويوضح له أنه إنسان من عقل وروح لاحياة لأحدهما بدون الآخر ، ويبين له أن لهذا الكون إلها مدبرا قادراً ، عليه أن يحبه ويعرفه ويعبده حق العبادة فلهذا خلقه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وفى الأثر «كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أُعرَفَ فخلقت الخلق فبى عرفونى» .

ولقائل أن يقول : لماذا التصوف بالذات والإسلام هذه هى دعوته ؟ أجل ، هذه هى دعوة الإسلام ولكن أهل التصوف من بين المسلمين اعتنوا عناية زائدة بالجوانب الروحية فى الإسلام وعاشوا فى مقام الإحسان الذى هو أعلى درجة فى مقامات العبادة حيث يعبد الإنسان ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه .

ولايمكن لأحد أن يغفل دور التصوف فى بناء الدولة الإسلامية الزاهرة ، فمؤسسوها الأول رجال روحيون غلّبوا الجانب الروحى فى حياتهم على بقية الجوانب الأخرى ، فعاشوا لله وجاهدوا فى الله حق جهاده وأحبوا لله وأبغضوا لله وأنكروا ذواتهم وآثروا إخوانهم على أنفسهم حتى امتدحهم ربهم بقوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم» .

حقيقة التصوف :

والتصوف فى حقيقته سمو فى الخلق وارتفاع بالنفس الإنسانية إلى أعلى مراتبها الكمالية ، حيث تتخطى كل معوقاتها من شهوة وركون للذة وتكاسل عن الطاعات ورضاء بالدون من الأحوال وانصراف عن معالى الأمور . وله فى سبيل ذلك وسائل هى التى دعا إليها الدين القويم من حرص على الطاعة وتزهيد فى الطيبات والملذات وقهر للنفس عن شهواتها وترغيب فى الإقبال على الله والتقريب إليه بالصيام والصلاة والصدقة والصفح والعفو والصدق وغير ذلك ..

وبالجملة فالتصوف هو روح الإسلام وهو الأفق الأعلى للفكرة الإسلامية ، هو

مشهد المراقبة الذى يملى على الإنسان تحرى الكمال المطلق فى أفعاله وتصرفاته لأن الله مطلع على أحواله مراقب له فى أعماله . فهو يأنف أن يقوم بعمل مجاف للصواب رغبة فى الثواب وأنفة من العقاب . بل هناك ماهو أروع من ذلك حيث يعمل حبا لله لارغبة فى الثواب ولا خوفاً من العقاب .

وفى أفق هذا الفهم لحقيقة التصوف جاءت تفسيرات الصوفية للتصوف ، مثل قول السراج الطوسى فى اللمع عن الصوفية : هم العلماء بالله وبأحكام الله العاملون بما علمهم الله المتحققون بما استعملهم الله عز وجل الواجدون بما تحققوا .

ولقد لاحظ بعض العلماء مابين التصوف والصفاء ومابينه وبين التقرب إلى الله فقال الكلاباذى : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها ، وقال معروف الكرخى : الصوفى من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته . وقال غيرهما : إنما سموا الصوفية لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل بارتفاع هممهم إليه وإقبالهم بقلوبهم عليه ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

ولكن الصوفية جميعاً يؤكدون أن أساس التصوف حسن الخلق فكل من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه . قال الدكتور حسن الأشمونى فى كتابه التعبئة الروحية فى بناء المجتمع : ومهما يكن من أمر اختلاف الصوفية والمؤرخين فى تحديد الأصل الذى اشتقت منه كلمة تصوف ، فإن الحقيقة التى لا يستطيع أن يختلف فيها منصفان أن التصوف ينطوى على نزعات أخلاقية ووجدانية جديرة بالدراسة والتأمل ، وهو أيضاً وسيلة لمعرفة تسمو على كل ماعداها من المعارف .

أضواء على التصوف :

(ا) التصوف فى حقيقة أمره ملازمة للكتاب والسنة وموافقة للشريعة الإسلامية فى جميع الفرائض والسنن والآداب والفضائل ، فقد قال أبو القاسم النصرا باذى : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم واستعمال الأخلاق الجميلة والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات . . . وما ضل أحد فى هذا السبيل إلا بفساد الابتداء فإن فساد الابتداء يؤثر فى الانتهاء .

وللتصوف آدابه وأحكامه التى يجب على المريد مراعاتها لو أراد أن يصل إلى

غايته لأنه – كما يقول الدكتور الأشموق – لابد لسالكه أن يتزود بما يعينه على السير فى طريقه ، وليس اجتيازه فى مقدور كل الناس ، وإنما يجتازه الصفوة التى حباها الله بفضل من عنده فأمدها بمزيد من القوة لتحارب أهواء النفس وتصارع وساوس الشيطان ، ونفخ فيها من روحه فصبرت وزهدت وعرفت الله حق معرفته وعبدته بإخلاص وأوت إليه بالشوق والمحبة واتبعت السنة قولاً وعملاً وعزماً وعقدا ونية فجانبت البدع واتبعت ، ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وتباعدت عن مجالس الكلام وأهله ولزمت طريق الاقتداء والاتباع وكرهت نفسها الدنيا فأحبها أهل الأرض وعاف قلبها الدنيا فأحبها أهل السماء .

إن طريق القوم مشيدة على الكتاب والسنة ، يؤكد ذلك أئمتهم وعلماؤهم ، يقول القشيرى فى رسالته : اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولاتعطيل وعرفوا ماهو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم – حكى الشيخ محيى الدين فى الفتوحات وغيرها أن طريق الوصول إلى علم القوم هو الإيمان والتقوى قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) وقد اعتنت كتب التصوف ببيان أخلاق الصوفية وأحوالهم على حسب طبقاتهم ومراتبهم ، وباستعراض ذلك لم يعثر فى سلوكهم على مايتعارض مع الكتاب والسنة وإجماع الصالحين فالولى لاياتى بشرع جديد ولكنه قد يأتى بفهم جديد لم يكن لأحد قبله ، ولذلك ربما يستغرب به من لاإيمان له بأهل الطريق ، على أن هذا الفهم لا يتعارض مع غيره من الفهوم **الأخرى** .

(ب) ومن أجل ذلك فقد وقفوا أنفسهم على فهم أسرار العبادة التى توصلهم إلى حضرة الحق تعالى واجتهدوا فى ذلك حتى تحققوا **بالأحوال والمقامات** التى أثمرت ثمارها البالغة فى حياتهم . فاستنارت أمامهم السبل ووضحت لهم الطرق فوصلوا إلى غاية القصد ونهاية المرام .

والحال عند الصوفية اصطلاح يطلق على المعنى الذى يرد على القلب بلا تصنع ولا اكتساب ، ويغلب عليه عادة صفات النفس من فرح وحزن وانقباض وانبساط .

والمقام على مايتحقق به العبد من آداب نتيجة للمجاهدات الدائمة ، والمقامات بمثابة المراحل للطريق الموصلة إلى الله وفيها

تظهر حقائق السالكين والمريدين ، ومن هذه المقامات التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل وغير ذلك على حسب مشارب العارفين وأذواقهم .

والمتتبع لهذه المقامات يدرك أنها صفات إنسانية رائعة تدل على مدى عناية الصوفية بالأخلاق ، وإفاضة الله عليهم الفيوضات العظيمة فى هذه المقامات يعد تأييداً مطلقاً لجلال هذه الأوصاف ودعوته للتحقق بها . يقول الدكتور عبد الحكيم حسان فى كتاب التصوف فى الشعر العربى : « المتأمل فى مقامات الصوفية وأحوالهم يجد أنها وثيقة الصلة بالأخلاق بل يمكن أن تتخذ قيماً خلقية ، وما بالنا بإنسان يبدأ تخلقه بالتوبة من الذنوب والخروج عن ماله وإيثار الفقر ، ثم يزهد فى الدنيا ويعرض عنها ويتورع عن كل ماحرم الله ، ويصبر على مايلقى من حرمان ، ويكون فى كل أموره متوكلاً على الله راضياً بكل مايقضى به ، وهو فى كل ذلك لايعرض على نفسه إلا الأحوال المتصلة بالعبادة والروحانية ، فهو بين مراقبة لله تعالى وشعور بالقرب منه أو الحب له أو الشوق إليه أو الأنس به أو الطمأنينة إليه ، وتنتهى به أحواله إلى اليقين الذى هو غاية الأحوال ومنتهاها ؟ » .

(جـ) الصوفية والجهاد :

ولوأننا نظرنا إلى التصوف نظرة منصفة لرأينا الصوفيين الحقيقيين رجال إصلاح وجهاد وعمل ، وكثير منهم لقى مصرعه شهيداً فى سبيل الله والوطن ، وحسبك دليلاً على ذلك شجاعتهم الأدبية التى تفردوا بها وتصدّقوا بها معنى الحديث الشريف « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » فلم يأبهوا بسيوف السلاطين والحكام حين تعرضوا لهم ينصحونهم ويوجهونهم ، وهذا رجل يعترض طريق سليمان بن عبد الملك — على ما يروية كتاب أعلام التصوف الإسلامى للمرحوم طه عبد الباقى سرور — فيقول له : سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم وابتاعوا دنياك بدينهم ورضاك بسخط ربهم . . » ويتصاغر له سليمان ويسأله عن طريق الخلاص فيرسمه له .

ويزكى ذلك مايقرره الدكتور إبراهيم بسيونى فى كتابه نشأة التصوف قائلاً : « لم يستطع الزهاد أن يصفقوا مع المصفقين لكل قادم ، إنما راحوا يبحثون عن حياة أخرى داخل هذه الحياة يجدون فيها العزاء ، ويعيدون إلى القيم ثباتها وإلى

الأوضاع استقامتها وإلى الذين سيطرته ، ولقد وجدوا فى هذا العالم الصغير آفاقاً رحيبة جذابة نأت بهم عن تطاحن الأحزاب السياسية والمذهبية وفتن الحروب الأهلية . وذلك جعلهم يجهرون برأيهم فى الزمان والناس ، ولم يمنع بأس السلطان هؤلاء الزهاد أن يطلقوا صيحاتهم النافذة لأنهم كانوا يشعرون أنهم يعبرون عن الضمير الدينى للأمة ، وكثيراً ماأرهف الحكام أسماعهم لهذه الصيحات . . وهذا الدور القيادى الذى اضطلع به الزهاد ينبنى فى صميمه على الثقة بالخالق والناس مما فى يد المخلوق » .

وهم إلى جانب ذلك بطولات رائعة فى صفوف الغزاة المجاهدين ردا لعدوان المعتدين ، ومشاركة فى الفتوحات الإسلامية فى العصور الأولى أو مقاومة المستعمرين بعد ذلك ، وهذا حاتم الأصم رضى الله عنه يقول : الجهاد ثلاثة ، جهاد فى سرك مع الشيطان حتى تكسره ، وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض حتى تؤديها ، وجهاد مع أعداء الله فى عز الإسلام » .

ويقول أحمد بن الحوارى المتوفى سنة ثلاثين ومائتين « فى الرباط والغزو نعم المستراح ، إذا مل العبد من العبادة استراح إلى غير معصية » .

والصوفية هم الذين أنشئوا الرباطات الإسلامية استجابة لقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية –ومحرروها من المستشرقين– عند حديثها عن الرباطات وهى الزوايا الإسلامية المحصنة : الرباط هو المكان الذى يجتمع فيه الفرسان متأهبين للقيام بحملة من الحملات ، ولكن هذه الكلمة أطلقت على منشأة دينية حربية ، ويتصل نظام الرباط والجهاد ، والرباطات قلاع وأماكن يتجمع فيها الجنود عند الثغور الإسلامية المعرضة للخطر ، تشبه القلاع عند أهل الغرب كما تتخذ أبراج مراقبة لتحذير أهل البلاد المهددين ، وجنود الحاميات التى فى داخل البلاد وعلى الحدود ، وكان معظم هذه الرباطات منشآت حكومية إلا أن خدمة المحاربين فيها لم تكن بأى حال من الأحوال إجبارية ، فرجال الرباط متطوعون من أهل التقى والورع نذروا أنفسهم للذب عن الإسلام ، وكان أهل الرباطات ينفقون حياتهم فى التدريب العسكرى وفى الحراسة ، كما كانوا ينفقونها أيضاً فى التعبد ، وكان المرابطون يعدون أنفسهم للاستشهاد بالصلوات الطويلة يقيمونها تحت إرشاد شيخ من

الشيوخ المبجلين وكان لهذه الرباطات أثر كبير وشأن حربى هام على تخوم البلاد الإسلامية ، وبتطور التصوف وتشعب المتصوفة فرقاً استمرت هذه التكتلات » .

أنشد أمام الفضيل بن عياض قول عبد الله بن المبارك :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب .

فذرفت عيناه ، وقال : صدق أبو عبد الرحمن ، ثم ذكر هذا الحديث رواية عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رجلاً قال يارسول الله : علمنى عملا أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله فقال الرسول ﷺ : هل تستطيع أن تصلى فلاتفتر وتصوم ولا تفطر ؟ فقال يارسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ولو طوقت ذلك مابلغت المجاهدين فى سبيل الله » .

والتاريخ يحدثنا عن أن شيوخ التصوف الأجلاء كانوا يشتركون فى مقاومة الغزو من أمثال الشاذلى والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد والبدوى وابن عطا الله وغيرهم ممن اشترك فى مقاومة الصليبيين ، كما يذكر الجبرتى أن هزيمة الفرنسيين كانت على أيدى رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية ، وفى دائرة معارف الشعب : الجماعات الصوفية امتداد لحركة روحية سياسية سادت العالم الإسلامى من قديم وأدت فيه دوراً خطير الشأن وربما جاء وقت كانت تتجلى فيها وحدها كل حركة المقاومة للغارة الأوربية على العالم الإسلامى ، وهذه الجماعات هى التى أمدت حركة المقاومة فى شمال أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسى بكل عناصر الثبات والبطولة والتى لم تفقد الأمل فى النصر مهما اشتد الخطر وتفاقم الخطب » .

إن هذا يذكرنا بما يمكن أن يفعله أبناء الطرق الصوفية لو أعادوا تنظيم صفوفهم وتنبهوا إلى واجبهم الدينى ورسالتهم الإسلامية التى تتخطى الحدود والسدود .

(د) التصوف والعمل :

وفى الحقيقة أيا كانت حملات خصوم الصوفية ضدهم فى مجال العمل فإن تاريخهم الحقيق يرتفع بهم إلى مقام العاملين النشيطين الذين يبرمون من الخمول وينفرون من التواكل ، فالصوفية فى جملتهم لم يدعوا إلى هجر الأسباب أوترك التكسب ولكنهم دعوا إلى العمل وحذروا من

التكاسل فيه . قال بنان الحمال : الإعراض عن الأسباب جملة يؤدى إلى ركوب البواطل . وقال عبد الله بن المبارك : لاخير فيما يذوق لذة المكاسب . والشعرانى كان ينصح أتباعه من الصناع بإتقان العمل ، وكان يقول لهم : الاجتهاد فى العمل مقدم على النوافل والتطوع للعبادة . والشواهد على ذلك كثيرة تحفل بها كتب التصوف كما يشهد بها تاريخهم ، وألقاب الصوفية المنسوبون إليها تدل على أعمالهم التى كانوا يتكسبون منها كالحمال والزجاج والقصار والنساج والقواريرى والحريرى والحداد والمقرى وغير ذلك من الألقاب التى تحمل معنى العمل وهى شهادة صدق تؤيد قول حمدون القصار رحمة الله « قعود المؤمن عن الكسب إلحاف فى المسألة » .

وتوكلهم الذى كانوا يعتزون به لا ينافى العمل . يقول أبو جعفر الحداد رحمه الله : مكثت بضع عشرة سنة أعتقد التوكل وأنا أعمل فى السوق آخذ كل يوم اجرتى .

ومعنى التوكل كما يفسره الدينورى « التوكل حسم الطمع عن كل مايميل إليه قلبك ونفسك » أو كما يفسره النيسابورى « التوكل أن تأكل بغير طمع ولاشره » .

هذه لمحات عن التصوف فى عصوره الغابرة ، وهو كما رأيناه صورة مشرقة مشرقة .

فكيف هو الآن ؟

إن واقع الطرق الصوفية الآن يشهد ببعد المسافة بينها وبين التصوف الحقيقى الذى شهدناه على أيدى رجاله القدامى من الذين رسخت أقدامهم فى طريق الوصول إلى الله . وربما لبس التصوف روح عصره ، فقديماً كان الإسلام قويا فى نفوس أبنائه فقوى التصوف ، وحين اجتاحت عوامل الضعف نفوس المسلمين سرى هذا الضعف إلى التصوف فأصبح صورة واهنة لاروح فيها ولاقوة ولاغناء إلا من رحم الله وسار على الجادة . .

لقد كان حال الصوفية القدامى الفناء فى الله والاستهانة بكل رخيص وغال فى سبيل رضاه ، أسهروا ليلهم وأظمأوا نهارهم وقتلوا شهوات نفوسهم وآثروا ماعند الله على ما فى هذه الدنيا من عرض فان ومتاع زائل ، وتحملوا فى جهادهم أنفسهم الجوع والمشقة والفاقة حيث كان أنسهم بالله وفرحهم به وغايتهم الوصول إليه ، وكانوا عمليين فى جهادهم منطقيين مع أنفسهم لايراودهم شك ولا يقعدهم ضعف ولايساورهم قنوط أو يأس .

كان الواجد منهم يستشعر الفرح فى الضيق والرحمة فى الشدة والغنى فى الفقر وحتى كان أحدهم يقول : أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر ، وحتى قال أبو على الكاتب حين سئل إلى أى الجنبين أنت تميل ؟ إلى الفقر أم إلى الغنى ؟ فقال : إلى أعلاهما منزلة وأسناهما قدراً . ثم أنشأ يقول :

ولست بنظار إلى جانب الغنى
إذا كانت العلياء فى جانب الفقر
وإنى لصبار على ماينوبنى
وحسبك أن الله أثنى على الصبر

ومن طريف مايروى فى ذلك أن أحد الأثرياء قصد الجنيد بصرة مملوءة بالدنانير وقال له : خذ فرق هذه فى أصحابك . فقال له الجنيد : « ألك غيرها » . قال : نعم كثير . قال الجنيد : وتطمع فى غيرها ؟ قال الرجل : نعم ، فقال له الجنيد : إذن خذ صرتك فأنت أحوج إليها منا .

ويروى أن علة لحقت أبا الحسين النورى ولحقت الجنيد فى نفس الوقت علة أخرى . فأخبر الجنيد عن وجده بينما كتم النورى علته . فسئل : لم لم تخبر كما أخبر صاحبك ؟ فقال : ماكنا لنبتلى ببلوى فنوقع عليها اسم الشكوى . ثم قال :

إن كنت للسقم أهلاً
فأنت للشكر أهلا
عذب فلم يبق قلب
يقول للسقم : مهلا

فأعيد ذلك على الجنيد فقال : ماكنا شاكين ولكن أردنا أن نكشف عن القدرة فينا ثم قال :

أجل ماصنك يبدو
لأنـه عنك جلا
وأنت يأنس قلبى
أجل من أن تجلا
أفنيتنى عن جميعى
فكيف أرعى المحلا ؟

فبلغ ذلك الشبلى فقال :

محنتى فيك أنى
لا أبالى بمحنتى
ياشفائى من السقام
وإن كنت علتى —

هكذا كان رجال التصوف : الله شغلهم الشاغل ، والوصول إليه هدفهم الأساسى ، وجهاد أنفسهم طريق هذا الوصول ، ولم تلههم تجارة ولابيع عن ذكر الله ، تحولت قلوبهم إلى مساجد عامرة بالإيمان وأصبحت أرواحهم شعلة من النور لاتنطفئ وهم مع ذلك موصولون بكتاب الله وسنة رسوله لايفرطون قيد أنملة فيها

ولايبتعدون مقدار خطوة عنها .

إن الناظر إلى حال التصوف الآن يرى تخلفاً لاينبئ عن الماضى المشرق . فنحن نرى الآن مظهرية ينأى عنها التصوف الحقيق بل يحذر منها ، لأن إنكار الذات أساس من أسس التصوف ، والعزوف عن الشهرة وسيلة من وسائل قهر النفس ، وابن عطا الله السكندرى رحمه الله يقول فى حكمه : من دفن نفسه فى أرض الخمول نبت ، وقال رجال التصوف : حب الظهور يقصم الظهور ، وهذا معنى يهدفون من ورائه إلى قطع علائق النفس حتى يستطاع سياستها والتحكم فى قيادتها .

ونحن نرى الآن غيرة تتنافى مع التنافس المحمود الذى ورد فيه قول الحق (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) هذه الغيرة قد تؤدى إلى تطاحن أحياناً بين أبناء الطرق وخلافات تظهر أثره فى البيئات الريفية وبين طبقات العامة وتجر ذلك إلى مالا يحمد عقباه . بل ربما تظهر الخلافات بين أبناء الطريقة الواحدة وهو أمر يحذر منه التصوف الحقيق الذى يدعو إلى الإيثار والحب والمغفرة والتسامح .

ونحن نرى الآن خروجاً على آداب الشريعة فى الاحتفالات والأذكار ، يظهر ذلك الخروج فى استعمال الدفوف والطبول وغيرها من ألوان الطرب والموسيقى مما يتنافى مع مايهدف إليه التصوف من رعاية للآداب الشرعية فى الأذكار .

حلقات الذكر :

وحلقات الذكر مطلوبة شرعاً لقوله عليه الصلاة والسلام : إذا أمررتم برياض الجنة فارتعوا . فقيل وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر .

والحق يدعونا إلى الذكر بقوله (يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلا) والذكر أساس من أسس الطريق الصوفى وعليه المعول الأكبر فى الوصول إلى الله تعالى وليس له وقت خاص ولا وضع خاص ، ففى الذاكرين يقول الله تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) والذكر كما يكون باللسان يكون كذلك بالقلب والوجدان ، ويكفى فى جلال الذكر أن الله يقابل ذكر العبد له بذكره إياه (فاذكرونى أذكركم) ومن آثار الذكر أن الذاكر لايجد أثر الوحشة ولايمسه ضيق ولا ألم ولا يصيبه مكروه فالله يقول (ألآ بذكر الله تطمئن القلوب) وقال بعض العارفين : إن الصواعق لاتصيب الذاكرين .

وإذا كان المذكور هو الله فلابد أن يجنب مجلس الذكر كل مايتنافى مع جلال

الله وقدسيته من آلات اللهو والطرب التى هى من أدوات الشيطان .

والصوفية لايرون بأساً من المنشد بشرط أن يكوصالحاً معروفاً بالورع وأن يكون إنشاده هادفاً لتنشيط الذاكرين وتذكيرهم بالله وجماله وجلاله عاملاً بما يقول ، وليس هدفه إظهار جمال صوته رغبة فى انتزاع الإعجاب أو جمع المال .

وربما ظهر بين صفوف المريدين من يقصر فى العبادات ، وربما أسندت الخلافة إلى غير مستحقيها ، مع أن تربية المريدين مهمة شاقة تحتاج إلى شيخ عارف بصير عالم يأخذ بيد أبنائه ويكون قدوة طيبة لهم ، وقد أطنبت كتب التصوف جميعها فى صفات الشيخ الذى يصلح لقيادة المريدين ، وخلاصة مايقال فى ذلك هو قول ابن عربى « شرط الشيخ أن يكون عنده جميع مايحتاج إليه فى التربية ، وقوله : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ .

وإذا كان هذا واجب الشيخ فواجب المريد لايقل عن ذلك من عمل بالآداب مع شيخه وملازمته وامتداحه وعمل بإرشاده . إذا راعى من شيخه حسن الأدب فتح الله عليه فى ميدان الطلب .

وربما رأينا أبعد من ذلك ، رأينا هذه الكثرة الكثيرة التى تنضم إلى صفوف التصوف وتنتسب إلى طرقه المتعددة دون أن يكون لذلك أثره المتوقع من ارتفاع فى الروح وصعود فى الهمة وتحليق فى سماء العزة وقضاء الباطل وتقويض لصروح الشرك والإلحاد . . . وماذلك إلا لأن هذه الكثرة الكثيرة كغثاء السيل تمسكت بالقشور وتركت اللباب — وأصابها ماأصاب غيرها من ادعاءات تحتاج إلى الدليل ومزاعم ينقصها البرهان .

وإذا كان القشيرى المتوفى فى منتصف القرن الخامس الهجرى — رحمه الله — قد كتب رسالته الصوفية يقول فى مقدمتها : إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل :

أما الخيام فإنها كخيامهم
وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، لابل اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضى الشيوخ الذين كانوا بهم اهتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة

ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة وركضوا فى ميدان الغفلات وركنوا إلى اتباع الشهوات . . ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال وادعوا أنهم تحرروا من رق الأغلال وتحققوا بحقائق الوصال . . إلى آخر ماقال فى رسالته ليبين آداب هذه الطريقة وأصول الحقيقة غيرة منه على الدين وحرصاً منه على رجال اليقين . .

إذا كان القشيرى قال هذا الكلام فى تلك الفترة السحيقة فماذا نقول الآن وقد مضى على تحرير هذه الرسالة مايقرب من عشرة قرون ، لابد أن يكون الجرح قد أصبح جروحاً والقرح صار قروحاً ، لقد ازدادت الأحوال سوء واستشرى الداء وعز الدواء .

الهدف المنشود :

إن التصوف قوة فائقة لو أمكن استخدامها لتحول رجالها إلى نماذج رائعة من البطولة والفداء ، يرفعون من شأن أمتهم ويقدمون لها كل ماتصبو إليه من إعزاز ورفعة .

دعونا من النواحي الفردية التى لاتدخل تحت نطاق الحكم العام لرجال التصوف كجنوح بعضهم إلى التجرد والعزوف عن الزواج والميل إلى العزلة فتلك أحوال خاصة لشخصيات قليلة لاتحول التصوف ورجاله إلى قاعدة عامة تحكم عليه من خلالها مع أن هؤلاء لم يلزموا أحداً بهذا المنهج الذى ألزموا أنفسهم به ، بل ربما اعتبروا من توسع فى أحواله أفضل ممن ضيق على نفسه فيها ، فهذا أبو طالب المكى صاحب قوت القلوب يقول فى كتابه : كان بشر بن الحارث يقول عن أحمد بن حنبل : إنه فضل على بثلاث ، بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيق عنه ، وقد جعل إماماً للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى .

إننا لننظر الآن إلى الطرق الصوفية فنجد آلافاً مؤلفة من الشباب ينضمون تحت لوائها ، والشباب هم ذخر الأمة وعتادها وعلى كواهلهم تقدم نهضتها ، فما أحرى شيوخ الطرق أن يبثوا فى روع هؤلاء الشباب القوة الروحية الحقيقية ويحولوا أنفسهم إلى طاقات هائلة من الحركة الإيجابية الحية النابضة بالصدق والصراحة والوفاء والإخلاص والمثل العليا .

يقول الدكتور حسن الأشموني : نحن لانجانب الصدق إن قلنا إن التصوف

يستطيع أن يكون قوة دفع تخدم جميع أهداف المجتمع حتى المادية منها . فليس من شك فى أن بناء المجتمع بناء قوى متينا عزيز الجانب يرجع إلى مدى مايكون لأفراده من صفاء النفس ومتانة الخلق واستعداد للتضحية وإنكار للذات وهى كلها صفات يتصف بها الصوفية ويأخذون أنفسهم بها ويروضون مريديهم عليها ، وهكذا تستطيع الحياة الروحية أن تسلك طريقها إلى المشاركة فى مطالب الحياة اليومية فتؤدى إلى تدعيم أركان المجتمع وتحقيق خيره بدلاً من أن تكون دافعاً إلى العزلة والعزوف عن الدنيا .

التصوف ودوره فى نهضة الإسلام :

لعله لايكون تكراراً أن نذكر بأن التصوف هو روح الإسلام وأن دعوته هى لب الإسلام وحقيقته فى نهوضه نهوض بالإسلام . وواجب المسلمين اليوم يقضى بأن يتحمل كل منهم مسئوليته الكبرى فى العمل على تقدم دينه ووطنه والبحث عن مواطن العلل فى جسم الدولة الإسلامية والقضاء على مايتابها من أمراض وأسقام ، وللتربية الروحية أثرها الفعال فى هذا المجال ، فإن أى حضارة مهما بلغت من رقى إنما هى قصور مبنية على الرمال إذا فقدت الأساس الروحى ، إنها تصبح زيفاً لاقيمة له وبهرجا لاغناء فيه إذا لم تعن فى إقامة صرحها بالنواحى الروحية ، وهذا هو دور التصوف . فالقيم الروحية هى التى تستطيع أن تحفظ للناس سعادتهم وهدوءهم وهى التى تجعلهم يعملون وهم يستشعرون لذة العمل والكفاح .

التصوف والتقدم العلمى :

ولسائل أن يسأل : وما للتصوف والتقدم التكنولوجى الآن ؟ وهل يشجع التصوف على العلم . . وأبناؤه عجزة عن اللحاق بركب التقدم ؟ ولكنها الذى يرمى الصوفية بذلك متجن عليهم ، فالتصوف لايعاق العلم بل يشجع عليه ، وقد كان الصوفية المحققون القدامى منهم والمحدثون علماء أجلاء فى مختلف علوم عصرهم العملية والنظرية . ودعوا إلى تعلم العلوم على اختلافها من قدر الإسلام وتغنى المسلمين عن استغلال أعدائهم لهم وسيطرتهم عليهم ، واعتبر الغزالى فى إحيائه أن فرض الكفاية فى العلم يأثم المسلمون جميعاً إن تركوه كعلم الطب والكيمياء والهندسة وغيرهما ، والشعرانى الذى يتهمه بعض الناس بالجمود يقول فى كتابه آداب العبودية .

« واعلم أن أهل الحق يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعي لها دلالة وطريق إلى العلم بالله ، فتسمية هذه العلوم حجبا عن الحق لكون الناظر فيها لاينظر فيها من حيث دلالتها على الحق فلذلك حجبوا عن موضع الدلالة التي فيها على الحق . فعلم أن جميع العلوم التي تحجب أكثر الناس هي عند أهل العلم لاحجاب فيها » ويقصد الشعراني من ذلك أن تكون العلوم على اختلاف أنواعها وفروعها وسيلة للهداية إلى الله لاسبباً في الابتعاد عنه كما يحدث من كثير من المتعلمين الآن .

والصوفية في منتهى الجرأة ولعلهم أسبق الناس في توجيه أنظارهم إلى السماء وأفلاكها باحثين عن الحقيقة المجردة وقد اهتدوا إليها بالفطرة السليمة والإلهام الصادق . جاء في كتاب التصوف عند المستشرقين : « وقد تألق في تاريخ المسلمين مئات من المبرزين في شتى العلوم ومختلف نواحي الدراسات الكونية والأسرار المتنقلة في مختلف الآفاق كانت المعلم الأول والأكبر لأولئك الذين استيقظوا أخيراً في الغرب » ، والصوفية في قمة هؤلاء المبرزين .

وإني لأحسب أن الصوفية يتحمسون لهذه الفتوح العلمية الحديثة إذا كانت تهدف إلى النفع ، لأنهم يعتقدون أنها من أبواب الخير للإنسانية وبشرى تحمل في طياتها انتصار الروح على المادة ، جاء في كتاب أعلام التصوف « لقد آمن المتصوفة أن فجر الذرة إنما هو صحيفة جديدة في تاريخ الكون تتمشى مع التسخير الإلهي لقوى الكائنات كافة للإنسان الخليفة ، بل لقد رأوا في الفجر الجديد إرهاصا لعالم جديد سيبلغ كماله الروحي مع الوثبة الروحية » .

فالتصوف لايجافي العلم ولكن يدعو إلى أن يكون التقدم العلمي وسيلة بناءة لمعرفة الله والخير الإنسانية لاوسيلة للانصراف عن الله والإضرار بالناس . ولايتحقق الخير من العلم إلا بأن يتخذ العالم والمتعلم زادا روحيا يحرسهما من الفساد والإفساد .

بوادر نهضته :

إننا نشهد الآن بوادر نهضته ، وعلى الرغم من الظلام المدلهم فإن أشد الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر ، وسيعم نور الله الآفاق من جديد ، لأن الله لن يتخلى عن دينه الذي اختاره للبشرية ، وإذا كان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم فإن بوادر التغيير بدأت تظهر في الأفق في صور

مختلفة نراها فى الغيرة الدينية واليقظة الروحية . .

وقد ظهرت تباشير ذلك أيضاً بين صفوف المتصوفة أنفسهم ، فالمظهر الذى كانت تطالعه عيوننا كثيراً للدروشة السلبية والنكوص عن العمل وادعاء الجذب والتجرد بدأ يتلاشى وأوشك أن يزول نهائيا بإذن الله واتجهت عناية الصوفية إلى تطهير صفوف التصوف من أدعيائه الذين أساءوا إليه بقصد أو بغير قصد ، وبذلك لايجد الإنسان غضاضة فى أن ينتسب إلى التصوف بعد أن انتقل كما يقول أحد الكتاب الظرفاء من صفوف اللحى والمرقعات إلى صفوف الكبراء والعلماء والمفكرين لأنهم أدركوا نقاء جوهره وصفاء معدنه وضياء حقيقته التى كان يحجبها الأدعياء والجاهلون والمتصنعون . ولأن كثيراً من المثقفين عرفوا قيمته بعد أن قرءوا تاريخ رجاله القدامى والمحدثين ، وعرفوا أن صفوفه كانت تضم كثيراً من العباقرة الأعلام حتى وقت قريب ، وما ظنك برجل كجمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو السيد رشيد رضا وهم السادة الأعلام الذين لامجال للطعن فى تفكيرهم أنهم من رجال التصوف كما تدل على ذلك تراجمهم .

تذكير وتنبيه :

على القائمين بأمر التصوف الآن أن يعيدوا إليه إشراقه وبهاءه ورواءه ليزداد المتمسكون به تمسكاً وليزداد البعيدون تقرباً ، وعليهم أن يبعثوا فى نفوس المريدين روح الإخلاص والصدق والمحبة والعمل التفانى فى أداء الواجب وعليهم ألا يمنحوا الإجازات لكل من هب ودب بل يحسنوا اختيار من يتصدى لإرشاد الناس وهدايتهم وعليهم أن يوضحوا رسالة التصوف الحقيقية للناس حتى يفهموه على علم عن طريق إصدار نشرات أو مجلة خاصة تشرف عليها هيئة تعمل على تحقيق ذلك وبخاصة بعد أن صدرت لائحة جديدة لرجال الطرق الصوفية تنص المادة الأولى فيها على مايلى :

تستهدف الطرق الصوفية بكافة تشكيلاتها التربية الدينية والروحية بما يتفق مع أحكام الشريعة الإسلامية والدعوة إلى العمل بالوعظ والإرشاد وتنظيم الذكر الصوفى وغير ذلك من السبل والوسائل الصوفية .

وصدور هذه اللائحة خطوة مشكورة — على تحفظ ذكرته مجلة المسلم التى نشرت هذه اللائحة وهو :

— أن يكون هناك تطبيق فعلى عملى

إيجابى واقعى عادل صادق ظاهراً وباطناً قولاً وعملاً لهذه اللائحة .

– أن يأخذ هذا التطبيق طريقه القوى القويم الحاسم بلا حساسيات ولا مجاملات ولاتسيب .

– ليكن معلوماً أن قيمة اللائحة فى احترامها بالتطبيق الجاد وإلا كانت مرضاً جديداً يضاف إلى أمراض جسد التصوف المظلوم .

إن رسالة التصوف تقدم على الإيمان الكامل والتفانى فى خدمة المجموع والجهاد بنوعيه فى سبيل رفعة الإسلام وعزته والوصول بالإنسان إلى أعظم غاية فى الحياة وهى التعرف إلى الله والفناء فيه وبناء قيم خلقية شامخة تنحنى القامات أمامها إعزازاً وإجلالاً ، إلى غير هذه الأهداف النبيلة التى ترانا فى حاجة إليها اليوم . والتى لاتتحقق إلا بالرجوع إلى المنابع الأولى للتصوف والعودة إلى سيرة رجاله قدوة واتباعاً .

وقصارى مايقال إن مسئولية القائمين على أمر التصوف من شيوخ ومرشدين ومريدين أن يكونوا صورة صادقة للتصوف وأن يرتقوا إلى المستوى الذى هيأته له رسالته حتى يؤتى ثماره المرجوة بين الشباب المتعطش الحائر وبذلك يؤدى رسالته فى نهضة الإسلام ، ولعله إذا حقق التصوف أهدافه المنشودة يساهم مساهمة فعالة فى الإجابة عن السؤال الذى طرحه هذا العدد : إلى أين يتجه المسلمون ؟ .

والله أسأل أن يوفقنى إلى أن أكون عاملاً بما أقول . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى .

حوائج الناس إليكم نعمة

قال ﷺ : «إن لله عند أقوام نعماً يقرها عندهم ، ما لم يملوا ، فإذا ملوها نقلها إلى غيرهم» .



عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

- من مواليد النخيلة محافظة أسيوط فى ٢٠/٩/١٩٢٥ م
- التحق بالأزهر الشريف وتخرج فى كلية اللغة العربية سنة ١٩٥٠ ثم فى معهد التربية العالى سنة ١٩٥١م
- يعمل فى حقل التعليم بوزارة التربية والتعليم
- اشتغل بالتأليف ومن مؤلفاته :

مصر العربية فى مجال التاريخ سلسلة كتب قومية ١٩٦٦ م

محيى الدين بن العربى سلسلة أعلام العرب ١٩٦٨ م

المبرد أديب النحاة سلسلة أعلام العرب ١٩٧١

الإشعاعات الإسلامية فى معركة العاشر من رمضان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٣ م

أهل البيت فى مصر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٥ م

مثالية الدعوة والدعاة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٦ م

نهضة إسلامية

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

اليقظة الإسلامية أصبحت حقيقة وأمرا واقعا ، كما أن المد الإسلامى أوشك أن يفيض من جزر الفلبين إلى سواحل الأطلسى ، والإسلام – هدية الله إلى خليقته – أصبح الآن فى أعين المسلمين – على الأقل – المنقذ الوحيد للبشرية من الضياع والتمزق والانحلال التى تعانى منها أجيالنا المعاصرة . .

ومن ثم كان التلهف المشاهد فى سائر الدول الإسلامية على التنقيب فى صيدلية الإسلام عن المبادئ والتشريعات التى نزل بها وحى الله على رسوله المصطفى ﷺ ، لتكون هاديا للبشرية إلى الطريق الأقوم والنهج الأصلح إلى ما فيه الخير والنجاح للإنسان وإلى ما يحقق له السعادة فى دنياه وفى أخراه . فتطبيق الشريعة الإسلامية قد بدأ فعلا وبصورة جدية فى باكستان . أما فى بنجلاديش فإن نتائج الانتخابات التى أعلنت توًا قد كانت فى صالح الذين التزموا بتطبيق الشريعة الإسلامية فى نظام الحياة اليومية للفرد وفى السياسة العامة للدولة . . .

وفى إيران قد ظهرت قوة الحركة الإسلامية حتى وصلت إلى دست السلطة ، وسيكون نجاحها فى التغلب على الصعوبات وجيوب المقاومة التى تناهضها الآن مرهونا بمدى التزامها وصدقها فى تطبيق شريعة الله بوعى وفهم حقيقيين . .

أمّا فى مصر فإن بمجلس الشعب المصرى نشاطاً بلجنته التشريعية للفراغ فى مراجعة التشريعات المصرية ، وإعادة صياغتها على نهج إسلامى ، أو بعبارة أخرى فإن الذى يجرى فى مجلس الشعب المصرى هو تقنين المبادئ والتشريعات الإسلامية وصياغتها فى مواد قانونية مضبوطة وواضحة ، وقد صرح مؤخرا رئيس المجلس د . صوفى أبو طالب بأن هذا العمل الضخم سيتم إنهاؤه خلال الدورة البرلمانية الحالية أى قبل انتهاء سبعة شهور . .

وفى المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين الذى انعقد فى القاهرة بدعوة من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر كانت أظهر توصيات هؤلاء العلماء وضع دستور للدولة الإسلامية يكون جاهزا أمام أية دولة ترغب فى صياغة مجتمعها على نمط إسلامى .. وفى اقتفاء وحى الله فى سياستها العامة من جميع نواحيها الداخلية والخارجية ..

وهذه اليقظة الإسلامية تجعلنا نرجع البصر كرّتين إلى التاريخ ونحاول أن نستشف منه الأسباب التى أخرت هذه اليقظة حتى اليوم ، مع أن كثيراً من الدول فى أنحاء شتى من العالم الإسلامى قد سلمت لها حريتها السياسية منذ ربع قرن أو يزيد وكان فى مقدورها تطبيق الشريعة الإسلامية من قبل .. والسبب الذى جعلنى أورد هذا السؤال وأوضح الإجابة عليه هو أن كثيراً من الأسباب التى أعاقت المسلمين من تطبيق شريعة الله فى الدول التى نالت استقلالها السياسى منذ أمد ليس بالقصير مازالت ذات فعالية ، وربما أخرت تطبيق الشريعة الإسلامية فى كثير من الدول إلى أمد أرجو أن لايطول ، كما أن هذه الأسباب نفسها قد تكون عاملا فى بعض الدول الإسلامية يجعل تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا جزئيا .. وفى هذا الخطر كل الخطر .. فإن الإسلام كل لا يتجزأ .. والأخذ بنصيب منه قد يترك ثغرات تفوّت المصلحة من القاعدة الشرعية التى تكملها قاعدة أخرى قد يبدو لصاحب النظر القصير أن لاثمة رابطة بينهما .. والفقهاء فى جميع الأزمنة والأمكنة ومن بينهم فقهاء العصر فى شتى أرجاء العالم الإسلامى لا يجهلون هذه الحقيقة الأكيدة التى لا شك فيها ..

وإذا نحن راجعنا تاريخنا الحديث فى مصر واستعرضنا وقائعه لوضحت لنا الأسباب التى جعلت الشعب المصرى المؤمن يتقاعس عن تطبيق شريعة دينه ردحا طويلا من الزمن ويترك المجال لقوانين لقيطة غريبة عن تقاليده وعن عاداته وعن الدين الذى ارتضاه وآمن به ..

وفى الواقع فإن الشريعة الإسلامية كانت على نحو مَّا مطبقة فى مصر حتى قبل الغزو الفرنسى لمصر .. فلما دخلها نابليون عرف الشعب المصرى لأول مرة منذ ولاية عمرو بن العاص قوانين غير إسلامية .. ومنذ ذلك الوقت وحتى فى عهد محمد على وخلفائه من بعده كان الأخذ بالشريعة الإسلامية غير كامل ، أو بالأحرى غير صحيح .. وبعد أن أخمد الإنجليز الثورة العرابية بدأت النكسة التشريعية فى مصر تتسع شيئاً فشيئاً ويزداد نفوذ القوانين

الأجنبية فى البلاد حتى انتهى الأمر بإنشاء المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة التى كانت تطبق فيها كل القوانين الأوربية، وبجوارها أنشئت محاكم وطنية طبقت رقاعا من القوانين الأوربية ولم تترك للشريعة الإسلامية إلا محاكم اقتصر اختصاصها على النظر فى قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين.. وحتى هذه المحاكم لم يكن لها من التنظيم القانونى سوى لائحة تنظم إجراءات التقاضى بها.. أما المبادئ القانونية نفسها فلم تسن بها قوانين ذات مواد منضبطة، بل ترك الأمر للقضاة يستوحون أحكامهم من أقوال فقهاء مذهب الأحناف وحده دون سائر المذاهب الفقهية الأخرى.. وكان القاضى حرا يصدر أحكامه فى المسائل الخلافية باختيار أحدها حسب ما يرتئيه.. ثم إذا عرضت نفس القضية على قضاة آخرين فى المحكمة الاستئنافية أو فى المحكمة العليا صدرت الأحكام بالرأى الآخر، وهكذا سارت الأمور، وللأسف فإنها هكذا حتى اليوم مع بعض الانضباط القانونى الذى جدّ على فترات وليست له قيمة ذات أهمية..

ولا أريد أن أدخل بالقارئ فى متاهات تاريخ التشريع المصرى فى هذه الفترة العاصفة من تاريخ مصر.. ولكن يجب أن أنبه على أن الذين شرعوا للمحاكم الوطنية التى بقيت حتى اليوم بعد إلغاء المحاكم القنصلية والمختلطة لم يكونوا فى الأغلب من المصريين، بل لم يكونوا فى أغلب القلة المصرية منهم من المسلمين.. ومن ثم راحوا ينقلون من القوانين الفرنسية والإنجليزية قوانين تبيح الزنا واللواط إباحة مطلقة إذا تمت بين البالغين العقلاء فى غير اغتصاب أو علنية.. ولا زالت هذه القوانين المرقّعة الدخيلة ذات صلاحية حتى اليوم..

ولقد قامت بوادر النهضة المصرية المطالبة بالاستقلال والتخلص من نير المستعمر الأوربى على بذور وأسس مِلِّيَّة: أى على فكرة طرد النفوذ الأجنبى وإحياء ما سمى آنذاك بالخلافة أو الأمة الإسلامية.. وقد تزعم هذه الدعوة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ولكن سرعان ما أخمدت هذه الحركة وماتت بموت دعاتها..

ولكن سرعان أيضاً ما أعقبتها حركة استقلالية أخرى ولكن على نطاق قومى مصرى تزعمها مصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم من الزعماء السياسيين فى مصر.. وأسفرت هذه الحركة عن ثورة سنة ١٩١٩ م التى جعلت المستعمر يلائم نفسه

مع الأمر الواقع ويلهى المصريين بما سمى بدستور سنة ١٩٢٣ م الذى يتيح الشعب المصرى استقلالا شكليا وَيُبْقِى النفوذ الأجنبى يدير سياسة البلاد ويستنزف مواردها الاقتصادية . . . ولم يترك – فى حقيقة الأمر – للمصريين سوى أن ينعموا باستقلال موهوم يدورون فيه حول أنفسهم ماداموا يساعدونه فى النهاية – حكاما وأحزاباً وَمَلِكاً – على استغلال كل موارد الشعب ويسيرون فى فلكه ويحققون أغراضه . . ولم يكن المستعمر الإنجليزى فى هذه الفترة متستّرا ، أوحتى يحاول أن يخفى كامل سيطرته على مصر ومقدّراتها ، بل إنه تعمد أن يبقى ممثله الدبلوماسى فى القاهرة بلقبه الذى كان له فى أيام الاستعمار الكامل : « المندوب السامى » . . ولم يتغير هذا اللقب إلى ما يجب أن يكون عليه « سفير » إلا بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ التى حولت مصر من دولة تابعة لبريطانيا العظمى إلى دولة حليفة لها . . ولم يتح الكافى من الوقت أمام هذه المعاهدة لكى تبرهن على قدرتها أو فشلها فى إضافات جديدة على واقع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر . إذ سرعان ما أُعْلِنَتْ الحرب العالمية الثانية . وكانت أجزاء من مصر من أهم ميادين وقائعها الحربية وأشدها ضراوة وشراسة ، مما جعل بريطانيا تتجاهل استقلال مصر وتعيد سيطرتها وتحشد فيها جيوشها وتجند كل إمكانياتها لخدمة حربها التى ليس للمصريين شأن بها ، ولا ناقة لهم فيها ولا جمل . . ووضحت هذه السيطرة وضراوتها فى فبراير سنة ١٩٤٢ م حينما قاد السفير البريطانى كتيبة من الدبابات المسلحة بالمدافع ، وحاصر بها قصر الملك آمراً إياه بأن يسند مقاليد الحكم إلى شخصية موالية ، بمقولة أن الشعب سيرتضيها ويوقف هياجه الذى يقلق القوات البريطانية المدافعة عن البلاد ! ! . . وهكذا ظلت مصر تحت النفوذ الأجنبى حتى بعد سقوط الملكية وقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ م : تلك الثورة التى نجحت فى انهاء النفوذ البريطانى بتمام جلاء القوات الإنجليزية عام ١٩٥٦ ، بمقتضى معاهدة أنهت الوجود العسكرى الأجنبى فى مصر مع بقاء قاعدة دفاعية لبريطانيا فى منطقة القناة يديرها مدنيون . . وحتى هذه القاعدة قد صُفِّيَتْ تماما نتيجة لفشل الغزو البريطانى الإسرائيلى الفرنسى المشترك فى نفس العام ١٩٥٦ م ، حينما أمم جمال عبد الناصر شركة قناة السويس العالمية . .

والذى يعنينا هنا أن نقرر بأنه حتى

وقت قريب من تاريخ مصر لم تتهيأ أية ظروف مناسبة لأية حركة إسلامية كي تعيد إلى مصر صبغتها الإسلامية، أو للشريعة الإسلامية كي تبسط سلطانها على الحياة المصرية . . . فكل الذين تصدّروا الحياة السياسية والاجتماعية والتشريعية فى مصر منذ بداية النهضة القومية كانوا من الذين تثقفوا ثقافة غربية . . . المقتنعين بجدوى وصلاحية النظم الديموقراطية والسياسية والاجتماعية والتشريعية الأوربية فى النهوض بالحياة المصرية . .

فكل أعلام مصر وزعماء نهضتها : مصطفى كامل وسعد زغلول ولطفى السيد وقاسم أمين ومصطفى النحاس وعبد العزيز فهمى وطلعت حرب وغيرهم وغيرهم كانوا — بدون طعن أو تجريح فى حسن نواياهم الوطنية أو الدينية — على هذا الرأى . . بل إن بعضهم كان لا يأنف من المجاهرة بأن الشريعة الإسلامية شىء قد عدت عليه عوادى الدهر وأصبحت تراثا بطل مفعوله ولكن لا بأس من التفاخر به بين الحين والحين . .

وكان من أخطر نتائج هذه الملابسات ازدواجية التعليم . فالنهضة الثقافية فى مصر قامت على مدارس علمانية تهمل تدريس الدين إهمالا تامًا فإذا ما حصلت ضغوط شعبية أحنت السلطات المهيمنة على التعليم رأسها للعاصفة وقررت تدريس الدين، ولكن كمادة ترف لا يجرى عليها اختبار أو امتحان واكتفت بقشور من المواضيع الدينية وكميات ضئيلة من المبادئ الأخلاقية (لا العقائدية ولا التشريعية) لتكون المنهج الدينى فى البرامج التعليمية بهذه المدارس .

أما الأزهر فلأنه كان القوة الشعبية لكل انتفاضة وطنية فلم يكن أمام هؤلاء سوى أن يبقوا عليه، وأن يقصروا ميزانية الإنفاق عليه على بعض دخول الأوقاف الخيرية . . وضيقوا على خريجيه أبواب العمل وشغلوهم — بقدر ما وسعهم — بالمطالبة بالوظائف الحكومية أو بمساواتهم بخريجى كليات أنشأوها خصيصا لمنافسة الأزهر كدار العلوم . . وبذلك استنزفوا حيوية خريجى الأزهر فى المطالبة بالكف عن معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية فى فرص العمل والمرتبات . .

ولكننا — ونحن فى سياق هذا السرد التاريخى — لا يسعنا إلا أن نسجل أنه فى الأربعينات قد جرت حركة إصلاحية فى التشريع المصرى تزعمها بعض من أساتذة القانون المصريين على رأسهم الدكتور عبد الرزّاق السنهورى والدكتور عثمان خليل

والشيخ على الخفيف .. وقد نجحت هذه الحركة فى تعديل بعض مواد القانون المدنى إلى ما يطابق النهج الإسلامى ، ولكنها لم تتمكن من منع التعامل بالربا ، وإن كانت قد نجحت فى ضبط الحد الأقصى للفائدة بما منع المرابين من أن يفحشوا فى الربا المجحف بالمواطنين المدينين ..

ولقد أصبح الآن واضحاً أن التجربة العلمانية فى أوربا الرأسمالية قد فشلت وكان من نتائج هذا الفشل أن قامت الماركسية التى فشلت مثل الرأسمالية فى تحقيق السعادة للبشر .. ومن ثم فإن كلا من النظامين الآن يبحث عن علاج يداوى به الأخطاء الشنيعة التى أظهرتها الممارسة والتطبيق .. ولكن هيهات فما من عقار ناجع لعلاج نظم قامت على أسس فاسدة ..

وحتى نحن هنا فى مصر قد جربنا الاشتراكية العلمانية المستوردة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م .

والآن فإن الرئيس محمد أنور السادات قد رفع منذ بداية عهده شعار « العلم والإيمان » كسياسة رشيدة بناءة .. ومشى بخطى حثيثة إلى إعادة صياغة الحياة المصرية طبقا لهذا الشعار .. ولا ريب فى أن الجهود المبذولة الآن فى مجلس الشعب لتقنين الشريعة الإسلامية تمهيدا لترسيمها كدستور وكقانون للدولة إنما كانت بتوجيه منه ..

والأسباب التى أخرت تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر حتى اليوم هى نفس الأسباب التى سببت نفس الشىء فى باكستان وإندونيسيا وإيران وسائر الدول الإسلامية .. وهذه الأسباب تعود فى معظمها إلى النفوذ الاستعمارى الأوربى وإلى انخداع الزعماء الوطنيين الذين تقلدوا زمام السلطة بعد الاستقلال - ببهرج الحياة الأوربية ومدنيتها الزائفة ..

وإذا كنا فى مصر قد وضح لنا أننا كنا مخطئين حين أهملنا شريعة الله فإن كل مسلم فى شتى أنحاء الأرض يؤمن فى صميم قلبه بأن لا نجاة ولا خلاص من المعاناة إلا بالاعتصام بحبل الله ..

وتنفيذا لتوصية علماء المسلمين فى مؤتمرهم - الثامن بالقاهرة قام صاحب الفضيلة الإمام الأكبر المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق بتأليف لجنة من الفقهاء ورجال القانون لصياغة دستور إسلامى يكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ الشريعة الإسلامية منهاجا لحياتها على أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور أن يعتمد على المبادئ المتفق عليها بين المذاهب الإسلامية كلها

أمكن ذلك . .

وقد قام مجمع البحوث الإسلامية بالإشراف على هذه المهمة حتى تمامها . .

وفيما يلى نص المذكرة التى رفعها مجمع البحوث الإسلامية إلى فضيلة الإمام الراحل بالخطوات والإجراءات التى اتخذت حتى تمام صياغة الدستور الذى ننشر صورته مع المذكرة . .

وسيقوم المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين الذى سينعقد بالقاهرة بدعوة من مجمع البحوث الإسلامية ابتداء من يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى الموافق ٢١ أبريل ببحث مواد هذا الدستور والنظر فيه واعتماده من سائر الوفود الممثلة لجميع المسلمين فى جميع أنحاء العالم . .

وسيعقد هذا المؤتمر برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر الجديد . . وهو كما عرفناه وعرفته الأمة الإسلامية عالما حجة وأستاذا فيلسوفا جمع بين الثقافة الإسلامية التى عرف حضارتها الحقة الخلاقة والثقافة الغربية التى استبان له زيف مدنيتها . . وكان – قبل تدرجه فى المناصب كوكيل للأزهر وكوزير للأوقاف – أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فأدار العمل جادا بلجان المجمع حتى تم تقنين الشريعة الإسلامية على المذاهب الأربعة كل مذهب على حدة . . ومن ثمّ فهو ليس بجديد على هذا الميدان وليس غريبا عنه . .

ونأمل ويأمل المسلمون معنا أن يتحقق على يديه الكثير من الخير للأمة الإسلامية . .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل . .

زاهر عزب الزغبى

الفراسة

قال ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » وقال على بن أبى طالب – رضى الله عنه : ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر فى فلتات لسانه ، وصفحات وجهه ، وحكى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلا ، فقال أحدهما : إنه نجار ، وقال الآخر : إنه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً وأنا الآن نجار .



الأستاذ زاهر عزب الزغبى

الأستاذ زاهر عزب الزغبى وقد تخرج فى كلية الشريعة الإسلامية بالأزهر، ثم حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام ١٩٥٥ م .. وعمل محررا بالصحف اليومية ووكالات الأنباء .. وحصل على عضوية نقابة الصحفيين فى نفس عام تخرجه، ثم عين فى الأزهر مدرسا بالمعاهد الأزهرية وتدرج فى مناصب التدريس حتى كان وكيلا لمعهد القاهرة الثانوى .. وقد اختير لنشر الثقافة الإسلامية بشبه القارة الهندية، فحاضر فى جامعات الهند المختلفة لمدة سبع سنوات .. ثم اختير للعمل بمجمع البحوث الإسلامية وهو الآن بمجلة الأزهر يتابع نشر بحوثه .

مشكلة الأقليّات الإسلاميّة

الدكتور / عبد الودود شلبي

من أين يبدأ الحديث عن هذه المشكلة ؟

لابد أولا من العودة إلى الماضى ، لنعرف كيف نشأت مشكلة الأقليات . .

وحين نقول أقليات فلا نعنى بها أقليات غير إسلامية . . فهذه الأقليات لا تعانى مشكلة أبدا بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة . . لأن هذه المأساة أو المشكلة خاصة بالمسلمين وحدهم دون سائر الناس .

ولماذا ؟

دعونا نقرأ أولا ثم نحكم بعد ذلك .

يقول المفكر الإسلامى محمد أسد :

إن الحروب الصليبية هى التى حددت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربا من الإسلام . . ويمكننا أن نقول من غير مبالغة . .

إن أوربا الحديثة ولدت من روح الحروب الصليبية . . وقد ولدت أثناء الحروب الصليبية فكرة المدنية الغربية . . وكانت تلك المدنية عداوة للإسلام . .

وبالرغم من أنه كان فى الجانب الإسلامى دائما رغبة مخلصة فى التعاون إلا أنه لم يلق أبدا المعاملة بالمثل . .

وكما يقول جوستاف لوبون : لقد استمر التعصب الذى ورثناه ضد الإسلام جزءا من تركيبنا العضوى .

إن النصرانية على حد قول الكاتب العالمى « حيدر بامات » لاتزال تواجه الإسلام بحقد وشراسة . . ومنذ نشأة القانون الدولى الحديث كان من المقطوع به اعتبار الإسلام خارج نطاق العلاقات الدولية وعدم الاعتراف بتمتع المسلمين بالحقوق التى يقررها هذا القانون .

لقد كان أول عمل قامت به فرنسا بعد احتلالها الجزائر تحويل أكبر مسجد فيها إلى كاتدرائية .. وأصدرت هيئة البريد الفرنسى طابعا تذكاريا يمثل الهلال رمز الإسلام وهو يسقط منحدرا إلى قاع البحر بينما الصليب يرتفع إلى أعلى ليغمر بسناه الأفق .

وأعلن ملك إسبانيا أمام البابا : أن إسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين فى أفريقيا حتى تغرس الصليب فى ديار الإسلام وتجعل أتباع محمد يخضعون له قهرا . .

وعندما تم حفر قناة السويس أرسل الأفاق العالمى ديلبسس برقية إلى البابا يعلن فيها أن الطريق إلى قلب العالم الإسلامى أصبح ممهدا . .

وكان لإيطاليا نشيد يحفظه جنودها إبان الحملة الطرابلسية تقول كلماته التى تقطر حقدا وسما . .

صلى يا أماه ولاتبكى . .

بل اضحكى وتأملى . .

ألاتعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة . .

ولأحارب الديانة الإسلامية . .

سأحارب بكل قوتى لمحو القرآن . .

وإن لم أرجع فلاتبكى على ولدك . .

وإذا سألك أحد عن عدم حدادك عليه فأجيبيه انه مات فى محاربة الإسلام . .

* * *

هذا هو المدخل الحقيقى لهذه المشكلة . .

فالمسلمون خارج نطاق القانون الدولى ، فلايصح أن يعاملوا بهذا القانون وغيره من القوانين . .

والمسلمون أمة ملعونة . ولهذا يجب أن يطاردوا ويقضى عليهم فى أى مكان فيه يكونون .

وقد قرأنا أخيرا . . أن جهاز « السافاك » – البوليس السرى الإيرانى – كان يدرب على أحدث وسائل التعذيب بأيدى خبراء أمريكيين الأمر الذى لو حدث مثله لأحقر مواطن أمريكى لقامت القيامة ودقت بسببه طبول الجهاد والثورة . .

ولكن الإيرانيين مسلمون . . وتعذيب المسلمين مباح فى قانون الصليبية التى لاتلتزم بقانون ، ولاتؤمن بدين . .

إن مأساة نيجيريا ومصرع الزعيمين المسلمين أحمدوبللو وتافاوا باليوا لاتزال ماثلة أمام أعيننا حتى هذه اللحظة . . فعندما قام أيرونسى السفاح . . بحركته ضد الزعامة الإسلامية لم يتحرك ضمير أحد فى هذا العالم لقتلها غدرا بهذه الطريقة . . وحين استرد المسلمون السلطة انفصل أوجوكو بإقليم « بيافرا » وهبطت عليه طائرة الإخوة بالسلاح والذخيرة . .

إن قتل عشرات الألوف من مسلمى زنجبار لم يحرك ساكنا فى ضمير العالم أوهيئة الأمم المتحدة . . ولكن إطلاق الروس

لسفينة فضاء تحمل كلبة اسمها (لايكا) أفزع الرأى العام فى أوربا وأمريكا لوحشية الروس . . وقامت المظاهرات تهتف بحياة « الكلبة الشهيدة » وسقوط الوحشية والهمجية فى روسيا . .

وباكستان . .

لقد كانت عضوا فى منظمة دفاع جنوب شرق آسيا ، وأبسط مبادئ هذا الحلف أن يتعاون أعضاؤه فى رد أى عدوان يقع على أى عضو من أعضائه المتضامنين فى الدفاع ضد أى غزو أجنبى أوتدخل خارجى . .

ولكن أمريكا وحلفاءها التزموا الصمت أمام الاجتياح الهندى لباكستان الشرقية ووقفوا موقف المتفرج من هذه المؤامرة . . فى الوقت الذى حول فيه الاتحاد السوفييتى اتجاه بوارجه الحربية لتفرغ حمولتها من السلاح والذخيرة الى موانئ الهند حتى تجهز على الدولة الإسلامية .

إن الشعارات الماركسية التى رفعها زيادبرى لم تشفع له عند الروس فى حربه الأخيرة مع اثيوبيا . . وإن طرد الخبراء السوفييت من «مقديشيو» لم يقربه من أمريكا . . لأن الشعب الصومالى مسلم قبل مجىء زياد برى ، وسيبقى مسلما بعد زواله وإلى ماشاء الله . . وأى معركة تخوضها الصومال ضد أثيوبيا ينظر إليها من زاوية العقيدة الدينية لامن أية زاوية أخرى مهما تغيرت الأسماء والظروف .

* * *

هذه هى جذور المأساة بين المسلمين وغير المسلمين فى هذه الدنيا . بل هى الأساس لمشكلة الأقليات الإسلامية فى أى مكان توجد فيه هذه الأقلية . .

والآن أين توجد هذه الأقليات ؟

إن هذه الأقليات موجودة فى حوالى سبعة وخمسين بلدا وقطرا . . ويبلغ مجموعها حسب آخر إحصائية ثلاثمائة مليون نسمة . . أى ثلاثة أضعاف عدد المسلمين العرب المنتشرين فى قارتى آسيا وأفريقيا . .

إن الأغلبية الساحقة فى أفريقيا مسلمة موحدة . . والديانة الوحيدة التى تلى الإسلام فى الكثرة العددية هى الديانة الوثنية . . ومانراه على سطح الحياة فى هذه القارة ليس إلاخداعا يطمس هذه الحقيقة ، فالاستعمار قبل أن يحمل عصاه ويرحل عن هذه القارة أسلم الحكم والسلطة إلى نوع من الرجال الذين دربوا على صناعة الحقد والكراهية . . وزيفوا الواقع بعقائد وشعارات لاصلة لها بالواقع والحقيقة . . وإلافمن يصدق أن الحبشة التى قادت معركة الحقد ضد الإسلام والمسلمين

فى أفريقيا أمة مسلمة وأغلبية سكانها مسلمون . .

ومن يصدق أن تنزانيا أمة مسلمة وأكثرية شعبها مسلمون . .

ومن يصدق أن فى الصين حوالى تسعين مليونا من المسلمين . .

وفى الهند أكثر من ثمانين مليونا . . وفى الاتحاد السوفييتى ستون مليونا . .

ومن يصدق أن الخطر الذى يتهدد الاتحاد السوفييتى فى المستقبل هو خطر انتشار الإسلام وزحفه داخل الاتحاد السوفييتى نفسه حيث يبلغ عدد المسلمين — سنة ألفين ميلادية — حوالى مائة مليون أى ثلث عدد السكان . .

حقائق خطيرة وكبيرة لانعرف عنها شيئا . . ومأساة المسلمين فى هذا العصر هى هذا الجهل الذى تفشى فى معاهدهم ومدارسهم . وعشش فى عقول المثقفين منهم فمتى تعلم ومتى نعرف ؟ سؤال تجيب عنه هذه الإحصائية التى تثير فى النفس الأسى والحسرة :

الدولة	نسبة المسلمين
أنجولا	٢٥٪
الأرجنتين	١,٥٪
أرمينيا السوفييتية	١٢٪
استراليا	١٪
باسوتولاند	١٠٪
باتشوانالاند	٥٪
بريطانيا	٢٪
بوتان	٥٪
بلغاريا	٥٪
بورما	١٠٪
بورندى	١٠٪
بكلوروسيا السوفييتية	٦٪
كمبوديا	١٪
كندا	١٪
سرى لانكا	١٠٪
الصين	١٠٪
الكونغو برازفيل	١٥٪
قبرص	٣١٪
قرناندويد	٢٥٪
جزر فيجى	٩,٥٪
فنلندا	١٪
فرنسا	٢٪
الجابون	٤٠٪
جورجيا السوفييتية	١٩٪
ألمانيا	١٪
غانا	٣٠٪
الهند	١٣٪
الولايات المتحدة	١٪

الدولة	نسبة المسلمين
كينيا	٪٢٠
ليبيريا	٪٣٠
مالاجاسى	٪٢٠
مالطة	٪١١
جزر مورشيس	٪١٧
ملداقيا السوفييتية	٪٣
موزمبيق	٪٣٥
نيبال	٪٤
نياسا لاند	٪٢٠
زامبيا	٪١٥
الفلبين	٪١٠
بولندا	٪٢
جزر تيمور	٪٢٠
ريونيون	٪٢٠
روسيا السوفييتية	٪٦
روديسيا الجنوبية	٪١٥
سوازى لوند	٪١٠
تامبيا	٪٢
تايلاند	٪١١
ترينداد	٪٦
أكرانيا	٪١٢
فيتنام	٪٣
يوغوسلافيا	٪١٣

* * *

إن بعض هذه الأقليات يعيش فى بلاد مسيحية ، وبعضها يعيش فى بلاد وثنية وقسم ثالث من هذه الأقليات يعيش فى بلاد شيوعية . .

فهل يختلف الأسلوب باختلاف العقيدة والمذهب ؟ وهل تختلف معاملة المسلمين من بلد إلى بلد ؟

كنت أظن ذلك أول الأمر ، غير أنى لاحظت فى قراءتى للتقارير الخاصة بأحوال الأقليات الإسلامية أن هذا الأسلوب واحد ، وأن الكيد والتآمر ضد الإسلام والمسلمين متفق عليه وإن اختلفت المذاهب والعقائد . .

هناك التصفية الجسدية للمسلمين أفرادا وجماعات . .

وهناك السجن والتشريد والنفى لكل من يجأر بالشكوى . .

وهناك المصادرة للثروة وتطبيق سياسة الإفقار والحرمان . .

وهناك التبشير والإغراء لمن يريد السلامة من الخراب والموت . .

وهناك حرمان المسلمين من التعليم والترقى فى وظائف الدولة . .

وهناك فرض حصار على المسلمين بعدم الخروج أوالسفر من مدينة إلى مدينة ، أومن قرية إلى قرية .

وهناك هدم المساجد ، وإغلاق الكتاتيب ، ومنع أى تعليم دينى يعرف المسلمين بفرائض عقيدتهم الدينية . .

وهناك الصلب على جذوع الأشجار . .

وإشعال النار فى الكبار والصغار .

وحرق قرى وأحياء كاملة بما فيها من الحيوانات والإنسان . .

إن إثيوبيا لم تكن تسمح لأى مسلم أن يعمل جنديا أوموظفا إلافى دائرة ضيقة ، كان هناك قانون يسمح للقسيس أن يأمر بإعدام أى مسلم لأدنى شبهة . .

وكان هناك قانون يبيح للحبشى أن يسترق المسلم ويتخذه عبدا إذا لم يسدد دينه .

وكان هناك قانون يفرض على المسلمات القيام بخدمة رجال الجيش الإثيوبى إذا ماطلب منهن ذلك .

وفى بورما البوذية لايختلف الحال عنه فى إثيوبيا أوروسيا ، إن أمامى تقريرا يقول :

لقد تعرض المسلمون فى بورما لظروف قاسية رهيبة تتمثل فيما يأتى :

- منع المسلمين من أداء فريضة الحج وعدم السماح لهم بأداء الصلاة .
- الغاء الدراسة الإسلامية فى المدارس والكليات .
- مصادرة الكتب والمنشورات والمجلات الإسلامية .
- القيام بحملات إرهابية لإخراج المسلمين عن دينهم .
- مصادرة البيوت والعقارات الموقوفة على المساجد والمدارس الإسلامية .

ولما اشتد بطش السلطة واضطهادها لجماعات المسلمين بدأت قوافل النزوح إلى « بنجلاديش » وبأعداد هائلة تصل إلى خمسين ألف مسلم فى الشهر ، وقد بلغ عدد المهاجرين من مسلمى بورما حتى الآن أكثر من مائتى ألف مسلم ، وتعيش هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين البورماويين ظروفا قاسية وأليمة .

وقد كنت أستمع صباح اليوم إلى إحدى الإذاعات العالمية[1] ففوجئت بخبر أصابنى بالوجوم والهم . . فقد مات أكثر من سبعة آلاف طفل مسلم من هؤلاء المهاجرين بسبب الجوع والمرض . .

وفى تقرير آخر عن حال المسلمين فى تايلاند لاتختلف صورة المأساة عن واقعها فى بورما . . الإبادة الكاملة للقرى المسلمة . . قتل الزعماء فى السجون بالسم . . فرض « البوذية » بالقوة على المسلمين فى هذه الأرض . .

---

(١) الجمعة ٢٧ صفر ١٣٩٩ ٢٦يناير ١٩٧٩ .

ولست فى حاجة إلى وصف مايتعرض له المسلمون فى الفلبين . . إن أخبار المذبحة تترى كل يوم . . ولم يتوقف حتى هذه اللحظة سلاح الطيران الفلبينى عن تدمير أماكن المسلمين وحرقها بقنابل النابالم . .

وقد ارتكبت الشيوعية نفس الجرائم والمظالم . . ومايقع على المسلمين فى الحبشة أوبورما أوالفلبين وتايلاند وقع أضعاف أضعافه عليهم فى الاتحاد السوفييتى ومن يدور فى فلكه من دول الكتلة الشيوعية بل إن شعوبا بأكملها أبيدت على ايدى الشيوعيين فى الاتحاد السوفييتى فى أعقاب الحرب العالمية الأخيرة . .

وأشهر هذه الأمم التى أبيدت ، الكريميين Crimeen ، والتتار Tatar والكالموك Kalmuks والكرك Karakys والشيشن Chechen والكولاك Kulaks والأنجش Ingush .

وقد حدث فى يناير ١٩٤٤ م أن دخلت جموع غفيرة من الجيش الروسى إلى بلاد الأنجش فملأت المدارس والمستشفيات والحمامات . . وقيل فى تعليل ذلك أنهم عائدون من الجبهة ويحتاجون إلى شىء من الراحة . وبعد مايقرب من شهرين وبالضبط فى ٢٣ فبراير أقيمت مهرجانات فى الميادين العامة سواء فى المدن الكبرى أم فى المدن الصغرى . . وخرج الأهلون رجالا ونساء وأطفالا ليشاركوا فى الاحتفال بهذه المهرجانات ، ورحبوا بقوات الجيش الروسى ووزعوا على رجاله الهدايا والحلوى . . وفجأة أعلن مكبر الصوت أمر القبض على هؤلاء جميعا ، وتقدم الجيش يحاصرهم وسيقوا فى طوابير طويلة إلى قطارات بضاعة كانت تنتظرهم ثم نقلوا إلى المنفى .

واتجهت قطارات الموت إلى آسيا الوسطى . . كان الفصل شتاء والبرد قارصا ، والثليج يغطى كل شبر من الأرض ، والقطارات بدون تدفئة والطعام قليل . واستغرقت الرحلة أسبوعين ولكن زحام المنفيين كان يخف يوما بعد يوم . . آلاف منهم قضى عليه البرد والجوع والعرى ومشقة السفر الطويل . .

أما الزعماء والقادة فأعدموا رميا بالرصاص . . وهكذا أبيد فى عملية واحدة نصف مليون . . ثم استدار الروس بعد ذلك ليزيلوا كل أثر للمساجد والمدارس . .

* * *

أين حقوق الانسان ؟ بل أين ضمير العالم من هذه المأساة التى تخص المسلمين وحدهم دون سائر الناس ؟

بل أين هى مواثيق الأمم المتحدة

وقوانينها التى تقول وتنص بأنه « لايجوز لأى دولة أن تسمح بالتعذيب أو غيره من ضروب المعاملة أو العقوبة القاسية أواللاإنسانية أو المهينة ولايجوز اتخاذ الظروف الاستثنائية مثل حالة الحرب أوخطر الحرب ، أوعدم الإستقرار السياسى الداخلى أوأية حالة طوارئ عامة أخرى ذريعة لتبرير التعذيب أوغيره من ضروب المعاملة أوالعقوبة القاسية أواللاإنسانية أوالمهينة . .

إنه لاأمل فى كل ذلك . .

لأن المسلمين كما قلنا خارج نطاق القانون الدولى ، ولأنهم أمة « ملعونة » كما يقول النشيد الإيطالى .

والحل ؟

إننا نملك الحل . . فمقومات الحياة الاقتصادية العالمية فى أيدينا . . ونستطيع –لو أردنا– أن توقف عجلة الحياة لمن يعتدون علينا .

إن أهم المواقع الإستراتيجية تقع فى بلادنا . . ونستطيع – لو أردنا – أن نسد منافذ الحياة فى وجه اعدائنا .

أن المواد الخام كلها فى اوطاننا ونستطيع – لو أردنا – أن نحرم الطغاة والظلمة من مصادر القوة التى يسيئون بها إلينا .

ولابد من اتخاذ موقف إسلامى موحد تجاه هذه المظالم . .

ولابد من إنشاء صندوق إغاثة للمطاردين والمحرومين من إخوتنا فى العقيدة . .

ولابد من إنشاء مجلس أعلى لشئون هذه الأقليات على مستوى العالم الإسلامى كله . .

وهذا هو واجب المؤتمر الإسلامى العالمى فى جدة . .

ورابطة العالم الإسلامى فى مكة . .

وواجب الأزهر الشريف فى القاهرة . .

دكتور عبد الودود شلبى



دكتور عبد الودود شلبى

• من مواليد ميت عفيف محافظة المنوفية .

• تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى معهد القاهرة ، ثم حصل بعد ذلك على الشهادة العالية من كلية أصول الدين ، والعالمية مع الإجازة سنة ١٩٥٣ م .

• حصل على شهادة الدكتوراه PH. D من كلية الدراسات الشرقية Oriental College فى باكستان وكان بحثه فى هذه الشهادة عن «الأصول الفكرية لحركة المهدى السودانى ودعوته» .

• عمل فترة بالتدريس ثم انتقل إلى وزارة الأوقاف مفتشا عاما للشئون الثقافية ، ونقل إلى الأزهر بعد ذلك رئيسا للسكرتارية الفنية فى مكتب الإمام الأكبر شيخ الأزهر المرحوم الشيخ شلتوت سنة ١٩٦٢ م .

• شارك فى نشاط المؤتمر الإسلامى بالقاهرة ، وتولى الإشراف فى هذه الفترة على تحرير مجلة «نور الإسلام» لسان حال علماء الدعوة والإرشاد فى الأزهر .

• عمل بعد ذلك مديرا للمساجد والشئون الإسلامية فى إمارة الشارقة - دولة الإمارات العربية .

• سافر إلى أوربا للدراسة ، واشترك فى مؤتمرات إسلامية كثيرة وطاف معظم بلاد العالم الإسلامى فى آسيا وأفريقيا .

• من مؤلفاته : «كيف أرى الله» و «حتى لا نُخدع» و «مجتمع بلا فوارق» و «رسالة إلى البابا» .

• يعمل الآن مديرا ورئيسا لتحرير مجلة الأزهر .

أنقذوا هذه الكنوز الإسلامية

الأستاذ / أحمد أبو كف

حضارة الإسلام .. هى حضارة ثقافة بالدرجة .

ودين الإسلام .. دين علم وتفقه واستيعاب ..

والثقافة شيء متجدد باستمرار .. وحضارة الإسلام كان لها أدوات متنوعة بعد ما حمل المسلمون الأوائل اللواء الأخضر لينشروا الإسلام شرقا وغربا ، وليشرقوا بالدين الحنيف على أقاصى الأرض وأدانيها ..

والمسلمون الأوائل حين فتحوا الأمصار والممالك .. برزت أمامهم ثقافات جديدة ، كان عليهم من دراستها وتمحيصها والنظر فيها ، واستصفاء ماهو صالح منها . ولذلك ترجم المسلمون أمهات الكتب فى مختلف فروع العلوم .. ثم نسخوها ، وأضافوا إليها .. وهذه الكتب تنوعت من الحجارة إلى العظام إلى رق الغزال .. ثم الورق .. وكل شيء يمكن أن تسجل عليه ملامح هذه الثقافة ، التى يمكن أن نطلق عليها ثقافة الإسلام ..

ومصر .. قبل أن تشرق عليها حضارة الإسلام ، وقبل أن ينشأ فيها الأزهر ، كعبة المسلمين العلمية ، كانت مركزا من مراكز الحضارات القديمة ، بل كانت مركز أقدم الحضارات .. تلك التى سادت ثم بادت .. لأنها حضارات وثنية .. مهما طالت وتفجرت فمصيرها إلى انهيار

ولذلك .. فإنه ما إن دخلت جيوش عمرو بن العاص مصر .. حتى بدأت تنسج تاريخها الإسلامى المشرق .. ثم بنى فيها جامع عمرو فى الفسطاط ، وبعد جامع القطائع ، ثم جامع ابن طولون .. وبعد الجامع الأزهر .. الذى صار من أهم المراكز العلمية الإسلامية فى بلاد الإسلام .

ولكن قبل أن نتحدث عن مكتبة الأزهر .. كمكتبة عامة لأبناء المسلمين .

إلى القارئ الكريم إطلالة على مكتبات عالم الإسلام ..

* * *

يقال : إن أول مكتبة جرى إنشاؤها فى عالم الإسلام ، كانت مكتبة دمشق فى القرن الأول الهجرى ، تلك التى أنشأها خالد بن يزيد الأموى .. هذه المكتبات بالإضافة إلى أنها كانت تضم المنسوخات الإسلامية ، ومنها المصحف الشريف . بعد جمعه .. كانت تضم بعض الترجمات التى قام بها العرب والمسلمون فى الطب والكيمياء .. عن اليونانيين وغير اليونانيين .. وقد ضمت بالطبع نسخا من أوائل المؤلفات والمصنفات والرسائل الإسلامية .

ثم كانت المكتبة الثانية فى العصر العباسى ..

بدأت أولى المكتبات العامة فى بغداد . حاضرة العباسيين .. تلك التى تأسست فى عهد الخليفة العباسى الشهير هارون الرشيد . وقد جاء بعده الخليفة المأمون ، لينمى هذه المكتبة ، التى عرفت باسم «بيت الحكمة» وكانت «بيت الحكمة» .. أول مكتبة عامة بالمعنى الحديث ، فى عالم الإسلام ، أو بالمعنى الأكاديمى للمكتبة . فقد كانت الكتب فيها تترجم وتنسخ ، كما كان يتردد عليها الباحثون للاطلاع والدراسة . ويقال : إن كتبها كانت محفوظة فى خزائن أو دواليب .. فالمسلمون قدروا العلوم ككنوز ثمينة ، لابد من وضع كتبها بين أحداق العيون .

ولقد أسندت أمانة هذه المكتبة إلى كبار العلماء والمتفقهين ، ومنهم سهل بن هارون .. بل إن الخلفاء اهتموا بتلك المكتبة ، حتى ليقال : إنهم كانوا يشترطون فى معاهداتهم مع أعدائهم .. بنودا لتوريد الكتب ، لتزويد المكتبة بها .. كى تدرس فيها وتصنف وتترجم وتنسخ .

على أن «بيت الحكمة» .. لم تكن هى المكتبة الوحيدة فى بغداد ..

كانت لها صنو على الضفة الأخرى من النهر وهى «مكتبة الكرخ» .. التى أنشأها الوزير بهاء الدولة ، وضمت أكثر من عشرة آلاف مخطوط .. نسخها وكتبها الأدباء والكتاب المسلمون .

كما كانت فى دمشق فى تلك الفترة «دار المعرفة» .. التى وصفها المؤرخ المسلم ابن خلدون — فى القرن الرابع عشر الميلادى — بأن كتبها كانت تفوق الحصر ، وكان بها ثلاثة آلاف مجلد من نوادر المخطوطات .

وفى هذه الفترة أيضا ، كان حكام الأندلس ينافسون حكام بغداد ، فقد أنشأوا «مكتبة قرطبة» فى القرن الرابع الهجرى ، والتى ضمت — كما وصفها ابن خلدون أيضا — حوالى ٤٠٠ ألف مجلد . بل

إن « غرناطة » كان بها وحدها سبعين مكتبة يضاف إلى ذلك مكتبة القيروان ، وغيرها من مكتبات العالم الإسلامي .

* * *

ونأتى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ، حيث الفاطميون بناة القاهرة المعزية ، وبناة الأزهر الشريف .. « الذين بدأوا يتنافسون مع حكام دمشق وبغداد والأندلس فى الاهتمام بالحركة العلمية » .

ومن أشهر المكتبات أيام الفاطميين هى « خزانة الكتب » تلك التى أنشأها العزيز بالله الفاطمى ، ووضع مسئوليتها فى يد وزيره يعقوب بن كلس .. وقيل : إنه كان بها من الكتاب الواحد عشر نسخ ، بل ومائة نسخة فى بعض الأحيان . كما كان بهذه المكتبة أربعة وثلاثون نسخة من كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى ، وكانت كلها بخط يده . ومائة نسخة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد .

ويذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى ، أن عدد كتب « خزانة الكتب » .. كان يربو على مليون و ٦٠٠ ألف نسخة ، فى مختلف العلوم : فى الفقه ، واللغة ، والنحو ، والتاريخ ، والكيمياء ، والفلسفة ، والهندسة ..

ونأتى إلى ثانى المكتبات فى عصر بناة الأزهر ، وهى المكتبة المشهورة باسم « دار الحكمة » .. والتى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله عام **٣٩٥** الهجرى وهذه الدار كانت أشبه بأكاديميات العصر الحديث فى البحث والدراسة والتأليف والترجمة وعمليات النسخ .. التى كانت بديلا عن الطباعة ، التى لم تكن تعرف حتى ذلك الوقت .

ولقد شاهدت دار الحكمة هذه المئات والألوف من المؤلفين والكتاب المسلمين ، ومنهم ابن النفيس ، العالم والفقيه ، الذى اكتشف الدورة الدموية الصغرى ، قبل هارف الإنجليزى بعدة قرون . بل إن « دار الحكمة » كان يقيم بها العلماء والقراء ، والمنجمون ، والنحويون ، واللغويون والأطباء .. وتجرى عليهم الرواتب .. ولقد وفر الخلفاء الفاطميون للمترددين على مكتبة دار الحكمة المناخ ، لكى يدرسوا وينسخوا مايشاءون ، ووفر لهم الحبر والورق والأقلام المتعددة الأغراض .. تلك التى شرحها فيما بعد القلقشندى فى موسوعته العلمية التى ظهرت فى عصر المماليك بعنوان « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » وقد بلغ عدد كتب هذه المكتبة ما يربو على مائة ألف كتاب .

* * *

ثم نأتى إلى مكتبة الأزهر .. أو خزانة الكتب فى الجامع الأزهر والتى كانت لها شهرتها ، لكن برغم شهرة هذه المكتبة ، فإن تاريخ تأسيسها لايزال مجهولا .. إلا من شذرات فى هذا السفر أو ذاك تدل عليها ..

فالمؤرخ ابن ميسّر فى كتابه «أخبار مصر» ، يقول : إنه قد أسند إلى داعى الدعاة أبو الفخر صالح . الخطابة فى الجامع الأزهر مع خزانة الكتب

والمؤرخ المقريزى فى خططه يقول : «إن الحاكم بأمر الله أمر بنقل نصف الكتب من دار الحكمة إلى الجامع الأزهر ، والباقى إلى مسجده ، ومسجد المقس»

ونحن إذا عرفنا أن منصب داعى الدعاة فى دولة الفاطميين ، كان هو المسئول عن إدارة جهاز من أهم أجهزة الدولة .. لاتضح لنا أهمية خزانة الكتب فى أيام الفواطم فى الجامع الأزهر ، والتى كانت من أهم مؤسسات الفاطميين الثقافية .

والتاريخ يقول : إنه بزوال دولة الفاطميين ، فإن مؤسساتهم الثقافية .. ومنها الأزهر وخزانة كتبه قد تعطلت .

لكن الثابت تاريخيا أن السلطان الظاهر بيبرس عام ٦٦٥ الهجرى فتح الجامع الأزهر وفتح معه خزانة كتبه .. وأنه بداية من هذا التاريخ بدأت تدخل الكتب — خاصة الجديدة والمنتمية إلى الفقه السُّنِّى — إلى الأزهر . بل إن عشرات الألوف من الكتب دخلت إلى الأروقة ، تلك التى بلغت مع مرور الأزمان حوالى ثلاثين رواقا ، كان اخرها الرواق الذى أنشىء قبل نهاية القرن التاسع عشر بقليل وهو الرواق العباسى .

ولقد توزّعت الكتب على الأروقة لتكون فى متناول طلبة الأزهر الذين جاءوا من كل أنحاء عالم الإسلام .. وقد أُلقيت مسئولية هذه الكتب — أو المخطوطات — على أبناء البلاد التى جاءوا منها . وبذلك ظل الأزهر بأروقته ، ومكتبات الأروقة ، قبلة لطالبى العلم .

لكن الكتب فى الأزهر جاء عليها حين من الدهر ، أخرج الكثير منها من الأزهر ، بل خارج مصر كلها . فالعثمانيون الذين فتحوا مصر فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، نقلوا إلى الأستانة الكثير من الكتب التى كانت فى الأروقة والحارات . والفرنسيون الذين جاءوا لغزو مصر .. نهب علماؤهم الكثير من تلك الكتب وأرسلوا بها إلى عاصمتهم باريس .

يقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتى حول الفرنسيين : «دخلوا الأزهر ، وهم راكبون

خيولهم وفيهم المشاة كالوعول ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ماوجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبئات بالدواليب والخزانات ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها »

ويتضح مما قاله الجبرتى .. أنهم برغم استقصائهم للكتب .. فقد داسوها بنعالهم

لكن حين عاد الفرنسيون إلى بلادهم بعد ثورتى القاهرة الأولى والثانية ، وبعد أن قاومهم شعب مصر من خلال الأزهر وشيوخه وعلمائه وطلبته .. بل إن سليمان الحلبى الطالب بالأزهر هو الذى قتل الجنرال كليبر .. أقول : بعد أن رحل الفرنسيون بعدما فعلوا ما فعلوا بكتب الأزهر ، وكانوا قبل دخوله قد سلطوا عليه القنابل من فوق جبل المقطم .. ظل الأزهر يجمع الكتب من هنا وهناك .. بل ويرتق الكتب التى بقيت .. حتى استيقظ ديوان الأوقاف بمصر عام ١٨٥٣ م ..

لقد بدأ منذ هذا التاريخ بجرد الكتب والمخطوطات فى الأروقة والتكايا والحارات والمساجد المجاورة للأزهر ، مثل جامع الفكهانى ، وجامع العينى .. وقد تم تسجيل هذه الكتب ، فبلغ عددها حوالى ١٨٥٦٤ كتابا ومخطوطا . وهذا السجل للكتب لازالت نسخة منه موجوده ، وهو من جزءين . وكان قد سرق من الأزهر ، ولم يعد إليه إلا فى عام ١٩١١ م ، حيث وجده أحدهم ، واشتراه بخمسة وعشرين قرشا ، وأعاده إلى المكتبة .

* * *

على أنه فى تقرير قدم إلى مجلس إدارة الأزهر فى مفتتح القرن العشرين ، وأيام الشيخ محمد عبده حين كان مفتيا لمصر وقدم برنامجه لإصلاح الأزهر .. هذا التقرير يقول : «كان فى الأزهر خزائن كتب ، وضعت فى بعض الأروقة والحارات ، وبعضها وضع فى المساجد القريبة من الأزهر .. وقد نيط بحفظ هذه الكتب إلى أشخاص يقال لهم « المغيرون » .. وأن هؤلاء الأشخاص تصرفوا فى الكتب تصرفا سيئا .. وبالجملة لم يكن يعرف للكتب قيمة ، ولا ينتفع بها لعدم إمكان الانتفاع » .

على أن هناك تقريرا آخر بعد هذا التقرير بحوالى خمسة وثلاثين عاما حول الأزهر .. حين تطلبت الحالة إصلاح وتطوير الأزهر ، وقد قام بكتابة التقرير كل من عبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل باشا

صدقى، وفتحى باشا زغلول. لكن هذا التقرير لم يشر إلى مكتبة الأزهر التى جاهد الأستاذ الإمام محمد عبده. قبله فى جمع شمل كتب الأزهر والمخطوطات من الأروقة والحارات فى مكتبة خاصة مستقلة.. وكان الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر أيام الأستاذ الإمام قد وافق على جمع الكتب فى مكتبة خاصة بها، بل بادر بإهداء مكتبته الخاصة للأزهر

وقيل وقتها: إنه بعد مناقشات طويلة.. اختير مكان مناسب لتجمع فيه الكتب.. وقد أبلغ ديوان الأوقاف - وكان يتولى الإشراف على الأزهر - بتنفيذ الفكرة، التى تعثرت بعض الشىء لأن أغلب الأروقة رفضت وضع كتبها فى المكان الذى اختير ليكون مكتبة عامة للجامع الأزهر.. وهذا هو السبب فيما يبدو أن الأستاذ الإمام قد دعا العلماء والكبراء للتبرع بمكتباتهم الخاصة للأزهر.

وجدير بالذكر: أن قرار مجلس إدارة الأزهر حدد أربعة أمكنة لتسكن فيها كتب ومخطوطات ومقتنيات الأزهر وهى:

- المدرسة الأقبغاوية وتقع على يسار الداخل من باب المزينين - الباب الرئيسى - للجامع الأزهر، وهى التى فيها المكتبة الأزهرية حاليا
- رواق الأحناف الملحق بالمدرسة الأقبغاوية
- المدرسة الطيبرسية. وهى على يمين الداخل للأزهر.. وتشغلها الآن هيئة الفتوى
- الرواق العباسى. خلف المدرسة الطيبرسية

ويذكر هنا.. أن المكتبة بدأت أيام الأستاذ الإمام بحوالى ٧٧٠٣ كتاب، ومن هذه الكتب حوالى ٦٦١٧ كتاباً أهديت أو وقفت على الأزهر.. و ١٠٨٦ كتاباً بطريق الشراء ثم بعد أن نقلت كتب أغلب الأروقة، مثل رواق المغاربة «٢٠ ألف كتاب ومخطوط» ورواق الشوام «٥ آلاف كتاب ومخطوط».. بالإضافة إلى المكتبات المهداة.. فقد بلغت الآن حصيلتها حوالى ربع مليون كتاب، منها ٢٥ ألف مخطوط، تعتبر من أندر المخطوطات.

على أنه مايزال هناك فى الأروقة بعض الكتب، ومنها رواق الأتراك.. والسبب أن المكتبة الحالية، ضاقت بعد أن نقلت إليها مكتبات مقتنيات المدرسة الطيبرسية، ورواق الأحناف والرواق العباسى. كما يوجد أيضا بعض الكتب والمخطوطات فى أروقة الصعايدة والمغاربة وغيرهما

* * *

والواقع أن المكتبة الحالية مكان غير مناسب لأن يكون مكتبة .. أو حتى قاعة للاطلاع فهذا المكان يبلغ عمره الآن حوالى ستة قرون أو يزيد .. وهو مكان قام بإنشائه الأمير أقبغا عبد الواحد ، أستاذ الناصر محمد بن قلاوون ، فى عام ٧٤٠ الهجرى، ١٣٤٠م .

والمدرسة الأقبغاوية مكان جميل بلاشك فى معماره الإسلامى ، وفى قبته المزينة والمزخرفة لكن بفعل القدم ، وبفعل الزمن تشقق فى الكثير من جدرانه — ثم إن مساحته صغيرة جداً ، لاتكاد تستوعب مجموعة دواليب الكتب .. ودواليب المخطوطات النادرة ، فمياه الأمطار تعبث بداخل المدرسة الأقبغاوية ، كما أن الأتربة الكثيفة لاتستطيع حتى عوامل إزالتها المستمرة من الموظفين أن تمنعها .. وهذه الأتربة وعوامل الجو .. صارت مناخا طيبا ومختاراً لحشرات الكتب والمخطوطات .. التى تعيش عليها ، والتى تعبث بهذه الكنوز عبثا ثقيلا جداً

إن ثروة علمية هائلة ، داخل أغلفة الكتب والمخطوطات والمصاحف تتآكل كل يوم ، ونحن نخشى أن تصبح فى يوم وتمسى ، فلا نجد هذه الثروة .. التى تقع فريسة للحشرات والتراب والأمطار .

ومكتبة الأزهر الشريف ، هى فى الواقع عنوان مشرف للأزهر الشريف .. وهى تتبع مجمع البحوث الإسلامية إشرافا

ومكتبة الأزهر الشريف تحمل من الذخائر مالايوجد فى أى بلد إسلامى آخر

ولذلك فإن مكتبة الأزهر الشريف ، أمانة فى أعناق الأفاضل من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية .. عليهم أن يلتفتوا إليها ، وأن يجتمعوا ليساهموا فى إنقاذها

إن المملكة العربية السعودية تفضلت مشكورة فاقترحت تصوير هذه الكنوز فى مكتبة الأزهر بالميكروفيلم .. وهذا التصوير للميكروفيلم ، وإن كان يحفظ ما فى بطون الكتب والمخطوطات من كنوز ، فإنه بالطبع لايحفظ هذه الكتب والمخطوطات .

وجمهور مصر العربية من خلال الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية ، أسندت إلى مركز الترميم والميكروفيلم فى هيئة الكتاب العربى ، عمل دراسة للكتب ، وكتابة تقرير عن حالة هذه الكنوز وكيفية ترميمها لكن هذا العمل فى الواقع يحتاج إلى أموال كثيرة من أجل إنقاذ هذه الكنوز العلمية الفريدة .

ولابد لعلماء المسلمين فى مؤتمرهم التاسع من زيارة هذه المكتبة ، ودراسة إمكانية أن تقوم حملة عامة بين المسلمين

لجمع الأموال لإنقاذ هذه المكتبة بل من أجل « فك أسر » هذه الكنوز ، ونقلها إلى أى مكان صحى تعيش فيه ، ويكون فيه قاعات للبحث والمطالعة .. أو إعادة تعمير المكان الأصلى التاريخى الذى تعيش فيه هذه الكتب وتوسيعه

والواقع أن تضامن علماء المسلمين وتوفرهم على إنقاذ هذه الكنوز الأزهرية سيكون عملا كبيرا يليق بالمسلمين . فالأموال زائلة والعلم باق . ومكتبة الأزهر الشريف ، .. ليست مكتبة مصرية وحسب .. إنها مكتبة تفيض بغزير العلم على أبناء المسلمين جميعهم من كل أنحاء العالم الإسلامى .

لقد استطاع اليونسكو — مثلا — أن يقوم بحملة عالمية تساهم فيها دول اليونسكو جميعها بإنقاذ آثار منطقة النوبة منذ عام ١٩٦١ م وحتى الآن .. ومكتبة الأزهر الشريف ، والبناء الذى تقبع فيه وهو المدرسة الأقبغاوية ، هذه تحتاج إلى حملة كبيرة من بلاد الإسلام ، ومن اليونسكو كذلك .. لإنقاذ هذه الثروة العلمية الهائلة قبل أن تبلى ..

ولابد أن يشترك فى هذه الحملة منظمة التضامن الإسلامى .. كما يشترك فيها كل المنظمات والبنوك الإسلامية ، حتى تنقذها مما هى فيه

* * *

إن الثروة فى مكتبة الأزهر الشريف .. لايمكن أن نحصى جوانبها فى مثل هذه السطور

وهى ثروة تتمثل فى المصاحف المتنوعة فى مختلف العصور والمكتوبة بفنون وأنواع الخط الإسلامى ، من الكوفى المنقط وغير المنقط إلى النسخ والثلث والرقعة والديواني .. وهذه المصاحف المخطوطة فى حد ذاتها ، وأغلبها مخطوط بماء الذهب .. تعتبر ثروة إسلامية كبيرة لاتقدر بمال ..

ومن هذه المصاحف مصحف بالخط الكوفى المنقط ، مكتوب على رق غزال يعود تاريخه إلى القرن الرابع الهجرى . وهذا المصحف النادر ، قد تم ترميمه فى فترة سابقة .. ولكن هذا الترميم بدأ يتلاشى أثره .. وبدأت حشرات الكتب تعبث فيه ، وإن لم يتم إنقاذه فسينهار كلية .

وهناك مصحف كبير الحجم .. وهو مصحف وقفه « أقبغا » صاحب البناء فى عام ٧٤٠ الهجرى على الأزهر .. وهو مصحف مخطوط بالخط الثلث .. وفيه بعض الشروح . بالإضافة إلى صندوق — خزانة — مصحف مصنوع من البرونز والفضة ، به « ربعة » قرآن فى ثلاثين

جزءاً ، باسم الملك الناصر محمد بن قلاوون .. وهو غاية فى فن الإسلام . ثم مصحف مخطوط فى ١٩ ورقة ، يعود تاريخه إلى أيام الخديو إسماعيل مكتوب بماء الذهب . فضلا عن حبة قمح مكتوب عليها سورة «قريش» كاملة .. بالإضافة إلى عدد كبير من المصاحف التى صارت فى حالة سيئة تحتاج إلى العمل الفورى لإنقاذها

ومن التفاسير المخطوطة ، هناك العشرات بل المئات ..

فهناك «غريب القرآن» للسجستانى منذ عام ٥١٤ الهجرى

وهناك تفسير الفاتحة لابن جزى ، من الأندلس يعود إلى تاريخ ٦٢٧ الهجرى وهناك «تفسير الكشاف» للزمخشرى ، الذى يعود إلى عام ٦٥٤ الهجرى وفى تجويد القرآن ، نسخة نادرة من «الرعاية» تعود إلى عام ٥٥٧ الهجرى ثم غريب الحديث لابن سلام الجمحى والذى يعود إلى عام ٣١١ الهجرى وهذه المخطوطات تعتبر من أندر المخطوطات فى العالم الإسلامى كله .

يضاف إلى ذلك مجموعة من المخطوطات النادرة فى علوم الفقه والتفسير واللغة والتاريخ ومن هذه الكنوز :

«رسوم دار الخلافة» .. للصابى .. ويعود إلى عام ٤٥٥ الهجرى والمعجم المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر ، بخط يده ويعود إلى عام ٨٢٩ الهجرى

ونسخة مخطوطة للإمام السيوطى من «حسن المحاضرة» تعود إلى عام ٨٧٩ الهجرى

وفى الفقه من بين المخطوطات النادرة توجد نسخة من «كتاب زاد الملوك» لابن المظفر والتى تعود إلى عام ٨٦٠ الهجرى .. وعليه إهداء جميل للسلطان الناصر محمد ابن قلاوون .

ورسالة لأبى عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ بعنوان «الحسد والمحسود» وهى رسالة مخطوطة ، من نوادر المخطوطات

ومن المخطوطات النادرة كذلك ، مما نقل إلى مكتبة الأزهر من رواق الأتراك .. نسخة مخطوطة من «رباعيات الخيام» بماء الذهب يرجع تاريخها إلى ١٨٦٠ الميلادى وكان قد أوقفها على رواق الأتراك محمد على باشا حاكم مصر فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ومن التحف الموجودة ، مجموعة صور لمشايخ الجامع الأزهر الشريف ، ملونة وغير ملونة بالإضافة إلى لوحات قرآنية كتبت فى فترات مختلفة .. وكانت هناك عمامتان للشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر أكلتها الحشرات ! !

وهناك صندوق خشبي ، وصفه على باشا مبارك في خططه بأنه «يقال : إن به قطعة من سفينة نوح» . لكن لما فتح الصندوق عام ١٩٣٤ م وجدوا به عدة رقوق من المصاحف الكوفية ، وقطعة من الخشب ملفوفة بقماش أخضر .

هذا فضلا عن مزولة ضمن المزاول التي أهداها أحمد باشا شاكور للأزهر الشريف ثم مرصد فلكي أهداه لطلبة الأزهر إسماعيل باشا الفلكي عام ١٨٩٨ الميلادية .

* * *

إن الكتب والمخطوطات والتحف كثيرة ونادرة في نفس الوقت ، وهي تاريخ رائع للأزهر الشريف .. بالإضافة إلى تلك المجموعات من الكتب والمخطوطات التي تقبع في الخزانات الخشبية .. والمهداة إلى المكتبة والتي تحتاج إلى الكثير .

إن مكتبة الجامع الأزهر في حاجة إلى إنقاذ من علماء المسلمين ودول الإسلام ؟ إننا نستصرخ علماء المسلمين في كل مكان أن يبادروا إلى إنقاذ هذه الكنوز الإسلامية قبل فوات الأوان .

ونحن نعتقد أن مكتبة الأزهر لابد أن تكون «ديناً» في عنق كل من درس بالأزهر الشريف وتلقى العلم فيه .. فالمكتبة وكتبها ومخطوطاتها كانت الزاد الكبير الذي تزود منه الدارسون .. ! ؟

وهذا الذي هو فرض عين وكفاية على كل من درس بالأزهر وتلقى العلم فيه .. من أجل إنقاذ هذه الكنوز الإسلامية ! !

أحمد أبو كف

يكون وهم ظالمون

قال الشعبي : كنت جالساً عند شُريح القاضي ، إذ دخلت امرأة تشتكي زوجها – وهو غائب – وتبكي بكاء شديداً ؟

فقلت : ما أراها إلا مظلومة .

قال : وما علمك ؟

قلت : لبكائها ! ؟

قال : فإن إخوة يوسف «جاءوا أباهم عشاء يبكون وهم ظالمون» ؟ !

أول دستور إسلامي

يناقشه علماء المسلمين

فى مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية التاسع بالقاهرة
فقيد الأمة الإسلامية الدكتور عبد الحليم محمود يختم حياته بمراجعة الدستور

الأستاذ / محمد نعيم عكاشة



اختتم فقيد الأمة الإسلامية الدكتور عبد الحليم محمود حياته بوضع اللمسات الأخيرة لأول مشروع دستور إسلامي فى العالم .. المشروع الجديد يستمد أحكامه من مختلف المذاهب والآراء الفقهية .. ويغطي مواده كافة احتياجات المسلمين فى مسائل الدين والحياة ..

وإذا كان القدر لم يسعف الشيخ الجليل فى إدراك آخر أمنيات عمره بخروج المشروع إلى دائرة الضوء فإن ماقدمه من خدمات جليلة للإسلام والمسلمين سيظل دوماً علامة بارزة على الطريق .. وأثراً باقياً على مر الأجيال والسنين .. رحم الله الدكتور عبد الحليم محمود رحمة واسعة وأنزله منازل الشهداء والصديقين جزاءً وفاقاً على صالح أعماله .. ودعاؤنا إلى الله القدير أن يقيض للأزهر شيخاً جديداً يكون خير خلف لأعظم سلف فيكمل مابدأه الفقيد الكبير ويحقق ما كان يرجوه للأزهر من نهضة وتقدم واستقلال ..

قبل الحديث عن مشروع الدستور الإسلامى المقررمناقشته أمام مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية التاسع ، هناك حقيقة لابد من ذكرها فى البداية وهى : أن الأزهر جبين مصر الدينى والواجهة العريضة التى تطل من خلالها على العالم الإسلامى كله . .

وقد لمست فى لقاءاتى المتعددة وجولاتى مع المسلمين فى الخارج اسم مصر يتردد دائماً مقروناً باسم الأزهر ، فهى تُعرَفُ وتُرى به . . ولاخلاف أن دعم الأزهر ومعاونته على تأدية رسالته أمانة فى عنق كل أزهرى بل فى عنق كل مسلم . . وكل من يعمل على مجده يعمل على مجد مصر . .

وفى ضوء ظروف العصر وتحدياته تتعاظم رسالة الأزهر فى التصدى للمذاهب والتيارات المنحرفة ، ومواجهة الغزو الفكرى الأجنبى وبخاصة الفكر الماركسى الملحد . . ونشر الدين على صورته الصحيحة . .

ومن ثم فإن اجتماع علماء المسلمين من شتى أقطار العالم فى رحابه لمدارسة خطط الدعوةالإسلامية ، وإيجاد الحلول لما جدّ من مشكلات فى حياة جماهير المسلمين أمر ضرورى للغاية . .

وإذا كانت مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية الثمانى الماضية قد توافرت على مناقشة ونشر العديد من البحوث حول قضايا المسلمين المعاصرة ، فإن المؤتمر التاسع يتميز عن سوابقه من المؤتمرات بنظر أول مشروع دستور إسلامى أعدته لجان المجمع العلمية والفقهية وبذلت فى سبيل صياغته الكثير من الجهد والعمل المخلص حتى استكمل صورته المقترحة . .

والمشروع كما هو وارد تحكمه روابط الأخوة الإسلامية ، وإن تعددت النظم وأشكال الحكم فى كل دولة من دول الإسلام ، فالمسلمون أمة واحدة يعملون بكتاب واحد ويستظلون تحت راية واحدة ، هى راية القرآن . .

وحيث إن فى الاتحاد قوة فقد أجاز المشروع اتحاد دولة إسلامية مع أخرى أو أكثر فى الشكل الذى يتفق عليه . . وفوّض الشعب المسلم سلطة مراقبة الإمام وأعوانه وسائر الحكام ومحاسبتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية . .

● **أسس المجتمع الإسلامى** . . وأكد الباب الثانى من المشروع على التعاون والتكافل بين المسلمين كافة . . وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض يأثم من يُقَصِّر فيه مع القدرة عليه . . وعُنِى بالتربية الدينية

كمنهج أساسى فى جميع مراحل التعليم وكذلك حفظ القرآن الكريم، وإنشاء معاهد خاصة لتحفيظه لعامة المسلمين، وطبع المصحف الشريف وتيسير تداوله بين الناس..

كما نص على قيام الأسرة على الدين والأخلاق وقرر كفالة الدولة فى دعم الأسرة وحماية الأمومة ورعاية الطفولة بكل الوسائل.. وتشجيع الشباب على الزواج وتيسير أسبابه.. وأكد على الترابط الأسرى وحسن رعاية المرأة للزوج والأبناء.. وأناط الولاية العامة بمصلحة الرعية وخاصة حماية الدين والنفس والعقل والمال والعرض.. وإلى غير ذلك من مواد.

● **الاقتصاد الإسلامى**.. وأرسى الباب الثالث دعائم الاقتصاد وكفالة حرية التجارة والصناعة والزراعة وفقاً لأحكام الشرع.. ومقاومة الدولة للاحتكار، والتشجيع على تعمير الصحراء. وزيادة الرقعة الزراعية.. وتحريم التعامل بالربا إطلاقاً، وموافقة خطط التنمية الاقتصادية لأحكام الشريعة.. وجواز الوقف على الخيرات بموجب قانون ينظم ذلك..

● **الحقوق والحريات الفردية**.. وكفل الباب الرابع حقوق الدفاع والتقاضى والاعتقاد الدينى والفكرى وحرية العمل وإبداء الرأى والكتابة والحرية الشخصية وحرية الانتقال والسفر وغيرها، على أن تكون فى حدود الشريعة الإسلامية.. كما أكد على حرمة المساكن والمراسلات والخصوصيات وحظر التجسس، على أن يحدد القانون مايَرِدُ على هذه الحرية من قيود تمارسها الدولة فى جرائم الخيانة العظمى أو الخطر الداهم، ولاتكون تلك الممارسة إلا بإذن قضائى.. كما اعتبر تعذيب الأشخاص جريمة لاتسقط بمضى الوقت، وخوّل لكل إنسان حق تقديم الشكوى عن جريمة تقع عليه أو على غيره أو على اختلاس المال العام أو تبديده..

وحق العمل والكسب والتملك مكفول ولايجوز المساس به إلا بمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية، وللمرأة أن تعمل فى الحدود المباحة شرعاً.. ولايجوز للدولة مصادرة حرية الملك وحقوق الملكية بأية صورة، وعدم نزع ملكية أحد إلا للمصلحة العامة ومقابل تعويض كامل..

● **الإمام**.. ونظم الباب الخامس قواعد اختيار الإمام وشروط المرشح لرئاسة الدولة ومنها: الإسلام والذكورة والبلوغ والعقل والصلاح والعلم بأحكام الشريعة.. وأوجب طاعته وإن خولف فى الرأى وأكد

على أنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . . ولا للإمام فى أمر مقطوع بمخالفته للشريعة . . وحدد مسئولية الإمام فى قيادة جيشه لجهاد العدو وحفظ الثغور وتراب الوطن وإقامة الحدود وعقد المعاهدات بعد إقرارها وكذلك تمكين الأفراد من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء الفرائض .

● **القضاء** . . ونص الباب السادس على استقلال القضاء وتحريم المساس باستقلاله ، وعدم جواز تمييز أحد أو فئة بمحاكم خاصة ، فالناس سواسية أمام القضاء ، كما اشترط فى جرائم الحدود مثول المتهم أمام المحكمة بشخصه أو مع محام يوكله ، فإن لم يفعل نصبت له الدولة محامياً للدفاع عنه .

كما نص على توقيع عقوبات الحدود الشرعية فى جرائم الزنى والقذف والسرقة والحرابة وشرب الخمر والردة . . وأوجب الجلد فى التعزيرات ، والحبس محظور إلا فى جرائم معدودة ولمدد محدودة يبينها القاضى . . ولايجوز إذلال المحبوس أو إرهاقه أو الإساءة إلى كرامته .

● **المجلس النيابى** . . واشتمل الباب السابع على ٤٦ مادة وهو أطول ماجاء بمشروع الدستور ، وقد رسم باستفاضة سلطات المجلس النيابى وحدود اختصاصاته وتتمثل بإيجاز فى : سن القوانين وإقرار السياسة العامة للدولة والخطة العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية والميزانية العامة للدولة وكذلك ممارسة الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية بما يتفق على أحكام الشريعة الإسلامية .

بالإضافة إلى أحكام أخرى تتعلق بنظام الدوائر الانتخابية وشروط العضوية ومحاسبة العضو ومدة دورة المجلس النيابى وسير عمله ، ومسئولية الوزراء أمام المجلس وسحب الثقة منهم وغيرها . .

ويؤدى عضو المجلس قبل مباشرة عمله هذه اليمين :

« أقسم بالله العظيم على طاعة الله ورسوله وأن أحافظ مخلصاً على سلامة الوطن وترابه وعلى النظام الدستورى وأن أرعى مصالح الأمة وأحترم الدستور والقانون وأن أعلى أحكام الشريعة الإسلامية وذلك كله فى صدق وشرف وإيمان » .

وحرّم على عضو المجلس شراء أو استئجار شئ من أموال الدولة أويؤجرها أويبيعها شيئاً من أمواله أويقايضها عليه أوأن يبرم مع الدولة عقداً بوصفه ملتزماً أوموردّاً أومقاولاً . . وإلى غير ذلك .

● **الحكومة . .** واختص الباب الثامن بصور التشكيل الوزارى والقَسَم الذى يؤديه كل عضو ، وهو مطابق فى مضمونه للقَسَم الذى يؤديه عضو المجلس النيابى . . كما نص على أن الوزير هو الرئيس الإدارى الأعلى لوزارته ويتولى رسم سياسة الوزارة فى حدود السياسة العامة للدولة ويقوم بتنفيذها ، ولا يجوز للوزير أثناء تولى منصبه أن يزاول مهنة حرة أو عملاً تجارياً أو مالياً أو صناعياً أو أن يشترى أو يستأجر شيئاً من أموال الدولة أو أن يؤجرها أو يبيعها شيئاً من أمواله أو أن يقايضها عليه . . وخوّل للإمام والمجلس النيابى حق إحالة الوزير إلى المحاكمة عما يقع منه من جرائم أثناء تأدية أعمال وظيفته أو بسببها ويكون قرار المجلس النيابى باتهام الوزير بناء على اقتراح يقدم من خُمْس أعضائه على الأقل . . ولايصدر قرار الاتهام إلا بأغلبية ثلثى الأعضاء . . ويوقف من يتهم من الوزراء عن عمله لحين الفصل فى أمره . .

● **أحكام عامة وانتقالية . .** أما الباب التاسع والأخير فقد ترك المجال مفتوحاً أمام كل دولة لاختيار مايتوامم مع ظروف ونظم كل منهم . . كما أبقى على الأحكام الصادرة من قبل وإن أجاز إلغاء هذه الأحكام أو تعديلها وفقاً للقواعد والإجراءات المقررة فى هذا الدستور ، وحدد العمل به من تاريخ إعلان موافقة الأمة عليه فى استفتاء . .

وبعد . .

فالمشروع فى جملة موادّه وعددها ١٤٢ مادة يتجانس مع الأنظمة المتبعة فى كل دولة من الدول الإسلامية ، فضلاً عن مطابقة تفاصيله لأحكام الشريعة نصاً وروحاً ، وهو الآن رهن مناقشة علماء المسلمين المؤتمرين بالقاهرة وفى حالة إقراره فى صورته النهائية يوضع بعد ذلك تحت تصرف الدول الإسلامية التى ترغب العمل بمقتضاه . .

ولاشك أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتطلعون اليوم باهتمام إلى مؤتمر علمائهم هذا والأمل يحدوهم فى أن يحقق ما انعقد عليه ، وأن يرى الدستور الإسلامى الموحد طريقه إلى النور والتنفيذ حتى تعم شريعة الله بين الناس . .

والله الموفق والمستعان .

محمد نعيم

مستقبل الإسلام ..
والدراسات الحديثة للمسيحية

على هامش كتاب

المسيح فى مصادر العقائد المسيحية

تجرى فى أروقة المسيحية وبخاصة فى السنوات الأخيرة دراسات علمية تستهدف التحقق من صحة الكتاب المقدس من حيث نسبة النصوص الواردة به إلى أصحابها ، من ناحية ، ومن حيث عزوها إلى الوحى الإلهى من ناحية ثانية .

وتنهج هذه الدراسات منهج المقارنات اللغوية ، لهذه النصوص ، وتتبع العصور التى تنسب إليها ، والمخطوطات التى نقلت عنها ، والترجمات التى مرت بها كما تنهج منهج النقد الداخلى لهذه النصوص من حيث الكشف عن مقدار ما بها من توافق أو تناقض ، سواء كان ذلك بالنسبة للنص الواحد ، أو لمجموعة من النصوص المنسوبة إلى أشخاص مختلفين ..

وتذكرنا هذه الدراسات التى أخذ ساعدها يشتد فى هذا القرن العشرين بدراسات شبيهة بها أو مقاربة لها أجراها المسلمون فيما يخص الحديث النبوى أو السيرة ، مع فارق مهم هو أن المسلمين بدءوها فى الوقت المناسب ، فى صدر الرسالة الإسلامية ، حيث كان الاتصال القريب بالصحابة والتابعين وتابعيهم ، وبسلسلة الرواة ممكنا ميسرا .

أما الذى يجرى الآن فى مجال الدراسات المسيحية فتكتنفه صعوبات هائلة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو إن دل فإنما يدل على أن هذه الدراسات كان ينبغى أن تتم وأن المسيحية ما تزال مفتقرة إليها .

وبالرغم من الصعوبات التى أشرنا إليها فإن الذين يطلعون على هذه الدراسات أو على شيء منها ، لابد أن يقلعوا عن نظرتهم التشاؤمية إليها ، وأن يجدوا أنفسهم فى نهاية الأمر على ثقة كاملة بجديتها وجدواها .

وهدفنا فى هذا المقال أن نشرك القارئ معنا فى هذه الاهتمامات ، وأن نطلعه على مجال خصب من هذه الدراسات ، وأن نضمه إلينا فى نظرتنا التفاؤلية لها .

وإننى لأذهب إلى أبعد من ذلك إذ

أرى أن هذا المنهج العملى فى البحث هو ماينبغى أن تسير فيه قضية تقويم المسيحية ، وأنه آن الأوان للإقلاع عن منهج قديم تبعه بعض العلماء إذ كانوا – ومايزال بعضهم كذلك – يفتحون ميادين البحث النظرى الجدلى الماورائى .. وهو منهج جد عسير ، وباهظ التكلفة ، قليل الجدوى .

* * *

وبالرغم من كثرة ما وقع فى أيدينا من الكتب التى أخذت بمنهج الدراسات النقدية للنصوص ، فإننا نقتصر فى هذا المقال على تقديم نموذج منها ، بلغ فى تقديرنا درجة عالية من الدقة والموضوعية ، وسنختم هذا العرض بانطباعاتنا التى خرجنا بها من هذه الدراسة .

والدراسة التى نقصدها جاءت فى كتاب بعنوان « **المسيح فى مصادر العقائد المسيحية** .. »[1] للمهندس أحمد عبد الوهاب وللمؤلف دراسات سابقة ولاحقة فى هذا المجال ، منها « إسرائيل حرفت الأناجيل » ومنها « الوحى والملائكة فى اليهودية والمسيحية والإسلام » ومنها « النبوة والأنبياء ، فى اليهودية والمسيحية والإسلام » .

وأهمية الكتاب ترجع إلى كونه كما جاء فى عنوانه « خلاصة أبحاث علماء المسيحية فى الغرب » ، وأهم هذه الأبحاث التى اعتمد عليها جاءت فى الكتب الآتية :

كتاب « الأناجيل ، أصلها وتطورها » للدكتور فريدريك كلفنْ جرانت ، أستاذ الدراسات اللاهوتية فى الكتاب المقدس بمعهد اللاهوت الاتحادى بنيويورك .

وكتاب « كتابات مقدسة » لمؤلفه الأستاذ جنترلانيز كوفسكى ، المتخصص فى تاريخ العقائد بجامعة هيدلبرج الألمانية .

وكتاب « تفسير إنجيل مرقس » للأستاذ دنيس اريك نينهام ، أستاذ اللاهوت بجامعة لندن ، ورئيس تحرير سلسلة بليكان لتفسير الإنجيل .

وكتاب « تفسير إنجيل متى » لمؤلفه جون فنتون ، عميد كلية اللاهوت بليتشفيلد بإنجلترا .

وكتاب « تفسير إنجيل لوقا » لمؤلفه الدكتور جورج بردفورد كيرد الذى عمل أستاذا لدراسات العهد الجديد بجامعة مكجيل بكندا ، ثم عميدا لكلية اللاهوت المتحدة ، ثم أستاذا بجامعة أكسفورد ، ثم رئيسا للجمعية الكندية لدراسة الكتاب المقدس .

وكتاب « حسب الكتب » لمؤلفه الدكتور تشارلز هارولد دود الذى عمل

(١) نشر مكتبة وهبه – القاهرة – ١٣٩٩ هـ .

أستاذا لتفسير الكتاب المقدس بجامعة مانشستر ، ومديرا عاما للجنة الترجمة الحديثة للكتاب المقدس ، ويمثل هذا الكتاب ، مجموعة محاضرات ألقاها فى كلية اللاهوت بجامعة برنستون .

وكتاب «أمثال الملكوت» لمؤلفه المذكور سابقا ويمثل الكتاب مجموعة محاضرات ألقاها فى مدرسة اللاهوت بجامعة بيل .

وكتاب «تاريخ العقيدة» لمؤلفه الدكتور أدولف هونك» أستاذ تاريخ الكنيسة بجامعة برلين ، ويعتبر واحدا من أكبر العلماء فى التاريخ الكنسى – كما يقول المؤلف – وله أبحاث ومؤلفات عديدة من أهمها هذا الكتاب الذى يقع فى سبعة أجزاء ، وقد ظهرت طبعته الثالثة الألمانية عام ١٨٩٣ م .

وكتاب «اعتراضات على العقيدة المسيحية» لمؤلفيه :

أساتذة كلية اللاهوت بجامعة كمبردج : الأساتذة ماكينون ، وفيدلر ، ووبليامز وبيزنت يقول مؤلفو هذا الكتاب :

وقد نشر لأول مرة فى أبريل عام ١٩٦٣ م ، وتلقفته الأيدى حين ذاك ، فصدرت منه ثلاث طبعات فى نفس الشهر :

«إن هذا عصر أصبحت فيه أساسيات العقيدة المسيحية موضع ارتياب وأن الدعاوى التى تقوم ضد المسيحية لم يعد من الممكن مواجهتها بتكرار الحجج القديمة أو تلك التبريرات الواهية» .

* * *

ويبدأ الكتاب الذى بين أيدينا بالكلام عن مصادر العقائد المسيحية كما جاءت فى العهد الجديد ، وينصب البحث هنا على التحقق من «قانونيتها» ويخرج القارئ من هذه الدراسة بخلاصة مؤداها :

إنه فيما يتعلق بالزمان والمكان والكيفية التى اكتسبت بها الأناجيل الأربعة الصبغة القانونية – أى صارت مقبولة من الكنيسة – ومن ثم اعتبرت مقدسة ، ووفقا لما جاء فى دائرة المعارف البريطانية الجزء ١٧ ص ٥١٤ لعام ١٩٦٠ لا يملك العلماء إلا أن يقولوا : «ليس لدينا أى معرفة محددة بالكيفية التى تشكلت بموجبها قانونية الاناجيل الأربعة ولا بالمكان الذى تقرر فيه ذلك – ومما يجب ملاحظته أن كليمنت الرومى – عام ٩٧م – وبوليكارب عام ١١٢ م – قد استشهد كل منهما بأقوال للمسيح فى صيغ مستقلة عما فى الأناجيل التى صارت قانونية فيما بعد .. وأما فيما

يتعلق بقانونية العهد الجديد ككل فمن الملاحظ أن عملية بنائه وتقرير شرعية كتبه قد استغرقت حوالى ٣٥٠ عاما – وإلى بداية القرن الرابع «كان يوجد كثير من البلبلة – ويصف ايزبيوس هذا الوضع فيقسم الكتب إلى ثلاث طبقات :

كتب قبلت بوجه عام ، وكتب لاتزال موضع جدل لكن اعترف بها على نطاق واسع ، وكتب مرفوضة .

يقول المؤلف : «أىّ الكتابات المسيحية تعتبر مقدسة وتجمع معا لتكون فى العهد الجديد ؟ إلى الآن – وبعد أن اقترب الألف الثانى لميلاد المسيح – لم يمكن الوصول إلى السؤال الأهم ، بل والأخطر ألا وهو : أى الأقوال نطق بها المسيح فى انجيله وتحدث بها التلاميذ فى رسائلهم ؟ لقد ظهرت الأناجيل بنصوص مختلفة وكلما مرت عشرات من السنين ظهرت نفس الأناجيل بنصوص مخالفة لما عرفت به من قبل وبالمثل كان الحال مع رسائل التلاميذ .. إن مشكلة «النص» تعتبر بحق مشكلة المشاكل التى تشغل بال العلماء اليوم ، والتى استحدثت بسببها دراسات وعلوم تهدف أول ما تهدف إلى معرفة حقيقة النص الأصلى ، فحين يمكن تحقيق ذلك تتحدد كثير من المواقف)

وتقول دائرة المعارف البريطانية :

(إن النسخ الأصلية لكتب العهد الجديد – وهى أغريقية – فنيت منذ مدة طويلة وفيما عدا بعض بقايا من صعيد مصر فإن كل النسخ التى استخدمها المسيحيون فى الفترة التى سبقت مجمع نيقية قد غشيها نفس المصير . ومما يجب ذكره أنه حتى اختراع الطباعة لم يكن قد تم الوصول إلى اتفاق كامل فى أى من نصوص العهد الجديد)

وتتحدث الدائرة – ص ٥١٩ – ٥٢١ ج ٢ عن الأناجيل فتقول (إن التغييرات قد حدثت فيها عن قصد ، مثل إضافة أو إدخال فقرات بأكملها ، وبالتأكيد فإن بعضا منها قد استمد من مصدر خارجى .

ويقول فردريدريك جرانت فى كتابه الذى ذكرناه سابقا ص ٣٢ (إن نصوص جميع المخطوطات الأصلية للعهد الجديد تختلف اختلافا كبيرا ، ولايمكننا الاعتقاد بأن أيا منها قد نجا من الخطأ ، ومهما كان الناسخ حى الضمير ، فإنه ارتكب أخطاء وهذه الأخطاء بقيت فى كل النسخ التى نقلت عن نسخته الأصلية . إن أغلب النسخ الموجودة من جميع الأحجام قد تعرضت لتغييرات أخرى على أيدى المصححين الذين لم يكن عملهم دائما

إعادة القراءة الصحيحة) .

أما عن إنجيل مرقس بالذات

فإن مرقس لم يكن قد سمع عيسى عليه السلام ، ولا كان تابعا شخصيا له لكنه فى مرحلة متأخرة كما يقول - بابياس المسيحى المتوفى ١٣٥ م - قد تبع بطرس . .

ويقول نينهام فى كتابه الذى ذكرناه ص ٣٩ .

(لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة وعلاقة خاصة بيسوع أو كانت له شهرة خاصة فى الكنيسة الأولى . . .) .

وبالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل يقول فى ص ٤٢ :

(غالبا ما يحدد فى الفترة ٦٥ - ٧٥م وغالبا فى عام ٦٥ أو ٦٦ م . . ويعتقد كثير من العلماء أن ما كتبه مرقس فى الإصحاح ١٣ قد سطر بعد عام ٧٠م . . .)

ويقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت فى كتابه «الأناجيل : أصلها وتطورها» ص ٧٤ :

(إذا كان الرأى الشائع كذلك أن مرقس كاتب الإنجيل كان هو مبشر الإسكندرية وأول أسقف لكنيستها فإن بعض العلماء يعتبر هذا الرأى من المأثورات العجيبة تماما مثل الاستدلال الخاطىء الذى توصل إليه أوغسطين من أن مرقس كان واحدا من الذين تبعوا متى واختصروا إنجيله .)

وتقرر دائرة المعارف البريطانية ص ٥٢٣ أن إنجيل مرقس هو الأساس الذى استمد منه كل من متى ولوقا بجانب مصادر أخرى فتقول (إن القول بأن متى ولوقا استخدما إنجيل مرقس قد أصبح على وجه العموم مسلما به ولكن بجانب إنجيل مرقس فلابد أنهما قد استخدما وثيقة أخرى أصبح يشار إليها الآن بالحرف (ص) .

وبجانب هذا المصدر المفقود ص ، يرى العلماء أن هناك مصادر أخرى نقل عنها ما كتبته الأناجيل مثل المصدر m ، وعنه نقل متى بعض المواد ، والمصدر L ، ومنه استقى لوقا المادة التى انفرد بها وهى تبلغ حوالى نصف الإنجيل . وأما عن إنجيل متى :

فيوضح جون فنتون فى كتاب تفسير إنجيل متى ص ١٣٦ كيف أن متى كاتب الإنجيل لم يكن هو متى المذكور فيه على أنه تلميذ عيسى عليه السلام ويقرر أن ربط متى (لشخصيته كمؤلف بهذا التلميذ إنما هى محض خيال) ويقول (إنه من المحتمل أن مؤلف هذا الإنجيل نسب عمله إلى مؤسس الكنيسة التى كتب من أجلها هذا

الإنجيل أو معلمها الذى كان اسمه متى ..)

أما بالنسبة لتاريخ كتابة هذا الإنجيل فيمكن القول - كما يقول جون فنتون ص ١١ إنه (كتب حوالى الفترة من ٨٥ - ١٠٥ م)

والمشاكل الرئيسية لهذا الإنجيل تشتمل على خطأ الاستشهاد بتنبؤات العهد القديم ، وتوقع نهاية العالم سريعا وما جاء فى خاتمته من ذكر التعميد باسم الآب والابن والروح القدس ، إذ إن هذه الصيغة كما يقول الدكتور أدولف هرنك فى كتابه تاريخ العقيدة ص ٧٩ ج ١ .

(غريب ذكرها على لسان المسيح ، ولم يكن لها نفوذ فى عصر الرسل)

وأما عن إنجيل لوقا ، فإن لوقا : يعترف بأنه لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه . ويرجح العلماء كما يقول الدكتور فريدريك كلفتن جرانت فى كتابه ص ١٢١ - ١٢٨ أن يكون لوقا قد أصدر إنجيله حوالى ٨٠ أو ٨٥م وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات ذيل كتابه برسالة ثانية هى (أعمال الرسل) ونشره حوالى ٩٥ م .

هذا وإن كان بعض العلماء الألمان أو الأمريكيين يرجحون القول بأن مؤلف كل من الإنجيل وأعمال الرسل شخصان مختلفان .

وأما عن إنجيل يوحنا : يقول الأستاذ جون مارش فى مقدمته لتفسير إنجيل يوحنا ص ٢٠ (من كان هذا اليوحنا الذى قيل إنه المؤلف ؟ أين عاش ؟ أى المصادر كان يعتمد عليها ؟ متى كتب مصنفه ؟ حول كل هذه الأسئلة وحول كثير غيرها توجد أحكام متباينة) ثم يقول ص ٨١ (من المحتمل أنه خلال السنوات العشر الأخيرة من القرن الأول الميلادى قام شخص يدعى يوحنا من الممكن أن يكون يوحنا مرقس خلافا لما هو شائع من أنه يوحنا بن زبدى أحد التلاميذ الاثنى عشر - وقد تجمعت لديه معلومات وفيرة عن يسوع ، ومن المحتمل أنه كان على دراية بواحد أو أكثر من الأناجيل المتشابهة متى ومرقس ولوقا - فقام عندئذ بتسجيل شكل جديد لقصة يسوع ..)

وعلى العموم :

فلقد كتبت الأناجيل الأربعة القانونية على مدى فترة زمنية تقدر بأكثر من ٦٠ عاما ما بين عام ٦٨م وعام ١٢٥م - والأخطر من هذا أن أقدمها لم يكتب فى حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة أو حتى بعد ذلك ببضع سنين - لكنه كتب بعد ٣٥ سنة مضت منذ رفع المسيح ، لهذا جد العلماء فى البحث عن الأسباب التى أدت إلى تأخير كتابة هذه الأناجيل وذكروا أسبابا

من بينها أن الغالبية العظمى من المسيحيين الأوائل لم يكونوا متعلمين ، وأن العادة كانت جارية بنقل التعاليم الدينية شفاها (وثمة عامل آخر .. ألا وهو تفشى فكرة المجىء الثانى للمسيح . . .) على وجه السرعة بحيث يشاهد الجيل الأول هذا المجىء ، هذا بالإضافة إلى الاضطراب والاضطهاد الذى اتسمت به الكنيسة فى عهدها الأول ..

فلما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيح على الانقراض وتباعد الأمل فى تحقيق المجىء الثانى للمسيح ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين الذكريات وكان هذا العمل من نصيب الجيل الثانى فى المسيحية وهكذا بدأت كتابة الأناجيل بعد عشرات السنين من رحيل صاحب الدعوة .

ثم يفيض المؤلف فى ذكر المشاكل الكثيرة التى تحول بين هذه الأناجيل الأربعة وبين الاعتقاد بصحتها أو بكونها وحيا إلى كاتبيها .. ويصنف هذه المشاكل إلى أربعة أبواب رئيسية تتناول : **التناقضات والاختلافات القائمة بين هذه الأناجيل ، ووقوعها فى خطأ الاستشهاد بالعهد القديم ، ووقوعها فى خطأ تقرير صلب المسيح ، ووقوعها فى خطأ تقرير قيامته .**

أما عن التناقضات فيذكر **الاختلاف بين متى ولوقا فى نسب المسيح** ، ويعقب على ذلك بقوله (إنه لايمكن الأخذ برواية أى من متى أو لوقا عن نسب المسيح إذ لو اعتبرنا أحدهما صحيحا لكان الآخر مخطئا ولاشك)

ويذكر **الاختلاف بين متى ومرقص من جانب وبين لوقا ويوحنا من جانب آخر فى أسماء التلاميذ** ، ويعقب على ذلك بقول الدكتور جون بردفورد كيرد فى كتابه تفسير إنجيل لوقا ص ١٠١ (عند ماكتب الإنجيل لم يكن هناك حتى مجرد التحقق الكامل من شخصية التلاميذ)

ويذكر من هذه الاختلافات أيضا الاختلاف فى سرد الروايات المتعلقة بكثير من الوقائع .

ويذكر بعض الروايات المتنافرة فى الإنجيل الواحد وعلى سبيل المثال ماجاء فى إنجيل متى من قول المسيح لبطرس :

« **طوبى لك ياسمعان بن يونا أعطيك** مفاتيح ملكوت السماوات فكل ماتربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماوات وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا فى السماوات » متى ١٦ : ١٧ - ١٩ ، ثم جاء فى هذا الإنجيل نفسه بعد هذا القول مباشرة من أن المسيح (ابتدأ يُظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويتألم كثيرا من

الشيوخ ورؤساء الكهنة فأخذه بطرس اليه وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب ولا يكون لك هذا – **فالتفت وقال لبطرس : اذهب عنى ياشيطان** : أنت معثرة لى لأنك لاتهتم بما لله بل للناس) متى ١٦ : ٢١ – ٢٣ ومرقس ٨ : ٣١ – ٣٣

ومن هذا التناقض الشديد أيضا ما جاء فى لوقا ومتى من **قول المسيح (كل من أنكرنى قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله)** لوقا ١٢ : ٨ – ٩ ومتى ١٠ : ٣٢ – ٣٣ وفى ختام الدعوة جلس المسيح بين تلاميذه الاثنى عشر وفيهم بطرس وقال لهم : (كلكم تشكون فى هذه الليلة ..) فأجاب بطرس وقال له (وإن شك فيك الجميع فأنا لا أشك أبدا ..)

قال له يسوع : **الحق أقول لك إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح ديك تنكرنى ثلاث مرات** . قال له بطرس : ولو اضطررت أن أموت معك لا أنكرك . هكذا قال أيضا جميع التلاميذ) متى ٢٦ : ٣١ – ٣٥ مرقس ١٤ : ٢٧ – ٣١ لوقا ٣٢ : ٣٤ .

وتقول الأناجيل إن نبوءة المسيح فى بطرس قد تحققت ، وأنكر بطرس المسيح ثلاث مرات أمام الذين قبضوا عليه (متى ٢٦ : ٥٦ – ٧٤ مرقس ١٤ : ٦٦ – ٧١ لوقا ٢٢ : ٥٤ – ٦٠

ويقول المؤلف : (**بهذا وقع بطرس فى المحظور وألقى بنفسه فى دائرة الهلاك إذ لابد وأن ينكره المسيح أمام الله تحقيقا لما سبق أن نطق به** ..)

ومع ذلك يأتى أنه بعد قيامة المسيح وظهوره لتلاميذه عين بطرس خليفة له فيهم ورئيسا عليهم يوحنا ٢١ : ١٥ – ١٧

وهكذا تأتى عشرات الأمثلة على هذا التناقض الصارخ من المقابلة بين النصوص وتأتى أمثلة أخرى على **نبوءات نطق بها المسيح ولم تتحقق** فمن ذلك ما جاء فى متى ١٩ : ٢٧ – ٢٩ من أنه قال (متى جلس ابن الإنسان على كرسى مجده تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر) ولقد كان يهوذا – الاسخريوطى الخائن الذى أصبح يعرف « بابن الهلاك » من بين هؤلاء الاثنى عشر وبهذا يستحيل تحقيق هذه النبوءة .

ومن أجل هذا نجد لوقا يحذف هذا التحديد بالاثنى عشر فى النبوءة عند ذكره لها .

ويقول جون فنتون (لعل ذلك يرجع إلى أنه كان يفكر فى يهوذا الاسخريوطى)

ولقد تنبأ المسيح كما نسب إليه بأنه يدفن فى الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال متى

١٢ : ٣٨ - ٤٠ ومرقس ٨ : ٣١ ، ٩ : ٣١ ، ١٠ : ٣٤ ويوحنا ٢ : ١٩ وبحسب الأناجيل أيضا ، وبعملية حسابية بسيطة نجد أن الأيام التي قضاها الميت في بطن الأرض - في القبر - كانت يوما واحدا هو يوم السبت ، وعدد الليالي اثنان : ليلة السبت وجزء من ليلة الأحد على أحسن الفروض.

يقول المؤلف (وبذلك استحال تحقيق هذه النبوءة)

أما عن روايات الأناجيل عن أحداث الصلب فقد اختلفت فيها اختلافا بينا شديدا

وعلى سبيل المثال فقد اختلفت في مقدمة هذه الأحداث - مسح المسيح بالطيب - اختلفت في توقيتها واختلفت في مكانها ، واختلفت في شخصية المرأة التي قامت بالمسح واختلفت فيما فعلته ، واختلفت في رد الفعل الذي حدث عند المشاهدين.

كذلك اختلفت الأناجيل في ذكر الأحداث المتعلقة بالقبض على المسيح

ويستخلص المؤلف من روايات الأناجيل في هذه المسألة نتائج هامة يبنيها على ماجاء فيها من أن المسيح قال لتلاميذه «كلكم تشكون في هذه الليلة» ، وماجاء في الأناجيل أيضا من أن التلاميذ لم يشكوا فيه في تلك الليلة .. والنتائج المترتبة على ذلك هي : إما أن نبوءة المسيح بشكهم لم تتحقق ، ويترتب على هذه النتيجة نتيجة أخرى : هي أنهم لم يشكوا لوثوقهم بنجاته ، مما يضر بصحة نبوءات المسيح وصحة ما ذكر عن صلبه معا ، وإما أنها تحققت أي أنهم شكوا في نجاته بالفعل وهذا - يعني ارتدادهم ، كما يعني نجاته أيضا.

وهكذا تجرى الروايات المتناقضة في مايتعلق بقصة إنكار بطرس ، والمحاكمات التي جرت للمسيح أمام مجمع الكهنة ، وهيرودت ، وبيلاطس ، وحامل الصليب ، واللصين اللذين صلبا بجواره ووقت الصلب ، وصلاة المصلوب وصراخه على الصليب ، وموت المصلوب ، وشهود الصلب ، وعملية الدفن ، ونهاية يهوذا ، وهلاك بيلاطس ، وتنبؤات المسيح بنجاته من القتل ، وتنبؤات المزامير - التي اعتمدت عليها الأناجيل - بنجاته أيضا ، واختلاف المسيحيين الأوائل في صلب المسيح ، واختلاف الأناجيل فيما يتعلق برواية أحداث قيامة المسيح ، وظهوره لتلاميذه ، وشك التلاميذ في روايات القيامة والظهور ، وصعوده للسماء ، أو نزوله أولا

إلى الجحيم كما جاء فى قانون إيمان الرسل الذى تذكر بعض المصادر المسيحية أن تلاميذ المسيح وضعوه بعد رحيله .

* * *

هذا السياق يلفتنا إلى حقيقة أساسية هى - كما يعبر عنها مؤلفو كتاب «اعتراضات على العقيدة المسيحية» ص٥٨ الذى ذكرناه سابقا بقولهم : (إن **المسيحية عقيدة تاريخية** بمفهوم قلما تناظرها فيه أى من العقائد الأخرى ذلك أنها إما أن تظل قائمة أو تنهار بناء على حقيقة ما كان من أحداث معينة جرى الزعم بأنها وقعت خلال فترة زمنية محددة تقدر بمائة وأربعين ساعة فى فلسطين منذ ألفى عام تقريبا)

أى أنها كما يقول المؤلف أيضا : (ربطت المسيحية التقليدية نفسها بالقول بأنها تقوم على أحداث تاريخية مثل قتل المسيح على الصليب ، وقيامته اليوم الثالث - بحيث لو تعذر إثبات وقوعها ماكان للمسيحية من برهان يدعمها ، كما أنه لو أمكن إثبات عدم حدوثها لانهارت العقيدة التقليدية من أساسها ولم يبق منها شىء)

ولعل هذا هو السبب الذى جعل القرآن الكريم يذكر هذه الأحداث - التاريخية نافيا لها فى قوله تعالى : (وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وماقتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه)

وهنا نسجل أن التحقيقات العلمية التى قام بها علماء اللاهوت المسيحى المحدثون تشهد ليس بصدق القرآن الكريم فى هذا التقرير الجازم فحسب ، ولكن **فوق ذلك تشهد بإعجازه إذ يقرر حقائق لايمكن أن يطلع عليها البشر ، ولا أن يقتربوا منها بغير الجهود العلمية المتواصلة** ، يذكرها على لسان الرسول ﷺ مما يضيف إعجازا جديدا إلى الإعجاز المعروف للقرآن ويضيف شاهد صدق جديدا إلى شواهد صدق سلفت ، تقطع بأن محمدا ﷺ ما كان ليجرؤ على تقرير هذه الحقائق إلا أن يكون الناطق بها هو وحى الله المنزل عليه .

ويشمل الإعجاز القرآنى فى هذا المقام ماجاء فيه من تقرير حقيقة حدوث التحريف فى الكتاب المقدس ، قبل أن يكشف البحث العلمى عن ذلك بعشرات القرون .

كما نسجل هنا أيضا أن التخلص من هذه الوقائع الموهومة (الصلب - القتل - القيامة) يعنى التخلص بالتالى من كل ما يحول بين المسيحية وبين الانضواء تحت

رسالة السماء الخالدة التي لم يتنزل غيرها على نبي وهي رسالة الإسلام التي جاء بها الأنبياء منذ آدم ونوح إلى عيسى إلى محمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والتسليم . وهنا تنزاح الغاشية التي لحقت برسالة عيسى ويظهر صفاؤها ويبدو صدق القرآن فيها إذ يقول في شأن عيسى وصحبه الحواريين واصفا إياهم بالإسلام :

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) آل عمران ٥٢ .

وهذه الأبحاث تجعلنا نقرر أن المسيحية في العصر الراهن تدخل في طور خطير من أدوار تطورها لم تتعرض لمثله منذ مجمع نيقية الذى عقد في القرن الرابع الميلادى . تطور يمهد للقيا تاريخية مع الإسلام بل انضواء كامل تحت لوائه .

إن هذه البحوث في طريقها إلى أن تأخذ الصورة النهائية : كإعلان يبدو بمعجزة القرآن الذى قرر هذه الحقائق من قبل . وسوف يمثل إعلان هذه المعجزة القرآنية الجديدة – في حينه – فتحا هائلا لاعتناق الإنسانية كلها للإسلام – إسلام الإنجيل وإسلام القرآن معا .

وعندئذ سوف يدخل بلايين البشر الجدد في العقيدة الشاملة عقيدة الإسلام الحق . ولسوف يلتمسون القرآن حين ذاك لينظروا كأنهم ينظرونه للمرة الأولى .

إن هدف هذه الدراسات عند أصحابها ليس كما يظن البعض هدم المسيحية ولكن كما يقول المؤلف لكى (تتحدد كثير من المواقف ولكى يتحقق الأمل الذى يراود الكثير من المسيحيين وغيرهم من المؤمنين في الاتفاق على عقيدة مسيحية واحدة بدلا من العقائد المسيحية المختلفة التي عرفت ولاتزال تعرف منذ عرف اسم المسيح إلى اليوم والتي اصطبغت في أغلب عهودها بصراعات دموية تمثل تطبيقا معاكسا لكل ماجاء به المسيح) .

إن التطور الخطير الذى تتعرض له المسيحية بهذه البحوث النقدية ليس من الدقة وصفه – كما قد يحلو للبعض – بأنه انهيار للمسيحية أو حتى . . انهيار للكنيسة .

وإنما هو – في تقديرى – لو سيطر على مجال البحث روح الحرية والموضوعية والحكمة وبعد النظر والرؤية وسعة الصدر – وهذا مانراه حتى الآن سائدا في هذه المجالات – يمثل حركة إصلاحية ثورية تتم في داخل الكنيسة وفي ظلها وبقيادتها ومن ثم فسوف يكون لها الإشراف على حركة تحول العالم المسيحى إلى الإسلام – الإسلام الذى

لاينبغى أن ينظر إليه على أنه ملك للشعوب الإسلامية المعاصرة - إن تحول العالم المسيحى إلى الإسلام سوف يحتاج إلى الكتيبة أولا وأخيرا ، إنه فى اعتقادى وأنا فى أشد الأسف أن أرانى مضطرا لقول ذلك - لن يتم هذا التحول بعمل إيجابى يقوم به المسلمون بحالتهم الراهنة ، فهم أعجز من ذلك ، هم أعجز من ذلك على المستوى العلمى ، وهم أعجز من ذلك على المستوى الحضارى ، وهم أعجز من ذلك على مستوى القوة ..

إن هذه البحوث تقضى علينا بالإيمان بوقوع مثل هذا التحول فى القريب وإن لم يكن فى القريب العاجل ، وذلك لأمر بسيط .. هو إن العقيدة المسيحية بحالتها الراهنة لايرضى عنها المسيحيون أنفسهم ، فكيف يرضى عنها غيرهم ؟ وإذن فى ظل هذه العقيدة لا أمل يرجى فى مستقبل لابد آت يقول عنه المسيح .. (وعلى الأرض السلام) وإنما الأمل يأتى عن طريق ماتنبئ عنه هذه البحوث من تطور حتمى تسير العقيدة المسيحية نحوه ، وهنا يأتى الالتحام التلاقى بين عالم المسيحية وعالم المسلمين تحت راية الإسلام .

بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك لنقول إن هذا التطور الذى تنبئ عنه هذه البحوث ضرورى لمجيء عيسى إلى الأرض مرة ثانية ، كما هى عقيدة الإسلام والمسيحية معا ، إذ من غير المتصور أن ينزل المسيح قبل تمهيد قوى يشير بقرب اللقاء بين هاتين الطائفتين على يده ، وإذا كان الخلاف بينهما قائما بعنف فإنه لايتوقع أن ينزل ، إنه لايمكن أن ينزل ليقود طائفة من الطائفتين فى حرب ضد الأخرى ، كما إنه لايمكن أن ينزل ليتعرض لتكذيب عارم نهائى من إحدى الطائفتين ، وإذن فى اعتقادى أن هذه البحوث سوف تستمر ، وسوف تتزايد ، وسوف تنتشر ، وسوف تهز أعماقا كثيرة ، وسوف تؤتى أكلها (ليتحقق ما بالكتب) من نزول المسيح وعودة السلام إلى الأرض ، وليكون الدين كله لله .

وبالله التوفيق .

د . يحيى هاشم

كتاب الشعر
وصيتي وإيماني

دورة الحضارة
خرجت من مصر والشرق
وإليهما تعود

الباحث الإسلامي
الأستاذ أحمد حسين

تمهيد :

هذا كتاب أكتبه وقد شارفت السبعين من عمرى حسب وثيقة الميلاد الرسمية ، أما العمر الحقيقى ، فعلمه عند الله .

وإنه لقدر عجيب يعمق إيماننا بالله ، إنه هو وحده يحيى ويميت وقد جعل لكل أجل كتابا ، فحيث كان اعتقادى أننى سأموت مبكرا ، وقد تعرضت بالفعل لمخاطر ومهلكات كان آخرها ، هذا المرض العنيف القاتل والذى أصابنى منذ عشر سنوات وجعلنى عاجزا مشلولا . ومع ذلك فها أنذا لأزال حيا . وصدق الله العظيم من أنه (لكل أجل كتاب) ومادام فى العمر بقية ، ومادام فى رأسى فكر وبدى تتحرك بالقلم فلامناص من أن أسجل فكرى ليستفيد منه من يستفيد إذا كان يتضمن فائدة .

وموضوع هذا الكتاب أوبالأحرى الكُتَيِّبْ أوالرسالة ، أوسمه ماشئت ، هو الموضوع الذى بدأ يتملكنى ويسيطر على فكرى ووجدانى معا ، ولقد كتبت فيه عدة مقالات ، ولكنى كنت أكتبها فى اختصار وتعجل ، فالحيز محدود ، والوقت ضيق فشعرت بأن واجبى يحتم على أن أكتب غير متقيد بوقت أوحيز ، فجئت إلى جمعية الوفاء والأمل ، لأبتعد أكثر وأكثر عن صخب الحياة ، ولأتفرغ كل التفرغ للكتابة فى هذا الموضوع الذى أصبح التفكير فيه يسعدنى ، فما بالك أن أكتب فيه ، والفكرة ليست جديدة ، ومنذ أمسكت بالقلم ونزلت الى الحياة العامة وأنا أبشر بها ، ولكن ثمة فارق بين مانحس به بوجداننا ، ومانتفرد بالإحساس به لايشاطرنا إلا قلة ، وبين أن يقوم الدليل على صحة مشاعرنا ، وأن يتسع الشعور وسط قطاعات عريضة من المفكرين فى الشرق والغرب معا . وتتلخص هذه الفكرة فى أقوال ماسمى بأنه حضارة حديثة أوربية ، وبعد قيام أمريكا سمى بالحضارة الغربية ، والحقيقة أنه ليس هناك سوى حضارة إنسانية واحدة ، لاقديم فيها ولاجديد ، حضارة تفرق بين الإنسان والحيوان ، فهى تقوم على الإيمان بالله واليوم الآخر ومايترتب على ذلك ، من قوانين وتقاليد وأخلاق ، مكنت البشر من العيش فى جماعة آمنة عاملة متعاونة مسالمة ، هذه هى مقومات الحضارة الإنسانية التى لامقومات غيرها وكانت قد انتهت إلى أوربا كما سوف نرى ، ولكن أوربا فى غرورها ، تصورت أنها تبدأ حضارة جديدة ، تستغنى فيه عن الأساس الروحى للحضارة ، وهو الإيمان بالله واليوم

الآخر ، وتصورت أن فى المحسوسات فقط أى « المادة » مايكفى لبناء الحضارة ، فكان هذا الذى كان من تجمد حضارتها ، ثم أفولها وتدهورها مما سنشرحه فيما يلى داعين المصريين والعرب ، إلى أن يدركوا ماأدركه الشرقيون « اليابان والصين » من أنه ليس سوى حضارة واحدة ، هى تلك التى انبثقت من الشرق بعامة ، ومن الشرق الأوسط بخاصة « مصر والعرب وإيران » وهى فى طريقها إلى العودة إلى الشرق بعد أن تخلى الغرب عن أسسها .

وغنى عن البيان ، أننى لو حاولت الاستشهاد بالوثائق ، والمراجع لاحتاج الأمر إلى عشرات من المجلدات وسنوات من التأليف ، وهذا هو ماأتركه لشباب العلماء فى كل ميدان ، فهذا الذى أكتبه فى هذه العجالة ، هو خلاصة الخلاصة لما طالعت ، وألفت ، وفوق ذلك وقبل ذلك ماجربت وعانيت وعاينت ، كرؤية الإمبراطورية البريطانية فى أوج عظمتها ، ورؤيتها بعد ذلك وقد دالت دولتها وتحولت من النقيض إلى النقيض ، كماسوف يرى[1] .

بعد هذا التمهيد أقول وبالله التوفيق .

أحمد حسين

دار الوفاء والأمل ١٩٧٨/١٠/٧

الفصل الأول
١
دورة الحضارة

يجب أن أعترف ، أنه برغم مطالعاتى ، لم أستطع أن أتابع هذه المباحث التى أريد بها التفريق بين كلمتى الحضارة والمدنية ، فالكلمتان فى تصورى مترادفتان فالحضارة ضد البداوة ، وهى منسوبة إلى الحضر ، ومنه الحاضرة ، أى المدينة الكبرى والمدنية منسوبة إلى المدينة ، والناس لم تستقر فى مدن ، إلا بعد أن تركوا البداوة وآثروا الحضارة ، ومع ذلك فقد يكون ثمة فارق بين الكلمتين وفوق كل ذى علم عليم . وقد ألف الكاتب الأمريكى الكبير « ول دورانت » موسوعة ضخمة فى تاريخ الحضارة الإنسانية تتكون من عديد من المجلدات الضخمة ، وقد تتبع نشوء الحضارة وتكونها ، وازدهارها ، ثم ذبولها فى إقليم ، ونشوئها فى إقليم آخر وعناصر الحضارة عنده ، هى الدين والقانون ثم العلم والفنون ، واستعرض هذه العناصر فى

---

(١) كان آخر مظاهر هذا التدهور أن توقفت جريدة « التيمز » عن الصدور وهى التى كان الإنجليز يتصورون أن الشمس قد تغيب ، أما هى فلا .

مصر وبابل وفينيقيا والإغريق ثم الرومان وتحدث عن الهند والصين ، ثم عاد إلى الشرق الأوسط ، ليحدثنا عن الحضارة الإسلامية العربية ، وأوربا المظلمة فى العصور الوسطى وكيف انتقلت إليها الحضارة ونحن نعتبر هذا الكتاب وثيقتنا ومرجعنا الأول فيا سنقوله فى كتابنا هذا فليرجع إليه من يريد الدراسة ، خاصة وأن كتاب « ول دورانت » ذكر مئات المراجع التى استند إليها فى تقرير ماقرر.

دورة الحضارة

بقى ثمة مبحث تمهيدى ، يجب أن نقول فيه كلمتنا قبل أن نسترسل فى موضوعنا فقد شك مفكرو أوربا ، وقد تملكهم الغرور ، أن يتصوروا أن ماوصلت إليه أوربا هو ذروة الحضارة التى لم تشهدها الإنسانية من قبل ، وأن كل ماشهدته البشرية ، كان تمهيدا وإعدادا لظهور الحضارة الأوروبية وكان داروين الإنجليزى هو أول من قال ذلك ، فتحدث عن النشوء والارتقاء من الأدنى إلى الأعلى ، فالإنسان هو وليد القرد ، وسرت هذه الفكرة ، فكرة التطور سائر علوم المعرفة ، وأصبحت البنية الأساسية لفهم كل شىء فى الكون ، وهكذا وجد الأساس الفكرى والعلمى لإشباع غرور الأوروبيين ، فى أن حضارتهم ستظل تعلو وتعلو فهذا هو قانون الطبيعة حيث أثبتت التجارب والمشاهدات وسنن الطبيعة الثابتة ، أن لاشىء فى هذه الدنيا يسير فى خط مستقيم أبدا ، فليس هناك ارتفاع إلى مالانهاية ، أوهبوط إلى مالانهاية أوسير فى اتجاه واحد إلى مالا نهاية بل إن كل شىء فى هذا الكون يسير فى دوائر فهو يبدأ حيث ينتهى ، والنهاية هى البداية ، ابتداء من الشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم ، حتى أصغر شىء فى الكون وهى الذرة فهى مؤلفة من أجزاء تدور الإنسان والحيوان والنبات بعض مافى هذا الكون فلايمكن أن تخرج عن سنته فهى بدورها وكل مايتصل بها يدور ، وإذا كان كل إنسان يرى هذه الدورة فى النبات ، حيث ينبثق من الأرض لينمو ويورق ثم يزهر ثم يثمر ، ثم يذبل ويذوى ، لتعود الأرض ترابا كما كانت ، فليس سوى جاهل وغافل معا من يتصور أن الإنسان خارج عن هذه القاعدة ، وما من إنسان إلا وهو يولد طفلا ثم ينمو وينمو ، حتى إذا وصل إلى أوج نموه عاد إلى الانحدار فالتدهور فالموت وبعد الموت يتحول إلى تراب ، وكل مايتصل بالإنسان ، من مدن وحضارة لابد أن يخضع لكل مايخضع إليه

كل ما فى هذا الكون وهو أن يسير فى دوائر ينتهى حيث بدأ .

ماركس والدوران اللولبى

وقد شهدت أوربا فى القرن التاسع عشر عالما اقتصاديا ، أراد أن يهدم كل تاريخ البشر ليبدأ دنيا جديدة ، تضرب عرض الحائط بكل عناصر الحضارة المتعارف عليها وبنى ذلك بطبيعة الحال على نظرية التطور والنشوء والارتقاء وأن المجتمعات البشرية تتطور دائما من الأدنى إلى الأعلى ، ولكن ماركس الذى زعم أن نظريته مؤسسة على العلم المحض ، جابهته هذه الحقيقة العلمية الثابتة ، من أن كل شىء فى هذه الدنيا يدور ، وينتهى حيث بدأ ، فخرج من المأزق بكلمة فارغة ، ونعنى بكونها فارغة أنها مجرد كلمة لاسبيل للتحقق منها فهى غير قابلة للقياس ، لأن أحد الطرفين غائب (وهو الماضى البعيد والبعيد جداً) فكيف يمكن قياسه بالحاضر ، فمن هنا وصفنا الكلمة بأنها مجرد كلمة جوفاء فارغة ، ولكنها كانت كافية لإشباع غرور بعض الأوربيين بأنهم أعظم كل من سبق فهم ثمرة الرقى الذى يجب أن يواصل الارتقاء إلى مالانهاية .

فماذا قال ماركس ؟ ، قال : إن كل شىء يدور ، نعم ، ولكنه يدور بشكل حلزونى لولبى ، أى أن كل لفة تدور لتعود إلى نقطة البداية ولكن فى مستوى أعلى ، وهذا كلام لاتناقشه لأنه لايناقش وهو لايزيد عن كونه مجرد قول لادليل عليه .

ولنا الحقيقة العلمية الثابتة والتجربة التى يشهدها كل إنسان ويراها بعينيه ويلمسها بيديه فى كل من حوله بل وفى داخل نفسه ، من أن كل شىء يدور ويدور وينتهى من حيث بدأ ، وأن الحضارة شأنها فى ذلك شأن أى شىء فى الكون تدور .

٢
الحضـــارة

أبسط صور الحضارة ، أن يعيش الإنسان فى جماعة آمنة متعاونة ، يحملها على التعاون الإيمان بإله خالق مشترك ، وشعور الجميع بالمصلحة والفائدة التى تعود على كل منهم نتيجة هذا التعاون ، وسرعان ما اكتشف الإنسان أن التعاون لايعطى ثمرته الكاملة إلا من خلال تقسيم العمل ، وقيام رئيس مطاع لإعطاء كل ذى حق حقه .

وهكذا فى ظل الدين والحكومة والقانون وجدت الحضارة ، ولما كانت السكنى فيما سمى بالمدينة هى مظهر الاستقرار الحضارى فقد أطلق على الحضارة اسم المدنية .

بدأ الإنسان كاملا

ونحن نخالف النظرية الأوربية التي سادت فترة من الزمان . من أن الإنسان تطور من الحيوان « القرد » ونعتبر ذلك نوعا من الغرور الذي تملك الأوربيين ردحا من الزمان . وأرادوا أن يصوروا لأنفسهم أنهم هم وحدهم الناس وأن كل ماسبق . كان تمهيدا لظهورهم هم وهو عبث على خلاف كل معقول ومنقول فلو أن كل مافي الكون قد تطور من الأدنى للأعلى . لوجب أن ينقرض الأدنى نهائيا ولكن الأدنى لايزال حيث هو وهكذا فحيوانات الخلية الواحدة تزحم الكون كما تزحمه الكائنات الأخرى . والحيوانات الضخمة المنقرضة . تثبت أن الحياة قد شهدت كائنات أقوى وأعظم ، والقول بأنها انقرضت لأنها كانت أضعف من احتمال تطور الحياة . هو مجرد قول لادليل عليه فإذا زعموا مثلا أن الديناصور قد انقرض لأنه لايأكل اللحوم ، فإن أضخم وأقوى حيوان على ظهر الأرض اليوم وهو « الفيل » . ويليه الكركدن « وحيد القرن » . وكل حيوانات الجرى والجر وحمل الأثقال ، والأعمال الشاقة « الخيل والحمير والبغال والبقر والجاموس » فكل هذه حيوانات لاتأكل سوى الأعشاب فباطل مايقال إن الحيوانات العملاقة التي عاشت على الأرض منذ ملايين السنين لم تقو على الاستمرار في معركة الحياة التي تقوم على « تنازع البقاء » .

وربما يكون أصح من ذلك إن يقال أن هذه الحيوانات قد تدهورت . وإذا كانت الحيوانات اليوم يتناقص عددها فذلك لأن الإنسان يقتلها أو يذبحها ليأكل لحمها حيث تنهش لحمه هو ميكروبات لاتكاد ترى .

ومع ذلك قال « داروين » وصدقه العلم الأوروبي الحديث . هذا القول الفارغ من أن كل شيء يتطور من الأدنى إلى الأعلى أما نحن فنقول بقول القرآن ، من أن الإنسان ولد كاملا (وعلم آدم الأسماء كلها) ومن الذروة السابقة يهبط الإنسان حينا ويرتفع حينا ، ويعود دائما سواء في ارتفاعه أو انخفاضه إلى نقطة البداية أي أنه يدور ودليلنا العقلي على أن الإنسان بدأ كاملا في قواه الجسدية ، والفكرية ، إذ لولا هذا لما استطاع أن يكتشف ما كتشف وأن يخترع على مر العصور ، فاختراع اللغة للتخاطب وبعد ذلك للكتابة واكتشاف النار ، والزراعة وغير ذلك . كل هذا يحتاج إلى قدرة فكرية عالية جدًا وقد اعتاد البشر على مر التاريخ . أن يجعلوا عصورهم

الذهبية فى ماضيهم ، وأن يجعلوا قصارى جهدهم ، أن يجعلوا حاضرهم فى مستوى ماضيهم .

ولقد تعلمنا فى المدارس كيف كانت إسبانيا والبرتغال وكيف أصبحتا ، وكانوا يعلموننا عظمة تركيا وماانتهت إليه ، كل ذلك ليصلوا إلى القول بأن الإمبراطورية البريطانية هى ذروة ماانتهى إليه البشر من حضارة ولاشك أن إنجلترا اليوم تعتبر القرن التاسع عشر هو عصرها الذهبى .

والخلاصة أنه مامن مجتمع من المجتمعات الاوربى أن ماضيه كان أسعد من حاضره وأصلح وأكمل ، وهو مايقضى على فكرة التطور من الأدنى للأعلى ، وتزداد إيمانا بقرآننا الذى يعلمنا أن الإنسان ولد كاملا وعلى ضوء ذلك نستعرض حضارات الدنيا .

٣
الشرق الأوسط والأقصى شهدا ازدهار الحضارة لأول مرة

أين نشأت الحضارة ؟

أين نشأت الحضارة الإنسانية حديث يطول وقد اختلفت الآراء حسب الميول والأهواء ولكنها فى نهاية الأمر تجمع على أنها نشأت فى الشرق وحول أحواض الأنهار فيه بالذات . وقال قائلون إنها نشأت فى الهند أوالصين ، ورأى آخر أكثر وزنا على أنها نشأت فى مصر والعراق .

ونحن هنا لانبحث الفصل فى هذه القضية ولنا حقيقتان لاخلاف عليهما :

الأولى :

هو ماقلناه آنفا من الإجماع على أن الحضارة نشأت فى الشرق .

الثانية :

إن أقدم أثر وأعظمه فى نفس الوقت وهو « الأهرام » قائم على أرض مصر ، وإذا كان معجزة البناء فى كل العصور ، يجعل المؤرخون الثقات تاريخ إنشائه إلى مايقرب من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، فباستطاعتنا أن نتصور أنه سبق إنشاؤه بهذه الطريقة المعجزة عدة ألوف أخرى من السنين .

بابل وآشور وفينيقيا :

وثمة مراكز أخرى حضارية قامت فى بابل وآشور وفينيقيا ، ومرة أخرى يرى المؤرخون أن فينيقيا (لبنان) هى ناقلة

الحضارة إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ومرة أخرى نرى حقيقة لاخلاف عليها ، وهى أن الحضارة بالفعل وجدت فى العصر التالى للعصر السابق عند الإغريق والرومان وقرطاجنة وكلها تقع على البحر الأبيض المتوسط وإلى الشرق أقرب ، وجاء الوقت الذى أغارت فيه القبائل الأوربية التى كانت لاتزال فى حالة البداوة ، ولانقول الهمجية والبربرية ، كما يسميها الأوربيون ، أغارت هذه القبائل على روما ، فوضعت حداً للحضارة الرومانية ولكنها سرعان مااعتنقت المسيحية التى هى بدورها حضارة شرقية ، ولكن دولة الرومان التى كانت قد انتقلت إلى الشرق وأصبحت هى زعيمة العالم المسيحى منذ أنشأ قسطنطين مدينة « القسطنطينية » (استنبول – فى الوقت الحاضر) وأصبحت دولة الرومان تسمى « بيزنطة » ، ولقربها من الشرق (مصر وسوريا ولبنان وفلسطين) أصبحت ذروة حضارية ، وراحت تتقاسم معالمها مع الحضارة الفارسية .

ثم جاء الإسلام

وجاء الإسلام وسرعان ماأظل عالم ذلك الزمان (أوربا وأفريقيا وآسيا والبحار السبعة) مايسمى بـ « الحضارة الإسلامية » والتى سادت من القرن الثامن الميلادى حتى الثالث عشر أوالرابع عشر ، ونعنى بالسيادة ، أنه انتهى إليها العلم والقوة والازدهار بحيث أصبح كل راغب فى التطلع نحو حياة أحسن ، لاسبيل أمامه إلا اتباع أساليب الحضارة الإسلامية اعتنق الإسلام أولم يعتنق وفى هذه الفترة (٥٠٠ – ٦٠٠ سنة على الأقل) أصبح البحر الأبيض بحيرة إسلامية فقد كانت كل جزره وشواطئه ، تقريبا ، قد أصبحت إسلامية ، أوتعمل حساب القوة الإسلامية .

٤
الحالة فى أوربا

انتهينا إلى أن نور الحضارة قد بزغ من الشرق وأن أوربا إذا كانت قد عرفت الحضارة فى دور تال (ألف سنة قبل الميلاد فقط) فقد كان ذلك قاصرا على اليونان وإيطاليا ثم بيزنطة وهى أجزاء أقرب إلى الشرق ماديا وروحيا من أوربا ، أما أوربا نفسها ، فيطلق مفكروها ومؤرخوها على تاريخها فى العصور الوسطى بالعصور المظلمة ، وقد قدمنا أن أوربا قد خرجت من الظلمات تحت وهج الحضارة الإسلامية ولكنا قبل أن نذكر كيف حدث هذا نرى

أولا أن نشير لبعض المظاهر التى جعلت المفكرين والمؤرخين ، يصفون أوربا بأنها كانت تعيش فى عصور الظلام ولايتصورون متصور أننا سنلق الكلام على عواهنه ، وأننا سنقول كلاما عاما لنصف به حياة دامت خمسة أوستة قرون على الأقل قبل أن يعكس الإسلام والحضارة الإسلامية عليها أثرها وإنما سنقف أمام وقائع محددة متفق عليها ، وهى يمكن أن تصور حالة أوربا فى هذه الفترة فأعظم ملوك أوروبا فى هذه الفترة وهو « شارلمان » الذى كان معاصرا لهارون الرشيد كان يجهل القراءة والكتابة ، وكان يوقع على رسائله وأوامره بأن يرسم علامة الصليب ، ويحدثنا مؤرخ أوربى معاصر أنه عندما أرسل له هارون الرشيد ساعة تعمل بقوة الماء وصفها من حول شارلمان بأنها لابد أنها من عمل الجن .

مركز المرأة

وكانت بعض المؤتمرات تبحث إذا كان للمرأة روح كالرجل ، وهل هى أهل للقيام بالواجبات الدينية وكانت تحرم من دخول الكنائس ، وهى فى كل الأحوال « أحبولة الشيطان » وكان هناك مايسمى « نطاق العفة » وهو حزام وله قفل مصنوع بطريقة مخصوصة يلبسه الزوج لزوجته أثناء سفره أوغيابه ، ليحول بطريقة مادية دون خيانته ، وستجد فى بعض المتاحف نموذجا من نطاق العفة .

صكوك الغفران

ومن الأمور التى اشتهرت مايعرف فى التاريخ باسم « صكوك الغفران » وهى بطاقات لدخول الجنة يصدرها البابا للحصول على المال ، وماعلى مشتريها إلا أن يضع اسمه فى الفراغ المخصص لذلك كى يضمن دخول الجنة .

فرض الحرمان من دخول ملكوت السماء

وكان البابا يفرض حرمانا على شعوب بأكملها ، فيتوقف رجال الكنيسة ، عن تعميد الأطفال ليكونوا مسيحيين ، وعن تزويج العرائس ، وعن الصلاة على روح من يموت ، وكان ذلك يعنى أن هذا الشعب بأطفاله ورجاله ونسائه ، أصبح مآله الجحيم وقد استطاع البابوات ، ومن خلال التلويح باستعمال هذه السلطة أن يذلوا الملوك والأباطرة ولسنا نكتب تاريخا ، وإنما هى مجرد إشارات ، وفى هذا الباب ماأشتهر فى التاريخ باسم « إذلال كانوسا » .

محاكم التفتيش

ومن سمات أوروبا فى هذه الفترة ماأطلق عليه اسم محاكم التفتيش ، وهى تغنى عن كل شرح ، والتعذيب البشع . كان وسيوجد فى كل زمان ، ولكنه فى محاكم التفتيش كان يمارس بصفة عامة باسم المسيحية والرغبة فى تطهير نفس من يعذبونه ويقطعون أوصاله ويشعلون فيه النار . وحسبنا فقط أن نذكر واقعتين مشهورتين ، ومتفق عليهما باعتبارهما نماذج من نشاط محاكم التفتيش .

أما الأولى فهى حرق « جان دارك » التى حررت فرنسا من حكم الإنجليز . فقد قبض عليها الإنجليز وجعلوا محكمة التفتيش تحاكمها وتحكم عليها بالحرق باعتبارها ساحرة .

أما الواقعة الثانية فتتلخص فيما وقع فى إسبانيا . فحيث حكم المسلمون فى إسبانيا بضعة قرون وصلت فيها الحضارة الإسلامية الذروة ، فلن تجد فى إسبانيا والبرتغال على طولها وعرضها ، عائلة واحدة إسلامية . وذلك بفضل مافعلته محاكم التفتيش .

الحكم الإقطاعى

والكثيرون فى العالم الإسلامى يرددون كلمة الإقطاع والحكم الإقطاعى ، دون أن يدركوا مدلول هذه الكلمة والتى يستحيل أن توجد فى ظل الإسلام . وحقيقتها ، أن الإقطاعى كان يملك الأرض ومن عليها من بشر ومواشى ، بحيث يستطيع أن يتصرف فى الجميع تصرف المالك بكل صنوف التصرف من بيع وإيجار وإعارة وتنازل . وكان القن ، أى الفلاح التابع للأرض » ، لايستطيع أن يغادرها وإلا كان مرتكبا لجريمة . وكان إذا تزوج فإن الليلة الأولى هى لسيده ، إن شاء .

وأخيرا كانت الإقطاعية تساق أحيانا باعتبارها مهرا وكانت تورث . وقد تألفت دول أوربا الحديثة بهذا الأسلوب أسلوب الميراث والمصاهرة بين الملوك والأمراء .

وأخيرا الحياة العامة :

ولن أتحدث بعد ذلك عن الجهل ، وضروب القسوة ، والقذارة ، وتفشى الأوبئة فلن يصدق القارئ مثلا ، أن ملك فرنسا أغمى عليه فى أحد المرات من الروائح النتنة التى كانت تحيط بقصره ولن يصدقوا أن جثث الخنازير والكلاب الموتى كانت تزحم الشوارع . وكانوا لايعرفون معنى الاستحمام . ومن هنا فلاداعى لذكر تفاصيل لن تصدق ولنا الإجماع على تسمية هذه الحقبة بـ « عصور الظلام » .

٥
الصورة فى العالم الإسلامى

وهكذا حيث كانت أوربا غارقة فى ظلامها حيث ينقسم الناس إلى سادة يملكون بقية البشر كعبيد ومواشى ، وحيث القسوة والبربرية والجهل والقذارة ، كانت الصورة فى العالم الإسلامى على النقيض من ذلك تماما فأوربا التى تحكم بمئات وألوف من السادة الإقطاعيين ، مابين أمراء ودوقات وكونتات .. إلخ ، كان العالم الإسلامى الذى شمل آسيا الغربية وشمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط وإسبانيا يؤلف دولة واحدة تدين بالولاء لإمام المسلمين فى ظل التعاليم الإسلامية التى ستعرفها أوربا بعد ألف سنة من ظهور الإسلام فى الثورة الفرنسية عندما نادت بالحرية والإخاء والمساواة ، وسقوط الإقطاع ، فكل هذه كانت أساس الحياة فى المجتمع الإسلامى فلا أبيض ولا أسود ، ولا أمير وحقير ، وإنما الكل يسجدون لإله واحد ويتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

وحيث كان الجهل هو المفخرة فقد كانت مئات الألوف من المساجد تشع العلم ، بل كانت هناك المدارس والمعاهد والجامعات بمعناها الحديث ، كالنظامية فى بغداد والأزهر فى مصر ، والمسجد الجامع فى قرطبة ، وحيث كان شارلمان وخلفاؤه يتبرمون بالعلم ويضطهدون المتعلمين كان المأمون الخليفة العباسى عندما يهزم إمبراطور الروم فى بيزنطة ، يشترط عليه فى معاهدة الصلح تسليم بضع مئات من الكتب .

وحيث كان المرضى يعاملون أحيانا بمنتهى القسوة فى أوروبا باعتبار أرواح شريرة قد تملكتهم ، كان العالم الإسلامى يغص بالمستشفيات العامة التى تعالج بعض الحالات النفسية والعصبية بالموسيقى

وحيث كان الأوربيون لايعرفون سوى الصيد والقنص كمصدر رئيسى للغذاء كان العالم الإسلامى يعيش فى الدرجة الأولى على الزراعة وفنونها .

وحيث القذارة والعفن والنتن ، كانت أشياء عادية فى أوروبا ، كانت المدن الإسلامية غاصة بالحمامات العامة والحدائق الجميلة .

ولسنا بصدد كتابة تاريخ ، ولكنها مجرد إشارات كما قدمنا ، لنعرف منها الطابع العام لأوربا والعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وسنرى فى الفصل التالى كيف تأثرت أوربا بالعالم الإسلامى فنهضت وتحضرت .

الفصل الثانى

كيف وصلت الحضارة إلى أوربا ؟

١

لسنا فى حاجة إلى إعمال كبير خيال لتصور مقدار الزلزال الذى أصاب أوربا المسيحية وهى تشهد انتصار الإسلام هذا الانتصار الساحق الذى لم يسبقه مثيل فى كل عصور التاريخ ، فى أقل من قرن واحد كان الإسلام يقضى نهائيا على أعظم إمبراطورية وثنية عرفها الشرق ، وهى فارس ، وكان يدحر قلعة المسيحية فى أوربا وهى بيزنطة برا وبحرا ويحاصر عاصمتها ، ويتصور كثيرون فى أيامنا الحاضرة ، أن الأخبار لم تكن تعرف وهو وهم مفرط فى السذاجة ، فلم يكن يخفى على من يتتبع الأخبار شىء منها ، وكان الفارق بين الأمس واليوم ، هو فى التوقيت الزمنى ، فنحن اليوم نعلم الخبر ساعة وقوعه عن طريق الراديو ، وأصبحنا (بعد الأقمار الصناعية) نراه ساعة وقوعه ، وعندما لم يكن هناك راديو أوتليفزيون ، فقد كنا نسمع كل مايقع فى العالم بعد يوم أويومين ، وهذا ماكان يحدث دائما ، حيث تعرف الأخبار حتما وبالتوالى وبترتيب وقوعها وإن كان ذلك يحدث بعد فترة تقدر بزمن المواصلات اللازمة ، وعلينا أن نتصور أى فزع يصيب الأوروبيين ، وهم يرون موجة الإسلام تغمر كل شواطئ البحر الأبيض الجنوبية ثم تنتقل عبر مضيق هرقل (جبل طارق) لتعبر إلى إسبانيا ، فإذا استحضرنا فى أذهاننا أن سكان أوربا فى ذلك الوقت كانوا مسيحيين مؤمنين بمسيحيتهم إلى أبعد حدود الإيمان ، فقد أحدث انتصار الإسلام وانتشاره رد فعل مباشر فى شرق أوربا وغربها على السواء وهما اللذان باتا فى ظل الخطر الإسلامى كما تصوروه فى ذلك الوقت .

اصلاح دينى فى بيزنطة

فأما فى دولة الروم الشرقية بيزنطة حيث لم تكن تنقصها المدنية والحضارة ، فقد تأثرت بطهارة المسلمين الناصعة من الوثنية وكل مظاهرها وأشكالها فسرت فى بيزنطة روح من الإصلاح الدينى ، أخذ صورة تحطيم التماثيل فى الكنائس باعتبارها ضربا من ضروب الوثنية وقد ظلت الدعوة إلى إصلاح الكنيسة تنمو وتتصاعد حتى انتهت إلى البروتستانتية كما سوف نرى ، وقد كانت

حركة الإصلاح الأولى التى بدأت فى بيزنطة تسمى الحركة اللاأيقونية.

وماذا حدث فى الغرب

وحيث كان هذا يحدث فى الشرق، فقد حدث فى الغرب (فرنسا وإيطاليا) تفكير من نوع جديد، وهو وجوب المقاومة وعدم الاستسلام ووجوب التعاون والتضامن لدفع ماتصوروه خطرا مشتركا، فعندما زحف جيش إسلامى من إسبانيا ليفتح فرنسا، تنادى كل فرسان أوربا لإيقاف هذا الزحف، وفى معركة «بواتييه» الحاسمة فى جنوب غرب فرنسا أمكن الصمود لأول مرة فى وجه جيش إسلامى، ويقول مؤرخو أوربا فى ذلك الزمان (القرن الثامن الميلادى) إن انتصار الفرنجة على المسلمين فى هذه المعركة أنقذ أوربا من الإسلام. أما مفكرو ومؤرخو أوروبا فى القرن التاسع عشر (المنصفون منهم) فقد قالوا إن هزيمة العرب (أى المسلمين) فى هذه الموقعة قد أخر وصول الحضارة إلى أوربا خمسمائة سنة، فظلت تعيش فيما وصفناه، فيما سبق، خمسمائة سنة.

والذى يهمنا أن الإسلام قد هز أوربا شرقا وغربا، بكل قوة وعنف، وظلت فى رعب وقلق أن يدهمها المسلمون، فشحذ ذلك من قواها، وعاون على تجميع صفوفها وتكتلها وحمل الأوربيين بالأكثر على أن يدرسوا سر تفوق المسلمين، ولم يكن ذلك بعيدا عن متناول أيديهم، فقد خرجت إسبانيا حيث كان الحكم الإسلامى من ظلمات العصور الوسطى الأوربية وراحت تشع بالنور فيما حولها.

٢
إسبانيا أو الأندلس

حديث الإسلام والعرب فى إسبانيا حديث طويل وعريض، وقد حل الإسلام إسبانيا بكل ثقله وجلاله فى موجة الفتوح الاسلامية فى القرن الأول للإسلام ولم تكن هناك قوة فى العالم تستطيع أن توقفها لأنها كانت قوة تسير بجناحين «العدل والرحمة» وفى دنيا كان يسودها الظلم والقسوة، وقفت الشعوب كلها إلى جانب العدل والرحمة، فكان هذا النصر الذى لم يعرف له التاريخ مثيلاً من قبل أومن بعد.

وباستقرار المسلمين فى إسبانيا، كانت هذه الحضارة العجيبة، التى استمرت مئات السنين حيث كان الجهل والقسوة والوحشية والقذارة والتعصب هو أخص

خصائص الحياة فى بقية أوربا ، وكان من غير الطبيعى أن يستمر ذلك طويلاً فقد بدأ الأوربيون ويسميهم العرب والمسلمون « الفرنجة » بدأوا يتعلمون اللغة العربية لينقلوا علم المسلمين ، فتأسست فى مدينة « طليطلة » بالأندلس أعظم دار للترجمة من اللغة العربية إلى اللاتينية ، وعن هذا الطريق ، انتقلت العلوم والمعارف الحضارية من إغريقية ورومانية ومصرية وهندية وصينية وعربية . وقد كان المجتمع الإسلامى قد استقطب كل هذه المعارف على هدى القرآن ، الذى أسبغ على ذلك كله روحاً جديدة ، وسرى ذلك كله إلى فرنسا وإنجلترا بخاصة وإلى بقية أوربا المسيحية بعامة ، ومن هنا كانت إنجلترا وفرنسا فى مقدمة الدول الأوربية التى بدأت النهضة .

٣

الحروب الصليبية

رأينا كيف حاصر الإسلام أوربا المسيحية من الشرق بتقليصه سلطان بيزنطة ، وحاصرها من الجنوب بالسيطرة على البحر الأبيض المتوسط وحاصرها من الغرب باستقراره فى إسبانيا والبرتغال .

ودام الحال على ذلك قرنين أوثلاثة ، ولاحاجة لنا لبذل جهد كبيرأن الحضارة الإسلامية التى حاصرت أوربا راحت تضغط على قلب أوربا ، فانفجرت بالحقد والتعصب ضد الإسلام والعالم الإسلامى ، فكانت الحروب الصليبية التى اندلعت بكل قوة وعنف فى القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث توافدت الجيوش الصليبية من إنجلترا وفرنسا وألمانيا محملة على سفن إيطاليا ، فاستطاعت أن تستولى على القدس وأجزاء من فلسطين وسوريا وأن تؤسس بها دويلات أوربية بالنظام والعقلية والأساليب الأوربية ، وقد استمرت الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون ، تقابل فيها التعصب الأوربى بالسماحة الإسلامية ، والوحشية الأوربية بالرحمة الإسلامية والبداوة الأوربية بالحضارة الإسلامية ، وحسب أى قارئ أن يعود لكتب التاريخ ليقارن بين الفظائع البربرية التى ارتكبها الصليبيون عندما استولوا على بيت المقدس حيث كانت خيولهم تسبح فى دماء من ذبحوا من المسلمين ، وكيف بنوا هرماً من جماجم القتلى ، وما فعله صلاح الدين عندما استرد القدس من الصليبيين ، لقد ذهلت أوربا من التصرف الإنسانى والحضارى لصلاح الدين وجيوش

المسلمين ، ولم يعودوا يسمعون لصيحات الكنيسة الكاذبة ضد المسلمين من أنهم متوحشون وهمج ، بل أدركوا أنهم هم المتوحشون والهمج ، وراحوا ينقلون عن المسلمين ويقلدون ، بدأوا يتعلمون وينشئون المدن ، ويؤلفان الدول ، ويعتمدون على الزراعة ، ويستعملون الصابون للنظافة والورق للكتابة ، وبدأوا فى الدرجة الأولى يعتمدون على الطب العربى والحساب العربى والبيان العربى ، وقد لايعرف الكثيرون أن الأرقام الأوربية (١ ، ٢ ، ٣ ، إلى آخره) هى الأرقام العربية .

ولاينكر أى مؤرخ أوربى كائنا من كان أثر الحروب الصليبية فى نهضة أوربا والحقيقة التى يترددون فى الاعتراف بها ، هى أن حركة الإصلاح الدينى الكبرى (البروتستانتية) هى ثمرة الحضارة الإسلامية وماانطوت عليه من تعاليم دينية ، وهو ماسوف نشير إليه فى الفقرة التالية .

٤
تعاليم البروتستانتية ومبادئ الإسلام

لايستطيع المنطق العلمى الصارم أن يفر من الإقرار بما تحتمه البديهة والاستنتاج المنطقى .

١ - فعندما يسجل التاريخ علاقة خاصة بين فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى .

٢ - وتستمد هذه العلاقة الخاصة أصولها من كون فردريك الثانى كان يحكم جزيرة صقلية وهى التى ظلت لعدة قرون مركزاً للحضارة الإسلامية من الدرجة الأولى ، تزخر بالعلماء من أمثال « الإدريسى » وبالشعراء من أمثال « ابن حمد يس » ، وظل البلاط سواء فى صقلية أو فى ألمانيا نفسها يغص بالعلم الإسلامى ، حتى أن فردريك نفسه كان يجيد اللغة العربية ويكتب كتابة بليغة .

٣ - وإذا علمنا أن بابا روما دخل فى خصومة عنيفة ضد فردريك الثانى لتصالحه وتحالفه مع المسلمين ، إلى الحد الذى جعل البابا يفرض على فردريك الحرمان .

٤ - فإذا ماانبثقت البروتستانتية (ومعناها الاحتجاج ضد البابا) من ألمانيا بالذات ، دون أى بقعة أخرى من أوربا ، ووجدنا البروتستانتية تقوم على مبادئ إسلامية لاعهد للمسيحية بها من قبل .

٥ - فيكون الاستنتاج العلمى الذى لامناص منه ، من قبيل ١+١ = ٢ ، أن

البروتستانتية هى المبادئ الإسلامية فى الديانة المسيحية .

• • •

فما هى هذه المبادئ الإسلامية التى نادت بها حركة الإصلاح الدينى فى أوربا والتى يجمعون على أنها بدء النهضة الأوربية .

١ - البابا غير معصوم من الخطأ .

٢ - لاوساطة لإنسان بين الله وخالقه ، فلا يملك البابا حرمان أحد من دخول الجنة كما لايملك إدخال أحد إلى النار .

٣ - يجب أن تتطهر دورة العبادة (الكنائس) من التماثيل والأنصاب .

٤ - مطالعة الكتاب المقدس حق لكل إنسان مسيحى وليست وقفاً على رجال الكنيسة .

٥ - القساوسة والأساقفة وسائر رجال الدين هم بشر كسائر البشر ، فمن حقهم أن يتزوجوا وأن تكون لهم أسر وعائلات .

٦ - وليس فى نيتنا بطبيعة الحال أن تدرس البروتستانتية ، وفى هذا الذى ذكرناه مايكفى لإظهار أن ماسموه إصلاحاً دينياً كان هو بعض المسلمات التى كانت تمارس فى المجتمع الإسلامى بيسر وسهولة .

٥

رد الفعل
فى إسبانيا وإيطاليا والبرتغال

وإذا كان التأثر العميق بالحضارة الإسلامية ، قد أخذ فى وسط أوربا ، صورة الإصلاح الدينى للحاق بركب الحضارة ، فقد كانت الحضارة الإسلامية ، موجودة بالفعل فى إسبانيا والبرتغال وأجزاء من إيطاليا ، فإن ملوكها المسيحيين ، بعد أن استطاعوا أن يستولوا على السلطة من المسلمين ، رأوا أن يستخدموا ماتحت أيديهم من حضارة فى تحدى المسلمين ، فبدأت المحاولات للسيطرة على البحار الخارجة والبعيدة عن نفوذ المسلمين فكان هذا التفكير للوصول إلى الشرق عن طريق الغرب ، ولم يكن بمحض الصدفة أن وجد كولبس الإيطالى من يقتنع بكروية الأرض وإمكان الوصول إلى الهند عن طريق السير غرباً فى البلاط الإسبانى ، فقد كانت كروية الأرض بعض تعاليم ابن رشد فى الأندلس ولم يكن بمحض الصدفة ، إن نشطت حركة الملاحة والكشوف البحرية فى إسبانيا والبرتغال ، فقد كان العرب والمسلمون هم سادة

البحار ، وكانوا هم الملاحين والنوتية وكل المصطلحات البحرية ، ابتداء من أصغر شيء وهو « الحبل » حتى « أمير البحر » و« دار الصناعة » لاتزال هذه الألفاظ العربية ، فى كل اللغات الأوربية شاهدة ، على أن نهضة أوربا البحرية ، هى مانقلوه عن العرب والمسلمين ، ومن الحقائق التاريخية الثابتة ، ان فاسكو دى جاما البرتغالى ما كان يصل إلى الهند لولا أحمد بن ماجد الذى أوصله إلى الهند .

وهكذا نرى أن مقدمات مايسمونه النهضة الأوربية بشقيها ، إصلاح دينى فى الشرق ونشاط بحرى فى الغرب ، ليس إلا الأثر المباشر للحضارة الإسلامية التى سادت فى العصور الوسطى .

الفصل الثالث

١

بدء نقل الحضارة

وبدأت إيطاليا وفرنسا بعد ألمانيا فى نقل الحضارة الإسلامية ، لتدرك أوربا العالم الإسلامى ولما كانت أوربا دولة وثنية ، قطعت فى وثنيتها شوطا بعيدا جدا ، سواء فى عهد الإغريق أو الرومان ، فقد بدأت حركتها فى عالم الفن (النحت والتصوير) بالشىء الوحيد الذى خلت منه الحضارة الإسلامية لتشددها الصارم فى محاربة الوثنية ، ورأى الأوربيون فى هذين الفنين (النحت والتصوير) مايميز الشخصية الأوربية عن الشخصية الإسلامية فساروا فى هذا الطريق حتى نهايته وظهرت الأسماء اللامعة فى هذين الفنين (النحت والتصوير) من أمثال ليوناردى فنشى ، وميكائيل انجلو ، وقد حرصنا ونحن نتحدث عن نقل أوربا للحضارة الإسلامية ، أن نشير إلى هذه الناحية من النشاط العمرانى ، باعتباره الشىء الوحيد الذى لم تنقله أوربا عن العالم الإسلامى فقد كانت بقايا الآثار الإغريقية من تماثيل وصور ، تملأ أوربا من أقصاها إلى أدناها ، وفيما عدا ذلك ، فقد بدأت أوربا تنقل كل شىء عن المجتمع الإسلامى الذى كان متقدماً فى كل شىء ، فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن والعلم والعمل والسلوك ولاتزال اللغات الأوربية ، تحمل أثر هذا النقل المباشر ، فترى الكلمة العربية مستعملة بنصها ونطقها أحيانا ، وتارة تراها معدلة بعض الشىء لتوافق النطق الأوربى كأن يسمى القماش الموصلى ، موسولين ، أما مانراه بنصه ونطقه فى مثل كلمة « السكر » والأرز .

وتقلت علوم الهندسة والزراعة وتخطيط المدن ومختلف الصناعات ، وهو مانراه واضحاً فى مبانى العصور الوسطى ، مما يسمونه الطراز القوطى « جوتيك » فلأول مرة ترى « القبو » وما يشبه القباب ، ولم تلبث القباب ، أن ظهرت بكل أبهتها فى كنيسة « سانت بطرس » فى روما ، وهو شىء لم يعرف إلا فى ظل الحضارة الإسلامية أما فى سائر العلوم فقد ظلت جامعات أوربا التى بدأت تتكون ، تعتمد اعتماد مباشر على كتب العلماء ، فى الطب والرياضة والفلك ، والكيمياء التى لاتزال تحمل أسماءها العربية من مثل الجبر ، واللوغاريتمات (نسبة إلى الخوارزمى) أما الرازى وابن سينا فقد كانا هما العمدة فى الطب ، حتى نهاية القرن السابع عشر .

ولما كان الأدب هو ذروة التطور الحضارى وهو الثمرة الناضجة للثقافة ، فسنرى قمة الإنتاج الأدبى والأوربى ، يكرر أشهر الكتب العربية والإسلامية ، فنرى قصص « لافونتين » فى فرنسا ، تقوم على فكرة كتاب ، «كليلة ودمنة» ، حيث يجرى الكتاب على ألسنة الحيوانات وخاصة « الثعلب » هذا فى فرنسا ، ونرى دانتى فى إيطاليا يؤلف « الكوميديا الإلهية » على غرار رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وفى كل الأحوال فهى مستوحاة ، من حادث الإسراء والمعراج ، وفى ألمانيا ترى « جوته » الشاعر متأثراً كل التأثر فى كل مايكتب بالتعاليم الإسلامية ، ونرى فى إنجلترا كتب ألف ليلة وليلة وقد ترجمت ، وقصص « ولترسكوت » تدور حول الحروب الصليبية وعظمة الشرق الإسلامى وحضارته ، وفروسية فرسانه .

٢
وبدأت أوربا من حيث وقف العالم الإسلامى

ليس من مهمتنا فى هذا البحث إن نتعقب الأسباب التى أدت بالمجتمع الإسلامى إلى الجمود ، فالتخلف (إلا فى الناحية العسكرية التى رفعت تركيا لواءها لعدة قرون) والذى يهمنا إن أوربا قد بدأت نهضتها من منطلق التحدى للعالم الإسلامى فابتدأت من حيث انتهى معتمدة على كل مقومات العالم الإسلامى الذى وصلت به إلى ماوصل .

وإذا كان من المستطاع دائماً ، معرفة الأسس التى شاد عليها المجتمع الإسلامى حضارته ، فإنه يمكن تلخيصها فيما يلى :

١- إيمان شديد بالله واليوم الآخر .

٢ – مدارسة العلم بلا نهاية والعمل الدءوب فى شتى مناحى الحياة .

٣ – التحلى بالفضيلة والأخلاق الحميدة فى السلوك والمعاملة مع الآخرين .

٤ – إرادة القتال للدفاع عما يعتبره الإنسان حقًّا للدفاع عن البشر .

٥ – النظافة والنظام فى كل شئون الحياة ماصغر منها وما كبر .

هذه هى المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى التى اعتنقتها أوربا ، وتهاون فيها المسلمون ونحن ممن يؤمن بالدورة فى كل شىء ، أى الشيخوخة والذبول والتلاشى ، لتبدأ دورة جديدة من النمو والازدهار . . . إلخ .

وشرعت أوربا ، تبنى وتضيف على مانقلت من علوم المسلمين ومعارفهم وسلوكهم فأصبحت مدنهم عنوان النظافة ، وأصبح النظام فى كل شىء طابع حياتهم ، وأصبح شعارهم فى دنيا العلم مايأمر به القرآن الكريم :

(وقل رب زدنى علما) وساروا فى الأرض وجابوا البحار ، وصنعوا وأبدعوا ، وهى كلها تعاليم إسلامية ، وبلغ من نشاطهم فى البحار إن وفقوا لاكتشاف أمريكا ، وطافوا حول أفريقيا وحول العالم ، وبلغ من غرورهم أن قسموا العالم إلى قسمين ، إحدهما من سلطان إسبانيا ، والثانى من سلطان البرتغال وكان الدرس الوحيد الذى وعوه عقب الحروب الصليبية ألا يتعرضوا للعالم الإسلامى ، خاصة وأن تركيا (دولة آل عثمان) كانت مرهوبة الجانب فى الشرق .

٣

ماذا فعل اليهود بأوربا ؟

مابقى الأوربيون ملتزمين ، بما نقلوه من التعاليم الإسلامية الحضارية ، فى الآداب والسلوك ، والمعاملات ، فقد نجحت أوربا وتطورت نحو الأحسن والأصلح ، وانتقلت بالعلم الذى تلقته عن المسلمين ، إضافات جديدة ، وتحققت اكتشافات وثبتت نظريات ، وهنا طرأ على أوربا ، الإحساس بالغرور والإفراط فى الثقة بالنفس ، وسرعان ما أستغل اليهود هذه الظاهرة لتثبيت نفوذهم ومد سلطانهم وتحقيق أوهامهم فى تدمير الحضارة الإنسانية ، ليخلو لهم الجو فى السيادة على البشر كما يتوهمون ، فبدءوا يصورون للأوربيين انهم وحدهم الناس ، وان كل ماسبق من تاريخ الإنسانية ، كان تمهيدا لهم ، فاما وقد وجدوا فيجب إغفال كل شىء عن

الماضى ، وإسقاطه من الحساب ، وخاصة إذا كان مصدره الشرق ، ولما كان الدين ، هو أعظم ما انبثق من الشرق ، فليكن الدين ، أول ماتضرب به أوربا عرض الحائط ، فانطلقت الصيحات تدعو إلى فصل الدين عن الدولة ، وساعد فساد الكنيسة الأوربية وانحرافها ، ووقوفها فى وجه العلم ، مما أشرنا إلى بعضه فيما سبق ، أقول ساعد ذلك ، على إخراج الدين من تسيير شئون الدولة والمجتمع ، وبدأ الاقتصاد اليهودى القائم على الربا واعتبار المال هو أعظم قيمة فى الوجود ، وبدأ فساد مايسمى بالثورة الصناعية ، حيث أصبحت القيمة الكبرى والأساسية ، هى أن يجمع المال عن أى طريق ولو بسحق النفس البشرية على صورة نساء وأطفال ، وظهرت معادلات عجيبة كشفت عن الوحشية المستترة للأوربيين من مثل القول : إن العمال فى سوق العمل شأنهم شأن أى سلعة ، فكلما وجد عمال ، حتى لو كانوا أطفالاً ونساء فإن أجورهم يجب أن تتناقص حتى تصل إلى درجة الكفاف وتظل الأجور تنقص حتى لاتعود تكفى لإبقاء العمال على قيد الحياة فيتناقص عددهم فترتفع أجورهم ، وهكذا دواليك .

الدارونية :

ووجدت النظرية التى تلغى الأديان جملة ، فالكائنات التى لم تخلق على سبيل الاستقلال ، والإنسان لايعدو أن يكون سليلاً للقرد وإذا كان الإنسان الأبيض قد بلغ ذروة التطور ، فإن الإنسان الزنجى ، لم يتطور بعد ، وعلى غرار الزنجى ، الشعوب الأخرى من صفراء وحمراء ، وقد دخل ذلك دائرة التطبيق فى أمريكا التى كانت قد اكتشفت ، وأصبحت مهمة الرجل الأبيض أن يبيد الهنود الحمر ، وأن يستجلب الزنوج ليكونوا عبيده ، وتفتحت شهية الأوربيين وبدءوا عهد الاستعمار حيث خضعوا كل شعوب العالم لسلطانهم واستغلالهم وعلى عكس الحضارة الإسلامية ، حيث ارتقت بالشعوب أينما حلت ، فلم تفهم أوربا من الاستعمار إلا أنه استغلال للشعوب والحيلولة دون تقدمها ، وليس ذلك إلا نتيجة للتعاليم الفاسدة ، من أن الأوربيين هم الناس ومن عداهم ليسوا ناساً

والفرويدية :

وكان من إفرازات الفكر الأوربى وسيطرت الأفكار اليهودية عليه ماتادى به

فرويد ، وأصبح أساساً لكل الفكر الأوربى من تخريب لما كان يطلق عليه فضائل وآداب عامة ، وأصبح الجنس هو الذى يشكل كل شىء فى هذه الدنيا بالنسبة للإنسان منذ ولادته ، عندما يلتقم ثدى أمه فليس ذلك إلا جنساً ، وبعد ذلك على مدى رحلة الحياة ، ليس هناك سوى الجنس بالليل والنهار ، هو محرك نشاط الإنسان ، وأصبح الحديث عما سمى العقل الباطن ، وكبت الغرائز الجنسية ، هو أساس الأمراض والاحلام وما سموه « العقد النفسية » .

الماركسية :

وإذا كانت الفرويدية قد تصدت لتدمير القيم الروحية والأدبية ، بطريق غير مباشر ، فقد كان يهودى آخر « كارل ماركس » قد سبقه إلى ذلك بطريق مباشر ، فالاقتصاد المادى (ملكية وسائل الإنتاج) هى محور النشاط الإنسانى ، وكل مايقال بخلاف ذلك من أفكار عن وجود إله ، وجانب روحى أو معنوى فى هذا الكون هو محض هراء وبقايا خرافات قديمة ، وأصبح مايسمى بالآداب العامة والأخلاق والفضيلة والأسرة والرحمة والإحسان ، كل هذا ليس إلا لوناً من الوان الهذيان ، فرضته قلة حاكمة على الشعوب ودعى العمال فى جميع أنحاء العالم لاعتبار أنفسهم هم وحدهم الجديرون بالحياة وعليهم عن طريق الثورة ، أن يستولوا على الحكم وأن يقضوا من خلال حكم دبكتاتورى على بقية الطبقات الأخرى ، ولقد شهدت روسيا تطبيقاً لهذه الدعوة ، فقتل فيها عشرون مليوناً للوصول إلى هذه الغاية ، فلم يتحقق سوى مزيد من البؤس والشقاء .

٤

الحرب العالمية الأولى والثانية

مابقيت أوربا تطبق مبادئ إسلامية ، فقد خرجت من ظلمات العصور الوسطى وحققت ماحققت ، فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى إذا ماتصورت أنها أصبحت كل شىء ولاحضارة إلا حضارتها ، ولافكر إلا فكرها ، وأنه لاتوجد قوة على ظهر الأرض تعترض مشيئتها ، بدأت تحصد ثمار مازرعت فكانت الحرب العالمية الأولى والتى إن دلت على شىء فعلى مدى الوحشية والبربرية التى هى جوهر الشعوب الأوربية ، وأنه عندما زال المجتمع الإسلامى كقوة يعمل

حسابها ، فقد انكفأت أوربا على نفسها بقتل شعوبها بعضهم البعض بصورة لم تعرفها البشرية من قبل ، وانتهت الحرب العالمية الأولى ليبدأ التحضير لجولة ثانية ، وسرعان ما إندلعت الحرب العالمية الثانية ، أشد هولاً من الأولى وأوسع رقعة ، وإذا كان قد قتل فى الحرب الأولى بضعة عشر مليونا وجرح وشوه ضعفان أو ثلاثة أضعاف هذا العدد ، أما فى الحرب الثانية ، فقد اعتبر ذلك أمراً مألوفاً ، بحيث أصبح إبادة مدينة بأسرها برجالها ونسائها وشيوخها وأطفالها ، مجرد خبر عادى لاغرابة فيه فهو من إجراءات الحرب العادية .

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية ، كان آخر مقومات الحضارة الإنسانية ، ينهار فى أوربا من مشرقها لمغربها ، فنرى إنجلترا المحافظة يتناقش مجلس نوابها العريق فى حق الذكور فى الاتصال الجنسى بعضهم ببعض ، وفى فرنسا تقوم كتب الأطفال عن حقهم فى السخرية بمعلمهم ، وفى إيطاليا يصدر قانون يبيح حرية الاتصال الجنسى بين الذكور والإناث وذلك بإباحة الإجهاض واعتباره عملاً مشروعاً لاحرج على الأطباء فى أن يزاولوه بدون قيد أوشرط .

كل هذا فى غرب أوربا ، حيث لايزال التدين قائماً من الناحية النظرية على الأقل ، فلك أن تتصور ماذا يحدث فى شرق أوربا حيث لادين ولاأسرة ، أو قيم خلقية من أى نوع كان ، وحسبنا مؤشراً على ماوصلت إليه روسيا المادية ، أنها أصبحت تستورد غلالها من الدول الرأسمالية ، حيث كانت روسيا أعظم دول العالم فى إنتاج الغلال . أما فى أمريكا فالحياة مخيفة ، يعبد فيها الدولار وتسود الجريمة ، ويعم الجنون والقلق ، وكان آخر مظاهر تدهورها الشائن هو هزيمتها المنكرة ، فى فيتنام .

٥
أمّا فى العالم الشرقى

وحيث كان هذا يجرى فى أوربا وأمريكا كان يسرى بكل تقسيماته البشرية والدينية والجغرافية ، روح من اليقظة فالنهضة بدأت من اليابان ، أما فى الهند والمجتمعات العربية والإسلامية فقد بدأت تقاوم الاستعمار الأوربى متذكرة تقاليدها وقيمها الموروثة التى تؤهلها لدور أكثر حضارة ، وتحررت كل شعوب آسيا ، وسائر الشعوب العربية والإسلامية . وفقدت أوربا البقرة الحلوب التى كانت تدر

عليها اللبن والزبد وأصبح عليها أن تعمل وتكدح لتحصل على مقومات حياتها ، وهو حلم تعتد عليه ثم حدث الأمر الذى لاأتصور إلا أنه أمر إلهى ، وهو تفجير البترول عصب الحياة الحديثة ، فى العالم الإسلامى بعامة ، والعالم العربى بخاصة ، وفى جزيرة العرب بأخص من الخصوص .

وبدأت الثورة تتكدس فى الأيدى العربية والإسلامية .

وكانت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ العاشر من رمضان ١٣٩٣ .

حيث هزمت الجيوش المصرية ، الجيش الإسرائيلى وعبرت قناة السويس واستولت على خط بارليف ، وذلك كله فى ست ساعات ، وكان ذلك يعنى نهاية التفوق الأوربى الحضارى ، ذلك أن إسرائيل اعتبرت نفسها ذروة الحضارة الحديثة ، فلما أن هزمت فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان ذلك يعنى ، بدء النهاية لهذه الحضارة وحيث بدأ شباب أوربا ، يضيق بالنظافة والعمل والإنتاج والنظام والقانون ويسرف فى تعاطى العقاقير التى تذهب بالعقل ، أصبح شباب العرب يتطلع إلى كل مقومات الحضارة من دين وعلم وعمل ونظام .. إلخ .

٦
التقدم التكنولوجى
ليس هو الحضارة

بقى أن نرفع عن أعين شباب المسلمين والعرب بخاصة غشاوة لاتزال قائمة على أعين الأغلبية الساحقة منهم ، وهو أن التفوق التكنولوجى الذى لايزال مستقراً فى أوربا وأمريكا ، هو الحضارة الحديثة التى يتعين عليهم الأخذ بها وترسم خطواتها والذين يزورون أوربا وأمريكا اليوم من شباب المسلمين والعرب يسرهم ويأخذ بلبهم مايرونه من مظاهر النظافة والنظام والنشاط والجمال والأناقة ، وذلك بالمقارنة لماتوجد عليه بلادهم ، غير مدركين ، أن مايعجبهم هو ثمرة الماضى ، حيث كفر الشباب الجديد بكل القيم التى أنتجت كل هذا الذى يعجبهم ، وأنهم فى الحقيقة قد شرعوا يتدهورون فى سائر الاتجاهات وأصبحت عصورهم الذهبية من أحاديث الماضى ، ولحقت إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا ، وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا واليونان ، من حيث كونها بلاد سياحية ، يأتيها السواح ليشهدوا عظمة أيام غابرة ، وليس التقدم التكنولوجى بما يتضمنه من

صنع الأسلحة المتطورة والطائرات الفائقة والصواريخ عابرة القارات ، وسفن الفضاء والصعود إلى القمر ، إلا وليد الدفعة الحضارية التي كانوا قد تلقوها من الشرق والشيء المحقق أن هذه الدفعة قد انتهت ، يدلنا على ذلك بكل بساطة ، أن دول أوربا مجتمعة ومعها أمريكا ، بدأت تئن وتشكو من الإنتاج الياباني ، وثروة اليابان وعمل اليابان ، كل هذا والصين لاتزال في أول خطوات تحركها ، والعالم العربي والأفريقي في طريقها للوعي بإمكانياتها ، حيث لاتعيش أوربا في ازدهار نسبي إلا بمقدار غفلة العرب والأفريقيين عن هذه الإمكانيات .

فلا يتصورن أحد أن التفوق التكنولوجي هو حضارة ، بل هو ثمرة مقومات الحضارة مما أشرنا إليه سابقاً ، فإذا انهارت مقومات الحضارة ، من إيمان بالله وبالعمل والعلم والاستعداد للتضحية بالماديات في سبيل المعنويات .. إلى آخره . فإن التفوق التكنولوجي لايلبث أن ينهار كذلك ، وينتقل العلم التطبيق بالتدرج إلى الشرق والعرب والمسلمين ، بل ويتهافت الأوربيون على نقل مصانعهم أو بيعها للشرق ، بعد أن كف عمالهم من الرغبة في احتمال أي نوع من المشقة ، وأصبح هدف حياتهم ، أن يحصلوا على مزيد من الطعام والرفاهية ، والتبطل .

الفصل الرابع

١

رؤياى الخاصة

والآن وأنا أصل إلى بيت القصيد من هذا العرض التاريخي ، فلا مناص من أن أسجل رؤيتي للمستقبل ، لتكون هذه الرؤية مناراً للشباب ومرشداً ، وإذا كان الغيب ، وما سوف يحدث في المستقبل هو من أخص خصوصيات الله الخالق المدبر المهيمن العزيز المتعال ، تقرير ماتقضى به سنن الله عز وجل كأن تقول إن الشمس سوف تشرق الغد ، وأن الشتاء سوف يعقب الخريف ، حقاً قد تقع نهاية الحياة في أي لحظة كما يموت الإنسان في أي لحظة ، وهذا هو الغيب الذى احتفظ الله بعلمه ، حديثنا عن الليل الذى سوف يعقب النهار ، وعن الشتاء الذى سوف يجيء حتماً مهما اشتدت حرارة الصيف ، أو قولك إن فلاناً سوف يموت حتماً في يوم من الأيام ، فليس ذلك من الغيب ، وإنما هو إيمان بسنن الله التي لن تتغير أو تتبدل

« إلا أن يشاء هو ومشيئته هذه لايعلمها إلا هو » .

فأنا عندما أرى دورة الحضارة ستعود من جديد للشرق بعامة ، وللأمة العربية بخاصة ، فأنا أتنبأ ، وإنما أتحدث عن سنة من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا غير أن مايجب أن أعترف به ، هو أننى لم أكن أتصور مطلقاً أننى سوف أظل على قيد الحياة حتى أشهد بعينى رأس طلائع ذلك فمنذ صباى المبكر « سنة ثانية ابتدائى بمدرسة محمد على الابتدائية » اشتركت فى تكوين جمعية لنصر الدين الاسلامى ، وفى شبابى المبكر تصديت لمقاومة الإمبراطورية البريطانية (بالرأى والكلمة طبعاً) ومازلت أذكر أننى فى عام ١٩٣٥ وقفت خطيباً بين نفر من طلاب جامعة كارديف (عاصمة ويلز) فكان أن قلت لقد كانت من قبلكم إمبراطوريات كالإغريق والرومان والإسبان والبرتغال ، ولكن هذه الإمبراطوريات كلها قد زالت ورحت أحذرهم من أن يلحقوا بهم ، إذا لم يجلوا عن مصر والسودان ، وهاآنذ أعيش لأشهدزوال الإمبراطورية البريطانية ، وصيرورتها من نوع ألمانيا والبرتغال . وعندما تصور الكثيرون ، أن أدلوف هتلر (رئيس ألمانيا) فى طريقه لسيادة العالم ، رأيت فى أفكاره ومبادئه وأساليبه ، ماقد ينتهى به إلى تدمير نفسه وأمته من هذا المصير ، وعقب الحرب العالمية الثانية ، دعوت فى لندن ونيويورك ، إلى سقوط الاستعمار .

هذا فى الخارج ، أما بالنسبة لما كان يجرى فى مصر فقد تحدثت وإخوانى عن زوال الملكية والإقطاع ، ولم أكن فى كل ذلك أتنبأ وما فوجئت به « أنا شخصياً » هو أن هذه السنن وقعت بأسرع ماتوقعت ، وأن أعيش لأراها ، وبحكم هذه السنن فلن أعيش على وجه القطع واليقين لأشهد رؤيتى الجديدة ولكنها آتية لاريب فيها .

وتتلخص هذه الرؤية بأن الحضارة بحكم الدورة ، سوف تعود للعالم الإسلامى بقيادة العالم العربى ، حيث تقوم مصر كما كان شأنها دائماً ، بالدور الأكبر ، وإذا كان العالم اليوم يتحدث عن قرب نفاذ الطاقة التقليدية ، من فحم وبترول ، كان المعين الذى لاينضب من الطاقة ، وهو الشمس ، فإن حظ البلاد العربية والإسلامية منها هو النصيب الأكبر والأوفر وهو مايجعل أوربا وأمريكا ، لايهتان كثيراً بالعمل فى هذه الناحية ، ويهتان بالأكثر بما يسمونه الطاقة « النووية » وليس ذلك إلا مرحلة مؤقتة ، وسوف تثبت الأيام ، أن نصيب العالم الإسلامى والعربى من المواد

المشعة أضعاف أضعاف ، ماتمتلك أوربا وأمريكا على أننى أعود فأذكر أنه لا الطاقة ، ولا الآلات والمكنات ، ولا الصواريخ أو القنابل الذرية بالتى تصنع حضارة ، ولكنها تصلح لشىء واحد وهى أن تدمر أوربا وأمريكا .

٢

مالذى يجب أن يفعله الشباب ؟

والكلمة اليوم هى للشباب فى مصر والبلاد العربية والإسلامية والشرقية بعامة وذلك أن الشيوخ قسمان ، أقلية وأغلبية ، فأما الأقلية وأنا واحد منهم ، فعلى الرغم من أننا نؤمن بهذه الأفكار منذ اليوم الأول حتى لنرى على صفحات مجلتنا منذ أربعين عاماً مقالات من مثل « أوربا تتداعى » « ونضوب الحضارة فى أوربا » و « إفلاس الغرب نهائياً » .

أقول بالرغم من أننا كنا نؤمن بهذه الدعوة ، فنحن فى طريقنا إلى النهاية يوما بعد آخر ، ولا أحسب أنه بعد عشر سنوات من الآن سيكون باقياً منا أحد ، (إلا واحد أو اثنين على سبيل الاستثناء بطبيعة الحال) أما الأغلبية الساحقة من جيلنا فقد تعلموا على أيدى إعلام ونجوم آمنوا فى القسم الأخصب من حياتهم ، بأن خير مصر والعرب والمسلمين كامن فى النقل عن أوربا واحتذاء نموذجها وأساليبها ، أعلام من مثل طه حسين والعقاد وحسين هيكل ، وإذا كانوا فى أخريات حياتهم ، بدأوا يتشككون فى الحضارة الغربية وجنحوا مرة أخرى نحو القيم الشرقية والإسلامية ، فقد كانوا قد غرسوا فى ألوف من تلاميذهم الإيمان بالغرب وحضارته وهم المسيطرون اليوم على حياتنا التربوية والثقافية ، وسيظل هذا شأنهم إلى حين .

ومن هنا فإنى أوجه حديثى للشباب ، بعد أن أزيل من نفسه شبهة ، وألفت نظره إلى حقيقة لايقدر إبعادها .

فأما الشبهة التى أرغب فى إزالتها ، فهى انبهار مئات الألوف من شبابنا الذين أصبحوا يسافرون إلى أوربا وأمريكا ، بما يرون من نظافة ونظام وعمل وإنتاج ، وإذا كانوا شباباً فهم يغتبطون بما يرونه من حرية جنسية ، ويتصورون أن هذه الإباحية الجنسية هى جزء من هذه الحضارة ومن مقوماتها ، وقد بقى أن يعرف الشباب أن هذا الذى يبهرهم من نظافة ونظام ، وعمل وإنتاج ، هو قسم صغير يتناقص يوما بعد آخر مما كانوا عليه فى هذه النواحى ، وأما

الإباحية الجنسية فشيء وافد على أوربا ، وهو تعبير ماتندفع إليه فى تدهور وفوضى هذه هى إزالة الشبهة ، وقد بقى أن يعرفوا أننى فى عام ١٩٣٠ أى من خمسين سنة سافرت باريس ، وكان ذلك يعتبر شيئاً غريباً ، ولقد اعتبر فى محيط أسرتى « ثورة وتمرد » أما اليوم فسفر عشرات الألوف من الطلاب يعتبر أمراً عادياً ، ويتصور هؤلاء الطلاب عندما يحصلون على عمل (فى غسيل الأطباق أو مسح البلاط أو حمل الأثقال) أن الأمر كان كذلك دائماً ، غير شاعرين أن هذه هواية التدهور الأوربى ، فقد كانت مزاولة هذه الأعمال هى آية حضارة هذه الشعوب التى ترى فى العمل ، أى عمل هو شرف الإنسان فأما وقد عادوا للتفرقة بين عمل وعمل فهذا عمل شريف أما هذا فعمل وضيع فليس ذلك إلا عودة لتقاليد أوربا فى تقسيم المجتمع إلى طبقات .

أما الحقيقة التى ألفت النظر إليها ، فهى غزو مئات الألوف من شباب مصر لميادين العمل والعلم والإدارة فى أوربا وأمريكا ، بحيث أصبح يشار إليهم بالبنان .

وهذه ظاهرة جديدة ، يتصور معها الشباب المصرى أنها دليل قدرته إذا أتيحت له الظروف ، ولكنه لايتصور ولم يدرك بعد ، أنها تعنى قبل ذلك انحلال هذه الشعوب ، وأنها لم تعد قادرة على مواجهة التطور وما يحتاجه من جهد وعمل .

٣

تفاصيل مايجب أن يفعله الشباب

أولاً — إيمان عميق بالله واليوم الآخر إلى الحد الذى يجعل لكل شباب ضميراً بين جنبيه يقوده لأداء واجبه لخدمة الناس والمجتمع ، لاخوفاً من قانون وضعى ، أو طمعاً فى جزاء مادى ، وإنما التماساً لراحة الضمير فى الدنيا ، والمكافأة فى الآخرة .

ثانياً — يجب أن لايعنى الإيمان بالله واليوم الآخر بحال ، الانعزال عن الناس أو المجتمع فضلاً عن التعالى عليهم ، فكل هذه انحرافات وجدت على مر العصور ، حتى جعلت البعض يرتكبون « أبشع الجرائم » بحجة التدين ، وإرضاء الله والفوز بالجنة والله برىء مما يعملون ، بل مما يتصورون ، فكل أوامر الله ونواهيه لايقصد بها إلا خير العالمين ، لا أن ينقلب هذا إلى إيذائهم .

ثالثاً — يجب أن يكون التعبير الوحيد عن الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو العمل فى هذه الدنيا لما يعود على الإنسان بالنفع ثم

على من يحيط به الأقرب فالأقرب .

رابعاً – أن كل ما يحتاجه العالم الشرقى والعربى ، هو القدوة الصالحة فى كل شىء فى النظافة والنظام وأداء الواجب ، والدقة وتحرى الإجادة فيما يعمل الإنسان فعلى كل فرد أن يبدأ بنفسه مقدماً بذلك القدوة للآخرين .

وبعد .

فهذه وصيتى خلاصة تجاربى فى هذه الدنيا ، أسوقها للشباب فى مصر وفى العالم العربى والإسلامى فالمستقبل لهم . هذه حتمية تاريخية وطبيعية ، لأنها سنة إلهية والمطلوب هو العمل الدائب بالليل والنهار والكف عن تقليد ما يجرى فى أوربا وأمريكا ، بعد أن انسلخوا من مقومات الحضارة ، وهى الإيمان بالله وقدسية الأسرة والعمل والإنتاج ، وسلوك طرق الفضيلة والتعاون والرحمة بين الناس أجمعين .

فإذا كنت قد قدمت للشباب « إيمانى » عام ١٩٣٦ فهذا هو إيمانى عام ١٩٧٩ . .

والله ولى التوفيق . . .

أحمد حسين فى سطور

● والده ريفى من كفر البطيخ ، أما والدته فمن مختود .

● ولد هو فى القاهرة فى ٨ مارس ١٩١١ وإن كان لايفتأ يصرح أنه ولد قبل هذا التاريخ .

● تلقى علومه فى كتاب الحى بطولون ثم التحق بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية الابتدائية وانتقل منها إلى مدرسة محمد على الأميرية ، حيث ألف فى هذه الفترة جمعية «نصر الدين الإسلامى» .

● تلقى تعليمه الثانوى فى المدرسة الخديوية وانخرط فى نشاطها المدرسى وكان التمثيل هو النشاط المسيطر ، فقدم لهم مسرحية «أبو مسلم الخراسانى» . كما أشرف على إصدار مجلة المدرسة .

● التحق عام ١٩٢٩ بكلية الحقوق .

● دعا عام ١٩٣١ إلى تصنيع مصر بجهود الشعب ، مما أطلق عليه فى حينه «مشروع القرش» .

● أسس عام ١٩٣٣ جمعية مصر الفتاة التى تحولت بعد الحرب العالمية الثانية إلى الحزب الاشتراكى ، وكانت التعاليم الإسلامية هى نبراسه دائماً ، فدعا عام ١٩٣٨ إلى تطبيق أحكام الشريعة واتهم ونفر من أعضاء جماعته ، فيما اشتهر آنذاك باسم «تحطيم الحانات» .

● كان له دور كبير فى محاربة الملك السابق وكل فساد وطغيان مما جعل حكام ذلك الزمان يعملون على التخلص منه فانتهزوا فرصة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ لكى يعتبروه مسئولا عن هذا العمل .

● كان لقيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الفضل فى إنقاذه من حبل المشنقة .

● هاجر من مصر عام ١٩٥٥ ولكنه لم يلبث أن عاد إليها ، فلما أن خاب أمله مرة أخرى اعتزل الحياة وأوى إلى بيته عام ١٩٦٠ .

● وفى بيته تفرغ للمطالعة والتأليف فأصدر ثلاثة من ألمع كتبه :

- الطاقة الإنسانية
- الأمة الإنسانية
- نبى الإنسانية

● جاوزت مؤلفاته الأربعين كتابا أحدها يقع فى ألفى صحيفة وهو موسوعة «تاريخ مصر» .

● ولكن عمله الأكبر والذى يعتبره تتويجا لحياته كلها هو تفسيره للقرآن الكريم .

● أصيب بالشلل الكامل الذى أعجزه عن الحركة تماما ، فيما خلا الكتابة وهو مايجعله يقول : ما بقى الله يحفظ لى عقلى ، ويقدرنى على الكتابة ، فسوف أكتب لنهضة المسلمين .

● يعتز باللقب الذى أطلقته عليه «مجلة الأزهر» من أنه «الكاتب الإسلامى» .

ملف خاص عن المؤتمر التاسع
لعلماء المسلمين

الموضوعات

- مشروع الدستور الإسلامى المقدم إلى المؤتمر .
- أسماء السادة أعضاء المؤتمر .
- أعضاء مجمع البحوث الإسلامية .
- خطة أعمال المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين .
- النص الإنجليزى لمشروع الدستور الإسلامى.

إعداد : محمد أمين البدوى

مشروع
الدستور الإسلامى

مقدم من

اللجنة الفرعية المنبثقة عن اللجنة العليا

لوضع مشروع الدستور الإسلامى

الباب الأول
الأمة الإسلامية

مادة ١

(ا) المسلمون أمة واحدة .

(ب) والشريعة الإسلامية مصدر كل تقنين .

مادة ٢

يجوز أن تتعدد الدول فى الأمة الإسلامية وأن تتنوع أشكال الحكم فيها .

مادة ٣

يجوز للدولة أن تتحد مع دولة إسلامية أو أكثر فى الشكل الذى يتفق عليه .

مادة ٤

يقوم الشعب بمراقبة الإمام وأعوانه وسائر الحكام ومحاسبتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية .

الباب الثانى
أسس المجتمع الإسلامى

مادة ٥

التعاون والتكافل أساس المجتمع .

مادة ٦

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض ويأثم من يقصر فيه مع القدرة عليه .

مادة ٧

الأسرة أساس المجتمع ، قوامها الدين والأخلاق وتكفل الدولة دعم الأسرة وحماية الأمومة ورعاية الطفولة وتهيئة الوسائل المحققة لذلك .

مادة ٨

حماية الأسرة واجب الدولة بالتشجيع على الزواج وتيسير أسبابه المادية بالإسكان والمعونات الممكنة وتكريم الحياة الزوجية وتهيئة الوسائل لحسن تبعل المرأة لزوجها وخدمة أولادها واعتبار العناية بالأسرة أول واجباتها .

مادة ٩

العناية بسلامة الأمة وصحة الأفراد واجب الدولة وعليها توفير الخدمات الطبية المجانية للمواطنين من وقائية وعلاجية .

مادة ١٠

طلب العلم فريضة والتعليم واجب الدولة وفقا للقانون .

مادة ١١

التربية الدينية منهج أساسي فى جميع مراحل التعليم .

مادة ١٢

تلتزم الدولة بتعليم المسلمين الأمور المجمع عليها من الفرائض وتدريس السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين دراسة وافية على مدار سنوات التعليم .

مادة ١٣

تلتزم الدولة بتحفيظ ماتيسر من القرآن الكريم للمسلمين فى سنوات التعليم حسب أنواع الدراسة كما تنشئ معاهد خاصة بالقرآن لتحفيظه لغير الطلاب وتطبع المصحف الكريم وتيسر تداوله .

مادة ١٤

التبرج محظور والتصاون واجب وتصدر الدولة القوانين والقرارات لصيانة الشعور العام من الابتذال وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ١٥

اللغة العربية اللغة الرسمية والتاريخ الهجرى واجب ذكره فى المكاتبات الرسمية .

مادة ١٦

الولاية العامة منوطة بمصلحة الرعية وخاصة حماية الدين والعقل والنفس والمال والعرض .

مادة ١٧

لايكفى أن تكون الغايات مشروعة بل يجب فى جميع الحالات أن تكون الوسائل مطابقة لأحكام الشريعة الإسلامية .

الباب الثالث

الاقتصاد الإسلامى

مادة ١٨

يقوم الاقتصاد على مبادئ الشريعة الإسلامية بما يكفل الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ويوجب السعى فى الحياة بالفكر والعمل ويحمى الكسب الحلال .

مادة ١٩

حرية التجارة والصناعة والزراعة مكفولة فى حدود الشريعة الإسلامية .

مادة ٢٠

تضع الدولة خططا للتنمية الاقتصادية وفقا للشريعة الإسلامية .

مادة ٢١

تقاوم الدولة الاحتكار ولاتتدخل فى الأسعار إلا للضرورة .

مادة ٢٢

تشجع الدولة على تعمير الصحراء وتوسيع رقعة الأرض المنزرعة .

مادة ٢٣

لايجوز التعامل بالربا أخذا أوعطاءاً أوأن يستر أى تصرف معاملة ربوية .

مادة ٢٤

للدولة ملكية ما فى باطن الأرض من المعادن والخامات وغيرها من الثروات الطبيعية .

مادة ٢٥

كل مال لامالك له يكون ملكا لبيت المال . وينظم القانون طريقة تملك الأفراد له .

مادة ٢٦

تصرف الدولة الزكاة التى يقدمها إليها الأفراد فى مصارفها الشرعية .

مادة ٢٧

الوقف على الخيرات جائز ويصدر قانون بتنظيمه من جميع النواحى .

الباب الرابع
الحقوق والحريات الفردية

مادة ٢٨

العدل والمساواة أساس الحكم وحقوق الدفاع والتقاضى مكفولة ، ولايجوز المساس بها .

مادة ٢٩

الاعتقاد الدينى والفكرى وحرية العمل وإبداء الرأى بالقول والكتابة أوغيرها وإنشاء الجمعيات والنقابات والانضمام إليها والحرية الشخصية وحرية الانتقال والاجتماع كلها حقوق طبيعية أساسية تكفلها الدولة فى حدود الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٠

للمساكن والمراسلات والخصوصيات حرمة والتجسس محظور . ويحدد القانون مايرد على هذه الحرمة من قيود تمارسها الدولة فى جرائم الخيانة العظمى أوالخطر الداهم ولاتكون تلك الممارسة إلابإذن قضائى .

مادة ٣١

حق التنقل داخل البلاد وخارجها مباح ولايمنع المواطنون من السفر إلى الخارج ولاإلزامهم البقاء فى مكان دون آخر

إلابحكم قضائى يبين القاضى أسبابه ولايجوز نفى المواطنين .

مادة ٣٢

تسليم اللاجئين السياسيين محظور وينظم تسليم المجرمين العاديين باتفاقات مع الدول المعنية .

مادة ٣٣

تعذيب الأشخاص جريمة . ولاتسقط الجريمة أوالعقوبة طول حياة من يرتكبها ويلتزم فاعلها أوالشريك فيها بالمسئولية عنها فى ماله فإن كان بمساعدة موظف أوبموافقته أوبالسكوت عنها فهو شريك فى الجريمة جنائيا ومسئول مدنيا وتسأل معه الحكومة بالتضامن .

مادة ٣٤

يعاقب بعقوبة التعزير الموظف الذى تقع فى اختصاصه جريمة تعذيب علم بها ولم يبلغ السلطات المختصة عنها .

مادة ٣٥

لايطل دم فى الإسلام وعلى الدولة تعويض المستحقين من قتل لايعرف قاتلهم . أوعجزة لايعرف من أعجزهم أوعرف ولم يوجد لديه مال يكفل التعويض .

مادة ٣٦

لكل إنسان حق تقديم الشكوى عن جريمة تقع عليه أوعلى غيره أوعلى اختلاس المال العام أوتبديده .

مادة ٣٧

حق العمل والكسب والتملك مكفول ولايجوز المساس به إلابمقتضى أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٨

للمرأة أن تعمل فى حدود أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٣٩

تكفل الدولة حرية الملك وحقوق الملكية وحرمتها ولايجوز المصادرة العامة بأية أداة كانت أما المصادرة الخاصة فلاتكون إلابحكم قضائى .

مادة ٤٠

لاتنزع ملكية أحد إلاللمصلحة العامة ومقابل تعويض كامل وفقا لأحكام القانون المنظم لذلك .

مادة ٤١

إنشاء الصحف مباح والصحافة حرة وذلك كله فى حدود أحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٢

للمواطنين حق تكوين الجمعيات والنقابات على الوجه المبين فى القانون ويحظر منها مايكون نشاطه معاديا لنظام المجتمع

أو سريا ذا طابع عسكرى أومخالفا بأى وجه من الوجوه لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٣

تمارس الحقوق وفقا لمقاصد الشريعة .

الباب الخامس

الإمام

مادة ٤٤

يكون للدولة إمام وتجب الطاعة له وإن خولف فى الرأى .

مادة ٤٥

لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولا للإمام فى أمر مقطوع بمخالفته للشريعة .

مادة ٤٦

يبين القانون طريقة البيعة العامة فى اختيار الإمام على أن تتم البيعة العامة تحت إشراف القضاء وتكون البيعة بالأغلبية المطلوبة لأصوات المشتركين فى البيعة .

مادة ٤٧

يشترط للمرشح لرئاسة الدولة الإسلام والذكورة والبلوغ والعقل والصلاح والعلم بأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٤٨

يتم تعيين الإمام ببيعة عامة من جميع طبقات الأمة طبقا للقانون ويجوز للمرأة أن تطلب الاشتراك فى الانتخاب متى استوفت شروطه وتمكن من الانتخاب .[١]

مادة ٤٩

لاجُناح على من أبدى رأيه ضد البيعة للإمام قبل تمامها .

مادة ٥٠

لأصحاب الحق فى البيعة عزل الإمام متى تحقق سببه وبالطريقة التى يبينها القانون .

مادة ٥١

يخضع الإمام للقضاء وله الحضور بوكيل عنه .

مادة ٥٢

يتمتع رئيس الدولة بكافة الحقوق التى يتمتع بها المواطنون ويلتزم بما يلتزمون به وتسرى فى حقه الأحكام المالية التى يحددها القانون .

مادة ٥٣

لايجوز الوصية للإمام أوالوقف عليه أو على أقاربه حتى الدرجة الرابعة إلا أن تكون وصية ممن يرثه الإمام ، كما لايجوز للإمام أن يشترى أويستأجر شيئا من أملاك الدولة أوأن يبيع أويؤجر شيئا من أملاكه إليها .

---

(١) قررت اللجنة رفع الموضوع للجنة العليا بالرأيين بالنسبة للفقرة الأخيرة .

مادة ٥٤

الهدايا للإمام غلول ومايتم فيها يضاف إلى بيت المال .

مادة ٥٥

الإمام قدوة للرعية فى العدل والإحسان والعمل الصالح وهو يشارك غيره من أئمة المسلمين كل مايهم الجماعة الإسلامية كما يبعث بعثا للحج كل عام يشارك به فى مؤتمرات المسلمين الرسمية وغير الرسمية .

مادة ٥٦

الإمام مسئول عن قيادة جيشه لجهاد العدو وحفظ الثغور وتراب الوطن وإقامة الحدود وعقد المعاهدات بعد إقرارها .

مادة ٥٧

الإمام مسئول عن تمكين الأفراد والجماعة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأداء الفرائض .

مادة ٥٨

يعين الإمام موظفى الدولة ويجوز أن يخول القانون غيره تعيين الموظفين من غير المستويات العليا .

مادة ٥٩

العفو عن الجرائم فيما عدا الحدود لايكون إلا بقانون . وللإمام العفو عن عقوبات الجرائم فى ظروف خاصة فيما عدا عقوبات الحدود والخيانة العظمى .

مادة ٦٠

للإمام عند الضرورة اتخاذ تدابير استثنائية يبينها القانون إذا قامت قلاقل أوقام مايتذر بحدوث قلاقل أوتهديد كيان الدولة أوحرب أهلية أوحرب مع إحدى الدول على أن يعرضها على المجلس النيابى خلال أسبوع من اتخاذها . وإذا لم يكن قد تم انتخاب المجلس فيدعى المجلس القديم وتبطل هذه التدابير إن لم يتبع فيها هذا الإجراء . ويصدر قانون بتنظيم هذه التدابير الاستثنائية والآثار المترتبة عليها والجهات المختصة باتخاذها وكيفية تسوية الآثار المترتبة عليها فى حالة عدم إقرارها .

الباب السادس

القضاء

مادة ٦١

يحكم القضاة بالعدل وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية .

مادة ٦٢

الناس سواسية أمام القضاء ولايجوز تمييز أحد أوفئة بمحاكم خاصة .

مادة ٦٣

لايجوز إنشاء محاكم خاصة أوحرمان صاحب قضية من قاضيه الطبيعى .

مادة ٦٤

لايجوز منع القضاء من سماع الدعوى ضد الإمام أوالحاكم .

مادة ٦٥

تصدر الأحكام وتنفذ باسم الله الرحمن الرحيم ولايخضع القاضى فى قضائه لغير الشريعة الإسلامية .

مادة ٦٦

تنفيذ الأحكام مسئولية الدولة والإمتناع أوالتراخى فى تنفيذها جريمة معاقب عليها .

مادة ٦٧

تكفل الدولة استقلال القضاء والمساس باستقلاله جريمة .

مادة ٦٨

تختار الدولة للقضاء أصلح المؤهلين له من الرجال وتيسر أداءه لعمله .

مادة ٦٩

يشترط فى جرائم الحدود أن يحضر المتهم المحاكمة أو أن يحضر معه محام يختاره هو أو تنتدبه الدولة إن لم يختر هو محاميا .

مادة ٧٠

مجلس القضاء علنى وللعامة حضوره ولايجوز جعله سريا إلاالضرورة شرعية .

مادة ٧١

توقع عقوبات الحدود الشرعية فى جرائم الزنا والقذف والسرقة والحرابة وشرب الخمر والردة .

مادة ٧٢

يحدد القانون التعزيرات التى يوقعها القاضى فى غير جرائم الحدود .

مادة ٧٣

يبين القانون أحكام القسامة ولايجوز أن تجاوز المسئولية المدنية مقادير الديات .

مادة ٧٤

يبين القانون شروط قبول التوبة وأحكامها .

مادة ٧٥

لايحكم بالإعدام فى جناية إلا إذا امتنع الصلح أوعفو ولى الدم .

مادة ٧٦

يجوز التصالح فى القصاص على أكثر من الدية .

مادة ٧٧

يجوز أن تتساوى المرأة والرجل فى الدية .

مادة ٧٨

شروط القصاص فى الجروح التماثل الكامل وكمال اليقين بذلك عند القاضى .

مادة ٧٩

الجلد هو العقوبة الأساسية فى التعزيرات والحبس محظور إلافى جرائم

محدودة ولمدد محدودة يبينها القاضي .

مادة ٨٠

لايجوز إذلال المحبوس أو إرهاقه أو الإساءة إلى كرامته .

مادة ٨١

تنشأ محكمة دستورية عليا تختص بالفصل في مدى مطابقة القوانين واللوائح لأحكام الشريعة الإسلامية وأحكام هذا الدستور ويحدد القانون اختصاصاتها الأخرى .

مادة ٨٢

ينشأ ديوان للمظالم يحدد القانون تشكيله واختصاصاته ومرتبات أعضائه

الباب السابع [1]

الشورى والرقابة وسن القوانين

مادة ٨٣

يكون للدولة مجلس للشورى يمارس الاختصاصات الآتية :

١ – سن القوانين بما لايتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية .

٢ – اعتماد الموازنة السنوية للدولة وحسابها الختامي .

٣ – ممارسة الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية .

٤ – تقرير مسئولية الوزارة عن أعمالها وسحب الثقة بها عند الاقتضاء .

مادة ٨٤

يحدد القانون شروط الانتخاب وطريقة إحداثه وشروط العضوية ، وذلك على أساس من الشورى على وجه يكفل مشاركة كل بالغ عاقل حسن السمعة في إبداء رأيه ، وكذلك كيفية معاملة أعضاء المجلس من الناحية المالية ، ويضع المجلس لائحته الداخلية .

الباب الثامن

« الحكومة »

مادة ٨٥

تتولى الحكومة مسئولية إدارة شئون الحكم وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة وتكون مسئولة أمام الإمام [2]

مادة ٨٦

يحدد القانون شروط تعيين الوزراء والأعمال المحظورة عليهم أثناء تولى مناصبهم وطريقة محاكمتهم عما يقع منهم في عملهم .

---

(١) يحذف هذا الباب في الدول التي ليس لها مجالس للشورى .

(٢) تحذف هذه الفقرة في الدول التي لها مجالس الشورى .

الباب التاسع
أحكام عامة وانتقالية

مادة ٨٧

مدينة . . حاضرة البلاد

مادة ٨٨

يبين القانون علم الدولة وشعارها ويحدد الأحكام الخاصة بكل منها .

مادة ٨٩

تسرى القوانين على مايقع من تاريخ نفاذها . ولاتسرى بأثر رجعى إلافيا تنص عليه ويلزم لذلك موافقة ثلثى أعضاء المجلس النيابى ولاتجوز الرجعية فى المسائل الجنائية .

مادة ٩٠

تنشر القوانين فى الجريدة الرسمية خلال أسبوعين من يوم إصدارها ويعمل بها بعد شهر من اليوم التالى لتاريخ نشرها إلا إذا حددت لذلك ميعاد آخر .

مادة ٩١

لكل من الإمام والمجلس النيابى طلب تعديل مادة أوأكثر من مواد الدستور ويجب أن يذكر فى طلب التعديل المواد المطلوب تعديلها والأسباب الداعية إلى هذا التعديل ، فإذا كان الطلب صادرا من المجلس النيابى وجب أن يكون موقعا عليه من ثلث أعضاء المجلس على الأقل .

وفى جميع الأحوال يناقش المجلس مبدأ التعديل ويصدر قرار فى شأنه بأغلبية ثلثى أعضائه فإذا رفض الطلب فلايجوز إعادة طلب تعديل المواد ذاتها قبل مضى سنة على هذا الرفض .

وإذا وافق المجلس النيابى على مبدأ التعديل يناقش بعد شهرين من تاريخ هذه الموافقة المواد المطلوب تعديلها فإذا وافق على التعديل ثلثا أعضاء المجلس عرض على الأمة لاستفتائها فى شأنه .

فإذا ووفق على التعديل اعتبر نافذا من تاريخ إعلان نتيجة الاستفتاء .

مادة ٩٢

كل ماقررته القوانين واللوائح من أحكام قبل صدور هذا الدستور يبقى صحيحا ونافذا ومع ذلك يجوز إلغاؤها أوتعديلها وفقا للقواعد والإجراءات المقررة فى هذا الدستور ، فإذا كانت مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية وجب إلغاؤها أواستبدالها بغيرها .

مادة ٩٣

يعمل بهذا الدستور من تاريخ إعلان موافقة الأمة عليه فى الاستفتاء .

كشـــف
بأسماء السادة الذين رشحوا للمؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية

جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ - أبريل ١٩٧٩م

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
اتحاد الإمارات	١	الشيخ عبد الله المحمود	رئيس المركز الإسلامي بالشارقة
	٢	الشيخ محمد عبد الرحمن البكر	وزير العدل والأوقاف والشئون الإسلامية .
الأردن	٣		
افغانستان	٤	السيد هارون صادق المجددي	(مقيم بالقاهرة)
	٥	السيد هاشم صادق المجددي	(عن طريق السعودية)
إنجلترا	٦	الدكتور أبو بكر سراج الدين	الأستاذ بجامعة القاهرة سابقا
	٧	الدكتور زكي بدوي	مدير المركز الإسلامي بلندن
أندونيسيا	٨	الدكتور عبد الملك كريم أمر الله	شيخ مسجد الأزهر بجاكرتا ورئيس مجلس علماء أندونيسيا
	٩	الجنرال علم شاه	وزير الشئون الدينية
	١٠	الدكتور محمد رشيد	مدير جامعة جو جاكرتا
أوغندا	١١		يترك للسفارة إختيار أحد العلماء البارزين

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
إيران	١٢		يرجى من السفير ترشيح شخص جديد من العلماء
الباكستان	١٣	مولانا مفتى محمود	رئيس وزراء سابق (روالبندى)
	١٤	مولانا طفيل محمد	أمير الجماعة الإسلامية
	١٥	الأستاذ خليل أحمد الحامدى	رئيس دار العروبة للدعوة الإسلامية
البحرين	١٦	الشيخ عبد الرحمن بن محمد آل خليفة	وكيل وزارة العدل والشئون الإسلامية
بلجيكا	١٧	الأستاذ محمد العلويتى	مدير المركز الإسلامى والثقافى ببروكسل
بنجلاديش	١٨	الدكتور حبيب الرحمن شودرى	أستاذ بجامعة دكا
تركيا	١٩	السيد الدكتور نجم الدين أربيكان	رئيس حزب السلام الوطنى بتركيا
	٢٠	الدكتور على أرسلان	
تشاد	٢١	الإمام موسى إبراهيم	زعيم مسلمى تشاد
تنزانيا	٢٢	الشيخ محمد على حميد	سكرتير عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
توجو	٢٣	السيد إدريس تورى	المشرف على الشئون الدينية بتوجو

الدولة	رقم العضو	الاســـم	ملاحظات
تونس	٢٤	السيد محمد الحبيب الشاذلى بلخوجة	مفتى الجمهورية التونسية وعضو المجمع
الجزائر	٢٥	السيد مولود قاسم	وزير الشئون الدينية
جزر القمر	٢٦	السيد عمر عبد الله	
جزر المالديف	٢٧	الأستاذ محمد جميل ديدى	مستشار رئيس الجمهورية للشئون الدينية
روسيا	٢٨	السيد ضياء الدين بابا خانوف	مفتى المسلمين بطشقند
السعودية	٢٩	الشيخ عبد العزيز بن باز	رئيس هيئة البحوث والفتوى والدعوى .
	٣٠	الشيخ محمد على الحركان	أمين رابطة العالم الإسلامى
	٣١	الأستاذ سليمان عبيد	مدير إذاعة نداء الإسلام
	٣٢	الدكتور عبد الله عبد المحسن ترك	مدير جامعة محمد بن سعود الإسلامية
	٣٣	الدكتور عبد المحسن العبادى	مدير الجامعة الإسلامية بالمدينة
	٣٤	الشيخ عمر محمد فلاته	أمين الجامعة الإسلامية بالمدينة
	٣٥	الدكتور	وكيل جامعة الملك عبد العزيز بجده
	٣٦	الدكتور غريب الجمال	مستشار منظمة المؤتمر الإسلامى بجدة .

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
	٣٧	الدكتور محمد شوق الفنجرى الدكتور محمد الوائلى	الرياض ص . ب : ٣٣٠٧ عميد كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية
السنغال	٣٨	السيد عبد العزيز سي	من علماء السنغال
السودان	٣٩	الشيخ على عبد الرحمن الأمين	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٤٠	الدكتور كامل الباقر	مدير جامعة أم درمان
	٤١	الدكتور صديق الضرير	لجنة الدستور
سوريا	٤٢	الدكتور معروف الدواليبى	مستشار الملك خالد
سيراليون	٤٣	السيد جبريل سي	السفير السابق
سيريلانكا	٤٤	السيد محمد حنيفة محمد	رئيس رابطة مسلمى سيلان ووزير المواصلات .
	٤٥	الأستاذ محمد شكرى محمد	الأستاذ بجامعة سيريلانكا
الصومال	٤٦	الأستاذ حسن عبد الله فارح	رئيس المحكمة الشرعية العليا
العراق	٤٧	الشيخ محمد الصواف	من طريق السعودية
	٤٨	اللواء الركن محمود شيت خطاب	عضو مجمع البحوث الإسلامية
عمان	٤٩	الشيخ الوليد بن زاهر الهنائى	وزير الأوقاف والشئون الإسلامية

الدولة	رقم العضو	الاســـم	ملاحظات
فرنسا	٥٠	الشيخ أبو بكر حمزة	إمام مسجد باريس
الفلبين	٥١	السيد سلامات هاشم	رئيس جبهة تحرير مورو (عن طريق رابطة العالم الإسلامى) .
فلسطين	٥٢	دكتور إسحاق موسى الحسينى	عضو مجمع البحوث الإسلامية
قبرص	٥٣	السيد رفعت مصطفى رفعت	مفتى قبرص
قطر	٥٤	الدكتور يوسف القرضاوى	جامعة قطر
الكويت	٥٥	الشيخ يوسف الحجى	وزير الأوقاف
كينيا	٥٦	الأستاذ محمود سليمان سعيد	مدير بالمجلس الأعلى لمسلمى كينيا
لبنان	٥٧	الشيخ نديم الجسر	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٥٨	الأستاذ وفيق القصار	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٥٩	الشيخ حسن خالد	مفتى لبنان
ليبيا	٦٠	الشيخ محمود صبحى	الإمام العام لجمعية الدعوة الإسلامية
مالى	٦١	السيد أحمد جاه الله	إمام جامعة أهل السنة فى باماكو

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
ماليزيا	٦٢	الدكتور عبد الجليل حسن	عضو مجمع البحوث الإسلامية
	٦٣	الأستاذ داتو محمد عصرى	رئيس الحزب الإسلامى
	٦٤	الأستاذ محمد على هارون	رئيس مركز الدراسات العليا (كلنتون)
المغرب	٦٥	الشيخ عبد الله كنون	الأمين العام لرابطة علماء المغرب - عضو مجمع البحوث الإسلامية
موريتانيا	٦٦	السيد محمد سالم ولد داود	
النمسا	٦٧	الدكتور إسماعيل بالتش	زعيم المسلمين بالنمسا
النيجر	٦٨	الشيخ ابو القاسم البيق	رئيس الجمعية الإسلامية بالنيجر
نيجيريا	٦٩	السيد آدم عبد الله	
الهند	٧٠	الشيخ أسعد مدنى	سكرتير عام جمعية علماء المسلمين
	٧١	الشيخ محمد يوسف	أمير الجماعة الإسلامية
	٧٢	الأستاذ سعيد الأعظمى	الأستاذ بدار العلوم (ندوة العلماء)
	٧٣	الأستاذ كاكا عمر	الأمين العام لجامعة دار السلام
اليابان	٧٤	الدكتور عبد الكريم سايتو	رئيس جمعية مسلمى اليابان سابقا

الدولة	رقم العضو	الاســـــم	ملاحظات
اليمن	٧٥	الشيخ عبد المجيد الزندانى	مكتب التوجيه والإرشاد برياسة الجمهورية
يوغسلافيا	٧٦	دكتور أحمد اسماعيل وتش	شيخ مشيخة إسلام البوسنة والهرسك .
	٧٧	الشيخ حمدى يوسف	مفتى بلجراد .
اليونان	٧٨	السيد رشدى آدم إمام	واعظ ومرشد لمسلمى اليونان
المنظمة الإسلامية الأوربية	٧٩	السيد سالم عزام	سكرتير عام المنظمة الإسلامية الأوربية .
منظمة المؤتمر الإسلامى بجدة	٨٠	السيد محمد كريم جاى	سكرتير عام المؤتمر الإسلامى بجدة

إدارة السكرتارية الفنية

بيـــان
بأسماء السادة أعضاء مجمع البحوث الإسلامية
من داخل جمهورية مصر العربية

رقم	اسم العضـــو	ملاحظـات
١	فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار	شيخ الأزهر ورئيس المجمع
٢	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى	
٣	فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد العال هريدى	
٤	فضيلة الأستاذ الدكتور الحسينى هاشم	أمين عام المجمع
٥	فضيلة الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف	
٦	فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف	
٧	السيد الأستاذ الدكتور سليمان حزين	
٨	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى	
٩	السيد الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى	
١٠	فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى	
١١	فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المنعم طه النمر	
١٢	فضيلة الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر	
١٣	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد البهى	
١٤	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد خاطر محمد الشيخ	
١٥	السيد الأستاذ محمد خلف الله أحمد	
١٦	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى	
١٧	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسن فايد	
١٨	فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد الفحام	
١٩	السيد الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام	

بيــان
بأسماء السادة أعضاء مجمع البحوث الإسلامية
من خارج جمهورية مصر العربية

رقم	اسـم العضـو	ملاحظات
١	السيد الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الشاذلي بلخوجة	تونس
٢	السيد الأستاذ على عبد الرحمن الأمين	السودان
٣	السيد اللواء محمود شيت خطاب	العراق
٤	السيد الأستاذ وفيق القصار	لبنان
٥	السيد الأستاذ الشيخ نديم الجسر	لبنان
٦	السيد الأستاذ الدكتور إسحاق موسى الحسينى	فلسطين
٧	السيد الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن محمد	ماليزيا
٨	السيد الأستاذ عبد الله كنون	المغرب

خطة أعمال
المؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ - أبريل ١٩٧٩م

خطة أعمال المؤتمر

أولا :

ينعقد المؤتمر التاسع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بالقاهرة لمدة شهر ابتداء من ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ - الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م.

وينعقد على فترتين :

أولاهما : لمدة أسبوع

وثانيتهما : لمدة ثلاثة أسابيع

ثانيا :

تدور بحوث المؤتمر حول «مشروع الأزهر للدستور الإسلامي»

ومن الموضوعات المقترحة التي تندرج تحت هذا العنوان :

١ - الأمة الإسلامية	٥ - الإمام
٢ - أسس المجتمع الإسلامي	٦ - القضاء
٣ - الاقتصاد الإسلامي	٧ - الشورى والرقابة وسن القوانين
٤ - الحقوق والحريات الفردية	٨ - الصورة المثلى للحكومة الإسلامية

ثالثا :

يسير العمل اليومي للمؤتمر على النحو التالي :

١ - يؤدى أعضاء المؤتمر صلاة الجمعة بالجامع الأزهر يوم الجمعة ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ - الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م.

٢ – حفل شاى مساء الجمعة ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م ،

٣ – حفل افتتاح المؤتمر صباح يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م ويحضره كبار رجال الدولة . وسفراء العالم الإسلامى ، وأعضاء المؤتمر والمعنيون بالشئون الإسلامية والعلمية .

٤ – جلسات الفترة الأولى للمؤتمر لمدة أسبوع .

تبدأ من جلسة يوم السبت ٢٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢١ من أبريل سنة ١٩٧٩م . وتنتهى بجلسة يوم الخميس ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ١٩٧٩م وتخصص هذه الجلسة لإعلان توصيات وقرارات الفترة الأولى لأعمال المؤتمر .

ويشترك فى هذه الفترة أعضاء المجمع والمدعوون من الخارج .

٥ – حفل عشاء مساء يوم الخميس ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٦ من أبريل سنة ١٩٧٩ م .

٦ – سفر السادة المدعوين من خارج الجمهورية من غير أعضاء المجمع .

(يبدأ السفر يوم الجمعة ٣٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ٢٧ من أبريل سنة ١٩٧٩م)

٧ – جلسات الفترة الثانية للمؤتمر ، لمدة ثلاثة أسابيع .

تبدأ من يوم الاثنين ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ٣٠ من أبريل سنة ١٩٧٩م وتنتهى بجلسة يوم الخميس ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٩هـ – الموافق ١٧ من مايو سنة ١٩٧٩م وتخصص هذه الجلسة لإعلان توصيات وقرارات الفترة الثانية لأعمال المؤتمر

ويشترك فى هذه الفترة السادة أعضاء المجمع من داخل الجمهورية وخارجها ، ويحضرها بعض الباحثين أثناء إلقاء بحوثهم ومناقشتها . والله ولى التوفيق

إدارة السكرتارية الفنية

مجمع البحوث الإسلامية

فهرس العدد

إلى السادة راغبي الاشتراكات فى مجلة الأزهر

عليكم الاتصال باشتراكات أخبار اليوم (توزيع الأخبار)

٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك لمدة ١٠ أعداد سنوياً .

أولاً – جمهورية مصر العربية :

١,٥٠٠ (جنيه وخمسمائة مليم)

ثانياً – دول اتحاد البريد العربى الأفريقى :

٢,٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) أو أربعة دولارات .

ثالثاً – باقى دول العالم :

٨,٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ ثلاثة عشر دولارا تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقداً أو بشيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الأفريقية .

والدول الأجنبية بشيك مصرفى مسحوباً على أحد البنوك العالمية لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم :

المراسلة على هذا العنوان

توزيع الأخبار ٣ (أ) شارع الصحافة – القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع)

CHAPTER 8
GENERAL AND TRANSITIONAL PROVISIONS

ARTICLE 87

The city of ... is the capital of the country.

ARTICLE 88

The laws provides for the State's flag, its slogan and the provisions of each of them.

ARTICLE 89

The laws are applicable as from the dat of application. They are not enforced on a retroactive basis unless stipulated in them This requires the approval of a two-third majprity of members of the Parliament. Retroactiveness is not applicable to criminal offences.

ARTICLE 90

Laws are to be published in the official gazette within two weeks from their promulgation and they are enforced a month after the date of publication unless otherwise provided for.

ARTICLE 91

The Imam and or the Parliament have the right to require the amendment of one or more articles of the constitution. The amendment appeal must specify the articles to be amended and the reasons for this amendment. If the appeal is submitted by the Parliament it must carry the signature of at least a two-thirds majority of the members.

In all cases, the Parliament must discuss the principle of amendment issuing a decision with a two-third majority. If the appeal is to be turned down, the articles mentioned are not to be the subject of any other amendment unless after a year of rejecting the first one.

If the parliament agrees upon the principle of amendment, it will discuss the articles to be amended after two months of the first approval. If a two- thirds majority is agreed upon that amendment, it must be put into a referendum for the nation.

If the referendum is agreed upon, this amendment is applica from the date of announcing the results of the referendum.

ARTICLE 92

All the provisions agreed upon by laws and regulations before the promulgation of this constitution are valid and applicable. But they can be cancelled or amended according to the rules and procedures provided for by this constitution. If they are not in line with the provisions of the Islamic Sharia, they must be cancelled or replaced.

ARTICLE 93

This constitution is applicable from the date of announcing the nation's agreement to it according to the referendum.

Concluded with Allah's help and praise by the Islamic Constitution Drafting Committee on Sunday Zul Keada 13, 1398 H. (October 15, 1978).

ciliation is impossible.

ARTICLE 76

Compensation exceeding the amount of the Deia, can be agreed upon.

ARTICLE 77

Deia could be thes same for man and woman.

ARTICLE 78

Punishment by return of injury is conditioned by complete equality and the judje must be fully confident in this.

ARTICLE 79

Lashing is the basic punishment in Taazir and imprisonment is prohibited except in certain crimes and for limited periods specified by the judge.

ARTICLE 80

It is prohibited to humiliate the prisoner, exhaust him or insult him.

ARTICLE 81

A higher constitutional tribunal is to be formed to decide on the conformity of laws and regulations to the provisions of islamic Sharia and this constitution. The law provides for the jurisdiction of this tribunal.

ARTICLE 82

A petitions department is to be formed according to the law which provides for its attributions and reimbursements of its staff.

CHAPTER 7
SHURA, CONTROL AND LAWS ENACTMENT

ARTICLE 83

The state is so have a Shura Council with the following authorities:

1. Enacting laws in line with the provisions of islamic Sharia.
2. Ratifying the State's annual budget and the balance sheet.
3. Controlling the performance of the executive authority.
4. providing for the responsibility of the cabinet and withdrawing its confidence when the need arises.

ARTICLE 84

The law provides for the conditions of election, its procedures and the conditions of membership on a basis of Shura to guarantee the participations of every sane, adult and well- reputed preson in giving his opinion as well as providing for the financial status of the members as well as working out its internal regulations.

This paragraph is deleted in the countries having Shura Council

THE GOVERNMENT

ARTICLE 85

The government is responsible for administration and achieving the Sharia interests. It is answerable before the Imam.

ARTICLE 86

The law provides for the conditions of appointing ministers, prohibited actions while in office and suing them for illegal actions while in office.

CHAPRET 6
JUDICIAL AUTHORITY

ARTICLE 61

The judicial Authority's judgements must be characterised by justice according to the provisions of the Islamic Sharia.

ARTICLE 62

All people are equal before law. None of them will be granted any privilege and no class will be answerable to special courts.

ARTICLE 63

No special courts are to be set up and no one is to be deprived of his natural judge.

ARTICLE 64

The judicial authority is not to be prevented from hearing a case against the Imam or the ruler.

ARTICLE 65

Judgments are taken and carried out in the Name of Allah, All Beneficial, All Merciful. The judge is to apply no code but the Islamic Sharia.

ARTICLE 66

The implementation of the judgements her the state's responsibility Refrainment or negligence in carrying out these judgments is a criminal offence.

ARTICLE 67

The state provides for the independence of the judicial authority Tampering with this independence is a criminal offence.

ARTICLE 68

The state chooses tfder best- qualified staff for the judicial authority and facilitates its procedure.

ARTICLE 69

In the Hudud crimes, the accused must attend his trial. The criminal may be accomp anied by his lawyer or by a lawyer appointed by the state if he does not choose one.

ARTICLE 70

The court is to be held in public and the public may attend it The court's session must not be held in camera unless there is Sharia necessity.

ARTICLE 71

All Sharia penalties (Hudud) are inflicted in cases of adultery.

Libel or slander, theft, violent robbery, drinking alcoholics and apostacy.

ARTICLE 72

The law specifies the punishments sanctioned by the judge in non-Hudud crimes (Taazir).

ARTICLE 73

The law provides for the provisions of distributing the compensation (Deia). The civil responsibility must not exceed the Deia.

ARTICLE 74

The law provides for the conditions of repentence and its provisions.

ARTICLE 75

Capital punishments is not to be levied to any criminal unless recon-

ARTICLE 51

The Imam is subject to the judicial procedure and he has the right to deputise some body to attend for him.

ARTICLE 52

The Head of the State enjoys all the rights of the individuals and is bound by the same commitments. His financial status is provided for by law.

ARTICLE 53

The Imam is not to be mentioned in anybody's will. Himself and his relatives up to the fourth remove are not to be allocated any wakfs unless he is one of the legal heirs of the Imam. The Imam should not involve himself in any transaction with the government or its properties.

ARTICLE 54

Giving gifts to the Imam is not permissable, and if given, they should be added to the property of the House of Treasury (Beit el Mal)

ARTICLE 55

The Imam should be a good example for his people in justice, charity and good deeds, he joins all the other Imams of the islamic states in discussing the interests of the Islamic nation. He is to be sent for pilgrimage every year and to participate in the all official and non-official Islamic conferences.

ARTICLE 56

The Imam is responsible for leading his army to fight the enemy and he protects the ports and the sacred territory of the country demarking borders and concluding the treaties after ratifying them.

ARTICLE 57

The Imam is responsible for injunctioning the people to follow the ordained of Gospels Allah and to practise their rituals.

ARTICLE 58

The Imam appoints the civil servants and he might delegate others in appointing lower ranking elements according to the law.

ARTICLE 59

Amnesty in all crimes except the Islamic penalties (Hudud) is according to the law. The Imam has the right to give amnesty in special cases except those charged with Hudud and high treason.

ARTICLE 60

The Imam-when necessary - is entitled to take exceptional procedures stipulated in the law in case of tremors or any threat posed to the sovereignty of the state or civil war or war against any other state provided that he submits them to the parliament within one week of taking them. If the Parliament has not yet been elected, the old Parliament is to be summoned to consider these measures null and void unless these procedures are taken. A law is to be passed regulating these exceptional procedures and their subsequent results and the authorities concerned with taking them and the means of settling their results in case they are not ratified.

property. These rights are untouchable except according to the provisions of islamic Sharia.

ARTICLE 38

Women have the right to work within the limits of Islamic Sharia.

ARTICLE 39

The government guarantees the freedom of ownership, the rights of possession and their sacredness. Confiscation is not admissible by any means. Impoundment is subject to acourt's decision.

ARTICLE 40

Disappropriation is only permissible for the public interests in return for full compensation according to the law regulating that issue.

ARTICLE 41

Setting up newspapers is permissible and this in addition to the freedom of the press is within the provisions of Islamic Sharia.

ARTICLE 42

The citizens have the right to form societies and associations according to the law. Those organizations which are banned are of an aggressive nature which violate the systen of the society or which are clandestine or of a military nature or not in line wiht the rule of the Islamic Sharia.

ARTICLE 43

Rights are enjoyed according to the objectives of the sharia.

CHAPTER 5
THE IMAM

ARTICLE 44

The state must have an Imam who must be obeyed even if there are other opinions.

ARTICLE 45

«No creature is to be obeyed who counsels disobediene to the Creator»

ARTICLE 46

The law regulates the means of selecting the Imam under the supervision of the judicial authority. Selection of the Imam is by the required majority of the participants.

ARTICLE 47

Those standing for the elections of the Presidency must be muslims, males, adult, sane, righteous, and well- v ersed in the provisions of Islamic Sharia.

ARTICLE 48

The Imam assumes office by means of public allegiance from all the clases of the nation according to the law. Women may participate in the elections provided they are eligible and capable of voting.

(The Committee decided to submit this topic to the Higher Committee)

ARTICLE 49

No legal action is taken against those who reject the allegiance to the Imam before his election.

ARTICLE 50

Those who have the right to elect the Imam have the right of forcing him to abdicate when the need arises according to law.

CHAPTER 4
INDIVIDUAL'S RIGHTS AND FREEDOMS

ARTICLE 28

Justice and equality are the bases of rule and the rights of defence and suit are untouchable and provided for.

ARTICLE 29

Within the limits of the Islamic Sharia, the Government provides for the natural basic fights of religious and intellectual beliefs freedom of labour and expression and the establishment of societies and associations as well as the right to them and guarantees personal freedom and freedom of transfer and communication.

ARTICLE 30

Homes, correspondence and personal privacies are sacred and espionage is forbidden. The government passes the laws organising the restrictions to be imposed upon them in the cases of high treason or major threats. These restrictions are not to be imposed except according to a high court's decision.

ARTICLE 31

Freedom of internal or external travel is provided for. The individuals are not to be banned from travelling or subjected to homearrest unless according to a court's decision in which the judge gives his justifications. Citizens are not to be sent into exile.

ARTICLE 32

Reparriating those who seek political asylum is forbidden. Handing over criminals is to be organised with the concerned countries.

ARTICLE 33

Torturing people is a crime. The crime and its prosecution are not to be discharged during the life time of the criminal. The criminal or his partner are to be financially responsible. In case the crime is committed or agreed upon by a civil servant, he is to be considered a criminal partner and to be responsible for the crime, the government is also collectively responsible with its civil servants.

ARTICLE 34

The civil servant who knows about a torturing crime without reporting it or if the crime was committed in his jurisdiction is to be punished according to the traditions of «Taazir».

ARTICLE 35

No blood is shed unaccounted for in Islam. The government is to compensate the family of those who are killed without knowing their murderes or whose murderers cannot afford the compensation. This also applies for the handicapped the offenders of whom are not identified or who are incapable of compensating.

ARTICLE 36

Every body has the right to lodge a complaint for a crime inflicted upon him or upon anybody else or concerning the embezzlement or waste of public funds.

ARTICLE 37

Every body has the right to work and earn his living and to personal

and decisions to preserve the feelings of the public against profligacy according to the rules of the Islamic Sharia.

ARTICLE 15

Arabic is the official language. The hejri date should be mentic in all the official documents.

ARTICLE 16

Public hegemony is subject to the interests of the public special in preserving religion, self, money and honour.

ARTICLE 17

It not sufficient that the ends are legal, but in all cases the means must conform to the provision of Islamic Sharia.

CHAPTER 3
ISLAMIC ECONOMY

ARTICLE 18

Economy should be based on the principles of Islamic Sharia as to guarantee human dignity and social justice. it should encourage thought and labour as means of making living and also protect the legal (Halal) earnings.

ARTICLE 19

Freedom of trade, industry and agriculture is provided for within the limits of Islamic Sharia.

ARTICLE 20

The government is to set plans for economic development according the Islamic Sharia.

ARTICLE 21

The government is to fight monopoly but it is not to interfere with the fixing of prices except when the need arises.

ARTICLE 22

The government should encourage reclaiming deserts and expanding the cultivated area.

ARTICLE 23

All forms of usury are prohibited together with any shade of usury in any transaction.

ARTICLE 24

The government is the owner of the sub-earth minerals and raw materials and all the other natural resources.

ARTICLE 25

The House of Treasury (BEIT EL MAL) is the owner of any unappropricted items. Law regulates the means of individual property.

ARTICLE 26

The government channels the alms (...kah) in its legal public expenditure according to the Sharia.

ARTICLE 27

Wakf is permissible and a law organising it should be passed.

ARTICLE 3

Any country could unite with one or more other Islamic countries in the form agreed within.

ARTICLE 4

In the Islamic Nation: The people are responsible to be guardian of imam. his assistants and the whole of the state governers and officials. as wellas to revise and inspect about them according to islamic Jurisprudence.

CHAPTER 2
BASES OF ISLAMIC SOCIETY

ARTICLE 5

Cooperation and reciprocal responsibility are the bases of the society.

ARTICLE 6

To enjoin The Right and to forbid The Wrong are obligatory. Who neglects them — While he is able to do so — is sinner.

ARTICLE 7

The family is the basis of the society. The family should be based on religion and morals. The government should guarantee support for the family, protection of mothers and children and provision towards the means to that end.

ARTICLE 8

It is the government's duty to protect the family by encouraging early marriage and facilitating its material means of housing and the other possible facilities. Marital life should be held in great respect through providing the means according to which the wife would obey her husband and look after her children and consider keeping the family the first of her tasks.

ARTICLE 9

Looking after the wholesomeness of the nation and the health of the individuals is the government's duty and it should provide medical services whether preventive or curative.

ARTICLE 10

Seeking knowledge is a duty. Education is the government's task according to the law.

ARTICLE 11

Religious education is a main subjectat all levels of education.

ARTICLE 12

It is the government's task to teach all Muslims, the agreedupon duties «Farida» as well as the Prophet's and the orthodex Caliphs' traditions which are to be carefully studied along the stages of education.

ARTICLE 13

The government is to encourage Muslims to memorise parts of the Holy Koran during the stages of education. It should also set up special institutions to teach the Koran to the rest of the people as well as printing the koran and having it circulated.

ARTICLE 14

Bedizement is forbidden and observing others' feelings is a duty.

The government is to pass the laws

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

Volume 51 No 4 — Jomada-Al-Ula 1399 A.H. April 1979 A.D.

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

ISLAMIC RESEARCHES ACADEMY
TECHNICAL SECRETARIAL DEPARTMENT

DRAFT OF THE ISLAMIC CONSTITUTION

Submitted by
The Sub-Committee of the Higher Islamic Constitution Drafting Committee

CHAPTER 1
ISLAMIC NATION (UMMA)

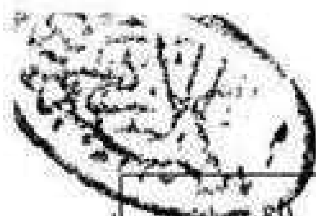
ARTICLE 1

a) Muslims are one nation

b) Islamic (Jurisprudence Shari'a Islamiiah) is the source of all legislations.

ARTICLE 2

In The Islamic Nation : Numerousness of states and diversity of the forms of their governments are permitted.



مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الخامس - السنة الحادية والخمسون - رجب ١٣٩٩ هـ - يونية ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية

آيات الله فى الأنعام

كيف يخرج اللبن من بين فرث ودم

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال الله تعالى « وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » الآية ٦٦ من سورة النحل

مناجاة

سبحانك اللهم وبحمدك : عرفناك فى آياتك بالعقول والضمائر ، ورأيناك فى شواهدك بالقلوب والبصائر ، فأنت يا مولاى وان احتجبت عن العيون والأحاسيس الظاهرة ، فقد تجليت ببراهينك للأرواح الطاهرة والبصائر النيرة ، فمتى غبت يابارىء النسم عن الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، كيف يحتاج الفكر الرشيد فى التعرف عليك الى جهد جهيد ، ألست حاضرا يا مولاى فى خفقان القلوب ،

وخواطر العقول ، وخلجات العيون، ألست ظاهرا يا الهى فى رفيف الندى ورفرفة الأطيار ، وتفتح النوار وعبير الأزهار ، وأهازيج الحمائم . ألست شاهدا ومشهودا فى الليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، ألست أنت الذى تكور الليل على النهار وتكور النهار على الليل ، ألست أنت الذى خلقت الهواء والماء ، والنجم والشجر ، والوهاد والنجاد، من الذى رفع سمك السماء فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ، أليس كل ذلك يا مولاى بأمرك ، وصادرا عن مشيئتك ، ونافذا بقدرتك ، ومدبرا بحكمتك ؟ فكيف يجحدك الجاحدون ويشكك فيك المارقون ، ويتحير فى الايمان بك الحائرون ، ويغفل عن ذكرك الغافلون ؟! ان هؤلاء وأولئك لو عرفوا قدرك لخجلوا من سلوكهم ، وندموا على انحرافهم ، ولكنهم كما قلت فى أمثالهم يا أعز قائل : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فلهذا تفضلت بكرمك وعظيم رحمتك فنبهت فى كتابك الغافلين الى آياتك ، وأيقظت النائمين ليحسوا بوجودك فليس كل الناس سواء فى سلامة الوجدان ، ودرجة العرفان وها أنت ذا يا مولاى تدلهم فى هذه الآية على بعض شواهدك التى ينعمون بها وهم لا يشعرون ، وتذكرهم بمواضع العبرة فيها وهم عنها غافلون ، اذ تقول جل ثناؤك وعظم بهاؤك ، وتعالت أسماؤك « وان لكم فى الأنعام لعبرة »

والأنعام هى : الابل والبقر والغنم والمعز ، كما قال تعالى فى سورة الأنعام تفسيرا لها : « ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين » ثم قال : « ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين (١) » فهى أربعة بأنواعها ثمانية بذكورها واناثها .

والعبرة العظة ، وهى فى الأنعام ،

---

(١) انظر الآيتين ١٤٣ ـ ١٤٤ من سورة الأنعام عقب قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا .. » الآية ١٤٢ منها .

أنها تذكرنا وتدلنا على قــدرة الله تعالى وخالقيته ووحدانيته وحكمته فى أمرها كله ، ومن العبرة فيها ما حكاه الله بقوله جل شأنه :

« نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنــا خالصــا ســائغا للشاربين » قرئت (نسقيكم) بضم النون وفتحها ، وهما لغتان عربيتان فصيحتان (١) .

والفرث ما يكون فى الكرش (٢) الى أن ينزلق فى الأمعـاء ليأخـذ سبيله الى الخارج ، فاذا خـرج لا يسمى فرثا .

وقد يتوهم قارىء أن اللبن فى اناث الأنعام يكون فى كرشها بين الفرث والدم كما هو ظاهر العبارة الكريمة « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » ولكن هذا الوهم غير صحيح لأنه مخالف للواقع الــذى يعرفه العربى ويدرك المراد من لغة القرآن وأسلوبه الأدبى الرفيع ، انه حين يذبح الاناث المرضــعات من الأنعام ، لايجد فى كرشها شيئا من اللبن ولا من الدم ، فلابد أن يعرف أن المراد من خروجه من بين الفرث والدم أنه مستخلص منهما وناشىء عنهما ، وسنبين للقارىء الكــريم فيما يلى كيف يخرج اللبن من بينهما

ان الأنعام اذا مضــغت الطعــام وابتلعته نزل الى الكرش لتقــوم بهضمه ، فاذا تم هضمه فيهــا فان خلاصته تنجذب الى الكبد عن طريق الأنابيب الدقيقة المنبثة فى جــدار الكرش وسائر جهازها الهضمى ، التى أعدها الله لامتصاص خلاصة الغذاء وايصاله الى الكبــد ، وما يبقى بعد ذلك من كثيفه فانه ينزل الى الأمعاء لتتخلص منه عند اللزوم

وبعد أن تصل خلاصة الغذاء الى الكبــد تتحول فيها الى دم مخلوط بالصفراء والسوداء ، والماء الزائد

---

(١) فالأولى من اسقاه ــ وهى لغة حمير ــ والثانية من سقاه ــ وهى لغة قريش ــ وقيل همــا لغة واحدة وتستعمل اسقاه بمعنى اعد له ما يشربه ، وسقاه بمعنى أوصل الشراب الى فمه .

(٢) الكرش بكسر الكاف وسكون الراء او بوزن كتف ، وهى للماشية كالمعدة للانسان ، وهى مؤنثة : اهـ قاموس .

عن حاجة الجسم المشتمل على أخلاط ضارة به لو بقيت فيه ، فأما الصفراء فتذهب الى المرارة ، وأما السوداء فتذهب الى الطحال ،وأما الماء فيذهب الى الكليتين ، ليتحول فيهما الى بول ينزل منهما الى المثانة عن طريق الحالبين ، ثم يخرج من المثانة الى الخارج من مخارجه عند ارادة التخلص منه

عمل الكبد بعد صنع الدم وتنقيته

وبعد أن حولت الكبد خلاصة الغذاء الى دم ، ونقت منه ما يضر بالجسد ، وبعثت به الى مخارجه تدفع الدم النقى الى القلب ، ليدفعه بدوره فى الشرايين الى أنحاء الجسم المختلفة ومنها الضرع

ضرع الماشية وعمله

والضرع لحم غددى اسفنجى أبيض ، أعدته العناية الالهية بحكمة وتدبير عجيب ، ليكون مصنعا لتحويل الدم الى لبن نقى خالص سائغ للشاربين ، فلا تجد فيه شائبة من رائحة الفرث ولا لون الدم بل هو شراب شهى هنىء لذيذ الطعم ، مشتمل على كل العناصر الأساسية فى تكوين الانسان والحيوان ، وبث الحرارة والدفء فى جسده ، بما حواه من البروتينات والمواد الدهنية والسكرية

ونظرا الى أن الدم هو الأصل فى تكوينه ، فان الحالب اذا بالغ فى حلب اللبن لاستخراج كمية كبيرة منه ، فربما لا يسعفه الضرع بتحويل الدم الى مطلوبه الكثير من اللبن ، فلهذا ينزل الدم دون أن يتحول الى لبن ، فينبغى للحالب التوسط وعدم اجهاد الضرع .

ويعتبر اللبن غذاء كاملا ، فلو اقتصر عليه أحد وشرب منه مايكفيه لم تسقط قوته ، وقدامى الأطباء يعتبرونه الغذاء الثالث بعد اللحم فالبيض ، ومن كان مريضا بالروماتيزم واقتصر على تناوله صباح مساء ، فانه يبرأ من مرضه ، وقد جرب ذلك صديق لى فشفاه الله ولم يعاوده هذا المرض حتى الآن

الضروع هى البطون التى يخرج منها اللبن

قد علمت مما سبق عمل الضروع فى صنع اللبن بما أودعه فيها الحكيم

الخبير من الخصائص والافرازات التى تحدث هذا التحول البديع ، وهذه الضروع هى البطون التى قال الله فى شأنها « نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا» [1] الخ فان فى باطنها الجهاز الذى أعده الله لصنع اللبن ، فاذا خرج اللبن من هذه الضروع ، فقد خرج من أجهزة باطنية مستورة عن العيون ، والمقصود من سقيهم اياه منها من بين فرث ودم أن تكوينه مر بهما على النحو الذى سبق بيانه ، ولم يتأثر بهما فى طعم أو لون أو ريح ، بل جاء على هذا النحو العجيب من النظافة والرائحة المحببة ، والطعم اللذيذ ، فتبارك الله أحسن الخالقين

المعنى الاجمالى للآية

وان لكم أيها المكلفون لعظة كبيرة فى الابل والبقر والغنم والمعز، حيث انها تأكل الحب والنوى والعشب ، وغير ذلك من طعامها رطبا أو يابسا ، حتى اذا وصلت الأغذية الى كروشها ، سكبت الأوعية الهاضمة عليها عصاراتها ، فاذا استحالت الى طعام هضيم ، امتصت خلاصته أوعية خاصة أودعها الله جهازها الهضمى ، وذهبت بها الى الكبد ، حيث تستخلص منها الدم الشريانى ، وتبعث به الى القلب وترسل ما فيها من الصفراء الى المرارة ، وما فيها من السوداء الى الطحال ، وما فيها من الماء الزائد والنفايات الضارة الى الكليتين

فأما الدم الشريانى الذى يذهب الى القلب ، فانه يدفعه الى أنحاء الجسم المختلفة ، لتغذية وتعويض ما تلف منه ، وامداد أجهزته بما يجعلها تؤدى وظائفها ، وفى جملتها ضروع المرضعات من الأنعام ، فانه يدفع اليها حاجتها من الدم آنا بعد آن ، فتقوم تلك الضروع بتحويل الدم الذى يصل اليها، الى لبن نقى، لا أثر فيه من ريح الفرث ولا من لون الدم ، ولا من أى شىء استكره

---

(١) ضمير بطونه عائد على الانعام باعتبار الجنس فهو والنعم شىء واحد كما قال الكسائى ، وذكر هنا فانث فى سورة المؤمنون ، لان التذكير يرجع الى معنى الجمع والتانيث يرجع الى معنى الجماعة كما قاله ابن العربى — ولهم تأويلات اخرى وحسب القارىء ماذكر .

منهما ؛ بل تراه خالصا من شوائبهما الكريهة ، سائغا هنيئا للشاربين ، لا يغص به شاربه ، ولا يمله متناوله

فما أعظم قدرة الله ، وما أغزر رحمته ، وما أبلغ حكمته ، وما أحكم تدبيره ! لقد تم ذلك كله دون علم ولا ارادة من الحيوان ، ولا تدبير من الانسان ، بل هو تدبير من (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) أليس في ذلك عظة لأولى الأبصار ، وعبرة لمن يريد الاعتبار ؟ أليس ذلك برهانا على وجود اله حكيم وقادر عليم ورحمان رحيم ؟ فسبحانك يا أرحم الراحمين .

ألا وان الابداع في اعداد الأغذية للجسم لا يقتصر على هذا القدر المجمل ، بل هو شيء لا يتصوره العقل ، ولا يفي بعظمته البيان ، فقد أعد الله في الجسم بلايين الخلايا لتحويل الأغذية الى عظام وأظافر ولحم وشحم وأسنان ، فتعد لكل نوع ولكل جزء من الغذاء ما يناسب بناءه وتكوينه دون خلل أو خطأ ، وبالجملة فان الجهاز الهضمي في الانسان والحيوان يعتبر أعظم معمل كيموي في العالم — كما ذكره الدكتور موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك (سابقا) في كتابه (العلم يدعو الى الايمان) ترجمة محمود صالح الفلكي وكيل وزارة المالية والاقتصاد (سابقا)

نعم اخرى في لبن الانعام

ولقد عرضت الآية في العبرة في الأنعام الى نعمة اللبن مشروبا لأنه أساس ما عداه مما يستخرج من اللبن ، ولأنه أول ما يخرج منها من بين فرث ودم ، وتركت التحدث في بقية نعم الله فيه الى تجارب الانسان وابتكاراته في استعماله ، فكم فيه من نعم ومتعة في غير شربه ، فمنه نصنع الجبن المختلف الأنواع والطعوم ، ونستخلص الزبد الشهي ونحوله الى سمن صالح للتخزين والاستعمال فترة طويلة ، وبه نصنع أصناف الحلوى الرفيعة على اختلاف أنواعها وطعومها اللذيذة ، فلا تجد نوعا منها الا مخلوطا باللبن ، أو ممزوجا بزبده أو سمنه .

وبالجملة فمن تدبر في بدائع

صنع الله فى الألوان ، حيث بدأ مسيرة تكوينها بخلق الأغذية اللائقة بالأنعام واعداد مقارها والأجهزة الهاضمة لها ، وخلق الضروع التى تصنعها بعد وصول الدم اليها ، وأعانها على أداء وظيفتها وهداها الى وقت قيامها بها والفراغ من درها وافرازها ــ من تدبر كل ذلك بعقل رشيد وقلب شهيد ، اعترف بكمال قدرة الله وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته ، وأن يردد نحو ما يقوله الشاعر :

حكم حارت البرية فيها
وجدير بأنها تحتار

وصدق الله تعالى اذ يقول « ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »

تعدد ذكر الانعام فى سورة النحل

وقد ذكرت الأنعام فى سورة النحل عدة مرات ، ايذانا بجليل نعم الله فيها وتعدد منافعها ، ومن ذلك قوله تعالى فى أوائلها «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » ٥

أى أنه تعالى خلق هذه الأنعام التى تقدم بيانها فيها ما نستدفىء به حيث تحفظ لنا حرارة أجسامنا ، وتدفع البرد عنا فى فصل الشتاء ، حين نصنع من أصوافها وأوبارها ثيابا وأغطية وفرشا ، وكل ذلك له أثره البليغ فى توفير الحرارة فى الاجساد والدفء فى البيوت ، كما خلق فيها منافع كثيرة غير ذلك ، كالحرث وادارة النواضح ، ودرس الحاصلات الزراعية ، وكصناعة الحقائب والخيام من أصوافها وأوبارها وأشعارها وصناعة الأحذية والفراء من جلودها

ومن الأنعام نأكل اما بتناول لحومها طبخا أو شواء ، واما بتأجيرها والتعيش من أجورها ، واما ببيع نتاجها أو بيعها بعد تسمينها ، ثم ذكر الله نوعا آخر من منافعها فقال :

« ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) » أى وكما خلقها لمنافعنا المادية ، فقد جعل لنا فيها جمالا تتمتع به النفوس وتستريح له القلوب ، حيث نرى فيها جمال التركيب ، وتناسب الأعضاء وتعدد الألوان أو اتحادها ، وسلاسة القياد ، وسرعة الامتثال ، والعدو

السريع رغبة فى مطلب أو هربا من مهرب ، ونحو ذلك من أصناف الجمال الذاتى أو الخلقى

وحمل بعضهم الجمال فيها على التزين بها فى أعين الناس والوجاهة لديهم (١) ، والمعنى الأول أولى من الثانى فان الاول هو اللائق بتواضع المؤمنين الموسرين ، أما الثانى فانه قد يحمل على الخيلاء وينتهى الى الكبرياء

وتقييد الجمال بقوله « حين تريحون وحين تسرحون » ليس الغرض منه أن جمالها مقصور على وقت الاراحة آخر النهار ــ حيث يردها أصحابها من مراعيها الى مراحها ــ ووقت الروح أول النهار ــ حين يخرجون بها من حظائرها الى مسارحها ومراعيها ، بل لأنه يكون أكثر ظهورا فى هذين الوقتين منه حين عودتها من رحلة مكدودة فيها ، أو من عمل أجهدت فيه .

ثم ذكر فضلها فى الأسفار البعيدة فقال عز من قائل :

« وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم (٢) »

أى وخلق الأنعام لتحمل أثقالكم من متاع وطعام وكل ما يثقل على الانسان حمله ، تحملها الى بلد لم تكونوا قادرين على بلوغه الا بمشقة الأنفس وتعبها وتهافت قوتها ،وحمل بعضهم الأثقال على ما يعم الأبدان والأولاد والأحمال ، وشمولها للانسان مأخوذ من قوله تعالى « وأخرجت الأرض أثقالها » وهو رأى طيب موافق للواقع ، وهذه المزية خاصة بالابل ، وبالجملة فان فى الأنعام مزايا مشتركة كاللبن والدفء والأكل وكثير من المنافع . وتختص البقر بالحرث والابل بحمل الأثقال غالبا ، ويصنع من جلودهما بيوت متنقلة ، كما يشير اليه قوله تعالى فى سورة النحل « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها

---

(١) ويقول اصحاب هذا الرأى : ان هذا الجمال والتزين وان كان من متاع الدنيا ، فقد أذن الله فيه لعباده بهذا النص ، كما قال صلى الله عليه وسلم « الابل عز لاهلها ، والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير » خرجه ابن ماجه فى السنن .

يـوم ظعنكم ويـوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشـعارها أثاثا ومتاعا الى حين » ٨٠

وبعد فقد علمت مما تقدم أصنافا من نعم الله وآياته ، ومن حقه تعالى أن تشكره على هذه النعم بكمـال الايمان به ودوام الطاعة له ، وتقواه فى السر والجهر ، واليسر والعسر ، وأن تتوب اليه من ذنوبك انه كان توابا ، وتستغفره من أوزارك انه كان غفارا ، وعليك بدوام قراءة القرآن والاتعاظ بعظاته ، والادكار بزواجره ، واحذر شهواتك فانهـا سفينة الردى ، واحذر أصـدقاء السوء فانهم شؤم عليك ، واعلم أن أجلك مستور عليك وأملك خادع لك ، والشيطان لاصق بك ، يزين لك المعصية لترتكبها ، ويمنيك التوبة لتسوفها ، حتى تهجم منيتك عليك أغفل ما تكون عنها فيالها من حسرة ، على ذى غفلـة ، أن يكون عمرك عليك حجة ، وأن تؤديك أيامك الى شقوة . وأسـأل الله لى ولك برد اليقين ، ولـذة المتقين وطمأنينـة الصالحين ، ورضوان رب العالمين

مصطفى محمد الطير

« وصية اعرابية لابنها اراد سفرا »

اى بنى ! اياك والنميمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، واياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام ، وقلما اعتورت السهام غرضـا الا كلمته ، حتى يهى ما اشتد من قوته ، واياك والجود بدينـك ، والبخل بمالك ، واذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها ومثل بنفسـك مثال غيرك ، فما استحسنت من غـيرك فاعمـل به ، وما استقبحت من غـيرك فاجتنبه .

لا خمور ولا فجور ولا ربا
بل جو إسلامي طاهر مطهر

للأستاذ أحمد حسين

ذلك عنوان يبدو انه باحدى الصحف السيارة ، أليق ، ذلك أن مجلة الأزهر ، قد ارتقت في ظل رياسة تحريرها الجديدة ، الى ذروة لم تصل اليها من قبل ، فأصبحت عامرة بالابحاث والدراسات المتعمقة بما لا يوجد في أي مجلة علمية أخرى متخصصة أو غير متخصصة، وسوف أكتب بالفعل ان شاء الله في هذا الموضوع في الصحف اليومية ومع ذلك ، فقد أردت أن أبدأ من الأزهر حامي حمى الاسلام ، لا في مصر وحدها ولكن في كل العالم الاسلامي ، فقد استقر الرأي أخيرا على وجوب سيادة التشريع الاسلامي في مصر ، وأرى أنه يجب ، أن يصاحب هذا أو يسبقه جو اسلامي عطر طاهر مطهر ، من الأرجاس الذي غرقت فيها الانسانية ، ان أشد ما غرق فيه المسلمون من "وهم" وخطأ ، هو تصورهم ان الحياة العصرية والتقدم ، تعني الخمور والفجور والربا ، ولم يتصوروا أبدا أن ذلك كله لا يعني تقدما ، بل ردة الى الوراء ، وانسلاخ من المدنية والحضارة ، فانتشار الخمور والفجور وعلى رأسها الزنى والتعامل بالربا ، كان من أخص خصائص الجاهلية ، ولو نظرنا الى القرآن نظرة مادية بحتة لكنا أمام وثيقة تاريخية ، تحدثنا عن أحوال سيطرت على الجزيرة العربية منذ ألف واربعمائة سنة ، ولم تكن هذه الأحوال السائدة الا انتشار الخمور والفجور والربا ، فكان الزنى على سبيل المثال ، نظاما اجتماعيا معترفا به ، فكانت الزواني يعلقن راية على خيامهن ، ليعلم من لم يكن يعلم

انهن بغايا وبائعات هـوى ، وكان الكافة لا يرون حرجا فضلا عن اثم، فى ممارسة الزنى ، وكل ما يهمنا ان نقرره ، انالفجور والخمور والربا ليست بالأمور العصرية ، ولا هى آية التقدم والتمـدن ، وانما هى قديمةقدمالزمان ، وهى قد سبقت الحضارات والمدنيات ، فغير صحيح اذن الزعم بأنالفجور والخمـور والربا هى آية التقدم فضـلا عن الحضارة .

زوال الحضارة الاوربية والامريكية !

ويتصور أقوام أنه ما دامت هذه الآفات الثلاث « الفجور والخمور والربا » سائدة فىأوروبا وأمريكا، فهذا هو الدليـــل على أنها من مقتضيات المدنية ، ومهمة هـــذا المقال أن يبدد هذا الوهم ، فأوروبا لم تنهض الا فى القـــرون الثلاثة (من السابع عشر الى التاسـع عشر) . ففى هذه القرون الثـلاثة أحرزت أوروبا ما أحـــرزته من انتصارات ، وفتحت واستعمـرت واكتشفت ، ولم تكـــن اوروبا وبالتالى امـــريكا تعرف فى هذه الفترة الفجور ، واذا كانت تعرف الخمور ففى دائرة محدودة يهيمن عليها ضبط النفس ، وكان السكر يعتبر خطيئة وجريمة ، وفى ظـل ما اعتبروه حضارة أوروبية ، وهو ليس فى حقيقته الا الأخذ ببعض التعاليم الاســلامية ، وقـد حققت أوروبا كل ما حققته فىهذه الفترة، غير انهمسمحوا لليهود بأن يتغلغلوا فى حياتهم الفـــكرية والثقافيـــة والماليـــة ، فكان أن نفذوا فيهم مخططاتهم ، التى تهدفالى تفكيك شعوب العالم ودفعهم نحو الانحلال والتدهور ، ليبقى اليهود وحدهم هـم المترابطـون والمتكاتفـون ، فيسهل عليهم السيطرة على العالم ، فكانت الثوراتوالحروب ، وفرض النظام الرأسمـالى ، ونقيضـــه الشيوعى ، وكلا النظامين يهدفان لغرض واحد وهو هدم الوشائج الانسانية ، واحـــلال الكراهيـــة والصراع بين الطبقات ، بدلا من الحب والتعاطف والتعاون ، ومن خلال ذلك زحف الصهيونيون على فلسطين فاحتلوها وشرعوا يغيرون

على العرب بمساعدة أوروبا وأمريكا تصوراً منهم جميعا ان الدنيا قد دانت لهم ، ونسوا ان الدمار كان قد دب اليهم فى ظل ما نشره اليهود فى صفوفهم من خمور وفجور وربا ، وبدأ القرن العشرون يشهد تدهورا أوروبيا أمريكيا ، وطبعا لم يشعر بذلك المسلمون ، ولم يشعر بالأكثر أصحاب الشأن من أوروبيين وامريكان ، متصورين ، ان خروج البلد أو ذاك ، أو هذه الكتلة من الدول ، منتصرة فى هذه الحرب هو كل شيء ، حيث هو نصر مادي بحت ، لا يمثل كبير شيء ، وليس أدل على ذلك ، من أن انجلترا التى خرجت من الحرب العالمية الأولى أقوى قوة عسكرية فى العالم لم تستطع أن تثنى ارادة الشعب المصرى الذى هزم ارادتها ، وأكملت الحرب العالمية الثانية ما بدأته الحرب العالمية الأولى ، وانهارت الامبراطوريات الأوروبية ، وكان أكثرها انهيارا أعظمها قوة ، وأعنى بها الامبراطورية الانجليزية .

امريكا وفيتنام :

وخرجت الولايات المتحدة الامريكية من الحرب العالمية الثانية وهى بدورها تتصور نفسها أقوى قوه فى الدنيا ، فاذا بها تنهزم هزيمة مخزية أمام دولة أسيوية صغيرة ، هى فيتنام ثم لا تقوم بعد ذلك للولايات المتحدة قائمة ، ذلك انه متى سلط هذا الثالوث الشيطانى « الخمور والفجور والربا » فذلك يعنى تدهور المجتمع وانحلاله اذ يصبح أفراده عبيد شهواتهم ، عبيداً للمال .

نهوض
العالم الاسلامي :

والذين تتبعوا مقالاتى على صفحات مجلة الأزهر يعلمون اننى من المؤمنين بأن التاريخ قد دار دورته بسرعة ، فشرعت شمس الحضارة والمدنية ، تغرب فى الغرب ، لتشرق من جديد فى الشرق ، وما العالم الاسلامى الا قلب هذا الشرق ، حقا ان اوروبا وامريكا لا تزال لديهما قدرة على عمل الآلات والسلاح ، ولكن ذلك هو ثمرة عمل الأمس ، وكد الأمس فضلا عن تضحيات فالنتيجة محتومة بل ومحققة .

وليس الصلاح ،ولا الآلات باللذين يشكلان حضارة .

وانما تقوم الحضارة على الايمان بالله والتشريع السماوي الذي يصونه ضمير الفرد والجماعة ، وعلى الأخلاق والسلوك وجوهرهما العدل في معاملة الآخرين ، وكبح الشهوات في مواجهة النفس ، وأكل الربا هو اهدار للعدل بالنسبة للآخرين وشيوع الخمور والفجور هو اطلاق للشهوات والغرائز .

على العالم الاسلامي ان يستعد :

ان فرصة العالم الاسلامي ، أصبحت سانحة وشكراً لأعداء الاسلام ، وعلى رأسهم الصهاينة فقد أحسوا بنهضة العالم الاسلامي فبدأوا يحذرون من يقظة المسلمين، ولن يستطيعوا ولو تكاتف أعداء الاسلام جميعا أن يوقفوا هذه اليقظة ، وغنى عن البيان أن ما دفع الى هذا التحذير هو أحداث ايران ، ونحن من ناحيتنا لا نرى فيها الا نصراً للاسلام والمسلمين ..

الذي يحدث على امتداد العالم بشتى الصور والأشكال .

ومن هنا قلنا : ان على العالم الاسلامي ان يستعد وأول خطوة في سبيل الاستعداد هو الكف عن كل ما يجيء من أوروبا من عادات وتقاليد وأفكار في الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة ، فضلا عن الأخلاق والسلوكيات التي أصبحت كلها يهودية تهدف كلها لدمار المجتمع .

وعلى العالم الاسلامي ، أن يلوذ بقيمه وعاداته وتقاليده التي تكونت على ضوء تعاليم الاسلام من ذلك على سبيل المثال .. عدم شرب الخمر أو تداولها وبيعها وشراؤها ، ويكفي لكي تظهر عظمة الاسلام وعمق تأثيره على معتنقيه .. أن نذكر ماذا فعلت أمريكا لتحريم الخمر في مطلع هذا القرن .

امريكا والخمر :

لقد أدرك مفكرو الولايات المتحدة الامريكية وقادتها في مستهل هذا القرن ما في تعاطي الخمور من أثر مدمر على المجتمع ، ليس فقط من

حيث تأثيره على الصحة العامة ، ولكن من حيث تشجيعه على الجريمة والعنف الذى أصبح سمة من سمات المجتمع الامريكى ، وأصدرت الدولة تشريعا لحظر الخمر ، وشحذت الدولة كل امكانياتها وأجهزتها وأسلحتها لتطبيق هذا الحظر ، فكانت النتيجة هى الفشل ، والفشل التام الساحق الماحق ، اذ الذى حظر الخمر فى امريكا ، الى عكس المقصود منه تماما ، فقد ازداد الخطر على الصحة العامة ، اذ أصبح الناس « من شاربى الخمر » يشربون خمراً مغشوشاً ، أو يصنعونه بأنفسهم داخل بيوتهم ، أما من حيث الجرائم واصطناع العنف ، فقد تضاعف ذلك عشرات المرات ، وقامت دولة عصابات مهمتها تهريب الخمور وصنعها ، وقتل كل من يحول دون ذلك أو رشوته كبيراً ما كبر شأنه ، وهكذا تضاعفت المفاسد ، مما اضطر الدولة وأنفها راغم أن تعيد السماح باطلاق الخمور تداولا وشربا وبيعاوشراء وصنعاً .

فاين ذلك من الاسلام :

وما عليك الا أن تقارن ذلك ، بما هو عليه الحال بين المسلمين ، حيث لا تكاد نسبة من يشربون الخمر تصل الى نصف فى الألف ولم تصل هذه النسبة الى هذا القدر الذى يمكن اهماله حسابيًا الا فى ظل الاستعمار الأوروبى للمسلمين .

ومع ذلك ، فقد ظل الأمر محصورا فى المدن ، وبين نفر من الناس تصوروا أن التمدن هو فى تقليد الأوروبيين ، أما الآن وقد زال الاستعمار وأوروبا وأمريكا يتدهوران ، فقد أصبح على المجتمع الاسلامى أن يلوذ بقيمه التى أثبتت القرون أنها سر نجاحه وعلى رأسها « حظر شرب الخمر » .

ولا فجور :

كما يجب أن يتطهر وجه المجتمع المصرى « لأنه وجه الاسلام » من كل مظاهر الفجور ، والفجور باعتباره فساداً وشراً ، لا يمكن استئصاله من أى مجتمع لأنه جزء

من الحياة ، فكما أنها تتألف من النور والظلام ، فهى تتألف كذلك من الخير والشر ، فعندما نقول ان المجتمع يجب أن يتطهر من الفجور ، فنحن لا نعنى بحال القضاء عليه فذلك مستحيل لأنه جزء من طبيعة الحياة ، وانما الذى نعنيه هو أن تكف الدولة والمجتمع على اعتباره من الأمور التى يمكن لأى سبب من الأسباب ، ولو فى أضيق الحدود وقصره على أماكن معينة ، فكل ذلك من قبيل « المجاهرة بالمعاصى » وهو مايدمر المجتمعات تدميرا ، وأبناء الجيل الجديد قد لا يعرفون مثلا .. أن ممارسة الزنى فى مصر عن طريق المومسات والبغايا ، كانت تجارة مشروعة فى مصر ، وكانت الحكومة المصرية « بأوامر الانجليز طبعا » كانت تعطى رخصة لمزاولة العهارة ، فعندما قمت واخوانى نحارب البغاء الرسمى ، كانت الحجة التى تشهر فى وجهنا « على الدوام » ،هى القول بأننا اذا ألغينا البغاء العلنى ، فسوف يتحول الى سرى، فيتضاعف خطره ، ولم تكن تتردد لحظة فى

الرد : فليكن ، ولكن مصر المسلمة لا يمكن ـ أبدا ـ أن تعترف بالزنى كأمر مشروع .

وهذا هو عين ما يجب ان يقال اليوم لكل مظاهر الخلاعة والانحراف والمجون ، ولعب القمار ، ومزاولة البغاء مما يندرج تحت كلمة « الفجور » فالقول بأننا اذا منعنا هذه المظاهر فى العلن فسوف تتضاعف وتصبح أشد خطرا فى السر ، ومرة أخرى .. لا يعنينا هذا الزعم ، بفرض صحته « وهو غير صحيح » .

ولنا فى ذلك الحديث الشريف : « اذا بليتم فاستتروا » .

حكاية السياحة وزيفها :

ومن الامور التى أصبحت تتردد بكثرة ـ وهى من الأكاذيب والمغالطات الشائعة ـ القول بأن التشجيع على السياحة يتطلب أن توفر للسائح ما اعتاده من حياة اللهو والفجور والا بحث عن متعة فى مكان آخر ، وليس ذلك الا أثرا من آثار الماضى ، عندما

كان العالم الاســلامى قد انصرف عن حضارته وأصبح تابعا ذليــلا لأوروبا . أما اليوم وقد نهض العالم الاسلامى وأصبح من مسئولياته أن يقود لا أن يقــاد ، فيجب أن يظهر بوجهه الحقيقى بكل حضارته الاسلامية البناءة ، حيث لا خمور ولا فجور ولا ربا ، ان الســائح الأجنبى ، سوف يأتى اضعــافا مضاعفة ليشهــد ، ما يتصــور استحالته ، ولكن الاســلام جعله ممكنا ، والســائح يريد تغييراً فى حياته ، وأى تغيير أعظم مــن أن يتنفس هواء نقيا ويعيش فترة فى مجتمع نظيف طاهر .

ولا ربا :

ولنصل أخيراً الى الركن الثــالث من أركان هذه القوة التى تــدمر المجتمعات ، والتى نجح اليهود فى اقناع الأوروبيين والأمريكان بها ، وهى أن الحيــاة العصريــة ، لا تستطيع الســير ــ فضــلا عن الانطلاق ــ الا من خلال « الربا » حيث تؤدى المشــاركة الى كل النتــائج التى تنشــط الحياة الاقتصادية والمعامــلات ، بين الناس ، وقد سارت البشرية بهــذا الأسلوب ألوف السنين ، فباطــلة هذه « التركيبة » التى نجح اليهود فى اقناع البشر بها ، من وجوب الربا ، حيث لم يستفــد منه الا اليهود فقط ، فأصبحوا ملوك المال فى العالم ، ولم يصلوا الى ذلك الا من خلال للربا .

وبعــد :

فاننى لن أمــل ولن أســأم من دعوة العالم الاسلامى الى النهوض ليقود العالم ، ولــن يكون ذلك بالسير فى ركاب أوروبا وافكار أوروبا ، ولكــن بالعــودة الى الشخصية الاسلامية ومقوماتهــا من التعاليم الاسلامية ، ولما كان من هذه التعاليم اطلاق اللحية ، ونحن هنا فى مصر لم نحلق لحانا الا منــذ الاستعمــار البريطانى وتقليدا لأوروبا ، فقد هدانى الله « وله الحمــد والشكر » لأطلق لحيتى ، وان كنت أدهش لشىء ، فهو تأخرى فى فعــل ذلك حتى الآن ، وليس يعزينى الا أن كل شىء يتم عندما يشاء الله

والحمد لله أولا وآخرا .

حقائق سافرة

الأزهر وحرية الفكر

للدكتور محمد رجب البيومى

أراد الأستاذ توفيق الحكيم أن يجمع مالديه من خطابات شخصية وقصاصات صحفية فى كتاب خاص يكون شاهدا على جهاده الأدبى فى عمره الحافل ، فأصدر ما سماه (وثائق من كواليس الأدباء) وللأستاذ أن ينشر ما يشاء ، ولكن ليس له أن يجبر الناس على أن يفهموا الحقائق على غير وجوهها الصحيحة ، كما يلوح ذلك فى كثير مما كتب ، اذ شاء أن يجعل نفسه نصيراً للحرية والفكر ، وهو ادعاء سنعرف مقدار حقيقته فى نهاية هذا المقال ، وقد كنت أوثر أن أغضى عنه لولا أنه تحرش بالأزهر فى صفحات من كتابه ، تحرشا لا يستند الى واقع قائم ، فندد بما زعم من تدخله المتكرر فى شئون الفكر مستندا الى وهم لا أساس له ، وقد ثبت له عن يقين أن الأزهر لم يناهضه فى شىء ، ولكنه سوّد ما سوّد وكأن الوهم المتخيل أصبح حقا واقعا ، اذ بلغه ــ كما ادعى ــ أن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله قد اعترض على ما جاء بكتابه (يوميات نائب فى الارياف) خاصا برجال القضاء الشرعى ، فاهتبل هذه السانحة دون أن يتأكد من صحتها ثم أدلى بحديث ينعى فيه على الأزهر تدخله المتكرر فيما سماه بشئون الفكر ، وكأنى بالفارس المضطهد وقد سره أن يظهر فى صورة المدافع عن الحرية فاندفع الى رد الهجوم المتخيل ليعلم الناس أنه أحد ضحايا الرأى الحر ، والفكر الجرىء ، وقد شاء أن يقرن الاسلام بالمسيحية ، والأزهر بالكنيسة ، كما

يفعل أعداء الاسلام ظلما دون عدل ، فقال فى حماسة :

« وقد آن الأوان لنواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الأزهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن تتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة ، وخطر التأليف ونهضة العلوم اذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى بمثل هذه الروح ، فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون ، فلما جاءت عصور النور ، وتم فصل الكنيسة عن الدولة استطاعت الحضارة أن تزدهر هذا الازدهار الذى يسود العالم اليوم ، فلاشك اذن عندى أن مستقبل مصر متوقف على ضمان حرية العقل والأفكار الضرورية لكل نهضة حقيقية »[١]

وقد توالت الصفحات فى كتاب الأستاذ الكبير لتثبت له الحقائق أن الأستاذ الأكبر لم يتدخل فى شىء يتعلق بكتابه ، وكان عليه بعد ذلك أن يرفع هذه الصفحات الظالمة من الوثائق لأنها بنيت على افتراء باطل ، ولكن الكاتب أثبتها فى اصرار ، ثم نسى أنها دعوى كاذبة فقال فى نهايتها معقبا « هذه الأحاديث والأخبار المنشورة فى صحف ذلك العهد تتعلق بأزمة الحياة الفكرية التى تعرضت لها لما رأيت من خطورتها على نهضتنا العقلية »[٢]

وقارىء هذا الكلام يظن أن الأستاذ قد تعرض حقا لأزمة فكرية ، كما يظن أن الحياة الفكرية فى مصر بنوع عام قد تعرضت لهذه الأزمة بسبب تدخل الأزهر !! وكل ذلك خطأ لا يقوم دليل واحد على صحته لدى من يزنون الأشياء بميزانها الصحيح ، ولا نحب أن نمضى بالحديث الى آفاق شاسعة تخرج بنا عن نطاق الأستاذ توفيق الحكيم الى سواه ، بل نحب فى هذا المقال أن نبين أن الأستاذ توفيق الحكيم تحرّش بالأزهر فى

---

(١) وثائق من كواليس الأدباء للأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠

(٢) وثائق من كواليس الأدباء للأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٩

مناسبـات كثيـرة دون أن يكون صاحب حق فى هذا التحرش ، كما نحب أن نذكره ببعض ما نسيه من بطولة الأستاذ الأكبر فى مواجهـة العدوان المحتل بجبروته وطغيانه ، ليعلم من المـدافع الحقيـقى عن الكرامـة الانسـانية فى ميـدانها الأصيل ـ :

١ ـ يقول الأستاذ توفيق الحكيم ص ١٣٠ « ان الانتصـار الذى تم (للازهر) فى حظر كتاب (جـان دارك) قد شجع على الاستمرار فى هذه الخطة» ، ولكى يكون القارىء على بينة من موقف الأزهر الصائب من قصة جان دارك وموقف الأستاذ توفيق الحكيم المخطىء منهما نوجز الحديث عنها فيما يلى :

لقد قررت كليـة الآداب منـذ أربعين عاما تدريس قصة جان دارك لبرناردشـو الكاتب الانجليـزى الذائع ، فقرأها الطلاب ورأوا فى بعض ما جاء بها من الحـوار على لسان أحد الأشخاص طعنا فى نبى الاسلام ، فتحمس الطلاب المسلمون لكرامة نبيهم العظيم ، وطالبـوا المسئولين بعدم تدريس القصـة ، وكتبـوا عن ذلك فى الصـحف ، فاهتم وزير المعارف بالأمر ، وتحدث كبار علماء الأزهر يؤيدون الطلاب وفى طليعتهم الامام المراغى والأستاذ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، ولكن الأسـتاذ تـوفيق الحكيم شاء أن يدعى الغيرة على الحرية ـ حيث لا خوف على حريته هو من أحد فكتب ينتقـد الطلاب الذين ثاروا لكرامة نبيهم ، والأزهر الذى قام بواجبه فى تأييد الطلاب ، وقال فى ادعاء غريب بعد أن تساءل فى دهشة عن فزع الطلاب [1]

« ان الكـتب التـى عـالجت المسيحية وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنشر فى أوربـا المسيحية دون أن يخشى أحـد على كيان المـسيحية ، ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هـذه الصـيحات ، وأن المسيحية التى عاشت عشرين قرنا لا يهـدمها عشرون كتابا ، كذلك نستطيع أن نقول فى الاسـلام أن

١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٨ ٢٠/٣/١٩٣٩ م .

هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا وثبت لأحداث الزمان وشاهد دولا تدول وعروشا تزول ، وشعوبا تولد ، لا يمكن أن يتعرض للخطر أمام كتاب يؤلف ، أو عبارات تقال ، ان هذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق ، كذلك يدهشنى أن ينشأ الفزع فى جامعة عصرية ، يؤمها شباب قد قطع مراحل الطفولة والصبا الأول ، وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة فلا خوف عليه الآن من مناقشة المسائل العقلية فى جو الحرية »

هذا ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم ، وهو كلام ظاهر البطلان لدى صغار الطلاب ، فضلا عن أصحاب الأقلام من المفكرين ، وقد تعرض لدحضه أحد طلبة كلية اللغة العربية بمجلة الرسالة حين كتبه الأستاذ منذ أربعين عاما وهو صديقى الأديب الغيور أحمد عبد الرحمن عيسى ، فسأل الأستاذ فى قوة [١] : أى برنامج من برامج التعليم فى أوروبا "قررت فيه كتب" تطعن فى المسيح ، وتجترح سيرته ثم "قررت على الطلاب فى الجامعة وفرضت عليهم فرضا لتكون من أسس ثقافتهم الرسمية ؟! ان انجلترا حرمت دراسة نظريات علمية بالجامعات احتراما لشعور الجماهير حين مست بعض أصول المسيحية ولكنها لم تحرمها خارج الجامعة ؛ فللكتاب أن يتحدثوا عنها كما يشاءون ، ولكن ليس لأحد أن يقرر على الطلاب ما يغرس فى نفوسهم الشكوك !؟ وسؤال الأستاذ الصديق يدل على أن الكاتب الكبير لا يفرق بين تدريس كتاب "يقرر غصبا على الطلاب ، وكتاب يؤلفه انسان ليقدمه للقراء دون أن تفرضه الجامعة فرضا دون اختيار !؟ وأزيد على ما كتب الصديق فأتساءل لماذا تكون أوربا والمسيحية دائما وجهة الكاتب الكبير فى المقارنة ، كما قارن الآن بين الجامعة المصرية وجامعات أوربا ، وبين المسيحية والاسلام فيما نقلناه عنه ، وكما قارن بين الأزهر والكنيسة فى حديثه بالمقطم !؟ ان هذه المقارنة توحى أن الأستاذ يعتقد أن الاسلام

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ١٩٣٩/٣/٢٧ م .

كالمسيحية ، وأن رجال الاسلام يملكون من التحكم فى المصائر والعواقب مثل ما كان يملك القساوسة فى الكنيسة ، وهى مقارنة تسىء الى الاسلام ، اذ تحمل عليه أوزاراً لم يقترفها حماته ولا تمت الى أصل من أصوله ، وهذا ما عناه الأستاذ الدكتور محمد البهى حين قال فى الرد على دعوى الأستاذ توفيق الحكيم [١]

« ان الأزهر لا يطلب سلطان الكنيسة فى القرون الوسطى ، ولم يطلبه يوما مّا ، وانما يؤدى مهمته الروحية فوق مهمته العلمية وهى المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، وشيخ الأزهر لا يحد من حرية البحث الجامعى اذا ما حاول أن ينزع الأمة من تحكم فئة تدعى لنفسها من الألقاب الثقافية ما تشاء مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمى فيه » ثم قال الدكتور البهى : « حددوا الألفاظ قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة بين نهضات الأمم على أسس صحيحة ، وتخلوا قبل كل شىء عن عقيدة وجوب تقليد الغرب ، أما الايمان أولا بوجوب تقليد الغرب فى خيره وشره ، ثم الزام القارىء بنتائج ما يسمى (البحث) المبنى على هذا الايمان فذلك هو هدم حرية التفكير ، والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة فى القرون الوسطى »

فاذا تركنا ما كتبه الأستاذان الدكتور البهى، وأحمد عبد الرحمن، عيسى الى ما كتبه غير الأزهريين فاننا نجد الكاتب الغيور الأستاذ محمد أحمد الغمراوى يفرد للرد على كلام الأستاذ توفيق الحكيم مقالا ممتازا بالرسالة [٢] تحت عنوان (أما لهذا الليل من آخر) قال فيه : ان الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم يظن أن الطلبة قد أكرهوا اكراها على ترك القصة المقررة ، ولكنهم لم يكرهوا فى شىء بل دفعتهم غيرتهم الدينية من تلقاء أنفسهم الى رفض هذا التهجم وأبلغوا شكواهم الى العميد ، فلم

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص ٢٢١ سنة ١٩٣٩ م .
(٢) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ٣/٢٧ سنة ١٩٣٩ م .

يفعل شيئا، فاهتم بالأمر شيخ الأزهر ووزير المعارف ، فاذا كانت هـذه قيامة ــ كما تصور الحكيم ــ فمن الذى أقامهـا !؟ أمَن طلب تغيير الكتاب أم مَن فـرض على الطلاب شـيئا يمسّ جوهرهم الايمـانى فلفظوه !؟ وأزيد على كلام الأستاذ الغمراوى فأتساءل هل تضـمنت القصة نقاشا علميا وتحليلا فكريـا فيما تعرضت فيه لنبى الاسلام ، أو هو حوار على لسان بعض الاشخاص لم يعن فيه بتقرير الحقائق !؟ فأين الخوف على التقدم العلمى والحرية الفكرية ليس أبا عذرتِه ، بل سبقه كل الاباء !؟

على أن ما يتباهى به الأسـتاذ الحكيم من الـدعوة الى الحـرية الفكرية ليس أباعذرته ، بل سبقه اليه كل مفكر اسلامى درس أصول هذا الـدين الحنيف ، والأسـتاذ المـراغى الذى لم يـرض الكاتب موقفه من القصة ، ونسـب اليـه انتقادا مُفترى على بعض ما جاء فى «يوميات نائب فى الأرياف» قد خطب أكثر من مرة فى طلاب الأزهر ليعلن لهم رأى الاسلام فى تقرير حريـة الفكر ، وليرد على من يخافون من تدخل الأزهر فى شئون الكتابة كما وهم الأستاذ الحكيم ، فقـال رحمه الله من حديث مستفيض [١]

« ان الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحيـاة العامـة فهم يقولون ان الأزهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحياة ، اذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلميـة الحـرة ، هذا ما يقوله الناس ، أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر خطر عليها، لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء ، ومن الأئمة الـذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمـل هذه المذاهب المتعددة التى تقرؤها فى علم الكلام ، وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه ، وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة واجتهدوا فى أن يردوا عليهـا بالـدليل ، فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى ولكن الأزهر يكره شـيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين ،

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد العاشر ص (و) من الجزء الرابع سنة ١٩٣٩ .

وتعمّد الاستهزاء بأئمة المسلمين ، يكره هذا ، ويكره أن يشكك العامة فى دينهم ، وأن يشكك النشء فى عقائدهم ، أما الآراء العلميــة فهى حدود العلم ودائرته فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دونأن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها » .

فاذا تركنا موقف الأستاذ الحكيم من قصة برناردشو وثـورة الطلبة فى كلية الآداب على بعض ما جـاء بها خاصا بنبى الاسلام صـلى الله عليه وسلم الى موقفه من رسـالة (القصص الفنى فى القرآن) فاننا نجد المفكر الكبير يتسرع فى مؤاخذة الأزهر ومن ساروا سيره فى معارضة الرســالة دون أن يعرف حـدود المسألة ، وكان له فى تسرعة الأول ما يدعوه الى التؤدة فى الاعتراض ، فقد ظن المسألة مسألة حرية رأى ، لا مسألة فوضى جامعة ، وكان فى تجربته السابقة عبرة عاصمة ، حتى لا يقع فى خطأ يضطر الأستاذ العقاد الى أن يصححه له ، كما يضـطر عميـد كليـة الآداب أن يوضـح للجمهور أن الــذين يتدخلون فى شئون الجامعة ليسوا على شىء من الدراية العلمية تؤهلهم لهذاالتدخل ، وموجز القصة أن أحد الطلاب تقدم لنيل الدكتوراه برســالة تبحث فى (الفن القصصى للقرآن) وقدعرضت الرسالة للفحص فرفضها الأستاذان أحمد أمين ، وأحمد الشايب وقال عنها الأستاذ أحمد أمين فى تقريره العلمى « وقد وجدتها رسالةليست عادية ، بل هى رســالة خطيــرة أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضــع له الفن من خلق وابتكار ، من غيــر التــزام لصدق التاريخ ، وأن محمدا فنان بهــذا المعنى ، وعلى هــذا كتبت الرسالة من أولها الى آخرها » [1]

ومن حق الأستاذان الفاحصــان أن يرفضا كلاما يريان بطلانه ،ولكن الأستاذ المشرف على الرسالة قد أيد الطالب، ولم ينتظر الحكيم حتى يقرأ الرسالة ، بل أرسل صيحته المضرية فى احترام حرية الفكر ، وخــالف الجامعة فيما اتجهت اليه من رفض الرسالة !؟ ومن البديهى أن الجامعة لا تســتطيع أن تمنح الــدكتوراه

---

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٤٩ ١٠/١١/١٩٤٧ م .

لطالب مخطيء ، فلها الحرية كل الحرية أن تقول للمخطيء : أخطأت، ولكن هذا البديهي ينكره الأستاذ توفيق الحكيم ويسير في ركب المندفعين باكيا على حرية الرأي حتى يضطر الأستاذ العقاد أن يأتي بعصا موسى فتسكت المعارضين جميعا حين قال [١] :

« حرية الرأي مكفولة لكل انسان ، ولكن لا حرية بغير تبعة ، فكل ذي رأي مسئول وحده عن رأيه ، وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته وليس له أن يلقي التبعات على غيره ، لأن حريته تنتهي عند انتهاء التبعة التي يحملها باختياره ، فلا اختيار له في حريات الآخرين !؟

من حق الباحث أن يبدي ما يشاء في حدود القانون وليس من حقه أن يحمل غيره (يريد الجامعة) على تزكية رأيه وترويجه أو الاذن باجازته ونشره ولاسيما اذ يكون ذلك الغير هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الأمة كالجامعة المصرية وما جرى مجراها

فالجامعة المصرية جامعة حكومة ، ومعنى أنها جامعة حكومية : أن الزامها لطلابها هو الزام يقوم به القانون وتحميه الدولة وليس فيها للطالب أو ولي أمره خيار .... فليس لأحد أن يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دروسا تحتاج الى احتمال تبعة ، وليس له أن يلقي عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرها وتزكيها ، وهو يزعم أنه حر فيما يصنع وأنها هي المقيدة أمامه فلا حرية لها ، في رفض هذا الصنيع .

وقد سبقتنا الى النظام الجامعي أمم كثيرة ، .. فلم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة اكسفورد مثلا ببحث في ميلاد السيد المسيح هل كان مولدا طبيعيا أو كان مولد خارقة واعجاز !؟ ولم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة السوربون ببحث في تدوين الأناجيل ، هل هي، من كتابة الرسل أو كتابة آخرين معلومين أو مجهولين !؟

والجامعات الانجليزية تدرس تواريخ الأديان وتدرس المقابلة بينها ، فلم نسمع قط أنها أجازت لصاحب رأي أن يطلب منها اقرار

---

(١) المصدر السابق .

قول من الأقوال يخالف ما تلتزمه أمام جميع المتعلمين .

الى أن يقول الكاتب الكبير الأستاذ العقاد : « ليس بعالم ولا مستحق لأمانة العلم من لا يقدر ولا يميز بين ما يقرره باسمه ، وما يطلب من المشرفين على التعليم أن يقرروه ، وقلما يعنينى هنا أمر رسالة بعينها وانما يعنينى توضيح الحد الفاصل فى مسألة الحرية ، وهو حد منسى على ما نرى فى حسبان بعض المبتدئين ، بل بعض الأدباء المعدودين !؟

ولو لم يكن هذا الحد محتاجا الى التذكير فى مرحلتنا هذه من الحياة الفكرية لما رأينا رجلا كصديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ينساه وهو ينقد الجامعة المصرية لأنها رفضت تبعة تلقى عليها ، وليس من حقها أن تقبلها باسم الدولة ، وليس من مقتضى رفضها أن تحول بين طالب من الطلاب ، أو مدرس من المدرسين وبين اعلان ما يراه بغير واسطتها اذا شاء »

* * *

بلغ العقاد فصل الخطاب فى ايضاح الحق ودحض الباطل ، وسكت الأستاذ الحكيم فلم يستطع الرد عليه فى شيء ! وقد أثبت كلام العقاد أن الذين ينقدون الجامعة ويتباكون على الحرية الفكرية ! لا يعرفون مهمة الجامعة من ناحية ولا يعرفون حدود الحرية الفكرية من ناحية ثانية ، فأولى بهم السكوت !؟

* * *

وبعد .. فتظاهر الاستاذ توفيق الحكيم بالحرص على الحرية والغيرة عليها وتقرير ذلك عن نفسه فى كثير مما كتب وقال ، لم يكن مما يعنينا أن نكشفه على وجهه الصحيح لو لم يحاول أن يتنقص من أعلام كبار ، هم فى الحقيقة أنصار الحرية الحقيقيون ، فالامام المراغى قد جاهر على رءوس الأشهاد بحياد مصر فى الحرب العالمية الثانية معلنا أن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى حرب الانجليز والألمان ، وقد قامت الدنيا وقعدت وأبرق السفير البريطانى وأرعد فى وقت كان هو الحاكم الفعلى بمصر ، فلم يتراجع الشيخ الأكرم عن قوله ، وحينما

اتصل به رئيس الوزراء فى منتصف الليل (حسين سرى) مذعورا من تهديد السفير ، ومحذرا الشيخ أن يعود عاقلا ، قال له الامام الأكبر فى كبرياء : من أنت ؟ أستطيع أن أقيلك بخطبة واحدة فوق منبر الأزهر أو منبر الحسين [١] ! ولكن الأستاذ توفيق الحكيم اعترف بنفسه أنه عاش عشرين عاما غائب الوعى لا يعى فظائع الطغيان والكبت والقهر ، وظل يمدح ويقرظ حتى غاب المعتدى وأمن المؤاخذة فأصدر كتابه (عودة الوعى) لينتقد من دعا الى اقامة تمثال له ظانا أن من جاء بعده سيحذو حذوه ، حتى اذا انكشف المستور ، صاح صاحبنا : لقد عاد الوعى ! ومضى يجمع قصاصات من الصحف تحمل تعريضا أليما بزعيم من زعماء الكرامة والرجولة والحرية الحقيقية !؟ ولم يسأل نفسه : أين العصا من السيف ؟ وأين المنجل من الحسام ؟؟

د. محمد رجب البيومى

---

(١) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب ص ١٩٥ — المطبعة المنيرية

وعظ مالك بن دينار عظة مؤثرة أبكت الحاضرين فلما فرغ افتقد مصحفه فلم يجده ، فاقبل عليهم يقول : كلكم تبكون فمن سرق المصحف ؟

* * *

الدنيا كالماء المالح ، كلما ازددت منه شربا ازددت منه عطشا .

* * *

* الايمان قوة الحياة .

* * *

*كما انه لا يمكن لانسان ان يحيا بغير قلب ، كذلك لا يمكن لانسان ان يحيا بغير دين .

* * *

* دلتنى خبرة عشرين سنة على أن السبب الاساسى لتفشى المجون والفساد — سوء طريقة تلقين التعاليم الدينية .

« تولستوى »

غيبيات المادة

للدكتور يحيى هاشم

يعنى الحس المشترك عادة بالشىء المادى أشياء مثل شجرة ، كرسى ، قلم الى آخر هذه الأشياء التى يصعب حصرها ؛ فالشىء المادى بهذا المعنى هو موضوع جامد ذو أبعاد ثلاثة ، محدد بسطح معين يعزله عن البيئة ، كما يجعله قابلا للتعرف عليه على الرغم من تغير هذه البيئة .

وعلى ذلك فيمكننا تعريف الشىء المادى كما يفهمه الحس المشترك على أنه كائن يدوم خلال التغيرات ، أى أنه كائن فعلى يحافظ على نواة ثابتة خلال تغير الخواص الادراكية والخارجية ، وباختصار هو كائن يحتل حيزا محددا فى المكان وله دوام معين فى الزمان وله وجود مستقل عن وجودنا ونكون على ادراك مباشر به .

وعن هذه المادة كتب نيوتن يقول :

انى أرجح ان الله عندما خلق الدنيا خلق المادة أجزاء جامدة صلبة متحركة ، لا ينفذ فيها شىء ، وليس فى مقدور قوة عادية ان تقسم ماجعله الله واحدا .

والى ما بعد عهد دالتن الفيزيقى الكبير ١٧٦٦ – ١٨٤٤ كان الأمر حيث زعم ان الذرة لا تنقسم ؛ وانها تدخل اعنف التفاعلات الكيموية وتخرج منها ولم يفرها من ذلك شىء . وكان يرى ان هذه الذرات أشياء تلمس وتحس .

وفى اثر بحوث بيير كورى ومدام كورى قام السير جوزيف جون طمسون ١٨٥٦ – ١٩٤٠ فى عام ١٨٩٧ (ففقأ عين العقيدة التى تقول

ان الذرة هى آخر شيء يقف عنده تجزؤ الأجسام)

(وكان على طمسون ان يبحث تلك المناطق التى تتصل فيها المادة بالقوة والقوة بالمادة ... تلك المناطق التى تقع عند الحد بين المعلوم والمجهول من هذه الدنيا) واكتشف طمسون : الالكترون ، أو « الدقيقة » كما سماه أول مرة ، وتوصل الى أن المادة والطاقة الكهربية شيء واحد وانهارت بهذا حوائط الذرة وواصل العلماء كشفهم لأسرارها

الذرة :

تتركب المادة من عناصر

وتتركب العناصر من ذرات

وتتركب الذرات من بروتونات والكترونات ونيوترونات ... الخ

الفرق الأساسى بين البروتون والنيوترون يرجع الى ما يحملانه من شحنة كهربائية فالبروتون يحمل شحنة موجبة بمعنى انه ينجذب الى شحنة سالبة ويتباعد عن شحنة أخرى موجبة .

وقد أطلق رذرفورد على ذرة الايدروجين الحاملة لشحنة موجبة كلمة بروتون المشتقة من أصل لاتينى معناه « الاول »

اما النيوترون فمتعادل أى لايحمل اى شحنة كهربية على الاطلاق ، وهذا نفسه هو معنى الكلمة لغويا (المتعادل ــ أو المحايد) .

والالكترون يحمل شحنة سالبة معادلة للشحنة الموجبة فى البروتون

وباكتشاف النيوترونات فى سنة ١٩٣٢ اكتملت الصورة الأساسية للذرة . غير ان العلماء شرعوا ــ بناء على ما ظهر بعد ذلك من نظريات حديثة ــ فى وصف جبيبات لم يلحظ احد وجودها من قبل وان كانوا يعتقدون بأنها توجد فى الذرة فعلا . وهكذا ظهر فى الثلاثينات فرع جديد فى علم الفيزياء للبحث فيما اطلق عليه « جبيبات أولية »

وقد علق البعض على غرابة هذا الاسم اذ ان هناك حقيقتين فقط فى هذا الميدان اولاهما ان الجبيبات الاولية ليست أولية بأى حال من الاحوال بل هى بالغة التعقيد والحقيقة الثانية ان الجبيبات ليست

حبيبات فقط بل يعمل البعض منها كموجات من الطـاقة ليس لها أية كتلة .

وكـانت اولى الحبيبـات التى اكتشفت مماثلة للالكترون فيما عدا انها تحمل شحنة موجبة وقد اكتشفها سـنة ١٩٣٢ كارل اندرسـون من المعهد الفنى بكاليفورنيا اثناء قيامه بابحاث فى الاشعة الكونية واطلق عليها اسم بوزيترون وكان قد لاحظ ان بعض الذرات عنـدما تتعرض لاصطدام الأشعة الكونية بها تخرج حبيبة لها خواص الاليكترون تماما فيما عدا انها تحمل شحنة موجبة والسبب فى انها لم تلحظ من قبل ان فترة بقائها تبلغ نحو واحد على بليون من الثانية .

وفى عـام ١٩٣٥ تنبأ هيديكى يوكاوا (ولد سنة ١٩٠٧) من جامعة كيوتو فى اليابان بوجـود حبيبة أخرى ـ الميزون ـ وجاء فيما قاله يوكاوا ان الميزون هى الرباط الطاقى أو الغراء الذى يربط الحبيبات معا داخل النواة .

وقد عثر كارل اندرسون بدوره على الميزون اثناء ابحاثه عن الاشعة الكونية ..

وأظهرت الابحـاث اللاحقة أن الميزون نـوعان ـ نـوع ثقيل أو « بى ميزون » وآخـر خفيف أو موميزون .

وفى عـام ١٩٣١ تنبـأ فيزيائى اسـترالى يسمى وولفجانج باولى (١٩٠٠ ـ ١٩٥٨) بوجود حبيبة أخرى تشع من بعض العناصر وكانت حبيبة بلا كتلة تعمل على التخلص من الطاقة التى كان يبدو انها تختفى اثناء الاشعاع .

ولم تكشف هذه الحبيبة بالفعل الا فى عام ١٩٥٦ ، ناتجة من تفاعلات نووية جبارة . وتعرف الآن باسم نيو ترينوس .

وعنـدما يتصـادم بـوزيترون واليكترون يختفى الاثنان معا ولذلك يعـرف البوزيترون أيضـا باسم « مضاد الاليكترون » .

وقـد أدى ذلك الى الظن فى وجود حبيبة مضادة لكل نوع من الحبيبات وثبت أخيرا أن هذا الظن فى موضـعه . وأصـبح مجموع

الجبيبات والجبيبات المضادة التى وجدت داخل الذرة أكثر من الثلاثين .

لا مادية النيوترون :

يقول الكاتب البريطانى آرثر كوستلر :

من بين كل هذه الجزيئات الاولية التى تتضمنها قائمة عالم الفزياء وتثير حيرة الانسان ، ومن أكثرها شبها بالاشباح الجزء المسمى النيوترون . وقد تنبأ بوجوده وولف جانج بولى عام ١٩٣٠ بناء على أسس نظرية خالصة . بيد أنه حتى عام ١٩٥٦ ، اى طوال خمسة وعشرين عاما أو يزيد كانت النيوترونات الفعلية التى تنبعث من المجمع النووى الضخم للجنة الطاقة الذرية من الولايات المتحدة المقام على شاطىء نهر سافانا يصطادها داخل المعمل كل من ف رانيس و ك كووان ويرجع السبب فى مضى وقت طويل حتى تم تسجيلها الى ان النيوترون لا يكاد يتميز بخصائص فيزيائية : اذ ليست له كتلة أو شحنة كهربائية ولا مجال مغناطيسى . ومن المعروف أن ليس بالامكان جذبه بالمغناطيسية ولا يمكن الامساك به أو طرده بوسائل المجالات الكهربائية والمغناطيسية لجزيئات أخرى ينطلق بجوارها .

ومن ثم فان النيوترون المتولد فى سكة التبانة بل فى بعض السدم وينطلق بسرعة الضوء يمكنه ان يظل نقيا عبر الجسم الصلب للارض وينفذ منه وكأنه ينفذ عبر الفراغ . ولا سبيل الى ايقاف النيوترون الا عن طريق صدام مباشر بجزىء أولى آخر . والجدير بالذكر أن فرص حدوث مثل هذا الصدام المباشر اثناء النفاذ عبر الارض كلها تبلغ حسب التقدير السائد مرة من بين ١٠٫٠٠٠ مليون . ويشير الكاتب العلمى مارتن جاردنر الى ذلك قائلا : « لحسن الحظ انه ثمة نيوترونات كافية حولنا بحيث أصبح ممكنا وقوع مثل هذه الصدامات والا لاستحال علينا تسجيل النيوترون .

بينما يطالع القارىء هذه الجملة تنبعث بلايين النيوترونات وتأتى الى الأرض منطلقة من الشمس والنجوم

الأخرى ، بل ربما من سدم أخرى ، وتنفذ عبر جمجمة القارىء ومخه.»

يقول آرثر كوستلر :

« ويذهب العقل المحايد الى الاعتقاد بأن النيوترونات ذات نسب بالأشباح وهو العقل الذى لا يرفض وجودها وليس هذا القول مجرد استعارة لفظية »

ليست الذرة شيئا ماديا :

يقول هانز ريشنباخ — وهو ملحد :

بعد ان فسر لويس دى بروجلى الجمع بين النظريتين الجزيئية والموجية بأبسط معانيه وهو ان هناك جزئيات تصحبها موجات تسير مع الجزىء وتتحكم فى حركته ... قدم شرودنجر تفسيره بالاستغناء عن الجزيئات ، وأنه لا توجد الا موجات تتجمع فى بقاع صغيرة معينة فينتج عنها شيء يشبه الجزىء، فهى اذن حزم موجية تسلك على نحو شبيه بالجزيئات ..

ثم اقترح ماكس بورن الفكرة القائلة بأن الموجات لا تكون أى شيء مادى على الاطلاق وانما تمثل احتمالات فادى تفسيره هذا الى حدوث تحول غير منتظر فى مشكلة الذرة ، وفى هذا التفسير لا تكون للموجات حقيقة الموضوعات المادية بل تكون لها حقيقة المقادير الرياضية فحسب .

وواصل هيزنبرج السير فى هذا الطريق ، حيث كشف عن مبدأ اللا تحدد

واخيرا جمع بور بين نتائج بورن ونتائج هيزنبرج فوضع مبدأ التكامل ، وهو المبدأ القائل بأن تفسير بورن يقدم وجها واحدا للمشكلة ، وان هناك وجها آخر وهو ان تنظر الى الموجات على انها ذات حقيقة فيزيائية وهو رأى لا يكون فيه للجزيئات وجود ، ولا سبيل الى التمييز بين هذين التفسيرين لأن اللاتحدد كما يقول هيزنبرج يجعل من المستحيل القيام بتجربة فاصلة .)

ويوضح ريشنباخ المعنى الذى ينطوى عليه مبدأ التكامل الذى تحدث عنه بور فيقول : « عندما يسمى وصف الموجة والجزىء وصفا تكامليا يعنى انه بالنسبة الى المسائل

التى يكون احد هذين الوصفين تفسيرا كافيا لها ، لا يكون الآخر تفسيرا كافيا والعكس بالعكس ، مثال ذلك : اننا اذا كنا بصدد نموذج التداخل على شاشة فاننا نأخذ بالتفسير الموجى ، اما اذا كنا بصدد ملاحظات عدادات جيجر نستخدم التفسير الجزيئى • وينبغى ان نلاحظ ان لفظ « التكامل » لا يفسر او يزيل الصعوبات المنطقية التى تنطوى عليها لغة ميكانيكا الكوانتم وانما هو مجرد تسمية لها فحسب •• ومن الواجب أن نؤكد ان هذا الموقف المنطقى ليس له نظير فى عالمنا الفعلى الكبير » •

ويقول هيزنبرج عن لا مادية الذرة :

(ليس الجوهر جسيما ماديا فى الفضاء والزمن وانما هو بشكل ما مجرد رمز تتخذ قوانين الطبيعة عند تقديمه شكلا سهلا واضحا •)

ويقول :

(اتضح من تفسير « الخصائص الحسية » للمادة عن طريق ذراتها ان مثل هذه الخصائص لا يمكن ان تنسب لقالب المادة النهائى بشكل بسيط •)

ويقول :

(لقد منحت الذرة اذن ـ على الأقل فى خيالنا ـ كل النواحى الميكروسكوبية للمادة ، ثم عرف مع الزمن ، ان اصغر الجسيمات ، كالالكترونات مثلا ، لا يمكن أن تمتلك نفسها « الخواص الحسية » للمادة)

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(الذرة ـ أو اذا اردنا الدقة « الالكترون » أصغر وحدة فى الفيزيقا الذرية الحديثة ـ لم تعد تظهر فى ذاتها حتى ابسط الخصائص الهندسية والميكانيكية)

ويقول :

(لقد وضع كل ما توصلنا اليه من تفهم للمادة فى النهاية فى شكل معادلات رياضية)

ويقول الدكتور هرمان راندال :

(أما ان تكون معادلات الموجات بالغة التجريد فلمر واضح • وأكثر

الفيزيائيين يكتفون الان بعدد من المعادلات الرياضية التى تتنبأ عن الحوادث فى حقل الاشعاع .

وقد توقفوا عن التطلع الى نموذج ميكانيكى للذرة يمكن ان ترتسم صورته فى المخيلة ..)

ويبين هيزنبرج أن :

تركيبات الذرة هى التى تحدث خصائص المادة : من اللون والرائحة والزمن وشغل الفراغ اما الذرة فليس لها شىء من ذلك .. يقول :

(اذا قلنا ان حركة الذرات داخل الاجسام هى التى تميز بين الباردة منها والساخنة ــ اذ تكون حركتها فى الاجسام الساخنة اسرع منها فى الباردة ــ فان الذرة الواحدة لا يمكن أن تكون باردة أو ساخنة .

وعلى هذا جردت الذرة بالتدريج من كل « الخصائص الحسية » وصارت الخصائص الهندسية هى الوحيدة التى بدا لمدة طويلة انها تحتفظ بها من القول بأنها تشغل الفضاء والمكان والقول بأن لها حركة محددة ــ غير ان التطور فى الفيزيقا الذرية الحديثة قد ازال حتى هذه الخصائص)

ويقول :

(ان الخواص المرئية للمادة كشغلها للفراغ وقوة المواد واللون والخصائص الكيمائية ، كلها صفات للمادة فى شكلها المتكامل ، ولكنها لا ترتبط بنفس الطريقة بأصغر « القوالب » التى لا تنقسم للمادة ...)

ومن هنا فقد بدأت طائفة من العلماء تقلع عن وصف المادة بما يفيد ماديتها .

يقول دكتور هرمان راندال :

(هناك ميل لاستعمال مصطلحات جديدة ــ يصفها الكثيرون بأنها منطق جديد وهى الاستمرار الزمانى المكانى ، والاحداث والمجارى والفاعليات بدلا من الأشياء أو الجواهر ، وقد ذهبت علاقة الموضوع بالمحمول وحل محلها السلاسل الوظيفية والنسب المتبادلة)

كيف امكن ادراك الذرة :

هل ترى الذرة بطريق مباشر أو غير مباشر ؟ كلا لا هذا ولا ذاك .

وقد يمكن رؤية نجم غير مرئى

بالميكروسكوب الالكترونى الذى يكبر الاشياء أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ مرة .

ولكن هذا المنظار لا يكفى لرؤية الذرة ...

وكما رأينا كبار العلماء التجريبيين ينكرون فى البداية : الجاذبية ثم ينكرون الكهرباء ....

وجدناهم أيضا ينكرون النظرية الذرية .

وهم كانوا فى انكارهم مدفوعين بارتباطهم بالمنهج العلمى التجريبى الذى لا يعترف بغير مايدرك حسيا .

يقول الدكتور جون كيمنى :

(رفض بعض الاوائل من دعاة الفلسفة العملية القول بالنظرية الذرية لان المفاهيم التى تستند اليها غير قابلة للتحديد بواسطة عمليات حسية ، أى بكلمة اخرى ، لان الذرات غير مرئية ، غير ان هذه النظريات تغلبت على كل انتقاد)

ان التسليم بوجود الذرة ، وبأجزائها ليس ناشئا من كونها خاضعة للادراك الحسى بأى وجه من الوجوه ولكن لأمرين :

الأمر الأول :

الضرورة المنطقية اللازمة لتفسير الوقائع المشاهدة .

يقول فيرنر هيزنبرج :

(ربما استطعنا ان نوضح بمثال الصفة الرمزية للمفهوم الحالى عن الذرة فالذرة من الفيزيقا الحديثة تظهر تشابها للجذر التربيعى لناقص واحد $\sqrt{-1}$ ٢ فى الرياضة ـ فبالرغم من أن الرياضة الأولية تقول انه لا يوجد مثل هذا الجذر التربيعى بين الأرقام العادية ، الا اننا نجد ان أكثر القضايا الرياضية أهمية تتخذ ابسط شكل لها اذا ما قدمنا هذا الجذر التربيعى كرمز جديد .

فالتبرير اذن يكمن فى القضايا نفسها .

وبنفس الشكل فان خبرات الفيزيقا الحديثة تبين لنا انه لا وجود للذرات كأشياء مادية بسيطة ، الا ان تقديم مفهوم « الذرة » يمكننا من الصياغة السهلة للقوانين التى تحكم كل المعطيات الفيزيقية والكيمائية .)

ويقرر الدكتور جون كيمنى ان :

الأجسام الأصغر من الذرة مجرد افتراض يسهل تعليل الوقائع المشاهدة وذلك اذ يقول :

(نحن نعتقد بوجود اجسام اصغر من الذرة لا لأننا « رأيناها » ــ ولو بشكل غير مباشر ــ ولكن لان افتراض وجودها يشكل اسهل فرضية يمكن لها تعليل الوقائع المشاهدة)

الأمر الثانى :

الذى تعرف به الذرة : آثارها .
يقول الأستاذ جيمس ١٠ كولمان :

(اننا لا نستطيع رؤية الذرة . حتى لو استخدمنا اقوى ما نملك من المجاهر وعلاوة على ذلك فان سرعة الالكترون فى مداره حول النواة تبلغ حوالى ١٠٠/١ من سرعة الضوء وهى درجة لا تمكننا من رؤيته باية طريقة .

ولكن ليس من الضرورى ان نرى الالكترون فعلا وهو يدور لكى نحدد شكل مساره اذ انه لحسن الحظ ينتج عن مساره اثار معينة يمكن اختبارها تجريبيا)

ويقول فيرنر هيزنبرج :

(انه يمكن ملاحظة المادة فى ظواهرها عن طريق التقدم الرائع فى الطرق التجريبية الا انها لا تخضع لاحساساتنا .)

كتلة الجسم تابعة لحركته :

عندما يتحرك جسم ما بسرعة أكثر فأكثر فان كتلته تصبح أكبر فأكبر . ولنفرض جدلا ان رصاصة اطلقت بسرعة ٩٩,٩٩٩٩٩ فى المائة من سرعة الضوء فان كتلتها تصبح عدة اطنان . وليس هناك من وسيلة معروفة للتخلص من ارقام ال « ٩ » وجعل الرصاصة تسير بسرعة تساوى سرعة ١٠٠ فى المائة من سرعة الضوء أما اذا سار الجسم بسرعة الضوء نفسها فان كتلته تصل الى ما لا نهاية .

طول الجسم تابع لحركته :

كلما زادت سرعة الجسم بالنسبة لراصد ما ازداد فى القصر . والآن نتساءل :

ماذا يحدث اذا اخذنا فى زيادة السرعة أكثر فأكثر ؟

هل يختفى الجسم ؟

هذا هو بالضبط ما تقول المعادلة انه سوف يحدث ، اذ يتضح بسهولة أنه كلما اقتربت السرعة ع من سرعة الضوء حـ اقترب طول الجسم من الصفر . وعندما تصبح ع=حـ فان الطول يصبح صفرا وهذا يعنى ان الجسم يكون قد اختفى .

طاقة الجسم تابعة لحركته :

لقد وجدنا ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعته ، وتبعا لذلك يجب أن تزداد طاقته أيضا . اذ انالجسم الأثقل تكون له طاقة أكبر من الجسم الأخف اذا كانا يتحركان بنفس السرعة . ويمكن اثبات ان الزيادة فى الطاقة الناتجة عن ازدياد الكتلة تساوى الزيادة فى الكتلة ، يصحبها أو يكافئها طاقة تساوى الكتلة مضروبة فى مربع سرعة الضوء .

وهذه هى النتيجة التى توصل اليها اينشتين . ويعبر عنها رياضيا بالمعادلة .

ط = كحـ٢

حيث ط الطاقة المكافئة ، ك كتلة الجسم ، حـ سرعة الضوء .

وتفسير المعادلة هو انه اذا تحولت كتلة اى جسم الى طاقة دون ان يتخلف عن ذلك اية مادة ، فان مقدار الطاقة المنطلقة تحدده هذه المعادلة .

المادة والطاقة :

أظهرت نظرية النسبية الخاصة أن المادة والطاقة ليسا بالامرين المختلفين تمام الاختلاف كما كان الانسان يعتقد قرونا طويلة ، بل الواقع ان فى الامكان تحويل الواحدة الى الاخرى .

ويعبر عن ذلك بالرموز التالية :

ط = كع٢

ومن العجيب انه لو كان فى مقدورنا ان نحول الكتلة بأكملها الى طاقة لكان فى رطل واحد من الفحم الحجرى ما يكفى لمد الولايات المتحدة بأكملها بحاجتها من الكهرباء لمدة شهر كامل .

واذا قارنت بين الطاقة المنطلقة باحتراق رطل من الفحم والطاقة المنطلقة عندما تتحول كتلته كلية الى طاقة فانك تجد ان الطاقة الناتجة فى الحالة الثانية تعادل ثلاثة بلايين مرة قدر الطاقة فى الحالة الاولى .

فعملية تحـويل جزء محسوس من المادة الى طاقة تختلف كلية عن عملية الاحتراق العادى .

تحويل المادة الى طاقة ، والطاقة الى مادة :

يقول الكـاتب البريطانى آرثر كوستلر :

(يستطيع عالم الفيزياء ان يلاحظ ما لا يمكن تصوره والتفكير فيه . وهو تحول الكتلة الى طاقة وتحول الطاقة الى كتلة .)

ويقول فيرنر هيزنبرج :

(ان المادة والاشعاع ليسا سوى ظاهرتين مختلفتين لحدث واحـد ، ولقد كانت الخطة الأولى فى هذا السـبيل هى اكتشـاف ديـراك واندرسون انه من الممكن ان تحول المادة الى اشعاع وان يحول الاشعاع الى مادة .)

ويقول :

(لقد وجدنا الان ــ كما تمنى الأغريق ــ جوهرا واحدا أساسيا ، منه يتكون كل الواقع ، واذا كان علينا ان نسمى هذا الجوهر ، فلن نسميه الا « الطاقة » ولكن هـذه الطاقة الأســاسية لها القدرة على الوجود فى أشكال مختلفة .

ومن بين الاشـكال الأســاسية للطاقة هنـاك ثلاثة أنواع بالذات ثابتة هى الالكترونات والبروتونات والنيـوترونات ، وتتركب المـادة بمعناها الحقيقى من هذه الاشكال الثلاثة بالاضافة الى طاقة الحركة ، كما ان هناك جسيمات تتحرك دائما بسرعة الضوء تشمل الاشـعاع ، وأخيرا هناك اشكال لها فترة حياة قصيرة ، لم نكتشف منها الا القليل

وعلى هذا فان تعـدد الظواهر الطبيعية يخلق اذن عن طريق تعدد مظاهر الطاقة)

قانون بقاء الطاقة افتراضى :

يؤكد قانون بقاء الطاقة ان كمية القوة الفـاعلة فى الطبيعية بأكملها لا تتغير ولا يمكن ان تزيد أو ان تنقص .

وهذا القانون يدعى بالقانـون الاول للحرارة الحركية .

والقانون الثانى قانون تشـتيت الطاقة القائل :

أن مجموع الطاقة الكونية ، ولو أنه ثابت لا يتغير .. الا أن مجموع الطاقة النافعة يتناقص بتحوله النهائى الى حرارة غير نافعة أو مشتته ..

يقول دكتور هرمان راندال عن هذين القانونين :

مما تجب ملاحظته أن هذه التعميمات الكبيرة بالرغم مما لها من قيمة فائقة فى توحيد ظواهر الطبيعة المتنوعة تحت بضعة قوانين اساسية .. انما هى افتراضات اكثر منها نظريات مطلقة ثابتة ، ومع كونها فرضيات ضرورية للعلم ، الا أنها بالرغم من ذلك فرضيات فى الايمان العلمى

وقد هددت الاكتشافات العلمية الحديثة هذا القانون ..

يذكر برنارد جاف : (أن العلماء افترضوا وجود جسيم مضاد للنيوترينو — وهو جسيم افترضوا وجوده ايضا ليفسروا به ما يحدث للميزون عندما ينحل فيعطى الكترونا ونيوترينو —

وسموا الجسم الذى افترضوه انتى نيوترينو .

وقد افترضوه — وهذا هو المقصود بالاستشهاد — ليحتفظوا بصحة القانون الذى يفرض ثبات المادة والطاقة أو عدم انعدامهما .)

ونحن نعلم كيف يتشبث العلماء بافتراض معين لعدم توصلهم — أو لعدم رغبتهم فى التوصل — الى افتراض آخر يحل محله . وانظر مبحثنا الفائت عن التشبث الارادى بالنظريات .

ما هى الجاذبية :

عندما اقترح كيلر فرضه القائل أن حركتى المد والجزر ترجعان الى قوى جذب تنبعث من القمر : شجب جاليليو هذه الفكرة واعتبرها تخيلات سحرية لانها تتضمن « التأثير عن بعد » وهو ما يتناقض مع (قوانين الطبيعة)

بيد أن هذا لم يمنع نيوتن بعد ذلك من وضع نظريته عن الجاذبية.

ويعنى قانون الجاذبية عند نيوتن : انه « بين كل دقيقة من دقائق المادة فى الكون ، وكل دقيقة أخرى قوة تجاذب تتناسب طرديا مع كتلتها وعكسيا مع مربع المسافة بينهما »

يقول سير اسحاق نيوتن :

(لم استطع كشف اسباب خصائص الجاذبية هذه من الظواهر وليس لدى اية فروض عن ذلك).

وعلى ذلك فان اكتشاف قوانين الحركة والجاذبية انما قام على عدم امكان تداخل الاجسام بعضها فى بعض وخاصية قبولها للحركة ومالها من قوة دافعة .

وبالنسبة لنا يكفى أن تكون الجاذبية موجودة فعلا تبعا للقوانين التى شرحناها والتى عم استخدامها لتفسير كل حركات الاجرام السماوية .

يقول : ادوارد .ج. هيوى :

(ان قانون الجاذبية من أهم قوانين الطبيعة رغم أن الجاذبية نفسها ما زالت لغزا عميقا مجهولا)

ويقول الدكتور جون كيمنى :

(ان هذا القانون فى وضعه العملى ، يؤدى الى وصف لكيفية دوران كوكب ما حول الشمس . أو بالاحرى ، لكيفية دوران كل منهما حول الآخر ، ان الكوكب والشمس يحتلان مواقع معينة حددتها مواقعهما السابقة ، ولكن أيمكن لنا القول بأن المواقع الحالية هى المسببات للمواقع اللاحقة ؟)

بامكاننا ، طبعا ، أن نسمى «قوة التجاذب » بالسبب ، الا أن هذا مفهوم خيالى لا يشكل سببا يمكن مشاهدته بالنسبة الى المنهج التجريبى .

ولما كان « الوزن » يعزى الى « الجاذبية » فانه يصبح من المسلمات التى لا يدرى كنهها .

ما هى المغناطيسية .

يقول ادوارد ج هيوى :

(الواقع أن نظرية الجزيئات المغناطيسية لا تفسر تماما كل ما يتعلق بالمغناطيسية فنحن لا زلنا نعجب ما الذى يجعل كل جزء من هذه مغناطيسا . ولكنها على أى حال مجرد تخمين معقول للمغناطيسية ولكن الحقيقة انه ما من مخلوق يعلم بالضبط كيف تعمل المغناطيسات .

وربما كان هناك دوائر كهربية صغيرة بدلا من المغناطيسات ..

وبعد كل هذا تأتى النظرية التى تنادى بأن الارض كلها عبارة عن مغناطيس . كيف يمكن أن يكون هذا هو الواقع ؟ لا احد يعرف .

ولهذا فان نظرية الجزيئات المغناطيسية كما نرى أقرب وأصدق نظرية يمكن أن تفسر الكثير عن المغناطيسية رغم انها تعجز عن تفسير البعض الآخر

قد تكون هذه النظرية خاطئة تماما .

وعلى أى حال فالمغناطيسية لا زالت مبهمة يعتورها الكثير من الغموض)

ما هى الكهرباء :

التيار الكهربى لا يخرج عن كونه سيلا من الاليكترونات ، انها اليكترونات حرة ، انها تلك الاليكترونات التى هربت من ذراتها ولم تعد بعد مقيدة الى أنويتها .

يقول : ادوارد «ج» هيوى :

(اننا نعلم ما الذى تفعله الكهرباء ونعلم كيف تعمل ذلك ، ولكننا لا نعلم بالضبط لماذا تعمل الكهرباء ما تعمله . اننا فى الحقيقة لا نعلم بالضبط ما هى الكهرباء اننا نستعمل الكهرباء ، ولكننا لا نستطيع أن نفهمها تماما .)

ماذا « نرى » ؟

ان التموجات الكهربية والضوئية هما شيء واحد لكن .. انك لا تستطيع أن ترى التموجات الكهرومغناطيسية ، ولكنك ترى الضوء فكيف يمكن أن يكونا اذن صورتين لشيء واحد ؟ ان التفسير هو فى أطوال الموجة والتموجات .

ويمكننا قياس الاطوال المختلفة للتموجات الكهرومغناطيسية . وبعض هذه التموجات ذات أطوال قصيرة تكون فى بعض الأحيان أقصر من قطر الذرة ، فى حين أن لبعضها اطوالا قد تصل الى الاميال

فهناك تباين بين أطوال الموجات الكهرومغناطيسية . ولكنها جميعها تسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل فى الثانية فى الفراغ ..

ولأعيننا القدرة على رؤية التموجات الكهرومغناطيسية اذا كانت ذات طول معين . وهذه هى التموجات الضوئية .

ولا نرى التموجات الضوئية على شكل تموجات .

ولكننا نرى الضوء فقط . ونحن نعلم أن الضوء يسير في تموجات ذات طول معين وأن الضوء ما هو الا جزء ضئيل واحد من أنواع مختلفة من التموجات الكهرومغناطيسية وتستطيع آلة التصوير أن تميز عددا من الموجات المختلفة الطول اكثر من العين ، ولذلك تستطيع آلة التصوير أن تلتقط صورا في الظلام اذا وجدت انواع معينة من التموجات الكهرومغناطيسية . ورغم عدم قدرتنا على رؤيتها فانها تكون صورا على اللوح الحساس

تجريدات العلم :

يقول الدكتور جون كيمنى عن اتجاه العلم الى التجريد :

(ان القول « هذا السائل ازرق اللون » هو تقرير حسي وكلمتا « سائل » و « أزرق » تعبيران حسيان ايضا .

وأما القول بأن « الهيدروجين يتحد مع الاوكسجين ليشكل الماء فهو تجريد من مرتبة دنيا ، ذلك لان كلمة « هيدروجين » لا تشكل تعبيرا حسيا لان المشاهدة وحدها لا تكفي للدلالة عما اذا كان غاز معين هو بالفعل غاز الهيدروجين غير انه ليس من العسير على الرغم من ذلك ، أن تعتمد تعريفا حسيا على شكل اجراء الاختبار الكيميائي العادي لغاز الهيدروجين » .

أما القول بأن « ذرات الهيدروجين تحتوي على كهيرب واحد » فيشكل نظرية أكثر تجريدية من الاقوال السابقة ومن المحال أن تتمكن من التقدم بتعريف حسي لكلمة « ذرة » وكلمة « كهيرب »

وعليه نجد انفسنا نواجه تدرجا في المفاهيم على قدر متزايد في التجريد أما تبرير الوجود لكل من هذه المفاهيم فيكمن في فائدتها لتشكيل النظريات البسيطة)

يقول فريتز هيزنبرج :

(هل يستطيع العلم أن يدعي انه يقود الى تفهم للطبيعة ؟

لقد حاولت أن أبين كيف أن الفيزيقا والكيمياء ـ تدفعهما قوة

لا نكاد نعرفها ـ قد تطورتا باستمرار فى اتجاه التحليل الرياضى للطبيعة على هدى مبدأ التوحيد ولقد تناقضت فى نفس الوقت ادعاءات علمنا بتفهم الطبيعة ـ بالمعنى الاصلى لهذه الكلمة .)

ويبين الدكتور هرمان راندال لنا كيف أن العلم لم يعد ماديا فيقول :

(ان الطاقة اصبحت فى هذه الايام أكثر اساسية من « المادة » وعلى ذلك فان علمنا لم يعد اليوم علما « ماديا » اذا اردنا الدقة فى التعبير وليس لقوانين الحركة الآلية من الشمول مثل مالسلوك حقل الاشعاع .)

بل قد لا تكون هذه القوانين سوى مجرد شكل خاص لذلك السلوك . وتيجة هذا أن علمنا اليوم لم يعد علما (آليا) كعلم نيوتن . .)

ويقول برتراندرسل :

(نحن لا ندرك دائما كم هى مسرفة فى التجريد تلك المعلومات التى تقدمها لنا الفيزياء النظرية . فهى تقيم معادلات اساسية ، تتيح لها أن تتناول بناء الحوادث المنطقى ، بينما تدع ماهية الطبيعة الذاتية للحوادث التى تتصف بذلك البناء .. مجهولة كل الجهل .

فنحن لا نعرف طبيعة الحوادث الذاتية الا عندما تحدث لنا . وليس فى الفيزياء النظرية على الاطلاق ما يتيح لنا أن نقول أى شىء عن طبيعة الحوادث الذاتية فى غير ذلك المجال .

فهى قد تكون مشابهة لما يقع لنا من حوادث ، وقد تكون مختلفة عنها كل الاختلاف على انحاء لا يمكننا أن نتخيلها مطلقا .

وكل ما تتيحه لنا الفيزياء لا يعدو بعض المعادلات التى تقدم لنا بعض ما تتصف به تغيرات الحوادث من خواص .

أما ما هى هذه التغيرات ، ومن والى أى شىء تتغير ، فان الفيزياء لا تحير جوابا .)

وهكذا يتضح لنا التحول العجيب الذى قادته الفيزياء المعاصرة فى مفهوم المادة :

يقول الأستاذ عباس العقاد :

(كانت فضيلة المادة عند الماديين انها تقوم على الحقائق والوقائع لا على الظنون والأوهام .

فهى عندهم حقيقة الحقائق الثابتة التى لا يعتريها الشك لأنها محسوسة ملموسة محصورة فى مكان محدد : يخبط احدهم على المائدة بيده أو يضرب الأرض بقدمه ويقول لمن يجادله : هذه هى الحقيقة التى ألمسها بيدى وقدمى أو أراها بعينى .

ثم حدثت فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حوادث علمية غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون .

فقد عرف الكيميون قبل ذلك أن عناصر المادة أكثر من اربعة وانها ليست محصورة فى النار والتراب والهواء والماء .

ثم تقدمت معرفتهم بالمادة حتى أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل فى الثبوت والحقيقة .

فاللون من الشعاع والشعاع هزات فى الأثير .

والوزن جاذبية والجاذبية فرض من الفروض .

والجرم نفسه متوقف على الشحنة الكهربية وعلى سرعةالجسم فى الحركة ونصيبه من الحرارة .

والحرارة ما هى ؟ حركة . والحركة فى أى شيء ؟ فى الأثير .

والأثير ما هو ؟ فضاء ، أو كالفضاء ، وكل وصف اطلقته على الفضاء فهو بعدذلك مطابق لأوصاف الأثير .

حتى الصلابة التى تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال .

فهذه الصخرة القوة صلبة جامدة يضربها الضارب بيده فترده فيقول : نعم هذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها . فماذا لو كانت يده أقوى ألف مرة من يد الانسان القوى بالعضل والعصب ؟

ان حقيقة الصخرة تفقد تحت

يده برهانها فلا يحسه ، أو يحسه ولا يتحدث عنه كما يتحدث عن الحقائق ..

وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة اخرى فاذا المادة كلها كهارب وذرات . واذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور . هل هذا الشعاع موجات ؟ أو هذا جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك فهذا وذاك فى ميزان « التجربة » سواء)

ويقول الأستاذ فانيفاربوش عن تمرد العلم على المحسوسات :

(يذكرنا العلم على الدوام بأننا مازلنا جهلاء ، وأنه مازال امامنا الكثير مما تعلمه فالزمان والمكان متشابكان بأشكال غريبة وليس هناك زمن مطلق أو مكان مطلق .

وفى داخل الذرة تحدث ظواهر لا يجدى حيالها التخيل ، ولا تنفع الحواس التى ترشدنا فى خبراتنا اليومية ، ولكنها تستسلم للمعادلات التى لا معنى لها سوى انها تؤدى عملها على مايرام .

والكتلة والطاقة تتحول كل منهما الى الأخرى .

والجاذبية الصخرة الصماء التى شيدها نيوتن ، قد لا تكون الا مجرد خاصية من خواص الكون والحياة ، كما تتكشف لنا تفاصيلها، تصبح اكثر دقة وتعقيدا ، وتزيد حيرتنا يوما بعد يوم فيما اذا كانت وظائفها المذهلة ــ قد نشأت بمحض الصدفة أو بحكم الزمن .)

وهكذا أخذ العلم التجريبى يدفع الفكر الانسانى مرة أخرى ناحية الخيال .. وهذا ما جعل آرثر كوستلر يقول :

(أن علماء الفيزياء النظريين يدركون تماما الطبيعة السريالية للعالم الذى خلقوه ولكنه فى الوقت نفسه عالم ينطوى على قدر هائل من الغموض) .

وبالله التوفيق .

د. يحيى هاشم

سعيد بن المسيب "القدوة والمثل"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلي القرني

ما زالت قصص الصالحين مددا زاخرا يفيض بالخير ويمد بالبركة ، ويتزود منه الناس في مختلف عصورهم الزاد الذي يعينهم على مشقة الحياة وكدر الزمان وغلبة الهوى وفتنة التسلط .

ومن القصص ما يوحي بعظمة صاحبه في ناحية من النواحي ، ومنه ما يوحي بالعظمة في جميع جوانبها ، واننا لنقرأ تاريخ أسلافنا الصالحين رضوان الله عليهم ، فنحسب أنهم ليسوا من هذه الطينة التي خلق منها الخلق ، فهم نماذج عليا من الكمال الانساني الذي يشع منه الخير والفضيلة في شتى صورهما . ولو ذهبنا نقيسهم بمقياس زماننا المادي لرأينا عجبا وربما أساء الكثير منا الحكم عليهم لأننا نرى الدنيا بمنظار النفعية والمادية والأنانية والمصلحة الخاصة والكسب القريب ، فما من أحد يرتفع عن هذه المعايير — في وهمنا القاصر — الا انسان اختل طبعه أو انحرف ذوقه .

هل يعتبر ناس هذه الأيام من يحيي ليله قائما أو مفكرا أو من يقضي حياته صائما ومن يقرأ القرآن كله في يومه ومن يصدف عن باب الشهرة والسلطة انسانا سويا عاقلا ؟ انهم يقولون عنه ما يقولون . ويصفونه بالغفلة والشذوذ ويصمونه بالتهور والجنون .

❋ ❋ ❋

ولقد كان جل أسلافنا من الصالحين من هذا الصنف الذي ترك الدنيا لأبنائها يتنازعون عليها ورموا بقصدهم الى الله فتصرفاتهم تصرفات ملائكة تمشي على الأرض، ولكنها تصرفات ذلك الزمان الغابر الذي عاشت فيه المثل وحييت في

وجدان الناس فالمستغرب هو النقص لا الكمال .

اقرءوا معى هذه القصة واعجبوا

روى ابن خلكان فى تاريخه عن سيرة سعيد بن المسيب :

قال أبووداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدنى أياما . فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلى فاشتغلت بها . فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ؟

قال : ثم أردت أن أقوم فقال : هل أحدثت امرأة غيرها ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجنى وما أملك الا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : ان أنا فعلت تفعل ؟ قلت : نعم . ثم حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وزوجنى على درهمين أو قال على ثلاثة .

قال : فقمت ، وما أدرى ما أصنع من الفرح ، فصرت الى منزلى جعلت أتفكر : ممن آخذ وأستدين

وصليت المغرب ــ وكنت صائماً ــ فقدمت عشائى لأفطر ــ وكان خبزا وزيتا ، واذا بالباب يقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، ففكرت فى كل انسان اسمه سعيد الا سعيد ابن المسيب ، فانه لم يُرَ منذأربعين سنة الا بين بيته والمسجد ، فقمت وخرجت ، واذا بسعيد بن المسيب ، فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد ، هلا أرسلت الى فآتيك ؟ قال : لا أنت أحق أن تؤتى ؟

قلت : فما تأمرنى ؟ قال : رأيتك رجلا عزبا وتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك وهذه امرأتك ، فاذا هى قائمة خلفه فى طوله ، ثم دفعها فى الباب ، ورد الباب ، فسقطت المرأة من الحياء .

فاستوثقت من الباب ، ثم صعدت الى السطح فناديت الجيران ، فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ فقلت : زوجنى سعيد بن المسيب ابنته وقد جاء بها على غفلة منى ، وهاهى فى الدار ؟ فنزلوا اليها ، وبلغ أمى الخبر ، فجاءت ، وقالت : وجهى من وجهك حرام ان مستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام ..

ثم اذا هى من أجمل الناس وجها وأحفظهم لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتيني ولا آتيه ، ثم أتيته وهو في حلقته ، فسلمت عليه فرد علي ولم يكلمني حتى انفض من في المسجد ، فلما لم يبق غيري قال : ما حال ذلك الانسان ؟ قلت : هو على ما يحب الصديق ويكره العدو . قال : ان رابك شيء فالقضاء ؟

فانصرفت الى منزلي . وكانت بنت سعيد هذه قد خطبها عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبدالملك يحتال على سعيد حتى ضربه في يوم بارد وصب عليه الماء .

❊ ❊ ❊

فانظر ماذا في هذه القصة من مثل كريمة ترتفع بأصحابها عن مقياس عالمنا الذي نعيش في أرجائه اليوم ؟ فسعيد بن المسيب يرفض مصاهرة ذوي المال والسلطان والنفوذ والشهرة ، ويزوج الفقير البائس المسكين على درهمين أو ثلاثة ، ولكن لنا أن نقول : انه أحسن الاختيار فقد اختار الصلاح على الفساد ، واختار الآخرة على الدنيا واختار الاستقرار والهدوء على التهدد ، لقد رأى ببصيرته الثاقبة ، ما يصلح لدينه ودين ابنته وما هو خير لهما في عاقبة أمرهما ، فاختار أبا وداعة على الوليد بن عبد الملك .

ولكن الناس يقولون في عصرنا الآن بلسان المادة عمن يتأسى بسعيد بن المسيب ما يقولون !؟

على أنه في القصة جوانب أخرى لا تغفل ، فلم يكتف سعيد بأن يزوج ابنته لأبي وداعة الفقير حتى يسرع بأن يزفها اليه بنفسه ، وابنته هذه ليست عبئا عليه ولكنها حسيبة جميلة صالحة حافظة للقرآن عارفة بالسنة ، وهي ان انتسبت الى أسرتها فهي قرشية مخزومية ، وان انتسبت الى أبيها فهو أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وأحد علمائها المعدودين وأئمتها المجتهدين . وحسبك في هذا أن عبد الملك بن مروان كان حريصا على مصاهرته أولا ، وعلى الظفر بالموافقة على مبايعة ابنيه الوليد وسليمان ثانيا ، لما يعرفه من منزلته الرفيعة بين عامة المسلمين وخاصتهم ..

وفي تصرف أبي وداعة مثل عليا ، فلم يقبل أن تزف عروسه اليه سرآ

وقد عرف الناس عنه وفاة زوجه ، بل أعلم جيرانه بأن سعيد بن المسيب زوجه ابنته وزفها اليه ، درء الشبهة وقطعا لألسنة السوء ، وفى ذلك تطبيق لما رواه الامام مسلم عن أنس رضى الله عنه ، من أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مع احدى نسائه ، فمر به رجل فدعاه فجاء ، فقال : يا فلان ، هذه زوجتى فلانة، فقال : يا رسول الله ، ان كنت أظن به فلم أكن أظن بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الشيطان يجرى فى الانسان مجرى الدم .

* * *

بقى أن نعلم أن سعيد بن المسيب ـ كما جاء فى طبقات بن سعد ـ كان أعلم أهل زمانه ، وأنه قال : ما بقى أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر وعمر منى . قال سعد : وأحسبه قال : وعثمان ومعاوية .

ولقد أخذ سعيد علمه عن زيد بن ثابت وسعد بن أبى وقاص وابن عباس وابن عمر ، وعن بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ومنهن عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ، كما سمع عن عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وصهيب ومحمد بن مسلمة رضى الله عنهم . وجل روايته المسندة عن أبى هريرة وكان زوج ابنته .

ولقد شهد له أجلاء التابعين ، فقال مكحول عنه : سعيد بن المسيب عالم العلماء ، وكان عمر بن عبد العزيز لا يقضى بقضاء حتى يسأل سعيد بن المسيب ، وكان عمر يجله ، ولقد أرسل اليه انسانا يسأله فدعاه فجاءه حتى دخل . فقال عمر : أخطأ الرسول انما أرسلناه يسألك فى مجلسك ، كان هذا فى أثناء ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة .

ولئن كان سلوك سعيد بن المسيب مع أبى وداعة مضرب مثل فسلوكه مع عامل المدينة حين ضربه وسجنه لاكراهه على البيعة لابنى عبد الملك أعجب وأمثل !؟

ولقد ضرب ستين سوطا قبل ذلك على يد جابر بن الأسود بن عوف الزهرى والى المدينة من قبل عبد الله بن الزبير لأنه رفض البيعة لابن الزبير حتى يجتمع أمر الناس.

وقد لام ابن الزبير عامله على ذلك
فلما جاء عبد الملك وولى هشام ابن اسماعيل المدينة وطلب البيعة لولديه رفض سعيد بن المسيب الاسراع فى البيعة وطلب أن ينظر فضربه الوالى ستين سوطا ، ووضعه فى السجن ، ولكن ذلك لم يلنه ولم يجعله يغير رأيه .

وفى سجنه صنعت ابنته طعاما له ووسعت فيه . قال أسلم أبوأمية مولى بنى مخزوم : فلما جاءه الطعام دعانى سعيد فقال : اذهب الى ابنتى فقل لها : لا تعودى لمثل هذا أبدا ، فهذه حاجة هشام بن اسماعيل ، يريد أن يذهب مالى فأحتاج الى ما فى أيديهم ، وأنا لا أدرى ما أحبس — كم أحبس — فانظرى الى القوت الذى كنت آكل فى بيتى فابعثى الى به ، فكانت تبعث اليه بذلك وكان يصوم الدهر ويفطر فى أيام العيدين وأيام التشريق .

* * *

انه لم يرض أن يذل نفسه لهؤلاء ولم يرد أن يتعرض لاحتياجه اليهم . قال عمران بن عبد الله الخزاعى : انى أرى أن نفس سعيد ابن المسيب كانت أهون عليه فى ذات الله من نفس ذباب .

وفى صبره على آلام سجنه وتعذيبه فى سبيل كلمة حق واعتناق مبدأ وحرية رأى مثل وأى مثل ، ولكن المثل الرائع يؤخذ من هذه القصة :

قال رجل من آل عمر : قيل لسعيد بن المسيب : ادع على بنى أمية ، فقال : اللهم أعز دينك وأظهر أولياءك وأخز أعداءك فى عافية لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقد كان فى دعائه حريصا على اعزاز الدين ونصر الاسلام وأمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يفكر فى أن يكون دعاؤه على من ظلمه اقتصاصا لنفسه .

ولقد بلغ من أنفته لله أنه كان يدعى ليأخذ عطاءه من بيت المال فيأبى ويقول : لا حاجة لى فى ذلك حتى يحكم الله بينى وبين بنى مروان .

وكان سعيد بن المسيب يرى الاعتزاز بالعلم ويأبى أن يهينه أو يدنسه بالجرى فى ركاب الحكام ، والقصة الآتية تدل على ذلك :

حدث ابن مهـران قائلا : قـدم عبد الملك بن مروان المدينة فامتنعت منه القائلة واستيقظ فقال لحاجبه : انظر هل فى المسجد أحد من حداثنا من أهل المدينة ؟

قال :فخرج فاذا سعيد بن المسيب فى حلقة له ، فقام حيث ينظر اليه ، ثم غمزه وأشار اليه باصبعه ثم ولى، فلم يتحرك سعيد ولم يتبعه ، فقال : أراه فطن ؟ فجاء فدنا منه ثم غمزه وأشار اليه وقال : ألم ترنى أشير اليك ؟ قال : وما حاجتك ؟

قال : استيقظ أمير المـؤمنين فقال : انظر فى المسـجد أحدا من حداثى فأجب أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد أرسلك الى ؟ قال : لا ، ولكن قال : اذهب فانظر بعض حداثنـا من أهل المدينة فلم أر أحدا أهيأ منك . فقال سعيد : اذهب فأعلمه بأنى لست من حداثه .

فخرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ الا مجنونا ، فأتى عبد الملك فقال له : ما وجدت فى المسجد الا شيخا أشرت اليه فلم يقم فقلت له : ان أمير المـؤمنين قال : انظر هل ترى فى المسـجد أحدا من حداثى ؟ فقال : انى لست من حداث أمير المؤمنين وقال لى : أعلمه . فقال عبد الملك : هذا سعيد بن المسيب فدعه .



ومن المثل التى نستفيدها من حياة ابن المسيب حرصه على الجماعة ، ولقد عذب فى سبيل الجماعة فما افتتن ، وكان ضربه أيام ابن الزبير لأنه قال : حتى يجتمع الناس ، وكان ضربه فى أيام عبد الملك لأنه أراد أن ينتظر اجتماع الناس على البيعـة حتى لا تنشق كلمة المسلمين ؟!

ولحرصـه على الجماعة رفض مفارقة المدينة ، ورفض مفارقـة المسجد ، قال ميمون بن مهران : بلغنى ان سعيد بن المسـيب عمر أربعين سنة لم يأت المسجد فيجد أهله قد استقبلوه خارجين منه قد قضوا صلاتهم ، ومن أقوال سـعيد فى ذلك : ان الشيطان مع الشاذ وهو من الاثنين أبعد .



ولقد اشـتكى عينه فقيل له : لو خرجت يا أبا محمد الى العقيق فنظرت الى الخضرة لوجدت لذلك خفة ، قال : فكيف بشهود العتمة والصبح ؟

وفى أيام موقعة الحرة لزم الناس بيوتهم ولم يشهدوا الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة غير سعيد بن المسيب . قال سعيد : لقد رأيتنى ليالى الحرة وما فى المسجد أحد من خلق الله غيرى ، وان أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون : انظروا الى هذا الشيخ المجنون ، وما يأتى وقت صلاة الا سمعت أذانا فى القبر — قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تقدمت فأقمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

ولزومه المسجد فى موقعة الحرة اعتصام من هذه الفتنة التى لفح أوارها الناس جميعا ، وكان سببها أن أهل المدينة ثاروا على عامل يزيد بن معاوية وهو عثمان بن محمد بن أبى سفيان وعلى مروان بن الحكم وغيرهما من بنى أمية بعد مقتل الامام الحسين رضى الله عنه وبعد أن شاع كثير من الجور والفساد ، فسيّر اليهم يزيد جيشا من الشام على رأسه مسلم بن عقبة فحاصر المدينة ونهبها وقتل كثيرا من أهلها .. والحرة : مكان قريب من المدينة .

وكان لا يحب الخوض فى سيرة أحد ، وينهى من يخوض فى ذلك .

حدث على بن زيد قال : قال لى سعيد بن المسيب : قل لقائدك يقوم فينظر الى وجه هذا الرجل والى جسده ، قال فانطلق فنظر فاذا رجل أسود الوجه فجاء فقال : رأيت وجه زنجي وجسده أبيض ، فقال : هذا سب هؤلاء الرهط .. طلحة والزبير وعليا ، فنهيته فأبى ، فدعوت عليه بقولى : ان كنت كاذبا فسود الله وجهك ، فخرجت بوجهه قرحة فاسود وجهه .

* * *

وليس غريبا على رجل كسعيد بن المسيب أن ينور الله قلبه وطريقه على الرغم من المرض الذى أصاب عينيه فى آخر حياته ، فقد حدث ابن حرملة قال : أدرك سعيد بن المسيب رجلا من قريش ومعه مصباح فى ليلة مطيرة ، فسلم عليه وقال : كيف أمسيت يا أبا محمد ؟ قال : أحمد الله ، فلما بلغ الرجل منزله دخل وقال : نبعث معك بالمصباح ، قال : لا حاجة لى بنورك ، نور الله أحب الى من نورك .

ولقد عرف عن ابن المسيب أنه كان يبالغ فى ستر عورات الناس — وهذه مروءة تفتقدها اليوم — قال ابن حرملة : خرجت الى الصبح فوجدت سكران فلم أزل أجره حتى أدخلته منزلى ، فلقيت سعيد بن المسيب فقلت : لو أن رجلا وجد سكران أيدفعه الى السلطان فيقيم عليه الحد ؟ فقال لى : ان استطعت أن تستره بثوبك فافعل . فرجعت اليه فاذا به قد آفاق ، فلما رآنى عرفت فيه الحياء ، فقلت له : أما تستحى ؟ لو أخذت البارحة لحددت فكنت فى الناس مثل الميت لا تجوز لك شهادة ، فقال : والله لا أعود أبدا !؟ قال ابن حرملة : فرأيته قد حسنت حالته بعد .

هذه مثل نهديها الى أنفسنا فى هذا الزمن الذى نعيش فيه لندرك من خلالها مدى الهوة العميقة التى تردينا فيها وكيف انتهت بنا الدنيا الى هذا البوار الذى وصلنا اليه ، لاوجه للمقارنة بين حال أولئك الذين يمثلهم سعيد بن المسيب وبين حالنا التى أصبحت مسخا مشوها ، لا وجه للجمال فيه !

ان زينة العلم العمل به ، وزينة المسلم كرامته ، وزينة المؤمن صدقه .. اللهم اجعلنا ممن يصدقون فى أقوالهم وأفعالهم وممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

فضل الحلم

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب الحليم الحيى ويبغض الفاحش البذى »

وقال بعض الشعراء :

احب مكارم الاخلاق جهدى
واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلما
وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه
ومن حقر الرجال فلن يهابا

التوجيه الإسلامي لعلم النفس

للدكتور فؤاد أبوحطب

(٢) بناء علم نفس اسلامى « صوفى » :

— ٢ —

أما الاتجاه الثانى فيحاول بناء علم نفس اسلامى فى اطار المصطلحات والرموز الصوفية وحدها .. ومن أكثر المؤلفات انتماء الى هذا الاتجاه .. كتاب نقدى حديث ، للدكتور حسن الشرقاوى (١٤) .

وهذا الاتجاه على ارتباط بالاتجاه الأول ، فقد أشار مؤرخو علم النفس الدينى (٦٤) الى أن الصوفيين فى مختلف العصور ، ومن مختلف الديانات هم اسلاف سيكولوجية الدين بالمعنى الحديث .

والتصوف فى جوهره نزعة « روحية » تسعى الى الوصول الى الله ، وفى سبيل ذلك اهتم المتصوفة المسلمون بتحليل النفس البشرية تحليلا عميقا ، وشرحوا آداب المريد فى علاقته بالشيخ ، وما يجب أن يتحلى به من الخصال السامية (كالصدق والاخلاص والقناعة والزهد) .

ورسموا لهذا المريد وسائل النجاة (مثل التوبة والندم والتقوى والورع والصمت والتأمل والخلوة والاعتكاف) .

وتحدثوا عن أحوال النفس ومقاماتها مثل : (العشق ، والشوق ، والخوف ، والرجاء ، والغيبة ، والحضور والفناء ، والبقاء ..) .

والواقع أن الاتجاه الصوفى فى الاسلام — كنزعة روحية متطرفة — قد لا يتفق مع خاصية « التوازن » فيه ، والتى تشمل جميع جوانبه ، سواء فى الاعتقاد

والتصور ، أو التعبد والتنسك ، أو الأخلاق والآداب ، أو التشريع والنظـام ، وحسبنا فيما تتحـدث عنه .. أن نشير الى التوازن فى الاسلام ، بين الروحية ، والمادية ، وبين مطالب الدنيا والآخرة ، وفى المؤلفات المتخصصة .. اشـارات كثيـرة الى ذلـك (٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٠) .

(٣) الدراسـات النفسـية فى تراث العلماء المسلمين :

يوجد اتجاه ثالث بين الـكتاب المسلمين فى علم النفس يتمثل فى اعادة قراءة التراث العربى فى فنون التأليف والترجمة المختلفة وخاصـة ما يرتبط منها بموضوعات علم النفس الحديث . ونحن نستخدم كلمة « التراث » بمعناهـا الذى أشار اليه عبد السلام هـارون (٣٥ : ٥) أى « كل ما خلفه مؤلف من انتاج فكرى بعد حياته » فالتراث هنا هو انتاج العلمـاء والمفكرين والمصنفين المسلميـن على مـر العصور .

ـ واقدم نماذج هذا الاتجاه مافعله المتخصصون فى الفلسفة الاسلامية حين حققت مخطـوطات فلاسفة المسلمين مع حركة احياء التراث فى العصر الحـديث ، ومـن ذلك مؤلفات : الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وابن باجـة ، وابن طفيل ، وابن رشد .

ـ وكان ابن سينا أكثر هـؤلاء اهتماما بالمسائل التى تعد « نفسية » بالمعنى الحديث ، ولذلك نجد أحد رواد « الجيل الثانى فى علم النفس فى مصر .. وهو الدكتور محمـد عثمان نجاتى ، يهتم بمسألة الادراك الحسى عند ابن سينا من منظـور سيكولوجى معاصر (٤٧) كما يهتم الأهوانى (٣) ببعض المسائل النفسية عند ابن سينا أيضا ، وخاصة فكرة « الشعور » وموضوع الصلة بين النفس والبدن ، والمسألة الأخيرة خاصة لها تاريخ طويل فى الفلسفة، واهتم بها الفارابى قبل ابن سينا ، وقد أثرت فى تطور علم النفس ، وسوف نعرض لها فيما بعد .

أما رسالة حي بن يقظان لابن طفيل فقد اهتم بها : الدكتور عبد الحميد الهاشمي (٢٤) وأعاد قراءتها في اطار سيكولوجية النمو والتعلم •

ولا زلنا في حاجة الى اعادة قراءة آراء أهل المدينة الفاضلة « للفارابي » في حدود علم النفس الاجتماعي ، و « اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » لابن قيم الجوزيه فيإطار علم النفس المرضي والاكلينيكي ــ و « المقايسات»لأبي حيان التوحيدي في ضوء علم النفس التجريبي •

ــ الا أننا يجب أن ننبه الىأن هذا « التراث الفلسفي » يجب أن نلتزم ازاءه باطار نقدي حين نعيد قراءته سيكولوجيا واسلاميا ، وخاصة اذا علمنا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة قد تأثر بأرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ، ولذلك قد تجد فيما يكتبون أثرا لما يمكن أن يسمى « علم نفس يوناني » يتصل بنظرة فلاسفة اليونان هؤلاء الى الانسان والكون ، والتي لا تمت بصلة الى التصور الاسلامي •

ــ وقد يصدق ما قلناه هنا على الاتجاه « الصوفي » أيضا ــ الذي قد يعد من فئة هذا الاتجاه التراثي ــ وخاصة اذا علمنا أنه توجد مؤثرات خارجية عديدة أثرت في التصرف الاسلامي •• مثل الرهبنة المسيحية ، والبرهمية الهندية ، والمانوية الفارسية ، ــ وكلها تختلف عن خصائص التصور الاسلامي للكون ، والانسان •

ــ وقد يكون حجةالاسلام الامام الغزالي استثناء من هذا كله ، فقد كان الرجل من أعظم الفقهاء ، والفلاسفة والمتكلمين ، والمعلمين ، والصوفية ــ الا أنه التزم في جميع الأحوال باطار نقدي جعله ــ في تاريخ الفكر الاسلامي ــ مؤسس أول نسق اسلامي متكامل لعلم النفس (٣٠ : ٤) ، ولذلك فان الدراسة التي أجراها عبد الكريم عند الغزالي ، لا بد أن تحتل مكانة العثمان •• عنالفكر السيكولوجي خاصة في أي جهد جديد ، يبذل لاعادة توجيه علم النفس وجهة اسلامية •

ـ وتوجد محاولاتأخرى تنتمى الى هذا الاتجاه التراثى ذات صيغة مختلفة ـ وتتمثل فى اعادة قراءة التراث العربى فى فنـون الأدب والتربية وغيرهما ، وانتقاء ما يتصل منه بموضـــوعات علم النفس ، ومجالاته ، والربط بين ما يتضمنه من مصطلحات ومفاهيم ومبـادىء من ناحية ـ وما يهتم به علم النفس الحديث من ناحية أخرى •

ـ ومن بين هذه المحاولات •• تشير الى محاولتين مهمتين (*) :

قام بأولاهما : الدكتور محمـد خلف الله أحمد عام ١٩٤٠ م (٤٤) فى قـراءاته السيكولوجية لكتاب الأذكياء لابن الجـوزى ، والتى حاول فيها أن يوائم بين تصـور الذكاء : عند ابن الجوزى ، ومفهوم الذكاء : عند كل •• من بينيـه ، وسبيرمان •

أما المحاولة الثانية : فهى أكثر حداثة وشمولا ، وهى التى قام بها الدكتور سيد أحمد عثمان (١٩) فى قراءته السيكولوجية أيضا لكتاب « تعليم المتعلـم طـريق التعلم » لبرهان الدين الـزرنوجى ، والتى سعى بها أن يكتشف العناصر التى يتألف منها نسق المتعلم ـ التعليم عنده فى هـــذا الكتاب ، وربطها بمفـاهيم سـيكولوجية التعلـم الحديثة ، والكشف فيه عن مفاهيم ومبادىء سيكولوجيـة ذات صبغة اســلامية تحتاج الى مزيد من البحث ـ ومنها : مفهوم النيـة ، ومبدأ العلاقة بين الخلق والتكوين الخلقى أو القيمى والتعلم ،وتصنيف الدوافع تصنيفا جديدا ، والاتجاه « الاسـلامى الانسـانى » الذى يجعل المتعلم مركز النشاطالتعليمى وغير ذلك من المفاهيم والمبادىء •

(*) توجد محاولة ثالثة قام بها الدكتور احمد فؤاد الأهوانى (٤) فى تحقيقه ونشره للرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين للقـابسى ، ورسالة « آداب المعلمين » لابن سحنون ، الا ان تناول الأهـوانى لهـاتين الرسالتين غلبت عليه المسحة « التـربوية » على الرغم من بعض الاشارات المتكررة الى مفاهيم سيكولوجية التعلم •

وبالاضافة الى ذلك اهتم الدكتور سيد أحمد عثمان ــ خاصة ــ بسبق الزرنوجى فى آرائه عن التكرار ، والحفظ ، والنسيان ، والتى أعاد «اينجاوس» اكتشافها فى القرن التاسع عشر •

ــ والجهد الذى يبذله أصحاب هذا الاتجاه ، جهد حميد لا شك ، ففيه الغيرة والحماسة : للفكر العربى والاسلامى ، كما فيه التفتح على اهتمامات علم النفس ، الا اننا نرى : أن هذه الحركة تحتاج الى جهد كبير لتنظيم نتائجها الجزئية فى اطار كلى ، والا تراكمت المصطلحات والمفاهيم ، والمبادىء والأفكار : تراكما يصل بنا الى حد العجز عن التنظيم والفهم ، هذا الاطار الكلى هو ما نسميه « التوجيه الاسلامى لعلم النفس الحديث » •

نحو توجيه اسلامى لعلم النفس الحديث :

من عرضنا فى القسمين السابقين يتبين لنا أن علم النفس الحديث ــ كما قال عنه مؤرخوه ــ له « تاريخ » قصير ، و « ماض » طويل ، ويمتد ماضيه كغيره من العلوم الطبيعية والاجتماعية ــ الى حضارة الاسلام ، أى انه ليس وليد حضارة الغرب الحديثة ، وبالتالى : يجب أن يصنف فى قائمة ما يجب أن ينبذ منها ، كما يرى ويلح عليه بعض الكتاب •• صحيح أنه أحرز ــ كغيره من ميادين المعرفة ــ تقدما هائلا فى الغرب خلال القرن الذى انقضى منذ نشأته الرسمية ، كعلم تجريبى أكاديمى عام ١٨٧٩م وأعظم انجازاته : هو ما يتم فى وقتنا الحاضر خلال الربع الأخير من القرن الميلادى الحالى ، الا أن ذلك لا يجعله من مبتكرات الغرب ، ومستحدثاته •

ــ والأزمة الحقيقية التى يواجهها علم النفس الحديث ــ فى ضوء التشخيص الاسلامى ــ هى أزمة المعرفة كلها فى حضارة الغرب ، والتى يمكن أن نلخصها فى عدم التوازن المعرفى •

فالتقدم والانجاز يعوزه الترشيد ، حتى صار الخلل سمة العصر سواء من الوجهة الاقتصادية أو السياسية

أو الاجتماعية ، ثم من الوجهــة المعرفية ، ولعل من أعظم صــور الخلل « المعرفى » ـ بالرغم من انفجار المعلومات ـ ما يسميــه أوبنهــايمر (٦٦) صراع العلم والثقافة ، وما يسمى أحيـانا فى بلادنا الاسلامية صراع العلم والدين ، وما يسمى فى صورة أكثر حـداثة « تقــدم التكنــولوجيا وتخلف « الايديولوجيا » .

ـ والازمة بالطبع ـ أعم من نطاق علم النفس ، فهى تشمل ميدان المعرفة كله لتصبح أزمــة ابستمولوجية . ومن هنا تأتى حاجتنا الى التوجيه الاسلامى للمعرفة ، ولايتسع المقام لتفصيل هذه المسألة ، وقد يتـاح لنا الكتابة فيها فى حدود ما يمكن ان نسميه نحو فلاســفة اسـلامية للعلم ، ولذلك ســوف نقتصر على تناول هذا الأمر بصورة مجملة وفى اطار سيكولوجى ما استطعنا تحقيقا لاهداف الندوة الحالية .

ـ ولا شــك فى أن التوجيــه الاسلامى لعلم النفس ـ على ضوء ما بينا : لا يمكن أن يكون جهد فرد أو عدة أفراد ، كما لا يمــكن أن يكون جهدا تطوعيا اختياريـا تحكمه المصادفات ، وانما لا بد أن تتوافر عليه العصبة أولو القوة التى يلم افرادها بالموضوعين الماما واسعا . فالمتخصص فى علم النفس الذى يتناول هذا الموضوع لا يجب أن يقتصر على ذخيرته من المعرفة فى علم النفس ، وانمـا عليـه أن يلم الماما دقيقا بخصائص الاسلام عقيدة وشريعة ومنهجا ومذهبا ونظـاما ، وهو جهد يتطلب منه أن يتوافـر عليه لسنوات طويلة للتعـرف على بعض جوانبه . ومثـل هذا يجب أن يقال على رجال الدين الذيـن يتناولون المسائل النفسية من وجهة نظر الاسلام ـ أى ان الأمر يتطلب ما يسميه الدكتور عمر خليفة من وجهة نظر علم الاجتماع الحديث « توزيع العمـل فى الدراســة العلمية » (٣٢) .

ـ وفى حدود ماأتيح لنا من الوقت يمكن أن نعرض فيمـا يلى بعض الأسس العامة لما نسميه التوجيــه الاســلامى لعلم النفس ، عارضين بايجاز وعمــومية لبعض المســائل

الابستمولوجية التى تحتاج لمزيد من التفصيل ، كما بينا .

(١) دراسة النفس تكليف قرآنى :

ـ اذا كان القرآن الكريم دعوة صريحة لتأمل الكون فانه بنفس القدر دعوة مباشرة لتأمل النفس ـ وفى ذلك يقول الله تعالى :

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » (الروم : ٨) .

« خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم » (التغابن : ٣) .

« سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) .

« وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون » . (الذاريات : ٢٠ ، ٢١) .

ـ وهكذا نجد أن دراسة النفس وتأملها تكليف مباشر فى القرآن الكريم .

(٢) الهدف الأعظم من هذه الدراسة التعرف على آيات الله :

ـ هذه الدراسة للنفس الانسانية هدفها الأعظم التعرف على آيات الله فى خلق الانسان ـ كما أن هدف دراسة العلوم الطبيعية التعرف على آيات الله فى خلق الكون . وآيات الله : هى علامات قدرته فى خلقه وبهذا يصبح العلم كله تسبيحا لله ـ وهذا الهدف العظيم واضح بذاته فى الآيات القرآنية التى أشرنا اليها .

(٣) الاعجاز العلمى للقرآن الكريم :

واذا كان الله تعالى قد عبر عن علامات قدرته فى خلق الكون والانسان بأنها « آيات » فانه يصف القرآن الكريم أيضا بأنه « آيات » يقول الله تعالى :

« ولقد أنزلنا اليك آيات بينات ، وما يكفر بها الا الفاسقون » (البقرة : ٩٩) .

ـ وهكذا تكون علامات قدرته سبحانه « متلوة » فى القرآن الكريم و « مجلوة » فى مخلوقاته ولذا يرى بعض المفسرين (٣١ : ٧٤) أن قوله تعالى « ما ننسخ من

آية أو ننسها نأت بخير منهـا أو مثلها » (٢ : ١٠٦) يحتمل الآية فى كتاب الله والآية فى خلقه .

وهذا الربط الوثيق بين«آيات» الله فى كتابه الخـالد وآياته فى الكون والانسان : دعا أحد الكتاب المعاصرين (٣١ : ٧) الى القـول بأنه : « لو كان القـرآن عالما محسوسا لكان هـذا الكون العجيب ! ولو كان الـكون كتابا متلوا لكان هـو هـذا القـرآن ، فكلاهما كتاب الله المبين وكلمـاته الكريمة » .

ـ يقول الله تعالى فى وصـف القرآن الكريم :

« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى » (الرعد : ٣١) .

ويقول الرسـول الكريم فى وصفه أيضـا ، فى حـديث طويل بأنه :

« كتاب الله

تبارك وتعالى

فيه نبأ من قبلكم

وخبر من بعدكم

وحكم ما بينكم ،

هو الفصل ليس بالهزل ،

من تركه من جبارقصمه الله ،

ومن ابتغى الهدى فى غيـره أضله الله ،

هو حبل الله المتيـن ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ،

وهو الصراط المستقيم ،

وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ،

ولا تلتبس به الألسنة ،

ولا تتشجب معه الآراء ،

ولا يشبع منه العلماء ،

ولا يمله الأتقياء ،

ولا يخلق على كثرة الرد ،

ولا تنقضى عجائبه » .

ـ ويقودنا هذا الى القول بأن من أهداف العلم عامة ـ ومنـه علم النفس ـ فى الاطار الاسلامى : أن يكون وجها من وجوه اعجـاز القرآن ، من بين وجوه اعجـازه المتعددة المتجددة .

ـ وكان السيد محمد رشيد رضا (٤٥) أول من تنبه الى العلم كأحد جوانب الاعجاز القرآنى ، الى جانب اعجازه فى ميادين الشريعة ، والفقه واللغة ، والأدب .

ـ ويتوافر ـ فى عصرنا الراهن ـ بعض الباحثين على تأمل هذا الاعجاز العلمى للقرآن ، وخاصة فى مجالات الفلك ، والفيزياء ، والأحياء .

ويهتم الشيخ محمد متولى الشعراوى (٥٢) كثيرا بهذه المسألة ، وفى رأيه : أنه اذا كان القرآن الكريم يتحدى العرب باعجازه اللغوى ، فانه يتحدى العالم بالعلم ـ وحين يصبح العلم سبيل الانسان للتعرف على آيات الله فى مخلوقاته ، فانه من خلال العلم ذاته ـ يكتشف حدوده التى لا يتعداها ـ مهما أحرز من تقدم وهذه الحدود تتمثل فى تحديين ، أشار اليهما القرآن الكريم ، وهما : تحدى الخلق ، وتحدى الغيب .

يقول الشيخ الشعراوى (٥٢) حول مسألة تحدى الخلق : « كأن الله سبحانه وتعالى يقول : اننى أنا الله أقول لكم : سأعطيكم العلم وأريكم آياتى فى الآفاق ، ولكنكم لن تخلقوا ذبابة ولو اجتمع كل علماء الأرض فى كل العصور » .

وذلك تفسيرا لقوله تعالى :

« ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له» (الحج ٧٣) .

وعن تحدى الغيب .. يقول الله تعالى عن المغيبات الخمس :

« ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » (لقمان : ٣٤) .

***

ـ ويوجد مظهر آخر من مظاهر الاعجاز العلمى للقرآن الكريم ـ كهدف للعلم ـ يتمثل فى فهم الحقائق العلمية ـ ومنها الحقائق السيكولوجية ـ التى يتضمنها كتاب الله ، وهنا يجب أن نشير الى ثلاثة أمور :

ـ أولها : أن كتاب الله ليس دائرة معارف علمية يتضمن تفاصيل حقائق العلم ، وانما ما يتضمنه منها هو على سبيل تأكيد رسالته ككتاب دعوة ، وهداية ، وارشاد ـ ولو كانت كل حقائق العلم متضمنة فيما دعانا الله سبحانه وتعالى الى مزيد من الكشف عنها .

ـ ثانيهما : يجب ألا تحمل كلمات القرآن الكريم ما لا تحتمله من معان وألا نحاول ما يفعله البعض من اقحامه فى التفاصيل الجزئية لنتائج البحوث والمخترعات .

ثالثها : دراسة السيرة النبوية ابتغاء الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا حيا يمشى على قدمين ، وكان خلقه وسلوكه القرآن .

(٤) العلم عبادة :

ـ العلم عبادة اذن : هو الذى يؤدى بالباحث الى التعرف على آيات الله فى الكون والانسان ، كما يؤدى به الى بيان جوانب متجددة من اعجاز القرآن الكريم ، وهو بهذا يقود الانسان الى الله ويصله به ، ويصبح العلم بهذا محققا للغاية من خلق الانسان التى حددها سبحانه وتعالى فى قوله :

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) .

ـ ومفهوم العبادة ـ فى الاسلام ـ لا يقتصر على الصلة بين الانسان وربه كما هو الحال فى بعض الأديان الأخرى ـ وانما تتضمن معانى أوسع نطاقا تمتد الى مختلف جوانب الحياة تحقيقا لوظيفة الانسان ، كخليقة لله فى الأرض .. وهنا تأتى قيمة العلم ، كطريق لتحقيق العبادة بهذا المعنى الشامل .. فالتعرف على آيات الله فى خلقه يؤدى ـ كما بينا ـ الى توثيق صلة الانسان بربه ـ كما يؤدى به أيضا الى معرفة خصائص هذه المخلوقات للانتفاع بها فى عمارة الكون الذى استخلف فيه .

وهكذا يصبح معنى العبادة ـ فى الاسلام ـ كما يحددها كاتب معاصر (١ : ٩٣) كما يلى :

« ان العبادة التى من أجلها خلق الانسان فى هذه الحياة هى السير فى الطريق التى تؤدى الى تحقيق خلافته عن الله فى الأرض .. ومن لوازم هذا ــ بعد الايمان بالله ــ الضرب على الأرض والتعاون مع الغير وأداء الواجب ، والمحافظة على حقوق الآخرين » .

وبهذا تتحقق للعلماء تلك المكانة الرفيعة التى خصهم بها الله تعالى فى كتابه الكريم ، حين يقول :

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا » (آل عمران : ٧) .

« شهد الله أنه لا اله الا هو ، والملائكة ، وأولو العلم ، قائما بالقسط » (آل عمران : ١٨) .

« لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك » (النساء : ١٦٢) .

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به » (الحج : ٥٤) .

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » (العنكبوت : ٤٩) .

« وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله » (الروم : ٥٦) .

« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق » (سبأ : ٦) .

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » (غافر : ٨٣) .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة : ١١) .

كما يتحقق لهم وصف الرسول الكريم لهم بأنهم ورثة الأنبياء .

(٥) الكشف عن سنن الله :

ــ اذا كان العلم فى الاسلام عبادة يتقرب بها العالم الى الله من خلال التعرف على آياته والتصديق باعجاز كتابه ، والسعى لعمارة الأرض ، فان سبيل العلم الى ذلك هو الكشف عن سنن الله فى

مخلوقاته ، وسنة الله هى ما جرى به نظامه فى خلقه .

وليس من قبيل المصادفة أن أطلق رواد العلم فى الاسلام على بعض العلوم ، مثل علم الفيزياء ، بأنه « علم الكشف عن سنن الله فى الكون » (٢٣) . وفى علم النفس يكون هدفنا أيضا الكشف عن سنن الله فى سلوك الانسان ؛ ومع كشفنا لكل سنة منها : وجهنا الكشف الى مجهولات أخرى لكشفها .

ويستخدم الانسان فى الكشف عن سنن الله ما زوده ـ سبحانه وتعالى ـ به من نعم ، وخاصة الحواس والعقل ، والا بستمولوجيا الاسلامية فى وجهتها المتوازنة لا تحدث تضادا بين الحس والعقل ، كما فعلت نظريات المعرفة على مر العصور ، والتى أدت الى ظهور المدارس الامبريقية فى مقابل المدارس العقلية (أو العقلانية) . ففى الاسلام تتكامل وسائل المعرفة تحقيقا لاحدى غايات العلم ، وهى شكر الله على أنعمه ، والشكر من ألوان العبادة ـ يقول الله تعالى :

« والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم : السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل : ٧٨) .

« وهو الذى أنشأ لكم : السمع ، والأبصار ، والأفئدة : قليلا ما تشكرون » (المؤمنون : ٢٧٨)

كما اعتبر وسائل المعرفة هذه مسئولية فى قوله تعالى :

« ... ان السمع ، والبصر ، والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء : ٣٦) .

(٦) حدوث وسائل الكشف عن سنن الله :

فى سعى الانسان للكشف عن سنن الله : يستخدم ـ كما أشرنا ـ امكاناته البشرية ، وهى بفطرتها محدودة ، ومعرضة للوقوع فى أخطاء الضعف ، أو القصور ، أو النسيان ، أو الخداع ـ وقد أشرنا

الى هذه المسألة فى حديثنا عن اليقين ، والموضوعية، وجوهرها : أن الانسان ليس معصوما من الخطأ .

ومهمة العلم : أن يرشد الى الصواب فى حدود امكانيات البشر الحسية ، والمعرفية .

وفى الاسلام : أن من اجتهد وأصاب : فله أجران ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد ، بشرط صدق النية ، وخلوص المقصد .

ومن الأدعية القرآنية المأثورة « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » (البقرة : ٢٨٦) .

ومن الأحاديث المشهورة ... قول الرسول الكريم : « رفع عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » (٣١ : ٦٩) .

وقد وضع القرآن الكريم مجموعة من الضوابط لوسائل المعرفة البشرية : تعين الانسان على الاقتراب من الصواب .

ولقد لخص على عبد العظيم (٣١ : ٦٩ ــ ٨٣) هذه الضوابط تلخيصا طيبا يمكن أن يعد مدخلا طيبا لمناهج البحث فى العلم عامة ، أو فى علم النفس خاصة ، نذكر أهمها فيما يلى :

١ ــ التجرد من الميول والأهواء عند البحث العلمى « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله (القصص : ٥٠) .

ويشمل هذا : التعصب لنظرية أو مذهب أو اتجاه .

٢ ــ التثبت قبل اصدار الحكم فى مسألة علمية ، وهذه القاعدة الذهبية هى التى يستخدمها الباحثون فى مختلف ميادين المعرفة، والتى تسمى : القابلية للاستعادة أو التكرار

كما تتضمن قاعدة الموضوعية باعتبارها : الاتفاق النسبى بين الملاحظين ، وأمر الله صريح بالا تبنى الأحكام على مجرد الظنون « ان يتبعون الا الظن ، وان الظن لا يغنى من الحق شيئا » (النجم : ٢٨) .

٣ ــ التعمق فى فهم البواعث والملابسات ، بحيث لا يقف الباحث عند المظاهر الشكلية ، أو الظواهر

السطحية ، أو الصفات العارضة ، فانها كثيرا ما تخدع الباحث .

وقد أخذ الله تعالى على المدعين أنهم « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم : ٧) .

٤ ـ العبرة فى البحث العلمى : بالكيف ، لا بالكم .. وهذا المبدأ مفيد لنا فى العالم الاسلامى ومعظم دوله من فئة المجتمعات النامية ، فى مواجهة ما يسمى : الانفجار المعرفى ، وثورة المعلومات .

والاهتمام بالكيف يكاد يكون خاصية اسلامية متميزة ، يحددها : قول الله فى وصف الناس عامة : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

٥ ـ البعد عن الغرور : فان غرور العلماء مزلق خطير قد يحيد بهم عن الطريق السوى .

يقول الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم : هو أعلم بمن اتقى » (النجم : ٣٢) .

والتواضع سمة مهمة للعالم المسلم ، لأنه يدرك بحق أن العلم لا يدرك كله ــ ولذا تخفى على أعظم العلماء بعض جوانب المعرفة يقول الله تعالى فى ذلك :

« ... وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (الاسراء : ٨٥) .

« ... وفوق كل ذى علم عليم » (يوسف : ٧٦) .

٦ ــ التأنى فى الحكم ومقاومة الميل الفطرى عند الانسان للتعجل ــ وقد أوصى الله سبحانه وتعالى : رسوله بالأناة عند تلقى القرآن الكريم ، فقال : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » (القيامة : ١٦) .

كما قال تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما » (طه : ١١٤) .

٧ ــ الاهتمام بالتفاصيل والدقائق ، واحترام الآخرين ، حتى ولو صدرت عن أشخاص ليسوا

بذوى شأن كبير ، وتناول مختلف المواد ، حتى ولو كانت ضئيلة . وما خلق الله شيئا عبثا : « ... ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » (آل عمران : ١٩١).

٨ ـ الوقوف عند حدود ما نعلم ، ومن العبارات المهمة التى كان يرددها كثيرا أقطاب السلف الصالح « الله أعلم » ؟

يقول على عبد العظيم (٣١ : ٧٩) « الراسخون فى العلم يبذلون جهودهم فى البحث فاذا لم يصلوا الى نتيجة محددة استعانوا بغيرهم ، أو تركوا أبحاثهم لتتمها الأجيال القادمة ، وكثيرا ما تختفى الحقائق ولا تلوح الا بعد أجيال وأجيال وبعد أن يشترك فيها علماء من كل جيل » .

ومعنى ذلك : أن العالم المقتدر : هو الذى لا يتعسف فى تفسير نتائجه أو يحملها ما لا تحتمل .. وقد ضرب الله سبحانه المثل بقول عيسى عليه السلام ـ « ... سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » (المائدة : ١١٦) .

٩ ـ العودة الى الصواب والاعتراف بالخطأ ، اذا تبين الحق وقد مدح الله المؤمنين بأنهم اذا أخطأوا لم يتمادوا فى أخطائهم : « ... ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (آل عمران : ١٣٥) .

د. فؤاد أبو حطب

قصة الإسراء والمعراج

عوامل خلودها، الآراء في تكييفها، التشكيكات الموجهة إليها

للدكتور عبد الغنى الراجحى

١ ـ اذا كانت كبريات الأحداث والوقائع تخلد فى أذهان الناس وتحيا فى ذاكرتهم أجيالا وأجيالا لما تنطوى عليه من العجائب والغرائب والعبر والدروس المستفادة ، فان حادث الاسراء والمعراج برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم يجب أن يوضع على رأس قائمة هذا النوع من كبريات الأحداث ، وقد صدرت الآية الكريمة المتحدثة عن الاسراء بكلمة سبحان المفيدة للتعجب والتنزيه ، فقال تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » .

والانسان عند التعجب يقول سبحان الله . وجاءت فى نهاية هذه الآية كلمة الآيات بمعنى العجائب والدلائل الدالة على كمال قدرة الله ، وذلك فى قوله تعالى :

« لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

وجاء فى سورة النجم فى رحلة المعراج به صلى الله عليه وسلم الى السموات العلى قوله تعالى :

« ولقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وفغر أهل مكة أفواههم عجبا واستغرابا فقالوا نحن نضرب الى القدس أكباد الابل شهرا ذهابا وشهرا ايابا ومحمد يقول انه زارها وعاد فى جزء ليلة واحدة ؟ ؟

واذا كانت كبريات الحوادث والوقائع تخلد فى أذهان الناس وتعيش فى ذاكرتهم أجيالا وأجيالا لما فيها من الأساليب القصصية التى

تسرد الوقائع متتابعة فى حبكة دقيقة ، ومشاهد تأخذ بمسامع الناس ومجامع القلوب وتستقطب الانتباه بما تثيره من المعانى والحوار والمفاجآت والعقد وحلها ، فى أساليب قصصية جميلة ، فان حادث الاسراء والمعراج يجب أن يكون فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فان وقائعها ومشاهدها وحوادثها وعقدها وفكها من ألفها الى يائها ، بلغت الذروة فى باب أحسن القصص الذى تكفلت به السنة النبوية الصحيحة ، من مشهد نومه صلى الله عليه وسلم فى بيت أم هانىء ثم بالبيت الحرام ، ثم شق صدره وغسله بماء زمزم ، وجبريل وميكائيل والبراق والرحلة الى بيت المقدس ، وما رآه من المشاهد العجيبة وسؤاله لجبريل واجابته له ، ثم الوصول الى بيت المقدس والصلاة بالمرسلين الذين كانوا فى انتظاره ، وما تبع ذلك من نصب المعراج فوق الصخرة ، ثم العروج الى السموات العلى ، وما رآه من المشاهد والمناظر ، والحديث مع الملائكة والرسل وسدرة المنتهى ، ورؤية الله أو كلامه ، ثم العودة فى جزء من الليل الى القدس ثم الى مكة ثم ما كان من موقف كفرة مكة وموقف الصديق ، وفريضة الصلاة ونحو ذلك . والأدباء وأرباب الدراسات الأدبية يقولون أن المعرى فى كتابه رسالة الغفران قد اغترف من بحر هذه القصة وحاكاها فى أساليبها وأحداثها ، وكذلك الأديب الايطالى دانتى فانه فعل ذلك فى كتابه الكوميديا الالهية وجحيم دانتى .

واذا كانت كبريات الأحداث تخلد على الزمن وتظل بها عامرة أذهان الناس أجيالا ، بعد أجيال بسبب أن بطولة هذه الأحداث تقوم بها شخصيات مرموقة محبوبة مجيدة ، فان حادث الاسراء والمعراج يجب أن يوضع فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فان شخصيات أحداثها ووقائعها هى محمد صلى الله عليه وسلم سيد الخلق وحبيب الحق وانسان عين الوجود الذى ما خلق الله شيئا أكرم عليه منه ، وآتاه من الخصائص ما لم يؤته

لأحد قبله من المرسلين ، وهو الذى تخفق اليوم بحبه قلوب أكثر من تسعمائة مليون من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتلهج باسمه وذكره ألسنتهم فى اليوم والليلة عشرات المرات ، هذا بالاضافة الى من كانوا معه هذه الليلة فى مزاولة أحداث الرحلة وممارسة أفعالها ، من جبريل وميكائيل وابراهيم وآدم وموسى والرسل فى المسجد الأقصى وغير ذلك .

واذا كانت كبريات الأحداث تخلد فى أذهان الناس وتبقى على الزمن ذكريات مجيدة لأنها موثقة فى وثائق خالد تحميها من البلى وعوامل النسيان ، فان حادث الاسراء والمعراج ، يجب أن يوضع فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، لأنها موثقة ثابتة فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بدرة ، ثابتة فى آى الذكر الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، حيث يقول جل من قائل :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

وباسم هذا الحادث سورة من أعظم السور فى القرآن الكريم هى سورة الاسراء . والسنة النبوية الصحيحة المسجلة فى كتب السنة تتكفل بتفصيلات هذا الاسراء ثم بالمعراج وتفصيلاته ، والسنة النبوية وحى له قداسته واحترامه ، وقامت الأمة الاسلامية بالحفاظ عليها وعلى أسانيدها بصورة لم تحصل فى أمة من الأمم ، والمحافظة على الأسانيد حتى تصل الى الرسول خصيصة من خصائص أمة الاسلام .

واذا كانت الأحداث تبقى وتخلد بسبب اتساع أماكن حدوثها وانتشار مسرح وجودها واتساع لماتها باتساع أماكن وجودها فيكبر حجمها ويتسع دويها ، فان حادث الاسراء والمعراج فى رأس قائمة هذا النوع من الأحداث ، فمن مكة المكرمة وبيت الله الحرام وزمزم والمقام الى بيت المقدس الى

السماوات العلى سماء سماء الى سدرة المنتهى اذ يغشى السدرة ما يغشى الى مستوى سمع فيه صرير الأقلام فى تصاريف الأقدار الى حيث تأخر جبريل ، وتقدم هو صلى الله عليه وسلم حيث اشتد القرب وحانت ساعة التجلى بالتكلم والرؤية ثم العودة من نفس هذه المعالم ، الى حيث بدأها صلى الله عليه وسلم تحدوه عناية الرحمن وفى ركابه ملائكة الله .

٢ ـ اشتجرت آراء الناس فى هذا الموضوع الخطير وتفرقوا فى النظر اليه طرائق قددا ، فمن رأى شاذ عجيب غريب لا ندرى كيف تسلل الى الكتب الاسلامية حيث دس فيها دسا وحيث ينسب الى معاوية وعائشة انكار هذه الرحلة ، وأنها رضى الله عنها قالت ما فارق جسده صلى الله عليه وسلم فراشه أو فراشى ، وبقليل من التأمل نجد أن هذه المقالة كالقضية التى تحمل فى طياتها دليل كذبها ، فان الاسراء كان قبل الهجرة بنحو سنتين ، وعائشة لم يدخل النبى بها ولم يكن له معها فراش الا فى المدينة وبعد الهجرة ، فالذين افتروا هذه المقالة على عائشة لم يجيدوا سبكها ولا حبكها ، وخانتهم الذاكرة ولم يعملوا بقول القائل : « اذا كنت كذوبا فكن ذكورا » . وهكذا ينم الكذب عن نفسه ويكشف نفسه بنفسه .

ان كان فى رواية أخرى هى الأخرى مكذوبة انها قالت ما فقدت جسد رسول الله ولكن كان الاسراء بالروح .

ومن رأى آخر يدعى ان الاسراء والمعراج أمر حق لا شك فيه لكنه كان من قبيل الرؤيا المنامية ولم يكن من قبيل الرؤية البصرية ، ولعله قد استدل على ذلك بالآية الكريمة :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » . سورة الاسراء . فان بعض الناس يقولون ان لفظ الرؤيا بالألف انما يستعمل فى الرؤيا المنامية ، أما البصرية فانما تستعمل فيها الرؤية بالتاء ، لكن المحققين يعودون فيقولون ان لفظ الرؤيا يستعمل فى النوعين المنامية والبصرية ، ومما يدل دلالة قاطعة على أن الاسراء لم يكن مناميا انه

لو كان كذلك لما كان هناك تعجب ولا غرابة ولا انكار من كفرة مكة، ولا تشنيع على رسول الله ولا استبعاد لما ادعاه لأن عالم الرؤى عالم فسيح واسع قابل لأى مقولة تقال فيه دون عجب أو استنكار ، ثم ان القصة صدرت بلفظ السبحان الدال على التعجب ،ولا تعجب فى الامور المنامية ، ويجوز اذا كان ولا بد أن يكون لفظ الرؤيا فى المنامية لا البصرية أن يكون الرسول قد رآها مناما ثم نفذها يقظة ولا مانع من ذلك كما أفادته بعض الروايات وابراهيم الخليل قد رأى قصة الذبح لولده مناما ثم كانت يقظة .

ومن رأى آخر يدعى أن حادث الاسراء والمعراج انما كانت بالروح فقط دون الجسد ، وهو رأى يبطله التصريح بلفظ العبد فى قوله تعالى « أسرى بعبده ليلا » ، لأن العبد لا يطلق الا على مجموع الروح والجسد معا بمعنى الانسان العابد والعبد ، ثم كيف تنفصل الروح عن الجسد وتتركه جثة هامدة لتقوم وحدها بهذه الرحلة البعيدة المدى ؟؟

ورأى آخر يدعى أن هذه بطريقة وحدة الوجود والوجود الوحدوى الذى تم فيه اندماج الرسول بجميع الكائنات ، علويها وسفليها ، روحيها وماديها ،فتسنى له بهذه المرتبة الحصول على معرفة ما حدث عنه أنه رآه ، وهذا كما نرى رأى غريب وغير مفهوم ؛ لأنه عسر الهضم وهو أشبه بالشطح الصوفى المضنون به على غير أهله، وفيه من صعوبة التصور والادراك ما يوجب الاعراض عنه وعدم الأخذ به ، والرجوع الى رأى جماهير علماء المسلمين من أن الاسراء والمعراج كان يقظة بالجسد والروح معا ، الأمر الذى تؤكده قرائن الأحوال ، ويقرر القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة .

٣ ــ المستشرقون وأعداء الاسلام والفكر الاسلامى أثاروا حول هذه القضية استشكالات ومجادلات لتكذيبها وابطالها ، فيقولون كيف يعقل ان الجسم البشرى والكائن الحى يستطيع أن يعيش حيا بعيدا عن مادة الأوكسجين التى تنقطع فى الفضاء بعد بعد

معين من الأرض تنعدم عنده وبعده مادة الأوكسيجين الذي لا يستطيع أن يعيش بدونها الكائن الحي حيث لا تنفس بدونها . والجواب عن ذلك ان الانسان المخلوق الضعيف استطاع مؤخرا أن يتغلب على هذه الصعوبة فيصعد الى طبقات الجو العالية الخالية من مادة الأوكسيجين ويتجول طائرا فى الفضاء كيف يشاء لأنه استطاع أن يعبيء الأوكسجين وأن يصطحبه معه فى أنابيب يطلق منها متى يشاء هذه المادة لتتوفر له صلاحية التنفس وصلاحية الحياة مهماارتفع بمركباته الهوائية وطائراته الجوية الى آفاق الفضاء ، فاذا كان المخلوق قد استطاع التغلب على هذه الصعوبة التى يعانيها اذا ارتفع بنفسه فوق مستويات وجود الأوكسجين الطبيعى . أفلا يكون الله العزيز الحكيم أكثر استطاعة أن يفعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟؟ بلى انه على كل شيء قدير .

ثم يقولون . كيف استطاع محمد وهو انسان بشر أن يتحرر بجسده من منطقة جاذبية الأرض للأجسام ، ويصل الى نقطة انعدام الوزن ، وينطلق منفصلا عن علاقته بالارض الى أجواز الفضاء والسماء . والجواب عن ذلك أن الانسان البشر قد استطاع مؤخرا التغلب على هذه الصعوبة وانفصل عن منطقة الأرض وجاذبيتها مندفعا نحو الكواكب من القمر وغيره بمركباته الصاروخية . فهل يستطيع البشر بعلمه واقتداره أن يفعل ذلك ثم يعجز خالق البشر ومعطيه العلم والقدرة أن يفعل ذلك برسوله ؟ كلا . وفاقد الشيء لا يعطيه . وقدرة الله فوق الشك والتهم .

ثم يقولون الكائنات التى تقول القصة ان محمدا رآها فى ليلة الاسراء والمعراج ، كقدح من اللبن وقدح من الخمر ، فشرب اللبن وترك الخمر ، فقال له جبريل هديت الى الفطرة ، والثور الذى خرج من ثقب فى جحر ثم أراد أن يعود اليه فلم يستطع ، وقال جبريل انه مثل الرجل يتكلم الكلمة لا يلقى لها بالا فيندم ويريد الرجوع فيها فلا يستطيع ، والذين رآهم يأكلون جمرا بأفواههم يخرج من أدبارهم

وكان مثلهم كمثل آكل مال اليتيم، والذين رآهم تضرب رؤوسهم بالحجارة وكانوا مثلا مضروبا للمتكاسلين عن الصلاة . والذين رآهم يخمشون جلودهم بأظافرهم وكانوا امثلا للمغتابين ، والذين رآهم يتركون لحما طيبا هنيئا ليأكلوا لحما فاسدا خبيثا ، وكانوا مثلا للزناة يتركون الزوجات الطيبات الحلال الى نساء زانيات فاجرات ، والذين رآهم يزرعون فيحصدون كلما حصدوا زرعوا وكلما زرعوا حصدوا ، وكانوا مثلا للمنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، والذين يسبحون فى نهر من الدماء ، والمرأة المتزينة التى نادته صلى الله عليه وسلم فأعرض عنها .

يقولون من أين جيء بهذه الكائنات والأشخاص ؟ وهل خلقوا الآن ثم اعدموا ؟ وهل كانت هذه أجرام وأجسام حقيقية أو خيالات وأوهام ؟ والجواب عن ذلك ان الشاشة البيضاء الكبيرة والصغيرة قد استطاعت أن تعرض مرئيات ومشاهدات لا يشك من رآها على الشاشة انها هى هى ، يسمعها تتحدث ويراها تقوم بجميع الأعمال ، ويأخذ عنها العبر والدروس المستفادة ، ويعلق على ما تقوله من أقوال وما تؤديه من أدوار وأفعال ، ثم لا يكون أمامه بعد كل ذلك الا الصور والأشباح والظلال دون حاجة الى ماديات الأجسام اطلاقا .

فاذا كان الناس قد فعلوا ذلك كوسائل ايضاح وتربية وتعليم ، ودراسة حقائق اجتماعية وعلمية وأخلاقية وتربوية ؛ أفلا تكون القدرة الالهية على ذلك أقدر فتعطى لرسول الله هذه العبر والدروس المستفادة بهذه الطريقة ؟ بلى وقدرة الله فوق الشك والتهم .

ثم يقولون وهذه الأبعاد الشائعة والمسافات الواسعة هل فى مقدور بشر أن يقطعها ذهابا وايابا فى جزء ليلة وبهذه السرعة ؟ والجواب عن ذلك فى طريقة التعبير عن الاسراء فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا » فالاسراء والسرى لم يكن من رسول الله بصفته البشرية والشخصية ، ولكن كان

ذلك من منطلق القدرة الالهية المحركة للرسول فى هذه الليلة كيفما تشاء بالسرعة التى تشاء وتتخطى هذه المسافات كيف تشاء ، وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره الكبير من سرعة الأفلاك والكواكب وأضوائها وأشعتها ما يقرب هذه السرعة الى الأذهان ، ويقول صاحب القاموس « السرى كالهدى سير عامة الليل وأسرى واسترى وسرى به وأسراه وبه واسرى بعبده ليلا .. تأكيد » أهـ .

ثم يقولون ان الرسل والأنبياء السابقين قد ماتوا وأفضوا الى رحمة ربهم من أزمان بعيدة قبل ميلاد محمد خاتمهم فكيف تسنى له أن يجتمع بهم فى المسجد الأقصى ليصلوا خلفه ويقابل ويكلم كثيرا منهم فى السموات واحدة بعد الأخرى كما تحدثت أحداث القصة ؟

والجواب عن ذلك انه كان بالأرواح والأشباح التى لا يشك من رآها انها هى هم بأنفسهم وذواتهم وشخصياتهم كما حدث الرسول فى بعض الروايات عن موسى لما رآه فقال عنه فى لونه أدمه يعنى سمرة ، وفى جسمه قوى يكاد شعر صدره يخرق قميصه وكأنه من رجال ازدشنوءة

« قبيلة يشتهر رجالها بالقوة والبطش » . وهكذا كان موسى فانه كما قال القرآن الكريم وكز فرعونيا فقضى عليه فى الحال ، وقالت ابنة شعيب لأبيها : « يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين » . وقال الفرعونى لما خافه موسى يا موسى « ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض» ، وهكذا نستطيع أن نقول بمنتهى الثقة والاطمئنان كما قال القرآن الكريم فى جدية هذه المرائى « ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى » وكما قال : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » سورة النجم .

ويمكن أن يقال فى هذه الشبهات جميعها انها استبعادات مجردة عن الدليل والاستبعادات المجردة عن الدليل لا تعطل الحقيقة الثابتة بالدليل . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر فى ألف عام

للأستاذ محمد كمال السيد

ترجمنا فى المقال السابق للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر . والآن نترجم باذن الله لبقية العلماء الخمسة الذين وعدنا بهم من الذين شاركوا فى عضوية الديوان الذى أنشأه الفرنسيون فى أدواره الثلاثة فى أثناء وجودهم فى مصر . وهم : السيد خليل البكرى – والشيخ مصطفى الصاوى – والشيخ سليمان الفيومى – والشيخ محمد المهدى .

السيد خليل البكرى :

لم يكن السيد خليل من علماء الأزهر . وان كان الأرجح أنه تلقى دراسته بالأزهر مثل عموم المثقفين فى ذلك العصر . ولكنه كان سليل البيت البكرى الصديقى . وينتهى نسبه الى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وساق لهم صاحب الخطط التوفيقية سلسلة من النسب بها (٣٨) اسما حتى وقت على باشا مبارك (الخطط طبعت سنة ١٣٠٥ هـ ، سنة ١٨٨٧ م) وهى تتفق الى حد كبير مع سلسلة النسب التى ذكرها الجبرتى (آخر تاريخ الجبرتى سنة ١٢٣٦ هـ ، سنة ١٨٢٠م) مع اختلافات يسيرة فى ترتيب بعض الاسماء . وهى خلافات تغتفر نظرا لتكرر الاسماء . فمثلا نجد اسم محمد فى ثلاثة أجيال متعاقبة ، ولكل منهم كنية ولقب ومن الصعب ضبط مثل هذه الأمور فى فترة ثلاثة عشر قرنا . ونميل الى ترجيح ماذكره على مبارك فهو على ما يبدو قد استمد معلوماته من آل البيت البكرى بما عندهم من مستندات .

كما يبدو أنه أراد مجاملتهم فردد

ما نقل اليه من تاريخهم أنهم ينتسبون الى البيت النبوى الكريم عن طريق والدة جدهم السادس عشر (ابتداء من السيد عبد الباقى الموجود فى زمن على مبارك) . فهى شريفة من نسل الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب .

وفى هذا بعض الشك . فقد ذكر ابن عقبة فى كتاب (عمدة الطالب فى نسب آل أبى طالب) أن الحسن المثلث لم يعقب الا من ولده عبد الله . وفى كتاب الفيروزابادى (النفحة العنبرية فى أنساب خير البرية) أن المعقبين من أولاد الحسن المثنى خمسة . وليس فيهم الحسن المثلث . وذكر أن الحسن المثلث مات مسموما فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان . وفى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (جـ ٢ ص ٥٩) أن الحسن المثلث أعقب عليا الذى أعقب الحسين الذى ثار وقتل سنة ١٦٩ هـ . فهذه ثلاثة أقوال متضاربة .

ولكن لا نرى داعيا للتفصيل والمناقشة . فنسبة الشرف للبيت النبوى الكريم قد تأتى بالتواتر . كما قد تأتى من طريق النساء . وقد تولى بعض السادة البكرية نقابة الأشراف . ولم يكن يجوز هذا الا اذا كان معاصروهم يعتبرونهم منهم .

كذلك أرجع على مبارك وجودهم فى مصر الى ما قبل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) بناء على حجة موجودة بخزانتهم بالتاريخ المذكور أن المظفر تقى الدين شاهنشاه بن أيوب (أخا صلاح الدين) أنشأ مدرسة للشافعية بالفيوم . وأوقف عليها أطيانا . وشرط التدريس فيها (لسيدنا ومولانا شيخ الأسلام والمسلمين . بقية السلف الصالحين . سلالة صديق سيد المرسلين . أبى الاشراف نجم بن مولانا أبى المكارم عيسى بن مولانا أبى المحامد شعبان . الصديقى الشافعى . ثم من بعده لذريته ونسله وعقبه المقلدين لمذهب الأمام الأعظم محمد ابن ادريس الشافعى)

ونجم المذكور بهذه الحجة هو الجد الخامس والعشرون (ابتداء من السيد عبد الباقى الموجود بزمن

على مبارك) بسلسلة النسب التى ساقها صاحب الخطط التوفيقية .

فلاشك أنه بيت عريق فى المجد . وكانت لهم مساكن متعددة بباب الخلق . وعابدين . وعلى الخليج المصرى تجاه زاوية جلال الدين الشهيرة بالجامع الأبيض (غربى شارع بورسعيد بين باب الشعرية والظاهر) . وبالأزبكية بدرب عبد الحق . والأخير كان مطلا على بركة الأزبكية وكان يعمل فيه المولد النبوى الكريم فى عهد الفرنسيين. كما سنذكر باذن الله

وعند تنظيم منطقة الأزبكية فى عهد اسماعيل أخذ منهم بيت الأزبكية المذكور وعوضهم عنه بسراى عباس باشا الأول بالخرنفش وصار مكان جزء من بيت الأزبكية مبنى صندوق الدين قبل الغائه بين البوستة العمومية وميدان ابراهيم باشا .

وكان لهذه الأسرة علامة مميزة. وهى أنه اذا دنا أجل أحدهم يظهر بعقبه الأثر الشريف ــ وهو أشبه باللدغة ــ ويرجعونها الى اللدغة التى أصابت أبا بكر الصديق فى الغار مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى أثناء الهجرة الى المدينة. واذا ظهرت هذه العلامة قطع الأمل من شفاء المريض . وهى دليل على صحة النسب عندهم . وتظهر العلامة عند وفاتهم من رجال ونساء وأطفال حتى ولو كان سقطا (الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٢١)

وكان شيخ السجادة البكرية يجمع أحيانا ــ فضلا عن الخلافة البكرية ــ نقابة الأشراف ومشيخة الطرق الصوفية والأضرحة والتكايا . وناهيك بما لبعض الأضرحة الكبيرة مثل الامامين الحسين والشافعى وغيرهما من أوقاف ونذور .

ويحسن أن نذكر أن نقابة الأشراف لم تكن وقفا على أسرة معينة . بل تولاها أشراف من أسر شريفة مختلفة مثل الرفاعى والسادات الوفائية وغيرهما .

وفى سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٥ م) تولى نقابة الأشراف أبو الأمداد أحمد سبط أبى الخير عبد الخالق أبى الوفا . فلما عين سنة ١١٧٦ فى خلافة بيتهم (السادات الوفائية)

تنازل عن نقابة الأشراف للسيد محمد البكرى ، وهو ابن عم السيد خليل المترجم له وزوج أخته . وكانت مشيخة السجادة البكرية وقتذاك للسيد أحمد البكرى أخى السيد خليل .

وأبو الوفا لقب أسرة السادات الوفائية ، وبعد أبى هادى محمد سلف أبى الأمداد أحمد المذكور انقطع نسل الأسرة من الذكور ، فتولى أحمد المذكور مشيخة السجادة الوفائية ، ووالدته ووالدة شمس الدين أبى الأمداد محمد السادات المعروف فى زمنى الفرنسيين ومحمد على بنتا عم ، وشمس الدين هو ابن عبد الرحمن عارفين الملقب بالخواجة لقب كبار التجار فى البضائع الأجنبية ـ وهو ليس من السادات الوفائية .

ولم يكن السيد خليل محل تقدير من أسرته ومن أولى الأمر ، لما فى سلوكه من رعونة ، ولارتكابه أمورا غير لائقة كتعبير الجبرتى ، فلما توفى أخوه السيد أحمد سنة ١١٩٥ تخطوه فى مشيخة الطرق ، وعينوا ابن عمه السيد محمد البكرى الصديقى المذكور فجمع بين المشيخة ونقابة الأشراف .

ثم تخطوه مرة ثانية لما توفى السيد محمد البكرى المذكور سنة ١١٩٦ هـ فعينوا ابنه محمد أفندى البكرى فى المشيخة ونقابة الأشراف فظل فيهما حتى توفى سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩٣ م)

وقد أخطأ الجبرتى عندما ذكر أن خليلا هو ابن خال محمد أفندى البكرى المذكور ، فالواقع أنه خال لأنه لا يتصور أن يكون المرء ابن عم أو ابن عم والد خال فى نفس الوقت ، ولفظ (ابن) أضيف سهوا من المؤلف أو خطأ من الناسخ أو الناشر ، وقد ذكر الأستاذ محمد فريد أبو حديد فى كتابه (سيرة السيد عمر مكرم ص ٤٤) أن السيد خليل خال محمد أفندى البكرى .

وبعد وفاة محمد أفندى البكرى تولى مشيخة السجادة البكرية خاله السيد خليل المترجم له ، أما نقابة الأشراف فقد تولاها السيد عمر مكرم .

يدلنا هذا على أن السيد خليل لم يكن محل ثقة أو تقدير من أهله أو من الأمراء الذين كان بيدهم الأمر وقتذاك . فقد انتقل مراد بك فى المرتين السابقتين وألبس الخليفة الخلعة وقلده المنصبين . ولما استقر الرأى أخيرا على تعيينه اكتفى بتوليته خلافة بيتهم . أما نقابة الأشراف فقد أعطيت للسيد عمر مكرم الذى كان نجمه بدأ فى الصعود وأخذت شخصيته تظهر فى مجرى الأحداث .

فلما قدم الفرنسيون . وخرج السيد عمر مكرم مع من خرجوا الى الشام . تداخل خليل معهم . وأفهمهم أن نقابة الأشراف لبيتهم . وأنها غصبت منه . فقلدوه اياها فى ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (اغسطس سنة ١٧٩٨ م) . واستولى على وقفها . ونودى فى المدينة (بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها الى النقيب)

وعظم شأنه بتعيينه فى الديوان فضلا عن مشيخة الطرق ونقابة الأشراف . فازدحم بابه بأصحاب الدعاوى والشكاوى . ولجأ لخدمته مماليك الأمراء المتغيبين يحتمون به .

وكان عند خلافه مع ابن عمه على الخلافة . قد قسم المنزل الذى بالأزبكية وعمر نصيبه وأنشأ به بستانا به أصناف الأشجاروالفواكه. فلما استقرت له الأمور فى عهد الفرنسيين استولى على بقية المنزل وضمه الى نصيبه وانفرد بسكنه . وكان يحتفل فى منزله هذا بليلة المولد النبوى . فيدعو كبار القواد الفرنسيين للعشاء . ويخلع عليه صارى عسكر (أى القائد الأكبر) خلعة فى هذه المناسبة . وهم من جانبهم يرسلون الى منزله الطبلخاناه الكبيرة (فرقة من الموسيقى) تدق الطبول مع المزامير المختلفة الأصوات . ويطلقون صواريخ نارية فى الهواء .

والشعب المصرى شديدالحساسية بسلوك قادته وزعمائه . فلما قامت ثورة القاهرة الثانية (مارس / أبريل سنة ١٨٠٠ م) بعد نقض معاهدة العريش . اتهمه الشعب بموالاة الفرنسيين . وهجم عليه طائفة من جنود الأتراك والمماليك

مع بعض العامة • فنهبوا داره بالأزبكية • وسحبوه مع أولاده وحريمه الى الجمالية ماشيا على قدميه عارى الرأس • وأهين أشنع اهانة • فلما وصلوا الجمالية أخذه أحمد محمود محرم التاجر (أحد أعضاء الديوان الثانى) الى منزله فآواه حتى انتهت الثورة •

ولما فرض كليبر بعد هذا الغرامة الفادحة على أهالى القاهرة تأديبا لهم • أعفاه من هذه الغرامة لما حصل له • بل وعوضه عما فقد • وبعد أن تخربت داره بالأزبكية انتقل الى بيت البارودى بباب الخلق ثم الى بيت عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى بشارع رحبة عابدين (شارع مصطفى باشا عبد الرازق حاليا) •

وبعد خروج الفرنسيين نزعت منه نقابة الأشراف • فقد حضر شخص من استانبول فى ديسمبر سنة ١٨٠١م ومعه مرسوم بولايته النقابة • ولم يكن هذا الشخص محل ثقة من الأهالى والأشراف • فقد حصل على هذا المرسوم بطرق مريبة • فراجع ولاة الأمر فى مصر السلطان فى استانبول • فعزل • وتقرر بدله نقيبا للأشراف السيد عمر مكرم فى ١٨/٤/١٨٠٢ م •

ولما تولى خسرو باشا ولاية مصر جمع الوالى الجديد المشايخ فى ١٩/٣/١٠٨٢ م وتكلم معهم فى عزل السيد خليل البكرى عن مشيخة البكرية • فوافقوه • وتعين بدله فى المشيخة السيد محمد أبو السعود البكرى من فرع آخر غير فرعه من البيت البكرى •

وهكذا نزعت منه نقابة الأشراف ومشيخة البكرية •

وكان قد عقد لابنه أحمد على بنت المرحوم محمد أفندى البكرى السابق له فى المشيخة • فتصدى له السيد عمر مكرم والشيخ محمد السادات وآخرون بعد عزل خليل من المشيخة والنقابة وأبطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضى •

وقصة أخرى تدل على هوان خليل البكرى بعد خروج الفرنسيين ـ فقد ذكر الجبرتى فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ (٢٣/٧/١٨٠١ م) أى بعد خروج الفرنسيين من القاهرة بأيام :

حضر اليسرجى (تاجر الرقيق الأبيض أما تاجر الرقيق الأسود فكان يسمى الجلاب غالبا) الذى كان جلب مملوكا للشيخ البكرى وادعى أنه قهره فى أخذ المملوك بالفرنسيس . وأخذه منه دون القيمة . وأنه كان أحضره على ذمة مراد بك . وطال بينهما النزاع . وآل الأمر بينهما الى انتزاع المملوك من خليل . وكان قد أعتقه وعقد له على ابنته فأبطلوا العتق . وفسخوا الزواج . وأخذ المملوك عثمان بك الطنبورجى المرادى . ودفع للشيخ دراهمه . ولجلابه باقى الثمن) . واشترى خليل لنفسه دارا بحارة الفرن (متفرعة من شارع اسماعيل بك خلف حارة السادات بدرب الجماميز) واشترى بيتين بجوارها من بيوت الأمراء الأقدمين ضمها اليها . وعمر الجميع عمارة متقنة . وباع فى سبيل ذلك حصصه والتزامه . واكتفى بما يخصه فى وقف جده لأمه الشيخ الحفنى (شيخ الأزهر توفى سنة ١١٧١ هـ ١٧٥٧ م . وسيأتى ذكره ضمن شيوخ الأزهر باذن الله) . وكانت هذه الدار كبيرة تصل حدودها الى دار السادات الوفائية . فبعد وفاة خليل سنة ١٢٢٣ هـ (سنة ١٨٠٩ م) تعرض الشيخ السادات لابنه أحمد وأخذ بستان هذه الدار بأبخس الأثمان . فأضافه الى بستان السادات . وأقام جدارا سد به شبابيك منزل البكرى وأظلمه

وتوفى خليل البكرى فى أول فبراير سنة ١٨٠٩ فى فقر ودين وخمول .

وقد أغفلنا ذكر بعض المخزيات فى سلوك خليل البكرى التى وردت فى تاريخ الجبرتى تنزيها لمجلة الأزهر عن ترديدها . ولكن نقول أنه جميل من على باشا مبارك أن يحاول ستر عثرات شخص من بيت كريم له مكانته الاجتماعية والدينية فى وقته فقد قال فى ختام ترجمة السيد خليل البكرى . بعد أن أغفل ذكر بعض الوقائع التى ذكرها الجبرتى وخفف من ألفاظ البعض الآخر : (ولا التفات لما قاله الجبرتى مما لا يناسب شرف هذا البيت العالى المقدار . سيما والأحوال الجارية فى أوقات الفتن لا يوقف لها على

قرار . ولا تعلم لها حقيقة ولا يوصل لها الى أصل صحيح)

كما قال فى ختام الفذلكة التى ذكرها عن البكرية : (فلا يريبن القارىء ما عسى أن يقف عليه فى بعض الكتب مما يخالف ذلك فانه مع قلته لا يعول عليه)

مع أنه لم يذكر فى هذه الفذلكة اسم السيد خليل . حين أنه ذكر فيها جميع ما أمكنه الوصول اليه من تراجم من تولوا المشيخة . بل وتراجم من كان لهم ذكر من فروعهم ولم يتولوا المشيخة .

وهو انكار عاطفى لم يقدم عليه أى دليل . فهو مجرد نفى . ولا يعيب الأسرة أن ينحرف بعض أعضائها . فى فترات أجيال كثيرة العدد . فالناس بشر . ولا عصمة الا لنبى . وليس من حق المؤرخ أن يخفى الوقائع . وان كان يجوز له أن يفسرها أو يوجد لها المبررات .

ننتقل بعد هذا الى العضو الثالث من أعضاء الديوان . وهو :

الشيخ مصطفى الصاوى

لا تجد فى تاريخه ما يعيبه . وقد ترجمه الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٦ هـ (ذو القعدة سنة ١٢١٦ ــ مارس سنة ١٨٠٢) وقال أنه من مواليد صوة . شرقى بلبيس ــ فنسب اليها الصاوى . وهى نسبة على غير القياس .

وهو بهذا من مديرية الشرقية مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى . ولم يذكر الجبرتى فى ترجمته غير ما وصفه به من جمال الخلق ورفيع الخلق ورفيع المكانة . وذكر بعض النماذج التى تدل على براعته اللغوية .

ولكن مما سبق ذكره فى المقالات السابقة تعلم أنه قد نافس الشيخ عبد الله الشرقاوى فى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٠٨ هـ بعد وفاة الشيخ أحمد العروسى . وهذا يدل على مكانته بين زملائه .

كما ذكرنا أنه بعد موقعة امبابة أوفد العلماء مندوبين لمفاوضة نابليون . هما الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى الآتى ذكره . وفى هذا دليل على الثقة من ناحية . ومن ناحية أخرى دليل على جرأتهما . فالمقابلة الأولى

مع الفاتح فيها اقدام ومخاطرة . وان كان فى المنشور الذى أذاعه نابليون عقب نزوله فى الأسكندرية ما يدعو الى بعض الاطمئنان .

ولما أخذت ثورة القاهرة الثانية فى ابريل سنة ١٨٠٠ كان الصاوى ممن وقع عليهم غضب الفرنسيين . وخصوه بتصيب كبير من الغرامة التى فرضوها على أهالى القاهرة .

ولم يعش الصاوى غير شهور قليلة بعد خروج الفرنسيين

الشيخ سليمان الفيومى

أما الرابع من أعضاء الديوان فهو الشيخ سليمان الفيومى . من مواليد الفيوم كما يدل عليه لقبه . ونجد فى ترجمته وتاريخ حياته صورة جميلة من حسن الخلق . وكريم الطباع . وعلو الهمة . وفائق المروءة . وصادق الوطنية مما يجب أن يتحلى به العلماء وقادة الفكر والشعوب .

نشأ الشيخ سليمان الفيومى فقيرا . وجاور بالأزهر . ودرس على شيوخ عصره . واتصل بالشيخ على الصعيدى . وبعد وفاته اتصل بالشيخ أحمد الدردير . وكان الفيومى جميل الصوت . فاختلط مع المنشدين فى الأذكار . وبهذا كان يذهب الى بيوت الأعيان فكان محل اكرامهم . ثم اتصل ببعض ذرية السلطان برقوق . وهم نظار على أوقافه ومن الأعيان وقتذاك . فراج أمره . واتصل بنساء الأمراء عن طريق الأغوات . وحاز بتقواه ولباقته رضاهن . وتوطد مركزه عندهن وعند أزواجهن . فتحسنت أحواله المالية . ثم عين شيخا لرواق الفيمة (أهل الفيوم) . وبنى له محمد بك المبدول دارا بحارة عابدين .

ومحمد بك المبدول هذا كان اسمه أصلا مراد بك . ولما حضر حسن باشا قبطان سنة ١٢٠٠ هـ من استانبول لتأديب ابراهيم بك ومراد بك كما سبق ذكره فى مقال سابق . فلكراهته اسم مراد أبدل اسمه الى محمد فعرف باسم محمد بك وعينه أميرا للحج . واليه ينسب جامع المبدولى بجوار المتحف الصحى بشارع الشيخ ريحان مقابل سراى عابدين . والجامع الحالى

بدلا من مكانه السابق بحارة عابدين عند انشاء سراى عابدين فى عهد الخديو اسماعيل .

ولما توفيت زوجة الشيخ سليمان الفيومى زوجته الست زليخا امرأة ابراهيم بك الكبير بنت عبد الله الرومى . وكانت ثرية فتصرف فى أوقافها وصارت له شهرة فى جميع البلاد .

وكان قليل البضاعة فى العلم كما ذكر الجبرتى . ولكن كان بيته مفتوحا للقاصدين يكرمهم بالمآكل والاقامة . ويبذل ما يستطيع فى قضاء حوائج الناس . فلا يعود الا فى العشاء الآخرة . وهذا دون مقابل أو أجر . واذا قدمت له هدية من أحد أصحاب الحاجات فرق الكثير منها على من يكون بمجلسه من الحاضرين .

ولما حضر حسن باشا قبطان سنة ١٢٠٠ هـ . واضطهد الأمراء فهربوا منه الى الصعيد . وقصد حسن باشا بيع نسائهم كالرقيق ـ كما سبق ذكره ـ التجأ الكثيرات منهن الى منزل الفيومى فحماهن حتى خرج حسن باشا سنة ١٢٠١ هـ . وظللن بمنزله حتى سنة ١٢٠٥ حيث توفى اسماعيل بك بالطاعون وعاد ابراهيم بك ومراد بك الى العاصمة . فكان هذا محل تقدير منهم وزيادة فى قدره عندهم .

وكذلك لما حضر الفرنسيون وهرب الأمراء . التجأ نساؤهم الى منزله حتى امتلأ بهن هو وما جاوره من الدور . فدافع عنهن وأقمن فى كنفه شهورا . وقد ذكرنا أنه والشيخ مصطفى الصاوى كانا المندوبين عن العلماء فى المقابلة الأولى مع نابليون .

وكان محل تقدير من الفرنسيين فضلا عن عضويته بالديوان فى أدواره الثلاثة . قد عينوه شيخا لمشايخ البلاد . وله مرتب خاص عن ذلك فضلا عن مرتب عضوية الديوان

ومن مواقفه الوطنية أنه عند ما خرج نابليون الى الشام قرر استصحاب بعض العلماء والقاضى التركى . ومصطفى بك كتخدا الوالى ـ أى وكيل الوالى العثمانى أبى بكر باشا الطرابلسى الذى كان قد هرب الى الشام عند قدوم

الفرنسيين كما سبق ذكره . وكان نابليون عين مصطفى بك المذكور أميرا للحج .

فلما وصلوا الى القرين اضطر بعضهم للتخلف بسبب أخذ جمالهم للجيش . ومن تخلف بالقرين هم المشايخ الصاوى والفيومى والدواخلى والعريشى (وجميعهم من أعضاء الديوان الأول) ومصطفى بك والقاضى التركى .

وانتهز أمير الحج مصطفى بك هذه الفرصة وأراد مناوشة الفرنسيين . فلم يوافقه على ذلك غير القاضى التركى والشيخ سليمان الفيومى . وعاد الباقون الى القاهرة

فأخذ مصطفى بك والقاضى التركى والشيخ الفيومى يحضون الأهالى شرقى الدلتا على مقاومة الفرنسيين . وقامت ثورة اتسعت فى الشرقية والدقهلية حتى أمكن للفرنسيين اخمادها . وهرب مصطفى بك وأثبتوا خيانته فعزلوه من امارة الحج وصادروا ممتلكاته وعزلوا القاضى التركى . وعينوا مكانه بالانتخاب الشيخ أحمد العريشى كما سبق ذكره . أما الشيخ الفيومى فقد عاد الى القاهرة وظل محل ريبة الفرنسيين . ولكن هذا لم يمنع من تعيينه فى الديوانين الثانى والثالث .

وفى أواخر عهد الفرنسيين لما شاع أمر هزيمتهم أمام الأنجليز والأتراك فى (أبو قير) . وأتضح زحف الجيش العثمانى من الشرق . احتاط الفرنسيون فى القاهرة من قيام الشعب ضدهم . فاعتقلوا أربعة من العلماء أعضاء الديوان فى القلعة وهم : الشرقاوى والصاوى والفيومى والمهدى . ولكن لم يطل هذا كثيرا . ولم يسيئوا معاملة المعتقلين . فقد كان أعتقالهم لمجرد الاحتياط . وسرعان ما جلا الفرنسيون .

وبعد خروج الفرنسيين ظل الفيومى مقدرا عند العثمانيين .وفى عهد الاضطرابات التى أعقبت خروج الفرنسيين . ومقتل طاهر باشا قائمقام الوالى كما سنذكر فى المقال التالى بأذن الله . ومقتل خليل أفندى الدفترداد التجأ الى دار الفيومى أخو الدفتردار المقتول وخازنداره

وغيرهما فحماهم وواساهم حتى سافروا الى بلادهم .

وتوفى فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٢٢٤ هـ (٢٠/١/١٨١٠ م) . وكانت جنازته حافلة . ولا يقل عدد المشيعات عن عدد المشيعين . وخرجت جنازته من داره المذكورة بحارة عابدين . وصلى عليه بالأزهر فى مشهد عظيم جدا مثل مشاهد العلماء الكبار المتقدمين .

وتوفى مدينا بعشرة آلاف ريال، تنازل عنها سماحا أرباب الديون .

رحمه الله .

***

ننتقل بعد هذا الى العضو الخامس من أعضاء الديوان فى أدواره الثلاثة ولعله ألمعهم شخصية وذكاء . وهو :

الشيخ محمد المهدى

كان أسمه (هبة الله بن أبيفانيوس) من بلدة نهيا بمديرية الجيزة . وكان أبوه أبيفانيوس كاتبا نصرانيا عند سليمان كاشف . وكان مولده على الأرجح حوالى سنة ١١٥٥ هـ (١٧٤٢ م)

واسمه الأصلى من مقال للأستاذ محمد الهيهاوى نشر بالعدد ٩٣ من مجلة السياسة الأسبوعية فى ١٧/١٢/١٩٢٨ م . ومن كتاب سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد . أما تاريخ مولده فهو استنتاج من ترجمة الجبرتى له فى وفيات سنة ١٢٣٠ هـ أنه توفى عن خمسة وسبعين عاما . ونهيا تبعد حوالى الثمانية كيلو متر شمالا من أهرام الجيزة .

وتوسم سليمان كاشف ، الغلام النجابة . فضلا عن خفة الظل ووسامة الوجه . فكفله . وأراد أن يخلطه بمماليكه . ولكن التربية العسكرية للمماليك لم تلائم الغلام . فانقبض عنها . فوجهه الكاشف وجهة أخرى . بأن حفظه القرآن وأسلمه للشيخ الحفنى فتتلمذ له . ونسب اليه . وأصبح اسمه محمد المهدى الحفنى .

هذه رواية . ورواية أخرى ذكرها الجبرتى أن والده من الأقباط . وأسلم هو صغيرا دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى . وحلت عليه

أنظاره . وأشرقت عليه أنواره . وفارق أهله . وتبرأ منهم . وحضنه الشيخورباه وأحبه . واستمر بمنزله مع أولاده . واعتنى بشأنه . وأحفظه القرآن .

والروايتان متقاربتان وتصلان الى نتيجة واحدة . واذا أخذنا برواية الجبرتى نجد أنه اتصل بالشيخ الحفنى ما يقرب من الخمسة عشر عاما . فقد توفى الشيخ الحفنى سنة ١١٨١ هـ . والمهدى من مواليد سنة ١١٥٥ هـ واتصل به وهو صبى دون البلوغ أى كان فى العاشرة من عمره مثلا .

ولما توفى الشيخ محمد الهلباوى الشهير بالدمنهورى سنة ١١٩٣ هـ . وكان من خلفاء الشيخ الحفنى فى الطريقة الخلوتية . جلس المهدى مكانه بالأزهر . واشتغل بالقاء الدروس . ونما أمره . وذاع ذكره . وبعد صيته .

وتزوج المهدى بنت الشيخ محمد الحريرى مفتى الحنفية وخطيب وامام مسجد الكخيا . ورزق منها بابنه محمد أمين . ومحمد أمين هو والد الشيخ محمد المهدى العباسى الذى عين مفتيا فى عهد ابراهيم باشا . وشيخا للأزهر فى عهد اسماعيل وتوفيق وفى عهده بدأت أولى الخطوات فى اصلاح الدراسة بالأزهر وتنظيمه كما سيأتى عند ذكر شيوخ الأزهر باذن الله .

وفى زواج محمد المهدى الحفنى الحنفية وقتذاك . وفى وصول بابنة الشيخ محمد الحريرى مفتى حفيده الشيخ محمد المهدى العباسى الى الافتاء ومشيخة الجامع الأزهر ما يدل على التسامح الطبيعى فى نفوس المسلمين . وسماحة القاعدة ، أن الأسلام يجب ما قبله . فلم تمنع الأول سابقة نصرانيته من مصاهرة شخص ذى مركز دينى ممتاز . كما لم تعق الثانى عن الوصول الى أكبر المناصب الدينية وهى مشيخة الجامع الأزهر

وتداخل الشيخ محمد المهدى الحفنى مع الأمراء . وأصبح بذكائه ولباقته ذا مركز مرموق . ولما خرج حسن باشا قبطان من مصر سنة ١٢٠١ هـ كما ذكرنا ترك كتخداه أى وكيله اسماعيل بك لقبض ما

قرره على الأمراء . فاتصل المهدى باسماعيل بك وتقرب اليه . فلما عين المذكور واليا على مصر باسم اسماعيل باشا التونسى (١٢٠٣ ــ ١٢٠٥ هـ) ازداد تقربا اليه . وأكثر من التردد عليه وزيارته بالقلعة والمبيت عنده أغلب الليالى . وأنعم عليه الوالى بالكساوى . وعينه فى الضربخانة (سك النقود) والسلخانة والجوالى (الجزية على غير المسلمين) .

ولما وفد الطاعون فى أواخر ولاية المذكور وأطاح بمئات الألوف . ومنهم الكثيرون من ذوى الثراء . فأحله الباشا محل من اختارهم من ذوى الرزق والأقطاعات . فازداد ثراء واتسعت دائرة أطيانه فى الجيزة والبحيرة والمنوفية والغربية . وأخذ فى الاتجار فى كافة المحاصيل من كتان وقطن وأرز وغيرها .

وابتنى له دارا عظيمة فى الأزبكية بناحية الرويعى .

ويتفرع الآن من شارع ابراهيم باشا شارع اسمه شارع المهدى عند ميدان قنطرة الدكة . ويسير شرقا موازيا لشارع نجيب الريحانى أو وجه البركة سابقا . كما أنه يوجد شارع المهدى الخصوصى عند تقاطع شارع الرويعى مع شارع البواكى فى مقابلة موقف الأوتوبيس العمومى فى أول شارع ٢٦ يولية من جهة العتبة . وموقع الشارع الأول (المهدى) كان من ضمن بركة الأزبكية عند دخول الفرنسيين . فقد كانت تمتد شمالا حتى شارع نجيب الريحانى أو وجه البركة سابقا . أما موقع الشارع الثانى (المهدى الخصوصى) فقد كان على الحدود الشرقية لبركة الأزبكية . ونرجح أنه المقصود من وصف الجبرتى (أسماء ومسميات من تاريخ وخطط مصر القاهرة لكاتب المقال)

ولما دخل الفرنسيون مصر تداخل المهدى معهم . ولما شكل نابليون الديوان الأول من العلماء كان المهدى عاشرهم . وكان كاتم السر (سكرتيرا) لهذا الديوان .

وحاز المهدى تقدير نابليون حتى وصفه فى مذكراته أنه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لسانا وأكثرهم

علما وأصغرهم سنا (تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ج ٢ ص ٣٠١)

وكانت أغلب المنشـورات التى يذيعها الفرنسيون من انشـائه . فبعد انتصار نابليون فى يافا بالشام أرسل الأعلام التى كسبها فى المعركة لتعلق على مآذن الأزهر . وأرسل معها خطابا فيه : أريد أن تقابـلوا المهدى وأعضاء الديوان وتتفقـوا معهم على احتفال صـغير لمقابلـة الأعلام المرسلة اليكم .

وانتفـع المهـدى من اتصـاله بالفرنسيين فعظم شأنه وكبر مقامه. وأصبح عنـدهم محل الوسـاطة والشفاعة . وقال الجبرتى : « وزاد ايراده وجمعـه . واحتـوى بلادا وجهات وأرزاقا . وأقامـوه عنهم وكيلا فى شؤون كثيرة وبلاد وقرى يجبى اليه خراجها . ويصرف منها ما يصرفه . ويأتيه الفلاحون منها بالأغنام والسمن والعسل . وماجرت به العادة . ويتقدمون اليه بدعاويهم وشكاويهم . ويفعـل بهم ما كان يفعله أصحاب الألتزامات من الحبس والضرب وأخذ المصالح . وصار له أتباع وخدم من وجهاء الناس ومن دونهم .. الخ » . ثم قال : « وكان هو المشار اليه فيه (أى فى الديوان) . وخدمة الديوان الموظفون تحت أمره . واذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامـه وبأيـديهم العصى ويوسعون له الطريق » اهـ .

ولما ثارت القاهرة ثورتها الثانية فى مارس / أبريل سـنة ١٨٠٠ . وبالغ الفرنسيون فى قمعها فى شدة وقسوة . وأرسل كليبر يطلب وفدا من المشايخ للتفاهم معهم . فذهب الوفـد مكـونا من الشرقـاوى والسرسى والفيومى والمهـدى . فطلب منهم أولا خروج العثمانيين من القاهرة . فلما رجعوا ثار الناس بهم . واعتبروهم خونة . وأهانوهم

وفى أثناء هذه الثورة حرق بيت المهدى المذكور بالأزبكية . فأعفى المهدى . مثل خليل البكرى ــ من المساهمة فى الغرامة التى فرضـت على القاهرة . وقـال الجبـرتى : « وكان المهدى قبل ذلك ــ أى قبل حريق بيته ــ قد نقل جميع ما فيه الى داره بالخرنفش . ولم يترك فيه الا بعض الحصر . ولم يكن فيـه

غير بعض الخدم . وكان يستعمل المداهنة وينافق الطرفين » ١ هـ .

ولكن من الأنصاف للمهدى أن نكرر ما ذكره الرافعى من رسالة من بوسليج مدير الشؤون المالية الى نابليون : « أن المهدى رجل يطمع فى الشهرة والتزلف الى الجماهير . وأنه يضحى بجميع الفرنسيين فى سبيل الا يفقد شيئا من منزلته عند الناس » .

كذلك من الأنصاف للمهدى . وللجبرتى أيضا . أن نذكر ما قاله الأخير عنه بصدد علاقته بالفرنسيين « وبالجملة كان وجوده وتصدره فى تلك الأيام النفع العام . سد بعقله ثقوبا . وداوى برأيه فتوقا وجروحا . لاسيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع . وما يكدر طباع الفرنسية من مخارق الرعية . فيتلافاه بمراهم كلماته ويسكن حدته بملاطفاته »

ولم يحد خروج الفرنسيين من نشاطه الاجتماعى . فاتصل بالعثمانيين وتداخل معهم . وتقرب الى شريف افندى الدفتردار . فثبت وظائفه والتزاماته وسموحاته . وأضاف اليها ما ينتقيه من الديوان . وكل ذلك من غير مقابلة أو حلوان .

والدفتردار أى ممسك الدفتر . وهى وظيفة أقرب لوزير المالية . وعزل شريف أفندى آخر سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠٤ م) . والحلوان يساوى رسم التسجيل . وكان يدفع نظير الأثبات فى دفاتر الدولة لاسم من استفاد من وظيفة معينة أو التزام أو غير ذلك .

ولما قتل الدفتردار خليل أفندى الرجائى عقب مقتل طاهر باشا سنة ١٢١٨ هـ كما ذكرنا فى ترجمة الشيخ سليمان الفيومى . وأعقب هذا فتن واضطرابات كانت نهايتها مبايعة الشعب بزعامة السيد عمر مكرم لمحمد على فى صفر سنة ١٢٢٠ هـ (مايو سنة ١٨٠٥ م) كما سنذكر باذن الله . فيبدو أن المهدى كان فى هذه الفترة منصرفا الى شؤونه الخاصة وادارة أملاكه الواسعة . وكان كثير التغيب عن القاهرة . أو ربما وجد من الحصافة عدم الأشتراك فى الأحوال الجارية لغموضها . وعدم وضوح الجانب الأقوى .

وتزوج الكثيرات بخلاف ابنة الشيخ محمد الحريرى مفتى الحنفية السابق ذكره .

ولما توفى الشيخ سليمان الفيومى سنة ١٢٢٤ هـ (١٨١٠/١/٣٠) ترك زوجته المعروفه بالسحراوية . وكانت وافرة الغنى واسعة الثراء . وكانت طاعنة فى السن فاشترت لزوجها الفيومى جارية بيضاء أعتقتها وزوجتها له لترضيه . ولكن الفيومى مات قبل أن يدخل بها . وترك زوجتيه المذكورتين . فلما توفيت السحراوية أمكن للمهدى بتداخله أن يضع يده على دارها وأموالها وجوارها . ومالها من عقار والتزام . وزوج الجارية المذكورة لأبنه عبد الهادى .

واشترى دارا بالكحكيين (بجوار حى الباطنية جنوبى الجامع الأزهر) وجدد عمارتها وأسكن فيها زوجة أخرى أصلها من دمياط . وأسكن معها ضرة لها أصلها من شابور (على الشاطىء الغربى لفرع رشيد بالقرب من كفر الزيات)

وبنى دارا عظيمةفى جهة الموسكى على الشاطىء الغربى للخليج (جنوبى تقاطع شارعى بورسعيد والأزهر) . وماطل بائعى أرضها فى دفع باقى ثمنها ما يقرب من الخمس سنوات لكثرة تغيبه . ولم يصل البائعون الى حقهم الا بالشكوى الى كتخدا الباشا . وكانت هذه الدار واسعة . وبها من الجهة الغربية بستان يصل غربا الى المناصرة وكوم الشيخ سلامة (بالقرب من سوق الخضار بالعتبة) . وبنى ابنه محمد أمين فى هذا البستان دارا له ظلت الى العهد الحديث فأزيلت ودخل جزء منها فى توسعة شارع الخليج أو بورسعيد . وتحول الباقى الى مساكن ودكاكين . وكان أمامها قنطرة على الخليج اسمها قنطرة المفتى ــ نسبة الى الشيخ محمد المهدى العباسى شيخ الأزهر حفيد المهدى الكبير اذ كان تولى الأفتاء قبل مشيخة الجامع الأزهر . وأزيلت هذه القنطرة عند ما ردمت شركة الترام الخليج المصرى سنة ١٨٩٨ م لتسير خطوط الترام فيه (أسماء ومسميات لكاتب المقال)

ومن أولاده الذين رزق بهم الشيخ محمد المهدى الحنفى محمد أمين السابق ذكره وكان حنفى

المذهب كجده لأمه الشيخ محمد الحريرى . ومحمد تقى الدين توفى شابا فى حياة أبيه وكان مالكيا . والشيخ عبد الهادى وكان شافعيا كأبيه . وألقى دروسا فى الأزهر بعد وفاة أبيه .

وفى توزيع المهدى لأولاده على المذاهب المختلفة موضع نظر .

وذكر الأستاذ محمد فريد أبو حديد (سيرة السيد عمر مكرم ص ١٨٩) من المستشرق الفرنسى مارسل (١٧٧٦ ــ ١٨٥٤ م) أنه كان لا يمتنع عن مشاركة الفرنسيين تعاطى الخمر فى حفلاتهم . ومارسل المذكور كان عضوا فى المجمع العلوى الذى أنشأه نابليون بالقاهرة . وكان مديرا للمطبعة الأهلية التى أنشأها نابليون . واشترك فى وضع كتاب وصف مصر وكتاب التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية . وله رسالتان عن مستشفى قلاوون ومقياس الروضة (الرافعى جـ ١ ص ١٤٠ مع ملاحظة صغر سن المذكور أثناء الحملة الفرنسية) .

وكان للمهدى سنة ١٨٠٩ (١٢٢٤ هـ) دور فى ابعاد محمد على للسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط كما سنعرض له فى المقال التالى باذن الله . وكافأه محمد على بنظر أوقاف ضريح الامام الشافعى ووقف سنان باشا فضلا عن مبلغ كبير من المال . وكما قال الجبرتى : نظير اجتهاده فى خيانة السيد عمر مكرم .

وسنان باشا من أوائل الولاة العثمانيين . تولى مصر مرتين (٩٧٥ ــ ٩٧٦ هـ ، ٩٧٩ ــ ٩٨٠ هـ) . وتولى بعد ذلك الصدارة العظمى (رئاسة الوزارة) فى تركيا . وله آثار كثيرة فى مصر والشام من مساجد ورباطات وتكايا . وجدد حفر خليج الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) . (تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٤)

ولما أوقع محمد على بالمماليك فى مارس سنة ١٨١١ خرج ابنه طوسون لحرب الوهابيين فى الحجاز وتقرر أن يخرج معه أربعة من الفقهاء على المذاهب الأربعة . فتعين المهدى عن فقهاء الشافعية فى سبتمبر سنة ١٨١١ وعاد لمصر فى فبراير سنة ١٨١٢ م .

ولما توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر فى شوال سنة ١٢٢٧ هـ (أكتوبر سنة ١٨١٢ م) طمع المهدى فى مشيخة الأزهر مكانه . وأمر محمد على باجتماع المشايخ عنده . وأجمع فقهاء الشافعية الحاضرون على تعيين المهدى . وقرأوا الفاتحة . وهنأوه. وانتظروا صدور القرار . ولكن كان لمحمد على رأى آخر . فلم يأخذ برأيهم وعين الشيخ محمد الشنوانى كما سنذكر فى المقال التالى باذن الله .

وتجلد المهدى . ولم يظهر الامتعاض . حتى أنه عندما قدم عليه الشيخ الشنوانى لزيارته رحب به وهنأه . وخلع عليه خلعة فرو سمور .

ومع واسع ثروته لم يكن المهدى منعما فى حياته . وكان يتنقل بين أملاكه دواما . وذكر الجبرتى أنه ينام حيثما اتفق ولو على حصير ويأكل ما يجد من طعام ولو بطارخ أو فسيخ . ويبدو أن البطارخ والفسيخ كانا بأرخص الأثمان وقتذاك ومن مآكل السوقة .

وقد ألهته الدنيا فبذل ما أعطاه الله من ذكاء وطاقة فى جمع المال . ولو بذلهما فى النواحى العلمية والدينية لأفاد كثيرا واستفاد الذكرى الطيبة الجديرة بالبقاء .

وأخيرا توفى فجأة بداره بالكحكيين مساء فى ٢ صفر سنة ١٢٣٠ هـ (فبراير سنة ١٨١٥ م) . ونقله أولاده الى داره بالموسكى . ومن هناك شيعت جنازته . وصلى عليه فى الجامع الأزهر . وكان مشهدا عظيما حافلا . ودفن بجوار قبر الشيخ الحفنى . فسبحان من له الدوام .

وقال عنه الجبرتى فى ختام ترجمته : « كان من فحول العلماء . يدرس الكتب الصعاب فى المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق . ويقررها بالحاصل . وانتفع عليه الكثيرون من الطلبة . ومنهم الآن مدرسون مشهورون ومميزون بين نظرائهم من أهل العصر . ولو استمر على طريقة أهل العلم السابقين . وبعض اللاحقين . ولو لم يشتغل بالانهماك على الدنيا لكان نادرة عصره) .

محمد كمال السيد

أسلوب السخرية فى القرآن الكريم

تأليف الدكتور عبد الحليم حفنى

عرض وتقرير : الأستاذ السيد حسن قرون

هذا كتاب جديد يضاف الى القرآن الكريم ، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية بجوار أمثاله مما انتحى ناحيته من القرآن الكريم ونسب اليه مثل : المرأة فى القرآن الشيطان فى القرآن . اليهود فى القرآن . قصص القرآن الى كثير مما لم أطلع عليه فأبدى رأيى فيه ، والكتاب الذى أتحدث عنه ، ويلوى قلمى نحوه هو « أسلوب السخرية فى القرآن الكريم» لمؤلفه (الدكتور عبد الحليم حفنى)

وقد يضايقك عنوان الكتاب ، لأننا نقدس القرآن الكريم وهو كلام الله عما نراه من عمل الانسان من سخرية أو تهكم أو دعابة أو نكتة .. ولكنك حين تقرأ الكتاب مثلى وترى عقيدة المؤلف ورأيه ، والقصد الذى عمد اليه ، والجهد الذى بذله فى توضيح نظريته والتطبيق عليها ومراجعه التى استند اليها صرت معه ، وقلت قوله ، ورضيت هذا العنوان ، والمؤلف قد شعر شعورك وشعورى فمهد لقوله وبين غرضه وأفاض فيه ، وما من شك فى أن كل من قرأ القرآن وتمعن فى معانيه عرف مراميه . يجد هذا النمط من الكلام ويجد المفسرين يقولونه ويثبتونه نوعا من الأساليب التى تدحض سخرية أعداء الاسلام على اختلاف طوائفهم ونحلهم ، وان كان المفسرون أو غيرهم لم يفردوا له تأليفا خاصا ، أو كتابا يجمع متفرقه ، ويتتبع مسالكه ، لذلك أعلن المؤلف فى مقدمته :

« وقد كان موضوع هذا البحث ـ وهو أسلوب السخرية فى القرآن ـ جانبا من الجوانب الواضحة فى القرآن الكريم ، ومع ذلك فلا أعلم

أن أحدا من الباحثين قد تناولـه قط ولـو فى مقالـة ، واذا كانت الكتابة عن القرآن عامة من الصعوبة .. فان الكتابة عن جانب منه لـم تطرقه البحوث أشد صعوبة وأعمق تهيبا .. ومما يزيد فى ثقل هـذه المشقة أن تضاف اليها مشقة نفسية تنبع من الشـعور بأن الموضـوع متصل بقاعدة الاسلام . كتاب الله»

وقـد بين المـؤلف دوافع تأليف الكتاب واتجاهاته فى نقاط أثبتهـا فى المقدمة متخذا من الطرق العلمية سبيله الى جلاء موضوعه وتقديمه للقارىء على أسـس علمية يقبلهـا العقل ويقـرها المنطق ، والمـؤلف ليبلغ المنشود مما عمـد اليـه ، والمقصود مما استهدفه لم يعتمـد على اللغة والأدب وعلوم اللســان العربى فحسب وانما حشـد ورصد مجموعات من العلـوم النفسـية والاجتماعية والجغرافية (البيئة) والتاريخية وفى مقدمتهـا السـيرة النبوية فى كتبها القديمة والحديثـة فكان له من كل هذا معين وروافد ترضى الباحث والمتلقى والناقد على السـواء .

والمؤلف فى أول عنـوان له من كتابه وهو السـخرية وضـع هـذه الآية : « سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » وبدأ كلامه بمفهـوم معنى الســخرية وأعـاد الحـديث عن « السخرية فى القرآن » لأنه يخشى أن ينظر اليها بعض من ضاقت آفاق تفكيرهم من المؤمنين بالقرآن على أنها قد لا تتفق مع اجلالهم للقرآن من حيث انه كلام الله .. ولكنهم يغفلون عن أن القرآن مع أنه كلام الله الا أنه يعتبر « الناطق بلســان المسلمين » والممثل لحالهم بالنسبة الى أعدائهم ، واذا كان المسـلمون وأعداء الاسلام حزبين متخاصمين أبدا فان القـرآن هو الممثل لحزب المسلمين ومن البدهى أن القرآن لا ينطق بلسان المسلمين ولا يدافع عنهم باعتبارهم أشخاصا أو جماعة، وانما بوصـفهم ممثلين للعقيـدة الاسلامية ، ومن هذه الزاوية ليس هناك اختلاف أو تباعد بين عـداء القرآن وعداء المسـلمين وعـداء العقيدة الاسلامية ، لأن القـرآن لا يعتبر ممثلا للمسلمين الا فيمـا يتعلق بالاسلام بوصفه « عقيـدة

وشريعة » وبهذا الوصف نقبل نسبة السخرية الى الله تعالى ، لأن القرآن بصفته ناطقا بلسان المسلمين يجعل هذه الصورة كأنها صادرة من المسلمين أو ممثلة لموقفهم والقرآن فى كل اتجاهاته يحشد كل أسلحته وطاقاته ليعزز مركز المسلمين ويدفعهم الى النصر .

ولما كان أعداء الاسلام قد اتخذوا السخرية سلاحا ليضعفوا من شوكة المسلمين فى مكة أو فى المدينة أو فى كل موطن التقى فيه الايمان بالكفر كان لزاما أن يستخدم هذا السلاح ، ويؤيد المؤلف موقفه بالنقل عن الزمخشرى فيسوق قوله: يقول الزمخشرى :

« فان قلت لا يجوز الاستهزاء على الله لأنه متعال عن القبيح والسخرية من باب العيب .. فما معنى استهزائه بهم ؟ قلت معناه انزال الهوان والحقارة بهم ، لأن المستهزىء غرضه طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به » وما السخرية ؟ ولماذا نلجأ اليها وما آثارها ؟ السخرية فى مدلولها العرفى واضحة لا تلتبس بمعنى آخر ،

ويؤدى معناها عدة ألفاظ أبرزها التهكم والاستهزاء ، وهى سلاح عدائى مهما كانت دوافعها ، ويستعين المؤلف بآراء الباحثين عن السخرية فينقل عن علماء النفس قولهم : « الابتسام والضحك والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهزل والنكتة والملحة والنادرة والكوميديا ان هى الا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها انما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التى سرعان ما تمل حياة الجد والصرامة والعبوس فتلتمس فى اللهو ترويحا عن نفسها وتبحث فى الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكتة نحو التهرب من الواقع الذى كثيرا ما يثقل كاهلها » وهذه الأنواع المذكورة يجعلون عنوانها الضحك ، لأن الضحك هو النتيجة المباشرة لكل هذه الأنواع ويسترسل المؤلف فى ترسيخ فلسفة الضحك فيذكر أقوال طائفة من الفلاسفة الأقدمين والمعاصرين ، ويوازن بين ضحك البدائى وضحك المتحضر ، و ينتهى من كل هذا الى أن الضحك شعور بالانتصار وكذلك

السخرية تفيد شعورا بالانتصار والتفوق والتعالى على الخصم ، والمهم عندى ما أثاره المؤلف نتيجة بحوثه عن آثار السخرية ، فيذكر لها آثارا كبارا منها « النقد والاصلاح الاجتماعى » تسلط على الخارجين على كيان الجماعة ، ومنها « طلب التغيير الاجتماعى » ومهما بدت بريئة من كل غرض فلابد أن تحمل غرضا يكمن وراء هذا المظهر البرىء ، ولها دورها فى تقويم الخلق الاجتماعى ومعالجة اعوجاجه ومن مجالاتها (ميادين الحروب) فانها وسيلة الى اضعاف الروح المعنوية فى الجيش المسخور منه ، وخطورة السخرية بالنسبة للحرب النفسية أو العسكرية أنها تؤدى دورين هامين لصالح الساخر : أحدهما تقوية الروح المعنوية فى صفوف الساخرين ، والآخر هو أنها تضعف الروح المعنوية فى الذين تتوجه اليهم ، والسخرية تقتضى ذكاء وقدرة على تاليف العبارة الموجزة وبلوغ المفارقات من أقرب طريق ، والساخر لابد أن يتحلى بذكاء ومنطقية ، وسرعة بديهة ، وحسن تخلص ، وبراعة فى الرد ، وشعور بالتفوق والانتصار والاستعلاء . والامام محمد عبده يوضح هذا المعنى فى قوله : « من شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع » .. كذلك كان شأن جماعة من قريش كأبى جهل والوليد ، وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل مكان ، ويحتاط المؤلف لكل موقف فيذكر اعتراضا هو قد ترى الضعفاء يسخرون من الأقوياء ، فيرد مبينا حالة المستهزأ به من رئيس أو زعيم ممن لا يسير مع مرءوسيه حسب وظيفته ، فتسقط منزلته من نفوسهم فيرون أنفسهم أنهم فى مركز نفسى أقوى من مركز الذين يسخرون منه مهما يكن ذا قوة مسيطرة ، ويؤيد هذا موقف المصريين من المستعمرين على مدى الأحقاب ، فهم يعتقدون أنهم أذكى وأعلى وأنقى من هؤلاء الذين سطوا وغلبوهم على أمرهم .

وخرج المؤلف من عرضه هذا الى أن « القرآن الكريم لم يختر أسلوب السخرية من أعدائه ليكون

مجرد تهكم أو استهزاء أو تحقير كما يتراءى لبعض المفسرين ، وانما اختاره لأهداف أبعد ، وأغراض أعمق تبدو فيها الدراسة العلمية ، والتخطيط المنسق الذى يثبت أن القرآن الكريم كان أسبق من علم النفس وباحثيه ادراكا للسخرية فى معناها العلمى » كما أن القرآن ارتفع بها عن موطن البداوة الى مناط الحضارة ، بل ارتفع بها عن الهجاء الذى كان سلاح الشعراء حين نزول القرآن ويخيل الى أنك مثلى تستعجل الحديث عن أعداء الاسلام ومكانة السخرية بين الطرفين ، وفى يقيننا كما فى يقين المؤلف أن سخرية القرآن أنفذ مسلكا وأكثر براعة وأسمى عبارة وأمس بالبلاغة من سخرية غيره ، لأن الله يعلم طبائع النفوس ولا تخفى عليه خافية ، وسنجد أعداء الاسلام وان سكنوا الجزيرة العربية آن نزول القرآن الا أنهم يشلون الأعداء فى كل مكان وزمان .. والأعداء هم : العرب واليهود والنصارى أو هما معا كما يسميها المؤلف « العداوة المزدوجة وامتدادها » ص ٣٣ من

الكتاب ثم المنافقون ، وبحث المؤلف يتناول حسب عنوانه جانبا واحدا من السيرة النبوية ومنها معجزة محمد صلى الله عليه وسلم «القرآن» الا أن البحث يكشف لك السيرة النبوية كشفا موسعا لأن حديث السخرية اقتضى التوسع من حيث ان السخرية كانت فى منزل الوحى الأول تعالج نوعا من العداوة الطاغية التى تعتد بالحسب والنسب والنشب ، والتفاخر بالأجسام والعقول والرياسة ، وما تقوله عن منزل الوحى الأول فى مكة نقوله فى منزل الوحى الثانى فى المدينة فسنرى بجانب العرب ظهور اليهود مناهضين للدعوة ولهم أساليبهم ومكرهم ، وسنرى قوما من الأوس والخزرج والأعراب حول المدينة جعلوا النفاق سياجا وملاذا ، ومن كل هذا نجد معارضة بالكلمة كما نجد معارضة بالأسلحة ، فالأعداء كثيرون والمسلمون كانوا قلة على مدى أكثر من خمسة عشر عاما منها ثلاثة عشر فى مكة ، وفى كل تلك السنوات الطويلة كان القرآن هو السلاح القهار الذى يدفع الأعداء ويدحر المتكبرين ، ويعطى

الثقة الحقة فى نفوس أصحاب محمد ومن باب أولى يعطى الثقة الكاملة لصاحب الرسالة نفسه .

ويجىء فى المقام الأول المشركون وهم الذين جعلوا مع الله الها آخر «ويستثنى الاسلام من هذا الوصف أهل الكتاب أى الذين لهم كتاب سماوى وهم اليهود والنصارى ، والمشركون يمثلون الجبهة المضادة للاسلام ، ومنها جماعة معينون من المشركين كانوا بالاضافة الى عداوتهم للاسلام يملكون سلاحا معينا هو سلاح السخرية ، وهم الذين حددهم القرآن فى قوله :

« انا كفيناك المستهزئين » ومنهم قادة المشركين « أئمة الكفر » كما سماهم القرآن نفسه ، وهؤلاء يمسكون زمام الجبهة المضادة للاسلام » .

وينبغى لنا ونحن نعالج أمر السخرية أن نستحضر ما لاقاه المسلمون من اضطهاد نفسى وبدنى لندرك الى أى مدى كانت السخرية لها وقعها فى نفوس الذين يضطهدون عمارا وبلالا وصهيبا وغيرهم فى مكة ، بل امتد العدوان لشخص الرسول فى مكة والطائف وهو مركز الدعوة والصورة المثلى التى ان اهتزت كان لاهتزازها الأثر المخيف لحياة المسلمين ودعوتهم الطيبة ، لذلك تجد القرآن يواسى النبى ويسليه بمثل : « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (١)

وللمؤلف فن رفيع فى عرض سخرية القرآن فهو يذكر ما جاء فى الآية أو الآيات موضحا وموازنا ، ثم يعقب بذكر نص القرآن ، فيقول : ويسوق القرآن سخرية أعداء النبى به ، ولكنه يوجه اليهم سخرية بالغة حيث يسخر منهم فى عقيدتهم فيجعلهم لا يعبدون شيئا وانما يعبدون مجرد الهوى فى النفس ويسخر منهم فى عقولهم فيجعلهم فى مرتبة الموازنة بينهم وبين الأنعام ، ثم يفضل الأنعام عليهم حيث انها تؤدى فى الحياة دورها الطبيعى

---

(١) سورة الأنعام آية ١٠

الذى خلقت من أجلـه ، أمـا هم فيخالفون الفطرة التى فطر الناس عليها ويحاربون غريزة أوليـة فى الانسـان وهى الشعور بالخالق ، وهى ما يسميها علماء النفس غريزة التدين ، فتفضيل الأنعام عليهم وان بدا فى صورة السخرية البالغة الا أنه معنى حقيقى لا تجوز فيـه . يقول القرآن الكريم عن السخرتين منهم ومن القرآن : « واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسـولا . ان كاد ليضـلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالأنعـام بل هم أضـل سبيلا » (١)

واذا كانت هـذه الآيات تسرية عن نفس النبى لأنها موجهة اليـه الا أنها تشعر المسلمين بأنهـا لهم أيضا ، فتـزيل عنهم الهم والضيق وتبعث فيهم الثقـة بالنفس ، وفى الوقت نفسه تحطم معنويات العدو، فوصفهم بالأنعـام يسر المسـلمين ويدفعهم هم للتفكير فى موقفهم من معنى الاله . ومثـل هـذا كان له تأثير كبيـر فى نفـوس المشركين ولاسيما أئمة الكفر ، فيجنون جنونا من وقع السخرية عليهم ، ويذكـر المؤلف قصـة أم جميل زوج أبى لهب حين سمعت مانزل فيهـا من سخرية وقد سمته هجاء محمد لها . تقول الرواية : ان أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيهـا وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله وهو جالس فى المسـجد عنـد الكعبة ومعه أبو بكر وفى يدهـا فهر ـ حجـر مـلء الكفه ـ من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخـذ الله ببصرها عن رسـول الله ، فلا ترى الا أبا بكر . فقالت : يا أبـا بكر ، أين صاحبك ؟ قد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجـدته لضربت بهذا الفهـر فاه . أمـا والله انى لشاعرة ثم قالت :

مذممـا عصـينا
وأمـره أبينـا
ودينه قلينـا

(١) سورة الفرقان الآيات (٤١ ـ ٤٤)

وحين تتصور مبلغ سخرية القرآن من امرأة فى ذروة المجد والشرف ، ثم هى أنثى ككل امرأة يعنيها قبل كل شىء صورتها ومظهرها فى نفوس الناس وقلوبهم واذا هى تجد من يمحو عزها وشرفها ، ويقبح صورتها يجعلها مجرد حمالة للحطب ، بل أكثر من ذلك يرسم صورتها وكأنها دابة تقاد بحبل من ليف فى عنقها ، حين تتصور امرأة ، وامرأة فى هذا الوضع من قومها تبلغ منها سخرية القرآن هذا المبلغ يمكن أن تتصور ما تتركه هذه السخرية فى نفسها

وهذا التوجيه لسورة « المسد » يدل على فهم عميق من المؤلف ، وبيان واقعى منه لمعنى السخرية وأثرها ، وكذلك تجده موفقا فى كل مثال أتى به مما يدل على دراسة وافية لمعانى القرآن الكريم، واليك سخرية بالتقاليد يقدم لها المؤلف قائلا :

ومن هنا تفهم جانبا مهما من اهتمام القرآن الكريم بالسخرية اللاذعة من عاداتهم ومحاكاتهم ، وخاصة ما يتعلق بالآباء ، فان القرآن يعرض أولا تمسكهم الشديد باتباع آبائهم على أى وضع ، وعلى أية حال ، ثم يسخر من آبائهم ، ومن اتباعهم لآبائهم الذين تصورهم هذه السخرية ، وكثيرا ما يسوق القرآن هذه السخرية فى استفهام يبرز السخرية المقصودة كقوله : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون • ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون (١) »

وهاتان الآيتان استشهد بهما المؤلف أيضا حين تعرض « لمبدأ التمسك باتباع الآباء » فبين أنه نزعة مستقلة فى نفوسهم وهى أعم من العادات نزعة تسيطر على أفكارهم وتوجه عقيدتهم ، فقد اتخذوا من آبائهم وأجدادهم وخاصة البارزين منهم ما يشبه الآلهة •• ومن أمثلة

---

(١) سورة البقرة (١٧٠ ـ ١٧١)

ذلك قصة أبى لهب عم الرسول الذى كان يؤازره ويتعصب له (بعد وفاة أبى طالب) ففكر بعض أعداء الرسول فى حمله على التخلى عن مناصرة ابن أخيه ، فالتمس أهم نقطة تسيطر عليه وعلى غيره وهى تقديس الآباء والأجداد ، فقال لأبى لهب : ان محمدا يزعم أن عبد المطلب فى النار ، ففزع أبو لهب ، وأرسل الى النبى يسأله : أين عبد المطلب ؟ فرد النبى بأنه مع قومه ، فطابت نفس أبى لهب . وقال : نعم المقام أن يكون مع شيوخ قريش ، ولكن الذى أراد الوقيعة عاد يقول له : ان محمدا يزعم أن شيوخ قريش فى النار ، فأرسل أبو لهب الى النبى يسأله : وأين قومه ؟ فأجاب النبى بأنهم فى النار . هنالك انقلب أبو لهب عدوا من أشد أعداء النبى وألدهم عداء ، وكان تشبثهم هذا الشديد بكل ما يتعلق بالآباء عقبة أمام الاسلام ، ويسير المؤلف فى تأييد رأيه الى أن يقول : ولذلك تجد القرآن يصور مدى تشبثهم باتباع آبائهم فى حين لا حجة لهم ولا منطق فى هذا الاتباع مع وضوح ضلال آبائهم وسفه تفكيرهم ، ويصور القرآن أيضا الغاءهم عقولهم وتفكيرهم استنادا الى عقول آبائهم بأنهم أصبحوا حينئذ كالغنم التى لا تعى من كلام راعيها الا مجرد الصوت الذى لا يدل على معنى ، ولا يفهم منه شىء بالنسبة لهم : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون »

وبذلك صاحب الوقيعة بين النبى وعمه على مقدار كبير من الذكاء ومكر الحيلة وكذلك كانت قريش ، وقد وصفهم القرآن بأنهم قوم خصمون ، ووصف الجاهلية يطلق على تعاميهم عن دعوة الاسلام، وهربهم من تقبله ، ولكنهم كانوا ذوى عقول تدرك وتحاور وفى قصة الوليد ما يشير الى عقليته الناضجة ، وبصره بمعانى الأساليب القرآنية . وأنا لا أريد أن ألخص لك كتابا يقع فى أربعمائة صفحة وسبع وأربعين صفحة ، وانما يعنينى أن أذكر لك بعض طرائفه مما أتى به من السخرية ، وصنيعه

فى التحليل والتعليل والادراك الأصيل لبلاغة القرآن ، وظهوره على أعدائه قاهر أو متحديا ، من غير حيدة عن منهج المؤلف ورؤيته لأى المؤلف أن القرآن اتخذ من البيئة العربية مادة للسخرية ، وهى بيئة صحراوية قائلا : وتتراءى لنا طبيعة الارض العربية واضحة خلال سخرية القرآن فمن ذلك هذه السخرية الشديدة التهكم بالتكبر المختال الذى ترسمه سخرية القرآن رسما (كاريكاتيريا) مضحكا بأنه يمشى مشية عجيبة لا كما يمشى الناس ، فهو يضرب الأرض بقدميه كأنه يريد أن يخرقها ، ويشمخ بأنفه ووجهه الى السماء كأنه يريد أن يطاول الجبال فى ارتفاعها ، ولكن سخرية القرآن تقول له : « ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها » والسخرية الشديدة واضحة فى قوله تعالى : « انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » فمن البدهى أن أحدا لا يظن أنه سيخرق الأرض مهما تكن مشيته ، وأن أحدا لا يظن أنه سيبلغ بقامته رءوس الجبال مهما مد عنقه ، ومهما شمخ بأنفه ، ومهما تطاول بقامته ورأسه ، ولكنه كما يقول الزمخشرى تهكم بالمختال .. على أننا نلاحظ دقة التعبير فى قوله تعالى : « كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » فقيد موضع السيئة بجانب الله سبحانه بينما أطلق الكراهة اشارة الى أن هذه المشية وما تدل عليه من خلق صاحبها ذنب عند الله ، وفوق ذلك هى مشية مكروهة من الله والناس، لأن الناس لا يحبون المتعالى عليهم وان أظهروا له طاعة أو تقربا ، فان قلوبهم لا تضمر له الا البغض والكراهية ، والذى يعنى الموضوع من هذه السخرية ما يوحى به قوله تعالى : « انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » فقد تضمن هذا التعبير أن هذا الشخص المختال فى مشيته حوله جبال يحاول أن يطاولها ، ومعنى ذلك أنه يمشى فى بيئة تنتشر فيها الجبال وهو واقع البيئة العربية ، وكذلك التأكيد لهذا الماشى المختال بأنه لن يخرق الأرض ، فانه وان كان معلوما أن المشى لن يخرق أى أرض الا أن

التعبير يوحى ضمنا بصلابة الأرض ، لأن المبالغة التى تقتضيها السخرية انما تتحقق اذا تصورنا أن الأرض التى يمشى عليها صلبة جدا لايخرقها المشى ، ولا ما هو أقوى من المشى، بخلاف ما لو تصورنا أنها أرض رخوة لينة .. وبهذا توضح لنا هذه السخرية طبيعة الأرض التى يعيش فيها العربى ، وهى الأرض الصخرية الصلبة ، والجبال المنتشرة فيها . وبهذا كله يعطيك المؤلف صورة واضحة للسخرية يبسطهابكل دلائلها من جغرافية وبلاغية ونفسية ، وبهذا يعيد للبلاغة العربية شبابها أو يعيد لنا النقد الأدبى فى بهائه ونقائه وحسن ضروبه

واليك صورة أخرى لحيوان البيئة كما جاء فى سخرية القرآن الكريم . يقول المؤلف : وسخرية القرآن تستغل خبرة العرب بحيوان الصحراء ، ومنه حمار الوحش ، فترسم صورة لأولئك الذين ساق الله اليهم الهداية ، وأرسل اليهم النور ، ليستضيئوا به ، وتستنير حياتهم ببهائه ، فأصموا آذانهم ، وأغلقوا أبصارهم ، بل نفروا من هذا النور نفارا شديدا ، وكأنهم جماعة من حمر الوحش فاجأها خطر يتهدد حياتها ،فانطلقت مذعورة بأقصى ما أتيح لها من عدو ، لا تلوى على شىء ، ولا تفكر فى شىء ، ومن الواضح أن قرن موقف أعداء الاسلام بهذه الصورة من حمر الوحش ، وتمثلها فى الذهن أى المقارنة بينهما تحمل أقصى سخرية بقوم يتصورون فى أنفسهم العقل والتؤدة والغلبة . « فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة (١) »

وهكذا يسير المؤلف فى تفسير ما يختاره من الآيات خاصا ببحثه . فاذا جئنا الى المنافقين ومن وراءهم من اليهود فماذا يقدم لنا من الصور وللمؤلف فلسفة انفرد بها فى بيان معنى النفاق ، والفرق بينه وبين الكفر ، ثم ان له رأيا فى تدين اليهود وموجز ما قال فى هذا الشأن، ومن المعروف أن النفاق لم يعرف فى مكة ومن حولها ؛ ذلك أن المسلمين لم يكونوا من القوة يومئذ

---

(١) الآيات (٤٩ ــ ٥١) سورة المدثر والقسورة الاسد أو جماعة الصائدين

بحيث يخاف منهم الكفار فيظهرون خلاف ما يبطنون ، والمسلمين مع قلتهم قابلوا جبهة الكفر بالتحدى ، فهم يطوفون بالكعبة ، ويعلنون القرآن ويصبرون على الأذى أو يهاجر من يهاجر الى الحبشة ، وقد يحاصرون فى شعب أبى طالب ويمنع عنهم الطعام وغيره من متطلبات الحياة ولكنهم ثابتون على المبدأ لا يبغون عنه حولا ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى المدينة وصارت لهم جماعة من الأنصار تكونت بداية الدولة الاسلامية ، هنا كان لليهود مجالهم الذى طبعوا عليه من حقد على البشرية ، فكانوا أشد الناس عداوة للاسلام ، وقفوا ضده جميعا الا قليلا منهم ليس له خطر ، ومن ثم جعلهم القرآن فى الترتيب أول الأعداء : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا .. » فلقى منهم الاسلام والمسلمون أخطر المواقف ، رفضوا الاسلام بصورة جماعية ، وسنوا للعرب النفاق ، فكل روايات التاريخ تؤكد أن الذين نافقوا من العرب انما التفوا حول نفاق اليهود وظاهروه كقول ابن حزم : « وكفر جمهور اليهود وظاهرهم قوم من الأوس والخزرج منافقون يظهرون الاسلام مداراة لجمهور قومهم » وكم لهم من دعايات واشاعات حول الدين وصاحبه ينفثون السموم ليشككوا ويضللوا ، بل كانوا يعملون على قتل الرسول نفسه ، وهو الذى هادنهم ، وجعل لهم ميزة على أنهم أهل كتاب ، وقد تظن أن موقفهم العدائى راجع الى قوة عقيدتهم وتمسكهم بكتابهم ، ولكن المؤلف يثبت بالأدلة القاطعة ضعف العقيدة عندهم ، بل يحكم عليهم بفقدان مبدأ الاعتقاد وقد يبدو هذا الحكم غريبا لما عرف عنهم من الانطواء على دينهم مهما تفرقوا فى أنحاء الأرض ، لكن الحقيقة أن انطواءهم على الانتماء الى دينهم ليس مصدره الاعتقاد بالدين ، وانما مصدره (الأنانية) متغلغلة فى أعماقهم لكونها نابعة من طبيعة خاصة بهم ، وصفات مشتركة يحسون بها فى سلالتهم فيأنسون اليها ويلتفون حولها ، انها عنصرية بحتة لا تكاد تتصل بالدين بمعناه العقدى ، ويؤكد ذلك كثرة من أرسل من الأنبياء

اليهم .. وتكرار الرسل فى شعب واحد معناه أن أحدا من هؤلاء الرسل لم ينجح فى أن يغرس فى هذا الشعب الايمان والاعتقاد ، والقرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فى كثير من مواضعه ، ومن ذلك قوله تعالى: « .. وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ولئن كان القرآن قد قرر أن نزعة الكفر عند اليهود صفة متوارثة فيهم عبر القرون والأجيال فان بعض الباحثين الغربيين المعاصرين فى بحث خاص عن اليهود يقرر هذه الحقيقة التى توصل اليها فى بحثه وقد سبقه القرآن اليها منذ أمد بعيد .

يقول (ريك) : « ان وراء المظهر السطحى للنقد الذاتى ـ عند اليهود ـ تكمن نزعة شكية عدائية تتجه نحو الدين ، بل نحو الله يضلل عباده بالوعود المعسولة التى لن تتحقق يوما »

ويقول هذا الباحث نفسه فى حديثه عن طبيعة العدوان فى نفسه باعتباره المخادع الأكبر الذى اليهود : « وقد لا يقف العدوان عند حدود الخصوم البشريين ، بل قد يمتد أيضا نحو قوة أخرى غير بشرية ، تتخذ فى نظر اليهود صورة الطاغية الأكبر ، ونعنى بهذه القوة الله نفسه » فاليهود اذن ليس فى طبيعتهم الاستعداد للايمان ومبدأ الاعتقاد ، وهو أوضح تعليل للنفاق ، فان النفاق يقوم أساسا على « فقدان الاعتقاد » فى أى شىء خارج ذات صاحبه ومصلحتها ، ولذلك كان من ابرز صفات المنافقين فى القرآن الكريم « مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء » فهم لا يعتقدون فى الاسلام ، ولا يعتقدون فى الدين الذى يظن الناس أنهم ينتسبون اليه فى الخفاء ، ويستمر المؤلف فى مذهبه هذا متحدثا عن بخلهم وغدرهم وعدوانهم ، وخلو قلوبهم من كل شعور بالايمان والعقيدة قائلا ، ومن (١) تفاهة

---

(١) ص ٢٦٧ من الكتاب

تفكيرهم ، وضيق أفقهم الذى يتحدث عنه (ربك) وذلك فى قصة تنجية الله سبحانه لهم من عذاب فرعون ، ومن الذل والخسف الشديد الذى كان يخيم على ليلهم ونهارهم ، ولا ينجو منه رجالهم ولا نساؤهم ولا أطفالهم ثم زادهم الله فوق ذلك من نعمه مالم يكونوا يحلمون به ولا يدور لهم قط فى خيال ، وكان معهم نبى من أعظم الأنبياء هو موسى عليه السلام ، وأحدث الله لهم معجزة ينجون بها من عذاب فرعون قلما يحدث مثلها لقوم على يد نبى من الأنبياء ، حيث شق الله سبحانه لموسى البحر ليجوز فيه قومه بنو اسرائيل ، وكان المنتظر من قوم يسبغ الله عليهم نعمة النجاةأن تمتلىء نفوسهم شكرا لله وايمانا به ، وكان المنتظر أن تظل صورة هذه المعجزة الكبرى فى انشقاق البحر لهم ماثلة فى ذهن كل فرد منهم لا تبرحه حتى يموت ، ولا يبرحه معها شكر وايمان بالله لاحد لهما ، ولكن ذلك كله لم يصل الى نفوسهم ، ولم يؤثر قط فى قلوبهم لأن نفوسهم غير مستعدة للايمان مهما تهيأ لها من دواعى الايمان ، ولأن نفوسهم غير مستعدة للشكر والوفاء مهما يسبغ عليها من دواعى الشكر والوفاء ، بل هى متحفزة دائما لكل ما يناقض الخير فى نفوس الناس ، فاذاهم فور خروجهم من البحر ولم تجفأقدامهم بعد ومعهم موسى عليه السلام يرون قوما يعبدون الأصنام ، فينسون الله وينسون فضله العظيم عليهم ، وينسون معجزته التى أجراها لينجيهم بها ، ويقولون لموسى : اجعل لنا صنما نعبده كما يعبد هؤلاء آلهتهم ، ويصور القرآن هذه القصة مبتدئا اياها بذكر فضله أيضا ، وبين هذه الأفضال يقبع غدر اليهود وكفرهم وجحودهم لكل نعمة :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون • وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة

قال انكم قوم تجهلون • ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون • قال أغير الله أبغيكم الها وهو فضلكم على العالمين » وتكفى هذه القصة لبيان ايمانهم ووفائهم نحو خالقهم الذى أنعم عليهم بنعم لايقدر الناس على شكرها ويجهدون فى أدائه ، فهم كما قال المؤلف « لو آمنوا بالتوراة ما كفروا بالاسلام » تعليقا على سخرية القرآن بهم فى قوله : « واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون »

وأنتقل مع المؤلف من اليهود الى المنافقين ، والمنافقون العرب جاءهم النفاق من مجاورة اليهود ، فالنفاق نبع من المدينة وما حولها من الأعراب ، كما يقول سبحانه : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق » والمهم عندى رأى المؤلف فى النفاق وهو رأى له قدره وخطره ، فهو يقرر أن النفاق يقوم أساسا على « فقدان الفرد الاستعداد للعقيدة فى طبعه »

ويشرح رأيه معتمدا على رأى علماء النفس والاجتماع عن ملازمة الدين المجتمعات ، وأقل ما توصف به نزعة التدين والاعتقاد أنها غريزة أساسية فى الأفراد ، وحيث كانت نزعة الاعتقاد والتدين غريزة فهى اذن أمر فطرى فى طبيعة الأفراد يولدون وينشئون به ، وهذه النزعة تتمثل فى شعور الفرد شعورا نفسيا تلقائيا بالاله وسلطانه وهيمنته • دون أن يحتاج الى مرشد الى ذلك، لأنه شعور مستقر فى النفس ونابع منها ، وتبعا لذلك فانه يكيف سلوكه ويصوغه فى ضوء احساسه بالاله، والذى يعنى علماء الاجتماع من غريزة التدين هو تأثيرها فى السلوك وفى تكوين الظواهر الاجتماعية ، من حيث انها مجال الدراسة الاجتماعية • أما الذى يعنى علماء النفس فهو وجود غريزة التدين والاعتقاد من حيث هى فى النفس ومن حيث تأثيرها فى تنمية الفرد ومشاعره وعواطفه ، والذى يعنى موضوعنا من ذلك مجرد اتفاق علماء النفس والاجتماع على أن الاعتقاد الدينى غريزة أصلية فى الانسان ، وهذا يؤيده الحديث الشريف :

« ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » وينتهى من ذلك الى أن من يعبد غير الله عنده غريزة التدين ولكنه ضل الطريق الى الله، ومن هنا يمكن أن نتحدث عن النفاق بأنه « فقدان هذه الغريزة الفطرية » من باب الشذوذ عن التكوين الطبعى فى الانسان بمعنى أنه على حين يحمل الناس فى طبعهم غريزة الشعور بالاله والاعتقاد بوجوده نجد المنافق فاقدا لهذه الغريزة أصلا وتكوينا ، وهو حينئذ شاذ عن الفطرة السوية للبشر ، واذا كان الشأن فى الناس أن يكونوا عقلاء ولكن منهم من يشذون فيولدون مجانين ، وقد يكونون ذوى حواس سليمة ، ولكن منهم من يشذون فيولدون فاقدين لبعض هذه الحواس كالسمع والبصر ، وكذلك الشأن فى العقيدة ، فمنهم من يولدون وفيهم غريزة التدين وبعضهم يولدون فاقدين تلك الغريزة . وبناء على ذلك فليس صحيحا أن المنافق يدين بدين آخر غير الاسلام ، ولكنه يظهر اسلامه اتقاء لضرر أو أى غرض ، وانما الواقع الذى يؤيده القرآن أنهم لا يدينون قط بأى دين ، وليس فى نفوسهم قط الا طلب المنفعة المادية المباشرة لأشخاصهم ، والمنفعة التى لا تكلفهم مشقة أو بذلا أو تعرضا للمخاطرة بالنفس أو المال كما يصور القرآن موقف بعضهم من المشاركة فى القتال مع المسلمين أو حتى النفر للقتال فيقول : « وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما (١) » وكان المنافقون منبثين بين المسلمين يتحركون حركات مدمرة يعملون على التفرقة بين الصفوف ، وتثبيط الهمم ، والتشكيك فى الدين ، والتهوين من الأعمال العظيمة

والقرآن تحدث كثيرا عن المنافقين فى سوره ، وخصهم بسورة كاملة هى سورة (المنافقون) ، والآيات

---

(١) الآيتان ٧٢ ــ ٧٣ سورة النساء

تحكم على المنافقين بأن عقابهم أشد العقاب ، وأنهم فى أسفل درك من النار . « ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ويسوق المؤلف أقوال المفسرين ، ومنهم من عقد موازنة بين الكافر الأصلى والمنافق، ومنهم من شرح معنى « مذبذبين بين ذلك » متحدثا عن المنافقين أفرادا وجماعات وسلوكهم فى المجتمع الاسلامى على عهد الرسول ، وهو فى كل مقام يلح على أنهم فقدوا غريزة التدين والايمان ، وهو رأى مقبول ولك أن تأخذ به أو تعارضه ان وجدت دليلا يؤيد معارضتك ، ويضاف الى ذلك اجابته عن سؤاله : النفاق من طبيعة المنافق وهو تكوين فطرى وخالق هذا التكوين هو الله سبحانه فكيف يخلق فيهم هذه النقيصة ثم يحاسبهم عليها (١) ؟ ومع أنه اعتذر عن عدم الاجابة أجاب ولكن الاجابة لا تقنع الانسان اقناعا تاما ، وخير ما يقال أن نترك الأمر لخالقه ، أو نقول مع القائلين : ان الله أعطاه عقلا واختيارا وعليه أن ينتفع بهما ، فما يقال فيه يقال فى الكافر ، ويعقد المؤلف فصلا عنوانه « المنافقون والسخرية » ويناقش السخرية عندهم وعند الكفار فيقرر أن سخرية الكفار لا تأتى من الكفار كجماعة ولكن تأتى منهم كأفراد أو الى نفر منهم . هم أئمة الكفر ، أما المنافقون فيبدو من حديث القرآن عن سخريتهم أنها جزء من طبيعتهم جميعا ، وصفة من صفاتهم ، فهى سخرية نابعة من فقدانهم العقيدة فهم لا يرون فى أى دين أو عقيدة شيئا يستحق الاهتمام ، وانما يرونه تفاهة أو عبثا أو أى شىء من قبيل الاستهانة وعدم الاهتمام فنفوسهم ذاتها تحمل السخرية والاستهزاء بالعقيدة سواء صدر من ألفاظهم ما يدل على ذلك أو لم يصدر ، وهذا يختلف اختلافا شديدا مع سخرية الكافرين الآخرين ، فان هذه لا تنبع من نفوس مستهيفة .. وانما تمثل مجرد سلاح عدائى يراد به الضرب فى الاسلام والمسلمين بخلاف المنافقين الذين لا يحملون فى نفوسهم الا الاستهزاء النابع من الاستهانة ، ولذلك يجعل العلماء

---

(١) ص ٩٦ من الكتاب وما بعدها

صفة الاستهزاء فارقا بين المنافق والكافر الصريح حيث يرون التصريح بالكفر تحديا وعداء يدلان على الاهتمام ، كما يقول الرازى فى سياق تقرير أن النفاق أقبح من الكفر الصريح « ان المنافق ضم الى كفره الاستهزاء بخلاف الكافر »

ويقول الزمخشرى : « فان قلت : لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله فى الكفر ، وضم الى كفره الاستهزاء بالاسلام وأهليه ومداجاتهم » ثم يتحدث المؤلف عن صفاتهم ، ويذكر قول الله لرسوله عنهم : « ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم » (١) ومن صفاتهم المبالغة فى اخفاء أمرهم ، واستشعار الريبة ، والكذب والاعتماد على المظهر ، والجبن الشديد والسلوك النفعى ، وكل صفة من هذه الصفات يمثل لها بآية من القرآن الكريم فيها سخرية بهم .

يقول المؤلف فى صورة من صور الخوف ، يصور القرآن أثر الخوف الشديد الذى يعتريهم حينما يتعرضون لموقف مخيف ، فيلفت النظر الى عضو معين فيهم حينئذ ، هذا العضو متمثل فيه كل مشاعرهم وانفعالاتهم ، وهو «العين» ويضرب القرآن مثلا من أمثلة مواقف الخوف بالنسبة للمنافقين وهو أن ينزل من القرآن ما فيه أمر القتال ، حينئذ يشعر المنافقون بحكم ادعائهم الاسلام أنهم مضطرون لمشاركة المسلمين فى القتال ، والمشاركة فى القتال تعرض حياتهم للخطر ، وحينئذ ترتسم فى عيونهم كل مشاعر الرعب والفزع ، ويبحثون عن أى أمل يتعلقون به للنجاة ، أو للتخلص من هذا الموقف الذى يواجههم ، فلا يجدون أملا الا فى شخص الرسول ، فتتعلق نظراتهم الفزعة الجازعة به كأنها نظرات من يعالج سكرات الموت ، ضارعة الى الرسول أن يغيثها من هذا الخطر الذى يواجهونه :

« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت

---

(١) الآية ٣٠ سورة محمد

سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم (١) وتعبير « أولى لهم » فى صيغة الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويلاحظ فى تعبير الآية أن كل هذا الرعب الذى اعتراهم والذى بدا فى عيونهم ونظراتهم ليس لأنهم أمروا بالقتال ، وانما لمجرد أن السورة التى نزلت « ذكر فيها القتال » ... ويتركز اهتمام المنافقين حين يشاركون المسلمين مواقعهم فى الحرص على الغنائم وينكشف نفاقهم لدرجة السخط حينما يحظون منها بما يريدون ، حتى انهم يصلون الى الطعن فى شخص النبى .. « ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون (٢) »

ولا يفوتنى وأنا أطالع هذا الكتاب أن اشير الى فصل عقده بعنوان « الشعبية فى سخرية القرآن » وقد كان له توفيق فى عرضه وحسن تأنيه واستئناسه بآراء المفسرين وأساليب البلاغة وفن القول ، ويقصد بالشعبية تنزل أصول القرآن أحيانا الى معان وتعبيرات دارجة يتداولها الناس فيما بينهم ويستخدمون مضمونها أو أسلوبها فى حياتهم العادية ، واذا القرآن يوردها فى كثير من آياته فيصل الى القلوب من أقصر طريق ، وبأقوى طاقة ، ففى هذا النوع من الأساليب معان متداولة لا تحتاج الى كدذهن او اطالة فكرة ولا سيما اذا صيغت السخرية بأسلوب الواقع وصورته ، ويؤيد كلامه بأقوال المفسرين وأرباب البلاغة من مثل تفسير الرمانى لقوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » حيث يقول :ن والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ، ولكن هذا أبلغ فى الوعيد ، وحقيقته « سنعمد » الا أنه لما كان الذى يعمد الى شىء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه ، وكان الفارغ له هو البالغ فى الغالب مما يجرى به التعارف دللنا بذلك على

---

(١) الآية ٢٠ سورة محمد

(٢) الآية ٥٨ سورة التوبة

المبالغة من الجهة التى هى أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ، ليقع الزجر بالمبالغة التى هى أعرف عند العامة والخاصة موضع الحكمة » فهو يرى أن كون هذا الأسلوب أعرف من غيره عند العامة وغيرهم وأكثر شيوعا من أسباب ايثار القرآن له . ونحن نقول اليوم فى دراستنا للبلاغة ان الكلمة التى تستخدم فى حياتنا اليومية تحمل شحنة عاطفية مشعة فاذا جاءت فى أسلوب كان لها التأثير المطلوب .

وقد مثل المؤلف لاستخدام القرآن لهذا النوع مما يحمل الطابع الشعبى ليقرب دعوته الى أذهان العامة ، وليس معنى هذا أن هذا الأسلوب لا يناسب الخاصة، بل انه من أروع أساليب القرآن وملاءمتها للنفوس على اختلاف مستوياتها روعة وتأثيرا وانجذابا ، وتراه فى السخرية يبلغ حدا بعيدا من ذلك ما ساقه المؤلف من وعد الله رسوله بالنصر فى الدنيا والآخرة ولكن اعداءه يغيظهم هذا فينكرونه ويكذبونه ، ويرد عليهم القرآن فلا يناقش موضوع نصر الله لرسوله ، لأنه أمر مقضى لا يحتاج الى جدال أو تأكيد ، وانما يرد عليهم بصورة بالغة السخرية قائلا لهم : من كان يشك فى نصر الله ورسوله ، ويغيظه ذلك ، فليرفع حبلا يعلقه فى مكان عال ، ثم ليخنق نفسه بهذا الحبل ليموت فيذهب عنه الغيظ ، أو لينظر بعد موته أذهب عنه الغيظ أم لم يذهب . « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » ؟ وفى الآية أكثر من سخرية بالكافرين ، منها صورة قتل النفس بهذه الطريقة ، فان التصوير نفسه سخرية بهم . ومنها أن الموت ليس مذهبا للغيظ كالغاية التى تنشد فى اذهاب الغيظ . ومنها وصف قتلهم أنفسهم بأنه كيد ، والكيد ما يعمله المرء ضد غيره ، وقتلهم أنفسهم ليس كيدا ضد الرسول ، وانما هو كيد ضد أنفسهم ، ولكن ذلك كله امعان فى السخرية وتنويع فى صورها ووجوهها ، والمعنى فى جملته مما يتداوله الناس بينهم ، فمضمون الآية : من غاظه نصر الله فليقتل نفسه ، ومن هذا الباب نجد أمثالا

عامية ، منها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فاليشرب من البحر) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فلينفلق) ومنها ما مضمونه (من لا يعجبه هذا فليضرب رأسه فى الحائط) ومثل هذه الآية كثير أتى به المؤلف وحلله ووضحه وعلل له مما يغبط عليه ويعد فى حسناته ، وتتجلى براعة الكاتب فى « سخرية القرآن ووحى الألفاظ » فقد مثل لها بآيات كثيرة منها قوله تعالى : « وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب»(١) فجاء كلامه هكذا : لفظ الخزنة يستعمل عادة فى الحراس الذين يقومون بالمحافظة والحراسة على شىء معين ، وهذا الاستعمال حين يضاف الى جهنم يرسم فى ذهن السامع صورة لجهنم وقد وكل بها حراس ينظمون أمر حفظها ، ومراقبة من بداخلها ، وحراسة أبوابها ، ونحو ذلك مما تصوره فى حفظه وحراس يوكل اليهم حفظ شىء مهم يخشى ضياع شىء منه ، أو امتداد مطامع اليه مما يجعل السامع لأول وهلة من سماع لفظ الخزنة ، يتخيل هؤلاء الخزنة قائمين مثلا حول جهنم ، وحارسين على أبوابها خشية أن يهرب أحد من داخلها ، أو يتسلل أحد من الخارج فيدخلها ، أو تمتد يد الى شىء مما فيها ونحو ذلك ، وهذه الصورة يرسمها فى الذهن المدلول المباشر للفظ الخزنة ، ولكن الصورة الحقيقية التى يؤكدها العقل ولا يرتاب فيها أن النار لا يناسبها شىء من ذلك ، فليس فيها شىء يطمع فيه فيحتاج الى حراسة ، وليست مغرية حتى يفكر أحد فى الدخول اليها راغبا فتحتاج الى حجاب ، وليس هناك مفر لمن فيها حتى يحتاجوا الى سجان يحول بينهم وبين الهرب ، كما يقول الجاحظ عن ذلك ملمحا الى مايحمله لفظ الخزنة من سخرية بأهل جهنم ، والخزنة الحفظة ، وجهنم لا يضيع منها شىء فيحفظ ، ولا يختار دخولها انسان فيمنع منها ، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ

« ١ » الآية ٤٩ سورة غافر

الخازن سميت به » ويناقش كلام الجاحظ ثم يقول : يكفى أن يقال : ان التعبير مراد به السخرية وحتى السياق كله يبدو فيه القصد الى التذكير والتوبيخ والسخرية حيث تجد الملائكة يجيبون أهل النار على طلبهم السابق بقولهم كما ينسب اليهم القرآن ويحكى عنهم بقوله : « قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات . قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين الا فى ضلال »

فهم يسخرون من أهل جهنم بقولهم لهم « ادعوا » مع اقتران هذا بما يمحو ذلك وهو « وما دعاء الكافرين الا فى ضلال » وكثير من حديث القرآن عن جهنم ووصفه لها يؤيد أن لفظ الخزنة لا يراد به الا مجرد السخرية يجعل جهنم كأنها شىء مرغوب فيه أونحوه مما يحتاج الى حراسة ، كما وصفها القرآن بأنها (نزل) وبأنها (مهاد) فى قوله تعالى : « لهم من جهنم مهاد » وكما عبر عن اصطلاء عذابها الشديد (بالذوق) الذى يستعمل عادة فى الأشياء المقبولة والمرغوب فيها ، وتوارد الصورتين على الذهن : صورة جهنم البشعة ، وصورة جهنم التى تحتاج الى حفظةوالمقارنة بينهما كل ذلك موضع للمفارقة والطرافة التى تنبع منها السخرية . وجهد المؤلف فى هذا التحليل أوضح من أن يحتاج الى تنويه :

على أن المؤلف لتدفقه وانطلاقه نحو الأهداف التى وضعها نصب عينيه قد يجىء فى عبارته كلمة أو تعبير لا يرضاه المحافظون على اللغة أو الذين نسميهم المتزمتين ، فمثلا كلمة (تعساء) جمع تعيس أو تاعس لا يقبلونها لأن هذا الجمع خاص بمن تلزمه الصفة مثل كريم وكرماء وعاقل وعقلاء جاء ذلك فى قوله عن اليهود « (١) فهم يعرفون فى قرارة نفوسهم ويعتقدون أنهم تعساء » وقد خطأ رواد جيلنا حافظ ابراهيم فى عنوان كتابه «البؤساء» فالتعاسة والبؤس غير لازمين للانسان . وقد استعمل كلمة « قاصر » فى غير محلها فى قوله عن كذب المنافقين :

---

(١) ٢٥٦ سطر ٦ قبل الأخير

« (٢) فهذا القدر ليس قاصرا على المنافقين » والصواب ليس مقصورا، واستخدم كثيرا فى كتابه التعبير « على ضوء » والفصحاء يقولون « فى ضوء » اتباعا للقرآن فى قوله « كلما أضاء لهم مشوا فيه » ويستخدم (شفافة)، والفعل (شف) لا تأتى منه صيغة المبالغة ، كما استخدم (المساهمة) وقد أنكرها بعضهم والصواب الاسهام والمساهمة تستخدم فى (القرعة) وقد يستخدم حرفى عطف ، وينبغى أن يكتفى بواحد منهما فلا يقبل منه (بل وما) وقد نبه على ذلك العقاد فى بعض كتبه ، وقد يجىء الخطأ فى اسناد الفعل الى الضمير ويسرنى أن يكون خطأ مطبعيا مثل قوله : « (٣) بخلاف تعبير الشاعرين اللذين هجيا خالد بن عبد الله » والفعل هجا يهجو عند اسناده الى ألف الاثنين يرد الى أصله وهو الواو فنقول : هجوا . ومثل ذلك بديا والصواب بدوا وقد جاء خطأ فى بعض الشخصيات ، أورد المؤلف قول حسان الذى يعرض فيه بالمهاجرين ومنه :

(٤) أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

وقد فسر البيت بقوله : الجلابيب لقب أصحاب النبى عند مشركى مكة ، وابن الفريعة يعنى صفوان بن المعطل . والصواب أن ابن (الفريعة) حسان ، لأنها أمه ، ومعنى البيت كثر المهاجرون فى المدينة وابن هذه المرأة العظيمة أصبح وحيدا فيها كما اخطأ فى نسب (جهم بن الصلت) الذى رأى مناما سيئا لجيش قريش وبلغ أبا جهل ، فقال : « وهذا أيضا نبى آخر من بنى عبد المطلب » والصواب أنه من بنى (المطلب بن عبد مناف) وأبو جهل يعادى كل انسان من ذلك البطن .

وقد كنت أود الا يعنى المؤلف نفسه بالفصل الذى عقده بعنوان

---

(٢) السطر الاول تحت العنوان (الكذب)
(٣) سطر ٦ قبل الاخير ص ٣٩١
(٤) ص ٨٦

« السخرية والهجاء » لأن فيه موازنة بين الشعر والقرآن وقد حسم الأمر منذ نزول القرآن بالتحدى وعجز العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات مفتريات ، ومن أسلافنا من قبل ذلك مثل (الباقلانى) وآراه قد خالفه التوفيق ، وكان الأجدر بمؤلف أسلوب السخرية فى القرآن أن يعفى نفسه من هذا الصنيع ومع ذلك فالفصل حوى مادة أدبية لها مذاقها الطيب . انى أدعو كل من يحب الثقافة بأجلى مظاهرها أن يقرأ هذا الكتاب ، فقد حوى كل أطراف الآداب .

السيد حسن قرون

فضيلة القصد فى الكلام

قال عليه الصلاة والسلام : رحم الله من قال خيرا فغنم او سكت فسلم .

وقال لمعاذ : انت سالم ما سكت ، فاذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال على كرم الله وجهه : اللسان معيار اطاشه الجهل ، وارجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

شبهات حول السنة

للدكتور رءوف شلبى

ليس التشدق أو التفيهق من سمات الجماعة الاسلامية انالعمل والشورى هما من خصائص هذه الأمة وقد نعى القرآن الكريم ككثرة الكلام اذا صدر من الجماعة الاسلامية يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢ : ٣) . الصف

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

هلك المتنطعون .

هلك المتنطعون .

هلك المتنطعون .

ويقول : انما أهلك من كان قبلكم كثرة السؤال .

ومع هذا فقد ظهر فى المحيط الاسلامى من يحب التشدق والتفيهق والجدل فى مصدريةالسنة للتشريع الاسلامى مع أن الأدلة سندا وعقلا واضحة الدلالة فى حتمية اتخاذ السنة كمصدر أساسى للتشريع الاسلامى ولكن صنفا من الناس يحبون الترف العقلى أو المماحكة أو التفلسف أورد عدة شبهات يمكن تركيزها فى ثلاث :

الشبهة الأولى حول تفسيرقوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (الأنعام ٣٨) .

ففى القرآن كفاية تامة للتشريع

الشبهة الثانية : حول تفسير قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (الحجر ٩)

ففى الآية حصر يفيد أن القرآن وحده دون ما عداههو المرادبالحفظ

فلو كانت السنة مصدرا للتشريع لتكفل الله بحفظها مثل القرآن •

الشبهة الثالثة :

ان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن كتابة السنة فى عهده فقال : «لا تكتبوا عنى غير القرآن، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » •

فلو كانت السنة مصدرا لأمر بكتابتها مثل ما أمر بكتابة القرآن الكريم •

توضيح وتفسير

وبالجملة فان :

هذه الشبهات هى : مغالطات من جانب •

وهى تحكم فى تفسير آيات القرآن الكريم من جانب ثان •

وهى خلط وعدم تمييز للمواقف غير المتحدة من جانب ثالث •

والرد عليها نبدأ بها واحدة واحدة •

الشبهة الاولى

تتعلق بتفسير قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٣٨ الأنعام :) ومركز الشبهة انهم فهموا : ان المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم وأنه احتوى على كل شىء بحيث لا تحتاج الأمة من بعده الى مصدر آخر فاذا احتاجت •• كان مفهوم هذا الاحتياج ان فى القرآن تفريطا وهو محال لأن الوحى صادق فى أن القرآن لا تفريط فيه •

الرد عليها

١ ــ مركز الشبهة فيه تحكم أو مغالطة لأن مجموع الآيات التى تسبق وتلحق هذه الآية تفيد أن المراد من الكتاب هنا اللوح المحفوظ الذى اشتمل على العمر والرزق والسعادة والشقاوة لكل المخلوقات •

قال ابن كثير فى تفسيرها : أى الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله تعالى : وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » أى تفصح بأسمائها واعدادها

ومضائها وحاصر لحركاتها وسكناتها (ابن كثير ٢ : ١٣١) .

قال الخازن : يعنى فى اللوح المحفوظ لأنه يشمل جميع أحوال المخلوقات (خازن ٢/١٣٢) .

وصدر الآية يمهد لمثل هذا الرأى من التفسير بقول الله تعالى : «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

وعجزها يؤكد هذا المعنى : « ثم الى ربهم يحشرون » .

فالحديث فى الآية يدور حول شمول العلم الالهى والتدبير الالهى لكل أمم المخلوقات من الطير والدواب جميعا والبشر مثلهم .

والذى اشتمل على كل هذا انما هو اللوح المحفوظ فقط أما القرآن فهو مشتمل على نظم حياة الانسان فقط ولهذه الآية نظائر : يقول الله تعالى :

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع الابعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب أن ذلك على الله يسير » (فاطر : ١١) .

« وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (الأنعام : ٥٩) .

قال ابن كثير فى تفسيرها : كل ذلك فى كتاب عنده .

٢ ـ نسلم أن المراد من الكتاب هو القرآن الكريم ويكون حاويا لكل شىء غير أن كل شىء فيه على صفة الكلية محتاج الى قوله تعالى: « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم » (النحل : ٦٤) .

والذى يحملنا على هذا التخصيص أمران :

الأول : ان القرآن يصدق بعضه بعضا كما أرشد الى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم : « انما نزل يصدق بعضه بعضا » .

الثانى : ان كثيرا من الامور الجزئية المرتبطة بالأحكام الشرعية غير موجودة فى القرآن وانما

وضحتها السنة مستندة الى الأصل العام الذى لم يفرط القرآن فيه ولا منه شيئا .

يدل على هذا : ان الصلاة واجبة لقوله تعالى :

« أقيموا الصلاة » .

ولكن : كم عددها فى اليوم ؟

وكم عدد ركعات الفرض الواحد ؟

وما الذى يقرأ فيها من القرآن ؟

وما هى الصلاة التى يجهر فيها والتى يسر فيها ؟

ثم كيف يجمع الناس ؟

ومتى تؤدى الفرائض ؟

لم تتعرض آيات القرآن الكريم لشىء من هذا مع أنه موصوف : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » يعنى من المسائل الكلية العامة التى تحتاج الى تبيين من النبى صلى الله عليه وسلم كما تنص على ذلك الآيات الموضحة لوظيفة النبى صلى الله عليه وسلم فى وكالته عن الله فى تبيين ما أنزله الله الى الناس من القرآن الكريم .

وانما تعرض لتوضيح كل ذلك النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق تعاليم الوحى الأمين .

٣ ــ على أننا نقول ان هذه الآية جزء من سورة الأنعام وهى سورة مكية نزلت بجملتها على كبرها وطولها تناقش ادلة التوحيد وتدحض ترهات المخاصمين للحق، فالآية : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فى معرض الرد على طالبى المعجزات حتى يؤمنوا بعد مناقشات فى أول السورة :

« وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين » (الأنعام : ٤) .

« ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (الأنعام : ٧) .

فالآية هنا فى معرض توضيح أن الأدلة على الألوهية والوحدانية وصدق رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم مبثوثة فى آى القرآن الكريم وأن الوحى لم يفرط فى

اثبات هذه الأدلة بكل أنواع الاستدلال : •

العقلى

والتاريخى

والوجدانى

وعلى هذا فالمعترضون بالآية على عدم حجية السنة ليس لهم سند ولا دليل ، وبقيت السنة مبجلة محتمة كمصدر أساسى من مصادر التشريع الاسلامى •

الشبهة الثانية

تتعلق هذه الشبهة بتفسير قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

ومركز الشبهة : ان الحصر فى هذه الآية يفيد أن القرآن وحده كاف فى مصدر التشريع لأنه وحده الذى وعد الله بحفظه ، ولو كانت السنة كذلك لوعد الله بحفظها وذلك بناء على تفسيرهم الذكر بالقرآن •

الرد عليها

١ ــ ونحن نقول ليس بلازم فى الاحتمالات العقلية أن يكون المراد من الذكر القرآن وحده لأمرين :

الأول : انه لو كان المراد من الذكر القرآن فقط لصرح الله به كما صرح به فى كثير من الموضوعات التى تحتاج صراحة الى النص على اسم القرآن مثل :

« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الاسراء : ٩) •

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث » (الاسراء : ١٠٦) •

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » (القمر : ٧)

« بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » (البروج : ٢١ ، ٢٢)•

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف : ٣١) •

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه » (النمل : ٩١ ، ٩٣) •

فقد صرح فى هذه الموضوعات كلها باسم القرآن .

٢ ــ لو كان المراد من الذكر القرآن وحده لعبر عنه بالضمير (انا نحن نزلناه) .

اذ افتتاح السورة فيه نص وذكر للقرآن « ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » والتعبير بالضمير فى نظر اللغة العربية أجود لأن الضمير أعرف المعارف والعلم فى المرتبة الثانية من الضمير وذلك يكون متفقا مع ما للقرآن من المنزلة الرفيعة وتعتمده الصناعة العربية.

واذن فليس من الحتم أن يكون المراد من لفظ « الذكر » القرآن ويبقى أن نرشح لتفسير لفظ الذكر أحد معنيين .

الأول : أن يكون المراد من الذكر : الرسالة والشرف الذى استحقه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واتصف به بنزول القرآن والنبوة عليه .

يقوى هذا الاحتمال الآيات المتقدمة علىآيتنا هذه حيثصورت تلك الآيات مقالات الكافرين المعتدين على النبوة بأوصاف مفتراة مبعثها الحقد والحسد :

لقد قالوا له : انك لمجنون .

لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين وطلبوا منه معجزات ... الحجر .

فرد الله عليهم ووعد بحفظ الرسالة والشرف الذى اصطفى له محمدا صلى الله عليه وسلم ، فهو تكريم للنبى صلى الله عليه وسلم ووعد بحفظ رسالته وشرفه .

أما أن القرآن الذى أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكسبه شرفا فهذا بالنص القرآنى فيقول الله تعالى : « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف : ٤٤) .

فهو شرف للنبى صلى الله عليه وسلم .

وهو شرف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يدل عليه أن الضمير فى قوله : « وانه لذكر لك » عائد على القرآن المصرح به قبل ذلك فى قوله تعالى :

« وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (الزخرف : ٣١) .

أو المصرح به وضعا : « فاستمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مستقيم » (الزخرف : ٤٣) . « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » (الزخرف : ٤٤) وبهذا يقوى احتمال ان المراد من الذكر هنا الشرف والرسالة .

الثانى : أن يكون المراد من الذكر الشريعة مطلقا ويرشح لهذا الاحتمال ما تناولته السورة بعد ذلك من تصوير لموقف الأمم السابقة من رسلهم .

« ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين » (الحجر : ١٠) .

« وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون » (الحجر : ١١) .

« كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين » (الحجر : ١٢) .

« لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » (الحجر : ١٣) .

والانبياء يكلفون الامم بالشرائع ، والشريعة كتاب الله وسنة نبيه ، والذى يستعرض حالات الامم السالفة مع الانبياء يقف على مناقشات ومكابرات ومحاجات مع الرسل تدور كلها حول التكاليف التى يأمرهم بها النبى المرسل اليهم وعلى هذا تكون الآية التى معنا « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » قد نبهت على أمر خطير : هو أنه اذا كان الأمر فى الامم السالفة ينتهى الى الغاء الشريعة بعد معارك عنيفة بين الرسل والسماء من جانب والكافرين من جانب آخر ، فان هذه الشريعة «قرآنا وسنة» قد وعدالله بحفظهما الى يوم القيامة ولن ينال الكافرون منها شيئا .

ويقوى هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على هذا الأمر الى قيام الساعة » وعليه فيكون المراد من الذكر : الشريعة : قرآنا وسنة .

لكن بقى أن يقال كيف يعود

الضمير فى قوله تعالى (له) على السنة مع أنها غير مذكورة فى القرآن لا بالنص ولا بالصفة ؟ غير أن الجواب من نفس استعمالات القرآن الكريم ، ففى آية الواقعة : « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا » فتلك صفات الحور العين مع أنه لم يجر لهن ذكر سابق على هذه الآيات فكيف عاد الضمير فى (انشأناهن) على الحور العين ؟ انه السياق العام والفحوى التى تعطى المعنى المجوز لعود الضمير عليه .

وليست تلك الآية فقط فهناك آية أخرى فى سورة ص يقول الله تعالى :

« اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد » (ص : ٣١) .

« فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب» (ص ٣٢) .

فالضمير المستتر فى توارت عائد على الشمس مع أنه لم يرد لها ذكر فى السورة لا بالنص لا بالوصف ، ولكن السياق العام والفحوى هيأت المعنى الذى يصح أن يعود عليه الضمير مرادا منه الشمس .

وآتينا فى سورة الحجر عاد الضمير فيها على السنة من هذا القبيل ، واذن فلا مانع من أن يكون معنى الذكر الشريعة مطلقا : قرآنا وسنة ، وتكون السنة داخلة فى وعد الله سبحانه وتعالى بالحفظ والصيانة .

٣ — يمكن أن يعود الضمير على النبى صلى الله عليه وسلم قاله ابن كثير : « ومنهم من أعاد الضمير على النبى صلى الله عليه وسلم كقوله « والله يعصمك من الناس ، ويكون المعنى : فى مواجهة تحدى الكافرين ان الله يشهد بأنه أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيحفظه من كيدهم ٥٤٧/٢ تفسير ابن كثير .

نعم هذا الاحتمال بعيد فى نظر ابن كثير غير أنه احتمال يوهى شبه المتعللين المتعسفين المانعين حجية السنة لشبهة خيالية ليس عليها دليل .

على أن حفظ محمد صلى الله عليه وسلم حفظ لذاته ورسالته ودينه وسنته ، فيكون الحفظ شاملا للسنة كذلك واذن فلا منقذ من الاستسلام لحجية السنة كمصدر فى التشريع الاسلامى .

الشبهة الثالثة

تتعلق هذه الشبهة بالتحامل والتعصب فى فهم حديث شريف : « لا تكتبوا عنى غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

ويدعون أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه جمع الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

« انكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله » .

يقول أصحاب الشبهة بناء على ذلك :

اذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن تدوين السنة واذا كان أبو بكر منع الناس أن يحدثوا .. فمدلول هذا عدم الاحتجاج بالسنة ، والاكتفاء بما فى القرآن الكريم كمصدر منفرد للتشريع الاسلامى .

الرد عليها

أولا : فى الحديث الذى رويتموه أيها المشتبهون نقطتان

الاولى : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة .

الثانية : التحديث عنه دون حرج .

ومفهوم هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بحفظ السنة بطريق واحد وهو طريق الحفظ فى الصدور والتحديث والرواية عنه دون الكتابة والتدوين فى القرطاس .

أما بالنسبة للقرآن الكريم فقد أمر عليه الصلاة والسلام بحفظه بالطريقين معا :

١ ـ طريق الحفظ فى الصدور .

٢ ـ طريق الكتابة والتدوين فى القرطاس .

وعلى ذلك فلا سند للمشتبهين بالحديث فان عدم كتابة السنة ـ فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ـ لا ينفى حجيتها غاية مافى الأمر أن الحفظ له طريقان ، ودرجتان :

الطريقان هما : التدوين بالكتابة والحفظ والرواية .

والدرجتان هما : درجة أولى وتتحقق بالجمع بين الطريقين .

ودرجة ثانية وتتحقق بأحدهما

فالقرآن الكريم له درجة عليا أولى تتحقق بالجمع بين التدوين ، والرواية .

والسنة لها درجة عليا ثانية تتحقق بالرواية فقط .

وعلة ذلك وحكمته أن النبى صلى الله عليه وسلم حرص على أن تبقى ذاتية القرآن الكريم بعيدة عن أدنى شبهة فأفرد العصر النبوى لتدوين القرآن وحده يدل على هذا ما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رآهم يكتبون الأحاديث فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا أحاديث سمعناها منك .. فقال : أكتابا غير كتاب الله تريدونه ؟ ما أضل الأمم من قبلكم الا ماكتبوه من الكتب مع كتاب الله ، فقال أبو هريره رضى الله عنه : اتحدث عنك يا رسول الله ؟ قال : نعم حدثوا عنى ولا حرج ، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

كذلك روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم :

« جردوا القرآن ولا تكتبوا فيه شيئا الا كلام الله ففى الحديث علة نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تدوين السنة رسميا بأمر الدولة فى ظل النبوه وهى نفس العلة التى جعلت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ وهو أمير دولة الاسلام

وأشهر الناس بموافقة الوحى له ـ يتردد فى تدوين السنة بعد أن استخار الله شهرا ثم يصبح وقد عزم الله له ولكنه يقول :

انى كنت أردت أن أكتب السنة وانى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا أشوب كتاب الله بشىء » .

ثانيا : على أن عدم الأمر بالكتابة لا ينفى كون السنة مصدرا من مصادر التشريع الاسلامى اذ مصدريتها غير مرتبطة بالتدوين وعدمه بل هى مرتبطة بالحفظ وحفظ السنة مقرر من النبى صلى الله عليه وسلم بدرجته وطريقه : « حدثوا عنى ولا حرج » فلم يعد لكم أيها المشتبهون علة تتعللون بها غير انكم يلزمكم معرفة الفرق بين درجتى حفظ القرآن والسنة وطريقى هذا الحفظ ، وأن هدف النبى صلى الله عليه وسلم أن يسلم الوقت الذى نزل فيه القرآن الكريم من كل تدوين الا كتابة القرآن الكريم افرادا للعصر ألا يسع سواه بالطريق الرسمى الذى تتوجه اليه الدولة كلها لرعاية كتاب الله .

ثالثا : أما ما يرويه أبو مليكة عن سيدنا أبى بكر فنحن لا ننازع فيه غير أنه لا يقوم دليلا على عدم الاحتجاج بالسنة كمصدر من مصادر التشريع كل ما هنالك أنه يحافظ على السنة من الدخل لكثرة الألسن والقوميات التى دخلت فى الاسلام فحرص سيدنا أبو بكر على أن تسلم السنة من التحريف فمنع العامة لا الخاصة عن التحديث حتى لا يحدث اضطراب فى ألفاظ الحديث الشريف يدل على هذا أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه أخذ ميراث الجدة بناء على الحديث الشريف الذى رواه المغيرة :وشهد معه محمد بن مسلمة ، فلم يعد بعد ذلك للمشتبهين من تشدق .

رابعا : على أن الحديث الذى نهى عن تدوين السنة لم يكن النهى فيه على الاطلاق بل هو خاص بأن يكون التدوين عاما شائعا لكل فرد من الأمة بدليل أن النبى صلى الله عليه وسلم أذن بكتابة بعض الأحاديث .

ويجب أن نفهم أن هناك فارقا كبيرا بين أمر واذن ، وهو أن الأمر تبعث عليه علة اذا أمنت هذه العلة كان الاذن .

فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بعدم كتابة السنة كان لعلة هى ألا يختلط الحديث بالقرآن ، أو أن يفهم الناس اتحاد الرتبة فى الزمن والطريق .

فلما وضح للناس هذا ولم تعد هنا خشية من هذا الاختلاط اذن النبى صلى الله عليه وسلم لأبى شاة أن يكتب له حديث خطبة الوداع .

ان الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليهم رسول الله والمؤمنين، وأنها لم تحل لأحد قبلى ، ولم تحل لأحد بعدى ألا وانها أحلت لى ساعة من نهار ، وانها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها الا لمنشد فمن قتل له قتيل فهو بخير النظيرين : اما أن يقتل ، واما أن يقاد أهل القتيل .

فجاء رجل من أهل اليمن فقال : اكتب لى هذا يا رسول الله فقال : اكتبوا لأبى شاه .

بل ان النبى صلى الله عليه وسلم ليأمر بكتابة العلم ، والسنة هى العلم بعد القرآن الكريم يقول صلى الله عليه وسلم « قيدوا العلم بالكتابة » ويعلق الخطيب البغدادى على هذا فيقول :

وفى وصف الرسول صلى الله عليه وسلم الكتاب بأنه قيد للعلم دليل على اباحة رسمه فى الكتب لمن خشى على نفسه دخول الوهم فى حفظه .

فدل ذلك على أن الاذن بالكتابة كان موجودا لطائفة خاصة وأن الأمر بالنهى عن التدوين كان للعامة يؤيد ذلك :

١ ــ ما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه : ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب ولا أكتب .

٢ ــ وقد اعترض بعض الصحابة على تدوين عبد الله بن عمرو

للسنة فقالوا له : انك تكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يغضب فيقول ما لا يتخذ شرعا عاما ؟ فرجع ابن عمرو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : اكتب عني فوالذى نفسى بيده ما يخرج من فمى الا حق .

٣ — وروى أبو هريرة رضى الله عنه : أن رجلا كان يشهد حديث النبى صلى الله عليه وسلم فلا يحفظ فيسألنى فأحدثه فشكى قلة حفظه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : استعن على حفظك بيمينك وبذلك تسقط كل شبه المشتبهين وتبقى السنة الاسلامية مصدرا أساسيا من مصادر التشريع الاسلامى .

لها وظيفتها .

ولها منزلتها .

يؤكده المجال التطبيقى فى العبادة والمال والأسرة والحاجات اليومية رغم أنف الجاحدين .

د. رءوف شلبى

من هدى النبوة

المجتمع الفاضل كما يصوره النبى

صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

ان تراثنا الاسلامى الصحيح ـ ملىء بما يصلح شأننا ، ويقوم اعوجاجنا ، وينير طريقنا ، ويبصرنا بما فيه خيرنا ، فى ديننا ودنيانا وآخرتنا .. ويدلنا على ما ينبغى أن نسلكه فى علاج أمورنا ، وتطهير قلوبنا ومجتمعاتنا .. سواء عندنا فى مصر ، أو فى غير مصر ، من البلاد العربية الشقيقة ، والاسلامية الموحدة بالله ...

فهو علاج لم يجىء به بشر يخطىء ويصيب .. ولكن جاء به رسول معصوم من الخطأ ، بعثه الله رحمة للعالمين .. بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله بأذنه ، وسراجا منيرا .. هو محمد بن عبد الله ، الذى أرسله الله بالاسلام ، لبناء دولة الاسلام والمسلمين ، على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .. « وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » ، « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ، ولعلهم يتفكرون » ، « وأنزل عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » ، ويقول الله بعد ذلك ، مخاطبا أمة محمد : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .. وفى الختام يقول سيدنا رسول الله : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى » ..

***

ومما روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، من هذا التراث الصحيح ، مارواه الصحابى الجليل ، « عبادة بن الصامت »

رضى الله عنه ــ فقد روى أن رسول الله قال :

« بايعــونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلــوا أولادكم ، ولا تأتــوا ببهتــان تفترونــه بين أيــديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفــارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله عز وجل ، فهو الى الله ، ان شــاء عفا عنــه ، وان شــاء عاقبــه .. فبايعنــاه على ذلك . » صــدق رسول الله ..

***

ولقد وقفت حيال هذا الحــديث الشريف بعض الــوقت .. أتــدبر معانيه ، وأتفهم دلالاتــه .. حتى وجدتنى أمام حديث شريف ، بعيد الغور ، عميق المعنى ، غزير الفكرة، عظيم الدلالة .. وهو يأتى البيوت من أبوابها ، وينفذ الى الاصــلاح والفلاح والعلاج ، من أيسر الطرق ، وأنجع الادوية ، وأخفها تعاطيا .. ذلك ، لأنه نبع الفطــرة الســوية النبوية الربانية .. وهو من أجــل ذلك كله أكبــر من أن يفى بمــا يحتويه مقال ، أو يستوعبه حديث .. فآثرت ، فرارا بنفسى ، واعترافا بعجزى .. أن أحاول بقدر المستطاع أن ألم بمضــمونه المــامة خفيفة ، ليتاح نشرها ، ويذاع من أفكاره ومبادئه ما قد ينفع الناس .. فتصفو نفوس .. وتعمر قلوب .. فيصلح الله من أحوالنــا ، فانه ســبحانه شاء أن لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال .. بيد أنه سبحانه لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .. وقد وعد ، وهو لايخلف وعده : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حيــاة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحســن ما كانوا يعملون » ..

***

هذا ، وان المعــرفة الاجمــالية براوى الحديث ــ لتدل على أنه من الأخيار المختارين الذين ارتضاهم رسول الله ..

فعبادة بن الصامت ــ رضى الله

عنه ــ راوى الحديث ، هو أحد النقباء الاثنى عشر ، الذين التقى بهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيعة العقبة ، بمنى .. وهو من قبيلة الخزرج التى أزال الرسول ما بينها وبين قبيلة الأوس .. ووحد بينهما ، وألف بين قلوبهما ، بمشيئة الله القائل : « ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم .. » ، وسماها الأنصار ، الذين نصروا الله ورسوله ، وأحبوا لخوانهم المهاجرين ، وآثروهم على أنفسهم .. فهم الذين قال الله فيهم : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ..

وكان عبادة بن الصامت شابا فى الثلاثين من عمره ، حين كان نقيبا مختارا .. وكان رضى الله عنه ، ممن آتاهم الله بسطة فى العلم ، والعقل ، والجسم ، والوجاهة ، ومحبة الخير ، وقوة الايمان ..

وقد انتقاه سيدنا عمر فى خلافته ، ليكون معلما بالشام ، وقاضيا بفلسطين .. ومات بها قتيلا ، فى خلافة معاوية .. ودفن ببيت المقدس ...

وكذلك كان سائر النقباء ، أقوياء ، صالحين مصلحين ، فأصلحوا ، وأحسنوا وتعاونوا ، وأقاموا دولة على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .. فهيأوا مجتمعاتهم لبغض المنكر ومطاردته ، ومحبة المعروف ومتابعته ، والالتزام بما أنزل الله من كتاب وحكمة ، فرضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم المفلحون ..

***

ومن هنا ، لعل من الخير للقيادات الرشيدة ، فى كل بلد عربى ، أو اسلامى ، عملا بسنة نبيها ، وهدى رسولها ــ أن تعمل جادة صادقة ، على اعداد الشباب المؤمن الصادق المتفتح الذى يخشى الله ، ويفهم الحياة ، ويعمل فيها كما أرادها واهب الحياة ..

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه .. ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله .. ليتخذوا من هذا الشباب أعوانا وأنصارا وأجنادا .. مبايعين لهم على الالتزام بما ألزمهم به دينهم ، والابتعاد عما نهاهم عنه ..

وقمة الأمر فى ذلك ، ماجاء فى مبايعته صلى الله عليه وسلم .. فالشباب أقدر على العمل فى سهولة ويسر .. ونحن فى سباق مع الزمن .. وأعداؤنا يتربصون بنا .. والتاريخ يعيد نفسه .. والفساد يتكرر ، مادام على الأرض كفر وايمان ، ومادام فيها حق وباطل ، ومادام فيها صراع قائم ، ولابد للحق أن ينتصر ، اذا ما تولاه المؤمنون به ، والعاملون له ، مابقيت على الأرض حياة ...

***

ان كل ما أنكره رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى حديثه الشريف ، فى الايام الأولى لرسالته ، وبايع على انكاره وازالته .. موجود بيننا ، وقائم فى أيامنا ، وعلى صورة أفظع وأشد ، مما كان عليه من قبل .. فنحن نعيش فى جاهلية ، دونها ما كان فى الجاهلية الأولى .. !!!

** فالاشراك بالله .. موجود بيننا على أوسع نطاق .. وعلى صور مختلفة وألوان متعددة .. حتى عند من ينتسبون الى الاسلام ، عن جهل وحماقة .. وبخاصة فيما يسمى بالشرك الخفى ، الذى قد يفسد عليهم عقيدتهم وعبادتهم ، بمخالفتهم الصريحة لنصوص القرآن وما صح من السنة .. وسأشير اليهما بمشيئة الله ، اشارة خفيفة ، فى بيان أول نص من نصوص المعاهدة .. وهو : « أن لا تشركوا بالله شيئا » ..

** والسرقة ــ وهى النص الثانى ، فى المنكرات ــ موجودة ، وقد استفحل أمرها ، عما كانت أيام أن نهى رسول الله عنها .. فما أكثر الافتنان فى ارتكابها ، وتنويع وسائلها .. وقد اتسعت دائرتها .. فهى منتشرة فى المصالح والمؤسسات العامة ، والمصانع .. وما أكثر الحرائق التى ترتكب أيام الجرد .. لاخفاء معالم السرقة .. ! ومما يزيد من الأسف انتشارها بين

العاملين فى المؤسسات التعليمية ، والقضائية .. !! وماذا نسمى المعلم الذى لا يخلص فى أداء واجبه ، ولا يتقى الله فيه ، ويضيع على تلاميذه وقتهم ، دون أن يفيدهم ؟! ثم يضطرهم بوسائله المنكرة التى يجيدها الى أن يأخذوا منه دروسا خاصة .. ! الله أعلم ، كم تكلف الكثيرين من الآباء ما لاطاقة لهم به ، ولا قدرة لهم عليه ، وما هم فى أشد الحاجة اليه ، فى طعامهم ، وفى ضروريات حياتهم .. »

ثم كيف يستحل هذا المعلم راتبه الذى يتقاضاه من الدولة فى أول كل شهر ، وهو لا يقوم بشىء من الواجب فى مقابله ، مع أنه قد ارتضاه يوم قبل العمل رسولا من رسل التربية والتعليم ؟!

وانه ليس الغنى عن كثرة العرض ، وانما الغنى غنى النفس .. ورحم الله من قال :

والنفس راغبة اذا رغبتها
وإذا ترد الى قليل تقنع

ومن قال :

ما كل ما فوق البسيطة كافيا
وإذا قنعت ، فبعض شىء كاف

على أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه عنده قوت يومه ، فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها . »

ويقول :

« ما من نفس تخرج من الدنيا حتى تستوفى رزقها ، وأجلها .. فاتقوا الله ولا تكدوا فى الطلب » ـ وفى رواية : « وأجملوا فى الطلب » .. ويؤيده حديث آخر : « اطلبوا الحاجات بعزة الأنفس ، فان الله قاضيها » .. فهل ما يفعله هؤلاء المقصرون فى أداء واجباتهم ، ثم يتحايلون على استغلال المعوزين .. يتفق مع عزة النفس وسمو الرسالة ؟!!

وماذا نسمى المحامى الذى يستغل موكله ، لاطالة مدة التقاضى ، ليحصل من وراء ذلك على مضاعفات الاتعاب .. ويستبيح لنفسه أن يأخذ أموالا بغير حق . ؟!

وماذا نسميه اذا ما نجح فى احتياله على القاضى ، بتلقين شهود الزور ، وتحفيظهم الاجابة عن كل

سؤال توجيه اليهم المحكمة .. ؟! أو بالمساعدة على تلفيق ما يقدم من المستندات الصورية ، بالمبالغة فى اخفاء معالمها ، والتغطية على من يريد كشفها ، بشراء ذمته .. لينتزع من القاضى حكمه لصالح موكله ؟! مع أن المفروض أن يكون المحامى نصير القاضى فى اظهار الحق ، والانتصار له .. لا عونا على نصرة الباطل .. لتحقيق مطامع ذاتية ، واستلاب أموال الناس بغير حق ؟!

أفليست هذه الأمثلة .. وغيرها كثير .. من ضروب السرقات ؟!؟

وكم سمعنا وقرأنا فى الصحف ، عن مستندات فى المحاكم قد سرقت .. أو قد ضاعت .. أو قد أحرقت مع غيرها من المستندات ، لاخفاء معالم الجريمة .. ولو استدعى ذلك احراق أكثر من حجرة من حجرات المحكمة ، أو المحكمة كلها .. !!!

***

** والزنا — وهو المنكر الثالث فى المبايعة — قائم فى بلادنا على قدم وساق .. وفى معظم البلاد الاسلامية .. !

على أنه فى الجاهلية الأولى ، يكاد يكون وقفا على « صاحبات الرايات الحمر » .. وصواحباتها من الاماء ، لا من الحرائر من النساء !

ولذا كان من أمثال العرب : « تموت الحرة ولا تأكل بثدييها » .

وهذا أحد الشعراء العرب الأحرار ، يقول :

أصون عرضى بمالى ، لا أدنسه
لابارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فاكسبه
ولست للعرض ان أودى بمحتال

ان الزنا فى عصرنا قد استفحل أمره ، واشتد خطره ..

وان مما يساعد على استفحاله وانتشاره — ماذاع وشاع ، وملأ الابصار والأسماع ، من ألوان الخلاعة والمجون والاستهتار ، والعرى الفاضح ، والافتتان فى ابراز المفاتن ، من نساء كاسيات عاريات ، امتلأت بالكثير منهن الشوارع ، والمصانع ، والمصالح ، ومعاهد العلم .. رءوسهن كأسنمة البخت ، لا يشممن رائحة الجنة .. فهن حبائل الشيطان .. !!!

** وقتـل الأولاد ــ وهو النص الرابع فى المنكرات ــ موجود عندنا ، وعند غيرنا .. باهمال تربية الأولاد تربية اسلامية ، وعدم اعدادهم لحياة فاضلة ...

كما أن القتل بمعنى ازهاق روح انسان ظلما بغير نفس ــ موجود فى كثير من البلاد العربية والاسلامية .

وعندنا فى مصر ، يقتلون البرىء بذنب المسىء .. فيما يسمى بقتل الثأر .. فهم لا يقتلـون القـاتل الحقيقى ، وانمـا يقتلـون أكبـر شـخصية فى الأسرة من أقربائـه ، لتكون الفجيعة أشد ، وقد يكون هذا المقتول ظلما من أصلح عباد الله، وأشدهم بغضا للقـاتل من أسرته وبراءة منه .. ! لكنـه الظلم .. وضعف الايمان .. والجهل بالاسلام .. وعدم التربية الدينية من الصغر .. وسمعت أنه فى احدى الـدول العربيـة ذات الشـأن .. تختطف البكر ، أو الغلام .. وبعد ارتكاب الفاحشة يقتلون الضحية حتى لا تدل عليهم وهم من شباب الأسرة المالكة .. ولاخفاء معـالم الجريمة قـد يعمـدون الى دفنهـا بوسـائلهم الخاصة ..

على أن قتل الأولاد فى الجاهلية ، كان خشية الفقـر أو العـار ، وله دوافع أخرى .. وحديثه قد يطول .. وقد أعود اليه فى فرصة أخرى بمشيئة الله ..

وقاتل الله الظالمين .. فى هـذا المجـال .. وان حكـام المسلمين شركـاء فى هـذا الاثم ، لأنهم لم يقوموا بواجباتهم التى أوجبها الله عليهم فى رعاية الصـغار ومعـونة الكبار .. فلقد وصلنا الى ما لا تحمد عقباه .. وفينا من يتجر بعرضـه الكثيرون من أرباب الغنى الفاحش .. ومن يبيع بناته وغلمانه لتجار الفاحشـة وعشـاقها .. وفينـا .. من أمثال « قارون » .. الذين تقدر أموالهم بالاف الالاف، وآلاف آلاف الآلاف من الجنيهات .. ومن المؤسف والمخجل أن أصحاب هذه الأموال ، يستخدمونها فى سـبيل الشيطان .. وينفقون الكثير منها فى الخمـور والشـهوات والملذات ، واتيـان الفـاحشة مـع النسـاء والغلمان .. !

وما خبر شراء الفنادق العائمة ، بمـلايين الجنيهـات ببعيـد .. !

والمشترى للأسف الشديد •• عربى مسلم ، من أثرياء دول البترول ، الذين يكفرون بما أنعم الله به عليهم ، من ثراء فاحش ، بعد فقر مدقع ، كانوا فيه لا يجدون ما يقتاتون به الا بشق الأنفس • !!

وهكذا يصدق عليهم قول الله :

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى •• »

يضاف الى ذلك قصورهم الفاخرة ، المطلة على شواطىء بحيرات وبحار ، فى دول لا تعرف معانى الشرف والفضيلة ولا تخشى الله •• وانما تعرف المال وتعبده من دون الله •• وان هؤلاء العرب الكافرين بأنعم الله — يودعون الكثير من أموالهم فى بنوك اليهود •• وانها لتستخدم فى محاربة الاسلام والمسلمين •• فياسبحان الله الذى يمهل ولا يهمل •• انه سبحانه ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته •• وصدق الله العظيم : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » ••

وكم دالت أمم ظالمة من قبلهم •• سجل القرآن الكريم نهايتها فى قوله : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » •• !!

❊❊ والبهتان ، الذى هو اختلاق الكذب الفاضح للاطهار الأبرار — وهو المنكر الرابع فى المبايعة — موجود فى بلادنا الاسلامية والعربية •• وبخاصة فى معظم دول البترول وفيمن يسمون أنفسهم بالرافضين ، أو دول الرفض ، الذين يرفضون الحلول العملية للقضية الفلسطينية •• فمعظم مايذاع عندهم ، أو ينشر فى صحفهم كذب وبهتان •• وليس هذا من الاسلام فى شىء ، لأن الاسلام أمانة وطهارة ، وصدق وكرامة ، وبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن •• وقاتل الله الشيوعيين ، وعملاءهم وأعوانهم الذين يبيعون أنفسهم للشيطان الرجيم ، ويعيشون فى الأرض فسادا ، بما يحصلون عليه من الأموال •• وما ينتهكون من الأعراض •• وما يملأون به بطونهم من ألوان الطعام وألوان الشراب ••وما يسفكون من دماء الأبرياء •• ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا •• ورحم الله من قال :

يقضى على المرء فى أيام محنتـه
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ومع هذا ، فقد كان البهتان فى الجاهلية ، يكاد يكون وقفا على قلة من الشعراء الذين كانوا يستأجرون للهجو ، كما يتكسبون بالمديح ... وكان منهم فى عصور لاحقة — من يمثل فى هجوه المقذع دور التخويف والارهاب .. كهؤلاء الذين يعيشون فى عصرنا على تخويف الناس بالقتل والاختطاف باسم الفدائية .. وهم فى حقيقة أمرهم قطاع طرق يستحلون أصحاب الملايين ، من الجبناء .. ويحيون على الفساد فى الأرض .. ويعيشون على الكسب الحرام .. عيش البغاة المترفين من الملوك والأمراء .. ولن ينفعهم ارهابهم ولا أموالهم .. وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار .

***

وأخيرا .. أجد نفسى أمام نصوص المبايعة التى بايع عليها الرسول نقباءه المختارين لاقامة المجتمع الاسلامى النظيف .. فبايعوه عليها هم ومن وراءهم — مبايعة الصادقين فى ايمانهم ، الأوفياء بالتزاماتهم ، المتخلصين من منكراتهم .. فكانت حياتهم أمنا وأمانا ، وعزة وسلاما .. وصلح لهم أمر الدين والدنيا والآخرة ..

ولمثل هذا ، فليعمل العاملون ، من قادة المسلمين فى جميع البلاد العربية والاسلامية ، اذا كانوا بحق يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويريدون الخير لأنفسهم وأوطانهم وأمتهم ، وصلاح أمرهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، ويحبون أن يحسن الله عاقبتهم فى الأمور كلها ، وأن يجيرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .. وأن يرد اليهم كرامتهم المسلوبة وعزتهم المنهوبة وقوتهم المفقودة وأن يعتبروا بما حل بأمتهم من هوان ، بعد ما كان لها من منعة وسلطان .. وحتهم أن يعتبروا بما هم فيه الآن .. وما كان من قبل .. وكان .. وكان .. »

فهذا شاعر يصور ماكان المسلمون عليه .. وما صاروا اليه .. فيقول :
اذا نحن سرنا ، سارت الناس حولنا
وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا

فينا نسوس الناس ، والأمر أمرنا
اذا نحن فيهم سوقة تتنصفو .. !!

ورحم الله زمانا استنجد فيهملك الفرس بملك الصين ، على المسلمين فكان جواب ملك الصين :

« أنا لا قبل لى بقوم ، لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها .. ! »

فهل يستطيع المسلمون جميعا عربا وغير عرب ـ فى أيامنا هذه وبوضعنا الذى نحن عليه ـ أن يحرروا اخوانهم المسلمين فى روسيا من سيطرة الروس عليهم ومن احتلالها لأرضهم وممتلكاتهم .. ؟! انهم للأسف الشديد أضعف من أن يرفعوا حتى أصواتهم فى وجه روسيا بكلمة الحق .. !!! وان دولا اسلامية وعربية ـ لتسير الآن فى ركب روسيا وتأتمر بأمرها ، وتعمل على استرضائها ضد اخوان لهم قد تحرروا من سيطرتها .. !! وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. يوم لا ينفع الندم ولا يجدى البكاء ..

أتبكى على سعدى وأنت تركتها
فقدذهبتسعدى فماأنت صانع؟!

فما العلاج ؟ اننا أمة مريضة بأمراض كثيرة ذكر الحديث الشريف أصولها الأصيلة ، فاذا صدقنا فى علاجها ، وتطهير المجتمعات الاسلام من أدرانها وأوبائها ـ عادت الحياة الينا بعد موت .. وتحركنا بعد شلل ، وصحونا بعد نوم غبنا فيه مئات السنين .. فهل نحن فاعلون ؟!!

ان الذين يملكون العلاج هم القادة فى كل أمة مسلمة .. وهم الذين يقدرون على ازالة المنكر .. وهم الذين يستطيعون أن يحملوا الأمة على حظها بالسيف .. ان لم تستجب له طواعية واختيارا .. ورحم الله من قال : « ان الله يزع بالسلطان مالايزع بالقرآن .. »

وما داموا يعلنون أنهم يحبون كتاب الله وهدى رسوله ، وأنهما جماع الخير كله ، فلماذا لا يسعد الناس جميعا بهذا الخير الذى سعد به أسلاف لنا من قبلنا ، كانوا اشراقة الدنيا ، ومصابيح الظلام ، ودرة فى جبين الدهر .. وانه لن يصلح حال هذه الأمة الا بما صلح به أولها ..

فهل نعمل جادين على ازالة هذه الموبقات ، التى بدأ رسول الله بمحاربتها ، وتنقية المجتمع من أوزارها ، وبايع على ذلك الخيرة من أصحابه .. بادئا بغرس بذور العقيدة الصحيحة فى النفوس ، فهى البناء القوى السليم الخالد الذى لا يتزعزع بنيانه أبدا ، وهى نبض القلب وأنفاس الحياة ، وبدونها لا تكون حياة .. ولن يكون تطهير لموبقات الحياة .. أو غرس نظيف لأشجار الحياة .. أو استمتاع طيب لثمرات هذه الحياة ..

أليس رسول الله قد بدأ معاهدته الشريفة فى حديثه الشريف بقوله :

« عاهدونى على أن لا تشركوا بالله شيئا » ، لأنه صلى الله عليه وسلم يحرص أول ما يحرص على أن تكون عقيدة المسلمين عقيدة توحيد خالص لا يشوبه شرك ، بحيث يؤمنون بالله وحده لا شريك له ، خالصا ورازقا ، ومحييا ومميتا ، وعزيزا حكيما ، وسميعا بصيرا ، ومنتقما جبارا ، وحيا باقيا قيوما ، وعليما قديرا خبيرا ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، وهو يقضى بالحق ، كل الوجود ملكه ، وهو المتصرف فيه وحده ، « ليس لك من الأمر شىء » ، « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، وأنه سبحانه المعبود بحق دون سواه ، « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ، وهو وحده المقصود والمسئول والمستعان به ، « الله الصمد » « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .. ثم يقول الرسول لابن عمه عبد الله بن العباس .. « اذا سألت فاسأل الله ،واذا استعنت فاستعن بالله .. » ويقول لابنته فاطمة : « أنا لا أغنى عنك من الله شيئا .. اعملى .. » ..

هذا ، وكل أنبياء الله ، دعوا الله

دعاء مباشرا ، بلا واسطة ، لأن الله سبحانه لا يحتاج الى واسطة ، لأنه أعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين .. فأيوب عليه السلام يقول : « رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .. « وزكريا اذنادى ربه ، رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين » ..

والوسيلة فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة » ، المراد بها العمل الصالح ، ولا شىء غير ذلك ..

وما خلق أحد من الأنبياء وغير الأنبياء الا لعبادة الله وطاعة الله وامتثال أمر الله .. « يا موسى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » ..

ويحكى الله على لسان عيسى قوله : « قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ..

وعلى لسان محمد قوله : « قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون »

وقوله : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله .. » وقوله : « وقل رب زدنى علما »

ان كلمة « أن لا تشركوا بالله شيئا » تستوجب ما أشرت اليه آنفا .. كما تستوجب أن لا يكفر أحد بأنعم الله عليه .. ونعم الله كثيرة لا تعد ولا تحصى ، « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .. ولاشك أن من هذه النعم ــ كل عضو من أعضاء الانسان .. وكل حاسة من حواسه الخمس .. وأمواله ، وأولاده ، وعقله ، وعلمه وقلمه ، ولسانه ..

وان عدم الكفر بها أو الاشراك بالله فيها ــ يكون بشكرها ، باستخدام كل نعمة من هذه النعم فيما خلقت له ، وفق تعاليم الاسلام وتوجيهاته بشأنها .. أما استخدامها فى مجالات الاثم والبغى والفسوق والعصيان ، ومخالفة أوامر الله بشأنها ، وهو ضرب من الكفر بالمنعم المتفضل بها على عباده .. وهو لاشك اجتراء على الله ، ونسيان له ، واشراك به ..

وعـدم الاشراك بالله شـيئا ، يقتضى كذلك أن لا نشرك معه فى العبادة أحدا .. « فلا تدعوا مع الله أحدا » .. ان التوحيد الخالص لله ، يقتضينا أن تكون عبادتنـا له خالصة .. حتى من الرياء والسمعة، وابتغاء عرض من أعراض الدنيا .. فذلك وأمثاله ــ ضرب من الاشراك بالله شيئا ..

وان هـذه المعـانى كلهـا .. وأضرابها .. فى مفهوم التوحيـد الخالص ــ لتوحى بها أول عبارة فى حديث المبايعة : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا » ..

أرأيتم كيف تكـون العقيـدة الصحيحة ؟!!

وأين مكانهـا بيـن صـفوف المسلمين .. وجماعاتهم التى لا تعد ولا تحصى .. ؟!!

نحن كثير .. ولكننا غثاء كغثاء السيل .. !!! يبعدنا عن التوحيد الخالص لله رب العالمين ..

فمتى تنغرس فى قلوبنا عقيدتنـا الصحيحة الموحدة التى لا يشوبها أدنى شرك .. كما كان عليه اسلافنا رضوان الله عليهم .. فطـابت بهم الحياة ، وطابت لهم الحياة ..

انها يوم تنغرس فى قلوبنا بهذا المفهوم الصافى .. فنؤمن باللهظاهرا وباطنا ، قولا وفعـلا وسـلوكا ، سيكون هو اليوم الذى تسـتقيم فيها أمورنا .. ولا تقف الجبال فى طريقنا .. ولا نرى مسـتحيلا فى سبيلنا .. ويومئذ نستعيدعزة بادت وسيادة هلكت ، وتـراثا انتهب ، ومجدا ضـاع .. ويومئذ يفـرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .. وصدق الله العظيم ! « ولله العـزة ولرسـوله وللمؤمنين » ..

ويل للشيوعيين ..

ان الأسـوياء من عبـاد الله ـ بفطرهم السليمة ، يؤمنون بالله ، ولا ينكرون وجوده ..

فالأعرابية البدوية ، وقد سئلت: هل لهذا الكون من خالق ؟ تقول : نعم .. ان البعرة تدل على البعير ، وان السير ليـدل على المسـير .. فسماء ذات أبراج .. وأرض ذات فجاج .. أفلا تدلان على اللطيف الخبير .. ؟!!

لكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ..!

لقد كفر بالله ، فى الماضى البعيد بعض العرب الجاهلين ، الذين يحكى القرآن عنهم قولهم :

« وما يهلكنا الا الدهر ، ومالهم بذلك من علم، ان هم الا يخرصون» وقولهم ، « ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين »!

ولقد كفر بالله فى عصرنا ، وفى أيامنا — الشيوعيون المنحلون الذين ألغوا عقولهم ، وأنكروا وجود الله ، فهم لا يؤمنون به، ولا يخشونه .. وهم من أجل ذلك لا يحترمون حقا ، ولا يقيمون عدلا ، ولا يوفون بعهد .. لأن الحياة كما يقولون : مادة ، ولا اله ..

فلم يزيدوا على ما قاله بعض الجاهلين من قبل .. بل كانوا ألعن وأضل سبيلا .. !!

ومن كانوا كذلك ، فلا أمان لهم ، ولا خير يرجى منهم ..

ان من لم يؤمن بالله الخالق الرازق المنتقم الجبار ، مالك الملك ذى الجلال والاكرام ، العادل الحكيم الذى يجزىء كل نفس بما كسبت — لا يمكن أن يكون له قلب يخشع ، أو نفس تصفو ، أو هدف كريم نبيل ترقى اليه مشاعره .. ومن كان كذلك ، فالحيوان خير منه ، لأن فيه على الأقل نفعا للانسان ..

وفى الكلاب نفع وفيها وفاء لأصحابها ! ولا وفاء عند شيوعى لا يؤمن بالله .. !

يشهد بذلك سلوك الشيوعيين فى كل أرض دنستها أقدامهم .. فهم ينشرون فيها الغدر والخيانة ، والخسة والنذالة ، وقتل المروءات، وسلب الحريات ، واذلال الأحرار، وسفك دماء الأبرياء الأطهار .. !

أما المؤمنون بالله حقا ، فهم الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ..

هم الذين لا يغفلون أبدا عن ذكر الله ، يذكرونه ولا ينسونه ، فى جميع أحوالهم ، فى شدتهم ورخائهم ، فى صحتهم ومرضهم ، فى قوتهم وضعفهم ، فى غناهم

وفقرهم ، فى شبعهم وجوعهم ، فى ريهم وظمئهم ، فى حلهم وترحالهم ، فى يقظتهم ومنامهم ، فى حركتهم وسكونهم ، فى راحتهم وأعمالهم ، فى سلوكهم ومعاملاتهم ، فى عباداتهم ومجاهداتهم ..

يحبون الخير لغيرهم ، كما يحبونه لأنفسهم ، ويكرهون الشر لغيرهم كما يكرهونه لأنفسهم .. فهم أمن وأمان ، ونعمة وسلام ..

***

العناية بالتربية من الصغر ..

وان تصحيح العقيدة ، وتأصيلها، وتحقيق مفهومها ، كما أراده الله ورسوله ــ يستوجب العناية التامة بتربية الناس عليها من الصغر .. بدءا بتحفيظ القرآن الكريم .. واعداد المعلم الصالح .. والمنهج الصالح ، للتربية الدينية .. واعطاء دراستها ما يليق بها ، من الاحترام والجدية والقداسة ، فى ساحة الدرس .. وفى جميع المراحل التعليمية : من الكتاب أو المدرسة الأولية .. الى نهاية المرحلة الجامعية .. مع الحرص على أداء الشعائر الدينية فى أوقاتها ، داخل جميع المؤسسات التعليمية وغير التعليمية .. فى الوزارات ، والمصالح الحكومية ، والمصانع والتجمعات العمالية .. عسى أن يتذكروا الله فيخشوه ، فى مجالات أعمالهم ، ومعاملاتهم ، وفى حياتهم داخل بيوتهم وخارج بيوتهم .. وياحبذا لو توفرت القيادات الصالحة ، والقدوة الحسنة ، فى هذه الساحات جميعا .. !!!

عبد الحميد الفضالى

رؤية إسلامية

الله .. الإنسان .. الخليقة

للأستاذ زاهر عزب الزغبي

فى خضم من ضلال الشرك . وظلام الوثنية ، وفوضى الجاهلية ... كانت جزيرة العرب تعانى من جاهلية عمياء عادت بسكانها القهقرى الى وثنية حمقاء كتلك التى جابهها وحاربها فى الماضى السحيق جد العرب الأول : ابراهيم عليه السلام .

وكان لكل قبيلة عربية وثنها الخاص بها ، له تتعبد ، واليه تبتهل كى يمنحها البركة والخير ويقيها الضر والشر ، فاللات والعزى ومناة وهبل كانت أصناما نحتتها قبائل العرب من صخر جبالهم وقدسوها ، واتخذوها أربابا يقدمون لها القرابين ، ويتوجهون اليها بالعبادة .. وينسجون حولها الأساطير والترهات والاباطيل .

وكان البيت الحرام ـ الذى رفع قواعده ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وجعله الله مثابة للناس وأمنا ـ قد صار فى النهاية الى أن أصبحت عرصته معرضا لاوثان الشرك .. حيث تنصب كل قبيلة وثنها ، واليه فى كل عام تحج : به تتبرك وله تتعهد ، وباسمه تنحر الذبائح والقرابين ..

وكان هذا الضلال ـ الذى ران على عقول الناس وقلوبهم فمسخ عقيدتهم وشوهها ـ قد لازمته فوضى فى الأخلاق والكيان الاجتماعى كله .. فالغرائز البدوية الجامحة كانت على الدوام مثارا لاشتباكات لا تنتهى بين القبائل . وكانت الحرب تندلع حامية مضطرمة الأوار لأوهى الأسباب وأتفهها .

ومجمل القول أن العرب كانوا يعيشون حياة بدائية ، لا تهديهم

عقيدة ولا تنظم مجتمعهم حضارة . وانما كانوا يعيشون على الفطـرة تحـكم فيهـم مطامـع الانسان وانفعالاته وغرائزه الحمقاء . وفيما عدا بعض الروابط والتقاليدالقبلية الواهية ، كان العربى يعيش حياة انفرادية قاسية ، يواجه بعبـــوس وصرامة ــ كلما تطلع حـواليه ــ وجه الصحراء الكالح البهيم ، وكأنما اقتبس انعزاليته (التى تبعده كلية عن الانضواء فى كيـان اجتماعى متماسك) من تفكك رمال الصحراء التى تحيـط به من كل جانب ، ويجد فى جوانبها الفسيحة المنبسطة وطقسها المتطرف ما يوائم فطـرته وحياته : سهولة وبساطة فى العيش وحدة فى الغرائز ، وتطـــرفا فى انفعـالات النفس ، وتناقضـا فى الطباع .

وفى هذه الفترة من الزمن شـاء الله أن يتجلى على الانسانية باحدى معجزاته وأن يتفضل عليها برحمته وبركاته ، فنزل وحيـه على أمى من أهل هذه الصحراء كان الله قد تعهده منذ مولده ورعـاه ، فلم يتورط هذا طول حياته فى حمـق الجاهلية ولم يتـــدنس فى حمأة الوثنية . فكأن الله قد ادخره لأعظم وأجل وأسمى مهمة اضطلع بهـا ــ منذ بدء الخليقة ــ انسان .

وكان هذا الأمى البدوى هـو محمد بن عبد الله ..

وكانت هذه المهمة هى رسـالة الله ..

وعلى حين غـرة من محمـد ، وعلى غير انتظار منه نزل عليـه ملاك السماء يحمل رسالة الله :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ..
خلق الانسان من علق ..
اقرأ وربك الأكرم ..
الذى علم بالقلم ..
علم الانسان ما لم يعلم .. »

(بداية سورة القلم)

وهكذا ولد الاسلام .. عقيدة تشمل الانسانية كلها .. ورسـالة تدعو ــ أول ما تدعـــو ــ الى التعريف بالله وتنبىء عنه باسمه ، وتقيم الدليل بينا على وجوده .

وبتوالى الآيات يتحـدد معنى الألوهية كما يقرره الاسلام : فالله

واحـد لا شريك له ولا مثيل فى ذاته أو صفـاته ، متفرد بالخلق والتـدبير .. متفـرد باستحقاق العبادة والتقديس ..لا يستعـان الا به ولا يخضـع الا له .. فلا خالق غيره ولا متصرف سواه .. وله وحده العزة والسلطان .

وهو القديم الذى لا أول لوجوده وهو الباقى الذى لا فناء يعتريه .

وعلى الجملة فالله ـ كما يتجلى من خلال الاسـلام ـ ذات أزلية سرمدية متصفة بكل كمال ومنزهة عن كل نقص .. هو صانع العالم وخالق الكون ، لم يلد ولم يولد ، واحد لاشريك له ولا مثيل .

وهكذا جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى فكرة عن الاله الواحد الأحد رب العالمين ، ورب المشرق والمغرب ورب الأمم الانسانية كلها .

والاله فى الاسلام ليس نسخة محرفة عن المعنى الذى عـرفت به الألوهيـة فى أى مـن الأديان (١) السابقة أو فى أى من الفلسفات .

واذا كان أرسطـو الذى كان أستاذ الفلسفة اليونانية ، والـذى ظل أستاذا لفلاسفة الغـرب حتى اليوم ، قد انتهى الى أن الاله كائن أزلى أبدى مطلق الكمال لا أول له ولا آخر ، ولا عمل له ولا ارادة ، لأنه غنى عن العمل وعن الاختيار ، ولا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق الانسان . .وانما تمت الخليقـة بشكل تلقـائى .. اذ أن المـادة الأولى التى هى أصـل الخليقـة « الهيولى » لها خاصية تجعلها فى شوق الى الوجود.. وهذا الشوق هو الذى دفعها الى أن توجد .. وهذه الخاصيــة ـ فى اعتبـار أرسطو ـ ذات طبيعة (ديناميكية) فهى لا تدفع الهيولى الى الوجود فحسب ، وانما تدعوه أيضا الى أن يتكامل بنفسه ويتطور من النقص الى الكمال .. ولتميـز الهيـولى بهذه الخاصية خـرج بذاته الى الوجود ثم مضى ـ بما فيه من طابع

(١) كما الت اليه فى افهام معتنقيها

ديناميكى - يسير فى درجات التطور حتى صار كونا . وفى قطاع من هذا الكون - الأرض - أوجد الأحياء ، ثم مضت هذه الأحياء تتطور بدورها حتى كان الانسان بما فيه من عقل مفكر .. والقياس يقتضى أن يتطور الانسان الى ما هو أرقى وأكمل الى صورة لا يمكن التنبؤ بها الآن ...

ولكى يربط أرسطو بين مادة الخلق الأولى - الهيولى - وبين الاله قال : ان ما فى الهيولى من خاصية هى شوقه الى الوجود قد أفاضها عليه الاله .. وقد وصف الأستاذ العقاد - مفندا مذهب أرسطو فى كتابه : « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » هذه الافاضة الالهية بأنها ليست من عمليات الخليقة فلا يقال عن العالم انه من خلق الله الا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .

فالله فى نظر أرسطو كمال مطلق لا يعمل ولا يريد .. ومثل هذا الكمال المطلق فى وجوده سلبى كالعدم المطلق على حد سواء .

واذا كان أرسطو كعقل بشرى محدود الامكانيات قد توصل الى تصور الكمال المطلق فى الله وجعله السبب الأول فى الخليقة فهو قد أخطأ فى ربطه بين السبب وبين عملية الايجاد نفسها برباط واه هو رباط الافاضة الربانية على الهيولى بخاصية الشوق الى الوجود .. أما عملية الايجاد نفسها فليس لله فيها نصيب ، وانما هى ترجع أولا وأخيرا الى الموجود نفسه (الهيولى) .. فانه بما فيه من خاصية أفاضها عليه الاله ، قد أوجد نفسه ، ومضى أيضا بهذه الخاصية الموهوبة فى طريق التطور ولازال .

والبرهان على بطلان هذا الرأى هين بين .. فالهيولى قد تعلقت به هبة الله وهو بعد ليس الا فى حالة من العدم لا يقبل تعلقا من أى نوع كان ، فكيف تسنى لهذا العدم أن يتلقى هبة الله .. ثم كيف تسنى لهذا الاله الذى هو عبارة عن كون من الكمال المطلق المجرد عن الفعل والارادة أن يباشر فعلا من أى نوع كان وقد جرده أرسطو عن العمل ، ثم جعله يفيض على الهيولى بخاصية الشوق الى الوجود ؟!!

ولكن أرسطو يشكر على أنه بامكانياته الفكرية البشرية المحدودة قد توصل الى ادراك وجود الله ، وان كان ادراك وجوده قد سبقته به الأديان السماوية منذ زمان طويل .. ثم أنه تصوره على أنه كمال مطلق غير محدود مستغن عن كل ما عداه . وقد جاء الاسلام فصحح المذهب الفلسفى عن الألوهية ، والذى يعتبر رأى ارسطو فيه قمة وقفت عندها الفلسفة حتى اليوم .

فالله فى الفلسفة يعقل وجوده ولا يعقل ما دون هذا الوجود ، ويتنزه عن الفعل والارادة لأن كليهما طلب وهو مستغن عن طلب شىء خارج وجوده .. ولكن الله فى الاسلام ذات واعية .. هى عبارة عن الكمال المطلق أيضا ولكن هذا الكمال المطلق لا يشينه أن يتفضل الله بالخلق والايجاد لما هو دونه .. ومن دواعى هذا الكمال أن يكون الله عالما ، وليس علمه قاصرا على ذاته ، وانما هو علم مطلق شامل .. يشمل أيضا ما سوى ذاته من كل موجود وكل ما سيوجد وكل معدوم يستحيل أن يوجد أو لم يرد له الوجود . فهو الذى خلق العالم حين أراد ذلك ، وفى وقت أن اختار لهذا العالم أن يكون ، وهو العليم بكل شىء فيه :

« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » (سورة يونس) .

وقد آثرت مناقشة رأى أرسطو وحده لأنه هو الرأى الذى تبنته الفلسفة فيما بعد وآثره الفلاسفة المتأخرون بعد أن كفونا هم أنفسهم عناء استبعاد ودحض آراء فلاسفة آخرين فى الألوهية من أمثال أفلاطون وغيره من الفلاسفة الأقدمين .

والاسلام أيضا قد صحح ما تداولته من قبله الافهام والعقول عن فكرة الوجود فى ذاتها ، فقد أعطى فكرة صحيحة عن الوجود السرمدى الذى لا يتحقق الا فى الله ، ونفى أن يتحقق لشيئين وجود من شأنه الدوام والبقاء .. وجود

لا أول له ولا نهاية.. وان كل ماعدا الله انما هو وجود زمانى . .وجود يبدأ وينتهى فى الزمان .. والله وهو الواحد الأحد الذى لا يشاركه ضريب أو مثيل فى وجوده السرمدى هو الخالق والموجد لكل موجود زمانى .

وعلماء الكلام المسلمون قد قصروا الوجود فى تقسيمهم له على هذين النوعين لا غير .. فوجود الله - فى اعتبارهم - وجود سرمدى أزلى لا أول له ولا انتهاء، وقد أطلقوا لفظ « العالم » اسما على ما سوى الله (ذاته وصفاته) من كل موجود ، والعالم عندهم شامل للسموات والأفلاك وما فيها من كواكب وأقمار وما فى هذه من هواء وماء ونباتات وجمادات وأحياء .. واتجهوا فى برهنتهم العقلية على حدوث العالم وعدم انفكاكه عن الزمان الذى به تقاس فترة وجوده المحدودة بالبداية والنهاية الحتميتين .. بأن قسموا العالم وكل موجود فيه الى قسمين فالعالم وكل ما فيه اما أن يكون جوهرا (وهو القائم بنفسه) واما أن يكون عرضا (وهو ما قام بغيره) .. ثم مضى هؤلاء فى برهانهم فحكموا بأن الأعراض حادثة لأن بعضها حادث بالمشاهدة كحدوث الصمت بعد الكلام وانتهائه باستئناف الحديث وكذلك الحركة بعد السكون والسكون بعد الحركة وتعاقب الظلمة والنور بتعاقب الليل والنهار .. أما ما لم نشاهد حدوثه من الأعراض كسكون بعض الأجسام الساكنة كالجبال فان مجرد احتمال تحركها دليل على حدوث هذا السكون ، لأن الأجرام كلها متساوية فى الأحكام ، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر ، وامكانية تحرك حجر من هذا الجبل الساكن يؤكد امكانية تحرك الجبل كله ، وعلى هذا فسكونه طارىء يجوز عليه العدم ، وكل ما يجوز عليه العدم لا يكون قديما أبديا فى قدمه، لأن القديم اذا كان واجبا لذاته فظاهر أنه لا يجوز عليه العدم ، فان لم يكن واجبا لذاته لم يجز أن يكون صادرا بالاختيار للزوم الحدوث له حينئذ .. فتعين أن يكون صادرا بطريق التعليل من

واجب لذاته ، فيلزم استمرار وجوده مادامت العلة موجودة فلا يجوز عليه العدم . ولما كان العدم جائزا عليه انتفت علة دوامه فهو حادث .. وعلى هذا فالأعراض حادثة .

أما الجواهر فدليل حدوثها أنها ملازمة للاعراض الحادثة ، لأن الجواهر محل للاعراض .. والاعراض قد قام الدليل على حدوثها والملازم للحادث حادث .. اذن فالجواهر بدورها حادثة .

ولما كان العالم لا يخرج عن كونه اما عرضا أو جوهرا وكلاهما حادث (محدود في وجوده .. وموجود بسبب من غيره) اذن فالعالم كله حادث .

قال صاحب الجوهرة :

فانظر الى نفسك ثم انتقل
للعالم العلوى ثم السفلى
تجد به صنعا بديع الحكم
لكن به قام دليل العدم
وكل ما جاز عليه العدم
عليه قطعا يستحيل القدم

واذا كان رأى أرسطو فى الاله — وان كان قد تصوره على كمال مطلق الا أنه قد قصر فى تصور أنه الموجد بالفعل للعالم — لم يستطع أن يصل الى مستوى الفكرة الاسلامية وما حققته من اقناع واشباع عقليين فانه من نافلة القول أن نناقش الأشكال الوثنية التى تصورت بها البشرية معنى الألوهية. فان اليونان الأقدمين كانوا يتمثلون الألوهية فى مجمع من الأرباب :عدد من الالهة لكل منهم وظيفة خاصة وميزة خاصة .. وقد تلعب بهم الأهواء أو تتضارب الرغبات أو تتداخل الاختصاصات فيشتبكون فى عراك !!

وكذلك الهنود الأقدمون كانوا يتصورون معنى الألوهية فى عدد من الأرباب ، منها ما يرمزون اليه بنوع من الحيوان ، أو يتخيلونه فى عنصر من عناصر الطبيعة ، أو يجسمونه فى وثن من حجر ، وبعض هؤلاء الأرباب ان لم يكن أكثرهم كان يتطلب من كهانه أن يتقربوا اليه بالبغاء المقدس أو سفك الدماء .

ثم قطعت الديانات الهندية شوطا طويلا فى مدارج التطور

حتى وصلت الى ذروة لم تتعداها فى كل من البرهمية والبوذية .. والبرهمية عقيدة عـرفت بأنها دين بغير اله ، ومـع ذلك فهى مليئـة بأسماء الأرباب ، وعقيدتها ترتكز على ثـالوث من بـراهما وفشنو وسيفا .. وقد وصفت هذه الآلهة بصفات تشخصها وتجعلها أقـرب الى الجنس الانسانى منها الى الاله، وقد وصفه كل منهـا بالذكورة وجعل له قرينة من الاناث .

ثم جاءت البوذية وهى تعتمد على البرهمية ولكنها شكل أرقى وأعلى فى التطور الدينى. فقالت أنه ينبغى أن تتجرد من الـوعى ومن لبـاس الجسد حتى تدخل فى النرفانا.. والنرفانا فى زعم البـوذيين حالـة يتجـرد فيها الانسان من الآلام ويشعر بسعادة عليا .. وقد أوغل البوذيون أيضا فزعموا أن النرفانا هذه هى الاله .. والاله فى زعمهم ليس ذاتا وانما هو حـالة يمـكن للانسان أن يصل اليها اذا تجرد من وعيه واحساسه ، أو اذا أنكـر جسده أو تخلص منـه كلية ، أو بعبارة أخرى يحس الانسان بالنرفانا التى هى الاله اذا وصل الى حـالة من الانجذاب فقد فيها وعيه كلية ، أو اذا تخلص من جسده سـواء بالموت أو بالانتحار ، وبدون ذلك لا يمكن أن يعرف الانسان شيئا عن هذا الاله .

وليت شعرى كيف يتأتى للمـرء أن يدرك كنـه اله يتطلب ادراكه فقدان الوعى .. والوعى هـو آلة الادراك ؟؟!!.. ثم لو توصلنا الى هذا الادراك فان النرفانا لا تعـدو أن تكـون ـ كـما وصفت فى البوذية ـ نوعا من السعادة .. أو السعادة العليا كما يقولون ..وهذه السعادة العليا هى فى نفس الوقت عين الاله .. وعلى هذا فاله البوذية لا يعدو أن يكون معنى مجـردا مـرادفا للنشـوة التى يحسهـا المجذوبون أو بعض مرضى النفوس .. هذا اذا استطعنا أن تتجرد من الوعى أثناء حياتنا بدون حاجة الى التخلص من الجسد كلية بالمـوت على أية صورة جاء .. وفى هذه الحالة الأخيرة لن تكون النـرفانا سوى حالة عامة تنتهى اليها جميع الأرواح حين تفـرغ من عنـاء الوجود .. وهى حينئـذ شيء

يناسب العدم أكثر مما يناسب الوجود .

وإذا نحن ضربنا صفحا عن الأشكال البدائية للتجارب الانسانية فى مجال الدين كعبادة الانسان البدائى لأسلافه أو عبادة الطواطم والأوثان وعبادة الأرواح فاننا نجد فى النهاية محاولات انسانية بحتة قد قاربت ادراك الاله الواحد العظيم .. وعلى رأس هذه المحاولات تقف الاخناتونية التى اعتنقها — قبيل بعثة موسى — فرعون مصر « اخناتون » .

ومجمل القول فى نقد الديانات القديمة أن أقصى مدى وصلت اليه فى ادراك الخالق وتنزيهه أنها صورته أو فهمته على وجه شابه كثير من العيوب التى تعلق بما يجب أن يتصف به الخالق من وحدانية أو من كمال أو بما يجب أن يتنزه عن الاتصاف به من نقص .

والاسلام لم يغض من شأن المحاولات الانسانية فى بحثها عن سبب الخليقة وعن الله .. بل انه يذكر بالتمجيد محاولة ابراهيم عليه السلام فى الوصول الى ادراك الله حيث جاء فى القرآن الكريم :

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين .

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (الانعام : ٧٥/٧٩) .

وقد كانت محاولة ابراهيم هذه سابقة على بعثته فى أصح الاقوال وأقوى الاحتمالات .. والاسلام يعترف أيضا بما سبقه من رسالات سماوية أولها رسالة آدم عليه السلام وأخبرنا القرآن بأن الله قد أرسل بعد آدم رسلا وأنبياء كثيرين .

« ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » (النساء / ١٦٤) .

ولكن القرآن يشدد فى التأكيد بأن هؤلاء الأنبياء والرسل لم يكونوا سوى بشر عاديين اصطفاهم الله ليبلغوا رسالته وليهدوا أقوامهم الى الطريق المستقيم .. فهؤلاء الأنبياء والرسل فى حقيقتهم بشر والناس يتفقون مع سائر الناس فى كل صفات البشرية .. وبهذا يتيسر لسائر امتهم التلقى عنهم وتقليدهم فيما يقولون ويفعلون .. ومع ذلك فان الله خصهم بنوع من الاصطفاء .. هو فى الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدرة على التزام المثالية البشرية كما يريدها الله .. وبذلك صاروا اهلا لتلقى وحى الله ــ اما مباشرة كموسى عليه السلام أو بواسطة الملك المكلف بالوحى كسائر الأنبياء والمرسلين ــ وتبليغ ذلك للناس .. وقيادتهم اياهم فى التطبيق العملى فى سائر مناحى الحياة ، وكانوا بذلك مبلغين عن الله معصومين عن الخطأ فيما يبلغون ، وكانوا اسوة لاقوامهم فيه ، والى هذا تشير الآيات :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون .. بالبينات والزبر ، وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل : ٤٣ : ٤٤) .

(وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين » (الأنبياء : ٨) .

ويقول القرآن الكريم ان رسالة الله على الدوام كانت ذات هدف واحد هى توجيه الانسان نحو طريق الهدى ، وان اصول الرسالات وقواعدها كانت دائما واحدة لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى .. ومن ثم يطلب القرآن الكريم الايمان بجميع الرسل وبما انزل عليهم جميعا .. ويعتبر أن فى الايمان بالبعض دون البعض خروجا عن دين الله وكفرا بهداه :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك ،

وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (الشورى : ١٢).

واذا كان الاسلام يقر جميع ما سبقه من رسالات — ومن بينها اليهودية والمسيحية — فانه يقرها على وجهها الصحيح لا على ما آلت اليه فيما بعد — بعد ان داخلها الكثير من الترهات والأباطيل .

وقياس الصحة والبطلان فى المبادىء الدينية التى تضمنتها اليهودية والمسيحية هى موافقتها أو عدم موافقتها للمبادىء الاسلامية نفسها .. لأن هذه المبادىء ليست الا رسالة الله التى لم تختلف فى أية رسالة من الرسالات حتى ولا فى اليهودية أو فى المسيحية عنها فى الاسلام .

« ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتو الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب .. فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والامين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » (آل عمران : ١٩ : ٢٠) .

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (آل عمران : ٨٥).

ومن ثم فاننى فى مقال سابق قد أطلت باستفاضة فى شرح ظروف تدوين التوراة وما لابس ذلك من دواعى تحريفها واستشهدت بما جاء على لسان السيد المسيح عليه السلام من اتهام كتبة التوراة بتزوير وصايا الله .. وفى ذلك يقول القرآن أيضا :

« واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » (آل عمران : ١٨٩) .
« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » (النساء : ٤٦) .

ومن أجل ذلك تعتبر الصورة التى رسمتها التوراة لاله موسى صورة غير صحيحة فان اليهود — اذا اعتبرنا روايات التوراة —

لم يكونوا موحدين ، ولم يكونوا ينكرون وجود الالهة الكثيرين غير الههم .. هذا فضلا عن الصورة الممسوخة التى صورت بها التوراة ذلك الاله .

وفى مجال المقارنة لا يمكن أبدا أن يعتبر « يهوه » اله اليهود صورة راقية من صور العقيدة الدينية .. فالعقيدة اليهودية كانت معيبة من جهة توحيد الله .. وكانت معيبة من جهة ما يجب أن يتصف به من كمال .. وكانت معيبة من ناحية ما يجب أن يتنزه عنه من كل نقص .

وفى المسيحية جاء عيسى بن مريم عليه السلام فاختص بدعوته بنى اسرائيل دون من سواهم من العالمين ، وقد اثبتت الأناجيل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التى قصدته متوسلة أن يشفى ابنتها المريضة فأجابها بأنه لم يرسل الا الى خراف بنى اسرائيل الضالة . (مرقص : ص ٧ ، متى ص ١٥) .

فالعقيدة الالهية كما دان بها اليهود والمسيحيون وجمدوا عليها الى ما بعد وفاة المسيح انما كانت عقيدة شعب مختار من بين الشعوب فى اله مختار من بين الآلهة ، وليس من عقيدتهم توحيد الله ، ولا يمكن أن تعتبر هذه العقيدة مما يتسع لديانة انسانية عامة ، لأنها عقيدة قومية متعصبة .

وحينما ظهر الاسلام كانت العقيدة فى المسيحية قد تطورت الى تلاشى النعرة القومية واتساع نفوذ الله .. ولكن وحدانيته عابها اشراكهم المسيح نفسه معه فى الالوهية باعتباره ابنا له .

وقد جاء الاسلام بعقيدة تنزه الاله فيها عن لوثة الشرك ، وعن جهالة العصبية وسلالة النسب ، وعن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الأديان الكتابية .

« الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين » .. (فاتحة الكتاب) .

والاسلام لم يعتن بتنزيه الله واظهار وحدانيته وعظمته وكماله فحسب .. بل انه اعتنى أيضا ببيان

العقيدة كما أوحى الله بها صحيحة ونقية من كل شائبة الى رسوليه الكريمين موسى وعيسى عليهما السلام .

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» (المائدة) .

« يا أهل الكتاب : لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم، رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد ، سبحانه، أن يكون له ولد ، له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » (النساء : ١٧١) .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن فى الأرض جميعا ... » المائدة : ١٧) .

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد ... » (المائدة : ٧٣) .

« ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون » (المائدة : ٧٥) .

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (آل عمران ٥٩) .

« فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد جئت شيئا فريا .. يا اخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا .. فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ .. قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا .. وجعلنى مباركا اينما كنت، وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا.. وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شقيا .. والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا .. ذلك عيسى بن مريم : قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى

امرا فانما يقول له : كن فيكون .. وان الله ربى وربكم فاعبدوه » (مريم : ٣٥/٢٧) .

والاسلام حين يعترف بماسبقه من رسالات فانه يطلب الايمان بأن محمدا عليه السلام خاتم الأنبياء والمرسلين ، وبأن رسالته تضمنت خلاصة الرسالات السابقة وزادت عليها ما به كمال الانسانية التى أتاح الله لها هذه المرة ــ وبشكل نهائى ــ الطريق الواسع نحو التطور الصحيح ، ونحو الرقى المادى والروحى .

« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠) .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » (المائدة ٣) .

ولهذا كانت هذه الرسالة الالهية النهائية رسالة عامة موجهة الى جميع الناس مهما اختلفت ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم فى كل زمان ومكان ابتداء من وقت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى يوم القيامة .

« قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » (الأعراف ١٥٧) .

« وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨) .

والاسلام بما تضمنه من ارشادات الهية ليس صالحا لهداية الانسانية وحدها وانما هو صالح أيضا لهداية وارشاد سائر أجناس المخلوقات العاقلة الأخرى من غير الجنس البشرى .

« قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : انا سمعنا قرآنا عجبا .. يهدى الى الرشد ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا .. وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا .. وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا .. وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا .. وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا .. وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا .. وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا .. وانا كنا نقعد

منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا .. وانا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا .. » (الجن : ١/١٠) .

وفى خريف عام ١٩٦١ سمعت من راديو القاهرة برنامجا اذاعيا حرره أحد العلماء العرب المتخصصين فى علوم الطبيعة وابحاث الكون جاء فيه : انه من المحتمل جدا أن يكون الجن نوعا من الأحياء التى تعيش فى أحد الكواكب الأخرى ، وانهم قد فاقوا انسان الأرض فى مناحى العلم بحيث يستطيعون التنقل عبر الكواكب أو على الأقل توصلوا الى مخترعات يمكنهم بها ان يروا ــ من كوكبهم ــ كل أحوالنا ويستمعوا الينا ويؤثروا فينا بشكل أو بآخر .

وسواء أكان هذا حقيقة قد يثبت العلم صحتها فيما بعد أو شطحة من شطحات خيال هذا العالم العربى فان الاسلام يطالبنا بأن نؤمن بأن الجن مخلوقات كائنة فعلا .. وانهم استمعوا الى قرآن الله متلوا بلسان نبيه محمد عليه السلام فوجدوا فيه صلاحهم ورشدهم ، وانهم مكلفون كالبشر بشريعة الله واتباع هداه والايمان به .

« وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا .. »(الجن : ١٤/١٥).

وعلى غير العادة فى حديث القرآن عن العالم الغيبى ومطالبتنا بالايمان بوجوده كطوائف الملائكة فانه حينما تحدث عن الجن بين المادة التى خلق منها الجن بينما لم يتعرض مرة واحدة ــ على كثرة ما ذكر ــ للمادة التى خلق منها الملائكة أو الحور العين مثلا :

« وخلق الجان من مارج من نار » (الرحمن : ١٥) .

« والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (الحجر : ١٧) .

والنار مادة معروفة فى كوكبنا الأرضى وهى مصدر الاشعاع والحرارة فى كل نجم ملتهب حى كالشمس .. فاذا كان العلماء يقررون ان الحياة تتشكل حسب

ظروف البيئة فانه ليس من المستبعد أن تكون نبوءة محرر البرنامج الاذاعى على حق .

وسورة الرحمن من أولها الى آخرها وضع الله فيها الانسان مع الجن فى اطار واحد .. موجها الخطاب اليهما معا ومناقشا اياهما معا ومقيما الحجة عليهما معا فى عبارات واحدة وبخطاب واحد :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار .. وخلق الجان من مارج من نار ..فبأى آلاء ربكما تكذبان» « يا معشر الجن والانس أن استطعتم ان تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون الا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان »

(الرحمن)

وسواء أكان الجن سكانا غير بشريين لكوكبنا الأرضى أم أحياء فى كوكب أو نجم آخر فانهم ما داموا مكلفين ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد شملتهم .. فان الاسلام لا يكون عاما للجنس البشرى وحده ، وانما هو عام لكل حى عاقل لا تقل قوته العقلية عن مستوى الانسان العادى .

فلو فرض وأننا ــ سكان الأرض ــ قد تقدمنا فى ابحاث الفضاء (التى جندت لها الدول الكبرى فى الوقت الحاضر كل الامكانيات) ووصل انسان الارض الى كوكب آخر فوجد فيه احياء فى مستوى الانسان العقلى والفكرى لشملت هذه الدعوة سكان هذا الكوكب ولأصبحوا مكلفين بالايمان بمبادئها والعمل بها .. وأصبح عموم الاسلام وشموله غير قاصر على سكان الأرض فحسب بل يشمل غيرهم من سكان الكون جميعه .. كلما وجد فى أى من كواكبه سكان هم أهل للادراك .. أهل للوعى .. أهل للتكليف .

واذا كانت العقيدة فى الاسلام هى الأصل والايمان بها هو الأساس الذى ينبنى عليه الجانب العملى من الدين وهو ما اصطلح على تسميته بالشريعة فان الله لم يكتف بمجرد الاعلام حين أراد الافصاح عن كنه ذاته وصفاته اعتمادا على الثقة

بالمصدر وصدق النبى . بل انه سبحانه جلت حكمته أقام الحجة وأتى بالبرهان المعقول والبينة المحسوسة المشاهدة المرة تلو المرة والدليل تلو الدليل .

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون .. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون .. وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين .. فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (البقرة : ٢١/٢٤) .

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم اليه ترجعون .. هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » (البقرة : ٢٨ ٢٩) .

« ألم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » (لقمان ٢٠) .

وأمثلة من هذا القبيل فى القرآن كثيرة .. وقد أشرنا فيما سبق الى ما استدل به علماء الكلام من دليل عقلى على حدوث العالم جواهره وأعراضه ، وكل ما فيه من سموات وأرضين وما فى كل منها من جماد وأحياء .

وحدوث العالم اتخذه هؤلاء العلماء مقدمة منطقية فى البرهنة على وجوب وجود الله .. وأجروا البرهان هكذا :

العالم حادث .. وكل حادث لا بد له من محدث .. وهذا المحدث اما أن يكون واجب الوجود أو جائزه فلو كان جائزه لجاز عليه العدم ، فان تحقق عدمه ظل العالم فى حاجة الى محدث ، وان لم يتحقق عدمه لكان حادثا ولاحتاج هو أيضا الى محدث ومحدثه الى محدث فان رجع الى الأول مباشرة أو بالواسطة فدور والا فان تتابع المحدثون الى ما لا نهاية فتسلسل .. وكل من الدور والتسلسل

باطل فبطل ما أدى اليه وهو انه غير واجب الوجود وثبت انه واجب الوجود .

ومن مشاهد العالم والطبيعة أيضا استند علماء الكلام فى البرهنة بطريق آخر على وجوب وجود الله فقالوا :

ان الممكنات موجودة بالضرورة .. وكل موجود ممكن لا بد له من موجد . وهذا الموجد اما أن يكون عين الممكنات ، وهذا باطل لاستلزام تقدم الشيء على نفسه .. واما أن يكون جزءها ، وهذا محال لاستلزامه أن يكون الشيء سببا لنفسه ان كان هو الجزء الأول او لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ، فلا بد أن يكون الموجد من غير الممكنات .. وغير الممكن اما أن يكون مستحيلا أو واجبا .. والمستحيل معدوم فلا يحقق الوجود لغيره ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه لغيره ، فتعين أن يكون هذا الموجد واجب الوجود .

وواجب الوجود ليس سوى الله تعالى .

ومن ثبوت وجوب وجود الله استدلوا بأن وجوده قديم لا أول له وباق لا نهاية له .

اذ انه تعالى لو لم يكن قديما لا أول لوجوده أو لو لم يكن باقيا لا نهاية لوجوده لكان حادثا ، ولو كان حادثا لجاز عليه العدم ، ولو كان كذلك لكان غير واجب الوجود .. ولكن قد ثبت له وجوب الوجود ، فانتفى ما أدى الى غير ما ثبت له من وجوب الوجود وهو كونه غير قديم أو غير باق ، وثبت له — سبحانه وتعالى — وجوب القدم ووجوب البقاء ..

قال صاحب الجوهرة :

فواجب له الوجود والقدم
كذا بقاء لا يشاب بالعدم
وانه لما ينال العدم
مخالف برهان هذا القدم

وفى كتب العقيدة الاسلامية نجد أن علماء الكلام لم يتركوا صفة من صفات الكمال تنسب الى الله الا وبرهنوا على صحة هذه النسبة الى ذاته سبحانه وتعالى بالدليل العقلى الذى لا يقبل الشك وبالبرهان المنطقى الذى لا ينقض .

فهي عقيدة العقل المقتنع والايمان المطمئن المستنير ومع ذلك فالله سبحانه تعالت حكمته قد نبه انه ليس للبشر أن ينسبوا لله صفة لم ينسبها لنفسه في قرآنه أو على لسان نبيه في خبر قطعي وكذلك أن يناجوه باسم غير ما وضعه لنفسه أو دعاه به رسوله :

« ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه .. » (الاعراف : ١٨٠) .

وقد أرشد الله تعالى الى ما وضعه هو من أسماء وصفات تمثل ذاته وقدرته وحكمته وكل ما له من كمال يليق به .. ومن هذه الاسماء والصفات : الواحد ، الأحد ، الصمد ، القدوس ، الحى ، القيوم ، الغنى ، الأول ، الآخر ، السميع ، البصير ، العليم ، الخالق ، البارىء ، المصور ، البديع ، القادر ، القاهر ، الولى ، الحافظ ، رب ، رحمان ، رحيم ، رءوف ، ودود ، لطيف ، حليم ، رزاق ، وهاب ... الخ .

وكان هذا التشديد في منع ارتجال الأسماء لله هو غلق باب الشرك وقطع طريقه ومنع اسبابه حتى لا تؤدى الاباحة في النهاية الى تشويه معنى الالوهية أو الحط من عظمة الاله وكماله على نحو ما حصل في كل من اليهودية والمسيحية .

وفي غير ما هو توقيفي من خصائص ذات الاله فان الاسلام قد أتاح للانسان قدرا من الادراك الواعي غير محدود الا بقدرة عقل الانسان ذاته . .والقرآن الكريم مليء بآيات تحض الانسان وتدفعه دفعا الى استكشاف مغاليق الطبيعة والكون وان يستخدم كل ما سخره الله له في كل ذلك من خيرات اذا أحسن التصرف .. ولكي يخطو الانسان في مسالك هذا الطريق وهو آمن من العثرات والخطأ فقد رسم الله له المنهج القويم للتصرف الصالح .. فالانسان في نظر الاسلام مخلوق نيطت به أمانة التكليف وهو في نفس الوقت بصير على نفسه لأنه أهل لهذه الأمانة .. وهو على قدر نهوضه بمقتضيات هذه الأمانة لم يحدد مصير نفسه وحسب بل ربما حدد

مصير مجتمعه أيضا .. ولهذا كان من الخطورة أن يخلى بين الانسان وأمانة الله تخلية مطلقة لأن الأمانة ليست أمرا هينا ، وانما هى مجاهدة دائمة للنفس الأمارة بالسوء .. فكان لا بد من أن يوضع حد لضعف الانسان أمام مغريات الهوى .. والحياة الدنيا قصيرة الأمد ، وفيها يحيا الانسان بغرائز ملتهبة وشهوات عارضة .. فهو يعيش دائما على حافة هاوية الهلاك .. وهو جدير بأن يورد نفسه مورد التهلكة اذا استكان لضعفه فى لحظة طيش واحدة .. فاذا نجح فى التزام قواعد الله ومنهجه ، وكبح جماح شهوات نفسه أعانه الله على اجتياز هذه الحياة الفانية بسلام وأعد له فى الآخرة خلودا فى نعيم وسعادة حيث جنات الفردوس قد أعدها الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات مقاما ونزلا أبديا .. فاذا لم يتحقق للانسان فلاح فى حياته الدنيا فالشقاء الخالد فى حياته الآخرة حيث يعذب فى جحيم سقر . ولن يتصرف الله ازاء الانسان فى الآخرة تصرفا مستبدا ، ولن يترك للأشقياء منهم فرصة الظن بأنهم قد غبنوا أو حاق بهم ظلم ما بل سيحاسبهم فى محاكمة عادلة .

« كل امرىء بما كسب رهين » (الطور) .

« وما ربك بظلام للعبيد » (فصلت) .

والله اذ سوى الانسان وخلقه على أحسن تقويم وسخر له كل ما فى الكون من خيرات جعله أيضا بما حمله من تكليف صاحب عزيمة وارادة وفكر .. فعلى الانسان أن يتحرى النهج الأقوم فى حياته وفى الانتفاع بخيرات الله حتى لا يكون كفرد من فصيلة العجماوات السائمة .. وهذا التحرى يجعل اختيار الانسان وحريته لا مجرد انطلاق أعمى ولكن انطلاقا واعيا مضمنا .. فالله حين يوجه الانسان فى الحياة ويبين له سبيل الصواب انما يساعده على أن يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية أسمى درجة من الكمال الانسانى فى الروح والخلق والمادة والعقل ، وينظم علاقته بربه ، وعلاقته بأخيه الانسان فى كل مظاهر الحياة ، وكل تكييف لعمل الانسان حسب منهج الله يعتبر

عبادة مشروعة . فكل لحظة يقضيها المرء وينفقها فى معاملته من أجل الله والانسان ، وكل تأمل وتدبير، وكل حركة انبعثت من هدى الله فهى فى نظر الخالق تقديس وعبادة وتمجيد له .

واذا كان عمل الانسان هو الذى يحدد فى النهاية مصيره الاخروى فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. وعلى هذا فقد صحت مسئولية الانسان ، لأنه فاعل مختار ولأن مصيره نتيجة فعله وليس شيئا لازما ولا مفروضا عليه .

« وان ليس للانسان الا ما سعى . وان سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى» (النجم : ٣٩ : ٤١) .

وقد بدا لبعض الناس أن اطلاق الله ليد الانسان فى الحياة ومنحه الحرية فى أفعاله وفى تحديد مصيره يحد من عظمة الله نفسه.. اذ كيف يأذن الله للانسان أن يفاجىء خالقه باختيار لم يسبق بعلمه وأن يعبث بنظم وقوانين نظم الله بها مجرى ملكوته !! ؟؟

ولكن الله خلق الكون ونظمه وقدر لكل شىء فيه قدره .. والانسان ــ فى دائرة وجوده الضيقة وسط هذا الكون الجبار ــ سيد نفسه فى تصرفاته .. وعلم الله محيط شامل ولا يخضع للزمان أو المكان فانه دائما حاضر وبالحاضر .. والله يعلم أولا كل الحوادث الطبيعية والأفعال الاختيارية التى وجدت فى العالم ، يعلم الاتجاهات التى سوف يتجه اليها كل فرد فى حياته .. يعلم مصير كل فرد لأنه يعلم الطريق الذى سيتخذه فى الحياة . ومهما كان عمل الانسان فانه لا يخرق نظاما استنه الله وقدره للكون لأن نظام الكون هائل وعظيم عظمة الكون نفسه ... عظمة تستمد حتميتها من ارادة الله التى لا ترد وقدرته التى لا تدفع .

ولقد اعتنى الاسلام ــ فى محيط الانسانية ــ بوحدتها وهى الفرد. فعمل على بناء شخصيته وتقويمها، ورسم لها طريق التصرف فى حرية وعزة وكرامة .. لأن هذا الفرد كوحدة يمثل نواة لكل مجتمع انسانى ابتداء من الأسرة الى الأمة

الى المجتمع الانسانى بأسره .. وتقويم شخصية الفرد وتربيتها على العزة والكرامة والحرية أمر جوهرى للنهوض بالبشرية كلها والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تنبىء عن تكريم الله للانسان واعزازه له .

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البحر والبر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء : ٧٠).

ومع ذلك فالانسان كثيرا ما يتخلى عن هذه المرتبة العليا التى وضعه الله فيها فيتخلى عن كرامته ويضع زمام أمره لبعض الجهلاء من جنسه الذين كانوا ولا يزالون يعتبرون الانسان حيوانا راقيا لا أكثر ، ولذلك تراهم يعمون عن حكمة الله ولا يتبينون سوى حلول حيوانية لمشكلات البشر . فهم فى ميدان السياسة يريدون أن يجندوا الناس ويعبئوهم كالحشرات .. وهم يفعلون ذلك وسيفعلون دائما اذا أعطاهم الانسان فرصة من نفسه فى أى مكان فى العالم وفى أى وقت سنحت لهم الفرصة .. ولكن الله قد وعد بأن يمحق الباطل ويحق الحق وان لا يتخلى عن عباده حين يعرض لهم من بينهم من ينكرون على الانسانية أية قيمة أو عمل يفوق قيمة وعمل اليعاسيب العاملة فى خلية النحل .. فرحمته وسعت كل شىء وعنايته سهرت على الانسان فى كل وقت وحين .

والله هو الذى خلق الانسان حين سواه بشرا من طين ، وجعل منه كائنا قادرا على السلوك العقلى والحكم على الأشياء ، والتقرير الارادى والاختيار الأخلاقى .. والقرآن الكريم اذ يقرر هذه الحقيقة يدعمها بحقيقة رئيسية أخرى .. وهى أن الله خلق الانسان ليكون وكيله أو خليفته فى الأرض، وقد اقيم الانسان فى هذه الأرض لا ليسيطر على سائر مخلوقاتها وانما ليسخرها أيضا ولينتفع بكل كائن فى الأرض ،وبكل عناصر وقوى الطبيعة فيها .

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض

جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (الجاثية : ١٢ : ١٣) .

والذى ينظم للانسان كل هذا بل ينظم حياته كلها انما هو هدى الله والطريق الذى رسمه له . وهذا الهدى الالهى ينبنى أيضا بما فيه من تكليف بالايجاب أو بالمنع أو بالاباحة فى الحياة الانسانية الاولى الفانية على نظرية البعث فى حياة أخرى خالدة غير فانية تبدأ بحساب حق يعقبه ثواب أو عقاب طبقا لما كان عليه الانسان فى حياته الاولى .

ولكن حريةالانسان فى اختيار فعله ومصيره لا تنقض علم الله ولا قدرته .

وقد احتدم الخلاف بين المدارس الكلامية الاسلامية فى أفعال العباد وهل هى نابعة أصلا من مصدر انسانى خالص أم من مصدر الهى خالص .. وقد قال الجبرية بالمصدر الالهى الخالص ووقفوا موقفا حرفيا أمام بعض النصوص القرآنية التى تقرر بصراحةان الله وحده هومصدر كل فعل سواء أكان فعلا علاجيا بالجوارح أم مجرد اعتقاد بالقلب، كالارادة والاختيار والعزم .

ووجدوا فى آيات القرآن الكريم ما يؤيد رأيهم من امثال آية :

« والله خلقكم وما تعملون » .

والاحتمالات اللغوية فى تفسير هذه الآية سواء كانت (ما) فى قوله وما تعملون : موصولة أم نافية تنفى عن الانسان كل فعل أو عمل حتى ارادته وحريته فى الاختيار من حيث انهما فى واقع الأمر لا يعدوان أن يكونا فعلا حقيقيا للانسان .. وقالوا أيضا فى مقام الاحتجاج العقلى على هذا الرأى بأن الانسان لو كان منشئا لافعاله لكان قادرا ولشارك الله فى صفة من صفاته وهى القدرة ومشاركة الله ومماثلته فى ذاته أو صفاته قد قام الدليل على بطلانها . وبذلك صور هؤلاء الجبرية الانسان كدمى مسرح العرائس يتحرك بلا بصيرة ولا ارادة نحو مصير مقدر محتوم .

وأما المعتزلة فقد كانوا على النقيض من ذلك اذ ذهبوا الى أن أفعال الانسان كلها من مصدر

انسانى خالص واستشهدوا بآيات كثيرة من القرآن الكريم :

« ان الذين آمنـوا وعملوا الصالحات كانت لهـم جنـات الفردوس نزلا » .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وقالوا فى مقام الاحتجاج العقلى ان الانسان لو لم يكن موجـدا لافعاله ومنشئا لها لما صح جزاؤه بالثـواب أو العقـاب ولكان فى عقـاب المسىء ظلم له ، والظلم نقيصة والنقائص بطل اسنادها الى الله بالدليل فتعين أن يكون الانسان مصدرا لافعاله كلهاوليس من مصدر لها سواه .

أما اهل السنة فقد تحرجوا من أن ينسبوا للانسـان افعاله كلهـا فيقعوا فى شبهة الشرك التى نبـه عليها الجبرية فى حجتهم العقلية ، ومن أن ينفوا عنه القيـام بأفعاله فينقضون أسباب الجزاء الأخروى .. ومن ثم اتخذوا طريقا وسـطا باختـراع ما أسـموه بالكسـب والاكتسـاب .. والكسـب والاكتساب فى اعتبارهم ليسـا الا حرية الانسان فى اختياره للفعل . وهذه الخاصية قد منحها الله له منذ الخليقة .. فاذا ما اختار الانسان فعل الخير كان هذا كسبا أمـا اذا اختار فعل الشركان اكتسـابا .. واذا ما تم اختيار الانسان للفعـل وانعقد عزمه عليـه تدخلت قـدرة الله وأوجدت الفعل عن طـريق الانسان نفسه .

ومن هذا نجد الرأى السائد بين الفرق الاسـلامية يؤكد استقلال الارادة الانسانية ولكن من الحق أيضا أن الحكم الأخير لله ، فحرية الانسان تستتبع أن يكون الانسان مسئولا أمام الله ، أمـا السلطان الالهى المطلق فيظهـر نفسه فى التاريخ أو فيما تتكشـف عنـه احداثه .

والتـاريخ الانسـانى متحـرك (ديناميكى) وهو ــ من أحـد وجوهه ــ مجمـوع اختيارات البشر . انه نتيجة استعمال الانسان لارادته المستقلة بالاضافة الى حكم

الله على هذا الاستعمال.. فالتاريخ على هذا نسيج مشترك من حرية الانسان وسلطان الله المطلق. وكثيرا ما يشير القرآن الكريم الى الماضى باعتباره شاهدا على ارادة الله وقدرته النافذتين فى شئون الناس .

« وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون »(يس : ٩) .

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون » (الانعام : ٦٥) .

« وكأين من قرية امليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها والى المصير » (الحج : ٤٨) .

« وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوما آخرين» (الأنبياء : ١١) .

وأيا ما كان الأمر فالانسان يعلم عن يقين ان هناك قوة أعظم من نفسه هو مسئول أمامها .. وقد علمته التجربة انه كثيرا ما يعقد العزم على الفعل ولكنه لا يتمكن من تنفيذه لأن هناك قوة أكبر قد حالت دون نفاذ هذا الفعل .

ويقول السير محمد اقبال فى تفسيره للآية القرآنية : « انا كل شىء خلقناه بقدر » (القمر : ٤٩) : يعنى أن كل مخلوق قد وهب امكانية محدودة هو حر فى تحقيقها أو عدم تحقيقها : وفى حدود محدودة ضيقة يتصرف الانسان.. ولكن هذه الحدود الممنوحة للانسان على ضيقها تشمل مصيره كله .

وعلى هذا فالانسان محدود وحر معا ، وهو خاضع للضرورة الا انه يتغلب عليها ببعض الامكانيات الممنوحة له .

« ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » (سورة الاسراء : ٣٧) .

ومن ثم كان التأثير الانسانى فى التاريخ مجهودا فرديا ولكن النتائج النهائية للتاريخ الانسانى تكون فى الأغلب صنعا الهيا ... اذ الانسان لا يملك الا ارادته وحريته وفعله ، وبها يتصرف فى نطاق محدود بينما

مسار التاريخ الانسانى العام يرتبط الى حد كبير بالقوانين والنظم الالهية العامة التى تسير الكون بأجمعه ، ولهذا فالمصير العام للبشرية لا يملك فرد واحد من مجموعة البشر أن يحدده أو يتصرف فيه .. لأن الله ينفذ مشيئته فى الحياة عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة : ٢٥١) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » (الحج : ٤٠) .

ومع ذلك ففى هذا التدافع التاريخى يستطيع الانسان أن يهتدى بالتجربة الى سبيل الحق والصواب .. فقد وهب له الله الحس والعقل ، وفى هذين الكفاية ليستكشف بهما ما هو ضرورى للمحافظة على النفس وللتمييز بين الصواب والخطأ ، وهذا الاستكشاف فى نطاق الضرورى لا يمكن أبدا أن يكون عاصما للانسان من أن يضل أو يتخبط فى ظلمات الغواية أو الجهل اذا خلى بين الانسان وبين عقله وحواسه المحدودة دون هداية يتلقاها من الله .. ومن ثم فقد احتيج الى الوحى لتصحيح ضلال عقله وزيغ ارادته .

ولكن الخطأ الفردى وثيق الصلة الى حد كبير بالكل الاكبر الذى ينتمى اليه هذا الفرد البشرى .. فكان لا بد أن يكون الوحى الالهى غير قاصر على هداية الفرد وحده بل وجب أن يشمل هداية المجتمع الانسانى جميعه .. ومن أجل ذلك تعين أن يكون للمجموع البشرى قيادة هى الدولة نفسها وكان لا بد أن تكون لهذه الدولة قوة مقومة رادعة حتى تمنع التأثير السيء للفرد الضال على مصير الجماعة كلها .

والدولة فى رأى الشيخ محمد عبده انما هى تجربة حتمية لوضع مبادىء الله المثالية فى أشكال

مكانية وزمانية .. فى تنظيمات انسانية محددة .

الى هنا والاسلام لا يحتم دولة ثيوقراطية فالخليفة أو القائد لا يدعى هنا بأنه يستمد سلطته المطلقة من الله ، وانما هو حاكم دنيوى ينفذ قوانين لها طابعها الدنيوى الصرف بصرف النظر عن مصدر تشريعها. وهو — أى الحاكم — فى نفس الوقت خاضع لرقابة المحكومين أنفسهم اذا هو حاد عن تنفيذ هذه القوانين جانحا الى هواه الخالص أو ارادته المطلقة .. والخليفة عمر ابن الخطاب قد حث المسلمين فى خطبه أن يقوموه اذا أخطأ أو حاد. والقداسة الالهية انما هى للقوانين لا للحاكم الذى لا يعدو أن يكون بشرا عاديا لا ميزة له ولا خاصية سوى امكانياته الشخصية البحتة التى جعلت منه كفئا لقيادة الجماعة .. وهذه الامكانيات شخصية مكتسبة وليست ممنوحة أو موهوبة .. ولهذا أصر الاسلام على الا يجعل صلة من أى نوع بين المسلم وربه فشعائر العبادات انما يؤديها الفرد لربه بلا واسطة أو رقيب أو دافع سوى ضميره ورغبته الخالصة . والحاكم ليس له حق التدخل فى افعال الفرد الا ما كان منها له صلة بعلاقة هذا الفرد وجماعته ..

والاسلام قدر عنايته بالفرد الانسانى اعتنى أيضا بالجماعة الانسانية فارتباط الانسان بجماعته يهيىء للحيوات الفردية وضعا اجتماعيا هو نوع من الاخوة يشعر معها الفرد بتزايد فى القوة والامن، ويخلق عنده مجالا للوعى الجماعى المشترك .. وهذه الاخوة وهذا الوعى ينتج عنهما نوع من الترابط الانسانى يتجاوز حدود الوطن المحلى او الجنس المحدود .

ومن هنا كانت الامة او الجماعة التى يريدها الاسلام ذات طابع متحرك ومن شأن حركتها ان تكون مثابرة لا تكل نحو خلق مجتمع عالمى أو حركة نامية لا يقف لها نمو قبل أن تشمل العالم جميعه فينتظم فيها سكانه بأجمعهم ينظم شئون حياتهم قانون دائم الصلاحية .. قانون لا يعرف حدودا فى الزمان او المكان .. قانون دولى .. عام .

منزلة السنة فى التشريع ..
والرّد على مفتريات ضدها

فضيلة الشيخ حسينى عرابى عطوة

الصراع بين الحق والباطل قديم ورهيب ، والذى يمثل الحق هو الاسلام دون سواه ، لذلك نجد المذاهب الالحادية واللادينية تجمعت ضده ، ولما يئست الشيوعية الآن من مواجهة الاسلام مواجهة علنية ، لبس الشيوعيون ثوب المسلمين ، وقالوا : لا مانع من أن يكون المسلم شيوعيا ، وأخذوا يثيرون الشبه ضد الاسلام بلسان المسلمين ، فمنهم من يتباكى على الدعوة ويحمل رجالها أوزار الانحرافات الفكرية المتطرفة ، وهم الذين خلقوها ودبروها وتولوا كبرها .

ومنهم المشكك فى الأخذ بالسنة والاحتجاج بها .

ومنهم من يتحدى مرويات أبى هريرة .

ومنهم من يقول فى القرآن برأيه .

ومنهم من يريد نقض قانون الله سبحانه فى الميراث .

ومن المسلمين المتحمسين من سايرهم فى توجيه اتهامات التقصير للعلماء .. أمشاج وأخلاط .. اتحدت أصواتهم فى الهدم واختلفت فى العلاج والبناء !

لذلك كان لزاما علينا أن ندافع عن السنة باعتبارها مصدر التشريع الثانى بعد القرآن الكريم ، ومن هذا المنطلق نحصر الكلام عن السنة ــ على تعدد مناحيه ــ فى هذه الاتجاهات :

تعريفها ، وحجيتها فى التشريع ، ومقامها منه ، وعلاقتها بالقرآن الكريم .

تعريف السنة : السنة فى اللغة، الطريقة حسنة كانت أو سيئة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » .

وقد تطلق على ما يقابل البدعة، وهو المشروع مطلقا سواء كان ذلك بكتاب أو أثر .

والمراد بها فى بحثنا هذا ما نسب الى النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير .

الاحتجاج بها فى التشريع

مما لا شك فيه ــ ويحمل معه اليقين كل اليقين ــ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو المرجع المعصوم عن الخطأ فى الفقه فى كتاب الله عز وجل ، والوقوف على حقائقه ، وبيان مجمله ، وتوضيح مشكله ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وقد أعطاه الله سبحانه تلك الصلاحيات بالنبوة والعصمة وعدم اقراره على الخطأ فى دين الله سبحانه بقوله : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » الآية ٤٤ من سورة النحل .

وأمر الأمة بالرضوخ لأمره ، وعدم التمرد على قيادته ، وحذر من ذلك فقال : « وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب » الآية ٧ من سورة الحشر .

وجعل طاعته صلى الله عليه وسلم تبعا لطاعة الله عز وجل ، فقال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . الآية ٨٠ من سورة النساء . بل جعل له طاعة على سبيل الاستقلال فقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » . الآية ٩٢ من سورة المائدة .

وقال سبحانه : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . الآية ٦٣ من سورة النور

فقد دلت هذه الآيات ـ وغيرها فى القرآن كثير ـ على مقام السنة فى التشريع ، وحجيتها ، ووجوب الرجوع اليها واعتبارها ، وأولئك الفضلاء من أولى العلم .. الذين يحثون على ذلك ، انما يستشعرون تمسكهم بها كالتمسك بكتاب الله عز وجل ، ويعتبرون عملهم بها عملا بكتاب الله سبحانه ، وتعطيلهم لها تعطيلا لكتاب الله جل وعلا .

وقد نبه القرآن الكريم على أن اتباع السنة مرقاة لبلوغ حب الله جل جلاله ، ومحقق لمغفرة الذنب ، فقال : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » (الآية ٣١ من سورة آل عمران) .

بل جعل القرآن الكريم رفع الصوت على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى سبيل التوسع بما يشمل التمرد على كتابه وعدم الاذعان لأمره .. محبطا للعمل ، موبقا فى الاثم ، فقال: « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » الآية ٢ من سورة الحجرات .

وأفاضل الأئمة وكبار العلماء ـ فى سائر العهود ـ تمسكوا بالسنة ، لأنهم عرفوا وآمنوا بأن التمسك بها هو تمسك بكتاب الله والعمل بها انما هو عمل بكتاب الله عز وجل .

قيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثونا الا بالقرآن ؟

فقال : والله لا نبغى بالقرآن بدلا ، ولكننا نريد من هو أعلم منا بالقرآن ـ يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد ذكر عبد الله بن مسعود .. حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الواشمات والمستوشحات ، والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله » .

فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد ،

فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، بلغنى أنك لعنت كيت وكيت ؟

فقال : وما لى لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو فى كتاب الله ؟

فقالت المرأة : « لقد قرأت مابين لوحى المصحف ، فما وجدته » .

فقال : لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وروى أن طاووسا : كان يصلى ركعتين بعد العصر ، فقال له ابن عباس : اتركها ؟

فقال : انما نهى عنهما أن تتخذا سنة .

فقال ابن عباس : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد العصر ، فلا أدرى أتعذب عليهما أم تؤجر ؟ لأن الله تعالى قال : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

والسنة .. هى التى جاءت مبينة لما أجمل من الأحكام فى الكتاب : كالصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، والطهارات والذبائح ، والانكحة .. وما يتعلق بها من الطلاق ، والظهار ، واللعان ، وغير ذلك .

وهو داخل تحت قوله تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك ، فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يصدر عنه من قول ، أو فعل ، أو تقرير .. الا مبلغا عن الوحى ، خصوصا فى كل أمر يتصل بالدين ، حتى ولو كان فى دائرة الأخلاق ، أو الاجتماع « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى » الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

بل ان الأوزاعى قال : الكتاب أحوج الى السنة ، من السنة الى الكتاب ، وذلك لأنها تبين المراد منه .. ولكنى أقول بأن قصد الأوزاعى من حاجة الكتاب الى السنة انما هو الشرح والبيان فحسب ، لأن المثل الأعلى لله دون سواه ، ولولا الكتاب لما كانت السنة .

وقصارى القول وأحمده أن حجية السنة من ضروريات الدين التى أجمع عليها المسلمون ونطق بها القرآن .

مقام السنة فى التشريع : ومقام السنة فى التشريع لا يتجاوز أن يكون فى المرتبة الثانية بعد كتاب الله عز وجل ، وذلك نظرا لأن ثبوت الحكم بالكتاب قطعى ، وثبوته بالسنة فى جملته ظنى ، الا اذا كانت سنة متواترة ، او مايبلغ درجة المتواتر من المشهور على رأى علماء الأحناف .. ومع ذلك فهى بعد القرآن دائما وأبدا ، ويشهد لذلك الأخبار والآثار .

ففى حديث معاذ بن جبل : بم تحكم ؟

قال : بكتاب الله .

قال : فان لم تجد ؟

قال : بسنة رسول الله .»

وعن عمر بن الخطاب .. أنه كتب الى شريح القاضى : « انظر ما تبين لك من كتاب الله فلا تسأل عنه أحدا ، وما لم يتبين لك فى كتاب الله فاتبع فيه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ومثل هذا كثير فى كلام السلف والعلماء ــ وما فرق به الأحناف بين الفرض والواجب فى مذهبهم، مبنى على تقدم الكتاب على السنة .

علاقة السنة بالقرآن : تقدم الصلة بين السنة والقرآن على أمور :

١ ــ أنها تأتى موافقة للكتاب فتكون جارية مجرى التأكيد .

ومن ذلك مثلا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفسه » فانه يوافق

قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى النساء ، فانهن عوان عندكم أخذتموهن بامانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».. فهو جار مجرى التأكيد لقوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف».

وقوله تعالى : « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

٢ ــ أنها مبينة للكتاب فتفصل المجمل ، كالأحاديث الواردة فى الطهارة والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والذبائح ، والأنكحة .. وما يتعلق بها من الطلاق .. الخ .

وتوضح المشكل كتفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى : « حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » (الآية ١٨٧ من سورة البقرة) بأنه بياض النهار ، وسواد الليل .

وتخصص العام : وذلك مثل تفسيره صلى الله عليه وسلم للظلم فى قوله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » الآية ٨٢ من سورة الانعام .

فعمم بعض الصحابة فى مفهوم الظلم ، وقالوا : « وأينا لم يظلم ؟ » .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس بذاك ، وانما هو الشرك » .

وتقيد المطلق : كبيان المقصود من « اليد » فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » (الآية ٣٨ من سورة المائدة) حيث بينت السنة بأن المراد : اليد اليمنى ، وأن القطع من الكوع ، وأن المسروق نصاب فأكثر من حرز مثله .

٣ ــ دلالتها على حكم سكت عنه القرآن : وذلك كحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

فان الوارد فى القرآن الكريم حرمة الأم التى أرضعت ، والأخت من الرضاعة فحسب ، فجاءت السنة وألحقت بهما سائر القرابات من الرضاعة ، كالقرابات المحرمات من النسب .. ثم ألحقت بالاناث الذكور ، لان اللبن للفحل ، فاذا كانت المرأة بالرضاع أما فالذى له اللبن أب .

ومثل ذلك بيان السنة لبقية العصبة التى سكت عنها القرآن فى الميراث ، فذكر الله الفرائض مقدرة لأهلها ، ولم يذكر ميراث العصبة الا فيما أشار اليه بقوله فى الأبوين « فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

وبقوله فى الأولاد : « للذكر مثل حظ الانثيين » .

وبقوله فى آية الكلالة : « وهو يرثها — أى أخوها — ان لم يكن لها ولد » .

وبقوله فى سائر الاخوة العصبة « وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » .

وبقى بعد ذلك من كان من العصبة غير هؤلاء المذكورين ، كالجد ، والعم ، وابن العم ، وابن الأخ وأشباههم فبينته السنة :

فقال صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى عصبة ذكر » فشمل هذا ما بقى مما يحتاج اليه ، بعد ما نبه القرآن الكريم على أصله .

٣ — انها ترد ناسخة لحكم ثبت بالكتاب .. كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » فانه نسخ آية الوصية للوالدين والأقربين الواردة فى سورة البقرة « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » الآية ١٨٠ من سورة البقرة .

وكقوله صلى الله عليه وسلم : « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » نسخ آية سورة النساء : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن فى

البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » الآية ١٥ من سورة النساء .

وهذا رأى الأحناف الذين يقولون بأن الزيادة على الكتاب من قبيل النسخ .

واعترض على ذلك الامام الشافعى ، كما هو معروف فى كتب الأصول ولسنا فى حاجة الى بسطه .

وانه مما ينبغى أن يعلم بأن السنة ليست مستقلة فى التشريع عن القرآن الكريم استقلال الشىء المباين لغيره ، لأن كتاب الله لم يترك صغيرة ولا كبيرة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » الآية ٢ من سورة المائدة .

ولكن ارتباطها بالقرآن ارتباط الشرح بالمشروح ، ومع كل هذا فلا يغيب عن أذهان العقلاء دورها الخطير ذو البال فى الاسلام ، اذ أنه ثبت بها على سبيل الاستقلال فى التشريع داخل الدائرة العامة للقرآن الكريم ، ومقاصده : أحكام لم ينص عليها فى القرآن ، ما كان لنا أن نكتشفها ، لولا نور الرسالة وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما مر فى الأمثلة السابقة .

وان هؤلاء الذين يتطاولون على السنة اليوم : فهم المقلدون لاخوانهم الذين ضلوا من قبل ، وهذا كله لا يحدث الا ابان المحن ، وانصراف الأمة عن دينها ، واشتغالها بما يزعج الرأى العام ، ويشيع الفرقة بين المسلمين ، وفى زمن كهذا تمتحن فيه الأمة بالشدائد ، يطفو على السطح غثاء الفكر ، وزبد الرأى ، وأعداء الاسلام فى كل عصر يستغلون تلك الظروف القاتلة .

فقد استغلها فى القديم الرافضة ، والجهمية ، والخوارج ، فى مخالفة أهل الاجماع ، فالروافض ردوا حيث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » بعموم

---

(١) الآية ٣٨ من سورة المائدة

قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » الآية ١١ من سورة النساء .

وأنكر الجهمية أحاديث الصفات بقوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

ورد الخوارج أحاديث الشفاعة بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون » الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

وكذلك ردوا الأحاديث الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بما فهموا من آيات الوعيد فى القرآن .

واستغل الشيوعيون والالحاديون عزل الشعب عن دينه ، وأنشأوا لهم مدارس قامت على ما يسمى بالفكر الاشتراكى ، ولما وجدوا الشعب حريصا على دينه ، ولن يقبل التحول عنه ، ادعوا بأن الشيوعية لا تتعارض مع الاسلام ، وسمحوا لأنفسهم باعلان ذلك الشعار ، ووجدوا وراءهم من النابتة المسممة للفكر من يتجاوب مع أصدائهم ، ولما رأوا المعقل حصينا أظهروا الاسلام مع استبطانهم للكفر شأن اخوانهم فى كل زمن ، وأخذوا يشككون فى حقائق الاسلام .

فأول ما اتجهوا اليه ارادة حصر الاسلام فى القرآن ، ومعنى ذلك الاطاحة بالجانب العملى للاسلام الذى بينته السنة ، ولا يخفف من الخطر احتواء القرآن للسنة ولكنه احتواء على سبيل الاجمال وقد بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم اما بوحى ، أو اجتهاد ، لا يقره الله فيه على الخطأ ، وبهذا الذى تظاهروا على المضى فيه يتحول الاسلام الى دين متجمد يفقد الحركة ولا يقوى على الصمود ، وكل شىء ثبت بالسنة ينسى بالهجر والترك .

فمثلا : لا يحرم الزواج بالرضاع ، الا بما قال القرآن الكريم فقط

ـ بتحريمه : من الأم ، والأخت ، وما ثبت بالسنة ينقض ولا يعمل به ، ويجمع فى الزواج بين البنت وخالتها وبنتها ، وبين عمتها ، لأن حرمة ذلك ثبتت بالسنة ـ فى رأيهم ولم تثبت بالقرآن .. وهكذا حتى تفقد معظم أحكام الاسلام من وراء ذلك الاتجاه الخطير !!

والليالى من الزمان حبالى
مثقلات يلدن كل عجيبه

فلما وجدوا المقاومة عنيفة والصمود قويا أخذوا يشككون فى ميراث الامة من السنة النبوية المطهرة وقالوا : بأن أكثر الاحاديث آحادية وهم يدورون حول قصدهم الاول باسلوب آخر .

وآحادية أكثر الحديث ـ كما يقولون ـ لا تبرر ترك السنة ؛ وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتفى فى امور دينية مهمة برجل واحد .

وقد عقد البخارى فى أواخر صحيحة بابا خاصا ذكر فيه بضع حوادث مهمة كالأذان ، وتغيير القبلة ، والصوم ، والفرائض ، والأحكام ـ وكلها قائمة على خبر الرجل الواحد .

والمعول عليه ، فى صاحب الخبر الواحد: ورعه ، وحفظه ، ودقة ضبطه ، وأمانته .

وليس كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تبعهم ، ومن كانوا لهم تبع ، فقد مدحهم الله سبحانه فى كتابه ، وشهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ، والايمان !

ومن مقولاته فيهم : « الله الله فى أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، ولا تتخذوهم غرضا من بعدى ،فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » البخارى.

وفى نفس القصد الخبيث الذى يحمل الضراوة على السنة ..طعنوا فى مرويات أبى هريرة رضى الله عنه متعللين بكثرتها مع تأخر اسلامه ،

منكرين فضل الله على من يشاء من عباده !

وقد أقنع أبو هريرة بروايته المعاصرين له ، الذين كانت غيرتهم على الدين ، خالصة لله تريد البناء ، والمجد للاسلام ، فقال فيما يرويه البخارى : « انكم تقولون : انأبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،وتقولون : ما بال المهاجرين والانصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبى هريرة وان اخوتى من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى ، فأشهد اذا غابوا ، واحفظ اذا نسوا ، وكان يشغل اخوتى من الانصار عمل أموالهم، وكنت امرءا مسكينا من مساكين الصفة أعى حين ينسون !

« وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه : لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضى مقالتى ، ثم يجمع اليه ثوبه ، الا وعى ما أقول، فبسطت ثوبى حتى اذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته جمعتها الى صدرى فما نسيت من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك من شىء » رواه البخارى — وهو يدل على قوة حفظه ، وتفرغه ، وأن دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم شملته بخبر اختص به .

وفى نفس عدواتهم للسنة بأسلوب آخر ، وهو تأخر تدوينها الى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأخذوا من نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة فى بدء نزول الوحى حتى لا تختلط بالقرآن ، وتناسوا أنه صرح لهم بالكتابة حال حياته — صلوات الله عليه وسلامه — بعد أن وعت القرآن الكريم صدورهم ، وانطلقت به ألسنتهم ، وتربت عندهم الملكة التى يفرقون بها بين القرآن وغيره !

ولغوا وأكثروا من الهذيان وتمسكوا بما رواه الامام مسلم فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى

غير القــرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن : فليمحه ، وحــدثوا عنى ولا حرج » .

والتحقيق فى هذا الأمر .. بأن النهى عن كتابة الحديث كان فى أول نزول القرآن خوفا من اختلاط السنة بالقرآن ، وبعــد أن ألف الصحابة أسلوب القرآن ووعتــه صدورهم وتربت عنــدهم ملكة التمييز بين القرآن وغيره ، صرح لهم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ بكتابة الحديث .

وليس بخاف على أحدأنأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا فى حفظهم أوعى ممن يكتب ويسجل ، وكم من ضرير لا يبصر ولكنه يسمــــع ويحفظ ويضبط ويؤتمن على الرواية أكثر من مئات المبصرين ، وقد قال تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولكنتعمىالقلوب التى فى الصــدور » الآية ٤٦ من سورة الحج .

فوق هذا فقد اختصهــم الله بمواهب حفظ بها الاسلام بحفــظ كتابه ، ورعاية سنة نبيه ، الشارحة له ، ومع ذلك فقد صرح ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لهم بالكتابة فى الوقت المناسب ، وحــال حيــاته المباركة فقد روى الامام احمــد بقوله :

« حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله ابن الأخنس أخبرنا الوليد بن عبد لله بن يوسف بن ماهك عن عبد الله ابن عمرو قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله صــلى الله عليه وسلم أريد حفظه ، فنهتنى قريش ، فقالوا : انك تكتب كل شىء تسمعه عن رسول الله صلىالله عليه وسلم ، ورسولالله بشريتكلم فى الغضب ، والرضا ، فأمسكت عن الكتابة ، وذكرت ذلك لرسول الله صــــلى الله عليه وسلم فقال : « اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى الا حق » المسند ج ٢ ص ١٦٢ ورجاله رجال الصحيح عدا الوليــد ابن عبد الله ، وقد نقل الحافظ ابن حجر فى تهذيب التهذيب ص ١٣٩

---

(١) الاية ٤٦ من سورة الحج

فيه عن ابن معيـــن قال : ثقة ، وذكره ابن حيان فى الثقات .

وقد تكررت الأحاديث فى هــذا المعنى فى المسند ، والمستدرك على الصحيحين من طريق ابن وهب .

وقد كان الصحابة ــ رضـوان الله عليهم ــ يكتبون لبعضهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولأنفسهم فكان للامام على صحيفة يقيد بها السنة .

وكذلك لعبد الله بن عمرو بـن العـاص وكان يسمى صحيفتـه : بالصادقة ، وقد شهد له أبو هريرة : بأنـه من المكثرين فى الحفظ والـــرواية ، وبأنه كان يكتب الحديث وهو ما كان يكتب .

وقد كتب المغيـرة بن شعبـة حديثا لمعاوية بناء على طلبه .

وكذلك كتبت السيدة عائشـة له بناء على طلبه .

ولولا اجازة رسول الله صـلى الله عليه وسلم بكتابة حديثه بعد النهى الذى نسـخ بالاجازة بعـد زوال العلة التى من أجلهـا كان النهى ــ لولا ذلك لما قيدوا ، ولما كتبوا لأنفسهم ، أو لبعضهـم ..

وكثير من الصحابة كانت لهـم صحائف تضـم ما يســمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديث ، كصحيفة جابر بن عبـد الله وسمرة بن جندب ، وكتب ابن عباس لابن أبى مليكة .

وبذلك يبطل مدعاهم بأن الحديث لم يدون فى القرن الأول ، اذ من المعلوم بـأن ابن عبـــاس توفى سنة ٦٨ هـ .

وتوفى المغيرة بن شعبة سنـة ٥٠ هـ .

وتوفى معاوية سنة ٦٠ هـ .

وتوفيت أم المؤمنين عائشة سنة ٥٧ هـ .

وقد شرح الله سبحانه صـدر عمر بن عبد العزيز لجمـع حديث رسول الله صلى الله عليه وسـلم وذلك على رأس المائة فكتب الى أبى بكر بن محمد عامله وقاضيـه على المدينة : « انظر ما كان مـن حديث رسول الله صلى الله عليـه وسلم فاكتبـه فانى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء .. » وكذلك

كتب الى عماله فى امهات المدن الاسلامية •

وهذا العمل كان قاعدة صلبة ونواة طيبة لجمع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أكابر علماء القرن الثانى وبنوا عليه ، فنبغ منهم امام دار الهجرة مالك رحمه الله ، وحماد بالبصرة ، وسفيان بالكوفة ، والأوزاعى بالشام ومعمر باليمن ، وابن المبارك بخراسان •

ثم جاء القرن الثالث فولد معه الشيء الجديد ، وهو التخصص فى فنون الحديث ، والاشتغال بدراسة رجاله ، وكشف صحيحه من سقيمه ، نبغ منهم : البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ••

وهذا القرن يعتبر أكثر القرون عطاء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه ظهر كبار المحدثين وجهابذة المؤلفين وحذاق النقاد وفيه أشرقت شموس الكتب الستة التى جمعت صحيح الحديث ، ولم يفلت منها الا النزر اليسير ، وهى المصادر المأمونة للمستنبطين ، لا تقاربها شبهة ، ولا تلف بها بدعة ، وعلى ضوئها يؤمن العثار ويتوقى الزلل •

ومن هنا تتهاوى تلك الشبه ، وتنجاب هذه الغيوم، ويتضح الحق فى مقام السنة من التشريع الاسلامى •

وصدق الله سبحانه اذ يقول : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » الآية ١٨ من سورة الحج •

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « يوشك رجل منكم وهو متكىء على أريكته يحدث بحديث عنى ، فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وان ما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الذى حرم الله » • رواه الحاكم فى المستدرك عن المقدام بن معد يكرب •

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل •

حسينى عرابى عطوة

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

وقد بدت وجهات نظر حول بعض طرق « الثنائية » من المحدثين المؤيدين لها ، فأحدثت اعتراضات وجدلا :

* فأكثر الألفاظ الثنائية يرجع — عند الشيخ العلايلي — الى المعلات ، اذ يرى المعلات من بقايا العصور السحيقة ، ولذا لم تخضع للوضع النظامي ، فكانت وليدة فوضى الوضع القديم ، قبل الوضع الثابت ، وهي بذلك بداية في دور النضج اللغوي كما جاء في (مقدمته) .

ولذا فالشيخ يدعونا الى اتخاذ هذه المعلات المحفوظة في المعاجم المختلفة عدة لفهم الثلاثي على وجهه الصحيح ، لأنه الأصل التاريخي الذي انفصل عنه ، يقول : « من الممكن جدا تعيين دلالات هذه الحروف — حروف الجدول الهجائي الذي سبق ذكره — بأصواتها حين كانت لغة ، على شيء من الافتراض المقلوب وسبيل هذا التعيين المعلات مطلقا ، وبالاخص منها اللفيف في العربية ، سواء أكان لفيفا مقرونا أو مفروقا .

وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد ، وانما بأن تنتقل منها بالمقارنة الى ما هو الأدخل في تفكير الساذجين واعتباراتهم » (١) .

واذا لاحظنا العلاقة البينة بين المعتل والمضاعف ، والمضعف الرباعي والمهموز ، في مثل : (عبى ، عب ،

---

(١) المقدمة للشيخ العلايلي ١٣٠

عبعب ، عبأ) تأكد لنا أيضا صحة ما يراه الشيخ .

والدكتور عبد الصبور شاهين يرى أن « اعتبار المعتل ثنائيا اتجاه سليم من الناحية الصوتية » (٢) .

وحين قال الشيخ العلايلى باتخاذ المعلات المختلفة عدة لفهم الثلاثى على وجهه الصحيح أدخل فى اعتباره الثلاثى الصحيح أيضا فاضطره ذلك الى التكلف .

فحين تأمل وجهته فى مادة (عبل) . تجده جعلها متفرغة من (علا) المعتلة ، وأصلها (عل) أما الباء فهى عين الكلمة مكتوفة بالفاء واللام ، كأنهما سياج لها فسلمت من الحذف ، مع أنها الحرف المحشو المزيد ، وبذل الحرف المعتل للعوارض حتى حذف : فكان حرف الباء الصحيح المحشو تعويضا عن حرف العلة الساقط المحذوف . ولو أسقطنا حرف الباء المزيد قياسا على سقوط الحرف المعتل لظهرت لنا الكلمة الثلاثية على صورتها الثنائية الحقيقية ، فاذا هى (عل) فقط .

فأى جامع يجمعها بعدهذا بهاتين المادتين الى الطريق الطبيعى ، لو أرجعنا (عبث) بحذف الباء وهو الحرف الوسط الى (عث) التى هى الثنائى المضعف والتى يكون معلتها (عثا) . وعلى رسلها تعود (عبد) الى (عد) والتى يكون معلتها (عدا) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا على طريقة الشيخ العلايلى هذه بقوله انها : « مبنية على التكلف لأن تطبيقها لا يتم الا بتجريد الحرف الوسط ، الذى هو الباء فى المثالين السابقين ثم تناول المادة وفيها المعلات التى وقع فيها الحرفان على ترتيبهما . مع أن تجريد مادة من حروف الوسط انما يكون بمنزلة الحذف والاسقاط لذلك الحرف المحشو ، فكيف يسلخ من بنية المادة جزء لا يتجزأ منها ، ثم تظل هذه

---

(٢) فى التطور اللغوى ١٠٣

المادة معبرة دونه عن غرضها تعبيرا كاملا » (١) .

أضف الى ذلك أنه سيترتب على قول الشيخ العلايلى هذا : «عكس ما ذهب اليه النحاة والصرفيون القدماء : من أن هذه الأفعال المعتلة ترجع فى الأصل الى بنية ثلاثية ، سواء أكانت معتلة العين أو اللام فكلمة (قام) من (قوم) ، وكلمة (باع) من (بيع) ، وكلمة (دعا) من (دعو) وكلمة (سعى) من (سعى) ، كما أن الفعل (وعد) ثلاثى لفظا وتقديرا ! » .

كما أننا نلاحظ « ما فى رأى الشيخ من نظرة وصفية يختلف بها عن منطق النحاة التعليمى المعيار ، فقد أرادوا طرد أوزان الأفعال على وتيرة واحدة : توزن بميزان واحد هو (فعل) فحملوا المعتل على الصحيح ، وبنوا مذهبهم على أساس (الخط العربى) الذى يشير الى الصوت الطويل برمز أصلى مستقل : دون الصوت القصير . كما يخلط بين صوتى الواو اللينة والمدية ، فيشير اليهما برمز واحد، فى مثل (وعد ، ويقوم) ، وكذلك الياء فى مثل (يسر ، وقيل) ، فكل رمز فى الخط العربى يمثل عنصرا ذا اعتبار فى الأصالة أو الزيادة » (١) .

ولكن يعذر الشيخ العلايلى فى افتراض التصور ، لأن المرحلة قديمة ، وعز الدليل وندر الشاهد، ولذا لا مانع من أن تتجاوز عن الوهم القليل اذا أدى الى تصور مقبول يقوده خيال خصيب ، من عالم أريب ، وعقل واع حصيف .

ومن يطالع المقدمة للشيخ ، ويرى بصره بالعربية ، وثقافته المتنوعة ، يصدقه فيما يتصوره ويقتنع بما يقرره .

ومحاولته الفذة لوضع (معجم لغوى) بديع فائق ، تدل على أهليته لما يرى وتمكنه وجراءته ، وتشهد

---

(١) فقه اللغة العربية . ابراهيم نجا ٨٦
(١) فى التطور اللغوى ١٠٣

بصحة ما ذهبنا اليه فى براعتـه ، وتكفينا أدلته الاحتمالية لذلك .

***

* وللاستاذ جورجى زيدان ، وجهة نظر أخرى فى ارجاع الثلاثى الى ثنائى ، أثارت أيضا اعتراضا :

ذلك أنه اعتبر الثنائى ، هـو الأصل لجميع الكلمات ، كـرأى القائلين بذلك ، الا أنه انفـرد بارجاع الثلاثى الى أصلين ثنائيين، وأخذ منهما على طـريق النحت ، مثلا : (قطف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى أصلين هما : (قط) المفيدة للقطـع و (لف) وهو مفيد للقطع وللجمع ترجع الى المفيدة للجمع. فولدنا منهما بطريق النحت (قطف) المفيدة للمعنيين ، على طريق النحت باغفال اللام فى (لف) ونقل حركتها الى ما قبلها ، فصارت قطف .

وكذلك : (قش) بمعنى جمـع ما على الأرض من فتات ، ترجـع لأصلين هما : (قم) بمعنى كنس، و (قش) بمعنى جمع ، وتولد من (قم قش) قمش ، بطريق النحت، بالغاء القـاف الوسـطى بطـريق التخفيف (٢) .

والنحت قديم ، عرفته العرب : فنحتوا الرباعى مثـل : عبشم ، وبسمل ، ودمعز : من عبد شمس ، وبسم الله الرحمن الرحيم ، وأدام الله عزك .

كما نحتوا من الثلاثى (ضـبط وضبر) ضبطر ، بمعنى الرجـل الشديد ، وصـلدم من (صلد ، وصدم) ... ففكرة النحت تجدها قديمة قدم لغتنـا ، فهو مسـبوق بها ، ولا شك .

وقرر ابن فارس فى المقاييس : أن الرباعى والخماسى منحـوتان دائمـا ، مثل : (بحترى) بمعنى بدد ، مأخوذ من أصلين : (بحث) عن الشيء ، و (البثر) وهو مايظهر على البدن . ولكن جورجى زيدان جعل النحت فى الثلاثى والثنـائى أيضا ، وذلك فضلا عن أنه مجاف لوجهة نظر الاقدمية ، فانه أيضـا

---

(٢) الفلسـفة اللغـوية ٦٢

لا يطرد فى مواد كثيرة ، فحكمه غير مبنى على استقراء واسع ، كما ذكر الدكتور ابراهيم نجا ، حين نقده بقوله :

« وما ذكره جورجى زيدان فى ارجاع الكلمة الى أصلين ثنائيين : ان كان لكل منهما معنى فى نفسه، واذا لم يتحقق ذلك .. فلا يخلو الأمر من أن يكون لأحد الأصلين معنى فى نفسه أولا : فان كان الأصل الذى له المعنى فى نفسه هو الأمر فعلا ، وكان الحرف المضاف الى ذلك الأصل زيد اعتباطا — وغالبا ما يكون أحد هذه الأحرف (ل . م . ن . ر) — وأضيف للمبالغة ، أو تنويع الفعل بما يطابق قصده ، نحو : فض ، رفض ، وهب ، لهب . واذا لم يكن لأحد الأصلين معنى فى نفسه بألا يكون اسما ولا فعلا ، فلا يخلو من أن يكون حرفا فى غالب الأمر، وقد يكون اسما مفتقرا الى غيره ، أو كان فعلا فى الأصل ولم يعد مميزا الآن .

وتطبيقا على ذلك ، قالوا : ان كلمة (مال) بمعنى مقتضيات مركبة من (ما) الموصولة ولام الجر ، وحذف المجرور . وأصله : (مالى) أى الذى لى ، أو (مالك) أى الذى لك . وكذلك كلمة (ويل) أصلها (وى) ، و (لى) .وبهذا الأسلوب رأى فريق من اللغويين : أن ليس مركبة من (لا) النافية ، و (أيس) الدالة على الكون المطلق فى بعض اللغات السامية ... [1]

وما رآه جورجى زيدان فى هذا الصدد ، هو جزء من القضايا الخمس التى صدر بها كتابه . نذكرها لعلاقتها الوثيقة بما نحن بصدده وهى :

١ — أن الألفاظ المتقاربة لفظا ومعنى هى تنوعات لفظ واحد .

٢ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها (يقصد الادوات) انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

٣ — وأن الألفاظ المانعة الدالة على

---

(١) فقه اللغة العربية دكتور نجا ٨٧ ، ٨٨

معنى فى نفسهـــا يرد معظمهـــا بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية .

٤ ـ وأن جميع الألفاظ المطلقة ترد قابلة للرد (بالاستقراء) الى لفظ واحد أو بضعة ألفاظ .

٥ ـ وأن ما يستعمـــل للدلالة المعنوية من ألفاظ ، وضع أصـــلا للدلالة الحسية ، ثم حمل على المجاز لتشابه فى الصور الذهنية » .

وهو يرمى من ذلك الى اثبات : « ان لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عدا أحـــادية المقطع : معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية ، التى ينطق بها الانســـان غريزيا » (١) .

واذا أسرف جورجى زيدان فى القول بالنحت أى نحت الثـــلاثى من ثنائيين على رأى البعض فهو خير ـ فى نظـــرى ـ من الذين يردون النحت فى لغتنا ، أو يقللون منه الى النذر اليسير والندرة :

فالأب مرمرجى لا يوافـــق على اتصاف الحروف المنفصلة بمعـــان خاصة طبيعية ، ولا بالأحادية ولا بالنحتية فى العـــربية ، أى نحت الثلاثى من ثنائيين ، تبعا لزعم بعض الاقدمين بأن الرباعى منحوت من ثلاثيين (٢) .

والأستاذ أنيس فريحـــة ، يرى أن « النحت قليل جدا فى لغتنا ، مثل (ماهية ، ومال) يقول : والوهم أن تظن أن (حوقل) وأشباههـــا منحـــوتة ، وانمـــا هى مختصرات العبارات وجمل ليست كتابا بالمعنى اللغوى . ويعترف بالنحت فى لغات أخرى ، ويمثل بكلمة (بيولوجيا) المأخـــوذة مـــن BIOS بمعنى الحيـــاة ، و LOGOS بمعنى الكلمة أو العلم .

وكلمة (تلسكوب) المأخـــوذة من كلمتى TELE بمعنى البعد

---

(١) الفلسفة اللغـــوية ٣٣

(٢) معجميات عربيـــة سامية ١٠٢

والمسافة و SCOPE أى مدى الرؤية .

ويضيف بأن الجذور العربية تأبى النحت ، لأنك اذا حذفت حرفا من الحروف الاصلية أفسدت المعنى .

واذا وفق بعضهم لنحت (برمائى) للحيوان الذى يعيش فى الماء واليابسة و(مدرحية) لتفسير التاريخ على أسس مادية وروحية . فليس معنى هذا اننا نستطيع أن نستفيد من هذه الخاصية اللغوية » (١) . هذا ما ارتآه الأستاذ أنيس فريحة .

ووجهة نظر الأب مرمرجى الدومنكى (٢) فى رد النحت أننا اذا قلنا : « ان طائفة من الثلاثيات ممكن صدورها عن ثنائيين أوثلاثة، حسب اختلاف مداليلها ، فلا نعنى بذلك أنها مركبة من ثنائيين منحوتين ، بل انها نتيجة لزيادتين أو ثلاث : الواحدة جرت بالتتويج، والثانية بالاقحام ، والأخيرة بالتذييل ، مثلا :

الثنائى (نه) ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) : بمعنى الزجر .

والثنائى (هر) توج بالنون ، فصدر عنه (نهر) بمدلول جرى .

والثنائى (نر) اقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بفحوى أنار وأضاء .

وكذا القول فى الأضداد ، مثلا (طلع) يدل على الظهور والغياب ، فهو على رأينا ـ ليس بمنحوت من (طل) و (طع) ، بل ان الثنائى (طل) ذيل بالعين ، فصدر عنه (طلع) بمعنى ظهر .

والثنائى (طع) اقحم فيه اللام، فنجم عنه (طلع) بمدلول اطمأن ونزل والغياب ضرب من النزول والاطمئنان .

فهو لا يرى النحت فى أمثال

---

١) نظريات فى اللغة ٧١ ، ٧٢

٢) راجع المعجمية العربية فى ضوء الثنائية والالسنية السامية لمرمرجى ١٣٥ ـ ١٤١

هذه ، ولكن جاء الاكتناز تابعا لاختلاف المداليل ، كما رأينا بزيادة الحروف .

ورأيى أن هذا القول على طلاوته ، يحرم العربية من منفذ من منافذ تنميتها الذاتية ، اذ أن النحت أو الاشتقاق الكبار — كما سماه بعضهم — صنو الاشتقاق بألوانه ، وهو باب عظيم فى تنمية اللغة ، و « ديناميكيتها » فى الزيادة والتوليد والنماء .

والقول بندرة النحت ، أو الغائه كلية من لغتنا قول فج ، لا يستند الى أساس علمى مدروس ، بل اعتبره — أنا بعد بحث ودراسة — من خواص لغتنا وميزة لها فى الثروة اللغوية كطريق من طرق الاشتقاق ، كما سماه بعضهم بالاشتقاق (الكبار) . ولا تقتصر أمثلته على الستين أو السبعين لفظة — وهى مع ذلك ليست بالقليلة — التى وعتها بعض كتب الأدب واللغة ، بل هو أكثر من ذلك وأوسع ، لو عالجنا بابه معالجة فهم واستثمار . وقد وضع فيه الأستاذ (اسماعيل مظهر) رسالة قيمة ، حاول فيها جعل أسسه وطرقه معبدة وسلسلة كأنها قواعد وجداول رياضية .

وليس هذا مجال الافاضة أو الشرح فى هذا الجانب .

ولكنا نقول : بأن محاولة الأستاذ جورجى زيدان ورأيه فى النحت ، أضاف على الأقل — سندا جديدا ، ورصيدا يضاف الى أدلة وأسانيد « الثنائية » .

وحسبه ما ذكر من أمثلة واجتهاد توضح جانبا من جوانب الرس والأصل اللغوى عند وضعه الأول، أو عند اشتقاقه بعد ذلك .

***

* أما مزاول الثنائية والألسنية السامية : الأب مرمرجى الدومنكى، فيسلك فى تثبيت دعائم الثنائية مسلك الاستشهاد والمقارنة بين أخوات العربية من السامية الأم ، لمعرفته للغات عديدة (*) .

(*) يرى الأب مرمرجى — والحق فيما رآه — ان المشتغل باللغات =

فيطوف بالقارىء فى معانى المادة بين المعاجم العربية ، ويظهر اشتقاقاتها ومعانيها الحسية والمعنوية .. ثم يقارنها بمعانيها فى أخواتها السامية .

ثم ينسق ويعلل على كل ما سبق وذكره ، مبينا الرس الثنائى الذى تضمن الفكرة الأولية من المعانى التى وردت للمادة .

ثم يشير الى كيفية اشتقاق المعانى وقربها أو بعدها ، والحقيقى والمجازى منها .

ثم يأتى بأمثلة لما تلت المادة التى معه ، ويبين عليها كل المراحل التى سبق ذكرها ، منسقا ومعللا ، ويخلص من كل ذلك الى أن الجذر الثنائى واحد ، تدورحوله المعانى ، ومنه أخذت ، وعليه جاء الحرف الزائد

فهو على سبيل المثال يذكرمادة (بر) بتشديد الراء ، ويرينا المعانى التى تؤخذ منها فى الاستعمالات والاشتقاقات ، كما جاء فى العربية وأخواتها من السامية :

فمادة « بر » فى العربية بمعنى : الصدق ، والرحمة ، والطاعة ، والرواج ، والقبول ، والقهر ، والصلح ، والصلة ، والتزكية ، والمضىء ، والرفعة ، والكثرة ، والغلبة ، وركوب البر ، والملاطفة ، والطاعة ، والتحرج ، والانفراد ، واسم من أسماء الله الحسنى ، واليابسة ، ومقابل البحر ... ...

وفى «السريانية» بر

ومن معانيها :بر ، صدق ، سذج ، بله ، غبى ..

وفى « العبرية »

والمقارنات لابد وان يكون متضلعا فى لغتين أو اكثر ، مع معرفة فقهها وقواعدها ولهجاتها ، فضلا عن معرفة بعض الالسنة غير الساميةالتى لها علاقة بالعربية ، أو بغيرها من الاخوات السامية . وذكر أن مستيما (من علماء السامية) المانيا هو ( ) (١٦٢٤ ـ ١٧٠٤) كان اختصاصيا بارعا ، وكان يعرف خمسا وعشرين لغة .

ومن معانيهـا : نظف ، قسم ، اختار ، صقل ، فحص .

وفى « الحبشية » (BARARA)

ومن معانيها : طهر ، صدق ، نفذ ، نزع ، سرق ...

وفى « الأكدية » (BARARU)

ومن معانيها : أضاء ، لمع تلألأ ، فحص ، استفهم ...

وفى «الامهرية » ، و « القطرية» جاء الثنـائى (بـر) بمفهـوم (قطع ، وقد) كمـا فى المعجم الدثينى تأليف . (LANDBERG)

ثم يشير التنسيـق والتعليـل فيرى :

أن الفكرة الأوليـة الحسيـة المتضمنة فى الثنائى (بر) كما فى مجانسه (فر) هى فكرة : الشـق والقطع ، والفصـل ، والابعاد ، وهى كامنة أو ظاهرة فى بقيةالمعانى على اختلافها فىالعربية وأخواتها : فمن القطع نظافة وصقل ، واختيار وفحص ، والفارغ منفصل عـن غيره مما كانيملؤه ، والتافه فارغ من المحتوى الطيب ، والبلاهة حرمان من العقل . ومن النقاء المادىينتقل الى النقـاء الأدبى والروحى فى الفضائل ... وفى مـزيد المادة واشتقاقاتها ، يرجع المعانى الأخرى الى الفكرة الأولى : فالبر (القمح) سمى بذلك لانفصاله عن تبنه .. والقمر يلمع على الدنيـا نتيجـة الصقل ، والصـقل مكمل لعمـل التنظيف والتنقية ...

وبمناسبة ذكر (فر) مقابـل (بر) ذكر الأب مرمرجى : أن كلمة (فوريم) فى الأكدية (الأشورية والبابلية) بمعنى السهم ، أو القطعة من الأرض ، ويجوز أن يكـون مشتقا من الرس الثنائى السامى ، وهو (فر ، أو بر) (١) .

وعلى نسق ما جاء فى (بـر) والفكرة الأولية التى تضمنتهـا ، تأتى معانى المواد المكتنـزة فى : (برأ) فى العربية ، و (BRA) فى السريانيـة ، و (BARA)

---

(١) معجميات : عربية سامية ١٤ ــ ٣٤ بتصرف

فى العبرية ، و (BARU) فى الأكدية ، و (هبرا) فى الفينيقية، و (برا) فى السبئية .

ومثل (برا) المواد : (برح) و (برد) (١) .

وبعد دراسة ومقارنة الاحصاءات والمراجع المتنوعة ، وفى شبه قياس منطقى يرى الأب مرمرجى : وفرة الاصول والرساس العربية ، وتفوقها عددا على أصول ورساس بقية الألسن السامية ، بل ولعلها أوفر ثروة من لغات العالم أجمع . وهذا قول يحتاج الى مؤازرة واستعانة ودراسة بالحاسب الالكترونى ، لتبيان الحقيقة .

كما يرى ان الاصول الموسومة بالثلاثية والرباعية المجردة ، هى بالحقيقة توسعات اشتقاقية لرساس الثنائية ، التى بها بدأت نشأة اللغة، وعنها صدرت جميع المشتقات على تضارب أنواعها :

فالرباعى ــ مع ما يدعيه الصرفيون من مجردتيها الرباعية ــ ترجع بسهولة الى ثلاثيات ، فهى ــ اذن ــ ثلاثية مزيدة (٢) .

أضف الى ذلك أن الثلاثيات المجردة الشاملة : (المثال ، والأجوف ، والناقص ، والمهموز ، والمضاعف ومكرره) هى بأجمعها قابلة للرد أيضا الى « الرس الثنائى » فيجدر ــ من ثم ــ طرحها من مجموع الأصول الثلاثية ، فيبقى السالم وحده ، وهو كذلك هين رد أغلبيته الى الثنائى ، مع استمرار المناسبة المعنوية بينهما ، كما هى باقية بين الثلاثى والرباعى، وبين الثلاثى ومزيداته .

أما البقية الباقية البائن تعذر ردها من الثلاثى الى الثنائى ، فذلك يمكن عزوه الى ضياع الرساس الثنائية ، أو فقدان فحاويها الأولية، مثلما ضاعت ، أو لم ترد الأصول الثلاثية لبعض المزايدات ، أو المشتقات التى بلغ عددها الثمانمئة أو أكثر ، كما جاء فى الاحصائيات.

---

١) السابق ١٤٤

٢) راجع : هل العربية منطقية لمرمرجى ١٤٥ ــ ١٥٠

فالرد الى « الرس الثنائى » هو الأصل عند الأب مرمرجى ، واذا لم يتمكن من ذلك يعزوه الى الفقد والضياع ، كما ضاعت تصاريف بعض الأفعال فى مثل (يدع ، يذر ، عسى ، ليس) ، أو أن الخفاء جاء من خفاء المعنى الأصلى لسبب من أسباب الضياع والفقد .

ويرى طريق توسع الثنائيات — كما أسلفنا — بتكرار الحرف الثانى ، أو بالتكرار والمد معا ، أو بزيادة التاء فى الآخر ، أو بالثلاثة مجتمعة .. وكل التوسعات المختلفة متضمنة منطوق « الرس الثنائى » المشتقة منه ، وقد أحصى منها ثلاثمائة وسبعة وعشرين رسا (١) .

وعلى هذا النمط الذكى الواعى فى الضبط والتخريج ، يرد الأب مرمرجى المواد الكثيرة التى تناولها بالشرح والتأصيل ، الى رسها «الثنائى » ويشير الى معانيها التى تنوع اكتنازها ، وينبه على أصلها الذى تنتسب اليه فى فروع السامية . وأماكن تعاورها فى الاستعمال مما يدل على ذكاء وألمعية ، مكنه منهما ثقافته الواسعة والواعية .

وفى عجالة نسرد بعض أمثلة لمواد أشار الى رسها الثنائى (٢) :

مادة (بلد والبلدة) بمعنى أقام ، من بلد ، أو لبد (بالقلب) مشتق من الثنائى « لب » . ومادة « لحن » من الثنائى (حن) .

ومادة (ملك والملاك) أصله (مل) بمعنى تكلم ، من باب الاطلاق ، وتوسع المعنى فوصل الكلام من باب التقيد .

أما مادة (ملك وملاك) بتخفيف (ملاك) من لأك أو ألك ، ومنه الوكة وملاكة بمعنى رسول ورسالة فأصله الثنائى (أل) . بمعنى : أسرع .

ومادة (أدب) من دأب على سبيل القلب ، وأصله الثنائى (دب)

---

(١) معجميات عربية سامية ٧٢ — ٨٠ بتصرف

(٢) راجع معجميات عربيـة سامية

ومادة (الشعـــر) من الرمن الثنائي (شع) اذا برز ، وانتشر ، وتفرق ، وأضاء .

ومادة (وثب) بمعنى قفز وقعد — على الضـد — من (ثب) . ومادة (ساعور) بمعنى النـار ، من (سع) دعاء للمعزى وتحريض لها للاقبال ، وتوسع فيه فيتسعير النار .

و « الأب » أصل سامي ، من الثنائي (أب) مأخوذة من ميـل الطبيعة للانبات والايلاد . ومبدله (أ م) — بين البـاء والميـم — وكلاهما يدل على الانـدفاع الى الافراع في المواليد .و(حواريون) من (حر أو حار) اذا تحـرك وسار .

و (الكاهن والكهنـوت) من (كه) وكهكه اذا تنفس . و(هيمن) عبـرية من (من) والمنـة ، اى القوة . و (الفاروق) سامية ، للذى يفصل بين الامور ، وأيضا الشديد الفزع ، من (فق) الدال على الانفراج والانفتاح .

هـذه أمثلـة سـقناها ، لمزاول الثنائية ، تدل على سعة أفقه فيمـا ينادي به ، وتمكنه مما ارتـآه . ومن شاء مزيـدا ، فليراجع — ان شاء — تآليفه العـديدة فى هـذا الجانب .

***

* ومع أن علماءنا العـــرب القدامى ، ومعاجمنا العـربية لم تنص صراحة على القول بالأصول الثـنائية كنظرية ، الا أن صـنيعها فى التطبيق يشير الى ذلك ضمنا ، اذ تبين من تتبع كلامهم — كمـا أسلفنا — ومن النظر فى معاجمنـا الاصيلة — وجود علاقة بين فحوى المعنى العام للاصول الثنائية ،وبين الثلاثى المتفرع عن هذه الأصول ، مما يدل على أن « الثنائية » ترددت فى أذهانهم كنظرية ، ولمـسناها فى أقوالهم ومعاجمهم كتطبيق ..

وقد جمع الدكتور امين فاخـر بتتبع وجهد فائق أمثلة كثيرة لذلك فى كتابه : (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية ، وعلاقتها بالاصول

الثنائية) فى دراســة معجميــة احصائية ، تؤكد ما ذهبنا اليه .

وهذه أمثلة قليلة تمثل غيضـا من فيض ، مما جـاء فى كتبهم وقواميسهم :

فمادة (عم) أصل ثنائى يدل على العلو والارتفاع . وفى « العين » للخليل بن أحمد : العميم : الطويل من النبات ، وبه قال ابن فارس[1] والجوهرى [2] .

وفى الأصول الثلاثية لهذه المادة نجد المعنى :

ففى (عمد) بالدال رجل عمدان وعمـدانى أى طـويل قال أبو عبيدة : عمدت الشيء أقمته فهـو معمود ، وقال تعالى : « ارم ذات العماد » اى الطول ، وجاء عنـد الجوهـرى [3] وابن فارس [4] ما يؤيد ذلك .

وفى (عمر) بالراء ما يدل على العلو والارتفاع ، كمـا جـاء فى الجمهرة [5] .

وعمرك الله : دعاء بطول العمر . والعومرة : الصياح ، ومنه الاهلال بالعمرة كما ذكـر ابن فارس [6] والمعتمر أيضا : المعتم على رأسه .

وفى (عمـق) بالقاف ، معنى الطول أحيانا : فقـد ذكـر ابن فارس [7] عن ابن الأعـرابى : العمق اذا كان صفة للطريق فهـو البعد . واذا كان صفة للبئر فهـو طول جرابها

وفى مـادة (فص) بالفـاء والصاد ، ما يدل على الفصل بين شيئين ، كما ذكر ابن فـارس [8]

والفصوص : مفاصل العظام ، قال أبو عبيدة : الا الأصـابع . وفص الجرح : سـال . وقـال : الجوهرى : فص الأمر : مفصله . ومعنى الفصـل هـذا موجـود فى ثلاثى هذه المادة :

---

١) المقاييس ١٥/٤
٢) الصحاح ١٦٣/٢
٣) الصحاح ١٥٦/٢
٤) المقاييس ١٣٦/٤
٥) الجمهرة ٣٨٧/٤
٦) المقاييس ١٤١/٤
٧) المقاييس ١١٤/١
٨) المقاييس ٤٤٠/٤

ففى (فصح) بالحاء ، معنى الانفصال ، يقال : فصح اللبن اذا أخذت عنه الرغوة ، كما ذكر الجوهرى (١) .

وفى (فصد) بالدال ، معنى الانفصال ، يقال : فصد العرق والناقة ، اذا قطع العرق ، فخرج دمه ، كما ذكره ابن دريد وغيره (٣) .

وفى (فصع) بالعين ، معنى خروج شيء عن شيء أيضا (٢) :وقال الجوهرى (٤) : فصعته من كذا تفصيعا ، أى أخرجته فانفصع .

وفى (فصل) باللام ، وضوح معنى الفصل ، كما فى سائر المعاجم، ومنه الفصيل اذا انفصل عن الناقة ومفاصل العظام .

وفى (فصم) بالميم ، وضوح معنى الفصل ،كما فى سائر المعاجم، فصم الشيء كسره من غير أن يبين وقال تعالى : « لا انفصام لها » .

وفى (فصى) بحرف العلة ، دلالة على الانفصال أيضا ، يقال : فصيت الشيء أفصيه فصيا ، اذ أبنته منه ، كما ذكر ابن دريد (٥) . وقال الجوهرى (٦) : تفصى الانسان اذا تخلص من الضيق والبلية ، وتفصيت من الديون اذا تخلصت منها ، وقال الجوهرى ايضا : افصم المطر ، أى أقلع (٧) . وأفصى المطر ، أى أقلع (٨) .

ومن العلماء من لم يرتض القول « بالثنائية » ، وراح يعترض على القائلين بها ، ولكل وجهة .

الحديث موصول

(الحديث موصول)

د. توفيق محمد شاهين

---

١) الصحاح ٢٤٤/٢
٢) الجمهرة ٢٧٣/٢
٣) المقاييس ٥٠٧/٤
٤) الصحاح ٢٤٤/٢
٥) الجمهرة ٨٤/٣
٦) الصحاح ٢٤٧/٢
٧) الصحاح و (فصم)
٨) الصحاح : (فصى)

المحدث الفقيه

الإمام الطحاوي رضي الله عنه

الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق والهادى الى صراطك المستقيم وعلى اله وصحبه ومن سلك طريقه واتبع سنته الى يوم الدين وبعد :

فان اسلافنا السابقين فى الاسلام رضوان الله عليهم ، لهم أسبقية الفضل والولاء لديننا الاسلامى الحنيف ، ما لم يكن لغيرهم ، مهما طال الزمن ، وامتدت الايام .

« فخير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »

لهذا سجل التاريخ اسماءهم ، وخلد ذكراهم ، حتى ارتسمت على كل أفق من آفاق العالم الاسلامى اسماء رجال منهم معدودين ، امتازوا بمواهب وعبقريات ، رفعتهم الى الأوج الأعلى من آفاق هذا العالم ، وسجلت أسماءهم فى قائمة عظماء التاريخ وجهابذة العلم وأصبحوا نجوما لامعة ، ومصابيح ساطعة ، تتلألأ فى كبد السماء ، كتلألؤ الجوزاء وتضىء لأهل هذه الدنيا فتستفيد من نورها المجموعة البشرية كل حسب مكانته وعلى مقداره وبذلك بنوا لأنفسهم مجدا لا يطرأ عليه التلاشى والنسيان ، وخلدوا ذكراهم على مر الزمان وتعاقب الأيام .

وثمة رجال ارتسمت أسماؤهم فى كل أفق من تلك الآفاق ، وهم قليلون للغاية ، شذت بهم طبيعة هذا الكون ، فكان لهم من نبوغهم وعظمتهم ما جعلهم أفذاذا فى دنيا الاسلام ، وشواذا لا يمكن أن يجعلوا مقياسا لغيرهم ، أو ميزانا

توزن به مقادير الرجال ، اذ لا يمكنها ان تنال مراتبهم ، وان اشرأبت اليها أعناقهم وحدثتهم بها نفوسهم .

واذا حق لأمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب ، أن يتيه فخرا واعجابا بالنوابغ من أبنائه ، ويشيد بفضلهم ، ويعطر الدنيا بشذا عرفهم ، وأريج ذكرهم ، فان مصر فى طليعة الأمم التى سعدت بأبنائها الغر الميامين ، الذين تطامن لهم جبين الدهر وحلقوا فوق مناط النجم .

من بين هؤلاء وأولئك جميعا ، من تعقد الخناصر على فضله ، الامام الكامل ، والعالم الفاضل الجليل زين الفضائل ، وزينة المحافل ، بدر المجامع ، وغرة المجالس ، بين يدى الملوك ، والخلفاء ، والأمراء :

أبو جعفر احمد بن محمد ، بن سلامه ، بن عبد الملك الأزدى الطحاوى ، الفقيه الحنفى ، الذى انتهت اليه رياسة أصحاب أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه بمصر .

والطحاوى نسبة الى طحا ، قرية من صعيد مصر ولكن الامام ياقوت الحموى ، والامام الحافظ جلال الدين السيوطى يقولان : انه من ملحوظ ، ولخفة النطق نسب الى طحا .

وقد تعددت فى مصر بلاد تحمل هذا الاسم ، منها طحا بوش ، وطحا البيشا ، وطحا العمودين ، وطحا المرج ، وطحا نوب ، والتى كانت مسقط رأسه ، من بين تلك البلاد هى : طحا العمودين ، أو طحا الأشمونين ، بين البحر الأعظم واليوسفى من أعمال منية ابن خصيب ، ويعرفه النسابون بأنه :

أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن سلامه ، الطحاوى الحجرى الأزدى .

والحجر : فخذ من أفخاذ قبيلة الأزد ، باليمن ، هاجر منها أجداده بعد الفتح الاسلامى واستقروا فى مصر ، وفى رحابها ولد أبو جعفر الطحاوى ، كما يقول السمعانى فى الأنساب :

ليلة الأحد لعشر خلون من ربيع الأول سنة تسع وعشرين ومائتين . وتوفى فى ذى القعدة سنة احدى وعشرين وثلثمائة ، وبهذا يكون قد

عمر اثنين وتسعين سنة ، قضاها فى خدمة العلم والدين ، حتى كان من خيار السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

كرس رضى الله عنه حياته طوال عمره لخدمة الدين والمذهب . وبهذا استحق مكانته السامية من العالم الاسلامى عامة ، وأهل الحديث والفقه خاصة ، وبانتاجه الغزير العريق لفظا ومعنى ، أصبح وأمسى علما من أعظم أعلامه ، ودعامة من أكبر دعائمه ، يذكر اسمه مع كل تعظيم واجلال ، واكبار واعجاب ، حتى انتهت اليه رياسة أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه ، وصار أماما يسترشد بعلومه ويقتدى ، وعلما يستضاء بأنواره ويهتدى ، أعلى الله قدره ودرجاته . وأجزل أجره وعطاءه ، فقد شاءت ارادته سبحانه وتعالى أن يبارك فى علمه وقلمه ، فتخرج منهما للناس نتاجا علميا من أفضل النتاج ، فيه كل ما يدل على غزارة العلم ، وسعة الاطلاع ، وقد ميزه الله تعالى بصفات بارزة ، وخصه بعناية فائقة ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

حياته العلمية رضى الله عنه :

تلقى أبو جعفر الطحاوى العلم وأخذه ، عن هارون بن سعيد الأيلى وعبد الغنى بن رفاعه ، ويونس بن عبد الأعلى ، وعيسى بن مثرود ، وبحر بن نصر ، ومحمد بن عبد الله عبد الحكم وطبقتهم .

وتلقى عنه وأخذ : أحمد بن القاسم الخشاب ، ويوسف الميانجى، وأبو الحسن محمد بن أحمد الأخميمى وأبو بكر بن المقرىء ، وعبد العزيز بن محمد الجوهرى ، والامام الطبرانى ، وأحمد بن عبد الوارث الزجاج ، ومحمد بن بكر بن مطروح ، وجماعة غيرهم .

وقد عاصره رضى الله عنه ، أحمد بن طولون ، وكان يتردد ابن طولون عليه لوعظه المفيد ، وتذكيره البليغ ، كما عاصره كذلك الجبار أبا منصور الجزرى ، الذى كان أمير مصر فى ذاك الوقت .

ودخل الجبار يوما على الامام الطحاوى ــ كما ذكر ابن حجر ــ

ففزع منه ، وملك الرعب قلبه ، ولكن الجبار لاطفه وأكرمه وأحسن اليه ، ثم قال له :

يا سيدى ، انى أريد أن أزوجك ابنتى ، فماذا ترى ؟

فقال له الطحاوى : لا أفعل .

فقال : ألك حاجة الى المال ؟ قال : لا .

قال : فهل أقطع لك أرضا ؟ قال : لا .

قال : فاسألنى ماشئت ؟

قال : وتسمع ؟ قال : نعم .

قال : احفظ دينك لئلا ينفلت ، واعمل فى فكاك نفسك قبل الموت ، واياك ومظالم العباد . ثم تركه ومضى ، فكان ذلك سبب رجوعه عن ظلمه لأهل مصر .

من مؤلفاته :

صنف الامام أبو جعفر الطحاوى التصانيف الكثيرة فى أنواع العلوم، وبرع فى الفقه والحديث ، وتصانيفه مفيدة عزيزة الفوائد ، جمة المعنى ، عميقة المغزى ولا سيما كتابه النفيس « شرح معانى الآثار » الذى يتضمن المحاكمة بين أدلة المسائل الخلافية ، وقد ساق فيه أبو جعفر سند الأخبار التى يتمسك بها أهل الخلاف فى تلك المسائل الخلافية .

ثم خرج من بحوثه التى ضمنها لهذا الكتاب ، بعد نقدها اسنادا ومتنا ، رواية ، ونظرا ، بما يقتنع به الباحث المنصف ، وبهذا كان كتاب « شرح معانى الآثار » خير كتاب فى التفقيه ، وتنمية ملكة الفقه ـ لزيادة ما فيه من بيان وجوه الاستنباط ، واظهار وجوه المعارضة ، وتمييز الناسخ من المنسوخ .

ومن بين كتبه النفيسة ومن مؤلفاته الخطيرة الذى لا يستغنى عنه باحث ، ولا يسكت عنه كاتب . كتابه العظيم فى فنه ، العميق فى دقته وبحثه « مشكل الآثار » الذى قال هو فيه :

« انى نظرت فى الآثار المروية عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، بالأسانيد المقبولة التى نقلها ذوو التثبت فيها ، والأمانة عليها ، وحسن الأداء لها ، فوجدت فيها أشياء مما سقطت معرفتها ، والعلم بما فيها ،

عن أكثر الناس ، فمال قلبى الى تأملها ، وتبيان ما قدرت عليه من مشكلها ، ومن استخراج الأحكام التى فيها ، ومن نفى الاحالات عنها ، وأن أجعل ذلك أبوابا أذكر فى كل باب منها ما يهبه الله عز وجل لى من ذلك فيها حتى أبين ما قدرت عليه منها ، كذلك ملتمسا ثواب الله عز وجل عليه ، والله أسأل التوفيق لذلك ، والمعونة عليه ، فانه جواد كريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل » اهـ .

منزلته بين العلماء :

كان لأبى جعفر الطحاوى رضى الله عنه ، مهابة وجلالة ، لما امتاز به من صفات حميدة ، وما حصله من علوم شتى ، وأصحاب الفضل يعرفون أقدار الناس ، وينزلونهم منازلهم ، فانما يعرف الفضل من الناس ذووه .

قال عنه ابن العماد فى شذرات الذهب :

« شيخ الحنفية ، الثقة الثبت ، صنف التصانيف ، وبرع فى الفقه والحديث »

وقال أبو سعيد بن يونس :

« كان ثقة ثبتا ، فقيها عاقلا ، لم يخلف مثله »

وقال عنه الشيخ أبو اسحاق :

« انتهت اليه رياسة الحنفية بمصر »

ويقول عنه ابن عبد البر رضى الله عنه :

« كان الطحاوى كوفى المذهب ، كان عالما بجميع مذاهب الفقهاء ، وكان من أعلم الناس بسير الكوفيين وأخبارهم ، مع مشاركته فى جميع مذاهب الفقهاء » اهـ

وقال السمعانى : « كان الطحاوى ثقة ، ثبتا »

ويقول ابن الجوزى :

« كان الطحاوى ثبتا ، فهما ، فقيها عاقلا »

وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبى فى تاريخه الكبير :

« الطحاوى ، الفقيه ، المحدث ، الحافظ ، أحد الأعلام ، كان ثقة ثبتا ، فقيها ، عاقلا ، ويقول الحافظ ابن كثير عنه أيضا :

« هو أحد الثقات الأثبات ، والحفاظ الجهابذة »

وقال عنه الصلاح الصفدى فى الوافى :

« كان ثقة ، نبيلا ، ثبتا ، فقيها ، عاقلا ، لم يخلف بعده مثله »

ويقول عنه ابن أسعد اليافعى أيضا :

« برع فى الفقه ، والحديث ، وصنف التصانيف المفيدة » .

وقال الحافظ السيوطى عنه :

« هو الامام العلامة ، الحافظ ، صاحب التصانيف البديعة ، وكان ثقة ، ثبتا ، فقيها ، لم يخلف بعده مثله » اهـ

وأثنى عليه رضوان الله عليه ، الامام الطبرانى ، وأبو بكر الخطيب ، وأبو عبد الله الحميدى والحافظ المزى ، وهذا يدل على جلالة قدرة وعلو منزلته ، وسمو مكانته .

ولا يفوتنا أن نذكر ما قاله البدر العينى عنه فى شأن معاصرته لأصحاب الصحاح والسنن لما فى ذلك من أهمية جليلة تبين بوضوح واضح ما اشتملت عليه حياة الامام الطحاوى العلمية :

يقول البدر العينى : رضى الله عنه :

« كان عمر الطحاوى حين مات أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ، صاحب الصحيح ، سبعا وعشرين سنة .

لأن البخارى مات سنة ست وخمسين ومائتين .

وكان عمره حين مات مسلم بن حجاج ، صاحب الصحيح ، اثنتين وثلاثين سنة ، لأن مسلما مات سنة احدى وستين ومائتين .

وشاركه الطحاوى فى روايته عن بعض شيوخه .

وكان عمره حين مات أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى صاحب الجامع خمسين سنة .

لأن الترمذى مات سنة تسع وسبعين ومائتين .

وكان عمره حين مات أحمد بن شعيب بن على النسائى ، أربعا وسبعين سنة .

لأن النسائى مات سنة ثلاث وثلثمائة ، وشاركه أيضا فى روايته ، وروى الطحاوى عنه أيضا .

وكان عمره حين مات محمد بن يزيد بن ماجة ، صاحب السنن ، أربعا وأربعين سنة ، لان ابن ماجة مات فى سنة ثلاث وسبعين ومائتين ، وشاركه أيضا فى روايته عن بعض شيوخه .

وكان عمره حين مات ابن حنبل اثنتى عشرة سنة .

لأن أحمد بن حنبل مات سنة احدى وأربعين ومائتين .

وكان عمره حين مات يحيى بن معين ، أربع سنين ، لأن يحيى بن معين مات سنة ثلاث وثلاثين ومائتين » اهـ

وبعد : فان الامام الطحاوى من العلماء المبرزين ، واعلام الأئمة الذين طبقت شهرتهم الآفاق .

حفلت به كتب التراجم ، وتتبع سيرته كثير من المؤلفين ، وسجلوا مواقفه الفذة :

فى خدمة الدين ، والدفاع عن الحق ونشر العلم .

له ترجمة : فى وفيات الأعيان جـ ١ ص ٧١ ، وأخرى فى الفهرست ٢٠٧ ، وثالثة : فى تهذيب ابن عساكر جـ ٢ ص ٥٤ ، ورابعة : فى المنتظم جـ ٦ ص ٢٥٠ ، وخامسة : فى الجواهر المضية جـ ١ ص ١٠٢ وسادسة : فى تاج التراجم ص ٨ ، وسابعة : فى الوافى جـ ٨ الورقة ٣ ، وثامنة : فى العبر جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، وتاسعة : فى الشذرات جـ ٢ ص ٢٨٨ وعاشرة : فى النجوم الزاهرة جـ ٣ ، ص ٢٣٩ ، والاحدى عشر : فى غاية النهاية جـ ١ ص ١١٦ ، والاثنى عشر فى مرآة الجنان جـ ٢ ص ٢٨١

ثم ترجم له الحافظ الذهبى كذلك فى تاريخه الكبير ، وابن عبد البر فى كتاب العلم .

والحديث عن هذا المسند المحقق المدقق الامام الطحاوى رضى الله عنه لا يجف له قلم ، ولا يطوى عنه سجل .

ومهما أوتى الانسان من بلاغة جنان ، وحسن تبيان ، لا يسعه الا الاعتراف له ولمن سبقه بالفضل ، والاقرار لهم بالعلم ، نفعنا الله بحبهم وعلمهم ، وجزاهم الله عما قدموا لنا من تراث اسلامى أصيل خير الجزاء .

ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

مذكرة

بشأن شكاوى مبعوثى الأزهر فى الخارج من المعاملة المالية الحالية للمعارين على نفقة جمهورية مصر العربية

وردت الى ادارة البعوث الاسلامية شكاوى عديدة من السادة مبعوثى الأزهر فى مختلف الدول يتضررون فيها من ضآلة مرتبات الاعارة الحالية التى تمنح لهم وعدم تناسبها مع موجة الغلاء التى سادت العالم وأوضاع البلاد الاقتصادية التى يعملون بها .

وقد أيدت السفارة المصرية فى الخارج هذه الشكاوى وطلبت من الأزهر تعديل هذه المرتبات على نحو يكفل للمبعوث حياة كريمة حتى يتمكن من أداء رسالته على خير وجه ويظهر بالمظهر اللائق به والمشرف لمعهده وبلده .

ولابراز مدى الضيق المادى والمعاناة النفسية والظروف الصعبة التى يعمل تحت وطأتها مبعوثو الأزهر تنقل فيما يلى بعض آراء السادة سفراء جمهورية مصر العربية التى وردت الى الأزهر فى هذا الشأن :

(أ) جاء فى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى كندا رقم ١٣ بتاريخ ١٩٧٨/١/٢٥ ما يلى :

« ونود الاحاطة بأن مرتب السائق أو السفرجى فى كندا لا يقل عن ٧٠٠ (سبعمائة) دولار شهريا وبناء على ذلك فان السفارة ترى أنه لكى يتحقق الهدف من ارسال مبعوثين للازهر فى هذه البلاد فلا بد من أن تكون مرتباتهم ضعف ما يتقاضونه حتى تتناسب مع أهمية الهدف من ايفادهم وحتى يتمكنوا من أداء رسالتهم على الوجه الأكمل .

(ب) وفى الكتاب الموجه الى فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر

من السيد الوزير المفوض قنصل عام مصر فى زنزبار رقم ١ بتاريخ ١٥/٢/١٩٧٨ ــ أكرر شكرى على جهودكم وجهود رجال الأزهر الشريف فى زنزبار وقد رأيت أن أطلعكم على موضوع أرجو أن يحظى برعايتكم وهو خاص بمرتباتهم التى لا تكاد تكفيهم نظرا لغلاء المعيشة واستمرار رفع الأسعار بشكل واضح مما يؤثر على عملهم وقيامهم بالدعوة •

(جـ) وفى كتاب السيد سفير سفير جمهورية مصر العربية فى موريشيوس رقم ٣٩٦ فى ١٥/١٢/١٩٧٨ بشأن مرتبات مبعوثى الأزهر « هذا المرتب يقل عن المرتب الذى يتقاضاه خدم المنازل فى موريشيوس وعلى ذلك فان السفارة سوف تستمر فى تغطية نفقاتهما المعيشية الضرورية حفاظا على سمعة وكرامة مصر فى الخارج » •

(د) وفى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى جيبوتى رقم ٤٠ فى ٣١/١٢/٧٨ فى شأن بعثة الأزهر ــ لقد لقى تواجدهم هنا كل ترحيب من المسئولين الذين عبروا عن تقديرهم الكامل للازهر لهذه المبادرة التى تدل على روح طيبة وتفهم من الأزهر لأهمية التعاون مع جيبوتى فى المجال الدينى والثقافى كما قدرت السفارة بدورها هذه الخطوة من الأزهر وتأمل أن تليها خطوات •

فوجئت السفاة بالضآلة الشديدة لمرتبات السادة المبعوثين وهو ما لا يمكن معه توفير أدنى مستوى للمعيشة بالنسبة لهم نظرا لارتفاع مستوى المعيشة هنا ارتفاعا باهظا الأمر الذى يضعهم فى وضع غاية الاحراج بالنسبة لكرامتهم ومستوى حياتهم •

(هـ) ونذكر أخيرا من هذه الشكاوى وكتب السادة السفراء ما جاء فى كتاب السيد سفير جمهورية مصر العربية فى نيجيريا المرفق به المذكرة المقدمة من مبعوثى الأزهر بشأن ضآلة مرتباتهم فى مواجهة نفقات المعيشة والسفارة تؤيد ما جاء فى مذكرة السادة أعضاء البعثة ونود الاحاطة بأن

نيجيريا تعتبر من أغلى بلاد العالم نظرا لنسبة التضخم المرتفعة بها ولاشك أن مرتبات سادتهم لا تتناسب مطلقا مع مستوى المعيشة هنا .

لذا نرجو التكرم باعادة النظر فى مرتباتهم مما يحقق لهم مستوى معيشة كريمة تساعدهم على أداء مهمتهم فى هذه البلاد .

وغير ذلك من الشكاوى الكثيرة التى ترد الى الأزهر وتأييد السفارات المصرية لما ورد بها خاصا بمرتبات الاعارة الحالية وهذا أمر أصبح عاما يستوعب جميع الدول تقريبا.

التعليق

(أ) يعامل المعارون على نفقة الازهر الى دول آسيا من الناحية المالية بالقانون رقم ٤٠٥ لسنة ١٩٥٥ .

※ ويعامل المعارون على نفقة الأزهر الى دول أفريقيا من الناحية المالية طبقا لقرار رئيس الجمهورية رقم ١٤٨٩ لسنة ١٩٦٢ المعدل بالقرار رقم ٩٣٥ لسنة ١٩٦٩ .

※ ويعامل المعارون على نفقة الأزهر الى الجمهورية العربية اليمنية من الناحية المالية بقرار رئيس الجمهورية رقم ١٢٢٤ لسنة ١٩٦٤ .

※ ويعامل المعارون على نفقة الأزهر لبعض البلاد بقرارات خاصة صادرة لها مثل : أوغندا والسودان.

※ هذه المعاملة المالية التى قرر بعضها منذ أكثر من عشرين عاما وبعضها منذ أكثر من عشر سنوات أضحت الآن لا تتناسب مطلقا مع مستوى المعيشة فى هذه البلاد ولا مع موجة الغلاء الفاحش التى اجتاحت ــ ولاتزال ــ دول العالم ، الأمر الذى ترتب عليه امتناع أغلب المرشحين الى هذه الدول عن السفر لضآلة مرتباتهم التى يتقاضونها من الازهر فى الخارج والتى لا تفى بالتزاماتهم الضرورية ولا تحفظ لهم كرامتهم ومكانتهم كعلماء موفدين من الأزهر يعتبرهم الناس قدوة لهم فى سلوكهم وتصرفاتهم الشخصية بينما تحتم عليهم رسالتهم

ووضعهم الاجتماعى الاختلاط بالمجتمع الذى يعيشون فيه وأن تظل بيوتهم مفتوحة لاستقبال المواطنين الذين يقصدونهم للسؤال فى أمور دينهم ودنياهم . ولا يخفى على أحد ما يترتب على ذلك من أعباء مادية اضافية يتحملها مبعوث الأزهر .

فى الوقت الذى يجد فيه المرشح الى هذه الدول زميله المعار الى دول الخليج والدول العربية التى تتحمل مرتباته يتقاضى مرتبا شهريا أضعاف ما يأخذه من الأزهر بجانب المميزات الأخرى التى يتمتع بها باعتبار أنه يعيش فى مجتمع عربى قريب من المجتمع المصرى لا يحس فيه بغربة ولا يواجه مشاكل ومصاعب فى تعليم أولاده ولا يتحمل نفقات مرتفعة فى تكاليف السفر فى حالة عودته كل عام الى مصر لقضاء اجازته السنوية فيحجم عن السفر ويرفضه خاصة وأن بالامكان الحصول على عقد للعمل فى هذه الدول من غير مشقة تذكر .

(ب) بجانب ذلك توجد دول كثيرة غير منصوص على معاملتها المالية بالقوانين والقرارات السابقة

والأزهر مضطر بحكم رسالته وتطلعات المسلمين اليه فى هذه الدول باعتبار أنه المنهل الذى أراده الله واختاره لهم لينهلوا منه علوم الاسلام واللغة العربية والمنارة التى أقامها الله لهم ليستضيئوا بهديها ونورها ـ مضطر أن يلبى حاجة المسلمين فى هذه البلاد بايفاد علمائه اليهم للتدريس والوعظ والارشاد .

ويعامل الأزهر هؤلاء المعارين ماليا معاملة بالمثل لأقرب بلد له معاملة مالية مقررة .

غير أنه توجد بلاد كثيرة ، الأزهر حتى الآن عاجز عن تلبية وتحقيق رغبات المسلمين فيها وخاصة فى أوربا وأمريكا لعدم وجود معاملة مالية مقررة لأى بلد فيها .

(جـ) يضاف الى ما سبق عامل آخر يسبب شكوى المعارين من الأزهر من التفرقة فى المعاملة المالية

بينهم وبين زملائهم المعارين من وزارة الاوقاف .

فقد صدر قرار رئيس الجمهورية رقم ٣٦ لسنة ١٩٧٧ فى شأن المعاملة المالية للمعارين من وزارة الاوقاف الى الخارج الذين تتحمل الدولة مرتباتهم يتضمن معاملتهم ماليا معاملة رجال السلك الدبلوماسى .

وبناء على ذلك فان جميع المعارين من وزارة الاوقاف يعاملون ماليا معاملة خاصة بينما زملاؤهم المعارون من الأزهر ويحملون نفس المؤهل العلمى الذى يحملونه ويعملون معهم فى نفس الحقل ويقومون بعمل واحد مشترك وموفدون من بلد واحد يعاملون ماليا المعاملة العادية ــ المذكورة سابقا ــ التى تدفع المرشحين الجدد على الامتناع عن تنفيذ الاعارة ، أو الاعتذار عن عدم اتمام مدتها لمن يخاطر بقبولها فى أول الامر .

الرأى

ترى ادارة البعوث الاسلامية أن هذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية سواء بالنسبة لتحقيق رسالة الازهر فى نشر دين الله واعلاء كلمته ، أو بالنسبة لاقامة العلاقات الطيبة وتقوية الروابط الوطيدة بين مصر ودول العالم الخارجى .

الأمر الذى يستدعى حلا سريعا لعلاج هذه المشكلة حتى لا تكون ضآلة المعاملة المالية الحالية سببا فى اعتذار المرشحين عن عدم السفر ، ونتيجة لذلك يخلو الميدان لغير مبعوثى الأزهر «لا سيما وأن هناك دولا عربية أخذت تغزو هذا الميدان فى الآونة الأخيرة وتنافس مصر فى هذا المجال وتغدق أموالها الطائلة على مرتبات مبعوثيها محاولة انتزاع دور مصر ــ بلد الأزهر ــ القيادى والتاريخى فى هذا المجال » وبالتالى يفقد الأزهر دوره الرائد فى توجيه الدعوة الاسلامية وشغل مراكزها الهامة فى أنحاء العالم وفى ذلك خسارة كبيرة لمصر ومساس بدورها الرائد فى هذا المجال .

وعلاج هذه المشكلة يستدعى :

١ ــ تحقيق العدالة بين جميع المعارين وذلك بتوحيد المعاملة المالية

بين جميع الفئات المتماثلة المعارة من جمهورية مصر العربية على نفقتها الى الدولة الواحدة .

٢ - ضرورة الاسراع فى اصدار قرار المعاملة المالية للمعارين خارج الجمهورية الذى سبق أن أعدته ووافقت عليه اللجنة التنفيذية العليا للعلاقات الثقافية والتعاون الفنى حتى تزول أسباب هذه الشكاوى وتهيأ الحياة الكريمة لبعوثى الأزهر ، ومن جهة أخرى لكى يقبلوا على السفر الى هذه البلاد مع عدم شعورهم بالغبن بالنظر الى زملائهم الذين يوفدون أو يتعاقدون مع البلاد العربية التى تمنحهم مرتبات وبدلات تحقق لهم طمأنينة وأملا فى مستقبلهم .

والله ولى التوفيق .

فوزى فاضل الزفزاف
مدير ادارة البعوث
الاسلامية

خطبة نبوية

قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال : نضر الله امرءا سمع مقالتى فاداها كما سمعها ؛ فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو افقه منه .

ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : اخلاص العمل لله ، والنصيحة لولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ؛ فان دعوتهم تحيط من ورائه .

بـاب الفتـاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : يقول الله تعالى على لسان عيسى ابن مريم : « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » فما الحكمة فى تخصيص عيسى بالسلام على نفسه ؟

ج : وقد أجاب عن هذا السؤال الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله فى كتابه الفتاوى بما يلى:

السلام على المؤمنين والمرسلين :

للمؤمنين عامة مكانة عند الله ، بها يحفظهم ويرعاهم ، وبها يؤمنهم من كل مكروه ، ومن ذلك ترى القرآن الكريم يذكر تحية الله لهم ، وتكريمه اياهم بالسلام عليهم .

وقد كان للأنبياء والرسل فوق ما للمؤمنين من الحفظ والرعاية والتأمين ، والتحية والتكريم ، سلم عليهم بالوصف العام : « وسلام على المرسلين » وسلم عليهم بالعلم الخاص « سلام على نوح فى العالمين » . « سلام على ابراهيم »، « سلام على موسى وهارون » ، « ان الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » ..

السلام على يحيى وعيسى

ولكن يحيى وعيسى عليهما السلام كان لهما شأن خاص فى ولادتهما ، فجاء السلام عليهما بنحو خاص لا يشاركهما فيه أحد من الأنبياء والمرسلين ، فيحيى جاء أثرا لدعوة أبيه « زكريا » بعد أن صارت أمه عاقرا ، وبلغ أبوه من الكبر عتيا « رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى

وورث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » . فأجاب الله دعوته : وحقق له على غير السنة المألوفة أمنيته ومنحه « يحيى » وجعله رضيا كما طلب ، وصاغه بالخلال الطيبة التى تملأ قلب زكريا فرحا وسرورا ، وساق اليه البشرى : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ، وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا » وقد توج تلك الخلال بسلام التكريم والحفظ على يحيى فى العهود الثلاثة التى تمر بالانسان ، ويكون فيها أشد ما يكون حاجة الى تكريم الله وحفظه : عهد الظهور فى هذه الحياة التى يتعرض فيها للتكاليف والواجبات ، وعهد الانتقال منها الذى يترقب فيه المحاسبة على ما قام به من عمل ، وعهد الرجوع الى ربه الذى يرى فيه صحيفة عمله وما أعد له من جزاء « وسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا » وكان كل ذلك زيادة فى تطمين زكريا باجابة دعوته على أحسن ما تكون الاجابة .

عيسى له شأن خاص

أما « عيسى » فقد انفرد عن يحيى بشأن لم يشاركه فيه ، فقد أحيطت ولادته من أم فقط ــ كما تحدث القرآن ــ من خصوم والدته ، وخصوم فضل الله على عباده ، بما ملأ نفسها ببواعث القلق والاضطراب ، لا لشك فى نفسها ، وانما لتقدير ظنون الناس فيها ، حتى قالت حينما جاءها المخاض : « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وقد كان ما قدرت من قومها « قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا »

وما أحوجها فى ذلك الوقت الى رحمة خاصة ببرهان محس قاطع ، يدد على القوم أفكارهم بالنسبة اليها .. وما هو الا أن أشارت اليه بعد وضعه فأجابهم بقدرة الله الذى خلقه من أم فقط ، والذى أنطق كل شىء « قال انى عبد الله . آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى

ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » ..

تكريم بدد بهتان المفترين :

وبهذا النطق الالهى ، الذى جرى على لسان عيسى وهو فى المهد ، قر الحق فى نصابه ، وظهر فضل الله عليه وعلى أمه ، وما كان لولد يفترى ، ولا لسيدة تفترى أن يحصلا على هذا الفضل وذلك التكريم .

وكما تبدد بهذا المنطق بهتان المفترين ، تسجلت به ـ على لسان عيسى ـ عبوديته لله . وأنه محل رحمته وبركته ، وأنه قد صاغه على النحو الذى يريده نبيا ، مباركا ، برا ، عطوفا رحيما ، وأنه بعد ذلك كله فى محل العناية والأمان من ربه فى عهوده الثلاثة

وبه أيضا تبددت شبهة الذين سموا به عن رتبة البشرية ، وقالوا به على الله شيئا ادا

واذا كان الله تحدث لزكريا بأوصاف ولده يحيى ، فقداقتضت حكمته لظروف عيسى الخاصة أن تجرى القدرة الالهية أوصاف عيسى ومزاياه على لسان نفسه ، لتكون حجة الحق ـ فى طهارة أمه وبشريته ـ نابعة من نفسه وبصوته، وعلى مسمع من المفرطين فيه المغالين ، والمفرطين المقصرين : «ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » .

س : مواطن كريم يسأل : كثر الجدل فى قريتنا حول تحية المسجد « ركعتى دخول المسجد » وهل هى واجبة أو مندوبة ، وهل هى مشروعة فى جميع الأحوال .. ؟ الخ ..

ج : وقبل الاجابة نود أن ننصح الأخ المسلم وغيره من المسلمين المتدينين أن يتجنبوا الجدل فى المسائل الفرعية الناشىء عن التعصب المذهبى وعليهم الاهتمام بالمسائل الكلية من أداء للفرائض واجتناب للمعاصى وأداء للشعائر الاسلامية فى جو من الصفاء والأخوة الصادقية حتى لا يعكر صفوهم مثل هذا الجدل « فما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » ونحن أحوج ما نكون الى وحدة الصف

والهدف متمسكين بحبل الله المتين وكتابه المبين « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » ثم نقول وبالله التوفيق .

جاء فى كتاب « بداية المجتهد » لابن رشد : الجمهور على أن ركعتى دخول المسجد مندوب اليها من غير ايجاب ، وذهب أهل الظاهر الى وجوبها ، وسبب الخلاف فى ذلك هل الأمر فى قوله عليه الصلاة والسلام « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » محمول على الندب أو على الوجوب فان الحديث متفق على صحته — فمن تمسك فى ذلك بما اتفق عليه الجمهور من أن الأصل حمل الأوامر المطلقة على الوجوب حتى يدل الدليل على الندب ، ولم ينقدح عنده دليل ينقل الحكم من الوجوب الى الندب قال : الركعتان واجبتان .

ومن انقدح عنده دليل على حمل الأوامر ههنا على الندب ، أو كان الأصل عنده فى الأوامر أن تحمل على الندب حتى يدل الدليل على الوجوب — فان هذا قال به قوم — قال : الركعتان غير واجبتين

لكن الجمهور انما ذهبوا الى حمل الأمر هنا على الندب لمكان التعارض الذى بينه وبين الأحاديث التى تقتضى بظاهرها أو بنصها أن لا صلاة مفروضة الا الصلوات الخمس .. مثل حديث الأعرابى وغيره ، ، وذلك أنه ان حمل الأمر هنا على الوجوب لزم أن تكون المفروضات أكثر من خمس .

ولمن أوجبها : أن الوجوب ههنا انما هو متعلق بدخول المسجد لا مطلقا كالامر بالصلوات الخمس ..

واختلف العلماء فيمن جاء المسجد وقد ركع ركعتى الفجر فى بيته . هل يركع عند دخوله المسجد أم لا ؟ فقال الشافعى : يركع وهى رواية اشهب عن مالك ، وقال أبو حنيفة : لا يركع وهى رواية ابن القاسم عن مالك .

وسبب اختلافهم عموم معارضة قوله عليه الصلاة والسلام : « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين» وقوله « لا صلاة بعد ركعتى الفجر الا ركعتى الصبح » فههنا عمومان وخصوصان : أحدهما فى الزمان ،

والآخر فى الصلاة ، وذلك أن حديث الأمر بالصلاة عند دخول المسجد عام فى الزمان خاص فى الصلاة ، والنهى عن الصلاة بعد الفجر الا ركعتى الصبح خاص فى الزمان عام فى الصلاة ، فمن استثنى خاص الصلاة من عامها رأى الركوع بعد ركعتى الفجر ، ومن استثنى خاص الزمان من عامه لم يوجب ذلك

واختلفوا فيمن جاء يوم الجمعة والامام على المنبر هل يركع أم لا ؟

فذهب بعض الى أنه لا يركع وهو مذهب مالك وذهب بعضهم الى أنه يركع .. والسبب فى اختلافهم معارضة القياس لعموم الأثر ، وذلك أن عموم قوله عليه الصلاة والسلام « اذا جاء أحدكم المسجد فليركع ركعتين » يوجب أن يركع الداخل فى المسجد يوم الجمعة وان كان الامام يخطب ، والأمر بالانصات الى الخطيب يوجب دليله ألا يشتغل بشىء مما يشغل الناس عن الانصات وان كان عبادة ..

وجاء فى سبل السلام فى شرح حديث جابر رضى الله عنه : «دخل رجل يوم الجمعة والنبى صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : صليت ؟ قال لا ، قال : قم فصل ركعتين » متفق عليه ..

والحديث دليل على أن تحية المسجد تصلى حال الخطبة ، وقد ذهب الى هذا طائفة من الآل والفقهاء والمحدثين ويخفف ليفرغ لسماع الخطبة .. ذهب جماعة من السلف والخلف الى عدم شرعيتهما حال الخطبة والحديث هذا حجة عليهم وقد تأولوه بأحد عشر تأويلا كلها مردودة عليهم .

وأما من دخل الحرم فى غير حال الخطبة فانه يشرع له الطواف فانه تحيته ، أو لأنه فى الأغلب لا يقعد الا بعد صلاة ركعتى الطواف ، ويرى مالك البدء بهما قبل السلام على النبى عليه الصلاة والسلام بمسجده الشريف

ويلاحظ أن وقتها عند الدخول قبل الجلوس قال فى كتاب الاقناع « وهى ركعتان قبل الجلوس لكل داخل وتحصل بفرض أو نفل آخر وتتكرر بتكرر الدخول ولو على

قرب ، وتفوت بجلوسه قبل فعلها ، وان قصر الفصل ، الا ان جلس سهوا وقصر الفصل ، وتفوت بطول الوقوف كما افتى به بعض المتأخرين

فائدة : قال الأسنوى : التحيات أربع : تحية المسجد بالصلاة ، والبيت بالطواف، والحرم بالاحرام، ومنى بالرمى ، وزيد عليه تحية عرفة بالوقوف ، وتحية لقاء المسلم بالسلام » .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

صن النفس واحملها على ما يزينها
تعش سالما والقول فيك جميل
ولا تريين الناس الا تجملا
نبا بك دهر أو جفاك خليل
وان ضاق رزق اليوم فاصبر الى غد
عسى نكبات الدهر عنك تزول

× × ×

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالايمان ينتفع
ان الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب اذا ما رث ينخلع

محمود سامى البارودى

فى هذا العدد

رقم الايداع ١٩٧٩/١٦٧

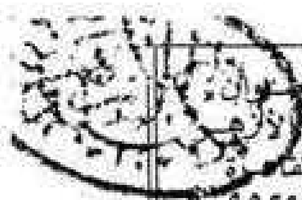
مطابع شركة الإعلانات الشرقية
القــاهرة

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة ورئيس التحرير
الدكتور عبد الودود شلبى

العنوان : إدارة الأزهر بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ، ٩٠٥٥٠٦ }

الجزء السادس - السنة الحادية والخمسون - شعبان ١٣٩٩هـ - يوليه ١٩٧٩م



بسم الله الرحمن الرحيم

دراسات قرآنية

متى شرع الإعلام بالصلاة وكيف شرع الأذان والإقامة ؟

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير

قال الله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (النساء : ١٠٣) .

وقال سبحانه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » (النساء : ١٠٠) .

البيان

فرضت الصلاة فى ذروة الاضطهاد الدينى من قريش للمسلمين بمكة ، فكانوا يؤدونها هناك فرادى بلا أذان وبلا اقامة ، حذرا من المشركين واتقاء أذاهم ، ولما أذن الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة الى المدينة وقرب منها فى هجرته ، أدركته أول صلاة يجتمع فيها شمل المسلمين بعد هجرتهم فى أرض بنى سالم بن عوف ، فقد خرج المهاجرون والأنصار لاستقبال الرسول بها ، وكان عدد من صلاها معه مائة ، وهى أول جمعة فى

الاسلام ، وقد خلت من الأذان والاقامة ، لأنها لم يكونا قد شرعا بعد .

وقد خطب الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الصلاة خطبة جليلة قال فيها بعد حمد الله تعالى والثناء عليه « أما بعد — أيها الناس — فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه ليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآتيتك مالا وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع ان يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فانها تجزى الحسنة عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

هكذا كانت خطبته صلى الله عليه وسلم لهم يومئذ . وكانت الصلاة والخطبة بمسجد بناه بنو سالم بن عوف فى أرضهم قبل مقدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وأطلق عليه بعد « مسجد الجمعة » .

وبعد استقرار النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، أوجب الله الهجرة الى المدينة على من لم يهاجر اليها بعد ، ليسلموا من أذى المشركين ويسلم دينهم ، ولينعموا بجو الايمان والحرية بالمدينة الى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، وحكم الله على المتخلف عن الهجرة ، وهو قادر عليها ، بالاثم وأن مأواه جهنم ، واستثنى المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة النساء : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا » .

ولم يكتف بذلك ، بل حبب اليهم الهجرة بما سيجدونه فى المهجر من رغد العيش وسعته . ووعدهم بأن من لم يبلغ دار الهجرة ، بل مات فى الطريق اليها فقد وقع أجره على الله تعالى . وفى ذلك يقول سبحانه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » فأقبل المتخلفون عن الهجرة ، ولقوا من أهل المدينة مزيدا من الحب والترحيب والايثار ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

مراحل تشريع الأذان

الأذان فى اللغة الاعلام مطلقا ، وفى الشريعة الاسلامية الاعلام بالصلاة بعبارات معينة ، وقد شرع بعد الهجرة الى المدينة حين كثر المسلمون وتباعدت دورهم ، واحتاجوا الى ما يعلمهم بمواقيت الصلاة ، ويدعوهم الى الاجتماع عليها بعد أن أصبحوا فى ظل المدينة آمنين على أنفسهم ودينهم .

وكانت مشروعيته على مرحلتين « أولاهما » اعلام الناس ودعاؤهم الى الصلاة بغير ألفاظه المعهودة ، وفى ذلك يروى الشيخان ــ البخارى ومسلم ــ بسنديهما عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما انه قال : « كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون ويتحينون الصلاة ليس ينادى بها ، فتكلموا يوما فى ذلك ، فقال بعضهم : اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقا مثل قرن اليهود ، فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بلال . قم فناد بالصلاة » . فأنت ترى فى هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلالا أن يدعو الناس الى الصلاة من غير أن يحدد له عبارات معينة لدعوتهم ، فكان يناديهم بما يجول فى خاطره من عبارات .

ومنهم من حدد العبارة التى كان ينـادى بهـا بلال ، وهى قـوله « الصلاة جامعة » كما أخرجه ابن سعد فى الطبقات .

« المرحلة الثانية » اعلامهـــم بالصلاة بألفاظ مخصوصة يرويهـا عبد الله بن زيد باسناد صحيح قال فى ضمن حديثه : « طاف بى وأنا نائم رجل يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت : يا عبد الله ، أتبيع الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ فقلت ندعو به الى الصلاة ، فقال : أفلا أدلك عـلى ما هو خير من ذلك ؟ فقلت بلى ، فقال : تقول : « الله أكبر الله أكبر » فذكر التكبير أربع مرات ، ومضى فى الأذان على الوجه المعروف حتى بلغ آخـره « لا اله الا الله » ثم قال ، بعد أن ذكر أنه علمه الاقامة : « فلما أصبحت أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته بما رأيت » فقال : « انها رؤيا حق ، ان شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فسمع ذلك عمـر بن الخطاب وهو فى بيته ، فخرج يجر رداءه يقول : والذى بعثك بالحق يا رسول الله : لقد رأيت مثل مـا أرى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلله الحمد .

مذاهب العلماء
فى ألفاظ الأذان

يرى كثير من أهـل العلم أن الأذان يكبر فى أوله أربع تكبيرات وممن قال بذلك أبو حنيفة والشافعى والثورى وأحمد واسحق وغيرهم ، وحجتهم فى ذلك حـديث عبد الله ابن زيد وحـديث أبى محـذورة اللذان رواهما أبو داود ، وقـد جاء فيهما التكبير أربع مـرات فى أول الأذان .

ويرى الامام مالك أن يكبر فى أول الأذان مرتين فقط ، وحجته فى ذلك عمل أهل المدينة فى عهده ، وكان يؤثره على النصوص الفردية ، لأنها سنة عملية نقلها الخلف عن السلف الى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده فى ذلك حديث لمسلم عن أبى محذورة جاء فيه التكبير مرتان ، وهى مخالفــة لرواية أبى داود لحــديث أبى محذورة ، فقد جاء فيها التكبيـــر أربع مرات .

وقد استبان مما تقدم أن من يكبر أربع مرات أول الأذان يستند الى أصل صحيح ، ومن يكبر مرتين يستند الى أصل صحيح أيضا ، فلا ينبغى أن يعيب أحد الفريقين الآخر ، كالذى نراه بين بعض أصحاب المذاهب هنا .

مذاهب العلماء

في الترجيع فى الشهادتين

أجمع العلماء على أن الأذان لا يصح بغير النطق بالشهادتين مرتين ، واقتصر فريق منهم على ذلك ومنهم الامام أبو حنيفة ، وسفيان الثورى وأحمد فى رواية عنه ، وحجتهم فى ذلك حديث عبدالله ابن زيد ، فقد جاء فيه بعد التكبير أربع مرات «أشهد أن لا اله الاالله» مرتين و « أشهد أن محمدا رسول الله » مرتين كذلك .

وأكثر العلماء ومنهم الشافعى ، يرون ترجيع الشهادتين مرتين فى كل منهما ، بأن يقول المؤذن كلتيهما سرا مرتين، ثم يجهر بكلتيهما مرتين [illegible]ان الأوليان يقولهما سرا اخلاصا من أعماق قلبه واحتسابا لوجه الله الكريم ، والأخريان يقولهما جهرا لذلك ، مع الاعلام بميقات الصلاة .

والترجيع سنة عند هؤلاء ، فلا يبطل الأذان بتركه عمدا أو سهوا ، ولكن تفوت تاركه فضيلة الترجيع وثوابه ، وقيل هو ركن يبطل الأذان بتركه ، والرأى الأول أصح ، لأنه قد جاءت عدة أحاديث لم يذكر فيها الترجيع ، ولو كان ركنا لذكر فى كل منها ، ومنها حديث عبد الله بن زيد صاحب قصة الأذان ، كما أن حذفه ليس فيه اخلال ظاهر بمتطلبات الأذان ، بخلاف بقية كلماته .

واستدل من رأوا أن الترجيع ركن فى الأذان بحديث أبى محذورة ، حيث ثبت فيه بتلقين النبى صلى الله عليه وسلم اياه ، وبعمل أهل الحرمين ، وبأن فيه زيادة ، وزيادة الثقة مقبولة ، وبأن اسلام أبى محذورة متأخر ، فحديثه ينسخ المتقدم .

ونحن نقول : انه لا يلزم من كل ذلك أن يكون الترجيع ركنا فى الأذان يبطل بعدمه . فلماذا لايكون سنة فقط ـ كما قال به كثير من العلماء ، وبالجملة فمن أذن بترجيع فذلك حق لموافقته لحديث أبى محذورة ، ومن اذن بغير ترجيع فذلك صحيح لموافقة رواية عبد الله ابن يزد ، فلا ينبغى لفريق أن يلزم آخر بما يراه ، لأن شرط الالزام أن يكون الحكم مجمعا عليه .

التثويب فى الاذان

التثويب أن يقول المؤذن فى أذان الفجر خاصة بعد « حى على الفلاح » : « الصلاة خير من النوم » مأخوذ من ثاب بمعنى رجع ، كأن المؤذن رجع الى الدعوة الى الصلاة مرة أخرى بعد « حى على الصلاة » .

أما الصلوات الأخرى فلا تثويب فيها ، وقد رواه خاصا بالفجر أبو داود وغيره باسناد جيد ، كما رواه ابن جزيمة فى صحيحه ، والدارقطنى والبيهقى باسناد صحيح عن أنس قال : « من السنة اذا قال المؤذن فى أذان الفجر حى على الفلاح قال : الصلاة خير من النوم . الصلاة خير من النوم . الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله » وممن قال بالتثويب عمر بن الخطاب وابنه وأنس والحسن وابن سيرين وغيرهم .

مذاهب العلماء فى الاقامة

عندما يتهيأ المسلمون لصلاة الجماعة ، يدعوهم المؤذن أن يقوموا الى الصلاة بذكر يشبه ذكر الأذان ، غير انه فرادى فيما عدا التكبير فى أولها وآخرها ولفظ « قد قامت الصلاة » فان ذلك يذكر مرتين ، ودليل ذلك حديث أنس : « أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة » . (خرجه الشيخان » .

وروى البيهقى باسناد صحيح : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بلالا أن يشفع الأذان ويوتر الاقامة » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « انما كان الأذان على عهد

رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين مرتين ، والاقامة مرة مرة ، غير انه يقول : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة » أخرجه أبو داود والنسائي باسناد صحيح .

قد يقول قائل : ان التكبير في أول الاقامة شفع وليس وترا ، وكذا آخرها ، اذ يقول المقيم في كليهما الله أكبر الله أكبر . قلت ان الوترية في أحاديث الاقامة اما محمولة على معظم الذكر ، أو محمولة على أن المقيم ينطق التكبير المزدوج في أولها وآخرها في نفس واحد ، فهو لهذا كأنه وتر .

وانما نطق التكبير فيها شفعا لأنه المروى في أحاديثها ، ففي حديث عبد الله بن زيد « ثم تقول اذا أقمت الصلاة : الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا اله الا الله . أشهد أن محمدا رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح . قد قامت الصلاة . قد قامت الصلاة . الله أكبر الله أكبر ، لا اله الا الله » .

سؤال وجواب

فهمنا مما تقدم أن أساس تشريع الأذان والاقامة رؤيا رآها عبد الله ابن زيد وعمر بن الخطاب في المنام، ولم ينزل بها الوحي ، فكيف يكون هذا تشريعا من الله تعالى .

والجواب : ان الله تعالى قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » فهذا يدل على أن الرسول له أن يجتهد ، وقد اجتهد في طريقة الاعلام بالصلاة ثم أقر هذه الرؤيا .

وأيضا قال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » وموافقة الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جاء في الرؤيا عن الأذان ، فيها تبيين للصلاة التي أنزلها الله وأوجبها في القرآن الكريم ، بنحو قوله تعالى : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وأيضا ان الله تعالى قد أقر هذا الاجتهاد فلم ينزل ماينافيه ، وبذلك يكون الأذان تشريعا من الله تعالى

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان اذا اجتهد ولم يوافق الله على اجتهاده ، فانه سبحانه كان يعلمه بعدم موافقته ، ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم حين وافق على أخذ الفدية من أسارى بدر ، أنزل الله عتابا له على ذلك قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » من الآية ٦٧ من سورة الانفال .

أما اذا وافق على اجتهاده ـ كما هو هنا فى موضوع الأذان ـ فانه يكون تشريعا من الله .

ما يستحب فى الاذان والاقامة

يستحب التأنى فى الأذان ليسمع البعيد عن المسجد فيتيسر له ادراك الجماعة ، أما الاقامة فيستحب فيها الاسراع لأنها لمن حضر الصلاة . روى عن ابن الزبير مؤذن بيت المقدس فى عهد عمر رضى الله عنه أن ابن عمر قال له : « اذا أذنت فترسل ، واذا أقمت فاحذم » والترسل التأنى والترتيل وترك العجلة ، وهو أولى وأليق بالأذان لأنه للغائبين ، والحذم بالحاء المهملة الاسراع وهو أليق بالاقامة فانها للحاضرين ، والاسراع بها أن يصل بعضها ببعض .

ويكره تمطيط الأذان والتطريب به . روى أن رجلا قال لابن عمر : انى لأحبك فى الله ، قال : وأنا أبغضك فى الله . انك تبغى فى أذانك . قال حماد : يعنى التطريب ، وقال الأزهرى : البغى أن يكون رفع صوته يحكى كلام الجبابرة والمتكبرين ، وقال غيره : هو التشادق فيه ـ اهـ ـ

والصواب فى الأذان أن يكون صوته بتحزين وترقيق ، ليس فيه جفاء كلام الأعراب ، ولا لين كلام المتماوتين ـ قاله الشاش فى المعتمد .

ويستحب أن يرفع صوته ، لما فى البخارى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، أن أبا سعيد الخدرى قال له : « انى أراك تحب الغنم والبادية ، فاذا كنت فى

غنمك أو باديتك ، فأذنت للصلاة ، فارفع صوتك فى النـــداء ، فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جـن ولا انس ولا شيء الا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رســول الله صــلى الله عليـه وسلم .

ويستحب أن لا يبالغ فى رفـع صوته حتى لا يضر نفسه ، وروى أن عمر سمع أبا محذورة قد رفع صوته فقال له : « أما تخاف أن ينشـق مريطاؤك) . والمريطاء ــ كما قال ابن فارس ــ من الصـــدر الى العانة .

ما شرع له الاذان والاقامة

شرعـا للصلـوات الخمس ولم يشرعا لغيرها بلا خلاف ، وينـادى للعيد والكســوف والخســوف والاستسقاء بعبـــارة (الصـلاة جامعة) وكذا التراويح اذا صليت جماعة ، ولا يستحب ذلك فى صلاة الجنازة على الأصح ، ويرى الامام الغزالى « استجـاب ذلك فيها » والمذهب الأول .

الاذان افضل من الامامة

الراجح أن الأذان أفضل مــن الامامة ، لما رواه مسلم عن معاوية قال : سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » . ولمـا رواه البخارى عن أبى هريرة قال : « لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا الا أن يستهموا عليه لاستهموا » .

أما مواظبة النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء والأئمة على الامامة ولم يؤذنوا ، فمحمول على أنهم كانوا مشغولين بمصالح المسلمين التى تحول بينهم وبيــن مراعاة أوقات الأذان ، وتحـديد أوقات الصـلاة بالاجتهاد بنحــو القراءة وحركات الشمس ، ويؤيد ذلك مارواه البيهقى باسناد صحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قال : لو كنت أطيـق الأذان مع الخلافة لأذنت .

بعض احكام الاذان والاقامة

قيل هما سنة فى الصلوات الخمس فى الحضر والسفــر والجماعـة

والانفراد ، فان تركا صحت الصلاة ، وبه قال الجمهور ، وقيل فرض كفاية فى حق الجماعة حضرا وسفرا ، فى مسجد أو غيره ، وقيل ذلك فى مسجد الجماعة . وليسا شرطا لصحة الصلاة ، وقيل بل هما شرط لصحتها ، وهو رأى ضعيف .

ما يستحب من الدعاء والذكر بعد الأذان

يستحب بعد الأذان أن يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعى له بالوسيلة ، أخرج مسلم بسنده عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علىّ ، فانه من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى الا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة » .

وأخرج مسلم بسنده عن سعد ابن أبى وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال حين يسمع المؤذن أشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا غفر له ذنبه » .

وأخرج البخارى بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

والله تعالى هو الموفق للصواب .

مصطفى محمد الطير

من هدى النبوة

المجتمع الفاضل كما يصوره النبى

صلى الله عليه وسلم

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

— ٢ —

الرسول أولى المنهيات اهتمامه

ونلاحظ أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى حديث المبايعة — قد أولى المنهيات المراد تركها والتخلص منها ، اهتمامه الشريف ، فنص عليها .. فى حين ذكر المأمورات على طريق اجمال ، فى قوله : «ولا تعصوا فى معروف» فعدم العصيان فى المعروف ، هو تنفيذ الأمر بالمعروف الذى عرف حسنه من الشارع الحكيم ..

وذلك لأن التخلى يسبق التحلى ، فالانسان يتنظف ويتطهر أولا ، قبل أن يلبس النظيف من الثياب ويتطيب .

ولهذا قيل: « التخلى عن الرذائل ، قبل التحلى بالفضائل » .

كما أن الترك أيسر من الفعل .. فاذا طلبت من السارق ألا يسرق أموال الناس بالباطل ، كان أيسر عليه الترك ، من مطالبته بأن يحسن الى الناس من ماله الخاص .

ومن هنا ، وجب على الحاكم المسلم الجاد الغيور على دينه وعرضه ووطنه — أن يلبى دعوة رسول الله ، أولا وقبل كل شىء ، فى تطهير المجتمعات الاسلامية ، من جميع المنكرات والموبقات .. وفى طليعتها ما نص عليه رسول الله فى حديث المبايعة .. حتى لا يكون بيننا ملحد أو مشرك .. ولا يكون بيننا سارق .. ولا زان .. و لاقاتل .. ولا كذاب .

فالأصل فى بيئات الاسلام والمسلمين — النظافة ، والطهارة ،

والمـــروءة والانسانية ، والشرف والعفة .. والنظام .

أما هؤلاء الذين يقعون فى هذه المنهيات ، أو يرتكبون شيئا من هذه المنكرات..فهم خارجون على هذا الأصل .. أو دخلاء عليه .. قـد تجردوا من المعـــانى الفاضلة ، وارتدوا ثيـاب الخسـة والنذالة والقـذارة ، والبغى والعـدوان ، والفوضى والطغيان ،وأحدثوا خللا وفزعا واضطرابا وفسادا وافسادا ، فى مجتمع الأمن والطهر والاستقرار والصلاح والاصلاح .

فوجب على الحاكم المسلم ، أن يعيد البيئة الاسلامية الى أصلها ، والى ما كانت عليه قبل اعتــداء المعتدين واجرام المجـرمين وبغى الباغين .. وذلك بأن ينفذ فيهـم حدود الله ، التى بينها فى شرعـه الحكيم.. مهما كانت منزلة المجرم عند الحاكم أو الرئيس الأعلى ، لقرابة أو صــداقة ، أو مكانة فى المجتمع .. لأن حدود الله لاتعرف المحاباة .

فهذا رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، يجيئه « أسامة بن زيد » شفيعا فى المخزومية التى سرقت ، فيغضب منه رسول الله ، ويقول له قولته المشهورة التى تشـــع نورا وضياء ، وعدالةوانصافا ، ومساواة كاملةفى تنفيذ حدود الله : «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ . انما أهلك الذين من قبلكم أنهـم كانـوا اذا سرق فيهـم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وأيم الله ، لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطـع محمد يدها » .

وقد استنكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ..» .

فلماذا نبطىء فى تنفيذ حـدود الله ؟!! كفى ما كان من نهب وسلب وتخريب وتسيب فى مال الأمـة وحقوق الشعب !!

ولمصلحة من هـذا الابطاء فى اقامة الحدود ؟!! وقد طفح الكيل

.. وبلغ السيل الزبى .. وجاوز الحزام الطبيين .. وصار الناس لا يأمنون على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، من قطاع الطرق الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا ، ويختطفون البنات والزوجات ، ويهتكون الأعراض ، ويغتصبون الأموال ، ويقتلون من يدافع عنها جهارا نهارا ؟!..

بل انها تهز المجتمع من أساسه، وتقضى على أمنه وأمانه !!

ان القوانين الوضعية يحيط بها الخطأ من كل جانب ، لأن كل بنى آدم خطاء .. فهى لا تصلح علاجا ولا دواء ، ولا تحقق ردعا ولا زجرا .

انما حدود الله ، هى الرادعة الزاجرة ، لأنها من عند عالم السر والنجوى ، من عند خالق الناس والكون والحياة الذى يعلم الداء ويعرف الدواء يعلم حقيقة الاجرام وكنه المجرمين ، يعلم ما يصلح البشر ، وما لا يصلحهم :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟!.

ولذلك ورد فى الحديث الشريف الذى أقف حياله خاشعا ، محاولا أن أبين بعض ما فيه — قول رسول الله :

« فمن أصاب من ذلك شيئا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له » .

والعقوبة فى الدنيا — اقامة الحد الشرعى .

وعبارة الحديث توحى بأن من أقيم عليه الحد فى الدنيا — يكفر الله ذنبه ويغفره ، فلا يعاقب به مرة أخرى .. وذلك فضل من الله ونعمة والله ذو الفضل العظيم .

ما عدا عقوبة الاشراك بالله ، فلا غفران لها .. بنص كتاب الله :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

انتشار حانات الخمور
ومراقص النساء

ومن عجب أن تنتشر فى بلاد المسلمين حانات الخمور .. ودور

اللهو الفاحش كما فى شارع الهرم. وهى ظاهرة مؤسفة فى كثير من بلاد المسلمين .. ففيها الشراب والنساء واتيان الفاحشة ، ما ظهر منها وما بطن .

ومن هنا وجب على الحاكم المسلم أن يبادر بتحريم شرب الخمر ، كما حرمها الله ، وأن يعاقب شاربها بجلده ثمانين جلدة ، على مشهد من الناس ، ليرتدع الآخرون .. فالخمر أم الخبائث ، كما سماها سيدنا رسول الله ، لأن من شربها سكر واذا سكر هذى ، واذا هذى افترى ، وارتكب ما لا يليق ..

وقد حكى رسول الله ان رجلا من بنى اسرائيل ، استدعته امرأة الى بيتها ، فلما دخل البيت ، حالت بينه وبين الخروج ، الا أن يرتكب جريمة من جرائم ثلاث : أن يشرب الخمر ، أو يقتل غلامها ، أو يزنى بها .. فاختار أن يشرب الخمر ، ظنا منه أنها أهون الثلاثة .. لكنه لما شربها سكر ، فلما سكر قتل الغلام ، وزنى بها !!!

فهى بحق أم الكبائر !! ..

فهل يصح أن نستهين بها ، أو نقصر فى منعها ، ونحن مسلمون نؤمن بحرمتها وخبثها وفسادها وافسادها ؟!!

أما أماكن اللهو الفاحش الداعر ، المسماة « بالكباريهات » فوجودها سبة وعار وفضائح مخزية ، تعير بها ونساء ، وتتهم بأننا غير مسلمين .. وبأننا متغاضون عن الفاحشة .. وترتكب فى أهلينا وأقربائنا !!!.

وكل من يرضى بذلك ، فهو مستهتر لا يغار على أهله ، ولن يشم رائحة الجنة ، كما أشارت بذلك السنة المطهرة .

وما قيمة الرجل اذا لم يكن غيورا ؟!

انه أشبه بالخنازير ، فى خستها وقذارتها ، وانعدام غيرتها .

ومن الخير لنا كمسلمين أن نصحح أوضاعنا ، وأن يبادر حاكمنا المؤمن بالغاء التصريحات التى أعطيت فى عهود الضلال ،

لاقامة وبناء هذه الاماكن الداعرة التى تشيع الدعارة والدياثة بين الناس ، وبخاصة الشباب المجنى عليه ، بحرمانه فى عهود الضلال من تعلم دينه وأداء شعائره ، والعمل بمقتضاه !!.

اعلامنا فاسد

وشىء آخر أطالب به ولاة الأمر، خدمة لضعفاء النفوس ، وحماية لهم من الوقوع فى الآثام ذلك هو اصلاح الاعلام فى بلاد الاسلام ..

فاعلامنا للأسف الشديد ــ اعلام هزيل وبيل ، يهدم ولا يبنى ، ويفسد ولا يصلح .. ان أكثر ما يعرض فى المسارح ، وعلى الشاشة الكبيرة .. والشاشة الصغيرة « السينما والتليفزيون » من التمثيليات والمسرحيات ، والأفلام ــ خليع ماجن مبتذل ، هدام ، لا يربى خلقا ، ولا يبنى نفسا ، ولا يقوم اعوجاجا .. بل هو مثير لأحط الغرائز فى الانسان، ودافع لارتكاب الفواحش والموبقات .. وبخاصة فى أولئك المخمورين ، وأشباه المخمورين ، ممن لا عاصم لهم من عقل ، ولا من دين ، ولا من يقظة ضمير !! .

وعندنا فى بلادنا ، فى مصرنا العزيزة ــ بلد الأزهر الشريف ــ كتاب لهم غرام بالاثارة الجنسية فيما يكتبون ، وعليها يعيشون .. وفى قصصهم التى ينشرونها ، عن رحلاتهم التى يقومون بها ، ويتخيلون وقوع أحداثها ، على الصورة التى تحقق أغراضهم ، ونجاحهم فى ايقاظ الغرائز الحيوانية الدنيا ، فى الانسان المصرى والعربى المظلوم .. فتتضاعف أعداد المتحلين والقارئين لهذا الأدب الخليع الرخيص المسموم !!

ومن المؤسف أن كثيرا من هذا القصص نشر ، وينشر فى الصحف اليومية الكبرى .. وبعض المجلات !! ..

انه من باب الكرامة الاسلامية، فى أمة مسلمة ، يقوم دينها أساسا على معاداة هذه الموبقات ، وعدم اقرار وجودها ، أو التحريض

عليها ـ ألا يكون لهـذه الموبقات ودوافعها ـ وجود رسمى مصرح به من الحكام المسلمين فى ديار الاسلام..ولا يسمح لهؤلاء الرقعاء من الكاتبين ، بأن يكون لهم وجود أو عمل فى هذه الصحف التى تخلى لهم الصفحات ، لنشر الشهـوات واذاعتها بين الناس ، صيانة على الأقل للمراهقين والمراهقات ، من الفتيان والفتيات ، ومن فى حكمهم وعملا على الأقل بمبدأ « اذا بليتم فاستتروا » .

ثم كيف يبيح الرقيب ـ ان كان له وجود ـ نشر هذه السـموم الفتاكة ، والأدواء المهلكة لما تبقى من قيم وأخلاقيات الاسلام ؟ !

ان الـرقيب هـو الله ، الذى يحاسب كل نفس بما كسبت ، وكل أمة بما استحقت .. لكن رحمتـه سبقت غضبه ، وهو من أجل ذلك لا يعجل بالعقوبة ، لكنه يمهـل ولا يهمل..ولما كانت النقمة تعم ، فالخوف من عمـومها وشمولها ، يدفعنى الى التخويف من عواقبها ، وكفى ما نحن فيه !!.. أليس الله يأمرنا فى محكم كتابه فى قوله : « واتقوا فتنـة لا تصيبـن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ونقول أخيرا ، وليس آخرا فى هذا المجال ، للذين يستحبون العمى على الهدى : ان من أراد دعـارة وفجورا ، وانسلاخا عن آدميته ، وتجردا من انسانيتـه ، واشباعا لغرائزه الدنيا .. فليذهب الى غير ديار الاسلام والمسلمين ، ان كان عنده بقية من حياء .. ففيها متسع لأمثاله من الحيوانات الآدمية !!..



ثم جاء فى الحديث الشريف :

« ومن أصاب من ذلك شيئا ، ثم ستره الله ، فهو الى الله ، ان شاء عفا عنه ، وان شاء عاقبه » ..

فاذا ما ضممنا الى هذا القـول الكـريم ، قـولا كـريما آخر ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر :

«كل أمتى معافى الا المجاهرين» استطعنـا أن نفهـم أن الـذين

لا يجاهرون بعصياتهم — فان باب الأمل والرجاء مفتوح أمامهم..فقد يعفو الله عنهم ، ان شاء ، أو يعاقبهم ان شاء ، فالأمر كله لله وحده .. غير انه سبحانه لا يظلم الناس شيئا .. وأنه سبحانه أعدل العادلين وأحكم الحاكمين .. وأنه سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .. وهو جل شأنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .. ولن يخلف الله وعده..واذن فهو أعلم بمن تاب ، ومن لم يتب ، وبمن كان صادقا فى توبته ، ومن كان كاذبا فيها .. فهو يعلم السر وأخفى .. فمن أخلص فى توبته ، شمله الله تعالى بعفوه ورحمته .. وكما ستره فى ارتكاب خطيئته ، بعصيانه سرا ، فهو بفضله جل جلاله ، يقبل توبة الصادق فى توبته فيما بينه وبينه.. فالمهم أن تكون توبة العبد توبة نصوحا ، ليقبلها الله ! ! ..

فقد روى فى السنة المطهرة ، أن موسى عليه السلام ، قام ذات يوم ، ليصلى صلاة الاستسقاء ، فلم ينزل الله المطر .. فناجى موسى ربه قائلا : يا رب .. لقد صلينا ، فلم تغثنا .. ! فقال الرب لموسى : يا موسى ، لقد كان بينكم رجل عاص ، فمره أن يخرج من بينكم. فقال موسى لمن معه : ان بيننا رجلا عاصيا ، فليخرج ، حتى يغيثنا الله.. فلم يخرج أحد .. وأعاد موسى صلاة الاستسقاء ، لكن السماء فى هذه المرة أمطرتهم .. فلما انتهى موسى من صلاته ، رجع لمناجاة ربه فأخبره الله بأن العاصى قد تاب اليه سرا ، كما عصاه سرا .. فقبل الله توبته .. فطلب موسى من ربه أن يدله عليه.. فقال الله : يا موسى ، لقد سترته وهو عاص ، أفأفضحه وقد تاب ؟!!

أما المخطىء المجاهر بعصيانه ، فهو انسان فقد الحياء ، وهو بمجاهرته ، كأنه يتحدى الله ولا يخشاه ، فهو رجل أساء الأدب مع الله .. كما أنه بمجاهرته — يشجع غيره على عصيان الله ، ويحرضه على ارتكاب الخطايا بغير مبالاة ،

فهو شيطان .. وهو مرتكب لأكثر من ذنب .. وهو قمين بحرمانه من عفو الله .. وقد ورد فى حديث المجاهرين بالمعاصى : « وان من المجاهرة أن يعمل الرجل عملا بالليل ثم يصبح ، وقد ستره الله ، فيقول يا فلان عملت البارحة كذا ، وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » .. فهل مثل هذا الذى فقد حياءه ، وبالغ فى عصيانه ، وحارب الله ورسوله ، وجاوز قدره مع الله .. هل مثل هذا يستأهل عفو الله ؟!!

* * *

وجاء فى الحديث الشريف :

« ولا تعصوا فى معروف » ..

والمعروف ـــ كما أشرت اليه من قبل ـــ هو ما عرف حسنه من الشارع الحكيم أمرا ، ونهيا ..

فالواجب علينا جميعا : رؤساء ، ومرءوسين ، حكاما ومحكومين ، قادة ومقودين ـــ أن نلتزم بأوامر الله ، نأتى منها ما استطعنا .

أما النواهى ، فلا نقربها أبدا ، قولا واحدا ..

عملا بالحديث الشريف : « اذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم ، واذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » .

ولأن الترك أيسر من الفعل ، « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، وفى ذلك رحمة من الله لنا ، وتخفيف عنا .. والتخلى مقدم على التحلى .

وفى الامتثال خيرنا ، وعزنا ، وأمننا ، فى دنيانا وآخرتنا .. فقد أخبرنا رسول الله أن من وفى وامتثل ما بايع عليه ومات عليه ، فأجره مدخر له عند الله .. والله سبحانه وتعالى لا يخلف وعده ومثوبته ورحمته . .

هذا ، أما غير المعروف حسنه من الدين ، كالاضافات التى يضيفها المبتدعون ، الى دين الله ، اختراعا ، أو استحسانا ، كما يقولون ـــ فهو افتراء على الله ، واتهام لدينه بالنقص ، وأنه دين فى حاجة لمن يكمل نقصه ، أو يجبر كسره !..

مع أن الله سبحانه وتعالى قد

آكمل دينه ، وأتم نعمته، ورضى لنا الاسلام الذى جاءنا من عنده ــ دينا نتعبد به ، ونسترشد به فى كل ما نأتى وما ندع •• ونسير على هداه ••

فقد كانت آخر آية نزلت من عند الله على رسوله المبعوث رحمة للعالمين ــ هى قوله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » •

فهل بعد اكمال الله الخالق المعبود لدينه ، واتمامه له ، ورضاه عنه ، واختياره لشرعه ــ يكون هذا الدين ، فى حاجة الى مخلوق خطاء من بنى آدم ، ليس نبيا مرسلا ــ لاكماله واتمامه ؟!!•

ان الدين مصدره الله ، ولا مصدر له سواه •• وهو سبحانه الحكيم العليم بما يصلح مخلوقاته من الشر ، اذا ما التزموا فى تعبدهم ، وتعاملهم ، بما جاءهم فى كتاب الله وسنة رسوله •• من غير زيادة عليهما ، أو انقاص منهما ••فالكتاب والسنة لم يتركا فى سبيل الهداية قولا لقائل••وان كل من خالفهما ، أو ادعى نقصانهما أو عدم صلاحيتهما ، فهو الناقص ، وهو الضال المضل الذى لا يريد للناس صلاحا •• لما جاش فى نفسه الأمارة بالسوء !!••

ان أحد فلاسفة الغرب •• ولعله « برنارد شو » يقرر أن صلاح العالم بالاسلام ••ويقول : مخاطبا قومه : « اذا لم تتخذوا الاسلام دينا •• فاتخذوه شريعة ودستورا• ان شريعته لكفيلة بسعادة البشر»•

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

ان الله تعالى يقول :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » •

ويقول : « وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » •

ويقول : وما آتاكم الرسول

فخذوه وما نهاكم عنـه فانتهـوا ، واتقوا الله ان الله شديد العقاب» .

ويقول : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول .. » .

فهو سبحـانه ينفى التفـريط والتقصير فيما شرع ، عن كتـابه الكريم الذى هو متن السنة .. وهو يأمر باتباع سبيله ، والتـزام ما شرع فيه من الدين القـويم .. فصراطه مستقيم .. كما ينهى عن اتباع السبل المخالفة لمنهجه ، عنـد أهل البدع والأهواء .

وهو يوجب الأخذ بالأوامر التى جاءنا بها رسول الله من عند الله . والانتهاء عما نهى عنـه .. والا فالعقاب الشديد والعذاب الأليـم لمن لم يتـق الله فى أوامـره ونواهيه !! .

ثم هو يأمر المختلفين على أمـر أو المتنازعين فى شىء ـ أن يردوه الى الله ورسوله ، أى يعرضوه على ما جاء فى الكتاب والسنة بشأنه ، ففيهما الحـق الواضح ، والبيان الشافى ، والحجة القاطعة المبـددة لظلمات الشك ، والمطفئة لنيـران النزاع والخلاف ، والجامعة لوحدة الأمة الاسلامية ، التى هى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله !!!

لقد أنزل الله على رسوله الكتاب والحكمة .. والحكمة هى السنة .

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قـال : « ... ألا وانى قد أوتيت الكتاب ، ومثله معه .. » .

فليس لأحد أن يقـول : بيننـا وبينكم كتاب الله ، ما وجدنا فيه من شىء اتبعناه !! .

وقد حكى الشافعى (رضى الله عنه) ان اجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة الرسول (صلى الله عليـه وسلم) ، لم يكن له أن يدعهـا لقول أحد ! .

وقد حذرنا الرسول فى حـديث يقول فيه : « .. واياكم ومحدثات الامور ، فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضـلالة فى النار » .

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

ومما جاء فى تعريف البدعة ، انها طريقة فى الدين مخترعة ، ابتدعت على غير مثال سبقها من الشارع .

ويقرر المحققون من العلماء أن الدين ينهى عن الاختراع فيما حدده ورسمه على وجه مخصوص كالعبادات .. فلا يصح لأحد أن يغير فيها شيئا بزيادة او نقص ، أو تبديل هيئة بهيئة أو كيفية بكيفية. « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كما يقررون بأن ما أحدثه عمر رضى الله عنه — فى صلاة التراويح — أو ما أحدثه عثمان رضوان الله عليه فى الأذان يوم الجمعة — انه داخل فى السنة ، وليس من البدعة استنادا الى قول رسول الله « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

وكما يقررون فى اجماع ، بأن الدين لا يمنع من الابتداع ، والاختراع فى أمور الدنيا والافتنان فيها ، أليس الرسول يقول : « انتم أعلم بشئون دنياكم » .

فمن حقنا أن نبتدع ونخترع فى الامور المعيشية ، والاجتماعية ، والعمرانية ، والصناعية . بحيث تلتئم مع أصول الدين ومقاصده . وأن يكون أساس هذا الاختراع درء المفاسد ، وجلب المصالح ، واقامة العدل ، واماطة الظلم ، ورد المظالم الى ذويها . كالمستشفيات، والجامعات ، ودور القضاء ، واقامة المصانع ، وايجاد الطرق المسهلة لرقى الصناعة والتجارة ، ووسائل المواصلات البرية والجوية والبحرية ، وبناء الجيوش وتسليحها بأحدث المعدات .. ومعرفة العلوم والتجارب الموصلة للكشف عن المخبوء من كنوز الكون .. ومعرفة ما يمكن معرفته من أسرار الطبيعة، وأسرار الحياة ، فى ملكوت الله.. واعداد كل ما يقوينا ، ويعلى من شأننا ، ويرفع من أقدارنا فى جميع مناحى الحياة ، لاحقاق الحق وابطال الباطل ، وردع البغاة وقهر

المعتدين ، وارهاب الظالميـــن .. « وأعدوا لهم ما استطعتـــم مـــن قوة ... » .

كل ذلك وأمثاله مطلوب منا ، ويؤجر عليه صاحبه ، ويثاب فاعله .

واذن فالعمل للدين والدنيـــا ، واجب على كل مسلم ومسلمة ، فى حدود مـــا حـــدده الله ورســـوله للمسلمين .. فليس خيرنا من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيرنا من أخذ من هذه وأخذ من هذه ، كما يقول سيدنا رسول الله .. وان اليد العليا خير من اليد السفلى ، واليد العليـــا هى التى تعطى ، واليد السفـــلى هى التى تأخذ .. فالعمل واجب ، والعمـــل عبادة وطاعة ... و فى عهد عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه ــ لم يكن أحد يمد يده لسؤال الناس ، لأنهم كانوا جميعا يعملون ويكسبون رزقا حلالا ، ولا تقعدون عن طلب الرزق انتظارا لما يقدم اليهم مـــن صـــدقة او زكاة .. ان الفقـــراء والمساكين لم يكن لهـــم وجود فى خلافة عمر بن عبد العزيز !!.

أما بعد ، فهل يصح أن يكون فى مجتمعاتنـــا الاســـلامية ، وبين المنتسبين الى الاســـلام ــ من يعيشون على هامش الحياة .. أو من يغيرون فى دين الله .. باســـم البدعة الحسنة ، او تحت ستـــار « التصوف » أو ستار « الذكر والعبادة » ، مع المخالفة الصريحة لنصوص الكتاب والسنة .. ولمـــا كان عليه سلفنا الصالح ، عليهـــم رضـــوان الله .. فى اذكارهم ، وعباداتهم ، وأعمالهم ، ومعاملاتهم .

ان كثيرين منهم لا يذكرون الله ، ولا يتأدبون معه ، ولا يخشون فى ذكرهم له ، ولا يسلكون سبيـــل الذاكرين من المؤمنيـــن .. وانمـــا يذكرون أنفسهم وما يشعرون ..

انهم لا يكادون يفهمون مـــن مدلول الذكـــــر ، الا هذا اللون الضيق الذى يحبسون أنفسهم فيه ، مع المخالفات الكثيرة التى يرتكبونها فى أدائه .

وينسون أن مجـــالس العلم من ألوان الذكر .. ولذلك لا يلقون

لها بالا ، ولا تنال منهم اهتماما .. ويحرمون أنفسهم ، من العلم النافع لهم .

لقد دخل رسول الله ذات يوم المسجد ، فرأى حلقة ذكر ، وحلقة علم .. فقال : أما هؤلاء (وأشار الى حلقة الذكر) ، فيدعون الله. ان شاء أعطاهم ، وان شاء منعهم. وأما هؤلاء (وأشار الى حلقة العلم) فيتذاكرون العلم ويتدارسونه .. وانما بعثت معلما ، وجلس فى حلقة العلم .

ومن هنا نفهم أن حلقة العلم (وهى ذكر وعلم) ـ أفضل من حلقة الذكر وحده .

كما أننا نفهم أن الذاكرين فى حلقتهم لم يكونوا يحدثون صراخا ولاضجيجا ، ولا جلبةولا ضوضاء، وانما كانوا ملتزمين فى دعائهم وذكرهم لأدب القرآن والسنة :

« ادعوا ربكم تضرعا وخفية .. » « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية » .. « لأنكم لا تنادون أصم ولا نائيا ولكنكم تنادون سميعا قريبا » .

والا ، لشوشوا على حلقة العلم ... ولنهاهم الرسول الذى لا يسكت عن قول الحق والخير والهدى والرشاد !! .

كما ينسى هؤلاء ، أن خير ألوان الذكر قراءة القرآن ، والصلاة .

فقد كان رسول الله اذا أراد مناجاة الله فزع الى الصلاة.. واذا أراد أن يناجيه الله تلا كتاب الله .

الى غير ذلك من ألوان الذكر النافع . كذكر التفكر الصامت الذى يستعرض الانسان فيه حياته من يوم ولادته الى يوم موته ، ودخول قبره ، وسؤاله ومحاسبته ، وأنه لا ينفعه ماله ولا أولاده من الله شيئا ، فيتوب الى الله من أعماقه ويستأنف حياة صالحة قبل فوات الأوان .. وكذكره لله ، بقيامه للصلاة فى جوف الليل والناس نيام !! .

انه قد بلغ الأمر بالمخالفين فى حلقات أذكارهم ـ انهم اذا سمعوا اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا يصلون عليه ولا

يحفلون به .. فى حين اذا سمعوا اسم شيخ من أشياخهم يصابون بالارتعاش والتشنج ، أو الانجذاب .. ويطلبون من حضرته الصفح والمغفرة.ويستغيثون به ، ويطلبون المدد منه ، لأنهم يعتقدون خطأ ، أنه يضر وينفع ، ويغيث ويشفع .. مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يخاطبه ربه بقوله :

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

فكيف يملك شيوخهم ما لا يملكه رسول الله ؟ !!

كل ذلك وغيره ، قد أوحى به النبى الشريف فى قول رسول الله فى حديث المبايعة :

« ولا تعصون فى معروف » .

« فيا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم » ..

لا تبطلوها ، بالبدع والأهواء !

ولا تبطلوها ، بمآربكم الفانية فى الحياة الدنيا !

ولا تبطلوها ، بمعصية الله ورسوله !

ولا تبطلوها ، بالشك والنفاق !

ولا تبطلوها ، بالعجب والاستعلاء على الحق .. فان العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب !

ولا تبطلوها بالمن والأذى.. ولا تبطلوها بالرياء والسمعة !

ورحم الله عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيء !

وحسبكم أن تعلموا أخيرا قول رسول الله : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه ، فهو رد » أى مردود مرفوض .

وقوله : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتى » .

وفقنا الله واياكم لما فيه رضاه . انه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الحميد الفضالى

صورة من حكمة الله

النسخ ... والتدرج في الحكم الشرعى

بقلم الأستاذ أحمد حسين

« يا ايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء أحد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا غفورا » .

قضية الناسخ والمنسوخ

تحدثت فى هذا التفسير أكثر من مرة عن قضية الناسخ والمنسوخ وما كان لنا أن نعيد القول بمناسبة هذه الآية التى تساق دائما للتدليل على وجود الناسخ والمنسوخ فى آيات القرآن حيث لا تصلح الآية الا لاثبات التدرج فى التشريع وليس لاثبات معارضة بعض الآيات لبعضها الآخر .

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء : ٨٢) .

القدامى والمحدثون :

ومجمل ما يقال فى قضية الناسخ والمنسوخ أن القدامى كانوا يسلمون في غير تحفظ بوجود الناسخ والمنسوخ حتى جعلوا منه فرعا أساسيا من فروع العلم وحظروا على كل من يتصدى لتفسير القرآن الكريم أن لا يكون محيطا بهذا العلم .

على أن ذلك لم يمنع القدامى من الاختلاف حول ما هو منسوخ وما هو محكم فما من آية قال عنها البعض انها منسوخة الا وقال بعض آخر عنها انها ليست كذلك ولكن وجود الناسخ والمنسوخ ظلت قضية مقررة واتفق على أن المتأخر من

القرآن يلغى المتقـدم واتفق كذلك على ان القرآن ينسـخ السنة ثم جرى الخلاف حـول ما اذا كانت السنـة تنسخ القـرآن وانحصر الخلاف بطبيعة الحال حول مـدى ثبوت السنة الناسخـة فـاذا ثبتت السنة الناسخةفلا جدال انها تنسخ القرآن فالمصدر في كليهما واحـد « وما ينطق عن الهوى » .

والمهم الجدير بالتسجيل والتقرير ان كل هذه الابحـاث كانت تدور من الناحية العامة أى النظـرية أما من الناحية التطبيقية فكما قدمنـا ما من آية قال البعض انها منسوخة الا ووجد من يقول أنها محكمة ثم يعمل على التوفيق بينها وبين الآية التى وصفت بأنهـا ناسخة أمـا المحدثون ابتداء من الشيخ محمد عبده وتلامذته فقد نفوا أن يكون فى القرآن نسخ ، ولما كان القرآن الكريم يتضمن آية صريحة وقاطعة فى حدوث النسخ بمعنى التغييـر والاستبدال : « وما ننسخ مـن آية أو ننسها نأتى بخير منهـا أو مثلها » .

وازاء هذه الصراحة فى النص اضطر الشيخ محمد عبده الى القول بأن « الآية » تعنى فى هذا الموضع « الآية الكونية » ولم نقتنع برأى الشيخ محمد عبـده ولكنا رضينا كل الرضا عن قول المرحوم الدكتور احمد غلوش أن المقصود بالآية هنا هو الكتب السمـاوية من أمثـال التوراة والانجيل فقـد كانت كل دعوى اليهود ضد سيدنا محمد عليه الصلاة والسـلام : ألست تعترف يامحمد انهذه التوراة من عند الله ؟ فيكون الجـواب « نعم » فيسرع اليهود الى القول : فهل من المعقول أن يغير الله كلامه ؟!

فكانت هذه الآية ترد عليهم بأن الله يفعل ذلك تبعا للتطور البشرى وأن الجديد اذا لم يكن أحسن من القديم فهو على أقل تقدير يساويه « نأت بخير منها أو مثلها » ويدعم هذا النظر ويقويه أن الآية وردت فى سياق الجدل مع اليهود ومعلوم أن هذه كانت حجتهم فكان لا مناص من ذكرها وذكر الرد عليها .

أو ننسها :

وذلك كله فضـلا عـن اشتمالة الآية على وصف يستحيل وصـف

آيات القرآن به وهو كلمة «ننسها» وسبب الاستحالة هو وعد الله سبحانه وتعالى بعدم حدوث ذلك ـ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ

ولما خشى رسول الله صلى الله عليه وسلم من امكان حدوث ذلك بمعنى أن ينسى بعض الآيات طمأنه الله سبحانه أن ذلك لن يحدث ـ لا تحرك به لسانك لتعجل به . ان علينا جمعه وقرآنه ـ فنسيان الرسول لبعض آيات القرآن فضلا عن أنه مناف لطبيعة الرسالة (التى تقوم على العصمة) فثمة وعد من الله عز وجل بأن ذلك لن يحدث .

نسيان الكثير من الرسالات

وحيث نرى أنفسنا أمام وعد صريح لسيدنا محمد أن الله سيحفظ كل آياته التى أنزلها عليه نرى عديدا من الرسالات التى أنزلها الله يوما ما قد نسيت تماما ولم يبق لها ذكر أو أثر وقد أشار القرآن الكريم الى أسماء بعض هؤلاء الرسل ولم يشر الى البعض الآخر وبالتالى الى فحوى رسالتهم .

ولذلك كان من رأينا أن آية « ما ننسخ من آية ... » الآية لا علاقة لها بموضوع الناسخ والمنسوخ الذى هو حقيقة مؤكدة فى الشريعة الاسلامية وانما الآية تشير الى الأديان السابقة .

الآية الوحيدة
التى تتصل بالنسخ

فى رأينا أن الآية الوحيدة التى يمكن ان يوصف بها ما يجرى لبعض آيات القرآن هو ما قرره القرآن الكريم نفسه بصدد القضية موضوع البحث .

وهو قوله تعالى فى سورة النحل : « واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا انما أنت مفتر » .

فليس هناك نسخ فى القرآن بمعنى أن تلغى آية حكم آية وانما هناك استبدال مكانى بوضع آية مكان آية على أن تظل الآيتان عاملتان كلما تهيأت الظروف لتحقيق أى منهما .

وفى رأينا أن لا تغنى آية عن تطبيق آية أخرى أبدا وكل ما فى

الأمر أن تقدم عليها فى التطبيق آية أخرى لتبقى الأولى عاملة فى مجالات خاصة كما سوف نرى فى هذه الآية التى نحن بصددها ٠

النسخ فى الاحكام الشرعية وليس لآيات القرآن

ونبادر فنقول أن وجود النسخ فى الأحكام الشرعية مسألة مقررة لا جدال فيها وقد أشار اليها القرآن الكريم اكثر من مرة وهذا هو ما يحدث اللبس عند الكثيرين ناسين ــ أن للشريعة الاسلامية مصدران وهما القرآن والسنة وقد سبقت السنة دائما بأعمال سار عليها المسلمون ردحا من الزمان ثم نزل القرآن الكريم بحكم يغاير أو يعدل بالتشديد أو التخفيف فيبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم باتخاذ الحكم الجديد والغاء ماجرى عليه العمل قبل نزول أمر القرآن الصريح ٠

ولعل أوضح مثال على ذلك تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ٠ فقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى اتجاه بيت المقدس ولم يكن ذلك يسبب له أى ضيق أو حرج ما بقى فى مكة فقد كان يصلى الى حائط الكعبة الجنوبى بحيث تكون قبلته فيما وراء ذلك هو بيت المقدس وظل الحال على هذا المنوال حتى بعد أن هاجر الى المدينة فأصبح يتجه فى صلاته صوب الشمال حيث بيت المقدس واستمر المسلمون يتوجهون فى صلاتهم الى بيت المقدس حتى هبط الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن تكون الكعبة وليست بيت المقدس هى قبلته فى الصلاة فتحولت القبلة من الشمال الى الجنوب وهذا نسخ لحكم (أى الغاء حكم وازالته) واتباع حكم جديد ، ولكنك لن ترى فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو لاتخاذ بيت المقدس قبلة وانما الذى حدث أن نزلت آية قرآنية تبطل ما جرى عليه العمل بالفعل ولكنها لا تناقض آية سابقة أبدا ، كان هذا رأينا من أكثر من عشر سنوات سجلناه فى كتابنا « الاسلام بلغة العصر » واليوم وبعد معايشتنا

للقرآن ونحن نشتغل بتفسيره زادت هذه القضية وضوحا فى تفكيرنا وسنرى كيف تدعم الآية الكريمة التى نحن بصددها هذا النظر .

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون »

هنا ويتنادى القائلون بالنسخ ، أنظروا لقد كان السكر مباحا الا فى الصلاة . ولقد أصبح ذلك منسوخا بتحريم الخمر عندما اعتبرها القرآن « رجسا من عمل الشيطان » وأمر باجتنابها ومن هنا يبطلون العمل بحكم هذه الآية ، ونحن لا نرى هذا الرأى فضلا عن أن نأخذ به ، وعندنا أن محكمة عاملة الى يوم الدين لم تنسخها الآية الأخرى لقد حرم الله الخمر فيما حرم ومع ذلك فما أكثر ما يرتكب المسلمون المؤمنون المحرمات ، ووقوع الانسان فى خطيئة بارتكابه أحد المحرمات فان هذا لا يعنى بحال أن يرتكب المزيد من الخطايا والآثام ، فان يشرب المؤمن الخمر خطيئة ، ولكن أن يقرب الصلاة وهو « مخمور » خطيئة أعظم ، وهكذا يظل تحريم الصلاة على السكران ، قائما الى جوار تحريم الخمر نفسها فيكون المقدم عليه كمن يقدم على ارتكاب جريمة مضاعفة .

يبقى من يقول أن حظر الآية للصلاة فى حالة السكر معناه اباحة السكر فى غير الصلاة . وعندنا ان هذه مجرد تعلات لا تنتهى ومن يريد أن يشرب الخمر فسيظل يجد من أبواب الجدل الشىء الكثير : فحتى آية التحريم القاطعة التى وصفت الخمر بأنها :

- تماثل الانصاب والأزلام .
- أنها رجس من عمل الشيطان .
- الأمر باجتنابها .
- الزجر لعدم الكف عنها .

ومع هذا التحريم المغلظ ، وكون شارب الخمر يحد ، فستجد من يقول لك أن الآية خلت من لفظ « التحريم » ومن هنا قلنا أن من يريد الجدل فباب الجدل مفتوح دائما فالقول بأن النهى عن الصلاة فى حالة السكر هو اباحة للسكر فى غير الصلاة ، هو لون من ألوان

الجدل (المذمـــوم) وتبقى الآية الكريمة فصحيــة ناطقــة الى يوم القيامة تحذر السكارى والمخمورين من الاقتراب من الصلاة .

حتى تعلموا ما تقولون :

ونريد أن نؤكد لأنه حقيقة أن تحريم الخمر قد تدرج فى التشديد والتغليظ على شرب الخمر فبـدأ بايحاء « تتخذون منها سكرا ورزقا حسنا » أى أن الخمر لا تعـد من ضروب الرزق الحسن ولا شك أن المؤمن الصادق قد فهم من هـذا الايماء كراهية الخمـر ولكن نظرا لأن التركيز كان فى بادىء الأمـر على التوحيد وهجر عبادة الأصنام من ناحية ولأن تعاطى الخمر كان قد أصبح فى قريش عادة متأصلة فقد ظل فريق ممن أسلموا يشربون الخمر وراحوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حـكم الاسلام فى الخمر وهنا تدرج معهم الشارع الحكيم فأفصح لهم عمـا فى شربها من اثم كبير .

وكان ذلك كافيا لدى جماعة المؤمنين للكف عن شربها ولكن الآية التى نحن بصددها تكشف عن أن نفرا ظلوا (بحكم العادة القاهرة) يشربون ، فأمرهم القرآن الكريم أن لا يقربوا أماكن الصلاة فضـلا عن الصلاة نفسها وهم سكارى حتى يعلموا ما يقولون .

ولمـا كانت الخمر هى آفة تصيب العقل فما كان لمخمور أن يتأكد انه لن يخلط فى الكلام ويكون معنى ذلك ، هو تحريم الخمر التى تمنع الانسان من الصلاة . ومع ذلك فقد احتاج الامر لاستئصال عادة شرب الخمر الى آية جديدة تجعل شرب الخمر كالميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فهناك تدرج فى التشديد والتغليظ ولكن ليس هناك نسخ فالآيات كلها محكمة يكمل بعضها بعضا ويفسره ولا يلغيه .

اخترنا كلام ابن كثير

وقد قيل فى بعض التفاسيـر القديمة تخليط كثيـر فى أسباب نزول هذه الآية وذكـرت أسماء لبعض أجلاء الصحابة مثل : (على ابن أبى طالب وعبد الرحمن بـن عوف) ولما كنا لا نرتاح لمثل هذه

الأقاويل ومن ناحية أخرى فنحن نقف عند حد المأثور فقد رأينا أن نختار لك ما قاله العلامة ابن كثير فى تفسيره وقد كان شديد الحرص على معرفة الأحاديث النبوية الشريفة ومقارنتها والتحقق منها قال :

« ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة فى حالة السكر الذى لا يدرى معه المصلى ما يقول وعن قربان محالها التى هى المساجد للجنب الا أن يكون مجتازا من باب الى باب من غير مكث وقد كان هذا قبل تحريم (١) الخمر ونزلت آية : « يسألونك عن الخمر والميسر ... » الآية . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاها على عمر فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ؛ فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شاملا » فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلاة حتى نزلت : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » الى قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » فقال عمر : انتهينا .. انتهينا .

ونكتفى بهذا القدر مما جاء فى تفسير ابن كثير الذى مضى بعد ذلك يسرد كل ما ورد فى هذا الباب . ويكفينا أنه استهل بحثه بايراد هذا الحديث عن سيدنا عمر والذى يدل على أن التدرج فى حظر الخمر وتحريمها ليس قائما على الغاء آية . فالآيات كلها يكمل بعضها بعضا بعد أن كانت كل آية متأخرة تزيد ما سبقها شرحا .

وحاول بعض المفسرين أن يقول أن المقصود بالسكر هنا هو سكر النوم ولكن ذلك ليس برأى والاتفاق على أن السكر فى هذه الآية هو سكر الخمر .

يقول ابن كثير : « وقوله تعالى : حتى تعلموا ما تقولون هو أحسن ما يقال فى حد السكران انه الذى لا يدرى ما يقول فان المخمور

---

(١) لم تنقل جملة اعتراضية .

فيه تخليط فى القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها .

ولا جنبا الا عابرى سبيل :

وكما حرم القرآن على السكارى الاقتراب من الصلاة سواء من العبادة أو مكانها « المسجد » فكذلك حرمهما على من كان « جنبا الا عابرى سبيل » وقد قالت كثرة المفسرين أن عابرى سبيل تعنى السفر حيث قال بعض آخر أن المقصود بها ، هو عدم تواجد « الجنب » فى المسجد الا أن يكون عابر سبيل ولا مانع عندنا من العمل بكلا الرأيين أى أن لا يقرب الجنب الصلاة (بمعنى العبادة) حتى يتطهر على الكيفية التى سوف تشير لها الآية ، الا اذا كان مسافرا او الا اذا كان يعبر المسجد (مجرد عبور) .

الجنب :

يقال جنب الرجل وأجنب من الجنابة ،والجنابة مخالطة الرجل المرأة .

وفى كتب الفقه تحديد لما يحكم به على المرء أنه أصبح جنبا ، وهى على كل حال من الكلمات الشائعة التى يعرف الكافة معناها : العامة قبل الخاصة .

حتى تغتسلوا :

هنا ويظهر الفارق العظيم بين نظرة القرآن الى السكر (أى شرب الخمر) الذى هو اثم ومعصية وبين الجنابة التى هى حالة طبيعية تعرض لكل انسان طائعا كان أو عاصيا ،بارا كان أو شقيا فقد حرم على السكران الاقتراب من الصلاة (حتى يعلم ما يقول) وهى مسألة معنوية لا يتيقن منها المؤمن بما يهدىء باله الا أن يبتعد عن شرب الخمر من أساسه أما دون ذلك فمن أدراه أن لا يقع فى المحظور . أما مع الجنابة فليس سوى اجراء مادى بسيط يكفى أن يقوم به المؤمن لكى تنتفى عنه صفة الجنابة ويصبح طاهرا يقرب الصلاة والمصلى معا وهذا الاجراء هو الاغتسال «حتى تغتسلوا » وكما ان لفظ «الجنابة» مشهور وشائع ومعروف للكافة فكذلك « الاغتسال » الذى هو السبيل للتطهر من الجنابة . وفى كتب الفقه (كما فى تفسير القرطبى)

كل ما يتعلق بالاغتسال وكيفيته وحدوده .

القرآن تشريع للبشرية كافة

على أن الذى يعنينا دائما هو ابراز كيف أن القرآن لكريم ليس من صنع بشر ولا هو خاص بمكان وزمان معينين ، بل هو تشريع عام خالد فها هو ذا يأمر المؤمنين كلما أجنبوا أن يغتسلوا ، مع أن القرآن نزل أول ما نزل يخاطب عربا فى صحراء العرب حيث لا يجدون الماء الا بشق النفس ويجدوا منه مايكفى لشربهم وشرب دوابهم فان الاسلام يقوم أول ما يقوم على النظافة والطهارة عن طريق الماء أولا فلا صلاة الا بعد غسل من الجنابة وبعد وضوء قبل أى صلاة وذلك أمر بعيد كل البعد عن البيئة التى نزل فيها القرآن ، فلم يكن فى مكة كلها الا بئر زمزم ليرتوى منه الناس وكذلك الحال فى المدينة بزيادة بئرين أو ثلاثة .أما خارج مكة والمدينة فقد يسير الانسان اياما وأياما لا يجد ماء الا ما يحمله فى « قربته » التى تكفى مع الجهد والمشقة لشربه ومع ذلك فان المتتبع لعبادات الاسلام يرى أغلبها يبدأ بالطهارة التى يؤلف الغسل بالماء عنصرها الاساسى ذلك أن القرآن لم يتأثر بالبيئة المحلية ولم ينزل ليكون دينا للعرب وانما هو لبنى البشر كافة فى كل زمان ومكان .

وان كنتم مرضى او على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم .

ولكن الله لا يكلف بما لا يطيقه الانسان

فالطهارة المادية هى النظافة والنظافة لا تكون بغير الماء ومن هنا جعل القرآن الكريم الماء هو الأصل فى الوضوء وفى الاغتسال، ولكن الله سبحانه وتعالى وهو خالق الانسان ويعرف كل الظروف التى تتصل وتحيط به فهو يعلم أن استعمال الماء قد يؤذيه فى بعض الأحوال وقد يكون منعدما فى أحيانا أخرى ولما كان الله سبحانه

وتعالى لا يكلف الانسان بما لا يطيق (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) فقد أعفاه من استعمال الماء فى أربع أحوال :

المرض : وكفى أن يصف المختص الانسان بأنه مريض يؤذيه استعمال الماء كى يسقط عنه التكليف باستعماله .

السفر : ثم تأتى حالة السفر ويكفى أن يصدق على الانسان وصف المسافر حتى يكون فى حكم الحالة السابقة . أى يسقط عنه التكليف باستعمال الماء وطالما سمعت كثيرا من المتدينين يقولون بحسن نية : ان ذلك ينطبق على السفر فى الزمن القديم حيث كان السفر قطعة من العذاب اما اليوم وقد أصبح السفر مريحا والماء متوفرا حتى فى حالة السفر ، فهم يرون أنفسهم مكلفين باستعمال الماء ولا يدرك هؤلاء المسلمون الطيبون انهم من حيث لا يشعرون يكررون قول من لا يؤمنون بالقرآن ويرون فيه تشريعا قديما وان الدنيا قد تطورت فأصبحت فى حاجة الى تشريع جديد على المؤمن الصادق أن يؤمن بأن الله يعلم هذا الذى يقوله وهو عندما يشرع فهو يشرع لكل زمان ومكان فهو يعرف كل الظروف ، وعلى الانسان أن لا يتصور انه يعلم ما لا يعلمه الله ويجب عليه متى تحقق الوصف الذى يصفه به القرآن من انه مسافر .. الى آخر الأحوال التى عددتها الآية ، واشتراط عدم وجود الماء لا يعنى انعدامه بالكلية بل ان وجود بعض الماء فى القافلة بما يكفى الشرب لا يلزم المسافر باستعمال الماء ، كما أن توفر الماء بأى كمية لا يلزم المريض باستعمال الماء متى قال له المختصون ان استعمال الماء يؤذيه ، وفى كتب الفقه تفصيل ذلك كله وسيجد فيها مختلف الآراء فليأخذ بأى منها .

أو جاء أحد منكم من الغائط :

أى اذا أحدث . والأصل فى كلمة الغائط المنخفض من الأرض والجمع الغيطان والأغواط وبه سميت غوطة دمشق .

وكانت العـرب تستخدم هـذا الصنف من المواضع لقضاء حاجتها تسترا عن اعين النـاس ثم سمى الحـدث الخـارج من الانسان « غائطا » .

وفى هذه الحالة رد على من قالوا بأن التيمم لا يجـوز فى الحضر فالسخط هو عدم وجود الماء اللازم للوضوء .

أو لامستم النساء :

وملامسة النساء كناية عن المباشرة الجنسية وقد رأى البعض أن مجرد اللمس بمعناه الظاهـرى المتعارف عليه ولكننا لا نأخـذ بهذا الرأى فليرجع الى كتب الفقه من يشاء .

فتيمموا صعيدا طيبا :

المعنى اللغوى للكلمة «تيمموا» أى اقصدوا ولكن « التيمم » هو اصطلاح تعبدى اسلامى وهو مسح الوجه واليدين « صعيدا طيبـا » والصعيد هو الأرض المرتفعة ولكن اللفظ هنا يعنى اصطلاحا ما تشرحه كتب الفقه تفصيلا من ضرب الكفين على التراب النظيف أو على الصخر الذى يعلوه غبار أو على كذا وكيت من معادن الارض مما لا نخوض فى شرحه أو تفصيله فالمرجع دائما هو لكتب الفقه وليس من رأينا فى كل الاحوال من يتصـــور أن التيمم لا يكون الا بتلويث الانسان بتراب أو بغيره فالنظافة أصل من أصول الاسلام « النظافة من الايمان » .

وليس التيمم « فى تصورنا » الا عملية رمزية يراد بها تذكيـر المسلم الذى لا يجد الماء الى نقصان أحد التعبديات «الوضوء والغسل» فليس الهـدف من تيمم هـو أن يلوث الانســان نفســه بالتـراب أو بالرماد أو بالطين ... الخ .

وذلك يبين من كلمة « طيبا » وليست الوساخة والقـذارة بالتى يمكن أن تنشأ فعلا عن أن توصف بالطيب ويبيـن كذلك من كيفيـة التيمم .

فامسحوا بوجوهكم وأيديكم :

جاء فى معجم ألفـاظ القـرآن مسح الشىء يمسحه مسحا ، أجرى عليه يده وأزال الأثر الذى عليه ، تقول مسحت اللوح المـكتوب . (انتهى) .

أى أن الأصل فى المسح هو ازالة الأثر لا اضافة أثر .

على أن المعجم يعود فيقول لنا : ويقال مسحت الشىء اذا أمررت يدك عليه لا لتزيل عنه شيئا ، تقول : مسحت رأس اليتيم اظهارا للعطف عليه .

ومن هنا فعلى الرغم من أننا نجعل العبرة فى كل الامور التعبدية والتشريعية على ما يجىء فى كتب الفقه فنحن عند رأينا من أن التيمم عملية رمزية يقصد بها عن طريق امرار الكفين بالوجه واليدين الى أن هناك امرا غائبا (وهو الماء) .

ان الله كان عفوا غفورا :

وتختتم الآية بما يشعر اننا بازاء نقص فى العبادة لعدم استخدام الماء (للأسباب القاهرة) ولكن الله يقبل من عباده البديل الذى أجازه لهم ويعفو ويغفر انه البر الرحيم الذى لا يريد أن يشق على عباده .

احمد حسين

فضيلة القصد فى الكلام

قال عليه الصلاة والسلام : رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

وقال لمعاذ : انت سالم ما سكت ، فاذا تكلمت فعليك أو لك .

وقال على كرم الله وجهه : اللسان معيار اطاشه الجهل ، وارجحه العقل .

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت فانه يكسبك صفو المحبة ، ويؤمنك سوء المغبة ، ويلبسك ثوب الوقار ، ويكفيك مئونة الاعتذار .

المذهب الشيعي في شعر السيد الحميري

الأستاذ السيد حسن قرون

في سنة ١٠٥ هـ ولد الشاعر (السيد الحميري) وهي السنة التي مات فيها (كثير عزة) ليكون امتدادا له في عقيدته ومقالاته في حب آل البيت ، وكان مولده في (نعمان) ، قال ياقوت :« واد قريب من الفرات على أرض الشام » ، وقد انتقل به أبواه الى البصرة حيث نشأ بها ، ولما شب عن الطوق عرف أن الكميت بن زيد الأسدي شاعر بني هاشم والشيعة قد صار الى أمية والأمور لها مصاير ، فأكد في نفسه أنه لن يصير الى أمية مهما تعنتت الأيام وجاءت بما لا تشتهي الأنفس ، وكان من حظه أنه لم يقع تحت طائلة التنكيل من ولاة بني أمية ، لأن الأمور كانت في سبيل التغيير ، والتغيير في صالحه . وقد سئل عن التشيع من أين له ؟ فقال : « غاصت على الرحمة غوصا » والسائل والمسئول كانا ذكيين ، فلم ينحدر السيد الحميري من أبوين شيعيين ، بل كانا خارجيين من فرقة (الاباضية) لذلك كان السؤال وكان الجواب ، ويقتضيني البحث أن أتحدث عن أسرته ، فأما أمه فهي امرأة من الأزد ، والأزد يمانيون سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم تفرقوا في الجزيرة ، فأقاموا في أنحاء متباعدة ، منهم في الشام الغساسنة ، ومنهم في الحجاز الأوس والخزرج ، وفي الجنوب ازد شنوءة ، وأما أبوه فهو محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ، ومحمد هذا لا يعرف التاريخ عنه الا أنه وزوجه كانا اباضيين ، وكان منزلهما بالبصرة في غرفة بني ضبة ، فكان ابنهما السيد يقول طالما سب أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام في هذه الغرفة ، واسم السيد

(اسماعيل) ، وأغلب الظن أنه لقب نفسه بهذا اللقب « السيد » واشتهر به ؛ وزاده وضوحا فكنى نفسه «أبا هاشم » اعلانا لهواه ووجهة نظره ، وقد هم أبواه بقتله لما علما بمذهبه، ولم ينقذه من براثنهما الا (عقبة بن سلم الهنائى) فقد آواه فوهب له منزلا فكان فيه حتى ماتا فورثهما .

واذا كان أبوه محمد هذا ليس ذائع الصيت فان جده (يزيد بن ربيعة) كان ذائع الصيت وربيعة هو مفرغ لقب بمفرغ لأنه راهن أن يفرغ عسا من لبن فشربه حتى فرغه ، فلقب مفرغا ، وكان شعابا سيالة ، صناعته اصلاح الآنية المصدوعة ، وابنه يزيد هو المشهور لموقفه بشعره الناضح من آل زياد ، وقد كتب عنه الدكتور طه حسين فصلا فى كتابه « ألوان » وجعل عنوان مقاله « شاعر الحب والبغض والحرية » ويزيد بن مفرغ الحميرى جد الشاعر له صلة بالدراسة الأزهرية ، فنحن نحفظ قوله فى (عباد بن زياد) حين صحبه الى سجستان فلم يحظ منه بطائل وكان عباد له لحية عظيمة ، فاتخذ منها مجالا لهجائه فقال :

ألا ليت اللحى كانت حشيشا
فنعلفها خيول المسلمينا

نحفظ هذا ونحفظ قوله حين خرج من سجن عباد :

عدس مالعباد عليك امارة
نجوت وهذا تحملين طليق

والشاهد فى (عدس) صوت لزجر الدابة ، (وهذا) بمعنى الذى ، واذا كنا نحفظ هذين البيتين من شعره فان الحسين رضى الله عنه تمثل بشعره حين رفض خلافة يزيد بن معاوية ، فمن أين جاءه التشيع ؟ هل غاص عليه الرحمة غوصا كما يقول ؟ أبواه كانا من الخوارج ، وجده كان شاعرا يمدح معاوية وله حلف فى قريش ونسب فى اليمانية ، يكره بنى زياد ولكنه لا يذكر بنى هاشم، ولم يعرف عنه أنه ذهب اليهم ، أو أشار الى حقهم ؛ وينبغى أن ننظر الى احداث عصره ، وما كان يقال فى ذلك الزمان .

حين ترعرع السيد نظر فرأى حوله أحزابا قائمة ، ولكل حزب شعراؤه ، وأشهر الأحزاب كانت شيعة بنى أمية وشيعة بنى هاشم ، والخوارج ، وبقايا من

أنصار الزبيريين ، وكثر الحديث حول الامامة ، ومن أحق الناس بها، وكان الكميت قد فتح باب الاحتجاج للشيعة بقوله :

فان هى لم تصلح لحى سواهم
فان ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون : لم يورث ولولا تراثه
لقد شركت فيه بجيل وأرحب

فالخلافة لا تصلح لغير قريش لأنها قبيلة صاحب الرسالة ، وعلى هذا فيجب أن يكون الخليفة أقربهم اليه ، وأقربهم هم بنو هاشم وان قالوا : ان الرسول لا يورث فلم يتولاها بنو أمية ، بل يجب أن تشركهم القبائل الأخرى ومنها بجيل وارحب ، ولابد أن السيد أعجب بذلك المنطق ، فولج المجتمعات ودخل (المربد) (١) حيث الأدباء والشعراء وعلماء الأخبار واللغة والأدب واستمع الى ما يقال، وقامت ثورات من العلويين ، ورأى التنكيل بهم ، فعطف على المغلوبين أصحاب الحق فى الرياسة والحكم ، وتنقل بين الكوفة والبصرة فازداد معرفة وازداد تعمقا ، وحن حنين النيب الى التغيير ، وأن يصل الحق الى اصحابه ، ورأى الامامة من حق على وبنيه ، على أن مذهبه هذا لم يمنعه من حب الهاشميين جميعا ، أليسوا من شجرة واحدة ؟ لكن هذه الشجرة لها فروع وأغصان وثمار فأيها يختار ؟ لنترك المذاهب السياسية جانبا ولننظر فى الفرق التى ظهرت فى عهده .

أول فرقة تألفت واهتز عرش أمية من سطوتها هى فرقة الزيدية ، أتباع زيد بن على زين العابدين حفيد الحسين رضى الله عنه ، فقد كان أتباعه يجمعون فى على بن أبى طالب كل الفضائل ، فهو أول من أسلم وهو شجاع وذب عن الاسلام بسيفه ، وهو عالم وهو زاهد ، شاركه بعض الصحابة كل فى واحدة منها لكنه هو الذى جمع الخير منجميع أطرافه ، ولم يشأ أن يخرج على الجماعة حين خلافة أبى بكر رضى الله عنه خوفا على الاسلام ، فالأنصار يطالبون بالخلافة أو على الأقل منهم أمير ومن قريش أمير ، والنفاق فى

(١) المربد فى البصرة يشبه سوق عكاظ فى الجاهلية .

المدينة يتربص بالمسلمين الدوائر ، والجزيرة العربية ارتدت ومنعت الزكاة ، عرف على ذلك فآثر الخمول وهذا يضاف الى فضائله ، ومن هنا قال زيد وأتباعه يجوز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، ومن حججهم أن طالوت كان ملك بنى اسرائيل وفى جيشه نبى هو (داود) عليه السلام ، وهذا المذهب رفضه بعض أتباعه فأنكروا خلافة أبى بكر وعمر فسموا « الرافضة » واتجهوا الى ابن أخى زيد وهو (جعفر بن محمد) فاعترفوا بامامته ، وقالوا الأئمة نص عليهم صاحب الشرع بالتعيين ، كل امام يوصى لمن بعده ، فعلى وصى الرسول ، وأوصى على الى الحسن ، والحسن الى الحسين ثم الى زين العابدين ثم ابنه محمد الباقر ثم جعفر الصادق ، لم يأخذ السيد الحميرى بمذهب الزيدية ولا بمذهب الرافضة ، اتجه الى أن الأئمة على والثلاثة من بنيه : الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وعند محمد بن الحنفية توقف ، وقال : انه لم يمت ، وسيرجع فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، وهو ما ذهب اليه كثير عزة قبله بأعوام ، لكن العباسيين ارتضوا هذا المذهب فى سياقه واتهوا به الى أن محمد بن الحنفية أوصى من بعده الى ابنه أبى هاشم ، ثم أوصى أبو هاشم بعد رجوعه من دمشق وشعر بالموت لسم وضع له فى طريقه من الخليفة أوصى الى محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ومحمد أوصى الى ابنه ابراهيم الامام ، وابراهيم أوصى بها الى أخيه (أبى العباس السفاح) لم ينكر السيد على بنى العباس مقالتهم فحين تغلبوا على بنى أمية ، وتولى الخلافة السفاح كان السيد ممن قد حضر خطبته ، فحين نزل من المنبر أنشده وهو فى بهجة غامرة ، وآمال فساح :

دونكموها يا بنى هاشم
فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها فلا علا كعب من
كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها
لا تعدموا منكم له لابسا
قد ساسها قبلكم ساسة
لم يتركوا رطبا ولا يابسا

لـو خيـر المنبـر فرسـانه
ما اختـار الا منـكم فارسـا

فلسـت من أن تملكوهـا الى
مهبـط عيسى فيـكم آيسـا

فسر أبو العباس ، وقال : أحسنت يا اسماعيل سلنى حوائجك ، وكانت حوائجه طلب الولاية لأحد أحبابه .

قلت : انه توقف عند ابن الحنيفة ، وجعل الأمر اليه حين يرجع ، وكان جعفر الصادق لا يرى رأيه ، والشيعة جعلت من جعفر الصادق مفترق الطرق فى أمر الشيعة بعده ، ولا بأس أن نذكر هذا بايجاز ، فكيف كان ذلك ؟ ذهب المؤرخون ومنهم صاحب الملل والنحل وابن خلدون الى أن جعفراً الصادق أنجب ولدين : اسماعيل ، وموسى الكاظم ومات اسماعيل قبله ، وبقى له موسى ، يقول ابن خلدون : ومن هنا افترقوا فرقتين : فرقة ساقوها الى ولده اسماعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية ، وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الاثنا عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وقولهم بغيبته الى آخر الزمان . فأما الاسماعيلية فقالوا بامامة اسماعيل بالنص عن أبيه جعفر ، وفائدة النص عليه عندهم — وان كان قد مات قبل أبيه — انما هو بقاء الامامة فى عقبه كقصة هارون مع موسى عليهما السلام . قالوا : ثم انتقلت الامامة من اسماعيل الى ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين ، لأن الامام عندهم قد لا تكون له شوكة فيستتر ، ويكون دعاته ظاهرين اقامة للحجة على الخلق ، واذا كانت له شوكة ظهر ، وأظهر دعوته ويسلسلون الأئمة الى محمد الحبيب وهو آخر المستورين ، وبعده ابنه (عبد الله المهدى) الذى أقام دولة الفاطميين فى المغرب ومصر ، ويسمون أيضا (بالباطنية) نسبة الى قولهم بالامام الباطن أى المستور .

فأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم (الامامية) عند المتأخرين منهم فقالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق لوفاة أخيه الأكبر اسماعيل الامام فى حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ، ثم ابنه على الرضا الذى عهد اليه المأمون ومات قبله فلم يتم له أمر ، ثم ابنه محمد

التقى ، ثم ابنه على الهادى ، ثم محمد الحسن العسكرى وهو (المهدى المنتظر) وهو الذى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة .. وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وهذا المذهب يتيح للاتباع أن يقوموا ويظهروا الحق ويحكموا باسم الامام الغائب حتى لا يأثموا بترك اقامة الحجة للخلق والسيد الحميرى لم يشاهد ما تحدث عنه ابن خلدون، ولكنه شاهد وعاصر جعفرا الصادق، وكانت له صلة به ، وتردد عليه .

قالوا : استأذن السيد فى الدخول الى جعفر الصادق فأمر بايصاله وأقعد حرمه خلف ستر ، ودخل فسلم وجلس فاستنشده فأنشده قوله :

امرر على جدث الحسين
وقل لأعظمه الزكيه

يا اعظما لا زلت من
وطفاء ساكبة رويه

واذا مررت بقبره
فأطل بهو قف المطيه

وابك المطهر للمطهر
والمطهرة التقيه

كبكاء معولة أتت
يوما لواحدها المنيه

فبكى جعفر وسالت الدموع على خديه ولحيته ، وارتفع الصراخ والبكاء من داره حتى أمره بالامساك وقد تظن أنه بشعره هذا كان متشيعا له أو متبعا لآثاره ، انه لا يحيد عن مذهبه ، ان مذهبه كما قدمت أن الامامة صارت بعد الحسين الى أخيه محمد بن الحنفية ، وأنه حى منتظر لا يموت ، وهو المهدى المنتظر .

يقول أبو الفرج الأصفهانى فى (الأغانى) روى بعض من لا تصح روايته أنه رجع عن مذهبه ، وأنه لقى جعفر بن محمد ، فقال بامامته، ورجع عن مذهب الكيسانية (أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى) ورووا فى ذلك شعرا منه :

« تجعفرت باسم الله والله أكبر وأيقنت أن الله يعفو ويغفر »قال أبو الفرج : ولم تجد ذلك فى رواية صحيحة ولا قولا محصلا ، وان القصائد التى نقلت لا تناسب فى جزالتها أشعاره التى فيها الكيسانية.

وقد ذهب بعض الرواة الى أن السيد حين نعى الى جعفر الصادق

ترحم عليه ودعا له ، فقال له رجل : يا بن رسول الله تدعو له وهو يشرب الخمر ويؤمن بالرجعة ! فقال : حدثنى أبى عن جدى أن محبى آل محمد لا يموتون الا تائبين وقد تاب ، ورفع مصلى كان تحته فأخرج كتابا من السيد يعرفه أنه قد تاب ويسأله الدعاء له ، وأنا أعتقد حسب دراسة شعره أنه لم يفارق مذهبه ، ولم ينتحل غيره ، فاذا كتب الى جعفر طالبا دعاءه فهو كانشاده الشعر فى رثاء الحسين يبين عن حب وولاء لهذا البيت ، وان كانت عقيدته تتمثل فى قوله والحديث عن ابن الحنفية واسمه محمد وكنيته أبو القاسم :

سمى نبينا لم يبق منهم
سواه فعنده حصل الرجاء

تغيب غيبة من « غير موت »
ولا قتل وسار به القضاء

وبين الوحش يرعى فى رياض
من الآفاق مرتعها خلاء

فحل فما بها بشر سواه
بعقوته له عسل وماء

الى وقت ، ومدة كل وقت
ـ وان طالت عليه ـ لها انقضاء

كأنا بابن (خولة) (٢) عن قريب
ورب العرش يفعل ما يشاء

يهز دوين الشمس سيفا
كلمع البرق أخلصه الجلاء

تشبه وجهه قمرا منيرا
يضىء له ـ اذا طلع السناء

فلا يخفى على أحد بصير
وهل بالشمس ضاحية خفاء ؟

هنالك تعلم الأحزاب أنا
ليوث لاينهنها لقاء

فندرك بالذحول (١) بنى أمى
وفى ذاك الذحول لهم فناء

وأكبر الظن أن هذا الشعر قيل قبل أن تزول دولة بنى أمية ، ويفتك بهم العباسيون فتكا ذريعا ، فقد أدركت الذحول وحل بهم ما تقشعر منه الأبدان ، ولا أراه يرمز به الى المهد القائم فقد هش له وبش ، واستقبله فرحا به ، راضيا عنه آملا فيه البقاء الى مهبط عيسى الا اذا كان يرمى الى مطلق عن المهدى المنتظر ،

(١) خولة أمه وهى من بنى حنيفة واليها ينسب .
(١) المفرد : ذحل وهو الحقد والعداوة ، يقال طلب بذحله اى بثأره

وهو القضاء على الجور ، واحياء العدل ، وبعض الرواة يصمه بأنه يؤمن بالرجعة ، ويعنى الرجعة أن الامام الذى خلى مكانه ، وقضى نحبه يرجع الى حياته الدنيا ، ولهم براهين منها قصة اهل الكهف ، والذى مر على قرية ، وقتيل بنى اسرائيل ، وهى خوارق الانبياء فتطبيقها على غيرهم خروج على معنى المعجزة والغاية منها، ويذكرون له شعرا منه :

اذا ما المرء شاب له قذال
وعلله المواشط بالخضاب

فقد ذهبت بشاشته وأودى
فقم ياصاح نبك على الشباب

الى يوم تشوب الناس فيه
الى دنياهم قبل الحساب

فليس بعائد ما فات منه
الى أحد الى يوم الاياب

أدين بأن ذلك دين حق
وما أنا فى النشور بذى ارتياب

كذاك الله أخبر عن أناس
حيوا من بعد درس فى التراب

والبيت الأخير هو الشاهد عند من يصمه ويدينه ، والذين دونوا تاريخه لا ينسون له تلك النادرة التى تدعو الى الابتسام ، وان كانوا بها يؤيدون ما ذهبوا اليه ، قالوا : كان السيد يدين بالرجعة ، فجاء رجل اليه ، فقال : بلغنى أنك تدين بالرجعة ، فقال : صدق الذى أخبرك ، وهذا دينى . قال : فتعطينى دينارا بمائة دينار الى الرجعة ؟ قال السيد : نعم ، وأكثر من ذلك ان وثقت لى بأنك ترجع انسانا . قال : وأى شىء أرجع ؟ قال : أخشى أن ترجع كلبا أو خنزيرا فيذهب مالى . فأفحمه .

والذى أوشك أن أتيقنه أن السيد الحميرى دفعه حبه لعلى وبنيه الى تلك العقائد التى هتف بها ،و أبانت عن ولائه فجعلته يتمنى رجعة على لأنه يراه مظلوما ، وران على خلده أنه أمر يمكن أن يقع ، ثم تملكه شعوره فغطى على عقله فكانت الرجعة وكان الرجاء فى محمد بن الحنفية بعد الحسين ، وقد بشر بدولة بنى هاشم ، فلما مات أنكر

(٢) جماع مؤخر الراس وجمعه اقذلة ، وقذل .

كثير عزة موته . وتبعه السيد فكثير يقول في ابن الحنفية :

تغيب لا يرى فيهم زمانا
برضوى عنده عسل وماء

وهذا ما قاله السيد بل ينسبون ما قاله كثير اليه ، وقد تجلى حب على منه في شعر كثير يفيض بمشاعر متقدة ، اقرأ معي قوله

انى أدين بما دان الوصي به
وشاركت كفه كفى بصفينا

في سفك ماسفكت منها اذا اختضروا
وابرز الله للقسط الموازينا

تلك الدماء معا يارب في عنقي

ثم اسقنى منها أمين أمينا
آمين من مثلهم من مثل حالهم

في فتية هاجروا لله سارينا
ليسوا يريدون غير الله ربهم

نعم المراد توخاه المريدونا

فأنت تراه لا يقنع بالحب والولاء، ويأبى الا أن يشاركه في الدماء ، يضعها في عنقه ليلقى الله بها يوم الجزاء ، وهو معتقد أنه ناج له ثواب ما نواه ورجاه . ولم يخش العذاب وهو يشارك الوصي ؟ والوصي لا يقترف الكبائر ولا الصغائر ، فمن والاه نظر اليه الله فأعطاه حسن الثواب . وهذا الحب المكين هو الذى دفعه الى جمع أخباره وآثاره، فكان يأتي (الأعمش) فيكتب عنه فضائل على بن أبي طالب ، فخرج من عند أحد أمراء الكوفة ذات يوم ، وقد حمله على فرس ، وخلع عليه خلعة ، فوقف بالكناسة (موضع بالكوفة) ثم قال :

يا معشر الكوفيين ، من جاءنى منكم بفضيلة لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه لم أقل فيها شعرا فله فرسى هذا وما على

فجعلوا يحدثونه وينشدهم حتى أتاه رجل فقال : ان أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه عزم على الركوب ، فلبس ثيابه ، وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ، ثم أهوى الى الآخر ليأخذه ، فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه فسقط منه أسود (ثعبان) فانساب فدخل جحرا ، فلبس على رضى الله عنه الخف ــ ولم يكن قال السيد في ذلك شيئا ــ ففكر هنيهة ثم قال : قد قلت :

ألا يا قوم للعجب العجاب
لخف أبي الحسين وللحباب(١)

أتى خفا له فانساب فيه
لينهش رجله منه بناب

فخر من السماء له عقاب
من العقبان أو شبه العقاب

فطار به فحلق ثم أهوى
به للأرض من دون السحاب

الى جحر له وانساب فيه
بعيد القعر لم يرتج بباب

كريه الوجه أسود ذو بصيص
حديد الناب أزرق ذو لعاب

ودوفع عن أبي حسن على
نقيع سمامه بعد انسياب

والارتجال واضح على هذه الأبيات ، والقصة حدثت للنبى صلى الله عليه وسلم كما رواها ابن عباس ، ولكن الرجل أراد امتحان السيد - كما يخيل الى - ، والسيد ينجح دائما فى المضايق لذكائه وقدرته على افحام مناوئه !

من ذلك أنه سمع محدثا يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان ساجدا ، فركب الحسن والحسين ظهره عليه السلام ، فقال عمر رضى الله عنه : نعم المطى مطيكما : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : نعم الراكبان هما ! فانصرف السيد من فوره فقال :

أتى حسنا والحسين النبى
وقد جلسا حجرة (٢) يلعبان

ففداهما ثم حياهما
وكانا لديه بذاك المكان

فراحا وتحتهما عاتقاه
فنعم المطية والراكبان

وليدان أمهما برة
حصان مطهرة للحصان

وشيخهما ابن أبى طالب
فنعم الوليدان والوالدان

ولو كان من يحب هو نا ما لاكتفى بما سمع ، ولأعفى نفسه من ذكر الوالدين ، فعلى أولا وعلى آخرا ، ومنه مبدأ الأئمة ، وبه تتابعوا بالنص ؛ لأن صاحب الشرع لابد أن يفعل ذلك ؟ لأن الامامة ركن من أركان الدين ، وليست تترك للأمة

(١) الحباب = الثعبان .

(٢) ناحية .

أو الشعب ليكون الانتخاب والاختيار ، فلابد من التنويه فى كل شعر بهذه القضية ، وكانت الحواضر الاسلامية على اختلاف مناهجها تسمع له ، ولا تتنكر لما يقول ، وكان المتزمتون يرفضون رواية شعره ، لكن خلفاء بنى العباس ممن عاصرهم بدءاً بالسفاح الى الرشيد كانوا يعاملونه على أنه شاعرهم والمشيد بفضلهم ، ولم يتعرض للوقيعة بينه وبينهم الا مرة واحدة ، كانت من القاضى (سوار ابن عبد الله العنبرى) ولم أتبين الدافع لسوار ، أهو الاخلاص لبنى العباس أم بغضه لمذهب الشاعر ؟ جلس المنصور بالجسر الأكبر حين عقد له على دجلة البصرة وسوار بن عبد الله قاضى البصرة جالس عنده والسيد الحميرى بين يديه ينشده شعرا منه : ان الا له الذى لا شىء يشبهه

أعطاكم الملك للدنيا وللدين

والمنصور يضحك مسرورا بما ينشده ، فحانت منه التفاتة فرأى وجه سوار يتربد غيظا ، ويسود حنقا ، ويدلك احدى يديه بالأخرى ، فقال له المنصور : مالك أرابك شىء ؟ فقال : نعم ، هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس فى قلبه ، والله يا أمير المؤمنين ما صدقك عما فى نفسه ، ان الذين يواليهم غيركم . فقال له المنصور : مهلا ، هذاشاعرنا ولينا ، وما أعرف عنه الا الصدق والمحبة والاخلاص فى الطاعة ،وهذه التهمة خليقة أن ترمى بالسيد الى التهلكة ، لأن المنصور لا يتغاضى أبدا عن ملكه ، ولذا فزع السيد اليه قائلا : يا أمير المؤمنين ما زلت والله مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم ، ولكن هذا وأهلوه أعداء الله ورسوله قديما والذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات (يعنى وفد بنى تميم وبنو العنبر منهم) فنزل فيهم القرآن « ان أكثرهم لا يعقلون » وانفض المجلس ولم تنفض العداوة ، وعداوة الشعراء بئس المقتنى كما يقول المتنبى ، فهجا السيد القاضى ، وبدأ بقصيدة ذكر فيها عيوب القاضى وأجداده فرماه بكل منكر ورمى جده بأنه سرق عنزة النبى وهى

عصاه التى توضع فى مصلاه ، وكرر قصة النداء من وراء الحجرات وولاءهم لعثمان من تلك القصيدة قوله :

يا أمين الله يا منصو
ري يا خير الولاة
ان سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعثلى (١) جملى
لكم غير مواتى
جده سارق عنز
فجرة من فجرات
لرسول الله والقا
ذفه بالمنكرات
وابن من كان ينادى
من وراء الحجرات
فاكفينيه لا كفاه الله
شر الفاقرات (٢)

فشكاه سوار الى المنصور ، فلم يغضب على الشاعر ، ولم يهمل القاضى ، فأمر الشاعر أن يعتذر الى القاضى ، ولكنه رفض عذره ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لكن السيد الحميرى عد رفض عذره اهانة له ، فوجه اليه هجاءه

أتيت دعى بنى العنبر
أروم اعتذارا فلم يعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها
مع القوم فى فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى
الى رجل من بنى العنبر ؟
أبوك ابن سارق عنز النبى
وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو
ن لأهل الضلالة والمنكر

وجزاه القاضى اساءة باساءة ، فرد شهادته فى مجلس القضاء ، فأرسل اليه السيد شعرا فيه هجاء ، وعرف السيد أنه بصدد الشكوى فأسرع الى المنصور فسبق خصمه وأخذ ينشد المنصور شعرا منه :

قل للامام الذى تنجى بطاعته
يوم القيامة بحبوحة النار
لاتستعينن ــ جزاك الله صالحة

---

(١) نعثلى : نسبة الى نعثل رجل طويل اللحية كان يشبه به عثمان اذ انيل منه :
وجملى : نسبة الى واقعة الجمل (٢) المصائب . (٣) لم يقبل العذر .

يا خير من دب في حكم بسوار

ودخل سوار ، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر اياس ابن معاوية حين قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود فما أحوجك الى التعرض الى السيد ولسانه ؟ ثم أمر السيد بمصالحته ، ولقد صدق الشاعر باختياره وصف القرآن لمثل القاضي « ان أكثرهم لا يعقلون » وأين سوار من اياس الذي يضرب بذكائه المثل ؟

ولم يحدث للشاعر بعد هذا موقف يخافه ، وبقي على مذهبه في التنويه بأئمته ، ويشارك الناس في حياتهم، ولا ينكر عليهم اتجاهاتهم

والسيد الحميري شاعر من قمة رأسه الى أخمص قدمه ، ولو تفرغ لأجناس أدبية غير ما كان يلهج به لأتى بالعجب العجاب ولترك لنا فنا خصبا تتمتع به ، ولا غرو في ذلك فهو ينزع الى عرق شاعر له أصالة واجادة ، وهو جده يزيد بن مفرغ وفيه منه التمسك بالرأي ، والبعد عن التلون ، فاذا أحب أحب الى غير نهاية ، واذا أبغض أبغض الى مالا نهاية ولو كلفه العذاب ومرارة السجن والاعنات ، وهكذا كان حفيده السيد ، فهو قد أحب بني هاشم ، ورأى في علي كل الفضائل والشمائل ، وآمن بامامته وتوقفه عند ابنه محمد بن الحنفية ، فقال فيه ما جعله موضع المؤاخذة من معاصريه ، وكاد يجمع نقاد عصره على فحولته في الشعر وتفوقه فيه ، يقول صاحب الأغاني : وكان شاعرا مطبوعا مكثرا ، ويقال : ان أكثر الناس شعرا في الجاهلية والاسلام بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد : فانه لا يعلم أن أحدا قدر على جمع شعر واحد منهم حتى يستوعبه كله ، وانما مات شعره وهجر الناس ذكره لافراطه في سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض أزواجه . وقد اعترف الأصمعي بعلو مقامه في فنه ، فقد حكى النهدي قال : رأى معي الأصمعي دفترا فيه شعر السيد الحميري فقال : ما هذا ؟ فسترته عنه لعلمي بما عنده ، فأقسم على أن اخبره فأخبرته ، فقال : أنشدني قصيدة منه ، فأنشدته قصيدة ثم أخرى وهو يستزيدني ثم قال : ما أسلكه

لطريق الفحول لولا مذهبه ولولا ما فى شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ، وحكى أن العتبى قال يوما ليس فى عصرنا هذا أحسن مذهبا فى شعره ولا أنقى ألفاظا من السيد ، وشهادة العتبى لها قيمتها ، لأنه رجل من بنى أمية والسيد من الثائرين على بنى أمية ، والمشهر بفساد حكمهم ، ومن الغريب أن القصيدة التى أعجبته وقال عنها أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذى يهجم على القلوب بلا حجاب تنتهى بهذين البيتين :

أقسم بالله وآلائه
والمرء عما قال مسئول

ان على بن أبى طالب
على التقى والبر مجبول

مما يعطى انطباعا بالنظرة الموضوعية لنقد الشعر بميزان الذوق والمعرفة ، ولو استمع الى الشعر من قائله لازداد اعجابا وعليه اقبالا ، فقد ذكروا أن السيد كان أسمر تام القامة ، أشنب ، ذا وفرة ، حسن الألفاظ ، جميل الخطاب ، اذا تحدث فى مجلس قوم أعطى كل رجل فى المجلس نصيبه من حديثه ، واذا كان السيد شغل بمذهبه ، والحديث عنه ، والدعوة له لم يترك نصيبه من الغزل والقول فيه واحسان قوافيه ، وقد غنى من شعره هذه الأبيات :

ما جرت خطرة على القلب منى
فيك الا استترت عن أصحابى

من دموع تجرى فان كنت وحدى
خاليا أسعدت دموعى انتحابى

ان حبى اياك قد سل جسمى
ورمانى بالشيب قبل الشباب

ارحمى اليوم هائما بك صبا
هائم القلب قد ثوى فى التراب

وهو شعر قد قيل مثله من العشاق ولكنه يحوى ملامح السيد من وضوح وانسياب وتمكن من الأداء ، وطابعه النفسى من المروءة التى ترتفع بصاحبها عن افشاء سر الهوى مهما لاقى من الوجد ، وكفاه أنه شاب قبل الشباب ، وأنه قد ثوى فى التراب .

على أن من أهم ما يميز السيد أنه شاعر ملتزم وظف شعره لغاية ، فلم يك كمعاصريه من الشعراء من أمثال بشار وأبى العتاهية وأبى

نواس أساس الأمر عندهم هو المدح ونيل الجوائز ، ثم التهاجى واللعب بعقول الناس ولذلك تجدهم يصفونه بأنه من أهل التصوف مع أن التصوف كان فى بواكيره الأولى على يد الفضيل بن عياض ومريديه، وأكبر الظن أن تصوفه كان فى عفته واعتزازه بنفسه ، وبعده عن مجتمع الخلاعة والمجون ، هل لما ذهب اليه السيد أثر فى الفرق التى ظهرت بعد وفاته ؟ لم يسأل أحد هذا السؤال، ولكنه خطر ببالى وأنا أقرأ مذهب الامامية ، فالسيد توقف عند ابن الحنفية ، وجعله « المهدى المنتظر » وكذلك الامامية ، وهم الاثنا عشرية توقفوا عند الامام الثانى عشر وهو المهدى المنتظر ، فهذه العقيدة جاءت اليهم من نظرتهم الى المهدى المنتظر، وفيه أحاديث مروية يداخلنى الشك فيها ، فلم أجد تواترا يؤيدها ، فالامام الثانى عشر هو (محمد الحسن العسكرى) اختفى فى سرداب وقد كان أتباعه فى العصور البعيدة ينتظرون خروجه ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا ، هذه العقيدة ملامحها وأهدافها شبيهة بما قاله السيد الحميرى بيد أن الامامية حسب التطور أوضح مسلكا ، وأكثر نفعا ، فالامام غائب فمن يحل محله لاقامة الحجة حتى يظهر ؟ الجواب هم الاتباع ، ومن ثم بقيت الدعوة وبقى المذهب . فاذا انتصر الأتباع حكموا باسم الامام الغائب وهذا يحصنهم من دعوة علوى يطالبهم بامامته ، لأنهم بصدد انتظار الامام الغائب ، وليس له أن يغير ما سلكوه وساروا عليه ، وتسأل نفسك اليوم وقد ظهرت الشيعة فى ايران وغلبت وأقامت حكومة فلم لا ينصبون علويا عليهم ؟ والجواب ما ذكرت آنفا .

لم يوص السيد الحميرى حين وفاته أحدا بمذهبه كما أوصى كثير عزة ، فعندما احتضر دعا ابنة أخ له فقال : يابنة أخى ، ان عمك كان يحب هذا الرجل فأحبيه يعنى على بن أبى طالب ـ فقالت : نصيحتك ياعم مردودة عليك ، أحبه والله خلاف الحب الذى أحببته أنت ، فقال لها برئت منك وأنشد :

برئت الى الاله من ابن أروى
ومن قول الخوارج أجمعينا

ومن عمر برئت ومن عتيق
غداة دعى أمير المؤمنينا

وابنة أخيه أسلم عقيدة منه ، فهى لا تبرأ من ابن أروى عثمان بن عفان ولا من عمر ولا من أبى بكر الصديق وهو عتيق . وانما حكوا عن السيد لما حضرته الوفاة الخبر التالى :

قال بشار بن عمار وهو من رواة الأخبار : حضرت وفاة السيد فى الرميلة ببغداد ، فوجه رسولا الى صف الخرازين الكوفيين ، يعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول فذهب الى صف السنوسيين ، فشتموه ولعنوه ، فعلم أنه غلط : فعاد الى الكوفيين ، فوافاه سبعون رجلا معهم سبعون كفنا ، قال : وحضرناه جميعا ، وانه ليتحسر تحسرا شديدا ، وان وجهه لأسود وما يتكلم الى أن أفاق افاقة ، وفتح عينيه ، ونظر الى ناحية القبلة وقال : يا أمير المؤمنين ــ على بن أبى طالب ــ أتفعل هذا بوليك ؟ قالها ثلاث مرات ، مرة بعد أخري ، فتجلى والله فى وجهه عرق بياض ، فما زال يتسع ويلبس وجهه حتى صار كله كالبدر ، وتوفى ، وقمنا فأخذنا فى جهازه ، فدفناه فى الجنينة ببغداد ، وذلك فى خلافة الرشيد .

والذى يعنينى من هذا الخبر مكانة السيد فى قلوب الناس ، واهتمامهم بمرضه ووفاته وتكفينه ودفنه . أما الكرامة وما حدث له من سواد ثم بياض فذلك عهدة الراوي ، ويكفى أن السيد لم يفعل فعل كثير عزة فيوصى بما يسوءه ويحسب عليه ، وكفاه ما عاناه وما قاساه فى سبيل ما ذهب اليه وكلفه من أمره عسرا ، والله رحيم بعباده .

السيد حسن قرون

رحلة مع كتاب "الرسول" صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الكاتب الإسلامي الشيخ سعيد حوى

أعدها الأستاذ عبد الحفيظ فرغلي القرني

— ١ —

مقدمة

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال رضيت بالله تعالى — ربا وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم — رسولا وجبت له الجنة » أخرجه أبو داود .

ومن الخير أن أصدر رحلتى مع هذا الكتاب — الثاني في سلسلة أعدها الكاتب السورى العظيم الشيخ سعيد حوى تتناول أربعة موضوعات مهمة في الاسلام . هى : الله — الرسول — الاسلام — حبذا لله ثقافة واسلاما . بهذا الحديث الشريف الذى اختتم المؤلف به بحثه عن الرسول صلى الله عليه وسلم . ولعلنا في هذه الأيام المباركة التى نستقبل فيها نسمات رمضان المبارك نسهم بهذه الرحلة في احياء هذا الشهر العظيم ، الذى نرجو من الله أن يبعث من شذاه في المسلمين روحا من روح النبي — عليه أفضل الصلاة والسلام — فيعيدوا سنته ويحيوا رسالته ، ويقيموا شريعته ويحققوا قولته : « الخير في وفي أمتى الى يوم القيامة » .

ولننطلق معا في رحلتنا مع هذا السفر الجليل الذى يذكر المسلمين بنبيهم الكريم « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

لقد تناول الكاتب في مقدمته الانسان الذى ميزه الله عن بقية المخلوقات في خلقته وعلمه وارادته وتصرفاته وامكاناته ومكانته وبيانه وعقله وادراكه وخياله وتصوره

واستعداده الأخلاقى ، وبناء على ذلك فقد أصبح هو المسئول الوحيد أمام الله من بين هذه المخلوقات جميعا ، وهو الخليفة ،

والاستخلاف يعنى :

أن المستخلف فى الملك ليس مالكا أصيلا ، وأن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا أمره هو ،

وألا يشق عصا الطاعة ويتعدى الحدود المقررة له ، وأن يفعل ما يريده المستخلف لا ما يريده هو .

وهذا يعنى : أن الانسان ليس حرا بل هو عبد الله ، فسيادته على الكون فى مقابل عبوديته لله ، والا أصبح فى حكم الجماد أو الحيوان .

ولا يقوم الانسان بأمر الله الا اذا عرفه حق معرفته ولا يتم ذلك الا بمعرفة الرسول الذى يصطفيه .

ذلك أن الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، والرسل يمثلون ذروة الكمال البشرى لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ، ويقومون بأضخم مهمة فى الوجود وهى مهمة ارشاد الانسان الى طريقه الصحيح . ولكن كيف يتسنى لنا نحن البشر معرفة الرسل حتى نهتدى وننجو ؟

لقد وضع الله علامات يعرفون بها .. تظهر فيما يلى :

— فى صفاتهم الشخصية التى هى خلاصة الأخلاق العالية .

— فى معجزاتهم التى هى علامة على رسالتهم .

— فى النبوءات التى يتنبأون بها ويصدقها المستقبل .

— فى الثمرات التى تدل على انسجام دعوة النبى مع قواعد الفطرة .

— فى البشارات التى يقوم بها الأنبياء السابقون للأنبياء اللاحقين .

وهذه العلامات الخمس .. هى موضوع هذا الكتاب الذى يعتبر مقدمة للكتاب الثالث فى السلسلة التى أشرت اليها آنفا ، والذى أرجو أن أوفق فى عرضه فى بحث آخر .. ان شاء الله تعالى .

الصفات المثلى فى الرسول صلى الله عليه وسلم :

لقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم الغاية فى كمال الصفات الحسية والمعنوية ، وقد تواترت الأخبار على جماله وحسن مرآه ، فمن ذلك ما روى عن جابر بن سمرة قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى ليلة أضحيان ، فجعلت أنظر اليه والى القمر ، فلهو كان أحسن فى عينى من القمر . وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر أيضا : مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم خدى فوجدت ليده بردا وريحانا كأنما أخرجهما من جونة عطار ،

وأخرج الشيخان عن أنس : ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ، ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبى..وخلاصة ذلك ما قاله عبد الله ابن رواحة :

لو لم تكن فيه آيات مبينة

لكان منظره ينبيك بالخبر

على أن هناك صفات أساسية أجمع عليها علماء الكلام لتكون متوفرة فى الرسول .. هذه الصفات هى :

الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة :

فمن حيث الصدق فقد شهد على صدق النبى صلى الله عليه وسلم خصومه قبل أتباعه ،كما شهد على ذلك الواقع الذى تمثل فى أخباره ووعوده وعهوده ونبوءاته ، كما تمثل أيضا فى مداعباته .

أما شهادة الخصوم له فيقصها لنا التاريخ فى رواياته الكثيرة ، ونستشهد على ذلك بهذه الرواية : أخرج البيهقى عن المغيرة بن شعبة قال : ان أول يوم عرفت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى أمشى وأبو جهل فى بعض أزقة مكة اذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى جهل : يا أبا الحكم هلم الى الله ورسوله أدعوك الى الله ، فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت

منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد الا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت ، فوالله لو أنى أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على فقال : والله انى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شىء ، ان بنى قصى قالوا : فينا السقاية ، قلنا : نعم ، قالوا : فينا الحجابة ، علنا : نعم ، قالوا : فينا اللواء ، قلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا حتى اذا تحاكت الركب ، قالوا : منا نبى .. والله لا أفعل .

وأخرج الترمذى عن على ، أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم : انا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله تعالى : « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »

والذى يؤيد هذه الشهادة له من قبل خصومه اقبال هؤلاء الخصوم على الايمان به بعد محاربتهم اياه ، من أمثال خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ومن قبلهما عمر بن الخطاب وغيرهم .

بل لم يكتف هؤلاء وغيرهم بمجرد الايمان ، بل أخلصوا له أصدق الاخلاص .

أما شهادة أتباعه على صدقه فلم تكن على صدقها الا نتيجة تجربة كاملة جعلتهم يؤمنون به ويشهدون له ، وكلما ازداد اختلاطهم به ازداد تصديقهم له واذعانهم لرسالته وتفانيهم فى حبه وايثارهم له على كل شىء ، يشهد لذلك ما لاقوه من أذى فى سبيل هذه الدعوة التى جاءهم بها وتحملهم هذا الأذى الشديد ، وعدم تضعضع ايمانهم ازاءه ، وتسابقهم فى الاستشهاد تحت لوائه .

أما شهادة الواقع فهى أعلى الشهادات لأنه لا يسع الانسان أمامها الا التصديق والايمان وقد دلت الأحداث التاريخية التالية على مطابقتها لما أخبر به .

لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم صادقا فى كل ما يتحدث به حتى فى مداعباته ، جاء رجل اليه يستحمله فقال له : انا حاملوك على ولد ناقة ، فقال : يا رسول الله ،

ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تلد الابل الا النوق ؟

وجاءته عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال : يا أم فلان ان الجنة لاتدخلها عجوز ، فولت تبكى ، فقال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، ان الله تعالى يقول : « انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكارا » .

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قالوا يا رسول الله انك تداعبنا ، قال : انى لا أقول الا حقا .

انها نبوة وما كان للنبوة أن يكون للباطل عندها أو معها نصيب واذا كانت مداعباته صادقة فأولى به أن يكون صادقا كل الصدق فى كل موضع .

فمن أمثلة صدقه فى عهوده ووعوده أن عبد الله بن ابى الخنساء يقول ـ فيما أخرجه أبو داود ـ : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك ، فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال : يافتى لقد شققت على أنا هنا منذ ثلاث انتظرك ، والامثلة على ذلك كثيرة وبخاصة فيما يتصل بحروبه وعهوده مع اعدائه فيها ، وهم يشهدون بذلك

روى البخارى أن هرقل سأل أبا سفيان عن محمد هل يغدر ؟ أجابه أبو سفيان : لا ، فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر ؟ فزعمت أنه لا يغدر ، كذلك الرسل لا تغدر .

ولقد صدقت العلوم العصرية ما حدث به النبى صلى الله عليه وسلم من نبوءات وأحاديث ، فمن ذلك قوله لفاطمة بنت أبى حبيش حين سألته عن دم الاستحاضة الذى لا يكاد ينقطع ، فهل تترك الصلاة من أجله ؟ فأجابها : لا ان ذلك دم عرق ، ولكن دعى الصلاة قدر الأيام التى كنت تحيضين فيها ثم اغتسلى وصلى .

فقد صدق العلماء المختصون المعاصرون هذا القول حين قرروا

أن الدم الوحيد الذى يخرج من الرحم هو دم الحيض والنفاس ، أما الدم الآخر الذى يكون فى غير هذا فمرجعه الى نزيف يحدث فى بعض الأغشية مما لا علاقة له بالرحم .

وحين سأله طارق الجعفى عن الخمر للدواء ، قال : انه ليس بدواء ولكنه داء . فقد قرر الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جدا فهى ضارة بالخميرات فى طول القناة الهضمية ، وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيرا طبيعيا ، والخمر لها تأثير فى الوراثة فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحى الجسم ضعفاء البنية ناقصى العقول ويكون لديهم ميل الى الاجرام ودافع الى الشر ، وأن من يبحث كتب الطب يتولاه العجب عند من يقرأ مسببات الأمراض المختلفة اذ يجد للخمر نصيب الأسد فى ذلك .

والامثلة على ذلك كثيرة ، فما من كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وكان الحق والصدق ملأها .

وكلام الرسول ينقسم الى قسمين : ما له علاقة بالغيب وما له علاقة بالمشهود والمحسوس .

فالنوع الثانى فقط هو الذى يستطيع الانسان أن يختبره فاذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول ، ولكن لابد من ملاحظات :

١ — أن معرفة صحة الحديث وتأكد ثبوته عن رسول الله ينبغى أن يسبق دراسة المضمون لأن كثيرا من الكلام دس عليه ، حتى يكون تحليل المضمون قائما على أساس سليم ، ولابد أن يتوفر ذلك فى كل دراسة لها علاقة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — ان بعض الألفاظ فى اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية الى مدلولات شرعية فصارت تطلق على كلا المدلولين ، وقد تستعمل فى القرآن والحديث تارة بالاستعمال الأول وتارة بالاستعمال

الثانى ، فلا بد من التأكد أولا من نوعية استعمال اللفظ فى النص الذى يدرسه ، فكلمة السماء قد تطلق على كل ما علا وقد تطلق على سكن الملائكة ،وقد أخطأ كثيرون فى فهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم ، فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهى ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هى من باب الحقائق ، وهم فى كلا الحالين متوهمون وجعلوا توهمهم من الاسلام فحملوا الاسلام ما ليس فيه جهلا .

٣ — ان بعض الامور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل منهايكون سببا من عدة أسباب مؤثرة ، فلو ذكر انسان سببا واحدا فقط لا يعنى أن ينفى الأسباب الأخرى .

٤ — ما يحدث من اخبار بعض الناس من انكشاف الغيبيات ممكن ، فقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى امكان حدوث ذلك ، ولكن لا يقبل ذلك الا بضوابط ومن قوم مشهود لهم بالصلاح ملتزمين بالشرع وان يكون ما يخبرون به متفقا مع ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه القضية التى يتحدثون عنها .

٥ — هناك ظواهر غيبية أخذت محلها الآن فى معرض الحقائق وكل منها يدعم قضية الايمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، ذلك مثل ظاهرة الأحلام والتنويم المغناطيسى وتحضير الأرواح والاتصال بعالم الجن وظاهرة التلباثى ، وهذه الظواهر لا تصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة ولكنها تؤكد أن الرسول هو الطريق الوحيد المأمون لمعرفة عالم الغيب .

٦ — مراعاة أن الله هو الذى أمرنا بتصديق رسوله واتباعه .

امانة الرسول صلى الله عليه وسلم

أما الأمانة فقد شهدت البشرية فى تاريخها الطويل انفصالا بين المثل والواقع ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كانت حياته يظهر فيها التطابق الكامل بين قوله وفعله ، لقد كان هنا التزام تام فى تطبيق

ما يدعو اليه ــ يقول الجلندى ملك عمان مجيبا عن دعـــوة النبى له للاسلام : والله لقد دلنى على هذا النبى الأمى انه لا يأمر بخير الا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر الا كان أول تارك له ، وأنه يغلب فلا يبطر ويغلب فلا يضجر ويفى بالعهد وينجز الموعود ، وأشهـــد أنه نبى .

وقد بلغ منتهى الكمال فى صفاته وأخلاقه باجماع الـــرواة وتواتر الأخبار ، ويكفى ذلك ما قاله الله عن رحمته : « وما أرســلناك الا رحمة للعالمين » وقد وسعت رحمته الناس جميعــا حتى قال الله له : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهــذا الحـــديث أسفا » .

وكانت حياته الحـــربية تنفيــذا لقوله تعالى : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهـــم » وكان أمينا فى تطبيق حدود الله لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وغضب حين كلمه اسامة فى اسقاط الحد عن امرأة سرقت ، وخلاصة أوصافه صلى الله عليه وسلم هو ما قالتــه السيدة عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن » .

صفة التبليغ

لقد سلك رسول الله كل طــريق سليم فى تبليغ دعوته على الوجــه الأكمل ، وسلك الناس فى المقابل كل طريق يخطر على البال ليثنــوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل .

هناك فرق بين الرسل وغيرهم من أصحاب المذاهب والمبادىء ، فغير الرسل يدعون الناس الى شىء تألفه نفوسهم وهذا لا يحتاج الى تضحية ، وأحيانا يضحون ولكن فى انتظار كسب مادى يشــوق تضــحيتهم ، ودائما يلاحظون الســلامة الا اذا أتاهم ما لم يكن فى الحسبان ، والحياة عزيزة عليهـــم فما أسهــل ما ينسون دعوتهم اذا يئسوا مــن الكسب او النصر ، ولا نعنى بالطبع اتباع الرسل فان هــؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل .

ولكن رسالة الرسل فى التبليغ صعبة لتعارضها مع أهواء النفوس وشهواتها ومطامعها ، وكما يعانون

صعوبة من أعدائهم يعانون مثلها في تربية اتباعهم ، وصبر الرسول على ما يلاقيه في ذلك دليل على حرارة صدقه واخلاصه للدعوة لله. وفي حياة النبي صلى الله عليه وسلم نماذج رائعة في صبره وكفاحه ومعاناته من مواقف الكافرين منه ، ونماذج رائعة لطرقه التي سلكها للقيام بعملية التبليغ ، مما يشهد بحق أنه رسول الله حقا ، فقد سلك أعداؤه معه سبيل الايذاء العنيف وصبر ، وحاولوا اغراءه فرفض ، وضغطوا عليه عائليا فلم يفلحوا ، وسلكوا طريق الاستهزاء والسخرية والاعراض والاتهامات والمقاطعة ، ولقد هموا بقتله حتى نجاه الله بهجرته ، وكانوا قبل ذلك يلاحقونه في دعوته ويثبطون عنه من يميل قلبه الى الاسلام .

وهو على الرغم من كل هذه العوائق ماض في تبليغ دعوته جاد في اتمام رسالته بكل ما أوتي من قوة ، ولم يدع سبيلا واحدا مشروعا الا سلكه ولا وسيلة سليمة الا اتبعها ، ولم يقصر ابلاغه على حدود الجزيرة العربية بل تجاوزها الى خارجها ، ورسله ورسائله الى النجاشي في الحبشة والمقوقس في مصر وهرقل في الروم وكسرى في فارس وغيرهم فيها مبلغ الدلالة على تبليغه ونصحه وصدقه في تبليغ رسالته ، وحماس أتباعه من بعده انما هو صدى لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من أعلى حالات الصدق وأداء الواجب والشعور بالمسئولية امام الله ، ولم يفارق الرسول الدنيا الا وكانت رسالته قد عمت الآفاق وسمع بها القاصي والداني ، وحفظ أتباعه القرآن والحديث وحافظوا عليه حرفيا دون أدنى تغيير .

فطانته صلى الله عليه وسلم

وهي صفة ملازمة للتبليغ ، فالرسول معرض للمناقشة والتساؤل والاعتراض من المتشككين والمنتقدين ، فلا بد له من الذكاء وقوة البيان وحدة العارضة حتى يستطيع أن يبهت الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، وهذا وحده يحتم أن تكون دعوته حقا كلها ، فغير الحق

ليست له حجة واضحة ، ولا بد للرسول أن يواجه الناس جميعا على اختلاف تخصصاتهم حتى يمكن أن يدحض حجة كل فى تخصصه ، ولا بد للرسول من أن يخاطب الناس على قدر عقولهم .

لقد اكتملت الصفات الأساسية للرسل فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى خلقه الله على أكمل صورة وأتم حال وأرفع مقام ، ووفقه لأعظم الأعمال مما ينوء بحمله أعظم الرجال مجتمعين فسار فى طريق لم تضطرب بدايته فيه ولم تتحول مسيرته عنه ، حتى وصل الى نهايته على استقامة تامة .

القدوة العليا

تفرد الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات لم يشركه فيها كل الرسل وان شاركه بعضهم فى بعضها وبذلك اجتمع له الكمال ، لأن الله جعل الاسلام نظاما شاملا لحركة الدنيا هاديا الى نعيم الآخرة ، فلا بد أن يكون رسوله قدوة للناس فى كل شىء ، ولا أدل على ذلك — مثلا — من خلق الصبر الذى استوعبت حياته جميع المواقف التى يحتاج الناس فيها الى الصبر . فما من بلاء يبتلى به الناس الا ويجدون الرسول قد ابتلى بمثله وصبر عليه فيقتدون به . ثم عرض الكاتب لنماذج أربعة فى حياة المصطفى كأمثلة تشهد بأنه هو صاحب القدوة الكاملة والانسانية العليا ، وانه لا كمال لأحد بعده الا باتباع هذا النبى واقتفاء أثره ، واليك هذه النماذج :

النموذج الاول : أنه صلى الله عليه وسلم الأخلاقى الأول ، وقد زكاه القرآن الكريم فى ذلك بقوله: « وانك لعلى خلق عظيم » . وهو المثل الأعلى لجميع الفضلاء فى العالم ولجميع المتخلقين بالاخلاق العالية ، فهو فى صبره وفى حلمه وفى رحمته وفى صدقه وفى أمانته وفى كرمه وفى تواضعه وفى جميع الأخلاق الفاضلة مثل أعلى ، يشهد بذلك الصديق والعدو فما من أحد فى زمانه أو بعد زمانه درس سيرته العطرة الا وأيقن أن الخلق المحمدى لا يرقى اليه مطمع .

النموذج الثانى : انه كان رجل الاسرة الأول أبا وزوجا ، ولم يغب

وجه الحكمة فى زواجه المتعدد ، ولقد تناولته أقلام كثيرة مغرضة فى قلوب أصحابها مرض لا يعرفون ان هذا التعدد دليل على النبوة والرسالة لما فيه من الحكم والمصالح المتعددة ، ويكفى فى ذلك أنه استل بهذا الزواج سخائم نفوس وحل به مشكلات وألف به قلوبا ونشر به الدين .

ولقد كان فى زواجه مثاليا راعى العدل الكامل بين زوجاته من حيث السكن والنفقة والاصطحاب فى السفر والمبيت والزيارات والوقت ، ومن حيث المعاملة الانسانية الكريمة حتى كان يستشيرهن أحيانا ، فى الوقت الذى لم تجرؤ امرأة فى العصر الذهبى للفروسية فى أوربا أن تقدم مشورة لزوجها ، بل كان اللطم على وجهها عقوبة لها ان جرأت على ذلك ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم لا يكتفى بسماع المشورة ، ولكنه كان فى حاجة أهله — ومن أقواله المأثورة « خدمتك زوجتك صدقة » ، ومن حيث تجمله لزوجاته ولطفه معهن وايناسه لهن ، ومن كلماته المأثورة «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا فان بنى اسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم » ، ومن حيث سياستهن وتأديبهن ومداواة قلوبهن حتى تصفو والوفاء لهن ، وقد استطاع أن يرفعهن الى مقام النبوة فى الاخلاق ، وقد ظهر ذلك واضحا حين نزلت آية التخيير فكلهن اخترن الله ورسوله على زهرة الدنيا .

هذا هو المثل الكامل فى الزواج وابتناء الاسرة الذى يدل على سواء الفطرة والحياة ، فحب المرأة — كما يقول العقاد — لا معابة فيه وانما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرء عن غرضه وحتى يكلفه شططا فى طلابه ، فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى الطباع ، ولم تشغل الزوجات النبى صلى الله عليه وسلم عن عمل صغير أو كبير ، فمن من بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية

والدولة الاسلامية ، ومن ذا الذى يقول ان هذا عمل رجل مشغول ؟ وكما كان مثاليا فى زواجه كان

مثاليا فى أبوته ، كان نعم الأب لا لأولاده فقط بل لكل الأولاد .

النموذج الثالث : النبى هو المعلم والمربى الأول ، ولقد أوضح القرآن مهمة النبى بقوله : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » . وكان الجانب الأعظم من حياته صلى الله عليه وسلم مستغرقا بهذا الجانب : التعليم والتربية ، وبهذا الجانب تستقيم كل جوانب الحياة ، فالأمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها وبلا تربية يعرف بها كل فرد واجبه تصبح أمة فوضوية .

والظاهرة فى حياة الرسول انه بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية ، وصهر أفرادها صهرا تاما ، ثم أطلق هذه الأمة فى اتجاه وحيد وحدد فيه لكل فرد مهمته ورباه على أدائها ورسم لهم الطريق وقادهم فترة ثم تركهم ماضيا الى ربه فانطلقوا بعده لم يغيروا ولم يبدلوا فكان ما كان .

وكمال المربى يظهر فى النواحى الآتية : فى قدرته على الانتقال بالانسان من حالة دنيا الى حالة عليا وفى قدرته على الانتقال بأكبر عدد ممكن فى هذه الحالة ، وبصلاحية تعاليمه وتربيته وحاجة الناس اليها على مدار الزمان ، والنبى صلى الله عليه وسلم كان كذلك حتى قال « بوزورث اسمث » : ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق وكما قال « هيل » فى كلام عن النبى « لا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد » .

وعلى كل فتلاميذ النبى الذين تركهم بعده أكبر دليل على كمال استاذهم ومربيهم ، هؤلاء التلاميذ من أمثال ابى بكر وعمر وعبد الله ابن مسعود وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح وغيرهم كثير ، لقد غير طاقات هؤلاء

وملكاتهـــم ووجههـــا الوجهة الصحيحة .

كان يعـلم ويحض على التعليم ويطلب من المتعلم أن يعلم الجاهل ويأخذ بيده الى الطريق السليم في كل أوجه الحياة وهو البصير بأدواء النفوس وعلاتها يداويها على بصيرة ورفق ، وكان القرآن حفظا وفهمـا وتطبيقا وسلوكا هـو أداة هـذه التربية العظيمة والعجب فالقـرآن هو الذى « يهدى للتى هى أقوم » وبذلك كان منهاج النبى فى التربية أوفى منهج ، حينما تمسـك به المسلمون ارتقـوا وحين تركوه ضعفوا كما هو حالهم الآن .

النموذج الرابع : هو رجـل الدولة الاول سياسيا وعسكريا ، فلقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم مقومات النجاح فى القيادة السياسية العليا كما جمع مقومات النجاح فى القيادة العسكرية ، وقد استوعبت قيادته الدعوة ووثقت بها وبأحقيتها ووثقت فى انتصـارها ولم يتناقض سلوكها مع ما تدعو اليه ، بل كانت مواقفها كلها موجهة لصالح الدعوة، وقادرة على استيعاب المستجيبين لها تربية وتنظيما وتسييرا ، مع القدرة على حل كافة المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد ، وجمعت الى جانب ذلك بعدا فى النظر واستيعابا لكل الواقـع وتحقيـــق النصر والاستفادة منه وتطبيـــق مبادىء الدعوة واحكام أمر بناء الدولة ، ويكفى فى الاسـتدلال على كمال ذلك فى شخصيته صلى الله عليـه وسلم التعرض لجانب واحـد من هذه الجوانب وهـو قدرته على استيعاب أتباعـه تربيـة وتنظيمـا وتسييرا ورعاية .

فالدعوة العقيدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها مـن نواح ثلاث :

ـ ألا تقدر على تربية أتباعهـا تربية نموذجية فيـؤدى ذلك الى نفور الناس ويصبح الاتباع حجة على الدعوة لا حجة لها .

ـ ألا تستطيع الدعوة تسخيـر طاقات المنضمين اليها فى سبيلهـا وتصبح للقيادة وحدها المسئوليـة كلها .

ـ أن يفتقد الأتباع الرعاية الدائمة بحيث يصبحون منسيين أو فى حكم المنسيين .

وأنت عندما ترى قيادة الرسول لأتباعه تجدها قد تجنبت هذه النواحى الثلاث ، بحيث أثمرت الدعوة ونجحت نجاحا منقطع النظير ، فقد واسى أتباعه ولاحظهم بعين مودته ورعاهم وحافظ عليهم ومن وسائله فى ذلك دعوتهم الى الهجرة ، وتفقده أحوالهم حين استقر بهم المقام فى المدينة وتأمينه الحياة لهم ورسمه السياسة التى كفلت لهم الاطمئنان ومن ذلك وضع معاهدة سديدة مكنت من ايجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس جميعا .

أما قيادته العسكرية فكلها مثل عليا يتعلم منها القواد نماذج الفن العسكرى العبقرى ، ولقد قرر ذلك العقاد حين بين كيف أن نابليون كان يطبق خطط النبى صلى الله عليه وسلم فى معاركه ، من حيث اختياره الموقع الملائم والفرصة الملائمة ومعاجلة العدو قبل اتمام استعداده ، وكان النبى سابقا فى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها ، وكان لا يبدأ بعدوان ولكنه اذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم ولو كان فى عسرة كما حدث فى موقعة تبوك ، وكان عليه السلام يعمد الى القوة العسكرية فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ولا يضيع الوقت فى انتظار مايختاره أولئك الأعداء ولا يترك زمام الحركة بأيدى المهاجمين الا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين كما حدث فى موقعة الخندق ، وكان يعتمد على القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الايمان .

بل ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يخطىء فى حساباته العسكرية الدقيقة كما أخطأ من جاء بعده من كبار القواد العسكريين الذين حاولوا أن يطبقوا الخطط التى كان يطبقها من أمثال نابليون وهتلر ، ولا تعليل لذلك الا أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت تمده الى جوار عبقريته الفريدة عناية الله التى تنصره وتحميه ، فمزايا الرسول العسكرية أجل من أن تحصر وقد لمسها الكتاب

لمسا خفيفا ، وعرض المؤلف وغيره من المفكرين فى غير استقصاء لأنها أكبر من الاستقصاء ، ولعل من أبرع ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم كقائد عسكرى هو تأمينه لجيشه ودولته بتحقيق الهيئة العسكرية التى تجعل الآخرين دائما فى حالة رعب .

وقد عبر نفسه عن ذلك بقوله : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » ، وقد كان لذلك أثره الكبير فى أن يستطيع ثلاثة آلاف جندى فى مؤتة التصدى لجيش قوامه مائتا ألف جندى .

معجزات الرسول

ـ المعجزة القرآنية :

يقول النبى صلى الله عليه وسلم : ما من نبى الا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحى الى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .. والوحى باق تعهد الله بحفظه حيث قال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فالمعجزة باقية ببقاء القرآن .

الترابط فى القرآن: والذى يلاحظ فى القرآن التماسك والتآلف وليس التفكك كما يتصور البعض تصورا فاسدا ، والدليل على وجود الترابط ما نسوقه من مثال واحد على ذلك وله نظائره المتعددة فى القرآن الكريم . تأمل سورة « ق » تجدها تتحدث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة من ينذرهم بالبعث بعد الموت ، فيرد الله على امكانية ذلك بلفت انظارهم الى الكون ليتعرفوا فيه قدرة الله ، ويحذرهم من المصير الذى لقيه من كذب مثلهم كقوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، ثم تصف السورة أحوال هؤلاء الشاكين وتذكرهم بما سيلقونه عند الموت وبعده والمصير الذى ينتظرهم فى الآخرة ويقارن بينه وبين المصير الذى ينتظره المسلمون الاتقياء ، ثم تدعو السورة الناس الى التذكر والتدبر وأن خلق السموات والأرض وهو أكبر من خلق الانسان لم يتعب الله منه ، فكيف اذن يعجز عن اعادة الموتى الى الحياة يوم البعث يوم تشقق الأرض

عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ـ وما على الرسول الا أن يصبر على هؤلاء وأن يذكرهم بواسطة القرآن بيوم الوعيد .

فمعانى هذه السورة مترابطة متكاملة ، وهكذا الشأن فى جميع سور القرآن ، بل ان هناك ترابطا بين القرآن كله فهو يشكل وحدة منتظمة تشهد بوحدانية منزله جل وعلا .

من خصائص القرآن

ومن خصائص القرآن غير ماذكر ماأشار اليه الله بقوله : « قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » فقد أخبر الله أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود بما يشهد أن القرآن حق، فما سيعرفه الانسان سيكون مطابقا لما فى القرآن ، ولن يكون هذا الا اذا كان منزله يعلم أسرار السموات والأرض ، والأدلة على ذلك فى القرآن كثيرة أشار اليها الكتاب كما أشار اليها أولو العلم فى كتب أخرى خصص بعضها لذلك ، ومن الامثلة على ذلك قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » « والجبال أوتادا » « يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » « من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » .. وغير ذلك من مختلف الآيات التى تلفت الأنظار الى الحقائق العلمية التى لم يعرفها العالم الا فيما تلا عصر القرآن من عصور مما يشهد بأن القرآن من عند الله السميع العليم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

كما أن من خصائصه التى تشير الى ربانية مصدره ما أشار اليه بقوله : « وانه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فقد ثبت بالدليل القاطع صدق ما أخبر به فى الماضى والمستقبل ، كما ظهر ذلك فى الكشوفات والتنقيبات الأثرية التى أيدت الحديث عن القدامى كعاد وثمود وأصحاب الفيل وغيرهم ، وأما حديثه عن المستقبل وتصديق المستقبل لحديثه فان ذلك أدل فى

بابه على أنه من عند الله ، فما من كلمة قالها القرآن نقضتها الوقائع على مر الأيام حتى هذا الزمان وآخر الزمان ، سواء فى ذلك ما جاء من تشريع أو أخبار أو بيان .

ــ ومن خصائصه أيضا أننا نجد الحقيقة فيه أبدا واضحة ، ففيه تصحيح لكل الاختلافات السابقة « ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

ــ على أن لغة القرآن وأسلوبه يفوقان طاقة البشر ويخالفان ما درج عليه البلغاء والشعراء فى عصره وبعد عصره ، بالاضافة الى صوره التى تأبى أن يكون القرآن وليد البيئة العربية من أمثال قوله تعالى « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ــ وقد جرت عادة البلغاء أن تختلف أساليبهم على حسب أحوالهم وظروفهم وحياتهم ، ولكن القرآن وقد نزل فى ثلاثة وعشرين عاما لا يختلف أسلوبه ، بل هو على وتيرة واحدة فى القوة وشدة الأخذ والبلاغة والفصاحة والانسجام لا تختلف أجزاؤه ولا تضطرب معانيه ولا تتناقض آياته .

ــ كما أن من تمام اعجازه مع هذه القوة الآخذة التيسير « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

المعجزات الاخرى : هذا طرف من الحديث عن المعجزة القرآنية ، أما المعجزات المادية الأخرى فما أكثرها بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكرها الثقات ، وليس بغريب أن تظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون فان ذلك هو آثار قدرة الله لتقوم حجة الله على خلقه ؛ ولم يوجد رسول أبدا فى تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة تتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله ، ومن أمثلة هذا الاعجاز انشقاق القمر ، ونبع الماء من بين يديه ، وتسبيح الطعام

والحصى فى يديه ، وحنين الجذع اليه ، وامطار السماء لدعائه وائتمار الاشجـــار بأمـــره ، والاسراء والمعراج .

ان معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كثيرة متواترة موزونة بأدق موازين النقد بما يشهد بصحتها ، وان انسانا يرى معجزة المعجـزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمـن بأن محمدا رسول الله فهـو انسان أعمى القلب والعقل ،وان انسانا تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات النبى ثم لا يؤمن به لهو مظلم الوجدان والضمير ،وان انسانا مثل هذين ليقولن فى يوم مع أمثاله من القائلين : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعتـرفوا بذنبهـم فسحقا لأصحاب السعير » .

مع نبوءات النبى صلى الله عليه وسلم

والمقصود بالنبوءات الاخبار عن المستقبل المجهول بما يتحقق تحققا تاما لا يخرم منه شىء لأنه مستـمد من الله الذى يقول فى حق النبى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبـه أحدا ، الا من ارتضى من رسول » فليس ذلك من قبيل التوقعات أو التكهنات أو المقدمات التى تؤدى الى نتائج . وقد حدث النبى صلى الله عليه وسلم عن نبوءات تجعلك على مثـل الشمس المبصرة من أنه رسول الله ولا ينطق عن الهوى .

فمن ذلك ما حدث بهحين رجف به أحد وكان معه أبو بكر وعمـر وعثمان ، فقال : أثبت أحد فانمـا عليك نبى وصديق وشهيـدان ــ وقـد أثبتت الأيام شهادة عمـر وعثمان ــ ومن ذلك قوله عن عمر لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم . يعنى عمر ، وقوله عن الحسن بن على : ان ابنى هذا سـيد ولعـل الله يصـلح به بين فئتين عظيمتين من المسـلمين ، وقـوله لعمار بن ياسر : تقتلك الفئة الباغية ، فكان كما قال .

أما النبوءات التى تنطبـق على حاضرنا فما أكثرها ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم

الساعة حتى يفيض المال فيضا ويغيض الكرم غيضا ويجترىء الصغير على الكبير واللئيم على الكريم » .

« سيأتي على الناس زمان تمات فيه الصلوات ويشرف فيه البنيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن، ويفشو فيه الرشا والزنى وتباع الآخرة بالدنيا فاذا رأيت ذلك فالنجا النجا. قيل وكيف النجا ؟ قال :كن حلسا من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك » .

« ليأتين على الناس زمان يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلبوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه » .

« سيظهر شرار أمتي على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كما يستخفى بينكم المنافق اليوم » .

هذه بعض نبوءات ، وهي ليست في حاجة الى توثيق لأن وقوعها الآن يوثقها ، وانك اذا ما تأملت أي حديث مما أورده الكتاب واستشهدنا ببعضه هنا الا رأيته واقعا على الأرض يشهد شهادة صادقة بأن هذا الرسول لا يقول الا حقا ولا ينطق الا صدقا .

الثمرات : لعله من ثمرات الرسل عليهم السلام الالتزام بالحق والفضيلة والعمل على الاستجابة للفطرة السليمة التي تفرق بين الخير والشر وتعرف الحلو من المر ، وأول ثمرة لدعوة المصطفى صلى الله عليه وسلم هي التوحيد وما أجمله وأعظمه ، فالوثنية وبال على على أصحابها ومسخ الحقيقة الناصعة في قلب الانسان ، ويمكن ادراك ذلك من واقع الهند التي تبلغ ٢٠٠ مليون بقرة وترك هذا العدد الهائل الذي يمكن أن يساهم في حل مجاعة العالم يرعى على حساب حاجة الانسان وراحته وأمنه ووقته وسعادته ، فهل يعقل أن يسخر الانسان لرفاهية الحيوان في الوقت الذي خلقه الله ليكون في خدمة الانسان ؟ ولكنها الوثنية التي شوهت الحقائق ومسخت حقائق الأشياء . هذا مثل من الحاضر

يقاس عليه أمثلة عديدة فى القديم والحديث فى مختلف البلاد والقارات ، فسيدنا محمد عليه السلام بعقيدة التوحيد وضع الانسان فى محله الصحيح حيث علمه أن الكون كله لله وأن الله جعله فى خدمة الانسان وأن الله خالق هذا الكون له الكمال المطلق والمستحق وحده بالعبادة .

ومن ثمرات الدعوة الايمان باليوم الآخر الذى يطلب فيه الانسان النجاة فيصبح محور سلوك الانسان ، فمن أجل هذا اليوم يدخر الناس الصالحات ويتسابقون فى الخيرات ويزهدون فى الدنيا ايثارا للآخرة عليها ، وبذلك تقوم الاخلاق مقام القانون ولقد وضع أصحاب الرسول خلق النبى صلى الله عليه وسلم قدوة لهم ، وتعلموا من هذه الآية الكريمة مثلا عليا وهى : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » تعلموا أن يجوعوا فى الدنيا ليشبعوا فى الآخرة ويشقوا فى الدنيا لينعموا فى الاخرة ، ولم تفتنهم الدنيا على الرغم مما فتح الله عليهم فيها من كنوز كسرى وقيصر بل اجتازوها دون أن يتلوثوا بها ، ومن أجل ذلك كانوا يتسابقون فى الشهادة اغتناما لأجرها عند الله ، وكم منهم من عذب دون أن يتزحزح عن دينه رجاء ما عند الله . لقد أيقظ النبى صلى الله عليه وسلم الضمير فى نفوس المسلمين فعلا سلطانه على كل سلطان . وداء الناس اليوم هو فقدان هذا الضمير الذى مات فى نفوسهم فضاعت القيم وانعدمت المثل .

ومن ثمراتها احياء الانسانية الواحدة الكريمة ، فقد جعل الاسلام الناس أمة واحدة لا فضل لأحد فيها الا بالتقوى ، وكانت العصبية والجاهلية تعمى على الناس فى مشارق الأرض ومغاربها الطريق وتصنع بينهم فروقا لا أساس لها وانما صنعها الكفر والشقاق والنفاق .

لقد أعلن الاسلام انسانية الانسان ووحدة الانسانية ، فالرجل انسان والمرأة انسان والعبد انسان والناس كلهم سواء فى هذه

الانسانية فلا شعب أعلى من شعب ولا جنس أعظم من جنس ، والانسان فى نظر الاسلام هو سيد المخلوقات وكل ما فى الكون مسخر له ؛ ولقد أطلق الاسلام المد التحــررى فى أنحــاء الأرض حتى أنسى القبطى سياط الرومان وذلها ، وحتى أصبح الخادم والمخدوم يأكلان من طعــام واحد ويلبسان من قماش واحد تحقيقا لقول النبى صلى الله عليــه وسلم « هم اخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمـــل ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينــوهم عليه » .

ومن ثمرات الرسالة الاحساس بالمسئولية الفردية ، فقد أيقظت فى النفوس الشعور بالتبعــة ، وكل انسان مسئول عن نفســه فلا تزر وازرة وزر أخرى ، وكلكم راع وكلكم مسئول عــن رعيته ، وفى ذلك تحطيم لنظرية كانت سائدة وما زالت فى أديان أخــرى تدين الانسان بسلوك غيره .

أما الاسلام فقد عمل على استقامة سلوك الانسان بتحميله تبعــة ما يصنع وأنه وحده المسئول عن عمله فلا تواكل ولا كسل ولا اعتماد على الاخرين ولا استغلال لقدرات الغير

ولا يخفى أن العدل وهو ثمرات من ثمرات نبى الاسلام يصاحب ذلك الخلق الكريم ، وقد نادى القرآن الكريم بالعدل : « واذا حكمتم بين الناس أن تحـــكموا بالعــدل » ووصف النبى صلى الله عليه وسلم العادلين بقوله « هم خيار الناس» ومن العجيب أن يأتى هذا العــدل العظيم الذى وسع الناس جميعــا فى أمة كانت تؤمن بسياسة «انصر أخاك ظالما أو مظلومـــا » ولقــد استوعب المســلمون بسرعة وبعمق هذا الخلق الجميل حتى غلبوا به الأمم وساسوها فدخلوا بسببه فى دين الله أفواجا .

وكان من ثمرات رسالة المصطفى الطاعة البصيرة التى يظهر الفرق واضحا بينها وبين الطاعة العميــاء التى كانت لــدى الامم الأخــرى للملوك والأمـــراء . كانت طاعة

المسلمين لنبيهم وخلفائهم طاعة فى الحق والعدل لا ظلم فيها ولا طغيان ، هذه الطاعة تتمثل فى كف الناس عن شرب الخمر فور نزول الأمر باجتنابها ، وفى الالتزام بهذه الطاعة أيا كانت الظروف حتى قالت عجوز كان عمر قد نهاها عن شىء قبل أن يستشهد : ما كنت لأطيعه حيا وأعصيه ميتا ـ وقد وضع النبى صلى الله عليه وسلم ضابطا لهذه الطاعة فقال : لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى .

ولقد نتج عن الاسلام أجيال خيرة جريئة بالحق، تعرف ما هو الخير وما هو الشر فتقوى الحق وتقوض الباطل وهذا هو الذى جعل الصالحين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم يتعرضون للحكام بالوعظ والارشاد والتوجيه دون خوف منهم ، وكثير من هؤلاء الحكام كان يستجيب لهذه النصائح والتوجيهات .

لقد أصبحت دولة الاسلام دولة هداية لا جباية ومن هنا يتضح الفرق بين هذه الدولة وغيرها من الدول التى لا هم لها الا الابتزاز والاستنزاف ، كما اصبحت دولة جهاد وحرية بعد أن كفلت جميع أنواع الحريات للمواطنين وفى مقدمة ذلك الحرية الدينية « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» وهنا فرق كبير بين دولة الاسلام وغيرها من الدول ، يظهر فى اسبانيا التى لا يوجد فيها الآن مسلم واحد بعد أن كان بها ثلاثون مليون مسلم ،، فى الوقت الذى يوجد فيه نصارى آمنون على دياتهم فى كافة الأقطار العربية والاسلامية ، وما زالت معاهدة عمر بن الخطاب مع أهل ايليا مضرب المثل فى كفالة الحرية الدينية الكاملة للناس أجمعين لقد قتل الصليبيون عندما فتحوا بيت المقدس أكثر من سبعين ألفا من المسلمين ، وحين استرده المسلمون لم يقتلوا نصرانيا واحدا.

البشارات : مما يشهد على صدق رسالة النبى صلى الله عليه وسلم تبشير الكتب السماوية السابقة برسالته ، وقد جاء فى القرآن الخبر

بذلك فعلى لسان عيسى عليه السلام « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وفى التوراة مايقصه القرآن الكريم : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة » وقد تواترت الأخبار قبل بعثة النبى مبشرة به ، وقصة اسلام سلمان الفارسى وعبد الله بن سلام ومحاورة حيى بن أخطب وأخيه أبى ياسر خير دليل على ذلك .

وقد أثبتت الدراسات الحديثة بمختلف اللغات بما لا يدع مجالا للشك أن الكتب الديانية السابقة بما فيها ما هو منسوب الى الفرس وما هو منسوب الى البراهمة وماهو منسوب الى اليهود أو النصارى قد بشرت بهذا النبى الأمى الذى يبعثه الله فى أمة العرب ويتلقى الحكمة عن ربه وأنه موصوف بأنه رحمة للعالمين . ولكن الحسد والبغى حالا بين كثير من هؤلاء الدارسين وبين الايمان الحق فحاولوا أن يلتووا ويتعسفوا فى فهم النصوص الواردة فى تلك الكتب ليصرفوها عن وجه الحق .

ومع وجود تحريفات الآن فى العهدين القديم والجديد الا أنه مع هذه التحريفات يوجد فيهما ما يشير الى مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن التواء الفهم وسوء النية عند من صده الله عن طريق الهدى يفهم هذه النصوص على غير وجهها الصحيح .

وبقى كتاب واحد أثار ثائرة العالم الغربى هو « انجيل برنابا » الذى أعطى قولا فصلا فى المسائل الثلاث وهى رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح ، وقد أصدر البابا جيلاسيوس الأول الذى جلس على الاريكة البابوية عام ٤٩٢ م أى قبل مولد المصطفى بقرن من الزمان تقريبا أمرا بعدم مطالعة هذا الكتاب الذى ما يطالعه منصف منهم الا ويشهر اسلامه ، ذلك لأن الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة غير متناقضة مما لا مثيل له فى العهد القديم والعهد الجديد. الى ما فيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح الخفايا فى حياة المسيح كما أن فيه

صولة فى تهذيب النفس وصدقا فى العبارة يشهدان بما له من قوة روحية خفية ، وتستشهد من هذا الانجيل بفقرة فيها تبشير بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فى الفصل السادس والتسعين : أجاب يسوع : « لعمر الله الذى تقف بحضرته نفسى انى لست « مسيا » الذى تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا ابراهيم قائلا : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذنى الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحتمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامى وتعليمى ، حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذى خلق كل الأشياء لأجله ، الذى سيأتى من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتى رحمة الله خلاص الذين يؤمنون به . وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا » .

وبعد ، فهذا عرض موجز لهذا السفر الجليل الذى ختمه مؤلفه الكبير بسؤال وجهه الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف قصص الأنبياء للدكتور كارلو ملينو المستشرق الايطالى عن كلمة « بيركليتوس الواردة فى الانجيل فأجاب بقوله : ان القسس يقولون ان معناها المعزى ، فقال له ولكنى أسأل الدكتور كارلو ملينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيسا . فقال : ان معناها الذى له حمد كثير ، فسأله أيضا هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد فقال : نعم .

وهذا ما جاء فى القرآن على لسان المسيح : لا ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » صلى الله عليه وسلم .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

في مواجهة الإلحاد المعاصر

احتياج العالم إلى الله

طبقاً لقوانين الفيزياء الحديثة

بقلم : الدكتور يحيى هاشم

من المعروف الآن فى علم الفيزياء الحديثة أن قوانين الميكانيكا التى تسرى على حركات الأجسام الكبيرة لا تنطبق على الذرات المفردة فضلا عن الالكترونات والبروتونات ، والنيوترونات ، وغيرها من مكونات الذرة ..

أما حركة هذه الصغيرات فلها احوال غير محددة ، ولا تتدخل حالة منها فى اخرى ، وقد تقفز الصغيرة من حالة من هذه الحالات الى اخرى دون وجود قوانين تحدد أى هذه القفزات هو ما سيحدث فى أى ظرف من الظروف .

وهذا هو ما يسمى فى الفيزياء الحديثة بمبدأ عدم التحدد (١)

وقد امتحن هذا المبدأ من كبار العلماء ، مثل أينشتين ، الذى حاول اكتشاف المتناقضات فيه ولكن مجهوداته أدت الى تقويته بدلا من دحضه ..

وعندما عجز اينشتين عن ذلك سلم بأن فكرة هيزنبرج خالية من المتناقضات الا أنه حتى آخر ايام حياته ظل يأمل أن تعود الفيزياء مرة أخرى الى وجهة نظر امكان التحديد فى يوم من الأيام (٢)

ولكن هذا لم يحدث وظل مبدأ عدم التحدد يمثل ركنا فى الفيزياء الحديثة ، ويناقش الدكتور ايزنك موضوع حرية الارادة فى ضوء مبدأ عدم التحدد لهيزنبرج — وهذه

---

(١) اعلن فرنز هيزنبرج هذا المبدا عام ١٩٢٧ ؛ انظر بواتق وانابيق ص ٤٠٠ وقصة الفيزياء ص ٢٤٨ وغيرهما من المصادر .

(٢) قصة الفيزياء ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

المناقشة ، وان كان ايزنك يجريها على صعيد الارادة الانسانية لكنها تفيدنا فى الدخول الى موضوع الارادة الالهية الذى نقصد اليه ..

يقول ايزنك :

(ان قضية حرية الارادة هى قضية فلسفية لا يجب أن تعنينا كثيرا .. ومن المشكوك فيه أن يكون لعبارة حرية الارادة أى معنى .. فالسلوك بالنسبة للبيولوجى هو نتيجة الوراثة والبيئة اذ يتحد الاثنان لانتاج حالة معينة من الدافعية وتشكيلة معينة من العادات ..) .

فالسلوك الناتج هو حصيلة ذلك الاتحاد ، وباعتباره كذلك يجب أن يكون محتوما .

ومن الصعب أن ترى فى هذا السياق ماذا يمكن أن تعنى «حرية الارادة» .

فهل هى تعنى أن السلوك لا تحتمه اطلاقا الدوافع أو العادات أو الخبرة السابقة أو أى شىء آخر ؟

وهل تساوى القول بأن الصدفة العمياء قد تتدخل فى السلوك الانسانى بصرف النظر عن الوراثة أو ضغط البيئة ؟

ليس من المستحيل بالطبع أن يكون مثل هذا الزعم صحيحا . فقانون عدم التحديد لهيزنبرج على سلوك مادون الذرة من أدق الجزيئات يمنعنا من القيام بتنبؤات دقيقة حول سلوك هذه الجزيئات . وبالنظر الى أن اجسادنا مكونة من عدد كبير من الذرات والجزيئات المكونة بدورها من جزيئات دون الذرة فليس من غير المعقول أن الصدفة قد تتدخل بالتأكيد فى تحديد السلوك ، وهى الى هذا الحد تقلل من الحتمية المتضمنة فى تأكيدنا على الوراثة والبيئة كعلل كافية للسلوك .

الا أن هذا بعيد كل البعد عن فكرة « حرية الارادة » التى اذا كانت تعنى شيئا على الاطلاق فهى تعنى بالتأكيد شيئا مختلفا تماما عن تدخل احداث الصدفة العمياء على المستوى دون الذرى فى التعبير عن

الـدوافع والرغبـات والمخـاوف الانسانية (١)

* * *

وأقول : ان كون هذا التحليـل بعيدا كل البعد عن اثبات حريـة الارادة ناشىء من مغالطة ارتكبهـا المؤلف حين افترض أنه اذا لم تسر حركة الجزيئات وفقا لقانون محدد فانها تكون حينئذ نهبا للصـدفة ، وبالطبع فالصدفة ليست هى الحرية، لكن ليس هذا هو التفسير الوحيد ومبدأ هيزنبرج حين اكتشف عدم التحـدد فى حركة الجزيئـات لم يفترض الصدفة ، والأمر يحتمل فى هذه الحالة افتراض (ارادة) غير خاضعة للتحديد ، أى ارادة حرة .

يقول برتراندراسل ، معلقا على مبدأ هيزنبرج :

(انه لا يعرف حتى الآن على وجه يقارب التأكيد : هل هناك قـوانين تتحكم فى سلوك الذرات المفردة من كل وجوهه أم ان سـلوك هـذه الذرات سلوك عشوائى فى ناحيـة من نواحيه ؟

وهناك من يظن أن الذرة لاتخضع لأى قوانين على الاطـلاق فى هذا الصدد وانما لها ما يمكن أن يسمى « ارادة حرة » ويقرر أصحاب هذا الرأى أن العقل يستطيع أن يقـرر ما تقوم به ذرات المخ من انتقالات فى لحظة ما ، وهكذا يحدث ما يشاء من نتائج على نطـاق واسـع ، بواسطـة بضعـة أفعال ، كفعـل الزناد (٢) .

ثم يقول برتراندراسل :

(انى لأكرر اعرابى عن دهشتى لأن يلجأ البعض الى هذه النظريـة فيما يتعلق بموضوع حرية الارادة. لأن المبدأ لا يقدم أى دليل على أن سير الطبيعة غير محدد . انما هو يثبت أن الجهاز الـزمانى المكانى القديم ليس وافيا تماما بمطالب علم الطبيعة الحديث .. فالمكان والزمان

(١) الحقيقة والوهم فى علم النفس د. هـ. ج. ايزنك ترجمة قدرى حنفى ودكتـور رءوف نظمى ، منشورات جمـاعة علم النفس التـكاملى دار المعارف عام ١٩٦٩ ص ٢٨٤ .

(٢) مجموعة نظمى لوقا (عالمنا المجنون) ص ٥١ : ٥٤ .

قد اخترعهما اليونان ، وقد كانا عظيمى النفع لاغراضهما حتى كان القرن الحالى فأحل اينشتين محلهما نوعا من التسمية المزجية يقال له (الزمكان) ولكن الميكانيكا الكمية قد أوضحت ضرورة تغيير أشمل لأساس البناء ، وأن نظرية عدم التحدد من أمثلة هذه الضرورة وليست مثالا على فشل القوانين الطبيعية فى تعيين سير الطبيعة)

ثم يقتبس من ترنر قوله : (ان مبدأ عدم التحدد يتعلق بالقياس لا بالعلية) يعنى أنه ناشىء عن عجز أدوات القياس المتاحة لنا ، وليس ناشئا عن عدم العلة

ثم يقول : (لا يوجد مطلقا فى مبدأ عدم التحدد ما يثبت أن أى حدث طبيعى غير معلول) ..

* * *

ونحن نناقش برتراندراسل فى أربع نقاط :

١ ـ الأولى اعتقاده أنه بالرغم من مبدأ « عدم التحدد » فالعلم الطبيعى سوف يكشف فى المستقبل عن القانون الذى يحكم حركة الصغيرات والذى يعجز عن كشفه الآن بمقاييسه الحالية القائمة على الزمان والمكان أو على«الزمكان» .

ويصور لويس دى بروجلى الاعتقاد بوجود حتمية يحتمل الكشف عنها فيما بعد فيقول :

(ان أنصار الحتمية سوف يقولون : ان هذا ـ يعنى مبدأ عدم التحدد لهيزنبرج ـ لا يثبت أنه ليس هناك حتمية كاملة للظواهر الطبيعية وأنه يثبت فقط أننا لا نعرف كل العناصر التى يعتمد عليها فى كشف الظواهر الطبيعية ، وأن بعضا من هذه العناصر تغيب عنا ، ومعرفتنا لها ينبغى أن تقدم دليلا على الحتمية ، واذا تقدمت الفيزياء التجريبية خطوات تقدمية كاشفة عن هذه العناصر المجهولة عند ذلك سوف يكون ممكنا أن نقيم الحتمية من جديد ..) . ويستمر بروجلى قائلا :

(هنا نسمع همسا عن « المتغيرات الخفية » التى قابلتنا فى الفيزياء الكلاسيكية خصوصا فى الديناميكا الحرارية ، اذ كان وصفها يبدو ناقصا ، ولجأنا الى وجود «المتغيرات

الخفية » التي كانت تفلت من ابحاثنا التجريبية ، وهي متغيرات كانت معرفتها ضرورية للوصول الى وصف كامل للمجموعة .. الا نستطيع اذن أن نفرض أن نظريات الكم الحالية نفسها تتغاضى هي الاخرى عن وجود متغيرات خفية « معينة » لو توصلنا الى معرفتها لأتاحت لنا اكمال وصف الظواهر الميكروفزيائية واخضاعها للحتمية ؟ ..)

ويرد لويس دي بروجلي على هذه التساؤلات قائلا :

(لا يبدو أن الأمر على هذا النحو

في الحقيقة ان ذات شكل قوانين الاحتمال التي تظهر في فزياء الكم كما أمكن توضيح ذلك ليس الشكل الذي يناظر وجود «المتغيرات الخفية » ، وهكذا يغلق أمامنا باب كان من الممكن أن تستعيد الفزياء الحتمية من خلاله ، فهل هناك طريق آخر ؟

يبدو هذا الأمر بعيد الاحتمال اذا تأملنا مليا الطريقة التي يتدخل بها كم الفعل ، اذ يدخل علاقة جديدة بين الوجهين الديناميكي والهندسي للكون تحرم كل معرفة مضبوطة للوجهين ، وبهذا الشكل تجعل مستحيلا وضع قوانين حاسمة للتتابع بين الظواهر التي يمكن مشاهدتها » (١) .

ويقول لويس دي بروجلي في رده على الاعتقاد باكتشاف الحتمية فيما بعد :

(ان الفكرة التي تنطوي على أنه من الضروري الاحتفاظ من حيث المبدأ بصحة الحتمية والسببية حتى على المقياس الأولي ـ أي الميكروفيزيائي ـ لا تبدو على الاطلاق مقبولة لدى فزيائيين كثيرين على الأخص من بين الأجيال الأصغر سنا ، والبرهان على ذلك قائم في الشروح العميقة التي كتبها يوهان فون نيومان .

ولقد وجه هذا الفزيائي الرياضي الكبير في كتاب نشره عام ١٩٣٢ في برلين قبل رحيله الى الولايات المتحدة .. اتهاما قاسيا ضد الحتمية الظاهرية للظواهر الماكروئية .

---

(١) . الفيزياء والمكروفيزياء ص ١٤٨ : ١٤٩ .

لأن الترتيب السببى الظاهرى ليس له أصل سوى قانون الأعداد الكبيرة وهذا مستقل تماما عن كون العمليات الأولية ــ التى هى العمليات الفزيائية الحقيقية ــ تتبع أولا تتبع القوانين السببية) ثم يقول :

(وهكذا تكون حتمية الظواهر الماكروئية بالنسبة الى نيومان والى معظم الفزيائيين الكميين فى الوقت الحاضر وهما راجعا الى تأثير المتوسطات ، ومظهرا احصائيا بسيطا .) (١) ويقول لويس دى بروجلى كاشفا زيف الحتمية فى الطبيعة :

(فقوانين الميكانيكا بحسبها الظاهرى ليست أكثر من خداع ووهم راجع الى تعقد الأجسام التى تتناولها تجربتنا المباشرة ، والى نقص الدقة فى قياساتنا) (٢) ثم يقول جازما باللاحتمية فى الطبيعة :

(نتيجة لفيزياء الكم من المستحيل أن نسلم بأنه توجد وراء لا حتمية قوانين فزياء الكم الحالية حتمية متخفية يمكن أن تظهر لنا كما لو كنا قادرين على فهم تطور متغيرات خفية معينة ..) (٣)

ويقول لويس دى بروجلى ضد توقع ظهور الحتمية مرة أخرى فى علم الطبيعة :

(ان بعض العلماء يعتبرون اللاحتمية ــ التى أظهرتها فيزياء الكم ــ مما لا يمكن قبوله لأنه يبدو لهم متعارضا مع مبدأ السبب الكافى . وربما لم يكن هذا ــ آخر الأمر ــ الا نتيجة لعادات فكرية متأصلة . ومن الغريب فى هذا الأمر أن الفزيائيين الشباب الذين تعودوا منذ بداية دراساتهم النظر الى الأشياء بمنظار الفزياء الجديدة يبدو أنهم لا يقابلون من الصعاب قدر ما يقابل الأكبر سنا منهم .) (٤)

---

(١) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٢٥ : ٢٢٦ .
(٢) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٢٤ .
(٣) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٣٠ .
(٤) الفيزياء والمكروفيزياء ص ٢٣٠ : ٢٣١ .

هكذا يقرر هؤلاء العلماء أنـه لا مبرر من الناحية الفيزيقية لاحتمال التراجع عن اللاحتمية ، وعلى كل فنحن نرى أنـه لا مسـوغ على الأطلاق للقول بأن تلك القـوانين التى يحتمـل أن يكشـف عنهـا الانسان فى المستقبل توصف بأنهـا طبيعية ، وقد تجـردت تمامـا من الزمان المكان .

انه ماذا يبقى لها بعد هذا التجريد لتوصف بالطبيعية ، وراسل هوالذى يقرر أن ثنائية العقل والمادة أصبحت أمام الحقائق العلمية الحديثـة فى خبر كان وأنه لم يعد أيهمـا غيـر سلسلة أحداث ترتبط بقوانين ، وأننا لا نعرف شيئا عن هذه الاحـداث الا فى كيانها الزمانى المكانى (١)

ماذا يصح من وصف هذه القوانين بانها طبيعية ، فى عالم يقـول عنـه راسل (ان العقل والروح والمـادة ليست سوى رموز لأشياء غيـر معروفه) (٢)

واذا نزع عنها وصف « الطبيعية» فماذا تكون ؟

ماذا عند راسل خارج هذه الدائرة؟

لا شىء .

فى حين أن ضرورة السـببية ــ المقررة عقليا ، والتى يتمنى راسل أن لو عادت فيزيقيا .. ــ الجأتنا الى شىء خارج .

الجأتنا الى عالم الأمر ..

وهو لا شىء الا أن يكون أمر الله ..

وهذا ما ينبغى أن نسميه دليل القانون « غير الطبيعى » على وجود الأمر الالهى ، أى على وجود الله .

❋ ❋ ❋

٢ ــ أنه وان كان مبـدأ عـدم التحديد يتعلق كما يقول راسـل وترتز بالقياس لا بالعلية فان هـذا فى الحقيقـة ينسـحب على جميع القوانين الطبيعيـة ، بمعنى أنهـا جميعا تتعلق بالقياس لا بالعلية (٣).

(١) العقل والمادة ص ٢٠٣ : ص ٢٠٩ .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٧ .
(٣) اعنى ان القـوانين الطبيعيـة مهمتها الوصف والقياس ، لا التفسير ، ولا تبيان العلة .

ومن هنا يبقى تطلع العقل الدائم الى اكتشاف العلية ، وهنا لا غنى عن الدين أو الميتافيزيقا ــ وتصبح الأسباب الطبيعية قياسات غير محددة مفتقرة الى تفسيرها بالعلة ، وهى أى العلة لا محالة غير هذه القوانين .

❊ ❊ ❊

٣ ــ أنه وان كان صحيحا ما يقوله رسل (لا يوجد فى مبدأ عدم التحديد ما يثبت أن أى حدث طبيعى غير معلول .) لكنه على أى حال يضعنا ــ أى مبدأ عدم التحدد ــ أمام حالات لا يمكن أن تثبت فيها ما اذا كان الحدث الطبيعى معلولا لعلة طبيعية ؟

وهذا كاف لكى ينهدم المنطق الالحادى القائم على أن العلم قدم التعليل الكافى للظواهر الطبيعية وازاح من الطريق الحاجة الى التعليل بالارادة الالهية .

هنا يعترف العلم بأنه لا يقدم العلة الطبيعية .

بل هنا يعترف العلم بأنه عاجز عن تقديم القياس والعلة معا فى صلب حقيقة الظاهرة الطبيعية ..

اذن يكون القياس العلمى بعد ذلك مجرد قوانين احصائية توسطية للمجموع الكبير لا يدرى مصدر انضباطها بعد أن زال هذا الانضباط من الوحدات الصغيرة التى يتألف منها هذا المجموع .

وليس لأحد أن يظن أن حساب الاحتمالات يضمن تحقق شىء بالفعل الا كما يجوز للمقامر ــ فى مغالطة شهيرة ــ أن يعتقد أنه اذا خسر مرات عديدة متوالية فان المرات التى سيربح فيها ربحا متواليا آتية لا مهرب لها . ظنا منه أن « قانون المتوسطات يجعل المعدل يتساوى فى النهاية » حيث ــ فى الحقيقة ــ لا يوجد ــ فى الواقع ــ مثل هذا القانون الذى يجعل الأشياء تحدث على نحو أو آخر .

وهو أشبه برجل احترق مصنعه الذى يعمل فيه فقال « عشرة الاف مصنع فى هذه البلاد ولكن يبدو أنها الغت قانون المتوسطات وفسخته لانها اختارت مصنعا واحدا بالذات

هو الذى أعمل فيه •• ومن العجيب أن ذلك لا يحدث عندما اراهن فى السباق » (١) •• !!!!

أنه لا يصح القول بأن مصدر الانضباط هو حساب الاحتمالات الذى يقرر حتمية ظهور حالة معينة بنسبة معينة كلما تكررت احتمالات الظهور مرات معينة ــ وسنزيد هذه المسألة وضوحا فى بحثنا فى عجز العلم عن تجنب القول بالمصادفة ــ وذلك لأن من المقرر أيضا عند العلماء أن هذه الحتمية (ليست الا تصورا رياضيا ، يتصف بما تتصف به الرياضة من ضبط ويقين طالما لم يطبق ولكنه عند التطبيق ينشأ عدم اليقين ••) (٢) هذا ما يقوله برتراند راسل نفسه ــ وهو ملحد ــ ويقول الدكتور ليكونت دى نوى ــ وهو مؤمن ــ (لا يمكننا أن نثبت أن الفرص الضئيلة سوف تتحقق حتى فى نهاية بليون بليون قرن ، فقد تتحقق مرة واحدة منذ البداية ثم لا تعود ثانية على الاطلاق •) (٣) •

أما وقد تحقق هذا الانضباط بالفعل فى حالات معروفة فى الطبيعة فى انضباط المجموع الاحصائى للصغيرات ، وانضباط نسبة الوفيات فى بيئة معينة ، وانضباط نسبة الذكور الى الاناث فى المواليد •• الخ ••

فان الأمر يرجع اذن الى غير قانون الاحتمالات النظرى ••

وهنا أيضا تسقط دعوى العلم فى الاستغناء بالاسباب : مهما يكن تفسيره لهذه الأسباب ، عن الارادة ويعود للارادة حتما فى تفسير الظواهر •

بل هنا ينبغى أن نستنبط ما نسميه :

« دليل الانضباط الاحصائى الواقعى للصغيرات على وجود الله

ومحتوى هذا الدليل هو أن

---

(١) فن الاقناع للدكتور ليونيل روبى ص ٢٥٦ •
(٢) فلسفتى لبرتراند رسل ص٢٢٥ •
(٣) مصير البشرية ص ٣٣ : ٣٤ •

الصغيرات التى تتكون منها المادة لا تحتوى على قوانين تحكم سيرها، ومع ذلك فانه عندما تكثر هذه الصغيرات وتكون المجموع الكبير (الجسم) يدخل هذا المجموع تحت قوانين الميكانيكا المعروفة ، وهذه القوانين التى تتحكم فى سلوك الاجسام مجرد قوانين احصائية تعطى النتيجة المتوسطة لعدد كبير من الحركات دون حتمية تطبيقية ترجع اليها ودون حتمية ترجع الى الأصل المادى ، فهى اذن ـ أى هذه الحتميةأو هذا الانضباط الواقعى ـ تأتى من خارج الوضع النظرى لهذه القوانين ومن خارج الأصل المادى للمادة ، فهى اذن تحتاج فى تفسيرها الى ارادة الله سبحانه وتعالى .

* * *

٤ ـ ان برتراند راسل يهاجم رجال الدين فى محاولتهم الاستفادة بمبدأ عدم التحدد : من أجل اثبات وجود الارادة الالهية وراء الظواهر الطبيعية .

وهو يبنى هذا الهجوم على مغالطة :

فيدعى أنهم يحاولون اسقاط مبدأ العلية (١)

ثم يقول : (وان مبدأ العلية قد يكون صحيحا ، كما أنه من الممكن أن يكون غير صحيح ، بيد أن الأنسان الذى يبتهج بعدم صحته لا يدرك تماما معنى عدم صحة هذا المبدأ ، انه فى العادة يستبقى التسليم بكل ما يرغب فيه من قوانين العلية ، من مثل ان الطعام يغذى ، والبنك سيدفع له رصيدا مقابل شيكاته مادام له رصيد ، بينما يرفض من قوانين العلة مالا يلائمه ، وأى سذاجة أكثر سذاجة من هذا الموقف الطفلة) (٢) .

وهكذا يسلط راسل سخريته على رجال الدين ، وهى مردودة عليه لأنه ما أظن أنه يغيب عنه أن رجال الدين اذ يبتهجون بمبدأعدم التحدد لا يرون فيه اسقاطا للعلية مطلقا ، وانما يرون فيه دلالة على أن العلية

---

(١) والحقيقة انهم لا يفعلون ذلك .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون نظمى لوقا ص ٥٧ : ٥٨ .

كامنة وراء سلسلة الظواهر الطبيعية لا فيها ، ويرجعون بها الى أمر خارج عنها ، هى الارادة الالهية . ان رجال الدين أشد تمسكا بمبدأ العلية على النحو الذى يقررونه ، (وكنا وجدناه عند الامام الغزالى) لأنهم يرون فيه دليلا من أدلتهم على وجود الله ، وهذه السخرية التى ساقها راسل هو أحق بها ومن تابعه من منكرى وجود الله ، فهم الذين يستعملون مبدأ العلية فيما يروق لهم ، ويرفضونه حيث لا يروق ، انهم يرفضونه عند ما يكون طريقا للاستدلال على وجود الله ، بينما يقبلونه فى الاستدلال به على علية الظواهر ، بل انهم ليوغلون فى ذلك اذ يؤمنون بوجوده فى الظواهر ايمانا أعمى غير مستند الى البحث التجريبى الذى يعتمدون عليه (١).

واذا تبين ذلك يصبح لا مجال لايغال راسل فى السخرية من رجال الدين اذ يسجل عليهم أنهم مع محاولتهم اثبات صحة الدين من خلال مبدأ عدم التحدد يعودون فيحاولون أن يثبتوا (صحة الدين عن طريق الذرات التى تطيع قوانين الطبيعة ، وهو الرأى الذى يؤمن به السيرجيميس جينز .)

ثم يقول ساخرا (والغريب ـ أو لعله من المضحك ـ أن نرى رجال الدين يستوون فى حماسهم لكل من الرأيين ، وكأنما بات همهم كله استنقاذ العقيدة بأى ثمن وبأى وسيلة .) (٢)

هكذا يلجأ راسل الى هذا الأسلوب الساخر ، فى مقام جليل كهذا لتكشف مغالطته ، على رجال الدين ، الذين هم كما رأينا لا يسقطون مبدأ العلية مطلقا وانما يثبتونه راجعين به الى ما خلف الظواهر : الى الارادة الالهية ، ومن ثم يستشفون هذه الارادة فى كلتا الحالتين ، حالة التحدد ، وحالة عدم التحدد بل هم يرون فى التراوح بين الحالتين دليلا جديدا على « علية » ، « الارادة الالهية » انه

---

(١) وذلك عندما يصرون على وجوده بينما الفيزياء الحديثة تدل على عدم وجوده (مبدأ عدم التحدد

(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٥٩

لحق مشروع ــ منطقيا ــ للفكر الدينى أن يثبت مبدأ « الارادة الالهية » سواء ثبت مبدأ (عدم التحدد) أو ثبت مبدأ « الحتمية » لأنه فى كلا الحالين يقوم الدين على أن العلة الحقيقية كامنة وراء الظواهر .

ان افتراض حتمية القانون لايلغى الارادة الالهية كما لا يلغيها القول بعدم الحتمية .

***

حدوث العالم وفناؤه

أولا : الكون متناه حجما :
هذا ما يقرره العلم الحديث

فلقد تمكن أينشتين من ايجاد نصف قطر الكون ، وأنه يتوقف على متوسط كثافة المادة فى الكون .

« وبالتعبير الرياضى : وجد اينشتين أن نصف قطر الكون يتناسب عكسيا مع الجذر التربيعى للكثافة . »

وباستعمال أحسن التقديرات لمتوسط كثافة المادة فى الكون يكون التقدير الحالى لنصف قطر الكون هو ٢^٣٢ ميلا ، وترتيبا على ذلك يقول العلماء : انه اذا تمكن أحد الفلكيين يوما ما من بناء تلسكوب كبير بعيد المدى فاننا نستطيع أن نتخيل ما يمكن أن يحدث عندما ينظر أحدنا من خلاله :

(ربما يرى جسما لامعا مضيئا يشبه القمر ، وينمو على سطحه شجرة منحنية غريبة المنظر . وقد تمضى ساعات طويلة من البحث والتدقيق قبل أن تشرق عليه الفكرة بأنه ينظر الى صلعته اللامعة وقد اتم الضوء الصادر عنها دورته حول الكون وعاد ثانية .) [١]

يقول سير آرثر ادنجتون

(وبطبيعة الحال فان هذه الفكرة التى تتضمن فراغا كرويا مقفلا قد يصعب هضمها الى حد كبير ولكن من الحق انها ليست اسوأ من تلك الفكرة الأقدم المتعلقة بالفضاء اللانهائى المفتوح الذى لا يمكن أن

(١) النسبية فى متناول الجميع ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

يتصوره أحد فليس ثمة من يستطيع أن يتصور اللانهاية) (١) .

ثانيا : الكون متناه زمنيا :

يستدل العلم الحديث على أن للكون بداية من عدد من النتائج التى توصل اليها أخيرا :

١ ــ فهو متناه فى المستقبل ..

وذلك يستدل عليه من قابلية المادة للفناء كما تقرره الفيزياء الحديثة خلافا لما يعتقده المخدوعون من تلاميذ المدارس الثانوية واضرابهم (!!!)

يقول الدكتور جورج جاموف من مشاهير رجال الفيزياء النووية المعاصرين :

(ان ميكانيكا النسبية تؤدى الى احتمال وجود عالمين مختلفين : أحدهما موجب وهو الذى نعيش فيه والثانى غريب سالب : وهو مالا سبيل له سوى تحدى واعتراض سبيل تصوراتنا وأحلامنا .

وكتلة الاجسام فى هذا العالم السالب هى بدورها سالبة كذلك . ومعنى ذلك أنها عندما تدفع فى اتجاه معين تتحرك فى الاتجاه المضاد . وبطريقة التشابه أو المقارنة نستطيع أن نطلق على الكهارب التى لها كتل سالبة اسم الكهارب البليدة ..) (٢) .

ثم يقول :

(ونظرا لامكان وجود البروتونات والنيوترونات والكهارب التى تتكون منها ذرات المادة العادية وظهورها جميعا فى الحالات المضادة ، فان ذلك يعنى امكان وجود المادة المكونة من هذه الجسيمات) .

ومن اللازم أن تكون جميع

(١) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٦ ، ولا يطعن فى استدلالنا بهذه النتيجة التى توصل اليها اينشتين ما ثبت بعد ذلك من ان الكون فى حالة اتساع مستمر ، فهذا من حيث الاستدلال على نهاية الكون حجما مجرد تعديل جزئى وليس الغاء .

(٢) قصة الفيزياء ص ٣٥٤ ، وقد جاء اخيرا فى الانباء العلمية ان فريقا من علماء المنظمة الاوربية للبحوث النووية « سيرن » توصلت تجريبيا الى تخليق هذه المادة المضادة . انظر مجلة « اكتوبر » العدد ١١٤ فى ١٩٧٨/١٢/٣١ .

الصفات الكيموية والطبيعية للمادة المضادة هي عينها صفات المادة العادية ، والسبيل الوحيد الذي نستطيع به أن نقرر أن حجرين يتكونان من مادتين متضادتين فيما بينهما هو ضمهما معا فاذا لم يحدث شيء كانا من نفس النوع المادي ، أما اذا حدثت بينهما عملية افناء (١) ذريعة فهما من مادتين متضادتين ..

فهل مادة الكون بأسره من نفس النوع أي أن هناك أرجاء من نوع مادتنا وأخرى من المادة المضادة موزعة هكذا حسبما اتفق عبر الفضاء اللانهائي ؟

هناك رأي قوي بأن المادة المنتشرة في مجموعتنا الشمسية والتي تدخل في نطاق الطريق اللبني « طريق التبانة » هي من نوع واحد متجانس

ولكن السؤال هو : هل اقرب المجرات لنا في الفضاء مثل سديم اندروميدا العظيم وهل مئات ملايين مجرات النجوم الأخرى المتناثرة في الفضاء تتكون كلها من نفس النوع من المادة أم هي خليط مكون من ٥٠٪ من كل من المادتين ؟

واذا كانت جميع مادة الكون من نوع واحد فلماذا يكون الأمر هكذا .. ؟

واذا كان بعضها من المادة العادية .. وبعضها الآخر من المادة المضادة .. فكيف تم فصل هذه الاجزاء المميزة بعضها عن بعض ..

اننا لا نملك الاجابة عن أي من هذه الأسئلة (٢))

ولكننا نحن نتصدى للاجابة :

اذ هنا ينبغي ان نستنبط دليلا على وجود الله يمكن ان نسميه :

دليل الامساك : او دليل امساك المادة من الفناء ..

فحوى هذا الدليل : أنه مادام أن الفيزيا الحديثة تقرر أن المادة لها قابلية مستمرة للفناء وان هذا الفناء يحدث عندما تلتقي بمادة

(١) بينا في موضع آخر ان قانون بقاء الطاقة قانون افتراضي ، لابد منه للمنهج العلمي ، وليس معبرا عن حقيقة خارجية تجريبية .

(٢) قصة الفيزيقا ص ٣٦١ .

أخرى تماثلها تماما فى جميع الصفات وان شيئا ما يحدث آنذاك لا يعرفه العلم الا عند حدوثه فيسمى بعض هذه المادة (مادة عادية) وبعضها الآخر (مادة مناقضة) ..

فهذا يدل على أن عامل الحفظ وارد من خارج المادة ، كما يدل على أن عامل الافناء وارد من خارجها كذلك : وهو الله سبحانه وتعالى . وهو مصداق قوله تعالى : (ان الله يمسك السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من أحد من بعده ..) صدق الله العظيم .

❋ ❋ ❋

٢ ــ وهو متناه من جهة الماضى :

ويقول جورج جاموف عن تولد المادة من لا شىء وذهابها الى لا شىء وفنائها بالاشعاع :

(ذهب نيل بور .. الى أن قانون بقاء الطاقة لا ينطبق فى حالة تحللات بيتا ذات النشاط الاشعاعى ، وأنه فى حالة انبعاث جسيم بطىء من جسيمات بيتا تختفى كمية معينة من الطاقة ..

أما فى حالة انبعاث جسيم سريع من جسيمات بيتا فيكون من الممكن تولد كمية اضافية من الطاقة من لا شىء ..

وتبعا لهذه النظرية فان قانون بقاء الطاقة فى العمليات النووية الأولى ينطبق على المتوسط فقط) (١) .

وهذا الذى يقرره العلم الحديث من فناء المادة،يذهب ــ فى تقديرى ــ الى أبعد مما ذهب اليه شيخ الاسلام الشيخ مصطفى صبرى عندما استدل على فناء المادة بما اثبته العلم الحديث من تحولها الى ماليس بمادة (٢)

٣ ــ بل هناك دلالات علمية أقوى على أن للعالم بداية ،تستنتج مما توصلت اليه الفيزياء الحديثة عن تمدد الكون اذا أضيف ذلك .. الى ما تقرر عن تناهى الكون حجما:

يقول السير آرثرادنجتون عالم الفلك الانجليزى الكبير :

(من الاستنتاجات التى اخذناها عن النظرية النسبية أنه يجب أن

---

(١) قصة الفيزياء ص ٣٨١ .
(٢) موقف العقل والعلم حـ ١ ص ٢٣٧ : ٢٣٨ .

توجد قوة تعرف باسم « التنافر الكونى » تعمل على نشوء هذا النوع من التشتت الذى معه يتباعد كل جرم عن أى جرم آخر) (١) .

ولم تكن قوة التنافر الكونى هذه مجرد استنتاج من النظرية النسبية ولكنها من المسائل التى اسفرت عنها الملاحظة والرصد الفلكى فيما تم كشفه اخيرا من التباعد بين الاجرام ، يقول ادنجتون :

(والشىء الملحوظ الذى تم اكتشافه فيما يتعلق بالمجرات هو انها تجرى متباعدة عن مجرتنا ، وانها كلما ازداد بعدها عنا ازدادت سرعتها . وتنطلق المجرات بسرعات عاليه جدا) ..

ولماذا تجرى كلها متباعدة عنا ؟ اذا ما فكرنا قليلا فسوف نرى ان النفور لا يوجه مباشرة ضدنا ، فانها فى نفس الوقت الذى تتباعد فيه عنا اذا بها تتباعد بعضها عن بعض كذلك .. وهذا التمدد لا يتجه بعيدا عن مركز بالذات ولكن يسبب تشتتا عاما ..

ويسير الاتساع بالمعدل الحالى الى المدى الذى معه سوف تصل السدم الى ضعف ابعادها الحالية فى مدى ١٣٠٠ مليون سنة .. ونحن نعتقد أنه جنبا الى جنب مع تمدد اتساع الكون المادى يتمدد الفضاء نفسه ، وتتلخص الفكرة فى أن المجرات التى تمثل الجزر تتناثر عبر فضاء كروى يتمدد ..) (٢).

يقول سير ارثر أدنجتون :

(ان فترة ١٣٠٠ مليون سنة تعتبر زمنا قصيرا فى تاريخ الكون). فاذا أضفنا ذلك كله الى ما تقرر عن تناهى الكون حجما كان لابد أن نستنتج أن الكون متناه أيضا زمنيا

وهذا ما عبر عنه ارثر أدنجتون بقوله :

---

(١) العلم اسراره وخفاياه : حـ ١ ص ٩٧ .

(٢) انظر العلم اسراره وخفاياه للدكتور هارلو شابلى حـ ١ ص ٩٥ : ٩٧ والنصوص المأخوذة من السير ارثر ادنجتون نشرها فى مقال له عام ١٩٣٧ .

(ويعنى ذلك بالتـالى أننـا لا نستطيع أن نرجع القهقرى فى الزمن الى مالا نهاية) (١)

ويقول الدكتور هارلو شـابلى مدير مرصد هارفارد (من عام ١٩٢١ ــ ١٩٥٢) : (ان الارصاد الحديثة التى أخذت باستخدام منظار هيل تشير الى أن معدل تمـدد الكون آخذ فى التباطؤ) • (٢)

ثم يشير الى النظريتين السائدتين الآن الخاصتين بأصـل العـالم : النظرية التى تنادى بأن الكون نشأ أول ما نشأ فى لحظة واحدة عارمة •

والنظرية التى ينادى بها مجموعة من العلماء الانجليز وتذهب الى أن الكون نتيجة عملية نشوء مستمر من غير ابتداء أو انتهاء معين ؟

ويتساءل : أى هاتين النظريتين ترجحه الحقائق العلمية ؟

يقول :

(انه لما كان معدل التمدد يتباطأ فعلا ، وأن كثافة المادة تزداد بازدياد المسافة فان هاتين الحقيقتين تشيران الى كون خلق دفعة واحدة وراح يتطور ، وتتفقان ضد نظريات النشوء المستمر) •

❋ ❋ ❋

٤ ــ وتستنتج حقيقة أن للكون بداية ــ أيضا من القانون الثـانى للديناميكا الحرارية ••

فحوى هذا القانون أن الحرارة تسرى دائما من الاجسام السـاخنة الى الاجسام البـاردة ولا يحـدث العكس بتاتا ••

وأنه ليس فى الامكان تحـويل الحرارة الى طاقة ميكانيكية من غير أن يكون لدينا فائض أو مزيـد من الحرارة الهابطة من مكان سـاخن الى آخر بارد (٣) •

وبالرغم من السيد برتراندراسل ــ فاننا نجد فى هذا القانون ما يدل على حـدوث العالم ، واحتيـاجه لمحدث •

وسنترك السيد برتراند راسـل

(١) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٦ •
(٢) العلم اسراره وخفاياه حـ ١ ص ٩٩ •
(٣) قصة الفيزياء ص ١٥٦ : ١٥٨ •

نفسه يقدم لنا هذا القانون ودلالته.
يقول راسل :

انه اذا كان هناك فرق في درجة الحرارة بين جسمين متجاورين فان الأشد حرارة منهما يبرد ، والأشد برودة تأخذ درجة حرارته فى الارتفاع حتى يتساويا فى درجة الحرارة .

ولكن سرعان ما وجد أن للقانون معنى أهم من هذا بكثير ..

فالدقائق المادية فى الاجسام الشديدة الحرارة تتحرك فى سرعة كبيرة جدا بينما تلك التى فى الاجسام الباردة تتحرك بسرعة أقل .

وفى آخر الأمر يجد عدد من الدقائق السريعة الحركة وعدد من الدقائق البطيئة الحركة انهما فى حيز واحد فان الدقائق السريعة ترتطم بالبطيئة حتى تصل المجموعتان الى سرعة متوسطة مشتركة .

وتصدق الحقيقة المماثلة على كل صور الطاقة فحيثما وجد قدر كبير من الطاقة فى حيز ما وقدر ضئيل فى حيز مجاور مالت الطاقة الى الانتقال من الحيز الأول الى الثانى حتى يتم التساوى ..

وهذه العملية لا رجوع فيها

ويقول راسل :

(لعل من أعوص المسائل التى تعترض طريق العلم فى هذه الآونة الاخيرة تلك المشكلة التى تنجت عما يبدو لنا من انهيار العالم .

ذلك أن العالم مثلا به من العناصر الاشعاعية ما ينحل باستمرار الى عنصر أقل تركيبا ، ولا نعرف الوسيلة التى تتمكن بها من اعادة تجميع وتركيب هذه العناصر ..)

ونظرا لأن الكون المادى يعتبر الآن فى نظر الفيزيقا متناهيا ويتكون من عددمحدود وان كان غير معروف من الالكترونات والبروتونات فهناك حد نظرى للتجميع الممكن للطاقة فى بعض الاماكن دون الاخرى فاذا رجعنا بالبصر الى الماضى وجدنا بعد ايغالنا فيه .. أننا وصلنا الى حالة للعالم لا يمكن أنها سبقت بحالة أخرى وهذه الحالة الأولى هى

التى كانت فيها الطاقة موزعة توزيعا أبعد ما يكون عن المساواة (١)

ويشرح ادنجتون هذه النقطة فيقول :

« وكلما توغلنا فى ماضى الزمن وجدنا أن العالم يزداد تمايزا بالتدريج الى ان نصل الى لحظة كانت فيها قوى العالم متمايزة تمايزا كاملا ، ومن المستحيل ان تتجاوز هذه اللحظة ايغالا فى الماضى فالتمايز الذى تتكلم عنه يبلغ مرتبه الكمال، ولا توجد سلسلة لا متناهية من حالات التمايز الاعلى والاكثر علوا، وهذا التنظيم نقيض الصدفة ، فهو شىء لا يمكن حدوثه عرضا واتفاقا » ويعلق راسل على أدنجتون فيقول: (ويلاحظ أن ادنجتون فى هذه الفقرة لم يستنتج حدثا محددا للخلق بيد الخالق وليس من سبب يمنعه من ذلك الا عدم حبه لهذه الفكرة ، مع ان الحجج العلمية المؤدية الى النتيجة التى يرفضها أقوى بكثير من الحجج التى تعارضها ..

ثم يقول : (انى أعتقد أنه يجب التسليم بأن ما يمكن أن يقال اثباتا لفكرة ان الكون له بداية فى الزمان فى عصر ليس باللامتناهى فى قدمه يرجح كثيرا ما يمكن أن يقال اثباتا لاى استنتاج آخر) ..

وبالرغم من أن راسل يشكك فى سريان هذا القانون فى كل الأزمان على أساس غيبى متعنت قائلا : (قد لا يسرى القانون الثانى للديناميكا الحرارية على كل زمان ومكان) فانه يضطر الى أن يقول : (ينبغى علينا أن نقبل مؤقتا افتراض أن العالم له بداية ترجع الى وقت محدد وان كان غير معروف) (٢) .

وقد كان من البدهى ان يخضع راسل لهذه النتيجة وما تؤدى اليه من ان العالم من صنع خالق ..

ولكنه وقد وصل الى هذه النقطة يبدو وكأن قد اصابه مس .. فيذهب يرتكب حماقات عجيبة ..

انه يرفض التسليم بالخالق ، مفضلا عليه القول : (بأن الكون قد

(١) مجموعة عالمنا المجنون ص ٦٥ : ٦٧ .
(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٦ : ٧٠ .

بدأ تلقائيا) فاذا بدا له ان هذا قول عجيب ، قال شيئا اعجب ،قال: (انه ليس من قانون فى الطبيعة يقول ان مايبدو عجيبا لايمكن ان يحدث) !!!

وهو يفضل ان يرتكب هذه الحماقة العجيبة ، على القول بخلق الله للعالم ويرى ان قانون الطبيعة لا يقبل القول بالخالق (لان استنتاج « خالق » للعالم هو استنتاج علته ، ولايسلم بالاستنتاجات العلية فى العلم الاحين تبدأ من قوانين محسوسة والخلق من العدم لم يره أحد)(١).

هكذا : « الخلق من عدم على يد خالق » لا يسلم به العلم ، ولكن العلم يسلم بالخلق من عدم اذاكان لاعلى يد خالق ..

هكذا : « الخلق من عدم لم يره أحد » على يد خالق لايسلم به العلم ولكن العلم يسلم بالخلق من عدم لم يره أحد اذا لم يكن على يد خالق

ماأعجب هذا الحضيض الذى وصل اليه عقل الفيلسوف ..

ما أصدق أنيقال عن راسل ماقاله هو عن ادنجتون (انه لم يستنتج حدثا محددا للخلق بيد الخالق ، وليس من سبب يمنعه من ذلك الا عدم حبه لهذه الفكرة) وما أصدق بسكال حين أخذ يعلل لاصرار الملحد على الحاده وهو ينطبق أعظم الانطباق على راسل فى هذا الموقف وفى غيره من المواقف التى تتابعها :

يقول بسكال : (ان مايجعل الملحد متصلبا فى الحاده ليس ضعف الشواهد الموجودة فىالعالم المنظور بل قرار اتخذته الارادة والعواطف . والعيب الرئيسى فى مذهب للالوهيةمبنى علىالاعتبارات الرياضية والفزيائية وحدها هو انه لايلتفت الى المشكلات والدوافع الانسانية التى تشكل فى نهاية الامر موقف الانسان من الله) . (٢)

د. يحيى هاشم حسن

---

(١) مجموعة عالمنا المجنون ص ٧٠ .

(٢) الله فى الفلسفة الحديثة تاليف جيمس كولينز ترجمة فؤاد كامل نشر مكتبة غريب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين عام ١٩٧٣ ص ٤٦١ .

الإسلام : شريعة عالمية

للأستاذ زاهر عزب الزغبي

١

لا بد للمجتمعات البشرية من ضوابط تنظم العلاقات التى تربط على الأقل بين أفرادها .. ومهما كانت هذه المجتمعات فلا بد من هذه الضوابط والا فسدت أحوال المجتمع وآلت حاله الى انحلال وزوال..وحتى فى أشد المجتمعات بدائية تجد هذه الضوابط على شكل عادات وأعراف اصطلح الأفراد على احترامها واتباعها .. فاذا ما ارتقت المجتمعات وأصبحت أمة ذات سيادة وسلطة حاكمة فان الضوابط هنا تتخذ شكل القوانين الآمرة الملزمة .. وهذه القوانين تحل محل العادات والتقاليد فى تنظيم أمور الناس ومعاملاتهم وعلاقاتهم .. وهنا لا يكون ثمة اعتبار للعرف أو التقليد اذا تعارض مع القانون ، وانما تصبح العبرة بنصوص القوانين وروحها ومقاصد مشرعيها .. ولكن تبقى لعادات الجماعة وتقاليدها فعاليتها حيث يعسر على الشارع أن يستقصى بالنصوص القانونية كافة التفاصيل الجزئية فى الحقوق والالتزامات المتقابلة .. وهكذا تجد أن القوانين لا تبطل كلية التقاليد والعادات والأعراف الانسانية ، وانما تهذبها فتبطل وتنسخ منها ما كان غير صالح لنظام الجماعة ، وتعترف ببقاء الصالح منها حيث تظل تؤدى مهمة تنظيمية ولكنها فى هذه المرة تقوم بوظيفة المساعد للقانون بدلا من أنها فى ــ ميدانها الأول ــ كانت هى القانون ذاته .

ومؤرخو التشريع جميعا يثبتون نظرية متفقا عليها : وهى أن القانون

لم ينشأ دفعة واحدة ، وانما بدأ بالاعتراف ببعض العادات والأعراف وجعل لها الاحترام الملزم .. ثم ارتقى القانون شيئا فشيئا فوضع الأسس الحقوقية والقواعد القانونية العامة .. ولكن أهم مراحل الرقى التشريعى كانت هى تلك المرحلة التى تجسدت فيها الحرية الحقيقية فيما يسمى بالعقود ، ونظمت واحترمت نتائجها على نحو لا يجعل من حرية التعاقد ذات مساس أو اضرار أو حيف بحقوق وحريات غير المتعاقدين أو بالنظام العام للجماعة أو بآدابها المرعية .

والتطور التشريعى لم يكن أبدا منفصلا عن سير التطور العام للجماعات البشرية وتدرجها فى مدارج الرقى وأطوار التقدم المدنى. ففى الجماعات البشرية التى تحيا حياة ذات آفاق محدودة تجد قوانينها بسيطة محدودة ولكنها تفى بحاجة الجماعة فى تنظيم شئونها وأمور حياتها .. أما فى الامم التى سجلت تقدما مدنيا راقيا تجد قوانينها كثيرة متشعبة ودقيقة فى نصوصها ؛ والى جانب نصوص القوانين نجد فقه التشريع (أى نظريات قانونية) وشروح لهذه النصوص مما يعين القاضى حين تطبيقه للقانون على الاجتهاد برأيه فى فهم النصوص والقياس عليها بصورة توسع استيعاب تلك النصوص المحدودة الى آفاق غير محدودة بمراعاة العلل التى راعاها الشارع ، وتحكيم علل ودلائل هذه النصوص .

•ومن ثم يمكن القول أن القانون بوجه عام فى أية أمة من الامم ليس الا صورة صحيحة لحياتها الاجتماعية واقتصادية ، والهدف منه اقامة العدل وحفظ حقوق الفرد والجماعة بقواعد قانونية ملزمة .. وهذه القواعد تكون وقتية ومحلية اذا كانت قد سنت لتعمل فى مجال له أوضاعه الخاصة ذات الطابع العرفى الاقليمى .. ولكنها تكون صالحة للدوام وللتعامل بها على نطاق دولى اذا كانت تعبر عن مفاهيم وحقائق ثابتة مسلم بها على نطاق انسانى عام ، او اشتملت على

قواعد عدلية عالمية كقاعدة منع الضرر والعقاب عليه وايجاب التعويض عنه ، وكقاعدة عدم سريان حكم العقد الا على عاقديه وعدم تأثيره فى حقوق الغير .

ومن المسلم به بين فقهاء القانون أن العدالة لا تتعدد وجوهها أو صور الحقوق أمامها . ولذلك كان تعدد أوجه العدالة فى شريعة ما مما يعيبها ويجعلها غير صالحة للتعامل فى مجتمع متمدين يحترم العدالة ويجلها .. ومن العيوب التى طعنت بها الشريعة اليهودية أنها فى بعض صور التعامل كانت تبيح لليهودى أن يغبن عميله اذا كان أجنبيا بينما كانت تحرم هذا الغبن نفسه اذا كان الطرف الآخر فى التعامل يهوديا .

« لا تقرض أخاك بربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا . للاجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك » (تثنية : ٢٣ / ١٩ ، ٢٠) .

وعابوا عليها أيضا أن بعض الجنايات كان يضيع قصاصها اذا أدى الجانى مالا للهيكل وعفا عنه الكهنة .

وكانت الشريعة الرومانية أيضا معيبة من حيث أنها كانت تقنن للنبلاء الرومان حقوقا معينة وليس لسواد الشعب نظيرها .. وكذلك كانت الشريعة الرومانية تحتوى على تشريعات خاصة لا تسرى الا على سكان الأراضى الرومانية نفسها بينما كانت تحتوى على تشريعات مخالفة لتطبق فى المستعمرات والأراضى الخاضعة .

ووظيفة القانون فى حياة الأمة جليلة وخطيرة .. وللقانون فى حياة الأمة ثلاث وظائف كبرى هى : العلاج ، والوقاية ، والتوجيه .. وحتى يتمكن القانون من أن يؤدى وظيفته يجب أن يكون ملزما obligatory .. والقانون اما أوامر أو نواهى ، ولكى تتوفر للقانون الطاعة والالتزام فى العمل به يحتاج الى

نوع اضافى من الأحكام التشريعية يسمى بالمؤيدات : وهذه اما زواجر مدنية كبطلان العقود المخالفة للقانون ، واما عقوبات تأديبية كالسجن والغرامات المالية لكى يضطر المكلف الى التزام حدود القانون وطاعته .

ومن ثم يمكن تقسيم أحكام التشريع الى نوعين : (١) أحكام محمية وهى القانون الأصلى ، (٢) وأحكام حامية ، وهى المؤيدات

ولكن الشرع كضوابط ملزمة يجد فيه دائما الأذكياء ثغرات يخالفونه منها وهم آمنون من العقاب ، فما لم تكن نصوصه مقدسة ومحترمة فى نفوس الناس لاستطاعوا أن يحققوا منافعهم ومطامعهم غير المشروعة اذا آمنوا العقاب بالمغالطة الذكية فى تأويل نصوصه ، أو بالتخلص من الدليل الذى يدينهم أمام من وكل اليهم أمر تطبيقه وتنفيذه .. ولهذا كان التشريع شيئا قاصرا اذا لم تسنده عوامل أخرى ذات صلة وثيقة بضمير الانسان ونفسيته وأخلاقه .

والاسلام كدين قد كفل صلاح البشر أفرادا وجماعات بالتربية والتنظيم .. وقد اعتنى الاسلام أول ما اعتنى بمخاطبة عقل الانسان وضميره ووجدانه فأتاح للضمير أن يعتبر المثل الأخلاقية حين يتعامل فى نطاق الشريعة ..

والشريعة الاسلامية : اسم للنظم والأحكام التى شرعها الله أو شرع أصولها ، وكلف المسلمين اياها ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله وعلاقتهم بالناس . وهى على هذا ذات شقين متميزين .. الأول منهما عبارة عما ينظم ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون الى ربهم ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم فى الايمان به وطاعته والتودد اليه ، وهذه تسمى بالعبادات .

أما الشق الثانى فهو مجموع القواعد التى تنظم حياة الناس . فتحفظ لهم المصالح ، وتدفع عنهم المضار سواء كان ذلك فيما بينهم وبين أنفسهم أم فيما بينهم وبين

الغير على وجه تمتنع معه المظالم ويسود العدل والامن والاطمئنان. وهذه أطلق عليها الفقهاء المسلمون اسم المعاملات .

والشريعة الاسلامية تبنى على أساس متين من عقيدة قوامها الله الواحد الذى لا مثيل له ولا شريك، الخالق القادر العليم ، الذى خلق الناس واليه معادهم حيث سيبعثون — بعد انقضاء حياة الدنيا الفانية هذه بالموت — فى حياة أخرى شاء الله لها أن تكون خالدة ، وفيها سيحاسب الانسان عما قدم من أعمال فى دنياه ليلقى عليها جزاء عادلا فى أخراه : فاما ثوابا بالنعيم الخالد واما عقابا بالعذاب المقيم .. ولهذا كانت الشريعة الاسلامية على خلاف غيرها من التشريعات والتقنينات الوضعية التى تستمد قوتها من يقظة رجل البوليس وحنكة القاضى ... فهى تعتمد أساسا على الايمان بالله الذى لا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء والذى لا تخفى عنه خافية .

والاسلام فى معالجته الاصلاحية للانسان قد استهدف ثلاثة أهداف أساسية كل منها نتيجة لما قبله وأساس لما بعده .

أولا — تحرير العقل البشرى من رق التقليد والخرافات ، وذلك عن طريق العقيدة والايمان بالله ، وتوجيه العقل نحو معنى الألوهية بالدليل والبرهان والتفكير العلمى الحر .

ثانيا — تربية ضمير الفرد واصلاح نفسيته ، وذلك عن طريق تعريفه بالمثل الأخلاقية واشباع نفسه منها ، وتوجيهه نحو الخير والاحسان وكل ما هو واجب أو أصلح ، ومنع شهواته ومطامعه الغريزية من أن تتغلب على عقله ومسئولياته ، وتذكيره دائما بالله الجدير بالعبادة ، وبما ينتظره من ثواب وعقاب فى الآخرة لكى يظل المؤمن فى مراجعة دائمة لأعماله وفى يقظة دائمة كى لا يقصر فى واجباته .

ثالثا — تحقيق العدالة والامن والحريات فى مجتمع صالح .

ومن أجل الهدف الأول كانت أصول العقيدة والايمان .. ومن أجل الثانى كانت العبادات ..ومن أجل الثالث كانت المعاملات .

وهذه المعامـــلات فى جملتها عبارة عن نظام مـــدنى شمـــل جميع الأسس القـــانونية اللازمة لاقامـة حيـــاة اجتماعية مدنية راقية فى دولة من شأنها أن تنظم علاقات الناس مع بعضهـم البعض وعلاقتهم بالسلطةالحاكمة ، وتكفل صيانة الحـريات وكافة الحقـوق الخاصة بالأفراد وكذلك الحريات والحقوق العامة للمجتمع .. ومن ثم وصف الاسلام بأنه «دينودولة»

ومن الخطأ الفاحش.اعتبـار جانب الدين فى الاسلام دون الدولة ، أو اعتبار جانب الدولة منـه دون الدين . أو بالأحرى اعتبار عقيدته وشعائره التعبدية ومثله الأخلاقيـة دون اعتبار للجانب المدنى البحت منه . أو العكس .. فالاسلام كل مترابط ، وقد يساء فهم الحقيقة اذا جزأناها فيســاء تطبيقهـا وتظهـر بصورة مشوهة أو غير لائقة .

والجانب التعبدى من الشريعـة الاسلامية قد استهدف منه أساسا أن يكون طهـارة للقلب وتزكيـة للنفس وتقوية للايمان بالله وتدعيما للصلة بين المؤمن وربه وباعثا على امتثال أوامره والمحافظة على شريعته الا أن الله جلت حـكمته قد رسم شعائرهـا وصاغهـا مراسم تفيـد الانسان فى حســه وفى جسمه ، فى عقله وفى بدنه .. فبالاضافة الى المعنى التهجـدى فى العبادات نجد فيها أيضا مصلحـة الانسان واضحة جلية .

وفى المرة الثانية التى نزل فيها الوحى على رسول الله صـلى الله عليه وسلم كان يبلغه قوله تعالى :

«يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجـز فاهجر » (بداية المدثر) .

فالاسلام اذ يبدأ الدعوةبالتعريف بالله والحض على النظافة والطهارة البدنية والروحية فانما يضعمصلحة الانسان وصحته موضع الاعتبـار والرعاية .

والعبادات هى : الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ،وهذه الأربع بعد التصديق بالرسالة والاقرار بوحدانية الله تمثل أركان الاسلام وعمده .

قال صلى الله عليه وسلم :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وايقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا » .

والصلاة شعيرة تعبدية فرضها الله لتصلح روح الانسان وبدنه معا وتحقق له كثيرا من المصالح الدنيوية .. فأول شروط صحتها أن يكون الانسان على طهارة البدن ، وطهارة البدن لا تتوفر الا بالاغتسال اذا تحقق موجبه أو بالوضوء .. وكذلك طهارة الثوب والمكان .. وبذلك ضمن الاسلام للانسانية نظافة دائمة فى البدن وفى الملبس وفى الوسط الذى يعيش فيه .. ثم ان الصلاة قد فرضت فى أوقات محددة خمس مرات فى اليوم .. وهى تبدأ بالتوجه الى الله فى النية والاجلال له بالتكبير ، ثم الخلوص له بالبسملة ثم حمده على نعمه ، والافصاح عن الوهيته ووحدانيته والاقرار له بالعبودية والتماس الهداية والفلاح منه تعالى فى الفاتحة.. ثم التهجد له بالقراءة ، ثم تأكيد الخشوع والخضوع فى الركوع والسجود .. ثم الانصراف من وقفة العبادة بالسلام والرحمة.

والصلاةصلة روحيةبين الانسان وربه ، أو رحلة الى الله تتكرر كل يوم خمس مرات ، وبها يستفتح الانسان يومهويختتمه ، وهىتذكرة دائمة حتى لا يضعف ايمان المرء أو تهن عقيدته ، أو تضعفروحهفتتغلب عليه شهواته ، أو يغلظ حسه فيقل تقديره للمثل الأخلاقية أو يقل اهتمامه لأحكام الله الشرعية ..

وهى فوق ذلك رياضة بدنية تقوى أعضاء الجسم وتنشط وظائفها الفسيولوجية .

ومن تمام فائدة الصلاة أنتكون فى جماعة حيث يستزيدالمؤمن بوعيه

الاجتماعى عزة ، وحيث تنتفى بهـا الفوارق أمام الله فيزيد فى الانسان الشعور بالكرامة .

وفى كل اسبوع ينعقد بها مؤتمر محلى فى صلاة الجمعة حيث تزيد مراسمها موعظة يلقيها خطيب هـو فى العادة أفقه الحاضرين وأكثرهم علما وأوسعهم اطلاعا فيعـالج بها احدى المشاكل ويلتمس لها حلولا أو يشرح فيها حقيقة تتعلق بأمـور الدين أو الدنيا ويوضح غوامضها ويبين عن مغاليقها .

أما الصوم فهو امساك عن أهم شهوات النفس وأهـم ضرورات البدن فرضه الله ليـكون تعبدا له وتقربا اليه ، برهانا على الخضوع والاستسلام لسلطان الله ، وتمجيدا لعظمته ، ولكنه أيضا رياضة تفيـد الانسان فى روحه وحسه وبدنه . انه استسلام وخضوع لأوامـر الله بالطاعة ، واختبار لارادة المسلم فى مجاهدة النفس وحملها على الطاعة والاستسلام ، وتعويد للمؤمن على الصبر ، ورياضة له على كبح جماح الشهوات وعلى منـع النفس من الاسترسال فى التوقان الى الحصول على المتع والملذات ، وان الصـوم أيضا لتجربة يجتازها المسلم فيشعر بألم الحرمان وقسـوة الحـاجة ومضض الجوع .

وهذه التجربة تجعـله ــ ان لم يكن قد ابتلى بمحنة الفقر ــ بمعزل عن واقع الحياة فلا يقـدر باتزان الظروف العصيبة التى ينوء بها كاهل الفقراء .. وفضلا عـن ذلك فان هذه التجربة تجعله ايضا ــ ان كان على قدر من الغنى ــ يقدر باتزان القيم الحقيقية فى الانسان والمال ، فلا يترك للمال أن يطغى على انسانيته فيصاب بالغرور وبالبطر استعـلاء وتكبرا ، أو يعتريه الجبـن خشية الفقر فيصاب بالشح والبخـل .. وكثيرا ما نرى من بين الأغنياء من تجبروا وطغوا وسعوا فى الأرض فسادا بسبب ما يمتلكونه من مال ، ونرى من بينهم أيضـا من كانت أموالهم سببا فى انهم قد امتهنوا كرامتهم واستذلوا أنفسهم وعاشوا وهم فى خشية من الفقـر عيشة

أحسن منها وأكرم عيشة الفقراء . فالصوم فضلا عن أنه عبادة دينية يعتبر أنجع علاج نفسي ضد بسطة الغنى وعوز الفقر ، وهو أيضا علاج بدني ووقايةمن أدواءالتخمة وراحة للجهاز الهضمي بصفةخاصة وللجسم كله بصفة عامة .

وقد شاءت حكمة الله وعدالته أن يكون الصوم كسائر العبادات اجراء محتملا يطيقه أواسط الناس بلا جهد شاق ، ولكنه في نفس الوقت على قدر كاف للغرض منه ومحصل للفائدة المرجوة فيه .. تقدير الهي حكيم بلا اسراف أو تقتير .

والاسلام لم يغفل ابدا عن المعالجة في المجتمع الذي خطط مشروع تكوينه .. فالحج فضلا عن أنه عبادة وطاعة يستلهم فيها المؤمن جلال الله وعظمته في موطن الوحي ومنبع الرسالة فهو أيضا مؤتمر عالمي يلتقي فيه المسلمون على صعيد واحد من شتى أنحاء الأرض فيتدارسون ويتشاورون فتمتزج المعارف وتتوالد التجارب وتتوطد العلاقات وتتدعم الأخوة في الله تحت راية الاسلام وفي كنف الأمان والاطمئنان .. واذا كانت المؤتمرات المحلية قد كفلتها الصلاة في الجماعة والجمعة والعيدين فان الحج مؤتمر عالمي عام فرضه الله على القادر مرة في العمر وأجزل الثواب لمن لم يكتف بالمرة الواحدة كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وعلى هذا النحو درج الاسلام في أن يتيح للمسلم أن يستفيد من شعائر العبادة التوقيفية في شئون دنياه .

وقد امتازت عبادات الاسلام على غيرها من عبادات الأديان السابقة من حيث أن الاسلام قد راعى أن تكون العبادات كلها تكليفا يخاطب ضمير الانسان وحده ويترك لهذا الضمير حرية الاقامة وحرية الآداء فلا وسيط من كهانة ولا من ضرورة لتدخل أي عنصر غريب يسيطر على هذا الضمير أو يكون شرطا لقبول العبادة ولو نيابة عن الله ، فلا ضرورة للهيكل أو للسدنة حتى تصح الصلاة .

فالاسلام قد حرر الانسان فى عقيدته وحرره فى عبادته .. فلا اله الا الله ولا سلطان على الانسان لأحد سواه .. والانسان فى نظر الاسلام مخلوق حر مسئول..ومن شأن الحر أن يترك لضميره ، وأن يخلى بينه وبين مسئوليته ، فاذا لم يرع واجبات هذه المسئولية لم يكن منصفا لنفسه ، والله بهكفيل ، فاليه المعاد ؛ وعنده سيلقى كل امرىء عادل الجزاء .

واذا كنا قد أتينا على ذكر الجانب التعبدى من الشريعة الاسلاميةملمحين بايجاز الى بعض ما يمكن أن تلمحه المقول من حكمة التشريع فيه ، والله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين ، وسيظل العقل البشرى على الدوام قاصرا عن تلمس كمال حكمته ومدى جلاله وعظمته ، فان الجانب القانونى القضائى منها على كثرة ما تعرض له من النقد قد وقف صامدا أمام التجارب ليثبت أنه التشريع الكامل الصالح الذى لا يخذل الانسان ولا المجتمع الانسانى كلما التجأ اليه فى طلب للعدل والامن والاستقرار .

والنظام القانونى القضائى فى الشريعة الاسلامية قد تضمن قواعد وأحكاما أساسية فى كل من ميدان الحقوق الخاصة بفرعيها المدنى والجنائى وميدان الحقوق العامة بفرعيها الداخلى والخارجى ، أى الادارى والدولى .

وفى جميع هذه قد أتت الشريعة الاسلامية بنصوص تتضمن مبادىء أساسية ، وتركت ــ فيما عدا بعض الفروع الضرورية كفريضة الزكاة ، ونظام التوريث ــ التفصيلات الفرعية للاجتهاد فى التطبيق ، بحسب المصالح والمقتضيات الزمانية والمكانية .

ولقد تكاملت تفاصيل الشريعة الاسلامية عند تطبيق مبادئها الكلية فى جنبات الامبراطورية الاسلامية الواسعة التى شملت أجناسا وأقواما من البشر عديدين لهم ظروفهم المتباينة كل التباين وثقافاتهم وحضاراتهم المختلفة كل الاختلاف .

وكنتيجة لهذا التطبيق فى هذه الظروف المختلفة نشأ أيضا فقه تفسيرى وتفصيلى حول النصوص الأصلية فى الشريعة ، فقد ضبطت طرق استنباط المبادىء والأحكام الكلية من النصوص ومن غيرها من مصادر التشريع كفتاوى الرسول واجماع المسلمين ووضحت باحكام طرق استعمال القياس عند دوران العلل مع أحكامها وجودا وعدما .

وكانت هذه القواعد الاصولية (أو ما أطلق عليها علم أصول الفقه) نبراسا وهديا سار عليه الفقهاء فى فتاويهم (و القضاة فى أحكامهم) .. ومن مجموع هذه الفتاوى والأقضية مع حيثياتها تكون علم الفقه ذاته الذى يعد حتى الآن على الأقل أعظم وأوسع تراث قانونى عرفته الانسانية وقد نشأت فيه مذاهب فقهية قانونية كثيرة أشهرها أربعة مذاهب وهى : مذهب الأحناف ومذهب الشافعية ومذهب المالكية ومذهب الحنابلة .

وقد اختلفت هذه المذاهب فى كثير من القضايا ولكنه كان اختلافا فى التفسير القانونى للنصوص التشريعية ، وليس على أية حال اختلافا دينيا .. وبهذا الاختلاف المذهبى فى تفسير النصوص أهدى الاسلام الى البشرية ثروة تشريعية عظمى سواء فى نظرياتها القانونية أم فى تطبيقاتها القضائية ..

واذا نحن استعرضنا بايجاز النظام القانونى فى الشريعة الاسلامية أمكننا أن نكون فكرة صحيحة عن مدى دقة هذه الشريعة وصلاحيتها الدائمة فى تنظيم الحياة الانسانية .

والقسم القانونى القضائى من الشريعة الاسلامية نظام قانونى كامل .. وككل قانون كامل ينقسم الى قسمين رئيسيين : الأول الحقوق الخاصة ، والثانى الحقوق العامة .

أما القسم الأول فينقسم بالتالى الى قسمين : الأول منهما هو القانون المدنى وثانيهما هو القانون الجنائى .

والحقوق العامة تنقسم ايضا الى قسمين رئيسيين : أولهما القانون الاداري والثانى القانون الدولى .

وسنبدأ فى شرح هذه الفروع الأربعة كل على حدة :

أولا : القانون المدنى :

أ ـ الشخصية القانونية :

حصرت الشريعة الاسلامية الشخصية القانونية فى الانسان وخاطبت بالتكليف كل فرد من أفراده .. فالفرد الانسانى هو الشخصية القانونية الطبيعية فى نظر الشريعة الاسلامية .. ولكننا فى نفس الوقت نلمح فى بعض الأحكام الشرعية اعترافا ضمنيا بمبدأ الشخصية القانونية الاعتبارية .. وذلك فى كل ما هو كفرض الكفاية فالمطالب به جماعة المسلمين وكدية المقتول التى تلتزم بها العاقلة .

والتعريف الفقهى للشخصية القانونية هو : صلاحية الشخص لاكتساب الحقوق والالتزام بالواجبات .. أو بعبارة أوضح كون الشخص أهلا للخطاب والتكليف.

وتبدأ الأهلية المدنية فى نظر الشريعة الاسلامية بولادة الانسان وتنتهى بوفاته ، ولكنه لا يستطيع أن يزاول موجبات هذه الأهلية الا ببلوغه سن النضوج الانسانى. يستوى فى ذلك الرجل والمرأة .. ويشرط أن يكون هذا الانسان فى درجة كافية من القوة العقلية ، والا ظل كالطفل ناقص الأهلية ، وتنتقل حقوقه والتزاماته الى الولى أو الوصى أو القيم يباشرها نيابة عنه بما فيه مصلحته .

ب ـ المعاملات والحقوق المدنية :

شملت الشريعة الاسلامية كافة أنواع المعاملات المدنية فرسمت القواعد المضبوطة التى يمكن على أساسها التفريع والقياس لاستنباط الحكم العادل فى أية قضية من أى نوع من أنواع التعامل المدنى .. فالبيوع والمزارعات والمقايضات وطرق استغلال الأموال فى الأعمال التجارية ، والاجراءات القضائيةفى رفع الدعاوى واستدعاء الخصوم وسماع الشهود ، وانهاء الخصومات

بالعجز عن اقامــــة البينــــة أو بالمصالحات أو بالتنازل ، وسقوط بعض الدعاوى لبعض الأسبــاب كموت الخصم أو عــدم جــواز سماعها للتقادم أو للتراخى فى رفعها كما فى الشفعة .

وعلى الجملة فان القانون المدنى فى الشريعة الاسلامية يحتوى على كل الأنواع والفروع التى تشملها القوانين الحديثة ولكن بصــورة أكثر دقة فى تحقيق العدالة .

واذا جارينا التبويب الحــديث للقوانين المعمــــول بها فى الأمم المتحضرة .. أمكن تقسيم القانون المــدنى فى الشريعــة الاســلامية ــ بصورة تقريبية ــ الى الأبواب التالية :

١ ــ قــانون الاجــراءات القضائية .

٢ ــ الالتزامات .

٣ ــ العقود .

٤ ــ الأحوال الشخصية .

١ ــ قانون الاجراءات القضائية

وفى قانون الاجراءات القضائية اعتبرت الشريعة الاسلامية أن جميع الالتزامات مضمونة بتأييد القاضى، وجعلت للقاضى سلطات واسعة غير محــدودة فى اجبــار كل انســان ــ ولو كان الخليفة ــ على تنفيذ التزامه . وحوادث قضاء القضــاة على الخلفاء والملوك معروفة وكثيرة فى التاريخ الاسلامى .

وقد أوجبت الشريعة الاسلامية مواصفات خاصة يتعين أن تتوفــر فى القاضى : وأهم هذه المواصفات أن يكون متفقها فى أمــور الدين والشريعــة ، وأن يكون ســليم الحواس ، وأن يكون فوق مستوى الشبهات مشهودا له بالنــزاهة والتجرد عن الأطماع والتعصب .. ويتحتم عــلى القاضى أن ينــزل المتخاصمين منزلا متكافئا فى مجلس القضاء فلا فضل لأحــدهما على الآخر مهما كان مركزه الاجتماعى بل الكل أمام العدل سواء ..

وتسمع دعوى صاحب الحق أو وكيله ، والبينة على المدعى « سواء

فى الدعوى الأصلية أم فى الدفوع الفرعية » ، واليمين على من أنكر . فان رفض المدعى عليه حلف اليمين ألزمه القاضى بحلفهـــا والا قامت الحجة عليه ولزمته الدعوى .

وأول الأدلة الاقرار .. واقـــرار الشخص لا يسرى الا على نفســه وحقوقه.. ويجب أن لا يعيب هذا الاقرار أى شائبة من الضغط أو الاكراه على أى نوع كان هـــذا الضغط أو الاكـــراه .. ثم يلى الاقرار فى الترتيب من أنواع البينة الشهادة .. ونصابهـــا فى ســائر الحقوق المدنية رجلان أو رجـــل وامرأتان ، ولا تنعقـــد بالنســاء وحدهن الا فيما تحتمــه طبيعـــة الجنس بأن كانت أمـــورا لا يطلع على وقائعها سواهــــن ، كالمسائل المتعلقة بالحيض والولادة وغيرهـــا من الأمور النسائيـــة الخاصـــة ، وبعضها يكفى فيه شهـــادة المـــرأة الواحدة..ويلى الشهادة من أنواع البينة الظروف والوقائع المـــادية ، وهذه يترك لضمير القاضى وخبرته تقدير قيمتها فى اثبات الدعوى ، فان لم تسعف القـــاضى خبـــراته الخاصـــة فى هذا المجال وجب عليه أن يستعين بأهل الخبرة .

وقد نبه الاسلام الى أهمية الصك الكتابى كوثيقة مثبتة للحقـــوق فى المعاملات والمبـــادلات المالية حيث جاء فى القرآن الكريم وصف لأدق ما ينبغى أن تكون عليه الصكوك المستندية :

« يا أيهـــا الـــذين آمنـــوا اذا تداينتم بدين الى أجـــل مسمى فاكتبوه وليـــكتب بينـــكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليـــكتب ، وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئـــا ، فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هـــو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبـــوه

صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ، واشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم • وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته • وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم » (البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣) •

وهكذا راعت الشريعة الاسلامية أصولا دقيقة فى ضبط المعاملات وثبوتها لا تجد خيرا منها فى أى من القوانين الأخرى •

وقد راعت الشريعة أيضا التسهيل فى المعاملات التجارية الدائرة أو ما يسمى فى الاصطلاحات الحديثة بالحسابات المفتوحة فلم تجر عليها أحكام الديون الثابتة ••

وهذه الشروط والقواعد التى تضمنتها الآية من حيث اثبات التعامل بالصكوك المحررة ليست من قبيل الشروط اللازمة بحيث يضيع الحق باهمالها ولا تسمع الدعوى فى الدين اذا لم يكن بصك كتابى •• ولكنها من قبيل الأولى ، وتركها ليس الا تركا للاولى وانما العبرة بالاشهاد أو بأى نوع آخر من طرق البينة •• ولذلك ركزت الآية على الاشهاد واهتمت به أكثرمما اهتمت بكتابة الصك ••كما أهابت بضمير الذى اؤتمن على دين أو وديعه — شغلت ذمته بأيهما دون احتياط ثبوتى سواء بالكتابة أو بالاشهاد — أن يتقى الله ويؤدى الأمانة ولو لم تلزمه البينة •

وفى الحقوق المدنية كما فى القانون الجنائى أجازت الشريعة الاسلامية لغير صاحب الحق أن يرفع الدعوى حسبة لصالح الجماعة فى تحقيق العدالة•• والحسبة نظام يقابل نظام النيابة العمومية فى العصر الحديث •• وقد أجازته

الشريعة الاسلامية فى بعض الحقوق المدنية كما أوجبته فى الدعاوى الجنائية .

٢ ـ الالتزامات :

اعتبرت الشريعة الاسلامية كل فعل ضار بالغير موجبا مسئولية الفاعل أو المتسبب والتزامه بالتعويض عن الضرر ولو كان عن خطأ .. فان كان عن عمد وجب أيضا عقوبة الفاعل أو المتسبب .. ويقابل هذا فى القوانين الحديثة نظرية « سوء استعمال الحق ».. والشريعة الاسلامية لا تؤسس هذه النظرية على المعيار الشخصى وحده ـ كما فعلت كثير من التشريعات الحديثة ـ بل تضيف الى ذلك معيارا ماديا.. فهى تذهب الى حد تقييد استعمال الحق بالغرض الاجتماعى والاقتصادى الذى تقرر الحق من أجله .. والفقه الاسلامى ملىء بتطبيقات متعددة لهذه النظرية .. ومنها تحريم الاحتكار فى السلعة الضرورية مراعاة لحق الجماعة .. ومنها تحريم استعمال المال فى أغراض تضر بالغير كاغراق الرأسمالية الصناعية الأسواق بمنتجاتها وبأسعار فيها خسارة كبيرة للقضاء على المؤسسات الصناعية المنافسة ، ثم احتكار الاسواق بعد ذلك ، واسترداد هذه الخسارة فيما بعد أضعافا مضاعفة .. ومنها تحريم اكتناز المال أو استغلاله فى غير وظائفه الاجتماعية والاقتصادية المشروعة .. ومنها حقوق الجوار. فليس للجار أن يستعمل حقه بحيث يترتب على هذا الاستعمال حدوث ضرر لجاره..فلا يجوز له مثلا تعلية حائطه اذا كان يترتب على ذلك حجب الضوء أو مسارب الهواء عن جاره كما لا يجوز له فتح نوافذ على جاره اذا كان ذلك يؤذى هذا الجار .

ومن هذا القبيل أيضا ضرورة الرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله ..

ويقرر صاحب مرشد الحيران أنه : « اذا كان المالك مديونا دينا ثابتا عليه شرعا يجوز نزع ملكية الزائد عن حوائجه الضرورية

المحتاج اليها في الحال ومنها مسكنه الضروري .. اذا لم يكن له مال من جنس ما عليه من الدين الشرعي، ويباع قضاء — اذا امتنع عن بيعه بنفسه — لقضاء دينه من ثمنه . ويبدأ في البيع بالأيسر فالأيسر بقدر الدين » .

وكما أخذت الشريعة الاسلامية بنظرية عدم استعمال الحق استعمالا سيئا فانها أيضا أخذت في باب الالتزامات بنظرية الضرورة أو ما يسمى في التشريعات الحديثة بنظرية الأحوال الطارئة .. وقد وصفها الفقيه الفرنسي لامبير L'ampère بقوله : « تعتبر نظرية الضرورة في الفقه الاسلامي أشد جزما وشمولا من فكرة يوجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف المتغيرة (شرط بقاء الحال على ما هو عليه) .. وفي القضاء الادارى الفرنسي في نظرية الظروف الطارئة ، وفي القضاء الانجليزي فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب ، وفي القضاء الدستوري الأمريكي في نظرية الحوادث المفاجئة » .

وقد طبقت الشريعة الاسلامية هذه النظرية كلما وجد العذر الطارىء الذى لم يكن في الحسبان وقت التعاقد ومن أمثال ذلك : هلاك الزرع بآفة في العين المؤجرة يسقط كل أو بعض القيمة الايجارية ، وفسخ عقد الايجار بالعذر ، وقد يكون العذر راجعا للعين المؤجرة كمن استأجر حماما في قرية ثم هجر الناس هذه القرية ، وقد يرجع العذر الى المؤجر كمن يضطر لبيع عين مؤجرة لوفاء دين في ذمته وليس من وسيلة سوى بيعها للوفاء بهذا الدين ، وقد يرجع العذر الى المستأجر كانتقاله بسبب خارج عن ارادته من حرفة الى أخرى أو افلاسه أو اصابته بعاهة .

وملخص هذه النظرية اجمالا كما طبقتها الشريعة الاسلامية .. أنه في حالة حدوث عارض عام أو خاص لم يكن متوقع الحصول في العادة وقت التعاقد وترتب على

حصوله جعل تنفيذ الالتزام ــ سواء أكان التزاما بدين أو بعقد ــ مرهقا ، جاز للملتزم طلب تخفيف التزامه الى الحد المعقول .

وتعتمد هذه النظرية على كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد عبر عنها الفقهاء بتعبيرات مختلفة منها : لا ضرر ولا ضرار ، الضرورات تبيح المحظورات ، فنظرة الى ميسرة ، الضرر يدفع بقدر الامكان ، أهون الضررين يدفع أشدهما ... الخ .

وقد اعتبرت الشريعة الاسلامية نوعين من الالتزامات .. التزامات شخصية تتعلق بذمة الانسان نتيجة لفعله .. والتزامات شرعية أوجبها الشارع كنفقة الأقارب وزكاة المال ... ونصيب الفرد فى المساهمة العامة فى حالة النفرة أو التعبئة العامة لملاقاة عدو أو مجابهة خطر داهم كالمجاعات ونحوها .

٣ ــ العقود :

وفى العقود أقرت الشريعة الاسلامية الأسس التالية :

(أ) العقد المشروع ملزم لعاقده دون غيره ، والتزام العاقد ينتقل الى من يخلفه فى ماله كالوارث أو الموصى له : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (أول المائدة) .

(ب) الشروط العقدية حرة وملزمة للعاقدين ، الا ما يخالف النظام العام والآداب العامة .

«المؤمنون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا» (حديث نبوى شريف) .

(ج) العقود كلها رضائية لاتنعقد الا بالتراضى الحر .

(د) العقود تصبح صحيحة كاملة وسارية المفعول بمجرد الاتفاق بين طرفيها أو أطرافها دون اشتراط شىء من المراسم الشكلية الا فى عقد الزواج حيث اشترط الاشهاد، ومع ذلك فقد اعتبر وقوع التراضى وحده كافيا لدفع حد الزنا عن المتعاقدين اذا لم يستكمل هذا العقد شروط صحته من الاشهاد وتسمية المهر .

(هـ) أوجبت الشريعة الاسلامية في انشاء العقود وتنفيذها أن تخضع للقواعد الأخلاقية العامة وأن يسودها حسن النية .. فالتراضي الذي يتم بين اثنين أو جماعة على غش أو تدليس أو الاتفاق الذي يجمع بين اثنين من أجل معصية انما هو تآمر وليس بعقد مشروع ولا يستتبع أي أثر ملزم .

وكذلك جعلت الشريعة الاسلامية كل غش أو تدليس أو غلط أو تغرير من أحد العاقدين موجبا خيار الآخر ومسوغا له فسخ العقد لا خلاله بالتراضي .

(و) اعتبرت الشريعة الاسلامية العرف والعادة أساسا لتحديد حدود الالتزامات والحقوق العقدية في كل ما سكت عنه نص العقد .. فطريقة استعمال المأجور وكيفية دفع الأجرة يتبع فيه عرف الناس .. وللعرف اعتبار قضائي واسع المدى في كل وجه من أوجه الشريعة الاسلامية ما لم يصطدم أو يعارض بنص شرعي ملزم ومحدد في موضوعه . كالتعارف على الالتزام بدين القمار فانه لا عبرة له .

وعلى الجملة فان الشريعة الاسلامية لم تحدد أنواعا معينة من العقود وانما أباحت للارادات الحرة أن تزاول حقها العقدي في كل ما هو مباح وكل ما هو مشروع ، غير مشترطة أي قيد سوى أن يسود العقد الحرية في التراضي وحسن النية في تنفيذه .. وكل ما يعطل حرية التراضي أو يعيب حسن النية في التنفيذ انما يبطل العقد ويبطل آثاره فيما عدا الاضرار التي تحيق بأحد المتعاقدين فانه يكون مستوجبا عنها تعويضا .

(يتبع)

زاهر عزب الزغبي

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

٦

نظرية الثلاثية :

وجدنا أن مؤيدى نظرية « الثنائية » يرون أن المواد اللغوية نشأت أول أمرها ثنائية ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق : أى من حرفين أولهما متحرك ، حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن . وأن سنة التطور والنمو كانت هى العامل الفعال فى اكتناز المادة الثنائية وجعلها مركبة من ثلاثة أحرف فأكثر .

وكثير من المتقدمين والمحدثين من علمائنا العرب ومن غيرهم ، قال بذلك ، وأشارت كتبهم اليه فى ابحاثهم ، وان لم ينصوا عليه صراحة .

وقد عاصرت نظرية الثنائية نظرية الثلاثية ، وناوأتها فترة طويلة ، وكان لها أنصارها ومؤيدوها من العلماء العرب وغيرهم . وعلماء الصرف والنحو قديما من المؤيدين لها ، يقولون : بأن أقل الأبنية ثلاثة : حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه وحرف يكون واسطة بين المبدوء به والموقوف عليه ، لتنافى أحكامها .

بل وذهب بعضهم الى أن صيغة الكلمة مطلقا ـ فى الساميات عموما ـ ثلاثية ، وذلك هو القياس فى الاشتقاق ، ابتداء من البابلية القديمة حتى اللغات الحية الآن .. وعلى أساس ذلك كان عمل اللغويين واعتباراتهم فى أصول الجذر الثلاثى للغة ، وقياس ما وجد وما يجد من مفردات اللغة . وهذا تعميم لا يجوز علميا ، الا اذا ثبت على أسس منهجية .

واضطرهم ذلك الى عد الثنائى ثلاثيا ، ليوافق ميزانهم (فعل)

ويقبل التصريف على مذهبهم ، ولو كان متكلفا . يقول الخليل : « وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل (يد) ، وانما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السكون ، مثل : (بأيد) في آخر الكلمة ، فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان ، فثبت التنوين لأنه اعراب ، وذهب الحرف الساكن فاذا أردت معرفتها فاطلبها في الجمع والتصغير ، كقولهم : (أيديهم ، ويديه) (١)

وتعسف النحاة في اعتبار كل ثنائي ثلاثي الأصل سقط ثالثه لعلة حتى صار عندهم قاعدة ، مع أن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل بالوظيفة النحوية داخل العبارة . فالقول بأن الثنائي جاء وفق صيغة قياسية ، ثابتة ، وأنه أصيب بعلة ذهبت بعجزه ، أمر أقرب الى الصناعة منه الى السليقة والطبيعة اللغوية .

ولكن ظلت القاعدة مرعية يتوارثها الخلف عن السلف ، يقول ابن مالك :

وليس أدنى من ثلاثي يرى
قابل تصريف لما قد غيرا

وعلى كل لعل القول بالثلاثية تأثر كما تأثر تقعيد النحو في العربية بالمنطق الصوري الاغريقي .

فضلا عن أن العقل لا يقر القول بالثلاثية ، الا اذا بلغ الأمر مرحلة نضج وتفلسف ، واحتياج لتنويع وتصنيف يواكب ماجد وما يجد ، لأن اللغة ظاهرة ترافق المجتمع في نشوئه ونموه وتطوره ، ولم تصنع مسبقا وفق مقاييس موضوعة ، بل العكس هو الصحيح

كما أن الثلاثية وما فوقها تمثل مرحلة حضارية في معاني مفرداتها ، والانتقال من مرحلة العفوية في الوضع الى القصد والتفكير فيه .

وذكر بعضهم : أن الثلاثي أكثر وأخف ، بل وأفصح من غيره :

يقول ابن جني : « ان الأصول ثلاثة : ثلاثي ، ورباعي ، وخماسي . فأكثرها استعمالا ، وأعدلها تركيبا ، هو الثلاثي . وذلك لأنه حرف يبتدأ به ، وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه .

---

(١) العين ، للخليل بن احمد ـ تحقيق د. عبد الله درويش ص ٥٥ .

وليس اعتدال الثلاثى لقلة حروفه فحسب ، ولو كان كذلك لكان الثنائى أكثر منه اعتدالا ، لأنه أقل حروفا ، وليس كذلك : ألا ترى أن ما جاء من ذوات الحرفين جزء لا قدر له فيما جاء من ذوات الثلاثة ، وأقل منه ما جاء على حرف واحد . فتمكن الثلاثى اذن انما هو لقلة حروفه ، ولشيء آخر : وهو حجز الحشو الذى هو عينه بين فائه ولامه ، وذلك لتباينهما وتعادى حاليهما : الا ترى أن المبتدأ به لا يكون الا متحركا ، وأن الموقوف عليه لا يكون الا ساكنا . فلما تنافرت حالاهما وسطوا العين حاجزا بينهما ، لئلا يفجأوا الحس بضد ما كان آخذا فيه ، ومنصبا اليه ، فقد وضح بذلك خفة الثلاثى » (١)

فابن جنى يعتد بالكثرة فى استعمال الثلاثى وصوره ، مع أننا نعده ثنائيا نوعه الحرف الثالث .

وكلامه عن اعتدال تركيب الثلاثى يشبه كلام الفلاسفة ، وتفكير المناطقة ، واللغة قامت أول ما قامت بعيدة عن العقل والمنطق .

ولسنا نرى تعاديا بين متحرك وساكن . وحسبنا أن ابن جنى أشار الى الثنائى والأحادى .

والدكتور محمد حلمى موسى فى كتابه : (احصاء جذور الصحاح بالكومبيوتر) ذكر : أن الجذور الثلاثية جاءت فى العربية بنسبة ٨٥ر٣٧٪ الى جميع الجذور التى تبلغ ٥٦٣٩ جذرا . والجذور الرباعية جاءت بنسبة ١٣ر٥٨٤٪ الى جميع الجذور وجاءت الجذور الخماسية بنسبة ٠ر٦٧٤٪ وجاءت الجذور الثنائية بنسبة ٠ر٣٧٪ الى كل الجذور » . وسنعقب على ذلك بعد قليل ، بكثرة الثنائى .

ولعل قلة الثنائى فى نظر القدامى والمحدثين ترجع الى عد الثنائى بدون تضعيف للحرف الثانى ، مع أن مضاعفات الثنائى فى العربية يقابلها فى الساميات الثنائى بدون تضعيف : أى أن كل المضاعفات فى العربية هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات متصفا بمعنى حقيقى

---

(١) الخصائص ١/٥٥ .

وتام . وقد ورد بهذه الطريقة كثيرا من الثنائيات كما ذكر الأب مرمرجى الدومنكى . (١)

والمجمع اللغوى المصرى يعتبر الأخ لغة فى الأخ ، وأصله : أخو ، فحذفت الواو ، أى أن الثنائى المضعف فيه لغتان : التضعيف وغيره . فاذا ساوينا الثنائى المضعف بما أصله ثلاثى ، فأولى أن تكون المساواة فيما لم يظهر فيه أصل ثلاثى .

وحكى السيوطى فى المزهر قول بهاء الدين السبكى فى عروس الأفراح بأن : « الثلاثى أحسن من الثنائى والخماسى ... وأن من شروط الفصاحة توسط الكلمة بين قلة الحروف وكثرتها ، والمتوسطة ثلاثة أحرف » . وهذا كلام فى الجمال ، ونحن فى الكمال قبل الجمال .

وعلى كل لم تسلم هذه نظرية (الثلاثية) من النقد والأخذ والرد ، وتطرقت اليها المغامز والاحتمالات ، حتى من بين مؤيديها ، والقائلين بها ، وهاك طرفا من ذلك :

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : ان نظام الصرف العربى هو نظام صوتى بالدرجة الأولى ، وان أخطأ القدماء فربطوا بينه وبين الشكل الكتابى ، وقد تسنح لنا فرصة .. لتقديم بعض شواهد هذا الخلط ، بين الظواهر المتباعدة ، داخل نظام علمى ملفق ، قام على احكامه ذكاء القدماء ، وقلدتهم فيه الأجيال حتى يومنا هذا .. » (٢) .

ومعنى هذا أنه لابد من اعادة النظر فى قواعد العربية ، وفق نظريات علم اللغة الحديثة . اذ مع احترامنا لعلمائنا القدامى ، والقول بفضلهم وسبقهم ، الا أن قلة امكاناتهم وقتذاك ، وما جد الآن من تقنيات ، جعل مسافة الخلف فى الأصوات واسعة .

ومن علمائنا من يرى ـ بعد عرض النظريتين ـ أن نساير «وجهة نظر القائلين بأن أصول الألفاظ

(١) المعجم الوسيط (جـ ١) اخ ـ اخو ، والمعجمية للاب مرمرجى . وراجع ما كتبناه فى هذه السلسلة فى مجلة الازهر .

(٢) فى التطور اللغوى ٢٠ .

ثلاثة ، كما هو موجود فى الاستعمال فعلا ، لأن مرحلـة الاشـتراك فى الحرفين مرحلـة تاريخيـة لم يعد البحث فيها مجديا الا ضـمن بحث تاريخى ، ولأن الأمثلة التى ذكـرها « الثنـائيون » لا تكفى لاثبـات نظرتهم على استقراء واسع ، ولأنه لابد من اشتراك الساميات كلها ـ كأخوات للعربية ـ فى بحث واسـع عن تلك المرحلة التاريخية ... ثم يذكر : أن البحث فى ظاهرة الثنائية لم يجىء عفو الخاطر ، بل لابد وأن فى العربية من اسرارها وروابطهـا ، ما هـو جـدير بالبحث والتحـرى والامعان .. ويدعو المهتمين باللغة الى متابعة البحث ، للوصـول الى الرأى القاطع فى المشكلة . » (١)

وهو بذلك يساند الثلاثية كواقع كثير فعلى ، ويشير اليها كحدث وقع فى مرحلة تاريخية ، يعـوزه البحث الواسع العميق ، والمقارنة الواجية الواعية . وكان الأولى ـ فى نظرنا اعتبار الثنائية من مدخرات النشـأة الأولى للغـة ، الـدال على قـدم تاريخهـا ، ومـدى التطـور الذى أصابها ، والنمو الذى بلغته .

والاستاذ ريمون طحان ، يرى أن الأمر وان انحدر فى اصول العربية من الثنائية الا أنه يعترف بواقـع الثلاثيـة الآن ، يقـول : « ومن استعراض حقل المفاهيم العربية تجد أن هذه ـ أمثلة الثنائيـة ـ وان جاءت من حرفين أصليين خصـهما بمعنى واضح حرف ثالث ـ تتألف الآن من ثلاثة حروف صامتة ، تؤدى بتجمعها فكرة عامة . ولئن عرفت العربية عبر تاريخها الحافل مفـاهيم تعود الى اصول غير ثلاثية ، تعدل ما هو غير ثلاثى ، وتدخله فى صميم التركيب العربى : أى تنطلق معظم الكلمات العربيـة من مرتكز بنيانى أساسى ، هو الأصل الثلاثى »(٢).

فهو يشير الى الثنائى ، ويعتـرف بالثلاثى لكثرة اسـتعماله ، وكان أولى به أن يشير الى أن الثنائية من هذا المنطلق : من مدخرات النشأة الأولى للغـة ، اى عهـد ما قبـل

---

(١) فقه اللغة العربية د. ابراهيم نجا ، ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) الالسنية العربية ٨٦ .

القياس ، قبل أن تستقيم على قياس وقواعد .

لا أن يحكم بأن الثنائية تشكل مرحلة تاريخية من مراحل التطور ، وتحولت الى أصول ثلاثية ، بفعل تحولات داخلية بحتة ، كالمد والتضعيف والزيادة .

ونجد من أيد « الثلاثية » من المستشرقين ، يشير الى احتمالات تؤيد « الثنائية » فى اللغات السامية ـ بعامة ـ أكثر من الثلاثية :

يقول العلامة الالمانى (جزينس): ان ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية ، لدرجة ان اللغة فى بعض الحالات تصطنع طرائق معينة للاحتفاظ بثلاثية الأصول ذات المقطعين ، ولو بصفة ظاهرة ، كما فى : (عدة وثقة) وكما فى الأسماء الستة العربية .

غير أن كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى أصول ثنائية ، نسميها جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية . (١)

وفى نفس الاتجاه ، يقول العلامة ، (رينان) الفرنسى : « ان من بين الأصول الثلاثية أنواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية ، الا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لايكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل « الثنائى » ، ومثل لذلك بمادة : (ند) وناد ، وتندد ، وندا ، بمعنى تمايل وتفرق ... ثم يعود (رينان) فيقول : « وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد فى جميع الحالات تقريبا أن أحد أحرفها الثلاثية أضعف من الآخرين ، وانه لا يحدث فى المعنى الأساسى الا تعديلا طفيفا » (٢)

فهو يعد من الأفعال الثلاثية أفعالا ثنائية الأصل ، وان كانت ثلاثية الصورة لاعتبارات صرفية ، ويجعل

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٢) السابق ٣٠٩ .

أحد الأحرف الثلاثية ضعيفا ، ولو كان صحيحا . وهذه ظاهرة تستوقف النظر وتواكب ما رآه الشيخ العلايلى حين جعل (عبل) من (علا) المعتلة ، وأصلها (عل) (١) .

ونجد من الباحثين من يضع مفردات العربية فى نظام رياضى ، قوامه الهيكل الثلاثى ، وكأنه بذلك يضعنا امام الأمر الواقع ، كما صنع الاستاذ ريمون طحان ، الذى يرى : أن العربية لغة الأحرف التى تخضع فى وضع مفرداتها لنظام رياضى متكامل ، يتألف الهيكل عادة من ثلاثة حروف صامتة ، ترتبط به ، أو تتجمع حروفه لتؤدى فكرة عامة حسية قد تعمل بها عوامل التجريد ، والتصعيد ، والتعميم ، والتخصيص ، والانتقال بالمعنى (MU TATION) ويتخذ الهيكل الأصلى أجسادا وأشكالا وصيغا تعود رغم تنوع معناها الى الفكرة الأساسية المشتركة . »

والطريف أن النظام الرياضى المتكامل ــ الذى اعتقده ــ جعله يقدم على احصائيات عددية ، تظن أن لغتنا لا تتحمله عمليا ، يقول : « ويمكن احصاء المفردات العربية التى تتألف من صوت واحد بالطريقة التالية : تتألف أصوات اللغة العربية الصامتة من ٢٩ حرفا ــ باعتبار الهمزة ــ تدخل عليها الحركات الخفيفة والممدودة ، (أى الفتح والضم والكسر ، فى حالتى الحركتين : الخفيفة والممدودة) فيكون ما يتألف من حرف واحد هو ٢٩×٦ = ١٧٤ مثل : (فم = فا ، فى ، فو ، ذا ، ذو ، ذى ... وبعض حروف العطف ، والاستفهام ، والجر ، والقسم ، والندبة ، والنداء ، وبعض الضمائر المتصلة المرفوعة ، والمنصوبة ، والمجرورة ، وفى أمر اللفيف المفروق ، مثل : ق ، ف ، ش ... من : وقى ، وفى ، وشى . وأشبع العرب وهن الصوت المنهوك بهاء السكت ، فقالوا : قه ، وفه ، وشه (٢) .

ويذكر أن العربية اعتمدت فى وضع مفردات تتألف من حرفين

---

(١) فقه اللغة العربية للدكتور نجا ٨٦ .
(٢) الالسنية العربية ٧٦ ، ٧٧ .

صامتين ، تضاف اليهما الحركات الخفيفة والثقيلة ، ويتم ذلك نظريا بالعملية الحسابية التالية : ٢٩ حرفا ، أو ٢٨ (باسقاط الهمزة التى تتلاشى أحيانا فى حركات المد) فتكون ٢٨×٢٧ = ٧٥٦ ، ولا نجد عمليا فى العربية الا عشرات من الكلمات فقط ، وردت فى بعض كتب اللغة ، مثل (أب ، أم ، أخ ، أخت ، حم ، دم ، يد ، بن ، بنت ، اسم ، شفة ، رئة ...) وقدالحقت ببعض هذه الثنائيات أحرف اضافية ثلثت لفظها ، وأدخلتها فى الشكل العربى السائد والشائع » (١) .

ولانه يرى أن معظم الكلمات فى العربية ينشأ عن اصول ثلاثية (ثلاثة حروف صامتة وغير مصوتة)، هى حجر الزاوية فى اقامة صرح التنظيم الرياضى اللغوى المتكامل ، يقول : ان الثلاثى هو الذى يؤدى الى اكتناز العربية ، ويحدث ذلك نظريا على الشكل التالى : ٢٨×٢٧×٢٦ (باهمال تنوع حركات الأصول الثلاثية) ينتج ١٩٦٥٦ ويذكر أن العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور (٣٠٠٠ تقريبا) يتم بموجبها وضع معظم الكلمات العربية » (٢) .

وبالتنظيم الرياضى اللغوى ، يرى أننا لو استثمرنا الأصول الرباعية ، لأفضى الأمر الى لغة رمزية ، تفوق فيها وسائل التعبير المفاهيم التى قد يستوعبها الفكر البشرى ، اذ ينشأ عن الاستثمار : ٢٨×٢٧×٢٦×٢٥ = ٤٩١٤٠٠ ويضاف الى هذا العدد المربع من الجذور مشتقات الرباعى (٣) .

فالاستاذ ريسون يشير الى أن اللغة العربية قد تكتفى بعدد صغير من الجذور ، يمكن أن تكون (٣٠٠٠) ، وفى ذلك رد على من يدعى ان الاحصاء اللغوى للثنائيات فى لغتنا أقل من أن تفى بحاجة الانسان ، وبخاصة اذا رددنا كثيرا

---

(١) السابق ٧٨ .
(٢) السابق ٨٦ .
(٣) السابق ٨٨ .

من أصول الثلاثيات الى ثنائيات ، وأيضا اذا اسعفنا قدر من جذور الرباعى الرياضى اللغوى .

اما احصائياته اللغوية بعامة فان لغتنا ـ عمليا ـ لا تحملها ، لان اللغة ـ أى لغة ـ تنشأ طبيعية متدرجة ، تلاحق المضامين الاجتماعية التى تسبق المداليل اللغوية ، قلة وكثرة وضيقا وسعة تبعا للتطور والحضارة . يقول الأب مرمرجى :

« اللغة تابعة السنة الطبيعية ، فهى خاصة لأحوال الانسان المختلفة ،ولأعضاءنطقه ، وللتطورات الاجتماعية وغيرها من المؤثرات . وهى فى بعض أجزائها : قياسية ، منتظمة ، محكمة . وفى البعض الآخر : سماعية لا ضابط ولا قيد لها . وقواعدها ليست قواعد حسابية رياضية . ولا هى شبه الكتب المعدة للطبع التى تنضد حروفها ، وتضغط صفائحها بالآلة الطابعة فيمكن الطباع ان يستخرج منها عددا من النسخ غير المحصاة ، واحدتها ضهية أختها ، دون اختلاف » (١) .

وهذا الكلام بما نحن فيه أليق وأنسب ، ويتمشى مع طبيعة اللغة التى قدمنا انها لم تكن فى أول امرها منطقية ، لأنها حينئذ لم تعرف المنطق ، ولكنها واكبت الطبيعة والحياة فى تدرجها ؛ سنة الحياة والأحياء .

***

الثنائية فى الميزان :

القائلون بنظرية « الثنائية » منطقيون ، ولم يبدأوا من فراغ ، ولم يكونوا أسارى الوهم والخداع ، كما لم يدفعهم التحرش والجرأة على قول ما قالوا ، وماأثير فى وجههم من اعتراضات لم تثبت عند التنفيذ :

* فقد استنتج (جورجى زيدان) : أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عددا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها اللسان غرزيا . وبنى استنتاجه على مرتكزين يؤيدهما الواقع ،

---

(١) معجميات عربية سامية ١٠٨

وتسندهما الشواهد ويخدمان قضية الثنائية ، وهما ــ كما استقلنا ــ

أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها ــ ويقصد بها الأدوات ــ انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية ، وتضم الأسماء والأفعال وما يشتق منها .

وحين قرر ذلك جورجى زيدان لاحظ ان الألفاظ المتحدة تتقارب لفظا عند اشتراكها فى حرفين هما حامل المعنى الأصلى ، ثم يأتى الحرف الثالث ــ على الجذور الثنائية التى هى حوامل المعانى ــ لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى فقط ، عن طريق الاشتقاق الكبير ، والأكبر ، (١) والكبار (النحت) .

وهو بتقريره ليس بدعا بين اللغويين ، فقد أشار الى ذلك : الخليل بن احمد ، وسيبويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس ...

ووصف بعضهم هذا الاتجاه بالمغالاة ، واحلام اليقظة والتخيلات يقول : « لقد غالى ابن جنى فى هذا ، ومعه الثعالبى صاحب (فقه اللغة) : اذ جعلا مجرد الاشتراك فى أصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلا على الاشتراك فى عام لبعض الكلمات ، فيقرر : ان المعنى العام (للتفرقة) يكون بصوتى (الفاء والراء) ، والمعنى العام (للتقطع) يكون (بالقاف والطاء) ، الى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه احلام اليقظة ، عند رجل ، اشتد ولعه واعجابه باللغة العربية ، فيتصور فيها ما ليس منها ، وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح فى الأذهان ولا تتصف به لغات من لغات البشر » (٢)

وفى قول الدكتور أنيس الغاء سريع للمسألة برمتها ، واهمال لما

---

(١) مجلة الأزهر ، عدد المحرم ١٣٩٩ ص ١٥٧ .
(٢) من اسرار اللغة ٦٧ .

قرره الاقدمون فى هذا الصـــدد ، وما حوته بطون المعاجم وقبله العقل وأيده الاستعمال ، والتذوق الراقى . ومن يطلع على ما كتبه الدكتـــور أمين فاخر فى بحثــه التطبيقى عن . (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربيــة وعلاقتها بالأصول الثلاثية) ، ويتابع ما بدأه بتأن وروية ، يجد صـــدق وثبات وصحة ما قرره السلف من علمائنا .

والشيخ العلايلى يمتدح جورجى زيدان بأنه : تنبه الى أن الثــلاثى متفرع عن ثنائى سابق لا فى الاشتقاق فقط ، كما فهمـــه الأقـــدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الابدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغـــوى أيضا . ويضيف الشيخ العلايلى : بأننا اذا حاولنا انصـــافا ، فلم تكن أفكاره فى فحواها بأكثر من أفكار كتاب « العين » التى بثها الخليـــل ابن احمد ، وأرسلها ارسالا (١) . ولذا يدعونا الدكتور عبد الصبور شاهين ، الى ان نحسن تتبــع آراء الأقدمين فى مظانها ، وأن نستقصى بصورة كاملة مذاهبهم ، ليتم تحقيق التكـــامل بين آرائنـــا وآراء الأقدمين . (٢) وهى دعـــوة حرية بالقبول ، لخدمة لغة الضاد .

❊❊❊

❊ ويتفق أصل الوضع اللغوى عند العلماء القائلين بالثنائية ، مـــع الواقع والطبيعة فى تدرج الأشياء :

فقد نطق الانسان أولا مقـــاطع واحدة ، أو (هجاء واحدا) ــ كما يرى الأب انستاس الكرملى ــ أى بناء مكونا من صـــامت ومصـــوت (سواء أكان المصوت فتحة أم كسرة أم ضمة) وربما اتبعه بصـــامت ، فتتكون الصورة المقطعيـــة ، وهى بذلك فى اجمالها اشارة الى مصطلح الهجاء الواحد ، وتلك نظرة تـــاير الواقـــع ، ولا تختلف نظـــرة الأب مرمرجى عن هـــــذه النظريـــة الا بمصطلح شكلى ، هو الثنائية ، لان الكلمات بين يديه تتكون من رمزين مكتوبين ، بصرف النظر عما بهـــا من مصوتات هى فى الحقيقة عناصر صوتية أساسية .

---

(١) مقدمة العلايلى ١٣٦ .
(٢) فى التطور اللغوى ٩٠ .

ورأينا كيف جعل الشيخ العلايلى أدوار اللغة متدرجة شبه طبيعية ترقى فى أدوارها بترقى الانسان ومتطلبات حاجياته . فسلك الانسان لذلك سلوك « الاحادية » ، ثم « الثنائية » فى اختراع اللغة ، ثم كان اكتنازها بعدئذ لتكون أكثر خصوبة وأسخى عطاء ، فتتمكن من العطاء الواسع ، والوفاء بما تتطلبه الحياة والأحياء .

فكان الدور الأول ، للمقطع الاحادى البسيط للانسان البدائى .

والثانى للمقطعين ، حين ترقى الانسان بعض الشىء ، فحاكى أصوات الطبيعة .

وكان الدور الثالث للجمع بين الدورين السابقين ، فألف منهما دلالة مركبة ، تفى بتغطية متطلباته والمداليل الاجتماعية التى تدرجت فى خمس حلقات طالت حتى بلغ الانسان رقيه ، والحضارة ذروتها .

وذلك لأن : « طريقة الاشتقاق والتوسع فى الساميات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص الى الأكثر والأكمل ، اى حسب السنة الطبيعية : سنة الرقى ، وليس بالعكس الا من باب الاختزال ، وهو نادر ، ولا يحدث فى طور التكوين النشوء ، بل فى عصر الكهولة والهرم ... والعلاقة الأساسية الثابت ـ غالبا ـ وجودها بين المشتق والمشتق منه هى اللحمة المعنوية ، مع توسع الدلالة وتطورها : بالانتقال من حيز المعانى المادية الحسية ، الى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية والروحية » .

هذا ما ذكره الأب مرمرجى ، تأييداً لسنة الترقى الطبيعية فى اللغة ، شأن أى شىء يتدرج ولا بأس به من طريق ـ معقول ـ لتوسيع اللغة ، وتكثير مفرداتها ، لتغطية الأحداث والمتطلبات حقيقة وعقلا وخيالا ، وكمالا وجمالا .

***

والأب مرمرجى يؤكد ، ويصر ـ فى موضوعية وخبرة ـ على أن الزيادة ـ التى تمت بها التوسعات ـ لم تكن اعتباطا ولا عشوائية ، : « دون ضبط الحرف المطلوب ، ودون تخصيص الدور القائم به فى ميدان الزيادة » ، وبملاحظة : أنه « فى طور التكون اللغوى تبدأ

الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا فى سبيل التكامل والاستقرار ، فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبى ، ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ... وقد تجرى هذه الزيادة بالحروف ، بعض الأحيان لمقاصد تلوح متضاربة ، لا بل متضادة : » كياء المضارعة التى تستعمل « للغائب ، والمثنى ، وللجمع : المذكر والمؤنث ... والتاء التى تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث »

هذا ما ذكره الأب مرمرجى ردا على اعتراض (J. A. D, M.) فى مجلة (arientiia.) الصادرة فى رومة جـ ٢ مجلد ١٩ ص ٢٠٧ ــ بأن الزيادة التى تذكر تتويجا أو اقحاما او تذييلا ــ انما هى اعتباطية وغير منضبطة .

وهذا الرد منطقى يتمشى مع طبيعة اللغة واقعا ، وتاريخا محفوظا ــ يؤيده السماع والقياس والاستعمال ، وبخاصة فى فترة التدرج وعدم الاستقرار اللغوى التام .

ولذلك يقول الشيخ العلايلى : أن العطاء الواسع والاحكام اللغوى ، انما حصل حين صار الثلاثى وحدة الكلمة ، فتوسع بالاشتقاق والتصريف ، أما حين كانت الاضافة للبناء ، كانت الاضافة للثنائى ، وعلى ذلك :

فقد كانت الزيادة للبناء ، وهى ما تضاف للثنائى ، لصوغ الثلاثى ، وموضعها الوسط .

وحين كانت للاشتقاق ، وتضاف الى الثلاثى لتحصيل الرباعى وغيره ، وموضعها الآخر .

وحين كانت للتصريف ، كتفعل ، واستفعل ... كان موضعها الأول غالبا .

وواقع اللغة يثبت ما قاله الشيخ العلايلى فى البناء والاشتقاق والزيادة ، والعربى يملك لغته ، وهى شغله الشاغل ، تترقى معه ، وينميها حين تضطره الحاجة بوعى وسهولة ، والحاجة أم الاختراع والتطوير .

د . توفيق محمد شاهين

الصوفية ووحدة الوجود

لفضيلة الشيخ موسى محمد على

ان من أهم ما يتحامل به المغرضون على السادة الصوفية اتهامهم زورا بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد حل فى جميع أجزاء الكون : فى البحار ، والجبال ، والصخور ، والأشجار والانسان والحيوان ... الخ .

أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق ، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة فى هذا الكون هى ذات الله تعالى وعينه . وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ولا شك أن هذا القول يخالف عقائد الأمة ، بل انه يخالف عقائد الايمان الصحيح .

وما كان للصوفية وهم المتحققون بالاسلام والايمان والاحسان أن ينزلقوا الى هذا الدرك من الضلال

وما ينبغى لمؤمن منصف أن يرميهم بهذا الاتهام جزافا دون تمحيص أو تثبيت ، ومن غير أن يفهم مرادهم ، ويطلع على عقائدهم الحقة التى ذكروها صريحة واضحة فى أمهات كتبهم ، كالفتوحات المكية ، واحياء علوم الدين ، والرسالة القشيرية وغيرها ...

ولعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون : ان هذا القول بتبرئة السادة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد ، انما هو تهريب من الواقع أو دفاع مغرض عن الصوفية بدافع التعصب والهوى .

ولبيان الحقيقة الواضحة نذكر نماذج من كلام السادة الصوفية تثبت براءتهم مما اتهموا به من القول بالحلول والاتحاد ، وتثبت

كذلك تحذيرهم الناس من الوقوع فى هذه العقيدة الزائفة ، وتظهر بوضوح واضح أن ما نسب اليهم مما يفيد الحلول أو الاتحاد : اما مدسوس عليهم ، أو مؤول بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة

يقول الامام الشعرانى رحمه الله تعالى :

« ولعمرى اذا كان عباد الأوثان لم يتجرءوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ، بل قالوا : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، فكيف يظن بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حد ما تتعقله العقول الضعيفة ؟ هذا كالمحال فى حقهم رضى الله تعالى عنهم ، اذ ما من ولى الا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق ، لأن الله بكل شيء محيط » .

والحلول والاتحاد لا يكون الا بالأجناس ، والله تعالى ليس بجنس حتى يحل بالأجناس ، وكيف يحل القديم فى الحادث ، والخالق فى المخلوق ؟

ان كان حلول عرض فى جوهر ، فالله تعالى ليس عرضا ، وان كان حلول جوهر فى جوهر فليس الله تعالى جوهرا ، وبما ان الحلول والاتحاد بين المخلوقات محال اذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلا واحدا لتباينهما فى الذات ، فالتباين بين الخالق والمخلوق وبين الصانع والصنعة ، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين .

وما زال العلماء ، ومحققو الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والاتحاد ، وينبهون على فساده ، ويحذرون من ضلاله .

يقول الشيخ محيى الدين بن عربى رحمه الله تعالى فى عقيدته الصغرى :

« تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها » .

وقال فى عقيدته الوسطى :

« اعلم أن الله تعالى واحد بالاجماع ، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو فى شيء ، أو يتحد فى شيء » .

وقال فى باب الأسرار :

« لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه ، انما يقول : أنا العبد الذليل فى المسير والمقيل » .

وقال فى الباب التاسع والستين ومائة :

« القديم لا يكون قط محلا للحوادث ، ولا يكون حالا فى المحدث » .

وقال أيضا فى باب الأسرار :

« من قال بالحلول فهو معلول ، فان القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد الا أهل الالحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول »

ثم استطرد يقول :

« الحادث لا يخلو عن الحوادث، ولو حل بالحادث القديم لصح قول أهل التجسيم ، فالقديم لا يحل ولا يكون محلا » .

وقال فى الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل :

وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق ، ولا حل فيه الحق ، اذ لو كان عين الحق ، أو حل فيه لما كان تعالى قديما ولا بديعا .

وقال فى الباب الرابع عشر وثلاثمائة :

لو صح أن يرقى الانسان عن انسانيته، والملك عن ملكيته، ويتحد بخالقه تعالى لصح انقلاب الحقائق وخرج الاله عن كونه الها ، وصار الحق خلقا ، والخلق حقا ، وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبا ، فلا سبيل الى قلب الحقائق أبدا .

وقال فى الباب الثانى والتسعين ومائتين :

من أعظم دليل على نفى الحلول والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء ، وأن الشمس ما انتقلت اليه بذاتها ، وانما كان القمر محلا لها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شىء ولا حل فيه .

أما ماورد من كلام الصوفية فى كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد فهو اما مدسوس عليهم ،

بدليل ما سبق من صريح كلامهم فى نفى هذه العقيدة الضالة ، وانما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة الدخيلة ، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطىء ورموهم بالزندقة والكفر .

أما الراسخون فى العلم والمدققون المنصفون من العلماء فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من ايمان وتقوى .

يقول جلال الدين السيوطى رضى الله عنه فى كتابه الحاوى للفتاوى :

واعلم أنه وقع فى عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد ، اشارة منهم الى حقيقة التوحيد ، فان الاتحاد عندهم هو المبالغة فى التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد الأحد ، فاشتبه ذلك على من لا يفهم اشاراتهم فحملوه على غير محمله ، فغلطوا وهلكوا بذلك .. الى أن قال :

فاذن أصل الاتحاد باطل محال ، مردود شرعا وعقلا وعرفا باجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين .

وليس هذا مذهب الصوفية ، وانما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى ، فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا فى عيسى عليه السلام : اتحد ناسوته بلاهوته . وأما من حفظه الله تعالى بالعناية ، فانهم لم يعتقدوا اتحادا ولا حلولا ، وان وقع منهم لفظ الاتحاد فانما يريدون به محو أنفسهم ، واثبات الحق سبحانه .

وقد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات ، وبقاء الموافقات ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا ، وبقاء الرغبة فى الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة ، وبقاء الأوصاف الحميدة وفناء الشك ، وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر .

ثم قال : وأما قول أبى يزيد البسطامى رحمه الله تعالى :(سبحانى، ما أعظم شانى) فهو فى معرض الحكاية عن الله ، وكذلك قول من

قال : (أنا الحق) محمول على الحكاية ، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد ، لان ذلك غير مظنون بعاقل ، فضلا عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات ، ولا يظن بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع ، الغلط بالحلول والاتحاد ، كما غلط النصارى فى ظنهم ذلك فى حق عيسى عليه السلام

وانما حدث ذلك فى الاسلام من واقعات جهلة المتصوفة ، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك .. ثم استطرد يقول :

والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك ، فيطلق على المعنى المذموم الذى هو أخو الحلول ، وهو كفر، ويطلق على مقام الفناء اصطلاحا .. كما اصطلح عليه الصوفية ولا غضاضة فى الاصطلاح ، اذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ فى معنى صحيح لا محذور فيه شرعا ، ولو كان ذلك ممنوعا لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد ، وأنت تقول : بينى وبين صاحبى زيد اتحاد .

وكم استعمل المحدثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد فى معان حديثية وفقهية ونحوية .

كقول المحدثين : اتحد مخرج الحديث

وقول الفقهاء : اتحد نوع الماشية

وقول النحاة : اتحد العامل لفظا أو معنى

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققى الصوفية ، فانما يريدون به معنى الفناء الذى هو محو النفس واثبات الأمر كله لله سبحانه ، لا ذلك المعنى المذموم الذى يقشعر له الجلد .

فالمعنى الذى يريدونه بالاتحاد اذا أطلقوه انما هو تسليم الأمر كله لله ، وترك الارادة معه والاختيار ، والجرى على مواقع أقداره من غير اعتراض ، وترك نسبة شىء ما الى غيره سبحانه وتعالى .

يقول الشيخ على وفا رضى الله عنه :

« المراد بالاتحاد حيث جاء فى كلام القوم فناء العبد فى مراد الحق

تعالى كما يقال : بين فلان وفلان اتحاد ، اذا عمل كل منهما بمراد صاحبه » .

ويقول ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى فى كتابه مدارج السالكين شرح منازل السائرين :

الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن ارادة السوى ،شائما برق الفناء عن ارادة ما سواه، سالكا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه ، فانيا بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ، فضلا عن ارادة غيره ، قد اتحد مراده بمراد محبوبه ،فصار المرادان واحدا .. ثم قال :

وليس فى العقل اتحاد صحيح الا هذا ، والاتحاد فى العلم والخبر، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدا مع تباين الارادتين والعلميين والخبرين ، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب ، وفناء ارادة المحب فى مراد المحبوب ، فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ، قد فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه ، أيضا .

ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب الا فى الله ، ولا يبغض الا فى الله ، ولا يوالى الا فى الله ، ولا يعادى الا فى الله ، ولا يعطى الا لله ، ولا يمنع الا لله ، ولا يرجو الا اياه ، ولا يستعين الا بالله ، فيكون دينه كله ظاهرا وباطنا لله ، ويكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق اليه.

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو اخوانهم ، أو عشيرتهم، أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون »

والجامع لهذا كله : تحقيق شهادة أن لا اله الا الله علما ومعرفة وعملا وحالا وقصدا ، وحقيقة .

هــذا النفى والاثبــات الــذى تضمنته هذه الشــهادة هو الفنــاء والبقاء ، فيغنى عن تأله ما ســواه علما واقرارا وتعبدا ، ويبقى بتأله وحده ، فهذا الفناء وهذا البقــاء هو حقيقة التوحيد الذى اتفق عليه المرسلون صلوات الله عليهم وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقامت عليــه سوق الجنة ، وأسس عليه الخــلق والأمر .. الى أن قال :

وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الارادة . والمعصــوم من عصــمة الله ، وبالله المســتعان والتوفيق والعصمة .

وقال فى موضع آخر : وان كان مشمرا للفناء العالى ، وهو الفنــاء عن ارادة الســوى ، لم يبق فى قلبه مراد يزاحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى ، بل يتحد المرادان، فيصير عين مراد الله تعالى هو عين مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبــة الخالصة ، وفيهــا يكون الاتحــاد الصحيح ، وهو الاتحاد فى المراد ، لا فى المريد ولا فى الارادة .

ورغم أن ابن تيمية قيل فى نزعته بالنسبة للصوفية ما قيل ، فانه يبرىء ساحتهم من تهمة القول بالاتحاد ، ويــؤول كلامهم تــأويلا صــحيحا سليما .

أما تبرئته لساحتهم فقد قال فى فتاويه :

ليس أحد من أهل المعرفــة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ، ولا اتحاده به ،وان سمع شىء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب اختلقه الأفاكــون من الاتحاديــة المباحيــة الذين أضلهــم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية .

ثم استطرد يقول :

كل المشايخ الذين يقتدى بهم فى الدين متفقون على ما اتفق عليــه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات ، وليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته ، وأنه يجب افراد القديم عن الحادث وتمييــز الخالق عن المخلوق ، وهذا فى كلامهم اكثر من أن يمكن ذكره هنا .

وأما تأويله كلامهم فقد قال فى مجموعة رسائلـه : « وأما قـول الشاعر فى شعره » :

أنـا من أهـوى

ومن أهـوى أنـا

فهذا انما اراد به الشاعر الاتحاد المعنوى ، كاتحاد احد المحبين بالآخر الذى يحب احدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين، اذا كان قد استغرق فى محبوبـه ، حتى فنى به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غبـت بـك عنى

فظننت أنـك أنى

فهذه الموافقة هى الاتحاد السائغ

من هذه النصوص المتعددة تبين لنا أن كل ماورد فى كلام الصوفية من كلمة (اتحاد) انما يراد بها هذا الفهم السليم الذى يوافق عقيـدة أهل السنة والجماعة ، ولا يصـح أن نحمل كلامهم على معان تخالف ما صرحوا به من تبنيهم لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وما على هـذا المنصف الا أن يحسن الظن بالمؤمنين ويؤول كـلامهم على معنى شرعى مستقيم .

أما وحدة الوجود فقـد اختلف علماء النظر فى موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجـود ، فمنهم من تسرع باتهامهم بالكفـر والضلال ، وفهم كلامهم على غيـر المراد ، ومنهم من لم يتورط بالتهجم عليهم فتثبت فى الأمر ورجع اليهم ليعرف مرادهم ، لأن هؤلاء العارفين مع توسعهم فى هـذه المسـألة لم يبحثوا فيها بحثا يزيل اشكال علماء النظر ، لأنهم تكلموا فى ذلك ودونوا لأنفسهم وتلاميذهم لا لمن لم يشهد تلك الوحدة من غيـرهم . لذلك احتاج الأمر للايضاح لتطمئن بـه قلوب أهل التسليم من علماء النظر

ومن العلماء الـذين حققـوا فى هذه المسألة الشيخ محمد الشريف رضى الله عنه ، فقال :

« الوجود واحد لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه وتعالى ، وهو واجب فلا يصح تعدده ، والموجـود هـو الممكن وهو العالم فصح تعـدده باعتبار حقائقه ، وقيامه انمـا هـو

بذلك الوجود الواجب لذاته ، فاذا زال بقى الوجود كما هو ، فالموجود غير الوجود فلا يصح أن يقال الوجود اثنان : وجود قديم ووجود حادث ، الا أن يراد بالوجود الثانى الموجود من اطلاق المصدر على المفعول ، فعلى هذا لا يترتب شىء من المحاذير التى ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق الى أن قال :

الحس لا يرى الا الهياكل أى الموجود ، والروح لا تشهد الا الوجود ، واذا شهدت الموجود فلا تشهده الا ثانيا ، على حد من قال :

ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله .

وأراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر ، لان الرؤية من خصائص البصر ، والشهود من خصائص البصيرة ، لذلك ورد : أشهد أن لا اله الا الله ، ولم يرد أرى ، بل ولا يصح أن يقال : أرى » .

وهكذا شأن العلماء المنصفين يغارون على الشريعة الغراء ، ويتثبتون فى الأمور دون أن يتسرعوا بتكفير أحد من المؤمنين ، ويرجعوا فى فهم كل حقيقة الى أهل الاختصاص بها .

ونظرا لأن مسألة وحدة الوجود أخذت حظا كبيرا من اهتمام بعض العلماء وشغلت اذهان الكثير تقول:

ان الوجود نوعان : وجود قديم أزلى ، وهو واجب ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق) أى الثابت الوجود ، المحقق .

ووجود جائز عرضى ممكن ،وهو وجود من عداه من المحدثات .

وان القول بوحدة الوجود ، وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين :

أحدهما حق ، والثانى كفر ، ولهذا فالقائلون بوحدة الوجود فريقان :

١ ــ الفريق الأول : أرادوا به اتحاد الحق بالخلق ، وأنه لا شىء فى هذا الوجود سوى الحق ، وأن الكل هو ، وأنه هو الكل ، وأنه عين الاشياء ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

فقوله : هذا كفر وزندقة ، وأشد ضلالة من أباطيل عبدة الأوثان .

وقد شدد الصوفية النكير على قائله ، وأفتوا بكفره ، وحذروا الناس من مجالسته . قال أبو بكر محمد بناني رحمه الله تعالى :

فاحذر يا أخى كل الحذر من الجلوس مع من يقول : ما ثم الا الله ويسترسل مع الهوى فان ذلك هو الزندقة المحضة ، اذ العارف المحقق اذا صح قدمه فى الشريعة ، ورسخ فى الحقيقة ، وتفوه بقوله : ما ثم الا الله ، لم يكن قصده من هذه العبارة اسقاط الشرائع واهمال التكليف حاشا لله أن يكون هذا قصده .

٢ ــ الفريق الثانى : قالوا ببطلان وكفر ما ذكر ، من أن الخالق عين المخلوق ، وانما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الازلى وهو الحق سبحانه فهو لاشك واحد منزه عن التعدد . ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضى المتعدد وهو الكون الحادث نظرا لأن وجوده مجازى ، وفى أصل عدمه لا يضر ولا ينفع . فالكون معدوم فى نفسه ، هالك فان فى كل لحظة ، قال تعالى : « كل شىء هالك الا وجهه » وانما يظهره الايجاد ، ويثبته الامداد الكائنات ثابتة باثباته ، وممحوة بأحدية ذاته ، وانما يمسكه سر القيومية فيه وهؤلاء قسمان :

١ ــ قسم أخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ، ثم بالذوق والعيان ، وغلب عليه الشهود ، فاستغرق فى فجج بحار التوحيد ، ففنى عنه نفسه فضلا عن شهود غيره ، مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا حق .

٢ ــ وقسم ظن ان ذلك لفظى ، فتوغل فى تلاوة عباراته ، وتمسك بظواهر اشاراته ، وغاب فى شهودها عن شهود الحق ، فربما هانت الشريعة فى عينيه لما يلتذ به من حلاوة تلك الألفاظ ، فيقع على أم رأسه ويتكلم بما ظاهره ان الشريعة فى جهة يختص بها اهل الغفلة ، والحقيقة فى جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ، ولعمرى ان هذا لهو عين الزور والبهتان ، وما ثم الا شريعة ومقام احسان »

وعلى كل فالأولى بالصوفى فى هذا الزمان ان يبتعد عن الألفاظ

والتعابير التى فيها ايهام أو غموض أو اشتباه لئلا يوقع الناس بسوء الظن به ، أو تأويل كلامه على غير ما يقصده ، ولأن كثيرا من الزنادقة والدخلاء على الصوفية قد تكلموا بمثل هذه العبارات الموهمة والألفاظ المتشابهة ، ليظهروا ما يكتونه فى قلوبهم من عقائد فاسدة وليصلوا بذلك الى اباحة المحرمات ، وليبرروا ما يقعون فيه من المنكرات والفواحش فاختلط الحق بالباطل ، وأخذ المؤمن الصادق بجريرة المنحرف الفاسق .

لهذا جعل الصوفية بواطنهم وظواهرهم بالشريعة الغراء ، وأوصوا تلاميذهم بالتمسك بها قولا وعملا وحالا ، فهى عندهم باب الدخول وسلم الوصول ، ومن حاد عنها كان من الهالكين .

وبعد : فهذه النصوص التى ذكرناها عن ساداتنا العلماء ، وعن الصوفية الأخيار ، تكشف للقارىء الكريم أن الصوفية مبرؤون مما تنسب اليهم من القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وان كلامهم مؤول على وجه شرعى ، وموافق لما عليه اهل السنة والجماعة من العقيدة الصحيحة السليمة ، وانهم ما نالوا هذه المواهب العرفانية الا بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأنهم حقيقة رجال السلف الصالح الذين تمسكوا بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واقتدوا به فأفلحوا وتحققوا بالاتباع الكامل له عليه الصلاة والسلام فنالوا الرضى من الله تعالى وفازوا بسعادة الدارين .

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

موسى محمد على

« كلمات فى التصوف »

للحسين بن على بن دينار : (اياك ان تطمع فى الانس بالله ، وانت تحب الانس بالناس واياك ان تطمع فى المنزلة عند الله وانت تحب المنزلة عند الناس)

شبهات حول السنة

للدكتور رءوف شلبي

- ٣ -

د ــ وظيفة السنة ومرتبتها في التشريع الاسلامي

١ ــ وظيفة السنة :

❋ قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

« لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله .

فبلغ ذلك امرأة من بني أسد فقالت :

« يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت ؟

فقال : ومالي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله ، فقالت المرأة : لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته ؟

فقال : لئن كنت قرأتيه وجدتيه قال تعالى :

« ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

❋ والامام الشافعي رضي الله عنه يشرح وظيفة السنة بقوله :

« وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كتاب الله وجهان :

أحدهما : ما أنزل الله فيه نص كتاب فبينه رسول الله مثل ما نص الكتاب .

والآخر : ما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين رسول الله معنى ما أراد .

من المقرر أن القرآن الكريم ممتلىء بالقواعد العامة لأنه دستور سرمدي خالد أبدا للأمة الاسلامية والقواعد العامة تحتاج دائما الى

تفسير لالحاق الجزئيات باحدى القواعد العامة وذلك ما وكل فيه النبى صلى الله عليه وسلم من قبل ربه .

وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم . وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم بسلوكه وأقواله وموافقاته للأمة ما تحتاج اليه.يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما شيئا مما أمركم الله به الا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئا مما نهاكم الله عنه الا وقد نهيتكم عنه » .

يقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

قال تبارك وتعالى : «ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ».

وقال : « اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وقال : « أتموا الحج والعمرة لله » .

ثم بين على لسان رسوله عدد ما فرض من الصلاة ومواقيتها وسننها وعدد ركعاتها والزكاة ومواقيتها . وكيف عمل الحج والعمرة .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالقرآن كما يقول مطرف بن عبد الله الشخير عندما قيل له : لا تحدثونا الا بالقرآن فقال : « والله ما نريد القرآن بدلا ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن » .

ومعنى هذا

ان القواعد الكلية العامة فى القرآن الكريم تحتاج الى عالم بالقرآن ليربط الجزئيات المستحدثة بهذه الكليات العامة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم هو أعلم الناس بالقرآن .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه فسر كثيرا من أركان الاسلام مثل الصلاة والزكاة وأعمال الحج .

يقول الأوزاعى : « الكتاب أحوج الى السنة من السنة الى الكتاب » ويشرح هذا النص ابن عبد البر فيقول : يريد أنها تقضى عليه وتبين المراد منه .

يقول الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

« ان السنة تفسر الكتاب وتبينه » .

وتتضح لنا هذه الوظيفة للسنة من خلال التطبيقات العملية التى اتخذها المسلمون عن نبيهم عليه الصلاة والسلام .

أولا : فى مجال العبادة :

١ ــ فرض القرآن الصلاة والزكاة .

« أقيموا الصلاة .

وآتوا الزكاة .

ولكن السنة هى التى توضح ذلك : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

« ليس فيما دون خمس أوسق صدقة ولا فيما دون خمس ذود صدقة ولا فيما دون خمس أواق صدقة » .

وفى هذا المقام يروون عن سيدنا عمران بن حصين انه قال لرجل : « انك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا تجهر فيها بالقراءة .. ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ثم قال : اتجد هذا فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله ابهم هذا ، والسنة تفسر ذلك » .

٢ ــ لمانزل قول الله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » أشكل أمر الآية على الصحابة رضوان الله عليهم اذ فهموا المراد من الظلم : مجاوزة الحد والخروج عن القصد فى كل شىء . فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أينا لا يظلم يارسول الله ؟ فوضح لهم عليه الصلاة والسلام : أن المراد من الظلم الشرك وقرأ : « يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم » .

ثانيا ــ فى مجال المال

١ ــ لما نزل قول الله تعالى : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

فهم الصحابة رضوان الله عليهم أن مدلول ينفقون بذل كل مايصل الى أيديهم ، فقسر النبى صلى الله عليه وسلم هذا المدلول بقوله :

« انما فرض الله الزكاة ليطهر بها ما بقى من أموالكم » .

٢ ـ وعندما تحدثت آية الفرائض عن المواريث لم تتعرض لتوريث الكافر من المؤمن ولا العبد من الحر ولا القاتل لأبيه ، وأن الوصية لا تكون فى أكثر من الثلث وأن الدين يقدم على الوصية .. ولكن السنة هى التى وضحت كل هذا .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يرث المسلم الكافر .

ولا يرث الكافر المسلم » .

ويقول :

« الثلث ، والثلث كثير انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » .

ثالثا ـ فى مجال الخيانة

١ ـ نظم القرآن الكريم حدود القصاص :

« كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى » .

وهذه القواعد العامة تفيد عموم وجوب القصاص من كل من ثبتت عليه جريمة القتل العمد ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يخصص هذا العموم بقوله : ألا لا يقتل مسلم بكافر .

٢ ـ وعندما حددت سورة المائدة ان السارق والسارقة تقطع أيديهما ، لم تحدد مكان القطع ولا نوع اليد

من الكوع أو المرفق .

اليمنى أو اليسرى

ولكن السنة هى التى حددت اليمنى من الرسغ

رابعا ـ فى مجال الاسرة

١ ـ ذكر القرآن الكريم المحرمات من النساء .

«حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعمـــاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخـواتكم من الرضاعة ، وأمهـات نسـائكم ، وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما »•

وبقى حكم الجمع بين المـرأة وعمتها والمرأة وخالتها فبينته السنة بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » •

٢ ـ امر الله نبيه صلى الله عليـه وسلم أن يكون الطلاق للعـدة فى قوله تعالى : «يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » •

وكان ابن عمر قد طلق زوجتـه وهى حائض فقال النبى صـلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « مره فليراجعها ثم يتركها حتى تطهـر ثم تحيض ثم تطهر ثم ان شاء أمسك بعد وان شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » •

فكان ذلك تفسيرا من السنة لما أوجزه القرآن الكريم من الأحكام•

٣ ـ وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا بنص القـرآن الكريم •

« والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعـة أشهر وعشرا » •

وعدة الحامـل المطلقة وضـع الحمل بنص القرآن الكريم :

« وأولات الأحمال أجلهـن أن يضعن حملهن » •

ولكن ما حكم عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ؟

سبيعة الأسلمية توفى عنها زوجها وهى حامل ثم وضعت بعـد نصف شهر من وفاة زوجها فأخبرها النبى صلى الله عليه وسـلم أن قد حلت وانتهت عدتها فبينت السنة بذلك أن عدة الحامل مطلقا وضع الحمل

٤ ــ جاءت الجدة الى أبى بكر رضى الله عنه تلتمس ميراثها فقال : « ما أجد لك فى كتاب الله شيئا وما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لك شيئا ، ثم سأل الناس ، فقام المغيرة فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيها السدس فقال له هل معك أحد ؟ فشهد معه محمد بن مسلمة بمثل ذلك فانفذه سيدنا أبوبكر » .

لقد حددت آية المواريث الفرائض وأصحابها ، ولكن الجدة لأم ألحقتها السنة الاسلامية بأصحاب هذه الفروض .

خامسا ــ الحاجات اليومية

١ ــ أحل الله الطيبات
وحرم الخبائث .
وبين هذين الأصلين .
الطيب الحلال .
والخبيث الحرام .

أشياء لم يوضحها القرآن الكريم وتركها للسنة الشريفة ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ومخلب من الطير ونهى عن أكل لحم الحمر الأهلية وقال : انها رجس .

٢ ــ والله سبحانه وتعالى أحل صيد البحر وحرم الميتة وبين هذين مسائل تتعلق بأحد الحكمين فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان السمك الميت من البحر حلال وقال : هو الطهور ماؤه الحل ميتته .

بهذا يتأكد للواثقين من دينهم وعقولهم ومستوى البحث العلمى النظيف أن السنة الاسلامية طبقت عمليا كمصدر أساسى للتشريع الاسلامى يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة » .. فأكد بذلك انها مصدر أساسى للتشريع الاسلامى .

هـ ــ مرتبة السنة فى التشريع

١ ــ روى أبو داود والترمذى وابن ماجة عن المقدام بن معديكرب قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه ، الا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه الا وان ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله » .

٢ ـ والقرآن الكريم يأمرنا بنص صريح : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

٣ ـ وقد ألحق رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكاما بقواعدها الكلية .

لقد حرم نكاح المرأة على عمتها مثل ما حرم الله الجمع بين الاختين .

وحلل رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتة البحر مثلما أحلَّ الله صيده .

فهل الأحكام بالحل والحرمة من النبى صلى الله عليه وسلم تختلف فى درجتها عن الأحكام بالحل والحرمة فى القرآن الكريم ؟

يجيب الحديث النبوى الشريف على هذا : « ألا وان ما حرم رسول الله كما حرم الله » .

ومغزى هذا أن مرتبة السنة فى قيمة الحكم هى مثل القرآن الكريم فما حلله رسول الله صلى الله عليه وسلم له قيمة الدرجة لما حلله الله تبارك وتعالى ، وما حرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم له قيمة الدرجة لما حرمه الله تعالى فى كتابه المجيد .

غير انه عند استنباط الحكم من المجتهد فى عملية الاجتهاد تكون السنة المصدر الثانى بعد البحث فى القرآن الكريم على حد المنهاج الذى رسمه سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه عندما سأله النبى صلى الله عليه وسلم :

« كيف تقضى اذا عرض لك قضاء ؟

قال : أقضى بكتاب الله .

قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟

قال : فبسنة رسول الله ؟

قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟

قال : أجتهد ولا آلو .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله » .

فحدد سيدنا معاذ أن النظر عند الاجتهاد لاستنباط الحكم يكون أولا فى القرآن الكريم فان وجد كفى ، وان لم يوجد يثنى بالنظر فى السنة الشريفة .

وبهذا الاعتبار تأخذ السنةالمرتبة الثانية بعد القرآن الكريم عند النظر فى الأدلة لاستنباط حكم شرعى .

أما قيمة الحكم المستنبط من السنة فهو مثل الحكم المستنبط من القرآن الكريم فى وجوب الأخذ به والايمان بأحقيته وقد حكم الله جل شأنه .

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » .

دكتور رءوف شلبى

« من نعم الله على عباده الصابرين »

السعة بعد الضيق والعافية بعد البلاء ، والرخاء بعد الشدة واليسر بعد العسر .

وسائل الإعلام فى عصر النبوة

للدكتور محمد سيد محمد

لاشك أن الباحث تأخذه الرهبة وهو يتجول بفكره فى الثلاثة والعشرين عاما قمريا التي بدأت بنزول الوحى على محمد صلى الله عليه وسلم الى يوم وفاته . لأن ما حدث فيها شامخ وعميق ومتعدد الأبعاد ، ومرتبط بالأزل ومربوط بالأبد . كما أن تلك الفترة — التى اصطلح على تسميتها بعصر النبوة — زودت العقل والتفكير والتدبر بالغيب ، وزودت غرائز الناس فى الأرض وما ينفعهم فيها ، ومختلف أوجه حياتهم بقواعد يوحى بها من السماء ، وتكفل لهم غنم الآخرة .

ان ذلك لابد وأن يلقى على الباحث — بغض النظر عن عقيدته — رهبة وحيرة أشبه بحيرة الصائغ أمام صندوق كبير من المجوهرات عليه أن يختار جوهرة منه ويجلوها ليعرضها ويبرز فيها فنه وصنعته .

ويختلف احساس الباحثين بهذه الرهبة ، كما يختلف أيضا تعبيرهم عنها وتحديد زواياها .

ولقد تمثلت هذه الرهبة التى شعرت بها وأنا أبدأ بحثى عن « وسائل الاعلام فى عصر النبوة » فى فتنة مسميات العصر ومصطلحات العلم الذى أمارسه ، وهو الاعلام ، فأفصل منها أثوابا لبعض أحداث عصر النبوة فتبدو أثوابى سخيفة ومضحكة .

الأمر الثانى : الخوف من أن يشدنى المضمون فى عصر النبوة فأستحى — أولا أستطيع — الوقوف حيث يوجب البحث ، وبذلك أصبح مجرد راوية لأطراف من السيرة دون أن أصل ببحثى الى غايته .

وبوضع هذين الأمرين أمام ناظرى ، وبالتزام قواعد البحث العلمى ، تتبعت وسائل الاعلام فى عصر النبوة ، منذ وقفته صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا يبدأ الطور العلنى للدعوة الى وقفته

ـ ص ـ على جبل عرفات فى حجة الوداع مؤكدا تأديته للبـــلاغ ، مشـــهدا الله على ذلك بقـوله : « الا هــل بلغت اللهم فاشـــهد » ومختتما بخطبة الوداع بيان الحقوق والــواجبات للفــرد والجمــاعة . ومحددا للأفراد مسئولياتهم .

حلقات الاعلام بالدعوة

اذا ألقيت حجــرا فى بــركة ماء هادئة تجم عن ذلك تكون حلقات من المــاء تبدأ صــغيرة ثم تتســع شيئا فشيئا . وهكذا . شأن الدعوة .. انها حلقات بدأت صــغيرة ثم اتســعت .. انها جهــد متتــابع ومتواصل . ومنذ نزول الــوحى بدأ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسئوليته فى ابلاغ الدعوة .

لقد أعلم زوجته السيدة خديجة ، وأعلم صاحبه أبا بكر الصــديق ، وأعلم ابن عمه عليا بن أبى طالب : أعلمهم جميعا بأمر الدعوة فصدقوه وآمنوا بدعوته . ثم بدأت الدائرة تتسع بعد ذلك . وكانت وسيلته فى الاعــلام بدعــوتههى الاتصــــال الشخصى المباشر .

ولقد ظلت الدعوة فى أول أمرها سرا ، ولكن معنى السرية هنا ـ فيما أرى ـ معنى نسبى ، لأن الدعوة كانت حديث النــاس بمكة منــذ أيامها الأولى . كما ذاع أمر الدعوة وهى فى طورها السرى الى خــارج مكة ، التى كانت فى ذلك الــوقت ملتقى القادمين للتجــارة أو لزيارة الكعبة .

ومعنى السرية فى الدعوة نسبى أيضا ، لأن العلن هو منهج الوحى وأسلوبه فى خطــاب النــاس ونشر الحقائق ، فالوحى هو النبأ العظيم كما يقول تعــالى : « عم يتساءلون عن النبأ العظيم الــذى هم فيــه مختلفون » ..

والنبأ لايكون خفية ولا سرا .. لأن طبيعته الظهور والعلانية .

ومعنى السرية فى الدعــوة نسبى أيضا لسبب ثالث ، وهو أن الاعلام بكلام الله هى وظيفــة الأنبيــاء والرسل بصفة عامة .

ولايعنى ذلك أن مؤلفى الســيرة على خطأ حين ذهبوا الى القول بأن الدعوة ظلت سرا حتى نزل قول الله تعالى : وأنذر عشيرتك الاقربين .

ولكن ما يؤكد التمحيص الدقيق لقراءة كتب السيرة هو أن اعلام النبى صلى الله عليه وسلم للناس بالدعوة — سواء كانوا أقرب الناس اليه كزوجته ، وأقرب أصدقائه اليه وأقرب أبناء عمومته اليه ، أو من يليهم فى القرب — كان عمل الرسول اليومى ، بل ان الاعلام بالدعوة كان حياته . وأن سرية الدعوة لم تكن بالمعنى المغلق لمفهوم السرية وانما كانت بمعنى السير — المتانى والمتعقل بالدعوة الى غايتها .

لقد شجعنا كتاب السيرة الاوائل على النظر فى سيرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعين فاحصة ، وعلى الربط بين أحداث مختلفه لاجلاء حقيقة تاريخية أو حقيقة علمية لأنهم سردوا الأحداث دون عناية بالتعليق عليها ، وأقدموا على تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة .

« ولقد كان وراء منهاجهم هذا فى الكتابة ، ووراء ذلك القدر المذهل من الموضوعية الذى تزخر به مؤلفاتهم ، اعتبارهم التاريخ المظهر الخارجى لارادة الله فى عالمنا هذا ، واعتقادهم أنه بالامكان التوصل الى كنه هذه الارادة باستقراء ظواهرها » (١) .

وبناء على ذلك يمكن القول بأن الاتصال المباشر أو الاتصال الشخصى بلغة الاعلام اليوم — كان وسيلة الاعلام بالدعوة التى اتخذها الرسول — صلى الله عليه وسلم — منذ بداية نزول الوحى ، وأن الاعلام بالدعوة كان أشبه بالحلقات المتوالية الاتساع .

ثم بدأ الطور الثانى من أطوار الاعلام بالدعوة بعد ثلاث سنوات من نزول الوحى فيما يروى بعض كتاب السيرة . ومع هذا الطور بدأت صفحة جديدة من وسائل الاعلام بالدعوة فى عصر النبوة .

---

(١) حسين أحمد أمين : « تأملات فى تطور كتابة سيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى الشرق والغرب » .. مجلة العربى « العدد ٢١٥ ، اكتوبر ١٩٧٦ » .

الطور العلنى للدعوة

يبدأ هذا الطور من أطوار الاعلام بالدعوة بنزول الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين » •• وتشير وقائع التاريخ الى بداية ملفتة للنظر فى وسائل الاعلام بالدعوة •

فقد صعد النبى صلى الله عليه وسلم « على الصفا فجعل ينادى : يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا • فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش •فقال النبى : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك الا صدقا • قال : فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا • فنزلت « تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب » •

وفى رواية أخرى أخرجها أحمد وجماعة عن أبى هريرة ، تقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا قريشا وعم وخص فقال : يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار فانى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فانى لا أملك لك ضرا ولا نفعا الا ان لكم رحما وسأبلها ببلالها • وجاء فى بعض الروايات أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما نزلت الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع عليه الصلاة والسلام بنى هاشم فاجلسهم على الباب ، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم فى البيت ثم طلع عليهم فأنذرهم •

وجاء فى روايات أخرى أنه عليه الصلاة والسلام أمر عليا كرم الله وجهه أن يصنع طعاما ويجمع له بنى عبد المطلب ففعل ، وجمعهم وهم يومئذ أربعون رجلا فبعد أن أكلوا، أراد صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم

بدره أبو لهب الى الكلام . فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا ثم دعاهم فى الغد الى مثل ذلك . ثم بدرهم بالكلام فقال : يابنى عبد المطلب انى أنا النذير اليكم من الله تعالى والبشير ، قد جئتكم بمالم يجىء به أحد ، جئتكم بالدنيا والآخرة ، فأسلموا تسلموا ، وأطيعوا تهتدوا . ويعلق الامام الألوسى على هذه الروايات بقوله : « اذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار » . (١)

ان أشهر الروايات هى ارتقاء الرسول صلى الله عليه وسلم الصفا ، وهى أكثرهم جذبا للأنظار . ولكن الموضوعية التى جعلت الامام الألوسى يقول : « ان صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الانذار » تدفعنى الى القول بأن ما تؤكده وقائع التاريخ من مثابرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سلوك سبل عديدة فى الاعلام بالدعوة يجعلنى أكثر ميلا الى ترجيح تعدد طرق الاعلام بالدعوة . وأن الروايات لاتتناقض ـ فى نظرى ـ بل تتكامل . وقد يكون بعضها وقع بعد فترة زمنية أخرى من الرواية الأولى . فان الرواية التى تذكر أنه صلى الله عليه وسلم جمع نساءه وأهله فى البيت ، ـ ان كانت قد وقعت ـ فالأرجح أنها وقعت بعد وفاة خديجة لأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يجمع معها زوجة أخرى . وكان موت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنوات .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الروايات تؤكد ظهور وسيلة جديدة من وسائل الاعلام بالدعوة هى ما يمكن أن نسميه بلغة العصر الاتصال بالجماهير . فالرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم الخطبة فى جمهور من الناس كوسيلة لاعلامهم بالدعوة . وبذلك تصبح الخطبة وسيلة ثانية من وسائل الاعلام بالدعوة الى جانب الاتصال الشخصى الذى لم يكن قاصراً على أهل بيته أو أصدقائه ، بل كان صلوات الله وسلامه عليه لا

---

(١) أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الالوسى : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، القاهرة : ادارة الطباعة المنيرية ، الجزء التاسع عشر ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم أو شرف أو ثقل أو تأثير الا تصدى له فدعاه الى الله وعرض عليه ما عنده .

الفعل ورد الفعل

برغم أن حديثنا خاص بوسائل الاعلام فى عصر النبوة ، الا أن رد الفعل لدى المشركين لم يكن مرتبطا بالمضمون فقط بل وبالوسيلة أيضا . وكان رد الفعل لدى المشركين فى جملته ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر « التشويش » على اعلام الرسول بالدعوة بشتى السبل .

ولقد تواكبت طرق التشويش مع تطور وسائل الاعلام بالدعوة بشكل سافر منذ بداية الطور العلنى للدعوة حتى فتح مكة .

فى البداية كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أرادوا الصلاة ذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة اذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم حتى تقاتلوا .

ولما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدعوة بذكر آلهة المشركين وتسفيه هذه الآلهة ، وتسفيه عقول من يعبدها من دون الله . كان رد الفعل أن ذهب رجال من أشراف قريش الى أبى طالب قائلين :

يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه

فلما اشتدت الدعوة اشتد أسلوب زعماء قريش مع أبى طالب، ولجأ الكافرون الى وسائل المقاطعة الاقتصادية وتسليط سفهائهم بايذاء الرسول وتكذيبه ، ورميه بالشعر والكهانة والجنون .

وقد حاول مشركو مكة وكفارها أن يمنعوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الاتصال بالناس لخوفهم من تأثيره عليهم . ولخوف الكفار من التأثير القوى للقرآن فقد حاولوا التشويش عليه أيضا ، وتحدث القرآن عن محاولتهم « وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن

والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

كما لجأ الكفار الى استخدام وسائل أخرى للتأثير فى الناس لتكون مضادة لتأثير القرآن عليهم ينجحون فى جذب الناس اليهم ، فلجأوا الى الشعراء الذين قاموا بانشاء القصائد الشعرية وسير الأبطال .. الخ . بل انهم ذهبوا الى أكثر من ذلك فحاولوا تقليد القرآن نفسه ، وأنى لهم هذا ! «ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . كما كان لشعراء الكفار دور فى هجاء الرسول والمسلمين والدعوة . لقد برز دور الشعر الذى أخذ شكل الدعاية . وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم يرد على شعراء الكفار .

الدائرة الثالثة ووسائلها

يقول الامام الحافظ ابن القيم الجوزية : أن مراتب الدعوة : المرتبة الأولى : النبوة ، الثانية : انذار عشيرته الاقربين ، الثالثة : انذار قومه ، الرابعة : انذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة ، الخامسة : انذار جميع من بلغته دعوته من الجن والانس الى آخر الدهر . (١) وهو قول يمس وسائل الاعلام فى عصر النبوة مسا مباشرا .

وفى مرحلة توجيه الدعوة الى الدائرة الثالثة من دوائر جمهور الدعوة نرى أن وسائل الاعلام أخذت شكل عرض الرسول — صلى الله عليه وسلم — للدعوة على القبائل ، والاستفادة من المواسم للاعلام بالدعوة . وفى هذا الطور من أطوار الدعوة تمت الهجرة الى الحبشة ، ثم كانت الهجرة الى المدينة نتيجة للقائه صلى الله عليه وسلم للوفود واعلامهم بالدعوة . وبنجاح الهجرة الى المدينة بدأت دولة الاسلام .

وهنا سنجد أن الاعلام المضاد من الكفار بشتى وسائله لم يكف عن ملاحقة الاعلام بالدعوة حتى أن هجرة الحبشة (٢) تشهد جوارا مصريا ودقيقا بين المهاجرين

(١) الامام الحافظ عبد الله بن القيم الجوزيه ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، الطبعة الاولى ، القاهرة : مطبعة محمد على صبيح ، ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٤ م ، ص ٢٧ .

(٢) كانت الهجرة الاولى الى الحبشة تضم اثنا عشر رجلا واربع نسوة ثم

المسلمين وبين كفار مكة امام ملك الحبشة ، حاول فيه الكفار ان يوقعوا بين الاسلام والمسيحية ، ولكن صدق المسلمين وصلابتهم وحسن تصرفهم نجاهم من الوقيعة

ومن وسائل الاعلام فى هذه الحلقة أو الدائرة الثالثة من دوائر الاعلام بالدعوة الاستفادة من المواسم ليعرض الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل(١) أفكان صلوات الله وسلامه عليه يعرض نفسه فى المواسم – اذا كانت – على قبائل العرب يدعوهم الى الله ، ويخبرهم انه نبى مرسل ، ويسألهم ان يصدقوه ويتبعوه .

وتروى كتب السيرة رواية عبد الله بن عبيد الله بن عباس اذ يقول : « انى لغلام شاب مع أبى بمنى ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بنى فلان ، انى رسول الله اليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، وتمنعونى ، حتى أبين عن الله ما بعثنى به . قال : وخالفه رجل أحول وضيء ، له غديرتان ، عليه حلة عدنية . فاذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا اليه ، قال ذلك الرجل : يا بنى فلان ، ان هذا انما يدعوكم الى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، الى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه » .

قال : فقلت لأبى : يا أبت من

بلغهم ان قريشا قداسلمت – وكان هذا الخبر كاذبا – فرجعوا الى مكة فلما بلغهم أن الامر اشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة فلقوا من قريش اذى شديدا . ثم اذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ثانية الى الحبشة ، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا ، ومن النساء ثمان عشرة امراة فاقاموا عند النجاشي على احسن حال فبلغ ذلك قريشا فارسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير المخزومى فى جماعة ليكيدوا لهم عند النجاشي ففشلوا فى ذلك .

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية : تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، الجزء الثانى ، القاهرة : مصطفى البابى الحلبى واولاده ، ١٩٣٦ ، ص ٦٣ .

هذا الذى يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال : هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو لهب .

والى جانب التشويش كرد فعل مستمر كان رفض بعض الكفار للدعوة رفضا مرذولا . فعندما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى حنيفة فى منازلهم ، فدعاهم الى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردا عليه منهم .

وكما كان الرفض كانت المساومة طريقا فى الرد على اعلام الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة . فهذا بن صعصعة يرد على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — — ص — بقوله : أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فاذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه . ويروى ابن هشام فى سيرته عن ابن اسحاق أنه قال : حدثنى الحصين ابن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ عن محمود بن لبيد قال : لما قدم أبو الحسير ، أنس بن رافع ، مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل ، فيهم اياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فجلس اليهم ، فقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ فقالوا له : وماذاك ؟ قال : أنا رسول الله بعثنى الى العباد أدعوهم الى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل على الكتاب . قال : ثم ذكر لهم الاسلام . وتلا عليهم القرآن . قال : فقال اياس بن معاذ ، وكان غلاما حدثا : أى قوم هذا والله خير مما جئتم له . قال : فيأخذ أبو الحسير ؟ انس بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه اياس بن معاذ وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

قال : فصمت اياس ، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، وانصرفوا الى المدينة ،

وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ولم يكن رسول الله ـ ص ـ يعرف اليأس فى ابلاغ الدعوة . وكان تكرار الوسيلة فى العام التالى فيه خير كثير .

تروى لنا سيرة ابن هشام عن ابن اسحاق : ان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خرج فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم . فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا .

قال ابن اسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا : لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من انتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال: وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام ، أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب اوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم ، فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا لهم : ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم . فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم اولئك النفر ، ودعاهم الى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله انه النبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه .

فاجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

ثم كانت بيعة العقبة الثانية وكانت الهجرة ، وكانت بداية

الدولة الاسلامية فى المدينة . ومن ثم اتخذ الاعلام بالدعوة وسائل جديدة . فأصبحت صورة الاعلام اليومى بالدعوة تتم بتعليم المسلمين الجدد . وأقيم المسجد النبوى حيث بركت ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم . وبدأت وسيلة أخرى من وسائل الاعلام بالدعوة ، هى بعث الوفود .

الاعلاميون الشهداء

قد يرى المتتبع لكل ما سقناه من وسائل الاعلام بالدعوة أن شيئا من الراحة لابد وأن يصيب الداعية والدعاة ببناء الدولة الاسلامية فى المدينة، ولكن تاريخ الدعوة يؤكد أن دعاتها لاقوا الشهادة كما لاقاها زملاؤهم فى الغزوات . لقد بدأت وسيلة اعلام جديدة بعد الهجرة هى بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وفق ترتيبات معينة ـ بعض أصحابه لابلاغ الدعوة.وستتبين هناظاهرة الفعل ورد الفعل على مستوى الدائرة الثالثة ـ وهم جمهور العرب ـ كما لمسناها على مستوى الدائرة الثانية وهم كفار مكة .

قدم أبو عامر بن مالك (١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد ، فدعوهم الى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انى أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس فى أمرك : فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من أصحابه ، من خيار المسلمين فساروا حتى نزلوا ببئر معونة (وهى أرض بين بنى عامر وحرة بنى سليم) فلما نزلوها بعثوا واحدا منهم هو حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه لم ينظر فى كتابه حتى عدا على الرجل فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر ، فأبوا ان يجيبوه الى مادعاهم

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

اليه ، وقالوا : لن نحقر أبا براء ، وقد عقد لهم عقدا وجوارا ، فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه الى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم ، فاحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم الا كعب بن زيد فانهم تركوه وبه رمق فعاش حتى استشهد يوم الخندق .

اعلام الدولة النواة

بنجاح الهجرة الى المدينة بدأت نواة الدولة الاسلامية . وبدأ الاعلام اليومى وبدأ اعلام ارسال واستقبال الوفود أو الافراد .

وبنجاح الهجرة انتقل الصراع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه المؤمنون من المهاجرين والانصار ، وبين كفار مكة ومن آزرهم من اليهود والكفار والمنافقين الى الصدام المسلح فى صورة الغزوات المتتابعة .

وبنفس القدر أخذ الاعلام المضاد للدعوة صور الحرب النفسية والدعاية السوداء . فما أن نزلت الآية الكريمة بتحول المسلمين فى صلاتهم من استقبال بيت المقدس الى استقبال الكعبة . حتى أطلق كفار مكة دعاياتهم السوداء بان النبى صلى الله عليه وسلم قد عاد الى قبلتهم وانه سوف يعود الى دينهم .

وكان المنافقون يستغلون ظروف غزوة الخندق ليطلقوا دعاياتهم السوداء بأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعدهم بملك كسرى وقيصر وها هم لا يستطيعون الخروج من المدينة .

وظل اعلام الدعوة يواجه اساليب الحرب النفسية والدعاية السوداء من اليهود والمنافقين وكفار مكة والعرب ، ويفند ضلالهم حتى كانت الجولة الحاسمة بفتح مكة . وتمثل الفترة من الهجرة الى الفتح أقصى فترات الحرب النفسية والاعلام المضاد . والقرآن الكريم يحوى الكثير من الآيات التى ترد على تساؤلات اليهود الخبيثة وعلى المنافقين والكفار فى هذا الصدد .

وقبيل الفتح وبتوقيع صلح الحديبية مع كفار مكة بدأت حلقة جديدة من حلقات الاعلام بالدعوة

يمكن أن نطلق عليها الحلقة العالمية

الرسائل الى الملوك وسيلة اعلام دولى

تبين مما ترويه كتب السيرة أن صلح الحدبية (١) لم يكن يلقى قبولا أو حماسا من عامة المسلمين. وأن رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم كانت أبعد مما رأى كثير من المسلمين ، بل يمكن القول بعامة المسلمين ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولكن هذا الصلح كان مفتاح تصفية الجيوب اليهودية التى كادت تقتل كل من بقى فى المدينة من المسلمين ، عندما تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم متجها الى الحديبية . وكان هذا الصلح أو الاتفاق هو الطريق الى فتح مكة بغير دمار أو قتال .

يروى الامام الحافظ الجوزية فى كتابه زاد المعاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية كتب الى ملوك الأرض وأرسل اليهم رسله ، فكتب الى ملك الروم ، فقيل له انهم لا يقرؤون كتابا الا اذا كان مختوما . فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه ثلاثة أسطر : «محمد» سطر ، و«رسول» سطر ، و « الله » سطر . و ختم به الكتب الى الملوك . وبعث ستة نفر فى يوم واحد من المحرم سنة سبع من الهجرة .

❋ الرسالة الى النجاشى ملك الحبشة حملها عمرو بن أمية الضمرى

---

(١) صلح الحديبية : كان هذا الصلح برغم ما فيه غزوا نفسيا لكفار مكة . وترجع القصة الى خروج النبى صلى الله عليه وسلم فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة بألف واربعمائة من اصحابه قاصدين مكة للاعتمار . فاحرموا بالعمرة من ذى الحليفة فلما وصلوا الحديبية بعث الرسول صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله عنه الى مكة ليخبر اهلها بان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدزيارة بيت الله الحرام، ولم يكن قاصدا حربا . فلما ذهب عثمان حبسوه عندهم . وظن المسلمون انهم قتلوه فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه على ان يدخلوا مكة حربا ؛ فلما بلغ المشركين ذلك اطلقوا سراح سيدنا عثمان . وبدات مفاوضات الصلح التى كان ابرزها جورا ان من يرجع من المسلمين الى المشركين لا يردوه ؛ وان من يأتى الى النبى مسلما يرده الى المشركين . وفى العالم التالى دخل الرسول صلى الله عليه وسلم معتمرا .

* الرسالة الى قيصر ملك الروم وأسمه « هرقل » حملها دحية بن خليفة الكلبى

* الرسالة الى « كسرى » ملك الفرس حملها عبد الله بن حذافة

* الرسالة الى المقوقس حاكم مصر واسمه « جريج بن مينا » ملك الاسكندرية عظيم القبط حملها حاطب بن أبى بلتعه

* الرسالة الى الحارث بن أبى الغسانى ملك البلقاء حملها شجاع بن وهب الأسدى

* الرسالة الى هوذة بن على الحنفى باليمامة حملها سليط بن عمرو

هؤلاء السفراء من أصحاب رسول الله تم اختيارهم لجزء من المهمة ، فدحية الكلبى الذى حمل مسئولية لقاء هرقل قيصر الروم فى ظروف انتصاره على كسرى كان يتميز بحسن المظهر تميزه بحسن الايمان وحسن الادراك .

أما محتوى الرسائل فكان الدعوة المباشرة بالايمان بالله وحده والاسلام . ونص الرسالة التى حملها دحية الى هرقل يعبر عن هذا المضمون .

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم . »

السلام على من اتبع الهدى . أما بعد . أسلم تسلم : واسلم يؤتك الله أجرك مرتين . وان تتول فان اثم الأكارين (١) عليك . ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

أما أثر الرسائل فقد كان النجاح فى الاعلام بالدعوة ، بل والحوار حول الدعوة ذاتها . ولم تكن الرسائل للملوك رسائل شخصية وانما كانت موجهة الى رعايا الملوك من خلال حكامهم .

أما رد الفعل فقد اختلف ممن وجهت اليهم الرسائل ومن حاشيتهم لقد كان رد هرقل على دحية قوله

---

(١) « الأكارين » هم الزراع والحراث والمقصود بهم رعية هرقل .

انى أعلم أن صاحبك نبى مرسل ، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده فى كتابنا ، ولكنى أخاف الروم على نفسى .

ولقد عاصر أبو سفيان قبل اسلامه سفارة دحية ، وكان فى تجارة لقريش الى الشام . وبينما هو فى غزه اقتاده رجال هرقل ليقابل ملكهم هو ومن معه ليسمع منهم أخبار النبى .

ويروى أبو سفيان الحادثة وقد مثلوا أمام هرقل ومعه المترجم فسألهم من أقربهم نسبا للرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ ، فكان أبو سفيان . فقال هرقل لحاشيته : أدنوه . وأقعده بين يديه ، وأقعد من كانوا معه خلفه . ثم قال انى سأسأله فان كذب فردوا عليه . يقول أبو سفيان أنه لو كذب ماردوا عليه ولكنه تكرم عن الكذب حتى لا يحفظوا عليه الكذب فيحدثوا به عنه . ويقول أبو سفيان أنه حاول أن يقلل فى اجاباته على هرقل من أمر الرسول ، ولكن هرقل لا يكتفى بالسؤال تلو السؤال وانما يعيد الحديث كله ليستوثق ، ويقول لترجمانه مخاطبا أبا سفيان : قل له انى سألته كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض فى أوسطكم نسبا . وكذلك يأخذ الله النبى اذا أخذه لا يأخذه الا من أوسط قومه نسبا . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبه اياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه ، فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء . وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان . وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون . وكذلك أمر الايمان . وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه . وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه . وسألتك هل يغدر فزعمت أن لا . وكذلك الرسل لا يغدرون ،

وسألتك بما يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة وبالصدق والعفاف والصلة

فلئن كنت صدقتنى عنه ليغلبنى على ما تحت قدمى هاتين ، وهو نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أكن أظن أنه منكم . ولو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه . ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه . انطلق لشأنك .

يقول أبو سفيان فلما قال ماقال كثر عنده الصخب ، وارتفعت أصوات الذين حوله من عظماء الروم ، وكثر لغطهم فلا أدرى ماذا قالوا . وأمر بنا فأخرجنا . ويقول أبو سفيان أنه خرج يضرب كفا بكف . وهو اذ ذاك على الكفر لم يسلم بعد ــ على ما صار اليه أمر محمد صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ملوك بنى الأصفر يهابونه فى سلطانهم بالشام !

وجملة الروايات فى رد فعل هرقل أنه لم يستطع اعلان اسلامه خوفا ممن حوله

وكان رد الفعل عند كسرى هو تمزيق رسالة النبى . وعلى العكس تماما أسلم النجاشى ملك الحبشة على اثر الرسالة ــ كما تقول بعض الروايات ــ وكان رد الفعل المصرى وسطا أو بين بين ، فقد رد المقوقس ردا حسنا ، وأهدى للنبى صلى الله عليه وسلم مارية القبطية التى انجبت له ابراهيم وبعض الهدايا الأخرى التى وزعها الرسول على بعض صحابته . أما ملك اليمامه فقد أكرم رسول الرسول برغم أنه لم يسلم ــ فيما تقول بعض الروايات

لم يكن هؤلاء السفراء الستة الذين خرجوا فى يوم واحد الى المجتمع الدولى آنذاك هم آخر السفراء من حملة الرسائل للاعلام بالدعوة . فقد حمل رجال آخرون رسائل الى حكام اليمن والبحرين وعمان . وكان من سفراء النبى للاعلام بدعوته أفذاذ من أمثال على بن أبى طالب وأبى موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل

بيان الحقوق والواجبات فى خطبة الوداع

وعلى جبل عرفات كانت خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بيانا للحقوق والواجبات فى علاقة الفرد بنفسه (أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته) . وفى علاقته بأسرته (ان

لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة .. الخ) ثم يقول صلى الله عليه وسلم « انما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا » .

ويحدد علاقة الولد بوالده ، ويحدد الميراث والوصية . وفى علاقة الفرد بالمجتمع (ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام) . ثم يعلن أن ربا الجاهلية موضوع ، وأن دماء الجاهلية موضوعة . ثم يحدد علاقة الفرد بالعالم بقوله : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير ، ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى ، ألاهل بلغت ؟ اللهم فاشهد .. فليعلم الشاهد الغائب »

وهكذا أصبح الشاهد مسئولا عن الاعلام بالدعوة ، الشاهد بالمعاصرة ، والشاهد من الأجيال التالية : بالمعرفة والايمان ، كل اليه البلاغ وعليه البلاغ .. والاعلام بالدعوة حركة دائمة متجددة ومعين فى نفس الوقت لا ينضب ، وسمع الانسان وبصره وفؤاده عنه مسئول ومسئول .

د. محمد سيد محمد

من شاء عيشا رضيا يستفيد به
فى دينه ثم فى دنياه اقبالا
فلينظرن الى من فوقه ادبا
ولينظرن الى من دونه حالا

في عباب النور

للأستاذ محمد عادل سليمان

في العيون رفرفان .. تكأتان .. على راحتيهما تستريح أثقال الدعوة فلا يتململان رهقا ، ولا يسأمان ضغوطا .. بل يسعان كل الأعباء صبرا ورحابة .

فهما للدعوة جبلان اشمان يذودان رعونة رياح الكفر أن تحاول اطفاء النور .. وعلى صخراتهما تتكسر كل الأقواس والسهام فشلا وخيبة دون تصويب واصماء .

وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — بهما قرير العين على دعوة الحق ، فعمه « أبو طالب » سيد بني هاشم حجاب الشموخ بين نوش الكفار وشخص النبي .
وأم المؤمنين « خديجة » رضى الله عنها سيدة النساء .. شارة الاباء في وجه الرجال .

وفي عام واحد مات «أبو طالب» وماتت خير النساء « خديجة » ؛ وما سمي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذا العام « عام الحزن » الا لأنه يعلم ما وراء ذلك من محاولات الكيد والتربص من رؤوس الكفر بدعوة الحق ، ومواقف العناد الصلف أمام مد النور الزاحف الجديد .

وما كان « أبو طالب » ، و « خديجة » رفرفين للنبي .. بل كانا رفرفين للدعوة .. فما كان وما يكون للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتكىء على الخلق ومعه ربه .. «والله يعصمك من الناس» عهد الهي بالعصمة والمنعة ، والحفظ والحماية .

وتوهم أهل الكفر ذلك الجبلين الشامخين .. وأن المسافة بينهم وبين النبي فضاء بلا حراسة ،فبيتوا

كل ليلة غدرا « والله يكتب ما يبيتون » .

وكأن الله تعالى أراد أن يعلن حراسته لنبيه ، ويرفع راية الاعجاز والقهر فى وجه الرفض .. فكانت ليلة « الاسراء والمعراج » .

ماذا — اذن — فى الاسراء ؟.. وماذا — اذن — فى المعراج ؟

رحلة اللمحة بين المسجدين فيها تلاشى المسافة .. وفى المسجد الأقصى اعلان الامامة فى هذا المشهد .

المسجد خاشع فى ذوب النور المالىء كل فضاء .. أبهاء المسجد ترقص تحت غلالات النور الأبيض .. همس الهمس الربانى بذكر الله .. حركات صلاة جليلة بين ركوع وسجود .

فجأة .. يصمت الهمس ، وتسكن الحركة .. يقف الكل .. يصطف الكل حرس شرف .. ترقب كل عيون الحرس قدوم السيد .

فى المسجد الأقصى .. حرس الشرف جميع الأنبياء والرسل منذ آدم عليه السلام .. يصطفون فى شرف استقبال سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويصل الحبيب المحبوب فى موكب الملائكة ،وتستلىء عيون الرسل والأنبياء من نوره ، وتستقى أرواحهم من فيضه .. ويؤذن للصلاة .. ويقف حرس الشرف جميعا لينالوا شرف المأمومية خلف امامة الامام الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيقدمه « جبريل » عليه السلام ليصلى بالأنبياء والرسل اماما .

وفى هذا الموقف المهيب بين يدى الجليل سبحانه وتعالى.. أكثر من فقه .. امامة الرسول اقرار بالفضل .. واذا كان يؤم القوم أعلمهم .. فامامة الرسول اعتراف من الأنبياء والمرسلين بأنه صلى الله عليه وسلم أعلمهم بالله..واذا كان الموقف موقف القرب من الله والمناجاة والصلة فى الصلاة .. فامامة رسول الله شرف للانبياء والرسل به لأنه امامهم فى القرب ووسيلتهم جميعا الى الله فى المناجاة والصلة .. وفى هذا دليل على

أنهم جميعا لم يدخلوا حضرة القرب الا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وامامة الرسول للأنبياء والمرسلين اعلان الهى بالغاء الشرائع كلها واقرار شريعة الاسلام ، واشارة الى نسخ جميع النبوات والرسالات ، وتبعية الرسل والأنبياء جميعا لسيدنا رسول الله .

وامامة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنبياء والمرسلين فى المسجد الأقصى اشارة الى تقدمه عليهم جميعا فى الخلق وان جاء بعدهم فى الختام .

ففى المرسلين آباؤه وأجداده .. « اسماعيل وابراهيم » عليهما السلام ، وفيهم « نوح » أطول الأنبياء عمرا عليه السلام ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما يزل بعد فى الخمسين .. اذن .. فامامته لهم اشارة الى سبق الخلق عليهم ، ووقوفهم جميعا فى مقام المأمومية خلفه اشارة الى سريان سره صلى الله عليه وسلم فيهم .. فبه كانوا رسلا وأنبياء .

وتنتهى رحلة اللمحة بين المسجدين فى تلاشى المكان لتبدأ رحلة العروج من الأرض الى مابعد سدرة المنتهى فوق السموات فى تلاشى الزمان والمكان معا .

وفى كل سماء ترحيب الى ترحيب سماء .. حتى تجاوز سموات السموات العلا .. « عند سدرة المنتهى .. عندها جنة المأوى .. اذ يغشى السدرة مايغشى .. ما زاغ البصر وما طغى .. لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وماذا فى رحلة العروج اذن ؟ جبريل عند مقامه يقف .. « وما منا الا له مقام معلوم » .. ويمضى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يمضى فوق مقام جبريل .. يمضى فى عباب النور الالهى تغشاه سحابات الرحمة والرضوان .. بلا أين ، ولا بين ، ولا زمان ، ولا مكان .. بين يدى ربه خالق الزمان والمكان .. وعاد النور الثانى الى سجدة الذوب فى مقام النور الأول « كان الله ولا شىء معه » .. والتقى المحب

بالمحبوب والطالب بالمطلوب .. « التحيات لله .. والصلوات والطيبات » فيجيبه ربه « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله الله وبركاته » .. وفى هذا الموقف الجمعى يذكر النبى الصالحين .. « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

ويودع الله رسوله من الأسرار والأنوار ما لا طمعية فيه لنبى ولا رسول .. اذ رأى ربه بعينى رأسه بلا احاطة ولا حصر ، ولا كيف ولا كم ، ولا فوق ولا تحت ، ولا زمان ولا مكان .. تعالى الله عن الاحاطة والحصر والادراك ، والكيف والكم ، والفوق والتحت والزمان والمكان .

وفرض الله الصلاة فى المعراج اشارة الى فقه العروج فيها من أرض البشرية الى سماء المناجاة الفوقية .. وما كان تردد الرسول بين موسى عليه السلام وربه تنقلا من مكان الى مكان..بل هو بين موسى عليه السلام الى مقام التجلى الالهى عليه صلى الله عليه وسلم فى عباب النور .

واذا كان الاسراء « لنريه من آياتنا » فى أماكن الأرض المقدسة .. فان المعراج سر الرحلة وروحها، ونقطة الدائرة الحقيقية « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وفى الاسراء شاهد أماكن الأعمال فى الأرض .. فى مدين وسيناء وبيت لحم .. والمسجد الأقصى . لكنه — فى المعراج — شاهد حقائق الأعمال ونتائجها .. اقوام يزرعون ويحصدون .. وأقوام ترضخ رؤوسهم بالحجارة .. وأقوام .. وأقوام .. ففى الملأ الأعلى ملكوت كل شىء .. « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء » .

اللهم صل على الجامع المجموع بك عليك .. والدال بك اليك .. من أسريت به فأرى من آياتك .. وعرجت به « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » صلاة وسلاما تليقان بجلالك وجمالك خليه .. وبمقامه العظيم لديك حق قدره العظيم وجاهه العظيم .. آمين .

محمد عادل سليمان

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزي

المستشار حسن حسب الله

انتهينا فى المقال السابق من الكلام عن حد شرب الخمر .

ونتكلم فى هذا المقال عن بقية جرائم الحدود وهى جرائم البغى والحرابة والردة .

اولا : حد البغى

حد البغى ق الاصطلاح الشرعى يمكن أن يقابله ما هو معروف حاليا بالثورة المسلحة ضد الحاكم المسلم أو الحرب بين دولتين اسلاميتين .

وحد البغى من الحدود الثابتة بالكتاب لقوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » ــ الحجرات ٩

والأصل ق نظام الحكم الاسلامى أن يكون للمسلمين ق أنحاء الارض امام أو رئيس واحد والبغاة هم قوم من المؤمنين يخرجون عن سلطان هذا الامام ويخالفونه الرأى بقوة السلاح ويسعون لقتاله ولذلك فرض الله على باقى المؤمنين معاونة الامام فى قتالهم لأنهم لو تركوا وشأنهم لعمت الفوضى وساد الفساد واضطربت أمور المسلمين .

وأركان جريمة البغى ثلاثة :

أولها : أن يكون الحاكم عدلا .

وثانيها : أن يستند الخارجون عليه الى تأويل معين يسيغ لهم من وجهة نظرهم هذا الخروج كأن يدعوا بأن انتخابه لم يكن صحيحا أو أنه لا يحكم بكتاب الله وسنة رسوله أو أنه لم يفعل أمرا كان يجب عليه فعله وهكذا يكون لهم سند من أصول الحكم الاسلامى وان لم يكن قويا .

وثالثها : أن تكون لهم قوة يجتمعون عليها فان لم تكن لهم قوة أو كانت لهم قوة ولكن حاولوا الاعتداء فرادى غير مجتمعين فانهم لا يعتبرون بغاة ويحاسب كل منهم على ما صدر منه من أفعال .

ويرى بعض الفقهاء اضافة ركن رابع هو أن يبدأوا بالقتال والاعتداء فان لم يبدأوا بالقتال فلا يعتبرون من البغاة ولكن جمهور الفقهاء يرون أنهم متى خرجوا للقتال واعتزموه فلا ينتظر الامام حتى يقاتلوه وعليه أن يبدأ هو بقتالهم وقتلهم وهو ما نرى الاخذ به .

فمتى توافرت هذه الشروط فان الجريمة تكون تامة ويعاقب مرتكبوها بالقتل .

وهذا الحد القصد منه العمل على صيانة المجتمع الاسلامى من التفكك والخصام والاندفاع تحت أية نزوات أو آراء تصدر نتيجة التعصب والحماس قبل التثبت والتيقن فالقرآن الكريم فى هذا التشريع افترض امكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين مع احتفاظ كلتا الطائفتين بصفة الايمان ومع احتمال أن تكون احداهما باغيةعلى الاخرى ولذلك أمر المؤمنين بقتال البغاة وقتلهم وهو ما حدث فعلا بعد ذلك عندما قاتل الامام على البغاة فى وقعة الجمل وفى وقعة صفين وقام بقتالهم معه أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم .

ولا يمنع تفرق المسلمين اليوم الىعدة دول وممالك بكل منها امام أو رئيس من تطبيق حد البغى فواجب الدول الاسلامية أن تجتمع لتقاتل البغاة أينما كانوا وفى أية صورة كانوا فلو أخذت احدى الدول الاسلامية مثلا بالنظام الشيوعى لوجب على باقى الدول الاسلامية قتالها وقتل البغاة فيها اذا لم يعودوا الى حكم الاسلام .

ثانيا : حد الحرابة او قطع الطريق

وحد الحرابة فى الاصطلاح الشرعى يقابله ما هو معروف حاليا فى قوانين العقوبات بالاتفاق الجنائى .

وحد الحرابة ثابت بالكتاب لقوله تعالى « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ــ المائدة ٣٣ .

ان الشريعة الاسلامية مليئة بالأحكام المتعلقة بحماية النفس وحماية المال وصيانة النظام وكل ما يكفل تحقيق الاستقرار والطمأنينة والعدالة ولذلك فرضت العقوبات الرادعة لمنع أى اعتداء على النفس أو المال أو نظام الحكم الاسلامى ومن أقوى الحدود للمحافظة على ذلك حد الحرابة .

وقد أخذ اسم الحرابة من وصف الله تعالى لهؤلاء المعتدين بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وذلك باعتدائهم على شريعة الله وعلى أمن المسلمين .

وقد اختلف الفقهاء فى تعريف الحرابة .

فذهب الحنفية الى أن الحرابة أو قطع الطريق هى الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة على وجه يمنع المارة من المرور ويقطع الطريق سواء كان من جماعة أم من واحد وسواء أكان القطع بسلاح أم بغيره من العصا والحجر ونحوها وسواء أكان بمباشرة الكل أم بمباشرة البعض واعانة البعض الآخر (مثلا البعض يراقب الطريق والبعض يباشر العدوان وهكذا) ويشترط الامام أبو حنيفة فى المكان الذى تقع فيه الجريمة أن يكون خارج العمران بعيدا عن الناس ولا تأخذ هذه الجريمة هذا الوصف اذا وقعت داخل القرية أو المدينة وشاركه فى ذلك أكثر فقهاء الشيعة وخالفه فى ذلك تلميذه أبو يوسف فقرر أن العبرة بامكان طلب الغوث ولذلك ذهب الى أن قطع الطريق يتحقق فى القرية والمدينة اذا كان المعتدون فى مكان لا يمكن فيه أجابة المستغيث .

وقد أخذ الامام الشافعى برأى أبى يوسف فنظر الى قرب الغوث فقط بصرف النظر عن المكان وقضى بامكان وقوع قطع الطريق فى القرية والمدينة .

وأخذ الامام أحمد بقول أبى حنيفه .

أما الامام مالك فقد توسع فى معنى الحرابة حتى يشمل المعنى كل

الجرائم وكل الاماكن حتى المنازل نفسها فى القرى والمدن فاذا دخل السارق الدار مسلحا أو قتل القاتل ضحيته غيلة فان هذا السارق وهذا القاتل يدخلان فى المحاربين فيعاقب هذا السارق المسلح بحد الحرابة وليس بحد السرقة فقط فالامام مالك ينظر الى معنى العنف والغلبة الشخصية بالنسبة للجانى على المجنى عليه فان كان المجنى عليه لا يستطيع دفع الجانى كان الجانى محاربا .

ونرى الأخذ برأى الامام مالك خاصة بعد أن تفشت ظاهرة السرقة بالاكراه وخطف الفتيات فى رابعة النهار وفى عواصم الدول ونشطت عصابات اللصوص والمنظمات الارهابية فى ارتكاب جرائمها فى كل مكان .

ولا يشترط لتوافر أركان حد الحرابة أن تتم جرائم الاعتداء على النفس أو المال أو العرض فعلا وانما يكفى فى ذلك أن يجتمع نفر من الناس لهم منعة وقوة ويتفقوا فيما بينهم على ارتكاب هذه الجرائم ليتعاقبوا بحد الحرابة وبذلك يكفى تكوين أية عصابة أو منظمة ارهابية لمعاقبة جميع أفرادها بحد الحرابة ولو لم تبدأ نشاطها الاجرامى .

ويشترط لاقامة الحد على المحارب أن يكون بالغا وعاقلا لان ذلك شرط لاقامة الحدود وقد تفرع عن ذلك خلاف بين الفقهاء فيما اذا كان بين المحاربين صبية أو مجانين هل يسقط حد الحرابة عن جميع المحاربين تبعا لذلك أم يقتصر العفو عن الصبية والمجانين وحدهم ؟

ذهب الحنفية الى سقوط حد الحرابة عن الجميع لأن هذه الجريمة هى تعاون على الاثم فاذا سقط الحد عن بعض المتعاونين سقط عن باقيهم لان العفو يسرى الى كل أجزاء الجريمة .

أما الامام مالك فقد ذهب الى منع سقوط الحد عن غير الصبية والمجانين فلا يستفيد باقى المحاربين من ذلك لأن هذه الجريمة اعتداء مباشر على الله وعلى جماعة المسلمين وحتى يتوافر الأمن للأمة الاسلامية .

ونرى الأخذ برأى الامام مالك والا استطاع المحاربون الافلات من العقاب باصطحابهم بعض الصبية أو المجانين معهم .

وعقوبة المحاربين كما وردت فى النص القرآنى « .. أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » صارت محل خلاف نتيجة التعبير بحرف « أو » ونتيجة هذا التنويع فى العقاب .

فذهب ابن عباس وبعض الصحابة الى أنهم اذا قتلوا فقط قتلوا واذا سرقوا فقط قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف واذا أفزعوا الناس فقط عوقبوا بالنفى واذا قتلوا وسرقوا قتلوا وصلبوا وبهذا أخذ أبو حنيفة والشافعى وأحمد رضى الله عنهم .

وذهب الامام مالك الى أن الامام حر فى اختيار العقوبة الملائمة وأن « أو » فى النص القرآنى للتخيير وأن الله تعالى جعل هذا العقاب على جريمة الحرابة فى ذاتها بصرف النظر عن نوع الجرائم التى تقع من المحاربين فسبب العقوبة واحد وهو ذات الحرابة التى هى التخويف والارهاب وليست الجرائم التى ارتكبوها فعلا والتى قد يكون من بينها الزنى .

ونرى الأخذ بمذهب امام مالك الذى يعتبر كل من يخرج على النظام العام لارتكاب الجرائم محاربا لله ورسوله مادامت عنده قدرة على الارهاب والتخويف أيا كان نوع هذه القدرة وأيا كانت الجرائم المرتكبة فلا يقتصر الأمر على جريمة دون جريمة حيث لم يذكر فى النص القرآنى جريمتى القتل والسرقة بالنص .

وقد اختلف الفقهاء كذلك فى تعريف عقوبة النفى من الأرض فذهب البعض الى أن النفى هو الابعاد من البلاد الاسلامية حتى يلتحقوا بدار الحرب .

وذهب مالك والشافعية والحنابلة الى أن النفى يتم بابعاده عن البلد الذى ارتكب فيه الجريمة وحبسه فى المكان الذى أبعد اليه . أما أبو حنيفة فقد ذهب الى أن النفى يتم بالحبس ولو فى البلد الذى ارتكب حوله جرائمه . ونرى الأخذ برأى الامام مالك حيث ان فى الاخذ به ابعاد للمحارب عن أعوانه فى بلدة وتحقيق للطمأنينة للمجنى عليهم بمعرفتهم بابعاد الجانى من بلدهم .

وتبعا لمذهب الامام مالك فالى جانب العقاب بحد الحرابة يعاقب المحاربون بالحدود المقررة لكل جريمة ارتكبوها على حدة وذلك لأن جريمة الحرابة جريمة مستقلة عن هذه الجرائم وهو ما نرى الأخذ به .

وقد استثنى النص القرآنى من اقامة الحد بالعقوبات المنصوص عليها فيه من يتوبون قبل القبض عليهم وذلك لقوله تعالى « الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ــ المائدة ٣٤ .

ويشترط فى التوبة المسقطة لاقامة حد الحرابة أن تتم قبل ارتكاب أية جريمة غير جريمة الحرابة فلم يقتلوا ولم يسرقوا ولم يزنوا بل عادوا الى رشدهم وألقوا بسلاحهم ونقضوا اتفاقهم قبل أن يتغلب ولى الامر عليهم .

ثالثا : حد الردة

حد الردة ثبت بالكتاب والسنة . فالقرآن الكريم أثبت الجريمة لقوله تعالى « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ــ البقرة ٢١٧ .

والحبوط مأخوذ من حبطت الناقة أى أكلت من مرعى خبيث فانتفخت ثم ماتت (نفقت) .

وأثبتت السنة عقوبة هذه الجريمة وهى القتل ، لقوله صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه » وقوله « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفى رواية أخرى « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس بغير نفس » ــ كذلك قاتل أبو بكر الصديق المرتدين وقتل منهم من قتل وعاونه فى القتال كل الصحابة فكان ذلك اجماعا منهم على قتل المرتد .

والمرتد هو المسلم الذى يخرج من دين الاسلام سواء دخل فى دين سماوى آخر كاليهودية أو النصرانية أو دخل فى دين غير سماوى كالبوذية مثلا أو لم يدخل فى أى دين على

الاطلاق واكتفى بخروجه من دين الاسلام فجريمة الردة تتوافر بمجرد الخروج عن الاسلام .

وحتى يحكم بالردة فلابد من مظاهر تدل على ذلك ولابد أن تكون هذه المظاهر قاطعة فى خروج المرتد من الاسلام لأن عقوبة الردة شديدة وقاسية ولا يمكن تداركها بعد تنفيذها .

ولذلك اتفق العلماء على أنه لا يعتبر المسلم مرتدا اذا فعل فعلا أو قال قولا يحتمل الكفر ويحتمل غيره وروى عن الامام على — كرم الله وجهه — أنه قال « اذا قال كلمة تحتمل الكفر من مائة وجه وتحتمل الايمان من وجه فانه لا يحكم بالكفر » .

وقد عدد العلماء من الأعمال والاقوال التى تدل على الكفر ما يلى :

١ — سب النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ — انكار المحرمات الثابتة بدليل قطعى لا شبهة فيه كمن ينكر تحريم الخنزير أو تحريم الربا أو تحريم الزنى — وهناك فرق بين انكار تحريم هذه المحرمات واتيانها . فانه اذا أنكر التحريم اعتبر مرتدا وكافرا أما ان سلم بالتحريم ولكن أتاها فانه يكون مسلما عاصيا فقط .

٣ — انكار العبادات الأربع وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج أو أية عبادة منها أو انكار ما هو معروف منها بالضرورة كانكار أن الصلوات خمس أو انكار عدد ركعات الصلاة .

٤ — انكار أمر من أمور العقيدة الاسلامية متى كان ثابتا بدليل قطعى لا شبهة فيه كانكار أن القرآن الكريم من عند الله أو الاشراك بالله تعالى أو انكار ربوبيته ووحدانيته أو صفة من صفاته .

وقد اختلف الفقهاء فى أمر من يترك الصلاة تركا تاما فذهب الامام أحمد رضى الله عنه الى أنه يعتبر مرتدا سواء كان منكرا أو جاحدا لها أو غير منكر لفرضها لأن الصلاة

عماد الدين وتركه لها دليل على الاستهانة بأحكامه وذلك يعتبر بابا من أبواب الجحود والانكار .

أما باقى الأئمة فلم يأخذوا بهذا الرأى الذى انفرد به الامام أحمد واشترطوا أن يكون تارك الصلاة فى هذه الحالة منكرا لها جاحدا لفرضها فلا يكفى مجرد الترك التام تكاسلا للحكم بالردة والكفر .

ويشترط فى المرتد ليقام عليه حد الردة أن يكون بالغاوعاقلا فلا يكفى أن يكون صبيا مميزا وان كان الصبى المميز يقبل اسلامه الا أنه لا يحسب عليه كفره بعد ذلك مادام لم يصل الى سن البلوغ .

وقد اختلف الفقهاء أيضا فى عقوبة المرأة المرتدة بينما أجمعوا على وجوب قتل الرجل المرتد . فذهب الامام أبو حنيفة وأصحابه الى أن المرأة المرتدة لا تقتل وانما تحمل على التوبة وان اقتضى الامر اكراهها بالحبس حتى تتوب واستندوا فى ذلك الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل المرأة فى الحرب فاذا كانت لا تقتل وهى كافرة أصلا عندما تخرج فى الحرب ضد المسلمين فأولى ألا تقتل اذا ارتدت بعد اسلامها خاصة وأن المرأة لا حول لها ولا قوة وأنه يمكن دفع ضررها بحبسها .

وخالف الامام أبو حنيفة باقى الأئمة مالك والشافعى وأحمد فقالوا يقتل المرتد سواء كان رجلا او امرأة وروى ذلك عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما وحجتهم فى ذلك أن المرأة مكلفة وتدخل فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم « من بدل دينه فاقتلوه » كما أنها داخلة فى عموم الحديث المتفق عليه من أن التارك لدينه يقتل وأنه لا يصح الاحتجاج بعدم اباحة قتلها فى الحرب لأن قتال النساء لم يكن معتادا عند العرب والاسلام لا يبيح القتل فى الميدان الا فى أضيق الحدود وليست المرأة هى المستثناة فقط من القتل فى الميدان وانما يستثنى أيضا الشيوخ والعمال الذين لا يقاتلون ومع ذلك فاذا ارتد أحد هؤلاء بعد اسلامه فانه يقام عليه حد الردة ويقتل . ونرى أن هذا الرأى هو الأرجح وأن ردة

المرأة كردة الرجل سواء بسواء فكلاهما عبث بأحكام الدين وكلاهما له نفس الأثر من الفساد .

وقد اختلف الفقهاء أيضا فى وقت تنفيذ العقوبة .

فذهب البعض الى أنه متى ثبتت الردة وجب القتل على المرتد حتى أنه لو قتله شخص قبل اقامة الحد عليه لا يقتل به لأنه بالردة أصبح دمه غير معصوم اذ الردة جعلت دمه حلالا .

وذهب الامام مالك والأمام أبو حنيفة الى أنه لا يقام عليه الحد ولا يقتل الا بعد أن تعرض عليه التوبة واختلفوا فى المهلة التى تمنح له فى هذه الحالة فحددها مالك وأبو حنيفة بثلاث ليال وذهب الزهرى الى أن المرتد يدعى للتوبة ثلاث مرات من غير التزام أن تكون فى ثلاثة أيام وذهب ابراهيم النخعى الى أن التوبة لا تحدد بمرة أو ثلاث مرات ولا بيوم أو ثلاثة وانما يجب تكرار التوبة حتى اذا ما كان اليأس من الاستجابة لها فحينئذ يجب اقامة الحد بالقتل .

والذى نراه هو الأخذ بما روى عن عمر رضى الله عنه من أنه قال ان تاب ففى الحال والا قتل .

كذلك اختلف الفقهاء فى تكرار الردة وتكرار التوبة فذهب الامام مالك الى أنه لا يستتاب من تكررت ردته لأنه بذلك يكون قد اتخذ دين الله هزوا وأثبت أن توبته الأولى كانت عن نفاق ولم تكن عن صلاح وايمان .

أما الامام الشافعى فيرى أن المرتد يستتاب دائما لأن الأمر بالاستتابة عام فى كل الاحوال لا فرق بين مرتد عائد ومرتد مبتدىء وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أمر المنافقين ولكنه لم يقتلهم وهذا هو الرأى الراجح .

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن جرائم الحدود ونبدأ الكلام عن جرائم القصاص وجرائم التعزير فى أعداد قادمة ان شاء الله .

حسن حسب الله

شوقي ديوان العربية

للدكتور سعد ظلام

أحمد شوقي فخر مصر والشرق(١) ، أمير الشعراء ، وديوان العربية ، وسفرها الخالد ، وحادي العروبة في مواكبها الزاحفة الى الحرية والاستقلال

ولد شوقي في السادس عشر من اكتوبر سنة ١٨٧٠ على أرجح الآراء ، وتوفي في الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٢ فيكون قد عاش اثنين وستين عاما الا يومين اثنين (٢) .

كان شوقي موهبة فذة ، تربى في قصر الخديوي ، وتعلم بالمدارس المصرية ، أحب الأدب وأقبل عليه وقرأ فيه بشغف ، وتأثر بالبارودي الذي كان يهز الدنيا من حوله هزا عنيفا ، ثم أرسل في بعثة الى « باريس » لدراسة الحقوق فنهل من الثقافة الغربية المتنوعة ما شاء له أن ينهل . ولما عاد التحق بوظيفة في القصر .

قال الشعر في بواكير حياته ، ولكن احسان الخديوي اليه قيده بقيود حريرية ، ومن وجد الاحسان قيدا تقيدا كما يقولون ، فكان شاعر الامير وشاعر القصر ، وكان يقول :

« أنا فيه القريض والشعراء » (٣)

---

(١) الدكتور زكي مبارك زهر الاداب مقدمة الجزء الاول ، مطبعة السعادة سنة ١٩٥٣ القاهرة ص ٨ (٢) احمد شوقي شاعر الوطنية للاستاذ احمد زكي عبد الحليم طبعة اولى سنة ١٩٥٨ المطبعة التجارية ببيروت ص ٨ (٣) من قصيدة شوقي « همت الفلك واحتواها الماء » .

وقدحدث أن الخديوى أراد فى مغامرة أن يجمع القوى الوطنية من حوله ليرهب الانجليز ، ولكن خاب أمله فتهاوى عن العرش ، وعزل ، ولكون شوقى يحارب الانجليز سرا قرروا نفيه الى « الاندلس » اسبانيا فى اغسطس سنة ١٩١٥ وعاد فى فبراير سنة ١٩٢٠ وهو شاعر الشعب بعد أن تخلص من قيود القصر .

حاكى شوقى الأقدمين فى مراحله الشعرية المبكرة ، فتفوق عليهم ، وامتاز بصوره الشعرية الأنيقة التى تحمل شفافية حسه الرهيف .

وقد عارض البوصيرى فى « نهج البردة » ووقف أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليناجيه فيقول فى أدب وخشوع :

يا احمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمى
المادحون وارباب الهوى تبع
لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحهم فيك حب خالص وهوى
وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد انى لا اعارضه
من ذا يعارض صوب العارض العرم
وانما انا بعض الغابطين له
ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس
ترمى فصاحته سحبان بالبكم

وعارض أبا اسحاق الحصيرى فى قصيدته « يا ليل الصب متى غده » بقصيدته :

مضناك جفاه مرقده
وبكاه ورحم عوده

وعارض المتنبى فى قصيدته البائية التى مدح فيها كافورا الأخشيدى والتى مطلعها :

اغالب فيك الشوق والشوق اغلب
واعجب من ذا البحر والبحر اعجب

وتمثل روح البارودى فى شعره .

ولكن محاكاته للأقدمين كانت تعنى أمرا واحدا هو لفت الأنظار اليه واظهار قدرته وتفوقه ، وكان يقصد الى معارضة القصائد المشهورة للشعراء الفحول .

ثم استقل فنيا بعد أن عطف الأذهان اليه بشخصيته المتميزة وقاموسه اللغوى . وقد قال شوقى فى مختلف الفنون والأغراض الشعرية .

ومن شعره فى الغزل قوله فى مشيبه :

لم يبق منى يا فؤاد بقية
لفتوة او فضلة لعراك
كنا اذا صفقت نستبق الخطى
ونشد شد العصبة الفتاك
واليوم توقظ فى حين تهزنى
ما يوقظ الناقوس فى النساك

وقد كان دائم الترديد لهـذه الأبيات • التى يحس فيها بأسفه على الشباب الضائع بعد أن أشرف على الستين •

وقوله من قصيدة « لبنان » :

دخـل الكنيسة فارتقبت فـلم يطل
فأتيت دون طريقـه فزحمتـه
فازور غضـبانا واعـرض نافـرا
حال مـن الغيـد الملاح عرفتـه
فصـرفت للعـابى الى الـرابه
وزعمتهـن لبانتى فاغـرته
فمشى الى .. وليس اول جـؤذر
وقعت عليـه حبائلى فقنصتـه
قد جاء من سحر الجفون فصادنى
واتيت من سحر البيان فصدته

وان كان غـزله فى أغلب الأحيان مصنوعا ، لا يمثل عاطفة مشتعلة بقدر ما يمثل غنائيـة جميلة •

وقال فى الوصف :

وشعره الوصفى يمتاز بصـوره الجميلة التى يؤلفها خياله الرشيق، فتجىء مليئة بالظـلال والأضـواء والألوان ، فيها حيوية الحـركة ، ونبض الحياة ، يقول فى « زحلة»

وربـوة الـواد فى جلبـاب راقصـة
الساق كاسيـة والنحـر عريان
واقبلت بالنبـات الارض مختلفـا
افوافه فهـو اصباغ والـوان
والطير تصدح من خلف العيون بها
وللعيـون كمـا للطيـر الحـان

وقد سقى « بردى » للريح فابتردت
لـدى ستـور حواشيهن افنـان
ثم انثنت لم يـزل عنها البـلال .. ولا
جفت مـن المـاء الاذيـال واردان
خلفت « لبنـان » جنـات النعيم .. وما
نبئت ان طريـق الخلد « لبنـان »

ومن أروع قصائده الواصفة ، قصيدة « النيل » :

وقد اخترع ميدانا فى الوصف لم يسبق اليه ، وهـو وصف الحضارة الانسـانية فكتب فيهـا قصائده « توت عنخ آمـون » و « أبو الهـول » و « أنس الوجود » و «فى سفح الهرم » و « الى النيل » •

ومن أروع قصائد الشعر العربى فى الحضارة الانسانية « السينية» التى عارض فيها «سينية البحترى» فى وصف « ايوان كسرى » فقـد زار شوقى وهو فى « الأندلس » آثـار الاسـلام فى أشـبيلية » و « غـرناطة » و « قـرطبة » و « طليطـلة » ووصف تراءهـا الحضارى والانسانى وجمالهـا وروعتها من خلال نظـرة حزينة وشعور ذاتى أسيـف ، وصـور فيها غربته وحنينه الى الوطن •

يقول شوقى فى وصف جامع قرطبة :

وكان الآيات فى جانبيه
ينتزلن من معارج قدس
منبر تحت « منذر » من جلال
لم يزل يكتسيه او تحت « قس »
ومكان الكتاب يغريك ريا
ورده غائبا .. فتدنو للمس

وقال فى الدين :

وقصائده فى هذا الجانب تمتاز بصدق الاحساس وصدق التعبير ، فعاطفته الدينية قوية صادقة ، وهو فى هذه القصائد يدافع عن الدين دفاعا حارا ويتخذ من موهبته فى المحاماة وسيلة للدفاع عن الاسلام ، فهو يرد على من قال ان الاسلام انتشر بالسيف :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل .. وتضليل احلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما اتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم (١)
والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا .. وان تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب .. من شهوات الظالم الغلم (٢)

وقال فى الحنين الى الوطن :

واحساسه الوطنى صادق قوى ، ولذلك كان شعره الوطنى صادقا مؤثرا .

يقول من سينيته :

يا ابنة اليم ما ابوك بخيل
ما له مولعا بمنع وحبس
احرام على بلابله الدو
ح .. حلال للطير من كل جنس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل
ظمأ للسواد من « عين شمس »
شهد الله لم يغب عن جفونى
لحظة ساعة ولم يخب حسى

وقال فى الفخر مخاطبا الخديوى :

كرهت الذى فى راحتيك وشاقنى
جوائز عند الله مبتغيات
ومن يك مثلى « احمد الوقت » لم تجز
عليه ولو من مثلك الصدقات
ولى درر الاخلاق فى المدح والهوى
« وللمتنبى » درة .. وحصاة

وقال فى الوطنية :

وشعره الوطنى هتاف البعث واليقظة ، وقيثارة الكفاح والنضال يقول فى حب مصر :

احبك مصر من اعماق قلبى
وحبك فى صميم القلب نام
سيجمعنى بك التاريخ يوما
اذا ظهر الكرام على اللئام
لاجلك رحت بالدنيا شقيا
اصد الوجه والدنيا امامى
وانظر جنة فارى ذئابا
فيصرفنى الاباء عن الزحام
وهبتك غير هياب يراعا
اشد على العدو من الحسام

---

(١) العمم اسم جمع للعامة (٢) الغلم الهائج الثائر .

ويقول مخاطبا اللورد كرومر :

فرعون قبلك كان أعظم سطوة
وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة
كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه
مصرا .. فكانت كالسلال دخولا (١)
هدمت معالمها وهدت ركنها
وأضاعت استقلالها المأمولا

هاجم شوقى الاحتلال والمعتمد البريطانى وأعوان الاحتلال . يقول مهاجما « رياض باشا » الذى ردد أقوال كرومر فى أن الاحتلال نعمة على مصر والمصريين .

غمرت القوم اطراء وحمدا
وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك بالثريا
فكيف اليوم أصبح فى الرغام
لهجت بالاحتلال .. وما أتاه
وجرحك منه ـ لو أحسست ـ دام

ويخاطب « دنشواى » فى ذكراها الأولى للحادثة المشئومة :

كيف الأرامل فيك بعد رجالها
وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتا أقفرت .. وانتابها
بعد البشاشة وحشة وظلام
« نيرون » لو أدركت عهد « كرومر »
لعرفت كيف تنفذ الأحكام

وحمل على « فتحى زغلول » أحد أعضاء المحاكمة ، ولم تمنعه مكانته الأدبية والعلمية ولا مكانته من سعد زغلول أن يكتب اليه بمناسبة ترقيته وكيلا للحقانية يقول :

اذا ما جمعتم أمركم وهممتم
بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة
وسروال مجلود وقيد سجين

ويسمع بأنباء ثورة سنة ١٩١٩ وهو فى المنفى ، فيثب فرحا ، ويباركها بقصيدة من أجل عيون الشعر العربى كله يقول :

يوم البطولة لو شهدت نهاره
لنظمت للأجيال ما لم ينظم
لولا عوادى النفى أو عقباته
والنفى حال من عذاب جهنم
لجمعت ألوان الحوادث صورة
مثلت فيها صورة المتشلم
وحكيت فيها النيل كاظم غيظه
وحكيته متغيظا لم يكظم

وعاد شوقى من المنفى فى فبراير سنة ١٩٢٠ ليعطى روحه وكيانه كله للوطن ، عاد وهو شاعر الشعب يشاركه فى كل معاركه الاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، فهتف للدستور ، ولدار النيابة والبرلمان ، ونظم لمشروع ملنر ، وذكرى ١٢ فبراير ، ومناصرة الوفد ، وتمثال نهضة مصر ، واشترك فى توجيه الحركة الوطنية كلها بقصائده الفصاح ، ورثى زعماءها : مصطفى

---

(١) السلال مرض السل .

كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول . ومجد دورهم البطولى العظيم ، وقال فى نهضة الأزهر قصيدة جميلة وفى النيل .

يقول فى الدستور :

الامر شورى لا بعيث مسلط
فيه .. ولا يطغى به جبار
عهد من الشورى الظليلة نضرت
اصاله واخضلت الاسحار
نجنى البلاد به ثمار جهودها
ولكل جهد فى الحياة ثمار

ويقول فى مجلس النواب :

بنيان اقوام مشوا بسلاحهم
وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من النيل الخضيب حائط
ومن المشانق والسجون جدار

وفى الجانب القومى شارك شوقى العروبة كلها يقظتها وتطلعها الى الحرية ، وهتف معها بكل جوارحه . قال فى السودان وسورية ، وعمر المختار قائد الكفاح الليبى الذى صلبه الاستعمار الايطالى .

يقول للسودان :

ولن ترتضى ان تقد القناة
ويبتر من مصر سودانها
وحجتنا فيهما كالصباح
وليس بمعييك تبيانها
فمصر الرياض وسودانها
عيون الرياض وخلجانها
تتم مصر ينابيعه
كما تم العين انسانها

وقد ابتكر شوقى فنونا شعرية لا عهد للعربية بها .

فقد حاكى « لافونتين » فأجرى الشعر على لسان الحيوان ، وقدم لنا المسرحية الشعرية بتقاليدها ومقوماتها الفنية فى شعر نظيم ، وقد كانت قبله تتعثر فى ذيول العامية والزجل والشعر ، ففتح بذلك صفحة جديدة للشعر العربى ، وقدم سفرا جديدا فى ديوان العربية الخالد .

وقدم المنظومة التاريخية الطويلة فى قصيدته :

همت الفلك واحتواها الماء
وحداها بمن تقل الرجاء

والتى مثل بها مصر فى المؤتمر الشرقى فى جنيف فى سبتمبر سنة ١٨٩٤ . ويذهب البعض الى تسميتها بالملحمة لطولها .

وكتب للأطفال شعرا كثيرا ومن ذلك قصائده التى كتبها الى ابنته أمينة .

لقد خدم شوقى بشعره الأدب والتاريخ والوطن والعروبة والاسلام ، وأهدى الى اللغة العربية والى المسرح العربى روايات كان

فيها المبتكر الأول لهذا النوع فى الشرق ، وبرهن بمجهوده على أن اللغة العربية — كما عرفت فى مختلف العصور — لغة العلم والأدب والفلسفة والفن الرفيع ولغة التمدن ولغة الحضارة على مدى الأجيال .

وقد بايعه شعراء العربية بامارة الشعر فى مؤتمر عقد فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٧ ، وتوجوه أميرا للشعراء ، ووقف حافظ ابراهيم صديقه ومنافسه الأول يقول فى هذا الحفل :

امير القوافى قد اتيت مبايعا
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ووقف محمد توفيق دياب لينشد قصيدة شوقى التى يشكر فيها للشعراء وفاءهم وحبهم له .

يقول فى تواضع عظيم :

شرفت مصر بالشموس من الشر
ق نجوم البيان من اعيانه
لست انسى يدا لاخوان صدق
منحونى جزاء ما لم اعانه
رب سامى البيان نبه شانى
انا اسمو الى نباهة شانه
كان بالسبق والميادين اولى
لو جرى الحظ فى سواء عنانه
وتر فى اللهاة ما للمغنى
من يد فى صفاته وليانه

وفى ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ مات حافظ ابراهيم فرثاه شوقى بقوله :

قد كنت اوثر ان تقول رثائى
يا منصف الموتى من الاحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة
قدر .. وكل منية بقضاء

وبعد أن فرغ شوقى من القاء قصيدته تمثل بقول جرير فى رثاء الفرزدق ، فقال :

« والله ان بقائى بعده لقليل » .

وفى ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢ صمت هذا الكمان الساحر صمته الأبدية ، وهدأ القيثار هدأة الموت واستسلم وأسلم روحه الى السماء .

د. سعد ظلام

---

(١) شوقى وحافظ لطاهر الطناحى — كتاب الهلال ص ٤٦ .

الحرب في الإسلام

عقيد شرطة / عبد الحكيم عباس خالد

تمهيد :

نحاول فى هذا المقال أن نعرض لفكرة الحرب عبر مراحل التاريخ المختلفة ، مع التركيز على مفهوم شريعة الاسلام الحنيف للحرب ، ونرجو أن يكون فى هذا المقال الرد على بعض افتراءات مؤرخى الغرب على دين الاسلام ، ولعله أيضا أن يكون من المناسب تناول هذا الموضوع فى هذه الفترة التى يركز فيها السيد الرئيس المؤمن محمد أنور السادات ، كل جهوده لانهاء حالة الحرب فى منطقة الشرق الأوسط واحلال السلام فى ربوعها ــ ولا شك أن الدافع الأول وراء ذلك ، هو تشبع سيادته بروح الاسلام ، دين السلام والحب والوئام •

نبذة تاريخية عن ظاهرة الحرب :

الحرب ظاهرة بشرية عرفها الانسان منذ نشأة الحياة ، وتاريخ البشرية حافل بالصراعات والحروب لأسباب مختلفة : اجتماعية أو اقتصادية أو قومية أو نفسية أو عقائدية أو سياسية ، حتى أصبحت الحرب صفة لازمة للتاريخ الانسانى •

وتركت أهوال الحروب عبر التاريخ آثارها واضحة جلية ، تئن من ضراوتها حقب ذلك التاريخ ، وتتلطخ صفحاته بدماء الضحايا الأبرياء •

كما اكتسبت الحرب زيادة فى الأهمية ، مع ظهور الجماعات السياسية وتباين اتجاهاتها ومآربها ، وتعارض مصالحها ، وكثرة وقوع التصادم بينها ، فكانت الحرب وسيلة لقهر الارادة المعادية ، وكبح جماح القوى المضادة ، وبغية النصر

على الخصوم ــ ذلك النصر الذى تعصف نشوته بالعقول ، فيتغنى به الشعراء الأقدمون فى مختلف الأمم .

ولا يمكن حصر الدوافع على الحروب ، فهى متعددة ومتنوعة ومتجددة ومعقدة ، فدوافع السيطرة والانتقام والاستحواذ والطموح والتوسع ، أكثر أهمية فى بعض الأحيان من دافع الطعام .

ودوافع الحرب تتعدد أو تتعقد بازدياد العلوم ونموها ، وبتقدم التكنولوجيا وازدياد فاعليتها . وبميل أداة الحكم الى التركيز . وبازدياد قوة الدول وتعدد حاجياتها (١) .

وقبل ظهور الأديان السماوية اتسمت الحروب والصراعات بالوحشية وجنون الرغبة فى سفك الدماء والتخريب والدمار ، وقد صدم ذلك مشاعر الفلاسفة والحكماء ، فانصرف تفكيرهم الى دراسة مشروعية الحرب ، وبحث كيفية حصرها فى أضيق الحدود .

وقد ذهب فريق من المفكرين فى العصور القديمة الى اعتبار الحرب وظيفة دائمة من وظائف الحياة الانسانية ، بل ادعى بعضهم ان الحرب ضرورية ونافعة أيضا كما ذهب فريق ثالث أبعد من ذلك ، فاعتبر الحرب نظاما الهيا ، اذ هى تجربة سامية تمر بها مختلف الامم والشعوب .

وقد ولد تعاقب الحروب وآثارها الحزينة فى النفوس الخيرة مشاعر الحنين الى استتباب السلم ، وقد ناهض الحرب ، ونادى بنبذها كثير من الفلاسفة مثل : « أورليوس وبلاطو وشيشرون» وطالبوا بضرورة استقرار السلام بين الشعوب ، ولكن دعوة أولئك الفلاسفة كانت على أسس انسانية وأدبية فقط . ومع نزول الأديان السماوية ، تهيأ للبشرية وجود النواة الأولى لقانون الحرب ــ ففى ظل هذه الأديان ــ رغم اختلاف نظرتها للحرب ، نمت الجذور الأولى لقانون الحرب وازدهرت ، كما شيد الفقه الاسلامى

---

(١) الأستاذ الدكتور / حامد سلطان ــ أحكام القانون الدولى فى الشريعة الاسلامية نمرة ٩٧٤ دار النهضة العربية ص ٢٤٦

نظرية كاملة فى قانـون الحرب . ومن أبرز فقهاء الاسلام الحنيف فى هذا المضمار محمد بن الحسن الشيبانى المؤسس الأول لقانون الحرب .

احكام الحرب فى الشريعة الاسلامية :

نظمت الشريعـة الاسـلامية موضوع الحـرب على أسس لم يتوصـل اليهـا القـانون الدولى الانسانى حتى الآن . فالاسلام لم يجـز الحرب الا لأسباب محـددة هى :

١ ــ رد العدوان والدفاع عن النفس والوطن والمال .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

٢ ــ الدفاع عن الدعوة الاسلامية وتأمين حرية الـدين والاعتقاد .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا »

٣ ــ تأديب ناكثى العهد .

« وان نكثوا أيمانهم من بعـد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهـم لا أيمان لهـم ، لعلهم ينتهون » .

٤ ــ درء الفتنة التى يحاول أعداء الـدين اشـعالها بيـن صـفوف المسلمين :

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا ، فلا عدوان الا على الظالمين » .

كما نظمت شريعة الاسلام أيضا أسلوب اعلان الحرب ، فلا يجـوز لقائد الجيش أن يبدأ قتال العـدو قبل ابلاغه .

« واما تخافن من قوم خيانــة ، فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » .

وقال الرسـول عليه الصـلاة والسلام : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا » .

والحرب أمر مكروه فى الاسلام ، ولا يجوز أن يبـادر المسلمون أعداءهم حتى يدعوهم الى ثلاث :

أولا : اما العهد ، يعاهدونهم عليه ــ على أن يكون سلمهـم سلم المسلمين .

ثانيا : واما الاسلام يرتضونه دينا ، فيكونون معهم .

ثالثا : واما الحرب .

وواضح عدم وجود أى اكراه فى نشر الدعوة الاسلامية ، كما ذهب أعداء الاسلام ، فالتخيير بين أمور ثلاثة لا يعد اكراها — وقال الله عز وجل : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . فاذا ما انتهى الأمر الى وجوب الحرب ، فان الاسلام يورد بشأنها أربعة قيود هى :

١ — ألا يقاتل غير المقاتل ، ويحرم قتال غير المشتركين فعلا فيه .

٢ — تحريم اتلاف الأموال ، الا اذا كان لها تأثير مباشر فى الحرب .

٣ — وجوب احترام المبادىء الانسانية والفضائل أثناء الحرب .

٤ — اجابة طلب الأمان فى ميدان القتال .

وبالنسبة لمعاملة العدو ، فقد حرمت الشريعة الاسلامية :

١ — الاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال والرهبان .

٢ — النهب والسلب ، الذى كان سائدا فى الحروب الجاهلية .

٣ — التمثيل بالقتلى ، والاحراق بالنار .

٤ — نقض العهود والمواثيق .

ونظمت الشريعة الغراء ، كيفية معاملة العدو المهزوم وأسراه ، فأوجبت على المسلمين عدم التفاخر بالنصر ، والزهو به وذلك حفاظا على مشاعر جند الأعداء ، وكسبا لقلوبهم ، لما يلمسون من حسن معاملة المسلمين لهم . وواضح ما فى ذلك من نبل وشهامة . وبالنسبة لمعاملة الأسرى فقد بين القرآن الكريم حكم الأسرى ، فقال تعالى :

« حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » .

اثر مبادىء الاسلام فى القوانين الدولية :

لقد ساهمت المبادىء الاسلامية على مر الزمان فى تدوين أحكام قانون الحرب فى نطاق القانون

الدولى فى بعض المعاهدات العامة، لعل أهمها ما يأتى :

١ ــ اتفاقية باريس المنعقدة فى ١٦ ابريل سنة ١٩٥٦ التىوضعت قواعد معاملة المحاربين فى الحروب البحرية .

٢ ــ اتفاقية جنيف المنعقدة فى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٦٤ فى تحسين حال الذين يجرحون فى ميدان القتال ، وقد أعقبتها اتفاقية أخرى فى ٦ يوليو سنة ١٩

٣ ــ اتفاقية أحكام الحرب البرية التى انعقدت فى جنيفسنة ١٨٩٩ .

٤ ــ اتفاقية لاهاى ــ التى تحرم استعمال الطلقات المعروفة باسم « دم دم » وتحرم استعمال الغازات السامة ، واتفاقية لاهاى سنة ١٩٠٧ الخاصة بتحديد المركز القانونى للسفن التجارية عند اعلان الحرب ، واتفاقية لاهاىسنة ١٩٠٧ الخاصة بتحويل السفن التجارية الى سفن حربية ، وتلك الخاصة بوضع الالغام البحرية . وقد بلغ عدد اتفاقيات لاهاى فى خصوص الحرب ، والتى انعقدت كلها سنة ١٩٠٧ . حوالى ١٥ اتفاقية (١) .

وقد ظل التنظيم الدولى للحرب، منطلقا من مبدأحق الدولة المطلق فى شن الحرب ، على أساس سيادة الدولة ، والمساواة الكاملة بين الدول وأعضاء الجماعة الدولية، وترتب على ذلك النظر للحرب بوصفها مؤدية لوظيفة حيوية فى مجال العلاقات الدولية هى حسم الخلافات التى تنشأ بين الدول ، وكان ينظر الى هذا الحق من حقوق الدولة بوصفه حقا مطلقا ولصيقا الى أبعد الحدود بمبدأ السيادة (٢) . ولكن عندما اكتوت البشرية بنار الحربين العالميتين الأولى والثانية ، وتبينت الأبعاد الرهيبة لظاهرة الحرب الشاملة ، بدأ البحث الجاد عن

---

(١) دكتور / حامد سلطان ــ المرجع السابق « ص ٢٥٢ : ص ٢٥٣ »

(٢) دكتور / صلاح الدين عامر ــ مقدمة لدراسة قانون النزاعات المسلحة ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ دار الفكر العربى ص ٦

الوسائل التى تكفل القضاء على الحق المطلق للدولة فى شن الحرب، وآخر هذه المحاولات ما تضمنه ميثاق الأمم المتحدة ، حيث نصت ديباجته على الرغبة الأكيدة فى القضاء على حق الدولة فى شن الحرب بقولها : « نحن شعوب الأمم المتحدة ، قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ، التى فى خلال جيل واحد جلبت على الانسانية مرتين أحزانا يعجز عنها الوصف » .

وبعد ...

فهل هناك شك الآن فى سماحة الاسلام ، وفى نبذه للعداوة والبغضاء والحرب ، وفى دعوته الحثيثة لنشر السلام على هذا الكوكب الأرضى .

وقد قال الله تعالى : موجها الخطاب لرسوله الكريم : « وان جنحوا للسلم ، فاجنح لها وتوكل على الله » . صدق الله العظيم .

عبد الحكيم عباس خالد

من تعاليم أستاذ الحياة
عليه السلام

- الكلمة الطيبة صدقة .
- ما عال من اقتصد .
- اذا وسد الأمر الى غير اهله فانتظر الساعة .
- احترسوا من الناس بسوء الظن .
- ليس الغنى عن كثرة العرض،وانما الغنى غنى النفس .

أخطـاء شـائعـة

للأستاذ عباس أبو السعود

٤٦٧ ويصفون من كان كثير الشعر طويله ، بأنه مشعر على صيغة اسم الفاعل ، وهذا خطأ ، لأن المشعر حقا هو الجنين الذى نبت على جسده الشعر .

تقول : أشعر الجنين فهو مشعر ، وفى الحديث « ذكاة الجنين ذكاة أمه اذا أشعر » وتقول أيضا : شعّر الجنين تشعيرا فهو مُشَعّر" وزان مُنَجِّم" ، استشعر تشعرا فهو مُسْتَشْعِر" وتشعر شعرا فهو متشعر وزان متكلم . كل أولئك بمعنى واحد .

ولتأدية الوصف الذى يريدونه ينبغى أن يقال : رجل أشعر ، ولذا لقب نبت ابن أُدَد بأنه أشعر ، لأنه ولد وعليه شعر ، وهو أبو قبيلة باليمن منهم أبو موسى الأشعرى ، ويقولون : جاءتك الأشعرون بحذف ياء النسب

أو يقال : رجل شَعِر" وزان طرب ، أو رجل شعرانى بياء النسب .

ويقال : أشعر الرجل خفه اذا بطنه بشعر آشعر . بالتضعيف ، . شَعَرَه" بالتخفيف فهو خف مُسْتَشْعَر" ومُشَعَّر" ، ومشعور بصيغ اسم المفعول .

والشعر بفتح الشين وسكون العين ويحرك هو نبتة الجسم مما ليس بصوف ولا وبر جمعه أشعار ، وشعور ، وشعار بكسر الشين ، الواحدة شعرة .

والشعار بالكسرهو العلامة فى الحرب ، وكذا هوماتحت الدثار من الثياب وهو يلى شعر الجسد ويفتح ، جمعه أشعرة ، وشعر كشراع ، وأشرعة ، وشرع .

ويقال : أشعر القوم اذا نادوا بشعارهم ، أو جعلوا لأنفسهم شعارا .

والشعيرة البدنة المهداة ، جمعها شعائر كما فى قوله تعالى : «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير» وشعائر الحج مناسكه وعلاماته كما فى قولهسبحانه « ان الصفا والمروة من شعائر الله » .

والمشعر الحرام وتكسر ميمه جبل بآخر مزدلفة ، قال تعالى : « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ».

والمشاعر الحواس ، ومنها يقال : ما يشعركم أى ما يدريكم ، وفى التنزيل : « ما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون » .

وتقول : استشعرت البقرة اذا صوتت الى ولدها تطلب الشعوربحاله ، قال الجعدى :

فاستشعرت وأبىأن يستجيب لها
فأيقنت أنه قد مات أو أكلا

٤٦٨ وهم يخطئون حين يجمعون المصير على مصائر بالهمز ، والصواب أن يقال فى جمعه مصاير بالياء ،

مصايرهم ، كما فى قول مضرس بن ربعى .

تقول : خرج القوم الى مضرس السابق .

ومالوحش هاجتنى ولكن ظعائن
دعاهن رواد الكلا ومصايره

وللمصير معنيان : أحدهما المرجع كما فى قوله تعالى : « ويحذركم الله نفسه والىالله المصير » وقوله : « قل تمتعوا فان مصيركم الى النار » والآخر الموضع تصير اليه المياه كما فى قول

٤٦٩ وينكرون أن توصف المرأة بأنها مفضالة كما يوصف الرجل ، محتجين بقول ابن مالك :

ولا تلى فارقة فعولا
أصلا ولا المفعال والمفعيلا

أى أن التاء الفارقة بين الذكر والمؤنث لا تلى ما كان على وزن فعول ، وقيده الناظم بالأصل يريد به اسم الفاعل فانه أصل لاسم المفعول ، تقول هذه امرأة صبور وشكور ، وخجول ، ولا يجوز أن يقال صبورة ، ولا شكورة ، ولا خجولة .

وكذلك ما كان على وزن مفعال ، تقول : امرأة معطاء ، ومزواج ولا يجوز أن تلحقها التاء ، بيد أن بعض هذه الأوزان لحقته التاء شذوذا ولذلك قال ابن مالك :

وما تليه تالفرق
من ذى فشذوذ فيه

فكلمة مفضالة عربية سليمة بدليل ما ورد فى مراجع اللغة .

ففى المختار : امرأة مفضالة على قومها اذا كانت ذات فضل سمحة ، وفى القاموس رجل مفضال على قومه اذا كان ذا فضل ، وهى بهاء .

والمتفضل من يدعى الفضل على أقرانه ومنه قوله تعالى : « يريد أن يتفضل عليكم » .

٤٧٠ ويقول الواحد منهم لصديقه : بين بلدنا وبلدكم بون عظيم ، يعنى مسافة طويلة وبعدا عظيما ، وهو التعبير خطأ ؛ لأن البون بفتح الباء وسكون الواو لا صلة له بالبعد ولا بالمسافة ، وانما معناه الفضل والمزية ، وهو مصدر قولك بانه يبونه بونا اذا فضله ، وقولك : بينهما بون لا يقال الا عن اثنين من الأناس ، ومعناه بين درجتيهما فى الفضل ، أو بين اعتبارهما فى الشرف .

والصواب أن يقول القائل : بين بلدنا وبلدكم بين عظيم بالياء لا غير .

ولك أن تقول : بين بلدنا وبلدكم بين كبير بكسر الباء، والبين بهذا الضبط هو الأرض قدر مد البصر ، ويقال : «عليك بذاك البين فانزله» .

والانسان البين وزان هين هو الفصيح ذو البيان ، والجمع أبيناء ، وقول العرب : هذا الشيء بين بين معناه بين الجيد والرديء ، وهما اسمان جعلا واحدا وبنيا على الفتح كخمسة عشر .

٤٧١ ويقولون : تناولنا اليوم في غدائنا فطيرا ، وأكل كل واحد منا فطيرة ، يعنون خبزا مخلوطا بالسمن ، والحق ان الفطير ضد الخمير وهو العجين الذي لم يختمر ، وكل شيء أعجلته عن ادراكه فهو فطير .

ولهذا يقال على سبيل المجاز : لا خير في الرأي الفطير أي لا خير في رأي لم يكن دقيقا ولا متسما بالحكمة والحذق ، ويقال أيضا : رأي الأحمق فطير ولبه مستطير .

أما الفطيرة فهي شاة تذبح في يوم الفطر ، ومثلها الفطورة بضم الفاء .

٤٧٢ ولقد فشا على ألسنة كثير من الخاصة وأسلات أقلامهم قولهم : هؤلاء تعساء اي هلكى ساقطون ، وهذا خطأ ، لأن فعلاء بضم ففتح ممدود يطرد في وصف مذكر عاقل بزنة فعيل بمعنى فاعل غير مضعف كحليم وحلماء ، وحكيم وحكماء وظريف وظرفاء .

وكلمة تعيس لم ترد في اللغة ، لأن الفعل من التعس له بابان أحدهما باب نفع تقول تعس فلان يتعس تعسا

اذا أكب على وجهه فهو تاعس ؛ وعلى هذا فالجمع تاعسون .

والباب الآخر باب تعب ؛ تقول : تعس فلان تعسا فهو تعس وعلى هذا فالجمع تعسون .

وهذا الفعل يتعدى بالحركة وبالهمزة فيقال تعسه الله ، وأتعسه الله اتعاسا قال :
غداة هزمنا جمعهم متالع (١)
فآبوا باتعاس على شر طائر
ويقال فى الدعاء : أضرع (٢) الله خده ، وأتعس جده ، وهو متعوس منحوس ، ومن المجاز قولهم جد تاعس تاعس ، وقولهم تعسا لفلان أى هلاكا له وخسرانا .

قال تعالى : « والذين كفروا فتعسا لهم » أى فعثورا وانحطاطا لهم ، وانتصابه بفعله الواجب اضماره سماعا ، والجملة خبر الذين كفروا .

٤٧٣ هناك تركيب شاع فى الصحف ولاكته ألسنة كثير من المثقفين هو قولهم : فعلنا ذلك رغم فلان ، وهذا التعبير فاسد ؛ لأن الرغم معناه الكره والذل ، يقال رغم أنفى لله بكسر الغين رغما بالحركات الثلاث فى راء المصدر ، أى ذل وانقاد لأنه أمس به الرغام وهو التراب .

فعلى هذا يكون معنى التركيب الشائع فعلنا ذلك كره فلان وذله وهذا مما لا يسيغه عقل والصواب أن يقال : فعلنا ذلك على رغم فلان أو على رغم أنفه أى على كره منه وذل وذكر الأنف فى التركيب الأخير من الأمثال التى جرت فى كلام العرب بأسماء الأعضاء ولا يريدون أعيانها ؛ ومنها قولهم كلامه

---

(١) متالع بضم الميم : جبل بالبادية فى سفحه ماء يقال له عين تتالع .
(٢) اضرع الله خده : اذله .

تحت قدمى ، وصاحبته خلف ظهرى يريدون الاهمال وعدم الاحتفال .

ويقال أيضا : فعلنا ذلك برغم فلان أو برغم أنفه أى تستعمل فى هذا التركيب اما على واما الباء كما فى قول عمر بن أبى ربيعة :

قال ساروا فأمعنوا واستقلوا
وبرغمى لو أستطيع سبيلا

وكما فى قول مطيع بن اياس وهو من شعراء الدولة الأموية :

وبرغمى أن أصبحت لاتراها ال
عين منى وأصبحت لا ترانى

وكما فى قول المتنبى
برغم شبيب فارق السيف كفه

وكانا على العلات يصطحبان

ولنا أن تقول فعلنا هذا الشىء رغما أى كرها او كارهين كما فى قوله تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » أى شئتما ذلك أو أبيتما ،

٤٧ ويقولون : استقل القوم القطار يجعل القوم فاعلا والقطار مفعولا به ، يعنون أنهم ركبوه ، وهذا خطأ . لأن استقل معناه حمل ، ولا يعقل أن يحمل القوم القطار ، والصواب أن يقال : استقل القطار القوم بجعل القطار فاعلا والقوم مفعولا به أو يقال : أقلهم القطار ، أو قلهم القطار بالفعلين الرباعى والثلاثى .

والفعل استقل قد يكون متعديا كما فى قولك : استقل فلان نصيبه اذا عده قليلا كتقاله ، وقولهم هو يستقل الكثير ويتقاله خلاف يستكثره ويتكاثره .

وقد يكون لازما وذلك اذا كان بمعنى الارتحال ، تقول : استقل القوم عن ديارهم اذا ارتحلوا عنها ؛ ومنه قول عمر بن أبى ربيعة :

قال ساروا فأمعنوا واستقلوا
وبرغمى لو أستطيع سبيلا

ويكون لازما أيضا اذا كان

بمعنى الارتفاع والانافة كما في قولك : استقل البناء اذا أناف فهو بناء مستقل منيف، واستقل الطائر في طيرانه ، واستقل عمود الفجر .

ومن هذا قول عمر بن أبي ربيعة :

ياطيب طعم ثناياها وريقهـا
اذااستقل عمودالصبح فاعتدلا

٤٧٥ ويقولـون : نأكل في اليـوم ثلاث وجبات : وجبة الصبح ، ووجبة الظهـر ووجبة العشي وهذا فاسد ، لأن الوجبة هي الأكلة في اليوم والليـلة ، أو أكلة في اليوم الى مثله من الغد .

تقول : وجب الرجل عياله وفرسه توجيباً اذا عـودهم أكلة واحدة في اليوم والليلة ووجب ناقته توجيبـا اذا لم يحلبها في اليـوم والليلة الا مرة واحدة ، ومثل الوجبة في الوزن والمعنى كلمة الوزمة، ولتـأدية المعنى الـذي يريدونه ينبغي أن يقال : نأكل في اليوم والليلة ثلاث مرات أو ثلاث أكلات :

أولاها : الغداء بالفتح وهو طعام الغدوة ، جمعه أغدية ، تقول تغـدى فلان اذا أكل أول النهار ويسميه النـاس خطأ بالفطور ، والحـق أن الفطور بفتح الفاء هو ما يفطر عليه الصائم عقب غروب الشمس ، ومثـله في الوزن السحور وهو ما يتسحر به الصائم في وقت السحـر .

وثانيتها : الكرزمة بفتحتين بينهما سكون وهي طعام نصف النهـار ويسميها الناس خطأ بالغداء .

وثالثتها : العشـاء بالفتح وهي طعـام العشي وجمعـه أعشية .

٤٧٦ حرم بعض الأدباء استـعمال كلمة حوائج بمعنى حاجات ، والواقع أنها عربية سليمة . قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » وقال : « اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه » . وقال أعشى قيس :

الناس حول فنائه
أهل الحوائج والمسائل

وقال الفرزدق :

ولى ببلاد السند عند أميرها
حوائج جمات «وعندى ثوابها

وقال أبو سعد بن هبة الله ابن الوزير :

فسيان بيت العنكبوت وجوسق
رفيع اذا لم تقض فيه الحوائج

وقال غير هؤلاء :

لتقم أنت يابن خير قريش
فلتقض حوائج المسلمينا

وقال ابن السكيت فى كتاب الألفاظ : ان حاجة تجمع على حاجات ، وحاج ؛ وحوج ؛ وحوائج .

وذهب قوم الى أن حوائج جمع لحوجاء كصحارى وصحراء . أى أن حوجاء جمعت على حواجى ثم قدمت الياء على الجيم وقلبت همزة فصارت حوائج ..

ومن الأدلة على أن حوجاء معناها حاجة قول الشاعر :

من كان فى نفسه حوجاء يطلبها
عندى فانى له رهنا باصحار

وعن ابن عمر قال : « ان لله عبادا خلقهم لحوائج الناس يفزع الناس اليهم فى حوائجهم أولئك الآمنون يوم القيامة » .

تنبيه : مثل حاجة وحاج : هامة وهام ، وراحة وراح بمعنى كف الانسان ؛ وعادة وعاد ، وغابة وغاب ، وساعة وساع ، ومن هذا قول القطامى :

وكنا كالحريق أصاب غابا
فيخبو ساعة ويشب ساعا

٤٧٧ ينكر المدرسون على طلابهم أن يستعملوا كلمة مطار اسم مكان اعتمادا منهم على القاعدة المعروفة التى تقول : يصاغ اسم المكان من الثلاثى على وزن مفعل بكسر العين

اذا كان صحيح الآخر مكسور العين في المضارع ويلزمونهم أن يستبدلوا بها كلمة مطير لانها من طار يطير .

والحق أن كلا من اللفظين اسم مكان مساير للقاعدة ، فمطار اسم مكان من طار الطائر يطور طورا وطيرانا اذا حام حول الشيء ودار ، وفي حديث على « والله لا أطور به ما سمر سمير » أى لا أقربه أبدا .

وفي أساس البلاغة ، وأنا لا أطور بفلان أى لا أحوم حوله ولا أدنو منه ، ولا أطور طواره بفتح الطاء وكسرها من طوار الدار وهو ما يمتد معها من فنائها .

فالمطار اذن اسم للمكان المعروف الذى تجتمع فيه الطائرات تحوم حوله وتدور ومنه تطير واليه تعود . أما المطير فاسم مكان من طار الطائر يطير طيرانا وطيرورة اذا ارتفع في الهواء وحرك جناحيه،

وعلى هذا يكون الجو هو المطير لأنه مكان الطيران .

مما تقدم يتضح أن المطار لمعنى المكان المعروف أدق من المطير ، اذ يقال : انتظرنا العائدين من السفر في المطار، ولا يقال في المطير الا على سبيل المجاز .

٤٧٨ شاع على ألسنة كثير من المتعلمين وأسلات أقلامهم جمع الصفة التى على وزن فعلاء جمع مؤنث سالما ،فقالوا في جمع شقراء ، وسوداء ، وبيضاء وزرقاء ، وصماء ، شقراوات ، وسوداوات ، وبيضاوات ، وزرقاوات ، وصماوات .

وهذا خطأ صراح ، لأن الصفة اذا كانت على وزن أفعل للمذكر وفعلاء للمؤنث جمعت لهما جمع تكسير فقط على وزن فعل بضم فسكون، فيقال : هم وهن شقر ، وسود ، وبيض ، وزرق ،

وضم ، قال ابن مالك فى ألفيته .

فعل لنحو أحمر وحمرا
فِعْلَةٌ (١) جمعا بنقل يدرى

ومما يؤيد هذا قوله تعالى فى محكم آياته : « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » . وقوله : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » وقوله : « صم بكم عمى » .

وقول شاعر الحماسة عمرو ابن كلثوم :

بأنا نورد الرايات بيضا
ونصدرهن حمرا قد روينا

بيد أن كلمة خضراء هى التى انفردت من بين أخواتها بأن لها حالتين :

احداهما : أن تكون صفة فيقال فى جمعها خضر بضم فسكون ، ومن هذا قوله عز شأنه : « أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر » .

وقوله : « ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق»

والحالة الأخرى : ألا تكون صفة ، وانما هى اسم، وذلك فيما يأتى :

١ - أن تكون بمعنى السماء ، فيقال : ما تحت الخضراء أصدق

---

(١) فعلة بكسر الفاء وسكون العين لم يطرد فى شىء ، بل هو محفوظ فى ستة ابنية : فعيل : يقال صبى وصبية ؛ وفعل بفتحتين يقال : فتى وفتية ، وفعل بفتح فسكون يقال : شيخ وشيخة ، وفعال بالفتح يقال : غزال وغزالة ، وفعال بالضم يقال غلام وغلمة ، وينقل وزان الى : يقال : ثنى وثنية ، والثنى هو التالى فى السيادة كالوزير بالنسبة للسلطان ، وقد جمع ابن غازى رحمه الله ما يجمع على فعلة فعال :

قصبية وشيخة وفتية وغلمة وغزلة وثنية
خذها جموعا نسبت لفعله فاحفظ ولا تنس وقيت العلة

ولا أكرم من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذا تجمع جمع الاسم فيقال : خلق الله سبع خضراوات كما يقال فى جمع صحراء صحراوات .

٢ ـ لقد سمت العرب خضر البقول بالخضراء ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « تجنبوا من الخضراء ما له رائحة » يقصد الثوم والبصل والكراث ، وعلى هذا يقال فى جمعها خضراوات كحلكاء وهى دويبة تغوص فى الرمل وحلكاوات .

٣ ـ وتطلق اسما للمرأة الحسناء فى منبت السوء ، ومنه الحديث : « اياكم وخضراء الدمن » والدمن جمع دمنة بالكسر وهى آثار الناس وما سودوا ، فيقال : « هؤلاء خضراوات الدمن » .

٤ ـ وتطلق اسما للدلو الواسعة العظيمة ، ويقال فى جمعها : تسقى الأرض والأشجار بالخضراوات .

٤٧٩ ويصفون الأكول الذى يحرص على كثرة الأكل فيقولون : انه بطنى ، بكسر ففتح فياء مشددة ، وكان عليهم أن يصفوه باحدى الصفات الآتية فيقولوا :

١ ـ انه بطين بفتح فكسر وزان تطير ، وهو من لا يهمه الا بطنه ، أو مبطان بالكسر وهو من لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل .

٢ ـ انه منهوم بالطعام أى مولع به ، تقول : نهم ينهم نهما من باب ضرب اذا كثر أكله ، ونهم بالأكل بالبناء للمفعول اذا أولع به فهو منهوم ،

وفى الحديث «منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم » .
أو يقال : انه نهم من باب فرح وهو من تفرط شهوته فى الطعام ، وقد نهم ينهم فهو نهم .

٣ ـ انه شره على الطعام ، تقول : شره فلان على الطعام شرها من باب طرب اذا حرص عليه أشد الحرص فهو شره كطرب .

٤ ـ انه فَيِّه " بفتح فياء مشددة مكسورة وزان كيس أى نهم شديد الأكل ، واستفاه استفاهة واستفاها أى اشتد أكله فهو مستفيه .

٥ ـ انه قشاش بصيغة المبالغة تقول : قش الرجل يقش قشوشا من باب دخل اذا أكل من هنا وها هنا ، ثم لف ما قدر عليه مما على الخوان كقشش .

٦ ـ هو جردبان بفتح الجيم وضمها ، أو هو جردبى بفتح الجيم مع ياء النسب ، أو مجردب بصيغة اسم الفاعل .
تقول : جردب فلان اذا أكل ونهم ، ووضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو أكل بيمينه ومنع غيره بشماله ، وقيل ان جردبان معرب كرده بان أى حافظ الرغيف ، أو الجردبان والجردبى الطفيلى .

٧ ـ هو قرون بفتح القاف وزان صبور ، وهو من يجمع بين لقمتين أو تمرتين فى الأكل .

٨ ـ هو جراف بضم الجيم وزان غراب أى انه أكول جدا كجاروف ،

والجاروف هو المشئوم والنهم •

٩ ـ هو تلقام وتلقامة بكسر التاء فيهما ، أي عظيم اللقم واللقمة ، وتشدد قافهما •

١٠ـ هو ترهوط بضم التاء ، مأخــوذ من الرهط والترهيط ومعناهما عظم اللقم وشدة الأكل •

أما من حـرص على شـدة الشرب أو الاكثار منه فيقال له : شربة وزان همـزة ، وشريب بكسر الشين والراء المشددة وزان سكيت •

والقحف والقحاف بكسرهما شدة الشرب ، والقحف بفتح القاف شرب جميع مافى الاناء كالاقتحاف وفي المثل « اليوم قحاف وغدا نقاف » بكسرهما أي شرب ، وحرب •

ويقال : أمغد الرجل اذا أكثر من الشرب ، وقعر فلان الاناء اذا شرب كل ما فيه حتى انتهى الى قعره ، وكرع الولد فى الماء أو فى الاناء كمنع وسمع كرعا وكروعا اذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه أو باناء والكريع وزان أمير هو من يشرب من النهر بيديه اذا فقد الاناء •

وجرجر الخادم الشراب اذا جرعه جرعا متداركا حتى يسمع صوت جرعه ، والجرعة بالضم ما يجرع مرة واحدة جمعها جرع كغرفة وغرف ، وتجرع فلان الغصص مستعار منه ، وفى التنزيل « يتجرعه ولا يكاد يسيغه » •

٤٨٠ ويقولون : عند هذا التاجر قماش ثمين تصنع منه أجود الثياب للرجال والنساء والأطفال ، هذا التعبير يشوبه الفساد البين ؛ لأن القماش ليس بثمين ، كما أنه لا تصنع منه ثياب ، وانما هو ما على وجه الأرض من فتات الأشياء ، حتى يقال

لرذالة الناس قماش . تقول : طلبت من فلان معونة فما أعطانى الا قماشا أى أردأ ما وجده ، وقمش الرجل الشىء يقمشه من باب ضرب قمشا اذا جمعه من هنا وهناك ، وهذا الذى جمعه الرجل يسمى قماشا .

كما أنهم يقولون : تقمش فلان تقمشا فهو متقمش ، يعنون أنه لبس أحسن الثياب وأغلاها ، وهذا غير سليم ، والصواب أن معنى هذه العبارة أن هذا الرجل أكل ما وجد وان كان دونا .

والقميشة طعام يتخذ من اللبن وحب الحنظل ونحوه .

٤٨٢ وينكر كثير من الخاصة أن يجمع النادى على نواد ويقولون ان جمعه أندية كما قال صاحب المصباح ، وهذا الجمع شاذ ، لأن أفعلة جمع للاسم المذكر الرباعى الممدود ثالثه ككساء وأكسية ، ورغيف وأرغفة ، وعمود وأعمدة ،

قال ابن مالك :

لاسم مذكر رباعى بمد
ثالث أفعلة عنهم اطرد

وقد جمعه ابن منظور فى لسان العرب على أنداء جمعا شاذا أيضا ، لأن أنداء جمع للندى بمعنى البلل والمطر ، كسبب وأسباب ، ورحى وأرحاء ، وقفا وأقفاء .

وفى حديث أبى سعيد « كنا أنداء فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم » فالأنداء فى هذا الحديث جمع النادى ، وهم القوم المجتمعون .

وقيل أراد كنا أهل أنداء فحذف المضاف

والنادى المجلس يندو اليه من حواليه ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله ، فاذا تفرقوا لم يكن ناديا ، ولذا يقع على المجلس وأهله .

وقد ورد فى الشعر ما يدل على أنهم جمعوا أندية على أنديات كما فى قول كثير :

لهـم أنديات بالعشى وبالضحى
بهاليل (١) يرجو الراغبـون
وأنشد بعضهم :

رزان(٣) اذا شهـدوا الأنديا
ت لم يستخفوا ولم يخزروا
والحق أن النـوادى جمع صحيح للنـادى ، وانـما لم تذكره المعاجم اعتمادا على أنه قياس مطرد ، اذ أن فواعـل يطرد فى كل اسم لغير عاقل بزنة فاعل ككاهل وكواهل ، وحافر وحـوافر ، وعاتق

وعـواتق ، وشـارب وشوارب قال ابن مالك :

فواعل لفـوعل وفاعل
وفاعلاء مع نحو كاهـل

مما عرضنا من النصوص وأقوال اللغويين استبان أنه يجوز أن يجمع النادى عـلى أنـداء ، وعلى أنـدية جمعين شاذين سماعيين ، وانه يجمع على النوادى جمعا قياسيا ،

٤٨٢ واذا سألتهم عن مفرد محاسن أجابوا على الفور بقـولهم ، مفـرده محسن وزان مقعد ، وهذا غير سليم ، لأن لغتنـا العربية فيها جموع وردت على غير قياس ، منها :

١ ـ محاسن ، فهو جمع حسـن بضم فسكون ، ومعناه الجمال ، تقول : انظر الى محاسـن وجهه . قالت العرب : رجـل حسن وامرأة حسنة ، وقالت : امرأة حسناء ولم تقل رجـل أحسن وهو اسم أنث من غير تذكير ، كما قالت غلام أمرد ولم تقل جارية مرداء ، فذكرت من غير تأنيث .

٢ ـ ملامح ، تقول : فى فلان لمحة من أبيه أى شبه ، وتجمـع اللمحة على ملامح وهى مايدا من محاسن الوجه أو مساويه ،

---

(١) البهاليل : جمع بهلول بالضم وهو السيد الجامع لصفات الخير
(٢) الابل التى شربت الشرب الأول مفردها ناهلة
(٣) رزان بالكسر : جمع رزين وهو الرجل الوقور
(٤) لم يخزروا : لم يقعوا فى بلية تذلهم وتهينهم

فيقال : فى فلان ملامح من أخيه .

٣ ـ مشابه ، تقول : فى فلان شبه من أخيه بفتح كل من الشين والباء ، ويجمع الشبه نادرا على مشابه فيقال : فى محمد مشابه من ابنه .

٤ ـ لواقح ، تقول ألقح الفحل الناقة فهو ملقح ، وألقحت الريح السحاب فهى ملقحة والجمع لواقح فيقال : الفحول لواقح ، والرياح لواقح ، ومن هذا قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » ولا تقل ملاقح ، لأن الملاقح هى الاناث التى فى بطونها أولادها ، ومفردها ملقحة بصيغة اسم المفعول .

والملاقيح ما فى بطن النوق من الاجنة الواحدة ملقوحة من قولهم لقحت بالبناء للمفعول كالمحمومة من حمت ، والمجنونة من جنت .

٥ ـ طوائح ، تقول طوحه تطويحا اذا توهه فى الأرض ، وطوحته الحمى اذا أتعبته وأذلته فهى مطوحة ، والحميات طوائح ، ولا تقل مطوحات قال ،

ليبك يزيد ضارع (١) لخصومة ومختبط (٢) مما تطيح الطوائح

ويقال : طوحته الطوائح أى قذفته القواذف .

٦ ، ٧ ـ حرائر ، ومرائر ، يقال : امرأة حرة ونسوة حرائر ، وثمرة مرة وثمرات مرائر ، قال السهيلى ولا نظير لهما ، لأن فعلة بضم فسكون يطرد جمعه على فعل بضم ففتح كغرفةوغرف ، ومدية ومدى، وفرصة وفرص ، وانما جمعت حرة على حرائر لأنها بمعنى كريمة وعقيلة فجمعت مثلهما على فعائل ، وجمعت مرة على مرائر لأنها بمعنى خبيثة فجمعت جمعها .

---

(١) الضارع : المتذلل المستكين

(٢) المختبط بصيغة اسم المفعول : من ضرب ووطىء شديدا

٨ ـ وجمع ابن عرس ، وابن مخاض ، وابن لبون ، وابن آوى على بنات عرس ، وبنات مخاض ، وبنات لبون، وبنات آوى، وحكى الاخفش بنات عرس وبنو عرس ، وبنات مخاض وبنو مخاض ، وبنات آوى وبنو آوى ، والأفصح بنات فى كل منها .

٩ ـ وجمع ذكر بمعنى القرف جمعا غير قياس على مذاكير ، وقال الاخفش : هو من الجمع الذى ليس له واحد مثل العباديد والأبابيل .

١٠ ـ جمعت النفساء وهى المرأة التى وضعت ولدها حديثا على خمسة جموع كلها غير قياسى، هى نفاس بالكسر ، ونفاس بالضم ، ونفس بضمتين ، ونفس بضم فسكون ، ونوافس ، وجمعت جمع مؤنث سالما على نفساوات .

٤٨٣ يعتقد كثير من الخاصة أن كل فعل ثلاثى لا بد أن يتفق فى المعنى مع مزيده بالهمز ، وهذا اعتقاد خاطىء ، لأن لغتنا العربية فيها أفعال ثلاثية مجردة يستعمل كل منها لمعنى، ويستعمل مزيده بالهمز لضد هذا المعنى ، منها :

١ ـ قسط : تقول : قسط الحاكم اذا جار وحاد عن الحق فهو قاسط . وهم قاسطون . ومن هذا قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » وأقسط القاضى اذا عدل بين المتخاصمين فهو مقسط ، ومنه قوله سبحانه : « ان الله يحب المقسطين» ، ويقال : فلان قاسط غير مقسط أى جائر غير عادل ، والله يقبض ويبسط ، ويَقْسِطُ ولا يُقْسِطُ .

٢ ـ ضاف : تقول : ضفت الوزير ضيفا بالفتح وضيافة بالكسر اذا نزلت عنده ضيفا كتضيفته وأضفته اذا أنزلته عندك ضيفا ، وأضفته أيضا اضافة اذا لجأ اليك من خوف فأجرته .

ويقال : تضيفني فضيفته أي طلب القرى (١) فقريته فهو متضيف ، قال الفرزدق :

ومنا خطيب لايعاب وقائل
ومن هو يرجو فضله المتضيف

٣ ـ نشط : تقول : نشطت الأنشوطة نشطا من باب ضرب اذا شددتها وعقدتها ، وأنشطتها اذا حللتها ، والأنشوطة بالضم ربطة يسهل انحلالها ، وأنشطت العقال حللته ، وأنشطت البعير من عقاله أطلقته ، ويقال : بئر أنشاط اذا كانت قريبة العمق تخرج منها الدلو بجذبة واحدة ، وبئر نشوط بالفتح اذا كانت تحتاج الى نشط كثير لبعد قعرها .

٤ ـ ترب : تقول : ترب الرجل من باب طرب تربا اذا افتقر واحتاج لصق بالتراب من شدة فقره ، وأترب أخوه اذا استغنى وأصبح ذا ثروة عظيمة كأنه صار له من المال قدر التراب .

٥ ـ فرى : تقول : فريت الجلد فريا من باب رمى اذا قطعته على وجه الاصلاح ، قال الكسائي يقال أفرى فلان الأديم اذا قطعه على جهة الافساد ، وفراه اذا قطعه على جهة الاصلاح ، ولذا يقال : لقد أفريت وما فريت ، أي أفسدت وما أصلحت .

٦ ـ خفى بفتحتين : تقول : خفيت الشيء خفيا من باب رمى اذا أظهرته وأبنته ومنه قول الشاعر :

خفاهن من أنفاقهن (٢) كأنما
خفاهن ودق (٣) من سحاب مركب

فالشاعر هنا يصف فرسا يستخرج الفئران من جحورهن بشدة وطئه ، حتى كأن سيلا

---

(١) القرى بالكسر : ما يقدم للضيف من الطعام
(٢) الانفاق : جمع نفق وهو سرب له مخلص
(٣) الودق : المطر

دخل عليهن فأخرجهن وأظهرهن ، ولكننا اذا قلنا أخفينا الشيء كان المعنى أننا سترناه وغطيناه .

٧ ـ خفر : تقول خفرت فلانا وخفرته تخفيرا اذا حميته من طالبه وكنت له مجيرا وخفيرا يمنعه . قال :

(يخفرنى سيفى اذا لم أخفر)

ويقال : خفرت بعهده اذا وفيت به ، وأخفرته اذا نقضت عهده وغدرت به .

٨ ـ دلا : : تقول : أدليت دلوى اذا أرسلتها فى البئر لتستقى بها ، ودلوتها اذا نزعتها وأخرجتها .

ويقال : سقى الفلاح أرضه بالدالية والدوالى أى بالنواعير .

٤٨٤ ويقول علماء الجغرافيا وتلاميذهم : مناخ هذا البلد شديد الحرارة ومناخ هذه الدولة معتدل بفتح الميم فى المناخين ، يعنون جو البلد وجو الدولة ، وهذان التعبيران يتسمان بالفساد من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، أما من جهة اللفظ فان كلمة مناخ يجب ضم ميمها ولا يجوز فتحها لأنها اسم مكان من أناخ الرباعى ، واسم المكان والزمان والمصدر الميمى من أفعل يجب أن يكون على وزن مفعل بضم الميم وفتح العين على صيغة اسم المفعول .

وأما من جهة المعنى فلا صلة للمناخ بالحرارة ولا بالاعتدال ، وانما هو اسم للموضع الذى تبرك فيه الابل تقول انخت الابل ونوختها ولا يقال فى المطاوع فناخت وانما الفصيح أن يقال فبركت أو فاستناخت ، وفى الحديث « وان أنيخ على صخرة استناخ » .

ويقال : تنوخ الجمل الناقة اذا أبركها للسفاد كأناخها فاستناخت وتنوخت .

عباس أبو السعود

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : نسمع عن صلاة الشكر .. فما هو دليل شرعيتها وما كيفيتها ؟

ج : ذكر ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه زاد المعاد : «وكان من هديه صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه «سجود الشكر» عند تجدد نعمة تسر أو اندفاع نقمة كما في المسند عن أبي بكرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أتاه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا لله» .

وذكر ابن ماجه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر بحاجة فخر لله ساجدا . وذكر البيهقي باسناد على شرط البخاري أن عليا رضي الله عنه لما كتب الى النبي صلى الله عليه وسلم باسلام همدان خر ساجدا ، ثم رفع رأسه فقال : السلام على همدان . السلام على همدان ... الخ .

وفي المسند من حديث عبد الرحمن ابن عوف « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد شكرا لما جاءه البشرى من ربه أن من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه .. وفي سنن أبي داود من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه فسأل الله ساعة ثم خر ساجدا ثلاث مرات ثم قال : اني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي ، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الثاني . فخررت ساجدا شكرا لربي ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الآخر فخررت ساجدا لربي .

وسجد كعب بن مالك لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه ، ذكره البخارى .

وذكر أحمد عن على عليه السلام أنه سجد حين وجد ذا الثدية فى قتلى الخوارج ، وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة . اهـ

وجاء فى سبل السلام بعد ذكر حديث أبى بكرة السابق .. « وهو دليل شرعيته ، وذهب الى شرعيته الهادوية والشافعية وأحمد خلافا لمالك . ورواية لأبى حنيفة بأنه لا كراهة فيه ولا ندب والحديث دليل للأولين .. ثم قال :

واعلم انه قد اختلف هل يشترط لها الطهارة أم لا ؟ فقيل : يشترط قياسا على الصلاة، وقيل : لا يشترط لأنها ليست بصلاة وهو الأقرب كما قدمناه ، وقال المهدى : انه يكبر لسجود الشكر ، وقال أبو طالب ويستقبل القبلة ، وقال الامام يحيى ولا يسجد للشكر فى الصلاة قولا واحدا ، اذ ليس من توابعها . وقيل ، ومقتضى شرعيته حدوث نعمة أو اندفاع مكروه فيفعل ذلك فى الصلاة ويكون كسجود التلاوة » . اهـ

وجاء فى كتاب الاقناع فى فقه الشافعية : « وسجدة الشكر لا تدخل صلاة ، وتسن لهجوم نعمة أو اندفاع نقمة أو رؤية مبتلى أو فاسق معلن ، ويظهرها للفاسق ان لم يخف ضرره لا للمبتلى لئلا يتأذى ، وهى كسجدة التلاوة .. وأركان سجدة التلاوة عندهم لغير مصل : تحرم وسجود وسلام . وشرطها كصلاة وألا يطول فصل عرق بينها وبين قراءة الآية وتتكرر بتكرر الآية ، ويسن مع سجدة الشكر ــ كما فى المجموع ــ الصدقة ، ولو تقرب الى الله بسجدة من غير سبب حرم » اهـ .

س : يذكر الناس فضائل كثيرة

لليـــلة النصف من شـهر شعبان ويؤدون فيها صـلاة بنية خاصة ، ويدعون بدعاء مشهور ، ويقولون : ان هذه الليلة هى الليلة المبـاركة التى يفـرق فيهـا كل أمر حكيم وبرم ، نرجو بيان الخطأ والصواب فى هذه الاعتقادات والأعمال !

ج : رغم أن العلمـاء المحققـين يسلطون الأضـواء على كثير من البدع الشائعة ويوضـحون جانب الحق ، فما زال هناك كثير من العوام وأشباههم يتمسكون بهذه البدع وما زلنا نرى ونسمع هؤلاء الصبية الذين يروجـون لدعاء النصف من شـعبان فى الشـوارع وشتى التجمعـات ووسائل المواصـلات واقبال البسطاء من الناس على هذه السلعة التى لا أصل لها فى الدين .

وللامام الراحل الشيخ محمـود شلتوت رحمه الله فتوى فى هـذا المقام أحاطت بالموضوع من جميع جوانبه نوردها فيمايلى :

الليلة المباركة فى القرآن

قال الله تعـالى فى أول سـورة الدخان : « انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمرا من عنـدنا انا كنـا مرسلين ، رحمة من ربك انه هـو السميع العليم » .

هذه احدى آيات ثلاث تتحدث عن انزاله وعن الزمن الذى أنزل فيه ، والآية الثانية هى قوله تعالى : « انا أنزلناه فى ليلة القدر » والآية الثالثة قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » .

وهدف الآيات الثلاث تأكيـد أن القرآن لم يكن ــ كما كان يزعم منكرو الرسالة ــ من صنع محمد ، وانما هو من عند الله ، أنزله بعلمه وحكمته هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

وقد وصفت الآية الأولى الليلة التى أنزل فيها بأنها « ليلة مباركة » وهى الصفة التى وصف بها القرآن فى قوله تعالى : « وهـذا كتاب أنزلناه مبارك ، مصدق الذى بين يديه ، ولتنـذر أم القـرى ومن حولها » .

وسميت فى الآية الثانية « بليلة

القدر » وهو الشرف وعلو المكانة

وبينت الآية الثالثة أن شهر تلك الليلة هو شهر رمضان ، الذى فرض الله على المؤمنين صومه تذكيرا بنعمة انزال القرآن وشكرا لله عليها .

الروايات والآراء

ومع وضوح الاتساق بين هذه الآيات هكذا وتساندها ، وشد بعضها أزر بعض فى تقرير أن القرآن أنزله الله على الناس فى ليلة مباركة ، ذات قدر وشرف ، وأن رمضان هو شهر تلك الليلة ، مع وضوح هذا نرى الروايات والآراء خلقت فى كتب التفسير جوا اصطرعت فيه اصطراعا أثار على الناظرين فى القرآن غبارا طمس عليهم محورها الذى تدور عليه ، وباعدت بينها فى الهدى الذى ترمى اليه .

وكان من ذلك ما قيل وذاع بين الناس أن « الليلة المباركة » فى الآية الأولى هى « ليلة النصف من شعبان » وأن الأمور الحكيمة التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار وسائر الأحداث الكونية التى يقدرها الله ، ثم يظهر ما يقع منها فى العام للمنفذين من الملائكة الكرام !!! ويمتد الكلام الى التفرقة بين التقدير الذى يحصل فى تلك الليلة ، والتقدير الذى يروى أيضا عن ليلة القدر ثم الى الفرق بين كل من هذين التقديرين اللذين يحصلان فى هاتين الليلتين « ليلة النصف وليلة القدر » وبين التقدير الأزلى لهذه الأحداث ، يمتد الكلام بين هذه التقديرات الثلاث بما أعتقد ويعتقد كل مؤمن أنه خوض فى أمر محجوب ، وهجوم على غيوب استأثر الله بعلمها ، ولم يرد بها نص قاطع من قبله .

الناس فى ليلة النصف

وكان منه أيضا ، اعتقاد العامة وأشباههم ، أن ليلة النصف من شعبان ليلة ذات مكانة خاصة عند الله ، وأن الاجتماع لاحيائها بالذكر والعبادة والدعاء ، والقراءة مشروع ومطلوب ، وتبع ذلك أن وضع لهم فى احيائها نظام خاص يجتمعون فى المسجد عقب صلاة المغرب ، ويصلون صلاة خاصة باسم « صلاة

النصف من شعبان » ثم يقرءون بصوت مرتفع سورة معينة هى « سورة يس » ، ثم يبتهلون كذلك بدعاء يعرف « بدعاء النصف من شعبان » يتلقنه بعضهم من بعض ويحفظونه على خلل فى التلقين ، وفساد فى المعنى • ويكررونه ثلاث مرات : احداها بنية طول العمر ، والثانية بنية دفع البلاء ، والثالثة بنية الاغناء عن الناس ، ويعتقد العامة أن التخلف عن المشاركة فى هذا الاجتماع نذير بقصر العمر وكثرة البلاء والحاجة الى الناس • وينتهز بعض تجار الكتب ليلة النصف فرصة ، يطبعون فيها سورة يس مع الدعاء ، ويكلفون الصبية توزيعها فى الطرقات والمركبات والمجتمعات •• منادين على سلعتهم « سورة يس ودعاءها بـ •• » ••

دعاء نصف شعبان

واذا كنت ممن لم يوفقوا الى قراءة هذا الدعاء أو سماعه ، فاعلم أنهم يطلبون فيه من الله محو ما كتبه فى أم الكتاب من الشقاوة وتبديلها سعادة ، والحرمان وتبديله عطاء ، والاقتار وتبديله غنى ،ويذكرون فى تبرير هذا الطلب وحيثياته أن الله قال فى كتابه : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وهو تحريف واضح للكتاب عن مواضعه ، فان هذه الآية سيقت لتقرير أن الله ينسخ من أحكام الشرائع السابقة ما لايتفق واستعداد الامم اللاحقة وأن الاصول التى تحتاجها الانسانية العامة ــ كالتوحيد والبعث والرسالة ، وتحريم الفواحش ــ دائمة ثابتة ، وهى « أم الكتاب » الالهى الذى لا تغيير فيه ولا تبديل ، واذاً **لا علاقة لآية المحو والاثبات** بالأحداث الكونية حتى تحشر فى الدعاء وتذكر حيثيته .

شهر شعبان

والذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحفظت روايته عن أصحابه ، وتلقاه أهل العلم والتمحيص بالقبول ، انما هو فقط فضل شهر شعبان كله ، لا فرق بين ليلة وليلة وقد طلب فيه على وجه عام الاكثار من

العبادة ، وعمل الخير ، وطلب فيه الاكثار من الصوم على وجه خاص تدريبا للنفس على الصوم واعدادا لاستقبال رمضان ، حتى لا يفاجأ الناس فيه بتغيير مألوفهم فيشق عليهم .. وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم : « أى الصوم أفضل بعد رمضان ؟ فقال : شعبان لتعظيم رمضان » وتعظيم رمضان انما يكون بحسن استقباله والاطمئنان اليه بالتدريب عليه وعدم البرم به .. أما بخصوص ليلة النصف .. والاجتماع لاحيائها ، وصلاتها ودعاؤها ، فانه لم يرد فيها شيء صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفها أحد من أهل الصدر الأول .

راى الشيخ محمد عبده

ويجدر أن أسوق هنا ما كتبه الشيخ الامام عن « الليلة المباركة » فى تفسيره « جزء عم » قال أجزل الله ثوابه : « أما ما يقوله الكثير من الناس ـــ من أن الليلة المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ـــ فهو من الجرأة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ما لم يرد فيه خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ، لاضطراب الروايات وضعف أغلبها ، وكذب الكثير منها ، ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد ، ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ،ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة ، فانه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين ، لعدم تواتر خبره عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه ، والا كنا من الذين قيل فيهم : « ان يتبعون الا الظن » نعوذ بالله ، وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعَدُّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به العمل على فضيلة من

الفضائل ، فاحذر أن تقع فيه مثلهم » اهـ .

يحذرنا الأستاذ الامام أن ننزل فى عقائدنا على حكم الظن ، فان الظن لا ينبع من اليقين ، وان الظن لا يغنى عن الحق شيئا ، وان الاعتقاد بالظن قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم صنو الاثم والبغى عند الله .

وقد كان هذا هو منهج الامام فى العقائد ، ومنهجه فى تفسير كتاب الله : سير فى المحجة الواضحة واعتقاد بالحجة القاطعة ، وبُعْدٌ بكتاب الله عن الظنون والأوهام .

ورحمة الله على الامام .

والسلام على من اتبع الهدى .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

من خطبة لسيدنا الحسن بن على بالكوفة

« ان الحلم زينة ، والوقار مروءة ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة اهل الفساق ريبة » .

من تعاليم أستاذ الحياة
عليه السلام

كتاب الشهر

مفهوم الموافقة والمخالفة

بين الإعمال والإهمال

د. محمد سعاد جلال

قال الحنفية : لا يصح العمل بمفهوم المخالفة .. وقال الشافعية : يتعين العمل به . ويتعلق بذلك قواعد .. ويتعين قبل أن ندخل فى التفصيل أن نبين مفهوم المخالفة ، وهو « أن يثبت الحكم فى المسكوت عنه على خلاف ما ثبت فى المنطوق به » .

ومثاله قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) . فيه شاهدان مما يسمى بمفهوم المخالفة :

الأول : فى قوله « ومن لم يستطع منكم طولا » ــ الآية ــ : علق جواز نكاح الأمة على عدم طول الحرة ، ومفهومه عدم جواز نكاحها عند طول الحرة وهو المسكوت عنه .

والثانى فى قوله : « من فتياتكم المؤمنات » أى الاماء المؤمنات : أباح المنطوق نكاح الاماء الموصوفات بالايمان ، ومفهومه عدم جواز نكاح الفتيات غير المؤمنات وهو المسكوت عنه .. وفى كل الموضوعين يجرى الخلاف بين الحنفية والشافعية .

٢ ــ شروط العمل بمفهوم المخالفة

وللعمل بمفهوم المخالفة جملة شروط :

أولها : ألا يكون الحكم فى المسكوت عنه أولى بالثبوت منه فى المنطوق به وألا يكون مساويا له .

ومثاله فى الصورة الأولى : قوله تعالى : « ولا تقل لهما أف » فالحكم فى المنطوق به هنا ــ وهو لفظ « أف » ــ هو التحريم . لاشتماله على أذية الوالدين فيثبت الحكم فى المسكوت عنه كالقتل والتحريق بعلة « الأذى » من باب أولى . ويسمى ثبوت الحكم فى المسكوت عنه على هذا الوجه « دلالة نص » « وفحوى الخطاب » .

ومثاله فى الصورة الثانية : أثبت النص وجوب الكفارة على

المفطر عمدا فى نهار رمضان بالوقاع فى حديث الأعرابى ، فوقف الشافعية عند أداء النص وقالوا : لا كفارة فى فطر نهار رمضان بغير سبب الوقاع . وألحق الحنفية الأكل والشرب عمدا بالوقاع باعتبار مساواتهما له فى نقض الصوم فقالوا بثبوت الكفارة فيهما .

ثانيها : ألا يخرج الوصف الموهم للتفرقة فى الحكم بين المنطوق والمسكوت مخرج الغالب والعادة كقوله » . وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . هذه الجملة تقع جزءا من آية النص على النساء المحرمات ، ومفادها الظاهر اثبات أن بنت الزوجة ــ وتسمى ربيبة ــ محرمة على زوج أمها ما دامت فى حجره ، ومفهومه أن نكاحها جائز له ما لم تكن فى حجره ، لكن هذا المفهوم ملغى ، لأن القيد ــ وهو قوله : اللاتى فى حجوركم ــ خرج مخرج العادة ، فلا يدل على الاحتراز .

ثالثها ورابعها وخامسها :

الا يقع المنطوق جوابا لسؤال معين ، أو لحادثة معينة . أو يقع بناء على علم المتكلم بأن السامع يجهل هذا الحكم المخصوص .

مثال الثالث : أن يسأل صاحب البيان : « هل فى الابل السائمة زكاة ؟ » ، فيجيب : « ليس فى الابل السائمة زكاة » .

ومثال الرابع أن تقع حادثة معينة بين يدى صاحب البيان تتطلب منه بيان الحكم فى الابل السائمة : فيقول : « ليس فى الابل السائمة زكاة » .

فوصف الابل بالسوم فى هذين المثالين لا يدل على نفى الزكاة عند انتفاء وصف السوم .

ومثال الخامس اذا كان صاحب البيان يعلم من أمر السامع جهله بخصوص حكم زكاة الابل السائمة .. فابتداه بهذا القول : « ليس فى الابل السائمة زكاة » . فانه لا يدل على نفى الحكم بانتفاء وصف السوم وذلك لأن المقتضى

الراهن عند المتكلم بهذا القول من مطابقة الجواب للسؤال أو الحادثة أو ارادة التعليم ، قد استغرق فائدة القيد فلم يعد له عمل في المسكوت عنه .

٣ ـ القـــواعد التي يشمل عليها مفهوم المخالفة

ويشتمل مفهوم المخالفة علىعدة قواعد .

القاعدة الاولى :

وهي : « ان تخصيص الشيء بالوصف يدل على نفي الحكم عما عداه عند الشافعي ، خلافاللحنفية»

احتج الشافعي بالأدلة الآتية :

الدليل الأول :

قال : انمقتضيات ذكر الوصف في المنطوق منحصرة في الأمـور الأربعة التي ذكرناها . فاذا انتفى احتمال وجود أي واحد من تلك الامور الأربعة تبريرا لذكر الوصف في المنطوق تعين أن يكـون فائدة ذكر الوصف في المنطـوق هي نفي الحكم عما عداه ـ أيفيالمسكوت عنه .

الدليل الثاني :

قال : ان العرف يشهد لنا ، فانه لو قال قائل : « الانسان الطـويل لا يطير » . يتبادر منه للفهـم أن الانسان غير الطويل يطير وهو أمر مستقبح ولهذا يستقبحه العقلاء : وليس مرجع استقباحهـم لـه نفي الطيران عن الانسان الطويل ، فانه لو قال : الانسان الطـويل وغيـر الطويل لا يطير لا يستقبحمنهذلك، فلم يكن استقباحهم له الا منحيث كان قـول ذلك المتـكلم يثبت بمفهومه في الضد حكما مستحيلا، وهو أن الانسان القصير يطيرفقد خرج قوله مخرج العبث .

الدليل الثالث :

قالوا : ان اثبات مفهوم المخالفة في الكلام يقتضي تكثيـر الفائدة منه من حيث تقـول أن تخصيص الشيء بالوصف يدل على اثبـات الحكم في المنطوق به كما يدل على نفي الحكم فيما عدا الموصوف بهذا الوصف في المسكوت عنه ، فيكون ذكر الوصف في المنطوق به بغيـر

افادة نفى فى الحكم المسكوت عنه غير مفيد .. ويعد ترجيحا لوجوده فى الكلام من غير مرجح ، لأن عدم وجوده مساو حينئذ لوجوده ، اذ لم يكن لوجوده فائدة أصلا ، وقد فرضنا أن ذكر الوصف هنا تعرى عن القصد به ، لواحد من الأمور الأربعة المبررات لذكره .

الدليل الرابع :

قال : ولأن مثل هذا الكلام يدل على « علية » الوصف مثل قوله : « فى الابل السائمة زكاة » فعدم الوصف يدل على عدم الحكم فى المسكوت عنه . لعدم « العلة » .

جواب الحنفية على ادلة الشافعى

وأجاب الحنفية عن هذه الحجج فقالوا :

أما عن الحجة الأولى فان معنى كلام الشافعى قائم على أن فائدة الوصف الموجود فى الكلام منحصرة فى شيئين اثنين .

أحدهما : الأمور الأربعة المشترط عدم ارادتها لصحة وجود مفهوم المخالفة ، التى هى — كما قلنا من قبل — عدم خروج الوصف مخرج العادة ، أو عدم كونه جوابا عن سؤال أو حادثة . أو علم المتكلم بأن السائل يجهل هذا الحكم .

وثانى الشيئين — الواقع الحصر بينهما هو ارادة نفى الحكم عما عدا الموصوف به ، فاذا انتفت هذه الأمور الأربعة واحدا بعد واحد فى اظهار فائدة ذكر الوصف فى المنطوق به لم يكن له من فائدة الا نفى الحكم فيما عدا الموصوف به . هكذا قال . ولكن بناء الحصر على الأمور الأربعة المذكورة ، والقول بأن انعدامها بخصوصها كان لاثبات خلاف حكم الأصل فى المسكوت عنه — باطل ، لأن مبررات ذكر الوصف فى الكلام غير منحصرة فى الأربعة المشار اليها — بل يوجد فى مقتضى أحوال الكلام ، وأساليب اللغة دواع أخرى لذكر الوصف مكفوفا عن العمل فى المسكوت عنه ، كقولهم : « أمس الدابر لا يعود » فهذا الوصف للتوكيد ولا يراد به نفى الحكم عما

عداه ، وكقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه » ، فان المراد بقوله فى « الأرض » وقوله «يطير بجناحيه» القصد لزيادة التعميم والاحاطة ولا يراد به نفى الحكم عما عداه . لأنه لا يتصور أن تكون الدابة فى غير الأرض ، ولا أن يكون الطائر بغير جناحين .

وكقولهم : « الجسم الطويل العريض العميق متحيز ، ومع ذلك لا يراد منه نفى الحكم عما عداه ، ولو أريد منه ذلك لزم أن يكون الجسم غير الطويل العريض العميق غير متحيز وهو مستحيل لأن الجسم لا يوجد بغير هذه الصفة أصلا ، وانما وصف كذلك تعريفا للجسم ، ولبيان أن علة التحيز هى هذا الوصف .

وكاستعمال ذكر الوصف فى المدح أو الذم كقوله : « ابو حنيفة الفقيه ، وابن حنبل الزاهد » اذ لا يراد بهما نفى الفقه والزهد عن غيرهما .

ففى جميع الأمثلة المذكورة ينهض الدليل على أن مقتضيات ذكر الوصف فى المنطوق غير منحصرة فى عدد معين كما يقول الشافعية . وأنها تفيض عن الأربعة المذكورة ، فحصرها فى الأربعة المذكورة أو ارادة نفى الحكم عما عدا المذكور الموصوف باطل .

وأما عن الحجة الثانية فقالوا : ان العقلاء لا يستقبحون قول القائل « الانسان الطويل لا يطير » من حيث أن الوصف اثبت فى الضد حكما مخالفا هو الانسان القصير يطير ، وانما يحمل استقباحهم على أن هذا الوصف ليس له فائدة أصلا . وهو ناب عن استعمالات العرب لأنه لو قال : « الانسان الطويل ، وغير الطويل لا يطير » لم يكن ذلك مستقبحا .

قال صدر الشريعة فى التوضيح : « على أن القاعدة لا تثبت بالمثال الواحد » .

وأما عن الحجة الثالثة : فقالوا : لا سبيل الى القطع بأن ذكر الوصف

معدوم الفائدة أصلا لكى يكون وجود ذكره مساويا لعدم وجود ذكره فى الكلام . بل لا بد له من فائدة تعنيها العرب فى لسانها ، لا يتعين أن تكون نفى الحكم فيما عدا الموصوف .

قلت وأقل من ذلك فائدة - كما لاحظنا من مقاصد بلاغة أهل اللسان - القصد الى توضيح صورة الشىء المعبر عنه لذهن المخاطب بما يطابق اعتياده لرؤيته فى الواقع ، فان مطابقة هذا الاعتياد يضع فى النفس اقتناعا وارتياحا لصورة التعبير ، وأظهر أمثلته ماسبق من قوله : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه » : فقد تعود المخاطب بعادة متمكنة أن يرى الدابة فى الأرض ، وأن يرى الطائر بجناحيه ، فاذا ورد الخطاب على سمعه بالصورة التى ألفها بصره - غير ناقصة ولا مبتورة - كان ذلك أروح لنفسه وأرضى لوجدانه .

وليست اللغة والبلاغة نداء عقليا فقط ، ولكنها - أيضا - نداء وجدانى .. وكذلك كانت لغة العرب والقرآن : ولكن الأصوليين والفقهاء ربما نسوا هذه الحقيقة الواضحة المؤكدة : فنظروا الى لغة العرب والقرآن - التى هى أساس استشهادهم على تأسيس قواعدهم - على أنها عملية عقلية محضة تصاغ وتستعمل على مثال الأرقام الرياضية فى الدلالة الصلبة على المعانى المقصودة باستعمالها ؛ وكأنهم أرادوا أن يجروا لغة العرب، بما فيها من توسع ووجدان على منهج الأساليب العلمية التى يكتبون بها كتبهم .. ولغة العرب وأسلوب القرآن عن ذلك بمنأى بعيد .

وبناء عليه فلا يتعين القول بأن ذكر الوصف - اذا لم يفد نفى الحكم عما عدا الموصوف - يكون ذكره ترجيحا بغير مرجح لانعدام فائدته - لأنه لا يخلو قط من فائدته .. لأنه لايخلو قط من وجملته من كلامها .. حتى ومع العجز عن معرفة الفائدة فان لكلام العرب وللقرآن فى المستوى الأعلى

من أسرار البلاغة وبعد الأغراض ما يمنع القطع بنفى الفائدة عن ترجيح اثبات الوصف المذكور .

وأما عن الحجة الرابعة : وهى قولهم ان الوصف بمنزلة العلة للحكم فانعدام الوصف يستلزم انعدام الحكم ـ الى آخره ـ فقد أجاب عنه الحنفية بجوابين .

أحدهما : ان أقصى درجات الوصف فى التأثير أن يكون «علة» وكونه كذلك لا يدل على أن عدمه يقتضى نفى الحكم فى الموصوف . لأن الحكم يثبت بعلل شتى .

وثانيهما : انا نوافق على أن انعدام الوصف يدل على عدم الحكم ـ وذلك بوجهة نظر تختلف عن وجهة نظر الشافعية . فانا نقول : ان مرجع عدم الحكم هو عدم علة له أصلا كانت تقتضى وجوده ، فهو عدم أصلى . كعدم أى شىء لأنه لم يحدث له فى الوجود سبب يقتضى وجوده .

ووجهة الشافعية ان عدم الحكم هنا حكم شرعى : لأن الوصف المذكور فى المنطوق اقتضى عندهم حكمين : اثبات الحكم فى الموصوف به ، ونفى الحكم عما عداه : فانعدام الوصف يعد عندهم علة شرعية اقتضت عدم الحكم فكان عدمه حكما شرعيا لا عدما أصليا وهو ما يمنعه الحنفية .

القاعدة الثانية : « التعليق بالشرط يدل على عدم الحكم عند عدم الشرط عند الشافعى .

وقال الحنفية : التعليق بالشرط لا يدل على ذلك .

احتج الشافعى بأن موجب التعليق بالشرط عدم حصول الحكم عند عدم الشرط ، اعمالا لشرطيته لأن الشرط ما يتوقف عليه غيره . وذلك كشرطية الوضوء للصلاة ، والثمن للبيع فانتفاء الشرط دال على عدم الحكم .

وقال الحنفية : ان الشرط يقال على أمرين : يقال على ما يتوقف عليه الشىء ، ولا يترتب عليه كالوضوء للصلاة : وقد يقال للمعلق

به ، وهو ما يترتب عليه الحكم ولا يتوقف عليه .

فالشرط بالمعنى الأول هو الذى يوجب عدم الحكم عند عدم الشرط ، لا بالمعنى الثانى : فينتفى المشروط عند انتفاء الشرط كانتفاء صحة الصلاة لعدم وجود الوضوء وليس انتفاء صحة الصلاة لعدم وجودالوضوء حكما شرعيا ، اذ لا شك فى كونه عدما أصليا لكنه مع ذلك يكون دالا على عدم صحة الصلاة لتوقفها عليه .

وأما الشرط بالمعنى الثانى ، فانه لا دلالة لانتفائه على انتفاء المشروط فقد ينتفى الشرط ولا ينتفى المشروط . نحو ان دخلت الدار فأنت طالق « فانه قد ينتفى الشرط — وهو دخولها الدار ، ولا يلزم منه انتفاء الحكم وهو عدم طلاقها ، بل قد يوجد طلاقهابسبب آخر غير دخولها الدار كغضبه عليها . أو رغبته فى زواج غيرها .

ومثال ذلك من أغراض الفقه : قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات » علق الشارع جواز نكاح الامة على شرط — هو العجز عن القدرة على نكاح الحرة — فاذا انتفى هذا الشرط ، لزم انتفاء المشروط : وهو جواز نكاح الامة ، فلا يجوز نكاح الامة للقادر على نكاح الحرة وهو مذهب الشافعى — وقد جعل هذا المفهوم مخصصا للعموم الوارد فى قوله :

« وأحل لكم ما وراء ذلك » .

ومذهب الحنفية جواز نكاح الامة مع طول الحرة . لأنهم كما بينا — لا يرون ان التعليق بالشرط يستلزم نفى الحكم عند عدمه ، فلا يصح هذا المفهوم مخصصا ولا ناسخا عندهم .

القاعدة الثالثة :

قال الشافعى : « المشروطيوجب حكمه بدون الشرط فيجب الحكم بالمشروط على جميع التقارير والشرط يقيده بتقدير معين.ويعدم غيره من سائر التقارير عند الشافعى

وقال الحنفيـــة : « المشروط والشرط كلام واحد يوجب حكما واحدا على تقدير واحد » .

توضيحه : فى مثــل قولك : « أنت طالق ان دخلت الدار » . فمعنى قول الشافعى : أفـاد « أنت طالق » اثبات الطلاق فى الحال على جميع التقارير ، لكن قولك : « ان دخلت الدار » شرط قيد المشروط بتقدير معين ، وهو دخول الدار ، اعدام اعتبار ما سواه من التقادير الأخـرى فالشرط أثر فى اعـدام الحكم بالنسبة للتقادير الأخرى .

وعند الحنفية ، المشروط ليس له دلالة على معنـاه بدون تزكيـة مع الشرط بحيث يعتبر أن كلاما واحدا يوجب الحكم على تقدير واحد . وهو ساكت عما عداه من سـائر التقادير .

ويبنى على هذه القاعدة عنـد الطرفين مبدأ فرعى : هو :

ان المعلق بالشرط ينعقـد سببا للحكم عند الشافعية من حيث انه يثبت حكمه بنفسه بمجرد حصوله بغير توقف على وجـود الشرط .

والتعليق يؤخر وقوع الحكم الى زمان حصول الشرط .

ففى قولك : « انت طـالق ان دخلت الدار » انعقد المعلق سببا لوجود الطلاق على سائر التقادير . والتعليق آخر الحكم بعد انعقـاد المعلق سببا الى زمان وقوع الشرط الذى يقيد المعلق بتقدير واحد هو دخول الدار ويعدم غيره من سائر التقادير .

وعند الحنفية لا ينعقـد المعلق سببا للحكم قبل زمان الشرط . لأن السبب ما يكـون طـريقا الى الحكم . وقبل وجـوب الشرط ، لا يعد المشروط سببا للحكم .

ففى المثال السابق يثبت موجب الشرط مع المشروط وهـو السبب المنشىء للطلاق وقت حصـــول الشرط ــ لا قبله ــ دفعة واحدة على التقدير الذى أفاده الشرط .

وبناء على هذا المبــدأ تختلف أحكام بعض المسائل الفقهية بيــن المذهبين :

المسألة الأولى : قال الشافعي : يمتنع التعليق بالملك : نحـو قوله لامرأة أجنبية : « ان تزوجته فأنت طالق » وقوله لعبد غيره ان ملكتك فأنت حر ، فان قال مثل ذلك . فانطلاق لغو ، والاعتاق لغو : قال لأن المشروط وهو التطليق والاعتاق لا ينعقد سببا ، للطلاق والعتق ، الا في حيز الملك . لأن الملك شرط لانعقاده سببا للحكم ـ وهو محل اتفاق بين الحنفية والشـافعية ـ وفي هذه الصور عندما حصل المعلق ـ أعني ايجاب الطلاق والعتق ـ كان ذلك قبل زمان الشرط . فلم يكون الملك موجودا .. فبطـل التعليق لعدم تحقق شرطه ، وهـو سبق الملك على التعليق .

والحنفية يجيـزون التعليـق بالملك . فيصححـون الأمثـلة المتقدمة : يحكمون بوقوع الطلاق وبعتق العبد .

قالوا : نعم لا بد من كون الملك شرطا لانعقاد المعلق سببا للحكم . ونحن لا نوقعه الا في الملك . لكن مذهبنا ـ كما بينـا ـ ان المعلق لا يقيد حكمه بدون الشرط فزمن حصول الشرط هو زمن حصول المعلق ،وزمن حصـول الشرط في المعلق بالملكية هـو زمن الملكية . فوقوع المعلق « اذا وقع يكون في حيز الملك ـ وهو الشرط المطلوب لصحة التعليق ـ فصح التعليق ».

المسألة الثانية : يجوّزا لشافعي التعجيل بالنـذر المعلق بالشرط : لأن صيغة النذر توجب الحكم بغير انتظار الى زمان وجود الشرط عنده كما قدمنا وتعجيل الحـكم على الشرط عند انعقاد السبب جـائز اجماعا كتعجيل الزكاة قبل انتهاء الحول بعد وجود السبب وهـو النصاب .

ومنـع ذلك الحنفية بناء على قاعدتهـم المذكـورة : وهي أن المشروط لا ينعقد سببا قبل وجود الشرط لأن المشروط جـزء من السبب كما أن المشروط مع الشرط كلام واجب ولا يكون جزء السبب سببا ، ولأن السبب ما كان طريقا للحكم مفضيا اليه ، وقد حال انعدام الشرط للحال دون وصول السبب

للحكم فلا يعد سببا — لأن الأسباب الشرعية موضوعة شرعا لبلوغ محالها فاذا لم تبلغ محالها لم تعتبر أسبابا كاملة.

المسألة الثالثة : جوز الشافعى فى الحنث فى اليمين تعجيل الكفارة المالية على الحنث : قال : لأن الواجب المالى ينفصل فيه الوجوب عن وجوب الأداء : وذلك كالثمن فان نفس الوجوب يثبت فى الذمة بالشراء ، واما وجوب الأداء فانه يثبت بالمطالبة بخلاف الواجب البدنى فلا ينفصل فيه نفس الوجوب عن اداء الوجوب قال : ثم أن اليمين سبب فى الكفارة وشرطها الحنث فاذا انعقدت اقتضت نفس الوجوب — لا وجوب الاداء المعلق على الحنث ، وهو الشرط — فجاز تقديم الكفارة المالية كتحرير الرقبة مثلا على الشرط وهو الحنث كتقديم الزكاة قبل نهاية الحول .

ورد الحنفية صحة هذه المسألة على الشافعى بطريقين :

أولاهما : ماتقرر من أن المشروط لا ينعقد سببا للحكم قبل زمان وجود الشرط الذى هو مذهبهم .

وثانيهما : ان اليمين ليست سببا للحنث . لأن اليمين موضوعة للبر ، لا ، للحنث ، والكفارة انما تجب على تقدير الحنث : فيكون الحنث هو سبب الكفارة ، واليمن شرط لها ، فاذا أصبح الحنث سببا فى الكفارة ، امتنع جواز تقديم الكفارة عليه — لأنه لا يجوز تقديم الحكم على السبب .

ودعوى الشافعى ثبوت التفرقة بين الحقوق المالية ، والبدنية بكون المالية ينفصل فيها الوجوب عن وجوب الأداء فينعقد السبب وهو اليمين وان لم يستوجب الأداء بخلاف الحقوق البدنية غير القابلة لهذا الانفصال غير صحيح فى هذا الموضوع لأن الحق الواجب لله تعالى على العباد انما هو العبادة التى هى فعل يباشره العبد على مضادة هوى نفسه ابتغاء رضوان الله عليه : فالمال لا يتصور أن يكون عين العبادة التى هى الواجب . بل يكون أداة لتحقيق هذا الواجب بمنزلة أعضاء البدن، فتصير الحقوق

المالية الثابتة لله حينئذ كالحقوق البدنية فى أن المقصود بالوجوب فيها هو وجوب الاداء سواء بسواء ، وتعليق وجوب الاداء يمنع تمام السببية فى كل من الكفارات البدنية والمالية .

٤ ـ استدراك من جهة الحنفية لتصحيح بعض مسائلهم

وحيث استمر الحنفية على القول بأن الشرط يدخل على السبب ويمنع انعقاده اعترض عليهم الشافعى : بأن العلاقة بين الشرط والمشروط كالعلاقة بين خيار الشرط فى البيع وعقد البيع ، والعلاقة بين تأجيل الثمن فى البيع ، والبيع : وفى هذين الموضعين لم يجعلوا خيار الشرط ، ولا تأجيل الثمن مانعا من انعقاد السبب . « قال : فلزمكم أن تقولوا بمثل ذلك فى العلاقة بين الشرط والمشروط وتحكموا بأن دخول الشرط على المشروط لا يمنع انعقاده سببا .

وأجاب الحنفية باثبات الفرق بين هذه الحالات الثلاث :

أما الأجل فانه داخل على الثمن ، فيقتضى تأخير المطالبة به، وليس داخلا على الحكم فيقتضى تأخير الحكم ، ولا هو داخل على السبب فيمنع انعقاد السبب ، ومن حيث لم يدخل على واحد منهما . ولا يكون من شأنه التأثير فى غير محل دخوله . فلا يؤثر فيهما ، لأن الشىء المؤثر لا يؤثر الا فى محل دخوله .

وأما شرط الخيار فانه قد ثبت فى البيع على غير القياس لأن البيع لا يقبل الخطر . وهو الشرط فانه بالشرط ينقلب قمارا فشرط الخيار فى البيع شرط ينافى عقد البيع ، وانما جاز شرط الخيار من أجل دفع ضرورة احتمال دخول الغبن على المشترى اذا كان لا يأمن الغبن على نفسه ، والضرورة تقدر بقدرها وقدر الضرورة أن تكتفى بادخال شرط الخيار على الحكم فى البيع، ولا تدخله على السبب تقليلا لمخالفة الأصل بالقدر الممكن .

وأما فى التطليق والاعتاق حيث يدخل الشرط على السبب فيمنع

انعقاده فيهما فذلك جائز لأنهما من قبيل الاسقاطات التى لا ينافيهما الخطر . ويتعين فيهما أن يدخل الشرط على السبب ؛ لأن دخوله على السبب هوا لأصل لفصل الحكم عن سببه وهو خلاف القاعدة : فلزم ادخاله على السبب بحكم الأصل لعدم الفصل ما لم يعترضه المانع » . كما فى خيار الشرط .

وبالله التوفيق .

دكتور
محمد سعاد جلال

كلمات فى التصوف

١ – من كلام محمد بن اسماعيل المغربى ؛ اعظم الناس ذلا ؛ فقير داهن غنيا أو تواضع له ، واعظم الخلق عزا : غنى تذلل لفقير ، وحفظ عرضه .

بقدر لغات المرء يكثر نفعه
فتلك له عند الشدائد اعوان
تهافت على حفظ اللغات مجاهدا
فكل لسان فى الحقيقة انسان

« صفى الدين الحلى »

فهـــــرس العـــــدد



مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

الجزء السابع ــ السنة الحادية والخمسون ــ رمضان ١٣٩٩ هـ ــ اغسطس ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المستشرقون وموقفهم من السنة النبوية

للدكتور رءوف شلبى

المرضى بالأعصاب يحفظ لهم الطب السيكولوجى تصرفات خاصة وانفعالات ذات طابع معين منحرف عن السلوك السواء والمستشرقون هم أول المرضى بالأعصاب .

فقد كانت أوروبا الى جوار الأندلس المسلم صورة قاتمة من الفقر والجهل والمرض والعبودية والفوضى والطبقية والاحتكار والظلم . لقد كانت حياتها صورة قبيحة لحياة الجنس البشرى ، بينما كانت الحياة الاسلامية فى الأندلس تعيش حياة العلم الذى ارتفعت مناراته فى قرطبة وغرناطة وأشبيلية ، ومع العلم الأمن والعدل والرخاء والاحترام ، والمجتمع

الفاضل الذى يعلم الناس أصول التعاشر الرفيع كأفضل ما تكون الحياة رفقا وعدلا وحنانا واخاء وايمانا .

كانت هذه الصورة لجارتين متجاورتين : أوربا الكافرة الجاهلة المنحطة ، والاندلس الاسلامى العالم المجيد .

لقد كان الاندلس مركز البعث الانسانى لأنه مسلم ، وكانت أوربا مركز الظلم والظلمات لأنها كافرة. ولهذا لم يكن الأندلس الاسلامى أنانيا فلم يضيق مساحات جامعاته ولم يقصرها على بنيه وأهله بل فتح جامعاته الاسلامية للعاشقين من شباب فرنسا وأوربا فى الثقافة والمعرفة فهرع الظامئون للعلم والحرية الى الأندلس ونهلوا من جامعات الاندلس الاسلامى علما غزيرا ولكنهم كانوا يحملون صفات خسيسة صفات المجتمع الرقيق فلم يحفظوا للاسلام جميلا بل قابلوا حسناته بجحافل من الكراهية والسيئات فكانت الحروب الصليبية وكان خروج الاسلام من الأندلس التى صارت دولة اسبانيا المسيحية اليوم .. ولم يكتف المسيحيون الأوربيون بذلك بل نظموا حملات حربية من نوع خاص تتمثل فى :

١ ـ التبشير .

٢ ـ الاستشراق .

والتبشير : يعنى التوجه الى الجماعة الاسلامية كأفراد ليحيلها الى أفراد مسيحيين .

والاستشراق : يتوجه الى الأفكار فى المجتمع الاسلامى ليشككها فى تاريخها وثقافتها ليوهى الفكرة الاسلامية حتى لا يجد المجتمع الاسلامى له قيادة تبصره فتسهل عملية التبشير الهادفة الى تحويل المجتمع الاسلامى الى مجتمع مظلم كافر .

وكان من أول المجالات التى يهاجمها مرضى الأعصاب المستشرقون : السنة الاسلامية ، وشيخ هؤلاء المرضى هو : جولد

زهير ، ولقد اعتمدت الحركة الصهيونية واليهودية من المال ما مكنه من نشر كل أحقاده وخبثه وتضليلاته وتشكيكاته وسمومه عن الاسلام والمسلمين .

وقد استطاع بخبثه ودهائه أن ينشر فى المجتمع المثقف أنه باحث نزيه وتلك واحدة من مفتريات المستشرقين عامة ومن شيخهم خاصة .

ان جولد زهير يهودى مسيحى فهو من سلالة خبيثة الأصل ، وينتحل دينا باطلا ، ولا تفتر جهوده لحظة عن تحطيم الاسلام ، وقد ركز هجومه على السنة فى نقاط أربع :

١ ـ القسم الأكبر من الحديث انما هو أثر من آثار المسلمين وضعوه فى عصر النضوج .

٢ ـ الدولة الأموية تدخلت فى وضع الحديث لتأييد وجهة نظرها السياسية وأنهم اضطهدوا العلماء وزادوا فى درجات المنبر على الثلاث .

٣ ـ الامام الزهرى من أمثلة العلماء الذين استغلهم العهد الاموى فى وضع الحديث .

٤ ـ يروى نصوصا تؤيد آراءه .

٥ ـ ادعاء أن الموطأ كتاب فقه .

مناقشة هذه النقاط

النقطة الاولى :

يدعى جولد زهير أن السنة وضعت بعد نضوج المسلمين وكلمة نضوج هذه كلمة براقة تخدع المسلمين كثيرا فى العصر الحاضر ، ويتغنى بها الأوربيون لأنهم عاشوا الحياة فى ذل وفقر .

واذا سألنا عن أسس النضوج وجدنا الأجابة كاملة فى ظل الدولة الاسلامية الأولى فوسائل النضوج هى :

دستور للدولة .

وقانون يضبط السلوك .

وجيش يحمى الذمار .

وحكومة تقيم العدل .

ومجتمع تقوم الروابط فيه على المحبة والأخوة والتعاون ولقد كان القرآن دستور الأمة وكانت القوانين تشرعها السنة والعلماء فى ظل الخلافة الراشدة من بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الجيش الاسلامى قد أنهى دولة الفرس فى معركة القادسية ودولة الروم فى معارك اليرموك وفتح مصر والاسكندرية وبرقة وتونس.

وكانت الحكومة الاسلامية تقيم العدل لغير المسلمين بينما كان المجتمع فى أوربا يقوم على الذل والفقر والطبقية والجبروت والجهل والفحش والمرض .

وفى ظلال تلك الدولة التى تملك وسائل النضوج كانت السنة مدونة فى صحائف عبد الله بن عمرو، وأبو بكر وعلى ، وجلة من كبار رجال الفكر الاسلامى حتى كان الزهرى فى عهد الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز فجمع ما شاء الله من السنة ليهذبها من شوائب الفتنة التى حلت بالأمة الاسلامية بعد معارك الخلافة فيما بعد .

وجدير بالذكر أن نستشهد برأى رجل متعصب ضد الاسلام فيما يتعلق بنضوج الأمة الاسلامية : يقول (جون جلوب) وقد أقامت معظم الدول الاسلامية منذ القرن السابع وفى مختلف العهود أنظمة قضائية فعالة ونظمت فرق الشرطة ٦٦٢ الفتوحات العربية .

ففى أقل من خمسين عاما تمكن بدو الجزيرة العربية من أن يقيموا أعظم امبراطورية عرفها العالم آنذاك ومن أعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ولم يسبق لأية امبراطورية بمثل هذه الضخامة وذلك الاتساع أن أقيمت فى مثل هذا الوقت القصير — ٦٥٥ الفتوحات العربية .

النقطة الثانية

يدعى شيخ المرضى بالأعصاب جولد زهير أن الدولة الأموية تدخلت فى وضع الحديث لتأييد وجهة نظرها السياسية وأن الدولة الأموية فى سبيل هذا اضطهدت العلماء وأنه زاد فى درجات المنبر على ثلاث .. وهذا جهل فاضح

بحقائق التاريخ لأن معاوية بن أبى سفيان هو أول وال فى ظل خلافة سيدنا عثمان الذى نظم اسطولا بحريا لفتح بلاد شمال افريقيا والجزر الشرقية فى البحر الأبيض المتوسط واستولى على مدينةقبرص وعاهد أهلها ثم عاد اليها عام ٦٥٣ م .

لقد كان رجال بنى أميةمشغولين بالفتوحات فأرسلوا الجيوش الى أفريقيا واوربا ليفتحوها للاسلام ورحلات الجيش الاسلامى فى عهد معاوية مدونة ، وفى عهد عبد الملك ابن مروان الى الأندلس وغرب أفريقيا وكان رجال بنى أمية على رأس هذه الحملات فلم يكن عندهم فراغ لمثل ما يدعيه جولد زهير .

أما الحرب التى شنها الأمويون على الشيعة والخوارج فليس ذلك من قبل اضطهاد العلماء فليس فى الاسلام تحزب ولا فرق .

« ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء انما أمرهم الى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون » (١٥٩ الأنعام) .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » (آل عمران ١٠٥) .

« منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون» (الروم ٣١ : ٣٢) .

فالشيعة والخوارج أحزاب سياسية ولا تمثل جبهة العلماء التى يدعى جولد زهير انهم اضطهدوا فى عهد بنى أمية .

أما ما يدعيه من أن بنى أمية زادوا فى درجات المنبر على ثلاث كدليل على ما يدعيه أنهم وضعوا أحاديث لنصرة مذهبهم فتلك واحدة من العقليات اللاهوتية المسيحية اذ الزيادة أو النقص فى درجات المنبر لا ترتبط بمبدا اسلامى فليست حوائط المسجد وأبنيته جزءا من الصلاة أو شرطا لها كما هو فى المسيحية اذ تجعل الصلاة فى غير كنيستهم غير صحيحة فالكنيسة جزء من صلاة المسيحية .

وتلك فاضحة لعقلية جولد وواحدة من أدلة جهله بالفكرة الاسلامية .

النطقة الثالثة

يدعى جولد أن الدولة الأموية استغلت الزهرى فى وضع الحديث .

أما علماء الاسلام فقد كفونا الرد على هذا الافك .

يقول علماء الجرح والتعديل :

١ ــ كان الزهرى ثقة كثير العلم والحديث والرواية فقيها جامعا (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

٢ ــ الزهرى أحسن الناس حديثا وأجودهم اسنادا (ابن حنبل) .

٣ ــ أصح الأسانيد أربعة : أولها الزهرى عن سالم عن أبيه (أبو زرعة) .

٤ ــ كان الزهرى من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقا لمتون الأخبار وكان فقيها فاضلا (ابن حيان فى كتابه : الثقات) .

٥ ــ حدثنى أبى قال : الزهرى مدنى تابعى ثقة (صالح بن أحمد ابن حنبل) .

ومع هذا فالزهرى أمر بجمع السنة من أصلح خلفاء التابعين وهو عمر بن عبدالعزيز ، ولا يشك واحد من المؤرخين المتعصبين أو المتسامحين فى أن عمر بن عبد العزيز كان من أعدل الخلفاء وكان عهده سلاما وأمانا ورخاء : لقد خرجت الصدقات فيه ثم عادت الى خزائن الدولة لأنها لم تجد فقيرا ، فلأى سبب ولأية غاية يضع الزهرى لبنى أمية أحاديث وقد استقرت دولتهم بعد مقتل الحسين فى كربلا ؟

ومع هذا فلم يحفظ التاريخ لبنى أمية نشاطا مطلقا فى جمع الحديث حتى الصحائف التى جمعها الزهرى لم تصل الى عمر بن عبد العزيز لأنه مات قبل أن ينتهى الزهرى منها فليست هناك فرصة ولا مندوحة يمكن أن يتأتى منها اتهام أن الدولة الأموية استغلت الزهرى فى وضع الحديث .

النقطة الرابعة

النصوص التى رواها جولد

تؤكد جهله وكذبه

يدعى جولد : ان وكيعا يطعن فى زياد بن عبد الله ويرميه بالكذب فينقل نصا ويحرفه عمدا ليصل الى كذبه وافتراه فيقول :

من قول وكيع عن زياد بن عبد الله من أنه كان مع شرفه فى الحديث كذابا .

ومع أن النص العربى يأباه فان نص العبارة كما وردت فى التاريخ للامام البخارى ص ٣٢٩ جـ ٢ القسم الأول .

وقال ابن عقبة الدوسى عن وكيع هو : أى زياد بن عبد الله أشرف من أن يكذب .

ولكن المستشرق اليهودى بما فيه من صفات الكذب والخسة يحرف النص ليصل الى هواه الدنىء .

وللأسف فان ثلة من مفكرى المسلمين يثقون فى علم المستشرقين المبنى على :

١ ــ النص المحرف .

٢ ــ الفهم الخطأ .

٣ ــ التخريب العمد لثقافة الاسلام .

٤ ــ الكراهية للمسلمين .

النقطة الخامسة

يدعى المستشرقون أن الموطأ كتاب فقه لا كتاب حديث وتلك واحدة أخرى من جهلهم مناهج التدوين للسنة فتدوين السنة له عدة مناهج :

١ ــ منهج الاسناد ، وهو المعروف اصطلاحيا بالمسانيد مثل مسند الامام احمد بن حنبل .

وهو أن يدون كل ما رواه راو واحد فى مسند واحد .

٢ ــ منهج التبويب ، حسب الموضوعات ، مثل كتاب الطهارة وكتاب الصلاة .

وهذا ما فعله مالك ثم تبعه بعد ذلك البخارى ومسلم .

غير أن هذا المنهج يتبع شخصية المدون . فان كان فقيها علق على كل حديث فيه حكم فقهى وذلك ما فعله مالك رضى الله عنه وأشغله

بالنص على عمل أهل المدينة فى أحاديث الأحاد ، وشروحه لبعض المفردات ولقد كان مالك محدثا وفقيها وكان الموطأ كتاب حديث لا كتاب فقه بدليل أن فيه اسنادا لأبى حنيفة ومحمد بن الحسن وأبو يوسف وهؤلاء أئمةمجتهدون والمجتهد لا ينقل عن مثله رأيا وانما ينقل حديثا .

والأوزاعى يروى عن مالك : والأوزاعى فقيه ومالك فقيه ؛ والرواية لا تكون فى الفقه انما تكون فى الحديث .

يقول الامام الشافعى : ما أعلم فى الأرض كتابا فى العلم أكثر صوابا من كتاب مالك .

يقول ابن الصلاح : مقالة الشافعى قبل أن يظهر البخارى .

فالمقابلة دليل على أن الموطأ كتاب حديث لا كتاب فقه .

يقول سفيان بن عيينة : كان مالك لا يبلغ من الحديث الا صحيحا ولا يحدث الا عن ثقات الناس .

وقال يحيى بن سعيد : كان مالك اماما فى الحديث .

وهكذا ترون جهل المستشرقين وغباءهم وكذبهم ليوهوا ثقة المسلمين بثقافتهم وآراء علمائهم وصدق الله العلى العظيم .

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (البقرة ١٠٩) .

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » (آل عمران ١٠٠) .

« ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (البقرة ١٠٥).

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون » (آل عمران ١١٨) .

وبالله التوفيق .

دكتور رءوف شلبى

الإلحاد المـادى .. والعبادة

بقلم: الدكتور يحيى هاشم

يقول الاستاذ اسماعيل مظهر :

لماذا حمل دكتور شبلى شميل على الأديان ؟

« حمل عليها متابعة لرأيه المادى جريا وراء غاية محدودة ، غاية سعى اليها كثير من ماديى القرن الثامن عشر .

وتنحصر تلك الغاية فى أن يتبدل الناس بدينهم دينا آخر .

وما هو ذلك الدين ؟

هو عبادة المادة .

أرادوا أن ينظروا اليها على أنها المصدر الأول للانسان والعلة الأولى التى فطرته وانها التى تحبوه بأسلوب الحياة التى ينعم بها فوق هذه الأرض .

ناهيك بأن اليها مرده ومعاده ... »

والتعبد للمادة ليس سمة الماديين المحدثين فحسب بل هو سمة اسلافهم أيضا . انظر ما يقوله الامبراطور مارك اوريل انطونين أحد أعلام الرواقيين ، وهم ماديون :

(اننى انما أتكون من صورة ومادة ، كلاهما لا يمكن أن يعدم الى شىء أو يكون قد حدث من لا شىء .

كل ما يلائمك أيها الكون الفسيح يلائمنى .

وكل ما تنتجه أسبابك أيتها الطبيعة العظمى ثمرة شهية عندى .

منك كل شىء .

وفيك كل شىء .

واليك يعود كل شىء) (١) .

(٢) أما مادية هولباخ الدجماطيقية (القطعية) فتقوم على

(١) ملقى السبيل ص ٤٢ ، ص ١٥٥

تأليه المـادة ، أو وصفهـا ببعض الأوصاف التى يختص بها الله وهى تقوم على الأسس التالية :

١ ــ تقوم مادية هـولباخ على الاعتقاد بأن المادة موجودة بذاتها ومن ثم فلا حاجة الى البحث عن قوة صانعة لها ، أو مدبرة لحركتها .

وسوف نبين فى خاتمة هـذا البحث فى مناقشتنا لحقيقة الخلاف بين الماديين والمؤمنين حول المعبود ما تقع فيه المادية من قصور وتقصير ، وتناقض لا يمكن تجنبه الا بالاعتقاد بوجود الله .

كما سنبين فى « نقائص العلم » عجزه بحسب طبيعته عن الامتـداد فى الماضى الى حد يدرك فيه أصل الوجود ، وعن الامتداد فى المستقبل الى حد يدرك فيه غايته ، ومن هنا تصبح المادية فى حكمها على أصـل الوجود ، بغير سند من العلم .

ب ــ وتقوم مادية هولباخ :

على ادعاء أن الايمـان بالمادة « المعلومة » أولى من الايمان بغيرها من القوى المجهولة يقول :

«انه لأقرب الى الطبيعى والمعقول أن تنسـب الى المـادة كل شىء موجـود ، لأن كل حاسـة من حواسنا تبرهن على وجودها ...

من أن نعزو تكون الأشياء لقوة مجهولة » (١) .

وقد بينا فى مبحث « غيبيـات المادة » سذاجة هذا الاعتقاد ، حيث آلت المادة الى شىء مجهول وسنبين فى عجز العلم عن ادراك حقيقـة الأشياء أن الادراكات الحسيـة لا تشبه حقيقـة المادة المدركة فى شىء .

حـ ــ وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بأن « العلم النيوتونى » يتضمن تفسيرا كاملا للكون ، ولا يحتاج لاضافة من أى نوع (٢) .

وقد تبين سذاجة هذا الاعتقاد حيث تداعى التصـور النيوتونى للعالم ، وجاءت الفيزيقيا الحديثة ،

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٤٣٩

(٢) انظر تكوين العقل الحديث جـ ١ ص ٤٣٦

والنظرية التطورية بما يقلب هـذا التصور رأسا على عقب ، كما تبين ما استقر عليه الرأى مـن أن العلم التجريبى انما يقدم وصفا للوقائع ، ولا يقدم تفسيرا عنها ، الأمر الذى يحتم أن تكون هنـاك اضافة ، اضافة أساسية ، ترضى حاجـة العقل الى التفسير .

ولن تأتى هذه الاضافة الا من مصدر له علم بمـا وراء المادة ، وظواهرها ، اى من الوحى .

د ــ وتقوم مادية هولباخ على الاعتقاد بحتمية القـوانين الطبيعية وأن هذا يبطل الاحتجاج بوجـود النظام فى الكـون على وجـود الله (١) .

وقد بينا بطلان هذا الاعتقاد فى مبحثينا عن لا حتميـة القـوانين الطبيعية ، وأن هذه الحتمية ــ على فرض ثبوتها ــ لا تلغى القـول بالارادة الالهية .

هـ ــ وتقوم مادية هولباخ على انكار القول بأن الكائنات الذكية تستمد ذكاءها من غير المادة ، فمن ثم تدل على علة ذكية قائمـة وراء المادة .

ينكر هولباخ ذلك ويرد الذكاء أو العقل أو الوعى الى المادةباعتباره ظاهرة من ظواهرها (٢) .

وقد بينا فساد هذا الاعتقاد .

وعلى فرض صحته ، فانه يجعل المادية تؤول حتما الى الدخول فى حظيرةاللاأدرية وذلك لأن هـذا الاعتقاد يجعـل « الوعى » اسمـا لحالة توافقية من حالات تشـكل المادة .

وهنا تصبح المعرفة الناتجة عن هذه الحالةالتوافقية ــ حالة عرضية مفتقرة الى أى مبرر يدعـونا الى اتخاذها حكما على حقيقة الوجود وكونه وجودا مـاديا . ومن ثم تصبح المادية بالرغم من أصحابهـا نوعا من اللاأدرية .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٩

(٢) المصدر السابق ص ٤٤١

(٣) أما هربرت سبنسر فانه اذا كان قد ابتعد عن الديانة المسيحية فقد أخذ يتعبد لما سماه «المطلق».

واذا كان المطلق عنده لا يمكن معرفته « فانه يصف هذه اللاأدرية بأنها : هى على التحقيق عند العقل البشرى الاتجاه الدينى نفسه » .

ويصف المطلق — مع ذلك — بأن له وجودا (يبلغ من سموه على العقل والارادة مبلغ سمو العقل والارادة على الحركة الميكانيكية).

وهو يرتعد فرقا عندما يخلو الى نفسه ليتأمل هذا المطلق الذى هو كما يصرح هنا «المكان اللانهائى».

يقول : «الأصل الكلى فكرة سابقة على كل خلق وكل تطور ، ويسمو عليهما الى غير نهاية » امتدادا وزمانا ، لأن كلا منهما — لكى يكون معقولا — يجب أن تكون له بداية ولا بدء للمكان (! !) .

ان فكرة هذه الصورة العارية عن الوجود (١) (!!) والتى يرتادها الخيال من جميع أطرافها تحتوى دائما على مناطق مجهولة لا حد لها بالاضافة الى الأجزاء التى ارتادها العقل . أن تمثل مكان يرد فيه نظامنا النجمى الهائل الى نقطة فى بحر لأمر رهيب يشق على العقل . وكلما تقدمت بى السن أحدث الشعور — الذى لا أعرف له أصلا ولا علة — بأن المكان اللانهائى قد أوجد — (!!) وينبغى أن يوجد دائما ، أحدث فى نفسى انفعالا يجعلنى أرتعد فرقا) (٢) .

وهنا يدافع هربرت سبنسر عن نفسه ضد من يرى أن هذه اللاأدرية تؤول الى «اللادينية » مقررا انها (على التحقيق هى عند العقل البشرى الاتجاه الدينى نفسه) . يقول :

« أولئك الذين يذهبون الى أن اللاأدرية ترادف اللادينية انما يقعون فى هذا الخطأ لاعتقادهم أن الاختيار هو بين القول بالشخصية ، وبين صورة من الوجود أقل منها ،

---

(١) انظر قوله قبل ثلاثة سطور « ان له وجودا »

(٢) انظر العلم والدين ص ٨٦

فاذا قلنا بالمطلق باعتبار انه ليس شخصا فهذا بحسب رأيهم اثبات انه أقل من شخص .

لكن الحقيقة ليست كذلك .

ان الاختيار انما يقع بين « الشخصية » وبين المطلق الذى هو أسمى منها .

اذ أليس من الممكن وجود نوع من الوجود يبلغ من سموه على العقل والارادة والشخصية مبلغ سمو العقل والارادة والشخصيةعلى الحركة الميكانيكية » .

ويعلق أميل بوترو على هذا فيقول :

« ألا يحق لنا القول بأن مذهب الفيلسوف اللاأدرى يفصح فى هذا الموضع عن اتجاه روحى صوفى » (١) .

ونقول : زائغ ..

وبعد : ..

فاذا كان من المفروض أن سبنسر يذهب فى نظرته التجريدية « للمطلق » الى أعلى الدرجات « فانه لا يسعنا أن نرى فى نظرته اليه هنا على انه «المكان اللانهائى» الذى يرتاد الخيال أجزاء منه الا ارتكاسا فى المادية » .

وهنا نسجل عليه كما يقول أميل بوترو :

« الحق ـ كما يقول كثير من الفلاسفة المعاصرين ـ ليس الما لا يعرف عند هربرت سبنسر مبدأ عليا » (٢) .

لأن العلم عنده انما يقوم على الوقائع . .

(فالوقائع هى الأصل الوحيد للمعرفة ، ولا ينبغىأننسمىالوقائع وقائع الا ما ندركه او ما يمكن ادراكه كأشياء خارجية توضع فى مقابل الشخص المدرك) .

كما نسجل من ناحية أخرى أن هذا المالايعرف لا يصلح أن يكون دينا على أى وجه من الوجوه .

وكما يقول أميل بوتور « لن نستطيع مع مذهب سبنسر أن نضع

(١) العلم والدين ص ٨٨
(٢) العلم والدين ص ٩٣

الناس فى حضرة الموجــود الذى يصدر عنه كل شىء لكى تقول لهم بعد ذلك : انهم لن يتمكنوا من معرفة شىء عن هذا الموجــود أو توقع شىء منه » (١) .

وكما تقول نحن : يصبح الدين مسخا اذا خلا من الوحى .

(٤) وفى الفلسفة الوضعية التى قامـت على استبعـاد الـدين والميتافيزيقا انتهى زعيمها الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨ ــ ١٨٧٥) الى اختراع ما سمـاه « ديـن الانسانية » وفيه تكون « الانسانية » هى المعبود ، وابطالها هم موضـع التعظيم والتكـريم ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، حيث وضع لهـذا الدين الجديد معبدا حقيقيا ، تنصب فيه التماثيل ويصاغ فيه تمثال المعبود « الانسـانية » على هيئـة انثى ، وتقام بجواره تماثيل نصفية لأبطال التاريخ .

انه فى يوم الجمعة ١٠ ابريـل ١٨٤٦ .. أى بعد وفاة معشوقته بخمسة أيام فقط .. نجد كونت .. يبدأ فى تأسيس نظـم « ديـن الوضعية » .

المعبد : شقتها الخاصـة التى عاشت فيها .

قدس الأقداس : المقعد المكسو بالقطيفة الحمراء الذى جلست عليه عندما زارته لأول مرة وآخر مرة فى بيته .

رفات « ام البشرية » : خصلات من شعرها ، مناديلها ، رسائلها ، وشاحها قفازها ، صورتها الخ .

انجيل الوضعيـة : مجلد ضخم مكون من ٥٦٠ صفحة ويحتـوى على الألف رسالة حب التى كتبهـا لها خلال سنتين ابتداء من أول لقائه بها الى وفاتها .. وبعض رسائلها القليلة .

وها هى بعض طقـوس « دين الوضعية » كما عرفها أوجست كونت فى مؤلفه « الوصية » .

صلاح الصبح : فيها « الكاهن » اوجست كونت واتباعه من تلاميذه أمام محراب كلوتيلد .

---

(١) العلم والدين ص ٩٧ .

وتستهل الصلاة بهذه الكلمات : « من الأفضل أن يحب الانسان على أن يكون « محبوبا » أما آخر دعاء فيقال أمام الرفات : وداعا يا شريكة حياتى الدائمة .. وداعا يا زوجتى وابنتى وداعا يا أم البشرية » .

معابد أم البشرية :

والشيء العجيب أن ديانة الوضعية ما زالت لها معابدها حتى اليوم فى فرنسا .. أى فى عام ١٩٧٩ بعد الميلاد .. وما زال يحج اليها الوثنيون من اتباع الوضعية المتطرفة .. وأشهر هذه المعابد فى شارع « بايين » فى باريس حيث الشقة التى عاشت فيها كلوتيلد .

وفى شارع « مسيولى برنس » حيث الشقة التى عاش فيها اوجست كونت .. هذا غير عشرات المعابد الأخرى فى باريس .

والأعجب من هذا أن أكبر معبد لكلوتيلد « ام البشرية » مقام الآن فى ريو دى جانيرو فى البرازيل .

وأعجب العجب أن علم البرازيل يحمل شعار ديانة الوضعية كما تصوره (كونت) .

أما عن الفيلسوف العاشق فرغم حبه..فقد ظل محتفظا بكامل قواه العقلية الفلسفية والعلمية .. فقد عاش بعد كلوتيلد أحد عشر عاما.. وكان يلقى فيها محاضراته فى الجامعة كما ألف ثلاثة كتب أخرى عن الوضعية أهمها : « السياسة الوضعية » (١)

واذا كان البعض قد يحلو له أن يدافع عن وضعية كونت باستبعاد هذا الدين بدعوى انه ـ أى هذا الدين ـ انما يعبر عن هلوسة عاشق ...

فاننا نجد من المؤرخين من يجد لهذا الدين مكانه فى البناء المنطقى للمذهب الوضعى عند كونت ، بالرغم من علاقة الحب تلك .

يقول أميل بوترو بعد أن يتساءل :

كيف تم ادماج هذا الدين فى المذهب الوضعى بأسره ؟

(١) انظر مجلة اكتوبر فى ١٩٧٧/١١/١٣

يقول : « حصل ذلك على أثر هوى كونت لكلوتيد دى فو وهذه واقعة لا سبيل الى الشك فيها ، ولكنها لا تنطوى بالضرورة على الدلالة التى ينسبها اليها الكثيرون.

ان ضآلة المحبوب ، بالاضافة الى مزاج كونت العاطفى يجعلان من هذه الحادثة سببا عارضا» (١).

ثم يقول أميل بوترو : « لا تتجه عبادة المذهب الوضعى الى ذكرى أبطال الانسانية فقط ، بل موضوعاتها الأساسية :

الموجود الاعظم أو الانسانية .

والمعبود الأعظم أو الأرض .

والبيئة العظمى أو المكان .

هذه الأقانيم الثلاثة تكون ثالوث المذهب الوضعى » (٢) .

واذن فان من حق النقاد أن يوجهوا سهامهم الى هذه الديانة الوضعية . ويبدو التناقض صارخا بين الوضعية من حيث هى احتجاج على الالوهية ، والميتافيزيقية معا . والانسانية من حيث هى كيان ميتافيزيقى غيبى .

يقول أميل بوترو :

« لئن اتخذنا الانسانية مقياسا للأشياء فلن نغلق باب عضر المباحث الميتافيزيقية والدينية الى الأبد ، ولكننا نفتحه من جديد » (٣) .

ويقول وليم جيمس عن الديانة الوضعية :

« لقد أصبحت قوانين الطبيعة المادية فى هذه الايام أيام الفلسفة الوضعية موضوعات مستحقة للتمجيد الذى لا يكون الا لله »(٤).

ويقول عن جناح من أجنحة الوضعية المتشددة فى وضعيتها :

« لا يزال بعض رجال المذهب الوضعى ينادى اليوم قائلا :

هناك اله واحد مقدس ، يقف فى

(١) العلم والدين ص ٦٢
(٢) العلم والدين ص ٥٣
(٣) العلم والدين ص ٦٧
(٤) العلم والدين ص ٨٩

جلاله وعظمته بين انقاض كل اله غيره وكل وثن (!!) ــ وهــو الحقيقة العلميــة ــ وليس له الا أمر واحد ، وقول واحد وهو أن ليس لكم أن تؤمنــوا باله لأن الايمان بالآلهة ارضاء للميــول الذاتية » .

وهم فى ذلك مخدوعون ، انهم لم يفعلوا شيئا الا أنهم قد اختاروا من بين ميولهم المتعددة ، الميــول التى تنتج أبخس النتائج وأحطهــا قدرا ، بل وأكثرها اقحالا ، وأعنى بذلك : مجرد عالم ذرى ، وضحوا بكل ما عدا ذلك من الميول .

انهم يقولون : «دع العالم يفنى ليحيا العلم . كما قال أشباه لهـم دع العدل يتم ولو أفنى العالم » فهل تجدون وثنا صنــع فى كهف أجمل من هذا الوثن ؟ واذا أردنــا أن نقول بتطهير العالم من الخرافات فلندع الوثن من الالتزام الصارم نحو العلم يذهب مع بقية الخرافات وسيجد الناس فرصة طيبة ليفهـم بعضهم بعضا » (١) .

(٥) وفى الفلسفة الماركسية التى قامت على المــادية الــديالكتيكية (الجدلية) انتهــى التفــكير الى اضفاء صفات الالوهية على «المادة» فهى تتصف بأنها « أصل الوجود» وانها « باقية » لا تفنى ، وانهــا « لا نهائيــــة » ، وان قانونهــا « الديالكتيك » يفرض نفسه على كل الأشياء ثم ذهبت هذه الماركسية أيضا خطوة أعمق فى طريقها الى جعل هذه الفلسفة « دينـــا » ، حيث رأت ضرورة ادخالهـــا فى عقول العمال وقلوبهم ، باعتبارها فلسفة « الشغيلة » التى يعتمد عليها وعليهم فى تغيير المجتمع وتثويره ، ومن أجل ذلك ادخل زعماؤهم فى اطار القــــداسة التى تضفى على الأنبياء ، وكان لهم أصنام ومزارات يحج اليها الناس من أرجاء البلاد .

بل أن عبيد المادة هؤلاء عندمــا يجدون صعوبة فى التعبير عن الفهم يعتذرون بمثل مايعتذر به المؤمنون من ضيق وعاء اللغة البشرية عــن استيعاب حقائق الالوهية .

---

(١) العقل والدين ص ٩٨

وهذا ما يعبر عنه مقال ديمترى ب. جورسكى عن « التمثيل العلمى للحقيقة وصعوباته » .

وهذا ما قاله لينين عن « الحركة » وصعوبة وصفها أو التعبير عنها . يقول : « نحن لا نستطيع أن نحقق الحركات أو أن نعبر عنها ، أو أن نمثلها بدون ان نعطل التيار المتصل ، وبدون أن نعمد الى تقسيمها وقتل الحساسية فيها .. » (١) . الخ .

وهذا يؤكد ما نقوله عن حلول المادة محل الاله فى الفكر المادى بما يكتنف هذا المحل من غيبية وتأب عن احاطة الفكر البشرى .

والماديون الملحدون يتناقضون مع أنفسهم هنا عندما يرفضون هذه الصعوبة فى مجال اللاهوت ويتقبلونها فى مجال المادة .

وهنا يبدو لنا واضحا بطلان الماركسية فى ذهابها الى أن جدلية المادة كافية فى تفسير حركتها وتطورها .

أولا : ان هذا القول يقوم على الاعتقاد بقدم المادة والحركة معا وانه لا مادة بغير حركة ولا حركة بغير مادة . وقدم المادة يعنى قدم الحركة فى نفس الوقت .

ونحن نناقش فى قدم الحركة فنقول :

ان قدم الحركة لا يستقيم الا بالقول بالحركة الكاملة . ولو كانت الحركة كاملة لما كان سكون.

لأن السكون نقص فى الحركة .

لكن السكون حاصل بالفعل .

لأن الحركة منها بطيئة ، ومنها سريعة .

ـ وهذا ثابت بالمشاهدة ـ والحركة البطيئة لا تكون كذلك الا لما يتخللها من سكونات ، واذن فقد ثبت أن السكون حاصل بالفعل .

فبطل القول بالحركة الكاملة . وثبتت الحركة الناقصة .

---

(١) مجلة ديوجين العدد الثامن نوفمبر ١٩٦٨ ص ١٤٢

ونقصان الحـــركة يتنافى مع قدمها .

لأن الحركة الناقصة تعنى تخلل السكون لها كما قدمنا .

واذا تخلل السكون الحركة لم يكن أيهما ذاتيا للمادة ، ــ لقبولها كلا منهما . فلم يكـن أيهما أولى بالأسبقية من صاحبه ، فاحتاج فى أسبقيته الى مرجح ، فكان لا بد أن يكون مسبوقا بالمرجـح فلم يكن قديما .

واذن فقد ثبت أن الحركة التى للمادة لا تكون قديمة .

فثبت حدوث الحركة .

واذا أثبتنا حدوث الحركة .

فاما أن تثبت حدوث المادة ، على فرض تلازمهما كما هو مـــذهب المادية الجدلية وفى هذا نقض لها .

واما أن تثبت انهـــا ــ أى الحركة ــ ليست ذاتية للمادة .

فاحتاجت المادة فى حـركتها الى محرك قديم .

وهو الله .

(ب) ولا يفيد الخصم فى هــذا المقام الاعتماد على قانون بقـــاء الطاقة .

أولا : لما ثبـــت من أنه قانون افتراضى يجرى حـــاليا ترقيعـه بافتراضات أيضا كلما ظهـر مـا ينقضه من كشوف الذرة .

ثانيا : لأنه يتضمن التسليم بانتقال الحركة وتوزعها، وتخلل السكون لها ، وهنا يأتى ما ذكرناه .

(ج) وقد يفيدنا نحن الاشـارة الى نسبية الحركة كما ثبتت أخيرا فى النظرية النسبية. يذكر العلماء أن نيوتن كان قد (أقام برهانا يثبت به أن الحركة حول محور لا بد أن تكون مطلقة وليست نسبية ، وانه على الرغم من أن خصوم هذا الرأى لم يستطيعوا أن يجـدو عليه ردا الا أنه كان لديهم البـــرهان على صحة الرأى المضاد . أى على أن كل حركة لا بد أن تكون نسبية ، وكان برهانهم يبدو على أقل تقدير مساويا للرأى الأول فى درجـــة الاقناع .

وظل هذا التضارب قائما بغير حل حتى أثبت اينشتين نسبية الحركة فى نظريته عن النسبية) (١) .

ثانيا : ويقدم العلم الحديث الدليل على أن جدلية المادة لا تكفى فى تفسير حركتها التطورية وذلك باكتشاف ما يسمى « الطاقة الضامة » .

ويقول العلماء عن هذه الطاقة : أنه لما كانت النيترونات عديمة الشحنة فانه يجب ألا تجذب البروتونات أو النيوترونات الأخرى ولكنها تجذبها فعلا ؟

ولما كانت الشحنات التى من نوع واحد تتنافر ، فان البروتونات الموجبة يجب أن يبتعد بعضها عن بعض ، ولكنها لا تفعل ذلك ، وبدلا من هذا يحدث العكس اذ يحتاج الأمر الى كمية هائلة من الذخيرة لفصل الحبيبات من النواة بعضها عن بعض أكثر مما يلزم لفصل الالكترونات عن البروتونات .

وتسمى القوة الشديدة التى تحفظ أجزاء النواة بعضها ببعض بالطاقة الضامة .

وهذا الاسم يبين ماتفعله هذه الطاقة ولكنه لا يوضح طريقة عملها (٢) .

وهذا فى رأيى له دلالة هامة، اذ يعنى أن جدلية الجزيئات (سالبة وموجبة) لا يكفى لتفسير تركيبها أو العلاقة بينها أو تطورها .

وهذا فى حد ذاته يكفى لنقض المادية الجدلية عند ماركس .

ثالثا : أما قدم المادة وهو من أسس المادية الجدلية ، فسوف تتعرض له بابطاله فى مقام لا يختص فيه الكلام بالمادية الجدلية لأنه من ركائز المذاهب المادية عموما .

وذلك فى البحث الخاص بمزاعم العلم ، عند الكلام عن « ان حتمية القوانين الطبيعية لا تلغى الارادة الالهية » . وعند الكلام فى اثبات

(١) فلسفتى لبرتراندرسل ص ٤٥

(٢) العالم من حولنا ص ٥٩ ــ ٦٠ وانظر بواتق وانابيق ص ٥١٦

الحاجة الى العـــلة الأولى ، أو الارادة القديمـــة ، وفى كلامنـــا السابق عن احتياج العالم الى الله طبقا لقوانين الفيـــزياء الحديثة .

رابعا : انه فى البناء الماركسى يقوم الجـانب العلمى عـلى الجـانب الاعتقادى ، لا كما يدعى أصحاب شعار « الاشتراكية العلمية » .

ففى مقال نشرته البرافدا فى عام ١٩٤٩ يقول رئيس اكاديمية العلوم فى الاتحـاد السـوفيتى س. ا. فابنلوف تحت عنوان « لينيـــن والمسائل الفلسفية التى بالفيـــزياء الحديثة » :

(ان الفيـــزياء الســـوفيتية تبنى عملها على ما اعتنق العالم من المادية الديالكتيكية (وليس العكس..) تلك التى رفع من أمـــرها تآليف لينين وستالين ... ولكنا لا يمكن أن نغفل حقيقة واقعة تلك أن بعضا من فيزيائيينا ما زال عندهم بقايا من آراء من المذهب التصورى .

ان من أخطر الواجبات علينا أن نحارب هذه البقايا من ذلك المذهب المنقرض بالنقد الذى لا يرحم...)

وفى مقال نشرته المجلة الاسبوعية الانجليزية نانشر فى مـايو ١٩٥٠ جاءت هذه الكلمة لعضو من معهد علم الوراثة التابع لاكاديمية العلوم بموسكو يقول : (اننا أعلنا مرارا ولا نزال نعلن أن العلم ــ وكـذا العلم السوفيتى ــ انما هو علم حزبى طبقى . ان الطبقات المتوسطة ومن يصنوغون لها مذاهبها ــ سواء كانوا بيولوجيين أو غيـر بيولوجيين ــ كانوا دائما فى خوف من أن يقروا صفة العلم الحزبية .

ويقول الدكتور جيمس كونانت معلقا على ذلك :

(ان معتنقى المادية الجدلية فى كل الأرض يضعون العلوم الفيزيائية من التقدير فى الموضـع العالى ، ويتحدثون فى ذلاقة وفى ثقة عـن المنهج العلمى .

ولكن عندما يؤخذ نص خاص من نصوص هذا المـذهب الفلسفى فيحول الى مبدأ رسمى من مبادىء الحزب لا يأذن لذى رأى مخالف أن يقوم الى جانبه وعندئذ لا يمكن

أن يكون للعلم استقلال) (١) .

فهل نجد أدنى فرق بين موقف الماركسية هذا وبين موقف الكنيسة فى العصور الوسطى من العلم كما يصوره الاستاذ اسماعيل مظهر فى قوله :

(قامت لدى اللاهوتيين فكرة ثابتة فى أن العلم لا يصح أن يشر فيه بأقل مخالفة لما جاءت به الاسفار المقدسة والمتون ورسائل الحواريين ... وزاد الطين بلة أن اللاهوتيين ومن ورائهم الكنيسة وعلى رأسها البابوات المعصومون من الخطأ كانت قد زكت المذاهب اللاهوتية التى ذاعت فى تفسير الانجيل والتوراة باجازتها حينا بعد حين فأصبحت تلك التفاسير فى الواقع مقدسة كأصل المتون نفسها) (٢) .

(٤) أما ارنست هيكل (١٨٨٤ — ١٩١٩) فى محاربته للدين فهو يدعو الى وضع فلسفة علمية أو تأويل عقلى لنتائج العلم — تعالج فيها المسائل التى تركت من قبل للدين والميتافيزيقا .

وعنده أن الفلسفة المستخلصة من العلم تتلخص فى كلمتين الواحدية والتطورية ، فمن جهة الموجود واحد ، وجميع الموجودات ذات طبيعة واحدة ، وليس الخلاف بينها الا فى الدرجة ، أى كميا .

ومن جهة أخرى هذا الموجود ليس لا متحركا ، بل فيه مبدأ التغير ، وهذا التغير يعد فى ذاته ميكانيكيا بحتا خاضعا لقوانين ثابتة .

ولكى يتخلص أرنست هيكل من النقد الموجه الى المادية التى تفترض فيها المادة — فى أصلها — شيئا عديم الحركة ليست له هيئة معينة ، اذ يقال فى هذا النقد كيف أمكن أن يخرج من هذا العدم

---

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم لجيمس ب كونانت ترجمة احمد زكى ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

(٢) الاستاذ اسماعيل مظهر فى مقدمة ترجمة لكتاب بين الدين والعلم لاندرو ديكسون وايت ص ١٩ ، ص ٢٠ .

امكانيات مثل القوة والحركة والاحساس ؟

ولكى يتخلص من النقد الموجه الى التطورية ككلمة سحرية ، بمقتضاها تسلسل الكائنات بالطبع بعضها من بعض ، بفعل الميكانيكية المنتظمة البسيط ، اذ يقال فى هذا النقد : ما أصل التطور نفسه وما غايته ، وهل يمكن تصوره بغير أن تنسبه لفعل فائق على الطبيعة ؟

لكى يتخلص هيكل من هذا كله قال :

(نحن نرى ان المادة لا يمكن أن توجد وتعمل بغير العقل) (١).

حسن ، لقد اضطر هيكل الى الرجوع — مؤقتا — الى قاعدة التأليه التى يقول بها الدين .

وهو يقول أيضا « المادة التى فرضناها لا تتنافى مع الله » .

لكنه ما لبث أن زاغ ، اذ يقول :

(بل هى — أى المادة — الله نفسه ، اله داخل الطبيعة متطابق معها) (٢) .

وهنا يصبح لهيكل دين خاص به ، واله يدعى انه استنبطه بالعلم ، وانه يرفضه اذا جاء من الوحى ، يقول :

(الأديان تقوم على الوحى ، والعلم لا يعرف الا التجربة ولا يمكن لصاحب عقل مستنير أن ينتمى لكليهما فى آن واحد ، بل يضطر الى الاختيار واليوم لا يملك الشخص الغريب عن الثقافة الحديثة — يقصد الفلسفة العلمية — من العقل الا مقدار ماكان يملكه أقاربنا من الثدييات كالقردة ، أو الكلاب أو الفيلة) (٣) .

والخلاصة ان هذا المتعالى على الدين ، الداعى الى ما يسميه الفلسفة العلمية او الواحدية ليست الواحدية عنده — فى حقيقتها —

---

(١) العلم والدين ص ١٠٨
(٢) العلم والدين ص ١١٠
(٣) العلم والدين ص ١١٦

الا نوعا من وحدة الوجــود على أساس مادى •

ومع ذلك يقول أميل بوترو :

(نحن اذا مضينا مع النتـــائج العلمية لهذه الفلسفة أفضت بنا الى العبادة الثلاثية للحـــق والخيــر والجمال ، وهو ثالوث واقعى يحل مــكان الثـــالوث الوهـــى للمسيحية ••) (١) •

وهكذا يستبدل هيكل دينــا بدين •

بدين ، يستبدل الذى هــو أدنى

وهو يعتقد ان الدين لم يبتدع لزهو رجال الدين ، بل لانه يهدف الى اشباع حاجات جوهرية عنــد الانسان ، ومن‌ثم فهو يبحث لثالوثه عن معبد•واذاكانيرى ــ مؤقتا ــ أن الكون بأسره هو معبــد هــذا الثالوث ، فهو لا يستبعد أن‌يحدث فى القريب (أن ينتقل عدد كبير من كنائس المسيحيين ، الى جماعــات الواحديين) (٢) •

وهنا نسجل أن هذه الفلســفــة العلمية التى يدعو اليها هيكل على انها « ســـلب للاديان ، وبديــل عنها » تتنكر للمفهوم العلمى ، بل تتنكر للفلسفة العلمية ذاتهــا التى من المفروض عنده أن (تقوم‌خارج أى ميتافيزيقا) •

كما نسجل أن هذه الفلسفةتحول الصيغ التى يقرها العلم الى عقائد مفروضة علينا الى الأبد فهو ــ أى هيكل ــ يريد أن يكــون لهذه القضايا المنتزعة من العلم يقين اكثر من اليقين العلمى (٣) •

انه اليقيـــــن الميتافيـــزيقى الخالص (٤) •

انه ينسب لمادته الواحدة مـــا لا يملك العلم أن ينسبه اليهـــا : الأزلية ، والشمولية •

---

(١) المصدر السابق ص ١١٣

(٢) العلم والدين ص ١١٥

(٣) ولا يقين علمى هناك انظر مبحثنا عن لا حتمية القوانين .

(٤) انظر العلم والدين ص ١٢٠

وهو ينسب لقانونه عن التطور ما لا يملك العلم أن ينسبه اليه أيضا : الميكانيكية البحتة ، والتقدم الدائم .

يقول اميل بوترو : من المستحيل اذن اعتبار فلسفته مجرد امتداد للعلم .

ولقد كان هيكل واهما عندما اعتقد انه بوحدانيته هذه يهدم الاديان لثنائيتها ، ذلك أن الاديان تقوم أيضا على مذهب الوحدة ، وهو لم يفعل الا أن اقترح دينا زائفا يقوم على مذهب ميتافيزيقى — لا علمى — فى وحدة الوجود . ان هيكل هذا (يختتم تعاليمه من الواحدية بالابتهال الى « الله » : المبدأ المشترك للخير والجمال والحق . ويقول : ان الحق والجمال والخير هى الآلهة الثلاثة السامية التى نركع أمامها فى اخلاص . ولتمجيد هذا المثل الأعلى الله الواحد والثلاثة حقا (!!!) سيرفع القرن العشرون الهياكل) .

وتندق رقبة هيكل مرة ثانية فى قاع الوهم ، اذ ينصب لنا هذه القيم الثلاثة — الحق والخير والجمال — آلهة تعبد ، دون أن يكون لها أى مبرر من العلم : العلم بعجزه المقرر عن ارساء القيم (١) .

والخلاصة : ان هيكل أقام من العلم فلسفة ليطرد الأديان ، ثم أقام من فلسفته دينا لكى تحل محلها .

لكن هل يمكن أن تفوز بشىء من النجاح ؟

يقول وليم جيمس :

(اذا ما تمكن « الدين العلمى » المحض ، من خنق كل الرغبات الأخرى وازالتها من نفوس جماعة من الجماعات ، وتمكن من اقناع افرادها بأن القوانين المنطقية تقتضى تطهير الذهن من كل فكرة لا تمت الى التركيب العلمى بصلة — اذا ما تمكن العلم من ذلك ، فان تلك الجماعة ستسقط حتما الى الرغام ، وتصبح طعمة لجيرانها ، الذين هم

---

(١) انظر العلم والدين ص ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧

أكثر منها ثروة عقلية ، كما غدت فضيلة الحيـــوانات طعمـــة للانسان) (١) .

تعقيب على اوثان العلم ..

واخيرا :

يقول هربرتسبنسر فى ترجمته الذاتية : (ان الدائرة التى تشغلها الاعتقادات الدينية مـن النفس لا تبقى خالية أبدا بل تشغلها المسائل الكبـــرى المتصـــلة بأنفسنـا وبالعلم) (٢) .

ومن هنا نقول :

انه ليس بـلازم أن تجـــرى المناقشة بين الالحاد والدين ، على أساس سوق الادلة على وجـود الله .

وانما على أساس اجراء المقارنة بين المعبود هنا والمعبود هنـــاك ، والمعتقـــدات هنـــا ، والمعتقـــدات هناك .

وصدق الله العظيم ، القائل :

«وما قدروا الله حق قدره....»

مقارنة المعبود : بين الالحاد المادى والايمان بالله ...

فى اعتقادنا أن الجانبين متفقان على أصل معبود ، مختلفـــان على الصفات التى يوصف بها « الأصل المعبود » .

الفريقان متفقان على أن :

ظواهر العالم متغيرة .

وكل متغير له أصل تغير عنه .

وظواهر العالم لها أصل تغير عنه .

هذا محل اجماع .

والكلام فى هذا الأصل ..

هل وجوده لغيره أو لذاته ؟

الاجماع منعقد على أن وجوده لذاته ..

هل له نهاية ينتهى اليها أو هـــو لا نهائى ؟

---

(١) انظر العقل والدين ص ٩٩

(٢) انظر العلم والدين ص ٩٠

الاجماع منعقد على أنه يتصف باللانهائية واللامحدودية ، بالأبدية والأزلية والخلود .

والاجماع منعقد — أو يكاد — أيضا على كونه :

محدثا للحياة .

محدثا للعقل (١) .

والاجماع منعقد على كونه ذا سلطان حتى تخضع له حركة الأشياء .

والاجماع منعقد على كونه محدثا للتطور والتقدم فى حركة الأشياء .

والاجماع منعقد على كونه ساعيا بحركة الأشياء نحو غاية أو غايات عليها .

أولا : لكن السؤال الذى يظهر عنده افتراق المذاهب ما بين مادى ملحد ومؤله مؤمن هو :

هل هذا الأصل من جنس العالم المادى الذى نعرفه أو ليس من جنسه ؟

يقول الماديون : انه المادة فهو من جنس هذا العالم المادى .

ويقول الالهيون : انه ليس من جنس هذا العالم مطلقا .

وهنا ينبغى أن تجرى المقارنة بين الاعتقادين .

انه على قول الماديين يحصل التناقض .

وينشأ التناقض من وصفهم اياه بما يناقض كونه أصلا .

وبما يناقض الصفات التى اقتضاها كونه أصلا :

١ — ذلك لأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادى الذى نعرفه يقتضى كونه جزءا منه والقول بأنه

---

(١) يقول الدكتور توفيق الطويل (يذهب اتباع الواقعية المادية الى أن سبق المادة على العقل انما يكون فى الوجود وفى المرتبة معا . بمعنى ان المادة هى التى تملك وجودا مستقلا اما العقل او الذات المدركة فليست الا مجرد مظهر من مظاهر المادة . انظر كتاب اسس الفلسفة ص ٢٦٤

أصل للعالم يقتضى كـونه غيره ، وهذا تناقض .

٢ ـ ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المادى الذى نعرفه يقتضى كونه ذا أول لأن ما هو من هـذا العالم له أول وقد قالوا بأبديته .

٣ ـ ولأن القول بأنه من جنس هذا العالم المـادى الذى نعـرفه يقتضى كونه فانيا (١) لأن ما هـو من هذا العالم يفنى ، وقـد قالوا بخلوده .

لا يقال : اننا نريد بالأصل الذى هو من جنس هذا العالم « المادة » من حيث هى مادة ، والمادة من حيث هى مادة هى عندنا واجبة الوجـود لا نهائية ، أبدية أزلية ، خالـدة ، فلم نقع فى التناقض .

لأنا نقول : ما تقولونه عن المادة المتصفة بما تقدم يخرجها عن كونها من جنس هذا العـالم المادى الذى نعرفه لأن ما نعرفه من هذا العالم المادى ، انما هو أفراد ، فنعـرفه ممكن الوجود ، منتهيا ، له أول ، له نهاية ، فكيف السبيل الى معرفة المادة المطلقة التى وصفتم ؟

وما هو الوجه الذى عـرفتم منها وهـو ليس للعالم المـادى الذى عرفناه ؟

فان لم يكن هذا الوجـه فانتم تقولون بشىء ليس من جنس هـذا العالم وان دل عليه هـذا العالم ، وتسميتكم اياه مـادة لا يدل على شىء .

ثانيا : والسؤال الثـانى الذى تفترق عنده المذاهب هو : هل هذا الأصل من جنس هـذا العالم فى حالته الراهنة بعد أن حدثت الحياة ، والعقل ؟

ام قبل أن تحـدث الحيـاة والعقل ؟

يقول الماديون : انه من جنس هذا العالم قبل أن تحدث الحياة والعقل لأنه هو محدث الحياة والعقل ؛ أو لأن الحياة والعقل ظواهر حـدثت من بعد .

(١) انظر مبحثنا فيما قرره العلم التجريبى الحديث من أن للعالم بداية ، ونهـاية .

وهذا تناقض أيضا :

لأنه يعنى انه يعطى الحيـاة من يفتقد الحياة .

ويعطى العقل من يفتقد العقل .

انه يعنى أن يعطى المفضـول (من لا يملك الحيـاة والعقـل) للفاضل : ما به الفضل (الحيـاة والعقل) .

يقـول شلنج فى كتابه مـاهية الحرية البشرية ١٨٠٩ م :

(ان الله ليس موجودا قط بل هو فى طور الصيرورة) .

ويقول أوكن تلميذه فى شرحه لهذه النقطة .. ان الله هو بالقوة فحسب انه عبـارة عن الصفر أو العدم) (١) ؟ ؟ ؟

وقد رد عليهما ف. هـ. ياكوبى فيما كتبه عام ١٨١٢ فى مقالة فى الأشياء وتجليها سجل فيها :

(ان فى المسـألة التى طـرحها شلنج ــ وتلميذه ــ أبعد تنـاقض فى فلسفة الدين بأسرها اذ انه لا يصدر شىء عن لا شىء ، ولا يولد الأدنى الأعلى ، ان فلسفة من طراز فلسفـــة شلنج هى نقض صريح لقوانين المنطق) .

(أ) واذا كان شلنج يرد على ياكوبى بالاحتكام الى مشاهداتنا اليومية التى نجد فيها ظهور الاعلى من الأدنى :

(فالولد ينمو حتى يصبح رجلا، والجاهل حتى يصبح عالما) (٢).

فهو قد وقع بذلك بلا شك فى سذاجة تصورية ما أغرب صدورها عن عقل فيلسوف يتصدى لهـذه التحديات ، اذ ليس من العسير أن تعرف أن ظهور الأعلى فى هـذه الأمثلة ليس باستمداد من الأدنى ، وانما الأدنى أعطى شيئا مساويا أو أقل ، وما صار به الأعلى أعلى انما هو بانضمام عناصر أخرى ليستفى الأدنى ، وقد احتاج هذا الانضمام الى وجودات سابقة ، والى تنسيق ،

(١) سلسلة الوجودالكبرى ص ٤٦٧ ــ ٤٦٩

(٢) سلسلة الوجود ص ٤٧٠ ــ ٤٧٢

وعناية ليس عند الادنى منها شيء ، فما أحرى هذا المثل بأن يدل على صدق القول بأنه «لا يصدر شيء عن لا شيء » وأنه « لا يولـد الأدنى الأعلى » وما أحراه بأن يدل على وجود الله سبحانه وتعالى ، الذى تستمد منه هذه الوجودات كلها ، وهذا التنسيق كله ، وهذه الرعـاية كلها .

(ب) واذا كان شلنج يرد بتعميم أكبر بقوله (ان الطبيعة نفسها كما يعلم كل من له المام كاف بالموضوع قد ارتقت تدريجيا من توليـــد المخلوقات الأضعف .. الى توليد الأرقى والأدق تكوينا منها) (١).

فانه ما كان له أن يسخر وهـو فى موضع السخرية ، اذ يرتكـب مصادرة على المطلوب ، ذلك لأن ما يصفه من فعل الطبيعـة ـ دون أن يفسره ـ هو القضية نفسها المحتوية على نفس الاستحـالة المنطقيـــة « وجود شيء من لا شيء » وهى الاستحالة التى قدمها الفيلســوف تحت وشاح رقيق لا يمـكن أن يخفيها ، وهذه الاستحالة ـ فى تناقضها الداخـــلى من ناحية ، وتناقضها مع الواقع مـن ناحيـة لا تحل الا باستنتـــاج ضرورى : هو استنتاج وجـود الله المتصف بوجوب الوجود ، وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال ، ومنهـا العلم والقدرة والارادة .

(حـ) واذ يحس شلنج بصـدق الاتهام الموجه اليه بارتكاب تناقض منطقى تجده يتراجع الى حائط ورقى يستند اليــه ، وذلك اذ يلجأ الى الاتهام التقليدى الموجه الى مبدأ الذاتية ، المنطقى (٢) من أنه مبدأ تحليلى ، أو تحصيـل حاصل (٣) وهو هنا يجهل أو يتجاهل ، وينسى أو يتناسى أن القول بأن هذا المبدأ « تحليلى » لا يعنى عدم صحته ، أو انكاره ـ فهو صحيح طالما كنـا نستعمل عقولنا ـ ولكنه يعنى عدم

---

(١) سلسلة الوجود ص ٤٧٢

(٢) هو احد مبداين يقوم عليهما المنطق مبدأ عدم التناقض ، ومبـدأ الذاتية الذى يعنى (ان الشيء هو هو وليس هو غيره)

(٣) سلسلة الوجود الكبرى ص ٤٧٤

كفايته لتقدم العلم التجريبى ، وهذا شىء آخر ، لا نصدق أن الفيلسوف يجهله .

فكيف يقع الفيلسوف فى مثل ما ارتكبه هذا من مغالطة تارة ومصادرة على المطلوب تارة ، وتناقض تارة أخرى ؟

انها ارادة الالحاد لا غير ..

ثالثا : والماديون لا يقعون بهذا فى التناقض فيما يصفون به هذا الأصل فحسب ، ولكنهم يقعون فى التقصير .

فهم يكتفون بوصف أصلهم بالأوصاف الآتية :

كونه علة لذاته ، لا نهائيا ، أبديا ، أزليا ، خالدا ، محدثا للحركة ، محدثا للحياة ، محدثا للعقل ، ذا قانون حتمى ، ونظام ، وغاية .

ولا يصفونه ببقية الصفات التى يقتضيها ما تقدم .

فهم لا يصفونه بكونه مريدا وذلك يقتضيه كونه ذا نظام وغاية

وهم لا يصفونه بكونه خالقا وذلك يقتضيه كونه محدثا للحياة ، أو للعقل .

وهم لا يصفونه بكونه عالما ، وذلك يقتضيه كونه مريدا ، خالقا ، محدثا للعقل .

وهم لا يصفونه بكونه قديرا ، وذلك يقتضيه كونه خالقا ، عالما ، مريدا ، محدثا للحياة والعقل ..

وهم لا يصفونه بكونه مدبرا وذلك يقتضيه كونه محدثا للتطور والتقدم فى الأشياء .

وهم لا يصفونه بكونه حيا ، وذلك يقتضيه صحة وصفه بما تقدم (١) .

والنتيجة أن الماديين يقولون بأصل للعالم يتصف بالوجوب والقدم والخلود والسلطان ، واحداث الحياة والعقل ، والتقدم .

وهذا محل اتفاق .

ولكنهم يقعون فى تصورهم لهذا الأصل فى التناقض والقصور .

(١) ليس هذا نوعا من التشبيه كما يدعى الملاحدة ، انظر مناقشتنا لهذه النقطة فى موضع لاحق .

وهذا موضع المفاضلة بين الماديين والالهيين •

فالالهيون الذين يقولون بأصل للعالم يتصف بالوجوب ، والقدم ، والسلطان واحداث الحياة ، والعقل ، والتقدم •• يصفونه بكونه ، مريدا عالما ، خالقا ، مدبرا حيا ، قديرا ، سميعا ، بصيرا ••

والخلاصة انه لا مجال لطرح موضوع الخلاف حول المعبود على أنه بين من يثبت للعالم أصلا معبودا يرجع اليه يتصف بوجوب الوجود ، والخلود ، والأبدية والأزلية واللانهائية، محدثا للحركة والحياة ، والعقل ، والتطور ، والتقدم •• وبين من ينكر ذلك •

ولكنه بين من يعتقد أن معبوده « الله » يتصف بصفاته الواجبة له•

ويراه من غير جنس هذا العالم متعاليا عليه •

وبين من يعتقد أنه «مادة» ويراه من جنس هذا العالم المادى فى أحط درجات وجوده •

وهو بين من يصف معبوده بأوصاف يقتضيها كونه أصلا وبين من يصفه بأوصاف :

(أ) متناقضة مع كونه أصلا ، من ناحية •

(ب) ومتناقضة مع الأوصاف التى يقتضيها كونه أصلا من ناحية ثانية •

(حـ) ويمنع عنه أوصافا يقتضيها كونه أصلا من ناحية ثالثة •

فالخلاف فى حقيقته يرجع الى « صفات » هذا « الأصل المعبود » لا الى «وجوده »•

ومن هنا فالماديون ليسوا فى جوهرهم منكرين لوجود أصل معبود ، ولكنهم مشركون يصنعون آلهة من عندهم ، وينحطون بأصل الوجود وبمعبودهم الى أحط الدرجات •

وصدق الله العظيم القائل : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » •

(سبحان ربك رب العزة عما يصفون) • صدق الله العظيم •

وبالله التوفيق

د • يحيى هاشم حسن فرغل

دراسات قرآنية

ذو القرنين وفتوحاته فى المشارق والمغارب

لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

قال الله تعالى :

« ويسالونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (٨٣) انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا (٨٤) فاتبع سببا (٨٥) (الآيات من سورة الكهف) .

البيـــــان

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن قريشا بعثوا الى أحبار اليهود بالمدينة ، يطلبون منهم ما يمتحنون به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية ذهبوا فى الدهر لا يدرى ما صنعوا فنزلت سورة الكهف .

وروى أن أحبار اليهود قالوا لقريش : سلوا محمدا عن ثلاثة عن ذى القرنين وأصحاب الكهف والروح فان أجاب عن الأولين وأبهم الثالث فهو نبى ، لأن الروح مبهم فى التوراة ، وان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبى ، فسألوه فبين لهم قصتى ذى القرنين وأصحاب الكهف ، وأبهم الروح محيلا العلم بأمره على علام الغيوب سبحانه وتعالى .

والآية صريحة فى أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فأجاب عن بعض أمره ، ولم تحدد الآية من سأله ، ولهذا نرى من الحكمة عدم الالتزام بطائفة معينة سألته صلى الله عليه وسلم عن أمره ، ولا سيما أن العبرة لا تؤخذ من شخص السائلين وأعيانهم ، وانما تؤخذ من القصة العجيبة المسئول عنها ، يرويها للسائلين ــ أيا كانوا ــ نبى أمى لم يقرأ ولم يكتب «وما كنت تتلو من قبله

من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون (٤٨) بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » (٤٩) من سورة العنكبوت .

من هو ذو القرنين ؟

أصح الأقوال فيه — كما قال النيسابورى — أنه هو الاسكندر ابن فيلقوس الرومى ، اذ لو كان غيره لانتشر خبره ولم يخف مكانه .

والاسكندر المذكور من أهل مقدونيا ، واجمال تاريخه أنه لما مات أبوه جمع ملوك الروم على ملك واحد ، ثم قصد ملوك العرب وقهرهم وأمعن حتى انتهى الى المحيط الغربى (الاطلانطى) ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ، ثم دخل الشام وقصد بيت المقدس ، وذبح فى مذبحه ، ثم اتجه الى أرمينية وباب الأبواب ، ودان له العبرانيون والقبط والبربر ، ثم توجه نحو دارا ملك الفرس وهزمه وقتله ، واستولى على ممالك الفرس ، ثم قصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع الى خراسان ، وبنى المدن الكثيرة ورجع الى العراق ، ومرض بشهرزور ، ومات بها .

وقال الآلوسى : قيل مات برومية المدائن ، ووضعوه فى تابوت من ذهب وحملوه الى الاسكندرية التى بناها بعد استيلائه على مصر ، تبعا لاستيلائه على الفرس ، لأنها كانت وقتئذ تحت حكم الفرس .

وقال الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلا ملك الأرض كلها أو ما يقرب منها ، وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن الا الاسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين هو الاسكندر ثم قال : وفيه اشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاليس الحكيم — أى الفيلسوف — وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو وفلسفته حق ، وذلك مما لا سبيل اليه ، قلت ليس كل ما ذهب اليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حسن ،

وترك منه ما لم يحسن ، انتهى كلام الرازى بتصرف يسير .

أقول : ويؤيد هذا الاستنتاج أن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له اجلالا وتعظيما فقال : لا يجوز السجود لغير مبدىء الكل سبحانه وتعالى — نقله الشهرستانى — ويلاحظ أن الاسكندر كان موجوداً قبل مبعث عيسى بثلاثمائة سنة كما قاله الآلوسى .

وذكر أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه المسمى (بالآثار الباقية عن القرون الخالية) أن ذا القرنين هو أبو كرب بن عمير بن أفريقش الحميرى ، الذى رحل بجيوشه الى ساحل البحر الأبيض ، حيث المغرب العربى الآن وسميت القارة باسمه ، ذكره صاحب تفسير الجواهر :

وأبو كرب هذا هو الذى أفتخر به تبع اليمانى حيث قال ملقبا اياه بذى القرنين .

قد كان ذو القرنين جدى مسلما (١)
ملكا علا فى الأرض غير مفند

بلغ المغارب والمشارق يبتغى
أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها
فى عين ذى خلد وثأطة حرمد (٢)

ثم قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الملقبين بكلمة (ذى) كانوا من اليمن ، كذى المنار وذى نواس وذى يزن ، واختار هذا القول كاتب جلبى ، وذكر أنه كان يعاصر ابراهيم عليه السلام وأنه اجتمع به فى مكة المكرمة وتعانقا ، وأن شهرة بلوغ الاسكندر اليونانى الغاية القصوى فى غزو الدنيا وملكها دون أبى كرب الحميرى ، انما هى

---

(١) يقصد من كونه مسلما أنه مؤمن بربه مستسلم له ، لا أنه على دين محمد صلى الله عليه وسلم ، لانه كان قبل مبعثه .

(٢) من ذى خلب : اى عين ماء ذى طين أسود ، والثأطة الحماة وهى الطين ، وكذا الحرمد .

لقــرب زمان اليــونانى ــ أى الاسكندر ــ بالنسبة الى أبى كرب الحميرى اليمنى ، فان بينهما نحو ألفى سنة ، وتواريخ هاتيك الأعصار لم يبق منها ما يعول عليه ويرجع فى حل المشكلات اليه ، ولعل اليهود انما طلبوا سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم عنه ، ليكون الامتحان أعظم ، لخفاء تاريخه . انتهى بتصرف يسير .

وقد ضربنا صفحا عن الخلافات العديدة فى اسمه وأمته وعصره ، واخترنا أرجح الأقوال والله أعلم .

لماذا لقب بذى القرنين ؟

سمى هذا الملك بذى القرنين ، لأنه بلغ ناحيتى مشرق الشمس ومغربها من الأرض ــ كما نص عليه القرآن الكريم ــ مأخوذ من قرن الشمس بمعنى ناصيتها ، وقيل كانت له ضفيرتان من شعره ، فسمى بهما ، ذكره الثعلبى وغيره ، والضفائر قرون الرأس ، ومنه قول الشاعر عمر بن أبى ربيعة :

فلثمت فاها آخذا بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج(١)

والوجه الأول فى علة التسمية أولى بالقبول ، فان وصف ذى القرنين ذكر على أنه علامة مميزة لهذا الفاتح العظيم ، وكونه ذا ضفيرتين من الشعر ، لا يصلح أن يكون علامة مميزة له ، لأن ارسال الشعر وتضفيره من العادات القديمة للرجال والنساء جميعا .

ولقد أجمل الله سيرة هذا الفاتح قبل أن يفصلها فقال تعالى وتقدس :

« انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فأتبع سببا » .

وتمكينه فى الأرض معناه اعطاؤه القدرة على التصرف فيها ، من حيث التدبير والرأى والسلطان وكثرة الجنود والهيبة .

---

(١) النزيف المحموم أو السكران ويطلق على من جف لسانه من العطش ، والحشرج النقرة فى الجبل ، يجتمع فيها الماء فيصفو ، والكوز الصغير اللطيف أيضا .

وإيتاؤه من كل شيء سببا معناه اعطاؤه من أجل كل شيء واراده سببا وطريقا يوصله اليه ، بحيث لا يعوقه عن مراده عائق .

العلم والقدرة والجند والآلات وطريقه الى تحقيق ما يريده هو المختلفة ، ومعنى فأتبع سببا (١) اقتفى طريقا يوصله الى نجاح رحلاته الثلاث التى تحدث القرآن عنها ، والقرآن العظيم يشير بذلك الى وجوب الأخذ بالأسباب لتحقيق المراد ، فان الغايات لا تنال بالقعود ولا بحلو التمنى فى جنة الأحلام .

رحلة ذى القرنين الى المغرب

لعل ذا القرنين بدأ برحلة المغرب لأنه كان أقرب اليه من المشرق ، أو لأن الأسباب المؤدية الى انتصاره على ملوكه وحكامه كانت وقتئذ أكثر منها بالنسبة الى حكام المشرق ، وعن هذه الرحلة يقول الله تعالى : « حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » .

أى أنه افتتح الممالك غربا حتى اذا وصل الى منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس ، وقف على شاطىء المحيط عند غروبها ، فتراءى له أنها تغرب فى عين ذات حمأة وهى الطين الأسود ، وقرىء « تغرب فى عين حامية » ومعناها أنه تراءى له أنها تغرب فى عين متقدة نارية ، وكلا الأمرين يحدث فى رأى العين ، فان المحيط لا تظهر له نهاية لمن وقف على شاطئه ، فيبدو له كأن الشمس تغرب فى عين طين أسود بسبب زرقة الماء الشديدة فى المدى البعيد .

لكنه اذا أخذ فى فكره حمرة الشمس وتوهجها وهى مرسلة أشعتها الحمراء على الماء عند غروبها ، تراءى له أنها تغرب فى عين متقدة ملتهبة ، ولما كان كلا الأمرين لا حقيقة له ، بل هو خيال خادع ، لهذا قال الله سبحانه « وجدها تغرب فى عين حمئة » أو « فى عين حامية » ولم يخبر أنها تغرب فى العين المذكورة فعلا

(١) اتبع واتبع قراءتان معناهما واحد كما قال الأخفش .

وحقيقة ، ومن خداع الخيال للنظر أن الشمس تبـدو لمن هـو على مسطح من الأرض بعيـد المدى ، كأنها تطلع من الأرض حين تطلع ، وتغـرب فى الأرض حين تغرب ، فتكون على الضـد بالنسبة لمن بجوار البحر .

والحقيقـة أن الشمس أكبر من الأرض أضـعافا مضـاعفة ، وأن الأرض تدور تحت أشعتها ، فتعم الشمس بعضها بضوئها - لأنها على شكل الكرة ، فيكون النهـار فى القسم الذى استضاء بنـورها ، والليل فى القسم الآخر ، وكلمـا دارت الأرض اختفت أشـــعة الشمس عن بعضها فحل فيه الليل محل النهار ، وظهـرت أشعتها فى بعض آخر تكشف للشمس ، فحل فيه النهار محل الليل .

والذى يحجب ضوء الشمس عن بعض الأرض ، هـو البـروز الكروى للأرض ، فهـو الذى يمنع أشعة الشمس عمـا انخفض منها ، بسبب حركتها الدائرية ، ولو كانت مسطحة تمـاما وغـير دائرة حول محـورها ، لمـا غابت الشمس عنها ، ولكان وقتها نهارا دائما .

أما الشمس فانها لا تدور حول الأرض - كما يبدو للنظر - بل تدور حول نفسها وحول شىء لم يعـرف الى الآن ، واذا كان أمـر الشمس كذلك ، وجب حمل الآية الكريمة على ما بيناه ، اذ لا يعقل أنهـا وهى أضعاف الأرض تغيب فى عين حمئة منها .

سياسة ذى القرنين لأهل المغرب

يقول الله تعالى « ووجد عندها قوما » أى وجد شعبا وأمة عنـد العين الحمئة التى تراءى وخيل له أن الشمس تغرب فيها .

والمقصود أنه وجد هـذه الأمة فى الجهة الغربية من الأرض عنـد المحيط ، حيث تراءت له الشمس غاربة فى العـين المذكورة ، وقـد فوض الله لهذا الملك أن يتخـذ السياسة التى يراها مثمرة فيهم ، فاما أن يقتلهم لظلمهم ورفضـهم دعـوة الايمـان ، واما أن يمهلهم

ويدعوهم الى الايمان ويرشدهم حتى يستجيبوا ، فيفعل من الأمرين ما يتفق مع الحكمة والسداد ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا » .

واستدل بالآية من يقول بنبوة ذى القرنين ، فقد خاطبه الله بهذا التكليف كما يخاطب الأنبياء ، وأصحاب هذا الرأى يقولون ان خطاب الله له كان عن طريق ملك من ملائكته ، كشأنه تعالى مع الأنبياء .

امّا من لم يقل بنبوته فانه يقول : ان خطاب الله كان عن طريق نبى فى ذلك العصر ، أو كان الهاما ، وقد ظهرت حكمة ذى القرنين فى فهم خطاب الله له وتكليفه اياه ، فقد قسم أهل المغرب فى المعاملة الى قسمين حسب موقفهم من دعوة الحق ، فمن ظلم نفسه بتماديه فى الظلم والكفر قتله ، ومن قبل دعوة الحق أحسن اليه ، ويحكى الله ذلك بقوله سبحانه « قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا » أى فاما من ظلم نفسه بتماديه فى الكفر فسوف نعذبه بالقتل ، ثم يعيده الله اليه فى الآخرة ، فيعذبه فيها عذابا منكرا فظيعا فى نار جهنم .

« وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ثم أتبع سببا » . أى وأما من آمن بالله تعالى ، وعمل عملا صالحا بأداء حق ربه وحق عباده ، فله جزاء المثوبة الحسنى فى الدارين ، وسنقول له من أمرنا الذى نأمر به الناس من الزكاة والخراج قولا ذا يسر ليس فيه صعوبة ومشقة .

ثم حكى الله تعالى سفر ذى القرنين الى المشرق فقال : « ثم أتبع سببا » أى هيأ أسباباً تليق بسفر المشرق واقتفاها وأخذ بها بعد أن وطّد أمْرَه بالمغرب ، وللكلام بقية ، والله تعالى هو الموفق .

مصطفى محمد الحديدى الطير

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

* أصحاب نظرية الثنائيـة ، يحلون المشاكل اللغوية ، دونمـا عناء ولا تعسف :

من المسلم فى أصول اللغـة ، أن هناك مناسبة بين اللفظ والمعنى تظهر للمتأمل الحصيف .

وأن المادة تدور حـول معنى واحد ، مثل : حدق ، وأحدق ، والحديقة ... بمعنى الاحاطة .

وأن معانى البناء الواحد تتلاقى مهما اختلفت أوضاع حـروفه ، مثـــل : ركب ، وكرب وبرك ، وربك ، وبكر ، وكبر .. بمعنى عظم واشتد وأجهد .

وأن الألفاظ تتقارب لتقـارب المعانى : مثل : أز ، وهز .. بمعنى التحريك . وقد تنشأ مشاكل من اختلاف دلالة الثلاثى أحيـانا ، مثل : (نهـر) ، التى وردت فى جميـع الساميات عدا الحبشية ، بمعنى : (الجرى أو السيلان ، وبمعنى : الزجـر فى العربيـــة ، وبمعنى النـور والضـياء) . فالمعـانى كما تبـدو متباعدة ، لا يربطها رابط . وهنـا تختلف النظرة لحل المشكل :

فالحل من منطـلق أصـحاب نظرية « الثلاثية » يدخل فى نطاق الفرض والتخمين والاحتمال .

فالدكتـور عبـد الصـبور شاهين (١) يشيد بمحاولة الأستاذ

---

(١) فى التطور اللغوى ١٢١ — ١٢٣ بتصرف

الدكتور ابراهيم أنيس (١) حين لخص العوامل التى تسبب تغير المعنى عند تعدد دلالات اللفظ ، فهى :

قد تكون بسبب الانتقال من الحقيقة الى المجاز .

أو بسبب سوء فهم المعنى ، كما يحدث للاطفال أحيانا فى البيئات المنعزلة .

أو بسبب استعارة اللغة لكلمة تماثل صورة لكلمة فيها ، مثل استعارة « البرج » بمعنى الحصن من (اليونانية) على حين ان مادة (برج) تفيد فى العربية : التزين أو صفة خاصة فى العين .

أو بسبب نسيان معنى الكلمة الأصلى القديم ، ثم استعمالها فى معنى جديد بمرور الزمن ، مثل : (الهجرس) بمعنى (القرد) فى الحجاز ، وبمعنى (الثعلب) عند بنى تميم .

أو بسبب تطور الصورة الصوتية فى لفظة ، حتى توافقت مع صورة صوتية أخرى ذات معنى مستقل ، كدلالة (التغب) بالتاء ، على معنيين هنا : الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . ويظهر أن دلالتها الأصلية هى (الوسخ والدرن) أما دلالتها على (الجوع) فناشئة عن تطور لفظة (السغب) فى بعض البيئات التى تقلب السين تاء ، كما يقول بعض أهل اليمن (النات) بدلا من (الناس) ، ثم جاء جامعو اللغة ونسبوا معنيين مختلفين لكلمة (التغب) وعدوها من المشترك اللفظى » . ويرى الدكتور أنيس بأن المعاجم فيها الكثير من ذلك .

أما أصحاب « الثنائية » فهم يرون : ان الثلاثى (نهر) ليس أصلا لهذه المعانى على نسق واحد ، بل كل واحد منها آت من مصدر خاص به ، وما الثلاثى الا بمثابة الحوض الذى تصب فيه مياه منبجسة من ثلاثة ينابيع ، فتتلاقى فيه ، فينشأ من ذلك لفظ واحد ذو ثلاثة معان » .

(١) فى اللهجات العربية ١٩٩ وما بعدها

وعلى حسب معرفة موقع الحرف الذى ثلث المادة « الثنائية » ـ تويجا ، أو اقحاما أو تذليلا ـ تجد المعنى المناسب ، لأن المادة الثلاثية صادرة نسبة الى كل معنى من معانيها عن ثنائى خاص ، بينه وبين الثلاثى المشتق منه صلة معنوية ثابتة » كما يقرر الأب مرمرجى (١) ، مثلا :

الثنائى : (نه ذيل بالراء ، فنجم عنه (نهر) بمعنى الزجر ، وقد وردت صورة الثنائى فى المضاعف (نهنه) .

(والثنائى : (هر) توج بالنون ... فصدر عنه (نهر) ، بمعنى الجرى أو السيلان ويشهد له (هرهر) لصوت الماء الكثير .

(والثنائى : (نر) أقحم فيه الهاء ، فجاء منه (نهر) بنحوى أنار وأضاء . وجاء من الثلاثى الأجوف (نار) بمعنى أضاء ، ومنه لفظ (النار) للاشتعال ، و (النور) وهو الضياء) .

وأين هذا مما ذكره الدكتور أنيس من احتمالات وتقديرات وتأويلات ؟

وقس على هذا النمط فى الأضداد (طلع) بمعنى ظهر وغاب ، من الثنائى (طل) وذيل بالعين ، فصدر عنه طلع بمعنى ظهر . والثنائى (طع) اقحم فيه اللام ، فنجم عنه طلع ، بمدلول اطمأن ونزل ، وهو منحوت من (طل) و (طع) على طريقة (جورجى زيدان) ، وان كان لا يرتضى هذه الطريقة الأب مرمرجى .

وقس على ذلك أيضا (أمر) من (أم) و (حمر وخمر) من (حم وخم) ... (٢)

وتلك طريقة فيها من السهولة ما حل المشكل ، وأرضى الباحث ، وأوصله الى راحة فى خط يتسم بالدقة والطرافة ، وتعززه الشواهد .

(١) المعجمية ١٣٥ـ ١٤١ ، ومعجميات عربية ٢٠٠ .
(٢) السابق.

* معتل الأفعال فى العربية والساميات عموما ثنائى لا ثلاثى ، وبخاصة فى حالته الأولى :

فقد امتد خلاف العلماء فى ثنائية الأفعال المعتلة ، من العربية الى اخواتها فى السامية على نحو ما يروى عن (الأب هنرى فليش) فى دراسته للنحو السامى : فالبعض يفترض ثنائيتها منذ بدايتها ، وآخرون يقررون أنها نشأت ثلاثية .

ويقول المستشرق (ف٠ر٠بلاك) أن الموقف الأول ــ ونحن معه فى ذلك ــ طبيعى ، لأن المصوت الطويل فى الأفعال التى يكون الصامت الثانى من أصلها واوا أو ياء ، انما يأتى من اطالة المصوت القصير الداخلى فى الثنائى :

(قَلَ Qala) فتصير (قال Qaala) وكذلك (قِلَ Qila) تصير (قيل Qiila) .

و (يَقُلُ Yaqolo) تصير (يقول Yaqoolo) .

وبهذا دخلت فى نظام الفعل الثلاثى .

بينما يؤيد الأب (هنرى فليش) انها كانت منذ البدائية ثلاثية ، اذ يلاحظ هذا الوضع الثلاثى لها فى الجعزية والتجرية من اللغات الحبشية ، ولأن المصوتات الطويلة انما هى نتيجة القلب أو الحذف » (١) .

ولكن اذا علمنا :

(أن الأب فليش يقرر أن فى العربية وفى أخواتها الساميات أصولا ثنائية .

وأن المستشرق (رينان الفرنسى) يقول ــ كما ذكرنا من قبل ــ بثنائية المعتل من الأفعال ، لأن اضافة حرف العلة ليس له تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، بل ويمتد عدم التأثير السابق الى الفعل الصحيح غالبا ، لأن أحد حروفه أضعف من الآخرين .

---

(١) العربية الفصحى ٢٥٠.

واذا تذكرنا أن الشيخ العلايلى قال : ان المعتل من بقايا العهود السحيقة ، وأنها أثرية وجدت قبل انتظام الوضع اللغوى ، وان اعتبار المعتل ثنائى هو اتجاه سليم من الناحية الصوتية ، كما جاء (فى التطور اللغوى) .

اذا اعتبرنا ما سبق امكننا أن نقرر وجهة نظر القائلين بأن معتل الأفعال ــ ولا سيما معتل العين ــ وضع ثنائى ، فى واقعه واستعماله ، وفى حالته الأولى .. فالمعتل ثنائى الحق بالثلاثيات وهو ثنائى لفظا ، وان بدا ثلاثيا خطا فى العربية .

أما حين تشير بعض تصاريف الكلمة الى الثلاثية ، فنبادر بالقول : بأن ذلك طريق من طرق اكتناز البنية « الثنائية » ــ كما أسلفنا ــ فى العربية .

❋ ❋ ❋

والمضعف أصله ثنائى ، ولم يبد ثلاثيا الا فى الصورة ، ولم تكن ثنائية خداع :

فتضعيف الحرف ــ كما قلنا ــ طريق من طرق الاكتناز ، وصورة المضعف كان فى الأصل ثنائى المقطع ، نظرا الى الصورة الملفوظ بها ، دون التفات الى الحرف المكرر بمثابة حرفين ، يقول ابن دريد : « والثنائى الصحيح لا يكون حرفين البتة الا والثانى ثقيل (أى مضعف) حتى يصير على ثلاثة أحرف : اللفظ ثنائى ، والمعنى ثلاثى ... » (١) .

ويعلق الدكتور ابراهيم نجا ، على ذلك بقوله : « واعتبار المضعف الثلاثى من باب الثنائى ليس غريبا عن علماء اللغة قديما وحديثا ، خاصة وانهم ينظرون الى اللغات السامية بمنظار واحد ــ كما فعل الأب مرمرجى ــ فقد عقد موازنات بين المضعف الثلاثى فى العربية ، وبين ما يقابله فى السريانية ، فتبين انه لا يقابله فى السريانية الا حرفان ، مثل (مص) بتشديد الصاد ، فيقابلها فى

---

(١) الجمهرة ١٣/١

السريانيــــة (مص) باســـكان الصـاد ... » (١) .

ولكن الدكتـور رمضـــان عبـد التـواب ، يرى أن الأب مرمرجى ، قد « خدعه ما آل اليه المضعف الثلاثى فى بعض اللغـات السامية ، بعد أن سكنت أواخر كلماتهـــا ، لسقوط الحـركات الاعرابية وغيرها ، فضاع التضعيف منها وصارت على حـرفين ، فظن هذا هو الأصل فيهـا ... ونسى الأب مرمرجى : انه عنـد اسناد المضاعف الى الضمائر فى العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف » (٢)

وأقول : ان الأمر ليس فيـه خداع ، فالثنائية باقية للمادة وان ضعفت ، كما أن المضعف لا يفقد ثنائيته اذا ارتد الى معتل العين ، مثل : (كاع ، ذام ، زير ، مير) من (كع ، ذم ، زر ، مر) . (٣)

فالتضعيف حقق للكلمة العربية الانتقال من الثنائية الى الثلاثية فى أواخر الدور الثانى فى رأى الشيخ العلايلى .

يضاف الى ذلك أن الثلاثى حين تفرع عن ثنائى سابق ، انمـا كان ذلك فى النشوء اللغوى قبـل أن يكون فى الاشتقاق فقط . فـاذا احتفظت وحفلت قواميسنا العربية ــ وفى مقدمتها معجم مقاييس اللغة لابن فارس ــ بالتضعيف ، وبـدا الثنائى فى صورة الثلاثى ، فان مرد ذلك الى الانتقال من مـرحلة الى أخرى .

* * *

الثنـــائى ليس بالقليــــل فى اللغة العربية :

فقد كانت الأحادية فى التعبيـر كافية فى المرحـلة الأولى لانسان لا يرتفع عن النـوع وليس له من مطـالب حيـاته المعيشية سـوى الضروريات التى يحتـاج للتعبيـر عنهـا .

---

(١) فقه اللغة العربية ٨٤ ، ٨٥
(٢) فصول فى فقه اللغة ٢٦٦
(٣) مقـدمة العـلايلى ١٣٢

وحين دعته الحاجة للتعبير سلك طريق الثنائية ، وذلك أمر مسلم به فى اختراع اللغة وتدرج الأشياء ، وله آثار فى كل لغة انسانية احتفظت بأصولها القديمة السحيقة . واذا بدت قليلة فهى — عند البدائيين — كافية .

وقد أتى من الأسماء والأدوات والحروف تنشيء الكثير أيضا ، مثل : أب ، أخ ، حم ، ابن ، يد ، دم ، شفة ، لثة ، رئة ... ومثل : كم ، وما (الموصولة)... ومثل : لو ، لا ، بل ، ما (النافية) ..

واذا اعتبرنا الثلاثى وما فوقه مخصبا من الثنائية ، كان عدد الأصول الثنائية كثيرا ويقرر الدكتور محمود حجازى : ان أكثر الكلمات الثنائية : « قد تطورت فى اتجاه الثلاثى لاحداث ضرب من التوازن ، ولكى تصبح مماثلة لأكثر الكلمات العربية ، وهى الكلمات الثلاثية » (١) . فمنها ثنائى ، ومنها ثلاثى ، ولعل فى هذا ضرب من التوازن على هذا الرأى .

وليست نشأة اللغة فى أوليتها منطقية ، حتى تخضع للتقدير الكمى ، وقياس (الكومبيوتر) ، حتى تقبل بعض موادها ، ويرفض البعض الآخر ، اذ لم يكن هناك منطق ولا قياس ، وانما هناك تعبير يواكب فى تدرجه وتطوره تطور الكائن الحى الذى ينطق . فالقدر الضئيل من الثنائى — فى نظر بعض الباحثين المعاصرين — كان كافيا فى الفهم والافهام والتعبير والتغطية والاشباع والامتناع فى اعتبارات السذج وقتذاك .

* * *

فالثنائية ليست قليلة ، باعتبار معايشتها لفترة الانسان البدائى ، بل تذكر المعاجم طائفة كبيرة من المفردات ذات الصوتين الصحيحين ، من الأسماء ، مثل : (عم ، فم ، هم ، دم —) ، ومثل : (مال ،

---

(١) علم اللغة العربية ٢٠٦

قال ، دعا ، سعى ...) من الأفعال .

وأيضا وجود طائفة أكبر من بنات الصحيحين المضعفة الثانى ؛ نحو : (أب ، أد ، مج ، حج ، مد ، شد ، هد ، من ، كف ، تم ...) وهى كلها ثنائيات جرى عليها بعض التغيير الصوتى عند الاسناد أو الاضافة ، لأسباب صوتية مختلفة .

وهناك بحث حديث قيم ، أثبت أن ما كتب بالخط المسمارى ، منذ أربعة آلاف سنة ، قبل الميلاد ، دلل على وجود صلات لغوية بينه ــ ما كتب بالخط المسمارى ــ وبين لغات الجزيرة الحية ، ولا سيما العربية .

وأن اللغة الأكدية (السامية) أول وأقدم لغة مدونة بقواعدها .. يغلب عليها البناء (الثنائى) المقطعى للكلمة ، ويعد هذا البناء الصورة الأولى لتشكيل الوحدات الدالة على المعانى ، والتى تكون الجذر أو النواة التى تدل على المعنى المطلق فى الأصل ، ثم تتطور من حيث الشكل بالتغيير الحركى الداخلى ، أو بالاضافة اليها ، لتدل على معانى جديدة ، تشترك مع الوحدة الأولى فى المعنى الكلى ، وتتميز عنها . بمعنى جزئى خاص . (١) .واللغة ترافق الانسان ، والانسان فى تغير دائم .

وذلك كله يدل على اتفاق لغات الجزيرة فى كثير من السمات ، وكثرة وجود الأبنية الثنائية المفردات ، ذات العلاقة الوثيقة المباشرة بالحياة الاجتماعية البدائية والوثيقة الصلة بشئون الحياة اليومية .

كما يؤكد الدلالة على أن المفردات الأولى للغة كانت ببساطة شئون الحياة ذاتها ، وتتعلق بالانسان وأعضاء جسمه ، مثل : (يد ، فم ، رأس ، سن ، كف ، دم ...) . أو تتعلق بذوى قرباه ، مثل : (أب ، أم ، أخ ،

---

(١) د. باكزه رفيق حلمى ، مجلة المجمع اللغوى الاردنى عدد ٢ مجلد /١ ص ٦٠ وما بعدها ، بتصرف .

عم ، بن ابن ، بنت ...) . أو تتعلق بأحداث الحياة البدائية ، مثل : (قام ، نام ، صال ، راح ، جاء شدّ ، يد ، عد ، هد ، كل ، خذ ...) . ثم جاءت الأبنية (الثلاثية) تحمل معانى حضارية ، تدل على الاستقرار واتساع الحياة والتأنق فى الصياغة ، والقصد الى الانتقاء .

فاذا جاء من أسلافنا على أن : « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف : على الثلاثى ، والرباعى والخماسى » . ثم يحكم بأن : « بنات الحرفين فى الكلام قليل » (١) .. قلنا : لا يمنعنا ذلك - كما لم يمنعهم - من الاعتراف بوجود البناء (الثنائى) مستقلا عن (الثلاثى) وليس منه ، وأنه نشأ فى المرحلة البدائية لنشوء اللغة .

كما سبق أن رددنا اعتبارهم الثنائى المعتل ثلاثيا سقط ثالثه لعلة ، لأن العلة لا علاقة لها بأصل البناء ، بل هى تغييرات صوتية محضة تطرأ عند الاسناد أو الاضافة لتغيير الدلالة الوضعية النحوية .

والميزان الصرفى ، انما هو وسيلة للكشف عن خفايا اللغة ، وأسرارها ، وتمييز أصناف مفرداتها ، وليس لتصنيع الأصول ، واخضاع جميع المفردات له .

وفى دراسة قيمة وجادة للدكتورة باكزة رفيق حلمى ، تشير - أيضا - الى أن الثنائية ليست قليلة فى الأصول اللغوية ، وانما هى كثيرة فى العربية وشقيقاتها (الساميات) بل وأكثر من ذلك فى جميع اللغات بعامة ، حين تنقل عن (Blood Field)

« ولو أجرينا دراسة دقيقة للمفردات وأبنيتها فى اللغة العربية ، وفى لغات الجزيرة العربية الأخرى لوجدنا أن بالامكان ارجاع معظم مفردات هذه اللغات الى البناء الثنائى ، وهو أبسط صورة لبناء

---

(١) الكتاب لسيبوية ١٩٦/٢ ، ومعجم العين للخليل ٥٦

الكلمة ، ليس فى لغات الجزيرة العربية فقط ، بل فى جميع اللغات ، فالوحدات اللغوية الوحيدة المقطع (Monosyllagic) ربما كانت هى الأصول الأولى التى نشأت منها وتطورت الوحدات المتعددة المقاطع : اما بتغيير الحركات الداخلية ، واما باضافة مقاطع خارجية الى صدورها ، أو أحشائها أو اعجازها .. » (٢) .

وذكرت الدكتورة باكزة جهود علماء النحو واللغة العرب ، فى استقصاء أصول الكلمة ، ومايجرى عليها من تغيير ، ومايعتريها من تطور بالاعلال والابدال والقلب والحذف والادغام ... حتى توصلوا الى نتائج طيبة ومذهلة فى أبواب التصريف والاشتقاق ، ساعد عليها سعة العربية ودقتها ومرونتها .

وذكرت — بحق — أن بعض نتائج علمائنا ، بحاجة الى اعادة النظر فيها وفق أسس علمية ، ساعدت الوسائل العلمية الحديثة على اكتشافها . وعذر الأقدمين فى ذلك أنهم لم يكونوا يملكون من وسائل الاختبار سوى الفكر والتجربة الذاتية فى نطق الحروف ، وتحديد مواقعها فى جهاز النطق ، وعلى الرغم من ذلك : فقد أصابوا فى الكثير من نتائج أبحاثهم .. الى أن وصلت الى قول الخليل ابن أحمد بأن « كلام العرب مبنى على أربعة أصناف : على الثنائى ، والثلاثى ، والرباعى ، والخماسى » وقالت :

« وأصاب فى ذكر الثنائى بأنه البناء الذى يتألف من صوتين صحيحين ، وذكر لذلك الأمثلة (قد ، هل ، لو ، بل) . ولكنه لم يصب ، اذ حدد هذه ، بأنها تكون فى حروف المعانى فقط .

أما الاسم والفعل فلا يردان على أقل من ثلاثة . وفاته أن الكلمات الاسمية : (أب ، أم ، أخ ، عم ، فم) لا تختلف من حيث البناء

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الاردنى عدد ٢ م ١/ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

وعدد الأصوات الصحيحة عن بناء الأمثلة التي ذكرها ، وأساس البناء كما حدد هو الصوت الصحيح ، وربما كان السبب في ذلك : هو خضوع المفردات الاسمية والفعلية للاعراب والاشتقاق والتصريف ، وجمود أبنية حروف المعاني في حالة لا تقبل التغيير » .

فالخليل ــ في نظر الدكتورة ــ مال الى الصناعة لا الى السليقة والطبيعة اللغوية ، التي يقتضيها عهد الثنائية في مفرداتها التي هي من مدخرات النشأة الأولى للغة ، في عهد ما قبل التنبه للقياس ، ولذا يجب أن تعالج معالجة خاصة ، وفق منطق الواقع ، والتراث القديم . وقد كان الخليل ــ رحمه الله ــ يعتمد على ذواقه للأصوات : فقد كان يفتح فاه بالف ، ثم يظهر الحرف ، نحو : (أب ، أت ... الخ) .

وأشارت الدكتورة باكزه ، الى أن (الأكدية) ــ وهي من أقدم صور لغات الجزيرة العربية وقوية الصلة بالعربية ــ تلتزم بالاعراب في جميع الحالات ، ونهايات الاسم ، تحمل علامات الاعراب بأصوات المد (و ، ى) وليس بالحركات كما في العربية وضبت علامات الاعراب في الأكدية عند الكتابة ، ومع ضم فهي ثنائية في مثل : (طيب = Tabu

بعيد = Raku

رب = Rabu) ..

وعادت الدكتورة باكزة الى لغات الجزيرة العربية بعامة ، والعربية بخاصة ، وذكرت أن المقارنات أثبتت أنها تتفق جميعا في أن الصيغة الثنائية فيها ــ الاسمية والفعلية ــ تشمل طائفة كبيرة جدا من المفردات تكاد تفوق الثلاثيات عددا .

وأنها تنتظم الفئات الآتية :

١ ــ الأفعال الناقصة من حيث التصريف والوظيفة النحوية ، وعددها ــ كما ذكر النحاة ــ سبعة عشر ، منها أحد عشر فعلا ثنائيا ، هي : كان ، صار ، ظل ،

بات ، آض ، عاد ، غدا ، راح ، ما (برح) ، ما (دام) ، ما (زال) وليس (١) وفى الأكدية ما يماثل ذلك ، مثل (Kano) ، وكذا فى العبرية .

٢ ــ والأسماء المعروفة بالأسماء الستة ، من النحاة من يعربها بالحركات ، ومنهم من يعربها بالحروف ، وهى فى الحقيقة لا تخضع لأحكام الاعراب المعروفة ، لأنها من ذوات المقطع الواحد القصير ، ويتطلب الصاق اللواحق بها من مد حركاتها النهائية ، كما فى نحو : (أبوك وأخوك وفوك) .

وعند الافراد أن تعرب كما تعرب الأسماء الأخرى ، (جاء الأب ، ورأيت الأخ) . (٢) وفى الأكدية ما يقابلها ، نحو :

(Hamu, Anu, Abu)

وكذلك فى العبرية . ويلاحظ هنا أن بعض هذه الأسماء أحادية البناء فى اللغات الثلاث (الأكدية ، والعربية ، والعبرية) : أى انها تتألف من صوت صحيح واحد وحركة مد طويلة . وفى الأكدية والعبرية عدد وفير من هذه الكلمات الأحادية .

٣ ــ الأسماء الثنائية ، عدا الأسماء الستة ، الوحيدة المقطع ، وهى كثيرة فى جميع اللغات العربية .

وهى اما أن تكون وحيدة المقطع قصيرة الحركة ، وتكون على أصناف ، فمنها :

أ ــ ما يكون مفتوح الأول ، وهو الغالب ، نحو : (قد ، يم ، يد ، دم ، غم ، هم ، كف ، دف ، رف ، خد ، جد ، صف ، بط ، رب ، حج ، طب) .

ب ــ وما يكون مضموم الأول ، نحو : (أم ، دب ، جب ، خف ، در ، مر ، حق ، بر) .

(١) الكافية (شرح الاسترابادى) ٢/٢٩٠

(٢) همع الهوامع السيوطى ١/٣٨

جـ ــ وما يكون مكسور الأول، نحو : (قط ، هر ، زق ، رق ، شص ، دن ، كن) •

وفى اللغات الأكدية ما يقابلها تماما •

٤ ــ الأسماء الثنائية ، ذات النهايات الحركية الممدودة ، نحو : (فتى ، صبا ، هوى ، نوى ، جوى ، عصا ، قنا ، مها ، علا ، سها ، ربا) •

٥ ــ الأفعال المعتلة ، وذكر النحاة ثلاثة أصناف منها : المثال ، نحو : وعد ، وهب • والأجوف ، نحو : قال ، مال • والناقص ، نحو : سعى وجرى ودعا •

ولو أمعنا النظر ، لوجدنا أن المثال الأول سالم وليس معتلا : فالواو فى (وعد) ليس صوتا حركيا أو حرف علة ، بل هو صوت صحيح ، مخرجه من بين الشفتين كالباء والميم ، واختفاؤها عند تغيير البناء ليس واجبا ، وانما هو ظاهرة حضارية ثبتت فى اللغة الكتابية فقط وتقيت فى لهجات الكلام ، فنحن نقول : (يوعد) ، ويوهب) • وهو بذلك ثلاثى صحيح •

أما المثالان الثانيان ــ فى الأجوف والناقص ــ فهما ثنائيان، وحرفا المد فيهما حركتان طويلتان •

وخلصت الدكتورة تاكزة من كل ما سبق ــ وأنا معها ــ الى أن :

« المفردات الثنائية تفوق فى العدد الثلاثيات ، وأن معظم الثلاثيات تطور من أصول ثنائية (١) •

وفى ختام دراستها القيمة ، تدعو الباحث الى ملاحظة الأحاديات فى لغات أخرى ، كالانجليزية ، فى نحو : (Zoo, See, Do, Too, You, We He, Se, Tea)

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى جـ ١ عدد ٢ ص ٧٠ وما بعدها بتصرف .

وفى الفارسية ، نحو : (دو = اثنان ، شا = الملك العظيم ، مو = شعر ، سى = ثلاثون ، رو = وجه ، دو = غاية ، خو = عادة ، تا = صفحة ، با = قدم) .

وفى اللغة الكردية ، نحو : (دو = اثنان ، مو = شعر ، رو = وجه ، شو = زوج ، جو = شعير ، خو = عادة ، رى = طريق ، دى = قرية) .

وقد أطلنا فى هذا المقام ولنا عذرنا ؛ لأن الكثرة من الباحثين ، دأبت على القول السريع ، بأن الثنائية فى لغتنا قليلة .

* والبحث فى نظرية « الثنائية » ليس ترفا عقليا ، ولا أمرا هامشيا ، ولا يتقوقع فى دقة تخصصية :

فمن الاعتراضات الشكلية على بحث مشكلة « الثنائية » ما أثاره الأستاذ عبد القادر المغربى معترضا على آراء الأب مرمرجى — بقوله :

« واللغة العربية الى غير هذا — من الخدمات المتواضعة — أحوج ، والى نوع آخر من الغذاء الاصلاحى أنجع وأنضج » . (١)

وهذا فى رأيى الغاء فج للمسألة من أساسها ، وغلق لباب بحث تحتاجه العربية للتأصيل والوصول الى الحقيقة فى مسائل طال بحثها فى غير ما تكاثف وامعان ، فبقى الخلاف معلقا لها ، والضباب مخيما حولها .

ولذا يرد الأب مرمرجى على الأستاذ المغربى فى موضوعية مشوبة بالقسوة ، حين يصفه بأنه « من المتمسكين بالقديم ، وغير الواقفين على كنه (الثنائية والألسنية السامية) ، لجهله — ما عدا العربية — بقية الألسن السامية وقواعدياتها وأسرارها وتاريخها ، وما تفترض مقارنتها من المعلومات والأساليب التقنية ، وهذا مما يؤسف عليه ، فان الأستاذ — مع كونه اماما فى العربية — يعسر عليه المناقشة فى ذات الموضوع » .

(١) معجميات عربية سامية ١٠٨

ثم يسوق الكلام الى كل معارض للثنائية ، بقوله : « فكأنى بحضرات أئمتنا الأجلاء ، يؤثرون بقاء المعجمية على ما هى عليه من الاضطراب ، والتضارب ، والتنافر ، والتناقض فى اشتقاق الألفاظ وتطور معانيها ، على أن تنسق ويعلل سياقها ، فيتجلى فيها الانسجام والتساوق والمنطقية » .

ثم يعود الى الحدة ، والثورة على المألوف ، ويلتمس العذر للأقدمين بقوله :

« وذلك لأن الوسيلة المقترح استخدامها ، لبلوغ هذا الأرب ، هى : (الثنائية ، والألسنية) وهو ما لم يألفوه ، فلا تستمرئه ذهنيتهم التقليدية .ولا أغالى اذا جزمت بأن نفس اللغويين الأقدمين — الذين تفردوا بالذكاء والعبقرية — لو عاشوا فى زماننا ، وأتقنوا معرفة اللغات السامية ، ووقفوا على تقدم العلوم الألسنية فى الأصقاع الغربية ، لجحدوا كثيرا من نظرياتهم ، واعتنقوا المذاهب المستحدثة — على أن ما تعذر على القدماء عمله ، من الهين اليوم على شيوخ اللغة اجراؤه فى معاهدهم ، ولا سيما فى وسط المجامع اللغوية ، وبنوع أخص بين أعضاء لجان وضع المعاجم الحديثة » (١) .

ومن النقد الشكلى أيضا لنظرية « الثنائية » ، فى نقد كتاب « هل العربية منطقية » للأب مرمرجى . ما ذكره الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، اذ وصف مثل هذا البحث بأنه « بحث خاص ، يهم المشتغلين باللغة وأصولها واشتقاقها ، ويهم المجمع اللغوى (المصرى) بشكل خاص .

ويتساءل : هل اطلع المجمع اللغوى على البحث ؟ واتخذ قرارا بشأنه أم لا ؟

كما يصف الثنائية بأنها هدامة للثلاثية والرباعية ، ومقوضة لأركان المعاجم (٢) .

---

(١) السابق .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ٥٣١

وبرد الأب مرمرجي على شق الاعتراض الأول ، بأن المجمع حبذ عمله وأثنى عليه ، وأنه تلقى رسائل استحسان من صاحب السعادة المرحوم محمد توفيق رفعت باشا ، رئيس المجمع ، ومن صاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا . كما يتمنى المؤلف أن تتبنى المجامع اللغوية نظريته ، لتوافر الوسائل العلمية والتقنية والمادية ، ومؤازرة المخلصين .

وبرد على الشق الثانى بأن « الثنائية فى أعيننا غير هدامة الثلاثية ولا الرباعية ، ولا هى مقوضة أركان المعاجم ، انما هى وسيلة التأصيل السابق طور « التصريف » .فالقائل بالثنائية يدع التصريف على ما هو للثلاثى والرباعى ويحصر عمله فى المعجمية .. وفى هذا الحقل عينه لا يتوخى محق الثلاثية والرباعية من اللغة ، لكنه يرتئى بأنه : كما أن الرباعى يسوغ رده الى الثلاثى كذلك يمكن رد الثلاثى الى ثنائى ، مما ينجم عنه ان الثلاثى ليس بدء الاشتقاق ، بل الثنائى .

ويرى عمليا أن فى هذه النظرية للمعجمية فوائد جمة ، منها تجلى الانسجام والتساوق والمنطقية فى تشعب الألفاظ بعضها عن بعض ، وتوسع المعانى وتطورها ، مما هو واضح الفقدان فى الحالة الثلاثية الحاضرة . فمن ثم لا خشية على المعاجم من الثنائية ، لأنها بالعكس تنشىء فيها تنظيما معقولا منطقيا ، كما أن ترتيب المعاجم الحديثة مثل : محيط المحيط ، وأقرب الموارد ، والبستان ، لم يضر بالمعجمية ، بل نفعها ، وان خالف بالواقع تنظيم (القاموس المحيط واللسان ، والتاج) ، أو بالأحرى : قلة التنسيق فيها [1] .

غير أنى أبادر فأقول : ان بحث الثنائية ، سيضيف الى الأبحاث اللغوية فى العربية أعباء كبيرة ، تتطلب منا تضافر الجهود :

---

(١) معجميات ١١٣

فسيوجب علينا ذلك من جديد دراسة تاريخ العربية ووصفها وتطورها •

وسيوجب علينا : أن نعيد النظر فيما قعده اللغويون فى بابى الاعلال والادغام ، وما أرسوه من نظريات ، وما تخيلوه من تعليلات ، وماسلسوا به من أوزان :

فوزان قطّ بالتشديد (فع) لأنها عين الكلمة لا فعل كما ذكروا على أنها لام الكلمة ، اذا قلنا : قطع بالتشديد على وزان فعل بالتشديد •

وسنعيد النظر فى سلاسل الاشتقاقات ، وخاصة غير القياسية منها ، لبعثها وبحثها والانتفاع بها ، للاثراء والتنمية اللغوية ، وجعلها مطردة ــ ولو على رأى الكوفيين ــ للاستفادة من مادتها فيما تمطرنا به محدثات العصر الحديث صباح مساء ، من مدلولات اجتماعية تحتاج لألفاظ لغوية ، ويكاد هذا الجديد يصل كل يوم الى خمسين كلمة (كما ذكر المكتب الدائم لتنسيق التعريب فىالعالم العربى)،

وحين تقف العربية بكماء بلهاء أمام هذا الطوفان ، سيرميها أبناؤها ــ قبل أعدائها ــ بالعقم ، وليست العربية عقيمة ، وانما هى ولود مرنة مطواع •

وسنراجع النظرية من جديد فى الأصول الثلاثية غير السالمة (أى المضعفةوالمضاعفة والمهموزة والمعتلة بأقسامها : المثال ، والأجوف ، والناقص ، واللفيف المفروق والمقرون) وكذلك مشتقاتها ، ومعالجتها فى ضوء المبادىء الحديثة (للفونولوجيا : (Phonologie)

وسيلاقى وزن (فعلل) تحفظات جديدة ، اذ لا يصلح بشكله الحاضر لقياس الأصول الرباعية خاصة ومشتقاتها عامة ، بل اننا سنضطر الى أن نزن الرباعى المضعف ، مثل : وسوس ، على فعفع ، لا على فعلل ، اذ أنه مكرر من ثنائيين •

ولن تبقى حروف الزيادة محصورة فى حروف (سألتمونيها)

•• اذ أمكن تشديد كل الحروف الأبجدية فى العربية •

وستحتاج الثنائيات التى انتقلت الى ثلاثيات — وكذلك مشتقاتها بالشد والمد — الى أوزان خاصة بها ، وليست على وزان (فعل) •

ولا يخيف ذلك وغيره سدنة العربية وحماتها : فمتى صحت العزائم ، وعلت الهمم ، وقوى الدفع ، وخلص الاخلاص ، فستخدم لغتنا وفخرنا ، وستبقى كما بنت أجدادنا ، وتفعل فوق ما فعلوا •

••••

وبعد :

فتاريخ اللغات السامية فى أكثر نواحيه غامض ، ورمال الجزيرة العربية — وهى موطن الساميين — لا تفصح عما يصف هذا التاريخ البعيد •

ولذلك سيظل الاختلاف بين الثنائيين والثلاثيين قائما بين أبناء العربية وغيرهم ، وسيجد كل فريق ما يبرر به القبول أو الرفض لهذه النظرية أو تلك • وسيبقى الأمر كما قال الأب (هنرى فليش) : « ان التحليل الداخلى للكلمة العربية أو السامية ، لتمييز الأصول الثنائية لما ينته الى نتيجة مرضية ، ولعله من المحال أن يحدث هذا • وخلاصة القول : أن مشكلة الثنائية لما تلق حلا » (١)

واذا كان علماء التاريخ ، وعلماء « الأنثربولوجيا » يتنازعون الرأى فيما بينهم أشد الاختلاف ، مع خبر يروى ، أو أثر يذكر ، أو شاهد يرجح ، أو حفريات تهدى •• فان باحثى اللغات أشد حيرة ، وأكثر اختلافا ، وأوسع متاهة •• حين يصمت التاريخ ، ويندر الشاهد ، ويعز الأثر ، ويفتقد الدليل ، وتضيع الوثائق ••

---

(١) العربية الفصحى ٢٥١

غير أن قياس الغائب على الحاضر ، واعمال العقل فى المأثور على قلته باعتبار أن الظاهرة تشيع ..

وتقليب الفكر فيما سبق من سلسلة هذه المقالات ، يجعلنى أقرر وأنا مطمئن :

الى أن عددا كبيرا جدا من الأصول الثلاثية يرد الى أصول ثنائية الأصل .

وأن الجذور الثنائية أصيلة وثابتة فى لغتنا ، وغير قليلة .

ولعلى بذلك الجهد المتواضع أكون قد قدمت شمعة على طريق البحث ، تهدى السائرين ، وتحفز الباحثين على التنقيب عن الحقيقة ، حتى يرى الضوء من جوانب العربية ، بقى زمنا فى حجاب مستور ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

د . توفيق محمد شاهين

دعـاء

اللهم انى اسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم اعلم ، واعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه ومالم اعلم .

واسألك الجنة ما قرب اليها من قول وعمل .

واعوذ بك من النار وما قرب اليها من قول وعمل .

واسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم .

أم المؤمنين عائشة

الامامة في الشيعة

للأستاذ السيد حسن قرون

للجاحظ رسالة سماها « كتاب التربيع والتدوير » يقول فيها مداعبا (أحمد بن عبد الوهاب) « لو قتلت لهلكت الأمة ، لأنك رجل لا عقب لك . والامامة اليوم لا تصلح في الاخوة ، ولو صلحت في الاخوة كانت تصلح في ابن العم ، ثم انها دنت في الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح الا في الولد وفي هذا القياس أنها بعد أعوام لا تصلح الا ببقاء الامام نفسه الى آخر الأبد ، وهذا هو علة المناسخة » والغريب من أمر الجاحظ أنه تنبأ بالأمر قبل حدوثه بناء على نظرة ثاقبة استنبطها من مجرى الأحداث في زمانه ، فما قاله عن الامامة حصل بعد

موته بعدة سنوات . مات الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ ، وقالت الشيعة : ان الامام الثاني عشر (محمد الحسن العسكري) وهو المهدي دخل في سرداب بدارهم في (الحلة) وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا .. » وكان اختفاؤه سنة ٢٦٠ هـ أي بعد وفاة الجاحظ بخمس سنوات .

فمن الاثنا عشر من الأئمة الذين عناهم الرافضة ويفترقون عن الاسماعيلية أو الباطنية ؟ هم على الترتيب علي بن أبي طالب ثم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ، ثم علي زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم ثم علي الرضا (ولي عهد المأمون) ثم محمد التقي ، ثم علي الهادي ثم الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري امام الزمان عند شيعة ايران وهو المهدي المنتظر ويقتضينا هذا أن نوضح رأي

الجاحظ ونبسط القول فيه حتى يتبين لنا كيف صار الأمر كما ذكرت ؟ تاريخ طويل ، وجهاد مرير يجب أن تنفضه بين يديك ، وأحب أن أتناوله دون تعسف أو تفريعات لنبلغ المراد من أقصر طريق وأوضح دليل .

ما أشك فى أن زعامة الشيعة قد انتقلت بعد مقتل الحسين رضى الله عنه الى أخيه محمد بن الحنفية وان كان عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن جعفر يشاركانه فى تلك الزعامة ، ومن ثم كان عبد الله بن الزبير يشن الغارة عليه قولا وفعلا ، فقد أنزل ابن الزبير من مكانة ابن الحنفية بقوله : « عذرت بنى الفواطم فما بال بنى حنيفة ؟ » لأن ابن الحنفية يخدش نسبه فى نظر خصمه أنه ليس من أبناء فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يسكت ابن الحنفية فقال له : « يابن رومان ، ومالى لا أتكلم ؟ أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم اخوتى ؟ أو ليست فاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ جدة أبى ؟ (١) أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت فى بنى أسد عظما الا هشمته ، وان نالتنى فيه المصائب صبرت » فمحمد زعيم بنى هاشم ينافح عن حقه فى الامامة ولكن ابن الزبير قبض عليه وعلى خمسة عشر رجلا من قومه وأودعهم سجن (عارم) وانتهى الأمر بثورة الشيعة والافراج عن محمد وقومه من بنى هاشم ، وقد يكون عبد الله ابن عباس أصرح منه رأيا ، وأشد منه شكيمة فى عداوته لبنى أمية ، فلم يقبل مهادنة يزيد بن معاوية واتهمه بقتل الحسين على حين نفى ابن الحنفية أن يكون ليزيد علم بمصرع الحسين ، ولم يكن موقفه من ابن الزبير تأييدا لمروان وابنه فى الشام انما كان ينظر الى حق بنى هاشم فى الخلافة ، ولكن ابن عباس وافاه أجله بالطائف

---

(١) مخزومية انجبت عبد الله والد الرسول وابا طالب والزبير وخمس بنات لعبد المطلب .

سنة ٦٨ هـ وصلى عليه ابن الحنفية الذى بقى قائما بأمر أهله وأمر الشيعة .. ثم توفى بالمدينة وترك أمر الشيعة لابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد وكان رجلا قوى الجسم عالما بشئون السياسة ، ولم يكن ينظر الى الأمر على أنه لبنى على دون بنى هاشم ، بل يرى بنى عبد المطلب أسرة واحدة يتولى أمرها الصالح للعمل ، ولم يتوان حين أحس بدنو أجله من أن يجتمع بابن عمه من فرع العباس وهو محمد بن على بن عبد الله بن عباس ليسند اليه أمر الشيعة وأسرار الدعوة وقال له : ان الأمر صائر اليكم ، فاضطلع محمد العباس بالأمر ، واتجه بسياسته ، وأغلب أنها من تعاليم أبى هاشم ـ الى خراسان . وقد بين سياسته لدعاته بقوله : « أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا الا القليل . وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها على وشيعته وليس بها من شيعتنا الا القليل . وأما الشام فشيعة مروان وآل أبى سفيان .. أما الجزيرة فحرورية شاذة وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشرق فان هناك صدورا سليمة وقلوبا باسلة لم تفسدها الأهواء ، ولم تخامرها الأدواء ، ولم تعتقبها البدع وهم مغيظون موتورون ، وهناك العدد والعدة والعتاد والنجدة » ففرقة الشيعة العباسية هاشمية نسبة الى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، ومعنى هذا اننا الآن فى بدء القرن الثانى الهجرى ، والشيعة بعضهم مع بنى العباس وبعضهم مع أبناء على ، وأغلب الظن أن محمدا الامام العباسى كان رجلا داهية يعرف ما يدور فى العالم الاسلامى ويكتم أمره عن أقرب الناس اليه ، والدليل على ذلك أنه حدثت ثورات من العلويين كان اخوته وأبناؤه يشاركون فيها ويندمجون فى تياراتها ، ولو كانوا على علم بما يجرى بينه وبين أهل خراسان ما شاركوا فى تلك الثورات العلوية ، مات محمد هذا سنة ١٢٥ هـ فى العام الذى مات فيه هشام بن عبد الملك الخليفة

الأموى ، وانتقلت الامامة الى ابنه (ابراهيم) الملقب بالامام وهو أخو السفاح وأبى جعفر المنصور ، وكان كأبيه أريبا لبيبا حازما وبه انتقلت الدعوة من الكلام الى امتشاق الحسام ، وكان مولاه أبو مسلم الخراسانى كفاء لتلك المسئولية ، وصار عند الشيعة مقدسا ينفذ أمره وتجبى اليه أموال الخراج فى مستقره فى (الحميمة) من أرض الأردن .

وفى عهده ثار عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتلك أجزاء من الامبراطورية الاسلامية ، وعمل له أبو جعفر المنصور فى احدى مقاطعاته ، ويظهر لك مركز (ابراهيم الامام) من تلك الحادثة : قال الرواة (١) : ان عبد الله بن معاوية الطالبى تزوج بالكوفة من بنى رياح أثناء زيارته لعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، فالتف اليه نفر من أهل الكوفة وقالوا له : اخرج فأنت أحق بهذا الأمر من بنى أمية فاستجاب لهم ، ودعا الناس الى بيعته على الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فبايعوه ، ولم يجتمع أهل المصر كلهم عليه وقالوا له : مافينا بقية ، فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت ، وأشاروا عليه بقصد فارس من نواحى الشرق . ومعنى هذا أن أهل الكوفة ضعضعتهم الحروب فى سبيل آل البيت على عهد الحسين وحفيده زيد ، وقد تراخت أعصابهم عن تحمل المسئولية ، تركهم وجعل وجهته الشرق فاستولى على ماء الكوفة وماء البصرة وهمدان وقم وقومس والرى وأصبهان وفارس ، وأقام بأصبهان ، وأخذ له البيعة (محارب ابن موسى مولى بنى يشكر) وولى اخوته على الأقاليم ، وقصدته بنو هاشم منهم السفاح والمنصور وعيسى بن على وعبد الله بن على ، وقصدته وجوه قريش من بنى أمية وغيرهم ، فمن قصده من بنى أمية سليمان بن هشام ، وعمرو بن سهيل بن عبد العزيز

---

(١) الاغانى ـ أخبار عبد الله بن معاوية

ابن مروان ، وقلدهم الأعمال .. ثم جاءته جيوش مروان بن محمد ابن مروان (آخر خلفاء بنى أمية) فوجد نفسه لا قبل له بها فهرب الى خراسان ، وقد ظهر بها أبو مسلم — صاحب دعوة بنى العباس — ونفى عنها واليها (نصر بن سيار) فلما صار عبد الله بن معاوية فى بعض طريقه نزل على رجل ذى نعمة ومروءة وجاه — على حد تعبير الأغانى — فسأله معونته . فقال له ذلك الرجل : أنت من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لا . قال : فأنت ابراهيم الامام الذى يدعى له بخراسان ؟ قال : لا . قال الرجل : لا حاجة لى فى نصرتك . ثم وقع فى يد أبى مسلم الخراسانى فحبسه عنده الى أن مات . ويتبين لنا من تلك الحادثة أن خراسان اتجهت الى ابراهيم الامام (العباسى) ولها ميول الى أبناء فاطمة رضى الله عنها ، وأبناء العباس بن عبد المطلب بما فيهم السفاح والمنصور لو كان عندهم علم بدعوتهم فى خراسان ، وأنها من القوة بحيث تجتاح الحكم الأموى لما تجشموا المشاق فى ظل عبد الله بن معاوية ، ولم يمض الا قليل حتى كان الأمر خالصا للسفاح بعد القبض على ابراهيم الامام الذى أوصى أن يكون الامام بعده (السفاح) وفضله على المنصور مع صغر سنه لأن أمه عربية .

فى هذا الوقت كان أبناء فاطمة فرقتين : فرقة تقول بامامة زيد ابن على زين العابدين ، وفرقة ترفضه لأنه لم يتبرأ من الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ويتشيعون لجعفر الصادق بن محمد ابن على زين العابدين . وكان جعفر الصادق كأبيه (محمد الباقر) رجلا صواما قواما يعنى بآخرته أكثر بكثير من النظر الى دنياه ، ولم يعجبه ما يقوله الشيعة ، وكان يتبرأ مما يقولون ، ولكنها ماضية فى سبيلها ، ترفض من ترفض وتؤيد من تؤيد ، يغلب عليها الكلام . وظهر فى سنة ١٤٥ هـ الأخوان : محمد (النفس الزكية) وابراهيم

ابن عبد الله من آل الحسن بن على ابن أبى طالب على مذهب الزيدية القائلين بأن الامامة تختار من أهل العقد والحل وليست وصية من الرسول الى أحد ، وانتهت ثورتهما بمصرعهما وفرار أخيهما ادريس الى المغرب ليؤسس مملكة عرفت فى تاريخ المغرب (بالادريسية) وفر الأخ الرابع الى الديلم وهو يحيى ابن عبد الله .

ومن كل ما تقدم ترى أن الشيعة كانت لبنى هاشم جميعا ، ثم أخذت تضيق وتضيق ، فلم يكن أبناء العباس منها ولا أبناء جعفر ابن أبى طالب منها ، ولا أبناء على من غير فاطمة ، بل حصرت فى أبناء فاطمة ثم حصروها فى أبناء الحسين ، ثم حصروها فى أبناء محمد الباقر ، ثم حصروها فى ابنه جعفر الصادق وحده مع أن له اخوة كثيرين . ولعبت الشيعة لعبتها فى أبناء جعفر الصادق فصيروها فرقتين : فرقة فى أبناء اسماعيل الذى مات فى عهد والده فرفضه بعض الشيعة وقالوا بامامة أخيه (موسى الكاظم) الذى ورث أباه ، ومن موسى الكاظم تناسل عدد من أولاده كانوا أئمة بالتعيين واحدا بعد الآخر حتى كان (محمد الحسن العسكرى) الذى وقف عنده الشيعة ولم يتعدوه وجعلوه متغيبا وسيظهر آخر الزمان .. أرأيت الى كاتبنا الجاحظ كيف هدته بصيرته الى أن يقول فى شأن تطور الامامة أنها فى الولد وغيره ثم «انها بعد أعوام لاتصلح الا ببقاء الامام نفسه الى آخر الأبد » .

وفرق كبير بين ما وصلت اليه الامامة وما كانت عليه أيام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، انظر الى شاعر الشيعة فى أيامه يقول والخطاب لبنى أمية ، والشاعر هو (الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب بن عبد المطلب) :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا
لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا ان تهينونا ونكرمكم
وان نكف الأذى عنكم وتؤذونا

مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا
سيروا رويدا كما كنتم تسيرونا

الله يعـلم انا لا نحبكـم
ولا نلومكم أن لا تحبونا

كل له نعمة فى بغض صاحبه
بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وبين ما صارت اليه منذ القرن الثانى الهجرى ، فقد توزعت وتنوعت كما بينت سابقا من هاشمية وزيدية وطالبية واسماعيلية واثنا عشرية ، وفى أثناء كل عهد تظهر مقولات ما أنزل الله بها من سلطان ، وما من شك فى أن أصل كل ذلك وأساسه هو الخلافة وشهوة الحكم ، والتطلع الى زهرة الحياة الدنيا ، فاذا بلغت احدى هذه الفرق وأقبلت عليها الدنيا لاذت الأخرى الى العبادة والتقشف والنعى على الولاة ، والاغراق فى تصورات لايعرفها الدين الاسلامى ولا نهجه الحميد .

والأصل فى الخلافة أنها تقوم على الشورى ومبدأ الانتخاب ، ولكن السنة التى سنّها معاوية هى التى مالت بالعقول الى الحزبية المقيتة ، والتفكير السقيم ، والأساطير المضللة ، والروايات المفتعلة ، والمعروف لكل مسلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يأت بالدين الحنيف ليقيم عرشا لبنى هاشم ، أو ليكون لقريش مزية على العرب ، أو يكون للعرب فضيلة على سائر المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، انما هو دين حنيف أرسل به الله رسوله للناس جميعا ، لكن أمية وهاشم وهما لعبد مناف اتخذوا من قرابتهم للرسول وسيلة الى السيادة وتولى أمور المسلمين ، كان بنو هاشم ينكرون على بنى أمية أن يجعلوها وراثة ويفارقوا منهج الخلفاء الراشدين ، فلما جاءتهم تجرر أذيالها قالوا : نحن ورثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو العباس يشعرون فى أنفسهم أنهم انفردوا بالسلطان دون بنى عمومتهم من آل أبى طالب ، وموقف المأمون الخليفة العباسى من (على الرضا) يشف عما فى خلجات نفوسهم ، فقد جعله ولى العهد من بعده ، ولو عاش على الرضا لتم الأمر ، وان كان ابن خلدون لا يرى رأيى فعنده أن العصبية للبيت العباسى تمنع أن تكون الخلافة فى غيرهم ،

وكم دافع شعراء بنى العباس عن حقهم فى الخلافة ، بأن العباس جدهم هو العم الوحيد الذى عاش بعد وفاة رسول الله فهو أحق بالخلافة ، وجعلوا أبناء على محجوبين بالعم الى آخر ما سطروا واختلفوا ، وكان رد الشيعة أن فىء الرسول يجب أن يكون فى أبنائه ، وأن بنى أمية وبنى العباس مغتصبون .

ويجىء دعبل الخزاعى الشاعر ، فيقول فى تائيته كلاما موجعا ينبع من قلب حزين ، ونفس مكلومة ، وحيرة بالغة من مثل :

ارى فيئهم فى غيرهم متقسما
وايديهم من فيئهم صفرات

فآل رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفل القصرات

بنات زياد فى القصور مصونة
وآل رسول الله فى الفلوات

اذا وتروا مدوا الى واتريهم
اكفا من الاوتار منقبضات

وهو كلام لا يرجع الى كتاب ولا سنة ، ولم يجىء رسول الله بالدين القويم من أجل الفىء ، وسيادة بنى بنته على سائر الناس ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، وان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ولو كان الأمر راجعا الى سلطان أو ولاية لولى عمه العباس احدى الولايات ولكنه لم يفعل مما يهديك الى سبيل الرشاد ، فقد كان يولى القادر على العمل دون نظر الى سابقة فى الاسلام أو فداء فى نشر الدعوة ، ومن الغريب أن (دعبل) حين أنشد هذه القصيدة لجعفر الصادق تأثر تأثرا بالغا ، فقد أغمى عليه حين سماعها ثلاث مرات فى كل مرة يبدأ الشاعر من أول القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحى مقفر العرصات

فاذا بلغ فى انشاده الى :

اذا وتروا مدوا الى واتريهم
اكفا من الاوتار منقبضات

بكى حتى يغمى عليه . وأغرب من ذلك أنه يؤمن بالامام المنتظر يقول :

فلولا الذى ارجوه فى اليوم او غد
لقطع قلبى اثرهم حسرات

خروج امام لا محالة خارج
يقوم مع اسم الله والبركات

يميز فينا كل حق وباطل
وبجزى على النعماء والنقمات

وقد كان الخلفاء العباسيون من تلك الفرق المتشيعة فى هم ناصب ، وقلق متواكب يسمعون ما يقال فيهم وما يقال فى أعدائهم من بنى عمومتهم فيتحيرون ، فتارة يقسون ، وتارة يرقون فيبكون ، وكل ذلك يفت فى عضو الدولة ، ويؤخر النظر فى شئونها ومصالحها .. وكم غضب الرشيد من هجوم الشعراء على العلويين ، أنشده الشاعر (منصور النمرى) قصيدة مدحه بها وهجا آل على بن أبى طالب ، فضجر الرشيد ثم قال : يا بن اللخناء ، أتظن أنك تتقرب الى بهجاء قوم أبوهم أبى ، ونسبهم نسبى ، وأصلهم أصلى ، وفرعهم فرعى ؟ فقال : ما شهدنا الا بما علمنا فازداد غضب الرشيد ، وأمر مسرورا فوجأ فى عنقه ، وأخرج (١) .

ثم أدخل اليه يوما آخر ، فأنشده :

بنى حسن ورهط بنى حسين
عليكم بالسداد من الأمور

فقد ذقتم قراع بنى أبيكم
غداة الروع بالبيض الذكور

أحين شفوكم من كل وتر
وضموكم الى كنف وثير ؟

وجاءتكم على ظمأ شديد
سماء من نوالهم الغزير

فما كان العقوق لهم جزاء
بفعلهم وادراك الثئور (٢)

وانك حين تبلغهم أذاة
وان ظلموا لمحزون الضمير

فقال له : صدقت . والا فعلى وعلى ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنا أذكر ذلك لأبين الحياة المضطربة ولواعج الأسى فيما صار اليه أمر الشيعة وأمر الحكومة القائمة ، ومع كثرة الثورات وخروج الخارجين من العلويين على العباسيين ارتاح الناس أوجلهم الى الحكومة القائمة ، فاذا ظهر فى الأفق اتفاق بين المتخاصمين فرح الشعب وعبر الشعر عن هذا الاتفاق .

---

(١) ضربه (٢) جمع ثأر

في سنة ١٧٦ هـ ظهر يحيى ابن عبد الله العلوي في الديلم وقويت شوكته فاغتنم الرشيد وندب اليه (الفضل بن يحيى البرمكي) في خمسين ألف مقاتل ومعه صناديد القواد ، ولم يشأ الفضل أن يحارب فكاتب يحيى العلوي واستماله ، وسأله على أمان يقدمه الرشيد عليه مشهود الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم — كما يقول الطبري — وتم الصلح وقدم يحيى العلوي مع الفضل البرمكي الى بغداد فكانت فرحة عامة استقبل فيها الشاعر مروان ابن أبي حفصة الفضل يخاطبه بشعر جميل منه :

ظفرت فلا شلت يد برمكية
رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين اعيا الراتقين التئامه
فكفوا وقالوا : ليس بالتلائم

وأنشد أبو تمامة الخطيب لنفسه فيه :

للفضل يوم الطالقان وقبله
يوم اناخ به على خاقان

ماءمثل يوميه اللذين تواليا
في غزوتين تولتا يومان

سد الثغور ورد ألفة هاشم
بعد الشتات فشعبها متوان

عصمت حكومته جماعة هاشم
من أن يجرد بينها سيفان

تلك الحكومة لا التي عن لبسها
عظم النبا ، وتفرق الحكمان

والبيت الأخير يشير الى التحكيم الذي جرى بين على ومعاوية ، وانتهى بأمر) عظم خطبه ، وتفرق الحكمان من غير أن ينيرا الطريق أو يحسما الأمر .. أما الفضل ابن يحيى البرمكي فقد رد ألفة بني هاشم ، وحل السلام محل الخصام ، ولكن الأمور لم تجر كما أراد المخلصون فقد وشى الوشاة بيحيى العلوي فسجنه الرشيد ، وأمعن في العداء حتى تخلص من البرامكة . ويئس الشيعة من العراق وفارس وخراسان فاتجهوا الى شمال افريقية فأسسوا خلافة فاطمية ، أما من يئس منهم فقدوقفه عند المهدي المنتظر آملا في رجعته ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . وقد تظن أن آل أبي طالب هم الذين قالوا ذلك أو أوحوا به ،

انهم أبرياء من تلك المذاهب الا الذين نالوا ملكا وأقاموا دولا ، فقد تكون السياسة لونت مبادئهم بما يستقيم مع حكمهم .

تعال معى ننظر فيما قاله أبناء الحسين فى الشيعة وأبناء الحسن، من أبناء الحسن (حسن بن حسن) ينقل عنه ابن سعد فى الطبقات عن الفضيل بن مرزوق . قال : سمعت الحسن بن الحسن يقول لرجل ممن يغلو فيهم : ويحكم ، أحبونا لله فان أطعنا الله فأحبونا وان عصينا الله فأبغضونا . فقال له رجل : انكم قرابة رسول الله وأهل بيته . فقال : ويحك ، لو كان الله مانعا بقرابة من رسول الله أحدا بغير طاعة الله لنفع بذلك من هو أقرب اليه منا أبا وأما ... ويلكم اتقوا الله وقولوا فينا الحق فانه أبلغ فيما تريدون ونحن نرضى به منكم . ثم قال : لقد أساء بنا آباؤنا ان كان هذا الذى تقولون من دون الله ثم لم يطلعونا عليه ، ولم يرغبونا فيه . فقال له الرافضى : ألم يقل رسول الله عليه السلام لعلى : من كنت مولاه فعلى مولاه ؟ فقال الحسن : أما والله أن لو يعنى بذلك الامرة والسلطان لأفصح لهم بذلك كما أفصح لهم بالصلاة والزكاة وصيام رمضان وحج البيت ولقال لهم أيها الناس هذا وليكم من بعدى ، فان أنصح الناس كان للناس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان الأمر كما تقولون ان الله ورسوله اختار عليا لهذا الأمر والقيام بعد النبى عليه السلام ان كان لأعظم الناس فى ذلك خطيئة وجرما ، اذ ترك ما أمره به رسول الله أن يقوم فيه كما أمره أو يعذر فيه الى الناس .

وأبو جعفر محمد بن على حفيد الحسين يقول فى أسئلة وجهت اليه : السائل أكان منكم — أهل البيت — أحد يزعم أن ذنبا من الذنوب شرك ؟ أجاب محمد بالنفى . قال : أكان منكم أهل البيت أحد يسب أبا بكر وعمر ؟ قال أبو جعفر محمد : لا . فأحبهما وتولهما واستغفر لهما . وكان لأبى جعفر أخ غير زيد بن على

اسـمه عمر بن على سأله الفضيل ابن مـرزوق . قال : سألت عمـر ابن على وحسين بن على عمى جعفر ابن محمد (جعفر الصادق) قلت : هل فيكم ـ أهل البيت ـ انسان مفترضة طاعته تعرفون له ذلك ومن لم يعرف له ذلك فمات مات ميتـة جاهلية ؟ فقالا : لا والله ما هـذا فينا ، ومن قال هـذا فينـا فهـو كذاب ، قال : فقلت لعمر : رحمك الله ، ان هذه منزلة تزعمون أنهـا كانت لعلى ، ان النبى صـلى الله عليه وسلم أوصى اليه ، ثم كانت للحسن ، ان عليـا أوصى اليـه ، ثم كانت للحسين ان الحسن أوصى اليه ، ثم كانت لعلى ابن الحسيـن ان الحسين أوصى اليـه ثم كانت لمحمد بن على ان عليا أوصى اليه . فقال : والله لمات أبى فمـا أوصى بحـرفين . قاتلهم الله ، والله ان هؤلاء متأكلون بنا ، هذا خنيس .. قلت : المعـلى بن خنيس .

قال : نعم المعلى بن خنيس ، والله لفكرت على فراشى طويلا أتعجب من قوم لبس الله عقـولهم حـين أضلهم المعلى بن خنيس . فأبنـاء الحسن وأبنـاء الحسين يتبرءون من ألصق بهم تلك المقـولات ، ولكنهـا مضت سـافرة تجـوب البلدان ، وتنتشر فى كل مكان ، ويتبعها بشر من غير بصر ولا نظر .. ثم أصبحت عقائد تقـوم بهـا دول وتسقط دول ، ويرتفع بهـا عرش ويهوى بها عرش ، فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه فى عقيـدته وأمامـه كتاب الله وسنة نبيـه الصحيحة فلينظر وليقطع فى أمـر الدين وأوامره ونواهيه ، وليقرأ كتب التاريخ ببصـيرته لا ببصره وبعقـله لا بعاطفته هنالك يجـد السبيل الواضح والنـور المبين ، والله الهادى الى سواء السبيل .

السيد حسن قرون

حول إثبات أوائل الشهور العربية بالحساب الفلكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المشد

اختلف فقهاء الشريعة في ذلك ، فمنهم من أوجب الاعتماد في اثبات الرؤية لهلال شهر رمضان ، والافطار ، وأهلة الشهور الأخرى على الرؤية البصرية فقط ، دون سواها من وسائل الاثبات ، ومنهم من أجاز الاعتماد على قول علماء النجوم والحساب عند الغيم ، للحاسب نفسه ، أو له ومن بلغه أو قلده ، ومنهم من أوجب الاعتماد على قولهم ، وقد ذهب أكثر فقهاء المذاهب الأربعة الى وجوب الاعتماد في ذلك على الرؤية البصرية دون الاعتماد على الحساب الفلكي .

فمن الحنفية :

الكمال بن الهمام ، وأصحاب الفتاوي الهندية ، وبدائع الصنائع ، والشرنبلالية ، والسرخسي ، وقال ابن عابدين : لا عبرة بقول المنجمين ولو كانوا عدولا بالاجماع .

ومن الشافعية :

النووي ، وابن حجر ، والباجوري ، وابن قاسم الغزي والرملي الذي وضع رسالة في الرد على السبكي ، وان أجاز الرملي للحاسب وحده أن يعمل بحسابه ، كما أجاز القسطلاني للحاسب أيضا أن يعمل بحسابه كالصلاة مستدلا بظاهر قوله تعالى : « وعلامات بالنجم هم يهتدون » .

ومن المالكية :

الامام القرافي وفرق بين اثبات الأهلة وبين أوقات الصلاة حيث منع في الأولى وأجاز في الثانية .
وقال ابن عرفة :

لا أعرف لمالك اعتبار قول المنجم وكذلك الشيخ عليش فى كتابه :

« فتح العلى المالك » .

ومن الحنابلة :

ابن قدامة فى كتابه المغنى حيث يقول : من بنى على قول المنجمين والحساب لم يصح صومه وان كثرت اصابتهم لأنه ليس بدليل شرعى انما الدليل : قوله عليه الصلاة والسلام : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) . وقوله : (لا تصوموا حتى تروه ، ولا تفطروا حتى تروه) أى الهلال .

ادلة المانعين من الاثبات بالحساب الفلكى :

استدلوا :

١ ـ بما روى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروه ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له » .

أخرجه أبو داود والدارقطنى ؛ قال جمهور الفقهاء :

معنى اقدروا له : اكمال عدته ثلاثين . قالوا :

ويؤكد هذا المعنى حديث «فان غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » قالوا : ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين لأن فيه تضييقا على الناس اذ لا يعرفه الا أفراد ، أما الرؤية البصرية فيستطيعها كل انسان .

وذهب الامام أحمد :

الى أن معنى : اقدروا له : ضيقوا له العدد بدليل قوله تعالى : (ومن قدر عليه رزقه) أى ضيق ، والتضييق هنا جعل شعبان تسعة وعشرين يوما .

أما ابن عمر :

فقد فسره بفعله فقد كان يصوم يوم الشك ، وقال :

معنى الحديث : ضيقوا للهلال عدد لياليه .

٢ ـ وبما روى ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا

وهكذا وعقد الابهام فى الثالثة أى تسعة وعشرون ، والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعنى تمام الثلاثين » أخرجه أحمد والشيخان .

٣ ـ حديث « من صدق كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد » .

قالوا : والمراد بالحساب هنا : حساب النجوم وتسييرها ، وأقل ما فى النهى : الزجر عن العمل بالحساب والتنجيم واتخاذهما أساسا لحكم شرعى .

القائلون بالاعتماد على الحساب الفلكى واتخاذه اساسا للاحكام الشرعية .

قال بذلك فريق من فقهاء الحنفية والشافعية ، غير أنهم اختلفوا .

فقال بعضهم :

يجوز العمل بالحساب الفلكى لمن عرفه ولمن قلده .

وقال بعضهم :

يجب العمل به لمن عرفه ولمن قلده .

واشترط بعضهم لجواز الاعتماد عليه شرطان : (١) بعد القمر عن مكان غروب الشمس . (٢) أن يكون بالأفق غيم بحيث لو زال المانع أمكن رؤية الهلال بالبصر .

وأجازه بعضهم مطلقا :

فأجاز ربطه بالحساب الفلكى سواء أكان القمر قريبا من مكان غروب الشمس أم بعيدا عنه ، وسواء أكان الأفق غائما أم صافيا .
وممن أجاز من علماء الحنفية :

« صاحب الهداية » :

فى « مختارات النوازل » حيث قال : ان علم النجوم فى نفسه حسن غير مذموم ، وهو قسمان : حسابى ، وهو حسن نطق به القرآن وقال الله تعالى :

« والشمس والقمر بحسبان » (الرحمن ٥) ـ أى سيرهما بحسبان .

والاستدلال بسير النجوم ، وحركة الأفلاك على الحوادث جائز كاستدلال الطبيب بالنبض على الصحة والمرض الخ .

« صاحب القنية » :

روى فى هذا الحـــكم ثلاثة آراء :

(أ) القاضى عبد الجبار :

يرى أنه لا بأس بالاعتماد على قولهم ، وظاهـــره أن ذلك على الاطلاق لنفسه ولمن قلده ، وسواء أكان القمر قريبا أم بعيـــدا مـــن مغرب الشمس •

(ب) ابن مقاتل الـــرازى ـ من أصحاب محمد بن الحسن :

نقل عنه أنه كان يسألهـــم ، ويعتمد على قولهم وقد اتفق عليه جماعة منهم •

(ج) السرخسى :

وقد تقدم رأيه : بصدر هـــذا البحث •

(د) القشيرى : ويرى أنه اذا دل الحساب على أن الهلال قد طلع من الأفق على وجه يرى لولا وجـــود المانع كالغيم مثلا فهـــذا يقتضى الوجوب لوجود السبب الشرعى•

وليست حقيقة الرؤية مشروطة فى اللزوم ، فان الاتفاق معقـــود على أن المحبوس اذا علم بكمال العدد ـ أو الاجتهاد ـ أن اليوم من رمضان وجب عليه الصوم ، وان لم ير الهلال ، ولا أخبره من رآه•

وقد رأى المؤتمـــر الأخذ بهذا الرأى مع عدم الاعتداد باختلاف المطالع•

ومن علماء الشافعية :

« الامام السبكى » :

• ذهب الى اعتماد الحســاب فى اثبات الأهلة ومواقيت الصلاة بناء على أن الحساب قطعى الثبـــوت نظرا الى ما وصل اليه علم الحساب والفلك مـــن الدقـــة والوثوق فى نتائجهما •

وقرر الامام السبكى : انه لو شهدت بينة برؤية الهـــلال ليلة الثلاثين من الشهر • وقال الحساب بعدم امكان الرؤية تلك الليلة عمل بقول أهل الحساب لأن الحساب قطعى والشهادة ظنية •

والسبكى يرى جـــواز الاعتماد على الحساب الفلكى لا وجوبه ، وربط الحكم الشرعى به اذا كان

القمر بعيدا عن مغـــرب الشمس بحيث يمكن رؤيته بصـريا لولا الغيم وهو فى هذا تابع لامام سابق من أئمة الشافعيــــة وهـــو ابن سريج •

ونقل السبكى عن فريق من أئمـة الشافعية :

منهم : الرافعى ، والماوردى ، والرويانى أن الفقهاء قد أختلفوا فى جواز الاعتماد على الحساب وربط الحكم به مطلقا أى سـواء أكان القمر قريبا من مغرب الشمس ولا ــ يمكن رؤيته ــ أم بعيدا عنه بحيث يمكن رؤيته لولا المانع من غيـم أو نحوه •

ورجح السبكى أن خلاف الفقهاء فيما اذا كان القمر بعيدا عن مغرب الشمس ويمـكن رؤيتـــه لولا المانع ، بخلاف ما اذا كان القمـر قريبا من الشمس ، أو كان بعيدا يمكن رؤيته •

القائلون بوجوب العمل : ثم نقل السبكى من القفال ، والقاضى أبى الطيب من أئمة الشـافعية وعــن غيرهما من غير الشافعية القـول بوجوب العمـل بالحساب الفلكى لمن عرفه ولمن قلده •

وذهب طاووس ، وجماعة مـن الشيعـة الامـامية الى أن علم الحساب والفلك من علوم الأنبياء•

فمن علمت اصابته منهم ، وعدم خطئه : أفاد قوله غلبة الظن وعمل بمقتضاه لأن الأحكام تبنى على غلبة الظن •

أدلة القائلين بالأخـذ بالحســاب الفلكى :

استدل القائلون بجواز الأخذ بالحساب الفلكى أو بوجوبه بأدلة بعضها عقلى وبعضها علمى، وبعضها شرعى •

١ ــ قالوا : ان الرؤية البصرية تتوقف على أمور متغيرة غير ثابتة كحالة الجو من صفاء واكفهرار ، ودقة الهلال وكبره ومقدار ضوئه ، وسلامة بصر الناظـر ومـرضه أو ضعفه ، وارتفاع مكانه وانخفاضه وغير ذلك ممـــا يكون له أثر كبير فى وضوح الرؤية وخفائهـا

ولهذا كانت وسيلة ظنية فى اثبات ما تعلقت به من أحكام .

أما الحساب الفلكى ، فاذا كان قديما يقوم على الحدس والتخمين وكان بهذا خليقا أن يكون وسيلة ظنية ، وموضعا لاختلاف الفقهاء فى ربط الحكم الشرعى به لضعف آلاته الفلكية والحسابية ، فانه الآن موضع الثقة بعد أن أصبح علما يقوم على أساس من القوانين والبراهين التى لا تخطىء النتائج .

وأصبح يقوم بتحديد أوائل الشهور العربية على أساس ثابت وهو اجتماع الشمس بالقمر ، فاذا اجتمعا كانت أول ليلة يظهر فيها القمر بعد غروب الشمس هى أول الشهر العربى ولو كانت مدة مكثه فى الأفق بعد غروب الشمس دقيقة واحدة .

ولكن نظرا لبقاء ضوء شفق الشمس بعد غروبها حوالى سبع دقائق مما يحول دون رؤية الهلال اذا كان قريبا من مغرب الشمس ، فانه لا يمكن للعين السليمة رؤية الهلال حتى مع الظروف المناسبة فى السماء الصافية .

واذا فالحساب العلمى الفلكى فى مثل هذه الحال يثبت مولد الهلال وابتداء الشهر العربى بما لا يدع مجالا للشك ، بينما الرؤية لا تثبته لدقة الهلال ، وقربه من من مكان غروب الشمس وضوء الشفق .

٢ ـ رجوع الفقهاء الى أهل الخبرة امتثالا لقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ٢١ : ٧ » .

فيأخذ الفقهاء بقول الطبيب فى مدى المرض الذى يسوغ للمريض الافطار فى رمضان ، وبقول القومسيون الطبى ، وتسجيل الأصوات والوقائع وغير ذلك من وسائل الاثبات مما يكسب القاضى أو المفتى علما جازما أو ظنا راجحا يبنى عليه حكمه .

٣ ـ مقدمات حسابات الفلك قطعية يدل على ذلك حساب الفلكيين فى الكسوف والخسوف ، ومطابقة

هذا الحساب للواقع بدقة مع عدم التخلف .

٤ ـ بناؤه على أمور محسوسة ومشاهدة بمعرفة الأرصاد ، والآلات الفلكية الدقيقة .

٥ ـ من الأدلة الشرعية قول الله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ٢ : ١٨٥ » .

فسر شهود الشهر بمعنيين :

أحدهما : الحضور فيه ، وعدم السفر ، فيجب على من حضر ولم يسافر الصوم .

المعنى الآخر : العلم بوجوده ، وهو الظاهر ، والمعنى عليه : كل من علم منكم بوجود الشهر وجب عليه صومه ، ووجود الشهر شرعا يكون بوجود هلاله بعد غروب الشمس بأى طريق من طرق العلم، وانما نص على الرؤية باعتبارها احدى وسائل العلم بوجود الهلال.

كذلك استدلوا بحديث « فان غم عليكم فاقدروا له » .

حيث قالوا : ان التقدير له من معانيه معناه : حسابه بالفلك حيث لا تمكن الرؤية .

وعليه :

فمن علم بوجود هلال شهر رمضان بعد غروب شمس آخر يوم من شعبان بأى طريق من طرق الاثبات المؤدية الى القطع بوجوده ، أو الى الظن الغالب بوجوده ، سواء أعَلِمَ ذلك برؤية نفسه ، أم باخبار من يثق به ، أم بأمر القاضى ، أم بحساب فلكى معتمد : وجب عليه الصوم لأن الاسلام لا يرد حجة قطعية ، ولا يخص بالقبول نوعا من البينات على نوع آخر مساو له أو أقوى منه . حتى ولو خالف ذلك ظاهر النص : فقد نقل « ابن عابدين ج ٤ ص ١٨٧ » اعتبار العرف مطلقا وان خالف النص عند أبى يوسف ورجحه وعلل لذلك بقوله : لأن النص ما كان فى ذلك الوقت الا لأن العادة اذ ذاك كذلك ، وقد تبدلت فتبدل الحكم .

اختلاف المطالع

ج ٢ فتح القدير ص ٥٣

•• واذا ثبت الهلال فى مصر لزم سائر الناس ، فيلزم الصوم أهل المشرق برؤية أهل المغرب فى ظاهر المذهب •

وقيل يختلف الصوم باختلاف المطالع لأن سبب الصوم حضور الشهر • وانعقاد الصوم فى حق قوم بسبب الرؤية لا يستلزم انعقاده فى حق آخرين — مع اختلاف المطالع — وصار كما لو زالت الشمس أو غربت على قوم دون آخرين وجب على الأولين الظهر والمغرب دون أولئك الآخرين •

ودليل الأول ووجهه : عموم الخطاب فى قوله عليه السلام : « صوموا » فقد علق طلب الصيام على مطلق الرؤية فى قوله : « لرؤيته » ، وبرؤية أى قوم فى الشرق أو الغرب يثبت وجوب الصوم •

بخلاف الزوال والغروب فانه لم يثبت تعلق عموم الوجوب بمطلق مسماه فى خطاب الشارع كما فى الرؤية •

وتقل « الدين الخالص ج ٨ ص ٢٦١ » •

•• أن هذا رأى جمهور الحنفية ومالك وأحمد والليث وروى عن الشافعى واستدل بحديث أبى هريرة (صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته) أخرجه الشيخان لأنه خطاب عام لا يختص بأهل ناحية لأنه اذا رآه أهل بلد فقد رآه المسلمون فيلزم غيرهم مالزمهم اذا ثبتت عند الغير رؤية من رأى بطريق شرعى موجب للصيام وبما روى عكرمة عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تصوموا حتى تروه ثم صوموا حتى تروه » — أى لا تصوموا رمضان حتى تروا هلاله ثم صوموا حتى تروا هلال شوال — فان حال دونه غمامة فأتموا العدة ثلاثين ثم أفطروا » أخرجه الثلاثة وقال الترمذى حسن صحيح •

وهو خطاب لكل من يصلح له من المسلمين •

واذا كان ابن عباس لم يعمل باختلاف المطالع فذلك منه اجتهاد

واجتهاده ليس حجة مع النص وان كان قد تابعه فى ذلك الشافعى فى المشهور عنه ، وصاحب التجريد وغيره من الحنفية .

* * *

وقد عدت توا من مؤتمر اسلامى عالمى انعقد فى استانبول لهذا الغرض فى الفترة من ٢٦ ذى الحجة الى ٢٩ ذى الحجة ١٣٩٨ هجرية وقد مثلت مصر فيه ضمن مندوبين عن الأقطار الاسلامية التالية :

- آسيا الوسطى وقازاقستان (الاتحاد السوفييتى) .
- أفغانستان .
- اندونيسيا .
- الباكستان .
- البحرين .
- بنغلادش .
- تركيا .
- تونس .
- الجزائر .
- دولة الامارات العربية (أبو ظبى) .
- دولة الكويت .
- السودان .
- العراق .
- قبرص .
- لبنان .
- ماليزيا .
- المملكة الأردنية الهاشمية .
- المملكة العربية السعودية .
- المملكة المغربية .

ومندوب عن كل من :

- رابطة العالم الاسلامى .
- المركز الاسلامى فى باريس .
- المركز الاسلامى فى بروكسل .

•• وقد جاء هذا المؤتمر على نسق المؤتمرات المشهورة السابقة التى انعقدت لنفس الغرض ، فكانت أشغاله مكملة لما وقع التوصل اليه بمؤتمر كوالالمبور بماليزيا ومؤتمر وزراء الأوقاف بالكويت.

وتناولت الوفود ـ المشاركة فى بحوثها المقدمة ـ الحالة المؤسفة التى يظهر بها المسلمون فى ابتداء

الصيام ونهايته ، وفى المواسم والأعياد من اختلاف .

•• وأجمع أعضاء المؤتمر وجوب معالجة هذه الحالة التى يأباها الشرع لأن المسلمين أمة واحدة بنص القرآن الكريم « ان هذه امتكم أمة واحدة » ولا يجوز لهم أن يختلفوا فى دينهم . وقد أمر الله تعالى بالوحدة فى قوله جل وعلا : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ٣ : ١٠٣ » .

وقد تشكلت لجنتان : لجنة شرعية ، ولجنة فلكية ، من العلماء الأعضاء كل فى اختصاصه لبحث التقارير المقدمة ودراستها . وبعد المناقشة الشاملة الدقيقة اتخذ المؤتمر فى جلسته الختامية القرارات التالية بالاجماع :

أولا ــ الأصل هو رؤية الهلال، سواء أثبتت بالعين المجردة أم بطرق الرصد الحديثة .

ثانيا ــ لاعتبار حكم الحاسبين بدخول الشهر القمرى شرعيا يجب أن يبنوا حكمهم هذا على وجود الهلال فى الأفق بالفعل بعد مغيب الشمس بحيث يمكن أن يرى بالعين عند انتفاء الموانع وهذا ما يسمى بالرؤية الحكمية .

ثالثا ــ لامكان رؤية الهلال لا بد من توفر شرطين أساسيين هما :

(أ) ألا يقل البعد الزاوى بين الشمس والقمر عن ثمانى درجات بعد الاقتران ، مع العلم بأن بداية الرؤية تحصل بين سبع وثمانى درجات ، وانما اتفق على الأخذ بثمانى درجات على سبيل الاحتياط .

(ب) ألا تقل زاوية ارتفاع القمر عن الأفق عند غروب الشمس عن خمس درجات .

وعلى هذا الأساس وحده يمكن رؤية الهلال بالعين المجردة فى الأحوال العادية .

رابعا ــ لايشترط لامكان رؤية الهلال مكان خاص بل يصح الحكم بدخول الشهر اذا أمكنت رؤيته من مكان ما من سطح الأرض

وينبغى أن يكون الاعلان عن الرؤية كما يقررها التقويم الهجرى الموحد المشار اليه فى البند التالى فى جميع أنحاء العالم بواسطة المرصد الفلكى بمكة المكرمة متى تم انجازه : جمعا لكلمة المسلمين وتحقيقا لوحدتهم .

خامسا ــ وجوب وضع تقويم فلكى لكل سنة قمرية من قبل علماء الشريعة والفلك والمراصد استنادا الى المقاييس السابق ذكرها فى القرارات الثانى والثالث والرابع ، وتجتمع دوريا مرة كل سنة ، ويكون الاجتماع الأول باستانبول فى شهر ربيع الثانى من سنة ١٣٩٩ هجرية الموافق مارس سنة ١٩٧٩ ميلادية .

سادسا ــ تتألف لجنة التقويم المشار اليها فى القرار السابق من الأقطار الآتية :

ــ أندونيسيا ــ بنجلاديش ــ تركيا ــ تونس ــ الجزائر ــ السعودية ــ العراق ــ قطر ــ الكويت ــ مصر ــ ولا يلزم لانعقادها حضور جميع الأعضاء .

سابعا ــ تقوم اللجنة المشار اليها سابقاً باعداد خرائط توضح عليها المناطق التى يمكن أن يرى فيها الهلال حسب المقاييس المبينة سابقا وذلك بالنسبة الى شهر : رمضان ، وشوال ، وذى الحجة مما يسمح لكل من أراد أن يتأكد من الاستهلال أن يتحقق الرؤية ويقتنع بصحة الحساب اذا كان فى حالة تمكنه من ذلك عادة ، ويتيح لكل دولة أن ترصد الهلال بواسطة هيئة موثوق بها متخصصة معتمدة .

ثامنا ــ عرض هذه القرارات والتوصيات على الأمانة العامة لمؤتمر وزراء الخارجية الاسلامى لتتولى بدورها عرضها فى الدورة القادمة لمؤتمر وزراء الخارجية الذى سينعقد فى الرباط من أجل اقرارها ووضعها موضع التنفيذ .

* * *

كما تقدم المؤتمر فى جلسته الختامية بالتوصيات التالية :

أولا ــ عقد مؤتمر خاص لبحث تحديد أوقات الصلاة والصيام فى المناطق التى يمتد فيها النهار أو

الليل امتداداً يختلف عما هو عليه فى المناطق المعتدلة .

ثانيا ــ ادخال مادة الفلك ضمن مناهج الدراسة فى التعليم العام وبصفة خاصة فى التعليم الدينى ، وانشاء أقسام تخصصية فى الفلك فى التعليم الجامعى .

ثالثا ــ مناشدة المسئولين فى العالم الاسلامى ، من الوزارات المختصة واذارات الشئون الدينية والاسلامية والهيئات الرسمية المهتمة بشئون المسلمين كالأزهر الشريف ، ورابطة العالم الاسلامى، أن يعملوا جميعا على وضع مقرراته موضع التنفيذ توحيدا لمناسباتهم وأعيادهم الدينية محققين بذلك وحدتهم التى يصبون اليها .

رابعا ــ دعوة الحكومات الاسلامية الى العناية بالمراصد وتعميمها فى البلدان الاسلامية وتبادل الخبرات والتنسيق بينها .

خامسا ــ دعوة رابطة العالم الاسلامى الى انجازالمرصد الفلكى بمكة الذى اقترحه مؤتمر وزراء الأوقاف والشئون الدينيةبالكويت وأقرته الرابطة وشرعت فى تأسيسه .

سادسا ــ مطالبة رئاسة الشئون الدينية بالجمهورية التركية بابلاغ هذه القرارات الى الحكومات الاسلامية كلها ، والى المنظمات والهيئات الاسلامية فى جميع بلدان العالم .

عبدالله المشد

قال احدالشعراء فى الزهد :

يا نفس خافى الله واتئدى
واسعى لنفسك سعى مجتهد
من كان جمع المال همته
لم يخل من غم ومن كمد
يا طالب الدنيا ليجمعها
جمحت بك الآمال فاقتصد

الإسلام : شريعة عالمية

للأستاذ زاهر عزب الزغبى

— ٢ —

٤ ــ قانون الاحوال الشخصية

لقد اعتنى الاسلام بتقويم الفرد الانسانى وتربية شخصيته وارادته تربية صالحة تؤهله لكى يكون مواطنا صالحا فى مجتمع صالح باعتبار هذا الفرد الوحدة الحقيقية فى المجتمع الانسانى الواسع ، ولكن هذا الفرد وثيق الصلة بالخلية الاولى فى البنيان الانسانى الضخم ... وهذه الخلية الاجتماعية الأولى ليست سوى الأسرة ... ومن ثم كان الاهتمام الكبير الذى أولاه الاسلام للاسرة وتكوينها والعلاقات التى تربط بين أفرادها وأوضحت الشريعة الاسلامية ــ بتفصيل دقيق ــ الحقوق والواجبات لكل فرد من أعضائها ، والنظم والقواعد التى تنظم جميع الأوضاع التى يجب أن تسود حياة الأسرة والعلاقات بين أعضائها ... ومن مجموع هذه النظم والقواعد يتكون ما يسمى اليوم بقوانين الأحوال الشخصية .

الوضع الاجتماعى للمراة :

وليس ثمة من شك فى أن الشريعة الاسلامية قد أتت بقواعد جديدة ردت للمرأة ــ لكونها ركنا أساسيا فى الأسرة ــ اعتبارها ومنحتها كافة حقوق الانسان باعتبارها عضوا فى المجتمع الانسانى تساهم بدور فعال فى تقدمه ونهضته ، كما أنها تشارك الرجل فى هذا المجتمع بنسبة عددية قد تزيد أحيانا على النصف .

وقد كانت المرأة قبل الاسلام فى وضع مهضوم ــ سواء فى

أسرتها أو فى مجتمعها — فقد اعتبرتها الشريعة الرومانية رقيقا أو تابعا ليست له حقوق مستقلة على الاطلاق ، أما الشريعة البرهمية فى الهند فقد اعتبرت المرأة متاعا ليست له قيمة حقيقية الا فى كونها أداة لمتعة الرجل ولانجاب الذرية ، وهى فى كلا الحالتين مرتبطة بحياة الرجل وارادته ، فاذا ما مات زوجها فانها تحرق حية على جدثه ، لأنها فى نظر البراهمة ليس لها — بدون رجلها — أى نفع أو غناء .

وكان قدماء المصريين يعتبرون المرأة قرين الشيطان وعلة الخطيئة وشرك الغواية والرذيلة ، فكانت فى نظرهم شيئا يتعين التعامل معه بحذر اذا لم يكن هناك مناص من تجنبه أو الاستغناء عنه .

أما اليهودية فانها كانت — حسب تشريعات العهد القديم — تبيح تعدد الزوجات بلا قيد أو ضمان وجاءت المسيحية فسارت على نهج الناموس الموسوى حتى حادت عنه فى زمن متأخر عندما أجمع زعماء الكهنوت المسيحى على أن المرأة حبالة الشيطان والأفضل للانسان تجنبها ، والاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبنة والتجرد لطاعة الله ... وطوال العصور الوسطى كانت الأمم المسيحية تكيف مركز المرأة الاجتماعى وفق نظم وقوانين استعيرت فى الأغلب من الشريعة الرومانية القديمة ، فلم يكن للمرأة آنذاك تشخص مدنى محدد كما لم تكن لها أهلية أو ارادة مدنية ، أو حقوق قانونية .

وفى الجزيرة العربية وبعض مناطق الشرق الأوسط كانت المرأة شيئا بغيضا ، فكانوا يتشاءمون بمولدها ، ولا يترددون فى وأدها حية مخافة العار أو تخفيفا بمؤونتها من أثقال المعيشة وتكاليف الحياة .

وجاءت الشريعة الاسلامية فرفعت مكانتها وجعلتها قرينة للرجل وندا له فى سائر الحقوق والأهليات ، الا فى القليل الذى تقتضيه العدالة ، اعتبارا لطبيعة الجنس ، وما يستلزمه من تفاوت

فى الكفاءة والقدرة وغير ذلك من الاعتبارات والملابسات .

وقد كانت المرأة قبل الاسلام متاعا يورث فمنحها الاسلام حق الارث ، كما منحها حق الحرية فى الزواج ، واختيار الزوج ، وأهلية الوصايا على أولادها أو غيرهم ، وحق ادارة أموالها واستثمارها ، بل وسائر التصرفات المدنية من غير ما سيطرة عليها من الرجل سواء أكان قريبا أو زوجا .

ولكون الرجل أقدر من المرأة وأقوم تدبيرا فقد احتفظت له الشريعة الاسلامية بالارادة العليا فى تدبير شئون الأسرة . ولكن بدون مساس بالحقوق الخاصة للزوجة .

وقد نظمت الشريعة الاسلامية سائر شئون الاسرة تنظيما دقيقا ووضعت لذلك قواعد جديدة مفصلة من غير ما تقيد بشىء من النظم العرفية التى كانت تسود حياة الأسرة من قبل ، وقد جاء هذا التنظيم لحقوق الأسرة فى الفقه الاسلامى وفق التبويب التالى :

أولا ــ الزواج ، ثانيا ــ الطلاق ثالثا ــ العدة ، رابعا ــ النفقة ، خامسا ــ الحضانة ، سادسا ــ الوصاية ، سابعا ــ الميراث .

وسأعرض لكل من هذه الأبواب وفق هذا الترتيب بايجاز غير مخل بالغرض من هذا الكتاب .

الزواج :

اهتمت الشريعة الاسلامية بالزواج اهتماما كبيرا باعتباره أساس بناء الأسرة وبه تتكون وتنمو تلك الأسرة التى ليست الا اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، كما أن الزواج أيضا فى واقعه اجراء حصيف لتنظيم وتهذيب أعتى غرائز الانسان وأقواها دافعا له على بقاء النوع واستمرار الحياة .. وغريزة الجنس تتساوى فى قوة الحاحها بالشهوة الجامحة لدى كل من الانسان وسائر أنواع الحيوان .. ولو لم ينظمها الانسان بالزواج لساوى الحيوان فى بهيميته ، ولقلت لديه روابط التكاتف والتعاون والألفة والمودة

والرحمة مع كل من قبيه فى أسرته ورفيقه فى مجتمعه .

(رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا ..)

(سورة مريم ٤ ــ ٦)

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) .

(النحل ٧٢)

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) .

(بداية النساء)

وقد أوجبت الشريعة الاسلامية الزواج فى حال القدرة عليه ... واعتبرته فرضا يأثم المسلم بتركه كالصلاة اذا خيف الوقوع فى المحظور ــ تحت الحاح الشهوة ــ باقتراف الزنى .

.....

وينعقد الزواج وينتج جميع نتائجه بمجرد اتفاق ارادة الطرفين بحضر شاهدين دون توقف على تدخل ثالث حتى ولو كان طرفا له صبغة دينية .. اذ أنه لا يوجد فى الاسلام ــ كما فى غيره من الاديان ــ طبقة من رجال الدين لهم سلطة دينية .. وفى شريعة الاسلام لا وساطة بين الله والناس ، حتى ان النبى نفسه كانت مهمته الرئيسية التبليغ لأحكام الدين وتطبيقها .

وعلى هذا فالزواج فى نظر الاسلام عقد مدنى محض كسائر العقود لا يتم الا بتسمية جعل مالى (هو المهر) يدفعه الرجل فى نظير تسليم المرأة نفسها .

(وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض

وأخذن منكم ميثاقا غليظا) .

(النساء ٢٠)

وعلى هـذا فالزواج عقد مدنى محض ، ولكن له آثاره الخطيرة .. من حيث انه يستلزم عشرة ينبغى أن تسودها وشائج الألفة والمودة والرحمة والحب .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) .

(الروم ٢١)

ولهـذا فان الشريعة الاسلامية قـد استحسنت أن يكون كل من الزوجين على معـرفة بالآخـر الى الحـد المعقول قبـل العقـد ، والا فتتاح لهما فرصة التعارف فى نطاق الحدود المباحة . (قال صلى الله عليـه وسلم للمغيرة بن شعبة حين خطب امرأته : (أنظر اليها فانه أحـرى أن يؤدم بينكمـا) ، ويستحسن أيضا أن يكون الاختيار على أساس يقوى من علاقة الألفة والتراحم والمـودة بين الزوجـين لا على دافـع من بهـرج زائف أو مطمع فى مال أو عرض زائل .

(قال عليه السلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجهـا لمالهـا لم يزده الله الا فقـرا ، ومن تزوجهـا لحسبها لم يزده الله الا دناءة ، ومن تزوجها لم يرد بهـا الا أن يغض بصره ويحصن نفسه بارك الله له فيهـا وبارك لها فيه) .

(وقال أيضا : عليك بذات الدين تربت يداك)

وحتى ينتج عقد الزواج آثاره الصالحة المبتغاة أحاطتـه الشريعة الاسلامية بضمانات تكفل استقرار الحياة الزوجيـة ودوامهـا من غير تعرض للقلاقل والهزات التى يسببها فى الغـالب عـدم توفر العـوامل والأجواء الطبيعية لحياة الأسرة ، فاشترطت صلاحية كل من الزوجين للزواج عنـد العقد وقيام الكفاءة بينهما .. ماليـا واجتماعيـا ... وأجازت للمرأة التى زوجت قاصرا بمباشرة وليها أو الوصى عليها من غير كفء لها أن تطلب حين بلوغها سن النضج النسائى فسخ العقـد

وانفصام عقدة النكاح لعدم الكفاءة بينها وبين بعلها .. كما أتاحت للمرأة أيضا أن تطلب الطلاق اذا اتضح لها عيب مستور فى الزوج يجعله غير قادر بسبب صحى أو بأى سبب آخر على عدم الوفاء بواجباته الزوجية .

والواجبات التى يلتزم بها الرجل ازاء زوجته هى : القيام بأداء جميع حاجاتها من دواعى العصمة ونفقات معيشتها ومعيشة أولادها منه فى حدود المتعارف المألوف وعليها فى مقابل ذلك طاعته وصيانة ماله وعرضه .

(ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) .

(البقرة ٢٢٨)

وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم بين ابنته فاطمةوزوجها الامام على رضى الله عنه فألزم ابنته بخدمة البيت ورعايته وألزم زوجها بما كان خارج البيت من عمل ويتعين على كل من الرجل والمرأة أن يحسن عشرة الآخر فان أساءت المرأة عشرة الرجل جاز له تأديبها بمقتضى ما له من حق القوامة عليها .

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ان الله كان عليا كبيرا) .

(النساء ٣٤)

وقد قال الأستاذ محمد عزة دروزة بهذا الصدد فى كتابه (الدستور القرآنى فى شئون الحياة) انه من الجدير التنبيه على أن مظاهر التأديب المعنية فى الآية ليست ايجابا ، وانما هى على سبيل الاجازة والاباحة وقد احتاطت الآية فى وسيلة الضرب خاصة ــ وهو الذى يمكن أن يثير الكلام فى هذا الباب ــ فجعلته آخر الدواء وقدمت عليه العظة والهجران .

ولقد جاء بعد هذه الآية آية يمكن أن تقوم قرينة على أن التأديب هو بقصد الاصلاح والابقاء على الصلات الزوجية ، وليس بقصد الأذى والانتقام ، وهى هذه الآية :

(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ، ان الله كان عليما خبيرا) .
(النساء ٣٥)

ومن الحق أن يكون التأديب حتى بالضرب سائغا اذا كان يتفادى به قطع رابطة الزوجية ، وانهيار الأسرة كما هو المتبادر ، على أن بعض الأئمة والعلماء ومنهم الامام الشافعى قد استحسنوا ترك الضرب .

وأيا ما كان فان مسألة الضرب هذه تكون لازمة لزوما حتميا فى بعض الحالات والظروف ، من حيث الوقائع أو فئات الناس ، كوسيلة وحيدة للردع والتأديب ولتفادى كارثة الطلاق أو ما هو شر منها .

وقد منعت الشريعة الاسلامية الزواج بسبب القرابة بشروط معينة ، أما القرابة المانعة للزواج بالنسبة للرجل فيمتنع عليه الزواج بأحد أصوله أو فروعه أو فروع أبويه (الاخوة وأولادهم) مطلقا ، وبالطبقة الأولى من فروع أجداده فيجوز له أن يبنى ببنت عمه وبنت خاله .

وبالنسبة الى أقارب أحد الزوجين فيمتنع على كل منهما التزوج بأحد أصول الآخر أو فروعه .

وأخيرا تأتى مسألة تعدد الزوجات .. وهى مسألة متشابكة الارتباطات والاعتبارات .. وقد اتخذت فيها الشريعة الاسلامية موقفا وسطا بين الاباحة المطلقة والمنع المطلق .. وقد أبيح ذلك ضمن حدود وشروط اعتبارا للأمر الواقع والضرورات الملجئة المتوقعة .

وقد وردت رخصة التعدد ضمن الآية الثالثة من سورة النساء التى تقول :

« وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من

النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » . (تجوروا) .

والآية هنا تجيز التعدد الى أربع زوجات بشرط ضمان العدل وعدم الجور بينهن ، ولكن الآية التاسعة والعشرين بعد المائة قد أكدت صعوبة العدل .

« ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » .

وفى هذا ايحاء من الله سبحانه وتعالى لعباده بضرورة الاكتفاء بزوجة واحدة لصعوبة شرط التعدد المباح (وهو العدل) وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم حدود العدل حين نظم ليالى مبيته لدى زوجاته وساوى بينهن فيما يستطيعه من نفقات معيشتهن وقال : (اللهم هذا عدلى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لا أملك) .

وعلى أية حال فالانسان المنصف لا بد وأن يقدر الضرورات الاجتماعية والاخلاقية والاقتصادية الملجئة للتعدد ، اذ كيف يتصرف المرء فيما لو أصيبت زوجته بمرض مزمن أو بعقم مستديم ، أو فيما لو اضطر الى سفر طويل وهو شبق نهم الشهوة الجنسية .. ففى التعدد هنا حكمة يقتضيها المنطق والحكمة ونواميس الحياة .

الطلاق والعدة والنفقة :

واذا ما انفصمت أواصر الزواج بوفاة الزوج أو بالطلاق فاذا كان هذا قبل الدخول فلا ضير على المرأة من أن تبنى فورا بزوج آخر وعليها أن تعيد نصف مهرها الى زوجها السابق أو ورثته .. أما اذا كان ذلك بعد الدخول فيتعين استبراء رحمها بأن تمكث المرأة بلا زواج مدة معينة فى كل من حالتى الوفاة أو الطلاق وهذه المدة تسمى بالعدة ولها أن تتزوج بآخر بعد ذلك اذا لم يظهر انها حامل فاذا ظهر فيها الحمل امتدت عدتها حتى تضع حملها .. وعلى المطلق نفقة مطلقته مدة عدتها .

وقد أجازت الشريعة الاسلامية الطلاق باعتباره اجراء لا مفر منه وانهاء لنفرة وبغضاء بين زوجين

سادت بينهما الكراهية واستحكمت .. ففى اكراههما على استمرار حياتهما الزوجية استمرار العذاب لكليهما . وهذا شىء فظيع لا مبرر له ... على أن الشريعة الاسلامية قد جعلت الطلاق حلا أخيرا لا يجب اللجوء اليه الا اذا استفحل الشقاق وأصبح من المتعذر التوفيق بين الزوجين ، ومع هذا فقد اعتبرته اجراء كريها .

« أبغض الحلال الى الله الطلاق »

(حديث شريف)

ولهذا جعلت الشريعة الاسلامية الطلاق بيد الرجل لأنه أقدر على كظم الغيظ وكبت الغضب وعلى تقدير الظروف والعواقب فلا يلقى بيمين الطلاق جزافا أو بدافع من الهوى أو فى ثورة غضب .

وكذلك جعلت الطلاق على مراحل فأجازت للرجل اذا رجع الى نفسه وانفثأ غضبه أن يعيد زوجته الى عصمته أثناء عدتها من الطلاق الأول حتى بغير رضاها أما اذا تلكأ حتى انقضت عدتها فلا يجوز له أن يعيدها بمحض ارادته بل لابد من موافقتها ، وفى هذه الحالة يتعين أن يعقد عليها من جديد ويؤدى لها مهرا جديدا . وكذلك بعد الطلاق الثانى ــ أما اذا طلقها ــ بعد هاتين الطلقتين ــ مرة ثالثة فانه يكون من الواضح أن لا فائدة من الاستمرار لعشرتهما معا فقد اتيحت لهما من قبل فرصتان لمراجعة النفس واصلاح ذات البين ..

والطلاق فى جميع صوره ليس الا نوعا من اعطاء فسحة للزوجين يتدبران فيها أمرهما لعلهما يجدان ما يدفعهما الى استئناف الحياة الزوجية .. اما بكلمة المراجعة أو باجراء عقد جديد ، بعد أن تمثل لهما شبح الافتراق الدائم المستمر ومن ثم كان الطلاق الثالث هو خاتمة المطاف فلا يجوز بعده رجعة .. وحتى فى هذه الحالة كانت الشريعة الاسلامية رحيمة بكل من الرجل والمرأة فأتاحت لهما استئناف حياة زوجية جديدة اذا ما تزوجت المرأة برجل آخر وعاشرته ثم مات عنها أو طلقت منه .. ولعل فى اشتراط هذا القيد درسا

لكليهمـا . ففى رؤية الرجـل لمن كانت زوجتـه تحت رجـل آخر ما يجعله يعض بنان الندم ويشعر بالحسرة على تفريطه فيهـا اذا كان العيب من جانبه .. كمـا انه قـد يكون فى معاشرتهـا لرجـل آخر — وربما لم يحسـن عشرتها ولم يراع اعزازها واسعادها كزوجهـا الأول — ما يجعلها تشعر بالحسرة والندم اذا كان العيب من جانبها .. فاذا ما ارتأى كلاهما استئناف حياة زوجية جـديدة بعد خلاصهـا من الزوج الثانى كان من المأمول أن يصلح المعوج منهما من نفسه .

ومع أن الشريعة الاسلامية قـد قصرت حق الطـلاق على الرجـل فانها أباحت للمرأة — كما سبق أن أوضـحنا — ان تطلب الطـلاق للضرر .

وللرجل أن يطلق زوجته بنفسه أو أن يوكل غيره فى ذلك والزوجة أهل لأن يكل اليها زوجها أمر طلاق نفسها منه بصورة مطلقة أو مقيدة بشروط معينة .

وللمرأة أن تفتـدى نفسها من زوجها بمال اذا رفض طلاقها الا بمقـابل وتعـويض « والمطلقات يتربصن بأنفسـهن ثلاثة قـروء ، ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله فى أرحامهـن ان كـن يؤمن بالله واليوم الآخـر ، وبعـولتهن أحق بردهن فى ذلك ان أرادوا اصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطـلاق مرتان فامسـاك بمعـروف أو تسريح باحسـان ، ولا يحل لكم ان تأخـذوا ممـا آتيتمـوهن شيئا الا أن يخـافا الا يقيما حـدود الله ، فان خفتم الا يقيمـا حـدود الله فلا جنـاح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فان طلقها فلا جناح عليهمـا أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينهـا لقوم يعلمون ، واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهـن فامسكوهـن بمعـروف أو سرحـوهن بمعـروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن

يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم ، واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة ٢٢٨/٢٣٢)

« يأيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ، فاذا بلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ، واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا .

(الطلاق ١ ــ ٤)

فسبحان الله الذى جلت حكمته وصدقت كلمته .

الحضانة والولاية والوصاية :

وهذه راعت فيها الشريعة الاسلامية فى الأغلب مصلحة الصغير فاحتفظت للأم بحق حضانته بعد الطلاق أو وفاة الأب ما لم تتزوج بأجنبى ــ وحينئذ ينتقل حق الحضانة الى أكثر النساء قربا الى هذا الصغير ــ على أنه اذا تساوت القرابة بين امرأتين فضلت ما كانت قرابتها تمت اليه من ناحية الأم أما الولاية فقد عرفت فى القوانين الحديثة بأنها سلطة على

شخص الصغير القاصر لرعاية شئونه وتنشئته ... وقد قررت لها الشريعة نظاما خاصا بمقتضاه يتولاها الأقرب فالأقرب الى القاصر ... وبعض التشريعات الحديثة قصرت الولاية على الأب والجد وما عداهما يعامل معاملة الوصى من حيث تدخل السلطة القضائية فى تنصيبه ومحاسبته على تدبير شئون الصغير وحسن رعايته له .

أما الوصاية فهى سلطة ادارية على مال القاصر لحفظه وادارته واستثماره ، وهذه يرجع فيها أولا من يختاره الأب قبل وفاته وصيا ، فاذا مات الأب دون أن يوصى عاد الى القاضى حق تنصيب وصى على القاصرين وجميع الاوصياء مسئولون أمام القضاء عن كل تقصير أو خطأ فى ادارة أموال القاصرين وشئونهم .

الميراث

فرضت الشريعة الاسلامية الميراث بسبب القرابة أو الزوجية ونظمت ذلك بقواعد مضبوطة محكمة تحققت بها العدالة التى لا مطعن فيها ولا نقص ... وكانت نظم التوريث قبل الاسلام مبنية على أسس لم تستطع أبدا أن تدافع عن نفسها أمام الشكوى الدائمة من عدم تحقق العدالة فيها .

وقد جعلت الشريعة الاسلامية التوريث أمرا جبريا لا ارادة للمورث فيه وليس للمورث حق التصرف بحرمان وارث من حقه ، وتشددت فى ذلك حتى قصرت حقه فى التصرف فى ماله بالوصية على مقدار الثلث لا يجوز له أن يتعداه ، وذهبت فى هذا السبيل الى أن أبطلت تصرفه فى ماله بالهبة أثناء مرض موته ، وأبطلت طلاقه لزوجته فى مرض الموت واعتبرت ذلك منه اساءة لاستعمال حق الطلاق ودليلا على قصد التهرب من ارثها وأثبتت لها حق الارث شرعا .

وينفذ الأرث فى مال الميت الباقى بعد سداد ديونه ونفقات جنازته ثم تنفذ وصيته ــ ان وجدت ــ فى مقدار الثلث ، فان زاد ما أوصى به الميت على الثلث أو كانت الوصية

لأحد الورثة توقف ذلك على موافقة الورثة أصحاب الحقوق .

وقد وزعت الشريعة الأرث بين أصحاب الحقوق بنظام خاص روعى فيه درجة القرابة الى الميت فالأقرب يحجب الأبعد أو يقلل من نصيبه .. ولم يفصل أحد الأولاد على الآخر كما تفعل كثير من التشريعات الأوربية الحديثة التى تعطى للولد الأكبر كل التركة وتحرم الآخرين .

وللبنت نصيب يعادل نصف نصيب أخيها الذكر — وهذه المسألة كثيرا ما كانت موضع اساءة للفهم .. ولكن الشريعة هنا لم تغبن الانثى اطلاقا اذ أن هذا التوزيع مرتبط بنظام التكليف المالى فى الأسرة كما هو مرتبط أيضا بواقع الحياة الاجتماعية .

ومثل هذه المسائل جاءت اساءة الفهم فيها من النظر اليها نظرة جزئية سطحية .. وكثيرا ما ظلمت الشريعة الاسلامية حين النظر الى جزئياتها الفردية دون النظر اليها ككل ... فالشريعة الاسلامية حين كلفت الرجل بنفقة زوجته وجميع أفراد أسرته وحين تقتضيه واقع الحياة ان ينفق الكثير فى الواجبات الاجتماعية التى لا تتعرض لها المرأة فاذا أعطت البنت هنا نصف نصيب أخيها فى الميراث فان البنت تكون أوفر حظا منه .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الشريعة الاسلامية فى مجال ضبط مسائل الأحوال الشخصية قد كفلت للانسانية عدالة لم تتوفر لها من قبل .. ونستطيع هنا أن نقرر جازمين انه حتى فى عصر النهضة والمدنية كانت محاولات الانسان فى الدول المتحضرة غير الاسلامية لانصاف نفسه بوضع التشريعات التى حسبها توفر له أقصى قدر من العدالة والمصلحة : كانت هذه المحاولات شيئا حقيرا لا يمكن أن ينافس الشريعة الاسلامية فى دقتها وقدرتها على تحقيق العدالة المطلقة .

زاهر عزب الزغبى

من القيم الخلقية في الشعر الجاهلى

للدكتور عبد الحليم حفنى

يخطىء بعض الناس فيعممون وصف الجاهلية على كل جوانب حياة العرب السابقين للاسلام ،وعلى كل جوانب خلقهم وصفاتهم ، واصطدام وصف الجاهلية بالاسلام جعله غير قاصر على معنى الجهل المقابل للعلم ، وانما كساه مساوىء أخرى غير الجهل ، فاصبح لفظ الجاهلية فى هذا الفهم يعنى كثيرا من جوانب الجهل والشر والرذائل، ولا يعنى شيئا غير ذلك ، وفى هذا المفهوم الأخير يتركز خطأ الفهم لدى بعض الناس ، فاذا كانت الجاهلية تعنى حقا الكثير من جوانب الجهل والشر ، فليس من الحق أنها لم تشتمل على جوانب كثيرة من الخير، فان الجانب الوحيد الذى كان جهلا مطبقا دامس الظلام ، هو جانب الدين ، الذى كانوا يتخبطون خلاله فى عبادة الأصنام ، أما فيما عدا هذا الجانب من حياتهم ، فقد كانت لهم قيم خلقية يعتزون بها ويتفاخرون فى أنصبتهم منها ، وهذه القيم هى موضوع الحديث

والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينفى الخير عن الجاهلية ، وانما يثبته ويجعله أساسا فيما يتعلق بالوراثة الخلقية ، فى مثل قوله : (الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام) ففى الجاهلية اذن خير ، وهو وان لم يكن مجديا على اصحابه خيرا من الناحية الدينية التى تقطع بأنه لا ينفع مع الكفر خير ، الا أنه خير لذاته ، وبالقياس الى غيره فى الحياة الجاهلية ، ومن هذه الزاوية التى يلمح اليها الحديث الشريف ، ينبغى أن يصحح الفهم الجائر الذى ينفى عن العرب السابقين للاسلام كل خير .

فالعرب الجاهليون كانوا ــ فيما عدا الدين ــ يحملون مزايا يغبطهم على كثير منها أشد المجتمعات حضارة وتقدما ، ومن هذه المزايا الذكاء الحضارى ، أعنى ليس مجرد الذكاء الفطرى الذى يصاحب تكوين الفرد ، وانما الذكاء النابع أيضا من الخبرة بالحياة وشئونها فى مختلف وجوهها ، وليس من الغريب أن يقال ان القرآن الكريم نفسه شهد لهم بطريق غير مباشر بهذا الذكاء الحضارى ، فان الحرب التى أداروها ضد الاسلام ، والتى تقل القرآن الكريم لنا كثيرا من صورها ، لم تكن تمثل الجهل الذى يوحيه لفظ الجاهلية ، وانما كانت تمثل أعمق وأحدث ما توصل اليه خبراء الحرب وعلماؤها ، فاذا كان خبراء الحرب يقولون : ان الحرب تعتمد على ثلاث شعب ، أو أنها تتمثل فى ثلاث صور ، الحرب النفسية ، والحرب الاقتصادية ، والحرب العسكرية ، فان الجاهليين أداروا كل هذه الجوانب ضد الاسلام ببراعة ومهارة واضحين ، ولم تأت هذه الجوانب فى ادارتهم اياها عفوا أو تتابعا ، وانما قصدوها قصدا ، وقدروها تقديرا ، فكل ما كانوا يشيعونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه ، وعن دينه وعن القرآن ، انما كانوا يقصدون به حربا نفسية تنفر الناس وتصدهم عن هذا الدين ، ثم هذه الخطة التى ديروها فى مقاطعة قريش بنى هاشم ، انما كانت حربا اقتصادية ضد الاسلام ، ثم الحروب العسكرية التى أداروها وتفننوا فى بعض خططها ، كل ذلك ينبىء عن أنهم كانوا على درجة عالية من الخبرة بالحياة فى مختلف شئونها ، ومن الأمثلة التى شهد القرآن الكريم لهم فيها صراحة وليس ضمنا بهذا الذكاء الحضارى ، مثل قوله تعالى عن بعض المشركين من سادة مكة : « انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر » فالتفكير هو الذكاء الفطرى المصاحب للتكوين ، ولم يعن القرآن بحديثه كثيرا ، لأنه قدر مشترك بين كثير من الناس ، أما التقدير : فهو الذى يمثل الذكاء الحضارى ، فيما يعرف اليوم بالتخطيط ، وهو الذى عنى

القرآن بحديثه ، فساقه فى أسلوب التعجب (فقتل كيف قدر) ثم كرر هذا التعجب ، والمفسرون يصرحون بأن هذا الاسلوب تعجب من عمق تفكير هذا الزعيم وتقديره ، وليس يعنينا أن يكون شخصا بعينه كالوليد بن المغيرة أو غيره ، وانما يعنينا أنه كان من الجاهليين ، وأنه كان نموذجا للذين يديرون الحرب ضد الاسلام، وليس عجيبا أن يعترف القرآن لأعدائه بمزايا ، بل هذا هو الخلق الذى يدعو اليه القرآن ، فى مثل قوله « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى .. » فالقرآن يأمر أتباعه أن يلتزموا العدل فى كل الأحوال ، ومع كل الناس ، ولا ينبغى أن تحملهم عداوتهم لأحد على أن يحيدوا عن العدل معه قيد شعرة .

والشعر الجاهلى أفاض فى الفخر والتغنى بالمزايا التى تحلوا بها ، ولكننا نختار من هذه المزايا ما يتعلق بالخلق والسلوك ، فمن أبرز ما تغنى به الشعر الجاهلى من جوانب الخلق والسلوك ما يأتى :

١ ـ العفة :

والمراد بها العفة فيما يتصل بالصلة النوعية بين الرجل والمرأة ، وقد كان الشعر الجاهلى فى هذا المجال قمة لم يبلغها الشعر الاسلامى فى عصر من عصوره ، وقد يبدو هذا غريبا فى ظاهر الأمر ، ولكن الحقيقة أن الفارق حينئذ ليس بين الجاهلية والاسلام ، وانما لأن الشعر فى الجاهلية لم يكن حرفة يتكسب بها صاحبها ، بل كان تعبيرا عما فى النفس ، وابرازا لمقدرة فنيه يحملها صاحبها بالفطرةوالتكوين ، ونتيجة لذلك كان كثير من السادة وذوى المكانة يعدون من الشعراء ، أما بعد الاسلام ، فكان الغالب على الشعراء أن يكونوا من المحترفين المتكسبين، فكان معظمهم دون شعراء الجاهلية مكانة وخلقا واحساسا بأهمية المروءة بين الناس ، وهذا الاحساس من شأنه أن يدفع صاحبه الى كسب الفضائل محافظة على منزلته فى مجتمعه ، وعلى تجنب ما يزرى بصاحبه تحاشيا لسوء القالة ، ودنو المنزلة ، ولذلك كان من المشهور عن كثير من سادة العرب حين يعف

عن الكذب فى موقف يمكن أن يجنى من وراء الكذب فيه ثمرات أن يقول معللا امتناعه عن الكذب : خشيت أن يروى عنى الكذب ، يعنى ولو بعد موته .

ولذلك كان حديث الشعر الجاهلى عن العفة وتجنب الفحش فيما يتعلق بالمرأة ، ولهم فى ذلك أشعار كثيرة ، كما يقول تأبط شرا فى عفته عن النظر الى جاراته :

وأغض طرفى ان بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مثواها

وكما يقول الشنفرى عن عفة جارته المقنعة ، التى تغض طرفها عن الريبة ، وتحمى بيتها مما يلام عليه ، أو يذم به :

لقد أعجبتنى لا سقوطا قناعها
اذا ما مشت ولا بذات تلفت

تحل بمنجاة من اللوم بيتها
اذا ما بيوت بالملامة حلت

ومن أجمل ما وصف به غض المرأة بصرها وحياؤها أثناء المشى ، قول الشنفرى : (كأن لها فى الأرض نسيا تقصه) فهى تخفض بصرها الى الارض بصفة دائمة حين تمشى ، كأنها تقص أثر شىء نسيته فسقط منها ، فهى تبحث عنه موجهة بصرها الى الأرض .

وكما يقول عنها قيس بن الحدادية ، مشهدا الله على عفتها رغم طول جوارها اياهم :

وقد جاورتنا فى شهور كثيرة
فما نولت والله راء وسامع

وكما يقول مالك بن حريم الهمدانى ، حين يعدد خصالا من فضائله ، فيسوق لنا أربع صفات يحملها ويعتز بها، ومن هذه الصفات عفته عن جاراته ، فيقول عن الثالثة من صفاته

وثالثة ألا تقذع جارتى
اذا كان جار القوم فيهم مقذعا

ويؤكد أنه لم ينل من جارته مأربا ، رغم هيامه بها ، ورغم طول هذا الهيام :

أهيم بها لم أقض منها لبانة
وكنت بها فى سالف الدهر موزعا

فهى اذن عاطفة ، والعواطف لا سلطان لاحد عليها ، ولكنها عواطف

نقية طاهرة ، لم تدنسها ريبة ، ولم يقذعها مطمع .

وكما يقول السليك بن السلكة عن نفوره من المرأة المريبة ، التى لا تعتز بشرفها وعفتها ، ملزما نفسه ألا يتجه الا الى المرأة النفور من الريبة ، الممتنعة على الطامعين

يعاف وصال ذات البذل قلبى
ويتبع الممنعة النوارا

ويصف لنا السليك هذه المرأة فيقول :

من الخفرات لم تفضح أباها
ولم ترفع لاخوتها شنارا

ومثل هذا المنهج فى الشعر الجاهلى كثير ، وهو ينبىء فيما ينبىء عن أنهم رغم جاهليتهم لم يكونوا يعيشون حياة بهيمية متحللة من القيود والقيم ، وانما تحكم حياتهم تقاليد وقيم ، هى بالضرورة موجودة فى كل مجتمع مهما بلغ من التخلف والبداوة ، وليس من اللازم أن تكون هذه التقاليد متفقة أو موحدة بين هذه المجتمعات ، وانما تصاغ وتتدرج جيلا بعد جيل الى الأفضل أو الأسوأ حسب نصيب المجتمع من التقدم أو التخلف ، وليس من اللازم أيضا أن تكون شاملة لحاجات المجتمع السلوكية أو الاجتماعية ، وانما تتفاوت ايضا أنصبة المجتمعات منها حسبما يكون نصيب المجتمع من عوامل التقدم ، ووسائل الحضارة ، وفى كل الأحوال لابد أن نجد لكل مجتمع مهما بلغ من البداوة نصيبا من التقاليد التى تعتبر بمثابة القانون الذى يحكم حياته ، وهذه التقاليد وان كان ينقصها غالبا الكثير من الدقة فى مراعاة التفاصيل ، وأيضا فى مراعاة الشمول لجوانب الحياة ، ولحاجات الأفراد ، الا أنها تكون بمثابة الأسس لحماية حقوق الأفراد والجماعات من العدوان عليها ، وهذا المعنى هو الأساس فى نشوء التقاليد فى المجتمعات ، ولذلك كانت التقاليد الدينية فى المجتمعات البدائية أو القريبة من البداوة أشد تخلفا من التقاليد المنظمة للحقوق والسلوك ، لأن الحقوق تنال الاهتمام الأول ، والاعتداء عليها يثير أقصى مشاعر الفرد ، ومن هنا نبعت التقاليد المنظمة لحياة المجتمعات ، بينما الدين رغم أنه غريزة بشرية أساسية ،

من حيث ان التكوين الفطرى للفرد يحمل احساسا ولو مجملا أو غامضا بالقوة الالهية المحيطة به ، ومع ذلك فالفرد العادى يضعه فى المرتبة التالية بعد حقوقه الدنيوية ، بدليل أنه كثيرا ما يضحى بالدين اذا اصطدم بهذه الحقوق وتعارض معها ، ومهمة الأديان السماوية تصحيح فهم الفرد للدين ولهذا الترتيب ، وللموازنة بين الدين والحقوق أو الواجبات الدنيوية .

ومن هنا يمكن أن نفهم عدم التعارض بين الخلل الدينى فى الحياة الجاهلية ، ووجوب جوانب كثيرة من الخير فى حياتهم ، تمثلها تقاليد متعارف عليها ، ويعبر عنها مثل هذا الشعر الذى يترنم به أصحابه مادحين أو مفاخرين بقيم خلقية يعتزون بها ، ويجدون فيها مثلا سامية يتنافس فيها كثير منهم ، كما رأينا فى هذه الامثلة عن العفة فيما يتصل بالاعراض ، وانما كان تركيز حديثهم عن الجارات ، لأن المفاسد انما تنشأ فى أغلب الأحيان فى الجوار ، ولئن قيل ان الفخر أو المدح بشىء لا يدل على أن هذا الشىء شائع أو ملتزم ، بل يدل على العكس ، يدل على أن هذا المفاخر أو الممدوح يتميز عن غيره بهذا الشىء ، ولولا تميزه عن غيره بهذا الشىء لما كان هناك داع للفخر أو المدح به ، واذن فهذا الشعر لا يدل على شيوع هذه القيم فى المجتمع الجاهلى ، فالجواب عن ذلك أن أساس الحديث ليس عن المجتمع نفسه ، وانما عن الشعر الجاهلى ، فيكفى أن هذا يتضمن اشادة بالقيم والفضائل أو دعوة اليها ، ومع ذلك فانه يدل على أن هذه الفضائل كانت موجودة فى المجتمع الجاهلى ، ولو فى نسبة محدودة منه .

٢ ـ التضامن الاجتماعى :

وهو أعمق وأوسع مدلولا من السخاء والجود بمعناهما المألوف ، فان السخاء أو الجود انما يعنى عادة صورا معينة تحدث فى مواقف محددة فى أغلب الأحيان ، كاكرام الضيف ، أو اجابة السائل الى سؤله ، أو اغاثة محتاج فى موقف معين ، أما التضامن الاجتماعى

فالقصد منه الى معنى شامل وعميق فى النفس ، يـدفع صـاحبه الى الاحساس الدائم بأنه فرد من مجتمع وأن باقى أفراد المجتمع لهم عليـه حقوق يؤديهـا اليهم كمـا يؤدى الواجب ، لا كما يؤدى الاحسـان والتفضل فى صوره الفردية المشار اليها ،وهـذا المعنى الشامل هو جوهر تشريع الزكاة فى الاسلام ، وشعاره « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » فهذا التضـامن التشريعى فى الزكاة حق واجب وليس تفضلا أو منة ، وهو أيضا معلوم ثابت ، فليس وليـد ظرف أو مناسبة أو نحو ذلك.

فهذا المعنى من الشعور الثـابت بالتضامن مع افراد المجتمع هـو مدار هذا الحديث ، وواضـح انه اسمى من مجرد الاتصاف بالجود ونحوه ،وبالتالى سيكون المتصفون به اقل عددا ، ومع ذلك فقد كـان هذا المعنى موجودا ، وكان الشعر لايفتأ يشيد به ، ومن امثلة هـذا الاتجاه ماتجده فى اخبار واشـعار كثيرين من الجاهليين ، ومن هؤلاء عروة بن الـورد العبسى ، الـذى كان رغم احترافه السطو والغارات وقطع الطريق مثالا عجيبا فى شعوره بالتضامن مع الفقراء وذوى الحاجة، وأخباره فى ذلك مستفيضة متنوعة، فقد عرف فى مجتمعه بانه ملجأ ومأوى لكل ذى حاجة رغم أنه هو أيضـا كان من الفقراء ، وانما كان يتكسب من غاراته على مختلف القبائل ،وكان من المألوف أنه كلما حدثت مجاعة ، أو أجدب النـاس ، لجأ الضـعفاء والعجزة والمحتاجون الى كنفـه ، فيذهب فى غارات خطيرة محفـوفة بالمهالك لا ليدخر منها شيئا ،و انما ليعول أمثال هؤلاء ، وكثيرا مايخرج من الغنيمة بأدنى نصيب ، أو بدون نصيب ، وكثيرا ما كانت تلومـه زوجه على مخاطرته بحياته فى غيـر هدف تفيد من ورائه نفعا أو كسباء وانما من أجل أناس لا ترى بينهـم وبينه رباطا ، كما ينقل عنها فى مثل قوله :

أرى أم حسـان الغداة تلومنى
تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
لعل الذى خوفتنـا من أمامنـا
يصـادفه فى أهلـه المتخـوف

ولكن عروة فى حواره معها ، ورده عليها ، يكشف عن نفسية كبيرة ، وشعور بالمسئولية الاجتماعية فوق الشعور المألوف فى مواقف الخير العادية ، انه يستنكر أن يرى ملمة تلم بالناس ، ولا يملك لهم عونا ، ويرى الموت خيرا من حياة لا يملك فيها مواساة لمنكوب ، أو ردا لقسوة النوازل حين تنزل ببعض الناس ، فيخاطبها بهذا المعنى الذى لا أعرف أسمى منه نبلا وتعبيرا عن مشاعر الانسانية الرفيعة التى تسمو فوق الانطواء على حاجات النفس ، ورغبات الذات ، الى الاحساس بآلام الناس ، وبمدى حاجتهم الى العون والمواساة وقت الشدة ، حيث يقول

دعينى أطوف فى البلاد لعلنى
أفيد غنى فيه لذى الحق محمل

أليس عظيما أن تلم ملمة
وليس علينا فى الحقوق معول ؟

فان نحن لم نملك دفاعا بحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل

فهو يطوف فى البلاد ليستفيد الغنى ، ولكن ليس لنفسه ، وانما لذوى الحقوق ، ويعنى بهم من لزمتهم ديات ومغارم من الديون ، فهو يحمل عنهم بعناء هذه الحقوق ، واذا لم يستطع أن يعينهم فالموت فى رأيه خير من الحياة ، ولذلك اكتسب عروة رغم جاهليته حبا وتقديرا واضحين ، فهذا معاوية بن أبى سفيان يقول : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ، وعبد الملك بن مروان يعبر أيضا عن اعجابه بعروة فيقول : ما وددت أن أحدا من العرب كان أبا لى الا عروة بن الورد ، ويقول مرة أخرى من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد

ومن أمثلة التضامن الاجتماعى فى الشعر الجاهلى ، قول سعد بن ناشب عن حاله حينما يكون موسرا ، وكيف أنه يرى يساره شركة بينه وبين الناس ، حيث يقول

ان تعذلينى تعذلى بى امرءا
كريم كا الاعسار مشترك اليسر

وهذا ثابت بن جابر الفهمى الذى غلب عليه لقب تأبط شرا ، يتحدى لائميه فى الانفاق ، كما

تحداهم عروة بن الورد ، ويهددهم تأبط شرا بأن يهجرهم الى غير عودة ان لم يكفوا عن عذاله ولومه، فيقول :

تقول أهلكت مالا لو قنعت به
من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
عاذلتى ان بعض اللوم معنفة
وهل متاع وان أبقيته باق ؟
انى زعيم لئن لم تتركوا عذلى
أن يسأل الحى عنى أهل آفاق
أن يسأل القوم عنى أهل معرفة
فلا يخبرهم عن ثابت لاق
سدد خلالك من مال تجمعه
حتى تلاقى الذى كل امرىء لاق

ومثل هذا المعنى كثير شائع فى الشعر الجاهلى

على أنهم كانوا يرون التضامن أوسع مدلولا وتطبيقا من مجرد الجود والسخاء ، فكل صور العون المادى والأدبى والنفسى تدخل فى نطاق التضامن ، ومن الصور البارزة للتضامن حماية الضعيف والمظلوم الذى يلتمس النصرة ، فضلا عن القبيلة والقرابة ؛ فان الاسراع الى اغاثة القريب حين يتعرض لظلم أو عدوان أمر تحتمه التقاليد ، بل ان الشعر يتجاوز هذا الى تلبية دعاء القرابة الى العون ولو دون معرفة السبب كما يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
فى النائبات على ما قال برهانا

ولكن السمو الحقيقى فى هذا المعنى هو ما يتعلق بنصرة الضعيف الذى يلتمس الحماية ؛ وفى هذا المجال نجد الشعر الجاهلى يتخذ من هذا السمو شعارا براقا بادى الصدق والتأثير ، كما يقول مالك ابن حريم الهمدانى عن أنه يأخذ للضعيف الذى يلجأ الى حماه من الظالم حقه ، مهما بلغ هذا الظالم من القوة والمنعة ، وأنه لا يتردد فى اعلان الحرب ، وقيادة الخيل حفاظا على حق هذا الضعيف اللاجىء الى حمايته :

وآخذ للمولى اذا ضيم حقه
من الأعيط الآبى اذا ما تمنعا
وانى لأعدى الخيل تقدع بالقنا
حفاظا على المولى الحريد ليمنعا

٣ ـ صفات الخير عامة :

وقد تغنى الشعر الجاهلى وأشاد بكثير من صفات الخير ، التى

تعارفوا على أنها من سمات السيادة والمروءة بين الناس ، كالشجاعة والجود وحب الخير للناس ، والتنافس فى المكارم ، وقد أقر الاسلام معظم هذه الصفات ، ولم يضف اليها الا أمرين عامين من حيث المبدأ ، أحدهما الدافع ، حيث يشترط الاسلام أن يكون الدافع الى أى عمل هو حب الخير والاتجاه به الى الله ، والآخر هو الاعتدال وعدم التطرف فى مزاولة أى صفة من صفات الخير ، كما يدعو القرآن الى الاعتدال فى الانفاق بقوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » وكالاعتدال فى مزاولة الشجاعة بشل قوله تعالى : «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» .

وقد أفاض الشعر الجاهلى فى هذا الميدان افاضة واسعة ، حيث انصبت معظم مفاخرهم ومدائحهم على هذه الصفات ، ومن أمثلتها قول مالك بن حريم الذى جمع أربعا من هذه الصفات يعتز بالتزامها فيقول :

فان يك شاب الرأس منى فاتنى
أبيت على نفسى مناقب أربعا
فواحدة ألا أبيت بغرة
اذا ما سوام الحى حولى تضوعا
وثانية ألا أصمت كلبنا
اذا نزل الأضياف حرصا لنودعا
وثالثة الا تقذع جارتى
اذا كان جار القوم فيهم مقذعا
ورابعة الا أحجل قدرنا
على لحمها حين الشتاء لنشبعا

فهو أولا شديد اليقظة لا لمصلحته وحده ، وانما لحراسة سوائم الحى كله ، وثانيا لا يستخفى من الضيف لينصرف عنه ، وثالثا لا يكون سببا فى المساس بعرض جارته أو سيرتها ، ورابعا لا يخفى طعامه ، ولا يستر قدره بما تحوى من لحم عن جيرانه مهما اشتدت حاجته الى الطعام ، ومن هذا نرى كيف أن الشعر الجاهلى كان صوتا للدعوة الى قيم خلقية سامية ، وما أجدره أن يكون صوتا بارزا فى وسائل الاعلام لبعث المكارم العربية والمحافظة عليها

دكتور عبد الحليم حفنى

مع رسالة الأدب الصوفي

"الحكم العطائية"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلي القرني

نشأ ابن عطاء الله السكندري في ظلال القرن السابع الهجري ، حيث كان التصوف الاسلامي في مصر وغيرها له قطوف دانية ، وله رجاله الأعلام الذين رسخت في الطريق الصوفي أقدامهم ، من أمثال الأئمة الشاذلي والبدوي والدسوقي والمرسي وابن الفارض وابن عربي وغيرهم — رضوان الله عليهم —

والسكندري ، هو الامام أحمد ابن محمد أبوالفضل تاج الدين ، من الاسكندرية مولدا ونشأة ، وقد تعلم في مدرستها علوم الفقه والشريعة ، واللغة حتى بلغ مرتبة كبيرة ، وتتلمذ في التصوف على شيخه أبي العباس المرسي الذي قال عنه شيخه أبوالحسن الشاذلي : انه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض ، كما قال عنه : هذا أبو العباس ، منذ عرف الله لم يحجب عنه ولو طلب الحجاب لم يجده .

بلغ ابن عطاء الله في التصوف وعلومه شأوا بعيدا ، وكان ذلك تصديقا لفراسة شيخه المرسي فيه حين قال له يوما — على أثر تردد رواد قلبه — : الزم حتى تصير مفتيا في المذهبين .

وكان لابن عطاء الله مؤلفات كثيرة من أبرزها كتاب الحكم ، الذي جمع خلاصة وافية لعلوم التصوف ، حتى قال عنه شيخه حين عرضه عليه : ان فيه جميع مقاصد الاحياء وزيادة .

ولقد ظفرت هذه الحكم بعناية فائقة ، ولكن عناية الصوفية بها كانت أجل وأعظم نظرا لما تحتوى عليه من خصائص فنية وأدبية ، الى جانب ما تحفل به من معارف الصوفية التي تتنوع بين الأحكام

الشرعية والمجاهدات النفسية والمعرفة وماهيتها وأدواتها ومناهجها وآداب المتحققين وما تتضمنه من آراء فى تفسير الوجود وصلة الانسان بالله وما تشير اليه من آداب السلوك العامة التى ينبغى أن يراعيها السالك فى مجاهداته ومقاماته وأحواله ومعرفته — على حد تعبير الدكتور أبى الوفا التفتازانى فى كتابه عن ابن عطاء الله .

عناية الصوفيين بها :

وقد عنى بشرح هذه الحكم وتدريسها كثير من العلماء والمحققين ، منهم العلامة الرندى ، والشيخ ابن عجيبة والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ على العدوى والشيخ زروق وغيرهم من العلماء الأجلاء . ويقرر الدكتور التفتازانى أن الحكم قد شرحت شروحا كثيرة فى أزمنة مختلفة وأقطار كثيرة وبلغات أجنبية أحيانا كالتركية والمالوية ، وقد تعشقها أرباب الذوق لما رق لهم من معانيها وراق ، وبسطوا القول فيها وشرحوها كثيرا ولا نكون مجانبين الحق اذا قلنا : انه لا يوجد أى مصنف صوفى حظى فى شروحه تمثل عدد شروح الحكم ، كما تقرر أيضا أن هذه الحكم كان لها تأثير بين الطوائف المسيحية التى تعنى بالتصوف مستشهدا على ذلك باهتمام المستشرق الأسبانى «آسين بلاثيوس » ويقول فى ذلك : وقد شعر بأهمية الحكم وشرح الرندى عليها المستشرق الأسبانى أسين بلاثيوس فترجم فقرات كثيرة منها مع شرح الرندى عليها فى بحث له عن هذا الأخير واحتمال تأثر الصوفى المسيحى الأسبانى القديس جان دى لاكروا بآرائه وآراء الشاذلية . وترجم فقرات قليلة منها كذلك المستشرق الانجليزى « آرثر جون اربرى » ..

ويعرف الدكتور زكى مبارك بهذه الحكم فى كتابه « التصوف الاسلامى » قائلا فى مقدمة تعريفه « نحن مقبلون على التعرف الى سفر من أسفار الأدب العالمى ، هو مجموعة الحكم التى نظمها ابن عطاء الله السكندرى ، وكانت هذه المجموعة مما يدرسه كبار العلماء فى الأزهر الشريف وكان الشيخ محمد بخيت يدرسها للجمهور بعد

العصر فى رمضان فى مسجد الحسين (رضى الله عنه) وقد حضرت عليه طائفة من تلك الدروس وأنست بمعانى الحكم العطائية أشد الأنس. ثم يقول : واهتمام علماء الأزهر بدرس حكم ابن‌عطاء الله هو صورة جديدة للحفاوة بتلك‌الحكم واللآلىء النفيسة ، فقد اهتم الناس بها من قبل وظفرت بعدة شروح ، ولا تزال على كثرة ما لقيت من شروح ودرس تبعث فى قلوب المريدين أنواراً لم يتنورها الشارحون، وانما قلنا هذا الآن لأن الحكم العطائية نظمت‌نظما غنائيا روعى فيه أن تكون اشارات الى أحوال النفوس ، والنفوس تتغير وتتبدل وتعتورها ألوان الكدورة والصفاء ، فما يفهمه هذا قد لا يفهمه ذاك وما يرتضيه قوم قد يرفضه آخرون » .

وبعد أن يستعرض الدكتور زكى مبارك بعض فقرات من هذه الحكم ويعلق‌عليها ، يختم‌ذلك‌بقوله مذكرا رجال الأدب بواجبهم نحو هذه الذخيرة الفنية الرائعة « ولو أضفنا الى ذلك ما ظفرت به الحكم العطائية من الشروح والتفاسير وما أوحت به الى الناس من مختلف المعانى لرأينا كيف كانت قيمتها من الوجهة الأدبية والفلسفية ، ولا يغض من الحكم العطائية أنها ظلت مجهولة فى التاريخ الأدبى ، لأن مؤرخى الأدب غفلوا عن أمثال هذه الفرائد فلم يكن لها من عنايتهم نصيب .. وقد قلنا فى غير موطن من هذا الكتاب : ان رجال الأدب شغلوا بأسرى الحواس ولم يهتموا برجال القلوب . ولعل هذا الفصل يذكر رجال الأدب بعظمة ذلك الأديب المجهول فما تقل كلماته فى الأدب مع الله عن كلمات ابن المقفع فى الأدب مع السلاطين » .

والآن وبعد مضى أكثر من أربعين عاما على تأليف كتاب الدكتور زكى مبارك فما زالت كلمته لمؤرخى الأدب تحاول أن تجد صداها فى أسماعهم حتى الآن .

من شراح الحكم :

والحقيقة أن الأدباء لم يشغلوا أنفسهم بروائع فن الحكم كما شغل بها الصوفية ، فقد تعدد العلماء شراح الحكم ومنهم : محمد بن

ابراهيم عباد النفرى الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، وعلى بن محمد النفرى وهو ابن الرندى السابق ، وشهاب الدين أحمد بن محمد البرنسى المعروف بزروق المتوفى سنة ٨٩٩ هـ ، ويقول الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله عن الشيخ أحمد زروق — وقد حقق شرحه لهذه الحكم — : لقد افتتن الشيخ زروق بالحكم افتتانا كبيراً واستولت عليه جاذبيتها ولم تكن تفارقه فى سفر ولا اقامة ، وكان يشرحها فاذا ما انتهى من شرحها بدأ يشرحها من جديد ، وتفاوتت شروحه بين الايجاز والتطويل ، أما عدد هذه الشروح فلم يتيسر احصاؤها فى دقة دقيقة ، والمؤكد أنها وصلت الى أكثر من ثلاثين شرحا ، وهذا الشرح الذى بين أيدينا هو شرحها السابع عشر . اهـ .

ومن شراح الحكم أيضا : صفى الدين أبوالمواهب الشاذلى ، وأبو الطيب ابراهيم بن محمود الأقصرائى المواهبى الشاذلى ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن الحنبلى المتوفى سنة ٩٧١ هـ ، وعلى بن حسام الدين الهندى المتوفى سنة ٩٧٧ هـ والشيخ عبد الرءوف المناوى المصرى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ ، وشهاب الدين أحمد بن علاء الصديقى الشافعى المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن بن زكرى المتوفى سنة ١١٢٤ هـ وغيرهم

وكما ظفرت هذه الحكم بشرح الشارحين : ظفرت كذلك بنظم الناظمين ، كما قام بترتيب أبوابها بعض الصوفية .

وهذا كله يؤيد علو منزلة هذه الحكم لا فى حدود مصر فحسب ولكنها تجاوزتها الى خارج الحدود فراجت فى بعض الأقطار الاسلامية ووجدت من يعتنى بها فى الهند والملايو وأسبانيا والمغرب العربى وتركيا والجزيرة العربية وبهذا أصبحت تراثا صوفيا حيا .

مضمون الحكم :

ويصدر ابن عجيبة الحسنى شرحه على الحكم بقوله : فعلم التصوف من أجل العلوم قدراً وأعظمها محلا وفخراً وأسناها شمسا وبدراً، وكيف لا ؟ وهو لباب

الشريعة ومنهاج الطريقة ومنه تشرق أنوار الحقيقة وكان أعظم ما صنف فيه الحكم العطائية .. ولقد سمعت شيخنا ومولانا العربى يقول : سمعت الفقيه البنانى يقول : كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيا ، ولو كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم .

ويبين ابن عجيبة مضمون كتاب الحكم قائلا : ومضمنه من علوم القوم أربعة ، الأول علم التذكير والوعظ وقد حاز منه أوفر نصيب وهو لمقام العوام ، وتستفاد مواده من كتب ابن الجوزى وبعض تآليف المحاسبى وصدر كتاب الاحياء والقوت وتحبير القشيرى وما جرى مجراها .

والثانى : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة وتطهيره من الأوصاف المذمومة ، وهذا خط المتوجهين الصادقين ، ومادة ذلك من كتب الغزالى والسهروردى ونحوهما .

الثالث : تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين ، وهذا النوع من أكثر ما وقع فيه ، ومادته من مثل كتب الحاتمى فى المعاملات والبونى فى المنازلات .

الرابع : العلوم والمعارف الالهامية وفيه مالا يخفى لكن كتبه ملئت بشرحها لاسيما التنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب .

ويستطرد ابن عجيبة قائلا : وبالجملة فهو كتاب جامع لما فى كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ ، كما يقرر أن المسلك الذى سلك فيه مسلك توحيدى لا يسع أحد انكاره ولا الطعن فيه ولا يدع للمعتنى به صفة حميدة الا كساه اياها ، ولا صفة ذميمة الا أزالها عنه باذن الله .

وهذه شهادة لابن عطاء الله بسعة علمه وكثرة اطلاعه وقوة مشاهدته، فالذى يتمكن من أن يحيط بمضمون الكتب التى ذكرها ابن عجيبة ثم يبرز فى التأليف فى معانيها لا شك

أنه الى جانب قوة حجاه قد وصل الى مدى عظيم فى علوم المكاشفة التى لا تزال سرا مغلقا على غير أربابها ، والتى ترمز عبارات الحكم الى الكثير منها .

وذلك أحد الأسباب الذى جعل الكثيرين من الشراح يتهيبون الاقدام على شرحها ـ كما يقرر ذلك الدكتور زكى مبارك ـ بقوله : ومن أجل هذا أضيفت حكم ابن عطاء الله الى الرمزيات وتهيبها الشراح فصرحوا بأن كلامهم ليس الا طوافا حول ذلك السر المكنون، وفى ذلك يقول الرندى : ولا قدرة لنا على استيفاء ما اشتمل عليه الكتاب وما تضمنه من لباب اللباب لأن كلام الأولياء والعلماء بالله منطو على أسرار مصونة وجواهر مكنونةولا يكشفها الا هم ولا تتبين حقائقها الا بالتلقى عنهم ، ونحن فى هذه الكلمات التى نوردها والمناحى التى نعتمدها غير مدعين لشرح كلام القوم ، ولا أن ما نذكره فيه هو حقيقة مذهبهم حسبما يفعله كل مصنف ، فانا ان ادعينا ذلك كان منا اساءة أدب تئول بنا والعياذ بالله الى العطب ، وكنا قد تعرضنا للخطر والضرر فى تعاطى مالا يليق بنا من شرح كلام السادة من أهل الله تعالى .

ولننظر الى هذا الكلام الرفيع القدر من العلامة الرندى الذى يزيد من رفعته ، فحلية العلم التواضع ومن تواضع لله رفعه ، وهذه كلمة نهديها الى كل مزهو بعلمه يحاول أن يحطم بما وصل اليه من قشور كل من فوقه ودونه على السواء .

فالرندى رضى الله عنه فى كلامه ذلك ملتزم جانب الحذر الذى يدعو اليه الأدب الكامل الذى يلزم صاحبه احترام من سبقوه ، ومازالت حرمة المشايخ أحد الأصول التى يعنى الصوفية باحترامها واكبارها.

يقول قائلهم فى ذلك : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشايخ ورؤية أعذار الخلق وحسن صحبة الرفقاء والقيام بخدمتهم واستعمال الأخلاق الجميلة .

معنى الحكمة :

والحكمة فى اللغة قول صائب صدر عن روية وتفكير أو تجارب صحيحة فى الحياة ، يقال : حكمه : اذا منعه مما يريد ، ومنه حكمة الدابة ، لأنها تذللها لراكبها وتمنعها الجماح ، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من سيىء الأعمال والأخلاق .

ويمكن تطبيق هذا التعريف على حكم ابن عطاء الله الى حد كبير ، على اعتبار أن الهدف منها تصفية القلوب وتزكية النفوس وتصحيح الأعمال ومنع الناس من ارتكاب الأوزار ، وحثهم على ارتياد الفضائل

الخصائص الفنية لحكم ابن عطاء الله

ولحكم ابن عطاء الله خصائصها الفنية والأدبية التى الخصها عن الدكتور أبى الوفا التفتازانى فى كتابه عن «ابن عطاء الله وتصوفه».

ـ هى من عيون النثر الصوفى ، وهى أثر فنى لم يعن أحد من قبل بدرسه دراسة فنية أدبية تحليلية تظهر أهميته فى وضوح .

ـ وهى عبارة عن فقرات قصيرة ذات ألفاظ قليلة تتضمن المعانى الكثيرة .

ـ ويغلب عليها أسلوب الخطاب الذى يوجهه ابن عطاء الله الى السالكين والمريدين ، وهى لا تعنى بالترتيب المنطقى الذى يراعى وحدة الموضوع ، ولعل سبب ذلك يرجع الى أنها خطرات نفسية كانت تعرض له فيدونها دون تكلف أو تعمل .

ـ والحكم تعنى باختيار الكلمات وجمال الأسلوب وتنسيق العبارة بحيث تؤثر فى نفس سامعها وقارئها كما أنها تحمل صدق عاطفة وقوة روح مما يجعل لها ذلك التأثير السريع فى النفوس والقلوب .

ـ وهى تجمع بين الأخيلة المختلفة كما أنها تعنى بالمحسنات اللفظية غير المتكلفة ، وتعتمد أحيانا على أسلوب الاستفهام التعجبى فى التعبير عن بعض مدلولاتها .

وبالمثال يتضح الحال كما يقولون فمصداق هذا القول السابق نلمسه من قراءة الحكم ومطالعتها ، فأسلوب

الخطاب نلمسه فى قوله : «اجتهادك فيما ضمن لك ، وتقصيرك فيما طلب منك : دليل على انطماس البصيرة منك » وفى قوله : « أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك لا تقم به لنفسك » وفى هاتين الحكمتين تظهر العناية بحسن اختيار الكلمات وتنسيق العبارة كما يظهر ذلك فى غيرهما من بقية الحكم .

وليس أجمل من الخيال فى قوله : « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها » فتشبيه العمل المخلص بالجسد الذى لاقوام له الا بروحه من روائع التشبيهات، وكما يموت الجسد اذا فارقته روحه كذلك تضيع قيمة العمل اذا فقد الاخلاص .

أما قوله « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه »فهو من أجمل الصور الخيالية التى تصور أدق المعانى وأجمل الاشارات ، الى جانب ما تحمله من رقائق نفسية وآداب اجتماعية، ويعلق الدكتور زكى مبارك على هذه الحكمة بقوله : هى كلمة رائعة لم أشهد لها مثيلا فيما قرأت وفيها حيوية قوية ، كأن الكاتب ألقاها فى لحظة من اللحظات التى تتجمع فيها قوى النفس ثم تقذف بالمعنى فيخلد — لقوته — على وجه الزمان .

ويقصد بالخمول هنا العزوف عن الشهرة التى تودى بأصحابها الى البوار ، والصوفية دائما يحبون العمل فى صمت وينأون بأنفسهم عن العجب ، هم أبطال الايثار وأعداء الأثرة . وهذا ما يشير اليه ابن عطاء الله .

ومن أسلوب الاستفهام التعجبى قوله : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

والتعبير بالاستفهام من أدق الأسرار البلاغية ، واللجوء اليه ضرب من ضروب قوة التعبير التى تثير الشوق الى معرفة المعنى المقصود

وتترك لدى السامع والقارىء تطلعا الى استكناه المراد وتشوقا الى ادراك حقيقته .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله : « كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مهديه اليك ؟»

ومن أمثلة المحسنات غير المتكلفة قوله : « ما كان ظاهر ذكر الا عن باطن شهود وفكر » ، « أشهدك من قبل أن أستشهدك فنطقت بالهيئة الظواهر وتحققت بأحاديثه القلوب والسرائر » ، «رُبَّ عُمْر اتسعت آماده وقلت أمداده ، وربَّ عُمْر قليلة آماده كثيرة أمداده » ، « من بورك له فى عمره أدرك فى يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الاشارة».

وكل عبارات الحكم منتقاة تشهد لصاحبها بعلو كعبه فى البلاغة ووصوله الى أقصى درجات الفصاحة فلا توجد فيها لفظة مستهجنة أو زائدة عن حاجتها أو نابية فى موضعها وهذا يدل ـ الى جانب ما أوتيه من مقدرة ـ على الصفاء الروحى والالهام الذى يقوم بدور المصفاة التى تنقى الأسلوب فلا يخرج من خلالها الا الجيد المنتقى .

المناجاة التى ذيلت بها الحكم :

وقد وصلت المناجاة التى اختتم بها ابن عطاء الله كتاب الحكم قمة البلاغة والفصاحة كما أنها تدل على أنها صادرة من روح شفاف وقلب عارف ويقين صادق ومعرفة ثاقبة ، وكأنه فى هذه المناجاة يقف على أعتاب ملك الملوك المطلع على خفايا النفوس وأسرار القلوب فلا غرابة أن يحدو صاحبها الاخلاص والصدق الذى تظهر سماته على تلك الكلمات الرقاق ، والاستشهاد فى ذلك يغنى عن الوصف ، لأن الوصف يغض من قيمتها ..

انظر اليه وقد وقف على باب مولاه مناجيا اياه متضرعا اليه هاتفا باسمه منشدا أعذب نغمة فى الوجود قائلا : الهى ..

«الهى ما ألطفك بى مع عظيم ذنبى رقيبا ، وخسرت صفقة عبد لم يجعل له من حبك نصيبا »

« الهى ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟ »

« الهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيرا فى فقرى ؟ »

« الهى أنا الجهول فى علمى ، فكيف لا أكون جهولا فى جهلى ؟ »

« الهى منى ما يليق بلؤمى ومنك ما يليق بكرمك » .

« الهى ان ظهرت المحاسن منى فبفضلك ولك المنة على ، وان ظهرت المساوىء منى فبعدلك ولك الحجة على »

« الهى ما ألطفك بى مع عظيم جهلى ، وما أرحمك بى مع قبيح فعلى » .

« الهى ، أخرجنى من ذل نفسى وطهرنى من شكى وشركى قبل حلول رمسى ، بك أستنصر وعليك أتوكل فلا تكلنى ، ولجنابك أنتسب فلا تبعدنى عنك وببابك أقف فلا تطردنى ، واياك أسأل فلا تخيبنى »

.. هذا وأرجو الله أن يوفق الى لقاء آخر مع هذه الدرر لعرض ما تشير اليه من حيث الموضوع .. رضى الله عن صاحب الحكم ، ورزقنا حسن الفهم والعمل انه سميع مجيب .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

مما يستحب للصائم

* تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب وقبل الصلاة .

* الدعاء عقب فطره بالمأثور وهو : « اللهم لك صمت وعلى رزقك افطرت ، وعليك توكلت وبك آمنت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الاجر يا واسع الفضل اغفر لى : والحمد لله الذى أعاننى فصمت ورزقنى فأفطرت » .

* كف اللسان عن فضول الكلام ، والاكثار من الصدقة والاحسان .

نظرة متأنية فى كتاب الله

لفضيلة الشيخ عزت ابراهيم الدسوقى

قال عز وجل :

« أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » .

« قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الأخرى ان الله على كل شىء قدير »

١٩ ، ٢٠ سورة العنكبوت

« صدق الله العظيم »

لا مراء أن أولى الآيتين الكريمتين تحمل دليلا لا ينقض على قدرة الله على احياء الناس بعد موتهم . هذا الدليل هو خلق الانسان وتكوينه وهو أمر يتكرر فى كل أسرة ، ويباشر أسبابه الذكر والانثى فى كل مجتمع ، وكان عدم الايمان بالبعث من الذين يرون كيف يبدىء الله خلقهم أمرا عجبا يثير الدهشة . لذا كانت الآية مصدرة بالاستفهام الانكارى فكأنهم حين أنكروا البعث عموا فلم يروا كيف يبتدىء الله خلق الانسان . ولو أنهم أمعنوا النظر فى ذلك لآمنوا بالبعث فان القادر على البدء قادر على الاعادة فالله خلق الانسان ثم يعيده ان ذلك على الله يسير .

وأما الآية التالية لها وهى قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » الآية . فمن اللائق أن نلقى نظرة على ما قاله السادة المفسرون فى تفسيرها ثم نناقش تفسيرهم ونعقب عليه بما يفتح الله علينا وهو خير الفاتحين .

جمهور المفسرين على أن المراد بالخلق هنا هو خلق الامم السابقة .

قال الجلال فى تفسيره : « كيف بدأ الخلق لمن كان قبلكم وأماتهم » .

وقال العلامة أبو السعود :

« فانظروا كيف بدأ الخلق » أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة وأخلاق شتى اهـ .

وحتى يربط أبو السعود مناسبة بين السير فى الأرض وبين النظر فى بدء الخلق قال :

« فان ترتيب النظر على السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين فى أقطارها » .

وقال الألوسى مثل قول أبى السعود .

وأما الفخر الرازى فبعد أن وافق جمهور المفسرين قال : ويمكن أن نعتبر هذه الآية اشارة الى قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

يعنى أن المراد بالخلق هنا هو خلق السموات والأرض .

وفى الحق أن المتأمل فى الآية الكريمة يرى أن ارادة خلق الأمم السابقة منها أمر بعيد الاحتمال لما يأتى :

أولا :

الأمم السابقة ليست بدعا من الخلق ولا عجبا فى التكوين فهى من ذرية آدم أبى البشر .

وخلق الفرد الواحد وهو الدعامة فى تكوين الأمم والجماعات لا يختلف فى أمة عن أمة ولا فى جماعة عن جماعة ولا فى جيل عن جيل وليس ثمة خلاف الا فى اللون واللهجة . قال تعالى فى سورة الروم : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين » (آية ٢٢) .

والخلق والاماتة أمران شاهدان محسان فلا داعى للسير فى الأرض لرؤية شىء يرى فى كل مجتمع انسانى وتجمع بشرى .

ثانيا :

لا علاقة بين السير فى الأرض

وبين معرفة كيف بدأ الله خلق الأمم السابقة ، لأن سنة الله فى الكون أن الانسان اذا مات تحلل وصار رمادا أو ترابا .

ولذا قال الكفار مستكبرين الاعادة ومنكرين للبعث : « أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد » (سورة السجدة ١٠)

« يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة » (١٠) .

« أئذا كنا عظاما نخرة » (سورة النازعات ١١) .

ولم ينكر القرآن الكريم ضلال الانسان فى الأرض وتحوله الى عظام نخرة . وانما أنكر عليهم أن لم يستدلوا بالخلق الأول على الاعادة والحشر ، ولم يهتدوا بآثار قدرة الله فى الكون على قدرته على البعث والنشور ،

واذا حاول المفسران الجليلان أبو السعود والألوسى — رحمهما الله — الربط بين السير فى الأرض وبين النظر فى بدء الخلق بأن السير فى الأرض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق القاطنين بها تقول : ان أحوال الناس وتنوعهم شىء آخر غير بدء الخلق المطلوب معرفته فى الآية الكريمة .

ثالثا :

ان خلق الأمم السابقة الذى يزعمونه مرارا من قوله تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » قد ذكر فى الآية السابقة مباشرة دون فاصل قريب أو بعيد فى قوله تعالى : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » .

فالمفسرون مجمعون على أن المراد بالخلق هنا هو خلق الانسان . والانسان لم يتغير لا فى الأجيال السابقة ولا فى الحاضرة فخلقه هو هو ومعرفتنا لخلق الانسان المعاصر وتكوينه معرفة بالضرورة لخلق الامم السابقة وتكوينها فتكون الآية الثانية تكرارا لمعنى الآية السابقة عليها دون زيادة ودون تغيير .

وقد حاول الامام الفخر أن يوجد فرقا بين الآيتين ونوعا من التغاير

بينهما فقال كما نقله عنه الجمل فى حاشيته :

« أبرز اسم الله فى الآية الأولى عند البدء حيث قال (كيف يبدىء الله الخلق) وأضمره عند الاعادة .

وفى هذه الآية وهى قوله : « فانظروا كيف بدأ الخلق » أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال : « ثم الله ينشىء النشأة » لأنه فى الآية الأولى لم يسبق ذكر الله حتى يسند اليه البدء فقال « يبدىء الله » ثم قال « يعيده » وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله تعالى فاكتفى به ، وأما اظهاره عند الانشاء ثانيا حيث قال : « ثم الله ينشىء النشأة فليقع فى ذهن السامع كمال قدرته وعلمه وارادته ، ولم يقل يعيده بل قال ينشىء للتنبيه على أن البدء يسمى نشأة كالاعادة والتغاير بينهما بالوصف حيث قالوا : نشأة أولى ونشأة أخرى ، انتهى كلام الفخر .

وهو — كما ترى — يجعل البدء فى الآيتين واحدا ، ويجعل الاعادة واحدة يقعان على الانسان ومقتضى هذا انه جعل الآيتين بمعنى واحد يحملان دليلا واحدا بيد أنه جاء بأسلوب مختلف فالتغاير فى اللفظ لا فى الموضوع وفى المبنى لا فى المعنى ، والهدف من التعبير بينشىء بدل يعيد — كما يقول الفخر — هو التنبيه على أن البدء يسمى نشأة ! !

اذن فلا فرق الا فى الألفاظ .

وهذا أمر عجيب . فالترادف بهذا الأسلوب غير مألوف فى كتاب الله تبارك وتعالى . بل ليس فى كتاب الله — فيما أعلم — ترادف مما يقصده البلاغيون بحيث لا يزيد أحد المترادفين عن الآخر فى شىء ما فى موضعين منفصلين فضلا عن أن يكون فى جملتين متصلتين أو آيتين متصلتين .

فلا مندوحة من التماس نوع من التميز فى كل آية يخرج عن حد التميز اللفظى الى التميز الموضوعى ضرورة أن الآيتين متجاورتان ولا بد أن تتميز كل آية بمعنى خاص يؤازر معنى الآية الأخرى .

والذى يبدو لى أن لفظ الخلق وان ورد معرفا فى كل من الآيتين الا أنه يتغاير باعتبار متعلقه أو باعتبار المخلوق . قال فى كلمة الخلق عوض عن المضاف اليه ، ويؤخذ المضاف اليه من الآية نفسها .

ففى قوله سبحانه : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » يعنى خلقهم فأخذ المضاف اليه من الضمير فى « أو لم يروا » وهذا محل اجماع من المفسرين من أن المراد بالمخلوق فى هذه الآية هو الانسان .

وفى قوله سبحانه : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » يعنى خلق الأرض . واذا شاء الله فسنعود الى مزيد من الايضاح .

ولما كان خلق الانسان يتكرر دائما وبصورة مستمرة فى كل مجتمع كان التعبير فى هذه الآية : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » بالفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار والتجدد .

ولما كان خلق الأرض قد تم وصار أمرا مقضيا كان التعبير فى الآية الثانية بالفعل الماضى الدال على الانتهاء وقل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق .

وعلى هذا فكل من الآيتين تحمل دليلا على البعث غير ما تحمله الآية الأخرى . وليس ثمة ما يدعو الى التماس التغاير فى اللفظ فالتغاير فى المعنى والموضوع .

شرح قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »

واذ فرغنا بجهد المقل من شرح قوله تعالى :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » .

وكنا فى هذا الشرح متفقين كل الاتفاق مع سادتنا المفسرين الأوائل .

ننتقل الى شرح قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا

كيف بـدأ الخـلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شىء قـدير » •

وقبل البدء فى الشرح نسأل الله العلى القـدير أن يوفقنا للفهم الصحيح لهـذه الآية الـكريمة ولغيرها من كتاب الله ، وأن يجنبنا الخطأ والزيغ والاعجاب بالرأى فهو الهادى الى الحـق والى صراط مستقيم •

ألفاظ هـذه الآية الكريمة من الوضوح والجلاء والسهولة بحيث لا نحتاج الى كتب اللغة لفهم المراد منها ، فالله سبحانه وتعالى يأمر نبيه صلوات الله وسلامه عليه أن يأمـر البشر بالسير فى الأرض ويـرتب على هذا الأمر أمرا آخر وهو النظر والاطلاع على جانب من جوانب قدرة الله تعالى الماثلة فى الكيفيـة العجيبة فى بدء الخلق وحين يفرغ البشر من هذا النظر يعلمون يقينـا لا تشوبه شائبة من الشك أن الله الذى خلق هذا الكون قادر على أن يحيى الموتى ؟ ، ان الله على كل شىء قدير •

هذا هو التفسير الاجمالى لهذه الآية الكريمة •

ولنعـد الى مناقشتها مناقشـة تفصيلية •

ما المراد بالسير فى هذه الآية ؟

لو كان المراد بقوله تعـالى : « سيروا فى الأرض » السير المعتاد والتنقل من مكان لآخر على وجه الأرض لما تعلق به الجار الدال على الظرفية ومجروره • أما وقد جاء فى هذه الآية بلفظ (فى) متعلقـة مع مجرورها بالسير فلا بد من تعلق هذا الجار بما يتلاءم مع الظرفية ، والمتعلق به اما أن يكون حـالا مقـدرة من دار الجماعـة ويكون المراد ـ والله أعلم ـ سيروا حال كونكم باحثين فى الأرض ، واما أن نلجأ الى تضمين لفظ سيروا معنى ابحثوا وسواء لجأنا الى تقـدير الحال ، أو الى التضمين فان لفظ ـ فى ـ هنـا يقتضى البحـث والتنقيب والدراسة •

الهدف من السير فى الارض

يرتب النظم الكريم على الأمـر

بالسير فى الأرض أمرا آخر مرتبطا كل الارتباط بالأمر الأول وهو الأمر بالنظر لمعرفة كيف بدأ الخلق.

ويترتب على هذا الهدف والغرض أمور ، منها :

اولا :

ان المراد بالسير هنا هو البحث والدراسة كما قدمنا اذ لا علاقة للسير العادى بمعرفة هذه الكيفية العجيبة .

ثانيا :

المراد بالنظر هنا هو العلم والمعرفة لا النظر بالعين المجردة لأن النظر المجرد فى هذا الموضع كان ولا يزال مستحيلا ، لعدم وجود المأمورين بالسير والنظر عند بدء الخلق « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض » وبدء الخلق بل وخلق الكون كله كان قبل خلق الناس المأمورين بالسير والنظر .

ثالثا :

ترتب النظر والمعرفة على البحث والسير فى الأرض يستلزم أن يكون فى الأرض من العلامات والدلائل ما يوصل الباحثين الى النظر والمعرفة ، والا لما كان للأمر بالسير والنظر معنى .

وعلى هذا فاذا خرج علينا الباحثون فى الأرض بمعلومة لا تتعارض مع صريح القرآن الكريم ولا مع مفهومه لا يصح أن نسارع الى اتهامهم ولنا أن نقبل هذا أو نرفضه بعد الدراسة الجادة والمناقشة الهادئة الهادفة ، ولنضع فى اعتبارنا ما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من أن الله تعالى أودع الأرض ما يستدل به العلماء على معرفة كيفية بدء الخلق .

رابعا :

المراد بالخلق هنا ليس خلق الأمم السابقة ولا الأمم الحالية اذ لا علاقة ولا ارتباط بين بدء خلق الناس وبين البحث والنظر فى الأرض ، بل المراد بالخلق هنا هو خلق الكون بصفة عامة ، وخلق الأرض بصفة خاصة ، لأنها هى موضع البحث والنظر المرادين من الآية .

وتكون أل فى الخلق هنا عوضا عن المضاف اليه وتقديره الأرض ، أو الكون .

وبهذا التفسير وهذا الفهم يأتى الرد على التساؤلات الآتية :

(أ) لم كان قوله تعالى :

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق » مصدرا بالاستفهام الانكارى ولم يكن هذا الانكار موجودا فى قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ؟ » .

والجواب ، هو أن الآية الأولى مصدرة بالاستفهام الانكارى ، لأنها تنعى على منكرى البعث تجاهلهم وتعاميهم لدليل واضح ملموس ، يقع أمام أعينهم ويباشرون أسبابه بأنفسهم ويتحقق وقوعه فى كل تجمع بشرى يلتقى فيه الزوجان فاذا لم يستدلوا ببدء خلق الانسان وتطوره فى بطن أمه ، حتى يخرج الى الدنيا بشرا سويا . على قدرة الله على البعث كانوا فى غمرة من الجهالة والعمى حتى كأنهم لم يروا كيف يبدىء الله الخلق فاستحقوا بذلك اللوم والتعنيف والانكار .

ولم تصدر الآية التالية بالاستفهام فضلا عن أن يكون انكاريا لأن هذا الدليل خفى الدلالة على عامة الناس ، لا يدركه الا نوعية خاصة من البشر ، امتازت بالبحث والعلم فاقتصرت الآية على لفت الانظار وتوجيه البصائر ، والأفهام الى الاستنباط والاستدلال .

(ب) لم جاء بالفعل فى الآية الأولى مضارعا وهو (يبدىء) .

وجاء بالفعل فى الآية الثانية ماضيا وهو (بدأ) ؟

والجواب :

ان الآية الأولى تتعلق بخلق الانسان وتطور هذا الخلق وهو أمر يتكرر فى كل مجتمع وبكثرة حتى قيل : ان مصر ترزق بمولود فى كل ثانية فكان من المناسب أن يأتى بالفعل الدال على التجدد والاستمرار وهو يبدىء .

والآية الثانية تتعلق بخلق الكون

وهو أمر قد تحقق ، وجـرت به المشيئة والقدرة قبل خلق النـاس فجاء بالفعل الماضى (بدأ) وهو يدل على نفاذ الفعل ومضائه .

(حـ) لم ذكـر فى الآية الأولى الضمير عند ذكر الاعـادة فى قوله تعـالى (ثم يعيـده) ولم يذكر الضمير فى الآية الثانية بل ذكـر النشأة مجردة عن كل ضمير ؟

والجواب :

ذكر الضميـر فى الآية الأولى لأن الاعادة تقع على الخلق المذكور فيها فوجب بلاغه الاكتفـاء بذكر الضمير لتقدم ذكر ما يعود عليـه الضمير .

وفى الآية الثانية لا تقع النشأة الأخرى على الخلق المذكور فيها لأن المراد به خلق الكون والنشـأة الأخرى تقع على الانسان والناس ولم يتقدم ذكر لهم فى نفس الآية فامتنع ذكر الضمير لأنه لا يعـود على مذكور فيها .

وليس صحيحا ما قاله الامـام الفخر الرازى من أنه عدل عن ذكر الاعادة الى النشأة الأخرى ليبيـن أن الاعادة تسمى نشأة والمغايـرة انما هى بالوصف فيقـال : نشأة أولى ، ونشأة أخرى .

هذا . ولو جرينا على ما قالـه المفسرون من أن المراد بالخلق فى الآية الثانية هو خلق الأمم السابقة ومعرفة طبائعهم وعاداتهم لـما كان هناك كبير فائدة فى ذكر هـذه الآية بـل كانت هى عين الآيـة الأولى فى معناها ومبناها ، وليست هناك مغايرة الا فى بعض الالفاظ . وهـو (يعيـده) وينشىء النشأة الأخرى .

ولما كان هذا أمـرا لا يبرر التكرار لمعنى واحد فى موضـع واحد كان أقـرب الى الحـق والصواب أن يقول الامام الفخـر الرازى :

« ويمكن أن يقال : ان هـذه الآية من قبيل قوله تعالى :

« أو لم ير الذين كفـروا أن السموات والأرض كانتـا رتقـا ففتقناهما » .

الفائدة المترتبة على القول بالمغايرة بين كلمتى الخلق فى كل من الآيتين

ينبنى على القول بأن الخلق المراد فى الآية الأولى غير الخلق المذكور فى الآية الثانية فائدةعظمى ومعنى جديد فتكون كل آية تحمل دليلا متميزا على وقوع البعث وقدرة الله على احياء الموتى وهو ما يمارى فيه الكفار اشد المراء وأعنفه .

فالآية الأولى تحمل دليلا واضحا كل الوضوح يشاهده العام والخاص وهو خلق الناس أول مرة، والقادر على الخلق أول مرة قادر بسهولة على اعادة هذا الخلق وهو أهون عليه ، ولله المثل الأعلى .وجاء التنزيل فى هذه الآية مشيرا الى هذا اليسر وهذه السهولة فقال سبحانه :

« ان ذلك على الله يسير » .

وكون خلق الانسان دليلا على امكان البعث ووقوعه تكرر فى القرآن الكريم فى مواضع مختلفة وبأساليب غاية فى البلاغة والاقناع نقتصر هنا على موضع واحد فقد قال تعالى فى آخر سورة القيامة :

« أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين . الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

أما الآية الثانية فتحمل دليلا مغايرا لدليل الآية الأولى ومؤيدا له وهذا الدليل هو الاستدلال بخلق الكون على قدرة الله تعالى على البعث .

وجاء هذا الاستدلال فى مواضع كثيرة وبأساليب فى منتهى القوة والاقناع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ونجتزىء هنا أيضا على دليل واحد لمجرد الاستشهاد . قال تعالى فى سورة الأحقاف فى الآية رقم ٣٣ :

« أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى ، انه على كل شىء قدير » .

ونفس التذييل الذى جاء فى آية الأحقاف جاء فى الآية التى فسرناها من سورة العنكبوت مما

يؤكد وحدة المعنى وأن المراد بالخلق فيها هو خلق الكون .

اقرأ معى مرة ثانية :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، ان الله على كل شىء قدير » .

دليل آخر على صحة ماذهبنا اليه :

ومما يؤيد صحة ما ذهبت اليه من أن المراد بالخلق فى الآية الثانية هو خلق الكون وليس خلق البشر وان هذه الآية تستلزم حتما أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أودع الأرض والكون يستدل بها على كيفية الخلق . قوله تعالى :

« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

ولست الآن بصدد شرح هذه الآية الكريمة فلذلك مقال آخر ان شاء الله تعالى . وانما اقتصر هنا على بيان وجه الاستدلال باختصار .

فالآية تنكر على الكافرين أنهم لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله .

وتوجيه الانكار بهذه الصورة يوحى بالآتى :

أولا :

انه موجه الى الذين كفروا وعلى هذا فمن المستبعد أن يكون سبيلهم الى هذه الرؤية الوحى السماوى أو الكتب المنزلة لأنهم لا يؤمنون بشىء من ذلك .

ثانيا :

ان هذه الرؤية بالقطع ليست رؤية بصرية بل هى بالتأكيد رؤية بصيرية عقلية ضرورة أن أحدا من البشر كافرا أو مؤمنا لم يكن موجودا حين كانت السموات والأرض رتقا ففتقهما الله .

لأن الحياة الانسانية فى ذلك الوقت لم تكن موجودة .

ثالثا :

ان العلم بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله أمر ممكن بل كان عدم وقوعه موضع انكار ومؤاخذة .

رابعا : وهو كالنتيجة لما تقدم : ما دام هذا العلم ممكنا وأن

سبيله ليس الوحى وليست المشاهدة البصرية فما هو سبيل هذا العلم اذن ؟

لا مفر من القول بأن سبيله هو البحث فما ذرأ الله فى الكون من آيات ودلائل يعلمون عن طريقها أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله .

قال تعالى :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

مثال يبين تفاق علماء طبقات الارض على نتيجة ايدها القرآن الكريم :

نسوق فى ختام هذا البحث ما يدل على أن الله أودع الأرض دلائل وعلامات استدل بها الباحثون وعرفوا عن طريقها كيف بدأ الله الخلق .

فقد أجمع الباحثون فى طبقات الأرض على أن الأرض حينما خلقت كانت كرة من اللهب استمرت ملايين من السنين حتى بردت قشرتها وجرت فيها وسائل الحياة فتعالوا نتل آية من سورة النمل وهى الآية رقم ٦١ :

« أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا . وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

فمادة جعل تفيد التحويل والتصيير الى شىء لم يكن من قبل فلم تكن الأرض أولا قرارا أى مكان استقرار للحياة فجعلها الله قرارا ، ولم تكن بها أنهار فجعل الله خلالها أنهارا ، ولم تكن بها رواسى فجعل الله لها رواسى وفصل الله بقدرته بين الماء العذب والبحر الملح .

ويتكرر هذا المعنى بصورة أخرى فى سورة المرسلات :

« ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين » .

« صدق الله العظيم »

وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين والسلام عليكم ورحمة الله .

عزت ابراهيم الدسوقى

من ذكريات رمضان المعظم

للأستاذ أحمد على منصور

اذا طلع هلال رمضان المعظم فى صفحة السماء ، من كل عام هجرى ، حمل الى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، ثلاث ذكريات عاطرات ، كان لها أبعد الآثار وأروعها ، فى تاريخ الاسلام والمسلمين .

الذكرى الأولى : غزوة بدر ، وانتصار المسلمين مع قلة عددهم وعتادهم الحربى ، على أعدائهم من الكفار والمشركين ، مع كثرة عددهم ، ووفرة أسلحتهم ، وآلات قتالهم ، فان الرسول الأعظم — صلى الله عليه وسلم — لم يقاتل أحدا ليقهره على الدخول فى الاسلام ، ولكنه — صلوات الله وسلامه عليه — كان يدعو الى هذا الدين العظيم ، بالبراهين الساطعة ، والحجج القوية القاطعة ، امتثالا لأمر العلى القدير له ، فى أواخر سورة النحل الكريمة : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين) ، ففى هذا النص الكريم ، من القرآن العظيم ، يأمر الله العزيز الحكيم ، نبينا — عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم — بأن يدعو الى الاسلام ، بالمقالة الصحيحة المحكمة ، المدعمة بالدليل الواضح المبين للحق ، المزيل للشبهة ، كما يدعوهم اليه بالموعظة الحسنة ، التى لا يخفى عليهم ، أنه يناصحهم بها ، ويقصد نفعهم من ورائها ، وأن يجادلهم بالطريقة القويمة ، التى هى أحسن طرق المجادلة ، القائمة على الرفق واللين ، ويأخذهم بما يوقظ

القلوب ، ويعظ النفوس ، ويجلو العقول ، وربنا من قبل ومن بعد ، أعلم بمن ضل عن طريق الحق والرشاد ، وهو أعلم بالمهتدين ، فمن كان فيه خير ، كفاه الوعظ القليل ، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل — ولكن القرشيين كانوا معاندين ، آذوا الرسول الكريم ، واضطهدوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم ، وقعدوا لامام الهدى ، وللمؤمنين به كل مرصد ، فأذن الله عز وجل للصادق الأمين بقتالهم ، وقتال كل معتد ، وصاد عن سبيل الله .

وذات يوم أخبر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، أصحابه بأن أبا سفيان بن حرب ، سيقدم من الشام بعير لقريش ، فيها أموالهم وتجارتهم ، ودعاهم للخروج اليها ، لعلهم يصيبون منها بعض ما أخذه الكفار منهم فى مكة ، وحتى يحس القرشيون بقوة المسلمين ، ويخافوا على تجارتهم أن تبور ، وعلى قوافلهم أن تنقطع بها الطرق ، ويعملوا من جانبهم على ازالة ما بينهم وبين المسلمين من احن وبغضاء ، ويتمكن أشرف الورى من نشر الدين ، ويعيش الجميع فى أمن وسلام . وكان أبو سفيان يتسمع الأنباء ، وما أن علم بما عقد عليه المسلمون العزم حتى أخذ طريق الساحل ، ونجا بالعير والتجارة .

وكان قد أخذ للأمر عدته ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، وأرسله الى مكة ليدعو القرشيين لتخليص عيرهم وتجارتهم فأقبلوا بخيلهم ورجلهم ، وفى نحو ألف مقاتل من أبطالهم ، تحت قيادة أبى جهل ، وخرج النبى صلى الله عليه وسلم ، فى نحو ثلث الألف من أصحابه ، ومعهم فرسان وسبعون من الأبل ، يتعاقبون عليها ، ولما فر أبو سفيان بالتجارة ، أرسل الى القرشيين يأمرهم بالرجوع ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، ونقيم به ثلاثا ، تنحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمور ، وتعزف علينا القيان ، ويسمع بنا المسلمون، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، وساروا

حتى نزلوا بالعـدوة القصـــوى من بدر .

ولما علم المصطفى أن الأمـر قد تغير ، وأن أبا سفيان هرب بالعير من طريق الساحل ، وأنه صار أمام أعداء جبـارين ، لا بد أن يشتبك معهم فى حرب ، ويلتقى فى قتال ، استشار أصحابه فيمـا يفعـل ، فلمس منهم الصمود دفاعا عن الحق وأهـله ، وقضـاء على البـاطل وأعوانه ، فتهلل وجهه الشريف ، وقال لهم سيـروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى احـدى الطائفتين العير أو النفير ، والله لكأنى أنظـر الى مصـــارع القـوم فى بدر ؛ وســـاروا حتى نزلوا بالعـــدوة الدنيا منه .

وفى اليـوم السـابع عشر من رمضـــان المعظم ، دارت رحى الحرب ، ووقف النبى ــ صلى الله عليــه وسلم ــ بين المجـاهدين المسلمين ، يقـوى عزمهم ، ويشد أزرهم ، ويبشرهم بنصر الله لهم ؛ ويقـول ما سجلته كتب السـيرة النبوية الشريفة :

« والذى نفس محمـد بيده : لا يقاتل المشركين اليوم رجـل ، فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا أدخـله الله الجنـة » ثم أخذ حفنة من الحصى ، ورمى بها فى وجـوه الكافرين ، وقال :

« شاهت الوجوه ، اللهم ان يهلك المسلمون اليوم لا تعبد فى الأرض ، اللهـم أنجز ما وعدت » واشتـد القتال ، وثار النقع والغبار ، وأمد الله المؤمنـين بخمســة آلاف من المـلائكة المـكرمين ليقـاتلوا فى صـفوفهم ، وليزدادوا يقينـا بهم وكان يوما مشهودا نصر الله فيـه المسلمين ، وهزم الكفار والمشركين ، وانجلت المعركة عن قتل أكثر من سبعين من صناديدهم ، واستشهاد ثلاثة عشر من المؤمنين ، أمر النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بدفنهم ، وبالقـاء قتلى القرشيين فى بدر ، ثم وقف عليهم يخاطبهم قائلا :

« بئست العشيرة كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصـدقنى النـاس ، وأخرجتمونى وآوانى النـاس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، وانى

وجدت ما وعدني ربي حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فقال له فريق من أصحابه : يارسول الله أتنادي قوما جيفوا ؟ فقال لهم — عليه الصلاة والسلام : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون الجواب » وولى أهل مكة الأدبار ، مفعمة بالأحزان قلوبهم ، خشعا من الخزي والعار أبصارهم ، وانصرف المسلمون الى الغنائم يجمعونها ، وهم بنصر الله فرحون ، ولنعمته شاكرون .

الذكرى الثانية ، من ذكريات رمضان المعظم ، فتح مكة المكرمة ، فقد كان يوما مشهودا ذلك اليوم العظيم ، الذي أخبر فيه النبي — صلى الله عليه وسلم — ، أصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين ، فامتلأت بالسرور أفئدتهم ، لأنهم سيصبحون قاب قوسين أو أدنى من بلدهم الكريم ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويسعون بين الصفا والمروة ، وينتشر الدين الحنيف هنا وهناك .

ثم أمرهم النبي — صلوات الله وسلامه عليه — بالتجهز للسير صوب البلد الحرام ، فساقوا بدنا تسيل بأعناقها البطاح ، ولكنهم فجأة رأوا القصواء ناقة أشرف الورى تقف في عرض الطريق ، وتمتنع عن السير ، ويحبسها حابس الفيل عن متابعة السير نحو البلد الأمين ، وهنا جاءت رسل القرشيين ، يأمرون الرسول وأصحابه بالرجوع في هذا العام ، على أن يدخل مكة في العام القابل معتمرا ، ويتركها له القرشيون ثلاثة أيام .

فأرسل سيد الأولين والآخرين اليهم عثمان بن عفان ، ليخبرهم عن مقصده ، وأنه لم يجيء محاربا ، ولكن قدم مع أصحابه معتمرين ، وللبيت معظمين ، وبه طائفين وذهب اليهم عثمان فأشيع بين المسلمين أنه قتل ، فأقسموا أنهم لا يبرحون مكانهم حتى يحاربوا القوم ، ويأخذوا بثأرهم ، وبايعوا

الرسـول الـكريم تحت الشجرة على ذلك ، وبعد مدة قدم عثمان حيا مع رسل قريش ، واتفق الجميع على أن يرجع الرسول وأصحابه دون عمرة فى هذه السنة ، ويعود لمكة مع أصحابه فى السنة المقبلة وكتبوا صحيفة بالصلح بينهم ، ولكن قريشا نقضت شروطها ، وخافت العاقبة فأرسلت أبا سفيان الى المدينة ، ليوثق العهد مع النبى الكريم ، حتى لا يأمر بمحاربة القرشيين فى عقر دورهم .

وقدم أبو سفيان الى بيت الرسول ، وتحدث الى بنته أم حبيبة أم المؤمنين ، فتغلظ له فى القول ، ويلتقى بأشرف الخلائق أجمعين ، بعدها فما يلمس منه الا سخطا واعراضا ، ويرجو الشفاعة عند كبار أصحابه ، فلا يظفر لديهم برجاء ، فيعود الى مكة منذرا بالويل والهلاك .

وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أصحابه بالاستعداد ، وقال لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليشهد رمضان بالمدينة » .

والتأم جيش المسلمين فى جمع لم تشهد الصحراء مثله ، وأمرهم الرسول الأعظم بحفظ أسرارهم ، وساروا نحو البلد الحرام ، تكلؤهم عناية الله العلى العظيم . وطلع عليهم بالطريق العباس بن عبد المطلب ، عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وقال يا رسول الله : لقد أسلمت من عهد ، ولكننى لم أجهر بالايمان ، ولم أصبر على الكتمان ، وقد خرجت مهاجرا الى الله واليك بنفسى ، وهاهم أولاء زوجى وولدى . فقال له الرسول الكريم : « مرحبا بك يا عم : ليهنك الاسلام ، وليبارك الله لك فى الايمان ، أرسل الى المدينة أهلك وولدك ، وارجع معنا الى مكة تشهد ما يكون بيننا وبين قريش » .

ورمى العباس ببصره فى جيش المسلمين ، فرأى قوما ملء السمع والبصر ، والسهل والجبل ، فقال : وارحمة الله لقريش ، ان دخل

هذا الجيش الكبير مكة عنوة ، فانه لا يبقى من قريش طفلا ولا كهلا ولا امرأة ولا رجلا ؛

ثم تسلل من بين الصفوف ، يلتمس انسانا يحمله رسالة للقرشين حتى يحضر رؤساؤهم للنبى الكريم ،ليحقنوا دماءهم ، ويعاهدوه على تسليم حرمهم . ولمح تحت الظلام أبا سفيان ، تساله : ما أتى بك ها هنا ..؟

فقال هم العشيرة ، وأفداح القبيلة ، وأرزاء الزمان ، ولأتحسس خبر ابن أخيك ، ومن معه من المسلمين فقد توقعت الشر ، من يوم أن نقضنا العهد ، وفجرنا فى اليمين.وشاهد المسلمون أبا سفيان يركب خلف العباس على بغلته ، ويشاهد جنود المسلمين كعدد الحصى والرمل ، وقدم به على امام الهدى فقال له : « ويحك يا أبا سفيان ، أما آن لك أن تعلم أن لا اله الا الله ؟ » فقال بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لو كان معه اله غيره لأغنى شيئا .

فقال له « ويحك يا أبا سفيان أما آن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » فقال بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه ففى النفس منها شىء » . فقال العباس يا أبا سفيان : لقد وضح الصبح لذى عينين ، فان كانت على عينيك غشاوة فارفعها ؛ وان كانت على قلبك غشاوة فنزقها ، وأسلم ابقاء على حياتك ، وحرصا على دنياك وآخرتك ؛ وما لبث أن قال أبو سفيان : شهدت أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وابتهج الرسول الأعظم ، وظهر البشر والسرور فى وجه العباس ، وعلمه الوضوء والصلاة ، وأحكام الاسلام ، وصرح للنبى — صلى الله عليه وسلم — ، بأن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا يتمشى مع هواه ، ويصير به فى ظلال الايمان أثبت قدما ، وأكثر يقينا . فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — : « نعم من دخل دار أبى سفيان بمكة فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو

آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

وهنا ينطلق أبو سفيان فى عرصات مكة ، ويقول يا معشر قريش : لقد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، ومن دخل دارى فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن . وقد نصحتكم ، وما أردت الا حقن دمائكم ، وحفظ أرواحكم . وهنا ارتاع القوم ، وقالوا ويحك وما تغنى عنا دارك ؟ وهرعوا الى المسجد الحرام ، ودخلوا دورهم وأغلقوها عليهم .

وفى العشرين من شهر رمضان المعظم ، دخل جيش المسلمين مكة ظافرا منصورا ، وقدم اليها امام الهدى حانيا ظهره شكرا ، غاضا بصره حمدا ، ثم دخل المسجد الحرام وطاف بالبيت ، واستلم الركن وازدحم الناس فى المسجد وخارجه ليروا ما يفعل أشرف الورى . فقال « يا معشر قريش ما تظنونه أنى فاعل بكم ؟ فقالوا خيرا يا رسول الله ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . فقال « وأنا فى هذا اليوم لا أقول لكم الا ما قال يوسف لاخوته ، لاتثريب عليكم اذهبوا فأنتم الطلقاء » وكان يوما عظيما ، دخل الناس فيه فى دين الله أفواجا . فسبحان من أدب نبيه فأحسن تأديبه ، وسبحان من طبعه على الخلق العظيم ، وسبحان من أرسله رحمة للعالمين .

الذكرى الثالثة ، من ذكريات رمضان المعظم ، ليلة القدر المباركة العظيمة ، التى جعلها الله تعالى خيرا من ألف شهر ، وينزل فيها ملائكته المقربين ، وأمين الوحى جبريل ، باذن ربهم من كل أمر ، وجعلها سلاما حتى مطلع الفجر . وأنزل فيها القرآن الحكيم جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ فى السماء السابعة ، الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم نزل به رئيس الملائكة جبريل ، على نبينا العظيم ، مفرقا حسب الوقائع والمناسبات ، فى ثلاث وعشرين سنة . وجعله مولانا

المعجزة الخالدة على وجه الزمان لحبيبه ومصطفاه ، وضمنه من القواعد والأحكام ما فيه سعادة الناس فى الأولى والآخرة .

ولقد سلكت الانسانية فى سبيل الوصول الى الحكم الصالح طرقا شتى ، وما زالت فى كفاحها عبر الدهور والعصور ، تنشد النظام بلا ريب ، هو ما نادت به النظام الذى يتحقق فيه العدل والانصاف بأروع صورهما وذلك آيات التنزيل الحكم ، وسعد به المسلمون الأولون فحكموا حكم العادلين ، وفتحوا فتوح الجبارين ، وعاشوا عيشة الزاهدين ، وعملوا أعمال الصالحين وكانوا من قبل ومن بعد سادة للناس أجمعين .

ونضرع الى الله العلى القدير ، أن يوفق المسلمين بالمشارق والمغارب ، الى التأدب بآداب كتابهم ، وتطبيق نصوصه فى عباداتهم ومعاملاتهم ، والتمسك بأحكام دينهم ، والسير فى طريق رسولهم ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، ويجعل التوفيق حليفهم ، وبلوغ المقصود رائدهم ، حتى يستردوا مجد آبائهم ، وعز أجدادهم ، الذى يتغنى به المؤرخون هنا وهناك ، كلما قلبوا صفحات التاريخ ، فى أيامه النضرات ، وعصوره الزاهرات (والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل) .

أحمد على منصور

« دعاء »

اللهم هب لى حقك ، وارض عنى خلقك ، وهب لى الاصلاح فى الولد ، والأمن فى البلد والعافية فى الجسد انك سميع مجيب .

الصناعة الحربية فى ضوء الإسلام

لواء محمد جمال الدين محفوظ

من العلوم التى نوه القرآن الكريم بخطرها وأشاد بقيمة المهارة فيها ، العلوم العسكرية والصناعات الحربية وجملة الفنون التى تحتاج اليها الأمة فى الدفاع عن وجودها وحقوقها .

ولقد جعل القرآن العناية بالصناعة الحربية آية على صدق الايمان وحسن الجهاد ، قال تعالى : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز » (الحديد ٢٥) .

أى وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع وغيرها من أسلحة الحرب القوية التى تردع المعتدى وتقهره ؛ وفيه منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم وصناعاتهم ومختلف شئون حياتهم .

« وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » أى انما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم .

وختم الآية الكريمة بهذين الاسمين الجليلين (قوى عزيز) اشارة الى أن الله يحب لعباده القوة والعزة ، وان كل ما يوفر ذلك نظريا وتطبيقيا هو من وسائل التقرب اليه ومن دلائل تقواه جل شأنه .

ولقد أثنى الله على عدد من أنبيائه الكرام وعباده الصالحين فذكر تفوقهم فى علوم الصناعة وجهودهم فى تطويع هذا التفوق لنصرة الحق ودعم جانبه فقال جل شأنه يصف داود : « وألنا

له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » (سبأ ١٠) .

والالانة الحديد هى المهارة فى ايجاد شتى الآلات منه والوصول بصناعاته الى حد الاتقان دون اعياء أو قصور ، وذلك لحسن الخبرة وطول الدربة .

وقد أمر الله داود بتقدير السرد أى كلفه باحكام النسج للدروع السوابغ التى ينتجها حتى تخرج فى أعلى مستوى مستطاع .

وفى موضع آخر يصف الله تعالى داود بنوعين من العبادة والعلم ، أولهما : طول الذكر والتسبيح ، والآخر : اجادة المعدات الحربية .

قال تعالى :

« وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » (الأنبياء ٧٩ ــ ٨٠) .

وعباد الله الصالحون أثبت القرآن صلاحهم وهم يقومون بأعمال رائعة تدل على علم بالحياة وخبرة بشئونها :

فهذا ذو القرنين يقول للذين منوه بالمكافأة اذا بنى لهم سدا يحميهم من أعدائهم : « ما مكنى فيه ربى خير ، فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما » (الكهف ٩٥) .

وهنا يظهر علم الرجل ببناء القلاع فيحول منطقة عمله الى مصانع يصهر فيها النحاس وتغلى المواقد ويقطع الحديد وتمهد الأرض وتسوى جوانب الجبل ويؤدى الرجال الأتقياء واجبهم لله على هذا النحو الذى يحمى الضعاف ويصون الحق ويعلى شأن الايمان .

« آتونى زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتونى أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا » (الكهف ٩٦ ــ ٩٧) .

وأفتى العلماء باتفاق أن اقامة الحرف والصناعات فريضة على

المجتمع كله يأثم بتركها ، وعلى الأفراد الصالحين لهذه الفنون بمواهبهم وقدراتهم أن يجودوافيها ويخدموا أمتهم ورسالتهم بها .

وصحيح أن العرب طلعوا على العالم بالاسلام ، وكان الناس فقراء الى العلم به والدخول فيه لكن العرب ما كان عليهم من حرج أن يتعلموا من الناس أنواع الخبرة التى تنقصهم والتى لم تهدهم اليها مطالب الصحراء ومجامع البادية :

❋ ففى عصر النبوة عنى النبى صلى الله عليه وسلم بملاحقة التطور فى أسلحة القتال ، وكان حريصا على تزويد جيش المسلمين بالاسلحة المعاصرة التى لم يألفوها من قبل ، وعلى تدريبهم عليها والقتال بها ، فأرسل عليه الصلاة والسلام بعثة من اثنين من المسلمين هما عروة ابن مسعود وغيلان بن سلمة الى جرش (١) ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات (٢) وكلها من أسلحة القتال التى يألفها المسلمون من قبل .

وقد استخدم الرسول عليه السلام المنجنيق والدبابات فى حصار الطائف ، كما روى أنه نصب المنجنيق فى حصار خيبر للتهديد ولكنه لم يرم به فعلا ، فقد روى ابن خلدون « ان الرسول هم بنصب المنجنيق على خيبر ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح » .

وقد برع المسلمون بعد ذلك فى استخدام هذه الأسلحة الجديدة وطوروها وأدخلوا عليها كثيرا من التحسينات والتهذيب وكثر حصارهم بها للمدن المحصنة ذات

---

(١) جرش مدينة تقع شرقى جبل السودان من أرض البلقاء وحوران من أعمال دمشق ولما كانت دمشق ذلك الوقت تحت حكم البيزنطيين ، فمن الجائز ان يكون العرب هناك نقلوا هذه الأسلحة عنهم .

(٢) المنجنيق من آلات القذف الثقيلة يستخدم فى الحصار وهدم الحصون والابراج والعرادات نوع منه مصغر ، أما الدبابات فتستخدم فى نقب الأسوار وفى معاونة المنجنيق فى عمليات تدمير الحصون واقتحامها .

الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر (١) .

* ومن أبرز الأدلة على عناية المسلمين بالصناعة الحربية بعد عصر النبوة أنهم صنعوا السفن الحربية واتقنوا قيادة الأساطيل وحرب البحار .

فمن أين لأبناء الرمال صناعة السفن البحرية ؟ .. لقد رأوا ـ دون انتظار لنص موجه ـ أن كتابهم لا يعلو فى عالم يجهلون فيه شئونه البحرية ، فعبدوا الله بالسيطرة على الأمواج . يقول ابن خلدون : ـ كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم ، صارت أمم العجم تحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ صناعته . فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرا من هؤلاء ، وأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا .

ومن أعظم الأمجاد التى يسجلها التاريخ الحربى للعسكرية الاسلامية أن الأساطيل الاسلامية استطاعت أن تقهر أعظم الأساطيل البحرية فى زمانها (أسطول بيزنطة) وأن تزيل عن البحر الأبيض المتوسط تلك الصفة التى لصقت به طويلا وهى « بحر الروم » ، حتى أصبح حريا به أن يدعى « بحر المسلمين»

ويقول ابن خلدون : ان المسلمين تغلبوا على لجة « بحر الروم » وان أساطيلهم سارت فيه خائبة وذاهبة من صقلية الى تونس ،

---

(١) ادهش المسلمون الفرس والروم بما ادخلوه على الأسلحة من تحسين وتطوير حتى اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى « ليو » ـ مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين ـ فقد نقل عنه فون كريمر فى كتابه « الشرق تحت حكم الخلفاء » انه قال : « ان الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح » .

والرومان والصقالية والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التي ضريت (١) عليهم كضراء الأسد على فريسته .

وأسلحة القتال في كل عصر فيها الخفيف والثقيل ، فمن الأسلحة الخفيفة قديما السيف والرمح والسهم ، ومن الثقيلة المنجنيق ، أما في عصرنا فمن الأسلحة الخفيفة البندقية والرشاشات ومن الثقيلة الدبابات والمدافع والطائرات والسفن الحربية .

والواقع أن القدرة الحقيقية للأمة على الصناعات الحربية لا تقاس بقدرتها على انتاج الأسلحة الخفيفة ، وانما تقاس بقدرتها على صناعة الأسلحة الثقيلة ، وهذه القدرة — لو تأملنا أحوال الامم — في عالمنا المعاصر — لا تتوفر الا لدى عدد محدود من الدول ، حتى لقد أصبح السعي لبلوغ تلك القدرة مجالا لصراعات دولية عنيفة، وسببا من أسباب اندلاع الحروب والمنازعات .

والمعروف لدى رجال الاقتصاد والصناعة أن صناعة « الأسلحة الثقيلة » لا تتوفر الا اذا كان لدى الدولة القدرة على « الصناعة الثقيلة » وهذه الصناعة الثقيلة هي الأخرى لا تقوم الا على أساس صناعة في غاية الأهمية هي « صناعة الحديد والصلب » فماذا نستخلص من ذلك ؟

ان على الامة الاسلامية لكي يكون لديها صناعة حربية حقيقية ، أن تعمل بالتوجيه القرآني حول الحديد نحو ما يلي :

أولا : اقامة البنيان الاقتصادي أصلا على « الصناعة » أساسا ، لأن الزراعة — كما هو معروف لدى رجال الاقتصاد — لا تستطيع وحدها تحقيق التنمية أو بناء قوة الأمة أو تقدمها .

ثانيا : اقامة « الصناعة الثقيلة » أي لا تكتفي بالصناعات «الخفيفة»

---

(١) ضرى (بفتح الضاد وكسر الراء) عليه : اي لزمه ، و ولع به .

بل لا بد من أن تتجه الأمـة الى « الصناعة الثقيلة » أو « التصنيع الثقيل » . لأنه بدونها لا يمكن صناعة الأسلحة الثقيلة كما قدمنا.

ثالثا : اقامة « صناعة الحديد والصلب » باعتبارها تشكل الأساس لقيام الصناعة الثقيلة .

ذلك هو المدخل الصحيح لبناء القوة الحقيقية ونستطيع أن نستوحى معالم هذه القوة من الآية الكريمة حول الحديد :

١ ـ فهو أساس القوة الحربية فى مجال الحرب « فيه بأس شديد » .

٢ ـ وهو أساس التنمية الاقتصادية وتقدم الأمة عامة « ومنافع للناس » .

وطريق الأمة الاسلامية نحو تحقيق هذه الغاية ليس مفروشا بالورود ، لكنه طريق صعب فى عصر التكتلات والصراعات الذى نعيش فيه كما قدمنا ، ولا سبيل ـ فى رأينا ـ لتخطى هذه الصعاب الا باتباع ما يلى :

اولا : التكامل الاقتصادى ..

فلا مناص من أن يقوم النظام الاقتصادى للأمة الاسلامية على أساس التكامل ، فهو مطلب حيوى لبناء القوة المنشودة ، وهو السبيل العملى لتحقيق مستوى من الاكتفاء الذاتى الذى لا يجعل الأمة فى مهب التقلبات السياسية والمصالح الاستراتيجية الدولية أو تحت رحمة الاحتكارات الدولية .

ثانيا : العناية الفائقة بالبحث والتطوير ..

فكما أن اعتماد الأمة على مواردها وحشدها وحسن استغلالها فى اطار التكامل يحقق قدرا من الاكتفاء الذاتى ، فان عناية الامة بالبحث العلمى والتطوير تشحذ همة علمائها وخبرائها ، وتستخرج من قرائحهم من الاختراعات والمبتكرات مايدعم قوة الأمة ويدفع تقدمها .

فقل رب وفق للعظائم أمتى
وزين لها الأفعال والعزمات[1]

لواء محمد جمال الدين محفوظ

(١) من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى

الصيام في القرآن

الاستاذ عبد الحميد الفضالى

انها كلمة تدور حول الصيام ، كعبادة لها وزنها وخطرها بين سائر العبادات .. وفيها اشارة خفيفة لبعض آثار العبادات فى سلوك المكلفين بأدائها ، فى حياتهم ، وعاقبة أمرهم ، بعد مماتهم .. كما أن بها القاء بعض الأضواء على أن القيام بالواجبات ، فى أداء العبادات ، واجتناب المنهيات ، وطاعة الله ــ انما هو لمصلحة الخلق ، لا لمصلحة الخالق ... سبحانه ..

وقد يكون فى هذا الذى ذكرت .. وفى غيره مما سأذكره ــ استحضار لقلوب بعض القارئين لموضوع « الصيام فى القرآن » ــ قبل أن أتحدث لهم عما جاء فى آيات الكتاب الكريم ، عن الصيام بخاصة .. وعن بعض ما ترشد اليه هذه الآيات وتدل عليه ، مما قد تشتد حاجة القارىء اليه ، وتزيد به فائدته ، أو افادته ــ فى ايجاز يحتمله المقام ، بقدر المستطاع ، وبمشيئة الله .

***

ان الصيام عبادة شرعها الله للمؤمنين من أمة محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ كما شرعها الله للمؤمنين من قبلهم .. وقد نصت على ذلك آية فى كتاب الله .

وكان الصيام فى الاسلام ركنا من أركانه الخمسة التى يقوم عليها بناؤه ، ويتم رواؤه ، وتتلألأ أضواؤه ، فتستنير بها ظلمات الحياة ، وتتضح معالم الطريق الى الله ، الحق الذى جاء من عند الله .. فيهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات

الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم .. صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض . ألا الى الله تصير الامور .

هذه الأركان التى قام عليها بناء الاسلام ، هى ما نص عليه الحديث الشريف :

« بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. واقام الصلاة .. وايتاء الزكاة .. وصوم رمضان .. وحج البيت من استطاع اليه سبيلا .. » . وانه لبناء شامخ لا يطاوله بناء ، فى كماله وتمامه ، وفى نقائه وصفائه ، وفى رسوخه وبقائه .. حتى يرث الله الارض ومن عليها ..

وحسبك أنك ترى فيه التوحيد الخالص الذى لا يخالطه شرك . والعبادات الشاملة الصادقة التى لا يعتريها قصور ، ولا يشوبها كذب .. والمعاملة الأمينة الكريمة التى لا يدنسها لؤم ، ولا يشوه جمالها غرض ، أو يقبح صورتها نفاق .

وانه لكنز ثمين وتراث عظيم ، حرص عليه المسلمون الأوائل ، وفهموه حق الفهم ، وطبقوه خير تطبيق ، على ضوء ما بينه وجلاه — كتاب الله ، وهدى رسول الله ، فكتب الله لهم السيادة والعزة والخير العميم فى جنبات الحياة .. وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله .

***

والصيام يقصد به ، كما يقصد بسائر العبادات — تربية المسلم ، وتهذيب نفسه ، واصلاح شأنه ، واصحاح بدنه ، واضاءة شأنه ، وتطهير لسانه ، وترقيق مشاعره ، والارتفاع بها عن الدنايا ، والارتقاء بها الى السمو ومكارم الأخلاق .. فيبذل المسلم — عن طيب خاطر — من خير الله ، على من حوله من عباد الله ، ويكف أذاه عمن سواه ، وعما سواه .. من كل ما يحيط به ، من الناس ، والدواب ، والأنعام ، والطير ، والشجر والزروع .. وفى كل ما ينبغى صيانته ورعايته .. وفى

كل أمانة توكل اليه ، أو عمل يسند اليه .. فيكون أداؤه له متقنا ، لا خلل فيه ولا نقص ، بقدر ما يتسع له الجهد .. فان الله يحب اذا عمل أحدنا عملا أن يتقنه .. كما ورد فى حديث شريف لرسول الله ..

وبهذا لا تجد فى المجتمع الاسلامى الصادق - قويا تطغيه قوته .. أو غنيا يفسده غناه .. أو محتاجا يريق ماء وجهه بالسؤال ، أو يمد الى الناس يده ، أو فقيرا يحقد على من حوله من الأغنياء ..

فالجميع فى مجتمع الاسلام الصحيح - أسرة واحدة ، متعاونة، متكافلة .. مجتمع يؤمن بالله وباليوم الآخر وبالثواب والعقاب ، وبالجنة والنار - ايمانا لا يزعزعه شك ، فلا تغره حياة الدنيا ، ولا يظلم الناس شيئا ، ولا ينسى الموت أبدا ، فقد يجيئه بغتة ، وهو على أتم ما يكون صحة وشبابا ، فلا يصده عنه مال وثراء ، أو جاه وسلطان ، فكل ذلك عارية مستردة، لا دوام لها ولا أمان .. ولذا يقول الله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» .فنحن مستخلفون فى هذه الأموال ، فهى فى أيدينا اليوم ، وغدا فى يد غيرنا..وليس للانسان من ماله الا ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى. كما يقول سيدنا رسول الله .. فالحياة فى الدنيا أيام معدودة ، وساعات محدودة ، عند انقضائها تلف أعمال الانسان ويطوى سجله ، ويحال بينه وبين هذه الدار ، ويؤخذ به الى دار القرار.. فاما دار انس وبهجة ، واما دار شقاء ووحشة .. انه قد وضع فى صحراء مقفرة لا أنيس بها ولا جليس ، بل يتركه الناس وحده ، حتى أقرب الناس اليه ، وأحبهم لديه . يتركونه وقد أظلم عليه الليل ودنت منه الوحوش ، واختلط بلحمه الديدان ..

فمن يا ترى ينجيه من بأس الله ، ويؤنسه فى دار غربته ، ويخفف من كربته ؟!

اللهم لا شىء الا عمل صالح قدمه فى دنياه ، فهو أنيسه فى قبره وأخراه ..

ولذا يقول الله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

ويخوفنا رسول الله عاقبة أمرنا فى دنيانا وآخرتنا ، فيقول : « البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان » .. ويقول الشاعر العربى الزاهد :

صاح شمر ولا تزل ذاكر المو
ت فنسيانه ضلال مبين ! !
ليس لله فى عبادته مصلحة :

وأحب أن يكون مفهوما ان الله سبحانه وتعالى ــ ليست له مصلحة فى حمل الناس على الصيام ، ولا على غيره من سائر العبادات والتشريعات التى شرعها لخلقه .. لأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من اطاعه ، ولا تضره معصية من عصاه . .وانما الخير كله يعود على عباده الذين خلقهم ، وهو أعلم بهم ، « الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، فهو سبحانه ، فى أوامره ونواهيه ، وتشريعاته للناس ، وتكليفهم بعبادته على ضوئها ، ودعوتهم الى الالتزام بها ، فى أعمالهم ومعاملاتهم وسلوكهم ــ انما يضع لهم صمامات أمن لهم ، تقيهم ما يضرهم ولا ينفعهم ، وتجعلهم صالحين لخلافته فى الأرض ، يقيمون الحق والعدل ، وينشرون الخير ، ويحاربون الشر ، فى نفوسهم ، ومجتمعاتهم ، فى كل زمان ومكان ، ما وسعهم ذلك . حتى يرث الله الأرض ومن عليها ..

ان الخير كله فى طاعة الله فيما ارتضاه .. والشر كله فى عصيانه فيما شرع صياما ، أو غير صيام.. وان ذلك الخير وذلك الشر ــ من المؤكد أنه يصيبنا فى عاجلنا وآجلنا ، فى حياتنا وبعد مماتنا . أليس الله سبحانه وتعالى يقول : « من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون» . ويقول: «سنستدرجهم من حيث لايعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » .

ولن يخلف الله وعده . قال

تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ،وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا .. » . فالعمل الصالح ينفعنا فى حياتنا ، وينفعنا بعد موتنا .. بل ينفع ذريتنا من بعدنا .. قال تعالى : «وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » .

ولذا ، فان الله سبحانه وهو العليم الخبير ـ حرصا علينا ، ورأفة بنا ـ يرغبنا دائما فى طاعته، وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتزام شريعته ، فى كل آية يكون فيها أمر ، أو نهى ، أو تشريع ، أو استجابة لما تدعو اليه . لأن ذلك يحقق لنا الخير والسعادة ، والفلاح، والتقوى التى هى القوة والعصمة والأمن والوقاية من كل سوء ..

ولذلك تجد فى ختام تلك الآيات ـ الروائع من هذه العبارات :

« لعلكم تتقون » .

« لعلهم يتقون » .

« لعلكم تشكرون » .

« لعلكم تفلحون » .

« وذلك هو الفوز العظيم » .

« ان الله كان عليما حكيما » .

« والله عليم حليم » .

« والله بكل شىء عليم » .

« ان الله كان بكم رحيما » .

« ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

« لعلكم ترحمون » .

« وما ربك بظلام للعبيد » .

« فأولئك هم الفائزون » .

« ان الله عنده أجر عظيم » .

.. الخ .

كما يبين سبحانه وتعالى أنه لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .. فيخوفنا عاقبة

ظلمنا لأنفسنا ، بمخالفتنا لشرعه ، وعصياننا لأمره ونهيه ، وسيرنا وفق أهوائنا ، واستعباد شهواتنا لنا . .ولذلك نراه سبحانه ينذر العاصين بقوله : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » .

ويقول فى ختام آيات المخالفة والعصيان :

« تصله جهنم وساءت مصيرا» .

« وله عذاب مقيم » .

« وله عذاب أليم » .

« انه لا يفلح الظالمون » .

« أولئك هم الخاسرون » .

« انه لا يحب المعتدين » .

« فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

« ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » .

« واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .

الصيام أبعد العبادات عن نفاق الخلق :

ان الصوم هو العبادة الوحيدة التى لا يمكن أن يتقرب بها عبد لعبد .. وانما يتقرب بها الى الله وحده لا شريك له .. فهى عبادة خالصة له من دون الناس .. عبادة لا ترضى مطامع الطامعين من البشر ، ولا تشبع شهوات ذوى الشهوات الدنيا من بنى الانسان.

أما غير الصيام من العبادات.. فقد تستخدم فى غير ما خلقت له. فى مجالات النفاق .. وفى تحقيق مآرب دنيوية .. لا تجلب نفعا ، ولا تطيل عمرا ، ولا تنجى من عذاب الله.. « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » . . « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

فالزكاة مثلا ، وهى شرعا اخراج المال لله وفى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ـ قد يخرجها انسان ، اكتسابا لشهرة ، أو طلبا لحماية ، أو حصولا على مغنم ، أو وصولا

الى منصب .. أو ابتغاء لثناء الناس عليه .. وفى كل ذلك لا ثواب له فيها ، وانما يلقى بها فى النار ، لأنه قصد بها وجه الشيطان، ولم يقصد بها وجه الله .

ومن ذلك الضلال المبين — ما يخرجه أصحاب الأموال من أموالهم ، تقربا لعظيم .. أو اعلانا لولائه لرئيس أو ملك — انتظارا لوسام يحصل عليه ، أو وزارة تسند اليه .

ولكننا لم نر أحدا من الناس يصوم لأحد من الناس .

وذلك بعض مفهوم قول الله تبارك وتعالى فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له الا الصوم فانه لى وانا أجزى به » .

والصلاة ، وهى الصلة بين العباد وربهم — المفروض لقبولها أن تكون خالصة لله وحده ، خشوعا وخضوعا ، وانحناء جباه ، وركوعا وسجودا ، ودعاء وتسبيحا ، وتكبيرا واستغفارا ، واستغراقا مع الله ؛ لا يشغل المصلى سواه ، ولا يبعده عن الحق هواه .

ولكننا نرى بين الناس الذين يحنون جباههم وهاماتهم فى الصلاة — من يحنى هامته لغير الله، من عباد الله الذين لا يملكون له نفعا ولاضرا ، ولاموتا ولا حياة — نفاقا لهم أو خوفا منهم ، أو طمعا فى دنيا يصيبها من ورائهم .. وكثيرا ما نراه يركع لهم ، ويسجد فى لقائهم واستقبالهم .. ويلقى على مسامعهم من الكلمات ما لا ينبغى أن يقال الا لله .. كأن يقول لأحدهم : أنا عبدك .. أو أنت القاهر لغيرك .. أو أنت المعز المذل .. أو القادر على كل شىء، فأنت الذى أغنيتنى بعد فقر ، وشفيتنى بعد مرض ، وأحييتنى بعد موت .. مع أن الذى يملك ذلك كله ، وفوق ذلك كله — هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وكذلك الأمر فى عبادة الحج : فكثيرا ما يكون الهدف منه ، أو الدافع اليه — المباهاة والافتخار.. أو المناداة بلقب (الحاج) .. أو

استغلال هذا اللقب فى أن يكتب قبل كتابة اسمه ، فى بطاقته وعلى لافته فيخدع الناس بحجه.. وما أكثر ضحاياه من المتعاملين معه . فهل يتقبل الله حج هؤلاء وأمثالهم ؟ ! !



الصيام نشاط وعمل وتوبة ومجاهدة :

ان الصيام ليس نوما وكسلا ، ولا راحة واسترخاء ، وليس اجازة يستريح فيها الصائمون — (سواء أكان الصيام فريضة ، أم واجبا فى أداء كفارة ، أو تطوعا ونافلة ..)— وانما هو عبادةورياضة ، ومجاهدة؛ وعمل وانتاج ، وتدريب سليم محكم ، للامتناع (عما أحل الله) ، من الطعام والشراب والنساء ، ليكون بعد فترة ، تطول أو تقصر ، مؤهلا للامتناع (عما حرم الله) طوال العام — من باب أولى .. فتقوى به ارادة المؤمن ، ويتحرر من عبوديته لأهوائه ونزعاته ، وللشيطان الرجيم — وقانا الله شره ، وشر نفوسنا . اللهم آمين .

ان المؤمن الذى يروض نفسه على الابتعاد عما أحل الله أثناء صومه ، وتحقق له النجاح فى رياضتها وفطامها — انما يرتقى بها الى أعلى درجات الامتثال لأمر الله واجتناب ما حرم الله .. فيعيش فى أمن وأمان ، ما دام على قيد الحياة .

وان الذين يسهرون ليلهم فى عبث ولهو ، ثم ينامون نهارهم ، وهم قادرون على العمل والانتاج — لا ثواب لهم من صيامهم .. فالرسول وهو الاسوة الحسنة ، وكذلك الراشدون من صحابته .. كانوا رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار .. فقد غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم — غزوة بدر الكبرى فى رمضان .. وفتح مكة كذلك فى شهر رمضان. وانتصارنا فى (حطين) كان فى رمضان .. وانتصارنا على اسرائيل كان فى رمضان .

هذا ...

وان كلمة الصيام يراد بها فى اللغة مطلق الامساك .

فالمسك عن الطعام صائم ، وعن الماء صائم ، وعن الكلام صائم ، وعن الكتابة صائم ، وعن القراءة صائم ؛وعن النكاح صائم ..

وجاء فى القرآن الكريم : « انى نذرت للرحمن صوما » .

قال ابن عباس : أى صمتا .. فالصمت صيام ، لأنه امساك عن الكلام ..

ومن طريف ماقرأت أن (رمضان) اسم من أسماء الله تعالى ذكره.. ومن هنا لا يجوز أن يقال رمضان مجردة ، اذا اريد بها الدلالة على الشهر ، وانما يقال : شهر رمضان، أى شهر الله ..

جاء ذلك فى كتاب : « مروج الذهب للمسعودى » .

ولست أدرى من أين جاء بهذا الكلام ؟!

أما الصيام شرعا .. فهو امساك مخصوص ، كما جاء فى كتب اللغة .

وأوضح ذلك الفقهاء فقالوا : انه امساك عن الطعام والشراب والرغبات الجنسية .. من طلوع الفجر الى غروب الشمس .

***

ثم أعود ...

ثم أعود الى عنوان المقال : « الصيام فى القرآن) فأقول :

ان الصيام ورد ذكره فى القرآن الكريم فى ستسور فقط منسوره البالغ عددها (مائة وأربع عشرة سورة) .

وهذه السور الست هى : سورة البقرة ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة مريم ، وسورة الأحزاب ، وسورة المجادلة .

أما الآيات التى ورد فيها لفظ الصيام أو ما اشتق منه .. فعددها احدى عشرة آية فقط ، من آيات القرآن الكريم ..وعددها (ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية).

وهذه الآيات الاحدى عشرة موزعة كالآتى :

خمس آيات فى سورة البقرة .
وأرقامها : (١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ثم ١٨٧ ، ١٩٦) .

وآية واحدة فى سورة النساء هى الآية (رقم ٩٢) .

وآيتان فى سورة المائدة ، هما الآيتان : (رقم ٧٩ ، ٩٥) .

وآية واحدة فى سورة مريم ، هى الآية : (رقم ٢٦) .

وآية واحدة فى سورة الأحزاب ، هى الآية : (رقم ٣٥) .

وآية واحدة فى سورة المجادلة ، هى الآية : (رقم ٤) .

***

وأرى من الخير تدوين هذه الآيات ، بنصوصها ، كما وردت فى كتاب الله ــ تيسيرا على القارىء ، فى متابعة المعانى وتفهمها ، وتحقيقا للفائدة المرجوة ، بقدر المستطاع ، فى سهولة ويسر .

أما من ناحيتى فسأحاول بتوفيق الله ــ تفهم الآيات بوجه عام ، وفقه ما تدل عليه وترشد اليه .. وعرض ما تشتد الحاجة اليه ، ويسهل تقبله ، رجاء الاهتداء به ، والافادة منه . وعملا بالحكمة القائلة : « ما لا يدرك جله لا يترك كله » .

وأرجو أن يرزقنا الله جميعا اخلاص النية ، وسلامة الطوية .. واخلاص العمل ، فيما نأتى وندع وأن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم .. انه نعم المولى ونعم النصير .

***

نصوص الآيات :

اولا :

قال تعالى فى سورة البقرة :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

« أياما معدودات ، فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ان

كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون » .

(وهى الآيات : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥) من سورة البقرة .

ثم يقول سبحانه :

« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » .

(الآية ١٨٧ » من البقرة .

ويقول سبحانه :

« وأتموا الحج والعمرة لله ، فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ، ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله ، واعلموا ان الله شديد العقاب » .

(الآية ١٩٦) من البقرة .

ثانيا :

أما آية سورة النساء ، فقوله تعالى :

« وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن ،

فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله ، وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما » .

(الآية ٩٢) من سورة النساء .

ثالثا :

وأما آيتا سورة المائدة فهما كما يلى :

قال تعالى :

« لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ، ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الايمان ، فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » .

(الآية ٨٩) من سورة المائدة.

ويقول تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مسكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » .

(الآية ٩٥) من المائدة .

***

رابعا :

وأما آية سورة مريم ، فهى قوله تعالى مخاطبا مريم عليها السلام :

« فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » .

(الآية ٢٦) من سورة مريم .

***

خامسا :

وأما آية سورة الأحزاب ، فقوله تعالى :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات،

والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعـــات ، والمتصدقيـــن والمتصـــدقات ، والصائميـــن والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفـرة وأجرا عظيما » .

(الآية ٣٥) من سورة الأحزاب.

***

سادسا :

وأما آية سورة المجادلة ، فهـي قوله تعالى :

« فمن لم يجد فصيام شهـرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافـرين عـذاب أليم » .

(الآية ٤) من سورة المجادلة .

العون من الله :

واستعيـن بالله ، فاقتطف مـن ثمرات هـذه الآيـات .. ومن أزهارها ذات الأريج العبق الفياح. ما أنا شاعر بشدة الحاجة اليـه : غذاء شافيا ، ودواء ناجعا ، لكثير من أمراضنا وعللنا .. وبخاصة ما توحى به الآيات فى مجـالات الصيام .. ومـا يتصـل بها .. ووضعها بالنسبة لما حولها .. وكل ما أرى فيه اتماما للفـائدة : بمشيئة الله .

***

صيام الفريضة :

تكلمت فى الآيات الأربع الأولى من سورة البقرة ــ وفق تدوينهـا السابق . وسألتزم فى الكلام عنه بما جاء فى النص القـرآنى ــ احتراما لعنوان المقال .. الا فيمـا يتعلق بتوضيح بعض الحقائق .. أو تصحيح بعض المفاهيم .. كمـا أشرت الى ذلك من قبل ..

والمراد بصيام الفريضة ــ صيام شهر رمضـان الذى أنزل فيـه القرآن .. وهو ركـن من أركان الاسلام التى قام عليها بناؤه .. كما نص على ذلك حديث « بنى الاسلام على خمس .. » .

وقد أوضحت الآيات هذه الفرضية ، فى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام » أى فرض .

وحددت مدته وزمنه ، فى قوله : « أياما معدودات » وقوله : « شهر رمضان ... » الى قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .. فالمفروض صيام أيام شهر رمضان .

والمراد بشهود الشهر ، أن يكون المكلف مقيما غير مسافر فى الشهر .

أما المسافر ، فقد رخص له بالافطار ، اذا شاء ، وعليه القضاء .

كذلك المريض الذى يرجى برؤه ، يفطر وعليه القضاء .. بدليل قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر ، فعدة من أيام أخر .. » .

أما الذى يطيق الصيام ، أى يتحمله بمشقة ، فله أن يفطر ، ويقدم فدية : اطعام مسكين عن كل يوم يفطره .. وله أن يصوم ، وصيامه خير له من الافطار .. بدليل قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية » .. الى قوله : « وأن تصوموا خير لكم » .

أما زمن الصيام ووقته ، فهو من طلوع الفجر الى غروب الشمس . جاء ذلك فى قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل » .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود ، بياض النهار وسواد الليل ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم — لعدى بن حاتم .. وقد عمد الى عقالين أبيض وأسود ، وجعلهما تحت وسادته ، وكان يقوم من الليل فينظر اليهما ، فلا يتبين له الأبيض من الأسود .. فلما أصبح ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان منه ... فضحك صلى الله عليه وسلم وقال له : « انك لعريض القفا ، انما ذلك بياض النهار وسواد الليل » .

(وعريض القفا ، كناية عن بلاهة الرجل وقلة فطنته » .

فكلمة « من الفجر » تشعر بأن المراد بياض النهار وسواد الليل ، لأنهما بيان للخيط الأبيض .. واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لأن بيان أحدهما بيان للثانى .. لكن طاقة عدى بن حاتم من الفهم لم تكن تحتمل هذا الادراك .. « ولا يكلف الله نفسا الا وسعها ».

ان الخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود .. والخيط الأسود ما يمتد من غبش الليل .. شبها بخيطين أبيض واسود .

ثم آية : «أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم » : أباحت مباشرة الرجال لنسائهم . فى ليالى رمضان .. وكانت المباشرة من قبل الاباحة مستقبحة حدوثها من الصائمين .

ومع اباحتها عبر القرآن عنها (بالرفث) وهو الفحش للاشعار بأنها عمل حيوانى لا يستأهل أن يقصده الصائمون لذاته .. يؤكد هذا الفهم قوله تعالى : « وابتغوا ما كتب الله لكم » ؛ أى لا تجعلوا المباشرة لقضاء الشهوة وحدها هدفكم ، ولكن لابتغاء ما وضع له النكاح من التناسل .. فذلك هو الأليق بالمؤمنين ، فى رمضان وفى غير رمضان .

وقد ذكرت الآيات المفطرات الحسية التى يبطل بها الصيام فى نهار رمضان ، وهى الأكل والشرب ، ومباشرة النساء .. فقد أباحتها لنا فى الليل ، وحرمتها علينا فى النهار (من طلوع الفجر ، الى غروب الشمس) .. الا من أكل أو شرب ناسيا ، فانه لا يبطل صيامه .. لأنه رزق ساقه الله اليه ، كما أخبرنا بذلك سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فهل هذه المفطرات الحسية هى وحدها التى يفسد بها الصيام ويبطل ؟ ! ان للصوم مفطرات معنوية يغفل عنها كثير من الناس . ومن ذلك ما جاء فى قول الرسول : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » اذن منها قول الزور ، والعمل به .. وتأكد هذا المعنى فى

قوله الشريف : « رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش » .

ان هناك من المعاصى ما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من التلبس به مع الصيام ، وبالغ فى شأنه . حتى عده من المفطرات ، تهويلا لشأنه ، واشارة الى أنه لا يناسب حال الصائم الذى يرجو رحمة ربه ، ويخشى غضبه وانتقامه . وقد بينها رسول الرحمة والرأفة فى حديثه الشريف حتى لا نقربها ، وأملا فى أن يتقبل الله منا صيامنا ، فلا ينقص أجرنا منه .. أو ابقاء على صيامنا سليما مبرأ مما يسخط الرب فهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين .. وهو طيب لا يقبل الا طيبا .. وانما يتقبل الله من المتقين .

ولذا فان رسول الله يقول : « خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ، وشهادة الزور ، واليمين الغموس ، والنظرة الفاجرة أو الآثمة » ..

ولعل من الخير الوقوف حيالها بعض الوقت :

ان الكذب يفطر الصائم ، لأنه خلق وضيع خسيس لا يليق بانسان ، ولأنه يتعارض مع حقائق الايمان . فقد سئل رسول الله : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : قد يكون .. وسئل : أيكون جبانا ؟ قال : قد يكون .. ولكن لما سئل صلى الله عليه وسلم : أيكون كذابا ؟ قال : لا .. ولما سئل : أيكون خائنا أو غدارا ؟ قال : لا ... ذلك ان الاسلام عقيدة وشريعة ، والعقيدة تتطلب الصدق .. والشريعة تتطلب أمانة التنفيذ .

فالكذب يفسد من غير شك صيام الصائمين .. وبخاصة أولئك الذين لا ينبعث صيامهم عن ايمان به ، أو رغبة صادقة فيه .. اذ لو صادقين فى صيامهم ما كذبوا أو لو كانوا مؤمنين حقا ما كذبوا ..

ولذا يقول الرسول فى حديث شريف : « واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور وان الفجور يهدى الى النار .. وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » .

والغيبة : وهى ذكر أخاك بما يكره فى غيبته بما هو فيه ـ تفطر الصائم .. فما بالك لو ذكر أخاه المسلم بما يكره بغير ما هو فيه.. انه من باب أولى يفطر الصائم ، لأنه أضاف الى اغتيابه بهتانا .. والبهتان أشنع ألوان الكذب .. فهو كذب يحمل فى طياته ارادة الفضيحة للمكذوب عليه .. فيكون من يتظاهر بالصيام ـ قد جمع بين ظاهرتين قبيحتين ، تبطل كل واحدة منهما صيام الصائم (كذب ، وغيبة) فما بالك باجتماعهما فى انسان يتظاهر بالصيام ، وهو كذاب ومغتاب ..

ان بطلان صيامه من باب أولى. ان الرسول قد سئل فى الغيبة عمن يذكر أخاه بما ليس فيه .. فكان جوابه صلى الله عليه وسلم : ان ذكرته بغير ما فيه فقد بهته ، أى كذبت عليه وفضحته بما ليس فيه. وليس هذا من خلق الاسلام والمسلمين .. فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ..

وشهادة الزور : تفطر الصائم، أو تضيع ثواب الصيام .. فهى تقلب الحق باطلا ، والباطل حقا.. وتختل بها موازين الحق والعدل.

ان شاهد الزور مصيبة كبرى ، فقد بلغت به القحة والخسة والسفاهة ـ أنه يكذب على نفسه ، فيغشها ويتبع هواها ، ولا يبالى بما يحملها من آثام..ويكذب على القاضى ويضلله ليحكم بغير الحق .. ويكذب على المشهود عليه فيظلمه ويضيع حقه .. فهل مثل هذا يقبل الله صيامه ؟ !

ان رسول الله حين سئل عن أكبر الكبائر قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس . وأخذ يقول : وشهادة الزور .. ألا وقول الزور.. وأخذ يرددها حتى قالت الصحابة : ليتنا ما سألناه .. شفقة به صلى الله عليه وسلم .

واليمين الغموس : تضيع ثواب الصيام .. أو هى من مفطرات الصائم .. وسميت غموسا ، لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم .. كالذى يقسم بالله على شىء هو

يعلم أنه كاذب .. انه يحلف بالله وهو متعمد الكذب .. كأنه لايبالى بربه ، ولا يخاف بأسه ، ولا يخشى عذابه .. هذه اليمين يضج لها عرش الرحمن جل جلاله .. من هولها .. ومن جراة الذين لا يخشون الله فيحلفون باسمه كذبا ..

يقولون ان الحسين رضى الله عنه كان له درع عند رجل .. أو سيف .. فلما راح يطلبه منه أنكره .. متقاضيا .. وطلب الحسين من الرجل أن يحلف اليمين .. فأراد الرجل أن يثنى على الله أثناءالحلف فمنعه الحسين .. وطلب منه أن يقسم القسم المجرد .. فما كاد الرجل يحلف بالله وهو كاذب ، حتى خر ميتا .. فسأله القاضى عن السر فى هذا ..

فقال له الحسين : خفت أنيثنى على الله فيرحمه .. وأردت أن يقسم القسم المجرد وهو كاذب لينتقم الله منه .. وقد كان .. انتقم الله منه وسقط ميتا .. لكنها كرامة الحسين .. وأين نحن من هذه الكرامة ..

ان اليمين الغموس لا غرابة فى أنها تفطر الصائم ..

والنظرة الفاجرة أو الآثمة :

انها تفطر الصائم .. أو تضيع ثواب الصوم .

وهى التى أشار الىمثلها الخليفة عمر ، أو عثمان .. حين دخل عليه جماعة ، وفيهم من نظر الى امرأة بشهوة فى الطريق .. فقال : يدخل على أحدكم وأثر الزنى باد فى عينيه ..

فقيل له : أوحى بعد رسول الله ؟ ; فقال : لا فراسة المؤمن الذى يرى بنور الله . .

اذن هى النظرة الزانية .. يقول الرسول : « وزنى العين النظر » .

ويقول الرسول كرم الله وجهه : « يا على لا تتبع النظرة النظرة ، فالأولى لك والثانية عليك » ...

ويقول الله فى الحديثالقدسى :

القلوب ، يعظ النفوس ، ويجلو العقول ، وربنا من قبل ومن بعد ، أبدلتـه ايمانا يجد حلاوته فى قلبه » .

فهل نحن نعى هذه الامور المعنوية ، ونعنى بها عنايتنا بالمفطرات الحسية ..

ألا ما أكثر المفطرين فى نهار رمضان .. وهم لا يشعرون .

***

ثم ماذا ؟

ثم يختم الله هذه الآيات بقوله : « كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون» ..ألا ما أشد علاقة الصوم بالتقوى للصائمين حقا .. فهو جنة ووقاية .. وهو امتثال صادق لأمر الله بالامتناع عما ألفته النفس من حياة .. فتقوى ارادتها فى مرضاة الله .. وتعيش بالحق وللحق قوة لا تقهر ، وعزة لا تذل وهداية لن تضل ، وحياة باقية لا تبلى ولا تفنى .. وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون .

صيام الفدية ، أو كفارة التحلل من الاحرام :

أما الآية الباقية من آيات سورة البقرة الوارد فيها الصيام ، فهى الآية المبدوءة بقوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله .. الخ » .

فالصيام الوارد فيها جاء مرتين : مرة أولى ، فى قوله تعالى : « فمن كان مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » .

ومرة ثانية ، فى قوله : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة » .

فالصيام فى المرة الاولى ــ هو صيام ثلاثة أيام ، كفدية يقدمها المحرم الذى تحلل من احرامه ، بحلق شعر رأسه ، بسبب المرض أو الأذى الذى أصابه ، من قمل أو جراحة .

وهو صيام على التخيير ، وليس لازما .. فمن حقه أن يفدى

بصدقة يتصدق بها على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر.. أو يفدى بنسك وهو شاة .

وذلك الفداء خاص بمن تحلل من احرامه ، وكان محصرا ، أى منعه أمر من خوف ، أو مرض ، أو عجز .

وعن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لعلك أذاك هوامك ؟ قال : نعم يا رسول الله ــ قال : « احلق رأسك ، وصم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، أو أنسك شاة » .. وكان كعب يقول : فى نزلت هذه الآية .

أما الصيام فى المرة الثانية ، وهو صيام عشرة أيام (ثلاثة فى فى الحج ، وسبعة اذا رجع) ، فهو فدية ، أو كفارة ، لمن كان آمنا الاحصار .. أى كان فى حالة أمن وسعة ، ولكنه رغب فى أن يستمتع بالعمرة الى الحج .. أى استمتاعه بالعمرة الى وقت الحج.. وهو انتفاعه بالتقرب بها الى الله تعالى قبل الانتفاع بتقربه بالحج.

وقيل ان المعنى انه اذا حل من عمرته انتفع باستباحة ماكان محرما عليه الى أن يحرم بالحج ــ فعليه هدى المتعة ، وهو نسك عند أبى حنيفة ، ويأكل منه .. وعند الشافعى يجرى مجرى الجنايات ولا يأكل منه ..

أما ذبح الهدى ، فوقته يوم النحر .. ويجوز ذبحه اذا أحرم بحجه ..

فمن لم يجد الهدى ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج ، أى فى وقته وأيامه ، ما بين الاحرامين : احرام العمرة ، واحرام الحج .. وهو مذهب أبى حنيفة.. والأفضل أن يصوم يوم التروية ، وعرفة ، ويوما قبلهما .. فاذا مضى الوقت لم يجزئه الا الدم .

وعند الشافعى : لا تصام الأيام الثلاثة المطلوب صيامها بالحج ، الا بعد الاحرام بالحج ، تمسكا بظاهر قوله تعالى « فى الحج » .. وأما صيام الأيام السبعة الواردة فى قوله تعالى : « وسبعة اذا رجعتم » ، فالمراد بقوله « اذا

رجعتم » أى اذا فرغتم من أفعال الحج ، عند أبى حنيفة .. لكن الشافعى يرى أن المراد بالرجوع : هو الرجوع الى الأهل .

وهذا الصيام (صيام الأيام العشرة) ، ليس صياما على التخيير ، كالذى كان فى حالة الاحصار .. لكنه صيام واجب الأداء ، على من لم يجد الهدى ، فى مقابل تحلله واستمتاعه بما كان محرما عليه فى حالة الأمن .

فالهدى هنا مقدم على الصيام فى تقديم الفداء .. ولا يلجأ الى الصيام الا فى حالة عجزه عن تقديم الهدى .

هذا ، والصيامان فى كلا الحالين (حالة الاحصار .. وحالة الامن) ـ عبادة لله تعالى تحمل معنى شكره سبحانه ، فى مقابل ما وسع الله على المتحلل من احرامه واباحته له أن يستمتع بما كان محرما عليه .. وشكر الله مطلوب دائما من المؤمنين الصادقين .

صيام التوبة ، أو القبول والرحمة :

فى آية سورة النساء المبدوءة بقوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ .. » ـ يقرر الحق تبارك وتعالى أن من شأن المؤمن ألا يكون منه قتل لمؤمن أبدا ، الا اذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن يرمى كافرا فيصيب مسلما ، أو يرمى شخصا على أنه كافر فاذا هو مسلم .

والآية تبين أن كفارة هذا القتل الخطأ ، تختلف باختلاف حال قوم من وقع عليه القتل .

فان كان من قوم مؤمنين ، فكفارة هذا القتل شيئان لا بد منهما :

(عتق رقبة مؤمنة .. ودية تسلم الى أهله) .

وان كان المقتول من قوم كافرين معادين للمؤمنين ، فكفارته شىء واحد :

(هو عتق رقبة مؤمنة) .

أما ان كان القتيل من قوم بيننا وبينهم ميثاق ، أى كفرة لهم ذمة عندنا وعهد ، كالمشركيـــن الذين عاهدوا المسلمين ، وأهل الذمــة من الكتابيين..فحكمه حكم مسلم من مسلمين .. أى كفارته :

دية تسلم الى أهله .. وعتـق رقبة مؤمنة)..ولكن الآية الكريمة زادت فى هذه الحالة شيئـا بديلا لمن لا يملك تحرير الرقبة ، وهـو أن يصوم القاتل شهرين متتابعين.

وقد يبدو صيام الشهرين المتتابعين أمرا شاقا . .لكنه أمر الله العليم الخبير بالعلاج المناسب لقبول توبة القاتل التائب وتربيته وايقاظه من غفلته ، حتى لا يقع مرة أخرى فى مثل هذا الخطأ .. فالمؤمن كيس فطن .. أو ينبغى أن يكون كذلك بتعهده واعداده وعـلاجه .. حتى يكون جديرا بانتسابه الى الايمان، وحسبانه فى عداد المؤمنين .

***

صيام كفارة اليمين :

وذلك فى الآية الأولى من آيتى سورة المائدة..وهى التى مطلعها : « لا يؤاخذكم الله باللغــو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخـذكم بمـا عقدتم الايمان » ..

وفيها يقرر الحق تبارك وتعالى، أن كفـارة اليميـن التى عقـدها صاحبهـا ، أى وثقهـا وأكدها بالقصد والنية ، ونـكث فيها .. هى :

اطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبــة ـــ على التخييـر فيها .. فمن لم يجـد احداها .. فصيام ثلاثة أيام متتابعات .

وليس لكفارة اليمين غير ماذكر الله تعالى فى كتابه الكريم .

ومن هنا .. يظهـر خطأ الذين يسارعون بالافتاء لمـن يحنث فى يمينه ، بأن يصـوم ثلاثة أيام .. ابتداء .. فى حين يملك الحانث أن يطعـم عشرة مســاكين أو كسوتهم .. وقد يملك عتق الرقبة .. فصيام ثلاثة ايام ـــ لا تكون الا لمن لا يملك الا طعـام ، ولا يستطيع أن يكسو .. ولا يقـدر على عتق الرقبة .

ان الآية أوضح من الوضـوح فى هذا الأمر ، والخير كل الخيـر فى أن نلتزم بما جاءنا من عند الله.

ثم ان الكسوة المطلوبة ــ ثوب يغطى العورة ــ أو ما يعد كسـوة فى العرف .. فمن زاد كان خيرا. وأن تصدقوا خير لكم .

والشافعى يشترط فى الرقبـة المحررة أن تكون مؤمنة قياسا على كفارة القتل .

وأما أبو حنيفة وأصحابه ، فقد جوزوا تحرير الرقبة الكافرة .

وينبغى أن يكون معلومـا أن التكفير قبل الحنث ، لا يجوز عند أبى حنيفة وأصحابه .

ويجوز عند الشافعى ، تقـديم كفارة بغير صوم .. أى يجيز أن يقدم الكفارة اذا كانت اطعامـا أو كسوة ، أو تحرير رقبة .. أمـا الصيام فلا يقدم .

وانى أميل الى أن نبر بايماننا ، ولا نحنث فيها .. وخاصة اذا كان فى الحنث معصية ، وفى عدمـه طاعة .. أمـا اذا كان العـكس فالتكفير أولى .

ولذا ورد فى الحديث الشريف « من حلف على معصية ، فليحنث فى يمينه وليكفر » .

وورد أن « من حلف على شىء ورأى غيره خيرا منه ، فليكفر عن يمينه وليأت بالذى هو خير » .

ولذا ، قال الله : « واحفظـوا ايمانكم » ، أى اذا حلفتم بها، فلا تنسوها تهاونا بها . ولأن التهاون فى الحقيقة ــ تهاون بالمحلوف به وهو الله سبحـانه ، أو باسم من أسمائه ، أو صفة من صفات ذاته ــ وهى الأمور التىلايصح الحلف الا بها .. والتهاون من شأنه أن يجر الى ما لا تحمد عقباه .

فلنتق الله القائل : « ولا تجعلوا الله عـــرضة لأيمانكم أن تبـروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس » .

واذا كان الله ينهانا عن أن تجعل الله عرضة لأيماننا فيما هـو بر ، وتقوى ، واصـلاح ــ ففى غيـره

أونى .. صيانة لاسم الله ، وتعظيما واجلالا لشأنه جل جلاله .

***

صيام الكفارة فى قتل الصيد :

وذلك فى الآية الثانية من آيتى سورة المائدة .

وهى الآية التى يقول الله فيها « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مساكين ، أو عدل ذلك صياما » .

والتعمد ، أن يقتل الصيد وهو ذاكر لاحرامه ، أو عالم أن مايقتله مما يحرم عليه قتله .. فان قتله وهو ناس لاحرامه ، أو رمى صيدا وهو يظن أنه ليس بصيد ، فاذا هو صيد ، أو قصد برميه غير صيد ، فعدل السهم عن رميته فأصاب صيدا ، فهو مخطىء .

والآية فى ظاهرها تفيد أن قتل الصيد عمدا من محرم هو الذى يعتبر ذنبا تجب فيه الكفارة . أما القتل الخطأ فلا شىء فيه .. أخذ بذلك الصحابى سعيد بن جبير .. فهو يقول : لاأرى فى الخطأ شيئا ، أخذا باشتراط العمد فى الآية .

ويقول الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنة بالخطأ .. فكلاهما مؤاخذ به .

وعن الحسن روايتان : رواية تتفق مع ما ذهب اليه سعيد بن جبير .. ورواية أخرى توافق ما ذهب اليه الزهرى .

وأغلب الفقهاء على المؤاخذة على قتل الصيد عمدا أو غير عمد ، أخذا بما حدث فى عهد الرسول وصحابته .

ولأن الأصل فعل العمد ، والخطأ لاحق به للتغليظ .. ويدل عليه قوله تعالى : « ليذوق وبال أمره ، ومن عاد فينتقم الله منه » .

والمهم بيان الجزاء ، لنصل الى كفارة الصيام .

فالآية جاء فيها : « فجزاء مثل ما قتل من النعم » أى فعليه جزاء يماثل ما قتل من الصيد ..

وهو عند ابى حنيفة قيمة المصيد .. يقوم حيث صيد ، فان بلغت قيمته ثمن الهدى ، يخير بين أن يهدى من النعم ما قيمته قيمة الصيد ، وبين أن يشترى بقيمته طعاما ، فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر ، أو صاعا من غيره . وان شاء صام عن طعام كل مسكين يوما .. فان فضل ما لا يبلغ طعام مسكين ، صام عنه يوما ، أو تصدق به .

واذن فالجزاء على التخيير بين الهدى ، أو الاطعام بقيمته ، أو أن يصوم يوما عن طعام كل مسكين .

وعند الشافعى ومحمد ـ مثله ، أى نظيره من النعم .. فان لم يكن له نظير من النعم ـ عدل الى قول أبى حنيفة .

وقوله : « يحكم به ذوا عدل منكم » تفيد أن الذى يحكم بمثل ما قتل ـ حكمان عادلان من المسلمين ..

وفيه دليل على أن المثل القيمة ، لأن التقويم مما يحتاج الى النظر والاجتهاد ، دون الأشياء المشاهدة .

وفى قوله : « أو عدل ذلك صياما » ، اشارة الى الطعام ، وصياما تمييز للعدل .. والخيار فى ذلك الى قاتل الصيد عند أبى حنيفة وأبى يوسف .. وعند محمد الى الحكمين .

هذا ، ومعرفة هذه الأحكام شىء واجب ، وتنفيذها أوجب ، على كل مؤمن حريص على العلم بأحكام الله ، والسير على هداها ، ما وسعه ذلك ، حتى لا تزل به القدم ، أو ينحرف عن سواء السبيل ، فيستفحل الخطر .. ومعظم النار من مستصغر الشرر .

***

صيام الصمت :

يتجلى ذلك فى الآية التى خاطب الله بها السيدة مريم فى قوله تعالى : « فكلى واشربى وقرى عينا ، فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا » .

فالله يأمر السيدة مريم اذا مارأت أحدا من البشر أن تقول : « انى

نذرت للرحمن صوما» أى صمتا.. وفى مصحف عبد الله (صمتا).. وعن أنس بن مالك مثله.. وقيل : صياما .. الا أنهم كانو لا يتكلمون فى صيامهم .. وقد نهى سيدنا رسول الله عن صوم الصمت، لأنه نسخ فى أمته .

وأمر الله السيدة مريم بأن تنذر الصوم ، لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها فى الكلام .. ولأمور ذات معان :

أولها : أن عيسى عليه السلام سيكفيها الكلام بما يبرىء ساحتها .

وثانيها : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم ، لأن من يجادلهم ينزل بنفسه الى مستواهم ويكون مثلهم .

وثالثها : أن السكوت عن السفيه واجب يوجبه احترام الانسان لنفسه .

ورابعها : ثبت أن من أذل الناس ــ سفيها لم يجد مسافها . فكيف أخبرتهم بأنها صائمة ؟

قيل ان الله تعالى سوغ لها النطق بذلك .

وقيل : انها أخبرتهم بالاشارة بما يفيد أنها نذرت الصوم .

وهذا الصيام الذى كلفت به مريم وامتثلت له ــ كان فيه الخير والبركة ، والانتصار على النفس ، وعلى السفهاء من أعدائها .

وانه لمن الخير أن نصمت حين يجب الكلام .

وانه لمن الخير أن نصمت حين يحسن الصمت .. وأن نتكلم حين يجب الكلام .

***

الصيام من صفات الكمال :

انه لو تمثلت معانى الصيام وحدها فى الناس سلوكا وعملا ومعاملة ، لكدنا أن نرى أنفسنا أمام ملائكة تمشى على الأرض ، ورسل تنطق بالحق ، وتقيم موازين العدل ، وتنشر الخير فى كل مكان .. فما بالنا لو تجمعت فى انسان كل صفات الكمال التى ذكرتها الآية الكريمة من سورة الأحزاب ؟ .

ان الآية تقول :

« ان المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

فهل مثل هذه الصفات التى هى جماع مكارم الأخلاق ، والتى هى عنوان على خير دين جاء به من عند الله ، الرحمة المهداة ، محمد بن عبد الله — ندعها بدون تعليق .

ان من الخير الذى لا شك فيه ، اتماما للفائدة — أن نشير اليها بشىء من البيان .. وبخاصة فان بينها صفة الصيام .. وذلك بعد اشارة خفيفة الى ما قيل من أسباب نزولها .

يروى أن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم قلن يا رسول الله : ذكر الله الرجال فى القرآن بخير .. أفما فينا خير نذكر به ؟ .. انا نخاف أن لا تقبل منا طاعة .. وقيل ان السائلة هى السيدة أم سلمة رضى الله عنها .

وروى أنه لما نزل فى نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما نزل فى آية « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا .. » قال نساء المسلمين : فما نزل فينا شىء .. فنزلت « ان المسلمين والمسلمات .. الخ » .

فمن المسلم ؟

المسلم هو المنقاد للحق الذى لا يعاند ولا يشاغب .. والمسلم هو المفوض أمره الى الله المتوكل عليه ، مأخوذ من « أسلم وجهه الى الله » .

والمسلم هو الداخل فى السلم بعد الحرب .. فالاسلام سلام ، وليس فيه أبدا عدوان .. وان حروبه كلها كانت لرد العدوان ،

والدفاع عن كلمة الحق ، وحريتها، وصيانتها من الذين يريدون وأدها فى مهدها ، واسكات صوتها الندى الداعى الى البر والخير والعدالة والمساواة ، وحرية العقيدة والرأى « لا اكراه فى الدين » .. أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » .. وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع البصير » .

ومن المؤمن ؟

والمؤمن هو المصدق بالله ورسوله ، وبما يجب أن يصدق به، من رسل الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، والمؤمن بالقدر خيره وشره ، وبالجنة والنار ، والبعث والحساب والعقاب والثواب « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم». « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » .

ومن الصادق ؟

الصادق الذى يصدق فى نيته قوله وعمله .. يقول الرسول : « عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا » . والصدق من صفات الأنبياء المكرمين ، قال تعالى : « واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » ، « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » .

ومن الصابر ؟

هو من يصبر على الطاعات ، فلا يملها ولا يضيق بها ، مهما بذل فى سبيلها .. ويصبر عن المعاصى،

فلا يضعف أمامهـا ، ولا ينقـاد لها .

ومن الخاشع ؟

هو المتواضع لله بقلبه وجوارحه .. يعرف قدر نفسه ، وقدر ربه ، فلا يغفل عن ذكره ، ويقر دائمـا بعجزه أمام قدرة خالقه ورازقه ، ومعينه وراحمه ، ومحييه ومميته .

ومن المتصدق ؟

هو الذى يزكى مـاله ، ويؤدى واجباته ، ولا يخل بالنوافل.. فهو يؤدى الفريضة لا يقف عند أدائها بل يزيد عليها ويزيـد ، ويعطى المزيد ، ويتطوع بالبذل والعطاء فى كل مجالات الخير ، ما دام قادرا. « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفـه وهو خير الرازقيـن » .. والزكاة دائما بركة ونماء ، وعلاج ودواء.. « داووا مرضاكم بالصدقة » .

وقيل : « من تصدق فى اسبوع بدرهم فهو من المتصدقين .. ومن صام البعض من كل شهر فهو من الصائمين » . « ولا يكلف الله نفسـا الا وسعها » .

ومن الصائم ؟

تكلمت فيه كثيرا .. وحسبى أن أقول هنا فى ايجـاز .. انه الذى يصوم عن جميع المفطـرات حسية ومعنوية ، ويكف عـن كل ما نهى الله عنه .. ولا يقول الزور ولا يعمل به .. ويعطى للصيـام قداسته واحترامه .. فلا يكـذب ولا يغتاب ، ولا يشهد الزور ، ولا يحلف بالله كذبا ، ولا يزنى بعينيه ... ثم هو الذى راض نفسه على الصبر والمجاهدة واحتمال المشقات وأداء الواجبات ، وانصرف بحق عن كل ما يغضب الله .. وهو الذى صامت جوارحه عن الأذى..وتنزه سمعه عن سماع الفاحشة ، وصان لسانه عن قالة السوء ، ويده عن البطش بها ، ورجله عن السعى بها الى معصية ، وقلبه عن الحسـد والحقد والضغينة .. الخ الخ .

وحفظ الفرج :

صيانته عن الحرام .. والابقاء على طهارته رغم الشيطان .. ولذا يقول الرسول : « من يحفـظ لى ما بين فكيه ، وما بين فخـذيه ،

أضمن له الجنة » ، وما بين الفكين هو اللسان .. وما بين الفخذين هو الفرج .. ويطلق على الذكر والأنثى فيقال للرجل فرج ، وللمرأة فرج .

وان أمة تصان فروج أبنائها وبناتها ، لهى خير أمة أخرجت للناس .

والذاكرين الله كثيرا :

الذاكر كثيرا ، هو من لا يغفل عن ذكر الله أبدا .. فى كل أحواله .. فى يقظته ومنامه .. فى شدته ورخائه .. فى أعماله ومعاملاته .. فى عبادته وصلواته .. بقلبه أو لسانه ، أو بهما معا.. وقراءة القرآن ذكر .. والاشتغال بالعلم ذكر .. والدعاء ذكر .. والصلاة فريضة ونافلة ذكر .. ولا شك ان خير ألوان الذكر الصلاة وقراءة القرآن .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يناجى فزع الى الصلاة.. واذا أراد أن يناجيه ربه تلا كلام الله .. فقد جمع الخير كله .. من دعاء واستغفار وتسبيح وتكبير وتحميد وتذكير وتفكير ، وخضوع وخشوع وتسليم واستسلام لله رب العالمين ، وعلم وتعليم ..

ثم يقول الرسول : «من استيقظ من نومه وأيقظ امرأته ، فصليا جميعا ركعتين ، كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ..

ويقول : « ركعتان فى جوف الليل خير من الدنيا وما فيها » .

هذا ، وما ينطبق على الذكور ينطبق على الاناث فى هذه الصفات كلها .

فالآية الكريمة سوت بينهما فى العمل ، وفى الأجر والمثوبة التى يمنحها الله للعاملين والعاملات على سواء .. « أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . . «من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

***

وأخيرا صيام كفارة الظهار :

وقد بينته الآية الرابعة من سورة المجادلة .

والظهار ، أن يحرم الرجل زوجته على نفسه ؛ بقوله لها : أنت على كظهر أمى .. فتصير بهذه العبارة المنكرة محرمة عليه مطلقة منه .. وهى عادة جاهلية مستقبحة ، أنكرها الاسلام وأبطلها ، واعتبرها منكرا من القول وزورا .. وعملا لا يليق بالأطهار من المسلمين الأبرار .

والاسلام جعل كفارة الظهار واجبة الأداء على من يريد تطهير نفسه ، ويريد العودة الى امرأته التى ظاهر منها .. وليكون له بعد ذلك حق ملامستها والاستمتاع بها كزوجة ..

والكفارة وردت فى الآية الكريمة منسقة ومرتبة على الوجه الآتى :

ـ تحرير رقبة من قبل أن يتماسا .

ـ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

ـ فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا .

فترتيب صيام الشهرين المتتابعين ـ جاء وسطا بين تحرير الرقبة ، واطعام ستين مسكينا .. ولا بأس من الكلام عن هذه الكفارة بشىء من البيان اتماما للفائدة .

فأى رقبة تجزىء فى كفارة الظهار ؟

ان عتق الرقبة أو تحريرها ، جاءت فى الآية مطلقة ، فتجزىء المسلمة والكافرة على سواء ، عملا بظاهر النص الذى لم يقيد الرقبة بوصف الايمان .

وان كان الشافعى (رحمه الله) لا تجزىء عنده الا الرقبة المؤمنة ، لقوله تعالى فى كفارة القتل : « فتحرير رقبة مؤمنة » ، فكأنه (رحمه الله » يحمل المطلق على المقيد .

على أن الرقبة قل وجودها ، أو لا وجود لها فى هذه الأيام .. بعد أن بذل الاسلام كثيرا .. وأدى واجبه كاملا فى تحرير الرقاب ، على مدى أربعة عشر قرنا .. وليس عند المسلمين الآن ـ والحمد لله ـ أرقاء .

وهذا لا يغير من الحكم ، لأن أحكام الاسلام عامة شاملة ، وصالحة لكل زمان ومكان حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد تلاحظ أن كفارة الظهار بالصيام — تبدو ظاهرها قاسية ، لأنها صيام شهرين كاملين متتابعين .. لكن المشرع الحكيم العليم الخبير ، وقد حكم بها — لا بد أنها العلاج الناجع فى اصلاح النفس وتطهيرها مما ترتكب من أخطاء الظهار ، وتخليصها من عيشها فى جاهليتها الأولى .. على أن عندنا فى جاهليتنا الحديثة — من يطلق امرأته طلاقا بدعيا ، يحتال به على اذلالها ، وتعذيبها ، واضاعة حقها ، والانتقام منها .. وهو يعلم أو لا يعلم أن أبغض الحلال الى الله الطلاق .. وعندنا من يعلق أمرأته ويمسكها ضرارا ليعتدى ..

ومع ذلك ، فقد أعطى الله من لم يستطع الصيام رخصة اطعام ستين مسكينا .. بأن يعطى كل مسكين (مدا) من طعام بلده الذى يقتات منه ، عند الشافعى..

ويعطيه عند أبى حنيفة (نصف صاع من بر ، أو صاعا من غيره).. وفى ذلك تخفيف من الله ورحمة .

وقد أعجبنى رأى للأحناف ، فيه التيسير على الناس..يحكمون فيه العرف ، فى موضوع الكسوة (اذا كان فى الكفارة كسوة ، ككفارة اليمن ..) ، وفى موضوع الاطعام .. فكل ما يعتبره العرف اطعاما — سواء كان وجبة أو وجبتين مطهيتين ، فهو اطعام مسكين .

وكل ما يعتبره العرف كسوة ، فهو الكسوة المطلوبة .. والمهم أن يراعى فى الأحكام كل ما هو فى صالح المساكين ، وأنفع لهم ، بقدر الامكان ، فى شأن الكسوة والاطعام .. « وأن تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون » .

وليس من شك فى أن مراعاة العرف فيه الراحة للطرفين (المطعم والمطعم ..) ، وقد يكون فيه الحل لمشكلة (نصف الصاع والصاع .. والمد ..) عند من لا يتعاملون بهما .. كما هو الشأن

فى اخراج زكاة الفطر نقـــودا واباحة ذلك اذا مــا كانت أنفــع للفقير ..

ورحم الله من قال :

والعرف فى الشرع له اعتبار
لذا عليه الحـكم قد يـدار

وقد لفت نظرى شىء آخر ـ هو أن كفارة الصيـــام فى الظهار ، تتفق مع كفارة قتل مؤمن خطأ ، وكان من قوم بيننا وبينهم ميثاق ، وعجز القاتل عن تحـرير رقبة ـ فانه يستبدل بها أن يصوم شهرين متتابعين .. وهو مدة الصيام فى الظهار .. فمــا السر فى هـــذا الاتفاق ؟ !

لعل مــن السر ــ والله أعلم ــ هو تشابه الجريمتين فى العدوان .

فكلتاهما جريمة قتــل .. ففى الظهار قتل رجل لامرأته قتلا نفسيا ومعنويا ، وهى ما تزال على قيــد الحياة .. وفى قتل مؤمن لمؤمــن خطأ ـ قتل حسى فيه انهاء لحياة المقتول .. ثم ان القتل فى كلتــا الحالتين ـ قد ارتكب عن حمــاقة وغفلة واشباع غريزة شهوة ــ ولم يحكم كل من القاتلين عقله وأناته وتثبته وحلمه وفطنتـــه .. وهى أشكل بالمؤمنين المتسمتين بحـق الى الحق والايمان .. و « المؤمن كيس فطن » أى عاقل ذكى .

فالمظاهر من أجل شهوة طاغية استبدت به ، لم يقم لصاحبته وزنا ، ولم يرحم ضعفهـــا ، ووفاءهـا واخلاصها وطول عشرتها وألقى بها فى الطـــريق وهى أم لأولاده الصغار .. وقاتل المؤمن خطأ أشبه بالمظاهر فى اندفاعـــه وحماقتـه وطيشه .

فكان الواجـــب ايقاظهما من نومهما وغفلتيهمـــا ، واعطائهما دروسا فى الأناة والصبــر والحلم والتثبيت ، وتربيتهما عن طـــريق الصيام وفيه هذه المعــانى ، فوق ما فيه من تطهير النفوس وترقيــق القلوب ، وترقية المشاعر .

ولعل فى هذا شيئــا ــ ولــو قليــلا ــ عن سر صيام شهــرين كاملين متتابعين ــ توبة ورحمــة

من الله ــ فى كفارة القتل الخطأ ، وكفارة الظهار .

***

رحم الله المجادلة :

رحم الله خولة بنت ثعلبة ، امرأة أوس بن الصامت ، أخى عبادة بن الصامت ، (وشتان ما بين الأخوين ..) ــ حين قالت لرسول الله وهى تجادله فى أمر أوس زوجها الذى رآها تصلى ــ وكانت حسنة الجسم ــ فراودها ، فأبت ، فغضب ، وكان به خفة ولمم ــ فظاهر منها .. رحمها الله حين قالت لرسول الله فيما قالت : ان لى منه صبية صغارا ان ضممتهم اليه ضاعوا وان ضممتهم الى جاعوا .. ثم قالت : أشكو الى الله فاقتى ووجدى .. حين قال لها رسول الله : « ما عندى فى أمرك شىء .. أو حرمت عليه وان لم يذكر طلاقا » ولكن الله سمع لها ، وفرج عنها ، وغضبت السماء من أجلها ، وأنزل سبحانه آيات توبيخ للعرب ، وتهجين لعاداتهم فى الظهار ، وأنزل الحكم بالكفارة .. والحكم بالكفاوة دليل ارتكاب الجناية .

وقانا الله شر ارتكاب الجنايات ، وعصمنا من الزلل والانحرافات .

اللهم آمين

عبد الحميد الفضالى

سيد الشهور

قال صلى الله عليه وسلم : « رمضان سيد الشهور ثم شهر الله المحرم ، ثم رجب ، ثم ذو القعدة ، ثم شعبان ثم باقى الشهور » .

حافظ إبراهيم
شخصيته وخلقه

دكتور سعد ظلام

— ١ —

كان شاعر النيل حافظ ابراهيم مديد القامة فارع الطول ، أسمر الوجه عريض المنكبين ، وكان ملولا قلقا غير مستقر وغير مطمئن ضجرا سريع الضجر ، قليل الثقة بالناس ، وكان ذلك أثرا من آثار الحياة السياسية ، كما كان له أثر كبير فى حياته وآرائه .

بدأ حياته ضابطا بالجيش ، ولعله التحق بالجيش أملا فى أن تنصفه الأقدار فيكون رب السيف والقلم كالبارودى رائد الشعر الحديث ، وكان صيت البارودى آنذاك يملأ الأسماع ، ودنيا النغم والتغريد وأرجاء الوادى ثورة ونداء وهتافا بالحرية ، وقد نفى الى سيلان ، ولكن لم تزل ثورته وشاعريته ملء الأفئدة والقلوب ، الا أنه سرعان ما تبرم بحياة الجندية تحت سيطرة الانجليز ، وخصوصا بعد ما رأى من خيبة الأمل ، وبعد ما شاهد من تأخر المصريين واستطالة الانجليز عليهم ، مما لا ترضاه النفوس الأبية التى طبعت على العزة والحرية ، وأبت الخضوع للذلة والاستكانة والهوان .

وظلت حياته القلقة تسيطر عليه ، فكان لا يبقى فى الجيش حتى يخرج منه محالا الى الاستيداع لتمرده على حالة المصريين فى الجيش ، ومرة أخرى لتأليبه الانجليز فى السودان الذى قضى فيه شطرا من حياته .

وكانت انجلترا قد انفردت بحكم مصر ، وبرغم الثورات الأهلية ضد هذا الحكم المغتصب ، الا أنه أطبق حكمه عليها بوسائله التى برع فيها براعة شديدة .

وقد تكونت فى مصر ثلاثة أحزاب ، الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ، وهو يطالب باستقلال مصر ولكنه لا يعادى الدولة العثمانية ، ويعارض القصر والسلطة الانجليزية ، وحزب الاصلاح بزعامة الشيخ على يوسف يؤيده الخديوى ولا يطمئن الانجليز اليه ، وحزب الأمة وهو تابع للانجليز ضعيف هزيل ، وبعد ثورة ١٩١٩ قامت أحزاب أخرى كحزب الوفد بزعامة سعد زغلول ، وحزب الأحرار الدستوريين بزعامة عدلى يكن ، وحزب الاتحاد لمناصرة القصر وحمايته .

وكان من الطبيعى أن يتأثر حافظ بكل هذه الأصوات ويعمل حسابها ، ويصغى اليها ويرسل شعره فى الكثير منها ، وكان لا بد أن ينصت الى الأحداث السياسية والاجتماعية التى تحدث بمصر والسودان وبتركيا وبكل أرض عربية وأن يتأثر بها .

ويمكن أن نربط بين عثراته السياسية وبين قلقه وعدم استقراره فهو حين يرى « سعد زغلول » و « عدلى يكن » يتنازعان مصر ، ينظر الى مصر ، ولا يعطى اعتبارا للرجلين فيقول : « مسكينة هذه الأمة وقعت بين اثنين ، واحد لا يسكت أبدا ، وواحد لا يتكلم أبدا » وكان سعد كثير الخطابة ، وكان عدلى لا يسمع خطيبا الا قليلا (١) .

وكان لاضطرابه ، أو لاضطراب الحياة السياسية أثر كبير فى حياته العامة وسلوكه الاجتماعى

(٢)

كان مع قامته الفارعة المديدة مهيبا ، ومن رآه حسب أن بين جنبيه نفسا شجاعة واثقة لا تهاب ولا تخشى ، ولكنه ـ يرحمه

---

(١) حافظ ابراهيم لأحمد طاهر ـ معهد الدراسات العربية

الله ـ كان لا يخاف الرجال وإنما يخشى الأهوال والمخبآت والفواجع الداهمة ، ويعمل لها ألف حساب وحساب ، لأن الظروف السياسية غير الآمنة طبعته بطابعها غير الآمن وغير المستقر .

وكان مع فقره الشديد وشعوره بالحرمان الطويل متلافا مسرفا ، فهو حين تسمح أحواله فى سخاء حتى لا يكاد يبقى لغده شيئا ، يقول عن نفسه : « أما أنا فلم أقتصد شيئا ، ولم أقتن شيئا ، وإنى لأقول كما قال أرسطو : القنية مصدر الخوف والأحزان ولذلك قلت :

يقولون ما لك لا تقتنى
من المال ذخرا يفيد الغنى
فقلت وأفحمتهم فى الجوا
ب لكيلا أخاف ولا أحزنا (١)

وكأنه لطول عهده بالفقر والحرمان يقتص من الفقر ، أو يسخر منه أو يهزأ به فيمد مائدة عظيمة فى ردهة داره لطعام الإفطار فى رمضان كل ليلة ، ويصف حولها أربعة عشر كرسيا ، يرتب الجالسين عليها بحسب أسبقية حضورهم ، وكأنه يحاكى عظماء القوم ، ووجهاءهم أو يتشبه بهم .

(٣)

كان حافظ يهاب الأهوال ويؤثر العافية والسلامة ، لأن الأحوال السياسية وظروفه الخاصة كانت تستدعى ذلك ، وكان يخاف الفقر لسابق عهده به وملازمته له ، وكان يخاف على منزلته الشعرية ، ويخشى النقد ، ويكره أن يفضل عليه شوقى ، أو تعقد مقارنة بينهما ، ولعل منشأ ذلك احساسه بالفارق الثقافى الهائل بينه وبين أمير الشعراء ، والفارق فى الموهبة البيانية ، والقريحة الشعرية .

(٤)

وكان مع بؤسه وتعاسة أحواله يستطيع أن يملأ المجالس أنسا وبشرا ، لأن النفس المؤرقة المهمومة ، الكابية المحزونة تلتمس فى الطرفة والندرة وفى الفكاهة والتظرف مسلاة من المضايق ،

---

(١) شوقى وحافظ للطناحى ص ١٢٤

وملتمسا من المكاره التى تطرأ عليها أو تنتابها ، فراح يسرى عن نفسه بالفكاهة والتندر ، ويشيع الأنس والمسرة ويعطر الحياة ويندى المجالس ويجعلها تفيض بشرا وطلاقة وانطلاقا وائتلافا .

ومع ذلك كان لا يحب أن يؤثر عنه شعر فكاهى ، اما لأنه يؤثر الوقار ، ويحب أن يؤثر عنه ذلك ، وقد كان يحاول ألا تخرجه الفكاهة عن وقاره ، واما لأن شعر الفكاهة عادة لا يتأنق فيه الشاعر ، وهو يخشى سهام الناقدين ، لا سيما ، والشعر الفكاهى تمليه طبيعة الموقف ولا يطلب فيه الا حضور البديهة وسرعة الخاطرة .

(٥)

كانت شخصية حافظ تحَبُّ ، ومجالسه لا تمل ، وكان فيه ود ووفاء ، وكان صادق الود ، وكان صادق الوفاء ، وكانت نفسيته الصافية الشفافة تبلغ به من وفائه لأصدقائه مبلغا عظيما ، فكان اذا أحب انسانا أنزله من روحه منزلا قريبا ، ويبذل روحه من أجله ، ويدافع عنه ، واذا أصاب حبيبا له مكروه ، أو ألمت بصديق له ملمة ، أو انتابه ما يؤلم ، أو اخترمته المنية أحس بوقع ذلك كله على نفسه وقلبه ، وأحس بأن كل ما نال من أحبابه ينال منه ، فهو رجل رهيف الحس ، قوى العاطفة، ينفعل — لأنه شاعر — لأهون الأحداث ، وتؤثر فيه أقل العواطف .

(٦)

وكان لقربه من حياة العامة وانخراطه فى غمارها أصدق الأثر فى شعره الاجتماعى ، فكان أصدق الشعراء تصويرا للحياة المصرية الصميمة ، ووصف ما ينتابها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء ، واضطراب وأمن ، وما ترجوه من آمال وأحلام ، لأنه كان يحس بها احساسا قريبا قويا وصادقا .

وهذا الجانب هو أغنى جوانب حياته الشعرية وأصدقها وأحفلها بالصدق والثراءالعاطفى ، وهو فيه

يتفوق على شعراء جيله من الشعراء .

وهو يعبر بشعره عن هموم ذاته . يشكو ويتألم ، ويعبر عن خلجات نفسه ، ومكنون عواطفه ، وهو يهنىء ويمدح ، ويتقرب ويتباعد ، ولكنه فى الوقت نفسه يحمل شعلة قومية وشحنة وطنية تربطه بكل أحداث الوطن العربى وخلجاته وأحلامه ، وله قدرة عظيمة فى هذه المزاوجة الهائلة بين طابعه الشخصى وخلجات قومه ، وطموح أمته وكفاحها من أجل الحياة الكريمة ، وهو فى هذا التزاوج مقرر افراد العلم ، متميز تميز الجبل على الوديان .

وما أجمل قول الدكتور طه حسين فيه : « كان حافظ شاعر الناس ، وكانت تمتاز نفسه بحس قوى وخلق رضى كريم ، وصلة غريبة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة ، وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه ومثله العليا ، ولا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه وشعبه كحافظ رحمه الله ، فالذين يقرأون شعره الآن يؤخذون بهاتين الصورتين الواضحتين كل الوضوح ، صورة الشعب وما يجد من ألم وأمل وصورة حافظ وما يحس من بأس أو رجاء » (١) .

(٧)

وحتى فى المديح الذى يمكن أن تذوب فيه شخصيةالشاعر المادح نرى شخصية حافظ واثبة ثابتة فحافظ يمثل أمته فى مديحه كما يمثلها فى قصائده الاجتماعية ، فهو مديح يدل على مراحل الأدب والحرية القومية فى الأمة المصرية مرحلة بعد مرحلة ، وبهذه الخصلة كان حافظ منفردا من شعراء جيله قليل النظير » (٢) .

ذلك لأن مديح حافظ كان من ذلك الطراز الذىيضطر معهالشاعر أحيانا فى القصيدة الواحدة الى الخروج عن طبعه وسجيته ارضاء

(١) حافظ وشوقى ص ١٥٣ ، ٢١١

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى للعقاد ، ص ١٨ — ٢٠

للممدوح ، أو استدرارا لعطفه ، ولكنه لا يثبت على هذا ، فلا يلبث أن يحول مديحه الى مديح متسم بالروح القومي ، ينزع فيه الشاعر الى امتداح خلال اجتماعية أو ميزات قومية ، أو أعمال وطنية . أو آمال شعبية تتعلق بالممدوح ، أو تبرز فيه ، أو تدعو له مناسبة،

وبذلك يخرج حافظ عن زمرة المادحين القدامى الذين كان أكثر همهم اذابة شخصياتهم فى مقابلة أكياس الدنانير أو التقرب من مجالس السلاطين والحظوة لديهم ، ومدح الرجل بالشجاعة والقوة وكرم الضيافة وسعة الجود ، وقد لا يكون له فيها أقل تصيب .

ومن يقرأ شعر حافظ يقرأ فيه أمل الشعب ، وافصاحه الذكى المتبصر عن أمانيه وأحلامه وكفاحه ، وثورته ، وتربصه الواثق بالغد ، والتطلع الى حياة الحرية والكرامة، أو توجيهه ولفت نظره ، وتبصيره بمراشد الأمور .

كانت مصر لديه كل شيء ، وكان الشعب قريبا منه وكان قريبا من الشعب ، أليس هو القائل :

لعمرك ما أرقت لغير مصر
وما لى دونها أمل يرام

« من تعاليم استاذ الحياة »
عليه السلام

* ماكرهت ان يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك اذا خلوت .
* شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع .
* خالقوا الناس باخلاقهم .
* الصبر عند الصدمة الاولى .

اللغـــة والمجتـــمع

للدكتور عبد الغفار حامد هلال

ليست اللغة أداة صناعية خارجة عن علاقتها بالمجتمع الذى تعيش فيه ، بل هى صـورة له نابضـة بالحياة ، وهى تنشأ تلبية لحاجته الاجتماعية ، ووفقا لظـروفه فهى تمثله حضاريا ، وثقافيا ، وفكريا .

ثم ان ألفاظها المعبرة عن مقصود المجتمع تأخذ الطابع المميز لتلـك الجماعة الانسانية ، فتتطور حسب احتياجاتهم ، وما يعـرض لهم من ظـروف ، قـد تطـرأ عليهـم فى انقســاماتهم الاجتماعيــة داخـل المنطقة التى يعيشون فيها ، أو نتيجة اتصــالهم بالشعوب الأخـرى ، للتجارة ، أو الهجرة ، أو الحرب ، أو غيرها من وســائل الاتصــال المتعــددة .

ولما لكل ذلك من آثار فى اللغة وددت أن أوضح الجـوانب التى تؤثر تأثيرا فعـــالا فى الســلوك اللغـوى .

وحديثى ــ هنـا ــ يتنـاول منطلقين أساسيين :

الأول : يتنــاول بيــان الصلة بين اللغــة والمجتمــع ، وأهميــة ادراكها فى الكشف عن خصــائص الجماعات البشرية .

والثــانى : يلقى الضــوء على العلاقة بين الفرد والمجتمع ، ومدى ارتباطهما باللغة تأثرا وتأثيرا .

ولبيان أهمية الصلة بين اللغــة والمجتمع نقول :

الانسان مدنى بطبعه ــ كمـا يقول علماء الاجتمــاع ــ فهـو يميل الى الانتماء الى طائفة من بنى جنسه ، ليجتمـع لهم جمـلة من الخصائص ، والسمات ، التى تميز جمــاعة من غيرهــا ، ومبعث ذلك الغريزةالتى ركب عليها الانسان ، والتى تدفعــه الى تكوين هيئــة اجتماعية ولذا يمكن لاثنين من شعبين مختلفين أن يأتلفا على بعض

الخصائص ، ويتناسيا الفروق الموجودة بين شعبيهما اذا عاشا معا مدة طويلة ، كفرنسى ، وفارسى أو عربى وانجليزى مثلا (١) .

وانتماء الفرد للجماعة يتحدد بتحدد الجماعة ذاتها ، فالأسرة جماعة ، والقرية جماعة أشمل ، والمقاطعة ، ثم الدولة ، وأخيرا الجنس البشرى (٢) .

وهذا الانتماء يأخذ أشكالا متعددة ، فهو أحيانا ــ سياسى ، أو جغرافى أو جنسى ، أو لغوى وقد تعددت المصطلحات السياسية التى تطلق على تلك الجماعات (٣) .

بيد أننا نعنى ــ هنا ــ جماعة خاصة ، من وجهة نظر خاصة هى ما نسميها (الجماعة اللغوية) ، وهى : هيئة اجتماعية ، صغر حجمها ، أو كبر ، أو بعبارة أخرى تتدرج من الصغر الى الكبر ، فهى تبدأ بالأسرة ثم العائلة ، ثم القبيلة ، ثم الأمة .

---

(١) فندريس : اللغة ص ٣٠٢

(٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢

(٣) من هذه المصطلحات :(الشعب) و (الدولة) و (الأمة)
فالشعب : جماعة من الناس تستقر على ارض واحدة ، او تخضع لسلطة واحدة ، والدولة تعبير سياسى وقانونى يشير الى الوحدة السياسية التى تضم اركانا ثلاثة هى : (شعب واقليم وسلطة سياسية) .
والأمة :جماعة من الناس يرتبطون بأهداف مشتركة ويتبادلون الشعور بأنهم وحدة بشرية اجتماعية واحدة ، نتيجة التقائهم فى عدد من العناصر ، كالأصل واللغة والدين ، ووحدة التاريخ . .
وقد تسمى احدى الجماعات (شعبا ودولة وامة) ، وقد تسمى (شعبا ودولة) لا (امة) كسكان سويسرا ، وقد تمزق الأمة بخضوعها لعدة سلطات سياسية ولا يعنى هذا فناء الأمة البولونية بعد تمزقها على يد جاراتها بعد أواسط القرن الثامن عشر ، وكذلك العالم العربى امة ، وان توزعت السلطة فيه انظر : د . احمد كمال ابو المجد : دراسات فى المجتمع العربى والوحدة العربية ص ٢٤ ــ ٢٩

ولا يهمنا كثيرا الاختلاف السياسى أو الدينى اذا توفر الاشتراك اللغوى (١) .

ويمكن أن نقسم الوحدات الكبيرة الى وحدات صغيرة : وتنظر الى كل وحدة فى اطار اللغة التى تتحدث بها ؛ فى القرية ، أو المدينة ، والطبقات الاجتماعية المتنوعة من المتعلمين والفلاحين ، وأصحاب المهن ، والاشقياء وغيرهم .

« وتلعب اللغة (دورا ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية) مهما كانت ومهما كان مقدار امتدادها ، فاللغة أوثق العرى التى تجمع بين أعضاء هذه الجماعة ، وهى ــ على الدوام ــ رمز ما بينهم من تشارك ، وحارسه الأمين ، وأية آله أفعل من اللغة فى توطيد وجود الجماعة ؟ فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف سريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة ، وعلامة لأعضاء هذه الجماعة ، بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم الى بعض (٢) .

وبديهى أن اللغة هى الأداة التى يستعملها أفراد كل جماعة لغوية ، للتعبير عما يهمهم من شئون ، وهى قانون من قوانين هذه الجماعة ، يُعَدّ الخروج عليه أمرا صعبا ، ومحرجا ، ومؤديا الى السخرية ، ويقاوم بصرامة من بقية أفرادها (٣) .

« وان هبة الكلام واللغة من خصائص المجموعات الانسانية ، ولم يعثر قط على جماعة بلا لغة .. وحقيقة هذه المسألة أن اللغة وسيلة تعبيرية واتصالية كاملة بالضرورة كما نلاحظ ذلك فى كل مجتمع معروف » (٤)

---

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٢ .
(٢) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) د . تمام حسان : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ١١٢ نقلا عن ادوارد سابير .

ولم يكن يدرك قديما ما للغة من صلات بالمجتمع الذى تعيش فيه ، لأنهم اعتبروها هبة الله الذى لا يحق لأحد أن يغير فيها ، أو يعدل من طرائقها ، ثم درست على هذا الأساس فترة من الزمان ، ولكن بعد تقدم العلوم الانسانية ، وادراك حقائق الظواهر الاجتماعية لوحظ أن اللغة ترتبط بالجماعات الناطقة بها ، ويمكن أن يهتدى على اثر هذا الادراك الى معرفة خصائص الجماعات البشرية من دراستنا للغات وتاريخها ، وتطوراتها .

وهنا نأتى الى المنطلق الثانى وهو الحديث عن علاقة الفرد والمجتمع باللغة فنقول : « اللغة هى الصورة اللغوية المثالية التى تفرض نفسها على جميع الافراد فى مجموعة واحدة » (١) .

والفرد والجماعة عنصران لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فالفرد يرتبط بجماعته ويقدس ما يقدسون ، ويأتى من الأفعال التقليدية ما يأتون وهو يتبع عرف الجماعة ، وان خالف اعتقاده (٢) .

واذا سلمنا « بوجود الفرد والمجتمع ، باعتبار كل منهما وحدة مستقلة ، فان من الممكن من الجانب اللغوى أيضا ، أن نتكلم عن اللغة الفردية ، واللغة الجماعية ، وكلا هذين العنصرين يؤثر ، ويتأثر بالعنصر الآخر » (٣) .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، تنشأ عند الأفراد ، والجماعات ، ودراستها تتم بالبحث فى الجانب الفردى ، والجانب الجماعى ، وان كان علماء الاجتماع يقفون من ذلك موقفين متعارضين .

فيرى بعضهم : أن التعرف على الفرد يؤدى الى التعرف على الجماعة ، ولذا تدرس لغة الفرد ، ويتوصل من خلالها الى معرفة لغة الجماعة ، لأنها مجموع

(١) فندريس : اللغة ص ٣٠٦

(٢) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢

(٣) نفسه ص ٥

الظـــواهر المشتركة بين جميـع الأفـراد .

ويقول أوجست كونت « ليس من الضرورى أن نعـرف ما هـو الانسان حتى نعرف ما هى الانسانية ولكن من الضرورى أن نعرف ماهى الانسانية حتى نعــرف ما هـو الانسان ؟

فالتعرف على الجماعة يؤدى الى التعرف على الفرد ، ومن هنا تعد دراسة اللغة العامة أساسا لمعرفة لغة الأفراد » (١) .

وقد دار نقـاش ، وجـدل بين الباحثين حـول اللغـة والكلام ، وصلتهما بالعقل الفردى ، والعقل الجمعى .

فيرى دى سوسير (٢) أن اللغة غير الكلام ، فاللغـــة مجمـوعة محدودة من المفردات ، والتراكيب ، توجد فى كتب القواعد والقواميس ، وتختزن فى عقل الجماعة ، والكلام نشاط فردى ، يختلف من فرد الى آخر ، من أبناء الجماعة اللغـوية الواحـدة .

والفرد يولد بلا لغة ، ثم يرثها من جماعته ، ولا يملك التدخل فى اختيـــار مفرداتهـــا أو تنظيم قـواعدها .

وعلى الرغم من اختلاف الكلام واللغة فان لكل منهما علاقة وثيقة بالآخر ، واللغة ذاتها تتطور بتطور الكلام .

وقـد قال بالى (تلميـذ دى سوسير) : ان الـكلام نشـاط لغوى فردى يعالج الحياة الواقعية للفرد ، ومن ثم فهو وحـده الذى يعبر عن الواقعية ، والعاطفيـة ، بعكس اللغـة التى ليست سوى امكانيات تعبيرية .

ومن هنا فان دى سوسير يرى أن اللغة من نتاج المجتمع ، والكلام من نتاج الأفـراد ، واذا صح أن يكون هناك عقل فردى ، فهناك كذلك عقل جمعى .

---

(١) جـبرين : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢ .
(٢) عالم لغوى سويسرى .

وقد اعترض جسبرسن (١) على هذا التفريق ، وقال : ان العقل خاصة يوجد للفرد ، لا للجماعة والفرد له سلوك وحده ، وسلوك مع الجماعة ، حسب الظروف التى تمر به ، ولا يعدو الاتفاق فى العاطفة أو الرأى فى جماعة من الجماعات أن يكون مجرد اتفاق فى حكم يصدر عن عدة عقول فردية ، فقد تأثرت بظروف ودوافع متشابهة ، وليست أدرى لماذا يقول دى سوسير (العقل الجمعى) ولا يقول (البطن الجمعى) والرجل الجمعى والأنف الجمعى ، اذن ليست لذلك فائدة .

فاللغة ليست القاعدة ، وليست الألفاظ ذاتها ، بل هى شىء آخر يتمثل فى الصور الذهنية الموجودة لهذه القواعد ، والألفاظ ، فى نفوس أفراد الجماعة ، لا فى العقل الجمعى ، ويقرب من ذلك قول دى سوسير فى عبارة أخرى « اللغة هى مجموعة من صور الألفاظ مختزنة فى نفوس أفراد الجماعة اللغوية » (٢) .

وينتهى جسبرسن — بعد الرد على دى سوسير — الى أن اللغة ليست شيئا آخر غير الكلام ، بل هى الكلام ذاته ، ولكن باعتبار آخر .

ويبدو أن النظرتين متقاربتان ، فالفرد جزء من الجماعة ، والجماعة طائفة من الأفراد ، والكلام واللغة مرتبطان أحدهما بالآخر ولا يستطيع باحث أن يفرق بينهما أو يعزل أحدهما عن الآخر ، فقد اتفق الفلاسفة واللغويون على أن الانسان لا يستطيع أن يفرق بين فكرتين تفريقا حقيقيا بلاعلامات لغوية ، أى كلمات ، فالتفكير بلا كلمات عائم (٣) . « والكلمات أهم مكونات اللغة وتسمى وحدات لها » (٤) وما يسميه النحاة أقسام

---

(١) عالم لغوى دانيمركى .
(٢) جسبرسن : اللغة بين والمجتمع ص ١٥ — ٢٣
(٣) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤
(٤) نفسه ص ٣٩

الكلام ـ وهم يقصدون الاسم والفعل والحرف ـ ليس فى الواقع الا أقسام اللغة ، فقول صاحب الألفية : الكلام وما يتألف منه ، يجب أن يصير الى : اللغة وما تتألف منه (١) . فالكلام الذى هو نشاط انسانى قطعى نتيجة لارادة المتكلم (٢) . يتعمد الباحث لكلمات اللغة ، بحيث يجعلها حية بعد موتها ، ووجودها فى طوايا العقل ، أو المعاجم ، فاللغة بمادتها المكونة لها توجد فى القواميس أو تختزن فى عقول الجماعة الانسانية التى تتخذها وسيلة للتفاهم ولها قواعد خاصة يفهمها أصحابها ، ويراعونها فى استعمالهم من ناحية النظام الصوتى ، والصرفى ، والنحوى ، واللغة بهذا الوصف تسمى بـ « اللغة المعنية » (٣) التى هى نتاج جماعى يستعمله الأفراد ، وللكلام علاقة باللغة المعنية ، ولذلك يجب أن يدخل فى الدراسة لأنه الجانب العملى منها (٤) .

ومن المتعارف عليه بين دارسى العلوم الاجتماعية أن جميع الأحداث الاجتماعية تبدأ فردية ، ثم لا تلبث أن تشيع بين عدد من الأفراد ، ثم يتسع نطاقها فتتخذ صفة الجمعية (٥) .

والمدرسة اللغوية الانجليزية ، وضعت لدراسة أية لغة طريقة وصفية ، تهتم بالشخص والشخصية ، ولكن لا تنظر اليه باعتباره « مستقلا » أو تدخل فى حسابها أنه عضو فى جماعة كلامية معينة (٦) .

ولا ريب أن جوانب التأثير فى اللغة كثيرة بعضها ينشأ عن الأفراد، وبعضها يرجع الى المجتمع .

(١) نفسه ص ٤٠ .
(٢) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٢٤٤
(٣) فندريس : اللغة ص ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٤) د . تمام حسان : مناهج البحث فى اللغة ص ٣٢ ـ ٣٥ .
(٥) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٠ ، ٢١ .
(٦) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٥ ـ ٣١ .

وللتأثير الفردى مظاهر عدة فهو يتناول : الاصوات ، والمفردات ، والتراكيب .

١ ــ اثر الفــرد فى الاصــوات

تبدأ الممارسة اللغوية للانسان منذ طفولته ، فالطفل يولد وعنده الاستعداد لتلقى اللغة ــ أية اللغة ــ اذ لا توجد لدى أى طفل فى أى مكان لغة فطرية (١) . وهو يتعلم لغة المجتمــع الذى يعيش فيــه ، فاللغة ليست وراثية ، بل انه يتلقاها ممن يخــالطهم ، ولذا فان طفــلا عــربيا لو نشأ فى بيئة انجليــزية تعلم لغة الانجليز ، والعكس صحيح أيضا (٢) « بل أكثر من هــذا أن العلم يزخر بحالات كثيرة لأطفــال ترعرعوا لدى الحيوانات كالذئاب والفهود والدببة ، وحتى الخرفان، وتعلموا أنواعا من اللغة الحيوانية ، فعووا كالذئاب ، وثغوا كالخرفان ، وأصبح من الصعب بعدئذ تعليمهم اللغة الانسانية (٣) .

فالأطفال يتعلمون لغة الجمــاعة التى يولدون ويعيشون فيها بنفس السرعة التى يتعلمهــا بهــا أهلهــا الأصليون ، ويتكلمونهــا كمــا يتكلمها أهلها الأصليون (٤) .

وقد توصلت طائفة من اللغويين الى بعض الملاحظات المهمة التى تتعلق بلغة الطفل ، وأهمها التقسيم

---

(١) كندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩١ .

(٢) فندريس : اللغة ص ٢٩٨

(٣) كندراتوف : اصوات واشارات ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(٤) فاللغة « مكتسبة » ولكن انمة دخل للوراثة فى قــدرة الاطفــال على اكتساب اللغــة ؟ وهل للوراثة شأن ـ اكتسـاب طفل لغتــه أسرع من اكتساب طفل غيره نفس اللغة ان الاجابة عن هــــذا الســؤال ونظائره مرهونة بتقدم بحوث علم الوراثة ، وعلم الاعصاب وعلم الحياة العام (الاحياء : البيولوجيا) اذ البحث فيها لمــا يصل الى الغاية المنشودة ، وينتظر أن تؤدى البحوث المقبلة فيها الى أن يزداد فهمنا لطبيعة اللغة ووظيفتها ..
انظر : د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٢٧ ، ٣٤ .

الثلاثى الذى ارتضاه جسبرسن ، وهو أن النمو اللغــوى للطفــل يمر بثلاث مراحل .

١ ــ مرحلة الصياح ..

٢ ــ مرحلة البــأبأة ..

٣ ــ مرحلة الـكلام ..

المرحلة الأولى (الصياح) :

فالطفل يصرخ منذ يولد ، ولكن هذا الصراخ الصادر عن جهــازه النطقى ليس كلاما ، ولا يتعــلم الطفــل به أية لغــة ، لجماعتــه أو لغيرها من الجماعات البشرية .

وهذا الصياح مشترك بين جميع الأطفال ، ولا يؤدى ــ فى أوله ــ غرضا ولكنه يتطور بعــد ذلك ، فيستخدمه الطفل فى التعبير العام عن كل ما يهمه وبخاصة عنــدما يدرك من حوله أثره فيهم .

وهــذه الأصــوات تدرب عضلاته ، وجهازه الصــوتى على الـكلام فينتقــل الى المرحــلة الثانيــة .

المرحلة الثــانية (البأبأة) :

وفيها يصدر الطفل مجموعات من الأصوات مثل أ أ ــ م م ــ بب ــ تت ــ دد الخ .

وتكون فى أولها نشاطا عضليــا خالصا ، ثم تأخــذ أعضاء النطق عنــده شيئا فشيئا فى التــدريب عليهــا ، والتحكم فيهــا فيستطيع الطفل نطق الصوت الذى يريده .

ويأخذ الطفــل ــ بعد ذلك ــ فى تدريب عضلاته الصــوتية على النطق بهذه الأصوات التى يستمتع بها هو ومن حوله .

والشائع أن أول ما ينطقه الطفل صوائت مفردة ، أو صوائت يسبق كلا منها صوامت مثل (لَ ــ رِ ــ تَ الخ) « وتعــد الصــوامت الشفوية التى يرمز اليها بـ **P.B.M.** (ب ، ب ، م) من الصــوامت الأولى التى ينطقها الطفــل ، ان لم تكن أولها على الاطلاق » وفى هذه المرحلة ربمــا صــدرت عن الطفل أصوات ليست من مجموع

الأبجدية التى تستعملها جماعته مثل (P , V) عند طفل عربى مثلا ، بيد أنه ينطق عددا كبيرا من أصوات أبجدية قومه .

المرحلة الثالثة (الكلام) :

تبدأ من حوالى نهاية السنة الأولى ، وتمتد سنوات طويلة ويمر خلالها بمرحلتين .

ا ـ فترة اللغة الصغيرة :

وفيها يحاول تقليد من حوله ، ويبعد كثيرا عن الأصل الذى يقلده ، كأن يقول الطفل المصرى (مم) بدلا من (الأكل) و (آمبو) بدلا من (ميه) و (ب) بدلا من (عيش) مثلا .
وقد سمعت ابنى فى تلك المرحلة يقول (مكن) بدلا من (مطبخ) .

ب ـ فترة اللغة المشتركة :

وفيها ينظم كلامه كثيرا ، ويظل وقتا طويلا حتى يصير كلامه مثل الكبار ..

ولا شك أن الطفل فى تلك المرحلة يحرف كثيرا من الكلمات ويتصرف فيها حسب قوانينه الصوتية ..

فيقول مثلا (ستينة) مكان (سكينة) و (تتاب) مكان (كتاب) ..

وقد لاحظت أن ابنى فى أول هذه المرحلة ـ يميل الى قلب بعض الكلمات فيقول (تعبل) مكان (تعلب) و (لاه آكلب) مكان (الله آكبر) ..

وبعض الأصوات اللغوية قد يخفى على الطفل ، أو يظل صعب النطق لا يتقنه الا فى مرحلة متأخرة كصوت الراء أو السين فى بعض الأحيان ..

وكثيرا ما يكتفى الطفل ببعض مقاطع الكلمة ، عن نطقها كاملة فقد سمعت ابنى يقول (كب) مكان (كلب) و (بايه) مكان (كبايه) ونحوها .

ويستطيع الطفل فى هذه المرحلة أن يميز الكلام الذى يوجه اليه بحب وعطف من ذلك الذى يوجه اليه بحدة ، وغضب ، فيسر من الأول وينفر من الثانى ..

والطفل لا يتعلم الأصوات مفردة ، وانما يتعلم الجانب الصوتى للكلمات مرتبطا بالمعانى ..

وعادة ما يدرك معانى الكلمات التى تلقى عليه قبل أن يستطيع نطقها بزمن طويل ، وهو يدرك المحسوسات قبل المعنويات .

وأخيرا يتعلم لغة جماعته بقدرته الفائقة على تقليد ما يلقى عليه من قبل أمه وأبيه وأسرته والمحيطين به ، وينفسح أمامه المجال لتصحيح أخطائه اللغوية شيئا فشيئا .

وللطفل قياسه اللغوى فى النواحى الصوتية والنحوية ، والمعنوية ، ومن ذلك التذكير والتأنيث ، فقد يتسرب الى ذهنه أن المؤنث يكون بالتاء ــ كما هى العادة الشائعة . فيطبق ذلك على بعض الكلمات التى لا تؤنث بالتاء وفق قواعد اللغة الصحيحة ، فاذا أراد تأنيث (أخضر) مثلا قال : (أخضرة) و (أحمر) قال (احمرة) .

وأخطاء كل طفل تختلف عن أخطاء غيره من الأطفال الذين ينمتون الى جماعته الكلامية وان كانت ثمة أخطاء عامة يشتركون فيها جميعا (١) .

واذا كان الطفل يتلقى اللغة عن مخالطيه فهل لأخطائه أثر فى أصوات اللغة ؟ وهل للأفراد ــ بصفة عامة ــ صغارا أو كبارا تأثير فيها ؟

وللاجابة على هذا السؤال نقول :

يختلف الباحثون فى نسبة التغيير الصوتى الى الأفراد .

فينفى جوشات أن يكون للطفل أى أثر فى التطور الصوتى للغة

---

(١) د. السعران : اللغة والمجتمع ص ٣٤ ــ ٥٤ ، د . وافى : علم اللغة ط ٤ ص ١١٠ ــ ١٥٥ ، د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ٦٨ ، ٦٩ وكتندراتوف : أصوات واشارات ص ١٩٠ ــ ١٩٣

فهو يقول : « ان كل لغة تتهيأ تهيئا خاصا بين جيل وجيل يمكّن للتطور فى أصواتها ، وبذلك يخضع أبناء الجيل اللاحق من الراشدين — دون الأطفال — للتطور الجديد ، وليست الطفولة سوى مرحلة تقليد لغوى ولا أكثر ، وعندما يخطىء الطفل فى نطق بعض الكلمات فليس ذلك بدء التطور فى أصوات اللغة التى يتكلمها كما يزعم بعض الباحثين ، وذلك لأن طبيعة اللغة كفيلة بتصحيح هذا الخطأ فيما بعد ، ويتم ذلك عندما يكتمل نضوج الأعضاء الصوتية لدى الطفل وتتكيف طريقة سلوكها بصفة نهائية عند نطق مختلف الأصوات وهذا لا يتم قبل بلوغ الطفل سنا مناسبة ، أى عندما يتجاوز دور الطفولة » (١) .

وينفى جوشات — كذلك — أن يكون للفرد — صغيرا أو كبيرا — أى أثر فى التطور الصوتى فيقول : « ليس للفرد أى دخل فى التطور الصوتى » وقد اعتمد فى حكمه هذا على النتائج التى توصل اليها فى بحث تتبع فيه الفروق الصوتية بين أفراد الجماعة اللغوية التى تقيم فى المنطقة الفرنسية من سويسرا المجاورة لمدينة (بولّ) BULLE فى مقاطعة فريبورج لبيان تأثير الفرد فى اللغة ، وكانت تلك المنطقة معزولة تماما عن المناطق الأخرى المجاورة لها ..

وقد اكتشف جوشات فروقا كبيرة فى طريقة النطق بين أبناء الجزء الأول من هذه المنطقة ، ولما انتقل الى جزء آخر يبعد عن الجزء الأول مسافة ثلاثة أميال وجد فروقا صوتية بين أفراده تماثل الفروق التى وجدها بين أفراد الجزء الأول ، وكذلك كان الحال فى الجزء الذى يليه ، والذى يليه .

وقد خرج جوشات من ذلك بأن الفروق ليست فروقا مكانية بمعنى أن اللغة فى جزء ما من الاقليم تختلف عنها فى جزء آخر ،

---

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٤٥ .

بل انها كانت فروقا زمنيـة ، أى فروقا بين جيـل وجيـل ، وأن الاختلاف اللغوى بين أبناء جيلين مختلفين فى جزء واحد أكثر مما بين أبنـاء جيـل واحـد ، فى جزئين مختلفين ..

وبين أن المقارنة بين لغتى اثنين من الشـيوخ ـ ينتمى أحدهمـا لجزء من هذا الأقليم يختلف عن الجـزء الذى ينتمى اليه الآخـر ـ تثبت تحقق التشابه فى مخارج الحروف لديهمـا أكثر ممـا بين أحدهما ، وبين شباب الجزء الذى ينتمى اليه ولهـذا قسم جوشات السكان ثلاثة أقسام ..

١ ـ المعمرون

وهم بين الستين والتسـعين ، وهؤلاء ينطقون الكلمات بطريقة قديمـة كثـيرا ما تبـدو غريبـة لسـواهم ..

٢ ـ المحدثون

وهم دون الثـلاثين ، وهؤلاء ينطقون ألفاظهم بطريقة حديثة ..

٣ ـ المتوسطون

وهم بين الثـلاثين والستين ، وهؤلاء يكـونون فى نطقهم حدا أوسط بين المعمرين والمحـدثين ، ولقـد لاحظ جوشات أن هؤلاء يستعملون الأصوات القـديمة الى جانب الأصوات الحديثة دون أن يكون لهم فى اختيار هذا أو ذاك قاعدة خاصة ، كمـا لاحظ أنهم يلتزمون فى بعض الكلمات طريقة النطق الحديث ، وفى بعضها الآخر طريقة النطق القديم ..

أما النساء فقد كن أكثر ميـلا لاتباع طريقة النطق الحديث ، وقد حدا هذا بجوشات أن يقـرر أن دور المرأة فى التطور الصوتى أكبر خطرا من دور الرجل ..

وقـد أثبت جوشات أن الفرد ليس له أثر فى التطور الصوتى ، بعد دراسة ما يبلغ خمسين لغـة فردية لأبناء هذه المنطقة لم يتبين له من خلالها مثـل هـذا التأثير الفردى فى تطور اللغة التى يتكلمها أبناء هذه الجماعة اللغوية ..

وينسب جوشات التغير الصوتى الى الجماعة لا الى الأفراد فيقول ان التغير أمر حتمى طبيعى وليس أمرا خاضعا لارادة فرد متميز أو غير متميز ، ومعنى أنه أمر حتمى طبيعى أن يحدث لأول مرة بصفة غير فردية وذلك بأن ينطق النطق الجديد شخص فى مكان ما ثم يقلد وينطقه فى نفس الوقت شخص ثان فى مكان ثان ، وثالث ورابع فى مكانين ثالث ورابع ، ثم يقلدون وهكذا (١) ..

ويتفق فندريس — ومثله مييه — مع جوشات فى هذه الوجهة التى تمنع أثر الفرد فى الأصوات فيقول : « ساد شطرا طويلا من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتى انما يصدر عن الفرد ، وأنه لم يكن الا تغيرا فرديا ، ثم عم ، وهذا ادراك للأشياء غير صحيح ، فليس فى وسع أى فرد أن يفرض على جيرانه نطقا تنبو عنه فطرتهم ، وليس هناك من تسر جدير بتعميم تغير صوتى ، فلأجل أن يصير تغير ما قاعدة لمجموعة اجتماعية يجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعى لتحقيقه من تلقاء أنفسهم ، بل ان سلطان المحاكاة نفسه لا يقدر هنا على شىء ، فان النطق الشاذ لا يجلب اتباعا لصاحبه ، بل لا يجلب له بوجه عام السخرية منه » (٢) .

ويرى جسبرسن أن نفى التأثير الصوتى للأفراد غير مسلم ، وأن البحث الذى أجراه جوشات يؤكد تدخل الفرد فى التطور الصوتى ، فقد لاحظ جوشات من بحثه اختلاف النطق ، ووجود الفروق بين مختلف المناطق والأشخاص على مختلف الأعمار ، وهذا وحده كاف لاثبات أثر الفرد فى الأصوات (٣) .

ولعل الدافع الى انكار أثر الفرد فى التطور الصوتى هو

(١) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) فندريس :اللغة ص ٦٩

(٣) جسبرسن : اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٣٧ — ٤٤ .

الجهل بنشأة التطورات الصوتية ، ولذا يقول فندريس « ان العالم اللغوى لا يعرف الى أى مدى يحدد دراسته والى أنه يبقى مترددا بين الاعتبار الفردى والاعتبار الجنسى بأسره » (١) . ويقول الدكتور تمام (بالرغم من معرفة تاريخ بعض التغيرات الصوتية معرفة عامة لا يستطيع الانسان أن يقول عند أى حد معين بدأ هذا التغير ، ولا نستطيع حتى أن نفطن الى التغيرات التى تأخذ مجراها الآن على غير وعى منا ، ولا نستطيع كذلك أن نقرر ما اذا كان تغير ما قد بدأ فرديا ثم اتسع مدى تطبيقه ، أو أنه بدأ على ألسنة ناس مختلفين ، ولا يستطاع نسبته الى فرد معين منهم) (٢) .

والحقيقة التى لا يمكن انكارها أن التطور الصوتى يعود فى بعض نواحيه الى الافراد ، وان لم يتعين الفرد الذى تابعه غيره ، فمن الحق الذى لا ريب فيه ـ كما يقول فندريس ـ « أن كل فرد يدخل فى اللغة جزءا من التجديد خاصا به » (٣) .

ومن المسلم به أنه لا يتكلم شخصان بصورة واحدة لا تفترق .. واللغة محدودة بحدود الفرد عند العالم الصوتى (٤) وان الفرد كما يقول الدكتور تمام حين ينفرد بنطق خاص يظل خلفه من بعده يبعد شيئا فشيئا عن نطق المجموع حتى يختلف عنه (٥) .

فلا شك أن عملية التغير تحدث من فرد أو جملة أفراد ، ثم تنتقل منهم حتى تعمم ، فالجانب الفردى ملاحظ فيها ، ولا يمكن حتى لمن ينسب التغير الى الجماعة أن ينفيه مطلقا .

---

(١) فندريس : اللغة ص ٢٩٦

(٢) د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٤

(٣) فندريس : اللغة ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

(٤) د . تمام : اللغة بين المعيارية والوصفية ص ٩٢

(٥) ففي العربية الفصحى أصوات تحتاج الى دقة الأداء ويتخلص منها بعض الناطقين كصوت القاف الذى تحول على لسان غير

٢ ــ أثر الفرد فى المفردات والتراكيب :

أما أثر الفرد فى المفردات والتراكيب فهو واقع لغوى يعترف به الباحثون ، فالطفل يسمع مفردات جديدة ، وتعبيرات جديدة ، وطرائق من الكلام حديثة ، ان الصبى فى المدرسة يتصل بزملاء له يختلفون عنه طبقة وسنا وتجربة ، فيسمع من أولاد من هم أغنى من ذويه ، كلمات وعبارات لم يكن له بها علم ، بل انه ليسمع من أولاد نظراء أهله ــ ولو كانوا مثله سنا ــ كلمات وعبارات لم يسبق له أن سمعها من أبيه وأمه أو اخوته ، وسائر من اتصل بهم من قبل (١) .

ومن الممكن أن يبتكر الفرد لفظا من الألفاظ ــ كما يحدث فى المجامع اللغوية أو أن يرتكب خطأ فى نطق كلمة أو تركيب جملة ثم يؤخذ عنه ويشيع ، وليس اشتراط شيوع الابتكار الفردى فى اللغة مغيرا للأمر الواقع الذى هو أن الفرد ــ وليست الجماعة ــ هو السبب فى التغير اللغوى (٢) .

المثقفين بالعربية الى (كاف) والذال تحولت فى العامية الى زاى او دال وهكذا ، وبعض الظواهر اللغوية تؤدى الى التطور الصوتى ، فظاهرة التفخيم ادت ــ مخالفة للفصحى ــ الى نطق كلمة (ذرب) : (ضرب) فى العامية ــ بتحويل (الدال الى (ضاد) .

(١) د . السعران : اللغة والمجتمع ص ٤٧ ، وانظر : جسبرسن اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٥٣ ــ وقد أثبتت التجارب أن الاطفال يخترعون بعض الألفاظ والصيغ ونحن نسمع كثيرا منهم يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة .
انظر : د . انيس : من اسرار اللغة ط ٣ ص ٨٧ ــ ٨٩ واحمد الاسكندرى : فقه اللغة ص ٣٠ .

(٢) وقد اعترف علماء اللغة بوقوع الارتجال فى اللغة العربية ، فالعربى الفصيح كان يخترع الفاظا ويشتق اخرى او يقيسها متبعا طرق التجديد فى ذلك ، ويروى من رؤبة وابيه انهما كانا يرتجلان الفاظا لم يسمعاها ولا سبقا اليها . والباحث

وهناك ألفاظ لا تكون معروفة الا فى محيط الأسرة .

ومما يبتكره الفرد فى مجال اللغة : نقل الألفاظ الى معان جديدة ، ويشترط علماء اللغة وجود العلاقة المسوغة لهذا الانتقال على ما هو معروف فى أسلوب المجاز ..

وقد ينقل الفرد أو الأسرة بعض الألفاظ الى معان خاصة ، لا توجد عند غيرهم كاستعمال (فرعون) أو (الطاغوت) اسما لوالد مستبد ، و (القط) لطفل مدال فى الأسرة و (شعبة) لطفل بغية أن يعيش ، وغير ذلك مما يستعمل فى نطاق محدود . وهو نوع من ابتكار المعانى ونقل استعمالات الألفاظ ..

والفرد ـ حال ابتكاره للمفردات أو الأساليب ، مقيد

فى العربية يعثر فى بعض مصنفاتها على كلمات وصفت بالاختراع فقيل عنها انها مصنوعة ، وقد أورد السيوطى فى المزهر عددا من تلك الكلمات غير منسوبة ووصفها بالاختراع والصنعة، وقد روى فى بعض مراجع اللغة والأدب ما يدل على أن أحد الشعراء أو الكتاب قد يرتجل كلمة أو كلمتين تفكها وتظرفا . وفى كتب النحاة مايرشدنا الى اعترافهم بالارتجال فى اثناء حديثهم عن العلم وتقسيمه الى منقول ومرتجل .

وفى العامية كثير من الألفاظ التى لا أصل لها فى اللغة الفصحى أو اللغات الأجنبية وهى ترجع الى اختراع الأفراد والجماعات . وذكر الدكتور ابراهيم أنيس انهم كانوا يقولون ـ على سبيل الاختراع ـ وهم طلبة مثل :

ومدعشر بالعثلمين تفنطحت سلفا قناة كبزفرع القنظل
انظر : ابن جنى : الخصائص ٢/٢١ ـ ٢٨ ومواضع أخرى منها ٣/٢٩٨ ، والسيوطى : المزهر ١/٥٢ ـ ٥٦ ، ٦٣ ـ ٦٧ ، ٩٠ وغيرها ، والأصفهانى : الأغانى ٣/٦٢ والمسعودى : مروج الذهب ٤/٤٣ والأشمونى ١/١٣١ ، د . أنيس : من أسرار اللغة ط ٣ ص ٩٠ ـ ٩٢.

بالعرف اللغوى المتعلق بالدلالة ، فمن المسلم به فى دراستنا للدلالة اللغـوية أن مخالفـة الأسـاليب العربية تزيد من صعوبة المعنى ، ولو نطقنا ــ فى العامية ــ (قلم احمد على معاه) بدل (على معاه قلم أحمد) لثار شعور السامعين لمخالفة العرف اللغوى .

ولذا يشترط فى ابتكار الفـرد عنصر الافهـــام لدى الجمـــاعة اللغوية ، اللهم الا فى لغـة الطفـل أو (رغائه) فانهـا تفقـد هـذا العنصر ، وكذلك محاولة ارسال بعض الأصـوات لمجـرد اللهـو والهوى ، وفيما عدا ذلك يجب أن يتبع الفرد فى كلامه الاصطلاحات اللغوية العـامة (١) .

ولنا لقاء قريب فى المقال القادم ان شاء الله تعالى .

د . عبد الغفار حامد هلال

(١) جسبرسن :اللغة بين الفرد والمجتمع ص ٢٣ ، ٤٣ .

« هـــل تعـلم ..؟! »

* ان شهر رمضان هو الشـهر الوحيـد الذى ذكر فى القرآن ذكرا صريحا ،ولم يذكر شهر سواه .

* ان خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

* أن للصائم دعوة عند فطره لا ترد .

* ان للصائم فرحتان يفرحهما ــ فرحة عند فطره ــ وفرحة عند لقاء ربه .

* ان لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم .

* ان من صام رمضان ايمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته امه .

رسالة من السودان
إلى السيد صلاح حافظ

أنا وأنت يا سيدى فى قفص الاتهام ! ومعنا عبد اللطيف غزالى . وسأروى لك أولا قصة قاطع الطريق اليونانى بروكست :

كان بروكست يسلب المسافرين ثم يمددهم على سرير من حديد فمن ناف طوله هذا السرير قطع له هذا الطول .

ومن قصر شده حتى يصير على طول السرير .

وبالتالى فنحن نريد أن نقص شريعة الله لتتناسب مع العصر .

لماذا لا نسأل ذواتنا أولا عن ماهية العصر ؟

يجب أن نعترف يا سيدى أن هذا العصر ليس من صنعنا .. انه من صنع الغرب .. صنعه من عرق الشعوب ودمها بعد أن أعلن أن الله قد مات !

والذى يعلن موت الخالق لا يحترم كرامة المخلوق !

وبالتالى فان قوانين العصر ليست المثل الذى يحتذى . انها قوانين وشعارات مصنوعة لابتزاز دم البشرية لأجل رفاهية الغرب .

ولو سايرت الشريعة الاسلامية العصر كما تردد ...

لباتت شريعة غير عادلة !

أنت يا سيدى أكثر ثقافة منى دون شك .

وتعلم أن الامم المتحدة .. وحقوق الانسان .. هى مجرد شعارات .

ان مكاتب الامم المتحدة تحت رحمة مخابرات الغرب .

من هـو المشرف على البنـك الدولى الآن ؟

وما هى علاقته بحرب فيتنام ؟

هل تنسى أن الامم المتحـدة اشتركت فى قتل الزعيم لوممبا .. وغيره ؟

نحن نعيش عصر ، دم الانسان فيه مباح لمن يمتلك السلاح ! ..

عصر بدون قيم !

أهان المـرأة فى أعـز شىء تملكه ...

أهانها فى أنوثتها .

وسمح للرجـال بالزواج مـن الرجال !

عصر الغش والخداع ..

الدكتور البريطانى جون يودكن يقول :

ان خمسين فى المائة من ميزانيات العلاج فى أفريقيا تدفع مقابل أدوية أوقـف استعمالهـا وتداولها فى الغرب ...

نحن فى عصر لا يستحـق أن يكون مثلا يا سيدى ..

عالم النفس الامـريكى اريك فروم فى كتابه « ثورة الأمـل »

يقول :

« لو كان البشر يعرفون الطريق المحتمل للمجتمع الامـريكى اذن لتولاهم الرعب جميعهم تقريبا !

الى حد أنهـم يتخـذون الاجـراءات الوافية لكى يغيـروا اتجاههم .

فان لم يع البشر الجهـة التى يمضون فيها فانهـم سيستيقظون متأخرين جدا عندمايكون مصيرهم قد كرس نهائيا .

الا انهم للأسـف فى أغلبيتهـم العظمى لا يعرفـون الى أين هم سائرون » .

شريعة الاسلام عدل يا سيدى.

ولا بد أن تكون فى اتجاه مضاد لقوانين العصر .

الاسلام نزل ليقود ! لا ليقاد .

نزل ليقود البشرية الى الخير..

ان الشعوب الاسـلامية تعيش

مأساة بسبب التخلى عن شرائع الاسلام .

بسبب انها تردد ما يقوله الأسياد .

حال الاسلام فى بلادنا يشبه حال سمكة أخرجها الصياد من الماء ...

ووضعها على الشاطىء ..

ثم سأل نفسه فى غباء ..
لماذا لا تسبح هذه السمكة فى الهواء ؟

ونحن وضعنا الاسلام على هامش الحياة ونسأل فى غباء :

لماذا بقينا على هذا الحال ؟

الاسلام منهج حياة متكامل بالنسبة للانسان يمثل قطرة الدم التى تؤثر فى كل خلية من جسده .

الاسلام لا بد وأن يكون فى المنزل وفى الشارع وفى المدرسة..

يكون فى المزرعة وفى المصنع .

عندئذ يتغير سلوك الانسان ويتبدل فكره ....

نحن تتشدق بكلمة الاسلام ..

فى حين أنه بيننا وبينه بعد المشرقين !

الواقع يقول اننا نعيش مرحلة التيه !

نشبه الملاكم الذى بات يترنح على الحلقة بعد أن فقد التحكم فى السيطرة على ذاته من أثر اللكمات الخطافية من اليمين ومن اليسار !

ما لم تكن لنا أرض ياسيدى تثبت أقدامنا فوقها !
فلا أمل هناك !

لا بد أن نحاول أن نستعيد قوانا من ذواتنا .

الفكر الخلاق ليس حكرا على جنس من الأجناس ...
لا بد أن نحاول لمس الأرض بأقدامنا ...

فى اسطورة انتيه اليونانية :

عندما تبين للبطل أثناء صراعه مع الغول ،

انه كان يستعيد قواه كلما مس الأرض بقدمه ، فانه رفعه ..

فتوصل هكذا الى خنقه .

والحقيقة يا سيدى ..

ان الغرب استطاع ان يرفعنا بعيدا عن الأرض !

وما زال يعمل جاهدا على أن نظل هكذا !

نحن يا سيدى بكل صراحة نحيا بلا عقيدة !

لا نملك أرضا !

ما نعرفه عن «بمبه كشر» خريجة شارع محمد على أكثر مما نعرف عن محمد رسول الله ..

أعطنى الأرض !

أعطنى عقيدتى !

قل لى من هو محمد رسول الله ...

وسترى ماذا سيحدث بعدها !!!

اذا كانت كلاب الروم داست أرض القمر !

فلا بد وأن تكون الشمس تحت قدمى !!!

الشريعة ليست فى حاجة الى تطوير !

أنا وأنت فى أمس الحاجة الى التطوير !

ما زلنا قردة ..

نردد ما يقوله الأسياد !!!

المهندس
حسن أبو رحمة
الرى المصرى بالرصيرص
جمهورية السودان

هـــلال رمضـــان

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يستقبل رمضان يدعو الله فيقول : « اللهم أهله علينا باليمن والايمان .. والسلامة والاسلام ، والعافية ودفاع الأسقام ، والعون على الصلاة والصيام وتلاوة القرآن » .

أخطـاء شـائعـة

للأستاذ عباس أبو السعود

٤٨٥ ويقول العامة وكثير من الخاصة : اجتمع قائد الجيش مع جنوده ، فيوهمون فى قولهم ، والفصيح أن يقال : اجتمع قائد الجيش هو وجنوده لان لفظ اجتمع بزنة افتعل ومثله اختصم واقتتل ، وما كان كذلك على وزن تفاعل مثل تفاهم وتخاصم وتضافر يقتضى وقوع الفعل من أكثر من واحد ، فمتى أسند الى أحد الفاعلين لزم أن يعطف عليه الآخر بالواو لا غير ، وانما اختصت الواو بالدخول فى هذا الموطن ، لأن هاتين الصيغتين تقتضيان وقوع الفعل من اثنين فصاعدا ، ومعنى الواو يدل على الاشتراك فى الفعل أيضا ، فلما تجانسا فى هذا الوجه وتناسب معناهما استعملت الواو فقط فى هذا الموضع ، ولم يجز فيه استعمال لفظ مع ، لأن معناها المصاحبة ، وخاصيتها أن تقع فى المواطن التى يقع الفعل فيها من واحد ، والمراد من ذكرها الابانة عن المصاحبة التى لو لم تذكر لما عرفت ، كما فى قوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » وقوله : « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا » .

٤٨٦ وينكرون أن يقول صاحب المنزل لمن قرع بابه : خش أى ادخل ، ويصرون على أن خش كلمة عامية والحق أنها عربية سليمة ، تقول : خش الولد فى الحجرة يخش وانخش اذا دخل ، وقال الأصمعى خششت فى الشىء دخلت ، وقال زهير : (فخش بها خلال الفدفد) أى دخل بها .

وانخش الرجل فى القوم انخشاشا دخل فيهم ، وفى حديث عبد الله بن أنيس « فخرج رجل يمشى حتى خش فيهم » أى دخل ومنه يقال لما يدخل فى أنف البعير خشاش ، ومن المجاز : جعل الخشاش فى أنفه وقاده الى الطاعة بعنفه والخشخشة الدخول فىالشيء كالانخشاش وتخشخش فى الشجر دخل فيه وغاب .

والمخش بكسر الميم الجريء على العمل فى الليل، تقول : فلان مخش ليل اذا كان دخالا فى ظلمته .

٤٨٧ وينكرون أن يقول القائل : سألت صديقى بعلمهومعروفه بتعدية الفعل بالباء ، يعنى أنه سأله عن علمه ومعروفه ، ويصرون على أن هذا الفعل دائم التعدى بنفسه الى مفعولين مستأنسين بقوله عز شأنه : « قل لا أسألكم عليه أجرا » وقوله : « لا نسألك رزقا نحن نرزقك » وقوله :

« واذا سألتموهن متاعا » والحق أن التعبير الذىأنكروه سليم وبيان ذلك أن الفعل المذكور قد يتعدى بنفسه الى مفعولين كما فى الآيات السابقة ، وقد يتعدى بنفسه الى مفعول واحد والى الثانى بعن كما فى قوله تعالى «يسألكالناس عن الساعة » وقوله : « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب » وقد يتعدى الى مفعول واحد بعن كما فى قوله : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم » وقد يتعدى الى مفعول واحد بالباء كما فى قوله سبحانه : «سألسائل[1]

(١) قوله تعالى : « سال سائل بعذاب واقع » معناه انه سخر فطلب وقوع العذاب متحديا ليصدق ان الله حق ، والسائل هو النضر ابن الحارث الذى قال : ان كان هذاهو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء ، أو هو ابو جهل الذى قال : فاسقط علينا كسفا من السماء .

بعذاب واقع » وقد يتعدى بنفسه الى مفعول واحد والى الثانى بالباء كما فى قول الشاعر :

فان تسألونى بالنساء فاننى
بصير بأدواء النساء طبيب

أى فان تسألونى عن النساء ، قال الاخفش : يقال خرجنا نسأل عن فلان ، وبفلان .

وقد يجر المفعول الثانى بمن الزائدة كما فى قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر » أى ما أسألكم عليه أجرا ، بدليل قوله : « قل لا أسألكم عليه أجرا » وقوله : « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا » .

يقال : سأله يسأله سؤالا ، ومسألة ، وتسآلا .

والسؤل والسئولة بضمهما هو ما يسأل ، تقول : أصبت سؤلى أو سؤلتى أى طلبتى فعل بمعنى مفعول كعرف ونكر ، ومنه قوله تعالى : « قال قد أوتيت سؤلك يا موسى » .

ومثلهما المسألة بالفتح ، تقول : هو سألتى من الدنيا . واللهم أعطنا سألاتنا ، قال :

وناديت يا رباه أول سألتى
اليك سليمى ثم أنت حسيبها

والأمر من سأل اسأل ، تقول لمن أذنب اسأل الله المغفرة ، ومنه قوله تعالى : « واسألوا ما أنفقتم » .

ويقال سال يسال بدون همز كخاف يخاف والأمر منه سل ومنه « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » واسم الفاعل من الفعلين سائل ، وللمبالغة سآل وسئول بفتحها وجمع السائل سألة ككتبة وسؤال ككتاب ويقال لكثير السؤال سؤلة كهمزة .

٤٨٨ ولقد شاع على ألسنة كثير من الأدباء والمثقفين وأسلات أقلامهم قولهم لأبنائهم ينبغى عليكم ان تجتهدوا فى دروسكم لتنجحوا فى الامتحان ، يعنون وجوب الاجتهاد .

وهذا خطأ وضلال بعيد ، لأن كلمة على لا تستعمل مع ينبغى ، وانما تستعمل مع هذا الفعل اللام فيقال : ينبغى لكم أن تجتهدوا ، اذ أن معنى هذا التعبير يندب لكم ندبا مؤكدا لا يحسن تركه أن تجتهدوا ، ويؤيد هذا الرأى قوله تعالى « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر » وقوله : « وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا » وقوله : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » وقوله « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » وقوله « قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » وقول اللغويين ماينبغى أن يكون كذا معناه ما يتيسر وما يحسن .

ويقال : بغيت الشيء أبغيه بغاء ، وبغى ، وبغية بضمهن ، وبغية بكسر الباء أى طلبته ، والبغية بتشديد الياء وزان رضية الشيء المبتغى كالبغية بكسر الباء وضمها ، والباغى الطالب جمعه بغاة وبغيان بضم كل كل منهما .

تقول : ابغنى ضالتى أى اطلبها لى أو أعنى على طلبها ، قال رؤبة :

(واذكر بخير وابغنى ما يبتغى) أى اصنع بى ما يجب أن يصنع .

وقال ابو نواس فى هذا المعنى :

قال ابغنى المصباح قلت له اتئد
حسبى وحسبك ضوءها مصباحا

ويقال : بغى فلان على الناس بغيا من باب رمى اذا ظلمهم واعتدى عليهم وعدل عن الحق ومن هذا قوله تعالى : « يأيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » وقوله : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .

ومن المجاز قولك : بغى الجرح اذا ترامى الى الفساد ،

وبغت السماء اذا ألح مطرها وبغى فلان فى مشيته اذا اختال وأسرع فيها .

ويقال للفرس : انه لذو بغى فى عدوه أى ذو مرح .

ويقال : بغت المرأة بغاء بكسر الباء اذا كانت طلوبا للرجال فاجرة ، ومن هذاقوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء » .

والبغى بتشديد الباء وزان غنى وصف خاص بالمرأة ولا يقال للرجل ، ومنه قوله سبحانه على لسان مريم عليها السلام : « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » .

وقوله على لسان قومها : « يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا » .

٤٨٩ ويقولون : جريدة الأهرام أصدق الجرائد قولا ، وفى هذا التعبير غلطتان .

احداهما : كلمة جريدة ، لأنها ليست محلا لكتابة الأخبار وغيرها ، وانما هى سعفة من سعف النخل جرد عنها الخوص وقشر .

والأخرى : كلمة جرائد ، فهى ــ وان كانت جمعا قياسيا لجريدة كسبيكة وسبائك ، وشريكة وشرائك ولم تستعملها العرب بهذا المعنى ، وانما قالت : ان الجريدة بمعناها الحقيقى واحدة الجريد اسم جنس جمعى يتميز واحده بالتاء كتمرة وتمر ، وشجرة وشجر وكلمة وكلم والجريد معناه السعف الذى يجرد عنه الخوص ، ولا يسمى جريدا ما دام عليه الخوص .

والصواب أن يقال : صحيفة الأهرام أصدق الصحف قولا .

والصحيفة قطعة من جلد أو قرطاس يكتب فيه ، جمعها صحف وصحائف ، يقال

صحـــــائف الكتب خير من صحاف الذهب ، ومن المجاز قولك لغيرك : صن صحيفـــة وجهك أى بشرته والجـــرادة بضم الجيم ما قشر عن الشيء كالخوص ونحوه ، تقول : جردت الشيء جردا من باب نصر اذا أزلت ما عليه •

والتجريد التعرية ، تقول : جردت فلانا من ثيابه بالتثقيل اذا نزعتها عنه وعريته فتجرد هو وانجـــرد ، ومن المجـــاز قولك : جردت السيف مـــن غمده اذا سللته فهـــو سيف مجرد •

ويقال رجل أجـــرد اذا لم يكن على جسده شعـــر وفى الحديث « أهل الجنة جـــرد مرد مكحلون » وفـــرس أجرد اذا كان قصير الشعـــر رقيقـــه ، والأجـــرد السباق ومضى عليهم عام أجرد وجريد اذا لم يكن فيه خير ، ورجل جارود أى مشئوم يجـــرد الخير بشؤمه ، ومـــا رأيت فلانا مذ أجردان وجـــريدان أى منذ يومين أو شهرين •

يقال : تجرد فلان لأمر كـــذا اذا جد فيه ، وتجـــرد لعبادة الله تعالى ، وتجردت السنبلة اذا خرجت من لفائفها ، وثوب جرد بفتح فسكـــون اذا كان خلقا باليا ، وما أنت بمنجرد السلك اذا لم يكن مشهورا ، وتنق ابلا جريدة أى خيارا ، والجـــــراد بصيغة المبالغـــة هو جلاء آنية الصفر •

٤٩٠ ويقول الواحـــــد منهـــم : تكبدت فى هذا الأمر كثيرا من المشاق ، وكبدتنى هـــذه القضية دراهم لا حصر لهـــا وهذا خطـــأ ، والفصيح أن يقال فى المعنى الأول : كابدت فى هذا الأمـــر كثيـــرا من المشاق مـــكابدة أى قاسيته مقاساة ، وأصابنى منـــه قدر كبير من المعاناة •

وأن يقال فى المعنى الثانى : بهظتنى هـــذه القضية ، أو حملتنى ، أو جشمتنى ، أو

كابدت فيها باهظ النفقات حتى أثقلت كاهلى ، وقد قيل : المسافر يكابد الليل اذا ركب هوله وصعوبته .

أما كبد وتكبد فهما عربيتان سليمتان ولكن فى غير هذا المعنى اذ تقول تكبدت الشمس السماء اذا صارت فى كبيدائها وهو وسطها ؛ وكبدت الشمس تكبيداً اذا صارت فى وسط السماء .

ويقال : تكبد اللبن اذا خثر وذهب صفوه وبقيت خثارته أى عكارته ووسخه .

٤٩١ ويقولون فى تحية الضيف : على الرحب والسعة بفتح الراء ؛ والصواب أن يقال على الرحب بضمها وذلك لأن مضموم الراء هو المصدر ، تقول : رحب المكان رحبا كحسن حسنا اذا اتسع ، ومثله رحب رحابة بفتح الراء كفصح فصاحة ؛ ففى الأساس : ضاقت على الأرض برحبها بضم الراء أى باتساعها وبما رحبت ، وانزل فى الرحب والسعة ، وفى القاموس ورحب به ترحيبا دعاه الى الرحب ، وفى المختار الرحب بالضم السعة ، والرحب بالفتح الواسع وكذا الرحيب ومنه قولك فلان رحيب الصدر ، وفى المصباح رحب المكان رحبا من باب قرب فهو رحب ورحيب بفتحهما .

ومن المجاز قولك : فلان رحب الذراع بهذا الأمر اذا كان مطيقا له ، ورحب الباع والذراع ورحيبهما اذا كان سخيا .

مما عرضنا من أقوال أصحاب المعجمات استبان أن مضموم الراء مصدر ومعناه الاتساع وهو المناسب للسعة ، أما مفتوحها فهو صفة مشبهة ومعناه واسع ، وتقول رحب فهو رحب أى واسع كضخم فهو ضخم ، ومثله رحيب كشرف فهو شريف .

وهذا الفعل يتعدى بالحرف فيقال رحب بك المكان ، ثم كثر حتى تعدى بنفسه فقالوا رحبتكم الدار ورحبكم الدخول فى طاعة الأمير أى وسعكم ، وهذا شاذ فى القياس ، فانه لا يوجد فعل بضم العين الا لازما مثل شرف وكرم غير أن أبا على حكى عن هذيل تعدية هذا الفعل .

ويقال فى هذا المعنى : مرحبا وأهلا أى أتيت سعة وأهلا فاستأنس ولا تستوحش ومرحبا ومسهلا أى صادفت سعة ومكانا سهلا ، ومرحبك ومسهلك ، ومرحبا بك الله ومسهلا ، قال الجعدى :

ومستأذن يبتغى نائلا (١)
أذنت له ثم لم يحجب
فآب (٢) بصالح ما يبتغى
وقلت له ادخل ففى المرحب

٤٩٢ ويسمون ما يضرب به النجاد القطن ليرق وينتفش قوسا ، والأفصح أن يسمى مندفا ، ومندفة وكربالا بكسر أوائلهن ، تقول : قطن مندوف ، ونديف ، ومندف بتشديد الدال مفتوحة .

وقيل : المندف هو الخشبة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن ، ووتر المندف يسمى المشوار بالكسر والهبرية وزان شرذمة ما طار من زغب القطن أو من الريش .

وانما قلنا الأفصح لأننا نميل دائما الى التخصيص ، اذ القوس الواعدة ، ولا بد أن تضاف الى مايخصصها فيقال :

١ ــ قوس ندف وهى التى تعنينا ها هنا .

٢ ــ قوس نبل وهى العربية المعروفة .

٣ ــ قوس جلاهق بضم الجيم وهو البندق الذى يرمى به ، وأصله بالفارسية (جله) وزان صرد .

(١) النائل : العطاء
(٢) آب : رجع

٤ ــ قوس النشــاب وهى الفارسية .

٥ ــ قوس الحسبان بضم الحاء وهى السهام الصغار ، واحدتها حسبانه بالهاء .

وفى المثل «رموهم عــن قوس واحدة » ويضرب فى الاتفاق .

٤٩٣ ويقولون : كتبنــــا أسماء الفائزين فى لوحة علقناها على جدار فى فنــــاء المدرسة ، ويجمعونهــا على لوحــات ، وكل من المفرد والجمع خطأ ، لأن التاء الفارقة بين المذكــر والمؤنث لا تلحق اطرادا لا الصفات كصائم وصائمــة ، ومحروم ومحرومة ، وجرى ، وجريئة ، ولكنها لا تلحق من الأسماء الا عــددا قليـــلا مسموعا ، منــه : سبـــع وسبعــة ، وذئب وذئبــه ، وأسد وأسدة ، ونمر ونمرة ، ورجل ورجلة ، وقيل ان عائشة رضى الله تعــالى عنها كانت رجلة الرأى ، ولهذا لا يقال فى لوح لوحة .

ولاصلاح عبارتهــم يجب أن يقال :كتبنا أسماء الفائزين فى لوح وجمعه ألواح . كما فى قوله جل شأنه : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وقوله : « وكتبنــــا له فى الألواح » وقوله : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » .

واللوح كل صفيحة عريضة خشبا كانت أو عظما ، وجمع الجمع تلاويح .

ويقال : نظرت الى ألواح فلان أى الى ظواهره ، قال يصف امرأة :

تمسى كألواح السلاح وتضـ
حى كالمهاة صبيحة القطــــر

ومن المجاز قولك للمهزول لم يبق منك الا الألواح أى العظام العراض .

٤٩٤ ويقولون : انفقنا فى رحلتنــا الى انجلترا خمسة آلاف جنيه

اذا كان طعامنـــا يكلفنا فى اليوم خمسين جنيها ، وهذا الكلام يشـوبه الخطأ ، لأن كلمة جنيه عامية .

والفصيح أن يستبدل بها لفظ دينار فيقـال : أنفقنـا خمسة آلاف دينار ، وأصل الدينار دنار بتشديد النون، أبدل من احداهما ياء للتخفيف حتى لا يلتبس بالمصادر مـن نحو كذاب فى قوله تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا » والدليـل على صحة ذلك أنها ترد فى الجمع الى أصلها فيقال دنانير .

وبعضهم يقول : هو فيعال، وهذا القول مردود بأنه لو كان كذلك لوجدت الياء فى الجمع كما ثبتت فى جمـع ديماس وهو الحمام على دياميس ، وفى جمع ديباج على ديابيج ويشبه الوجه فى وضـاءته واشراقه بالدينـار فيقـال : وجـه فـلانة كأنه الدينـار الهرقلى .

كأن دنانيرا على قسماتهـــا
وان كان قد شـف الوجوه لقاء

ويقال : ذهب مـدنر اذا كان مضروبا ، وكلمت فلانا فدنر وجهه تدنيرا اذا تلألأ ، ودنر الأمير بالبناء للمجهول فهو مدنر اذا كثرت دنانيره .

ومن المجاز قولك : ثوب مدنر أى أن وشيه كالدينار، قال ابن المفرغ :

وبرود مدنرات وقـــز
وملاء من أعتـق الكتان

٤٩٥ ويجمعون أعجف بمعنى هزيل وكذا مؤنثه عجفاء على عجف بضم فسكون ، وحجتهـم فى هذا أن أفعل الذى مؤنثه فعلاء ، وفعلاء التى مذكـرها أفعل يطرد جمعها على فعـل كأحمر وحمـراء وحمـر ، وأخضر وخضراء وخضـر ، وكذلك يجمع على فعل أفعل الذى ليس له فعلاء لمانع فى الخلقة كأكمر لعظيم الكمرة وهى حشفة الذكـر ، وآدر

لعظيم الخصيـــة ، يقال فى جمعها كمر وأدر ، ويجمع على هذا الوزن أيضا فعلاء التى ليس لها أفعل لمانع خلقى كرتقاء وهى التى ليس لهـا خرق الا المبال ، وكذا عفلاء وهى المرأة التى يخـرج من قبلها شيء كالأدرة ، فيقـال فى جمعها رتق وعفل .

أما أعجف وعجفاء فكلاهمـا شذ من هذه القاعـــدة ولا يجمع الا على عجاف بكسر العين ، كما فى قوله تعالى : « انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف » وانمـا جمعت عجفاء على عجاف اما حملا لهذاالجمع على ضـده وهو سمان ، لأن العرب قد تحمل الشيء على ضده ، كما قالت عدوة حمـلا لها على صديقة ، وفعول بمعنى فاعل لا تدخـــله الهـاء اذا كان للمؤنث تقول امرأة صبـور وشكور وغفور ، واما حملا له على نظيره وهو ضعاف .

ومما شذ من هذه القاعدة أيضا فلم يجمع على فعل كلمتا أبطح وبطحـاء ، وكلتاهما معناها مسيل واسـع فيـه دقاق الحصى فقد جمعتا على بطـاح بالكسر ، وبطـائح وأباطح .

وهناك ألفاظ جمعت قياسا على فعل ، وشذوذا على فعال بالكسر منها :

١ ـ أجرب وجرباء ، فقد جمعتا قيـاسا على جـرب ، وشذوذا على جراب بالكسر وجربى بالفتح .

٢ ـ أعصل وهو المعـوج فى صلابة ومؤنثه عصلاء ، فقد جمعتا قياسا على عصـل تقول : سهم أعصل ، وناب عصلاء ، وسهام وأنياب عصل ، وشـــذوذا على عصـــال بالكسر .

٤٩٦ ويقولون : تواجد الغلمان فى اللعب فهم متواجـــدون ، ولا بد من تواجدهم فيه كل

صباح ليؤدوا ما يقويهم من التمرينات الرياضية ، ومن لم يتواجد منهم فى الموعد المحدود حرم المكافأة ، وكل هذه التعبيرات خطأ ، لأن التفاعل من الوجود لم يرد عن العرب وكذا كل ما يشتق منه والصواب أن يقال : وجد المدرب غلمانه فى الملعب فهم موجودون ، اذ أنه لا بد من وجودهم فيه كل صباح ، ليؤدوا تمريناتهم الرياضية ، ومن لم يوجد فى الموعد المحدود حرم المكافأة .

ولك أن تقول : أوجد المدرب غلمانه فى الملعب صباحا فهم موجودون ، كما يقال أوجده الله فهو موجود ، ولا يقال : فهو موجد .

ومثل ذلك قولهم أجنه الله فهو مجنون ، ولا يقال مجن ، وأسله فهو مسلول ولايقال مسل .

٤٩٧ ويقولون : ألزمه القاضى بالحق فالتزم به ، وفى هذا التعبير غلطتان :

احداهما : أنهم جعلوا الفعل ألزم متعديا لمفعول به واحد ، والفصيح أنه ينصب مفعولين بدليل قوله تعالى : «وألزمهم كلمة التقوى» وقوله : «وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه» ، وقوله : «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» .

فكان عليهم أن يقولوا : ألزمه القاضى الحق .

والغلطة الأخرى : أنهم جعلوا مطاوع هذا الفعل لازما ، مع أن مطاوع الفعل المتعدى لاثنين يجب أن يتعدى لواحد ، تقول : ألزمته الشىء فالتزمه .

فكان عليهم أن يقولوا : ألزمه القاضى الحق فالتزمه ، لا فالتزم به أما الفعل الثلاثى فتارة يكون قاصرا كما فى

قولك : لزم الشيء لزوما بالضم ولزاما بالكسر اذا ثبت ودام ، وتارة ثانية يكون متعديا لواحد كما فى قولك لزم الولد أباه لزما ولزوما ، ولزاما ،كلازمه ملازمةولزاما، وهو لزمة كهمزة أى اذا لزم شيئا لا يفارقه ، وتارة ثالثة يكون متعديا بالباء كما فى قولك لزم الولد بأبيه أى تعلق به .

ومن معانى اللزام بكسر اللام العذاب ، فقوله تعالى : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » معناه ما يصنع بكم ربى لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ، أى عذابا لازما لكم .

أنشد أبو عبيدة لصخر الغمى :

فاما ينجوا من حتف(١) أرض

فقد لقيا حتوفهما لزامة

قوله جل شأنه : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما » معناه لكان العذاب لازما لهم، ولكنه أخرهم الى يوم القيامة .

ومن معانى الالتزام الاعتناق ، تقول : التزم فلان الاسلام اذا اعتنقه فالاسلام ملتزم بصيغة اسم المفعول ، ومنه يقال لما بين باب الكعبة المشرفة والحجر الأسود الملتزم ، لأن الناس يعتنقون أى يضمونه الى صدورهم ، ويقال للشيء الثابت : صار هذا الشيء ضربة لازم ، كما قالوا : ضربة لازب وضربة اللازب أفصح من ضربة اللازم كما رأى صاحب المختار لأن فيها لصوقا .

وفى التنزيل : « انا خلقناهم من طين لازب» أى لازق . قال كثير فى محمد بن الحنفية

---

(١) الحتف : الموت جمعه حتوف

وهو في حبس ابن الزبير :

خما ورق (١) الدنيا بباق لأهله

وما شدةالبلوى بضربةلازم

٤٩٨ ويقولون : أوقفت الحكومة فلانا عن عمله بالفعل المزيد بالهمزة ، يعنون أنها منعته منه ، وهذا خطأ صراح .

والصواب أن يؤدى هذا المعنى بالفعل الثلاثى فيقال : وقفته عن عمله وقفا من باب وعد ، كما يقال : وقف الأب ابنه على ذنبه اذا أطلعه عليه ليقلع عنه ، ووقف الرجل داره للمساكين وقفا اذا حبسها فى سبيل الله .

ويقال : وقفت الدابة تقف وقفا ووقوفا اذا سكنت ، ووقفتها أنا يتعدى ويلزم ، وشيء موقوف ووقف تسمية بالمصدر ، جمعه أوقاف كثوب وأثواب .

أما قولهم أوقف فلان داره بالألف فلغة رديئة ، ولذا أنكرها الأصمعى .

وقال : اللغة الفصحى أن يقال وقفت الشيء بغير ألف .

أما أوقف بالألف فلا يستعمل الا فى قولك أوقفت عن الكلام اذا أقلعت عنه ، وقولك كلمنى فلان فأوقفت أى أمسكت عن الحجة عيا .

وعن أبى عمرو والكسائى انه يقال للواقف : ما اوقفك ها هنا ؟ أى أى شيء صيرك الى الوقوف فى هذا المكان ، وأفصح منه قولك : من وقفك بغير ألف .

ويقال : وقفت الأمر على حضور فلان أى علقت الحكم فيه بحضوره ، ووقفت قسمة الميراث الى أن تضع ربة البيت مولودها ، أى أخرتها حتى تضع .

---

(٢) الورق وزان كبد : الدراهم المضروبة

ويقال : وقفت القارىء على الكلمة وقوفا ، ووقفته توقيفا اذا علمته مواضع الوقوف .

ووقفت ابنتى توقيفا اذا جعلت فى يديها الوقف بزنة الوعد ، وهو سوار من عاج ونحوه .

والميقف والميقاف بكسر ميميها عود يحرك به القدر ، ويسكن به غليانها .

٤٩٩ ويقولون : تنازل فلان لاخوته عن حقه فى الميراث ، يعنون انه تركه لهم محبة واكراما ، وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن التنازل لاصلة له بمعناهم هذا ، وانما معناه النزال والمنازلة ، تقول نازله فى الحرب منازلة ونزالا ، وتنازل تنازلا اذا نزل كل منهما عن جبله وامتطى فرسه ثم أخذا يتضاربان ويتناجزان .

والفصيح ـ لتأدية المعنى المبتغى ـ أن يقال : نزل لاخوته عن حقه ، كما يقال نزل فلان لصديقه عما له عنده من دين ، ونزل الأنصارى عن واحدة من زوجاته لأحد من المهاجرين ليتزوجها بعده ، وتقول للشاعر انزل لى عن هذه الأبيات كى أنسبها الى نفسى .

أو يقال : هضم لاخوته حقه فى الميراث ، كما يقال هضمت المرأة من مهرها لزوجها بعضه اذا وهبته له .

وتقول لأخيك : هضمت لك من حقى كذا اذا تركته وأسقطته .

ويقال : نزلهم ، وبهم ، وعليهم ، اذا حل فهو نزيل جمعه نزلاء ، قال :

نزيل القوم أعظمهم حقوقا
وحق الله فى حق النزيل

ومن المجاز قولك كنا فى نزالة فلان بكسر النون أى فى ضيافته فهو من الكرم بمنزل ومن اللؤم بمعزل .

والنزل بضمتين المنزل كالنزل بسكون الزاى وما هيئ للضيف أن ينزل عليه ، وكذلك هو طعام النزيل ، وفي التنزيل « هذا نزلهم يوم الدين » ومن معانيه أيضا الفضل ، تقول فلان ذو نزل أى ذو فضل .

٥٠٠ أنكرت مجلة المجمع اللغوى استعمال ساهم فلان أخاه بمعنى شاركه ، واكتفت لهذا المعنى بأسهمه وسهمه ، وجرى وراء رأيها كثير من رجال اللغة مستندين الى أن المعاجم لم تذكر المساهمة الا بمعنى المقارعة ، وأن ذلك ورد في قوله تعالى : « وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين » أى قارع أهل الفلك فكان من المغلوبين .

والحق أن استعمال المساهمة بمعنى المشاركة صحيح للأدلة الآتية :

الأول : أن من يقارع لا بد أن يكون له أسهم يشترك بها بالقرعة .

والثانى : أن الزمخشرى قال : تساهموا الشيء أى تقاسموه .

وأنشد الأصمعى لحكم الخضرى :

تساهم ثوباها ففي الدرع (١) رأدة (٢)
وفي المرط (٣) لفاوان (٤) ردفهما عبل (٥)

فالشاعر يريد أن يقول : ان ثوبيها اشتركا في ستر

---

(١) درع المرأة قميصها
(٢) الرأدة : الشابة الحسنة الناعمة
(٣) المرط : كساء من صوف أو خز يؤتزر به
(٤) اللفاوان مثنى لفاء وهى الفخذ الضخمة
(٥) عبل : ضخم

جسمها ، فقميصها غطى نعومتها ومرطها أخفى فخذيها وعجيزتها المتسمة بالضخامة ، ولقد عبر فى هذا البيت عن المشاركة بالتسامم ، ولا فرق فى المعنى بين ساهم وتساهم لأن كلا من فاعل وتفاعل موضوع لمعنى المشاركة كقاتل وتقاتل ، ونافس وتنافس ، وحارب وتحارب .

والثالث : أن من الآثار الأدبية التى تؤيد صحة هذا المعنى قول ابراهيم بن العباس الصولى حينما قسم أخوه عبد الله ماله ثلاثة أقسام ووهب له ثلثا ولأخته ثلثا وأبقى لنفسه الثلث الأخير ليكون مساويا لهما .

ولكن عبد الله لما حوى الغنى
وصار له من دون اخوته مال
رأى خله (١) منهم تسد بمال
فساهم حتى استوت بهم الحال

والرابع : أننا نستطيع أن نستخلص من المعاجم ان المساهمة معناها المشاركة :

ا ــ قال ابن الأثير فى مادة (أسا) والمواساة المشاركة والمساهمة .

ب ــ وقال المصباح فى مادة (ناب) وناوبته مناوبة بمعنى ساهمته مساهمة وتناوبوا عليه تداولوه بينهم .

ج ــ وقال القاموس فى هذه المادة : تناوبوا على الماء أى تقاسموه .

فنص ابن الأثير يشير بصراحة الى أن المساهمة هى المشاركة والنصان الآخران يشيران الى معنى المشاركة رمزا وايحاء ، اذ أن فى المناوبة التى هى بمعنى المساهمة تداولا وتقاسما واشتراكا وأن كل المتناوبين لا بد أن يكون لهم أسهم فيما تناوبوا عليه .

---

(١) الخلة : الحاجة والفقر

مما عرضنا من الأدلة اتضح أنه يجوز أن يقال : ساهمت فلانا فى انشاء هذه المدرسة أى شاركته وقاسمته ، وأن يقال : أسهمت أو سهمت فى بناء المدرسة بكذا ، غير أن ساهم متعد وأسهم وسهم لازمان ، فاذا قال قائل : ساهمت فى انشاء المدرسة كان الفعل متعديا محذوف المفعول أى ساهمت فلانا أو ساهمت القوم ، كما حذف المفعول فى قوله تعالى : « فكشفت عن ساقيها » أى فكشفت الثوب عن ساقيها ، وكما حذف فى قوله : « وأما من أعطى واتقى » فقد حذف من أعطى مفعولان ، ومن اتقى مفعول ، وكما حذف من قوله : «فساهم فكان من المدحضين » أى فساهم أهل الفلك .

٥٠١ ويقولون : منعت الحكومة التجول ليلا فى الشوارع ، وهذا التعبير غير سليم ، لأن كلمة التجول بزنة التحول لم ترد عن العرب ، والصواب أن يقال : منعت التجوال أو التطواف بفتح كل منهما ، تقول: جول فلان فى البلاد تجوالا وطوف فيها تطوافا ، وتطوف بالبيت واطوف به على البدل والادغام ، ومن هذ قوله تعالى : « فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف » ، وقوله : « وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق » .

ويقال : جال المقاتل فى الحرب جولا من باب قال ، وجولا بالضم أيضا ، وجولانا بالتحريك ، قال الفراء : اذا كان الفعل فى معنى الذهاب والمجىء مضطربا فلا تهابن فى مصدره الفعلان كفاض النيل فيضانا ، وخفق القلب خفقانا ، وغلت القدر غليانا. ويقال فى قلبه جولان الهموم وهو ما يجول فيه ، قال :

أقاذف جولان الهموم كأنني
شبوب أصابته حبالة صياد

وتجاول الجيشان أى جال بعضهما على بعض ، وبينهما مجاولات ، قال العباس بن مرداس :

بكل الحجاز قد ضربنا كتيبة
تجاولنا عن أرضها ونجيلها

وقال النابغة:

والخيل تعلم أنا فى تجاولنا
يوم الحفاظ أولو بؤس وانعام

ويقال : اجتالتهم الشياطين اذا حولتهم عن قصدهم وصرفتهم عن هداهم الى ضلالها ، وفى الحديث : «خلق الله عباده حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين » .

والجول بالضم العقل والعزم ، ومن المجاز قولك : ماله جول ولا معقول أى ماله رأى ولاتماسك وكذلك هو الناحية ، جمعه أجوال كقفل وأقفال ، تقول : قطع الفرس أجوال الميدان أى جوانبه ونواحيه .

٥٠٢ ويقولون للجذعة من الغنم بفتح كل من الجيم والذال : عبورة ، والفصيح أن يقال لها عبور بغير هاء ، جمعها عبائر كعجوز وعجائز . وحكى عن اللحيانى قوله : لى نعجتان وثلاث عبائر .

والجذعة من الغنم هى التى تكون فوق الفطيم وقبل الثنى ، جمعها جذعات كقصبة وقصبات ، وجذاع أيضا بكسر الجيم .

والفطيم هى التى فصلت عن الرضاع فى سنتها الأولى، تقول : فطمت بالبناء للمفعول فهى فاطم ، ومفطومة ، وفطيم ، أما الثنى وزان نبى فهى التى صارت فى السنة الثانية تقول : أثنى البعير اذا صار ثنيا .

والجذعمة هى الصغيرة من أولاد النعجة ، وفى الحديث : « أسلم والله أبو بكر وأنا جذعمة » وأصلها جذعة زيدت فيها الميم .

عباس ابو السعود

حكم .... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« العدل في اسمى معانيه »

« لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » .

« صدق الله العظيم »

سرقت امراة من بني مخزوم حليا ومتاعا ، ورفع امرها الى الرسول – صلى الله عليه وسلم فاعترفت بالسرقة ، فخشي قومها ان ينفذ فيها العقوبة .. فوسطوا اسامة بن زيد وأبيه ليشفعا لها

عنده .. فغضب عليه السلام وقال : اتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم جمع الناس فخطب فيهم فقال : « أيها الناس .. انما أهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه .. واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها »

« الايمان طمانينة »

مر ابراهيم بن ادهم على رجل ينطق وجهه بالهم والحزن ، فقال له : « أيها الرجل اني سائلك عن ثلاث ، فاجبني عنها ؟ فقال الرجل : نعم قال : ايجرى في هذا الكون شيء لا يريده الله ؟ قال : كلا . قال : افينقص من رزقك شيء قدره الله لك ؟ قال : كلا . قال : اينقص من اجلك لحظة كتبها الله لك في الحياة ؟ قال : كلا . قال ابراهيم فعلام الهم اذن ؟! »

« أجير أو أمير »

دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية بن ابي سفيان فقال :

السلام عليك ايها الاجير فاستنكر ذلك جلساء الخليفة ، وقالوا له : قل السلام عليك ايها الأمير ؟ فاعاد : السلام عليك ايها الاجير ؟ قالوا : بل قل ايها الأمير ، فاصر على قوله وهنا فطن معاوية الى قصده ، وقال دعوا ابا مسلم فانه اعلم بما يقول ..

فقال أبو مسلم : انما انت أجير استأجرك رب هذه الأمة لرعايتها فان أنت داويت مرضاها ، وحبست اولاها على أخراها وفاك سيدها اجرك ، وان أنت لم تفعل عاقبك سيدك .

« فصاحة القرآن الكريم »

سمع الأصمعي جارية صغيرة السن تقول كلاما بليغا ، فقال لها ما أفصحك ، فقالت أو تعد هذا فصاحة بعد قوله تعالى : « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين » فقد اشتملت على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

« مداومة قراءة القرآن الكريم »

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : ان أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحر ، والهدى من الضلالة ، فداوموا على قراءة القرآن الكريم ، فانه كلام الرحمن وحصن حصين من الشيطان ، ورجحان في الميزان .

« اتق الله يا عمر »

قال رجل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : اتق الله يا عمر ، وأكثر عليه فقال له قائل : اسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين . فقال له عمر : دعه ، لا خير فيهم ان لم يقولوها لنا ، ولا خير فينا ان لم نتقبل .

« جزاء المعروف »

وهب رجل لأعرابي شيئا فقال : « جعل الله للمعروف اليك سبيلا وللخير عليك دليلا ، وجعل عندك رفدا جزيلا ، وأبقاك طويلا وأبلاك جميلا » .

« الله عمر يعلم »

نهى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في خلافته عن مذق اللبن بالماء (١) ، فخرج ذات ليلة في حواشي المدينة ، فاذا بامرأة تقول لابنة لها : الا تمذقين لبنك فقد أصبحت ؟ فقالت الجارية : كيف أمذق وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق !

فقالت : قد مذق الناس فامذقي فما يدري أمير المؤمنين . فقالت : ان كان عمر لا يعلم فاله عمر يعلم ، ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

فوقعت مقالتها من عمر ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه ، فقال : يا بني ، اذهب الى موضع كذا وكذا ، فاسأل عن الجارية فذهب عاصم فاذا جارية من بني هلال : فقال له عمر : اذهب يا بني فتزوجها ، فما أحراها أن تأتي بفارس يسود العرب ، فتزوجها عاصم بن عمر ، فولدت له أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها عبد العزيز ابن مروان ، فأتت بعمر بن عبد العزيز !

« دعاني من هو خير منك »

حج الحجاج ، فنزل ببعض

(١) المذق : الخلط .

المياه ، ودعا بالغداء ، فقال لحاجبه : انظر من يتغدى معي واسأله عن بعض الأمر ! فنظر الحاجب فاذا هو بأعرابي نائم بين شملتين (١) من شعر فضربه برجله ، وقال : ائت الأمير ..

فأتاه فقال له الحجاج : اغسل يديك وتغد معي ، قال : انه دعاني من هو خير منك فأجبته ، فقال الحجاج : من الذي دعاك ؟ قال : الله تعالى دعاني للصوم فصمت ؛ قال في هذا اليوم الحار ! قال نعم: صمت ليوم احر منه ، قال : فأفطر وتصوم غدا ، قال ان ضمنت لي البقاء الى الغد ! قال : ليس ذلك الي . قال : فكيف تسألني عاجلا بآجل لا تقدر عليه ؟ قال : انه طعام طيب قال : انك لم تطيبه ولا الخباز ، ولكن طيبته العافية .

« الله موجود »

١ ــ قال بعض الأعراب ، وقد سئل عن الدليل على وجود الرب ، فقال : « يا سبحان الله ! ان البعر ليدل على البعير ، وان اثر الاقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات ابراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات امواج ، الا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟!! »

٢ ــ وسئل ابو نواس عن ذلك فانشد :

تأمل في نبات الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

٣ ــ وقال ابن المعتز :

فياعجبا كيف يعصى الاله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على انه واحد

« شروط السؤدد عند العرب »

قال الجاحظ : كانت العرب تسود على اشياء : اما مضر فتسود ذا رأيها ، واما ربيعة فمن اطعم الطعام ، واما اليمن فعلى النسب وكان أهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ست خصال : السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان .

« من عيون الشعر »

دع الأيام تفعل ما تشاء
وطب نفسا اذا نزل البلاء
ولا تجزع لحادثة الليالي
فما لحوادث الدنيا بقاء
اذا ما كنت ذا قلب قنوع
فانت ومالك الدنيا سواء

« فما يدري احدكم من ابوه ؟ »

سئل عدي بن حاتم ، مالك لا تشرب الخمر ؟ قال : معاذ الله

---

(١) الشملة : كساء يشتمل به .

ان اصبح حليم القوم واسى سفيههم .

وسقى قوم امراة حتى سكرت ، فلما افاقت ، سالت ايشرب نساؤكم الخمر هذا ؟

قالوا : نعم ، قالت فما يدرى احدكم من ابوه ..!

« القول اللين »

قال رجل لهارون الرشيد : « انى اريد ان اعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها » .

قال الرشيد : « كلا ! ان الله امر من هو خير منك بالانة القول لمن هو شر منى ، قال لنبيه موسى عليه السلام اذ أرسله الى فرعون « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى » .

« انا وانت فى الجنة »

نظرت امراة عمران بن حطان فى المرآة يوما ، وكانت جميلة ، وكان عمران دميما ، فقالت له : انا وانت فى الجنة قال : ولم ؟ قالت : لانك رزقتنى فشكرت وانا ابتليت بك فصبرت ، والصابر والشاكر فى الجنة .

« ان من الشعر لحكمة »

اذا اعسرت لم يعلم شقيقى
واستغنى فيستغنى صديقى
حيائى حافظ لى ماء وجهى
ورفقى فى مطالبتى رفيقى
ولو انى سمحت ببذل وجهى
لكنت الى الغنى سهل الطريق

وقال آخر :

ان الكريم ليخفى عنك عسرته
حتى تراه غنيا وهو مجهود

« سبعة لا يشاورون »

سبعة لا ينبغى لذى لب ان يشاورهم : جاهل ، وعدو ، وحسود ومراء ، وجبان ، وبخيل ، وذوهوى فان الجاهل يضل ، والعدو يريد الهلاك ، والحسود يتمنى زوال النعمة ، والمرائى واقف على رضا الناس ، والجبان من دابه الهرب ، والبخيل حريص على جمع المال فلا راى له فى غيره ، وذو الهوى أسير هواه لا يقدر على مخالفته .

« ابو يوسف الفقيه »

تغير الرشيد يوما على زبيدة ، فقال لها : انت طالق ثلاثا ان بت الليلة فى مملكتى فاستفتوا فى ذلك القاضى ابا يوسف ، فقال : تبيت فى بعض المساجد . فان المساجد لله ، ولاه القضاء بجميع مملكته .

« دعاء »

« اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : متى ، وكيف شرع الصيام ؟

ج : جاء فى بحث نفيس لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر — رحمه الله ما يلى .

سار الاسلام فى شريعة الصيام على طريقته فى التدرج بالأحكام ، ففرض صوم رمضان فى السنة الثانية من الهجرة ، فى شهر شعبان منها ، قبل غزوة بدر ، واقتضت حكمة الله أن تكون فرضيته هكذا متأخرة بعض الشىء عن بدء ظهور الاسلام . وعن شرعية غيره من الصلاة وبعض الأحكام . وذلك لأن فطم النفس ، ومنعها عن مألوفاتها ومشتهياتها جهاد ومشقة، لا يصبر عليه الا من تمكنت عقيدة التوحيد فى قلبه ومرن على الصلاة ، وحب طاعة الله ، وحسن الاستماع لأوامره ، وقبول أحكامه والتأثر الكامل والانتفاع العظيم بآيات الذكر الحكيم ...

وهذا هو أحكم الطرق فى التشريع ، واحسن مثل يحتذى فى النصح والهدى والارشاد ، أن يؤخذ الناس بالتدرج فى الموعظة، يبدأ معهم بما يخف على نفوسهم ، وما يكونون أحسن قبولا له وطاعة فيه ، ثم يستعان بذلك على الانتقال بهم الى غيره ، مما يكون فيه نوع مجاهدة ومشقة . وهكذا تربى فيهم الفضائل والملكات الطيبة . وبهذا تتكون الأمة الصالحة ، وبه وحده يمكن أن يجتمع الناس على الخير، وعلى التعاون فى البر والعمل النافع .

ولقد كان من التدرج فى الصيام الذى أتى به الاسلام أنه فرض على الناس — قبل أن يفرض صوم رمضان — أن يصوموا يوم

عاشوراء ، وهو يوم معظم له فضله وشرفه ، ثبت تعظيمه وصومه فى الديانات السابقة على الاسلام ، وحفظت آثار هذا التعظيم ومظاهره ، عند قريش فى الجاهلية ، فقد كانوا يحتفلون بهذا اليوم ، ويكسون فيه الكعبة . وقد وجد الرسول صلى الله عليه وسلم مظاهر هذا التعظيم باقية فى يهود المدينة بعد الهجرة .

ففى الصحيحين من حديث عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصيامه حتى فرض رمضان ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شأن عاشوراء : « من شاء فليصمه ومن شاء أفطره » .

وفى الصحيحين أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال . ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله فيه بنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . قال : فأنا أحق بموسى منكم ، فصام وأمر بصيامه » .

فيوم عاشوراء كان يصام فى الجاهلية ، وصامه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم فرض صيامه على الناس قبل أن ينزل القرآن بفرض الصيام ، وقد انتهت فرضيته بفرض صيام رمضان ذلك الشهر العظيم ، لكن صوم عاشوراء قد استمر شيئا مندوبا اليه ، ويستحب أن يصام قبله يوم التاسع ، كما نبه الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « لئن عشت الى قابل لأصومن التاسع » .

س : هل يجب تبييت نية الصيام فى كل ليلة من ليالى رمضان أم يكفى نية صيام الشهر فى أول ليلة من لياليه ؟

ج : ذكر الشيخ سيد سابق فى رسالة الصيام : أن النية من اركان الصوم لقوله تعالى : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، وقوله صلى الله عليه

وسلم : « انما الأعمال بالنيـات ، وانما لكل امرئ ما نوى » .

ولا بد أن تكون قبل الفجر من كل ليلة من ليالى شهر رمضان . لحديث حفصة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له » رواه أحمد وأصحاب السنن . وصححه ابن خزيمة وابن حبان .. (ويجمع من الاجماع وهو احكام النية والعزيمة) وتصح فى أى جزء من أجزاء الليل ، ولا يشترط التلفظ بها ، فانها عمل قلبى لا دخل للسان فيه ، فان حقيقتها القصد الى الفعل امتثالا لأمر الله تعـالى ، وطلبـا لوجهه الكريم .

فمن تسحر بالليل قاصدا الصيام تقربا الى الله بهذا الامساك ، فهـو ناو . ومن عزم على الكف عـن المفطرات أثناء النهار مخلصا لله ، فهو ناو كذلك وان لم يتسحر .

وقال كثير من الفقهاء : ان نية صيام التطوع تجزئ من النهار ان لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : « دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : « هل عندكم شئ ؟ » قلنا : لا . قال : « فانى صائم » رواه مسلم وأبو داود .

واشترط الأحناف أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو المشهور من قول الشافعى . وظاهـر قول ابن مسعود ، وأحمد : أنها تجزئ قبل الزوال وبعده على السواء .

هذا وقد تضمن شرح « سبـل السلام » لحـديث حفصة المذكور ولفظه فيه : « من لم يبيت الصيام قبل الفجر فلا صيام له » بعد أن ذكر أنه يدل على أنه لا يصح الصيام الا بتبييت النية وهو أن ينوى الصيام فى أى جزء من الليل ، وأول وقتها الغروب ، وتشترط النية لكل يوم على انفراد ، وهـذا مشهـور من مذهب أحمد .

وله قول : أنه اذا نوى من أول الشهر تجزئه ، وقوى هذا القول ابن عقيل بأنه صلى الله عليه وسلم قال : « لكل امرئ مـا نوى » وهذا قد نوى جميع الشهر ، ولأن

رمضان بمنزلة العبادة الواحدة ، لأن الفطر فى لياليه عبادة أيضا يستعان بها على صوم نهاره .

س : يحرص كثير من المسلمين على صوم رمضان ، وان كانوا يتركون الصلاة ، فما حكم الصوم مع ترك الصلاة ؟

ج ــ أجاب عن هذا السؤال . فضيلة الشيخ الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت فقال :

الصوم فريضة مستقلة :

صلاة الخمس فى اليوم والليلة ، وصوم رمضان ، كلاهما فريضة من فرائض الاسلام الأولى ، وكلاهما ركن من أركانه الخمس التى بنى عليها ، وجعلت فى حكم الله عمده التى يقوم عليها ، وهما ركنان بدنيان : فالصلاة يستحضر بها المسلم عظمة مولاه ، عن طريق الوقوف بين يديه ، ومناجاته ربه ، وتعظم مراقبته اياه ، وبالصوم تطهر نفسه من بواعث الشهوة ، وتخلص من مكدرات الروح شهرا كاملا فى السنة كلها ، ويتكرر درس التصفية والرياضة كلما حل رمضان كل عام ، وهما وان اشتركا فى الغاية والهدف ، وكونا غذاء قويا للايمان ، الا أن كلا منهما فريضة مستقلة ــ فى الطلب والتكليف والجزاء ــ عن الأخرى ، ولا يكمل الايمان الا بهما مضموما اليهما الزكاة والحج ، فمن صام وصلى وزكى وحج فقد كمل ايمانه ومن تركها فقد فقد جميع الشعائر الدالة على صدق الايمان ، وكان ايمانه مجرد دعوى لا يقام لها عند الله ولا عند الناس وزن ، ومن أتى بواحدة منها ، أو ترك واحدة منها ، كان منقوصا من عقد الاسلام بقدر ما ترك ، وسقط عنه التكليف الدنيوى بما أتى به .

مكانة الصلاة بين الفرائض :

وللصلاة بين أركان الاسلام خصائص : فهى أول ركن فرض بعد الايمان ، وهى الدرس المتكرر فى كل يوم ، وهى الشعار الخاص الفارق بين الايمان والكفر ، وهى لا تسقط عن المسلم الا اذا خرج عن أهلية التكليف .

فهى تؤدى من قيام للقادر ، ومن قعود أو ايماء للعاجز ، وفى السفر وفى الحضر ، وفى الأمن وفى الخوف ، وفى الصحة وفى المرض !!! ولا كذلك الصوم الذى يسقط ببذل القضاء أو الفدية ، وقد تكرر طلب القرآن للصلاة مقترنة بالايمان فى معظم موارده .

أما الصوم فلم يعرض له القرآن الا فى آياته الخاصة الواردة فى سورة البقرة ، وقد ربط بالصلاة — من الثمرات الروحية وطهر الجوارح — ما لم يصرح بمثله فى الصوم .

دل كل هذا على مكانة الصلاة عند الله من بين فرائض الاسلام ، وعليه فمن صام وترك الصلاة ، فقد ترك الأهم فى تقويم الاسلام ، فاذا لم يكن مؤمنا بما ترك كان خارجا عن الاسلام ولا ينفعه صوم ولا زكاة ، وان كان مؤمنا بما ترك كان فاسقا عن أمر ربه ، وكان صومه مع ترك الصلاة قرينة واضحة على أنه لم يصم امتثالا لأمر الله ، والا لما ترك الواجب الأول ، مكتفيا بما دونه فى الفرضية والتكليف ، وكان باقتصاره على ما فعل كالمستظهر على الله فيما فرض على عباده ، واذن لا يكون صومه الا مجاراة لعادة تقلدها من بيئته ، أو ورثها عن آبائه ، أو زعما منه — كما يظن بعض الناس — أن الصوم يكفر الذنوب كلها ، وكلا الأمرين ينافى الايمان وما يقتضيه ، وكان ايمانه محل شك وتردد .

كيف وقد وردت أحاديث كثيرة تدل بظاهرها على كفر تارك الصلاة ؟ وكان فى اقتران الصلاة بالايمان — فى كثير من الآيات — مقويا لرأى الجمهور فى كفر تارك الصلاة واستحقاقه القتل ! ! ، وان كان بعضهم يرى أن القتل ليس كفرا ، وانما هو حد شأن الزانى والقاتل .

هذان رأيان فى حكم تارك الصلاة ، والرأى الثالث أنه لا يخرج عن الاسلام ما دام مؤمنا بفرضيتها ولا يحد بالقتل ، وانما يعزر بالضرب والحبس حتى يصلى ، ولا نعرف فى تارك الصوم سوى التعزير

والتشهير به فى الأسواق والمجتمعات .

وبعد : فهل لهؤلاء الذين يصومون مع تركهم الصلاة أن يفهموا وضع الصلاة فى الاسلام ، وأن الواجبات الدينيةعند اللهوحدة لا تتجزأ يشد بعضها أزر بعض ،

ولا تحوز واحدة منها درجة القبول عند الله الا مقترنة فى سجل صاحبها بسائر أخواتها ؟ هل لهمأن يفهموا أن العبادة بحكم العادة والشهوة مردودة على صاحبها ، وأن صاحبها لا يؤدى بها حق الله ، ولا يمتثل بها أمره ، وانما يؤدى بها حق بيئته أو أمر شهوته ؟

أرجو أن يفهموا ذلك ، ويثوبوا الى رشدهم ، ويجمعوا بين الصلاة والصوم ، امتثالا لأمر الله وطلبا لرضوانه ، وتحقيقا لواجب الايمان .

س : أيهما أفضل صلاة العيدين فى المسجد أم اجتماع الناس للصلاة فى الصحراء أو أحد الميادين ؟

ج : ذكر الامام الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين عند الكلام على صلاة العيدين « المستحب الخروج الىالصحراء الا بمكة وبيتالمقدس، فان كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة فى المسجد ، ويجوز فى يومالصحو أن يأمر الامام رجلا يصلىبالضعفة فى المسجد ، ويخرج بالأقوياء مكبرين » .

وقال الشيخ سيد سابق : صلاة العيد يجوز أن تؤدى فى المسجد ، ولكن أداءها فى المصلىخارج البلد أفضل — ما عدا مكة فان صلاة العيد فى المسجد الحرام أفضل — ما لم يكن هناك عذر ، كمطر ونحوه ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العيدين فى المصلى (موضع بباب المدينة الشرقى) ولم يصل العيد بمسجده الا مرة لعذر المطر .

فعن أبى هريرة : أنهم أصابهم مطر فى يوم عيد فصلى بهم النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العيد فى المسجد . رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم وفىاسناده مجهول،

قال الحافظ فى « التلخيص » : اسناده ضعيف ، وقال الذهبى : هذا حديث منكر .

ويشرع خروج الصبيان والنساء فى العيدين للمصلى ، من غير فرق بين البكر والثيب ، والشابة والعجوز والحائض .

لحديث أم عطية قالت : « أمرنا أن نخرج العواتق والحيض فى العيدين ، يشهدن الخير ودعوة المسلمين ، ويعتزل الحيض المصلى» متفق عليه ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج نساءه وبناته فى العيدين » . رواه ابن ماجة والبيهقى ، وعن ابن عباس قال : « خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم (وكان يومئذ صغيرا) يوم فطر أو أضحى ، فصلى ثم خطب ، ثم أتى النساء فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة » رواه البخارى .

والله أعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

قال عز وجل :

او لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدا الخلق ، ثم الله ينشىء النشاة الآخرة ان الله على كل شىء قدير .

« صدق الله العظيم »

الى السادة راغبى الاشتراكات فى مجلة الازهر

عليكم الاتصال باشتراكات اخبار اليوم (توزيع الاخبار)

٢ (أ) شارع الصحافة ـ القاهرة

وفيما يلى قيمة الاشتراك للمجلة لمدة ١٠ اعداد سنويا

اولا : جمهورية مصر العربية

١٫٥٠٠ (جنيه وخمسمائة مليم)

ثانيا : دول اتحاد البريد العربى ـ الافريقى

٢٫٧٠٠ (جنيهان و ٧٠٠ مليم) او اربعة دولارات

ثالثا : بقية دول العالم :

٨٫٧٠٠ (ثمانية جنيهات و ٧٠٠ مليم) أو ١٣ (ثلاثة عشر دولارا) .

تسدد قيمة الاشتراك فى مصر نقدا او بشيك لأمر اشتراكات مؤسسة أخبار اليوم .

تسدد قيمة الاشتراك للدول العربية الافريقية والدول الاجنبية بشيك مصرفى مسحوب على احد البنوك العالمية لامر اشتراكات مؤسسة اخبار اليوم

المراسلة على هذا العنوان :

توزيع الاخبار ٢ (أ) شارع الصحافة ـ القاهرة

فهـــرس العـــــدد

الموضـــــوع صفحة



مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

الأزهر
مجلة

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثامن ـ السنة الحادية والخمسون ـ شوال ١٣٩٩ هـ سبتمبر ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

عـــزة العلـمـاء

الدكتور عبد الودود شلبى

اذا صلح العالِم .. صلح العالَم .

كلمة سمعتها من رجل بسيط من أبناء هذا الشعب ، فالمسلم بفطرته يحكم بميزان هذه الفطرة فى شئون القلب ، ويقيم من نفسه حاكما على ما يقع عليه عيناه فى دنيا الخلق .

ولقد كان للأزهر الشريف فى دنيا الاسلام مقام قلما يدانيه فيه معهد من معاهد العلم ، وكان لعلمائه سلطان على القلوب والنفوس دونه سلطان الملوك ورجال الحكم .

ومن نعـم الله على مصر أن قام الأزهر الشريف فى رحابها الطاهر يوجه ويرشد ، ويقوم ويصلح ، وتصدى علماؤه العاملون لمقاومـة الطغيان والبغى ، ويقودون بتقواهم وصلاحهم قوافل الحرية والاصلاح دون رهبة أو خوف ، ويصححون مسيرة الحياة العـابثة حين تنحرف وتعوج .

كانوا أجـل من الملوك جـلالة
وأعـز سلطانا وأفخم مظهـرا
زمن المخاوف كان فيـه جنابهم
حـرم الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحـر فى الشريعة زاخـر
ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

يقول مقاتل بن سليمان :

دخلت على « حماد بن سلمة » فاذا ليس فى البيت الا حصير وهو جالس وفى يده مصحف يقـرأ فيه وجراب فيه علمه ـ أى كتبه ـ ومطهرة يتوضأ منها . فبينا أنـا جالس اذ دق الباب فقال : يا حبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ فقالت رسول محمد بن سـليمان (أى الحاكم) . فاذن له فدخل .

فقال : أما بعـد : فصبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . وقعت مسألة فأتنا نسألك عنهـا .

فقال : يا حبيبة هلم الدواة ، ثم قال لى : اقلب الكتاب واكتب : أما بعـد : فأنت صبحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعتـه ، انا أدركنـا العلمـاء وهم لا يأتون أحدا ، فان وقعت لك مسألة فاتنـا وسل ما بدالك ، وان أتيتنى فـلا تأتنى بخيلك ورجلك فلا أنصحك ولا أنصح الا نفسى والسلام .

فبينما أنا جالس اذ دق الباب . فقال : يا حبيبة اخرجى فانظرى من هذا ؟ قالت : محمد بن سليمـان (أى الحاكم) .

قال : قولى له : يدخل وحده ، فدخل وجلس بين يديه .

ثم ابتدأ فقال : مالى اذا نظرت اليك امتلأت رعبا ؟ !

قال حماد : حدثنى ثابت البنانى قال : سمعت أنسا يقول : سمعت رسول الله صـلى الله عليـه وسلم يقول : « ان العالم اذا اراد بعلمه

وجه الله هابه كل شيء ..واذا أراد أن يكنز الكنــوز هاب من كل شيء ! ! ! » . .

***

فانظر — رحمنى الله واياك — الى هذا الميـــزان الدقيق الذى أقامه المصطفى ، صلى الله عليـه وسلم ، اذا أراد العالم بعلمه وجه الله ... هابه كل شيء .. فاذا أراد به دنيا فانيــة أو عرضــا تافها من أعراضها الزائلة كان مثالا للخوف الذي ترتعـد به مفاصـله ، وكان ترجمـانا للزيف الذى ينطق به لسانه ، وكان فتنة فى الدين تنتهى بالناس الى ضلالة مضلة ، وفتنة فى الدنيـا تهوى بهم الى درك المهانة والذلة .

ورحم الله العز بن عبد السلام .

خــرج يوما الى الأزهـر فرأى موكبـا تنخلع من جـلاله القلوب وانكفأت الخلائق كلها وراء هــذا الموكب حتى وصل الأزهر ، وملأ الناس صحنه الـرحيب وساحته الفسيحة ، والطرق من حــوله ، وانكشف الغبار عن الملك الصـالح أيوب ، وقد انحنــت له الرءوس ، وخشعت له الأصــوات ، وحبست الأنفاس ، واذا بصوت جهــورى يخرج من صف المشايخ ينادى الملك باسمه ويقول :

— يا أيوب ! يا أيوب !

وتلفت الملك واذا بالمتــكلم الشيخ عز الدين بن عبد السلام .

قال يا أيوب ما حجتك عند الله ان قال لك ألم أبوىء لك مصر ثم تبيح الخمور ؟

قال : وهل جرى ذلك ؟

قال نعم : الحانة الفـلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ؟ !

قال : هذا أنا ما عملته ، هــذا من زمان أبى !

قال : أأنت ممن يقــولون : « انا وجدنا آباءنا على أمة . وانا على آثارهم مقتدون » .

فأمر الملك برفعها .

وانقضى الموكب ومــا للنــاس حديث الا حديث الشيخ . ولمــا رجع الشيخ الى بيته قال له تلميذ من تلامذته :

ــ يا سيدى ما هــذا الــذى صنعت ؟

قال : رأيت السلطــان فى تلك العظمة فخفت عليه الهـــلاك من الكبر ، فأردت أن أصغر عليــه نفسه وأعينه عليهـا ، ولا يكون العالم عالما يا ولدى الا اذا علم أنه كالطبيب فالطبيب تزداد الحـاجة اليه كلما اشتد على الناس مــرض الجسم ، والعالم يحتاج اليه كلما قوى فى الملوك مرض النفس !

قال : وما مرض النفس ؟

قال : العظمة يا ولدى .. فمن لم ينصح الملك يوم يشتد سلطانه وتقوى نفسه ، ويبين له طريق الحق لئلا يجانبه ، وسبيل الخير لئـلا يعدل عنه .لا يكون عالما . بل غاشا وخادعا .

قال تلميذه : لكن أما خفته ؟

قال الشيخ : يا بنى استحضرت هيبة الله .. فصار السلطان قدامى كالقط !!!

***

ويرى الامــام الغــزالى ــ أن التبعة الكبرى فى هــذا الفســاد الشامل ، والضعـــف فى الدين ، والانحلال فى الأخــلاق ــ تقع على العلماء ورجال الدين ، وهم السبب الأول فى فساد هذه الأوضــاع ، لأنهم ملح الأمــة ، واذا فسد الملح فما الذى يصلحه ؟

ثم يذكر الامام الغــزالى كيف مرضت القلوب ، واشتدت الغفـلة عن المعاد ويذكر من أسبــاب ذلك مــرض العلمــاء واعتــلالهم وهم الأطباء ، فان الأطباء هم العلمــاء ، وقــد استولى عليهم المــرض ، فالطبيب المــريض قلمــا يلتفت الى علاج نفسه ، فلهذا صــــار الداء عضالا ، والمرض مزمنا ، واندرس هذا العلم ، وأقبل الخلق على حب الدنيا ، وعلى أعمــال ظاهـــرها عبـــادات ، وباطنهــا عــادات ومراءات !!!

وبالجملة انمــا فسدت الرعيــة بفساد الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة الســوء ، والعلماء السوء لقل فساد الملوك !!

***

وعنــدما وقعت الحرب بين مصر والحبشة فى عهـــد الخــديوى

اسماعيل أشار عليه بعض رجـال حاشيته ، أن يجمع علماء الأزهـر على قراءة البخـارى طـوال أيام هذه الحرب ، حتى يضمن لجيشه النصر .

ــ ورصد الخديوى لهذه المهمة ألوف الجنيهات ينفق منهـا على العلماء والقراء المتفـرغين لهـذا الأمر .. وانتظر الخـديوى قدوم البشريات بالانتصار والفتح ، فجاء الامر على عكس ما كان يأمـل ويتوقع فى هذه الحرب . فجمـع العلماء ثم صاح فيهم غـاضبا : اما انكم لستم بعلماء أو أن الذى تقرءونه ليس هو « البخارى » .

فقـام من بينهم شيخ وصـاح فى وجه الخديوى قائلا :

ــ يا اسماعيل .. اننـا مهمـا دعونا وقرأنا فلن تنتصر فى هـذه الحرب !

وفوجىء الخديوى بهذا الرد . ثم وجه بعد ذلك سؤاله الى هذا الشيخ :

ــ ولم لا أنتصر فى هذه الحرب أيها الشيخ ؟

فقال الشيخ :

ــ السبب فيـك يا اسماعيل ، فقد رأيناك تظلم وتفسد فى الأرض ولم يرتفع منا صوت يقول لك : قف عند هـذا الحـد ، والرسـول صلى الله عليه وسلم يقول :

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنـكر ، أو ليسلطن الله عليـكم شراركم فيسـومونكم سوء العذاب ثم يدعو خيـاركم فـلا يستجاب لهم !!! » .

***

وأما الآن ــ كما يقول الامـام الغزالى ــ فقد قيـدت الأطماع ألسن العلماء فسكتـوا ، وان تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ، ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ،وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقـدر على محاسبة الارذال ، فكيف بمواجهة الملوك والحكام ؟!

د. عبد الودود شلبى

بشرية رسول الله هى التى جعلته أعظم العظماء وجعلت الإسلام دين الإنسانية الخالد

بقلم الأستاذ أحمد حسين

جرى البشر قديما وحديثا على تأليه الأبطال ، بمعنى جعلهم آلهة أو على أقل تقدير « أنصاف آلهة » كما كان الشأن عند الاغريق .

وقد بدأ البشر بعبادة الآباء والأجداد ، وعبادة الملوك والقياصرة .

ثم تركز الأمر فى عبادة الأبطال وعلى الجملة ، فان عبادة البشر لأنماط من بنى الانسان ، كان وسوف يظل أحد مظاهر الحياة الانسانية قديما وحديثا .

وعلى سبيل المثال فثالوث مصر القديمة « اوزوريس وايزيس وحورس » ليسوا الا ملوك مصر القديمة جدا ، وقد تحولوا الى آلهة ، وكل فراعنة مصر كانوا أبناء حوريس فهم سلالة الآلهة ، أى آلهة بذواتهم .

وقد يتصور البعض ، ان اليهود قد انفردوا من بين قدامى البشر فى عدم تأليههم لموسى ، وحقا هم فعلوا ذلك اكتفاء منهم باعتبار أنفسهم أبناء الله ، وجعلوا أنفسهم شعب الله ، وأنهم فوق العالمين ، فهم أبناء الله ، ولا تزال هذه عقيدة الصهيونية ، ودين اسرائيل الرسمى عليه يحيون ويموتون وقصة المسيحية معروفة ومشهورة ، فقد أصبح سيدنا عيسى الها يعبد باعتباره ابن الله « مولود غير مخلوق » .

وبوذا وكونفشيوس ..

ومن كلمات بوذا الذائعة والتى يحفظها كل بوذى « لست أعرف

شيئا عن الله ولكنى أعرف الكثير عن بؤس الانسان » ومع ذلك فقد اعتبر بوذا بعد موته الها ، والمعابد البوذية تقوم على تمثال بوذا حيث تقدم الضحايا والقرابين ، وتقام باسمه الصلوات .

ومرة أخرى لا يتصورن متصور أن ذلك الانحراف والضلال وقف على القدامى ، ففى مجتمع عصرى ، عصرى جدا ، قامت عصريته على انكار الألوهية والتدين من أساسه ، فقد جعل هذا المجتمع من مؤسسه القريب الها معبودا يحج اليه ، ويقف المؤمنون به الساعات الطوال تحت وابل المطر والثلج لينعموا بالقاء نظرة على جسد الرجل الذى مات منذ عشرات السنين ، ويعالجونه بمختلف وسائل العلم ، ليمكنوا المؤمنين به من القاء نظرة عليه .

فالأبطال قد تحولوا ، وبدون استثناء الى آلهة أو شبه آلهة ، أو يعاملون معاملة الآلهة .

وانفرد سيدنا محمد وانفرد الاسلام .

عن هذه القاعدة الانسانية . من تحويل الأبطال الى آلهة ، تجد استثناءها الوحيد ، وأكرر (الوحيد) بالنسبة لشخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ظل أتباعه المسلمون يعتبرونه انسانا ، حتى لتسمع عن قيام فرق اسلامية ، ألهت هذا الشخص أو ذاك ، ولكنك لن تجد فى كل تاريخ الاسلام من عبد سيدنا محمدا باعتباره الها ، لأنه لو فعل ذلك ، لسقطت عنه صفة الاسلام على الفور ، وهنا تكمن عظمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التى تجعله عظيما ، فوق من عرفت البشرية من عظماء بما فيهم رسل الله وأنبياؤه ، فكلهم ألهوا بعد موتهم ، ووصل الأمر بتأليه بعض أتباعهم ابان حياتهم ، كما هو الشأن بالنسبة ، لأحبار اليهود وباباوات كنيسة روما .

نجاح الاسلام حيث فشل الآخرون :

ذلك أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، جعل محور العقيدة

الاسلامية تقوم على التوحيد المطلق ، فليس ثمة الا اله واحد ، وكل ما فى الكون بعد ذلك ، مخلوق له ، وكل البشر وبدون استثناء ، عبيد له ، باعتبارهم بعض مخلوقاته ، والاسلام هنا ، يختلف عما قالت به بعض الاديان كالهندوكية ، وسرى منهم الى بعض المسيحيين وبعض من نسبوا أنفسهم للاسلام ، وهو القول بوحدة الوجود ، فليس هناك خالق ومخلوق ، وانما هو اله واحد فاض منه هذا الوجود ، فأنت ومن حولك ، وهذا الكون بكل موجوداته ، هو الله فى مجموعه . لا ، ليس هذا هو التوحيد الاسلامى فالخالق غير مخلوقاته ، أجل هو فى كل مكان ، بقدرته وعلمه .

ويبقى الانسان هو الانسان ، الانسان المخلوق ، فيه كأى شيء آخر سر من اسرار الله ، ولكنه لا يمكن بل يستحيل ، ان يكون هو الله الخالق ، أو بعض هذا الله ، فالانسان من ماء وطين ، حتى لقد كفر الشيطان ، عندما أمره الله أن يسجد لهذا الانسان الذى شاءت ارادته ان يخلقه على الأرض ، وكانت حجة الشيطان ، كيف يسجد الشيطان المخلوق من النار للانسان المخلوق من الطين .

وهكذا غرس القرآن الكريم فى نفس الانسان المسلم المؤمن ، انه عظيم ما عظم الانسان فهو من التراب والى التراب يعود ، وان ليس ثمة الا اله واحد ليس كمثله شيء ، ويبدأ الاسلام بالنطق بالشهادتين ، الأولى بتوحيد الألوهية ، والثانية بأن سيدنا محمدا « عبده » ورسوله ، ونعى القرآن على كل من أله الرسل ، وركز على المسيحية بالذات ، وادعاء المسيحيين بألوهية المسيح ، واعتبار ذلك كفرا صراحا ، وقال على لسان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى » فلم يكتف بقوله انه بشر ، بل واضاف « مثلكم » وأصبح للفارق بينه

وبين أى انسان آخر انه يوحى اليه فدل ذلك على أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ، قد انفرد عن البشر بالوحى فلم يعد لانسان كائن من أن يزعم لنفسه انه لا يخطىء ، أو انه لا ينسى ، أو يضعف ، فضلا عن أن يمرض ، ثم يموت فى خاتمة المطاف ذلك أن الانسان خلق « بنص القرآن » ضعيفا ، وهلوعا والموت نهايته فى خاتمة المطاف .

حياة سيدنا محمد :

وقد حرص القرآن الكريم ، ان يعمق هذه الحقيقة فى نفوس المسلمين ، فجعل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام ينسى (يسهو فى الصلاة) لكى يعلم البشر (وكلهم يسهون) كيف يتصرفون عند السهو ، وجعل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام يجتهد فى بعض التصرفات (خارج دائرة الوحى) فينزل القرآن منددا ، أو مصححا ، أو معاتبا للرسول على فعل ما فعل ، من مثل قوله تعالى :

— « عبس وتولى • أن جاءه الأعمى • وما يدريك لعله يزكى » .

— « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

— « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » .

الى غير ذلك من الآيات التى أراد الله بها سبحانه وتعالى ، ان يثبت للمسلمين ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام خارج دائرة الوحى ، فهو بشر كبقية البشر . ولم يحاول سيدنا محمد أن يشعر من حوله بأنه غير ذلك فكان يستشير صحابته ، ويعدل عن رأيه الى آرائهم ، وكان القرآن الكريم ينزل أحيانا مؤيدا للرأى الآخر الذى عمل الرسول على خلافه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب فى أمور ، فلا يقدم عليها الا أن ينزل عليه وحى السماء .

وعندما دنت نهاية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كان شديد الرغبة فى أن يكون سيدنا أبو بكر

الصديق ، خليفة له ، فكان يومىء ويلمح حتى وصل الأمر به الى حد أن صلى وراءه « مأموما » ولكنه لما كان وهو الصادق الأمين : لم يؤذن له من السماء فلم يصرح أبدا ، وكان من آخر ما قال :

« مروا أبا بكر فليصل بالناس » والخلاصة انه لا القرآن الكريم ، فضلا عن تصرفات رسول الله الشخصية حاولا أن ينزعا عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام صفته كانسان .

عظمة سيدنا محمد
فى صعود الى ابد الابدين ..

وعندنا ، أن هذه الصفة ونعنى بها « بشريته » هى السر فى جعله أعظم عظماء بنى البشر ، وجعلت عظمته فى صعود وعلو الى أبد الآبدين ، حقا قد تتوقف ، كما حدث فى القرن الماضى ومستهل هذا القرن ، ولكنها لا تتراجع بمعنى أن تهبط أو تنقص أبدا ؛ فالذين يؤلهون ، يوجد دائما من ينكر عليهم ذلك ؛ وجحدت تعاليمهم عشرات الملايين ، وفترت حماسة مئات الملايين ، وذلك كله بعكس من اهتدوا بنور سيدنا محمد حيث يزدادون دائما أبدا ، ويقر بعظمته من كان منكرا لها من قبل ، فكل من يطالع سيرته ، يبهره اتضاع سيدنا محمد كلما زاده الله رفعة ، حتى وصل الأمر به الى انه وهو يستعرض جيش المسلمين قبيل غزوة بدر ، وبعد الجيش للقتال ، حدث أن شكا أحد الصحابة أن رسول الله أوجعه فى بطنه (بدون وجه حق طبعا) وطلب من رسول الله ، ان يمكنه من نفسه ، ليوجعه فى بطنه كما أوجعه الرسول ، فلم يتردد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أن يكشف عن بطنه ليمكن الصحابى من أن يوجعه كما أوجعه ، فما كان من الصحابى الا أن يعانق بطن رسول الله ، وان يقول : انما أردت أن يلامس جلدى جلدك بأبى وأمى أنت يا رسول الله .

وما يهمنا من القصة ، وهى ليست الوحيدة أو الفريدة فى سيرة الرسول ، انه عليه الصلاة

والسلام قد أصبح فى المدينة شبه حاكم ، وهو هنا فى هذا الموقف فى ميدان القتال فله ألف شاغل وشاغل ، ولكنه لم يتردد لحظة ، فى أن يسكن انسانا ، من أن يقتص منه غير متعلل بخطورة الموقف فضلا عن مكانته .

سيظل نجم الاسلام فى علو بهذه التعاليم :

وهذا هو سر عظمة الاسلام وتمكنه فى النفوس فلا يكاد يستقر فيها حتى لا يمكن نزعه أبدا ، ومن هنا ينتشر الاسلام ، قد يتوقف ولكنه لا يتراجع أبدا ، وهو دين المستقبل بلا مراء فالله واحد أحد وهو متميز عن خلقه تحل قدرته فى كل شيء ، دون أن يكون هو هذا الشيء ، وقد أوجز القرآن ذلك كله بقوله : « ليس كمثله شيء » وقرر الأصوليون قوله حق بقولهم : « كل ما دار فى ذهنك على انه الله ، فالله بخلاف ذلك » « كما قال الأصوليون » .

« ان الله قد احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار » ولما كان الانسان من لحم ودم وله كيان يحس ويلمس ويدرك ، فمن المستحيل أن يكون هو الله أو شبيها من الله وما جاء فى كتاب اليهود « من ان الله خلق الانسان على صورته » فهو من تخرصات الوثنية ، والتى جعلت البعض يؤلهون أفرادا من البشر ، أنبياء ورسلا حينا ، وملوكا حينا آخر وبرىء الاسلام من هذه الضلالة .
ونحن الذين امتد بنا العمر فقد رأينا مصداق ذلك ، حيث يكبر أشخاص ويعظمون ، حتى ليتصوروا ان قوة الله قد حلت فيهم ، ان لم يكونوا هم الله بذاته وقد تجسد على الأرض وقد رأينا من هذا النموذج أفرادا فى العالم سواء فى خارج مصر أو فى داخلها ، وكلهم وبدون استثناء انتهوا الى نهاية سيئة أسوأ من السوء نفسه ، ليثبت الله للبشر ، ان الانسان هو الانسان ، والله هو الله ، فرأينا هتلر يمتلك أوروبا وتصبح اشارته فضلا عن كلمته كما لو كانت قدرا ، ثم لا يبقى له من هذا الكون ،

الا الوقت الكافى كى ينتحر وتحرق جثته ، ولم يصل الى هــذا المصير الا بعد أن رأى جثة استاذه الذى حلم بدوره بسيادة الدنيا ونعتى به موسولينى سيد ايطاليا ، وهو يذبح ويعلق من قدميه كما لو كان شاة فى حانوت جزار ، وفى مصر رأينــا مثــل ذلك من حيث سوء النتيجة وبشاعتها لكل من تصور أن لم يعد فى الــكون ســواه ، وان الكلمة هى كلمته ولا معقب عليها ، وأن سائر البشر مسئولون أمامه ، حيث لا يسأل هو عن شىء ، وهى صفة الألوهية ادعاها لنفسه فريق من البشر على مر العصور ،ابتداء من فراعنة مصر ومرورا بالأكاسرة والقيــاصرة ، وملوك أوروبا فى العصــور الوســطى ،وانتهــاء بالديكتاتوريين ، مهمــا تواضعوا وادعوا من صفات .

وهذه هى عظمة الاسلام ..

ومن هنــا كان نجــاح الاسلام وتفوقه وما يجعله دين المستقبل ، فقد برىء من تقديس الانسان ، أى انسان وضرب القرآن للناس مثل ســيدنا محمــد صــلى الله عليــه وسلم وهو أكرم خلق الله ، ومــع ذلك فقد جعل الله منه نــموذجا للبشر ، يأكل ويلبس ويــسير فى الأسواق ويتزوج ويرزق البنــين والبنات ، يموت منهم من يموت ويعيش من يعيش ، وأذاقــه طعم النصر والهزيمة .... الى آخــر ما اشتملت عليه السيرة .

فالاسلام لا يعرف انسانا كائنــا ما كان يفترق عن بقية الناس حتى ولو كان الحاكم نفسه ، وجعل الله سبحانه وتعــالى ينفــرد بكونه « لا يسأل عن شىء وهم يسألون »

أحمد حسين

الغـرانيق والمستشـرقـون

دكتور رءوف شـلبى

الغرنيق هو الشـاب الأبيض الجميل الذى يدل بعوده الفارع وبدنه القوى وتقاسيمه الوسيمة .

وصاحبنا السير وليم موير أحد رجال الفكر الاستشراقى الـذين يتصدون للدراسات العليا وهـو أحد رجال الغرانيق فيما مضى أيام شبابه ، وهو من ذوى القد والقدر فى الجمـال والافهـام . وهـذا الغرنيق وليم مـوير . واحـد من المفكرين الغـربيين الذين يتلمسون الهنات للطعن فى الاسلام مستخدما ادعاء البحث العلمى .

ان غاية البحث العلمى فى أصل ذاته وأسس منهجه هى الوصـول الى الحـق .. مقـدمات تبحث وتناقش وتجرب وتعاد تجاربهـا وتختبر من أجل أن تسلم عنـد الاستنباط منها نتيجة مسلمة عند الحق فى ذاته ، وعند النـاس .. وعند الفكر .

وقد ادعـوا أنهم لهذه الغايـة السامية فى البحث العلمى يشترطون الحيدة عند البحث : يتجرد الباحث من كل عاطفـة خاصـة ، من كل مؤثر على الفكر نفسى أو اجتماعى أو ثقافى ليبحث حرا فى جو متعادل الزوايا والاتجاهات لتسلم المقدمات وتصح النتائج .

ادعوا هذا وخالفوه عندما بحثوا بعضا من مسائل الحياة الاسلامية ومن ذلك مثلا :

قصة الغرانيق ..

نعم : أورد ابن سعد فى طبقاته الكبرى ، والطبـرى فى تـاريخ الرسل والملوك وكـذلك المفسرون حديث الغرانيق .

وأوردوه ومحصوه من نواح :

١ ــ مستوى الرواة .

٢ ــ المفهــوم اللغــوى لمعنى (تمنى)

٣ ــ المعنى فى السياق العام .

٤ ــ تكامل النصوص وتضافرها فى حلقــة البحث الاســلامى عن وجوب العصمة للأنبياء جميعا .

وانتهوا الى أن الرواية ضعيفة وأن الحادثة منكرة وأن الآيــات لها جو دينى عام بعيد عن هــذه الفرضية المدعاة ..

يقول القرطبى فى افتتاحية هذه المسألة :

الأحاديث المروية فى نزول هذه الآية .. ليس منها شىء يصح (١)

ثم ينقل بعد ذلك أقوال العلماء:

١ ــ قال النحاس ، وهذا حديث منقطع وفيه هــذا الأمــر العظيم فيصف الحديث بأنه منقطع وأنــه يحمل بهتانا عظيما ..

٢ ــ ويروى عنه كذلك :

قال النحاس ، وهذا حديث منكر منقطع (٢) .

٣ ــ قال ابن عطية :

وهذا الحديث الذى فيه : هى الغرانيق العلا وقع فى كتب التفسير ولم يخرج البخارى ولا مسلم ولا ذكره عالم مصنف مشهور (٣) .

٤ ــ قال القاضى عياض :

أما المأخــذ الأول : فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحــــد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة وانما أولع به وبمثلــه المفسرون والمؤرخون الولعون بكل غريب المتلقفون من الصــحف كل صحيح وسقيم .

قال أبو بكر البــزاز : وهــذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم باسناد متصل يجوز ذكره (٤) .

٥ ــ وكذلك فعل ابن كثير لقد أنكر كل رواية وردت فى مستهل

---

(١) ص ٤٤٧٢ جـ ١ الشعب

(٢) ص ٤٤٧٣ جـ ١ الشعب القرطبى

(٣) المرجع نفســه .

(٤) ص ٤٤٧٤ المرجــع نفســه .

حديثه عن هذا الأمر العظيم الذى اقتراه السوقه فقال :

ولكنها من طرق كلها مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم (١) .

ومع هذا فإن السير وليم موير يحاول أن يضيف الى الروايات الضعيفة الواهية السند ، حجة يراها فى نظره مقوية لشبهته .

تلك الحجه هى ، أن عودة المهاجرين من الحبشة بعد ثلاثة اشهر كانت نتيجة لما سمعوه من خبر الصلح بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش عندما تلا سورة النجم وقرأ الآيات أفرايتم اللات والعزى .. ثم ألقى الشيطان عبارته : تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترجى ثم سجدوا جميعا ومعهم المشركون لانهم سمعوا ثناء على آلهتهم بعد أن كانوا يساءون بسبها وتسفيهها ، فحدث اللقاء بين الاسلام والمسلمين من جانب وبين الشرك والمشركين من جانب آخر .

هكذا شفى سير وليم موير غيظه بهذه الطعنة الخيالية للاسلام .

وسؤالان يوجهان اليه :

الأول : ما هو رأيكم يا جماعة الغرانيق من المستشرقين فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هل تقبلونها بالاطلاق ؟ هل ترونها مرفوعة الى النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ؟ أو أنها من عمل المسلمين بعد نضوجهم الفكرى ؟

لقد ادعى المستشرقون أن السنة وضعت فى عصر النضوج الاسلامى ويريدون بذلك أن يقطعوا سند السنة المتصل ويوهوا عروتها الوثيقة المرتبطة بنبيها عليه أفضل الصلاة والسلام تلك السنة المطهرة التى ورثها الى الأمة بالفاظها وأحاديثها ورجالها .

وحملها من بعده العدول الثقات المخلصون

فلم يا مستر وليم موير قبلت حديثا لم يرتضه علماء الاسلام بل انكروه وضعفوه وردوه .. ؟ ألا يجوز فى احتمالات العقل أن مثل

---

(١) ابن كثير مجلد ٣ ص ٣٢٨ .

هذا الحديث المكذوب المردود وضع فى عصر النضوج على حد ادعاءاتكم؟

ولم يكن احتمـــال عـــودة المهاجرين هو هذا السبب فقط ؟

ألم يكن فى عالم الدعوة حـدث أكبر خطرا من هذا .

حادث اسلام عمر بن الخطـاب الذى حول الحياة الاسلامية فى مكة من الاستخفاء الى التظاهر بموكب يقوده النبى صلى الله عليه وسـلم الى ظلال الكعبة المشرفة .. وعلى طرفيه يمينا وشمالا عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ..

الا يكون هذا الحادث كافيا فى شعور المهاجرين بالعودة ليكثـروا سواد المسلمين فى مكة ؟.

السؤال الثانى : نسلم لك جدلا بصحة الحادثة ؟

فلم لم ينته الخلاف بين الاسلام والشرك فى مكة ؟

لم كانت قطيعة قريش لبنى هاشم فى شعبهم ثلاث سنوات ؟

ثم لم كانت الهجرة من مكة الى المدينة ؟

ثم لم كانت بدر وأحد والخندق .. الخ .. ؟

أنى سأعلمك يا مستر وليم موير كيف تفهم البحث فى قضايا الحياة الاسلامية ..

أولا : ترتكز قصة الغرانيق هذه على تفسير كلمة (تمنى)

وعلى صحة سند الرواية لهـذا التفسير .

وعلى تعدد الروايات الواردة فى تصوير القصة .

ثانيـا : ارتبـــاط الروايـات بالنصـــوص الاســلامية الأخـرى المتعلقة بهذا الجزء .

ثالثا : المستوى الذى يرضى به الطرفان معا فيما يستقبل من العلاقات الدينية بينهما .

اولا : أما فيما يتعلق بتفسـير كلمـة تمنى فان اشكال الغـرانيق يتأتى لو كان معناها قرأ فقط .

وقد قال صــاحب الابريز : ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والأحقيـة بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس فى نسخة عن على بن أبى طلحة عن

ابن عباس ورواها على بن صالح ، وقد علم ما للناس فى ابن أبى صالح وأن المحققين على تضعيفه واذن فتفسير التمنى بالقراءة فاسد الرواية لضعف الراوى .

ثم هناك معنى اخر لكلمة تمنى وهو حدث نفسه

قال القرطبى :

وقد قيل : أن معنى تمنى حدث لا تلا ، وروى عن على بن ابى طلحه عن ابن عباس فى قوله عز وجل « الا اذا تمنى » قال : الا اذا حدث .. وهذا التفسير سليم السند والرجال فهو أولى بالقبول ويكون المعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم يتمنى لقومه أن يشرح الله لهم صدورهم ويود أن يجرهم سريعا الى رحاب الايمان ويريد الشيطان أن يوئسه فيبطل الله هذا الوسواس .

واذن فاختيار تفسير تمنى بقرأ أو تلا تمحك يخالف منهج البحث المحايد ويفسده ضعف الطريق والسند ورد العلماء له .

واما عن الروايات المصورة للحادثة فقد تعددت تعددا يردها لقد قالوا فيها :

تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن لترجى

الغرانيق العلا أن شفاعتهم ترتجى

أن شفاعتهن ترتجى ــ دون ذكر الغرانقة أو الغرانيق .

وانها لهى الغرانيق العلا

وانهن لهن الغرانيق العلا وان شفاعتهن لهى التى ترتجى (١)

وأما الذى سجد على التراب : فرواية تقول هو :

الوليد بن المغيرة .

واخرى تقول هو :

امية بن خلف (٢)

وعدم الاتفاق فى الرواية يردها ذلك منهج عندنا يا مستر وليم

(١) ص ١٦٥ حياة محمد هيكل باشا .
(٢) ٤٤٧٣ جـ ١ الشعب القرطبى .

موير وعليك أن تقبلـــه .. فرب الدار ادرى بما فيها ..

ثانيا : أما فيما يتعلق بالنصوص الاخرى

فان الموقف فيما يتصل بالمساومة من أجل الحل النصفى قد رفض منذ اللحظة الاولى .

لقد جاء القوم الى النبى صلى الله عليه وسلم وعرضـــوا عليه المال والجاه والرياسة والعلاج فرفضـــها جميعا وقال :

والله لو وضعوا الشــــمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الامر ما تركته حتى يظهره الله أو اهلك دونه .

والقرآن الكريم نفسه يســجل هــذا العرض فى سورة أطلق عليها اسم « الكافرون » .

قل يا أيهــا الكافرون لا أعبــد ما تعبدون .... الآيات

فما قيمة حادث الغرانيق لو صح بالنسبة لهــذه النصوص المتعلقــة بأسس الدعوة (توحيد الله) .

وهــل بالمرسلات يا وليم موير نقبل عندنا فى الاحكام والقوانين حتى نسلم بها فى العقــائد ....؟

ان الباحث فى نظــر الشريعــة الاسلامية لاعليه أن يرفض الأحاديث المرسلة فى الأحكام فكيف تقبل فى مسألة العقيدة التى تحددت ببنات من الآيات الواضحة الصريحة .

أبعــــد .

« قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » تكون هناك مساومة ؟

ابعد : « فاعلم أنه لا اله الا الله تكون هناك مصالحة ....؟؟

ثالثا : أما فيما يتعلق بالمستوى الذى يرضى به الطرفان فقد صورته آية سورة الأنعام

قل أى شىء أكبر شهادة ؟

قل : الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى الى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، ائنكم لتشهدون أن مع الله الهة أخرى ؟

قل : لا أشهد .

قل : انما هو اله واحد .

واننى برىء مما تشركون .

وبعــــد :

فان العربية لم تعرف اطلاق هذا الاسم الغرانيق على الأصنام لا من

قبيل الاسم ولم يتداوله العرب فى شعرهم ولا فى نثرهم،وكل مايحمله القاموس لهذه الكلمة « الغرنيق » انه اسم طائر الماء الطويل العنق وقد يطلق على الشاب الأبيض الجميل ولذلك دعوتك به يا سير وليم موير لأنك أبيض وجميل فهل بقى لديك شىء عن الغرانيق ؟

أ ــ بقى أن تقول : لهذا يرى ابن اسحق وقد سئل عنها يقول : هى من وضع الزنادقة ويقول الامام أبو بكر بن العربى : أن جميع ما ورد فى هذه القصة لا أصل له على أن آية الحج التى تعتمد عليها فى الاستدلال على قصة الغرانيق لم تسعف الباحثين لمتلفقى الهنات المتربصين بالطعنات للحياة الاسلامية .

ان هذه الآية نزلت أيام الهجرة بين مكة والمدينة ، وسورة النجم من أوائل السور التى نزلت قبل الهجرة فهى فى الترتيب للسور المكية مكانها الثالث والعشرون من ست وثمانين سورة مكية هى مجموع ما نزل بمكة وسورة الحج مدنية ومكانها السابع عشر من السور المدنية التى نزلت بالمدينة وعددها ثمانية وعشرون .

فأى علاقة بين ما يدعيه الغرانيق المستشرقون فى سورة النجم وحقيقة عامة فى كل الرسالات فى سورة الحج وبين نزولها سنوات طويلة؟؟؟

ب ــ على أنك يا غرنيق سير وليم موير وأصحابك تستعملون دائما مع المسلمين منهج المباغتة تهاجمون أحداث الحياة الاسلامية بتضليل مفضوح فليس فى النص ذاته ما يشير الى وجود حادثة فردية حتى يتمحل لها كل هذا الافك .

فالنص يقرر أن هذه قاعدة عامة فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم:

«وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » فلابد أن يكون المقصود أمرا عاما يستند الى صفة الفطرة مشتركة بين الرسل جميعا بوصفهم من البشر مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

ان الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة الى الناس يكون أحب شيء الى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة ، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به عند الله فتبعوه .. ولكن العقبات في طريق الدعوات كثير ، والرسل بشر محدودو الأجل وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو ..

يجذبون الناس الى دعوتهم بأسرع طريق ..

يودون مثلا لو هاودوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا الى الهدى ، فاذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة، ويودون مثلا لو جاروهم في شيء يسير من الرغبات وجاء استدراجهم الى العقيدة على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة ..

يودون .. يودون .. على حين يريد الله جل شأنه أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة التي قدرها وحدد موازينها الدقيقة ، ثم بعد ذلك فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

فالكسب الحقيقي للدعوة في تقديرها الباقي الكامل هو أن تمضي الدعوة على اصولها وفق الموازين الالهية التي قدرت لها ولو خسرت اشخاصا في أول الطريق ففي نهاية المطاف اذا استقامت الدعوة على أصولها فسوف ينثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم الى أصول الدعوة .

وتبقى الدعوة سليمة لا تخدش من عوج أو انحناء .

ولكن الشيطان يريد أن يكيد للدعوة بما يجد من تلك الرغبات البشرية ومن تصرفات يترجم عنها لتحويلها عن قواعدها والقاء الشبهات حولها ولكن الله يحول دون كيد الشيطان وكيد أعوانه .

وكفى بربك هاديا ونصيرا .

فأين غرانيقك يا مستر موير من هذه القاعدة العامة ، ولو صحت

عندك فقد طعنت بها دينك وكل دين قبل ومن بعد ..

وصدق الله العلى العظيم ..

« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا » انها ليست غرانيق الشيطان فحسب تلك التى تشوش على دعوة الله .

ولكنها مع ذلك غرانيق المفترين والمستشرقين جميعا ..

ثم يحكم الله آياتـه والله عليم حكيم .

وملخص الموضوع :

أن المستشرقين اعتمدوا على حديث مردود عند علماء الاسلام ، وهو مغالطة علميـة يرفضها البحث الاسلامى وأنهم تصوروا خيالا واسعا فجعلوها فى مشهد عام فتكون لها صفة التواتر عند الراوية مع أن الأحاديث المروية ليست كذلك .

ان معنى « تمنى » ليس قرأ ولا تلا على القطع بأحد المعنيين فهناك احتمال لغوى رابع بمعنى حدث نفسه ، وهذا المعنى الأخير يتفق مع السنة العاملة لحالة الأنبياء وهم يدعون أقوامهم : انهم يحاولون هداية أقوامهم ويحاول الشيطان أن يصدهم عن تلك الهداية والله يصور ذلك فى حياة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام « لعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

على أن آية الحج ليست مكية وهى الآية التى يعتمد على تأويلها الفكر الاستشراقى بل هى مدنية نزلت يوم الهجرة بين مكة والمدينة والحادثة المدعاة وقعت ادعاء فى مكة فكيف يستدل بآية نزلت بعد الهجرة على واقعة يدعى أنها وقعت أمام جمهرة بمكة المكرمة ؟

لعل الفكر الاسلامى المعاصر يستيقظ ويعى ويلتزم ويستمسك بالذى أوحى اليه من عند ربه ، فالعاقبة للمتقين .

هذا .. وبالله التوفيق .

د. رءوف شلبى

موقف الفلسفة الإلحادية المعاصرة من غيبيات المــادة

بقلم الدكتور يحيى هاشم

بين المادة والعقل

أخذ العلم التجريبي أخيرا يدفع المفكرين الى تخوم العقل والروح .. يقول الأستاذ ارثر كومستلر :

(ان افتقار النيوترون الى الخصائص الفزيائية العيانية فضلا عن طبيعتها شبه الأثيرية كل هذا شجع التفكير النظرى بشأن امكان وجود جزيئات أخرى تكشف لنا عن الحلقة المفقودة بين المادة والعقل)

وهكذا نجد عالم الفلك المرموق ف . أ فيرسوف يفترض أن العقل كان كيانا شاملا كليا أو تفاعلا من نفس المرتبة مثل الكهرباء أو الجاذبية وأنه لابد من وجود معامل للتحول يماثل معادلة اينشتين الشهيرة ط = (ك س ٢) . ومن ثم فان « مادة العقل » قد تعادل كيانات أخرى فى العالم الفيزيائى .

وذهب الى أكثر من ذلك حين افترض امكان وجود جزيئات أولية من « مادة العقل » اقترح تسميتها ذرات عقلية ذات خصائص تشبه الى حد ما خصائص النيوترون . (١)

(ويقول الدكتور جون كيمنى :

(يمكن لنا أن نقسم الأجوبة الفلسفية المعتادة عن العلاقة بين المادة والعقل الى :

زمرتين رئيسيتين (١) الأجوبة التى لا تقول بوجود اختلاف

---

(١) العلم والظواهر الخارقة ص ١٠

أساسى بين العقل والمادة اى الأجوبة الوحدانية (٢) الأجوبة التى تؤكد وجود تمييز أساسى بينهما أى الأجوبة الازدواجية .

ولننظر بادىء الأمر فى الحلول الوحدانية ، فاذا كان العقل والمادة لا يختلفان بالفعل فان العقل عندئذ يكون أحد الأشكال الخاصة للمادة « كمادة دقيقة التنظيم مثلا تتصرف بشكل معين » .

أو تكون المادة نتاجا ثانويا للعقل .

أو يكون ثمة مادة أساسية يشكل العقل والمادة مظهرين مختلفين من مظاهرها ويرى برتراندراسل هذا الرأى الأخير مؤكدا أن الحوادث تبدو مادية اذا نظرنا اليها من زاوية معينة وعقلية اذا نظرنا اليها من زاوية أخرى .

أما اذا كان المرء من دعاة الفلسفة الازدواجية فانه يقول بأن العقل والمادة شيئان مختلفان تماما .

مع العلم بأنه قد تكون ثمة علاقة بين الاثنين عن طريق روابط سببية، أو قد يكون الاثنان منفصلين بشكل واضح ، الا أنهما متوافقان كتوافق ساعتين مختلفتين .

ويؤدى بنا كل هذا الى وجهات نظر خمس — اثنتان منهما ثنائيتان وثلاث وحدانية هى المادية والمثالية والوحدانية المحايدة .

وغنى عن القول أن كلاً من هذه المواقف الخمسة قد وجد من يدافع عنه فى حين أو فى آخر . وظنى أنه بالامكان مع شىء من العناية أن يصار الى تصنيف جميع الفلاسفة فى احدى هذه المدارس الخمس — وان كان أكثرهم يعترض على ذلك نظراً للاختلافات الدقيقة التى تميزهم عن جميع المفكرين الآخرين ..

واذا نحن ذهبنا الآن الى المعالجة العلمية لمشكلة العقل نلاحظ أنه يجب على الموقف المادى أن ينظر الى العقل على أنه آلة شديدة التعقيد ، ويقر أن أى آلة معقدة الى الحد المطلوب قادرة على التفكير .

فلتنحر اذن هذه الفرضية فى الآلات المفكرة •

ربما كان أكثر العوامل مغزى فى تطورات الانسان الأخيرة ظهور أولى الآلات المفكرة الجيدة لقد صممت هذه الآلات للقيام بالعمليات الحسابية المعقدة الا أنها وصلت الى مرحلة غدت معها أكثر بكثير من مجرد آلات حاسبة •

وهذه الآلات الآن تهيأ لآلاف المهام التى تفوق أعز أمانى الذين قاموا بتصميمها • من الصعب علينا أن تنكر أن كثيرا من هذه المهام يمكن أن يسمى تفكيرا وعلى مستوى رفيع ، حين يقوم بها بنو البشر •

اذا كان لابد من أساس عقلانى لتفوقنا على الآلات فيجب أن يستند الى امكاننا القيام بتصرفات معينة ليس بمستطاع الآلات أن تقوم بها ، ولدينا فى الوقت الحاضر على الاقل ، متسع كبير لهذا الادعاء ••

وهكذا يترك لنا ــ كلية ــ مجال الحدس والتبصر والتكهن الملهم ••

وللكائنات البشرية القدرة على حل المشاكل بواسطة عمليات مختصرة لا يستطاع تفسير طبيعتها ! ؟

ان امكان تعليم الآلات هذا الطراز من التكهن أمر فيه جدل ؟•

أما هل هذه المرحلة ممكنة البلوغ ، فأمر يجب ترك باب البحث مفتوحا فيه •• هذه هى الحقائق ، فما هو الاستنتاج الفلسفى الذى يمكن لنا استخلاصه منها ؟

النتيجة الأولى هى القول بأننا فى الواقع نختلف اختلافا أساسيا عن الآلات • (١)

❋ ❋ ❋

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر : برتراند راسل :

---

١) الفيلسوف والعلم ص ٣١٤ ــ ٣٢٤

يقول الفيلسوف الملحد (١) المعاصر برتراند راسل معبرا عن زوال المفهوم المادي للمادة :

(أخذت المادة تشف تدريجيا كقطة تشيشاير حتى لم يبق منها الا الابتسامة الناجمة فيما يبدو من الضحك على من لا يزالون يظنون أنها موجودة) .

ويقول :

(أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين . وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية .

والحقيقة بالطبع أن العقل والمادة كليهما وهم ؟ وهو مايكتشفه علماء الطبيعة بدراسة المادة ويكتشفه علماء النفس بدراسة العقل) (٢) .

ثم يقرر راسل أن عالم المادة الذى يعترف به علم الطبيعة الحديث أصبح شيئا آخر يختلف عن عالم المادة كما تدركه حواسنا ! ؟

وأنه أى عالم المادة فى الفيزيقا الحديثة يدرك بالاستنتاج .

وأنه من ثم واقع تحت الشك .

يقول راسل :

---

(١) يقول راسل فى مقدمة كتابه (فلسفتى كيف تطورت ص ٤) — :
(اما فيما يختص بالدين فقد انتهى بى الامر الى ان كفرت اولا بحرية الارادة ثم بخلود الروح ، واخيرا بالله) .
وهذا الاعتراف يكفى لان نحكم على مضمونه بانه — على اقل تقدير — (لايصح الاصغاء اليه) لا لشىء الا لانه صادر عنه بغير ارادته بحكم كفره بحرية الارادة فهو مقسور عليه ، وماهى القوة التى قسرته ؟ ليست هى الروح ، او الله ، لانهما غير واردين بحكم كفره بهما ، وما عدا ذلك ؟ نحن لا نعلم — على اقل تقدير — شيئا عمن يتحدث الينا هذا الحديث : انه ليس هو راسل ، وليس هو الروح ، وليس هو الشيطان ..
فمن القائل ؟
والى من تستمع ؟
والى من نصغى ؟
الى مضغة اللحم والدم والافرازات ؟ ام الى الكترونات ونيوترونات هى التى — فى اصطلاح العلم — تتمتع بالحرية ؟
وماالقيمة الفلسفية لما يقول فى ظل هذه الاحتمالات ؟؟؟
(٢) العقل والمادة ١٩٧

(علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء فيما بينها يؤكدان لى أن الكرسى القائم هناك مستقلا عن ابصارى شىء لا يشبه مطلقا ما تصورته .

بل هو رقصة جنونية ترقصها بلايين الكهربيات تحت تأثير بلايين التحولات الكمية . وعلاقتى بهذا الشىء غير مباشرة ولا تتأتىمعرفتها الا بالاستنتاج .

فهى توجب أن تميز بين العالم المادى لعلم الطبيعة والعالم المادى المتمثل فى خبرتنا اليومية .

فأما العالم المادى لعلم الطبيعة فهو موجود مستقل عن حياتى العقلية بفرض صحة علم الطبيعة . أما العالم المادى فى خبرتنا اليومية فهو على العكس جزء من حياتى العقلية .

ومن ناحية أخرى فان خبرة رؤية الكرسى ليست بالخبرة التى أستطيع أن استبعدها بالتعليل فقد حدثت لى هذه الخبرة بكل تأكيد حتى ولو كنت أحلم .

أما كرسى علم الطبيعة فانه وان كان مستقلا عن حياتى العقلية الا أنه ربما كان غير موجود . اذ يكون غير موجود ان كنت أحلم ، وربما لم يكن موجودا حتى وأنا متيقظ اذ كانت هناك مهام للخطأ فى بعض أنواع الاستنتاج أنا معرض لها وان لم يكن عليها دليل) . (١)

ويأخذ راسل فى تحليله للمادة ، وقصرها على « سلسلة من الوقائع » فيقول :

(كل ما اعلمه عن المادة هو ما يمكننى استنتاجه بمساعدةبعض المسلمات المجردة من الصفات المنطقية المحضة لتحيزها الزمانى المكانى وهذه لا تدلنى لأول وهلة على أى شىء كائنا ما كان عن خصائصها الأخرى . وفوق هذا ، فان الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الذات فى حالة العقل هى بعينها الدواعى التى تمنعنى من الاعتراف بتصور الجوهر فى حالةالمادة . لقد أنزلنا عقل ديكارت الى سلسلة من الوقائع ،

---

(١) العقل والمادة ١٩٧ .

وهذا ما يجب أن تفعله بجسمه أيضا ، فان قطعة المادة سلسلة وقائع تربط فيما بينها قوانين طبيعية معينة .

وهى قوانين تقريبية وغير دقيقة .

والشخصية التى تحتفظ بها الجزيئات المادية فى علم الطبيعة العتيق تختفى فى علم الطبيعةالكمية الحديث .

ولكن حتى قبل ظهور علم الطبيعة الكمية ، كانت الجزيئات فكرة بالية لأنها كانت تؤدى الى فكرة الجوهر .

وحتى من أيام ذرة « رذرفورد بوهر » ظل من الممكن التمسك بهذه لان ذرة رذرفورد بوهرتتكون من عدد معين من الكهربيات والبروتونات .

وكانت الكهربيات تتصرف كالبراغيث تزحف حينا ثم تقفز ، والكهرب لا يزال يمكن التعرف عليه بعد قفزاته على أنه الكهرب نفسه الذى كان يزحف من قبل

ولكن الذرة للأسف قد شقيت بتحطيم الذرة .

وكل ما أصبحنا نعلمه عنها حتى على فرض أكثر الفروض تفاؤلا هو أنها كم من الطاقة تخضع لمختلف التقلبات المفاجئة ، ولا سبيل الى دليل الا على هذه التقلبات) .

وبيّن راسل أنه ظل الفيزيقيا الحديثة أصبح من المستحيل معرفة شيء عن الذرة فى حالة السكون .

وكل ما نعرفه عنها الآن انما هو حالة التقلب .

يقول :

(كنا فى الأيام السعيدة التى شهدت طفولة بوهر نفترض أننا نعلم ما يجرى فى لحظات السكون، فقد كانت هناك كهيربات تدور حول النواة كما تدور الكواكب حول الشمس ، أما الآن فقد وجب علينا أن نعترف بالجهل التام المطلق الذى لا استئصال له أبد الدهر بما تفعله الذرة فى لحظاتها الساكنة . لكأنها مسكونة بطائفة من المراسلين الصحفيين الذين لا يعتقدون أن الخبر يستحق ان يذكر الا أن يكون

ثورة أو انقلابا فيظل ما يحدث فى غير زمن الثورات مغلقا فى الأستار والأسرار وعلى هذا الأساس اختفت تماما فكرة « النفسية »)

يقصد الشيء نفسه ، أو الشيء فى ذاته .

ويدلل على ذلك فيقول :

(الواقع أن أصغر قطعة من الكرسى تفقد شخصيتها فى مايقرب من جزء من مائة ألف جزء من الثانية) .

واذا كان هذا هو جهلنا بالمادة فان راسل يقرر أن جهلنا بمخ الانسان اشد !!

يقول :

(اننا لم تعود بعد الكلام عن المخ الانسانى بدقة لغة علم الطبيعة والكيمياء وأهم ما يتعلق من أسرار هذه النظرية بمشكلتنا هو ما تبديه لنا من قلة مانعرفه عن المادة ولاسيما مخ الانسان .

فما يزال بعض علماء وظائف الأعضاء يتخيلون أنهم قادرون على رؤية الأنسجة المخية خلال المجهر . وهذا — ولا شك — وهم متفائل فانك حين تنظر الى كرسى لا ترى التحولات الكمية بل تحصل على خبرة ذات اتصال عِلّى طويل محكم بالكرسى المادى وهو اتصال ينتقل خلال الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومخروط الضوء والعصب البصرى الى المخ .

وما يصدق هنا يصدق على المخ الذى يعتقد عالم وظائف الأعضاء أنه يراه فان لديه خبرة لها اتصال عِلّى بعيد بالمخ الذى يظن أنه يراه ولكن ما يستطيع أن يعلمه بصدد هذا المخ لا يعدو عناصر تكوينه التى ستنطبع فى حسه البصرى أما عن الخصائص الأخرى غير خصائص التركيب فلا سبيل الى معرفتها) .

وهنا يود راسل أن يمحو الفصل التام بين كل من المادة والعقل وأن يوحد بينهما فيما يسميه « سلسلة أحداث » . يقول :

(أحب أن أقترح نظرية : فقد اتفقنا على أن العقل والمادة كليهما سلاسل أحداث واتفقنا كذلك أننا لا نعلم شيئا عن الأحداث التى تكوّن المادة الا من كيانها الزمانى

المكانى ، والذى أقترحه هو أن الأحداث التى تكون المخ الحى هى نفسها التى تكون العقل المناظر له) .

ثم يقول :

(فاذا صح قولى فالخلاف بين العقل والمخ لا يكون فى المادة الخام التى صنعا منها ولكن يكون فى طريقة تجميعها ، فالعقل وقطعة المادة يتشابهان فى أنهما مجموعات أحداث أو على الأصح سلاسل مجموعات أحداث) .

ثم يحاول أن يزيد نظرته وضوحا فيقول :

(ان الاختلاف بين المخ والعقل ليس اختلافا فى الكيف ولكنه اختلاف فى التصنيف يشبه الاختلاف بين تصنيف الناس تصنيفا جغرافيا، وتصنيفهم حسب الحروف الأبجدية وكلا التصنيفين معمول به فى دليل البريد فالناس فى هذا التصنيف هم الناس فى ذلك ولكن السياق يختلف .

واذا صحت هذه النظرية فلامهرب من بعض أنواع الاتصال بين العقل والمخ فلابد مثلا أن يحدث فى المخ بعض التعديل المادى بما يقابل الذاكرة ولابد أن تتصل الحياة العقلية بالخصائص المادية للأنسجة المخية ، والواقع أن القضايا المادية والنفسية سينظر اليها ، لو أن لنا مزيدا من المعرفة ، على أنها مجرد اختلاف فى طريقة النص على مضمون واحد . وهكذا تنكمش المسألة القديمة فى اعتماد العقل على المخ أو المخ على العقل حتى تصير مجرد راحة لغوية فيريحنا أن نرى العقل معتمدا على المخ حيث يزيد علمنا بالمخ ، على علمنا بالعقل ويريحنا أن نرى المخ معتمدا على العقل حيث يزيد علمنا بالعقل على علمنا بالمخ .

وفى كل من الحالتين تظل الحقائق الجوهرية هى هى ويظل الاختلاف اختلافا فى درجة علمنا ولا زيادة .

ولا أظن ان صح ما تقدم أن نطلق القول اطلاقا بأنه لا وجود لعقل غير مجسد فمثلا هذا العقل اللا متجسد قد يوجد ، اذا اجتمعت أحداث بحسب قوانين السيكولوجيا ولا يبدو أن ثمة سببا تلقائيا قبليا يمنع حدوث العكس ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أنه لا يوجد

شاهد تجريبى عليه ، ولا حق لنا فى أن نزيد) • (١)

ويأخذ راسل بعد ذلك فى تلخيص نظريته هذه فى نقاط أهمها :

أولا : أن العالم مكون من أحداث لا من أشياء ذوات حالات تختلف أو على الأصح أن كل مالنا من الحق فى وصف العالم به يمكن أن ينص عليه على افتراض أن هناك أحداثا لا أشياء فالأشياء بمعزل عن الأحداث ، فرض لا ضرورة له •

وثانيا : أن موضوعات الحس كما نحسها مباشرة أجزاء من عقولنا وليس ما نراه هو العالم المادى ولا بعضه ، وهذا أيضا قال به من قبل بركلى (٢) وأيده فيه هيوم ، وان اختلفت الحجج ••

ثالثا : ينبغى أن اعترف بأنه قد لا يوجد شيء يسمى عالم المادة متميز عن خبراتى •

رابعا : أن هناك نوعين من المكان :

أحدهما ما يعرف بالخبرة ، والآخر مكان علم الطبيعة الذى لا يعرف الا استنتاجا وهو الذى يترابط بقوانين العِليّة ••

خامسا : ان قطعة من المادة هى فى حقيقتها مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عِليّة هى القوانين العِليّة الطبيعية •

بينما العقل مجموعة أحداث ترتبط بقوانين عليّة هى هى القوانين العليّة النفسية • واذن فلا يصح وصف حادثة ما بأنها عقلية أو بأنها مادية لصفة فى كيانها بل توصف بهذا أو بذاك حسب سياقها العِلّى ، فانه من الممكن كل الامكان للحادثة أن تنسق فى كلا السياقين العليين ، السياق الذى تختص به الطبيعة ، والسياق الذى تختص به السيكولوجيا ، وفى هذه الحالة

---

(١) العقل والمادة ص ٢٠٠ الى ٢٠٥ وانظر فلسفة برتراند راسل للدكتور محمد مهران ص ٩٥ ، ٩٦

(٢) بيشوب بركلى ١٦٨٥ ـ ١٧٥٣ فيلسوف ايرلندى يرى الوجود هو الادراك •

تكون الحادثة عقليـة ومـادية فى وقت معا ..

ويحسب راسل أن هذه النظرية قد أزالت الغموض فيقول :

(أهم ما يقال فى صالح هـذه النظرية التى أدعو اليها أنها تزيل غموضا ، والغموض على الـدوام يضايق .. لقد ظلت علاقـة العقل بالمادة تحير الناس ردحا طويلا من الزمن فاذا صح رأيى فلا حيرة فى أمرهما بعد الآن ..) (١) وأقول :

مع أن ما يعنينا نحن من فلسفة راسل هذه ــ وهو على قمة الالحاد المعاصر ــ أنها تحطم المفهوم المادى للمادة ، الا أننا لا نرى أن نظرته أزالت الغموض فى العلاقة بين المادة والعقل . وانما زادته .

ذلك لأن تفسير كل من العقـل والمادة بأنه مجموعة أحداث يدفعنا الى التساؤل : أحداث ماذا ؟

أن الاحداث لابـد أن تتعلق بأشياء ، والا وقعت كلمة ، أحداث فى نفس الغموض الذى وقعت فيه كلمة « عقل » وكلمـة « مادة » وتكون النتيجة هى ضم كلمة الى قاموس الألفاظ الغامضة .

ان الأحـداث لابد أنهـا تتعلق بأشياء ، فـا هى هـذه الأشياء ؟ حاول الأقدمون تصنيفها الى عقل ومادة ، أو روح وجسـم . والآن فى علم الطبيعة الحديث أصبحت التفرقة بين هذين الأمرين واهيـة حقـا !؟

وانهيار هذه التفرقة القديمة لا يزيل الغموض كما توهم راسل ، وانما هو يزيده بالتأكيد ، ولابد من الرجوع الى فلسـفة كانت حيث يثبت « الشىء فى ذاته »

وليس أدل على ذلـك مـن أن راسل نفسه يذهب الى أنه لا يمكن الاستدلال على الأحداث التى تقع بشكل مستقل عن الادراك .

---

(١) العقل والمادة ص ٢٠٥ ــ ٢٠٩
ويرى الدكتور زكى نجيب محمود ان هذه آخر مراحـل تطـور فلسـفة برتراند راسـل ..
انظر كتاب فلسـفتى وكيف تطورت لبرتراند رسل والمقدمة .

وهذا ما جعله يقرر أن التسليم بها أمر ضرورى من الناحية العلمية

(اذ لو لم تسلم بهذه الأحداث لانهارت كل الأسس العلميـة التى يمكن بها تبرير اعتقادنا فى وجود الموضوعات الفيزيقية واستمرارها، كمـا تنهار أيضـا امكانيـة تبرير الفيزيقا) •

وبذلك لايقر راسل بالشك الكلى ويراه من الناحية العملية مجديا (١)

ولعل الحصيلة النهائية لنظـرة راسل الى كل من العقل والمادة هى مالخطه فى أحد كتبه بقوله :

(أن العقل والروح ــ شأن المادة ليست سوى رموز أشـياء غير معروفة) (٢)

* * *

غيبية مفهوم المادة عند الفيلسوف الملحد المعاصر فتجنشتين : (٣)

يرى فتجنشتين أن العالم ينحل الى « وقائع » وأن الأشـياء هى المكونات المباشرة التى تتكون منها الوقـائع ، (والأشيـاء) عنـد فتجنشتين :

١ ــ بسيطة ، لا تنقسم •

هى بسيطة فى غاية البسـاطة وهى لا تتصف بأى صـفة من الصفات التى يمكن ملاحظتها انما تتصف بهـذه الصفة أو تلك أثنـاء وجودها فى واقعة ما ، لأن الصفات المادية ــ تنشأ أول ما تنشأ نتيجـة لتشكل الأشياء فى واقعة ما •

٢ ــ ويتـرتب على ذلك أن الأشياء ثابتة لا تتغير • يقـول فتجنشتين :

« الشىء وهو الثابت ، وهـو الموجود ، أما المتحول المتغير فهو البناء المركب من أشياء ، والتركيبة التى قوامها أشياء هى التى تشكل الواقعة الذرية »

---

(١) فلسـفة برتراند راسل للدكتور محمد مهران ص ٩٩ ، ص ١٠٢ ، ص ١٠٣

(٢) مجموعة « عالمنا المجنون » ص ٩٧

(٣) لودفيج فيتجنشتين فيلسوف المنطقيـــة الوضعية المنماوى ١٨٨٩ ــ ١٩٥١

٣ ـ ويترتب على ذلك أن الأشياء باقية الى الأبد ، لأنها بسيطة لا تنقسم الى أجزاء وما ينقسم الى أجزاء هو ما يمكن فساده ، أما مالا ينقسم فهو باق على حاله ثابت لا يتغير ولا يزول .

٤ ـ ويترتب على ذلك أن الأشياء هى الأساس الأول الذى يقوم عليه العالم أو هى كما عبر فتجنشتين تكون « جوهر العالم » .

ولكن ما المقصود بمعنى الجوهر هنا ؟

معناه « الثابت وراء كل تغير ، والحامل الذى يحمل كل الصفات المتغيرة المتتابعة فى الوجود أو هو « الشىء الموجود بذاته ، الثابت الذى لا يتغير وبالتالى فهو الذى يعد مبدأ أو أصلا لجميع الأشياء الموجودة » .

الايمان بالشىء ضرورة منطقية :

ويبرر فتجنشتين فكرته عن الجوهر ، على الرغم مما فيها من معنى ميتافيزيقى يتناقض مع اتجاهه التحليلى اللاميتافيزيقى :

بقوله « انه اذا لم يكن للعالم جوهر فان القول عن قضية ما أنها ذات معنى سيتوقف عندئذ على أن قضية أخرى تكون صادقة » .

اى أن معنى قضية ما فى حالة وجود جوهر ثابت للعالم الخارجى انما يتوقف على المطابقة بين القضية من جهة ، وذلك الجوهر الثابت من جهة أخرى ، فيتحدد المعنى أما اذا لم يكن هناك جوهر « ثابت يحدد لنا معنى قضية معينة » . فلن يكون أمامنا عندئذ الا أن نشتق معناها من قضية صادقة أخرى .

وهذه من ثالثة ، وتلك من رابعة و .. الخ ..

وبذلك ننحصر فى دائرة من القضايا يسند بعضها بعضا .. وعلى ذلك فوجود « الجوهر » الثابت أو الأشياء الثابتة هو المطلب الذى يبرر لنا الاستخدام الصحيح للغة ، اذ أن ترابط الأشياء على نحو أو آخر فى واقعة ما هو ما يبرر لنا الحكم بصدق قضية أو كذب أخرى .

اذن ما هو هذا الشىء البسيط عند فتجنشتين وكيف يكون ؟ .

ان فتجنشتين لا يعطينا أمثلة له ولا

يوضح المقصود منه فى هذا الصدد يقول مالكوم : « ذات مرة كنا نناقش » — « فتجنشتين وويلز دونى وانا » رسالة فتجنشتين المنطقية الفلسفية وقد سألت فتجنشتين عما اذا كان — أثناء « كتابة « الرسالة » قد فكر فى وجود شيء كمثل «للشيء البسيط» وكانت اجابته بأن تفكيره فى ذلك الوقت لم يكن الا تفكيراً منطقيا .

ولذا فان ذلك الأمر لم يكن يعنيه كرجل منطقى أى أن يقرر ما اذا كان هذا الشيء أو ذاك ، هو شيء بسيط أو شيء مركب — اذ أن ذلك عمل تجريبى محض وعلى ذلك فهذه الأشياء عند فتجنشتين لم تكن الا الأشياء بالمعنى المنطقى أو هى بسائط منطقية . وقد عبر راسل عن ذلك فى مقدمة الرسالة لفتجنشتين بقوله :

(ان فتجنشتين لم يذهب الى أننا يمكننا أن نقول فعلا ما هو بسيط أو أن نعرفه معرفة تجريبية لأنه ضرورة منطقية تتطلبها النظرية مثل الالكترون) ولو تعمقنا فى ذلك لوجدنا أنها ضرورة عملية يقصد بها انقاذ هيكل القضايا من الوقوع فى حلقة مفرغة ويفقد من ثم مايبرر الحكم بصدق قضية ما أو كذبها (١) .

واذن فهذه البسائط (الأشياء) ليست هى المفردات الجزئية التى ندركها تجريبيا فى الواقع الخارجى

انها ليست كذلك لأن الأشياء التى تقع فى خبرتنا فى العالم الخارجى ليست بسيطة بل هى مما يمكن تحليله الى أجزاء أصغر منها .

وهنا يقول فتجنشتين (لايسعنى ازاء الأشياء الا أن أسميها..وبهذا لا يسعنى الا أن أتحدث عنها دون أن أستطيع تقرير وجودها) .

انها كما يقول الدكتور عزمى اسلام فى تلخيصه للنقد الذى وجه الى فيتجنشتين (مجرد افتراضات ميتافيزيقية) (٢)

---

(١) لودفيج فتجنشتين للدكتور عزمى اسلام ص ١٢٢ — ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣١ .

المادة عندها نزريشنباخ :

يقول هانز ريشنباخ ـ وهو ملحد .. ـ (فالسؤال : ماالمادة ؟) أصبح الآن لا يمكن الاجابة عنه بالتجارب الفيزيائية وحدها .

وانما يحتاج الى تحليل فلسفى للفيزياء .. ذلك لأن الاجابة عنه تتوقف على السؤال : ما المعرفة ؟ ففى خلال القرن التاسع عشر استعيض عن التفكير الفلسفى الذى كان موجودا فى مهد المذهب الذرى بالتحليل التجريبى ولكن البحث وصل آخر الأمر الى مرحلة من التعقيد تقتضى العودة الى البحث الفلسفى ..) ولكن ـ حسب رأيه ـ بمعاينة البحث الفيزيائى (١)

ويقول (لقد اتضح أن مفهوم الجوهر الجسمى المشابه للجوهر الملموس كما يظهر فى الأجسام التى تتعامل معها فى بيئتنا اليومية هو فكرة مقحمة من مجال التجربة الحسية .... وأن التجارب التى تتيحها الظواهر الذرية لتحتم التخلى عن فكرة الجوهر الجسمى ، وتقتضى اعادة النظر فى طريقة الوصف التى نصور بها الواقع الفيزيائى . وباختفاء الجوهر الجسمى يختفى طابع اللغة المرتكز على قيمتين (٢) ، ويتضح أن أسس المنطق ـ واللغة ـ انما هى تتاح للتكيف مع البيئة البسيطة التى ولد فيها البشر . والحق أن الفلسفة التأملية ذاتها لم تكشف أبدا عن قدرة على التخيل مماثلة لذلك العمق الذى أبدته الفلسفة العلمية) (٣)

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٥٨ .

(٢) يعنى فى مجالنا هذا الموجات ، والجزئيات ويقترح أمرا ثالثا « اللامحدد » الخ ، انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٦٩ .

(٣) السابق ص ١٧٠

العلم التجريبي
يرغم الالحاد المعاصر
على التخلي عن « المادية » ..
لكن الى ... أين ... ؟

يلخص كارل بيرسن رأيه في التغيير الشامل الذي طرأ على علم الفيزياء بقوله : (على حين أنه خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر كان مفهوم (المادة) هو الذي يعد أساسيا في علم الفيزياء ، وكانت لهذه المادة خاصية غير مألوفة تسمى بالكهرباء فانه يبدو اليوم أن الكهرباء ينبغي أن تعد أهم من المادة ، بمعنى أن ما كنا نعده مادة أساسية ينبغي أن يتصور الآن على أنه شكل من أشكال جواهر كهربائية عظيمة التعقيد) .

ان بيرسن وجد في هذه التطورات الفيزيائية الحديثة تأييدا لرأيه القائل : ان العلم لا يهتم الا باختراع أنموذج تصوري يصف به مجرى انطباعاتنا الحسية ولا شأن له بتقديم تفسير للعالم المدرك حسيا بالفعل . ففكرة الالكترون ، التي أصبحت هي الفكرة الأساسية في الفيزياء في ذلك العهد ، ما هي الا تركيب ذهني يستحيل أن يكون موضوعا مباشرا للادراك الحسي ، شأنها شأن سائر المفاهيم التي أدخلتها الكشوف الحديثة على علم الفيزياء .

ان بيرسن ينظر الى المادة على أنها بدورها مفهوم تصوري أو ذهني ، يستخدم في وصف انطباعاتنا الحسية ، ولا يطابقه وجود فعلي في الخارج .

أما المادة التي يشيع وصفها بأنها علة الانطباعات الحسية فهي في رأيه كيان ميتافيزيقي مرفوض ، ومن الشائع أن توصف المادة بأنها صلبة وغير قابلة للاختراق . وهاتان بالفعل صفتان تتميز بهما مجموعة كبيرة من الانطباعات الحسية المسماه بالمادية ، غير أنهما لاتنتميان

بالضرورة الى كل أفـراد هـذه الفئة :

فالصلابة وعدم القابلية للاختراق أمـران نسبيان ، ولا يدلان على صـفة مطلقـة تنتمى الى عالم الواقع .

أما القـول بأن المـادة تتميز بالدوام والبقـاء ، فهـو فى رأى بيرسن قـد يكون راجعـا الى استمرار الانطباعات الحسية لا الى استمرار شىء غير مدرك من وراء هذه الانطباعات . وهو يضرب فى هذا الصدد مثلا بالموجة :

فعندما نرى الموجة تتحـرك فى البحر ، تتكون لدينا عنها انطباعات حسية متماثلة ومستمرة ، بحيث يبدو لنا أن « نفس » الموجة هى التى تتحرك ، وهى التى تقتـرب منا ، ومع ذلك فلو ألقينا فيها قطعة من الفلين لارتفعت وانخفضت فى نفس الموقع عندما تمر الموجة بها ، ولما انتقلت معهـا ، ممـا يثبت أن الموجـة ليست هى نفسـها التى تتحرك . وهكذا قد تظل الموجـة محتفظة بشكلها ، وتتكون لدينا عنها نفس المجموعة من الانطباعات الحسية ، ومع ذلك يكون أساسها أو مادتها متغـيرا على الدوام . وبعبارة أخرى فان تماثل الانطباعات الحسية لا فى كل الأحـوال تماثل المادة الأساسية المكونة لها . ومن العجيب أن بيرسن يحاول هنا أن يعزل العلم التجـريبى عن المذهب المادى بعد أن تحالفا زمنا طويلا ، لا لشىء الا لمـا بدا من أن هـذا التحـالف لو استمر بعـد ظهـور الفيزياء الحديثة فسوف يقدم دعما علميـا للنظر الى المادة على أنهـا ــ كما يقـول بيرسن ــ (كيـان ميتافيزيقى) وهـو أمر مرفوض عنـده .

واذا كانت هـذه النظـرة الميتافيزيقيـة لا تزعج العلمـاء التجريبيين ، ولا تزعج ــ أو لاينبغى أن تزعج ــ المـاديين الملتـزمين « بالعلم التجريبى » فهى من غير شك تزعج أولئك الذين وجدوا فى تحالف العـلم مع المادية دعمـا لنزعتهم الالحادية ، أما وقد صار هذا التحالف خطرا على الالحـاد ــ بعـد الفيزياء الحـديثة ــ فان اخلاصهم « للالحاد » ــ وهـو

يأتى فى المقام الأول لكونه « ارادة » محضة ــ يجعلهم ــ كما فعل بيرسن ــ يفضلون « العلم » عن « المادية » ــ المادية فى وضعها الذى اضطرها العلم اليه ــ فيهاجمونها لأنها فى رأى بيرسن (تسير فى نفس الطريق الذى تسير فيه المذاهب الميتافيزيقية واللاهوتية ..) مدعين أنها بذلك تصبح (مضادة للروح العلمية السليمة ..) (١)

وهنا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نقول لبيرسن وأمثاله :

انه اذا أنفصل العلم التجريبى عن المادية .

وانفصل فى نفس الوقت عن الروحية ، أو عن الدين ، فماذا يبقى له الا أن يكون هلوسة ذاتية ، لا صلة لها بالواقع على أى وجه يكون ؟

وهذا ما جعل الدكتور فؤاد زكريا ، يقول فى تعليقه على بيرسن :

(ان مذهبه يرتكز على المذهب الظاهرى القائل بأن الموضوعات الأولية المؤكدة للمعرفة هى « الانطباعات » المباشرة فى التجربة الحسية الخارجية ، أو فى التجربة الاستبطانية الداخلية ، أما ما نسميه بالأشياء أو الجواهر فما هى الا اضافات ميتافيزيقية لا تبررها تجاربنا ...) .

ويقول : (ولا سبيل لأصحاب هذا المذهب ــ مهما بذلوا من محاولات ــ الى أن يتخلصوا من شبح الذات الوحيدة الذى يهددهم على الدوام .. والحق أن بيرسن ــ على خلاف كثير من القائلين بهذا النوع ــ من المذهب الظاهرى لم يحاول أن ينفى عن نفسه شبهة الذاتية المطلقة) .

وهكذا وكما يقول الدكتور فؤاد زكريا يتردى فى المثالية الذاتية هؤلاء المفكرون ... (الذين يتصورون فى بداية الأمر أنهم هم القادرون على محاربة المثالية ...) (١)

---

(١) تراث الانسانية العدد ١٢ المجلد ٣ ص ٩٢٧

وهذا بلا شك يرتكس بالعلم وبالمادية الى نوع من اللا أدرية..

أما عن العلم فيقول السير شارلس شرنجتون ـ أعظم فسيولوجى ظهر فى القرن العشرين :

(اننى عاجز عن فهم معنى العقل برده الى المخ) .

ويقول : (اننى من بعض النواحى مستبطن متصوف لأن كل تفسير مادى للعقل يفلت منى ويروغ) (١) .

ويقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(ان العقل الذى اتجه الى الشك ... يقبل الآن بدون تردد الانقلاب الذى حصل فى النظريات الفيزيائية ...

فهو يعترف بوجود فراغ غير مدرك تسبح فيه الالكترونات ...

ويعترف بأن هذا الالكترون ما هو الا موجة احتمال ...

ويعترف بوجود جزيئات كالنيترونات ...

ويعترف بوجود الانتيترونات التى افترض وجودها لأسباب تناظرية رياضية بحتة .. (٢)

ويتقبل بدون تردد وجود تلك الكيانات المتناقضة ظاهريا ...

ولكنه يرفض باصرار أن يتقبل وجود قوة خارقة خلاقة ، بدونها لا يمكن أن ندرك كبريات المسائل العلمية ، لمجرد أن القواعد التى زودته بها خبرته محدودة ... الا أنه فى الحقيقة ليس هناك شىء غير معقول ، أكثر من انسان هو عقليا غير معقول (٣) .

د . يحيى هاشم حسن فرغل

---

(١) انظر الأساس الجسمانى للشخصية ص ٢١٦ ، ص ٢٣٧ للدكتور ف. هـ. مترام .

(٢) ذكرنا من قبل أنه تم افتراض هذا الانتيترون لا لشىء الا لانقاذ فرضية قانون تكافؤ الطاقة والمادة وعدم انعدامهما

(٣) مصير البشرية ص ١١٢ .

الطب الإسلامي
أو
الطب النبوي

للأستاذ الدكتور على مطاوع

ورد فى صحيح البخارى ومسلم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « شفاء أمتى فى ثلاث : شربة عسل — وشرطة محجم — والكى .. وما أحب أن أكتوى » .

واذا أمعنا النظر وأعملنا الفكر فى هذا الحديث نجد أن هذه الخطوط الثلاثة فيها الشفاء لكل ما ينتاب الانسان من أمراض .

هذا من الناحية العلاجية — أما من الناحية الوقائية فالاسلام لم يغفل هذه الناحية بل أولاها الكثير من العناية والرعاية — فالصحة النفسية اهتم بها الاسلام اهتماما كبيرا وأوصى بكل ما يمنع القلق النفسى فالعقائد : الايمان بالله وقدره وأن الله وحده هو الفعال فى كل شىء وأن الجن والانس لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك بشىء لن يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف وجرى القلم بما هو كائن ، تبعث فى الانسان الأمن والأمان النفسى — هذا من الناحية النفسية . أما من الناحية الجسدية فان العبادات كلها وما يلزم لها من تحضير مثل النظافة : نظافة البدن والثياب فى الصلاة وما يمارس فيها من حركات بدنية فى الركوع والسجود والقيام وتدبير الأكل والحج والعمرة كلها تعمل فى ناحية منها على سلامة البدن ووقايته من الأمراض .

فاذا أهمل الانسان وأصابه المرض — فهناك وسائل الشفاء

الثـلاث ، ويجب على المسـلمين العاملين فى الحقـل الطبى بحث خطـوط الشـفاء الثـلاثة التى ذكرها النبى صلى الله عليـه وسلم فى حديثه السابق وبيان الوسائل التى بها يتحقق قول الرسول صلى الله عليه وسلم توضيحا لقول الله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهـم حتى يتبين لهم أنه الحق » . وتطبيقا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى . ولقول الله عز وجل : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » .

واذا قال الله تعالى عن عسـل النحل : « فيه شفاء للنـاس » بدون تحديد لطـريقة الاستعمال وبدون تحديد للأمـراض التى يشفيها . بل أطلق ذلك . فان هذا يعنى أن فى العسل شفاء للأمراض على اطلاقها بما فى ذلك مـرض السرطان .

وبالاطلاع على ماكتب عن عسل النحل فى بعض المراجع وبالبحث والتجربة وجد أنه استعمل بنجاح فى شفاء أمراض الجلد وأمـراض العين واستعمل للغيار على الجروح حتى السرطانية ومنهـا الغرغرينـة التى تصيب الأقدام أو الأيدى فى مـرض السكر والتى أوصى الجراحون ببترهـا وكانت النتائج فوق ما كنـا نتصـور لأن بعض الحالات كان الالتهاب قد أصاب عظام القدم أو عظام اليد .

واستعمل العسل كغيار عـلى الثآليل المزمنـة فى باطن القـدم « عين السمكة » مع الأشعة فشفيت فى ثلاثة أسـابيع بعـد أن كانت تشفى فى ستة الى ثمانية أسابيع — وبعلاج واحدة فقط منهـا يمكن علاج غيرها من الثآليل مهمـا كان عـددها . وشـفاء الثآليل بهـذه الصورة يدل على أن بالعسل مادة مضادة للفيروسات . وبهذا يكون عسل النحل هو المادة الوحيدة للآن التى بها مضـاد للفيروسات يمكن للانسان أن يتعاطاه . وهذا يفسر استعمال العسل للوقاية من مرض شلل الأطفال .

واستعمل العسل فى علاج أمراض الجهاز التنفسى وخصوصا الرشح والحساسية والتهاب الجيوب الأنفية والربو وغيره من الأمراض.

واستعمل العسل فى علاج أمراض المعدة والأمعاء وفى أوراق البردى الخاصة بالطب وأوصى قدماء المصريين باستعمال العسل فى علاج الجروح وفى ادرار البول ولاراحة الأمعاء .

وفى الطب الهندى القديم كان الدواء الذى يجلب السعادة ويحفظ الشباب مصنوع أغلبه من العسل وكانوا يوصون بوجبة معينة لاطالة العمر أهم عناصرها العسل واللبن . وكان ابقراط يأكل العسل باستمرار ويستعمله فى طبه كعلاج لكثير من الأمراض . وكتب ديوسكوريدس الاغريقى : أن العسل يستعمل بنجاح فى علاج أمراض الامعاء والجروح المتقيحة والبواسير .

وكان جالينوس الأغريقى يصفه لعلاج حالات التسمم المختلفة فى أمراض القناة الهضمية .

وكان ابن سينا يقول اذا أردت أن تحتفظ بشبابك فاطعم العسل. وكان يوصى من جاوزوا الخامسة والاربعين أن يأكلوا العسل بانتظام وخصوصا مع عين الجمل المسحوق لأنه غنى بالزيوت .

وجاء القرآن الكريم يقول عن عسل النحل ان فيه شفاء للناس .

ويقول رسولنا صلى الله عليه وسلم : شفاء أمتى فى ثلاث : أولها شربة عسل . ولفهم خصائص العسل العلاجية يجب أولا معرفة نتائج تحليل العسل وما به من مواد .

ــ ويحتوى العسل على :

١ ــ سكر الجليكوز ٤٠ ٪

٢ ــ سكر الفركتوز (الليفيلوز) ٤٠ ٪

٣ ــ الخمائر

دياستيز
انفرتيز
كاتاليز
بيروكسيديز
ليبز

٤ ـ المواد المعدنية

الكالسيوم
الصوديوم
البوتاسيوم
المغنسيوم
الحديد
الكلور
الفسفور
الكبريت
اليود

وبعض أنواع العسل يحتوى على مواد مشعة .

وبالتحليل الطيفي وجد أنه يحتوى على :

المنجنيز ـ السليكون ـ الالومنيوم ـ البورون ـ الكروم ـ النحاس ـ الليثيوم ـ النيكل ـ الرصاص ـ القصدير ـ الثيتان ـ الخارصين ـ الآزميوم .

والاملاح المعدنية مهمة جدا للجسم . وقد عملت تجارب معملية على الحيوانات فأعطيت طعاما يحتوى على الزلاليات والنشويات والدهنيات والفيتامينات وخاليا من الاملاح المعدنية فماتت الحيوانات بينما استمرت مثيلاتها التى أعطيت نفس الغذاء مضافا اليه الأملاح المعدنية على قيد الحياة .

ويصح أن نقف هنا وقفة تأمل .

لقد خلق الله الانسان من تراب الأرض والماء . والتراب يحتوى معظم العناصر الموجودة فى الكون وباضافة الماء يصير جسم الانسان محتويا على جميع العناصر المعروفة بنسب متفاوتة تبعا للوظيفة التى يؤديها كل عنصر فى الجسم ـ فالصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والحديد والفوسفور والكبريت واليود والكربون والاكسجين والايدروجين تشكل الكميات الكبيرة من العناصر . أما باقى العناصر فهى موجودة بكميات ضئيلة . ولذلك تسمى العناصر النادرة ولكن وجودها فى الجسم ضرورى لعمل بعض الخمائر الموجودة فى الجسم .

ويحتفظ الجسم بهذه العناصر فى حدود معلومة لو زادت عنها أو نقصت عنها لأدى ذلك الى اختلال فى الجسم وظهرت العلل والأمراض

التى تختفى لو عادت نسبة هـذه العناصر الى مقاديرها الطبيعية التى فطر الله الانسان عليها .

ونسبة هذه العناصر فى الجسم فى تغير مستمر ما قامت الحيـاة ، فاذا انقصت فان الجسم يعـوض النقص من الغـذاء الذى يتناوله الانسان وهو اما أن يكـون من أصل حيوانى أو نباتى . والحيوان يتغذى على حيوان آخر أو نبات. أى أن مصدر العناصر الموجودة فى جسم الانسان ترجع فى النهاية الى النباتات التى تتغذى من الأرض والماء .

وقد وجد أن النباتات تختلف فيما تحتويه من عناصر كما ونوعا .

فهناك النباتات التى تحتوى على نسبة عالية من الحديد والتى تحتوى على نسبة عاليـة من الـكالسيوم والتى تحتوى على نسبة عاليـة من اليود والتى تحتوى على نسبة عالية من الكبريت وهكذا . وقد وجد أن هنـاك نبـات يختـزن عنصر الذهب ، ولله فى خلقه شئون .

والعبرة من هذا أن تنـاول الانسان لهـذه النبـاتات يعوض ما ينتـاب الجسم من نقص فيهـا فيظل سليما معافى .

ومن حكمة الله أن الانسان قد لا يستطيع أن يأكل من كل النباتات التى تحتـوى على ما يلزمـه من العناصر النادرة التى يحتاج اليها جسمه ، فسخر له نحل العسل وأوحى اليهـا أن « كلى من كل الثمـرات واسلـكى سبل ربك ذللا . يخـرج من بطونهـا شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » .

٥ ــ والعسل يحتوى على بعض الأحماض العضوية مثل التفاحيك والترتريك والليمونيك واللبنيـك والاوكساليك كمـا يحتـوى على قليل من الزلاليات والفيتامينات .

والفيتامينـات الموجـــودة فى العسل هى ب٢ ، ب٦ ، هـ ، ك ، ج ، وغيرها . وقد دلت الابحاث على أن العسل يحوى كميات كبيرة من الريبـوفلافين (ب٢) يعـادل الموجـود منـه فى لحم الدجـاج وخمسة اضعاف الموجـود منه فى

الجبن القليل الدسم ـ وفيتامين (ب٣) حمض الباتنوثنيك .

وهو عامل مهم ضــد التهابات الجلد .

وفيتامين هـ (بيوتين) وهــو يمنع انتشار الاكزيما والقــوباء والدمامل والصدفية .

وفيتامين ب٢ (حمض الفوليك) يستعمل بنجاح فى علاج فقر الدم (الانيميا الخبيثة) .

وفيتامين ك يستعمل فى حالات النزيف .

وفيتامين ج يزيد مناعة الجسم ضد العدوى ويساهم فى عمليات التأكســد والاختزال والتــكوين العادى للدم .

ولو أن الفيتامينات الموجــودة فى العسل بكميات صغيرة ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها متحدة مــع مواد أخرى من الأحماض العضوية والكاربوهيدرات والأملاح المعدنية .. وهى مختلطة بحبوب اللقاح . وترشيح العسل لتخليصه من حبوب اللقاح يفقده ما به من الفيتامينات .

وكمية الفيتامينات الموجودة فى كيلوجرام من العسل هى كالآتى :

فيتامين ب٢ (ريبوفلافين)
حوالى ٥ر١ ملليجرام
« ب٢ (انيورين)
حوالى ١ر ملليجرام
« ب٣ (حمض الباتنوثينيك)
حوالى ـر٢ ملليجرام
« ب٥ (حمض النيكوثينيك)
حوالى ـر١ ملليجرام
« ب٦ (بيريدوكسين)
حوالى ـر٥ ملليجرام
« ج (حمض الاسخريوط)
حوالى ـر٣٠ الى ـر٥٤

٦ ـ مضادات حيوية غالبا نتيجة نشاط افرازى فى النحلة الشغالة .

وقد غسلت مزارع ميــكروبية مختلفة عمرها ٢٤ ساعة فى ١ سم٣ محلول ملحىفسيولوجى ثم أخذت نقطتان من المستحلب واضيفت الى ٣ سم٣ من العسل وتم مزجهــا بعناية ثم وضعت فى فرن عنــد درجة ٣٧° مئوية ثم عمــل مزارع منها يوميا فكانت النتيجةكالآتى :

الميكــــروب السبحـــى (ستربيتوكوكس) : مـــاتت كل البكتريات بعد اليوم الثالث .

الميـــكروب العنقـــودى (ستافيلوكوكس » : مـاتت كل البكتريات بعد اليوم الثالث .

ميكروب التيفود والباراتيفود
وبكتيريا كولاى
وميكروب جارتنر
وميكروب شيجا
ماتت كل البكتريات بعد يومين .

وقد أثبتت التجارب أن البكتريا تموت بعد دور الحضانة فى وسط عالى التركيز من السكر يحتـوى على ٤٠ ٪ جليـــكوز ، و ٣٠ ٪ فركتوز و٠٢ر٠٪ حمض النحايك .

ولا يمنع العسل نمو البـكتريا فقط ولكنه يمنع نمو الفطـريات كذلك . ويمكن حفظ قطعة مـن اللحم فى العسل لمدة عام محتفظـة بكل خصائصها وطعمها . وقــد أثبتت التجارب أن قتل البـكتريا والفطـريات لا يرجع الى النسبة العالية للمـواد السكرية الموجودة بالعسل ولكن الى مضادات حيوية يفـرزها النحــل الشغالة . وقــد أوضحت التجارب أن العسل كلما خفف كان تأثيره القاتل أكبر .

٧ ـ يحتـوى العسل على مادة تمنع انقسام الخلايا اذ تقوم النحل الشغالة باقراز مادة تمنع نمـو حبوب اللقاح بمنـــع انقســـام خلاياها .

٨ ـ يحتوى عسل النحــل على مادة مضادة للفيروسات . وبذلك يكون العسل هو الدواء الوحيـد فى العالم الذى يحتوى على هذه المادة التى يمـــكن للانسان أن يتعاطاها حيث ان المادة الوحيـدة التى يعرفها العلمـــاء المضـــادة للفيروســـات هى « الانترفيرون » وهى مادة سامة للانسان لا يمكنه تعاطيها .

ولقد قمت شخصيا بعـــلاج الثآليــــل التى يسببها فيـروس معروف بجلسات الأشعة مع الغيار بالعسل على واحدة فقط من الثآليل فشفيت كل الثآليل فى أقـل من الوقت المعتاد اذا لم يستعمل العسل بعد الأشعة .

ومن الحقائق المعروفة عن سكر الفركتوز الموجودة فى العسل أنه أحلى من سكر الجليكوز وأنه يدخل الخلايا ويتم احتراقه فيها بدون احتياج الى وجود الأنسولين، كما هو الحال فى سكر الجليكوز وهو لذلك مفيد لمرضى السكر اذ يمنع التسمم الخلوى اذا استعمله المريض بالسكر فى احتياجاته اليومية بدل السكر العادى (سكر القصب) .. كما أن الكبد يختزن من السكر الفركتوز ثلاثة أمثال ما يختزنه من سكر الجليكوز على صورة جليكوجين . ومعروف أن الكبد الذى يختزن كمية كبيرة من السكر أقدر على أداء وظائفه من الكبد الذى يختزن أقل . ومن وظائف الكبد الأساسية تخليص الجسم من السموم .

ومن هذا تتبين قيمة العسل لمرضى السكر وقيمته فى مقاومة السموم .

٩ ــ هذا ولا يزال هناك ٣ر٧ ٪ من محتويات العسل لم تعرف طبيعتها بعد .

وهكذا يتبين لنا قيمة العسل كغذاء وكدواء ويتبين لنا أن العسل باستعماله مفردا أو مع غيره من العناصر أو المواد يمكن أن يكون دواء شافيا لكثير من الأمراض التى تصيب الانسان .

لقد استخدمته مع فوق أكسيد الأيدروجين (يوريا بيروكسيد) كدهان لعلاج سرطان الجلد وكانت النتائج مذهلة . وطبعا ما ينطبق على الجلد ينطبق على الأماكن التى يسهل الوصول اليها مثل تجويف الفم وعنق الرحم .

ولقد قمت بالقاء محاضرة عن هذا الموضوع فى ندوة دولية لعلاج سرطان الرحم والمثانة فى مارس سنة ١٩٧٩ م . بمعهد التغذية بينت فيها أسباب التحول السرطانى للخلايا وعلى أساس هذه الفكرة استخدام العسل والاكسوجين فى العلاج . وكانت النتائج فوق ما أتصور . وفى هذه الطريقة لا نرمى الى قتل الخلايا السرطانية وانما الى اعادتها الى حالتها الطبيعية

بامدادها بما يلزمها من الاكسوجين والغذاء (الفركتوز) .

هذا بخصوص العسل وهو أحد وسائل الشفاء الثلاثة التيقال عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بخصوص الحجامة (أى التشريط) فلها أساس علمى معروف وهو أن الأحشاء الداخلية تشترك مع أجزاء معينة من جلد الانسان فى مكان دخولالأعصاب المغذية لها فى النخاع الشوكى أو النخاع المستطيل أو قنطرة فارول أو فى المخ المتوسط .

وبمقتضى هذا الاشتراك فان أى تنبيه للجلد فى منطقة ما من الجسم يؤثر على الأحشاء الداخلية المقابلة لهذا الجزء من الجلد .

وهى نفس النظرية التى على أساسها تستخدم الابر الصينية فى علاج الأمراض وتصريف الآلام . ولقد شاهدت بنفسى تجربة على استعمال الابر الصينية فى علاج المغص الكلوى وآلام البطن أثناء نزول العادة عند بعض السيدات فكانت النتيجة زوال الآلام .

وأما بخصوص الكى فهو نوعان : كى طبى وكى جراحى .

أما الكى الطبى فهو يعمل على نفس نظرية الحجامة . ولقد شاهدت بنفسى تجربتين احداهما فى علاج الالتهاب الرئوى بالكى بين الأضلاع والأخرى فى علاج الاسهال والمغص البطنى بالكى على الكعبين . وانى أشهد بأن النتائج كانت فوق ما كنت أتصور وارتاح المريض بعد الكى مباشرة وكأنه ليس به مرض .

الكى الجراحى تفنن فيه الأطباء الجراحون العرب أمثال أبو القاسم الزهراوى الذى صنف فيه أبوابا فى كتابه عن الجراحة تستحق الدراسة والتجربة .

وختاما :

أرى لزاما علينا أن نفيق من غفلتنا وان نبحث فى تراثنا وان نفيد مما لا يزال يطبق فيعالمنا من هذه الوسائل لانها أسرع فى

الشفاء وليس لها مضار أو آثار جانبية ، كما أنها أرخص فى التكلفة .

لقد صدق فينا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه وراءهم .

لقد آن الأوان أن نعود الى ديننا والى كتاب ربنا وقول رسولنا فنذكر قول الله تعالى :

« ما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

ونذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لقد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وسنتى » .

ونبحث فى قوله صلى الله عليه وسلم : « شفاء أمتى فى ثلاث :

ــ شربة عسل .

ــ وشرطة محجم .

ــ والكى .

... وما أحب أن أكتوى .

أسأل الله العلى القدير أن يجعل من هذه الصيحة دافعا وحافزا الى الاخوة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها الى البحث فى الطب الاسلامى بفروعه المختلفة .

والوقائى والعلاجى .

والنفسى والجسدى .

وأخيرا : الطب بالقرآن .

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا » .

وأن يقوم مجمع البحوث الاسلامية بنشر ما يرد اليه من البحوث تعميما للفائدة .

والله المستعان .

د. على محمد مطاوع

من أعلام الدعوة الإسلامية

الشيخ صالح الجعفرى

داعية الجامع الأزهر الشريف

للدكتور محمد رجب البيومى

انتقل الى رحمة الله داعية الجامع الأزهر الشريف المغفور له الشيخ صالح الجعفرى ، فترك فى مجال الدعوة الاسلامية فراغا كبيرا ، وكنت ودعته بكلمة موجزة فى جريدة الأخبار اليومية لم تشف ما فى نفسى ، لأن خواطرى عنه وعن دعاة الأزهر فى بلاد الاسلام تزدحم وتجيش ، وتتطلب تنفيسا فى مجال يتسع بعض الشىء للاشادة بقوم دعوا الى الله على بصيرة ، ورحلوا الى جوار ربهم دون أن يقوم مؤرخ منصف بتسجيل آثارهم ، على حين نرى مؤلفات متعددة عن مطرب أو مطربة أفسدا الجيل بأكثر ما خلفاه من مبتذلات ! ولكن أجر الله أجل وأوفى فى الدار الآخرة لمن وفى بعهده ، ودعا الى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل بالتى هى أحسن ، أولئك يجزون أجرهم بغير حساب .

شهد الأزهر على مر عصوره أعلاما من أبنائه يجوبون مشارق الأرض ومغاربها ، رافعين راية الاسلام وفى زماننا الأخير أنشأ الأزهر طائفة ممتازة من رجال الوعظ ، حملوا راية الدعوة الاسلامية كتابا وخطباء ومحاضرين ، ومدرسين فى أقسام الدعوة والوعظ ، ولا زلنا نذكر جهود الأساتذة الكبار على محفوظ ومحمود خليفة وعبد ربه مفتاح ومحمد أحمد العدوى وزكى الدين سند وعلى الجربى ، ممن سبقوا الى رحمة الله كما نذكر اليوم الشيخ صالح الجعفرى خاتمة لهذا العهد الحافل بالجهاد ، ولا أعنى أنه خاتمة رجال الدعوة فلا زال لها بحمد الله

أعلامها المخلصون ، وما منهم الا له مقام معلوم .

وفد الشيخ صالح الجعفرى الى الأزهر منذ خمسين عاما ، وقد حكى عن نفسه فى مقدمة كتابه (السيرة النبوية المحمدية) أنه تأثر بالأساتذة الأعلام محمد حبيب الله الشنقيطى ، ومحمد بخيت المطيعى ، ومحمد ابراهيم السمالوطى ويوسف الدجوى والغنيمى من كبار علماء الأزهر ، وأبناء الجيل الحاضر لا يعرفون أن هؤلاء الأعلام الكبار ، وفيهم من أخذ مكانه عن جدارة فى جماعة كبار العلماء — كانوا يلزمون أنفسهم بدروس يومية عند جماعة وأسبوعية عند جماعة آخرين بمساجد القاهرة الكبرى حسبة لوجه الله ، بعيدا عن مجالهم الوظيفى فى الفتوى والقضاء والتدريس المنتظم بالقسم العالى بالجامع الأزهر ، وذلك تقليد كريم يجب أن يعاد ، فتعمر مساجد القاهرة بكبار العلماء ، ليعطوا العلم خالصا لمن يريد ! كان الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى يقرأ صحيح مسلم بشروحه فى الجامع الأزهر بالقاهرة وفى مسجد الخازندار بشبرا ، وكان الشيخ محمد بخيت المطيعى الحنفى مفتى الديار المصرية يشرح حكم ابن عطاء الله السكندرى بعد صلاة العصر بمسجد الامام الحسين فى كل رمضان وفى أيام الجمع فى غير رمضان ، وكان الشيخ محمد ابراهيم السمالوطى يقرأ صحيح البخارى عصرا فى مسجد الحسين ، وسحرا فى مسجد السيدة زينب ، أما الشيخ الغنيمى الذى ذكره الشيخ صالح فلا أدرى من هو ولعل أحد عارفيه يكتب عنه ، وما أظنه المرحوم الأستاذ محمد الغنيمى التفتازانى لأنه كان صغير السن من ناحية ، ولم يكن يدرس فى حلقة علمية جامعة من ناحية ثانية ، وأما الشيخ يوسف الدجوى فكان يقرأ كتاب احياء علوم الدين للامام الغزالى بمسجدى الأزهر والحسين ، وقد وفد الشاب صالح الجعفرى الى القاهرة فوجد هذه الحلقات العامرة بعلمائها المخلصين فأخذ يترصدها فى كل وقت ،

ويعد نفسه ليكون مدرس حلقة وداعية جماعة ، وقد التحق بالدروس المنتظمة فى الجامع الأزهر لتكون بابه الواسع الى الهداية والارشاد ، وثابر وجالد حتى نال شهادة العالمية الأهلية ، وأخذ شهادة مماثلة من كلية الشريعة الاسلامية ، وهو لا يفكر فى منصب ، حتى ساقه الله عفوا دون سعى ، وكأن الله قد حقق له رغبته حين هيأ له أن يكون مدرسا بالجامع الأزهر للعامة فأصبح كما يبتغى داعية هاتفا بشريعة الاسلام ، وشارحا مجيدا لأخلاق السلف وقدوة ممتازة فى السلوك الاسلامى النبيل .

نشأ الشيخ فى أسرة متصوفة ذات نسب شريف ، فشب كما يشب أبناء التصوف الحقيقى ممن يرون فيه جهادا داخليا للنفس حتى تطهر من شوائب الشهوات ، وحتى تستعلى على غرائزها الهابطة ، ناشدة مثلا رفيعة ذات ملذات وجدانية تقوم مقام الرغبات الدنيوية الشائعة ، كما يرون فيه جهادا خارجيا لانقاذ من تورطوا فى الاستجابة الى الرغبات الوضعية حين سيطرت عليهم غرائز السوء فقادتهم الى ضروب من الأنانية والطمع والكيد والنهم ، مع الانغماس فى ملذات تتجدد وتتكرر دون سأم ، ويظل صاحبها أسيرا لحاجاتها القاهرة ، وفيها ما ينهك الجسم ، ويشرد الأمن ، ويقلق البال ! نشأ الشيخ هذه النشأة التى هدته الى قراءة كتب الطبقات لأعلام النابهين من رجال الفضل فى الاسلام ، ومع أنه كان مالكى المذهب ، قد عشق الامام أحمد بن حنبل عشقا بلغ به مبلغ الكلف ، ورأى فى زهده وترفعه عن الرغبات أكبر مثل يحتذيه ، وصدع بالحق كما صدع ، فكم من مسائل شائكة تتعلق بالسياسة المتربصة سئل عنها الشيخ صالح فى حلقات الدرس ، حين عذب المجاهدون فى سبيل الله وتقاذفتهم المنافى السحيقة لا لشىء الا أن يقولوا ربنا الله ! كم سئل الشيخ عن هؤلاء المجاهدين وفيهم تلاميذه وأصدقاؤه فصدع بكلمة الحق ، وخلع عمامته وتوجه الى السماء رافعا كفيه أن ينصر حماة دينه ،

وقد انتقل بالدروس ذات عشية لهذه المناسبة من موضوعه الأصلى ــ وكان فى الزكاة ــ الى تفسير قول الله عزوجل (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب) حيث أفاض الله على لسانه ساعتئذ من روائع المعانى ونفائس الحكم ما أعتقد أنه كان فوق مستواه ، وأن مددا روحيا قد تدفق على لسانه مرتفعا من زواخر قلبه المتلاطمة ، وكم للشيخ فى ساحات درسه من وثبات وجدانية لا ندرى من أين جاءت ! فقد قرأنا ما يقرأ الناس من كتب التفسير ، وصحائف الحديث ، ولكننا لم نر هذا الشرح المتدفق النابض لأحد من سابقيه فى هذه الآية الكبرى وقد رزق الشيخ حلاوة فى الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقى تصدح لا أمام انسان يتكلم ، والصوت الندى الصبيح اذا استلهم القلب العاطفى المتقد جاء يبدع من فنون البيان يبحث عن تأثيرها أساتذة فن الالقاء فلا يهتدون الى أصولها الحقيقية ذات الولوج الناشب فى مطاوى الأفئدة ولفائف الأحشاء والكبود .

والحديث عن أثر هذه النشأة فى حياته الزاهدة يعرفه كل من اتصل به ، وقد عبر عنه تلميذه الأستاذ أحمد الأسوانى حين قال عنه فى جريدة الأهرام يوم ١٩٧٩/٤/٢٧ .

« عاش الشيخ حياته كلها فى غرفة خشبية ضيقة برواق المغاربة بالأزهر الشريف اذ قضى به خمسين عاما من عمره الذى لم يكمل السبعين ، فكان يحرص رغم مكانته العلمية على مشاركة خدم الجامع الشريف فى أعمال النظافة ويحيا حياة البساطة والشظف فلا يزيد طعامه المعتاد على قطعة من الجبن وكسرة من الخبز » هذا ما قاله الأستاذ الأسوانى وأزيد فأقول : كان للشيخ أتباع من كبار الموسرين يعرضون عليه الاقامة فى الشقق الفاخرة ، ويرون فى تنوع

مجرى حياته وسيلة الى استبقاء صحته ، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سببا الى موعظة حسنة فى الدرس اذ يشرح حياة الرسول وقد راودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم ، ثم ينتقل الى سير الصحابة الأعلام فيفيض فى زهد عمر وعلى ويقرأ فى صوت خاشع وفى تمثيل مؤثر حى نابض قول الامام على كرم الله وجهه : « يا دنيا غرّى غيرى ! ألى تعرضت ؟ أم الى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! قد باينتك ثلاثا ، لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وأثرك حقير ، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » !

وكان أتباعه من عشرات المسلمين فى شتى ممالك الاسلام يرسلون اليه الهدايا الصوفية الثمينة فى كل موسم ، فكان يدفع بها الى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة ، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقى وأن يستبدل به أقمشة متواضعة متينة من الكستور أو الدبلان ويعلمه عن عدد الأمتار ، فاذا تم ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من رواد درسه ، وعشاق موعظته ، ليعطى كلا منهم كوبونا ممهورا باسمه ، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من اجابة مريده الفقير عن عدد أسرته ، وصفتهم من الأنوثة والذكورة ، ثم يبعث به الى صديقه التاجر ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدخر ، وقد جاءه مال وفير فدفعه الى أحد مريديه من المقاولين ليقوم بتعمير بعض المساجد المتهدمة فى هذا الحى الاسلامى من قاهرة المعز ، ووجه الشيخ يفيض بالنور ، ويتلألأ بالبشر حين يجيئه صديقه المقاول فيخبره أن البناء قد تم على أحسن نظام ، فيسرع مع أتباعه الى مشاهدة المسجد فرحا مستبشرا ، وكأنه يستعرض قصرا ملكيا أهدى اليه ، ثم ينهض الى أداء تحية المسجد ، وخلفه صفوف من مريديه ، فاذا تمت الصلاة بدأت الموعظة ، واذا انتهت الموعظة بدأ الذكر واذا انتهى الذكر بدأ الشيخ يقرأ السيرة النبوية بصوته الطروب ، فاذا قلت لك ان المغرب

يتصل بالعشاء وان العشاء يشارف السَّحر ، والناس مع الشيخ فى تواجد حنان ، وفى طرب مياد ، وفى أنس لا انقطاع لبهجته ، فاعلم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

نعم كان الناس مع الشيخ فى تواجد وانجذاب فقد أوسع لهم من نفسه ما لم يجدوه لدى سواه ! يجيئه المصاب فى ولده باكيا متفجعا ويظن أن السموات قد انطبقت على الأرض لفقد حبيبه ، فيبتسم الشيخ فى هدوء ، ويقول له : أبشر يا بنى فان الله قد اختارك لابتلائه والكرام مرزءون ! ان رسول الله وهو أحب خلق الله اليه جميعا قد ابتلى بفقد أولاده فى حياته ما عدا فاطمة ! وما كان الله ليبتليه بذلك الا وهو يدخر له أعظم المثوبة فى جنات الرضوان . ويجيئه المحزون لمعصية ارتكبها فيسر اليه بخطئه ؛ فيقول له الشيخ قم واغتسل وقص شعرك وأظافرك وعد وسأخبرك فاذا أتم المذنب ما أشار به عليه خف الى الشيخ فتهلل للقائه ، وقال له أبشر هذه توبة لن تكون مقبولة لدى الله اذا عدت الى فعلتك السابقة ، ها أنت ذا قد نزعت كل أثر فى جسمك للمعصية حين تطهرت وحلقت وتنظفت ، لقد ولدت من جديد ، وسيعفو الله عما سلف ، واياك ثم اياك ، ثم يقرأ قول الله : (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين) فيستمع المذنب مستبشرا ويخرج عازما على الطاعة نادما على الزلة ، وخيال الشيخ الكبير فى خاطره يراوحه ويغاديه ، فهو يعتقد أن الشيخ موضع سره ، وأنه سنده فى النائبات ، وحين كنا نشيع جنازته بالأزهر وقد ماجت الحشود المتراصة خلف نعشه ، رأينا عشرات الباكين من المواطنين البسطاء ، الذين قد وسعتهم نفس الشيخ فأغدق عليهم من مدده النفسى ما كان نعم الزاد لهم فى رحلة الحياة ، وفيهم من ندّ عنه صوابه فأخذ يقول : كنت

سارقا وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول : كنت سكيرا وتبت على يد الشيخ صالح ، ومن يقول لقد تعرضت أسرتى للتشريد لولا عزيمة الشيخ صالح ! وقد انتهت الجنازة ، وخــواطرى توحى الى أن مـن الضرورى الحتم للناس أن يكون لهم من العلماء الصادقين بلاسم شفاء ، ومراوح نسيم تقيهم لفحات الحياة عند الزلل ، وقد كان الشيخ صـالح شـجرة وارفة ذات ظل ، تسقط الثمـر وتحمى من القيـظ وتؤذن بالاسعاد ! فهل من بديل ؟

كان الشيخ صالح قريب الدمعة يخيل اليك حين تسمع وعظه أن غـديرا من الدموع يحتبس وراء حنجرته ، بل انك حين تنظـر الى عينه تجد صفاء نديا كأن خيـالا يثرى للماء يكاد يتقاطر من المحاجر، وهذه النظرات العذبة الصافية تلهم رائيها خشوعا لا يكاد ينجـو من تأثيره دون جهـد جهيـد ، ومن مواقفه التى بلغ التأثير فيها روعته الخالية ، موقفه فى رثـاء أستاذه الكبير الشـيخ يوسف الدجـوى رضى الله عنه ، فقد كنـا طلابا فى كلية اللغة العربية ، ونادى النـاعى منذرا بوفاة الشيخ الكبير ،ومحددا ميعـاد الجنـازة ، فسارعت الى توديعـه ، وكان المشـهد مـؤثرا تتقدمه جماعه كبار العلماء برئاسة أسـتاذهم الأكبـر مصـطفى عبد الرازق ، وحيـن بلغ الموكب نهايته عنـد القبر ، انتفض الشيخ الصالح خطيبا يرثى أستاذه فبـدأ مرثيته مستشهدا بقول رسول الله صـلى الله عليـه وسلم (ان الله لا يقبض العـلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبضه العلماء ، حتى اذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤسـاء جهـالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا) ، ثم أفاض فى ايضاح منزلة العـالم الفقيـد ، وأشاد ببعض مواقفـه الجريئة أمام المبتدعة والملاحـدة ، وكان جـلال المـوقف ، ورهبـة المناسبة، واحتشاد الجموع ممـا جعـل نفس الرائى ممتـدا يتسع ويتدفق ويجيش ، وكان لصـوته الحزين هزة تحرك النفوس وتعصف بالألبـاب ، وما انتهى الخطيب من مرثاته حتى سأل عنه الأستاذ الأكبر

معجبا ثم بادر بتعيينه مدرسا فى الجامع الأزهر ، فأضفى عليه تعيينه الرسمى رسوخا أخرس ألسنة من كانوا يضيقون بسلفية الشيخ لحاجة فى نفوسهم ، ويرونه يتجاوز الوضع المناسب لمثله حين يتصدر للوعظ يوميا دون ملال ، وهم قلة قليلة عرفت خطأها المتحامل فاستكانت الى الحق بعد جموح .

حفظ الشيخ كثيرا من أشعار المتصوفة فجرى لسانه بقصائد عبد الرحيم البرعى وعبد الغنى النابلسى وعمر بن الفارض ويوسف النبهانى ، وكان للامام البوصيرى لديه منزلة أى منزلة حيث عارض كثيرا من قصائده النبوية ، ولا أكتم حقيقة واضحة هى أن الشيخ قد نظم الشعر محاكيا فحسب ، فمدح الامامين الحسن والحسين بقصيدة حاكى بها قصيدة البوصيرى الشهيرة ، وقد تابعه متابعة صارخة حتى ليكاد ينقل كثيرا من ألفاظ البيت الأصلى عند المحاكاة ، وكادت مدحته أن ترد الى أصلها التى صدرت عنه فى كل فقرة ، والشيخ لا يعاب فى ذلك لأنه لم يدع الشاعرية المبتكرة ، ولكن حبه دفعه الى النظم على طريقة شاعر أعجب به ، وأراد أن يسير فى ضوئه ، وهو بعد يكتب للعامة شعره ، ولا يهمه غير أن تجيش نفوسهم بحب الرسول وآل بيته سواء أتى ذلك الحب عن طريق شعره أو عن طريق سواه ، وتقدم للقارىء مثالا من بردة الشيخ الحاكية :

ظلمت نفسى اذا لم تات زائرة
ضريح اهل الهدى والنور والهمم
وشد جدهمو احشاءه وطوى
على الطوى مهجة مملوءة الحكم
وراودتهم ملوك الارض عن ذهب
كيما يكونوا لهم طوعا لامرهم
فالصبر فى حسن والحلم شيمته
يكفيك ماقد جرى من صلح جيشهم
فاق الخليقة فى ايامه فغدا
كانه حيدر فى الناس كلهم
دع انه مرسل وانسب له شرفا
وقلْ له يا بن خير الخلق والامم
فانه بحر علم طاب مورده
كم جاد للناس من علم ومن كرم

وأذكر أنى منذ أكثر من عشرين عاما حاولت أن أقترح على الشيخ قراءة دواوين الشعراء الكبار من أمثال أبى تمام والشريف الرضى

والمتنبى لأرتفع بمعانيه عن المحاكاة المحتذية حيث تمده دواوين الفحول بروح جديدة ، ولكنى وجدت منه اعراضا نافرا اذ يعتقد أن شعر المتصوفة وحده هو الشعر ، وقد قلت له ذات مرة : ان شعر أبى تمام يحفل بكثير مما يبتغى من روائع الاستشهاد المنبرى فى مواقف الوعظ ، فسألنى مستطلعا ، مثل : ماذا ، قلت : مثل قوله فى الحنين :

وقوله :

وانجدتمو من بعد اتهام داركم
فيا دمع انجدنى على ساكنى نجد

ومما هيج البرحاء انى
شكوت فما شكوت الى رحيم

فصاح : أعد البيت الأول فأعدته فأخذ يردده بصوته المغرد ويبكى ، ويقول هذا نفس عال ، هذا نفس عال : ألديه كثير من مثل هذا ؟ ثم سمعته فى اليوم نفسه يردد البيت فى عظة العشاء ، والغريب أنه رفض البيت الثانى بحسه الدينى ، وقال ان الرحيم جل جلاله حى موجود ، والشكوى له وحده واجبة ومفروضة فكيف يزل الشاعر فى قوله ، وهو نقد لا يصدر مثله الا من مثله .

وقد كتب قصة للمولد النبوى يحاكى بها الذائع من الموالد النبوية على نحو ما قال البرعى والبرزنجى والمناوى فلاقت رواجا لدى مريديه ، وان كانت لا ترتفع فى نظرى الى ما أنشد من مثال ، وبخاصة وقدكتبها الشيخ بعد أن أصدر الأستاذ عبد الله عفيفى (المولد النبوى المختار) فى عبارة أدبية مختارة ، وفى سلاسة بيانية ترتفع بهذا اللون الأدبى الى مستوى الأصلاء من البلغاء ! وكل ميسر لما خلق له ، فالشيخ قد خلق واعظا أداته اللسان ، وموقفه المنبر ، والخطباء فى كل زمان يسمعون ولا يقرءون ، وكم سمعنا من خطبة رنانة هزت الأعطاف حين كان للخطابة فى مصر عهد مزدهر فى الأربعينيات وما فوقها ، ثم قرأناها مكتوبة فى الصحف السيارة فلم نجد بها من البريق الخاطف ما أحسسنا به لدى السماع ، ولا يعيب الداعية الا يكون كاتبا

أو شاعرا ، وحسبه أن يجيد فى ميدانه المختار .

آثر الشيخ الخلوة فى أخريات أيامه فكان لا يقابل الناس الا عند الصلوات وفى مجالس الوعظ ، وقد كرمه الله بمواصلة الحج أعواما متتالية حيث كانت الرحلة الحجازية تذهب اسقامه وتجدد نشاطه ، ثم جاءت الرحلة الخاتمة الى رحاب الله، فالتاعت وراءه قلوب ، ودمعت من خلفه عيون ، وتدافعت الجموع مسرعة لوداعه ، وهى جموع متلاطمة لم يدفعها سائق ، ولم يغلظ عليها مناشد ، ولم تهيأ لها أجور معلومة كى ترائى الناس بالتشييع فى الموقف الأخير ، وهو موقف الحق الذى لا باطل فيه ، وانا الى ربنا لمنقلبون .

د . محمد رجب البيومى

نعمة البلاء

يقول عمر ــ رضى الله عنه ــ : ما من بلاء يصيبنى الا وارى لله على فيه اربع نعم :

النعمة الاولى : ان البلاء وقع فى دنياى ولم يقع فى دينى .

النعمة الثانية ان البلاء لم يقع اكبر مما وقع .

النعمة الثالثة : ان الله تعالى صبرنى عليه فاحتملته .

النعمة الرابعة : ان الله تعالى ادخر لى ثواب الصبر عليه .

الحج أشهرٌ معلومات

فضيلة الشيخ أحمد على منصور

ان الدين الاسلامى العظيم ، الذى جاءنا به سيد الأولين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد ، صلوات الله وسلامه عليه ، أعظم الأديان السماوية ، وأشدها ملاءمة للطبائع البشرية ، وانه ليدعو الى الحضارة والمدنية ، ويهدف الى اسعاد الانسانية ، ولقد قام على خمسة أركان أساسية ، بمثابة الأساس المتين ، للبناء القوى ، والصرح الأشم العتيد •

أولها : شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله — وثانيها : اقام الصلاة ، والتشرف بالوقوف بين يدى أحكم الحاكمين ، خمس مرات فى اليوم والليلة ، يناجى المصلى فيها ربه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عذابه — وثالثها : اعطاء الزكاة ، واخراجها لمستحقيها ، رحمة بهم ، وعطفا عليهم ، حتى يتماسك بناء المؤمنين ، ويصيروا فى توادهم ، وتراحمهم وتعاطفهم ، كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر •

ورابعها : صوم شهر رمضان ، الذى تفتح لقدومه الجنان ، وتغلق النيران ، وتسلسل الشياطين ، وتضاعف فيه الحسنات للصائمين ، القائمين المخلصين — وخامسها : حج بيت الله الحرام ، لمن استطاع اليه سبيلا ، لأداء أعمال معينة ، فى زمان ومكان معينين ، على وجه معين ، ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وطلبا لثوابه عز وجل •

ويؤدى الحج فى أشهر معلومات معروفات عند الناس ، لا يشكلن عليهم ، وقد أشار الله جلت حكمته

اليها ، فى الآية السابعة والتسعين بعد المائة ، من سورة البقرة الشريفة ، بقوله عز علاه : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فان خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب » .

وقد اتفق العلماء على أن شوال وذا القعدة ، من أشهر الحج المعينات ، واختلفوا فى ذى الحجة ، هل هو بتمامه من أشهر الحج ؟ أو عشر منه ؟ فذهب ابن عباس ، وابن عمر ، وابن مسعود ، وأبو حنيفة ، والشافعى ، وأحمد ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، الى الرأى الثانى ، وعلى هذا فاشهر الحج عندهم شوال ، وذو القعدة ، والعشر الأولى من ذى الحجة ، وجمعت الأشهر فى الآية الكريمة ، لوجود بعض الشهر الثالث ، فقام فى اللفظ مقام الكل ، أو لأن اسم الجمع يشترك فيه ماوراء الواحد ، وذهب مالك الى الرأى الأول ، وأن أشهر الحج : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة بكماله ، ورجح ذلك ابن حزم ، رحمه الله ، لورود الأشهر مجموعة فى الآية الشريفة ، ولا يطلق على شهرين وبعض آخر أشهر ، ولأن رمى الجمار ، وهو من أعمال الحج ، يعمل بعد اليوم العاشر من ذى الحجة ، وكذلك طواف الافاضة وهو من أركان الحج ، يصح أداؤه فى ذى الحجة كله بلا خلاف بينهم ، فصح أن أشهر الحج ثلاثة كوامل .

وتظهر ثمرة الخلاف فيما يفعل من أعمال الحج ، بعد العيد الأكبر ويوم النحر ، فمن رأى أن ذا الحجة بتمامه من أشهر الحج ، لا يلزم فاعله بدم التأخير ، ومن رأى أن العشر الأولى من ذى الحجة فقط هى تمام اشهره المعلومات ، ألزمه بدم التأخير .

وفى هذه الآية العزيزة : يأمر الله جل جلاله ، المحرمين بالحج فى هذه الأشهر ، بالابتعاد عن الرفث وهو الجماع ، أو ذكره عند النساء ، أو الكلام الفاحش ، كما أمرهم

بالابتعاد عن الفسوق ، وهو المعاصى ، أو السباب ، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « سباب المؤمن فسوق » أو التنابذ بالألقاب ، لقوله تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الايمان » ودعاهم سبحانه وتعالى الى ترك الجدال فى الحج ، وهو المراء مع الرفقاء والخدم والمكارين وغيرهم.

وانما أمر مولانا باجتناب الرفث والفسوق والجدال فى الحج ، وهى واجبة الاجتناب فى كل حال ، لأنها مع الحج أشنع ، كلبس الحرير فى الصلاة ، والتغنى فى قراءة التنزيل الحكيم ، والمراد بنفى هذه الأمور فى الآية الكريمة وجوب انتفائها ، وعدم حصولها ، وبيان أنها حقيقة وجديرة بأن لا تكون .

ثم حث تبارك وتعالى ، على الخير ، عقب النهى عن الشر ، وأن يستعملوا الحسن من الكلام ، مكان القبيح منه ، والبر والتقوى موضع الفسوق ، والوفاق والأخلاق الجميلة ، بدلا من الجدال ، فقال جلّ جلاله : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » فهو سبحانه عالم به ، وسيجازيكم عليه ، لأنه عز علاه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وكان أهل اليمن لا يتزودون للحج ، ويقولون : نحن متوكلون على الله ، ويعيشون مدته كلا وعالة على الناس ، فأنزل الله تعالى فيهم بختام هذه الآية الكريمة : «وتزودوا فان خير الزاد التقوى» أى خذوا معكم ما يكفيكم من الزاد ، فان أحسن ما تتقون به الاستطعام ، وتبتعدون به عن الأبرام ، والتثقيل على الناس ، أو تزودوا للميعاد والحساب ، باتقاء المعاصى والسيئات والمحظورات . فانخير الزاد ، اتقاء هذهالمهلكات، ثم أمر مولانا أرباب العقول السليمة بتقواه ، فقال جل علاه : « واتقون يا أولى الألباب » أى خافوا عقابى ، يا ذوى العقول المستنيرة ، فان من لم يخف عقابى فكأنه لا لب عنده ، ولا عقللديه ، وأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

والصحيح عند جمهور العلماء ، من السلف والخلف ، أن الحج فرض على المستطيعين ، فى السنة السادسة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، من مكة المكرمة ، الى المدينة المنورة ، لأنه نزلت فى هذه السنة الآية السادسة والتسعون بعد المائة ، من سورة البقرة ، وفيها يقول الحق جل علاه :

« وأتموا الحج والعمرة لله ، فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ، ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ، فمن كان منكم مريضا ، أو به أذى من رأسه ، ففدية من صيام ، أو صدقة ، أو نسك ، فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

فقد أمر الله تعالى عباده المستطيعين ، بأداء الحج والعمرة تامين ، بشرائطهما وفرائضهما ، لوجهه عز علاه بلا توان ولا نقصان ، باحرام المحرم بهما من دويرة أهله ، أو بأن يفرد لكل واحد منهما سفرا ، وبأن ينفق فيهما حلالا ، وبأن لا يتجر معهما ، فاذا منعتم من المضى الى اتمام المناسك وأنتم محرمون بالحج أو العمرة ، بمرض أو خوف ، أو عجز وأردتم التحلل ، فيلزمكم ما تيسر من الهدى ، من بعير أو بقرة أو شاة .

ولا تحلوا بحلق الرأس ، حتى تعلموا أن الهدى الذى بعثتموه الى الحرم ، بلغ مكانه الذى يجب نحره فيه وهو الحرم ، فمن كان منكم به مرض يحوجه الى الحلق ، أو به أذى من رأسه ، وهو حشرات الشعر أو الجراحة ، فعليه فدية من صيام ثلاثة أيام ، أو صدقة على ستة مساكين ، لكل واحد منهم نصف صاع من بر ، أو نسك بذبح شاة ، فاذا لم تحصروا وكنتم فى حال أمن وسعة ، فمن تمتع بالعمرة الى الحج ، وانتفع بالتقرب بها الى

الله تعالى ، قبل انتفاعه بالتقـرب الى الحج ، أو تمتع بعد الفراغ من أعمال العمرة ، وانتفع باستباحـة ما كان محرما عليه ، الى أن يحرم بالحج ، فما تيسر مـن الهدى للمتعة ، وهو نسـك يذبح يوم النحر ، ويؤكل منه .

فمن لم يجد الهدى ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى أشهر الحج ، ما بين الاحرامين ، احرام العمرة واحرام الحج ، وسبعة اذا رجع لأهله ، بعد فراغـه من أعمال الحج ، تلك عشرة كاملة ، فى وقوعها بدلا عن الهدى ، أو فى الأجر والثواب ، وهذا بالنسبة لمن لم يكن أهـله حاضرى المسجد الحرام ، وهم أهل المواقيت المكانية ، فمن دونها الى مكة ، لأنه لا تمتع ولا قران لهم ، واتقوا الله فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فى الحج وغيره ، واعلموا أنه تبارك وتعالى ، شديد العقاب لمن لم يتقه .

والحج أفضل الأعمال ، بعـد الايمان بالله ورسوله ، والجهـاد لاعلاء كلمة العلى القدير ، والمبرور منه وهو الذى لا يخالطه اثم ، ليس له جزاء الا الجنة . وفى السنـة النبوية الشريفة :

ان جهاد الكبير ، والضعيف ، والمرأة ، الحج . وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، عـن أم المؤمنين عائشة ، رضى الله تعـالى عنها أنها قالت ، قلت يارسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ فقـال صـلى الله عليه وسلم : « لكن أفضل الجهاد ، حج مبرور » وروى عنها : رضوان الله عليها ، أنها قالت : قلت يا رسول الله ، ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لكن أحسن الجهـاد وأجمله ، الحـج المبرور » قالت عائشـة رضى الله عنها وعن والديها ، فلا أدع الحج بعد اذ سمعت هـذا من رسـول الله ، صلى الله عليه وسلم .

والحجاج والمعتمرون وفود الله تعالى ، ان دعوه سبحانه أجابهم ، وان استغفروه غفر لهم ، والعمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، ومن خرج من بيته ليحج أو يعتمر ، فقد

ضمن العلى العظيم له ، اذا توفاه أن يدخله الجنة ، واذا رده لأهله أن يرده تبارك وتعالى بأجر وغنيمة . والنفقة في الحج والعمرة كالنفقة في سبيل الله تعالى : الدرهم بسبعمائة ضعف .

ولا يجب الحج في العمر الا مرة واحدة ، فان نذره البالغ العاقل المستطيع على نفسه ، وجب عليه الوفاء بنذره ، وما زاد على ذلك فهو سنة وتطوع . فقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر ، رضى الله تعالى عنه ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم ، فقال :

« أيها الناس : ان الله تعالى قد كتب عليكم الحج فحجوا » فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم ولم يجبه ، حتى قالها ثلاثا ، ثم قال صلوات الله وسلامه عليه : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ذرونى ما تركتكم ، فانما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فاذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم واذا نهيتكم عن شيء فدعوه » وبرى الامام الشافعى ، والثورى ، والأوزاعى ، ومحمد بن الحسن من أصحاب أبى حنيفة ، أن وجوب الحج على التراخى ، فيؤدى عندهم فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره ، متى أداه قبل الوفاة ، لأن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، أخر الحج الى السنة العاشرة من هجرته ، صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، مع أن فرض الحج كان فى السنة السادسة من الهجرة النبوية الغراء ، فلو كان الحج واجبا على الفور ، لما أخره صلى الله عليه وسلم ، من السنة السادسة ، الى السنة العاشرة .

ويرى أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد ، وأبو يوسف ، وبعض أصحاب الامام الشافعى ، أن وجوب الحج على الفور ، فاذا أخره من وجب عليه أثم بتأخيره ، واستدلوا

على ذلك بما رواه أحمد ، والبيهقى وابن ماجة ، عن عبدالله بن عباس ، رضى الله تعالى عنهما ، قال : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم يقول : « من أراد الحج فليعجل ، فانه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة »

وفى رواية عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : تعجلوا الحج ـ يعنى المفروض ـ فان أحدكم لا يدرى ما يعرض له » وحمل الأولون ذلك على الندب ، وانه يستحب تعجيله ، والمبادرة به ، متى استطاع المكلف أداءه .

ويشترط لوجوب الحج : الاسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية ، والاستطاعة ، فلا يفرض على الكافر والصبى غير البالغ ، والمجنون غير العاقل ، والعبد والرقيق ، وغير المستطيع ، ولا تتحقق الاستطاعة ، الا اذا كان المكلف صحيح البدن ، مالكا للزاد والراحلة والنفقة ، آمنا على نفسه فى ذهابه ، واقامته ، وايابه ، فان كان عاجزا لمرض أو شيخوخة ، وكان له مال ، أناب غيره ليحج عنه ، وان وجد ما يشترى به الزاد والراحلة وتوفرت لديه النفقة ، ولكنه كان محتاجا لذلك ، لدين عليه ، لم يلزمه الحج حالا كان الدين أو مؤجلا ، لأن الدين الحال على الفور ، والحج على التراخى ، فقدم سداد الدين عليه ، والدين المؤجل يحل عليه ، فاذا صرف ما معه فى الحج ، لم يجد ما يقضى به الدين عند حلوله .

وان احتاج لذلك ، لمسكن لابد منه ، أو خادم يحتاج اليه ، لم يلزمه . وان احتاج اليه لنكاح ، وهو ممن يخشى الوقوع فى الزنى ، قدم النكاح ، لأن الحاجة اليه على الفور ، وان احتاج الى ذلك ، فى شراء بضاعة يتجر فيها ، ويحصل منها على قوته ، وقوت من تلزمه نفقته ، لا يلزمه الحج . ولو أعطاه رجل راحلة من غير ثمن لم يلزمه قبولها ، ان كان المعطى أجنبيا ، لما يتبع ذلك من المنة ، وفى تحملها مشقة ، فان أعطاه ابنه ما يتمكن به من الحج لزمه ، لأنه أمكنه أداء

الفريضة من غير منة • وان خاف المكلف على نفسه من قطاع الطريق أو وباء محقق ، أو خاف على ماله أن يسلب منه ، أو خاف بطش حاكم جائر ، يظلم الحجاج ، ويحول بينهم وبين أداء الفريضة ، لم يلزمه الحج وكان ممن لم يستطع اليه سبيلا •

واذا حج الصبى قبل البلوغ ، لم يجزه ذلك عن حجة الاسلام ، بل يجب عليه أن يحج بعد البلوغ اذا كان قادرا ، ثم ان كان الصبى مميزا أحرم بنفسه ، وأدى مناسك الحج ، والمختار لدى جمهور العلماء : أن الصبى يثاب على طاعته ، وتكتب له حسناته ، ولا تدون عليه سيئات ، لأن القلم مرفوع عنه ، حتى يبلغ • وان كان الصبى غير مميز ، أحرم عنه وليه ، ولبى بدلا منه ، وطاف به وسعى، ووقف به بعرفة ، ورمى عنه • فان بلغ الصبى قبل الوقوف بعرفة ، أو أثناءه فيرى بعض العلماء ، أنه يتم نسكه ، ويكفيه ذلك عن حجة الاسلام ، وذهب الامام مالك وابن المنذر الى أنه لا يكفيه عن الحج المفروض ، لأن احرامه بالحج وقع سنة وتطوعا ، فلا ينقلب فرضا •

واذا حج العبد قبل أن يعتق ، أثيب على فعله ، ولا يجزئه ذلك عن حجة الاسلام ، بل يجب عليه أن يحج حجة أخرى • واذا أعتق قبل الوقوف بعرفة ، أو فى أثنائه ، فهو كالصبى ، فبعض العلماء يرى أنه يتم نسكه ، ويغنيه ذلك عن حجة الاسلام ، ويرى مالك وابن المنذر ، ومن وافقهما ، أن هذا لا يجزئه عن حجة الفريضة ، وعليه أن يحج مرة أخرى ، لأن احرامه فى بدء المناسك انعقد سنة وتطوعا فلا يصير فرضا •

ويجب الحج على المرأة ، اذا تحققت فيها شروط الوجوب السابقة ، ويزاد عليها فى حقها أن أن يصحبها زوج أو محرم ، لايحل له التزوج بها على التأبيد ، أو نسوة ثقات تسافر معهن ، وتكفى واحدة ثقة ، ويرى بعض العلماء : أنه لا مانع من سفرها وحدها ، اذا كان الطريق آمنا •

ومن السنة فى حقها ، أن تستأذن زوجها ، فى الذهاب لحجة الفريضة فان اذن لها خرجت ، وان لم يأذن لها خرجت بغير اذنه ، وليس له أن يمنعها من ذلك ، لأن حجة الفريضة عبادة واجبة عليهـــا ، ولا طاعـــة لمخلوق فى معصية الخالق . ولها أن تعجل بحجة الفريضة لتبرىء ذمتها ، كما يحق لها أن تصلى أول الوقت ، وليس له منعها ، وفى معنى حجة الفريضة الحج المنذور ، لأنه بالنذر وجب عليها الوفاء به ، كحجة الاسلام .

وأما حج السنة والتطـــوع ، فللزوج أن يمنع زوجته منه ، ولا تذهب لأدائه الا باذنه ، ودليـــل المشترطين وجود الزوج أو المحرم مع المرأة عنـــد حجهـــا : ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليــــه وسلم قال : « لا يخلون رجل بامرأة الا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة الا مع ذى محرم » فقام رجل وقال يا رسول الله : ان امرأتى خرجت حاجة ، وقد كتبت فى الغزو ، فقال صلى الله عليه وســلم : « انطلق فحج مع امرأتك » رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

واستدل المجيزون لسفر المـــرأة من غير زوج ولا محرم ، اذا وجدت رفقة مـــأمونة ، أو كان الطـــريق آمنا بما رواه الامام البخـــارى رضـــوان الله عليـــه ، عن عدى بن حاتم قال : بينا انا عند رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقة ، ثم أتـــاه آخـــر فشكا اليه قطـــع السبيل ، فقال : « يا عـــدى هـــل رأيت الحيرة ؟ » فقلت : لم أرها ولكنى أنبئت عنها . فقال عليـــه الصـــلاة والسلام : « فان طالت بك حياة لترين الظعينـــة ـــ المـــرأة فى الهـــودج ـــ ترحـــل من الحيرة ، حتى تطوف بالكعبة ، لا تخـــاف الا الله » .

أحمد على منصور

جمهورية إسلامية !! وكيف ؟؟

للأستاذ محمد كمال السيد

لكلمتي «الجمهورية الاسلامية» بريق تنجذب اليه الأبصار . ورنين تخفق له القلوب . وصور مشرقة تتداعى لها الخواطر والأفكار . ومن الذكريات المجيدة للفتوحات الاسلامية في القرن الأول الهجرى . وكيف تابعت الحكومات في الدول الاسلامية المختلفة تنشر الحضارة الاسلامية في العلوم والفنون . وخاصة التشريعات الفقهية بالقيم الانسانية الرفيعة التي تحفظ كرامة الانسان وترسم له ضوابط علاقته بأخيه الانسان وبالمجتمع الذى يعيش فيه من سلوك ومعاملات بما يحقق السعادة للجميع .

ولا جدال أن تشريع المولى عز وجل هو أسمى التشريعات ـ سواء في العبادات أو المعاملات لتكوين مجتمع قوى سليم مترابط . نواته الجد والعمل في صدق وتراحم وأمانة .

وأول ما يتبادر الى الذهن من هذا التعبير ـ الجمهورية الاسلامية ـ هو اقامة الحدود التي نص عليها القرآن الكريم والسنة الشريفة . مثل قتل القاتل . ورجم الزانية والزاني المحصنين . وجلد غير المحصنين منهما . وقطع يد السارق . والجلد في جريمتي القذف وشرب الخمر . وما لم يرد عنه نص بحد معين فالأمر متروك لولى الأمر أو من ينوب عنه .. ويسمى المحتسب ـ في توقيع العقوبات المناسبة لكل جريمة . وهو ما يسمى بالتعزير .

وإذا كانت اقامة الجمهورية

الاسلامية لا تعنى فى نظر البعض غير هذه النظرة الضيقة لهان الأمر . ففى التشريع المصرى : القاتل يقتل اذا توفر ركن العمد مع سبق الاصرار أو الترصد . كما أن الجرائم التى عقوبتها التعزير المتروكة تقديرها لولى الأمر أو المحتسب . فقد وضع المشرع المصرى العقوبات المختلفة المحددة لكل جريمة بعينها . مثل عدم مراعاة الآداب العامة ، وسلامة المكاييل والموازين ، واشغال الطريق . وغيرها من كل ما فيه اضرار بالغير . كما وضع العقوبات لجرائم الخيانة العظمى والتجسس والرشوة واثارة الفتن وغيرها مما يضر بسلامة المجتمع .

ويبقى أمامنا أربع جرائم مما نص عليه بحدود معينة فى الفقه الاسلامى . وهى السرقة . والقذف . والزنى . وشرب الخمر .

أما عن قطع يد السارق فقد قرأت فى احصائية من سنوات عن تطبيق هذا الحد فى المملكة السعودية أنه خلال أربعين عاما تقريبا لم يطبق هذا الحد الا فى ٥٧ حالة . مما يدل على أن هذه العقوبة أكثر ردعا من عقوبة الحبس . تصديقا للآية الشريفة (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) . ومع ذلك فقد أحيط تطبيق هذا الحد بضمانات . مثل متى يعتبر المال مسروقا يعاقب عليه بقطع اليد ؟ فمن سرق من جيب ظاهر غير من يسرق من جيب داخلى فالأول لا يحد . ولا حد لمن يسرق الثمر من على الشجر . وغير ذلك . ومثل الحد الأدنى لنصاب السرقة الذى يستوجب هذه العقوبة . وهو ربع دينار ذهب . وهذا يحتاج الى ترجمة بالنسبة للعملات الحاضرة . وأيضا الاعفاءات المختلفة مثل سرقة الأب من ابنه . والعبد من سيده . وسرقة المأكول فى عام مجاعة ... الخ وهناك تفصيلات عن حالة العود . واذا كان السارق ذا يد واحدة أو يده الأخرى شلاء وغير ذلك مما يضيق عنه المقام .

والمحاربة ــ أى قطع الطريق ــ أشد اجراما من السرقة . وعقوبتها

فى الشريعة الاسلامية قطع اليد والرجل من خلاف والنفى . أو القتل أو الصلب . ولا شك أن الحد الشرعى أكثر ردعا من عقوبة السجن الحالية . ومن المحاربة السرقة بالاكراه فى المواصلات العامة .

واعتقد أن نسبة اللصوص الذين يجوز تطبيق الحد عليهم لا يمكن أن تزيد على واحد فى الألف من عدد السكان . فمصر ليس فيها أربعين ألف لص بالمعانى المذكورة .

كذلك عقوبة القذف فى الشريعة ــ وهى الجلد ــ أكثر ردعا من عقوبة الحبس الحالية .

أما جريمة الزنى فالفرق كبير بين نظرة التشريع المصرى الحالى ــ وهو يستمد من التشريع الفرنسى ــ وبين الشريعة الاسلامية فى تقييم هذه الجريمة .

فالمشرع المصرى يعتبر هذه الجريمة واقعة على الزوجية . فلا تقام الدعوى العمومية على الزوجة الزانية الا اذا طلب الزوج . وله الحق فى العفو عنها حتى قبل صدور الحكم النهائى عليها . ولا تقام الدعوى ضد الزوج الزانى الا اذا وقعت منه هذه الجريمة أكثر من مرة وفى منزل الزوجية ولا جريمة زنى بين غير المتزوجين بالغى الرشد .

أما النظرة الاسلامية لهذه الجريمة فهى أنها تقع على المجتمع . وفرقت فى العقوبة بين الرجل المحصن . أى له زوجة أو اماء . والمرأة المحصنة أى المتزوجة . وبين غير المحصنين من الرجال والنساء . فعقوبة المحصنين أشد وهى الرجم . وعقوبة غير المحصنين الجلد .

ولكن لخطر هذه الجريمة على كيان الأسرة والأنساب والمجتمع . ولأنها تمس الأغراض مباشرة . وبفرض الستر بقدر الأمكان لحساسيتها . فقد أحاط اثباتها بعدة ضمانات تجعله أقرب للمستحيل . فهى لا تثبت الا بالاقرار أو شهادة الشهود . فمن الأقرار يجب أن يقر المجرم بجريمته أربع مرات . وله أن يعدل عن

اقرار . فاذا عدل فلا يطبق عليه الحد .

أما عن شهادة الشهود . فيجب أن يشهد أربعة رجال بأنهم شاهدوا الفعل نفسه . مع التحقق من شخصية الزانية والزانى . فاذا لم يتكامل عدد الأربعة شهود بأن شهد ثلاثة فقط جلدوا بحد القذف . ولا تقبل شهادة ثمان نساء أو ست نساء ورجل .

ولصعوبة الاثبات . وخوف المبلغ الا يتكامل عدد الشهود فلم تطبق عقوبة الرجم الا فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويذكر لنا التاريخ أنه فى سنة ١٧ هـ فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان المغيرة ابن شعبة واليا على البصرة . وكان يقيم فى دار فيها غرفة بها كوة ـ أى فتحة صغيرة فى الحائط ـ وكانت هناك دار تقابل دار المغيرة فيها غرفة بها كوة أيضا . ويفصل بين الدارين الطريق . والكوتان متقابلتان وأعلى فى مستوى النظر . وكان بهذه الدار المجاورة أربعة رجال من المسلمين يتسامرون . ومنهم زياد بن أبيه ـ وهو الذى استلحقه معاوية فى النسب الى أبيه أبى سفيان بن حرب .

وهبت ريح . ففتحت بابى الكوتين . فقام أحدهم وتحامل على شىء ليوصد باب كوتهم . فرأى المغيرة بين رجلى امرأة . فدعا أصحابه فشاهدوا المنظر . فقال أشهدوا . فقالوا من هذه ؟ فقال هى أم جميل . وكانت من بنى هلال وزوجها من ثقيف . وكانت تغشى الأمراء والاشراف . وقال الطبرى : (تاريخ الأمم والملوك جـ ٤ ص ٢٠٧) : وكان بعض النساء يفعلن ذلك فى زمانها . فقالوا انما رأينا أعجازا ولا تدرى ما الوجه . ثم أنهم صمموا على شخصها حين قامت . فأبلغوا أمير المؤمنين عمر بالمدينة فعزل المغيرة وولى مكانه أبا موسى الأشعرى . واستقدم عمر المغيرة ومتهميه .

فلما قدموا سأل المغيرة . فقال انه كان مع امرأته . وكانت تشبه أم جميل . وشهد ثلاثة بأنهم رأوهما بالفعل نفسه وتحققوا من

شخصيتهما . أما زياد فقال انه رأى المغيرة بين رجلى امرأة . ولم يشاهد الفعل نفسه . ولم يتحقق من المرأة وان كان يشبهها . وبذلك لم يتحقق الاثبات . فلم يوقع الحد على المغيرة . وجلد الثلاثة بحد القذف .

ولم يحدثنا التاريخ بعد ذلك عن توقيع عقوبة الرجم – وهذا على قدر اطلاعى – حتى سنة ١٩١٩ هـ (١٥١٣ م) فى سلطنة السلطان الغورى فى مصر .

فقد ذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن أحد نواب القضاء الحنفى يقال له غرس الدين خليل كان متزوجا امرأة جميلة . وكانت تهوى أحد نواب القضاء الشافعى اسمه نور الدين مشالى .

وصادف أن علمت أن زوجها سيبيت ذات ليلة فى مقام الامام الليث . فأرسلت لعشيقها تخبره أن الجو مهيأ لاجتماعهما . فأرسل لها ما يلزم من المأكول والمشروب والمشموم . وذهب اليها فى المساء . وكان لها جار اسمه شمس معجب بها . وكان راودها عن نفسها فرفضت . فلما رأى نور الدين داخلا عندها ذهب الى خليل فى مقام الليث وأخبره بالقصة . فحضر الزوج وفاجأهما فى الفراش متعانقين تحت غطاء واحد .

واسترحماه ألا يفضحهما فأبى . وأغلق عليهما الباب . وأتى الى دار حاجب الحجاب وأبلغه . فأرسل بالقبض عليهما . وأقر مشالى بالزنى كتابة . ووقع على الاقرار . وشاهد على الاقرار حاجب الحجاب وأحد قضاة الشافعية .

وأمر حاجب الحجاب بضرب الرجل والمرأة ضربا مبرحا . وأركبهما حمارين . وقلبوا وجهيهما الى خلفى الحمارين . وطافوا بهما فى القاهرة الفاطمية والصليبة وقناطر السباع (السيدة زينب) للتشهير بهما . ثم قرروا على المرأة مائة دينار لحاجب الحجاب . فقالت أموالى جميعها تحت يد زوجى . فطلبوا من الزوج المبلغ من أموال زوجته فرفض . فقبضوا عليه حتى يدفع !! وكان للزوج

ولد صغير يقرأ مع المقرئين عند السلطان . فلما قبضوا على أبيه أبلغ السلطان .

فطلب السلطان المحضر الذى به اقرار مشالى . وأحضر القاضى الشافعى الذى شهد فيه . فقال القاضى : أنا ثبت عندى رجمهما . وقال ابن اياس : (فانصاع السلطان لهذا الكلام ، وقصد بذلك اظهار العدل حتى يكتب فى تاريخه أنه رجم من زنى فى أيامه كما وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لماعز وزينب اللذين أمر النبى برجمهما) .. فقال السلطان : احكم برجمهما . فقال : حتى ينفذ لى قاضى القضاة الشافعى . الذى أقر الحكم . فتقرر رجمهما . ولكن تأخر تنفيذ الحكم حيث صادف ذلك اليوم الاحتفال بخروج المحمل بالحجاج الى الحجاز .

وتعصب لمشالى أحد نواب القضاء الشافعى اسمه الزنكلونى . فاستكتب بعض العلماء فتوى بأنه اذا رجع المقر بالزنى عن اقراره سقط الحد . وأرسل الى مشالى بالعدول عن اقراره .

وأنكر السلطان هذا الموقف . فلم يقبل عقله أن شخصا يضبط متلبسا ويقر بجريمته كتابة . ثم يعدل عن اقراره فتسقط عنه العقوبة . فأمر بمجلس يضم قضاة القضاة من المذاهب الأربعة الحاليين والسابقين . وبعض العلماء المشهورين وقتذاك . فأجمعوا جميعهم على أن العدول عن الاقرار يسقط الحد . فاغتاظ السلطان . فأمر بفصل قضاة القضاة الأربعة فى يوم واحد . وهى واقعة ليس لها مثيل فى التاريخ . وظل القضاء معطلا أياما حتى عين غيرهم . ثم بعد أيام من هذا المجلس أمر السلطان بشنق الرجل والمرأة . وهذا وان كان من حق السلطان ولكنه غير حد الرجم . كما أمر بضرب الزنكلونى الذى دار على العلماء بالفتوى . وأمر بنفيه الى الواح . وقيل انه مات من شدة الضرب .

كما بينت المذاهب المختلفة قواعد الاثبات والحدود فى أنواع الشذوذ الجنسى . وهى لا تختلف

كثيرا عما ذكرنا بتفصيل ليس هنا مكانه .

أما الخمر فهى أم الكبائر . ولا نريد أن ندخل فى تفاصيل كيمائية عما هو خمر محرم أو غير محرم . فالقاعدة الشرعية أن ما كثيره يسكر فقليلة حرام . وحد شارب الخمر ثمانون جلدة . ويجب على الدولة تحريمها تحريما مطلقا صناعة وتجارة واستعمالا . دون نظر للاعتبارات الاقتصادية أو السياحية . كما فعلت بالقمار بأن حرمته فى أماكن وأباحته فى أماكن أخرى .

هذه لمحة سريعة عن الجريمة والعقاب فى الشريعة الاسلامية . وبالمقارنة نجد أن هذه الجرائم — ما عدا الزنا وشرب الخمر — معاقب عليها فى التشريع الحالى ولكن بدلا من الحدود الشرعية من قطع وجلد فالعقاب الحبس أو السجن . والحدود الشرعية أكثر ردعا . كما أنه بدلا من التعزير عن الجرائم المختلفة التى لم ترد عنها حدود معينة فى القرآن أو السنة . فقد وضعت عقوبات محددة يلتزمها القاضى . وهذا أكثر ضبطا . كما وضعت عقوبات لجرائم لم تكن معروفة فى المجتمع البسيط فى صدر الاسلام مثل تزييف الأوراق المالية والمحررات العرفية والرسمية وغير ذلك من الجرائم .

وعلى كل حال فالمجرمون بالنسبة للمجتمع أقلية ضئيلة والشرفاء أكثرية كبيرة . ولكن ما يجب أن تقوم عليه الجمهورية الاسلامية هى المعاملات بين الناس . فكل انسان يتعامل مع الغير فى المجتمع فى تجارة أو صناعة أو عمل أو بيع أو شراء أو ايجار أو غيرها من صور المعاملات . وقد جدت أنواع من المعاملات نريد أن نعرف موقف الاسلام منها . لنعرف ما هو الحلال وما هو الحرام من هذه المعاملات ؟

ونذكر على سبيل المثال المصارف .. ودورها كبير ولازم فى العلاقات التجارية بين الأفراد فى الدول المختلفة وبين الدول وبعضها .. وتتقاضى عمولات أو فوائد عن هذه العمليات . وعما تمد به

البعض من قروض . فهل ينطبق عملها على تحريم الربا ؟ وهل المقترض بفائدة لضرورة حتمية من علاج أو وفاة أو زواج الأولاد أو غير ذلك يعتبر مخالفا للشريعة ؟ وكذلك الأسهم والسندات فى الشركات المختلفة . وأعتقد أن هناك رأيا أن الأسهم حلال بحكم أنها رأس مال شريك يتعرض للربح والخسارة ويختلف ربحه من سنة لأخرى . فكأنه من أعمال التجارة . أما السند فحرام لأنه رأس مال دائن بفائدة محددة لا تختلف سواء ربحت الشركة أو خسرت . وفى حالة خسارة الشركة وتصفيتها يسترد صاحب السند مبلغه بالكامل . ثم يوزع الباقى على أصحاب الأسهم . وهذا رأى معقول .

ومن الصور الحديثة فى المعاملات الفوائد التى تدفعها صناديق التوفير بالبريد أو المصارف . تشجيعا للادخار . ولتستغل أموال المودعين فى أعمال مختلفة تعود بربح أكثر من الفائدة التى تدفعها . ثم تزيد هذه الجهات فى التشجيع فتعمل يا نصيب ذا جوائز كبيرة . وأبرز هذه الصور الآن سندات الادخار والاستثمار بأنواعها المختلفة التى يصدرها البنك الأهلى لصالح الدولة .

وكذلك اليانصيب التى تصدره بعض الجمعيات الخيرية مساعدة لها فى أعمالها . فمشترى ورقة اليانصيب يساهم بقروشه القليلة فى هذه الأعمال الخيرية . مع أمل — ولو ضئيل — فى ربح جائزة كبيرة اذا كسبت الورقة .

وكذلك التأمين على الحياة . وعلى عروض التجارة والعقارات وكل ماهو قابل للتأمين عليه . وهو نظام يجمع بشكل عام بين الفوائد الربوية وبين المقامرة ولو فى أضيق الحدود من جهة شركات التأمين . وما نظام التأمينات الاجتماعية التى تقوم به الدولة الا نوع من التأمين على الحياة للمؤمن وأسرته .

ولا زلنا فى الزكاة — وهى من أركان الاسلام الخمسة — تتكلم عن الناقة والجمل والبقرة والشاة .

ولا نفهم لماذا يختلف نصاب الزكاة فى الذهب عنه فى الفضة . وما هو هذا النصاب بالنسبة للعملات الحاضرة . ولماذا الذهب والفضة دون المجوهرات والأحجار النفيسة . ودون ما تزخر به كثير من الدور من سجاد فاخر ونجف كريستال ولوحات زيتية وتحف نادرة مما تقدر قيمته بعشرات بل مئات الآلاف من الجنيهات . وما يملكه البعض فى أنحاء العالم من مناجم تقدر قيمتها بالملايين . وما علاقة الزكاة بما تتقاضاه الدولة من أموال أميرية عن الأطيان وعوائد المبانى . وضرائب على المهن التجارية وغير التجارية ورءوس الاموال المنقولة وضريبة الايراد العام وغير ذلك من أنواع النشاط المختلفة ؟

هذه بعض الصور من المعاملات الحديثة . وغيرها كثير . ويمارس أكثرها جل الناس ان لم يكن كلهم ونريد منهجا اسلاميا واضحا عنها وعن غيرها . ولا تفيدنا كتب التراث من الفقه كثيرا . فهى صور لم تكن معروفة فى العصور الاسلامية الماضية . ولا يبقى أمامنا الا القياس أو الاجتهاد أو الاجماع .

ونقرأ فى الكتب والصحف . أو نرى ونسمع فى التليفزيون والاذاعة أحيانا آراء لعلماء جليلين واسعى الاطلاع . ولكن مع احترامنا وتقديرنا لهم فهى آراء فردية قابلة للمناقشة وغير ملزمة ويجب أن تتشكل لجان فى المؤتمر الاسلامى . أو فى مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ــ وهو بتكوينه يمثل كل الشعوب الاسلامية . وتختص كل لجنة بدراسة احدى أو بعض هذه الصور . وابداء الرأى فيها . وعرضه على المؤتمر أو المجمع لاصدار قراره . ليكون هذا القرار شاملا وملزما لكل الدول الاسلامية .

ويبقى بعد ذلك طلب الجواب عن سؤال الساعة . وهو هل يجوز لدولة اسلامية أن تتحالف أو تتعامل مع دولة ملحدة لا تؤمن بالله ولا بالأديان السماوية ؟!

نسأله تعالى الهداية والتوفيق .

محمد كمال السيد

الإسلام في الفكر الأوربي

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

(٢)

قسم المؤلف كتابه (١) الى احد عشر بابا هي :

١) حياة العرب قبل الاسلام
٢) حياة محمد (صلى الله عليه وسلم)
٣) القرآن الكريم
٤) آثار محمد (صلى الله عليه وسلم)
٥) الانطلاق السياسي للشعوب الاسلامية
٦) اسهام الاسلام في الحضارة العالمية
٧) الفن الاسلامي
٨) الفلسفة والتصوف
٩) مفاهيم دينية في الاسلام وفي اديان الشرق الأقصى
١٠) الاسلام والمسيحية
١١) مستقبل الاسلام

***

وسوف نعرض ملخصا لأفكاره في كل باب على حدة ، مع مناقشته فيما وقع فيه من أخطاء من وجهة النظر الاسلامية :

---

(١) وهو كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » وهذا هو المقال الثاني حول هذا الكتاب ، اما الاول فقد نشر في العدد التذكاري الذي صدر في ابريل سنة ١٩٧٩ .

الباب الأول

حياة العرب قبل الاسلام

تناول فى هذا الباب بحث نقاط عدة :

١ ـ البيئة الطبيعية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية ـ من ناحية المساحة ـ أكبر شبه جزيرة فى العالم ، اذ تبلغ مساحتها ٣١ مليون متر مربع • وتوحى الينا تضاريس منطقة عمان بأنها كانت متصلة بايران ، فانفصلت فجأة فى عصور ما قبل التاريخ بامتداد مياه المحيط الهندى مكونة الخليج • كذلك انفصلت هذه المنطقة عن افريقيا ، عندما تدفقت مياه المحيط نحو الشمال ، فتكون الحاجز الطبيعى الذى يعرف الآن بالبحر الأحمر ، ويمتد على شاطئه الشرقى سلسلة جبال تعرف فى الشمال باسم الحجاز ، أما فى الجنوب ـ أى فى اليمن فيطلق عليها جبل النبى شعيب حيث يبلغ ارتفاعها ٣١٤ مترا عن سطح البحر •

تنتشر الواحات فى صحراء شبه الجزيرة الواسعة ، وتتركز فى المناطق التى تتجمع فيها مياه الأمطار ، مكونة مساحات خصبة صالحة للزراعة• ومن أهم تلك المناطق الخصبة : يثرب (المدينة المنورة) ، فقد ساعد موقعها الجغرافى على انشاء حضارة زراعية بها ، أما منطقة اليمن ـ حيث تهب الرياح الموسمية ـ فقد احتفظت منذ القدم بازدهار التجارة فيها ؛ كما قامت فيها دولة ، فهى تعتبر منطقة المملكة العربية القديمة •

٢ ـ تاريخ الحياة السياسية :

تعتبر شبه الجزيرة العربية ـ بوجه عام ـ الوطن الأول

للساميين ، على الرغم من عدم قيام دليل قاطع على ذلك حتى اليوم ، فقد باعدت الصحراء منذ ما قبل التاريخ بين أبنائها ، وفرقت بينهم بمساحات صحراوية شاسعة ، ومن هنا انتشرت بينهم عقائد أسطورية ، منها أن أسلاف الساميين الذين استوطنوا بلاد ما وراء النهرين فى الألف الثانية قبل الميلاد كانوا من العرب الرحل ، وعلى الرغم من عدم وجود مصادر عربية تثبت هذه العلاقة (لأن المصادر الموجودة لا تتعدى الألف الأول قبل الميلاد) ، فليس لدينا ما ينفى أن الكنعانيين والآراميين رحلوا من البلاد العربية فى ذلك التاريخ ، واستمرت هجرات مجموعات بدوية الى منطقة الهلال الخصيب ، حتى وصلت الى الشاطىء الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، فاستقر بعضها فى فلسطين وسوريا ولبنان .. واشتغل فريق منهم بالزراعة ، بينما استوطن البعض الآخر المدن .

ويقال ان البدو غزوا — بعد الألف الثالثة قبل الميلاد — مدن السومريين — وأسسوا أول مملكة بابلية ، كذلك كان من بين الهكسوس الذين غزوا مصر فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد قبائل عربية .

ألم تكن أرض الفينقيين أيضا عربية ؟ :

لم يكن للمنطقة العربية قبل الاسلام شىء يذكر فى سجل التاريخ العالمى ، فلم تشغل فيه سوى حيز بسيط على هامشه ، لأن الحياة داخل الصحراء كانت حياة بدوية ، متفرقة ، متنافرة ، فلم يكن بين القبائل منافع مشتركة تقوم على أساسها دولة ، حتى الطقوس الدينية فى مكة — حيث كانوا يفدون اليها للحج — لم تجمعهم على طريق واحد ، أو توجههم نحو هدف مشترك . ولذا كانت الحياة مضطربة وغير مستقرة ، مظهرها العام حل وترحال ، ونزاع وقتال .

نعم !! وجدت حياة مستقرة نوعا ما فى الواحات ، كما أقيمت مراكز للتجارة على طول طريق

القوافل ، الا أنها لم تبلغ درجة تكوين دولة .... هذا باستثناء ما قام فى الشمال والجنوب من امارات وممالك ، ففى المناطق المتاخمة للدول ذات الحضارة نشأت مراكز للتجارة ، ساعدت على قيام نوع من نظم الحكم المستقرة ، ففى جنوب فلسطين أسس النبطيون — وهم عرب — مملكة فى القرون الأخيرة قبل الميلاد ، الا أن الامبراطور « تراجان » قضى عليها فى عام ١٠٦ ق . م كما ظلت مملكة « بالميرا » قائمة فى صحراء سوريا حتى عام ٢٧٢ م . وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين قامت مملكة صغيرة على نهر الفرات تدعى « مملكة اللخميين » فى الحيرة ، وكانت متحالفة مع فارس ، وفى منطقة الحدود بين سوريا وفلسطين أقام الغساسنة مملكة تحالفت مع البيزنطيين ، فكانت محمية رومانية .

أما فى داخل شبه الجزيرة فقد تطورت الواحات — خيبر ، فدك ، يثرب (المدينة المنورة) — الى مراكز تجارية ، كانت المحور الحضارى للمنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة حتى القرن السابع الميلادى .

وفى منطقة جنوب شبه الجزيرة الخصبة ، نشأت حضارة فى الألف الثانى قبل الميلاد ، كانت دعائمها ترتكز على الزراعة والتجارة ، فقد كشفت عمليات التنقيب فى تلك المنطقة عن بقايا مدن ، وسدود على مجارى الأنهار ، ومعابد توحى بالشعور الجماعى ، والنشاط فى المجال الاقتصادى ، والغريزة الدينية لشعب هذه المنطقة .. ثم يستعرض أحوال الدولة ، التى قامت فى اليمن منذ القدم ، مبينا الأسر التى تعاقبت على حكمه وعلاقتها بالحبشة ، وبالدولة البيزنطية والدولة الفارسية ، حتى وصل الى حملة « أبرهة » على مكة ، فأرجع هزيمته الى انتشار الطاعون فى جيشه .

حقيقة الأمر فى هذه المسألة ان الله أخبرنا بها فى كتابه العزيز

فقال : (١) ، « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » .

ومفهوم جمهور علماء المسلمين لهذه الآيات : أن جيش الحبشة قدم مكة لهدم الكعبة المشرفة بقيادة « أبرهة » الأشرم الحبشى أمير اليمن من قبل النجاشى ملك الحبشة ومعه الفيل ، فسلط الله عليهم طيرا جاءتهم من جهة السماء جماعات متتابعة بعضها فى اثر بعض هبت عليهم من كل اتجاه ، فرمتهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

غير أن بعض الباحثين يرى أن الذى أصاب جيش « أبرهة » ، انما هو وباء الجدرى ، تفشى بالجيش ، وبدأ يفتك به ، وكان فتكه ذريعا ، لم يعهد من قبل قط . واعتمدوا فى ذلك على رواية لابن اسحاق :

« حدثنى يعقوب بن عتبة أنه حدث : أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام (أى عام الفيل) » .

وعلى رواية عن ابن عباس :

« كان الحجر اذا وقع على أحدهم نفط جلده ، فكان ذلك أول الجدرى » .

وعن عكرمة :

« كانت ترميهم بحجارة معها كالحمصة . فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى ، وكان أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب » .

ويفسر أصحاب هذا الرأى — معتمدين فى ذلك على جزء من الرواية ، وهو ظهور الجدرى ، متجاهلين الجزء الآخر ، وهو رمى الطير الحجارة على جيش « أبرهة » — ظاهرة الفتك بجيش « أبرهة » .

---

(١) سنكتب تعليقنا على آراء المؤلف بخط مميز .

بأن جراثيم الجدري جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصابت العدوى « أبرهة » نفسه فأخذه الروع ، وأمر قومه بالعودة الى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلونه على الطريق ، ومات منهم من مات ، وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ، ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب ، وبلغ « أبرهة » صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ، فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه !!.

وهذه الدعوة تشتمل على عنصرين :

١ ــ ما نزل بجيش « أبرهة » هو وباء الجدري .

٢ ــ أن الريح حملت هذا الوباء من ناحية البحر .

والعنصر الثاني ليس مقبولا .

لا نقلا :

لأن القرآن الكريم أخبرنا بأن الطير رمتهم بحجارة من سجيل فوقع لهم ما وقع .

ولا واقعا :

لأن الريح اذا كانت قد هبت على المنطقة حاملة الوباء ، فلم أصاب جيش « أبرهة » ولم يصب قريشا مع أنهم كانوا في مهب الريح أيضا ؟

وما قيل من أن الأعراض التي ظهرت في جيش « أبرهة » ــ من تساقط الجسم وظهور القيح والدم ــ هي أعراض الجدري . لا يصلح دليلا على أن الريح هي التي حملت الوباء ، وليس كذلك . لأن مرض الجدري ــ اذا سلمنا بأنه هو الذي أصاب جيش « أبرهة » ــ ينتقل الى الشخص بالملامسة ، فالطير رمت الأحجار التي تحمل الوباء على الجيش ، فانتقلت العدوى الى الشخص بمجرد أن مس الحجر جسمه ، ولما كانت قريش بعيدة عن مرمى أحجار الطير ، ولم تقترب من جيش « أبرهة » فقد سلمت من الوباء .

وبهذا يتبين أن من يذهب الى أن سبب هزيمة جيش « أبرهة » هو الجدري فقط ، دون أن يبين مصدره ، أو يرجع مصدره الى الريح التي حملت الوباء ، دون ذكر الطير التي تحدث عنها القرآن الكريم .

فان كان غير مسلم .

فمصدر ثقافته عن الاسلام مؤسسات تربوية فى مجتمع يتخذ من الاسلام موقف المعارض أو المناوىء أو اغفال كل ما يدل على أن القرآن الكريم من عند الله ، وهذا هو حال مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » ، كما شرحنا ذلك سابقا .

وان كان مسلما :

فهو يردد ما يقوله المستشرقون دون بحث أو تمحيص ، وذلك ما نقرؤه لبعض المعاصرين .

٣ ــ السكان :

يشمل العرب طبقا للفصيلة الدموية ــ ما هية أصلية بين الأجناس الشرقية غير أن اتصالهم بجيرانهم الآسيويين منذ خمسة آلاف سنة ــ ذلك الاتصال الذى حدث نتيجة للهجرة بسبب الجفاف الذى كان يصيب مناطق تجمعهم ــ طبع أجسامهم وملامحهم بطابع آسيوى ، والشىء الوحيد الذى لم يؤثر فيه هذا الاتصال فلم يتغير : هو اللغة .

ثم تحدث عن عادات وتقاليد العرب فى حياتهم الصحراوية ــ سواء ما تعلق منها بالأسرة ، أو العشيرة ، أو القبيلة ، والتزام الأفراد بها ولو كلفهم ذلك حياتهم ، وأردف ذلك بقوله : فمن المهد الى اللحد يملى قانون الأجداد عليهم أسلوب حياتهم ؟ .

ــ كان هناك الثأر ونصرة الأخ ولو كان ظالما ، والخضوع الكامل لرئيس القبيلة .

ــ كما كان هناك الالتزام بما يمليه حق الجوار ، والكرم ، والشجاعة ، والفخر بالتحلى بالفضائل التى تعارفوا عليها .

ذهب الى أن العرب لم يكن لديهم الوعى بالشعور العام ، الذى يربطهم جميعا برباط واحد وما أطلقه اليونانيون عليهم بأنهم : « الشرقيون » لا يدل على أن هناك شعورا عاما يجمعهم نحو هدف واحد فى الحياة ؛ بل ربما لا يتعدى معنى هذه الكلمة ــ من الناحية العملية آنذاك ــ الاحساس بالانتماء الى جنس واحد فى مقابل

الاجناس المجاورة لهم . ثم ركز على أن اخلاص العربى للقبيلة ـ والدفاع عنها تحـول فيمـا بعـد الى الانتماء للاسلام والدفاع عنه .

يبـدو من الفقـرة السابقة أن المؤلف قصد بها افهـام القارىء أن الاسلام لم يغـرس فى العـرب التفانى فى الدفاع عنه ، فقد كانت غريزة الدفاع عن المعتقدات ـ أيا كان مصـــدرها ودرجتهـا بين الأديان ـ موجودة عنـده ، وان ما فعله الاسلام لم يخرج عن تحويل هذه الغريزة من الدفاع عن عقائد الجاهليـة الى الدفاع عـن الدين الجديد) .

وهذا فهم غير صحيح ، بدليل أن هنـاك شعوبا لم تشتهر بهـذا الجانب مثـل ما اشتهر العـرب ، ومع ذلك عنـدما اعتنقت الاسلام دافعت عنه دفاعا لا يقل عن دفاع العرب ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الاسلام هـو الذى غرس فيهم حب التضحية فى سبيل اعلاء كلمة الله .

تناول المؤلف توزيع الثروة ، فذكـر أن بعض الأفـراد عاشت عيشة رغدة بما ملكته من مصادر الثروة الممثلة فى التجارة والأنعـام والثمار (ثمـار النخيـل والتـين والبرتقال والليمون) والتوابل . أما السواد الأعظم فعـاش فقـيرا محـروما من الاستمتاع بهـذه الخـيرات التى كان يراهـا أمـام عينيه .

جمعت أخلاق البدوى وصفاته بين الشىء ونقيضه :

فهو يتصف بالصبر والتحمل ، كمـا يتصف بالحساسية البـالغة وسرعة الغضب .

كان جسـمه نحيلا ، ولـكنه شديد التماسك وقوى .

يكفيه فى الصحراء بضع تمرات وقليل من الماء ، بينما يتعبب النبيذ الذى يصنعه بيـده اذا أتيحت له الفرصـة .

ثم تحدث عن الحـرب والاغارة والصـعلكة والسلب والنهب والاغتصاب عند البدوى ، كمـا تحدث عن الصيد والحب ، فذكر

أن جمـال المرأة كان يثير العاطفة عنده ، غير أن هذه الاثارة كانت وقتية ، فلم تدم طـويلا ، وذلك راجـع الى طبيعـة الطقس الذى يعيش فيـه . ولم ينس فى هـذه الفقرة أن يتحدث عن وأد البنات عند العرب صغارا واستيلاء الآباء على مـا يقدمه لهن راغبو الزواج كبـارا .

٤ ــ الـدين :

كانت أهمية الدين عند العربى أقل بكثـير من عادات وتقـاليد القبيـلة ، فطقوسـه مـا زالت فى دائرة الشعوذة داخل اطار تعظيم الأصنام ، صورتها البدائية : أشجار وأحجار يتوسـل بهـا الى كائن آلهى ، أو تعبـد للوقاية من ضرر الكائنات المؤذية ، ولذا قدمت لها الضـحايا للوقاية من الأخطـار المتوقع حدوثها .

استعرض كثرة الأصنام وتنوعها بين القبائل ، واختصاص كل قبيلة بصـنم مخصـوص ، ثم بين أن الطقوس الدينية كانت بسيطة بوجه عام .. تنـاول أهميـة الكعبة ، فذكر قصة بنائها وتعظيم العـرب لها وشدهم الرحال اليها كل عام ، وتحريم القتال فى أشهر الحج مـا يتيح لهم اللقاء فى جو أخوى بعيد عن المشاحنات والمناوشات . وفى هذا الصدد تحدث عن قصة التقاء آدم بحواء على جبل عرفات بعـد هبوطهما من الجنـة ، وعن الحجر الأسود ، وعن مكانة ابراهيم عليه السلام بين الشـعوب السامية ، اذ هم يعتبرونه الأب الأكبر ، ففى كل مكان من عالم الساميين القديم توجـد دلائل على تعظيمـه ، ففى دمشق يعتبر أول الملوك ومؤسس المدينة ، وكان الأدوميون الوثنيون فى شمال مدينة حبرون (الخليل) يعبدونه ، والصابئون عبدوا الاله « ابو روم ABU-ROM » وعنـدهم فى مدينتهم « حـران » ــ مكان اقامـة ابراهيم ــ معبـد أسود ، مكسو بقمـاش أسود ، وفيه حجر أسود يتوجهون اليه فى صـلاتهم .

لعـل قارىء الكتاب يفهم من هذا ــ وهـو ما قصـده المؤلف

بالتأكيد – أن انتشار بعض معالم الكعبة بين الشعوب السامية – ومنهم وثنيون – يدل على أنها ظاهرة بشرية ، لا علاقة لها بالوحى السماوى ، .. خضعت لقانون التطور – ذلك الذى سيطر على العقلية الأوربية فى العصر الحديث ، وحاول بعض العلماء تطبيقه فى مجال الأديان أيضا .

والدليل على خطأ هذا الرأى أن الانتشار وحده ليس دليلا قاطعا على صحته ، لاحتمال أن هذه الشعوب كانت واقعة تحت التأثير الروحى للكعبة ، لمكانتها بين العرب قاطبة ، فدفعهم هذا الى محاكاتها فى أقاليمهم ، فاذا أضيف اليهما أخبر به الوحى عن تحديد البقعة الطاهرة لابراهيم لاقامة البيت ، رجح أن الكعبة وما حولها .. وما يقام فيها من شعائر ، هو تحديد من السماء ، غير العرب فيه قبل الاسلام ثم جاء القرآن الكريم فصحح ما غير ، فاستقام الدين كله لله .

كان « الاله هبل » سيد الكعبة فى مكة ، فقد احتل هذه المكانة نتيجة اعتقاد العرب فى اله أكبر يلتف حوله آلهة أصغر منه ، ينفذون أوامره ، وهكذا نما عدد الآلهة المساعدين . ويرجع انتشار تأليه الأصنام بين العرب الى ما قبل ظهور محمد بزمن طويل . ذلك أنهم اعتقدوا فى وجود الله . وأنه فى مكان سام لا يمكن الوصول اليه ، ولا توجد صلة تربطهم به . ولذا فقد وجب البحث عن وسيط ، فوجدوه فى هذه الأصنام . ثم تحدث عن اعتقاد العرب فى أن الأصنام تحميهم وترشدهم وأن حمايتها تعم الجميع ، حتى الذين ينزلون ضيوفا عندهم .

كلما زادت سطحية الطقوس الدينية حول الأصنام وضوحا عند العربى ، ازداد قربا من الايمان بوحدانية الله ، ذلك الايمان الذى كان يربحه نفسيا ، نما الاعتقاد بالواحد الأحد بجانب عبادة الأصنام ، وعندما أتى محمد كان العربى على استعداد لاعتناق مبدأ التوحيد .

يبدو للقـارىء أن المؤلف واقع تحت سيطرة مؤثرات فكرية سادت فى بيئته ، فهو يحاول تطبيق مناهج البحث الحديثة فى أدلتـه ، ولكنه لا يستطيع التخلص من رواسب الماضى الثقافية فى مجتمعـه تجـاه الاسـلام ، فيقـع فى الخطـأ ، ذلك أنه أراد أن يشرح الظـواهر العقيدية فى المجتمع الجـاهلى فى ضوء نظريات تحول المجتمعات التى سيطرت على جميع مجالات البحث فى العصر الحديث ، اذ من المسلم به عنـد العلمـاء أن الظـواهر الاجتماعية الجديدة تنمو ـ اذا هيئت لهـا الظـروف ـ شيئا فشيئا ، الى أن تسـود بعـد أن تقضى على ما سبقها من ظواهر ، وقـد ذهب المؤلف طبقـا لهـذه القاعدة الى أن عقيـدة التوحيـد نمت فى العصر الجاهلى ، وازداد نمـوها فى العصر السابق لمحمـد ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ مباشرة .. الى أن صدع بدعوته ، توجد الجو مهيـأ لفرض هـذه العقيدة على الجميـع .. أى أن الاسلام ظاهرة اجتماعية ، أكملت سلسلة من التغـيرات فى هـذا المجـال .

وغاب عنه فى هذا القياس :

- أن الحنفاء كانوا أفرادا يعدون على أصابع اليد الواحدة ، فهم لم يمثلوا ظاهرة .
- أن عقيدتهم لم تكن واضـحة المعالم ، والاسلام جامع شامل لكل عناصر التوحيـد ، فهـو ليس سلسلة لا حقة بنيت على سابقتها .
- أن الغالبية العظمى من العـرب تمسكت بالأصـنام ، ودافعت عنها حتى الموت ، مما يدل على أن الحنفـاء لم يكن لهم أثر **يذكر فى المجتمع .**
- أن من طبيعة الظواهر الاجتماعية التكرار على امتداد التـاريخ زمنا ، أو على اتساع رقعـة البسيطة مكانا ، وقد حدثنا التـاريخ عن وجـود هـذا التكرار فى مجـال الحضـارة والمدنية ، أما فى مجال العقيدة

فلم توجد ظاهرة ـ بالمعنى المفهوم عند علماء الاجتماع ـ تشبه الاسلام لا فى القديم ، ولا فى الحديث . وهذا يدل على أنه وحى سماوى أنزله الله على محمد ، كما أنزل على موسى وعيسى والنبيين من قبله .

كل هذه العناصر :

تنفى :

أن يكون الاسلام مرحلة فى سلسلة الظواهر الاجتماعية .

وتثبت :

أنه وحى من السماء ، اشتمل على نظام كامل لاصلاح المجتمع الانسانى ، نظام لم يؤسس على ما سبقه من عادات وتقاليد المجتمع الجاهلى ، ولم يكن تطورا لما سبقه ، بل أنزله العليم الخبير .

تناول حديثه عن الأديان الأخرى فى الجزيرة العربية اليهودية والنصرانية ، فذكر أن اليهود الذين عاشوا بين العرب كانوا يتحدثون اللغة العربية ، واستقروا فى مناطق ، فلم يكونوا رحلا مثل العرب ، واشتغلوا بالتجارة والزراعة ، وصناعة الحلى . هذا الاستقرار بالاضافة الى التمسك الشديد بالعقيدة ، جعل اليهود منعزلين عن العرب ، فلم يفكر أحد من البدو أن يعتنق اليهودية . وذلك يخالف الوضع بالنسبةللنصرانية ، فقد اعتنقها بعض العرب فى الشمال ، ولو لم يظهر الاسلام لانتشرت فى الجزيرة العربية . أما المبشرون فقد جابوا المنطقة ـ العراق وسوريا والحبشة واليمن ـ يدعون الناس الى الدخول فى المسيحية ، وقد أحسن الاستماع اليهم بعض القبائل ، فكانوا يعظون فى الأسواق دون أن يمنعهم أحد .. ثم أعطى صورة مفصلة عن الأديرة والكنائس التى أقيمت فى الصحراء ، وذكر أن تأثير النصرانية على الحنفاء كان كبيرا ، غير أنه مال الى أن تأثيرها على الاسلام لم يكن مصدره اتصال العرب بالمناطق المسيحية المجاورة ـ عن طريق التجارة ـ فقط ، بل يرجع أيضا الى الحنفاء الذين كانوا يقرأون كتبها .

يفهم المرء عندما يقرأ هذه الفقرة أن المؤلف يعتقد أن المسيحية ـ وكذلك اليهودية ـ كانت من المصادر ، التى أمدت محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعقيدة التوحيد . ولا يخفى خطأ هذا الرأى على من عنده المام بسيط بمفهوم التوحيد فى الأديان الثلاثة ، اذ بينما يقرر الاسلام أن الله واحد فى ذاته وصفاته ، ليس كمثله شىء ، نرى المسيحية تقول : ان الله ثالث ثلاثة . واليهود يصفون الله فى الكتاب المتداول بينهم بأوصاف لا تليق به سبحانه وتعالى . فماذا أخذ الاسلام منها ؟ هل أخذ التثليث ..؟ القرآن ينكره ، بل يهدد من يعتنقه بالعذاب الأليم :

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم » (١) .

وهل وصف الله فى القرآن الكريم بمثل ما جاء فى توراة اليهود ـ المتداولة بينهم ـ من أن الله عز وجل تصارع مع يعقوب ، فضرب به يعقوب الأرض (٢) . ان التوحيد الذى دعا اليه الاسلام لا نظير له ، لا بين العرب ، ولا عند اليهود والنصارى فى كتبهم المقدسة ، فكيف يعقل أن تكون المسيحية ـ أو اليهودية ـ مصدرا من مصادر الاسلام !!!!

٥ ـ الشعر :

كان الشعر هو القاسم المشترك بين العرب جميعا ، لأنه صيغ بلغة تفهمها كل القبائل ، مهما اختلفت لهجاتها ، ولذا كان بمثابة الرباط بينها حيث غاب الدين الذى يربط بين الناس ، كما كان سجلا لأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فهو وعاء حفظ تاريخهم .

حلل أخلاق الشعراء وصنف رحلاتهم بين القبائل منشدين بالمدح

---

(١) المائدة : ٧٣

(٢) سفر التكوين ٣٢ : ٢٤ ـ ٣٠

تارة وبالذم تارة أخرى ، كما تناول موضوعات الشعر بالتحليل مثل : الفخر الذاتى (الشجاعة ، الشرف ، الوفاء ، الحب) مدح القبائل (الاشادة بالشجاعة ، الثأر من الأعداء ، الكرم) والتغنى بالمعارك التاريخية .. و... و... الخ .. ثم بين مركز القبيلة حين يظهر فيها شاعر ، ومدى احتياج العرب الى هذا النوع من الثقافة ، نظرا لأن الغالبية العظمى أمية ، لا تعرف القراءة والكتابة ، فان أول كتاب ظهر بين العرب هو القرآن الكريم .

الباب الثانى
سيرة الرسول (1)
صلى الله عليه وسلم

يشتمل هذا الباب على :

١ ـ مشاكل السيرة :

ان التقاليد الأوربية الضاربة بجذورها فى أعماق التاريخ تجعل من الصعب علينا أن نلتزم الحياد فى بحث سيرة (محمد صلى الله عليه وسلم) ، فتأثير المسيحية متغلغل فى كل جوانب مجتمعنا ، لدرجة لا تمكننا من الفصل بين حياته ، وبين رسالته الدينية ، لأن هجوم بعض النقاد على القرآن ـ الذى هو دستور الحياة للمسلمين ـ أقل بكثير من الهجوم على سيرة محمد ، ومقصدهم من ذلك افهام الأوربيين أن من تكون حياته على هذا النحو ، لا يمكن أن يكون جادا فى دعوته الناس الى دين صحيح .

ساد هذا الرأى ـ ولا زال ـ بين كثيرين ، بل وصل الأمر الى أكثر من هذا ، فقد وصفوه صراحة ـ دون تورية ولا تكنية ـ بأنه محتال وسفاح وشهوانى . فالحقد السياسى ـ الذى نتج عن انتشار الاسلام ، وسيطرته على كثير من مناطق العالم ـ والتعصب الدينى

(1) عنوان الباب فى الكتاب : « حياة محمد » .

دفعا هؤلاء الكتاب الى البحث عن الجوانب المظلمة لاستخدامها فى وقف المد الاسلامى ، فوجدوا نقطة بداية هذا الخط فى حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — ، فاستخدموها — كدليل على أن الاسلام لا يصلح لشىء — للتنفير منه .

ولكن : ألا يتعارض هذا الموقف تعارضا مباشرا مع الحقائق المقررة لمفهوم الحياة المسيحية ؟ اذ يعتقد البعض — اعتقادا جازما مستندا الى نصوص عقدية — فى صك غفران فى يده ، ويستغنى بذلك عن العقيدة الحية ، التى تبعث الحياة فى كل شىء !!!

فلكى نصل الى الحقيقة فى حياة محمد ورسالته ، ينبغى أن نقبل على البحث بعقل متفتح ، وقلب صاف ، معرضين عن الزعم الباطل المسبق ، والوهم الذى لا أساس له ، مدققين فى الروايات التى تروى عنه ، حذرين فى تقييم كل ما يعرض علينا . قد يكون من غير الممكن على الغربى المسيحى تحقيق هذه المثالية ، ولكن الجهد الصادق فى هذا المجال سوف يكون خطوة أولى على الطريق ، تتلوها خطوات ، خاصة وأن جو البحث فى عصرنا هذا — حيث تقاربت المسافات — أنسب وأسهل مما كان عليه الوضع فى القرون الوسطى ، اذ يعيش بيننا كثير من المسلمين ، مما يجعلنا لا نعتمد على الأبحاث المسيحية فقط ، بل نتصل بالمسلمين مباشرة ، فنسألهم ونناقشهم ، فيما يتعلق بدينهم ونبيهم ، واعتقد أننا بهذا سوف نمزق أساطير ألف ليلة وليلة — التى حيكت طول الاسلام — ونسلط الأضواء على الحقائق السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية . وينبغى الا ننسى أيضا أن كثيرا من المسلمين يبالغون فى تعظيم نبيهم ، فيدفعهم ذلك الى تصوير حياته تصويرا يقرب من الخيال الموجود فى قصص الف ليلة وليلة ، على الرغم من أنه أكد أكثر من مرة أنه بشر ، لا يستطيع أن يأتى بكل ما يطلبون من معجزات .

اذا كان المؤمن بالمسيحية يهتم

بالطريقة التى خرج بها الجزء الناسوتى لعيسى من عالم الأحياء ، لأنه يؤمن بالعهد الجديد ، ويعتقد فى مخلصه !!! فانه سوف يهتم أكثر — اذا أتيحت له الفرصة — بحياة محمد الخاصة .

ولما كان فى هذه الحالة لا يشعر برباط يربطه به — فربما تكون رغبته منصبة على معرفة ما اذا كان محمد قد عاش متدينا مثل عيسى — فسوف تكون هذه المقابلة خاطئة ، لأنه يؤمن بعيسى ، وينفذ ما ورد عنه دون اعتراض ، بينما يشك فيما يسمعه من أخبار محمد المتعلقة بالوحى ، على الرغم من أن الانجيل اعترف بوجود أنبياء آخرين . وهذا هو مصدر كثير من الأحكام الخاطئة عن الاسلام .

هناك خطر آخر على عدم التحيز فى البحث ، ألا وهو : عدم التعمق ، فقد شاعت أحكام كثيرة بنيت على أدلة غير كافية — على الرغم من سهولة الوصول الى كل المصادر الموجودة فى عصرنا الحاضر — مما جعل الفهم الخاطىء يسود جبهة عريضة فى مجتمعنا ، فشاع سوء التفاهم الذى ينمى التناقضات الظاهرية بيننا وبين المجتمعات الاسلامية . وليس من السهل على الباحث الذى يشعر بالمسئولية أن يتصدى لهذا التيار ويوقفه ، لأن المهتمين بنتائج هذه الابحاث قلة قليلة من الناس . ولكن ما يعزينا ويدفعنا الى الاستمرار فى هذا الطريق ، هو أن المعرفة القائمة على أساس متين ، سوف تنتشر بمرور السنين شيئا فشيئا ، الى أن تصبح من المسلمات التى يؤمن بها الناس .

٢ — طفولة وشباب :

تتصل حياة محمد بالمجتمع القبلى العربى القديم ، هذه حقيقة ، ينبغى على المرء أن يضعها نصب عينيه ، حتى يتجنب أى خطأ فى الحكم ، فلم تكن الحياة هناك ذاتية فردية ، بل احتل الفرد مكانا معينا فى الأسرة والعشيرة والقبيلة .

ثم تناول المؤلف قريشا ومكانتها بين القبائل ، وبنى هاشم ووضعهم فى قريش واستعرض أحداث

السيرة النبوية ، ابتداء من الحديث عن عبد المطلب وعن عبد الله وآمنة •• مارا بموتهم وكفالة أبى طالب له ، ورعى النبى الغنم لأهل مكة ، ورحلتــه الى الشام ، وزواجـه بالسيدة خديجة رضى الله عنهــا وأولاده منها ، فلم يخرج فى هذا عما جاء فى كتب السيرة ، غير أن هناك ثلاث مسائل ينبغى الوقوف عندها لتتضح الحقيقة •

المسألة الأولى :

حادثة شق الصــدر :

ذكر المؤلف هذه الحادثة كمـا وردت فى كتب الســيرة ، غير أنه ذهب الى أنها أسطورة ، والى أن الدافع الى ظهـورها فى المجتمـع الاســلامى ، هى الآيــات الأربع الأولى من سورة الانشراح •

ونحن المسلمين لا نوافقــه على أنها أسطورة ، لأن كتب الســيرة كلهــا ذكرتهــا ، فمن المستبعد أن يجمع كل هؤلاء على الباس أسطورة لباس الحقيقة ، وهم الذين كانوا يدققون ويحققون فيما يروون من أخبار •

وانكار بعض علماء المسلمين فى العصر الحديث لهـذه الحادثة ، اســتنادا الى أن ما ورد فى كتب التاريخ لا يعد من الحقائق العلمية المؤكدة ــ وهو ما دفع المؤلف الى اعتبــارها أسطورة ــ لا يعــد مطعنا يدخل منه أعــداء الاسلام للهجوم عليه ، لأنهــا لا تتعــلق بعقيدة ، وليس لها صلة بتعــاليم الاسلام المفروضة •

أما ادعــاؤه بأن الدافــع الى ظهورها ، هو وجود الآيات الأربع الأولى من سورة الانشراح ، فلا يقوم على دليل مستوف الأركان ، ذلك أن الباحث ينبغى ألا يعتمد فى بحثه الا على ما يذكــر فى الكتب المعتمدة ، لا على ما كتب فى عصور الانحطاط الفــكرى فى المجتمــع الاسلامى ، ولا على ما كتبــه غير المتخصصين ، وما أكثرهم فى مجال الاديــان • ولم يـربط المفسرون المتخصصون بين قوله تعالى :

« ألم نشرح لك صــدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ورفعنــا لك ذكرك » • وبين

فى تصيرهم لهـذه الآيات على أن حادثة شق الصـدر ، بل أجمعوا الله منّ على محمـد ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

بأنه أزال الحقد من نفسه وأودع فيها هدى ومعرفة وايمانا وفضائل وعلوما وحكما .

وبأنه خلصه من دنس الجاهلية وفسادها فى نشأته .

وبأنه خفف عنه ما أثقل ظهـره من أعبـاء النبـوة والرسالة حتى يقوم بها ويبلغ رسالة ربه .

وبأنه رفع شـأنه باختيـاره للرسالة .

وهى نعم تدل على أن الرعـاية الالهيـة ستصاحبه .

ولا نجد ربطا بين هـذه الآية وبين الحـادثة الا فى كتب لا وزن لها ، ولا يعتمد عليها فى بحث علمى له قيمة ، وعليه فأى نتيجة تترتب على الأخذ من مثل هـذه الكتب لا قيمـة لهـا فى نظـر البـاحث المدقق .

المسألة الثانية :

زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

فقـد روى المؤلف أن السـيدة خـديجة سقت أباها خمـرا حتى أسكرته لتنتزع منه الموافقـة على زواجها بمحمد بن عبد الله .

وأمانة البحث العلمى تحتم عليه الا يقتصر على رواية واحدة فيمـا وردت فيه عدة روايات ، فقد جاء فى كتب السيرة :

أن خـويلدا (والد السـيدة خديجة) أبرم هذا الزواج وهـو سكران ، فلما أفاق أنكر ذلك ، ثم رضيه وأمضاه ، وفى ذلك يقول راجز من أهل مكة :

لا تزهدى خديج فى محمـد
نجم يضىء كاضـاء الفـرقد

كمـا ذكرت رواية أخـرى أن خويلدا كان اذ ذاك قد هلك ، وأن الذى أنكح خديجة رضى الله عنهـا هو عمهـا عمرو بن أسد ، كمـا يقال أيضا : أن الذى انكحها هو أخوها عمرو بن خويلد (١) .

---

(١) راجع : السـيرة النبـوية لابن هشـام « تحقيق : مصطفى السقا وآخرين » الطبعة الثانية ١٩٥٥ م ص ١٩٠ .

فليس فى الرواية الأولى ما يفيد أن السيدة خديجة رضى الله عنها سقت والدها الخمر لتنتزع منه الموافقة كما ذهب الى ذلك المؤلف ، ومن المحتمل أنه شرب كعادة العرب آنذاك عندما يقام احتفال ، ولا شك أن خطبتها مناسبة تدعو الى الشرب ، فأكثر والدها منه ، الى أن جاءت لحظة الموافقة الروتينية بعد القاء كلمات الخطبة ، كانت الخمر قد أسكرته ، فالموافقة الضمنية سبقت سكره ، وعليه فلا مجال هنا للطعن .

هذا اذا سلمنا بصحة هذه الرواية ، ولكننا اذا التزمنا بمبادىء البحث العلمى لا نستطيع ذلك ، لأن هناك روايتين أخريين ، تدلان على أن خويلدا لم يكن على قيد الحياة ، عندما تزوجت السيدة خديجة محمداً بن عبد الله ، مما يجعلنا نشك فى الرواية الأولى . برمتها ، وهذا يسد المنافذ التى يريد أعداء الاسلام المروق منها للطعن بأى كيفية . فان وجدت عندهم الرغبة الصادقة فى التزام قواعد البحث العلمى ، مهما كان نوع النتيجة التى يوصل اليها ، فيجب أن يلزموا الصمت ازاء هذه الحادثة ، فلا يتخذونها مادة للتشهير .

المسألة الثالثة :

أمية محمد صلى الله عليه وسلم :

من المسلم به أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وظل كذلك حتى انتقل الى ربه ، غير أن المؤلف ذكر أن بعض المستشرقين المحدثين يرون أنه تعلم القراءة والكتابة ، وهو كبير ، عندما اشتغل بالتجارة ، الا أنه لم يعرف لغة أجنبية ، ومن هنا فقد أخطأ فى النقل عن الأديان الأخرى .

هذا ادعاء لا وزن له ، ولولا الخشية من تأثيره على بعض المسلمين الذين لا صلة لهم بالدراسات الاسلامية المتخصصة لأهملناه :

فمن القواعد الأولية فى البحث العلمى أن يستند الرأى الى دليل .

فأين دليل هؤلاء المستشرقين ؟

ان قالوا : مصادر اسلامية .. فقد افتروا كذبا . اذ لا يوجد البتة مصدر واحد – مهما كانت قيمته ومركزه فى مجال البحث العلمى – يمكن أن تجد فيه أدنى اشارة الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم القراءة والكتابة وهو كبير ، بل العكس هو الثابت ، اذ أجمعت المصادر كلها على أنه ظل أميا طول حياته وأكدت ذلك .

وان قالوا : مصادر غير اسلامية ، فالرد على ذلك من وجهتين :

الأولى : كيف يتيح عالم لنفسه أن يعتمد على مصادر الخصم للوصول الى نتيجة سلبية ، خاصة وأن الخصم غير حيادى ؟

الثانية : لم يذكر المؤلف تلك المصادر التى أعتمد عليها هؤلاء المستشرقون حتى نقيمها ، ومن المؤكد أنه لا يوجد مصدر واحد أيد هذا الادعاء ، باستثناء بعض النتائج التى ذكرها أمثال هؤلاء المستشرقون ، اعتمادا على افتراضات ، وهى لا تؤدى الى حقيقة علمية ، بل الى تخيلات يظنها الباحث المغرض حقيقة ، بينما هى لا تخرج عن دائرة الأساطير التى سيطرت على مجال البحوث الدينية فى العصور الوسطى .

أما ادعاؤهم بأنه أخطأ فى النقل من المسيحية واليهودية ، فيكفى للرد عليه أن الانسان الذى لم ينل حظا وافرا من الثقافة يستطيع أن يتبين خطأ هذا الادعاء ذلك أن النظام المنقول – فى جميع فروع النشاط الانسانى – لابد أن يحتفظ ببعض صفات المنقول عنه ، مهما عدل فيه وغير ، فأين هى سمات المسيحية واليهودية فى الاسلام ؟

لقد أنفرد الاسلام فى العقائد والشرائع بالأصالة وخالف ما ورد فى الكتب الموجودة عند اليهود والنصارى .

ففيما يتعلق بالاله يقول أحد العلماء الأوربيين :

« الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا ، أو ما الى ذلك من الاشكال .

أما المسيحية فان لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة ، الى لحية بيضاء مرسلة مهملة ، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ، ونسمع القوم يصيحون « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم ، وهم ينظرون الى زمر الأبدية الدائبة ، وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة .

كذلك « يا هو » الذى يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى ، فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة ، وكذلك تراه فى متحف « الفاتيكان » وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما « الله » فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن ، فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجرى به ريشته ، أو ينحته أزميله ، ذلك لأن الله لم يخلق على صورته ، وتعالى سبحانه ، فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد » (١) .

وفيما يتعلق بالعبادة : فمختلفة كل الاختلاف ، فصلاتنا ليست كصلاتهم ، ومناسك حجنا تختلف عن مناسكهم ، وقواعد زكاتنا لا تتفق مع ما يلتزمون به فى هذا المجال ، وصيامنا على النقيض من صيامهم .. فكيف يعقل أن يكون محمد قد نقل عن اليهودية والنصرانية ؟

والصحيح أن يقال : انه صحح دين الله الذى حرفوه ، وبين شريعته التى بدلوها وغيروها (٢) .

---

(١) اوربا والاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ـ المكتبة العصرية ص ٧٧

(٢) للمزيد من معرفة الاحكام ،التى خالف فيها الاسلام ما جاء فى كتب اليهود والنصارى الموجودة بين ايديهم ، اقرأ كتاب : « بين الاسلام والمسيحية » . تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة ـ الناشر : مكتبة وهبة .

٣ ــ النبوة :

هيأ قيام السيدة خديجة بأعمال التجارة الوقت لمحمد للتفكير فى النواحى الدينية ، فهاله ما عليه القوم من عبادة الأوثان ، فاتجه الى عبادة الله وحده . وساعده على ذلك بعض العوامل التى وجدت آنذاك ، منها ما كان عليه الحنفاء من انصراف عن الأوثان ، ومحاولة البحث عن الحق ، ومنها ما سمعه من اليهود عن التوحيد عندما كان يزور أقاربه فى المدينة .

لم يثبت تاريخيا أن محمدا تردد على المدينة ، بل زارها مرة واحدة وهو ابن ست سنين ــ فى الرحلة التى ماتت فيها أمه وهى فى طريق العودة ــ ولا يعقل أبدا أن يعى طفل فى السادسة أمور الدين ، فضلا عن أعقد شىء فيه وهو التوحيد ، كذلك لم يثبت أن محمدا كانت له صلة بالحنفاء ، او كان يجلس اليهم ، انما الحادثة الوحيدة التى التقى فيها بأحدهم هى : عندما ذهبت به خديجة الى ورقة بن نوفل لتسأله عن ماهية ما حدث له فى غار حراء ، ويبدو من سؤال النبى صلى الله عليه وسلم ورقة ــ عندما قال له ورقة : ليتنى حيا اذ يخرجك قومك ! ــ : « أو مخرجى هم » (١) . أنه لم يكن يعرف شيئا من سيرة الأنبياء السابقين ، ولم يكن له علم بما حدث لهم من قومهم حين دعوهم الى عبادة الله . وهذا دليل واضح على أنه لم يسمع شيئا عن هذا اطلاقا ، لا من اليهود ولا من الحنفاء .

---

(١) عندما نزل جبريل بالوحى لاول مرة على محمد بن عبد الله فى غار حراء ، رجع الى خديجة واخبرها الخبر ، فانطلقت به الى ورقة ابن نوفل لتسأله عما حدث لمحمد ، فقال له ورقة : والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة ... ليتنى اكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أومخرجى هم ؟ فأجاب ورقة : نعم لم يأت احد بمثل ما أوتيت الا عودى ، وأن يدركنى يومك انصرك نصرا مؤزرا » .

لم يكن جو مكة مساعدا على التأمل والنظر ، اذ كان يسيطر عليه النشاط التجارى الذى دفع الناس الى الجرى وراء السلطة والثروة ، فملئت حياتهم بالحقد والحسد والثأر ، وتعددت آلهتهم التى نصبوها حول الكعبة ، فوصلت الى أكثر من ثلاثمائة صنم .

ترك محمد هذا الجو وذهب الى غار حراء متأملا يفكر فى أمر قومه ، ويتمنى أن ينقذهم مما هم فيه من ضلال ، ولم يكن يأمل الا فى ردهم الى دين أبيهم ابراهيم عليه السلام الى أن جاءه الوحى وهو فى الغار ... ثم يسرد تفاصيل نزول الوحى على النبى ، وذهابه الى خديجة خائفا ، وحديثها مع ورقة بن نوفل .. الخ .. وفى معرض حديثه عن الوحى والقرآن يذكر أن بعض الغربيين يعتقد أن ما كان يصيب محمداً أثناء تلقيه الوحى ، ما هو الا نوبات صرع ، ولكن هذا خطأ من الوجهة العلمية ، وذلك :

أن المصروع لا يتذكر شيئا مما حل به أثناء نوبة الصرع لأن — هكذا يقول المؤلف — حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطل ، وقد أثبت ذلك البحث العلمى وأكده ، ولم يكن ذلك يصيب محمدا أثناء الوحى ، بل كانت تتنبه حواسه المدركة فى تلك الأثناء تنبها لا عهد للناس به ، وكان يتذكر بدقة بالغة ما يتلقاه ، ثم يتلوه بعد ذلك لأصحابه .

وأن الذى تنتابه نوبات الصرع بهذه الكثرة ، تضعف قواه بمرور الأيام ولكن محمدا ظل محتفظا بها حتى آخر حياته ، مما يدل على أنها لم تكن نوبات صرع .

٤ — مكة تكفر بالدعوة :

لو بدأ محمد دعوته أهل مكة باظهار معجزات حسية لهم ، لكانت معارضتهم له أخف ، ولكنه كان يكرر دائما أنه بشر ، ويدعوهم الى الايمان بالله وباليوم الآخر ويطالبهم بتحرير العبيد ، وبأن يحسنوا معاملة النساء والأرامل واليتامى ، ثم حرم وأد البنات .

استنكر أهل مكة هذه التعاليم لأنها كانت غريبة عليهم ، فعارضوه واشتدوا فى معارضته ... استعرض المؤلف أحداث مقاومة قريش للدعوة ، وتطورها من معارضة فردية الى معارضة جماعية ، تلك التى تمثلت فى مقاطعة قريش لبنى هاشم وفى ثنايا سرده للأحداث تناول :

ـ أخبار من أسلم من وجهاء قريش مثل عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب .. و .. الخ .. ودفاعهم عنه بجانب الدرع ذى الجناحين الواقيين له ، وهما زوجته السيدة خديجة رضى الله عنها ، وعمه أبو طالب .

ـ وهجرة المسلمين الى الحبشة .

ـ وحديث الاسراء والمعراج الى أن وصل الى التجهيز للهجرة الى يثرب . وفى هذا الباب تتوقف عند نقطتين .

الأولى : قصة الغرانيق .

يتذكر المؤلف أنه حين اشتدت الوطأة بمحمد وصحبه ، نزل الوحى بأن الله اعترف ببنوة ثلاثة من الأصنام كبنات له ، فأدخل ذلك السرور على المسلمين وهدأت ثورة المشركين ضد الدعوة ، ورجع المهاجرون من الحبشة عندما وصلهم النبأ ، ولكن الوحى عاد فصحح ذلك اللبس الذى حدث ويستدل على ذلك بنصوص اسلامية .

قد يقال : ان المؤلف لم يأت بدءا من القول ، فالقصة رويت فى كتب اسلامية ، والمستشرقون يولونها اهتماما بالغا ، وعليه فمن الطبيعى أن يردد أوربى لم يدرس الاسلام فى معاهد اسلامية مثل هذه القصة ، اذ ليس لديه الروح الاسلامية التى تدفعه الى محاولة تنقية التاريخ الاسلامى مما علق به ، لأن تلك الروح مصدرها المجتمع الاسلامى ، أو العقيدة ، وكلاهما غير موجود فى عالم هذا المؤلف ، فهو ليس مسلما ، ولا يعيش فى مجتمع اسلامى ، بل يسمع من المستشرقين دون أن

يصحح له أحد . ويقـرأ كتبهم ، وليس فى متنـاول يده المراجـع الأخرى التى تصحح هذه المفاهيم البعيـدة عن الصواب .

والموقف يقتضينا أن نذكر ردا بسـيطا ، يقتنـع به كل قارىء . مهما كانت درجة ثقافته ، الا وهو : ـ أن هـذه الرواية التى ذكـرت

تلك القصـــة مشـكوك فى صحتها ، واذا تطـرق الشـك الى دليل فقد حجيته .

زد على ذلك أن المرء اذا قرأ الآيات التى أوحت بهـــذه القصة وهى :

« أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ..

ثم أضـاف اليهـا النص الذى أحدث البلبلة وهو :

« تلك الغرانيق العـلا ، وان شفاعتهن لترتجى » ..

ما اسـتقام المعنى اطـلاقا ، اذ عقب هذا مباشرة ــ على فـرض صـحة النص ــ جاء قوله تعـالى :

« ألكم الذكـر وله الأنثى ، تلك اذاً قسمة ضيزى » .

فـكيف يسـتقيم المعنى ، لو أقحم النص المفتـرى بين تلك الآيات ؟

لا يستقيم الا فى عقل سقيم !!!

الثانية : رحلته الى الطائف :

أرجع المؤلف رفض أهل الطائف دعوة النبى صلى الله عليـه وسلم الى خوفهم على مصالحهم التجارية . فقـد كانت تربطهم بأهـل مـكة معاملات تجـارية ، كانت ستتأثر لو اتخـذت قريش منهم موقفـا عدائيا ان هم أسلموا .

هذه قضية صحيحة الى حد ما ، وتحدث فى جميع المجتمعات البشرية فى كل العصور والأزمان ، ولكن ليس هـذا هو السبب الوحيـد لرفضهم الاسـلام ، بدليـل أنهم رفضـوه بعـد أن أسلمت قريش وسلمت للنبى صـلى الله عليـــه وسلم ، بل هناك أسباب أخرى ، منهـا أن الانسان مثـل النبات ، مربوط فى مجتمعه بعدة جـذور ثقافية واجتماعية وعقدية ــ وهى

المصطلح على تسميتها بالعادات والتقاليد ــ وعند التحول فى أى ميدان من ميادين الحياة ــ الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ــ لا يكون الأفراد متساوين فى القدرة على تقطيع هذه الجذور ليتحولوا الى الاتجاه الجديد ، فبعضهم يستطيع التخلص منها بسرعة ، والبعض الآخر يبطىء .. الى أن يصل الأمر الى اكراه بعض الأفراد على التحول (قد تكون وسيلة الاكراه معنوية ، وذلك عندما يجد المرء نفسه هو الوحيد ــ أو مع قلة قليلة ــ المتمسك بالقديم) ، وموقف العرب من الاسلام لم يخرج عن هذه القاعدة ، تباطأ أهل مكة والطائف فى التخلص من العقائد البالية ، بينما أسرع أهل يثرب بالتحول الى الدين الجديد ، وهذا هو ما يعبر عنه قوله تعالى :

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » .

٥ ــ الهجرة :

لما أشتد ايذاء قريش للنبى صلى الله عليه وسلم جاءه الفرج من ناحية المدينة ، فقد استمع اليه نفر من أهلها أثناء موسم الحج ، فآمنوا به ، وكانوا رسل الدعوة الى مدينتهم .. ثم حدثت بيعة العقبة الأولى والثانية التى اتخذ فيها قرار الهجرة ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن الهجرة ، فيذكر أن « التكتيك » السليم المحكم ، هو الذى أنقذ محمدا من أهل مكة الذين خرجوا يتعقبونه ، ومن مراحل هذا « التكتيك » لجوؤه الى غار يقع على عكس طريق المدينة ، ثم يتحدث عن لقاء أهل المدينة له ، وحرص كل واحد أن يستضيفه ، فكان قراره الحكيم ، وهو أن تترك الناقة وشأنها فحيث تبرك يحط رحاله .. وقد قرر عمر بن الخطاب بعد سبعة عشر عاما من الهجرة اتخاذها بداية التاريخ العربى .

لم يذكر المؤلف المعجزات التى وقعت أثناء الهجرة ، من نسج

العنكبوت وتعشيش اليمامة على باب الغار ، وما كان من أمر سراقة ، وخبر أم معبد ، وغير ذلك من الأخبار التى وردت فى كتب السيرة ، ومن المستبعد عدم اطلاعه على هذه الأخبار ، وهو الذى سرد فى كتابه أخبارا تنبىء عن المامه بما جاء فى كتب السيرة كلها ، وعليه فمن المؤكد أنه أغفلها عمدا ، ولا يعد هذا نقصا أو تقليلا من قيمة البحث ، لأن العقل الأوربى فى العصر الحديث لا يتقبل بسهولة أحداثا لا يعرف أسبابها المادية ، — والمعجزات من هذا النوع — لذلك آثر المؤلف أن يتجنبها حتى يصل الى هدفه ، وهو تعريف القارىء الأوربى بالاسلام ، دون أن يفقد اهتمامه بما يعرض عليه ودون أن يفقد ثقته .

وهذا أسلوب ينبغى على الدعاة أن يلتزموا به ، اذا خاطبوا المجتمعات الواقعة تحت تأثير التيارات المادية .

كذلك ينبغى عليهم أن يثبتوا لغير المسلمين — وللمسلمين أيضا فى بعض المواقف — أن الاسلام دين مبادىء وقيم لا ترتبط بالاشخاص ، ولو كان النبى نفسه ، وقد فهم ذلك المسلمون الأوائل ، فربطوا التاريخ بحادثة تتعلق بأمور الدعوة لا بشخص النبى ، فلم يجعلوا ميلاده بدايةللتاريخ كما حدث فى الأديان الأخرى ، بل أخذوا بدايته هجرة الدعوة من المدينة ، التى اضطهدت فيها الى مدينة أخرى فتحت لها ذراعيها ، وأحاطتها بالرعاية والحنان ، ودافعت عنها بالروح والمال .

٦ — النبى فى المدينة :

وصف المؤلف موقع المدينة الجغراف ، وطبيعة أرضها وغلاتها ، ثم تناول تركيب المجتمع ، فذكر أنه كان يتألف من قبيلتين عربيتين كبيرتين ، هما الأوس والخزرج — وكانتا فى صراع دائم — يحوط بهما ثلاث مجموعات يهودية هى : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع .

أراد النبى أن يجمع شتات هذه المجموعات المتنافرة ، فدعا الى

عقد حلف دفاعى عن المدينة ، يدخل فيه الجميع بما فى ذلك اليهود ، ولم يجبر أحدا على الدخول فى الاسلام بمقتضى الدخول فى هذا الحلف الدفاعى ، بل حرم على اليهود ألا يبدءوا بشن حرب على أحد من تلقاء أنفسهم ، وانما يساعدون فقط فى الدفاع عن المدينة ، ومن المسلم به انه لم يكن يسمح لأحد بأن يعقد حلفا مع أهل مكة .

اختفت الطبقية فى المجتمع الاسلامى الجديد ، لأن الاسلام آخى بينهم ومحا كل تفاضل قائم على العرق أو النسب أو الوضع الاجتماعى كما تلاشت غريزة الأخذ بالثأر من نفوس العرب فى المدينة ، وحلت محلها غريزةالدفاع ضد من يحاربون الدعوة . وكان التسامح هو طابع العلاقات بين سكان المدينة ؛ وهو من الانجازات الضخمة التى يحق للاسلام أن يفخربها على مر العصور .

ازدادت قوة الاسلام بعد معركة بدر ، كما اتسعت هوة الشقاق بين المسلمين والكافرين عاما بعد عام ، فنشأ فى المجتمع الاسلامى مجموعة آمنت بالاسلام فى الظاهر وكفرت به فى الباطن ، وهم الذين أطلق عليهم « المنافقون » .. ثم حلل سلوكهم فى المجتمع ودسائسهم وميلهم الى أهل مكة ، كما ذكر أن الأيام أظهرت أن طبيعة علاقة اليهود بالمسلمين لم تختلف عن طبيعة المنافقين ، اذ كانوا يتحينون الفرصة للنيل من الاسلام ، وفصل القول فى الصراع الذى اندفع بينهم وبين المسلمين — ذلك الصراع الذى أدى الى قتل البعض وطرد الآخرين من الجزيرة العربية .

سرد المؤلف ما حدث بعد الهجرة من تشريعات ، وغزوات كما جاءت فى كتب السيرة ، الا أنه أخطأ فى بعض تحليلاته ، وسنبين رأيه فيها ثم نرد عليه :

أ — تحويل القبلة :

يرى المؤلف أن اليهود عندما قلبوا ظهر المجن لمحمد ، فاتهموه ، وأنكروا نبوته ، تحول محمد عن

سياسته الرامية الى التقرب منهم ، فحول القبلة من بيت المقدس الى الكعبة .

يخطىء من يعتقد أن الله فرض التوجه الى بيت المقدس فى الصلاة ثم حول القبلة الى الكعبة فى مكة ، ذلك أن التوجه الى بيت المقدس لم يكن سوى اجتهاد من النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن أمامه سوى الكعبة وبيت المقدس ، والكعبة تحيط بها الاصنام ، ويقيم المشركون حولها طقوس عبادتهم ، فاختار بيت المقدس قبلة ، لأنه لا زالت له صلة — وان كانت واهية — بمنبع التوحيد ، ثم جاء الوحى مبلغا أن الكعبة — رغم ما حولها — هى قبلة المسلمين ، لأن الله علم أنها ستتطهر من هذا الرجس عما قريب .

وعليه فلم يغير محمد القبلة ، لأنه وقع فى نزاع مع اليهود — كما يدعى المستشرقون — ولم ينسخ فريضة التوجه الى بيت المقدس بتحويل القبلة الى مكة كما يفهم ذلك بعض المسلمين .

ب — صيام رمضان :

كذلك حول الصيام من أيام متفرقة الى فرض صيام شهر رمضان مخالفا بذلك اليهود .

والرد عليه فى هذه النقطة لا يختلف عن جوهر الرد فى النقطة السابقة ، فالصيام كان اجتهادا ، ثم فرض صوم رمضان ، ولا يعد هذا مطعنا على الاسلام ، لأن الفروض لم ينزل بها الوحى دفعة واحدة ، فكان من عادة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فيما لم ينزل فيه وحى ، فاذا جاء الوحى جب كل اجتهاد سبقه .

جـ — غزوة بنى قريظة :

زعم المؤلف أن تسامح محمد مع اليهود تحول الى ثورة عليهم أدت الى قتل رجالهم واتخاذ نسائهم وأطفالهم عبيدا .

يركز المستشرقون على غزوة بنى قريظة .. ويتخذون من أحداثها مادة للهجوم على الاسلام ، وأحب أن أسألهم — ومن يدور فى فلكهم — هذه الأسئلة :

ــ كيف يتصرف مسئول فى أرقى دولة حضارية ، لو ثبت أن مجموعة من الطوائف التى يتكون منها شعبه تآمرت مع العدو للقضاء على جيش الدولة وكيانها بأكمله ؟

ــ وماذا فعل الحلفاء ــ فى العصر الحديث ، الذى يتغنون فيه برعاية حقوق الانسان ــ بمجرمى الحرب فى محاكمة « نورنبرج » ؟

قد يقال انهم ارتكبوا جرائم قتل جماعية .. فاقتص منهم !!

فهل اقتص المجتمع الدولى من قتل المسالمين ــ حتى الاطفال والنساء ــ فى دير ياسين ؟

ان ما حدث فى غزوة بنى قريظة لم يكن سوى حكم محكمة ، اختار المتهمون فيها قاضيهم ، فحكم عليهم بما يجب أن يكون ، ولا تختلف هذه المحاكمة عن محاكمة « نورنبرج » بل تفضلها فى أن المتهمين هم الذين أختاروا القاضى ، أما فى « نورنبرج » فكان الحكم فيها هو الخصم .

لو تدبرتم الأمر فنظرتم الى المسألة دون تحيز ، لأدركتم أن ما حدث فى غزوة بنى قريظة ، هو اجراء لازم تتخذه كل دولة تجد نفسها فى مثل هذه الظروف ، ولا يوجه اليها النقد الا من المغرضين أو الغافلين .

د ــ التعرض لعير أبى سفيان :

أدعى المؤلف أن المدينة أصيبت بمجاعة نتيجة لهجرة ٢٠٠ أسرة اليها ، فاضطر ذلك محمدا الى اتخاذ اجراء للخروج من هذا المأزق ، فوجه المسلمين الى التعرض لقافلة قريش التى كان يقودها أبو سفيان .

هذا الادعاء باطل من أساسه ، لأن المدينة كانت غنية بخيراتها ، فلم تحدثنا كتب السيرة بحدوث مثل هذه المجاعة .

ــ فمن أين أستقى المؤلف هذه المعلومات ..؟

لا شك أنها آستنتاج من تصورات خيالية فى ذهن المستشرقين .. ذلك التصور خيل

لهم أن التعرض للقافلة ـ هو للاستيلاء عليها ـ والدافع اليه هو احتياج أهل المدينة لما تحمله ... و ... و ... الخ ... وليس هذا هو أسلوب البحث العلمى ، الذى يجب أن يقوم على حقائق ، وليس على افتراضات متخيلة ، زد على ذلك أن القرآن الكريم قد بين أن الغرض من التعرض للعير ليس للاستيلاء عليها ، بل الهدف منه هو احقاق الحق ، أى كسب اعتراف « دولى » بشرعية الدعوة ، كى لا يتعرض لها أهل مكة ، لأن ادراكهم للخطر الذى تتعرض له قوافلهم سوف يدفعهم الى المصالحة والتخلى عن الوقوف فى طريق الدعاة .. ومن يقرأ قوله تعالى :

« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

يدرك هذا المعنى .. اللهم الا أولئك الذين تشدهم عاداتهم وتقاليدهم الى طريق العداوة للاسلام ، حيث يكون هدفهم الهجوم عليه والكيد له .

ختم المؤلف هذا الباب بالحديث عن عمرة القضاء .. فذكر أن مظاهر التقوى التى بدت على وجوه المسلمين ، والتزامهم النظام ، أثر على سكان مكة تأثيرا نفسيا كبيرا ، فأدركوا القوة الروحية والفكرية للتعاليم الجديدة ، كما لمسوا مدى القوة التى تنبع منها . وعلى اثرها ـ أى عمرة القضاء ـ دخل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد فى الاسلام وصارا من أكبر قواد المسلمين .

٧ ـ الخاتمة :

لم تلتزم قريش بمعاهدة الصلح التى عقدتها مع النبى ، فجهز جيشا ضخما لفتح مكة .. ويمضى المؤلف فى سرده لأحداث غزوة الفتح ، ويركز على العفو العام الذى منحه النبى لأهل مكة بعد أن أصبحوا فى يديه يتصرف فيهم كيف يشاء ، دون معارضة ، وهنا تغلب عليه

جانب الصفح فعفا عنهم ، ثم يتحدث عن الأحداث التى تلت غزوة الفتح حتى جاءته المنية ، ففارق أصحابه دون أن يعين خليفة له .

وعن الدولة الاسلامية يقول :

« لم يعرف المسلمون فى الصدر الأول الفصل بين الدين والدولة وكانت المساواة بين الجميع فى الدولة الاسلامية سدا يمنع المشاحنات واراقة الدماء ، فقد نص فى سورة الحجرات على أن أفضل الناس عند الله أتقاهم . « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

لكن المسلمين سرعان ما نسوا هذه الوصية بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ، اذ عادت العنصرية القبلية تطل برأسها ، وكانت سببا فى انهيار الدولة العربية .

دكتور : محمد شامه

« كلمـــات لأمراء المؤمنـــين »

كتب عمر بن عبد العـــزيز الى عامله عدى بن أرطاة : اما بعد : فقد امكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ، واعلم ان ما لك عند الله مثل ما للرعية عندك .

وقال المنصور لولده المهدى ، وقد تولى الخلافة بعده : لا تبرم امرا حتى تفكر فيه ، فان فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته ، واعلم ان الخليفة لا يصلحه الا التقوى ، والسلطان لا يصلحه الا الطاعة ، والرعية لا يصلحها الا العدل واولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة ، وانقص الناس عقـــلا من ظلم من هو دونه .

هواتف إسلامية

رجولة المسلم.. والحرّية

الدكتور ابراهيم أبو الخشب

كلمة رجل من الكلمات الضخمة التى يكون لها طنينها ورنينها حينما تجرى على الألسنة أو تدور عليها رحى الحديث ، الا أن اختلاف وجهة النظر تجعلها أشبه بما يطلق عليه عند علماء المنطق لأ من مقولة التشكيك » لأنها تختلف باختلاف الأوساط والبيئات ، فهى عند اللصوص وقطاع الطريق بمعنى غير هذا المعنى الذى يقصد اليه سواهم من الناس . وان كانت اللغة لا تعنى به الا أنه مقابل المرأة . وربما جعلت الذى يقطع المسافة فى الطريق ماشيا على قدميه راجلا . وفى القرآن الكريم « فرجالا أو ركبانا » وقد رأينا الأسلوب الذى جرى عليه كتاب الله سبحانه وتعالى اذا أراد أن يخلع على الذكر من بنى آدم لباسا من الضخامة والفخامة . والتقدير والاحترام ، والمهابة والاجلال ، اذ يكون الحديث عنه ، أو الخطاب له ، مقترنا بكلمة رجل ، يجىء بها محوطة بهالة من أوصاف الكمال الانسانى الذى يتناسب مع ما تنشده الأوساط المهذبة المؤدبة والجماعات التى تنضج فيها الوعى الحضارى ، ونما فيها الذوق العام ، وتقدمت لديها الادراكات والأحاسيس . والشعور والوجدان ، وأصبحت تنكر ما هو خارج عن ذلك كله ، من سمات الانحدار ، وخلال الاسفاف . وأوصاف التهافت ، والنزول الى مستوى السوقة من الناس ، فهو يقول مثلا « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ،

ويعطى بهذا النص للرجل وساما من الكبرياء والعظمة ، والاعتزاز والفخر ، والارتفاع به الى مستوى من التعالى والخيلاء ، يجعله فى مكانة من الفضل . اذا نظرت اليها المرأة ازداد اعجابها به ، وحبها له ، واطمئنانها الى أنها قد ظفرت بانسان تطول هامتها حين تتحدث زميلاتها عن أزواجهن ، لأن الله سبحانه وتعالى الذى جمله بالعقل ، وكمله بالرأى ، وخصه بجعل الزمام فى يده ، أسعفه بالمال الذى يلبيه عند الحاجة ، والثروة التى ينفق منها عند الطلب ، فلا ينالها امتهان ، ولا يطاردها فقر ، ولا يرغم أنفها خصاصة ، والرجل هو هذا الذى يكد ويجد . ويعمل ويسعى . ويتحمل المتاعب ، ويلاقى الهوان ليوفر لامرأته السعادة كلها ، ولا يستحق شيئا من هذا العنوان اذا قصر فى وظيفته ، أو تخلى عن واجبه ، وهكذا كان قوله جل وعلا « الرجال قوامون على النساء » ، ويقول فى موضع آخر « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا

الله عليه » فيحيط هذه الرجولة بوصفين من أجل ما تكون الأوصاف ، وأحسن ما تكون النعوت ، وأنبل ما تكون الخلال أو الخصال ، الايمان وصدق العهد ، وهل يملأ انسان ثيابه اعتزازا بانسانيته ، وفخرا بآدميته ، وتعاليا بنفسه ، وثقة بمكانه الذى يتحيزه فى البيئة التى يعيش فيها ، أكثر من كونه مؤمنا صادق العهد ، وهما المعنيان اللذان يجعلانه واقفا على أرض صلبة لا تهتز تحت قدميه ، ولا تدور به ، ولا تشيع فى قلبه الشك فى جدارته بالحياة ، واستحقاقه للعيش ، وكفايته للآدمية الكريمة .. وفى نصاب الشهادة يجعل الدين الحنيف الواحد من الذكور عدل امرأتين اثنتين فيقول : « فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » وهو تقدير له ، واعتراف بأن خصائصه ومزاياه تسلط عليه الأضواء ، وتبرز به فى ميدان الاعتبار والاحترام ، ولا يدور بخلد أحد أن الرجولة هى الرجولة فى الدين وفى غيره لأن

اللغة لا تفرق بين الذكر من بنى آدم فى حالاته المتنوعة ، أو أوقاته المتباينة ، وانما هو رجل فى قواميسها ومعاجمها سواء اشرأبت اليه الأعناق ، وأكبرته النفوس . ولهجت بذكره الألسنة ، أم كان من هؤلاء الذين تختنق بهم الأجواء ، وتلفظهم الأمكنة ،وتتبرأ منهم الانسانية . ولا تطمئن بهم الأرض .. وربما كان هذا صادقا الى حد ما لو أننا كنا نبحث الكلمة أو ندور معها عند اللغويين . أما وهى « رجولة المسلم » فان لها اعتبارا آخر من غير شك ، لأن الاسلام هذب الألفاظ ، وخصص المعانى ،وجاء للناس بمفاهيم جديدة أضافها الى الحقائق ، وأدخلها على الأشياء ، وحينما كانت الجاهلية ترى الرجولة فى العضلات المفتولة ، والسواعد القوية ، واقتحام الغارات ، والانتصار فى الحروب ، والفتك كل الفتك بالأعداء ، كان لها عذرها فى ذلك ، وكان احاطتها للرجولة بتلك المواصفات مقبول على العين والرأس . لأنهم كانوا يباهون بالشجاعة والاقدام . وسفك الدماء وازهاق الأرواح . ومناعة الكلأ ، وحماية الوحوش ، فاذا استرعى فى أرضهم دخيل ، أو اصطاد من صحرائهم غريب ، عدوا ذلك كله تطاولا عليهم ، واستباحة لذمارهم ، والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بذلك ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بدينه الذى جاء به ، وكتابه الذى جعله فى يمنه ، كانت الرجولة عنده طرازا آخر يتنافى مع حياة الادغال والوحوش ، والعدوان الظالم ، والاغتصاب القبيح . والفتك المرذول ، وتجاوز الحدود تجاوزا يخرج بصاحبه عن حدود اللياقة والذوق ،ولهذا كان فى استقبالهم له مشوبا بالاحترام والاجلال ، ولم يشكو بعضا من الشك فى أنه مصلح اجتماعى من نسق لم يدر الا فى خيال الشعراء وأوهام الفلاسفة . ومن ذا الذى ينكر عليه تلك الوقفة النبيلة ، والصيحة الكريمة ، والدعوة المثلى ، وهنا ينادى هذه الأمة ذلك النداء العظيم الذى يضعها فى قمة الانسانية من الصواب

والحق ، والانصاف والعدل ، والاعتدال فى الرأى ، والتزام الجادة الصحيحة فى المعاملة « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » والرجولة تعتمد على الحق . وتقوى فى أجواء العدالة ، وبيئات الانصاف ، والله جل جلاله خلق السماوات والأرض بالحق ، وجعل عمارة الدنيا بالحق ، وسمى نفسه الحق ، وليس هنالك مكرمة من المكارم للرجولة اليها انتساب . الا وأنت واجد الحق عمادها الذى تعتمد عليه .. وعمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، وهو أبرز مثل للرجولة فى الاسلام لم يكن فى سلوكه اسفاف . ولا فى تصرفه هوى . ولا فى خلقه ضعف ، ولا فى حكومته جنف ، ولا فى سياسته التواء ، ولا فى معاملته ما ينفر الناس منه .. وربما كانت اللغة تطلق كلمة الفسولة على ما يقابل الرجولة ؛ لأنها تجمع فى ثناياها اللؤم والخسة .. وخصال الشر كله ، فعادم الشرف ، وفاقد المروءة ، وناقص الذوق ، وبليد الحس ، وخائن العهد ، وملوث العرض ، لا يمكن أن يكون رجلا . الا اذا تبدلت الأوضاع . وانتكست المعايير ، وفسد المنطق ، وخربت الذمم ، وأصبح الناس يخافون سلطان الباطل .. وكلمة انسان تقوم مقام كلمة رجل فى بعض الأوقات الا أن الفرق بينهما دقيق ، لأن الانسانية رقيقة على طول الخط . لا تسلك سبيل الجفوة ، ولا تنحو منحى الشدة . ولا تستعين بسوط الجلاد أبدا ، وانما هى رحمة كلها حتى مع الخصوم الذين يحاربون دعوتها . أو ينقمون عليها ، وليست كذلك الرجولة التى قد تأخذ بالشدة ، وتلتجىء الى العنف ، وتجعل فى احدى يديها العصا ، لأنها قد تقف موقف المؤدب أو المربى ، وعلى كل حال لم تكن الرجولة فى وقت من الأوقات ناعمة نعومة الحرير وأصحابها قد يحملون أنفسهم على المكروه ،ويأخذون طباعهم بالعنف ، ويلزمون جوارحهم بالشدة ، ويتحملون فى سبيل مبادئهم

الأذى ، وهى معاناة وجهاد على طول الخط ، ونسبها بعد هذا وهذا يلتقى مع الانسانية ويمتزج بها امتزاج الدم بهيكل الانسان ، والرجل الحق أو الرجل كل الرجل هو هذا الذى يضيف الى رجولته انسانية حلوة يحتل بها نفوس الأخيار الذين تفيض ألسنتهم بالدعاء له ، والثناء عليه ، لأن الرجولة أقصى ما تناله من المعاصرين اعجاب وتقدير ، واجلال واحترام ، لكن الانسانية معنى آخر يشبه المعانى الملائكية التى تطغى فيها الروح على العقل ، ويسيطر فيها الوجدان على الفكر ، وقد يعجب الانسان اعجاب اكبار وتقدير لشىء يبغضه أو يكرهه ، ولكنه لا يدعو أو يتمنى التمنيات الطيبة الا للشىء الذى يطغى فيه الجانب الانسانى على ماعداه وهذا هو فرق ما بين الرجولة والانسانية .

الحــرية

الحر : هو الذى لايكون مملوكا لأحد ، ويقابله العبد وهو الذى يكون مملوكا لسيد يتصرف فيه بالبيع والشراء والهبة والوصية والرهن ، وما شاكل ذلك من أنواع المعاملات التى يسلكها صاحب السلعة المنقولة أو غير المنقولة .

ومن معانى الحر ـ كذلك ـ الخالص الذى لم يدخل فى حقيقة تكوينه . أو عناصر تركيبه ، عنصر أجنبى غير عنصره الأصلى .. ولعل كلمة حر فى الانسان ـ فى بادىء الأمر ـ كانت تعنى ما فى داخله من الطاقة الحرارية التى تحمله على أن يثور على الأوضاع الباطلة ، والأمور الشاذة ، وكل ما يتنافى مع ما تتطلبه الآدمية من الكرامةوالعزة ، والاباء والشمم ، وعدم الاستجابة الى ما من شأنه أن ينزل به عن المستوى اللائق بالانسان الذى يتطلع الى أن يأخذ مكانه فى الوجود علىقدم المساواة مع غيره من أبناء آدم وبنات حواء دون ما شىء من العنف أو الشدة ، وعلى هذا يظهر جليا معنى الكلمة ، وتتضح قيمتها فى موازين الألفاظ ذات الاعتبار والتقدير ، وصراع البشرية فى كثير من الأزمنة والأمكنة قديكون السبب الباعث

عليه . أو المحرك له ، هو طلب الحرية للذين يفقدونها ، أو الدفاع عنها ، والقتال دونها عند من يجدونها أو الذين حصلوا عليها ، وذاقوا حلاوتها ، وربما رأينا ذلك المعنى نفسه ــ معنى الطلب أو الدفاع ــ فى الحيوانات الأخرى التى تقاوم الضغط ، وتثور لتحديد الاقامة ، وتصرخ اذا أعوزتها الحيلة فى فك قيودها ، وتحطيم أغلالها ، وتهيئة الجو الطليق الذى تنشده . والانسان الأول الذى كان يعيش فى الأدغال والأحراش مع الحيوانات لم تكن تقيده قيود فى حله وترحاله ، أو صحوه ونومه . فلما تطور به العيش ، وتقدمت به الحياة . وطغى سعار الأنانية ، كان لا بد من تهذيب هذا الانطلاق الأهوج ، والتحلل الطائش ، وهنالك وقفت فى وجهه القوانين ، وحدت من نزواته الدساتير ، وهذبت طموحه الشرائع ، وقومت عوجة النظم ، الا أنها ــ مع هذا كله ــ لم تبلغ درجة تسلب فيها اختياره ، وتقضى على ارادته ، وتجعله سلعة فى رأس مال أجنبى ، أو نفوذ طارىء ، أو سلطان مفروض ، أو قدرة تسيطر على قدرته ، وتهدر حقوق آدميته ... وأنت ترى اذا نظرت الى هذا النزوع فى الحيوان أو الانسان أن هذا المعنى فطرى ــ لا محالة ــ يميل اليه الطبع ، ويهفو اليه دائما أبدا الاستعداد ، ولهذا فان مهمة الشرائع أو القوانين بالنسبة اليه لم تكن أكثر من التهذيب أو التوجيه حتى لا تكون هذه الحرية مغتصبة من الغير ، أو طغيانا على حقوق الآخرين ، ولابد أن يعلم من ينشدون الحرية ، ويقطعون من أجلها المسيرة الطويلة ، أو يتحملون الجهد الشاق ، أنها تشبه السيف فى يد الجندى فى الميدان الذى لا يحمله اعتباطا ، وانما يكون ذلك بعد أن يتعلم كيف يستطيع أن ينال به مقاتل عدوه ، ويذود عن حياض أوطانه ، ويكسب به لنفسه ثم لأمته شرف الجندية الكريمة التى تجعله لبنة طيبة فى بناء مجد شامخ لهذا الشعب العظيم الذى

ينتسب اليه ، وتعلم الأمة أبناءها مختلف أنواع العلوم الصناعية والزراعية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لتكون تلك الحرية فى أيديهم سلاحا يذودون به شرور الغاصب ، ومطامع المستعمر ، وكيد الأجنبى .. ونرى الآباء لا يمنحون هذا الحق لأبنائهم وهم فى سن الطفولة ، وغرارة الصبا ، وطيش المراهقة ، فاذا ما شبوا عن الطوق ، واطمأنوا الى رشدهم . وأنسوا الى تمام وعيهم وادراكهم .. وحسن تصرفهم منحوهم اياها فى ثقة وأمل ، وارتياح ورغبة ، طامعين فى أن يكون لهم من نضوج العقل ، واكتمال السن ، وكثرة التجارب ، شفيع الى هذا الصنيع معهم ، أو باعث على المنهج السليم ، والقصد الصحيح ، ولقد عرف العربى دون غيره من شعوب العالم بتطلعه للحرية ، وطلبه لها ، ورغبته فيها ، وجهاده من أجلها ، واراقته الدماء فى سبيل الوصول اليها .. والرق الذى جاء الاسلام فوجده هنالك كان طارئا من البلاد المجاورة لهم الداخلة فى نفوذ الفرس أو الرومان . ولهذا لم يلبث أن قضى عليه ، وقاومه بالأساليب المختلفة ، ولعل فى كلمة عمر بن الخطاب - المشهورة - « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ما يؤيد ذلك ..

واذا كان النحل ضروريا للعسل يحرسه من العدوان ، ويذود عنه الشر . ويدفع الواغل ، ويرد المغير ، فان الحرية تحتاج الى من يحرسها من قوى الشر ، وعصابة السوء ، لأنها لا تعطى عفوا ، أو تمنح اعتباطا ، أو تبذل بذلا رخيصا ، وانما هى للمكافحين المجاهدين الذين يضعون أرواحهم على أيديهم . ولذا فقد اشتهر على الألسنة قولهم « الحرية الحمراء » كناية عن كونها لا تتحقق الا للذين جاهدوا لها ، وكافحوا من اجلها ، وكان ذلك الدم الذى أريق فى سبيلها ، وسفك للحصول عليها ، وأية أمة من الأمم لا تزعم لنفسها ولا للناس أنها وقد حصلت عليها او تفيأت ظلالها ، كانت نسبتها المئوية منها مئة فى المئة ، وانما هى الى جانب ما تنعم به منها

تعالى ـ كذلك ـ كبتا وضغطا وتحديدا للحركة والسكون أو القول والفعل ، ومن المسلم به أن الاسلام الذى رفع لواءها ، وأعلى منارتها ، وغالى بقيمتها قد ضيق نطاقها فى بعض الأحوال ، وجعل الأفراد مقيدين بما ألزمهم به من التكاليف ، وربطهم به من الأوامر والنواهى • والرجل لا يسرف فى ماله ولا يبذره ، ولا يوصى منه بما يزيد على الثلث ، ثم هو ينحى عن التصرف فيه ان كان غير رشيد ، بل ان الأكثر من ذلك كله أن رجال القانون يقولون : ان الملكية وظيفة لا حق ويرتبون على ذلك أن صاحب المال اذا لم يحركه على وجه يفيد المجتمع ، ويعود عليه بالمغانم ، يعزل عنه ، ومثل ذلك الأرض الزراعية اذا تعطلت عن الاستغلال ، ووقفت عن العطاء ، وليس بحد هذا القول موضع لشك فى أننا ـ كما يقول علماء العقيدة ـ مجبورون باطنا وان كنا مختارين ظاهرا ؛ وعلى ذلك فنحن ننتهى من هذا الحديث الذى قدمناه الى الاعتراف بأن الانسان حر من عبوديته للناس ، وربما كان غير حر لأنه يرسف فى قيود وأغلال تحد من تصرفه وسلوكه ، وقوله وفعله ، ومايناله الفرد أو الجماعة من الضرر والأذى الناجمين عنه أو الحاصلين منه ••

ومن هنا كان لابد من أن نقول ان الحرية تحتاج من الذين يتطلعون اليها ، ويحاولون الحصول عليها ، الى تربية خاصة . تقوم على ثقافة وعلم ، ورأى وفكر ، وأدب وذوق •• وادراك ووعى ، يجعلهم أهلا لها ، وهى كالسيف الذى لا يكفى له أن يكون ماضيا صقيلا ما لم تكن اليد التى تقبض عليه قوية ، والعين التى ترسله ذات بصر حصيف يصرفه فى مقاتل العدو ، والا فهو قطعة من الحديد ، يعلوها الصدأ ، وتقتحمه الأعين ، وتدوسه الأقدام ••• والطفل الذى يربيه والده ، أو يرعاه أستاذه ، لا يمكن أن تبذل له الحرية جزافا ، أو تمنح له عن سخاء وأريحية ، دون أن يسبق ذلك ضغط وقسر • وحرمان ومنع • حتى اذا ما أطمأن

أهله أنه شب عن الطوق . وآنسوا منه الرشد ، وتجاوز سن الرعاية والحيطة ، أجازوا له أن يتصرف ، وأذنوا له فى الانطلاق من القيود والأغلال ، وجعلوه فى عداد الرجال الذين ارتفعت عنهم الوصاية ... والثورات التى تقوم على ظلم وطغيان . واستعمار واستغلال . وما يشبه ذلك من العبودية والعسف ، والقهر والسيطرة ، لا تمكن للحرية كل التمكن ، الا بعد أن تجتاز مرحلة من الحكم الاستبدادى ، تخضع به الفوضى وتكبح به جماح الطيش . وتساعدها على أن تقلم أظافر العدو ، وحينئذ تبنى الجيش ، وتصحح الأوضاع ، وتقف على الأرض الصلبة التى لا تميد بها ، أو تتزلزل من تحت أقدامها ، ثم ترخى بعد ذلك كله فى العنان بقدر ما ، من غير أن يكون فى ذلك ضرر ولا ضرار ، وربما أعطى انسان نصيبه منها وحرم آخر اقتضت المصلحة العامة حرمانه .. وكثيرا ما أشفق العقلاء والفلاسفة على هؤلاء الذين ينادون بالحرية . أو يتحدثون عنها أن ينسيهم بريق الكلمة ماوراء ذلك من خطر سوء الاستعمال ، أو اعطائها لغير أهلها ، فان الخير لا يكون خيرا الا اذا أعطى للذى يستحقه ، ويحسن التصرف فيه ، والانتفاع به .

د . ابراهيم على أبو الخشب

من قضاة الاسلام

أبو عبد الله بن الأزرق

الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد

صنع الاسلام قضاة أضاءوا بعدلهم المشرق والمغرب بل الدنيا كلها ، واسهموا بعلم ينتفع به من بعدهم ، ومنهم من نال الذكر فى حياته وبعد مماته ، ومنهم من طوى الموت ذكره الى أن شاء الله أن يظهر بعض تراثه فبان مكانه من الدين الدنيا ، من هؤلاء : الامام أبو عبد الله بن الأزرق .

معالم حياته :

❋ ولد أبو عبد الله بن الأزرق « وكامل اسمه محمد بن على بن محمد بن على بن قاسم بن الأزرق الأصبحى » فى ٨٣٢ هـ ــ ١٤٢٧ م بمالقة «مدينة بالأندلس المفقود» من أسرة يبدو لنا انها لم تكن من أهل العلم ولم تحظ بالشهرة ، وشغلتها أعباء الرزق عن طلب العلم ، فمراجع المكتبة الأندلسية وكتب التراجم التى بين أيدينا لا تعيننا على القاء الضوء على تلك الأسرة بيد أن هذه الأسرة بغير شك تغاير أسرة الأزرق التى أشتهرت فى المشرق بالدراية بعلم الحديث وأخبار التاريخ فلم يثبت لدينا انتقال أى أفرادها الى الأندلس أو المغرب . ويبدو لنا أن الأزرق لصفة جسدية فيه أو فى أحد أصوله .

❋ استظهر ابن الأزرق ، منذ الصغر القرآن الكريم ووعى تفسيره وخاصة تفسير الامام ابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) الذى يعد من أطيب التفاسير وأكثرها اشارة الى ما ينقله مؤلفه من مصادر ، واعتمادا على البيان القرآنى بالقرآن وصحيح السنة والتعويل على رأى أهل السلف ،

وقد تلا ابن الأزرق هذا التفسير على ابن اسحاق ابراهيم بن احمد البدري وفقا لما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . كما حفظ ابن الأزرق كثيرا من أشعار العرب . وتفقه فى النحو والمنطق والفقه على يد معلمه الكبير الذى كان له أثره الكبير فيه ، وكثر انتفاعه من علمه وهو مفتى غرناطة أبو اسحق ابراهيم ابن أحمد بن فتوح (المتوفى سنة ٨٦٧ هـ) وقد كان هذا الأستاذ العظيم يعود تلاميذه على الرجوع الى المصادر وان يعمل الطالب فيها عقله وفكره بالتحليل والتحقيق ليصل الى وجه الحق فى المسألة المعروضة بالدليل وليكون للباحث لديه شخصية مستقلة . يقول لنا المقرى فى نفح الطيب عنه : «كان يفسح لصاحب البحث مجالا رحبا ، ويوسع المراجع له رحبا وقبولا بل يطالب بذلك ويقتضيه. ويختار طريق التعليم به ويرتضيه توفيقا على ما خلص له وتحقيقه ، ووضح له فى معيار الاختيار توفيقه ... » ، كما زاد تفقه ابن الأزرق فى الفقه المالكى على أحفظ الناس لمذهب مالك فى عصره وهو الامام محمد بن محمد السرقسطى المتوفى عام ٨٦٥ هـ ودرس الأدب على يد الامام محمد بن زكريا بن الجبير الحصيبى الذى كان يعد من أهل السنة والجماعة وشديد الانتقاد للمعتزلة عامة وللزمخشرى خاصة .

❋ عندما بلغ ابن الأزرق أشده واستوى على العلم بالفقه وشهد له بالورع عين قاضيا لغرب مالقه وكان عمره قرابة السابع والثلاثين هجرية ، وظل ينتقل فى عمله القضائى ويرتقى فيه حتى وصل الى قاضى القضاة بغرناطة . ومكث فى القضاء بالأندلس المفقود قرابة عشرين عاما مشتهرا عنه أنه من قضاة العدل والانصاف . وكان سلطان بنى نصر يؤثره بسره ويستشيره فيما يلم به من المعضلات لما تلمس فيه من فقه للواقع وذكاء وقدرة على وضع الامور فى نصابها ، وكثيرا ما بعثه رسولا عنه

لحـل مشاكله مع الملوك النصريين بيد أن الخلاف والقتال بينهم وقد وصل مداه ، مكن لطاغية الأسبان من دخولهـا . وقـد حـدا ذلك بابن الأزرق أن يتوجه الى المشرق ليحث ملوك الاسلام وامراءهم على نجدة صاحب غرناطة يقول لنـا المقرى عنه تلك الفترة « واستنهض عزائم السلطان قايتباى لاسترجاع الأندلس فكان كمـن يطلب بيض الأنوق » فقد كان السلطان مشغولا بقتال سلطان الروم فتـوجه ابن الأزرق الى مكة المكرمة وجـاور فيها مدة وزار النبى صلى الله عليـه وسلم .

❋ رجع ابن الأزرق الى مصر فى سـنة ست وتسعين وثمانمائة ، وأصبح فى حاجة الى أن يسنـد اليـه عمل يكتسب به رزقاو قـد نفذت موارده المالية ، فاسند اليه ما هو أهـل له من تولى قضـاء المالكية بالقدس الشريف فى رابع رمضان تلك السنة فوصل القدس فى سادس عشر من شوال سنـة ست وتسعين ، وأقام نحو شهـر ينزل الأحـكام على مقتضى الشرع بعفة ونزاهة ... ثم مرض واستمر الى أن توفى فى يوم الجمعة بعـد فراغ الصلاة سابع عشر ذى الحجة الحرام سنة ست وتسعين وثمانمائة وصلى عليه فى يومـه بعد صلاة العصر بالمسجد الأقصى .

وكثر أسف الناس على فقده .

ابن الأزرق والقضاء !

لم نقف على نماذج من أحكام ابن الأزرق القضائية لنقوم بتحليلها ولكن ما كتبه ابن الأزرق عن القضاء والعدل يعين على فهم الرجل وبيان آرائه القضائية :

❋ فهـو يرى أن القضـاء من أجل المناصب ، لأنه دخول بين الخالق والمخلوق ليؤدى فيهـم أوامره وأحكامه بواسطة الكتاب والسنة ، وبه يقمع الظالم وينصر المظلوم ، ويحفظ النظام ويدفـع الضرر العام . وأنه واجب أن يكون بين الناس قضاء وقضاة ، وان على الامام « رئيس الدولة » اختيـار القضاة من الكفاة من أهل العلم

والورع ، وان يوسع عليهم أرزاقهم من بيت مال المسلمين ، وأن يتفقد أحوالهم ، ومن غلب جوره وكان فى بقائه مفسدة عزله ؛ بيد انه لا يعزل لمجرد الشكوى بل عليه ان يتثبت ويستقصى حتى لا يفسد أمر القضاء والقضاة .

* ويقول ان غاية القضاء والحكم تحقيق العدل بين الناس ؛ والعدل أساس الشريعة به يتولى الأمناء والأكفاء فى كافة الولايات وتحفظ الأنفس والأموال والأعراض .

* ويحث القضاة على بذل الجهد وتحقيق العدل وان المسابقة فيه تقرب صاحبه من التقوى ومحبة الله له باجابة دعائه ، ويتحقق له الأمن والطمأنينة النفسية ويملك به سرائر الناس ويدوم به الملك والرخاء .

* ويؤخذ برأى ابن القيم الجوزية الحنبلى فى شأن تحديد اختصاصات القضاء وموضوعاته بأنها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وتستفاد بما جرت به العادة واقتضاء العرف فى كل قطر .

آثار ابن الأزرق :

* لم يظهر من مصنفات ابن الأزرق حتى الآن سوى كتابه « بدائع السلك فى طبائع الملك » وهو كتاب فى علم الاجتماع السياسى يدل على أصالة ابن الأزرق العلمية وسعة ثقافته ، وقد قام بتحقيق الكتاب الأستاذ الدكتور على سامى النشار استاذ الفلسفة الاسلامية المصرى والذى يشارك بجهده العلمى بجامعة الرباط بالمغرب حاليا ، ويقع الكتاب فى قرابة ألف صفحة ويحتوى على مقدمتين وأربعة كتب على النحو التالى :

الكتاب الأول : فى حقيقة الملك والخلافة وسائر أنواع الرئاسة .

والكتاب الثانى : فى أركان الملك وقواعد مبناه ضرورة وكمالا .

والكتاب الثالث : فيما يطالب به السلطان تشييدا لأركان المملكة .

والكتاب الرابع : فى عوائد الملك وعوارضه .

ويرى المقرى فى نفح الطيب ان هذا الكتاب لخص فيه ابن الأزرق كلام ابن خلدون وأضاف اليه زيادات كثيرة . وكلمة زيادات كثيرة تعادل فى عصرنا أنه قدم جديدا للعلم يسند اليه ويحتج له به . فان كان ابن الأزرق يتفق مع ابن خلدون فى اتخاذ المنهج الاستقرائى الاصولى فى تفسير الظواهر الاجتماعية بتحليل الواقع فقد كانت غاية ابن خلدون تفسير التاريخ واستخلاص المبادىء التى تحكمه وقد تعرض من خلاله الى أطوار الدولة وانتهى فيهما الى حتمية اطوارها بينما غاية ابن الأزرق بيان اخلاقية الحاكم وأخلاقية المحكوم ويرى ابن الأزرق أن الدولة تعيش ابدا اذا تحققت القيم بين الحاكم والمحكوم ولم يحدث النزاع والصراع بينهما ولذلك يتعرض فى كتاب بدائع السلك لمسئولية الحاكم اتجاه رعيته واتجاه جنده وان فساد المجتمع الذى عاصره راجع الى ما أصابه من فساد خلقى ومادى وانحلال اقتصادى لانعدام الثقة بين الحاكم والمحكوم .

ويتميز ابن الأزرق عن ابن خلدون بأنه قد أشار فى كتابه الى غالب مصادر من سبقه على عكس ابن خلدون الذى كان يخفى جل مصادر مادته العلمية . وهو بذلك قد ألقى الضوء على المصادر التى استقى منها ابن خلدون مادته العلمية . بل ان تنوع مصادر ابن الأزرق ظاهرة جديرة بالاعجاب فقد فاق ابن خلدون ومعظم كتاب الفكر الاسلامى فاستند الى كتب متنوعة : فى علم السياسة الخالص، والبعض فى التاريخ والآخر فى الجغرافيا وفى كتب الرحلات : وكتب الأدب ، وكتب الفقه واصوله ولم يكن يفعل هذا لبحث الموضوعات الجزئية لهذه العلوم المختلفة فى ذاتها بل لتدعيم نظريته ورؤيته فى الاجتماع السياسى ويدل هذا الكتاب بوضوح على أن ابن الأزرق استوعب ثقافة سابقيه

ومعاصريه واستطاع منها أن يقدم جديدا للعلم .

ﷺ حقيقة كتاب الابريز المسبوك فى كيفية آداب سير الملوك :

أشار خير الدين الزركلى فى كتابه الاعلام عند ترجمة ابن الأزرق أن له كتابا باسم « الابريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك » وان الكتاب ما زال مخطوطا ، وقد استقى ذلك من المستشرق الالمانى بروكلمان فى ذيله على تاريخ الأدب العربى ، وقد تابع بروكلمان جورجى زيدان فى تاريخ الآداب العربية ، وقد كتب الأستاذ محمد عبد الله عنان مقالا بعنوان : « كتب تأثرت بابن خلدون » فى مجلة العربى الكويتية فى يناير ١٩٧٤ أشار فيه الى أن كتاب « الابريز المسبوك » تأثر بابن خلدون وان ابن الأزرق ، ألف هذا الكتاب قبل كتاب « بدائع السلك » .

وأنكر الدكتور النشار وجود هذا الكتاب واستند الى أنه لم يعثر عليه وان ابن الأزرق لم يشر الى كتاب « الابريز المسبوك » فى كتابه بدائع السلك .

وقد أتاحت لنا فرصة الأعارة للتدريس بالجامعات الجزائرية منذ بضع سنوات أن نقف على مخطوطة لابن الأزرق بعنوان « الابريز المسبوك فى كيفية آداب سير الملوك » بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة وقد أتيح لنا فرصة الاطلاع عليها وتصوير أجزاء منها وقد تبين لنا من الاطلاع على هذه المخطوطة انها ناقصة من البداية وكتب فى أولها « الحمد لله ، هذا أول ما وجد من هذا التأليف الجليل المسمى بالأبريز المسبوك فى كيفية أدب الملوك ، للامام الأعلى القاضى الأكمل العلامة الأجل : أبو عبد الله ابن محمد بن على بن قاسم بن الأزرق الأصبحى . وافتتحه بالكلام عن الجباية ، وأنها حبس توزع على القبائل وذوى العصبية .. ثم تكلم بعد ذلك عن الركن الخامس : وهو تكثير العمارة والسادس : اقامة العدل ، والسابع : تولية الخطط الدينية من امامة الصلاة ـ

والفتيا والتدريس والقضاء والعدالة والحسبة والسكة والركن الثامن : ترتيب المراتب السلطانية وهى الحجابة والكتابة وديوان العمل والحجابة والشرطة .

والركن التاسع : رعاية السياسة والعاشر : مشورة ذوى الرأى والتجربة ، والحادى عشر : بذل النصيحة ، والثانى عشر : أحكام التدبير ، والثالث عشر : تقديم الولاة والعمال ، والرابع عشر : اتخاذ البطانة أهل البساط ، والخامس عشر : تنظيم المجلس وعوائده ، السادس عشر ، تقرير الظهور والاحتجاب والركن السابع عشر : رعاية الخاصة والبطانة ، والثامن عشر : ظهور العناية بمن له حق أو فيه منفعة ، والركن التاسع عشر : مكافأة ذوى السوابق ، والعشرون : تخليد مفاخر الملك ومآثره . ثم تعرض للباب الثانى : فى الصفات التى تصدر بها تلك الأفعال على أفضل نظام وهى : العقل ، العلم ، الشجاعة ، العفة والسخاء والجود ، الحلم ، كظم الغيظ والغضب ، العفو ، الرفق ، اللين ، الوفاء بالوعد ، الصدق ، كتم السر ، الحزم ، الدهاء والتغافل ، التواضع ، سلامة الصدر من الحقد والحسد ، الصبر ، الشكر .

ثم تعرض الكتاب الثالث لمقدمة فى التحذير من محظورات تخل بذلك المطلوب شرعيا فى بابين الأول : فى جوامع ما به السياسة المطلوبة من السلطان ومن يليه . والثانى : فى واجبات يلزم السلطان سياسة القيام بها وفاء بعهدة ما تحمله .

وتكلم فى الكتاب الرابع عن عوائق الملك وعوارضه فى بابين. الأول : فى عوائق الملك المانعة من دوامه . والثانى فى عوارض الملك اللاحقة لطبيعة وجوده ويشير فى الباب الثانى انه أتى بها ملخصة من كلام ابن خلدون رحمه الله .

وتعرض لخاتمة فى سياستى المعيشة والناس .

وانتهى الكتاب بقول للامام على بن أبى طالب رضى الله عنه

نامت له (أى الرسول) لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم .

ويبدو لنا ان ابن الأزرق أهدى الكتاب لسلطان بنى نصر فالثابت انه سماه « الأبريز المسبوك فى كيفية أدب سير الملوك » .

واستمنحته لهذا المقام العلى نصرا بتخليد الأثر الحميد وافيا وللصدور على الدوام من تعاقب الشهور والاعوام شافيا ثم يدعو له بقوله : « اللهم افتح له فتحا مبينا واره نور الهدايات لنهاية البدايات مستبينا ، اللهم أصلح برعايتك أحواله ، وسدد باهتدائه العالم اقتدائه أفعاله وأقواله ، اللهم حقق به صلاح العباد والبلاد ، وأيده على طغاة الكفار بسيوفه الماضية الشفار فى مواقف الطعن والجهاد . اللهم كن له ناصرا ومعينا ، وشرع به للملك الحميد الخلال موارد عذبة الذلل معينا . اللهم أجعل ذكره على مر الدهر باقيا وسعده الى أرفع معارج الظهور راقيا واللهم خص وزيره الحميد المذاهب المخصوص بمواهب الكمال وكمال المذاهب بتوفيق يسود آراءه وينجحها .

وثابت ان ابن الأزرق انتهى من تبييض الكتاب فى يوم الأحد السابع لرجب عام ثلاثة وثمانين وثمانمائة . وكان الفراغ من تسنيقه يوم السبت الرابع عشر من محرم العام المذكور وذلك بمدينة واد آش المحروسة وتبين من المقارنة بين مخطوطه لا الابريز المسبوك فى كيفية أدب سير الملوك » وكتاب بدائع السلك فى طبائع الملك أن الأول هو الأصل الذى أهداه الى حاكم عصره فى سنة ٨٨٣ هـ .

※ كتاب روضة الأعلام بمنزلة العربية من اعلام الاسلام :

يقول المقرى فى هذا الكتاب انه : « مجلد ضخم فيه فوائد وحكايات لم يؤلف فى فنه مثله ، وأنه قد وقف عليه ــ المقرى ــ بتلمسان » وتوجد أكثر من نسخة له مخطوطة بمكتبات المغرب .

والكتاب موسوعة أدبية كبيرة

تتضمن موضوعات شتى من التراث العربى الاسلامى وهو يشابه كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينورى .

ولقد تعمدنا أن نعرض لرؤوس الموضوعات وعناوين الكتاب ليتسنى للمقارن بين كتاب « الابريز المسبوك » و « بدائع السلك »

ان يصل الى أنهما كتاب واحد ، ولا يعدوان أن يكون العنوان الأول هو النسخة المهداة من ابن الأزرق لحاكم عصره سلطان بنى نصر ، وتتميز هذه المخطوطة عن المخطوطات التى حقق عليها الدكتور النشار بدائع السلك بمايلى :

أولا — كشفت عن تاريخ تصنيف الكتاب « بدائع السلك » أو « الابريز المسبوك » .

فالثابت من نهاية مخطوطة ابن الأزرق فرغ منها فى ١٤ من المحرم سنة ٨٨٣ هـ بمدينة وادى آش ، أى أن سن ابن الازرق كان قد جاوز الخمسين من عمره وهى فترة تمام النضوج وكماله .

ثانيا — يبين من الدعاء لحاكم عصره أنه فى حالة حرب وجهاد مع الأعداء ، كما تتضح الظروف التى كتب فيها الكتاب والحالة التى كانت عليها الاندلس وقتذاك .

والأمل المعقود فى ذلك الحاكم فهو يقول : « واستمحنته » ..

*كتاب شفاء الغليل شرح مختصر الخليل :

وهو فى شرح الفقه المالكى يقول فيه صاحب نفح الطيب انه رأى ثلاثة أسفار منه وقد قرأ خطبة الكتاب) وقد أتى فيها ابن الأزرق بالعجاب) فيقول : « هذا الشرح لم يؤلف على مختصر الخليل مثله : اقناعا ونقلا وفهما ، وقد رأيت منه نحو الأسفار الثلاثة ، ولا أدرى هل أتمه أم لا وتمامه يكون فى نحو العشرين سفرا . وقد كتب بتلمسان خطبة فى كراسة وقد أتى فيها بالعجاب » .

تناول فى هذه المقدمة أهمية مختصر الخليل فى الفقه المالكى ، وتصدى لبيان أصول المذهب

المالكى ، وبيان منهجه ومصادره فى شرح هذا المختصر .

ويوجد مخطوطات لهذا الشرح بالمغرب .

ونختتم مقالتنا بثناء أئمة التقوا بابن الأزرق وعاصروه فيقول السخاوى المؤرخ الثقة فيه وقد التقى به فى مصر (رأيته من رجال الدهر) أى أن ابن الأزرق فى نظره كان عبقريا .

ويقول قاضى القضاة أبو اليمن العليمى (الحنبلى) فى الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل فيه : « كان من أهل العلم والصلاح حسن الشكل ، منور الشيبة عليه الأبهة والوقار .. من قضاة العدل .. باشر الحكم .. بعفة وتقوى وسيرة محمودة ثم لحق بالله سبحانه والناس عنه راضون » .

ولا يسعنا الا أن نقول رحم الله ابن الأزرق بما قدم من علم ينتفع به ووفق المهتمين بابراز التراث الاسلامى الى تحقيق ونشر باقى تراثه ـ والله الموفق ـ والحمد لله رب العالمين .

فؤاد عبد المنعم احمد

دعـــاء

يا قهار يا حكيم ... نعوذ بك من شر ما خلقت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت واردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما انعمت ، ونسألك عز الدنيا والآخرة .

اللهم انا نسألك ان تعطينا خير ما تفضلت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وجرى به قلمك واحاط به علمك ، واكمل ديننا ، واتمم علينا نعمتك .. وهب لنا الحكمة البالغة والحياة الطيبة والموتة المطهرة . يا سميع يا مجيب .. يا الله .

ابو الحسن الشاذلى

الشريعة و الحقيقة

لفضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين وبعد !

فقد أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال : يا محمد ، أخبرنى عن الاسلام ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .

قال : صدقت ، قال : فعجبنا يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الاحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه ، فانه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة ؟

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن أمارتها ؟

قال : أن تلد الأمة ربتهـــا ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون فى البنيان .

قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمـــر ، أتدرى مـــن السائل ؟ قلت : الله ورســوله أعلم ..

قال : فانه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » اهـ .

بهذا الهدى النبوى المعصوم ، وبهذا الحديث الرائـع الشريف ، جاء تقسيم الدين الى أركان ثلاثة، لذا قال سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه لسيدنا عمر :

« فانه جبريل أتاكم يعلمـكم دينكم » .

ركن الاسلام ، وهو الجـــانب العملى ، الذى يتحقق بالعبادات ، والمعاملات والامــور التعبـدية ، على وجه التمام ..

ومحله الأعضـــاء الجسمانيـة الظـاهرة ، واصطلح العلمـاء على تسميتــه بالشريعـــة ، واختص بدراسته والقيام بتحصيله : السادة الفقهاء ..

ركن الايمان ــ وهو الجــانب الاعتقاد القلبى : مـــن ايمان بالله تعالى ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والقضـــاء والقدر ــ خيرهـــا وشرهـــا ــ واختص بدراسة هذا الركن السادة علماء التوحيد .

ركن الاحسان ، وهـــو الجانب الروحى القلبى ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ..

وعبادتك لله كأنك تراه ، تجعلك لم تترك شيئا مما تقدر عليه من الخشوع والخضوع ، وحســـن السمت واجتماعك بباطنك وظاهرك على الاعتناء بتتميمها على أحســـن وجوهها وما ينتج عن ذلك مـــن أحوال وأذواق وجدانية ، ومقامات ومشاهدات عـــرفانية ، وعلوم وهبية .

وهذا الركن اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة ، واختص ببحثه السادة الصوفية .

ولكي نبين الصلة القائمة بين الحقيقة والشريعة ، نورد مثلا ، وهو الصلاة ..

فاتيان الانسان بحركات الصلاة ، وقيامه بأعمالها الظاهرة ، والزامه بأركانها ، وشروطها يمثل ذلك كله جانب الشريعة ، وهو جسد الصلاة ..

وحضور القلب مع الله تعالى والخشوع له سبحانه فيها ، يمثل جانب الحقيقة ، الذي هو روحها .

فالأعمال البدنية جسدها ، والخشوع وحضور القلب روحها ، وكيف تتأتى فائدة الجسد بلا روح ؟

وكما أن الروح تحتاج الى جسد تقوم وتحل فيه ، فكذلك الجسد يحتاج ايضا الى روح يقوم بها ، ولهذا جاء تعبير القرآن الكريم واضحا بقول الله تعالى :

« أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

ولا تكون الاقامة الا بجسد وروح ، ولذا قال : أقيموا الصلاة ولم يقل سبحانه أوجدوا الصلاة ، لتدرك التلازم القائم الوثيق بين الشريعة والحقيقة ولتدرك التلازم القائم بين الروح والجسد .

والمؤمن الكامل ، هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو توجيه الصوفية للناس ، مقتفين بذلك أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثر الصحابة الأجلاء من بعده رضوان الله تعالى عليهم .

وللوصول الى هذا المقام الرفيع ، مقام الايمان الكامل ، لا بد من سلوك الطريقة ، وهي مجاهدة النفس ، والأخذ بيدها من صفات التخلي الى صفات التحلي ، حتى ترقى الى مقامات الكمال بصحبة المرشدين ..

وبذلك تكون الشريعة هي الأساس ، والطريقة هي الوسيلة ، والحقيقة هي الثمرة ، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة ، لا تناقض بينها ولا تضاد .

فمن تمسك بالشريعة ، سلك الطريقة ، ووصل الى الحقيقة ، وليس بين الشريعة والحقيقة تعارض ولا تناقض على ضوء ما أوضحنا .

ومن هنا قال السادة الصوفية فى قواعدهم المشهورة :

« كل حقيقة خالفت الشريعة فهى زندقة » .

ويقول الشيخ أحمد زروق رضى الله عنه :

« لا تصوف الا بفقه ، اذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة الا منه، ولا فقه الا بتصوف اذ لا عمل الا بصدق وتوجه لله تعالى ..

ولا هما : الا بايمان ، اذ لا يصح واحد منهما دونه ، فتلازم الجميع لتلازمها فى الحكم ، كتلازم الأجسام للأرواح ، ولا وجود لها الا فيها ،كما لا حياة لها الا بها» اهـ .

فكيف اذن تخالف ، الحقيقة الشريعة ، وهى ناتجة من تطبيقها ؟

يقول الامام مالك رضى الله تعالى عنه :

« من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » .

تزندق الأول : لأنه نظر الى الحقيقة مجردة عن الشريعة ، ولم يعمل بأحكامها ، فكأنه قال بالجبر ، وأن الانسان لا خيار له فى أمر من الامور ، فعطل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها ، وأبطل حكمتها والنظر اليها ...

وتفسق الثانى : لأنه لم يدخل نور الايمان قلبه ، ولم يغمس سر الاخلاص فؤاده ، ولم ينشرح صدره لطريقة المحاسبة ، حتى يحجب نفسه ، عن المعصية ، ويتمسك بأهداب السنة .

وتحقق الثالث : لأنه جمع كل أركان الدين : الاسلام ، الايمان ، الاحسان ، التى اجتمعت فى حديث جبريل عليه السلام ، الذى بدأنا به .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد فى استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع ، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آدابا ومناهج لتربية المريدين ، وتهذيب أخلاق السالكين .

وسلفنا الصالح ، والصوفية الصادقون — رضى الله عنهم — تحققوا بالعبودية الحقة ، والاسلام الصحيح ، حتى جمعوا بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، فكانوا مشرعين متحققين ، يهدون الناس الى صراط الله تعالى المستقيم ، وهديه القويم .

فالدين ان خلا من حقيقته جفت أصوله ، وذبلت أغصانه ، وفسدت ثمرته .

أما هؤلاء المعترضون على السادة الصوفية :

فان كانوا ينكرون هذا التقسيم الى : شريعة ، وطريقة ، وحقيقة ، على النحو الذى بيناه فهم يريدون بذلك لا شك أن يفصلوا روح الاسلام عن جسده ، وأن يهدموا ركنا هاما من أركان الدين الثلاثة الموضحة فى حديث جبريل عليه السلام وكبار فقهائه .

يقول ابن عابدين — رحمه الله تعالى — فى حاشيته المشهورة رد المحتار :

« الطريقة : هى السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل ، والترقى فى المقامات » .

« والحقيقة : هى مشاهدة الربوبية بالقلب ، ويقال : هى سر معنوى لا حد له ولا جهة ، وهى الطريقة والشريعة متلازمة ، لأن الطريق الى الله تعالى لها ظاهر وباطن ، فظاهرها الشريعة والطريقة ، وباطنها الحقيقة ، والمراد من الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة اقامة العبودية لله سبحانه وتعالى على الوجه المراد من العبد » .

ويقول الشيخ عبدالله اليافعى — رحمه الله تعالى — :

« ان الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة ، فمن سلك الطريقة وصل الى الحقيقة .

فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، ونهاية الشيء غير مخالفة له ، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة .

وقال صاحب كشف الظنون :

علم التصوف علم الحقيقة أيضا ، وهو علم الطريقة أى تزكية النفس عن الأخلاق الردية وتصفية القلب عن الأغراض الدنية .

وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل ، وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل .

ثم قال : وعلم الشريعة وما يتعلق باصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج ، وعلم الطريقة وما يتعلق باصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل ، وعقبات الطريق ..

فكما أن مجرد اللوازم ، ومجرد علم المنازل لا يكفيان فى الحج الصورى بدون اعداد اللوازم وسلوك المنازل ، كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان فى الحج المعنوى ، بدون العمل بواجبيهما .

والتعبير بكلمة : الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، تعبير درج عليه العلماء ، وجرى عليه الفقهاء، وهو اصطلاح من الاصطلاحات التى لا مشاحة فيها .

فمن أنكر ذلك ، فالواقع أنه ينكر الأحوال القلبية ، والأذواق الوجدانية ، والعلوم الوهبية ، والله سبحانه وتعالى ، وهو الكريم الجواد ، يكرم سبحانه عباده المخلصين وأحبابه الصادقين ، ولا حجر على قدرته الالهية :

«وما كان عطاء ربك محظورا» .

أخرج أبو نعيم فى الحلية عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

كيف أصبحت يا معاذ ؟

قال : أصبحت مؤمنا بالله تعالى .

قال : ان لكل قول مصداقا ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟

قال : يا نبى الله : ما أصبحت صباحا قط الا ظننت أنى لا أمسى ، وما أمسيت مساء قط الا ظننت أنى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة الا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكأنى أنظر الى كل أمة جاثية تدعى الى كتابها معها نبيها وأوثانها التى كانت تعبد من دون الله وكأنى أنظر الى عقوبة أهل النار وثواب أهل الجنة . قال : « عرفت فالزم » .

والصالحون ــ رضوان الله عليهم ــ لم يصلوا الى هذه الكشوفات والمعارف الا بتمسكهم بالكتاب الكريم والسنة الشريفة واقتفائهم أثر الرسول الأعظم وأصحابه الكرام ، ومجاهدتهم لأنفسهم من صيام وقيام ، وزهدهم فى هذه الدنيا الفانية ؛ كما أكرم الله تعالى معاذا رضى الله عنه بهذا الكشف الذى أقره عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : عرفت فالزم » .

وقد كان علماء السلف الصالح ــ رضى الله عنهم ــ يعملون على وجه الاخلاص لله تعالى ، حتى استنارت قلوبهم ، وخلصت أعمالهم ، فلما ذهبوا وخلف من بعدهم أقوام لا يعتنون بالاخلاص فى علمهم ولا فى عملهم اظلمت قلوبهم ، وحجبت عن أحوال القوم فأنكروها .

وهناك مغرضون يتحاملون على الصوفية مستشهدين بكلام ابن تيمية وغيره ، ويتهمونهم زورا وبهتانا ، بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ، ويهملون جانب الشريعة ، وأنهم يعتمدون على كشفهم ومفاهيمهم ولو خالفت الشريعة ، فهذا كله افتراء باطل ، يشهد على بطلانه كلام ابن تيمية نفسه ، فقد تحدث ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة فى قسم علم السلوك فتاويه فقال : « والشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى من أعظم مشايخ زمانهم أمرا بالتزام الشرع والأمر والنهى ومن أعظم المشايخ كذلك أمرا بترك الهوى

والارادة النفسية فان الخطأ فى الارادة من حيث هى ارادة انما تقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له ارادة من جهته هو أصلا ؛ بل يريد ما يريد الله عز وجل ، اما ارادة شرعية تبين له ذلك ، والا جرى مع الارادة القدرية ؛ فهو اما مع أمر الله واما مع خلقه .

وهو سبحانه له الخلق والأمر ، وهذه طريقة شرعية صحيحة ..

وهذه نبذة يسيرة من أقوال أئمة السادة الصوفية وتوجيهاتهم تشهد على تمسكهم بالكتاب والسنة .

قال الشيخ عبد القادر الجيلانى رحمه الله تعالى :

« كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهى زندقة » .

ثم قال أيضا :

« طِرْ الى الحق عز وجل بجناحى الكتاب والسنة ، ثم ادخل عليه ويدك فى يد الرسول صلى الله عليه وسلم » .

وقال رضى الله عنه ، منكرا على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك فى حال من الأحوال :

« ترك العبادات المفروضة زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد فى حال من الأحوال » .

ولكن مع كل هذا نجد الحاقدين على التصوف اذا سمعوا بشىء من أخلاق القوم قالوا :

« هذا منزع صوفى ، لاشرعى ، فيتوهم السامع أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة والحال أنه لب الشريعة كما أوضحنا . ومن يطلع على كتب القوم السليمة من الدس ، مثل كتاب الحلية لأبى نعيم ، والرسالة القشيرية ، وكتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، واللمع للطوسى ، والاحياء للغزالى ، وطبقات الصوفية للسلمى ، والرعاية لحقوق الله للمحاسبى والوصايا للشيخ محيى الدين بن عربى ، وغير ذلك من

كتب الصوفية ، لا يكاد يجد فيها ما يخالف الشريعة أبدا ، لكثرة محاسبة الصوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم ، فان حقيقة طريق القوم علم وعمل ، بل شريعة وحقيقة .

وبعد :

فلقد كان علماء الشريعة الاسلامية من الفقهاء والمحدثين يسيرون على أثر الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فيجمعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة ويؤدون العبادات العلمية متحققين بسر الاخلاص فيها ، متذوقين حلاوتها ، مدركين أسرارها ، وقد كانت لهم مجاهدات لتهذيب نفوسهم واصلاح قلوبهم .

ولما تحلوا به من صلاح وتقوى ومعرفة نالوا هذه المراتب العلمية ، بعلومهم على مر السنين والأيام ، فكأنهم أحياء بآثارهم الخالدة وجهودهم العلمية المباركة .

نفعنا الله بهم وبعلمهم وجزاهم الله عنا قدموا لنا من تراث علمي نافع خير الجزاء وبالله التوفيق .

موسى محمد على

سئل سيدنا على بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه بم عرفت ربك ؟

قال : عرفته بما عرفني به نفسه ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده ، بعيد فى قربه ، فوق كل شيء ، ولا يقال عنه شيء ، أمام كل شيء ، ولا يقال امامه شيء ، وهو فى كل شيء ، لا كشيء فى شيء ، فسبحان من هو كهذا ولا كهذا غيره .

دفاع عن السنة

لفضيلة الشيخ عبد المهيمن الفقى

نشر الاستاذ أحمد بهجت مقالا بجريدة الأهرام يقول فيه :

من المشهور الذائع عند عامة المسلمين وبعض علمائهم ، ان الله تعالى فرض على النبى صلى الله عليه وسلم خمسين صلاة فى ليلة الاسراء والمعراج ، فنزل النبى فلقى موسى فسأله عن عدد الصلوات التى فرضها الله على أمته ، فحدثه أنها خمسين ، فقال موسى : ان أمتك لن تطيق فارجع الى ربك فاسأله أن يخفف عنهم ، وعاد النبى الى ربه فخفف عن أمته عشر صلوات ، وعاد النبى الى موسى ، سأله موسى عن القدر الذى خففه الله عز وجل ، فلما أنبأه الرسول عاد يحذره أن الأمة الاسلامية لن تطيق ، وأن عليه أن يعود الى الله سائلا اياه التخفيف ، وعاد الرسول الى الله ، ثم عاد الى موسى ، حتى انتهى الأمر بالصلوات الخمسين الى خمس صلوات ، وللخمس ثواب الخمسين .

ورغم ورود هذه القصة فى كتب محترمة من كتب الأقدمين ، الا انها بلا سند يشفع لتصديقها لأكثر من أمر ..

* الأول : ان لقاء الحق عز وجل ، والوقوف فى الحضرة الالهية له من الجلال والهيبة ما يمنع النبى اذا انصرف أن يعود .

* الثانى : يثير الشك فى اعتبار هذه القصة من الاسرائيليات المقحمة على الدين الاسلامى ، اختيار موسى عليه السلام من بين جميع الأنبياء ، ليكون هو النبى الذى يقترح التخفيف عن أمة محمد ،

ويكون هو النبى الذى أدرك ما لم يدركه محمـــد ، وبذلك ترتب له القصة لونا من ألوان الاشراف .

* الثالث : فى القصة لون من ألوان الفصـــال التجـارى الذى يقوى الظن فى نسبة القصـــة الى اليهـــود الذين أسـلموا ــ دون اخلاص النية ــ ومـــلأوا كتب الأحاديث بالخرافات المنسوبة الى الرسول أو الصحابة .

* الرابع : يحمل البناء الداخلى لتركيب هذه القصة وجوه شبه مع بناء قصة مفاوضة اليهود مع موسى حين أمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة ، ما يوحى أن مؤلف هــذه القصة من احفـــاد المفاوضين ذوى اللجاجة القـــديمة .. أسباب كثيرة تدعونا لرفض تصديق القصـــة ، ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى صلى الله عليـــه وسلم فى رحلته ــ غير ماأشار اليه القرآن ــ مستبعد هو الآخـــر ، فقد كان الموقف مزيجا من الجلال والرهبة والمهـــابة والرحمـــة ، وقـــد شاهد الرسول من آيات ربه الـــكبرى ، وهى آيات يعجـــز اللسان عن التعبير عنها ، ويعجز العقـــل عـــن الاحاطة بها ، وقـــد تجاوز السياق القرآنى ــ عامدا ــ ما رآه النبى ، لأنه سر بين النبى وربه ، ومعجزة خاصة بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وتكريم لشخصه ، وبيان لدرجته ، تجاوز السياق هذا ليؤكد انه رأى من آيات ربه الكبرى .. هـــكذا فرضت الصـــلوات الخمس على الرسول فى ليلة الاسراء والمعراج .

السيـــد الاستاذ / أحمـــد بهجت

السلام عليـــكم ورحمـــة الله وبركاته .. وبعد

فقد نشرتم فى صحيفة الاهرام فى ١٩٧٩/٦/٢٨ م ، فى كلمتكم « بصندوق الدنيا » تحت عنـــوان اسرائيليات . عن فرض الصلوات الخمس . وتعـــرضتم الى لقـــاء الرســـول صـــلى الله عليـــه وسلم وسيدنا موسى وطلبه من الرسول « صلى الله عليه وسلم » أن يراجع ربه فى عـــددها وقلتـــم « ورغم ورود هذه القصة فى كتب محترمة

من كتب الأقــــدمين الا انها بلا سند يشفع لتصديقها لاكثر مــن أمـــر • ورجحت انهـــا من الاسرائيليات •

وذكرت من هــذه الامــور أن القصــة لون من ألوان الفصــال التجــارى وأن فيها اختيار موسى عليه السلام من بين الأنبياء وأنها أشبه فى بنائها بقصة مفاوضة اليهود مع موسى فى ذبح البقرة الى آخر ما كتب •

وفى الحق ان لك كتابات طيبــة هى محل ثناء وتقــدير وبودى لو سلكت نهجك وسرت على طريقتك فى التثبت فيمــا تكتب حتى تؤدى واجبك كاملا وتحتفظ بثقة قرائك • فــان لك قــراء يأخــذون عنــك ويطمئنون اليك • وتكون فيمــا كتبت قد قمت بواجب الامـــانة العلمية •

تضع كل أمر فى موضعه أمــا أنك أو غيرك يرفض تصديق القصة ومعظم ما حفلت به الكتب مما رآه النبى صلى الله عليه وسلم • فى رحلته غير ما أشار اليه القــرآن الكريم •

فنقول لسيادتك على أى أساس بنيت رفضك لهذه القصة ؟ • وعلى أى أساس أيضا بنيت رفض معظم ما جاءت به هذه الكتب فى حيــن أنك لم ترفض كل ما جاء بها ؟ •

ان هذا الحديث الذى تعرضت له ورميته بما رميته به هــــو من أحاديث الامام البخــارى والامام مسلم فى صحيحهما وهمــا أصح الكتب بعــد القــرآن الكريم وقد أجمــع علمــاء الاســلام فى كل العصـــور على صحــــة صحيحى البخارى ومسلم وتلقيهمــا بالقبول وأنه ليس فيهما مطلقا حــديث ضعيف فضـــلا عــن أن يكون موضوعا •

ومن واجبنا أن نعلم أن هـــذا الأمر له المتخصصون أهــل الذكر وقد قالوا : كلمتهم قبــل أن أكتب وتكتب أنت ويكتب غيرك فالأمر ليس أمر هوى يتبــع أو مــزاجا شـــخصيا أو ما يسمى بالعقــل لأن العقـــول تتفـــاوت وتختلف

والوحي جاء ينظم مسارها ويهديها الى سواء السبيل .

ان انكار السنة والنيل منها يهدم الدين لأن الاسلام يقوم على القرآن والسنة معا . قال تعالى :

« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

ويقول تعالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« الا وانى اوتيت القرآن ومثله معه » .

ويقول : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

كما يقول : « خذوا عنى مناسككم » .

هذا وحديث فرض الصلاة مذكور فى صحيح البخارى فى كتاب الصلاة .

وفقنا الله واياكم لما يحبه ويرضاه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم عقب الاستاذ احمد بهجت قائلا :

حدود العقل

العقل هو الهبة التى منحها الله لعباده من البشر ، والعقل أداة الانسان للخلافة فى الأرض ، وهو مناط التكاليف فاذا ذهب العقل بالجنون أو بالمرض سقطت التكاليف عن الانسان ، ورغم أهمية العقل وكونه أمنا للانسان ، فاننا نراه مطية اذا تعلق الأمر بالوحى ، اذ قال الله تعالى : « ان البحر قد انشق أو أن العصا تحولت الى ثعبان أو أن عيسى أحيا الموتى » صدقنا على الفور وقلنا لعقلنا :

ــ العقل فى حضور الوحى طفل يؤمر فيطيع ،لا عليه أن يفهم مشيئة الله وكيف تجرى فى الكون ، وانما عليه التصديق والطاعة .. وهذا جوهر الايمان ، ونحن نقف بعقولنا عند حدودها اذا تكلم الوحى ، سواء كان ذلك قرآنا أم سنة نبينا ، أما القرآن الكريم فقد حفظه

الله تعالى لقوله : « انا نحن نزلنا الذكر وانا لحافظون » ، اما السنة الشريفة فقد دونت كتبها الصحاح فى القرن الهجرى الثالث ، أى بعد أكثر من مائتى سنة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت سنة ٤٠ من الهجرة — كما يقول المرحوم الشيخ مصطفى السباعى : هى الحد الفاصل بين صفاء السنة وخلوها من الكذب والوضع ، وبين التزيد فيها والاضافة اليها واتخاذها وسيلة لخدمة الأغراض السياسية ، ويقول المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف « بقيت السنة بعد تدوينها فيها مجال للاختلاف ، واليها منفذ الوضع والافتراء . ويختلف الأئمة فى طريق الوثوق بالسنة والميزان الذى ترجح به رواية على رواية ، لأن الوثوق بالسنة مبنى على الوثوق برواتها وكيفية روايتها وقد نشأ علم الحديث وهو العلم الذى يميز بين الجواهر الحقيقية التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأقوال التى نسبت اليه ، وهو علم قيم له أهميته البالغة .. ورغم أن كتاب البخارى من الكتب الستة الصحاح الا أنه قد تعرض لنقد علماء الأزهر ومجمع البحوث الاسلامية ، يقول كتاب مجمع البحوث الاسلامية لمؤلفه الشيخ الدكتور محمد محمد ابو شهبة : « انتقد بعض الحفاظ على البخارى أحاديث ذكرها فى صحيحه ، وليست على المستوى والدرجة العالية التى التزمها فى صحيحه ، وعدة الأحاديث المنتقدة على البخارى مائة وعشرة أحاديث » وفى كتاب المجلس الاعلى للشئون الاسلامية للدكتور النعمان القاضى يقول : « ورغم ما لكتاب البخارى من منزلة رفيعة بين كتب الحديث فقد تعقبه علماء الحديث فى رجاله وأحاديثه وطريقة تأليفه وأخذوا عليه بعض المآخذ ، أما الرجال فضعفوا منهم نحو ٨٠ رجلا ، أما الأحاديث فضعفوا منها نحو مائة ، عابوها بشذوذها ، وما فيها من علل وقف أو قطع » .

ويورد البخارى حديثا مفاده « أن يهوديا سحر النبى صلى الله عليه وسلم فكان الرسول يخيل اليه

انه يفعل الشيء وما فعله » وهـذا حـديث كذبه كثير من العلماء المعاصرين : (محمد عبده ـ الشيخ محمد الحديدى ـ مصطفى الطير ـ الشيخ محمد محمود حجازى صاحب كتاب التفسير الواضح) ، أى أن علماءنا الأجلاء نقدوا كثيرا من أحـاديث البخـارى ، وليس صحيحا هذا الاجماع عليه ، وعند المسلمين كتاب واحد مقـدس هو الذى يقول وعلينا السمع والطاعة وذلك هو القرآن الكريم ، وما عداه من كتب يؤخذ منها ويرد عليها فهم رجال ونحن رجال .

هذه واحدة .. أمـا الثانيـة فهى :

نظـرة جـديدة

القرآن الكريم هـو المصـدر التشريعى الأول عند المسلميـن ، والسنة الشريفة هى المصدر الثانى، وفى السنة ما هو متفق عليه وثابت وروده عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا تجب له الطاعـة ، وفيها ما هو موضوع أو منسوب بغير حق للرسول ، واستبعاد هذا فرض على المسلمين ، وهناك عـلم كامل يبحـث فى تمييز أقـوال الرسول عن غيرها ، وقديما كان هذا العلم يهتم بالسند أو الراوى ، فيعرف من هو ومدى قـربه من الرسول والصحابة ، وعمن سمع، وعن أخـلاقه وصفاته وسلوكه ، وهـل يكذب ، وما مصـلحته فى الرواية الى آخـر ذلك ، ثم مرت الايام وبعد العهـد بالرسـول والصحابة والتابعين ، وتغير هـذا العلم بعد ذهاب مصادره فتكامـل بتحوله من علم للـرواية الى علم للدراية ، وعلم الدراية هـو الذى يبحث فى « المتن » أى مضمون الحديث ذاته ..

وللعلماء طرق فى معرفة الوضع فى المتن ،منها ركاكة اللفظ ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم والحكمة والبلاغة ، ومنها فساد المعنى بحيث يكـون الحديث مخالفا لبديهيات العقول ، ومنها مخالفتـه لصريح القرآن أو حقائق التاريخ المعروفة أو المبالغة أو اشتماله على مذهب الراوى .

وعلم الحديث اليوم لا يجد فرسانا كثيرين ، فقد تناقص عدد علمائه ، وصاروا فى ندرة الجواهر واكتسبت كتب القدماء قداسة لا يعرفها الاسلام ، وصار يكفى أن يكون الحديث موصولا بالرسول ليصدقه الناس ، رغم أن اختيار مجموعة من الصحابة والتابعين ونسبة ما لم يقولوه اليهم ونسبته بعد ذلك للرسول ، وطبعه فى كتاب مسألة ليست صعبة ، لقد طبع كتاب البخارى وغيره من كتب الصحاح آلاف الطبعات على امتداد القرون ، وكانت معظم هذه الكتب فى أصلها أوراقا قليلة ، فكيف صارت اليوم مجلدات ضخمة ، وأعداء الله الذين طبعوا من القرآن طبعات محرفة لا يعجزهم أن يدسوا فى السنة ما ليس منها بعدسبكه، والاسرائيليات خير شاهد ودليل .

ولا خلاف بين المسلمين على أن علم الحديث هو سلاح المسلمين فى تنقية السنة وحفظها ، ولكن الخلاف على كتب السنة الستة الصحاح ، وهل تحتاج لنظرة أخرى أم لا ؟

يرى الشيخ عبدالمهيمن — ايمانا منه — أن كتب السنة الصحيحة قد قامت بالمهمة ، ونرى نحن — اجتهادا منا — انها فى حاجة الى نظرة يقوم بها علماء الحديث فى مصر والعالم الاسلامى ،ولو تكونت لجنة ونظرت فى هذه الكتب ودققت وبحثت بغرض تنقية هذه الكتب من أحاديث تعارض نصوص القرآن أوتعارض بديهيات العقل لاطمأن قلب المسلمين ، ورغم أن معظم كتب الصحاح صحيحة ، الا أن فيها أحاديث عن سحر الرسول وضرب موسى عليه السلام لملك الموت على عينه ففقأها، وفيها خرافات واسرائيليات من واجب علماء المسلمين تنقيتها وتطهيرها ، وجمع السنة الصحيحة فى كتاب جديد ، وهذا الواجب ، وهو النظر فى تنقية السنة مما شابها هو مهمة علمية بقدر ما هو فريضة دينية ، ولا يشفع للمسلمين أن يتقاعسوا عن هذه المهمة ، لأن

اتمامها يعنى انجاز واجب دينى وعلمى خطير ..

ان حب الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكون بتقديس ما روى عنه دون تثبت أو مناقشة ، وانما يكون بفقه أحاديثه وتنقية كتب الأحاديث مما دس عليها من خرافة واسرائيليات .

أحمد بهجت

ردا على تعقيب الاستاذ احمد بهجت وارسل الى جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٧٩/٧/١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم الاستاذ / أحمد بهجت

السلام عليكمورحمة الله وبركاته وبعد ...

فلقد أطلعت على ما كتبت بتاريخ ١٩٧٩/٧/٨ ، ١٩٧٩/٩/٩ فى صحيفة الأهرام تحت عنوان « حدود العقل » و « نظرة جديدة » وذكرت أمورا لى عليها تعليق هى :

ان السنة قد دونت كتبها الصحاح فى القرن الثالث الهجرى وهذا ما نسلم به ولكن ليس معنى ذلك أنها كتبت من فراغ بل لقد بدأ تدوين السنة كتابة فى عهده صلى الله عليه وسلم باذنه الصريح لبعض الصحابة أن يكتب للصحابى اليمنى « ابى شاه » بعد أن التمس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : « اكتبوا لأبى شاه » .

وحدث أن بعض الصحابة شكا الى رسول الله أنه يعجبه الحديث ولا يحفظه ، فقال له الرسول : « استعن بيمينك » وأومأ بيده الى الخط . هذا فضلا عما هو معروف من صحيفة سيدنا « على » كرم الله وجهه الذى كان فيها العقل وفكاك الاسير .. الخ .. وما ثبت أيضا من أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يكتب فى صحيفته المسماه بالصادقة وهو لا يكتب الا اذا اذن له الرسول ،بل ان بعض العلماء أعتبر اذن رسول الله بكتابة الحديث بعد نهيه عن ذلك أعتبره وعده نسخا اذ النهى كان فى مبدأ الأمر خشية اختلاط السنة بالقرآن .

وصار الحديث يدون ويتسع تدوينه الى أن أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز العلماء فى مختلف الأمصار بجمع السنة وتدوينها وذلك فى نهاية المائة الأولى من الهجرة ، ومن كل هذا يتبين لنا أن تدوين السنة بدأ مبكرا فى عهده صلى الله عليه وسلم واستمر يتزايد حتى أمر به الخليفة عمر بن عبد العزيز . هذا بالاضافة الى أن حفظ السنة بالدرجة الأولى شأنها فى ذلك شأن القرآن فى العصر الاول ـ كان بالحفظ فى الصدور الأمر الذى امتازت به الامة الاسلامية فى حرصها على مصادر الاسلام اقامة لشريعة الله وتطبيقا لها .

أما أن السنة النبوية قد استهدفت للوضع ، فهذا ما نسلم به ولكن صحيح البخارى ومسلم ليس فيهما شىء من الأحاديث غير الصحيحة بل كل ما فيهما صحيح كما حققه علماء الحديث المتخصصون . وأما ادعاء من لا يعد من رجال الحديث من أن فى الصحيحين أو أحدهما أحاديث موضوعة فهى دعوى باطلة لا تقوم على دليل صحيح ولا سند يطمأن اليه وانما قامت على شبهة لا تلبث أن تزول أمام البحث العلمى الصحيح أما ما عزى الى المرحومين الامام محمد عبده والشيخ محمد حجازى من أنهما كذبا حديث السحر فأقول : أن كلا منهما ليس من رجال الحديث فشأنهما فى ذلك شأن الزمخشرى صاحب مدرسة التفسير وأستاذ كثير من المفسرين فقد قال عنه العلماء أنه ليس من رجال الحديث .

أما فضيلة الشيخ مصطفى الحديدى الطير ـ أمد الله فى عمره ـ فقد قال بصحة هذا الحديث ، ومنهجه فى هذا منهج الأئمة والعلماء الذين قالوا : أن الحديث اذا صح فهو مذهبهم ويؤيد فضيلة الشيخ الطير كلامه هذا بقوله فى كتابه « هادى الأرواح » ص ٧٧ ما نصه : « والشافعية اعترضوا على القتل مطلقا بأنه صلى الله عليه وسلم لم يقتل اليهودى الذى سحره » .

أما من قيل عنهم أنهم علماء ونقدوا البخارى فهم ليسوا علماء درجة من العلم تؤهلهم لذلك . وقد رد عليهم العلماء المتخصصون ... وأفحموهم ومما يؤسف له حقا أن هؤلاء يرددون أقوال المستشرقين وأعداء الاسلام .

أما ما ذكرته من نقد للامام البخارى من فضيلة الشيخ الدكتور محمد أبى شهبة وغيره من العلماء المتخصصين فهو موجه الى أحاديث معدودة يبلغ عددها مائة حديث وعشرة أحاديث من جملة أحاديث صحيح البخارى التى تبلغ أربعة آلاف حديث والنقد الموجه الى هذه الأحاديث لم يوجه الى سندها أو متنها وانما كان النقد موجها الى أن الامام البخارى قد التزم الا يذكر فى صحيحه الا الحديث الصحيح من المرتبة الاولى فى الصحة فنزل فى هذه الأحاديث الى المرتبة الثانية فى الصحة وذلك لأمور رأى أنها تؤدى الى تمع وخير ولم يخرج فى صحيحه عن الصحة قط وكذلك شأن الامام مسلم فى صحيحه .

وتقرأ معا ما قاله الاستاذ الشيخ أحمد شاكر — رحمه الله — وهو علم من أعلام علم الحديث المعاصرين وذلك فى تعليقه على كتاب — الباعث الحقيقى لأبن كثير ص ٢٣ .

« الحق الذى لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ومن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها ليس فى واحد منهما مطعن أو ضعف » .

وانما انتقد الدارقطنى وغيره من الحفاظ بعض الأحاديث على معنى أن ما انتقدوه لم يبلغ فى الصحة الدرجة العليا التى التزمها كل واحد منهما فى كتابه .وأما صحة الحديث فى نفسه فلم يخالف أحد فيهما » .

أما قولك : « وعند المسلمين كتاب واحد مقدس هو الذى يقول وعلينا السمع والطاعة وذلك هو القرآن الكريم وما عداه من كتب يؤخذ منها ويرد عليها فهم رجال

ونحن رجال فأقول لسيادتكم من هذا الذى يأخذ من كتب السنة ويرد عليها ؟ أيترك أمر كهذا له منزلته ومكانته لغير المتخصص ؟

ان من القواعد المسلم بها أن لكل علم رجاله الذين تخصصوا وبرعوا فيه وعرفوا أصيله من زيفه وصحيحه من فاسده واليهم يرجع غير المتخصصين يأخذون عنهم ويتعلمون منهم .

ان ترك العلوم لغير المتخصصين وبخاصة فى عصر التخصص يصيب العلم بنكسة وردة وان أمة لا يسند فيها الامر الى ذويه توغل فى التأخر والتخلف . ان كل علم له ضوابطه وقواعده فلا يستقيم ولا يصح أن يدخل فيه من ليس من أهله واننا ـ والله ـ لا نريد من وراء هذا حجرا على أحد ولا أن يستأثر به أحد .

وحادثة السحر الوارد فيها الحديث الذى أوردته ليس فيها ما يطعن فى عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم فتأثير السحر كان فى جسده الشريف ، فالسحر أشبه بالمرض العادى الذى كان يلم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل أحد أن ذلك ينال من عصمته فالله قد عصمه من الناس فى كل ما يتصل بالرسالة . وهذا هو الذى رآه العلامة المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وهو تلميذ الامام محمد عبده وقد خالف استاذه الامام فى ذلك .

أما من يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الناس بعامه فان ما حدث له من اعتداء المشركين فى الطائف وفى مكة وفى غزوة « أحد » وغيرها ينفى هذا الزعم والحديث والحمد لله صحيح لا يلحقه أى ضعف .

أما حديث الاسراء والمعراج الذى نحن بصدده فقد رواه مايزيد على العشرين من الصحابة رضوان الله عليهم ليس فيهم أحد من أهل الكتاب الذين دخلوا فى الاسلام .

أما قولك : هناك علم كامل يبحث فى تمييز أقوال الرسول عن غيرها ، وقديما كان هذا العلم

يهتم بالسند أو الراوى الخ ما قلت •

فأقول : ان مدرسة الحديث قد عنيت بالحديث رواية ودراية سندا ومتنا عناية تامة وأنها وفت كلا منهما حقه ، وأن المتن قد درس دراسة فائقة فحكم رجال هذا العلم على أحاديث بالوضع والاضطراب والشذوذ ، والتعليل والنكارة من طريق النظر فى المتن فحسب كما وضعوا أمارات وعلامات يستدل بها على كذب الحديث ، أبعد هذا يقال ان متن الحديث يحتاج الى بحث وتدقيق وتنقية ؟

أما قولك بأن كتب الحديث قد طبعت آلاف الطبعات ، وكانت معظم هذه الكتب فى أصلها أوراقا قليلة فكيف صارت اليوم مجلدات ضخمة •

فأقول : ان قولك هذا ان أردت به أن كتب السنة كالبخارى ومسلم وغيرها قد زيد فيها وأضيف اليها ما لم يقله رسول الله فهذا لم يقل به أحد من المسلمين الذين يتورعون فى دينهم ويتثبتون من أقوالهم وان أردت انها قد تضاعفت شرحا وتعليقا واستنباطا لأحكامها وبيانا لما فيها من فقه وتشريع وأخلاق ومواعظ وبلاغة وأدب رفيع وجوامع كلم فهذا صدق وحق والمكتبة الاسلامية زاخرة وغنية بالمجلدات والموسوعات والشروح لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزداد وتتسع على يد من يوفقه الله لهذا العمل الجليل •

وان السنة الشريفة قد سخر الله لها — كما سخر لكتابه العزيز — من قام بفهرستها وهو عمل كبير استغرق وقتا طويلا وأنفق فيه مال كثير (وما يعلم جنود ربك الا هو) •

أما ما يتصل بحديث موسى عليه السلام مع ملك الموت وأنه فقأعينه فهو حديث صحيح ولا مطعن عليه ممن يعرف السنة فسيدنا موسى لم يكن يعلم أنه ملك الموت وانما ضربه دفاعا عن نفسه ظنا منه أنه يريده بسوء وعندما جاءه فى المرة

الثانية وعـرف أنه ملك الموت وأن الله سبحانه خير سيدنا موسى بين طول الحياة والانتقال الى جـوار ربه فاختار عليه السلام ـ جوار ربه .

وكلمـة أخيرة أقولهـا ـ ان سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سلمت من أى دخيل بعـد أن أبان رجالها كل حديث نسب الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ووضعوه فى مكانه ومرتبته ولكن السنة دائما وفى كل عصر تنـال بالطعن والغمز واللمز بالباطل من أعداء الاسلام والخارجين عليـه وأظنك تذكر ما تعرضت له السنة فى مصر على يد صـاحب كتاب « أضواء على السنة » وما كتب عنها بيد كاتب « كبير » فى مجلةالعربى وتركيزه على التهوين من شـأن « صحيح البخارى » بخاصة ـ غفر الله لهما ـ أما فى هـذه الأيام فاننا نرى أن الهجوم قد جاءها من حاكم من حـكام احـدى الدول العربية ينكرها جملة وتفصيـلا ، وما انكار السنة أو النيـل منهـا بالباطل الا طريق من الطـرق التى يلجأ اليها أعداء الاسلام رغبة فى القضاء عليـه .

« يـريدون ليطفئـوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

هذا واننا جميعا نحب رسـول الله صلى الله عليه وسلم وندعـو أنفسنا وغيرنا ألا نقول فى حديثه بغير علم وأن نتثبت مما نقوله فان هذا هو أمارة الحب وعلامة الصدق فى الاتباع . وقد امرنا الله تعالى الا نتبع ما ليس لنا به علم فقـال جل ثناؤه :

« ولا تقف ما ليس لك به علم ان السـمع والبصر والفـؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا » .

صدق الله العظيم .

تحريرا فى ٢٢ من شعبان سنة ١٣٩٩ هـ

الموافق ١٧ من يوليـو سـنة ١٩٧٩ م

عبد المهيمن محمد الفقى

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« لا عز الا فى التقوى »

١ — قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : من سره أن يكون اعز الناس فليتق الله ، ومن سره ان يكون أغنى الناس ، فليكن بما فى يد الله اوثق منه بما فى يده ، ومن سره ان يكون اقوى الناس فليتوكل على الله .

٢ — وفى هذا المعنى يقول على ابن ابى طالب ، رضى الله عنه : من سره الغنى بلا مال ، والعز بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من معصية الله الى طاعته ، فانه واجد ذلك كله .

٣ — وقال المنتصر العباسى ، والله ماعز ذو باطل ولو طلع القمر من جبينه ، ولا ذل ذو حق ولو اتفق العالم عليه .

« بنت حاتم الطائى »

قال على بن ابى طالب — رضى الله عنه — : يا سبحان الله ! ما ازهد كثيرا من الناس فى الخير ! عجبت لرجل يجيئه أخوه فى حاجة فلا يرى نفسه للخير اهلا ! فلو كنا لا نرجو جنة ولا نخاف نارا ، ولا ننتظر ثوابا ، ولا نخشى عقابا لكان ينبغى لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فانها تدل على سبيل النجاة .

فقام اليه رجل فقال : فداك ابى وامى يا امير المؤمنين ! اسمعته من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ قال : نعم ، وما هو خير منه ، لما اوتينا بسبايا طيىء كانت فى النساء جارية حماء (١) ، حوراء العينين (٢) لعساء (٣) ، لمياء (٤) ، عيطاء (٥) ، شماء الأنف ، معتدلة القامة .

فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لاطلبنها الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليجعلها من فيئى (٦) فلما تكلمت انسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها ، قالت : يا محمد هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فان رأيت ان تخلى عنى ، فلا تشمت بى احياء العرب ! فانى بنت سيد

---

(١) حماء : سوداء

(٢) الحور : سواد العين كلها .

(٣) جارية لعساء : فى لونها او فى سودا ، مشربة بحمرة .

(٤) اللمى : سمرة فى الأنف .

(٥) امرأة عيطاء : طويلة العنق .

(٦) الفيء : الغنيمة .

قومى ، كان ابى يفك العانى ، ويحمى الزمار ، ويقرى الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، انا بنت حاتم طيىء ، فقال لها رسول الله — صلى الله عليه وسلم : — يا جارية ، هذه صفات المؤمن ، ولو كان ابوك اسلاميا لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الأخلاق !

« سماحة الاسلام »

روى ابو هريرة — رضى الله عنه — قال : جاء رجل الى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : هلكت يا رسول الله ، قال وما اهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى رمضان ، فقال : هل تجد ما تعتق به رقبة ؟ قال : لا ، قال : فهل تستطيع ان تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم به ستين مسكينا ؟ قال : لا . . . ثم جلس .

فأتى النبى — صلى الله عليه وسلم — بتمر ، فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على افقر منا ، ليس هناك اهل بيت احوج اليه منا .

فضحك النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى بدت نواجذه ، وقال : اذهب فاطعمه اهلك .

« اللعب بالألفاظ »

دخل شريك بن الاعور على معاوية ابن ابى سفيان ، وكان شريك دميما ، فقال له معاوية : انك لدميم ، والجميل خير من الدميم . وانك لشريك ، وما لله من شريك ، وان اباك الأعور ، والصحيح خير من الاعور . فكيف سدت قومك ؟

فقال له : انك معاوية وما معاوية ، الا كلبة عوت ، فاستعوت الكلاب وانك ابن صخر ، والسهل خير من الصخر . وانك ابن حرب ، والسلم خير من الحرب . وانك ابن امية ، وما امية الا امة صغرت فكيف صرت امير المؤمنين ؟

ثم خرج وهو يقول :

ايشتمنى معاوية بن حرب
وسيفى صارم ومعى لسانى ؟

وحولى من ذوى يزن ليوث
ضراغمة تهش الى الطعان

يعير بالدمامة من سفاه
وربات الحجال من الغوانى

« هجر القرآن »

هجر القرآن انواع : احدها هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه ، والثانى هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه ، وان قراه وآمن به ، والثالث هجر تحكيمه والتحاكم اليه فى اصول الدين وفروعه واعتقاد انه لا يفيد اليقين ، وان ادلته لفظية لا تحصل العلم والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما اراد المتكلم به منه . والخامس هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع امراض القلوب وادوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به وكل هذا داخل فى قوله : « وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » وان كان بعض الهجر اهون من بعض .

« المحبة مفتاح كل خير »

دعا المنصور بالربيع (١) فقال : سلني ما تريد ! فقد سكت حتى نطقت ، وخففت حتى ثقلت ، واقللت حتى اكثرت !

فقال يا امير المؤمنين ، ما ارهب بخلك ، ولا استصغر فضلك ، ولا اغتنم مالك ، وان يومى بفضلك على احسن من امس ، وغدك فى تأميلى احسن من يومى ! ولو جاز ان يشكرك مثلى بغير الخدمة والمناصحة لما سبقنى لذلك احد .

قال : صدقت ، علمى بهذا منك احلك هذا المحل ، فسلنى ماشئت .

قال : اسالك ان تقرب عبدك الفضل (٢) ، وتؤثره وتحبه ! قال : يا ربيع ، ان الحب ليس بمال يوهب ، ولا رتبة تبذل ، وانما تؤكده الاسباب .

قال : فاجعل له طريقنا اليه بالتفضل عليه !

قال : صدقت وقد وصلته بالف درهم ! ولم اصل بها احدا غير عمومتى ، لتعلم ما له عندى : فيكون منه ما يستدعى به محبتى .

ثم قال : فكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟ قال : لأنها مفتاح كل خير ومغلاق كل شر ، تستر بها عندك عيوبه ، وتصير حسنات ذنوبه !

قال : صدقت .

« حقيقة الدنيا »

ان الانسان اذا تأمل بفكره فى الحياة الدنيا ، وتصور ما فيها من مرض بعد صحة ، وفقر بعد غنى ، وذل بعد عز ، وهبوط بعد صعود ، وتأخر بعد تقدم ، وموت بعد حياة .

اذا تأمل الانسان فى ذلك كله ، لحكم على الدنيا بأنها دار جردت من السعادة والهناءة .

حقا ان الدنيا دار هم وغم وتعب وبلاء ، وعناء ووصب فمن طلب الراحة فيها طلب المحال .

تعب كلها الحياة فما اع
جب من راغب فى ازدياد

دار حفت بالكوارث والنكبات ، وامتلات بالقوارع والآفات ، من صح فيها سقم ، ومن امن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها حساب ، وفى حرامها عقاب . فكيف يطمئن الناس اليها وقد علموا الا بقاء فيها . وانما هى كما قال الشاعر :

هب الدنيا تساق اليك عفوا
اليس مصير ذاك الى انتقال

وما دنياك الا مثل فىء
اظلك ثم آذن بالزوال

---

(١) هو الربيع بن يونس ، خدم المنصور ثم تدرج فى المناصب عنده الى ان استوزره ، وكان جليلا نبيلا عارفا بخدمة الخلفاء ولابنه الامين .

(٢) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر للرشيد بعد البرامكة ،

« الامام الشافعي في ساعته الأخيرة »

دخل رجل على الامام الشافعي — رضي الله عنه — وهو في ساعته الاخيرة ، فقال له : كيف اصبحت ؟ قال : « اصبحت من الدنيا راحلا ، ولاخوانى مفارقا ، وبكاس المنية شاربا ، ولا أدرى الى الجنة تصير روحى فاهنيها ، أم الى النار فاعزيها » .

وانشأ يقول :

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى
جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته
بعفوك ربى كان عفوك اعظما

« بلال يؤذن »

لما تولى الخلافة أمير المؤمنين ، عمر — رضي الله عنه — ، وفتحت جيوش المسلمين ارض الشام تقدم اليه مؤذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بلال بن رباح الحبشى — رضي الله عنه — يستأذنه ان يقيم بالشام ، فأذن له عمر .

وبينما هو مقيم بها ، راى في منامه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول له : « ما هذا الجفوة يا بلال ؟! اما آن لك ان تزورنى يا بلال » ؟

وانتبه بلال من نومه خائفا وجلا ، وركب من يومه راحلته قاصدا مدينة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسار الى ان دخل المدينة المنورة ، واتى قبر النبى — صلى الله عليه وسلم — ، وانكب عليه يبكى ويمرغ وجهه عليه ، ثم طلب منه الناس ان يؤذن في المدينة ، ولما اخذ في الاذان ارتجت المدينة بالبكاء ، وتذكر الناس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فما رؤى يوم اكثر باكيا بالمدينة من ذلك اليوم .

« من كنت اباه فهو يتيم »

كتب المنصور الى زياد بن عبد الله الحارثى ان يقسم ما لا بين القواعد والعميان والايتام . فدخل عليه ابو زياد التميمى ، فقال أصلحك الله ، اكتبنى في القواعد ، فقال له : عافاك الله ، القواعد من النساء اللاتى قعدن عن أزواجهن ، فقال اكتبنى في العميان . قال اكتبوه فيهم فان الله تعالى يقول : « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى في الصدور » .

قال ابو زياد : واكتب ابنتى في الايتام .

قال : نعم من كنت أباه فهو يتيم .

« لا ابيع الدين بالتين »

كان مالك بن دينار يمشى في سوق البصرة فراى التين فاشتهاه ولم يكن معه نقود يشترى بها فخلع نعله واعطاه لبائع التين ، فقال لا يساوى شيئا ، فأخذ مالك نعله وانصرف فقيل للرجل : انه مالك ابن دينار ، فملأ الرجل طبقا من التين واعطاه لغلامه ، ثم قال له : الحق بمالك بن دينار ، فان قبله منك فانت حر فعدا الغلام وراءه فلما ادركه ، قال له : اقبل منى فابى ، فقال : اقبل فان فيه تحريرى ، فقال مالك : ان كان فيه

تحريرك ، فان فيه تعذيبي فالح الغلام عليه ، فقال : حلفت ان لا ابيع الدين بالتين . ولا آكل التين الى يوم الدين .

« الصبر جميل »

اصابت عروة بن الزبير – رضي الله عنه – [الاكلة] (١) في رحلة فاشاروا عليه بقطعها .

قالوا : تسقيك المرقد .

فقال : انى لاكره ان افارق عضوا من اعضائي ، وانا لا اجد الما لفراق ذلك العضو .

ودخل عليه قوم انكرهم ، فقال : ما هؤلاء ؟! قالوا : يمسكونك .

قال : ارجو ان اكفيكم ذلك من نفسي .

ومد رجله وجيء بالسكين ، نقطع اللحم ، وبالمنشار فنشر به العظم ، واغلى الزيت في مغارف الحديد وحسم به الدم . كل ذلك ، ولم يقبض وجهه ، ولم يتحرك ، وفي اثناء ذلك دخل عليه رجل يعزيه ، فقال : ان كنت تعزيني في رجلي ، فقد احتسبتها !.

قال : بل اعزيك في ولدك محمد !
قال : ماله ؟!.

قال : سقط الساعة في اسطبل دواب الوليد ، فرفسته بقوائمها حتى قتلته .

ثما زاد على ان قال : « اللهم اخذت ابنا وابقيت ابناء ، واخذت عضوا ، وابقيت اعضاء » .

« اللهم ان كنت اخذت فقد ابقيت ، وان كنت ابتليت فقد عافيت » .

(١) السرطان .

« وصية »

اوصى الامام علي ولده الحسن – رضي الله عنهما – فقال : يابني احذر من الأمور ثلاثا ، ووافق ثلاثا ، واستح من ثلاث وافزع الى ثلاث ، واهرب من ثلاث ، وخالف ثلاثا ، وخف ثلاثا ، وارج ثلاثا . فقال الحسن : فصلها يا ابي ، فقال :

احذر من الكبر والغضب والحرص المذموم ، ووافق كتاب الله وسنة رسوله والصالحين من عباده ، وليكن حياؤك من الله ومن الملائكة ومن الصالحين ، وليكن فزعك خوفا من المعصية وفزعك الى التوبة وفزعك الى طلب العلم واهرب يا بني من الكذب والخيانة والظلم ، واجتنب الشر واهله والنفاق واهله والحمق واهله ، وخف الله وممن لا يخاف الله ومن لدغات لسانك ، وارج الله في غفران ذنوبك وفي قبول اعمالك ، وفي شفاعة نبيك .

« ابتهالات »

١ – حج اعرابي فقال : اللهم ان كان رزقي في السماء فانزله ، وان كان في الارض فاخرجه ، وان كان نائيا فقربه ، وان كان قريبا فيسره .

٢ – ودعا آخر فقال : اللهم لا تخيبني وانا ارجوك ، ولا تعذبني وانا ادعوك ، فقد دعوتك كما امرتني ، فاجبني كما وعدتني .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

بـاب الفتـاوى

الأسـتاذ عبدالحميد شاهين

س : ترى فى المساجد يوم الجمعة وغـيرها مظـاهر لتصرفات سيئة لا تليق بجـلال المسـجد ترجـو الكتابة عن الآداب التى يجب أن يرعاهـا المسلمون حـين يدخلون بيوت الله .

ج ـ لا شـك ان كثـيرا من المسلمين الغيـورين على دينهم يزعجهم ويؤلمهم ما يشـاهدون من مخالفات فى مساجدهم ناشئة عن جهـل أو تعمـد أوضـحها ذلك الصخب الذى ينبعث عندما يكون هناك قارىء يتلو القرآن أو يلقى بعض التواشيح رغم كثرة تنبيههم الى التـزام الصمت والسـكينة ، الى غير ذلك من المخالفـات التى ترتكب فى المسجد ... ولفضيلة الامام الأكبـر الشـيخ محمـود شلتوت فتوى فى هـذا الموضوع نوردها فيمايلى لعـل فيهـا تذكير وتنبيه لتلك القلوب الغـافلة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

يقول رحمه الله : قال الله تعالى : « يا أيهـا الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيـع ذلكم خـير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضـل الله واذكروا الله كثـيرا لعلكم تفلحون » (١) .

وهكذا يجمـع الله للمؤمنين بين الدنيا والدين ، بين عبـادة ربهم والسعى على رزقهم ، ولا يتركهم للدين يأخذهم من الدنيا ، ولا للدنيا

---

(١) الآيتان ٩ و ١٠ من سورة الجمعة .

تأخـذهم مـن الدين ، بل يكلفهم الأمرين معـا ، ويجعلهمـا سبيل فلاحهم وسعادتهم ويجعل دعوتهم وشعارهم « ربنا آتنـا فى الدنيـا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنـا عذاب النار » (١) .

مكانة الجمعة فى الاسلام :

والجمعـة هى تلكم الفريضـة الأسبوعية التى يجتمع لها المؤمنون بشعور واحد فى زمن واحد يخلعون أنفسهم ساعة من دنياهم ، يفرغون فيها لربهم ، فيناجونه ويستحضرون عظمتـه ، ويلتمسون منـه العفو والرضـا ، ويستمطرونه الحـول والقـوة ، ثم يسـمعون المواعظ المرققة للقلوب المهـذبة للنفوس ، المرشـدة الى وجـوه السعادة فى الدنيا والآخرة « ولو أنهم فعـلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ، واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيمـا ، ولهـديناهم صراطـا مستقيما » (٢) .

وقد تضافرت كثرة من أحاديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعـد نزول القرآن فيهـا والأمر بالسعى اليها ، والتخلى لأجلها عن شئون الدنيا ـ على التحـذير من تركها والتهـاون فى شأنها ، وكان منها قوله عليه الصلاة والسلام ـ قوم يتخلفون عنها : « لقد هممت أن آمر رجـلا يصـلى بالنـاس ، ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعـة بيوتهم » . وقوله فيمن يتركها بغير عذر شرعى : « من ترك الجمعة ثلاثا من غير ضرورة طبع الله على قلبه » .

شعار الرابطة الاسلامية !

وقـد اعتبر الاسلام فى صـحة الجمعـة وحـدة الزمن والمكان ، ليكون الاجتماع لهـا وسيلة من وسائل التعارف والتعاون والاتحاد

---

(١) الآية ٢٠١ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ من سـورة النسـاء .

وجمع الكلمة ، وهى أول عبادة وضعها الاسلام فى شعار الرابطة الاسلامية والأخوة الدينية ، وهى كذلك أول ما وضعه من الشعائر العملية لمبدأ المساواة الذى قرره بين معتنقيه ، وألغى به التفاضل بينهم الا بالتقوى والعمل الصالح ، وكان من شعار الرابطة والمساواة أيضا فيما طلب من عبادات على وجه أعم ونطاق أوسع ، صلاة العيدين ، واجتماع الحجيج فى بيت الله الحرام وعرفة من كل عام .

أما المسجد فهو ذلكم المكان الذى أعد لهذا الاجتماع ، وقد كان انشاؤه أول ما اتجهت اليه عناية الرسول — صلى الله عليه وسلم — بعد وصوله الى المدينة ؛ وأنشأ مسجده الجامع ليضم شتات المسلمين ، ولتقام فيه الصلوات فى صورة جماعية رائعة ، وقد درج المسلمون بعده على سنة بناء المساجد والعناية بها .

وقد نوه الله بشأنها وأضافها الى نفسه ، تشريفا وتكريما ، وجعله بيته ، خاصا به ، لا يذكر فيها أحد سواه ، ورفع قدرها بما أعدت له من عبادته وتقديسه « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » (١) .

ثم ربط القلوب بها وبآثاره الطيبة التى يجب أن يحرص عليها المسلمون ضمانا لروابطهم وحسن عباداتهم « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين (٢) . « وان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا (٣) .

---

(١) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة النور .
(٢) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١٨ من سورة الجن .

هـذا هو المسجد ، وهـذه هى الجمعة ، واحترامهـا والحمـد لله لا يزال باقيا فى نفوس المسلمين ، يتوارثونه الجيـل بعد الجيـل ، والأبناء بعد الآباء ، وليسوا فيما نرى بحاجة الى ما يبعث فى قلوبهم ذلك الاحتـرام الذى نرى آثاره بادية على وجـوه من لا يعـرفون المسجد ، ولا يهتمون بصلاة الجمعة الا فى مناسبات خاصة !!!

أدب المسجد والجمعة :

وقـد كان المسـجد وصـلاة الجمعـة بهـذا الوضع من أقوى ما يعد النفوس لتلقى الالهـامات الروحيـة ، التى تضىء للمؤمنـين سبيل الهـداية والتوفيق ، غير أن بعض المظـاهر كثيرا ما نشاهدها تحـدث فى المسجد ، وفى صـلاة الجمعة على وجه خاص ، وأخشى أن يكون لهـا تأثير سيىء فيمـا يرجون من اخلاص العبادة لله ، والتوجه اليه سبحانه وحده .

ومن هنـا أوجب الاسـلام أن يسود فى المساجد مظهـر الخشوع والسكينة ، والبعـد عمـا يكدر صفو الروحية التى يسعون اليها ، ويلتمسونها بالصلاة الجامعة .

مظاهر لا تليق بجلال المسجد :

وحرصا على هذا الأدب لا ينبغى أن يتخذ منهـا مسرح للتسول ، وبيع المجـلات والكتب ، يخترقن بهـا الصفوف وتوزع على المصلين أوراق التسول والمجلات والاعلانات التجارية والطبية ، ثم تجمع وينتقل بهـا من صف الى صف ، وهكذا يشغل المصلون بهذه الحركات عن حسن توجيههم الى الله حتى اقامة الصـلاة .

ولا ينبغى أن تنطـلق فيهـــا الأصـوات المزعجة المقـرفة للقلب عقب الصلاة ، بحـذاء فقـد ، أو مسبحة سقطت ، أو منـــديل ضاع ، أو قراءة فاتحة لصـاحب الضريح أو غير ذلك ، مما يصرف الناس عن تمم طمأنينة الصلاة ، أو آداب سنتها أو ختمها كما ورد بالتسبيح والتحميـد والتكبير ، وصح عن ـــ النبى صلى الله عليه

وسلم ـ أنه حذر من التماس الضالة فى المساجد « والضالة الشىء المفقود » وأمر بالدعاء على من يلتمسها قولوا له : « لا ردها الله عليك » فان المساجد لم تبن لهذا .

ولا ينبغى أن تتخذ منها ميدانا للجدل الصاخب ، يثيره متفيهق ثرثار فى شأن لا تعرف مشروعيته أو عدم مشروعيته الا من رجال النظر والاختصاص فى الفقه وشئون العبادة .

ومن أمثلة ذلك ما كتب الى بعض المقيمين فى القرى ويقول : « قد أخذت الناس فيه عاصفة حادة من الجدل وصلت بهم الى المعارك المادية فى بيت الله وحرمة الصلاة » وكان من تلك المسائل : « صلاة الظهر ينفرد باقامتها بعض المصلين عقب سلام الامام من صلاة الجمعة مباشرة » . ومنها : « الأذان الذى يفعل بين يدى الخطيب داخل المسجد بعد صعود المنبر » . ومنها : « قراءة سورة الكهف بصوت مرتفع قبل الصلاة » ، وخاصة اذا كانت من قارىء يعمد فى قراءته الى تطريب النغم ، فترتفع الأصوات بكلمات الاستحسان ، الى حد يتخيل مستمعوا المذياع أنها أصوات تنبعث من أحد الملاهى ، أو احدى حفلات السمر ، وما هى الا فى بيت الله ، ومجتمع المناجاة ، وبقراءة القرآن الكريم ؟؟

ولا ينبغى أن يهرع المصلون عقب السلام مباشرة الى حمل أحذيتهم ، متزاحمين على باب المسجد ، متدافعين متسابقين الى الخروج ، شأن الفارين من سجن طالت اقامتهم فيه ، وضاقت بهم سبل التخلص منه ، ثم جاءهم الفرج ، وفاجأتهم ساعة الخروج ، وهم ما كانوا الا فى المناجاة ، وتطمئن القلوب بذكر الله .

وقد كان من وصايا الرسول فى ذلك أن طلب من المؤمنين الاغتسال ليوم الجمعة . وجعل آكل الثوم مثلا لكل من به رائحة كريهة مؤذية ، وحذره من قربان المسجد وشهود الجماعة ، وصح عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت :

(كان الناس ينتابون (يأتون) يوم الجمعـة من منازلهم ومن العوالى (القرى) فى العبـاء ، فيصيبهم الغبار والعرق فتخرج منهم الريح ، فأتى النبى انسان منهم وهو عندى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لـو أنكم تطهـرتم ليـومكم هـذا » ؟) .

واذا كان المسجد هـو مكان الاجتماع الاسلامى ، فان ما يطلب فيه من التطهـر والطيب شأن كل مجتمع فاضل فى نظر الاسلام .

وكان من وصاياه عليـه الصلاة والسلام فى الجمعـة ومثلهـا كل جماعة . التحذير من تخطى الرقاب ومن وصاياه الخاصـة بالخطبـاء التحذير من اطالة الخطبة .

الطمانينة القلبية :

وبعد .. فليس من شك فى أن الطمـأنينة القلبيـة التى يلتمسها المسلم من صـلاته ومن حضـوره المسجد ، لا سبيل لها الى القلوب الا فى جو الهـدوء والسكينة ، وخلوص الفكر لله واتصال النفس بجلاله وعظمته ، وليس من شـك أيضا فى أن كل ما يؤذى ، رائحة ، أو صوتا ، أو حركة ، أو منظرا ، مما يعـوق سـيرها الى القلوب ، ويجعل الصلاة وحضـور المسجد مجرد شأن تقليدى ، لاحظ للروح فيه ، والمؤمن يجب أن يكون فاقها بعبادته ، جادا فى عمله حريصا على خيره ، ملتمسا رضا ربه .

« قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون » .

والله اعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

حوار بين السيد رئيس الجمهورية
والعلماء والمفكرين المسلمين

التقى الرئيس السادات فى الاسماعيلية بعلماء الدين الاسلامى .. حضر المقابلة حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور عبد الرحمن بيصار شيخ الازهر وحسن التهامى نائب رئيس الوزراء برئاسة الجمهورية والدكتور صوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب ومنصور حسن وزير الدولة لرئاسة الجمهورية وعدد كبير من علماء الازهر الشريف والكتاب والمفكرين الاسلاميين ، وفيما يلى النص الكامل لكلمة الرئيس وكلمات القيادات الدينية والمناقشات التى دارت عقب انتهاء الرئيس من كلمته :

بسم الله ..

فضيلة الامام الأكبر .. الاخوة الاجلاء وعلماءنا الفضلاء . دعوتكم هذه الليلة لكى نتذاكر فى أمر اعادة بناء مصر بعد أن فتح الله سبحانه وتعالى علينا بلدنا .. فاصبحت لنا لا قرار فيها غير قرارنا ولا ارادة فيها غير ارادتنا وسمعتم اخوتكم وأخواتكم الذين تحدثوا من قبل فى مختلف فروع التخصصات وفى الحلول والمشاكل التى نواجهها والتى نعمل جميعا من أجل أن نصل الى الحلول فيها .

ومشاكلنا معقدة لأنه مضت فترة طويلة أهملت فيها أمور كثيرة ، ثم فوجئنا وتعداد السكان يزيد بمعدل مليون كل سنة .. فوجئنا بهذه المشاكل تجتمع مرة واحدة لتواجهنا وسمعتم اخوانكم وأخواتكم فى توصيفهم لهذه المشاكل وللحلول ولعلها المرة الأولى التى تجلس فيها جميعا كعائلة واحدة لا فرق بين حاكم ومحكوم . كما تقضى شريعتنا السمحة لنتذاكر ولنطبق قول الله سبحانه وتعالى « وأمرهم شورى بينهم » .

فى هذه المرحلة لن يصح أمرنا الا بما صح به أمر الأوائل المكافحين من آبائنا وأجدادنا . من أن تجتمع كلمتنا جميعا على كلمة سواء .. وأن تشترك جميعا فى توصيفها تواجهه وفى ايجاد العلاج والطرق لمواجهة هذه

المشاكل كلها . وتتذكرون أننى فى بداية هذه اللقاءات تحدثت الى الشباب وكان أول لقاء لى هو مع الشباب .. لماذا ..؟

اعداد الشباب للمستقبل

لأن الشباب هو الجيل الذى لابد أن يتسلم المسئولية منا .. الذى علينا أن نعده ونسلحه بكل ما نستطيع من أسلحة وعدة لكى يواجه الحياة ولكى يبنى مصر .. مصرنا الخالدة ولكى نجنبه أيضا ما وقعنا فيه من أخطاء وعبر أكثر من ألفى سنة قبل ثورة ٢٣ يوليو كما سمعتمونى أقول كان الحاكم أجنبيا فى مصر .. ولم تحكم مصر بأبنائها الا بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو .

سمعتمونى أيضا أقول ان ما عنيناه لم يكن فقط مصدره الاستعمار الذى كان يجثم على صدر البلاد الاستعمار البريطانى .. ولم يكن مصدره الملك المتعنت الاجنبى عن هذا الشعب والذى يريد أن ينطلق بشهواته .. ولم يكن أيضا الزعماء السياسيون فيما بعد سنة ١٩٢٢ الى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ الذين جعلوا من مصر مزرعة لهم ولمصالحهم واحتكروا الحكم كأنهم هم مبعوثو العناية الالهية لحكم مصر أما نحن الفلاحين والعمال الكادحين والعاملين فليس علينا الا السمع والطاعة لهم .

خانوا عرابى قمة المأساة

لم يكن هذا وحده ما أصابنا ولكننا فى الحقبة التى تلت ثورة عرابى ثم ثورة سنة ١٩١٩ فى هذه الحقبة بدأنا نخرج على الطريق الذى كما قلت لن تنصلح الا اذا سرنا فيه .. بعد ثورة عرابى كما تعلمون قام نفر من أبناء مصر بخيانة عرابى وتمكن الاستعمار البريطانى .. من هذا المكان بعد أن دحر فى كفر الدوار والاسكندرية جاء الى القناة ومن هذا المكان زحف ووجد للأسف بعض الخونة من المصريين لكى يسيروا أمام الجيش البريطانى كأوامر الخديوى لهم .

وتبلغ المأساة قمتها حينما يحتفل الخديوى فى ميدان عابدين باستعراض قوات الجيش البريطانى

التى دخلت لتضرب وتستعرض مصر .. فى ثورة سنة ١٩ كان الحال أسوأ قام الشعب بثورة ١٩ لكى يقول فى وضوح وجلاء نريد الديمقراطية والدستور وحقوق الشعب .. واجتمعت كلمة الشعب كله فى هذه الثورة لدرجة أن السلطان فى ذلك الوقت كان قد سمى نفسه سلطان بدلا من خديوى .. حاول أن يجد من يشكل الحكومة فرفض كل أولئك الحكام خوفا من غضبة الشعب .. لجأت بريطانيا الى حيلة أصدرت بها فى ٢٨ فبراير ما سمى بتصريح ٢٨ فبراير يعطى مصر استقلالا منقوصا .

اخطاء السياسيين القدامى

وكان الأجدر بأولئك الذين تعرضوا لقيادة العمل السياسى فى ذلك الوقت أن يرفضوا أيضا هذا الأمر كما رفض الشعب فى ثورته كل الوان الخداع .. ولكنهم قبلوا هذا التصريح وأوعز الانجليز الى الملك فى ذلك الوقت تحول السلطان الى ملك .. ليصدر ما سمى بدستور ٢٣ يوليو وبدأه بكلمة أنه منحة من الملك ووقع أيضا أولئك الذين يعملون العمل السياسى فى الخطأ الفادح حين قبلوا الاستقلال المنقوص ثم منحة الملك وانتقلت معركة الصراع بدلا من أن تكون معركة حصول الشعب على حقوقه كاملة بالتخلص من الاستعمار الأجنبى ومن العائلة المالكة الأجنبية .. حول زعماؤنا سامحهم الله الأمر الى صراع سياسى داخلى شغلوا به الشعب بأشخاصهم ومصالحهم ووضعوا أسوأ التقاليد لا ممارسة سياسية أو حزبية أو ديمقراطية كما كانوا يقولون عنها فى ذلك الوقت لأنه بدلا من أن يكون الهدف من أى عمل سياسى كما هو الحال فى العالم الذى بنى ويبنى الآن .. وبنى حضارات وبنى دولا .

بدلا من أن يكون الهدف كما هو عندهم رفاهية الشعب المصرى وحريته وكرامته وسيادته على قراره وعلى أرضه . استبدلوها بأشخاصهم ودفعوا الشعب الى التحزب للأشخاص حتى وصل

الأمر لذلك الشعار المؤسف الذى استغلوا فيه سماحة هذا الشعب وطيبته يوم أن قالوا الاحتلال على يد سعد أفضل من الاستقلال على يد عدلى .

معــــركة الزعامة

لم يصبح الأمر حرية مصر أو بناء مصر أو كرامة الانسان المصرى لكى يعيش كما يعيش كل انسان عزيز على أرضه . وانما أصبحت المعركة والمشكلة سعد وعدلى والنحاس وبقية الزعماء الآخرين . فى ثورة ١٩ ومن قبلها فى الثورة التى قامت بها مدينة القاهرة ضد الاستعمار الفرنسى .. كان الأزهر هو المكان الذى تنطلق منه الدعوة السامية .. دعوة الكفاح والجهاد .. دعوة الحرية .. دعوة الموت فى سبيل مصر .. دعوة الأحرار على أن ينال الشعب حقوقه وتألف فى ذلك الوقت عنصرا الأمة .

وكان فى داخل الجامع الأزهر يقف الشيخ المعمم الى جانب القسيس ينادون جميعا بحق مصر .. بحرية مصر .. ينادون جميعا بأن تكون مصر للمصريين حقا وقرارا وارادة عبر كل تلك المعارك مع الاستعمار سواء كان فرنسيا أو بريطانيا .. شعبنا فى هذه المنطقة نحمد الله على أن الايمان يجرى فى دمائه .. هذا من فضل الله علينا جميعا .

هكذا أراد الله لنا .. أن يكون الايمان هو أول وأرسخ مقوم لشخصية الانسان على هذه الأرض . ما قبل ذلك .

الأزهر والاسلام

لابد لنا أن نذكر .. أن الأزهر لألف سنة كاملة كان هو المدافع عن الاسلام ولولاه ولولا معاركه معارك الأزهر .. ليس فى مصر فقط وانما فى جميع انحاء العالم الاسلامى .. لولاه لما استطاع الاسلام أن ينتصر على الهجمة الشرسة من الاستعمار الأوربى على منطقتنا سواء هذه الهجمة على صورة استعمار أوربى تسلل الى آسيا وأفريقيا ومنطقتنا العربية محاولا ضرب الاسلام .. لأن

الأسلام كان ولا يزال وسيظل ثورة .. ثورة بكل ما فى كلمة الثورة من أبعاد .. نحن نفخر بهذا .. ويجب أن نفخر به .

قصة مؤتمر المغرب

يوم أن جلس المؤتمرون فى المغرب منذ شهور .. فى مؤتمر اسلامى دعوت أنا له .. لعلكم لا تعرفون هذا .. لقد كانت الدعوة الى المؤتمر الاسلامى الذى تم منذ شهر أو شهرين فى المغرب أساسا موجهة منى الى ملك المغرب أن يطلب عقد مؤتمر اسلامى فى المغرب من أجل القدس ولا يستطيع ملك المغرب أن ينكر هذا ولا يستطيع السعوديون أن ينكروا هذا .. الدعوة أساسا من مصر وطلبت من ملك المغرب فى خطاب رسمى أطالب بنشرة فورا على الملا لكى يدعو الى المؤتمر الاسلامى من أجل القدس .. ما الذى حدث .. حدث أنهم أجتمعوا فى المغرب وزراء الخارجية وفيما نحن نعد لارسال الوفد المصرى يتآمر ملك المغرب مع وزير خارجيته مع السعودية مع عناصر الرفض لكى يمنعوا وفد مصر من حضور هذا المؤتمر .

خافوا من وجود وفد مصر لكى يرد عليهم ولكى يقول لهم ان هذا المؤتمر نحن أصحابه ونحن الذين دعونا اليه .. ليس ملك المغرب وليست السعودية وليس اى بلد آخر .. تآمروا وانتهى الأمر بما سمعناه عن تعليق عضوية مصر فى المؤتمر الاسلامى فى غيبة مصر .. تارة بالرشوة من السعودية لبعض الدول العربية .. وتارة أخرى باستخدام الضغط مجاملة للسعودية ، ولكن كانت الدول الاسلامية الأفريقية حريصة على أن تشجب هذا الأمر ، وأثبتت فى محاضر الاجتماع شجبها لهذا الأمر وعدم موافقتها عليه .

هل تعليق عضوية مصر .. يحجب مسئولية مصر الاسلامية أبدا .. هل تعليق عضوية مصر يلغى ما قام به الأزهر حفاظا على الاسلام من أقصى العالم الى أقصاه لألف سنة ضد الهجمات

الاستعمارية الشرسة .. هل يلغى تعليق عضوية مصر هذا الدور أبدا .. هل يلغى تعليق عضوية مصر وكونها قبلة بعد مكة لكل مسلم فى جميع أنحاء الأرض أبدا لا يلغيها .

المسئولية

أردت أن أذكر هذا لكم لكى نعرف أية مسئولية نواجهها اليوم معكم أنا لا أتحدث عن الأمن الغذائى ولا عن مشكلة الاسكان ولا عن البنية الأساسية وما نعانيه لأن هذا الأمر يجرى اعداد الخطط له من المتخصصين وستعرض عليكم وعلى الشعب كله بوصفكم لستم مسئولين فقط عن الاسلام ولكنكم مسئولون أيضا عن كل ما يخص وطنكم وشعبكم وأجيالكم المقبلة .. أما مسئولياتكم الأولى فى الاسلام والدعوة ومن أجل هذا أنا أتحدث اليكم وأبدأ بهذا .. وأذكر هذا لكى نقول للعالم كله اننا نعرف مسئولياتنا الاسلامية ودورنا الاسلامى ونعيه ويعيه معنا كل الشعوب الاسلامية فى أفريقيا وفى آسيا وشعوب عربية كثيرة لم ترض عن تصرف حكامها وزعمائها . الذى حدث لا لشىء الا حقدا على مصر وعلى مكانة مصر وما بلغته مصر .

الاسلام الصحيح هنا

نحن فى حاجة الى أن نتذكر هذا وأذكره فى مستهل حديثى لكم لأنه يترتب عليه انى أطلب منكم أن تقولوا رأيكم فى هذا وما الذى أدخل الدور مصر الاسلامى فى مثل هذه السخائف التى لجأت اليها السعودية ومن جاراها أو صار من خلفها وهى المغرب أريدكم أن تقولوا رأيكم فى هذا .. يقولون ان الاسلام فى مصر فى خطر وأنتم جميعا رجال الدعوة الاسلامية .

وعلى مسمع من العالم كله أقول أننا نفخر أن الاسلام الصحيح هنا فى مصر .. ان مصر جزيرة الحرية والديمقراطية وكرامة الانسان كما أرادها الاسلام ليس فى مصر حاكم يأخذ ٨ ملايين جنيه راتب من فلوس المسلمين ليس فى مصر حاكم يصرف على موائد القمار والمسلمون فى

بقاع كثيرة فى هذا العالم يعانون .. ليس فى مصر حاكم يصرف من تقود المسلمين على التآمر والرشوة والخسة لمجرد أن يبنى زعامة وهمية .. أبدا .. نحن فى مصر .. نعرف الحدود تماما .. كل الذين تحدثوا اليوم أمامى ماذا طالبوا مزيدا من التمسك بالاسلام .. مزيدا من تطبيق الشريعة .. ومزيدا من التمسك بالعقيدة .. ولكنى أسأل ما هو حال الشعوب أولئك الحكام .. ليست فقط الشعوب الاسلامية فى أقاصى الأرض التى تحتاج للمعونة بل شعوب أولئك الحكام ما هو حال شعوبهم .. هل هم يستمتعون فعلا بكرامة المواطن المسلم فى بلده .. لا أستثنى بلدا واحدا منهم أبدا .. لا يتمتع المسلم هناك كما يتمتع المسلم هنا بكل كرامة المسلم .. بكل كرامة الانسان .. بكل الديمقراطية بكل السماحة التى نادى بها الاسلام .

معركة التحدى

لدينا مشاكل كثيرة كما قلت لكم .. مشاكل مادية .. الطعام .. والاسكان والبنية الأساسية ومستوى معيشة لائق لكل مواطن .. نحن نعمل على هذا .. نعمل لكى يتم هذا ، ولكن أولا وقبل كل شىء لن نستطيع أبدا .. أن ننتصر فى معركة التحدى التى نواجهها اليوم الا ببناء جديد للمواطن والمواطنة على أرض مصر ..

لا .. هو ليس بناء جديدا ولكن لأننا مررنا فى فترة ماضية بظروف تعرضت فيها كرامة الانسان وتعرض فيها الانسان المصرى بغير حق لأمور كان لا يجب أن يتعرض لها وانتهت بحمد الله ومن يوم أن قمت بثورة ١٥ مايو وصممت وأعددت الأوضاع كاملة أنا أقول نحن الآن فى معركة تحدى والذى سيصنع من مصر وطنا كريما عزيزا كما كان عبر كل عصور التاريخ .. والذى سيصنع هذا هو الانسان المصرى ولا أقول الجديد وانما الانسان المصرى بالمقومات التى لفترة من الزمن اذا أهملنا فيها الآن نعود اليها .

يوم أن يكون الشباب المصرى والفتاة المصرية مملوءا بالثقة ، قوة الايمان .. علما بالحدود التى وضعتها لنا شريعتنا .. سنبنى البناء الذى نريد لأننا جربنا أنفسنا فيما قبل ونجحنا الى أبعد ما يكون النجاح لأن أبلغ ما حصل وأبلغ مثل تتحدث به وأما بنعمة ربك فحدث .. و معركة رمضان سنة ١٩٧٣ .

الايمـــان

فى معركة رمضـان ١٩٧٣ كانت أسلحتنا متخلفة ٢٠ خطوة عن السلاح الاسرائيلى .. ما الذى عوض هذه العشرين خطوة وأنطلق الى أن يكون سلاحنا متقدما أيضا على سلاح أعدائنا فى ذلك الوقت .. كلمة واحدة .. الايمان ، على هذه الشواطىء من بورسعيد الى السويس ١٨٠ كيلومترا .. على هذه الشواطىء من بورسعيد الى السويس شاطىء القناة وفى يوم ١٠ رمضـان وفى الساعة الثانية ظهرا حينما عبر الطيران المصرى لم ينتظر أبناؤنا الأمر بالعبور بل أنطلقت الجحافل على مسافة ١٨٠ كيلومترا من بورسعيد الى السويس تهتف بنداء واحد الله أكبر .. الأمر جد وليس رواية نرويها لكى تكون من محسنات الكلام أو لكى ندعو فيها لشىء لم يحدث أبدا هذا حدث ونحن عشرين خطوة وراء اسرائيل فى السلام سبقنا بالايمان ٢٠ خطوة .

الشباب اولا

من هنا كان كلامى للشباب وفى أول لقاء تذكرون قبل أن ألتقى فى رمضان بقطاعات الشباب ألتقيت بالشباب وقلت لهم قبل كل شىء قبل العلوم الجامعية .. قبل الدكتوراة .. قبل التكنولوجيا .. وقبل كل شىء فلنتسلح أولا ونسلح شبابنا من الداخل بالايمان . بعد ذلك العلم سهل كل شىء سيدخل بعد ذلك .. سيستطيعون أن يواجهوا الحياة .. وأخطر معركة تواجهها اليوم هى أن نبنى مصر بأحدث ما فى العصر .. لن تبدأ حيث بدأ الآخرون أبدا سنبدأ والآن نبدأ من حيث انتهى الآخرون لأن هذه هى مصر صاحبة سبعة آلاف

سنة التى أعطت العالم أول حضارة يوم كان العالم يسكن الكهوف ويقتات ورق الشجر •• وكان هنا مدنية وعلوم وفلك وبناء دولة وحكومة • هذه هى رسالتكم •• أن يبدأ الشاب والشابة المصريين تبنيهم من الداخل ومن أجل ذلك طلبت أن يكون الدين مادة أساسية •• مادة نجاح ورسوب ابتداء من العام الدراسى المقبل وطلبت أيضا أن تدرس الدين من المرحلة الابتدائية الى المرحلة الجامعية ولا مهادنة فى ذلك كل ما أطلبه أن تتطور فى أساليبنا سمعت من بناتى وهن يدرسن آيات قرآنية طلبت من هن أن يحفظنها •• أقول لكم أحمد الله اليوم •• لست فقط أحتفل بالاجتماع بكم من أجل أن نطبق مبدأ الشورى وتبدأ مرحلة جديدة بدولة جديدة تماما •• وانما أحمد الله أننى ختمت اليوم القرآن •• عندنا فى الفلاحين تعودنا يوم خاتمة القرآن نحتفل •• كما نحتفل تماما بأى عيد •• بأى مناسبة دينية •• بل يكون الاحتفال أكبر •

خاتمة القرآن

أحمد الله ختمت اليوم •• أحمد الله سبحانه وتعالى على أن يسر لى أن أقرأ القرآن وأن أختم القرآن وأن أبدأ ثقافتى وحياتى بحفظ القرآن من أجل ذلك أقول لكم : أخترت يوم أن عرض على بناتى الآيات المطلوب منهن أن يحفظنها •• وهى من أصعب الآيات التى أقرأها فى القرآن — لماذا — أنا أذكر وكنا فى سنة ١٩٢٧ ولن أنساها أبدا كنت فى عام ١٩٢٧ وفى مستهل التعليم الابتدائى وماكدت أن أنتهى من الروضة ونقلت الى الابتدائى • كان تدريس القرآن لنا يبدأ بقصص الأنبياء فى يسر وسهولة هذا القصص من طبيعته مع الطفل أن يفتح أمامه آفاق الخيال •• الطفل كله خيال فى هذه المرحلة فلنضع له ما يغذى هذا الخيال وفى الوقت ذاته يعطيه أول الذاد نحو طريق التعليم الدينى السليم فى المستقبل لن تنسى أبدا الى هذه اللحظة اليوم الذى حكى لنا فيه مدرسنا عن يوم أن شقت

الملائكة صدر النبى عليه الصلاة والسلام يوم أن رعى الغنم وأخرجت منه الشيطان وغسلته .. قد يحاول بعض المتفرنجين أو ممن يسمون أنفسهم بالعقلانيين أو المتفلسفين أو الملحدين أن يشككوا فى هذا ولكن تبقى حقيقة هى أنه من هذه الرواية وأنا طفل فى السنوات الأولى من عمرى عرفت أن هناك خيرا وشرا وأن هناك شيطانا يكمن فى صدر الانسان عليه أن يتخلص منه أو أن يراعى فى حياته أن لا يسيطر هذا الشيطان على تصرفاته من هنا أنا بطلب أن يكون تدريس الدين من أول المراحل من الابتدائى بقصص الأنبياء ولدى أساتذتنا من أساتذة التربية الأفاضل ما يستطيعون أن يفعلوه فى هذا الاتجاه بأحسن مما أقول به أو بأكمل ما يمكن أن يحقق هذا الغرض وقد لا أكون على بينة منه ولكن أردت أن أضرب لكم المثل فقط .

الدين مادة اساسية

ابتداء من العام الدراسى القادم سيدرس شبابنا أبناؤنا الدين كمادة أساسية .. وكما قلت يبدأ من الابتدائى الى أن يصل الى المرحلة الأخيرة فى الجامعة سأطلب أيضا دراسة المقومات الأساسية فى التاريخ القومى بدءا من المرحلة الابتدائية أيضا وأقصد بالمقومات الأساسية تلك العلامات التى تدرسها فى هذه النفوس الغضة لكى تستطيع أن تواجه الحياة بعد ذلك كأن يعلم أن الانسان من عقل وجسم وروح ، أن العقل له غذاء والجسم له غذاء ، والروح لها غذاء وأن يعرف أن الاختلال فى أى غذاء لأحد من هؤلاء يخل بتكوين الانسان فى أسلوب سهل سلس بسيط .. من هذه المقومات أيضا أن نعلم أبناءنا ما هى القوة .. هل القوة هى فى العضلات أو الصوت العالى أو فى التنكر للقيم .. لا .. القوة شىء آخر .. القوة تأتى من أن يحس الانسان أنه على حق بينه وبين ربه .. وبين نفسه .. هذه هى القوة .. تجعله أقوى الأقوياء ويواجه كل ما تأتى به الحياة .. وقد جربتها فى حياتى وأحمد الله أنه ما فى مرة من المرات فشلت .

الاسلام الصحيح

• علينا أيضا فى المقومات الأساسية أن نعلم أبناءنا أن الله سبحانه وتعالى حق ، الخير حق ، العدل كل ما يجعل الحياة شريفة حقا .. أن تقديس الوالدين فى الأسرة حق .. لا تتصوروا كم أزعجت بعد ١٨ ، ١٩ يناير يوم دعوت اتحاد طلبة الجامعات وكان فيهم شاب أطلق لحيته أمامنا فى أن يقول أنه بلغ قمة التدين وتذكرون أنه كان فظا بذيئا ـ هل الاسلام هو الفظاظة أو البذاءة اذ لم يتعلم الاسلام الحب والكلمة الحلوة والايمان الذى يجعل الانسان فى كل حياته متوازنا مفتوح القلب والوجدان للناس ولكل شئ .. هذا هو الاسلام ليست البذاءة للأسف ده طالب متخرج من اللى أطلقوا لحاهم واللى كانوا من زعماء الجمعيات الدينية اللى بيقولوا عليهم فى الجامعات .

هل هذا هو الاسلام

تقديس الأب والأم القيم .. القيم ربنا سبحانه وتعالى فى قرآنه الكريم .. وكلكم أساتذتى وأفضل منى .. وامامنا الأكبر الى جانبى .. « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا .. » ده بيقول كده .. ف نفس الوقت اللى قال فيه الله لا يغفر أن يشرك به ده حكم قطعى .. أبدا يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله .. حتى فى الاسراف لا تيأسوا .. ولكن فيه حد قطعى هو لا يغفر أن يشرك به .. ذلك .. مع الأب والام .. بيقوله لا .. ماتسمعش كلامهم لكن اتكلم كويس معاهم ..

عتاب لعمر التلمسانى :

هذا هو البناء اللى احنا عاوزينه وليس البناء الذى يلجأ له البعض فى الجماعات الدينية وهنا انتقل لأعتب كان لعمر التلمسانى عتب .. ولى أيضا عتب عليه .. عمر التلمسانى لعل عتبك .. محمود عواقبه .. ضحك وتصفيق من الحاضرين • الرئيس السادات : أرسلت جماعة الاخوان المسلمين

بواسطة محاميها لرئيس الوزراء السابق ممدوح سالم انذارا أو اعلانا بأن قرار حل الجمعية بواسطة مجلس قيادة الثورة أنها لا تعترف به وأنه غير قائم .. أنا لا أعلم بهذا أبدا الا بعد أن استقال ممدوح ولو علمت لقلت آسف .. ولا .. القرار قائم وحقيقى أقولها أمامكم جميعا وأصدرت الجمعية الصحيفة التى تصدرها ويكتب افتتاحيتها الاستاذ عمر على أساس أن الجمعية المسجلة فى الشئون الاجتماعية نعم مسجلة ولكن قرار الغائها قائم ومع ذلك انى أرسلت اليكم ووضعتكم فى المعتقل من أجل هذا يزيد الامر مرارا فى نفسى يوم أن يكتب لشبابنا الذى أتحدث عن تكوينه ليقابل هذا التحدى من حولنا ليقابل تحدى أولئك الذين يظنون أن المال هو كل شىء السعوديين وغيرهم والذين يحاولون لأن يعلقوا عضوية مصر فى العالم الاسلامى بكل بذاءة وبكل وقاحة .

مصلحة من هذا ؟

يخرج عمر التلمسانى وفى صدر المجلة بالمقال من خطاب وصله أن الحكومة الامريكية أو المخابرات الأمريكية أن ممدوح سالم ليقول له فيه : أوعوا .. خذوا بالكم ان الجماعات الاسلامية أن هؤلاء خطر جدا وأضربوهم واخلصوا منهم هل هذا صحيح .. حزنى أنه .. هذا الأسلوب لابد وأن ينتهى بعد كل ما جرى يا عمر فى الماضى كما تحدثت أنت تماما وفتحت السجون والمعتقلات وأعدت لكم كل اعتباركم أعطيت سيادة القانون وحرية كاملة بدليل أنه تذكر مجلة فلا يعترض اليك أحد مع أن اصدارها قائم على أساس غير قانونى ولابد أن نوقف فى الحال أبدا لكن لمصلحة من ؟ الشباب اللى أنا بقوله لازم أقبل التحدى وتدى مصر البناء الاسلامى الكبير البناء الاسلامى أوله أن الانسان لا قوة ولا سلطان عليه أبدا الا الله سبحانه وتعالى كيف أقول له ان أمريكا بعتت تخوف.. كيف أصور حكومة مصر التى

أعطت كل هذا انها حكومة تأخذ من حكومة أمريكا أو غيرها ليقول لها حوش الجماعات الاسلامية تخريب تخريب للشباب لأن شبابنا سوف يتصور ان هذا الكلام فيه حقيقة للأسف الا تذكر يوم أن كانت هناك شبه تدخل سوفيتى وقبل أن أعمل معركتى وأنا فى مسيس الحاجة ومخنوق والاتحاد السوفيتى لكى يعطينى السلاح لأعمل معركتى وعلاقتى مع أمريكا مقطوعة وأهاجمها بكل عنف فى ذلك الوقت ما كانت هناك شبه أنهم يريدون أن يتدخلوا أمرت ١٧ ألف خبير سوفيتى أن يغادروا مصر فى اسبوع وحددت الموعد وقبل أن يحل الموعد بـ ٢٤ ساعة نفذوا الامر أريد أن نبنى شبابنا على الحق وعلى القوة والأصالة ليس أبدا على الاشاعات وأريد أيضا الا يكون سبيل جمعية الاخوان هو السبيل الماضى الذى حدث قبل ٢٣ يوليو .

لم لم يتعرض لكم أحد :

أنا شاهد وأنت تعلم والجميع يعلمون والشيخ عبد الرحمن يعلم أن يدى كانت فى يد الشيخ البنا الله يرحمه والتنظيم السرى أمامى وبأشخاصه وما كان فيه من أسلحة أمامى ولكن ماذا فعلت أنا برغم كل هذا لم يتعرض لكم أحد ولم أقفل الجريدة ولكن أرسلت لوزير الداخلية لكى يقول لك عيب وقال لك بالفعل كل ما أريده هو أن تتآخى ونحن نبنى أبنائنا بالذات الذى هو فوق العلم وفوق كل شىء الايمان يأتى قبل كل شىء وفوق كل شىء بالايمان يستطيع الانسان المصرى رجل أو فتاة أن يدخل النار ويخرج سالم أريد ونحن نبنى هذا أن الدين على صدق وعلى خير وأننى لست لى اطلاقا سلطة لفرض سلطة أو فتح معتقلات أو الانتقام أو الحقد كما تحدث عمر بالذات . وفى النفس المسلمة لا يكون الحقد ولا يعيش الحقد أبد وأحمد الله لا يعيش الحقد فى صدرى أبدا وخاصة اننى أعلم حدودى أمام

ربى سبحانه وتعالى وأننى مسئول عن أقصى حبة رمل فى مصر من شرقها الى غربها من شمالها والى جنوبها وأعلم أننى سأحاسب عليها .

لا يتكرر ذلك :

من هنا أريد أن يكون هذا سلوك كل واحد منا يتعرض للدين ولدراسة الدين لأجيالنا المقبلة نتيجة هذا نتيجة المسار القديم اللى أنا بطلب الا يتكرر لأنى سأوقفه أمام الشعب وأنا لا أعمل شيئا من وراء الحجرات .. أنا بأعمل كل شىء فى العلن من نتيجة هذا جماعة الفنية العسكرية اللى أنتم سمعتم عنها أولاد صغيرين يهجموا على الفنية اللى أنتم سمعتم عليها وقاموا بذبح الحراس كما تذبح الشاه باسم الدين باسم الدين كانوا اخوان المسلمين كانوا فرعا من الذين خرجوا من الاخوان المسلمين شكرى مصطفى الذى قتل الدكتور الذهبى من منا لم يستنكر ما حدث للدكتور الذهبى . عيب شكرى مصطفى أصله اخوان مسلمين أنا انتهز هذه الفرصة لأتكلم أمامكم بصراحة بماذا لأننى كولى للأمر لست رئيس للجمهورية الآن رئيس الجمهورية عليه أن يلغى جماعة الأخوان وأن ألغى جريدتها الى أن يسجلوا نفسهم من جديد لأنه لا وجود قانونى لهم . أنا لست رئيس جمهورية بأعمل هذا لا أنا كبير العائلة ومن ولانى الله سبحانه وتعالى عليكم لا أسأل عما أفعل مع كل واحد فيكم .

الجماعة الاسلامية

من أجل هذا أقولها بصراحة .. واليوم بدأ البعض .. فيما يسمى بالجماعات الاسلامية أيضا تحت دعاوى تضليل لأبنائنا لمصلحة من تضلل ؟ اذ كنا نريد أن تعطى لأبنائنا دروس من التاريخ فلنعطى لهم الدروس الكاملة .. غير منقوصة ولا يلجأ البعض الى الشباب الغض اللى الاثارة فيه سهلة لأنه بطبيعته مادة ملتهبة الشباب عشان يثيروا ضد ده أو ده .. لقد وصل الأمر فى الجماعات الاسلامية أن واحدا ذهب لوالده يقول له ان الفلوس التى تأخذها

من الدولة حـرام •• مش عـاوز فلوسك وبعد ذلك رست العمليـة انه اجرام سمعتمونى فى المنيـا واسيوط باحكى انهيطلعوا يروحوا « حارقين » كشك ويروحـوا داخلين طلبة ويروح داخل بعضهم على أسـتاذ فى المـدرج ويخـرج الاستاذ من غرفة المحاضرات عشان يوقفوا الدراسة •• هل هذا هـو اسلام •• يخلوا راجـل ماشى فى المنيا مع ابنته ويقـولون لهم ازاى تمشى مع بنت ويرد هذه ابنتى ، فيطلبون منه شهادة الميلاد • ياأخى دا ربنا سبحانه وتعالى قال لمحمد عليه الصلاة والسلام : « لسـت عليهم بمسـيطر » ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة •

انا أنتهـز الفرصـة لكى أقول لكم كل ما فى قلبى علشان بعـد ذلك • والله لن أرحم ـ أبـدا ـ بالاسلام وبالدين •• لأن مصلحة المجموع ومصلحة مصر لا يمكن أبدا أن أضعها فى ميزان يتلاعب به أمثال هؤلاء •• الذين يدفعـون دفعا ـ وولد من المنيا من الجماعات الاسلامية يطبع منشـورات فى القاهرة يقبض عليه وتجد معـه ٨٠٠ جنيه ومنشورات كلها ضرب فى النظام وفى الدولة •• أقولهـا وقد حكيت لكم ما نواجهه مـن تحدى •• سواء من الداخل او من الخارج •• فى الداخـل علينا ان نحل مشـاكلنا المستعصية وفى الخاوج علينا أن نواجه ـ للاسف ـ أخوة لنـا وأن نضعهم مكانهم وأن نعلمهم من هى مصر •• اذ علينا أولا أن نصلح من أمر أنفسنا من داخلنا •

لا دين فى السياسة

ومن أجل هذا انا ناديت وقلت لا دين فى السياسة •• ولا سياسة فى الدين •• لجـأ البعض الى محاولة استغلال هذا الكلام أقوله وأكـرره •• لا دين فى السياسـة ولا سياسة فى الدين •• الـذى يريد أن يشتغل فى العمل السياسى والاحزاب موجودة •• اتفضـل ويمارس حقه كامـلا • •أما أن يستغل الدين للوثوب على الدولة ••أو لمهاجمـة الدولة ـ لا ـ

عيب ـ من نتيجة هذا .. انهناك بعض الائمة وبعضهم يا عمر اخوان .. وبعضهم أنصار للاخوان يستخدمون المساجد للهجوم على الدولة .

الدولة لن تتسامح :

ألا فليعلموا جميعا أن الدولة لم تتسامح مع أى انسان بعد الآن ـ لكم على النصيحة وقد قلتها ولكم على أن أعطى فرصة وقد أعطيتها ولكم ما يجابهنا من مسئوليات كما قلت لكم ف الداخل والخارج يحتم علينا أن نضرب هذا الانحراف .. نضربه .. وأطلب منكم أن تضربوه .. لا بد أن تضربوه أنتم بسلوككم أولا ثم بتعليم أبنائنا الحقائق السليمة عن تاريخنا وعن ديننا وعن نشاطنا وعن عملنا .

منذ ٩ سنوات .. أغلقت المعتقلات نهائيا ولم تفتح أبدا .. أعدكم فى وقتى لن تفتح أبدا وعليكم أنتم فى الوقت الذى يأتى بعدى عليكم أن تقولوا هذا الامر لكن فى وقتى لن تفتح باذن الله المعتقلات أبدا وفى وقتى لم استخدم الاحكام العرفية الى هذه اللحظة مع أنها موجودة .

فى وقتى الامن والأمان .. الحرية الكاملة ولكن ـ محاولة استغلال الحرية لا .. لا الدولة كريمة على نفسها وعزيزة على نفسها ... وقد آن الأوان لكى يعلم الكل ان الدولة فوق كل هذا الصغار ومن يقبل تحت أى شعار والمصيبة الكبرى ان يكون الدين هذا الشعار ـ لا ـ ..

الاخوان والشيوعية :

عندما قلت لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين كان سببها ايه .. أنا أرسلت لك يا عمر أيضا .. ف معركة نقيب من النقباء المهنية تصادف شيئا غريب جدا .. فوجئت بأن الأخوان .. الشيوعيين .. الوفديين القداما .. الانتهازيين جميعا بيتكتلوا وراء مرشح معين لأنه يشتم ف الدولة ..

وقد أرسلت لعمر .. وقلت يا عمر عيب ليه هو الدين ننتخب

من يشتم الدولة أو تنتخب من كل مؤهلاته البذاءة كل مؤهلات ذلك الرجل كانت البـذاءة على الحكم وعلى .. طيب على أنا أنتم عارفين أننى أتسامح فيمـا يخصنى لأنى هكذا أراد لى الله أن أكون فى هذا المكان والكاظمين الغيظ - حافظ - القرآن وأقرأه - واختمـه وأمرنى أن أكظم الغيظ .

وهنا قال عمر التلمسانى أليس من حقى أن أرد وقال الرئيس أكمل يا عمر وعاد الرئيس يقول هل يعقل أن يكون فى مركبنـا واحـد مـن الاخوان والشيوعيين والغـد الجـديد اللى حطم الفساد القديم كله اللى قبل ٢٣ يوليـو على الانتهازيين .. يبقى هذا كله مع بعضه أنا أضع هذه الحقـائق لأول مرة أمامكم ولم أحكها قبل الآن ولكن أحكيها الآن لأننـا مقبلون فى المرحلة الجاية .. لابد أن نقف كلنا كعائلة واحدة وكرجل واحد لنقابل التحدى .. لحـل مشاكل فى الداخل ومواجهـة الصغار والأقـزام فى الخارج ونعلمهم حجمهم ومكانهم ولكـن شيئا واحد بس..أرجو من جماعتنا الدينية ألا تقبل أموال من أولئـك الأقزام لأن عندنا البيـان .. واذا كان الأمر مقصودا به خدمة الاسلام على العين والرأس واذ يكون علنـا أما بالأساليب الأخرى لا ..

ان عمر يريد أن يدافـع وله الحق .. لأنه أنا يمكن ركـزت عليـه شوية .. وهـو كان طالب مقابلتى وأنا رفضت الى أن قابلته اليوم لكى تتكلم أمام الشعب .. لأن هذا هو أسلوبى .. لن أتكلم الا أمام الشعب ليعرف الشعب الحقيقة كاملة فليس لى حقد مـع أحد والا كنت اتخذت اجراءات من يومها وخلصت .

الرئيس السادات - موجهـا حديثه الى عمر التلمسانى اتفضل يا عمر .

لسنا مع الشيوعيين :

عمر التلمسانى .. أرسـل لى زعماء الحزب الشيوعى أكثر مـن مرة يدعوننى لحضـور ندوات

عندهم فكنت أرفض فى كل مـرة لأنى أعلم ما بين الاسلام وما بين الشيوعيين من عداء وأن الاثنين لا يمكن أن يجتمعا فى ركب واحد أو يسيرا فى ركب واحد .. وأنا أعلم تماما أنهم أرسلوا الى أن أحضر ندوات لا لأنهم يتعـاونون ويريدون أن يشـاركوا فى اتجـاه انما يريدون أن ينشـروا عمـر التلمسانى جالس مـع زعمـاء الشيوعين ويصـدر هـذا للشعب ويقال ان الأخوان والشيوعيين مع بعض ولا يكـون الاخـوان والشيوعيون فى يوم من الايام مع بعضهم .

وأرسل الى من الأحـزاب اللى تحدثت سيادتك عنها للـزيارة .. قلت من جهـة الزيارة للسلام أو للتحية والسؤال عـن الامـور العـادية أهـلا وسهلا . اذا كانت الزيارة للكلام فى السياسـة فى جبهات الاخوان المسلمين لن يسيروا فى جبهة مع أحد أبدا لأن تاريخهم اسلامى ومعروف .

السفارة الانجليزية :

سيادة الرئيس أرسـلت لى السفارة الانجليزية بخطاب تخطرنى أن أحد رجال وزرة الخارجيـة سيزور مصر وسيـزورنى يوم ٢٢ / ٦ السـاعة ١٢ وأرسلت الخطاب الى وزير الداخلية وأرسلت الخطاب بتاعى وقلت أنا لن أسمح بزيارة الا اذا استأذنت ثم ان كانت الزيارة الى معالم صحافية أهـلا وسهلا وان كانت سياسية أنا لـن أتحدث لأجنبى فى سياسة مصر لو أن غيرك أتهمنى لكنت أرفع الأمر اليك انما اليوم الى من أرفعه .. أرفع أمرى الى الله .. أنا برىء من كل ما قلت ـ أنا طاهر من كل ما قلت أنا نظيف ـ أنا مسـلم ـ أنا مخلص غاية الاخلاص ويسمعنى الكثيرون .. اننى دعـوت الله أن يديم حكم السادات الى أطول عهد ممكن .. اننا نستمتع فيه بحريتنا .. وان كان هذا جزائى عنـد أنور السادات . الحمـد لله .. والسلام عليكم ورحمة الله .

قمة الحوار الديمقراطى :

الرئيس السادات : أخشى أنك

عايز تطلعنى أننى أستغليت موقعى ووجهت لك هذا الكلام يا عمر — لا — أنت استدعاك وزير الداخلية كم مرة يا عمر ..

عمر التلمسانى : تعلم سيادتكم أن فترة الانتخابات كنت فى السعودية .. وأبلغ ذلك أحد الأخوان لأحد كبار الوزراء كنت أحج .

الرئيس : لا .. الانتخابات بتاعت النقابة .

عمر التلمسانى : انتخابات أحمد الخواجة والشوربجى .. طلع فى الجرايد أسماء اخوان محامين وذهلت وسألت أحدهم وأجيبه لسيادتكم يزورك ويقولك قال لى هؤلاء كتبوا أسماءنا وهؤلاء كتبوا أسماءنا بغير اذن وهذه شئون انتخابية ولا دخل لنا مع هؤلاء أو هؤلاء ، واذا قال انسان اننى أمرت أو كلفت بأن فلان يؤيد فلان أنا أستحق كل ما قلته عنى .

الرئيس السادات : يا عمر علشان تجلوا الامر وحتى لا أكون متجنيا .. أخبرك وزير الداخلية بهذا وأخبرك وزير الداخلية أيضا فى شأن المقال طيب اذا أنا لم أذكر وقائع تجنيت فيها عليك لم تحدث ولم أتخذ اجراء ولن أتخذ اجراء والا كان ما يكنشى السبيل هو الكلام اللى احنا بنقوله النهارده اذن لا حق لك فى يعنى شكوتى الى الله لأنى أنا أخافه أخافه فعلا لقد أرسلت لك وقد حكيت ما حدث فعلا أنا أحكى وأقول يا عمر لو أن هناك نية مسبقة أو رأى كونته ما تركت مجلتك تسير على أساس غير قانونى ولا جمعية الاخوان تقوم على أساس غير قانونى وهى قائمة الى اليوم على أساس غير قانونى لو أننى كنت لاتخذت الاجراءات والقانون معى لا أنا .. أكلمك اليوم كبير العائلة الذى أراد الله له أن يجلس فى هذا الكرسى .

ويعلم الله اننى أريد ان أستريح ومن كل هذا .. حقيقة والله ولكنى فضلت أن أأجل وهذا الكلام بقاله شهور الى أن نلتقى وكان اللقاء اليوم ولعلك لا تذكر أو لا

تعرف انتى كلفت منصور عاوز عمر يبجى لأنه لم يكن فى التخطيط أنك حاتيجى قلت له أنا عايز عمر يبجى للمعنى الى أنا بقوله وهو أننا كعائلة واحدة نقعد وتناقش بمنتهى الصراحة وبعد ذلك يبقى اللى يخطأ عليه أن يتحمل تبعته ولو أننى كونت رأى مسبقا أو ادانة مسبقة لاتخذت الاجراء ولما كان هناك داعى أن تأتى اليوم الى هنا .

وعليه اسحب شكواك أمام الله .. ضحك وتصفيق من الحاضرين .

عمر التلمسانى : المدعى الاشتراكى أرسل لى وحقق معى ومضى على هذا التحقيق شهور مايو ويونيو ويوليو وأغسطس ولا أدرى ماذا تم ولو كنت أعتقد أن هناك خطأ أو اساءة ما كان المدعى الاشتراكى يتأخر عن اقامة الدعوى أو اتخاذ اجراء قانونى لم يحدث هذا .. وأنا على استعداد كامل أن أقدم بعلم محمد انور السادات رئيس جمهورية مصر العربية الرجل المسلم انه لا يمكن لعمر التلمسانى لا خلقا ولا دينا ولا تربية ولا منشئا أن يتآمر أن يكذب أن يشتم والله أبدا .. ما حدث فى لسانى أنا كنت فى المعتقل وأوقظت الساعة ١١ قيل لى أن فلان توفى الى رحمة الله اول كلمة خرجت من لسانى بعد أن أمضيت ١٧ سنة فى السجن الله يرحمه .. لم يصدر من لسانى كلمة سباب لأحد بعد ١٧ سنة سجن كانت الكلمة الأولى الله يرحمه مش أنا اللى اتآمر أو اكذب أو أسب لقد بلغت من العمر المدى الذى لا يسمح لى أن أسير فى هذا .

عفوا أنت الآن يا سيادةالرئيس ستجعلنى ألازم فراشى أشهر .. لأن هذا الذى وجه الى آذانى نفسيا ومعنويا وأسأل الله أن يلطف بى فى هذه السن وألا الازم الفراش وأن أغادر الدنيا فورا خير من أن ألزم الفراش مريضا .

وأنا اذ شكوت الى الله فاننى أشكو لعادل وان كنت انا قد

تجنيت سيعلم الله .. الا أشكو الى ظالم .. أشكو الى عادل بيده الحكم واليه المصير بدل ما اسحب الشكوى بتاعتى .. سيادتك اتخذ طريق تعالج به التعب الذى نالنى الآن .

نبدأ من جديد :

الرئيس السادات : أحسن طريق لهذا هو انه كل ما تحدثنا عنه .. مضى وفات وعلينا أن نبدأ جميعا أيدينا فى أيدى بعض لنقيم البناء.

عمر التلمسانى : أنا عاوز جلسة خاصة من سيادتك وأنا عندى كلام كثير عايز أقوله لك ، ومش قادر أقوله الآن .

الرئيس السادات : أنا آسف عطلتكم والجلسة طالت .. همى كله أن أضع أمامكم صورة برغم العملية مع عمر .. هو هدفى منها أنى عاوز أسيء الى عمر .

أنا لا أسيء الى الاخوان.. أو الى جماعة الاخوان .. وهم يعلمون أنى فى يوم من الأيام كانت يدى فى يد الشيخ البنا ونحن نكافح ضد عدو مشترك الانجليز والملك والاحزاب .

مجلس اسلامى أعلى :

أعتقد أنه نوفر الوقت عليكم واقترح أن فضيلة الامام الأكبر مع اخواننا منكم ننتهز هذه الفرصة لنشكل مجلس اسلامى أعلى يضم جميع الجمعيات ممثلة فيه وكذلك جميع النشاطات الاسلامية تمثل فيه ويكون مجلس عائلة اذا استجد أى شيء نقعد ونتناقش ونضع كل شيء وكل الصراحة والاخوة والود وكل ما علمه الاسلام من سماحة وصدق ويقين وادعو الله لهم جميعا بالتوفيق أيضا فى أن يجتاز هذه المحنة وشكرا .

وكان الرئيس السادات قد بدأ حواره مع رجال الدين الاسلامى فى التاسعة والنصف مساء وحضر الحوار حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية والدكتور عبد الرحمن بيصار الامام الاكبر وشيخ الجامع الازهر وحسن التهامى نائب رئيس الوزراء والدكتور عبد المنعم النمر

وزير الاوقاف والشيخ جاد الحق مفتى الديار المصرية وصوفى أبو طالب رئيس مجلس الشعب والسيد منصور حسن وزير شئون رئاسة الجمهورية ورؤساء طوائف الدين الاسلامى وجمعية تحفيظ القرآن .

نص الكلمات :

وقد بدأت جلسة الحوار بكلمة الدكتور أحمد الحوفى رئيس لجنة الشئون الدينية بالحزب الوطنى قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم :

سيادة الرئيس أنور السادات رب الأسرة وكبير العائلة المصرية نحن هنا لنتبادل الرأى فيما ينبغى أن تصنعه الأسرة فى غدها ومستقبلها . ونحن اذا حاولنا أن نحصر محامدك وأمجادك العديدة يا سيادة الرئيس لطال بنا الوقت وقد عرفناك منذ الشباب تكتب المقالات وتؤم الناس فى الصلوات وعرفناك رئيس للجمهورية أكثر تدينا تتقى ربك قولا وعملا ونحن سدنة التربية الدينية نريد أن نغرس فى نفوس أبنائنا ذلك التدين السهل لأن الاسلام عقيدة تقوم على اليسر والسهولة . أما من يتشددون ويتعصبون فيحرمون ما أحل الله فهذا ليس من الدين فى شيء ونحن نريد أن نبنى التربية الدينية على أساس سليم ونحن نريد أن نحدثك يا سيادة الرئيس عن أثر دينكم فى نصر مصر فى سنة ١٩٧٣ لم يكن مرجعه الى البطولة وحدها أو السلاح وحده بل الى تقوى الله قبل ذلك كله وكلنا يعرف صدرك وعدلك ومسالمتك ومرحمتك على الشعب كله . ومن هنا كان الاسلام . والحرب فى الاسلام ضرورة والسلام هو الأصل « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ونحن نقول لك ان الشعب من ورائك يساندك ويعضدك فى موقفك ممن يعترضون على السلام ونحن رجال الدين وسدنة الدين معك ومن حولك نساندك ونعضدك وندعو الله سبحانه وتعالى أن يحفظك لمصر لكى تحقق لنا كل منال والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم ألقى الشيخ محمد السطوحى شيخ مشايخ الطرق الصوفية كلمة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم : الرئيس المؤمن وكبير العائلة ان لقاء سيادتكم تأكيدا لمبدأ الشورى وان شاء الله سيتم على أيديكم بناء مصر الانسانى والحضارى .. ان بلدا شعاره العلم والايمان وبه الأزهر سيظل رائدا للعالم الاسلامى ونحن الصوفيين فى كل مكان محصنون ضد الالحاد والشيوعية المتعصبين ونحن نطلب تعاونا أكبر من الاوقاف والازهر لدعم رسالتنا والدين اساسا والدين محبة والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والبناء يحتاج الى عناء ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه . سيادة الرئيس ان لنا مطلبا وهو دعم جماعتنا لأنهاتكلف ما قدره ستة آلاف جنيه فى نشر مجلتها والله يوفقكم والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم ألقى محمد عوضين كلمة قال فيها : نحن الشباب ليس لنا مطالب الا مصر أولا وأخيرا وكبير العائلة أولا وأخيرا وكبير العائلة يجلس يجلس مع أبناء الشعب وهناك نقطة بده هى أهم مسألة فى تعديل الدستور بل فى حياتنا أو استمرار بقائنا وهو الحكم بما أنزل الله وقد تحدث عنها الكثيرون حتى يسكن أو يقال انه ليس هناك من شىء اتفقت عليه جميع الاطراف الا الحكم بما أنزل الله . وكانت آخر الكلمات لمحمد عبد المقصود رئيس الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم .

بسم الله الرحمن الرحيم .. سيادة رئيس الجمهورية .. الحمد لله أحكم الحاكمين الذى جمعنا هنا على الخير .. اننا فى حاجة ماسة الى أمن روحى بجوار الأمن الغذائى والأمن الفكرى والاجتماعى .. يسعدنى باسم القرآن الكريم وباسم الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم أن أبسط أمامكم بعض التوصيات التى انتهت اليها الجمعية :

ــ نقترح تشكيل لجنة عليــا متخصصة تتولى تنقيةمصادر الفكر الاسلامى من المفتريات التى دست على الاسلام • وتتولى ترجمةمعانى القــرآن الكريم الى كافة اللغــات ونشرها بين المسلمين فى مشــارق الارض ومغاربها •

ــ العمل بالتدريج على توحيد النبع الثقافى فى التعليم وتوجيهــه توجيها قرآنيا •

ــ يجب أن تهتــم الدولــة بجمعيات تحفيظ القرآن الكــريم وأن تسـير الدراسات القرآنيــة والدينية فى خــط متـواز مع الدراسات العلمية •

ــ اقامة دار طباعة على أحدث النظم لطبع المصحـــف الشريف برسمه المختلف • حتى نطمئن الى أن المصحف أصبح بعيدا عن كل تحريف يقع عند الطبع أو عنـد التجميع •

ــ ثم قدم عبد المقصود هـدية للرئيس السادات عبارة عــن درع النصر والسـلام وأخــرى درع القرآن الكريم لاهدائها الى سيدة مصر الاولى وخمسة عشر مصحفا شريفـا للرئيس وأسرته • ثم ألقى عمر التلمسانى رئيس تحرير مجلة الدعوة كلمة قال فيها :

بسم الله الرحمن الرحيموالصلاة والســلام على أشرف المرسلين ــ سيادة الرئيس •• يتــابع المواطنون هذه اللقاءات باهتمام ويسـألون الله أن تنتج عنها الخير ويعود منها النفع الكبير على الوطــن وهم فى هذا محقــون لولا عتب يسير على الذين حضروا هــذه اللقــاءات السابقة فى أن يطلبوا طلباتخاصة بهذه اللقاءات ليست فى مصلحــة فئة بل انها من أجـل الأمة كلهــا لذلك لن تسمع سيادتكم حملة الدعوة الاســلامية طلبا خاصا • سيادة الرئيس جئت الى الحــكم وقد كانت السجون والمعتقــلات تعج بالاغـــلال ففتحـت أبواب السجون وأبحت أن تقـام الاحفال والندوات وأن يتحدث فيهــا بملأ الحرية والانطلاق وأبحث للصحف أن تجترىء وتنقض •

وقد انطلق الذين خــرجوا من السجون برسالة السلام الى هــذه

الأمة ناشرين الحب والوئام وهما قبل كل قانون وما دامت القلوب مرتبطة فهى التى تحمى وتحرس وتؤيد وكان من فضل الله أن انطلقت الألسنة وتحدث الناس بهذا .

بقى أن تقول ان كل من يحضر يطالب باصلاح الاذاعة والشارع وكل شيء فى هذا البلد وقد كنا جميعا فى غنى عن هذه التفصيلات وأن نطبق شرع الله وينطلق الناس فى كل مكان مقيدين بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله وفى هذا الأمان والأمن . ويوم أن تربط قلوبنا بالله وتدعو أن حى على الجهاد ستجد الكل وراءك يا من تنادى بالجهاد . وبهذا نكون جميعا قلبا واحدا ليس فينا من يحمل حقدا لأحد فى قلبه وأن المؤمن الذى يعمر قلبه بالايمان ويسلم لله وجهه ويخلص له الاتجاه لا يحمل لأحد حقدا أبدا . أن المسلم يريد للناس الخير فكيف يكون الداعية لله بالخير يحقد على الناس وكلنا نريد لك الخير والله يرعاكم لهذا البلد تقومون فيها شرع الله وكلمةواحدة ترى قلوب الناس تتفانى وراء محمد أنور السادات ، خذنا بكتاب الله وسترى منا ما يرضيك نحن نحب ولا نكره وتتمنى لك كل الخير وتتمنى من الله سبحانه وتعالى لك كل خير على بركة الله والسلام عليكم ورحمة الله .

ثم ألقى عبد الرحمن البناشقيق الشيخ حسن البنا كلمة قالفيها :

بسم الله الرحمن الرحيم .. سيادة الرئيس .. دعوتنا الى الاسلام وكان من حقك أن نجيب دعوتك وكان من حق الناس علينا أن نبينه للناس شرعا وعدلا وحكما فاصلا ففى الحديث الشريف « ان أحبكم الى أحاسنكم أخلاقا الموطأون اكنافا الذين يألفون ويألفون » . وقد كان أستاذنا الشيخ حسن البنا رحمه الله كان يدعو الى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فعلى الشباب أن يعلموا ذلك ، ومن كان هذا خلقه فكذلك تكون دعوته هينة لينة ، لا خوف فيها ولا ارهاب « ولا

تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .
اننا نطلب يا سيادة الرئيس أن نلزم كتاب الله فى كل ما نشرع ونقنن

ولك منى دعاء : اللهم افتح قلبه لهدى كتابك وافتح له أبواب رحمتك واحفظه من بين يديه ومن خلفه . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فهرس العـدد

مطابع شركة الاعلانات الشرقية

مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء التاسع ـ السنة الحادية والخمسون ـ ذى القعدة ١٩٣٩ هـ ـ اكتوبر ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة الندوى يؤذن بالخطر !!

دكتور عبد الودود شلبى

لقد عشت فى الخليج العربى .. أو الفارسى .. أو الاسلامى .. سمه بأى الأسماء تحب .. !

عشت سنوات فى هذه المنطقة أرصد رياح الخطر ، وأعاصير الدمار والموت .. وفحيح الكراهية والحقد على الاسلام وشعوبه فى هذه الارض .

تآمر وكيد تجاوزا حدود الحكمة والعقل ، منظمات ظاهرة وخفية تنخر عظام كيان الوجود الاسلامى المزعزع .. سلبية بلهاء تقابل تحركات هذه الأخطار والأهوال يبلادة أيأس من اليأس ، وأوهى من خيوط العنكبوت فى مواجهة السيف ..!

ولن أنسى للرجل النبيل المجاهد الشيخ عبد الله بن على المحمود – رجل الاسلام الأول – فى دولة الامارات – لن أنسى مواقفه فى مواجهة الخطر الذى تصدى له بقوة وعنف ، وكشف جيوبه وأوكاره فى الامارات السبع ، فقد وجه منذ سنوات خطابا الى أمراء هذه المنطقة ضمنه كل ما يعرف عن هذه المنظمات والأشخاص الذين بدءوا يخططون لتدمير الوجود الاسلامى فى هذه الدولة ، وتحويلها الى « كميونات » حمراء فى حظيرة الشيوعية ..

لقد تحمل الرجل الوقور أمانة النصح ، وعرض نفسه للكثير من المتاعب رغم تقدم السن والعمر ، وحرم نفسه من مغانم الترف التى يسيل لعاب غيره من الأدعياء لبريقها الزائف فى ديوان الحكم .

ولقد زار العلامة « أبو الحسن الندوى » هذه المنطقة منذ ست سنوات ، وألقى فى امارة « الشارقة » محاضرة ضافية حذر فيها من الخطر الذى يتهدد كل الامارات .

***

ولا يتسع المقام هنا لذكر هذه « التيارات » ، و « المؤامرات » التى تحدق بالخليج من أوله الى آخره .. فليس خفيا ما تسمعه هذه الأيام عن الاضطرابات التى أقلقت حكومة الكويت ، ولا التهديدات التى توجه الى البحرين ، ولا الانقسامات التى تغلغلت فى أعماق دولة الاتحاد ، ولا المخاطر التى تحدق بسلطنة عمان ولا الصراعات بين « يمن » الجنوب و « يمن » الشمال .. لقد اتسع الخرق على الراقع كما يقول المثل ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر فى النفوس والذمم !

ومأساة المآسى فى هذه المأساة التى يعيشها العالم الاسلامى أنه غريب بين الشرق والغرب . لم تعد له دولة مرهوبة ، ولا علم مرتفع يلتف حوله ومذ سقط حكم آل عثمان ، وتوارت من الوجود دولة الخلافة وتسلط على المسلمين أمثال أتاتورك ، وزيف التاريخ لصالح الشيوعية والغرب ، والمسلمون تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ..

أيتام على مآدب اللئام..وغثاء كغثاء السيل فوق تلال الرمال ..!

فى الحيـاة لا تعرف للمسلمين نظاما للسلوك يتميزون به .. وفى الحكم أمشاج قـوانين وأخـلاط نظم .

وفى القوانين والتشريعات مزيج من الايمان والكفر وفى الاقتصاد تصطدم مشاعرك بلون أحمر فاقع يقشعر منه البدن ، ولون قاتم يحرم فيه الانسان من الأسودين المـاء والتمر ، وترف داعـر يشرق فيه السادرون بالغواية والخمر .

انهم لا يقرءون التاريخ .. بل لا يستعملون حـاستى السمـع والبصر ... تحسبهم أيقاظا وهم رقود .. جميعا وقلوبهم شتى .. تماما كما حدث فى آخـريات دولة بنى العباس فى بغـداد .. وكمـا حدث للأمويين فى بلاد الأندلس .. وكما حدث لملوك المغول فى بلاد الهند .. وكما حـدث لملوك الاسلام وسلاطينه فى هذا العصر .

انهم لا يقرءون التاريخ كمـا قلت .. على قلوبهـم أكنـة أن يفقهوه .. وفى آذانهـم وقر .. وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها .. حتى اذا أزفت الآزفة .. وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم فجأة .. قالوا : يا ليتنا نرد .. يقـولون ذلك بعد فوات الوقت ..!

ولقد طـوفت فى أكثـر بلاد الاسلام .. أقمت فى بعضهـا كثيرا من الوقت ، وزرت بعضهـا فى مؤتمرات كثيرة العدد واختلطت بشعوبها وزعمائها فى كثير مـن المناسبات والفـرص . . فرأيت الخطر محدقا بهذه الشعوب من كل جانب ، وأيقنت بالمصير الذى لن يفلت منه غوى ولا راشد .

وقليل هم العلمـاء الذين يتصدرون لمـواجهة هذا الخطـر بالتحـذير والنصح ، والارشاد والوعظ ، والمجاهـرة القـوية المخلصة بكلمة الحق .. والاستاذ العلامة أبو الحسن الندوى مـن هـذه القلة النـادرة من العلماء المخلصين فى هذا العصر فقد زار مصر منذ ثلاثيـن عاما فقال فى رسالة له :

« اسمعى يا مصر » •• وزار المغرب وايران فقال لهما ما قال لمصر ، وزار جزيرة العرب فأمرها أن تستمع اليه كما استمعت اليه قبل ذلك شعوب الاسلام فى الشرق والغرب •

وفى هذه المرة يمسك العلامة الأمين بيده ناقوس الخطر ويتكلم بصراحة ووضوح الى ملوك وأمراء المسلمين فى جزيرة العرب •

والذى يعنينى كمسلم يغار على مقدسات دينه ، ويفدى الحرمين الشريفين بروحه ونفسه •• الذى يعنينى من هذه الرسائل رسالة وجهها سماحة الشيخ الى المرحوم جلالة الملك فيصل ، لأن ما يصيب هذه المملكة الاسلامية يصيب الاسلام فى مقتل • ولأن صلاح الأمور واستقرارها حول الحرمين الشريفين أمنية مقدسة عند كل مسلم •

***

قال أبو الحسن :

حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل ••

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد ••

••• ••• •••

••• ••• •••

••• ••• •••

فقد بدأت الفتن تتقدم الى الجزيرة العربية والى آخر حصن من حصون الاسلام ، والاستقرار والسلام ، فاغرة أفواها مكشرة عن أنيابها ، وهى لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا الاستثناء ، ولا التسامح ، فقد بدأ كل بلد عربى ، بل اسلامى الا النادر القليل •• يجرب الشيوعية أو الاشتراكية ، وأصبح تحت رحمة الحكام العسكريين والقادة الثوريين ، والزعماء الأنانيين ، وأصبحت الشعوب فى براثن هؤلاء الثوار كعصفور بين أنياب الصقور القاسية الضارية ، لا تملك من أمرها شيئا ، وقد بدأت الشيوعية تزحف الى هذه المملكة من أربع جهات • من الجهة الشمالية ، ومن الجهة الجنوبية ، ومن جهة الغرب ، ومن جهة الشرق • هذا ما عدا أنصارهم وروادهم الذين يعملون فى الخفاء ، ويهيئون

العقول والنفوس لقبول هذه الفلسفات الهدامة فى مجال التربية والثقافة ، والكتابة والتأليف والاعلام والاذاعة .

وقد أخفقت كل تجربة لتلهية الشعب بالترفيه والتسلية وفيض من آلات الرخاء واطلاق العنان فى ارضاء الغرائز ، وتحقيق المطالب، وامدادها بأكبر قسط من التمتع ورفع مستوى الحياة من عهد بنى أمية .. فالعهد العباسى الى هذا العهد فى كل بلد من بلاد المملكة الاسلامية الواسعة ، وفى كل دور من أدوار التاريخ الاسلامى الطويل فلم تحمل هذه السياسة — المعتمدة على توجيه طبيعة القلق والطموح المودعة فى الانسان ، من التفكير فى القضايا العامة ، والأوضاع السياسية ، الى التفكير فى التهام الملذات ، وانتهاب المسرات ، وانتهاز فرصة الحياة — لم تحمل هذه السياسة الشعوب على الشكر والامتنان ، والتقدير والاحترام ، بل كانت هذه الشعوب التى أغدقت عليها النعم ، وعاشت بين روح وريحان ، وأطراب وألحان من أسبق الأمم الى جحود النعمة ، ونكران الجميل ، وأكثرها كنودا وقسوة على الأسر الحاكمة الرحيمة السخية ، والحكومات المتسامحة ، فانتهزت أول فرصة للثورة عليها ، وقلب الأوضاع فيها ، وعاملت المحسنين شر معاملة عرفها التاريخ ، وهذه طبيعة المادية الانتهازية الأيبقورية التى لا تعرف المفاهيم الدينية ، والقيم الخلقية ، ولا تعرف الميعاد والحساب ، وهى حكاية مطردة ، وتمثيلية متكررة فى جميع أدوار التاريخ . كذلك فى آخر دور الأمويين ، وفى نهاية الخلافة العباسية ، وعندما بلغت المدنية ذروتها فى حكومات الشرق والغرب ، وكذلك كان فى مصر وسوريا ، وفى العراق بالأمس ، وفى السودان قبل أيام . فلم تنفع هذه الفرصة السخية المتاحة للشعب وهذه الفيضانات من أسباب الترف والتسلى والتمتع والتلهى ، فرحبت هذه الأمم بكل ناعق وانتهزت أول فرصة للانقلاب .

وقد تحقق أن الايمان العميق ، والاستقامة الخلقية والاقتصادية فى

الحياة ، والتقشف ، والقناعة فى المعيشة وباختصار وصراحة . ان تقوى الله ، وخشية الحساب ، والحياء والوفاء والأمانة بالمعنى الواسع ، هى الخلال التى تمنع عن الجحود والكنود ، والقلق الدائم ، والغدر والخيانة وعبادة القوة أينما وجدت ، والترحيب بكل جديد وارد ، وزاحف مارد .

وأعتقد — والاشفاق والتألم يملآن جوانحى — أن فرصة العلاج الحقيقى الحاسم ، وفرصة صيانة هذه المملكة بما فيها من مقدسات وحصون للاسلام من هذه الموجة الطاغية التى بدأت تمتد اليها حانقة ثائرة ، ومن وقوع هذه الجزيرة فريسة سائغة لهؤلاء الثوريين الأنانيين . الذين يهلكون الحرث والنسل ، ويجردون البلاد من كل نعمة من نعم الدنيا والآخرة . فرصة محدودة قصيرة جدا ، وأرجو عدم المؤاخذة ، اذا قلت : انها آخر فرصة ، وعاهل هذه المملكة الذكى الألمعى هو خير من يعرف قصر هذه الفرصة ، وشدة هذا الخطر ، والأوضاع غير عادية ، فلا تقاوم بطرق سياسية عادية مما جربتها جميع الحكومات التى وقعت فريسة هذه الثورات ، وهى أساليب تقليدية لم يعد الله لها بالنصر ولم تمنع من حدوث أى انقلاب فى أى بلد ، وانما تنفع فى هذا الوقت الرهيب خطوات جريئة حاسمة وتغييرات جذرية . وعهود ومواثيق صادقة مع الله فليسمح لى جلالة الملك أن أقول : ان مثلنا كمثل قوم « يونس » الذين أروا الله الصدق والاخلاص ، والانابة والاخبات فى آخر ساعة ، وغيروا ما بهم فغير الله ما بهم .

وهنا أسجل بغاية الاختصار بعض النقط الرئيسية التى لا بد من الضغط عليها :

أولا — الصدق والاخلاص ، والعزم على اخضاع كل ما يجرى فى هذه البلاد ، من أمور ادارية حكومية مما يتصل بالاعلام والتربية وكل ما يؤثر فى الرأى العام ، وفى عقلية الشعب وأخلاقه ، ومستقبل البلاد — للمقاصد التى بنيت لها الكعبة ، واختيرت لها هذه الأرض لتكون مركزا للاسلام ، ومصدر

اشعاع عالمى ، وللحكمة التى نبه عليها القرآن بقوله :

« ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » .

ثانيا ــ ازالة التناقض بين ما يعلنه الملك ، ويتزعمه بحق ، ويدعو اليه ، من الدين الخالص ، والاسلام الصريح ، وتحكيم الكتاب والسنة ، والتمسك بالتعاليم الاسلامية ، والقيم الخلقية ، والتضامن الاسلامى الذى أصبح جلالة الملك داعيه الأكبر فى هذا العصر ، وبين كل ما ينافيه فى مجال الاعلام والتربية ، والمظاهر الاجتماعية ، واتجاهات الشعب من اندفاع متهور الى الترفيه والتسلية ، والأغانى والملاهى ، والقصص المثيرة والبرامج المستوردة الرقيعة التى أفلت معها الزمام من يد المربين والآباء والأساتذة والعلماء ، والتى لا يحتفظ معها أى شعب بالبقية الباقية من الشعور الدينى ، والحصانة الخلقية ، ولا يستعد للطوارىء والمفاجآت ، ولا يتحمل أقل صدمة أو خطر من الخارج .

ثالثا ــ اتخاذ الحياة الاسلامية ــ الحياة التى يرضاها الله ويباركها وينصر عليها ــ والحرص على ازالة جميع المنكرات ، وأسباب السخط ودواعى الخذلان ، والفشل فى المجال الادارى ، والأخلاق الاجتماعية والفردية ، وتتبعها تتبعا دقيقا ، والحد من الثراء الفاحش وتكدسه فى عدد محدود ، وطبقة معينة وتقييد التجارة ، وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب وفى مصلحة عدد محدود جدا وطبقة معينة ، خصوصا اذا كان ذلك من طبقة الأمراء والأثرياء ، ورجال الحكومة ، فان كل ذلك مما يمهد الأرض ، ويفتح الطريق أمام الشيوعية المتطرفة ، والاشتراكية المقنعة ، والحيلولة بين الحكومة والتجارة بقدر الامكان ، والى أقصى الحدود ، فان ذلك مما يجحف بالشعب ، ويجنى على الأخلاق ، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شبه مستحيل ، وقد نبه نابغة العرب ، وفيلسوف المؤرخين «ابن خلدون» على ضرره وسوء أثره فى الحياة .

رابعا ـ عدم الثقة بقادة العرب الأنانيين الذين لا يعرفون غير مصلحتهم ، والذين وصفهم القرآن بقوله : « لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة » • « يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » •

والذين ينتهزون أول فرصة فى بلاد أصدقائهم لقلب الحكومات ، واحداث الثورات ، والذين لا شىء اليهم أبغض من وجود الاستقرار والرخاء فى بلد ، وقد يكون اليهود أحب اليهم من المسلمين والعرب ، والذين ينتهزون أول فرصة لشفاء النفوس من هؤلاء الأبرياء الذين أسعفوهم بالأموال فى الساعات العصيبة ، وأنقذوا الوضع ، وينتهزون أول فرصة لتوجيه اذاعاتهم وصحفهم الى نهش لحومكم والولوغ فى دمائكم « كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة » •

وبالعكس من ذلك الاعتماد على الصادقين المخلصين فى داخل البلاد وخارجها ، الذين تربطهم بكم رابطة العقيدة والعاطفة والذين يدينون بالوفاء والولاء ، ويؤمنون بمبدأ الحب فى الله والبغض فى الله • تقربا الى الله ، واعزازا لدين الله من غير مقابل مادى ، أو طمع دنيوى ، أومصلحة فردية أو سياسية فأولئك هم « الكنانة » و«الجُنّة» فى الخطوب ، وموضع الثقة والأمانة ، ولا يكون هذا الاخلاص الا عن ايمان عميق ، ودين متين ، ورابطة روحية ونزاهة لا ترتقى اليها شبهة ، ووجود أمثال هؤلاء فى الحكومة والجهاز الادارى والاعتماد عليهم فى السياسة الخارجية والداخلية اكبر حارس للحكومة والبلاد ، بخلاف الانتهازيين والعلمانيين الذين لا يدينون بدين ، ولا يزعهم وازع من خلق أو مبدأ ، ولا يرون لهذه البلاد قدسا ولا شرفا ، انما ينساقون وراء الرغبات والمصالح ، وينفذون أوامر قادتهم فى الخارج •

هذا ما أملاه الاخلاص والحب لهذه البلاد ، ولمن اختاره الله لحراستها وخدمتها ، والحرص على سلامة هذه البلاد من الأخطار

التى قد وصلت الى أسوارها ، وبدأت تدق أبوابها ، وفى اطلاع جلالة الملك الواسع ، ما يغنى عن التطويل والتفصيل ، والشرح والتعليل ، والله المستعان

الداعى المخلص

أبو الحسن الندوى

انتهى كلام العلامة « أبو الحسن » . وهو كلام لا يصدر عفوا من مثل هذا الرجل .

انه خلاصة تجربة لمسلم يدرك بعقله حقيقة الأوضاع المتردية فى عالم الاسلام ، ويرى بنور بصيرته مخاطر الغد التى تتجمع غيومها فى أوكار الظلام .

ان المسلمين مطالبون اليوم بالوقوف جنبا الى جنب فى وجه هذه الهجمات الشرسة التى تتهدد ديار الاسلام فى كل قطر ، ومطالبون بتجلية مبادىء الاسلام وقيمه فى الحياة والواقع ، ومطالبون بالتضحية والتجرد أمام هذا الغزو الذى يوشك أن يقتلع جذورهم من الأرض ، ومطالبون قبل ذلك وبعده بالصدق مع الله فى القول والفعل .

* * *

منذ عامين .. وفى ملهى «البلاى بوى» بلندن (Play boy) أمر رئيس الخدم الانجليزى خادما هنديا مسلما بتقديم زجاجة من الخمر الى مائدة يجلس حولها مجموعة من عرب النفط .. وحين وصل الخادم الهندى المسلم الى المائدة سقطت من يده الزجاجة ، وهرول عائدا الى رئيسه قائلا :

مستحيل .. مستحيل أن يشرب هؤلاء الخمر ! ! ! لقد أصيب الخادم المسلم بصدمة ، وترك عمله فى هذا النادى المشبوه الى غير رجعة .

فعلى العرب المسلمين أن يستقيموا ، فان لم يستقيموا قوموا فان عجزوا عن الاستقامة ، ولم يوجد من يقيمهم على طريق الجادة . فليمحوا أسماءهم من سجل العرب وليتكلموا عن أى دين غير دين الاسلام !!!

الدكتور عبد الودود شلبى

في مواجهة الالحاد المعاصر :

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(١)

عجز العلم عن ادراك حقائق الاشياء :

ان العلم التجريبي في بحثه الدءوب عن « المادة » لم يستطع انكار الغيبيات ، كما أنه لم يستطع ادراك حقيقتها .

ومع ذلك فقد حاول — في جبهة الالحاد — التشويش على مبدأ الغيبيات ، بوضع أسماء لها — أى لغيبيات المادة — أسماء توهم عند البعض أنها كافية لتفسير الأمر كله .

لقد وضعوا أسماء ، ثم ألقوا أقلامهم ، وفروا هاربين ..

وسنعرض فيما يلي هذه الحلول « الاسمية » في أهم المشاكل المتعلقة بعالم الفيزياء :

الزمان ، المكان ، المادة .

يذهب كارل بيرسن — ١٨٥٧ — ١٩٣٦ .

— استاذ الهندسة النظرية بالكلية الجامعية بلندن واستاذ كرسي الرياضة التطبيقية والميكانيكا بنفس الكلية — في تصوره للزمان والمكان والحركة ، الى افراغها من محتواها الخارجي ، واعتبارها أسماء لخاصية ذهنية .

فهو بالنسبة للمكان يقرر أنه « ترتيب » الظواهر الممكنة الموجودة معا .

ومن الواضح أن فكرة الترتيب لا علاقة لها بوجود الظواهر ذاتها . اذ أن من الممكن تصور هذه الظواهر بترتيب مخالف ، وعلى ذلك فالترتيب انما ينتمي عنده الى طريقة الذهن في ادراك الظواهر ،

فمن الواجب عنده أن تتخلى عن النظر الى المكان على انه فراغ هائل وضعت فيه الأشياء .

وما يقال عنده عن المكان يقال كثير منه عن الزمان . فهما معا طريقتان تميز بهما الملكة الادراكية موضوعات ادراكها .

وكل ما فى الأمر ان المكان يدل على وجود ادراكاتنا معا فى زمان واحد .. والزمان يدل على تلاحق ادراكاتنا فى موقع واحد من المكان .

أما عن الحركة :

فهى عنده « التصور الجامع بين الزمان والمكان . أى تغير المكان مع تغير الزمان » ..

فعلم هندسة الحركة هو بدوره وصف ذهنى أو تصورى لما يحدث فى عالم المدركات الحسية من تغيرات ..

واذن فان ما يطلق عليه اسم حركة الاجسام ليس حقيقة من حقائق الادراك الحسى وانما هو طريقة ذهنية أو تصورية تصف بها التغيرات التى تطرأ على مجموعة الانطباعات .. الحسية ..

ولكن هانز رايشنباخ يخطو خطوة أعمق فى اظهار الدلالة الاسمية لكل من الزمان والمكان ، ويظهر الصعوبات التى تصل الى درجة الاستحالة والتى تمنع من تقديم مفهوم موضوعى لكل منهما ، بل تمنع ــ وهذا هو الأخطر ــ من اصطناع مقاييس من كل منهما تتصف بالصدق الموضوعى .

يتناول رايشنباخ مشكلة المكان ، فيقرر أن مشكلة التطابق (١) تهدد معرفتنا الموضوعية للجسم والمكان ذلك لأنه لا سبيل الى أختبار التطابق والتحقق منه والمخرج الوحيد من هذه المشكلة ــ فى رأيه ــ هو الا ننظر الى المشكلة من ناحيتها الموضوعية وانما يكفينا النظر اليها من الناحية التعريفية

---

(١) لنفرض أن كل الاشياء المادية ومن ضمنها أجسامنا قد تضاعف حجمها عشر مرات اثناء نومنا فى الليل ، فعندما نستيقظ فى الصباح لا نكون فى وضع يسمح لنا باختبار هذا الفرض ولن نتمكن ابدا من التحقق منه ــ انظر نشأة الفلسفة العلمية ص ١٢٢ .

أو الاصطلاحية فليس هناك سبيل لمعرفة ما اذا كان الجسمان متساويين بالفعل ، ولكن يكفى أن نقول : اننا نسميهما متساويين ، ثم يتناول مشكلة الزمان مع مشكلة المكان فيقول :

(ليس الزمان والمكان كيانا مثاليا أو فكريا له وجود يدرك بنوع من التبصر كما اعتقد أفلاطون .

وليس نوعا ذاتيا من الترتيب يفرضه الملاحظ البشرى على العالم كما اعتقد كانت .

فالترتيب الزمنى ـ عنده ـ يمثل صفة عامة للكون الذى نعيش فيه والزمان حقيقى بنفس المعنى الذى يكون به المكان حقيقيا ، ومعرفتنا للزمان ليست أولية وانما هى تجريبية ...)

ثم يقول :

(ان ما نشعر بأنه تدفق للزمان هو ذاته : الصيرورة السببية أو العملية السببية التى تكون هذا العالم) (١)

وقديدو الى هذا الحد وكأنه متردد فى الاقرار بوجود موضوعى للزمان ، لكنه يتراجع بعد ذلك مبديا استحالة ادراكه واستحالة اصطناع مقاييس موضوعية منه . فيقرر أنه :

لكى نعرف الزمان المتجانس المطرد (موضوعيا ـ المتعلق معرفته بحركة الأفلاك .. الخ) يتعين علينا أن نستوثق من مقاييسنا بمعرفة قوانين الميكانيكا التى تحدد لنا التعرف على هذه الحركة .

(ولكى نعرف قوانين الميكانيكا يتعين علينا أن نعرف الزمان المتجانس) .

يقول هانز رايشنباخ ..

(وليس لهذه الحلقة المفرغة الا مخرج واحد ..

هو أن ننظر الى مسألة الزمان المتجانس لا على انها مسألة معرفة ـ أى معرفة لواقع خارج عنا ـ بل على انها مسألة تعريف ـ أى اصطلاح ـ فعلينا الا نتساءل ان

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٤٠ ـ ١٤١

كان من الصحيح ان زمان الفلكى متجانس وانما ينبغى ان نقول ان زمان الفلكى يُعَرِّف الزمان المتجانس ، فليس ثمة تجانس فعلى ، وانما نحن نصف تدفقا معينا للزمان بأنه متجانس لكى يكون لدينا معيار نرد اليه أنواع التدفق الزمانى الأخرى) [1] .

انه (لكى تحدد أن كان حادث معين أسبق من حادث آخر ؟ لابد أن يكون الترتيب الزمنى واحدا بالنسبة لمختلف مقاييس الزمان .

ولما كان هذا غير صحيح ، فان علاقة الترتيب الزمنى ينبغى أن تكون خاضعة لتعريف مستقل عن قياس الزمان .

ويمكن أن نرد علاقة الترتيب الزمنى الى علاقة السبب والنتيجة .. باعتبار أن السبب أسبق من النتيجة ..

غير أن ما ينبغى علينا هنا هو معرفة كيفية التمييز بين السبب والنتيجة .

واذن فلن يساعدنا على هذا التمييز أن تقول ان السبب هو أسبق الحادثتين المرتبطتين ، : لأننا نود تعريف الترتيب الزمنى على أساس الترتيب السببى .

فلابد اذن أن يكون لدينا معيار مستقل لتمييز السبب من النتيجة [2] .

هنا يقدم رايشنباخ اقتراحا لحل هذه المشكلة ــ أعتقد أنه قائم على حكم العادة لا غير ــ وذلك هو (أن نحكم على الترتيب الزمنى على أساس العمليات الفيزيائية غير القابلة للانعكاس) [3] .

مثل حالتين : بيت مبنى ، ونفس هذا البيت متهدم ، فالأولى أسبق ، لأنه فيزيائيا لا يمكن انعكاس المتهدم الى مبنى .. الخ .

ويعترف رايشنباخ ان هذا الحل ليس مبنيا على ضرورة منطقية اذ يقول : (ليس وجود هذا الترتيب المتسلسل ضرورة منطقية) . ويمكن أن نضيف الى ذلك انه ليس

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٤ ، يعنى بدافع الضرورة العملية .
(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٥
(٣) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٦

مبنيا على ضرورة فيزيائية — اذا تجاوزنا عالمنا الخاص — لما تم اكتشافه من حركة بعض الصغيرات الى عكس اتجاه حركتنا فى الزمان .. الخ .

ثم يتناول مشكلة التزامن ، فيقول :

نحن نسمى الحادثين متزامنتين اذا لم يكن أحدهما سابقا أو لاحقا للآخر .. وتظهر المشكلة عند المقارنة بين حادثين فى مكانين مختلفين .

ويتضح ظهورها كلما بعدت المسافة بين المكانين .

فلكى نعرف زمن انبثاق الضوء من كوكب أو من نجم مثلا ومقارنته بزمن رؤيتنا له على هذه الأرض يجب أن نأخذ فى اعتبارنا الوقت الذى يستغرقه الشعاع الضوئى لكى ينتقل من النجم الينا .

ولمعرفة هذا الوقت يجب أن نعرف سرعة الضوء والمسافة التى قطعها لكن ما هى كيفية قياس سرعة الضوء ؟

ذلك يستدعى معرفة الوقت الذى استغرقه الضوء فى الانتقال .

واذن فنحن ندور فى حلقة مفرغة .

فلكى نعرف الوقت الذى استغرقه الضوء فى الانتقال يجب أن نعرف السرعة .

ولكى نعرف السرعة يجب أن نعرف الوقت ... أو بعبارة أخرى لكى نعرف التزامن يجب أن نعرف سرعة الضوء ، ولكى نعرف سرعة الضوء يجب أن نعرف التزامن (١)

ومع هذا فان هناك حدودا تنتهى عندها مشكلة التزامن ..

ذلك انه اذا أرسلنا ضوءا الى المريخ مثلا الساعة ١٢ وعاد الينا منعكسا فى الساعة ١٢٫٣٠ فان المقارنة بين لحظة الارسال ولحظة الوصول تتراوح بين ١٢ ، ١٢٫٣٠ ولا يمكن أن يكون فى المقارنة الزمن الذى قبل ذلك أو بعده .

وهنا نصل الى ما يسميه اينشتين « بنسبة التزامن » .

***

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ١٣٧

وهـكذا يتبين لنـا أن الفلسفة العالميـة انتهت فى بحثهـا لمشكلة الزمان والمكان ، الى وضع حلول « اسمية » لا فيما يتعلق بجوهرها فحسب ، بل فيما يتعلق بالمقـاييس التى تستند اليهما .

وهكذا الأمر جـرى فى مشكلة المادة ..

فها هو برتراند رسـل — على سبيل المثال —

يقـرر أن لا عـلاقة بين كلمـة الكترون وبين ما تدل عليـه أكثر من العلاقة القائمة بين كلمة لندن ، وبين المدينـة التى تدل عليهـا الكلمة .

ويقول (فكلمة لندن ، كلمـة مريحة فى الاستعمال بيد أن كل « واقعة » نخبر عنهـا باستعمال هذه الكلمة يمكننا أن نخبر عنهـا بدونها ، وان كان هـذا بطريقـة أكثر التواء) .

بل ان رسل يقـرر أن عـلاقة كلمـة الكترون بمـا تدل عليـه أضعف ، يقول (هناك اختلاف ، وهو اننا نستطيع أن نرى مختلف الأجزاء التى تتكون منها مدينـة لندن ، بل نحن فى الحقيقة نعرف الأجزاء بصورة أكثر مباشرة ممـا نعرف الكل الذى تؤلفه ، أما فى حالة الالـكترون فاننـا لا ندركه ولا ندرك أى شىء مما نعرف أنه مقوم من مقوماته ، فنحن لا نعرفه الا بوضعه كائنا افتراضيا ، يحقق أغراضا نظرية بعينهـا ، وبقـدر ما يتعلق الأمر بالفيزياء النظـرية فان أى شىء يحقق هذه الأغراض يمكن أن يسمى الكترونا (١) .

ويقول رسل عن العقل والمادة .

(انها ليست الا رموزا لأشياء غير معروفة) (٢) .

ويقول فتجنشتين عـن الأشياء (لا يسعنى ازاء الأشـياء الا أن أسميها) (٣) .

ويقـول رتشارد هونجـوالد عن الفلسفة المادية :

---

(١) فلسفتى ص ١٦ : ١٧

(٢) مجموعة عالمنا المجنون ص ٩٧

(٣) لودفيج فتجنشتين ص ٢٢١

(هى فى الواقع لم تقدم غير أسم « المادة » تخفى وراءه الروح) (١) .

هؤلاء فلاسفة وماذا عند علماء العلم التجريبى ؟

ما هو البروتون ؟ تسمية معناها « الأول » مشتقة من أصل لاتينى !

وما هو النيوترون ؟

تسمية معناها المحايد أو المتعادل مشتقة من كلمة لاتينية أيضا .

وهذه التسمية مأخوذة من كون النيوترون لا يحمل شحنة موجبة كالبروتون ـ ولا سالبة كالالكترون (٢) .

وكما يقول الدكتور جون كيمنى : (تجد كثيرين من العلماء قد أخذوا بما قد تحقق من تقدم فى حين أن كل ما قد حصل لا يعدو وضع مجموعة جديدة من التعاريف) (٣) .

ويقول الأستاذ وحيد خان :

(انه مهما كانت التجربة أو المشاهدة مباشرة الا انها لا تعدو أن تكون مظهرا خارجيا لحقيقة الواقعة ، لأن تلك التجربة ليست هى الحقيقة نفسها . ومثال ذلك أن رقم التليفون مرتبط بصاحبه ، الا أن هذا الرقم ليس هو بعينه صاحب التليفون ... فواقع الارتباط بين ضغط الزر واضاءة اللمبة يؤكد وجود علاقة خاصة مباشرة بين العمليتين ، ولكن على الرغم من هذا المظهر تبقى العلاقة الأصلية غير المرئية) (٤) .

يقول الشاعر جوته فى تعليقه على الفلوجستون وغرابته :

(كم من اسماء كبيرة ضخمة يبتدعها الناس ، فيسمون بها الأشياء التى لا تجوز عقلا ، ليسهل فى العقل تجويزها) (٥) .

---

(١) فلسفة القرن العشرين ص ٥٦
(٢) انتصارات العلم الحديث ص ١١٦
(٣) الفيلسوف والعلم ص ٢٠٢
(٤) الدين فى مواجهة العلم ص ١٤
(٥) بوائق وانابيب ص ٥١

وكمثال على ما تسببه التسميات من تضليل نذكر الحكاية الطريفة الآتية :

عندما كشف الكوكب بلوتو عام ١٩٣٠ سألت سيدة أحد علماء الفلك قائلة :

« ولكن عندما اكتشفتم أنتم رجال الفلك الكوكب الجديد كيف عرفتم أن هذا الكوكب هو حقيقة بلوتو وليس كوكبا آخر غيره ؟ » (١) .

***

وأخيرا نقول :

ليس للالحاد المادى تفوق فى ايمانه بهذه الغيبيات على ايمان المؤمن بالغيبيات الالهية ، من حيث يدعى انه يؤمن بغيبياته لما لها من آثار محسوسة أو ضرورة منطقية ، لأن ايمان المؤمن بالله قائم على نفس هذا الاساس :

أى لآثاره المحسوسة ، وضرورته المنطقية ..

ان اقرار العلم التجريبى بهذه الكائنات « الغيبية » لا يختلف ـ من الناحية المنهجية ـ عن اقرار المؤمن بوجود الله ...

أعنى أن هذا الاقرار ليس قائما على الادراك المباشر ولكن على « الاستنتاج » المستخلص من الوقائع .

يقول الفيلسوف الملحد برتراندراسل :

(العالم الذى كنا نتحدث عنه ـ أى العالم الفيزيقى ـ حتى الآن عالم مستدل عليه بأكمله . اذ نحن لا ندرك نوع الكائنات التى تتحدث عنها الفيزياء ادراكا مباشرا) (٢) .

ويقول عن معرفته للكرسى القائم أمامه على سبيل المثال : (علاقتى بهذا الشىء غير مباشرة ولا تتأتى معرفتها الا بالاستنتاج) (٣) .

---

(١) فن الاقناع ص ٣٢
(٢) فلسفتى ص ١٦
(٣) العقل والمادة ص ١٩٧

ويقول : (اننى أرى بالفعل أن هناك صورا من الاستدلال المحتمل (١). لابد أن تقبلها وان لم يكن من الممكن أن تثبتها بالخبرة) (٢) .

انه اذا كانت المادة صورة تجريدية أو فرضية فماذا يدعو الى « الايمان » بها عند رسل الملحد ؟ وماذا يقدمه من مبررات لذلك ولا يمكن تقديمه للايمان : بالميتافزيقا أو الدين ؟

الصور التى يقدمها رسل للعالم المادى هى ـ كما يقول ـ صورة فرضية . الا أن هذا العالم بهذه الصورة « يمكن » فى اعتقاده ـ أن يكون هو العالم الفعلى ـ ، لأن هذا العالم يتلاءم مع جميع الوقائع ، وليس هناك دليل تجريبى ضده ، كما أنه عالم متحرر من الاستحالات المنطقية .

ان ما يبرر الايمان « بالعالم : بالمادة » بالرغم من تجريديته عند رسل هو أنه « يمكن » أن يتلاءم مع الوقائع ، أولا وانه لا دليل تجريبى ضده ، ثانيا وانه متحرر من الاستحالات المنطقية ثالثا .

وهل هناك شىء من هذه الامور يقف حائلا دون الايمان بالله ؟

ولا يقف حائلا دون الايمان بالمادة ...؟ كلا ..

يقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(ان الانسان الشريف الذى يتمتع بغريزة حب الاستطلاع العلمى لا يحتاج الى « رؤية » الله بأكثر من حاجة الفيزيائى الى « رؤية » الالكترون .

وكل محاولة فى كلتا الحالتين باطلة ، ولا قيمة لها .

فالألكترون لا يمكن ادراكه ماديا . ومع ذلك فهو معروف تماما بآثارة أكثر من معرفتنا للكرسى الذى نجلس عليه (٣) .

ويقول فى موضع آخر :

اننا نؤمن بهذه الصغيرات لأننا نثق فى الفيزيائيين الذين

---

(١) هناك نوعان من الاحتمال : الاحصاء والشك . انظر فلسفتى ... ص ٢٣٤

(٢) فلسفتى ص ١٦٠

(٣) مصير البشرية ص ١١١ ، ص ١٢٧

يؤكدون وجودها كما كنا نثق فى رجال الدين القدماء) .

(ولأن هؤلاء الفيزيائيين يؤكدون انه بدون هذه الصغيرات تصبح الأشياء المادية والقوى التى نستعملها ، غير متماسكة ولا يمكن فهمها) .

ثم يقول : (وكذلك فان الكون الحى المنظم يغدو غير مفهوم بدون قبول فرضية وجود الله) (١) .

وفى هذا المعنى يقول كروزبار :

(اذا كانت القواعد الأولية التى تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا يجب أن يعتقد بها ولو لم يكن فى مستطاع العلم أن يعرفها ، فان أقوى برهان يقيمه كونت فى وجه الاعتقاد بوجود الله ــ اذ يقول بأنه لا يمكن اثباته بالعلم ــ ينهار من أساسه) .

ويقرر كروزبار أن التسليم بوجود الله لا يقل فى نظر العقل عن التسليم بوجود العالم يقول :

(اننى أعرف أو أعلم أن للخالق وجودا حقيقيا بمثل ما أعلم أو أعرف أن للعالم الخارجى المحيط بى وجودا حقيقيا) .

بل انه لينبغى القول بأننا ملزمون بالاقرار بوجود العالم الخارجى بنفس القدر الذى يلزمنا بالاقرار باستمرار وجودنا الشخصى

•• يقول رسل فى تحليله لهذه النقطة (اذا أراد الفيلسوف المؤمن بنظرية انحصار الذات فى نفسها أن يبلغ السلامة المنطقية التى يسعى اليها فعليه أن يحصر نفسه فيما ادعوه « انعزال الذات للحظة الراهنة وحدها » فليس عليه أن يقول فقط ــ « لست أعرف ما اذا كان العالم الفيزيقى موجودا ، أم ما اذا كانت هناك عقول غير عقلى ، لكن عليه أن يمضى الى ما هو أبعد من ذلك فيقول لست أعرف ما اذا كان لى ماض أو ما اذا كان لى مستقبل ، لأن هذه الأشياء مدعاة للشك مثلها مثل وجود الآخرين ، أو وجود العالم الفيزيقى .

---

(١) ملقى السبيل ص ٦٦ ، ص ٨٢

لكن فيلسوفا من أنصار انحصار الذات فى نفسها لم يذهب الى هذا الحد ومن ثمة فكل فيلسوف من هذا القبيل لم يكن متسقا مع نفسه عندما قبل استدلالات عن نفسه ليس عليها ضمان أفضل مما لديه من ضمان على الاستدلالات التى تدور حول الآخرين والأشياء الفيزيقية » (١).

نقول :

واذن فقياسا على منهج استدلاله على ذاته — فى غير اللحظة الراهنة — يلزمه — منهجيا — الاستدلال على وجود الآخرين ، وقياسا على استدلاله على وجود الآخرين يلزمه — منهجيا — الاستدلال — وفقا لما ذكره كروزيار — على وجود الله .

ولنا أن نقول أيضا : ان استدلاله على ذاته — فى غير اللحظة الراهنة — الذى رجعنا منه الى اثبات معرفتنا بالعالم وبالله ، انما تم على أساس ما نسميه الضرورة العملية وهذا ما نزيده توضيحا فى موضع آخر .

والخلاصة : ان الالحاد الحديث عندما يقطع علل الوجود وأسبابه عن الله .. ويسلم بغيبيات أخرى ترغمه عليها الضرورات المنطقية ، أو العلمية أو العملية ..

عندما يفعل ذلك فانه انما يقع فى صورة حديثة من صور الاشراك التى أشارت اليها الآية الكريمة :

« ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

« صدق الله العظيم »

(٢)

عجز العلم عن ادراك « المطلق » :

لا يهدأ العقل البشرى دون التطلع الى المطلق ومحاولة ادراكه واذا كان المنهج العلمى يقوم أساسا على « النسبية » فهو لا يمكنه أن يستبعد « المطلق » من مجال المعرفة ، مكتفيا باعلان عجزه عن ادراكه .

ونسبية العلم هى فى حد ذاتها اعتراف « بالمطلق » .

---

(١) الفلسفة ص ٢٣٨

(١) يرى هاملتـون (فيلسوف انجـليزى ١٧٨٨ ـ ١٨٥٦) ان المعـرفة نسبية وذلك مـن ثلاثة وجوه • فانها تقـوم فى نسبة بين حدين يجمع بينهما فى الحكم ونسبة بين ذات عارفة وموضوع معروف يحد أحدهما الآخر ، ونسبة بين جوهر وعرض فيـدرك الجـوهر بالعرض ويدرك العرض بالجوهر •

هذه النسب قوام التفكير ، اذا حاولنـا رفعهـا محونا كل معـرفة ووقعنا فى الوحـدة المطلقة فكل ما هو مدرك مشروط أى نسبى ، واللا مشروط أو المطـلق لا مدرك سواء أكان كلا أو جزءا ••

فان أى كل هـو بالنسبة لنـا جزء لكل أكبر ، وان أى جزء يمكن أن يتصـور قابلا للقسمة فيكون من ثمة كلا •

بيد أن هاملتون يجد بابا للولوج منه الى الاقرار بوجود المطلق وان كنا لا ندرى عنه شيئا وذلك لأن أى موضوع معروف فهو جزء من حيث انه مشروط ، ومن ثمة فهو مـردود الى لا مشروط وهـذه النسبة تخرجنا من حدود معرفتنا وتجعلنا تثبت وجود المطلق ••

(٢) ويستند « منسل » وقـد كان فيلسوفا ، وءأستاذا بأكسفورد وكبير قساوسة كنيسة سنت بول (١٨٢٠ ـ ١٨٧١) الى قـول أستاذه هاملتون ان معرفتنا العقلية لا تبلغ الى المطلق ، ويرتب عليـه امتناع اللاهوت العقلى لكنه يذهب فى نفس الـوقت الى أن العـلم الانسانى ما دام نسبيا فهو لا يملك الاعتـراض على الـوحى ، وان الصـعوبات والمتناقضـات ليست ناشئة من الوحى بل من حـدود العقـل الذى يزعم الخـوض فى المطلق على حين أن حدوده تدل على أن شيئا قـد يوجـد ويكون فوق متناوله (١) •

(٣) ويقـرر هـربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) فى كتـابه « المبادىء الأولى » استحالة وصول العقل الى معرفة مطلقة » • وان كل محاولة يقوم بها العقل من أجل تصور المطلق أو اللامتناهى لا بد

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديث ليوسف كرم ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦

أن تنتهى الى تعيينه أو تحديده ، وبالتالى فانها لابد من أن تحوله الى نسبى أو متناه . وذلك لأن كل فعل من أفعال العقل لا يمكن أن يكون واضحا الا اذا توافرت له عناصر ثلاثة هى :

التمايز ، والعلاقة ، والتشابه ، ومعنى هذا انه اذا أريد لأية حالة ذهنية أن تستحيل الى فكرة أو معرفة ، فانه ليس يكفى لهذه الحالة الذهنية أن تصبح منفصلة أو متميزة عن كل ما عداها من حالات ذهنية سابقة ، وانما لابد لها أيضا من أن تكون شبيهة أو مماثلة لبعض الحالات الذهنية التى سبق لنا ادراكها من قبل . وبعبارة أخرى يمكن القول بأننا لا نعرف الشىء معرفة واضحة الا اذا كان فى وسعنا أن نشبهه (من بعض الوجوه أو كلها) بشىء أو أشياء أخرى سبق لنا ادراكها وأما اذا لم تكن للشىء أية صفة مشتركة تجمع بينه وبين أى شىء آخر سبق لنا ادراكه ، فان مثل هذا الشىء لابد من أن يظل لغزا مبيما .. أو مجهولا ، يخرج تماما عن حدود المعرفة ، كذلك فان كل فعل من أفعال المعرفة انما هو علاقة تنشأ فى الشعور بين بعض الحالات الذاتية من جهة ، وبعض القوى الموضوعية من جهة أخرى .

وقصارى القول عنده انه لما كان الفكر يتضمن بالضرورة العلاقة ، والتميز ، والتشابه فانه لا سبيل لنا مطلقا الى تعقل اللا متناهى أو المطلق أو اللا مشروط .

لكن سبنسر مع هذا لا يرى أن المطلق غير موجود ، بل انه لا يرى اننا لا يمكننا أن نعرف ما اذا كان المطلق موجودا أو غير موجود .

وانما يرى اننا حينما نقرر أنه ليس فى وسعنا أن نتصور المطلق بعقولنا فاننا نحكم بعقولنا أيضا بأنه موجود . انه يعنى أن فى صميم انكارنا لقدرة العقل على تصور المطلق يوجد اعتراف ضمنى بوجوده ذلك لأن المطلق الذى حكمنا بعجزنا عن معرفته كان ماثلا أمام أذهاننا ، لا باعتباره عدما ، بل باعتباره « شيئا » وذلك لأن تفكيرنا بطبيعته يقوم على العلاقات لذا فان « النسبى » نفسه

سرعان ما يصبح غير قابل للتصور ان لم نتصور وجود علاقة بينه وبين حد آخر غير نسبي ، أى « مطلق » .

وخلاصة القول انه لابد من افتراض وجود شيء ثابت يكمن خلف شتى الاعراض المتغيرة دون أن يكون من الضروري لعقولنا أن تقدر على تحديده .

وهكذا يخلص سبنسر الى القول بأن قوانين الفكر التى تحظر علينا تكوين تصور عن « الموجود المطلق » هى بعينها التى توجب علينا التسليم بوجوده ..

وهنا تنحل عقدة من العقد تحول بين العلم والدين . وفى هذا يقول سبنسر (اذا كان كل من الدين والعلم يسلم بوجود « مبدأ مطلق » هيهات لنا أن نسبر غوره أو « حقيقة عليا » يستحيل علينا أن نزيح النقاب عن أسرارها ، فمن أين نشأ اذن ذلك التعارض بين الدين والعلم ..؟

الحق أن الدين قد أدى ولا زال يؤدى دورا فى حياة البشر ، لأنه قد حال بينهم — ولا يزال يحول — وبين الاستغراق التام فى « النسبى » أو المباشر ، فالدين قد أيقظ شعور البشر ، وجعلهم يحسون بوجود شيء ، فيما وراء الادراك الحسى المباشر) .

ويقول سبنسر :

ان تطور العلم قد دنا به من فكرة « الحقيقة المطلقة » التى يقول بها الدين ومن هنا يصبح العلم نصيرا للدين ، وعاملا هاما فى المحافظة على نقاء العقيدة الدينية الكبرى من شوائب التشبيه أو التخصيص .

(٤) ويتساءل أميل بوترو عن حدود العلم قائلا :

(هل هذه الحدود تمثل سلبا خالصا ، سلبا مطلقا يمنعنا العلم حقا — فيما وراء ذلك — أن نبحث شيئا أو نتصور شيئا ؟

أو أن هذه الحدود ليست الا سلبا نسبيا أى فقدان شيء مطلوب ولابد منه ، ويستلزمه نفس الشيء الذى نملكه ؟

ويجيب أميل بوترو على هـذا التساؤل بأن :

(بعض العلماء يرى أن حدود العلم تمثل حقا بالنسبة للعقل البشرى عدم معرفة ، ليس منها بد ، لتجعل من علمنا معرفة تامة .

والعلم يعرف من هذا انه لا يكفى نفسه ، لأن مبادئه تصورات سلبية غير محدودة فيما يختص بمضمونها ، ويستحيل على العقل البشرى الا يتساءل عن الشىء ما هو ؟ اذا قيل له انه ليس هذا أو ذاك .

فالعلم نفسه ... هو الذى يشير بامكان المعرفة الأعلى ، المعرفة الأعلى من المعرفة العلمية) (١)

(٣)

عجز العلم عن الوصول الى اليقين :

يقول رالف . ت. فلو ولنج فى بحثه عن الفلسفة الشخصانية :

(كانت المادية العلمية منذ جيل واحد فى موقع حصين لا سبيل الى النيل منه . ولعل كبار العلماء كان يساورهم بعض الشك فى أمر هذه المادية العلمية ، ولكن هذا الشك لم يتسرب مطلقا الى عقول الشعوب ، بل ولا الى عقول كتاب العلم العاديين والصحفيين .

وبينما المادية العلمية فى موقعها الحصين ، اذ دهمتها الكشوف الثورية :

أشعة رونتجن .

ونسبية المكان والزمان .

ونظرية الكم والطاقة الذرية .

ونظرية اعتبار الواقع حدثا من الأحداث المتصلة فى المكان والزمان ..

ومبدأ عدم اليقين ..

ومهما يكن حظ هذه الكشوف من اقبال الناس فقد كانت ايذانا بانتهاء عصر المادية العلمية التى كان لها القدح المعلى خلال قرن ونصف قرن من الزمان دون القيم العليا .. فقد انتقلنا فى خلال ثلاثين سنة تقريبا من القول بأن أشد الأمور الواقعة يقينا هو الذرة الى عكس

(١) العلم والدين ص ٢٠٥ : ٢٠٦

هذا اذ صرنا نعـد الشيء اليقينى هو مبدأ اللا يقين ...) [١] .

الآن يعترف أرباب المنهج العلمى التجريبى انهم لا يشترطون اليقين .. ولا يمكنهم أن يحققوه .

ويقول الدكتور محمـد مهران فى بحثـه عن برتراندراسل :

(ان راسل كان يهدف من اعادة بنـاء المادة والموضـوعات المادية ردهـا الى مكوناتهـا اليقينيـة أو ــ اذا أردنا مؤقتا الابتعاد عن لفظ (الرد) ــ كان يهـدف الى التعبير عما هو موضـوع موضع الشك بما لا يكون موضع شك ، سواء كان هذا الأخـير المعطيـات الحسية أو الأحداث .

ان السؤال الذى يفرض نفسه هنـا هو هـل استطاع راسل أن يحقق مثل هـذا الهـدف بالنسبة للموضوعات المادية ؟

لعل الاجابة الواضحة لراسل على هـذا السؤال الأخـير هى اجابة النفى ، وبذلك لم يستطع راسل أن يجد المعـرفة اليقينية التى كانت مطلبه طوال حياته الفلسفية فجـاء فى أعماله الأخيرة ليقيم فلسفته على « مصادرات [٢] .ويلجأ الى النتائج العملية التى لا يمكن تبريرها بأى نوع من المعايير النقدية التى قال بها فى فلسفته المتقدمة ..

ان بناء راسل للعقـل والمادة لم يحقق الغرض المرجو منه . فقـد كان الهدف من « البناء » ــ التعبير عمـا يمكن أن يكون موضـع شك (الموضوعات المادية والعقول) بما لا يكون موضع شك (المعطيات الحسية أو الاحداث) [٣] . لكن لقد أنتهى راسل الى أن كل معرفتنا الانسانية غير يقينية وغير دقيقـة ولذا فان البنـاء قـد أصبح بمثابة التعبير عما هو غير يقينى بمـا هو غـير يقينى . وفقـد بذلك المبرر للجوء اليه ، ويكون فى اعتقادنا ــ قد أخفق فى تحقيق الغـرض الذى من أجله وضع) [٤] .

(١) بحث الفلسفة الشخصانية فى كتاب فلسفة القرن العشرين ص ١٠٩

(٢) انظر ما ذكرناه من « مسلمات » راسل فى مبحث الايمان الاول فى مبحث سابق

(٣) انظر ما ذكرناه عن موقف راسل من غيبيات المادة فى مبحث سابق

(٤) فلسفة برتراندراسل للدكتور محمد مهران ص ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨

وهل يستمد العلم الحديث يقينا من احتمائه بالرياضة ؟

يقول راسل بعد أن استغرق فى دراسته للرياضة (فيما يختص بأسس الرياضة فانى لم أهتد فيها الى شىء ، وبالرغم من ميلى الشديد الى الفلسفة التجريبية لم أستطع أن أقتنع بأن القضية :

« اثنان زائد اثنين تساوى أربعة » .

ليست سوى تعميم استقرائى حصلناه بالخبرة لكننى ظللت فى شك من كل ما يتجاوز هذه النتيجة السالبة المحضة) (١) .

ويقول (ان الرياضة تتألف من تحصيلات حاصل وانى لأخشى أن الرياضة بأسرها قد تبدو لعقل على قدر كاف من القوة تافه تفاهة العبارة التى تقول ان حيوانا ذا أقدام أربع حيوان .

وأعتقد أن ما تتصف به الرياضة من لا زمانية ليس له من السمو بمثل ما بدت لى به فى يوم من الأيام .

وماقوام هذه اللازمانيا الا كون الرياضى لا يتحدث عن الزمان ..

واليقين البديع الذى كنت آمل دائما أن أبلغه فى الرياضة قد فقدته فى متاهة محيرة .

لقد فقدت شيئا ، وان كنت قد ربحت شيئا أيضا . فاما ما فقدت فهو أن أجد الكمال والنهائية واليقين .

أما ما ربحت فهو تسليم ببعض الحقائق التى كانت تبدو لى باعثة على النفور) (٢) .

ويقول هانز رايشنباخ فى « فلسفته العلمية » : « عن احتمالية الواقع » .

(اننا عندما نحلم لا نعلم اننا نحلم واننا نعرف ان حلمنا كان حلما فيما بعد ، أى عندما نستيقظ فقط . فكيف ندعى اذن ان تجاربنا الحالية يمكن الاعتماد عليها أكثر من الحلم ؟ ان كون هذه التجارب

---

(١) فلسفتى كيف تطورت ص ٤

(٢) فلسفتى ... ص ٢٦١ وقد ذكرنا فى مبحث « الايمان الاولى » مسلمات رسل هذه .

مقترنة بشىء من الواقعية لا يجعلها أكثر قابلية للاعتماد عليها . اذ أن هذا الشعور ذاته يكون لدينا فى الحلم فليس فى وسعنا ان نستبعد تماما احتمال أن التجارب التالية ستثبت اننا نحلم الآن) [1] .

ان هانز رايشنباخ يذهب الى أن (وجود العالم الفيزيائى أمر مرجح فحسب وأن احتمال كون الواقع حلما قائم على الدوام ، ويحول بيننا وبين تأكيد ذلك الواقع على نحو مطلق) .

يقول الدكتور فؤاد زكريا (ينطوى ذلك ضمنا على عناصر مثالية لا تقل قوة عن تلك التى كرس معظم كتابه لمحاربتها) . [2]

ويقول أميل بوترو :

(هل يمكن أن يقدم العلم — على الأقل حين يكون صالحا — للعقل يقينا صحيحا ؟

كان العلم الى أيامه الأخيرة — أو أراد أن يكون — دجماطيقيا واعتبر أن بعض أجزائه قد تكونت نهائيا ، وتطلع الى بلوغ مثل هذا الكمال فى البعض الآخر ، وكانت المدرسية مثله الأعلى .

لكن لا يوجد أى علم فى الوقت الحاضر — ولا حتى العلوم الرياضية يرضى أن يكون مدرسيا .

فالعلم مهما تكن الصورة التى يتخذها ... هو استقراء يتجه الى غير حد نحو الكمال ، وسيظل كذلك [3] .

ويقول :

(لا ينبغى أن نخلط بين التقارب المتزايد من الحقيقة ، وبين العجز التام عن بلوغها .

فالعلم لم يعد يفكر فى منح العقل نسخة تشبه الأشياء الخارجية التى من الواضح أنها غير موجودة كما تفترضها ، ولكنه يكشف « علاقات » تتحقق التجربة من صحتها .. وفى هذا القدر كفاية لأن تكون صحيحة بالمعنى الانسانى لهذه الكلمة) [4] .

---

(١) نشأة الفلسفة العلمية ص ٣٧ : ٣٨

(٢) الفلسفة العلمية لريشنباخ ص ٩

(٣) العلم والدين ص ١٩٢

(٤) المصدر السابق ١٩٤ .

ويقول الأستاذ ليكونت دى نوى : (ليست هناك حقيقة علمية بالمعنى المطلق والقول المعروف « السير نحو الحقيقة بواسطة العلم » قول باطل ، فهناك فقط مجموعات من الاحساسات التى وجدنا بالتجربة أنها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتى ندعى أنها ستتوالى على نفس النمط فى فترة مستقبلة محدودة تلك هى روح الحقيقة العلمية) (١)

بل ان المرء ليأخذه العجب ويتساءل :

هل المنهج العلمى هو مجرد تبرير للجهل ؟

أليس هذا ما نخرج به من قول رايشنباخ — رغما عنه — :

(ان صورة المنهج العلمى كما ترسمها الفلسفة الحديثة مختلفة كل الاختلاف عن المفاهيم القديمة ..

لقد أتضح أن أحداث الطبيعة أشبه برمى الزهر منها بدوران النجوم فى أفلاكها ، فهى خاضعة للقوانين الاحتمالية ، لا للعلية ، أما العالم فهو أشبه بالمقامر منه بالنبى ، فهو لا يستطيع أن ينبئك الا بأفضل ترجيحاته ، ولكنه لا يعرف مقدما أبدا ان كانت هذه الترجيحات ستتحقق ، مع ذلك فهو مقامر أفضل من ذلك الذى يجلس الى المائدة الخضراء لأن مناهجه الاحصائية أفضل ، والهدف الذى يسعى اليه أسمى بكثير ، وهو التنبؤ برميات الزهر الكونية ...) (٢)

❊❊❊

واذا كان العلم عاجزا عن الوصول الى اليقين فان هذا يمثل نقصا خطيرا فى امكانيات العلم بالنسبة للعقل البشرى ، الذى لا يهدأ دون الوصول الى اليقين .

ان هذا العجز المتنوع للعلم الذى نذكره فى هذا الباب ، وعلى قمته عجزه عن الوصول الى اليقين

---

(١) مصير البشرية ص ١٦

(٢) نشأة الفلسفة العلمية ص ٢١٨

من ناحية ، والاقتصار على هـذا العلم من ناحية أخرى ، هو الذى أفرز طائفة من المفكرين اللاأدريين ، يعكسون قلقهم وريبتهم على المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويقدمون أنفسهم فى صورة من التمزق الشعورى ، والتناقض الفكرى فى آن واحد .

ان برتراندراسل وهو من اللاادريين ، لا تمنعه لا أدريته من اتخاذ القرارات الجازمة فى ما يتعلق بالعقائد الدينية .

انه يجزم بمعتقداته الآتية :

(ان الانسان نتاج علل لم يكن لها أى علم بالغاية التى ستدركها وان أصله ونموه وآماله ومخاوفه وحبه واعتقاداته نتيجة تركيبات عرضية بين الذرات ، وانه لا تستطيع النار ولا البطولة ولا قوة الفكر والشعور أن تحفظ حياة فرد وراء القبر ، وان جهاد العصور والاخلاص والوحى واشراق نور العبقرية البشرية كل ذلك مقدر له الفناء عند موت النظام الشمسى الواسع ، وانه لا مفر للهيكل الذى بنته مآثر الانسان من ان يدفن تحت انقاض كون سيهدم) .

ان برتراندراسل الملحد اللاأدرى لم تمنعه لا ادريته من أن يقرر هذه الأمور بصيغة الجزم ، قائلا :

(تلك أمور ان لم نقل بأنها غير قابلة للجدل فانها تكاد تكون أكيدة بحيث أن أية فلسفة ترفضها لا تستطيع أن تثبت ، ولن يمكن بعد اليوم بناء مسكن للنفس الا ضمن هذه الحقائق فقط ، وعلى أساس متين من اليأس الذى لا يتراجع) (١) .

ومن العجيب أن راسل لا يمتنع عن هذا الهراء بالرغم من أننا نجده فى موضع آخر يرى أن حركة الفلك ونظامه ينبىء عن غاية يتحرك نحوها اذ يقول (فى مملكة الكواكب عمليات تنطوى على خصائص غائبة) (٢) .

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٢٨٤

(٢) برتراند رسل للدكتور محمد مهران ص ١٣٥

وها هو اللورد بلفور من زعماء اللادرية يقدم لنا فى كلماته التالية نموذج اللادرى المتعجرف الذى يعترف فى سياق حديثه بجهله التام للاسباب التى أدت الى ظهور الانسان على الارض ومع ذلك يصب جام غضبه على الكون والانسان ويقرر أن نهاية الانسان هى العدم المطلق :

يقول أولا :

(ان الأسباب التى اتحدت بادىء ذى بدء فحولت مركبا عضويا ميتا الى حياة تحدد منها الانسان لا يعرف العلم فى الحقيقة عنها شيئا حتى الآن) .

ومع هذا الاعتراف بالجهل ، واعلان اللادريه يجرؤ فيقول بعد ذلك :

(يكفى القول بأنه قد نشأ على التدريج وبعد كفاح طويل من بدايات كالجوع والمرض والقتل المتقابل وهى كلها المرضعات التى نهل منها أسياد الخليقة المقبلين — نشأ جنس له من الضمير ما يكفى لأن يجعله يحس بأنه منحط ، وذكاء يكفى لأن يجعله يعرف انه تافه لا أهمية له . فاذا استعرضنا الماضى وجدنا أن تاريخه قد جبل بالدماء والدموع ، والأخطاء التى لا حيلة فيها ، والثورات المتوحشة والاستسلام الأبله ، والآمال الفارغة ، واذا حاولنا أن نستشف المستقبل علمنا انه بعد مقدار من الزمن — طويل اذا قورن بالحياة الفردية ، ولكنه قصير بالحقيقة اذا قورن بتقسيمات الزمن الذى ندرسه فى أبحاثنا — فان قوى نظامنا ستتدهور ومجد الشمس سيخبو وتقف الأرض قائسة جامدة فلا تحتمل ذلك الجنس الذى أزعج وحدتها خلال لحظة عابرة ، ولابد للانسان من أن يوارى فى الحفرة وتمحى كل أفكاره ، والوعى القلق الذى قطع السكون السائد فوق الكون فى هذه الزاوية المظلمة سيسكن ولن تعرف المادة ذاتها بعد ذلك .

أما « الصروح الشامخة التى لا تفنى » و « الاعمال الخالدة » والموت ذاته ، والحب الذى هو أقوى من الموت فستكون كأنها لم تكن قط ، ولن يكون أى شىء

من الوجود أفضل أو أسوأ بالرغم من الكفاح والعبقرية والاخلاص والآلام التى بذلها الانسان خلال أجيال لا حصر لها ...) (١) .

فأى تناقض بعد ذلك ؟

هذا هو المصير الذى يريد هؤلاء الملاحدة المتناقضون مع أنفسهم المعلنون بكل صراحة جهلهم العميق لحقائق الغيب والمادة على السواء ..

هذا هو المصير الذى يريدون أن يدفعوا اليه الانسان المعاصر .

ان تناقض هؤلاء الملاحدة لا يعنى انهم يتركون لا أدريتهم بقدر ما يعنى ان هذه اللاادرية من شأنها أن تقذف بهم الى مستنقع الألم ، فاذا هم يصرخون ، واذا صرخاتهم تبدو دجماطيقية قاطعة بالدمار والضياع ، واذا هم — لعجرفتهم وتكبرهم — لا يكتفون بأن تكون الآلام لهم .. وانما للانسانية كلها .

وسر ذلك فيما يقوله وليم جيمس (لقد تجاهل كثير من الكتاب — أو المفكرين — دوام حصول المستقبل فى الذهن واشتغاله به ، ولكن ذلك تجاهل للحقيقة الواقعة ..) ويقول :

(دع الشعور بالمستقبل يفقد أهميته وقيمته ، أو دعه يكون بلا موضوع وستجد أن العقل قد أصبح فى الحال غير هادىء وغير مطمئن . ويصبح الجديد مصدرا للمتاعب العقلية) (٢) .

واذا كان هؤلاء اللاادريون لا يدرون — بحكم لا ادريتهم — شيئا عن المستقبل فيوقعهم ذلك فى الألم الذى يدفعهم الى النظرة التشاؤمية ، فان هذه النظرة التشاؤمية — بما انها لا تنسجم مع رغباتهم الطبيعية تورطهم فى آلام مضاعفة . يقول وليم جيمس (ان عدم انسجام المستقبل مع رغبات الناس وميولهم الفعالة يسبب لهم فى الحقيقة من القلق

---

(١) تكوين العقل الحديث جـ ٢ ص ٢٨٢ : ٢٨٤

(٢) العقل والدين ص ٤٨

والتعب ما يزيد على التعب الذى ينشأ من عدم التيقن بالمستقبل) (١) .

وهكذا ينتقل اللادرى من حلقة من الألم الى حلقة أخرى ويدور من الآلام فى سلسلة مفرغة ... ، ان أى فلسفة ـ كما يقول وليم جيمس (اذا تركت المستقبل عرضة للاحتمالات ـ واللادريه ـ فانها تسبب عدم طمأنينة للعقل ، وتورثه تعبا وألما (٢) ومن ثم فاننا تقول :

ان هؤلاء فى حقيقة الأمر لا يحتاجون الى من يدرس فلسفاتهم المتهرئة ولكن الى من يدرس أعماق نفوسهم ليظهر فيها آلامهم العميقة ، هذه الدوافع التى أثرت أن تلبس مسوح الفكر دوافعهم العدوانية النابعة من والعلم ، وقد كان أجدر بها أن تلبسهم أقنعة القتلة : قتلة الضمائر والعقول .

الدكتور يحيى هاشم

ولا خير فى ود امرىء متلون
اذا الريح مالت مال حيث تميل
جواد اذا استغنيت عن اخذ ماله
وعند احتمال الفقر عنك بخيل
فما اكثر الاخوان حين تعدهم
ولكنهم فى النائبات قليل

(على بن ابى طالب)

---

(٢) العقل والدين ص ٥٢

(١) العقل والدين ص ٥٠

دراسات قرآنية :

ذو القرنين يفتح المشرق ويبنى سَدّ يأجوج ومأجوج

فضيلة الشيخ مصطفى محمد الطير

— ٢ —

« حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا »

(الآيات من سورة الكهف)

ذكرنا فى المقال الأول أن ذا القرنين عند المحققين هو الاسكندر بن فيلقوس الرومى ، فانه هو الذى بلغت فتوحاته مشارق الأرض ومغاربها ، وجعلها تستظل بملكه وسلطانه ، وقلنا انه كان قبل ميلاد عيسى عليه السلام بنحو ثلثمائة وثلاثين سنة ، وكان من أهل مقدونيا •

وقد أجملنا تاريخه وبينا سبب تسميته بذى القرنين ، وتحدثنا تفصيلا عن رحلته الى المغرب وسياسته فى أهله ، فارجع اليه لتصل ما جاء فيه بما نذكره اليوم عن رحلته الى المشرق والى بلاد يأجوج ومأجوج ، والله تعالى هو الموفق والمعين •

رحلة الى الشرق

بعد أن أتم ذو القرنين رحلته الى ما عرف عماره من جهة المغرب ، قفل راجعا متجها بفتوحاته الى المشرق ، وقد كان الناس وقتئذ يعتقدون أن الأرض مسطحة ولها مشرق واحد هو بداية الأرض من جهة شروق الشمس عليها ، ومغرب واحد هو نهايتها من ناحية غروب الشمس — بحسب رأى العين — ولم يكونوا قد عرفوا أن الأرض كروية ، ودائرة تحت أشعة الشمس والوقت الذى يكون مغربا لقوم

قد يكون مشرقا لآخرين ، والذى يكون مشرقا لقوم قد يكون مغربا لآخرين .

وقد حكى القرآن فتوحات ذى القرنين حسبما عرفه الناس ، حتى لا يفاجئهم بمعلومات يجهلونها ، فيعظم انكارهم لها وللقرآن الذى جاء بها ، فلذا قال : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس » أى موضع طلوعها أولا فى رأى العين ، وهو غاية الأرض المعمورة شرقا حسبما بلغه علم الانسان : « وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا » .

وقد أجمل الله فى هذه الآية حال سكان هذه المنطقة بأنهم بدائيون لم يرتقوا صناعيا حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابا تسترهم وتحميهم من أشعة الشمس ، أو مساكن تؤويهم وتقيهم حرارتها .

وجائز أن تكون هذه الجهة فى المنطقة القطبية التى قد يمكث النهار فيها أياما متتالية بدون ليل ، كما قد يمكث الليل فيها فترة بدون نهار ، وانه انتهى الى هذه الجهة وقتما كان الزمن نهارا بدون ليل ، والشمس طالعة فوقهم باستمرار ، وليس لهم ليل وقتئذ يسترهم منها ، وان ذلك هو معنى أنه تعالى لم يجعل لهم من دونها سترا .

وقد أجمل الله استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة البعيدة المدى ، وعظم أمره وفخمه بقوله : « كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا » أى هذا الذى حكيناه عن ذى القرنين كان أمره فى اليسر والسهولة ، وقد أحطنا علما بما لديه من الوسائل التى حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربا ومشرقا مثل أدوات النقل البرى والبحرى والجنود وآلات الحرب ، وحسن التدبير والسياسة التى يسرت له فتوحاته البعيدة المدى .

ياجوج وماجوج

لما أتم ذو القرنين رحلته الى المشرق ، وأخضع أهله لحكمه ، اتخذ طريقا ثالثا لم يكن سلكه من قبل ، ليخضع لحكمه قوما لم يخضعهم بعد .

وفى ذلك يقول الله تعالى « ثم أتبع سببا » وأتبع هنا بمعنى اتبع، أى اتبع سببا يوصله الى فتح جديد ، بأن سلك سبيلا آخر « حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا » والسدان هنا الجبلان ، قال صاحب القاموس : السد هو الجبل وقد يطلق على الحاجز . اهـ . وسنتحدث عن موضع السدين ان شاء الله تعالى .

وقد وجد ذو القرنين من دون السدين ــ أى قريبا منهما ــ وجد أمة من الناس لا يكادون يفهمون ما يقوله لهم هو أو أتباعه ، لقلة فطنتهم ، فان الذكى المخالف لك فى لغتك يستطيع أن يفهم بعض ما تقوله له بالقرائن .

وكان هو ورجاله يفهمون منهم ما يقولونه ــ وان لم يعرفوا لغتهم ــ فلهذا شكوا اليه قائلين : « يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الارض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » .

ويأجوج ومأجوج ترجمة عربية لصفتهما ، مأخوذة من أج الظليم اذا أسرع ، أو من أجيج النار وهو ضوءها وشررها ، وهذا المأخذ يشير الى شرهم وضررهم فيمن عداهم ، فهم مثل النار لا جيرة لهم .

والمقصود منهما المغول والتتار على ما يظهر ، لما سنحدثك به عنهم ، وهم من ولد يافث بن نوح، وقيل ان الترك منهم ، لما أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، من طريق السدى من أثر قوى « الترك سرية من سرايا يأجوج ومأجوج . خرجت فجاء ذو القرنين فبنى السد ، فبقوا خارجين عنه » وفى رواية لعبد الرازق أن هذه السرية كانت خارجة للغزو .

موضعهم وفسادهم

كان هؤلاء المفسدون خلف جبلين ، وكانوا ينحدرون من بينهما للافساد فى الأرض ، والجبلان المذكوران بين سمرقند والهند ، وهؤلاء هم المغول والتتار كما تقدم ، وتمتد بلادهم من التبت

والصين ، الى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غربا الى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت بلادهم فى هضبات آسيا الوسطى شمال الصين ، ما بين الدرجة السابعة والعشرين والدرجة الخمسين ، من خطوط العرض الشمالية .

وبذلك تبلغ بلادهم فى العرض ثلاثا وعشرين درجة ، كما نقله صاحب الجواهر عن فاكهة الخلفاء وابن مسكويه فى تهذيب الأخلاق ورسائل اخوان الصفا .

وهذه الامم معروفة تاريخيا أنها كانت تغير قديما على الامم المجاورة من آن لآخر ، كما عرف عنهم تجاوز افسادهم الى أطراف الأرض ، فقد انحدروا من مرتفعات آسيا الوسطى الى أوروبا وخربوها كما خربوا آسيا الغربية التى بعث فيها الأنبياء ، وكان الأنبياء يحذرون أقوامهم منهم ، وسنتحدث عن افسادهم فى عهد الاسلام .

بناء السد

لما وصل ذو القرنين الى الوادى القريب من الجبلين اللذين يختفى وراءهما يأجوج ومأجوج ، وجد سكان هذا الوادى فى غاية الشقاء بسبب غارات يأجوج ومأجوج عليهم ، منحدرين من بين الجبلين اللذين حددنا سابقا موضعهما ، وقد طلبوا منه أن يقيم سدا بين الجبلين ، يمنعهم من غزوهم اياهم ويحميهم من شرهم ، وأظهروا استعدادهم لدفع تكاليفه بقولهم له على سبيل السؤال : « فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا » ولكن ذا القرنين « قال » معتذرا عن أخذ مال منهم : « ما مكنى فيه ربى » من الملك والسلطان والمال وسائر الأسباب « خير » من المال الذى تريدون دفعه الى ، فلا حاجة لى به « فأعينونى بقوة » أى ساعدونى بما يتقوى به من أسباب البناء ، كالأحجار والعمال « أجعل بينكم وبينهم ردما » أى حاجزا حصينا وهو أقوى من السد وأوثق ، وهو مأخوذ من قولهم (سحاب مردم) أى متكاثف .

بعضه فوق بعض ، وقيل هو والسد بمعنى واحد .

« آتونى زبر الحديد » أى أحضروا لى قطع الحديد لأبنى بها السد ، والزبر جمع زبرة كغرف جمع غرفة ، والزبرة هى القطعة ، ولا بد أنها كانت قريبة المنال منهم ، بأن كانوا قريبين من منجم حديد ، ويجوز أن يكون مراده : اجمعوا لى قطع الحديد من دوركم ، فان جمعوها أعطاهم ثمنها ، لأنه امتنع أن يأخذ منهم مالا فى مقابل بنائه ، وهكذا يكون الحكام المصلحون .

ثم أمر بالحجارة فوضعت بين الصدفين أى الجبلين ، ولعله أذاب حجارة الحديد التى جمعوها ، وصبها فى قوالب متساوية ، ليكون البناء مستقيما متناسبا شديد التماسك « حتى اذا ساوى بين الصدفين » بأن جعل الردم فى ارتفاعهما « قال » للعمال بعد أن أوقدوا النار بين قطع الحديد « انفخوا » النار بالكيران لتزداد اتقادا ، وتعم جميع ما بين قطع الحديد رغبة فى انصهاره « حتى اذا جعله » أى جعل الحديد « نارا » أى كالنار « قال » للذين يتولون اذابة المعادن « آتونى أفرغ عليه قطرا » أى نحاسا أو رصاصا مصهورا ، فأتوه به ، فأمر بافراغه على الحديد المصهور فى السد ، فأفرغوه بطرق فنية تضمن لهم السلامة ، ولحجارة السد قوة الالتحام ، وسد ما عسى أن يكون من فراغ بينها .

وقد أسند البناء والمساواة بين الصدفين وافراغ القطر الى ذى القرنين ، مع أن العمال هم الذين قاموا بذلك ، لأنه مشرف عليهم وموجه لهم ، فكأنه هو الذى قام بذلك .

فلما برد السد أصبح أملس « فما استطاعوا أن يظهروه » أى فما قدروا أن يرتفعوا فوقه لملاسته وارتفاعه « وما استطاعوا له نقبا » لشدته وصلابته « قال » ذو القرنين « هذا » السد القوى المتين « رحمة من ربى » على عباده ، لأنه يحميهم من شر هؤلاء المفسدين

« فاذا جاء وعد ربى » أى فاذا حضر الوقت الذى وعد ربى بخروجهم فيه « جعله دكاء » أى جعل السد أرضا مستوية « وكان وعد ربى حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض» أى جعلنا بعض الناس يوم يأتى وعدنا بخروج يأجوج ومأجوج من وراء السد يموج فى بعض ، أى يختلطون اختلاط الموج بعضه ببعض ، فيختلط يأجوج ومأجوج بغيرهم ، كما سنحدثك .

ولعل ذا القرنين قد علم بأن السد سوف يدك ويخرج منه يأجوج ومأجوج من نبى كان يعاصره أو باجتهاد منه ، أو أنه اطلع على ذلك من كتاب نبى الله حزقيال . ففيه الاخبار بمجيئهم فى آخر الزمان وافسادهم ، وقصدهم بيت المقدس وهلاكهم عن آخرهم فى برية بأنواع من العذاب ، وكان حزقيال قبل الاسكندر غالب الشاه (دارا) فاذا كان هو ذا القرنين ، فيمكن أن يكون علم ذلك من كتابه .

اسم السد ومكانه

يسمى هذا السد « سد باب الحديد » وراء جيحون فى عمالة بلخ على مقربة من مدينة ترمذ ، وقد أقامه ذو القرنين بين الجبلين الواقعين بين سمرقند والهند ـ كما قدمنا ـ وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى ، واجتازه تيمور لنك بجيشه ، ومر به « شاه روح » وكان فى خدمة الألمانى (سيلد برجر) الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر ، كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى (كلافيجو) سنة ١٤٠٣ م ، وكان رسولا من ملك (قشتالة) بالأندلس الى تيمور لنك .

آراء اخرى فى موطنهم

هذا وقد قيل ان يأجوج ومأجوج يسكنون قريبا من خط عرض ٩٠ (تسعين)من جهة الشمال، وهو المراد بآخر الجربياء فى كتاب حزقيال ، وقيل ان جبليهم هما جبلا أرمينية وأذربيجان ، ومن زعم

ذلك يزعم أن سد ذى القرنين هو السد المشهور بباب الأبواب ، وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك ، وهذا خلاف ما عليه المؤرخون ، فان بانى سد باب الأبواب هو كسرى أنو شروان .

وحدد آخرون السد فى أماكن أخرى ، وقال بعض أهل العلم انه بموضع من الارض لا يعلمه الا الله تعالى ، وكم فيها من أمور مجهولة ؟ ولعله قد حال بيننا وبين ذلك السد وجبليه مياه عظيمة ، ودعوى استقراء الأراضى والبحار غير مسلمة — هكذا قيل . والله أعلم .

حقيقة يأجوج ومأجوج

هم ناس مثل سائر الخلق ، ولكنهم غلب عليهم الشر ، وهم من ذرية يافث بن نوح عليه السلام وهذا هو الراجح ، وقد أحيطت قصتهم وصورتهم بأكاذيب لا يصح تصديقها ، ومن عجب أن بعض رواتها وضعوا أحاديث كاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤيد مزاعمهم ، ومن ذلك انهم رووا عنه صلى الله عليه وسلم : انهم امتان ، كل امة اربعمائة ألف أمة ، لا يعلم عددها الا الله تعالى ، ولا يموت أحدهم حتى يعقب ألف ذكر من صلبه ، كل واحد قد حمل السلاح وأن بعضهم فى طول شجر الارز — أى الصنوبر — الذى يطول الى مائة وعشرين ذراعا ، الى غير ذلك من الاكاذيب الموضوعة التى لا أصل لها ولا يليق عزوها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، كقول بعضهم ان طائفة منهم طول أحدهم ذراع وعرضه كذلك ، وطائفة أخرى يفترش أحدهم احدى أذنيه ويلتحف بالاخرى ، وكل ذلك وأمثاله من الضلالات المقطوع بوضعها وكذبها .

جرائمهم فى عهد الاسلام

قلنا ان سدهم تخرب وانهم خرجوا فى غزوات تخريبية ، وذلك مصداق لوعده تعالى ، ومن جرائمهم بعد دك السد وتخريبه ؛ ما حدث منهم فى أوائل القرن

السابع الهجرى ، اذ أغاروا بقيادة ملكهم جنكيز خان على بلاد المسلمين، فاجتاحوا مملكةالسلطان قطب الدين السلجوقى ملك التركستان والفرس ، وملكوها بعد حرب امتدت عشر سنين ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء وفعلوا كل منكر ، ولقد أحصى من قتل فى خوارزم وحدها ، فخص كل جندى من جنود جنكيز خان أربعة وعشرين قتيلا من المسلمين ، وأحرقوا المدينة بعد ما جرت الدماء أنهارا ، وذلك غير ما فعلوه بسمرقند وبخارى وغيرهما ، وأفنوا أهل نيسابور عن آخرهم .

وكان قتلى مرو مليونا وثلثمائة ألف ، وأخضعوا بلاد الهند ، ومات هذا الطاغية بعد رجوعه من الهند، وأغار ابن أخيه هولاكو بجنوده على مقر الخلافة فى بغداد فى عهد الخليفة المعتصم بالله ، وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته فى ذنب حصان ، وأباحوا المدينة سبعة أيام سالت فيها الدماء انهارا ، وطرحت كتب العلم فى نهر دجلة ، وجعلوها جسرا يمرون عليه بخيولهم .

ولما استولت اسرة جنكيز خان على آسيا كلها ، وأوروبا الشرقية ، اقتسموا الفتوحات بينهم ، وكانت القرى وبلاد الخلافة حتى الشام من نصيب هولاكو ــ لعنه الله ــ ثم أذن الله بالنصر فى عهد السلطان الملك المظفر عز الدين قطز ملك مصر ، فقد حاربهم وهزمهم وأخرجهم من بلاد المسلمين ، فى معركة مرج دابق الشهيرة .

وفى شأنهم هذا روى الامام البخارى بسنده عن زينب بنت جحش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول : « لا اله الا الله ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الابهام والتى تليها ، قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ فقال نعم اذا كثر الخبث » .

وتحليق النبى صلى الله عليه وسلم باصبعه الابهام والتى تليها

كناية عن بداية صغيرة لشرهم ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى كما ذكرنا .

موجة عارمة من شرهم

فى آخر الزمان تكون لهم موجة أخرى يدمرون بها العالم تدميرا ، فانهم بعد اختلاطهم بالمسلمين فترة طويلة أثر استيلائهم عليهم وفتكهم بهم ، تنام فتنتهم زمنا مديدا ، ثم تستيقظ آخر الزمان بعد أن يكونوا قد فقدوا القيم الخلقية والدينية التى استفادوها من مخاليطهم من أهل الاسلام ، فيكفرون بعد ايمان ، ويعصون بعد استقامة ، ويعودون الى التدمير كما كان أسلافهم ؛ وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم كما رواه مسلم بسنده عن النواس بن سمعان ، بعد ذكر هلاك الدجال بباب لُدّ « ثم يأتى عيسى قوما قد عصمهم الله من الدجال ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هم كذلك اذ أوحى الله تعالى الى عيسى : انى قد خرجت عبادا لى لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى الى الطور ، ويبعث الله تعالى يأجوج ومأجوج ، فيخرجون على الناس ، فينشفون الماء ، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، ويضمون اليهم مواشيهم ، فيشربون مياه الأرض ، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا ، حتى ان من يمر من بعدهم ، ليمر من ذلك النهر فيقول : قد كان هنا ماء مرة ، ويحصر عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور ورأس الحمار لأحدهم خيرا من مائة دينار » .

وفى رواية لمسلم وغيره «فيقولون لقد قتلنا من الأرض هلم نقتل من السماء ؛ فيرمون نشابهم الى السماء ، فيردها الله مخضوبة دما للبلاء والفتنة ، فيرغب نبى الله وأصحابه الى الله تعالى ، فيرسل عليهم النغف فى رقابهم ، فيصبحون فرسى » .

والنغف نوع من الدود ، وفرسى بمعنى قتلى ، جمع فريس بالفاء أى قتيل ، والحديث المذكور يؤذن

بكثرتهم وعظم فسادهم ، وتسببهم فى تعطيل مرافق الرى ، حتى يقل الماء فى الأنهار فلا يكفيهم هم وغيرهم .

ويجوز أن الله تعالى يجعل الماء وقتئذ قليلا فتنة وبلاء (١) ، فاذا نزلوا بجوار ماء شربوه ولم يبقوا لغيرهم منه شيئا لكثرتهم وقلة الماء ، كما يدل الحديث أيضا على أن الله تعالى هو الذى يفنيهم ، اذ لا قبل للامم بقتالهم .

واعلم أن أولئك المغول والتتار باختلاطهم بالمسلمين بعد أن قهروهم فى معركة (مرج دابق) انتشر فيهم الاسلام ، حتى كونوا أغلب المسلمين فى الهند والصين وآسيا ، فكما ورثوا أرضهم ورثوا دينهم ، لكن هؤلاء سيرتدون عن الاسلام كما علم من هذا الحديث الشريف ، ولعل من أشراط ذلك اعتناقهم الشيوعية المنكرة لكل دين ، وحملهم الناس على الايمان بالمادة والكفر بالله ، ومحاربتهم لكل القيم الروحية ، والفضائل الدينية وبذاءتهم على الله تعالى بعبارات فاجرة ، ولقد أزالوا معالم الاسلام أو كادوا فى الأقاليم الاسلامية التى كانت تحت حكم الروس البيض ، ومنعوا تدريس الدين فى مدارسهم .

وآخر مصائبهم استيلاؤهم على افغانستان ، وحكمهم لأهلها بالحديد والنار ومحاربة الاسلام وقتل المسلمين والعلماء بأسلوب الابادة ، نسأل الله السلامة .

الشيخ مصطفى محمد الطير

---

(١) ومثل هذا حدث فى السنين السبع العجاف فى عهد يوسف عليه السلام .

الرسم العثمانى واجب شرعى طريقه الإجماع

دكتور رءوف شلبى

النقاط التى تندرج تحت هذا الموضوع أربع :

١ ــ ارتباط الرسم العثمانى بجمع القرآن الكريم ٠

٢ ــ مفهوم الرسم العثمانى ٠

٣ ــ هل يجوز الخروج على الرسم العثمانى فى طبع القرآن الكريم ؟

٤ ــ متى بدأ نشر القرآن وطبعه بالرسم العثمانى ٠٠ وما هى جهود الأزهر فى ذلك ؟

أولا ــ ارتباط الرسم العثمانى بجمع القرآن الكريم

عرفنا أن النبع الوحيد الذى كان يستقى منه الرعيل الأول ثقافتهم هو القرآن الكريم وكان ذلك عن قصد من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان كذلك عن قصد من الصحابة رضوان الله عليهم ٠

ولقد قصد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يوظف العهد النبوى كله لجمع القرآن الكريم جمعا فى الصدور ، وجمعا فى السطور ٠

فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم : « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ٠

فلم يسمح النبى صلى الله عليه وسلم للصحابة الأجلاء بكتابة شىء عنه غير القرآن وذلك حتى يتفرغ المسلمون والزمن الذى يعيش فيه النبى صلى الله عليه وسلم لجمع القرآن بالمعنيين :

١ ــ جمع بالحفظ فى الصدور.

٢ ــ وجمع بالكتـــابة فى السطور .

أما فيما يتعلق بالفقـرة الأولى لمعنى الجمع : فان الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يبـذلون قصـارى جهدهم فى حفظه فى صـدورهم ويعلمونه لأبنائهم ونسائهم ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يمر عليهم ليلا فيسمع لهم بالقرآن دويا كدوى النحل ، وقد أخرج البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه :

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لو رأيتنى البارحة وأنا أسمع لقـراءتك ؟ لقد أعطيت مزمارا من مزامير داود » .

وفى رواية مسلم . فقلت :

« لو علمت والله يا رسول الله انك تستمع لقـراءتى لحبـرته لك تحبيرا » .

وفى الشيخين : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« انى لأعـرف أصوات رفقـة الأشعريين بالقـرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهـم مـن أصواتهم بالليل بالقرآن ، وان كنت لم أر منازلهم بالنهار » .

لقد اشتهر عصر النبوة بكثـرة الحافظين للقرآن الكـريم حفظا متينا فى الصـدور وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكى فيهم هذه العناية وكان يبعثهم الى المدن والقرى يعلمون النـاس تحفيظ القرآن الكريم ، قال عبادة بـن الصامت : « كان الرجل اذا هاجـر دفعـه النبى ــ صلى الله عليـه وسلم ــ الى رجل منا يعلمه القرآن الكريم ، وكان يسمع لمسجد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضـوا أصـواتهم لئلا يتغالطوا » .

ومعروف فى التاريخ أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعث سيدنا مصعب بن عمير رضى الله عنه الى المدينة المنورة قبل الهجرة وبعد بيعة العقبة الأولى ليعلم النـاس هناك القرآن ، كما بعث بعد الهجرة من المدينة سيدنا معـاذ بن جبـل

رضى الله عنه ليعلم الناس فى اليمن القرآن الكريم .

ومن هنا فان الحفاظ فى العهد النبوى لا يحصون فكل مسلم يحفظ ويسارع الى الحفظ فأنوار النبوة يشرح الله بها الصدورويضفى بها على الصدور بشاشة ورقة ورأفة ويفتح الله بها المعارف فيقبل الناس بهذه البركة العامة على القرآن الكريم ، وقد يسره الله للذكر وهداهم لحفظه فكثر الحفاظ وانتشروا فى المدن والأمصار والقرى البعيدة ، ويدلك على هذه الكثرة أن الجيش العسكرى المحارب فى سبيل الله قد استشهد منه فى معركة واحدة تسمى : (معركة اليمامة) عدد يزيد على السبعين وكلهم من كبار الحفاظ ، كما قتل مثل هذا العدد فى موقعة (بئر معونة) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القرطبى : قتل يوم اليمامة سبعون من القراء، وقتل فى عهد رسول الله ببئر معونة مثل هذا العدد .

فكانت أسمى خصائص هذا الرعيل أن جمع القرآن فى صدره وحفظه فى قلبه ووعاه بوجدانه تصديقا لوعده جل شأنه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) .

وأما فيما يتعلق بالفقرة الثانية من معنى الجمع ، فقد جهز سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سكرتارية كافية لتدوين ما يترى به الوحى وسميت هذه السكرتارية بالاصلاح العلمى : كتاب الوحى : فكان كلما نزل شىء من القرآن الكريم أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابته وعين لهم السورة والموضع الذى تكتب فيها الآية الجديدة .

وكان من مشاهير الكتاب ما رواه الشيخان عن أنس رضى الله تعالى عنه : جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قيل لأنس : من أبو زيد ؟ قال أحد عمومتى .

ومع هذه السكرتارية الخاصة كان هناك كتاب للوحى لذواتهم خاصة مثل سيدنا على بن أبى طالب

رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، والسيدة أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها .

وبهذا يتضح أن معنى جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ طريقتين :

الأولى : طريق الحفظ فى الصدور .

الثانية : طريق الكتابة فى السطور (١) الصحف :

ولقد كان العزم مخلصا وأكيدا فى تسخير كل مادة تصلح صحيفة يكتب عليها القرآن الكريم .

لقد كتبوا على العسب : جريد النخل ، الجزء العريض من الأسفل .

وكانوا يكتبون على اللخاف : الحجارة الرقيقة . قال الخطابى : وتسمى صفائح الحجارة .

وكانوا يكتبون على الرقاع : وهى قطع من جلد أو ورق .

وكذلك كانوا يكتبون على الأديم : الجلد .

وكذلك كانوا يكتبون على الأكتاف : وهو العظم الذى للبعير أو الشاة .

وكانوا يكتبون على الأقتاب : الخشب الذى يوضع على ظهر البعير .

وكذلك الكرانيف : وهى أصول السعف الغلاظ .

يقول زيد بن ثابت رضى الله عنه : «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع » رواه الحاكم بسنده على شرط الشيخين .

وكانت هذه الكتابة فى صحف مفرقة ذلك لأن القرآن ما دام للنبى صلى الله عليه وسلم حياة فهو يترى وكلما نزلت آية كتبت فى الموضع الذى أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد اكتمل فى هذه الصحف كل ما نزل فقد كان جبريل عليه السلام يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة فى ليالى رمضان . وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظا وكتابة .. حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن

---

(١) راجع مجلة الازهر رجب ١٣٩٦ هـ ص ١٣٤٥ حول هذا الموضوع ..

كامل محفوظ فى الصدور محفوظ فى السطور .

وسمى هذا الجمع : الجمع بالحفظ ، والجمع بالكتابة ،

الجمع الأول : أن جمع القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . .وحتى هذا الحين فالقرآن وهو كامل موجود فى اللخاف والأكتاف والرقاع فى صحف مطهرة لا يجمعها مصحف فهى صحف مصونة عند أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم المؤمنين رضى الله عنها السيدة عائشة بنت أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الجمع الثانى : فى عهد سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه :

واجهت الخلافة الراشدة الاولى حركة تمرد على العدل الاجتماعى الذى جعلت الزكاة وهى عماده أصلا من أصول الايمان ومع شهرة أبى بكر رضى الله تعالى عنه بالهدوء واللين والحنان والرأفة فان الخليفة الأول لم يجد من عقيدته الا أن يكون جلدا مغوارا أمام هذا التمرد المنافق الذى يريد أن يفتح على المسلمين بلاء بعد رحيل النبى الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام . فجهز الخليفة الأول جيشا لحروب الردة وكانت موقعة اليمامة واستشهد فيها عدد كبير من كبار الحفاظ للقرآن الكريم ، والحفاظ على القرآن له طريقان : طريق الحفظ فى الصدور ، وطريق الحفظ فى السطور .. فكان استشهاد جمهرة من كبار الحفاظ مثار يقظة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأشار على سيدنا أبى بكر أن يجوز جمع القرآن الكريم فى مصحف واحد حتى ينتقل القرآن الكريم الى الأجيال المتعاقبة وهو محفوظ التواتر لعدد سوره وآياته على نحو ما حفظه المسلمون وكتبوه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد مناقشات حول الموضوع شرح الله صدر الخليفة الأول ووافق على جمع القرآن فى مصحف واحد ، روى الامام البخارى :

حدثنا موسى بن اسماعيل عن ابراهيم بن سعد ، حدثنا ابن شهاب

عن عبيد بن السباق : أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : أرسل الى أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضى الله عنه : ان عمر أتانى فقال : ان القتال قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن . وانى أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن ، وانى أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : انك رجل شاب ، عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كانوا كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره ــ « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم »ــ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنه .

منهج الكتابة :

١ ــ روى أبو داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد ، اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه .

٢ ــ والمراد من الشاهدين الحفظ والكتابة ، قال السخاوى فى كتابه « جمال القراء » المراد انهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ ــ قال أبو شـــامة : وكان غرضهم أن لا يكتب الا من عيـن ما كتب بين يدى النبى صـلى الله عليه وسلم لا من مجرد الحفظ .

فاذا لاحظنا :

ــ قيمة عمر الاجتماعية ورهبته فى صدور القوم .

ــ وقيمة زيد الثقافية حيث هو كاتب الوحى .

ــ وقيمته الرسمية عند الخليفة حيث هو لا يتهم .

ــ وحالته الدينية حيث هــو واحد من المختارين لكتابة الوحى فى عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم بمعنى أن الله قد رضى عنه كاتبا للوحى الكريم .

واذا لاحظنا مــع ذلك شروط الشهادة من عدليــن معهما قرآن محفوظ فى الصدور ومكتوب فى الصحف مثل الذى جاء به الصحابى الذى يمليه على سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه أدركنا أن القـرآن الكريم قد جمع فى عهد كامـل : الدولة كلهـا شاهدة على صـدق وكمال ووحدة ما دونه سيدنا زيد ابن ثابت فى عهـد سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وأنه هو هو القرآن الذى دونه سيدنا زيد بن ثابت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

وجمع القرآن فى هذا العهـد كذلك بنفس الوســائل التى كان يسمح بها العصر ذاته من اللخاف والأكتاف .. الخ . وبقيت هـذه الصـحف مرتبـة كمصحف عنـد سيدنا أبى بكر حتى وفاته ثم نقلت الى سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه ويسمى هذا الجمع : الجمع الثانى :

الجمع الثـالث :

أو الرسم العثمانى :

لقد طفنا طويلا لنصل الى بيت القصيد حتى تدرك مسألتين :

الأولى ــ وهى الأصـل ارتباط الرسم العثمــانى بجمـع القرآن الكريم .

الثانية ــ وهى ثانوية ولكنهـا مهمة وهى : ابراز جهود المسلمين : دولة وعلماء وشعبا فى الحفاظ على القرآن الكريم بمقدار ما يملكون حسب ظروف البيئة والعصر الذى كانوا يعيشون فيه فى عهد سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه كان

الله جل شأنه قد فتح للمسلمين بلادا واسعة وكان الصحابة بعد سيدنا عمر قد انتشروا فى الأمصار ولكل مصحفه الخاص وقراءته الخاصة :

ـ أبو موسى الأشعرى وله مزمار من مزامير داود صوت رخيم ندى حلو النغم جيد الترتيل له قراءة .

ـ وسيدنا عبد الله بن مسعود فقيه عالم سابق بالاسلام مقرىء للقرآن متحد به جحافل قريش منذ الفجر الاول للدعوة له مصحف وقراءة .

والصحابة كلهم كالنجوم بأيهم اقتدى الناس اهتدوا انتشروا فى الأمصار كالثريات فى جنبات السماء وكانت الرقعة للدولة الاسلامية قد اتسعت فاختلطت الألسن .

ـ لقد قرأ أهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود .

ـ وقرأ أهل الشام بقراءة أبى ابن كعب .

ـ وقرأ أناس كثيرون بقراءة أبى موسى الأشعرى .

ـ فاختلف الناس فى القراءة ، وكان لا بأس بهذا الاختلاف لو أنهم عرفوا أن القرآن نزل على سبعة أحرف (١) وأنه لا تضاد ولا تنافر ولكن القوم ـ على عادة الشعب الاسلامى فى ادراكه للمشاكل ـ كفروا بعضهم بعضا ، وتضاربوا وأصبحت صورة المجتمع الاسلامى صورة موحشة ليست هى أصوات دوى النحل التى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا هى مزامير داود التى تحلى بها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وصادف أن سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنه كان غازيا فى موقعة أذربيجان ، وأرمينية من أرض الشام فرأى ذلك الاختلاف والتكفير والتضارب فحزن كثيرا أن يصير حال الشعب الاسلامى الى هذه الحالة ويعود القرآن وهو هدى للناس مثار فتنة بينهم ففزع الى الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فشكى له ووضح له البلاء . وكان الخليفة الورع الطيب قد علم بنبأ ذلك

(١) راجع بحث : القرآن والأحرف السبعة مجلة الأزهر فى عددى رجب وشعبان سنة ١٣٩٨ هـ .

ففى المصاحف لأبى داود من طريق أبى قلابة أنه قال :

« لما كانت خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك الى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال :

« أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا » .

فالتقى بيان سيدنا حذيفة رضى الله عنه بالمعرفة التى عند الخليفة الثالث فجمع سيدنا عثمان وجهاء القوم وأهل الحل والعقد وكان على رأسهم سيدنا على رضى الله تعالى عنه وعرض عليهم حالة القوم فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف يرسل منها الى الأمصار يعتمدون عليها فى القراءة ويحرق ما سواها حتى يرأب الصدع ويجبر الكسر وتعود الأمة الى قرآنها بأصوات كمزامير داود .. والامام البخارى يؤرخ القصة حديثيا فيروى : «حدثنا موسى حدثنا ابراهيم حدثنا ابن شهاب : أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان الى حفصة أن أرسلى الينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها اليك فأرسلت بها حفصة الى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى اذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف الى حفصة وأرسل الى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » (١) .

---

(١) البخارى فتح البارى ص ١٠ ص ٣٩٠/٣٩٥

وأخذت اللجنة الرباعية برياسة سيدنا زيد بن ثابت كاتب الوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتب القرآن على عهد سيدنا أبى بكر فهو هو الذى كتب الصحف التى جاءت من عند السيدة حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ونسخوا القرآن الذى فيها بلسان يتفق مع قراءة كل قطر، وأرسل الى كل قطر المصحف الذى يتفق مع وجوه قراءته وكان هدف نسخ القرآن من الصحف التى كانت عند أم المؤمنين السيدة حفصة رضى الله عنها محاولة توحيد الأمة الاسلامية وانهاء الخلاف بينها فيما يتعلق بالقراءة مع الحفاظ على امتياز القرآن بنزوله على الأحرف السبعة فالكلمات التى تدل على قراءات متعددة ويمكن كتابتها بطريقة تصلح لكل الأمصار كتبت بهذه الطريقة التى تؤدى الغرض وترفع الخلاف مثال ذلك :

« ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »، فيها قراءتان :

« فتبينوا »

« فتثبتوا »

كتبت بلا نقط هكذا « فسوا » فأمكن قراءتها على الوجهين .

وكذلك « وانظر الى العظام كيف ننشزها » .

فيها قراءتان :

« ننشزها »

« وننشرها »

كتبت بغير نقط هكذا :

« سرها » .

أما الكلمات التى لا تدل على أكثر من قراءة فكتبت فى مصحف المصر الخاص بهذه القراءة مثل : «ووصى بها ابرهيم بنيه ويعقوب ، فيها قراءة أخرى لمصر آخر وأوصى فهى تكتب فى مصحف وأوصى ، وفى مصحف آخر ووصى حسب قراءة المصر التى سيرسل اليها المصحف .

وملخص الموضوع :

١ ــ أن اللفظ الذى لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يكتبونه برسم واحد يمكن من القراءات كلها .

٢ ــ وان كان اللفظ لا يمكن رسمه لعدم احتماله وجوه القراءات

رسموه فى مصحف بشكل خاص ثم رسموه فى مصحف آخر بشكل آخر .

واذن فالرسم العثمانى مرتبط بجمع القرآن الكريم من ناحيتين :

الأولى : أنه هو نفس القرآن الذى جمع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه .

الثانية : أنه رسم بطريقة خاصة ترفع الخلاف الذى وقع فيه القراء وأحدث بين الناس شغبا .

ولهذا أمر سيدنا عثمان رضى الله عنه باحراق جميع المصاحف التى تخالف الرسم الذى كتبه سيدنا زيد بن ثابت رضى الله عنه حسبما وافقت اللجنة على ذلك .

عن سويد بن غفلة قال : قال على — كرم الله وجهه ورضى الله عنه — لا تقولوا فى عثمان الا خيرا فوالله ما فعل الذى فعل فى المصاحف الا عن ملأ منا ، قال ما تقولون فى هذه القراءة ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول : ان قراءتى خير من قراءتك ، وهذا يكاد يكون كفرا ، قلنا فما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف قلنا : فنعم ما رأيت » . أخرجه أبو داود .

وهكذا أحرق عثمان جميع الصحف الا الصحف التى كانت عند السيدة حفصة رضى الله عنها لأنها المصدر العلمى الأساسى للرسم العثمانى .

وما زالت الصحف عندها حتى توفيت فبعث مروان بن الحكم وكان « غفيرا على المدينة المنورة » فى طلب الصحف فأرسلها اليه عبد الله بن عمر فأمر بها فشققت ... أقول ويا ليته لم يفعل فما من وراء ذلك ضير لو بقيت حتى الآن .. فوالله لهى نور وبركة من آثار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الحكومة الأموية كان لها عقل مترف بالكبرياء ..ولكم كانت تعارضه السيدة حفصة حين حياتها أن يفعل ذلك (١) .

---

(١) راجع مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٥٤/٢٣٢ فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٦/٣٨٣ مباحث فى علوم القرآن لمناع ص ١٠٣ / ١١٨ التبيان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٥٥ / ٦٨ مباحث فى علوم القرآن دكتور الصالح ص ٦٧ / ٦٥ .

ثانيا : مفهوم الرسم العثمانى :

بعد هذا العرض يفهم أن المراد من الرسم العثمانى كاصطلاح علمى فى علوم القرآن هو :

طريقة الكتابة التى أوصى بها سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ونفذها سيدنا زيد بن ثابت باتفاق اللجنة القرشية والتىأجمعت عليها الأمة من أول آكابرها حتى ذاك الحين .

وان هذه الكتابة هى التى يقرأ بها المسلمون اليوم بعد ادخال تحسينات عليها « بالشكل » تسهيلا على الناس فى قراءة القرآن .

لقد كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل وذلك اعتمادا على السليقة التى كان يتميز بها الناس آنذاك أو لأن العرف كان يعتاد ذلك فلما طال العهد بالناس وصعب على الناس قراءة القرآن برسمه العثمانى من غير شكل اجتهد العلماء الذين لديهم غيرة على كتاب الله فى تسهيل قراءة القرآن للناس بوضع علامات مع المحافظة على الرسم الذى أجمع عليه الصحابة فى عهد سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه .

وقد اختلف الكاتبون فى أول من قام بهذا المجهود ولا يهمنا فى هذه الدراسة أن نجهد أنفسنا لترجيح رأى لنعرف من هو أول مجاهد فلكل ثوابه والأولية ليست بذات قيمة ما دام القصد هو اخلاص النية لله ففى الحديث ما معناه : طوبى لعبد يأتى يوم القيامة أشعث الرأس مغبرة قدماه آخذ بلجام فرسه فى سبيل الله ان كان فى الساقة كان فى الساقة وان كان فى المقدمة كان فى المقدمة ... » .

فالمهم هنا معرفة جهود العلماء فى تحسين الرسم العثمانى أما أيهم الأول ... فهى عند الله وميزانها « انما الأعمال بالنيات » .

١ ـ الدور الأول :

١ ـ يروى بعض العلماء أن « أبو الأسود الدؤلى » نقط القرآن بأمر عبد الملك بن مروان ؛ والدكتور صبحى الصالح لا يرتاب

قط فى أن لأبى الأسود الدؤلى دورا لا ينكر ولكنه لا يتأكد من الباعث الذى دفعه الى ذلك .

على حين ان الاستاذ مناع القطان يرى أن أبا الأسود الدؤلى سمع قارئا يقرأ « ان الله برىء من المشركين ورسوله » بجر اللام فأفزعه هذا اللحن وذهب الى والى البصرة « زياد » وأجابه الى ما كان قد طلبه منه أن يضع للقرآن نقطا وشكلا .

فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف .

وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله .

وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف .

وجعل علامة السكون نقطتين .

ويميل الشيخ الزرقانى الى هذا الرأى (١) .

وهناك روايات ينقلها ويضعفها الدكتور صبحى الصالح ان أول من نقط المصحف هو يحيى بن يعمر نقلا عن كتاب المصاحف لابن أبى داود .

وأن نصر بن عاصم الليثى لا يستبعد ان يكون عمله فى نقط القرآن مواصلة لعمل أستاذه أبو الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر .

وهذه مرحلة من مراحل تحسين الرسم العثمانى يذكر فيها العلماء أسماء ثلاثة من العلماء :

١ ــ يحيى بن يعمر

٢ ــ أبو الأسود الدؤلى .

٣ ــ نصر بن عاصم الليثى

أيهم الأول ؟ ليس مهما ولكن كان لهؤلاء جميعا دور فى خدمة تيسير قراءة القرآن على الناس .

٢ ــ الدور الثانى :

وكلما يتقادم العهد بالاصطلاحات يحتاج الناس الى تيسير أيسر وأسهل فوضع العالم العلامة الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى ضوابط للشكل والتشديد والروم والاشمام

---

(١) راجع مناهل العرفان جـ ١ ص ٤٠١ مباحث فى علوم القرآن دكتور صبحى ص ١١٧ مناع القطان مباحث فى علوم القرآن ص ١٢١

فالفتحة شكلة مستطيلة فوق الحرف .

والكسرة شكلة مستطيلة تحت الحرف

والضمة واو صغرى فوق الحرف .

والتنوين زيادة مثلها .. الى آخر ما شرحه الامام السيوطى فى الاتقان .

والروم بتشديد الراء وسكون الواو هو :

الاتيان ببعض الحركة بصوت يسمعه القريب دون البعيد ويكون فى المرفوع والمجرور .

والاشمام : ضم الشفتين بعد الاسكان بحيث تدع بينهما انفراجا ليخرج النفس بغير صوت ولا يكون الا فى المرفوع .

وذلك هو ما ورثه المسلمون من علمائهم الأجلاء مع المحافظة على الرسم العثمانى وهو الخط الذى كتبه سيدنا زيد بن ثابت ووافق عليه اجماع الصحابة وارتضاه الناس فى جميع الأمصار .

ثالثا ــ هل يجوز الخروج على الرسم العثمانى ؟

الحفاظ على القرآن الكريم هو مهمة الشرفاء من العلماء والممتازين من حكام المسلمين .

وقد وضح لنا فى العرض السالف كيف التقت جهود العلماء والحكام فى تقديم خدمة للقرآن الكريم تيسره على الناس دون مساس بما ورثه المسلمون من الجمع الاخير وهو الرسم العثمانى وقد طرح العلماء فى علوم القرآن مبحثا ما كان لهم الحق علميا أن يبحثوه من الزاوية التى طرحوها للبحث وهو : هل الرسم العثمانى توقيفى أو توفيقى ؟

ان مجرد الاضافة : الرسم الى العثمانى تمنع طرح هذا الموضوع من هذه الزاوية لأنه لو كان توقيفيا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صحت نسبته لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا من جانب ومن جانب آخر ففى البخارى عن الزهرى قال : أخبرنى أنس بن مالك قال : قام

عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ان ينسخوها فى المصاحف وقال لهم :

« اذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فان القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا » (١) .

قال ابن شهاب فاختلفوا يومئذ فى التابوت والتابوه فقال القرشيون التابوت وقال زيد التابوه فرفع اختلافهم الى عثمان فقال : أكتبوه التابوت فانه نزل بلسان قريش (٢) .

فدل ذلك أن موضوع ارتباط الرسم العثمانى باصطلاح التوقيف أو التوفيق ليس بذى وزن لأنه لو كان توقيفيا لما وقع خلاف ولما أشار عليهم سيدنا عثمان اكتبوه بلسان قريش فقد نزل بلغتهم .

ـ اذن مبحث الرسم العثمانى توقيفى أو توفيقى ليس بالجيد علميا لوقوع هذا الخلاف ، وليس معنى هذا أننى أميل الى الرأى القائل بأنه توفيقى كلا فأنا أمنع المسألتين معا وأقول انه اصطلاح **اجمع عليه كبار الصحابة وارتضته الامة الاسلامية كلها وورثته تركة عن اكابر الصحابة وهم الاعرف بكتاب الله الذين شاهدوا الوحى والنبى وعاشوا حياة النور والهدى والله يصل السماء بالارض بحبله المقدس فهو اجماع فريد فى نوعه.**

لقد أجمع عليه أهل الحل والعقد الذى جمعهم سيدنا عثمان للشورى .

ـ وأجمع عليه كتاب الوحى واللجنة التى نسخت الصحف .

ـ وأجمعت عليه السيدة أم المؤمنين عائشة وحفصة .

ـ وأجمع عليه المسلمون جميعا حتى صار الرسم العثمانى خاصية من خصائص القرآن الكريم وأصبح مألوفا للناس جميعا وميسرا سهلا يقرؤه الناس جميعا والمسلمون فى جنوب شرقى آسيا : فى

---

(١) راجع فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٨٣ .
(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٤

اندونيسيا وسنغافورة والفليبين وتايلاند وماليزيا وهم لا يعرفون العربية ولكنهم يجودون القرآن ترتيلا وقراءة دون صعوبة أو تعذر .. ذلك لأنهم تمرنوا وتدربوا على الرسم العثمانى كصفة خاصة للقرآن الكريم ، والمحافظة على القرآن الكريم فى هذا العصر مهمة جدا حتى على كل نقطة فيه ورثها المسلمون من أسلافهم الصالحين ذلك لأن الأعداء العالمين للاسلام يريدون أن يغيروا فى القرآن الكريم . فاذا ما تساهل العلماء فى الرسم العثمانى فقد انفتح باب للشر المستطير لن تسلم منه الأمة فى الدنيا ولا فى الآخرة أعود فأقول : الرسم العثمانى اجماع شرعى على رسم المصحف لا يجوز الخروج عليه مطلقا ، ومهما حسنت النيات فانه — يجب على المسلمين أن يحافظوا على الرسم العثمانى لأنه ميراث من السلف الصالح وخاصية مشهورة للقرآن الكريم . ولقد أخطأ خطأ كبيرا القاضى ابو بكر الباقلانى اذ قال فى كتابه : الانتصار .. « اذ وجوب ذلك لا يدرك الا بالسمع والتوقيف وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز الا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا فى اجماع الأمة » . لقد أخطأ يوم أن قال : ولا فى اجماع الأمة لأن الأمة قد أجمعت على ذلك ونقل عن الأئمة الفقهاء عدم جواز كتابة القرآن بغير الرسم العثمانى .

١ — قال الامام أحمد بن حنبل - تحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك .

٢ — قال مالك عندما سئل : أرأيت من استكتب مصحفا أترى أن يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ؟ فقال : لا أرى ذلك ولكن يكتب على الكتبة الأولى (١) .

---

(١) راجع الاتقان للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٣ راجع البرهان جـ ١ ص ٣٧٦ راجع مباحثات علوم القرآن للقطان ص ١٢٨ — ١٢٩

٣ ــ والشافعية والحنفية يقولون بهذا كذلك .

٤ ــ وقد أصدر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهـــر الشريف فى مؤتمره الرابع قرارا بعدم صحة طبع القرآن الكـريم بغير الرسم العثمانى اللهم الا اذا كانت آيـة يستشهد بهـا فى التأليف والبحث العلمى الـــذى ليست له صفـة المصحف المستقل .

وبهذا ينتهى الرأى فيما يتعلق بالرسم العثمانى :

١ ــ ليس توقيفيـــا وليس توفيقيا .

٢ ــ ولكنه اصطلاح مجمـع عليه من الصحابة فهو حكم شرعى طريق ثبوته بالاجماع .

٣ ــ انه لا يجوز مخالفته أبدا لأن مخالفته تؤدى الى الخروج على الاجماع .

وعلى هذا فانه لا ينبغى طبـع القرآن الا برسمه المشهور به حفاظا على خاصية القرآن الكريم .

رابعا : متى بدا نشر القرآن وطبعه

كل ما سلف من جهود المسلمين فهو تدوين أو رسم للقرآن باليد ، وكان آخـر هـذه الجهـود فى تحسين كتابة القرآن الكريم بالرسم العثمانى المصحف الذى كتبه بخط يده خالد بن أبى الهياج الذى كان مشهورا بخطه الجميل وذلك فى خـلافة الوليـد بين عام ٨٦ هـ الى ٩٦ هـ .

ثم شاء الله أن ينتشر كتابه فى الآفاق بواسطة الطباعة الحديثة .

١ ــ ولكن هذه المرحلة مـرت كذلك بدرجـات ومما يؤســف المسلمين جميعا أن أول طبعة للقرآن الكريم كانت فى بيئة مسيحية عام ١٥٣٠ فى مدينة البندقية وليس من الغريب أن تصدر السلطات الكنسية أمرها باعدام طبعـة القرآن حال ظهورها .

٢ ــ ثم قام بعد ذلك هنكلمان عام ١٦٩٤ .
(Hink clamann) بطبع القـرآن فى مدينة هانبورغ (Hambourg)

٣ ــ ثم قام من بعده مـراكى (Marracci) عام ١٦٩٨ بطبـع القرآن فى مدينة بادو (Padoue)

غير أن هذه الطبعات الثلاث لم يكن لها أثر فى العالم الاسلامى، ولعل التفسير الواضح لذلك أن هذه الجهود قامت اثر نهضة أوربا بعد الحروب الصليبية التى اغتصبت فيها علوم الاسلام وثقائس اتناج علمائه ثم نشرتها فى أوربا . بينما المسلمون كان قد أصابهم المرض بعد الحروب الصليبية وعمت فيهم الجهالة والضعف وما زالوا حتى اليوم فى نوم أو يقظة خلاف عنيد .

اول طبعة اسلامية للقرآن الكريم

٤ ـ ثم ظهرت فى سانت بترسبورغ Saint Petersbourg فى روسيا سنة ١٧٨٧ م طباعة هى الطبعة التى قام بها مولاى عثمان وظهر مثلها فى قازان .

٥ ـ وطهران تقوم بطبعتين حجريتين فى عام ١٢٤٨ هـ ، ١٨٢٨ م والأخرى فى تبريز عام ١٢٤٨ هـ .

٦ ـ وفى تركيا ـ بلد الخلافة الاسلامية آنذاك تعنى الآستانة عام ١٨٧٧ م فتطبع القرآن الكريم بعد أن تحرك المخلصون وطبعوا القرآن الكريم .

٧ ـ ثم تستقر الجهود الاسلامية عندما ألفت لجنة فى الأزهر الشريف للمحافظة على الرسم العثمانى وظهرت أول طبعة رسمية فى عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م وقد كتب هذا المصحف وضبط على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم ، وكان من كبار هذه اللجنة فضيلة الشيخ خلف الحسينى ، ثم كان من بعده العالم الحجة الشيخ على عامر الذى ما زال حيا وله تلميذ مباشر أخذ عنه فى ماليزيا هو الشيخ توان حسن اسماعيل شيخ معهد القراءات بسجد تكارا .

جهود الأزهر الشريف :

ولقد أفنى الأزهر حياته فى الحفاظ على الرسم العثمانى ، فألف لجنة دائمة تابعة لمراقبة البحوث والنشر لمراجعة جميع طبعات المصحف التى تقوم بها جميع دور النشر فى العالم كله .. ولقد أدت هذه اللجنة

خدمة جليلة فى المحافظة على الرسم العثمانى •

فلما كانت الامانة العامة لمجمع البحوث الاسلامية تحت ادارة المرحوم فضيلة الاستاذ الجليل الدكتور عبد الحليم محمود كون لجنة من كبار علماء القراءات وعلماء التفسير ورجال الطباعة الذين لهم دراسة فى الأزهر قديما وراجعت جميع طبعات المصحف الشريف ثم وضعت طبعة خاصة باسم الأزهر لتكون وحدها المرجع الرسمى للرسم العثمانى للمصحف الشريف •

ولما تولى المرحوم الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود مشيخة الأزهر فى أبريل سنة ١٩٧٣ م جاهد لاخراج عمل هذه اللجنة وطبع مصحف الازهر حتى يمتلك المسلمون رسميا الرسم العثمانى الذى ورثوه عن السلف الصالح فلا تستطيع قوة بعد ذلك أن تحرف فى الطباعة أو أن تضلل فى الرسم •

ولقد منح الله التوفيق للازهر الشريف وصدرت أول طبعة من المصحف الرسمى للازهر فى عام ١٣٩٦ هـ الموافق ١٩٧٦ م وتوالت الطبعات حتى الطبعة الثالثة بأحجام متعددة ، بل صار للمصحف الشريف فى الأزهر مطبعة خاصة تكلف شراؤها نصف مليون جنيه استرلينى •

وهكذا يجيش الله لحماية كتابه العزيز الجهود المخلصة حتى يستمر السند المتصل فى الرسم العثمانى موصولا بالوحى الأمين •

جزى الله كل من حفظ على المصحف الشريف رسمه العثمانى خيرا فى الدنيا وفى الآخرة وتقبل أعماله فى الصالحين •

والحمد لله رب العالمين •

الدكتور رءوف شلبى

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

(٣)

الباب الثالث

القرآن الكريم

ويتضمن هذا الباب :

(١) مكانته عند المسلمين

شرح المؤلف كلمة « قرآن » وبين علاقتها بكلمة « قرأ » محاولا ربطها بفعل الأمر « اقرأ » فى أول آية نزلت على محمد — صلى الله عليه وسلم — وهى قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، ثم ذهب الى أن معنى كلمة « اقرأ » فى اللغة العربية هو نفس معنى كلمة « قارا » فى اللغة العبرية .

وعن شمول موضوعاته لما يحتاجه المجتمع ، يعبر عنه ما روى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وان كانت هذه الرواية مشكوكا فى نسبتها اليه — من أنه قال — حين حرقت مكتبة الاسكندرية :

« ان كانت هذه الكتب قد احتوت على شىء يخالف ما فى القرآن ، فهو ضار ، ويجب اعدامها ، وان كان ما فيها مطابقا لما ورد فيه ، فلا فائدة فيها ، ويجب أيضا التخلص منها » .

فهذه الكلمات تبين أن القرآن الكريم مقدم عند المسلمين على كل ما عداه من كتب . ثم تحدث عن أن بعض الفرق الاسلامية ترى أنه قديم وليس حادثا ، ولذا فهو مقدس ، الا أنهم لم يعتقدوا انه جزء من الاله — كما هو الحال عند المسيحيين عندما اعتقدوا أن

كلمة الله صـارت جسدا ، فآمنوا بنوة عيسى ـ عليـه السلام ـ فلا ينبغى تعظيمـه على أنه صورة الله ، بل على انه كتـاب لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعلى أن ما فيه صالح لكل زمان .

حظى القرآن الكريم بعنـاية ، لم ينلهـا أى كتـاب على وجـه الأرض ، اذ يبذل المسلمون جهـدا كبيرا فى المحافظـة على رسمه ، فلا يجوز التهـاون فى شىء مهمـا بلغت ضآلة هذا الشىء ، وينـال التلميذ أسمى آيات التكريم عندما يحفظ القرآن كله . كذلك لا يقرأ فى الصلاة ـ فى أى بقعة من بقاع العالم ـ الا باللغة العـربية (١) . ويتلوه المسلمون تعبـدا ، سواء فهموا معنـاه أم لا ، فلا يجـوز ترجمته الا للعبادة فقط .

وهو جامع لكل شىء :

« ما فرطنـا فى الـكتاب مـن شىء » (٢) .

فهو كتاب عبادة ، كمـا هـو تشريع لما يحتـاجه المجتمـع من قوانين ، وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ من التغيير والتبـديل ، اذ الكتب السماوية الأخرى محـرفة ومتناقضة فى نظر المسلمين . ولكن القرآن سلم من هذا كله ، ولذا فهو الفيصـل فى بيـان العقيـدة الالهية والشريعة السماوية .

فهو الوحى المنزل من الله ،الذى يهـدى الى طـريق الحـق وسط الضلالات البشرية . يجـد المسلم فيـه ارادة الخـالق ، نزلت مـن السماء فى صـورة وحى ، فاليـه يتجه ، وفيه يبحث عمـا يريد ، لأنه كلام الله نفسه . وهو الدليـل الوحيد ـ ولا شىء غيره ـ على نبوة محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فلا يجوز لمسلم أن يشك فى هذا لحظة .

ولا يحتوى القرآن على نصوص العقيدة ، والتعـاليم الدينيـة فقط

---

(١) أجاز بعض الفقهاء قراءة ما عدا الفاتحة فى الصلاة بغير اللغة العربية .

(٢) سورة الانعام الاية : ٣٨

بل على كل ما هو لازم للحياة ، على ما يتعلق بالدولة من حقوق وواجبات ، وما يلزم المجتمع من سلوك وأخلاق ، ولذا يرسم المسلم حياته طبقا لتعاليمه .

مضى على القرآن اليوم أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، ولم يوجه أحد أى نقد الى نصه — وان تعددت المفاهيم فى تفسيره واختلفت الآراء فى مفهومه — لأنه بالنسبة للمسلم ليس من تأليف البشر ، بل هو وحى الله الذى فوق كل ما فى الكون من حقائق .

تحدث عن وحدة القرآن مع الكتب المقدسة الأخرى فى الطابع الدينى ، ولكنه استدرك مبينا أنه يختلف عنها فى المضمون ، فهو — على سبيل المثال — لا يحتوى على نصوص مبهمة ؛ كما هو الحال فى الكتب المقدسة ، وان كان بعض المفسرين مالوا فى تفسيرهم الى الابهام .

ثم ختم هذا الباب بقوله :

« تختلف الشعوب الاسلامية مرارا وتكرارا حول المسائل الدنيوية ، ولكنهم يلزمون الصمت أمام ما يمليه القرآن عليهم ، فهو يعتبر — على الرغم من اختلاف المفسرين فى فهمه — الرباط الذى يربطهم جميعا ، والمرجع الوحيد لكل فرد فى المجتمع الاسلامى ... فالاسلام يعلن دائما على الملأ ، أن كتابه هو وثيقة الوحى السماوى المنزل على رجل واحد ، اختاره الله من بين البشر ... وفى هذا الكتاب أيضا يجد الباحث وثائق تاريخية نادرة » ..

ذكر المؤلف أن الكتب السماوية السابقة — والمقصود بها هنا : التوراة والانجيل — هى فى نظر المسلمين محرفة ومتناقضة ، ويبدو من تعبيره : « فى نظر المسلمين » .. أن غير المسلمين لا يعدونها محرفة ، وهذا حكم غير دقيق من الوجهة العلمية ، فقد بين كثير من العلماء غير المسلمين انها محرفة ومتناقضة ، ومنهم — على سبيل المثال : ابراهيم ابن عزرا (١٠٩٢ — ١١٦٧) ،

وبــاروخ ســبينوزا (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) .. (١) .

(٢) جمع القــرآن :

سرد المؤلف تحت هذا العنوان قصة جمع القرآن فى عهد الخليفــة الأول أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ وبين أن المهمــة التى ألقيت على كاهــل زيد بن حارثة كانت شاقة ، فلم يقتصر عمله على الجمــع فقط ، بل كان من واجبه تمييز القــرآن عن غــيره ، حتى لا يضيع شىء منه ، ولا يدخل فيه ما ليس منه . ولم يكن أحد يقدر على هذا العمل ســواه ، لأنه كان كاتب الوحى ، فهو أعــرف به من غيره .

ثم شرح الدوافــع التى دفعت عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ الى أن يكلف زيدا بنســخ أربع نسخ من الأصل الذى جمع فى عهد أبى بكر ، وتوزيعها على أربع مدن هى : المدينــة ودمشق والبصرة والكوفة ، وأمره باعدام ما عداها من نسخ وبقيت هــذه النســخة بالرسم العثمانى حتى الآن كمــا هى ، وان اختلف القراء فى قراءتها على سبع طــرق ، متبعــين فى ذلك أيضا حديثا ورد عن رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يخبر بأن القرآن نزل على سبعة أحرف .

ولما لم يخرج فى هذا الفصل عن السرد التاريخى لجمــع القــرآن ونسخه فى عهدى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهمــا ــ وان تضمنت تعبــيراته بعض الهنــات ، التى لا تستحق التعليق ــ رأينا الايجاز فيه أنسب .

(٣) المضمون :

ذكر أن زيد بن حارثة قام بعملين جليلين :

الأول : تدوين كلام الله كمــا نطق به محمــــد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

الثانى : كتابتــه على الطريقــة الصحيحة للاجيال الاسلامية .

---

(١) عن التحريف راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ١٠٩ ــ ١٢٤ وعن التناقض راجع نفس المصدر ص ١٧٤ ــ ١٩٢

ثم تحدث عن سور القرآن الكريم المكية والمدنية ، والفرق بين المكي والمدني في الأسلوب وفي المضمون ، مبينا أن القرآن لم يتحدث عن حياة محمد الشخصية ، كما هو الحال في الكتب المقدسة السابقة ، اذ لم يذكر منها الا القليل ، مثل :

ما حدث بينه وبين زوجاته ، وتهديده لهن بالطلاق ، ان اردن متاع الحياة الدنيا .

وزواجه بزينب بنت جحش .

وحديث الافك .

وما عدا هذا فلا نجد شيئا عن حياة النبي الخاصة ، أما الحديث فقد امتلأ بهذا النوع من الأخبار . بينما يرى الغربيون أن في القرآن آيات متعارضة ، ويبنون شكهم فيه على هذا التعارض ، يرى المسلمون في هذه الظاهرة دليلا على تدرج التشريع والقرآن نفسه يعلل وجود هذه الظاهرة فيه ، فيقول :

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ..

يحتوي القرآن على كل ما يحتاجه الفرد فيحياته من المهد الى اللحد ، سواء كان دينيا أم اخلاقيا ، ولذا فحياة المسلم كلها تخضع لتعاليم القرآن ، فالأصول الخمسة منصوص عليها فيه ، وكذلك العبادات والمعاملات بجميع أنواعها .. حتى أسماء الله الحسنى الـ ٩٩ مستخلصة من آياته .

وبجانب هذا يتحدث القرآن الكريم عن أحداث تاريخية فيما يوازي ربعه تقريبا ، بعضها يتناول أحداثا ذكرت في الكتب الدينية التي بأيدي اليهود والنصارى ، والبعض الآخر يقص ما حدث في البيئة العربية .

وعلى الرغم من أضطهاد الاسلام لليهود ، فقد اشتمل القرآن على كثير مما في كتبهم ، فالله ـ أو كما يطلق عليه اليهود « يهوه » ـ رحيم جبار في كلا الديانتين ، وقضية التوحيد متشابهة عندهما . وفي القرآن كثير من العبادات والوصايا كما هي عند اليهود

تقريبا ، فالوضوء والصلاة ، وتحريم أكل الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به ، حتى الصوم يشبه الى حد ما ما عنـــد اليهود .

ولما كانت المسيحية غير معروفة فى الجـزيرة العربية الا عن طـريق المذهب النسـطورى الفـارسى ، فقد وقع الخطأ فيما نقـل عنهـا ، فمثلا : أخبر القرآن عن مريم بأنها أخت هـــارون ، أى أنهـا أخت موسى ، وبينهما فاصل زمنى كبير ، لا يتصور معه انها أخته ، كما أنكر بنوة عيسى وصلبه ، فذهب الى أنه نبى الله ورسوله ، وانه لم يصلب ، بل وقع الصلب على شبيه له ، اذ يخاطب القرآن النصارى قائلا :

« يا أهـل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقـاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » (١) .

ثم ختم الباب بقوله :

« رغم كل ما يوجه الى القرآن ، فهو دستور الاسلام فى العـالم ، فقـد ضـاعت المملكة العـربية الكبرى ، وبقى سلطانه على نفوس المسلمين ، وما زال يقنع أناسا غير مسلمين فلا يملكون الا الدخول فى الاسلام » .

وتعليقنا على هذا الفصل يتناول عدة نقـاط :

(١) خلو القـرآن الـكريم من الحديث عن حياة محمـــد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

تعتبر هذه الظاهرة دليــلا على صدق محمـــد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فى أنه رسول من عند الله ، وفى أنه لم يبلغ الا ما أمر بتبليغه ، ذلك أن النفس البشرية تميــل الى الحـــديث عن الذات ، بل تحـاول ــ ان أمكنها ــ أن ترسم بنفسها

---

(١) النساء الآية : ١٧١

أو توحى الى من حولها من الأتباع أن ترسم صورة وردية ، يضاف اليها من الصفات الحميدة ما احتوت قواميس اللغة فى هذا المجال ، ونظرة فاحصة الى تاريخ الجماعات البشرية تنبئنا عن حمى مدح الزعماء والرؤساء بما لم يعرفوه ولم يباشروه من فضائل ، بل بنقيض مايباشرونه فى حياتهم الخاصة والعامة تقربا اليهم ولزفى ان صدرت من أتباعهم ، وتفاخرا وتعاظما ، وخداعا للجماهير أن تحدثوا هم عن أنفسهم ، لأنهم يشعرون بالنقص فى ذواتهم أو بتفاهة ما يدعون اليه ، وعدم نفعه لشعوبهم ، فيحاولون سد هذا النقص بالمديح الشخصى والدعاية الذاتية .

أما محمد — صلى الله عليه وسلم — ، فهو الكامل لا شك فى هذا ، وسلوكه يتفق مع تعاليم السماء ، فهو لا يحتاج الى دعاية يغطى بها ما يرتكبه من أعمال ، لا يحب أن يراها أتباعه . وهو مكلف بأن يبلغ ما أمر به ، لا ما تميل اليه النفس كانسان (لأن كل انسان يحب الحديث عن نفسه قل هذا أو كثر ، صدقا أو تحريفا للحقائق) والاسلام لا يتعلق بشخصه ، بل بالعليم الحكيم رب كل شىء ، ولم يكن دور محمد سوى وسيط مبلغ وسوف ينتهى هذا الدور بمجرد اتمام المهمة التى كلف بها ، أما الله فهو الباقى الحى ، الذى يتوجه اليه الخلق ويتقربون بواسطة التعاليم التى أنزلها فى كتابه الحكيم ، ولذا لم يكن من الحكمة أن يتحدث عن شخص هالك الا فى حدود التشريع فقط ، وهذا هو ما يراه القرآن الكريم . وهذا أيضا هو أسلوب الوحى فى كل زمان ومكان ، أما ماتقرؤه فى الكتب المقدسة السابقة ، فليس وحيا بل هو تاريخ دونه أتباع الأنبياء السابقين ، ولو كان وحيا ما ذكر فيه قصص الأنبياء لأن الوحى يعبر عن قيم ومبادىء ، ولا يسرد تاريخ الأشخاص الا فى حدود الموعظة .

(٢) تعارض الآيات فى القرآن الكريم :

وذكر المؤلف أن فى القرآن

الكريم آيات متعارضة ، اتخذهـا الغربيون سببا فى الهجـوم عليه ، بينما فسرها المسلمون بأنها تدرج فى التشريع ، ثم ساق آية : « مـا ننسخ من آية أو ننسها ..الخ » .. على أنها اعتراف بهذا التعارض ، مع بيان سبب وجوده بأن بعضها نسخ البعض الآخر .

ان ما يبـدو للبـاحث الاوربى متعارضا ، لدليل على صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأنه لو طـرح عنـد البحث تعصبه ، وتحامله على الاسلام ، وأقبل على الدراسة بروح محايدة ، لتبين له أن هذا الأسلوب فى التشريع ليس من صنع بشر ولا يمكن أن يهتدى اليه العقل البشرى من تلقاء نفسه أبدا ، ذلك أن التدرج فى التشريع بطريقـة لا يلغى اللاحـق فيهـا السابق ، من الأمور التى تعجـز عنها عقول البشر ، ولنأخذ ـ على سبيل المثال ـ قضية تحريم الخمر ، لقـد نزلت فيهـا ثلاث آيات :

الأولى : « يا أيهـا الذين آمنـوا لا تقربوا الصـلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (١) .

فالنهى عن تأدية الصلاة فى حالة السكر يحد من الزمن المسموح فيه بالشرب .

اذ يحاول المسلم الامتنـاع عن الشرب قبل الصلاة حتى لا يؤديها وهو سكران فهـذا تحـريم جزئى زمنـا .

الثانية : « يسـألونك عن الخمـر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنـافع للنـاس ، واثمهمـا أكبـر مـن نفعهما » (٢) .

فبينت هـذه الآية أن فيها اثما ومنافـع ، وان اثمها أكبـر مـن نفعها ، والغرض من ذلك الايماز الى المسلم بأن يفكر فيها قبـل أن يشرب ، فاذا تذكـر أن اثمها أكبر من نفعها ، فينبغى عليه أن يحـاول الامتناع عن الشرب مدة أكبر من المدة التى التزم بها فى الآية السابقة .

---

(١) النساء : ٣٤

(٢) البقرة : ٢١٩

وربما يهديه تفكيره الى الامتناع عنها كلية .

الثالثة : « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (١) .

وهذا تحريم عام فى كل الأوقات . فاذا نظرنا الى الآيات الثلاث لوجدنا انه ليس بينها ناسخ ومنسوخ ، اذ العام لا ينسخ الخاص ، لأن الخاص مندرج تحت العام ، فما زال أداء الصلاة محرما على المسلم ، وما زال فى الخمر بعض المنافع لأنها تستعمل للتداوى ، اذ تدخل مشتقاتها فى تركيب بعض الأدوية .

هذا الأسلوب فى التشريع لا يرقى اليه بشر ، فهو من صنع العليم الحكيم وقس على ذلك كل الآيات التى يظن الاوربيون انها متعارضة ويرى بعض المسلمين فيها أن بينها ناسخا ومنسوخا .

(٣) مخالفة القرآن الكريم للكتب المقدسة فى رواية الأحداث التاريخية

ذهب المؤلف الى أن القرآن الكريم روى أحداثا تاريخية على نحو يخالف ما جاء فى الكتب المقدسة السابقة ، وزعم ــ أى المؤلف ــ ان النقل فى هذا الموضوع عن هذه الكتب كان خاطئا .

ولو سار المؤلف فى بحثه على طريق مستقيم ، بعيد عن المؤثرات المعادية للاسلام ، ما وقع فى هذا الخطأ ، فهو حين تستولى عليه رغبة البحث المحايد ، يعترف بأن القرآن فى أسلوبه فوق طاقة البشر ، أى أنه ليس من تأليف انسان ، ولكنه حين تستجيب حواسه لما حوله من أصوات معادية للاسلام ، ينكص على عقبيه ، فيدعى أن محمدا قد نقل الأحداث التاريخية من الكتب المقدسة خطأ ولا شك أن هذين الحكمين متناقضان ، اذ يلزم من الحكم على

---

(١) المائدة : ٩٠

القرآن بأنه ليس من صنع البشر.. أى انه وحى الله ـ الاعتراف بأن كل ما فيــه صـحيح ، وان خالف الكتب المقدسة السابقة ، اذ المخالفة ليست دليلا على النقل ، فضلا عن تحريفه ومن الثابت علميا وتاريخيا ان تدوين الــكتب المقدســة جاء متأخرا بزمن طويل عن عصر الأنبياء المنسوبة اليهــم ، ولم يعرف حتى الآن كاتبها بالضبط ، ولم يحــدد العصر الذى دونت فيــه تحــديدا قاطعا ، فكيف يعتقــد ـ والحــال هذه ـ ان ما فيهــا من الاخبــار التاريخية صحيح ، وما عداه فهو نقل خطأ عنها .. لا .. بل العكس هو الصحيح ، فقد حــرف كاتبها المجهــول أخبــارها وجاء الكتاب الذى اعتــرفت ضمنا بأنه وحى ، فصحح هذا التحريف ، وعليه فيجب عليك التسليم بأن القرآن الكريم هــو المرجــع الصــحيح لهــذه الاحداث التاريخية .

(٤) اتفاق الاسلام واليهودية فى بعض الاحكام :

سرد المؤلف عددا من الأحــكام الاسلامية مثل : تحريم أكل الميتــة .. ولحم الخنزير .. و .. و الخ . مبينا أن حكمها فى الاسلام هــو حكمها عند اليهود وعلل ذلك بأن الاسلام تأثر فيها باليهودية لقربهــا منه ، حيث أن الجاليات اليهــودية كانت تقيم بالقرب من المدينة .

وأخطأ فى هــذا ، لأن منبــع الدينيين واحد ، وهــو وحى الله الذى أنزل على مــوسى ، ومحمد عليهما الســلام .. لكن اليهــود حرفوا دين الله ، فجاء القــرآن مصححا هذا التحريف ، وعندمــا نقول : حرفوا فلا ينبغى أن يفهــم من هذا أنهم حرفوا كل ما جاءهم من ألفه الى يائه ، بــل يكفى أدنى تحريف ليصبح الحكم عليهم بأنهم حرفوا ، فعنــدما نزل القــرآن الكريم ليصحح هــذا التحريف ، لم يكن من المقبول أن يبطــل كل ما عنــد السابقين ، ويأتى بمــا يقابله ، حتى ولو لم يدخله تحريف ؛ لأن ذلك هو أســلوب الثــورات البشرية ، التى تقضى على كل عمل

ينسب للنظام الذى ثارت عليه حتى ولو كان نافعا للمجتمع ، لأن الغرض عندها محو معالم من سبقها لينساه الشعب ، ويتعلق بالثوار الجدد .

أما وحى الله ، أما الرسالات السماوية فالهدف منها اقامة العدل بين الناس ، وتدعيم الفضيلة والقيم الاخلاقية فى نفوس الناس ، ولذا تبقى على ما يساعد لبلوغ هذا الهدف مهما كان منبعه ، وتدعو الى نبذ ما يضر الفرد فى المجتمع ، ولو زعم السابقون ان الله أوحى به الى الأنبياء السابقين ، فاذا ماصادف أن حكما طابق ما عند اليهود ـ أو غيرهم ـ فلا يعتبر دليلا على انه مأخوذ منهم ، بل هو حجة واضحة على أنه وحى الله أنزله على رسوله ليصحح ما حرف ويثبت ما سلم من التحريف (اذ لو لم يكن وحيا ، لحرص على ابطال معالم السابقين عليه ، كما هو معروف فى تاريخ الثورات) ليكون القرآن الكريم هو المرجع المعتمد ـ لأنه سلم من التبديل والتغيير ، وهى قضية مسلم بها حتى عند اعداء الاسلام ـ لتصحيح المسيرة الدينية التى حرفها السابقون ، وصدق من قال : « شرع من قبلنا شرع لنا ، ان لم يرد فى شرعنا ما ينسخه » .. أى ان لم يرد فى شرعنا ما يصححه من التحريف الذى أصابه من البشر .

(٥) انكاره لنبوة عيسى عليه السلام :

زعم المؤلف أن بعد النصارى عن موطن الاسلام الأول جعل تأثير النصرانية عليه ضعيفا ، فهو لم يتصل الا بالنسطوريين ولذا تأثر برأيهم فى المسيح (١) فأنكر عقيدة النبوة الالهية التى يدين بها المسيحيون .

ان قضية التأثير والتأثر بين الاسلام وغيره من الأديان والعقائد

---

(١) كان نسطور يذهب مذهب اريوس فى انكار ان عيسى ابن الله ومساواته ، كما انكر ذلك أيضا بوطينوس وبولس الشمشاطى ، فكانا يقولان « ان الاله واحد ، وان المسيح ابتدأ من مريم عليهما السلام وانه عبد صالح مخلوق ، الا أن الله تعالى شرفه وكرمه لطاعته ، وسماه ابنا على التبنى لا على الولادة والاتحاد » الشهرستانى جـ ١ ص ٢٢٥

السابقة التى أثارهــا المستشرقون ــ ولا زال بعضــهم يضرب عــلى وترها ــ قد ثبت بطلانها علميا ، فالاسلام لم يأخذ شيئا من غيره ، وان وافقت بعض تعاليمه ما عنــد الآخرين ، ورسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يقتبس شيئا من العقائد الأخرى ، لأنه كان أميــا فلم يعــرف ما عنــد الآخــرين ، بالاضــافة الى مــا ثبت مــن أن ما أخبر به وحى ، بدليل انه خارج عن قدرة البشر العقلية . فاذا قيل بعد ذلك انه تأثر بهــذا أو بــذاك فليس الا ادعاء يفتقــر الى الدليل العلمى .

ومــن العجيب أن يدعى باحث انه عارض عقيــدة النبــوة عنــد المســيحيين لأنه لم يتصــــل الا بالمنكرين لهــا ، وكان الأولى به أن يقول :

ان دين الله هو التوحيد من لدن آدم الى محمد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ وعيسى نفســه لم يــدع قومه الا الى توحيد الله ، اذ يخبرنا الوحى الصادق بقوله :

« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للنــاس اتخذونى وامى الهين من دون الله ، قال سبحــانك ما يكون لى أن أقــول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقــد علمته ، تعلم مــا فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيــوب ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ، أن اعبــدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلمــا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » (١) .

غير أن أتباعه حرفوا دعــوته ، فاعتقدوا فى ألوهيته ، ثم اضطهدوا من آمن منهم بنبوته وبشريته حتى قضوا عليهم ، ولم يبق سوى من حاد عن طــريق التوحيــد وسلك سبيل التثليث وورثوا هذه العقيدة لمن جاء بعدهم جيــلا بعد جيــل ، وطبيعى ألا تعرف الأجيال اللاحقة شيئا عن هــذا الصراع العقــدى

---

(١) المائدة : ١١٦/١١٧

فتظل مؤمنة بأنها العقيدة المسيحية الموحى بها من الله ، اللهم الا من هداه الله فأنكرها لتنافرها مع الطبيعة البشرية ، أو من جد فى البحث فى تاريخ الصراع العقدى بين الطوائف المسيحية (١) .

(٦) انكاره الصلب للمسيح :

نفى القرآن الكريم ادعاء اليهود بأنهم صلبوا المسيح عليه السلام ، فقال : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » (٢) .

ويتضمن هذا النفى تكذيب ما ورد فى أناجيل المسيحيين حول قصة محاكمة المسيح وصلبه . وقد أيدت الدراسات العلمية ما جاء فى القرآن الكريم ، واقتنع به أصحاب الاتجاه العقلى فى مجال البحوث الدينية المقارنة (٣) . ولذا فينبغى على من يريد المقارنة بين اخبار القرآن الكريم بنفى صلب عيسى عليه السلام وبين ما دونه كتاب الأناجيل ، فعليه أن يطالع نتائج هذه الدراسات أولا ، والا فمن المحتمل أن يضل الطريق — بل الواقع يشهد بأن كثيرا منهم تخبط فى هذا البحث ، فلم يصل الى نتيجة علمية صحيحة — فى الوصول الى حقيقة ما حدث ، حين حاول اليهود قتل عيسى عليه السلام .

الباب الرابع

ماخلفة محمد صلى الله عليه وسلم :

وقد تناول فى هذا الباب النقاط التالية :

(١) تعظيم النبى وتبجيله :

لم يكن الموت عند العرب ظاهرة مفجعة ، فنسبة الوفيات كانت عالية ، فمن كان بدنه قادرا على قسوة الطبيعة ، هو الذى امتدت حياته ، أما ضعفاء البنية فسقطوا صرعى المرض . كذلك شاعت ظاهرة وأد البنات بعد ميلادهن ، ولم يكن عدد ضحايا الحروب ضئيلا ..

(١) راجع : بين الاسلام والمسيحية ص ٦٨ — ٧٢
(٢) النساء : ١٥٧
(٣) راجع بين الاسلام والمسيحية ص ١٩٢ — ٢١٥

وهكذا كان المـوت عمليـة غيـر مزعجـة ، اللهم الا اذا كان الميت ابنا ذكرا لأب لا عقب له .

تبدلت طبيعة العـربى ازاء هذه الظاهرة رأسا على عقب ، عنـدما أذيع خبر وفاة النبى ــ صـلى الله عليه وسلم ــ ، اذ وقع الخبر على بعض المسلمين كالصاعقة فأصيبوا بالفـزع والهلع ، لدرجـة انكار الخبر ، والتهديد بقتل من يقول : انه مـات ، فقـد روى أن عمـر ابن الخطاب ــ وهو من أكبر عباقرة المسلمين ــ قال حين سمع الخبر : « ان رجالا من المنافقـين يزعمون ان رسـول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ قد توفى ، ولكن رسول الله ــ صلى الله عليـه وسـلم ــ ما مات ، ولكنه ذهـب الى ربه ، كما ذهب مـوسى بن عمـران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع اليهم بعد أن قيـل : انه مـات . ووالله ليرجعن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهـم زعموا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مات » (١) .

فاضطرب القـوم بين مصـدق ومكذب ، حتى جاء أبو بكر فقال قولته المشهورة :

« يا أيها الناس .. من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فانالله حىلا يموت ، ثم تلا هذه الآية : « وما محمـد الا رسـول قـد خلت من قبـله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقـابكم ، ومن ينقـلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » (٢) .

فقال عمر : « والله ما هو الا ان سمعت أبا بكر تلاها فعقرت (٣). حتى وقعت الى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله ــ صلىالله‌عليه وسلم ــ قد مات(٤).

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٥

(٢) آل عمران : ١٤٤.

(٣) عقرت : دهشت ، يقال : عقر الرجل اذا تحير ودهش .

(٤) ابن هشام جـ ٢ ص ٦٥٦

تأكد المسلمون من موته ، فهدأ اضطرابهم ، ولكن الشعور بالضياع سيطر على نفوسهم ، اذ كان جل اعتمادهم عليه فى شئون دينهم ودنياهم ، وفجأة شعروا بأنهم أصبحوا فى مهب الريح العاتية ، بلا قائد أو هكذا تخيلت أذهانهم ، فهو لم يعين خليفة له ، فكيف تستمر الأمور فى سيرها نحو المستقبل ؟

اختلط الحزن بالارتباك والحيرة .. لدرجة انهم انصرفوا عن دفنه الى محاولة الخروج من هذا المأزق الذى وجدوا أنفسهم فيه ، وتركوا على بن أبى طالب مع بعض الصحابة يعدون العدة لغسله وتجهيزه للدفن ، ثم اختلفوا على المكان الذى يدفن فيه ، الى أن حسم أبو بكر الخلاف حين روى عنه — صلى الله عليه وسلم — انه قال : ما قبض نبى الا دفن حيث قبض (١) .

جالت خواطر المسلمين هنا وهناك وكان من أهم ما أزعجهم أن وحى السماء قد انقطع عنهم ، فلن يسمعوا كلمة منه بعد اليوم ، ودارت بخلدهم هذه الأسئلة :

« هل انقطع وحى السماء حقيقة ، فلم يعد ينزل بعد اليوم ؟ هل من الممكن أن يموت نبى الله كما يموت بقية البشر ؟ أليس من المحتم أن تقوم الساعة الآن .. ؟ أيقظ الخوف فى نفوس من تركهم محمد — صلى الله عليه وسلم — الأمل فى حدوث معجزة ، فالله قادر على كل شىء ، وهنا ينفصل طريق التعاليم الدينية عن اعتقادات العامة ، فالقرآن والأحاديث النبوية الصحيحة تؤكد أن محمدا بشر ، يموت كما يموت غيره من الناس ، بينما يميل عامة الشعب الى رفع محمد عن درجة الانسان العادى وانزاله مكانا خاصا قريبا من الله . صال الخيال وجال فى هذا المجال ، فنسبوا اليه أشياء نسبتها الاساطير الى الأنبياء السابقين ، ففى حياته لم يترك العنان لخيال المؤمنين ، ولكن بعد موته بدأت الأخبار

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٦٣

تترى عن نواح ، لم يتحدث عنها القرآن الكريم ولم تنقلها الأحاديث الصحيحة ، ألم يسطع نور النبى من بدء الخلق حتى الآن ؟ لقد ظل النور ينتقل من جيل الى جيل — هكذا اعتقد العامة — حتى استقر فى قبيلة محمد ، ثم ظهر فيه ، فأنار جميع العالم ؛ لقد طهره هذا النور من كل الذنوب ، وجعله معصوما حتى فى فترة ما قبل البعثة .. و .. و .. الخ .. وهكذا لم تتوقف القصص الشعبية فى هذا المجال ، وظلت تنسب الى النبى كل ما من شأنه أن يرفعه عن عالم البشر ، ونسبت اليه كثيرا من المعجزات الحسية ، فقد شفى المرضى وكلمته الحيوانات ، وتحركت لنظراته الاحجار ، وبكى الجماد لفراقه ... الخ . ثم سرد المؤلف حديث الاسراء والمعراج ، وبين ان ما علق بها من المعجزات ، لم يرد له ذكر فى القرآن الكريم .

ذكر المؤلف ان الذين عاصروا النبى — صلى الله عليه وسلم — كانوا يعرفون كل كبيرة وصغيرة فى حياته ، لكن أحداث الوحى وانشغالهم بترقب ما ينزل من السماء لم يترك لهم مجالا للحديث عن حياة محمد أثناء وجوده بينهم . فقد نصب اهتمامهم على معرفة التعاليم الدينية ، التى تنظم حياتهم ، وتضمن لهم الجنة .. لأنها الهدف الذى تكرس كل الجهود للوصول اليه وان كان المسلم يعتقد أنه لن يصله الا برحمة من الله ورضوان ، فاذا قورن هذا الشعور بالمغفرة المسيحية ، لرجح — كما يعتقد المسلمون — اطمئنان المسلم فى هذا المجال ، الا انهم يؤمنون بأن القلم قد حدد فى اللوح المحفوظ ، من سيدخل الجنة .. ومن سيحرم من دخولها .. ولكن من يعلم هذا ؟ لا أحد .. دام النقاش بين العلماء حول هذا الموضوع مئات السنين ، فصنفوا الناس حسب أعمالهم وايمانهم ولم يقتصر هذا التصنيف على المسلمين فقط ، بل تعداه الى وضع غير المسلمين بالنسبة للمسلمين فى الحياة الآخرة .

هذه هى بعض ملامح التيارات

الفكرية ، التى شاعت فى المجتمع الاسلامى بعد موت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتى أدت الى اختلاف الآراء داخل الأسر التى شهدت عصر الخليفة الأول .

(٢) الجهــاد :

ينبغى التأكيد مـرارا وتكرارا على أن ظهـور محمـد بدعوته فى أوائل القرن السابع الميلادى كان خيرا وبركة للشعب العربى ، فقد منح الاسلام العرب شيئا لم يملكوه حتى ذلك التاريخ : منحهم دستورا ربطهم جميعا برباط واحـد ، لأن تأثيره عليهم تغلب على جميع المنازعات السياسية والقبلية ، فانهى عهدا لم يعرف له دستور ، وقضى على غريزة الثأر ، التى كانت تجرى فى دماء العرب . لكن هذا التماسك لم يلبث أن تفـكك بعـد مـوت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهبطت هذه المثالية ـ التى دعـا محمد قومه الى التحلى بها ـ من عليائها الى حضيض العالم الدنيوى حين تنازعوا على السلطة ، فشنوا الحـروب للوصـول اليها ، تلك الحـروب التى مزقت الوحـدة الدينيـة فانشغـل الكبار بالسلطة والصغار بالمسائل الدينية ، ان فريق الكبار حصر جهده فى السياسة ، وانصرف اهتمـام الصـغار الى المسائل الدينية ، ومن الطبيعى أن هذا التقسيم لم يكن عاما ، فقد كان هناك خلفاء لم تشغلهم المسائل السياسية عن الاهتمام بالاحـكام الفقهية ، فضلا عن انهم كانوا على درجة كبيرة من الورع والتقوى .

ارتبطت السـلطة بالعقيـدة فى بداية الدولة الاسلامية فى المدينة ، وتدل هذه الظاهرة على ان الاسلام يرى انـه : ديـن السياسـة ، أو بتعبير آخر : عقيـدة السياسة الدينية ، اذ أخذت المسائل الدينية طابعا سياسيا ، فقـد كان محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ نبيـا ورسـولا ، وفى الوقت نفسه كان سياسيا ، فلم تعرف الدولة فصـلا بين الدين والسياسة .

شرح المـؤلف عـلاقة الـدين بالسياسة فى جميـع المجـالات ، وجهود الفقهاء فى استباط القواعد الفقهيـة ، وارتبـاط النشاط

السياسى بقواعد الدين ، متخذين السنة النبوية وما كان عليه الخلفاء الراشدون مثـالا لهم • ثم بين أن نظرية المسلمين فى دعوتهم الشعوب الأخرى الى الدخول فى الاسلام تتلخص فى أن الانسان مفطور على العقيدة التى ربطت بينه وبين أخيه الانسان ، ولكن بارتكابه المعصية تقطعت وشائج الاتصال بين البشر فانقسم الناس الى فريقين : فريق تمسك بالتعاليم الدينية التى نزلت على رسلهم ، وآخر تنكر لها ، غير أن الفريق الأول عجـز — بمرور السنين — عن فهم الوحى لبعده عن زمن الرسـل الذين بلغـوا هـذا الوحى ، فحـرف فيـــه بالتغيير والتبديل والمحو والزيادة •• الخ • ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليدعـو الفـريقين الى الاعتراف بوحدانية الله ، لتكوين الجمـاعة المؤمنة ، التى تؤسس الدولة ذات الطابع السياسى والدينى • ولهذا فرض على أتباعه الجهـاد لتحقيق هذه الغاية ، ومن هنا انقسم العالم فى نظر المسلمين الى قسمين :

الأول : المسلمون حيث تقـوم الدولة الاسـلامية وعلى رأسـها الخليفـة •

الثانى : الكفار الذين يجب عليهم الدخول فى الاسلام •

وهـؤلاء ينقسمون بدورهم الى قسمين :

الأول : المشركون ويجب على المسلمين قتالهم حتى يسلمـوا •

الثانى : أهل الكتاب ، وهؤلاء ينبغى قتـــالهم حتى يسـلموا ، أو يخضـعوا للدولة الاسـلامية فيعطوا الجزية • وفى مقابل هـذا تحميهم الدولة ، ويندرج تحت هذه الحمـاية : المحـافظة على أملاكهـم وضـمان حـرية اقامة شعائرهم الدينيـة ولكن لا تدق أجـراس كنائسهم ، ولا يشيدون كنائس جديدة •

يشترط فى الخليفـة أن يكون قادرا على قيادة الدولة سياسيـــا وعسكريا ، وأن يكون تقيا ورعا ، اذ من واجبه حفظ الدين ، والجهاد ضد أعداء الله وأن يسود الدولة طبقـا للكتاب والسـنة ، فان وقع خـلاف فى التفسير فان الكلمـة

الأخيرة له ، لأنه المسئول وحده عن رعاية الدولة ، وبيده مقاليد الأمور فى جميع نواحيها . غير أن سلطانه ليس مطلقا — كما هو الحال فى بعض النظم الحديثة — فوضعه لا يختلف عن وضع أى مسلم عادى فى الدولة ، بالنسبة للالتزام بما هو مقرر فى القرآن الكريم ، ويزيد عليه من ناحية الواجبات الملقاة على عاتقه كخليفة للمسلمين ، ومن أول واجباته — كخليفة — دعوة الناس الى الدخول فى الاسلام ، فان أبوا ، فشن حرب مقدسة ضدهم يديرها بنفسه . تجاوز النبى صلى الله عليه وسلم مرحلة الدفاع الى مرحلة الهجوم ، لأن الدعوة بالكلمة لم يعد لها تأثير فى اقناع الناس ، وعلى خلفائه أن يتخذوه أسوة فيستعملوا القوة لحمل الناس على الدخول فى الاسلام ، وسوف يظل الجهاد طابع الدولة الاسلامية ، مادام هناك مجتمعات لا تدين بالاسلام .

فصل المؤلف القول فى توزيع الفىء والغنائم ، وأكد على أن ظاهرة الرق فى الاسلام لم تكن من الظواهر الدائمة ، فهى مترتبة على نتائج الحروب ، فاذا مادخلت المجتمعات يوما ما فى الاسلام ، فسوف تختفى هذه الظاهرة من تلقاء نفسها ، ثم عاد الى الحديث عن علاقة الأمور الدنيوية بالتعاليم الدينية ، وختمها بقوله :

« فلم يفرق محمد صلى الله عليه وسلم بين قانون مدنى وآخر دينى ، فبلغ كل ما أوحى اليه على انه وحى الله دون تمييز بين دينى ودنيوى وبهذا يختلف القانون الأسلامى — حتى اليوم — فى جملته وتفصيله عما عندنا نحن المسيحيين من متراكمات تركزت فى جانب واحد » .

أخذت فريضة الجهاد فى الاسلام حيزا كبيرا فى مؤلفات الغربيين التى كتبوها عن الاسلام ، ولم يكونوا موضوعيين فى كتابتهم عن هذه الفريضة ، اذ أجمعوا — كلهم تقريبا — على أن الاسلام انتشر بالسيف ، بينما دعت المسيحية الى المحبة ، ونبذ البغضاء والقتال وقد رد عليهم المسلمون مبينين أن الغزوات الاسلامية لم تكن هجوما

بل ردا لاعتـــداء وقـــع عـلى المسلمين ، اى أنهم كانوا فى موقف دفاع ، وأود أن أنقل هنا كلمـة كتبتهـا فى تحقيق لكتـاب « بين الاسـلام والمسيحية » (١) حـول المقارنة بين الدينين فى مسألة قتـال المعارضين :

يردد أعداء الاسلام منـذ بدء فترة الدفاع المسلح عن العقيـدة الى اليـوم ، أن الاســلام انتشر بالسيف ، اذ ما زلنـا نسمع من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم من ضـعاف النفـوس ، أن المسيحية تنكر القتال ، بينمـا دعا الاسلام الى الحـرب ، والى الجهـاد فى سبيل الله ، أى الى اكراه الناس بالســيف عـلى الدخـول فى الاسلام ••• وهـذا هو التعصب بعينه ، وغاب عن هؤلاء الحقـائق التالية :

أولا : نص القـرآن الكريم فى مواضـع عدة على أنه لا اكراه فى الدين ••

يقول الله تعالى : « لا اكراه فى الدين قـد تبـين الرشـد مـن الغى » (٢) •

ويقول : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تـكره النــاس حتى يـكونوا مؤمنين » (٣) •

ويقول : « فمن شاء فليؤمن •• ومن شاء فليكفر » (٤) •

ويقول : « فذكـر انمـا أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٥)

فالاسلام لا يجيز لأحد ــ ولو كان النبى نفسه ــ أن يجبر انسانا على الدخول فى الاسلام •

ثانيا : يمتاز الانسان عن الحيوان بالقدرة على التفكير ومن خصائص هـذا التفكير ميـل الانسان الى الحـرية فى التعبير عن آرائه وفى

---

(١) ص : ١٤١ ــ ١٤٢ •
(٢) البقرة ٢٥٦ •
(٣) يونس : ٩٩
(٤) الكهف : ٢٩
(٥) الغاشية : ٢١/٢٢

اعتناق ما يراه موافقا لطبيعته فاذا ما منع من هذا بقوة السلاح ، فان من الطبيعي أن يدافع عن رأيه بالوسائل التي يقاتله بها من يريدون كبت حريته ، فان أراد أحد أن يفتن آخر عن عقيدته مستعملا الدعاية والمنطق ، دون اللجوء الى حمله على ترك عقيدته بالقوة ، لم يكن للمؤمن أن يدافع عن عقيدته الا بالحق والمنطق ، أما اذا أجبر بقوة السلاح ، لم يكن من سبيل الا حمل السلاح أيضا ، للدفاع عن عقيدته ، لأنها أثمن شيء عند من يفهمون معنى الانسانية ، فهي أثمن من المال والجاه ، بل أغلى من الحياة نفسها وقد أدرك هذا المسلمون الأولون ، فدفعوا حياتهم ثمنا للدفاع عن عقيدتهم ، وتلك سنة الله في خلقه .

: « ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (١) .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » (٢) .

ولو لم يقاتل المسلمون لحكم عليهم التاريخ بأنهم : اذلوا ، وأهينوا فرضوا بالذل ، والهوان ، وتلك سبة تأباها الطبيعة الانسانية ، ولما كان الاسلام موافقا — في تعاليمه وشرائعه — لهذه الطبيعة ، لم يرض لأتباعه أن يتصفوا بهذه النقيصة .. وعليه ، فلم يحمل المسلمون السلاح لاجبار أحد على الدخول في دينهم بل كان للدفاع عن أثمن شيء لديهم ، الا وهي ممارسة ما تمليه عليهم عقيدتهم .

ثالثا : يعقد أعداء الاسلام مقارنة بين محمد وعيسى عليهما السلام ، مدعين أن عيسى لم يقاتل أحدا ، بينما قاد محمد معارك كثيرة ، ضد من وقفوا في سبيل دعوته ، ونسى هؤلاء أن عيسى استمر ثلاث سنوات فقط ، يدعو الى دينه بدون قتال ومكث محمد ثلاث عشرة سنة يتلقى أذى قريش،

(١) البقرة : ٢٥١
(٢) الحج : ٤٠

دون أن يحمل السلاح ، فأى المدتين أطول ؟

أضف الى ذلك أن عيسى قال أثناء هذه المدة القصيرة :

« ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » (١) :

بينما لم يذكر محمد فى العهد المكى ــ وهو ثلاث عشرة سنة ــ شيئا عن القتال . فأيهما كان ــ بصرف النظر عن كون ما يتلقيانه وحيا ــ أشد ميلا الى السلم .

كان يمكن أن تكون المقارنة صحيحه ، لو أن عيسى استمر فى دعوته مدة أطول من المدة التى مكثها محمد فى مكة داعيا الى الله ، ولم يقاتل ، بينما قاتل محمد ..

فاذا تركنا العهد النبوى لكل منهما ، وتصفحنا تاريخ كلتا الديانتين لرأينا أن المسيحية لم تعرف سلاما قط ، فقد حمل المسيحيون الناس حملا على اعتناقها واجروا الدماء انهارا فى سبيل اكراه الناس على الدخول فيها ، ومن يقرأ التاريخ يجد أن المسيحيين لم يعتنقوا مبدأ السلام فى واقعهم العملى حتى اليوم ، الا خوفا من الدمار الشامل ، الذى يتوقع أن يحل بهم ان هم استمروا فى هذا الطريق الوعر .

(٢) معالم الدعوة :

اعتبر اختيار محمد للرسالة ، ليبلغ مالم يبعث فيهم رسول من قبل فضلا من الله ورضوانا على العرب ، وفهمت دعوته فى أول الأمر على انها دعوة خاصة لقومه قياسا على الأنبياء السابقين ، فقد بعث كل نبى الى قومه خاصة ، غير ان جوهر الاسلام يتضمن طابعا عالميا ، ويكمن ذلك فى الاعتقاد بأن محمدا هو آخر الأنبياء ، والقرآن هو آخر وحى ينزل من السماء لاصلاح ما فى البشرية من فساد ، فلن يأتى كتاب بعده أبدا ، ولن يرسل رسول بعد محمد ، على الاطلاق ، وبناء عليه يكون الاسلام دينا عالميا لجميع البشر .

---

(١) متى ١٠ : ٣٤

يتفق الاسلام مع الأديان الأخرى ذات الطابع العالمى فى نقطة الانطلاق فقد ساد فى زمن ظهوره حالة من اليأس والفراغ الروحى ، من جراء الفساد ، الذى ساد فى المجتمع وحاول كثير من الراغبين فى الاصلاح محاربته ، ولكنهم لم يتمكنوا من عمل شيء ، اذ عجزوا عن اصلاح ما بين القبائل من نزاعات ومشاجرات سالت فيها الدماء انهارا ، ولم يقدروا على تنقية الحياة مما أصابها من الانهيار الاخلاقى ، فسيطرت غريزة اللامبالاة على النفوس ، وتمكنت الرذيلة . فى هذا الوقت دعا محمد قومه الى الخروج من هذا الوضع المؤلم ، وبين لهم طريق الخلاص مما هم فيه فكان أول شيء دعاهم اليه هو الاعتراف بوحدانية الله ، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأوثان والاصنام فلا يجوز أن يتخذ معه اله غيره ، والا فالعقاب الصارم يوم القيامة .

تحدث المؤلف عما يثاب عليه المرء أو يعاقب يوم القيامة ، وعلاقة ذلك بما يصيب الانسان فى الدنيا من كوارث وبما يناله من خيرات ، فى ضوء العدالة الالهية فقاده هذا الى تناول مسألة الجبر والاختيار وآراء المدارس الكلامية فيها . ثم تناول الاخلاق فى الاسلام ، فذكر الاحسان الى الوالدين والوصية بذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ولكن بدون اسراف .. ففى القرآن : « ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » (١) .كما حرم وأد البنات وارتكاب الفواحش من زنا وغيره ، وحرم قتل الأنفس الا فى حالتين : فى حالة الدفاع عن النفس ، وفى الحرب ضد أعداء الله ، كما حرم أيضا أكل أموال اليتامى والضعفاء ، وفى مجال الأسرة أباح الزواج بأربعة الا ان عجز الرجل عن الوفاء بحقوقهن فيجب الاقتصار على واحدة.ثم ذكر المؤلف حقوق الأيامى ووضعهن عندما يصبحن

---

(١) الاسراء : ٢٧

« أم ولد » ووضـع أبنـائهن فى الحرية وعدمها ، وأكد أن محمدا حث المسلمين فى أكثـر من مناسبة على تحرير العبيـد ومكاتبتهم ، غير أن هذه الظاهرة لم تختف لأن كثيـرا من المسلميـن لم ينفـذوا وصية نبيهم نصـا وروحا ، فبقيت تردد فى المجالس العلمية دون أن تحقق الغرض الذى أراده محمـد ـ صـلى الله عليـه وسـلم ـ فى الواقع الاجتماعى .

بين فى مجال العبادة كيفية فرض الصلاة وشروطها ، واركانها وعدد ركعاتها وتحويل القبلة ، ثم عقب على ذلك بقـوله : « ان المسلمين أكثر حرصا على تأدية الصلاة من التزامهم بالمبادىء الأخلاقية ، التى دعا اليها الاسلام » .

ومما قاله المؤلف فى ختام هذا الباب قوله :

« ان النـاقد الأجنبى (عـن الاسـلام) لا يملك الا أن يصف محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما يتطرق الحـديث الى تقييم ما دعا اليه ، وما انجزه ـ بأنه كان طاقة هائلة دفعت عجلة التاريخ الى الامام ، فقـد تطور التمرد ضـد البربارية التى كانت فى عصره الى نصر للأفكار الدينيـة والروحيـة والى قوة أخلاقيـة بنـاءة ، ومن الافتراء على الله الادعاء بأن الدين كان بالنسبة لمحمد وسيلة لغاية ، فعلى الرغم من هذا ومن ادعاءات أخرى فقد كان محمد مفطورا على الدين ، ووحد شعبا كانت أوصاله متقطعة فى صحراء جرداء قاحلة .

فاذا ما انتقص أعداؤه من قيمة عمله فى جـانب من الجـوانب ، ارتفعت قيمتـه عاليـة فى دعـوته ـ الصـارمة والمسـتمرة ـ الى وحدانية خالصة ، وفى عمله الدءوب فى خدمة دعوته ، فهـو لم يخلص شعبه فقط من الظلمـات الحالكة التى كان فيها ، بل حدد فى موكب التاريخ مصيـر الانسانية جمعـاء تحديدا فاصلا .

وأخيرا انتشر نور عقيـدته .. فغطى جوانب الطبيعة الانسانية » .

(للحديث بقية)

دكتور محمد شامة

دراسات لغوية :

نظرة إلى الجديد في علوم اللغة

للدكتور توفيق محمد شاهين

(١)

موضوع علم اللغة

يدرس علم اللغة (Linguistics) اللغة بصورة عامة لأنها أساس لجميع العلوم الانسانية ، وظاهرة اجتماعية لها أوثق العلاقات بما فى الكون ، ومع امتداد تاريخ البحث فيه من لدن البراهمة ، والاغرق ، والعرب وغيرهم ،لبراعتهم فى علوم اللغة ، الا أن أمره ظل حينا فى دائرة ضيقة ومحدودة ، لأن بعض العلماء نظر اليه كشىء كمالى ، لا علاقة له بالحياة ، كما نظر الى اللغة كوسيلة لا غاية .

وكان من نتائج تطبيق الأسلوب العلمى فى الطبيعة ، الذى أدى الى اكتشافات هائلة..أثر كبير فى ترقية الأبحاث اللغوية والعناية بها ، وتطبيق الاسلوب العلمى عليها ، باعتبارها كأى شىء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للتجربة .. ففتحت آفاقه الواسعة ، ونال العناية الكافية ، وعسى أن نلحق نحن بها .

يحدث التاريخ أن الاشوريين ، وكذلك الأمة الصينية واليابانية والبراهمة ابان نهضتهم ــ قد اهتموا بلغاتهم من قديم :

فقد عنى البراهمة باللغة السنسكريتية نحوا ، وصرفا ، واشتقاقا وتدوينا قبل الميلاد .

كما يذكر المؤرخون ان معجم (شوفان) لمؤلفه (هو شن) طبع سنة ١٥٠ ق.م . ومعجم (يوبيان) لمؤلفه (كوبى وانج) طبع سنة ٥٣٠ م ، وهما يعدان أساسا للمعاجم الصينية اليابانية .

وجاء فى مقدمة معجم (فيشر) أننا : « اذا استثنينا الصين

لا يوجد شعب آخر يحق له الفخار بوفرة كتب علوم لغته ، وبشعوره المبكر بحاجته الى تنسيق مفرداتها ، حسب أصول وقواعد غير العرب » .

ويحكى السيوطى فى المزهر ١/٢ أن بعض الملوك فى المغرب سأل الصاحب بن عباد أن يقدم عليه ، فقال له : « أحتاج الى ستين جملا أنقل عليها كتب اللغة التى عندى » .

وبداية الدرس اللغوى عند العرب ، كانت نحوية ، ثم صرفية ، وجمالية فى علوم البلاغة ، وأدبية نقدية فى علوم الأدب ونقده ، والعروض والقافية ، كما اهتموا بعلوم القرآن وقراءاته وتفسيره لغويا ومعنويا ، ونشطوا فى جمع الألفاظ وتدوينها لصنع المعاجم الدقيقة حتى تحفظ اللغة من الضياع .

وعنى الخليل بن أحمد بدراسة الناحية الصوتية والحروف معتمدا على الناحية الذواقية عنده والجهد الشخصى ، كما أبرز سيبويه هذه الجوانب فى كتابه ، ومن الغريب أن دراسة العلوم اللغوية الحديثة بوسائلها التقنية وامكاناتها المعينة ، لم تناقض ما قرره أسلافنا ، ولكن اختلفت معهم قليلا فى بعض الجزئيات .

ولذا يعتبر القدامى من علمائنا ــ بحق ــ أساتذة لعلماء الغرب ــ ابان نهضتهم ــ فى هذا الجانب اللغوى ، كما هم أساتذتهم فى الجوانب الحضارية والثقافية الأخرى .

ومن المستشرقين من أهدانا الرائع من ثمار أبحاثهم الحديثة ، فى ضوء مناهج البحث العلمى ، وامكاناته المتاحة .

وعسى أن تفتح عيوننا فى صحوتنا على ثورة ثقافية ونهضة علمية ، تعيد الينا ماضينا المشرق ، ومستقبلنا الوضىء الذى نرنو اليه .

ولم تبرز عناية العرب بفروع الدراسات اللغوية التى بحثوها بصورة شاملة ، ومنهج أدق وأوفى ، وأدخل فى علوم اللغة الا ابان القرن الرابع الهجرى ، حين ظهرت

آراء الفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس وغيرهم ..

***

وقام الدرس اللغوى فى الغرب على غرار صنع العرب ، فاحتذوا حذوهم ، وساروا على نسطهم زمنا كما سنذكر ذلك . الا أن علماء الغرب ـ فى نهضتهم الحديثة ـ خطوا خطوات أوسع ، وفتحوا ميادين جديدة ، وطرقوا أبوابا لم يطرقها العرب .

فاعتنوا بعلم اللغة التاريخى ، والجغرافى ، وألموا بالحقل النظرى والتطبيقى واعتنوا بعلم اللغة المقارن ، وعلاقة اللغة بغيرها من العلوم ، وبيان المؤثرات التى يخضع لها التفكير اللغوى ... واهتمت جامعاتهم الكبرى بانشاء دوائر خاصة لعلم (الفونتيك) وحشدوا الأساتذة واهتموا بالمختبرات ، والمسجلات والمصورات ، والأشعة الخاصة كمختبرات الفيزياء وغيرها من العلوم .. فتوصلت الى نتائج باهرة ، فأمها الطلاب ، وأرسلت اليها البعوث ، واهتمت جامعاتهم بنشر أبحاثهم ... وفى ايجاز يحدثنا الدكتور محمد اسماعيل صينى ـ فى مجلة الفيصل ـ عن النظرة الجديدة فى علوم اللغة ، يقول :

موضوع علم اللغة :

يدرس علم اللغة بفروعه كل ما يتعلق باللغة من أصوات منطوقة أو مسموعة ، أو ألفاظ أو تراكيب أو دلالة ، والعوامل المؤثرة فى هذه الظواهر اللغوية : فسيولوجية كانت أو نفسية أو بيولوجية أو اجتماعية ، ويتبع فى ذلك الأساليب العلمية المعروفة من جمع وملاحظة واستقراء واستنتاج القواعد ، ثم النظريات العامة من الحالات المختلفة . ويستعين فى سبيل تحقيق ذلك بالعلوم الأخرى ، مثل : الرياضيات والمنطق (لتقديم النتائج والوصول اليها أحيانا) ، وعلم وظائف الأعضاء والطبيعة (فى دراسة نطق الأصوات وسماعها) وعلم النفس والاجتماع والتربية (فى دراسة تعلم اللغة واستيعابها وآثارها على الفرد والمجتمع ، كما يحدث فى علم اللغة التطبيقى مثلا) ويستعين علماء

اللغـة ببعض الآلات ،ووسـائل التقنيةالمختلفة أمثال الأشعة السينية والمطـايف (Spectograph) والحاسب (الالكترونى) الى جانب أجهزة تسجيل الصوت المعروفة .

من كل هذا يتضح لنا أن مايعرف بعلم اللغة (Linguistics) هـو فى واقع الأمر مجمـوعة من العلوم يجمعها هـدف واحد هـو دراسـة الظـواهر اللـغوية لدى « الانسان » .

الفروع الرئيسية لعلم اللغة :

اتفق علماء اللغة على تقسيم علم اللغة الى شعبتين رئيسيتين هما :

١ ـ عـلم اللغـة النظـرى أو العـام .

٢ ـ علم اللغة التطبيقى .

وهناك من يرى اضـافة شعبة ثالثة هى :

٣ ـ علم الأصوات .

لكننا نرى أن علم الأصـوات بهذا المفهوم يمكن ادراجـه تحت مفهوم علم اللغة النظرى أو العام ، حيث أن الأصوات جزء من الظواهر والنشاط اللغـوى لدى الانسان ، وكثيرا ما تتشابك دراسة الأصوات بالدراسات الصرفيـة والنحـوية ، خصوصا فى المدارس الحديثة مثل المدرسة التوليدية (Generative) Grammar)

على الرغم من هـذا الاتفـاق العام على التقسيم ، فانه ليس مـن السهولة بمكان تحديد معالم أى من الشعبتين تحديدا دقيقا ، لأن ما يعتبره البعض نظريا يراه آخرون تطبيقيا والعكس بالعكس. ولذلك فان ما سنذكره فى السطور التالية هو مفهوم شخصى : قد يتفق مع آراء الدارسين لعلم اللغة فى أجزاء منه ويختلف معهم فى أجزاء أخرى ، حيث أن الظاهرة اللغوية الواحدة قد تتم دراستها بأسلوبين مختلفين : أحدهما نظرى ، والآخر تطبيقى ، بل وربما بأسلوب ثالث « بين بين » فدراسة الألفاظ مثلا قـد تكون موضـوع دراسـة الصـرف : (Morphology) أو المعانى : (Semantics) وهمـا دراستان نظـريتان فتسمى عـلم الألفاظ : (Lexicology) وقد تكون موضوع دراسة المعاجم

وصناعتها ، وهى دراسة تطبيقية فتسمى صناعة المعاجم : (Lexicography) وفى أغلب الحالات تتداخل الدراستان فتكمل احداهما الأخرى ، وخصوصا اذا علمنا أن الدراسة التطبيقية لابد وأن تعتمد على أساس نظرى سليم .

علم اللغة النظرى :
(Theoretical Linguistics)

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة من المعارف المتعلقة باللغة أهمها مايلى :

١ ــ علم الأصوات بفروعه مثل (علم الأصوات النطقى) : (Articulatory Phonetics) الذى يدرس مخارج الحروف وأعضاء النطق (وعلم الأصوات السمعى) : (Acoustic Phonetics) الذى يعنى بدراسة موجات الصوت وكيفية انتقاله فى الهواء ، ووصوله الى السمع والعوامل المؤثرة فى كل ذلك ، وعلم وظائف الأصوات فى اللغات : (Phonology) وغيرها .

٢ ــ علم القواعد
(Grammar) ويدخل تحت هذا المسمى :

(أ) علم الصرف : (Morphology) الذى يعنى بدراسة بنية الكلمة أو بتعبير أدق دراسة الوحدات الناقلة للمعنى : (Morphemes) مثل الكلمة وأجزائها وتصريفها .

(ب) علم النحو : (Synitax) وهو الفرع الذى يدرس بنية الجملة وشبه الجملة وأنواعها ، أى انه يدرس نظم الكلام .

٣ ــ علم اللغة التاريخى :
(Historical Linguistics)

ويدرس هذا الفرع من علم اللغة تطور اللغات والأسر اللغوية ، وارتباط اللغات المتقاربة النسب بعضها ببعض ، وأوجه الشبه والاختلاف بينها .

٤ ــ علم الدلالة :
(Semantics) .

وهو يدرس العلاقة بين الرمز اللغوى ودلالته أو دلالاته ، كما يدرس تطور معانى الألفاظ من الناحية التاريخية بما فى ذلك تأثير

المجـــاز اللغــــوى ، من كناية واستعارة ... الخ ..

علم اللغة التطبيقى :
(Applied Linguistics)

يدخل تحت هذه التسمية مجموعة أخرى من علوم اللغة أهمها :

١ ــ علم اللغة النفسى :
(Physico Linguistics)

ومــن أهم مواضيع دراســته بالنسبة لعــالم اللغــة هو اكتساب اللغة الأصيلة (عند الأطفال بوجه خــاص والبــالغين بشكل عام) ، والعوامل المؤثرة فى ذلك بيولوجية كانت أو نفسية أو اجتماعية،ثم تعلم اللغات الأجنبية ، والعوامل المؤثرة فى ذلك داخلية كانت أو خارجية ؛ مساعدة كانت أو مثبطة ، كما يعنى بدراسة عيوب النطق والكلام .

٢ ــ علم اللغة الاجتماعى :
(Socio linguistics)

ويعنى هذا الفرع بتأثير المجتمع على اللغة ، واللغــة على المجتمع ، كمــا يدرس مشكلة اللهجـــات الجغرافية (فى مناطق مختلفــة) والطبقية (أفراد المجتمع فى طبقاته الثقافية او الاقتصادية) ، والازدواج اللغوى وما شابه ذلك ، ومن أهم مجــالات هــذا العــلم التخطيط اللغوى الذى يعالج قضايا كثيرة ، مثل : تقرير نظام الكتابة واختيار اللغات الرسمية وأساليب المحافظة عليها وتطويرها .

٣ ــ علم اللغة الآلى :
(Computational)
(Linguistics)

وهو الفرع الذى يعنى بدراسة اللغة لتطويع المادة اللغوية للحاسب الالكترونى والاستفادة من الحاسب الالكترونى فى الدراسات اللغوية ومن أبرز مواضيع هذه الدراسات هــــو الترجمــــة الآليــــة :
(Machine Translation)
وتخــزين المعلومات واســتعادتها من ذاكــرة الدماغ الالكترونى :
(Information retrieves)

٤ ــ صــــناعة المعــــاجم :
(Lexicography) *

ويدرس هذا الفرع من علم اللغة التطبيقى : الأمور المتعلقــة باعداد المعاجم أحادية اللغة . (مثل لسان العرب والمعجم الوسيط) ، وثنائية اللغة (عربى ــ انجليزى مثلا) ، أو متعددة اللغات (مثــل عربى ــ انكليزى ــ آلمانى) بمــا فى ذلك

جمع المواد اللغوية وتنسيقها وأساليب عرضها .. الخ ..

٥ ــ تعليم اللغات :
(Language Teaching)

يعتبر هذا الفرع من أهم فروع علم اللغة التطبيقى ، ان لم يكن هو أهمها على الاطلاق ، مما حدا بكثير من علماء اللغة الى استعمال اصطلاح علم اللغة التطبيقى مرادفا لتعليم اللغات (الاجنبية على وجه الخصوص) . وهذا الفرع يعنى بكل ما له صلة بتعليم اللغات من أمور نفسية واجتماعية وتربوية بما فى ذلك الاتجاهات والطرائق المختلفة والوسائل المعينة ، من اعداد للمدارس والمناهج والمواد التعليمية والاشراف عليها .

هذا وتوجد الى جانب تعليم اللغات دراسات أخرى وثيقة الصلة بها ، مثل :

(أ) التقابل اللغوى وتحليل الأخطاء :
(Contrastive and Error Analysis)

الذى يقوم بمقارنة اللغات المختلفة ، ودراسة نقاط الاختلاف بينها ، للتعرف على النقاط التى قد تكون عقبة فى طريق دارسى تلك اللغات من الأجانب ، كما يدرس هذا الفرع بأسلوب علمى الأخطاء التى يرتكبها دارسو اللغة ، ومحاولة التعرف على أسباب تلك الأخطاء لمعالجتها .

(ب) ــ تصميم اختبارات اللغة :
(Language Testing)

وموضوع هذا الفرع من الدراسة هو تصميم اختبارات اللغة أصلية كانت أم أجنبية ، وتطوير الوسائل اللازمة لتحسين هذه الاختبارات من ناحية المحتوى والناحية الفنية والعملية ، للوصول بها الى أعلى درجة ممكنة من الصدق : (Validity)
والثبات : (Reliability)
والتميز : (discrimination)
وسهولة التطبيق : (Practically)

(ج) ــ بالاضافة الى ما سبق ذكره نجد بعضا من الجامعات الغربية التى تقوم بتدريس طرائق محو الأمية : (Literary) بوصفه فرعا من فروع علم اللغة التطبيقى .

« للحديث بقية »

الدكتور توفيق شاهين

ابن خلدون
بين اللغة .. وعلم الاجتماع

الأستاذ محمد عادل سليمان

لن أكتب تاريخا حتى أفرد للتعريف بالرجل فصلا أو سطورا أفرغ فيها وقتا مضيعا وجهدا مبعثرا ، فأنا أحرص على الوقت المخصب حتى أفرغ الجهد فى الصميم .

وابن خلدون ــ ذلك الاسم الممتد فى ضمير التاريخ فكرا موسوعيا ، والموصول فى كيان علوم الانسان مادة دفوقة العطاء ــ عرفه الناس من خلال كتابه الرائد « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر » وهو اشارة الدخول فى ثبت التاريخ ذى المنهج الاجتماعى .

ومقدمة هذا الكتاب استقلت عنه فى وحدة ذاتية حتى صارت ــ وحدها ــ علم ابن خلدون ، وهجر الناس ــ الى المقدمة ــ الكتاب وأصبحت مجالا خصيبا للدراسات والبحوث .

وكانت المقارنات بين « ابن خلدون» رائد علم الاجتماع ، وبين من جاء بعده من علماء الاجتماع فى أوروبا أمثال « دوركهايم » .

ــ وان يكن بعض المتمرسين بتجربة الدراسات الاجتماعية يعزو قهر المواكب الغازية لتراب الامة العربية الى علماء الاجتماع وعلم الاجتماع ، ورأوا انه علم « ابتدع فى بيئة الحقد الصليبى للتعرف على مواطن الوهن العربى حتى يمكن لأعداء الاسلام الانقضاض على المسلمين ، فانه ــ بلا شك ــ لم يكن وسيلة ابن خلدون لهذه الغاية الصليبية .. بل كان لديه وسيلة لدراسة التاريخ وأحوال الامم والعمران ، ومحاولة تقعيد هذه

الدراسة على أسس اجتماعيـة ، وهذا منهجه .

وليس من اهتمامـــاتنا المنهج الاجتماعى فى التاريخ عنـد « ابن خلدون» ، فلهذا المجال متخصصون فوق كل منهم يسـهمه فى اتجـاه ولكن اهتمـام البحث « البـلاغة العربية .. فى تصور ابن خلدون» .

ومن خلال استقطاب المتناثرات عن هذا التصور ـ فى المقدمة ـ حول قطب دائرة هذا التصور يمكن أن أقرر فى البداية : أن « ابن خلدون » لم يستطع أن يخرج من التركيبـة الحـاصرة له فى المساحة الاجتماعية حتى وهو يكتب عـن علوم اللسان .

ثم ان كتاباته عن « البلاغة » ما كانت عن رؤية مستقلة مستوعبة ذات تخصـص أفـرغ لـه الوقت والجهد ، بقدر ما كانت نثارا بديدا فى صفحات مقدمته ، مما يوحى أنه لم يقصد الى البلاغة لذاتهـا ، بل جاء حديثه عنها عرضا ألجـأته اليه ضرورة الحـديث عن اللسان العربى فى سياق الجانب الاجتماعى لهذا اللسان .

واعتقد .. أن هذا سر اجمـال الحـديث عن « البـلاغة » دون الابحار الى مرافئها القصية .

ومن هنا .. فان حديث « ابن خلدون » عن « اللغة » فى مقدمته لا ينقله من ريادة «علم الاجتماع» الى مجال الريادة فى « علم اللغة» وأقرر ـ كذلك ـ أن اخضاعـه جميع العناصر الفكرية فى مؤلفاته للمنهج الاجتماعى كان سبب ذيوع شهرته وريادته فى «علم الاجتماع» ومصدريته لمن جاء بعده أو نهل من نبعه وعطائه .

اذن .. فحديث « ابن خلدون » فى « عـلم الاجتمـاع » حـديث تأصيل التاريخ على منهج غيـر سردى أو تسجيلى ، ولكن .. على منهج العلل الاجتماعيـة والطبائع العمرانية فى التزام دقيق وحـاذق عند كتابته للتاريخ ، وهذا مجـال « ابن خلدون » ، وأسـلوبه فى بناء فكره .

وحديثه عن « اللغة » حديث التتبع لعلوم اللسان فى البيئة العربية باعتبارها حاضنة المجتمع العربى .

ولم يحاول « ابن خلدون » عند حديثه عن « علوم اللسان » أو عن « اللغة » ـ باعتبارها أحد علوم اللسان ـ أن يخوض فى تفريعاتها الجزئية ، بل أشار اليها فى المامة كلية مضغوطة .

فاللسان العربى ـ لديه ـ « أركانه أربعة : اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب » (١) . ولعلنا نرى من هذا التقسيم لعلوم اللسان العربى ـ عند ابن خلدون ـ انه يدرج « علوم البلاغة » فى « البيان » .. ربما لأنه المقصود الأهم والأشرف من جهة التصوير فى التشبيه والاستعارة ، وربما لأنه يرى أن « البلاغة » بجميع فروعها وجزئياتها تهدف الى « البيان » ، لا بمعنى البيان الاصطلاحى فى « البلاغة » .. لكن بمعناه اللغوى العام « الظهور والايضاح » ، ووضعه « البيان » عنوانا وركنا فى علوم اللسان يعبر به عن « البلاغة » يحتمل المعنيين معا : أنه الأهم ، وأنه الأعم .

وحين تحدث « ابن خلدون » عن « أركان اللسان » لم يضعها بترتيب الأهم ذلك لأنه جعل علم « النحو » أهم هذه الأركان الأربعة « والذى يتحصل أن الأهم المقدم منها هو النحو ، اذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة ، فيعرف الفاعل من المفعول ، والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الافادة » (٢) . ولهذا .. تحدث عنه أولا برغم أنه ذكره بعد « علم اللغة » عندما حدد أركان اللسان العربى الأربعة .

ولم يترك الرجل مجالا لمعترض بعلم اللغة كيف لا يتقدم وهو الأصل لأن علم النحو يبحث فى الكلمات ، والكلمات موضوعة قبل

---

(١) مقدمة ابن خلدون .. الجزء الرابع ـ تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، نشر لجنة البيان العربى ، مطبعة الرسالة ١٩٦٨ ص ١٣٧٤ السطر ١

(٢) المصدر نفسه .. ص ١٣٧٤ السطران ٥ ، ٦

النحو ، وهى موضوع علم اللغة ، ولولا كلمات اللغة ما وجد علم النحو أصلا .

ولهذا .. تفطن الى امكان ورود هذا الاعتراض « وكان من حق علم اللغة أن يتقدم ، لولا أن أكثر الأوضاع باقية فى موضوعاتها لم تتغير ، بخلاف الاعراب الدال على الاسناد والمسند والمسند اليه (١) ، فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر ، فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة ، اذ فى جهله الاخلال بالتفاهم جملة ، وليست كذلك اللغة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وبه التوفيق » (٢) .

وقد بدأ الكلام عن «علم اللغة» بتعريف موجز « هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية » (٣) ، وهو تعريف تحدث بعده عن « الملكة » وأنها حين فسدت فى ضبط الكلمات ، ثم استمر هذا الفساد وسرى الى موضوعات الالفاظ كان لا بد من حفظ الموضوعات اللغوية بالتدوين « لما فسدت ملكة اللسان العربى فى الحركات المسماة عند أهل النحو بالاعراب ، واستنبطت القوانين لحفظها كما قلناه ، ثم استمر ذلك الفساد بملابسة العجم ومخالطتهم ، حتى تأدى الفساد الى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثير من كلام العرب فى غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين فى اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية ، فاحتيج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب (٤) ، والتدوين خشية الدروس (٥) ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، شمر كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين » (٦) .

---

(١) يقصد بالاسناد والمسند والمسند اليه منزلتها فى علم النحو لا فى علم البلاغة ـ

(٢) مقدمة ابن خلدون ـ الجزء الرابع ص ١٢٧٤ الاسطر ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

(٣) المصدر السابق .. ص ١٢٧٨ السطر ٥

(٤) يقصد بالكتاب : الكتابة ـ

(٥) يقصد بالدروس : طول العهد والاندثار بالتقدم .

(٦) المقدمة ـ الجزء الرابع ص ١٢٧٨ الاسطر من ٥ ـ

وهنا .. تبين أنه بنى حديثه فى علم اللغة على أساس عمرانى وفكر اجتماعى .. اذ تناول جانب اختلاط المجتمع العربى ذى الملكة الاصيلة بالمجتمع العجمى ، وجعل هذا الاختلاط أساس فساد ملكة اللسان العربى فى اللغة العربية .

وهذا حق..غير اننا لا نستطيع ــ برغم حديثه عن اللغة هذا الحديث الهام الموجز ــ أن نعد ابن خلدون من رواد علم اللغة .

ابن خلدون

ومنهجه فى المقدمة

ومن هذه الرؤية لمنهج ابن خلدون نقرر أن المعايش ــ منأول الطريق ــ لابن خلدون فى كتابه « العبر .. وديوان المبتدأ والخبر» وفى « المقدمة » يرى انه جعلهمه الانسان ، وهو ــ حين جعل همه الانسان ــ فليس للجوانب الانسانية فى الانسان ، بل لأنه حركة الفكر ونبض المجتمع .

فهو ــ فى المقدمة ــ لا يخرج عن اطار علم الاجتماع ، بل يحاول أن يدخل جميع ما يتناوله فى دوائر هذا العلم الذى يعتبر « ابن خلدون » رائده فى جدارة وشموخ .

ذلك انه كثيرا ما يقول : « ولا ينبغى للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه » (١) .

وكذلك : « ينبغى لك ألا تطول على المتعلم فى الفن الواحد» (٢) ثم يتابع حديثه بعد : « واعلم أيها المتعلم أنى اتحفك بفائدة .. » (٣) ولا يقتصر على ذلك .. بل يفتح لنا منهجه فى وضوح مبين : « وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر ، ونال منها العسف ، واعتبره فى كل ما يملك أمره عليه ، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به ، وتجد ذلك فيهم استقراء ، وانظره فى اليهود وما حصل بذلك من خلق السوء حتى

(١) المقدمة ــ الجزء الرابع ص ١٢٥٤ السطر ٧
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٥٤ السطر ١٥
(٣) المصدر نفسه ص ١٢٥٥ السطر ٦

أنهم يوصفون به فى كل أفق وعصر بالحرج ، ومعناه فى الاصطلاح المشهور التخابث والكيد » (٤) .

ومن هنا .. نرى : أنه اتخذ الانسان محورا يدور فى دائرته على نظام اجتماعى وسلوكى ، واذا كانت الدائرة أوسع من المحور ، فان « ابن خلدون » جال فى هذا المجال الاجتماعى « الدائرة الكبرى » فى تتبع وملاحظة ، وكان فى رصده للحركات الاجتماعية فى حالة حضور ذكى .

ومن ذلك نقرر : أنه اخضع كل شىء فى كتبه لفكره الاجتماعى . حتى حديثه عن علوم اللسان العربى تناوله باعتباره جزءا من الانسان الذى هو جزء من المجتمع وحركة العمران .

لكنى لا أظلم الرجل ، ولا أغمطه شيئا من حقه .. فقد جعل الدائرة الكبرى « المجال الاجتماعى » فى كتاباته فى خدمة المحور « الانسان » ذلك .. لأنه يلاحظ ، ويرصد ، ويتتبع حركات المجتمعات فى دقة بالغة وذكاء لماح ، ثم يعطى النتيجة من هذا الرصد المفتوح ـ بعد تجاربه السياحة ، وخبرته الطويلة ـ للانسان .

منزلة علوم اللسان عند ابن خلدون

وحين تحدث عن منزلة علوم اللسان تحدث عنها باعتبارها الوسيلة الوحيدة لمعرفة القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والقرآن والسنة هما الغاية العليا للانسان المسلم ، ذلك أنهما مصدر دينه ، ومناط عقيدته ، منهما تنبع الشريعة ، وتمتد أحكامها ، والدين ـ عقيدة وتطبيقا ـ فى أوامره ونواهيه تكاليف الهية تعبد الله بها الناس ، فهى رباط الأرض بالسماء ، وهى نور الله للانسان ، ومن هنا كان الكتاب والسنة هما الغاية العليا للانسان المسلم .

والقرآن والسنة ـ وهما مصدر الأحكام الشرعية ـ بلغة العرب ، ولهذا .. يرى « ابن خلدون »

---

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٦٦ الاسطر ٣ ـ ٧

أن منزلة علوم اللسان تأتى من منزلة القرآن والسنة فى المجتمع الاسلامى كله من جهة كونهما أصل العقيدة الايمانية .

فبعد أن جعل أركان اللسان العربى أربعة قال عن هذه الأركان « ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة ، اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة ، وهى بلغة العرب ، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب ، وشرح مشكلاتها من لغاتهم ، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة » (١) .

هذا .. عن علوم اللسان — جملة — ومنزلتها عند « ابن خلدون » وهو حق على الحقيقة ، ثم هو يتناول منزلة كل علم من سائر العلوم — على حدة —

فالنحو — لديه — الأهم المقدم ، وقد تقدم ذلك (٢) ، اذ النحو تأتى منزلته من معرفة الفاعل والمفعول ، والمبتدأ والخبر بالاعراب وما يدل عليه من حركات الاعراب ، ومن معرفة الاسناد والمسند والمسند اليه ، ولولا ذلك العلم « النحو » لجهل أصل الافادة ، وفى الجهل اخلال بالتفاهم — كما يرى ابن خلدون —

ثم هو يرى أن « علم اللغة » يأتى فى المنزلة الثانية بعد « علم النحو » ، وان كانت علة تدوينهما واحدة ، وهى الاختلاط بين العرب والعجم ، وطغيان عجمة الموالى ، مما أخل بالضبط فى الاعراب ، فدعا ذلك الى تدوين «علم النحو» واخل بموضوعات الألفاظ بسبب هجنة المتعربين المخالفة لصريح العربية فألح على كتابة المعاجم اللغوية .

وان كان « علم البيان » أداة لمعرفة اعجاز القرآن ووجوه الاعجاز — فهو لهذا جليل الخطر والفائدة — الا ان « ابن خلدون » اعتبره بعد « علم اللغة » فى

---

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٢٧٤ الأسطر ١ — ٤
(٢) ص ٨

المنزلة .. لأنه « علم حادث فى الملة بعد علم العربية (١) واللغة » (٢)، والرأى ما أرى ، لأن « البيان » لا يكون الا بعد معرفة « النحو » لتصحيح الضبط ، ومعرفة « علم اللغة » لسلامة اللفظ وبراءة الكلمة فى النطق .

ثم الأدب ــ عنــده ــ علم ، ويبدو أنه لا يحاول أن يدخل فى حوار مسيحى بين العلم والفـن فتجوز فى كلمة « علم » وأطلقهـا على الفن مثلما يطلقها على العـلم ذى الضوابط والقوانين ، فأعطاها ــ بذلك ــ صفة الشمول .

ولذلك .. فالأدب ــ عنده ــ « علم لا موضوع له ينظر فى اثبات عوارضه أو نفيها » (٣) .

والمعـــروف .. أن العلم ذو موضوع دائما .. لكنه حين جعل الأدب علمــا بلا موضـوع أو لا موضوع له فانما يقصد أنه بلا قواعد ولا قوانين ، ولهــذا .. عرف الأدب بثمرته ومقصــوده « وانما المقصود منه عند أهـــل اللسان ثمرته ، وهى الاجادة فى فنى المنظـوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » (٤) .

ثم أراد أن يشير الى طـريق الاجادة فى الشعر والنثر ، فذكـر أن الطريق هو حفظ الكثير مـــن أشعار العرب وكلامهم ، ومن هذا الاستظهــار تحصــل الملـكة « فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة ، وسجـع متساو فى الاجادة ، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة » (٥) .

واذا كانت علوم اللســان قد دونت فانها دونت لحفظ التراث ،

---

(١) يقصد : علم النحو

(٢) المقدمة : الجزء الرابع ص ١٢٨٣ السطر الاول

(٣) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٢٨٧ السطر ٣

(٤) المصدر السابق ص ١٢٨٧ الاسطر ٤ ، ٥

(٥) المصدر السابق ص ١٢٨٧ الاسطر ٥ ــ ٧

ودقة الضبط ، وذلك لخدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة .

واذا عرفنا أن علوم اللسان العربى من نحو ولغة وبلاغة وأدب انما هى فروع لعلوم القرآن والسنة .. عرفنا منزلة علوم اللسان ، وقيمة الضغط الشديد الملح على ضرورة « علوم اللسان » عند « ابن خلدون » .

البلاغة العربية فى تصور ابن خلدون

واذا كانت علوم اللسان كلها مجالها البحث فى اللفظ وما يفيده من حقيقة لغوية ، أو يضبط به من حركة اعراب ، فان « ابن خلدون » جعل « علم البيان » أصلا ذا ثلاثة أصناف : ما يبحث عن المطابقة لمقتضى الحال ، وما يبحث عن اللازم اللفظى وملزومه ، وما يبحث عن تزيين الكلام .

ونجد أنه جعل « البيان » رأسا ورمزا لعلوم البلاغة الثلاثة ، وقد بين هو ذلك ، ووضح سببه ، وأنه ليس من وضعه وحده ، ولم يكن بدعا منه أنه جعل البيان عنوانا لعلوم البلاغة ، ولكنه مسبوق بمن قبله الذين أطلقوا اسم « البيان » على فنون البلاغة الثلاثة ، وأشار هو الى سبب اطلاقهم اسم « البيان » على هذه الفنون بأن الأقدمين أول ما تكلموا فى « البيان » .

« وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان ، وهو اسم الصنف الثانى لأن الأقدمين أول ما تكلموا فيه » (١) .

وعد « ابن خلدون » علم البيان من علوم اللسان ، وجعل تعلقه بالالفاظ « علم البيان » هذا العلم حادث فى الملة بعد علم العربية واللغة ، وهو من العلوم « اللسانية لأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده ويقصد بها الدلالة عليه من المعانى » (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٢٨٥ السطر ١ ، ٢

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨٢ السطر ١ ، ٢

وأخذ بعد ذلك يبدأ فى التقسيم « الامور التى يقصد بها افادة السامع مع كلامه هى : اما تصور مفردات تسند ويسند اليها ، ويفضى بعضها الى بعض ، والدالة على هذه المفردات من الأسماء والأفعال والحروف ، واما تمييز المسندات من المسند اليها ، والأزمنة ويدل عليها بتغيير الحركات وهو الاعراب وأبنية الكلمات ، وهذه كلها صناعة النحو .

ويبقى من الأمور المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين ، وما يقتضيه حال الفعل ، وهو محتاج الى الدلالة عليه لأنه من تمام الافادة واذا حصلت للتمكلم فقد بلغ غاية الافادة فى كلامه » (١) .

ويستطرد « ابن خلدون » فى بيان هذا المعنى ، وان لكل مقام مقالا يختص به ، وأن قولهم « زيد جاءنى » مغاير لقولهم « جاءنى زيد » وهذا مدخل التقديم والتأخير بين المسند والمسند اليه ، وان التقديم هنا للاهتمام .

ويرى « ابن خلدون » أن الكلام العارى عن التأكيد انما يفيد خالى الذهن وأن المؤكد يفيد المتردد ، وزيادة التأكيد انما تكون للمنكر .

ويدخل مجال الخبر والانشاء فى الجملة الاسنادية « ثم الجملة الاسنادية تكون خبرية ، وهى التى لها خارج تطابقه أولا ، وهى التى لا خارج لها كالطلب وأنواعه »(٢) .

وفى تتابع وانسياب يتحدث عن الفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة ، ولكنه حين يتحدث عن التشبيه الذى تعارف أهل البلاغة على أنه « تشبيه بليغ » يعده من فن « الاستعارة » كما تقول : « زيد أسد » فلا تريد حقيقة الأسد لمنطوقه ، وانما تريد شجاعته اللازمة ، وتسندها الى « زيد » وتسمى هذه « استعارة » (٣) .

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٨٢ الاسطر من ٢ - ١٠
(٢) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٣ السطر الاخير ، ص ١٣٨٤ السطر الاول
(٣) نفس المصدر ص ١٣٨٤ السطر ٦ ، ٧

ثم انتقل من ذلك الى « الكناية » وبين أن « هذه كلها دلالة زائدة على دلالة الألفاظ من المفرد والمركب ، وانما هى هيئات وأحوال الواقعات جعلت للدلالة عليها أحوال وهيآت فى الألفاظ ، كل بحسب ما يقتضيه مقاومة ، فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات التى للهيآت »(١) .

ومن هذه المقولة نرى أن «ابن خلدون » يجعل الكلام فى « علم النحو » من الاعراب والبناء ، وبيان الفاعل والمفعول وغير ذلك — مما هو مجال علم « النحو » — دلالات زائدة على دلالة الألفاظ .

فقولنا « محمد كريم » مثلا لها دلالة لفظية ودلالة اعرابية ، فدلالة اللفظ فى « محمد » ذات انسانية مسماة بهذا الاسم ، مخبر عنها بصفة معينة هى الكرم ، ودلالة الاعراب حركة الضم على الحرف الأخير من الاسم ، وترى — مع ابن خلدون — أن حركة الضم على آخر الاسم دلالة زائدة على دلالة اللفظ ذاته ، وينسحب هذا على « علم النحو » .

وكذلك .. يجعل الكلام فى « علم اللغة » — معرفة نطق الكلمات وضبط اللفظ — دلالة زائدة عن دلالة اللفظ ، لكنه يجعل الكلام فى « زيد أسد » دلالة استعارية وهى زائدة كذلك عن دلالة اللفظ بمعنى أن كلمة «أسد» حين أستعيرت « لزيد » أعارته صفة زائدة عليه هو جاءته من اضافة صفة الأسدية عليه وهى دلالة زائدة على ذات اللفظ المعار — باعتباره أعير لما ليس له — لا على حقيقة ما وضع له اللفظ أصلا .

وفى « الكناية » دلالة زائدة عن دلالة اللفظ لأنها دلالة اللازم اللفظى لا دلالة الوضع اللغوى .

وكذلك « البديع » دلالة زائدة عن دلالة اللفظ لأنه من ترف الزينة وبهرجة الترصيع والتجنيس .

---

(١) نفس المصدر ص ١٢٨٤ الاسطر من ٣ — ١٠

اذن .. لم يبق لديه مما تتطابق فيه الدلالتان « اللفظية والمعنوية » أو « اللفظية وحال المخاطب » غير « البلاغة » ـ علم المعانى ـ .

فهو يجعل الكلام فى علم « البيان » « البلاغة » البحث فى دلالة التراكيب دلالة مطابقة غير زائدة ، ويقصد بالمطابقة هنا ..

مطابقة الكلام والتراكيب مقتضى الحال ، وليس كذلك علم النحو ، فلا يشترط فيه المطابقة لمقتضى الحال ولا علم اللغة لأنه يبحث فى الألفاظ المجردة لا فى التراكيب ، ودلالة التراكيب هى ـ وحدها ـ التى يسكن فيها التطابق وعدمه ، وليست كذلك الألفاظ المجردة ، وليس كذلك « التشبيه والاستعارة والكناية » كما سبق .

ونظرة خاطفة على هذا التقسيم عند « ابن خلدون » تبين أنه جعل « علم البيان » مبحثه الاستعارة والكناية ، ولكن « علم البلاغة » عنده بهذه الصورة وباعتباره يبحث فى مطابقة الكلام لمقتضى الحال من تقديم وتأخير ، واسناد ، وايجاز واطناب ومساواة ، وفصل ووصل ، وخبر وانشاء ، وتعريف وتنكير ، وتاكيد وعطف الى غير ذلك ، انما يدخل ـ عندالمتأخرين والمحدثين ـ تحت اسم «المعانى» .

ومعنى هذا..أن « ابن‌خلدون» جعل « علم البلاغة » هو مباحث « علم المعانى » ، فالعلم ـ لديه فى هذا المجال ـ بيان وبلاغة وبديع ، وهو ما صنف عند المتأخرين والمحدثين « البيان ، والمعانى ، والبديع » .

لكن .. هل يقصد « ابن خلدون » بعلم البلاغة هنا الاقتصار على مباحث المعانى ؟ أم هو يقصد المعنى العام ؟

لا شك فى أنه ..لو كان يقصد المعنى الأول من مطابقة الكلام لمقتضى الحال فقط لاكتفى من الموضوع كله بما يدور حول هذا المعنى وحده ، ولما تحدث عن البيان وجعله رأس الباب ، ولما تحدث عن البديع وموضوعاته ولكنه اذ تحدث عن‌البيان ومباحثه ، والبديع

وما فيه من سجع وتجنيس وترصيع وتورية ، فانما يقصد المدلول الشمولى لما نقصده — الآن — بكلمة « البلاغة » ، وهو ما كان يقصده الأقدمون بكلمة «البيان» .

بعد هذا التقسيم .. بدأ يتشد الى مجاله الفريد « علم الاجتماع العمرانى » وعناية أهل المشرق بالبيان ، وانهم أقدر عليه من أهل المغرب ، وارجع سبب ذلك الى أن « علم البيان » كمالى فى العلوم اللسانية « والعناية به لهذا العهد عند أهل المشرق فى الشرح والتعليم منه أكثر من غيره ، وبالجملة .. فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه — والله أعلم — أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع ، الكمالية توجد فى العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرناه » (١) .

غير أنه عاد فذكر سببا آخر ، قد يظنه الباحث مغايرا مغايرة تامة للأول ، لكنه — مع بعد الرؤية — يمكن أن يتزج بالأول ، فيشكلا — معا — سببا واحدا .

« أو نقول .. لعناية العجم وهم معظم أهل المشرق كتفسير « الزمخشرى » وهو كله مبنى على هذا الفن ، وهو أصله ، وانما اختص بأهل المغرب من أصنافه « علم البديع » خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا ، وعددوا أبوابا ، ونوعوا أنواعا ، وزعموا انهم أحصوها من لسان العرب ، وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وأن علم البديع سهل المأخذ ، وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارهما ، وغموض معانيهما ، فتجافوا عنها » (٢) .

بعد هذا .. يوضح الغاية من هذا الفن ، وأنه ليس قوانين تحفظ ، ولا ضوابط تلملم أطراف هذا الفن ، ولا قواعد تجمع شتاته .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٣٨٥ الأسطر من ١١ — ١٣

(٢) المصدر ذاته : ذيل ص ١٣٨٥ ، وأوائل ص ١٣٨٦

بل الغاية منـــه ما كان ــ فى البداية ــ سبب تعلمـــه ، وسر تدوينه ، وذلك هو « القـــرآن الكريم والسنة المطهرة » ، اذ فن « البلاغة » لمسة الدخول الى معرفة سر الاعجاز ــ فى دلالة التراكيب القرآنية ــ « ثمرة هـذا الفن انما هى فهم الاعجاز من القرآن » (١).

ولعلنا نستطيع أن نقرر هنـــا ــ ما سبق أن قررناه ــ أن «ابن خلدون » لا يقصد انحصار كلمة « البلاغة » فى دائرة مفهومهـــا الضيق ــ حدود علم المعانى ــ مثلما يبدو من تقسيمه ، بل يقصد المفهوم الأرحب لجميع فنون البلاغة بالمعنى الاصطلاحى الحديث « البيـــان والمعانى والبديع » ، اذ بهـــذه الفنون ــ جميعا ــ يمكن التعرف على سر اعجاز القرآن الكريم فى « المنهج البلاغى » .

الاستاذ محمد عادل سليمان

« من برىء من ثلاث نال ثلاثا »

من برىء من الشر نال العـــز ، ومن برىء من البخـــل نال الشرف ، ومن برىء من الكبر نال الكرامة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : الجزء الرابع ص ١٢٨٦ السطر ٦ .

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر في ألف عام

للأستاذ محمد كمال السيد

(٩)

الازهر بعد خروج الفرنسيين :

لم يكن خروج الفرنسيين من مصر نهاية لآلام الشعب المصرى . بل شهدت مصر بعدهم أربع سنوات من الفتن والاضطرابات والظلم أكثر مما شهدته فى عهد الفرنسيين .

وقامت القاهرة خلالها بثلاث ثورات .

فقد كانت عناصر السلطة التى ملأت الفراغ بعد الفرنسيين ثلاثة عناصر متضاربة الأهواء والأغراض هى : الانجليز والعثمانيون والمماليك .

وكان الانجليز يقصدون الاستيلاء على مصر ، ولكن لم تكن قد تهيأت لهم الأسباب بعد بالكامل . وقد اتفق فى المعاهدة المعروفة بمعاهدة اميان فى ٢٧/٣/١٨٠٢ على جلاء الفرنسيين والانجليز معاً عن مصر . وكانت أسس هذه المعاهدة قد تم الاتفاق عليها فى اكتوبر سنة ١٨٠١ قبل أن تصل لأوربا أخبار اتفاق جلاء الفرنسيين عن مصر .

وفعلا فى المحرم سنة ١٢١٧ هـ (مايو سنة ١٨٠٢) جلا الانجليز ــ بعد مماطلة وتلكؤ ــ عن الجيزة حيث كان معسكرهم . ولكنهم بقوا فى الاسكندرية حتى ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢١٧ هـ (١٦/٣/١٨٠٣) أى مكثوا فى مصر بعد خروج الفرنسيين أكثر من سنة ونصف .

أما العثمانيون فقد كانت قيادتهم فى مصر بيد يوسف باشا ضيا الصدر الأعظم وبيد حسين باشا قبطان فى ناحية « أبو قير » والاسكندرية .

وكان المماليك ـ كما كانوا قبل الحملةالفرنسية ـ فرقتين : الأولى الابراهيمية بقيادة ابراهيم بك . والثانية المرادية أتباع مراد بك . وقد آلت زعامة المرادية بعد وفاة مراد بك الى محمد بك الألفى . وينافسه فى هذه الزعامة عثمان بك البرديسى . وكان جانب المرادية هو الأقوى . ولكن نظرا لكبر سن ابراهيم بك فقد كان محل احترام الجميع وكانت له الرياسة بينهم .

وكان الألفى شخصية ممتازة بالدهاء والذكاء والجرأة والاقدام . وكانت قواته وأتباعه يقدرون بنصف قوات المماليك مجتمعة.وله تأثير غريب على العربان فيأتمرون بأمره . ولذلك كان محل غيرة وحسد من زملائه خاصة عثمان بك البرديسى .

ورأى العثمانيون الفرصة سانحة لاسترجاع نفوذ تركيا كاملا على مصر . وللقضاء على المماليك الذين بقوتهم كانوا قد جعلوا السيادة التركية على مصر كأنها سيادة اسمية .

فتظاهر الزعيمان التركيان ـ يوسف ضيا والقبطان ـ بالتودد الى المماليك والتقرب اليهم . فعين يوسف ضيا الصدر الأعظم محمد بك الألفى أميرا على الصعيد كما كان مراد بك فى عهد الفرنسيين . وعين ابراهيم بك شيخا للبلد وهو المنصب الذى كان يشغله زعيم المماليك قبل الفرنسيين .

واطمأن المماليكواعتقدوا بعودة نفوذهم . وأنه عما قريب يخرج العثمانيون وينفردون بالأمر .

ولكن دبر الزعيمان التركيان بينهما مؤامرة فى جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ (اكتوبر سنة ١٨٠١)ـ أى بعد خروج الفرنسيين بأقل من شهرين . فدعا حسين باشا قبطان « فى أبو قير » من فى جهته من المماليك الى وليمة . وغدر بهم . فقتل بعضهم وأسر الباقين .

وللاستطراد نذكر أنه كان من ضمن القتلى ابراهيم كتخدا السنارى . نذكره لأن بيته فى جهة السيدة زينب أصبح الآن متحف السنارى المعروف بمتحف نابليون

بحارة مونج خلف المدرسة السنية للبنات . ومونج كان أحد علماء الحملة الفرنسية . وكان ابراهيم السنارى أصلا من برابرة دنقلة . وكان بوابا بمدينة المنصورة .. فتداخل مع الأمراء بما يدعيه من كتابة الأحجبة وضرب الرمل . وتقرب الى مراد بك فأحبه . فعينه وكيله . ونما أمره وعظم ثراؤه . وبنى داره المذكورة .

وفى نفس الوقت دعا يوسف باشا ضيا ابراهيم بك ومن كان بالقاهرة من أمراء المماليك الى وليمة . ولكنه اكتفى بالقبض عليهم . وأمر بالقبض على باقى المماليك الذين لم يحضروا الوليمة . فهرب الكثيرون والتجأوا الى الانجليز بالجيزة . فحموهم . وطلب هتشنسون القائد الانجليزى من يوسف باشا الافراج عن الأسرى . وهدده بالحرب . فاضطر يوسف باشا الى الافراج عن ابراهيم بك والآخرين .

وهكذا أصبح المماليك محسوبى الانجليز . وانكشفت لهم نوايا العثمانيين . فانحازوا الى الأقاليم . وخاصة الى الصعيد كعادتهم فى الأزمان السابقة . وخرج حسين باشا قبطان من « أبو قير » فى ديسمبر سنة ١٨٠١ . وحضر محمد باشا خسرو الوالى العثمانى الجديد فى يناير سنة ١٨٠٢ . وخرج يوسف باشا ضيا فى فبراير سنة ١٨٠٢ .

وكان الجيش العثمانى فى مصر مكونا من أخلاط الجنود من أنحاء الامبراطورية العثمانية . وأهم الفرق فيه اثنتان : الأولى الانكشارية أو الينكجرية . وهى عدة السلطنة التى تعتمد عليها فى المهمات . والثانية الأرنؤود أو الألبان . ويرأس الأخيرة طاهر باشا ومحمد على .

وهذا التقسيم بوجه عام .. ولكن ليس معناه أن كل فرقة تماسك مع بعضها . فكثيرا ما انضم بعض الانكشارية الى الأرنؤود . أو العكس وكثيرا أيضا ما انضم بعض المماليك الى العثمانيين مفارقين اخوانهم . أو انضم بعض

رجال الجيش العثماني الى المماليك وحاربوا معهم وذلك تبعا للأهواء والمصالح الخاصة .

وأصل الانكشارية نظام أنشأه السلطان مراد الأول (٧٦١ — ٧٩١ هـ = ١٣٥٩ — ١٣٨٨ م) بأن يأخذ كل عام عددا من صبيان أسرى النصارى فى الحروب . فيلقنهم الاسلام . ويعلمهم الفنون العسكرية وأساليب القتال . ويصبحون قوة خاصة للسلطان . وكانوا بحكم تدريبهم وعناية السلاطين بهم متفوقين عسكريا . ولكن اختل نظامهم فيما بعد . فأصبحوا منبع الفتن والمشاغبات فى الدولة حتى قضى عليهم سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦ م) السلطان محمود الثانى المعاصر لمحمد على. وقيل أصل الكلمة ينى تشرى أى العسكر الجديد . فحرفت الى الينكجرية ثم الى الانكشارية .

ولما دخل الجنود العثمانيون مصر أخرجوا الناس من مساكنهم. وحلوا محلهم . واستباحوا الحرمات . ونهبوا الأموال . وقتلوا الأنفس . وخطفوا النساء والغلمان من الطرقات . وسلبوا ملابس ونقود من ينفردون به . وكأنهم اعتبروا مصر دار فتح أموالها وأهلها غنيمة لهم . واذا شكا الأهالى قيل لهم : ألا تتحملونهم وقد جاهدوا من أجلكم لاخراج الكفار !!

وخرب الجند المنازل التى ينزلونها . فيحرقون أخشابها وتجارتها للوقيد . ويملأونها بقاذوراتهم . فاذا تمخرابها انتقلوا منها الى مساكن أخرى . فزادت المدينة خرابا فوق حرائق وتخريب الفرنسيين لها .

وتوالى فرض الضرائب على الأهالى والتجار بحجة تكاليف الجيش ومحاربة المماليك . وكان المعتاد عند الجنود اذا تأخرت مرتباتهم أو نفقاتهم « وكانوا يسمون الأولى الجامكية والثانية العلوفة » عاثوا فى المدينة نهبا وفسادا .

وتفنن الجنود فى استلاب الأهالى . فيقصون من العملة

الفضية أو الذهبية جانبا ويطلبون من الصيارف صرفهـا بالكامل . فلا يستطيعون الامتناع . ويفرض بعضـهم الاتاوات عـلى المقاهى والمحلات التجارية بحجة حمايتها . فاذا دفعت الاتاوة وضع الجنـدى شارته على المحل وقاسم فى ايراده وأرباحه . ويركبون حمير المكارية « الحمارة » ويخرجـون بها الى الخلاء . فيقتلون المكارى ويبيعون الحمار فى سوق الحمير .. وغير ذلك من ضروب النهب والايذاء .

وتعدوا الى القرى المجـاورة للقاهرة . فهرب أكثر أهليها ولجأوا للقاهرة فازدادت تعاسة وازدحاما . ووقفوا فى مداخل المدينة يخطفون ما يحضره الفلاحون من سمن وجبن وبيض وخضروات وغيرها . فـلا يصل للأهالى منها شىء .. ثم يبيعونها لهم بأغلى الأسعار .

واستولى الممـاليـك على أغلب الصعيد والبحيرة . يعيثون نهبـا وفسادا . ويصادرون المراكب بما عليها من غلال وبضائع فلا تصل الى القـاهرة . وحاربهم العثمـانيون مرارا . وكان المماليـــك دائمـا ينتصرون . فانتصروا على العثمانيين عند نجع حمادى فى سبتمبر سنـة ١٨٠٢ . وهزمهم الألفى هزيمـة كبرى عند دمنهور فى نوفمبر سنة ١٨٠٢ . كما انهزم العثمانيـون أيضا عنـد المنيـا فى أبريل سنة ١٨٠٣ . وغير هذا من التفاصيـل التى تبعدنا عن موضوعنا الأصلى .

وكان الحال بالريف لا يقل سوءا عنـه فى العاصمـــة . فالمماليك عصابات . اذا نزلت عصـابة منهم قرية رعت زراعاتهـا بخيولهـا . ونهبت ما فى أجرانها من المحاصيل ، وما فى مراعيها من أغنام ومواشى . وفرضوا على القرية الغـــرامات والتكاليف . وتأتى عصـابة أخرى فيتكرر نفس الشىء .

ويأتى العثمانيون فى محاربتهم للمماليك فيزداد الأمر شناعة بالنهب والتعدى على الأعراض . حتى ترك الاهالى قراهم وخربت القـــرى والبلاد . وزاد الأمـــر فسـادا بالعربان الذين انضموا الى المماليك فقطعوا الطرق برا وبحرا . واختلت

المواصلات • واضطرب الأمن • وانقطعت موارد المؤونة من الغلال وغيرها عن العاصمة •

وكان الوالى محمد باشا خسرو سخيف الرأى فاسد التدبير • بدأ أولا بداية حسنة بالتشديد فى مراقبة الأسعار والمكاييل والموازين • ولكنه أكثر من فرض الضرائب • وعجز عن كبح جماح الجنود • أو كان هذا على هواه • ثم انهمك أخيرا فى عمارة أجزاها فى سكنه بالأزبكية • وهو قصر الألفى الذى نزله القواد الفرنسيون أثناء وجودهم • وكانت الفتن قد خربت أجزاء منه • كما تخربت مجاوراته • فأخذ فى تجديده • وأنشأ بجواره مبانى عديدة سموها بالقشلة « جمعها قشلات • بكسر القاف • وهى محل اقامة العسكر • وقال الجبرتى فى تاريخه طبعة الشعب ص ٩٥١ ان معناها المكان الشتوى لأن الشتاء بالتركية معناها قش » لتكون لحرس خاص به أنشأه من العبيد السود على النظام الجديد مثل الفرنسيين • وزود هذه القشلة بالمدافع وأدوات الحرب • وأنشأ فيها المقاهى والمحلات التجارية • واستنفدت مباشرة هذه العمارة جل وقته وكل اهتمامه •

وكان الجنود يطالبون الباشا بمرتباتهم ونفقاتهم فيقول : انكم لا تستحقون شيئا فقد توالت هزائمكم • وكان هذا التعنت من الباشا ضد الأرنؤود خاصة •

وفى أوائل المحرم سنة ١٢١٨ (أواخر ابريل سنة ١٨٠٣) شدد الأرنؤود فى الطلب فأحالهم على الدفتردار • وكان يقيم فى جهة الأزبكية أيضا • وليس فى خزينته مال • فأرسل للباشا أن الجنود مجتمعون عنده يهددون بالثورة ، فما كان من الباشا الا أن أطلق مدافعه على منزل الدفتردار • وبدأت الحرب بين الفريقين •

وانتصر جنود الباشا أولا • ثم شغلوا بالسلب والنهب • فكر عليهم الأرنؤود فغلبوهم • واستولى طاهر باشا على القلعة • واطلق منها المدافع على منزل الباشا • وزحفوا جهة الأزبكية • واستولوا على

بولاق وجهة القصر العينى . وكان بالقصر طائفة من عبيد الباشا فأخذوهم أسرى . ونهبوا بيت السيد أحمد المحروقى وهو بيت البكرى القديم . وبجواره المنزل الذى به حريم الباشا فنهبوه أيضا . وكان الباشا قد أرسل فأخرج الحريم بما عليهن من ثياب فقط . واخترق بيت الباشا وما أنشأه حوله من المبانى . واضطر للفرار الى جزيرة بدران ومنها الى القليوبية ثم الى دمياط .

وأصبح طاهر باشا سيد الموقف .

وكان طاهر باشا قد أرسل الى أمراء المماليك أن يحضروا قريبا من القاهرة ليستعين بهم اذا تطور الموقف مع خسرو باشا . وكان محمد بك الالفى قد خرج مع الانجليز فى مارس سنة ١٨٠٣ ليسعى فى لندن أن يحكم المماليك مصر تحت الحماية البريطانية . وأناب عنه فى رياسة مماليكه أحد صناجقه المسمى بشتك . وكان يطلق عليه الألفى الصغير . وكان أمراء المماليك لا يكفون يرسلون فى طلب الصلح باعطائهم مساحات معينة يعيشون فيها ويدفعون ضرائبها وخراجها ويخضعون لأوامر الدولة . ويوسطون فى هذا العلماء . ولكنهم كانوا يبالغون فى طلباتهم فلم يتم أى اتفاق .

العلماء يعينون طاهر باشا قائمقاما

وبعد ستة أيام من بدء هذه الفتنة التى انتهت بهرب خسرو باشا اجتمع العلماء فى بيت القاضى فى ١٤ المحرم سنة ١٢١٨ (٦/٥/١٨٠٣) وذهبوا الى منزل طاهر باشا بغيط العدة (بالقرب من باب الخلق) وعينوه قائمقاما لحين ورود الأوامر من استانبول . وأرسلوا للدولة هناك بذلك .

وفى تعيين العلماء لطاهر باشا مظهر من مظاهر المركز القوى الذى كان يتمتع به علماء الأزهر وان كان هذا شكليا أو ظاهريا . فطاهر باشا وصل الى مركزه بحد السيف .

وفى أثناء المعركة كان طاهر باشا يمر فى المدينة يطمئن الأهالى أن هذه معركة بين الجنود ولا دخل للرعية فيها .

وشمخت أنوف الأرنؤود بعد فرار خسرو . وتعالى طاهر باشا وأخذ فى الانتقام من الانكشارية ومن الموالين لخسرو فصادر الكثيرين وفرض الغرامات الكبيرة على آخرين . وأرسل حملة وراء خسرو باشا بقيادة أخيه حسن بك .

مقتل طاهر باشا :

وكانت هناك طائفة من الانكشارية معدة للسفر للحجاز لحرب الوهابيين . وكانوا معسكرين بجامع الظاهر بجهة الحسينية بأول العباسية . وكان الفرنسيون قد حولوه الى قلعة باسم سلكوسكى Sulkouski أحد قوادهم الذين قتلوا فى ثورة القاهرة (الأولى) . وكان الانكشارية عندما يطالبون بمرتباتهم المتأخرة يقول لهم طاهر باشا : ليس لكم عندى الا من تاريخ ولايتى . وما قبل ذلك اذهبوا وطالبوا خسرو .

وحضرت طائفة منهم فى (١٨٠٣/٥/٢٦) الى منزل طاهر باشا مطالبين . فلما اشتد الجدل بينهم أخرج أحدهم سيفه وطوح به رأس طاهر باشا ورماها من الشباك . ونهبوا الدار وما حولها من الدور بغيط العدة والحبانية حتى درب الجماميز . وازدادت الفتنة بين الأرنؤود والانكشارية .

ولم يمكث طاهر باشا فى حكمه غير عشرين يوما .

وكان بالقاهرة أحد الباشوات اسمه أحمد باشا معينا لولاية المدينة المنورة . ورغب الانكشارية فى تعيينه واليا على مصر . فاستدعى المشايخ وطلب منهم مخاطبة محمد على فى ذلك . وكانت لمحمد على زعامة الأرنؤود بعد مقتل طاهر باشا . فرفض محمد على بحجة أن أحمد باشا والى المدينة ولا علاقة له بمصر . وراسل محمد على أمراء المماليك وكانوا قد وصلوا الى الجيزة . فأرسل ابراهيم بك الى أحمد باشا يطلب منه تسليم قاتلى طاهر باشا . وحدد له مهلة ساعات . فاضمحل أمر

أحمد باشا • وخرج من القاهرة• والتجأ الى قلعـــة الظاهـــر مع الانكشارية •

وركب المشايخ والأعيان الى الجيزة • فسلموا على ابراهيم بك وامراء المماليك • ودخل الأمـراء القاهرة ولم يدم حكم أحمد باشـا غير يوم وليلة •

ونزل الأرنؤود من القلعـــة • واستلمها المماليك • وأخرجـوا الانكشارية من المدينة ثم أخرجوا من كان منهم بقلعة الظاهر مـع أحمد باشا وكان عددهم ٢٥٠٠ •

وكتب العلمـاء للـدولة فى استانبول بملخص ما حصـل فى القاهرة بين طاهـر باشا وخسرو باشا • ثم قتل الانكشارية لطاهـر باشـا • ونهبهم للمدينـة ولولا وجود المماليك بقربها ودخولهم فيها لتم خرابها • وعندما نقول العلماء أو المشايخ نعنى الظاهرين منهم المشتغلين بالنـواحى السياسية • وغالبا كان باقى العلماء يوافقون على قرارهم •

وخرجت حملة وراء خسرو باشا يرأسها محمد على وعثمان البرديسى وأمكنها هزيمته عنـد دمياط • وأرسلوه أسيرا الى القاهرة فأنزلوه بدار البرديسى التى محلهـا الآن المدرسة السنية بالسيدة زينب •• أما محمد على والبرديسى فقداتجها بعد ذلك الى جهة رشيد •

وارتكب الجنـود والمماليك فى هذه المطاردة الكثير من الشناعات• سواء جنود خسرو باشا الذى كان فى طريقه الى دمياط يفرض على القرى والبلاد الضرائب والغرامات، أو جنود حسن بك أخى طاهر باشا فقد ارتكبوا فى فارسكور الكثير مـن النهب والحـريق والفسـق بالنساء • أو جنود محمـد على والبرديسى فقد قال عنهم الجبرتى : « ونهبوا دمياط • وأسروا النساء • وافتضوا الأبكار • وأخذوهـن أسرى • صاروا يبيعوهن لبعضهم • وأخذوا مما على أجساد الناس من الثياب • ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أسباب التجار • وما فى المراكب •• الخ • والأمـر لله وحده » اهـ•

العلماء يعينون
ابراهيم بك قائمقام

واجتمع العلماء والقاضي ببيت بنت ابراهيم بك بدرب الجماميز فى ١٨ ربيع الأول سنة ١٢١٨ (١٨٠٣/٧/٧) وعينوا ابراهيم بك قائمقاما . وهكذا نرى العلماء يقررون ثانية مركز السيادة فى مصر .

ولم تكن الدولة فى استانبول قد علمت بمقتل طاهر باشا.فوصل منها خطاب (أخفاه الأمراء ولم يعلنوه) فيه تعيين خسرو باشا واليا على سلانيك . واستقرار طاهر باشا محافظا حتى يصل من تعينه واليا على مصر . ولم تعين طاهر باشا لأن سياسة الدولة كانت عدم تعيين الأرنؤود ولاة .

وعينت الدولة من يدعى على باشا الطرابلسى . ووصل الاسكندرية فى ١٨٠٣/٧/١٠ فأرسل الى أمراء المماليك يستميلهم الى جانبه بمعسول الألفاظ .وأنه لا يليق دخولهم القاهرة بدون اذن الدولة ويطلب خروجهم منها فأجابوه بمثل قوله . وأنه لولا وجودهم لخربت المدينة . وأنهم أرسلوا للسلطان يطلبون العفو وينتظرون الجواب .

ونادى والى القاهرة (وهى وظيفة غير والى مصر العثمانى) بخروج الأتراك والأغراب من الشوام وغيرهم فى ظرف ثلاثة أيام . فخرجوا فى أسوأ حال بعد أن باعوا ثيابهم ومتاعهم .

وفى رشيد انتصر البرديسى ومحمد على ، على السيد على باشا قبطان المتولى عليها من قبل أخيه على باشا الطرابلسى . وأرسلاه أسيرا الى القاهرة فأنزلوه فى احدى الدور وأعطوه سرية بيضاء ، وجارية حبشية وجاريتين سوداوين للخدمة ورتبوا له ما يليق !! وظل أسيرا حتى خرج من مصر فى أبريل سنة ١٨٠٤ بعد التغلب على أخيه .

وذهب محمد على والبرديسى الى دمنهور ليذهبا منها للاسكندرية لقتال على باشا الطرابلسى . وفرضا على رشيد ودمنهور ومجاوراتهما من

البلاد المبـــالغ الكبيــرة حتى خرب اقليم البحيرة عن آخره كما ذكر الجبرتى . ولكن لم يذهبـا للاسـكندرية لمـا تبين لهمـا من صعوبة الاستيلاء عليها . ولالحاح الجنود فى مرتباتهم المتأخرة . أما ما حصلوا عليه من النهب والسلب فلا يدخل فى الحساب .

ومما يروى فى هذا الصدد بما يدل على قسية الحاكمين وقتذاك. أنه قد انحطت ميـاه النيــل فى سبتمبر سنة ١٨٠٣ فاختفت الغلال. وأخذ الأمراء يستولون على ما يرد منها فى المراكب لأنفسهم فلا يصل منها الى الأسواق الا القليــل . ويعرض لمدة ساعتين تقريبا يوميا. ولا يستطيع الغنى أن يشترى أكثر من أردب والفقيــر أكثـر من ويبة (الويبة كيلتان) .

واجتمع العلمـاء وتشاوروا فى الاستسقاء بالخـروج الى الخـلاء والدعاء لله تعـالى بنزول المطـر أو زيادة ماء النيل . فذهبـوا الى ابراهيم بك فقال : وأنا أحب هذا. قالوا : ولكن من شروط الاستسقاء رفع المظالم وردها والتوبة عنها . فقال : ان هذا لا يمـــكن . ولا يتصور . ولا أقدر عليه ولا أحكم الا على تبنى . فقالوا : اذن نهاجر من مصر . قال : وأنا معـكم . وانصرفوا بدون نتيجة .

ووصل البرديسى ومحمـد على الى القاهرة فى أواخر سبتمبـر سنة ١٨٠٣ . ودخل البرديسى الى منزله بعد أن نقلوا منه خسرو باشا الى منزل صغير آخر بجواره .

وتشاور الامراء فى مـرتبات الجند فقـرروا مبلغا اختصـوا أنفسهم بجانب يسير منه . ووزعوا الباقى على أصحـاب العقارات والتجار والحـرفيين وغيرهم حتى ضج الناس .

وكان على باشا الطـرابلسى فى الاسكندرية قد جمع علماء المدينة هناك . وأراد أن يستكتبهم تقريرا للدولة يذكر فيه الأحوال على غير حقيقتها . فلم يوافقـوه . وكان المتصدر لهذا الامتناع الشيخ محمد المسيرى .

والمذكـور كان أحـد علماء الاسكندرية . وكان نابليون عينـه

ضمن الديوان الذى شكله هنـاك بمجرد وصوله من سبعة أعضـاء برياسة السيد محمـد كـريم . والمسيرى نسبة الى مسير من بلاد كفر الشيخ . وذكر على باشا مبارك فى ترجمته (جـ ١٥ ص ٤٤) أنه أرسل فى أكتوبر ١٨٠٢ تقريرا الى نابليون عن الحالة فى مصر ويافا وعكا ودمشق والحجـاز وغيرها ا هـ . مما يدل على ولائه للفرنسيين ، وأن هذا الولاء استمر بعد خروجهم من مصر . ولعل هذا كراهة فى العثمانيين .

وفى القاهرة استكتب الأمراء العلماء مكتوبا لعلى باشا الطرابلسى أن يحضر للقاهرة لتبطل الحروب وتمتنع الغـرامات التى تفرض بسببها . وأن تأخير حضوره يضر بالأمن . وربما أدى الى تعطيل الحج .

وبـدا على المدينـة نوع من الاطمئنان . فقد خرج منها أغلب الجند ولم يبق الا الأرنؤود وبعض الانكشارية ، فأخذ الناس يعمرون الدور التى خربهـا الفـرنسيون والعثمانيون .. وأتم عثمـان بك البرديسى عمارة منزله المذكور بأول الناصرية . وعمل فيه أبراجا تصب فيها المدافع حتى أصبح قلعـة حصينة . كما حصن القلعـة التى كانت للفرنسيين فوق تل العقارب (بحى المنيـرة حـوالى كلية دار العلوم) .

وكان محمـد على حصيـف الـرأى . يمهـد لنفسـه فى بطء وأناة . فاتحـد مـع المماليـك . وخاصة مع عثمان بك البـرديسى فهو أقواهم لغياب محمد بك الألفى فى انجلترا . وهذا ليتحمل المماليك وزر الضرائب المتكررة على الأهالى وفى نفس الوقت كان محمد عـلى يتقرب للعلماء وللشعب متظاهـرا بالعدل والاعتدال والتعفف عـن الرياسة .

وحضر خطاب من على باشـا الطرابلسى بأن الدولة أرسلت لـه بالعفو عن أمراء بشفاعته وشفاعة الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا . وبترتيب مقررات لكل أمير منهم . فابتهج الأمـراء وأطلقوا المدافع . وأرسلوا للباشا بطلب حضوره .

وحمل هذه الرسالة ثلاثة يمثلون الواقع فى القاهرة . كتخدا ـ أى وكيل ـ ابراهيم بك كأنه عن المماليك، وباشجاويش الانكشارية كأنه عن الجنود . والسيد محمد الدواخلى عن الشيخ الشرقاوى شيخ الأزهر كأنه عن العلماء . والدواخلى أحد أعضاء الديوان الخصوصى الأول والديوان العمومى الثانى فى عهد الفرنسيين، وستجد له دورا فى عزل السيد عمر مكرم من نقابة الاشراف كما سنذكر باذن الله .

واشترط الأمراء على الباشا أن يحضر عن طريق البر . وكانوا قد ضبطوا مراسلات منه الى محمد على الأرنؤود يستميلهم اليه ويطلب تأييدهم فى القضاء على المماليك . كما ضبطوا مراسلة الى الجند بالصعيد . وأطلعهم محمد على ، على خطاب على باشا . واتفق معهم على مسايرته حتى يتم الايقاع به فقرروا الغدر به .

ولما وصل الباشا الى شلقان (فى محافظة القليوبية) عسكر أمامه الألفى الصغير . وخرج البرديسى فعسكر بجوار الألفى . ولا نطيل فقد تغلبوا عليه . وسلم نفسه للأمراء . فأمروا جنده بالخروج من مصر من الجهة الشرقية . فلما وصلوا الى الصالحية بالقرب من بلبيس انقطع خبرهم، والأرجح أنهم أبادوهم . وكان عددهم ٢٥٠٠ جندى .

وبعد ثلاثة أيام أمروه بالخروج . وأرسلوا معه قوة من المماليك . وعند القرين قتلوه . ووصل الخبر بذلك للقاهرة فى ١٨٠٤/٢/٢ من المماليك المرافقين له وبأنه أراد مباغتتهم ليلا فحاربوه . وقتل أثناء المعركة عفوا بدون قصد (والليل ليس له صاحب ، وكان ذلك مقدورا . وفى الكتاب مسطورا)!!

واستقر الأمر للمماليك ثانية فى مصر . واعتقدوا أن الحال يدوم . ولكن لله فى تدبيره شؤون .

عودة الألفى والمؤامرة عليه وتدهور حال المماليك :

وعاد محمد بك الألفى من انجلترا ووصل رشيد فى فبراير

سنة ١٨٠٤ ، فتحركت عوامل الغيرة والحسد فى نفوس الأمراء بالقاهرة . وأزكى محمد على هذا الشعــور بأبحاثه . فاستقر رأيهم على اغتياله فى طريقه الى القاهرة . وخــرج البرديسى وطائفة من الأمراء لعمل كميــن له . ولــكن أحس الألفى أخيرا بالمؤامرة . فأمكنه الهرب والاختفاء فى أحد نجوع العــرب فى الشرقية . بعد أن نهبوا قافلته وما فيها من التحف والذخائر التى عاد بها من انجلترا . وأخــذوا يقتلون من يستطيعــون قتله من أنصاره ومماليكه . وهرب الباقون وعلى رأسهم الألفى الصغيــر الى الصعيد . وكالمعتاد فــرضوا فى طريقهم الغرامات على القــرى . والقــرية التى تعصى أو تتوانى تنهب وتحرق .

وكان هذا الانقسام بين المماليك بدء تدهورهم . وموافقا لأغراض محمد على . فقــد كان يحسب حساب الألفى من دونهم جميعا . لما له من الشخصية والدهاء والذكاء فضلا عن كثرة مماليكه وأتباعه .

وخرجت قوات المماليك بالقاهرة يبحثون عن الألفى الــكبير فى القليوبية والشرقية . وأرسلوا الى أعوانهم فى الصعيد بمحاربة الألفى الصغير .

وطــالب الجنــد بمرتبــاتهم . واجتمعوا بمنزل محمــــد على . وهددوا بنهب المدينة . فقــرروا مبالغ على كتبة الأقباط . ولم يكتف الجند بهذا . وأرادوا الاستيــلاء على القلعة وبها المماليك فلم يتمكنوا ونزلوا المدينــة فأغلقت الحوانيت وتعطلت الأسواق . فاضطروا الى فرض ضرائب جديدة . وكانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر الجمل كما يقولون . فلم يقبلها الأهــالى الذين وصلوا الى حالة بالغة مــن الضنك .

ثورة القاهرة الأولى :

وقامت القاهرة بثورتهــا الأولى ضد المماليك فى ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ (١٨٠٤/٣/٧ م) ومشى الناس فى مظاهرات . وخــرجت النساء وقــد صبغن أيديهن بالنيلة وبها الدفوف يندبن بالدعــاء على

المماليك ويصرخن : « ايش تاخــذ من تفليسى يا برديسى » . وأغلقت الحوانيت . وذهب النـــاس الى العلماء بالجامع الأزهر .

وخـاف الجنـد من الأهـالى فأخذوا يذكرون لهم انهـــم فقط يطالبون بمرتباتهم وهى على الأمراء وليست على الشعب . وغضـب البرديسى لعدم تنفيـذ أوامــره بالنسبة للضرائب . ولتحـدى الأهالى وشغب الجند ، فأرسل الى أمراء المماليك بالأرياف بالحضور لمساندته مقـاومة الجنـد وشـعر الأرنؤود بذلك فاجتمعوا بالأزبكية .. وزحفـوا على منزل البرديسى بالناصرية . فخاف وهرب .فنهبوا داره وتبعوا دور الأمراء بالنهـب والحريق . وهــرب ابراهيم بك وباقى الأمـراء . واستلم الجنـد القلعة . وطلع محمد على اليها .

ومر محمد على بالأسواق ومعه الوالى السابق محمد باشا خسرو : ــ بعـد أن ظـل معتقـلا ثمانية شهور ــ وأمامهما المنـادى ينادى بالأمان . وبالنــداء التقليدى : حسبما « رسم » محمــــد باشا « خسرو » ومحمد على . وذهـب المشايخ الى محمــد باشا خسرو يهنئون بالسلامة وبالولاية !!

وكان خروج الأمراء فجائيا .فلم يستطيعوا أخذ شىء يذكـــر من أموالهم .. ونهب الجند بيوتهم . وسبوا حريمهم وجواريهم .وخربوا الدور . واستـــولوا على ما كان بحواصـلهم من الغـلال وأنواع المؤونة . وقال الجبـرتى : ولولا اشتغال الجند بالنهب لما نجا أحـد من الأمراء . وكمـا كان خروجهم فجائيا . فقد كان هذه المرة نهائيا . فلم يعودوا ثانية الى القـاهرة الا تابعين أذلاء . وأخذ شأنهم فى الاضمحلال .

ورأى محمد على أن وقتـه لم يكن قد آن أوانه بعد . كما رأى أن فى ولاية خسرو باشا خطـر انقسام الجند . فأخوه طاهر باشا لايرضون عنه لما سبق من الحوادث التى أدت لقتل أخيهم . فأخرجـه الى استانبول بعد اسبوع .

وأرسل محمد على والعلماء الى أحمــد باشـا خورشـيد والى

الاسكندرية (كان العثمانيون بعد خروج الفرنسيين قد خصوا الاسكندرية بوال خاص غير والى مصر » ليتولى ولاية مصر حتى يرد تقرير الدولة بما تراه • ووصل خورشيد باشا الى بولاق فى ٢٦ مارس ووصل التقرير بولايته فى ١٨٠٤/٥/٣ •

وبدا عهد جديد :

وخرج محمد على لمحاربة المماليك • وكان الألفى الكبير قد ظهر • ولكن لم يستطع المماليك توحيد صفوفهم • بل ظل الشقاق والتنافر بينهم لما أراده الله من القضاء عليهم • وطالت الحروب بين عسكر الباشا والمماليك • ذاقت البلاد فى هذه الحروب الأمرين • من النهب والسلب والحريق والتعدى على الأعراض • وكان المماليك يتقدمون تارة حتى يصلوا الى مشارف القاهرة • ثم ينسحبون ثانية أمام الجند • وفى كل خطوة من الفريقين الدمار والخراب •

وفى القاهرة استمر فرض الضرائب والمصادرات • وشره الباشا فى جمع المال • حتى انه قبض على الست نفيسة أرملة مراد بك • وكانت ذات مقام معتبر احترمها الفرنسيون ومن تبعهم من الولاة • وتعد السيدة الاولى فى القاهرة • وادعى أن جاريتها اتصلت بالمماليك • وكانت تهمة باطلة المقصود منها تقرير مبلغ عليها •

وشاع الخبر فذهب القاضى والشيخ السادات والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف والشيخ محمد الأمير أحد كبار العلماء • وكلموا الباشا فى أمرها فقال : انها اتصلت ببعض الجند وعرضت عليهم القيام بدفع علوفاتهم (نفقاتهم) نظير مساعدتهم للمماليك ومادامت تستطيع ذلك فيجب عليها دفع العلوفات • فعارضوه ببطلان التهمة فلا مصلحة خاصة لها مع المماليك • فليس لها فيهم زوج أو أخ أو قريب • وأن مالها قد نضب معينه بما توالى عليها من الغرامات • وقال الشيخ الأمير للترجمان ــ وكان الوالى لا يتكلم العربية كأغلب الولاة ــ ان هذا التصرف يترتب عليه فساد الأمور • وأن

المشايخ يتحملون اللوم أمـام الله والشعب . فان كان كذلك فنحـن لا علاقة لنا بأى شيء ونخرج من هذه البلـدة . وقام غـاضبا . فاستمهلوه . وتقرر أخيرا نزولها فى بيت السادات . وهذا التهديد من الشيخ الأمير فى مواجهة الوالى يدل أيضا على مكانة العلماء .

ثورة القاهرة الثانية :

وفـرضت الضرائب فى أواخـر مـايو سنة ١٨٠٤ عـلى أرباب الحرف والصنائع . فثار الناس فى ٢٧ منه . وأغلقوا الحـوانيت . وذهبوا بجموعهـم الى الجامـع الأزهر .وصعدوا الى مناراته يدعون ويصرخون . وأرسل خورشيد باشا الى السيد عمر مكرم يطلب تهدئة الحال . وقال الرسول انهم رفعوا الضرائب عن الفقراء . فقال النقيب ان أصحاب الحرف أيضا فقراء بعد ما قاسوه من القحـط والكساد واضطراب الأحوال .

ومر والى القاهرة بالمدينة يطلب فتح الدكاكين . فلم يستجب له أحد . فاضطروا أخيرا الى الغاء الضريبة بعد يومين .ونادى المنادى بذلك . ونجحت الثورة .

وهى لم تكن ثورة بقدر ما هى مظاهرة . ولكـن أمثال هـذه الحركات أكسبت الشعب ثقـة فى نفسه وفيما يستطيع أن يفعله .

وفكر الباشا فى الخروج بنفسه ومعه العلماء لحـرب المماليك . فاعترضوا بأنه لو هزم وهم معه فمن يسوس الشعب ؟ وربما كان هذا السبب صحيحا . أو حجـة لاقتناعهم أنه لا معنى لاشتراكهـم فى هذه الحروب .

ولا نطيل فى وصف ما جرى . فالأرياف خراب بما تعانيه مـن حروب وسلب ونهب . فقد ذكـر الجبرتى عن اقليم القليـوبية مثلا (لم تبـق به الا خمس وعشرون قرية بها بعض السكان والبـاقى خراب ليس بها ديار ولا نافـخ نار) أما العاصمة فمهددة بالمجاعة لنقص ما يردها من الأقـوات . وانعدم فيها الاطمئنان والاستقرار بكثرة الضرائب وتعـدى الجند . فلم يترك الباشا طائفـة دون أن

يفرض عليها الضرائب . فضلا عن أصحاب العقارات والحرفيين والتجار . فقد فرض الضرائب على اليهود وكتبة الأقباط وتجار البن وكل من تتوسم فيه القدرة على الدفع .

وجرت مراسلات بين الباشا والمماليك دون نتيجة . ووعد الباشا الألفي بولاية جرجا والجهات القبلية فلم يقبل بحجة انهم تعرضوا لحريم المماليك بالقاهرة وتوالت الرسائل من المماليك الى المشايخ يوسطونهم فى الصلح .

وعين الباشا محمد على لولاية جرجا . ووقعت عدة حروب بينه وبين المماليك، تارة له وتارة عليه. وكان كثير منها بمشارف القاهرة عند شبرا وأبى زعبل والخانكة وطرا . واستقدم خورشيد باشا عساكر جدد يتقوى بهم ضد المماليك من ناحية . وضد محمد على الذى كان يتخوف منه من ناحية أخرى .

وكان من ضمن العسكر الجدد طائفة تسمى الدلاة . قيل عددهم ١٢٠٠٠ جندى وهم من المتطوعين — أى فرق غير نظامية — وأصلهم غالبا من أكراد سوريا . وعرفوا بالشجاعة والتهور . فالمعنى اللفظى لكلمة ديلى (مفرد دلاة) هو المجنون . فلما وصل الدلاة الى الصالحية طالبوا بالنفقات والذخيرة، ففرضت الضرائب لذلك . ثم لما نزلوا بالقاهرة أخرجوا الناس من مساكنهم بمصر القديمة وبولاق وبركة الفيل . وسكنوا فى الدور يخربونها كما سبق ذكره عن العثمانيين . وانبثوا فى الأسواق ينهبون ويسلبون ويفسقون .

الثورة الثالثة للقاهرة ومقدماتها

وأنزل الباشا قوة منهم جنوبى البساتين قرب المعادى لتسدالطريق على محمد على فى عودته . وعلم محمد على بما يدبره الباشا له فعاد من الصعيد ومعه حسن باشا أخو طاهر باشا . وأمكنه اختراق هذا الحصار . فقد لاطف العسكر بأنه وجنوده حضروا للمطالبة بعلوفاتهم المتأخرة . فأفسحوا لهم الطريق . فهم يقتنعون بحق هذه المطالبة . ولو منعوهم هذا الحق لجاء دور غيرهم فى منعهم أيضا .

وعقد الباشا اجتماعا من العلماء ونقيب الاشراف ورؤساء الجند وكبار الموظفين . وقال لهم ان محمد علي وحسن باشا رجعا من الصعيد بغير اذن . فاما أن يعودا اليه أو يخرجا بقواتهما من مصر . وأن عنده التفويض من الدولة أن يعطيهما المناصب والولايات خارج مصر . وقال للمشايخ : أنتم تكونون معي وتقيمون عندي . فقال النقيب ان المشايخ الشرقاوى والمهدى والبكرى غائبون . فقال نرسل باحضارهم . وتقرر أن يبيت عنده بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ .

وحضر أهالى مصر القديمة يشكون للمشايخ أفعال الدلاة بدورهم وأموالهم ونسائهم . فكلموا الباشا فأمرهم بالكف وترك المنازل لأربابها . فلم يمتثلوا فكرر المشايخ عليه الموضوع . فقال هم خارجون بعد ثلاثة أيام . فأضرب العلماء عن اعطاء الدروس . وأغلقت الحوانيت . وزاد الضجيج بالشوارع والطرقات .

وكان خورشيد باشا قد سعى لتعيين محمد على واليا على جدة ليتخلص منه . ووصل القرار بذلك . وطلب حضوره للقلعة ليخلع عليه خلعة الولاية . ولكن محمد على بحرصه رفض ذلك . وأخيرا اتفقوا أن يلبسه الخلعة فى بيت أحد كبراء العسكر بالمدينة .

وازدادت حركة التذمر اتساعا . وظهرت كراهية الشعب لحكم خورشيد باشا . واجتمع المشايخ ونقيب الأشراف وذهبوا الى بيت القاضى (المحكمة العليا تقريبا) وطلبوا حضور رجال الدولة الى مجلس الشرع — أى لمحاكمتهم . وحددوا شكواهم بتعدى العسكر على الناس . وايذائهم واخراجهم من بيوتهم . وازدياد الضرائب . ومصادرة الاموال . وغيرها من الأسباب . فطلب الباشا من القاضى والمشايخ حضورهم عنده . ولكنهم رفضوا .

العلماء يعينون محمد على واليا

وفى عصر اليوم التالى . أى فى يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ

(١٣/٥/١٨٠٥ م) ذهب المشايخ الى بيت محمدعلى وأبلغوه قرارهم بعزل خورشيد باشا . فسألهم : ومن ترغبون أن يكون واليا مكانه. فقالوا : « لا نرضى الا بك - بشروطنا - لما نتوسمه فيك من العدالة والخير - الجبرتى ص ٦٢٨ - من طبعة الشعب » . فقبل بعد تمنع .

وقام الشيخ الشرقاوى والسيد عمر مكرم فألبساه كركا وقفطانا ونادى المنادى فى المدينة بعزل أحمد باشا خورشيد وولاية محمد على .

ورفض خورشيد هذا القرار لأنه معين من السلطان فلا يعزل من الفلاحين .

وسنرى فى المقال التالى باذن الله كيف تطورت الامور حتى استقرت أخيرا لمحمد على بدون منازع .

محمد كمال السيد

افضل الاصحاب

قيل للنبى عليه السلام : اى العمل افضل ؟
قال : اجتناب المحارم ، ولا يزال فوك رطبا بذكر الله .
قيل : اى الاصحاب افضل ؟
قال : الذى اذا ذكرت اعانك واذا نسيت ذكرك .
قيل : اى الناس شر ؟
قال : العلماء اذا فسدوا .

بـردة جديـدة

للأستاذ السيد حسن قرون

طلعت علينا الأهرام فى « الفكر الدينى » فى صبيحة الجمعة ١٩٧٩/٦/٢٢ بقصيدة « محمد رسول الله » للدكتور حسن ابراهيم أستاذ الجراحة بكلية الطب ، وعضو المجمع اللغوى • وهى قصيدة تضاف الى المدائح النبوية و « بردة جديدة » تنتهج الصورة التى اتخذها الشاعر الصوفى (البوصيرى ٦٠٨ ــ ٦٩٥) هـ من وزن وقافية ، وبردة البوصيرى حالفها التوفيق فجاءت حبيبة الى النفوس ، قريبة من القلوب ، والذين جاءوا بعده حاكوه وجعلوه امامهم ، وبعضهم اتخذ منها سبيله الى نظم البديع ، كل بيت يحمل نوعا منه وصفة من صفات الرسول وتسمى تلك القصائد « البديعيات » تشتمل على حياة الرسول وما أداه للبشرية من تشريع وما رسمه من مكارم الأخلاق ، ولكن البردة بقيت لها اشراقاتها وعطاؤها حتى جاء العصر الحديث فعاد بها الى نهجها الأول وهو مدح الرسول ، وذكر مولده وصباه وتحنثه وبعثته ودعوته ، وجهاده فى مكة والمدينة حيث الغزوات والتشريع لكل مناحى الحياة وشئون الحكم ، ولم ينس أحد منهم معجزته الكبرى « القرآن الكريم » •

تجد ذلك عند البارودى كما تجده عند شوقى ، والتاريخ يذكر أن مدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نوعان : نوع قيل فى حياته من شعرائه وعلى رأسهم حسان بن ثابت ، ومنهم كعب بن زهير صاحب قصيدة « بانت سعاد » ونوع جاء بعد دهر

طويل حين نشأ التصوف ، وغلبت على النفوس الناحية الروحية ، بالتقرب الى الله والتشفع برسوله. أما ما قيل بعد وفاته مباشرة فهو من باب الرثاء .

وبعض النقاد يرى أن هذا النوع من الشعر أساسه « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وهو رأى لا يدفع ولكن ما روى من شعر على الصورة التى نعهدها فى البردة من الاتفاق فى الوزن والقافية الميمية المكسورة يدعونا الى أن نقول : ان شعراء كثيرين سبقوا البوصيرى الى تلك الصورة . يقول الدكتور زكى مبارك — رحمه الله — « أغلب الظن عندى أن البوصيرى استأنس فى نظمها بميمية ابن الفارض ، ودليل ذلك تشابه المطلعين ، فان مطلع قصيدة ابن الفارض :

هل نار ليلى بدت ليلا بذى سلم
ام بارق لاح فى الزوراء فالعلم
ارواح نعمان هلا نسمة سحرا
وماء وجبرة هلا نهلة بفم

ومطلع قصيدة البوصيرى :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم ؟
ام هبت الريح من تلقاء كاظمة
واومض البرق فى الظلماء من اضم ؟

فذو سلم ، وهبوب الريح ، وايماض البرق مما اشترك فيه الشاعران مع وحدة الوزن والقافية ، فليس عجيبا أن يجىء شعراؤنا فى العصر الحديث ، ويسيروا على هذا النهج من اتخاذ الشكل والمضمون ، ورائد الشعر الحديث (البارودى) لم يفته أن ينظم بردة واز سماها « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وجعلها بمطلع فيه العلم وذو سلم ورائد البرق قال :

يا رائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام الى حى بذى سلم

وعلى هذا الدرب قال أحمد شوقى فى « نهج البردة » مبتدئا :

ريم على القاع بين البان والعلم
احل سفك دمى فى الاشهر الحرم

ولكن صاحب البردة الجديدة الدكتور حسن ابراهيم نزع منزعا آخر تجلى فيه التخلى عن الغزل

ولواعج الحب ، وتمى عنه هـــذا الاتجاه ، ومع تهيه للغــزل الذى نعده مصنــوعا الا أن العلم وذا سلم وما يتصل بهما جاءا فى مطلع مدحته أو بردته . قال :

ماذبت شـوقا لجيـــران بذى ســلم
ولاارقت لذكـــر البـان والعلم
ومابحت لـــريم القاع ســـفك دمى
فى الاشهر الحل او فى الاشهر الحرم

وزاد على ذلك فأومأ الى مطلع « بانت سعاد » لكعب بن زهير ، وان اتفقت فى الوزن واختلفت فى القافية

ومـاســـعاد اذا بـــانت بمتبلــــة
منى الفـؤاد فـان القلب فـى شـيم

لأن كعب بن زهيــر يقول فى مطلع « بانت سعاد » وهى فى مدح الرسول مباشرة أنشدها بين يديه فى مسجد المدينة سنة ثمـــان من الهجرة بعد فتح مكة . قال :

بانت سـعاد فقلبى اليـــوم متبـول
متيم اثرهـــا لـــم يفـــد مكبـول

وصاحب البردة الجديدة جمع كل المطالع ، وان نمى الغــزل والتغنى بالأماكن التى جاءت فى قصائد من سبقوه ، وهذه الأماكن حبيبة الى النفس يتشوف اليها المسلم وعلى ذكرها يشتاق ، وكم كنت أود لو أن باحثـــا ــ ولو من ســـكان الحجاز ــ يرسم لنا «خريطة» يبين لنا فيها تلك الأماكن التى ذكــرت حبا فى الرسول وكلفا ببيئته التى نعمت به ظاعنا ومقيما . فحين نقرأ شعر الشعراء الذين تغنــوا بهــا ووصلوها بقلوبهم وآدائهم يجذبنا الشوق لرؤيتها والتعــرف عليها . ألم يهم الشعراء بها ؟ ألم يفتنــوا فى عرضها ؟

وأكبر ظنى أن ابن الفــارض والبوصيرى يعرفانها أو يعــرفان معظمها ، فقد جاور ابن الفارض فى مكة سنين ، وحج البوصيرى وزار تلك الأماكن ، وقد تحدث عن ذلك فى قصائد شتى ، وعــزوف الدكتور حسن ابراهيم عن الحديث عنها والشوق اليها لا يخليه مـــن حبه اياها ، والحنين الى رؤياها ،

لقد ذكرها وان نفى شوقه اليها ، ولذا جاء نفيه داعيا الى الابتسام ، مشيرا الى طبيعة المصرى من خفة الظل ، ولطف الظرف وحلو التناول . فأين اتجه اذن ؟ صرح وأعلن :

انى اتجهت بقلبى نحــــو بــارئه
من مطـلع الفجر حتى غيهب الظلم
وســيدى المصطفى ارجو شــفاعته
وهو الشـفيع لنا من زلة القـدم
ان الشــيب عــلانى فاتعظت بــه
وكم ارقت لــوزدى عبرة النـدم
محمــــــد عرك الـدنيا بمـا حفلت
من الشـــقاوة والنعمى ومن غمم

وكنت أود لو استغنى عن بيت الشيب ، لأنه أقحم فى حديثه عن محمد صلى الله عليه سلم حتى تلاحم المعانى وتعانق الأفكار ، والشيب كان واعظا لجميــــع من صنعوا المدائح النبوية . وبعد فما عناصر تلك البردة الجديدة ؟ وماذا فيها من جديد يشير الى قائلهـا ويضعه فى هالة بين هـؤلاء الذين يقولون زلفى الى الله وحبا فى رسوله ؟ ان العناصر التى حفلت بها لم تخرج عما قاله من سبقوه ، ففيها مولد الرســول وطفــولته وأعماله فى شبـــــابه ، ثم بعثته ومعجزته وجهاده ، وفضــــله على البشرية من حيث العقيدة والشريعة . ونقص عنهم ما قالوه فى الغــزل وحديث النفس والهوى ، وان ألم الى خطته بترك ذلك المنزع .

ولئن قلت هذا فله فيها اجادات لا بد من التنويه بها والكشف عن مزاياها ، لأن الشاعر حالفه التوفيق فجاء ما صاغه كأنه جديد . أجاد فى حديثه عن العقيدة ومــوقف الرسول منها وأثر الاسلام فيها ، ففى حــديثه عن محمـد وموقفه وتحنثه فى غار حراء يقول :

فمــا تعبــد فى يـوم الى وثن
ولم يشــاركه بقــربان ولــم يهــم
بـل راح للغـار يصفو فـى تأملــه
وكم تغيب نجــم وهــو لم ينــم
تأمـل الفجـر يبـدو والحيــاة معــا
وكيف تحيــا موات الأرض بالديم ؟
وتشرق الشـــمس للاحيـــاء جالبــة
دفء الحيــاة ويسرى البدر فى الظلم
وهــذه الشـــم من أرسى دعائمهـــا
فزاحمت شهب الافلاك من شــمم ؟
من خالق الـــروح والانسان هل خلقـــا
سدى ؟ وماذا وراء المـوت من حكم ؟
(جاء الجـــواب) بجنح الليل فاختلطت
له العـــروش وكـان الفجـــر للامم

(١) اعترت

فهذا العرض للكائنات ومحمــد يتأملها وحده فى غار حراء ساهدا ساهرا ثم المفاجأة الباهرة « جـاء الجواب » أعطى للمنظـر مـذاقا سائغا يفتح الذهـن للتفكير فى ملكوت الله ، واستحضار شخصية الرسول الذى غادر داره ليعيش فى وحشة رغبة فى الوصـــول الى البينة ، والبينـة هى الرسـالة بها يستريح فؤاده وتقر عينه ويدفعك هذا المنظر الفريد الى التأمـــل والاستغراق ومتابعة الشاعـر فى ترفقه أو انطلاقه وتدفقه .

ومن الاجادة حديثه عن محمــد وقد مات عمه وزوجه ، وهجـــر أصحابه مكة ليحلوا باذن الله على الأنصار فى المدينة وتعرضه للأذى والتآمر عليه ، تجد فيه قلب شاعر يسيل شعورا لا شعرا . يقول :

فهاجر القـــوم تترى من ديارهـــم
يبغـــون يثـــرب فى ماوى ومعتصـــم
ماتت خـــديجة والاعمام وارتحلـــوا
واوحشـــت مكـــة من بعـــد فقدهم
ولم يعـــد لرســـول الله مـــن احـــد
يجيـــره مـــن عتـــاة الكفر والنقـــم

ألست معى أن هذا الشعر يقطر رقة وحنانا ، واشفاقا وارتعاشا أن يصاب النبى بسوء ؟ ان الشعـــر جمع لك كل ما يملأ قلب الانسان أسى وتفجعـا ، مـاتت الزوجـة والأعمـــام ، وارتحـــل الأحباب والأصحاب وبقى وحـــده يقاوم أئمة الكفر وطغيـــان الظلم ، هنا شاعرية لا تتـــكر ، ونبضـات لا تغيض ، وصــدق يحس ويلمس ويرى .

ومما أجاد فيه أيضا مـــوقف الرسول ممن عـــادوه وأخـــرجوه وحاربوه وضربوه وصدوه عن أداء رسالته ، وقد فتح الله عليه مكة ، ونصره نصرا عزيزا ، ووقفت قريش أمامه فى الأسر تنتظر كلمـــة منه ، وكان المنتظر أن ينتقم ويمزقهـــم كل ممزق جزاء وفاقا على تنكرهم لقـــرابته وحـــربهم له داخل مـــكة وخارجها ولكنه .

ماجاء مكـــة تنكيـــلا بمـــن كفـــروا
بل جـــاء بالهـــدى والغفران والحرم
مقتـــال حمزة غـــدرا نال مغفـــرة
وهنـــد آكلـــة الاكبـــاد لم تـــلم
حتى القـــريم ابو ســـفيان كـــرمه
وصـــار منزله فى الامن كالحـــرم

انها أحاسيس شاعر راعه الموقف النبيل ، فرأى الرسول ارتفع عن مغريات النفس وعما ألفه الناس قديما وحديثا من حب الفتك والبطش بالأعداء ، وهل هناك أشد عداوة من وحشى (١) يغتال أسد الله حمزة عم الرسول وهل هناك وحشية تماثل وحشية هند بنت عتبة وزوج أبى سفيان تلوك كبد حمزة بعد أن بقرت بطنه وشوهت جسمه ؟ وهل ينسى ماقام به أبو سفيان من شن الغارات فى غزوة أحد وغزوة الأحزاب ؟ لكن الرسول عفا عن كل هؤلاء ، بل جعل دار أبى سفيان مأمنا لمن دخلها فسوى بينها وبين المسجد الحرام ، نهاية فى العمل الجميل ، لقد قال لقريش : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وهنا يحسن الاقتداء فكانت من الشاعر دفقة شعورية لها أثرها فى القلوب كما كان لفعل الرسول أثره فى اسلام هؤلاء وقيامهم بعده على نشر الرسالة وافتدائها بالمال والأرواح .

وبجانب هذه الاجادات وقفات خانه الأداء فيها ، وقد عالج النظم منذ الصغر ، ولكن القافية أحيانا تكد الشاعر وتوقعه فى المخاطر ، وقد يفعل الوزن ما تفعله القافية فيضطر الشاعر الى مخالفة النحو والصرف وللنحويين كلام جميل فى تساهلهم مع الشعراء ، فيقولون يباح للشاعر ما لا يباح للناثر ، ولكن للاباحة حدودا ، فليس المباح مباحا فى كل تعبير ، فاذا أخلت الاباحة بالمعنى كانت رزية على فن القول ، وناظم البردة الجديدة ألجأته القافية أن يقول عن طفولة محمد صلوات الله عليه :

جاء الحياة يتيما قبل مولده
وفى الطفولة عانى شقوة اللطم

الشطر الأول معنى صحيح يؤيده التاريخ ، أما الشطر الثانى فهو يباين ما جاء فى كتب السيرة والتاريخ ، فقد كان مولده مصحوبا بالبشرى والبهجة فى البيت الهاشمى ، وكيف لا يكون كذلك وقد كان جده يتحرق شوقا الى

(١) وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم

وليد لابنه عبد الله الذى مــات شابا ودفــن فى يثرب ؟ وأنــت تعلم أنه كان موضع العناية مـن عبد المطلب جده الذى لا يدنو من مجلسه فى ظل الكعبة غير حفيــده محمد ، وأنت تعلم حب أبى طالب له وعنايته به حتى أنه كان يفضله على أولاده ، وعمه الزبير بن عبد المطلب كان يضعه فى حجره ويغنى له شعرا فيه اسمــه والتفاؤل بمستقبله يقول :

محمــد بن عبـدم
عشـت بعيش انعم
ودولــة ومغنــم
فى فرع عز اســنم
مكــرم معظـم
دام سجيس الازلـم

والقرآن يقول : « ألم يجدك يتيما فآوى • ووجــدك ضالا فهدى • ووجـدك عائلا فأغنى »

فمتى لطم ذلك الوليد ؟ أحيــن يطلب له المراضع أم عندما أخذته أمه الى يثــرب ؟ أم حين شب وصحب عمه الى الشام ؟ لقد فعلت القافية فعلتها فحادت بالشاعر عن الحقيقة ومسالك الواقــع ، فاذا أضفنا الى كل أولئك عناية قريش باليتامى فى الجاهلية والاســلام وقفنا على الحقيقة من أقصر طريق. فلم يلطم محمد ولم ينله الحرمان.

وكنت أود أن ينافس شوقى فى قوله :

ونودى (اقرا) تعــالى الله قائلهــا
لـم تتصـل قبـل من قيلت له بفـم

فاذا به يقــول ويقصر عـن المأمول :

جبريل فى الغار قال (اقرا) مـدوية
فقال : كيف وما علمت بالقــلم ؟

ففى بيت شوقى نداء وأمر ، وأمر من الله تعالى ، والأمر بكلمة « اقرأ » التى لم تتصل الا بفـم محمد موكب من الجمال والجلال، والبردة الجديدة ، تقول : جبريل فى الغار دوى آمرا بالقراءة • وهو معنى تاريخى مقبول وكان المنتظر أن يأتى الشاعر بشىء جـديد فى الشطر الثانى لكنه حــكى ما قاله التاريخ بنصه ، شوقى لم يخالف

---

(١) أبد الدهر

التاريخ ولكنه اشعل به وصوره من خلال وجدانه فجاء رائعا بارعا تقرؤه أو تغنيه أو تصغى اليه .

والوزن أوقعه فى فلك ادغام مؤتم فجعله « مؤتمم » وجعله يضم ما قبل واو الجماعة فى الفعل المعتل الآخر بالألف مثل « رأوا » ومثل « ألقوا » فقد ضم ما قبل الواو ، وكانت له مندوحة فى أفعال أخرى ، وأنا لا أقسو على الشاعر حين آخذ عليه تلك الهفوات ، وانما انظر الى عمله نظرة الاكبار ولأن تلك القصيدة ستأخذ مكانها بين المدائح النبوية ولا بد للنقد أن يقول كلمته ، وقد يعاود الشاعر اصلاحها بعد أن يقرأ نقدها ، فقديما أصلح اليثربيون الأقواء للنابغة الذبيانى ، فلم يغض هذا من مكانته وزعامته ، وما خلق النقد الا للبناء والتقويم .

وقد جاءت تلك البردة فى (١٢٤ بيتا) وقد كان فى مكنته أن يمد فى معانيها لتبلغ مبلغ البردة للبوصيرى أو نهج البردة لشوقى ، فيستلهم معانى أخر تناسب عصره ، أو يكشف أمرا لم يتناوله من سبقه حتى الحكمة عنده جاءت قديمة ، فمن حكمه :

ان الافاعى قد تنوس قاتلة على الجحود اذا لم تؤذ بالشرم(١)

على أنه معنى لا يؤدى الى استئصال الشرك أو توهين حدته ، وكان له من ابتكارات العصر مطارح لاقتناص الحكم .

ومع كل ما قلناه فهذه المدحة الجديدة أو البردة الجديدة اضافة مجيدة تدل على ايمان قائلها وحبه لسيد الخلق ، وتصوفه فى اتباعه وطرائق تعبده ، وتدفع الشعراء الى أن يقبلوا على السيرة النبوية ويستوحوا منها ما يزكى شاعريتهم ويعطونا منها صورا روحية تعمق الايمان ، وترقق الوجدان ، وتضع القدوة نصب العيون منظورة ، ومن ناحية أخرى تعيد للعمود

(١) خلع الانياب

الشعرى مكانته ، فقد كدنا ننأى عنه ، ونفر منه ، ونجعل الشعـر مقطوعات أو سطـورا مقفيـات ، أو غيـر مقفيات بل يعـود الى القصائد الطويلة التى تتخذ الوزن الموحد والقافية الموحدة ، والفن أساسه القيــد فاذا تحلل طلبـا للحرية كانت الفوضى والانحراف.

ان الشاعر نظمها ابتغاء رضـوان الله وحبـا فى رسـوله ، ورجـاء لشفاعته ، فلتكن فى ميـزانه يوم تبلى السرائر ، ونقول معـه فى خطاب ربه :

سألتـك العفـو ربى اننى بشر
جم الذنوب وأنت الواسع الكرم

الاستاذ السيد حسن قرون

والسنن الاسلامية التى ربت عائشة واسماء وسـكينة ونفيسة ، لاتزال قادرة على ان تربى مثلهن اذا اقيم علـى قواعدها السماوية نظام البيت ومنهاج المدرسة وشريعة الوطن . ان المسلم الحق قد ينزل عن طبقته فيشكر ، وقـد يخرج من جنسيته فيعذر ، ولكنه ابدا لايفسق عن امر ربه ، وفى قلبه نور وفى ضميره حياة .

من كتاب وحى الرسالة للمرحوم احمد حسن الزيات

بمناسبة الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري :

ماذا قدم الأزهر والأزهريون للعلم والدين ؟

بقلم : الدكتور محيي الدين الألوائى

... ماذا قدم الأزهر والأزهريون للعلم والدين ؟

... وما هى مكانته فى العالم الاسلامى ؟

... وماذا كانت غايته فى تاريخه المديد ؟

... وما هى الخطوات التى اتخذها فى سبيل خدمة الدعوة الاسلامية ؟

***

هذه أسئلة تشغل اليوم ذهن كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وان المسلمين جميعا — على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وعاداتهم وثقافاتهم — يتطلعون الى هذه الجامعة التى هى أكبر وأقدم جامعة اسلامية على وجه الأرض ، ولها سجل تاريخى وضاح الجبين مشرق الغرة فى نشر أشعة العلم والعرفان فى أقطار العالم ، وحفظ اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى عصر التدهور والانحطاط وسيادة الاستعمار الغربى على الأقطار الاسلامية ، وفى مقاومة شتى تيارات الالحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة ودعاة الفوضى والانحلال .

وهى الجامعة التى عالجت علوم الدين والآداب العربية عبر القرون ، ويسرت سبلها وأكثرت كتبها وخرجت فطاحل علماء الاسلام والأدب العربى ؛ وبقيت على مدى الأجيال والقرون قائمة بعملها وفيئة بأماناتها ، وأمدت العالم الاسلامى فى الشرق والغرب بما هو فى حاجة اليه ، فاتجهت

اليها أنظار المسلمين جميعا ، خصوصا بعد سقوط بغداد واتلاف كتبها وذخائر مكاتبها العلمية ، فبدأ طلاب النور والعرفان يفدون الى حظيرة الأزهر من كل فج عميق • وهو الآن ملتقى آلاف الطلاب من أنحاء العالم ، كما أنه مصدر آلاف العلماء الى مختلف القارات ، ومركز الدعوة الاسلامية الى شتى الأمم والشعوب •

واذا زرت كليات جامعة الأزهر ومعاهده وأروقته تجد هناك مظهرا عاما لثقافات عديدة ولغات مختلفة وأجناس شتى ، وترى فيها مظهرا عاما أيضا للعالم الاسلامى كله • فانه لمصداق بين للمبدأ الذى يتخذه الأزهر رمزا لرسالته هو :

« العلم رحم بين اهله »

وما كانت غاية الأزهر فى تاريخه الطويل الا أن يكون دائرة فى مجال تبليغ رسالة الاسلام ، وهذه الرسالة هى أجل ما تتطلع الانسانية فى كل مكان الى بلوغه والانتفاع بثمراته ، وتتلخص هذه الرسالة فى أمور ثلاثة :

الأمر الأول : مطاردة الشك والحيرة والزعزعة فى المجتمع الانسانى ، فمهد الأزهر للناس طريق الطمأنينة النفسية والاستقرار •• وأزاح عن كواهلهم أعباء الحيرة والقلق بطريق نشر عقيدة الاسلام الفطرية فى سماحتها وبساطتها ويسرها •

الأمر الثانى : الدعوة للناس الى أن يتحرروا من أثراتهم ونزواتهم ليكون لهم أن يتحرروا من قاهريهم ومستعبديهم ، فحمل الأزهر راية الحرية الحقيقية والكرامة الانسانية ، حتى كان ملاذا لعامة الشعب يهرعون اليه فى الأزمات ، ملتمسين من علمائه الارشادية والتوجيه ، وكثير ما كان علماء الأزهر يقفون فى وجه الطغاة والمستبدين من الحكام الأجانب الباطشين ، وكان دافعا قويا فى المجتمع الانسانى الى أن يتحرر المستعبدون وأن يستردوا كرامتهم الانسانية فى جميع المجالات •

الأمر الثالث : دعوة الناس لأن يحتقروا عصبيات اللون والجنس ، فان الناس جميعا لآدم وآدم من تراب . واذا كان لابد للناس أن يتفاضلوا ، فعليهم أن يتفاضلوا بما يقومون به من جليل العمل ، وما يقدمونه للانسانية من الخدم ، وان الأزهر كان دائب الهتاف بالناس أن يستمعوا الى قوله تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولهذا كان الأزهر موطن الأمل ومعقد الرجاء للشعوب الاسلامية فى مختلف الأقطار ، وان جميع المخلصين يتطلعون فى ثقة وايمان الى هذه الجامعة الخالدة ، لأن تقدر على خدمة الاسلام والمسلمين ، بل والانسانية جمعاء ، وأن تعد المسلمين لاسترداد أمجادهم العظيمة والاستعداد للدور القيادى الكبير الذى أعدهم له ، محمد بن عبد الله — صلى الله عليه وسلم — .

والثورة المصرية ، قد امتدت يدها الى الأزهر ، فأزالت من طريقه العقبات ، ومهدت أمامه السبل ومنحته الامكانيات بفضل القانون الثورى الصادر برقم ١٠٣ لعام ١٩٦١ الذى فتح أمامه أبواب المستقبل المجيد الجدير بهذه الجامعة العريقة ورسالتها العالمية الخالدة .

ولهذا سأقوم بتطواف سريع حول هذه الجامعة الاسلامية الكبرى ومكانتها فى العالم الاسلامى ورسالتها وخدماتها وموقف علمائها من القضايا التى تهم الاسلام والمسلمين ، بل والمجتمع الانسانى كله فى كل زمان ومكان ، ليكون نبراسا لكل من يريد الوقوف على الغاية الشريفة التى تسعى الى تحقيقها هذه الجامعة . ودحضا وتفنيدا لأباطيل وأهواء جاحدى الحق ومنكرى الفضل ، والحاقدين على جلائل الخدم التى بها أخرجت هذه الجامعة بشرا كثيرا من ظلمة الى نور ، واستنقذتهم من شر الى خير . وبعثت الموتى أحياء وردت

العبيد أحرارا . فما أكرم ثمرها وأتم نعمها ! وأبين نفعها !

ان تاريخ الأزهر هو تاريخ الثقافة الاسلامية منذ القرن الرابع الهجرى الى اليوم . واذا كانت مصر قد وضعتها الأقدار فى هذا الموقع الخطير على خريطة العالم ، حيث تقع مركز اتصال بين القارات ، ترسل أشعتها الثقافية والحضارية الى شتى أنحاء العالم ، شرقيه وغربيه ، فان الأزهر قد لعب فى هذا المكان — ولا يزال يلعب — دورا رائعا عظيم الأثر فى الفكر الاسلامى ، بل والفكر الانسانى ، يرسل دعاته وأفكاره فى كل اتجاه ينشر العلم والمعرفة . وقد وقف الأزهر ألف سنة أو تزيد ، يصارع الحوادث ويناضل الأحداث ، وقد أصبح الأزهر بحق ممثلا للفكر الاسلامى ولتاريخ المسلمين . واتسع نشاطه فشمل السياسة ووقف حارسا أمينا يدافع عن استقلال الشعوب ويصرخ فى وجوه المعتدين على حرمات الانسانية .

وضع أساس الجامع الأزهر فى ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧١ م) تحت اشراف جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى ، وتم بناؤه فى سنتين ، وفتح الجامع الأزهر للصلاة لأول مرة فى رمضان سنة ٣٦١ هـ . فلم يلبث أن تحول الأزهر الى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعصرية ، ويجتمع فيها طلاب العلوم من كافة الأقطار . وكان الخلفاء الفاطميون حريصين على الاهتمام بهذا المعهد الكبير وتزويده بكثير من الكتب ، وتخصيص موارد باهظة للانفاق على طلابه والوافدين عليه ، وبقى الأزهر منذ انشائه مسجد الدولة الفاطمية الرسمى وكان الخليفة بنفسه يؤم الناس فى صلاة الجمعة ، وعيدى الفطر والأضحى ، التى تقام فيه . وقام الأزهر بدور كبير فى اذكاء الحركات القومية فى مصر فى العصور القديمة والحديثة . وقد تجلت زعامته الشعبية بأروع مظاهرها أيام الاحتلال الفرنسى لمصر (١٧٩٨ م — ١٨٠١ م) حيث

تولى شيوخه وطلابه قيادة المقاومة الشعبية وتنظيمها . وقد احتمل الأزهر خلال تلك الحوادث العصيبة أعظم التضحيات .

وكان الأزهر ورجاله يغذون كل الثورات الوطنية بخطبهم وكتاباتهم . ويتركون أثرا فعالا فى تكوين شخصيات ثورية ، مثل « أحمد عرابى » قائد الثورة العرابية الذى تلقى علومه فى الجامع الأزهر أربع سنين، والسيد «عمر مكرم»، والشيخ « محمد عبده » وغيرهم من الذين مهدوا للثورة فى نفوس الناس ، وأثاروا العقول لمحاربة الجهل والظلم والعدوان .

وجدير بالذكر أن الزعيم الشهير « سعد زغلول » قائد ثورة ١٩١٩ المصرية كان من رجال الأزهر ، وقد تخرج من الأزهر قبل دراسته الحقوق ، ويعتبر « سعد زغلول » من المكافحين الذين حاولوا اعادة العزة والكرامة لطبقات عامة الشعب .

ومنذ عام ١٩٦١ دخل الأزهر فى دور فعال جبار فى المجال العلمى والعملى ، حيث جرى تطوير الأزهر تطويرا يتهيأ به لأبناء المسلمين جميعا من العلم والمعرفة ، ويضيف الى الخير التالد فى رسالة الأزهر العلمية خيرا جديدا فى رسالته العملية ، لكى يعالج شئون الدين والدنيا ، ويخدم الانسان بمعنييه جميعا ، روحه وجسده . لأن الاسلام له جانبان جانب روحى وجانب مادى ، فالأول يخدم الناحية الروحية فى الانسان ، والثانى يخدم الجانب المادى فيه ، من النواحى الاجتماعية والصحية والزراعية والهندسية والاقتصادية وغيرها .

ومن أكبر ما اهتم به هذا التطوير انشاء « جامعة الأزهر الحديثة » وفتح الكليات العملية بها وكلية خاصة للبنات بشعبها المختلفة من علوم اسلامية وطب وأدب وفلسفة وعلوم . وجامعة الأزهر لن تختلف غايتها عن غاية الأزهر الشريف فى تاريخه المديد الا من تغيير الخطط وتعديل الوسائل بقدر ما تتطلبه الحياة المتطورة ، ولن ينحرف طريقها عن

طريق أيهـا الجليـل « الجـامع الأزهر » . فان التاريخ الصحيح يقول : ان الأزهـر كانت تدرس فيـه ، فى أبهائه وصحونه ، الى جانب التفسير والحـديث والفقـه والأدب ، علوم الفـلك والهيئـة والميقـات والطب والرياضـة والحساب . وكانت تعقـد فيـه حلقـات العـلم للنساء . ويذكر التاريخ أن سيدة فضلى تقـدمت فعلا لنيـل شـهادة « العالميـة » الأزهرية .

وأما تطـوير الأزهـر فخطوة جديدة تتهيأ له بهـا دراسة الطب والهندسـة والزراعة والتجـارة ، وغيرها من العلوم الكونية والفنون العملية ، كما أنه يهيىء الفـرصة للبنات من العلم والمعـرفة ما قـد تهيـأ للبنـين . كليـة البنـات الأزهرية ، نواة لجامعـة اسلامية للبنات ، لكى يقدر الأزهر بمختلف هيئاته ومعاهده وكلياته على اسداء الخير النـافع العـام الى العـالم الاسـلامى كله ، والى الانسـانية جميعـاء .

والأزهر جـزء بارز فى كيـان المجتمع الاسـلامى ، وهـو تراث مجيد يعتز به كل مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يجاهد فى ميادين العلم والدين والاصـلاح الاجتماعى والخلقى ، والسياسة فى العالم العربى والاسلامى ، ولولاه لجف الأمل وانطفأ النور فى ميدان العلم والمعرفة فى هذا العالم ، فى عصر الظلمـات والركـود ، وأما جمهورية مصر العربيـة ، فمدينة للأزهر ، فأصبحت بفضـله منبرا تفيض منـه أسـمى الأبحـاث الاسـلامية والفـكرية ، وقاعدة للاشعاع الثقافى الاسلامى ، وقـد أسرعت مصر الفتيـة التى اعترفت بمكانة الأزهر فى العالم الاسلامى وجهوده فى سبيل العلم والأدب ، فمـدت يدهـا بالعـون له بكل الوسائل الممكنـة ليقـوم برسالته على أحسن وجه حتى يتبوأ مكانته اللائقة به كمبعث حضارة روحيـة ومادية ، وقلعـة حصينة للعـروبة والاسلام ، ومصدر رجال الفـكر وزعمـاء الاصـلاح يحملون أمانة

الرسـالة الاسـلامية ، ويكونون ورثة الأنبياء .

وأما دور الأزهر القيـادى فى عشرة قرون ، فقـد حمى العـالم الاسلامى من الانهيار أمام جحافل الصليبين وأمام طغـاة الحـكام وعدوان المستعمرين ، كـما انفرد به عن جامعـات العـالم الأخـرى بخصـائص لم تتيسر لغـيره من ميـزات تربوية وثروات فـكرية عالمية وأساليب علميـة لغرس حب البحث والدرس للطلاب وتعويدهم على الجد فى طلب الكمال . هذا بالاضافة الىمابذلعلماؤه وطلابهمن جهود فى سبيل اعلاء منار الاسلام والمحـافظة على تراثه المجيـد . وقد ظل الأزهـر — وسيظل — يؤدى رسالته على أكـمل وجه ، ويقوم بأجل الخـدمات للعـالم الاسـلامى فى جميع العصـور ، ويرسل أشعة العلم والعـرفان فى أقطار العالم ، ويبقى مقصد طلاب العلوم العربية والثقافات الاسلامية من مختلف الأمم والشعوب .

ان الأزهر هو الهيئة الاسلامية العامة الكبرى فى العالم ، تقوم على حفظ التراث الاسلامى ودراسـته ونشره ، وتحمـل أمانة الرسـالة الاسـلامية الى مختـلف الأمم والشعوب فى وجه الأرض ، وتعمل على بعث الحضارة العربيـة وتقدم الآداب والعلوم والفنون المختلفة ، وكذلك تزود العالم بعلماء الشريعة الاسلامية واللغـة العربيـة الذين يعملون فى سبيل نشر القيم الروحية والأهـداف الانسانية القويـة فى الجنس البشرى . وفى عام ١٩٦١ صدر قانون تطوير الأزهر المعروف بقـانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وقد مكن هذا القانون الأزهر من القيـام بدور عظيـم فى تاريخ الاسـلام ، وفى تاريخ العـلم وفى تاريخ الجهـاد ضـد الاسـتعباد والاستغلال والاستعمار . وقـد أصبح الأزهر بفضل هذا القانون مشعل نور الاسلام فى بلاد كثيرة من أفريقيا ومن آسيا ومن أوربا ومن أمريكا . وقـد انفسح مداه واتسع نطاقه .

ويبدو مدى الاصلاح الجذرى الشامل الذى ناله الأزهر بفضـل هذا القانون الاصلاحى من المبادىء

التى يقوم عليها هـذا القانون ، وهذه هى المبادىء الرئيسية :

١ ـ أن يبقى الأزهـر وأن يدعم ، ليظل أكبر جامعة اسلامية ، وأقدم جامعة فى الشرق والغرب .

٢ ـ أن يظل كما كان منذ ألف سنة حصنا للدين والعروبة يرتقى به الاسلام ويتجدد ويتجلى فى جوهره الأصيل ، ويتصل نطاق العلم به فى كل مستوى وفى كل بيئة ويذاد عنه كل ما يشوبه وكل ما يرمى به .

٣ ـ أن يخرج علماء قد حصلوا كل ما يمكن تحصيله من علوم الدين وتهيئوا بكل ما يمكن من أسباب العلم والخبرة للعمل والانتاج فى كل مجال من مجالات العمل والانتاج .

٤ ـ أن تتحطم الحواجز والسدود بينه وبين الجامعات ومعاهد التعليم الأخرى وتزول الفوارق بين خريجيه وسائر الخريجين فى كل مستوى وتتكافأ فرصهم جميعا فى مجالات العلم ومجالات العمل .

٥ ـ أن يتحقق قدر مشترك من المعرفة والخبرة بين المتعلمين فى جامعة الأزهر والمعاهد الأزهرية وبين سائر المتعلمين فى الجامعات والمدارس الأخرى ـ مع الحرص على الدراسات الدينية والعربية التى يمتاز بها الأزهر منذ كان ـ لتتحقق لخريجى الأزهر الحديث وحدة فكرية ونفسية بين أبناء العالم العربى والاسلامى ، ويتحقق بهم نوع من الخريجين مؤهل للقيادة فى كل مجال من المجالات الروحية والعلمية .

وعلى أساس هذه المبادىء احتفظ قانون التطوير الجديد لهذا المعهد العظيم بكيانه وصنعته وخصائصه العلمية ، وقد قام الأزهر بدور عظيم قرونا طويلة فى مكافحة كل المحاولات الاستعمارية لتلوين أفكار المسلمين وعقائدهم ، ووضع موازين جديدة وقيما جديدة فى نفوسهم ، يمكن أن تباعد بينهم وبين الاسلام ، ولكن طبيعة المقاومة فى نفوس المسلمين ، والتزام الأزهر الوقوف فى وجه كل محاولات العدوان ، قد رد

كيد الكائدين ، وحفظ التراث الاسلامى والعربى ، وشع من الأزهر ثورة فى بلاد كثيرة ، وقد اكتسب المنتسبون اليه احتراما ، واتجهت قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى هذه الجامعة الاسلامية الكبرى للتزود من أسباب المعرفة •

ولم يكن دور الأزهر مقصورا على العلوم الدينية واللغوية كما يظن البعض ، فان الاسلام لايفرق بين المعارف والعلوم ، بل هو يجمع بين الدنيا والدين ، وبين الأرض والسماء ، وبين المطالب المادية والسبحات الروحية ، ويقرر أن طلب العلم على اطلاقه فريضة على كل مسلم ومسلمة • ولهذا كان علماء المسلمين فى عصر ازدهار الاسلام يدرسون جميع أنواع العلوم والفنون ، فكان منهم الفقيه والطبيب والفلكى والمهندس ، والعالم الطبيعى والكيميائى والجغرافى ، والمؤرخ والرحالة ، والرياضى ، وكان هذا يتجلى فى علماء الأزهر على نطاق يختلف قلة أو كثرة بحسب اختلاف العصور ، وكانوا يسمون علم الفلك ، بعلم الهيئة ، ويسمون علوم الأحياء « بعلم المواليد » والكيمياء « بعلم التركيب » • وظل علماء الأزهر يحرصون على دراسة هذه العلوم حتى فى أشد عهود التدهور والجمود •

ولا يخفى على من تتبع تاريخ الأزهر ، أن علماءه قد اسهموا فى جميع المعارف والعلوم بالدرس والبحث والتأليف ، سواء فى العلوم الدينية واللغوية ، وكذلك فى المنطق والحساب والهندسة والجبر والفلك • ولما بدأت النهضة العلمية فى مستهل العصر الحديث لم تجد لها منبعا الا فى رحاب الأزهر ، فقد كان معظم المبعوثين من مصر — مثلا — الى أوربا من رجال الأزهر ، وقد عادوا بعد أن تخصصوا فى مختلف العلوم والفنون ، فوضعت أسس النهضة العلمية والفنية والثقافية فى هذه البلاد ، وكان البارزون من أبناء الأزهر هم الذين وضعوا أساس النهضة الحديثة فى مصر ، وأساتذة جامعة القاهرة وبقية الجامعات

ومدرسة الألسن ومدرسة القضاء الشرعي وكلية دار العلوم وغيرها من مراكز الثقافات ودور العلم التي تفرعت من دوحة الأزهر الشريف .

وان الاستعمار ــ بأساليبه العديدة ووسائله المختلفة ــ قد نجح الى حد كبير ــ في أن يعوق حركة الأزهر المطردة واستطاع أن يحدث فجوة بين العلوم الدينية واللغوية ، وبين العلوم الأخرى ، وكاد الانعزال يتم بين علماء الأزهر ، وعلماء الجامعات الأخرى ، فنادى زعماء الاصلاح في العصر الحديث بعلاج هذه الحال ، فان الغرب يعرف ، كما يعرف أبناؤه ، أن العلوم الحديثة العصرية اسلامية في نشأتها وتقدمها ، وأن الغرب استعارها من المسلمين ، وتقدم كثير من المصلحين في هذا الميدان ، وتوالت الصيحات في كل مكان ، وقد تكررت محاولات لتجديد الأزهر وتطويره بحيث يتفق ومكانته وأثره في العالم العربي والاسلامي ، مع الاحتفاظ بطابعه وخصائصه وصفته التي استحق بها أن يبقى مسيطرا على تاريخ العرب والمسلمين أكثر من ألف سنة ، ولكن هذه المحاولات المبذولة منذ أكثر من نصف قرن لم تنفذ الى صميم المشكلة ، ولم تحاول علاجها جذريا . وأما القانون الخاص باصلاح الأزهر فوضع على أساس تقرير المبادىء اللازمة لكل اصلاح جذري شامل .. وبناء على هذا القانون ظهرت الهيئات الخمس الأزهرية للنور ، وهي :

١ ــ المجلس الأعلى للأزهر .

٢ ــ مجمع البحوث الاسلامية

٣ ــ جامعة الأزهر .

٤ ــ ادارة الثقافة والبحوث الاسلامية .

٥ ــ المعاهد الأزهرية .

***

وجدير بنا أن نورد بعض المعلومات عن كل من هذه الهيئات الأزهرية المتفرعة من الجامع الأزهر الشريف ، الذي له يد طولى في خدمة الاسلام والمسلمين ، واحتضان العلوم الاسلامية واللغة

العربيـة ، منـذ أكثـر من ألف سنة .

فأمـا المجلس الأعلى للأزهـر ـ فهو الهيئة التى تقوم بتخطيط سياسة شئون الأزهر فى هيئـاته المختلفة ويشترك فى عضويتها الى جانب شيخ الأزهر ، كبار العلماء المتخصصين فى التعـليم وفى الادارة .

وأما مجمع البحوث الاسلامية ، فهو الهيئة العليا للبحوث الاسلامية .. ويقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الاسلامية وبيـان الرأى فيما يجد من مشكلات فقهيـة ، كما يقوم المجمـع بنشر التـراث الاسلامى ، وايفاد المبعـوثين الى مختلف أنحاء العالم للمحـاولة فى توجيـه الدراسـات الاسلاميـة والعربية فيها .

وأما ادارة الثقـافة والبعـوث الاسلامية ، فهى تحمل مسئوليات البعـوث الاسـلامية الوافدة من الخارج ، كما تقـوم بتهيئة أسباب البحث والدراسة فى الموضـوعات التى تتصـل باختصاصات مجمع البحوث الاسلامية ، ثم تضع نتائج هذه البحوث والدراسات موضع الانتفـاع العـام .

وأما المعاهد الأزهـرية ، فهى المعاهد الابتدائية والثـانوية التى تسير على نظام دراسات أزهـرية يتهيـأ فيهـا الطـلاب الى جانب دراساتهم الدينية والعربية للحصول على الشهادات الاعدادية والثانوية بأنواعها المختلفة . وهذه المعـاهد منتشرة فى جميع محافظات جمهورية مصر العربية ، كمـا تجـرى الآن الاجراءات اللازمة لفتح مثيلاتهـا فى أنحاء العالم العربى والاسلامى ، لكى يعد لكليات جامعة الأزهـر ـ على اختلافها ـ طلاب مزودون بحظ من الثقافة الاسلامية والعربية الى جانب المعارف والخبرات التى تتيح لهم الاستمرار فى الدراسات الجامعية . ومن هنـا نستطيع أن نقول ان نظام المعاهد الأزهـرية ، أو ما يعادلهـا هو نواة لجامعـة الأزهر الكبرى .

وأبرز هيئات أزهرية ظهرت الى حيز الوجود بفضل هـذا القانون

« جامعة الأزهر » الحديثة مع كلياتها الجديدة ومعاهدها العديدة ومبانيها وتجهيزاتها الضخمة ، فقد وضع مشروع جامعة الأزهر على أساس تحقيق المبادىء الآتية :

١ ــ الاهتمام ببعث التراث العلمى والفكرى والروحى للشعوب الاسلامية والعربية .

٢ ــ العمل على تزويد العالم بالعلماء الذين يجمعون الى التفقه فى الشريعة الاسلامية ولغة القرآن كفاية علمية وعملية ومهنية تؤهلهم للمشاركة فى كل أنواع النشاط والانتاج والريادة والدعوة الى سبيل الله .

٣ ــ الاعتناء بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية والاسلامية والعربية والأجنبية .

وبغية تحقيق هذه الغايات المنشودة قد نص قانون تطوير الأزهر على ضرورة انشاء الكليات التالية فورا ، مع جواز انشاء كليات أخرى كلما دعت الحاجة ، وقد فتحت فعلا ــ الى جانب الكليات الأزهرية القديمة ، كلية أصول الدين ، وكلية الدراسات العربية ، وكلية الشريعة ، ــ كليات الطب والزراعة والهندسة ، والادارة والمعاملات ، وكلية البنات الاسلامية .

وجدير بالذكر أن كليات جامعة الأزهر تمتاز عن مثيلاتها فى الجامعات الأخرى ، بميزات عديدة لا تتحقق الا فيها ، لأن كليات الجامعة الأزهرية تحقق للطالب الى جانب الثقافة المهنية والدراسة الفنية التى يحصلها نظراؤه فى الكليات المماثلة فى الجامعات الأخرى ، ثقافة دينية عميقة والماما بمواد الدراسات الاسلامية واللغة العربية ، فاذن تحقق للطالب الأزهرى مع الصفة الجامعية العامة ، صفة خاصة بجامعة الأزهر . وليس هذا النظام مستحدثا فى تاريخ الأزهر والجامعات الاسلامية ، فان أعظم علماء الطب والكيمياء والرياضة فى الماضى . كانوا علماء فى الدين ، ومنهم ابن سينا والفارابى وابن الهيثم وآخرون .

ونظرا لمكانة جامعة الأزهر كجامعة للمسلمين جميعا ، ورعاية للميزة الخاصة التى تمتاز بها عن الجامعات الأخرى فى العالم ، أصبحت تابعة لرياسة الجمهورية مباشرة ، مستقلة عن الجامعات الأخرى .

ان قانون تطوير الأزهر ومذكرته الايضاحية هما وثيقتان هامتان فى تاريخ جامعة الأزهر ، وقد ورد فى مادة ٣٣ من القانون : تختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالى فى الأزهر وبالبحوث التى تتصل بهذا التعليم أو تترتب عليه أو تقوم على حفظ التراث الاسلامى ودراسته وتجليته ونشره . وتؤدى رسالة الاسلام الى الناس وتعمل على اظهار حقيقته وأثره فى تقدم البشر وكفالة السعادة له فى الدنيا والآخرة ، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى والروحى للأمة العربية ، كما تعنى بتوثيق الروابط الثقافية والعلمية مع الجامعات والهيئات العلمية الاسلامية والعربية والأجنبية .

وتقول مادة ٣٧ من القانون :

« اللغة العربية هى لغة التعليم فى جامعة الأزهر ، ما لم يقرر مجلس الجامعة فى أحوال خاصة استعمال لغة أخرى ، وتتساوى فرص القبول للتعليم بالمجان فى كليات الجامعة ومعاهدها المختلفة للطلاب المسلمين من كل جنس وكل بلد .

وتنظم الدراسات الخاصة لطلاب البعوث من غير مواطنى جمهورية مصر العربية ، ليتأهلوا لمتابعة الدراسة فى الكليات والمعاهد مع نظرائهم من الطلاب العرب .

وبموجب هذا القانون خطت جامعة الأزهر خطوات جليلة تهيأ لها بها دراسات الطب والهندسة والزراعة والتجارة والمعاملات وغيرها من العلوم العملية التى كان الأزهر يهتم بها حين انتقلت الى أروقته وصحونه حلقات الفقه والأدب الى جانب علوم الفلك والهيئة والميقات والطب والمواليد والرياضة والحساب . وكانت التقاليد العلمية[1] فى بلاد الدنيا كلها

(١) فى الأزهر أساسا للنظام الجامعى والتقاليد الجامعية ..

ـ ولكن الثقافة الاستعمارية التى حاولت أن تباعد بين المسلمين وبين تعاليم الاسلام الحقة ، وأن تضع فى نفوسهم موازين جديدة تخرجهم عن دينهم الحنيف ، فأوقعت تلك الثقافة الاستعمارية الماكرة فى أذهان كثير منهم ، أن الاسلام عبادة وقربى الى الله وفناء فى الله ، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض معه ، فلم يكن الأزهر فى مَنجاة تامة من هذه الحبائل الاستعمارية ، فأريد له ـ أيضا ـ أن ينصرف عن العناية بالجانب المادى للانسان ، لكى ينصرف الى العناية بالجانب الروحى فقط ، مع أن الأزهر اذ يبلغ رسالة الاسلام ، كان دائب الهتاف بالناس أن الله تعالى خلق الانسان لحما ودما ، ثم نفسا وروحا ، لكل منهما خصائص ومطالب ، فالاسلام له جانبان : جانب روحى وجانب مادى ، والأول يخدم الناحية الروحية فى الانسان ، والثانى يخدم الجانب المادى للانسان من النواحى الاجتماعية والزراعية والصحية والهندسية وغيرها .

وعلى هذا فالاسلام فى حقيقته الأصيلة لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا ، لأنه دين اجتماعى ينظم سلوك الناس فى جميع مرافق الحياة البشرية ، وهو يفرض على كل مسلم أن يكون رجل دين ورجل دنيا فى وقت معا ، ولكن المتآمرين على الاسلام والمسلمين أرادوا للعالم الاسلامى رجال دين ، لا يكادون يتصلون بعلوم الدنيا اتصال النفع والانتفاع ، وكانوا يستهدفون من وراء ذلك ايجاد الفرقة بين صفوف المسلمين ، وخلق صورة الانعزال بين رجال الدين وبين المجتمع الذى يعيشون فيه ، فنشأت مشكلات كبيرة وعديدة فى نفوس خريجى المعاهد الدينية ـ على حد تعبيرهم ـ وبين خريجى المعاهد العلمية العصرية ، وكانت لها آثار كبيرة فى نفوس هؤلاء وأولئك ، فمثلا ان خريج الأزهر حين لم يتهيأ لعمل من أعمال الخبرة والانتاج والصناعة والتجارة يوهم

المستعمر المجتمع ، أن عالم الدين مآله التعطل والانعزال عن الدولة والمجتمع ، فيكون سوء ظن بعض المسلمين ببعض ، ويتكون بعض صـور الانقسـام بين المجتمـع الاسلامى .

وقـد تضـاعف هـذا الضرر بانصراف الأزهـر نفسـه عـن العناية بالعلوم الكونية والفنـون العملية ، فانه وجد نفسه معـزولا ـ أو شبه معزول ـ عن المجتمع ، أو منعـزلا عنه ، لا يشـارك من قريب أو بعيد فى زراعة أو صناعة أو تجارة أو شىء مما يتصل بتصرف الانسان على هذه الأرض من أجل معاشـه ، واذن فلم يكن بد مـن تطوير الأزهر تطـويرا يتهيـأ به للمسلمين جميعا من العلم والمعرفة فى المجالات النظرية والعمليـة ، وبذلك يكون له أن يؤدى رسالته فى المجـال المـادى وفى المجـال الروحى ، كما يكون له أن يعـالج شئون الدين بروح الدنيا ، وشئون الدنيـا بروح الدين ، وأن يقـوم بخدمة الانسان بروحه وجسده .

وهكذا صدر قانون انشاء جامعة الأزهر فى عام ١٩٦١ محققـا لكل ما يرجوه المجتمع الاسلامى المتطور من احتياجات ومطـالب النهضـة العلمية والفنية والعملية .. الخ .. وبعد أن ظهرت جامعة الأزهر للنور مع كلياتها الجديدة ارتفع شـأنها وعم نفعهـا وزادت ميزانيتها زيادة مستمرة سنة بعـد أخـرى نظـرا للتوسعات الـكبيرة فى انشـاءات الجامعة استكمالا لمبانيها ولجهازها العلمى والادارى والفنى .. وقد وضع حجر الاساس لمبانى الجامعة الجديدة ، فى أرض الجامعة بمدينة نصر بالعباسية ، على بعـد خمسة أميال من مقـر الجـامع الأزهـر الشريف التليـد فى مارس ١٩٦٤ بحضور كبار العلمـاء والزعمـاء المسلمين يمثلون العـالم الاسلامى فى أنحاء الدنيا الذين حضروا الى مصر للاشتراك فى المؤتمـر الأول العـام لمجمـع البحوث الاسلامية للازهـر .

ويقوم الأزهر اليـوم بتأهيـل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والانتاج والزيادة والقدرة

الطبية ، وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ...

وفى ضوء هذه الغاية المنشودة ظهرت جامعة الأزهر للنور مع كلياتها الجديدة للطب والهندسة والادارة والمعاملات والتجارة ـ وكلية خاصة للبنات الى جانب كليات أصول الدين والشريعة والقانون والدراسات العربية . وسنفرد لكل من هذه الكليات كلمة خاصة :

كلية أصول الدين : تهدف هذه الكلية الى تخريج علماء متمكنين فى العقيدة الاسلامية وأصولها والقرآن الكريم وعلومه وتفسير القرآن وطرائقه ، ويدرس فيها أيضا الحديث وعلومه وعلم الكلام والفلسفة ، وعلوم الدعوة والارشاد وطرقها ، وما يتصل بها من علوم الاجتماع والأخلاق والنفس والخطابة العلمية والعملية .

كلية الشريعة والقانون : وتهتم هذه الكلية بدراسة الفقه الاسلامى وتاريخه ، وأصول الفقه والاستنباط الفقهى ، وأصول الشريعة الاسلامية ، كما تهتم بدراسة القوانين الوضعية والمقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية .

كلية الدراسات العربية : وتضم هذه الكلية أكبر نسبة من الطلاب المصريين الوافدين فى كليات الجامع الأزهر وتدرس فيها قواعد اللغة العربية ، ونحوها وصرفها وفقهها وبلاغتها ، كما تدرس فيها آداب اللغة العربية قديمها وحديثها والأدب المقارن ؛ هذا الى جانب اللغات الشرقية والغربية .

كلية الطب : ان الغرض من انشاء هذه الكلية تخريج أطباء يهتمون بالنواحى النفسية والانسانية والروحية بالاضافة الى اهتمامهم بالعلاج البدنى ، فان رسالة طبيب الأزهر ، رسالة مزدوجة ـ كما قال أول عميد لكلية طب الأزهر ، الدكتور على مطاوع ، مفتتحا الدراسة لأول مرة فى هذه الكلية ـ لأنه بجانب رسالته الانسانية فى تخفيف آلام المرضى ومكافحة الأمراض والعمل

على زيادة الانتـاج بتوفير الأيدى العاملة وتقليل عدد الغـائبين عن العمل لأسباب مرضية وتقصير مدة غيابهم ما أمكن ، واعطاء العاملين الراحة النفسية والاطمئنان ،كما أن له رسالة أخرى هى الدعوة الى الله والى الخلق الـكريم ، والتمسك بأهداف الفضيلة ، وسلوك الطريق المستقيم ، وهـو بذلك يساعد فى بناء الأمة ونهضـتها على أساس متين من الدين والخـلق والجسم السليم .

وتجمع هذه الكلية بين الدراسات الطبيـة من الكيميـاء والفيـزياء والنبـات والحيـوان والطبيعـة والتشريح وغيرها الى جانب اللغة الانجـليزية ، والمجتمـع العـربى والدراسات الاسـلامية وهى أول كلية بدأ فيها ــ لأول مرة فى تاريخ الأزهـر ــ تدريس العـلوم الاسلامية باللغة الانجليزية ؛ وان الهدف من هذا تمكين الطالب من الدراسـات الاسـلامية واللغـة الانجليزية فى وقت واحـد ليتمكن من أداء رسالة الاسلام ــ أى رسالة الأزهر ــ فى البلاد الناطقة باللغـة الانجـليزية ــ وليتسلح المبعـوث الأزهرى بثقافة اسلامية ، وبالتمكن من شرحها باللغة الانجليزية .

كلية الهندسـة : والغـرض من انشائها تخـريج مهندسين يجمعون الى ثقـافتهم الاسلامية ، ثقـافة هندسية تتمشى مع أحـدث النظم الهندسية فى العالم ، ويكون فيهـا علاوة على الأقسام الموجودة حاليـا بكليات الهندسة الأخـرى ، أقسام لهندسـة الغزل والنسج وهندسة التعدين والبترول وكيمياء الألوان والصباغة .

كلية الزراعة : تدرس فى هـذه الكلية العلوم الزراعيـة الانسانية والتكنولوجية . وتقوم بتخـريج زراعيـين خبـراء يجمعـون بين الثقافتين الزراعية الهندسـية وبين الثقافة الروحية التى تحتاج البـلاد الى فئة من هؤلاء الفنيين ليخدموا الأمة والوطن فى ميادين الثقـافات الهندسـية الصـناعية والزراعيـة والدينية .

كلية المعاملات والادارة : وتهتم بدراسـة العـلوم الاقتصـادية

المعاصرة ، مقارنة بالاقتصاد الاسلامى ، وبالعلوم الدينية التى تتصل بالمعاملات الى جانب المواد الثقافية التجارية ومواد الاعلام والمحاسبة والمراجعة .

كلية البنات الاسلامية : أنشئت هذه الكلية فى سنة ١٩٦٢ بمنطقة المعادى فى ضواحى القاهرة ، وقد روعى فى انشاء هذه الكلية أن تنهض الفتاة المسلمة برسالة الدين ، واللغة بجانب نهضتها بالعلوم الأخرى . وهى تهدف الى تخريج عالمات متفقهات فى الدين الى جانب الثقافات المختلفة من شتى فنون المعرفة . وقد بدأت الكلية على أربع شعب وهى :

١ ـ شعبة الدراسات الاسلامية

٢ ـ شعبة الدراسات العربية

٣ ـ شعبة الدراسات الاجتماعية

٤ ـ شعبة المعاملات والادارة

ثم فتحت فيها شعب معملية مختلفة مثل الطب والهندسة والزراعة لتتاح الفرصة أمام العاملة الأزهرية فى الجمع بين هذه الدراسات والثقافة الدينية ، سواء أكانت من جمهورية مصر العربية أو من البلدان الأخرى . وان الكلية على الرغم من حداثة عهدها تضم عددا كبيرا من الفتيات الوافدات ، وقد هيأت الكلية للمغتربات المسكن والمأكل ، كما أعدت سيارات خاصة لنقل الطالبات من بين مختلف المناطق الى مقر الكلية . وتهتم الكلية بأن ترتدى الطالبات زيا خاصا يراعى فيه الحشمة والوقار ، فان الأزهر يهدف الى أن تتجاوب الفتاة المسلمة مع تيارات العلم واللغة والتوعية والتوجيه فى اطار العقيدة الاسلامية ، وتقاليد المجتمع الاسلامى الصحيحة المجردة عن الخرافات والبدع والمتميزة بروح الاسلام والعلم والفكر السليم .

وتهتم الكلية بالنشاط الرياضى والاجتماعى والفنى والثقافى ، كما تقوم برحلات مختلفة ، وجميع ألوان الهوايات النافعة ، وهى بمثابة نواة لجامعة اسلامية كبرى للفتيات .

ومن روافد الجامعة الأزهرية : معهد الاعداد والتوجيه والمعهد العالى للتربية ، والقسم العالى

للدراسات الاسلامية والعربية .

ومنها معهد الفتيات الذى أنشىء سـنة ١٩٦٢ وتشتمل خطط الدراسة فيه على أقسام تمثل مراحل التعليم الثلاث بالمعاهد الأزهـرية ويعـد الناجحات من تلميذاته لمثل الأغراض التى تعـد لهـا المعـاهد الأزهرية تلاميذها ، والهـدف من انشائه هو تخريج فتيات مؤمنـات صالحات للمجتمع ، لتربية جيـل جديد ويجـوز لهن دخـول كلية البنات الاسـلامية على اخـتلاف شعبها ، ويعتبر معهـد الفتيـات من أهم روافد الجامعة الأزهرية ، الذى يعد طالبات يحملن المؤهلات اللازمة للالتحـاق بكليـة البنات الأزهرية ، ويعقـد للوافـدات من الأقطار الأخرى حلقـات خاصـة لدراسـة اللغـة العربيـة والعلوم الاسلامية .

ومنها معهـد القـراءات الذى يحرص على تخـريج طائفـة ممن يتقنـون تلاوة القـرآن الـكريم وترتيله ، طبقا للقـراءات الصحيحة المتواترة .

ومعهـد البعـوث الاسلامية ، لاستقبال الطـلاب الوافـدين من الأقطار الاسلامية وغيرها ، ويضم المعهـد بين جـدرانه مختـلف الجنسيات التى تبلغ زهاء ٥٤ دولة معظمها من أفريقيا وآسيا ، وتليها الدول الأوروبية وأمريكا اللاتينية .

وان الأزهر أول جامعة فى العالم تبنى أكثر من خمسة آلاف طالب وافد من البلدان الأخرى ، وتوفر لهـم المسـكن والمـأكل وسـائر المصاريف اللازمة مجانا الى جانب الرعاية الطبية والسكنية والصحية والتربية الكاملة .

الدكتور محيى الدين الالوائى

الأستاذ بالجامعة الاسلامية

بالمدينة المنورة

وبجامعة الأزهر سابقا

تربية الطفل المسلم

دكتور محمد عبد المنعم خفاجي

اذا صنعنا الطفل ، صنعنا الانسان ، وصنعنا المجتمع وصنعنا الأمة ، وصنعنا الحضارة .

أعنى أننا اذا ربينا الطفل على المبادىء الفاضلة فقد ربينا الشاب والرجل ، وربينا الفتاة ، والمرأة ، وربينا الجيل الصالح ، والمجتمع السليم ، والأمة العاملة من أجل الطموح والعزة والسيادة ، ونكون بذلك قد أسهمنا اسهاما حقيقيا فى بناء الحضارة ، وبناء السلام والرفاهية والأمان والايمان فى الأرض .

الطفل فى الأمة هو الهدف الذى يتجه اليه العلماء والمفكرون والمربون ، لاخراج جيل جديد صالح لقيادة الأمة والوطن ، فى مجال الخير والشرف والعزة والكرامة الانسانية .

ومن أجل ذلك تعنى الدول المتحضرة بالطفل وتربيته عناية كبيرة ، تفوق كل عناية ، وتحشد له كل الخبراء والمتخصصين فى مجالات التربية والتعليم ، سواء لوضع المناهج الملائمة له ، أو الكتب الصالحة لأن تكون بين يديه ، أو الثقافة التى يمكن أن تقدم له زادا قويا يبنى عقله وفكره وروحه .

والاسلام الكريم يولى الطفل عناية كبيرة ويخصه بالرعاية والحنان والعطف والايثار ، ويعمل من أجل تهذيبه وتثقيفه وتوجيهه كل ما يستطيع وبكل ما يكون فى يدى المربى من قوة وامكان .

وفى تنشئة الله عز وجل لنبيه يوسف يقول الله عز وجل فى كتابه الحكيم : « وكذلك يجتبيك

ربك ، ويعلمـــك مـــن تأويـــل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك » ، ويقول تعالى : « وكذلك مكنـــا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحـــاديث » • وحينمـــا استحصدت ثقافة يوسف وعلمـــه ؛ قال لفرعون مصر : « اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم » • وهنا تظهـــر التربيـــة الاسلامية فى تعليم الطفل وتقوية شخصيته على أساس قوى من الايمان والعقيدة ، وفى ذلك يقول يوسف عليه السلام لصاحبى السجن : « ذلكما مـــا علمنى ربى ، انى تركت ملة قـــوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون » •

وفى تربية المسلم الصغير والكبير على الأخلاق الفاضلة يقـــول الله عز وجل لرسوله الكريم : « وانك لعلى خلق عظيم » •

وفى تربية الله عز وجـــل لنبيـــه عيسى يقـــول الله تعالى : « ويعلمه الـــكتاب والحـــكمة والتـــوراة والانجيل » •

واحاطة الطفل بالحنان والحب والعطف والرعاية فى الاسلام أمر واضـــح ، حتى ان الخضر عليـــه السلام هو وموسى سلام الله عليه ليجدان ــ فى أثنـــاء تطوافهمـــا ــ جدارا مهدما فيبنيانه ، ولا يعـــلم موسى الحكمة من بنـــائه ، فيسأل الخضر ، فيقول له : « وأما الجدار فكان لغـــلامين يتيمين فى المدينـــة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صـــالحا ، فأراد ربك أن يبلغـــا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ،وما فعلته عن أمرى » •

وفى تربية الله لنبيه موسى عليه السلام وهو فى مرحـــلة طفولتـــه وشبابه يقول الله عز وجل : « ولما بلغ أشده واستوى ، آتيناه حكما وعلمـــا » •

ولا تقتصر عنـــاية الاســـلام بالطفولة على ذلك فحسب ، بل لقد أمر ديننـــا الآباء والأمهـــات بتعويدهم على الطاعة والأخـــلاق الفاضـــلة والصـــدق وأداء شعائر الدين منـــذ بلوغهم ســـن التمييز والادراك الصـــحيح ، حتى يشب على حب دينه وآدابه وشرائعه •

يبـــدأ المنهج الاسلامى للطفـــل المسلم ، عنـــدما يبلغ هـــذا الطفل

السابعة من عمره ، فيأخـذه أبوه الى المعلم ليحفظ القرآن الكريم ، ويأخـذه بشرائع الدين ، فيحبب اليـه الذهاب الى المسـجد وأداء الصـلاة ، والتحـلى بالصـدق والشـرف ، وتجنب الـرذائل والموبقات والمعاصى ، ما ظهر منها وما بطـن ، وبأداء الطـاعات ، والحـرص على التحـلى بأحسن الأخـلاق والآداب والفضـائل ، ويحاط بالقدوة الصالحة ، لتكون هى النموذج الأمثل فى الأرض .

ولقـد كان أسـاس التربيـة الاسلامية هو كتاب الله عز وجـل حفظا وقراءة ، والقرآن الكريم ، هو الذى طبع الألسنة العربية على سلامة النطق ، وصحة اللهجـة ، وفصاحة اللغـة ، وبلاغة الكلمة ، وهـو الذى ربى الشباب المسلم على الايمان والأخـلاق الفاضلة ، وعلى الطاعات والامتثـال لأمـر الله .. وعلى الشعور بالواجب ، وتحمل المسئولية ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، والصدق فى القول ، وحسن المعـاملة للنـاس ، وعلى الرحمة والاحسان والبر والايثار .

وكان (الـكـتّاب) فى حياة الطفل المسلم ، هو المدرسة الأولى التى يربى فيهـا ، ويتلقى منهـا التوجيـه والتهـذيب والتربيـة والتعليم . فلما استبدل الكتّاب بالمدرسة ، خرج الطفل منها أميـا جاهلا لحّانة ، لا يستطيع أن ينطق بكلمة صحيحة .

كان الكتّاب يربى الطفل على البـلاغة وتذوق الأدب ، وعـلى الفصاحة والبيان ، وسلامة الملكة ، وصحة اللهجة ، ونصاعة الأسلوب وبلاغة الأداء .. أما اليوم ، وبعد أن هجرنا الكتّاب ومحونا تعاليمه من نفوسنا ، واقتصرنا على « طريقة شرشر » فقد خرج الطفل المسلم ألكن ، وجاهلا ، وبعيدا عن تذوق اللغـة وبلاغتهـا ، والأسـاليب وفصاحتها .. فلنعد الى الكتّاب والى القـرآن العظيـم ، الذى أنزله الله رحمة للعالمين .

وليس (الكتّاب) بضرورى أن يكون بناء مستقلا بنفسه ، بل ان الكتّاب فى الامكان أن يكون فى بيوت الله ، حيث يعـلم فيهـا الطفل المسلم القـراءة والكتابة ،

وحيث يحفظ القرآن الكريم ، ففى الصباح أو بعد العصر يجتمع الأطفال فى مسجد الحى ، ويحفظهم المعلم كتاب الله .. وفى ذلك الخير كل الخير للأمة والوطن .

ان أساس تربية الطفل المسلم هو حفظه لكتاب الله ، وتلاوته اياه تلاوة جيدة ، وفى أثناء ذلك يتلقى عن المعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب والاملاء ..

وذلك المنهج هو أصلح المناهج لتعليم أبنائنا منذ صغرهم ..

فمتى يقوم الموجهون للشباب وللطفولة ، والمخططون للتربية ، والجماعات الاسلامية ، والأغنياء ببناء الكتاتيب واقامتها ، من أجل هذه الغاية الشريفة النبيلة ، التى يقصد بها وجه الله عز وجل ، والتى تعود على الأمة والوطن ، وعلى الأطفال والشباب والجيل كله بالخير العميم ، والنفع الجزيل ، والفائدة المرجوة .

لعلنا نعود الى الكتاب والى الكتّاب من جديد ، حتى تستقيم حياتنا الثقافية ، وحياة الطفل المسلم نفسه الروحية والخلقية والتربوية ، استقامة كاملة .

ان الخطر الدائم والداهم هو فى بعد الأطفال والشباب عن القرآن الكريم ، فعندئذ لا تؤمن العاقبة ، ولا تحمد الغاية .

واتصال أطفالنا وشبابنا بكتاب الله هو العروة الوثقى التى يؤمن معها على الطفولة والشباب ، بل على الجيل كله ، وبدون ذلك ستعم اللكنة والعى والعجز والحصر ، وستشيع الفهاهة بين الشباب ، وتنعدم روح البلاغة فى قلوبهم ، ويفقدون كل شخصية مستقلة فى الحياة ..

ان تربية الطفل المسلم ، فى أساسها الأول ، لا يصح أن تعتمد الا على القرآن الكريم ، فهو الزاد العظيم ، والذخر الكبير ، وهو سعادة الدنيا والآخرة ، وهو الذى يملأ القلوب أدبا وحكمة ، وبلاغة ، ويملأ الألسنة فصاحة وبيانا واجادة للتعبير ، وفهما للنصوص وتذوقا للأساليب ، وادراكا لخصائص الأداء ، ولمرامى الكلام .

وللقـدوة الصـالحة أثرهـا فى قلوب الأطفـال ، فلتكن قـدوة صالحة لهم فى حياتهم ، ونمـاذج طيبة طاهرة كريمة يقتدون بهـا ، ولنكن لأطفالنـا النور الهـادى ، والقلب الرؤوم ، والصدر الحنون ، واللسان العف العذب الذى لاينطق بالفحش ، ولا يتفوه الا بالصواب والحكمة والحسنى من الكلام .

ويهولنا اليـوم أن تنقلب لغـة الأطفال والشباب الى شتائم للآباء والأمهـات ، وسباب لكل شىء : وعدم مبـالاة بأى شىء .. وهـذا ما يجب أن نعمـل على تلافيـه : لكبح جماح الألسنة البذيئـة ، والتوجيـه الفاسـد ، والتـربية المشوهة المقلوبة الأوضاع .

انـا اذا أردنا أن نعـلم حالة الأمة ومدى رقيها ، فلننظـر الى الطفولة وما فيهـا ، فحيث تراهـا سعيدة ومهذبة وموجهة توجيهـا صـالحا ، نرى من ذلك نهضـة للأمة ، ومجـدا للوطن ، وحسن تربية وتهذيب وتوجيه للطفـولة والشباب .

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

(رءوس النعم)

قيل رءوس النعم ثلاثة :

اولها ـ نعمة الاسلام التى لاتتم النعم الا بهـا .

ثانيها ـ نعمة العافية التى لاتطيب الحياة الا بهـا .

ثالثها ـ نعمة الغنى التى لايتم العيش الا بها .

مع رسالة الأدب الصوفى

"الحكم العطائية"

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

— ٢ —

تعرضت فى المقال السابق — على ضوء نماذج من حكم ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله — للخصائص الفنية والأدبية لهذه الحكم .

ونحن الآن على موعد مع التحدث عن موضوعاتها التى تشير اليها .

وابن عطاء الله صوفى ذائق عارف ، جاءت حكمه خلاصة تجربة صادقة وترجمة امينة للمعارف الصوفية الخالصة من شوائب الفلسفة التى اصطبغت بها بعض المفاهيم الصوفية .

انه تصوف مبنى على قواعد متينة من الكتاب والسنة ، فاض على قلب مشرق مستجيب لله ورسوله ، عرف الحب الخالص ، وعبد الله على ضوئه فأثمر ثماره اليانعة ودانت له قطوفه الدانية ، مبتدئا فى ذلك بمعرفة شيخه المرسى الذى تحدث عنه قائلا : « كنت لأمره أولا من المنكرين ، لا لشىء سمعته منه ولا لشىء صح نقله ، ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه ، فقلت فيهم قولا عظيما ، ثم قلت فى نفسى : دعنى أذهب أنظر هذا الرجل فصاحب الحق له امارات لا يخفى شأنه فأتيت مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس ومسألة درجات السالكين الى الله ومدى معرفتهم به وقربهم منه ، فقال : الأول اسلام وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة ، وثانيها الايمان وهو مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ، وثالثها الاحسان وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب . وان شئت

قلت الأول عبادة والثانى عبودية والثالث عبودة وان شئت قلت الأول شريعة والثانى حقيقة والثالث تحقق . فما زال يقول وان شئت قلت وان شئت قلت الى أن بهر عقلى وسلب لبى ، فعلمت أن الرجل انما يغترف من فيض بحر الهى ومدد ربانى فاذهب الله ما كان عندى » .

والشيخ عند الصوفية عليه مدار كبير فى الوصول الى حضرة الحق ، فهو الطبيب الذى يداوى النفوس لأنه أدرى بعللها وأمراضها ، ومتى كان الشيخ عارفا بصيرا استطاع أن يأخذ بيد تلميذه النابه الى غايات الكمال .

ولم يكن ابن عطاء الله سهلا فى انقياده لشيخه ، ولكنه كان صعب المراس ، فقد أقبل عليه بعد معارضة ومشاكسة ، يدل على ذلك العبارة المتقدمة ثم قوله : « جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة — قبل صحبتى اياه — وقلت لذلك الرجل ليس الا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظيمة وظاهر الشرع يأباها » ولكن لم يلبث ابن عطاء الله بعد تعرفه على الشيخ واختلاطه به أن تيقن أن ظاهرة كباطنه وليس هناك شىء ينكره عليه ، ويقول فى ذلك : «ولعمرى لقد صحبت الشيخ اثنى عشر عاما فما سمعت منه شيئا ينكره ظاهر الشرع من الذى كان ينقله عنه من يقصد الأذى » .

وأخذ أبو العباس بيد تلميذه النجيب ، وأثمر لقاؤه الأول معه عن توجيه نظره الى التفكر وهو أول درجات اليقين ، فهو يقول : « لقد وجدت — بعد لقائى معه — معنى غريبا ما أدرى ما هو ، فانفردت فى مكان أنظر الى السماء والى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملنى ذلك الى العود اليه مرة أخرى ، فأتيت فاستؤذن لى ، فلما دخلت عليه قام وتلقانى ببشاشة واقبال حتى دهشت خجلا واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك ، فكان أول ما قلت له : يا سيدى ، أنا والله أحبك ، فقال أحبك الله كما أحببتنى ، ثم شكوت اليه ما أجد من هموم وأحزان ، فقال : أحوال

العبد أربعة لا خامس لها : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، فان كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وان كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وان كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود المنة ، وان كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار . قال : فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبا نزعته . قال : ثم سألنى بعد ذلك بمدة كيف حالك ؟ فقال : أفتش عن الهم فلا أجده . فقال :

ليلى بوجهك مشرق
وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا
م ونحن فى ضوء النهار

وكما استطاع أبو العباس أن ينزع عن ابن عطاء الله أحزانه وهمومه بحسن توجيهه اياه استطاع كذلك أن يجعله يتغلب على وسواس كان يراوده فى طهارته عن طريق تقوية الثقة فى نفسه فقد قال له : ان هذه الطائفة تلعب بالشيطان لا الشيطان يلعب بها . وكان ابو العباس يلقن للوسواس : سبحان الملك القدوس الخلاق الفعال ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز .

وهكذا سلح المرسى تلميذه بالثقة فى الله والقدرة على مغالبة هواجس النفس ووساوس الشيطان ، واذا استعان العالم بذلك انفتحت امامه مغاليق الحكمة وتفجرت من قلبه ينابيع المعرفة ودانت له قطوف العلم يانعة شهية ، وهذا ما نجده فى حكم ابن عطاء الله .

معارف الحكم : سبق الاشارة الى أن الحكم تدور حول الموضوعات الآتية كما فصلها الامام ابن عجيبة فى شرحه على الحكم :

التذكير والوعظ ، وتصفية الأعمال وتصحيح الأحوال ، وتحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الذوق والمنازلات ، والعلوم والمعارف الالهامية .

أما التذكير والوعظ ، فهو جانب مهم يلائم أحوال المسلمين عامة والصوفية بخاصة ، وهو يجعل الانسان فى حالة يقظة دائمة ومراعاة مستمرة ، والمولى جل

وعلا يقول : وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين . وهذا الموضوع طالما طرقه الصوفية وتحدثوا فيه ، بل ان بعضهم وقف نفسه على الكتابة فيه ، وكتاب احياء علوم الدين للغزالى يدور أغلبه حول ذلك وكتاب قوت القلوب للمكى والرسالة القشيرية فيها موارد كثيرة لذلك .

ومن أمثلة الوعظ والتذكير الواردة فى الحكم قوله منبها على وجوب الاخلاص فى العبادات والأعمال : « الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها » . وقد أمرنا الله بالاخلاص فى العبادة فقال جل من قائل : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكوة وذلك دين القيمة » .

وهذه الحكمة تناسب كل انسان فى موقعه وفى عمله الذى يقوم به دينيا كان أو دنيويا وهى تنبه على أن الاخلاص هو الذى يحيى العمل وينميه وبدونه يصبح العمل عبثا لا قيمة له ولا أثر له . قال الشيخ عبد الله الشرقاوى فى تعليقه على هذه الحكمة : « والاخلاص يختلف باختلاف الناس ، فاخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلى والخفى وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل الا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل اليهم والاعتماد عليه فى تحصيل ما ذكر ، واخلاص المحبين هو العمل لله اجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب .

ولذلك قالت رابعة العدوية : ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا فى جنتك ، فنسبت العبادة اليها ، واخلاص العارفين شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لأنفسهم فى ذلك حولا ولا قوة ، فلا يعملون العمل الا بالله لا بحولهم ولا قوتهم وهذا أرفع مما قبله .

أما الذى يعين على الاخلاص فهو قوله : « ادفن وجودك فى أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه » وفى هذا تذكير للناس بوجوب العزوف عن الشهرة

الزائفة والبعد عن الرياء وطلب السمعة ووجوب التحلى بالايثار والرغبة الخالصة فى أن يكون العمل مقصودا به وجه الله فقط لا طمعا فى ثناء أحد من الناس عليه أو رغبة فى مدح أو عطاء أو مكافأة، وقد انتفع ابن عطاء الله فى هذه الحكمة بتوجيه شيخه أبى العباس المرسى رضى الله عنه الذى يقول: « من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو أخفاه » .

وفى الواقع ان كثيرا من الأمراض الاجتماعية مردها الى هذه الصفات المذمومة : الرياء وطلب السمعة والأثرة والأنانية — ولذلك كان الصوفية واقعيين فى علاجهم النفسى عن طريق تحطيم هذه الأدواء فيها ، وهم فى ذلك مستنيرون بأدب النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان دأبه التواضع والزهد، روى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله « ان يسيرا من الرياء شرك ، وان من عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة ، وان الله يحب الأتقياء الاخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا واذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

وفى وجوب أداء الأعمال فى وقتها يذكر ابن عطاء الله الناس بقوله : « احالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس » ويعلق الرندى على هذه الحكمة قائلا : « اذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه من العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل الى فراغه من تلك الأشغال وقال : اذا تفرغت عملت فذلك من رعونة نفسه وحماقة من وجوه : الأول ايثار الدنيا على الآخرة وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب الله منه قال تعالى : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » والثانى تسويفه بالعمل الى أوان فراغه وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها بعضا كما قيل :

فما قضى أحـــد منها لبانته
ولا انتهى أرب الا الى أرب

والثالث : أن يفـــرغ منها الى الذى لا يرضيه من تبدل عزمـــه وضعف نيته .

وهذه الحكمة الى جانب ما فيها من الأدب الصوفى العـالى فيهـا أدب اجتماعى رفيع ، فهى تنظـم للانســان وقتــه وتجعــله يحسن الانتفاع به ، وكم أضاع الانسان أوقاته سدى فى الوقت الذى يقول فيه الحكماء الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك ، وقد تنبه الأدباء الى قيمة الوقت وضرورة انجاز الأعمال فى أوقاتها فقال ابن المقفع فى ذلك اذا تراكمت عليـــك الأعمال فلا تلتمس الروغ منها فانه لا راحـة لك الا فى انجازها ــ أمـا أديب عصرنا شوقى فيقول فى بيت سار مسير الحكمة :

دقات قلب المـــرء قائلة له
ان الحيـــاة دقائق وثوان

ومن أمثلة ما تتضمنه الحكم من وجوب تصفية الأعمال وتصحيـح الأحوال ، ما تدعو اليه من وجوب تحلية الباطن بالأخـلاق المحمــودة وتطهيره من الأوصاف المذمومة ــ وهذا النوع كما يقول ابن عجيبـة يناسب حال المؤمنين الصادقين الذين يقبلون على الله بهمة وعزم ــ من أمثلة ذلك قوله : « لا تطلب من الله أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها ، فلو أرادك لاستعملك من غير اخراج » .

ويشرح الشـيخ زروق هـذه الحكمة بقوله ملخصـا : قم فيمـا أقامك الله فيه طالبا الاستقامة من غير زائد على ذلك ، وانمـا أمرت بذلك لثلاثة أوجه . أحدها القيـام بحق العبودية فيما أنت فيه بالرضا ــ الثانى لتجد الراحة بالاستسلام فتسلم مــن نكد التـدبير وأكدار التغيير ــ الثالث لئلا تعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه ، فقد حكى أن رجلا كان يسأل الله تعالى كل يوم رغيفين ويتفرغ للعبادة فسجن وكان يؤتى كل يوم برغيفين ، ففكر فى أمره فقيل له : انك سألت الرغيفين والعبادة ولم تســـأل العافية ، فاستغفر واخرج لوقته . اهـ .

وقد علق ابن عطاء نفسه على هذه الحكمة بقوله فى التنوير : فتأدب يأيها المؤمن ولا تطلب من الله أن يخرجك من أمر ويستعملك فيما سواه اذا كان ما أقمت فيه مما يوافق أبواب العلم ، فان ذلك من سوء الأدب مع الله تعالى فاصبر لئلا تطلب الخروج بنفسك فتعطى ما طلبت وتمنع الراحة فيه فرب تارك شيئا وداخل فى غيره ليجد الراحة فتعب وقوبل بوجود التعسير عقوبة لوجود الاختيار .

فهو فى هذه الحكمة يطالب المريدين بالتحلى بفضيلة الرضا بما قسم الله والصبر على ما قضاه والانتظار لفرج الله والتبرى من الحول والقوة فلا حول ولا قوة الا بالله وهذه فضائل لا يصبر عليها الا الفحول من الرجال .

ثم هو يحارب الركون الى ما يجده المريد فى طريقه من ألوان الفيوضات التى تحول بينه وبين الوصول الى أعظم الغايات فيقول فى حكمة أخرى : « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها الا نادته هواتف الحقيقة ، الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادتك حقائقها انما نحن فتنة فلا تكفر » .

وأجمل ما يتفق مع مضمون هذه الحكمة النيرة قول الشيخ أبى الحسن التسترى فيما يرويه الرندى :

ولا تلتفت فى السير غيرا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه انه حجاب فجد السير واستنجد العون
ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لى فى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى

ويتعرض ابن عطاء الله فى هذا اللون من الحكم لآداب الطريق وما ينبغى للمريد عمله وسلوكه من التزام بالصدق ولجوء الى التوبة وقيام بحق الشكر وتخلق بمداومة الذكر الى غير ذلك مما يجب على السالك القيام به حتى يحقق أمله ويصل الى غايته .

ومن أمثلة الحكم التى تدور حول المضمون الثالث وهو تحقيق الأحوال والمقامات وأحكام الأذواق والمنازلات قوله : « كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم فى

طاعته وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته » .

هذا هو حال الأنس يشير اليه ابن عطاء الله فى حكمته ، والأنس مصطلح صوفى معناه غلبة الرجاء على الخوف ، أو فرح القلب بالمحبوب ، أو الاستئناس بالذكر فيغيب به عن رؤية الاغيار . يقول « رويم » البغدادى فى ذلك فيما يرويه عنه كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف :

شغلت قلبى بما لديك فما ينفك طول الحياة عن فكرى
آنستنى منك بالوداد وقد أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنس يعارضنى يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيث ما كنت يا مدى همى فانت منى بموضع النظر

ومما سمعته من شيخنا الأقدمى رضى الله عنه فى ذلك :

وقمت من حضرتى والأنس يجمعنا وقد تولى رسول الله تأديبى

والحال كما يعرفه المعنيون بعلوم التصوف يطلق على المعنى الذى يرد على القلب بلا تصنع ولا اكتساب .

والمقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ويتوصل اليه بنوع تصرف ومقاسات وتكلف .

والأحوال والمقامات يتداخل بعضها فى بعض ، فالمتحقق بمقام من المقامات لا يخلو من ورود الأحوال عليه ، وكذلك صاحب الحال قد يرسخ فيه بمجاهداته فيصير الحال مقاما له . واذن فالحال يغلب عليه أصلا عدم الثبوت أما المقام كما يدل عليه اسمه فيغلب عليه الرسوخ والثبوت .

وتختلف الأحوال والمقامات على حسب الذوق والشهود فبعض المقامات أحوال عند بعض الصوفية وبعض الأحوال مقامات عند بعضهم ، مما هو مفصل فى كتبهم .

ولكن ابن عطاء الله لم يعن فى كتابه بتقنين قواعد ولكنه أشار اشارات تنم عن ذوقه وشهوده كما يظهر فى الحكمة السابقة ، وكما يظهر أيضا فى قوله : « متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو فى كل ذلك متعرف اليك ومقبل بوجود لطفه عليك » .

فهو يشير فى ذلك الى الأحوال التى تنتاب العبد بين القبض والبسط والحزن والفرح .

ومن الحكم التى تشير الى المقامات قوله عن مقام الزهد « ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب» ويعلل الرندى لذلك بقوله : « وذلك لأن الزاهدين سلموا من الآفات التى تقدح فى اخلاصهم من مراءات الناس والتصنع لهم وطلب الأعواض الدنيويةعليها منهم لأنهم زهدوا فيها فيتحصل لهم قبول أعمالهم فيتوفر لهم قليلها بحسب ذلك ويكثر ، والراغبون تعتريهم الآفات المبطلة لأعمالهم القادحة فى اخلاصهم بسبب رغبتهم فى الدنيا فلا تقبل منهم فيقل الكثير من أعمالهم لوجود النقصان فيها » .

ومما يشير الى مقام التفويض قوله « ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه » .

ومما يشير الى مقام الشكر قوله : « من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها ، وقوله : « لا تدهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فان ذلك مما يحط من وجود قدرك » .

ومما يشير الى مقام الصبر قوله «لا تستغرب وقوع الأكدار مادمت فى هذه الدار فانها ما أبرزت الا ما هو مستحق وصفها وواجب نعتها » وقد استجاب الشاعر الحكيم لهذه الحكمة بقوله :

ان الأمور اذا انسدت مسالكها
فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تياسن وان طالت مطالبة
اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا
خلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته
ومد من القرع للابواب ان يلجا

وبقى القسم الرابع الذى تناولته الحكم وهو قسم العلوم والمعارف الالهامية وفى الحكم ما لا يحصى منه ، وقد جاء ذلك نتيجة للمجاهدة والعمل . وثمرة للتفكر والتأمل ، وفى الأثر الشريف من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . ويدخل فى نطاق ذلك ألوان المناجاة التى تناثرت فى فصول الحكم وما اختتمت بها ، وهى تدل على صدق فى الشهود ورسوخ فى المعرفة واليقين ، وكلامه فى ذلك

يدل على توحيد خالص وتنزيه كامل لحضرة الحق جل وعلا وهو يسير على خطا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب الشريعة الغراء الكاملة . وهذه النماذج القليلة القادمة كافية لاثبات ما وصل اليه هذا الرجل العظيم من معرفة والهام :

ـ من أشرقت بدايته أشرقت نهايته .

ـ ما استودع فى غيب السرائر ظهر فى شهادة الظواهر .

ـ شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه . المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله ، والاستدلال عليه من عدم الوصول اليه ، والا فمتى غاب حتى يستدل عليه ؟ ومتى بعد حتى تكون الآثار هى التى توصل اليه .

ـ تشوفك الى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك الى ما حجب عنك من الغيوب .

ـ اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون لنداء الحق مجيبا ومن حضرته قريبا .

ـ شعاع البصيرة يشهدك قربه منك وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده وحق البصيرة يشهدك وجوده لا عدمك ولا وجودك .

ـ الهى ان رجائى لا ينقطع عنك وان عصيتك ، كما ان خوفى لا يزايلنى وان اطعتك .

ـ الهى اطلبنى برحمتك حتى أصل اليك واجذبنى بمنتك حتى أقبل عليك .

ـ أنت الذاكر من قبل الذاكرين وأنت البادى بالاحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطاء من قبل طلب الطالبين وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين .

هذه لمحات من نور هذا السفر الجليل الذى يجل شرحه ويعلو قدره . نرجو الله سبحانه أن ينفعنا به وأن يفتح أمامنا مغاليق فهمه لنستضىء بنوره ، ونعرف قدر صاحبه رضى الله عنه وأرضاه .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

قضايا قرآنية

للدكتور عبد الغنى الراجحى

أحب أن أقرر قاعدة قرآنية تفسيرية أجمع على صحتها كل الدارسين والمفسرين والمشتغلين بالقضايا القرآنية . تتلخص هذه القاعدة فى أن الأقوال التى حكاها القرآن عن السابقين من الأنبياء والمرسلين وغيرهم لم تكن حين صدورها منهم باللغة العربية والألفاظ العربية ، وانما كانت بلغات أخرى تختلف من عهد آدم الى نوح الى ابراهيم الى موسى الى عيسى . فالقرآن حين يقص قصص هؤلاء ويحكى عنهم أقوالهم انما يحكيها بالمعنى كترجمة معنوية الى اللغة العربية ضرورة أنها كانت بالألفاظ غير العربية فحكاها القرآن بالألفاظ العربية والأساليب العربية لأن المقصود هو ذكر المعانى دون التقيد بخصوص الألفاظ .

والقرآن كما وصف نفسه فى أكثر من موضع عربى مبين وبلسان عربى مبين . والقرآن فى هذا الصنيع لا يكون كاذبا ولا متقولا على من حكى عنهم أقوالهم غير العربية بلغة عربية ولسان عربى مبين لأن المقصود حكاية المعانى ولأن القرآن قد كسا هذه المعانى وهذه الحكايات أثوابا براقة من الاعجاز والبلاغة والفصاحة لا يستطيع التأتى لها من حكيت عنهم هذه المحكيات من الأقوال . ضرورة أنهم كانوا عن مستوى الاعجاز القرآنى والبلاغة القرآنية بمعزل حتى ولو كانوا قد نطقوا بالعربية فما بالنا وهم لم يعرفوا أصل العربية والله تعالى يقول فى محكم كتابه « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » سورة ابراهيم . فاذا ما قال القرآن أن

عيسى فى المهد قال لليهود كما حكت قصته فى سورة مريم « انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبـارا شقيا والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيـا » فانه يكون لم ينطق بحـرف واحد من هذه الحـروف ولا بفعل من هذه الأفعال ماضيا كان أو مضارعا أو أمرا وانما ذلك كله على الأساليب العربية والبلاغة العربية التى تقـرر هى الأخـرى قواعد يتفق عليها جميع علماء الملة والدين مـن البلاغيـين والمفسرين وغيرهم ، ومن هذه القـواعد أن الشىء المستقبل قد يعبر عنه بالفعل الماضى الدال على الحصول بالفعل . لأن المضـارع المسـتقبل اذا كان متحقق الوقوع لا سيما اذا كان من أفعال الله كان كأنه قد وقع بالفعل وصار أمراً حاصلا فيسوغ التعبير عنه بالفعـل الماضى نظـرا لتحقق وقوعه ، فينزل تحقق وقوعـه فى المستقبل منـزلة وقـوعه فعـلا . كمـا كان الأمـر عليــه فى قوله تعالى « أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعـالى عمـا يشركون » أول سورة النحل ، وأمر الله هـو البعث والقيامة وهو عنـد نزول هذه الآية لم يكن قد حصـل . لكنه عبر عنه بالماضى نظرا لتحقق وقوعه . كمـا أنه قـد يعبر عن الماضى بالمضارع استحضارا للحال الماضية وعلماء البلاغة يذكـرون لذلك أمثلة وشواهد تستعصى على الحصر (١) .. وهـكذا سـاغ للقرآن أن يحـكى عن عيسى أنه قال بصيغة الماضى عن ربه أنه آتاه الكتاب وجعله نبيا وجعله مبـاركا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا والبر بوالدته ثم ان عيسى قبـل أن يولد برسـالاته وآياته وبركاته وكل ما يتعلق به كان أمرا مقضيا فى علم الغيب فيما قضاه الله وكتبـه كما قالت الملائكة لمريم لما تعجبت مـريم وقالت « انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا » فردت عليهـا الملائكة قائلة لهـا : « كذلك قال ربك هو علىَّ هين

(١) لايجوز ان يفسر القرآن من لم يتبحر فى علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع)

ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » سورة مريم ، فيجوز أن يكون الايتاء والجعل والوصية بالصلاة والزكاة كل ذلك ماضيا باعتبار انه المكتوب المقدر لعيسى والذى سيكون مستقبلا عندما يكون نبيا رسولا فى عمر الثلاثين ، وكان ذلك ايذانا واعلاما وانذارا لليهود من عيسى فى مهده بأن الأمر سوف يكون كذلك وأنه تم قضاؤه فكأنما تم هو نفسه لا سيما وأن هذا الاشعار لليهود من عيسى يعتبر كالقضية التى تحمل معها دليل صدقها فهو كلام من وليد فى مهده بالرسالات والنبوات لا يكون الا من جهة الله تعالى .

هكذا يستقيم المعنى ويتبين المراد دون اللجوء الى ما قاله الأستاذ مصطفى محمود من أن الآية تدل على أن عيسى كان له وجود قبل هذا الوجود آتاه الله فيه الكتاب وجعله نبيا وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا . كأنما كان اليهود على علم سابق ومعرفة بهذا الوجود والالتقاء بعيسى فيه حتى يحدثهم عما عرفوه واعترفوا به . نعم ما الفائدة فى تحديثهم عن شئ لم يعرفوه ولم يكلفوه ولم يشعروا به اطلاقا ..؟ ثم كيف كان هذا الوجود السابق مشحونا بكل هذه الأمور : الكتاب والنبوة والصلاة والزكاة والبر بالوالدة ؟! هل كان الوجود السابق على نمط هذا الوجود حتى فى الكفر والايمان والكتب السماوية والصلاة والزكاة والوالدة وبرها وجميع ما جاءت به الشرائع السماوية ؟ ولم اذن لا يكون هذا الوجود السابق هو الآخر مسبوقا بوجود سابق عليه حتى يتسلسل الأمر أو يدور وتصير قصة الوجود حلقة مفرغة لا يدرى لها أول من آخر ؟ ثم ما الفائدة من هذا الوجود السابق اذا كان التكليف والحساب والتقييم والديانات والرسل والكتب السماوية وعلاقة الانسانية بخالقها انما هو كله فى هذا الوجود الذى نعيشه ونعاينه ونعانيه . هذا الوجود الذى هو الوجود على الحقيقة وهو بيت القصيد ومربط الفرس ودار التكليف وأرض

الخلافة الانسانية ومنـاط الثواب والعقاب ومقـدمة الدار الآخـرة والدنيا مزرعة الآخـرة والآخـرة حصاد الدنيـا ولا تعرف الانسانية حتى اليوم وجودا قبل هذا الوجود أو تسمع عنـه الا من شطحات فلسفية كشطحة أفلاطـون فى قوله بنظرية المثل التى لم يستطع أحـد أن يقنع بها أحدا .

لقـد كان غريبـا وعجيبـا من الدكتور مصطفى محمود وهو يرد على الدكتور النمـر فيقول له فى أهرام ٧٩/٨/٢١ « ألم يقل عيسى وهو فى المهد انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينمـا كنت وأوصـانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » سورة مريم متى آتاه الله الكتاب وجعله نبيـا مباركا ومتى أوصاه وهـو يتكلم فى المهد لم يكد يلقم الثدى بعد . ثم يقول هذا كلام صريح ومباشر عن أمر سبق فى مستوى من الخلق سبق ، والمتـكلم هـو عيسى من البشر فاذا قال بالمـاضى فهو ماض لا شـك فيـه ، واذا قال ان الله أوصانى فان المعنى المباشر والبسيط يجب أن يفهم منـه أنه أوصاه فى الماضى قبل مولده وآتاه الكتاب فى الماضى قبـل مولده ثم يختم كلامه بقوله هذا هو مدلول اللفظ العربى ونحـن لا تتجنى على الألفـاظ ولا تلويهـا عن مدلولاتهـا كمـا يقـول الدكتـور النمـر ، ونسى الدكتـور مصطفى أو تنـاسى أن مدلولات الألفاظ ووجـوه الدلالة تتعدد وتختلف بين الحقيقة والمجاز وبين مقتضى الظاهر والخروج عن مقتضى الظاهر وبين المعنى المقبـول الذى تقـره الشواهد والقـواعد الدينيـة واللغـوية والمعنى الغريب الشاذ الذى لا تعززه الشواهد . وهذه أمور تلتبس على كثير من النـاس فى تفسير آيات القـرآن الكريم فيخلطون مدعين أنهم على حق وأنهم أحرار فى فهم القـرآن ما دامـوا متمسـكين بمدلولات الألفاظ . وان النظـر فى القـرآن وتدبره على أى شكل كان عبـادة مأمور بهـا ، والباطنيـة وبعض الصوفية والاشاريون والمغـالطون فى فهم نصـوص القـرآن أكثـر بضاعتهم من هذا القبيل ويؤكدون أنهم يتدبرون القرآن وأنهم خشع

ركوع حول نصوصه . كما يقول الدكتور مصطفى محمود تماما .

ومما يدل دلالة واضحة على أن الماضى فى قول عيسى آتانى الكتاب وجعلنى نبيا لا يراد به الماضى فى وجود قبل هذا الوجود بل يراد به الماضى فى سابق علم الله وتقديره أو يراد به المضارع المستقبل ، المؤكد حصوله أن هذا المعنى نفسه جاء فى سورة آل عمران بصريح المضارع المستقبل ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ويحمل بعضه على بعض وذلك حينما تحدثت السورة عن أن مريم لما بشرتها الملائكة بعيسى تعجبت وقالت « أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر » فردت الملائكة قائلة لها « كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » ثم قالت لها : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » هكذا بصيغة المضارع المستقبل ، ثم تممت الملائكة حديثها فقالت « ورسولا الى بنى اسرائيل » والتقدير ويرسله أو يجعله رسولا الى بنى اسرائيل ، يقول لهم : « انى جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وابرىء الاكمه والابرص واحيى الموتى باذن الله ».. الى أن قال : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة » الى أن يقول لهم : « ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » الى أن ذكرت الآيات أنهم كفروا فقالت « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله .. » الآيات . فلما كان هذا كله فى هذا الوجود لا يختلف فى ذلك اثنان وجب حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورة آل عمران بجعل ايتاء الكتاب والنبوة والرسالة وسائر مقولاتها وأحوالها كلها كائنة فى هذا الوجود عند بعثه الى بنى اسرائيل .

ويتكرر المعنى نفسه مرة ثالثة فى سورة المائدة بأسلوب قوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا . واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ

فيها فيكون طيرا باذنى • وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى • واذ تخرج الموتى باذنى • واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » فتعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل جاء فى ركب ورتل طويل من الأمور التى وقعت فى هذا الوجود بين عيسى وأمه وقومه ومعجزاته المسرودة المعددة من المهد والطين والطير والأكمه والأبرص واحياء الموتى وكف الله لبنى اسرائيل عنه لما كفروا فكذلك تعليم الكتاب وايتاء الكتاب يجب أن يكون منظوما فى خيط واحد مع هذه الأمور وواحدا فى ركبها وكلها فى هذا الوجود ، لا فى وجود قبل هذا الوجود هل من المعقول أن يذكر الله رسوله بشىء فى وجود لا يعرفه ويستحيل أن يتذكر شيئا فيه ؟ انه يكون هو التكليف بالمحال وبما لا يطاق وهو لا يقع من الحكيم العليم ، كما أجمع على ذلك علماء الأصول تنزيها لله عن السفه والعبث •

ولو أن الدكتور مصطفى درس القصة والقضية دراسة موضوعية يجمع فيها نصوص القصة من مواطنها الثلاثة فى سورة مريم وآل عمران ، والمائدة يقارن الآيات بعضها ببعض ويفسر بعضها ببعض ويحمل بعضها على بعض لما تسنى له أن يقول ما قال لأنه سيكون مضطراً الى حمل ما فى سورة مريم على ما فى سورتى آل عمران والمائدة ، لأن ما فيه خفاء ولو عند بعض الناس يحمل على ما فيه وضوح وجلاء عند كل الناس •

ان ايتاء الكتاب وتعليمه والنبوة والرسالة لعيسى ورد ذكره فى ثلاثة مواطن من كتاب الله وسوره فى كلام عيسى فى مهده كبشارة وارهاص وانذار وتبرئة لأمه من تهمة اليهود لها بالفاحشة • والثانى فى كلام الملائكة لأم عيسى وتبشيرها بأنه سيعطى الكتاب والحكمة والنبوة والتوراة والانجيل ، والثالث من كلامه تعالى فى مقام تذكير عيسى بنعمه تعالى عليه وعلى رأسها تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل والآيات البينات حين أرسله الى بنى اسرائيل ، ولا شك أن هذا كله انما كان فى

وجودنا هذا لا فى وجـود سابق عليه . والا . فهل جعل لوجودنا هذا وجود سابق عليه كأنه بروفة أو نمـوذج له فكان فيـه الأنبياء والمرسـلون والـكتب السماوية والمعجـزات والكفـرة والمسلمون والصراعات وسائر مظاهر العمران البشرى ؟! لقد قال الدكتور النمر انه ترف عقلى لا تؤيده الشواهد ولا تعززه الأدلة ، فقال له الدكتور مصطفى ليس ترفا يا سيادة الوزير .. والجواب نعم ليس ترفا ، ولكنه شطح وهوس .

ومن منطلق التفسير الموضوعى .. وجمع الآيات الواردة فى المعنى الواحد والموضوع الواحد لتلقى الأضواء بعضها على بعض تقـول لو أن الدكتور مصطفى فعل ذلك فى تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسـان فى أحسن تقـويم ، ثم رددناه أسفل سافلين » لما تسنى له أن يقول ان هذا الخـلق كان فى وجـود قبل هذا الوجـود ، فان الآيات الأخرى الواردة فى القرآن فى نفس هذا الموضـوع تبين أجلى بيان أن المراد هو هـذا الخلق فى هذا الوجود ، فان الله تعالى يخاطب انسان هذا الوجود فيقـول له : « يا أيهـا الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك . كلا بل تكذبون بالدين وان عليـكم لحافظين كراما كاتبـين يعـلمون ما تفعلون » سـورة الانفطـار . فالشق الأول من الآيات هو الخلق فى أحسن تقويم ، والشق الثـانى بعد كلمة « كلا » هو الرد أسفل سافلين ، ثم يقول الله فى موضـع ثالث مخاطبا أهل هـذا الوجـود « الله الذى جعـل الأرض قرارا والسماء بنـاء وصـوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبـات » سورة غافر . فأحسن التصـوير وأى صورة ما شاء ركبك وأحسن تقويم كله بمعنى واحد وفى وجود واحد . الهيئة الجميلة والحـالة اللطيفة معنـوية وحسية التى خلق عليها انسان هذا الوجود من الفطرة البريئة الطاهرة ، وكل مولود يولد على الفطـرة والصـورة الخلقيـة الجميلة التى خلق الله عليها الانسان وقال فيها : « ألم نجعل له عينـين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين .. الى أن قال : « ثم كان من الذين

آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » ، سورة البلد • جمال التقويم والصورة والهيئة معنوية وحسية • وفى حالة الرد أسفل سافلين تقول الآيات فى نفس هذه السورة وهذا السياق « الذين كفروا بآياتنا أولئك أصحاب المشئمة عليهم نار مؤصدة » ان الله استثنى فى سورة التين من الرد أسفل سافلين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون • وقضية هذا الاستثناء انهم من المخلوقين فى أحسن تقويم غير المردودين الى أسفل سافلين وكل ذلك فى هذا الوجود ، فان الله خلق الانسان فى هذا الوجود معززا مكرما وجعل فيه من الطاقات والكمالات والخصائص ما لأجله أسجد له ملائكته وجعله خليفة فى أرضه « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » سورة الاسراء •• وان الله خلق آدم يوم خلقه على هيئته بأن أودع فيه من الكمالات الربانية الشىء الكثير ، وفلاسفة الاسلام يعرفون الحكمة بأنها التشبه بالكمالات الربانية على قدر الطاقة البشرية ، وفى الحديث القدسى جعلت عبادى حنفاء ، ولكن الشياطين اجتالتهم ، فالشق الأول من الحديث هو أحسن تقويم • والشق الثانى هو أسفل سافلين ، أحسن التقويم وأحسن التصوير والفطرة السليمة السوية ، ثم الرد أسفل سافلين لمن فسدت فيهم الفطرة وتخطفتهم الشياطين فارتدوا من ملائكية الطاعة الى بهيمية المعصية • كل ذلك فى هذا الوجود •

وأخشى بالنسبة للدكتور مصطفى محمود أن يضمه الرأى العام الى خبراء ماسبيرو الذين يفسرون القرآن بالعلمانية فيدخلون فى معانيه ما ليس منها ويحملون الألفاظ ما لا تطيقه ولا تتحمله ويجرجرون كتاب الله الى مجالات لم ينزل من أجلها ولا يثبت النظر فيها على رأى واحد ، مدعين انه الاعجاز العلمى للقرآن ، أو التفسير العلمى للقرآن ، أو الدلالات العلمية فىآيات القرآن •والله يعلم أنها فوضى التفسير للقرآن •

دكتور عبد الغنى الراجحى

مع آيات من سورة النساء فى ليلة من رمضان

بقلم الأستاذ عبد الحميد الفضالى

رغبت فى شهر رمضان ، فى أن أخطو الى الأمام خطوة أعمق ، فى مرضاة الحق تبارك وتعالى .. فاجتهدت ، فى حدود طاقتى - فى توثيق صلتى بربى .. وبالمسلمين من حولى .. فيما يتعلق بالعبادة ، والقراءة والصلاة .. وفيما يتصل بالمعاملات ، والسلوك والأخلاق ..!!

فالانسان صالح للتغيير والتبديل ، ومستعد للخير والشر - ما دام على قيد الحياة ، ومادام فيه قلب ينبض ، ونفس يتردد ، وتمييز وشعور ، ونزوع وارادة ، واحساس ووجدان .. وقلت فى نفسى : عسى الله أن يغفر لى ذنبى ، ويستر عيبى ويفرج كربى ، وأن يعوضنى بعض ما فاتنى من الخير فى سالف عمرى ، وفيما بقى من أجلى .. وما فاتنى من الخير كثير .. وما بقى من عمرى قليل .. لكن الرجاء فى الله كبير .. والطمع فى غفرانه وفير .. فلمحة من رضاه تملأ القلب ريا .. ونفحة من ضياه تجعل الفاسق تقيا .. بل تحيل الكافر وليا ..!!!

واذن فلا يأس عندى من روح الله أو رحمته .. ولا قنوط من أفضاله ورأفته .. انه لا ييأس من روح الله الا القوم الخاسرون .. ونعوذ بالله أن نكون من الخاسرين .. اللهم آمين .

ومن هنا رغبت فى قيام ليلة مع القرآن الكريم .. فى قراءة آيات من سورة النساء .. قصدت بها أن أعيش فيها ، كما يعيش المتعبدون ناسكا متعبدا ، ممتثلها هديها ، مستقرئا وحيها ، مستعينا

بموحيها ، حاضر القلب والذهن فى شتى نواحيهـا ، ما استطعت الى ذلك سبيلا .. طـامعا فى كرم الله وعـونه ، وفى عطـاء قرآنه الذى لا ينفد له عطـاء ، ولا يحرم من خيره راغب فيـه .. « انه لقرآن كريم » ..!!

وقد عشت ليلتى فى الربع الأول من السورة .. وفى بضـع آيات من الربع الثـانى .. أى عشت موضوعا كبيـرا رحبا ، واسعـا ضخما .. متنقلا بين أجـزائه وعناصره .. مستروحا فى أجوائه وذخائره .. بالوقوف بعض الوقت حيال كلماته ودلالتها وايحائها .. فقد رأيت أن ذلك أليق باحتمالى ، وأيسر لى ، من أن أعيش الليل كله فى آية واحدة ، أقف حيالها مستغرقا خاشعا ، سابحـا فى جنباتها ، غواصا فى أعماقها — كمـا كان يعيش الرجـال الـكبار الاطهار ، من الصـحابة والتابعين وتابعيهم باحسان .. اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلقد قام الرسول — عليه الصلاة والسلام — ليلة مع الله ، فى خشوع واستغراق تامين كاملين يليقان بمقامـه الكـريم ، فى قوله تعالى : « ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنـت العزيز الحـكيم » ..وقلت فى نفسى : ان ذلك فوق طاقتى ، وفوق احتمالى .. فأين انا من هـؤلاء الأبطال الكرام الأوفياء ..؟!!

ان أفقى لأضيق من آفاقهم .. وان ايمانى لا يقاس بايمانهم .. وان استعدادى لدون استعدادهم !!

انهم — رضى الله عنهـم — فى السماء كانوا يعيشون .. فتتنزل عليهم فى سمائهم الرحمـات .. وتنهـال عليهـم فى سـموهم — الفيوضات .. وتستغرقهم وتتسع لهم الآية الواحـدة من الآيات .. تملأ فراغهم ، وتحيط بهم ، وتحيى ليلهم .. أما أنا ، فمـا ازال على الأرض أعيش . .أرجـو من الله غفران ذنوبى .. وستر عيوبى .. وأن يمنحنى رضاه . .وعسـاه يرضى عنى ، وقد وقفت ببـابه ، محبا لكتابه ، متمسحـا فى ركابه — فيجعل كل ما يصدر منى ابتغاء مرضـاته ، وخالصـا لوجهـه الكريم ..!!

ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .. والاعتراف بالحق فضيلة .. فما أضرنا ، وأذلنا ، وأتعبنا — الا عدم وقوفنا عند حدودنا ..!!!

ألا فليقف كل منا عند حده لا يتجاوزه ولا يعدوه ...!

ان عبادة الله فى قرآنه ، لأعظم بكثير مما يظن الظانون ، أو يتوهم الواهمون ..!

انها ليست من السهولة بمكان .. انها لتتمايز فيها المقامات .. وتتفاوت فيها الطاقات والاحتمالات وتختلف فيها العلاوات والدرجات .. وكل ميسر لما خلق له .. والله فوق الكل فى عليائه .. ولا حول ولا قوة الا به ...!!

فالى مكانى من آيات سورة النساء :

استعرضتها أول الأمر استعراضا عاما ، فى تلاوة خاشعة متأنية متفهمة .. فبدت الآيات كأنها فى موضوعات متباينة .. ولكن بمعاودة النظر اليها والاستماع اليها — مرات ، ومرات — ظهر أن فيها رباطا جامعا ، ينادى بوحدة الموضوع .. يدل عليه المشار اليه ، فى قوله تعالى فى الختام : « تلك حدود الله .. الخ » ..

فباستعراض هذه الحدود والتشريعات ، التى احتوتها الآيات — ظهر أنه وضعت لاحقاق الحق وابطال الباطل .. وضعت لانصاف اليتامى « ذكورا واناثا » ، بحفظ الأموال ، وصيانة الأعراض ، ورفع الجور ، فى نكاح اليتيمات ، بالزواج من غيرهن .. فى حدود العدد الذى أباحه الله فى شرعه الحكيم . مع مراعاة العدل بين الأزواج .. والا فواحدة .. وضعت لتعديل نظام الميراث ، واقامته على أساس القرابة التى بينهم ، واعالة أغنيائهم لفقرائهم .. وذلك لتوريث المحرومين من الصغار والنساء .. وضعت لانصاف المرأة بوجه عام ، ورد أعتبارها — بنتا ، وأختا ، وزوجة ، وأما ..!!

واذن فالموضوع — موضوع واحد متكامل مترابط ، لرفع الظلم والجور عن هؤلاء المستضعفين فى الأرض بغير الحق ، واتقاء الله

فيهم ، برد حقوقهم كاملة اليهم ، على ضوء ما حدد « الشـارع » من حدود ، وبين من تشريع ، ليسعد الجميع أقوياء وضعفاء ..

والا ، فمن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله نارا خالدا فيها ، وله عذاب مهين ..!!

ثم رايت الله فى الآية الاولى :

رأيت الله تبارك وتعالى ، وهو الرب المربى لعباده سبحـــانه .. يهيئهم لقبول توجيهه وارشـاده ، تفضلا منه ورحمـــة — فى الآية الأولى من السورة .. حيث يناديهم فى اشفاق عليهم وعناية بهـم ، فى قوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة .. الخ الآية » .. وهو سلوك تربوى قويم اختاره رب العالميـــن — يجب أن يحتذى من المربين .. فى تربية الأولاد وفلذات الأكباد ، لايقاظهم وترقيق قلوبهم ، وتحقيق الخيــر والفلاح لهم ..!!

ان الله تبارك وتعـــالى ينادى عباده ..

والنداء مـــن شأنه أن يوقظ النائمين ، وينبه الغافلين ..

فاذا كان من الرب ، فهــو نداء من أجل تربيتهم ، وتحقيق الخيــر والسعادة لهم ، فى دنياهم وآخرتهم لأنهم عباده .. وأنه بعباده لرءوف رحيم ..!

ثم انه سبحانه يناديهم بوصفهم ناسا ، وذلك ليشعرهم بالوصــف الجامع لهم ، ويذكرهم بأنهم جنس واحد ، لا فرق بينهم ، ولا تمييــز لأحد من بينهم .. فكلهم ناس ، من الانس المكلفين من خلقه .. وهو خطاب كذلك للمعنى الانسانى الذى ينتظمهم جميعا ويؤلف بينهم ، ويميز جنسهم عن سائر الكائنـات الحية ..!

ثم هو سبحانه يأمر بالتقوى ، التى هى اتخـاذ الوقاية التى تقى الناس من عذاب الله وتحفظهم من غضبه وسخطه .. والتى أساسها : الخوف من الجليـــل .. والعمـــل بالتنزيل .. والاستعداد ليــــوم الرحيل .. !!!

ويصف معمولها بالرب « اتقوا ربكم » ، لينبههم الى أنه سبحانه

وحده ـ هو ربهم الذى خلقهم بقدرته ، فليس لهم رب سواه ..!!

وهو بذلك يدعوهم لخشية المستحق للخشية القادر على كل شىء .. ومن قدرته أنه خلقهم من نفس واحدة ، هى آدم ، خلقها من الطين..وخلق منها زوجها حواء.. ثم كان خلقهم منهما بالتناسل ، « وبث منهما رجالا كثيرا ونساء» .. وفى ذلك اشعار لهم بوحدة الأصل ، بعد أن أشعرهم بوحدة الرب الخالق القادر على خلقهم من نفس واحدة ..!

.. وفى قوله «من نفس واحدة» اشعار لهم أيضا بأن النفس الانسانية هى أعمق ما فى هذا الكيان البشرى .. فهى مكمن المشاعر والصلات والروابط التى لا تنقطع وشائجها ولا تبلى روابطها .. انها وشائج اللحم والدم والروح فى كيان الانسان ..!! وذلك مما يقوى عمق الصلة وبوثقها بين الزوجين ـ آدم وحواء ـ وكل زوجين من ذريتهما .. فبين الجميع آصرة واحدة ورابطة متجانسة ، تجمعهم رحم واحدة .. وذلك من شأنه أن يستوجب تآلفهم وتفاهمهم وتعاونهم .. ويستنكر تناكرهم وتباغضهم وتنافرهم .. فهل من مذكر ؟!!

... ان القلوب حين تتقى الله ترق وتلين ، وتستيقظ فيها أنبل المشاعر ، فتسارع الى طاعة الله ، وتلبية ندائه فى الخيرات باذنه ، عن حب لها ورغبة فيها واقبال عليها ..!!

ولذا يكرر الله الأمر بالتقوى التى هى دائما صمام الأمن للمتقين .. ويجمع فى الأمر بها للمرة الثانية ـ بين دعوتهم لتقوى الله ، ودعوتهم لتقوى الأرحام .. ولكن بأسلوب يحيى موات القلوب .. حيث يذكرهم بواقعهم ، اذا ما اشتدت بهم الكروب .. فيقول سبحانه : «اتقوا الله الذى تساءلون به .. والأرحام » التى تساءلون بها .. انه سبحانه يذكرهم بلجوئهم اليه ، واستعانتهم به ، حين تتأزم أمورهم ، وتشتد احتياجاتهم : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه ، أو قاعدا ،

أو قائما .. » .. كما يذكرهم بسؤال بعضهم بعضا بالله ، وبالرحم حين يقول بعضهم لبعض : أسألك بالله الا أغثتني ، أو عاونتني .. وأسألك بالرحم التي تجمعنا وتربطنا ، الا رحمتني ، والا فعلت كذا وكذا ..!!

فكأن الله يقول لعباده : انني أنا الله الذي تذكرونه حين يشتد الكرب ، وتستغيثون به أن يغيثكم ولا مغيث سواه .. فاتقوا الله .. اتقون يا أولى الألباب لعلكم تفلحون .. واتقوا هذه الرحم التي تذكرونها ، وتستدرون العطف بها فيما بينكم ، في شدائدكم ومتاعبكم .. فلا تأكلوا حقها ، ولا تمسوها بسوء .. وتوقوا ايذاءها، أو تجريحها أو اغضابها.. فهي أولى منكم بالتوقير والاحترام والعيش بها ، ومعها في سلام ..!!

.. ثم يختم الله الآية الكريمة بقوله : « ان الله كان عليكم رقيبا » ، ليشعرهم بأنهم جميعا تحت رقابته القادرة ، التي لاتخفى عليها خافية ، والمحيطة بكل شيء علما ..!!

والرقابة : هي أقصى درجات الملاحظة .. والله هنا هو الذي يراقب ، فلن يفلت من رقابته أحد، لأنه يعلم السر وأخفى .. فكأنه يقول : أنا في انتظار ما تفعلون ، وأنا العليم بكل ما يصدر عنكم أو يكون منكم .. وسأجازي بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا .. جزاء وفاقا ، لأنني أنا الله الذي لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون..فهي عبارة تحمل في طياتها أعمق دلالات الترغيب والترهيب .. الترغيب في طاعة الله ، وامتثال أوامره .. والترهيب من عصيانه ، وارتكاب ما نهى عنه .. سبحانه ، سبحانه ..!!

وهكذا تكون التربية السليمة المثمرة : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ..

فمن الخير اذن ، للمصلحين والدعاة الى الخير ، أن يتخذوا من أسلوب القرآن منهجا في التربية النفسية والروحية والسلوكية والأخلاقية .. وأساسا في تهيئة الناس لتلقي ما ينفعهم بقبول

حسن .. والا فقد أعذر من أنذر .. وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ...!!!

ورايت عناية الاسلام باليتامى في الآية الثانية !

واليتامى جمع يشمل الذكور والاناث ..

وليس أقسى من اليتم ، ولا أشد من وقعه على النفوس .. ففقد الآباء غالبا ما يكون كارثة على أبنائهم وبناتهم ، وبخاصة اذا كانوا صغارا ضعافا ، ولم يجدوا منصفا .. !

والآباء بطبيعتهم يحبون أولادهم ويرجون الخير والأمان لهم .. ولذلك نجد الله بعد ذلك في آية أخرى ، يستغل هذا الحب الطبيعي الفطرى في الآباء جميعا ، فيدلهم على صمام الامان لأولادهم اذا ما خافوا عليهم بعد موتهم — وهو أمر ميسور لهم وسهل عليهم : ان يتقوا الله في أولاد الغير ، فيعدلوا معهم ، ويحسنوا اليهم ، وأن يقولوا بشأنهم كلمة الحق والعدل والخير ، والا يسيئوا اليهم حتى بالكلمة .. جاء ذلك في قوله تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديدا » .

ولذلك نرى الله تبارك وتعالى بعد أن هيأ النفوس لخشيته وتقواه في الآية الأولى — يلقى تعليماته في الآية الثانية ، للأوصياء على اليتامى .. فيأمرهم بأن يردوا الى اليتامى أموالهم كاملة غير منقوصة ، فهي أمانة تحت أيديهم — وذلك اذا ما بلغوا رشدهم ، وصاروا قادرين على رعاية أموالهم ... وحذرهم من ظلم اليتامى ، فنهاهم عن أخذ أموالهم الجيدة ، وأعطائهم بدلا منها أموالا رديئة .. كأخذهم ابلا صحيحة ، أو ماشية سليمة ، واعطائهم بدلا منها ابلا مريضة ، وماشية هزيلة عليلة .. أو أخذهم الجيد من الأرض ، واعطائهم الردىء منها .. أو أخذهم من المحصول جيده واعطائهم رديئه .. وهكذا في أى نوع من أنواع المال يكون فيه الجيد وفيه الردىء .. كما نهاهم عن أكل أموال اليتامى

بضمها الى اموالهم كلها أو بعضها .. وبين لهم أن ذلك الأكل لمال اليتيم — ذنب كبير وظلم خطير ، حيث قال : « انه كان حوبا كبيرا » أى ذنبا عظيما ..!!

هذا ، وليس أبغض الى الله من الظلم فى جميع صوره وأشكاله !!

ولذا فقد حرم الله الظلم على نفسه ، حيث قال : « يا عبادى انى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلاتظالموا » .. ومن شدة بغض الله للظلم أنه سبحانه ينصر الدولة الكافرة اذا كانت عادلة ، ولا ينصر الدولة المؤمنة اذا كانت ظالمة : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » ..

ومن شدة بغض الله للظلم أنه لا يرد دعوة المظلوم ، ولو كان كافرا ، حين يدعو على ظالمه وإن كان مؤمنا : « اتقوا دعوةالمظلوم، فانه ليس بينها وبين الله حجاب ».

ومن بشاعة الظلم أن الله قد اعتبر الشرك به نوعا من الظلم .. ولم يعتبر الظلم نوعا من الشرك.. قال تعالى : « ان الشرك لظلم عظيم » ..

وما جلب على البيوت خرابها الا ظلمأصحابها للناس ، قال تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بماظلموا ».

وكذلك ما يصيب الدول من تفككوانهيار ودمار ، انما هو من جراء انتشار الظلم فيها : « وتلك القرى أهلكناهم بما ظلموا » ..

والكلام فى الظلم يطول .. وحسبنا أن نعلم أنه سبحانه لا يتسامح فى حق عبد من عباده ، وان تسامح فى حق نفسه ، سبحانه جل شأنه .. ولن يفلت من عقابه ظالم أبدا ، فقد قال الرسول — صلى الله عليه وسلم : « ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » .

وقال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين » ..

عناية اخرى باليتيمات اللاتى تحت الوصاية :

فى قوله تعالى : « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة .. » ..

وتلك ظاهرة خاصة باليتيمات عن طريق الزواج .. وفيها قد فتح الله باب الزواج واسعا ، تحاشيا لظلم اليتيمات .. مع مراعاة العدل فى الزواج بغيرهن .. والا فواحدة .. !

وذلك اجمال يحتاج الى بيان

❊❊ فبعد أن طالب الله الأوصياء بأن يعدلوا مع اليتامى برد أموالهم اليهم سالمة كاملة متى بلغوا رشدهم — طالب الأوصياء مرة أخرى ، لشدة عنايته باليتيمات — بالابتعاد عن زواج اليتيمات القاصرات ، ان كان الزواج بهن مظنة ظلم لهن ، أو خوف عدم العدل معهن .. ومن باب أولى اذا كان الدافع على الزواج منهن — الطمع فى أموالهن ، أو هضم حقوقهن ، فى مهر أمثالهن ، أو انقاص حقوقهم المادية والأدبية كأترابهن .

فالآية تقول :

ان خفتم ألا تقسطوا فى يتامى النساء ، أى ألا تعدلوا معهن ، فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من غيرهن ، تحاشيا لظلم اليتيمات ، وبعدا عن الجور معهن .. لأن من يستغل ضعف الضعيف فيظلمه هو انسان خسيس .. فما بالك بمن يظلم يتيمة ضعيفة ؟!!

❊❊ وليس معنى هذا اباحة ظلم غيرهن من الأزواج ، كما سيأتى بيانه ...

❊❊ ان القوة ليست بدائمة ، بل هى عارية مستردة .. وسرعان ما يصاب الأقوياء بالأمراض والعلل التى لا علاج لها ، حتى يدركهم الموت ، وهم نادمون — بعد فوات الأوان — على ما ارتكبوا من ظلم وبغى ، وفساد وافساد .. فهل من معتبر ؟!!

❊❊ وانما يحدث الطغيان عادة ، فى غياب الايمان ...!!

فلو آمن هؤلاء الطغاة ، فخافوا الله ، أو فتذكروا أن قوة الله فوق قوتهم ، وأنه للباغين بالمرصاد ــ لما كانوا حيــوانات مفترسة ، ولا حشرات مؤذية !! ..

وما أحسن القول المشهور : اذا دعتـك قدرتك الى ظلم الناس ، فتذكر قدرة الله عليك ..!!

ثم اعود الى الآية مرة اخرى :

❊❊ جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

ــ لما نزلت آية اليتامى وما فى أكل أموالهم من الحوب الكبير ، أى الذنب العظيم ، خاف الأولياء ، أو خاف الأوصياء أن يلحقهـــم الحوب بتـرك الاقسـاط والعدل فى حقوق اليتامى ... وأخـذوا يتحرجون من ولايتهـــم ، وكان الرجل منهم ربما كان تحته العشر من الأزواج ، والثمان ، والست ــ قبل أن يتحدد العدد بأربع ــ فلا يقوم بحقوقهن ، ولا بالعــدل بينهن .. فقيل لهن : ان خفتم ترك العدل فى حقوق اليتامى ، فتحرجتم منها ، فخافوا ، أيضا ترك العــدل بين النساء ، فقللوا عدد المنكوحات ، لأن من تحرج من ذنب أو تاب عنه وهو مرتكب مثله ، فهــو غيـــر متحرج ، ولا تائب ، لأنه انما وجب أن يتحرج من الذنب ويتاب عنـــه لقبحـــــه ، والقبح قائم فى كل ذنب .. !!!

❊❊ وقيل : كانوا لايتحرجون من الزنا ، وهم يتحرجون من ولاية اليتامى .. فقيل : ان خفتم الجور فى حق اليتامى ، فخـافوا الزنا ، فانكحوا ما حل لكم من النساء ، ولا تحوموا حول المحـرمات .. فتكون الآية معـه لبيان حـــكم اليتيمات ، وتحذيرا من التورط فى الجور عليهن ، وأمرا بالاحتياط ؛ وفى غيرهن متسع الى الأربع .. بشرط مراعاة العــدل واعطاء كل ذات حق حقها ..

❊❊ وقيل أيضا : كان الرجل يجد اليتيمة لها مال وجمـــال ، ويكون وليها ، فيتزوجها ، ضنـا بها عن غيره .. فربما اجتمعت عنده عشر منهن ، فيخاف لضعفهـن ، وفقـد من يعصبهن أن يظلمهـن حقوقهن ، ويفرط فيما يجب لهـن

.. فقيل لهم : ان خفتم أن لا تقسطوا فى يتامى النساء فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم ، بشرط اعطاء كل ذات حق حقها فى المعاملة وفى الحقوق الظاهرة .

ويؤيد هذا قوله تعالى : « فان خفتم ألا تعدلوا » بين هذه الأعداد « ثنتين ، أو ثلاثة ، أو أربعة » فى المعاملة والحقوق الظاهرة ، كما خفتم ترك العدل فيما فوقها — قبل تحديد العدد بأربع — «فواحدة» أى فالزموا ، أو فاختاروا واحدة وذروا الجمع رأسا .. فان الأمر كله يدور مع العدل .. فأينما وجدتم العدل فعليكم به .

وليس من شك فى أن التحديد بواحدة أقرب الى اجتناب الظلم والجور — وبخاصة اذا لم تكن هناك ضرورة موجبةللزواج بأخرى — بدليل قوله تعالى بعد ذلك : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب الى عدم الجور ..

ان الظلم حرام ، فالوسيلة اليه حرام .. وان اجتناب الظلم واجب ، فالوسيلة الى اجتنابه واجبة .. واذا كانت الوسيلة الى الظلم هى التعدد ، فالوسيلة الى اجتنابه هى التوحد .

تعدد الزوجات :

فى قوله تعالى : « مثنى ، وثلاث ، ورباع » .

بيان لما أباحه الله تبارك وتعالى للراغب فى الزواج — بعد تحديد العدد بأربع — من الجمع بين ثنتين ، أو ثلاث ، أو أربع .

وانه ليدور لغط حاقد على الاسلام ، من أولئك المتعصبين ضده تعصبا أعمى — حول اباحة الاسلام للزواج بأربع نساء .

ولو أنصف هؤلاء ، وأحبوا الطهر والنقاء ، لحمدوا للاسلام هذا الصنيع ..!!

— ان عليهم أن يعلموا ، ان كانوا لا يعلمون ، أن التعدد كان موجودا قبل الاسلام فى الجاهلية ، بدون قيود ولا حدود .. حتى ان الرجل منهم يكون تحته من النساء العشرات .. وكذلك كان تحت بعضهم العديد من النساء بعد

الاسلام ـ قبل أن تنزل آية تحديد العدد بأربع ـ فكان التحديد من الله العليم الخبير هو التشريع الأمثل والاصلاح الأكمل ، لأنه سبحانه هو وحده العليم بما يصلح وما لا يصلح ، وما يضرهم وما ينفعهم ، وما كان وما سيكون منهم ..

« ألا يعلم من خلق » ؟!!

ـ وقد ثبت من واقع الحياة وواقع الأمم أن ما شرعه الله هو الخير للبشرية ، ما دامت حريصة على طهارتها ونقائها ..

ـ فقد ثبت أن تعدد الزوجات قد يكون ضرورة لحياة الجماعة وأمنها ووقاية لها فى حالات كثيرة ..

ـ منها ما يكون فى أعقاب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الاناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور ..

وما أخبار الحرب العالمية الثانية ببعيدة .. وان ما حدث فى ألمانيا ، وفى غير ألمانيا من زيادة أعداد النساء على أعداد الرجال لا يخفى .. !!!

وانها لتؤيد الزيادة المضاعفة للنساء على الرجال ، بما هو أكثر من ثلاثة الأمثال .. !

ـ ومنها ما يكون فى حالات مرض الزوجة أو عقمها ، ورغبة الزوج فى الابقاء عليها ، أوحاجتها هى اليه ، مع شدة حاجته الىزوجة أخرى يضمها الى عصمته ، ويحافظ على طهارته ..

ـ ويجب أن يكون معلوما أيضا ، أن الاسلام لا يعرف الخليلاتللرجال ، ولايقر الخيانات الزوجية المنتشرة بين الأزواج والزوجات فى أوروبا ، ولا يستبيحها لمسلم يؤمن بالله ، ولا لمسلمة تؤمن بالله ..!!! بل يحاسب عليها اذا ثبتت بالقتل رجما ..

ـ ان الرجل هناك (عند من ينتقدون شريعة الاسلام فى تعدد الزوجات) فى أوربا ـ مطلق الحرية فى أن يخالل من النساء المتزوجات من غيره ما يشاء .. وللمرأة كذلك أن تخالل منالرجال من تشاء .. وذلك ليس بعيب

عندهم فى أغلب الأسر .. وقل أن تجد فيهم من يغار على عرضه ..

وهل بعد التصاق الأجسام بالأجسام فى رقصهم المشترك ، بين النساء والرجال ــ ما يشجع على صيانة العرض .. أو يرغب فى نقاء النسل ، أو يحقق صدق انتسابهم الى آبائهم وأمهاتهم .؟!!!

ولذلك ، فان الغيورين على شرفهم ــ فى تلك البلاد ، وقليل ما هم يشيدون بنظام الاسلام ، ويشهدون بعظمته ، فى شريعته ، التى تكفل للمسلمين الخير والأمن والسعادة والعزة والشرف ، وكل أسباب الهناء والبقاء ــ لو عملوا بمقتضاها ، وساروا على هداها ..

فهل يعمل بشريعتهم ــ المسلمون ؟!!! نرجو من الله أن يكون العمل قريبا ..!!!

شبهة اخرى يجب ان تزول :

يظن الجاهلون ، كما يظن الحاقدون على الاسلام ورسوله ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أباح لنفسه أن يجمع فى عصمته بين تسع من النساء .. فى حين لم يبح لأحد من أمته أن يزيد على أربع ..!!!

وهؤلاء جميعا ، قد غاب عنهم أن الاسلام حين جاء ،كان اطلاق العدد فى الزواج مباحا عند العرب فى جاهليتهم .. يتزوج الواحد منهم من النساء ما يشاء غير مقيد بعدد .. وقد كان فيهم من تحته عشرات النساء .. وظل الأمر كذلك فترة فى الاسلام .. قبل تحديد العدد بأربع .. لقد كان فى المسلمين من فى عصمته الثمانية والعشرة وأكثر ، من النساء !! ..

فلما جاء أمر الله بتحديد العدد بأربع ، صادف أن كان من عصمة الرسول تسع .. فاذا سرح الرسول منهن خمسا ، لكان فى تسريحهن جناية عليهن ، بحرمانهن من حق الزواج ، لأنهن من امهات المؤمنين .. وامهات المؤمنين يحرم الزواج منهن ، فلا يحل لمسلم أن يتزوج بأمه ، باعتبارها كانت زوجة لرسول الله .. ولذا فرحمة بهن ــ جاء أمر الله بالابقاء عليهن زوجات فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ..

كما حرم الله على رسوله الزواج بعد هذا التحديد العام .. جاء جاء ذلك فى قوله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدل بهن من أزواج ، ولو أعجبك حسنهن » ..!

أما المسلمون ، فقد استجابوا لأمر الله بتحديد العدد بأربع ، وسرحوا ما زاد عليه ، لأن فى تسريحهن عدم الاضرار بهن ، فمن حقهن الزواج بعد ذلك من غير أزواجهن السابقين ..

ثم انه يجب أن يكون معلوما أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ــ لم يكن فى زواجه يختار لنفسه ، وانما كان الله هو الذى يختار له . لحكم يعلمها الله .. قد يكون منها ــ التشريع ، كما حدث فى زواج الرسول (بزينب بنت جحش) التى كانت زوجة لابنه بالتبنى (زيد بن حارثة) .. وكان هذا محرما من قبل ، فأباحه الاسلام .. قال تعالى : « وامرأة زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا » .. وقد يكون منها تحقيق سياسات انسانية واسلامية رشيدة ، فى سائر من أراد الله أن يكن زوجات لرسول الله ...

فالرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يكن الدافع الى زواجه ، شهوة جنسية هابطة ، كتلك التى قد تكون عند غيره من الناس .. فهو وان كان من البشر لكنه بشر رسول ..!!

وقد يقوم دليلا على ذلك ، أنه ــ صلى الله عليه وسلم ، لم يتزوج على خديجة رضى الله عنها ، طوال حياتها ، وكانت تكبره فى السن بخمسة عشر عاما .. وظلت مع رسول الله حتى جاوزت الخامسة والستين من عمرها ..!!

وفى ذلك الدليل على أن قناعة الرسول ، وعفته ، ووفاءه ، وانسانيته ، ومروءته ، وترفعه عن الدنايا ، ورحمته .. كان فيها الرسول ، وفى غيرها من الفضائل والمكارم ــ المثل الأعلى ، فى هذا الوجود ..!!! صلى الله عليك وسلم يا سيدى يا رسول الله ..

واخيرا ، وليس آخرا ..

ان تعدد الزوجات ـ فى حدود ما أباحه الاسلام ـ فى أصله رخصة .. وهى غير ملزمة لأحد.

ولكنها رخصة ، قد تكون ضرورة لحياة الجماعة وأمنها وأمانها ، ووقاية لها من التخبط والزلل والانحرافات .. فى حالات كثيرة .. سبقت الاشارة الى بعضها .

والذى لا شك فيه أن البشرية لم تجد حتى الآن ، ولن تجد بعد الآن ـ تنظيما أفضل ولا أكمل من تنظيم الاسلام ، فى كل ما جاء به من حدود وتشريعات .. ومنها : الزواج ، وبناء الأسرة ، وصيانة الأمة أفرادا وجماعات ، وكرامة المرأة ، بنتا ، وأختا ، وزوجة ، وأما .. كما أقر بذلك المصلحون من غير أبناء الاسلام ـ والفضل ما شهدت به الأعداء .. انهم قالوا لقومهم : اذا لم تتخذوا الاسلام دينا ، فاتخذوا شرعه القويم دستورا ، فهو كفيل بسعادة الناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ..!

لكن أهله للأسف لا يعملون به ، ولا يحيون فى نوره .. انهم فى غفلاتهم ساهون ، وفى شهواتهم غارقون ، وفى ملذاتهم سادرون.. ألم يكفهم ما كان منهم .. وما حل بهم ، من تخلف وتمزق ومذلة وهوان ؟!! فمتى يستيقظون ، ويعودون الى الحق بعد ما تبين ، قبل فوات الأوان ؟ !!

ان شاعرا قال ، وكأنه فيما قال يصور أحوال المسلمين الغافلين :

والناس فى غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

والحديث موصول

عبد الحميد الفضالى

قبل مجيئه تحدثت عنه أسفار الأنبياء

المستشار محمد عزت الطهطاوى

نشرت احدى الصحف الأسبوعية والتى تصدر فى مدينة القاهرة مقالا للقس برسوم شحاته أورد فيه بعضا من البشارات التى وردت بأسفار الأنبياء من بعد موسى عليه السلام وانتهى فى مقاله الى انها تتعلق بالمسيح عليه السلام .

وهذه البشارات التى أوردها ذلك القس هى :

أولا : ما عبر عنه حجى النبى بقوله (مشتهى كل الأمم) وذلك فى الاصحاح الثانى عدد ٧ من السفر المسمى باسمه وهو سفر حجى والمذكور ضمن أسفار العهد القديم فى الكتاب المقدس .

ثانيا : قوله (ولقد عرف الأقدمون أن مسيا ــ الملك المخلص العظيم هو وحده الذى سيخلص الانسان من كبوته وعثرته .

ثالثا : وفى روح النبوة تكلم الله عن (شيلون) الذى سيظهر فى آخر الأيام من سبط (يهوذا) وهو السبط الملكى وليس سبط (لاوى) ــ فانه واضح أن السيد المسيح قد خرج من سبط يهوذا .

وفى ردنا على ما أورده ذلك القس نسجل بداءة احترامنا وتقديرنا وايماننا برسالة ونبوة السيد المسيح عليه السلام وكذلك احترامنا لأمه السيدة مريم بنت عمران لأن ايماننا نحن المسلمين قد وسع كل من أرسله الله من الأنبياء والمرسلين ــ قال تعالى « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » سورة البقرة ٢٨٥ .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة كريمة تقية للسيدة مريم والدة السيد المسيح عليه السلام اذ وصفها بأنها كانت صديقة وفى زمانها فضلها على نساء العالمين .

قال تعالى « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة » . سورة المائدة ٧٥ ، كما قال جلت كلماته فيما تحدثت به الملائكة الكرام الى السيدة مريم « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » . سورة آل عمران ٤٢ .

لكن مع ذلك وخدمة للحقيقة والبحث لا نوافق القس المذكور على تلك التفسيرات التى حررها وعلى تلك التأويلات التى فرضها على تلك النصوص طبقا لمايلى :

أولا : اذا رجعنا الى النص الذى عبر عنه حجى النبى فى سفره والوارد بالاصحاح الثانى عدد ٧ المتضمن لعبارة « مشتهى كل الأمم » نجده بنصه هو « وازلزل كل الأمم ويأتى مشتهى كل الأمم فأملا هذا البيت مجدا قال رب الجنود ... » ثم يستكمل باقى النص فى قوله التالى فى عدد ٩ « مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود وفى هذا المكان أعطى السلام بقول رب الجنود » .

ولفظ « مشتهى كل الأمم » لا تعنى الا رسولا يأتى وتنتظره كل الأمم وعبر عن ذلك الانتظار بلفظ مشتهى كل الأمم بمعنى أنه يخرج من غير العبرانيين أو الاسرائيليين والذين يطلقون على أنفسهم حتى وقتنا هذا لقب شعب الله المختار والخاص . كما لا يكون مرسلا اليهم خاصة بل الى جميع أمم الأرض لأن هؤلاء العبرانيين أو الاسرائيليين يذكرون من عداهم من الناس بتعبير الأمم .

فكيف اذن تنطبق هذه البشارة عن « منتهى كل الأمم » كما يدعى القس برسوم شحاته على المسيح عليه السلام وقد خرج هو ووالدته من شعب الاسرائيليين أو العبرانيين هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فان ما هو وارد بالأناجيل المتداولة على لسان السيد المسيح يفيد أنه لم يأت لالقاء السلام أو اعطاء السلام على الأرض بل أتى لالقاء السيف والنار على الأرض .

فقد ورد بانجيل متى بالاصحاح العاشر عدد ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ قوله على لسان السيد المسيح « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض — ما جئت لألقى سلاما بل سيفا فانى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه والأبنة ضد أمها والكنه ضد حماتها — وأعداء الانسان أهل بيته » .

كما ورد بانجيل لوقا بالاصحاح الثانى عشر عدد ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ قوله على لسان المسيح « جئت لألقى نارا على الأرض فماذا أريد لو اضطرمت » ،« أتظنون أنى جئت لاعطى سلاما على الأرض كلا أقول لكم بل انقساما لأنه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسين ثلاثة على اثنين واثنان على ثلاثة — ينقسم الأب على الابن والابن على الأب — والأم على البنت والبنت على الأم — والحماة على كنتها ولكنه على حماتها » .

وشبيه بهذا أيضا ما ورد بذلك الانجيل فى الاصحاح الرابع عشر عدد ٢٥ ، ٢٦ قوله على لسان المسيح « وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » .

فكيف يستقيم القول بالنصوص السابقة المنسوبة الى السيد المسيح وهى كلها ضد السلام على الأرض مع النص الوارد فى سفر حجى النبى والذى يبشر بكلامه عن أن « مشتهى كل الأمم » يعطى السلام على الأرض خصوصا فى هذا المكان وهى الأرض المقدسة أرض فلسطين التى كانت موطن السيد المسيح ودائرة دعوته منذ ظهوره وحتى ذهابه عن العالم .

أما عن رسالة السيد المسيح عليه السلام فان المتتبع للاناجيل المتداولة حاليا بين النصارى يجد

أنها كانت دعوة خاصة وقاصرة على شعب بنى اسرائيل فقط فهذا انجيل متى فى اصحاحه الثانى عدد ٦ يذكر القول المنسوب الى الله فيقول « وانت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى اسرائيل » كما ورد بأنجيل لوقا فى اصحاحه الأول عدد ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ قوله عن السيدة مريم بنت عمران والدة ــ المسيح وبشارة الملاك لها بحمل السيد المسيح ــ « فقال لها الملاك لا تخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ــ وها أنت ستحملين وتلدين ابنا وتسميه يسوع ــ هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ويعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب الى الأبد » .

ولما بدأ المسيح عليه السلام فى الدعوة الى الايمان برسالته أعلن على الملا انها قاصرة على شعب بنى اسرائيل ولا تمتد الى غيرهم لذلك نراه بانجيل متى فى اصحاحه الخامس عشر عدد ٢٤ يقول « فأجاب وقال لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » ولقد نبه السيد المسيح الى مقدار احترامه لشريعة التوراة وانه ما جاء الا ليكملها لا لازالتها فنراه كما يحكى عنه انجيل لوقا فى الاصحاح السادس عشر عدد ١٧ يقول « ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس » ويقصد به شريعة التوراة .

وقد اختار السيد المسيح اثنى عشر تلميذا ليكونوا تلاميذه وأحباءه ، ومساعديه فى نشر دعوته وكان اختياره لهم من بين الاسرائيليين أنفسهم وينقل ذلك انجيل متى فى محاورة بين المسيح وبين أحد تلاميذه وهو بطرس ، وذلك فى الاصحاح ١٩ عدد ٢٧ ، ٢٨ فيقول « فأجاب بطرس حينئذ وقال له ها نحن قد تركنا كل شىء وتبعناك فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع الحق أقول لكم انكم انتم الذين تبعتمونى فى التجديد ــ متى جلس ابن الانسان (ويقصد المسيح نفسه بذلك) ، على كرسى مجده تجلسون أنتم

أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر » فهنا قال لهم السيد المسيح انهم يدينون أسباط اسرائيل فقط — ولم يقل لهم انهم يدينون أهل الدنيا أو شعوب العالم وفى هذا اشارة الى أن رسالته — وهم من بعده على نهجه — قاصرة على شعب اسرائيل المتفرع من أسباط اسرائيل الاثنى عشر — بل ان المسيح عليه السلام عندما أرسل تلاميذه المذكورين لينشروا دعوته ويبثوا تعاليمه بين الاسرائيليين كرر لهم الوصية بأن يقصروا الدعوة عليهم وحذرهم من دخول مدن الأمم والشعوب الأخرى ولو كانوا جيرانا للاسرائيليين ووارد كل ذلك بانجيل متى فى الاصحاح العاشر عدد ٥ ، ٦ فيقول : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا الى طريق أمم لا تمضوا الى مدينة للسامريين لا تدخلوا — بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة » ، بل ان انجيل متى ينسب الى المسيح عليه السلام انه قال عن الاسرائيليين انهم البنون وغيرهم من الأمم بأنهم الكلاب وكل ذلك وارد فى الاصحاح الخامس عشر من انجيل متى — عدد ٢٦ فى قوله « وقال ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » .

وقد كرر انجيل يوحنا بأن المسيح ما جاء الا الى خاصته وما خاصته الا شعب بنى اسرائيل « الى خاصته جاء وخاصته لم تقبله » انظر انجيل يوحنا فى الاصحاح الأول عدد ١١ وبعد ذهاب المسيح عن العالم يؤكد خليفته بطرس أن يسوع المسيح ما جاء الا لخلاص الاسرائيليين وغفران خطاياهم وذلك كما هو مذكور فى سفر أعمال الرسل بالاصحاح ١٠ عدد ٢٨ ، عدد ٣٦ « الكلمة التى أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام يسوع المسيح » .

ويقول دين انج أحد كتاب النصرانية فى بلاد الغرب « أن المسيح كان نبيا لمعاصريه من اليهود — الاسرائيليين — ولم يحاول قط أن ينشىء فرعا خاصا به من بين هؤلاء المعاصرين أو ينشىء

له كنيسة خاصة مغايرة لكنائس اليهود أو تعاليمهم » كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية (أن أسبق حواريى المسيح ظلوا يوجهون اهتمامهم الى جعل المسيحية دينا لليهود وجعل المسيح أحد أنبياء بنى اسرائيل الى بنى اسرائيل) .

ويؤكد هذا المعنى الكاتب المسيحى وليم باتون فيقول : « ان الذى يقرأ رسائل بولس يرى انه لم يورد دليلا واحدا ولا كلمة واحدة تنسب الى المسيح عن عالمية المسيحية وانما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره لأن بولس هذا هو أول من قال بعالمية المسيحية رغم انه لم ير المسيح عليه السلام ولم يتتلمذ على يديه بل انه كان حربا على تلاميذ المسيح وعلى تعاليمه ثم زعم أنه دخل فى دعوة النصرانية بعد ذهاب المسيح عن العالم بحيلة زعم فيها أنه رأى المسيح وعندما قبله حواريو المسيح واطمأنوا اليه خرج عليهم بتعاليم مضادة لما تعلموه من المسيح وذكر ذلك فى رسالته الى غلاطيه بالاصحاح الأول عدد ١ فى قوله « وأعرفكم أيها الاخوة أن الانجيل الذى بشرت به أنه ليس بحسب انسان لأنى لم أقبله من عند انسان ولا علمته ــ بل باعلان يسوع » ــ ويسوع تعنى اسم المسيح .

وكلامه يشهد عليه بالكذب لأنه لم يجتمع بالسيد المسيح حتى يتلقى عنه بل ولم يجتمع بالحواريين تلاميذ وأصحاب المسيح الا بعد ثلاث سنين ليتعرف بهم ومكث خمسة عشر يوما اتصل فيها ببطرس والحوارى يعقوب فقط ــ وبعد أربعة عشر سنة لما ذاعت تعاليمه المغايرة لتعاليم السيد المسيح عليه السلام دعوه ليحاجوه ليقضوا على الفتنة فى مهدها فحضر مع الحوارى برنابا ثم تشاجر معه وندد بجميع الحواريين وكذبهم ووارد كل ذلك فى رسالته الى غلاطيه بالاصحاح الثانى عدد ٥ فى قوله « الذين لم تذعن لهم بالخضوع ولا ساعة » ثم تابع تهجمه على الحواريين فى عدد ٦ ــ ٨ من تلك الرسالة فقال « وأما المعتبرون انهم شىء أى أنهم تلاميذ المسيح ــ مهما كانوا لا فرق

عنـدى .. .. فان الذى عمل فى بطرس لرسالة الختان عمل فى أيضـا للأمم » فزعم بولس هنا أنه يقوم بتبليغ رسالة المسيح الى الأمم رغم اقراره بأن تعـاليم بطرس تلميذ المسيح هى الى أهـل الختـان فقط أى الى الاسرائيليين فقط .

اذن على من تصدق البشارة السابقة « مشتهى كل الامم » :

ان هذه البشارة لا تنطبق الا على النبى محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فقد أرسله الله من غير الاسرائيليين أى من الأميين وبتعبير أولئك الاسرائيليين كان من الأميين أى من غـير الاسرائيليـين وكانت دعوته صـلى الله عليـه وسلم الى العالم أجمع والى النـاس جميعـا الأبيض والأسـود والأحمـر والأصفر .

قال تعالى مخاطبا رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . سورة سبأ ٢٨ .

وقال جلت كلماته « قل يا أيها النـاس انى رسـول الله اليـكم جميعا » . سورة الأعراف ١٨٥ واذا رجعنا الى الأصل العبرانى لكلمة (مشتهى) كل الأمم نجد أنهـا (حمدوت) الأمم أى محمود الأمم واسم محمـود هـو ضمن أسماء النبى (١) محمـد صلى الله عليـه وسلم فضلا عن ذلك فانه صلى الله عليـه وسلم أسرى به الى بيت المقدس قبل الهجرة فزاد ذلك شرف بيت المقدس مما يوافق عبارة املاء هذا البيت مجدا أعظم من مجـده الأول أى من قبل تمام اسراء النبى اليه ـ وبعد وفاته صلى الله عليه وسـلم قام المسلمون بفتـح بيت المقـدس وحـرروه من الرومان ـ فنعمت المدينة المقدسة بالسلام لأن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنـه أعطى السلام والامان لسكان بيت المقدس وذلك بعقد المعـاهدة وتوثيـق شروط الصلح مع أهـل تلك المدينة ولم تنعم المدينة منـذ تلك البشارة بهذا السلام الحقيقى

---

(١) وهذا ما حققه الاب عبد الاحد داود الاشورى العراقى مطران مدينتى الموصـل وديار بكر فى القرن الماضى وذلك فى أبحاثه التى ضمنها كتابه (الانجيل والصليب) فى الباب الثالث والمحفوظ حاليا بدار الكتب المصرية .

الأعلى يد ذلك الخليفة المسلم العادل وهذا يوائم عجز النص المشار اليه فى قوله « وفى هـذا المكان أعطى السلام يقول رب الجنود » .

ثانيا : ان لفظ (مسيا) كان يعنى عند الاسرائيليين معنى (رسول يأتى من عنـد الله) وهـذا ما وضحه الأستاذ عوض سمعان الباحث النصرانى القبطى فى كتابه (الله طرق اعلانه عن ذاته) وفيه يقرر أن اليهود ومنهم تلاميذ المسيح كانوا ينتظرون (المسيا) وان هـذا (المسيا) بالنسبة الى أفكارهم التى توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتيهم من عند الله ـ وليس هو ذات الله .

ونفس هـذا المعنى أشار اليه برنابا فى انجيله عن مناقشة بين امرأة سامرية وبين المسيح عليه السلام اذ يقول فى الفصل الثانى والثمانين أجابت المرأة اننا ننتظر (مسيا) فمتى جاء يعلمنا أجاب يسوع (وتعنى هـذه الكلمة اسم المسيح كما ذكرنا سابقا) ـ أتعلمين أيتها المرأة أن مسيا لابد أن يأتى أجابت نعم يا سيد حينئذ تهلل يسوع وقال يلوح لى أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمى اذن أنه بالايمان بمسيا سيخلص كل مختارى الله ـ اذن وجب أن تعرف مجىء مسيا ـ قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد أجاب يسوع انى حقا أرسلت الى بيت اسرائيل نبى خلاص لكن سيأتى بعدى مسيا المرسل من الله لكل العالم) .

من هـذا النص ومن النص السابق عليه فى سفر حجى النبى يتضح أن المسيح عليه السلام لم يكن هو المسيا كما يدعى النصارى خصوصا وأن النصارى تغالوا فى المسيح فرفعوه من مرتبة النبوة والرسالة الى مرتبة الألوهية وجعلوه أحد الاقانيم الثلاثة المقدسة المكونة للثالوث الالهى على حد اعتقادهم رغم أنه كثيرا ما كان يعبر عن نفسه كما سبق أن قدمنا بأنه ابن الانسان طبقا لما هو مذكور فى الأناجيل المتداولة ورغم أن تلميذه بطرس يقرر فى الاصحاح الثانى من سفر أعمال الرسل عدد ٢٢ بنفس هـذا المعنى بقوله (يسوع

الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضا تعلمون) .

ويذكر برنابا فى انجيله ان الاسرائيليين طلبوا من المسيح عليه السلام أن يبين لهم اسم هذا النبى الذى لقبوه بمسيا أى (برسول الله) فيقول فى الباب السابع والتسعين (فقال حينئذ الكاهن ماذا يسمى مسيا وما هى العلاقة التى تعلن مجيئه أجاب يسوع أن اسم مسيا عجيب لأن الله نفسه سماه .. ...) ثم يقول : (ان من يباركك يكون مباركا ومن يلعنك يكون ملعونا ومتى أرسلتك الى العالم أجعلك رسولى للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى أن السماء والأرض تهنان ولكن ايمانك لا يهن أبدا ان اسمه المبارك محمد حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين يا الله أرسل لنا رسولك يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم) وشبيه بذلك ما ورد بانجيل يوحنا فى اصحاحه الرابع عدد ١٥ ، ١٦ ، ١٧ فى قوله عن المسيح « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مميزا آخر ليمكث معكم الى الأبد روح الحق » كما ورد فى الاصحاح السادس عشر من نفس الانجيل عدد ١٣ قوله (وامامتى جاء روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية) ويعلق العالم الفرنسى الدكتور موريس بوكاى فى كتابه (دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة) عن النصوص السابق الاشارة اليها والواردة فى انجيل يوحنا بقوله ان المسيح يبشر بأن الله سيرسل الى البشر وسيطا آخر كما كان هو وسيطا لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض وأن هذا الوسيط هو الـ (Paraclet) مثل المسيح يتمتع بحاستى السمع والكلام فهو نبى من البشر يسمع كلام الله ويكرر على مسامع البشر رسالته فهو اعلان بمجىء نبى بعد المسيح وقد بينا فى أحد مقالاتنا الماضية والسابق نشره بمجلة الأزهر (فى الجزء الرابع

من السنة الخمسين والذى صدر فى شعبان ١٣٩٨ هـ ان ما تعنيه عبارة المعزى باللغة اليونانية وهى أساس ترجمة انجيل يوحنا الى كل لغات العالم هو لفظ (Hepikhatoz) وقد ترجمت الى باقى اللغات الأوربية (Pericletos) ورسمت باللغة العربية (البارقليط) وذلك فى طبعات الكتاب المقدس القديمة — وتعنى هذه العبارة فى معناها الحرفى (أحمد) الذى هو من أسماء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

كما ذكرنا ما يؤيد ذلك بشهادة بعض علماء النصرانية المحققين خصوصا المستشرق الايطالى الدكتور (كارلونيلنو) عندما سأله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار عن العبارة المذكورة فقال ان معناها (الذى له حمد كثير) وهو ما يوافق أفعل التفضيل فى اسم أحمد ويتفق مع ما ذكره القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام فى البشارة به الى قومه من الاسرائيليين فى قوله « واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » سورة الصف آية ٦ .

أما القول بأن المسيح عليه السلام كان ملكا فلا أساس له من الحقيقة ولا ظل له من التاريخ والمتتبع لحال الاسرائيليين خلال قراءة الأناجيل المتداولة والمعترف بها بين النصارى يرى أن الاسرائيليين فرحوا أولا بالمسيح لأنه كان فى اعتقادهم آتيا ليخلصهم من عبودية الرومان وليخضع الأمم والشعوب لسلطانهم فأخذوا يعدون العدة للمناداة به قائدا لهم وزعيما ثم تنصيبه ملكا عليهم ليقوم بتنظيم صفوفهم وقيادتهم فى حربهم التحريرية ضد الرومان — وكانوا يناودنه كثيرا ملك اليهود حتى أنه عند دخوله فى مدينة القدس والتى كانت تدعى سابقا (أورشليم) واستقبالهم له قبل عيد الفصح اليهودى فرشوا له ملابسهم فى طريق موكبه وأخذوا يلوحون له

بالرياحين والأغصان مرددين قولهم (السلام يا ملك اليهود تبارك الآتى باسم الرب) ولما عزم اليهود على تنصيب المسيح رسميا ملكا عليهم رفض العرض وفر الى الجبل هاربا منهم ومن احتفالهم ، وقد صرح بذلك انجيل يوحنا فى الاصحاح السادس عدد ١٤ ، ١٥ فى قوله « فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم .. وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف الى الجبل وحده » وعندئذ تحطمت آمال اليهود فى المسيح وتبخرت أحلامهم فى الخلاص على يديه وفى استعادة مجدهم الضائع وكانت هذه الصدمة الكبيرة فيه كافية لتحويل حبهم له الى كراهية طاغية فكان ما كان من أمر تفكيرهم فى قتله والتخلص منه .

ثالثا : أما عن شيلون فان النص كما هو مذكور بسفر التكوين فى الاصحاح التاسع والأربعين عدد ١٠ قوله « لا يزول قضيب من يهوذا أو مشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

والشعوب المختلفة لم تخضع الا لشريعة الاسلام مما يشير بأن شيلون هذا مقصود به النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومما يؤيد هذا المعنى أن النص المذكور عن نسخة لندن فى ترجمته هو (حتى يجىء الذى له الكل واياه تنتظر الأمم) مما يتفق مع النص الوارد بسفر حجى النبى السابق مناقشته والمتضمن البشارة بمشتهى كل الأمم .

وفى زمن السلطان بايزيد العثمانى سلطان تركيا اعتنق حبر من أحبار الاسرائيليين الدين الاسلامى وسمى نفسه عبد السلام وكان ماهرا فى اللغة العبرانية مجيدا لدراسة التوراة خبيرا بتفسيرات نصوصها وتوضيح ماخفى منها من كلام الأنبياء الذى كان أكثره رموزا انطوت على مقاصد خفية لا يمكن ادراكها الا عند حدوث ما تشير اليه ـ

ولذلك ألف كتابا أسماه بالرسالة الهادية يوضح فيها ما غمض على بنى قومه السابقين من الاسرائيليين وقد أورد فى تلك الرسالة كلام جد بنى اسرائيل الذى سلفت الاشارة اليه وترجمها من لغة التوراة العبرانية الى اللغة العربية كالآتى : (لا يزول الحكم من يهوذا ولا راسم من بين رجليه حتى يجىء الذى له واليه تجتمع الشعوب) ، وقال عنها المراد من الحاكم من يهوذا هو موسى عليه السلام لأنه بعد يعقوب ما جاء صاحب شريعة الاموسى وأن المراد من الراسم هو المشيح عليه السلام لأنه بعد موسى ما جاء صاحب شريعة الا المسيح (وان كانت شريعته مكملة لشريعة التوراة) وبعدهما ما جاء صاحب شريعة الا النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — لذلك كان هو المرادمن كلام يعقوب فى آخر الأيام ويؤكده بقوله (حتى يجىء الذى له) أى الذى له الحكم — وأما قوله واليه تجتمع الشعوب فهى دلالة واضحة وعلامة صريحة على نبى الاسلام لأن الشعوب ما اجتمعت الا اليه وكان دينا عالميا الى الناس والشعوب جميعا بوصفه رسولا بشيرا ونذيرا للعالم أجمع .

ولا يفوتنا أن نشير الى أن ما ذكره القس برسوم شحاته من أن المسيح عليه السلام كان من سبط يهوذا هو قول غير سليم لأنه طبقا لما ذكره انجيل متى فى اصحاحه الأول وما ذكره انجيل لوقا فى آخر الاصحاح الثالث فان يوسف النجار هو الذى كان من سبط يهوذا ولا يوجد أى ارتباط نسبى بين المسيح وبين يوسف النجار هذا اللهم الا اذا طعن فى شرف أمه بأنه جاء نتيجة اتصال غير شرعى قبل الزواج من خطيبها يوسف النجار كما يزعم الاسرائيليون ذلك (معاذ الله) لذلك كان نسب السيد المسيح من جهة أمه السيدة مريم حيث كانت من نسل هارون عليه السلام أى أنه كان من سبط لاوى بن يعقوب عليه السلام وهو

جد النبي هارون وليس من سبط يهوذا كما ذكر ذلك القس . والخلاصة التي تنتهي اليها مما ذكرناه آنفا أن بشارات الأنبياء السابق الالماع اليها عن (مشتهى كل الأمم) وعن (المسيا) وعن (شيلون) انما تشير الى النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليس الى أحد سواه . هذا هو الحق ولا داعي لانكاره أو اخفائه أو تلبيسه بالباطل ، وصدق الله العظيم اذ يقول « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » . سورة آل عمران ٧١ .

المستشار محمد عزت الطهطاوى

« القوى والضعيف »

« قال على ـ كرم الله وجهه : من قوى فليقو على طاعة الله ، ومن ضعف فليضعف عن محارم الله » .

أخطـاء شـائعـة

للأستاذ عباس أبو السعود

٥٠٣ قالت الاهرام : الصين تهاجم موسكو وواشنطن لموقفيهما من الشرق الأوسط ، وهذا خطأ لأن كلمة تهاجم لم ترد عن العرب ، وانما الذى ورد عنها من هذه المادة الفعل الثلاثى المجرد ، والثلاثى المزيد بالهمز ، فمن الأولى تقول : هجمت على الأعداء هجوما اذا أتيتهم بغتة ، وهجمنا عليهم الخيل ، والريح تهجم التراب على الدار أى تلقيه عليها ، يتعدى ويلزم ، ومن الثانى تقول : أهجم القوم ابلهم اذا أراحوها . وأهجم الله المرض عن فلان اذا جعله يقلع ويفتر وقد يجتمع الثلاثى والمزيد كما فى قولك . اهجم ابلك واهجمها أى احلبها وأرحها .

٥٠٤ ينكر كثير من الأدباء جمع باسل على بواسل استنادا منهم الى القاعدة المعروفة ، والى أن معاجم اللغة قصرت جمعه على بسل بضم فسكون وبسلاء ، قال ابن مالك فى ألفيته :

فواعل لفوعل وفاعل

وفاعلاء مع نحو كاهل

وحائض وصاهل وفاعله

وشذ فى الفارس مع مائله

أى أن فاعلاء وصفا لمذكر عاقل لا يجمع على كواعل الا اذا سمع عن العرب ، وقد مثل النحويون للمسموع بفوارس وسوابق ، ودواجن بمعنى مقيمين ، وهوالك ، ونواكس بمعنى مطأطئى رءوسهم ، وخوالف بمعنى قاعدين

متخلفين ، ونواكص عن الأمر بمعنى محجمين عنـه ، وزاد البغدادي فى خـزانة الادب جزء ١ ص ١٤١ عند التكلم على قول الفرزدق :

واذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم
خضع الرقاب نواكس الأبصـار

جمـــوعا هى : غائب وغوائب عن عتبة بن الحارث ، وشاهد وشواهد عن جزء بن سعد .

وفى شرح أدب الـكاتب للجواليقى حارس وحوارس، وحـاجب وحـــواجب من الحجابة عن ابن الأعرابى . ومن ذلك ما جاء فى المثـل «مع الخواطىء سهم صائب» جمع خاطىء ، وقـولهم : أنا وحـواج بيت الله ودواجـه بتشديد الجيم جمـع حاج ، وداج ، والدواج هم الأجراء والحمالون والأعوان من دج دجيجا اذا دب دبيبا ، وحكى المفضـل : رافـد وروافـد بمعنى باذلى العطاء .

ولكنهم لم يذكروا بواسل لعدم وقوعهم عليه .

والواقع أن هذا الجمع نقل عن العرب وورد فى شعر عـربى قديم ، قال باعث بن حـريم ابن أسد اليشكرى فى ديوان الحماسة جزء ٢ ص ٨٠١ فى مناسبة انتقامية من بنى أسيد لأنهم قتلوا أخاه وائل بـن ضريم :

سائل أسيد (١) هل ثارت (٢) بوائل
أم هل شفيت النفس من بلبالها (٣)
وكتيبة سفـْع (٤) الوجوه بواسل
كالأسد حين تذب عن أشبالها (٥)

وقد قال التبريزى شارح الديوان عنـد الكلام على بواسل : وفواعل فى صفـة

---

(١) أسيد بضم الهمزة وتشديد الياء اسم قبيلته
(٢) ثارت : ادركت ثارك وهو المطالبة بالدم
(٣) البلبال : الهم والوسواس فى الصدور لاهتمامهم بطلب الثار
(٤) سفع الوجوه : اى أن وجوههم تغيرت فاسودت من لفح الشمس
(٥) تذب عن أشبالها : تمنع وتدفع عنها الضرر .

الرجال قليل ، يقال : فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، وخارج وخوارج .

وقد ذكر الشيخ محمد على الفيومى شارح شواهد شذور الذهب عند شرح بيت الفرزدق السابق (بواسل) .

مما تقدم استبان أن هذا الجمع سليم ولا حرج على من يستعمله .

٥٠٥ ويقولون فى جمع حبيب : أحباب ، وحبايب ، وكلا هذين الجمعين خطأ فى هذا المعنى ، والصواب أن يجمع الحبيب قياسا على أحبة ، كطبيب وأطبة وعلى أحباء كطبيب وأطباء ، وخليل وأخلاء : ومنه قوله تعالى : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » .

أما أحباب فجمع لمفردين : أحدهما الحب بكسر الحاء بمعنى المحب كزر وأزرار ، والآخر الحب بضم الحاء وهو الجرة العظيمة كبر وأبرار وهو القسح .

وقد قالوا فى التحية : حبة وكرامة ، والحبة بالضم معناها الحب ، كما قالوا : حبا وكرامة ، يعنون بالحب الجرة ، وبالكرامة غطاء الجرة .

ويجمع الحب أيضا بمعنى الجرة على حببة كدب ودببة ودرج ودرجة ، ، وعلى حباب بكسر الحاء كجب وجباب بمعنى الآبار .

وأما حبايب فعامى صوابه حبائب بالهمز جمع حبيبة ككريمة وكرائم .

٥٠٦ ويقولون : ضحك البائع على المشترى ، يعنون أنه سخر منه وغبنه ، وهذا التعبير يشوبه الفساد ، لأن الحرف على لا يستعمل مع هذا الفعل : وانما يستعمل معه (١) من أو الباء فيقال : ضحك

(١) ومن ذلك قوله تعالى « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

منه أو ضحك به يضحك ضحكا بزنة لعب ، وضحكا بزنة علم ، وضحكا بزنةفهم، وضحكا بكسرتين ، فهو ضاحك ، وضحاك مبالغة ، ويقال رجل ضحكة وزان رطبة اذا كان يكثر الضحك من الناس ، وضحكه وزان غرفة اذا كان الناس يكثرون الضحك منه .

والضاحك والضاحكة ما تقدم من الأسنان ، والجمع ضواحك ، تقول افتر فلان عن ضاحكة وضواحك، ومن المجاز قولك ، ضحكت الأرض عن النبات اذا أظهرته ، وكذا ضحكت الرياض عن الزهر ، وتبسم الطلع وضحك اذا تفلق ، وضحك السحاب اذا برق ، والغدير يضحك فى الروضة أى يتلألأ ، والنور يضاحك الشمس ، قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بعميم النبت مكتهل

ويقال : ضحكت الأرنب اذا حاضت ، قيل ومنه قوله تعالى : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ».

٥٥٧ وينكرون أن يقول القائل : قبلت عن صديقى سديد رأيه ، ويصرون على أنه يجب أن يستبدل بعن الحرف من فيقال : قبلت من صديقى كذا محتجين بقوله تعالى : « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا » .

وقوله : « ولا يقبل منها شفاعة » . والحق أن التعبير الذى أنكروه سليم لا غبار عليه ، وبيان ذلك أن عن تأتى مرادفة (١) لمن بدليل قوله تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » وقوله ،

(١) وتأتى ايضا مرادفة للباء كما فى قوله تعالى « وما ينطق عن الهوى » ومرادفة لبعد كما فى قوله « عما قليل ليصبحن نادمين » .

« أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا » •

٥٠٨ وينكرون أن يقال : أوجبت الحكومة غلق باب المتجر اذا لم يراع صاحبه التسعير ، معتمدين على أن معاجم اللغة تقول : غلق الباب يغلقه غلقا من باب ضرب لغة رديئة متروكة ، حكاها ابن دريد عن أبى زيد ، ويصرون على أن اللغة الفصيحة توجب أن يقال : أوجبت الحكومة اغلاق باب المتجر •

والحق أن التعبير الذى أنكروه سليم ، لأن الغلق فيه ليس مصدرا للفعل الثلاثى ، وانما هو اسم مصدر من الاغلاق ناب عن المصدر ، كما أن الطاعة اسم من الاطاعة نابت عنه فى قوله تعالى : «طاعة وقول معروف»

وكما أن الطاقة اسم من الاطاقة نابت عنه فى قوله سبحانه : « لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » •

ويؤيد ما ذهبنا اليه قول صاحب القاموس : الاغلاق ضد الفتح والاسم الغلق وفى الوصف يقال : باب غلق بضمتين أى مغلق : كما يقال باب فتح أى مفتوح •

أما قولهم : اهاب مغلوق فمعناه أنه دبغ بالغلقة وهى شجرة مرة بالحجاز وتهامة يدبغ بها ، وقولهم رجل غلق ، أو جمل غلق معناه انه كبير أعجف أى هزيل وأما الغلق بالتحريك فهو المغلاق الذى يغلق به الباب ويفتح بالمفتاح كالغلاق بالكسر ومن المجاز قولهم : كان فلان مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، وأغلق القاتل فى يد الوالى أى أسلم يصنع به ما يشاء ، وتقول : أمر الوالى بالقاتل أن يغلق ، وبالأسير أن يطلق •

٥٠٩ ولقد فشا على ألسنة عدد وافر من الخاصة قولهم : السفر فى الصحراء ليلا شديد الخطورة ، يعنون أنه يسبب للمسافرين فيها أخطاراً جمة ويوقعهم فى المهالك ، وهذا التعبير يشوبه خطأ ، لأن للخطورة معنى لا يمت بأى صلة للهلاك وخوف التلف ، وانما معناها ارتفاع القدر وعلو المنزلة ، تقول : فلان خطير اذا كان ذا قدر ومكانة مرموقة ، وقد خطر خطورة من باب سهل سهولة أى ارتفعت منزلته وصار عظيما .

ولاصلاح تعبيرهم ليؤدى المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : السفر فى الصحراء ليلا شديد الخطر بالتحريك أى شديد الهلك والهلكة ، أو يقال شديد الأخطار أى المهالك .

وللخطر المحرك عدة معان زيادة على المعنى السابق .

١ ــ فهو السبق يتراهن عليه ، تقول : وضع القوم للمتراهنين خطرا أى غرضا يوضع فى النضال فمن سبق أخذه ، ولذا يقال : أحرز فلان الخطر .

٢ ــ وهو أيضا الحظ والنصيب ، ومنه حديث عمر رضى الله عنه فى قسمة وادى القرى قال : وكان لعثمان فيه خطر ، ولعبد الرحمن خطر أى نصيب .

ومنه أيضا قول الشاعر :
فى ظل عيش هنى ما له خطر ،
أى ما له نصيب .

٣ ــ وكذلك هو المثل والعدل ، تقول لصديقك : لا تجعل نفسك خطرا لفلان وأنت أوزن منه ، أى لاتجعل نفسك مثله وأنت خير منه وزنا .

٥١٠ وينكرون أن يقال : أريد لأعدل بين المتقاضين ، • وأن يقال : أمرت لأحسن معاملة

الناس ، ويصفون القائل بأنه مخطىء ، ويرغمونه على أن يقول : أريد أن أعدل بين المتقاضين ، وأمرت أن أحسن معاملة الناس بدون لام فيهما والحق أن التعبيرين اللذين أنكروهما فصيحان ولا فساد فيهما بدليل قوله تعالى : « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » وقوله : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » وقوله : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم » وقول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما
تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقوله جل شأنه : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » وقوله : « وأمرت لأن أكون أول المسلمين ».

اللام فى هذه التعبيرات كلها قيل انها زائدة ، وقيل انها للتعليل . ثم اختلف هؤلاء ، فقيل المفعول محذوف ، والتقدير ، يريد الله التبيين ليبين لكم ويهديكم أى ليجمع لكم بين الأمرين ، وأمرنا بما أمرنا به لنسلم وفى البيت أريد السلو لأنسى ذكرها .

وقال الخليل وسيبويه ومن تابعهما : الفعل فى ذلك كله مقدر بمصدر مرفوع بالابتداء ، واللام وما بعدها خبر .

أى ارادة الله للتبيين ، وأمرنا للاسلام ، وعلى هذا فلا مفعول للفعل .

٥١١ حينما سمى المرحوم محمد حافظ ابراهيم كتابه بالبؤساء شن كثير من علماء النحو ضده غارة شعواء ، محرمين استعمال هذا الجمع ، ورأوا أن يستبدلوا به الجمع السالم ، لأن معاجم اللغة لم تذكر جمع التكسير ، والواقع انها لم تعرض له لأنه قياس مطرد لبائس وبئيس ، فقد جاء فى

الصحاح : بئس الرجل بؤسا اذا افتقر واشتدت حاجته فهو بائس وبئيس .

ومما يطرد فيه جمع فعلاء .

١ ـ فعيل بمعنى فاعل وصف لمذكر عاقل غير مضعف ولا معتل اللام ـ ككريم ، وبخيل ، وحليم ، ورحيم ، ولئيم وخبيث ، ومثلها بئيس قال ابن مالك فى ألفيته :

ولكريم وبخيل فعلا
كذا لما ضاهاهما قد جعلا

٢ ـ فاعل اذا كان وصفا دالا على غريزة وسجية وأمر خطرى غير مكتسب غالبا كعاقل وعقلاء ونابه ونبهاء ، وشاعر وشعراء ، وجاهل وجهلاء ، أو كان وصفا دالا على ما يشبه الغريزة فى الدوام وطول البقاء كصالح وصلحاء ، وفاسق وفسقاء ، ولاعب ولعباء (١) ، وبائس وبؤساء ، وقد جاء فى التصريح ما نصه : أكثر فعلاء على فاعل اذا كان دالا على معنى غير مكتسب كالغريزة وهى الطبيعة التى طبع الانسان عليها كعاقل وعقلاء ، وصالح وصلحاء ، وشاعر وشعراء ، فان العقل والصلاح والشعر من الأوصاف الشبيهة بالأوصاف الغريزية كالكرم والبخل ، ومثل هذا ورد فى الهمع ص ١٧٨ من الجزء الثانى

٥١٢ ويقولون : تخرج من الكليات والمعاهد فى هذا العام عدد وافر من الطلاب .

وهذا القول يشوبه الخطأ ، لأن التخرج ليس معناه الخروج المعروف حتى تستعمل معه من وانما معناه التعلم والتأدب ، ولا تستعمل معه الا فى ، تقول : تخرج

(١) من هذا قول ابن الرومى يمدح أبا القاسم التوزى الشطرنجى .
فلط الناس لست تلعب بالشطرنج لكن بأنفس اللعباء

الطالب فى المعهد وتأدب فيه ، كما تقول : تعلم فى المعهد وتأدب فيه .

ومن هذا يقال : خرج الأستاذ تلميذه اذا علمه وأدبه فصار خريجه وزان سكين ، قال زهير يصف خيلا :

وخرجها صوارخ (١) كل يوم
فقد جعلت عرائكها تلين (٢)

أما الخروج فله معنيان : أحدهما الخروج من الباب ومن البيت ونحوهما وهو ضد الدخول وهذا هو الذى تستعمل معه من ، والآخر معناه النبوغ وحسن التصرف ، تقول : خرج فلان فى العلم أو الأدب أو الصناعة اذا نبغ وأحسن التصرف فى كل منها .

٥٢٣ كتبت صحيفة الأهرام عنوانا قالت فيه :

«وزير الاسكان والتعمير، ومحافظ الاسكندرية يفتتحان محطة مياه المنشية» وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأن كلمة التعمير لا تمت بأى صلة الى الاسكان والبناء ، وانما معناها اطالة العمر .

تقول : عمر الله نوحا عليه السلام تعميرا ، أى طول عمره فالله معمر بصيغة اسم الفاعل ، ونوح معمر بصيغة اسم المفعول .

ويؤيد ما ذهبنا اليه قوله تعالى : «وما يعمر من معمر» وقوله : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » .

وكما يقال : رجل معمر يقال : رجل عامر من قولهم : عمر الرجل يعمر من باب فهم عمرا بالفتح وعمرا بالضم اذا عاش زمانا طويلا .

---

(١) الصوارخ : جمع صارخ وهو المغيث
(٢) العرائك : جمع عريكة وهى الطبيعة اى انها سلسة محنكة .

ولتـــأدية المعنى المبتغى ينبغى أن يقـال : وزيـــر الاسكان والعمارة من قولهم عمر المنزل أصحابه عمارة من باب كتب اذا سكنوه فهـو معمور ، ومن هذا قوله عـز وجل : « والبيت المعمـور والسقف المرفوع » . ومما يدل على أن العمارة اسـم مصدر قـوله سبحـانه : « أجعلتم سقـاية الحـاج وعمارة المسجد الحرام » .

أو يقال : وزير الاسـكان والاعمار ، ففى القاموس : وعمر الله منـــزلك عمـارة وأعمـره أعمـارا ، أى جعله آهلا بسكانه .

أو يقال : وزير الاسـكان والعمر بفتح فسكون ، ففى المصباح وعمرت الدار عمـرا بنيتها والاسم العمارة . مما عرضنا استبان أن التعميـر هو اطالة العمر لا عمـارة الصحراء والمنـازل والخراب وغيرها ، وأن هذه الأشيـاء اذا عمرت كان مصدرها هذا الفعـل العمر وزان العـدل واسم المصدر عمارة بالكسر ، والعمارة أيضا أصغر مـن القبيلة .

٥١٤ ويقـــولون : قلمنا أظافـر الأعداء ، يعنون أنهم غلبوهم ، وانتصروا عليهم ، وهذا خطأ ، لأن كلمة أظـافر لا وجـود لها فى العربية .

والصواب أن يقال : قلمنا أظفار الأعداء ، الواحد ظفر بالضم وبضـمتين ، وهـو بضمتين أفصح ، وبه قـرأ السبعة قوله تعالى : « وحرمنا كل ذى ظفر » .

أو يقـال : قلمنـا أظافير الأعداء ، واحـدها أظفـور بضم الهمـــزة كأســبوع وأسابيع قال :

ما بين لقمتها الأولى اذا انحدرت
وبين أخرى تليهـا قيس أظفور

وقد يجمع الظفـر بالضم على أظفر كركن وأركن .

والأظفر الطـويل الأظفار العريضها ، كما يقال رجـل أشعر اذا كان طويل الشعر .
ويقال فلان مقلوم الظفـــر اذا كان قليل الأذى ، وفلان كليل الظفر اذا كان مهينـــا والظفر بالتحريك معناه الفوز بالمطلوب ، تقول : ظفر فلان بعـدوه ، وظفـــر عليـه ، وظفره ، كما تقول لحقـه ولحق به .

ويقال : رجل مظفر وزان معظم ، وظفر وزان طـرب ، وظفير وزان كريم ، وظفير وزان ســـكيت لمـن كان لا يحاول أمـــرا الا ظفر به وفاز .

ومن المجاز قولك : أردت كذا فظفرته وأصبتــــه ولم يفتني ، وقولك لمن لا يطلب شيئا الا أصابه وفاز به : فلان ظفر وزان فرح ، قال :

هو الظفر الميمون ان راح أو غدا
به الركب والتلعـــابة المتحبب

٥١٥ ويصفــون من استـــدفأ فيقولون : رجـــل دفيء ، وامـــرأة دفيئـة وزان كريم وكريمة .

والصـــواب أن يكون وصفها بالدفء من باب فرح فيقال : رجل دفيء ، وامرأة دفئة كفرح وفرحة أو يقال : رجل دفآن ، وامرأة دفـأى كغضبان وغضبى وعطشـــان وعطشى .

أمـا الدفء والدفيئـة فـلا يوصف بهمـا (١) الأناسى ، وانما يقال من باب ظرف دفؤ يومنـا فهـو دفء ، ودفؤت ليلتنا فهي دفيئة .

وللدفء معان عدة :

١ — فهو نتاج الابل وألبانها وما ينتفع به منهـا كمـا فى

---

(١) مما يدل على ذلك قول صاحب المصـباح : دفء البيت يدفأ من باب تعب قالوا ولا يقال فى اسم الفاعل دفء وزان كريم بل دفء وزان تعب .

قوله تعالى : « ولكم فيهـا دفء » . وفى الحــديث : « لنـا من دفئهم ما سـلموا بالميثاق » .

٢ ــ وهو السخونة اسم من دفىء الرجـل من بابى سلم وطرب دفاءة ودفأ .

٣ ــ وهو ما يستدفأ بـه من الوبر والصوف والشعر لأنه يتخـذ منهـا الأكسـية والأخبية ، تقول :

ما على فلان دفء أى ثوب يدفئه .

٤ ــ وهو العطية عـلى سبيل المجاز كما فى قولك : أدفأت فلانا ودفأته اذا أجزلت عطاءه قال :

وأعطيته دفءا كثيرا .

قال :

ودفء مـروان ودفء ابن أمه
يعيش به شرق البلاد وغـربها

٥١٦ وهم يخطئون حين يقولون : صام الولد شهر رمضان بينا أو بينما أفطر أبـوه ، وكان ينبغى لهم أن يقولوا : بينا أو بينما صام الولد شهـر رمضان أفطر أبوه ، والمعنى أفطر الأب بين أوقات صوم الولد ، وذلك لأن بينا وبينما ظرفان تجب لهما الصدارة ، وهذا هو الفرق بينهما وبين (بين) ويمكن اصـلاح عبارتهـم بأن يقال : صام الولد على حين أو فى حين أفطر أبوه . وكثـيرا ما يأتى بعدهما اذ أو اذا الفجائيتان ، فمن الاولى قـول بعض بنى عذرة :

استقدر (١) الله خيراً وارضين به
فبينما العسر اذ دارت مياسير (٢)
وبينما المرء فى الأحياء مغتبط (٣)
اذ صـار فى الرمس (٤) تعفـوه الاعاصير (٥)

(١) استقدر الله خيرا : سله ان يقدره لك

(٢) المياسير : جمع موسر وهو ضد المعسر .

(٣) مغتبط : حسن الحال مسرور .

(٤) الرمس : القبر .

(٥) تعفو الاعاصير : تذهبه الرياح الشديدة .

وفى الحديث : « بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ جاءه رجل شديد بياض الثياب » ومن الثانية قول الحرقة بنت النعمان :

بينا نسوس الناس والامر امرنا
اذا نحن فيهم سوقة نتنصف

ويرى الأصمعى أن يجر الاسم الذى يأتى بعد بينا اذا صلح موضعه بين كما فى قول الشاعر :

بينا تعنقه الكماة وروغه
يوما اتيح له جرىء سلفع

ويرى غيره رفع ما بعدها على الابتداء والخبر كما فى قول بعض بنى عذرة السابق .

وبين قد يجر وهو ظرف على سبيل الاتساع كما فى قوله تعالى : « وان خفتم شقاق بينهما » أصله وان خفتم شقاقا بينهما .

وذلك شبيه بقوله تعالى : « بل مكر الليل والنهار » اذ أصله بل مكر فى الليل والنهار .

ومن هذا أيضا قوله تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » أى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه .

وقوله سبحانه : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » أى وأصلحوا ما بينكم من الأحوال .

---

(١) نسوس الناس : نرعى شئونهم فنامرهم وننهاهم .
(٢) السوقة : الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث وقد يجمع على سوق كصرد .
(٣) التعنق : الاعتناق .
(٤) تتنصف : نخدم .
(٥) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع المدجج بالسلاح
(٦) الروغ : الذهاب يمنة ويسرة فى سرعة خادعة
(٧) اتيح له : هيىء له .
(٨) السلفع بفتحتين بينهما سكون : الشجاع الواسع الصدر .

وقول صخر أخى الخنساء :

وذى اخوة قطعت اقران بينهم
كما تركونى واحدا لا اخا ليا

٥١٧ ويقولون : هذه امرأة غيورة على شرفها ، شكورة لمن قدم لها العطاء ، فخورة بالآباء والأبناء ، صبورة على ما نزل بها من البلاء .

واختيار هذه الصفات وأمثالها مختومة بالتاء خطأ صراح ، قال ابن مالك :

ولا تلى فارقة فعولا أصلا

أى أن التاء التى تفرق بين المذكر والمؤنث لا تلى صفة بزنة فعول بمعنى فاعل والصواب أن توصف المرأة بأنها غيور ، وشكور ، وفخور ، وصبور ، بغير تاء كما يوصف المذكر .

كما انهم يجمعون هذه الصفات وما يشبهها جمع تصحيح ، فيقولون فى جمعها للمذكر هم غيورون ، وشكورون ، وفخورون ، وصبورون .

ويقولون فى جمعها للمؤنث : هن غيورات ، وشكورات ، وفخورات ، وصبورات ، وهذا خطأ أيضا .

والفصيح أن تجمع للمذكر والمؤنث جمع تكسير على فعل بضم كل من الفاء والعين فيقال : هم وهن غير على الشرف ، شكر لمن قدم العطاء ، فخر بالآباء والأبناء ، صبر على اللأواء .

٥١٨ ويقولون : لقد آخذ الرجل ابنه على كثرة لعبه وعدم اهتمامه بدروسه ، وهذا خطأ ، لأن على لا تستعمل مع هذا الفعل ، وانما تستعمل معه الباء ، فيقال آخذ الرجل ابنه بكثرة لعبه مؤاخذة ويؤيد هذا قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » وقوله : « ولو يؤاخذ الله الناس

---

(١) الأقران : الحبال واحدها قرن بفتحتين . يقال اعطاه بعيرين فى قرن او فى قران اى فى حبل يقرنان به .

بظلمهم ماترك عليها من دابة » وقوله : « لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب » وقوله : « قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » وقوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » .

وكما تستعمل الباء مع الرباعي تستعمل أيضا مع الثلاثي فيقول القائل لمن أراد أن ينصح له : لو كنت منا لأخذت بإخذنا بكسر الهمزة ، أي لأخذت بطريقتنا وشكلنا .

٥١٩ ويقولون : نبه الأستاذ تلاميذه تنبيها الى الاهتمام بكثرة الاطلاع ، وهذا الفعل لا تستعمل معه الى ، وانما له استعمالان : احدهما : أن تستعمل معه على ، فيقال : نبه الأستاذ تلاميذه على الاطلاع اذا وقفهم عليه توقيفا تستعمل معه الباء ، تقول : فتنبهوا هم عليه ، والآخر أن نبهت باسم أستاذي تنبيها اذا نوهت به ورفعت ذكره .

أما الثلاثي فتستعمل معه اللام ، تقول : سمعت كلاما فما نبهت له أي ما فطنت له ويقال : نبه فلان من باب ظرف نباهة اذا شرف واشتهر فهو نبيه ، ونابه ، ونبه بفتحتين وقوم نبه أيضا .

٥٢٠ ويقول الواحد منهم : أحب أستاذي وأحترمه ، لأنه بمثابة أبي ، يعني أن أستاذه في منزلة أبيه ومكانته .

وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن للمثابة معنيين لا يمت كل منهما بأية صلة الى المنزلة والمكانة .

أحدهما : الموضع الذي يثاب اليه ويرجع مرة بعد أخرى ، ومنه قوله تعالى : « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » ولهذا سمي البيت مثابة ، تقول : ثاب الرجل الى بيته يثوب ثوبا ثوبا من باب قال وثوبانا أيضا اذا رجع

اليه ، وثاب اليه جسمه اذا سمن بعد الهزال ، وثاب اليه ماله اذا كثر واجتمع .

ومثاب الحـوض وسطـه الذى يثـــوب اليه المـــاء ويرجع .

والآخر : الثـواب وجـزاء الطاعـة كالمثوبة ، تقـول : أثابك الله مثابة وجزاك المثوبة الحسنى .

ومن هـــذا قوله سبحانه : « ولو أنهم آمنوا واتقـوا لمثوبة من عند الله خير » .

ولتأدية المعنى الذى يريده القائل ينبغى أن يقال : أحب استاذى وأحترمه كما أحب أبى وأحترمه لأنهما يتفقـان فى كريم الخلال ، فكل منهما أريب ، حصيف ، أريحى ، بصير بكل شىء صادق الظن ، جيد الحدس .

٥٢١ ويقولون : لفلان عند جاره مظلمته وزان مـــرحمته ، والصـواب أن يقال مظلمـة بفتح الميم وكسر اللام .

قال سيبـويه : المظلمـة اسم ما أخذ منك وتطلبه عند الظالم كالظلامة بضـم الظاء والظلَمِة بفتحهـــا وفى التهذيب المظلِمة بكسر اللام كالظُلامة بضم الظاء ، وهى التى تطلبها عنـد الظالم . جمعها مظالم ، أنشـد ابن برى :

متى تجمع القلب الذكى وصارما
وأنفا حميـا تجتنبك المظالم

تقول : عند فلان ظلامتى، ومظلِمتى بكسر اللام ، أى حقى الذى ظلمته .

وأصل المظلمة والظُلامـة من الظلم ، وهو وضع الشىء فى غير موضعه ، ومن أمثال العربية فى الشبه : « من أشبه أباهفما ظلم » قال الأصمعى : ما ظلم أى ما وضـع الشبه فى غير موضعه ، وفى المثل « من استرعى الذئب فقـد ظلم » أى ظلم غنمـه ، لأنه وضع الـــرعاية فى غيـــر موضعها .

د. عباس ابو السعود

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« ما عند الله خير وابقى »

قال سليمان بن عبد الملك ، لابى حازم وكان من العلماء العاملين ، مابالنا نكره الموت ؟ قال : لانكم عمرتم دنياكم ، وخربتم اخرتكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب ، قال : فما قدومنا على الدار الآخرة ؟ قال : يختلف باختلاف العبيد ، فالعارف بالله ، المخلص لمولاه ، يكون قدومه على الدار الآخرة ، كقدوم الطفل الوحيد على امه ، يعود اليها بعد طول غياب ، واما المفرط فى جنب الله فيكون قدومه على الآخرة ، كما يقدم العبد الآبق من سيده ، يجىء اليه وهو موثق بالأغلال . قال سليمان : فما لنا عند الله ؟ قال : اعرض نفسك على كتاب الله ، قال : فى اى موضع اصيب ذلك ؟ قال : اقرا قوله تعالى : « ان الابرار لفى نعيم ، وان الفجار لفى جحيم » قال سليمان : يا اباحازم اقم عندنا فتصيب منك ، قال : اخاف ان اركن الى الذين ظلموا فتمسنى النار ، قال سليمان : خذ هذا المال ، فقال ابو حازم : مالى خير من مالكم ، قال سليمان . وما مالك ؟ قال : الثقة بالله ، والاعتماد على الله ، والرضا بما عند الله .

« خير الأمور الوسط »

سال اعرابى ابن عباس فقال : ان العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط . هل هذا موجود فى القرآن ؟ قال ابن عباس : نعم . فى اربعة مواضع ، فى قوله تعالى فى وصف بقرة قوم موسى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » اى وسط بين الكبر والصغر ، وفى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » اى فتوسط بين الأمرين ، وفى قوله تعالى : «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا » هذا السبل ، هو الوسط ، وفى قوله تعالى فى مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » .

« البادي اظلم »

التقى شداد الحارثي باسود فقال له : « لمن انت يا اسود ؟ » قال : « لسيد الحي يا اصلع ! » ، قال : « مـــــا اغضبك من الحق السبت اسود ؟ قال : « وما اغضبك انت السبت اصلع ؟ » !

« اعيـانا فرارا »

لقي ابو جعفر المنصـــور سفيان الثورى في الطـواف ، وسـفيان لا يعرفه ، فضرب بيده على عاتقـه وقال : « اتعرفني ؟ »

قال سفيان : « لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار » .

قال ابو جعفـر : « عظني ابا عبد الله »

قال سفيان : « وماذا عملت بمـا علمت ، فأعظك فيما جهلت ؟! »

قال ابو جعفر : « فما يمنعـك ان تأتينا ؟ »

قال سفيان : ان الله نهى عنكم ، فقال تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار » »

فمسح ابو جعفـــر يده بـه ، ثم التفت الى اصحابه ، وقال : « القينا الحب الى العلماء فلقطوا ، الا ما كان من سفيان ، فقد اعيـانا فرارا » .

« من اين لك هذا ؟ »

خرج عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يوما من بيته ـ فقابله ابنه عبد الله ، وكان في يده قطعة نقد برونزية ، قـال عمر ابنه من اين لك هذا ؟ وليس في جيب ابيك ولا في بيته مثله ، فقال : عبد الله : هي من ابي موسى الاشـعرى ، وكان ابو موسى في ذلك الحين ، عاملا على بيت مال المسلمين ، فأخذ عمر بيد ابنه ، وقصد ابا موسى ، وصاح قـائلا : احمقـــا أبا موسى انت اعطيت ابني هذه القطعة ، فقال ابو موسى : نعم يا امير المؤمنين ، فقال عمارغاضبا : ولماذا ؟ قال ابو موسى : احصيت مال المسلمين ، فوجدته ذهبا وفضة ، وليس فيه من البرونز سوى هذه القطعة ، فلم اشأ ان احرر بها قائمة منفردة ، فأعطيتها عبد الله ، فغضب عمـر وصاح ياأبا موسى : ابحثت في أولاد المسلمين ، فما وجد غلاما أفقر من ابن عمر ؟ اطفت في بيوت المدينة بيتا بيتا ، فما وجدت بيتا يقبـــل الحرام ويتعامل به الا بيت عمر ؟ اما وجدت في ابنـــاء المسلمين من يستحق الصدقة الا ابن عمر ؟

ثم اخذ عمر القطعة من يد ابنه ، ورمى بها الى ابي موسى ، وهـو يقول : ان الجندى في الميدان يقاتل الرومان لأحق بها يا ابا موسى .

« هب لي »

اغار قوم على طي ، فركب حاتم فرسه واخذ رمحــــه ، ونادى في عشـيرته ، ولقي القـــوم فهزمهم وتبعهم .

فقال له كبيرهم : يا حاتم هبني رمحك .

فرمى به اليه .

فقيل لحاتم : عرضت نفسك للهلاك ، ولو عطف عليك لقتلك ،

فقال : قد علمت ذلك ، ولكن ما جواب من يقول هب لى ؟

« العجلة ام الندامة »

قال بعض الحكماء : اياك والعجلة فان العرب كانت تكنيها ام الندامة ، لان صاحبها يقول قبل ان يعلم ، ويجيب قبل ان يفهم ، ويعزم قبل ان يفكر ، ويقطع قبل ان يقدر ، ويحمد قبل ان يجرب ، ويذم قبل ان يخبر ، ولن يصحب هذه الصفة احد الا صحب الندامة ، واعتزل السلامة .

« الناس ثلاثة »

قال ايوب بن القرية : الناس ثلاثة : عاقل ، واحمق ، وفاجر : فالعاقل الدين شريعته ، والحلم طبيعته ، والرأى الحسن سجيته ، ان سئل اجاب ، وان نطق اصاب ، وان سمع العلم وعى ، وان حدث روى ، واما الاحمق فان تكلم عجل ، وان حدث وهل (١) ، وان استنزل عن رأيه نزل ، فان حمل على القبيح حمل ، واما الفاجر فان ائتمنته خانك ، وان وثقت به لم يرعك ، وان استكتم لم يكتم ، وان علم لم يعلم ، وان حدث لم يفهم ، وان فقه لم يفقه .

(١) غلط ونسى .

« المزاح »

قال الحجاج بن يوسف لابن القرية : ما زالت الحكماء تكره المزاح ، وتنهى عنه ، فقال : المزاح من ادنى منزلته الى اقصاها عشرة ابواب : المزاح اوله فرح ، وآخره ترح ، المزاح نقائض السفهاء كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق ، والمزاح يبدى السرائر ، لانه يظهر المعاير ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدى الخنى ، لم يجر المزح خيرا ، وكثيرا ماجر شرا ، الغالب بالمزاح واتر ، والمغلوب به ثائر ، والمزاح يجلب الشتم صغيره والحرب كبيره ، وليس بعد الحرب الا عفو بعد قدرة .

فقال الحجاج : حسبك ، الموت خير من عفو معه قدرة .

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال : ينشق احدكم اخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، ويرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : انما كنت امزح !

وفى هذا المعنى يقول الشاعر محمود بن الحسين الوراق :

تلقى الفتى يلقى اخاه وخدنه
فى لحن منطقه بما لا يغفر
ويقول : كنت ممازحا وملاعبا
هيهات نارك فى الحشى تتسعر !
او ما علمت وكان جهلك غالبا
ان المزاح هو السباب الاصغر

المزاحة تذهب بالمهابة ، وتورث الضغينة ، الافراط فى المزاح مجون ، والاقتصاد فيه ظرف ، والتقصير عنه ندامة ، اوكد اسباب القطيعة المراء والمزاح .

وقال ابن المعتز : من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقـد عليـه .

وقال عمر بن عبد العزيز اتقوا المزاح فانه حمقـة تورث ضغينة ، وقال بعض البلغـاء : من قل عقله كثر هزله .. وقال سعيد بن العاص لابنه : اقتصد فى مزاحـك ، فان الافراط فيه يذهب البهاء ، ويجرىء عليك السفهاء ، وان التقصير فيـه يغض عنك المؤانسين ويوحش منك المصاحبين .

« اربع كلمات طيبات »

خرج الزهرى يوما من عند هشام ابن عبدالملك فقال : مارايت كاليوم ، ولا سمعت كأربع تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقـــال : يا امير المؤمنين ، احفظ عنى اربع كلمـات ، فيهن صلاح ملكك ، واستقامة رعيتك .. قال : هاتهن ! قال : لاتعدن عدة لا تثق من نفســك بانجـازها ، ولا يغرنك المرتقى وان كان سهلا اذا كان المنحدر وعرا ، واعلم ان للاعمال جزاء فاتق العـواقب ، وان للامور بغتات فكن على حذر .

قال عيسى بن داب : فحدثت بهذا الحديث الهادى وفى يده لقمة قد رفعها الى فيه فامسكها ، وقال : ويحـك اعـد علي ! فقلت : يا امـير المؤمنين ، اسغ لقمتـــك ، فقال : حديثك احب الى .

« من تواضع الرشيد »

قال ابن السماك للرشيد : يا امير المؤمنين ، تواضعك فى شرفك افضل من شرفك ، ان رجـــلا اتاه الله مالا وجمالا وحسـبا ، فواسى فى ماله وعف فى جمـــاله ، وتواضـع فى شرفه ، كتب فى ديوان الله عــز وجل .

« ثلاثة عيـــوب »

ثلاث من كن فيـه كن عليـه : البغى ، قال تعالى : « يايها الناس انما بغيكم على انفسكم » .

والمكر قال سبحانه : « ولا يحيق المكر السيء الا باهله » .

والنكث قال عزمن قائل : « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » .

« طلب الحوائج »

قال خالد بن صفوان : لا تطلبـــوا الحوائج فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير اهلها ، فان الحـوائج تطلب بالرجاء ، وتدرك بالقضاء .

وقال : مفتاح نجاح الحاجة الصبر على طول المدة ، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها ، وقد جـاء ذلك فى الشعر فقال شاعر :

انى رايت وفى الايام تجـــربة
للصبر عاقبـة محمـودة الاثر
وقل من جـد فى امر يحـاوله
فاستصحب الصبر الا فاز بالظفر

وقال حكيم : لا تطلب حاجتــك من كذاب ، فانه يقربهـا بالقــول ويبعدها بالفعل ، ولا من احمــق ، فانه يريد نفعك فيضرك .

« لا تصنع المعروف فى غير اهله »

قال بعض الحكماء : المعروف الى الكرام يعقب خيرا ، والى اللئام يعقب شرا ، ومثل ذلك مثل المطر يشرب منه الصدف فيعقب لؤلؤا ، وتشرب منه الأفاعى فيعقب سما .

وقال سفيان : وجدنا اصل كل عداوة اصطناع المعروف الى اللئام وقال أثار جماعة من الأعراب ضبعا فدخلت خباء شيخ منهم فقالوا : اخرجها ، فقال : ما كنت لافعل وقد استجارت بى فانصرفوا ، وقدكانت هزيلا ، فجعل يرعاها حتى عاشت فنام الشيخ ذات يوم فوثبت عليه فقتلته ، فقال شاعرهم فى ذلك :

ومن يصنع المعروف مع غير اهله
يلاقى الذى لاقى مجير ام عامر

اقام لها لما اناخت ببابه
لتسمن البان اللقاح الدرائر

فأسمنها حتى اذا ما تمكنت
فرته بأنياب لها واظافر

فقل لذوى المعروف هذا جزاء من
يجود باحسان الى غير شاكر

« الزمان »

قال الشيبانى : اتانا أبو ميّاس الشاعر ونحن فى جماعة ، فقال : ما انتم فيه ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده قال : كلا ، الزمان وعاء وما القى فيه من خير او شر كان على حاله ، ثم انشأ يقول :

ارى حللا تصان على رجال
واخلاقا تزال ولا تصان

يقولون الزمان به فساد
وهم فسدوا وما فسد الزمان

« عز التقوى »

لما قدم الامام الشافعى مصر ، قال له عبد الله بن الحكم : اذا اردت ان تسكن البلد ، فليكن لك قوت سنة ، ومجلس من السلطان تتعزز به .

فقال له الامام الشافعى ، ــ رضى الله عنه ــ : يا ابا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له .. ولقد ولدت بغزة ، وربيت بالحجاز ، وما عندنا قوت ليلة ، وما بتنا جياعا قط .

« دعاء »

اللهم اجزنى على حسن عبادتك ، ووفقنى لاستفتاح ابواب رحمتك .

اللهم سلمنا ولا تسلمنا ، وامنحنا ولا تمتحنا .

اللهم اجعلنا فى ضمانك وامانك واحسانك .

اللهم وفر حظى من صنعك ولطفك الخفى .

اللهم حسبى من سؤالى علمك بحالى .

اللهم اغفر لى كل ذنب ، واحفظنى من كل جنب ، وفرج عنى كل كرب .

اللهم اعنى على الموت وكربته ، والقبر وغمته والصراط وزلته ، ويوم القيامة وروعته .

عبد الحفيظ محمد عبد الحليم الخطيب

باب الفتاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : ما حكم الصوم يوم عرفة والأيام العشر من ذى الحجة ؟

ج : ذكر الشيخ سيد سابق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغب فى صوم عشر ذى الحجة وأكد على صوم يوم عرفة لغير الحجاج .

فعن أبى قتادة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صوم يوم عرفه يكفر سنتين ، ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية » رواه الجماعة الا البخارى والترمذى .

وعن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صيام عاشوراء والعشر (1) وثلاثة أيام من كل شهر والركعتين قبل الغداة » رواه أحمد والنسائى .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام هى أيام أكل وشرب » رواه الخمسة الا ابن ماجة وصححه الترمذى .

وعن أبى هريرة قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم عرفة بعرفات » رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة الا بعرفة .

---

(1) اى من ذى الحجة .

وعن أم الفضل : « انهم شكوا فى صوم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فأرسلت اليه بلبن فشرب وهو يخطب الناس بعرفة» متفق عليه : اهـ .

وجاء فى زاد المعاد : وقد ذكر لفطره بعرفة عدة حكم منها أنه أقوى على الدعاء ، ومنها أن الفطر فى السفر أفضل من فرض الصوم فكيف بنفله ، ومنها ان ذلك اليوم كان يوم جمعة .

وقد نهى عن افراده بالصوم فأحب أن يرى الناس فطره فيه تأكيدا لنهيه عن تخصيصه بالصوم وان كان صومه لكونه يوم عرفة لا يوم جمعة . وكان شيخنا رضى الله عنه يسلك مسلكا آخر وهو أنه يوم عيد لأهل عرفة لاجتماعهم فيه كاجتماع الناس يوم العيد ، وهذا الاجتماع يختص بمن فى عرفة دون أهل الآفاق . اهـ .

س : هل يحاسب الحيوان يوم القيامة ومنه ما له قسط معقول من الذكاء ؟

ج : اتفقت الرسالات السماوية على أن بعث الانسان يوم القيامة حق ، وان محاسبته على أعماله فى الدنيا حق ، ولا خلاف فيه لأحد من المؤمنين .

أما بعث الحيوانات من البهائم والطيور ، ومحاسبتها على ما ارتكبت فى دنياها فقد ذهب اليه جماعة من العلماء قرروا بعثها من قبورها يوم القيامة كالانسان ، وقرروا سؤالها عما فعلت كالانسان ، واستندوا فى بعثها الى مثل قوله تعالى فى سورة التكوير : « واذا الوحوش حشرت » (٢) وقوله تعالى فى سورة الانعام : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم الى ربهم يحشرون » (٣) .

---

(٢) الآية ٥ من سورة التكوير .
(٣) الآية ٣٨ من سورة الانعام

ويستندون فى محـاسبتها الى ما فهموه من قـوله عليه الصلاة والسلام : « لتؤدن الحقوق الى اهلهـا يوم القيـامة حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » والجماء : التى لا قرن لهـا تدفع به اعتـداء ذات القرن عليها . ويقول هؤلاء : ان الله بعد أن يحقق هذه العدالة العامة فى خلقه على هذا النحـو يقول لها : موتى فتموت ، وليس لها جنة ولا نار .

المحاسبة والمسئولية للانسان المكلف

وترى طائفة أخرى ــ ذات نظر أعمق ــ أن البعث خاص بالانسان المكلف . وأن المحاسبة والمسئولية خاصان به ، والآخرة دار جزاء ، ولا محاسبة الا حيث التكليف ، ولا تكليف لغير الثقليـن : الانس والجـن ، واذن فلا محـاسبة للحيوانات ولا بعث .

أما قوله : « واذا الوحـــوش حشرت » فالحشر ليس هو حشر الآخرة ، وانما هو جمعها لاستيلاء الرعب عليها وقت الاضطراب العام وانحلال النواميس الكونية ، وقد ذكر هذا الحشر فى حـــوادث الاضطراب التى تحــدث قبـل البعث . بدليـــل ما قبلها « اذا الشمس كورت ، واذا النجـوم انكدرت ، واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت » ، وما جـاء بعدها : « واذا البحار سجــرت » وكل هذه من حوادث الاضطراب العام الذى يقع قبل يوم القيامة .

أما البعث فقد ذكر بعد ذلك فى السورة نفسها بقـوله تعـالى : « واذا النفـــوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » الى قـوله : « علمت نفس مــا أحضرت » .

أما الحشر فى آية الأنعام فهو يرجع الى المكذبين لرسالة الرسول المذكورين قبل الآية وبعدها ، أو أن معناه : الهلاك والموت ــ وهو عام لكل المخلوقات ، ومــن ذلك قول العرب فى السنة المجـدبة : « حشرت النـــاس . يريدون : أهلكتهم » .

هذا وقــــد قال الألوسى فى تفسيره : « وليس فى الباب «يريد مسألة بعث الحيوانات » نص من كتاب أو سنة يعول عليــه ، يدل على حشر غير الثقلين من الوحوش والطيور • ثم قال : « ومن القريب جدا أن يكون الحــديث الذى ذكروه كناية عن تمام العــدل ، بدليل ما جــاء فى بعض الروايات من الاقتصاص من الحجر اذا وقع على الحجر » •

ذكاء بعض الحيوانات لا ارادة معه :

هذا ما قاله العلماء فى هــذه المسألة ، ونحن مــع أرباب الرأى الثانى ، وهــو أنه لا بعث ولا محاسبة الا على من ثبت تكليفــه لا لمن لا يفهم الشرائع والخطاب بخاصة نفسه وطبيعته ، كيف وقد خلقها الله مسخرة للانسان فيــما تنفعه من أكل وحمل وحــرث وســائر مــا يحتاج منها ؟ أمــا ما يرى من ذكاء بعض الحيوانات فهو ذكاء لا ارادة معه • ولا يعدو نواحى خاصــة لا تتصل بفهــم الخطاب ولا مقتضيــات التكليف الالهى •

س : هل لمس المــرأة ينقض الوضوء ؟

ج : يقول الله تعالى فى بيــان الطهارة التى تجب على المؤمن اذا أراد القيام الى الصلاة : « يأيهــا الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجــوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحــوا برءوسـكم وأرجلكم الى الكعبيــن • وان كنتم جنبــا فاطهروا . وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحــد منكم من الغائط او لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيــدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » (١) •

---

(١) الآية ٦ من سورة المائدة .

وفى معنى قوله تعالى : « أو لامستم النساء » فسر بعض الأئمة الملامسة فى الآية بمس اليد أو نحوها ، وعليه يكون مس المرأة ناقضا للوضوء ، وفسرها آخرون بالمخالطة الخاصة ، وعليه لا يكون المس باليد ومنه المصافحة ناقضا للوضوع هذا الذى نختاره .

أولا : لأن القرآن استعمل المس فى المخالطة « ولم يمسسنى بشر » (١) ، « ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن » (٢) . كما استعمل فيها المباشرة « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » .

والملامسة كالمباشرة والمس .

ثانيا : أنه بتفسير الملامسة بالمخالطة الخاصة تكون الآية استوعبت جميع أنواع الطهارة الواجبة بالنسبة لأسبابها : فبينت طهارة الوضوء بقوله : « فاغسلوا وجوهكم الخ » وبينت طهارة الغسل بقوله : « وان كنتم جنبا فاطهروا » .

ثم بينت الطهارة بالتيمم حين العذر عن استعمال الماء : بدلا عن الوضوء بقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » وبدلا من الغسل بقوله « أو لامستم النساء » .

ثالثا : قد صحت الأحاديث الدالة على بقاء الوضوء بعد المس باليد ونحوها .

رابعا : أن عدم نقض الوضوء بالمصافحة هو ما يقضى به اليسر الذى بنيت عليه الشريعة وختمت به آية الطهارة « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٣) .

والله أعلم

الاستاذ عبد الحميد شاهين

---

(١) الآيتان ٤٧ من سورة آل عمران ، ٢٠ من سورة مريم .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الاحزاب .

(٣) الاجابة عن السؤالين الاخيرين من فتاوى الشيخ محمود شلتوت رحمه الله.

فهـــرس العـــــدد



مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة
الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٥٠٦

الجزء العاشر ــ السنة الحادية والخمسون ــ ذو الحجة ١٣٩٩هـ ــ نوفمبر ١٩٧٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

العلامة المودودى فى ذمة الله!!

دكتور عبد الودود شلبى

تعرفت على المرحوم العلامة « أبو الأعلى المودودى » من خلال مؤلفاته التى ظهرت فى مصر مترجمة الى العربية ضمن سلسلة لجنة « الشباب المسلم » فى أواخر الأربعينيات .. كانت أول حلقة فى هذه السلسلة باسم « الدين القيم » ثم تلتها عدة رسائل أخرى عن الاسلام والاقتصاد ، والجهاد فى سبيل الله ، وعن منهج الانقلاب أو التغيير الذى يجب أن يتم فى دنيا الاسلام .

كان منهجه فى هذه الرسالة الأخيرة « منهاج الانقلاب » . ان ذلك لا يتم الا من خلال التربية الاسلامية الصحيحة .. وان الانقلاب أو التغيير بالاسلوب العسكرى المعروف فى أكثر دول العالم الثالث لا يمكن أن يبنى

أمة أو يقيم على سطح هذه الأرض بناء يتحمل أول صدمة .

فالتغيير أو الانقلاب الحقيقى يجب أن يأتى من داخل النفس .. ذلك لأن مفهوم الأمانة بمعناها الاسلامى الحقيقى ليست الا تسرق خوفا من الشرطة، بل لا تسرق خوفا من الله .

ان القوة الغاشمة لا يمكن أن تشكل فكرا يصلح للبناء .. القوة تحيل اكثر الناس الى منافقين جبناء أو تحيلهم الى يائسين يتمنون الخلاص ولو عن طريق الدماء .. وحين تصبح القوة الغاشمة أو السلطة الحاكمة سيفا مصلتا على الرقاب ويشعر المواطنون أنهم فى بلدهم غرباء .. يتحول كيان الدولة الى نسج من خيوط العنكبوت ، والى بيت من الشعر تمزقه مخالب الأخطبوط ! !..

ولقد عانينا الكثير من أهوال هذه السلطة الغاشمة فى سنوات الهوان واليأس . وكانت تجربتنا فى حرب الأيام الستة دليلا على صدق هذا المقال الذى يكتب فى جو من الأمان والحرية يختلف عما كنا عليه بالأمس .

كان هذا هو رأى «المودودى» فى منهاج الانقلاب والتغيير ، ولا زلت عند رأيه الذى يجب أن يتدبره كل مصلح أو مسلم غيور .. البناء من الداخل .. صياغة الانسان المسلم صياغة تتفق ومبادىء الاسلام فى الحياة والواقع .

وفى أوائل الستينيات .. حضر العلامة « المودودى » الى القاهرة فى رحلة استكشاف لمواقع الأحداث والقصص التى وردت فى القرآن الكريم . وقد التقيت به عرضا فى مكتبة « دار العروبة » وسلمت عليه سلاما عابرا على أمل اللقاء فى أقرب فرصة . ثم شاء الله أن يحتفل به شيخ الاسلام الأكبر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، وأن أكون ضمن من حضروا هذا اللقاء الممتع الوقور واستمتع بما دار فيه من مناقشات دينية تتسم بسعة الأفق والشمول .

وأيقنت منذ ذلك الوقت . ان العلامة « المودودى » نمط فريد

فى السلوك والفهم ، ونموذج نادر فى الثقافة وغزارة العلم .

وتعاقبت السنون سراعا بعد هذا اللقــاء .. كانت سنوات كسنى « يوسف » عاشها العالم الاسلامى فى جفاف روحى وقحط فــكرى . فقد استحال الحكم فى أكثــر بلاد الاســلام الى اداة مـــن ادوات الشيوعية التى لا ترقب فى مؤمـــن الا ولا ذمــة ، وعلقت المشــانق للمجاهــدين والشهــداء الذين تساقطوا شهيدا بعد شهيد فى حركة رفض للالحاد والهمجيـــة ، ولم يتوقف طوفان الدماء الا بعــد أن غرق « فرعون » فى جحيم الهزيمة . وانكشاف الغطــاء عــن « المسيخ الدجال » فى دنيـــا الاســـلام والعروبة .

ولقـــد التقيــت بالعلامـــة « المودودى » بعد ذلك أكثر مـــن مرة .. ففى باكستان أقمت مــدة طويلة .. وفى اول زيارة لهــــذه الدولة الاسلامية الغالية . حرصت على ركوب القطار من «كراتشى» عاصمـــة ولاية « الســنـد » الى « لاهـــور » عاصمـــة ولاية « البنجاب » . كنـــت تواقا الى رؤية باكستان من خـــلال هذه الرحلة التى استغرقت ثلاثا وعشرين ساعة .. وقبيل آذان فجــر اليوم التالى من هذه الرحلة توقف القطار فى مدينة « حيدر أباد السند » .. وفوجئت برجل يشاركنى الحجــرة الخاصة فى عــربة القطار .. ألقى التحية .. ثم جلس صامتا لا ينطق ببنت شفة .. وحين سمعت صوت الأذان يشــق أجـــواء الفضــاء والسكون فى هــذه المنطقة قمت لأتوضأ ، فاذا بالرجــل الصـــامت تنفرج أساريره ، وتعلو وجهـــه إبتسامة عريضـــة تنطق بفرحـــه وسروره .. اذن فأنت مــسلم ؛ قالها الرجل معتذرا عـــن الصمت الذى عقل لسانه عـــن الحديث ، وجعله يتحفظ معى فى الكلام خشية التورط فيما لا يليق بأحد قـــواد الجيش ! .

كان الرجــل جنرالا كبيـــرا .. وكأنما رأى فى الصـــلاة ضمانا لسره .. ومفتاحا سحريا لأســارير قلبه فصليت .. ثم صلى . وبدأ الحديث عن الوطن واللغة وماكاد

يعرف انني « أزهري » من مصر ومسلم تجيش حنـــاياه بالعاطفة الصادقة لكل المسلمين في أى قطر . حتى زال التحفـظ والصمـت . وانطلق الرجل يحدثني عن رجالات باكستان من العلماء وأئمة الفكر .

قلت له : وما رأيك في مــولانا مودودي .. ؟ قلتهـا ببساطة .. فاذا بالرجل يتحرك من مقعده ، ويقبل على بروحه وعقله وقلبه .. مــولانا مودودي .. مــولانا مودودي .. كم أتمنى أن أكـون خادما له.. ولولا الجيش وقوانينه الصارمـــة .. لجعلت من نفسى حارسا كظله .. وتابعا يسير خلفه ولا يفارقه ..!!

وهأنذا في لاهـور .. المدينـة التي اختارها « المودودي » لتكون مــركز حركته ودعوته .. في حي اجهره ICHERA وفي شـارع زيلـدار بـــارك Zaildar Park كان يقيم العالم المجـاهد في بيت متواضع لا ترى فيه أية مسحـــة للرخاء والترف .. كان يمكن أن يعيش كملك من دخل مؤلفاته على الأقل .. ولكن الرجل «القدوة» الذى قضى الكثير من عمـره في غيابة السجن ، وحكم عليه بالاعدام دفاعا على العقيدة والرأى.. هذا الرجل العظيم كان متقشفا في كل مظاهر الحياة المادية زهدا .. مقلا من رغبات النفس وتطلعاتها ورعا.. مكتفيا بالقليـل من الطعام والزاد عن قناعة ورضا .. وكأنى به يتمثل بقول « اقبال » حين يصف علماء هذا الزمان :

ما أكثرهم عند الطمع ...

قلوب خاوية من صدفة الايمان .. وعقـــول فارغة من العقـل والحكمة .

وبطون تمتلىء بملذات العيش ، وأطايب الطعام حرصا على غـريزة البقاء في دنيا الهوان والطمع .

لم تعد لهم تلك الأيادى البيضاء التي تنير للمسلمين طريق الحياة .

اسماك بركة .. وضفـــادع بئر ..

فمن لى بهذا العالم الذى يشرى نفسه ابتغاء مرضاة ربه ..

ويخرج من بيته بعد أن يكتب وصيته لأهله وولده ..

وفى شهر رمضـــان الماضى . فوجئت بزيارة مفاجئة من صفيـه وتلميذه الاستاذ خليل الحامدى ، مدير دار العــروبة للدعــوة الاسلامية .كان قادما من الولايات المتحدة بعد أن أدخل الشيخ الامام احدى المستشفيات لعلاجه . وقد حضر الاستاذ خليل الحامدى من أمريكا فى جولة قصيرة الى العالم العربى .. لم أكن أعرف سر هذه الزيارة .. ولم أفهـم لماذا ترك التلميذ الحوارى شيخــه ، حتى علمت أن العلامة المرحوم « أبو الاعلى المودودى » رفض أن يعالج على حساب الدولة أو على حساب أية هيئـة .. حتى « الجماعـة الاسلامية» التى وهبها حياته وماله ، وتبرع لها بقيمة جائــزة الملك فيصل التى منحت له . رفض أى مليم ينفق منها على علاجه ، وأصر على أن يكون هذا العلاج مــن دخل مؤلفاته .. ولكن ممن .. ؟ ان أكثر الناشرين فىالعالم العربى أثروا على حسابه .ولم يتقدم غير اثنين من هؤلاء لدفع عشر معشار ما يستحق من كتبه ومؤلفاته .. !

لقد مات الرجل .. أستغفر الله .. بل انتقـل الى مقعد صـدق .. هناك فى جنة عرضها السموات والأرض..واذا كان لـ «باكستان» مؤسسان همـا محمـد اقبـال ، ومحمد على جناح .. فان العلامة المودودى هو المؤسس الثـالث الذى اكتملت بجهـوده وجهـاده حركة التأسيس والاصلاح ..

رحمه الله رحمـــة واسعـة ، وجزاه خيــرا بما قدم لدينـــه وأمته .

عبد الودود شلبى

ابو الاعلى المودودى في سطور

ـ ولد فى مدينة أورنج اباد فى جنوبى الهند فى ٢٥ ديسمبر (كانون الأول ١٩٠٣) .

ـ فى ١٩٢٠ م توفى والده فاعتمد على نفسه .. التحق بجريدة « المدينة » الاسبوعية التى كانت تصدر من مدينة « بجنور » وبعد ذلك تولى مهام ادارة تحرير جريدة « تاج » اليومية فى مدينة « جبلبور » .

ـ فى ١٩٢١ م أصبح رئيس تحرير جريدة « مسلم » الاسبوعية التى كانت تصدر من العاصمة .

ـ فى ١٩٢٤ م التحق بجريدة « الجمعية » اليومية رئيسا لتحريرها .

ـ فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٢٦ م ، قتل مؤسس حركة اكراه المسلمين على اعتناق الديانة الهندوسية على يد شاب مسلم ، وأدى هذا الحادث الى سوء التفاهم تجاه الاسلام والمسلمين . فكتب المودودى مقالات فى موضوع « الجهاد فى الاسلام » كان لها أثرها فى تكوين أوضاع المسلمين فيما بعد .

ـ فى ١٩٣٠ م ألف كتابه المعروف « مبادىء الاسلام » .

ـ فى ١٩٣٢ م بدأ اصدار مجلة « ترجمان القرآن » الشهرية التى أصبحت الوسيلة الرئيسية لهداية وتوجيه مسلمى شبه القارة الهندية وكانت بمثابة رمز ليقظة المسلمين ومصدرا لهداية وارشاد البشرية على نطاق واسع .

ـ فى ١٩٣٨ م استجابة للدعوة الموجهة اليه من الشاعر الفيلسوف (محمد اقبال » انتقل المودودى من (حيدر آباد) الى (البنجاب) ليجعل منها منطلق رسالته فى الحياة .

ـ فى مارس (آذار) ١٩٤٠ م اتخذ حزب (الرابطة الاسلامية) قرارا باقامة دولة باكستان وشكلت لجنة لاعداد خطة للحكم الاسلامى وتم اختيار المودودى لعضوية اللجنة .

— فى ١٢ سبتمبر (أيلول) ١٩٤٠ م كان المودودى دائم الكتابة والتعريف بنظام الاسلام ، وقد حاول أن يجعل من أى تجمع أو حزب قائم داعية الى الاسلام على نمط عهود الخلفاء الراشدين ، وقد دعا المثقفين المسلمين على صفحات مجلته للتفكير فى حقيقة الدعوة الاسلامية ، وتكريس جهودهم وطاقاتهم لتنفيذ نظام الحياة فى الاسلام ليس فقط فى حياتهم الخاصة وانما فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى ، فلقى استجابة من كل أرجاء الهند وأعلن عن موعد لعقد مؤتمر واخراج برنامجه الى حيز الوجود ومن ثم نشأت (الجماعة الاسلامية) فى مدينة لاهور عام ١٩٤١ ، ووضع لها قانونا وانتخب المودودى أول رئيس للجماعة . وقد تعرضت الجماعة الاسلامية للهجوم من القوى البريطانية المسيطرة منذ أول ظهورها .

— فى ١٩٤٣ م بدأ العمل فى تفسير القرآن الكريم وأخذ ينشره فى مجلة « ترجمان القرآن » تحت عنوان « تفهم القرآن » .

— فى ١٩٤٧ بعد تقسيم الهند هاجر الى باكستان وتولى مهام رئاسة الجماعة الاسلامية فى البلد الجديد .

— فى يناير (كانون الثانى) ١٩٤٨ م بدأ مساعيه لتنفيذ النظام الاسلامى فى باكستان وقد طالب بذلك من خلال خطبه الاذاعية وكتاباته .

— فى أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٤٨ م نتيجة لمطالباته ولمعارضته ضد الحكومة ألقى القبض عليه وعلى زملائه وزج بهم فى السجن .

— فى ١٢ مارس (آذار) ١٩٤٩ م استسلاما لضغط الشعب وخوفا من المظاهرات أعلنت الحكومة عن (قرار الأهداف) الذى مهد الطريق لتنفيذ الحكم الاسلامى فى البلد .

— فى يونيو (حزيران) ١٩٥٠ ، أطلق سراحه وزملاؤه بعد حبس دام عشرين شهرا .

ــ فى ١٩٥٢ م قدم المودودى المطالبة المشهورة المحتوية على تسعة بنود لنفاذ الدستور الاسلامى •

فى ١٩٥٣ م تآمرت الحكومة ضد هذه المساعى واستغلت خصوصا مساعيه المبذولة ضد القاديانية لتحقيق أهدافها فشجعت بعض عملائها على اثارة موجات العنف وخلق جو الفوضى واعتقلت المودودى وزملاءه بتهمة اثارة العنف •

ــ ١١ مايو (أيار) ١٩٥٣ صدر الحكم باعدام المودودى فأثار هذا الحكم موجة من الاحتجاجات فى جميع أنحاء العالم الاسلامى اضطرت معه الحكومة الى تغيير حكمها الى الحبس مدى الحياة •

ــ فى ٢٩ ابريل (نيسان) ١٩٥٤ أطلق سراحه نتيجة حكم صدر من المحكمة العليا •

ــ فى مارس (آذار) ١٩٥٦ م لقيت مساعيه نجاحا جزئيا وأعلنت الحكومة دستورا شبه اسلامى وفى هذا العام سافر الى البلاد الاسلامية وناشد المسلمين من خلال خطبه الى توحيد صفوفهم والجمع بين كلمتهم ــ وبعد عودته من سفره الى الخارج وجه مطالبه الى الحكومة بأن تسعى لانشاء كتلة اسلامية •

ــ فى ٦ يناير (كانون الثانى) ١٩٦٤ م فرض الحظر على الجماعة الاسلامية وزج بالمودودى وأعضاء مجلس الشورى للجماعة فى السجن •

ــ فى ٢٥ سبتمبر (أيلول) أصدرت المحكمة العليا حكما باطلاق سراح المودودى وزملائه وسحب الحظر على الجماعة الاسلامية •

ــ فى ابريل (نيسان) ١٩٦٦ م سافر المودودى لأداء فريضة الحج والمشاركة فى جلسات رابطة العالم الاسلامى وخلال وجوده فى مكة المكرمة وزع كتيبا حول مشكلة كشمير (باللغات العربية والانجليزية والفرنسية) •

ــ فى ١٥ اكتوبر (تشرين أول) ١٩٦٦ م ألقى محاضرة حول حركة

الاتحاد بين الحكومة الاسلامية فى اجتماع عقده مؤتمر العالم الاسلامى فى مدينة لاهور .

ـ فى ١٥ ديسمبر (كانون الاول) ١٩٦٨ م أقام المسلمون البريطانيون حفلا تكريما للمودودى ألقى فيه محاضرة فى موضوع الاسلام فى مواجهة تحدى العصر الحاضر .

ـ فى ٤ مارس (آذار) ١٩٦٩ م أجرى التليفزيون الايطالى الحكومى مقابلة شخصية مع المودودى حول موضوع «الاسلام فى العالم» .

ـ فى ١٣ ـ ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٦٩ م شارك فى جلسات المجلس التأسيسى للجماعة الاسلامية فى المغرب وأسهم فى انشاء جمعية الجماعات الاسلامية كمنظمة دائمة .

ـ فى ١٩٧٢ م استقال من رياسة الجماعة الاسلامية نظرا لسوء حالته الصحية وكرس وقته فى التأليف واستمر فى تأليف تفسيره الذى استكمله فى ٧ يونيو (حزيران) من نفس العام ـ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٨ م بعد انهاء التفسير بدا العمل فى تأليف السيرة النبوية ، واستكمل المجلدين الأولين اللذين تضمنا حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى مكة .

ـ فى العام الماضى منح جائزة الملك فيصل العالمية تقديرا لجهوده وتضحياته فى خدمة الاسلام .

أبو الأعلى المودودى
ومكانته فى الدعوة الإسلامية

دكتور رءوف شلبى

منيت الدعوة الاسلامية فى القارة الهندية بعدة بلايا شاقة من أولها :

* ان الملوك الذين استقر بهم المقام فى بعض مقاطعات القارة الهندية استراحوا لما وصلوا اليه من عز وجاه فوجهوا الحكم الى صالحهم وحدهم وتركوا نشر الاسلام وسط القارة الفسيحة ؛

* وأن العلماء الذين اشتغلوا بنشر الدعوة قد تركوا تعليم القرآن الكريم وتحفيظه ، وتدريس السنة وحفظ الحديث ؛ واشتغلوا بعلم الكلام وفلسفة اليونان ، وارتبكوا فى الخلافات والخلافيات التى ازدحمت بها كتب المتأخرين من بعد السلف الصالح الرضى الذى انطلق بنشر الدعوة بالقرآن وبالحديث وبالسلوك القويم والقدوة الحسنة .

* ومن البلايا الشاقة ثانيا : انحراف الملوك الاسلاميين الى درجة تعطيل المبادىء الاسلامية ارضاء للوثنيين ، وارضاء لشهواتهم ومحاولة خلق دين جديد يواجه الاسلام ذاته ، وقد كانت هذه الحقبة المظلمة فى عهد الملك (اكبر) من ٩٦٣ هـ الى ١٠١٤ هـ .

* هذه الأحوال جعلت سير الدعوة الاسلامية مضطربا مقلقلا وعلى سنة الله دائما فى الحفاظ على دينه فقد هيأ جل جلاله الثقات من العلماء للدفاع عنه وكان فى مقدمة هذه المعركة « الشيخ احمد بن عبد الأحد الفاروقى السرهندى الملقب بمجدد الألف الثانى للهجرة وأخذ الشيخ طريق الجهاد وكان

له أثره المحمود فى ابطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية ، وعودة الملك الى حظيرة السلوك الاسلامى .

* ثم خلفه من بعده الشيخ عبد الحق الدهلوى ٩٥٨ ــ ١٠٥٢ هـ ولطف الله وقدر وهيأ الملك زيب ١٠٦٨ ــ ١١١٨ هـ الى أن يأخذ بيد الدعوة الى الامام فسار شوطا طويلا فحارب كل ما فعله جده الملك « أكبر » ولهذا فان المستشرقين عندما يكتبون عن الدعوة فى الهند يمتدحون الملك «أكبر الضلالى» الضليل الزنديق ويعرضون بالملك زيب حفيده لأنه أنهى كل خرافة ضالة ابتدعها جده الماجن .

* لقد ألغى الملك زيب المسلم العادل ما فعله جده فى البلاط الملكى من التقويم الالهى ، والرقص والاحتفال بالسنة الشمسية ، ووزن الأجساد بالذهب للأسرة المالكة .. الخ ، ومنع القمار والبغاء وحرم التنجيم والخمر و .. الخ .

* لكن بعد وفاته ضعفت الحالة الدينية وتذبذبت الأمور وحاول الهنادكة السيطرة على بلاد المسلمين فقيض الله الامام ولى الله الدهلوى ١١١٤ ــ ١١٧٦ هـ الذى حمل لواء الاصلاح ووفقه الله لوضع تصور كامل للبيئة الهندية عن الاسلام بعد اللجاج الذى أصيبت به الدعوة الاسلامية من جراء ما حدث من خرافات وخزعبلات . أدخلها المعجبون بالتصوف البراهمانى وبدع الملوك فتوجه الدهلوى الى تربية قيادة فكرية تفهم الاسلام أولا وتطبيقه ثانيا ، ثم تدعو اليه ثالثا وكان من آثاره :

أ ــ أن منبع الشريعة فى علم الحديث والفقه لا فى علم الكلام .

ب ــ أن القرآن الكريم هو الأصل الذى يعتمد عليه فى فهم الاسلام ولذا فقد وضع لهم ترجمة تقرب لهم ادراك المعانى عند تلاوته بألفاظه العربية .

حـ ـ جدد لهـم أسلوب الفقـه الحنفى بما وضعـه من كتـاب : حجة الله البالغة ، وكتاب الانصاف فى بيان سبب الاختلاف .. الخ.

د ـ بذل اقصى الجهـــد فى تعميم علوم السنة فى الهند .

هـ ـ تخريج جيل مـن العلماء الأفذاذ مثل الشاه عبدالعزيز ورفيع الدين ، والشاه عبد القادر والشاه محمد اسحق ، وحفيده اساعيل .

وقد استمرت مدرسة الدهلوى تؤدى رسالتها عن طـريق حفديه : السيد احمد ولد عرفان بن ولى الله الدهلوى .

والسيد اسماعيـل عبـد الغنى ابن ولى الله الدهلوى .

لقد قام السيد أحمد بالدعـوة داخل الهند للعـــودة الى كنف الشريعـة واجتثـاث البـــدع والمنكرات ، والانسلاخ من عادات الوثنية ومراسم الشرك والجاهلية وكان ذلك خلال الفترة من ١٢٣١/ ١٢٣٦ هـ . ثم توجه الى مقاومة السيك تلك الطائفة التى اتخذت عن طريق التصـوف المسالم الى الوحشية الكاسرة فقتلوا أطفـال المسلمين وشيوخهم وأغلقوا المساجد فى اقليم البنجـاب فدعا الشيـخ احمد الى الجهاد المقـدس ودارت معركة حامية فى جمادى الآخـرة ١٢٤٢ هـ الموافق يناير ١٨٢٧ م ، واستمرت هذه الحرب زهاء أربع سنوات استولوا فيها على مدينـة يشاور وأقاموا فيها حدود الشريعة الاسلامية ، ثم فعلت الفتنة أفاعيلها ولعبت الخيانة دورا انقلب ظهـر المجـن واستشهـــد الامامان ، الجليلان : السيـــد احمـــد بن عرفان ، والسيد اسماعيل بن عبد الغنى وذلك فى يوم الجمعـة ٢٤ من ذى القعدة ١٢٤٦ هـ .

* ولم تكن الثـــورة على الانجليـز عام ١٨٥٧ م الا نكبـة على الاهالى ولا سيما المسلمـون لأنهم طليعة الثوار ضد الاستعمار فى كل مـكان فتحـولت سياسة الانجليــز الى مـلاحقة الحـركة الاسلامية فوضعوا الفتنة بيــن المسلمين باشاعة ادعـــاءات كاذبة

وفرضوا نظاما من التعليم يختلف مع مبادىء الاسلام فوقع المسلمون بين مخالب الاستعمار الانجليزى من ناحية والجبروت الهندوكى والسيخ أو السيك من ناحية أخرى .

وفى الأفق البعيد وفى ظلال التثقيف الاستعمارى وضعف المسلمين وقلة حيلتهم ظهر السيد أحمد خان وكانت مهمته ترقيع الثقوب والتقريب بين الحكومة والمسلمين وركز فى أسلوبه على التربية والتعليم غير أنه أخطأ فى تعصبه للحضارة الغربية ومحاولته تفسير الاسلام وقضاياه على نحو يرضى عنه أصحاب العلوم الحديثة فى أوربا بينما كانت هذه العلوم فى دور النشوء والارتقاء . ولذا فقد أصاب هذه الحركة ضعف .

وضعف حركة السيد أحمد خان يرجع الى افتتانها بأوربا فلم يستطع أن يملأ الفراغ الهائل فى قيادة الدعوة الاسلامية . ولكن كان له ثمار على كل حال .

ومن ثمار جهاده كلية عليكرة التى تأسست عام ١٢٩٣ هـ ، وصارت الآن جامعة مشهورة فى الهند .

* وفى المواجهة حيث لم يقبل العلماء أسلوب أحمد خان فقد قامت مدارس اسلامية ترفض الحضارة الاوربية ولا تثق فيها وفى مقدمة هذه الحركة حركة السيد أكبر حسين ذلك العابد الورع ١٢٦٢ / ١٣٤٠ هـ ، وكذلك كان فى المواجهة تأسيس مدارس « ديوبند » التى حافظت على التعليم الاسلامى بصورته الأثرية القديمة فحدث بين الفكرتين الاسلاميتين فى النزعة جدل وخصام وافتراق فأثر ذلك فى حياة الدعوة الاسلامية من جديد .. فكان لا بد لها من قائد وخطة وتفكير جديد فتكونت ندوة العلماء لمحاولة التخلص من الصراع بين التعصب للحضارة الأوربية المحضة ، والتعصب للأسلوب الأثرى فى التعليم الاسلامى ، فأخذت بكلا النظامين ورفعت

قدوة العلماء راية الوئام بين الطوائف الاسلامية ودعت الى الاستمساك بتوجيه الله ورسالة خاتم الأنبياء ومضاعفة الجهود لاصلاح ذات بين المسلمين ، واستمرت الحال هكذا الى العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجرى ذلك القرن الذى شهد انفجارات عديدة فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى وبخاصة فى شمال أفريقيا الاسلامى فقامت فى الهند عدة مظاهرات اسلامية تساند الاخوة المسلمين فى العالم العربى ولكن بعد الحرب العالمية الأولى تجزأت البلاد الاسلامية بعد الغاء الخلافة الاسلامية ونقضت بريطانيا عهودها فقامت فى الهند حركة اسلامية عنيفة قادها المفكر الاسلامى محمد اقبال وملخص الحركة : الاعتزاز بالاسلام دينا ، والاستمساك بالتراث الاسلامى حضارة ومقاومة القاديانية الضالة وكان مع هذا الرائد المخلص رواد آخرون منهم مولانا محمد على .. وظلت الحركة الاسلامية السياسية تعمل لمساندة مسلمى طرابلس الغرب ومواساة منكوبى البلقان ومؤازرة بقاء الخلافة الاسلامية ولكن بالغاء الخلافة الاسلامية تبدلت الأحوال وصارت الأهوال تهدد الحياة الاسلامية فتحول ملك الافغان الى مراقص أوربا ، كما تحول أتاتورك كذلك الى باراتها وقبعاتها وظهر فى الهند نغم منكرى الحديث الشريف .. فأدى ذلك الى استعار المعركة حتى ظهرت دعوة اسلامية خالصة عام ١٣٥٢ هـ ١٩٢٣ م قام بها رجل مؤمن عالم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مطلع على ملابسات عصره عارف بنزعات قومه بصير بأساليب عمل الدعوة ذلكم هو الامام العارف بالله الزاهد المجاهد التقى الطاهر النقى مولانا أبو الأعلى المودودى رحمه الله رحمة واسعة وقد أخذت دعوته هذه عدة مراحل :

المرحلة الأولى : ١٣٥٢ هـ / ١٣٦٠ هـ ـ ١٩٣٣ م / ١٩٤١ م .
توضيح الحقيقة الاسلامية

فى هذه المرحلة عنى الاستاذ الامام أبو الأعلى المودودى بتكوين الفكرة الصادقة السليمة للاسلام ونظمه ، واهتم فى السنى الأولى من بدء مهمته بتنقية الفكرة الاسلامية من شوائب الآراء الزائفة والنزعات الجائحة ، وكشف عن مواطن الضعف وسوء القصد فى التصورات المنحرفة التى تدعى نسبتها الى الفكرة الاسلامية .

وفى هذه الفترة انقطع فيها للتحصيل والمطالعة والكتابة وثابر الليل والنهار على اعتكافه وهو يجهد نفسه للقيام بحركة شاملة لاحياء الروح الاسلامى فى أرض وطنه ، وأسس لهذا الغرض مجلة « ترجمان القرآن » وفى هذه المجلة كشف للمسلمين الدور الخطير الذى يقوم به حزب المؤتمر الوطنى الهندى للقضاء على الاسلام والمسلمين . واستمر عرضه للموضوع زهاء ثلاثة أعوام استعرض فيها :

أ ـ تاريخ المسلمين فى القارة الهندية ، وبين مواطن الضعف فيما سلف من العمر والسياسة التى أدت الى الانحطاط ثم حمل فى نهاية هذا الشوط على لادينية حزب المؤتمر الوطنى الهندى .

ب ـ فضيحة القومية الهندية والجمهورية اللادينية وخطورتها على الحركة الاسلامية وعلى وجود المسلمين فى القارة الهندية ، وان المسلمين اذا وافقوا على هذا سيكونون كمن حكم على نفسه بالاعدام ، وأبان عن دور الاستعمار الانجليزى فى هذا المخطط .. وبهذا اتضحت شخصية الرابطة الاسلامية لمسلمى الهند وارتفع شأنها واشتد ساعدها .

حـ ـ أدان الفهم العنصرى فى الرابطة الاسلامية لأنه كان يعلم أن أصحاب هذا الصوت يختفون وراء الأسلام ليبرروا مخططهم العلمانى الغربى فشرح للأمة المسلمة فى الهند فى سيل من مقالاته أن نعرة القومية الاقليمية منهج غربى وأن المستترين وراء الاسلام يفضحهم

التبرج الذى يرى فى مجالسهم والاباحية التى تتفشى فى صفوفهم، أما الدولة الاسلامية التى يراد بناؤها فليس سبيلها الدعوة الى العنصرية لأن الاسلام لا يعرف مثل هذا المبدأ أو مثل هذه الروح .

ولأن قيام دولة عنصرية سوف تقضى عليه الهندوكية التى تناصف المسلمين فى عدد السكان فى الاقاليم المزمع جعلها دولة اسلامية عنصريةومنذ نشأتها سوف تتلاطمها أمواج الفتن ويعود المسلمون الى المسكنة والضعف والغربة داخل دولة تحمل اسم الاسلام وهى ليست من الاسلام فى شىء .

ولهذا الدور أهمية فى ابراز فكرة الامام الشيخ أبو الأعلى المودودى فى دعوته العامة الى التحرر من قيود القومية ، والعنصرية فان الاسلام لم ينتشر بقوم ولا بأهل وطن وانما نشر بالعلم والتقوى والقدوة الصالحة والعلم النافع والبراهين الساطعة والحجج القوية ، ووضحت فكرة المودودى : أن المسلمين ليسوا أمة فحسب مثل سائر الأمم مثل ألمانيا ، وانجلترا ، والهنود ، بل هم خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله فهم بهذا لهم صلة باللهورسوله وبالقرآن ، لا بالقومية ولا بالوطنية ولا بالعربية والاقليمية لأن العدل لا يعرف نزعة معينة ولا أرضا معينة ولا نسبا معينا وانما العدل الذى ينشده الاسلام يعرف المصدر الأعلى والوحى المعصوم ، والنبوة الخاتمة .

وانتهى دور هذا البنيان للفكرة الاسلامية التى قام بالدعوة اليها الامام الراحل المودودى فى عام ١٩٣٩ م .

❊ وكان الشيخ أبو الأعلى المودودى يهدف الى استمرار كفاح المسلمين فى الهند كلها دون فصل جزء منها لبناء دولة مستقلة .. وقد بينت الأحداث صدق رأيه.. ولكن المغالين فى فهم القوميات وصفوا الاسلام بأنه قومية فى

مواجهة الهندية واتخذوا من باكستان مقرا للقومية الاسلامية وكان ذلك شعورا فياضا فى نفوس الأغلبية الساحقة للمسلمين .. فوجد المودودى نفسه أمام أمرين كلاهما أمر من الآخر :

الأول : اذا خسر المسلمون دعاة القومية ولم يحصلوا على دولة اسلامية مستقلة فقد خسرت الامة الاسلامية كلها وضاع الكفاح هباء وتعقدت الامور وانتحرت الامة الاسلامية لأنها ستكون قومية منهزمة أمام قومية منتصرة ؟ .

الثانى : اذا نجح المسلمون فى اقامة دولة وانقسمت البلاد فماذا يبقى لنا من وسع وأسلوب لنشر تعاليم الاسلام وسط القارة الهندية والتى سوف تتميز فيها القوميتان : كل قومية فى دولة فما سبيلنا الى نشر الاسلام داخل دولة الهند ؟

بل اذا تأسست باكستان كدولة اسلامية تحت زعامة ذلك الصنف العلمانى فما هو السبيل يومئذ لتحويلها الى دولة اسلامية حقيقية ؟

ومن هنا برزت فكرة الجماعة الاسلامية وفى شهر شعبان ١٣٦٠هـ أغسطس ١٩٤١ م اجتمع خمسة وسبعون رجلا من مختلف أنحاء الأمة واتفقت كلمتهم على تأسيس الجماعة الاسلامية للنهوض بدعوة الاسلام واعلاء كلمة الله فى أرضه ، وانتخب السيد الامام أبو الأعلى المودودى أميرا لهذه الجماعة .

المرحلة الثانية : ١٣٦٠هـ/١٣٦٦هـ ـ ١٩٤١ م / ١٩٤٧ م .

بناء الجماعة الاسلامية :

يعتبر قيام الجماعة الاسلامية أول طريق المرحلة الثانية من كفاح الشيخ المودودى فقد شرعت الجماعة فى أداء مهمتها نحو تربية جيل من الشبان والأساتذة فى الجامعات تتعلق بمحاسن الاسلام وامتيازاته بأسلوب عصرى يتلاءم مع الذوق العام لهذه الطائفة من الناس كما عنيت الجماعة بتربية أعضائها الذين ينضمون اليها وتنشئتهم على الأخلاق الحميدة الفاضلة والسجايا الكريمة والطباع النبيلة ، وكان الاتباع لهذه الجماعة ينقسمون الى قسمين :

ـ عضو ركن : وهو من يقبـل تعاليم الجماعة نظريا وعمليا .

ـ عضو متفــق أو أنصار : وهو من يقبـــل تعاليم الجماعـة ويساعدها نظـريا ولا يطبقهـــا عمليا .

وقد اتخذت الجماعة لهـــذه التربية أماكن خاصة سمحت لهـم بحرية النقد من أجل البناء الوجدانى للفرد المسلم وعـودتهم على تطبيق النظام الاسلامى من الآداب الفاضلة والأخلاق الحميدة ، وعلمتهـــم أسلوب تبليغ الدعوة .

فكان على كل عضو :

أ ـ أن يعرض تفاصيل الدعوة الى الله على كل مـــن يلوذ به من المسلمين وغير المسلمين .

ب ـ وان يواظـــب على نشر تعاليم الاسلام بواسطة الدراسـة والمطالعة والاخـلاق وحسن المنطق وتحمل الأذى ودعوة الناس كافـة الى خيرها والرشاد اليها .

حـ ـ أن يتحلى كل عضـــو بصفات المسلم الصـادق ويروض نفسه على الاستمساك بهـــا فى المنشط والمكره .

د ـ المحافظة على نظام الجماعة وادراك أنها قامت من أجـل احياء الدين نظاما كاملا شاملا .

المرحلة الثالثة : ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م

فى لحظة بناء الجماعة الاسلامية لجيل من الشباب الاسلامى فوجئت بالحدث الخطير وهو فصل باكستان واعـــلان أنها دولة للمسلميـن ولسوف يكون المسلمون آنذاك فى العالم كله قد هللوا وكبروا لهذا الحدث ولكن الآلام التى صاحبته وقتل آلاف المسلميـــن وسوقهم ســوقا الى الدمـار ليخـرجوا من الهند لا الى باكستـــان بل الى الموت والتشرد والجـــوع كانت صورة رهيبة قابلها زعمـــاء تلك السياسة بالبرود الانجليزى الذى مهد لكل هذه الاحـداث ليخرج الاسلام من القارة الهندية ، وليسام المسلمـون الخســف فى دولة باكستان تحت زعامة علمانية لاتقل فى كراهيتها للاسلام عن زعمـاء الهندوكية والاستعمار أنفسهم ..

وهذا هو الذى حذر منه الامام الراحل أبو الاعلى المودودى فى المرحلة الأولى من كفاحه وهو يوضح للمسلمين الحقيقة الاسلامية .

فوجئت الجماعة الاسلامية بهذا الحدث وهى بعد لما تستكمل برامج تربيتها .. وكانت تتمنى أن لو تأخر هذا الحدث بضع سنوات. لتستطيع الجماعة مواجهته وتحويل الزعامة فى الدولة الجديدة الى حقيقة الاسلام .

فوجئت الجماعة الاسلامية بهذا الحدث الذى فصلها الى شطرين بعد قيام دولة باكستان فلم تعد الجماعة واحدة لكل القارة الهندية بل صار شطرها فى الهند لمن بقى من المستضعفين من مسلمى الهند ، وشطرها الآخر فى باكستان يواجه جحافل الظلم وعقابيل المشكلات .

وكان امتحانا قاسيا للجماعة الاسلامية فى كلا الشطرين :

* أما فى هندوستان فقد نظمت الجماعة نفسها بسرعة وأسسوا مركزهم فى مدينة (رامبور) وانتخبوا الاستاذ أبا الليث الندوى أميرا لهم ، وقدموا خدمات للمنكوبين من الامة الاسلامية حتى أرهقوا ماليا وصحيا ، وحتى ان تاريخ الجماعة الحديث ليشهد لأمير الجماعة أبى الليث الندوى وأصحابه انهم كانوا السلوى الوحيدة للشعب المسلم فى الهند المضطهد من بنى جنسه وجيش الاستعمار على السواء .. وكان عدد الجماعة الاسلامية فى الهند آنذاك ٢٤٠ شخصا رجلا وامرأة .

* وأما الجماعة فى باكستان فقد شمرت عن سواعد الجد وأعلنت الكفاح وعمت الدعوة الى الامة كلها ودعت الى احياء النظام الاسلامى واقامة الدين بالكامل ووضحت للأمة عدة امور :

الأول : أن المجتمع الباكستانى على قدر ما به من شوق لاحياء النظام الاسلامى فان زعماء هذه الحركة لم يعرفوا عن حقيقة الاسلام شيئا لأن زعماء الحركة انشغلوا فى المناوشات السياسية

مع الهنـادك لفصل باكستان ولم يشغلوا أنفسهم بمعرفة حقيقـة النظام الاسلامى ، وكذلك أبناء الشعب نفسـه انشغلوا بالحياة وبالعمل السياسى ولم يفطنوا الى معنى اقامة دولة اسلامية .

الثانى : ان سلوك قادة الدولة الجديدة لا يتفق مع الاسـلام لأنهم أوربيون فى النـزعة والأخـلاق والسلوك .

الثالث : ان تصرفات القادة مع اللاجئين المسلمين كانت خارجة على المشاعر الكريمة فقد فشـت فيهـم الرشوة لحظة الجفاء والقسوة التى كان يعيشها المهاجرون وفى مواجهة البنادق والسيوف المصلتة عليهـم من قبل الهنادك والسيك .

الرابع : أن نهب الأموال وهتك الأعراض من ساعة الهجرة من الهند الى باكستان قد خلف شعبا فقيرا معدما بائسا حزينا .

أخذت الجماعة تعمل على معالجة كل هذه الامور ، وتخفف مـن ويلات العوز والفاقة وتبصر الناس بعواقب الأمور ، وراحت تجـوب البلاد فى باكسـتان شرقا وغربا تحمـل دعـوة الله الى النـاس وتبصرهم بشئون دينهـم ودنياهم عن طريق النشر والمحاضرة والدرس والندوة والـزيارة وكان ذلك فى عام ١٩٤٨ م وكان عـدد أعضاء الجماعـة ٣٣٥ شخصـا ثم نشرت الجماعة بيانهـا الذى طالبت فيـه الحكومة باقامة النظام الاسلامى ، وقد أعلن هـذه المطالب الامـام الراحل الشيخ المودودى فى كلية الحقوق بلاهور فى ١٩ فبراير سنة ١٩٤٨ وهى عبـارة عـن أربـع نقاط :

١ ــ أن الحاكمية فى باكستان لله العلى الأحد .

٢ ــ ان الشريعة الاسلامية هى القانون الأساسى لباكستان .

٣ ــ يلغى كل مـا يعـارض الشريعة الاسلامية من قوانين .

٤ ــ لا تتصرف حكومة باكستان فى شئون الـدولة الا فى اطار الحـدود التى رسمتها الشريعـة الاسلامية .

وتلقت الامة الاسلامية هذه المطالب بالقبول والترحاب وتناولوها بالمحاضرات والندوات والحفلات والمقالات .

وأحس العلمانيون تلاميذ الاستعمار الانجليزى بخطورة المطالب فعمدوا الى الأسلوب الانجليزى فى مواجهة الأمور وذلك بدس اشاعات كاذبة فأشاعوا أن المودودى يقول بعدم مشروعية الجهاد فى كشمير .. ليحولوا حماس الجماهيرنحو مسألة خارجة عن المطالب الأربعة .. واعتقلت السلطات العلمانية الامام الراحل الشيخ أبو الأعلى المودودى وبعض أفراد الجماعة وذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٨ م وعطلت صحف الجماعة بل والمجلات الأخرى التى تساعدها وتسير فى خطها الاسلامى .. ولم يفت ذلك فى عضد الجماعة ولا الشعب المسلم فى باكستان فارتجت المدن ارتجاجا لهذا الصنيع وقامت المظاهرات فى شتى انحاء البلاد حتى اضطرت الجمعية التأسيسية فى مارس ١٩٤٩ الى اعلان قرار تاريخى عرف بقرار المبادىء .

وقد أعلن فى هذا القرار : أن الحكم فى هذا الكون لله وحده وأن الدولة مسئولة عن وضع دستور يؤهل به المسلمون لأن ينظموا حياتهم الفردية والجماعية حسب تعاليم الاسلام .

وقد أقر المودودى وهو فى السجن هذا البيان غير أن العلمانيين فى السياسة يأخذون الاسلام كمهدىء للاعصاب ومسكن للفورات فاذا ما سكن الشعب وهدأ نام كل شىء فلقد نام ذلك القرار .. وراحت الحكومة فى باكستان تستخدم قانون ١٩٣٥ الهندى الانجليزى النزعة والنظام. فبدأت المعركة من جديد واستمرت المعركة من حالة الى حالة الى أن جاء الحاكم المعاصر القائم على شأن باكستان ضياء الحق وأعلن أنه يريد اقامة الحكم الاسلامى فى باكستان .

ونعود فنقول ان حركة الجماعة الاسلامية تسعى الى :

١ ـ أن تقـــوم الدولة على أسس اســـلامية وأن تحمى من هجمات التيارات المعادية للاسلام.

٢ ـ أن تبذل الجهود لاصلاح شأن المجتمع ورقيه الخلقى والعقلى والاجتماعى .

٣ ـ ألا يعود نظام جاهلى الى الدولة بأسلوب أو بآخر .

٤ ـ أن تستبدل زعامة راشدة بالزعامة الحاضرة الفاسدة .

لقد كان المودودى رحمه الله أمة فى التفكر ، والعمل ، والدعوة ، والجهاد وقد لقى من خالص عمـله ما يلقاه المجاهدون من صبر عـلى البلاء وشكر يرطب اللسان ، وعلم ينفع العباد ، وقلب مطمئـن سليم يلقى به ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

قيمة المودودى فى نظر العلماء :

قال الشيخ الندوى :

« للأستاذ أبو الأعلى المودودى صفات عديدة ترشحــه للزعامــة الفكرية فى شبه قارة الهند منها : صفاء الفكر ، والاطلاع على مناهج الفكر الحديثة والثقة بفضل التعاليم الاسلامية ، وجـدارتهــا للبقاء والانتشار ، والاعتـــداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعـــة والقلم البليغ السيال والأسلوب القوى الدافق وقد كان لبحوثه العلمية الأولى التى كتبها فى الهند التى كان يتكلم فيها عـن مستوى عال وقوة وثقة ، ولمقالاته ورسائله دوى عظيم فى الأوساط الاسلامية التى كانت تعانى قلقـا فكريا وجلبت اليه عددا وجيها من عشاق الفكرة الاسلامية وهــواة المجد الاسلامى » .

هذا رأى عالم فذ من الأفـذاذ فى الدين والعلم والدعـوة هــو الشيخ أبو الحســن على الحسينى النــدوى وهى شهادة يعتز بهـا العاملون فى حقل الدعوة الاسلامية لأنها تبرز مكان الامام الراحـل الشيخ المودودى انه قائد فكـرى اسلامى ، ورائد اجتمـاعى مسلم ومصلح اسلامى كبيـر ، وسياسى بارع فى ادراك الاحداث وعواقب الامور .

الانتاج العلمى للمودودى :

تكاد البلاد الاسلامية كلها تكون قد عرفت الثروة الحية الممتعة التى خلفها الامام الراحل فهى تعطر مكتبة كثير من شبان العالم الاسلامى التى حرص على طباعتها ونشرها وقراءتها ومن انتاجه العلمى :

١ ــ تفسير سورة النور .
٢ ــ الحجاب .
٣ ــ الربا .
٤ ــ الجهاد .
٥ ــ الاسلام والجاهلية .
٦ ــ مبادىء الاسلام .
٧ ــ الدين القيم .
٨ ــ نظرية الاسلام السياسية.
٩ ــ معضلات الاقتصاد وحلها.
١٠ ــ المسألة القاديانية .
١١ ــ نحو دستور اسلامى .
١٢ ــ دور الطلبة فى مستقبل العالم الاسلامى .
١٣ ــ منهج الانقلاب الاسلامى .
١٤ ــ المصطلحات الأربعة فى القرآن الكريم .
١٥ ــ نظرية الاسلام الخلقية .
١٦ ــ نظام الحياة فى الاسلام.
١٧ ــ الأسس الأخلاقية للحركة الاسلامية .
١٨ ــ واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم .
١٩ ــ مسألة ملكية الأرض فى الاسلام .
٢٠ ــ المسلمون ومعضلات السياسة الحاضرة .
٢١ ــ التفهيمات .
٢٢ ــ التنقيحات .
٢٣ ــ الخطب .
٢٤ ــ القانون الاسلامى .
٢٥ ــ شهادة حق .
٢٦ ــ الحضارة الاسلامية ومبادؤها .
٢٧ ــ تحديد النسل .

لقد كان المودودى رحمه الله ورضى الله عنه ثالث ثلاثة هم غرة القرن الرابع عشر الهجرى جعلهم الله فيه حماية للفكرة الاسلامية من

الضياع ، وغوثا للأمــة الاسلامية عندما يتكاكأ الظلم عليها ، ونبراسا للشباب عندما يكون الليل حالكا . وهؤلاء الثلاثة هم :

* الشيخ حسن البــنا : الذى بدأ فى ايقاظ الأمة الاسلامية نحو الوحدة وفض الخلافات ، ومحاربة الاستعمار ، وعمــل على اعــادة الخلافة الاسلامية .

* الشيخ عبد الحليم محمود : الذى وضع الأزهــر على طــريق الرسالة فنشر المعاهـــد ، ووســع جامعة الأزهــر ، ووجــه السلوك والأخلاق فى لحظة النكســة الى الطريق المستقيم .

* الشيخ أبو الأعلى المودودى : الذى عمر ديار مــا وراء النهــر بالحقيقة الاسلامية ، وبناء الدولة الاســـلامية . وراد الشباب الى طريق قويم .

* ان هؤلاء الثلاثة هم أعــلام على طريق الكفاح للدعاة من علمهم الذى اتفقوا عليه يستقى المخلصون شرابا طهــورا للفهـــم والورع والتقوى ومـــن كفاحهـم المستقيم يرسمون خطى الجهاد الصحيح ، ومن سيرتهم العطــرة يستنشقــون عطر الصلاح ورائحة الجنة .

ألا ففى ذمة الله يا شيخنا وعنـــد مليك مقتدر مقعــدك الى يوم أن تبعث مــرضيا عنـــك مع النبيـــين والصـــديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك لك ولأمثالك رفيقا .

دكتور رؤوف شلبى

« الدنيا دار بلاء ، ومنزل قلعة وعناء ، أسعد النـــاس فيها ارغبهم عنها واشقاهم بها ارغبهم فيها ، فهى الغاشـــة لمن انتصحها ، المهلكة لمن اطمأن اليها ، طوبى لعبد اطاع فيها ربه ، ونصح نفســه ، وقدم توبته ، وأخر شهوته » .

(على بن ابى طالب)

في مواجهة الإلحاد المعاصر :

عدم كفاية العلم في مجال المعرفة

للدكتور يحيى هاشم

(٤)

عجز العلم عن ادراك أصل الوجود وغايته ..

يرى هربرت سبنسر اننا نعجز عن تصور ارتقاء المادة سلم التطور العام لو اننا ذهبنا الى أنها وجدت ابتداء في حالة الانتشار العام .

(فاذا وجهنا أبصارنا نحو المستقبل فلن نعرف كيف نعين تتابع الظواهر التي تجرى أمامنا ..

ومن جهة أخرى :

اذا نظر الانسان في نفسه وجد أن طرفي الشعور – بدايته ونهايته – يخرجان عن امكان ادراكه لهما .. فهو لا يستطيع أن يدرك بداية حالة من حالات الشعور الا بعد حريانها .

وكذلك يفوته ادراك تلاشي الشعور ..

فجوهر الأشياء وتكونها ونهايتها خافية علينا ، وينتهي سائر علمنا الى الغيب) . (١) .

ويقول أميل بوترو :

(مهما نفترض امتداد التجربة فانها لا يمكن أن تبلغ الأصول الأولى ولا الغايات الأخيرة .

فهي لا تستطيع قط ولن تستطيع أبدا أن تبلغ في الزمان ظاهرة أولى أو أخيرة .

---

(١) العلم والدين ص ٧٦

والمسألة هي معرفة الى أي حد يكفي التتابع الدائم الداخل في مدى التجربة في تفسير ظهور الظواهر .

فالكائن لا يجرى تبعا لقوانين الا لوجود طبيعة معينة فيه .

فما هي هذه الطبيعة ؟

أهي ثابتة ...؟

ولم كانت محددة على هذا النحو أو ذاك ؟

وبأي شيء سابق نصلها لنعطى عنها تفسيرا تجريبيا ؟

هذه الأسئلة تنطوى بالنسبة للعلم على حلقة مفرغة .

ولذلك كانت — بالضرورة — مما يتجاوز العلم .

فالتجربة تقرر القوانين أو العلاقات الدائمة بين الظواهر .

ولكن ليس للتجربة سبيل الى معرفة : أهذه القوانين مجرد وقائع ، أم انها ترتبط بطبيعة ما ثابتة تهيمن على الوقائع) . [1]

وبهذا ينهدم تماما كل سند علمي للمادية في ادعائها بأن المادة أصل الوجود .

ويقول الأستاذ ليكونت دى نوى — رئيس قسم الفلسفة بالسوربون ، ورئيس قسم الفيزياء في معهد باستور — في تحليله لفكرة السبب من وجهة نظر العلم — وضرورة رجوعها الى السبب الأول :

(لنأخذ رصاصة البندقية مثالا على ذلك :

فهل تقول : ان انطلاقة الرصاصة قد تسبب عن الكبسولة ؟

أو عن حركة يد الجندى التي ضغطت على الزناد ، أو عن شحنة البارود التي تحملها الرصاصة ؟ أو عن العمال الذين صنعوا المسحوق ، أو المهندسين الكيمائيين الذين اخترعوه ، أو البنائين الذين شيدوا المصنع ؟ أو أصحاب رءوس الأموال الذين مولوا بناءه ، أو آبائهم أو أجدادهم ؟

(١) العلم والدين ص ١٨٦ : ١٩٠ .

ان كلا من هـؤلاء وجميع من ساهم فى بناء المدفع يتحمـل جزءا من المسئولية تقل بالتـدريج دون أن تتلاشى كليـة الى أن نصـل الى ...

بداية العالم

وهكذا نصل بصورة آلية الى السبب الأول .

وتنتقل المسألة فجأة ــ ولا بد من أن تنتقل ــ من العالم المادى الى العالم العقائدى الفلسفى .

وليس من الممكن تجنب الانتقال من العـالم المادى الى العـالم غير المـادى عنـد بحث « الأسباب » لأنه يجب أن نشير الى : الأسباب النفسـية التى قـادت الى صـنع البندقية ، والبـارود الى اطـلاق النـار ، فلولا هـذه الأسباب لما كانت هنـاك قذائف ولا مـدافع ولا شـحنات ولا كبســـول ، ولا مطلقون ، ولا مجهود يتواصل ويترابط بقصد اطلاق الرصاص .

فمن الوجهة المادية البحتة نجد أنفسنا مضـطرين الى أن نرجـع السببية الى مجرد الوجود ــ فكل حادثة تحدث أو يجـرى التفكير فيها وتجـرى قبـل حادثة أخرى يمـكن أن تكون سببا وليس فى المسألة أكثر من تتابع فى الزمن .

اننا لا نستطيع عندئذ أن نبحث عن سبب ابتـدائى ما لم نتـرك مجـال العلم وندخـل فى عـالم العقائد) . (١) .

ووجود السبب الكافى ــ أو العلة التـامة ــ هـو وحـده الذى يجوز ــ بـل ينبغى ــ التـوقف عنده ، لأنه هو الضرورة المطلقـة لوجود الأشياء ، وهو « علة كونها ما هى وأساسه ــ كما نجـد ذلك فى الأشكال الهنـدسية ــ فينبغى ضرورة ــ اذن ــ أن نتوقف عنـد هذا الأساس وهـذه العلة ، أمـا السؤال عما هى علة العلة التى هى أقصى العللجميعا فمتناقض » (٢).

لكن البحث فى ذلك ــ أى فى العلة التامة ــ يخرج عن نطـاق

(١) مصير البشرية لـ لبكونت دى نوى

(٢) نظر سلسلة الوجود لارثر لفجوى مقتبسا ذلك من احد كتاب القرن الثامن عشر ص ٢٣٠

العـلم كمـا قلنـا ، ونظرا لأن سـاسرة الالحـاد العـلمى سجنوا أنفسهم فى هـذا النطـاق ، فقـد وجـدوا أنفسهم أمـام أمرين فى كليهما خـروج عن نطاق العلم ، القـول بوجـود هـذه العـلة ، أو القاء الأمر على عاتق الصدفة ، فاختـاروا الأمر الذى يتفـق مع « ارادة الالحـاد » وان رغم أنف العـلم : اختـاروا القـول « بالصـدفة » .

(٥)

عجز العـلم الالحـادى عن تجنب القول بالمصادفة :

من المحتم أن يلجأ الملحـدون العلميون ـ نتيجة لعجزهم ... الى القول بالصدفة رغم مناقضتها لأسسهم العلمية .

وما ذلك الا لكراهتهم للقـول بالارادة الالهية ..

وهى كراهة لا ترجع الى منطق أو علم ، وانما هى تقـوم بالرغم من المنطق وبالرغم من العلم .

ان الصدفة لا محـل لهـا فى التفكير العلمى أساسا :

يقول الدكتور ايزنك :

(ان العـالم ـ سـواء كان فيزيائيـا ، أو بيولوجيـا أو سيكولوجيا ـ يجب أن ينطلق فى دراسـاته من افتـراض أن ما يدرسه محتوم وخاضع للقانون العلمى . وان افتراضاته الأساسية تهزم بقدر ما يفشل فى اقامة هـذه القوانين) . (١)

ومع ذلك فان الالحـاد المتشح برداء العلم اذا اضطر الى القـول بالارادة الالهية لا يجد مهربا الا فى القول بالصدفة .

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر :

(اذا سألتهم أو تساءلت كيف وجد ذلك السديم أصلا ؟

وأية قوة حركته ..؟

وما الذى أحكم تلك التغايرات بحيث انتهـت بذلك النظـام البديع ..؟

---

١) الحقيقة والـوهم فى علم النفس للدكتور ايزنك ص ٢٨٤ .

لم يجدوا مخـرجا الا بالركون الى القول (بالمصادفة) (١) .

ان العلم الحـديث يضطـر الى القول بالمصادفة فى أخطر المسائل ، ومن أخطرها ظهور الحياة .

وظهور الانسان .

وسنناقش القول بالمصـادفة فى هذين الأمرين ، وفقـا للمقررات العلميـة ، آخـذين فى الاعتبـار ما يقـولونه من أن للمصـــادفة قانونا علميا .

يقـولون :

« ان المصادفة تخضع للتحليـل الـــرياضى وعلى سبيل المثـال والتوضيح فان فرصة ظهور وجـه الستة عنـد طـرحك لزهـر النرد هى ١ : ٦ أى واحـد الى سـتة أما مصادفتك وجـه الستة مـرتين متواليتين فهى ١ : ٣٦ ، أى واحد الى ستة وثلاثين ، أما مصـادفتك وجـه الستة ست مرات متواليـة فهى : ١ : ٦٦ أى واحد الى سبعة وأربعين ألفا ، وهكذا ، على أنه يجب أن نوضح هنا ــ وكما يقرر برتراند رسل نفسه ــ ان حساب الاحتمالات (٢) هذا الذى يتمسح به قانون المصادفة انما هو تصور رياضى (يتصـف بما تتصـف به الرياضة من ضبط ويقين طالمـا لم يطبق ، وينشأ عـدم اليقين عنـد التطبيق ...)

ويقول رسل (لقد انتهيت الى نتيجـــة ... هى أن الجـوانب الرياضية من الاحتمال ذات شأن فى الاستدلال العـلمى أقـل ممـا نعتقد) (٣) .

ويقول الدكتـور جـون كيمنى (ان القوانين الاحتمالية تدخـل الى العلم بسبب ؟

١ ــ اخفـاق جميـع الوسائل الأخرى .

٢ ــ وعندمـا نضطـــر الى الاعتراف بجهلنا الـكامل » (٤) .

(١) ملقى السبيل ص ١٦٦ .
(٢) يستعمل الاحتمال بمعنيين : **الشك ، والاحصاء**
(٣) فلسفتى ص ٢٣٥ : ٢٣٦ .
(٤) الفيلسوف والعلم ص ١١٨ .

ومما يؤكد القول بأن درجة الاحتمال انما هى نتاج للعقل فى حالة جهله بالأسباب اننى اذا القيت قطعة نقود فهل ستظهر الصورة أو الكتابة ؟ هذا أمر لا أعلم عنه أى شىء ، وليس لدى من الأسباب ما يجعلنى أومن باحدى النتيجتين دون الأخرى ، لذلك أنظر الى الامكانين على انهما متساويان فى درجة احتمالهما واعزو الى كل منهما احتمالا مقداره نصف .

وهكذا فان الجهل بالأسباب هو السبب فى افتراض تساوى الاحتمالات أو فيما يعرف بمبدأ السوية .

فالقول بأن درجة الاحتمال نصف ، لا يعنى أى شىء عن المستقبل ، وانما يعبر فقط عن أن معرفتنا عن وقوع هذا الحادث لا تزيد عن معرفتنا عن وقوع الحادث المضاد .

وهذا ان يكن تبريرا للحكم الاحتمالى لكنه يجعله غير صالح لأن يكون مرشدا عن السلوك ، او عما يقع فى المستقبل ويكذب هانزريشنباخ عندما يدعى أن هذه الاحتمالات محسوبة لا طبقا لتحليلات تأملية ، ولكن طبقا (لترددات لوحظت بالفعل فى الماضى وتنطوى على افتراض أن نفس الترددات سوف تسرى تقريبا الى المستقبل) (١) . لاجئا بذلك الى الاستشهاد بما يسميه « قواعد المراهنة » قائلا (ان نسبة خمسين فى المائة ــ بالنسبة لوجهى العملة ــ تعنى ان استخدام هذه القاعدة سيؤدى فى المدى الطويل الى أن يتساوى الطرفان المتراهنان فى الفوز ..) . (ويوغل ريشنباخ فى تمويهه وكذبه فى هذه النقطة عندما يقول : (لو لم نكن قد لاحظنا اننا نصل بمضى الوقت عند رمى قطعة العملة الى تردد

---

(١) نشأة الفلسفة والعمية ص ٢٠٨ .

متساو للوجهين لما تحدثنـا عـن احتمالات متساوية) (١) .

لأن حقيقة الأمر وواقعه ان هذه ليست قواعد تجريبيـة للمراهنـة ويعرف كل مراهن انها عند التجربة ليست الا مغـالطات يغـالط بها المراهن نفسه أو يغالط بها غريمه ليستمر فى مراهنات لا جدوى من ورائهـا . (٢)

ومع أن هـذا كاف فى ابطـال الاحتجاج بهذه القـوانين ضـد القول بعلة أولى أو ارادة الهية .

فـان البحث يثبت أن قـوانين المصادفة هذه غير صالحة للتطبيق فى ظهور الحيـاة والانسـان وفقا لمقررات هذه القوانين نفسها .

فلنطبق هـذا القانون « قانون المصادفة » :

على ظهـور البروتين ـ الذى هـو الأســاس الطبيعى المـادى للحياة من المادة الميتة .

يقولون : ان البـروتين تكون من الاجتمـاع العـرضى بفعـل المصـادفة لعنـاصر الكربون والهيـدروجين والنيتروجـين والاكسـوجين والفوسـفور والكبريت . ولابد لهذه العناصر من أن تتركب فى جزئيـات صغيرة تسمى الاحماض الأمينية ، ولابد لهذه الجزئيات من أن تترتب على وجه معين ترتيبـا دقيقـا ، وان أدنى انحـراف عن هـذا الترتيب يجعل البروتينات امـا غير صالحة كأساس لظهـور الحياة ، واما أن تصبح سما زعافا ، والمعـروفه من هـذه الأحماض اثنـان وعشرون حامضا ، ومن البروتينات ما يحتوى على مائه حامض أمينى أو ما يزيد على ذلك كثيرا .

والسؤال الآن هـو : كم من الزمان يحتاج تركب البروتين على الوجه المذكور ، وفقـا لقـانون المصـادفة ذاك ؟

أو بعبـارة أخـرى : ما هى الاحتمالات اللازمة ـ وفقا لقانون المصادفة ـ لكى تتحقق فرصـة تركب البروتين ؟

(١) الســابق ص ٢٠٨ (٢) انظر شرحا وافيا لما يسمى مغالطة المقـامر فى فن الاقناع لليونيل روبى ص٢٥٦.

يوضح الدكتور ف.هـ. مترام أنه وفقا للدراسة التي أجراها العلماء تحتاج هذه الاحتمالات من ناحية الزمن الى 10^{243} من السنين وبما أن المدة التي انقضت منذ أصبحت الأرض صالحة لظهور الحياة فيها الى العصر الذي تثبت الحفريات وجود الحياة فيه لا تعدو ألف مليون سنة ، والمدة التي انقضت من عمر كوكبنا ـ على أقصى التقديرات التي وضعت ـ لا تزيد على ستة آلاف مليون سنة ...

وبما أن هذه الاحتمالات من ناحية المكان تحتاج الى حجم كرة يحتاج الضوء لكي يقطع نصف قطرها الى 10^{82} سنة أى يفوق حجم الكون المعروف بأجمعه ..

فان ظهور البروتين في المدة التي ظهر فيها بالفعل وفى حجم هذه الارض فحسب ، يصبح عملا مستحيلا (لا تستطيعه الا قدرة الخالق) .

هذا كله لكى يتكون جزىء بروتيني واحد ، وهو مادة ميتة [1] .

أما لكى يتكون البروتوبلازم الذى يعتبر أدنى صورة من صور الحياة ؟

اما لكى تظهر الصور المعقدة للحياة من النبات ؟

اما لكى تظهر الصور الأكثر تعقيدا من الحيوان ؟

اما لكى يظر الانسان ؟

ويقول الدكتور ليكونت دى نوى :

(يجب ألا ننسى انه مهما كانت الفرصة ضئيلة فانه لا يمكننا ان نثبت بأن الفرص الضئيلة سوف تتحقق حتى فى نهاية بليون بليون قرن . فقد تتحقق ذرة واحدة منذ البداية ثم لا تعود ثانية على الاطلاق . وذرة واحدة لا تفيد بل مئات الملايين من الذرات ... وتزداد استحالة حدوث ذلك مع

(1) انظر الأساس الجسمانى للشخصية ص ١٩٨ ـ ٢٠٤ .

كل ذرة جديدة ... وتزداد مع كل مجموعة متشابهة .

فاذا وصلنا الى الخليـة وأردنا التعبير رياضيا عن ظهورها تصبح الأرقام السابقة غير ذات قيمة) .

ثم يقول : (اننا نصل الى نتيجة هـامة ، وهى أنه من المستحيـل تماما تفسير جميع الحوادث التى تتعلق بالحياة وبتطورها وبتقدمها بواسطة العلم) .

ويقول : (انه لا يمكن تفسيرها الا بكونها معجزة أو بتدخـل قوة تفوق العلم) . (١)

وهـكذا قد يستطيع الماركسى أن يقول كما يقول أنجلز :

« الحيـاة هى أسلوب العمـل والتفـاعل فى المـواد الزلاليـــة أو البروتينات » .

بيد أنه ممـا لا شك فيـه أن عالم الأحياء سوف يسخر من هذا القـول كثيرا ، لما تقدم من ناحية ، ومن ناحيـة أخـــرى لأن هـذا الأسلوب ليس الا وظيفة أو صفة للحياة ، لا تلقى أى ضـوء على ماهيـة الحيـاة ، ولا على تفسير ظهورها (٢)

هـذا ما تقوله عن المصـادفة بالنسبة لظهور الحياة .

أما عـن ظهـور الانسان باسم قانون المصادفة ...

فأصحاب هـذا الرأى — من العلماء — يقولون :

ان الكائنـات الحيـــة من خصائصـها أن تنسخ صـورا من نفسها (ولكنها — كمـا يقـول دكتـور جوليـان هـكسلى عام ١٩٥١ — تتعرض فى بعض الأحيان لشىء مـن عـدم الدقة أو الخطأ فى النسخ ، وقد يعـرض هـذا الخطأ لأجزاء مختلفـة من الكيان الوراثى يتعمـق حتى يصـل الى ماتسميه « الجينات » وهنا تأتى الطفرات ، فالطفرات اذن هى عجز هذه الجينات عن أن تحتفظ ببعض

---

١) مصير البشرية ص ٣٢ : ٣٤

٢) الاساس الجسمانى للشخصية للدكتور ف. هـ. مترام ص ٢٠٥ .

الدقائق والتفاصيل ... وهـكذا يصبح ما كان طفرات فى الأصـل سلالة من الجينات الطافرة ، وهى المصدر الذى يمد الأحياء بكل ما يحدث فيها من تنوعات) ، وهكذا تظهر الأنواع الجديدة ، أى يظهر الانسان ، نتيجة طفرة أى نتيجة خطأ ...

هكذا ترتكب هذه المفارقات ، لكى تتفادى القول بالارادة ، ولتقول بالمصادفة .

وبالرغم مما فى هذا القول من مناقضة لفكرة التطور التقدمى ، اذ لا يتصور أن يكون نتيجة طفرات هى أخطاء ، الا أننا نقتصر هنا على مناقشة تطبيق قانون المصادفة ، على هذه الطفرات ..

هنا يلفت الدكتور ف.ه. مترام النظر الى مثالين يقدمهما لنا التاريخ الطبيعى لا يمكن تصورهما مع القول بهذه الطفرات المصادفية .

الحيوانات البحرية المسماة « شقائق النعمان » أو انيمونيات البحر لها خلايا لاسعة فى أذرعها ، وعند أخف لمسة لهـذه اللوامس تنطلق تلك الخلايا فى قوة وسرعة فتغمد فى جسم الحيوان المتحرش بها .

ومن الغريب أن بعض الحيوانات البحرية الرخـوة المعـروفة « بالبزاقات » مسلحة بمثل هـذه الخلايا اللاسعة مع أن هذا النوع من حيوانات البحر لا يمت بأية صلة من صلات القرابة الى الأنيمونيات .

لكن الحقيقة هى أن البزاقات تستولى على الخلايا اللاسعة التى تتميز بها الأنيمونيات وتتغذى . دون أن تنفجر هـذه الخلايا فيها عند التهامها للأنيمونى ... فاذا التهمتها تنحدر الخلايا اللاسعة من معدة البزاقة سالكة قنوات مبطنة بأغشية ذوات أهداب ، أو تحملها بعض الخلايا المتجولة فى جسمها حتى تأوى الى جيوب خاصة موجودة مباشرة تحت غطاء زوائد زاهية الألوان فى الوجه العلوى للحيوان .

وهنـاك ترتب ترتيبا دقيقا متخذة أوضاعا صحيحة تعدها لأن

تنفجر فى وجه العدو الذى يهاجم البزاقة .

فاذا لم تتمكن البزاقة من التهام بعض الأنيمونيات فلن تحصل على ذخيرتها من الخلايا اللاسعة ، واذا اقتصرت على نوع واحد من الأنيمونيات فانها تحصل على نوع معين من هذه الخلايا ، واذا أكلت نوعا غيره أحرزت أيضا نوعا آخر من الخلايا اللاسعة ، واذا حصلت على كفايتها من الخلايا اللاسعة كفت عن التهام ــ الأنيمونيات حتى لو كانت جائعة .

وهنا نستخلص ثلاث ظواهر :

١ ــ ان الزاقة تجرد الأنيمونى من سلاحه .

٢ ــ انها تستولى على خلاياه « أسلحته » وتستخدمها فى الدفاع عن نفسها .

٣ ــ انها مزودة بجهاز خاص لنقل الخلايا من معدتها الى « أبراج ضرب النار » فى جسمها .

وكل واحدة من هذه الظواهر الثلاث تحتاج فى تكوينها ــ وفقا للنظرية الداروينية الحديثة ــ الى طفرة خاصة على الأقل ، ان لم تكن تحتاج الى أكثر من واحدة منها . ويجب أن تبقى هذه الطفرة أو الطفرات ويحتفظ بها وفقا لقانون الانتخاب الطبيعى .

يقول الدكتور مترام :

(ان تصور حدوث مثل هذه الطفرات على هذا النحو فوق ما يستطيع العقل التسليم به .

وان من يسلم بمثل هذا جدير بأن يسلم بكل ما يقال) .

أما المثال الثانى الذى يتعذر فهمه على ضوء أية نظرية من نظريات الطفرات فهو تعاون نبات اليوكا Yucca « ابرة آدم » وفراشة اليوكا Pronuba ، وتبادلهما العمل على تكاثر كل منهما تكاثرا ناجحا .

فان نبات اليوكا وان كان ينمو جيدا ويزهر فى أوربا لكنه لا ينتج بذورا قط كما ينتجها فى موطنه الأصلى ــ أمريكا .

ذلك لأنه فى أوربا يفتقد فراشة اليوكا ، ولا تتفتح زهرة اليوكا سوى ليلة واحدة تأتى فى أثنائها الفراشة وتجرف منها جميع مادة اللقاح اللزجة ، وتشكلها فى صورة كرة صغيرة مستخدمة فى حملها والامساك بها زائدة معدة اعدادا خاصا لهذه العملية . ثم هى بعد ذلك تضع ثلاث أو أربع بيضات فى مبيض الزهرة ، ثم تطير الى ميسم الزهرة وتدفع بكرة اللقاح داخل كأس صغير معد لذلك وما تلبث أن تنبت أنابيب من خصوب اللقاح ، ثم تنمو الى أسفل مارة خلال الميسم لكى تصل الى المبيض وتخصب البذور الموجودة فيه .

وكذلك تفقس بيضات الفراش ، وتعيش اليرقات الناشئة على البذور النامية ، ولكنها لا تستنفد منها الا ما يقرب من نصفها فقط بينما البقية الباقية من البذور تأخذ فى نموها الطبيعى ، وتكفل بقاء نوع نبات اليوكا .

أما يرقات الفراشة فانه اذا ماتم نموها تغادر مبيض النبات خلال ثقوب تحدثها به ثم تهبط الى الأرض متدلية على خيط من الحرير تصنعه هى لهذه الغاية أيضا ، ثم تصنع لنفسها شرنقة تظل عذراء فى داخلها الى أن يحل فصل الصيف ، وهناك تأخذ الدورة فى التكرار مرة أخرى وهكذا .أما اذا اتفق أن نبات اليوكا لم يزهر فى أحد المواسم السنوية ، فان العذارى تستمر كامنة فى انتظار حلول الموسم التالى .

ولهذه العملية المذهلة من التعاون بين نبات اليوكا وفراشة اليوكا أشباه فى التاريخ الطبيعى لا تعد ولا تحصى ، لا يمكن تفسيرها مطلقا على ضوء مبدأ الطفرات القائم على الصدفة .

يقول الدكتور مترام (على من يريد أن يكون داروينيا حديثا أن يحل لنا أسرار هذه التعاونات بافتراض أنها من آثار طفرات حدثت ثم أبقاها قانون الانتخاب الطبيعى وأقل ما يقال هو أن ضبط التوقيت وتنسيق الخطى بين

هذه الطفـرات أمر لا يتصـوره العقل) • (١)

وهكذا يتبين لنا نحن أن الهرب من القـول بالارادة الالهيـة الى القول بالمصادفة فى تفسير هـذه الظواهر لا يمكن أن يكون نتيجة نظر عقلى أو علمى ، وانمـا هو كما يقول بسـكال نتيجة ارادة ، ارادة مصممة على الالحاد مهمـا يكن من أمر •

ويقـول الدكتـــور ليكونت دى نوى :

(نكرر القول بأنه لا توجـد حقيقة واحدة أو نظرية واحدة فى يومنا هذا تقدم تفسيرا قاطعا لمولد الحياة وتطور الطبيعة •

ولقـد درسنا مسـألة أصـل الحياة ، فوجدنا أننـا مضطرون الى أن نقبـل فكرة تدخـل قوة سامية يدعوها العلماء أيضا « الله » وهى عكس الصدفة) • (٢)

ومن العجيب المدهش كما يذكر الدكتور ليـكونت دى نوى أن بعض الملحـدين ، يجيز استعمال كلمة « ضـد الصدفة » بدلا من كلمة « الله » ويقترح حذف هذه مـن المعـــاجم ووضـــع تلك مكانها (٣)

جاهلا أنه بذلك يهـدد صرح العلم كله بالانهيار لارتكازه على « حساب الاحتمالات » (٤)

ويسـتطرد دى نوى مستثنيا قائلا : (الا اذا قبلنـا فكرة ان الحياة تتبـع فى بعض نواحيهـا قوانين غريبة عن عالمنا الفيزيائى ، تخضع فيها لقبول تأثير غير عقلى ، ـ ما ورائى ـ وهنا يصبح الاسم الذى نعطيه لهذا التأثير ليس هـو جوهر الموضوع) •

وهكذا يتبين لنا حـيرة العلم الالحـادى أو الالحـاد العلمى ،

---

١) الاساس الجسمانى للشخصية ص ٢٠٧ : ٢١٣
٢) مصير البشرية ١١٠
٣) المصدر السابق ص ١٣٨ •
٤) مصير البشرية ١٣٨ •

وتخبطه اللا نهائى ، كلما أشاح بوجهه عن طريق الله .

ويتحدث السير آرثر طومسون عن مظاهر الروعة فى العالم كما يكشف عنها العلم الحديث فى صورة لا تتفق مع القول بالمصادفة .. بادئا بما يسميه « الروعة فى وفرة القوة فى العالم » فيقول :

(تلك القوة التى تبقى أرضنا الدوارة متماسكة فى دورانها حول الشمس والتى تبقى مجموعتنا الشمسية بعضها مع بعض فى رحلاتها خلال الفضاء بسرعة ١٢ ميلا فى الثانية فى اتجاه نقطة فى السماء ـ قريبة من النجم البراق فيجا ـ تسمى (منتهى طريق الشمس) كما أنه توجد على النقيض الآخر قوة فى دنيا شرسة فى داخل الذرة المعقدة تنطلق طاقاتها الحبيسة تعمل على استمرار الطاقات التى تشعها الشمس والنجوم . ومن هذين الطرفين من الضخامة اللانهائية والدقة اللانهائية توجد قوى الحياة ـ القوة التى تعمل على تشغيل الساعد ، وقوة السمكة بما لها من محركات أحسن من محركات الباخرة موريتانيا ، وقوة الحياة فى تكرار نفسها بحيث انه فى ساعات قليلة قد يصبح ميكروب غير مرئى ملايين الميكروبات الفتاكة) .

ثم يتحدث عن الروعة التى يمكن أن نجدها فيما فى الكون من ضخامة .

فيقول :

يستغرق الضوء ٨ دقائق ليصل الينا من الشمس على الرغم من أنه ينتقل بسرعة قصوى تبلغ حوالى ١٨٦٣٠٠ ميل فى الثانية . ونحن نرى أقرب نجم الينا من خلال الضوء الذى يشع منه منذ أربع سنوات ، وضوء فيجا فى الصورة التى كان عليها منذ سبعة وعشرين عاما مضت . كما أن معظم النجوم التى نراها دون تلسكوب تبدو لنا كما كانت عندما درسها جاليليو فى أوائل القرن السابع عشر .

ثم يتحدث عن : (الروعة فى تعقيد الأشياء وتشابكها) .

فيقول :

(هنـاك ما يدل على مصـادر لا نهـائية فى نشوء الاختـلافات الفردية) .

فقد على أرسطـو ـ منذ أكثر من ألفى سنة مضت ـ بوجـود حـــوالى خمســمائة نوع مــن الحيوانات المختلفـة . ولكن تبلغ الآن قائمـة الحيـوانات المسمـاة والمعـروفة خمســة وعشرين ألف نوع مختـلف مــن الحيـوانات الفقارية ، كمـا يصر البعض على حد أدنى يبلغ نصف مليـون نوع مختلف من الحيوانات اللافقارية . كمــا أن أنـواع اللحم ليست متشابهة ، ولكن هناك نوعا واحدا من اللحم فى الانســان ، وآخـر للوحوش ، وآخـر للاسمـاك ، ثم آخـر للطيـور . ويختلف دم الحصان عن دم الحمـار . كمـا أنه يمكننا معرفة الطائر من ريشة واحدة والسمكة من بضع قشور . وربما لا يسر الفرد كثيرا للحقيقة التى تقـول أن الشخص العـادى عنده خمسة وعشرون بليون كرة دموية حمـراء تنقـل الاكسجين والتى اذا مـارصت فانهـا تغطى مســـاحة قـدرها ٣٣٠٠ ياردة مربعة . الا أن هناك دلالة للارقام التى توضح انه يوجـد فى قشرة المخ ـ وهى المسـئولة عـن كل العمليات العقلية العليا ـ ما يقرب من تسـعة آلاف مليـون خليـة عصبية . بمعنى أن هـذا الرقم يزيد على عدد سكان العالم حاليا خمس مرات ، وبكل تأكيـد أكثر مما يستطيع المخ حاليا الاستفادة منـه .

ولا بد أن نسلم بأننا نتاج خلق رائـع ، فأجسـامنا تتـكون من ملايين الخـلايا ، الا أن هنـاك البـساطة بين طيات تلك الضخامة ، اذ أن لكل خليـة نفس الأساس التركيبى . وبين ثنـايا محتـوى الخلية الغرورى تطفو النواة التى تحتـــوى عـلى ٤٧ كروموسوما (وفى المرأة ٤٨) كل واحد منها فى شكل عقـــد من الكيرموسومات الأصغر ، وهكذا ، وهكذا ..

وكذلك المحتمــل وجــودها ، فاننا نعـلم أن العنــاصر تختلف بعضــها عن بعض فقط فى عــدد وتوزيع الالكترونات والبروتونات التى تشكل تركيبات ذرية . فأى قــدرة خالقــة تلك التى شكلت نسيج هذا الكون العظيم التنوع من نوعيــن اثنيــن من الخيوط الفيزيائية ، هذا بالاضافة بطبيعـة الحــال الى العقــل الذى يقــوم دائمــا بالبحث فى أسرار النــول الذى يقوم بهذا النسيج) .

(ثم يتحــدث عن الروعــة فى (نظام ودقة الطبيعة) فيقول :

انتــا نعيش فى عالم غــاية فى الدقــة يخضــــع لجميــع أسس التعليل . وكلما تقدم العلم زادت قدرة الانسان على التنبؤ بمــا قد يحدث من أحداث . فقــد تنبــأ عالمان من علماء الفلك بوجــود نبتون قبل اكتشافه كمــا تنبــأ الكيمــائيون باكتشاف عنــاصر جــديدة ويستطيع عالم الأحيــاء ليس فقط احصاء الدجاج قبــل فقسه ، ولكن التنبــؤ بصــفاته فنظام الكون أعظم دقة ، ويوضح لنــا أعــلام الفيزياء انه لا يمكن التفكير فى أن هذه الدقة وليــدة المصادفة .

ثم يتحــدث عــن الروعـــة الجمالية :

(وهى الاساس الخامس الذى يتعلق بالنــاحية العــاطفية مــن شخصياتنا) .

فيقــول :

(لقد كان لوتز على حق عندما نادى بأنه من الأشــياء العظيمــة القيمة أن تنظر الى الجمال لا على انه شىء غــريب عن الدنيــا التى نعيش فيها أو انه شىء عضــوى لظاهــرة معينــة ، ولكــن على أنه كشف لذلك الأساس الذى يتخلل الواقع بكل ظواهره الحية) .

ثم يتحــدث عن الروعــة (فى الخصــائص الأساسية للــكائنات الحيــة) .

فيقــول :

(فيجب علينــا أن نتفهم بعمق ما يكشفه لنا علم الكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية . ويجب علينا أن نحاول فهم كل ما يمكن أن

يشكل فى شكل غــروى وهكــذا وعنــدما يتكشف كل هذا فانــه تبقي ظاهرة تتكشف فى الكائنات الحية وتوضح اعمــاقا جــديدة للطبيعة . فالحياة مستمرة ناميــة متكاثرة متنوعة وفوق كل هذا متطورة) .

ثم يتحــدث عــن الروعة فى « التطور » فيقول :

(ليس الأمــر مقصــورا على مجــرد انسياب « الأشيــاء » الى أعلى بل « الحيــاة » نفسها هى التى تنساب الى أعلى . ففى خضم هــذا الفيضان الذى لا يتــوقف لا يقتصر الأمــر على الابقاء عليها وانمــا يتعــداه الى تحسينها) . والتغيرات ليست مشــاهد متغيرة ومختلفة الالوان ولكن عبارة عن « لحن دائم التقدم » . فخــلال الاجيال الطويلة الغابرة أصبحت الأرض مهــدا للحيــاة ، وظهرت كائنات أكثر نبلا ورقيــا وازداد تفوق الحياة على الأشياء والعقــل على الجسم الى أن ظهر الانسان فى النهاية ، الذى توج أروع شيء فى الحيــاة ، اذ أنه أعطى لــكل شيء آخر قيمة عظيمة وعميقة . وبينما يجب أن نعتبر الانسان فى ضــوء التطــور كقمــة للطــاقة الفكرية ، فانه يواجهنــا أمر أكثر تعقيدا وهو التفكير فى التطور فى ضــوء الانسان . انهــا حقيقــة بديهية فلسفية ، ولكن لابد للعلماء أن يتساءلوا (من الذي يستطيع أن يقول هذه هى نهايتــك أيهــا التطور) [1] .

وهكذا يقدم لنا نماذج الروعة التى تتحدث عن القصد والتدبير فى نظام العالم .

بل ان العنــاية الالهيــة لتبــدو باهرة الضوء فى لمساتها الحانيــة على حالات الضعف والنقصــان ، يقول الاستاذ آشلى مونتاجيو :

(ان العته الطفولى المصحوب بالعمى من الحالات التى تستأصل نفسها من الجماعات الكبيرة عن طــريق موت ضــحاياها فى سن مبكرة) [2] .

---

(١) العلم اسراره وخفاياه جـ ١

(٢) الوراثة البشرية ٤٣٥ ــ ٤٣٩ .

ويقــول :

(وناقصو العقول لا يتكاثرون بطريقة فعالة .

فمعــدل الوفاة بين المتــوهين الذين ينتمــون الى أدنى مرتبــة مــن مــراتب ضــعف العقــل ولا يستطيعــون عمــل أى شىء لأنفسهم .. يزيد أكثر من خمسة أضعاف عنه بين السكان عامة .

أما معدل الوفاة بين المتوهــين الذين يستطيعون تعلم الاعمــال اليــدوية البسيطة فيزيد حــوالى الضعف عنه فى السكان عامة .

وكلما ازدادت درجــة ضعــف العقل بين ناقصى العقول انخفضت قدرتهم على التكاثر وبذلك يعمل مــؤثر ... عــلى الحــد مــن تضاعفهم) . (١)

(أما الأشخاص الذين هم عند حــافة النقص العقلى فان قــدرة الاخصاب لديهم أكبر من القــدرة المتوسطة ، ولكن هــذه القــدرة الاكبــر نفســها مفيــدة للجنس البشرى . فهــؤلاء الأشــخاص يحملون من الجينات ما يؤدى الى انتاج قدرة عقليــة أكبر ولذلك فان أطفالهم يعملون على تعويض النقص الناتج عن القدرة الاخصابية المنخفضة فى ذوى العقــول فــوق المتوسطة) (٢) .

فمــا أعجب أن يقول داروين بعد ذلك ، متجــاهلا كل هــذه الدلائل عــلى العنــاية والقصــد والتدبير وذلك فى كتــابه أصــل الأنواع :

(تنشأ التغيرات بتأثير الطبيعة المطلقة .

وغالبا مانسبنا حدوثها للمصادفة العمياء ، على أن كلمــة مصــادفة هنا اصطلاح خطأ محض يدل على اعترافنــا بالجهــل وقصورنا عن معرفة السبب فى حدوث كل تغير معين يطرأ على الأحياء) (٣) .

وهنا يدافع اسماعيل مظهــر عن داروين حيث يعلــن أنه ليس كل القائلين بالمصادفة ملاحدة (٤) .

---

(١) الوراثة البشرية ٤٣٥ : ٤٣٩ .
(٢) الوراثة البشرية ص ٤٣٥
(٣) ملقى السبيل ص ١٦٥
(٤) ملقى السبيل ص ١٦٥ — ١٦٧ .

وهذا دفاع غريب حين يكون القائلون بالمصادفة يودون بها منبع القول بالارادة الالهية انه عنـدما تنتهى الأسباب الطبيعية الى حالة لا تظهر علتها فى الطبيعة تكون فى موقف اما أن نقـول فيه بالارادة الالهية ،واما أن نقول بالمصادفة ، ولا يمكن الجمـع بينهمـا ، ومن هنا يتبين أن القـول بالمصـادفة مجـرد رفض للقـــول بالارادة الالهيـة ، فكيف لا يكون هـذا الحادا .

ومن العجيب أن الماديين يبدأون السير فى بحثهم منطلقين من القول بأن القول بالارادة الالهية انمـا هو محض عجـز من الانسان عن معـرفة الأسـباب وأن معـرفة الأسـباب تلغى القـول بالارادة الالهية .

وها هم فى نهـاية الشـوط اذ يعلنون العجز عن معـرفة السبب تسود وجـوههم فى متجـه القول بالارادة الالهيـة ، ويقفـون وقفة حمر الوحش ناخـرين من أنوفهم قولتهم الوبيئة « المصادفة » .

يقول رسل ــ وهو ملحد :

(اننـا نجـد حتى فى مملكة الكواكب عمليـات تنطـوى على خصائص غائبة لا تختلف اختـلافا جوهـريا عن مـلامح السـلوك الغرضى فى الحيوانات العليا) (١) فكيف يتـأتى القول بالمصـادفة اذن ..

انه اذا كان الماديون يقـولون بالصدفة « كتفسير لوجود المـادة وحركتها ونظامهـا » فهم يلتزمون أيضا بالتدبير والقصد (لاعترافهم بالوعى وا لعقـل كحالة راقيـة من أحوال المادة) وهنـا نسألهم عن وجود العالم وتقدمه أهو أجـدر أن يعزى الى الصدفة أو أجدر أن يعزى الى التدبير والقصد ؟

وكما يقـول سقراط (أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها ما هو خفى المنفعة ومنها ما له منفعة ظاهرة وحكمة فى الوجـود

---

(١) ص ١٣٥ برتراند رسل للدكتورمحمد مهران

باهرة ، فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفــاق ، أو من نتائج العقل والحكمة) (١) .

ان الاتجاه الالحادى فى العـلم نظرا لأنه يمتنع ـ مبدئيا واعتقاديا عن القول بالارادة الالهيــة يعجز عن تجنب القول بالمصادفة ، التى يقوم كيانه أساسا على انكارها ..

فيا للتناقض ، والعجب ...

يقــول الله سبحانه وتعــالى فى القرآن الكريم :

(ان فى خـلق الســماوات والأرض

واختلاف الليل والنهـار

والفلك التى تجـرى فى البحر بما ينفع الناس .

وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها .

وبث فيها من كل دابة .

وتصريف الرياح .

والسـحاب المسـخر بين السماء والأرض .

لآيات لقوم يعقلون) .

١٦٤ البقرة

ويقول تعالى :

(والأرض مددناها ، والقينـا فيها رواسى وأنبتنا فيهـا من كل شىء موزون وجعلنا لكم فيهـا معايش ومن لستم له برازقيــن ، وان من شىء الا عندنا خزائنـه ومـا ننزله الا بقـدر معـلوم ، وأرسـلنا الرياح لواقح فأنزلنـا مـن السماء مـاء فأسقيناكمـوه وما أنتم له بخازنين ، وانا لنحن نحيى ونميت ، ونحن الوارثون) .

١٩ ـ ٢٣ الحجر

ويقــول تعــالى : (خلق السماوات والأرض بالحق ، تعالى عما يشركون . خلق الانسان من نطفــة فاذا هــو خصيم مبـين . والانعام خلقهـا لكم فيهـا دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمـال حـين تريحـون وحـين تسرحون ، وتحمل أثقـالكم الى بلد لم تكونوا بالغيـه الا بشق

---

١) انظر بقية الحوار بين سقراط وتلميذه المنكر لوجود الله « الاســلام فى عصر العلم » لمحمــد فريد وجدى ص ١٦٣

الانفس ان ربكم لرءوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون • وعلى الله قصـد السبيل ومنهـا جائر ولو شاء لهداكم أجمعين • هـو الذي أنزل من السمـاء مـاء لكم منـه شراب ومنـه شجر فيـه تسيمون • ينبت لكم به الـزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفـكرون • وسخر لكم الليـل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون • ومـا ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لآية لقوم يذكرون • وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منـه لحمـا طريا ، وتستخرجوا منـه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضـله ولعلكم تشـكرون • وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون • وعـلامات وبالنجم هم يهتدون • أفمن يخلق كمـن لا يخلق أفلا تذكرون •) ٣ : ١٨ النحل •

ويقول تعالى :

(والله جعـل لكم من بيوتكم سـكنا وجعـل لـكم من جلود الانعـام بيـوتا تستخفـونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتـاعا الى حين • والله جعـل لكم ممـا خلق ظـلالا ، وجعـل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمتـه عليـكم لعلكم تسلمون • فان تولوا فانمـا عليك البلاغ المبين • يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) •

٨٠ ـ ٨٣ النحل

دكتور يحيى هاشم

مناقشة هادئة :

دفع افتراء صارخ

حول شيخ الإسلام سليم البشري

للدكتور محمد رجب البيومي

أول ما عرفت الأستاذ الأكبر الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق رحمه الله ، كان عن طريق شاعر النيل حافظ ابراهيم اذ قرأت ديوانه فى سن مبكرة ، ووقفت كثيرا عند مرثيته الصادقة فى الشيخ الأكبر ، وقد أحسن تصوير اللوعة على العلامة الراحل حين قال فى مطلع القصيدة :

أيدرى المسلمون بمن أصيبوا
وقد واروا سليما فى التراب
هوى ركن الحديث فأى ركن
لطلاب الحقيقة والصواب ؟
موطا مالك عز البخارى !
ودع لله تعزية الكتاب !
فما فى الناطقين فم يوفى
عزاء الدين فى هذا المصاب !

والرثاء حار تسوقه عاطفة صادقة مخلصة ، واشادة الشاعر بمكان الراحل فى علوم القرآن والحديث قد جاءت فى صورة مجسمة حية ، اذ تصور شاعر النيل موطأ مالك انسانا عاقلا أحس بالحسرة على امام من أئمة الحديث فهرع الى صحيح البخارى يبادله العزاء ؛ أما كتاب الله فلن يوفى بعزائه غير من أنزله على رسوله هداية للناس ، اذ ليس فى الناطقين بالضاد من يقدر على القيام بهذا العزاء ، ولئن جهل قارىء مكانة الاستاذ الأكبر ، وتاريخه الحافل فى ساحة العلم وميدان الدعوة والارشاد ، ثم قرأ قصيدة حافظ وحدها لكانت تاريخا حيا يضع العلامة الكبير موضعه الكريم ، فقد كان الشيخ سليم بقية من بقايا السلف العالم ، الذين لزموا التدريس الدينى طلابا وأساتذة ملازمة استغرقت مدى الحياة ، وقد قطع الرجل فى ساحة الزمن تسعين عاما ، فاذا كان قد التحق بالأزهر فى سن الخامسة

عشرة بعد أن حفظ كتاب الله ، فقد خلص للعلم هذا المدى الطويل حتى بلغ من ثماره المشتهاة ما هيأه لمشيخة الأزهر أكثر من مرة ، وقد كان طلابه يكتبون عنه تقريراته العلمية حين كان يشرح لهم الكتب العالية فى الاصول والفقه والحديث والمنطق والبلاغة ، اذ كانت العادة المتبعة حينئذ أن يختار عالم الأزهر حاشية من الحواشى العلمية ليقرأها على الطلاب ، فاذا كان هذا العالم رأسا من رءوس العلماء ، فدرسه أوسع مدى ، وحاشيته أعوص تفكيرا ، وطلابه أرقى مستوى ، وهم ناقلون عنه خير ما ينتظرون ؛ على أن الشيخ رحمه الله قد اشترك فى مناظرات علمية مع الامام الشنقيطى على صفحات المؤيد ، كما قام بمناظرات جدلية مع الامام الخالصى رأس الشيعة فى عصره ، محاولا أن يمحو أوجه الخلاف بين طائفتين كبيرتين من طوائف المسلمين وقد جمعت هذه المناظرات فى كتاب حافل ، وهى ان دلت على علم الاستاذ وفضله ، فقد دلت على بعد نظره ، وشدة غيرته على المسلمين جميعا أن يصبح بأسهم بينهم شديدا ، وكان فى تضافر الجهود ما يعلى كلمة الاسلام ، بعيدا عما اصطنعه المغرضون من بواعث الخلاف .

فوق هذا كله ، لنرد على فرية ظالمة رددها الدكتور زكى مبارك فى كتبه أكثر من مرة ، اذ تحدث عنها فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » ثم فى كتاب « الأسمار والأحاديث » كما أعلنها على صفحات البلاغ فهاجت ثائرة أنجال الشيخ ، وهم علماء بارزون ، وكنا ظننا أن شطط الدكتور مبارك سيصادف اغضاء من الذين يزنون القول وزنا دقيقا ليذهب الزبد جفاء ، ولايبقى غير ماينفع الناس ، ولكن أحد الذين كتبوا دراسة علمية نال بها درجة الماجستير فى أدب الاستاذ عبد العزيز البشرى نجل الشيخ الأكبر ، قد صدق هذه الفرية دون نقاش ، واعتمد كلام الدكتور زكى مبارك اعتمادا تاما ، وكأنه حق لا مرية فيه ، وكان عليه

وهو في مجال التمحيص العلمي أن يناقش الأحكام الأدبية مناقشة دقيقة، فلا يأخذ أحاديث المتسرعين مأخذ التسليم، واذا أعوزه أن يفعل ذلك، فلا بد أن تكشف النقاب عن خطل هذا الافتراء الصريح كيلا يأتي باحث آخر فيحذو حذو سابقه دون تنقيب.

لقد نظم أمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة نهج البردة، وعرض على الاستاذ الأكبر سليم البشرى أن يقوم بشرحها للناس، ليعرف المسلمون تفصيل ما تضمنته من شمائل الرسول ومواقفه الشجاعة في سبيل الله، ولكبار العلماء سوابق في ذلك، حيث شرح ابن هشام الانصاري قصيدة كعب بن زهير رضي الله عنه.

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفد مكبول

شرحها في كتاب خاص نال سيرورة وشهرة، كما شرح شيخ الاسلام ابراهيم الباجوري قصيدة البوصيري.

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهو الأصل الذي احتذاه شوقي، وفي هامش شرح الباجوري شرح آخر مختصر للبردة كتبه الشيخ خالد الأزهري فجاء موجزا مفيدا، لقد رأى شوقي اذن أن ينهج شيخ الاسلام في عصره نهج سابقيه فيكشف معاني قصيدته لملا يعرف مكانه الاستاذ الأكبر، ويتلهف على قراءة ما يبدع من تفسير، ولم يشأ العالم الكبير رحمه الله أن يحرم عارفيه من فضل يشتهونه متعجلين، فنهض بكتابه شرح النهج، وقابله القراء بالابتهاج، وأفاض نفر من الكتاب في تقريظه، وقدمه أكبر كتاب عصره السيد محمد المويلحي بك بمقدمة رائعة قال في ختامها: « وان قصيدة تقال في مدح الرسول، وتوضع تذكارا لحج المليك، ويكون شيخ الاسلام شارحها، وشاعر الأمير قائلها.

من اللالى أسد بهن طبع
وهذبهن فكر واتقاد

لهي جديرة بأن تستضيء بنورها البصائر، وتعقد على نفاستها الخناصر، وتشغف بها

القلوب فتضمهـــا فى الشغـاف وتنطوى الصــدور على حفظها طى الغلاف » .

وشاع الشرح (١) وذاع ، ولكن الدكتور زكى مبارك جاء بعــد عشرين عاما من طبعه وذيوعه ، ينشر فى الناس أن الذى كتـب الشرح هو الأديب الأزهرى الناشىء عبـد العزيز البشرى نجل الشيخ الأكبر ، اذ كان حينئذ يكتب فى الصحـف ويسير الخطوات الاولى فى ميدان مجده الأدبى الذى تم له فيما بعد عن موهبة واستحقـاق ، وقد ثـار الشيخ عبـد العــزيز ورد على الدكتور مكذبا فى جريدة البلاغ، ولكن زكى مبارك أعاد القول فى كتابه « الموازنة بين الشعـراء » وفى كتابه « الأسمار والأحاديث » وكان على الذين يصدقون الدكتور مبارك أن يرجعــوا الى الشرح المتهم ، فيعرفوا من منهجه العلمى من الذى قام به ! ؟ أهـو تـاج شيخ أزهرى موضوعى ذى فقـه ونحو ولغة وبلاغة وحـديث ، أم هو تاج أديب ذاتى ذى عــذوبة وتأنق واستشفاف ؛ وحينئذ تضـع الفرية موضعها الصحيح ، كان على الباحث الجامعى أن يفعـل ذلك ، فليست رسائل الدراسات العليـا فى الجامعة حشــدا للاقوال دون فحص ، ولكنها سبــر وتمحيص ومناقشة ودفاع ، ومن يتجرأ على اتهام شيخ الاسلام فى خلقه وعلمه لا بد أن يجـــد من يحقق هــذا الاتهام !

كان الشيخ سليم محدثا يحفظ الموطأ وصحيح البخارى بالأسانيد، وكانت دروســه فى التفسيــر والحديث تحمـــل الطابع العلمى للأزهر اذ يتعرض الاستاذ لمسائل النحو والبلاغة واللغــة بافاضة ، تاركا ما يتعلق بالأسلوب الأدبى ، والنسج الشعرى الى غيره مــن متذوقى النقاد ، ومن يقرأ شرح شيخ الاسلام الباجورى للبردة ، وشرح الشيخ سليم البشرى لنهج البردة يجد الطابع العلمى لدروس الأزهر القديم واضحــا متماثلا ،

---

(١) سمى شوقى قصيدته نهج البردة ، وسمى شرح الشيخ سليم (وضح النهج) وهو ذائع متداول .

فيجزم جزما أكيدا أن شرح النهج قد كتبه شيخ عالم لا شـاب أديب كتبه فقيه عالم محدث ذو حـذر ويقين ، ومن دلائل ذلك ما نوجزه فى هذه النقاط :

أولا ــ نجد أول ما نجـد من خصائص شرح النهـج ، هــذا الاعتماد الكثيـر على الأحـاديث النبوية ، وروايتهـا باسنادها ، فقد يذكر الشيخ سليم البشرى فى الحادثة الواحدة عدة أحـاديث ينقلها فى سهولة يسيرة ، ومـا فطن الأديب الشاب عبد العزيز يهتم فى الشرح الأدبى بتسجيل عدة أحاديث فى موضوع واحد ، اذ ليست لديه روح المحدث المستقصى فاذا تعرض الى شرح قول شوقى مثلا :

لما دعا الصحب يستسقون من ظمأ
فاضت يداه من التسنيم بالسنم(١)

قال الشيـخ الأكبـر : ان الأحاديث الواردة فى نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة ، وأخذ يسرد ما رواه أنس بن مالك عـن رسول الله حين حانت ساعة صلاة العصر ، والتمس النـاس الوضوء فلم يجدوه فأتى النبى بماء ووضع فيه يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا فنبع الماء من بين أصـابعه ، ثم ما رواه عبد الله بن مسعـود فى مقام آخر حين أعوز الماء أصحاب رسول الله فأتى بمـاء فصبه فى اناء ثم وضع كفه فيه فتدفق الماء ، ثم ما رواه جـابر بن عبد الله عن عطش الناس يوم الحديبية حيـن توضأ الرسـول من ركـوته فقال المسلمون ليس عندنا ماء غير ما فى ركوتك فوضع الرسول كفه بهـا وتدفق الماء وينتقل الشيخ الى كلام القاضى عياض بشأن تأكيد هـذه الأحاديث فينقله بنصه على عـادة العلماء من كتـاب الشفـاء دون تعليق ، لأن النقـل عنـده وثيق مضبوط ، وفيه ما يكفى .

ثانيا ــ نجد الاستطراد الطويل فى مناسبات كثيرة ، وهو ما لا يقره الشارح الأدبى ، ويرتضيـه المفسر العلمى ، فاذا قال شـوقى رحمه الله ــ مثلا ــ :

قد اخطأ النجم ما نالت ابوتـه
من سؤدد باذخ فى مظهر سنم(٢)

---

(١) وضع النهج ص ٤٢

(٢) وضع النهج ص ٢٨

فاننا نجد الشيخ سليم البشرى يفرد عدة صفحات لايضاح سلسلة النسب الشريف الى معد بن عدنان، فيبدأ بذكر عبد الله والد الرسول ويتحدث عن شمائله كما رواهـا الزهرى فاذا بلغ من ذلك ما أراد، تحدث عن شيبة الحمد عبد المطلب فعرض لأوصافه الجسمية والنفسية ، ووضح سيادته فى قومه ، ومقابلته لأبرهة الأشرم وما تم فيها بشأن البيت والابل وعلا الى هاشم فذكر اسمه ووازن بينه وبين أخيه عبد شمس ، وتحدث عن كرمه الزائد ، وهشمه الثريد لقومه وقيامه على السقاية بعد أبيه عبد مناف ، وهكذا يتسلسل الحديث عن عبد مناف وقصى وحكيم ومرة وكعب ولؤى وغالب وفهر حتى يصل الى عدنان فى صفحات تتجاوز العشر ابتداء من ٢٦ الى ص ٣٧ ، ويتكرر هذا الاستطراد فى مناسبات أخرى كان يقول شوقى فى غزوة بدر :

بـدر تطلع فى بـدر غفرتـه
كغرة النصر تجلو داجى الظلم[1]

فيأتى الشيخ الى مـا رواه ابن هشام عن الغزوة المباركة فيلخصه فى عشر صفحـات ؛ ومـا كان لغزوة بدر أن تفصل هكذا لدى شارح أدبى ، ولكن الأساتذة من طراز الشيخ سليم البشرى يحبون أن يفيدوا القارىء لأدنى مناسبة وكلمة أدنى مناسبة تتردد كثيرا فى حواشى العلماء ؛ فأين ذلك كله مما يرتضى ولده عبد العزيز ؟

ثالثا ــ نجد الاستعانة بقواعد النحو والصرف والبلاغة فى ايضاح المعانى واضحة دائمة وكأنها الأصل وهذا ديدن ابن هشام والباجورى والأزهرى من مفسرى المدائح النبوية ، كما هو ديدن القدماء من شارحى دواوين الشعراء أمثال العكبرى والواحدى والمرزوقى والتبريزى وأبى العلاء ، ولكن الشيخ عبد العزيز البشرى بمنأى عن هذا كله ، فانه لا يصبر على مثل قول والده عقب هذين البيتين :

(١) وضح النهج ص ٧٤

بكل قـــول كريم أنت قائلـــه
تحيى القلوب وتحيى ميت الهمم(١)
سرت بشائر بالهادى ومـــولده
فى الشرق والغرب مسرى النور فى الظلم

حيث قال الاستاذ الأكبر : معنى احياء القلوب تأثرها بمواعظه صلى الله عليه وسلم ، واحياؤه الهمم ايجادها وابتغاثها لعظائم الامور ، وكريم « فى قوله بكل قول كريم) بمعنى الثمين النافع ، وهو صفـة أولى لازمة لقول ، وجملة « أنـت قائله » صفة ثانيـة من الوصف بالجملة بعد الوصف بالمفرد ، وهو جائز كعكسه فى قـوله تعـالى : «وهذا كتاب أنزلناه مبارك» واحياء القلوب مجاز عن تأثرها ، ومـوت الهمم مجاز عن فقدانها ، وأقواله المأثورة فى هذا البـاب لا يكاد يأخذها العد ، ويبلغهـا الاحصاء ، وفى الشطر الثانى من البيت الأول الطباق ، ونسبة السريان للبشائر مجاز عقلى ، أو فى الكلام استعارة مكنية ، بتشبيه البشائر بالسارى ، واثبات السرى لها تخييل ، وقد روى فى غير موطن أن البشـرى بمولده صلى الله عليه وسلم شاعت بين الأرض والسمـاء ، واتصلت بجميـع الكائنـات وفى الشطـر الثانى « من البيت الثـانى » .. الطباق بين قوله فى الشرق وفى الغرب وقوله النور والظلم .

كما تجد الطريقة الأزهـرية للشرح العلمى عند قوله الشيخ رحمه الله تعليقـا على قـول شوقى (٢) .

العاثرات بالبـاب الرجال وما
أقلن من عثرات الدل فى الرسم

حيث يقول بعد شرح للمفردات تركه اختصارا : شبه وقـوع هواهـن فى كل قلب صـادفته بالعاثر الـذى تزل به قدمـه فى الطريق الحزن ، وجعـل القلوب مجازا لهـن واعتراضهـا موطىء أقدامهن يخضن فيها ويسلكنهـا سلوكَ المتعثر ، فيقعـن فى القلب بعد القلب ، كما يقـع العـاثر فى الحفرة بعد الحفـرة من المعـانى البديعة .

وفى الشطر الثانى جعل لهن من جمال المنظر ، وحسن المشية عثرات ولعله سماها « عثرات » مشـاكلة

(١) وضع النهج ص ٥٥

(٢) وضع النهج ص ٧

لما فى صــدر البيت ، أو أنه شبه تثنيهن وتبخترهن فى مشيتهــن بالعاثر أيضا ، اذ كان لهن ما له من الميل والاهتزاز ، أو أنه أراد التعثر الحقيقى اذ أنهن يتعثرن فى ثيابهن لطولها وتثنيهــن ، ويريد بقــوله « وما أقلن » أن ذلك شيء ملازم لهن ، وان عثرات الدل مقصــودة بالطبع لا اقالة منها بخــلاف سائر العثــرات ، وقوله « فى الرسم احتراس لطيف » .

والأمثلة كثيرة جدا لهذا النوع من الشرح العلمى المحتفل بقواعد البلاغة والنحو والتصريف .

رابعا ــ أمــا النقدات فكلهــا دينية شرعية ، ولن تصدر الا من متخصص شرعى ضليع ، فالشيخ يذكر قول شوقى مثلا :

ان جل ذنبى عن الغفران لى امل
فى الله يجعلنى فى خير معتصم(١)

ويتبعه بقوله : غفــران الذنب مهما كان قدره ممكن فى ذاته ، والله تعالى لا يخــرج عن قدرته شيء من الممكنات ، ما يقع منها ، وما لا يقع أصلا ، وقد جاء الشارع الحكيم ببيــان ما يحتمل الوقوع بالفعل فى هذه المسألة بعينها فقال عز من قائل : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمــن يشاء » ولعله ــ الشاعر ــ قــد استولت عليه الدهشة والهيبة مــن الله تعالى لمــــا أسلف من الذنب العظيم حتى قد وقع فى مخيلتــه أن مثل هذا الذنب لا يغفر ، فليس مراده ما يتبادر من ظاهر قوله من أن مغفرة الله تضيق عن مثل هذا .

كما يقف الشيخ عنــد قــول شوقى :

ونودى اقرأ تعالى الله قائلهــا
لم تتصل قبل من قيلت له بفم(٢)

لينفى اعتــراضا يتضح مــن قوله : ان خطاب الله تعالى لنبيه عليه السلام بقوله : «اقرأ باسم ربك» لم يتنزل على بشر قبله ، ولم يجربه فم انسان قبل أن يوحى اليه ، وان خوطب الأنبياء قبله بغير هــذا الخطاب ، كخطاب الله تعالى لموسى عليه السلام : « خذ ما آتيتك وكن من الشاكــرين » وليحيى عليــه السلام « يا يحيى خــذ الكتاب

(١) وضح النهج ص ٢٢

(٢) وضح النهج ص ٤٥

بقوة » وغير ذلك مما وقع بـــه الخطاب للأنبيـــاء صــلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين .

واذ قال شوقي عن البراق :

جبت السموات او ما فوقهن بهم
على منــــورة درية اللجم (١)

اذا قال شــوقي ذلك استدرك الشيخ فقال : يريد بقوله « منورة درية اللجم » البراق ، والوارد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب البراق الى بيت المقـدس ، أما عروجه الى السماء فلم يـكن على البراق على الصحيح كما يقول عند قول شوقي :

وصاحب الحوض يوم الرسل سائلة
متى الورود وجبريل الامين ظمي (٢)

يقول : ان الملائـكة لا تظمأ ، فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه ، وهو الطلب للناس بمعنى أن حاله تقتضي اشفاقا على حالهم لما يرهقهم مــن شدة الظمأ . وحرج الموقف .

فليت شعري أين الأديب الناشيء عبد العــــزيز البشري من هــذا كله ؟

لقد كان الدكتور زكي مبـارك طالبا بالأزهر لعهد الاستاذ الأكبر الشيخ سليم البشري ، وكان يعلم تمام العلم أن كبار الشيوخ حينئذ لم يكونوا يتباهـــون بالتأليـف المطبوع بل كانوا يقررون القاعدة العلمية في الدروس ويعقبون عليها بالاعتراضات ويتركون للطلاب أن ينقلوا ما يقررون دون ان يهمــوا بطبع ما يقال ، وكل كتاب شرحـه هؤلاء الكبار كان مصدر تعليقات علمية قيلت في الدرس ، ودونهـا نبغاء الطلاب ممن يستطيعـــون مسايرة الاستاذ ، وما جـال في ذهن أحد من هؤلاء الأعـلام أن يتباهى بعرض اعتراضاته العلميـة في مؤلفات ؛ فلم يقبـل الاستاذ الأكبر ان يضـع اسمه على شرح كتبه ولده الناشيء ؟ وهو مـن هو في عين نفسه وفي عيـون الناس ؟ وهل يضيف ذلك قليلا أو كثيرا الى مجده العلمي ، وهــو محدث أصولي فقيه ! !

لشد ما يحضرني قول أبي العلاء في ختام هذا المقال :

لاتظلموا الموتى وان طال المــــدى
اني اخـاف عليكمو ان تلتقـــوا

دكتور محمد رجب البيومي

---

(١) وضح النهج ص ٦١

(٢) وضح النهج ص ٢٧

من أسرار الفريضة الخاتمة

لفضيلة الشيخ معوض عوض ابراهيم

فى آيات من القرآن الكريم ، وفى أحاديث النبى صلى الله وسلم وأقواله ما يكشف النقاب عن جوانب ذوات عدد من أسرار الله تعالى وحكمه فى مشروعية الفريضة الخاتمة لتكاليف الله للأمة الوارثة .

ولا يكاد المرء يملى لعقله قليلا فى قوله تعالى :

« الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » . البقرة .

حتى تطالعه لأول وهلة كلمة « الحج » وقد تكررت ثلاث مرات فى جمل قليلة الكلمات ، فاذا روى المرء لعقله فى ذلك مرة أخرى تبين له وجه من وجوه الاعجاز فى كتاب الله ، فان للكلمة فى كل مرة تكررت فيها معنى يتضح ، وتقدم به وبأخويه حجة الرءوف الرحيم بعباده .

فالكلمة فى أول الآية تحديد لزمان الحج ـ على أشهر ما قيل ـ مما كان معروفا عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن ، وكان الخطاب بذلك اليهم أو الأمر وهم أصحاب لسانه وقد عينه الفقهاء استخلاصا مما صح لديهم نقله عن صاحب الشرع صلوات الله عليه ، وعمن أخذوا عنه ، ومن بلغوهم ذلك .. عينه الخاصة بشوال ، وذى القعدة وذى الحجة كله أو أيام منه تنتهى بأيام التشريق .

وتذكر كلمة « الحج » مرة ثانية مقرونة بطائفة من الآيات ، التى هى فضائل فى كل زمان ومكان ، ولكنها تكون أوجب على من يفد على بيت الله ، وليغشى على مولاه رحماه ، وهل تصدق « لبيك اللهم لبيك » ممن لم يتأدب بآداب ربه ، وهو — فى أقل القليل — يستظل بظلاله ، ويطمع فى رحمته وكرمه ونواله .

واذا كان الانسان السوى يحترز من اقتراف ما لا يليق بمجالس الآباء ، من أقوال وافعال ، ويدير الكلمة فى فيه مستشيرا لها مرات ومرات قلبه وعقله قبل أن تنفرج لها شفتاه ، وينطلق بها لسانه ، وتنكشف عنه — والمرء مخبوء تحت لسانه — كما يقولون .

فان بيت الله وما حوله من مشاعر الحج أحق بأضعاف هذا التحرز والتصوف والاحتشام من الفحش ودواعيه ، ومن الخروج على حدود الشرع ، وما تستلزمه من تقوى الله ومراقبته ومن المراء والأخذ والرد فيما تبين فيه وجه الحق ، كما قال ربنا جل شأنه : « ولا جدال فى الحج » .

وكم تضيق صدور أقوام فى الأسفار ، وتضعف قوة احتمالهم للظروف التى تلازم الاغتراب ، من اختلاف مألوف طعامهم وشرابهم ، ومعتاد ثيابهم ، وان كانت الأسفار بطبيعتها أكبر معلم ، وأقوى ملهم ، حين تصحبها خشية الله ، لكثير من الفضائل ، وخصال الخير ، والعلم بما يقوم بين الجماعات من فوارق ، والحج فى قمة تلكم الأسفار .. ألسنا نستجيب فيه لحق الله على المكلفين الا نتلاحم فيه واخواننا الذين أرادوا من الحج مرادنا ، واجتهدوا فيه اجتهادنا ، وتركوا له أوطانهم وأولادهم كما تركنا أوطاننا وأولادنا ؟! ألم تجمعنا الأعمال والأحوال ، وبخاصة الثياب ، على صدرة لا يبقى معها — ولو الى حين — سلطان لذى سلطان ، ولا لقب لذى لقب ، ولا نسب لذى نسب ؟! فقد ارتفع على كل ذلك سلطان الايمان

ولقب العبودية للواحـد الديان ، ونسب « ان أكـــرمكم عند الله أتقاكم » .

فكيف يجفو فؤاد حـــاج أو يعنف فعله ، أو يذهب غافلا عمـا استهدفه من رضـوان الله ، الى معصيته والخلاف عن أمره تبارك وتعالى .

ان الارتحـال والانتقال خلال الديار نافعان فى وصل الحاضر ، بالماضى ، واستلهـام العظات التى هى قبس من سير الأولين ، برهم وفاجرهم ، ومؤمنهم وكافـرهم ، على ضوئه نسير ، ويسير الأخلاف .. وتلك أمور يحرص المؤمنـون عليها فى اسفارهم ، بذواتهـم ، واتصـالهم بخـواطرهم وأفكارهم بأول بيت وضع للناس فى مـكة مباركا ، وجعله الله مثابة للنـاس وأمنا ، وتتابعت فيه ومـن حـوله رعاية الله ؛ فقـد هاجـر ابراهيم باسماعيل وأمه هاجـر ــ عليهـم السلام ــ الى واد غير ذى زرع ، وجعل الله أفئدة النـاس فى أى جانب على ظهر هذا الكوكب تهوى اليه حتى جاء الدنيا نبينا محمـد صلى الله عليه وسلم بخير ما جـاء به نبى قومه من لدن ربه ، وترك رحمة الله المهداة الدين الخاتم الى البشرية بأسرها ، أجمع شريعة ، وأرفع نظام ، وأمثل أسوة فى أعماله وأعمال الذين آمنوا معه ، وهذا عبد الله بن عمـر بن الخطـاب رضى الله عنهما ، واحد مـن طلاب مدرسة الوحى ، يتمثـل القرآن بكل مكان وعلى كل حال ويزداد له تمثلا وهو يرعى البـلد الحـرام والبيت العتيـق فيضرب خيامه خارج حدود الحرم ، ويطوف كل يوم ويصلى ثم يرجع الى خيامه ويبيت فيها ، خشية ان يهين أحـد غلمانه فيه أحـدا فيـكون بذلك واقعا فى قوله تعالى : « ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عـذاب أليم » . سورة الحج .

وانه لورع من عبد الله رضى الله عنه ، لا تخفى معـه ان استباحـة محارم الله فى البيت الحرام الحاد بظلم ، والالحاد فى الآية فى أصح معانيه هو الانخلاع عن دين الله ، والمعنى اللغوى للالحاد هو الملاحظ فى المعنى الشرعى ، وهو الكفـر

أو الشرك وفعل شيء مما حرمه الله ، وترك شيء مما أوجبه سبحانه .

ولقد أدخل بعض الفقهاء في الالحاد احتكار الطعام بمكة ، فان احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم ، وقد أخرج البخارى في تاريخه وأورده السيوطى في الدر بسنديهما عن عمر بن الخطاب موقوفا قوله :

« احتكار الطعام بمكة الحاد بظلم » .

ويا ويح الناس ، كم يظلمون في غير مكان ، ويشتطون في معاملة ضيوف الرحمن ، وفي مداخلتهم على غير أساس من العدل والاحسان ، واذا كان تاريخ الرفادة والسقاية قد غاب عن الناس ، ولم تفعل اصداء هذا التاريخ من القرآن والسنة فعلها في القلوب والأفئدة ، فانهم يرون - لا ريب - السهر الموصول ، والجهد المبذول من ولاة الامور في المملكة لابلاغ وفد الله امنه وسعته بكل منزل وجانب في المشاعر المقدسة والسبل الموصلة اليها .

وابن الجوزى رحمه الله في تفسيره أن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله ، سئل : هل تكتب السيئة أكثر من واحدة ؟ !

فقال لا ، الا بمكة ، لتعظيم البلد ! !

قال ابن الجوزى - وأحمد رحمه الله يرى فضيلة المجاورة بها - وقد حرص على ذلك نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، كجابر ابن عبد الله ، وابن عمر ، وانما الأمل يستحوذ على النفوس .. فاللهم عونك !

لكن - المجاورة - ياقومنا - لها آدابها وحقوقها بعامة ، وهي أوفر حقا لبيت الله الحرام « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » . الفرقان .

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » . الأنفال .

قال الزبير بن العــوام : لقــد قرأناها « آية الأنفال » ومــا نرى انا من أهلها ، فاذا نحــن مــن أهلها .

ويقول ابن الجوزى فى تفسيره لهذه الآية « أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أيديهــم أو بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب» .

وبعد ، فان من الحماقة بمكان أن يجهل المرء مــكانه وزمــانه واحــواله ، وأن لا ينفــق فى الصالحات امكانه فى أول فــرصة تواتى ، فالفرص لا تواتى دائما ، وهى حين لا تنتهــز للخير تخلف وراءهــا الغصــص والحسرات لا ريب .

وان فى ختام قــوله تعالى : « الحج أشهر معلومات » دعــوة الى التزود بالتقوى ، خيــر زاد ، وتذييلا بايجاب تقوى الله التى ان صد عن سبيلها الفارغون ، كمــا ينبغى أن يهملها العقــلاء الألبــاء فانا الى ربنا الرجعى ، حيث تجزى كل نفس بما كسبت ، فــلا تظلم مثقال ذرة .

أترضى أن تكون رفيق قوم
لهم زاد وأنت بغير زاد ؟ !

معوض عوض ابراهيم

« من اقوال الحكماء »

اذا سالت كريما حاجــة فدعه يفكر ، فانه لا يفكر الا فى خير ، واذا سالت لئيما حاجة فعاجله لئلا يشير عليه طبعه ان لا يفعل .

الوليد بن يزيد وتبعات الحكم

الأستاذ السيد حسن قرون

في سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة وفي يوم الأربعاء لست خلون من ربيع الآخر بويع الوليد ابن يزيد بالخلافة بعد وفاة عمه هشام بن عبد الملك ودعي أمير المؤمنين ، وخوطب بالامام في الشعر ، ولو نظر الذين بايعوه نظرة اسلامية لامتنعوا عن تلك البيعة ، ولأراحوا أنفسهم من العبث واللهو والمجون ، واشاعة المظالم بين أمة فتية لها مكانتها في عالمها وقتئذ ، اذ أن الخلافة الاسلامية توجب على متقلدها أن يكون عفيف اليد واللسان وجميع الجوارح ، وأن تكون التقوى حليته ، وحمل الأمانة مطلبه ، وأن يكون الايمان بالله ورسوله مظهره في كل مايأتي ومايذر من الأمور ، وأن يعد لذلك من صغره اعدادا سليما ، يشمل جسمه وعقله ووجدانه ، وأن يبصر بسيرة السلف تبصرة تملك عليه حواسه ، وتجعله يراهم أمامه في كل أمر يقدم عليه ، فلا تغيب عنه سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيرة خلفائه الراشدين ، وسيرة أقرب الناس اليه عمر بن عبد العزيز ، ولكنه نشأ في بيت يتسم بالتدليل والتهاون في شئون الدين ، فأبوه يزيد بن عبد الملك كان صاحب خلاعة ومجون ، واهتمام بالغواني والغناء ، وكم رام بنو عبد الملك حرمانه من الخلافة فكانوا يذكرون وصية أبيهم ، لأنه ابن عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، ولولا مسلمة أخوه كان بجواره أثناء حكمه لفسدت الدولة ودب فيها الوهن ، وفيه يقول أبو حمزة الخارجي من خطبة له مشهورة تحدث فيها عن عهود الحكم منذ رسول الله يقول

عنه : « ثم ولى يزيد بن عبدالملك الفاسق فى بطنه ، المأبون فى فرجه الذى لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله تعالى فى أموال اليتامى : « فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم » فأمر أمة محمد أعظم ، يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ، وقد ضربت فيها الأبشار (ظهور الرعية) وهتكت فيها الأستار ، وأخذت من غير حلها ، (حبابة) عن يمينه ، و (سلامة) عن يساره تغنيانه حتى اذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه ، ثم التفت الى احداهما ، فقال : ألا أطير ؟ نعم « فطر الى لعنة الله وحريق ناره ، وأليم عذابه » هذا الرجل هو الذى تربى فى حجره الوليد ، وقد كان الوليد فى الحادية عشرة من عمره حين ولى أبوه الخلافة ، ولا شك أنه رأى منه ما تحدث عنه أبو حمزة الخارجى ، بل رأى أباه حين ماتت حبابة يمنع دفنها ، وينكب عليها يتشممها أياما حتى أتننت ، وأجبر على دفنها ، فخرج بين يدى نعشها حتى اذا بلغ القبر نزل فيه ، ورجع الى قصره مريضا ولم تمض سبع عشرة ليلة حتى لحقها . فنشأ ابنه على غراره كلفا بالنساء ، مدمنا للخمر ، متهتكا فى رحلاته لا يصحب الا الماجنين ، وزاد الطين بلة عمه هشام ، اذ كان يكرهه وهو ولى عهده ، ويريد أن يجعلها فى ولده ، فأهمله اهمالا تاما كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن أمة محمد بلغ بها الهوان أن يكون على رأسها الفاسقون ، وقد أراد شيئا وأراد الله غيره ، فلم يتهيأ له على مدى عشرين عاما من حكمه أن يتخذ قرارا بخلعه من ولاية عهده ، شغل نفسه ومستشاريه وولاته بشأن الوليد واقصائه عن مجالسه ، وتشويه سمعته ، ومحاربة من يتصل به ، أو من يعارض أن ينقل العهد من شخص الى آخر حتى استهلك عقله وهو حصيف وجهده وهو جليل الى درجة أن هزيمة بلاط الشهداء شمال الأندلس لم تهزه ، فيرسل من عنده جيشا كثيفا يعيد الهيبة للمسلمين فى الأندلس بعد تلك الهزيمة التى صارت

حاسمة سنة ١١٤ هـ ، ولو وقعت الواقعة فى غير عهده لقلنا : ان الخليفة ضعيف الهمة واهن العزيمة أما أن تقع فى عهد هشام ثم لا يتحرك فتلك هى الطامة الكبرى، وأساسها فى نظرى شغله بأمر ولاية العهد .. نظر الوليد حوله فوجد قسوة بالغة بعد تدليل ، وجفاء غليظا بعد تقريب لطيف فترك نفسه على سجيتها ، وهو مهيأ لما انغمس فيه ، وانجرف اليه ، بل كان دائم التبدى ، يتخذ من الصحراء مثابة وأمنا معه خلطاؤه من مغنين وطلاب متع ، يسمعون الأغانى ويشربون ويعربدون ، ويتحدثون عن الأحول الخليفة هشام بما يرضى هوى ولى العهد ، وأخباره وآثاره تعمر مجالس هشام ، وينعتونه بأحط الألفاظ ، وأخوال هشام : محمد وابراهيم من بنى مخزوم يزينون خلعه ، وابن شهاب الزهرى يفتى بخلعه ، وعيون الوليد تبلغه مايحدث فى غيبته .

كتب هشام الى الوليد : ما تدع شيئا من المنكر الا ارتكبته ، فليت شعرى : مادينك ؟ فما أدرى على الاسلام أنت أم لا ؟ فكتب اليه الوليد ، وكان شاعرا مجيدا :

يايها السائل عن ديننا
نحن على دين أبى شاكر
نشربها صرفا وممزوجة
بالسخن احيانا وبالفاتر

وينبغى أن نذكر أن أبا شاكر المنوه به هو مسلمة بن هشام المرشح لولاية العهد بدل الوليد ، وكان يكنى أبا شاكر لرجل بهذا الاسم مولى لبنى أمية كان يتصف بالجد والرزانة والعمل الحميد ، ولذا غضب هشام على ابنه وابنه غير مسئول عن شعر الوليد وقال له : يعيرنى بك الوليد وأنا أرشحك للخلافة فالزم الأدب ، واحضر الصلوات .. وولاه موسم الحج سنة ١١٧ هـ فأظهر مسلمة النسك وقسم بمكة والمدينة أموالا ، فقال رجل من أهل المدينة :

يايها السائل عن ديننا
نحن على دين أبى شاكر
الواهب البزل (١) بأرسانها
ليس بزنديق ولا كافر

يعرض بالوليد . ولكن قولة الوليد مضت فغضت من مركز

(١) الابل استكملت الثامنة وطعنت فى السنة التاسعة الواحد بازل .

مسلمة ، بل ان خالد بن عبد الله القسرى أعلن فى فكاهة : لا يكون خليفة يكنى « أبا شاكر » فجلب عليه هذا القول العزل من ولاية العراق والتنكيل به ، مما أثار اليمانية على الخلافة ، ويذكر صاحب الأغانى أن خالدا القسرى قال : أنا برىء من خليفة يكنى أبا شاكر .

ولم يكن الوليد ليجبن فى موقف من المواقف ، بل كان جريئا يطالب بحقه ، ويدحض مقالة من يتصدى له ، وكم له من صولات مع مناوئيه ولو وجد من يقومه ويهديه ويزين له العمل الشريف لرجع الى الحسنى ، فقد كان يحسن الرد ، والهزء بمن يسخر منه ، وفى أخباره كثير مما جبه به خصمه لو كان الخليفة نفسه ، من ذلك أنه دخل يوما مجلس هشام وفيه سعيد بن هشام ، وابراهيم ابن هشام المخزومى خال الخليفة وأبو الزبير مولى مروان وليس هشام حاضرا ، فجلس الوليد مجلس الخليفة ، ثم أقبل على سعيد ابن هشام . فقال له : من أنت ؟ وهو به عارف . قال : سعيد : ابن أمير المؤمنين . قال مرحبا بك . ثم أقبل على أبى الزبير فقال : من أنت ؟ فقال أبو الزبير : مولاك أيها الأمير . فقال : مرحبا بك . ثم أقبل على خال الخليفة وهو يكن له العداء فقال : من أنت ؟ قال : ابراهيم بن هشام بن اسماعيل ، فقال : من اسماعيل ؟ فقال : اسماعيل بن هشام بن الوليد ابن المغيرة . فقال : من الوليد بن المغيرة ؟ والوليد بن المغيرة رجل عظيم عند بنى مخزوم وعند قريش فقال : الذى لم يكن جدك يرى أنه فى شىء حتى زوجه أبى ، والخليفة بعض ولد ابنته . فقال الوليد : يابن اللخناء ثم تصارعا وأقبل هشام فقيل لهما : قد جاء أمير المؤمنين ، فجلسا وكفا . قال الرواة ، فما كاد الوليد يتنحى عن صدر مجلسه الا أنه زحل له قليلا . فجلس هشام وقال : كيف أنت ياوليد ؟ قال : صالح . قال : مافعلت برابطك ؟ قال : معسلة . قال : فما فعل ندماؤك ؟ قال صالحون ، ولعنهم الله ان كانوا شرا ممن

يحضرك . فقال هشـــــام : يا بن اللخناء ، جثوا عنقه أى اضربوه ، فلم يفعلوا ودفعوه رويدا . فقـــال الوليد :

انا ابن ابى العاصى وعثمان والدى
ومروان جـدى ذو الفعال وعامر
انا ابن عظيم القريتين عزهـــا
ثقيف ، وفهر والعصـــاة الاكابر
نبى الهدى خالى ومن يك خاله
نبى الهـــدى يفخـــر به ويكاثر

واذا نظرت الى فخـره وجدته صادقا كل الصدق ، فقد حـوى نسبه المجد من جميع أطـــرافه ، فأبو العاصى جده فهو الوليد بـن يزيد بن عبد الملك بن مروان بـن الحكم بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومروان جده وهو خليفة وعامر من بنى عبد شمس وقرابته ترجـع الى أمهات عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، ومن هذه الامهات من تصل به الى أروى أم عثمان بن عفان ، وأروى بنت البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ، ولهذا عد النبى صلى الله عليه وسلم من أخـواله وعثمـــان من آبائه ، وفهر هو قريش . أما صلته بعظيم القريتين فيرجـع الى أمـــه فهى (أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفى) وهى بنت أخى الحجـــاج والى العراقين وينتهى نسبه مـــن جهة أمه الى عروة بن مسعـــود الثقفى ، وهو عظيم القريتين .

وفى القرآن الكريم : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم » والقـــريتان مكة والطـــائف ، وعظيم مـــكة (الوليد بن المغيرة) وعظيم الطائف (عروة) وكان المنتظر ممن يحمل على كتفه هذا النسب العـــريق والحسب الحسيب أن يكون على مستوى المسئوليـــة العظمى ، وأن يكون له ممـــن ذكـــرهم نصيب ولكنه تركهم وما أتوا به من أعمال كبار الى مذهب أبيه ، وديدنه فى حب الغانيات وما يلزمهن من غناء وطرب ، وصحاب ليس لهم مـــن الدنيا أدب الا معاقـــرة الصهباء ، والتغنى بها فى البدو والحضر .

ومن محاورة هشام وولى عهده يتبين لك أن بطانة الخليفة موضع للطعن كما أن بطانة ولى العهـــد مظنـــة اللـــوم والمؤاخـــذة

فكل بطانة همها دوام ما فيه من عيش ، ومن ثم كان الرياء من شيم البطانتين ، احداهما تزين للخليفة موقفه من ولاية العهد والحكم والأخرى تدفع بالوليد الى المزيد من الفسوق والخلاعة ، وكلتاهما دون قصد تضرب ملك بنى مروان فى صميم المقاتل ، فالناس قريبو عهد بالحكم الجاد والانطلاق نحو الشعوب لنشر راية الاسلام ، وبث العدالة فى جميع الآفاق ، وأول نذر الظلم من هشام لابن أخيه أنه حرمه مخصصاته المالية ، اذ كان لكل أمير عطاؤه كما أن لجميع ابناء القبائل حقا فى الأموال تصل اليهم فى المدائن والقرى ، بل ان الموالى جعلوا كالعرب فكان لهم اعطياتهم ، فأفرد الوليد بالحرمان ، والحجة أن له أصدقاء سوء ينفق عليهم فيما حرمه الدين ، وكان الواجب الدينى حسب ما كان على عهد عمر أن يقدموا للمحاكمة ومن ثبت عليه شرب الخمر أقيم عليه الحد كما فعل عمر بن الخطاب مع ابنه عبد الرحمن ، لا أن يحرم حقه فيما اقتضته سياسة الدولة ، ولو أحصيت أصحاب الوليد لوجدتهم يعدون على أصابع اليد الواحدة ، ولكنهم مع تبذلهم يملكون عقولا راجحة ، وثقافة واسعة ، وعيبهم الوحيد وهو جماع المنكرات اتباع الوليد فيما يهتف به ، ويعيش له ، منهم عبد الصمد مؤدبه ، وابن سهيل كاتبه ، وعمر الوادى مغنيه ، وقد ينضم الى من ذكرت ابن عائشة ومعبد، وهؤلاء المذكورون يصلحون للحياة العامة ولا يصلحون جلساء لخليفة أو ولى عهد .

ولم يسكت الوليد فكتب الى عمه يذكره بحقه ، وينذره بعقاب الله له ، ويدعوه الى النظر فيما قضى به ليراجعه ودعا له بالتوفيق وكعهده ختم الكتاب بشعر من تلمه منه :

أليس عظيما أن أرى كل وارد
حياضك يوما صادرا بالنوافل ؟
وأرجع محمود الرجاء مصردا
بتحلئة (١) عن ورد تلك المناهل

---

(١) منع .

فكان الرد من هشام انه قطع عنه أرزاقه تقربا الى الله تعالى ، ونوه بابن سهيل قائلا : « وهل زاد ابن سهيل لله أبوك» على أن كان زفانا(٢) مغنيا قد بلغ من السفه غـــايته » ونصحه بالكف عما هو فيه ، وكتب في أسفل الكتاب :

اذا انت سامحت الهوى قادك الهوى
الى كل ما فيـه عليـك مقـال

وقد كان يحسن أن يضم اليـه ابن أخيه ويجعل نصيحتـــه سرا ويدفعه الى الجد دفعا ، ولا يترك لهؤلاء الملتفين حوله مجالا ، واذا كان الوليد قد ابتلى بجفاء عمه ، ورفقة السوء التى لا تفارقه ، فقد كان سيىء الحظ فى زواجه ، أو قـل هو سبب نكبته فى زواجه وكيف كان ذلك ؟ قال الـــرواة : تزوج الوليد وهو فى شرخ الشبـــاب « سعدة بنت سعيد » حفيـــدة عثمان بن عفان ، وكانت جميلة . ومرض أبوها سعيد فأتاه الوليد عائدا فدخل فلمح « سلمى بنت سعيد » أخت زوجتـــه ، وكانت فارعة فوقعت فى قلبه . كان ذلك فى عهد أبيه فلما مات طلق زوجته سعدة ، وخطب سلمى الى أبيها ، وتدخلت أخت لهما ثالثة كانت زوج هشـــام فبعثت الى أبيها : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك ؟ يطلق هذه وينكح هذه ، فلم يزوجـــه سعيد ، ورده أقبح رد .

ولكنه ندم ، وتبين له أنه يحب زوجته المطلقة ، وراسلهـــا وقـــد تزوجت غيره ، وهـــذا يدلك على هوجه وهوسه وجنـــون شبابه . بل لجأ الى حيلة للتأثير عليها ، ولا بأس من ذكـــرها . بعث الى أشعب المضروب به المثل فى الطمع فقال : يا أشعب ، لك عندى عشرة آلاف درهم على أن تبلغ رسالتى سعدة . فقال : أحضر عشرة الآلاف درهم حتى أنظر اليها ، فأحضرها الوليد ، فوضعهـــا أشعب على عنقه ، وقال : هات رســـالتك . فقال : قل لها :

اسعدة هل اليك لنا ســـبيل
وهل حتى القيـــامة من تلاق
فاصبح شامتا ، وتقــر عينى
ويجمـــع شملنا بعـــد الفراق ؟

فأتى أشعب الباب ، فأخبـــرت بمكانه ، فأمرت بفرش لها ففرشت

---

(٢) راقصـــا .

وجلست فأذنت له ، فلما دخل أنشدها الرسالة . فقالت لخدمها : خذوا الفاسق . فقال : ياسيدتي، انها عشرة آلاف درهم ، فقالت والله لأقتلنك أو تبلغه كما بلغتني. قال : وما تهبين لي ؟ قالت : بساطي الذي تحتي ، قال : قومي عنه فقامت وطواه . ثم قال : هاتي رسالتك . قالت : قل له :

ابكى على لبنى وانت تركتها
فقد ذهبت لبنى فما انت صانع ؟

ووصل الى الوليد برسالتها ، فأنشده البيت . فقال : أوه قتلتني يا بن ... ، اختر اما أن أدليك على رأسك منكسا في بئر أو أرمي بك من فوق القصر ، أو أضرب رأسك بعمودي هذا ضربة ، هذا الذي أنا صانع . فقال :ما كنت لتفعل شيئا من ذلك ، قال : ولم ؟ قال أشعب : ما كنت لتعذب عينين نظرتا الى سعدة . قال : صدقت والله ، أفلت والله . اخرج عني .

وقد فعل ما هو أخزى مع سلمى التي رد عن خطبتها يقول أبو الفرج في الأغاني : ذكر أن الوليد بن يزيد خرج يوما يتوقع أن يرى سلمى أخت سعدة فلقيه زيات معه حمار عليه زيت فقال : هل لك أن تأخذ فرسي هذا وتعطيني حمارك وما عليه وتأخذ ثيابي وتعطيني ثيابك ؟ ففعل الزيات ذلك . وجاء الوليد وعليه الثياب وبين يديه الحمار يسوقه متنكرا حتى دخل قصر سعيد ، فنادى : من يشتري الزيت ؟ فاطلع بعض الجواري فرأينه ، فدخلن الى سلمى فقلن لها : ان بالباب زياتا أشبه الناس بالوليد ، فاخرجي فانظري اليه ، فخرجت فرأته ورآها ، فرجعت القهقرى وقالت : هو والله الفاسق الوليد وقد رآني . فقلن له : لا حاجة بنا الى زيتك ، فانصرف وهو يقول شعرا . وسيكون له معها شأن بعد أن يتولى الخلافة .. كل هذا كان يفعله ، وهو ضيق الصدر ، تائه العقل ، ضيئل الصبر ، قد حاصره الخليفة وضيق عليه وحرمه المال والراحة والسكينة وجعل حرمانه قربانا لربه ، ثم هو لا يأوي الى بيت مستقر يجد فيه زوجا تنتظره، أو رفيقة تعينه وتفسح له الأمل

فعول على أن يهرب ، أن يهرب الى الصحراء فاستدعى كاتبه أبا الزبير المنذر بن عمرو فلباه فقال له يا أبا الزبير ، ما أتت على ليلة أطول من هذه الليلة ، عرضت لى أمور ، وحدثت فيها نفسى بأمور ، وهذا الرجل — يعنى الخليفة — قد أولع بى فاركب بنا تتنفس ، قال أبـو الزبير : فركب وركبت معه ، وسرنا ميلين ، ووقف على تل ، وجعـل يشكو هشاما اذ نظر الى رهج قد أقبل وسمع قعقعة البريد ، فتعوذ بالله من شر هشام ، وقال : ان هذا البريد قد أقبل بموت وحى ، أو بملك عاجل . فقلت : لا يسوءك الله أيها الامير بل يسرك ويبقيك أبدا ، اذ بدا رجلان أحدهما مولى لآل أبى سفيان بن حرب فلما قربا رأيا الوليد ، فنزلا يعدوان حتى دنوا فسلما عليه بالخلافة ، فوجم ، وجعلا يكـرران عليـــه التسليم بالخلافة . فقال : ويحكما ! أمات هشام ؟ قالا : نعم . قال : فمرحبا بكما ما معكما ؟ قالا : كتاب مولاك سالم بن عبد الرحمن وسأل عـن عياض بن مسلم كاتبـه . فقالا : لم يزل محبوسا حتى نزل بهشام أمر الله . وتقول الرواية ان عياضا حين علم بما نزل بهشام أمر الخزان ألا يتصرفـوا فى أى درهـم أو دينار ، وخرج من السجـن فختم الأبواب والخزائن ، وأمر بهشـام فأنزل عن فراشه ومنعهم أن يكفنوه من الخزائن ، فكفنه غالب مولى هشام ، ولم يجدوا له اناء مـن نحاس حتى استعاروه .

وقد عبر عما جرى هشـام فى آخر لحظة فى حياته اذ قال : « أرانا كنا خزانا للوليد » ويعقب صاحب الأغانى على هذا بقوله : « ذكـر أن هشام بن عبد الملك كانت تحمل ثيابه على اربعمائة ظهر ، وأفضى الحال عند موته الى أن لم يوجد له كفن حتى كفنه « غالب » هذا . فسبحان من لا يزول ملكه .

تولى الوليد بن يزيد الخـلافة وعيون الناس ناظرة اليه ، متوجسة منه خيفة ، لا يرونه أهلا للحكم ، وقد نجحت فيه دعاية عمه فجعلته موضع الطعن والزراية عليه ، ولو كان موفقا لأقلع عما رمى به ، وذاع

عنه ، فأظهر العدل والصفح وسلك سبيل من افتخر بهم ممن انتسب اليهم من السادة الجحاجح ، والولاة الأماثل ولا سيما رسول الله سيد الخلق صلوات الله عليه • ولكنه كان يحمل قلبا مفعما بالحقد ، تواقا الى سفك الدماء ، نظارا الى شيء غيره ، متجها الى ارضاء نفسه ، والنفس أمارة بالسوء ، فكان أول أمر أصدره الفتك بخالي الخليفة : محمـــد وابراهيم ابني هشـام المخزومي ، أمر بتعذيبهما وقتلهما واستقبل خلافته بشكر النعمـــة وشكرها سكرة قبل الظهـر على أبيات له تغنى هي :

طاب يومي ولذ شرب الســلافه
اذ أتانا نعي من بالرصافـــة
وأتانا البريد ينعي هشــاما
وأتانــا بخــاتم للخلافــة
فاصطبحنا من خمر عانة (١) صرفا
ولهــونا بقينة عزافــة

وبعث الى جماعة من أهله فلما حضروا قال : أتدرون لم دعوتكم ؟ قالوا : لا • قال : ليقل قائلكم ، فقال رجل منهم : أردت يا أمير المؤمنين أن ترينا ما جدد الله عـز وجل لك من نعمـــه واحسانه • فقال : نعم ولكن :

اشـــهد الله والملائكة الابرار
والعــابدين أهل الصـــلاح
انني اشـتهي الســماع وشرب
الكاس والعض للخدود المـلاح
والنديم الكريم والخـادم الفاره
يسـعى الي بالاقـــداح

قوموا اذا شئتم ، ولا شك انهم قاموا يحمـلون حـزنا وألمـا ، وينظرون الى مستقبل مخيف لدولتهم ومكانتهم ، فان أعداءهم في ذلك الحين يتربصون بهـــم الدوائر ، ويثيرون الشعـوب ضـدهم ، ويشهرون فسقهـم وجـورهم ، وليس هناك أشنع مما يصنع الوليد ومن الغريب أنه يذكر المجـــون مقرونا بالامامة • يقول والشعـر يروى :

اشرب الـراح واهـــوى
كـل مقصــور الذؤابـــه
انــا للنــاس امــام
غــير أني ذو صـــبابه

ويخرج على المألوف من أمثاله ، فيستخدم نفوذه في زواجه بسلمى بنت سعيد ، وقد رد عنها حيـن كان ولي العهد فلما صـار أميـر

---

(١) بلد على الفرات مشهورة بالخمر .

المؤمنين أجبر أباها على قبوله زوجا لها ، وزفت اليه ، ولكن الله حرمه اياها فلم تلبث معه الا مدة يسيرة حتى ماتت

وكل أفعاله وأقواله تدنيه سريعا من الهاوية ، بنو أبيه ينكرون ما يأتيه ، وخصوم بنى أمية يحصون ما يقوله وما يفعله وهو لا يكف عن العبث ، وكأنه موكل بالاساءة الى نفسه ، وما تزال الدولة الاسلامية فى غضاضة البداوة لم تصبها عقابيل الحضارة وكأنه وجد فى زمن غير زمانه ، ويروى عنه أشياء لو صحت لكان من أكبر العصاة وفى مقدمة أئمة الكفر فحادثة تمزيق المصحف لو صحت هى وحدها كفيلة باهدار دمه ، فكل الكتب التى أرخت لخلافته القصيرة ، وكتب الأدب ذكرت أن الوليد دعا ذات ليلة بمصحف فلما فتحه صادف ورقة فيها :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد » .

فقال : أسجعا علقوه : ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه . ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد
فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر
فقل يارب : مزقنى الوليد

ويروون عن تهتكه فى خلافته أنه واقع جارية من جواريه وهو سكران فلما فرغ منها آذنه المؤذن بالصلاة فحلف ألا يصلى بالناس غيرها ، فخرجت وهى متلثمة فصلت بالناس .

وبعث الى « شراعة بن الزندبوذ » وهو من المجان الندماء فلما قدم عليه : قال ياشراعة ، انى لم أحضرك لأسألك عن العلم ولا لاستفتيك فى الفقه ، ولا لتحدثنى ولا لتقرئنى القرآن . فقال له شراعة : لو سألتنى عن هذا لوجدتنى فيه حمارا . قال الوليد : كيف علمك بالفتوة ؟ قال : ابن بجدتها ، وعلى الخبير بها سقطت ، فسل عما شئت . قال : كيف علمك بالأشربة ؟ قال : يسألنى أمير المؤمنين عما أحب . قال : ما قولك فى الماء ؟ قال هو الحياة ويشركنى

فيه الحمار . قال فاللبن ؟ قال : ما رأيته قط الا ذكرت أمي فاستحييت . قال : فالخمر ؟ قال : تلك السارة البارة وشراب أهل الجنة . قال : لله درك . قال : فأى شيء أحسن ما يشرب عليه ؟ قال : عجبت لمن قدر أن يشرب على وجه السماء فى كن من الحر والقر كيف يختار عليها شيئا ؟

وزاد على ذلك أنه عربد ليلة على منادمه فقتله ، واسم منادمه القتيل : القاسم بن الطويل العبادى وكان أديبا ظريفا شاعرا ، وقد ندم حين صحا من سكره وأخذ فى رثائه ، ويكرر بين جواريه ما أبالى متى جاءنى الموت بعد ابن الطويل .. والموت يتربص به ولا يتركه لفساده .

اجتمع على عداوة الوليد من يعملون للدنيا ومن يعملون للآخرة كما شارك فى قتله بنو أبيه وبنو خصومه وطلاب الثأر منه ، وكان أحفاد عبد الملك جلهم ضده وفى مقدمتهم أبناء هشام ، وكان أشد الناس عداوة له ، وأقواهم فى السعى الى الوثوب عليه وقتله ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فانه كان متعبدا ينكر الفسوق والانحراف عن السلوك الحميد ، فدعا الى البيعة لنفسه ، فمشى الى أخيه « العباس بن الوليد » وكان امرأ صدق ، وكان أحرص بنى أمية على الاتفاق والنفور من الشقاق ، والعمل على وحدة البيت المالك ، ولذا لم يقبل ما دعاه أخوه اليه من الخروج على الوليد وقتله ليكون غيره خليفة بعده ، وكم حذر من الخلاف ، وأنه سبيل الادالة من بنى مروان . ولكن يزيد جد فى أمره وجمع الأعوان حوله ، وأخذ يتنقل فى المدن والبوادى ليضمن النصر لنفسه عند الوثوب . جاء من جرود الى دمشق فنزل ومن معه على مولى لعباد بن زياد ثم تناولوا الطعام عنده ، ومضوا مشاة الى المزة الى معاوية بن مصاد ، ثم خرج الى دمشق ، وصلى العشاء هو وأصحابه ، وناموا بالمسجد وراسلوا أصحابه فى جميع الأنحاء فلما طلع الصباح وأقبل الناس على

يعته واستمرت الوفود الى الظهر، تمثل بقول النابغة مشيـــرا الى جنده :

اذا استنزلوا عنهن للطعن ارقلوا
الى الموت ارقال الجمال المصاعب

فجعـل أصحـابه يتعجبـون ويقولون : انظـروا الى هذا كان قبيل الصبـح يسبح وهـو الآن ينشد الشعر ، ثم أمر ابن عمه عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فوقف بباب الجابية فنادى : من كان له عطاء فليأت الى عطائه ، ومن لم يكن له عطاء فله ألف دهم معونة ، فبايع له النـاس وأمـر بالعطاء وتجمع له جيش كبير سار به الى الخليفة الوليد وهو بقصره بموضع يقال له البخراء بالبـرية وكان العباس بن الوليد غير راض عن تلك الثورة ولكن عبد العزيز ابن الحجاج أمسـك به وقال له بايع ليزيد ، فبايع مكرها ووقف ونصبت راية . وقالوا : هـذا العباس قد بايع ، ونادى المنادى : من لحق بالعباس بن الوليد فهـو آمن . فقال العباس : خدعة شيطان انا لله هلك والله بنو مـــروان .

فتفرق الناس عن الوليـــد وأتوا العباس ، وأراد الوليـد القتـال فلبس الدروع ولكنه لم يجـد حوله من يقف بجانبه ، وتنادى الناس بقتله ورموه بالحجـارة ، فدخل القصر وأغلق بابه ، وأخـذ ينشد شعرا منه :

خـذوا ملكهم لاثبت الله ملكهم
ثباتا يسـاوى ما حييت عقـالا

وأغرب ما يروى عنه أنه حيـن أغلق بابه قال لعمر الوادى ياجامع لذتى غننى بهذا الشعر فغناه به ، والجنود تحيـط بقصره وأراد أن يخاطب من تجمعوا من وراء الباب فقال : أما منكم رجل شريف لـه حسب وحياء أكلمه ؟ فقال له يزيد بن عتبـة السكسكى : كلمنى ، فقال الوليد : يا أخا السكاسك ، مـا تنقمـــون منى ، ألم أزد فى أعطياتـكم وأعطيـة فقـرائكم ؟ وأخدمت مزناكم ، ورفعت عنـكم المؤن ؟ قال : ما ننقم عليـك فى أنفسنا شيئا ، ولكن ننقم عليـك انتهاك ماحرم الله وشرب الخمور، ونكاح أمهـــات أولاد أبيـك ، واستخفافك بأمر الله عز وجل .

فقال : حسبك يا أخا السكاسك، فلعمرى لقد أغرقت وأكثـرت ،، وان فيما أحل الله سبحانه لسعـة عما ذكرت .. ورجع الى داخـل قصره يائسا فجلس وأخذ المصحف وقال : « يوم كيوم عثمان » ونشر المصحف يقرأ ولم يصبـر عليـه الثوار ، فتسلقوا الحائط ، وكان أول المتسلقين يزيد بن عنبسةفنزل وسيف الوليد الى جنبه ، فقال له يزيد : نح سيفك . قال الوليد : لو أردت السيف لكانت لى ولك حال غير هذه فأخذ بيده وهو يريد أن يدخل به بيتا ويؤامر فيـه ، فنزل من الحائط عشرة منهـــم منصور بن جمهور وعبد الرحمن ابن رواحة مولى يزيد بن عبدالملك والسرى بن زياد بن أبى كبشة ، فضربه ابن رواحة على رأســه وضربــه السرى عـلى وجهــه ضربة ، وجروه ليخرجوه فصاحت امرأة بالدار فكفوا عنه ، واحتـز رأسه أبو علاثة القضاعى ، وقدم بالرأس على يزيد بن الوليد بـن عبد الملك وهو بدمشق روح بـن مقبل فقال : أبشر يا أمير المؤمنين بقتل الفاسق فأحسن صلته .

قال ابن عبـد ربه فى العقـد الفريد : قتل بالبخراء من تدمـر على ثـلاثة أميـال يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخـرة سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن خمس وثلاثين سنة وكانت ولايته سنة وشهـــرين واثنين وعشرين يوما .

وكان مقتله ايذانا بمقتل بنـى أمية ، وما ربك بظلام للعبيد .

السيد حسن قرون

مبادئ الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الإسلامية

للواء محمد جمال الدين محفوظ

يقرر العلم العسكرى مبدأ يقول : « يؤسس القائد خطته فى الميدان على ما لديه من معلومات ، وكلما كانت المعلومات وافية ودقيقة ، كان الامل فى نجاح الخطة كبيرا . لذلك فمن الواجبات الضرورية لجميع القادة اتخاذ كل ما من شأنه أن يزودهم بالمعلومات عن العدو ونواياه وحركاته الى غير ذلك من المعلومات .. » .

ولقد عنيت المدرسة العسكرية الاسلامية بالاستطلاع وقررت له عدة مبادىء تقترب منها المبادىء المعمول بها فى الاستطلاع فى الحرب الحديثة .

ونستطيع أن نستخلص مبادىء الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الاسلامية من تحليل السرايا والغزوات التى جرت فى عصر النبوة ، وقد اخترنا منها بعض الأمثلة التى برزت فيها هذه المبادىء بوضوح وجلاء .

سرية عبد الله بن جحش :

فى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش الأسدى ومعه ثمانية من المهاجرين ، وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحدا .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين ، فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فاذا فيه :

... اذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل « نخلة »

(بين مكة والطائف) فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من اخبارهم» .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : « سمعا وطاعة » ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى الى نخلة أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منها بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد .

سيرة ابن هشام :

ولعل أهم ما نلاحظه أن بعث هذه السرية جاء على رأس سبعة عشر شهرا من مقام المسلمين فى المدينة بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى بشهرين ، تلك الغزوة التى تعد أول صدام مسلح له أبعاده وآثاره الاستراتيجية فى الصراع الطويل بين الاسلام وأعدائه ، من أجل ذلك فان هذه السرية ذات أهمية ترجع الى أمرين :

الامر الأول : ان الظروف والأحوال الاستراتيجية التى سادت شبه الجزيرة قبل تنفيذها تكشف عن أفق مشحون بالتربص ونذر الخطر وبالنوايا العدوانية ضد المسلمين سواء من ناحية قريش أو المشركين من الأعراب المجاورين للمدينة أو مشركى ومنافقى المدينة أو من ناحية اليهود .

والامر الثانى : ان هذه السرية تعد — من وجهة نظر العلم العسكرى — عملا من أعمال الاستطلاع الحربى ، يكشف لأول مرة عن كثير من مبادىء الاستطلاع فى المدرسة العسكرية الاسلامية ، ويبرز الدور الخطير الذى يؤديه الاستطلاع فى تحقيق الأمن للأمة الاسلامية .

مبادىء الاستطلاع :

أولا : الاستطلاع ضرورة حيوية :

وأول هذه المبادىء هو أن الاستطلاع ضرورة حيوية سواء للتخطيط الاستراتيجى أو لادارة المعركة ، وأنه لا بد أن يسعى القائد الى معرفة أكبر قدر من المعلومات

عن عدوه من حيث كفاءته القتالية وأسلحته ، وأساليبه فى القتال ، وعن مصادر قوته من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وعن أهدافه ونواياه .. الى غير ذلك من المعلومات .

يقول الاستاذ عباس العقاد (١): « أما غرض البعثة كلها (أى سرية عبد الله بن جحش) وهو الاستطلاع ، فقد كان النبى عليه السلام عليما بمزاياه معنيا به غاية العناية ، يحسب العدو المجهول ، كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، فى حصن من الجهل به ، قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى ، ويحول من ثم دون الانتصار عليه .

والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حيث أصيب فى وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس ، وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم « فى الحرب العالمية الثانية » .

فمن أسباب هزيمة نابليون اهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع . ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه .. أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة . فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم.. واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع أخبار القوم اذ خيل اليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب

---

(١) عبقرية محمد ــ ص٤٣

الاغارة عليه لنصرة المغير كائنا من كان ، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي ، وهو عنصر الجرمان .. ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطىء قط مثل هــذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم ــ كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثال الباقية ــ ان دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين » .

ثانيا ــ الكتمان والسرية في الاستطلاع

وهذا هو المبدأ الثاني من مبادىء الاستطلاع الذي نستخلصه من تأملنا لتعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم الى عبد الله بن جحش حيث نلاحظ ما يلي :

١ ــ ان عبد الله بن جحش وأصحابه كانوا لا يعلمون عن أمر مهمتهم شيئا حتى ولا الدور الذي سيقومون به .

٢ ــ أن أحدا منهم بما فيهم الأمير ، لم يسأل أي سؤال عن ذلك ، وانما كانت طاعة مطلقة من الجنود نحو الامير .

٣ ــ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يخفي عن أهل المدينة مسلمين وغيرهم ، أمر هذه السرية حتى لا يتسرب أي خبر الى الأعداء فتفسد الخطة المترتبة على ذلك .

ولرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حكمة في كتمان أمر تلك السرية عمن يحيطون به ، فليس ببعيد أن يكون منهم جاسوس من قبل قريش ، ولا أن يكون منهم من يبوح بالخبر عن سذاجة ، لا يريد به السوء ، أو لا يدرك ما في البوح به من الخطر المنظور، ولا يبعد أن يكون فيهم ضعيف النفس يفشي السر بتأثير مال أو ضغط ، وفي هذا تحقيق كامل لسنته صلوات الله وسلامه عليه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » .

وهكذا يقرر الرسول أن استطلاع أحوال العدو يجب أن يحاط بالسرية التامة ، وهذا حق ، لأن العدو اذا أحيط علما بذلك فسوف يستعد استعدادا تاما لحرمان من يقومون بالاستطلاع من الحصــول على

المعلومات التى يريدونها ، وبذلك لا يتحقق الغرض من الاستطلاع ، فضلا عما ينتظر حدوثه من خسائر مؤكدة فى أرواح رجال الاستطلاع أو من وقوعهم فى الأسر ، فيكشف العدو الخطط والنوايا .

وفى الحرب الحديثة يحاط الاستطلاع بكل أسباب الكتمان والسرية ، فمفارز (دوريات) الاستطلاع مثلا تقوم بعملها فى الليل غالبا تحت ستر الظلام ، فاذا اضطرت الى العمل نهارا تراها ترعى كل أساليب الاختفاء والحذر والتمويه .

الرسائل المكتومة لأول مرة :

وقد انتهج الرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة بارعة للمحافظة على السرية وهى أمره لعبد الله ابن جحش بألا يفض الرسالة وينظر فيها الا بعد أن يسير يومين أى حين يكون قد بعد عن المدينة وعن أهلها . وأمثلة ذلك فى التاريخ الحربى كثيرة ، فان كثيرا من قواد الجيوش والحملات المرسلة للغزو كانوا يخفون أسرار حملتهم عن جميع مرءوسيهم الا عن هيآتهم الخاصة القليلة العدد وهى « هيئة أركان الحرب » التى تقتضى ضرورة وضع الخطط وترتيب العمليات أن يكونوا على علم بها .. وقد تصدر الى قواد الجيوش والأساطيل أوامر مختومة ليفتحوها فى مكان معين بعيد عن القاعدة سواء على الأرض أو فى عرض البحر ، ويتفق من أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعا على السر فى حين يجهله جميع رجاله حتى اذا بقى على الحركة المقصودة ساعات معدودات تصدر الأوامر صريحة تحمل المفاجأة وتدعو الى الاسراع فى العمل المقرر .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ م من أن الحملة الحربية التى أرسلت بحرا من الهند لغزو العراق ، لم يعرف رجالها وجهتهم الا فى عرض البحر ، وكان ذلك بقصد اخفاء نبأ هذه الحملة عن الاعداء ، وقد حدث مثل هذا فى الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م وبخاصة فى عمليات الغزو البحرى .

ثالثا : صغر حجم مفرزة الاستطلاع :

لم يزد عدد أفراد سرية عبد الله ابن جحش عن ثمانية (أو اثنى عشر رجلا فى مصدر آخر) . وقلة عدد أفراد المفرزة التى تكلف مهمة استطلاعية مطلب ضرورى يتفق مع دواعى الكتمان والسرية ، ويقلل من فرص اكتشاف العدو لها. وهذا هو ما تنص عليه النظريات المعاصرة اذ تقضى بأن « تكون مفرزة الاستطلاع صغيرة ما أمكن » .

رابعا : ان يكون مبدا التطوع اساسا لتشكيل مفرزة الاستطلاع :

فقد أوصى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش ألا يكره أحدا من المسلمين على المسير معه ، فامتثل للامر وعرض على اصحابه وهو يقول : « وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع » .

ومعنى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر مبدأ هاما هو أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه ، اى أن يكون مبدأ التطوع أساسا لتشكيل مفرزة الاستطلاع ، وهو مبدأ ينطوى على عمق فى التفكير وبعد فى النظر كما يلى :

* فالواقع أن هناك فرقا كبيرا بين الخروج « للقتال » والخروج « للاستطلاع » . فالرجل اذا خرج مكرها على القتال فقد يقاتل لأنه مهدد بالموت المؤكد سواء فى القتال أو اذا حاول الفرار .

* ولكن اذا خرج الرجل للاستطلاع مكرها ، فلا يمكن أن يفيد وسوف يكون خروجه بلا جدوى ، بل ربما يحرف الأخبار عمدا أو يتلقاها بغير عناية ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم عنه غافلون .

* هذا المبدأ معمول به فى الحرب الحديثة ، فاذا أرادت قيادة الجيش بعث مفرزة للاستطلاع فانها تختار القائد الذى ستناط به المهمة ثم تترك له الحرية المطلقة فى اختيار مرافقيه ، فتراه يختار من يرغب فى الخروج معه ، ومن يثق

بهم .. وكذلك الحال في كل عمل من الأعمال القتالية التي تنفـــرد بطابع خاص ومـــن ذلك أعمـــال الفدائيين الذين يكلفون مهـــام خطيرة وشاقة تتعرض فيها حياتهم لموت أكيـــد وهـــلاك محقـــق ، فيتطلب القيام بها قدرا كبيرا من الجرأة والشجاعةوالاقدام والغيرة، فهل يمكن لمن يخـــرج لمثل تلك الأعمال « مكرها » أن يحقق شيئا من الأهداف المرجوة ؟ .. وهكذا تتجلى حكمة الرســول صلى الله عليه وسلم في قوله :

ولا تكرهن أحدا من أصحابك على السير معك .

خامسا : ضرورة تجنب القتال :

واضح من تعليمات الرســول عليه الصلاة والسلام أنه قد حدد مهمـــة عبـــد الله بن جحش في « استطلاع » اخبـــار قريش : (فترصد بها قـــريشا وتعلم لنـــا من أخبارهم) .

أي أن الرسول لم يكـــن يريد « قتـــالا » بـــل كان يـــريد « استطلاعا » .

والذي حدث أنه بعد أن قرأ عبد الله بن جحش رسالة النبي عليه الصلاة والسلام مضى ومضى معه أصحابه خـــلا سعد بن أبي وقاص الزهري وعقبة بن غزوان ، اللذين ذهبا يطلبان بعيرا لهما ضـــل ، فأسرتهما قريش ، وسار عبد الله ومن معه حتى نزلوا « نخلة » .

هناك مرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي ، وكان يومئذ آخر رجب .. وذكر عبد الله بن جحش ومن معـــه مـــا صنعت قريش بهم ، وما حجزت من أموالهم ، وتشـــاوروا وقال بعضهم لبعض :

« والله لئن تركتم القـــوم هذه الليلة ، ليدخلن الحرم ، فليمتنعن منكم به ، ولئـــن قتلتمـــوهم ، لتقتلنهم في الشهر الحرام » .

وترددوا وهابوا الاقـــدام ، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخـــذ ما معهم ، ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهـــم فقتله ، وأسر المسلمون رجلين (١) من قريش .

(١) هما عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان

وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينة على الرسول ، فلما رآهم قال لهم : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ، وأسقط فى يد عبدالله ابن جحش وأصحابه وعنفهم أخوانهم من المسلمين بما صنعوا ، وانتهزت قريش الفرصة فأثارت ثائرة الدعاية بأن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال ، ودخلت اليهود تريد اشعال نار الفتنة .

اذ ذاك نزل قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » (البقرة ٢١٧) .

وسرى عن المسلمين بنزول القرآن بهذا الأمر ، وقبض النبى العير والأسيرين ، فافتدتهما منه قريش فقال : «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا فانا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبيكم» .. وقدم سعد وعتبة وأفداهما النبى من الأسيرين .

ويقضى العلم العسكرى بأن المفرزة التى ترسل للاستطلاع يجب أن تتجنب القتال بقدر مايمكن ، ويقضى أيضا بأن الحصول على المعلومات لو تطلب قتالا بالضرورة (أى أنه لا سبيل لتحقيق مهمة الاستطلاع الا بالقتال للحصول على المعلومات عنوة) فان ذلك يقتضى اتخاذ ترتيبات معينة فى تركيب المفرزة الاستطلاعية وفى عدد أفرادها وفى تسليحها ، وذلك حتى تكون قادرة على القتال باعتباره الوسيلة التى تمكنها من هدفها .

والحكمة فى أن تتجنب مفارز الاستطلاع التورط فى القتال ــ الا فى حالة الدفاع عن النفس طبعا ــ هو أن القتال سوف يهدم جانب السرية والكتمان ويعيق المفرزة عن أداء مهمتها .

وهنا تتجلى حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرر هـــذا المبدأ فى سرية عبـــد الله بـــن جحش :

* فى وضوح وجلاء عند تحديد المهمة « فتعلم لنا من أخبارهم » .

* وفى أنه بعث السرية فى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التى حرم القتال فيها .

* ثم فى استنكاره لما حـــدث من قتال حين قال : « ما أمـــرتكم بقتال فى الشهر الحرام » .

سادسا : قوة التحمل لدى رجـــال الاستطلاع :

روى أبو القاسم البغـــوى عن سعد بن أبى وقاص قال : بعثنـــا صلى الله عليه وسلم فى سرية قال : لأبعثن عليكم رجلا أصبركم على الجوع والعطش ، فبعث علينـــا عبد الله بن جحش رضى الله عنه . وسماه صلى الله عليه وسلم « أمير المؤمنين » فهو أول من تسمى فى الاسلام به .

ويكشف ذلك عن مبدأ جـــديد هو أن قوة التحمـــل شرط من الشروط التى يجب توفرها فيمـــن يختارون لمهام الاستطلاع قادة أو جندا ، وذلك بالطبع بالاضافة الى شرط الرغبة الذى سبق ذكره .

سابعا : تكريم رجال الاستطلاع :

كذلك ينطوى اطلاق اسم أمير المؤمنين على عبـــد الله بن جحش على تكـــريم وتشريف لرجـــال الاستطلاع بالنظر الى خطورة مهمة الاستطلاع والى صلتهـــا المباشرة بأمن المسلمين وسلامتهم .

ونرى هذا المبـــدأ أيضا من حديث حذيفة بن اليمان حين كلفه الرسول صلى الله عليه وســـلم باستطلاع أخبار العدو ، يقـــول : لقد رأيتنى ليلة الأحـــزاب مـــع رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقال : « من يذهب الى هـــؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم ، أدخله الله الجنة » . وفى نفس الحديث ورد أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : « هل من رجل يقوم فينظر لنـــا ما فعل القوم على أن يكون رفيقى فى الجنة ؟ » .

هذه المبادىء التى ذكرناهـــا أمكن استخلاصها من تحليل سرية

عبد الله بن جحش ، على أن هناك مبادىء أخرى يمكن استخلاصها من غزوة بدر الكبرى .

ثامنا : قيام القائد بالاستطلاع الشخصى :

ويقضى هذا المبدأ بأن يقوم القائد بنفسه بالاستطلاع سواء فى مرحلة التحضير للمعركة أو فى مرحلة ادارتها ، أى أنه لا يكتفى بارسال مفارز استطلاع أو المراقبين ، بل يجب أن يحرص على أن يشاهد بعينيه ما يهمه مشاهدته مما يزيد من وضوح الرؤية لديه لكى يأتى التخطيط والقرار بعد ذلك سليما الى أقصى حد ممكن .
وهذا ما حدث فى غزوة بدر الكبرى .

فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم قبل المعركة عدة مفارز للاستطلاع كما يلى :

١ – مفرزة تتكون من طلحة ابن عبيد الله وسعيد بن زيد لاستطلاع أخبار قافلة قريش عند عودتها من الشام ، حتى اذا وصلا « الحوراء » على طريق الشام – مكة مكثا هناك ، فلما مرت بهما القافلة أسرعا يخبران النبى صلى الله عليه وسلم بأمرها ، فقرر عليه السلام الخروج وقال للمسلمين : « هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ينفلكموها » .

٢ – مفرزة تتكون من رجلين الى «بدر» للحصول على معلومات عن قريش وعن قافلتها ، فلما وصل المسلمون « وادى ذفران » جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم .. وبناء على هذا الاستطلاع طلب الرسول صلى الله عليه وسلم مشورة أصحابه فى هذا الموقف الجديد (وهو خروج قريش) فاتفقت كلمتهم جميعا مهاجرين وأنصارا على قرار مواجهة قريش .

٣ – مفرزة تتكون من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، وقد استطاعت الوصول الى ماء بدر ، وعادت ومعها غلامان لقريش ، فاستنطقهما الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم منهما أن قريشا وراء الكثيب «بالعدوة القصوى» .

ولما أجابا بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش ، ســـألهما النبى : « كم ينحرون يوميا ؟ » فأجابا : « يوما تسعـا ويومـــا عشرا » فاستنبط الرســول صلى الله عليه وسلم من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف ، وعرف مــن الغلاميــن كذلك أن أشراف قــريش جميعــا خرجوا مع الجيش .

٤ ـ مفـــرزة من رجلين من المسلمين ، وصلا ماء بدر فسمعــا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « انما تأتى العير غدا أو بعد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » فعاد الرجلان فأخبرا الرسول بما سمعا .

وقد قام الرسول القائد صــلى الله عليه وسلم بالاستطلاع بنفسه حين انطلق أمام الجيش وبصحبته أبو بكر عندما اقترب المسلمــون من بدر ، حتى وقف على شيخ من العرب . فسأله عن قريش وعــن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم .

قال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما ؟

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا أخبرتنا أخبرناك » .

علم الرسول من شيخ العــرب أن عير قريش قريبة منه ، فقال له : « نحن مـــن ماء » ثم انصرف وصاحبه عنــه والشيخ يقــول : «ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟!»

هذا هو ما يسمـــونه فى العلم العسكرى « الاستطلاع الشخصى للقائد » ،وهو عمل يحرص عليه القائد دائما وبخاصة قبل المعــركة وفى لحظاتها الحرجة .

ونلاحظ أيضا فى هذه الواقعة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على مبدأ الكتمان والسرية ، فرأينا كيف أخفى هويته عن شيخ العرب حتى لا تعلم قريش بمواضــع المسلمين ، ويبــدو ذلك واضحــا جليا فى رده الذكى « نحن مــن ماء » .

تاسعا : ضرورة اعلام القـــوات بالمعلومات عن العدو :

وهذا المبدأ تقــرره المدرســة العسكرية الاسلامية فى مجـــال الاستطلاع ، فتطلب من القائد أن ينشر على قواته من المعلومات عن

العدو بالقدر الذى يراه ضروريا بحسب ظروف المعركة ومتطلباتها. والحكمة فى ذلك تبدو فى الفائدة الكبرى التى تتحقق لصالح المعركة ، لأنه كلما زادت معرفة الرجال بالموقف وبأوضاع العدو وقوته وحركاته وأهدافه ، زادت قدرتهم على العمل الايجابى وعلى حسن التصرف والابتكار فضلا عن ارتفاع روحهم المعنوية لأنهم يعرفون مواقع أقدامهم ولا يضربون فى المجهول .. « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم (الملك) » .

فالرسول القائد صلى الله عليه وسلم حرص على اعلام رجاله بما يهمهم معرفته عن عدوهم الذى سيواجهونه ، وظهر ذلك بكل جلاء فى اعلامهم بادىء الامر بأن قريشا قد خرجت للقتال وطلب مشورتهم، ثم فى اعلامهم بما حصل عليه من معلومات عن قوة جيش العدو وعن قيادته متمثلا فى قوله صلى الله عليه وسلم : « هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ كبدها » .

« ما يصفوا به الود »

قال على بن ابى طالب ـ كرم الله وجهه ـ لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ اخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

محمد جمال الدين محفوظ

رأى فى التفسير العلمى

فضيلة الشيخ عزت الدسوقى

يثور جدل هذه الأيام حول تفسير بعض الآيات الكريمة المتعلقة بالكون فمن قائل بوجوب تفسيرها بما يتفق وما يجد من العلوم والنظريات والاكتشافات وأصحاب هذا الرأى يرون أن القرآن الكريم – وان لم يأت بالتفاصيل الدقيقة التى تتميز بها كتب العلوم – الا أنه أتى بحقائق من العلم بصورة كلية ، تاركا التفاصيل للباحثين والمتخصصين فهو كتاب علم كما هو كتاب تشريع ووعظ وتنظيم لشئون الحياة كلها بجميع نواحيها . قال تعالى فى سورة الأعراف : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

والبعض الآخر يرى أن تنأى بكتاب الله تعالى عن هذا المنزلق لأن العلوم تتطور وتتغير ، فاذا فهمنا فى كتاب الله فهما مطابقا لجديد من العلم فلا نأمن أن يحدث تغيير وتبديل نتيجة للبحوث المتكررة والاكتشافات المستمرة ، وحينئذ يحدث ما لا تحمد عقباه .

وحين أشارك بقلمى المتواضع فى هذا المعترك فلأنى عاصرت أحداثا عرضت أثناء تجوالى فى البلاد العربية والاسلامية مبعوثا للأزهر أجد من واجبى أن أضعها أمام المهتمين بهذا الامر ، ليتخذ كل منهم الموقف المناسب على ضوء هذه الأحداث .

نظرة عامة

لا يختلف اثنان فى أن المسلمين فى هذا العصر ليسوا على المستوى المطلوب منهم كأصحاب رسالة هى خاتم الرسالات وأتباع كتاب مهيمن على الكتاب كله .

فوضعهم الاجتماعى والثقافى والحضــارى والعســكرى والاقتصادى متخلف بمراحل كثيرة عن غيرهم من سكان المعمورة ، ما جعل المبشرين ينشطون وسط التجمعات الاسـلامية والشبابية بنوع خاص مشككين فى الاسلام كدين وأسلوب حياة .

مسئولية القيادة الاسلامية :

فالمسلمون أينما كانوا عربا أو عجما يسلمون قيادهم عن اقتنــاع كامل لرجل الدين والسمة الغالبــة ـ للأسف ـ لرجــل الدين فى أفريقيا وآسيا هى العداء الشديد لكل ما هو جديد مــن العلم ، ولا زال كثيرون منهم حتى هــذه اللحظة ينكرون وصول الانســان الى القمر . ولقد كنت ببلد افريقى حين أذيع وصــول الانسان الى القمر فما كان من أئمة المساجد فى هــذا البلد الا أن خـرجوا فى مظاهرة صـاخبة وذهبــوا الى السفارة الامــريكية ورجمــوها بالحجارة ، وأخذتهم حمى المعارضة لمدة اسبوعين فمكبرات الصـوت فى كل مسجد تحذر الناس مــن تصديق هذا الخبر ، وتخبرهم بأن القرآن الكريم يكذبهم . ويمنع خروج الانسان من أقطار الأرض، ونشط المبشرون وسط الشبــاب المثقف يلقــون ظلالا كثيفة مــن الشك على صدق القرآن الكريم الى حــد أن ذهب أحــد طلاب المدرسة الثانوية المصرية فى هذا البلد الى مدير المدرســة وطلب ملفه ليعدل فيه نوع الديانة مــن الاسلام الى المسيحية .

ولا زال على قمة رجـال الدين فى بلد عربى كبير مفت يحـكم بكفر من يقــول بدوران الأرض حول نفسها أمام الشمس وحولها وتظهـر له بين الحيــن والحيــن مؤلفات تحمــل هذا المعنى وتدلل على ذلك بآيات من كتاب الله تبارك وتعالى .

قد يكون هذا القول غريبا فى مصر ، ولكن اذا سنحت لك فرصة التجوال فى العالم الاســلامى وخالطت القائمين بقيادة المسلمين من العلماء هالك ما هم عليه من تزمت جعل الكثير منهم يقف حائلا بين أبناء هذا البلد وبين الالتحـــاق

بالمعاهـد الأزهـرية فى افـريقيا محتجين بأنهم يدرسـون الجغرافيا وهى كفر ..

وحدث مـرة عند انصرافى من محاضرة فى أحد المساجد ببلدعربى شقيق أن تقدم الى شـاب بدوى قائلا : « يا شيخ ! ! يقولون فى المدارس للصبية كما يقول الكفار « ان الأرض تدور ، وأنها كرة ، مع أن القرآن الكريم يقـول : « والأرض فرشناهـا » ، « ألم نجعل الأرض مهادا ؟ » . فمـا رأيك ؟ ».

تريثت قليـلا قبـل أن أجيب ، فقد كان فى هذا البلد ضجة ضد دراسة الجغرافيا ، وكان المتزعمون لها والمثيرون أوارها هم رجـال الدين ولهـم فى نفـوس الشعب قداستهم ، ومـكانتهم ، وكنت أحظى فى هـذا البلد بتقديرهم واحترامهم ، فماذا يكـون الموقف اذا خرجت على رأيهـم ؟ لقد كان الموقف حرجا ومحيرا ، ولم تطـل حيرتى وآثرت أن أقول ما أعتقده فى هذا الموضوع .

فأجبت الفتى الذى كان يطيـل النظر الى متعجلا الاجابة ، قائلا : « الحق يابنى أن الأرض كـرة ، وأنها تدور ، والقـرآن الـكريم لا ينفى هـذا لا صراحـة ولا ضمنا » .

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى شده الفتى ، وفغر فاه واستدارت عيناه وأخذ يتراجع الى الوراء مما جعلنى أشفق عليه وأشفق على كثير من أمثـاله الذين حيـل بينهـم وبين العلم باسم الدين الذى يدعو الى التعلم ويقدر العلماء .

ليس الذهول الذى أصـاب الفتى هو كل ما حـدث بل ان الجمع الغفير من أهل الحى الذى خرج يودعنى كعـادته بعد كل محاضرة انفض من حولى دون تحية أو استئذان والله وحده يعلم ماكان يجول فى خاطرهم وما يعتمل فى صدورهم .

عدت الى بيتى مهموما ، كيـف السبيل الى قلوب هؤلاء الاخـوة لافهامهم أن الاسلام يدعـو الى العلم ولا يعاديه وأن ما فهموه فى

هذا الموضوع وغيرههو من أقوال المفسرين وبالتدقيـــق قول بعض المفسرين لا قول القرآن نفسه وأن المفسرين بشر يؤخذ من كلامهـم ويرد .

ورأيت أنه لا بد للأزهر مـــن أن يقول للمسلمين كلمته فى هذا الموضــوع حتى ينفى عن الاسلام ما هو منه براء .

مضى على هذا الحادث بضـع سنين ، ولا زلت أتصــور هــذا الشاب فى زيه البدوى وقد حز فى نفسى هلعه ونفوره ، ورأيت أننا فى أمس الحاجة الى التأمل العميق فى كتاب الله ودراسة هذه الآيات الكريمة التى يتخذ منها العلماء فى البلاد الاســلامية ســلاحا لمحاربة العلم ، ولنرى مـــوقف الكتاب الــكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه من هــذه الحقــائق العلميــــة والتى أصبح التسليم بهـــا ضرورة لا محيص عنها .

وبعثت الى بلد عربى آخر أسند الى فيه دراسة تفســـير الجزء التاسع والعشرين لطلاب احـــدى المدارس الثــانوية ، وكان الكتاب المقرر مؤلفا حديثا ، ولازال مؤلفه حيا يرزق الى الآن وهو أحد أئمة الحرم الشريف .

وبينما أتأهب لدخول الفصل اذا بمدرس علم الهيئة (الجغرافيا) يغادر الفصل . وبيده نموذج للكرة الأرضية ، وكان يشرح للطلبة كيف يحدث الليـــل والنهـــار ، وكان موضوع درسى أنا هو تفسير قوله تعالى : « هو الذى جعـــل لكم الأرض ذلـــولا » الآية . وكان فضيلة المؤلف قد ذكر فى تفسيـــر كلمة (ذلولا) ان معناها قارة ساكنة ، وهنا سألت نفسى ماذا يكون موقف هؤلاء الطلاب ، وهم يتلقـــون معلومات متضاربة متعــارضة ، فبينما مدرس (الجغرافيا) يقـــول لهم : ان الأرض متحركة ، ويقيم الأدلة على ذلك مـــؤكدا أن سبب حدوث الليل والنهار هـــو دوران الأرض حول محـــورها أمـــام الشمس ، اذا بمدرس الدين يقول لهم ان الأرض قارة ساكنة لا تدور ولا تتحرك ولا يملك دليـــلا على

ذلك الا كلمة (ذلولا) فى القرآن الكريم ، حسب تفسير المفسر فى الكتاب المقرر عليهــــم دراسته . وليست هذه المعلومات نافلة عــلى الطلبة بل مفروضة عليهم فرضا ، وسيؤدون فيها امتحانا آخر العام فهو يقول فى ورقة الـــدين ان الأرض قارة وساكنة ، فاذا قـال انها تدور وانها متحركة رسب فى مادة الدين . واذا قال انها قارة وساكنة فى ورقة الجغرافيا رسب فى مادة الجغرافيا ! !

لا ريب أن هـؤلاء الطلبـــة سيقفون حيارى بين العلم وبيــن الدين ، وأنهم ولا شك سيتهمــون رجل الدين بالجهل والقصـــور — ان تورعوا عن اتهــام الدين نفسه — لأنهــم الآن يقــرءون ويسمعون ويشاهدون فى برامــج الاذاعة المرئية الصواريخ ، والأقمار الصناعية ، وهبوط الانسان على القمر وتنقله فوق سطحه ، ويرون صورة الأرض المأخوذة من أجهزة الهبوط على القمر ، يرون صورة الأرض كرة هائلة ويدرسون فى حصة العلوم أن مصممى الصواريخ والأقمار الصناعيـــة وضعوا فى اعتبارهم دورة الأرض ! !

وهنا تذكرت كلمة لحجة الاسلام الامام الغزالى فى كتابه تهـــافت الفلاسفة في مثل هذا الموقف حين ادعى علماء المسلمين ان الفلكيين خرجوا على الاسلام فى تنبئهــم بالخسوف والكسوف . قال حجة الاسلام :

« ان من ظن أن المناظـــرة فى ابطال هذا الفن من الدين فقد جنى على الدين نفسه وضعف أمره ، فان هذه الامور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا يخفى معهـا ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق أدلتها حتى يخبـر بسببها عـــن وقت الكسوفين وقدرهما ، ومدة بقائهما الى الانجلاء اذا قيل له ان هــذا على خلاف الشرع لم يسترب فيه ، وانما يسترب فى الشرع نفسه اهـ .

من الطبيعى أننى لم أتقيد بمـــا قاله المفسر وانمـــا فسرت كلمـــة « ذلولا » بأنها مهيأة لما يريد منها الانسان فهـــو يسترزعها فتـــزرع

ويستخرج منها ما يحتاجه من غذاء وكساء وعلاج ويستمتع بما أودع الله فيها من خيرات .

وخرجت من الدرس وقد عاودنى العزم على التأمل بعمق فى كتاب الله عز وجل ، وخاصة الآيات التى تشير الى الكون وما فيه ، الا اننى ما لبثت أن درت فى دوامة الحياة وقد رسبت كلتا الحادثتين فى نفسى ، تطفوان فى هدأة من الحادثات تطالبانى بعنف أن أؤدى واجبى وآتى بما اعتزمت عليه ، ثم تعودان الى الأعماق مرة أخرى أمام زحمة الحياة وضجيجها .

ولكم تمنيت أن تتاح لى فرصة أخلو فيها الى كتاب الله تبارك وتعالى ، لا ينازعنى فيه منازع ، ولا يصرفنى عنه ما يصرف سائر الناس من هموم الدنيا ومطالب الحياة التى لا تنتهى الا بانتهائها ، الى أن واتتنى لحظة كريمة لفظتنى فيها تيار الحياة على الشاطىء ، ومضت الحياة فى سبيلها عجاجة صاخبة وعادت الى نفسى مكدودة لاغبة مما عانت فى موكب الحياة .

وتحسست ثيابى ــ وقد عييت مما لقيت ــ فأخرجت منها مصحفا كان ذخرى الوحيد الذى احتفظت به بعد أن تخففت من كل ما يتصل بالدنيا بسبب ، وكان كتاب الله الكريم فى هذه الحقبة من العمر الروح والريحان ، عشت فى رحابه الواسعة صباح مساء لا ينازعنى فيه هم العيش ، ولا ينزعنى من رياضة الغناء الفينانة مطلب من مطالب الحياة ، وكانت حياة روحية ، أكرم بها من حياة ! !

وبدأت صور الماضى تتلاحق وتتوارد ، وكان أبرزها صورة الفتى العربى وهو يرتدالى الوراء مذعورا ، وصورة الطلبة الذين الزموا باسم الدين أن يعتقدوا أن الأرض قارة ساكنة ، وأيقنوا عن طريق العلم أنها متحركة دائبة الدوران والحركة ، فقلت : لقد جاءت اللحظة التى طالما تمنيتها ، فها أنذا وكتاب الله ، وعلينا باب أحكم رتاجه ، لا ينغص علينا هذه الخلوة الحبيبة أحد .

وعدت الى كتاب الله الكريم أنعم باستعادة حفظه ، وبالتأمل

فى آياته والتــــدبر فى أسلوبه وعباراته ، ولم العجلة وفيم ؟ وقد كفيت مشاغل الحياة .

ولقد وجدت كثيرا من آيــات الله البينات التى تشير الى التأمــل فيما خلق الله فى الكون ، وفيمـا بث فى الآفاق من دلائل قدرته وآيات وجوده ووحدانيته وجدتها كلهـا تؤيد بأسلوبها المجـرد عن تفسير المفسرين وبلفظها الصريح الواضح النظريات العلمية الحديثة التى وقف علماء الاسلام منها موقف الحرب والعداء .

وكان حــريا بالمسلميــن أن يكونوا أسبق الناس الى القول بها فقد تنزل الكتاب بها عليهم . ولم يحل بين المسلميــن وبيــن فهمها على وجهها الواضح الا ما تطـوع به بعض المفسرين ، فوضعـوا لهـا تفسيرا صرف الآيات الكريمة عن ظاهرها ومدلولها .

والمسلمــون كانوا ولا يزالون ينزلون التفسيــر نفس المنــزلة المقدسة التى ينزلها من نفوسهــم كتاب الله عز وجل . فليس لهـم أن يجادلوا فيما قاله المفسرون كما ليس لهــم أن يجــادلوا فى كتاب الله الكريم ذاته ! !

وسترى معى حين نستعرض هذه الآيات الكــريمة ــ فى مقــالات لاحقة ــ ان أذن الله ــ أنهــا لا تتعارض مع العلم ، بل ان العلم وما يتجدد من اكتشــافات يزيدنا فهما لكتاب الله تعالى ، ويكشف لنا عن معان جديدة لم يكن السبيل الى ادراكهــا ميسرا قبل هــذه الاكتشافات .

ومن هذه النظريات التى يؤيدها كتاب الله تعــالى دوران الأرض وكرويتها . لو أننا فسرنا هــــذه الآيات بمدلولها اللفظى وحده .

والتفسير بما وضعه العـــرب لمدلول اللفظ مسلم به ومعتــرف به ما لم يتعارض مع نص صريح صحيح .

روى البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم فقال :

« حدثنا محمد بن ســلام قال أخبرنا وكيع عن سفيان عن مطرف عن الشعبى عن أبى جحيفة قال :

قلت لعلى : هل عندكم كتاب ؟ قال : « لا » الا كتاب الله وفهم أعطيه رجل مسلم • الحديث •

قال الكرمانى فى شرحه هذا الحديث ص ١٢٠ فى بيان مايؤخذ منه : « وفيه ارشاد للعالم الى أن للعالم الفهم أن يستخرج من القرآن بفهمه ما لم يكن منقولا عن المفسرين لكن بشرط موافقته الاصول الشرعية : اهـ •

واذن فلا تريب على من فهم من كلام الله تعالى ما يؤيد ما أجمع عليه العلماء الكونيون وان لم يقل به أحد من المفسرين خاصة اذا كان هذا الفهم هو المطابق للمدلول الوضعى للفظ فى لغة العرب ، ولا يصادم قاعدة لغوية ولا أصلا شرعيا •

وحين يخبر القرآن الكريم بأحدث النظريات العلمية ، أو يكون أوضح دلالة وأجلى بيانا حين يتكشف العلم عن جديد ، لم يكن معلوما عند وضع المفسرين تفسيرهم • انما يحمل أنصع الأدلة على أنه وحى من الله تعالى على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الرسول الكريم لا ينطق عن الهوى لأن الوقت الذى نزل فيه القرآن الكريم وبعث فيه أفضل الخلق رسولا كانت الجهالة فيه مطبقة على العالم ، آخذة بتلابيبه ، ولم تكن ثمة أثارة من علم أو مراصد ، أو آلات دقيقة ولا وسائل بحث حديثة •

فاذا تقدمت وسائل العلم ، وخرج العلماء على الناس بجديد فوصلوا اليه بالبحث العلمى المجرد، بل كان من وصل الى هذا المعلوم الجديد بعيدا كل البعد عن الاسلام ، وما قاله القرآن الكريم، ثم يستبين لهم أن القرآن الكريم المعجز سبقهم الى ما قالوا وما علموا بمئات السنين ، وأن ما أتوا به يتفق مع منطوق الكتاب الكريم ومدلوله كان ذلك آية لا ريب فيها بأن هذا الكتاب هو الحق وأن رسوله حق : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » •

ويجب أن أقرر هنا قبل أن أنتقل الى بحث تفسير هذه الآيات أن القرآن المجيد لا يتعارض أبدا

مع العلم الصحيح بل يؤيد العـلم ويشجع البحث الحـــر الطليق . ويأخذ بيد من يريد الوصول الى جديد من العلم فيشيـــر له الي وسائله ومظـانه قـال تعـالى فى سورة يونس :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

وفى سورة الذاريات :

« وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم . أفلا تبصرون » .

وقد بلغ علماء المسلمين الأوائل الحد الأقصى فى حث المسلمين على البحث والتفكر حيث حكموا بأن ايمان المقلد غير معتبـر ، وأنه لا ينبغى أن يكون حظ المسلم مـن الايمان أن ورثه عـن آبائه دون اعمـال فـكر أو بحث بـل لا بد ليكون ايمان المسلم معتبرا من أن يبحث ويفكر حتى يصل عن طريق البحث الى ايمان مرتكز على دليل، وهذا غاية ما يمكن من الدعـوة الى البحث والتشجيـع على العلم والتعلم .

ولا يمكن لدين هذا شـأنه أن يتعارض أبدا مع ما يأتى به العلم من حقائق فلم هـذا العداء للعلم الذى يفخر به ـ للأسف ـ كثير ممن تصدوا لامامـــة المسلميـن ولبسوا زى العلماء ؟

ومما يزيد الأمر بلاء وخطورة أن يدعى هؤلاء أن ما أتى به العلماء الكونيون من العلم يتنافى مـع القرآن العظيم ! ! سبحانك هـذا بهتان عظيم .

لما تقدم ولغيره يجب أن يعـاد النظر فى تفسير الآيات الكريمـة المتعلقة بالكون ، وألا نلقى بـالا لما قاله بعض المفسرين فى تفسيرها ما لم يستند الى نص صريح ونقل صحيح فلقد كان لتفسير هـــذا البعض أثـــره البالغ فى تخلف المسلمين عن غيرهم فى مضمـار العلوم الكونية مما أدى الى تأخرهم فى استغلال العلم والاستفادة به فى تقدمهم اقتصاديا وعسكريا .

وعلى من يتصدى لهذا التفسير أن يتقيد بمدلول الآيات القرآنية وما تتســع له ألفاظها الشريفة من معان .

وسأسير ان شاء الله فى فهمى لهذه الآيات وفى كتابتى عنها على التقيد بالنص القرآنى وما يتسع له من معان صريحة أو مجازية ذلك أننى مؤمن بأن القول الفصل فيما خلق الله فى السموات والأرض انما هو لله خالقه وبارئه ومبدعه وهو بحكم خلقه له يعلمه جملة وتفصيلا .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » . فاذا قال الله فى ذلك شيئا فقوله الحق » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

فالأصل عندنا كتاب الله تعالى فليس لنا أن ندع صريح القرآن ومحكمه لقول قائل مهما كان .

فما أتى به العلم من جديد بما لم يتعرض له القرآن الكريم باثبات أو نفى علينا قبوله متى توفرت له الوسائل الصحيحة وقامت عليه الأدلة القاطعة .

وماتعرض له المفسرون نأخذ منه ما يتفق ومدلول القرآن وندع ما يخالف صريحه ومحكمه مهما كان القائل ومهما أتى به من عجائب تخدع الأبصار وتزيغ بها البصائر .

فانه مادام مخالفا لصريح الكتاب ومحكمه لا يلبث أن ينكشف زيفه ويتبين ضلاله ، ويبزغ الحق فى غير جانبه ، لأنه جاء بما يتعارض مع القرآن الكريم ويخالفه ، واليكم هذا المثل :

« نظرية النشوء والارتقاء التى أتى بها داروين لاقت قبولا ورواجا ولمعانا قبل أن تلاقيها نظرية أخرى ولقد طبقها داروين على جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات ، وبالنسبة للانسان ادعى داروين أن الانسان أول ما وجد على الأرض لم يكن بهذه الكيفية وانما كان كائنا آخر أقل وأدنى حتى صار قردا ثم تطور الى صورته الحالية .

ونحن كمسلمين لا يمكن أن نقبل ما تقوله هذه النظرية أو ما يقوله داروين بالنسبة للانسان ونشأته وتطوره لأنه يخالف صريح القرآن الكريم فى خلق الانسان وفى أصل خلقته ، يقول الله تعالى فى سورة التين :

« لقد خلقنا الانسان فيأحسن تقويم » .

ولقد أتى على الناس الثلاثينات كانوا يعتنقون هذه النظرية كأنهم يعتنقون دينا . ولقد كان المعارض لها محل سخرية وتجهل ممن لا حظ لهم من العلم الا الاعجاب بمـــا يقوله داروين .

وها نحن الآن والحمد لله نجد معارضة جدية لمقالة داروين لا من أنصاف المتعلمين والعلماء ولكـن معارضة من علماء توفـروا عـلى البحث بوسائل علمية جادة واصبح من يقول بنظـرية داروين بالنسبة للانسان والحيوان محل استهـزاء وسخرية بعد ما كان محـل تقدير واعجاب .

ومما يؤسف له ــ مع ما ثبت من كذب القــول بتطور الانسان والحيوان ــ أننا لازلنا نرى الكتب المدرسية وخاصة في رياض الأطفال للبــراعم الصغيــرة في المــدارس الابتدائية تصور الانسان في أول عهده بالحياة قردا كبيرا يتســلق الأشجار ويمســـك بعصا غليظة وجسمه مغطى بشعر كثيف ممــا يؤثر تأثيرا ضارا في تصور الطفل للانسان ويؤثر بالتالي على عقيدته وايمانه بقول الله تعالى : « لقــد خلقنا الانسان في أحسن تقويم »

فهل يتنبه المسئولون عن التعليم في بلدنا الى هذه الظاهرة ؟

والى لقاء ان شــاء الله .. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

عزت الدسوقي

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر في ألف عام

للأستاذ محمد كمال السيد

— ١٠ —

ذكرنا في المقال السابق كيف أن العلماء — وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف — اجتمعوا بمنزل محمد على باشا في ١٣/٥/١٨٠٥ م (١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ) وقرروا عزل أحمد باشا خورشيد الوالي العثماني . وتعيين محمد على باشا واليا على مصر . وأن خورشيد رفض هذا القرار قائلا انه معين من السلطان فلا يعزل من الفلاحين .

وتحصن خورشيد في القلعة . ونادى السيد عمر مكرم في الناس بالجهاد وحمل السلاح . والاستعداد للمفاجآت باقامة المتاريس والسهر ليلا .

وحاصروا القلعة . ومنعوا عنها المؤونة والمياه . وكان قرار عزل خورشيد قد أثر في بعض أتباعه . فنزل الكثيرون من القلعة . وانفض عنه فريق الانكشارية . وبقيت معه طائفة من الأرنؤود لأغراضهم الشخصية .

وفي المدينة طالب الجند محمد على بنفقاتهم ومرتباتهم . فقال : عندما ينزل أحمد باشا خورشيد من القلعة . فتركوه وتخلوا عن مواقعهم . فلم يفت هذا في عضد السيد عمر مكرم . وأوقف مكانهم بعض الأهالي .

وأصبح السيد عمر مكرم هو المحرك للثورة . بادي النشاط . كثير الحركات . يلهب حماسة الشعب . ويرتب الأقوات والمؤونة للمحاربين .

وضربوا من القلعة مدافعهم على المدينة ، مركزين على بيت محمد على بالأزبــكية ، وعلى جهـــة الأزهر ، فازداد الشعب اصرارا ، وأمكن نقل مدفع كبير كان قد تركه الفرنسيون بقلعة قنطرة الليمــون (قرب ميدان رمسيس) وطلعوا به الى أعلى الجبل ، وأخــذوا يطلقون منه القنابل على القلعة .

ونود أن نذكر هنا مناقشـــة حصلت بعد قرار عــزل خورشيد بين السيد عمر مكرم وبين مــن يدعى عمر بك الأرنؤودى من أنصار خورشيد ، فقد قال عمــر بك : كيف تعــزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، فأجاب السيد عمــر مكرم : أولو الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وجــرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمــان ، حتى الخليفة والسلطان اذا ســار فيهم بالجور فانهم يعــزلونه ويخلعونه .

تقرير الدولة لولاية محمد على

واستمر الحال كذلك ما يقرب من شهرين ، استمرار حصار القلعة وتبادل النار بين الفريقين ، حتى ورد فى ١٨٠٥/٧/٩ (١١ ربيـــع الآخر سنة ١٢٢٠ هـ) رسول من الدولة يحمل قرارا بتعيين محمد على باشا والى جدة سابقا واليـــا على مصر ، ابتـــداء من ١٨/٦/ ١٨٠٥ (٢٠ ربيـــع الأول سنـــة ١٢٢٠ هـ) ، وعــزل خورشـيد باشا وأمره بالسفر للاســكندرية والاستقرار هنـــاك لحين صدور أوامر أخرى .

وحصلت مناوشات فى المدينـــة بين العسكر والأهالى بسبب تعدى العسكر .

وأصبح اسم السيد عمر مكرم ملء الأفواه والأسماع ، ورياسته واضحة ظاهرة ، فدبت فى نفوس بعض العلماء روح الغيـــرة ، أو روح التملق ، واجتمعـــوا فى الأزهـــر ، وقـــرروا فتح الجامع ومعاودة الـــدروس ، وأن يكف الشعب عن الحـــرب ويتفـــرغ لأعماله ، وأن يترك معالجة الموقف

لمحمد على ما دام قد أتاه قرار الولاية . وأبلغوا محمد على بذلك .

ولم يرتح الشعب لهذا القرار . فهم اذا تركوا السلاح أصبحوا تحت رحمة العسكر . وراجعوا السيد عمر مكرم فاعتذر بأنه لم تكن له يد فى القرار .

ورفض خورشيد باشا قرار العزل . وأرسلت الدولة قبطانا على رأس قوة بحرية الى الاسكندرية . فاضطر خورشيد للخضوع . وسلم القلعة فى ١٨٠٥/٨/٥ (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ) وسافر من بولاق فى ١١ أغسطس بحرا الى الاسكندرية .

قمة النفوذ للعلماء :

وهكذا أمكن للعلماء فرض ارادتهم على الدولة . بعزل الوالى المعين منها . وتعيين وال آخر باختيارهم . وكان آخر ما وصلوا اليه من النفوذ قبل ذلك هو عزل الوالى وتعيين قائمقام لحين وصول قرار من الدولة بتعيين غيره .

وكانت هذه الحركة هى القمة فيما وصل اليه علماء الأزهر من النفوذ السياسى والأدبى . وبعد ذلك أخذ شأنهم فى التناقص .

ولاية محمد على

ونمر سريعا على السنوات الأربع التالية .

لم تهدأ القاهرة بعد سفر خورشيد باشا . فقد زاد تعدى العسكر على الأهالى بحجة نفقاتهم ومرتباتهم المتأخرة . وكانت طائفة الدلاة بما كانوا عليه من ضعف الوازع الدينى والأخلاقى من أشد الطوائف ايذاء للناس . واضطر محمد على لفرض ضرائب جديدة .

وكان الأمراء المماليك قد وصلوا بقواتهم خارج القاهرة يرقبون تقلب الموقف.وأمكن لفريق منهم كسر باب الفتوح ودخلوا المدينة بمواكبهم . وذهبوا الى بيت السيد عمر مكرم فامتنع عن مقابلتهم . فذهبوا الى بيت الشيخ الشرقاوى ولحق بهم السيد عمر مكرم هناك. فطلب العلماء من امراء المماليك

خروجهم بجندهم من المدينة . فخرجوا من باب البرقية . اذلم يجدوا الترحيب الذى كانوا يتوقعونه أو يأملون فيه .

وكانت طائفة أخرى منهم قد واصلوا سيرهم حتى قرب باب زويلة (بوابة المتولى) فحاصرهم العسكر والأهالى هناك وقضوا عليهم .

وعين محمد على الكشاف (المحافظين تقريبا » للاقاليم . وخرج كل كاشف لجهته يحارب من فيها من المماليك . وخرج الجند من القاهرة لمحاربة المماليك فى المديريات القريبة منها . مثل الجيزة والقليوبية والمنوفية . وفرضوا الضرائب على البلاد . وفعلوا ما اعتادوا عليه من نهب وسلب وخطف وهتك أعراض . وتكررت الصورة فى هذه المحاربات مما لا داعى للاطالة فيه حتى لا نخرج عن الموضوع الأصلى .

قرار من الدولة بعزل محمد على وتمسك العلماء بولايته :

وفى يونية سنة ١٨٠٦ م (ربيع الآخر سنة ١٢٢١ هـ) وصل الى الاسكندرية قبطان مبعوثا من الدولة على رأس قوة بحرية . ومعه قرار بعزل محمد على . وتعيين وال خلافه اسمه موسى باشا . وبالعفو عن الامراء المماليك بشرط قيامهم بالخراج والضرائب ومرتبات الحرمين بالحجاز من عوايد تقدية وغلال ومهمات . وبشرط ضمان العلماء لهم . وكان هذا التحول فى سياسة تركيا نتيجة لمساعى الانجليز تنفيذا للاتفاق السابق بينهم وبين محمد بك الألفى .

وقرر محمد على عدم الخضوع لهذا القرار . وأخذ يزود القلعة بالمؤونة والذخيرة .

واستكتب محمد على العلماء مكتوبا للدولة يذكرون فيه تطور الأحوال التى أدت أخيرا الى قرار ولاية محمد على . وأنهم خاضعون لأوامر الدولة . ولكنهم يرجون اعفاءهم من ضمان المماليك فلا سلطة لهم عليهم . ولما تكرر من خيانتهم بقتل على باشا الطرابلسى وسلب الأموال والهجوم على القاهرة لولا وجود محمد على .

وأثنوا فى هذا المكتوب على محمد على وكفاءته . وان ما فرضه من الضرائب كان ضرورة لحـرب المماليك المخلين بالأمن والنظام .

وأرسلوا من هذا المكتوب صورتين احداهما للسلطان والثانية للقبطان .

وكان القبطان من جهة أخـرى قد راسل أمراء المماليك . وقـرر عليهم مبلغا من المال نظير تمكينهم من العودة للحكم . ولكن أمـراء المماليك ـ كعادتهم قـد اختلفوا فى توزيع هـذا المبلغ بينهـم . وحاول كل منهم أن يخفض نصيبه ويؤجله حتى يدفع الباقون .

وفى الوقت نفسه أمكن لمحمد على الاتصـال بالقبطان . وأعطاه أكثر مما طلبه من الأمراء وماطلوه فيه . واتفق معه أن يكتب العلماء والأعيان ورؤساء العسكر طلبـا للدولة يعلنون فيه تأييدهم لمحمـد على واطمئنانهـم لحـكمه . لمـا توسموه فيه من العدل والانصاف. ومحاربة العربان المعتـدين على الأهالى بكل أنواع الاعتداءات .

وأن جميع البلاد فى عهده فى غاية من الراحة والاطمئنان والأمـن برا وبحرا بحسن سياسته وامتثاله للأحكام الشرعية ومحبته للعلمـاء وأهل الفضائل .. الخ .

ووقع العلماء على الطلب دون مناقشة . ولم يطلع أكثـرهم على تفصيل ما ورد فيه (الجبـرتى)

وسافر بالطلب ابراهيم بك بـن محمد على (ابراهيم باشـا فيما بعد) ليقـوم مع القبطان الى استانبول . وزوده أبوه بهـدايا كثيرة للسلطان ورؤسـاء الدولة هناك . وسافر معهمـا موسى باشا الذى كان مرشحا للولاية .

ووصل من القبطان قبل سفره استجابته لطلب العلماء واستمـرار محمد على فى ولايتـه على مصر مادام حائزا على ثقة الخاصـة والعامة بشهادة العلمـاء واشراف الناس .

خصومة بين العلماء :

وأوغر بعض العلماء ـ منهـم السيد محمد الدواخلى والسيـد عمر مكرم ـ صدر محمد على ضد

الشيخ الشرقاوى . فأمره بملازمة داره وألا يخرج منها الا لصلاة الجمعة . وظل هكذا شهرا حتى توسط له القاضى . فقال محمد على : أنا لا ذنب لى ولكن الخلاف بينه وبين زملائه فاستأذنه فى فى مصالحتهم . وأولم لهم وليمة . وتصالحوا ولكن على ضغن .

واستمرت المحاربات بين محمد على المماليك . وركز محمد بك الألفى قواته فى الجيزة والبحيرة. وسيطر عليهما بقواته وعربانه . ونهب قراهما . ولكن استعصت عليه دمنهور بفضل ما كان يرسله لها السيد عمر مكرم من الامدادات والتشجيع لأنها كانت فى التزامه.

وفاة الألفى

وتوفى محمد بك الألفى فجأة فى ١٨٠٧/١/٢٩ (٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٢١ هـ) . ففقد المماليك ركنا هاما . ولما بلغ محمد على خبر وفاته قال : « الآن ملكت مصر » .

ومات أيضا بمنفلوط عثمان بك البرديسى . وقبلهما كان توفى محمد بشتك الملقب بالألفى الصغير .

استيلاء الانجليز على الاسكندرية

وكان الاتفاق بين الألفى والانجليز أن يحضروا الى مصر لمساعدته . وفعلا وصلوا الاسكندرية واستولوا عليها فى ١٨٠٧/٣/٢٠ (١٠ من المحرم سنة ١٢٢٢ هـ) . ولكنهم وجدوا الألفى قد مات . فراسلوا المماليك بالصعيد أنهم حضروا لنصرتهم . ولكن تفرق رأى المماليك . وتسجل لأحدهم وهو عثمان بك حسن ــ وكان من أكبرهم قوة ــ أنه رفض أن يختم حياته بعدجهاده للفرنسيين بالاستعانة بالأفرنج لينتصر بهم على المسلمين .

وأظهر العسكر الجبن . فقد هربوا من الاسكندرية الى دمنهور . فلما رأوهم عسكر دمنهور هاربين خرجوا أيضا وعلى رأسهم الكاشف الى فوة . وتركوا الأهالى يواجهون الخطر وحدهم .

وحاول الانجليز بعد نزولهم الاسكندرية بأسبوعين الاستيلاء

على رشيد فى ١٨٠٧/٤/٣ ولكن الأهالى كانوا مستعدين . فما أن توسط الانجليز المدينة حتى أطلقوا عليهم النيران من النوافذ وأعلى المنازل والأزقة والحارات . فحصدوهم . وقتلوا الكثيرين . وأرسلوا الباقين أسرى الى القاهرة .

ولما سمع كاشف دمنهور الخبر تشجع وعاد الى المدينة. وبلغ خبر نزول الانجليز محمد على وهو بالصعيد يحارب المماليك فاسرع بالعودة الى القاهرة .

وأرسل السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد والمتزعم حركة المقاومة بها يطلب النجدة . لأن الانجليز سيعاودون محاولة الاستيلاء على المدينة . فقرأ السيد عمر مكرم الخطاب على الناس وحثهم على الجهاد . ولكن منعهم الكتخدا حتى يحضر محمد على .

والكتخدا أى الوكيل كان وقتذاك محمد بك لاظ أوغلى المنسوب له الميدان والتمثال بجهة الوزارات بحى الناصرية . وقد ذكرنا فى مقال سابق أن التمثال المذكور ليس لشخصه بل لسقاء كان يشبهه . فانهم لما أرادوا عمل تمثال له فى عهد اسماعيل لم تكن للاظأوغلى صورة . فوجدوا هذا السقاء شبيهه . فألبسوه وعملوا على رسمه التمثال الموجود الآن (اسماء ومسميات من تاريخ القاهرة لكاتب المقال تحت الطبع) .

ولما حضر محمد على رفض خروج الأهالى . وقال ان القتال واجب العسكر . وعلى الأهالى فقط المساعدة بالمال . وقرر مبلغا ألزم السيد عمر مكرم بتحصيله .

واستعد محمد على للسفر . ولكن وصلت الأخبار بتغلب الأهالى على الانجليز . وأنهم طردوهم من الأماكن والقرى التى احتلوها بين رشيد والاسكندرية. ووصل الأسرى منهم مئات . والقتلى مئات . فقطعوا آذان القتلى وملحوها وحنطوها لارسالها بأخبار النصر الى استانبول .

وكان جزاء أهـل رشيد من العسكر عقب هذا الانتصار أن نزل العسكر المدينة ونهبوها . فتعرض لهم السيد حسن كريت . ورحـل الكثيرون من أهـل رشيد الى القاهرة بعائلاتهم .

وتأخر سفر محمـد على الى الاسكندرية بسبب مناوشات بينه وبين المماليك حول القاهرة . فقد كان لما علم بقدوم الانجليز قـد لاينهم وأوعدهم الوعود.واسترضى بعضهم . واستعصى عليه البعض الآخر .

وأخيرا سافر محمـد على الى الاسكندرية . واتفق على جلاء الانجليز عنها فى سبتمبـر سنة ١٨٠٧ . وعـاد الى القـاهرة فى أوائل اكتوبر .

وقد ذكرت نزول الانجليـز ثم جلاءهم بفضل الشعب وقياداته فى رشيد والقاهرة لاستكمال تسلسل الحوادث .

الجفاء بين محمد على والسيد عمر مكرم ونفيه الى دمياط

استمر فرض الضرائب. واستمر ايذاء العسكر للناس. وكان محمد على يقـرر الضرائب للنفقـات المتزايدة للعسكر . ويترك للسيد عمر مكرم توزيعهـا على الأهالى وتحصيلها منهم فكان السيـد عمر مـكرم فى نظـر الناس هو المتسبب فيها مما أحرج مركزه .

وكان الاتفاق بين محمـد على والعلماء عندما أقاموه واليـا فى مايو سنة ١٨٠٥ ألا يبت فى شأن من الشئون . أو يفرض ضريبة . الا بعد رأيهم وموافقتهم .

ولكن محمد على استبد بالأمر. ولم يراع هذا الاتفاق . مما جعل السيد عمر مكرم يطلق لسـانه بانتقاد محمـد على وتصرفاته . وكان السيد عمر صريحا كطبيعـة الأحرار . فدار ما فى نفسه على لسانه فى مجالسه . ونقل أصحاب الأغراض هذه الأقوال الى محمد على ومبالغا فيها .

وكان الساعون فى هذه الوقيعة الشيخ محمد السـادات والشيخ محمد المهـدى والسيد محمـد الدواخلى .

وكثـــرت الضرائب • وضج الناس • وذهبوا يشـكون الى شيوخ الأزهر • فاجتمعوا بقبـلة الجامع • وحضر معهم السيـــد عمر مكرم • وكتبوا شكوى الى محمد على يطلبون رفـــع المظالم والضرائب المستجـدة • ومـــال الأواسى والرزق • وختم الأمتعة • وغير ذلك من الأنواع التى ابتدعها محمد على لزيـادة مـــوارده • وتعاهدوا على الاتحاد •

والأواسى جمـــع أوسية وهى المساحة التى كانت تخصص أصلا لصاحب الالتزام يزرعها لنفســه • والرزق جمع رزقة• وهى مساحات كانت تخصص ايراداتها للمساجد والأعمال الخيرية • وكان الأصـل ألا تدفع الأواسى والرزق ضرائب• ففرض عليها محمد على الضرائب•

وكان محمد على يشتد فى منع العسكر أحيانا • فيخرج بعضهـم خارج القاهرة فيعيثون فسادا فى القرى • ولكن كان ضبط جماحهم من أصعب الامور • فهـم أخلاط من الجاهلين المغرورين بما يحملون من ســـلاح • المنحطى التـربية والأخلاق • فضلا عن حاجتـه لهم فى حروبه ضد المماليك •

وبلغ محمد على اجتماع العلماء• فطلب اجتماعهـم به • ولكنهـم رفضوا • وأمكن لمحمـــد على استجـلاب المهـدى والدواخـلى لجانبه • ولوح لهما بالوعـــود • وكلفهما بملاينة السيد عمـر مكرم حتى يحضر عنده • وأنه مستعد لاجـــابة مطالب العلماء • ولكن السيد عمر مكرم أصر على موقفه وصرح بأن محمد على رجل ظالم لا عهد له • وطلبه ثانيةفقال السيد عمر لا أجتمع به عنده بل أقبل الاجتماع به فى منـــزل الشيـــخ السادات •

وغضب محمد على فهو الوالى الحاكم ولا يفرض عليه النـزول الى بيت أحد من الناس • وأخيرا طلبه رسميا أمام القاضى للفصـل فيما بينهما • فاعتذر السيد عمـر بأنه شرب دواء ذلك اليـوم ولا يستطيع الحضور •

وأخيرا قرر محمد على أمره . وحزم رأيه . وأمر بخروج السيد عمر مكرم منفيا الى دمياط . وتعيين الشيخ السادات بدله نقيبا للأشراف . وخرج السيد عمر من القاهرة تنفيذا للأمر فى ١٢/٨/١٨٠٩ م (أول رجب سنة ١٢٢٤ هـ) .

وكافأ محمد على الشيخ محمد المهدى بنظر أوقاف الامام الشافعى وسنان باشا كما ذكرنا فى ترجمة المهدى فى مقال سابق . أما السيد محمد الدواخلى فلم يستفد شيئا غير شفاء ما فى نفسه من الحسد . ولكن لما توفى السادات سنة ١٨١٣ م (١٢٢٨ هـ) عينه محمد على نقيبا للأشراف .

وقال الجبرتى : فركبه الغرور وعمر دارهم القديمة بكفر الطماعين وأنشأ تجاهها مسجدا . ولما مات ابنه دفنه بهذا المسجد . وتعاظم الدواخلى فركب الخيول ولبس التاج الكبير .. ومشت أمامه جاويشية النقابة . وتطاول على الموظفين والكتبة . وتداخل فى أحكام القضاء . فغضب عليه محمد على وعزله من نقابة الأشراف سنة ١٨١٦ م . ونفاه الى دسوق ثم الى المحلة الكبرى وظل بها حتى توفى سنة ١٨١٨ م ودفن بها . وقال أيضا الجبرتى : ان الذى وقع لهذا الدواخلى انما هو قصاص وجزاء فعله فى السيد عمر مكرم . فانه كان من أكبر الساعين عليه الى أن عزلوه وأخرجوه من مصر . اهـ .

وكفر الطماعين شرقى مسجد الامام الحسين . ويوجد للآن شارع اسمه شارع السيد الدواخلى أمام كلية الشريعة بجامعة الأزهر . وبه المسجد المذكور أولا . وقد تعدل تخطيط هذه الجهة أخيرا .

وظهر الحقد الكامن فى النفوس على السيد عمر مكرم . فكتب الشيوخ للدولة فى حقه . واتهموه بشتى الاتهامات منها انه كاتب امراء المماليك وقت الفتنة . وأنه سعى للايقاع بين الباشا والعسكر . وأنه أخذ من الألفى مبلغا من المال ليملكه مصر أثناء

فتنة أحمد خورشيد . وأنه أدخل فى دفتر الاشراف بعض من أسلموا من اليهود والنصارى . وغير ذلك من الاتهامات الباطلة .

ولكن لا يعدم الحق انصارا . فامتنع بعض العلماء عن التوقيع . وكان على رأس الممتنعين السيد أحمد الطحطاوى الحنفى فقالوا للممتنعين : أنتم لستم بأروع ولا أورع منا . واضطهدوهم . وكان الطحطاوى شيخا للحنفية بعد وفاة الشيخ ابراهيم الحريرى بن الشيخ محمد الحريرى نسيب المهدى السابق ذكره فى ترجمة المهدى فى مقال سابق . فعزلوا الطحطاوى من مشيخة الحنفية . وظل معزولا حتى أعيد لها سنة ١٢٣٠ هـ (١٨١٥ م) فى مشيخة الشيخ محمد الشنوانى للجامع الأزهر .

مذبحة المماليك فى القلعة وهوان شأن العلماء :

وبعد نفى السيد عمر مكرم هان شأن العلماء فى نظر محمد على . فقد أمكنه تفريق وحدتهم . واستغلال ما فى الطبائع البشرية من المطامع الدنيوية .

فلما قضى محمد على ، على المماليك فى مذبحة القلعة المشهورة فى ١٨١١/٢/٢٨ (٤ صفر سنة ١٢٢٦ هـ) لجأ اثنان من الكشاف المماليك الى الشيخ الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر يطلبان حمايته ووساطته فى العفو . فطلب الأمان لهما من محمد على . فوعده على أن يحضرا عنده . فلما أرسلهما قتلهما وذهبا مع الباقين .

ولما توفى الشيخ الشرقاوى سنة ١٨١٢ (١٢٢٧ هـ) اجتمع العلماء واتفقوا على تعيين الشيخ محمد المهدى شيخا للأزهر . وصافحوه وهنأوه . ولكن محمد على ضرب باتفاقهم عرض الحائط وعين الشيخ محمد الشنوانى شيخا للأزهر كما سنذكر باذن الله فى المقال الخاص بشيوخ الأزهر .

واقتصر محمد على ، على الوهابيين فى الحجاز . وعينت الدولة ابنه ابراهيم باشا واليا على الحجاز . وأصبح محمد على رجل الدولة المشار له بالبنان .

واستقــرت له الامــور فى الداخل . فلم يعد فى حاجـة الى تعضيد العلماء . وانطلق فى تنفيذ مشروعاته واصـلاحاته التى ليس هنا مكان ذكرها . ولكن نذكـر أن من ضمن هذه الاصلاحات نشر التعليم فى مصر على الطـريقة الحديثة . وبدأ بارسال البعثـات الى أوربا . فأرسل ٢٨ طالبا فى المدة من سنة ١٨١٧ ـ ١٨٢٥ م. وأرسل ٢٩١ طالبا فى المدة مـن سنـة ١٨٢٦ ـ ١٨٣١ م . وكان الكثيرون من هذه البعثات من طلبة الازهر . وسنذكر بعض النابهين البارزين منهم فى المقـال التالى باذن الله .

محمد كمال السيد

« شكر وتصحيح

نشكر الاخوة الذين كتبوا الينا لتصحيح ما ورد فى مقال « ذو القرنين يفتح المشرف » .

بخصوص ما ورد فى هذا المقال عن موقعة «مرج دابق» والصحيح ان الموقعة التى هزم فيها التتـار هى موقعة « عين جالوت » .

الشريعة الإسلامية والقانون الإنجليزي

جرائم القصاص وجرائم التعزير

المستشار حسن حسب الله

انتهينا في عدد سابق من الكلام عن جرائم الحدود ونتكلم في هذا العدد عن جرائم القصاص وجرائم التعزير .

جرائم القصاص :

جرائم القصاص هي جرائم الاعتداء على جسم الانسان سواء بالقتل أو الجرح أو الضرب ويعبر عنها في الاصطلاح الشرعي بجرائم الاعتداء على النفس وقد كان الناس قديما وحديثا لا يرون أنهم متساوون فحينما يقتل ملك أو أمير أو رئيس أحد عامة الناس فانه لا يصح أن يقتل به وحينما يقتل أحد العظماء فانه لا يصح الاكتفاء بقتل قاتله ولا ادل على بقاء هذا الاختلال حتى الآن من النداءات والوساطات التي بذلها رؤساء بعض الدول لعدم تنفيذ حكم الاعدام في ذو الفقار على بوتو رئيس الوزراء السابق للباكستان حينما ادين في جريمة قتل أحد خصومه السياسيين .

ولذلك كان حرص الشريعة الاسلامية على فرض القصاص وعدم تركه لهوى الحكام يفرضونه أو لا يفرضونه ذلك لأن الناس جميعا أمام الله سواء فلا فرق بين غني وفقير و لا بين قوي وضعيف ولا حاكم محكوم فلا طبقية في الاسلام فقد خلق الله الناس جميعا من طينة واحدة « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء — أول النساء » كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس سواسية كأسنان المشط » .

وقد أجمع الفقهاء على أن الحاكم أو السلطان اذا اعتدى على أحد من الرعية وجب عليه أن يقدم نفسه ليقتص منه اذ هو واحد منهم وان كان له مزية النظر فى شئونهم كالوصى والوكيل ، وذلك لا يمنع القصاص وليس بين الحكام وبين العامة فرق فى أحكام الله تعالى فالاعتداء على جسم الانسان اعتداء على أمر لا تختلف فيه مراتب الناس ولا أقدارهم بل هم فيه سواء فلا توجد دماء زرقاء ودماء حمراء ولذلك فرض الله القصاص حتى لا يستكين الضعيف ونفسه تغلى بالحقد والمرارة ولا يستهتر القوى بدماء الضعفاء أو يسرف فى الانتقام ان أصابه أى اعتداء .

والقصاص هو المساواة بين الجريمة والعقوبة عليها فيعاقب الجانى بأن يفعل به نفس ما فعله بالمجنى عليه كلما أمكن ذلك فان كان قتلا قتل وان كان جرحا جرح وان كان قطعا لأحد الأطراف قطع منه الطرف المماثل وهكذا .

والقصاص عقوبة مقدرة ثبت أصلها بالكتاب وثبت تفصيلها بالسنة .

والاعتداء على النفس قد يكون بالقتل وقد يكون بما دونه من قطع أو جرح أو ضرب .

وقد نزلت فى جريمة القتل آيتان .

الأولى آية مكية وهى قوله تعالى « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا ــ الاسراء ٣٣ » وهذه الآية هى أول ما نزل فى القتل على الاطلاق .

والآية الثانية مدنية وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ــ البقرة ١٧٨ » .

ومقتضى الآية الأولى النهى عن القتل وتحريمه وشأن الاسلام فى ذلك شأن الشرائع السابقة ، كما أخبر الله تعالى عن التوراة « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ــ المائدة ٤٥ » ، فالنفس البشرية أيا كانت معصومة الدم ولا يباح قتلها الا بذنب تأتيه يبيح قتلها فلا يكون قتلها فى تلك الحالة جريمة منهيا عنها .

وقد أورد الكتاب والسنة الحالات التى يباح فيها قتل النفس وهى حدود البغى والحرابة وزنى المحصن والردة ومرتكب الفاحشة مع الرجال أو البهائم والقاتل عمدا دون عذر شرعى وحالات الدفاع الشرعى عن النفس أو المال أو العرض فقد وردت السنة باباحة القتل دفاعا عن هذه الأقسام الثلاثة من الحق بشرط الا تكون هناك وسيلة للدفاع عنها الا القتل وهذه مسألة تقديرية تترك لقاضى الموضوع يفصل فيها حسب الظروف المحيطة بالزمان والمكان .

ويشترط فى القتل الموجب للقصاص أن يكون ظلما أى بغير حق كما ذكرنا أى عدوانا وأن يكون عمدا ذلك أن للقتل الخطأ حكما آخر نص عليه الكتاب صراحة فى قوله تعالى : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ــ النساء ٩٢ » .

فقد صرحت هذه الآية على أنه لا قصاص على الاطلاق فى جميع صور القتل الخطأ .

والقتل هو ازهاق روح انسان متحقق الحياة بفعل من شأنه عادة أن يزهق الروح يقوم به انسان مؤاخذ بعمله أى شخص بالغ وعاقل .

فمتى قتل انسان عمدا وبغير حق أى ظلما وعدوانا فقد جعل

الله لوليه سلطانا بعـد القتـل فى التصرف مع القاتل بقتله .

وقد اختلف الفقهـاء فى معنى الولى الذى له هذا السلطان .

فذهب البعض الى أنه الوارث مطلقا نسبيا كان أو سببيا ذكرا كان أو انثى . وذهب البعض الى أنه هـو الوارث النسبى فقط فـلا يعتبر أحد الزوجين وليا لدم الآخر وذهب البعض الى أن الولى لايكون الا من الذكور العصبة فقط دون غيرهم من الأقارب ونرى الأخـذ بالتعميم فى معنى الولى وأن يقصد به جميع الورثة من الرجال والنساء لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنه قال : « وعلى المقتتلين أن ينحجـزوا الأول ـ فالأول وان كانت امرأة » ويقصد بالمقتتلين أولياء المقتول الطـالبين للقصاص ويقصد ينحجزوا الكف عن طلب القصاص متى عفا أحدهم ولو كان صاحب العفو امرأة .

والسلطان الذى جعله الله للولى هو حـق طلب القصـاص دون اسراف « فلا يسرف فى القتل » فلا يتجاوز عن الحد المطلوب فلا يقتل غير القاتل ولا بكيفية غيـر التى قتـل بها المقتول فلا يمثـل بالقاتل صلبا أو تقطيعـا أو غير ذلك .

والآية الكريمة لم تعرض لبيان صـاحب الاختصاص فى القضـاء بهذا الحق أو تنفيذه اذا ما طلبه صاحبه وهو ولى المقتول وانمـا تركتهم وشـأنهم الذى كانوا يألفونه فى الجاهلية حيث لم يكن بمكة حكومة اسـلامية يمكن أن يعهد اليها بشىء من ذلك .

فلما نشأت الحكومة الاسلامية فى المدينة وأصبح للمسلمين حاكم يقضى وينفذ فيما يقع بين المسلمين من خصومات . نزلت الآية الثانية وبينت أن القصـاص قـد أصبح « فرضا » فى شأن من قتل عمـدا بغـير حق وذلك باستعمالها لفظ « كتب » وأن مسـئولية تنفيـذ القصاص قد أسندت الى الحـاكم فلم تترك لصـاحب الحق وذلك بتوجيـه الخطـاب الى « الذين آمنوا » فالله سبحانه وتعالى قد خاطب جميع المؤمنين بالقصـاص

وهو أمر لا يتهيأ لهم جميعا أن يجتمعوا لتنفيذه ولذلك يقوم السلطان مقامهم فى اقامته واقامة غيره . ن الحدود فمتى تحققت شروط اقامة القصاص فانه لا يحل للحاكم عدم تنفيذه أو العفو عن الجانى لأى سبب من الأسباب فولى الدم فى هذه الآية لا يملك الا أن يطالب بحقه فى اقامة القصاص وليس له أن يستوفى القصاص بنفسه حتى ولو قضى به القاضى ومتى طلب ولى الدم هذا الحق فليس للحاكم الا أن ينفذ القصاص وليس له حق العفو أو التخفيف لأن هذا الحق فى العفو أو التخفيف قصرته الآية على ولى الدم وحده كما سيجىء .

وقد أثار التنويع والتقسيم الوارد بالآية « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » الخلاف بين الفقهاء فى حالة اختلاف القاتل والمقتول فى النوع كما اذا قتل رجل امرأة أو قتل مسلم غير مسلم فذهب كثير من الفقهاء الى أن المسلم لا يقتل بغير المسلم ولكن تدفع الدية ويعزر أشد تعزير واحتجوا فى ذلك بأن آية القصاص كان الخطاب فيها للمؤمنين فيكون موضوع القصاص اذا كان القتلى مسلمين كما احتجوا بحديثه صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل مسلم بكافر » كذلك ذهبوا الى أن الرجل لا يقتل بالمرأة لأن المرأة بشكل عام لا تساوى الرجل .

وذهب البعض ومنهم الامام أبو حنيفة والنووى وابن أبى ليلى الى أن المسلم يقتل بغير المسلم والرجل يقتل بالمرأة لأن الأساس فى القصاص فى الأنفس هو المساواة فى النفس الانسانية وأن ما احتج به أصحاب الرأى الأول من أن الخطاب فى آية القصاص كان للمؤمنين انما كان لهم باعتبارهم أهل التكليف وأصحاب الحكم سواء كانت الأحكام الشرعية تطبق على المسلمين وحدهم أم تطبق على المسلمين وغير المسلمين وأما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقتل مسلم بكافر » فقد ورد فى الحربى

الذى يقاتل المسلمين وهـو أمـر طبيعى فالحربى الذى يشن الحرب على المسلمين يباح لذلك دمه وهو أمـر يختلف عن غير المسلم الذى يعيش مع المسلمين وتحت الحكم الاسلامى .

والواقـع أننا لو ذهبنـا الى تحكيم الأوصـاف والتمـاثل بين القاتل والقتيل لأقامة القصـاص لاضطربت قاعدته وفاتت حكمتـه فلا يقتل الصحيح بالمريض ولا يقتل العاقل بالمجنون ، وهكذا كما أنه لا يوجد ضابط محدد يمـكن أن يتفق عليـه لبحث التسـاوى بين القـاتل والمقتـول وأن الضابط الوحيد الذى يمكن الاتفاق عليه والوثوق به هو مجـرد « النفس المحرمة » وأن سياق الآية « كتب عليكم القصاص فى القتلى » كلام مستقلٌ بنفسه واضح فى دلالتـه وليس محتـاجا الى البيـان أو الايضاح بما بعده وأما ماورد بهـا « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » انما كان ردا على تلك العادة الجاهليـة التى كانت تسرف فى الانتقام بقتل غير القاتل فاذا قتـل من فريق منهم امـرأة انتقموا لأنفسهم بقتل رجـل من الفريق الآخر واذا قتـل من فريق منهم أحد العبيد انتقموا له بقتل أحد الأحرار من الفريق الآخر .

ومن المسـائل التى ثار عليهـا الخلاف أيضا قتـل الوالد لولده فذهب البعض الى عـدم القصاص من الوالد فى هذه الحالة واستندوا فى ذلك الى حديث « لا يقاد والد بولده » كما أحتجوا فى ذلك بأن الوالد هـو سبب وجـود الولد فكيف يصبح الولد سببا فى عـدم الوالد ويرد على هذا الرأى بأن الحديث الذى استند اليه حـديث باطل أما سبب الوجـود وسبب العدم فانه يرد عليه بأن الوالد اذا زنا بابنته فانه يرجم رغم أنه سبب وجـودها .

وعلى ذلك فان الرأى الأرجح والأصوب والذى يتفق مع مبادىء الاسلام باعتبـاره دين المساواة وشريعة الله فى كل أرضـه ولكل خلقـه هـو الرأى القـائل بأن لا اعتبار لشىء من الأوصـاف فى القصاص وعليه يقتل الحر بالعبـد

والعبد بالحر والذكر بالأنثى والأنثى بالذكر والمسلم بغير المسلم وغير المسلم بالمسلم والولد بالوالد والوالد بالولد فالكل نفس محرمة ولوليها بنص القرآن حق طلب القصاص فالقصاص فى النفس تلاحظ فيه النفس فقط والنفوس متساوية .

وقد فتحت الآية الثانية من آيات القصاص بابا للتخفيف عن القاتل بقوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان » فقد صرحت الآية بأن يفتدى القاتل نفسه بعرض « الدية » على ورثة المقتول (ولى الدم) فان عفا ولى الدم عنه مقابل الدية أو بدون مقابل امتنع على الحاكم تنفيذ القصاص فى القاتل .

وحق العفو لا يشترط فيه أن يكون صادرا عن جميع الورثة فيكفى أن يعفو أحدهم ليسقط القصاص .

وحق العفو لا يجوز الرجوع عنه لنص الآية : « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

لأن العفو هنا لا يصدر الا عن نفس قادرة على طلب القصاص وغير مكرهة اطلاقا على العفو ولا يستطيع الحاكم تجاهل طلب القصاص ولا ايقاف تنفيذه ولذلك فان عفو ولى الدم فى الاسلام ليس عن ضعف ولا مهانة ولذلك متى عفا لم يقبل منه بعد ذلك الرجوع عن العفو وطلب القصاص .

وعقوبة القصاص من القاتل عمدا وظلما وعدوانا بقتله من العقوبات التى حرص عليها التشريع الاسلامى لقوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ــ البقرة ١٧٩ » لما فيها من حفظ الحياة للناس بعدم تجاوز القاتل والانتقام ممن عداه وأخذ عدة أفراد لم يشتركوا فى القتل بجريرة غيرهم مما يشيع الاضطراب فى الحياة وعدم الأمان ولأن القاتل متى علم بأنه لن يستطيع الافلات من القتل بعد

ارتكابه جريمته وأن ماله ومكانته لن يدرآ عنه القتـل مهمـا كانت ضآلة من قتـله فانه سيفكر بدل المـرة مرات وسيعدل عن ارتكاب جريمته مهما كانت الدوافع قوية على ارتكابها ولهذا كان القصاص احياء للنفـوس وحفظا لهـا ولم تستطع التشريعات الوضعية بعـد الغاء عقوبة الاعـدام الوصـول الى هذا الغرض فان القاتل متى أيقن أنه لن يقتل فانه لا يتوقف عن ارتكاب جريمته وأهل القتيل لن يقبلوا بغير قتله بديلا مهما طال سجنه فهم يتربصـون به لقتـله أو قتل أحد من ذويه وبذلك عدنا الى الجاهلية .

هذا عن جريمة الاعتـداء على النفس بالقتـل .

القصاص فيما دون النفس

أما اذا كان الاعتداء لا يصل الى درجة القتل فان عقوبته يعبر عنها فى الاصطلاح الشرعى باسم (القصاص فيما دون النفس) .

وقد ثبت القصـاص فيما دون النفس بالاجماع وكل كتب الفقـه الاسلامى ومذاهبه المتعددة مجمعة على أحكام القصاص فيـما دون النفس وعـلى أنه مشـروع فى الاسـلام شرعا عاما وأنه فقـه اسلامى ، ولكن ليس من فقـه الكتاب والسنة ذلك أن الآية التى وردت بسورة المائدة .. « وكتبنا عليهم فيهـا أن النفس بالنفس والعـين بالعـين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسـن بالسـن والجروح قصاص ـ المائدة ٤٥ » مما كتبه الله فى التوراة ولا يلتزم المسلمون بشرائع من قبلهم لقوله تعالى « لكل جعلنـا منكم شرعة ومنهاجا ـ المائدة ٤٨ » والى هذا القول ذهب الشافعية وابن حـزم والشوكانى وغيرهم .

كذلك لا يصـح الاحتجـاج بالآيات « فمن اعتـدى عليـكم فاعتدوا عليـه بمثـل ما اعتدى عليكم ـ البقرة ١٩٤ » ، « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ـ النحل ١٢٦ » ، « وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى ٤٠ » فكل هـذه الآيات نزلت فى تحـديد العلاقة بين المؤمنين والكافرين فى حـالة الاعتـداء فهى تشريع بين

الامة الاسلامية وغيرها من الامم وليست تشريعا داخليا ينظم العلاقة بين أفراد الامة الاسلامية .

هذا الى جانب أن من يقولون بالنسخ فى أحكام القرآن يرون أن هذه الآيات قد نسختها الآيات الموجبة للقتال فلا تصلح للاستدلال على فرض القصاص فيما دون النفس بالكتاب ولا تصلح أن تكون أصلا لتشريع القصاص فيما دون النفس بين المسلمين بعضهم مع بعض .

أما حديث « كتاب الله القصاص » فهو على فرض صحته حديث آحاد وقد أنكر كثير من الاصوليين صحة الاستدلال به فى فرض القصاص .

وجرائم الاعتداء فيما دون النفس قد تكون بقطع عضو من الاعضاء أو جرحه وكذلك باللطم والضرب .

ويشترط لاقامة القصاص أن تكون الجناية متعمدة وأن يكون الاستيفاء ممكنا من غير تجاوز وأن تساوى الاعضاء التى يكون القصاص بينها من جهة السلامة والشلل والكمال والنقصان وجميع الاوصاف والمنافع فلا قصاص بين عضو صحيح وعضو أشل ولا بين يد كاملة الاصابع وأخرى ناقصتها ولا بين يد يمنى ويد يسرى .

وقد اختلف الفقهاء فى القصاص فى الأطراف بين المرأة والرجل فذهب الحنفية الى عدم القصاص فى هذه الحالة نتيجة قياسهم الاطراف على حكم الاموال وانه لا قصاص فى الاموال بل تعويض ولذلك لا يحق للمرأة عندهم المطالبة بالقصاص وانما تطالب بالتعويض .

أما جمهور الفقهاء فيرون أن أطراف المرأة وجروحها كأطراف الرجل وجروحه على سواء يجرى فيها القصاص بشرط امكان التماثل وهذا هو الرأى الاصح والاولى بالاتباع .

واذا تعذر اقامة القصاص سواء فى النفس أو ما دونها لعفو ولى الدم أو المجنى عليه أو لعدم توافر شروط اقامة القصاص التى ذكرناها سواء فى القتل أو مادونه

فان حق المجنى عليه يتحــول من القصاص المادى الى قصاص معنوى وهو ما يعبر عنه بالدية .

الدية

ظهر نظــام الدية منــذ وصلت الجماعة الانسانية الى درجــة من التقــدم وأصبحت تعتمـــد على الزراعة وتوافرت لديهــا الاموال فيقوم الجــانى وأهله بتسليم عدد من رءوس الماشية لأهل المجنى عليه ليفتدى الجانى نفسه ولتعــويض الضرر الذى حل بالمجنى عليــه وبأهله وتهدئة لخواطرهم .

وقد كان مقــدار الدية متروكا لتقــدير الطــرفين يختلف تبعــا لمركز الجانى والمجنى عليه كما كان قبولها أيضا متروكا لتقديرهما ان شاءا قبلاها وان شاءا رفضاها ولجآ الى الانتقام والثأر ثم تطور هذا النظام فى بدء ظهور نظــام الدولة وأصبحت الدية اجبارية تحــددها السلطة وتلزم الطرفين بقبولها .

وقــد أخــذت كــل الشرائع القديمة بنظــام الدية فى جــرائم الاعتــداء على النفس من قتــل وجرح وضرب غير أن بعضها كان يســوى بين الافراد وبعضها الآخر كان يحدد مقدارها تبعــا للطبقــة التى ينتمى اليها الشخص . وبعض الشرائع كان يعمم تطبيقها فى حالة العمد وغير العمد وبعضها الآخــر يقصر تطبيقهــا على حالات غــير العمــد .

ثم جاء الاسلام فوضع نظــاما مرنا وشاملا للدية . فالأصل أولا اقامة القصــاص فى كل جــرائم الاعتــداء على النفس متى كانت عمــدية والدية اذا كانت هــذه الجرائم غير عمدية . واذا توافرت شروط اقامة القصــاص فللمجنى عليــه أو ورثته اما طلب القصاص واما العفو التــام واما العفو عن القصاص وقبول الدية فاذا ما طلبوا القصــاص فليس للحاكم الحق فى عدم اقامته أو أن يأمرهم بقبــول الدية واذا طلبوا الدية فليس لهــم الرجوع عنها وطلب اقامة القصاص واذا لم تتوافــر شروط اقامــة القصاص فليس لهــم الا قبــول الدية .

والدية متساوية بالنسبة لجميع الاشخاص فلا يتأثر قدرها بمركز الجانى أو مركز المجنى عليه أو أوصافه على الاطلاق .

وقد حددت السنة النبوية الدية فى حالة القتل بمائة من الابل وحددها عمر بن الخطاب رضى الله عنه بألف دينار من الذهب أو اثنى عشر ألف درهم من الفضة أو مائتى بقرة أو ألفى شاه وذلك بسبب ارتفاع قيمة الابل .

وقد أجمع الصحابة على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل فى حالة قتلها ، وذلك قياسا على أن ميراثها على النصف من الرجل فكذلك يكون فى ديتها . أما قطع الأطراف والجروح وغيرها فهى تنسب الى الدية فمثلا اذا قطع أصبع واحد وجب على قاطعه عشر الدية واذا قطع أصبعين وجب الخمس واذا قطع ثلاثة أصابع وجب عليه ثلاثة أعشار وتسمى الدية فى حالة القطع أو الجرح « أرشا » وقد عدد الفقهاء قيمة الارش فى كل حالة فبالنسبة لليد الواحدة تجب نصف الدية أى خمسون من الابل ، وهكذا .

وقد ذهب الشافعى الى أن « الاروش » واحدة ولا تتفاوت بين الرجل والمرأة على عكس ماهو وارد فى جريمة القتل من استحقاقها نصف الدية .

واذا كانت الجريمة على عضو لم تمكن فيه المماثلة سواء كانت الجريمة قد وقعت عمدا أو عن غير عمد فان التعويض يترك تقديره للقاضى وهو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى « بحكومة العدل » ويسرى ذلك على أغلب الجروح وسائر صور الاعتداء على جسم الانسان فيما دون القتل .

والذى نراه بالنسبة لتقدير « الدية » و « الأرش » أنه لا يمكن التمسك بما جرى عليه العمل فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم من تحديد بعدد معين من الابل .

وقد ثبت أن خليفة رسول الله قد خرج على هذا التقدير بسبب

ارتفاع أسعار الابل وفرض تقديرات أخرى .

ولذلك لا نرى ما يمنع من تقدير الدية بمبلغ من المال بالعملة السائدة فى بلد المجنى عليه وأنه لا يوجد ما يمنع من أن يختلف هذا المبلغ من بلد لآخر وفى نفس البلد لا يوجد ما يمنع من تعديله من وقت لآخر وأن القيد الوحيد فى تقدير الدية هى أن تكون مبلغا واحدا لا يتفاوت بأوصاف الجانى أو المجنى عليه أخذا بالأصل القائم عليه التشريع الاسلامى وهو المساواة وأن هذا الرأى هو الذى يتفق مع النظرة الى التشريع الاسلامى كتشريع شامل موجه الى كل بنى الانسان فى كل زمان ومكان .

أما التعويض عن القطع والجرح والضرب فيجب أن يترك تقديره للقضاء يفصل فيه بالتعاون مع أهل الخبرة .

والجانى فى جرائم الاعتداء على النفس فى جميع صور هذا الاعتداء لا يفلت من العقاب بمجرد العفو التام أو العفو عن القصاص وقبول الدية وانما يعاقب رغم ذلك على أساس أن ما ارتكبه يشكل جريمة من جرائم التعزير ولا يملك المجنى عليه أو ورثته اعفاءه من هذه العقوبة كما لا يملك الجانى رفعها عن نفسه مهما قدم من أموال .

جرائم التعزير

التعزير معناه التأديب ..

وقد اكتفى كل من الكتاب والسنة بالنص على أمهات الجرائم التى لا يجب ترك العقاب عليها لتقدير الحكام حتى يستقيم أمر الناس ولذلك فرضت الحدود والقصاص بالكتاب والسنة ، أما باقى الجرائم فقد ترك أمرها للمسلمين يقدرون عقابها بقدر ضررها وبقدر انتشارها حتى لا يقدم المسلمون على حرام ولا يسمحون بظلم أو عدوان أو فساد فى الارض .

وعلى ذلك فان جرائم التعزير لا يمكن أن تكون أمرا ثابتا كالحدود والقصاص وانما تختلف من مكان لآخر وتختلف فى نفس المكان من زمن لآخر كما أن هذه

الجرائم حينما تحدد يمكن أن تختلف عقوباتها من وقت لآخر وأيضا من شخص لآخر .
فالعبرة فيها هى تحقيق مصلحة المسلمين فى الحياة فى المجتمع النظيف .

كذلك يعاقب الجانى تعزيرا اذا كان قد ارتكب حدا من الحدود أو جريمة من جرائم الاعتداء على النفس ولم تتوافر شروط اقامة الحد أو اقامة القصاص عليه .

والتعزير قد يكون بالضرب أو الحبس أو الابعاد .

وقد اختلف الفقهاء فيما اذا كان يمكن التعزير بالعقوبات المالية فذهب ابن قيم الجوزيه الى أن التعزير بالعقوبات المالية مشروع وذهب البعض ومنهم الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعى وأحمد أنه لا يجوز التعزير بأخذ المال ونرى الأخذ بهذا الرأى حيث ثبت عملا أن التعزير بالعقوبات المالية لم ينفع اطلاقا فى الحد من الجرائم المعاقب عليها بذلك كجرائم التهرب من الضرائب وتهريب النقد والبيع بما يزيد على الأسعار المحددة قانونا والاقراض بالربا الفاحش وممارسة العاب القمار وغيرها .

وقد اختلف الفقهاء فيما اذا كان للتعزير حد أقصى لا يجب أن يتجاوزه فذهب كثير من الشافعية والحنابلة وأبو حنيفة الى أنه لا يجب أن يتجاوز التعزير أدنى الحدود أى أربعين جلدة وذهب الامام مالك الى أن التعزير يقدر بحسب المصلحة وعلى قدر الجريمة فيجتهد فيه ولى الأمر ولا حد لأكثره فقد يزيد الامام فيه عن الحد اذا رأى المصلحة العامة فى ذلك ونرى الأخذ برأى الامام مالك ويؤيد هذا الرأى أن حد شرب الخمر هو الجلد ثمانون جلدة ومع ذلك فقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أمر بقتل شارب الخمر متى عاد لشربها للمرة الرابعة « من شرب الخمر فاجلدوه وان عاد فى الرابعة فاقتلوه » كما روى عن عطاء — وعمرو بن العاص وعبد الله بن عمر أن السارق يقتل فى السرقة الخامسة كما ثبت أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أمر بقتل رجل تزوج امــرأة أبيــه وكل هــذه العقــوبات فرضت تعــزيرا وليس حدا من الحدود .

ولذلك نســتطيع أن نطمئــن لسلامة الرأى القائل بأنه لا يوجد حــد أقصى للعقــوبة المفروضــة بالتعزير ولا يوجــد من القيــود المفروضة على التعزير الاالملاءمــة بين الجريمة والعقــوبة الى المدى الذى تتحقق به مصلحة المجتمــع وأن لا يكون فى التجريم بالتعزير تحريم لما أحله الله .

وعليه فان جميع المعــاصى التى يمكن تحقيقها والكشف عنها دون تعنت أو تجسس يمكن العقــاب عليها تعزيرا وذلك مثل ممارســة ألعاب القمار والربا وشهادة الزور والغش والتــلاعب فى المــكاييل والمــوازين والرشـــوة والسب والقذف بغير الزنى وغير ذلك .

وتحـــديد جــرائم التعــزير والعقوبات المقدرة لهــا أمر متروك للحاكم ولا يوجد ما يمنع من الجمع بين عقوبتى الحــد ، والقصــاص والتعزير ، فتقطــع يد الســارق ويحبس مــــع ذلك اذا كــان فى اضــافة عقــوبة التعــزير لعقوبة الحــد أو القصـــاص مصــلحة للمسلمين .

وتعتبــر قــوانين العقــوبات الوضعية من قبيــل التعــزير وان كانت لا تصل الى الهدف السامى الذى فرض من أجــله العقــاب بالتعزير .

بهذا نكون قد انتهينا من تعداد الجــرائم والعقوبات من حــدود وقصاص وتعزير ونتكلم فى العدد القادم ان شاء الله عــن الاحــكام العامــــة فى التشريــع الجنــائى الاسلامى .

حسن حسب الله

الإسلام فى الفكر الأوربى

عرض وتحليل لمؤلفات أوربية
بقلم الدكتور محمد شامه

— ٤ —

التوسع السياسى وفى هذا الباب :

١ — الخلفاء الراشدون :

سرد المؤلف فى هذا الباب أحداث تولى الخلفاء الراشدين ، وجهودهم فى التوسع السياسى ، وأثرهم فى تثبيت اركان الدولة داخليا ، وعلاقة الدولة بأهل الكتاب الذين يقيمون فى المجتمع الاسلامى الجديد ، فبدأ بما حدث بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) من مشاورات لتعيين خليفة له ، فذهب الى أن المجتمع الاسلامى فى المدينة لم يتحد اتحادا كليا على الرغم من الجهود التى بذلها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى دعوته لهم الى نبذ العصبية القبلية ، عن طريق ما نزل عليه من الوحى ، وما ضربه لهم من (أمثال — قولا وفعلا — فى مقت هذه العصبية وترغيبه اياهم فى أن يكون الرابط بينهم هو الاسلام ، اذ ظهرت معالم الانقسام الى مهاجرين وأنصار بعد موته مباشرة ، فى محاولة كل فريق اختيار الخليفة منه ، ولكن سرعان ما تداركوا الأمن واتفقوا على أن يكون أبو بكر الصديق هو خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) •

كانت مهمة أبى بكر صعبة جدا ، لأنه سيسوس شعبا دون أن تكون له صفة النبوة ، التى لها تأثير كبير فى نفوس الرعية مما يساعد فى سياستها ، فقد كان محمد آخر الأنبياء • ولم تكن مهمته قيادة دينية فقط ، بل كان أمثال — قولا وفعلا — فى مقت

دينيـــة كانت ، أو سياســـية أو عســكرية ، أو اقتصــادية ، أو قضائيــة . فاختار لنفسه لقب « خليفة » ولا يقصــد به خليفــة الله ، كما كان معــروفا لدى بعض الشعوب آنذاك ، بل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

رأت القبــائل فى شمال وشرق وجنــوب الجــزيرة العربيــة ان الفرصة قد سنحت ــ بعــد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) ــ للتخلص من التبعيــة للمدينــة ، فأعلنت عصيانها ، ورفعت شــعارا سياسيا أكثر منه دينيا ، وكان هذا التمرد أحد خطرين واجها أبا بكر فى بداية ولايته ، أما الخطر الآخر ، فهو كثرة ظهور ادعياء النبوة فى الجزيرة العربيــة ، الأمــر الذى هدد الوحــدة الاســلامية ، لكن أبا بكر تغلب على كليهما ، فأرسى قواعد الدولة .

يرى المحللون أن الاسباب التى دفعت الشعب العربى الى القتــال خارج الجزيرة العربية ، يمكن أن تنحصر بعد تولى أبى بكر الخلافة فى سببين :

الاول : التزامهم بتنفيذ ما عزم عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) من تجــريد حمــلة ضــد الدولة البيزنطيــة ، وهى الحمــلة التى كانت بقيادة أسامة بن زيد .

الثانى : رغبة الجماهير الفقيرة فى اجتياح منطقة البحــر الأبيض المتوسط الغنية بثرواتهــا ، وكان هذا الغــرض كامنــا فى نفــوس العرب من قبل الاسلام ، وقــد حيل بينهم وبين تحقيقه بقيــام ، امارتين عازلتين هما الغساسنة فى سوريا ، واللخميين فى الحــيرة .

ولــكن عنــدما عبرت الجيــوش الاسلامية حدود الجزيرة العربيــة لفتح ما وراءها من أقطار الأرض لم يكن السبب الــرئيسى لهــا اقتصاديا ، بل كان دينيا فى المقام الأول ، فقد كانت الرغبة المسيطرة على نفوس المسلمين فى تحــركهم للقتال خارج الجــزيرة العــربية رغبة دينية ، اذ كان هدفهم تكوين دولة اسلاميــة ، تدين بالقــرآن وتتبع سنة رسول الله ، ولهذا لزم ــ فى نظــرهم ــ القضــاء على

مملكتى كسرى ، وقيصر لتحقيق هــذا الهدف •

كانت الظــروف مهيأة للقضــاء على هاتين المملكتين ، فقد خرجت مملكة كسرى من حربها مع الدولة البيزنطية منهكة القوى ، مفككة الأوصال ، فسقط جنوب منطقــة دجلة والفرات فى يد العرب فى أول هجوم شنوه على دولة كسرى ، واستمر الفتح فى عهــد الخليفــة الثانى ، عمر بن الخطاب ــ وقــد كان رجلا قويا ، وحاكما حازما ــ الذى وجــه حملات الفتــح الى الشمال والشرق ، فخضعت المنطقة كلها للمسلمين ، من منطقــة دجلة والفــرات حتى شواطئ البحــر الأبيض المتوسط • ومن العوامل التى ساعدت على سرعة اجتيــاز الجيوش الاسلامية لهذه المنــاطق ترحيب السكان بالعرب لأنهم رأوا أنهم سيخلصــونهم مــن حــكم البيزنطيين الذى انهــك قــواهم بفــرض الضرائب الفــادحة وبالتعصب الدينى الــذى مارسته الــكنيسة معهم •

دخل عمر بن الخطاب مــدينة القدس فى عام ٦٣٨ م ووضع حجر الأساس لأول مسجد فى المنطقة ، وواصلت الجيوش زحفها نحــو الشرق فى عهده ، فضربت الجيش الفارسى ضربة قاضية فى معــركة القادسية ، وتوغلت فى البلاد حيث استقبلهم الارمنيــون بالتــرحيب لأنهــم كانوا ناقمين على سياســة كســرى •

كان الاســتيلاء عــلى منطقتى ســوريا وبلاد ما وراء النهــرين بمثابة سهمين اعدا للانطلاق لتنفيذ خطة مرسومة لفتح ما وراءهــا ، فقد توغلت الجيــوش فى ايران ، كما فتحت مصر فخلصها الجيش الاســلامى من وطــأة تحصــيل الضرائب الفادحة ، التى فرضــها عليهم القيصر لسد نفقات الحرب ، التى دارت بينــه وبين الفــرس • ومما يجدر ذكره هنــا أن المؤلف وصف الدعوى التى تنسب حرق مكتبة الاسكندرية الى العرب بأن لها طابعا أسطوريا ، أى انهــا لا تقوم على أدلة كافية •

يصف المؤلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأنه « لم يكن قائدا عسكريا ماهرا فقط ، بل كان سياسيا محنكا ، فاليه يرجع الفضل فى قيام دولة اسلامية – سياسيا وعسكريا واداريا – على انقاض الدولتين ، البيزنطية والفارسية ، اذ أصبح النظام الادارى .. الذى وضعه للدولة أساسا لكل ما فتح من امصار فيما بعد ، ومثالا يحتذيه كل من جاء بعده ، فقد سن – على سبيل المثال – قاعدة فى الأرض المستولى عليها صلحا ، لم تكن معروفة من قبل ، كما نظم العلاقة بين الدولة وبين سكان الأرض المفتوحة ، فتركهم يزرعون أرضهم فى مقابل حصة يؤدونها للدولة ، وتركهم يديرون شئونهم بأنفسهم وكفل لهم حرية كاملة فى ممارسة طقوسهم الدينية ، لدرجة أن القسس كانوا يمثلون مصالح أبناء عقيدتهم لدى الدولة ... و ... و ... الخ ».

قد يبدو التناقض الظاهرى واضحا فى هذه الاجراءات ، فالفتح الاسلامى لم يعد الغرض منه حمل الناس على الدخول فى الاسلام ، بل كان الهدف منه اخضاع غيرالمسلمين للحكم الاسلامى . ولكن هناك سبب واقعى جدا ، وهو أن فتح أقطار العالم يحتاج الى أموال طائلة ، لا يمكن الحصول عليها الا اذا دفع هؤلاء الذين لم يدخلوا الاسلام من أهل الكتاب فى الأرض المفتوحة ما فرض عليهم من جزية .

تولى الخلافة بعد عمر : عثمان بن عفان ، فلم يبذل نشاطا فى الفتح مثل ما فعل عمر بن الخطاب ، اذ كرس جهده على تثبيت سلطان الدولة فى الداخل ، فولى أقرباءه المناصب المهمة ، الأمر الذى أثار حفيظة فريق من المسلمين فقتلوه وهو يقرأ القرآن ، فأرسلت أرملته قميصه الملطخ بالدماء الى قريبه معاوية بن أبى سفيان ، الذى كان واليا على الشام فى ذلك الوقت ، فعادت غريزة الأخذ بالثأر القديمة تطل برأسها فى المجتمع الاسلامى ،

اذ لم يستطع بنـو أميـة ضبط أعصابهم فطالبوا بالأخذ بالثأر من قتلة عثمان بن عفان .

تولى على بن أبى طالب الخلافة بعد عثمان ، وكان سـنه آنذاك خمسا وخمسين سـنة ، فجاءت توليتـه متأخـرة فى نظـر بعض المسـلمين ؛ لأنهم كانوا يرون أنه كان أحق بالخـلافة من أبى بكر وعمر وعثمـان . فوضـع شيعته كثـيرا من الاحاديث التى تبـين فضله عليهم ، ولكن الجماعة لم تجمع على ولايته حتى قتل عثمان ، فبويع بالخلافة وظل فيها من ٦٥٦ حتى ٦٦١ م حتى قتـله أحـــد الخـوارج الـذين انشقوا عـلى طاعتـه .

ترك على قتـلة عثمـان دون محاكمة ، فثار عليه بنوا أمية بقيادة معاوية ، كما كان هنـاك فـريق آخر خرج عن طاعته وأعلن الحرب عليه ، وكان هـذا الفريق بقيـادة عائشة الا أنه تخلص منه فى معركة الجمل ، أما فريق معاوية فقـد التقى به فى معـركة صـفين ... ويمضى المؤلف فى سرد أحـداث النزاع بين على ومعاوية . وبين على والخوارج ، وقتل على ، وتنازل الحسن ابنـــه عـن الخـــلافة لمعـاوية ... الخ ... ثم يقول :

« وأخـيرا أخضع معـاوية جميع أقطار الدولة الاسـلامية لحكمه ، واختار دمشق عاصمـة له ، لأن المدينـة كانت بعيـدة عن مسرح الأحـداث ، ولأن دمشـق كانت أكثر أمنا بالنسبة له ، فقد عضدت سلطانه ... وهـكذا : أصبحت الخلافة الاسلامية ملكا عضـودا يرثه الأبناء عن الآباء » ..

تخبطت آراء الباحثين الأوربيين فى تعليل الفتح الاسلامى ، فبينما يقول فريق :

... انه كان اعتـداء وغـزوا للسـيطرة على الموارد الماليـة . للاقطار المفتوحة ..

يرى آخـر : انه كان نشرا للاسلام بالقوة .

أما مؤلف كتاب « الاسلام قوة عالمية متحركة » .. فيـذهب الى أنه لم يكن لحمـل النـاس على الدخـول فى الاسـلام ، بل كان

الهدف منه سيطرة الاسلام على العالم ولما كانت الجيوش الاسلامية فى حاجة الى أموال طائلة ، رأى المسلمون عدم اجبار أهل الكتاب على اعتناق الاسلام ، والاكتفاء بتحصيل الجزية منهم ، ليضمنوا عائدا يساعد الجيوش على مواصلة فتحها لمناطق العالم .

والسبب الرئيسى فى هذا التخبط هو الجو الذى نشأوا فيه ، ونوع الثقافة التى تربوا عليها ، ذلك أن الجو الأوربى العام ينظر الى الاسلام نظرة عداوة وتربص !!

من جراء الاحداث التى وقعت بين المسلمين فى الأندلس ، وبين الامارات المسيحية المجاورة لهم منذ الفتح الاسلامى لهذه المنطقة الاوربية من عام ٧١١ م حتى خروجهم منها فى عام ١٤٩٢ م .

ونتيجة لما ترسب فى نفوس الأوربيين عامة من حقد وكراهية للاسلام والمسلمين ذلك الحقد الذى غرسته وقائع الحروب الصليبية فيهم ، فلقنوه لأبنائهم جيلا بعد جيل .

ولهذا فهم ينظرون ــ عند تحليلهم للاحداث الاسلامية ــ الى الموضوع من زاوية العداوة ، فيدفعهم هذا الموقف الى تصعيد كل ما من شأنه تصوير المسلمين على انهم جفاة ، غلاظ ، لا يعرفون الا السيطرة وحب المال والجاه .

ونسى هؤلاء ــ أو أغمضوا أعينهم عنه عمدا ، وأخفوه عن قرائهم ــ ان المسلمين لم يفتحوا لأجل الغزو والسيطرة ــ وان ظهر من المسلمين أحيانا خلاف ذلك ، فهو مخالف لروح الاسلام ، وبعيد أيضا عن الطابع الاسلامى العام الذى تحلى به المسلمون فى جهادهم ــ بدليل أن أهل الكتاب عاشوا فى الدولة الاسلامية احرارا فى عبادتهم مستقلين فى ادارة شئونهم الخاصة ، لم يعتد عليهم أحد فى مال ولا عرض ، ولم تقيد الدولة حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية ، فنعموا بحياة لم يروها أثناء خضوعهم لاخوانهم فى العقيدة .

كيف يكون الفتح وسيلة للسيطرة على الموارد المالية وقد

حرم الاسلام أكل أمــوال الناس بالباطل ، والتزم المسلمون بهــذا التحريم ، فلم ينهبوا ولم يغتصبوا سكان الأرض المفتــوحة ، مثــل ما تفعل الجيوش فى عصر الحضارة الاوربية والمدنية .

أما دعوى أن الفتح كان وسيلة لنشر الاسلام بالقوة ، فقد رددنا عليها فيما سبق من هذا البحث ، وتبقى دعــوى مــؤلف كتــاب « الاسلام قوة عالمية متحــركة » وهى : أن المسلمين تركوا أهــل الــكتاب ، فلم يجبــروهم على الدخول فى الاســلام ، ليضمنوا موردا ماليا من فرض الجزية عليهم يســاعد فى نفقــات الجيــوش الاسلامية ، لتواصل فتح أقطــار أخــرى .

والرد على هذه الدعوى يكمن فى الاجابة على سؤالين هما :

هــل كانت الدولة الاســلامية تعـــانى آنذاك مــن نقص فى الأموال ؟

وهل كانت الأموال التى تحصل من الجزية تكفى للخدمات العامة التى تقوم بها الدولة للسكان ؟

لم تكن الدولة الاســلامية فى أزمــة ماليــة ، بل كانت فى رخاء ليس له حــدود ، لأن الأمــوال فاضت على المسلمين فى هذا العهد من كل صوب ، فتحت لهم كنــوز كسرى وتدفقت عليهم الأموال من خراج وفىء وغنيمة .. و .. الخ لدرجة أن المؤرخين يجمعون على أن خــزائن الدولة كانت مليئــة بالخيرات فــرتبت للجنــد رواتب ســخية ، ومنحت كثــيرا مــن المسلمين عطــاءات ثابتــة من بيت المال ، ومع ذلك لم ينضب ماعندها من « أرصــدة » بل بقى فى بيت المال فائضا ، فكيف يقال :

ان المسلمين احتاجوا الى أموال الجــزية للصرف عــلى جيــوش الفتح ؟

هل كانت المبالغ التى حصلت من الجزية كافيــة لتغطيــة بنــد الخدمات العامة ؟

لا لم تكن كافيـــة .. اذا ، فالمحصل منها كان يصرف أكثر منه على خدمات كان يتمتع بها أهــل الكتاب ، فكيف يقال : انها كانت

موردا يساعد على نفقات الجيش ليواصل الفتح ؟ !!!

لم يكن الغرض من الفتح الاسلامى سوى تمكين الدعاة من توصيل كلمة الاسلام الى هذه الشعوب ، فتختار بنفسها ــ دون ضغط عليها من حكام لا يؤمنون بالله ــ طريق الحق ، فان هداها الله الى الاسلام ، اعتنقته دون خوف من أحد ، وان اختارت البقاء على ما هى عليه لن يجبرها أحد لأن واجب المسلمين تبليغ الدعوة فقط :

« فان تولوا فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ..

***

٢ ــ العصر الأموى (٦٦١ ــ ٧٥٠م)

تبوأت أقوى قبيلة فى قريش مقعد الخلافة ، وأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد فى حياته ، فبدأ الوضع كما لو كان الزمن قد عاد ادراجه ، حيث خول الانتساب لقبيلة ذات سطوة وسلطان ، الحق فى تصريف مقاليد شئون الحكم ، والتحكم فى مصائر الناس .

تصرف الأمويون فى الحكم بالأسلوب العربى القديم ، فأحاطوا الخلفاء بهالة من العظمة والتقديس ، كما انفرد الخليفة باتخاذ القرارات ، وان خالفت رأى مستشاريه ، أو انكرها من خول لهم وضعهم الاجتماعى القدرة على نصيحة الخليفة . وكانت القرارات التى تصدر من الخليفة تعلن فى المساجد على انها أوامر لا تعارض ، ويجب تنفيذها فور سماعها .

كذلك أهملت الدعوة فى مجال اقناع أهل الكتاب باعتناق الاسلام ، فتركوهم على دينهم واكتفوا منهم بدفع الجزية . وفى سوريا توقفت الاعمال فى اقامة مستوطنات عسكرية تكون عازلة بين المسلمين وأهل البلاد ، وترك العرب المسيحيون يمارسون طقوسهم الدينية حيث شاءوا ، الى أن وصل الأمر الى أن المسيحيين والمسلمين كانوا يتناوبون ــ فى بعض الانحاء ــ اقامة شعائرهم فى مكان واحد . وكان باب الخليفة مفتوحا للمسيحيين يقصدونه للتشاور فى جميع

المجـالات وخاصـة فى النواحى الماليـة • وظلت الادارة فى أيدى أهل البلاد ، كمـا كانت فى أيام حكم الدولة البيزنطيـة ، واكتفى المسلمون بتـولى المنـاصب القيادية •

ظـلت ادارة الدولة تسـتعمل اللغة اليونانية حتى عهد عبد الملك ابن مروان (٦٨٥ ــ ٧٥٠ م) ، فأمر بتعريبها كما صـك النقـود باللغة العربية • وأدخل تعديلات فى نظام الضرائب •

انـدلعت معارضـة الأمـويين والثورة عليهم فى بادىء الأمر من المدينة ، وكانت انتفاضتهم تقـوم على أسس دينيـة ، لأن تحـول الدولة الى طـابع دنيـوى أثـار حفيظة أهل المدينـة ، الذين رأوا فى سلوك الخلفاء تعارضا واضحا لما كان عليه النبى (صلى الله عليه وسلم) ، ومناقضـا لمـا أمر به ، فثـاروا على الخليفـة ، ولـكن الأمـويين أخمـدوا الثـورة بالقـوة ••• ثم يمضى المؤلف فى حديثه عن الانتفاضات والثـورات ضد الحكم الأموى والمعارك التى دارت بين المعـارضين وقــوات الخليفـة • حتى نجح العباسيون فى القضاء على الدولة الأموية فى عام ٧٥٠ م •

***

٣ ــ الفتوحات الاسلامية فى الشرق والمغرب :

ذكر المؤلف فى تناوله لأحـداث الفتح الاسلامى لشمال أفريقيا أن المسلمين أتمـوا فتح المنطقـة فى عام ٦٩٧ م ، ثم عبروا البحر الى أسبانيا فى عام ٧١١ م بقيادة طارق ابن زياد ، فقضـوا على مملكـة القوطيـين ، وبقضـاء المسلمين على هذه المملـكة تخلص السكان مـن نيرهم واسـتعبادهم وتنفس اليهود ــ المقيمـون هنـاك ــ الصـعداء ، لأنهم تخلصـوا من الاضطهاد الدينى • فتحـرروا من الضغط الذى مارسه القوطيـون عليهم ليخرجوهم من اليهودية الى النصرانية •

ولم يتوقف الجيش الاسـلامى عن التـوغل فى أوربا ، فواصـل زحفه نحـو الشمال ، ولا يعـلم

أحد شيئا عن هدف المسلمين بهذا التوغل : هل كان هدفهم الاستيلاء على كنوز الكنيسة ؟

أم انهم أرادوا اختراق أوربا ليصلوا الى الشام عن طريق القسطنطينية ؟

لكنهم لم يحسنوا تقدير قوة الاوربيين ، فانهزموا فى معركة « بواتييه » أمام « كارل مارتن » الذى أنقذ أوربا من الخطر الاسلامى .. ثم فصل القول فى الخلاف الذى وقع بين المسلمين فى البلاد المفتوحة ، واعلان بعض الأمراء الاستقلال فى مقاطعاتهم ومحاربة بعضهم البعض الآخر .

وفى الجانب الآخر واصلت الجيوش الاسلامية زحفها نحو الشرق ، فاستولوا على البنجاب فى عام ٧١١ م ثم اتجهت فيما بعد صوب الصين ، وتوغلت فى داخل آسيا غير أن الدعاة سبقوا الجيش الى تلك المناطق .

ومن المدهش حقا انه بينما كانت الجيوش الاسلامية توالى فتحها لمناطق العالم قامت نهضة حضارية فى المناطق العربية ، وتعتبر الانجازات الحضارية فى العهد الأموى منارات وضاءة فى التاريخ الاسلامى ، سواء فى مجال الاقتصاد الزراعى حيث شقت القنوات وأقيمت الجسور .. و .. و .. الخ .. أو فى الفن المعمارى ، حيث شيدت المساجد وزينت بالفسيفساء الذى يعتبر آية فى الفن المعمارى ، وأنشئت الحمامات العامة على أحدث طراز .. الخ .

وفى عرضه لأسباب انهيار الدولة الأموية يقول :

انغمس الخلفاء فى الترف والحياة المدنية ، فصاروا يفهمون فى الخمر والنساء والفن أكثر من فهمهم لواجباتهم كخلفاء ، فلم يبق لديهم أى صفة من صفات خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التى يدعونها ، فحفروا قبورهم بأنفسهم .

ثم تناول أحداث تصاعد المعارضة ضد الدولة الأموية .. والتفاف الشعوب غير العربية

ـ وعـلى الأخص الشـعب الفارسى ـ حول المطالبين بالخلافة من آل البيت الى أن سقطت دولة بنى أمية فى عام ٧٥٠ م .

أوقفت معـركة « بواتييه » فى سهول فرنسا زحف المسلمين على أوربا ، وردتهم عن مواصـلة فتح أقطارها . ويختلف الباحثـون فى تصوير أحداث هـذه المعـركة ، وتقييم نتائجهـا بالنسبة لأوربا ، فبينما تجد المستشرقين يشيدون بـ « كارل مارتن » فى قتاله وبسالته ضد المسلمين ، ويرجعون انتصاره عليهم الى طبيعة عقليته العسكرية ، والى تفوق قدرة جنوده على جنود المسلمين فى ميدان القتال ، يجـد الباحث المدقق أن فـوز « كارل مارتن » يرجـع الى الداء الذى أصيب به المسـلمون بعـد فتحهم للاندلس مباشرة ألا وهو :

تكالبهم على الغنائم .

والنزعـة العصبية التى شـاعت بينهم . ففرقتهم الى عرب وبربر .

كـذلك انـه عنـدما التقى الجيشان استمرت المعارك بينهمـا سبعة أيام أو ثمانية ، احتفظ كل جيش فيها بمركزه ، وفى اليـوم التاسع نشبت بينهما معارك عامة ، فاقتتلا بشدة وتعادلا حتى دخول الليل ، واستأنفا القتال فى اليوم التـالى وأبدى كلاهمـا منتهى الشجاعة والجلد ، حتى بدا الاعياء على الفرنج ، ولاح النصر فى جانب المسلمين . ولكن حدث حينئذ أن افتتح الفـرنج ثغـرة الى معسكر الغنائم الاسـلامى فارتفعت صيحة مجهول فى المراكـز الاسلامية بأن معسكر الغنائم سوف يقع فى أيدى العدو ، فارتدت قوة كبـيرة من الفرسان من قلب المعركة الى ماوراء الصفوف لحماية الغنائم . وتواثب كثـير مـن الجنـد للدفـاع عن غنائمهم ، فدب الخلل الى صفوف المسلمين ، وعبثا حاول عبد الرحمن الغـافقى ـ قائد المسلمين ـ أن يعيد النظـام وأن يهـدىء روع الجنـد وبينمـا هو يتنقـل أمام الصفوف يقودها ويجمع شتاتها اذ أصابه من جانب الاعداء سهم أودى بحيـاته فسقط قتيـلا من فـوق جـواده ، فعم الذعر والاضطراب فى الجيش الاسـلامى واشـتدت

وطأة الفرنج على المسلمين ، وكثر القتل فى صفوفهم ، ولكنهم صمدوا للعدو حتى جن الليل ، وافترق الجيشان دون فصل .

وهنا اضطرم الجدل والنزاع بين قادة الجيش الاسلامى ، واختلف الرأى .. وهاجت الخواطر ، وسرى التوجس والفزع ، ورأى الزعماء ان كل أمل فى النصر قد غاض فقرروا الانسحاب ، وفى الحال غادر المسلمون مراكزهم وارتدوا فى جوف الليل ، وتحت جنح الظلام ، تاركين أثقالهم ، ومعظم اسلابهم غنما للعدو .

ومن الاسباب التى عاقت الجيش الاسلامى عن احراز نصر حاسم فى تلك الموقعة حالة القلق التى أصابته ، بسبب الشقاق الذى كان يضطرم بين قبائل البربر التى يتألف منها معظم الجيش ، وكان الكثير منهم يتوق الى الانسحاب مؤثرا النجاة بغنائمه الكثيرة ، ذلك أن المسلمين قد استصفوا ثروات فرنسا الجنوبية أثناء سيرهم المظفر ، ونهبوا جميع كنائسها ، وأديارها الغنية . وأثقلوا بما لا يقدر ولا يحصى من الذخائر والغنائم والسبى .

فكانت هذه الأثقال النفيسة تحدث الخلل فى صفوفهم ، وتثير بينهم ضروب الخلاف والنزاع ، وكانت من الأسباب الرئيسية فى تغيير سير المعركة .

أما حديث المؤرخين الأوربيين عن نتائج هذه المعركة ، فتظهر روح الصليبية واضحة فى كل سطر كتبوه فيها ، فعلى سبيل المثال يقول : « السير ادوارد كريزى » :

« ان النصر العظيم الذى ناله « كارل مارتن » على العرب سنة ٧٣٢ م وضع حدا حاسما لفتوح العرب فى غرب أوربا ، وانقذ النصرانية من الاسلام » .

ويقول : « ادوارد جيبون » متصورا النتائج ، لو انتصر العرب فى معركة « بواتييه » :

.. بل ربما كانت أحكام القرآن تدرس الآن فى معاهد « اكسفورد »

.. وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحى والرسالة ...

ويقــول :

« ان هذه المعركة أنقذت آباءنا البريطانيين ، وجيراننا الغالين (الفرنسيين) من نير القرآن المدنى والدينى ، وحفظت جلال رومـــا ، وأخــرت استعباد « قسطنطينية » وشدت بأزر النصرانية ، وأوقعت باعدائها بذور التفرقة والفشل » (١) .

ونسى هــؤلاء ــ أو تناسوا ــ أن أوربا ــ والعالم كله ــ خسرت كثيرا من جراء هذه المعركة ، فلو واصل المسلمون فتح أقطارها :

ما نصبت فيها محاكم التفتيش التى راح ضحيتها ألوف الأبرياء .

وما تأخرت نهضتها العلمية قرونا بسبب تحكم الكنيسة ، وتحريمها الاشتغال بعــلوم الطبيعــة ــ لم يتقدم الاوربيون فى هذا المجــال الا بعــد أن تخلصــوا من سيطرة الكنيسة ــ لأن الاسلام لو دخلها فى ذلك التاريخ لمنحهــا الحــرية الكاملة فى البحث فى كل مجالات الحيــاة .

وما استعبدت المــادية الوثنيــة الانسان اليوم ، لأن أوربا حيــن تخلصت من الكنيسة ، خلعت عن نفســها كل الاردية الروحيــة ، وانطلقت فى مجــال المــادية ، فانغمست فيهــا دون ضــوابط ، وغاصت فى أعماقها دون حدود ، فتحــكمت فى القــوة المــادية . واستخدمتها لتحصل على المــزيد فاخضعت العالم لهــا ، وسيطرت على مجرى الأمور فى جميع مناطقه فخضعت لهــا المجتمعــات كرها ، أو قلدتهــا فى حياتهــا جريا وراء دعاوى التقدم والمدنية فصار العالم كله منغمســا فى مادية جاهليــة ، تاركا وراءه المبادىء الروحية التى جاء بها الوحى ، أو مرددا لهـــا باللسان دون أن يكون لها أثر فى واقع المجتمــع .

هذه هى احدى نتائج معــركة « بواتييه » فلو أنصف الباحثون

(١) بين الاسلام والمسيحية ص ٢٣ ــ ٢٥ .

فى تقييم هـذه المعـركة لرأوهـا واضحة أمام أعينهم ، أما عنـدما يلقى التعصـب الغشـاوة عـلى أبصارهم ويخيم الحقد على قلوبهم وسمعهم ، رأيتهـم يتخبطـون فى الحديث عنها وعن نتائجها متوهمين ان « كارل مارتن » قد أنقذهم ، بينما الواقع يؤكد انه منع عنهـم خيرا كبيرا وكان سببا ـ وان كان غير مباشر ـ فى بعض ما تعـانى منه البشرية اليوم .

٤ ـ الدولة العباسية (٧٥٠ـ١٢٥٨)

بدأت الدولة العبـاسية حقبـة جديدة فى التاريخ الاسلامى ، فقد ذابت الدولة ذات الطابع العربى ، وتحولت الى مملـكة ذات طـابع عالمى ، حيث اندمجت فيها تدريجيا كل الأجناس ، وتساوى فى الحقوق كل المواطنين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ، كما أصبحت السلطة فى يد الفـارسيين ، فحلوا محـل القبائل المكية فى جميع المجـالات سواء كانت دينيـة أو دنيـوية . وعن طريقهم دخل كثير من التقاليد الفارسية القديمةالى بلاط الخلفاء ، واتتشرت فى جميع أجهزة الدولة . ومما يجدر ذكره هنـا أن هـذه الدولة بهرت العالم بقوتها ونهضتها .. كما فرضت سيطرتها على جميع المنـاطق ، فكانت تخمـد ثورات العـلويين بتوجيــه الضربات القاضية لهـا .

تحدث المؤلف عن أحداث قيام الدولة العباسية ، وجهود العباس وأخيه المنصور من بعده فى بنـاء الدولة ، وتشييد المبانى والمساجد فى بغداد ، كما تنـاول النهضـة التشريعية مبينـا جهـود المدارس الفقهية الأربع فى هـذا المجـال ، وذكر أن عهد المهدى تميز بتعقب المـذاهب الفـارسية القـديمة ، التى كانت تستهدف القضـاء على الاسـلام ، ولم تشفع عنـده أى علاقة فى ازال العقاب بمـن يدين بهذه المذاهب فعلى الرغم من انه كان يحب الشعر والغنـاء ، فقـد راح ضحية هذه الحمـلة شاعران فارسيان كانا من أقرب المقربين اليه .

أخـذ حديثـه عن هـارون الرشيد مساحة كبـيرة من هـذا

الباب ، حيث ذكر أن شهرته طبقت الآفاق ــ فعرفه الصغير والكبير عن طريق ما ورد عنه فى قصص ألف ليلة وليلة ــ لأن قوة الدولة وصلت ذروتها فى عصره ، وتبادل السفارة والهدايا مع كارل الأكبر ، رجل أوربا الأول فى ذلك الوقت .

عرف هارون الرشيد بحبه للعدل والرحمة . كما اشتهر عنه تذوقه للأدب والشعر والغناء ، ولهذا جمع بلاطه كثيرا من العلماء والشعراء والمغنين ، ولذا وجب على المؤرخين حين يتعرضون لسيرته ــ أن يتناولوا ناحيتين فى شخصيته :

احداهما : حبه للهو والغناء والشعر .

والأخرى : ميله للتدين والصلاح والتقوى ، فقد كان يحج كل عامين ، ويؤدى الصلاة فى خشوع تام ، ويعطف على الفقراء والمساكين .

امتاز هارون الرشيد بفكر ثاقب وعقلية جبارة ، ولذا فقد كان قاضيا منصفا وذا دراية واسعة بشئون الدولة ، بالاضافة الى ما كان يتميز به من هيبة وسلطان ، وضح أثرهما عندما كان يقود الجيوش بنفسه ، الا انه ترك الأمر فى الشئون السياسية والادارية للبرامكة ، فصالوا فيهما وجالوا ، ووصلوا الى حد أثار عليهم حفيظة الخليفة ، فتكفل بهم ، ويمضى المؤلف فى حديثه عن نكبة البرامكة ، محللا الأسباب التى يمكن أن تكون السبب فى غدر الخليفة بهم ، ولكنه لم يرجح واحدا منها ، ثم يذهب الى أن نجم الخليفة قد أفل بعد نكبة البرامكة ، واختتم حياته بالحملة التى وجهها الى الدولة البيزنطية لاجبار قيصرها على مواصلة دفع ما التزم بتأديته الى الدولة الاسلامية وكانت آخر حملاته تلك التى وجهها ضد الثوار فى خراسان ، وأشرك فيها ابنيه : الأمين والمأمون، الا أنه مات قبل الانتهاء من اخمادها . وكانت وفاته فى عام ٨٠٩ م

كانت الدولة مهددة بالانهيار أثناء النزاع بين الامين والمأمون ، ولكن انتصار المأمون أنقذها ، اذ

سار على طريق والده ، فقاد نهضة كبرى فى جميـع المجـالات ... فازدهـرت العـلوم والمعـارف ، وخاصة فى مجالس الطب والرياضة .. حيث ترجمت أمهـات الكتب الى اللغة العربيـة ، وأنشىء بيت الحكمة ، وأقيم مرصدان فلكيان ، أحـدهما فى بغداد ، والآخر فى دمشق ، وظلت نظـريات الفضـاء التى توصل اليها العلماء فى عصره أساسا يعتمد عليها البـاحثون فى أوربا حتى عصر « كوبرنيك » [1] .. ثم تحدث المؤلف عن :

نشاط المأمون ضد العـلويين ، ومحاولة التصالح معهم بتعيين على ابن موسى وليا للعهد .

ومحاولة قائده طاهر الاستقلال بحكم خراسان بعد نجاحه فى اخماد ثورة الخوارج بها .

واخماد ثورة الاقباط فى مصر .

ومعاركه مع الدولة البيزنطيـة من عام ٨٣٠ حتى ٨٣٣ م .

كما فصـل القـول فى وضـع الدولة بعد المأمون وسيرة الخلفاء بعده ، وتسلط الاتراك على مقاليد الأمور فى بلاط الخلفـاء ، ممـا أضعف هيبة الدولة ، وشجع الولاة على اعـلان استقلالهم ، فتكونت دويلات كان لبعضها دور فى تسيير مجرى الاحداث فى المنطقة الاسلامية فقد قامت دولة الحمدانيين وفرضوا سيطرتهم على بلاد ما وراء النهرين .. كما فتحوا حلب ، ودخلوا فى معارك ضد الدولة البيـزنطية ، واستمر فى سرده لمعاركهـم حتى وصل الى نهاية دولتهم على أيدى الفـاطميين .

ودولة البـويهيين التى أسسـهـا أبو شجاع بويه فى فارس وحكمت من ٩٣٢ حتى ١٠٥٥ م فقد استولى أبناؤه على والحسن واحمـد على أصفهان وشيراز وكرامان وبغـداد ولقبوا بلقب معز الدولة وعمـاد الـدولة وركن الـدولة وأصبح أمير المؤمنين على عهـدهم ألعوبة

(١) «كوبرنيك » (١٤٧٣ — ١٥٤٣) فلكى بولونى برهن على دوران الكرة الارضية حـول نفسها وحول الشمس .

فى أيديهم ، ويستمر حديثه عنهم حتى نهايتهم على يد طغرل السلطان السلجوقى فى عام ١٠٥٥ م ثم يعقب على ذلك فيقول :

« لم يكن البويهيون أبطالا فى ميدان القتال فقط ، بل كان عندهم أيضا اهتمام بالحضارة ، فقد جمل عضد الدولة أثناء حكمه ٩٤٩ ـ ٩٩٣ م ـ مدينة شيراز بحيث صارت أجمل مدينة فى المملكة الاسلامية وأنفق كثيرا من الأموال لتحصين مدن أخرى وعلى رأسها بغداد » .

٥ ـ الدولة السلجوقية :

أقامها أمراء تركمان نشأوا فى بخارى ، وبدأ نفوذهم يزداد تدريجيا فغزوا ايران فى عام ١٠٣٩م والعراق فى عام ١٠٤٣م وقضى « طغرل » (١) على البويهيين فى بغداد عام ١٠٥٥ م فسمى نفسه « سلطان وملك الشرق والغرب » بدأ نجم الدولة السلجوقية يلمع فى عهده ، اذ لم تركز الدولة على النواحى العسكرية والسياسية فقط ، بل اهتمت أيضا بالعلم والفن ، فبلغت ذروتها فى عهد « ملكشاه » (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م)

حيث اعتنى وزيره نظام الملك بالمؤسسات الثقافية فأسس « نظامية » نيسابور وبغداد ، فازدهرت العلوم الرياضية والفلسفية والشعر ، كما اهتم بالنواحى المعمارية فى المدن وخاصة بغداد .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة السلجوقية ونشاطها الحربى :

ضد الثائرين ، وضد بعضهم البعض فى ميدان الصراع على السلطة ، وضد الصليبيين .. الخ .. الى أن انتهت شهرتهم بظهور المنغوليين ، ففى القرن الثالث عشر ظهر جنكيزخان ، فهدد أركان

(١) « طغرل بك » (ركن الدولة ابو طالب) قائد سلجوقى مؤسس السلالة السلجوقية قضى على البويهيين ودخل بغداد (١٠٥٥ م) فخلع عليه الخليفة القائم العباسى (١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م) لقب السلطان وملك الشرق والغرب قهر البساسيرى الذى احتل بغداد وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر ، واعاد الخليفة العباسى (١٠٦٠) .

الدولة جميعها فيما بين الصين والبحر الاسود ، اذ زحف نحو الغرب مبيدا كل المدن فى طريقه ، مخربا كل ما قابله من مظاهر الحضارة والمدنية ، ففى كل مكان تقريبا أكلت النيران كل ما كانت تملكه الدولة الاسلامية من كنوز علمية وحضارية . ولما مات « جنكيزخان » واصل حفيده « هولاكو » زحفه نحو بغداد فاستولى عليها فى عام ١٢٥٨ م ، واعدم آخر خليفة عباسى ، كما أعدم كل أفراد أسرته وبذلك انتهت الدولة العباسية .

* * *

٦ ـ الإسلام فى اسبانيا :

اذا تأمل المرء الرقعة الواسعة للدولة الاسلامية فى القرون الوسطى ، فان أول ما يبدو له فى كثرة شعوبها المتعددة الأجناس والالوان وفى تغلبها على الدسائس السياسية المتنوعة الاتجاهات ، وفى سيطرتها على مجرى الأمور التى تتنازعها المصالح الشخصية ، ان بقاءها لم يكن أمرا عاديا ، بل يبدو كما لو كانت مؤيدة بمعجزة ساعدتها على البقاء طويلا ، رغم الضغوط الداخلية ، والتهديدات الخارجية ، ومن المعجزات التى صاحبت هذه الدولة أيضا أنه على الرغم من انهيار نظامها السياسى فقد انتصرت العقيدة الاسلامية فى كل الميادين انتصارا لا نظير له مع الأديان الأخرى .

وصل الاسلام الى الاندلس بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) بثمانين عاما ، أى فى عام ٧١١ م . ذلك التاريخ الذى لم ينسه الاوربيون . فالفتح الاسلامى للاندلس تم فى عهد الأمويين ، وعندما قضى العباسيون عليهم هرب أحد أفراد الأسرة الى الأندلس وأسس دولة مستقلة عن مركز الخلافة فى الشرق .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث الدولة الأموية فى الأندلس وصراعها مع الامارات المسيحية التى تكونت فى الشمال ، واستمرار نشاط الامويين الحربى ثلاثة قرون ضد الثائرين على الدولة من مسيحيين ويهود وامراء طمعوا فى اغتصاب السلطة ، كما

تصدوا للفاطميين الذين أقاموا دولة فى شمال أفريقيا ، وهـددوا امارة قرطبة .. لكنهم ما لبثوا أن اتجهوا الى مصر ... ثم يتحدث عن دول الطـوائف ، ومعـركة الزلاقة ، ونجدة المرابطين للمسلمين فى هذه المعركة ، وعن الصراع الذى قام بين المسيحيين والأمراء ، وامتداده بفضل مسـاعدة بنى مرين لهم ، لكنهم حين ضعفوا عن تقديم هـذه المسـاعدة انتهى الصراع باستيلاء « فرديناند » ملك « ارجـوان » و « ايزابيلا » ملـكة « قشتالة » على غرناطة آخر معقل اسلامى فى الاندلس .

***

٧ ـ شمال افريقيا ومصر :

أسس الفاطميون دولة فى شمال افريقيا فى عام ٩٠٨ م ، والمعروف انهـم كانوا يرفضـــون سـلطة العبـاسيين ويدعـون انهم أحـق بالخلافة على جميع أقطار العـالم الاســلامى منهم . اســتطاع الفاطميون فى عصر ازدهار دولتهم أن يبسطوا سلطانهم من مصر على كل شمال افريقيا ، وجزيرة صقلية ، وفى بعض الاحيان على ســوريا ، كما هدد اتباعهم بغداد لمدة عام ، فاعتقدوا انهم وصلوا الى هدفهم ، وهو السـيطرة على جميع العـالم الاسلامى ، لكن سرعان ما انهـار سلطانهـم بعـد ازدياد نفــوذ العسكريين فى دولتهم ــ بالضبط كما حدث فى الدولة العباسية ــ حتى أصبح الخلفـاء العـوبة فى أيديهم .

كانت نهايتهم على يد صـلاح الدين الأيـوبى ، الذى اشتهـر بمعاركه ضد الصليبيين ، فقد قضى على دولتهم فى مصر فى عام ١١٧١م .. كما حقـق نصرا ساحقـا على الصليبيين فى عام ١١٨٧ م وعقد معاهدة صلح مع شارل قلب الاسد فى عام ١١٩٢ ثم لم يلبث أن مات بعدها بعام واحـد ... ويمضى المـؤلف فى حـديثه عن الـدولة الايوبيـة وصراع المـماليك على السـلطة ، وجهـودهم فى قتـال الصليبيين ، وانتصارهم عليهم فى موقعة عين جالوت ، ونسير معه فى سرده لأحداث المماليك حتى الغزو

التـــركى فى عام ١٥١٧ م ثم يختم الباب بقوله :

أصبحت الدولة المملوكية ، بعد سقوط بغـداد مركزا للحضـارة العربية الاســلامية فساعدها هذا ـ بالاضافة الى وضـع الخليفـة العباسى صوريا على رأسها ـ على تمكين سلطان المماليـك وازدياد نفوذهم وهيبتهم . وظـل تأثيرهم واضـحا فى السياسة والادارة فى أيام الصولجان العثمانى على مصر ، ولم تنته مشاركتهم فى تسيير أمور الدولة الا فى بداية القـرن التاسع عشـر .



٨ ـ الوضع الجديد بعد الغـــارة المغولية :

دمـرت الغـارة المغوليـة كل ما اجتاحته من بلاد العالم الاسلامى تدميرا شاملا وخاصـة بخـارى وسمرقند وبغـداد ، كمـا تسبب الاهمال الادارى فى انهيار نظـام الرى البديع فى العراق ، فتكبدت الدولة خسـائر فادحـة ، وعانت سوريا كثيرا من جراء ما ارتـكبه المغوليون من سلب ونهب لثرواتها ، كذلك الاناضول ـ مركز المنطقـة التركية ـ وقع تحت سيطرة الدولة المغولية ما يقرب من سبعين عاما .. ثم يمضى المؤلف فى سرد الاحداث التى وقعت فى العـالم الاسـلامى بعد الغارة المغولية ـ بمـا فيهـا دخول المغوليين الاسلام ـ مبينا الجهود التى بذلها الحكام لاستعادة مجدهم وسلطانهم .

انقسم العـالم الاسـلامى بعد الغارة المغولية الى منطقتين :

الأولى : تمركزت فى ايران ، وامتد سـلطانها نحو الغرب عبر الاناضول حتى حـدود المنـاطق الاوربيـة ، ونحـو الشرق حتى الهنـد ، واقتصر استعمال اللغـة العربية فى هذه المنطقة على الدين وعلومه ، أما فى المجالات الاخرى فقد حلت اللغة الفارسية محلها .

الثانية : المنطقـة العربيـة ، وتوزع النفوذ فيهـا بين العـراق ومصر ، التى امتد تأثيرها الثقافى فشمل شمال ووسط أفريقيا .

وقعت المنطقتـان سياسيا تحت تسلط الاتراك والمغوليين ، وكان

الدين هو الرباط الوحيد بينهما ، لكن فى صورته الصوفية ، التى ظهرت فى أول الأمر فى عام ٧٠٠ م لكن تعقبها كل من السنيين والشيعيين واتهم بعض رجالها بالزندقة .. ثم ذكر المؤلف فى معرض حديثه عن الافكار الصوفية ان الغزالى (١٠٥٨ ــ ١١١١) ــ وهو من أشهر علماء السنة ــ هو الذى مزجها بالمذهب السلفى ، مما جعل الصوفيين يتبوؤن فيما بعد مكانا مرموقا عند المسلمين . ثم يختم الباب بقوله : « اقترب المذهب السنى من الصوفية بعد الغارة المغولية كثيرا لدرجة أن الصوفيين كانوا فى كثير من الاحوال يمثلون الاتجاه الدينى الرسمى ، على الرغم من أنهم لم يغيروا أساليب طقوسهم الصوفية . فمنذ القرن الثالث عشر الميلادى والناس ينظرون الى الدرويش على انه نموذج للحياة الدينية فى الاسلام . ومما يحمد للصوفية أن الوحدة الدينية ظلت متماسكة بفضل جهودهم كما كان لهم تأثير فى بقاء المسلم متمسكا بعقيدته ، اذ انتشرت أفكارهم فى المجتمع فى عهد الضعف والانحلال ، ثم صيغت رسميا فى أول عمل سياسى للدولة العثمانية .

* * *

٩ ــ العثمانيون :

حول السلجوقيون شرق ووسط الاناضول الى الاسلام ، وعندما شن المغوليون غارتهم كانت هذه المنطقة فى عصرها الذهبى ، فاستمر السلجوقيون ــ كولاة خاضعين للسلطة المغولية ــ فى الاحتفاظ بوضعهم حتى بداية القرن الرابع عشر الميلادى . ثم استولى الدراويش والمغامرون على السلطة السياسية والدينية . وساعدهم فى ذلك الاتراك الرحل الذين فروا من امام الغزو المغولى .

استطاع أحد هؤلاء المغامرين ــ ويدعى عثمان ــ أن يشن حربا على المناطق المسيحية المجاورة ، استمرت من ١٢٩٩ ــ ١٣٢٦ م ، ... ويمضى المؤلف فى سرد أخبار خلفائه وحروبهم فى أوربا من عام ١٣٥٤ م حينما عبروا مضيق

الدردنيـــل حتى عهـــد مــراد الثـــانى (١٤٢١ ـــ ١٤٥١ م) الذى قـاد حـروبا مظفـــرة ضـــد المجـر وبولاندا والصرب واليونان ، ثم تنـاول الوضـع الداخلى للدولة وظهور الاقطاع ، وفساد الحياة السياسية ، واضطرار السلاطين ـــ عندما تبين لهم عـدم قدرة السلطة المركزية على حـكم البـلاد لاتساعها ـــ الى الاستعانة بالمرتزقة ففشت الرشوة بين رجال الدولة فقـد كان الولاة يشترون مناصبهم ، ثم يحصلون ما دفعوه من سكان ولاياتهم عن طريق فرض الضرائب الفادحة ، فاشتدت الوطأة على الشعب ، كما أهملت المشروعات الاصلاحية ، والخدمات ، فلم تشق قناة ، ولم يعبد طريق ، مما جعل الفـلاحين لا يزرعون من الأرض الا ما يسـد رمقهم وعـائلاتهم ، فانهـار الوضـع الداخلى ، ومن أشهر الامثلة على ذلك ما أصـاب مصر بعـد الغـزو التـركى فى عام ١٥١٧ م فقد كان يتولى امارتها أحد الباشوات ، فكان المماليـك الـذين تولوا الادارة فى الاقاليم يتمـردون عليـه ويشقون عصـا الطاعة لدرجة انهكت قوى الدولة فى الصـراع الـذى اندلـع بين المجمـوعات المتصـارعة على السلطة ، وكان من نتيجـة ذلك انتشار الأمراض والفقر ، وانهيار الاقتصاد فنقص عـدد السكان ، وأصبحت البلد التى كانت تنتـع بخيرات أرضها الوفيرة تعانى من فقر مدقع .

بدأ الوضع كما لو كان الخلفاء قـد أغمضوا أعينهم عن الحـالة الداخلية المتهورة لكنهم استطاعوا الصمود طويلا بفضـل حمـلاتهم الحربيـة ضـد أوربا المسيحية ، فتغلبوا على الدولة البيزنطية قضاء تامـا عندمـا استـولوا عـلى القسطنطينيـة فى عـام ١٤٥٣م ، ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث المعارك التى خاضها العثمانيون فى دول البلقان .

* * *

١٠ ـــ فارس بين الانحطـــاط والازدهار :

اتجه العثمانيون نحو الشرق ، ففرضـوا سلطانهم على للامارات

المتبقية فى الاناضول ، ومن بينها المملكة البيزنطية طرابزون ، التى ضمت فيما بعد الى الدولة التركية بعد زواج « أصون حسن » من أميرتها . كذلك وقعت بينهم وبين القبائل التركستانية ــ الذين حطوا رحالهم فى المنطقة الواقعة بين نهرى دجلة والفرات ــ معارك هزمت فيها تلك القبائل على يد محمد الثانى فى عام ١٤٧٣ ، فمد العثمانيون سلطانهم على الاراضى الفارسية ، لكن الصفويين استطاعوا فى عام ١٥٠٢ اقتصاب الحكم فى ايران وتكوين دولة شيعية .

أرجع مؤسس الدولة الصفوية نسبه الى على بن أبى طالب ، وأعلن مذهب الشيعة مذهبا رسميا للدولة ، فقامت بين الشيعيين الايرانيين وبين العثمانيين السنيين عداوة مذهبية ، ظلت نارها متأججة حتى نهاية الدولة الصفوية ، وكانت لها آثار سيئة على السنيين المقيمين فى ايران ، اذ اضطهدتهم الدولة ، وتعقبتهم فى كل المجالات .

أحرز سليمان الأول نصرا محليا على الصفويين ، فغزا المدينة الايرانية تبريز ، لكن سرعان ما استعادت الدولة سلطانها ، ووصلت الى ذروة مجدها فى عهد عباس الأكبر (١٥٨٧ ــ ١٦٢٩ م) الذى نقل مقر الحكم الى أصفهان ، وكون أول جيش نظامى فى دولته ، وصرف لأفراده رواتب منتظمة ، فانتزع به بغداد من الاتراك ، كما استولى على المدينتين المقدستين عند الشيعة ، وهما : مشهد وكربلاء . لكن الدولة انهارت تدريجيا بعد موته ، بسبب النفوذ المتزايد لرجال الدين الشيعيين وبسبب غارات الافغانيين الذين استطاعوا فرض سلطانهم على مناطق ايرانية فشاعت الفوضى فى الدولة ، وأدت الى قيام دولة القارجاريين ــ ويجرى فى عروقها دم تركى ــ الذين حكموا اسما فقط حتى عام ١٩٢٥ م .

كان المنتصر فى هذا التحول هم الروسيون والاتراك ، فقد ضم الروسيون فى عهد بطرس الأكبر مناطق جديدة على البحر

الكاريبى الى دولتهم ، واحتل العثمانيون غرب فارس .

* * *

١١ ـ سليمان العظيم :

كان عام ١٥١٧ م بداية حقبة زاهرة فى تاريخ الدولة العثمانية ، وذلك بعد غزو مصر ، فعندما قضى السلطان سليم على آخر سلطان مملوكى فى مصر ، ومحا واجهة الخلافة العباسية فيها ، أصبح الطريق الى مكة مفتوحا أمامه ، فوحد السلطة الدينية والسياسية . كما سهل له استيلاؤه على مصر والمناطق الخاضعة لها اخضاع شمال أفريقيا له ، وفتح باب التحكم فى تجارة حوض البحر الأبيض المتوسط ، فأقام أسطولا بحريا ليفرض سيطرته على هذه المنطقة فى مواجهة القوى المسيحية .

لم تظهر فعالية هذا الاسطول الا فى عهد ابنه سليمان العظيم ، الذى انتقل اليه الحكم بعد أبيه ، دون أن يظهر الصراع المألوف ـ فى مثل هذه الاحوال ـ على السلطة . وصفه الاوربيون بـ « العظيم » بسبب ما شاع بينهم عن بلاطه من أحداث وقصص خيالية ، أشبه ما تكون بقصص الف ليلة وليلة ، أما المسلمون فيلقبونه بـ « القانونى » لأنه أعاد تنظيم الجيش وأدخل تعديلات فى قوانين الملكية ، وفى أنظمة الدولة .

أدخل سليمان تعديلات فى العلاقات السياسية بالمناطق الشمالية فور توليه الحكم ، اذ استغل النزاع الداخلى فيها ، فغزا بلجراد فى عام ١٥٢١ م ، كما نفذ خطط أبيه ، فاستولى على جزيرة رودس ، فقضى بذلك على قراصنة البحر المسيحيين الذين كانوا يهددون حركة التجارة التركية . كذلك استفاد من النزاع الذى كان قائما بين القيصر الالمانى وملك فرنسا ، الذى أيد سليمان فى سياسته فى أوربا ، فظل الفرنسيون بفضل هذه السياسة مفضلين فى بلاط السلطان العثمانى لعدة قرون .

هزم سليمان المجر فى موقعة « موهاكس » فأجبر « فرديناند » قيصر النمسا على تتويج « يوحنا زابوليا » ملكا على المجر .. ثم يمضى المؤلف فى سرد أحداث معاركه فى أوربا — وشمال افريقيا حين طرد كارل الخامس من الجزائر — وسياسته مع حكامها ، واقامته المساجد فى المناطق التى استولى عليها ، ثم فترة الهدوء النسبى التى سادت الجبهة الأوربية بسبب انشغاله بحروب ضد ايران لتخليص بغداد من الشيعيين وتعقبهم حتى احتل تبريز . ثم بعد الانتهاء من الجبهة الايرانية . استأنف نشاطه فى أوربا حتى أجبر « فرديناند » على دفع الجزية للدولة العثمانية .. ثم ختم الحديث عن سليمان بقوله :

« قويت الدولة فى عهد سليمان — الذى امتد ٤٩ عاما — الى درجة ، لم تبلغها أى دولة فى آسيا وأوربا فى ذلك التاريخ ، فقد ارتفع الهلال التركى فوق الاناضول وشمال أفريقيا ، ومصر ، وفلسطين ، وسوريا ، والبلقان ، والمجر . وفى المجال السياسى والعسكرى استطاعت الدولة العثمانية أن تثبت قدرتها بتفوق على العمل فى عدة جبهات فى وقت واحد ، فلمع نجمها وتلألأ مجد سلطانها بين الدول . ويرى المؤرخون أن الدولة بلغت ذروة مجدها فى عهد سليمان العظيم ، ثم بدأت طريقها الى الضعف بعد موته ، وأخذت ترتنح فى طريق منحدر ، ولم يستطع خلفاؤه انقاذها لأنهم كانوا ضعافا عاجزين .

دكتور محمد شامة



دراسات لغوية :

نظرة إلى الجديد في علوم اللغة

للدكتور توفيق محمد شاهين

— ٢ —

فروع علم اللغة :

اللغة ظاهرة متشابكة ، وتتألف من عناصر كثيرة ، وتختلف طرق تناول كل عنصر منها باعتبار النظرة من الدارسين للغة ، وباعتبار تنوع اغراض الدراسة وتنوع التناول والمنهج .

وكثرة فروع اللغة وتنوعها وتدرجها جعل تحديد المعالم بين الاقسام والفروع يتفق أحيانا ويختلف أحيانا أخرى : فهو نظرى مرة ، وهو تطبيقى مرة أخرى ، وهو نفسه بين بين — بمنظارين — مرة ثالثة .

لذا كان الاتفاق العام ، أو شبهه ضروريا فى تحديد التقسيم فى مثل هذه الدراسة الموجزة تبيانا للدارسين ، وتحديدا للمصطلحات ، وتتميما للفائدة . ويمكن تحديد فروع علم اللغة للدراسة فيمايلى :

اولا : دراسة علم الاصوات او (الفوناتيك) : Phonetics

كما يسميه الغربيون ، وهو يتناول عنصر الصوت من اللغة لتحديد مخارج الأصوات ، وطرق احداثها وتصنيفها ، وما يعرض لها من تبدلات على مر الزمان وأسباب ذلك ، ودراسة أعضاء النطق التى تتصل بالصوت ، وأثر بعضها على بعض ..

أو بمعنى آخر : (الفوناتيك) هو علم الأصوات المجردة الذى يدرس الأصوات فى ذاتها ولذاتها ، دون الاهتمام بالوظائف التى تقوم بها هذه الأصوات فى اللغة ، وانما يتناول دراسة مكونات الصوت ، وعناصره الأساسية ، وعدد ذبذباته وطبيعتها ...

ويتفرع علم الأصوات الى :

أ ــ علم الأصوات الوصفى : (... ــ Descriptive)

ويطلق على دراسة أية لغة دراسة صوتية على نحـو ما سبق ، لكن فى فترة معينة من الزمان .

ب ــ وعلم الأصوات التاريخى : (... ــ Historical)

ويعنى بدراسة لغـة ما ، دراسة صــوتية ، خـلال فترة طويلة من الزمان ، بغـرض الوقـوف على ما أصاب هذه الأصوات من تطور وتبـدل ، والبحث عن المـؤثرات التى خضع لها هذا التطور .

جـ ــ وعلم الأصوات المقارن : (... ــ Comparative)

ويعنى دراسة لغتين أو أكثر ، دراسة صوتية ، لبيان أوجه الشبه والاتفاق ، واظهار صـلات القربى التى بينها .

د ــ وعلم الأصـوات العام : (Phonetics)

حين يكون الغرض من الدراسة ، الوقوف على حقـائق الأصـوات اللغـوية للغـات ، والكشف عن القـوانين العـامة التى تحـكم تطورها .

ثانيا : علم الأصوات التشكيلى ، او التنظيمى : (الفونولوجيا) : Phonology

وهو دراسة تنظيميـة تتنـاول عناصر الصوت من اللغـة مثـل سابقه ، لبيان وظيفـة الصـوت فيها : أى انه يدرس النظم الصوتية للغة معينة ، كما ينطقها أصحابها ، وذلك كمعـرفة الفـرق بين نطق الوسيلة بالترقيـق ، والوصيلة ــ بالتفخيم فى العربية ، فالفونولوجيا يكتشف عن التقابلات فيما بين نطق الحـرفين . وكقـولهم : التاء اذا وقعت بعد حرف مطبق فى صيغة افتعـل قلبت طاء : كاصطبـر فى اصتبر .

فالصــوت فى سياقه يختلف عن الصوت المجـرد من حيث كميـة الجهد اللازمة لانتاجه ، ومن حيث تأثره بالأصـوات السابقة عليـه أو اللاحقة به .

ولهـذا التأثر قـوانين عامة فى جميع اللغات ، بحيث تجد صـو#

كالنون مثلا فى العربية ، قد ينطق على سبع صور بحسب الصــوت التالى له ، وكل هذه الصور أعضاء لفونيم واحد ، هو (النون) ، وكلمة (فونيم) معنــاها : ــ مبــدئيا (الوحدة الصوتية) التى تأخــذ عــدة صور باختــلاف المواقــع المؤثرة فيهــا .

علما بأن مبــاحث (الفونتيــك والفونولوجيا) شديدة التــداخل بحيث يعسر أحيانا فصلها ، ولذا فان بعض العلمــاء يدرجهــا مــع بعضها .

ويتفرع علم (الفونولوجيــا) الى : « الفونولوجيا الوصفية » ، والتاريخية والمقارنة ، والعــامة ، كتفــرع (الفوناتيــك) بحسب الاعتبارات التى ذكرت هناك .

وعرف علماؤنا العــرب دراســة الأصــوات فى (الفوناتيـــك والفونولوجيــا) تحت اسم (علم التجويد) ، الذى بهــر العلمــاء الغربيين بدقته وتنظيمه .

ثالثا : علم المفردات ، او المعجميــة .. او متن اللغة :
(اللسيكوجرافيا :)
Lexicographia

وهـــو يعنى بالمفـــردات ، وتصنيفها الى (اسم وفعل وحرف وظرف وصفة ...) وينقسم الى علمين : علم (المورفولوجيا) اذا اهتم بشــكل الكلمة وصيغتها : وعلــم السيمانتيــك) اذا اهتــم بمعنــاها .

رابعا : ــ علم الصرف ، الصيغة او البنية : (المورفولوجيا) :
Morphology

ويبحث فى أحوال الكلمة من : الجمــود ، والاشتقاق وأصــله ، والمجرد والمزيد ، وحروف الزيادة . وما يحدث من تغييرات عند التثنية والجمع ، والتــذكير والتــأنيث ، وما يحدث للفعل عنــد اتصــاله بالضمائر . والطرق القياسية التى تنمى اللغة .

وينقسم علم (المورفولوجيــا) الى أربعة أقسام هى : الوصفية ، والتاريخية ، والمقارنة ، والعامة ، بحسب اعتبارات التقسيم السابقــة فى (الفوناتيك) .

خامسا : علم الدلالة او (السيمانتيك) : Semantic

وهو يحدد معنى الكلمة أو معانيها المتعددة (كالمشترك والمتضاد والمترادف) والعلاقة بين الكلمة والمعنى ، وتبدل المعنى وأسبابه ، وحياة الكلمة من نشأتها حتى موتها .

سادسا : ـ علم النظم : السنتيكس : Syntax

ومعظم مباحثه تشبه علم النحو عندنا ، مثل بناء الجملة ، وحروف المعانى التى تربط بين اجزاء الكلام ، وفى شكل الجملة (ابتدائية ، أو استفهامية ، أو اخبارية ، أو منفية ، أو تعجبية ...)

وينقسم هذا العلم الى أربعة أقسام : وصفى ، وتاريخى ، ومقارن ، وعام ، كما سلف .

سابعا ـ علم الاساليب : (الستيلستيك) Stylistic

وهو يبحث فى أساليب اللغة ، واختلافها باختلاف فنونها من : (شعر ونثر وخطابة ومحادثة ، وكتابة ، ومسرح ...) وينقسم هذا العلم الى الأقسام الأربعة المعروفة .

ثامنا : ـ علم اللغة الوصفى : Descriptive

وهو مجموع ما مر معنا من فروع علم اللغة الوصفية : فدراسة اللغة فى الأصوات والمفردات والتراكيب دراسة وصفية ، هدفها الكشف عن الحقائق اللغوية فى لغة ما ، وبيان خصائصها فى (فترة محددة) من الزمان ، يسمى : (علم اللغة الوصفى) .

تاسعا : علم اللغة التاريخى : Historical

هو دراسة ما سبق فى (ثامنا فى فترة طويلة من الزمان ، لبيان التبدلات والتغييرات وأسبابها . وبعض المحدثين يسمى دراسة المفردات وحدها ، دون الأصوات والتراكيب باسم : (الايتيمولوجيا) ، .. لبيان تاريخ الكلمات أساسا .

عاشرا : علم اللغة المقارن : Comparative

هو دراسة ما سبق لكن بين لغتين أو أكثر ، دراسة مقارنة بين عناصر اللغة لبيان أوجه الشبه والصلات . كما قارن العلماء بين

الساميات : (العربية ، والارمية ، والاكـــدية ... الخ) . وبين الآريـات : (السنسكريتيـة ، والفارسية ، والأرمنية ، والسلافية ، والاغريقية .. الخ) .

حادى عشر : علم اللغة العام :
General linguistics

هو دراسة مجمـوع الفـروع السابقة فى علم اللغة العـام ؛ بين مجموعة من اللغـات للكشف عن وجوه الاتفاق بينهـا ، والقوانين العامة التى تحكمها .

كمـا انه يتنـاول المشـكلات الآتيـة :

صراع اللغات ، وانشعابها الى لهجـات ، وعـوامل انحطاطهـا ورقيها ...

ملاحظـة :

هناك علوم لغـوية أخـرى ، تحسب ضمن هذه الفروع ، لكن بعض الباحثـين يعـدها علوما مساعدة لا أصلية ، مثـل : نشأة اللغـــة ، والامـــلاء والرسم ، والترجمـة ، ومشـاكلها وتعليم اللغات المحلية والاجنبية ، وعلاج العيوب العائقة عن الكلام ، وعلم النفس اللغوى ، والبيئة اللغوية ، وتحقيق التراث ، ولـكن هـذه كلهـا ــ فى الواقـع ــ فـروع ومباحث لغـوية ، تجب العنـاية بدراستها لاتصالها الوثيق باللغـة وعلومهـا .

من تاريخ البحث فى علوم اللغة :

اللغة خاصية الانسان وميزته ، ومبعث فخـره واعتزازه ، ولذا ما فتىء منذ القدم يحاول كشف سرها ، ويوليها البحث والتفسير ، عله يهتدى الى كنهها ، وكيفيـة اصدارها ، وديناميكيتها .

ويمكن حصر تاريخ الدراسات اللغـوية فى ثلاث حلقـات ، هى دراسة العصور القديمة والدراسة العربية ، ودراسة المحـدثين فى الغرب ، وبذلك نعرف شيئا من تاريخ هذا العلم ، ولا يخلو أحيانا من طرافة أو خرافة :

ففى العصور القديمة :

نجـد أن الدراسات اللغـوية تركزت حول محـورين أساسيين همـا :

البحث عن أصل نشأة اللغة ، وعن العلاقة بين اللفظ والمعنى . وتبع هذين المحورين البحث فى قواعد اللغة ، وتصنيف مفرداتها ..

فالله تعالى هو الذى علم آدم الأسماء كلها ، أو منحه القدرة على التسمية كما جاء فى التوراة ، والقرآن الكريم ، لأن اللغة شىء عظيم ، ولا يمكن أن تكون الا من عظيم قادر مبدع .

والاله (ذوس) عند قدماء المصريين هو أصل (اللغة والكتابة) .

وحاول فرعون مصر (ابساتيك) فى القرن السابع قبل الميلاد ، معرفة نشأة اللغة الانسانية الأولى .

والبابليون (٣٠٠٠ سنة ق.م) نسبوا اللغة الى الههم (نابو Nabu) .

بينما يعتقد الصينيون : أن السماء أرسلت ماء وسبحت فيها التماسيح ، وفى ظهرها علامات الكتابة .

وأما الهنود فيرون ان الاله (براهما) ، هو الذى منحهم قوة الكتابة ، ولذا اهتموا بلغتهم الفيدو ــ سنسكريتية (V. Sankrit) ، وحافظوا على نطقها ، ووضعوا نحوها فى القرن الرابع قبل الميلاد .

يحكون أن الشعب الشومرى ــ (٣٥٠٠ سنة ق.م) جنوبى العراق ــ ترك لغة عرفناها من نصوصها بالخط المسمارى ، ووضع لها (الاكديون) من الشعوب السامية بعدئذ قواعد لتسهيل استعمالها واتخاذها لغة دين ودنيا .

وهكذا خلط الانسان أمر اللغة ــ فى أول الأمر ــ بالاسطورة ، وحاول تلمس نص يرتكز عليه .

وهذه وغيرها نظريات أدت الى اتساع نطاق البحث اللغوى ــ بعدئذ على أسس علمية الا انها لم تؤد الى يقين قاطع فى أصل وماهية اللغات ، لأن مئات الآلاف

من السنين مرت قبل أن تتبلور أى لغة ، ولذلك ينفى (ارواد سابير) أن تكون هناك لغات بدائية لأننا لا نعرف أى جماعة بشرية الا وتتكلم لغة كاملة التطور .

واشتغل فلاسفة اليونان (بميتافيزيقا) اللغة وأصل الكلمة .. فى القرن الخامس ق.م. كما اشتغل الرواقيون بفقه اللغة الفلسفى .

وعرف التاريخ من المعاجم اليونانية معجم (يوليوس بوليكس) فى المعانى والموضوعات وكذلك معجم (فاليرموس فيليكس) ، الذى ألف فى عهد الامبراطور (أغسطس) فى معانى الألفاظ .

كما اعتبر اليونانيون أن أفلاطون أول من اكتشف الأسس النحوية .

ويلاحظ المؤرخون أن الأغريق تباطؤا فى دراساتهم اللغوية ، مع أنهم أمة لهم تبكيرهم فى التفكير والنضج العلمى ، لأنهم اعتقدوا أن لغاتهم أفضل لغات العالم ، وأن ما عداها يشبه نقيق الضفادع ، على نحو ما حكى ابن حزم عنهم فى أصول الأحكام .

وشرحت مدرسة الاسكندرية فى القرن الثالث ق.م. ، ما غمض من أشعار (هوميروس) الذى عاش فى القرن التاسع ق.م. ، فنشطت الحركة (الفيلولوجية) .

كما أسهمت روما فى الدراسات اللغوية فى القرن الثانى ق.م .

ويذكر المؤرخون أن معجم (شوفان) لمؤلفه (هوشن) ، والمطبوع سنة ١٥٠ ق.م وكذلك معجم « يوبيان » لمؤلفه (كوبىوانج) ، والمطبوع سنة ٥٣٠ م من أقدم المعاجم التى عرفها الباحثون اللغويون عن الأمة الصينية واليابانية .

وعند علمائنا العرب :

أدت الدراسات القرآنية والعربية الى تطور كبير فى الدراسات اللغوية والأدبية والنحوية :

فقد كان فى الجاهلية مناظرات ومفاضلات أدبية ، على نحو ماروى عن أمرىء القيس واضرابه ،

والأسواق الأدبية ، ومدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — لجيد الشعر ورائع النثر ، واهتزاز عمر — رضى الله عنه — للشعر ، وسجدة الفرزدق لبيت عبيد بن الابرص ، لأن المسلمين يعرفون سجدة القرآن .. وهو يعرف سجدة الشعر ، كما قال .

وكان الحافز الدينى هو دافع علماء المسلمين للحفاظ على لغة الضاد ، التى هى وعاء مقدسات الاسلام ، فكان النهوض المبكر من أبى الأسود الدؤلى لوضع الضوابط النحوية ، بدافع منه ، أو اشارة من الامام على — رضى الله عنه — . ثم اتسع نطاق البحث النحوى عند العرب ، أو (علم التنظيم التعليمى) كما تسميه الفرنجة . واشتد التنافس بين مدرستى البصرة والكوفة ، فنشأت المدرسة البغدادية التى تؤازر السماع ، وتأخذ بوجهة القياس ، وكان من أبرز علمائها : الفارسى وابن جنى ، واستقرت قواعد النحو والصرف فى ذاك العهد ، ولم تضف مدرسة الاندلسيين والمصريين الى تلك الدراسات بعدئذ سوى التفضيل والاختيار والتفصيل ، أو الاجمال والاختصار .

وأقدم مدرسة لغوية هى ماحكى عنها السيوطى — فى الاتقان — مدرسة (ابن عباس ٦٨ هـ) رضى الله عنه فى سؤالات نافع ابن الأزرق ، وتفسيره القرآن الكريم .

كما يعزى اليه كتاب : « غريب القرآن » وهناك نسخة منه فى برلين .

وسيذكر التاريخ عبقرية الخليل ابن أحمد (١٠٠ — ١٧٥ هـ) فى كتبه : (معجم العين ، والايقاع والنغم ، والنقط والشكل ، والعروض ، والشواهد ، والجمل ، ومعانى الحروف) .

وتبعه على الضرب تلاميذه الرواد : صاحب الكتاب « سيبويه ١٨٠ هـ ، وأبو فيد السدوسى (٩٨ ١هـ) والاصمعى (٢١٦) وغيرهم .

وعاصر هؤلاء الاعـلام أو جاء قبلهم من ألف مبدعا ، أو أضـاف جـديدا ، أو وضـع فـكرة فى الدراسات اللغوية ، مثل : أبوعمر ابن العلاء (١٤٥ هـ) ، والمفضل الضبى (١٧٠ هـ) ويـونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ، وأبـو زيـد الانصـارى (٢١٥ هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام الهروى (٢٢٣ هـ) .. وابن الاعـرابى (٢٣١ هـ) ، وابن السكيت (٢٤٣ هـ) وغيرهم.

وشغل العـرب باعجاز القـرآن وتحديه ، وبلاغته وروعته فدرسوا ذلك وانتظم لهم ما يعرف (بعلوم البلاغة) ودرست أول أمـرها فى داخـل الرائع من النصـوص على يدى أمثال ابن المعتز ، وأبىهلال العسكرى ، وعبد القاهر الجرجانى ... ثم خلطت بالمنطق والفلسفة ، كما صنـع السكاكى فى كتابه : (مفتـاح العـلوم) ، والخطيب القزوينى فى (تلخيص المفتاح). ونلاحظ أن علوم البـلاغة كعلوم جمالية ، تأخرت عن النحو والصرف كعلوم كمالـيـة . مـع أن العلماء العرب كانوا موسوعة فى ثقافتهم ، فكثير منهم : نحـوى ، لغوى ، صـوتى راوية ، أديب ، قارىء ، وبعضهـم صـوتى ، موسيقى ، رياضى كالخليـل بن أحمد . حتى جاء كتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) غريب القرآن ،خليطا بين منهجى كتب اللغـة وكتب التفسيـر ، وكتاب سيبويه جامعـا لقـواعد العربية ، والأصـوات واللهجات .

وكان قصد العرب الأول هـو المحافظة على ضبط القرآن الكريم وقراءته وتجويده ، فعرفوا الوجوه التى نطقت بهـا العـرب ، وطريقة أداء القرآن ، بالتلقى والمشافهة ، ودرست اللهجات العـربية فى ظل القـراءات القرآنية ، ولو دونها العلماء عند جمع اللغة ،لأسدوا الى لغتهم الجميل الوافر ولأراحونا . على كل تعرفنا على مخارج الحروف وموسيقاها ، وصفاتهـا ، وحتى نظم ذلك فى الشاطبية وغيرها .

فبـداية الـدرس اللغـوى وان كانت نحوية لغوية ، الا أن لغويى ذلك العهد كانوا من القراء وعلماء القـراءات والتجويد الذى بهـر علماء الغرب .

وهـذا اللون من البحث هـو ما عـرف أخيرا عند علماء الغرب بالأصوات الذى يضم (الفونتكس Phonology) ، أى الوصف . و(الفونولوجى Phonetics) أى التنظيمى .

وهـذا الجيل على الرغم من أنه كان حافلا بالكثير من الموالى غير العـرب ـ كمـا يقول الدكتور عبد الصبور شاهين قـد حمـل أمـانة القرآن والعربية حملا عربيا خالصا ، اذ أن العربية كانت تيارا استوعب كل الموجات الداخلة فى المجتمع .

ويروى عن ابن عبـاس ـ رضى الله عنه ـ قوله : « الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله ، رجعنا الى الشعر ، فالتمسنـا معـرفة ذلك منه » .

ويقول : « اذا تعاجم شىء من القرآن فانظـروا فى الشعر ، فان الشعر عربى » ... وكانت لذلك انطلاقة علماء العرب فى جمع الشعر وتدوينـه ، والتنقيب عن معـان غريبة . هادفة فهم كتاب الله : فقد روى أن عمر ـ رضى الله عنـه ـ استفسر عن معنى « تخوف » فى قوله تعالى : « أو يأخـذهم على تخوف » وهو على المنبر ، فقال له اعـرابى تلك لغتنـا يا عمـر ، ومعناها « تنقص » وروى له قول شاعرهم ذى الرمة :

تخوف الرحل منها تامكا قرداء

ومن ثم عظمـت الدراسـات الأدبية ، والعنـاية بتاريخ الأدب ونقـده ، ودرست التـراجم والمؤثرات فى الأدب ، والعـروض والقوافى ...

ولخـوف العرب على لغتهم ، انطلق العلماء الى البـوادى لجمع اللغة من أصحابها الخلص الموثوق بعربيتهم ، وألفوا فى ذلك رسائل خاصة فى الألفاظ أو المعانى مثل : كتاب اللغات فى القرآن لابن عباس .. ولغات القبائل ليونس بن حبيب (١٧٢ هـ) ، وكتـاب الحشرات لأبى خيرة الأعرابى ، استاذ الخليل ابن أحمد . وغـريب الحديث ، لأبى عبيـدة معمـر بن المثنى

(٢١٠ هـ) . وكتاب الأنواء ، لأبى حنيفة . واسماء الوحوش والغابات للاصمعى . والزاهر فى غرائب ألفاظ الامام الشافعى ، لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٢٨٢ – ٣٧٠ هـ) ، وكتاب النحل والعسل لأبى عمرو الشيبانى (٢٠٦ هـ) والحيات والعقارب لأبى عبيدة (٢١٠ هـ) وكتاب الذباب لأبن الأعرابى (٢٣١ هـ) وكتب الحشرات والجراد ، والنحل والعسل ، لأبى حاتم السجستانى (٢٥٥) .. وكتاب الخيل وكتاب خلق الانسان ، لابن كركرة والنضر ابن شميل (٢٠٤ هـ) . ونوادر ابن الأعرابى ، وأبى زيد بن الانصار وجبال العرب ، لخلف الأحمر (١٨ هـ) ومنازل العرب ، وحدودها ، لأبى الوزير عمر بن مطرف (١٨٦ هـ) ومياه العرب وجزيرة العرب ، والدارات للاصمعى (٢١٦ هـ) .

فكانت هذه الرسائل وغيرها مما بقى منها ، خير حافظ للغة العرب من الضياع . وأساس المدارس المعجمية العربية المختلفة ، التى تفخر بها الآن .

* أما عناية العرب بالمباحث اللغوية فى تخصصها واختصاصها ، فيمكن التاريخ لها فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، على يدى أبى على الفاسى ، وتلميذه ابن جنى وابن فارس ، والثعالبى .

فمن مباحث علم اللغة ما عرفته العرب كالاشتقاق للاصمعى (٢١٦ هـ) ومباحث التعريف والاشتراك والترادف ، لابن سيده الاندلسى (٣٩٧ – ٤٥٨ هـ) فى (المخصص) .

ويعد كتابى ابن جنى : الخصائص ، وسر صناعة الاعراب .. من أحفل الكتب بمباحث علم اللغة التى يصح أن تفاخر بها العرب ، ففى سر صناعة الأعراب أحكام .

حروف المعجم : ومخارجها وصفاتها ، وتصريفها واشتقاقها ، ونظمها مع غيرها .. و .. فى : « الخصائص » منهج جديد لدراسة النحو والصرف ، وتناوب

الحروف عن بعضها ، والاطراد والشذوذ ، ونشأة اللغة ، وخصائصها .. وجاء كتاب « المزهر فى علوم اللغة » للسيوطى (٨٤٩ — ٩١١ هـ) حافلة بمباحث الأقدمين فحفظها من الضياع كما أن له مباحث جديدة : كالاقتراح فى أصول النحو ، وحسن المحاضرة ، والشباه والنظائر .

وكذلك كتب التعريب ، والدخيل وضطبهما .

هذا غيض من فيض من عناية العرب بلغتها ، أطلنا فيها ، لأن كثرة من المستشرقين ، بل ومن أبناء العرب ، من ظلموا العرب أجدادهم فى عبقريتهم وسبقهم العلمى .

لكن بعض المحدثين لا يرى ذلك من فروع الدراسات اللغوية الا اذا قصد من دراستها التعرف على الاطوار التاريخية للالفاظ والقواعد والأساليب ، والعوامل التى أثرت فى تطورها . وكذلك الدراسات المقارنة بين هذه الفروع . أما الدراسات المتعلقة بجمع اللغة ، أو القواعد الصرفة ، أو تقوم على الحدس والتخمين ، كنشأة اللغة التى تقوم على أمور ظنية ، فليست كلها من مباحث علم اللغة .

وهذا رأى مبالغ فيه ، لأنها كلها داخلة فى المباحث اللغوية ، كما حددتها مجالات علم اللغة .

فانفصال العلوم النحوية والصرفية والبلاغية فى الدراسة اللغوية ، لا يعنى أنها خارجة عن نطاق الدراسة اللغوية ، والتجديد فى القواميس ما زال يطالعنا كل يوم بجديد نحن بحاجة أكيدة اليه اليوم .

وقد اسعفت الامكانات المتواضعة المتاحة وقتها علماءنا بهذا الاداء الجيد ، والضبط الواعى ، ولم تنقضه الدراسات الحديثة الا لماما .

وكذلك عرف العرب التتبع التاريخى للالفاظ العربية فى العصور المختلفة .

وعند علماء الغرب :

ظلت أوربا حتى نهـاية القـرن الثامن عشر بعيدة عن جو النهوض العلمى . وما سبق لعلمـائهم من دروس وبحوث لغوية قبـل ذلك كانت توصف بأنها مباحث لا تدخل فى نطاق علم اللغة :

مثل : بحوث : نشأة اللغـة ، وبحوث بنية الكلمـة ومادتهـا ، وطريقة استعمالها تماما كما وصفت أبحاث العرب الأقـدمين فى هـذا الجانب .

فلما تهيأ لأوربا فى نهـاية القرن الثـامن عشر أسباب النهـوض العلمى ، أطلعوا على ترجمة العلوم العربية ، واستفادوا منها ، بينمـا غفا أهلها العـرب غفـوة طويلة ، لأسباب ليس هنا مجال سردها .

ويرى فردينـانـد روسـور (١٨٥٧ ـ ١٩١٢ م) على نحـو ما يروى كتاب : « فى علم اللغـة العـام » ان العـلم الذى يدرس الأحداث اللغوية فى الغـرب مـر بثلاث مراحل ؛ قبـل أن يعـرف وجهته الصحيحة :

١ ـ مرحلة دراسة « النحو » وتنظيم القواعد ، ووصف الواقع ، دون اهتمام باللغة فى ذاتها . على نحـو مـا كان يصنع الاغريق ، والفرنسيون من بعدهم ..

٢ ـ ثم عرفوا (الفيلولوجيـا أوفقه اللغة) ، فى عهد (فردريك أوجست وولف) ابتـداء من عام ١٧٧٧ م ، على غـرار مدرسـة الاسكندرية : (الفيلولوجية) التى كانت تهتم باللغة وتوثيق النصوص ودراسـتها ، والتـاريخ الأدبى ، والنقد واحياء المخطوطات ، فكان ذلك تمهيدا لعلم اللغة التاريخى .

٣ ـ وجاءت مرحلة الفيلولوجيا المقـارنة ، أو النحـو المقـارن ، لاكتشاف العـلاقات بين اللغات ، على يـد المستشرق الانجـليزى (وليم جونز W. Jonce) (١٧٩٤ م) الـذى اكتشف ترب (السنسكريتيـة) لبعض لغـات أوربا وآسيا ، بعد المقارنات أثبت حكمه بأن (السنسكريتيه) أو فى من الاغريقيـة ، وأجمـل من الافريقية واللاتينية ، من جهة أصول

الكلمات وصيغ النحو ، وان جميعها متفرعة من أصل واحد .. كما أثبت العلماء - بعدئذ - ان الساميات من (صل واحد . كما ذكر د. ابراهيم نجا ، وأدت هذه الدراسات فى القرن التاسع عشر الى ظهور :

أ - علم القواعد المقارن : الذى يدرس القواعد دراسة تاريخية تفصيلية تحليلية فى فصيلة من اللغات الانسانية ، أو فى جميع الفصائل ، كما يقوم على الموازنة ، وعلى الأمور الدالية للالفاظ والقواعد وتطورها .

ب - وعلم القواعد التاريخى : الذى يبحث لغة واحدة ، ويعتمد على التحليل بلا موازنة ويعنى بالعناصر الخارجية التى تؤثر فى القواعد ، وتنقلها من حال الى حال عبر الأزمنة .

وتتابع البحث فى علم (الفيلولوجيا المقارنة) على يد « فرانز بوب » وماكس مولر Max Millar Franz Bob

و (ج. كيرتيوس G. Curtius)

و (أوجست شليشر Aug. Schiecher)

وعلى يد هؤلاء وتلاميذهم ارتقى البحث اللغوى .

ولكنه بلغ شأوا بعيدا ، وعرف مكانه الصحيح على يد عالم اللغات الرومانية (ديز Dies) مؤلف كتاب (نحو اللغات الرومانية) المنشور سنة ١٨٣٦ م وعلى يد العالم الامريكى (وايتنى Whitney) الذى ألف كتاب (حياة اللغة) عام ١٩٧٥ م وتوالى على أثرها العلماء :

(برجمان Brugmann)

و (استوف Ostoff)

و (براون Braune)

و (سفرس Sivars)

وعالم السلافية (ليسكيان Leskien) .

وبخاصة وعلى يد الرائد « فرديناند دوسور » فى كتابه : (محاضرات فى علم اللغة العام) وتلميذه (انطوان مييه « فى كتابه علم اللغة التاريخى ، وعلم اللغة العام ») .

ويصف « ماريو باى » مؤلف أسس علم اللغــة ، كتــاب (دوسوسور) « بأنه أول كتاب رسم الأسس الدقيقة لعلم اللغــة الوصفى باعتباره فرعا من فروع علم اللغة » ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين عن أعمال « دوسوسور » العلمية : بأنهــا كانت تدور حول الدراسات المقارنة ومنهــا استطاع أن يقدم أفكاراً عن علم اللغة العام ، أى : انه بدأ تاريخيــا ، وانتهى وصــفيا فأضفى على علم اللغــة الموضوعية » •

ويتفـــق راى مــاريوباى ، ودوسوسور ، على أن لعلم اللغــة فروعا ثلاثة هى :

١ ــ علم اللغـــة الوصــفى أو التركيبى Descriptive)

٢ ــ وعلم اللغــة التــاريخى : Historical) •

٣ ــ وعــلم اللغــة الجغــراف : (Geography).

والأول : أســاس الدراســات اللغــوية ، لعنايتــه بالصـــوتيات والفونيمات ، التى هى أكثر فروع اللغة موضــوعية ، ولعنايته كذلك بالأطــالس اللغــوية : تهـــذيبا أو وضعا •

والثانى : يهتم بدراســة ماضى اللغــة ، للاستفادة منهــا فى حال اللغة أو مستقبلها •

والثالث : يهتم بدراســة تنوع اللغات ، وأماكنها ، وتعقــد التنوع الجغراف ، وتعايش اللغات فى مكان واحــد (كمــا فى سويسرا ، التى تعيش فيها الانجــليزية والفرنسية والألمانية جنبــا الى جنب) ، وعن اللغات الأدبية ، وانتشار اللهجــات وتوزعها مكانيا وزمانيا ، وانتشار اللغات ، وأسباب انتشارها ••

فالبحوث اللغوية تنوعت عنــد علماء الغرب ، الى : الصــوتية ، واللهجات الشعبية والعامية ، وعلم النفس اللغوى ، للارتبــاط الوثيق بين الدراسة اللغــوية والنفسية ، ودراسة اللغة من ناحيــة الدلالة ، وعلم الاجتماع اللغــوى ، لبيــان العــلاقة بين الظـــواهر اللغــوية والظواهر الاجتماعية : من ثقافة ، وعادات ، وتقاليد ، وحضارة •

ونحن نقــدر للغــرب جهــوده العلمية ، المبنية على أسس منهجية ،

ولا ننكر اضافاته البناءة . ولكن نأخذ عليهم اغفالهم جهود علمائنا ، وسبقهم فى هذا المضمار ، فهم قد تبعوا مناهجنا ابان نهضتهم، فكانت الحضارة الأوربية نتاج العقل الاسلامى والعقل الأوربى .

يذكر كتاب « فى علم اللغة العام » أنه يأخذ على الأوربيين فى تاريخهم للدراسات اللغوية : انهم يقتصرون فى سرد التاريخ على جهودهم ، بدءا من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر ، دون أن يعرج أحدهم على ما قدم العلماء العرب من جهود فذة فى هذا الميدان .

وأنا معه فى تلك اللفتة الذكية ، والغمزة اللاذعة لقوم لا يعترفون بالجميل ، ولا ينسبون الفضل للسابق اليه .

ولو كانوا يؤرخون لعلم اللغة التاريخى ، المرتبط بالمقارنات اللغوية بين اللغات المختلفة باعتباره أوربى النشأة .. لعذرناهم فى مسلكهم .

ولكن علماء أوروبا لم يخلوا من منصفين : فالمستشرق الالمانى (أ. شاده) اعترف بجهود العلماء واسهامهم فى الحضارة الانسانية بما قدموا من دراسات لغوية لم يسبقوا اليها فى ميدان : النحو ، والصرف ، والأصوات ، والمعاجم ...

وقد خص (أ. شاده) بالدراسة جانب الأصوات فى بحث بعنوان (علم الأصوات عند سيبوية وعندنا) — انتهى فيه الى أن من الصعب اضافة أى تعديل على ما قدم سيبوية من تحديدات علمية .. لكل ما تعرض لدراسته من الظواهر الصوتية ، اللهم فيما عدا موضوع الحنجرة التى لم يعرف العرب لها وظيفة صوتية ، فجعلوها جزءا من الحلق .

وليس فى هذه الشهادة مجاملة من (ا. شاده) :

فقد وضع العرب أبجدية صوتية للغة العربية ، بحسب المخرج ، مرتبة من أقصى الحلق حتى الشفتين ، كما تحدثوا عن مخارجها وتصنيفها ، وأنواعها ، وحددوا الأصوات المميزة لبعضها عن

بعض .. كـل ذلـك بالاجتهـاد والذوق والعقل ، كما صنع الخليل ابن أحمد ،وكما كتب ابن جنى وغيرهم رحمهم الله .

« للحديث بقية »

من المراجـع :

رجعت فى هذا الفصل الى عدة مراجع ، وجدتها متشابهة ومتحدة أحيـانا ، ولذا أغفلت ذكر المرجع والصفحة لكل اقتباس ، لأنها كثيرة أولا ، ومتفقة أحيانا ثانيا ، وخشية تضـخم الحاشية وكثرة الأرقـام والأقـواس ثالثا . فليرجع اليهـا من شـاء مـزيدا من الفـائدة ، وهى :

١ ــ مقدمة : للعلايلى .

٢ ــ اللغة : لفندريس .

٣ ــ فقه اللغة والأصـوات للدكتور : ابراهيم نجا .

٤ ــ اللغـة والفكر للدكتور عثمان أمين .

٥ ــ فى علم اللغـة العـام للدكتور عبـد الصبور شـاهين .

٦ ــ الوجيز فى فقـه اللغـة للدكتور محمد الأنطاكى

٧ ــ منهج البحث فى الأدب واللغة ــ مانسون ومييه ــ ترجمة د. محمد مندور

٨ ــ علم اللغة . د. محمود السعران .

٩ ــ مناهج البحثفى اللغـة د. تمام حسان .

١٠ ــ علم اللغـــة العـام . د. محمد كمال بشر .

١١ ــ أضواء على الدراسـات اللغـوية المعـاصرة ، للدكتور : نايف خرما .

١٢ ــ مجلة الفيصل السعودية عـدد ١٨ ذو الحجـة سـنة ١٣٩٨ هـ مقـال للدكتور محمود اسماعيل صينى ص ٦٨ .

دكتور توفيق محمد شاهين

اللغة الأردية :

نشأتها وتطورها

للدكتور سمير عبد الحميد ابراهيم

تعتبر اللغة الأردية ، أو كما يطلق عليها البعض اللغة الاردوية أو لغة الأردو اللغة الرسمية لجمهورية باكستان الاسلامية كما أنها لغة التخاطب بين سكان الهند جميعا .

واللغة الأردية ، التى هى احدى لغات المجموعة الهندو أوربية ، ظهرت فى شبه القارة نتيجة لدخول المسلمين هذه المنطقة ، وهناك اليوم بالهند حركة ترمى الى التخلص من اللغة الأردية والقضاء عليها فهى اللغة التى تربط مسلمى الهند (١٢٠ مليون) باخوانهم فى باكستان والبلاد العربية فالأردية تكتب بالحروف العربية والفارسية وتحتوى على كثير من الكلمات العربية والفارسية وفى الهند تجرى محاولات للقضاء على الخط العربى عن طريق تشجيع الكتب المطبوعة بالحروف الهندية ، ولقد أحسست بهذا أثناء تجوالى بمدن الهند التى كانت فيما مضى مراكز للغة الأردية مثل : دهلى ، على كره ولكهنو ...

فاللغة الأردية أصبحت غريبة فى بيتها اذ ألبسوها ثوبا عجيبا حاكوه بخيوط قديمة من حروف اللغة السنسكرتية (ويدناكرى) الا أن حديثها لا يزال كما هو عذبا شفافا رغم اللسعات التى تقوم بها الحكومة على أحبالها الصوتية لتجهدها وتجعلها تنلق نغمات متحشرجة يطلقون عليها اللغة الهندية .. ولكن هيهات هيهات فاللغة التى ترعرعت فى ظل القرآن الكريم وفى ظل اللغة العربية ، لا يمكن أن تتأثر ولو دقوا أوتارها بأظفار من حديد .

وللحق أقول أن مسلمى الهند يحاولون بكل ما يملكون ـ رغم قلته ـ الابقاء على اللغة الاردية بحروفها العربية وقد لمحت فى عيون المثقفين المسلمين دموع الأسى والحزن الا أنها ممزوجة بالأمل والايمان بحتمية النصر . ومن هنا يفرض علينا الواجب أن نساعد هؤلاء ويفرض على الحكومة الباكستانية الواجب أن تتبنى طبع كتب مفكرى شبه القارة ممن يكتبون بالأردية ، وقد أبكتنى كلمات قرأتها فى كتاب صدر لأحد الكتاب المسلمين بالهند تحت عنوان (اردو كا الميه) أى « مأساة الأردية » أبكتنى كلمات تحت عنوان « الجيل الأصم الأبكم » يقول المؤلف الذى أهدى كتابه الى بناته والى بنات الأردية اللاتى سلبن لغتهن الأم :

« ... الأجيال القادمة لا تحمل بين جنباتها الأسى فقط بل هى أيضا خرساء صماء ... فى فمها لسان الا أنها لا تقدر على الكلام لها آذان الا أنها لا تسمع وذلك لأنهم سلبوا هذه الأجيال لغتها الأم » .

وهذا يكفى لبيان ما يعانيه الهنادكة من حساسية تجاه لفظة (اردو) فالأردية تنتشر فى ربوع الهند رغم محاولتهم التخلص منها والباسها ثوبا آخر يرتضونه ويطلقون عليه (الهندية) الا أن الحقيقة تظل واضحة وتعلن عن نفسها يوما بعد يوم . وخلاصة القول أن اللغة الاردية التى سنستعرض هنا تاريخها وتطورها لغة يتحدث بها ويفهمها جميع سكان باكستان وشمال الهند وقطاع ضخم من جنوبها بالاضافة الى عدد كبير من سكان المناطق الجنوبية بافريقيا وعدة ملايين فى لندن وكندا ، كما أنها تدرس كلغة أدبية حضارية فى معظم جامعات أوربا وأمريكا واليابان .

وأهمية اللغة الأردية لنا نحن العرب والمسلمين لا يمكن انكارها فاللغة الأردية خلفت خلال عمرها القصير (٣٥٠ سنة) أدبا رفيعا وثقافة عالية تمثلت فى مؤلفات

قيمة فى مجالات الدراسات الاسلامية : القرآن والحديث ، والتاريخ الاسلامى بالاضافة الى المؤلفات النثرية والشعرية • وأرى من واجبنا هنا الاهتمام بهذه المؤلفات التى انتجها اخواننا من مسلمى شبه القارة الهندية الباكستانية تلك المؤلفات التى تتعلق بديننا وعقيدتنا ، ويجب أن نحرص على تعلم هذه اللغة حتى يمكننا فهم المتكلمين بها ومساعدتهم بقدر ما نستطيع •

والأزهر الشريف ايمانا منه بدوره التاريخى العظيم وافق على افتتاح قسم للغة الاردية وآدابها تبدأ الدراسة به هذا العام ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م وهو بهذا يسبق جامعة القاهرة فى افتتاح هذا القسم فالأردية تدرس بجامعة القاهرة قسم اللغات الشرقية كلغة ثانية وكذلك فى جامعة عين شمس التى وافقت على ادخال الأردية كلغة ثانية منذ العام الماضى فقط ، واننى أرى أن جامعة الأزهر بهذا تؤدى خدمة جليلة للمسلمين جميعا وتوطد أواصر الصداقة والأخوة بينهم •

وقد أشار على الدكتور عبد الودود شلبى بكتابة عدة مقالات أشرح فيها شرحا موجزا عن نشأة اللغة الأردية وتطورها فى ظل الاسلام والثقافة الاسلامية وكانت لمشورته الطيبة وقعا حسنا لدى فعكفت على مكتبتى أستخرج منها ما يتعلق بالموضوع من مراجع محاولا أن أقدم لقراء مجلة الأزهر مادة طيبة على قدر امكانياتى المتواضعة وتجربتى عبر سنوات عشر مضت •

وسوف أعرض فى المقال الأول نبذة مختصرة عن تاريخ شبه القارة لتلك المناطق التى نشأت فيها اللغة الاردية مع بيان أثر الاسلام والعوامل المؤثرة فى نشأة اللغة وتطورها •

نظرة تاريخية :

ـ ١ ـ

لم يكن فتح العرب للسند ، أواخر القرن الأول الهجرى الا احتلالا لولاية واحدة فى أقصى

الغرب ، مساحتها ضيقة ، ومواردها قليلة ، بينما تعد فتوح الغزنوى للهند بداية غزو المسلمين الحقيقى لشبه القارة ، ذلك الغزو الذى سرعان ما انتهى بالفاتحين الى اتخاذ البلاد المفتوحة مقاما دائما لهم . وقد مهدت الدولة الغزنوية التى استمرت قرابة قرنين من الزمان — لتوطيد أقدام المسلمين بالهند ، وذلك بفضل فتوحاتها العظيمة . وفى هذه الفترة بدأ علماء المسلمين وشيوخهم فى نشر الاسلام وبدأت لاهور تدريجيا تتحول الى مركز للثقافة الاسلامية وانهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغز . وأخذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة وكابل وكافة البلاد المفتوحة بالهند حتى ظهر الأمراء الغوريون ، وعلى رأسهم محمد الغورى الذى جاب الهند غازيا من البنجاب الى البنغال فى فتوحات متواصلة خلال ثلاثين عاما بدأها باستخلاص « ملتان » من أيدى القرامطة ، ثم استولى على « بشاور » وأخضع السند جميعه وأخيرا لاهور .

وعهد محمد الغورى بادارة أملاكه الى قائده قطب الدين أيبك الذى وصل بفتوح سيده الى دهلى فاتخذها قاعدة لحكومته واستمر فى فتوحاته ، بينما استمر قائد الغوريين الثانى محمد بن بختيار الخلجى صوب الشرق ففتح بهار ونفذ الى البنغال .

وباختصار خضع شمال الهند كله لسلطان الغوريين وعلى يد جمال الغورى بدأ الحكم الحقيقى للمسلمين بالهند فقد تحول الفاتحون الى الاستقرار والاقامة الدائمة بالبلاد التى فتحوها .

وبعد وفاة محمد الغورى نصب قطب الدين أيبك نفسه سلطانا على الهند (٦٠٢ هـ — ١٢٠٦ م) وبهذا بدأ عهد دولة المماليك أو (خاندان غلامان) وقد أطلق عليها هذا الاسم لأن ثلاثة من ملوكها كانوا من المماليك ، وهم قطب الدين أيبك (١٢٠٦—١٢١٠م) والتوتمش (١٢١٠ — ١٢٣٦ م) وغياث الدين بلبن (١٢٦٦ — ١٢٨٧) وازدهرت العلوم والآداب والفنون فى عهد هذه

الدولة التى لم تلبث أن ضعفت وانتقل الملك الى أيدى الخلجيين عام ٦٨٩ ـ ١٢٩٠م حين تولى جلال الدين الخلجى السلطة وأذن لأبن أخيه علاء الدين بغزو الدكن عام ١٢٩٤ ـ ٦٩٤ هـ ولم يلبث أن عاد واستولى على الحكم بعد قتل جلال الدين غدرا .

وامتدت مملكة علاء الدين خلجى من البنجاب الى البنغال ، ومن جبال الهمالايا الى تلال الوندهايا وبعدها بدأ علاء الدين يثبت أقدامه فى منطقة الدكن واستولى قائده كافور على مالوه والكجرات والدكن جميعها ولم يبدأ عام ٢١٢ هـ ـ ١٣١٢ هـ حتى كان الخلجيون يسيطرون على شبه القارة الهندية بأكملها .

وهكذا ... بدأت الثقافة الاسلامية ، وبدأ المجتمع الاسلامى ونظام الحكومة الاسلامى فى بسط ظلاله على هذه المنطقة بأكملها ، وقد عنى سلاطين الدولة بالعلماء والشعراء ونذكر منهم الشيخ نظام الدين أوليا والعالم الفقيه ركن الدين والشاعر خسرو الدهلوى .

وارتقى غازى ملك تغلق عرش دهلى فى عام ٧٢٠ هـ ـ ١٣٢١ م باسم السلطان غياث الدين تغلق . ونجح السلطان فى استرداد الأقاليم الدكنية والشرقية التى كانت قد ضاعت من حوزة دهلى ، ونظم ادارة البلاد وشجع الناس على تعمير الأرض وفلاحتها وأصلح طرق الرى وشق العديد من الترع والقنوات ، وخلفه ابنه فخر الدين الذى قام برعاية العلوم والفنون ، وكان السلطان نفسه من المشتغلين بالأدب بمنشوراته ومنظوماته الفارسية والعربية وتفوقه على الشعراء يشهد له بالذوق الأدبى الرفيع ، واشتهر برعاية وتجويد فن الخط والنقش وقد تحدث عنه ابن بطوطة حديثا مشوقا .

وفى عهد فيروز تغلق نشطت الدراسات الهندية القديمة فقد شجع فيروز نفسه البراهمة على حل نقوش أعمدة آشوكا القديمة ، كما أمر بترجمة جملة من أمهات الكتب السنسكريتية الى الفارسية ، وأنشأ السلطان مئات المدارس

والمساجد ودور الشفاء الى جانب ثلاث مدن كبيرة بالقرب من دهلى هى فـيروز آباد ، وفتـــح آباد وجونبور .

وبعد وفاة فيروز تغلق انتشرت الفوضى فى البلاد وأقبل تيمور لنك بنفسه على الهند فغـزا الهنـد فى عام ٨٠١ هـ ــ ١٣٩٧ م وهو ينوى السيطرة على الهند كلها . وكان للغزو المغـولى التيمورى للهنـد العامل الأكبر الذى أدى الى تفكك الدولة الاسلاميـة التى أحـكمت قبضتها على الهنـد زمان محمـد تغـلق وفيروز تغلق ؛ فقـد بدأت معظم ولايات الهنـد الكبرى : مالوه والكجـرات وجـونبور ــ البنغال والدكن فى الانفصـال . وأعلن أصحابها استقلالهم بها ولم يفلح سلاطين دهلى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات من جديد الا فى عهد الدولة المغوليـة التى أسسها أحفاد تيمورلنك بالهنـد فى القرن العاشر الهجـرى وعمـرت قرون ثلاثة شهدت فيها الهند على أيديهم حضارة رائعـة فاقت مثيـلاتها فى أرقى الدول آنذاك .

وهكذا نشاهد الهند موزعة بين ملوك الطوائف وبالاضافة الى امارة دهلى ، وجـدت امارة الكجرات وامارة مالوه التى تقع الى الشرق من كجرات وامارة خـاندش التى انسلخت عن دهلى ، وامارة جانبور جنـوب شرق دهلى بالاضـافة الى البنغال ثم الدكن .

ويهمنا هنا الاشارة قليـلا الى الدكن لأهميتهـا بالنسبة للدراسة التى نقدمها الآن عن اللغة الاردية ونشأتها وقد قام أمير يدعى علاء الدين ظفر خان بأعلان خروجه على سلطان دهلى عام ٧٤٣ هـ ، وبسط نفوذه على كافة الاقاليم الدكنيـة التى كانت فى يد عـلاء الـدين الخلجى ، ومحمد تغلق وصـارت بلاده تعرف باسم الدولة البهمنية أو « بهمنى سلطنت » وموقعهـا اليوم هو اقليم بمباى وولاية حيدر آباد الدكن .

وانتهت تلك الـدولة فى أوائل عام ٩٣٢ هـ ــ ١٥٢٥ م بعـد أن عمرت حـوالى قرنين من الزمان ، وقسمت أراضيها الى خمس ممالك اسلامية مستقلة هى برار وبيجابور

وأحمد نكر وجولكنده وبيدر ، ومايهمنا هنا هو التركيز على سلطنة أو مملكة بيجابور التى أسسها يوسف عادل شاه وهو أحد أبناء السلطان العثمانى مراد الثانى وكانت امه قد فرت به من وجه أخيه محمد الفاتح : الى ايران ومنها الى الدكن فالتحق بالبلاط البهمنى وآخر سلاطين بيجابور هو ابراهيم عادل شاه الثانى الذى ضم الى مملكته سلطنة أحمد نكر .

وكان لسلطنة جولكنده وبيجابور دور كبير فى رقى الأدب الأردى كما سيأتى ذكر هذا فيما بعد أما سلطنة دهلى فكانت تحت حكم أسرة السادات التى كانت تأمل فى استعادة وحدة الهند تحت راية الاسلام ، هذا فى الوقت الذى خضعت فيه أغلب منطقة البنجاب للقائد الأفغانى الثائر بهلول اللودهى الذى استولى على دهلى وقام بعدة اصلاحات الا أن حكمه لم يستمر وانتهت سلطنة اللودهى عام ٩٣٢ هـ ـ ١٥٢٦ م . لتبدأ بالهند حكومة الدولة المغولية على يد زهير الدين بابر الذى دخل آكرا وجلس على عرش اللودهين فى ٢٩ رجب ٩٣٢ هـ وخلفه ابنه همايون الذى اشتهر فى تاريخ الهند وقال اعجاب الهنادكة فضلا عن المسلمين ويعتبره الجميع أعظم عاهل عرفته الهند منذ أيام أشوكا حامى البوذية قديما ، واكبر هو مؤسس الدين الالهى ويحاول البعض التعظيم من شأن هذا الأمر الا أنه لم يتعدى كونه منتدى يتجمع فيه أصحاب الديانات المختلفة فى دار العبادةالتى أسسها اكبر لهذا الغرض . ولم يحاول اكبر اجبار أحد على دخول هذا الدين أو الانضمام الى هذا النادى الذى أسسه للتقريب بين الديانات المختلفة بالهند .

ونحن نشاهد محاولات عجيبة تحدث فى أيامنا هذه قريبة جدا من محاولة أكبر التى فشلت تماما .

وترك اكبر من بعده لابنه جهانكير دولة موطدة الأركان تتألف من الشمال الهندى بأكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء كبير من الدكن وفى عهد جهانكير

بدأ التغلغل الأوربى فى شئون الهند وبدأت شركة الهند الشرقية البريطانية فى تثبيت أقدامها فى مناطق كثيرة بالهند ، وذلك ابتداء من عام ١٦١٥ م وولى الحكم شاهجهان الذى ضاق ذرعا بالتدخل البرتغالى فى شئون بلاده فهجم على البرتغاليين الذين شاعوا فى الأرض فسادا باسم التبشير وحاول البريطانيون الاستفادة من هذا والتقرب الى السلطان واعتلى اورنكزيب عالمكير عرش الهند عام ١٠٦٩ هـ وحاول ان يصبغ البلاد بصبغة اسلامية خالصة فحرم شرب الخمر واهتم بتعمير المساجد ونشر التعليم وعين حارسا لمراقبة سلوك الناس وحملهم على التمسك بتعاليم الشرع والابتعاد عن نواهيه .. ولم يشتغل اورنكزيب فى حياته بغير علوم القرآن والسنة ، وكان متمكنا من الآداب الفارسية وقد أشرف على تأليف الموسوعة الفقهية (الحنفى) الشهيرة والمعروفة باسم الفتاوى الهندية أو العالمكيرية التى طبعت بمصر عام ١١٨٢ هـ .

وخلف اورنكزيب سلاطين لم يتمكنوا من المحافظة على الدولة الشاسعة وانتهى حكمهم بسيطرة الانجليز على البلاد وأصبح منصب السلطان منصبا تقليديا اسميا .

وثار أهل الهند ضد بريطانيا ثورة عرفت بالثورة الشعبية واشتهرت بعام الغدر وقضى الانجليز بمحاكمة صورية عام ١٨٥٨ م على آخر سلاطين الدولة المغولية بهادرشاه بنفيه من البلاد وانطلقوا يمتصون دماء أهل الهند وخيراتها .

وانطلق المسلمون يجاهدون من أجل الحصول على الحرية ووالى الهنادكة الانجليز وأعملوا القتل والسلب فى المسلمين مما اضطر القائد المسلم محمد على جناح الى الموافقة على رأى الشاعر محمد اقبال بضرورة اقامة وطن منفصل للمسلمين وحصلت الهند على استقلالها وحصل المسلمون على وطن لهم عام ١٩٤٧ م .

الأسلام واثره فى نشأة اللغة الاردية .

يتضح من هذا العرض السريع جدا لمنطقة شبه القارة الهندية

الباكستانية كيف انتشر الاسلام فى المنطقة وكيف حدث الامتزاج بين الفاتحين وأهل البلاد ، ولكن كيف جاءت كل هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين ؟

نقول ان سماحة الحكام وعدلهم وقواعد وقوانين الاسلام فيما يتعلق بالمساواة والعدل جذبت بالكثير من أهل البلاد ممن طحنتهم قوانين الهندوكية التى تقسم المجتمع على أساس غير انسانى الى الدخول فى الاسلام طواعية ولما كان جيش محمد بن القاسم قد قدم الى السند دون أن ترافق الزوجات أزواجهن من الجنود ، فقد بدأ الجند فى الزواج من الهنادكة بعد قبولهن الاسلام ونتج عن هذا آلاف من الأسر المسلمة التى ظلت تتزاوج فيما بينها وكان هذا هو حال القادة المسلمين من الاتراك والايرانيين والبطهان وكانت النساء بعد الزواج يتطبعن بطباع الاسلام التى أعجبت العديد من الهنادكة فدخلوا الاسلام .

هذا بالاضافة الى أن غزوات المغول فى آسيا الوسطى فى القرن ١٣ م دفعت بالعديد من المسلمين الأتراك والايرانيين والأفغان الى اللجوء للهند وخاصة المناطق الشمالية ، وحين أسلم المغول قدموا للهند وقدم معهم العديد من المسلمين ، ولا يفوتنا أن نذكر أن المسلمين كانوا يتزوجون بأكثر من واحدة مما زاد عدد المسلمين عن الهنادكة .

وكان لامتزاج المسلمين مع الهنادكة آثار كثيرة ليس هذا مجال ذكرها الا أننا نقول باختصار ان أفكار « أكبر » الدينية لم تكن الا نتيجة سيئة لهذا الامتزاج الفكرى ، وقد دفع هذا عددا من المسلمين الى محاولة الحفاظ على الاسلام بالهند من شوائب الهندوكية وفلسفتها .

وقد شهدت الهند أيام الحكم الاسلامى عصرا ذهبيا فى جميع الميادين فى التصوير وفى فن العمارة وفن الموسيقى وبرع المسلمون فى فن كتابة التاريخ وكتب التذاكر .

ولكن بأية لغة كانت كل هذه الجيوش تتحدث ؟ وكيف كان

هذا المزيج الاجتماعي يتفاهم ؟

يحدثنا الرحالة العرب أن اللغات التي كانت مستعملة بالسند وقت دخـول المسلمين كانت العربيـة والسندية ، فقد تعـلم المسلمون اللغـة السندية وتداخلت الكلمات العربية بالطبع فياللغة السندية التي بدأوا يتحـدثونها وحين امتـدت حكومة المسلمين الترك الى شمال غرب البنجاب اختلطت لغة البـلاد المفتوحة ، ومن هنا شاهدنا بعض شعراء بلاط محمـود الغـزنوى (مثل منوجهـرى) يستخدمون الألفـاظ الهنـدية فى أشعارهم ، كمـا بدأ بعض شعراء الهنـادكة يسـتخدمون الألفـاظ العربيـة والفارسية فى أشعارهم وهـكذا بدأت اللغـات العربيـة والفارسية والتركية تترك آثارها على اللغات الاقليمية بالهند .

وتصدرت الفاظ اللغة العربيـة الدينية لغات المناطق المسلمة بالهند بينما انحصرت ألفاظ اللغة التركية على المـأكولات والملبوسـات وما شابهها أما اللغة الفارسـية فقـد ظلت لقرون اللغـة الرسمية لتلك المنـاطق التى حكمهـا المسلمون وتتمثل تقريبا فى شمال الهند كله وجزء كبير من الدكن ومن هنا كان لها نصيب كبير فى التأثير على لغات شبه القارة الهندية فكان السكان يستخدمون بعض ألفاظ لغـاتهم المحلية مضافا اليها ما يعرفونه من ألفاظ اللغة الفارسية ليعبروا بذلك عن أنفسـهم ، أما العلمـاء فكان لا بد لهم من معرفة العربية معرفة تامة حتى يفهموا القرآن والحديث والفقه .

وكان لكل سوق من الأسواق لغة خاصة به أما السوق السلطانى فكان له تجار معينون وبضـائع معينة وتقاليد خاصة ولغـة خاصة وكان المـوسيقيون المشهـورون والفنانون والراقصون يجتمعون فى هـذا السوق يتعلمـون أسلوب الحديث وطريقة البيان ، ومن هنا كان هذا السوق السلطانى مدرسة لتعليم أسلوب الحـديث وطريقـة الـكلام .

والمدرسة الثانية التى أدت خدمة جليلة فى سبيل تعليم الناس اللغة

المختلطة هى تكايا الصوفية ، حيث كان المتصوفة يقومون بنشر أفكارهم الاسلامية والصوفية ، وكانت لغة المتصوفة خالية من التعقيد والتكلف فقد كان هدفهم الرئيسى هو افهام العامة مبادىء الاسلام وأفكار المتصوفة وهى لغة تعلموها من بلاط الملوك والأمراء فى فترة حياتهم الأولى . ومرة ثانية تساءل ما هى اللغة التى ظهرت نتيجة الامتزاج بين هذه الشعوب المختلفة التى تتحدث لغات ولهجات متنوعة ؟ هل هى اللغة التى نطلق عليها اليوم اللغة الاردية أم هى لغة أخرى ؟

والاجابة على هذا السؤال تحتاج الى مئات من الصفحات ولكننا هنا سنوجز بقدر ما هو متاح من صفحات .

فاللغة التى نطلق عليها اليوم « اردو » هى اللغة التى كان الناس يتخاطبون بها حول دهلى وميرته ، وكان الناس فى البنجاب ، واوده والدكن وبهار والكجرات وبمباى ووسط الهند يتحدثونها جنبا الى جنب مع لغاتهم الأخرى ، وكان الهنادكة والمسلمون يتحدثون أيضا الأردية .

ولم تكن اللغة التى يتحدثها سكان منطقة دهلى وميرته وما حولهما مختلفة كثيرا عن اللغة الأردية الحالية ،وقد أسماها أمير خسرو اللغة الدهلوية ثم سميت اردوئى معلى ، فقد كانت لغة البلاط ورجال البلاط ، وكان من تأثير الاسلام أن دخلت الألفاظ العربية والقواعد العربية والفارسية فى هذه اللغة بكثرة (ياء النسبة ، الاضافة ، قواعد الجمع ، بناء المركبات البيانية وغير ذلك) وسارت اللغة حيث سارت خطوط الفتوحات الاسلامية وانتشرت بالتدريج وارتقت تحت ظل السلطان الاسلامى فى الهند ، وفى ظل نشاط أهل التصوف الذين ساعدت كتاباتهم فى تدوين اللغة ووصول بعض نماذجها الأولى الينا اليوم ، ولا أريد أن أخلط هنا بين اللغة وكتابة اللغة لأن اللغة رموز صوتية منطوقة ومسموعة أما الكتابة فهى فى أفضل صورها

لا تعدو أن تكون محاولة للتعبير عن الواقع الصوتى .

واذا كنا سندرس اللغــة فاننــا سندرس التاريخ اللغوى بشقيه ، أولهما التطــور فى بنيــة اللغــة ومعجمهــا ، والثــانى مجــالات الانتشار والاستخدام اللغـــوى وهذان الشقان نابعان من الطبيعة الرمزية الصــوتية للبنيــة اللغــوية ومن الوظيفة الاجتماعية لهــا ــ وبنية اللغة تتغير وهــذا التغــير مصدره الفرد ، وهذا يفسر لنــا التطور فى بنية اللغة الاردية ، فاذا ما حدث واستمر فــرد ذو مكانة مرموقة فى النطق على نحو جديد بصــوت مــن الأصــوات أو فى استخـــدام كلمة ابتــكرها هــو أو بعثها هــو من ســبات معجمى عميق أو استخدم أسلوبا جديدا ، فسمعه الناس وأعجبوا به عن وعى أو دون وعى فالنتيجة حدوث تغير لغوى . فالتغير اللغـــوى أساسه الاستخدام الفردى للغة . فاذا كان هذا المستخدم ذا مكانة اجتماعيــة أو وظيفية أو ثقافية مرموقة وقلده المقربون منه أو من آرادوا التقرب منه ثم اتسعت دائرة المقلدين شيئا فشيئا ، أصبح هــذا التجــديد اللغوى خطــأ سائرا وعرفا ملزما وأصبحت الصــورة النــاتجة هى اللغة المتعارف عليهــا وانقــرضت الصورة القديمة أو توارت .

وفى السطور السابقة شرحنــا كيف أن لغــة السوق الســلطانى أو « شاهى بازار » كانت مختلفة تماما عن اللغة فى الأسواق الصغيرة لأن هذا السوق يضم نوعية خاصة من الناس وتعاملا خاصــا يفرض لغة خاصــة ، وذكرنا أيضــا تلك اللغة التى أطلق عليها اردوى معلى أى « الاردية الراقية » وهى اشارة الى تلك اللغة التى كانت سائدة فى بلاط ملوك المغــول ، أما رجــال التصوف الذين كانوا يحتلون مكانة عالية داخل المجتمع الاسلامى وبين صفوف من أسلم على أيديهــم .. ومن هنــا كان لهم دور عظيم فى نشر تلك اللغـــة الخاصــة التى تعلموها ــ كما ذكرنا ــ فى بلاط الملوك فى أيامهم الأولى .

ويتأثر انتشار الصبغة اللغوية بعوامل كثيرة منها التعليم ، وقد تحدثنا عنه ومنها العامل الدينى وهو واضح تماما فى تشكيل اللغة الأردية وتطورها ووجود عدد ضخم من الكلمات العربية .. وخاصة المصطلحات الدينية ونتج عن هذا ارتباط الخط العربى بهذه اللغة رغم المحاولات العديدة التى جرت لتغيير كتابة اللغة من الخط العربى الى الخط الديوكرى التى تكتب به اللغة الهندية .

والعامل السياسى ذو أثر لا يستهان به فى نشأة اللغات أو انتشارها ، واللغة الأردية كما ذكرنا نشأت وانتشرت فى ظل سلطان المسلمين وواكبتهم حيثما انطلقوا فى شمال الهند أو جنوبها ، شرقها أو غربها ، واختلف مدى هذا الأثر السياسى من منطقة لأخرى فى شبه القارة الهندية ، وهذا يمثل تمركز اللغة الأردية فى الدكن وشمال الهند .

أما العامل الاجتماعى فهو من أهم العوامل وأبعدها أثرا فى حياة اللغة فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان الى آخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان القدامى كفيل بخلق علاقات لغوية جديدة ومن المعروف أن فتح العرب لاقليم السند وحدوث التزاوج الاجتماعى بين العرب وأهل السند الأصليين كان له أعظم الأثر فى دخول العديد من الألفاظ العربية فى اللغة السندية وتقبل أهل البلاد المفتوحة لهذه الألفاظ وبالتدريج وجنبا الى جنب مع الفتوحات الاسلامية فى الشمال والجنوب وامتزاج المسلمين مع أهل البلاد الأصليين ظهرت الأردية خليطا من لغة أهل البلاد الأصليين واللغة التركية والفارسية والعربية ولما كانت هذه اللغة الجديدة « اردو » ومعناها بالتركية المعسكر ، هى لغة الطبقة الحاكمة ولغة المثقفين ، أصبحت فيما بعد لغة الأدب والثقافة ولغة الشعب أيضا الذى بدأ فى محاكاة الطبقة العليا وهذا أمر معروف فى المجتمعات ذات الطبقات المتعددة

وملاحظ فى كل مظـاهر الحيـاة الاجتماعية ، والعامل الحضـارى عامل فعال أيضا فى حيـاة اللغـة وانتشـارها فتعلم اللغـــة الأردية أمـر فرضته الثقـافة الاسـلامية ومؤلفـات علمـاء الدين ورجال التصـوف المسلمين ، فقـد دفع هذا القوم الى تعلم اللغة للوقوف على أمور دينهم وشئون شريعتهم وما تحمله هذه اللغة من حضـارة وعلم يفيدهم .

واللغة الأردية لغـة حـديثة لم يتعد تاريخهـا مئـات قليـلة من السنوات ودراسةنشأتها وتطورها ، ودراسة آدابها وتراثهـا ، دراسة تهم كل مسلم يشعر بأن من واجبه معـرفة وطنـه الاسلامى ، فقـد تركت الأردية آثارا أدبية عظيمـة وثقافة لا تزال شعوب شبه القارة الهندية الباكستانية تجتر خيراتهـا حتى اليوم .

ــ وللحديث بقية ــ

دكتور سمير عبد الحميدابراهيم

« اذا استطعت »

كتب رجل الى ابن عمر رضى الله عنهما يساله عن العلم ! فاجابه : ان العلماكثـــر من اكتب به اليك ، ولكن اذا استطعت ان تلقى الله كاف اللسان عن اعراض المسلمين ، خفيف الظهر من دمائهم . خميص البطن من اموالهم لازما لجماعتهم فافعل .

التصوف ومقام الإحسان

الأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

حين تضيق بنا الحياة وتتفرق بنا السبل وتتوزعنا الهموم والآلام نجد أنه لا منجاة لنا من كل ذلك الا اذا عدنا الى مثل ديننا القديم فاستنشقنا عبيرها وتمسكنا بأسبابها واعتصمنا بحبلها « ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

أجل فما عز انسان الا بعز دينه وما ذل الا بتفريطه فيه ، وقد اعتمد المفكرون الأصلاء على الدين فى تقوية الروابط الاجتماعية وبعث العزة القومية فى الأمة واحياء فضائلها ، ولذلك يقول الرافعى رحمه الله : « الدين من أقوى الوسائل التى يعول عليها فى ايقاظ ضمير الأمة وتنبيه روحها اذ فيه أعظم السلطة التى لها وحدها قوة الغلبة على الماديات ، فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته ، ومتى قوى هذا السلطان فى شعب كان حميا أبيا لا ترغمه قوة ولا يعنو للقهر » .

هذا هو الدين فى مظهره اذا ساد فى شعب فما بالك اذا كانت حقائق هذا الدين ومثله القويمة هى التى تسود ؟ وكيف بك اذا ادركت أن وراء هذا الدين أسرارا تعطيك من روحها كلما تعمقت فيه وتشربت بمبادئه وتحققت بتعاليمه ؟ حين ذاك تصبح انسانا له سلطانه الروحى الذى تخضع الماديات لسلطانه وتضمحل الظواهر أمام قوته .

وقد اعتمد سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فى تمسكهم بدينهم على تفهم أسراره وتشرب مبادئه ، ولم يقفوا عند حدود أداء

الشعائر على ظواهرها ولكنهـــم فهموا معنى الاسلام على حقيقتـــه والايمان على حقيقتـــه والاحســـان عـلى حقيقتـــه فى ضـوء هـذا الحـديث الشريف الذى ورد فى الصحيحين عن عمر بن الخطـاب رضى الله عنه : « بينما نحن عنـد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجـــل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعـر لا يرى عليه أثر السفـر لا يعرفه منا أحـــد ، حتى جلس الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضـــع كفيـــه على فخذيه ، فقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الاســلام أن تشهد ألا اله الا الله وأن محمـــدا رسول الله وتقيم الصـلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه ســبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصـــدقه ، قال : فأخبـــرنى عن الايمان ، قال : أن تؤمـــن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـــوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الاحسان ، قال أن تعبد الله كأنك تـــراه فان لم تكـــن تراه فانه يراك » .

ويوقفنا هـــذا الحديث الشريف على أن هذا الدين الحنيف الذى تتشرف بالانتساب اليه له مراتب ثلاث : أولاها الاسلام وأوسطها الايمان وأعلاها الاحسان ، وقـد علق الامام النووى شارح صحيح مسلم على مرتبة الاحسان بقوله : « هذا من جـــوامع الكلم التى أوتيها النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن لو قدرنا ان أحدنا قام فى عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئا يقدر عليه من الخضوع والخشـــوع وحســـن السمت واجتماعه بظاهـــره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحســـن وجوهها الا أتى به ، فقال صلى الله عليه وسلم : اعبد الله فى جميع أحوالك كعبادتك فى حال العيان ، فان التتميم المذكور فى حال العيان انما كان لعلم العبـد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه فلا يقـــدم العبد على تقصير فى هذا الحال

للاطلاع عليه ، وهذا المعنى الموجود مع عدم رؤية العبد فينبغى أن يعمل بمقتضاه ؛ فمقصود الكلام الحث على الاخلاص فى العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى فى اتمام الخشوع والخضوع .. وقد ندب أهل الحقائق الى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعا من تلبسه بشىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعا عليه فى سره وعـــلانيته ؟ قال القاضى عياض رحمه الله : وهذا الحديث قد اشتمل على جميـــع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الايمان وأعمال الجوارح واخـلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمـــال حتى ان عـلوم الشريعة راجعـــة اليه ومتشعبـة منه .

الصوفية ارباب هذا المقام :

وقد وقف أهـل الصـدق من الصوفية أنفسهم على تحقيق هذا المقام وحثوا تلاميذهم عليــه لأنه أقرب الطرق للوصول الى حضرة الحق والتعرف عليه ، وقد ندبنـا الله الى مراعاة الاخلاص فقال جل من قائل : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

والاخلاص يستـــدعى المراقبة والمحاسبة ومتى راقب العبـد ربه وحاسب نفسه على التقصيـر فى جنبه سلمت عبـادته من الخلل ، وخلت أعماله من العلل ، وبعدت خطواته من الزلل .

والاخلاص هـــو الذى يعطى للعمل قيمته ويحقق له حيويته . قال ابن عطـاء الله السكندرى رضى الله عنه : الأعمال صور قائمة وأرواحهـا وجود سر الاخـلاص فيها ، ويعلق الشيخ زروق عـلى هذه الحكمة فى شرحـه قائلا : ولا عبرة بصورة لا روح فيها كما أنه لا قيام لروح دون صورتها ، وقال الشيخ أبو طالب المكى رضى الله عنه : الاخلاص عند المحققين اخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس ، والاخلاص عند المحبين الا يعمـل عمـلا لأجل النفس والا دخـل عليه مطالعـة عوض أو ميـل الى حظ النفس ، والاخلاص عند الموحدين خـروج

الخلق من معاملة الحق من النظــر اليهم فى الأفعال وعــدم السكون اليهم فى الأحوال .

والاحسان كما يهدى اليه لفظه يقتضى الأفضليــة ، قال تعالى : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » (مريم ٧٣) « ثم انشــــاناه خلقا آخر فتبــارك الله أحســـن الخالقين » (المؤمنـــون ١٤) ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » (المؤمنــون ٩٦) « ولنجزينهم أحسن الــذى كانوا يعمــلون » (العنكبوت ٧) .

كمــا يتطلب الاتقــان فى العمل ، ومن تمام الاتقان خلوه من الشرك الخفى بمعنى الا يشــهد الانســـــان مع الله خالقا سواه ولا قادرا غيره . فكل ما سواه نجم آفل . بل فى شهود العارفين باطل . أو كمــا يقول الآخر :

الله قل وذر الوجود وما حــــوى
ان كنت مرتــادا لنيــل كمـــال
فالـــكل دون الله ان حققتــــــه
عــدم على التفصـــيل والاجمـــال

ومن تمام الاتقان أيضــا رؤية الله عند كل شيء كما يشيــر ذلك الحديث الشريف الذى تقــدم .

قال تعالى : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه » (البقرة ١١٢) ، « ومن أحســـن دينا ممن أســلم وجهــة لله وهــو محســـن » (النســـاء ١٢٥) ، « ومن يسلم وجهه الى الله وهــو محسن فقد استمســــك بالعــروة الوثقى » (لقمان ٢٢) فالاحسان هنا هو تمام مشاهدة الحق الذى يصحب اسلام الوجه لله والتفويض الكامــل له لأنه لا موجود بحــق الا هو .

الاحسان اعلى مراتب العبادة :

والاحسان هو أعلى المراتب فى العبادة فقــد سبقته المرتبة الأولى وهى مرتبة الاسلام وهو المدخل الصحيــح الى التعــرف الى الله ولذلك اختــــاره الله دينا للبشر جميعا منذ خلق آدم عليه الســلام وحتى يطوى الأرض ومن عليها .

والاسلام كما يدل عليه لفظــه يعنى الاستســلام لله ، كمــا يعنى حسن العــلاقة بين الانسان وأخيه الانسان استشهـــــادا بالحــديث الشريف : « المســــلم من ســلم المسلمـــون من لســانه ويده » .

ويليه مرتبة الايمان الذى يعنى الثقة المطلقة فى الله والايمان بقضاء الله وقدره ، ويظهـــر ذلك من مناسبة الحـديث الذى قدمتـه بين يدى هذا الكلام فقد روى الامام المسلم فى صحيحه عن يحيى ابن يعمر قال : كان أول من قال فى القدر بالبصرة معبد الجهنى ، فانطلقت أنا وحميـد بـن عبـد الرحمـــن الحميـرى حاجين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألنا عما يقول هؤلاء فى القدر . فوفق لنا عبد الله بن عمر ابن الخطاب داخـــلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عـن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبى سيـكل الـكلام الى فقلت : يا أبا عبد الرحمـن انه قد ظهر قبلنا ناس يقـرءون القـرآن ويتقفرون (يطلبـــون) العلـم وذكر من شانهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف . قال فاذا لقيت أولئك فأخبـرهم انى برىء منهم وأنهـــم براء منى ، والذى يحلف به عبد الله بن عمـر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقـه ما قبل الله منه حتى يؤمـــن بالقدر ، ثم قال حـــدثنى أبى عمـــر بن الخطاب . وساق الحديث .

فاذا ما أسلم وجهه لله وفوض أمره اليه وتوكل عليه وآمـــن بقضائه وقدره استطاع أن يشاهد آثار القدرة الالهية المحيطة به من كل جـــانب ويرى الله فى آياته الظاهرة والباطنة وذلك كفيل بأن يعبد الله حق عبادته . وهذا هو مقام الاحسان الذى اعتنى الصوفية بتحقيقه والتخلق به وجاهـــدوا أنفسهم للوصـــول اليه ووضعـــوا مناهجهم لمريديهـــم على هـــذا الأساس .

وأول خطوة يخطوها الصـــوفى فى طريقه هى التـــوبة . وتعنى الرجوع عن أمر مذموم فى الشرع الى كل أمر محمود فيه مع الندم على ما حدث من المخـــالفات ، والتوبة مقام خطيـــر من مقامات الصوفية يبدأ بالتوبة من المعاصى وينتهى بالتوبة من الخواطر ، حتى قال ذو النون المصرى وقد سئل عن

التوبة : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة ، وقال الثورى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله عز وجل ، وشتان ـ كما يقول عبد الله بن على التميمى ـ ما بين تائب يتوب عن الزلات وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات .

واذا تحقق المريد بالتوبة على هذه الصورة فقد وضع قدمه الصحيح على طريق الاحسان الذى يشاهد فيه حقائق الانعام والاحسان ، ولن تتم هذه التوبة الا بالمجاهدة الصادقة لدواعى النفس وكبحها بلجام التقوى .

الاحسان والتقوى :

وقد ورد لفظ الاحسان فى القرآن الكريم مقرونا بكلمة التقوى فى مواضع كثيرة « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » (آل عمران ١٧٢) ، « ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » (المائدة ٩٣) ، « وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » (النساء ١٢٨) ، « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » (النحل ١٢٨) ، « انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » (يوسف ٩٠) .

وتعنى التقوى عند الصوفية مدلولا خطيرا يفتح الباب الى مقام الاحسان ، فالجريرى فيما يرويه القشيرى فى رسالته يقول : « من لم يحكم بينه وبين الله بالتقوى والمراقبة لم يصل الى الكشف والمشاهدة » وقال النصراباذى : « التقوى أن يتقى العبد ما سواه تعالى وهذا هو المعنى الذى يقصده الروذبارى من قوله « التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله » وما أجمل قول ابن عطاء : للتقوى ظاهر وباطن فظاهره محافظة الحدود وباطنه النية والاخلاص . ويترتب على كل ذلك صفات مثلى كثيرة هى لدى الصوفية مقامات رائعة تظهر فى الورع والزهد والتوكل والخوف والرجاء والخشوع والتواضع وغير ذلك مما يتخلقون به ويحكمون أمرهم عليه حتى يصلوا الى أعلى درجات اليقين ، وحسبك باليقين من خلق

اذا تخلق به الانســان بلغ نهـاية الكمال ، قال أبو عبدالله الانطاكى فى ذلك : ان أقل اليقين اذا وصل الى القلب يملأ القلب نورا وينفى عنه كل ريب ويمتـلىء به القلب شكرا ومن الله خوفا .

وهكذا نجد الصـوفية يعنون تمام العناية بالجوهـــر واصلاح الباطن ، وهذا هو الأساس الذى يرســون عليه قــواعد طـريقهم ، ومراقبتهم لأحــوال نفوسهم هــو الذى يجعلهم فى يقظـة كاملة لمـا يحدث فى بواطنهم وما يدور فى خواطرهم ويحاسبون أنفسهم على كل تصرف يصدر عنهم ، وهذا كما يقول القشيرى فى رسالته أصــل كل خير ، ولا يكاد المريد يصــل الى هذه الرتبة الا بعد فراغه من المحاسبة ، فاذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله فى الوقت ولازم طـريق الحق واحسن بينـه وبين الله تعالى مراعاة الوقت وحفظ مع الله الأنفاس راقب الله تعالى فى عموم أحــواله ومن راقب الله فى خواطره عصمه الله فى جوارحه .

ومن قصصهم الطريفة فى ذلك أن أحد الشيوخ كان يخص تلميذا له بالرعاية والاقبال أكثر من غيره فسألوه فى ذلك فقال : ابين لكم ، ودفع الى كل واحـــد من تلامذته طائرا وقال له : اذبحه بحيث لايراك أحد ، ودفع الى هذا التلميذ طائرا مثلهم ، فمضوا ورجـع كل منهـم وقد ذبح طائره ولكن هذا التلميذ جاء ولم يذبح طائـره ، فقـال له الشيخ : هلا ذبحتـــه ؟ فقال : أمرتنى بأن أذبحه بحيث لا يرانى أحد ولم أجد موضعا لا يرانى فيه الله جل وعز . فقال الشيخ : لهذا خصصته بالرعاية والاقبال .

قال الصوفية : ومن علامـــة المراقبة ايثار ما آثر الله تعـــالى وتعظيم ما عظم الله وتصغير مـا صغر الله ، ويثمر ذلك الرضا الكامل بالقضاء والقدر ، يقول أحدهم : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القدر ، وقال آخـر : أحببت الله حبا هون على كل مصيبة ورضانى بكل بلية .

وهذه هى الحياة الطيبـة التى فهمها بعض المتذوقيـن من قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر

أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجـرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (النحل ٩٧) . وللصوفية فى ذلك أحـوال نادرة هى من سوابق الهمـــم وكبريات العزائم . أليس الصوفية على هذا الأساس هم الناس ؟

انهم عباد الله حقا الذين أفنوا ذواتهم فى حب الله وآثروا رضـاه على رضا الناس ولم يفتنهم حب المظهر عن تطهير المخبر ؛ لقد سلمت نفوسهم من كل غل وحقد وحققوا قول الله : « والذين جـاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفــر لنـا ولاخـوانا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنـــا غلا للذين آمنوا ربنـــا انك رءوف رحيم » (الحشر ١٠) .

ليس الدين مظهـرا فحسب ، ولكنه روح يعمل عمله فى نفس المسلم فاذا به يصبح مثلا أعـلى يتحرك ونموذجا سـويا للـكمال الخلقى لا ينطوى قلبه على دخـل أو رياء أو ضغينة ولا يسارع الى كلمة الكفر يدمغ بها أخا مسلما يشـــهد « ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله صلى الله عليـه وسلم » .

عبد الحفيظ فرغلى القرشى

الصـــــلاة :

ان الصلاة بها الصلات عميقة	وبها يكـون من الصلاة نجـاكا
واذا بليت من الزمان بشدة	فافزع لهـا تفزع بهـا بلواكا
هى قرة للعين ، جالبة الرضا	هى فى الخطوب الحالكات ضياكا
وعمـاد دين الله باب فتوحه	وطـريق جنته وسر هنـاكا

لـذة الحـق

فضيلة الدكتور ابراهيم أبو الخشب

الأعمال التى يمارسها الانسان فى حياته تنتهى الى حالة من السرور والارتياح ، أو السخط والغضب ، أو القبول والرضا ، أو الكراهية والنفور . فان وصلت به الى الغاية التى كان متطلعا اليها . طامعا فيها . حمد الله سبحانه وتعالى أن كتب له السداد والرشاد والهداية والتوفيق ، وجعله من هؤلاء الذين ظفروا بما كانوا يحلمون به ، ويودون أن تساعدهم الظروف المتاحة على تحقيقه ، ولا يجد أحد من الناس لذة تسوقها اليه المقادير . ويطيب له العيش فى جوارها . تساوى تلك اللذة التى يحس بها حينما يطمئن قلبه . وتمتلىء لديه خواطره ، ويشعر شعورا لا شك فيه ، أنه قد انتصر للحق ، ودافع عنه ، ووقف الى جانبه .

وربما كانت هذه اللذة التى يجدها ، والسعادة التى يشعر بها ، سببها المباشر أن نفس المؤمن هكذا يجب أن يكون موقفها من كل سلوك تسلكه ، أو عمل تقدم عليه ، أو نية تضمرها ، أو خاطر يدور بأمانيها وأحلامها . لأن الله سبحانه وتعالى وهو يعلم — فى داخل المرء — ما توسوس به نفسه يحاسبه على هواجسه ووساوسه ، ويقول حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » . وربما كانت — كذلك — لأن رجولة الرجل واكتمال خلال الخير له . وتوفر العظمة فيه . منطلقها الأول فى كل زمان ومكان ، وفى

نظر الدساتير والقوانين . والأعراف والاصطلاحات ، أن يكون الحق مظهره ومخبره ، وقوله وفعله ، وهواه وميله ، وأمره ونهيه ، واقباله على الشيء أو انصرافه عنه . الا أن هذه اللذة التى تتحدث عنها لا يجدها أو يدركها من كان الحق فى جانبه رغم أنفه — أو خبط عشواء — أو بحكم المصادفة والاتفاق ، انما يجدها ويشعر وهو ينعم بها أن الله جل وعلا قد غمره بالرضا ، وشمله باللطف ، وخصه بالزلفى ، ورفعه الى السماوات السبع ، فشاهد ملكوته ، ورأى مظاهر سلطانه ، وامتداد نفوذه ، هذا الذى كان يعمل له عمل الجاد ، ويقبل عليه اقبال المحب ، ويدافع عنه دفاع الأبطال ، ويعتقد اعتقادا جازما أنه عرضه الذى يغار عليه ، ويغضب له ، أو دينه الذى يستشهد فى سبيله ، ويحارب من أجله . هؤلاء الذين تتوفر لهم تلك الشخصية ، وتتاح لهم هذه الحقيقة قلة نادرة فى هذه الأمة آثروا ما يبقى على مايفنى ، واشتروا الآخرة بالدنيا ، وانحازوا الى جانب الرحمن . لا الى جانب الشيطان ، وقد يلقى أحدهم الهوان والعذاب ، والايلام والأذى ، والارهاق والعنف ، والتشريد والنفى ، والسجن والتعذيب ، لأنه أريد على أن يتحول عنه فأبى . وطلب منه أن ينافق فيه فامتنع . وحُمل على الباطل فلم يستطع عليه صبرا .. ومحنة الامام أحمد بن حنبل — فى مسألة القول بخلق القرآن — التى ظل يقاسى منها على مدى طويل من خلافة بنى العباس بتدبير أحمد بن دؤاد المعتزلى أكبر دليل على الاعتزاز بالحق ، والصمود له ، والوقوف بجانبه . وعدم التخلى عنه ... وقد وشى الى الخليفة المنصور برجل من ذيول الأمويين كانت عنده ذخائر وأعلاق وأموال ، قيل : انها مما ترك خلفاء هذه الدولة بعد ذهاب سلطانها ، وغروب شمس خلافتها ، وكان هذا الرجل من هؤلاء الذين يبالغون فى السمو بنفوسهم ، والتعالى بكرامتهم ، والاعتزاز بأخلاقهم ، وكان الى جانب هذا كله يتيه على

الناس بأنه أقوم من السيف . يغار على الحق غيرته على حرماته ، ويهاب الباطل هيبتـــه للموت . فلما قادوه الى الخليفـة ، ووقفوا به بين يديه ، وواجهوه بالجريمـة التى اتهموه بها ، وألزموه بتسليم ما عنده ، لم ترتعد فرائصـــه ، أو تتغير ملامحه ، أو يتلجلج منطقه . وقابل الأسئلة التى طلب اليــه أن يجيب عليهـا ، والاتهـامات التى لصقت به ، باغضـاء الغـافل ، وزارية الساخر ، وعدم المبالاة التى تدل على أن ذلك كله لم ينل من اطمئنان قلبه ، وهدوء أعصابه ، وسكون جوارحه . ولم يشأ أن يرد بادىء ذى بدء بما يشعر أنه فى موقف المتورط الذى يعنيه أن يسلم سلامة الذى لا عليه ولا له . وظل ساكتا سكوت الأخرس حتى ليخيل لمن يراه هـكذا أنه يزور اجابة يتلمس بهـا الخـلاص مـن الذنب ، ثم انطلق انطلاق السهـم من الرمية يقول : يا أمير المؤمنين ، وبأى وجه أرد اليك ما معى مـن أموال ، قد زعموا أنها مما خلف بنو أمية ، ولست وارثا لهم يطالب بنصيبه فى التركة ، ولا دائنا يقتضى دينه مما أعقبوه ، ولا وصيا على ذريتهم يريد أن يصون لهم تـراث الآباء والأجـداد ، والشأن فيمن يحاسبنى هـذا الحســاب ، أو يسوقنى الى مثل هذا الموقف أن يكون واحدا من هؤلاء وأنا لا أعدو أن أكون أحد رعايا أميـــر المؤمنين ، أدين له بالولاء ، وله منى السمع والطاعة فى حدود مـا أملكه وأستطيع بذله .

وهنالك أخذت الدعوة رأس أبى جعفر ، وودّ لو أنه لم يكن فى هذا الوضع الحرج الذى ساق نفسه اليه ، وهو هـذا الحصيف اللبيب ، ولم يجد قولا يخرج به من تلك الورطة الا أن يقـــول للمتهم ــ من جديد ــ ان بنى أمية ظلمـــوا الشعب ظلم المستبـد ، واغتصبوا حقوقه اغتصاب الشره ، ونكلوا به تنكيل المستخف ، ونحن حينما نأخذ منك هذا المال انمـا نأخذ للأمة حقا كان مضيعا ، ونرد اليهـا شيئا كان مسلوبا ، فقـال الرجل : ولكنه يا أمير المؤمنين لم تقم على بينـة ، والقاعدة الشرعية

أن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، ويمنعنى حيائى أن اذكرك بقول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » ومثلك لا يأخذ بالظنة ، ولا يعاقب على غير جريرة ، ولا يصغى الى الباطل ، أو يتأثر بقول واش .. وكان المنصور لا يخفى اعجابه بالرجل ، وارتياحه لحسن منطقه ، فابتسم له ، وأراه من ملامح وجهه أنه راض كل الرضا لهذا الجدل الحلو ، والبيان الخصب ، والحجة القوية ، والدفاع الذى أعانه عليه حقه الذى لم تلمسه الريبة ، ولم تبطله الوشاية ، ولم تسكته المؤامرة المكذوبة .. ثم أعلن اليه : أن موقف حسابه له ، واتهامه اياه ، قد انتهى الى غير رجعة ، وأنه ابتدأ معه حديث الرجل للرجل ، أو الصديق للصديق وأفهمه : انه على استعداد لأن يزيل عن نفسه ما عسى أن يكون قد علق بها من غضاضة أو غضب ؟ فقال له : اقترح علينا ما شئت فاننا لا نحمل لك الا الاكبار والاعجاب ، والمودة والتقدير ، وقلوبنا قد تفتحت لك ، ونفوسنا قد هفت اليك ، وسوف تجد حاجتك مقضية ، ورجاءك قريبا ، ورغبتك حاضرة .. وهناك قال الرجل لأمير المؤمنين : حسبى من هذه المسيرة كلها أن الحق فى جانبى ، وأن الواشى لم يبلغ منى مأربه . فان ذلك وحده مغنم لا يسعنى معه الا ان أقول « ذلك الفضل من الله » وحسبى به جزاء يملأنى غبطة ، ويرفع رأسى زهوا وخيلاء ، وان كان بعد ذلك رجاء أطلبه وأمل أطمع فيه . فذلك أن تجمع بينى وبين هذا الذى سعى بى هذه السعاية . لأحذر بعد ذلك اختلاقه علىّ ، وضرره بى ؟ فلما فاجأه به ، ووقع بصره عليه ، رأى أنه غلامه الذى أبق منه منذ أيام وقد اختلس منه ثلاثة آلاف درهم ، وكأنما صنع ما صنع لينجو بما أخذه ، ويهرب بخيانته .. ثم لم يلبث هذا المتهم أن عفا عن الغلام وأعتقه لوجه الله ، وكان هذا مثار الاعجاب به ، والثناء عليه .. وكان

أبو جعفر كلما جلس الى أحد من معارفه وأصحابه قص عليهم هذه القصة • لا على أنها مثال من العفو عند المقدرة ، أو الصفح الجميل ، والحلم الواسع ، والتسامح الكريم ، والأدب العالي ، والخلق العظيم ، فربما كان على ظهر الأرض — أو في بطنها — من لا يقل عن هذا الرجل في تلك السجايا النبيلة ، والمزايا الجليلة ، ولكن الذى لفت نظره ، واسترعى انتباهه ، أن نشوة الاحساس بالحق ، ولذة الظفر به ، هى التى ألهمته أن ينطق بهذا الكلام ، وحملته على أن يقف هذا الموقف الذى كان كله شجاعة نادرة • وصرامة بالغة ، وصراحة قوية ، وقد ضحى بغلامه الآبق ، وماله الضائع ، وهو لم يكن من الأثرياء الذين لا يرهقهم هذا البذل ، وخيل اليه أن الغبطة لا تصل بمخلوق ظفر بضالته ، ولا بانسان حصل على غايته • أكثر مما وصلت به ••• وهذا هو الحق الذى جعله سبحانه من أسمائه ، وأقام الكون على دعائمه ، وجعل السعادة نفحة منه ، ورغبنا فيه ، وطلب الينا أن نتعاون عليه ، ونذود عنه ، ونحرص دائما أبدا على أن نكون من جنوده المتفانين فى الوقوف الى جانبه « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ٤ : ٣٣ » •

دكتور ابراهيم ابو خشب

« ثلاث خلال »

روى .. ان الرشيد : احضر رجلا ليوليه القضاء ،
فقال له : انى لا احسن القضاء ولا انا فقيه ،
فقال له الرشيد : فيك ثلاث خلال :
لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ،
وانت رجل تشاور فى امرك ، ومن شاور كثر صوابه ،
واما الفقه فنضم اليك من تتفقه به • فولى فما وجدوا مطعنا ؟!•

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٥٢٢ ويقولون : فلان حسيس : يعنون أنه ذو احساس رقيق وبصر بالأمور ، وهذا فاسد ، لأن الحسيس له معنيان لا صلة لكل منهما بمعناهم هذا .

احدهما الصوت الخفي كالحس بكسر الحاء ، ومنه قوله تعالى « لا يسمعون حسيسها » ومثله في المعنى الركز بكسر الراء ، ومنه قوله سبحانه : « أو تسمع لهم ركزا » أي صوتا خفيا .

والمعنى الآخر من يقتل سريعا، تقول : حسه يحسه حسا فهو حسيس مثل قتله يقتله قتلا فهو قتيل ، ومنه قوله تعالى : « اذ تحسونهم باذنه » .

ومن معاني الحس بالكسر الوجع ، تقول : النفساء تشتكي حسا في رحمها أي وجعا .

ويقال : أحس فلان الشيء اذا علم به يتعدى بنفسه مع الألف ، وربما زيدت الباء فقيل أحس به على معنى شعر به ، كما تقول : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر وأصل الاحساس الابصار ، ومنه قوله تعالى : « هل تحس منهم من أحد » أي هل ترى منهم أحدا ، ثم استعمل في الوجدان والعلم والظن ، ومن هذا قوله تعالى : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » والتحسس التطلب ، تقول : اخرج فتحسس . ومن هذا

قوله سبحـــانه : « يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » .

والحواس المشاعر الخمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس الواحدة حاسة كدابة ودواب .

والصواب أن يقال : فلان حساس أو ذو احساس .

٥٢٣ ويطلقـــون على موضـــع السجود من الوجه كلمة قورة بضم القاف ، فيقـــولون : لهذا الرجل قورة عـريضة ، وقال أحـــد شعـــرائهم : أنا أبو قورة فى البرج عاصى

وفى محافظة الدقهلية أسرة وافرة العدد سميت بأسرة أبى قورة ، وهذا خطأ ، والصواب أن يقال : لهذا الرجل جبهـة عريضة ، وهو أجبه اذا كان واسع الجبهة حسنها ، والمرأة جبهاء ، وجبهتها جلواء أى حسنة واسعة .

ومن معانى الجبهة الخيـل وفى الحـــديث « ليس فى الجبهة صدقة » .

يقال : جاءت جبهة الخيـل لخيـــارها ، قال بعض بنى فزارة :

وليت جبهة خيلى شطر خيلهم
وواجهونا باسد قابلوا اســدا

وجبه فلان فلانا كمنعـه اذا ضرب جبهته ورده أو لقيه بما يكره .

والتجبية أن يحمـر وجها الزانيين ، ويحمـلا على بعير أو حمار ويخـالف بيـن وجهيهما .

ومن المجاز قولك فلان جبهة قومه . كما يقال هو وجههم .

وجمع الجبهة جباه بالكسر كما فى قوله تعالى : « يوم يحمى عليها فى نار جهنـم فتكوى بها جباههم » .

٥٢٤ ويقولون : فلان لا يحتـكم على أى مقدار من المـــال يعنون أنه فى فقر مـدقع ، وهذا التعبير يشوبه الضلال البعيد ، لأن الاحتكام لايمت بأى صلة الى الفقر ، وانمـا له معنى آخر : تقول : حكم

الرجل أخاه فى ماله تحكيما اذا جعل اليه الحكم فيه فاحتكم عليه فى ذلك احتكاما بالفعل المطاوع ، أى قبل أن يحتكم فيه احتكاما .

وتقول : لمن لا تأمن شره وخيانته : لا تحتكم علىَّ فى مالى ، أى ليس لك حكم فى هذا المال .

كما تقول : احتكم الخصمان الى القاضى احتكاما ، وتحاكما اليه تحاكما اذا فوضا اليه أن يقضى فيما بينهما من خصومة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، وهذان الفعلان بمعنى واحد

ويقال : حكم الحاكم على المتهم بكذا حكما وحكومة بضمهما ، وهو يتولى الحكومات ، ويفصل فى الخصومات ، والحاكم ينفذ الحكم كالحكم بالتحريك ، جمعه حكام بتشديد الكاف والحكمة بثلاث فتحات ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه ، وسميت بذلك لأنها تذلله لراكبه حتى تمنعه الجماح ، ومنها اشتقت الحكمة بكسر الحاء ، لأنها تقى صاحبها أخلاق الأراذل ، ومن المجاز قولك ، هذه قصيدة حكيمة اذا كانت ذات حكمة ، قال :

وقصيدة تأتى الملوك حكيمة
قد قلتها ليقال من قالها ؟

ويقال : أحكمته التجارب اذا جعلته حكيما ، وأحكم فلان الشىء اذا جعله محكما فاستحكم .

ولاصلاح تعبيرهم ليؤدى المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : فلان لا يملك شروى نقير ، والشروى المثل ، والنقير النكتة أو النقرة فى ظهر النواة .

أو يقال : هو نقر بالكسر ، أو أنقور بالضم ، أى فقير جدا .

أو يقال : هو نقير فقير اذا أصابته النواقر وهى

السهام التى تصيب أهدافها ، وكذا اذا عملت به الفواقـر جمع فاقرة وهى الداهية التى كسرت فقار ظهره ، والنقـر بالتحريك ذهاب المال ، يقال : أعوذ بالله من النقر أى من فقد المال وسوء الحال .

ويقال فى ضد من تقدم : فلان ليس بفقيـر ، ولكنـه يتفاقر أى يدعى الفقـر برغم غناه .

٥٢٥ ويقولون : داخ فـلان فى عمله دوخانا ، يعنون انه قد أغمى عليه أو أخذه دوار فى رأسه فهـم بالسقوط ، وهـــذا خطأ من ناحيتيـن احداهما : أن فعلانا بالتحريك لا يكـون الا مصـدرا لفعل يدل على الاضطـراب والتقلب ، كجال جـولانا وخفق خفقانا وليس الدوخان كذلك ، والأخـرى أن داخ لاتحمل الا معنى ذل واستكان ، تقول داخ الرجل يدوخ دوخا من باب قال اذا ذل ، وداخ القائد البلد اذا قهرها واستولى على أهلها لدوخها وديخها .

ويقال : ليل دائخ اذا كان مظلما ، وداخ لنا العدو اذا ذل وخضع ، ودوخناه فداخ اى اذللنـاه فـذل قـال

حتى يدوخ لنا من كان عادانـا

ومن المجاز قولك : دوخ السـائح الأرض اذا أكثـر وطأهـا ، ودوخنى الحـر اذا أضعفنى .

٥٢٦ ويقولون : خسر التاجر فى تجارته فهـو خسران بالفتح وزان ندمان ، وهذا التعبيـر مشوب بالخطأ لأن كلمة خسران ليست عـربية ، وانما هى عامية .

والصواب أن يقال : فهو خاسر ، ومنه قيل لسلم بـن عمرو : الخـاسر لأنه بـاع مصحفا ورثه واشترى بثمنـه عودا يضرب به ، وقيل اشترى بثمنه ديوان شعر .

تقول : خسر كفرح وضرب خسـرا بالفتـح ، وخسرا وخسرانا بضمهما ، وخسارة

وخســارا بفتحهما اذا ضــل فهو خاسر ، وخسر التاجر اذا وضع فى تجارته أو غبــن ، ومــن الخســار بالفتح قوله تعالى :

« ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا » وقوله « واتبعوا من لم يزده مــاله وولده الا خسارا » ومن الخسر بالضم قوله سبحــانه « والعصر ان الانســان لفى خسر » وقوله « وكان عاقبة أمرها خسرا » ومن الخسران بالضــم قوله عز وجل « ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقــد خسر خسرانا مبينا » .

تقول : من لم يطع الله فهو خاسر ، وهم خــاسرون ، ومن هذا قوله تعالى « لا جرم أنهــم فى الآخــرة هم الخاسرون » وقوله « ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون »

ويقال : أخسر البائع الميزان اذا نقصه فهو مخسر ، ومنه قوله تعالى : « أوفوا الكيــل ولا تكونوا مــن المخسرين » وأخسر وأكسد اذا وقــع فى الخسران والكساد .

وخسرت فلانا تخسيرا اذا أبعدته ومنه قوله سبحــانه « فمــن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غيــر تخسير » ، وخسرته تخسيرا أيضا اذا نسبته الى الخسران ككذبته تكذيبا اذا نسبته الى الكذب ، وفسقته تفسيقا اذا نسبته الى الفسق .

ويقال : خسر فلان الشىء اذا نقصه وبابه ضرب ، وأخسره مثله ، والخسار ، والخسارة ، والخسرى بفتحهــن الهلاك والضلال ، والأخسر الضــال كما قال الأخفش ، جمعــه الأخسرون ومنــه قوله تعالى « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا » وقوله « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين »

٥٢٧ ولقد شــاع على ألسنتهــم وأسنة أقلامهم قولهم : من هذا

المنطلق تسبح فى الماء ، ومن هذا المنطلق يجرى السباق وكل من هـذين التعبيـرين وأمثالهما خطأ بيّن ، لأن كلمة منطلق بفتح الطاء اسم مفعول من انطلق على رأيهـم وهذا الفعل لازم لا يصاغ منه اسم مفعول على هذه الصـورة ، اذ أنه مطاوع فعل لا يتعـدى بنفسه الا الى مفعـــول به واحد ، تقول : أطلقت الأسير اذا حللت اساره وخليت عنـه فانطلق هو أى ذهب فى سبيله ، ومن هذا يقال : أطلقت القول اذا أرسلته من غيـر قيد ولا شرط .

وتقول : فـــلان منطلق اللســان وطلقـه وطليقـه بفتحهما اذا كان فصيحا عذب المنطق ، وهو طلق الوجـــه وطليقه ومنطلقه اذا كان ضاحكا ظاهر البشر ، وطلق اليدين اذا كان سمحا كريما .

ويقال : عدا الفرس طلقـا أو طلقين بالتحريك فيهما أى شوطا أو شوطين ، ومن هذا تقول : أصبت من مال أخى طلقا بالتحـريك أى نصيبا ، قال المسيب :

قبل امـــرىء ترجى فواضـــله
قـــد نالنى من بابـــه طلق

ولاصلاح تعبيرهم يقال : من هذا المكان ، أو من هذا الموقف ونحو ذلك نعمل كذا

٥٢٨ وهم يسمـــون العقب بزنة كتف كعبا ، ويقولون ان لكل انسان كعبين ، حتى لقـــد يقولون ان للحـذاء كعبين ، وهذه التسمية خطـأ صراح وضلال بعيد .

والحق أن للانسان أربعـة كعوب ، لكل قدم كعبان ، قال الأزهرى : الكعبان هما الناتئان فى منتهى الساق مع القدم عن يمنة القدم ويسرتهـا ، وقال أبو عمرو بن العلاء والأصمعى : الكعب هو العظم الناشز فى جانب القدم عند ملتقى الساق والقدم ، فيكون لكل قـدم كعبان عن يمنتها ويسرتها ، وفى التنزيل : « وامسحـوا برءوسكـم وأرجلكـــم الى

الكعبين » ، جمعه كعوب وأكعب ، وكعاب بالكسر .

ومن معانى الكعب المجد والشرف ، تقول أعلى الله كعب فلان أى شرفه ، وذهب كعب القوم ، أى ذهب جدهم وشرفهم ، والكعب من القصب الأنبوبة بين العقدتين .

ويقال : كعبت الجارية تكعب من باب قتل كعابة اذا نتأ ثديها للنهود فهى كاعب وكعاب بفتحها وهن كواعب ، قال تعالى « وكواعب أترابا » وكعبت البناء تكعيبا ربعته تربيعا ، ومن هذا سمى البيت الحرام كعبة لتربيعه .

أما العقب فهى مؤخر القدم ، جمعها أعقاب ، وفى الحديث « ويل للأعقاب من النار » أى لتارك غسلها فى الوضوء ، ولكل انسان عقبان ، واحدة فى كل قدم ، قال تعالى : « الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » ، وقوله تعالى : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » .

والعقب بضم العين وسكون القاف أو ضمها العاقبة ، ومن هذا قوله تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا » .

وتقول : جئت فى عقب شهر رمضان وفى عقبانه بضم العين وسكون القاف فيهما اذا جئت بعد ما مضى كله ، وجئت فى عقبه بفتح العين وكسر القاف اذا جئت وقد بقى منه بقية وعقب الرجل بكسر القاف وسكونها ولده وولد ولده ، وهى مؤنثة أيضا ، ومنها قوله سبحانه : « وجعلها باقية فى عقبه » . وتقول : هل أعقب فلان ؟ أى هل ترك عقبا ؟ وما لفلان عاقبة أى عقب ، وأعقب فلان اذا مات وخلف عقبا أى ولدا وأكل الرجل أكلة أعقبته سقما أى أورثته علة ، ومن هذا قوله تعالى : « فأعقبهم نفاقا » أى أورثهم بخلهم نفاقا .

والعاقب من يخلف السيد ، وفى الحديث « أنا السيد والعاقب » يعنى آخر الأنبياء والعقبى بضم العين وسكون القاف جزاء الأمر ومنها قوله سبحانه « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ويقال : عقب الحاكم على حكم من كان قبله تعقيبا اذا حكم بغير حكمه ، ومنه قوله سبحانه « لا معقب لحكمه » أى لا أحد يتعقب حكم الله بنقص ولا تغيير .

٥٢٩ ويسمون : أجر العامل على ما يقوم به من عمل : عمولة بضم العين ، فيقول العامل : كم عمولتى على هذا العمل ؟ وهذا فاسد ، لأن جزاء العامل يسمى عمالة مثلثة العين ، وعملة بضمها ، وعملة بكسرها ، أما العملة بفتحها فهى السرقة والخيانة والعملة بالكسر أيضا هيئة العمل ، تقول : فلان حسن العملة .

ويوصف الرجل بأنه عمل وزان طرب ، وعمول وزان صبور اذا كان ذا عمل ، أو كان مطبوعا عليه كما توصف الناقة بأنها عملة وزان فرحة ، وعمالة بتشديد الميم ، ويعملة بفتح كل من الياء والميم اذا كانت فارهة نجيبة ، وتجمع على تعملات ، ومن هذا قول جرير : يا زيد زيد اليعملات الذبل .

والعملة بالتحريك العاملون بأيديهم فى طين البناء .

والتعميل تولية العمل يقال : من الذى عمل عليكم ؟ أى نصب عاملا ، وهو يتعمل فى حاجات المسلمين ، أى يتعنى ويجهد فيها وينصب ، وأنشد سيبويه

ان الكريم وابيك يعتمل
ان لم يجد يوما على من يتكل

يعنى ان لم يعلم

وأنشد الجاحظ لبسامة بن الغدير :

وجدت أبى فيهم وجدى كلاهما
يطاع ويوتى امره وهو محتبى
فلم أتعمل للسيادة فيهم
ولكن أتتنى طائعا غير متعب

ويؤدى معنى أجر العامل : جعلهوزانفعل ، وجعالتهمثلثة الجيم ، وجعيلته وزان سفينة والجعالة مثلثة أيضا الرشوة وما تجعله للغازى اذا غـزا عنك بجعل .

وهى بالكسر والضم خرقة ينزل بها القدر كالجعـال ، تقول : أجعل الطاهى القـدر اذا أنزلها بهذه الأشياء .

وللفعل جعل المتعدى عدة معان :

١ ــ التصيير كما فى قولك : جعل فلان القبيح حسنا .

٢ ــ الظن ،كما فىقولك : جعل السائح البصرة بغداد اذا ظنها اياها .

٣ ــ الاقبال والأخذ ،كما فى قولك : جعل الطفل يصوم ويصلى .

٤ ــ التسمية كما فى قوله تعالى :، « وجعـلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا» أى سموهم .

٥ ــ التبيين ، كما فى قوله سبحانه : « انا جعلناه قرآنا عربيا » .

٦ ــ الخلق كما فى قوله : « وجعل الظلمات والنور » .

٧ ــ التشريف كما فى قوله : «جعلناكم أمة وسطا» وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس »،

٨ ــ التبديل ، كما فىقوله « فجعلنا عاليها سافلها » .

٩ ــ الحكم الشرعى كما فى قوله : «جعل الله الصلوات المفروضة خمسا »

١٠ ــ التحكم البدعى كما فى قوله : « الذين جعلوا القرآن عضين » .

١١ ــ النسب كما فى قولك : جعلت زيدا أخاك : أى نسبته اليك .

وقد يكون الفعل لازما وهو الداخل فىأفعال المقاربة كما فى قول الشاعر :

وقد جعلت اذا ما قمت يثقلنى
ثوبى فانهض نهض الشارب الثمل

والجعل وزان صرد الرجل الأسود الدميم تقول مررت بجعل يرمى بشعل أى يأتى بحجج زهر ، جمعه جعلان بالكسر كصرد وصردان ، ويقال أرض مجعلة كمحسنة اذا كانت كثيرة الجعلان .

٥٣٠ ويقولون : يملك فلان عشرين فدانا ، يعنون بهذا مساحة خاصة ، وهذا التعبير غير سليم لأن العرب تقول : ان الفدان هو آلة الثورين يشق بها الأرض للزراعة كالمحراث جمعه فدادين ، والفدادون هم أصحاب الفدادين ، كما يقال لأصحاب الجمال جمالون والفدان مكون من أجزاء هي العضم ، وهو اللوح العريض الذى فى رأسه الحديدة التى تشق بها الأرض ، وهذه الحديدة تسمى بالسكة .

والنير بكسر النون هو الخشبة المعرضة فى عنق الثورين ، جمعه أنيار ونيران والسميق وزان قضيب هو الخشبة التى تحيط بعنق الثور من النير وهما سيقان .

والمقوم بزنة المنبر هو الخشبة التى يسكها الحراث فى أثناء الحرث .

وقيل ان الفدان هما الثوران اللذان يفدن عليهما ، ولا يقال للواحد فدان .

أما الفدن بالتحريك فهو القصر ، جمعه أفدان ، تقول : جاءوا بجمال كأنها الأفدان أى القصور ، قال القطامى :

فلما أن جرى سمن عليها
كما طينت بالفدن السياعا

وهذا على القلب ، أى كما طينت الفدان بالسياع ، وهو الطين بالتبن ، ومن المجاز قولك : هذا جمل مفدن ، وقد فدنه الراعى تفدينا أى سمنه وصيره كالفدن ، وقد قالوا لولا الفدان لم تبن الأفران .

٥٣١ ويزعمون أن كلمة ترى فعل مضارع فى قولنا : عاد

الحجاج تترى ، والفصيح أنها اسم وانها قد تنون فيقال : جاءوا تترى وتترى ، وأنهـا فى كلتا الحالين تعرب حالا أى جاءوا متواترين متتابعين ، والتواتر معناه التتابع أو مع فترات كما فى قوله تعـالى « ثم أرسلنا رسلنا تترى » أى واحدا بعد واحد .

وأصل تترى وترى من الوتر بكسر الواو وفتحها ، ومعناه الفرد ، يقـال : واتر فلان بين أخبـاره مواترة وتارا اذا تابع ، أو لا تكون المـواترة بين الأشياء الا اذا وقعت بينها فترة كما فى الآية السابقة .

ومواترة الصوم أن تصوم يوما وتفطر يوما أو يومين ، وتأتى به وترا وترا .

قال أبو هـريرة : لا بأس بقضاء رمضان تتـرى أى متقطعا .

ويقال : تواترت كتب فلان اذا تتابعت وبينها فترة ، واذا شربتم فأوتروا وهم على وتيرة واحدة ، أى على طـريقة وسجيـة ، وفى الحـديث « وما زال على وتيرة واحدة حتى مات » وما فى عمله وتيرة أى فتور ، وطلب فلان وتره وترته قال أبو زيد :

لا ترة منـدهم فتطلبهـا
ولاهم نهزة لمختـاس

والموتور من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

٥٣٢ ويقولون : سرج الخيـاط الثوب تسريحـا واسراجة بالكسر ، وهذا فاسد ، ووجه الكلام أن يقال شرجه تشريجا بالشين لا بالسين ، والتشريج هو الخياطة الأولى المتباعـدة كالمسل بتشديد اللام ، أو يقال شله شلا من باب رد ، كل هذا معنـاه الخياطة الخفيفة أما الخياطة الأخرى فهى الكف بشد الفاء ، تقـول : كف الخياط الثوب كما اذا خاط حاشيته ، وهى الخياطة الثانية بعد الشل ، وقد قالوا : عيبة مكفوفة مشرجة مشـدودة ،

وفى الحديث « وان بينهم عيبة مكفوفة » مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث ، أو معناه أن الشر يكون مكفوفا بينهم كما تكف العباب اذا اشرجت على ما فيها من المتاع .

ومما يؤدى معنى الخياطة الحوص بفتح فسكون ، فتقول : حاص الخياط الثوب حوصا وحياصة من بابى قال وكتب اذا خاطه ، ومنه المثل « ان دواء الشق أن تحوصه » ويضرب فى رتق الفتق واطفاء العداوة .

أما التسريج بالسين فله معان لا صلة لها بالخياطة ، تقول : سرجت الفتاة شعرها تسريجا اذا ضفرته ، والسراج هو الكذاب يزيد فى حديثه ، تقول : ان فلانا ليسرج الأحاديث تسريجا ، ولقد تسرج على أى تكذب .

ومن المجاز قولك : سرج فلان كذا تسريجا اذا بهجه وحسنه ، ووجه مسرج أى مزين محسن .

٥٣٣ ويقولون : هذا كلب مسعور يعنون أنه مصاب بداء يعدى من بعضه والصواب أن يقال : هذا كلب كَلِب وزان كتف ، أى به كَلَب بالتحريك ، وهو داء يشبه الجنون يعترى الكلب من أكل لحم الانسان غالبا ، فاذا عقر الكلب الكَلِب انسانا أعداه بهذا الداء ، ويسمى المعقور كَلِبا أيضا .

تقول كلب كلب ، وكلاب كلبى ، ورجل كلب ، ورجال كلبى ، ومن المجاز قولك شتاء كَلِب ، ودهر كلب أى شديد الأذى .

أما المسعور فهو الرجل الحريص على الأكل وان كان بطنه مملوءا ، تقول : سعر فلان بالبناء للمجهول اذا اشتد جوعه وعطشه .

ومن المجاز قولك ضربه السعار بضم السين وهو حر الليل ، وبه سعار وهو توهج العطش .

٥٣٤ ويقولون لعنقود التمر : سباطة بضم السين ، والصواب أن يقال كباسة بالكسر ، جمعها كبائس .

أو يقال له عذق بكسر العين أما العذق بفتحها فهو النخلة بحملها .

أو يقال له قنو بكسر القاف فى لغة الحجاز ، وبضمها فى لغة قيس ، جمعه أقناء وقنوان بالكسر .

ومن هذا قوله تعالى «ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب » .

أما السباطة فهي الكناسة ، تقول ، بال الرجل فى سباطة القوم أى فى كناستهم ؛ والسباطة سقيفة بين حائطين تحتها طريق جمعه سوابيط وسابطات ، وسباط بالضم اسم شهر بالرومية ، تقول : ولد فلان فى سباط أى فى شهر كثير الرياح وهو آخر شهور الشتاء .

٥٣٥ ويقول لما يهدى السفن فى البحار (فنار) وهذه كلمة أعجمية لا تعرفها العرب والصواب منارة ، وأصلها علم الطريق ، تقول ، اهتدى المسافرون بمنار الأرض أى بأعلامها ، والمنارة أيضا هى التى يؤذن عليها للصلاة تقول : بنيت منارة المسجد أى مئذنته ، وكذلك هى مايوضع عليه السراج ، ووزنها مفعلة من الاستنارة أى منورة بفتح فسكون ، وجمعها مناور ، والأكثر الا تهمز الواو لأنها أصلية من النور ، كما لا تهمز الياء فى معايش لاصالتها .

ومن قالوا منائر وهم قليل فقد شبهوا الأصلى بالزائد كما قالوا فى جمع مصيبة مصائب وأصله مصاوب .

وأما المنار فهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحد بالهاء فيقال منارة .

وفى الحـــديث : « ان للاسلام صوى ومنارا كمنار الطريق » .

والصوى هى الاعلام من الحجارة ، الواحدة صـــوة بضم الصاد وتشديد الواو .

٥٣٦ ويقولون : رمح الفرس أو الحمار رمحا ، يعنون أنه جرى مسرعا فهو رامح ، ورمـــاح والصواب أن يقـــال : هو سبوح ، وسابح بفتحهمـــا ، وخيل سبح بضمتين وسوابح وذلك لأنها تسبح بيديها ؛ أو يقال : فرس مطار بضم الميـم أى حديد الفؤاد طيار مـــن شدة عدوه .

أما الرمح فله معان لا تمت بصلة الى معناهم هذا ، تقول رمحه الفرس اذا ضربه برجله ورفـــه ، ورمحـــه أيضا اذا عضه ، ودابة رماحة أى عضادة ورموح أى عضود ، وتقول رمحت فلانا رمحا اذا طعنته بالرمح ، ورجل رماح اذا كان حاذقا فى الرماحة ، والرماحة بالكسر صناعة ، ورجل رامح أى ذو رمح .

ورمح الجنـــدب اذا ضرب الحصى برجليه ، ورمح البرق اذا لمع ، وقـــوس رماحة اذا كانت شديدة الدفع .

ومن المجاز قولك : أصابته رماح الجن أى الطاعـــون ، قال زيد بن جندب الايادى :

لعمرك ما خشـــيت على ابى
رماح بنى مقيدة الحمـــار
ولكنى خشـــــيت على ابى
رماح الجن او ايـــاك حـــار

ويقال : كسروا بينهم رمحا اذا وقع بينهم شر ، ومنينـــا بيوم كظل الرمح اذا كان طويلا وضيقا .

قال ابن الطثرية :

ويوم كظل الرمح قصر طـــوله
دم الزق عنا واصطفاق المزاهير

٥٣٧ ويقولون : فلان يحب رجال الأدب سيما الشعراء ، وهذا غير ســـليم ، والفصيح أن يقال : ولا سيما الشعـــراء ، أى أن نصيب الشعـــراء من محبته يفوق نصيب غيرهم ، وذلك لان كلمة سى معناها مثل ، فكأن من يقـــول ذلك

يقصد أن الشعراء لا يماثلهم أحد من رجال الأدب في ولوعه بهم ومحبته اياهم ، فالتعبير بلاسيما اذن يفيد تفضيل ما بعدها على ما قبلها فى الحكم .

قال ابن يعيش : ولا يستثنى بسيما الا ومعها جحد أى نفى ، ونقل السخاوى عن ثعلب قوله ومن قالها بغير اللفظ الذى جاء به امرؤ القيس فقد أخطأ ، يعنى كلمة لا ، وهو :

الارب يوم كان منهن صالح
ولا سيما يوم بدارة جلجل

ووجه ذلك أن لا وسيما تركبا وصارا كالكلمة الواحدة التى تساق لترجيح ما بعدها على ما قبلها ، قال ابن الحاجب : ولا يستثنى بلا سيما الا مايراد تعظيمه ، فقولهم تستحب الصدقة فى شهر رمضان ولا سيما فى العشر الأواخر منه معناه واستحبابها فى العشر الأواخر . آكد وأفضل ، ولكن لو قيل سيما بغير كلمة لا النافية لاقتضى ذلك التسوية ، وبقى المعنى على التشبيه ، ويكون التقدير تستحب الصدقة فى شهر رمضان استحبابها فى العشر الأواخر .

وتقدير قول امرىء القيس مضى لنا أيام طيبة ليس فيها يوم مثل يوم دارة جلجل فانه أطيب من غيره وأفضل من سائر الأيام ، ولو حذفت كلمة لا لصار المعنى مضت لنا أيام طيبة مثل يوم دارة جلجل ، وحينئذ لا يكون فى الكلام مدح ولا تعظيم .

أما اعراب هذا المثال ونحوه ، فان لا نافية للجنس ، واسمها سى وخبرها محذوف دائما تقديره موجود أو حاصل ، وكلمة ما المتصلة بسى اما زائدة واما اسم موصول واما نكرة موصوفة بمعنى شىء ، وهى فى الحالتين الأخيرتين مضاف اليه .

والاسم الذى بعد لا سيما قد يكون معرفة كما فى المثال

الذى نحن بصـــدده ، وقد يكون نكـــرة كما فى قول امرىء القيس ، وقولك أحب سكنى القرى ولا سيما قرية على النيل فان جاء معرفة كان مرفوعا أو مجرورا .

أما الرفع فعلى أنه خبـر لمبتدأ محـــذوف تقديره الشعراء ، وتكون هذه الجملة صلة لما على أنها اسم موصول، أو صفة لها على أنهـا نكرة موصوفة .

وأمـا الجر فعلى تقدير اضافة سى اليه وزيادة ما .

فاذا كان الاسم نكـــرة جاز رفعه وجره على نحو ما تقدم ، وجاز أيضا نصبه على أنه تمييز لما .

٥٣٨ ويزعمون أن العـراء بالفتح والمد مصدر لعرى ، فيقولون خطأ : عرى فلان عـــراء . والصواب أن يقال : عــرى فلان من ثيابه يعرى من باب تعب عريا وعرية بضمها فهـو عريان ، وهم عريانون ، وهو أيضا عار ، وهم عراة كقاض وقضاة .

ويقال : هى عارية وعريانة بالضم ، لأن ماكان من الصفات على فعلان كان مؤنثه بالهـاء كخمصان (١) وخمصانة .

ويقال : فـرس عـرى اذا كان بلا سـرج ، وصـف بالمصدر ثم جعل اسما وجمع فقيل خيل أعراء مثـل قفل وأقفال ، قالوا ولا يقال فرس عريان كما لا يقال رجل عرى ويقال : اعـروری الرجـل الدابة اذا ركبها عريا ، وعرى فلان من العيب يعرى من باب تعب فهو عر اذا سلم منـه ، ويعدى الفعـل بالهمـزة والتضعيف فيقال أعريته من ثيابه ، وعريته منها تعرية .

أما العراء (٢) فهو الفضاء لا يستتر فيه بشيء ، جمعه اعراء ، وأعرى الرجل اذا سار فيه وأقام ، ونحـن نعـارى أى نركب الخيل أعراء

---

(١) الخمصان : من كان ضامر البطن .
(٢) من العراء قوله تعـالى : « فنبذناه بالعراء وهو سقيم » .

والمعرى من الأسماء ما لم يدخل عليه عامل كالمبتدأ .

٥٣٩ وهم يخطئون حين يجمعـون كلمة عرب على عربان بالضم ، لأن العربان هو ما يقدمه المشترى من ثمن السلعة التى يريد أن يبتاعها ، ثم يقول لصاحبهـا ان تم العقـد احتسبناه والا فهو لك ومثله العربون بالضم والعربون بالتحريك والعـرب أهل الأمصـــار ، والأعراب سكان البادية لا واحد له جمعه أعـاريب ، والنسبة اليهـم أعـــرابى والعـرب العاربة والعرباء هم الصرماء الخلص ، أما العرب المتعـــربة وكـذا المستعربة فهم الذين ليسـوا بخلص ، وجمع العرب أعرب كزمن و أزمن ، والنسبة عربى .

والعروب بالفتح هى المرأة المتحببة الى زوجها أو الضحاكة وقد قالوا : خيـر النســاء لكعـوب العـروب وقـد تعربت لزوجهـا اذا تحببت اليه جمعها عرب بضمتيـــن ، ومن هذا قــوله تعـــالى : «فجعلنـــاهن أبكارا عـــربا» ويقال لها أيضـــا عربة وزان فــرحة وجمعهـــا عــربات كفرحات ، والعروبة بالفتح وباللام يوم الجمعة .

٥٤٠ ويقولون : هـــذه المدينـــة مملوءة بالعمار بفتح العين ، والصـــواب أن يقال مملوءة بالعمران بضم العين ، وهو اسم للبنيان . أما العمــار فهو الريحان يزين به مجلس الشراب ، وهو أيضا جمــع عمارة بالفتح وهى كلمة كان الرجل يحيى بها الملك مــع قــوله : عمـــرك الله ، قال الأعشى :

فلمـــا أتانا بعيـــد الكـــرى
ســجدنا له ورفعنـــا العمارا

والعمارة بالكسر مايعمــر به المكان ، وكذلك هى جماعة أصغر من القبيلة .

والعمارة بالضم أجر العمارة بالكسر ، وعمارة بالضم علم لرجـــل ومنه عمارة اليمنى الشاعر المعروف .

عباس ابو السعود

قلعة الموت وفردوسها المزعوم

بقلم
عقيد شرطة محمد فتحي عيد

قال عنها القزويني أنها قلعة حصينة فى ناحية روزبار بين قزوين وبحر الخرز بولاية جيلان من بلاد فارس وكانت على قمة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا يبلغها النشاب (كناية عن ارتفاعها الشاهق) وقيل أن أحد ملوك الديلم أرسل عقابا للصيد وتبعه فرآه قد وقع على قمة جبل وجدها الملك موقعا حصينا فبنى عليها قلعة وسماها قلعة الموت أى عش العقبان .

وقد جاءت شهرة قلعة الموت بعد استيلاء الحسن بن الصباح عليها سنة ٤٩٣ هـ ١٠٩٠ م واتخاذها مقرا لطائفة الاسماعيلية الشرقية التى يتزعمها — وقد كانت هذه القلعة وشيخها حسن بن الصباح مادة خصبة للرواة فى الماضى والحاضر وقد جمح الخيال بكثير من هؤلاء الرواة وتحدثوا عن شيخ الجبل وحرسه الخاص وجناته التى تجرى فيها أنهار من ماء سلسبيل وخمر معتق ولبن صاف وعسل طيب وللأسف الشديد فان هذا الخيال استقر فى أذهان الكثير من أبناء جيلنا والأجيال التى سبقته على أنه حقيقة واقعة لا يتطرق اليها **الشك من قريب أو بعيد .**

البندقى ماركوبولو

وكان أول من كتب عن هذه القلعة ماركو بولو الرحالة البندقى وذلك فى كتابه Devisment du Monde ١٢٩٨ .

« وكان شيخ الجبـل يقطن فى قديم الزمان منطقة ملقط Mulect وهذه الكلمة الفـرنسية تعنى اله الأرض ، سـأقص عليـكم أنا السيد / ماركوبولو قصة هـذا الشيخ كما رواها لى كثير من الناس فى المنطقة .

أقام هذا الشيخ فى واد بيـن جلبين أكبر وأجمـل حديقة رأتها العين مملوءة بشتى أنواع الفاكهـة ـ كما شيد فى الوادى منازل جميلة وقصورا فخمة موشـاة بالزخارف والرسومات ويجرى من تحتها أنهار مملوءة بالنبيذ واللبن والعسـل والماء وفيها غيد حسان يعزفن على جميع الآلات الموسيقية ويغنين أعذب الألحان ويرقصن أجمل الرقصات وكان الشيخ يصـور لأتباعه هـذا المكان بأنه الجنـة التى وعـد بها المتقون • ولا يسمح بدخول هذه الحديقة الا لأفراد طائفة الحشاشين وعند مدخل هذه الحديقة كان يوجد قصر حصين لا يستطيع أحد يستولى عليه كما لا يتيسر لأحـد الوصول الى الحديقة الا عن هـذا الطريق • وكان شيخ الجبل يزود بلاطه الملكى بشبـان من أبنـاء أتباعه يتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرن ويعـدهم لـكى يكونوا جنـوده • وكان الشيخ يحضر هؤلاء الشبان فى مجموعات صغيرة يتراوح عددها من أربعة الى عشرة أفـراد ثم يسقيهـم شرابا مسكرا فكانوا ينامون بعد تناوله مباشرة وينقلهم وهم نيام الى الحديقة وبعد فترة يستيقظون على الحـان شجية تطربهم ويفتحون أعينهم على حوريات يرقصن لهم وتسير الحياة بهم رغدة فى الوادى حيث ترضى لهم الفتيات جميع رغباتهـم ـ ثم يسقون شرابا مسكرا وينقلهـم الشيخ وهم نيام من الحديقة الى قصره وبذا يصبحون طوع بنـانه أملا فى الجنة التى ذاقـوا بعض طيباتها • لذا كانوا يقومون بتلبيـة أوامره دون خشية من المخاطـر • وبهذه الطـريقة كان يتسنى للشيخ القضاء على كل من يقف فى طريقه • وبسبب خوف الأمـراء من بطشه كانوا يدفعون له الفـدية رغبة فى صداقته وارضائه .

لقد رويت لكم قصة شيخ الجبل واتباعه الحشاشين وسأقص عليكم الآن كيف قضي عليه . وفي عام ١٢٤٢ علم هولاكو زعيم التتار بخبث هذا الشيخ وقرر قتله فأرسل اليه جيشا كبيرا بقيادة أحد أعوانه فحاصر القصر لمدة ثلاث سنوات ولم يكن من الممكن الاستيلاء على القصر بسبب قوة تحصينه — ولكن أمكن الاستيلاء على القصر بعد نفاد المئونة منه وقتل الشيخ وجميع أتباعه من الحشاشين .

هذه الرواية التي ذكرها ماركوبولو في كتابه الذي أعيد نشره في باريس عام ١٩٥٥ ليس لها سند تاريخي .

راية المعلم اللبناني بطرس البستاني !!

تحدث المعلم البستاني عن الحسن بن الصباح وعلى قلعة الموت والحشاشين في موسوعته دائرة المعارف فقال « عندما استولى الحسن بن الصباح على قلعة الموت وجعلها مقرا له ولأتباعه من طائفة الاسماعيلية حصنها بأسوار منيعة وحفر في الصخر منازل ومخازن واحتفر قناة يجري فيها الماء أسفل الحوائط ثم زاد في تحصينها شيئا فشيئا حتى أصبحت أمنع قلعة في آسيا كلها ولقد استولى الحسن بن الصباح على هوى أتباعه حتى أن السلطان ملك شاه السلجوقي لما أرسل اليه يطلب منه الطاعة دعا ابن الصباح بعض تبعته وقال لأحدهما اقتل نفسك فقتل نفسه وقال للآخر ارم نفسك من الحصن فألقى بنفسه من شاهق فسقط من الهوة قتيلا . وعاد الرسول الى السلطان يخبره بما رآه فسكت عن ابن الصباح وخشي بأسه . وكان لشيخ الجبل حرس خاص ينفذون تعاليمه هم الفداوية أي الفدائيين وقد بث في روعهم أن سلامتهم متوقفة على فداء أنفسهم وأن أقل مخالفة لتعاليم الشيخ تكون سببا لوقوعهم تحت المسئولية والعقوبة الى الأبد وان لم يبد منهم أي مخالفة وتفانوا في تنفيذ أوامره وتعليماته فان مآلهم الجنة ولكي يثبت لهم ذلك أنشأ حدائق مسورة قد جمعت فيها

الصناعة كل ما يمكن العقل أن يتصوره من الأشياء البديعة التى تأخذ بمجامع القلوب من أنواع الزهور وشجر الفاكهة والينابيع والنوافر والشلالات ، والقاعات الفاخرة ذات الشرفات المصنوعة من الخزف والصينى والمفروشة بالسجاجيد العجمية والأثاث اليونانى والمزينة بالآنية الذهبية والفضية والبلورية وجعل فيها أجمل العذارى وأظرف الغلمان الذين كانوا يتمشون فى تلك الحدائق بالابهة والاجلال فيفتنون الأنظار ويشنفون الآذان بأعذب الأغانى وأحلى الألحان . وكان يختار الصبية والشباب على أساس القوة الجسمانية والمقدرة العقلية ثم يدعوهم الى الأكل معه وأثناء تناول الطعام يسقيهم الحشيشة فيغيبون عن الوعى فيأمر بنقلهم الى تلك الحدائق فاذا صحوا وجدوا أنفسهم فى أجمل جنان وأبهج مكان ورأى كل منهم كل الأسباب التى بها يتمتع بأنواع لذاته وشهواته ثم يسقيهم مرة أخرى الحشيشة ويعود بهم الى مجلس شيخ الجبل فاذا زال تأثير الحشيش اعتقد كل منهم أنه ذاق لذة النعيم وشاهد الفردوس الموعود فيخبر بما حدث له كأنه فى حلم أو فى يقظة — ومن ثم كان انقياد الفدائيين أو الحشاشين لشيخ الجبل انقياد أعمى . ويبذل الواحد منهم قصارى جهده فى تنفيذ ما يطلب منه أملا فى الحصول على فرصة يضحى بها من أجل شيخ الجبل حتى يحظى بالسعادة الأبدية والنعيم الذى لا يزول .

وعلى هذا النهج سار جورجى زيدان فى روايته صلاح الدين الأيوبى والحشاشين كما سار كثير من كتاب الشرق والغرب . وقد أخرجت السينما الامريكية كثيرا من الروايات عن شيخ الجبل وجنته المزعومة سواء عند تناولها لسيرة الحسن بن الصباح أو لسيرة صديقه الشاعر المتصوف عمر بن الخيام .

ولكى نوضح مدى ما فى هذه الروايات من زيف واختلاق لا بد وأن نضع اجابة علمية لأسئلة ثلاث :

١ — ما هى الاسماعيلية ؟

٢ ــ من هو الحسن بن الصباح ؟

٣ ــ من هم الفداوية ؟

الاسماعيلية :

قال عنهم المعلم بطرس البستاني أنهم فرقة من غلاة الشيعة أصلهم من بلاد فارس ظهروا عام ٨٤٠ م ثم انتشروا فى بلاد العرب وسوريا وأفريقيا دياناتهم مؤلفة من الوثنية واليهودية والمسيحية والاسلامية وينتسبون الى اسماعيل بن جعفر الصادق لأنهم قالوا بامامته .

ولكن استاذنا الفاضل الدكتور محمد كامل حسين الذى أصدر كتابا عن طائفة الاسماعيلية رجع فيه الى وثائق الاسماعيلية والى الكثير من الثقاة منهم وخاصة الأغاخان زعيمهم الدينى الذى كان أتباعه يزنوه سنويا بالبلاتين وكان محبا لمصر ودفن فى مقبرة أقيمت له فى أجمل مكان على ضفاف النيل باسوان .

عالمنا الفاضل الجليل وضع الاجابة العلمية الدقيقة فقال عن الاسماعيلية أنها فرقة من فرق الشيعة أخذت أصولها المذهبية عن الاصول الشيعية التى وجدت قبل ظهور الاسماعيلية ــ تلك الاصول التى لم تكن فى أول الأمر تختلف عما ذهب اليه غيرهم من المسلمين فى شىء وكان الخلاف ينحصر فى نقطة واحدة ليست من صميم الدين فى شىء انما كان الخلاف حول الامامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الشيعة جعلت الامامة حقا شرعيا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولأبنائه من بعده . والاسماعيلية فرقة قالت بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق فنسبوا اليه . وقد قال العالم الجليل أن العقائد الاسماعيلية قد أصبحت الآن مجموعة آراء مختلفة تطورت من بلد الى آخر ومن زمن الى زمن بحيث يصعب دراستها ومعرفتها .

وقد اعتنقت طائفة الاسماعيلية العمل بالتأويل بالباطن دون الظاهر وقد تركوا الظاهر جملة وتفصيلا والذى يظهر من تأويل الباطن أنه وضع لخدمة غرض واحد هو اغداق صفات التمجيد والتفخيم على الأئمة وعلى الدعوة الاسماعيلية

ولا يوجد الآن فى مصر من يدين بالمذهب الاسماعيلى .

الحسن بن الصباح :

ولد فى مدينة الرى وفى قول آخر فى مدينة قم من أعمال فارس حوالى سنة ٤٣٠ هـ فى أسرة أتخذت من التشيع مذهبا لها — تلقى تعليمه فى نياسابور حيث التقى بصديقه نظام الملك والشاعر المتصوف عمر بن الخيام . وصل الى مصر عام ٤٧١ هـ كى يتلقى تعليمه الدينى على يد المستنصر بالله امام الاسماعيلية فى القطر المصرى فاكرم المستنصر بالله وفادته وبعد أن تلقى العلم على يديه زوده بالمال الوفير وجنده للدعوة له فى أنحاء البلاد . ولما مات المستنصر بالله ولى الوزير الأفضل بن بدر الدين الجمالى ابن اخته المستعلى امامة الاسماعيلية فثار صاحب الحق الشرعى فى الامامة نزار بن المستنصر بالله ولكن فشلت ثورته وقبض عليه وقتل . ولما أحس الحسن بن الصباح بأن الوزير الجمالى يعد العدة لقتله هرب وعاد الى بلاد فارس حيث جمع حوله الفقراء والمضطهدين والهاربين من قسوة السلاجقة الأتراك وبث فيهم تعاليم الاسماعيلية فنادوا به اماما لهم . وبعد ان استولى الحسن بن الصباح على قلعة الموت جعلها مقرا لأتباعه . وكان الحسن بن الصباح عالما بالهندسة والحساب والنجوم والسحر — ذلق اللسان رائع البيان قوى الحجة وقد اشتهر ذكر ابن الصباح وسمى بشيخ الجبل . وقد اتخذ ابن الصباح القتل وسيلة لتحقيق أهدافه وكان يأمر أتباعه باغتيال من يقف فى طريقه — وبجوار سياسته الدموية لتصفية أعدائه كان ابن الصباح يتبع ما يسمى بالحرب الباردة فيبعث بدعاته لمناظرة ومجادلة أصحاب المذاهب الأخرى ودعوتهم الى الدخول فى مذهب الاسماعيلية .

وقد عاش ابن الصباح زاهدا متعبدا متصوفا فكان مثالا للرجل المنصرف الى العبادة على ما كان عليه من سفك الدماء وقتل كل من يخالفه وامتدت به الحياة ملوثة بدماء من اغتالهم من أتباعه — وقد بلغ من أمر شراهته للدماء فى

أخريات أيامه أن قتل ولديه وادعى أمام أتباعه انه قتلهما غيرة على الدين والعقيدة وذهب الى أنه قتل ابنه الأكبر لاشتراكه فى قتل شيخ مشايخ قوهستان وقتل ابنه الثانى لأنه تعاطى الخمر وهكذا شاء الله أن يشرب الحسن بن الصباح من ذات الكأس التى أذاق منها معارضيه . وبعد أن قتل ولديه هجر زوجته وانقطع الى وحدته الى أن مات سنة ٥١٨ هـ فى قلعته ولم تسقط قلعة الموت فى يد التتار الا بعد وفاة شيخ الجبل بسنين طويلة .

الفداوية :

قسم الحسن بن الصباح طائفته ثلاث فئات :

الفئة الاولى :

الدعاة وهم الثقاة من أهل الطائفة وكان عملهم أن يدعوا الناس الى الاسماعيلية وان يرشدوهم الى تعاليمها .

الفئة الثانية :

الرفاق وهم الذين دخلوا المذهب وخضعوا لسلطان شيخ الجبل الدينى والدنيوى .

الفئة الثالثة :

الفداوية أو الفدائيين وهم الذين ينفذون تعاليم شيخ الجبل وكانوا بمثابة حرس خاص له . وقد أخذ الحسن بن الصباح نظام الفدائيين عن الفاطميين ففى زيارته لمصر شاهد فى القصر الصغير الفاطمى عدة حجرات كان يقيم فيها شبان صغار السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية جمعهم الامام الفاطمى فى قصره لتربيتهم تربية خاصة حتى يصطنعهم فى حكم دولته بعد أن يبلغوا مبلغ الرجال . وكان اعتماد الامام الفاطمى فى الحكم على هؤلاء الشبان الذين نشأوا فى قصره تحت رعايته وتعلموا فنون الفروسية والسياسة على أيدى اخصائيين مهرة فلما تملك الحسن بن الصباح قلعة الموت جمع اليه طائفة صالحة من الأطفال من أبناء الدعاة المعروفين بغيرتهم للاسماعيلية واستعدادهم للتضحية فى سبيل مذهبهم وأخذ فى تدريبهم على الطاعة العمياء والايمان بكل ما يقوله لهم .

وكان ابن الصباح صارما فى تنشئة هؤلاء الأطفال قاسيا عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح فى اعداد طائفة من الفدائيين أفزعوا العالم الاسلامى وجماعة الصليبيين حتى أن الكتاب الغربيين أطلقوا عليهم اسم السفاكين •

أما بالنسبة للحشيشة التى نسب البعض للحسن بن الصباح استعمالها فى التأثير على اتباعه من الفدائيين لايهامهم بالجنة المزعومة فقد تولى العالم الكبير الدكتور محمد كامل حسين الرد على هذه الأكاذيب وقال ان هذه الأقوال خرافية والحقيقة تخالف ذلك تماما فمن المعروف أن مدمن الحشيش جبان لا يستطيع القيام بالأعمال التى كان يقوم بها الفدائيون من قتل الأعداء أو قتل النفس اذا فشلت المهمة والحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأشياء وأسرار ربما حاول كتمها بينما الفدائى الاسماعيلى كان يمتاز بالفطنة والكياسة والدقة التامة فى كل أعماله وتصرفاته وتقدير موقفه تقديرا يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان مما جعل الكتاب لا يصدقون قصة الحشيشة كما لا يصدقون قصة الجنة •

لقد حاول بعض أعداء الاسلام استغلال قصة شيخ الجبل وجنته المزعومة فى محاولة للنيل من عظمة الاسلام ولكن خاب سعيهم وباء بالخسران • ومن بين ما ذكره البستانى فى دائرة معارفه قرية عن فرقة من فرق الاسماعيلية وقال ان هذه الفرقة كانت تقيم فى أول كل عام عيدا لها فى كل قرية وفى هذا العيد يدخل الرجال الى منزل مظلم ثم تلحق بهم النساء ويضاجع الرجل من تقع تحت يده من النساء حتى لو كانت أمه أو أخته أو ابنته أو زوجة شخص غيره • ولكن هذه الفرية التى لا سند لها من التاريخ قد حدثت فى زمننا المعاصر •

لقد نشرت الصحف أن بعض الأزواج فى احدى الولايات المتحدة الامريكية قد اتفقوا سويا على تبادل زوجاتهم — وحتى لا يحدث بينهم أى خلاف كانت

كل زوجة تضع قطعة من ملابسها الداخلية فى مكان خفى فى المنزل الذى يجتمعون فيه ـ ومن يعثر على هذه القطعة من الرجال تكون صاحبتها من نصيبه .

وفى اسرائيل نشرت الصحف اعلانا هو الأول من نوعه صاحب الاعلان زوج وزوجته وهما يعلنان عن رغبتهما فى عملية تبادل الزوجات بدعوى أن ذلك يجدد الجنس ويطيل العمر .

ان مثل هذه الامور التى تنزع عن البشر صفتهم الانسانية وتعود بهم الى عصر البدائية الحيوانية ليس لها وجود فى مجتمعنا الاسلامى بفضل ايماننا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر . ولم يكن لها وجود حتى فى قلعة الموت رغم شهوة شيخ الجبل العارمة لسفك الدماء .

وسوف تظل الأمة الاسلامية بفضل من عند الله خير أمة أخرجت للناس وصدق قوله تعالى جل شأنه « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

عقيد شرطة / محمد فتحى عيد

« ورع عمر بن الخطاب رضى الله عنه »

ارسل عمر الى عبد الرحمن بن عوف يستلفه (٤٠٠) درهم فقال عبد الرحمن : اتستلفنى وعندك بيت المال ؛ الا تاخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر : اتخوف ان يصيبنى قدرى (اموت) فتقول انت واصحابك : اتركوا هذا لامير المؤمنين حتى يؤخذ من ميزانى يوم القيامة ولكنى اتسلفها منك لما أعلم من شحك فاذا مت جئت فاستوفيتها من ميزانى .

بـاب الفتـاوى

الأستاذ عبدالحميد شاهين

س : يـذهب بعض المسـلمين الى الحج ويعـود كما ذهب ، لا يكتسب خلقا كريمـا ولا يغير من عادة مذمـومة ، ولا يزداد حرصا على طاعة الله ومـرضاته ، والبعد عن عصيانه فما مدى قبول هذا الحج ؟

ج ــ الغـاية من خلق الانسان هى عبادة الله « وما خلقت الجـن والأنس الا ليعبدون » (١) .

والغاية من العبادة هى تطهيـر النفس وتزكيتها وخضـوعها لرب العالمين فلا يرى المسلم حيث نهاه الله ولا يفتقد حيث أمره وهى بمعنى أوضح تحصيل التقوى ، وكمـا أنه رُبّ صائم ليس له من صيامه الا الجـوع والعطش » فكذلك رُبّ حاج ليس له من حجـه الا السفر والنصب .. « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جـدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمـه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » (٢) .

« لن ينال الله لحومها و لادماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٣) .

يقول أبو حامد الغـزالى رضى الله عنه فى كتاب « أسرار الحج » وهو يتحدث عن عودة الحاج الى بيته : « فاذا دخـل بيته قال توبا توبا لربنـا أو لا يغـادر علينـا حـوبا ، فاذا استقر فى منزله فلا ينبغى أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمه وقبر نبيـه

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات

(٣) الآية ٣٠٧ من سورة الحج

(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة

صلى الله عليه وسلم ، فيكفــر تلك النعمة ، بأن يعود الى الغفلة واللهو والخوض في المعاصى ، فمـا ذلك علامة الحج المبرور ، بل علامته أن يعود زاهدا فى الدنيا راغبـا فى الآخرة ، متأهباً للقـاء رب البيت بعد لقاء البيت » .

ويقول فضيلة الامام الدكتــور عبد الحليم محمود رحمه الله (١) :

« ... انه من فضــل الله على الأمة الاسلامية ، أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها حتى تنال رضاء الله وتنعم بثوابه ... ومن النوافذ الكبرى : الحج المبرور .

وليس من العسير على الانسان أن يخلص وجهـــه لله فى أيـام معدودات ، يصبح الانسان بعدها من البراءة والطهر كيوم ولدتــه أمــه خالصــا من الدنس ، مبرءاً من الآثام .. هذه التزكية ، وهذا الطهــر ، يجب أن يستمرا فيمـا يستقبله الحاج من عمره .. واذا كان الله قد هيأ للمسلم هـــذه الفرصــة الكبرى ، ليصل بسببها الى المستوى الملائكى فى الطهر ، فانه على المسلم أن يحافظ عليهـا محافظة تامة .. ان الانسان فى مفتتح أعمال الحج يتوب الى الله توبة نصوحا ويعاهده عهدا يعــزم على ألا ينقضه على أن يسير فى حياته متبعا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وهو بهذه التوبة يتطهر باطنيا ، ويشفع التطهــير الباطنى بتطهــير ظاهرى وهو غسل الاحرام ، ويعلن عن اخلاصه فى الطهر الظاهــر ، والطهر الباطن بالصــورة الجميلة صورة ملابس الاحرام نقية طاهرة ، بيضاء صافية خلت خلوا تاما من الدنس والخبــائث .. ويثبت كل ذلك بالشعار القــوى الدائم فى الحج : « لبيك اللهـــم لبيك ، لبيك لا شريــك لك لبيك ، ان الحمد والنعمـــة لك والملك ، لا شريك لك » .

وهو اذن منذ البدء يتطهـــر باطنا ، ويتطهر ظاهرا ، ويتطهـــر بالقول ، ويتطهر بالسلوك .

هذا الصفاء وهذا الطهر يجب أن يستمرا ويجب أن يدومـا مدى الحياة . والعهد الذى عاهــد الله

(١) فى كتابه « الحج المبرور . احكام واسرار » .

عليه من الاخلاص والتقوى يجب أن يلتزمه طول حياته بقول الله تعالى موجها المسلمين الى التزام عهودهم : « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » (١) .

أما هذه المرأة التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، فانها كل امرأة خرقاء ناقصة العقل ، تغزل طول يومها مثابرة دائبة وتحكم غزلها ، ثم تنقضه آخر النهار .

ومثل كل من يعاهد الله ثم لا يوف بعهده مثل هؤلاء النسوة الحمقاوات اللواتى ينقضن آخر اليوم ما غزلن فى أوله ..

على أن الاخلال بالعهد مع الناس يعتبر عند الله من علامات النفاق ، فما بالك بالاخلال بالعهد الذى بين الانسان وربه ؟

على أن هذا الذى يعاهد الله ثم ينقض عهده يقول ما لا يفعل وقد هدد الله من يفعل ذلك وتوعده ومقته « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢) .

أما اذا تزكى المسلم بالحج ، ثم حافظ على هذه التزكية بعد الحج ، فانه ينال السعادة الحقة « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) .

س : هل تقاليد الاسلام تمنع من التطور ؟

ج : الأصل فى التقاليد وضع القلادة فى العنق ، وهى ما تتزين به المرأة أو يعرف بها البعير ومنه قلد البعير وقلدت المرأة .. ثم قيل : قلده العمل اذا أضافه اليه وطلبه منه ، وقيل : قلد فى الرأى اذا اخذ بقول غيره دون حجة ، ويقال: تقلدت المرأة وتقلد فلان العمل . وتقلد مذهب فلان ، والمعنى فى كل ذلك التزم ما تقلده من عمل أو رأى أو قلادة ، ومن هذا

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف
(٣) الآية ٩٧ من سورة النحل

قيل : تقلدت الأمة كذا ، أى اتخذته كالقلادة اذا التزمته وسارت عليه ، وأطلق (التقليد) على نفس الشىء الذى تقلـدته ، وبـذلك انتقلت الكلمة الى الصورة العمليـة التى تتقلدها وتتمسـك بها الأمم فى نواحى حياتها الاجتماعية .

ومنشأ التقاليد فى الأمة : اما عرف ثبت فيها عم وانتشر . واما مجازة غيرها وأخذها عنه ، وعلى كل حال لم تعهـد الكلمة الا فى العادات التى مصدرها العرف أو التوارث أو النقل من جماعة أخرى مجاورة .

ومن هنا اختلفت تقاليد الأمم فى النواحى الاجتماعية باختـلاف العرف أو التوارث أو النقـل ، وكان لكل جماعة تقليد يغاير تقليد الجماعة الأخرى ، فللعرب فى زيهم تقليد ، وفى موائدهم تقليد ، وفى أفراحهم ومآتمهم تقليد ، وللغرب فى كل ذلك تقليد .

وكثيرا ما تختلف التقاليد مـع اتحاد الدين ووحدة أحكامه ، ودل ذلك على أن التقاليد شىء والدين شىء آخر . ولو وضع الدين موضع التقاليد أو أطلقت على الدين لمـا كان الدين دينا .. ذلك أن الدين وضع الهى ، يبين حدود ما يسير عليه الناس ويلتزمونه فى عقائدهم وعباداتهم ،ومايحل لهم ان يفعلوه، ومـا يحـرم عليهـم ان يفعلـوه ولا سلطان عليه لعرف أو توارث أو نقل . حتى لو اتخذت أحكام الدين باعتبارها عرفا أو توارثا لما كانت دينا ، وانما تكون دينا اذا أخذت مضافة الى مصدرها وهـو رب العالمين .

والدين هو الحاكم على التقاليد فما كان منها لا يخـل بشىء من أحكامه ، ولا يترتب عليه ضرر يأباه الدين ، فان الدين يقره ويسمح به .

وما كان منها يخـل بشىء من أحكامه أو يستبيح ضررا أو فسادا يأباه الـدين فان الـدين ينكـره ويحاربه .

ولقد جاء الاسلام ــ وفى جميع البلاد التى دخلها تقاليد وصـور عملية فى نواحى الاجتماع ــ فأقر الصـالح منهـا وحارب الفاسد ، وحقق تلاؤما بين أهدافه وآثـار التقاليد ، وكان الدين قوة للتقاليد الطيبة الصالحة ، ومطهـــرا مـن

التقاليد الخبيثة الفاسدة .

ومما يجب أن نعرفه هنا ، أن الاسلام أطلق لأتباعه حق اختيار ما يرونه محققا لنهوضهم العلمى والاقتصادى والخلقى والاجتماعى، ولم يقيدهم فيما وراء العقائد والعبادات والحلال والحرام بشىء يمنعهم من التقدم والنهوض ، وهو يبيح لهم بل يحتم عليهم أن يسلكوا فى هذا الجانب أحدث ما ينتجه العقل البشرى من صور المجتمعات الفاضلة .

وليس من شك فى أن جماعتنا ــ وهى اسلامية قبل كل شىء ــ نزعت فى كثير من عصورها الماضية الى كثير من التقاليد التى أنشأها العرف أو التى جرها عليهم تقليد الامم المختلفة التى حكمتها واستغلت عقليتها وحياتها .

وليس من شك أن كثيرا من هذه التقاليد لا يتفق وأحكام الاسلام : فتقاليد الأفراح والمآتم والأعياد ، وتقاليد بعض طرق التصوف ، وزيارة الأضرحة تقاليد يأباها الدين ، وقد امتدت التقاليد الى دائرة العقيدة والعبادة والحلال والحرام ، واذن فلا بد من تشخيص هذه التقاليد والنظر اليها من جهة موافقتها للدين أو مخالفتها ، ومن جهة ما تغرسه فى الامة من خير أو شر ، ثم تعمل على أخذ الأمة الى السبيل الذى يحفظ لها شخصيتها الاسلامية أولا ، والذى ينهض بمستواها الاجتماعى نهوضا يحفظ عليها كرامتها وأخلاقها ويمهد لها سبيل السير فى الكمال .

فان كان هذا هو القصد من التطور فالدين لا يقف عند حد اباحته بل يوجبه ويحتمه ، وان كان القصد من التطور أن يدخل التغيير فى الدوائر الدينية التى رسمها الاسلام وبين أحكامها فهذا ليس تطورا فى التقاليد ، وانما هو من تغليب التقاليد على الدين، وليس سيرا بالتقاليد فى جو الدين (١) .

والله أعلم .

عبد الحميد شاهين

(١) من فتاوى الامام الشيخ محمود شلتوت رحمه الله .

حكم ... وطرائف

إعداد الأستاذ عبد الحفيظ محمد عبد الحليم

« امرأة تتكلم بالقرآن »

قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ خرجت حاجا الى بيت الله الحرام ، فبينما انا فى بعض الطريق اذا انا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فاذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف ، فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت:« سلام قولا من رب رحيم » قال : فقلت لها يرحمك الله : ما تصنعين فى هذا المكان ؟ قالت : « من يضلل الله فلا هادى له » فعلمت انها ضالة عن الطريق ، فقلت لها : اين تريدين ؟ قالت : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » فعلمت انها قضت حجها وهى تريد بيت المقدس ، فقلت لها : انت منذ كم فى هذا الموضع ؟ قالت : « ثلاث ليال سويا » فقلت : ما ارى معك طعاما تأكلين ؟ قالت : « هو يطعمنى ويسقين » فقلت : من اى شىء تتوضئين ، قالت : « فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا » فقلت لها : ان معى طعاما فهل لك فى الاكل ؟ قالت : « ثم اتموا الصيام الى الليل » فقلت ليس هذا شهر رمضان قالت : « ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم » فقلت قد ابيح لنا الافطار فى السفر ، قالت : « وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون » فقلت : لم لا يكلميننى مثل ماأكلمك ؟ قالت : « مايلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » فقلت فمن اى الناس انت ؟ قالت : « ولا تقف ما ليس لك به علم » فقلت قد اخطأت ؟! فاجعلينى فى حل قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » فقلت : فهل لك ان احملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ، قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » قال : فانخت ناقتى قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم » فغضضت بصرى عنها ، وقلت لها : اركبى فلما ارادت ان تركب نفرت الناقة فمزقت ثيابها ، فقالت : « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » فقلت لها اصبرى حتى اعقلها قالت : « ففهمناها سليمان » فعقلت الناقة وقلت لها : اركبى ، فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين » فلما مشيت بها قليلا سألتها ألك زوج ؟ قالت : « يايها الذين آمنوا لا تسألوا عن

اشياء ان تبد لكم تسؤكم » فسكت حتى ادركت بها القافلة فقلت هـذه القـافلة فمن لك فيها ؟ قالت : « واتخذ الله ابراهيم خليـلا » ، « وكلم الله موسى تكليمـا » ، « يايحيى خـذ الـكتاب بقـوة » فناديت يا ابراهيم يا موسى يا يحيى فاذا انا بشبان كأنهم الأقمار قد اقبلوا فلمـا استقر بهم الجلوس قالت : « فابعثوا احـدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر ايها ازكى طعاما فليأتكم برزق منـه » فمضى احدهم فاشترى طعاما فقدموه بين يـدى ، فقـالت : « كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم فى الايام الخالية » فقلت : الآن طعامكم حـرام حتى تخبرونى بامرها ، فقالوا : هـذه امنا لها منذ اربعين سنة لم تتكلم الا بالقرآن مخافة ان تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على من يشاء . فقلت : « ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

« خير المكاسب وشرها »

قيل لبعض الحكماء : ما خير المكسب ؟ قال : خير مكاسب الدنيا طلب الحـلال لزوال الحـاجة ، والأخذ منه للقوة على العبـادة ، وتقديم فضله لزاد يوم القيامة .

واما خير مكاسب الآخرة : فعلم معمول به نشرته ، وعمل صـالح قدمته وسنة حسنة احييتها .

قيل : وما شر المكاسب ؟ قال : اما شر مـكاسب الدنيـا فحـرام جمعته ، وفى المعاصى انفقته ، ولمن لا يطيع ربه خلفته .

واما شر مكاسب الآخرة : فحق انكرته حسدا ، ومعصية قدمتهـا اصرارا ، وسنة سيئة احييتهـا عـدوانا .

« ببابك انزلت حاجتى »

قصـد اعـرابى مالك بن طـوق التغلبى (١) صاحب الرحبة (٢) ، وكان رث الهيئة ، زرى الحـال ، فمنع من الدخول عليه مدة ، الى ان خـرج مـالك ذات يوم يريد النزهة حول مدينته ، فاعترض له الاعرابى ، فرده رجاله ازدراء به ، فلم ينثن ، بل اقترب منه حتى أخذ بعنان فرسه ، ثم قال : ايها الأمير ، انا عائذ بك (٣) من شر حرسك ! فنهنهم عنـه (٤) ، وقـال له : ما حاجتـك ؟ قال : ان تصغى الى كلامى بسمعك ، وتنظر الى بطرفك .. وتقبل على بوجهك ، ثم أنشد :

ببابك دون الناس انزلت حاجتى
واقبلت اسعى نحـوه واطـوف
ويمنعنى الحجاب والليل مسبل
وانت بعيـد والرجـال صفوف
يطوفون حـولى عابسين كأنهم
ذئاب جيـاع بينهن خـروف
فكيف وقد ابصرت وجهك مقبلا
ترد امـرا وافـاك وهـو لهيف

(١) مالك بن طوق : احد ندماء الرشيد ، اقطعه ارضـا بناها ونسبت اليه ، ثم خرج على الرشيد فانفذ اليه الجيـوش حتى ظفـروا به ، وحبس ثم عفا عنه .
(٢) مدينة جميلة بين بغداد والرقة . (٣) عاذبه : لجـأ اليـه .
(٤) نهنهم : زجرهم وكفهم .

ومالي في الدنيا سواك وما لمن
تركت ورائي مربع ومصيف (١)

فجئتك ابغي الخير منك فراعني
ببابك من ضرب العبيد صنوف

فلا تجعلن لي نحـو بابك عودة
فقلبي من صنع القساة مخوف

فضحك مالك ، ثم قال لحرسه ، من يعطيه درهما بدرهمين ؟ فما اتم كلمته حتى نثرت الدراهم على الاعرابي من كل جانب حتى تحير ، واختـلط لديه الحـابل بالنـابل ، لـكثرة ما اعطى .

فعند ذلك التفت اليـه مالك ، وقال له : هـل بقيت لك حاجـة يا اخا العرب ؟ قال : اما اليك فلا .

فقال : والى مـن ؟ قال : الى الله ان يبقيك للعـرب ، فانهم لن يزالوا بخير ما بقيت لهم !

« دواء هاضم »

اهدى يوما صديق لعبد الله بن عمر — رضي الله عنهمـــا — وعاء مملوءا ،

فقال ابن عمر : « ما هذا ؟! »

قال الصـــديق : « دواء عظيم جئتك به من العراق » .

قال ابن عمر : « وما يطيب هذا الدواء ؟ » .

قال الصديق : « يهضم الطعام »

وابتسم عبد الله وقال لصاحبه : « يهضم الطعام ..؟! اني لم اشبع من طعام قط منذ اربعين عاما » .

« الصلاة على النبي
صلى الله عليه وسلم »

روي ان رجلا كان يطوف حول الـكعبة ، وهـو يكثر من الصـلاة والسلام على رسول الله ، فقال له شخص يا هذا ، لم تركت الذكـر المسنون ، واشتغلت بالصـلاة والسلام على رسول الله ؟ فقال له : خرجت انا ووالدي لتادية فريضة الحج ، وفي الطريق مرض والدي ، فجلست بجواره اعلله ، وما هي الا لحظات حتى رايت وجه ابي قد اسود ثم مات ، فحزنت على ما حل بابي ، وخصوصا لسواد وجهـه ، فغطيت وجـه ابي بمنـديل ، ثم اخذتني سنة من النوم ، فرايت في منامي رجلا لم ار اجمـل منـه وجها ، ولا اطيب رائحة ، يتقدم نحو ابي ويرفع المنديل عن وجهه ، ثم يمسح الوجـه الذي اسـود ، فيعود ابيض ناصـعا ، فتعلقت به وقلت له : من انت الذي من الله بك على ابي ونحن في ارض الغربة ؟ فقال : او ما تعرفني ؟ انا محمد بن عبد الله رسول الله : لقد كان ابوك يكثر من الصلاة والسـلام على ، فلما حل به ما حل استغاث بي ، وانا غيـاث لكل من يصلي على ، لذلك اكثرت من الصـلاة والسلام على هذا النبي الـكريم ، فعـلى المسلمين ان يكثروا من الصـلاة والسلام على رسول الله فانها نور في القبر ، وثقل في الميـزان ، قال تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبي يايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

---

(١) المربع : منزل القوم في الربيع خاصة .

« حيا وميتا »

ذكر بعض المؤرخين ، ان ابا جعفر المنصور ناظر الامام مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ، فقـال له مالك : يا امير المؤمـنين لا ترفع صـوتك فى هـذا المسجد فان الله تعالى :

ادب قوما فقال : « لا ترفعـوا اصواتكم فوق صوت النبى .. »

ومدح قوما فقال : « ان الذين يغضون اصواتهم عند رسـول الله اولئـك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم » .

وذم قوما فقـال : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون » ، وان حرمته ميتـا كحرمته حيـا ... فاستكان لهـا المنصور .

« فصـاحة صبى »

دخل الحسن بن الفضـل على بعض الخلفاء وعنده كثير من اهـل العـلم ، فاحب الحسن ان يتكلم فزجره ، وقال : يا صبى تتكلم فى هذا المقام ؟ فقال : يا امير المؤمنين

ان كنت صبيا فلست بأصـغر من هدهد سليمان ، ولا انت اكبر من سليمان ـ عليـه السلام ـ حين قال : « احطت بمـالم تحط به » ثم قال : « الم تر ان الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود اولى » .

ولما افضت الخـلافة الى عمـر ابن عبد العزيز اتته الوفود ، فاذا فيهم وفد الحجاز ، فنظـر الى صبى صغير السن ، وقد اراد ان يتكلم ، فقال : ليتكلم من هو اسن منك ، فانه احق بالكلام منـك ، فقال الصبى : يا امير المؤمنين لو كان القول كمـا تقـول لـكان فى مجلسك هذا من هو احق به منك ، قال : صدقت فتكلم ، فقال يا امير المؤمنين : انا قدمنا عليـك من بلد نحمـد الله الذى من علينـا بك ، ما قدمنا عليك رغبة منا ولا رهبة منك ، اما عدم الرغبة فقد امنا بك فى منازلنا ، واما عدم الرهبة فقد امنا جورك بعـدلك ، فنحن وفد الشكر والسلام .

فقال له عمر ـ رضى الله عنه ـ عظنى يا غلام ،فقال يا امير المؤمنين : ان اناسا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم فلا تكن ممن يغره حلم الله وثناء الناس عليـه فتزل قـدمك وتكون من الذين قال الله فيهـم : «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون » فنظـر عمر فى سن الغلام فاذا هى اثنتا عشرة سنة فانشدهم عمر ـ رضى الله تعـالى عنـه ـ :

تعـلم فليس المرء يولد عالمـا
وليس اخو علم كمن هو جاهل
فان كبير القـوم لا علم عنـده
صغير اذا التفت عليـه المحـافل

عبد الحفيظ محمد عبد العظيم

فهـــرس العـــــدد

الموضـــــوع	صفحة

الموضـــــــوع

صفحة